المجموعة الكاملة

الإمام

علي بن أبي طالب

عبد الفتاح عبد المقصود



منشورات مكتبة العرفان - بيروت

الامام

عَلي بن أبي طالِب

الجزء الأول

تأليف

عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان

بيروت

هذا البيت

« وَإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأرِنَا مَنَاسِكَنَا ، وَتُبْ عَلَيْنَا ، إنَّكَ أنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، إنَّكَ أنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

١

ايام خزاعة راحت مع التاريخ .. مات سيدهم حليل فانتهى بهذا شرفهم في العرب . وابتــدأت دولة في الناس شمسها تبزغ ، وتملأ بنورها المستفيض رباع مكة .

واشرابت اعناق القبائل الى الملأ تنظر وتدير الأعين بين قصى ومن ظاهره من بطون قريش ، وبين أولئك المغلوبين على أمرهم وأحلافهم من بني بكر .

ماذلت خزاعة حتى تدع البيت لهذا الصهر الذى عدا على حقها فاستلبه ، وان فيها من هو أولى بها منه ، وأوثق صلة بأجيال من آبائها توارثوا حجارة الكعبة والقيام على شأن حجيجها من رفادة وسقاية . وان دون فوز هذا الفتى من مضر لصبغ هذه البطاح باللون القانى !..

ذاك رأى خزاعة وقد تجنت !.. فما عدا الأمر ــ اذ أصبحت مفاتيح الـكعبة في يد قصى ــ ان ارتد الحق الى أهله . وانمــا كانت ولاية البيت قبلها في مضر ، ثم بنيه من بعده ، فلما بغت قبيلة اياد في الحرم وأخرجها المضريون منه ومن مكة ، عمد بعضها ذات ليلة الى الحجر الأسود فاقتلعه ثم دفنه في الأرض حتى يذهب باختفائه هذا الشرف الذى تستطيل به مضر في بلاد العرب .

واصبح القوم والبيت غير البيت ، والكعبة غاب عنها الحجر مناط التقديس ومهوى الأرواح والنفوس .. وارسلوا البصر ثم حملقوا ولم يصدقوا . واقبل كل على أخيه لا يقوى على كتمان ما بنفسه من هم غالب .

وفي مثل اللمح طار النبأ واستشرى كالنار . وغشيت الكآبة مكة ولدا وشـــيخا كيفما اختلفت فيهـــا البطون والأفخاذ .. ان الحجر الأسود كان رمز ايمانها جميعا ، وكان الثراء والنعمة لأهليها ، بما يجذب نحوها من حجيـــج يطوون النجاد والوهاد ، ويحملون اليهـــا متجرا أو يبذلون مالا تنفق بهما السلع أو تروج الأسواق .

غشيت الكآبة مكة كلها الا نفسا ظلت وحدها هادئة بين هذه الآلاف لا يملأها القلق ولا يفعمها الحزن الذى عم الجميع . بل بقيت ، كلما لاقت من هم الناس ، تشـــيح عنهم حتى لا يروا في عينيها ومضـــة

الهدوء ، ولا على ثغرها بسمة السخر والرثاء .. تلك كانت امرأة شاء لها حظها أن تعلم وهم في بيداء حدسهم يضربون .

واقبلت على قومها في نجوة من غيرهم تهتف :

« يا بنى خزاعة !.. » .

فالتفوا بها . وتسابقوا يسألون :

« فيم هذا الهتاف يا أمة الله ؟ » .

« في عز الدنيا وشرفكم بين العرب ، وان كليهما لفى كفى هاتين! » .

***

وكان حديثها نصيحة وقصة . اما القصة فقد أطرب جرسها الأسماع وافاءت على النفوس السكون . وأما النصيحة فقد ادخرتها لسادة القبيل دون العامة . افضت بها اليهم في حديث خافت كالمناجاة ثم راحت من بعد تحضهم وتقول :

« فاملكوا أمركم بينكم فلا تستطيل عليكم بعدها مضر أبدا .. » .

اجل وانه لكما أوصت . وان الحظ الذى ساقها تلك الليلة الى الخروج لبعض شأنها للذى واتى خزاعة فسودها بولاية البيت الحرام .

كانت المراة تدلج على مقربة من الحرم في ظلال كثيفة من الظلام ، فاذا أشباح رجال يدلفون من البيت في خطى المستريب ، في ايديهم قد احتملوا شيئا .. ووقفت الخزاعية في عجب تنظر ، وتصطنع الحذر قدر الجهد حتى لا يروها . ثم راحت تتأرهم البصر وقد حجبتها عنهم الظلال ، وراتهم يقربون بعيرا ، ثم ينيخونه ، ثم يحملونه .. فما اعجب ان رزح لتوه على الرمال لا ينهض كانما قد حملوه جبلا او شد الى أديم الأرض !.. وحاول القوم أن يستنهضوا الدابة فذهبت محاولتهم مع الريح ، فالتمسوا عنها ثانية أقوى أودعوا ظهرها ما ناء به ظهر أختها من قليل ، ثم ضربوا آباطها الى غايتهم . ولكنها رزحت كسابقتها وشد بطنها الى صفحة الرمال ما شد الاولى من اصابع المجهول . وعجب القوم . وعالجوا البعير بالحيلة وبالعنف وبالجهد فأعياهم ما بذلوا من حيلة وعنف وجهد .. وكانت المراة واقفة " تبرح من حيرة ومن ذهول . وترسل نظراتها خلال الظلمة الى ثالثة الدواب رازحة على الرمال كالأخريين تحت حملها الصغير فلم تملك الا الاقتراب مستخفية بستر الليل عساها تقف على ما ملأ قلبها توجسا وخوفا .

وكانما ايس أصحاب الليل ان يستعملوا ظهرا ، او استبدت بهم فزعة، او خشوا ان يفجأهم في مكانهم نور الفجر . فسارعوا الى الوسق يدفنونه في طوايا الرمال .

في هذه اللحظة تبينت الخزاعية الأمر كله اذ التمعت أمام عينيها صفحة الحجر الأسود تنم عنه ، وتكشف عما دعا بني اياد الى اخفائه. لقد علمتهم قوما موتورين ، وجدوا على ولد مضر فارادوا ان يحرموهم ما رفع هامهم على قبائل العرب اجمعين ... وضمت المراة على السر شفتيها كما انضمت على مكنونها هذه الرقعة من الارض ، ثم ذهبت مع الصباح الى قومها تقص الخبر وتزجى النصح لاشياخهم ان يساوموا مضر على رد الحجر لو نزلت لهم عن مفاتيح البيت الحرام يتولونه دونها . واخلق بخزاعة ان يطير بهذا شانها في القبائل .

***

ما كان قصى لينسى هذه الأحدوثة التى سمعها صغيرا ، ثم وعاها كبيرا ، ثم أبت من بعد أن تبرح ذهنه كلما طاف بالبيت فراى شيخ خزاعة يقوم به ويدفع بابه للحجيج من وفود الجزيرة لقضاء حق ربهم فيه . وكان قصى ذكيا آريبا ، نما في قلبه على الأيام حب هذا السؤدد الذى انساب من يدى قومه بمكيدة امراة كما تنساب حفنة مياه من بين أصابع قابض عليها . وأخذ طوال ما فات من سنيه يدبر لاستعادة المجد الذاهب . فاذا بلغ مبالغ الرجال كانت حجابة البيت امنية حياته . ولمن كانت له مثل عزماته وقوة قلبه تتداعى الصعاب وتنهار حتى لتصبح رواسيها الشم في يديه رملا هشا ماله من قوام .

واجال قصى فيما حوله بصره : هذا حليل بن حبشية سيد خزاعة يشرف به العمر على غايته او يكاد ، ويلعب الوهن بجسمه حتى تهجره القوة فلا يستطيع دفع الباب كما اعتاد وهو شاب مفتول عامر بالحياة، بل يرى في الحجابة جهدا فيسلم المفاتيح الى هذا يوما والى ذاك يوما يقومون بالعمل عنه ... ثم يسلمها اياما واياما الى ابى غبشان سليم ابن عمرو وارث الشرف من بعده في القبيل . ثم هذا ابو غبشان صاحب زق وخمر ، لا يكاد ان يرى الا مخمورا . وما على شاكلته يكون سادن بيت الله الحرام ، وما لمثله يستجيب الناس ان اراد القيام فيهم بأمر دينهم او دنياهم .

دبر قصى الحساب فما فاته الصواب ، واصبح عليه صباح مشى فيه الى دار حليل ، يضرب بابه ويستاذن .

وقال الفتى بعد أن استقر به المقام وخاض من الحديث فيما لم يبق بعده الا صفوة الكلام :

« ذكرت اليك حبى يا بن حبشية » .

فرمقه الشيخ برهة ثم ساله :

« لك أنت يا زيد ؟ » .

« نعم وعساك ترضى » .

« مرحبا وأهلا » .

وكان هذا الزواج صفقة رابحة في نظر الشيخ فتهللت اساريره وتاه زهوا بصهره الذى ينتهى اليه أمر قريش سيادة وأصلا ووفرة مال . وانتقلت حبى الى حياة جديدة ودار كسبت لها السمو على كل دار . ولكن احدا من رجال خزاعة لم يجل بذهنه وقتئذ أن ولاية البيت قد أفلتت منهم الى سواهم . لقد اخذ تفكير حليل يسير في منحى سوى منحاه راحت به مفاتيح الكعبة في كف حبى ثم في كف زوجها يقوم عنها اكثر الأوقات بما هو أجمل بالرجل أن يقوم به . وكلما طالت الأيام طال قيام قصى بحجابة البيت ، وكلما اضطلع بعمله هذا اطبقت أصابعه على المفاتيح شدا . وكلما مر الزمن نبه ذكره وعظم خطره وزاد ولده فزاد بهم قربا من قلب حليل .

ثم ما لبثت اللحظة التى انتظرها بيقين الواثق أن جاءته . فقد احتضر كبير خزاعة . وانه لعلى فراشه يجود بنفسه فيطلب ابنته . ويطلب ولدها وزوجها يملأ من طلعاتهم عينيه ويلقى عليهم نظرات الوداع . ثم تأخذه صحوة فيهم ناهضا من فراشه ما وسعه ، وقد اتكأ على حشيته بذراع . ويخاطب سيد قريش في صوت خافت خفيض:

« يا بنى ... انك على أمرى من بعدى ... »

قال قصى يسأل وان لم يفت عن ذكائه الجواب المرجو :

« وسليم ؟ » .

« مالى ولسليم ؟ : هذا أمر ليس يقيمه صاحب خمر » .

« فان أبت خزاعة ؟ »

فصاح به الشيخ كالمستنكر وهو يشير الى أحفاده :

« خزاعة !... وهل خزاعة الا هؤلاء ؟... انما ولدك بنو ابنتى — ولدى — وانت أحق بأمرى حتى يخلفوك » .

وقد تم هذا حقا .. رسمته الوصية ثم ادعمته من بعدها الدماء.

ابت خـزاعة وظاهرتها بنـو بكر ، وابى قصى عليهم ذلك الاباء وظاهره قوم ابيه قريش وكنانة وقوم امه من ربيعة قضاعة .

واقتتل الفريقان قتالا مرا اهلك منهم الخيل والرجل ، وحصد عديدهم حصدا .

واشفقت العرب من عقبى الحرب فمشت بينهما تحضهما على الصلح وفض النزاع حتى قبلا أن يحكما في الأمر يعمر بن عوف .

وقال يعمر يقضى بعد سماع الحجة من كلا الخصمين :

« يا بنى خزاعة اراكم جرتم فانه والله لبيت أبيه .. الا فما كان من دماء رجاله ففيه الدية ، وما كان من دمائكم فانى اضمه !... »

وكذلك انتصر صاحب الحق القديم واستعاد تراثه . اما خزاعة فقد نفاها عن البلدة واخرجها منها ، واما قريش فقد الفها حوله ، وجمعها وكانت قبله مزقا وحلولا متفرقة ، ثم اقطعها بلدة البيت .

وراحت أيام خزاعة من التاريخ ، وبدأت دولة في الناس شمسها تبزغ وتملأ بنورها المستفيض رباع مكة ...

شرف قصى حتى تسنم الذروة . وكان رجلا فيه هيبة ، وفيه حزم ، وفيه فيض ، فأتته الأقوام منقادة ، عن رهبة او عن رغبة . واحسن امساك الزمام ، فما تفلتت منه توافه الأمور ، هو الذى تعلم أن يصانع العظائم حتى تستقيم له ...

واصبحت له مكة ملكا وان قل له أن يصير ملكا . فكان للناس أبا وسعهم حنانه قبل أن يضمهم سلطانه .

وفي الحق لم تر تلك الرقعة من الأرض رجلا مثله تداعت له السيوف والقلوب ، لا يأتمر كلاهما بامر سواه . وان القوم ليهمون بالحرب فلا يعقد لواءها لهم الا قصى . وان الرجل ليتخذ شريكة حياته بعد أن يرضى عن زواجهما قصى . وان الراحل لا يرحل والعائد لا يعرف الطريق الى داره حتى يمرا اولا بدار قصى ... قوة لا يحدها سلطان ، وسلطان اشبه بايمان لا يملك أن يعصيه انسان .

واقبلت عليه في ملكه الأيام ، ثم تداولته الأعوام حتى شعر أن قد امهل له في عمره ما لم يبق معه بقية امهال ، فانطلق بفكره يتزود من

هذه البقاع الحبيبة الى النفس ، ويتدبر فيمن عسى ان يبقى لها من بعده عزها وعز ولده . حمداً لله فليس ينقصه المال ولا كثرة الرجال!. وهؤلاء قومه قد جمعهم ولفهم حول آله لفا . وهؤلاء بنوه قد شرفوا أمام عينيه واستطال مجدهم . وهم فتية . فايهم تولى امر هـذه الأقوام ، قام به فأحسن القيام .

في دخيلة نفسه احب لو أوصى لولده عبد مناف اذ خبر فيه عزما وهيبة وفيضا كأنما نحله كل ما فيه دون بقية بنيه . ولكن قصيا على قوة قلبه كان امرءا ذا طيرة — شأنه في هذا شأن الكافة من سكان الجزيرة الذين غلبت عليهم الأوهام واستعبدت عقولهم ايما استعباد في ذلك الزمن الغابر ... وهن جلده ولم تهن ذاكرته ، فاستطاع ان يرتد القهقرى بخياله ليرى ما حدث ذات ليلة في دار ولده المفضل .

... كانت عاتكة الكبرى بنت مرة قد جاءها ما يجيء النساء عندما توشك أن تنسلخ عنهن حياة جديدة ، واقتعد نسوة البيت حولها ينتظرن . وراح عبد مناف بلا قرار يجوب الحجرات في انتظار ما تأته به زوجه من أخ لبكره المطلب يعز به في الناس نفرا .

واشتد بعاتكة الألم حتى إعتصرت عينيها ، واشتد بالزوج القلق حتى ذهب ذهنه في اليأس كل مذهب ... لم تكن هكذا حالها حين وضعت وليدها الأول ، ولم تلق كهذا العسر . فلما طال اليوم عليها أمرها وحزب ، خشى زوجها المغبة وراح في حرارة يبتهل .

ودخل اذ ذاك قصى ، مديدا فارعا موفور القوة كمن له نصف عمره ، فاتجهت نحوه الأبصار — وملأتها — اذ بدت طلعته — نظرات فيها هدوء وقرار ... ان اليمن لفي محياه ، وان البركة لبين يديه ، وان الخير لأينما حل ، فليس اذن ما يخشونه على الأم .

وقد صـدقت حقا فراسـتهم اذ كان ميمون الطلعـة مباركا ، ما استوى مجلسه حتى تيسر لعاتكة امرها وجاء البشير بانها وضعت حملها واستراحت .

لم تعدل فرحة عبد مناف بنجاة زوجه الا الفرحة التى هزت قلبه وهو يرى وليديه قد خلصا من امهما وهمت ان تتلقفهما أيدى النسوة. ولدت له عاتكة توأمين .. ذكرين كانا !.. وان في هذا عزا له ما بعده عز في بلد استحيى ناسها الابن وكرهوا الابنة حتى ليودعونها بطن الأرض ولما يستقر على ظهرها هيكلها الغض . واسرع الرجل تحمله الفرحة ، وسبقه الشيخ الى الوليدين يريد أن يملأ بهما عينيه كما امتلأ — قبل

النظر اليهما ــ فؤاده . ولكنه مامد اليهما كفيه حتى تقبضتا دونهما رهبة،ثم استرسلتا الى جواره وعيناه توليان الصغيرين دهشة وحيرة.

وحق لقصي ان يدهش ، وان تأخذه الحيرة وهو يلمح في الوليدين شذوذا دفع اليهما الأبصار تنتهبهما انتهابا ... كانا متصلين على غير المألوف في التوائم ، لا من جنب ولا من بطن ولا من ظهر ، بل لصقت بجبهة أحدهما قدم الآخر كأنما هى منها قطعة .

واسرع القوم اليهما يعالجونهما حسبما اسعف كلا جنانه . وكثرت فيهما الآراء وتشعبت نواحيها . ولكن رأيا واحدا لم يلم على جانب من التوفيق . وما أجدت المحاولات شيئا .

وأقبل عجوز من خزاعة له كهانة وله علم ، كانوا قد استقدموه ليستخبروه ما جهلوا : قلب الوليدين في يده برهة يفحصهما ؛ ثم قال بهدوء :

« ما ارى الا ان ينفصلا عن دم » .

فسأله عبد مناف بلهفة :

« ولا خطر » .

فكان الى العمل منه الى الجواب أسرع ، فما لبث الطفلان أن انفصلا كلا الى ناحية ، جبهة من أسموه عبد شمس تشخب دما ، وقدم توأمه عمرو خضيبة بذلك الدم .

وقال الكاهن ، وهو يهم أن يبرح ، وعلى شفتيه بسمة خابية ، وفي عينيه سهوم كمن كان يستوحي المجهول :

«الا انها والله لآية لمن علم ، وليكونن بين ولديهما خصومة ودم ! »

وكان من هذه الكلمات لقصي طيرة ... وفي مجلسه بداره ذلك الصباح منطويا على نفسه ذكر نبوءة الكاهن وما كان من شأن الطفلين.

وقام الى الندى يمشي الهوينا ، خافض الراس مشغول البال . ما له في أمره اذن من خيار . وما عليه ليجنب قريشا مصارعها ، وليبعد الشر عن الوقوع في آله ، الا أن ينأى بعبد مناف عن تولى الامر من بعده ، حتى لا تشب الفتنة بينه وبين توامه عبد شمس ان ورث الأول ونفس الثاني على اخيه الشرف الموروث .

وبقي الامر محصورا في عبد الدار ، بكر قصي ، وان عرفه لا يقوم مثل مقام اخويه . ولكنه رأى ان يوليه شأن القوم حتى لا يستطير الشر ويستشرى في بنيه أو يملأ بدمائهم ارجاء مكة .

وقام الرجل يوصي بما قر رأيه عليه وفي باله ان وصيته مجنبة اهله ويل المقدور ، ووقف ينادى ، على مشهد من بنيه ومن اشراف قومه :

« يا آل فهـر .. يا آل غالب .. يا آل لؤى .. يا آل كعب .. يا آل كلاب .. » .

فلما اجتمع له الناس من كل جانب يحيطون به ، التفت الى بنيه يهتف :

« يا بنى قصى » .

فنادوا جميعهم :

« لبيك ! » .

قال الرجل وهو يشير الى بكره :

« فانى اشهدكم بأنى أوصي لابنى هذا ... »

وادار عينه الفاحصة فما راى الا الموافقة والاقرار . ما كان لهم بعصيانه طاقة ولا عن طاعته محيص .

وقال الشيخ لوصيه أمام بقية ولده بعد أن انفض الناس :

« انما شرف عبد مناف . وذهب في زمانى كل مذهب . وارتحل عبد العزى وحل فاصاب من الدنيا واصـابت منه ، وتخلفت انت يا بنى ... اما والله لالحقنك بالقوم : لا يدخل رجل الكعبة حتى تكون انت تفتحها له ، ولا يعقد لقريش لواء حـرب الا انت بيدك . ولا يشرب أحدبمكة الا من سقايتك . ولا ياكل احد من اهل الموسم طعاما الا من طعامك . ولا تقطع قريش امرا من امورها الا في دارك ... »

ونهض فحف به بنوه يمشون بين يديه . ولم ينس وهو يغادرهم ان يلقيها اليهم كلمة فيها جماع امره :

« ألا قد بلغت !... »

٣

حتى اكتهل عمرو ، واتبع خطوه في طريق العمر توامه عبد شمس، وشب لهما من الولد ما لكليهما مناط فخره ، ظلت نبوءة كاهن خزاعة جنينا في بطن الزمن لم يبزغ عليه نهار .

وتداولت قريشا أحداث شتى فيها حلو وفيها مر ، وعبد الدار ولى بيتها وندوتها . وما اتصل بهذه أو بتلك من شئون . لم تقرع ضعفه قارعة تدعوه الى استنباط قوة ليست فيه ، بل سارت له

الأمور مستانية يحفها هدوء ولين ، يقوم بما وكل اليه فيسدن ، ويرفد ، ويسقي ، ويعقد ويشير ، وقومه جميعا من خلفه ــ كما أوصى قصي ــ لا ينفسون ولا ينقمون ، استجابة منهم لأمر سيدهم الذى طواه التراب ، ووقفت عاجزة دون طى ذكره الأحقاب .

وورث بنو عبد الدار فخر أبيهم فاستطالوا بما في أيديهم عزا . ولم يقصر عن مجد بنى عمهم عبد مناف بل لعله بلغ شأوهم ثم زاد رفعة . فقد ذهب عبد شمس يجوب الآفاق متجرا فيصيب خيرا ويصيب حنكة ودراية بالناس . وهو باتجاره هذا يشبع نفسه المطبوعة على المداورة وبعد الغور والدهاء . ونبه ذكر عمرو كما لم ينبه لأحد من بنى ابيه ذكر حتى سوده القوم عن غير وصية سابقة من صاحب سلطان ... كان الله قد جبله من خلق متين ثابت الأركان وأورثه من جده قصى صفته وان لم يورثه عرضه ، فراح اسمه في الآفاق قصيدة طيبة الروى . ابياتها سماحة وفيض وقوة جنان ، لا يمل ترديدها لسان ، ولا يدانى شأوها في أقوامه انسان .

هنا لعبت حنكة الأيام بالرجل الذى جبلته الدنيا على المداورة وبعد الغور والدهاء ... نظر عبد شمس الى الأمور نظرة تاجر لايفوته في صفقاته التزام الحساب ، فوجد بنى عبد الدار اقل ولد جده خطرا . ولولا أن كانت لهم ولاية البيت وما تبعها مما اوصى به قصى ما بزوا امرءا من عامة قريش . أفتراه يتركهم يفضلونه امام الخاصة والسوقة بهذا الفخر الذى لم يأتهم عن عزم أو قوة أو فضل بل اتاهم منة من كريم وهم بنو الضعيف الواهن المهيض ؟

اذن ففيم كان له الدهاء لو ترك لهم ولاية البيت وما يلحقها من الشرف الموروث ؟ وهل ترى يكبو ذكاؤه دون بلوغ مآرب نفسه ؟. ان الرجل قد عنى ذهنه أن يكدح ليفوز بما يعلو به فوق بنى عمه شرفا . وكانت فيه نزعه للسيطرة جامحة الى جوارها مداورة تفل من حد جموحها أن يبين ، فلم ينس انه ليس بخير بنى عبد مناف في عيون قومه ما بقى فيهم توامه حيا يأسر الناس فيضه ، على أن الكرم ليس بما يعسر على عبد شمس أن يصطنع له من جنسه ما يذيع ذكره ويعطف النفوس اليه ، ولم يكن هو معدما ولا مقلا وان لم يبلغ من الثراء مبلغ عمرو . لم يكن بالأضال حسبا اذ كلاهما من عبد مناف ، ثم ليس بعد هذا بالأقل أو الأذل ولدا .. وكفاه ان قد انجب امية الذى لاح ــ مذ اكتملت فتوته ــ كبير المطمع نزاعا الى العلياء .

وكذلك بدا عبد شمس ينسج خيوطه فراح يتألف حوله ذويه . ثم راح يجتمع بأشياخ قومه يحدثهم في اخراج الأمر من بنى عبد الدار . فلا ينكرون عليه سعيه وهم يقرون بعلو عبد مناف على عبد الدار . ثم اتى اخيرا عمرا متألفا آونة مداورا اخرى حتى مال وسكنت اليه نفسه . فلما اكتمل له رضا الاكثرين انبث بين اسد وزهرة وتيم والحارث يبذر فكرته حتى اقبلوا معاقدين معاهدين ان يخرجوا الحجابة والرفادة والسقاية واللواء والندوة جميعا من بنى عمه الى الأعزين : بنى عبد مناف بن قصى سادة الناس واولاهم بشئون حرمهم بيت الله .

واجتمع له القوم الى جوار الكعبة بينهم جفنة ملئت طيبا غمسوا فيها الأكف ثم مسحوها بأستار الكعبة وهم يقسمون على النصر والوفاء بالعهد .

ورد بنو عبد الدار ومن والاهم على حلف المطيبين هؤلاء بحلف آخر فاجتمعوا الى جفنة دم يتعاقدون عليها . ومن خلف اولئك وهؤلاء وقفت العرب ترقب ما عسى ان تأتى به الأحداث بين بنى هذا البيت الذين فرقت بينهم عروض الحياة حتى صاروا اصحاب طيب او لعقة دماء .

ثم سلت السيوف واشرعت الأسنة وكادت الحرب ان تشب فتأكل نارها من القوم او تذر ، فاذا بلغت الفتنة غايتها وادرك التأهب مداه مشى من ذوى المروءة بين الفريقين من سمعوا له فتداعوا الى الصلح ابقاء على قريش .

وهكذا حكموا بينهم من ارتضوا فحكم بأن يترك لبنى عبد الدار من تراثهم حجابة البيت والندوة وعقد اللواء . ويعود بنو عمهم بالسقاية ورفادة الحاج .

واجتمع المطيبون في دار عبد شمس يتشاورون فيما اصابوه من ثمار فقام صاحب الدار فيهم يقول :

« يا بنى عبد مناف هذه غنيمتكم قد احتلبناها من بنى عبد الدار احتلابا وانى والله .. » .

فقطع عليه حديثه من قال :

«بل عاد الينا بعض ماترك قصى ، ولنحن اهله ، ولم نبتز احدا حقه»

قال عبد شمس :

« فهذا . وهلموا امركم بينكم فانظروا . » .

نعاد محاوره ثانية يقول :

« انه لأمر بين . قوموا فادفعوا بهما الى خير قصي » .
ثم التفت الى عمرو يهتف به :
« فما ترى يا أبا يزيد ؟ » .
« روا رأيكم .. » .
ولم يزد . وتلبث القوم يتفكرون برهة . اما عبد شمس فقد امتلأ بالثقة قلبه أن لن يعدل المجتمعون به سواه . أليس هو مؤلب الناس حولهم ، والمشير عليهم بالانتقاض على بني عمومتهم ، والداعي الى ثورتهم حتى باءوا بعد بالذي غنموه ؟
لكنه حساب اخطأ وتقدير كبا دون الغاية . فما هو الا قليل حتى تبدى على وجهه الذهول وقد نمى الى سمعه صوت يقول :
« يا بني عبد مناف . ألا تهتدون وفيكم عمرو ! »
فكأنما هي الصخرة التي حولت التيار .. نادى رجل :
« يا عمرو الحيا انت لهما ، فوالله ما طعمت مكة ولا سقيت من يدين ابسط من كفيك !.. »
قال عمرو تواضعا وكرما :
« بل هذا اخي ابو امية ادفعوا اليه الأمر .. »
ولكن كبيرهما المطلب سارع يقول :
« وما لعبد شمس وهذا الأمر ؟.. انه قام فينا فأحسن القيادة وأسلسنا المقادة . وانما الأمر اليوم لصاحب دار بلا باب ، وفيض بلا حساب ، وانه والله لأنت !... »

٤

ولاية صادفت أولى الناس بها في حساب الجميع ، وان كانت اخطأت وليها ، مذكي فتنتها ، والساعي الى فخرها في حساب عبد شمس .
وكان لابد ان يتألم الرجل ، وان يبرم ، وان يضيق برأي قومه فيه ضيقه برأيهم في أخيه . ولكنه صانع وداور ، وتحلب مر الهزيمة وهو يكظم حنقه في قاع نفسه البعيدة المهوى ، وما له عن هذا معدى ولا محيص .
وجلس يتربص بالأيام عساها أن تعود نتهبه النصف أو يقع فيها على فرجة ينفذ منها بحنكته الى اقتناص ما فاته .

حكمة داهية اريب . ذاق من الدنيا وذاقت منه ، لا يسـعه الا ان يبطن حين لا يضيره اسرار ولا يجديه اظهار .

ولكن الايام لم تقبل مطلقا عليه وفي وفاضها الفرصة التى منى النفس أن يجرب فيها ثانية دهاءه ، وان كانت قد اقبلت على توأمه توسع له وتوثق من نظرة قومه فيه ...

كل ما اصابت مكة من خير كان عن عمرو ، وكل شر اصيبت به لم ينفضه أو يكفكف من حدته عنها سيد سواه .

كان هو الرجل الذى لم يخطىء فيه تقدير الناس ، لان الاقدار شاءت له أن يصيب . وكفاه جدارة بما أصاب أن قريشا كانت تسمع له وتلتف به ، وسلطانها ما زال في يد غيره من بنى عبد الدار .

ولم يكن هذا اكبرها سنا ، ولا اكثرها ولدا ، ولا اعزها اهل بيت بعد أن مالت عنه نفوس عبد شمس وبنيه ومن صانعهم وصانعوه ، وانما كان أكبرها قلبا ، واسمحها كفا ، وأعزها خصالا وطيب خلال .

وفي سنى الجاهلية كانت المكرمة الواحدة تشغل شاعرا أو راوية ، فما بالك بهذا الذى لم يكن ليعز عليه اتيان اية مكرمة من المكرمات؟..

***

كان ملاك نفس عبد شمس بيده ، لانه مداور داهية استطاع ان يصطبر ولكن ملاك امية ابنه افلته لانه عجز امام سطوة الحسد ان يمسك بزمام نفسه .

وكان هذا أولى به لانه كان فتيا ، فيه خفة ، وفيه نزق وحدة واندفاع ، وفيه ولع بالمجد الذى اخطأ طريقه ابوه . ثم هو بعد هذا لم يخل قلبه من بغض لمن ظنه نافس أباه في ميدانه وحاز السبق من دونه . فقام يلعب الدور الذى جلس عبد شمس طويلا ينتظر عبثا أن تهيئه له الايام .

سقى عمرو فسقى امية ، واطعم فاطعم ، وأعطى فاعطى ، لا يدع وسيلة الا تذرع بها كي يفعل كفعله عسى ان يطير في الملأ ذكره كذكر عمه أو يزيد رفعة .

ولكنه كان دائما الصورة الخرساء للأصل الناطق . قلد وليس بوسعه الاحسان فأخطاه الاتقان !.

ثم كبا به فجاة عندما ضاق بالجود ماله المحدود .

وكان هذا حينما أصابت مكة سنة شديدة ، اذابت الشحم وبرت العظم واكلت اللحم . لم ينج من شرها حضر ومس ضرها الوبر . فذاق ذو الترف الطوى ، واضنك كل ذى سعة حتى لم يسمه الا أن يقبض كفه .

وجرى امية في السخاء شوطا ثم اقصر واقفز منه الميدان . ثم بقى عمرو وحده ملاذ البلدة الحرام ، لا يغلق باب داره دون الناس ولا يمسك راحته عنهم .. حتى اذا اشتد القحط بمكة ايما شدة ولم يعد في خيرها ذماء ، زم الرجل علينه دثاره ، وحمل ماله ، وشد رحاله وخرج بليل يضرب في الأرض الى مكان .

وأصبح الناس يسعون الى بيته فلا يجدونه فكأنما استلبتهم الدنيا ما بقى لهم من مأمل في الحياة . فلقد كانوا يدراون الجوع بجفانه والرزء بحنانه والشدة بايمانه .. أما وقد غاب عن عيونهم محياه فقد انطووا على انفسهم في ذلة ، طاوين . ينتظرون مصارعهم والاملاق يشد على الخناق ، والامحال ينذر بشر حال .

ثم فتحوا أعينهم ذات صباح ، وكلهم هزيل معروق ، لاصق البطن ، منهوك الذهن ، فاذا عير قيد الأبصار قد انتشرت على حد الأفق حتى لتوشك أن تملأ فراغه . واستبقوا اليها راجين أن يكون الله قد ساق لهم فيها خيرا . وراحت الابل في سيرها الوئيد ، تطوى ما بينها وبينهم مخلفة وراءها طريق الشام ، الكعبة مقصدها وغايتها ، وقد بدا ، يقود أولها بخطمه ، رجل ما وقعت عليه الأنظار حتى تصايح القوم من كل مكان فرحين :

« الفيض ! » .

« هذا ابو يزيد ! » .

« انه عمرو ورب الكعبة ! »

ثم التفوا به يتواثبون كالصبية حول أب بار عاد بعد طول غيبة ، ولم يتلبث هو بهم ليسالوه أو يستخبروه شأنه ، بل مضى سريعا الى الوسق فانزله . والى الغرائز التى احتملتها ابله يحلها ، والى الخبز الذى كان حشوها يهشمه ، ثم أمر بالجفان فملئت ، وبهذه الابل كلها فنحرت ، واشتغلت في طهيها الطابخات اياما لا تخبو لهن نار .

***

عرفت مكة الشبع بعد الطوى والجوع ، وانجابت عنها غمة الأيام السالفة فتجاوبت نواحيها منة هذا الكريم الذى أحتمل امواله جميعا الى الشام فاشترى بها طعاما لناسه وما أبقى درهما لنفسه . وسرى ذكره في الآفاق حتى خبت امام جذوة اسمه الوهاج لمعة اسماء غيره من الأسخياء . قريش كلها تحدثت به بطاحها وظواهرها ، ثم الجيرة المتاخمة من القبائل ، ثم الاعراب في بواديهم والرعاة في مناخ دوابهم على الكلأ في الوديان والشعوب ، ومن وراء كل هؤلاء الجزيرة من طرفيها ما سار فيها ظاعن يتنقل معه الذكر اينما حل من بلادها في مكان .

لم يحدث مطلقا ان تحدثت الناس بمثل ما قالوا عن عمرو : نحلوه أحسن النعوت والصفات التى تعنى بسطة الكف ما وسعتهم أعرب اللغات ، فلما قصرت عن مرادهم الألفاظ اتخذوا له من فعله علما جديدا كأنما قد أحبوا — اذ يدعونه به — ان يذكروا صنيع يديه حين هشمت لهم خبزه ليطعموا ، فكان « هاشما » مذ انعم لهم قدوره وجفانه حتى تلتئم في مستقبل الدنيا رقعة الأرض والسموات .

رجل تجسد كرما . وكرم جرى كلاما . وكلام انتظم سطورا طارت في جوانب الآفاق قصيدة طيبة الروى على كل لسان ، ندية الوقع في المسامع وفي الآذان .

ولكنه لم يسعد مطلقا بما اصاب من فخر وطيب ذكر ، وهو لا يفتأ يرى بعين خياله اشباح القحط تحوم دائما حول مكة ، وتهم ان تجتاحها مرة أو مرات .. انها بلد غير ذى زرع ، حبيس جبال وشعاب ، يستجدى الحيا أن يصيبه لماما حتى يبتل أوام أرضه فتنبت . فاذا أقلعت سماؤه انقطع ماؤه وراح نهبا للجدب وان يسر على أهله الحال احتملوا من سلعهم القليلة الى الجيرة من البلدان فساوموا وباعوا ثم عادوا ببعض ما ينفعهم وهو الكفاف أو ما لا يدانى الكفاف .

كان هذا حال البلدة الحرام في تلك الايام ، بينما على تخوم الجزيرة أمصار اوسع لها في الرزق وسهل عليها العيش . ولم يكن العسير على قوافل مكة أن تسير الى الشام أو اليمن او سواهما فتبيع وتبتاع وتصيب من الخير ما يستطاع . ورأى هاشم بثاقب نظره ان وقوع بلدته على الطريق بين شمال الجزيرة وجنوبها ، يهيىء لها مكانة مرموقة ، فلو جعل منها مجازا لتجارة الشام واليمن كلاهما الى الاخرى لاصبحت سوقا تجارية لا تدانيها بلدة عربية في الرواج .

ولهذا شد رحاله الى الشام فدخل على عاهلها يعرض أن يتبادل البلدان تجارتيهما ، وهو الضامن الا تعدو أعراب الطريق على قوافلهما المزجاة . وكان لهاشم عنــد قيصر الروم منزلة يسرت له أمره عند الحاكم ، فاقر عرضه ، وعقد واياه حلفا تجاريا . وعاد سيد قريش راضيا من الشمال ليتبع رحلته هذه بأخرى الى الجنوب ، ويعاقد أقيال اليمن على مثل ما تم من معاقدته هرقل الشام .

فلما اينع له سـعيه واثمر . راى أن يزيد قومه خيرا ، فأركب البحر اخاه المطلب ، رسولا منه الى نجاشي الحبشة ، ليربط بين البلدين بحلف تجارى آخر .

وراح اهل مكة بعد هذه المعاقدات يختلفون بسلعهم وسلع تلك البلدان الى الشمال والجنوب في الصيف والشتاء . واصبحت مكة سوقا تجارية عامرة ، يزيد ناسها على الأيام غنى وثروة ، بما اضفت عليهم رحلتا الايلاف .

٥

في احدى رحلاته قافلا الى مكة ، نزل امية بعيره على ماء في الطريق يستقى ويستريح . وكان متكرما لا يمسك كفه سعيا من وراء نباهة الذكر وحسن الأحدوثة ، فما استقر به ركبه حتى نحر واطعم وتفضل على أهل الماء بما أطلق السنتهم بمستفيض الثناء .

وجلس الرجل يسمر بين صحبه ، وقد التف بهم أصحاب الدارة يذكرون صنيعه فيزهى بمديحهم ويود في خاطره لو حضره عمه فراى بعينيه ما لابن عبد شمس من مكانة في كلا الصحاب والأعراب ، رفعته الى شاوها كف ندية ، لعل بسطتها — فيما ذهبت اليه نفسه — لا تقل عن كف عمرو وان جرت بذكر هذه انهار السطور ووعت جودها البطون والصدور .

وأحب اعرابى من القوم ان يجزى امية عن فضله حمدا ، فهداه خياله الى التزام اسـلوب من الحديث فيه مسـحة من وقار الكاهن وفراسة الملهم . قال الأعرابى وهو يتفرس في أمية هنيهة :

« فيك من أجواد العرب والله لسمات » .
فابتسم له هذا يسأل :
« فمن أجوادها ؟ » .
« قريش » .
« فمن خير قريش ؟ » .
« أصحاب البطاح ، جيرة الحرم ، منابع الكرم » .
فازدهى امية الفخر وسره ان يطول بينه وبين الاعرابى الحديث ، وقال مؤمنا :
« أصبت . أصبت » .
« فمن أيها ؟ » .
« من قصى » .
« صاحب البيت واللواء ؟ » .
« وثلاث اخر » .
« فمن أى ولده ؟ » .
« من عبد مناف » .
« أعفهم لسانا ، واعلاهم بيانا ، وأقواهم جنانا » .
« وكان هذا وغيره للشيخ » .
« فأنت اذن أوسط قريش دارا ، واعزها جارا ، واذكاها نارا : هاشم وخلاك دم ! » .
فكأنما قد لسعت امية نار !.. هب واقفا من مكانه يحاول جهده أن يستر ما به ويدارى غيظه ، ثم سارع على عجل الى العير ، يلأم الركب للعودة ، وهو يهمس من بين اسنانه :
« تعس أمه !.. اخطأ الاحسان واصاب الاساءة ! » .

***

ثم استحث عيره ، فلما أقبلت به على مكة كان قد عاوده ما ذهب عنه الى حين من نفسه على هاشم وعظم حسده اياه . فما تريث الا بقدر ان حط على الاباعر حملها ثم راح يمنح بيمين وشمال . وتلفت الناس ماخوذين لهذا الكرم الذى جاوز المعهود في ابن عبد شمس

وعهدهم به العطاء بحساب . ولكنه بادرهم من لدنه بالجواب حتى انبرى يفخر أو يدس بين المجالس من ذويه من يترنم بسماحته التى يحسبها تجب ما قبلها من سماحة الأولين . ثم زاد انسياقه لهواه ، فمضى يفاخر عمه ولا يثنيه عن هذا حق قرابة ، ولا وقار سن ، كأنما الجواد من كرمت كفه ، وان خست نفسه . وما كان لعربى ان يقطع الا لولا ان تكون موجدته قد بلغت به ابعد مدى واقصاه .

وراح هــذا الفخر يفعل فعله في نفوس أهل البيتين ومن انحاز اليهما من احلاف واتباع . واستمرت ناره واحتدم اواره . اما الفتية من آل عبد شمس فقد اغرقوا فيــه ، وانحرفت بهم الألسن حتى جاوزت المفروض من توقير أخي أبيهم وسيد آلهم والقوم اجمعين . وأما هاشم فظل كعهده الكريم نفسا . هان عنده ما صنعوا فلم يلق الى مهــاتراتهم بالا . وأما النــاس ــ وهم يعرفون من أمر الرجلين ما يعرفون ــ فقد عجبوا لقزم حاول أن يفرع ويستطيع على المارد الجبار طولا فتناولوه بالدعابة والتندر حتى امتلأت بحديثه المسامر .

واغضبه هــذا أشد الغضب ، وأعماه الحنق حتى مشى الى عمه يدعوه ان يتنافرا ويقيما بينهما من يحكم لأيهما انتهى اليه الجود . وأغضى الشيخ عن غضبة الغلام ، واتسع لسخفه حلمه فما زاد هذا أمية الا زهوا وتصعير خد . واشفق آل هاشم ومن تابعهم أن يسرى في العرب اغضاء سيدهم فيفهمه البعض كأنه احجام ويظن الجاهلون الظنون به ، فألحوا وتمــادوا في الحاحهم على هاشــم ليضع سفيه عبد شمس عند حد محدود .

وما كان الناس اجمعين بحاجة الى من يرشدهم الى الأعلى بين الرجلين وان أصر اميــة على أن يقف امام عمــه في ميدان مفاضــلة وترجيح . وبحسبهم ان خبروا الأول فرأوا فيه خلقا هو صــورة خلقه ، بما اجتمع له من صفات لا تتصل بالحسن والوسامة ، وعرفوا الثانى مثلا لما يمكن أن تسمو اليه طبائع الانسان .

اصر أمية على منافرة عمه ، وبات لا يسكت له لسان ولا تنقطع مفاخرة ولا مباهاة . ولا يلقى رجلا من قوم الا صــور اغضاء هاشم وتعففه في صــورة النكوص خوف الخذلان ، فلما لج وابى الا ركوب شططه ، دعاه عمه ذات ليلة فقال له ناصحا معاتبا :

« يا ابن اخى ، ان لى سنا ، وان لى عليك حقا ، وقد بلغنى ما أحب أن أدفعه عنك ، فاتق الله في قالتك عنى .. » .

فلم تعطفه رقة الحديث بل قال ينطقه صلفه :

« ما تكلمت الا حقا ! » .

فابتسم الرجل الحليم وأجابه :

« انما شرفي شرفك ، وان تمسه لا تعز » .

« تعزنى كفى هذه ، وقد والله فعلت ! » .

ولوح بيده كأنما ينتهى اليها الجود ، فسارع هاشم يقول له :

« على قدرها يابنى ! » .

« وانها لخير الأكف » .

« في بنى ابيك ! » .

فما وسع ابن عبد شمس أمام لسع السخرية الا ان يغضب ويصيح :

« وفي عبدمناف ، فنافرنى » .

قال له الشيخ بهدوء :

« افعل » .

« فاختر حكما » .

« اختر لى ولك ، وانى لراض » .

وكذلك انتهى الأمر بين الرجلين الى الاحتكام ، وسارا ، القمىء الضئيل ينفخه كبره ويكاد من زهوه الا تثبت تحت قدميه الأرض ، والكريم المديد يملأه — الى جانب الثقة بنفسه — رثاء لهذا المكابر العنيد .

وقال سيد قريش ناصحا لابن أخيه وقد أوفيا على الحكم :

« يا ابن اخى ، انك تابى الا المضى لما استبطنت ، وانى والله ما دعوت وما رضيت ، ولكننى لا آخذك بما قلت ، فان شئت ان ترجع .. » .

فقاطعه غير متريث :

« ما لهذا اتيت » .

« فشأنك . وانى اذن انافرك على ثلاث » .

« فقل » .

« انافرك على خمسين من الابل سود الحدق » .

« رضيت » .

« وانافرك على الا يأخذها احدنا بل تذبح ببطن مكة ويخلى بينها وبين الناس » .

« وهذه » .

« وانافرك على ان تخرج عنا عشر سنين ، لا تراك البلدة الحرام ولا تراها ان نصرت عليك » .

فلاح كأنما قد حال لون امية وغاض من وجهه معين الدم . هذا ما لم يدر له مطلقا في بال وما لم يحسب التحدى يصل الى مداه ؛ ولكنه امعن في الاساءة فحق عليه ان يجرع كأسه .

وقال هاشم بصوت رتيب لم تخف من نبراته رنة تهكم :

« فان احببت فشانك ، وان احببت ان ترجع عما دفعتنى اليه فانى والله لا آخذك بما قلت .. » .

فيالها من دعوة كريمة الى الاقرار بالهزيمة !..

واجاب امية وقد سد امامه طريق النكوص :

« بل اقبل » .

وما أسرع أن خسر بهذا القبول ، فقد حكم عليه واصابه الخذلان.

وخسر في التو ابله الخمسين ، سود الحدق ، ثم رآها تنحر امام عينيه ببطن مكة ويتغذاها الناس وهو يهيىء نفسه للرحيل .

وخسر الفخر الذى طالما استطار به وامضى السنين الطويلات في رفع ذراه .

ثم خرج بعد هذا خافض الراس ، مقهورا الى منفاه ، وفي قلبه يعتمل الحقد على عمه ريفور ، وخلف مكة خلفه تتحدث بما كان من خزيه ويسير منها نبؤه مع الركبان .

وحط رحاله بالشام نفيها من قبل كان اتجاره وفيها من بعد قامت دولة عريضة الجاه والسلطان من بنيه . وكان مثابرا دءوبا ، فلم ينس لحظة واحدة مطمعه السالف ، بل جعل شغله أن يصطنع ما عسى أن يعود به فيفاخر هاشما ويبرز عليه ثم يحتلبه ذلك الشرف المرموق . وفي حساب امية كان المال سلمه الى الغاية فيه يتالف اقلوب الناس ما عرفت كفه الانفاق . وان امامه ها هنا في هذا البلد

لعشر سنوات طويلات أحر به أن يجمع خلالها ثروة ترفعه فوق هام قريش والعرب أجمعين .

وهكذا سارت به الأيام في دار غربة ما لبثت أن غدت دار صحبة ، كان حديث الناس فيها عنه مقياس بذله . وكلما تقلص الزمن زاد ثروة ثم زاد منعة ثم فوق هذا وذلك زاد حفيظة ومر حقد على ذلك الواتر القريب البعيد . .

***

ثم حسم الموت ما اثارته الحياة بين الرجلين من نزاع ، فقد مضى هاشم لسبيله ، على أعناق قومه ، الى منزل في الثرى نزله قبله أبوه ونزله جده ، وأصبح مثلهما على افواه الناس حديثا .

وعض امية غضبا على ناجذيه والبريد يحمل اليه مع خبر وفاة هذا العم الكريم المبغوض نبأ تولى عمه المطلب الأمر من بعده ، وعادت ذاكرته الى موقف هذا الوارث الجديد يوم احتلب بنو عبد مناف رفادة الحاج والسقاية من بنى عبد الدار ، وراحوا يتشاورون فيمن هو أولى بها فيهم . ذكر أمية هذا وذكر خذلان ابيه ذلك المساء لأن المطلب اشار بأن تكون لهاشم ، فما استطاع الا أن يمتلكه الحنق ويقول:

« المطلب ! رد عمرو عليه شطره ! » .

وقطع من بعد شوطه في الدنيا ثم طوته الأرض . ولكن الأيام لم تطو معه الحقد لان جذوره كانت قد امتدت الى القاع واثمر تراثا من الأضغان في قلوب بنى هذا الرجل على بنى خاذل ابيهم وجدهم أمر خذلان . فاذا دار الزمن وخلف شيبة بن هاشم عمه على امر أبيه ، فلقد أوشك اذن أن تسطع من سلالته شمس تضيء العالم ، ويعم نورها القلوب قبل الابصار ، وتأتلف حولها الارواح رويدا رويدا الا ارواح اولئك الحاسدين الذين أبى حقدهم الا التألب على نورها يريدون أن يطفئوه .

٦

مكة أصبحت لا تستطيع صمتا .. في كل ناحية جمع لعبت في حلوقهم الألسن فساد انهمس ثم علا كلاما . كل كلمة تتحدث عن عبد المطلب أو تطوف حوله وحول نذره . وقد كان القوم بدأوا أحاديثهم عابثين أو متندرين بشيخ قريش حتى رأوا العزم في وجهه فانقلب تندرهم جدا يغلب عليه الخشية والاشفاق . وبحسبهم أن رأوه يسوق أمامه أحب بنيه الى الحرم وقد أمسكه بيد وامسك بالأخرى نصلا ، ولم يبق على ايفاء نذره وتحقيق ما وعد به ربه الا أن تمر السكين على رقبة الغلام .

وتألب الناس من كل فج . وتهاتف الصبية ، واستنكر الرجال ، وصاحت النساء ، ولكن عبد المطلب أبى الا المضى بشأنه ساكن القسمات طاويا في قلبه أساه . الا لو ان عبد الله عصى أو عارض لوجد الشيخ « مشيئة » قد توقفه أمام نذره !. ولكن الغلام كان راضيا ، طائعا ، شديد الرضوخ لينا في كف أبيه كالطين لو احب أن يحيله كيفما شاء ما استعصى . وكان هذا الرضا اقرارا منه بحق عبد المطلب عليه ، ورغبة لا يشوبها طيف شك في ان يصل ما بين أبيه وبين ربه ولو كان هذا بوجأ عنقه .

ها هي ذى قصة تتكرر ، أعاد فيها التاريخ نفسه ، ونشر من صحائفه صحيفة مطوية سطرها الماضى ثم كررها الحاضر كأنما قد دبت الحياة ثانية في أبطال الغابر .

يتقدم عبد المطلب الى احب ولده واقربهم الى قلبه فيقول :

« يا عبد الله ، انى نذرت لو استحيى رب هذا البيت لى عشرة من ولدى لأذبحن أحدهم له في بيته .. وانك انت يا بنى نذرى » .

فلا يزيد الفتى على ان يقول :

« يا أبت افعل ما ترى ولن تجدنى الا طائعا صابرا » .

فكأنما هذه كلمات اسماعيل عادت تتردد في اجواء مكة لأبيه ابراهيم بعد هذه الحقب المتلاحقة من السنين .

وكأنه تصنيف من القدر ان يعيد الصورة على هيئتها الاولى في

نفس البيت بين ولد وابيه كلاهما حفيـــد لباني البيت وابنه الذى فداه الله .

ولكن الذى فدا اسماعيل وقد همت به السكين شاء ثانية أن ينقذ سليل بيته الطاهر الكريم على نحو آخر من الفداء ..

مشى الى عبد المطلب أشراف قومه ، ومشى اليه آله ، ومشى اليه أخوال ابنه من بني النجار يعرضون أن يدع الفتى حتى لا يكون ذبح الأبناء من بعده سنة في العرب ، ولآلهته بعد هذا ما ترضاه من فداء .

وتردد الشيخ حتى أفتاه كهان الدين بصحة ما يطلبون .

ورمى بالقداح على فتاه وعلى عشر من الابل هى دية النفس كما تواضع عليه أهل تلك الأيام .

وخرج قدح عبد الله فضاعف الدية عسى ان يرضي ربه .. ثم ظل يضاعف الابل مرة فمرات حتى بلغت المائة فبرز قدحها دون قدح الغلام .

ولكن الشيخ لم يقطع بصحة الفداء ولا برضاء ربه حتى رمى ثلاث مرات استوثق بعدها من نجاة عبد الله فنحر الابل ببطن مكة وترك لحمها لقى للناس أو لوحش السماء .

وأكرم الله من بعد ذكرى عبد الله فسن الاسلام دية الانسان مائة بعد أن كانت عشرة .

وعاد عبد الله بين اخوته الى بيته معافى . لأن الله اراد أن يستأخره لأمر عظيم .

***

اما الناس فقد اعظموا عبد المطلب غاية الاعظام اذ خبروا فيه تألها لا يخسر ميزانه ، وان كان حبه الولد جاء في كفة أمام حبه دينه .

وقديما رأوا فيه من هــذا التأله علامات سمت بهــا روحه على مثيلاتها وشفت كأنها ماء الصخور صفاء ورقة .

كان الرجل ذا ورع وتقية ، يأبى الدنية ويعاف الصغار ، حتى لقد كاد أن ينسلخ بعذب صفاته مما عرف من خلال قومه الموغلين في الآثام . وكان يركب نفسه دائما بالزهد ، ويروضها على ما لا تحتمله الأنفس سواها ، استجابة منه لنزعة فيها ، لا تميل به وفرة المال ولا صحبة

الضلال . ولقد طالما ضمته المسامر فأغرق السمار في عبثهم فما انحاز اليهم ، وفي خمرهم فما ذاقتها شفتاه . وفشا الخنا فعزف عنه تعففا ، وذاع الفجور فتحصن .. وبغى القوى — وهو الأقوى — فأمسك كرما ، ثم ذهب يتلمس السبيل الى ضعيف يرعاه ويأخذ له ؛ أو جبار يقمعه ويأخذ منه ؛ وهو بعد هذا كله أحنى على الناس منهم على أنفسهم ، يسير فيهم سيرة هاشم أبيه حتى لم تجف على أرض مكة دماء الذبائح التى كان ينحرها طعاما للجائع الفقير ، ويحتمل منها الى الجبال ماكلا للوحش وجارح الطيور .

***

واما عبد المطلب فان روعه سكن ثابت نفسه وهو يرى رب البيت قد احله من نذره وابقى عليه احب بنيه .

واسرع بعد قليل الى داره يستقبل فتاه ، فلما لقيه شاعت في قلبه الفرحة حتى أضاء محياه ، وقال :

« يا بنى تهيأ فانا نرحل » .

« الليلة ؟ » .

« الليلة . وتخفف ، فلن يطول بقاء » .

وترك الفتى يتهيأ ، وراح وهو ينعم بحلم جميل طالما رقص في أخيلته .

ان كان ربه قد ابقى له عبد الله فلأمر يضمره أبقاه ، ولخير . وان عبدالمطلب مع صفاء روحه صفاء يشفى بها علىمراتب الالهام لاتستطيع بصيرته أن تنفذ الى الغيب المكنون . ولكن نفسه ما فتئت تحدثه عن خير قريب مذ عاد من رحلة اليمن بعد سماعه نبوءة كاهن حمير ..

كان هذا ذات يوم غير بعيد وقد نزل عبد المطلب على صاحب له عظيم من عظماء حمير . وان مجلسه لما يستو به حتى اقتحم عليهما المكان غريب سدد خطاه الى سيد قريش كأنما كان مسوقا نحوه بقوة دافعة . وجلس عبد المطلب يرقب الرجل ساكنا ، فيراه يطيل التأمل فيه ، والتطلع الى وجهه ولمس شعره وملامح محياه ، حتى فاض عجبه وضاق ذرعه ، فصاح برب البيت :

« ما للشيخ المفتون ولى ؟ » .

واجاب المضيف في هدوء وعلى ثغره ابتسامة :

« هذا كاهن من اليمن قرا كتب الاوائل وله علم ، وما احسب الا له شأن واياك .. » .

فانفثأ غضبه وقال ضاحكا :

« سأنظر .. » .

ثم التفت الى الكاهن يسأله :

« فما ترى يا أخا حمير مما حدثتك عنى كتبك ؟ » .

قال الرجل بصوت أجوف عميق ، ولا زالت عينه على جبين عبد المطلب :

« أرى .. ملكا » .

فرد صاحب الدار :

« ما هذا علينا بجديد فانه سيد قومه » .

« .. وارى نبوة » .

« نبوة ؟ » .

فهز راسه مؤمنا وهو يتم لسيد قريش :

« نعم . وانها لفيك أو في احد بنيك » .

« فأيهم يا رجل ؟ » .

« في صاحب الغرة ، أو في المصهر الى زهرة » .

وخلف لهما المكان .

وكانت لعبد المطلب في راسه شيبة ، دعى بها في طفولته وكانت علما عليه ، بيضاء في منبت شعره من فرق الجبهة بين سواد شعره ، لعل الكاهن عناها بقوله . فان كانت الاولى فما عدا شيخ حمير ذو العلم ما تحدث به الناس لفرط ما عرفوا من تقوى سيد بنى عبد مناف حتى كانوا دائما يقولون :

« لو كان نبى على عهد عبد المطلب لكان نبى العرب » .

وان كانت الاخرى فما أقرب اليه من يثرب ، بلدة أمه ، ولن تعجز الابل أن تدركها فيصهر الى زهرة نفسه ، ولأحب ولده حتى لا يفوت احدهما هذا الخير .

ولهذا سرى بهما الركب على درب يثرب .

ولم يطل بهما هناك بقاء ، ثم عادا ولعبد الله آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة ، ولأبيه ابنة عمها هالة بنت وهيب .

ثم دار الزمن ينثر على النـاس ما في وفاضه . وحملت هالة وحملت آمنة . ووضعت كلاهما غلاما ذكرا .

أما عبد المطلب فقد تلقفت كفاه وليده حمزة . واما عبد الله فقد شاء له ربه ان يطويه مثواه وطفله الحبيب جنين في بطن امه لما يكتمل نموه فلم تشهد طلعته مطلقا عيناه .

ولو انه امتد به اجله او استأخر شهورا قليلة لقرت عينه بغلام لم تمتلىء اعين البشر من قبل ، ولن تنعم من بعد بمثله ملاحة وحسن سمت وطلاقة محيا .

ولو انه استأخر اعواما لشهده فتى تلتئم قبائل العرب برأيه الرجيح وهى تمسك بأطراف برده بعد ان كادت تمزقها آراء شيوخها وسادتها .

ثم لو استأخر بعد هذا قليلا لعرف اى فتى في الرجال انجب ، ولطار به فخره كل ناحية وهو يرى ولده — بعد ان ضم العرب — يلم الدنيا حوله من اطرافها كثوب ، ويحتويها في كفه ، لا بحد السيف وشفرة السنان ، وانما بقوة اليقين وسطوة الايمان .

٧

ضجت العرب لو كان ينفع الضجيج أصحابه ، ثم جزعت ، ثم اجتمعت في نديها تتحدث وتقلب بينها الأمر . وما عسى يفيد الحديث في خطب واقع ما له من دافع ؟.. هذه الحبشة اقبلت من اليمن ، بعد اذ اذلت عزتها تنتشر جنودها كالجراد وهى تيمم بلدة البيت العتيق .

الا لو انها أقبلت غازية لهان على قريش الكرب ولشمرت للحرب سراعا . ولكن ابرهة انما جاء قاصدا المسجد يريد أن يسوى بناءه بالأرض هدما ، بعد أن فشل عن تحويل وجوه العرب عنه الى معبده الجديد : القليس .

وانتظر القوم على مثل الجمر عودة عبد المطلب وفي قلوبهم تتراوح الآمال . لقد ذهب الى لقاء الغازى العاتى عسى يستطيع بحسن تدبيره أن يصالحه على ما يبقى لهم بيت ابراهيم ، وجلسوا يتهامسون في صوت خفيض وهم يحدسون . واذا سيد قريش قد طلع عليهم وعلى وجهه عبسة توشك أن تنطق بان الشر لا معدى عنه ولا مناص . والقوا اليه

الأسماع والأبصار وهو يشق طريقه في الجمع ، ساكتا لا ينبس حتى أعداهم صمته ، فجمدت على أفواههم كلمات هموا أن يستنبئوه بها ما تم في اللقاء . واتخذ بينهم مجلسه ، ووقفوا حوله متلهفين للانصات أو الكلام بعد أن ران السكون على النفوس ، وثقل عليها كالصخر .

وقال هو بعد قليل ، بصوت فيه رهبة وحزن :

« يا قوم . ما أرى الا أن تخرجوا عن مكة الى الشعاب » .

فأجفلوا وانطلقت عيونهم تدور بينهم ، ذهبت ريحهم اذن وقضي الأمر وما هي الا ساعات حتى يجدوا الحبشة في ديارهم مصبحيهم .

ولكن الحمية ، أو أرادة الخلاف ، أخذت حرب بن أمية فصاح :

« فالحرب والله أجدى يا أبا الحارث » .

قال عبد المطلب بنبرات هادئة لم تغب عنها السخرية والتهكم :

« قول هين وهلك أهون ! » .

وقام عنهم . فاذا بهم يلاحقونه ويلتفون به كأنما كان لهم صخرة النجاة وكان حريا بهم أن يثوبوا اليه بعد اذ خبروه زمانا فعرفوه صادق النظرة نفاذها الى عقبى الأمور كمن يتحدث ويصدر في أعماله عن وحي . أما وقد قال قوله فلم يبق لهم الا احدى اثنتين : اما طاعة واما فناء .

وقال لهم ورجله خارج الباب :

« الا اني لكم نذير من كربة يوم عظيم ، فما لكم بصاحب الفيل طاقة » .

فسأله رجل منهم :

« فما قلت له وما قال لك ؟ » .

« ما قلت ولا قال ؛ ولكني طلبت ابلا لي أصابهـا في مرعاها ، فأعطانيها » .

فكأنما لمس عصب الغضب في نفوسهم ، وتصايح الكثيرون ولغطوا ، وانبرى له من بينهم حرب يسخر .

« تمنع الابل وتدع الحرم ؟ .. يا أبا الحارث ما كنت رشيدا !.. » .

« اما والله لم يفتني الرشد .. ابلي أنا ربها ، أمنعها ، وقد فعلت . أما البيت فله ربه يمنعه ! » .

***

واستمع القوم له ، وعمـلوا بما اشار به فما لبثت جموعهم أن خرجت الى شعاب مكة تمتنع فيها من الغزاة ، واخرج عبد المطلب آله وماله وساروا جميعا الى الجبال .

وخوة البلدة ولكن شيخها لم يدعها حتى جاس خلالها يستحث المتخلفين على ان يبرحوها . فلمـا لم يبق بها ساكن اعتلى شـعبا اشرف منه على نواحيها وراح يتطلع الى يمين ويسار ، ويمعن النظر فيما يبدو امامه وفي همه ان يعرف من أى فج سوف يدهمها عدوها . ولم تغمض للرجل عين طوال ليلته ، ولم تسكن حركته لحظة . ثم بدا في أفقها الصباح ينشر بياضه ومعه انتشر على مدى البصر سواد يتحرك ويقترب رويدا حتى كاد أن يبلغ أطـراف مكة . وسـارع عبد المطلب فنزل يهرول ، وانحدر كالسيل منطلقا صوب البلدة الى البيت العتيق يمسك حلقة بابه فيقرعها بقوة وهو يرفع الى السماء عينين فيهما دموع يسيل صيبها على وجنتيه ويبل لحيته ، والرجل يردد على دوى الدقات .

لا هم ، ان العبـد يمنع حله ، فامنع حلالك
لا يغلبن صـليبهم ومحالهم ، غدوا محالك
ان كنت تاركهم وقبلتنا .. فأمر ما بدالك !

ثم عاد مهرولا كما جاء الى مكانه من الشعب وقد كادت أن تطأ طليعة الجيش أطراف ثوبه .

***

ووقف الناس ، من عل ، ينظرون معقولى الألسن . لقد نصحهم حقا سيدهم فما لأحد من العرب بمثل هذا الجيش قبل ، وما منهم واحد راى فيلا ، قبل يومه هذا ، يجيش ويتخذ عدة حرب . وهذه الحبشة قد جيشت فيلة ضخاما ، اقبلت تدب أمام الرجال فتهتز لسيرها الأرض ، وعلى راسها دابة منها هى أعظمها جثة وانفسها ثوبا ، كانت مركبا لأميرهم أبرهة الأشرم .

ثم وقف الناس ، من عل ، ينظرون ثانيـة معقولى الألسن . ما للفيلة تحجم ولا تقدم ؟ وما للجند يتهافتون وتكل تحتهم الأرض فيسقطون على الأديم صرعى بغير سيف ولا مرماة ؟ وما للجيش كله

ينتفض بعضه على بعض ويسوده هرج لا يعرف مأتاه ؟ في مثل اللمح امتلأت الاجواء بصرخات الجرحى المفزوعين والأرض بأشلاء القتلى المجندلين من جيش الغزاة ، وفي مثل اللمح التوى الأمر على اجناد الحبشة وقادتهم كما التوت اعنة افراسها وفيلتها حتى ارتدت مولية بينهم تطأهم سنابكها وتحصدهم حصدا .

وامسك أهل مكة انفاسهم تهيبا . وقفت شعورهم رهبة بادىء الأمر ؛ ولكنهم لم يلبثوا حتى تصايحوا فرحين اذ منع الله بيته ، ومنع بلدته . وارسل من لدنه جنودا لم يتبينوا منها الا كمثل الحصى يأتى على جناح الريح من ناحية البحر ، ولا تصيب حصاة منه رجلا الا كفأته هامدا أو نفذت من بعض بدنه ، ثم تركته يحشرج . وتسابق القوم من بعد الى عبد المطلب يلتفون به ويقبلونه . وقد تقدمهم اليه حرب بن امية ينطق بما ينطقون ويقول :

« صدقت والله يا أبا الحارث فقد منع الله بيته .. »

وقد صدق أبو الحارث حقا وتحقق في هــذه المرة ايضا حدسه الموفي على الالهام ، فعاد الى مكة جأشها وبقى بيتها في الأوابد ، منعه ربه أن تمتد اليه يد بسوء ليكون في قابل الأيام مطاف خيرته من أهل الايمان ، وان الذين اقاموا بالشعاب خلال ليلة الخطب تلك عساهم لم يلقوا الأبصار الى وليد في ثاني شهوره كان بين جموعهم المستعصمة بالجبال . ولو رأوه لحسبوه وليدا كأى وليد ، ولكنهم لو استطاعوا قراءة الغيب لعرفوا أن وجوده بينهم كان رحمة من عند الله . وان بقاءهم بعيدا عن متناول أكف الأعداء ذلك اليوم العصيب كان أثرا من آثار يمن الصغير . وان ربهم شاء لهم هذا لأنه اراد أن يستأخرهم ليوم معلوم يشب فيه الوليد وينطلق بهداية الله داعيا الى نهج جديد قويم لم يأت بمثله انسان سواه من قديم ، ولن يبعث بمثله احد غيره ما بقيت الأرض والسموات . حتى اذا رنت اليه الاعين واصاخت الاسماع ، استطاع بقوة قلبه أن يؤلف حوله هؤلاء الاعراب الجفاة ، ويدفعهم في شعاب الأرض يحملون عنه مشاعل رسالة تضىء طرائق الحياة ...

***

ولئن بلغ ابن هاشم بعد هذا مبلغه من الهيبة في قومه ورفعة الشأن ، فان نعمته كانت جديرة بحسد الحاسدين . ولن يعجز التاريخ ان يكشف عن حاسد لعبد المطلب ما بلغه ، حاقد على مكانته في الناس ما دامت نواة الحسد له ولآبائه قد نمت دوحة في بنى عمومته حتى فرعت . فكما وقعت البغضاء في الأصول دبت ديدانها في الفروع والأغصان . وللوراثة دائما في النفس . كمثله في ملامح الأبدان . وما عبدالمطلب الا من هاشم ، وما حرب الا من امية وعبد شمس !..

وهكذا نرى التاريخ يعيد نفسه .. ان امية لم يبلغ وطره من عمه، الذى اخرجه منفيا من مكة ، ولم يبلغ ثأره . ولكنه خلف لبنيه تراثا من الاحقاد وفع حربا الى التوسل بالتوافه لمخاصمة عبدالمطلب . وكما ذهب امية يستطيل على هاشم ويستعلى ثم يستنفره ان ينافره ، فكذلك ذهب أيضا حرب يسير في سبيل ابيه . ولم يكن هذا عن ايمان بعلوه او ثقة بفضله ولكنه كان ارضاء لقلبه المفعم بالحقد الموروث .

ولكنك لن تجد للمبطل منصفا في ذى انصاف . ما مشى الرجلان الى نفيل بن عبد العزى يحكمانه بينهما حتى صاح بحرب صيحة المغيظ الغاضب :

« يا أبا عمرو ، اتنافر رجلا هو اطول منك قامة . وأعظم منك هامة ، واوسم منك وسامة ، واقل منك لامة ، واكثر منك ولدا ، واجزل منك صفدا ، وأطول منك مذودا ؟ اما والله انك لمبطل كما كان أبوك » .

فما استطاع ذاك الحاسد المغلوب الا ان يقول :

« فدع ابى عنك يا نفيل فانه ليس بشر من أبيه .. » .

« هيهات ان يقرنا ، او تقرنا ..

ابوك معـــاهر وابوه عف وذاد الفيل عن بلد حرام »

فانتفض حرب مقهورا،وهو يهمس من بين اسنانه اذ يغادر المكان:

« ان من انتكاث الزمان ان جعلناك حكما ! » .

كأنما لم يكن من انتكاث الزمان ان يطاول عبدالمطلب او يحسبه ندا !

ومع ذلك فقد كان في هذا الفرع من عبد مناف اجتراء على الحق حتى لا يدفعهم عن امعانهم في الابطال دافع . وانهم ليرون دائما في باطلهم حقا وفي حق غيرهم نهبا هم الاحقون باستلابه . ولسوف نراهم

يركبون كل مركب الى أهدافهم ولا يقعدهم عن التماس غاياتهم لوم الناس ، بل سيشهرون السيف ويعقلون الألسن ويمضون قدما الى زمان غاب منصفه وكثر مرجفه فنصبوا فيه حكما هم اعلم بحكمه لهم قبل نطقه به . ولن يكون هذا رجلا كنفيل وانما رجالا او صور رجال جبلوا هم طينتهم كما شاءت لهم أهواء النفوس وصاغوا منهم دولة عاتية بين قرنى الشمس . وحتى تؤذن تلك الفترة سنراهم دائما سباقين الى رى دوحة الحقد التى كانت نواة لتظل مورقة ابدا شائكة ابدا ... ولتصيبن اشواكها حتى ذلك الوليد الذى سطع ضياؤه في الأزل قبل خلق السموات ، ولتدمينه وان تقدم اليهم ببرهان الله لأنه لم يكن مثلهم من عبد شمس وانما من هاشم !.

٨

أكانت تلك مكرمة اخرى من القدر آثر بها آل هاشم دون غيرهم من بيوتات العرب في الجزيرة فأضاف بها الى مفاخرهم ، أم هي الصدفة وحدها لعبت دورا ؟.. في كل ما فات بالدنيا من افرادهم نرى صفحات من الحياة ، تلتمع امام البصائر التماعا : رجالهم في الرجال سادة تهوى اليهم الأنفس وتستظل من محامدهم باورف ظل . فيهم الشريف الماجد . والكريم الرافد ، والتقى العابد الى اشواط لا تبلغ غايتها افراس السجايا عند سواهم من خيار الناس ... ونساؤهم في النساء أعلام الصفاء وصحائف النقاء . لم يخض مطلقا في ذكرهن لسان الا بثناء في أيام كان جل نسوتها متهمات مشوبات السير والأعراض بغير تحيز ولا اغراق ، وان في هذا كله لسرا لن تلبث أن تكشف عنه حياة فرد منهم اصطفاه ربه لينحدر من اصلابهم ومنهن فاختارهم جميعا — من اجله — اعفاء مطهرين ، جديرين بانجاب سيد الخلق أجمعين .

ولكن المكرمة الجديدة صافت رجلا من بنى هاشم ليس بالموسر فيعزه ماله ، ولا بالمنجب فيحمله عياله ، بل كان الى الحاجة اميل منه الى الثراء . لا يملك الا نسبا وطيب خلة ، ولا يستطيع — لو اراد — أن يستطيل على قريش او يسبقها وفي أيدى الكثيرين منها عدة من عرض

الدنيا ونشبها ترجح عدته ، ليس يعوز قوما تيسر لديهم المال أن تنسى لهم خفضة النسب أمام الناس ، ما استطاعت أموالهم أن تعطف عليهم النفوس وتملك الحواس .

أجل لقد واجه ابو طالب دنياه فقيرا ، ومات عبد المطلب عنه وهو بعد في نحو من السن لم يكن كدحه قد افاء عليه من الخير ما يشتهيه . ولم يورثه أيضا سيادة القوم لأنه أوصى لآخر من بنيه هو الزبير . فلئن اقبلت الدنيا على هذا الفقير فحبته بمكرمة هى آية المكرمات فقد كان هذا من القدر غاية المرتجى عند ذى رجاء .

***

كان اقدس الارض عند العرب مكة . وكان اقدس مكة بيتها العتيق . وكان اقدس حرمها هذا الكعبة لا يطوف بها من القوم الا محلق مغتسل طاهر مع ما كانوا فيه من الامعان في الضلال والمباهاة بسوء الخلال . وقد مضت عليهم الأحقاب تتلاحق — مذ ابتناه ابراهيم — وهم لا يعدلون ببيتهم شيئا حتى ليتحرزوا ان يذكروه بغير اعظام في ذات أنفسهم سرا ومناجاة وهم يأمنون على اذهانهم السميع الرقيب . ولو احبوا لأمر من امورهم نفاذا لأبرموه فيه أو بجوار استار كعبته ، كأنما يشهدونها على خلوص النية وصدق العزم على المضى في انفاذه لانهم قد اكسبوه من قداسة ذلك المكان . فكل ما جاور الكعبة مقدس أو حرام أو هو موف على غاية التقديس والإعظام .

كذلك كان الشأن لدى العرب لا فرق فيهم بين خاصة ودهماء . وانهم جميعا ليحملون الأمور على معانيها قبل مبانيها ، وعلى جواهرها قبل مظاهرها ، فاذا تم لأبى طالب الفقير المعسر بعض امره في جوار كعبة الحرم ، فان امره هذا لجليل في عيون القوم لانه اكتسب ابلغ شرف بأشرف جوار في اقدس دار ، فكيف لو تم له امره ذاك بغير سابق ترتيب منه ، بل بصدفة هى عند أولئك الناس منة من الله وحظوة اراد أن يشرف بها ابن عبد المطلب كما لم يشرف بمثلها قبله أو بعده من الرجال كثير ولا قليل ؟

***

تلك ليلة فذة في الليالى ، اضاء نجمها على الدنيا مرة ثم لم يقدر بعدها لضوئه ان يبزغ ثانية كمثل بزوغه لأن مثيلاتها لا تعود . ولكن ضياء اشد لمعانا من نور النجم توهج ، ثم سطع ، ثم فاض بنوره على الآفاق سيرة كوجه الشمس رفافة الاشراق .. سيرة ان فاتها ان تنفرد وحدها بالمبنى الساحر فقليل سواها ضم ما كان لها من معنى قاهر ، بل اقل القليل ، بل الأندر منه . ولو انك استطعت ان تتحلل من شباك الزمن وتنفض خيوطها عنك ، وسبحت عائدا الى الماضى لرأيت ابنة أسد — فاطمة — تجول بالبيت الحرام تلتمس البركة ، لأنها سيدة تجمعت فيها مزايا آلها الكرام وامتلأ — كمثلهم — قلبها طهرا . ثم لرأيتها تأتى الكعبة فتطوف بها مرة فمرات متمسحة بأستارها آونة مقبلتها اخرى . ولكنك لا تلبث حتى تشهدها وقد أوشك أن يصيبها اعياء تكاد أن تنوء به ، وتنكر هى — بادىء الأمر — ما تحسه ، ثم تمضى متجلدة تستحث نفسها وتستنهضها . ولكنها رغم هذا لا تقوى ، ولا تستطيع أن تقوم عودها . واذا هى تتشبث أصابعها بأستار الكعبة تستعين بها وقد اخذت تحس شيئا غاب عن ذهنها ، وتقف مجهودة لا يستقر بها موطىء القدمين ، كمن على طرف كثيب رخو من الرمال . وتجيل فيما حولها عينا حائرة لعلها تبصر زوجها أبا طالب يسعى هنا أو هناك فتجد لديه عونا على ما تلقى ، ولكنها لا تراه لأن ما حضرها في هذه اللحظة غاب عن حسابه ..

ثم لعلك تتبعها وقد خشيت هى ان تلقفها الأبصار المتطلعة ممن حضر من اناس كان دأبهم الاجتماع في اروقة البيت وفي افنائه فاذا رأيتها قد انحازت ناحية ، ودلفت الى أستار الكعبة فتوارت خلفها عن عيون القوم فكفاك ما شهدت . وقف منها على ملقط السمع دون مرمى العين لأنها شاءت أن تتخذ من الستر المقدس ردءا . واسمع بعد هذا حسيسا خافتا يأتيك من لدنها . وانينا يحكمه الجلد واصطناع الاحتمال ، وصرخات مكتومة تكاد ان تصلها الأذن كأنها تأتى من مهوى سحيق بعيد القرار . ثم اسمع نبرة بكاء تخالط هذه الصرخات ، لها غير جرسها وغير رنتها ، رقيقة ، رنانة في غير حدة ، كأنها شدو طائر تفتحت عيناه على شعاع فجر اسفر او اوشك على اسفار . وقد تأخذك العجب ، وتملكك الدهشة ، ولكنه عجب قصير اجله ، ودهشة

لن يطول بك مداها ما دامت فاطمة قد بدت ثانية لناظريك ، واهنة ، واشد ضعفا مما رأيتها من قبل ، كسا وجهها الشحوب ومشت في اوصالها رجفة الاعياء ، وقد احتملت ـ مدثرا بستر الكعبة الشريف ـ وليدها بين صدرها وكفيها .

***

تلك ولادة لم تكن قبل طفلها هذا الوليد ولم يحز فخرها بعده وليد اكرمه بها الله واكرم امه وأباه ، فكان تكريما لفرعى هاشم الذى انحدر منه الطفل عن فاطمة وعن أبى طالب حفيدى الأصل الثابت الكريم .

واقبل القوم ـ حين انتبهوا ـ يستبقون الى السيدة ، يعاونونها : ويأخذون بيدها ، ويملأون الأبصار بطلعة ذاك الذى كان بيت الله مولده ، وستر الكعبة ثوبه ، كأنما اوسع له في الشرف باجتماعه في كلا المولد والمحتد وهم لو استطاعوا أن يسبقوا زمانهم كما تأخرت انت لراوه ايضا يجتمع له نفس هذا الشرف حين يقبل عليه الموت فيلقاه في بيت الله يهم أن يقوم بالصلاة ...

اما فاطمة فقد احبت ان تحى في وليدها اسم أبيها فدعته بمعناه وان لم تدعه بلفظه ، وقالت لزوجها وهى تحاوره :

« هو حيدرة » .

واما أبو طالب فقد كان اكثر توفيقا حين اختار . راى وليده قد علا شرفا بمكان مولده كما علا من قبل بأصله الرفيع فقال :

« بل على » .

وبدات عند هذا حياة الرجل الذى ساير اخطر الاحداث في هذه الدنيا ، وعاشر اطهر الخلق وسيد النبيين ، واحتمل نصيبه من عبء كبير القاه الله على مختاره الأمين ، الذى خصه بوحيه ورسالته الالهية لهداية العالم .

وعاش علىّ عمره لغيره من المثل ومن الرجال ، فكان في صباه القريب المفتدى ، وفي شبابه الصديق المقتدى بالنبى الكريم ، وبين هذا وذاك من أطوار العمر وما جاء في أعقابها من فترات ، التزم غايات الكمال في الفعال والخلال ، فلما انطوى بعض اجله ، ومضى من الدنيا وعن هاديه ، كان المعقب له وقد ذهب المعقب . واجل من اخذ عنه فأجاد ، وركب جادته فما حاد .

شروق

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » .

١

الفتى حائر الفكر ، بين كفيه امسك راســا يحسب فيه من الخواطر ما يملأ كل هذه الفجاج لو تركها تنثال على رقعة الرمال المبسوطة امام ناظريه عن يمين وشمال .

ثم رفع الى السماء بصره . ليته بها يستهدى ـ هذه الأنجم الزهر التى يتخذها راكب البيد دليلا ... ولكنهــا بدت خابية . وحالت الألوان فيها الى مثل الفضة كساها من الترب كساء . فلقد بدا له نور المشرق كما انفتحت كوة في القبة فوقه واندفع منهــا الضياء وئيدا وئيدا نحوه ، تلمع تحت سيله مكة ويغمرها منه غامر الحياة .

وكان صاحي اللب ، ما انتبه حتى تحولت عينه الى هذا المبنى المقدس الذى بان له من قريب ، شامخ العمد ، فسيح الرحبة ، في اوسطه الحجر الأسود الذى وضعه محمد حيثما وضعه من قبل جده ابراهيم .

ها هنا كان قديما محراب الله ، فكيف أصبح ليراه محــراب العزى ، أو اللات ، او ايما اسماء نحلها قومه حجارة لا تنفع ؟ .. أو لم يصدقه محمد ؟ الا ان محمدا عنده غير متهم ، شادت بصدقه العرب جمعاء حتى أصبح « الامين » عليه علما ، وسرت ـ كلما سار ـ بين القوم همسات اكبار واعجاب ليحسبها الفتى تند عن تاج يزدان بمفرقى ذلك الصادق الحبيب لو جمع أناسه في الزمان ملك مدعم . ولكن محمدا كان عزوفا ، قام ليله وعاف الرقاد زلفى الى رب جده بانى البيت . وعمل نهاره من أجل صغاره ومن أجل هذا الربيب الذى ضاق به طوق ابى طالب فاحتمله فضله . وانه ليخصف نعله ويخيط ثوبه بيديه لا يغريه بالدنيا عرض او مأرب . وانه ليكدح كدح السامة ولو كان له مندوحة من مال خديجــة ، وانه لتمر به الايام لا يتزود فيها بسوى تمرات جافة تقيمه وتعينه على القيام بأمر ربه ... نأى بنفسه عن ترف القوم وخمرهم ولهوهم الى غار

في الجبل أعواما ، صادفا بها عن جهالات قريش وأربابها المقدودة من حجارة صماء الى رب واحد ما له من شريك .

ما كانت دعوة محمد بغريبة عن قلب الفتى ولا بالتى يعاف جرسها سمعه . فانه ، وان يك لم يتجاوز حلمه الا قليلا ، قد كان يشعر في قراراته أنه غريب في معبد الأصنام ! .. انه لم يول وجهه شطرها مرة ، ولم يتولها بالتقديس كما فعل ذووه ، ولم يطف بساحتها طوفة أو الم بهيكلها من قريب أو من بعيد . ولم يدر اكان هذا الهاما من الله ام هو جرى في اتباعه مجرى ابن عمه مربيه .. ولعل الثانية أرجح . لأنه يذكر ما يأخذ به نفسه بين الفينة والفينة من تقليد محمد حتى لأصبح من فرط تعلقه به واتخاذه قدوة يصوره أصدق التصوير في الكثير من الفعال والحركات .. يهش ويفرج عن ثناياه ولا يلقى الناس عبوسا — تماما كما تضيء البسمات وجه ابن عمه — ويسير على نمط سيره فيتكفأ في مشيته وهو يسرع كأنما لا يحده في انصبابه حد .. فلعله اذن ما نأى عن أصنام القوم الا اقتداء منه بهذا الكافل العظيم .

وعاودته في مكانه ذكرى الليلة التى أصبح عليها صباحها الآن فما ملك الا ان يبسم متعجبا من شأن نفسه . كيف أباح لفكره أن يرجيء تلبيته دعوة الحق التى اليها دعاه النبى بحجة أنه سيشاور أباه ؟ .. الا لقد اخطأه التوفيق وضل نهاه وهو الحرى بأن يسبق بالاستجابة تلك الدعوة الى عبادة رب ابراهيم .

... كان قد دخل الحجرة كما اعتاد ان يفعل ليأنس بجلسة الى ابن عمه بين خديجة الرءوم وفاطمة الصغيرة ، فما راعه وهو يدفع الباب الا أن رآهما يركعان ويسجدان والطفلة تتابعهما بالمحاكاة . وتوسم فيما يأتيان خشوعا ، وتوسم عملا غير مألوف ، فوقف في مكانه لا يبرح . ومضت الى سمعه قراءة ساحرة ، يرتلها محمد بصوت عذب ، ما سمع مثل طلاوتها ، ولا رنتها ، ولا بلاغتها من قبل . واخذته من الكلمات نشوة لفت مشاعره فلم ينتبه الا وكف ابن عمه على كتفه تلمسه لمسا رفيقا وتعيده الى نفسه . وعاد هو من عجبة الى الاستفسار يستوضح محمدا ويستزيده مما سمعه . وانست روحه للترتيل . وامتلأ قلبه بما فاض به الآى الحكيم من روعة

معنى وحسن بيان ، وهو بعد هذا ينتقل مع الآيات الى آفاق جديدة فيها هداية ونور . الا قد صدق محمد حقا . وما كانت هذه الآيات بالتي يستطيعها بشر بل هي من كلام اله .

وابتسم ثانية استحياء اذ تذكر هذا وتذكر ما قاله حين دعاه محمد الى متابعته ونبذ عبادة الأحجار الصم الى عبادة واحد قهار ، يسمع ويبصر ولا تدركه الأبصار ... ابتسم استحياء لأنه ذكر جوابه وما كان أعجبه من جواب .

قال كما اعتادت أن تقول ألسنة امثاله من الصغار :

« أمهلني أشاور أبا طالب » .

فابتسم له ابن عمه بسمة حانية كلها عطف ، وربت كتفه راضيا ، ثم تركه عساه أن ينطلق الى أبيه فيتزود منه بالرأى قبل ان يفصل في مصير دينه بقرار .

***

ولكنه لم يغادر البيت وان ترك الحجرة ، ولم يشاور ابا طالب ، وانما قضى ليله كالمحموم ، تحت السماء يقلب الأمر في عقله ، اما وقد استبان له الرشد الآن كما بان ضوء الفجر الوليد في أطراف الأفق الأدكن ، فان به لشوقا أن يقتحم على محمد حجرته فيطلب منه ان يقبله في الدين الجديد عابدا جديدا .

ونهض علي وسار يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبى . وأشرف على الحجرة فمنعه حياؤه أن يدخل . ولم يجد بدا ان يصرف عن نفسه الحاح الشوق الى حين ؛ فبرح الدار وضرب هنيهة أمامها ثم انثنى الى الدرب فاذا صحبة من فتية قريش تبرز في غبشة الصبح يرونه فيهتف احدهم به :

« حيدرة ! » .

فلا يطيب له سماع الاسم الذى خلعه عن نفسه من قديم ، ولا يطيب له أيضا أن يعتكر خواطره الصافية حديث . ولكنه لا يستطيع ان يجد منفلتا من الصبية وقد قاربوه وسأله منهم سائل:

« بكرت يا ابن ابى طالب وانه للسعى الى البيت ؟ » .
فيوجز — متبرما — الجواب :
« ما اليه ! » .
« فهلم معنا ، ما لم يحبسك حابس ، فانا سنطوف به » .
« لك شأنك دونى » .
وكان صاحبه يعلم انه لن يفوز منه الا بهذا الخطاب . فضحك معاتبا وقال :
« عجبا لك يا ابن ابى طالب ! تضعك امك في حرم الاصنام » .
فأسرع يقطع حديثه ويقول :
« في حـــرم أبى ابراهيم ، أما صواحبكم تلك فاكرم عن مرآها وجهى ! » .

وود في تلك اللحظة لو استطاع ان يفتح عيون هؤلاء العمى ليروا النور الذى أخذت تباشيره تبزغ من افق محمـــد ، ويحدثهم بهذا الدين الجـــديد الذى علم به ليلة الأمس عسى ان يتبعـــوا الهـــدى والصواب . ولكنه أمسك لانه ليس بعد في حل من ان يفشى على ابن عمه أمره .

وانثنى عن الطريق مخلفا أصحابه لشأنهم ليعود الى الدار . فاذا محمد يهم أن يبرح . واســـتقبله النبى الكريم هاشا ، يمد نحـــوه ذراعيه ، وفي عينيه من ضياء حنانه فيض ، وتوقف الفتى امامه برهة اخذه فيها الحسر حتى لا يعرف بأى الكلمات يبدأ الحديث . وترفق به محمد لا يسأل ولا يتعجل : بل يدعه حتي يجمع شتات ذهنه .
ويقول الفتي وقد هدأ جاشه :
« يا ابن عمى ، انى سمعت واجبت ، وانى اشهد بشهادة الاسلام أن لا اله الا الله ، وانك لرسوله » .
فانما كان بهذه الكلمات سحر . ما ان جاوزت شفتيه حتى احس بذاته خفيفة رقيقة لها لطف النسمـــة . تكاد تعلو به الى الطباق وتسرى محلقة في الآفاق .
وابتسم له محمد ، ومسح بكفه على رأسه وعلى صدره . وخشى على في هذه الآونة ان يطوف بظن نبيه انما كان اسلامه بمشورة ابيه فسارع يضيف :
« يا رسول الله ما كنت لأسمع لابى طالب او اشاوره في دينى ،

فقد خلقنى الله ولم يشاوره في خلقى ! .. آنى هديت يا رسول الله بك الى ربى فلأعبدنه ابتغاء وجهه ... »

***

وانبسطت للفتى رقعة الدين الجديد وما كان ليقصر عنها باعه وهذا باسطها دائما أمامه . ورويت بفضائل الاسلام روحه من نبع محمد . فما تنفس صبح الا تلمس وجهة النبى ، وما جن ليل الا ادلج خلفه كظله ؛ وهو في هذا لا يملك الا أن يكون مستخفيا بدينه عن قومه على سنن صاحبه . ما كره أن يعلم عنه انضواؤه تحت راية الاسلام وانما خشى أن يذيع عنه ما لم يرد محمد له بعد أن يذيع ... وكتم في نفسه أمره وهى جياشة به ، حنانة الى اشهاره عسى أن يهدى الله به من يعرفه الى مثل ما هداه . ولكنه كان دائما يمسك عن الحديث كلما اراد اخوانه أن يستخبروه بعض ما شاع من الشائعات حول محمد ودينه الجديد . واكتفى سنوات ثلاثا طويلات الأيام والليالى بألا يكشف عن سره الا لحراء حين يتبع اليه صاحبه في الأمسيات مع من سار كنهجه من أوائل المسلمين حين يقضون حق ربهم بمنأى عن عيون المتربصين ... حتى أبو طالب نفسه كان بعيدا ايضا عن ذات نفسه بعد قومه ، لا يعلم عنه الا ما تتلقفه الأسماع وتردده الشفاه حدسا .

ولكن السر الذى حرص طويلا على كتمانه آن له أخيرا أن يذيع . ولم يتوجس على خيفة من هذا بل اشتملته الفرحة وطابت به نفسه . انه كان دائما فخورا بأمه التى تفتح قلبها للدين الجديد تفتح الزهرة لندى الصباح . فخورا بسبقها بنات جنسها الا واحدة ، الى تلبية نداء الله ، فضلا عن سبقها نساء بيتها ، حتى صارت الأولى اسلاما في بيت هاشم . ولكم أحب الفتى هذه السيدة الفضلى !... أحبها حبين : حب الابن للأم ، ثم حبا بحبها محمدا الذى لم يحبب هو مثله في الوجود أحدا . ولقد انشرح صدره لاسلامها لأنه أمل أن تصيب اباه منها عدوى الايمان ، وتلبث تلك الفترة من الأعوام لا يفتر أمله ، ويداعب خياله حلمه الجميل . فلما كر ذات ليلة قافلا من حراء وصادف اباه على مقربة من الغار ، سره أن يقبل عليه الشيخ مستفسرا عن سبب وجوده بهذه الناحية التى لا يطرقها الا القليل .. سره هذا

لانه كان يوقن ان الحديث سيتمخض في النهـاية عن تحقيق رجائه المنشود .

قال له ابو طالب :

« يا بني اين كنت وليس لك الشعب بملعب ؟ »

اجاب :

« به يا ابت » .

« وفيم ؟ » .

« اقضي به حق ربي » .

فهز الشيخ متمهلا راسه وهو يقول :

« اصبت ، لو اصبت ! » .

فرد عليه بحماس :

« تبعته في صواب ، وما عرف الناس عنه الا حقا » .

« امحمدا عنيت ؟ » .

كان الرجل قد سرى اليه همس الناس .

وقال علي :

« هو يا ابت ، وانه لرسول الله » .

« فحدثني بما يمشي به عنه الناس . ما هذا الدين الذي اسمع انه يدين به ؟ »

« دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسـله . دين ابينا الخليـل ابراهيم » .

« وما لابن اخي به ؟ » .

« بعثه الله به رسولا الى الخلق كافة » .

فتفرس الشيخ برهة في عيني ولده ، ثم قال

« يا بني اراك اتبعته » .

« آمنت بالله ، وآمنت برسوله ، وصدقت بما جاء به » .

وطاطأ ابو طالب راسه برهة يفكر وقد عجب لهذا الحماس الذي يراه قد اشتمل فتاه . وبدا حلم علي يتجمع في خياله ، ثم يتحرك ، ثم يكاد ان يبرز حقيقة سافرة وهو يلمح السطور التي خطها التفكير على جبين ابيه . يا ترى هل آن للشيخ ان يصيب هداه ؟

وأسرع في لهفة يستحث الرجل ويدعوه :

« اى ابت !.. انه والله للحق وانت احق من استمع اليه واعان عليه . اي ابت فهلم اليه ! » .

ولكن ابا طالب بدا كمن لم يستمع الى ندائه وان قال :

« اى بنى !.. اما أنه لم يدعك الا لخير ، فالزمه .. » .

ومضى عنه .

٢

لم يطل بالفتى بعد هذا انتظار ، فقد اوشك ان يشتهر دين الله بين الناس فيعرف من حدس مدى الصدق في حدسه ثم يعلم القوم ان كان محمد قد صبأ — كما ظنوا — عن دين آبائه عنتا واعراضا ، ام اتاهم حقا من لدن ربه بالهدى والنور .

وامتلأت الدار الصغيرة حركة . وامتلأت نفوس أصحابها القلائل بشتى خلجات : فيها ثقة ، وفيها قلق ، وفيها اشفاق . لن يلبث الاقربون من الآل أن تضمهم وليمة محمد ثم يستمعوا الى حديثه عن رسالة الله . أما خديجة فقد ظلت هادئة النفس يملأ قلبها اليقين بأن الله ناصر صاحبها . لم ترتب في هــذا أقل ريب ولم يعتورها شك ، بل بقيت لها نفس الثقة التى شعرت بها ليلة عاد اليها زوجها من حراء خائفا فزعا أول ما تنزل عليه وحى السماء . واما محمد فلم يستطع ان ينزع عنه خشيته وهؤلاء ادنى العشــيرة ، ان جاءوا فسـمعوا ثم اعرضوا عنه لا يلبون ، فقد مالت اليهم دونه قلوب العرب فكذب واشتد عليه بعدها الأمر .. وأما على فقد لعب به القلق آونة ولعب به الرجاء آونات . وكان ذهنه لا يقع الا على ابيه ، ولا تلتئم خواطره الا عنده مذ رأى فيه ذلك التسامح الفذ يوم أقره على الدين الجديد ولم يلوه عنه . كان هذا التسامح من الشيخ معقد رجاء الفتى ومناط آماله . لان ابا طالب راس آله وصاحب الكلمة فيهم ، وحرى بالقوم ، ان راوه استمع الى محمــد فأحسن الاستماع ثم جنح الى اتباعه ، ان يستجيبوا هم أيضا الى نداء الاسلام .

وامتلأت الدار ببنى عبد المطلب وبني هاشم وغيرهم من رجالات

الأسرة وذوى الكلمة فيها . فلما اكتمل الجمع ، أشار النبى الى على وقال :

« هلم طعامك ! » .

فسارع يصدع بالأمر ، وتقدم الى الضيوف بالطعام فوضعه امامهم : ثريدة ان كان الرجل ليأكل مثلها وحده فلا تكفيه : وتهامس الحاضرون ، وتبادلوا بينهم نظرات ساخرة وان لم يسعهم الا أن يمدوا أصابعهم الى الثريدة فيصيبوا منها . وأصابوا ، ثم اصابوا منها ، ولا تكاد أن تنقص في صفحتها . واخذهم العجب ، وخفت همسهم وان دارت عيونهم دهشة وأحسوا بطونهم لا تطلب مزيدا فامتلأوا حيرة بعد ان امتلأوا شبعا .

وسرى صوت محمد ثانية يقول للفتى :

« أسقهم » .

فطاف عليهم باناء هو رى أحدهم شربوا منه جميعا ولم يوف على نقصان .

هنا كانت الحيرة قد سدت مسالك التفكير عند ابى لهب فتمتم من بين أسنانه موجدة وحقدا :

« سحركم والله محمد » .

فلم يلق اليه النبى بالا . انه ليعلم مأتى حقده على كل حال ، لأن النساء وحى الأزواج ، وما كان أبو لهب ليتخذ غير موقفه هذا وزوجه أموية هى ام جميل ابنة حرب بن امية ، وما كان لتبقى له هاشميته وقد نام مع سليلة الأضغان في فراش !

اغضى محمد عن وخز عمه ، وقام عن مكانه ليحدث ضيوفه عن رسالة ربه . وود على في هذه اللحظة الحرجة لو كان له على لسان أبيه سلطان . ولكنه جلس صامتا — كالآخرين — يسمع ونفسه نربة رجائه وقلقه . وتكلم النبى ، فلم تنفذ كلماته من اذنى الصبى ، بل اتخذت طريقها الى قلبه . وانه ليحس بروحه قد فنيت في ابن عمه فناء . ويحس مشاعره قد خرجت عن نطاق عزمة وقدرته ولم يعد لها كيان خاص . ويحس ذاته جميعا معلقة بما يقول الرسول او اسلس قيادا . كانها بعض كلمه الذى تنطق به شفتاه .. كان سحرا ما قال محمد او هو اقوى اثرا في النفوس من السحر ، وان أولئك الذين

ضمهم المجلس ذلك اليوم ليشعرون كمثل شعوره . وليعلمون رنة الصدق في الحديث وان ابت يد الضلالة الا أن تشتد على قلوبهم وتضرب اكنتها . وانهم ليرون انفسهم مسوقة وحديث النبى خلفها كالسيل . يجرفها تياره القهار . فينأى بها رويدا رويدا الى دنى جديدة فياضة بالسمو والطهر ، بعيدة كل البعد عما اعتادوا من أفكار دينهم ودنياهم ، وان بقيت اغلال العادة تربطهم بماضيهم .

ولكن للشقاوة سطوتها ايضا ، ولها سلطانها ، ولها شيطانها الغلاب على مراض القلوب . ولقد شاء ابليس ان يتخذ له من بين أولئك الجلوس عونا ، فآثر أن يكون حليفه اموى القلب !.. اجل آلى الشيطان بنزغه عبد العزى بن عبد المطلب • ابا لهب . فاذا الرجل تركبه العزة بالاثم فينتفخ نحره ، ويتلون وجهه الأبيض الوانا رسمها غضب الحنق والحقد والضغينة . ويستبد به غضبه حتى يكاد ان ينبثق من وجهه الدم . ويلمع في عينيه انسان مجنون فلا يتريث . ولا ينتظر ان يتم ابن أخيه حديثه الذى دعاهم له ، بل ينتفض واقفا والكلمات تندفع كالرغوة من فيه :

« أتأتينا يا بن عبد الله بقالة من لدنك — ان هى الا رئى — تزعم ان ربك ادلاها اليك من السماء ثم تحسب انا مصدقوك ! » .

فلا يغضب محمد ، ولا يصيبه من جراء هذا الهجوم حسر ، بل يقول بمألوف حلمه في صوت هادىء رقيق :

« ما أعلم انسانا في العرب آتي قومه بأفضل مما جئتكم به .. » .

فيصيح ثانية ذاك الصاخب الزارى :

« جئتنا باله واحد ولنا دونه ما يكثرونه ، آلهة شتى خير منه ! » .

« قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة » .

« فهذا لك ندعه يا محمد » .

ويحسب أن سخريته تلك قد اغنت عنه فينطلق ضاحكا يقهقه . ولكنها كانت على أى حال علامة الفصل اذ اغرت الاكثرين بالابتسام وتركتهم لا ينصتون . وسرت الهمهمة في الحضور ، وسرى الهمس فاذا بهم بين مكذب وهازىء .. حتى أولئك الذين تابعوا محمدا على دينه فيما اقبل من الايام كالعباس وحمزة ، فاتهم ان يتبينوا — في تلك اللحظة — حد الرشد وحد الغى . ثم علا الهمس فاستطار كلاما ، ساقرا ساخرا لاذع الوقع . وظل ابو طالب في مكانه صامتا لا ينبس .

وهو يقلب ناظريه كأنما لم يع بعد ما يدور . أو كأنما قد أشفق أن يرجح احدى الكفتين على أختها برأى يسوقه خلال هذا النضال الروحى المرير . أو كأن اجيالا من ضلال الغابرين وقفت دونه ودون آية الحق كالسد الحائل ..

وتململ على في مكانه . واخذ الغضب يملأ قلبه وهو يرى اباه في موقفه هذا ، وكاد — أن استطاع — أن يمقت الشيخ ويملأ نفسه بالحقد عليه . ان ابا طالب وحده كان في مقدوره أن ينصر الرسول أو يشد ازره أو يثبت قدميه في أول محنة بكلمة تصديق واحدة يلقيها أمام القوم . ولم يكن هذا بالعسير على الرجل ، ولا بالذى يأباه ضميره اذ كان أعلم الناس بمحمد صبيا ورجلا . لم يعرف عنه الكذب مرة وعرف له الصدق خلة هى احدى كرائم الخصال فيه ، ومن لا يكذب على الناس لا يكذب على الله . وكانت لهذا اليتيم سمات في حداثته من النبل والقداسة عرفها ابو طالب وجعلته والكثيرين من ذوى العلم في الناس يتوقعون لابن عبد الله بين العرب مكانة لن يبلغ شأوها في أقوامهم بالغ ، ولكن الشيخ ، مع هذا ، تجلل بالصمت وجلس ينظر . وان هى الا شقاوة شاءها له طالع سوء . به على الشر كبا ، وعن الخير نبا .

وصاح زوج أم جميل ابنة حرب ثانية ، يقطع ما يلقيه محمد على عشيرته صدوعا بأمر ربه :

« يا محمد ان لحديثك هذا لسحرا ، وان له لموقعا في الافهام واثرا على الأحلام . ولكنه — والله — ما يغلبنا على ديننا سحر »

وترك مقعده وهو يلتفت الى الجمع ويقول :

« قد سمعتم أيها الناس فقوموا لا يفتننكم الغلام ! » .

فلما راى النبي أنهم كادوا يبارحونه ولما تصب رسالته من نفوسهم مكانا ، قام فأقبل عليهم ، باسطا نحوهم ذراعيه ، يهيب بهم ، ويستحثهم ويتوسل اليهم ان ينصروه فينصروا الله بنصره ، وان يثبتوا أقدامه بين الناس ، وان يظاهروا دعوته حتى يذيع في الآفاق دين الهدى والنور :

« قد أمرنى ربى ان أدعوكم اليه .. فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ، وان يكون أخى ووصيى ، وخليفتى فيكم ؟ » .

فلم يلب الدعوة منهم أحد ، وانتقل عنه ابو لهب جانبا وهو يسخر :

« تزعم ان قد بعثك الله وتطلب منا النصر ؟. الا كف عنا دينك وربك فانا لا نجيبك ! » .

هنا لم يعد في طاقة علي حبس لسانه وراء شفتيه وان كان احدث الحاضرين سنا واحمشهم ساقا ، فقام مسرعا صوب الرسول يمد اليه يديه ويهتف به .

« لا يحزنك والله اعنات القوم فعليهم ضلالتهم . واني انا يا رسول الله عونك .. انا حرب على من حاربت ! » .

والتفت في هذه الآنة الى ابي طالب من قال :

« يا أبا طالب الا ترى ابنك ؟ » .

فأجابه الرجل :

« دعوه . فقد عرفت انه لن يألو ابن عمه خيرا » .

ولكنهم رغم هذا راوا في حماس الفتى مادة جديدة للتندر والاستهزاء فقال احدهم ورجله على الباب :

« كفاك الغلام ، فطب به يا محمد ! » .

٣

في الأعوام القلائل التالية بمكة ، لم يجد في حياة علي الا ما جد في حياة الدعوة الاسلامية حتى ليمكن أن يؤرخ لاحداهما بتاريخ الاخرى فلا تكاد أن تختلف فيهما الأحداث . شهدها صبيا يهم ان يخلع عذار صباه فكان أول معتنقيها من الناس بعد خديجة . لم يتاخر عن سبقها الا بقدر ما ينتقل سر الرجل بعد امراته الى اقرب اهله ومحبيه . وصحبها فتى بادي العنفوان وقد اوشك ان يصير لها كيان معلوم بين الناس لما أذاع صاحبها امره . ثم سايرها شابا حديد الباس فذاق من عائبها كاس عنت دارت على أوائل المسلمين فجرعوها وان اختلفت أنصبتهم من صابها المرير . ولقد كان له في أبيه ردء يحد ايذاء قريش ويمسك اكفهم عنه وعن محمد وان لم يقف بهم دون صحبه وازع من اناس ولا من ضمير .. فما أسرع ما تبدلت مكة وانقلبت اتونا قاسى اللهيب على أولئك الذين كرسوا حياتهم لنشر الدين وحمل مشاعل

الهدى يستنير بها في احناء الجهالة كل عاقل بصير . وتوالت الايام عليهم تباعا لا ينقضي منها شديد حتى يخلفه أشد بالغ البـأس عصيب . ولكن الشدة لم تكن شرا بقدر ما كانت اختبارا للنفوس يمتحن الصبر وقوة العزم واليقين . وانها لقياس الاحتمال وبوتقة الرجال انصهر فيها أصحاب النبى ، وكانوا من قبل كقطع الحـديد المتناثرة ، فاذا بهم يصيرون ذوبا ائتلفت فيهم وتماسكت حتى أصبح لها كيان واحد .

***

وقدمت قريش رءوسها واعيان بيوتها حشدا مجيشة تناجز رسالة السماء لم يتقدم منهم واحد بحجة بالغة ولا واهية تؤيد بقاءه على جاهليته وان تقدموا جميعا بسلاح العاجز المغلوب في صراع العقول والقلوب ... تقدموا بالبذاءة والأكف والسيوف . يصارعون رجالا لا سلاح لهم سوى كلمة الله ويركبونهم بكل ايذاء ونكال ، وغدت مكة مسرحا للتعذيب . ضحاياه تلك الحفنة التى تألفت منها أولى كتائب الايمان . ولقد شهد على من هذا التعذيب مشاهد قف لها شعره واختلج جلده وسالت عيناه شئونا . وانه ليرى ببطحاء مكة حبشيا ألقى على رمضائها ساعة الظهيرة ويدعوه سيده امية بن خلف الى الشرك وقد ركز على صدره صخرة عظيمة يكاد ثقلها ان يذهب بالعبد في الارض ..

يقول السيد المغرور العاتى :

« لا والله يا بلال ... لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى كما نعبد » .

فيجاهد المعذب المكدود ليجيب على هذه الدعوة الخاسرة بكلمة واحدة هى رمز التوحيد :

« أحد .. أحد ! » .

فيطير هذا الاصرار صواب سيده ، ويدفعه الى الافتنان في التنكيل بعبده . ويشهد ذات يوم هذا الثبات ورقة بن نوفل ، فتأخذه روعة الايمان وقوته في قلب بلال فيقبل على ابن خلف يقول :

« احلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا » .

يمر على ذات يوم الى جوار رسول الله فاذا عمار بن ياسر بين

ابويه قد اتقد عليهم لفح الهاجرة واجتمع بنو مخزوم يلهبون ظهورهم بالسياط ولا يكفون عنهم او يفتنوا عن دين الله . ويلمح عمار النبى فتضيء عيناه ويرفع بصره الى محمد ويقول :

« يا رسول الله ! » .

فيسارع النبى اليه يشدد عزمه وهو لا يملك له غير الرثاء والحنان :

« صبرا أبا اليقظان » .

ولكن الرجل المتوسل يملأ بالحسرة قلبه الا يجد مخلصا لأمه سمية من جلاديها ، وقد نسى أمام محنتها ما يصيبه من عذاب ، فيعود الى المناجاة :

« يا رسول الله بلغ العذاب من أمى كل مبلغ . . . » .

وقد بلغ بها العذاب حقا أوجه وهى مستمسكة بدينها مستهينة بما تلقى في سبيل الله ، وليس لمحمد في حالها تلك سبيل سوى أن يرفع يديه الى السماء ويجأر الى ربه بالدعاء :

« اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بالنار . . . » .

فتطيب نفوسهم برثاء الرسول لهم وبدعائه ، وينسون النكال المصبوب على أجسادهم ما داموا قد افادوا طهر الأرواح ؛ وان العذاب لشهى ، والايذاء ليلقى منهم الترحيب ولا تنفرج الشفاه عن كلمة شرك وان امعن في التنكيل بهم هؤلاء الطغاة ، وان هدد ابو جهل أن يخترم المرأة برمحه امام الولد وأبيه ، وان أردف التهديد بالتنفيذ فألقاها على الرمال جثة شوهاء فارقتها الحياة . . .

يمر على بهؤلاء وبغيرهم كثيرين البسوا أدراع الحديد وحميت تحتهم النيران ، كصهيب وخباب وسواهما من المستضعفين من العبدان والاماء الذين لاذوا بمحمد ودين الحق الذى جاء به رحمة للناس من لدن ربه . يمر بهؤلاء جميعا ويشهد ما يلقون من ضيق على أيدى رجال من قريش لم يرعوا فيهم ضعفا ولم يعرفوا رحمة ، فيعصر عينيه أسى ، وتفيض نفسه هما ، ويمتلىء قلبه كمدا لأن محمدا يدع قريشا سادرة في بغيها ولا يوفيها عنها صاعا بصاع ؛ ويراود الفتى نفسه على الصبر ، ويملكها أن يخرج بها الغضب عما رسم النبى لدعوته من انتهاج السلم دون العدوان ، ثم يسير كاظما غيظه وهو يعلم أن الزمان لا بد سيأتيه بفرجة ينفذ بها الى الاقتصاص .

ثم لم يعد ثمة رداء لمحمد يقيه هو الآخر مما لقى على يدى قريش صحبه ...

يموت ابو طالب الرجل الذى وقف دائما في صف ابن اخيه يحميه من بغى قومه ويدفع عاديهم عنه .

ويقبل على يحمل النبأ . انه لم ينس مطلقا موقف أبيه ذلك اليوم حين كان بوسعه أن ينصر محمدا بلسانه فمنعه اخلاصه العميق لجاهليته العمياء أن يلفظ كلمة واحدة قد كانت كفيلة بتمهيد الطريق الشائكة تحت أقدام الرسول . لم ينس على ان اباه تخلف عن الايمان بمحمد وهو أولى الناس بالمسارعة الى هذا الايمان . ولئن كان ابوطالب قد ذاد الناس عن ابن أخيه . فلغير وجه الله ولغير دينه ، وانما لوشائج القربى وصلة الدم .

يقبل على وفي خاطره كل هذا فيلقى رسول الله ويفضى بالنبأ اليه بكلمات قصار ، صريحة ، لا مواربة فيها ولا مداجاة وان آذى بها اباه :

« يا رسول الله ، ان عمك الشيخ الضال قد مات » .

وكذلك وسع قريشا أن تسفر عن احقادها وضغائنها بعد أن خلا طريق الايذاء من الصخرة الكأداء ، وابيح لهم بعد موت الشيخ ما لم يكن يباح ، فانطلقوا يصبون من اعناتهم وطغيانهم على محمد جامات وجامات .

ولم يكن هذا لأنهم أنسوا من دينه زيغا عن الحق أو ميلا مع الهوى ، ولم يكن لأنهم لمسوا في خلق النبى مغمزا يغريهم به ، ولكن لأن الأهواء لعبت بنفوسهم الضعيفة فمالت بها الى عصبية الجاهلية قبل الغضب لدين الآباء .

كانوا يرون في محمد رجلا يهم أن يحمل اللواء بين قبائل العرب ، زعيما ، نافذ الكلمة مستطير السلطان حرى ان تذهب بظهوره ريحهم وتخبو عظمتهم فقاموا يناجزونه قبل ان يستفحل أمره ، ليحفظوا على انفسهم ما لها من مكانة في الناس ، وليحولوا بين احد بنى هاشم وبين الاستعلاء عليهم كما استعلى قبله ذووه ...

ذات يوم ذهب الأخنس بن شريق الى ابى سفيان بن حرب يقول :

« يا أبا حنظلة اسمعنى رايك ... » .

« فيم ؟ » .

« في الذى سمعت بالأمس من محمد » .

وكان الرجلان بالأمس قد جلسا مجلسا انصتا منه لرسول الله وهو يتلو بعض آى الكتاب .

واجاب أبو سفيان وهو لا يستطيع ان يخفى اعجابه .

« يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت اشياء اعرفها واعرف ما يراد بها ، وسمعت اشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها ... »

« وانا والذى حلفت به كذلك ... »

ثم يدعه الى زميل ثالث في الانصات هو الحكم بن هشام ، يسأله :

« وانت فقل يا أبا الحكم . ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ » .

فيلوى الرجل شفتيه استياء وموجدة ، ويأبى عليه حقده الا ان يقول :

« ماذا سمعت !... تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : اطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، واعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ... فمتى ندرك مثل هذه ؟... والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه » .

وهكذا كانت نظرة القوم الى الاسلام كفخرتهم أن تستعلى به اسرة على الجميع فحق أن يلقى الداعى اليه كل خذلان !... فاذا قيل شنآن قريش بما فيها من بطون وأفخاذ ، وقيل شنآن بنى مخزوم كما بدا من كلمات سيدها أبى جهل الحكم بن هشام ، فكيف يستطاع هذا الشنآن لأحد بنى عبد مناف من احد بنى عبد مناف ؟... ولكن أبا سفيان استطاعه على اى حال . ودعا اليه الناس وحضهم عليه ثم البهم عداة مناوئين مع المؤلبين الكثيرين من قريش ... ذلك لأنه كان من عبد شمس قبل عبد مناف فغفر لأبى جهل حسده اذ استجاب له ما في قلبه هو وقلوب آله . وبحسبه ان راى في سيد بنى مخزوم ظهيرا يعينه على ارواء حقده القديم بمناجزة سليل هاشم الكريم .

٤

... ماذا بقى بمكة بعد هـذا لعلى ؟.. اولئك الذين احبهم ملء فؤاده مضوا عنها . طوى القبر اباه فخلف دنياه ونأى بخيره وشره ، ولئن اخذ الفتى عليه استمساكه بضلالة الأوثان حتى توسد في لحده فانه لم ينس له مطلقا حق الوالد على ولده . ثم ان الأحداث ليست ببعيدة عنه وقد طالما راى في الشيخ درعا واقيا لمحمـد يرد عوادى الناس والزمان عنه ... ومضت خديجة ايضا ـ تلك السيدة التى عرفها دائما اما وقد تربى في حجـرها قبل أن تحتضن وليـدا من أولادها ؛ ولقد كانت نكبته بهـا نكبتان : رزء الربيب ، واسى الحبيب لأجل الحبيب ... اجل فلم يفته ان يلحظ كيف خط الألم في جبين محمد سـطوره بعد اذ سطا الموت على الزوج الفضـلى وغيبها عن ناظريه . لكأنما كانت لرسول الله كل عالمه وما ضمت بين رحابها آفاق دنياه ، حتى اذا ذهبت فرغ عليه الكون لولا مسكة من الصبر اودعها الله قلبه الكبير . وكان في هذا أفدح الألم لعلى كلما القى بصره على حبيبه المختار فطالعته في وجهه أطياف حزن عميق ، ليس يقوى على اخفائها تجلد واصطبار .

ثم ذهب ايضا جعفر وقد كان له أخا دم وأخا دين ... خرجا سويا من صلب أبى طالب ، ولكن الاسلام سبق النسب بالحب الى القلب . وان أولئـك الذين اشربت أرواحهم شرع محمـد لجديرون بأن تمتلىء قلوبهم بهذا الاعزاز الذى يحسـونه لاخوانهم في الاسلام ولا تكاد أن تبلغ مبلغه العواطف الناشئة عن صلات الأرحام ... كان ايمان فاطمة امه ـ في البدء ـ خير عزاء لعلى عن ضلال ابيه ، فلما ذهب جعفر ، ذات يوم ، الى رسول الله يبايعه على الاسلام ، وصل الفرح بعلى حد الفخر ، ولولا أن تلكأ بعدهما أخوهما عقيل ولم يسارع الى الهداية مثلهما لكان سرور ابن أبى طالب قد بلغ الشأو . ولكنه اليوم بمكة يقلب بصره فلا يقع على أبى طالب بعد ان اكتنفه التراب ، ولا يقع على خديجة وقد تقطعت بها من الحياة الأسباب ، ولا يقع على

جعفر وقد لاذ بالحبشة فرارا الى جوار الغريب من جور القريب .. اما عمه العباس ، واما عمه عبد العزى ابو لهب . واما ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فكل أولئك وسواهم من آل بيته لم تكن صلته بهم الآن لتعدل لحظة واحدة يقيمها بمكة بينهم بعد ان وصل العنت من بعضهم والتخاذل من البعض الآخر ، الى الحد الذى لم يترك لمحمد معدى عن الخروج بليل ، مخلفا وراءه بلدته ، هاجرا داره فرارا مما كاد ان يلحق به من ائتمار اصحاب الضلالة ، ليضرب في قفار الجزيرة نحو يثرب كى يلوذ فيها بمن صدقوا وآلوا امام ربهم على ان ينصروه .

اجل ، لم يبق لعلى بمكة مقام وقد نزح عنها رسول الله ، وتسلل اصحابه واحدا اثر واحد : منهم من سبقه ومنهم من تبعه . وراجع الفتى نفسه قبل أن يخرج هو الآخر ضاربا في الصحراء ، فلما ايقن أن قد نفذ ما أوصاه به محمد ، ورد للناس ودائع كانوا قد ائتمنوا عليها النبى ، قام يسعى على درب يثرب يسبقه اليها شوقه .

ولم يكن له مركب ولا ظهر ابل ، وانما سخر قدميه وامعن بهما في الرمال مستخفيا عن الاعين ، ولم يكن له في رحلته صاحب ، ولكنه تألف خواطره حتى لزمته ، ان أشرق الصبح توارى يتعبد أو جن الليل تفكر وتدبر فيما يقع تحت ناظريه من جلال خلق الله . ولقد ظل في رحلته تلك ليالى اربع عشرة وحيدا يسبح في بحر لجى من الرمال تحتــه ومن الأنجم والكواكب فوقه . ولعل هــذه الآونة كانت اكثر الآونات في حياته اثرا وابعدها غورا حتى طبعت نفسه بطابعها مدى ما عاشه بعدها من سنيه . وان الامام الذى صاره هذا الفتى فيما اقبل من الايام لهو حقا وليد تلك الليالى التى اكتنفتها الوحدة بدءا ونهاية : منبسط النفس كرقعة السماء ، جلد القلب والجنان ، حديد العزم كالسنان ، يعزف عن اللهو الى التأمل ، ويصــدف عن اللغو الى التصوف والتبتل . وهل كان لمن اخذ نفسه بهذه الرحلة ليشق مجاهل الصحراء وحده ويعانى من أخطارها كل شدة الا ان يصحب فكره فيجلو بالتأمل بصيرته ، ويروض صبره فيرهف بالصبر عزيمته ؟

❊ ❊ ❊

كذلك مضى على يركب البيــد ، وتنثال خواطره أمامه ، تسبقه وتؤلف له من نفسها قافلة شوقه حاديها .. تماما . ولو اســتطاع

ان يتخذ حنينه الى محمد ظهرا لقطع به وحدات الزمن جميعها في طرفة عين . ولكنه ، مع ذلك ، نعم بتذكر ما فات من لياليه مذ شب على يدى النبى حتى بدأ عنفوانه ... أفكانت آصرة الدين وحدها مثير هذا الحنين ؟.. ما كان على ليستطيع ان يدلى في هذا برأى قاطع لأن مدى ما يذكره من هذا الأمر انه لم يشعر مطلقا — مذ ولدته أمه — انه كان على غير دين محمد يوما واحدا من ايام عمره ؛ ولعل هذا لأنه عاشر الرجل من الطفولة فجذبه الى شخصيته الغلابة القاهرة جاذب سرى من الجنان الى الجنان قبل أن تسرى الى سمعه ترتيلة الايمان .

وكذلك نسى في رحلته لفح الهجير ولسع الزمهرير ، ومضى قدما صوب يثرب .. وطبيعى أن متاعب الطريق وما لقيه من صعاب لم تكن لتستطيع أن تلقى من نفسه حرفا من انتباهة وهو الذى لم يلق — قبل رحيله بثلاث ليال — بالا الى عصبة التفوا بداره ، في ايديهم الأسياف القواطع ، يحومون حول فراشه على مبعدة خطوات فلا يعصمه من بطشهم عاصم الا ايمانه .

***

الا ما اعزلها ليلة بين لياليه ، ما اعزلها ليلة تفضل كل لياليه !. ها هو ذا على فراش الرسول ، مسجى ببرده الأخضر حتى لا يستطيع أن يرى أتقدم القوم نحوه خطوات أم ما زال عن أسلحتهم بمنجاة . ولكن أصواتهم كانت تسرى دائما الى سمعه ، هامسة كأنها طنين نحل، تطوف به همهمتها مخافتة . وكان صافي الذهن حاضره ، صاحى العين لم يطف بعينه نوم ... اترى وجد في اليقظة متعة فراض نفسه على السهر ليشهد كيف تستقبل هذه الطغمة فشلها حين تتبين فرار محمد ؟ ... كان هذا بعض ما جال بذهنه ، واما بقيته فارتقاب طعنة الموت يتلقاها من سنان حانق . لن يسر القوم أن يلعب الفتى لعبته فيفقدهم صيدهم وهم على حافة النصر ، وليس بمستبعد اذن ان ياخذوا الفادى الحاضر بالمفتدى المهاجر .

ولعب على شفتيه طيف بسمة ، نصفها رضا ونصفها سخرية . ان الموت كان غاية المأمول من حياته لأنه الوسيلة الى حياة عقيدته ، وليكونن في مقتله لقريش والعرب قارعة أى قارعة ، لأن دماءه لن

تذهب لقى ، بل سـوف تدعو من بين قومه اناسا للثأر له انتصارا لحرمة الدم . ولئن كانت قريش قد أجمعت أمرها على قتل محمد ، فقد تذرعت لجرمها هذا بأن رسول الله شق عصاها وبذر بدعوته الجديدة في صفوفها الفرقة . اما ابن أبى طالب فلن تنهض لقريش حجة امام ذويه على قتلها اياه .

***

ولكن عنقه لم يمسسه السيف المأمول !...

كان القوم ، خارج الدار ، قد اخلدوا الى السكينة مطمئنين الى نجاح المؤامرة التى دبروها لاغتيال محمد . في اكفهم التمعت شفرات السيوف تحت اشراقة انجم الصحراء ، وانعكس بريقها على وجوه لم تخف البسمات الساخرة ما انطوى في قلوب أصحابها من احقاد . وكانوا جميعا كرجل واحد ارهاف حس وحضور ذهن ونفاذ عين . سبق الغل ابصارهم الى الباب حتى لا تفوتها النملة ان دبت آتية منه . هـذه ليلتهم حقا ، ساعتهم المرتجاة .. اللحظة الحاسمة في تاريخ الجزيرة التى عبثت بها مدى اجيال عبادة الأصنام : وكانوا هم مختارى قريش وممثلى اسرها جميعا لأداء رسالة هذه الأصنام !...

اجل قد اجتمعت فيهم كلمة قريش ، ولم تجتمع لها قبل اليـوم كلمة منذ اجيال .. هذه الأسرة الوثيقة القربى كانت محلولة العرى مفككة الأوصال حتى لطالما وقف منها البيت أمام البيت يحتكمون جميعا الى لسان السيف .. ولكنها الآن التأم منها ما تفرق ، واتحد فيها الأشراف والأوشاب ، واجتمعت على القدر قلوبها وايديها ، لتمزق محمدا قطعا بقـدر ما يمسك أولئك المتربصون به من قطع السلاح ، فاذا انت لحظتهم ، ضربوا ، وادوا عن آلهم حق الأصنام ، وذهب دم الرجل في القبائل كلها فلا يطيق ذووه أن يعادوا من أجله قريشا كافة .

ذلك كان اجماعهم وما حسبوه ومن وراءهم احكام تدبير . ولكنه اجماع مفضوض وتدبير خاسر ... ولن يلبث أن يتبين لهم بعد اعوام كم كانوا في ليلتهم تلك عمى القلوب والبصائر وان حدت منهم العيون والنواظر . فلم يكن محمد ليبغى ملكا ، ولا جاها ، ولا مالا . ولم يأتهم

ليسلبهم ما بأيديهم من تراث وانما ليمنحهم من لدن ربه تراثا تلتئم به أقطار الأرض كلها كعقد حول اجيادهم ، ثم يجتمع بهم مالم يحلموا به من ملك وجاه ومال . ولكن الضغن آفة الحكم . ولو كانوا قد استطاعوا أن يتجردوا من اضغانهم لحظة طوقوا داره لما اشرعوا في أيديهم رمحا الا من أجله وفي سبيل دعوته ، ولاجتمعوا حوله ولم يجتمعوا عليه . ولذكر الكثيرون منهم ان هذا الرجل ، الذى لموا شعثهم لمناهضته والقضاء عليه ، هو الشاب الذى جعلهم ذات يوم سالف يغمدون أسيافهم ويبقون ـ بفضل رأيه ـ على جمعهم أن يتمزق ويذهب بددا . ولعل فيهم الآن من يعرف لمحمد هذا الفضل المأثور ويعرف قصته . ورواها لغيره من الناس بعد أن رواها له غيره أوشهد فصولها بنفسه ... هذا حدث ليس تنساه الأذهان وما كان اختلاف الزمان بالذى ينسيه . وما من واحد في العرب الا يذكر كيف اختلفت قبائل مكة ، حين أعادت بناء الكعبة ، على أيها يحوز شرف وضع الحجر الأسود في مكانه حيث وضعه من قبل ابراهيم الخليل . ولقد بلغ اذ ذاك الخلاف أشده حتى أدنى القبائل من مهوى الحرب ، ولكن شابا واحدا حسم الأمر ، طلع عليهم في هذه الآونة العصيبة محياه الأصبح فطرد أمامه شيطان الشر واستطاع بكلمة واحدة نطقها وهو بعد في أولى مراحل الشباب أن يطفىء ما كادت أن تسعره حماقة الشيوخ . نشر أمامهم ثوبه ووضع الحجر عليه ودعا برءوس العشائر المختلفين أن يأخذ كل من الثوب بطرف ويرفعوه الى مستوى الكعبة ، فلما فعلوا وسد الحجر بيده موضعه فولى الخلاف وأغمدوا السيوف .

ولكنهم اليوم عمى القلوب والبصائر وان حدت منهم العيون والنواظر ، بل انهم ما لبثوا ان فقدوا ايضا حدة البصر وحضور الذهن حين اخترق محمد جمعهم ومر بالنطاق الذى ضربوه حول الدار . وكان على في مرقده ، واجف القلب اشفاقا على الرسول ، يرى بلحظ الخيال دون رأى اللحظة ، اليه يسرى ترتيل محمد ؛ اذ يسير مخلفا المكان ، خافت الرنين رافع اليقين : « وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

وحقت كلمة الله فلم يره منهم راء ولم يسمع خطوه سميع . واطمأن قلب علي وسكنت نفسه حين تلاشى رويدا رويدا جرس الآيات وراح في السكون . ثم أغرقت البسمة شفتيه ، ناطقة بفرحة قلبه لنجاة محمد ونفاذه من بين عدوه كسريان النسمة ، ترعاه عين الله وتظله رعايته ،

وتحوطه يد عنايته الالهيـــة وهى توجه خطوه خارج مكة ، صــوب الشمال ، الى يثرب .. ارض النصر !

***

تلك كانت أولى لحظات الفتى بالخلود ، شعر ساعتها بالسعادة كما لم يشعر بمثلها مطلقا قلب انسـان . ولم يكن هذا لنجاة محمد فحسب، لانها كانت في قلب على راسخة رسوخ اليقين وان شق عليه أن يرد الملمة من جزع طافت به وهو يرهف سمعه لخطو النبى اذ يسير مجتازا باب الدار وحلقة الثوار . ولم يكن من اجل انتقال الدعوة الاسلامية من بلدة شانئة جاحدة الى ارض طيبة صالحة للحياة والنماء فهو وطيد الايمان بالمستقبل المسطور لدين الله في لوحة القضاء ... لا لهذا أو ذاك غمر الفتى من سعادته ورضاه ما ملأ أجواء دنياه . ولكن لأنه رقد يرتقب أن يمس عنقه سيف تحركه يد حانق من القوم ويجهز عليه به ، لأن موته العاجل ها هنا فيه نصرة لدينه وعزة لنبيه وخدينه . لقد استخلص الفتى هذا بعد أن فكر وقدر وما كان ذوو قرباه من قريش ليغفروا لقاتليه قطرة دم تراق منه ، بل سيجتمعن على الثأر له : قاصيهم ودانيهم ، حاضرهم وغائبهم ؛ ولن يتخلف منهم عن تلبية نداء الدم عباد اصنام واتباع اسلام .

كذلك فكر علي وقدر فأصاب . ولم يكن مبالغا ، بل كان يستخلص النتائج بقياس حدثه على غيره من أحداث . فلقد تطلع بذاكرته الى يوم من الماضى قريب ، وقع فيه مثل ما رجا أن يقع له وان كانت المشابهة بين الواقعتين في أضيق نطاق ... كان ذلك حين ادلهم الخطب على النبى وصحبه واخذت قريش لا ترعى حرمة فتركب محمدا بالعنت آونة وبالايذاء آونات . فيذات امسية من ذلك العهد وقد مضى النهار الا اقله ، ومالت الشمس الى مرقدها في المغرب ، وجلس العلية كدأبهم يسمرون عند الكعبة ، بدا للقوم حمزة بن عبد المطلب ، فارعا مهيبا ، في خطوه اعتداد يكاد ان يجنح به الى حد الفخر ، قد زين قلنسوته بريشات تماوجت مع انسام الغروب ، وتمنطق بقوسه ، وتدلت من كتفه جعبة السهام لم يتكلم ، ولم يلق الى الجالسين بسلام ، ولم يطف بالكعبة كما اعتاد كلما عاد من رحلة صيد ، بل ارسلها نظرة عجلى

خلال القوم ، ثم ارتد . واوجسوا اذ رأوه ، فلأمر ما مشت غضبة الليث في عينيه وفارقه المعهود من بشره ... اما هو فقد تركهم يوجسون ويحدسون ما شاءوا ، واندفع كاندفاع السيل الى دار ابى جهل بعد أن افتقده في السامر فلم يقع عليه .

وضرب الباب فبرز اليه الرجل يتلقاه بالترحاب .

« أبو عمارة ؟ مرحبا وادخل ... »

فلم يهش ، ولم يدخل ، بل بادره يقول :

« تعدو على ابن اخى فتلطمه وانا بين الناس حى ! »

فأجفل العادى أمام غضبة خصمه وقال يتلمس المعذرة بأسلوب لين ناعم :

« ما كنت لأفعل يا أبا عمارة ، ولكنه عاب آلهتنا ، وسبها ... »

« وانا اعيبها ، واسبك ، وارد عليك لطمتك ! » .

وسبقت يده الكلمات فاذا حديدة قوسه ترتطم بجبهة ابى جهل في ضربة قاسية شجتها شجة منكرة يتفجر منها الدم . ووقفحمزة هنيهة يرقب فريسته ويتهيأ لها ، ولكنها كانت اذل من أن ترد عليه ضربته أو تنضح عن نفسها بمعابة لسان او بلفظ استهجان .

وشهد الجالسون الى جوار الكعبة تلك الأمسية حمزة يعود ثانية ، يسبقه اليهم غضبه ، ثم يقترب منهم حتى يصبح مشرفا على النطاق وعلى بقية الملأ القريبين ، فيرفع فيهم صوته ويقول :

« أيها الناس !... انى اخلع الآن رداء كفرى ، وانى على دين ابن اخى وانى لناصره بلسانى وسيفى ... الا فليتقين سفيههم غضبتى !.. »

اى ربح هذا الذى ربحه دين الله من وراء لطمة ، واى ربح ذاك الذى كان لا بد ان يربحه من وراء دم !.

***

ولكن أولئك الذين عصف الغضب بجوانحهم حين حسروا الغطاء فلم يروا محمدا تحته ، عرفوا كيف يملكون سورتهم عند حد ، فلم يفز الفتى بأمنيته — لم يقتل !... لم ترفرف روحه في الفضاء تدعو آل عبد المطلب وآل هاشم ومن تابع هؤلاء وأولئك الى الثأر له والانضواء

تحت لواء واحد قد كادوا أن يجتمعوا تحته تلبية لنداء الدم ... ولئن افلتت من على هذه الفرصة فلسوف تواتيه الأيام وشيكا بغيرها من فرص سانحات . ولن يلبث أولئك الذين تركوه ولم يضرجوا الفراش بدمه ان يندموا لانهم تلك الليلة ، ابقوا على حياته فأحيوا فيه شبح الموت الذى ظل يلاحقهم بعدها مدى أعوام وأعوام !...

٥

كان على منجل الموت الذى أخذ يلاحق رءوس قريش من اعداء دين الله فيقطفها قطفا ويخطفها خطفا .. تسقط تحت سيفه كالثمر وتتراكم عند قدميه في عدد المدر . وذاك الفتى الذى كان في صباه سباقا الى الدين أصبح اليوم — في فجر شبابه — سباقا الى ضرب الهام وشق الأجسام . وفي كلا ناحيتى شجاعته المعنوية والمادية كان المؤيد دائما برسول الله ، المقرب اليه ، المرموق منه بعين الحب والرعاية. لم تفت به فرصة واحدة مذ دخوله المدينة الا اجتباه الرسول دون سواه من قادة الاسلام فآثره بفخر يرفع من قدره فوق ارتفاع ، ويشرف به على جلة الصحابة والاتباع . لئن كان أبو بكر من نبى الله وزيره الصادق فان عليا كان منه الظل اللاصق ، لم ينأ عنه ، ولم يبعد الا كلما أرسله محمد ليكون له على أعدائه عينا او لرجاله طليعة . حتى في بدء ذلك الوقت ، الذى أخذ رسول الله يكون فيه ملكه الصغير ويربط بين المهاجرين والأنصار بالمدينة ، لم يفته أن يؤثر باخائه عليا دون الباقين .. آخى بين صحبه الخارجين من ديارهم معه وبين أصحاب البلدة الذين آووا ، فتخير ان يكون على أخاه في الدين . لم يؤاخ ابا بكر ، ولم يؤاخ عمر ، ولم يؤاخ حمزة اسده واسد الله ، ولكنه اصطفى لهذه الأخوة المعنوية بعد أخوة الدم فتاه الربيب فآثره على كل حبيب بعيد وقريب . ولا شك انها كانت من النبى لفتة كريمة لها في النفوس ما قد تثيره من ايحاء يكاد أن يفصح عن التقريب والاجتباء ، وكانت حياة على بعد هذا مناط الكثير من كريم اللفتات . حتى في ساعة الحرب ، والنفس البشرية مشغولة عن دنياها جميعا بلحظة

الطعان المنتظرة ، كان النبى حين سعى الى بدر بجيوش المسلمين ، يسير آونات الى جوار بعيره ويدعه مطية لابن عمه ليخفف عنه بعض مشقة الطريق ..

***

ولم يكن هذا وحده دليل التقدير الفرد الذى توج به محمد هامة صفيه ومجتباه ، بل كانت صفحات حياة الرسول كلها آيات متلاحقة من التقدير والتفضيل . طبيعى أن تعطفه صلات القربى اليه . ولكن ادنى الأقربين من آله لم يلقوا منه مثل ما لقى ابن أبى طالب ، صغيرا وكبيرا ، من صادق اعزاز ، كان في السلم يختصه بالرفقة حتى أصاب الفتى من ينبوع النبوة والحكمة ما شاء ، وكان في الحرب يقدمه لأنه خبر فيه صلابة العزم وصدق البلاء .. حتى اذا داخل نفسه الكريمة على رجاله خالج اشفاق ، سبق خوفه على فتاه خوفه على الجمع من الصحب والأعوان فود او جعله عن رماح الأعداء في حرز حصين ، ثم كان الحرص ، كلما تقدمت بالنبى السن ، يزيد على على الى ان بلغ أقصاه بعد استشهاد جعفر بن أبى طالب بمؤتة ، حتى لم يعد محمد بعدها يرسل صفيه في وجهة من وجوه القتال الا رفع يديه الى السماء يبتهل الى ربه أن يبقى له عليه ويقول :

« رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين » .

وكذلك عند صمت الموت ، واستواء الكافة من الناس على حافة اللحود لم يعدم محمد فضلا آخر في جعبة الايثار يختص به ربيبه المحبوب ويزيده به قربا الى النفوس والقلوب . وكان ذلك عند وفاة فاطمة ابنة أسد ، زوج أبى طالب وام على ، وأسبق نساء العالمين الى الاسلام بعد خديجة الطاهرة .. فاطمة الفضلى التى لم يسبقها في الدنيا الى اعتناق دين الله الا غلام ، وامرأة ، وثمانية رجال . تقدم الرسول فألبسها فوق كفنها قميصه ، ثم نزل الى القبر فسواه بيده الكريمة ، واضطجع الى جوارها فيه .. وعجب الناس لهذا الصنيع الذى لم يروا محمدا من قبل يوليه احداً من أقرب خاصته ومريديه فراحوا يسألونه :

« ما رأيناك صنعت ، يا رسول الله ، بأحد ما صنعت بهذه ؟ » .

فكان جوابه أن قال :

« انه لم يكن احد بعد ابى طالب ابر بى منها .. وانما البستها القميص لتكسى من حلل الجنة ، واضطجعت معها ليهون عليها ضغطة القبر » .

وكم من اموات المسلمين قبلها ضمتهم اللحود ووارى التراب اجسادهم فلم يفوزوا من نبيهم من هذا الصنيع بقليل ولا كثير . ولكنه اسدى لها في موتها ابلغ تعظيم ، واسدى بهذا لابنها في حياته اجل تكريم .

***

... وكانت بدر كلها نصرا هو فاتحة النصر المبين لراية الدين ، بل كانت المنفذ الذى اجتازه هواء الحياة الى رئة الاسلام . جازت محنتها الفئة القليلة فغلبت الفئة الكثيرة باذن الله . ولئن كان النصر سبقت انباؤه الى لوح القضاء طعان الأبطال ، فان عليا كان الأسبق يدا وسيفا الى اعناق الأعداء . لم يكن في المسلمين اسنهم ، ولا اشدهم ساعدا ولا أبعدهم صيتا في مجال الكفاح يوم خاض غمار هذه الواقعة البعيدة الأثر في تاريخ الانسان . ولم يكن قط مارس من الحرب ما مارست الكثرة من صحابة المسلمين ، اذ كان بعد بالدنيا حديث عهد ، لم يجاوز العشرين الا بقليل . ولكنه كاد أن ينفرد بجنان ثبت وقلب جلد لا يستطيع ان يطرقه خوف أو تطوف بساحته رهبة . ولم يكن فوق هذا وذاك كأولئك الشجعان الذين ينسون في معمعان المعركة كيانهم ، ويفنون فيها فناء يحجب عن ابصارهم سيرها ، وانما كان مرهف الحواس متمالك الجأش ، يقظا غاية اليقظة أمام كل صغيرة وكبيرة تبدو اثناء الصراع من مناجزيه حتى كأنما جسمه كان عيونا تنظر . وما من شك في انه لم ينفرد وحده بالصيال ولكن الثابت ثبات اليقين انه وحمزة عمه كانا فرسى رهان .. وكانا دائما سباقين الى رءوس الكفر واشياخ قريش الضالين يضربان الهام كأنما تخيرا ذلك اليوم ان يحفرا قبور الأصنام . أما حمزة فكانت له في المعركة غضبة الليث ودفعة السيل ، الرهبة دائما تسبق سيفه يتلوها الموت وان كان حماس الصراع يستغرق حواسه ويملك منه الزمام فيندفع كلسان النار بين الأعداء وهو لا يكاد ان يرى سوى فريسته التى آلى اصطيادها والاجهاز عليها . ولقد علم اعداء الاسلام في أسد الله هذه

الدفعة فاستغلوها في الكيد له ، ولم يكد يتكامل الحول حتى عرفوا كيف يثأرون لانفسهم منه ويكفون رقابهم حد سيفه بأن دفعوا اليه يوم احد عبدا حبشيا من عبيدهم تربص له حتى اذا رآه قد ران على عينيه غضبه ، وعبست أساريره ، وفنيت ذاته في حماس الصراع قفز اليه العبد بحربته فأراده ..

وأما على فقد تهيب الناس فيه صدق حمله وحد نصله ، فكانوا ان آثروا الثبات لا يملكون الا الوقوع صرعى تحت قدميه ، او فضلوا السلامة ادبروا يفرون او ارتدوا ينكصون بعدا منه ، ثم كان يبعثهم كربهم أحيانا على اصطناع الحيلة كيلا يعمل في اقفيتهم سلاحه فيكشفوا عن عوراتهم اذ علموه يربأ بناظريه ان يريا سوأة . وكانت يقظته لا تغادره لحظة مهما تأجج لهب الحرب ، بل يظل أبدا متمالك الأعصاب يتحرك كمن في نزهة فلا تفوته من صفوف مناجزيه اجمعين لفتة أو حركة وقد بقيت يقظته هذه الدرع الواقية والحصن الذى حال طوال حروبه بينه وبين اعدائه المتوالين ان ينالوا منه وان رصدوا له العيون والأرصاد وكتلوا بين يديه وخلفه حشدهم بالمرصاد .

❋ ❋ ❋

كانت بدر نصرا كلها للدين وللمسلمين رفع لواءه عاليا على ، وباء بالخذلان أئمة الكفر الذين أفلتوا من السيف والسنان . وهكذا ثبت الله قدم نبيه واعز امره ، وصدقت رؤيا عاتكة !.. أجل صدقت رؤيا عاتكة ابنة عبد المطلب وتحققت واقعا ملموسا تراه العيون . وان اولئك الذين سخروا منها أمس بدر لهم أشد الناس ايمانا بصدقها غب الوقعة . فلقد أصبحت مكة على غير ما تعودت ان تصبح .. فارقها كبرها ، واشرها ، وفخرها ، وهى تنظر الى فلول جيشها المهيض الجناح عائدة تجر الخزى في أعقاب هزيمة مرة . وتلفتت عيون السادة الذين تخلفوا بالبلدة عن المعركة الى الآيبين منها .. اين سيدهم الحكم بن هشام أبو جهل ؟.. اين أمية بن خلف ؟ اين عتبة بن ربيعة راس بنى عبد الدار وصاحب اللواء ؟ .. اين أخوه الوليد واين ابنه شيبة ؟.. اين كل اولئك وغيرهم ممن غادروا مكة بالامس دارعين مزهوين ، اقلهم املا كان لا يستطيع ان يكبح نفسه عن العودة من المعركة الا وراس محمد في كفه ؟.. كلهم راح لقى هناك على ثرى بدر ومن عليهم محمد بالمضجع وبئس المضجع !.. كلهم طواه

القليب تستوى فيه الأشراف والأوشاب ورنت في آذانهم — موتى — صرخة محمد وهو يناديهم من مثاويهم ويقول :

« يا أهل القليب ، بئس عشـيرة النبى كنتم لنبيكم ! كذبتمونى وصدقنى الناس ، واخرجتمونى وآوانى الناس . وقاتلتمونى ونصرنى الناس !.. هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فانى وجدت ما وعدنى ربى حقا ؟.. » .

ولكنهم سمعوا وما استطاعوا أن يقلبوا في التراب جنوبا . وخلفوا الدنيا التى غرهم فيها الجاه وغرتهم الـكثرة وكانوا يستعلون فيها ويسـتطيلون كبرا . وعاد الحثالة من اقوامهم الى دورهم وبقوا هم حبيسى الأرض .. عادت الحثالة من اقوامهم الى مكة توارى اساها وقد فرت دون مواراة قتلاها . وان في قلب كل رجل من قريش كلما حرام على عينيه بعده ان تنام ان لم تشهد ثأرها في محمد وصحبه . وان في كل بيت لنائحة بين اليتامى وبين الأيامى .. في كل بيت فلقة من الصخرة التى راتها عاتكة في رؤياها فلم يبق لهم بد من ان يصبحوا مصدقين وكانوا منها امس ساخرين .

كانت عاتكة قد نزعت ليلة بدر الى اخيها العباس تقول :

« يا أخى .. » .

فسارع نحوها وقد لمح على محياها الخوف :

« لبيك !. ما أفزعك ؟ » .

« انى رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى .. » .

« وما رأيت ؟ » .

« وانى اتخوف ان يدخل منهـا على قومك شر ، فاكتم عنى أحدثك » .

« أفعل » .

« رايت راكبا اقبـل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ باعلى صوته : الا انفروا يا آل غدر لمصارعكم !. فارى الناس اجتمعوا اليه .. ثم اخذ صخرة فارسلها فاقبلت تهوى ، حتى اذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار الا دخلتها منها فلقة » .

وسمع اخوها فتجهم ولكنه لم يكتم !. وسار نبا الرؤيا من لسان الى آذان حتى وصل أبا جهل فانطلق الى العباس ساخرا يقول :

« يا بنى عبد المطلب . أما رضيتم ان يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم » .

ومع هذا فقد صدقت رؤيا عاتكة يوم بدر . ويا ليت ابا جهل يستطيع الآن ان ينطق ليحدثنا بأثر صدقها فيه ، وفي ناصريه !.

ولكن ذهب الى الأرض كما ذهب الآخرون . وخلفه الأحياء من قومه لمصرعه ، كما خلفوا معه سادة سواه كانت دنيا قريش بأمرهم تدين ، وفروا ناجين بن أسياف حداد أعملت آونة في هام الكثيرين وآونة في أقفية الباقين حتى خلصوا بجلودهم مدحورين .

وكذلك كانت بدر نصرا كلها وان أفلتت الدائرة ابا سفيان بن حرب وغيره الذين من أجلهم نزحت حشود المسلمين الى ساحة القتال ... ولكن ابا سفيان لم يكن كل قريش ، ولم يكن خيرا من اولئك الذين حصدتهم رحى السيوف أو لم يكن شرا منهم !.. بل لقد خسر في المعركة زيادا ابنه أسيرا وحنظلة قتيلا لحق شرف مصرعه بسيف على كما لحق به شرف جز رقاب سواه من بنى عبد شمس واصهارهم من عبد الدار . وان الذى يأخذ نفسه باحصاء من جندلهم ابن ابى طالب في بدر ، ثم فيما تلاها من وقائع ، ليعجب أشد العجب ويتساءل أكانت المصادفة وحدها هى السبب في ان تكون كثرتهم من ذلك البيت الذى اشتهر بامتلاء قلوب آله بالحقد على هاشم وسلالته أم ترى كان ينتقى عامدا غرماءه من بينهم ثم يعمل في رقابهم نصاله !. كان عجيبا حقا غاية العجب أن يتفق له في بدر قتل حنظلة بن ابى سفيان والعاص بن سعيد بن العاص بن امية ، والوليد بن عتبة صهرهم اخا هند زوج ابى سفيان . ثم عقبة بن ابى معيط والد الوليد اخى عثمان لأمه والذى بفرع عبد شمس تربى ... ثم بعدهم غيرهم من احلافهم ومن لاذ بهم بنسب او بسبب .

وكانما كان هذا الفتى منجل الموت المسنون الذى ارهفه على رقاب اولاء ولعلهم ندموا لانهم ليلة الهجرة خلوا بين على وبين الحباة ولم يقتلوه في فراش الرسول ولكنه ندم ليس بنافعهم اليوم فتيلا ولا بدافع عنهم ضره في كلا جاهليتهم واسلامهم لانهم رضعوا من ثدى أمهاتهم مقته ومقت آله صغارا فاصطفوا يناجزونه كبارا ، ولم يتحروا — اذا فعلوا — ان يكونوا له المناجزين الاكفاء .

٦

انجلى النقع ، وانجابت الغبرة ، وعادت قريش وفي عيونها دموع وفي قلوبها صدوع . وعاد علي في صحبة النبى يتوثب فرحا ، لا يبالى ان انضمت جوانح بنى امية على ضغن جديد يجتمع الى ذخيرة أضغانها على بنى هاشم . ما كان الفتى ليبالى شيئا اليوم ما دامت بدر قد أفاءت عليه من خيرها ما يبلغه الوطر من امانى حياته ... لقد طالما سخر من النشب ولم يعرف قيمة للمال الا أن يرد به جوع جوعان او عرى عريان . لم يتخذ لنفسه منه ذخرا ، ولم يجمعه ، ولم يبق مطلقا على درهم جاءه في صباح الى يوم تال . بل كانت كفه كالمصفاة أسبق الى البذل والعطاء منها الى الحفظ والابقاء . بلغت ثروته ذات يوم اربعة دراهم فكره من أجلها نفسه ، وسعى سعيه بالليل والنهار حتى انفقها على ذوى حاجات فجاءه جزاء هذا الاحسان من عند الله آية كريمة نزلت فيه وخلدت صنيعه وسماحة كف هى أحوج الى السماحة من أن تكون مسماحة :

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار . سرا وعلانية ... »

كان يحرم دائما نفسه من كسب يده التى ورثت الجود عن أجواد ... عمل مذ دخل المدينة في زراعة يهود حتى يقى نفسه « ضيافة » الأنصار ، فكان يسقى هذه الزراعة حتى تمجل يداه ، حتى اذا انتهى النهار ونقدوه أجره دفعه او دفع أكثره الى سائل أو محروم ثم لا يأبه ان كان يبيت هو على الطوى . لم يستهوه مطلقا بهرج الصبا ولا زهو الشباب بل عاش فيهما كعابد في محراب . وكان قوته دائما الخبز الجاف ، واحيانا البر ، وغطاؤه الوبر وثوبه مرقعة قصيرة من ليف واهاب ، لأن غايته من دنياه ركوب نفسه بالاذلال والحرمان لتخلص له نقية بلا شائبة .

ولكنه اليوم ، وقد عاد من بدر ، أحس بالسعادة اذ أفاء الله عليه بعض مغنم . ولم تكن سعادته بالاقتناء لذات الاقتناء ، بل لأنه

الوسيلة الى بلوغ مقصده . انه يستطيع الآن ، وقد ملك شيئا ذا بال ، أن يتقدم الى رسول الله متحدثا اليه في شأن كتمه عنه طويلا في ذات نفسه . كم طالما هفت روحه وقد بلغ مبالغ الرجال ، الى ان تكون له أسرة ويسكن الى زوج . وتلك الأعوام ، التى انقضت مذ تفتحت عيناه في هذه الحياة ووعى ما يراه ، علمته الا يستوعب ذهنه أو تتطلع عينه لغير صورة واحدة من بنات حواء ... صورة واحدة منهن، حملها وليدة ، ولاعبها طفلة ، واكن لها صبية بعض ما كان يكن لابيها العظيم من خالص الحب والولاء .

انه يستطيع الآن أن يتحدث الى رسول الله بما ملأ عليه آفاق التفكير ، ولكنه ما لبث وقد أشرف على باب محمد ، أن أخذته الرهبة ولعب بخطوه التردد ... كيف نسى أن ابا بكر — وله في قلب النبى ما له من مكانة — جاء رسول الله يطلب منه فاطمة فلم يفز منه بغير ان أجاب : « انتظر بها القضاء ! » وكيف نسى أن عمر بن الخطاب تقدم بعد الصديق الى الرسول يطلب فاطمة لنفسه عساه ان يفوز بخير مما أصابه صاحبه فلم يسمع هو أيضا الا نفس الجواب : «انتظر بها القضاء » ... ؟ أفابى على محمد لين طبعه وترفقه بصاحبيه الا أن يجيبهما بمثل كلماته القصار التى توحى بصريح الرد والاباء وان غلف اللفظ الناعم الجواب الحاسم ؟... وما عسى سوف يلقى على من ترفق النبى ؟ ... ان ثقة الفتى بنفسه لم تخنه أبدا . ولم تقعد به ، حتى في أهول المواقف واكثرها شدة لم تخنه . وانه ليعلم قربه من قلب محمد قربا يتقدم به سواه من الأقران والرفاق . ولكنه في هذه اللحظة تردد ونكص على عقبيه بعد أن كاد يمضى قدما ، وولى ظهره للباب قبل أن يجتازه وفي خاطره أن الفرصة لعلها غير مواتية الآن ، وان جواب النبى لصاحبيه قد يتكرر ... ثم سار ، حائر الفكر ، موزع القلب بين احجام واقدام ، يذرع الأرض في خطو متمهل وئيد .

ولقيه بعد هنيهة صاحب انكر منه ما بدا على وجهه من سهوم بعد تطلق وبشر ، فأقبل عليه متسائلا يقول :

« ما بدا لك يا بن أبى طالب ؟ »

فتريث قليلا قبل ان يجيب :

« خاطر بشر ، وخاطر نفر ! »

فضحك صاحبه وقال يداعبه :

« هلا تطلقت ، بالله فاني أراك قد أسهم لك ... ؟ »

« فيئى هذه الدرع » .

« ولا تراها كفاء ؟ » .

« حتى تثبن غزوة » .

« او خطبة ! » .

ورمقه صاحبه يستنبىء مدى اثر الكلمة فيه فقد كان يعلم بأى الامور هو مشغول . وصمت على يتطلع كالمتوجس ولا يجيب ، أما الآخر فقد عاود ما كان فيه من حديث :

« فهلم يا بن أبى طالب فانها كفاء ... وانطلق » .

« لاين ويحك ! » .

« الى رسول الله تذكر عنده الزهراء ! » .

فغض الطرف ، وهمس :

« أيها عنك ! » .

« فهلم ! »

« بعد أبى بكر . وبعد عمر ؟ » .

« نعم . فان لك عليهما ـ والله ـ لسابقة » .

وتزيث ليسمع منه فلما وجده ممعنا في صمته ، يبدو تردده على محياه ، عاد يستحثه ويقول :

« لأنت أول الناس اسلاما ، واقربهم من رسول الله رحما : ولد عم ، وابن ضم ، واخو دم . فاى الرجلين في هذا يعدل مكانك ؟ » .

* * *

لم يكن هذا الراى على ذهن على بجديد . انه عالم به ، مؤمن اشد الايمان بمعناه ، واثق تمام الوثوق من المنزل الذى يحتله الآن بقلب راعيه .

بل لقد استطاع ان يعرف طوال عشرته لمحمد انه كان دائما منه خيرا مما قاله الناس عنه . ولكنه في هذه اللحظة بدا له راى صاحبه بكرا لم تنفرج عنه قبل اليوم شفتان ، وبدا قبسا من نور بدد غياهب التردد . فما لبث أن انطلق لتوه ، يسرع الخطا ، منصبا كالسيل ،

متقلعا في مشيته على نحو ما اعتاد ان يفعل دائما ، متشبها بمشية نبيـــه .

ولم يطل به المقام في حضرة الرسول الا بقدر أن تمالك جاشـــه ووسعه ان يمسك اضطراب نفسه .

قال له محمد باسما ، يستفسر :

« ما حاجة ابن أبى طالب ؟ » .

فغالب حياءه برهة ، ثم أجاب :

« ذكرت فاطمة يا رسول الله » .

« مرحبا واهلا » .

* * *

بهذا اليسر تمت خطبة على . وبمثله وبأيسر منه تم زواجه الذى كان أغلى أمنيات الحياة عنده ، بعد أن لقى لدى فاطمة قبولا . وحمل الشاب درعه التى أفاءتها عليه بدر فباعها بســـوق المدينة بدراهم دفعها الى رسول الله مهر ابنته . وأرسل النبى بلالا فاشترى طيبا بجانب من الصداق ، وارسل أم سلمة فاشترت بعض حوائج العروس .

واجتمع في دار النبى ، ليلة الزفاف ، أهله ، والكثرة من صحبه المهاجرين والأنصار ، يحتفلون ، فقام رسول الله فيهم يخطبهم بما اقتضاه المقام .

وقال في ختام حديثه :

« ان الله تعالى امرنى ان ازوج فاطمة من على . واشهدكم انى زوجت فاطمة من على ، على أربعمائة متقال فضة ، ان رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ... »

وانتهى بهذه الكلمات أمر العقد ، وشهد الحضور واقبلوا على العروس مهنئين ، وكان حلواء الحفل بعض التمر أتى به النبى في وعاء فقدمه اليهم وهو يقول :

« تخاطفوا » .

فتخاطفوا . وانفض السامر .

وبقى ان يعرس على بأهله فلم يجد الا منزلا مستاخرا بالمدينة عن منزل رسول الله ، فاتخذه دارا لأسرته الجديدة .وكانت فرحة

العمر تملأ قلبه تلك الليلة وهو جالس ينتظر بين هنيهة واخرى ان يحضر النبي فيبارك له ولزوجه . وكانت فاطمة يطويها الاستحياء وأم ايمن الى جوارها تخفف بحديثها من بعض هيبتها حين دقت الباب يد رفيقة .

وانفلتت ام ايمن من مجلسها تفتح ، ثم ما لبثت أن سمعها الزوجان تهتف بصوت فياض بالبشر :

« رسول الله ! » .

قال لها النبي يسألها :

« اثم اخي ؟ »

وملكت الدهشة نفس المرأة :

« بأبي انت وامي يا رسول الله !... فمن اخوك ؟ »

« علي بن ابي طالب »

« وكيف يكون اخاك وقد زوجته ابنتك ؟ » .

« هو ذلك يا ام ايمن » .

ودخل فنهض له الزوجان اجلالا وترحيبا . ودعا هو بماء في اناء فتوضأ فيه ، ثم نادى عليا فجلس الشاب متهيبا بين يديه . ونادى فاطمة فأقبلت بغير خمار تتعثر في ثوبها من الحياء . وراح رسول الله يأخذ من الماء فينضح به على الفتى آونة وعلى الفتاة اخرى وهو لا يني يرفع صوته بالدعاء الى الله :

« اللهم بارك فيهما .. وبارك عليهما .. وبارك لهما في نسلهما .. » .

ولما غادر المكان وهم أن يجتاز الباب الى الخارج ، كان حنان الاب وعطفه وشدة تعلقه بفتاته المحبوبة ، وحرصه على اسعادها غاية الحرص ، تتجمع كلها في رقة نظراته وهو يلتفت اليها اذ يودعها ويقول :

« والله ما الوت أن زوجتك خير أهلي ... »

ثم ترك بينهما الوفاق والوفاء وبركة الدعاء ...

٧

لم يطل مقام فاطمة بهذا الزواج بعيدا عن ابيها ، لانه لم يطق صبرا على ان يفصلها عن بيته اكثر من جدار ... فلم يكن يمضى قليل حتى سار به حبه اليها ...

قال لها :

« انى اريد ان احولك الى ... »

فتفكرت هى هنيهة عسى ان تذكر حلا يرضى رغبة هـذا القلب الرءوف الرحيم ، ويرضى شغف قلبها هى الأخرى بأن تكون دائما الى جواره الكريم . ان هناك اذن بيت حارثة لا يكاد يفصله عن دار رسول الله شىء ، فلو انه حدثه ...

وقالت له وهى تكاد تتهيب الكلام :

« فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى ... »

ذلك انها كانت تعلم ان هذا على أبيها شـديد لفرط ما افسح حارثة في بيوته لرسول الله . ولقد جاءها رد النبى مصـداق ظنها حين قال :

« قد تحول حارثة عنا حتى قد استحييت منه !... »

ومع ذلك فقد شاء الله ان يحقق لنبيه هذه الرغبة الصغيرة . فما اصبح صباح حتى تحـول حارثة عن الدار المرموقة وجاء يقول لرسول الله :

« يا رسول الله ، انه بلغنى انك تحول فاطمة اليك ، وهذه منازلى وهى اسقب بيوت بنى النجار بك ، وانما انا ومالى لله ولرسوله ... والله يا رسول الله المال الذى تأخذ منى احب الىّ من الذى تدع » .

وكذلك تحولت فاطمة الى ما شاء لها قلب ابيها وما شاء لها قلبها من قرب الدار ، واقامت وزوجها في بيتهما الجديد بخير جوار .

ولم تكن حجرتها تلك تتصل بسبب من اسباب الشبه بما نعرف عن بيوت اليوم ، وانما كانت تلائم ما اشتهر عن فقر على وفقر زوجه . لا تكاد ان تقع فيها العين الا على جلد كبش هو فراش الزوجين بالليل ، ومذود العلف لبعيرهما في النهار .

ولكنها ــ مع ذلك ــ كانت في عينيهما القصر المنيف الذاهب الصمد

في اجواز الفضـــاء ... فالبيوت دائما بسـاكنيها لا بصـنوف الاثاث والرياش فيها . فقد اجتمع لفاطمة في على كل ما ضم افق تفكيرها عن الرجل الأمثل ، وكان أمثل الرجال لديها محمـــد ، وكان على اقرب الناس اجمعين شبها به في الاقوال والافعال .

وكانت هى من قبل دائمة الكآبة ، كثيرة الهموم ، بالغة الصمت مذ ماتت امهـا وتركتها تضطلع وحدها — في بكور صـبـاها — بشئون ابيها ، وتقوم عنده مقام الزوج رعاية ، ومقام الأم عطفا ، ومقام الابنة تفانيا ومحبة . ولقد صحبته خلال اشد ايام الدعوة واقسـاها محنة عليه ، وشهدت عن كثب ايذاء قريش له ، وعبثها به فكان قلبها — الى جانب سيله حسرات على امها الفقيدة — يسيل حنانا وحزنا من اجل هذا الوالد المضطهد الكريم ، وكانت عينها لا يكاد ان يرقأ دمعها وهى تراه يقف من اعدائه موقف الداعية المسالم فيقفون هم منه مواقف العدوان الصارخ الظالم . ولا تملك هى أن تدفع عنه الشدة أو البلاء الا ان تغسل له ثوبا رماه سفهاؤهم بالادران ، او تنفض عن وجهه ترابا حثوه به ، أو تمسح جرحا سـالت دماؤه منه ... ثم هاهى اليوم قد ضمها بيت على ، رجل ساير أيام الدعوة جميعا ، وكان لهذا الوالد الحبيب خير دافع عنه بسيفه وبنفسه ، وخير ناهل منه ما جاء به قومه من هدى ومعرفة ، وخير مترسم خطاه في كل صغيرة وكبيرة من افعال حياته لانه شب له ربيبا آواه ظله ... حتى بعد الزواج ، لم يأل على جهدا ليكون الصورة الصادقة لمحمد . كان هذا — بلا ريب — بدافع من الحب لفاطمة والاشفاق عليها والرحمة لحزنها الذى أصبح من كيانها جزءا ثابتا فوق رغبته الصادقة في احتذاء آثار النبى . فقد سرى أثر الحزن من نفسها الى جسمها حتى أضحت هشة واهية الاحتمال حتى لم يجد مندوحة عن بذل كل ما في طاقته ليخفف عنها ما هو أحرى بالمرأة أن تقوم به من شئون منزلها . لم يدعها مطلقا تؤدى عنه عملا يستطيعه ، بل كان دائما يسبق يدها اليه . ولم تكن لهما في بيتهـا خادم تعمل عنهمـا ، فكان هو يقوم بأمور نفســه . فيخيط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويهيىء من شأنه كما يشاء . فاذا اقبلت هى على عملها سارع يساعدها فيحلب عنها ، أو ينزع الماء من البئر ويحمله لها ، أو يشاركها فيما تقوم به من مهن البيت : وله في رسول الله الاسوة الحسنة

اذ عرفه دائمـا في مهنة اهله حين وجـوده في بيته حتى يخـرج الى الصلاة ...

على هذه الشاكلة مضت الحياة بفاطمة رتيبة وئيدة في بيت على ، لا تكاد تحس انها فارقت دار رسول الله ما دامت قد توفر لها في بيتها الجديد كل ما كان لها من قبل ، وما دام رسول الله لم يتخلف عن زيارتها خلال ساعات ليل أو أثناء نهار . بل عساها أحست أن بعض اعبائها النفسية قد انجاب عنها بهذه البشاشة التى تطلق بها محيا زوجها أبدا حتى أعداها بشره ، وبهذا الحب الدافق الذى غمرها به حتى كادت تنسى في غماره ما كان من حزنها القديم . وأخذت الراحة تنشر لواءها عليها رويدا رويدا ، والسعادة تظل دارها الصغيرة فتحيلها جنة مليئة بالهناءة أو تكاد .

ولكن سحابة قاتمة ما لبثت أن حلقت فوق الدار وكدرت الصفو الى حين . فلقد تهامس الناس فيما بينهم عن خطبة جديدة وعن زواج جديد يهم ان يقبل ابن أبى طالب عليه ، ولئن دل هذا الحادث على شيء فدلالته واضحة على مدى سعى الناس الى على يخطبون وده ويلتمسون فيه لبناتهم زوجا حتى ليمشون هم اليه ؛ والعرف يقضى بأن يمشى اليهم الزوج . ودل أيضا دلالته التى لا تقبل الشك على اعظام رسول الله لأمر زهرائه وارتفاعه بها عن مستوى كافة النساء في وقت كان تعدد الزوجات سنة جارية بين الأعراب ...

وقف النبى على منبره ، وقد تكاثرت في الناس الشائعات ، فقال وهو لا يحاول ان يدفع عنه غضبه :

« ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى في ان ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب . فلا آذن ، ثم لا آذن ... الا ان يريد على بن أبى طالب ان يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فانها بضعة منى ، يريبنى ما رابها . ويؤذينى ما آذاها ... »

وما كان على بالذى يعدل بفاطمة غيرها وان كانت سليلة الأكاسرة او القياصرة في النساء ... وعادت السعادة ثانية ازهى لونا الى الدار .

***

ولكن الأمر الذي اخذ عليه مسالك تفكيره منذ الزواج ، وظل يقض عليه مضجعه دائما هو ذلك النحول والضعف والتهافت الذى كانت تقاسيه فاطمة من الصغر ويدعها لا تقوى معه على احتمال . ولقد بلغ بعلي القلق عليها غايتــه يوم جاءته تخبره على استحياء ان في بطنهــا جنينا اخذت تسير في اوصاله الحياة . انه ليلمح على محياها اطياف الفرحة التى تخالج الأم ولكنه يشعر فى قرارته بصدى فرحتها قلقا على مصيرها . ان الامومة لتلهم السعادة كل فتاة ولتحيل حياتها كلها املا معسولا في انتظار الوليد ، وان الأبوة لمنتهى رجاء العربى . ولكن هذا الشاب كان يخشى غاية الخشية أن تنوء زوجه بالحمل ولا يقوى جسدها الواهن على احتمال ثقله وبرحاء الوضع . فلما تصرمت الأيام وانتهت المدة ، وجاءت الآونة المرتقبة ثم وضعت فاطمة حملها في سلام لم تكن فرحة على الا بنجاة زوجه لا بمجيء الغلام ...

وضعت فاطمة وليدها الاول . واولئك الذين شــاهدوا طلعته توسموا فيه محيا جده الكريم ، لأن صورة النبى اسبق الصــور الى اخيلتهم من سواها . وكان الوليد هكذا حقا ، وان كان أيضا يكاد ان يطابق امه شبها لأنها كانت من أبيها صورة ناطقة القسمات والملامح في اجلى بيان .

واقبل على يحتمل الطفل فرحا اذ صار به لرسول الله ذرية منه يتيه بفخر نسبها اليه على كافة الناس . وراح كغيره من الآباء يجيل بذهنه أجمل الأسماء لينتقى خيرها للوليد ، ولكن ما فيه من طبيعة الكفاح غلب عليه والناس دائما الى طبائعهم اميل ... عجم على جعبة الأسماء فلم يدع الغلام باسمه هو ولا باسم ابيه ، ولا باسم جده لأبيه وان كان خير الأسماء ، وانما دعاه بما هو اميل اليه في هذه الدنيا دون كافة الاسماء .. اختار ان يكون له « حرب » علما عليه لأن الحرب كانت صناعة ابيه بالسيف واللسان ، كما شاء القدر وشاءت له قبل سنوح فرصها ميول الوجدان ...

ولكن هذه التسمية كانت رغبة لم يتح لها مطلقا ان تتحقق ، فقد اقبل النبى مسرعا حين بلغه النبأ السار ليمتع ناظريه بطلعة سبطه ، وليهبه من لدنه البركة والدعوات الصالحات .

وقال ولما يستقر به المقام :

« اروني ابني ... »

فدفعوه اليه يحتمله بين يديه ، ويقرب فمه من اذنه الصغيرة يهمس فيها اذان الاسلام ، ثم يلتفت ثانية ويسال :

« ما سميتموه ؟ »

قال علي :

« سميته حربا »

« بل هو حسن »

فكان كما قال رسول الله .

***

ثم عاودت الخشية ثانية عليا وهو ينظر فيرى زوجه مقبلة على وضع جديد . انها هذه المرة أهش قواما واضعف عودا بعد ما بذلت من نفسها وقوتها في سبيل تربية صغيرها والقيام على شانه . ولقد بلغ من وهنها أن الجنين في بطنها لم يتم شهوره وخرج الى النور بعد ستة شهور .

وكما ود علي في البدء فقد ود لو كان اسم ثاني وليديه « حربا » لولا ان اختار له رسول الله اسم « حسين » ..

***

واصبحت الحجرة الصغيرة اجل عند ساكنيها من قصر منيف رفيع الذرا والعماد بعد قدوم هذا الرفيق الصغير . واصبح علي اكثر بشاشة واضحك سنا . وعرفت البسمات أخيرا طريقها الى ثغر فاطمة فلم تعد تضل عنه بعد أن وهبها الله زينة الحياة .

ولكن الله ، بهذين الصغيرين ، لم يهب الزوجين وحدهما العقب الصالح ، بل وهب الدنيا كلها نسمة عاطرة ونفحة طيبة من ريح النبوة الزكية . وقدم في شخصيهما للأجيال المقبلة ، حتى زوال الأرض وانفطار السماء ، ذرية رسول الله . الذي اقتضت حكمة ربه الا تكون له من صلبه سلالة ، فشرف عليا بأن جعل من صلبه هو سلالة النبي الكريم ، فاضاف بهذا الشرف الى ابن أبي طالب مجدا جديدا في سلسلة امجاده ومفاخره التي اختص بها وحده دون الناس اجمعين : من ناصرين ومن شانئين ...

٨

في « احد » قاد ابو سفيان الرجال واحقاد الرجال ، وقادت زوجه هند النساء واحقاد النساء !.

كان الرجل ، طوال ما فات بعد «بدر» من أيام تجاوز العام ، لايجد له شاغلا في الحياة بمكة الا التجهز بالمال والعتاد ليوم القصاص هذا ، فرصد تجارة عظيمة ــ اشترك فيها أهل بلدته أجمعين ــ على النيل من محمد بالحرب والقتال ليردوا عليه ما ناله منهم . ثم اخذ نفسه بانماء احقاد القلوب واضغان النفوس ما وسعه الأمر حتى لقد جعلها تكتم في قرارتها التفجع والحزن على قتلاها ولا تفضي به ، فحرم على الرجال الحداد ، وعلى النساء والأطفال البكاء الى يوم يحين لهم فيه الثأر من واتريهم ، يحق فيه الندب والبكاء ، وتطيب فيه الفرحة بالقصاص من الأعداء ..

واقبل الرجل ، وقد اصطفت حشود قريش في الميدان ، على حملة اللواء من بني عبد الدار ، يثير حميتهم فيقول :

« يا بني عبد الدار انكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فاصابنا ما قد رأيتم ، وانما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، اذا زالت زالوا . . . »

فسأله طلحة بن ابي طلحة :

« وما ترى يا ابا حنظلة ؟ »

«أرى اما أن تكفونا لواءنا،واما ان تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه».

فثارت لهذه نخوة طلحة ، وثارت معه نخوة آله من بني عبد الدار فاستمسكوا باللواء وهم يقسمون ليرفعنه عزيزا حتى ينتهي قتالهم بالنصر .

ولكنها كانت نخوة كلفتهم غاليا ، واقتضتهم تسعة رءوس من اكابرهم ضريبة للحرب دفعوها ولما يبرحوا اماكنهم من الميدان ، وكان على وحده مقتضيهم راسين !..

... برز طلحة من بين صفوف قومه ، مدلا بالبطولة والفروسية يدعو نظائره من رجال المسلمين الى المبارزة فاسرع اليه ابن ابي طالب

مستجيبا لدعوته في غير ما صلف ولا كبرياء ، وما هى الا لمعة السيف في ضوء الشمس حتى لقى ذلك المدل المعتز رجفة الموت الناقع على يد الشاب الحيى المتواضع .

ثم برز من بعد عثمان بن أبى طلحة يلقف الراية التى تفلتت من بين أصابع اخيه المجندل الصريع . فما هم حتى بطشت به كف القسورة حمزة . ولما آن لثالث الاخوة من بنى عبد الدار وقت حينه وحان اجله ، رماه قدره هو الآخر فريسة سهلة المنال في يد على فأصماه ولما يكد ، لأن حرص ابن عبد الدار على بقية انفاس الحياة التى كانت تتردد فيه ، جعله يفر بجرحه المميت من وجه مصميه ، متخذا من عورته درعا يكف عليا عنه ويقف به دون الاجهاز عليه ..

***

وأقبلت نسوة قريش وراء الجيش ، يضربن الدفوف وقد قادتهن هند رافعة الصوت بالصياح عساها تثير الحمية في صدور الرجال بما تضفيه عليهم في غنائها من مديح وآيات فخار :

ويها بنى عبد الدار !
ويها .. حماة الأدبار !
ضربا بكل بتار ... !

ولكن الرجال ادبروا وأدبرت معهم النساء !.. وكادت الدائرة أن تدور عليهم اجمعين فتنتهى المعركة بالنصر المبين للمسلمين لولا أن رماة هؤلاء زايلوا اماكنهم التى ارصدهم فيها رسول الله ، وخالفوا امره واندفعوا وراء رجال قريش المدحورين ليصيبوا من الغنم . فانتهز عدوهم منهم هذه الثلمة ؛ وكرت خيله من الخلف على جيش المسلمين تضربهم وتشيع المقتلة فيهم .

وانتكس الأمر على رجال النبى واختلطوا بمناجزيهم أشد اختلاط واكرهه حتى ما يدرى الرجل منهم اكان يقتل اخاه اذ يرمى أم يصيب من عدوه نحره . وتفشت في الرجال روح الهزيمة فغلبتهم رهبة الموقف ، وحاولوا أن يقوا انفسهم مصارعها فنكصوا ، وارتدوا قليلا قليلا — امام ضغط قريش — على اعقابهم مولين ، هم الذين لم يعرفوا ، قبل يومهم هذا . كيف يكون النكوص ويكون الفرار .. وحادوا

عن مواقفهم واحدا اثر واحد . وتكشفوا عن نبيهم وهم لا يشعرون وتركوه هدفا لنبال الكفار .. ثم اخذتهم رجفة الرعب فأحالتهم احجارا لا تعي حين سرى الى صفوفهم من بين حشود مناوئيهم لغط يفشو كانه النار ان محمدا قتل !.. قتل محمد ؟.. ما لهم بعد هذا موقف ولا ثبات . وليولين من لم يكن بعد قد ولى ، وليضعن سلاحه من كان قائما حتى اللحظة يضرب به الى يمين وشمال ، فان رسول الله عنوان الاسلام ، العلم الذى وقفوا من اجله يبذلون أرواحهم رخيصة قد خر صريعا — هنا أو هناك — في الميدان ..

***

ما كان اشد فرحة ابنة عتبة وزهوها ذلك النهار ! اخذت تقطع ساحة المعركة في مجيء وذهاب لتمتع ناظريها ، كاللبؤة الضارية ، برؤية الاشلاء والدماء . انها قد شفت قلبها المصدوع وبصرها المقروح واسبلت مصارع اولئك الواترين الراقدين في جوار احد على نفسها راحة ما بعدها راحة .. كلهم الآن فداء ابيها وأخيها وابنها ، وغيرهم من الآل الذين جندلوا على ثرى بدر ، ثم لكم أضفى على قلبها سعادة لم تستشعر قبل يومها هذا مثلها ذلك اليقين الوطيد بأن أصل بلائها قد زال عن هذا الوجود بزوال محمد وذهابه عن دنياها الى غيابة الموت ..

ولكن عينيها وقعتا في جانب الميدان على منظر ارسل في قلبها ثانية نار الحقد التي كادت تخبو . تفور وتمور .. ها هنا عصبة من رجال قومها الامجاد يكافحون رجلا فردا كانه الليث بين الخراف !.. فارعا ، مهيبا في لحظات كربته كما علمته دائما مهيبا ابان لحظات تفوقه وعزته ، لا تكاد العين ان ترى ذؤابة سيفه وهو يسرع في كفه الى الرقاب كالبرق . ولا يكاد أن يخطئه البصر او يأخذه بغيره وهو الصارم الغضبة قد اجتمعت عروقه في جبهته كالكرة ورمت عيناه بنظراتهما كلساني نار . وهو البازر بين الالاف من الرجال يحسن سمته واناقة ثوبه وان اصابت منه وعثاء الحرب .. وهو المعلم دائما

بريشات النعام في صدره أو على قلنسوته حتى ليعرف من لم يره انه حمزة بن عبد المطلب لأنه لا بد قد سمع ذات يوم عنه ..

ها هنا رجل حي من بيت محمد !.. رجـل دونه بقية الرجال وكافة الأبطال ودون حقد هند عليه أحقاد مثيلاتها من النسـاء على غيره من اصـحاب الرسول وصـفوة ناصريه . فلتكفين اذن ناسها بأس سـيفه : ولتروين غليلها من دمه كما روى ثرى بدر بدماء والدها عتبـة . ولتقتصن فيه لأخيها الوليـد وابنها حنظلة اللذين قتلهما ابن ابى طالب . ولئن ذهب على — في حسبانها — كما ذهبت كثرة المسلمين الى التراب فقمين بعمه أن يؤدى عنـه الثمن لثكلها المرير وفجيعتها التى لم تنطو على مثلها القلوب والصدور ..

وارسلت بصرها عجلى ، على ما حولها وبالود لو استطاعت ان تنساب نحوه كالافعى فتنشب فيه الناب . وهمت ان يدفعها الحقد فيلقيها عليه ثم تترك لأضغانها بعد هذا أن تنال منه حسبما يلهمها الموقف : ولم تكن تحمل في صـدرها قلب انثى آدميـة بل قلبا اقل ضراوة منه قلوب الوحوش الكواسر ، فانطلقت تعدو صوب العصبة التى التفت بحمزة وتساقط حوله أفرادها كالذباب . ولكنها ما لبثت ان توقفت اذ شلتها هيبة الرجل . وأدارت أمرها في رأسها مترددة. محاولة أن توازن بين احتمالات الموقف وبين خاطر سطع في ذهنها حين وقعت عيناها على وجه أسود علا جسد مارد !..

وفركت المرأة كفيها فرحا . انها نائلة ثارها بلا ريب ثم عائدة الى دارها مثلجة الصدر . هذا وحشي العبد يلوح عن كثب وهى تعلم انه مأجور لقتل محمد او لقتل على او لقتل حمزة . فما استطاع وصـولا الى اولهم ودونه الصفوف تلوها الصفوف من أصـحاب مجاهـدين مفتدين يدفعون عنه . وما استطاع الى الثانى وصـولا ويقظته الفذة لا تترك لوحشى او لسواه مجالا يصيبه فيه من بعيد او من قريب . ولكن الأول مضى ونفضت منه الحياة كفيها .. ومضى الثاني في اثره ، ان لم يكن قد سبقه الى الموت اذ كان دائما الفادىله المكافح عنه لا تصـل الى محمد ذؤابة سـيف الا ان اخترقت — في الطريق اليه — قلب على .. ثم بقى الثالث .. بقى حمزة حتى الآن امامها يجول ويصول يقد الرجال ويمزق الأوصال .. وان هنـدا

لترى الآن بعينيها لم وقف الأسود المأجور في مكانه لا يريم . ملكت قلبه رهبة الرجل حتى تركته قطعة صماء من الأرض التى وقف عليها وهو يشهد بعينيه كيف تكون مقاتل الرجال على يد هذا البطل الذى سن له وحشى حربته ، وسممها ثم وقف بعيدا كأنه نسى فيم جاء .

واسرعت اليه المرأة تجذبه من ثوبه وتصيح فيه :

« ويها ابا دسمة ! » .

فانتفض العبد كأنما ردت اليـه الحياة . وتطلع نحوها ببصره الحديد . صامتا ، مفغور الفاه وعادت ثانية تهتف به وتستحثه :

« انك تقذف برمحك قذف الحبشة ولا تخطىء .. ارم فداك امى ! » .

فاعتدل في وقفته ، وحانت له فرصة انكشف فيها اعداء حمزة عنه فهز الرمح ، وصوب ثم القى ..

واعقبت الرمية الصائبة صيحة الشماتة انطلقت من شفتى هند. ووقفت عن كثب ترقب كيف تبدو علائم الموت على الوجه الوسـيم الأصبح . وكيف تعانى العينان سكرات النزع ! وكيف تنزف الحياة في قطرات دماء راح يلفظها الجرح . وبوجهها في كل هذه اللحظات صفحة كريهة تداولتها الوان الحقد والضغينة والبغضاء ..

واسـتدار حمزة ينظر من اين اتته الطعنة الغادرة وفي ملامحه تنطق آلامه بألف لسان . وتحامل على قدميه يكرههما على المسير صوب قاتله بعد ان تبينه : وارتعدت اوصال العبد فزلزلت فرائصه وهو يراه يهم بقطع الطريق اليه ولم يستطع فرارا بل ثبت برغمه في مكانه كأن قـد بنيت قـدماه في الأرض . ولـكن حمزة لم يسر الا خطوات — عرف بها قلب وحشى كيف يكون سلطان الرعب — ثم سقط البطل العظيم مجندلا على الثرى ..

هنا اسـفرت هند عن قلب الوحش الذى ضمته اضلاع المراة فاتت بما لم يحدثنا التاريخ مطلقا بمثله قساوة اشباعا لنهم الأحقاد. استلت سكينها وتقدمت الى الجسد الطريح تمثل به اشنع تمثيل فصلمت اذنيه . وجدعت انفه ، وغورت عينيه ، ثم تركت النصل يعبث كما شاء له جنون الغل فيقسمات الوجه حفرا وتخديدا وقطعا ، وهى لا تستطيع أن تكف يدها ما لم تحس بقلبها الصليب قد نقع

صداه .. وهل كان لجلمود صخر ان يعرف ريا ؟ ان الوحش الرابض في داخلها لم يزل منهوما ، ليس تشبعه الرؤية وحدها ولا ترويه .. فلتبقرن اذن بطن عدوها الراقد أمامها في سلام ، ولتكشفن فيها عن بضعة تنهشها بأنياب أحد أنواع الحيوان واضراه نزعة ، ولتأخذن الكبد التى ما زالت فيها بقية من دفء الحياة فتلوكها في فمها ، تقضم منها ما وسعها ان استطاعت أو أن أساغت .. ثم تلفظها حانقة لأنها مريرة المذاق . وتمضي — بفعلتها هذه — على مدى الأيام مثلا فذا لشر ما سكن قلوب الناس من أحقاد وأضغان ، مثل لا يعدله شر في الدنيا ولا في بقية الأكوان !..

***

مثل لا يعدله شر الا ما انطوى عليه قلب زوجها .. الرجل الذى سوده قومه ، وما حسبتهم كانوا مسوديه الا لفضل او مسكة من فضل بعد حسبه العريض الذى ذهب به في اصول العرب الى أبعد المذاهب ، ولكن أبا سفيان كان رجلا قميء الجسم قميء الوجدان ! أعماه حقده عن الفضل ، وعن العقل ، وعن حق القربى التى ربطته بحمزة حتى غلف الحقد قلبه بغشاوة سميكة خرجت به عن نطـاق قلوب الانسان تماما كما حدث لهند . بل لعل لزوجه بعض العذر لو انا قابلنا بينه وبينها فى كفتى ميزان ؛ كانت أنثى وللاناث لدى ثورة النزعات اندفاع يحيد بهن عن الجادة وان لم تصل بغيرها الجيدة الى مثل هذه المغالاة . وكانت موتورة في ابيها ، وفي اخيها ، وفي ولدها ثم بعدهم وقبلهم في الكثيرين من عشيرتها وادنى الأقربين اليها من الأهل والأحباب . أما هو فلم يكن كذلك . ولئن فقد في بدر ولده حنظلة فان حمزة لم يكن قاتله . ومع ذلك فقد مال مع ضغنه القديم، الذى ورثه عن آبائه ، على بنى هاشم ومن انحدر منهم ، يستوى أمامه محمد وحمزة وعلى ومن عساه سينشأ لهم من ابناء لو امتد به عمره وامهله الزمان لسقاهم ايضا من سموم كراهيته ما يستطيع .

وهكذا لم يملك أبو سفيان نفسه ، ولم يمسـك بزمام بغضائه حين مر بشرى أحد فوقع بصره على حمزة بن عبـد المطلب لقى ، مشوها ، مبقور البطن عمل في ملامحه وفي أحشائه النصل والناب .. بل استبدت به أحقاده أيما اسـتبداد وملأت بسـمة كريهة وجهه الدميم ، وهزت الفرحة جسمه القميء الضئيل وهو يسرع الى حمزة الصريع يهتف به بصوت تفيض الشماتة في نبراته :

« يا أبا عمارة ... دار الدهـر ، وحال الأمر ، واشتفت منكم نفسي ! » ثم لا يخجل أن يتناول بالقصاص ميتا لا يستطيع عن نفسه دفعا ، فيهز رمحه في يده هنيهة مدلا مستعزا ، ويتقدم فيضرب بها في شدق الجثة وهو يردد كمن أصابه مس جنون :

« ذق عقق !... ذق عقق ... »

وكأنما الله شاء أن يخزيه في موقفه ذاك ، وان يكبته فيطلع عليه في تلك اللحظة أحد احلافه من رجال مكة ... ويقلب الرجل بصره في سيد قريش غير مصدق ان يبدر منه ما يأتيه ، ويكاد ان يذهله المنظر أول الأمر حتى اذا استوثق مد كفه الى منكب أبى سـفيان يهزها ويقول في صوت هامس مبحوح :

« سيد قريش يصنع بابن عمه ما ارى ــ لحما ! » .

« الحليس ! » .

ويكاد ان يسقط من يده رمحه وقد علم ان قد اطلع على خزيه سيد الأحابيش . ولكنه سرعان ما يلجأ الى الاعتذار فى موقف ليس يجديه فيه تكفير ولا تعذير ...

يقول متخابثا ، متوسلا لصاحبه :

« اكتمها عنى ، فقد كانت زلة » .

ولكنها زلة كانت أحرى به ؟ .. ليست بكبيرة منه . أكثر منها غير غريب عليه ، ولا على آله اتيانه في هذا الباب ، وانما القليل منهم هو موضع العجب ومثار الاستغراب .

* * *

وكأنما ورث الأحفاد ، مع الأحقاد ، صناعة الأجـداد .. لأننا لا نلبث ان نرى بعد هذا الموقف بنصف قرن او اكثر من الزمان . الحفيد « يزيد » يستعيض عن رمح جده بقضيب يضرب به في شدق الحسين الذبيح ويتلهى بنثر ثناياه ، كأنما المثلة كانت لأسرته صناعة ، وكأنما فيها الامعان كان لهم ملهاة اى ملهاة !... اما الحليس فانى أرى ظهوره قد كفانا الصورة الكريهة التى كاد أن يرسمها لنا ابو سفيان فى تلك اللحظة من يوم احد لو خلى بينه وبين التصوير ... ولعل شيخ بنى أمية لو ترك وحيدا وشأنه اذ ذاك ، لكان انحنى على الأرض فنفض التراب عن الكبد الملقاة ثم رمى بها في فمه لأنيابه عساه يسيغ منها بعض ما لفظت زوجه !...

٩

اشرف ابو سفيان بن حرب من ربوة على ميدان المعركة فى انحائه شراذم متفرقة من المسلمين مسها الضر وعملت فيها الهزيمة ، وراح بأعلى صوته يهتف :

« يا أصحاب محمد !.. يا أصحاب محمد !.. افيكم محمد ؟ »

فلم يجبه على سؤاله مجيب ، كان هول الموقف لم يذهب بتبصرهم في عقبى الأمور فراوا الخير في التزام الصمت .

وفرح الرجل ما شاء له أن يفرح . ومدت له هـذه الفرصة في بساط الشماتة وشفاء غله اذ حسب أن عدوه ليس بينه رجل تطاوعه نفسه المكلومة على تحريك لسانه بالرد على مصير محمد ، ومصير خير صحبه الذين ظل شيخ بنى امية يرفع عقيرته بالسؤال عنهم واحدا بعد واحد . ولم يبق شك عنده في انه قد انتصر وانتصرت معه قريش ، وان عجلة الفلك دارت على مثال دورة عجلة المعركة فى احد ، وان أولئك الذين قد اجلب لهم من مكة بخيله ورجله راحوا لقى على الثرى ها هنا أو هناك .

وضم على جسده القميء طرفي ثوبه . واحس كأن قد استطال نرعه الى الشمس لأنه ملك النصر وملك الثأر ... ثم دعا داعيه في رجاله ان يتهيأوا للرحيل ...

ولكنه قد جرى شوطا بعيدا غاية البعد وراء خياله لأن محمدا لم يقتل ولم يتخل ربه عنه بل أبقى عليه من أجل الدعوة ، وادخره للقابل من الايام حتى ينشر الدين ويقضى على اعدائه المشركين . ولئن دارت اليوم على جيشه الدائرة فانما هى المحنة يبتلى بها الله صبر عباده ثم يردهم بعـدها قلوبا تقوى على الاحتمال وتثبت لزعازع الأهوال .

***

اجل لم يمت محمد . ولم ينل منه اعداؤه الا اقل القليل وهم الذين لاحقوه بالاسياف والرماح والنبال كأنما كانوا لا يحاربون غيره .

ولكن رماحهم وسيوفهم وكل ما حملوا به عليه من سلاح تكسر على صخور الدفاع التى أحاطه بها بعض صحبه . وكانت هذه الصخور رءوسا وقلوبا وأجساما وقفت دونه تذود عنه . ولعل سجلات البطولة مذ خلق الله دنيانا حتى اليوم لم تضم صـــورا أبدع من تلك التى رسمها بدمائهم ابطال احد . ولعل محمـــدا لم يعش في محنة كانت انكى من تلك الفترات الأخيرة من المعركة وأشد عليه .. قارب الموت كما لم يقاربه من قبل ، وسار تحت ظله وقعد ، ورأى الهول كيف يكون له على الناس سلطان غالب يفتنهم عن الجهاد ، وشهد الاضطراب والرعب يجرفان صفوف أصحابه كأنهما سيل حتى انفرجوا عنه . وأولئك الذين لم يثنهم عنه خوف عدوهم واتقاء بطشه تناءهم عنه دفعه وضغطه .. حتى عمر غاب عن عينيه وهو الجليد ذو البأس الشديد .. وحتى أبو بكر أيضا وكان دواما أقرب اليه من أردان ثوبه ...

ولكن حفنة من الرجال ظلت حوله لم تبرح عنه ولم تمـــل كأنها شدت اليه أو كانت منه بضعة . وهؤلاء هم الذين لم يلههم الهول ولم يثنهم الدفع والجذب عما نذروا أرواحهم له . فلقد بايعوه على الموت من قبل كما بايعه الآخرون ولكنهم كانوا أملك لنفوسهم في ساعة كان خطبها يذهل الناس عن نفوسهم . كان هو المعصم وكانوا هم الســوار فاحاطوا به من أمام ووراء ويمين ويسار ... في جانب وقف ابن أبى طالب لا يستطيع ان يلهم سيفه السكون لو أنه اراد ... ينتقل به بين الرقاب والقلوب ويروى نصله بالدم ان كان يرتوى حديد !.. وفى جانب كان سعد بن أبى وقاص يذب بقوسه الذين حاولوا اختراق النطاق الى رسول الله ويرميهم بنباله حتى نفدت . وكان من خانه من أولئك المدافعين سلاحه التمس الحديد والحجارة وكل ما يقع بين يديه ليدفع بعيـــدا ذئاب قريش . ولقد استطاع واحد من هـــذه الذئاب أن يلقى حجرا أصاب وجه النبى ، ولكن البقية فرت ، ولم تستطع الثبات لما شاهدته من عزم ومن قوة مراس ، وقنعت بأن تلقى نبالها من بعيد . وراح مؤلفو السوار يدافعون عن رسولهم ما وسعهم ويحولون بين السهام وبين وقوعها فيه .. وان منهم لواحدا رأى الأمان في ان يترس بجسده لمحمد فانحنى عليه كأنه درع وراح يتلقى رميات الاعداء .. ألا فطوبى لأبى دجانة الدرع الآدمية لرسول الله ! . طوبى

له ونعمى ! وطوبى لجسده الذى لم تترك نصال قريش منه موضعا لم ترشق فيه نبلا !...

واستطاع رسول الله ، بعد جهد أن ينجو مما كان فيه فسارع ومعه علي وقلة من صحبه الثابتين ، يصعد في احد . وكان الكثيرون ممن فرقهم عنه الصراع قد علموا أنه حى فاقبلوا فرحين يلحقون به وقد ردهم نبأ بقائه حيا الى الحياة !... وكذلك اصبح عن نبل عدوه بمنجاة حين اعتلى الجبل ، ثم انعكست الآية فأصبح العدو أهدافا لنبال المسلمين التى أخذت تنصب عليه من علو فتفرقه بددا ... وكان النبأ أيضا قد سرى الى اسماع أبى سفيان فأذهب عنه ما كان من فرحته وأعاده سيرته الأولى حبيس ضغنه ، ولكنه لم يستطع أن يعيد الحمية ثانية الى صفوف رجاله فيؤلبهم من جديد بعد ان برد حماسهم بنبأ المقتل المكذوب فآثر الاكتفاء من النصر بما أصاب ، ورأى الصواب في أن يغنم السلام بالاياب !

وأشرف الشيخ الموتور من ربوة أمام الجبل ، يصيح مستعزا بالثأر الذى أتيح له ، وبالنصر المزعوم وهو يهلل لصنمه المعبود :

« يوم بيوم بدر ... اعل هبل ! .. اعل هبل ! »

فجاءته من ناحية محمد تهليلة الايمان ، أعلى جرسا وأصفى صوتا ، تشق العنان :

« الله أعلى وأجل — لا سواه ! .. الله اعلى وأجل ! »

***

واخذ ميدان المعركة يخلو رويدا رويدا الا من الجثث والأشلاء التى تناثرت في جنباته ، واكثرها من الشهداء المسلمين ، وكانت نسوة المدينة ما زلن دائبات على ما خلفن من أجله بيوتهن : يملن على الجرحى بالعناية وعلى المنكوبين بالعطف ، وقد سبقتهن فاطمة الزهراء الى هذا الواجب فدارت مسعفة حانية أو مضمدة آسية ، وهى لا تكاد أن تثبت بها مواقع الأقدام لفرط نشاطها آونة ولشدة ضعفها وما اصابها من الوهن والكلال آونات ، ولكنها ظلت — مع هذا — تعمل ولا يقعدها جهدها لحظة واحدة عن موالاة بذل العون واسباغ الرعاية .

وغابت قريش عن الاعين . وانطوى في البيداء المترامية آخر رجل

من رجالها مخلفا حلبة الصراع . لقد انتهى الأمر على خير ما طاف بأحلامهاوثأرت من واتريها . فلتعد اذن بزهوها تاركة صريعى نقمتها على الثرى صامتين .

اما محمد فلم يبرح . لم يكن قد استوثق لنفسه وناسه من رحيل قريش اذ كان الحرى بها — وهى بعد موفورة في الرجال والسلاح — أن ترتد مباغتة فتستأصل من نجا من جيش المسلمين ، بهذا قضت قواعد الحرب في كل عصر وجيل وقضت حكمة القادة الذين يحسنون القيادة ، وبهذا جرى خاطر محمد ومسه منه الخوف على اتباعه الناجين ، فدعا اليه على بن ابى طالب وأمره أن يذهب عينا وراء أولئك المرتحلين ليعرف ان كانوا قد اسروا في نفوسهم مكيدة البسوها بمظهر الرحيل .

قال له :

« اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ويريدون . فان كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الابل فانهم يريدون مكة . وان ركبوا الخيل وساقوا الابل فانهم يريدون المدينة ...

وخرج على صدوعا بالأمر ومسارعة الى ركوب خطر بالغ عساه ان يكف أصحابه كيد قريش . واقبلت بقية الجيش تصلح من شأنها وتعيد التنظيم والاعداد ليكونوا لعودة عدوهم على أهبة . ومضى الوقت على الناس بطيئا رئيدا يملؤه القلق الذى يبعثه الانتظار حتى رأوا ابن أبى طالب يبدو لأعينهم فوق حد الأفق .

وتقدم هو بعد قليل الى رسول الله يقول :

« يا رسول الله ، قد جنبوا الخيل » .

فتنادى المسلمون بالارتحال .

***

وفي طريق العودة مضى الناس يلتمسون قتلاهم ، ليس يحزنهم نقدهم من فقدوا قدر حزنهم على ذلك النصر الذى كان في ايديهم ثم فقدوا . ومضى النبى معهم يبحث عمن غاب من صحبه ، فاذا به قد وقع بصره على حمزة عمه : على أسد الله الصريع الطريح كما تركته أسنان هند ابنة عتبة ورمح زوجها الموتور الحقود . فأية غضبة

عصفت بجوانح رسول الله اذ ذاك ؟... واى الآلام ابلغ من الم حز في قلبه هذا المشهد الموجع المروع ؟. لا أدل على هذا من الكلمات التى افترت عنها شفتاه وهو يقول : « لن أصاب بمثلك ابدا » ... ولا اصدق في التعبير عن سخطه من قوله : « ما وقفت موقفا قط أغيظ لى من هذا ! » لأن المه المرير يقصر عنه كل تعبير .

الا قد ثأرت قريش حقا ، وثأر شيخها أبو سفيان بن حرب وشفى غليل حقده الذى نما في قلبه مع الأيام خلال أجيال وأجيال ، فانه الدوحة الباسقة التى غرس نواتها ذات يوم عبد شمس ، وتعهدها امية ، ورواها حرب فى قلوب الأعقاب فأثمرت دائما الكره لآل هاشم في الجاهلية وبعد الاسلام .

وأبى رسول الله على المسلمين ان يعودوا بقتلاهم الى المدينة بل امرهم أن يدفنوهم حيثما وقعوا صرعى . وراح هو يجهز حمزة بنفسه حتى اذا فرغ وقف عند رأسه يقول قبل ان يدلى به فى قبره :

« لولا ان تحزن صفية ، ويكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ... ولئن اظهرنى الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم !... »

وقال الناس من حوله :

« بل مثلة يا رسول الله لا يمثلها احد من العرب قط » .

ولكن الله ربأ بنبيه عن الضغينة والانتقام فأوحى اليه ما يتفق وطبيعته السمحاء :

« وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر ، وما صبرك الا بالله ... »

واقبلت صفية وقد نما الى سمعها ما أصاب أخاها ، فأبت رحمة رسول الله وبره بها الا أن يأمر ابنها الزبير :

« القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها ... »

فأسرع الولد اليها يأخذ عليها الطريق :

« يا أمه ، ان رسول الله يأمرك أن ترجعى » .

فرفعت اليه بصرا غاض دمعه وبان في نظراته العزم ، وقالت تسأل :

« ولم ؟ ... »

« ان أخاك » .

فضربت له أروع الأمثال في الصبر والاحتمال وهى تجيبه :

« قد بلغنى أن قد مثل بأخى ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان ... لأحتسبن ولأصبرن ... »

ومضت الى جثة حمزة وهى تسمع رسول الله يأمر ابنها قائلا :

« خل سبيلها ... »

١٠

لم تكن أحد آخر المعارك التى كشفت عن حقد بنى أمية وان اختفى هذا الحقد بعدها زمانا تحت رماد الظروف التى جردتهم وقتا من سلاح الانتقام . ولكن الجمرة — مع ذلك — ظلت متقدة وان كان اتقادها أخذ يبدو في آونات على منحى لا يجعلها ذاكية الضرام طائرة الشرر واللهيب الى من حولها من آل محمد ، بل كانت تحت رمادها تئز وتستعر مدخرة أوارها الى يوم مرتقب ليس على أصحابها ببعيد ، لأن النصر ، الذى أخذت ترقى في سلمه الدعوة الاسلامية ورجفت منه قلوب الأعداء أجمعين ، ومن بينها قلب ابى سفيان وآل بيته الشانئين، خلفهم مسلوبى القدرة على كفاح الاسلام على النمط الذى يرجون ، عاجزين عن النيل من محمد وذويه كمشيئة الأحقاد والأضغان .

ولم تكن أحد كذلك آخر المعارك التى برزت فيها بطولة على وبذله وتضحيته — لا ولا أولها . ولكنها كانت القارعة التى امتحنت فيها قلوب أبطال مغاوير . ثم علا بمحنتها قلب هذا الشاب على جلد قلوب كافة من كانت جرت بذكرهم أحاديث الناس في أنحاء الجزيرة العربية حتى طوقتها من الأطراف والحدود . فما من ازمة وقعت فيها الدعوة الاسلامية أو تعرض لها رجالها المخلصون الا كان على مفرجها أو صاحب الشأن الأول بين العاملين على كشف غمتها عن النفوس والقلوب ..

وما من موقف تطلب في أيام الصراع بطولة الأبطال الا قاد ابن أبى طالب فيه الصفوف وجمعت عزيمته الماضية شعث عزائم الرجال . بل كان هو احيانا المتقدم حيث تملأ الخشية والرهبة النفوس فيفىء بهذا التقدم الطمأنينة عليها ، ويعيد اليها ما كاد أن يطير عنها من روع ..

وليس نبأ حصار المدينة بالصحيفة المطوية من صحائف الشرف في الدعوة الاسلامية يوم ان اجتمعت قريش واحابيشها واحلافها من يهود يثرب يطوقون بلدة الرسول وفي عزمهم أن يضربوا الضربة التى لا يكون بعدها للاسلام قيام .

اجتمعت الأحزاب جميعها على محمد ، واتحدت كلمتها وقوى من عزائمها أن انضمت اليها قبائل اليهود الضاربة على حدودالمدينة وكانت من قبل في حلف محمد حتى رات اجتماع الكثرة عليه فآثرت ان تمالئها ؛ وأصاب المسلمين من هذا الاجماع الساحق خوف ايما خوف حتى جرى في الخواطر أن يتألفوا بعض الكفار بشيء يدفعه اليهم النبى لينفضوا من الحصار ثم تغلب أخيرا الاعتداد بعزم النفوس وبالنصر المرموق الذى لا بد أن يوليه الله حزبه المختار فأقبل المسلمون جميعا وفيهم نبيهم يعملون كرجل واحد بمشورة الفارسى سلمان ويحفرون حول البلدة خندقا يحميها من جيوش الأعداء .

واقبلت قريش في جمعها اللجب يملأها الغرور وينفخ منها الكبر الأوداج والنحور . وتهيأت للهجمة التى توقع الذعر والاضطراب في صفوف هذه الفئة القليلة التي وقفت لها بالمرصاد . ما اعتاه جيشا وما أصخبه رعدا وأوفره عددا ! اللمسلمين بلقائه أو بالثبات له طاقة ؟. لولا أن عصم الله عيونهم أن تزيغ وقلوبهم أن يرين عليها الجزع لقد كادوا أن يرتدوا أمامه مدحورين .

***

وكان الخندق أسلوبا فارسيا في الدفاع ليس للعرب به قبل يومهم هذا عهد فوقفت قريش أمامه مذهولة ثم مسلوبة الحيلة ، لا تستطيع أن تجتازه الى الذين عسكروا خلفه ان لم يستحل عليها اجتيازه ، ولا تستطيع سيوفها أن تنال من رقابهم كما حسبت حين أقبلت بجموعها تروم القتال . ولم تملك هذه الحشود المجيشة بازائه الا أن تقدم رماتها يستهدفون المسلمين الرابضين خلفهم فيجيبهم هؤلاء من ورائه نبلا بنبل . وطال هذا التراشق بين الفريقين لا ترجح به لأيهما كفة . ودب في نفوس قريش الملل من فتور الصراع ، وضاق

امرها عليها . وخشى ذوو الحكمـة أن يبرد حماس مقاتلتها فذهبوا يتذرعون الى اخراج المسلمين من مكامنهم بكل وسيلة حتى اعيتهم الحيل ولم يجدوا مناصا من اصطناع الجراة عساهم يعملون اسلحتهم فيهم على النحو الذى يريدون .

وكذلك تقـدمت من بينهم عصبة ، هى اشـدهم واجلدهم على الصراع والصيال فامتطت الخيل ، وسارعت تضرب اجنابها الى ناحية من الخندق سهلة الاجتياز محاولة ان تقتحمها كى تكون مجاز بقية جيشها الى المدينة .

ولكن عليـا كان كدأبه اليقظ الذى لا تفوته من عدوه حـركة او لفتة . فى سرعة الصوت قفز بجواده على اولئك المجترئين لم يثنه عنهم انهم جماعة وهو فرد . ولم تذهله المفاجأة التى اندفعوا بهـا يقتحمون الخندق على المسلمين قبل ان ينتبه لفعلتهم كثيرون غيره . وكالبرق طاح بينهم سيفه اللماح حتى راعهم منه ما حسبوا من قبل انهم مرعوود بمثله . وكانما أعادت حملته الصادقة الى نفوس أصحابه الوعى الذى عاب عنهم هنيهة فسارعوا اليه يسيرون في أعقابه ويدفعون حتى فرت خيل المشركين ولوت أعنتها لتعبر الخندق الى صـفوفها مرتدة .

لا بد ان يكون هذا قد أصاب من اعتداد قريش ومن صلفها ومن كبريائها ولا بد أنها استشعرت فيه طعم مهانة لم تذق لها فى يومها طعما . وكان اكثرها شعورا بمرارة هذه الفاتحة الخاسرة فارسها المجلى وبطل ميادينها عمرو بن عبد ود ، الذى قاد عصبة خيلها فاقتحم الخندق عزيزا ثم انثنى فاجتازها مدحورا ذليلا . لم تعد القضـية الآن في حسبانه قضية قريش بل أصبحت قضيته هو ... قضية الذكر الذاهب في انباء البطولة الى السماء ، والصيت الذى تحدث به العرب في الجزيرة ورواه رواتهم في كل الأنحاء .. قضية السيف الحاصد البتار كأنه شعلة نار . والرجـل الذى لا يقومه قـومه بين الرجال الا بالف من الأبطال ... قضية الكبرياء المهيضة الجناح كأنما قد طعنت في قلبها بأصمى سلاح !

لم تثبت بعمرو قوائم فرسه حتى عاد بها الى جانب الخندق كأنه القلعة فوق صهوتها ، دارعا مقنعا بالزرد والحديد تهتز الأرض تحت تيهه وزهوه ، وتنتهبه العيون من كلا الفريقين بنظرات فيها رهبة وفيها

اعجاب ، ثم لا تكاد ان تستقر عليه طويلا بل تغضى لفرط ما ملأ الأسماع من صيته المرهوب وما جرى من انبائه في النفوس والقلوب .

وأشرف الفارس من مكانه على المسلمين يدور فيهم بعينيه ، ويقتحمهم ببصره ثم يهتف بهم في صوت داو مروع كالزئير :

« يا رجال محمد ، هل من مبارز ؟ » .

لكأن كلماته هذه كانت نداء الموت !... ما من رجل سمعها الا رجف لها بدنه وان كان بين عسكر مناصريه . أو كأنها قد أغلقت دونها الآذان فلم يجر لها جواب على لسان .

وأرسل عمرو فرسه تميس وتختال امام الصفوف ، ورسول الله واقف يدعو ربه الا يتقدم أحد من رجاله لتلبية النداء . والمسلمون مشفقون صامتون وفارس قريش لا ينى يتفرس في وجوههم بنظرات الزراية والمكاء .

وعاد الرجل ثانية يهتف :

« الا رجل يبارز ؟ » .

فتقدم على هذا النداء على بن ابي طالب . لئن دمعه رسول الله ورده في الأولى فما هو براده الآن وقد تخلف عن قبول التحدى غيره من الفرسان .

قال متوسلا لرسول الله :

« انا له يا نبى الله »

ولكن النبى كان ضنينا به على سيف ابن عبد ود فدفعه ثانية وقال:

« انه عمرو . اجلس ! »

فجلس مطيعا وبوده لو استطاع سبيلا الى العصيان .

وعاد عمرو يصيح ، وقد بدا له أن يمعن فى التهكم كما يشاء :

« يا اصحاب محمد ! ... اين جنتكم التى زعمتم انكم داخلوها اذا قتلتم ؟ ... افلا يريدها رجل منكم ؟ اما منكم من يقدم ؟ »

فعاود على توسله النبى وقلبه يأكله التلهف على مقابلة هذا الخصم المرهوب :

« انا له يا رسول الله ... ايذن لى »

« انه عمرو . اجلس ! »

على هذا النحو من النداء والاستجابة جرى الأمر مرارا . ومحمد يأبى عليه حبه عليا ان يخلى بينه وبين صنديد العرب ، والمسلمون

جميعا لا يكاد أن يرتفع من بين ابطالهم المشاهير صوت يلبى دعوة ابن عبد ود الى الاحتكام للسيف ، لفرط ما قر فى الأذهان من اجادته فنون الطعن . ولكن عليا وحده ... الشاب الذى لما يكتمل شبابه وخلع بالأمس فحسب عذار غلومته له تسكته الرهبة ، ولم يقف به الخوف لأن له قلبا لا يعرف الرهبة والخوف ، وله اعتداد بقدرته فوق كل اعتداد ، وله بصيرة مرهفة كحد السنان علمته أن هذا التلكؤ عن البروز لعمرو فيه الشر غاية الشر لأنه سيدع النفوس فريسة خوف اخف من أثره وقع الموت — اذا شاع افقد الرجال حب القتال ، وأورثهم التشبث بالحياة ولم يقم عمد الاسلام حتى اليوم إلا حرص رجاله على الموت !

لذلك ما أعاد ابن عبد ود دعوته حتى هب ابن أبى طالب يعيد التوسل الى نبيه :

« ايذن لى يا رسول الله »

« انه عمرو ! »

« وان كان ! »

ويخلى النبى أخيرا بينه وبين غرضه ، فكأنما أصاب الشاب بهذا الاذن خير دنياه ! ويقف الرجل المدل بماضيه ، التياه على العالمين بصحائف بطولته ، المعتز بجبروته وصولته امام هذا الحدث فيستهين به ويستصغر شأنه ويقتحمه بعين ساخرة ثم لا يرفع سيفه أنفة وكبرا ، ويقف على رابط الجأش ثابت الجنان كأن ما يبدو من صلف عمرو ليس يعنيه ، وبحسبه أن يتريث بهذا الفارس الشاكى الغارق فى زرده وحديده ، ويصبر حتى يكون منه بدء القتال لأنه هو لا يحب لنفسه أن يكون البادىء بسل حسام .

ويعجب عمرو لهذه الجراة التى دفعت اليه هذا الغلام فيقبل عليه يسأله : « من انت ؟ » .

فيرميه بالجواب فى اقتضاب :

« على » .

« من عبد مناف ؟ »

« ابن أبى طالب » .

فتعطف الفارس عليه الشفقة ، ويقول :

« ابن أخى ! .. قد كان أبوك لى صديقا » .

ولكن ساعة الضراب تنسى الأنساب ! .. لا يدع على لعواطفه سبيلا على نفسه ، بل يقول جادا فى حزم :

« يا عمرو ! » .

« أى ابن أخى ! » .

« انك كنت تعاهد قومك الا يدعوك رجل من قريش الى خلال ثلاث الا أجبته الى واحدة ... » .

« نعم هذا عهدى » ...

« فانى أدعوك الى الاسلام » .

فضحك الرجل :

« وأترك دين آبائى ؟ .. دع هذا عنك » .

« أو أكف يدى عنك فلا أقتلك ، وترجع ! » .

فملك الرجل غضبه قدر وسعه . يالجراة هذا الغلام اذ يخوفه نفســه ! وقال دهشا وهو يظهر الأناة :

« تكف عنى وأرجع ؟ .. اذن تتحدث العرب بفرارى » .

« فانى أدعوك الى النزال ... »

وكانت بالفارس بقية من صبر وبقية من شفقة ، فقال ملاطفا ، وهو يؤمن بالفارق بينه وبين قرنه ، ولا يرى شرفا فى قتاله :

« ولم يا بن أخى ؟ ... غيرك من أعمامك من هو أسن منك ، وانى أكره أن أهريق دمك » .

« ولكنى والله لا أكره أن أهريق دمك ! » .

هنا غلت مراجل الغضب فى صــدر عمرو على هــذا السليط الساخر ، واستل سيفه المشهور ، ثم اقبل ينزل به كالصاعقة على رأس على فما أسرع ما استقبل الشاب الضربة العاتية بدرقته حتى قدت ، ونفذ منه الحد الى راسه فشجه . ولكنه مع ذلك استطاع ان يحتفظ بثباته . وأن يحيد عن ضربات فارس العرب مرات ثم يكر عليه بحسامه فيصيب حبل عاتقه .

كانت قريش جميعها واثقة من المصير المحتوم الذى ينتظر الشاب، عالمة به قبل وقوعــه . وكان المسلمون مثلها منــذ بدا الصراع وان استبدلوا بفرحتها بهذا المصير اللوعة على المنازل الصغير ... اجل فلم يكن بين كلا الفريقين الا من هو مؤمن أشد الأيمان باضافة عمرو ضحية جديدة فى عداد ضحاياه . ولكن الله بدل حدسهم جميعا ، لان العيون

وقعت بعد قليل على ما لم يدر مطلقا فى الاخلاد والظنون ... سقط عمرو وقد هدته الضربة ، وثار لسقطته الغبار الى جوار اقدام على كما يثور لحركات ثور ذبيح ! ... ومن بين الغبرة التى ارتفعت علا صوت ابن أبى طالب بالتهليل والتكبير يتلوه هتاف الآلاف من عسكر المسلمين .

١١

اقدام حيث لا معدى لغيره عن التزام الاحجام .

هذه ناحية من خلق على ، واضحة الملامح جلية ، رفعته فى مجالى الشجاعة على الناس ، ان أدلى بالرأى أو هز السيف .

ومع ذلك فلم تكن فى الشاب دفعة ، ولا تهور او طيش . ولكنه كان يصدر فيما ياتيه دائما عن حكمة خفيت عن نفوس الناس ، وشعور كأنه الهام يوفى به على احكام التقدير عند اقتحام المصامع أو معالجة الأمور . كانت له نظرة ثاقبة نفاذة فيما يعرض له ، ولكنها كانت أيضا لماحة تسبق ما يستخلصه سواه بعد اعمال فكر أو موالاة تدبر ، وتصل به سريعا — وغيره لم يزل بعد فى بدء التفكير — الى النتائج العصية على العقول حتى ليحسبه الناس يجنح الى اعتساف الحلول . وكانت تقوده دائما بديهة صافية ، ويسدد خطاه قلب ملأته الثقة بقدرة صاحبه وان كانت هذه صفة تعدل الغرور فى نظر مغلولى الصدور !.

اجل رفعته صفته تلك وعلت به على اقدار الناس ، وكان لها صدى فى نفوسهم يتفق واميال هذه النفوس ... بعضها استجاب له معجبا مواليا ، وبعضها اضله الحسد فقلبه عائبا زاريا ، والناس دائما أمام البطولة اثنان : مكبر حامد وزار حاسد ، وان كانوا الى الثانية ، غالبا اميل .

لذلك لم يكن عجبا ان تنطوى اكثر الجوانح على الحسد لهذا الشاب الذى عز على القوم ان يلتمسوا فى ابطالهم له الضريب دون الأضراب . حتى بين صحابة الرسول لم نعدم أن نجد له حاسدين لا يستطيعون الاخفاء وان حرصوا جهدهم على هذا الاخفاء . وكان النبى يلمس فيهم

الكثير من أمثال هذا الجنوح فلا يفتأ اليوم بعداليوم يتحدث لهم بفضل علي ويقص عليهم من قربه الى قلبه م: عساهم به يرعوون عنه . ولكنهم كانوا عبيد طبائعهم ، ينقمون على الشاب الفضل الذى خلت منه نفوسهم او لم يستطع فضلهم أن يسير واياه فى ميدان . ولئن رأينا العجب فى أن يميل بعض صحابة الرسول هكذا مع الهوى ، فاعجب منه ان نرى فى آل بيت الرسول من يجرى جريهم وينزع مثل منازعهم . وهكذا الزبير بن العوام — وامه صفية عمة على — يكاد يتصيد الهنات ليلصقها بابن خاله كأنها أسوأ الصفات . خرج ذات يوم ورسول الله يسيران فاذا بهما يلقيان عليا ببعض الطريق ، ويضحك محمد لابن عمه محييا فيجيبه هذا ببسمة ثم يمضى لشأنه . فكأنها كانت وزرا هذه البسمة. يأبى الزبير الا ان يتلقفه ليغض به من شان قريبه المحسود ! . . . يقول لرسول الله بكلام ناعم ليس يخفى معناه :

« يا رسول الله ، لا يدع ابن ابى طالب زهوه »

فلا يستطيع محمد أن يسيغ منه القول على ظاهره ولا باطنه وهو الذى لا تخفى عليه مكامن القلب ولا مجهول الغيب ، بل يرد عليه :

« انه ليس بزهو . ولتقاتلنه وانت له ظالم »

وما كان على بالمزهو ولا بالمستعلى كبرا على الناس ، ولكنه الاعتداد بالنفس والثقة تختلف مقاييسها فى أعين الناس بين حامد وحاسد . ركب نفسه ، طوال عمره ، بالرياضة والنسك حتى أسلمت له الزمام ذلولا يعصيها ولا تعصيه وان أرادها على اجتياز المهالك وأوعر المسالك، وهذه منقبة فيه كان حريا أن تلف حوله القلوب وتعطفها عليه . ولكنها كانت فى أنظار الكثيرين منقصة ، الا أولئك الذين تجردوا عن الهوى. وكانت له هو سر فوزه دائما على محبيه ومبغضيه على السواء ، وظهوره حيثما خبا لهم نجم وطاش سهم .

كذلك رأيناه فى بدر يستبق المسلمين الى رءوس كبار المشركين ، وفى احد يثبت كالجبل الراسخ امام السيل الذى كشف عن محمد اجلة صحبه وابطالهم ، وفى الخندق يكون وحده البادرة التى آذنت بهزيمة قريش وكسرت قلوبهم اذ اصمى بسيفه صنديد الجزيرة العربية عمرو بن عبد ود ثم نراه — بعد هذا — هكذا دائما ، لا يسبقه الى فضله سابق ولا يلحق بغباره لاحق . يترددون ولا يحجم ، وينكصون ويتقدم . يسير النصر امامه ويسدد التوفيق اقدامه .

بعث الرسول الكريم أبا بكر الصـــديق الى خيبر ليفتح منها حصن ناعم ، فقضى الرجل وجنده يومهم يناوشون اليهود لا يستطيع أن يثلم فى أسوارهم ثلمة أو يتحين منهم غرة فعاد بكتيبته غير موفق .

فلما كان اليوم الثانى أمر الرسول على الكتيبة عمر بن الخطاب وعقد له لواء الحرب ثم أرسله . ولكن ثانى الصالحين لم يصب خيرا مما أصاب زميله ، بل عاد هو الآخر كعودة أبى بكر ، وخلف الحصن مغلق الرتاج . ثابت البنيان وطيد الأركان .

وجاء اليوم الثالث فاذا النبى يدعو اليه عليا ويقول له :

« خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك ... »

فتقدم فى التو رجاله ، ومضى يعدو الى الحصن العصى .

لم يلق ملاينة من اليهود أو تريثا حتى يروه يهجم ، بل وجدهم يبادرونه بالقتال . خرجت فرقة منهم فسدت على المسلمين مسالكهم الى الحصن وذهبت تصاولهم ولا هم لها الا هـــذا البارز أمام الصفوف يتقدمهم غير هيــاب ، ولا تكاد العين ان تلمح منه حملات السيف أو حركات الدرع بين طعن ودفع وقد جاءت لحظة على هؤلاء اليهود ظنوا أن قد ظفروا بمأربهم وأوشك النصر أن يلوذ بهم حين تكاثروا على الشاب واستطاعوا أن يسقطوا من يده ترسه وسارعوا نحوه ، وهو مكشوف الصدر أمام نصالهم ، محاولين أن يتخذوا من جسمه أهدافا . ولكنه كان أسرع قدما ، وأيقظ عينا . استطاع فى لمحة بصر أن يميل عن طعنات مناوئيه ، ثم يلوذ بجانب من الحصن غير بعيد وفى لمحة أخرى وسعه أن يخلع بابا من جدار . وفى لمحة ثالثة شاهدته اليهود قد كر عليهم قبل أن تتبين حركة من حركاته أو تنتبه لخطوه : سيفه فى يد ، وفى الأخرى الباب الثقيل يترس به عن نفسه بدل الدرع المفقودة ، ينشر بينهم الموت وهو لا يكل ولا يصيبه الجهد حتى انطرحوا صرعى تحت قدميه ، واتخذ من الترس العجيبة ــ بعد هذا ــ قنطرة الى داخل الحصن تبعه عليها أصحابه ، ثم تم الفتح .

* * *

على هذا المنوال كانت حياة على مثالا فذا من البطولة منذ اشرق فجر حياته على دنيا التاريخ . وكانت سيطرته على نفسه هى رائده الأوحد الى هذه البطولة ، لا يعنيه الا ان يفعل ما دام يؤمن بمقدرته

على أن يفعل ، وكان دائما يؤمن بهذه القدرة التى جربها فلم تخنه مطلقا في مرة . وما أحسبه كان مستطيعا غير هذا! وهو الذى شب فى أكناف رجل وقف بمفرده امام عالمه بغير سلاح الا ايمانه .

انما نحله محمد بعض الثقة التى سلحه بها الله واضفى عليه من سوابغها آيات . ولئن كان على قد برز على انداده فى هذه البطولة المادية فلقد توفرت له منها ــ فوق التوجيه النفسي ــ طوابعها الجسدية التى كانت تنسىء دائما بما فيه . كان الفتى فى الأقران شديد البنيان، موفور القوة الى مدى لا يصل اليه قرين ولا اقران . وبحسبك ان تسمع حديث التاريخ يلقى على مسمعك فى قصة حصن ناعم أن بضعة عشر رجلا من اصحابه حاولوا أن يحملوا الباب الذى كان ترسه فناءوا به ! .. وكان ضخم عضلة الساق ، أميل الى القصر فهو بصفتيه هاتين اثبت فى موطىء قدميه واشد رسوخا ، ملىء عضلات الأعضاد مكتلها حتى يستطيع ان يخطف بذراع واحدة فارسا عن فرسه . وان كان دارعا فى الحديد . فيجلد به الأرض كما تضربها بسوط ، ثم يقذف به كالكرة الى اينما شاء ! .. وكان آدم شديد الأدمة وان كان الى جانب هذا حسن القسمات كثير البسمات ، على محياه مهابة ، كبير العينين ، لنظراتهما الساطعة فى قلوب مشاهديه نفاذ .

وكان هذا الاعتداد بالنفس الذى ميزه فى بطولته المادية صاحب الأثر الاكبر فى تشكيل بطولته المعنوية . كان يرى الناس من خلال صفاته هو. ويزن اعمالهم على النمط الذى يود منهم ان يزنوا اعماله على منواله . ميزانه دائما الحق الأسمى لانه رجل وهب حياته للذود عن هذا الحق وحاسب دواما نفسه والزمها سبيله .

لهــذا لم يعرف مطلقا كيف يهـــادن او يداور ، بل كان يلقى بالراى صريحا ، واضحا ، قاطعا كالسيف ولا يأبه اباء بإباء ام حاز الاعجاب . وانما كان يلقى به ارضاء لضميره المرهف واعلاء لكلمة المثل الأعلى الذى اعتنقه ولقد جعله حبه الصواب الأمثل مثالا لا يبارى فى شفافية النفس حتى لا تخفى عن عواطفه خافية لان ملامحه ذاتها كانت تنطق بالراى قبل تكونه على شفتيه كلمات ... كان قلبه على لسانه . ولعل اشد ما امتحنت به صراحته وكان له ابعد الاثر مستقبلا فى حياته ، هو رايه فى حديث الافك غب رجوع المسلمين من بنى المصطلق .. جرت حينذاك السنة السوء فى عائشة ، وتقول عنها

الناس عن صـفوان السلمى لأنها تخلفت فى الطريق لبعض حاجتها ولم ينتبه لتخلفها أحد ففاتتها القافلة حتى قيض لها صفوان مارا فخلى لها عن بعيره وحملها الى المدينة .

لم تكن القصة لتذيع ، وما كان بها ما يخشى ذيوعه ، لولا فئة المنافقين التى أخذتها وسيلة لايذاء محمد فى سمعة زوجه وكانت عائشة صغيرة السن ، مليحة ، أثيرة على النبى حتى كانت محور غيرة أزواجه الأخريات ، والغيرة دائما سماعة ، وليس أجرى على لسان النساء وأحب الى قلوبهن من الخوض فى أحاديث النساء !

أما النبى فقد أخذ نفسه بالصبر فى البدء عسى أن يصمت الهمس . ومضى يصطنع الحلم والأناة ، ويصطنع الهدوء ، ويكظم فى ذات نفسه ما يعانى . ولكن الهمس لم يصمت بل استشرى كالنار وذاع . وامتلأت بحديث الافك محافل المسلمين بعد محافل المنافقين . وتأذى محمد وتألم ، وتأذى له خلصاؤه . وكان على من عرف للنبى ايثارا وحبا فبلغ ألمه من أجله غاية مداه . لم يستطع أن يرى محمدا هكذا مضغة فى أفواه القوم بسبب فرد مهما كان فى العالمين ، ان كانت عائشة أم المؤمنين . ولم يكن يلقى عليها شكا ولا يتهمها بسوء وان تطايرت حولها القالة . ولكنه كان يعلم ان المرأة سيرة ، وأن الظن شية ، وعسير أن تنفى الحدس والظنون من أفهام الناس .

لذلك ما كاد النبى يستشيره فى الأمر حتى قال بلا مواربة :

« يا رسول الله ، ان النساء لكثير . وانك لقادر على أن تستخلف . وسل جاريتها فانها ستصدقك » .

ولقد نزل فى عائشة بعد هذا قرآن ينقى صفحتها ويبرىء ساحتها فأقبل المتقولون على انفسهم يتلاومون ، تائبين نادمين ، وراح حديث الافك دبر الآذان . ولكن عائشة بدت كأن لم تنس لابن أبى طالب ما كان من مشورته كأنها كانت تود أن يقطع ببراءتها رغم أن زوجها رسول الله لم يعجل بهذا حتى أتاه برهان الله ! ... وانا لنراها لهذا تكرهه طوال عمره ، وتنقم عليه حتى آخر نسمات حياته ، وتحملها نقمتها هذه على نفض القلوب عنه وجمع السيوف عليه . وما نحسب كل هذا كان وليد رأيه عن قصة الأفك فحسب لأنه لم يقل الا ماكان جديرا به أن يقوله ، ولم يخالف — اذ قال — ما بدا اذ ذاك من توجس الرسول . ولكن عائشة كانت ، قبل كل شىء ، امرأة لها طبيعة

النساء . تغار كمثل غيرتهن . فاذا عرفناها تعلم قرب على من قلب زوجها قربا لم يبلغه منه أدنى الناس حتى كانت تسأل :

« أى الناس أحب الى رسول الله ؟ »

فتجيب :

« فاطمة »

« ... من الرجال ؟ »

« زوجها ... »

اذا علمناها كانت تعرف هذا القرب بين قلبى زوجها والشاب ، ثم علمناها غريرة صغيرة حين اعرس النبى بها ، لها جموح مثيلاتها من غريرات صغيرات لم نر عجبا فى ان تغار على زوجها من على وقد طالما رأته يحبسه عنها اكثر الوقت ثم لا تراهما الا فى رفقة ... فاذا مر الوقت زادت الألفة بين الرجلين وكان قمينا بها أن تبلى جدتها . وكانت هى تمنى النفس بأن تملك وحدها وقت محمد خلال الفراغ ، فاذا بها ليست تملك الا بمقدار الثلث لأن لعلى وفاطمة فيه نصيبين ! حتى اذا دار الزمان وولى عهد الرسول لا نلبث ان نرى عائشة أميل الى النقمة على ابن أبى طالب منها فيما مضى ، اذ وجدت فيه — فوق ما أثارها عليه من قديم — ذلك المنافس العنيد الذى قام ينازع اباها صولجانه ولا يقر سلطانه ...

١٢

استطاع الاسلام بعد الخندق أن يقف على قدميــــه : ان يثبت ، ثم يسير الى الأمام .

فلقد أوقعت الغزوة هيبته فى قلوب اعدائه لأنهم جربوا حماته ، وعرفوا مدى العزم فيهم قبل أن يرسل الله على قريش واتباعها جنود الريح تقلب قدورهم . وتطفىء نارهم ، وتقتلع مضاربهم من ارضها اقتلاعا ..

واوقعت الغزوة ايضا الحذر فى نفوس المسلمين فباتوا لا يأمنون على أنفسهم احلافهم القدامى : قبائل اليهود الضاربة على تخــوم المدينة ، الذين جعلوا البلدة تحت رحمتهم ، ان شاءوا منعوها أوشاءوا أسلموها .

ولم يكن محمد بالذى يحب الاعتداء أو يسيغه فحرص جهده — منذ البدء — على ان يكون واصحاب الكتاب هؤلاء على اطيب الصلات ، علما منه بأنهم اصحاب دين الهى قلوبهم اميل الى الانتصار للاسلام منها لنصرة عبدة الأصنام . ولكنهم كانوا قوما حاسدين باغين ... أعماهم تعصبهم عن المحجة فقاموا ينتهزون كل غرة للايقاع بمحمد والاتفاق مع اعدائه المشركين على كفاحه .

لذلك لم تكد جموع قريش ترتحل عن الخندق وقد نبا بها المقام ، حتى نادى منادى رسول الله فى الناس :

« من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة .. »

وقدم النبى عليا اليها برايته والمسلمون يترسمون خطاه فى افواج ، وأولاهم الله نصره العزيز . واباحهم من بنى قريظة أعناق رجالها يضربونها ورقاب نسائها ... ثم اولاهم نصره العزيز ثانية . وما زال يوليهم اياه كلما ساروا ، يوما بعد يوم . الى فئة من هؤلاء اليهود حتى لم يعد ذكر لقريظة ، أو المصطلق ، أو النضير أو أى من المسميات التى عرفوا بها ، وطهرت منهم الأرض .

وهكذا أمن الاسلام شر عدوه الذى طالما استتر تحت ثوب صديق .

ثم أمن شر قريش ، ذلك العدو السافر المبين ، الى حين ... فلقد كانت قريش أعياها القتال وامضها النضال ، فلما جاءت السنة السادسة من مكث محمد بالمدينة وراته ينفلت فى رجال كثر فيشرف بهم على مكة أو يكاد وهو فى طريقه بهم الى حج البيت ، خشيت ان هو دخل عليها بلدتها ولم تمنعه تقولت عنها العرب ، وان وقفت دونه تسد عليه الطريق وتحول بينه وبين ما يريد رفع السيف الى رقابها .. وكلا الأمرين عليها شديد ! ...

وفكر سادتها وأعملوا الفكر . ما كانوا بمستطيعى قتاله ، عامهم هذا ، وهم منهوكو القوى قد اكلت الحرب منهم ماكلها ، وما كانت كبرياؤهم لتلين أمام تقدمه بهذا الجحفل المنشود وتخلى بينه وبين البلدة يدخلها عليهم بدون قتال ... ان الجزيرة لن تصدق أن محمدا دخل مكة عن رضا من قريش بل سيذهبن فى الافاق انها طاطات رءوسها راضخة لأنها تخشاه .

استطاعوا أخيرا أن يصلوا إلى الراى الذى يحفظ عليهم كلتا دمائهم وكبريائهم ، فقر عزمهم على مهادنة محمد على ان يرجع عنهم

عامه ثم له عود فى الموسم القادم ان شاء . ولم يكن محمد بالذى يخيب رجاء أو يرد حاجة . فاستقبل رسولهم وراح ينصت اليه ويحسن الانصات ، وراح سهيل بن عمرو يناشده حق الدار ، وحق العشيرة ، وحق قومه الذين خشوا ان يقتحم عليهم بلدتهم عنوة فلا ترتفع لهم مكانة بعدها فى نظر الناس . وتحدث الرجل طويلا ، ووسع حلم النبى كل حديثه وكل مطلبه . وتم الاتفاق بينهما الا يعدو منهما فريق على فريق ، وأن يضعوا الحرب الى اجل معقود ، وأن يرجع رسول الله بالمسلمين الى المدينة هذا العام ثم لهم عود الى زيارة البيت بعد عـــام ...

ودعا رسول الله عليا ليكتب لهما العهد .

قال له ممليا :

« اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ... »

فقاطعته جهالة الجاهلية على لسان سهيل :

« بل ، باسمك اللهم »

قال محمد موافقا :

« باسمك اللهم ... » ثم مضى يملى : « .. هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، سهيل ... » ولكن رجل قريش عاد يقطع عليه الاملاء .

« امسك ! ... فلو شهدت انك رسول الله لم اقاتلك ... بل اسمك واسم ابيك »

فقال رسول الله لعلى يأمره :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله .. »

وكذلك أصبح عهد الحديبية موثقا ، وأمن الاسلام عــدوه المبين الى حين ، فاستطاع محمد ان يفرغ لتنظيم دولته واعــداد العــدة لمستقبلها ، كما استطاع من اراد من القبائل أن يحالف المسلمين او يحالف المشركين فلا يصيبه من الفريق الآخر عدوان ولا يجرى عليه اكراه .

* * *

ولكن قريشا لم تكن لتستطيع أن تنزع عنها ما ركب فى طبائعها من حب العدوان ، فلم تلبث حين سرت إليها الأنباء بأن المسلمين فى مؤتة سقط الكثيرون منهم صرعى على أيدى الروم ، ان ظنت الاسلام قد اصبح مهيض الجناح سهل المنال ، غير منيع ولا مرهوب ، لا يقوى رجاله أن يدفعوا عن أحلافهم ومن فى عقدهم من الناس ما داموا قد عجزوا عن الدفع عن أنفسهم .

كانت بنو بكر فى عقد قريش ، وكانت خزاعة فى عقد الرسول فعدت اولاهما على الثانية فأصابت منها بثأر قديم . وكان شبان قريش قد علموا أنباء مؤتة فحفزهم ما ظنوه هزيمة المسلمين على أن يقتصوا منهم فى اشخاص أحلافهم الخزاعيين وفى حسبانهم أن محمدا ليس بقادر على رد العدوان . ولكنهم لم يصيبوا الظن وان اصابوا العدو ... بل كانوا فى بغيهم مسرفين اذ تبعوا من خزاعة رجالا تحصنوا بالحرم فأعملوا فيهم الأسياف ، لا يمنعهم عن الايذاء قدسية البيت ولا حرمة المكان .

وأسرع عمرو بن سالم الى رسول الله بمسجد المدينة ، وأسرع بعده بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة يقصون على محمد نبأ من قتلت قريش الباغية واحلافها منهم ، ويستنصرونه على أن يقيم الحد على من نقض العهد .

هى الحرب اذن تأخذ من قريش مآخذها نصرة لأولئك المظلومين ، وثأرا لكرامة المسلمين ... كذلك توقع الناس ، وقرأوا فى الغضبة التى شاعت آثارها في محيا الرسول وهو ينصت الى شكاية المظلومين .

ورفع رسول الله بصره الى رجال خزاعة وقال :

« لا نصرت ان لم انصركم مما أنصر منه نفسى ! ... »

وراحت توا فرحة النصر الرخيص الذى استشعرته قريش من وراء العدوان ، حين فتحت عينيها على ليل حالك باتت فيه على قلق لا تعرف مداه كلما اجالت فى اذهانها الخطة الغامضة التى لابد أن يتخذها حيالها محمد . ان حماس شبابها لن يثبت للمسلمين فى ميدان . وان محمدا ، الذى لم يعهدوه نواما على الضيم وهو منفرد وحده أمام جموع المناوئين ، لن يغضى لهم اليوم عن الاساءة وقد أصبح القوى العزيز السابغ السلطان .

ثم عجمت أعوادها وتخيرت من بينها السهم الذى ظنته يصيب .

كان لابد لها من مخلص من هذا الحرج الذى وقعت فيه ومنجى من العاقبة التى جرها عليها طيش الشباب فيها وغفلة الشيب . وليس بعاصمها من غضب محمد سوى أريب ماهر وداهية مداور ، يستطيع أن يصل بحديثه الى قلب محمد الرقيق الكريم قبل أن يصل الى أسماعها .

وهكذا اختارت قريش شيخها أبا سفيان بن حرب . ففى الرجل دهاء ، وفيه مداورة ورياء ، ثم هو قبل هذا وفوق هذا له بمحمد أواصر قربى تصل الى الأجداد ، وثق رباطها النسب مذ تزوجت ابنته أم حبيبة برسول الله ... ولعل ما يشكل على السياسة حله يكون هينا ميسورا عند انعطاف القلوب بين القريب والقريب .

ولقد وفقت حقا قريش ، باختيار أبى سفيان رسولا عنها الى محمد ، الى اختيار السهم الذى لم يصب وان كانت ظنته يصيب ! . ولكنها على أى حال لم تجد بينها من كان أولى من الرجل بأداء هذه الرسالة والسعى الى رسول الله يترضاه . وكان اختياره فى ذاته توفيقا وان لم يوفق مختارها فى مسعاه ؟ ... وكأنى بمحمد ، ذلك اليوم ، قد تكشفت عن بصره الأسجاف التى تغشى أبصار الناس وتجعل نظراتهم لا تنطلق الا بمقدار ... كأنى به — من بعيد — قد أطلع على قريش ، وعلى قلوبها ، وعلى ما طاف بأذهانها من أفكار وما أجمعت عليه من اختيار ، حين التفت وهو بمسجد المدينة الى صحبه يقول :

« كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ، ليشد العقد ، ويزيد فى المدة . . »

١٣

قال أبو سفيان وهو يجلس ، بمسجد المدينة ، أمام رسول الله :

« يا محمد . انى كنت غائبا فى صلح الحديبية ، فاشدد العهد ، وزدنا فى المدة » كأنه لم يعرف بنكث قومه ! ...

وقال محمد يجيبه فى هدوء :

« ولذلك قدمت يا أبا سفيان ؟ »

« نعم » ...

« فهل كان فيكم حدث ؟ » .

فلم ير الرجل بدا من الكذب فقال :

« معاذ البيت ! فنحن على موثقنا وصلحنا يوم الحديبية ، لا نغير فيه ولا نبدل » :

هنـا طاشت حيلة ابن حرب ، وعـرف ان اسلوبه فى الكذب المداورة مغلوب أمام اليسر والبسـاطة فى هذا الأسـلوب !.. ان كانت قريش لم تنكث فالعهد قائم لا تبديل ولا تغيير ، وان كانت نكثت فعلى نفسها الجزاء الذى يفرضه النص المكتوب ثم لا تغيير بعد هذا ولا تبديل ! ..

وقام الرجل عن مجلس محمد بعد قليل ، مدحورا لأنه لم يستطع أن يلتمس الوسيلة الى اقرار ما جاء فى شأنه بعد ان يئس من الفوز بسمع محمد فضلا عن الفوز بقلبه . وخرج يسير ، ويعتصر ذهنه ويكده عساه ان يطلع عليه برأى رجيح . ولكنه وجد نفسه من ذهنه المكدود فى بيداء لا يستطيع ان يقع فيها على الثمرة المشتهاة ...

أحس مقدار عصيان عقله له وخذلانه اياه واستشعر فى قرارته ضغطا لم يقف له من قبل على نواة فتاقت نفسه الى من يشد ازره ويظاهره ولم يكن يأمل ان يجد بين أسوار المدينة من يقف الى جانبه امام محمد ويؤيد القول الذى اختلقه منذ لحظات ، وانما ود لواستطاع أن يرتد ثانية الى المسجد ليذكر فى جلاء الحقيقة التى من أجلها جاء ، والرسالة التى سعى سعيه وهو يرجو لها الأداء . ولكنه آثر أن يتريث ، وان يحاول الولوج الى قلب محمد من خلال زوجه — ام حبيبة ابنته — التى ما حسبها تحب أن يرده محمد على أعقابه الى قومه بمكة ، يسبقه الهوان ويمشى فى ركابه الخذلان ...

دخل عليها دارها ، واهنا منهوكا بعد رحلة منهكة . ومشى شارد البال فى الغرفة يهم ان يجلس ليريح قدميه ثم يدلى اليها بما يشاء . فما أسرع ان رآها تثب فتسبقه الى الفراش فتطويه دونه ، وادهشته هذه البادرة منها وحيرته ، فرفع الى وجهها بصرا ران عليه التساؤل ، وقال :

« عجبا من العجب !.. ارغبت بهـذا الفراش عنى أم رغبت بى عنه ؟ » ..

« به عنك ! » .

فصاح كالملسوع :
« ويحك ! ما تقولين ؟ » .
فلم يمنعها غضبه من مجابهته بالجواب :
« انه لفراش رسول الله وانت امرؤ مشرك نجس ، فلم احب ان تجلس عليه » ..
فمصمص بشفتيه وقد اعياه ان يرى الصواب فيما تقول ، وقال مغالبا غضبه وهو يهز رأسه هزة اسف :
« يا بنية .. والذى يحلف به ابو سفيان لقد اصابك بعدى شر »
قالت ولم يذهب عنها هدوءها :
« بل هدانى الله الى الاسلام ... »
ولعلها احسنت به الظن اذ ذاك . او لعلها عطفتها اليه بنوتها وخشيت عليه سوء المصير ان ظل سادرا فى غيه لا يتبين مواقع الرشاد ، فراحت تستحثه وتغريه :
« اى ابت ! ... كيف يخفى عنك فضل الاسلام ، وانت سيد قريش وكبيرها ... وتعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر ؟ »
فصاح بها محنقا وهو يغادر مكانه :
« وهذا منك ايضا ؟ ... يا عجبا ! ... اترك ما كان يعبد آبائى واتبع دين محمد ؟ »
« يا عجبا الا تتبعه ! »

* * *

تخلى الشيخ عن كبريائه وعاد الى محمد .
ولكنه هذه المرة كان ابعد عن هدفه منه فى الاولى ، اذ طوى عنه محمد كشحا واعرض لا يسمع منه ولا يقول له .
ثم تخلى عن كبريائه امام ابى بكر ، ثم امام عمر بن الخطاب ، يرجو واحدهما بعد الثانى ان يشفع له لدى رسول الله ، فما قبل الاول ، ولا اكتفى الثانى بالرفض دون جفوة الجواب كالمالوف من لسان ابن الخطاب !
ولم ير بدا بعد هذا من الالتجاء الى واتره البغيض ، قاتل حنظلة ابنه ، وثلة اصهاره من بنى عبد الدار ... التجا وفى نفسه غضاضة

ايما غضاضــة اله، على بن ابى طالب والمضطر يركب الصعاب فى سبيل الآراب !...

دخل عليه داره ، وعنده فاطمة : والحسن طفل يدب بين يديها ، فما استوى به مجلسه حتى قال متوسلا :

« يا على ، انك امس القوم بى رحما ، وقد جئت فى حاجة فلا ارجعن خائبا ... »

« فقل يا ابا حنظلة »

« اشفع لى الى محمد »

« ويحك ! ... »

فاربد وجه الرجل وغاض لونه ، ثم همس :

« ألا تفعل ؟ »

قال على بالمعهود من صراحته :

« لقد عزم رسول الله على امر ما نستطيع ان نكلمه فيه ... »

وساد الصمت . وتلفت أبو سفيان حوله محيرا لا يدرى ان كان اولى به ان يقوم ويدع الامر الذى جاء فيه . ومضت عليه فترة من الوقت لا ينبس ، يتقاسم قلبه الفشل والرجاء . وكان على لا يعرف كيف يخفى المه لحرج الشيخ ولا يستطيع ان يوليه يدا .. وكانت فاطمة ترقب ما يبدو على وجه زوجها من رقة ومن اشفاق وان حرصت على أن تكون بمنأى عما كانا فيــه حتى راحت تداعب طفلها الصغير .

وابتسم شيخ أمية بعد قليل فقد راود ذهنه خاطر جديد . ان هذا الحفيد الصغير له عند جده شأن بالغ ومكان مرموق . وان له عند امه حظوة كما لغيره عند غيرها من الأمهات ، وله فى قلبها ، وفى خاطرها ، وفى خيالها رفعة ترجو ان يصل الى شأوها مع الأيام . فاذا استطاع رسول قريش ان يثير فيها عواطف الفخر بالغلام فقد وقع اذن على الوسيلة التى يصل بها الى مأربه الذى يرجوه ...

وكذلك التفت الى الزهراء ، يحدثها وعينه على الغلام :

« يا بنت محمد . هل لك ان تجعلى بنيك هذا سيد العرب الى آخر الدهر ؟ »

فرفعت بصرها اليه متسائلة :

«وكيف يا أبا سفيان ؟ »

« مريه فيجير بين الناس ... »

فقالت بغير اكتراث :

« ما بلغ بنى هذا أن يجير بين الناس »

فراح يحفزها بنبرات ملؤها التوسل :

« يا بنت محمد .. انها دماء قريش يحقنها عليها ان اجار فمريه. فتذكرها له العرب الى آخر — »

قالت تقاطعه وفى صوتها حزم :

« لا يجير أحد على رسول الله ! »

وسدت بهذا عليه السبيل الى قلب محمد من خلال آل محمد .

ولم يجد هو معدى بعد أن نفدت حيله أن يلتفت ثانية الى على ويقول :

« يا أبا الحسن .. انى أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى ... »

أجابه :

« والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ... »

« فهل ارجع ؟ »

« انك سيد بنى كنانة ، فان شئت فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك »

« أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ . »

« لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غيره » .

وقام الرجل يائسا . على أى حال لقد وجد عليا أرحب صحب محمد صدرا ، وأصدقهم ، وأحدب عليه من سواه وألين قولا .. ومضى الى المسجد يجير فما التفت اليه انسان . ثم خرج عائدا الى مكة فى حلقة من هذا الفشل مثل طعم الصاب .

١٤

خاب ما توقعت قريش ، وما أملت ان يتم لهـا على يد شيخها ابي سفيان . واصبحت الكلمة الدائرة على الألسن « الحرب » .. أما شبابها فقد كان غرورهم ما زال يملأ منهم الصدور وهم يعتقدون أن محمدا ليس يملك ـ بعد مؤتة ـ قوة تدفعه الى ركوب الصحراء لاقتحام مكة . واما اشياخها فقد ركبهم الهم من سوء المغبة التي اخذت تلوح أمام بصائرهم . فلم تغفل عيونهم خشـية أن يتحين المسلمون منهم غرة . ولم يكن محمد قد جاهر أصحابه بأنه يقصد التوجه في قتال الى البلدة الحرام وان كان قد امرهم باتخاذ الأهبة والاستعداد ، فظلت قريش لهذا لا تعرف كيف تقف وبقيت نهبـا للقلق والتوجس . تبعث العيون تلو العيون الى أقصى ما تستطيع عساها تأتيها بالأنباء . وكان أبو سفيان دائما احرص قومه على تعرف ما يأتي من صوب محمد وعلى تنسم الريح والاستطلاع .

وجاءت أخيرا اللحظة الحاسمة في تاريخ هذا الشيخ الضال !.. كان قد خرج من البلدة ليلا كدأبه يستروح الأنباء حتى اشرف على « مر الظهران » فاذا نيران في الصحراء على مدى البصر موقدة تكاد أن تختفي أمامها أسجاف الظلام . واذا خيام مضروبة والوية منصوبة وجف لمرآها قلب الرجل واصابه انقباض .

واقبل على صاحب معه يستنبئه ما عسى ان يكون وراء هذا الزحام فقال له رجما بالغيب :

« أراها خزاعة تأهبت تأهبا وجاءت تثأر . »

فهز الشيخ راسه غير موافق ، وقال :

« خزاعة ! ... اذل واقل »

اجل ، فانها جموع ما رأت مثلها عيناه . واخذه الخوف على قومه فأسرع يهم أن يرتد اليهم ليبصرهم بالأمر . ولكنه ما كاد أن يخطو حتى سمع من ورائه هاتفا يقول :

« يا أبا حنظلة ؟ »

فاستدار ينظر ؟ ثم هتف :

« أبو الفضل »

قال له العباس وقد اقبل عليه ، وهو يشير الى ناحية الضوء :

« ارأيت يا أبا سفيان ؟ هذا رسول الله فى الناس ... »

فصاح مبغوتا :

« محمد ! »

« هو والله ، واصباح قريش والله ! »

فهمس بصوت مبحوح :

« نعم ، واصباح قريش ! »

ثم اردف متلهفا ، يسأل :

« وما الحيلة يا أبا الفضل ؟ »

قال العباس :

« والله لئن ظفر بك رسول الله ليضربن عنقك ، فقد تلف العقد . فاركب معى فى عجز هذه البغلة حتى امضى بك اليه . فاستامنه لك ، وتستأمنه على قومك ... »

تردد الرجل هنيهة ، لا يدرى ايمضى لما اشار به عم النبى أم يعود قافلا الى مكة .. ووقف يوازن بين كلا انوجهتين ليقرر الى ايهما يولى وجهه . ايهما اجدى عليه هى ايهما يتخذ بلا ريب . لأنه تاجر يزن الأمور بميزان الخسارة والرجحان ' وهذه دعوة للحياة جاءته على لسان العباس . دعوة لحياته هو ، ثم حياة أهله ، ثم حياة قومه التى أصبحت جميعها فى كف محمد ، لا عاصم لها منه ان دخل عليهم مكة عنوة وصاروا له صيده المستباح ..

ولم يلبث أن عزم أمره وسار مع العباس بعد ان تبين له رجحان صفقته ان سار ! ...

ودخلا المعسكر يردفه ابو الفضل وراءه على بغلة الرسول فيوسع لها الحراس ويفسحون الطريق كأنها كانت جواز المرور ! . ولم يتبينه فى بادىء الامر أحد حتى أوشكا على بلوغ الغاية . فاذا رجل يقظ العين يعرف هذا الرديف المنكمش تحت ردائه فيصيح صيحة الظفر :

« أبو سفيان عدو الله !... »

واقبل اليهما يعدو . وارتجف جلد شيخ بنى امية ، وهبط قلبه وقد رأى ابن الخطاب يعاود الصياح :

« الحمد لله الذى امكن منك بغير عقد ، ولا عهد !»

وراح العباس يهيب به :

« مهلا يا عمر »

ولكنه عدا يستبق امامهما السبيل الى رسول الله .

وتمتم ابو سفيان من بين اسنانه ، جزعا وموجدة :

« تعس ابن الخطاب ؟ ... انه لأعدى القوم »

وكان هذا حقا لان عمر لم يدخر وسعا لدى رسول الله في اثارته على الرجل ، وحثه على الفراغ منه بجز رقبته .

قال يستحث النبى :

« يا رسول الله هذا ابو سفيان امكن الله منه . فدعنى اضرب عنقه »

وهتف العباس :

« يا رسول الله انى قد أجرته »

فلم ينثن عمر عن دعواه ، بل اخذ يكررها ويعيد التكرار كلما راى العباس يحاول أن يترضى للرجل عند رسول الله . وكادت ان تنشب المشادة بين الرجلين الظهير والمهاجم ، بل لقد بلغ الغضب بالعباس أن صاح وقد نفد صبره . واحنقه من عمر هذا الالحاح :

« بعض الذى تقول يا بن الخطاب ! ... انك لتعلمن انه من عبد مناف ولو كان من بنى عدى لما قلت ما تقول ! »

وقال عمر :

« انك لتعلمن يا ابا الفضل لو كان هو الخطاب لأقولن ما اقول »

لقد كان العباس امرءا من هاشم فيه السماحة الهاشمية . عطفته الرحم حتى نسى ما كان من ضغن ابى سفيان ، ونسى اخاه الشهيد حمزة والمثلة به ، ولما ينصرم الكثير من الزمن على يوم مصرعه وما لقيه من هذا الشيخ الحاقد وزوجه الكاسرة ! ... ولكنه سخاء فى العطف ايما سخاء ، وصفاء فى القلب ليس مثله صفاء .

ورأى محمد أن يفض الخلاف بين صاحبيه فارجأ النظر فى امر عدوه الى الصباح .

وعندما اقتيد الرجل ثانية الى موقف المحاكمة والاتهام . كان الغضب قد انفثأ عن الرسول وعاوده حلمه المعهود ، واتسع قلبه الكبير للرحمة اكثر من اتساعه للقصاص ، فقال :

« ويحك يا أبا سفيان ! ... الم يأن لك ان تعلم انه لا اله الا الله ؟ »

قال الشيخ الداهية مداورا :

« بأبى انت وامى . .. ما أحلمك واكرمك واوصلك ! .. والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره لقد اغنى عنه شيئا » .

فعاد رسول الله يقول :

« ويحك يا ابا سفيان ! ... الم يأن لك أن تعلم انى رسول الله؟ »

فتردد برهة ثم لم يستطع — رغم التزامه جانب الحذر — الا ان يفضح ما يملأ قلبه من تشكك فاجاب :

« بأبى أنت وامى ! . اما هذه والله فان فى النفس منها حتى الآن شيئا ... »

فأسرع اليه العباس ، يلكزه ويهتف به ، ليرده الى سبيل الصواب فى الجواب :

« ويحك يا رجل ! ... اسلم واشهد قبل أن تضرب عنقك »

فهل ترى حببت هذه الكلمات اليه الاسلام ؟ ... لقد اسلم ، وشهد — وبعض الشر أهون من بعض ! — ليحتفظ براسه على منكبيه ! .

الا من ذا ينبئنا عما قراه العباس فى وجه شيخ بنى امية اذ ذاك ؟ ..

واى خلجات النفس انطبعت على المحيا الدميم ؟ ... ذلة الهزيمة وما توجبه من آثار الغيظ الكظيم والسخط المكتوم كان ادنى الى طبع الشيخ فى ذلك الموقف . فان الانسان — على اى حال — لا يستطيع أن يتقبل بقبول حسن ما يأتيه على سنان سيف وان كان نعمة الايمان ذاتها . ولقد كان العباس فيما بدا ، رجلا بعيد مرمى النظرات فى أغوار الطبائع البشرية فضلا عن علمه بطبائع بنى أمية حين قال لابن اخيه :

« يا رسول الله ... ان ابا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئا »

كأنما اراد ان يرضخ للرجل رضيخة تفيء عليه الرضا عن هذا التغيير .

ولقى طلب العباس موافقة رسول الله ، فابتسم وقال :

« نعم . من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

وربح الشيخ ما أراد وفوق ما أراد — ربح راسه ، وربح فخرا ما لغيره مثله من قبل ولا من بعد : وربح لقومه حياتهم ما خلوا بين محمد وبين مكة يدخلها ولا يقاتلونه . . ثم فوق هذا وذاك ربح الاسلام وان كانت العقائد اعصى تبينا على الفاحصين لانها من القلوب فى أحراز . على ان الرجل ، مع هذا ، سار فى التاريخ مسلما منذ اللحظة التى قهره فيها محمد على الاسلام ، ثم الأيام من بعد هى الكفيلة وحدها بطوايا النفوس ، ان شاءت اخفتها او شاءت كشفتها !..

١٥

فى طريق العودة ، وقف شيخ قريش الى جوار العباس بن عبد المطلب عند خطم الجبل بمضيق الوادى ، يشهد كتائب الرسول تمر على الويتها تباعا الى غايتها .

وبهرت الرجل الكثرة فى هذه الحشود والقت فى روعه المصير الموعود . ما لقومه بكل هؤلاء طاقة ، وما للعرب بعدهم معدى عن الدخول فى دين هذا الرجل الذى خرج بليل ، منذ اعوام من داره مستخفيا عن الأعين .

فلقد علت اليوم كلمته ، وسطع نجمه وتآلفت حوله قلوب الرجال قبل تآلف السيوف والنصال .

والتفت ابو سفيان الى جاره وقال :

« يا أبا الفضل . لقد أصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيما ! » .

فأى ايمان هذا الذى كان يقيس جهاد الدعوة الاسلامية بمقاييس الكفاح من أجل السلطان ؟

واسرع العباس يرده عن ظنه ويردعه :

« يا أبا سفيان انها النبوة » .

فهز راسه هزة الموافقة والتسليم وهو يقول :

« فنعم اذن . . » .

ثم انطلق الى بلدة البيت يسبق الجيش . وكان الناس بمكة قد ضاقوا ذرعا بالانتظار وذهبت به ظنونهم كل مذهب ، فلما راوه اقبلوا عليه يستبقون ويسألون .. الا فليثوبوا الى الطمأنينة ما دام قد وسعه ان يحقن عليهم دماءهم ويحفظها أن تسيل علىالرمال ما خلوا بين محمد وبين البلدة ..

وتصايح عليه الشباب :

« بل نذوده عنا ما ملكنا السيوف ! » .

وزأرت هند زوجه :

« قبحت من طليعة قوم ! » .

وكثر حوله الضجيج فقام فى الناس يناشدهم التزام التعقل وسلامة التفكير :

« يا معشر قريش .. مهلا . هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به .. » .

ولكن الطيش اعمى بصيرتهم وسد منهم منافذ الآذان . وهذه امراته تقود امامه حركة التمرد عليه وعصيان نصحه ، وتنطلق تؤلب القوم عليه بدافع موجدتها على محمد ، ثم لا يرضيها الا ان تهجمه فتمسك بشاربه تجذبه وهى تصيح :

« ايها الناس !.. دونكم الحميت الدسم الاحمس فاقتلوه !.. » .

فيلتف الجمع به وقد ثارت ثائرتهم على هذا الشيخ الذى ارسلوه هينا على جيوش الأعداء فجاءهم يفت فى اعضادهم ويدعوهم الى الرضوخ لهؤلاء الأعداء .

وجاهد حتى خلص من حلقتهم المضروبة حوله ، ورفع صوته بالنداء عسى ان يسمعوا له وينتصحوا :

« ويلكم !.. » .

فقاطعته امراته .

« ويلك خسئت ! » .

فلم يلتفت اليها ، بل استانف ما يريد أن يلقيه من حديث :

« لا تغرنكم هذه من انفسكم .. الا وانى نذير » .

فهتف به واحد منهم :

« فاشر بما ترى .. » .

« من دخل دار ابى سفيان فهو آمن .. » .

فيضحكوا منه :

« وما تغنى عنا دارك ؟ » .

« هذا عهد محمد .. ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

ثم مضى عنهم .

ولعل أول من أفاد من عهد محمد هذا ، كان يزيد بن أبى سفيان . دفعت الفتى جهالة الشباب ، كما دفعت غيره من شباب قريش ، الى رفع السلاح فى وجوه المسلمين حين دخلوا مكة فما لبث ان هزم كغيره وولى مدبرا ، فلما وقع اسيرا فى يد خالد بن الوليد أو كاد ، سارع ابوه اليه فخلصه وأدخله داره ليكون بمأمن .

* * *

واتم الله نصره على نبيه . وأباح له مكة جميعا ورقاب اهلها . وكان محمد — كدأبه ابدا — الكريم السمح فلم يحرمهم عفوه ومنحهم الحياة ، وفك رقابهم وكلهم اسراه ساعة أن جاءوه منكسى الرءوس من خزى الخذلان فقال :

« اذهبوا ، فأنتم الطلقاء ... »

ولم يضن عليهم بعد هذا بغاية ما يستطيع فراح يشترى منهم عقائدهم الخاطئة بالهبات وبالأعطيات ، ويسبغ عليهم كرمه وآلاءه لا يضن على طامع فى عرض من عروض الدنيا ، كما لم يضن من قبل على شيخهم ابى سفيان بما تألف به قلبه من فخر ، وكما لم يضن عليه من بعد بالابل وانشاء غب الفتح ، يهبه اياها ويهب ولديه معاوية ويزيد ومن سار سيرتهم من رجال قريش ، عسى أن يخضع النشب من نفوسهم ما لم يخضع سلطان الايمان ...

ومع ذلك فان الأيام وحدها هى الكفيلة بطوايا النفوس ، ان شاءت اخفتها ، أو شاءت كشفتها . لم يقم محمد الا قليلا بمكة ثم أراد الله لبعض هذه النفوس ان تظهر ما تضمر . فهذه هوازن جزعت حين أتتها انباء انتصار المسلمين فأخذت تلف حولها القبائل وتضمها لتناجز رسول الله . كان أخشى ما تخشاه ، ان هى استنامت للنصر الذى اصابه الرسول الا تقوم لها من بعد قائمة . وهى ان ظلت فى الماضى بمنجى عن الصراع الناشب بين حماة الاسلام وحماة الاصنام فلقد كان هذا لظنها ان محمدا لن يظهر على قريش ، أما وقد رأتها

تخضع له اليوم وبدأت تلتف به ، فقد رأت بقاءها مرهونا بقتاله لتعيش آمنة السرب .

وتجهزت هوازن وأعدت عدة القتال . وعلم محمد فسار اليها قبل أن تسير اليه ، وخرج بآلافه العشرة من المهاجرين والأنصار الذين فتح الله بهم عليه مكة ، وخرج معه من قريش الفان بايعوه على الاسلام منذ أيام وان كان فيهم كثيرون دفعهم الى هذا الخروج حبهم الانتصار للقريب من الغريب ، وفيهم كثيرون دفعتهم الرغبة فى الظهور امام محمد القوى المرهوب بأنهم له ناصرون ؛ وفيهم من علموا كيف أفاء الاسلام على رجاله المغانم والأسلاب فصبوا الى أن يصيبوا منها ما يستطيعون ... ثم لعلهم أجمعين — فى معرض الايمان كمسلمين صادقين — لم تخل قلوبهم من دخل ولم يبرحها بعد الزيغ.

وانحدر رسول الله بهم فى عماية الصبح ، فى واد من أودية تهامة أجوف ، يريد أن يصيب من عدوه غرة قبل ان يأخذ حذره ، فما راع المسلمين الا احناء الوادى تمتلىء عليهم خيلا ورجلا ، وقد شدت هوازن وأحلافها على صفوفهم شدة رجل واحد من كل جانب ، تمعن فيهم الطعن وتشيع المقتلة حتى انشمر الناس ذعرا وتفرقوا عن نبيهم لا يلوون ، وان ثبت هو فى مكانه لا يريم وراح يدعوهم بصوته القوى الجهير :

« أين أيها الناس ؟ ... هلموا الى ! ... انا رسول الله .. »

ولكن نداءه تبدد فى أنحاء الوادى ولم تلقفه الا آذان ذويه وغيرهم ممن عصم الله ، وكان على فى مقدمة الثابتين . ووقف العباس ، والتف أبو بكر وعمر وبعض الصحابة برسول الله يناضلون ما وسعهم النضال ... والأهوال دائما محك ايمان الرجال .

أما أبو سفيان فلم يفارقه طبعه ، بل بدا أشد لصوقا به فى هذه الأزمة فانتحى ناحية عن الصراع ... لمثل هذا الموقف لم يأت الشيخ ، ولغير البذل من أجل محمد العدو القديم قد جاء ! وانما قاد خطمه الى المكان ظنه يسر المغنم فى ركاب هذا الواتر المحسود الذى أوسع له « الحظ » فى « ملكه » وأورثه من الدنيا ما شاء . أما وقد لاح له الآن ان الدائرة توشك أن تدور على الرجل الذى تابعه من قليل وعنقه تحت حد السيف ، فقد آن اذن لقلب شيخ بنى أمية ان يظهر ما كان يضمر ! ...

شد على كنانته بيده وفيها أزلام لم يهجرها بعد دخوله فى الاسلام ، ولعبت على شفتيه بسمة منكرة تجأر بالشماتة وهو يقول لبعض من انتحوا ناحية من اقرانه المكيين :

« والذى يحلف به أبو سفيان لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ! ... »

وضحك جبلة بن الجنيد مسرورا بنبوءة ابن حرب وقال :

« بلى قد بطل سحر محمد اليوم ! ... »

ولئن كان أبو سفيان لم يفرغ بعد كل ما فى جعبته من حقد مكنون ، وكان جبلة لم ينس مكانه من جاهليته الجهلاء فان الله شاء ان يكشف عارهما على يدى رجل مثلهما من قريش لم يكن قد تابع محمدا كابن حرب على الاسلام ، لم يمنعه شركه من الغضب لمحمد فى محنته وساعة كربه .. كان هذا الرجل صفوان بن أمية الذى لم يكد يسمع قول جبلة حتى صاح به مغضبا :

« اسكت ، فض الله فاك ! »

ثم التفت الى الشيخ الحقود ساخرا وقال :

« ويحك يا ابا حنظلة ! ... لأن يربنى والله رجل من قريش لأحب الى من أن يربنى رجل من هوازن ! »

* * *

وهكذا كبا الحقد بأبى سفيان هذه المرة لان شماتته سبقت الأحداث قبل الأوان ، فلم يتخل الله عن المسلمين فى حنين ، ولم تطل بهم الهزيمة أو تنتهى عند البحر ، ولم يغير من مصير المعركة ان وقفت كثرة قريش منها موقف المشاهد أو المتربص الحاسد ، بل اتم الله النصر الذى وعد نبيه ، وايده بجنود لم يرها الناس كانت له الظهير ، وكان بها الظاهر العزيز .

ونشر الاسلام بعد هذا لواءه فى بلاد العرب كافة . ودخل الناس افواجا فى دين الله حتى أصبح الشرك سبة ، وغدا المشركون قلة . ولم تهل السنة التاسعة من الهجرة حتى كان جهاد الرسول بالسيف فى الجزيرة قد قارب الغاية واوفى على النهاية ، ثم لم تكد تشرف على نهايتها حتى قضى الله على الشرك بالتشريع فانزل آياته

الكريمة تنقض كل عهد كان للكفر الا عهدا موقوتا فانه يبقى الى اجله ولا يتعداه .

وبهذا التشريع أرسل النبى عليا الى مكة ليؤدى عنه ويقرا محكم التنزيل على الناس . وكان الوقت موسم حج ، وكان ابو بكر اذ ذاك اميرا على الحج من قبل رسول الله فرأى بعض الصحابة أن يبعث اليه فيؤدى الرسالة عنه ، ولكن محمدا ابى الا أن « يؤدى عنه رجل من أهله »

ولحق على بأبى بكر ، والناس بمنى يقومون بمناسكهم ، فتنحى له الأمير وقام هو بينهم مقام محمد يرسم ناحية سياسية جديدة فى تاريخ الدولة ، ويرفع صوته بتشريع الله :

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ... »

حتى اذا أتم تلاوة ما انزل الله ، التفت الى الملأ يقول :

« ايها الناس ... انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو الى مدته » .

وانتهى بهذا البيان ما كان لأهل الشرك ممن لجأ فى عهود قطعها لهم رسول الله على نفسه . وظل مستمسكا بها لا يحيد طوال اعوام . وخبا نجم الكفر أو كاد أن يصيبه الأفول ، الا فى طرف ناء من اطراف الجزيرة حيث قامت فتنة باليمن حيث ابى الناس أن ينزلوا على حكم الله ويرفضوا الاسلام . فكأنهم بهذا أرادوا لابن ابى طالب أن يبدى للتاريخ صفحة من البطولة جديدة . ومن سواه ، جيش وحده كما قال رسول الله ، أولى أن يسير الى اولئك الأقوام ليخضعهم ويضع أنوفهم فى الرغام ؟

ذهب اليهم ، فى جمع من الرجال لا يزيد على ثلثمائة يسير بهم الى دولة لم تعن مرة واحدة للحجاز وخضع لحكمها الحجاز مرات ، وعاود هناك سيرته ، معتـــدا ، معتزا ، واثقا بنفســـه وبنصر الله ، لا ترهبه الكثرة التى طالعتـــه من عدوه ، ولا الهجمة العنيفة التى فاجأوا بها جيشه الصغير . وثبت لهم كما لم يتح لغـــيره احســـان الثبات . وكر فأوقفهم ، ثم كر فشتتهم ، ولم ينجهم من الهزيمة

والخسران ان اعادوا تنظيم صفوفهم وزودوها بقوى جديدة من رجال وعتاد لانه ما زال بهم ينقلهم من رعب الى رعب حتى آثروا السلامة بالتسليم .

وكانت هذه الواقعة ختام الغزوات بالجزيرة ؛ وكان وفد اليمن آخر الوفود التى اقبلت من الانحاء على رسول الله تلقى اليه بالزمام ، وتبايعه على الاسلام ، وفرغ على مما بعث اليه فشد رحاله الى مكة ليلقى رسول الله قد اعتمر وتأهب لحجة الوداع .

البداية

« الذينَ آمنُوا وهاجرُوا وجاهدُوا فى سبيلِ اللهِ بأموالهِمْ وأنفُسِهِمْ أعظَمُ درجةً عِندَ اللهِ وأولئِكَ هُمُ الفائزون » .

١

مدينة الرسول زال عنها كابوس التوجس الذى الم بها ثلاثة ايام سيطر فيها على حواسها فأكربها ، واصبحت صباحها هذا مطمئنة قد عاودها رضاء البال ، باسمة ، فياضة البشر بعد هم ... وهؤلاء ناسها قد استطاعوا اخيرا ان تنفرج منهم القلوب وتتحلل من اصابع اليأس التى كانت تقبضها وتعتصرها عصرا . وانثلجت صدورهم فهدات الخواطر وبسمت الشفاه والنواظر ، ثم راحوا يستقبلون حياتهم كما عهدوها ، ربانة جميلة ، يرف عليها صفاء محمد وتثيرها اشراقة محياه . غاب عنهم الآن ما ساورهم من قلق عليه وجزع قتال . وانطوت المحنة التى جثمت اشباحها كالجبال على قلوبهم خلال أويقات المرض الذى نزل بمحمد فحجبه عنهم . أما اليوم فقد تبدلت الحال وزالت شدتها ، ولن يلبث الرسول الا قليلا ثم يعود فيهم ، كما كان ، حادبا عطوفا يوليهم من رقيق حنانه ، وعذب بيانه ، وخالص ايمانه وقدانبس عافيته وعاودته الصحة... وانهم ليوقنون ان دعواتهم التى انطلقت بها القلوب قبل الألسن ، قد وجدت عند ربهم سميعا . ما كان الله ليرزاهم فى نبيه ويدعهم بعده حيارى وما كان ليغيب عنهم وجهه ، ولكنها تجربة مرة اجتازوها ليختبر الله قلوب قوم مؤمنين .

على ان واحدا منهم ، قبل يومهم هذا ، لم يكن يستطيع ان يلمح قبسا من الأمل فى احناء ما احاط به من قنوط . فالالم ينزل بمحمد ، ويبرح به ويشتد عليه حتى يحتجب مكدودا اعياه الوجع ونالت منه برحاؤه . ثم الحوادث من قبل قد تكلمت بافصح لسان فابانت عن المستقبل اشام بيان ... ان حجة الوداع كانت أول النذر بالمصير المخوف واثارت فى نفوس المسلمين كوامن التوجس . سمعوه جميعا اذ ذاك يقول :

« انى لا ادرى لعلى لا القاكم بعد عامى هذا ، بهذا الموقف أبدا ... »

فما عساه عنى بهذا الكلام ؟. وماذا اصابهم وهو يجاوز شفتيه

فتتقبله الأسماع ان لم تكن أصابتهم رجفة هزت كيانهم واشاعت فى قلوبهم شائعات الجزع ؟ ...

ثم جاءهم التنزيل بما لم يدع لهم معدى عن لازم التأويل . الم يقل الله سبحانه فى ختام آياته :

« اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ... »

فاذا اكتمل الدين الذى به أرسله الله فلأى الغايات بعد تمتد بالرسول الحياة ؟ ...

ثم توالت النذر من بعد تلوح بالمصير المحتوم ، ولم يكن آخرها أن تلا محمد القرآن مرتين على جبريل هذا العام وكان يتلوه مرة واحدة فيما سبق من الاعوام ... توالت النذر وما فيها الا صور تفصح عن القضاء الداهم والرزء القاصم حتى غدت بها النفوس على حوافى اليأس .

ولكن هذا كله وغيره ، ما لبث القوم أن انسوه لأن المسارعة الى نسيان المكاره أولى بطبيعة الانسان ... هذه اقباس من الأمل أخذت تبدو فى آفاق القنوط فتبدد ظلامه وتطوى اعلامه . ان محمدا برىء أو هو الى البرء يسير . بهذا انبأ البشير ، وبه جرت الظنون فى الأفهام كمجرى ثابت اليقين . وكفاهم لينسوا قلقهم ان طلع عليهم ، وهم خلف أبى بكر فى صلاة الصبح ، معتمدا على على بن أبى طالب . بل لقد كاد أن يفتنهم ظهور محياه عن الصلاة ... واقبل فصلى بينهم ، فلما انتهى وعاد الى داره كان قد خلف فى كل قلب رجاء النجاة . وانقضى الوقت بعد هذا على خير ما يكون الأمل . ويأتيهم من لدن نبيهم ، بعد قليل ، من يأمرهم عنه بانفاذ بعث الشاب أسامة بن زيد بجيشه الى الشام فتكاد تنطق ظواهر الحال بصدق الآمال ، الم يكن هذا الجيش يضم ابا بكر الصديق ، ويضم عمر ابن الخطاب ، ويضم غيرهما من صحابة الرسول صفوة الرجال ؟. وهل يدور بين الأخلاد والأذهان ان يبعد النبى عن المدينة كل هؤلاء لو كان يعلم أن سيقع الخطب ويرزأ المؤمنون فيه ؟ ... ثم من عسى أن يكون للناس مقياس الطمأنينة على نبيهم ان لم يكن ابو بكر وقد شاهدوه قد امتلأ طمأنينة حتى غادر المدينة الى السنح لقضاء يومه بين اهله وذويه ؟ ... ومن غير ابن أبى طالب اعلم بالحال وقد لازم الرسول طوال المرض وكابد ما كان يلقاه ؟ ... من غيره وقد رآوه

تطلق محياه اذ خرج من بيت عائشة والشمس جانحة الى الضحاء ذلك الصباح ، حتى توسموا خيرا فأقبلوا عليه يسألون :

« يا أبا الحسن ، كيف خلفت رسول الله ؟ »

فأجابهم بكلمات ، حلوة الجرس صافية النبرات :

« أصبح بحمد الله بارئا ... »

***

ومع ما افاءت البشرى على نفوس الناس من طمانينة وبذرت فيها الرجاء والآمال ، فلقد كانت هناك بين موجة التفاؤل التى سرت بين القوم قلوب لم يبرحها الهم . مرهفة الشعور تكاد أن تلمس المصير المرهوب ونزلة القضاء ... فلم تنفرج فاطمة ، ولم يذهب عنها الروع وان رات اباها معافى يخرج ذلك الصباح ويصلى بين صحبه المتلهفين على لقائه المشوقين الى سماع صوته الذى حرموه ثلاثة أيام . ان الزهراء لم تخنها الذاكرة ولم تخدعها ظواهر الحال وهى العالمة بخباياها الواقفة على بواطنها وليس ذلك اليوم عليها ببعيد وقد ترك فى نفسها طابعه ... وليست حليفة الأحزان بالسباقة الى نسيان الأحزان وان بدت لها اليوم بشائر الرجاء . وكم من لحظة راودت فيها قلبها على التفرج فأبى القلب الرقيق الحساس الا العودة بها الى تلك الجلسة الهادئة بجوار أبيها فى دار عائشة وهو بعد فى مكتمل عافيته . ولم تكن اذ ذاك توجس شرا ، بل كانت تحسب الأيام تجرى وئيدة بالسعود . ومع هذا فقد مال عليها رسول الله يسر في أذنها حديثا لم تملك عند سماعه الا أن تدمع عيناها وتبكى . واشفق عليها ابوها فمال ثانية يلقى فى سمعها كلاما افترت له شفتاها عن بسمات فياضة البشر والرضا ، وعجبت عائشة اذ رات ذلك ، فأقبلت عليها تسألها عما أسره لها رسول الله ، وتقول :

« ما رايت كاليوم فرحا أقرب من حزن ! ... »

فلا تشفى فاطمة ابها غليل السؤال ، بل تجيب :

« ما كنت لأفشى على رسول الله سره ! »

فاذا تصرمت بعد هذا الأيام سبق الظن بفاطمة ظواهر الحال ،

وتجسم حدسها يقينا ظاهره ما اسره لها رسول الله . وحضرتها الآن وهى الى جواره ، وقد عاد لتوه من صلاته الاخيرة خابى اللون معصوب الرأس ، تلك الكلمات التى ابت ان تلقى بها الى عائشة حين احفتها السؤال .

« أن جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة ، وانه عارضنى هذا العام مرتين ، وما اراه الا قد حضر اجلى ... »

وغام بصرها بفيض الدمع كأول مرة فنأت به عن ابيها حتى لا يشهد عليها الما يؤذيه ثم استرجعت بقية سره حتى لقد حسبته يعيد عليها القول :

« ... انك اول أهل بيتى لحوقا بى ، ونعم السلف انا لك ... الا ترضين ان تكونى سيدة نساء هذه الأمة ؟ ... »

فتعاودها ثانية بسماتها الذاهبات تدفع عنها أساها . لانها لن تلبث الا قليلا ثم تلحق بأبيها رسول الله ، وليس عليها بعد هذا خوف من الألم لطول الفراق ...

ولئن كانت فاطمة قد تفردت بمعرفة السر حتى باتت اثناء المرض تكاد أن تلمح أشباح المصير المخوف ، فان عليا كان من الالى توجسوا من مرض النبى وسكن قلوبهم الاشفاق من قرب وقوع الرزء الداهم . ان زوجه — بطبيعة الحال — لم تفش اليه ما كان من حديث الرسول ولكنه كان حقيقا بأن يلمح فى وجهها ما يخشاه . ثم هو يعلم ما علمه غيره من القوم من البينات التى كانت ترجح كفة التشاؤم ، كحجة الوداع ، ومعارضة جبريل مرتين بالقرآن ، ومصارحة التنزيل بختام الرسالة التى بعث الله بها نبيه لهداية الناس . علم هذا كله وجاءته بعده بينة لا تقبل الريب ولا تحتمل التأويل . ففى ساعة من ساعات المرض تسبق الرحيل عن الأرض بقليل . دعاه اليه رسول الله وفى عينيه ما كانتا تشعان من نظرات اعزاز واكبار لهذا الربيب الحبيب ، حتى اذا استوى بالشاب المجلس خلع الرسول خاتمه وحمل سيفه فقدمهما هبة منه لابن أبى طالب . وارتجف كيان على اذ ذاك ، وسارع يشيح بوجهه عن رسول الله حتى لا يرى فى مآقيه لمعات الدموع — وكان ابو بكر معهما ففعل مثل فعله وغض من طرفه . ولم يبق شك لدى الرجلين فى أن رسول الله — اذ علم مصيره كما الهمه الله — قد

آثر بخير ما يملك فى دنياه صفيه المحبوب لان العمر لم تبق فيه بقية لحمل الاختام او لامتشاق الحسام ...

ولقد كانت اللحظة التى طالع فيها على الناس بكلماته المطمئنة هى نفس اللحظة التى لم يمس فيها قلب العباس بن عبد المطلب اثر واحد من آثار الاطمئنان ، الشيخ المجرب لم يذهب ما راح من سنى حياته عبثا ، ولم تفقد بصيرته ما كان لها من نفاذ . لذلك أقبل على ابن اخيه ينتحى به من القوم ناحية ويقول :

« يا على . احلف بالله لقد عرفت الموت فى وجه رسول الله كما كنت اعرفه فى وجوه بنى عبد المطلب . فانطلق بنا الى رسول الله .. فان كان هذا الأمر فينا عرفناه ، وان كان فى غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس » .

ولكنه طلب كان قمينا بان يلقى من على الرد والاباء قبل ان يلقى السمع والاصغاء . أفيقر له الناس بوصية رسول الله لو أنه أوصى بأن يكون فيه الأمر ؟ .. هذه خاطرة طافت بذهنه اذ ذاك وفيه من وقائع الحال الجواب الحاضر على السؤال . فمن قليل ، ورسول الله يغالب وعكة شديدة قال لمن حضره من الصحاب :

« ايتونى بدواة وصحيفة ، أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده .. »

فكيف استقبل الحاضرون من بينهم هذا الكلام :

قال عمر :

« ان رسول الله قد غلبه الوجع ! »

وقال سواه :

« بل قربوا يكتب رسول الله ... »

ثم اختلف الباقون فى الأمر بين موافقة واباء ، لان الذى كان حريا بأن يقر فى الأذهان أن وصية الموعوك اولى أن تكون فريسة الشكوك .

وهكذا لم يكن لعلى بد من ان يجيب عمه :

« والله لا أفعل ، فوالله لو منعناه لا يؤتينا احد بعده ... »

وكان بهذا الجواب موفيا على الصواب وكان العجيب لو انه حدث النبى اذ ذاك فى ان يوصى له أو به ، لانه بهذا الحديث سيكون النذير لرسول الله بغائلة الموت — وحاشاه ! .. والأعجب ان يخالف طبيعته فى البر بمحمد الجدير منه باستقصاء الترفق به فى لحظاته

الباقية اشد استقصاء ! .. في لحظاته الباقية لأن الضحاء لم يكد يشتد من ذلك اليوم الذى فرح فيه الناس ببرء نبيهم حتى عدت العادية التى دهت الأنام واطاشت الأحلام . قضى الأمر فى محمد ، وسمت روحه الى جنة المأوى .. والى سدرة المنتهى .. والى الرفيق الأعلى . وبقى الناس حيال النبأ مهدودى الكيان من جزع يعقل اللسان فلا ينطق ، وفجيعة تأبى على الجنان أن يصدق . كلهم امام الخطب ذاهب اللب مسلوب القلب ، أذهله النعى عن نفسه وخلفه من شدة ولهه فى غمرات .

يا لمدينة الرسول ، وآل الرسول ، وصحب الرسول !.. يا لهم من يوم خالد فى دنيا الأحزان ، ليس كمثله فى الليالى الحالكات ليل ! .. يا لهم منه . قاتما اسحم . اذا جرى به نحسه وان سطعت شمسه .. موصول به الكرب كأن لم يكن قبله كروب تصيب القلوب ! افذهب محمد عن دنياه وغرب عن نور محياه ؟ او لم يعد الآن موته فكرة دسها على النفوس شدة حرصها عليه ؟ .. ما لهذى القلوب فيها صدوع ، وهذى العيون فيها دموع ، وهذى الدور من الحزن تمور وتمور ؟ .. لقد مضى الرسول حقا . مضى فعز الصبر فيه على ذى جلد صابر ، وشق الاحتمال على عزائم الرجال . مضى .. فهلا انطلقت اذن الألسن نادبة ، والأعين باكية ، والحناجر صائحة ناعية ، ما دامت شقت امامها الأجواء صيحة الزهراء — الى السماء :

« أبتاه أبتاه ! .. يا أبتاه ، أجاب ربا دعاه ! .. يا أبتاه ، جنة الفردوس مأواه ! .. يا أبتاه ، الى جبريل ننعاه ! .. يا أبتاه ، من ربه ما أدناه ! .. يا أبتاه .. »

٢

يوم خالد فى دنيا الأحزان ...

لمثله لم يهيأ قلب لأنه فى الرزء فريد ، ولم يشد عزم لأنه يوهى بكل صليب جليد . رزء نزل ففدح ، وعزم حمل فرزح .

ولغير هذه الغاية التى أوفت عليها المقادير الآن كانت تستبق حوالك الأحلام وتجرى فى الخواطر والأوهام . ولكنه حلم صدق فصعق ، وخطب دهم فحطم .

ان الحزن ليفعل فى القلب كمثل النار ، ان سرى اكل وان لبث قتل . وان العين لفى يد الدمع لقى ، ان شاء فاض فأغرق ، أو شاء غاض فأحرق . وان الحديث لفى الأفواه عيا أفصح عن الجزع من كل بيان ، وعلى الشفاه نطقا لن توصف الفجيعة كمثله بلسان .

يوم خالد فى دنيا الأحزان اذ مضى رسول الله . وما بعد رسول الله للناس اسوة أو عزاء ، وما للحزن على فقده مدى ولا انتهاء .

* * *

كذلك كانت المدينة . ثم كانت اطرافها .. ثم كانت الجيرة من بادية وبلدان كلما سرى النبأ الفاجع فى انة باك أو همسات محزون .

وكذلك اجتمع الناس حيارى ، يدفعهمْ اشفاقهم على قلوبهم آونة الى تكذيب الخبر ، ثم ترسلهم الصيحات التى تجاوبت بها دار الرسول الى واد من الألم ، سحيق ما له من قرار .

ولقد تجمعوا فى المسجد وخارجه حشودا بين واجم وصائح ، ومشدوه ونائح . وهذا عمر بن الخطاب بينهم اذهله المصاب حتى خرج من وقاره الى طور من الثورة عجيب . وانه ليهز فى يده سيفه ، وتندفع الكلمات من شفتيه تلتهب بنيران الوعيد وقد اقبل على الناس فى غضبة الاعصار ، يقول .

« ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله قد مات . وانه والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران .. ووالله ليرجعن رسول الله فيقطعن ايدى رجال وارجلهم زعموا انه مات ! »

ولكن محمدا قد مات وان كره عمر ، وان كره قبله وبعــده كافة المسلمين بالآلاف وبالملايين ، ذاق الكأس التى لا معدى عنها ، وخلف متبواه فى الأرض الى متبوأ فى خير دار بخير جوار . وهــذا جثمانه الطاهر رحلت منه الروح ، والتف به ذووه لا يذهلهم الهول عن جهازه ، ولا يقعد بهم عن تهيئته لغايته من دنياه ونصيبه المحدود من ترب الأرض — هو الذى ضاقت بعزم صاحبه رقعة الارض وآفاق السماء .

ها هنا الجدث ، مسجى على الفراش . وها هنا على ، والعباس والفضل وقثم ابناه . وها هنا الزبير بن العوام وصاحبه طلحة بن عبيد الله قد انضم اليهم جميعا اسامة بن زيد مخلفا جيشه بالجرف اذ سمع بنبأ وفاة الرسول . وان الموقف لفياض بالحزن الذى يفعم القلوب بالآلام ويحيط بالذهول الافهام ... ولكن شيخ بنىعبد المطلب رجل فيه تبصر وله حنكة ، بعيد مرمى النظرات فى أغوار المجهول فلم تغش قسوة الموقف عينيه ، ولم تشل خاطره ، ولم تغيب عن بصيرته ما هو مقبل عليه او وشيك على الاقبـال . فقد علمته الاحداث انه يحسن قراءتها ، وانه صادق الحدس بالعقبى . ولقد كان حقا صادق الحدس ، ساعة الضحى من هذا النهار ، حين تنبأ بوفاة الرسول وأراد حمل ابن أبى طالب على السير اليه بكلماته ليوصى بهما او يوصى لهما . وهو الآن شديد الاحساس بأن امرا ما لن يلبث ان يتكشف الزمن عنه ، فان شاء انتهز واسرع ، وان شاء تريث فضيع ! ..

وكذلك بسط الرجل — وهو الى جوار جدث الرسول — كفه الى على ، على ملأ ممن حضر وقال :

« يا بن اخى ، أمدد يدك ابايعك ، فيقول الناس : عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ، فلا يختلف عليك اثنان .. »

فأجابه على ولم يرفع بصره عن الجثمان الكريم :

« لنا برسول الله يا عم شغل »

فصمت العباس .

ودخل بعد هذا أبو بكر وقد عاد من السنح مهدود الكيان من الحزن . لم يلق الرجل الى احد بالا ، وانما اتجه الى صاحبه الكريم المسجى فكشف عن وجهه الغطاء ، وبكى كما شاء له اساه أن يبكى ، وهو يناجيه بنبرات سالت الما :

« بأبى انت وامى يا رسول الله ! .. طبت حيا وطبت ميتا . اما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها يا رسول الله ، ثم لن تصيبك بعدها موتة ابدا .. بأبى انت وامى يا رسول الله ! . »

وانفلت الرجل عائدا فى سكون كما جاء . ولحق بالقوم قدتزاحموا حول الدار ، حائرين بين نبأ المصاب ووعيد ابن الخطاب . فلما راى الامر ، انطلق فوقف بين الناس ، وهو يصيح به :

مه يا بن الخطاب .

فجفت على شفتيه الكلمات ، وحملق فى وجوم شديد الى الصديق وهو يخاطب القوم ويقول :

« ايها الناس ... من كان منكم يعبد محمدا فان محمدا قد مات .. ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت .. وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ... »

فما تركت كلماته فيهم عينا لم يفض بها دمع ، ولا قلبا الا اصابه صدع ، بعد أن تبين — من لم يكن قد ايقن — ان رسول الله لم يمض كما مضى موسى بن عمران وله عود اليهم قريب .. بل ذهب الى غير مآب ، ولن يكون بينه وبينهم لقاء الا فى ساحة الله ، وبعد زوال الأرض وانفطار السماء ...

***

... وراح على يعمل فيما هو بسبيله من جهاز الرسول ، والعباس لا يجد الوسيلة التى يتوسل بها الى موافقته على قبول البيعة حتى لا يخرج تراث محمد من بين ذويه . ولقد كان العباس محقا فيما ذهب اليه ظنه ، لأن الناس — وقد تبينوا الحقيقة — اخذوا يتحدثون فيما عسى سيصير اليه الأمر والى من بعد نبيهم سيؤول. ولم يكونوا اذ ذاك على اختلاف أو كانت مسالك الراى قد تشعبت بهم فنونا ، بل كان الجانب الاكبر منهم فى صفوف بنى هاشم لفرط ما تر فى الأذهان من أن هذا تراثهم الموروث الذى لا ينازعهم فيه من العرب منازع . وبهذا جرت الأخبار فيهم قبله وانطلقت به السن المتحدثين ، وما اظن عمار بن ياسر ولا سلمان ، ولا المقداد ، ولا ابا ذر الغفارى واشباههم ، من الصق الناس بالنبى الكريم ، وابعدهم نفوسا عن الانحياز الى الأهواء والأغراض كانوا يميلون الى غير بيت

الرسول وعن حصر سلطانه فيهم ، وما كانوا — وهم الفئة التى لم يعقل ألسنتها عن الحق عقال — ليظلوا عما يدور بأخلادهم صامتين ... بل انى لأحسبهم ما فتئوا يتحدثون بما أيقنوا أنه الصواب وأنه جماع الخير لأمة الاسلام . وان رجلا كأبى ذر ، ورجالا كصحبه هؤلاء لخير رجال حرية كلماتهم المنوهة عن الهوى ان تنفذ الى قلوب العامة من الناس فى وقت لم تكن فيا القلوب قد لاثتها الأغراض .

ولقد اجتمعت طوائف من المسلمين فرقا تتشاور . فاجتمع عمر بمسجد المدينة يشاور أبا عبيدة بن الجراح . واجتمع سعد ابن عبادة بسقيفة بنى ساعدة يشاور الأوس والخزرج . واجتمعت هنا أو هناك زمر تتحدث وهى لا تقطع برأى ، ثم ظل آل محمد ، ومعهم الصديق ، مشغولين بالجثمان وان بقى العباس من دونهم مشغولا بما ملأ خاطره وشاع فى باله من أمر الشاب الذى يجدر أن يرث سلطان الرسول ولا يحرك كفا لالتماس هذا السلطان ...

وطرق عليهم الباب فاذا رجل يدعو أبا بكر :

« ان ابن الخطاب ، يا أبا بكر يدعوك .. »

فيجيبه الشيخ بهدوء :

« انى مشتغل .. »

ثم يعود هو وصحبه الآخرون الملتفون بالجثمان الى ما كانوا فيه . ولكن الباب يطرقه ثانية الطارق نفسه ، يكرر دعوته السابقة ويقول :

« يا أبا بكر .. ان ابن الخطاب — »

فيقطع الصديق حديث الداعى ، ويصيح به :

« أفى هذه الساعة ؟ ... ويح ابن الخطاب ؟... انى مشتغل بجهاز الرسول . »

« انه قد حدث أمر لابد لك من حضوره ، وقد جئتك أبلغ .. »

فلا يجد حينئذ مناصا من الخروج .

ويبدأ القلق يلعب بفؤاد العباس فلم يبق بعد تريث ولا امهال . ان كل لحظة تمر تغير من سير الأحداث .. ويهم ان يتقدم الى ابن أخيه فاذا الظروف تمده من لدنها بعون على التقدم اليه بما تقدم به من قبل .. تمده بأبى سفيان بن حرب قد أقبل بعد أن نما اليه الخبر عن وفاة الرسول ، ويبدو شيخ بنى أمية محزونا وحق له ،

فمحمد منه خير آله وان قضى بينهما من الخلاف ما كان . وابو سفيان بعد هذا رجل له دراية ، فجاء وفي يقينه مثلما انطوى عليه يقين الآخرين من سواد الانصار والمهاجرين . هو يعلم انهم كانوا في قراراتهم مؤمنين بأن تراث النبي لن يترك داره ولن يخرج عن احب ذويه واقربهم اليه . علم هذا وعلموه حق اليقين . واولئك الذين لم يكونوا على ثقة منه كانوا يؤمنون بأن آل محمد اولى بتراثه ... حتى الذين انحازوا الى سقيفة بنى ساعدة لم يكن اجتماعهم في البدء لانتزاع السلطان وانما للتحوط لأنفسهم ولمكانتهم ممن سوف يتولى هذا السلطان ..

وكذلك دخل أبو سفيان دار الرسول ليقر بالأمر لمن حسب الناس أجمعين سوف يقرون له به ، وهو في هذا لم تغب عنه روح الناجر الذى يزن الزيادة والنقصان ، ولم تخل نفسه من حرص على حق لبنى عبد مناف أسرته خشية أن يلقفه دونهم غريب ... ولئن بدا الشيخ ، في هذه الآونة ، اصفى نفسا لآل محمد مما كنا عهدناه . فلأنه يعلم عن يقين انهم اليه أدنى وعليه — من غيرهم — أجدى ... ثم لانه يعلم أن الأمر اشبه بسباق هو المتخلف فيه — على اى الحالات — وغيره السابق المجلى ولو كان هذا « الغير » هو اضعف المسلمين حسبا بين صحابة رسول الله !..

وتقدم الرجل ، بجوار العباس ، الى على يدعوه :

« يا أبا الحسن ... هذا محمد قد مضى الى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك ابايعك فانك لها أهل .. »

فيجيبه على في طمأنينة ووثوق :

« يا ابا حنظلة . هذا امر ليس يخشى عليه .. »

ويسمع العباس جواب ابن اخيه فلا يرضيه . ان الأمور دائما رهينة بالأوقات وليس يملك المرء الا لحظة هى حاضرة ان تلبث بها لم تتلبث ، وتفلتت عجلى الى ماض قد لا يستطيع اخذه ، وحرى بالرشيد ان يملك زمنه ...

يقول له العباس ، وهو يشير الى شيخ بنى امية :

« يا ابن اخى .. هذا شيخ قريش قد أقبل فامدد يدك ابايعك ويبايعك معى . فانا ان بايعناك لم يختلف عليك احد من بنى

عبد مناف . واذا بايعك عبد مناف لم يختلفْ عليك قرشي . واذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد فى العرب . »

فيتريث على برهة يفكر ، هذا حقا منطق الرجل النهاز الذى تعنيه الغاية ولا تعنيه الوسيلة ، وكان هو غير ذاك . انه ليعلم انه للبيعة أهل ولكنه يرى لزاما عليه أن يتخير الوسيلة الصالحة الى هدفه . وقد عرف للبيعة حقا يجب توفره لتكون بيعة صحيحة ترضيه وتوافق ما جبلت عليه طبيعته المثالية .. كان معنيا دائما بالتماس الكمال واحتذائه فلا يميل الى الحلول التى يمليها الارتجال او الدفعة أو تحين الفرصة . وانه لعلى ثقة من نفسه ومن قدره ، تقدم له أبو سفيان أو لم يتقدم . ولكنه كان حريا أن يعرف أن الامام جدير به الا يملك سلطان الناس بغير مشورة منهم وبعيدا عن أعينهم ، بل الأولى به والأبين على صحة بيعته أن يكون هذا على رءوس الأشهاد حتى لا يفصل بين احد وبين الاعتراض لو شاء الاعتراض .. ولم يكن العباس هو كل الناس ، ولم يكن شيخ قريش كذلك ــ بل هما رجلان مفردان وان علت اقدارهما بين القوم ... ولذلك نراه يغضى عن كف ابى سفيان المبسوطة اليه ويغضى عن كف عمه ، ويهز راسه لهما وهو يقول بالمأثور من صراحته وشدة التزامه نهجه الأمثل :

« لا والله يا عم !.. فانى أحب ان أصحر بها ، واكره ان ابايع من وراء رتاج !... »

وخرج ابو سفيان لا يعقب ، فقد رأى العزم وسمعه فى كلتا الكلمات والنظرات . وبقى العباس صامتــا لا ينبس كما بقى الآل والصحب الحاضرون . اما على فقد عاد الى ما كان فيه من جهــاز الرسول فاحتمل الجدث الطاهر ثم اقبل عليه يغسله . وكان اسامة ابن زيد ، وشقران مولى رسول الله يصبان الماء وقد اسنده هو الى صدره يدلكه من فوق القميص فلا يكشف عنه ولا تفضى اليه يداه . ولقد استطاع على أن يفرض على نفسه ــ ثابتا ــ هذا الواجب المؤلم الذى يهد الكيان ويمزق نياط القلب .. وبحسبه ان كان يهيىء اذ ذاك حبيبه المختار لرحلة فراق ما بعده فى هذه الدنيا تلاق . استطاع هذا وان ابت عينيه ان ترقأ وابى ان يخفت وجيب قلبــه وهو لا ينى يردد من بين الدمع بنبرات ثاكل محزون :

« بأبى أنت وأمى .... لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء . لولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشئون . ولكان الداء مماطلا ، والكمد محالفا — وقلا لك !.. ولكنه ما لا يملك رده ولا يستطاع دفعه ، بأبى انت وأمى !.. اذكرنا عند ربك ، واجعلنا من بالك .. »

٣

طرق باب حجرة الرسول ثالثة فى ذلك النهار .. ولكنها كانت ، هذه المرة ، طرقات عنيفة تلاحقت فى سرعة ، فيها لهفة وفيها قلق ، وكان الطارق هذه الدفعة ، رجلا آخر غير ذاك .

وقام الى البـاب من فتحه فاذا البراء بن عازب يمـرق داخلا كالسهم ، لا يحيى ولا يسلم ، مبهورة أنفاسه ، عليه وعثاء المسير ، فى وجهه وجمة الذى يخفى بذات نفسه أمرا يعرف كيف يؤذى اسماع القوم لو ألقاه وفى كيانه اضطـراب ، وفى عينيه نظـرات الغضب الثائر وان اختفت تحت حكمة التريث المحاذر .

وانبرى اليه العباس ، متلهفا يهتف به :

« البراء !.. فيم أنت ؟ »

فألقاها كلمات موجزة ، مريرة النبرات :

« فى أمر ، يا بنى هاشم ، فاتتم شهوده وفاتكم به الأمر !.. »

وجلس يستروح .

وجم الحاضرون . وملك الصمت منهم الأفواه ، وراحت نظراتهم تنتقل ، حيرى على وجوههم ، وكلهم رجل شارف به شعوره الشر المجهـول .

وكان العباس أملكهم لنفسه ، فلم يلبث حتى انتبه يستنبىء البراء جلية خبره :

« فقل ، ولا تخف »

فبسط الرجل كفيه يائسا ، واجاب :

« قعدتم فملكتم ، وغلبكم ابن أبى قحافة عليها . »

« ويحك ! »

« وبايعته الأنصار فى بنى ساعدة .. »

« والمهاجرون ؟ »

« أما هؤلاء فلا . وانما هم فى المسجد الآن ... ولكننى شهدته بعد السقيفة بعينى ، الى يمينه عمر ، والى يساره ابن الجراح ، لا يمر بهم أحد ولا يمرون بأحد الا قدموا يده — شاء أو أبى — فمسحوها على يد ابى بكر .. »

وتوقف الرجل عن الحديث وقد بدات البغتة تظهر فى عينيه والقلق يشيع فى وجوه الحضور .. ان همهمة خافتة سرت فى الأجواء خارج الدار ثم أخذت تعلو ، ثم اخذت تقترب اذ تعلو حتى تبينوها ألفاظا وكلمات . وما لبث المكان الا قليلا حتى ارتج عليهم بأصوات التهليل والتكبير تسرى من مسجد الرسول . هتافا لخليفة الرسول ، فى لحظة كان جثمان الرسول مسجى فيها على فراشه لم يطوه بعد اللحد .

وصاح العباس اذ ذاك فى بنيه . وفى ابن أخيه ، وفى من حضره من آل هاشم وقد فاض بكلماته الغضب والهبها الهابا :

« تربت أيديكم !.. أما انى أمرتكم فعصيتمونى .. تربت أيديكم آخر الدهر !. »

ذاك لم يجر مطلقا لبنى هاشم فى بال ، ولا لغير بنى هاشم من المهاجرين ، ولا لغيرهم أيضا من الأنصار ، وان تمت البيعة لأبى بكر أولا على يد الأنصار .

ولكن الحوادث جرت سراعا تسبق سرعتها جريان الخواطر فى الأذهان ، حتى ابو بكر نفسه لم يطف بذهنه — الى قليل — انه سيكون خليفة الرسول ، لا ولا عمر ، ولا ابن الجراح وهما اللذان ساعداه وانتزعا له البيعة انتزاعا . وانما كان الأمر فى البدء لا يجاوز اجتماع الأنصار بالسقيفة يتشاورون فى مكانتهم بعد وفاة الرسول ، وفى مكانة بلدتهم ... ويحدسون يا ترى سيخرج سلطان الاسلام من المدينة دار هجرة النبى الى مكة بلدته وبلدة ذويه من قريش الذين سيؤول من بعده الأمر اليهم .. ويتساءلون هل عسى المهاجرون سيؤلونهم الخير الذى أوصى به رسول الله . انهم ليذكرون كيف اختصهم محمد ، وكيف شاد بذكرهم ، وكيف قال عنهم انهم بيعته

وانهم لجأه ، وانه السالك دائما شعب الأنصار وان سلك الناس اجمعين شعبا سواه ... فماذا تصير اليه حالهم لو أتاهم بعده من يخرج بسلطانه عن ديارهم فلا يشيرون ولا يشاورون ؟.

قال منهم قائل :

« منا أمير ومن قريش أمير .. » .

وسأل منهم سائل :

« فان ابوا عليكم ؟ » .

فخرج الحديث بهذا عن نطاقه المضروب ، وتفرق شجونا .

عز على الكثيرين منهم الا تكافأ نصرتهم النبى لدى المهاجرين ، بتأمير واحد من رجالهم الى جوار امير من هؤلاء ، وأن يبدوا فى عيون قريش اهون امرا مما يعرفون من شأن انفسهم هم الذين اقاموا بأسيافهم دعائم الاسلام وبأموالهم اود رجاله الاولين . ولم يكن المهاجرون قد أبوا بعد عليهم شيئا ولم يحضر حديثهم ذاك منهم واحد ، ولكن الأذهان استقبلت الحوادث بالظن والترجيح ثم سارت فى سبيل الظنون تبنى على اساس الخيال .

وانقلب الحديث بعد هذا الى موازنة بين فضل وفضل ، وبين قوة وقوة . لئن تجشم المهاجرون الصعاب وخرجوا من ديارهم في سبيل دعوة الاسلام ، فلقد وجدوا فى المدينة رجالا ذادوا عنهم بغى القريب والغريب ، وشرعوا الأسنة فى سبيل الدين حتى نشر لواءه على الجزيرة من طرفيها . ثم فيم قريش اليوم من سلطان الاسلام وقد كانت — الى قريب — اعدى أعداء الاسلام ؟.. لقد ضربوا عليه بالسيف حتى دانوا اخيرا والقوا الزمام فى يد النبى وأيدى ناصريه . فاذا رأوا اليوم لهم من ورائه مغنما فى سلطان ، اقبلوا يستلبونه ثمرة ناضجة من يدى سقاته بدمائهم وغارسيه ؟!

هذا والله لن يكون !

وكذلك جلس سعد بن عبادة ، شيخ الخزرج ، فى سقيفة بنى ساعدة يدعو الأنصار ان يملكوا بينهم امرهم ويوحدوا كلمتهم فلا يخرج الأمر من أيديهم ، ولا يذهب دونهم بالفضل من تخلف عنهم فى الفضل . ولم يكن استلاب حق المهاجرين الأولين يدور للأنصار فى بال ، ولكن شيخهم علم ان أولئك المهاجرة قلة فى الناس وقلة فى قريش الى جوار كثرة الأنصار السابقين جميعهم الى الاسلام . وكان الرجل

ضاويا مريضا ، يسرى صوته كالهمس فوقف الى جواره يبلغ عنه ، رجل طوال ، مديد القامة ، اصلع ما فى وجهه طاقة شعر ، هو ابنه قيس .

ولقد كادت الأنصار تستجيب للدعوة ، وهمت ان تبايع لشيخ الخزرج وهو من علمت سابقته فى الدين ، وفضله ، وكرمه الذى استطار صيته بين الناس وغمر به المهاجرين قبل الانصار . وانهم ليذكرون له فى هذا كلمة عرف بها وأثرت عنه يوم ان عاد قيس ابنه من سفر صاحبه فيه أبو بكر وعمر بن الخطاب .. كان قيس خلال الرحلة جوادا مسماحا ، ينفق على صاحبيه ويغمر ، ثم لا ينى ينفق ويغمر حتى دفع جوده أبا بكر الى ان يقول :

« بعض مال أبيك يا قيس !.. امسك يدك .. » .

فلما علم شيخ الخزرج ذلك وقد آبوا من سفرهم ، قال لأبى بكر :

« أفأردت انتبخل ابنى؟.. انا يا أبا بكر قوم لا نستطيع البخل!. »

اجل همت الأنصار أن تبايع للشيخ الكريم لولا أن رجالا من الحاضرين لم ينسوا حق آل الرسول وذويه من قريش ، ورجالا آخرين عادت أحقاد الجاهلية الأولى فى صدورهم المغلولة ؛ ورجالا سوى أولئك وهؤلاء استبد بهم حسدهم للشيخ وتحينوا به الفرص لكى يخذلوه .

انفلت من بين القوم من يمم شطر دار الرسول فوقع على عمر بن الخطاب بالمسجد يتحدث الى أبى عبيدة بن الجراح ، فأفضى اليه بما يدور فى السقيفة .

وهب عمر من مكانه مبغوتا يزأر . وبانت الغضبة فى وجهه اذ كانت الانصار تذهب دون قريش بالسلطان على العرب . وتلفت حوله برهة حائرا ، ثم ما لبث أن مد الى رفيقه كفه وقال :

« ابسط كفك يا ابا عبيدة ابايعك ، فانت امين هذه الأمة على لسان رسول الله » .

فلم يبسطها الرجل . بل نظر اليه عاتبا واجاب :

« ما رايت لك فهة قبلها منذ أسلمت يا بن الخطاب !.. اتبايعنى وفيكم الصديق ثانى اثنين اذ هما فى الغار » .

وهكذا تبدل الموقف . واسرع رسول من لدن عمر الى دار النبى يدعو ابا بكر حتى يلحق بصاحبيه ثم يروا رايهم فى أمر الأنصار .

***

منـــذ تلك اللحظة قر فى ذهن عمر ان ابا بكر هو أولى النـــاس بخلافة الرسول . وليس فى هذا ما يؤخذ على ابن الخطاب او يطعن فى قدرة الخليفة الأول وجدارته لتولى شئون الناس ، ولكن الواضح الجلى أن راى عمر جاء عفو وقته ولم يأت من تدبر وتفكير .

اجل كان عفو وقته . ولو كان طاف بذهنه يوما من قبل لما مد الى أبى عبيدة كفه ، ولما تمهل بالزمن حتى يسمع بنبأ السقيفة ، بل لكان سارع ــ مذ علم بوفاة رسول الله ــ الى أبى بكر يبايعه وقد كانت أمامه من الوقت فسحة لهذا وفسحات :

انما الذى يؤخذ على الرجل ، حقا ، انه دعا أبا بكر من دار الرسول ولم يدع معه واحدا من آل الرسول ، فانفرد وحده بالحكم على صحة الراى الذى اشار به زميله ، ووضع ابا بكر فى كفة الترجيــح دون مشورة رجل واحد غير ابى عبيدة بن الجراح كأنه وكل بقلوب المسلمين يكشفها وبألسنتهم يجرى عليها الكلام ، رغم تخلفه عن كثيرين منهم وسبقهم عليه فى الاسلام ، ورغم ما كانت تدعو اليه الحال من ضرورة مشورة واحد ــ فى القليل ــ من آل محمد الأدنين ..

ولكن عمر ــ فيما يبدو فعل كما الهم الموقف قلبه . واختار الصاحب الذى اختاره صاحبه اذ لم تكن لديه مهلة للتفكير فى سواه او فى التحوط لتوفير الصحة لهذا الاختيار . ولعله نسى عليا اذ ذاك كما نسى ابا بكر فى البدء ... ولعله ذكره ثم أراد ان ينساه لأنه حاول فى لمحة خاطفة أن يفاضل بين كهل وشاب فلم ير وجها الى التفضيل ، لأنا نعرف الغلام ، ونحن رجال ثم تسير بنا وبه الأعوام فيظل فى أعيننا نفس ذلك الغلام !...

٤

ما عسى كانت تصير اليه الحال لو ان ابا عبيدة اخذ الكف التى بسطها عمر وقبل البيعة لنفسه ؟.. وما عسى كان ابن الخطاب يقول للناس اذا وقف بعد هذا بينهم يقدم لهم ابن الجراح كخليفة رسول الله على المسلمين ؟. افكانت تقدمته هذه لا تعدو تلك التى قدم بها ابا بكر فكان يقول : « أيها الناس ، ان الله قد جمع امركم على خيركم ... » أم كان سيتنبه اذ ذاك الى الخطأ الذى أوقعته فيه دفعته وجعلته يختار فلا يصيب التوفيق فى الاختيار ؟

لقد كانت فى الرجل حقا دفعة . لا مراء عرفت فيه ابان كلا اسلامه وشركه : وكانت منه بعض خلقه كعنفه المأثور ... استبدت به جاهليته ذات ليلة قبل تفتح قلبه للدين ، فاقسم ليمشين الى محمد فيقتله ويكفى قريشا أمره . واذا به يتوشح سيفه ويسعى الى الدار التى يجتمع فيها النبى بصحبه الأولين . وكان فى حسبان الرجل أن يضرب عليهم الباب ثم يقتحم المكان حتى يفضى بذؤابة حسامه الى قلب الرسول .. فأين الخطل فى التدبير ان لم يكن مجسما فيما كاد أن يرتكبه ابن الخطاب ؟.. وكيف نسى ان دون وصول سيفه المسلول الى قلب عدوه اذ ذاك قلوبا تتلقى عن نبيها الطعنـــات وتنعم اذ ترى دماؤها فى هـــذه السبيل من جـــراحها تسيل ؟.. وهلا علم ، وان غرته العزة بالاثم وهونت لديه الجرم ، ان شجاعة البطش فيه لا تقوم امام شجاعة الايمان فى رفاق محمد وناصريه ؟. لئن غاب هذا كله عن وعيه فى ذلك الحين ، فقد كاد ان توقعه دفعته فى عرين يحميه خير قرين ، هو أسد الله واسد رسوله : حمزة بن عبد المطلب ! وما أحسب عمر لو اقتحم الدار الا كان ملاقيا فى الليث من يرد عليه الطعنة بذات سيفه قبل ان يفضى بها الى الرسول أن لم تنســه هيبة حمزة كيف يرفع الحسام !.. وبحســك أن تعرف أن ابن الخطاب تبدلت به سريرته فى الطريق فيمم تلك الدار لاعتناق الاسلام لا لضرب الهام ، حتى اذا ضرب الباب ورجفت

لمظهره قلوب بعض المجتمعين ، صاح حمزة يتوسل الى رسول الله :

« ايذن له يا رسول الله ... فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه ! ... »

تلك كانت دفعة من عمر عرفت فيه كبعض خلقه ، راضها الاسلام الى حد كبير ، وفل من عزمها ولكنه لم يات عليها ، بل كانت تبدو احيانا للعيان فيجعلها الناس كغلظة او كخشونة فى الطباع ... حتى فى حضرة الرسول كانت تملكه ولا يستطيع ان يتحرر منها الا اذا رده عنها راد . وكذلك كان يوم الحديبية شانه حين لم يستطع أن يتقبل بالرضا شروط الصلح التى أملى اكثرها سهيل بن عمرو ووافق عليها رسول الله . فلقد هاج اذ ذاك ، وانفلت من يده زمام أمره ، حتى انبرى غاضبا الى نبيه يقول :

« أو لسنا بالمسلمين ؟.. أو لست برسول الله ؟.. أو لست كنت تحدثنا انا — » .

وظل على هذه الوتيرة الخشنة من جفاء الحديث حتى صاح ابو بكر :

« الزم حدك يا عمر !... فانى اشهد أنه لرسول الله ... »

وليس من ريب فى ان دافعه فى كلا الحادثين كان الغيرة على دينه وان اختلف بين الزمنين هذا الدين ، ولكنها مع ذلك كانت دفعات تتركه يتحدث فلا يتريث . ويدبر ولا يتدبر ، شأنه فيها كشأنه حين علم أن محمدا قد مات فقام يتوعد بسيفه من قال ان محمدا قد مات .. ولو كان تفكر قليلا لما عجب لوفاة الرسول ، ولما ثار ، ولأنباته به من القرآن آيات وآيات !.. وكشأنه حين علم ان البيعة توشك ان تتم فى سقيفة بنى ساعدة لواحد من الانصار دون رجل من قريش ، فاندفع يتلفت حوله ، حتى اذا وقعت عينه على اول قرشى — وان كان اى قرشى كما لاح ! — بسط كفه وهم أن يبايع !.. واحسب لو القت المصادفة — تلك اللحظة — فى سبيله بابن ابى طالب لما قبض عنه يده ، ولأقبل عليه يدلى بالبيعة فى غير ونى ولا امهال !..

غير ان المصادفة لعبت دورها فاجرت اسم ابى بكر على لسان

ابن الجراح ... أو لعله التدبر ... أو لعله صدق الشعور بمكانة ابن أبى قحافة فى نفس أبى عبيدة وقد رآه يقوم خلال مرض رسول الله بامامة المسلمين فى الصلاة . وسواء أكانت تلك ام هذه ام ذاك من خواطر وافكار هى التى دفعت ابن الجراح فقال قولته ، فان عمر لم يتحر مشورة رجل واحد من المسلمين قبل ان يبعث رسوله الى دار النبى يدعو صاحبه اليه .. لم يتحر مشورة مسلم واحد فى ترشيح الرجل الذى ستصير اليه قيادة دولة . ولم يتحر تمحيص الراى الذى لقنه ابن الجراح اياه عمن حسبه أولى قريش بخلافة رسول الله ، بل اندفع يعتنقه كملقيه ... وما أظن عمر قد اقتنع بجدارة ابى بكر بالمركز المنتظر اذ كان رفيق النبى فى الغار . واحق بالتقديم وأولى بالاختيار فتى خلف رسول الله على فراش أحاطت به السيوف والرماح — الراقد فيه ادنى الى القبر من مدلج فى الصحراء ، وانأى عنه التماس النجاة والفرار الى الحياة !.. وما اظنه قدمه اذ عرفه يؤم المسلمين فى الصلاة بضع مرات ، والامامة فى ذاتها تصلح بالسن ، وتصلح بالعلم ، وتصلح بالسبق الى الاسلام ثم بغيرها من ميزات ، لم يتخلف على عن واحدة منها الا الاولى وليس فى تخلفه هذا ما يعاب به ولا فى تقدم غيره ما يثاب عليه !. ولكنى أحسب عمر — فوق هذا — قد نسى فى آونة الاضطراب الذى انتابه ، موقفا شهده منذ قليل وكان حريا معه أن يميل بعلى الى جانب التفضيل . فلقد عرف كيف اجتبى رسول الله ابن عمه وقدمه على غيره من كبار المسلمين : انصارهم والمهاجرين يوم ارسله الى مكة ليكون لسانه الناطق بمحكم التنزيل فى موسم حج كان ابو بكر اميره ، وذلك ليقرأ براءة ولينقض ما سلف من عهود كانت تربط بين الدولة الاسلامية الناشئة وبين جيرانها المشركين . لقد عرف عمر هذا كما عرفه سواء ، وعلم اباء النبى ان يؤدى عنه ابو بكر ما اختار عليا لأدائه عنه ، وكان قمينا بعد هذا بكل متدبر ان يعلم علم اليقين ان مهمة على لم تكن دينية بقدر ما كانت سياسية ، كأنما الرسول قد اختار ابن أبى طالب للقيام بما هو بعيد الأثر فى كيان دولة الاسلام .

ولكن التاريخ جرى — رغم هذا — فى سبيله المرسوم أخطأ عمر او اصاب التوفيق !... وخرج ابو بكر مهرولا من دار الرسول يتجه الى المسجد وهو لا يعلم فيم دعوة ابن الخطاب . ولحق بصاحبيه هناك فحدثاه بما كان من أمر الأنصار فى السقيفة . ولست أظن الشيخ علم — قبل أن يبرحوا ثلاثتهم المكان — ان صاحبيه ارادا تنصيبه خليفة على المسلمين . ولا أظنهما أيضا حدثاه بما ينم عما اعتزماه ، وانما سار معهما يحث الخطا الى بنى ساعدة وفى باله ان يسعى جهده للاحتفاظ بسلطان محمد لقومه قبل ان يلقفه منهم الأنصار ...

اجل فلم يكن الرجل يطمع مطلقا فى سلطان . ولم يك يجنح قبل يومه الى حكم الناس ، بل قد كان من الألى ينفرون من التأمر ولايجرى امتلاك امور الاقوام له فى خاطر . وان ماضيه لعلى هذا لشاهد ، فقد مر به — ذات يوم على عهد الرسول — اعرابى عرف له صلته الوثقى بنبى الله فجاءه يستفىء منه بحكمة لعله نهلها من نبع محمد ... قال له .

« يا ابا بكر ... أوصنى » .

فأجابه ، كأنما قد اعد له من زمان طويل جواب السؤال :

« اوصيك الا تتأمر على اثنين »

فكانت وصاة نضحت عن طبع جبلت عليه نفسه وان أراد له التاريخ الا يأخذ بها نفسه حين تداركت امامه الأحداث !...

***

ولقيهم — وهم موشكون على بلوغ السقيفة — عويم بن ساعدة ومعن بن عدى : أنصاريان خرجا على اجماع أصحابهما ذلك النهار .. فاستبقا نحوهم يسألان :

« أين تريدون ؟ »

قال ابو عبيدة :

« الى اخواننا هؤلاء ننظر ما هم فيه » .

فنصحهم عويم :

« لا عليكم الا تقربوهم » .

فصاح عمر بمألوف حدته :

« والله لنأتينهم ! »

فأجاب عويم :

« أما ان شئت فدونك .. ولكنى يا معشر المهاجرين قمت فيهم اقــدم على صاحبكم هــذا اذ قدمه رسول الله للصــلاة فعابونى واخرجونى » .

ولا شك أن تقديم أبى بكر كان رايا سرى بين بعض الناس .

وقال له عمر بلهجة المتربص بمجرى الامور :

« سننظر وينظرون ... »

« بل اقضوا أمركم بينكم يا معشر المهاجرين »

ولكنه أبى ، ومضى يتبعه صاحباه وطريدا الأنصار ، حتى اذا أشرفوا على المكان وسرى اليهم جرس الحديث من بعيد . سأل عمر أحد الرجلين :

« فأين صاحب القوم ؟ »

« على فراشه يهمس وابنه يذيع .. »

« ويحه !... لا يملك الناس مريض ! »

٥

استطاع أبو بكر بمعهود حكمته أن ينفذ الى اجتماع الانصــار ، وأن ينفذ الى قلوبهم ، وأن يأخذ ما بأيديهم منهم طواعية او بمظاهرة ظروف الحال .. كان رجلا له فى الناس هيبة وفى النفوس محبة .

بانت البغتة على الوجوه حين بدا يتبعه صاحباه ، ومشى الوجوم فى المكان . لأمر ما عاد عويم بن ساعدة ومعن بن عدى فى ركاب الشيخ وهما الخارجان منذ قليل على الاجماع ، ولكن الالسن لم تكد تصوغ حروف الالفاظ حتى بادرهم أبو بكر بالكلام ، لا عليه ان يتريث حتى يستجمعوا شتات الأذهان ولا عليه ان ينصت ليقولوا فانما قد جاء هاهنا ليكونوا هم له منصتين ...

وكان حكيما غاية الحكمة فلم يدع للفرصة أن تسدد خطاه وان سدد هو هذه الخطا لتصل به الى فرصة وفرصات . وحزم الامر

على ان يكون بيده تدبير الأمر . ولو استطاع لكان أبعد ابن الخطاب عن الحضور الى هذا المكان حتى يأمن دفعاته التى قد تودى واحدة منها بكل تدبير ... ولكنه عرف كيف يملك هذا الزمام حيث يحسن جذبه ثم يرخيه لصاحبه بعدها اذ يشاء .

لذلك ما كاد يدلف الى السقيفة حتى مال على رفيقه يهمس :

« رويدا يا عمر حتى أتكلم ، ثم انطلق بعدها بما احببت » .

فأمسك وقد هم أن يثور بالناس . ووقف أبو بكر يتخير من كلماته مفتاحا الى القلوب . وكان الحديث عن رسول الله هو ذلك المفتاح ، فأثنى عليه وحمده كأحسن ما يستطيع ان يلهج بالحمد لسان وتستطيب الثناء آذان . ثم انثنى يتكلم عن المهاجرين الأولين والعصبة السابقين . قال :

« أيها الناس . لقد خص الله المهاجرين الاولين من قوم رسول الله بتصديقه ، والايمان به ، والصبر معه على شدة اذى قومهم وتكذيبهم ، وكل الناس لهم مخالف وعليهم زار . ولكنهم لم يستوحشوا لقلة . وكانوا أول من عبد الله فى الأرض ، وآمن بالرسول . هم أولياؤه وعشيرته ، وهم أحق الناس بالأمر بعده ... »

ولم يفصح الرجل عن اى الناس بين اولئك المهاجرة اولى بتراث النبى لأنه كان قد جاء لاقرار مبدأ لا لتنصيب شخص معلوم . ولقد أفضى بما راود خاطره عن صاحب الحق فى هذا التراث . ولئن كان ابو بكر لم يذكره باسمه وسماته فقد عينه بتحديد صفاته فأبرزه امام الملأ امرأ من المهاجرين الأولين ، سبق الى الدين ، وكان للرسول وليا من عشيرته وقف الى جواره لا يثنيه اذى ولا يستوحش لضعف ولا قلة . بل راح يعبد الله قبل أن يعرف هذه العبادة فى الأرض سواه ... رسمه ابو بكر هكذا وان جاء الرسم منظرا عاما ظهر فيه غيره ، ولكنه كان على اى حال رسما لا يعوز العين الفاحصة أن تتبين تجمع الوانه فى ناحية واحدة من نواحيه !...

على أن أولئك الذين لم يتبينوا الوضوح فى كلام ابى بكر من الانصار أو تبينوه ثم بدوا كأن لم يتبينوه لان نفوسهم ابت عليهم —

وهم الأعزون — ان يكونوا لغيرهم تبعا .. اولئك لم يلبثوا حتى نطق ناطقهم فقال :

« انمـا نحن أنصار الله وكتيبـة الاسـلام ، وانتم يا معشر المهاجرين — »

فسارع ابو بكر يقاطعه بلين الحديث :

« أنتم من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم في الاسلام . رضيكم الله انصارا لدينه ، ورسوله . وجعل اليكم هجرته . وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور . »

وهكذا عرف الرجل أن يداوى الداء الذى خشيت الانصار ان يصيبها بعد رسول الله ، فقد أقر لهم بحقهم فى المشورة واقـرار ما يرونه من شئون الدولة جديرا بالاقرار . ولكن هذا لم يسكت لسان متحدثهم الذى بادر يعترض :

« بل انكم رهط منا !. وقد دفت دافة من قومكم واذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويغصبونا الأمر . »

فعلا الهمس اذ ذاك بين الحضور ، وتجاوب المكان بهمهمة الاستحسان، صدق هكذا قائلهم واجاد لان حديثه كان لما فى نفوسهم صدى ... وانما هؤلاء المهاجرين رهط قليلون جاءوهم من قبل مستضعفين ثم استعزوا بهم بين اظهرهم فلا تكونن لهم قدم على أصحاب الفضل ، ولا يسبقن الانصار اليها . وان فى أذنى كل رجل من السقيفة اذ ذاك لصوتا داويا مثل قرع الطبول ، يردد ما كان يهمس لهم به سعد بن عبادة ويذيعه ابنه قيس منذ قليل اذ كان يقول :

« ان محمدا لبث بضع عشرة سنة فى قومه يكذبونه الا رجالا قليلين . وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا ان يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن انفسهم ضيما عمهم ... »

اجل هكذا كانوا ... وهكذا كان بينهم النبى حتى اراد الله ان يرتفع لواء الدين فساق الى محمد الانصار مؤمنين ومانعين وناصرين . ولعل سعدا لم يتجاوز الحقيقة حين قال فى معرض اثارة الحمية فى نفوس قومه والتدليل على فضلهم المشهود :

« يا معشر الانصار . لما اراد لكم ربكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الايمان به وبرسوله ، والمنع له ولاصحابه ،

والاعزاز له ولدينه . والجهاد لأعدائه ... يا معشر الأنصار قد كنتم اشد الناس على عدوه منكم ، واثقلهم على عـدوه من غيركم حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا ، واثخن الله لرسوله بكم فى الأرض ودانت بأسيافكم له العرب ... يا معشر الأنصار — فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس فانه لكم دون الناس ! »

... ترددت هذه الكلمات ومثيلاتها مما نطق به ابن عبادة ، فى اذهان الناس وأبو بكر قائم فيهم ، يكاد أن يغرق صوته فيما يملأ المكان من اصوات ، ولكنه رجل جاء ينصر مبدأ ويدعو اليه ولا يقف به عن ادائه مقاطعة ولا اعتراض . فاذا كان الأنصار قد عرفوا لقضيتهم هذه حقا فقد عرف لقضيته ايضا حقا اثبت أمام حجة الخصيم والغريم .. قال مرفوع الصوت مهيب السمت ، فى رنة فيها لين وفيها جرس رصين :

« ايها الناس !... ما ذكرتم فيـكم من خير فأنتم له أهـل ، ولكننا — نحن المهاجرين — أول الناس اسلاما ، واكرمهم احسابا ، واوسطهم دارا ، واحسنهم وجوها ، واكثرهم ولادة فى العرب : وامسهم رحما برسول الله ... ولن تعرف العرب هذا الأمر الا لهذا الحى من قريش ! »

حجة تجبه الأنصار فلا تدانيها حجة لهم ، الفاظ فى مجـال المفاضلة والفخار ليست تطاولها الفاظ . ولكنها على محك البحث والتمحيص لا تستقيم لكافة المهاجرين !.. لا ولا للقلة منهم !.. لا بل عساها — ان نشرتها لهم كالثوب — لا تزال تبدو فضفاضة مهدلة الذيول والاكمام عليهم اجمعين ثم لا تنسجم بعد الا على فرد فيهم لانها اقتطعت على قدر صفاته وميزاته !.. انا لنؤمن حقا ان قريشا بين قبائل العرب كانت الأعلين . وأن ذاك الحى حقا كان أعلى قريش . ولكننا نؤمن ايضا ان آل هاشم كانوا فى حيهم هذا وفى العرب كافة الأوسط دارا ، والأذكى نارا ، والأعز جارا ، وبحسبهم أنه كان منهم رسول الله . ثم دع السامع والمتحدث كليهما يتخيران من بين هؤلاء رجلا — سوى على بن ابى طالب — كان اول الناس اسلاما ، وادناهم قرابة من الرسول ، وجمع الظلال والأضواء التى أضفاها أبو بكر على صورة من يرى له حق ولاية الناس .. دع السامع والمتحدث كليهما

يتخيران رجلا له كل هذه الصفات لو استطاعا الى الاختيار السبيل!..

على اننا لا نستطيع أن نجزم ان كان أبو بكر قد زوى هذا الكلام وفي نيته أن يروج به لعلي ويدعو اليه ، ولكننا نجزم ان الشيخ — على اى حال — لم يعن به اذ ذاك نفسه ، لانه رسم ميزات اجتمع له منها الجل ولم يجتمع الكل ، ولانه كان قبيل هذا المقام لا تجرى له ولاية القوم فى بال ولم يسع سعيه الا ليقيمها فى الحى الذى آمن انه اجدر بها من كافة أحياء المسلمين .

ومع ذلك فلم يستطب منه بعض الأنصار ما قال لأنه اجمل المقال ولم يحدد هدفه تمام التحديد . وعساه لو كان القى على اسماعهم اسم ذلك الشاب الذى خلفه قائما على جثمان نبيه وابن عمه يتمهده بالاعداد والتجهيز لكان للأنصار شأن غير شأنهم هذا ، ولكانوا القوا له كلا السمع والمقادة لا يعترضون ولا يحاجون . ولكن أبا بكر انتهج ذلك اليوم النهج الذى يستقيم وطبعه اللين الرقيق ، وآثر ان يكسب الأرض تحت قدميه شبرا شبرا ولا يقطع الشوط كله بقفزة .

كذلك فعل ابو بكر ليخضد شجرة الأنصار شوكة فشوكة ، فبدا يحد من غلوائهم بذكر الرسول ، ثم بلين الحديث ، ثم بالثناء على ما تولوا به الاسلام من فضل ، وكلما استراحت لحديثه الآذان انتقل وئيدا الى الناحية التى تقربه من الهدف المرموق . ولكنه ما كاد يبلغ مبلغه من الكلام واثره فى كثير من النفوس والاحلام حتى انفلت اليه الحباب بن المنذر ، وقد خشى مغبة هذه الرقة على قضية الأنصار ...

قام الرجل يصيح فى قومه محذرا :

« يا معشر الأنصار !.. املكوا عليكم امركم . ان الناس فى فيئكم ، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ، ولن يصدروا الا عن رايكم ... »

وانقلبت بهذا قضية الانصار قضية وطنية تسيرها العصبية !.. وبدا الأمر كأنه صيال المدينة ومكة كل منهما تبغى ان تفوز دون اختها بالسلطان !...

وأثارت كلمات الحباب الحماس فى الناس فاقبلوا عليه بافئدتهم يصيخون .

وعاود الرجل دعوته بقول :

« يا معشر الانصار !.. انتم اهل العز والثروة ، واولو المنعة

والعدة ، وذوو البأس والشدة . وانما ينظر الناس الى ما تصنعون ... فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض أمركم . »

فتهاتفوا من كل جانب :

« وفقت فى الرأى »

واتم ، وهو يشير الى الثلاثة المهاجرين :

« فأما وقد أبى هؤلاء الا ما سمعتم . فمنا أمير ومنهم أمير .. »

وكانت هذه زلة اللسان التى قوضت اركان البنيان !..

٦

امتقع سعد بن عبادة وغاض لونه اذ سمع كلمة الحباب ، وهمس لنفسه ، محنقا ، وهو يصرف بأسنانه :

« ويحه !... هذا أول الوهن ! »

لم يكن لسان ابن المنذر اول ناطق هكذا بقسمة السلطان بين قريش وبين الانصار ، بل سبقه الى التحدث به سواه حين بدأ اصحاب السقيفة يتشاورون قبل مجىء أبى بكر وصاحبيه . ولكن النطق به الآن أقر المهاجرين بالحق فى تولى تراث الرسول بعد ان أوشك ابن عبادة أن يخرجهم من الأمر صفر الأيدى .

مع ذلك فان عمر لم ير فى هذا الحديث نصرا للقضية التى جاء يذود عنها وان كانت كلمات الحباب — فى الواقع — هى نصف النصر . فسريعا عاود ابن الخطاب عنفه ، وضاق بطول التزامه الصمت ، فما وسعه الا ان يصيح :

« هيهات هيهات !.. لا يجتمع اثنان فى قرن » .

واصر الحباب :

« بل يجتمعان ! » .

« لا والله !.. ولن ترضى العرب ان يؤمروكم ونبيها من غيركم . ولكنها لا تمتنع ان تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى امورهم منهم . ولنا بذلك على من أبى الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين .. » .

فقام أحد الأنصار يهتف بقومه :

« يا معشر الأنصار ! املكوا على ايديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر » .

هنا ملكت الحدة لسان عمر فانبرى يقول :

« منذا ينازعنا سلطان محمد وامارته — نحن اولياءه وعشيرته — الا مدل بباطل ، أو متجانف لاثم ، او متورط فى هلكة !؟ » .

قال الحباب ، وقد سمع هذا التعريض ، يخاطب اهل المدينة :

« أما وقد أبوا عليكم ما سألتموه ، فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، لانهم بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين .. » .

وازدهاه ما كان هو فيه من منعة بقومه وداره وبلده بعد أن اثاره عنف ابن الخطاب ، فانتضى سيفه يلوح به في وجه عمر ويصيح :

« أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب !.. اما والله — ان شئتم — لنعيدنها جذعة !.. » .

عصف الغضب بجوانح عمر لهذا الوعيد حتى تلهبت عيناه فمرق كالسهم الى الرجل يزار :

« اذن يقتلك الله ! » .

« بل اياك يقتل ! » .

وأوشك أن يقع ما خشيه ابو بكر بادىء الأمر من ابن الخطاب . بل لقد لاحت فعلا بعض نذر الشرك اذ ضرب عمر يد الحباب فاسقط منها السيف ، ثم أشرعه يهم أن يردى به سعد بن عبادة الذى راى فيه خالق الفتنة ومثير نوازيها . وما أحسب آفة كانت تصيب الاسلام بمثل ما أوشكت أن تصيبه هذه الدفعة العمرية الفوارة لو لم يتدارك الله الأمر فيلهم ابن الجراح ان يحول بين صاحبه وبين ما اراد . كان أبو عبيدة قد قضى الوقت جميعه يشهد ويسمع ولا ينطق بكلام . أما وقد كاد ان يفلت من بين اصابع صاحبيه الزمام فقد سارع الى جذوة النار يخمدها قبل ان تغدو مشبوبة الأوار .

هتف بأهل السقيفة بصوت هادىء رزين ، فى نبراته توسل ورجاء :

« يا معشر الانصار !. كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير .. »

فكأنما قد لمس بكلماته هذه صمام الهدوء والسكون فى القلوب ..

انصت له الناس ، ثم تهامسوا ، ثم لم يلبثوا حتى هدأت فيهم ثورات النفوس . وبدا المكان ساكنا كأن لم يكن فيه شجار أو جرى فى نواحيه حديث . وما برح القوم الا قليلا حتى تبينوا حقيقة الأمور ...
تبين رجال انهم أوشكوا أن يغصبوا حق رجال آخرين . وتبين رجال ان فى صدورهم غرسا جاهليا كادت أن تذويه تعاليم الاسلام عاد اليوم يدعوهم الى ربه من جديد . وتبين رجال أن رفعة واحد من الآل تثير الحسد فى نفوسهم وان كانوا له بعض الآل .. وفى مثل لمح البصر عملت هذه العوامل كلها متفرقة ومجتمعة ، وكان مجتنى الثمرة من ورائها غير الأنصار !...

وكان اول تلك العوامل حسد الآل للمبرز من الآل . فقد قام بشير بن سعد فى القوم يخطبهم ويقول :

« الا ان محمدا — ايها الناس — من قريش . وان قومه أحق به واولى . وايم الله لا يرانى الله انازعهم فى هذا الأمر ابدا .. »
ولئن كان الدافع الذى أجرى لسانه بهذا الكلام قد خفى على بعض الناس فان الحباب ابى عليه أن يظل خافيا ابدا ، بل سارع فكشف عنه الغطاء .. صاح به ظاهر الغضب تقطر من الفاظه مرارة اشمئزاز :

« ما أحوجك الى ما صنعت يا بشير ؟.. انفست الامارة على ابن عمك سعد بن عبادة ؟! » .

فلم يسع هذا الحاسد الشانىء الا أن يجيب :

« لا والله .. ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله فيهم .. »

* * *

وكان ثانى العوامل أحقاد الجاهلية ثارت كثورتها قبل الاسلام وقبضت من بعض النفوس على الزمام .. قام سيد الأوس اسيد بن حضير ، وقد حضره فى هذا المقام ما سلف بين قومه وقبيلة بنى الخزرج رجال ابن عبادة فى الجاهلية من خلافات وثارات . قام يثير فى الأوس عصبية اطفأت فورتها سماحة الاسلام ويوقظ ما نام من سخيمة الصدور بأن راح يهمس لبنى قبيلته :

« يا بنى الأوس ، لأن وليتموها سعدا عليكم مرة فوالله لا زالت للخزرج بذلك عليكم الفضيلة ، ولا جعلوا لكم نصيبا ابدا .. »

***

واستقر بهذين العاملين السلطان لقريش . لا لأن الأنصار قدمت على نفسها قريشا ، ولكن لأنها استحبت أن تحارب رجلها الكريم وتسلبه ما كاد ان يتم له من سلطان !. وانتهز أبو بكر الفطن فرصة هذا الانقسام الذى دب فى صفوف هؤلاء المنافسين فأخذ عمر بيد ، وأبا عبيدة بالأخرى ونادى فى الناس :

« أيها الناس .. هذا عمـر ، وهـذا ابو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا »

ولكن ابن الخطاب لم يكن قد نسى بعد أى ثلاثتهم أولى بالبيعة دون صاحبيه وما زالت كلمات أبى عبيدة بن الجراح ترن فى اذنيه . فأسرع يقول :

« بل ابسط يدك يا أبا بكر ... »

وعقب أبو عبيدة بعده :

« انك لأفضل المهاجرين ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ... »

فبسط الشيخ لكليهما كفه يبايعانه . واسرع عند هذا بشير بن سعد يفعل فعلهما فينحاز وراءه بعض الخزرج ... ويرى هذا اسيد ابن حضير فيدعو قومه علانية بعد ما كان من همسه واسراره :

« يا بنى الأوس !.. قوموا فبايعوا أبا بكر ... »

وسارت هكذا البيعة للرجل الذى لم تجر خلافة المسلمين له فى بال ولم يك يطمع مطلقا فى سلطان ، ولعل وصاته لذلك الاعرابى راودت فى هذه الآونة خاطره فعرف كيف يروج المرء للمبدا حينا ثم لا يلبث حتى يكون من ناقضيه اول ناقضيه !.. ثم عرف ان حجته التى الزم بها منذ قليل هؤلاء الأنصار لم تعد حجة يلتزمها هو نفسه. ما دامت قد شاءت له أن يحيد عن هذا الالتزام ظروف الحال ، والفرص التى اتاحها !ه حسد الآل للآل ، وما عاد الى الحياة من أحقاد الرجال !..

٧

ثبت الأمر لأبى بكر ، يوم السقيفة ، بانحيـاز أسيد وبشير ومن تبعهما الى رجل بنى تيم . وازدحم الناس من هذين الحيين حوله يتسابقون الى بيعته حتى نسـوا الشيخ الذى أوشكوا ان يلقوا اليه بالزمام من قليل .. نسوا كريم المدينة سيد الخزرج سعدا الذى اقعده وجعه ثم كادت أن تطأه منهم الأقدام وهم يتدافعون نحو السيد الجديد !.. ما أسرع تنكر الانسان للمروءة أمام خيال السلطان !.. ان الناس لم يعد يشغلهم من دنياهم هذه اللحظة الا ان يمسحوا بأكفهم على كف أبى بكر . أما ذلك الذى كانت كلماته تلهب عواطفهم وتثير فيهم الحماس ، وكانت دعوته تملك اهتمامهم وتستغرق منهم الحواس ، وكانوا يتلقفون همسه كمثل تلقفهم خطرات الأنسام فقد هان لديهم الآن شأنه ، وبدا حاضرا كغائب حتى كادوا يقتلونه وهم لايشهدونه !..

وارتفع من احد الذين التفوا بشيخ الخزرج المريض صوت محذر يصيح :

« يا قوم !.. اتقوا سعدا لا تطأوه ! »

فما أتمها حتى رنت ـ كرجع الصدى ـ كلمات جافيات غضاب :

« اقتلوه ، قتله الله !.. »

وكانت هذه دفعة اخرى من ابن الخطاب . انه حتى فى هذه الآونة التى يدعو ضيفها على الشيخ الى رحمته والترفق به ، لم ينس عمر عنفه ، ولم يتدبر موقفه ، ولم يجعل بخاطره قبل تفوهه بهذا الكلام ما عسى أن يصيبه وصاحبيه ثم يصيب الاسلام لو عدا على ابن عبادة رجل فقتله تلبية لهذه الدعوة الغاضبة . وما أحسب حتى أولئك الذين خذلوا سعدا من الخزرج حين تنازع السلطان سوف يبيحون دمه واحدا من الناس أيا كان . ولكن عمر تحدث وما تريث ، وقرر وما تفكر فى عقبى قراره ، فاذا أبو بكر يسارع فيكبح جماحه ، ويرده الى ما هو أدنى الى الصواب ان لم يكن عين الصواب .

قال له ناصحا وزاجرا فى آن :

« مهلا يا عمر ... مهلا فالرفق ها هنا أبلغ »

أجل فالرفق واصطناع الأناة اولى فى مقام يعج بالمخالفين والأخصام ، وكانت الأناة اداة أبى بكر منذ البدء ، داور به الأنصار ما استطاع حتى اكملت له الظروف فوزه . وكان العنف اداة عمر لأنه ادنى الى طبعه وابلغ — فى ظنه — اثرا فى مثل هذا المقام . ولقد اصاب أبو بكر فى تلك الآونة لأن كثيرين من الأوس التى أجمعت الكلمة على البيعة له ، لم يبايعوه لفضل وان كان صاحب فضل ، ولكن لأنه كان رجلا من غير الخزرج الغريمة القديمة !.. ولأن كثيرين من الخزرج بايعوا متابعة منهم لسيدهم بشير ... ثم لأن الأكثرين بعد هذا منها — وكانوا فى كف سعد — قعدوا عن البيعة ولم يثوروا بها لأنهم قداذهلهم موقف قومهم من حاسدين وموتورين بعد الذى كانوا كلهم عليه من اجماع .

* * *

أصاب ابو بكر فى اصطناع الأناة ، وفى النصح لعمر بأن ينهج نهجه لأن العنف كان قمينا ان يعود بنفوس الأنصار الى تدبر الأمر من جديد . واخطأ عمر لأن رؤية الدماء كانت كفيلة بأن تثير حرارة الدماء ، ولو أن دعوته الى قتل ابن عبادة لقيت سامعا مطيعا ، لما عجبنا أن رأينا الأمر ينتقض على أبى بكر قبل أن يبرح السقيفة ذلك النهار ، ولرأيناه يخلفها كما دخلها ، رجلا من قريش بغير بيعة ولا سلطان . ولكن عمر ، وان يكن بدعوته تلك قد اخطأ ، فانه اصاب من حيث اخطأ .. أصاب لأنه رأى فى حياة ابن عبادة عودا للفتنة وعودا الى الانقسام بين المسلمين : أنصار ومهاجرين ، لو شاء شيخ الخزرج فى يوم أن يحاول ابتزاز الحكم . بل ان حياة ابن عبادة عودا للفتنة وعوداً الى الانقسام بين المسلمين : انصار وهو آمن ، وفى هذا ما فيه من انتقاص هيبة الحاكم ، وكفيلة بأن ينقض البيعة من بايع لأنه شهد السلامة لمن خالف ولم يبايع !.. وكفيلة بأن تترك غيره من الأنصار يحدث نفسه بذلك الحق الذى افلتته اصابع قومه ثم يسعى فى اصابة ما فاتهم من نجاح ، واخيرا هى كفيلة بأن تدع ايا من الناس ظن لنفسه الجدارة وفيها القدرة يحاول جهده التماس هذا النجاح .

اخطا عمر : ثم أصاب من حيث اخطا ، لاننا شهدنا مع الأيام ، الظنون التي طافت بذهنه اذ ذاك تتحقق أو توشك أن تتحقق ... شهدنا سعد بن عبادة يقبض يده عن البيعة لأبى بكر ثم لا يزال يقبضها بعد البيعة الثانية ومعه كثيرون من قومه ظاهروه على هذا الامتناع — لا يرجعه عن عزمه هذا اغراء أو دعوة الى التزام كلمة الجماعة ، بل لعل الدعوة أثارت فى نفسه قوة العزم والاصرار .

جاءه من لدن الخليفة رسول يقول :

« أقبل فبايع ... »

فيصيح مغضبا :

« أما والله حتى ارميكم بما فى كنانتى من نبل . واخضب سنان رمحى !.. »

فيجيبه الرسول محذرا :

« اتق الله يا سعد ، ولا تشق عصا الجماعة . لقد بايع الناس وبايع قومك .. »

فلا تلين للرجل امام هذا قناة ، بل يقول :

« انى ضاربكم بسيفى ما ملكته يدى !... مقاتلكم بولدى ، واهل بيتى ، ومن أطاعنى من قومى !... »

ويعلم عمر بهذا فيخشى المغبة ، ويكاد أن يسبق الى خاطره منه أمثال وأمثال ما ظلت هكذا هيبة صاحب السلطان ورهبته لا تملكان القلوب ... واذا به يهتف بأبى بكر ناصحا :

« يا خليفة رسول الله .. لا تدع الرجل حتى يبايع .. »

ولكن بشير بن سعد ينصح بغير هذا :

« بل دعه يا خليفة رسول الله . انه قد لج وأبى . وليس بمبايعكم حتى يقتل . وليس بمقتول حتى يقتل ولده ، ثم اهل بيته ، ثم طائفة من عشيرته ، فاتركوه ... »

ومع ذلك فقد بقى رأى عمر حيث كان . وبقى الخطر — فى يقينه — ماثلا فى شخص ابن عبادة لا يبرح وشيخ الخزرج قائم فى الحياة ... ولقد جاءت لحظة على هذا الشيخ جعلته يشد رحاله ويخرج من بلدته مهاجرا الى الشام ثم لا ندرى أكانت هجرته من خشية بطش أم نبا به المقام بين ظهرانى قومه الذين حسدوه ومالأوا

عليه الغريب ، ولكن الذى ندريه أن الأخبار جرت بعد قليل تروى قصة انتفاء الخطر الجاثم فى شخصه بعد ان لقى الرجل مصرعه وهو غريب الدار ... واقاصيص الغيلة على السنة العرب جديرة دائما بالسماع لفرط ما كان الرواة يضفون عليها من سمات وتزويق وان كانت غير جديرة دائما بالتصديق ! ولكن الذى نما الى الأسماع حينذاك أن هاتفا فى ظلام الليل باحدى نواحى الشام ما برح ليلة بعد ليلة يصيح :

قتلنا سـيد الخزرج سـعد بن عبـاده
رميناه بسـهمين فلم نخـط فؤاده !

وكان هذا الكلام — فيما روى الرواة — من شعر الجن التى قتلت سعدا ... فلما أصبح الناس لم يجدوا الرجل فى داره ثلاثة ايام ، فالتمسوه حيثما شاءوا فلم يعثروا عليه . ولم يبق الا ان يطلبوه فى مكان الهاتف فاذا بهم يجدونه فى بئر ، مطعونا ، قد اخضر لونه من العفن .

وقال بعض الحمقى :

« هذا فعله الجن ! »

وقال بعض الذين يعرفون ، او ظن أنهم يعرفون :

« قتله خالد بن الوليد وصاحب له ، طعناه بعد ان كمنا له ليلا ، والقياه فى البئر ... »

قيل :

« وما لهتاف الجن الذى سمعناه ؟ »

قالوا :

« بل هو هتاف صاحب خالد ، هتف به ليقول الحمقى مثل ماكانوا يقولون !... »

ثم قال آخر :

« انما قتله خالد بن الوليد بأمر ابى بكر ... »

ولكننا لا نستطيع ان نقحم الخليفة الأول فى هذا العدوان لان خلقه سياج حائل ، ولا نستطيع ان نبرىء ساحة خالد لان خلقه اولى به ما كان !. وليس القائد الهمام بالنقى الصفحة كل النقاء من العدوان !... ثم لا عليه ان فعل لحفظ جماعة المسلمين ان تتفرق بين

خليفة وداعية بأرض الشام عساه قد خرج اليها وفى قصده أن يفوز فيها بما فاته الفوز به فى المدينة !.. ثم خالد بعد هذا وذاك قريب فى حساب الأنساب وليس بغريب عن ابن الخطاب ... فاذا شرع أحدهما فى التنفيذ ولم يصب هدفه ، فقد راب الناس ان ثانيهما أصاب !...

٨

مال النهار ، وتفرق بياضه بددا فى أطراف الأفق ، ثم أخذت غوادى الليل تنتقص منه كما شاءت ، ويغير سواده حتى غشاه ، وامتلأت رقعة السماء بالظلال الدكناء .

وراحت حركة البلدة مع النهار وانطوى هتاف الناس للحاكم الجديد والحديث عنه بانطواء العشاء ، وبدا الظلام منشورا فى الجو كانتشار الرمال على الأديم المترامى ، لا تحده عين ، ولون الدجى الذى غلف الكون واحتواء يملأ الأبصار حتى لا ترى سواه .

وكان البراء بن عازب قد غادر دار الرسول مخلفا فيها عليا وآله الى جوار الجثمان الطاهر ، لا يشغلهم ما شغل غيرهم من أمر السلطان، بل قروا فيها ، حليفهم أساهم . وخرج هو نطاف هنيهة بالمدينة ، مثقل القلب من همه : خطب محمد ، وخذلان صحب محمد آل محمد ... ولم يقر للرجل قرار بل أمعن — على غير هدى — فى التطواف . وبذل من جهده فى السير ما عسى ينسيه عناؤه ما كانت تلقى نفسه من عناء . ولكن لوعته صاحبته ، ولاحقته خواطره القاتمة قتامة الليل وملأت عليه آفاق روحه فتلمس معدى عنها رحبة المسجد لعله يفىء الى بعض هدوئه فى ساحة الله . ويمم ركنا يستريح فيه آونة ويمسح بالصلاة على فؤاده الجريح . ثم يستقر ويسكن لحظات . ولكن بصره كان لا يلبث أن يدور فى المكان ، ويستوعب نواحيه ثم لا يلبث حتى تثبت عيناه على ناحية دانية طالما ثبتت قبل هذه الليلة عليها العيون ... وانه ليخال ان محمدا الآن جاثم فى المحراب وان خلا منذ اليوم منه المحراب !... وينقبض بهذا صدره ، ويرعش جفنه ، ثم تبتل

منه الاهداب . وانه ليناى بناظريه آنا ، فاذا السمع يحمل اليه ما أبعد عنه عينيه — او هو الخيال — حتى ليسرى اليه الترتيل واضحا فى هداة السكون . ينطلق ذلك الصوت الرقيق الحلو النبرات بهمهمة خافتة يتردد جرسها حوالى البراء ، جائيا من ناحية المحراب فى هدوء حبيب ، وفى خفوت رتيب يمتلىء به السمع ولا يشبع ، اما القلب فيقنت ويخشع ، واما النفس فتعنو وتخضع ، واما العينان فلا تزالان تتلفتان ثم يرتد البصر ، لأن المسجد كله من محيا محمد خلاء ، وكان محياه قبل الليلة للبصر ضياء وجلاء .

ولم يعد للرجل محيص عن الرحيـــل ، ودمعه سباق لا يرقأ ولا يغيض ، وقلبه قد اكتسى أسى فوق أسى .. فغادر المسجد . وعاود ثانية رحلة الطواف على غير هدى ، لا يحاول ان يتبين معالم الطريق. ولا اين يسير . بل كان بحسبه أن ينطلق والليل ، حيثما يحـدوه الظلام أو تحمله الأقدام . ليس يعنيه ان كان قد خلف وراءه العمران وراح فى جوف طريق موحش غير مطروق ، ولا أن يضرب قدما او ينكص ، ولا ان يوغل حتى يفضى الى البيد ، لأنه كان لغير غايةيسير ؛ وان كانت غايته هى الطواف والمسير .

ومع ذلك فقد كان كمن سددت لغاية خطاه ، اذ انبعث من ذهوله واعيا يدرك ، سامعا ينصت ، وان حال الظلام دون تبينه مصادر الــكلام .

أتته الأصوات مخافتة ، هامسة بالمناجاة ، كانها تضن بحديثها على الشفاه ولا تدعه الا بحساب . وهم البراء ان يرتد فيعود ولا يوالى الســير خشية أن يكشف سرا او يكون عبئا على اصــحاب الحديث . وأطلق بصره فى المكان برهة فعرف أى شوط طويل سار حين تبين انه بفضاء بنى بياضــة ، وليس مثله بالناحية التى يتلمســـها من يريد الحديث الا من رغب عن فضول العيون واستراق الآذان .

هم أن يرتد ... لولا ان سرت اليه بعض الفـاظ مختلفة من المناجاة عرف فيها بعض الاصوات كان قد وشت بأصحابها له ... ولكنه ما كان ليعزم على المكوث ، رغم هذا ، لو لم يسر الى سمعه صوت يدعوه بهمسة المحاذر :

« ابن عازب والله !.. هلم ! » .

فأجاب ..

« المقـداد ؟ » .

« نعم ... واقبل » :

فـسعى حتى لحق بالثلة المجتمعة ها هنا تحت الليل . من اول نظرة عرف الرجل فيم كان هذا الاجتماع ، لأن كل واحد من هؤلاء الصحاب كان اجلى عنوان يفضح عما فى باطن الكتاب !..

كانوا جماعة من صحب الرسول . خيرة صحبه ، وأقربهم الى نفسه ، واحبهم الى قلبه الكبير ممن أوذوا في سبيل الاسلام ، وفاضت بهم كأس الايذاء فلم يفتنوا عن دينهم ، بل اعتصموا بالصبر غاية اعتصام . كانوا اشرق المسلمين اذ ذاك قلوبا وأرواحا وأولهم سابقة لدين الله ، وأدناهم من ربهم مقاما . كان بعضهم من أصحاب الصفة بمسجد الرسول ـ أولئك الذارين بالمرض والفرض ، المقيمين للحق على الحق ، التائبين عن الذنب ولا ذنب ، الذين رضوا من الدنيا بما دون الكفاف وبالخبز الجاف اذلالا للنفس وقهرا للبدن ورياضة للروح . وكان بعضهم من الأنصار ، ساروا كسيرتهم عزوفا وزهادة ، وفنيت قلوبهم فى ذات الله ، وفى حب رسول الله .

وتطلع البراء حواليه برهة الى هذه الأجسام الناحلة من نسك ، والوجوه التى كانت تضيء من ايمان ، فما وسعه الا أن ينثلج لمرآهم صدره ، ويفرح قلبه لو عرفت القلوب ـ بعد الرسول ـ الأفراح . ولكنه على أى حال ، استشعر الفرحة تسرى فى فؤاده وتهز أعصابه اذ كان يعلم سلفا ما فى باطن الكتاب ما دام هؤلاء هم الحروف التى تألف منها العنوان !.

* * *

كانوا حقا اجلى عنوان يفصح عن مادة الكتاب !.. كانوا ائمة الايمان بين كافة المسلمين من انصار ومن مهاجرين . لم يحضر منهم واحد بيعة السقيفة فى بنى ساعدة ، لو حضروها لما القوا قيادهم لشيخ بنى تيم . ولم يمسحوا باكفهم على يده حين اتى المسجد بعد أن بايعه سواد الانصار ، بل تخلفوا هم ـ كما تخلف كثيرون من المهاجرين

الأولين — لانهم كانوا يعلمون تمام العلم اى الناس اولى منه بأن تمسح اكفهم على يده ، يلقوا زمامهم له طائعين .

وعاد البراء يجيل فيهم بصره فأحس الرضا اذ عرف ان القضية التى آمن هو بعدالتها اشد الايمان ، قد جاء هاهنا لنصرها خير الناس. واجتمعوا ، تحت الليــل ، فى هذا الفضاء يدبرون لهــا ويتشاورون بعيدا عن فضول العيون والأسماع .. اجتمع لها خير الناس من صحابة رسول الله الأدنين ، أولئك الذين ما كان يجمعهم هدف لولا ان يشعروا له بعدالة ترفعه فى عيونهم الى مرتبة التقديس . والذين صحبوا الحق مذ علموه ، لم يميلوا عنه أمام سطوة ولا قسوة ولا تعذيب ولا ايذاء . وبحسبهم ان كان فيهم رجل غفار ابو ذر ، الذى صلى لله قبل دعوة رسول الله ، ثم سعى الى محمد يبتغى الاسلام ولم يكن محمد قد جهر بعد بالدعوة الى الاسلام .. سعى اليه لان قلبه الناصع كان مهيأ للهدى . واقبل فأسلم ، ثم انطلق ومن ورائه كلمات الرسول :

« يا ابا ذر ، اكتم هذا الأمر وارجع الى بلدك ، فاذا بلغك ظهورنا فاقبل .. »

ولكنه — رغم هذا — راى الا يصدع بالامر لان فى الصدوع معنى خشية أذى قريش وما يستطيعون ان يركبوه به من قسوة وبطش ... فسارع يجيب رسول الله .

« والذى بعثك بالحق ، لاصرخن بها بين اظهرهم !.. »

وصرخ بها فاوذى !... ثم لم يمنعه الايذاء من معاودة الجهر والصراخ ثم معــاودة الجهر والصراخ لانه رجل يعرف للحق قــوة لا ترجحها قوى العدوان مجتمعة ومضعفة آلاف الاضعاف ... وكان شعوره دائما وما أوصاه به ذات يوم رسول الله :

« لا تخش فى الله تعالى لومة لائم »

وبحسبهم ان كان فيهم ايضا عمار ... ابن سمية التى استشهدت فى سبيل الاستمساك بالاسلام وهو واقف يشهد ولا يستطيع دفع الأذى عنها ، ولا عن أبيه ، ولا عن نفسه وقد احاط به بنو مخزوم الطغاة يلبسونه محمى الحديد ، ويتولونه بما وسعهم من ايذاء وهو صابر امام سوط العذاب ، وفى اذنيه يتردد نصح رسول الله :

« صبرا ابا اليقظان » .

... وبحسبهم ان كان فيهم الفارسى سلمان .. ذلك الشريف الذى خلف قصره وهجر بلده يريد أن يلتمس الحق ويظفر به أينما يكون . وارتحل يجوب الآفاق تاركا وراءه اصبهان بعد أن خلع فيها رداء المجوسية . ويمم أرض الشام يطوف بها ويبحث عن الهدى بين نواحيها . واعتنق المسيحية . وراح يعاود التنقل والترحال بين البلدان يستوعب المعرفة من افواه اساقفة ذلك الدين . وكلما تعلم ما لدى واحد منهم تركه الى آخر حتى انتهى به المطاف الى عمورية حيث حدثه اسقفها ان الحق المنشود انما ينطق به لسان رجل يظهر فى أرض العرب لا يزال يدعو الى الهدى قومه حتى يخرجوه ظلما فيهجرهم الى ارض بين حرتين بينهما نخل .

ويدفع الحق سلمان الى أن يغذ السير الى منبع الهداية المنشودة. ويلقى فى الطريق ما يلقى من عناء فيفقد ماله ، ويفقد حريتـــه ، اذ يسترقه اقوام يبيعونه بيع العبيد ، ولكنه لا يأبه لهذا الأســـار الجسمى ما دامت الحرية الروحية لن تلبث ان تطلع شمسها عليه . ولا يخيب الله رجاء عبده المؤمن ، الساعى جهده الى ابتغاء رضاه ، بل يهيىء له آخر الأمر لقاء محمد رسول الله .

ويقول سلمان وقد استوثق من شأن العربى الكريم :

« يا رسول الله .. انى رجل فارسى ، خرجت من بلادى غلاما حدثا ابغى دين الحق . ولكن يشغلنى عنك الرق .. »

فيتفكر هنيهة ثم يقول له :

« كاتب يا سلمان »

« نعم اكاتب صاحبى اليهودى على نخل احييه له ، اذ لا مال عندى »

فيوافق رسول الله ويقول لصحبه الآخرين :

« اعينوا اخاكم »

ويستجيب المسلمون لدعوة رسول الله فيعاونون سلمان بالعمل معه فى النخل كى يشترى نفسه من سيده . ولا يحجم رسول الله عن العون بل يساهم فيه بنصيب ــ هو أوفى نصيب لأن الله يهب البركة كل ما يمد رسوله يدا اليه . يقول لسلمان :

« اذهب يا سلمان ففقر لها ، فاذا فرغت فائتنى اكن انا اضعها بيدى » .

***

بحسب العصبة المجتمعة هذه الليلة بفضاء بنى بياضة أن يكون فيهم هؤلاء الذين وهبوا دائما جهودهم للحق ،وبذلوا ما استطاعوا فى سبيل اعزازه ليعرف البراء عدل القضية التى ود بقلبه أن ينصرها . فاذا اجتمع اليه هؤلاء ، واجتمع اليهم المقداد بن عمرو ، وحذيفة ابن اليمان ، وعبادة بن الصامت ، وابو الهيثم بن التيهان وغيرهم من خيرة صحب رسول الله الذين تخلفوا عن بيعة أبى بكر اقتناعا منهم بأن فى الناس سواه أولى منه بالبيعة ومن كل الناس ، اذا اجتمع كل هؤلاء ، وأجمعوا الكلمة ، فلقد آن ان يعود الحق اخيرا الى ذويه ...

٩

التأم الجمع فى فضاء بنى بياضة تحت الليل ، أقبل اصحابه على الأمر يمحصونه ليروا له انسب الحلول .

قال عمار بن ياسر :

« ما لتيم وهذا الأمر ؟.. انه قد كان لرسول الله ، وهو من بعده فى خير الناس بعد رسول الله .. اما لقد ظلمت الأنصار ! »

فأجابه البراء :

« يا أبا اليقظان .. انما انتزعه الرجل بحق قريش وعاونه صاحباه » .

« ما لبيعة لم يشهدها المهاجرون الأولون صحة ! »

وقال حذيفة بن اليمان يدلى بالنبأ الذى ينير امامهم الطريق :

« وان الأنصار لتريد أن تنقض ما كان منها ! »

« افتعلم حقا ! »

« والله ما كذبت وما كذبت ، ثم والله ليكونن ما أخبرتكم به .. »
فقال المقداد بن عمرو :
« فهذا والله خير ، وليردن الحق الى صاحبه من بعد » .
وتساءل سلمان :
« فان أبى الرجل ؟ »
فأجابه أبو ذر :
« فدعوه !.. انه ليس ولا صاحباه الا ثلاثة من المهاجرين . أما حجته فهى عليه .. »
ثم التفت الى البراء يوجه له الحديث :
« أو لست سمعته يا بن عازب يقول فى السقيفة ما تقول ؟.. »
« نعم »
« فلغيره والله — بحجته — الأمر دونه !.. والله لا يرانى أبدا أبايع ابن أبى قحافة وفى الناس ابن أبى طالب !.. »
قال عمار :
« وما الرأى ؟ »
فرد المقداد :
« الرأى أن نعيد الأمر شورى بين المهاجرين »
« أصبت »
« وهذه الأنصار تهم أن تنقض أمر السقيفة ... »
فثنى حذيفة بن اليمان :
« نعم . وهلموا الى أبى بن كعب فقد علم كما علمت »
وانطلقوا من مكمنهم ذاك وقد انتهى رأيهم الى اعادة الأمر شورى بين المهاجرين ينظرون فيه ، ما دامت بيعة السقيفة قد تمت بغير علمهم هم الأولى بأن يكونوا أصحاب الرأى الأول فى اختيار خليفة الرسول ، وما دام الأنصار قد انجلت عنهم الآن غاشية المفاجأة وعرفوا أنهم لم يكونوا محقين حين سلموا الأمر لأبى بكر ، حتى راحوا يتهامسون بأنه جدير بهم أن يستردوا بيعتهم .
انطلق الصحاب المجتمعون الى دار أبى بن كعب يضربون عليه بابه ، فجاءهم صوته يقول :
« من ذاك ؟ »

« المقداد وقوم .. يا أبى ، افتح بابك فان الأمر اعظم من ان يجرى من وراء حجاب »

فأجاب :

« لقد عرفت ما جئتم له .. »

ثم أتم حين بدا لهم ، قال :

« كأنى بكم قد أردتم النظر فى هذا العقد ! »

أجل كان هذا هو الذى أرادوه ، والذى سعوا اليه ، والذى أجمعوا أمرهم عليه ، ثم كادت أن تعينهم على اتمامه الأحداث لولا ما سبقت به الأقدار من سطور التاريخ ...

ولعله يحسن بالمرء فى هذا المقام أن يتساءل ان رجال من شيعة شيخ بنى تيم قد نافقوا وبدوا أمام هذه العصبة كالناصرين ثم مشوا من بعد بأخبارها اليه ... ولعله قد شاع فى الناس اعتزام الأنصار نقض ما سلف من بيعتها للشيخ فأخذ حذره وأعد للأمر عدته قبل أن يفجأه وقوعه ... اعل هذا أو ذاك هو ما قدر له الحدوث وان كان الذى لا يرتاب فيه انسان ان أبا بكر كان حريا بأن يكون بارعا ، كما عهدنا فى بنى ساعدة ، ولا يدع عمله رهينا بما تجىء به الأخبار أو ينتظر ثم يرى كيف تلهمه العمل ظروف الحال ، وأحسبه بات ليلته تلك وفى همه الا يصبح الصباح حتى يكون هو صاحب الرمية الثانية كما سدد أولى رمياته الصائبة فى نهار الأمس !

هكذا كان الرجل ، وهكذا طلعت علينا صورته من خلال نسيج التاريخ فلم يكن عجبا ، اذن ، أن يسارع ، وضياء الشمس ينتشر فى الآفاق ، الى مسجد المدينة ومعه صاحباه . ونادى فى الناس مناديه فاجتمعوا له ... وبقيت عصبة الليل تلك فى غفلة عن هذا التدبير الذى لم يطف بخواطرهم بل سبق كل ما احكموا من تدبير !..

ووقف عمر بن الخطاب بين الناس يتحدث اليهم :

« ... انى قد قلت لكم بالأمس مقالة ، ما كانت مما وجدتها فى كتاب الله . ولا كانت عهدا عهده الى رسول الله . ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ، ويبقى ليكون آخرنا » .

وأجمل بهذه الكلمات اعتذاره عما بدر من دفعته حين تهدد بسيفه من قال ان محمدا قد مات ، ثم مضى قدما الى الغاية التى من اجلها كان جمع الناس ، فقال :

« أيها الناس : ان الله قد جمع امركم على خيركم : صاحب رسول الله ، ثانى اثنين اذ هما فى الغار . فقوموا فبايعوا ... »

فماذا عسى كان عمر مستطيعا قوله فى مثل هذا المقام لو كان أبو عبيدة قد قبل البيعة منه حين مد اليه كفه وهو يريد أن يفسد ما كان من اجتماع كلمة أصحاب السقيفة على صاحبهم ؟.. أفكان ينطق لهم بنفس هذا الكلام أم كان يزوى مقالا غيره للمقام ؟ ان الذى لا يثبت الريب أمامه مطلقا هو أن صاحبه الذى وقع عليه الاختيار لم يستطع أن يزعم لنفسه ما اضفى عليه ابن الخطاب .. بل رقى المنبر فى هدوء وقال :

« أما بعد أيها الناس ... فانى قد وليت عليكم ولست بخيركم »

فان يكن حقا ما قال ابو بكر فهو اعتراف بالفضل لغيره ممن هو له أهل ! . وكفى ابن الخطاب أن اختار أولا فرده من كان محور هذا الاختيار اذ رآه لم يحسن حين اختار .. وأن قدم فى الثانية وقال فرده من قيل فيه المقال !...

* * *

على أن البيعة ، مع هذا ، تمت على الوجه الذى اراده الثلاثة الرفاق ، وبايع اليوم لابى بكر من لم يكن بايع من عامة الناس . وراح الذين لم يبايعوا أهون شأنا مما كانوا عليه بالأمس وأقل رجاء فى التفاف القوم حول الدعوة التى دبروا لها كل تدبير ، والذين كانوا قد آلوا على نقض البيعة آثروا البقاء فى جانب الرجحان لأن النقض بعد هذا كفيل بأن يصيبه البوار والخسران !..

وهكذا اجتمعت كلمة اكثر الانصار ثم من بعدهم اكثر المهاجرين علم اختيار ابى بكر وبقى ولى الرسول : حيثما كان الى جوار الجثمان الطاهر ، تمر به الأحداث ولا يرى أن يتابعها لان رسول الله احق باهتمامه من كل سلطان . وتفرق الناس بعد البيعة الثانية مجمعين على رجل وكانوا قبل السقيفة — وهم متفرقون — قد أوشكوا أن يجمعوا على سواه .. تفرقوا وان ساروا زمرا تؤلف الشكل على الشكل : فيهم من رضى فراح يهتف ويهلل معبرا عن رضاه . وفيهم

من خالف فراح يهمس ويدلل على اصابة رايه ودعواه . وفيهم اناس بين هؤلاء وهؤلاء ... تابعوا الكثرة لانهم لا تدلهم على الحق فراسة ولا استقراء بقدر ما تدلهم وجهة الجمهور . فانطلقوا هكذا مع الكثرة، وفي حسبانهم أنها مقياس الصواب وفصل الخطاب ...

اما الذين قد غابوا عن البيعتين فان آراءهم تفرقت بين هؤلاء الطوائف الثلاث كلما أشرفوا على الحشود التى أخذت تغادر المسجد ويسبقها الهمس والهتاف ، تأسر بعضهم حجة من هنا وتأسر البعض حجة من هناك ، ويقبلون متسائلين ثم يرتدون مؤيدين أو معارضين ، ولكل منهم سند من فضل الرجل أو فضل ذاك المنافس الغائب عن العين الماثل فى الخاطر ... وما اظنك ، لو كنت هناك ذلك اليوم ، الا انحزت الى هذا الفريق أو ذاك . ولكنك كنت على أى حال قمينا بأن تسمع نوعا آخر من الآراء ، فريدا فذا لو استطعت ان تقفو أثر هذا الشيخ الكبير ... انك لتراه سائرا هونا على الأرض ، رافع الراس رغم وقر الأعوام ، محدد البصر الى ما أمامه وان نضب من عينيه المعين وغاب لمع النور ، قد أصاب مسمعه لغط الجمهور فسار على هدى الأصوات . وان الناس ليلمحونه من بعيد مقبلا فتخطف فى عيونهم نظرات اكبار ... وانهم لينفرجون له اذ يقبل حتى تضمه الجموع .. فاذا أنصت له كما انصتوا سمعته يقول :

« فيم يا قوم هذا الضجيج ؟ »

فيجيبه بعض الناس :

« قد ولى ابنك الخلافة »

ويروح الشيخ عند هذا يهز راسه وهو يتلو فى هدوء بعض آى القرآن :

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء .. »

ويعاود الالتفات ، بوجهه ، الى محدثه يسأله ثانية :

« فلم ولوه ؟ »

« لسنه » ...

« فانا اسن منه ! »

ويمضى باسما من بين الناس وهو يمسح بكفه على لحيته البيضاء ...

١٠

لو أنصف الناس حق الانصاف لأرجأوا البيعة حتى يتم لهم مواراة جثمان الرسول . كان هذا أدنى الى التزامهم جانب التدبر واحسان التفكير قبل الأقدام على الاختيار . فلقد كان حريا ، حين طارت نفوسهم هلعا اذ سمعوا بوفاة محمد ، الا يملكوا ضبط الميزان .. والنفوس دائما – عند ما تدهم النازلات – لا تستطيع ان تلتزم الجادة ، بل تنحرف الى يمين أو الى يسار .

كان الأدنى الى الصواب ، ان لم يكن هو الصواب ، أن يتريث القوم من المهاجرين والأنصار لا يتنازعون سلطان محمد بينهم ومحمد ما زال مسجى على فراشه لم يغيبه عن عيونهم مثواه ... فاذا تعجل الأنصار أمر البيعة ، وراحوا يهتبلون من هلع النفوس على نبيها فرصة للفوز بالسلطان ، فلقد وجب على أهل الحكمة من المهاجرين ان يردوهم عن هذه العجلة التى لم تكن تدعو اليها دواعى الحال ... ان الاسلام كان حقا موشكا أن يجتاز محنة عصيبة أوقعته فيها قبائل المرتدين ، وأنصار الكذبة من المتنبئين وجموع الخالعين فرض الزكاة . ولكن هذا كله لم يقع فى لحظات ، ولا دفعة واحدة ، بل كان كقطع السحاب المتناثرة فى نواحى السماء ، تدفعها الريح من هنا ، وتسيرها من هناك حتى تجتمع فوق مكان ثم تبادره بالوابل الهطال ... ولقد أخذت نتف الأحداث التى تألفت منها المحنة التى واجهها ابو بكر تجتمع الى بعضها فى ايام وفى أيام ، فلم يتناولها الرجل غب بيعته الأولى ، ولا غب بيعته الثانية بالعلاج لأنها لم تكن – بادىء الأمر – جديرة منه بأدنى التفات . بل بقى مكفوف اليد عنها ، ولو علم لها فى البدء خطرها الذى صار لها فيما بعد لادخر لها جيش اسامة ابن زيد ولم يسيره الى الشام .

كان اولى اذن بالانصار أن يتريثوا يوما وبعض اليوم حتى يوارى جثمان الرسول ، ويستريح فى مثواه . ولكنهم تعجلوا ، وكان المهاجرون – فيما يبدو – اميل الى القصد فى العجلة ، لولا ان نما

الى سمع عمر من أنباء السقيفة ما دفعه وصاحبيه الى بنى ساعدة ، يبادرون العجلة بمثلها ولا يأخذونها بالتريث والارجاء ... ولو استطاع فريقا الاسلام أن يصطنعوا الأناة لسار الأمر فى اقوم سبيل ، لأنه كان سيلقى نفوسا ذهب عنها الروع ، وقلوبا نفضت الهول ، تقبل على تمحيص الآراء وعجم عود الأشخاص ، ثم تختار فلا يفوتها احسان الاختيار .

ولكنه كان قدرا مقدورا ليس يبدله حدس ولا افتراض ، واختير الرجل الذى لم تسبق اليه مشيئة الناس بقدر ما كان اختياره غرس الصدفة التى حركت باسمه لسان ابن الجراح على مسمع من ابن الخطاب ، وبقدر ما ساهم فى هذا الاختيار اختلاف حزبى الأنصار ، وبقدر ما هيأ الرزء الداهم نفوس القوم للرضا والاقرار ! .

وكذلك سكن الناس ، ولم يثر منهم ثائر ، ولم يجهر بالخلاف من لم تلق بيعة أبى بكر فى نفسه موضع قبول ، بل استوى فى البدء الراضى والمخالف والتزموا الهدوء لأن الأحزان لم تتح لهم فرصة للتفكير فى غير مثار الأحزان — او تركت ثم أبى عليهم الثورة انشغالهم بأمر الرسول . حتى العباس نفسه ، وهو من رأينا مدى حرصه على ابقاء سلطان ابن أخيه فى ذويه ، قر لا يطلع على الناس مناديا بنصرة أو محرضا على خلاف .

ولكن المشاعر المكبوتة تحت غطاء الأحزان لن تلبث أن تنطلق من عقالها بعد دفن محمد ، ويثوب الناس الى الماضى يتناولونه بالتحليل كما تملى ميولهم او تملى عليهم مقاييس الأوضاع والأشخاص . ثم تجمعوا فرقا فرقا ، واخذوا — كما وسعهم — يتحدثون بآرائهم ، خفية آونة وعلانية آونات ، لأن سلطان الخليفة لم يكن قد آن أن يثبت فى قرارة النفوس كل الثبات ...

وكان آل الرسول اثناء البيعة الثانية فى داره كما كانوا حين بيعة السقيفة . لا يأبهون ان مال عنهم القوم خاذلين او مالوا نحوهم ناصرين ، جمعهم جثمانه الكريم وشغلهم عن دنيا الناس بما فيها من غرض ومن سعى الى السطوة والجاه وامتلاك سيف السلطان . وليس من شك فى أن رجالا منهم عز على نفوسهم ان تسير الأمور بغير

مشورة منهم وعلى غير ما يشتهون . ولكنهم — رغم هذا — لم يملكوا الافصاح عما جاشت به صدورهم على ملأ من الناس ، لأن صاحب الأمر وقدوتهم فى الميدان لو أرادوا تأليب الجماهير التزم جانب السكون فى وقت كان يراه حقيقا منه بالهدوء والسكون .

ولكن ابا بكر لم يعرف القرار والسكون !.. كان صاحب سلطانه طرى العود هش البنيان فكان لزاما عليه أن يصطنع له دعامات توطد اركانه . ولم يكن الشيخ قد نسى نبأ فضاء بنى بياضة وما جرى فيه من اجتماع خيرة المهاجرين على نقض بيعته لولا مبادرته بالبيعة الثانية الى افساد ما سبقوا اليه من تدبير . ولم يكن قد نسى أن عليا والعباس ومن لاذ بهما من آل محمد وصحبه الأقربين قد غابوا عن المسجد هذا الصباح حتى جرت الالسن تغض من شأن بيعة المسجد اذ لم تقرها هذه الصفوة المختارة من رجال الاسلام . وكان الشيخ يعلم أنه لا يأمن — ان دعاهم الى البيعة له — أن يعصوه أمام الناس . وكان يعلم انهم حريون بهذا العصيان وان رأوا أعناقهم تحت ذوائب السيوف . ثم كان يعلم ، فوق هذا وذاك ، أن رأيهم جميعا رهين برأى ابن أبى طالب ان شاء عصى وعصوا أو شاء رضى ورضوا وما لرضائه فى هذا المقام سبيل !...

وقلب الرجل الأمر على وجوهه مرات ومرات . انه اذن قمين الا يقر لحكمه قرار لو بقيت هذه الحال ، قمين أن يجتمع هذا الحزب المناوىء ، بعد اليوم ، بألف فضاء وفضاء ... قمين أن تخرج من يده كرها كما دخلتها كرها بيعة الأنصار !...

وجمع اليه صاحبيه يشاورهما ويتحدثون ...

قال له عمر :

« يا خليفة رسول الله ألزمهم طاعتك . »

« فان أبوا ؟ »

« فقد شقوا عصا المسلمين فاركبهم بالجزاء » .

وقال أبو عبيدة اللين المداور :

« بل ابعث الى المغيرة فانه صاحب رأى ... »

وجاء المغيرة بن شعبة بالرأى الذى كان منذ القدم وسيلة الحاكمين الى قهر المحكومين ... تفكر الرجل هنيهة ثم قال :

« ما أرى الا تمزيق جماعة هذه الناس . »

« وكيف ؟ » .

« امض الى العباس فألق اليـــه أنك جاعل الامرة نصيبـــا له ولولده » .

« قد قلت ! »

« ثم لا يضيرك بعدها من على شىء أبدا . »

وعلى هذا الرأى مضى ابو بكر يتبعه عمر الى عم رسول الله . وبدأ الخليفة الحديث فقال :

« يا أبا الفضل .. ان الناس اختارونى عليهم واليا ، وما انفك يبلغنى عن طاعن يقول بخلاف قول عامة المسلمين ، يتخذكم لجأ . فاما دخلتم فيما دخل فيه الناس . أو صرفتموهم عما مالوا اليه . »

فقال شيخ بنى هاشم الداهية الأريب يرد على كلام الخليفة :

« يا أبا بكر ... انك طلبت ثم أخذت . فان كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت !... وان كنت بالمؤمنين فنحن منهم !... وان كان هذا الأمر يجب لك بالمؤمنين فما وجب اذ كنا كارهين ! ... وما أبعد قولك ان الناس طعنوا عليك من قولك انهم مالوا اليك !.. »

فتدخل عمر فى الحديث يحتد كالمعهود منه :

« انا لم نأتكم لحاجة اليكم ، ولكن كرهنا أن يكون الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم فيتفاقم الخطب بكم وبهم . فانظـروا لأنفسكم وعامتهم . »

وخشى ابو بكر أن يغضب هذا الكلام العباس من حيث اراد ان يترضاه ، فأسرع يقول :

« يا أبا الفضل ... انك سيد هذا البيت . وقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك فى امرنا نصيبا ولمن بعدك من عقبك اذ كنت عم رسول الله — »

ولكن العباس لم يدعه يتم ، بل انبرى فى التو يخاطبه ، ويرد عرضه :

« انما تريد أن تعطيناه حقك ، أم حق المؤمنين ، أم حقنا ؟. يا أبا بكر ان يكن حقك فامسكه عليك ... وان يكن حق المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه ... وان يكن حقنا لم نرض ببعضه دون بعض !... ولكنى أراكم خرجتم بسلطان محمد عن أهله ! »

« قد كان رسول الله منا ومنكم يا أبا الفضل »

فابتسم العباس ، واجاب وهو يهز كتفه بلا اكتراث :
« انى ما قلت الذى قلت أروم به صرفك عما دخلت فيه .. لا والله ، ولكن للحجة نصيبها من البيان !... يا أبا بكر ، ان يك رسول الله منا ومنكم فان رسول الله من شجرة ، نحن أغصانها ، وانتم جيرانها ! »

١١

اتم على جهاز الرسول بعد أن أتم غسله . ووضع الجثمان الطاهر على فراشه ، على شفة القبر فى الحجرة النبوية . ثم بدأ هو بالصلاة وخلفه الرجال من آله ، حتى اذا فرغوا أدخل النساء .

وخلى بعد هذا بين الحجرة وبين جموع المسلمين ، يدخلونها أرسالا ليتزودوا من محمد بنظرة الوداع الأخير ، وليسكبوا ما شاؤا من دموعهم حسرات على الرجل الذى أضاء للناس جوانب الحياة كما لم تضىء نجوم ولا شموس ، وغرس النور فى هذه القلوب والأرواح ثم تركه من بعده للأيام ذخرا يفيضون منه على بقية الأنام .

ودخل أبو بكر ، خافض الرأس مضطرب الخطو من أساه ، يترقرق الدمع بعينيه ثم ينطلق لا يغيض . واقترب من الجسد الطاهر الكريم فحياه وكان صوته — من بين غمرات الحزن — لا يكاد أن يبين ، ويكاد حلقه أن يشرق بالبكاء فلا يؤدى الكلمات . ولكنه اصطنع ، كما وسعه ، الاصطبار ، وتذرع بالجلد والاحتمال ، ثم راح يتكلم بصوته الخفيض الرقيق :

« السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ... »
فردد بعده المسلمون ، وما فتئوا يرددون :
« السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته »
« اللهم انا نشهد أن قد بلغ ما أنزل عليه ، ونصح لأمته ... »
« اللهم أنا نشهد . »
« وجاهد فى سبيل الله حتى أعز الله دينه ... »
« اللهم انا نشهد . »

« وتمت كلماته فآمن به وحده لا شريك له ... »
« اللهم انا نشهد . »
« فاجعلنا يا الهنا ممن اتبع القول الذى انزل معه ... »
« آمين »
« واجمع بيننا وبينه حتى يعرفنا فانه كان بالمؤمنين رءوفا رحيما .. »
« آمين ! ... »
« لا نبتغى بالايمان بدلا ... »
« لا نبتغى بالايمان بدلا ... »
« ولا نشترى به ثمنا أبدا ... يا رب العالمين . »

وانقضى النهار — بعد هذا — وبعض المساء ، يودع الرجال والنساء والأطفال نبيهم الكريم .. كلما خلت الدار من فوج منهم جاءها فوج ، حديثهم سلام ، وتحيتهم صلاة وقيام .

* * *

ولعل اقسى محنة اجتازتها نفس بشرية كانت تلك التى المت بعلى اذ وقف ، جوف ذلك الليل ، على حافة قبر الرسول بعد ان وسد الجثمان الكريم مرقده وخرج من القبر ليهيلوا التراب ... هذه لحظة لا تحسب بمقياس الزمان ، استحالت فيها الوحدة الزمنية الى طاقة شعورية من اللوعة الطاغية والحسرة العاتية ، كان القلب ساعتها الدقاقة ، وكانت خفقاته دقائقها وثوانيها التى تلكات فى المسير وسارت ، فى حساب الشعور ، الأجيال والدهور !... وقف على — وما نستطيع أن نقول انه كان سوى عين دامية تدمع استجابة لاحساس نفس ولهى وقلب تصدع — ثابت البصر على هذه الرقعة الصغيرة من الأرض التى اصبحت لمحمد وطاء وغطاء ... قد برح به الشجن لغياب هذا الثاوى البعيد القريب ، وبرح به ما يعرف من عسر اللقاء غب فراق لم يسبقه فراق ، وبين يلقى منه مثل ما تلقى الأم تشهد على حجرها مصرع وليد وحيد ، أنجبته بعد طول تلهف ثم ثكلته بعد حلول عقم !..

وقف على الى جوار القبر ، شاخص العين ، لا يطرف له هدب ،

ولا يهدأ له قلب ولا يثوب لب ، كالرائى وليس براء .. حتى تعود به الى انتباه أصوات المساحى تنطلق فى جوف الليل وهى تهيل التراب على المثوى ، كأنها تعلن عن دفن محمد ، وتخبر الناس أن شخصه الحبيب أصبح الآن من كيان الماضى ، عصيا على العيون والآذان ، حيا فى الخواطر والأذهان .. طواه القبر وان نشره الذكر ، ومضى جسما ليعيش اسما مع الأحقاب ، مسطورا على كل قلب .

هنا ثابت الى على نفسه هنيهة . ثم اكب على القبر بوجهه يرويه بماء عينيه . وازدخرت فى صدره لواعج حزنه وثكله ، فود لو استطاع أن ينفس عنها بلسان لم يخنه قبل لحظته هذه فى مقام . ولكن بيانه المستفيض نبا عنه فيضه ، ولم يخلف سوى كليمات قصار ندت عن شفتيه كمثل تردد انفاس الذى يعانى الاحتضار :

« ان الصبر لجميل ، الا عنك يا رسول الله . وان الجزع لقبيح ، الا عليك . وان المصاب بك لجليل . وانه قبلك وبعدك لجلل .. »

ثم قوم عوده وسار متمهلا من وقر الهم ، يتبعه آله .

***

الا من ذا يعلم كيف مرت عليه الليلة ؟.. وكيف اختلى فيها بفكره ؟ وكيف أصاب منها واصابت منه !. لو كان قد تمكن أن ينفرد بنفسه لهان وقعها نوعا . ولكنه لحق بداره ليلقى هناك فاطمة الحزينة قد استعادت ما كان ولى من أحزانها القديمة ... على أمها ، وعلى عمها ، وعلى أخواتها واخوتها الذين عانت من اجل فقدانهم ضعف ما كان حريا بغيرها أن يعانى . هذه الرقيقة البنيان الرقيقة القلب كانت تحزن دائما للمصاب حزنين ، مرة لقلبها الجريح وثانية لقلب ابيها اذ يصيبه كلم الحزن . وانها الآن لتحضرها صور شتى من أساها الماضى ، فلا تعرف أبها تزيد حزنا أم اللوعة على هذا الاب الحدوب الرحيم لم تترك بقلبها فراغا لغير الأسى عليه ؟.. الى كم يا ترى يحتمل الجلد وتتسع رقعة الصبر ، ولغير هذا الرزء النازل كان الجلد وكان الصبر ؟.. أفى العين من الدمع بقية ، وفى القلب ناحية لم يخضبها سلاح الهموم ؟.. هى جاثمة من الحجرة بركن ادنى الى قبر أبيها وان حال بينها وبينه جدار . ولكنها كانت أدنى الى هيئة جثمان

صامت منها بمن تسير فيه الحياة .. أوهى قوة واوهن بناء ، ساكنة من ذهول ، قد لون الشحوب وجهها وكساه .

تلك فاطمة كما لم يرها على مطلقا من قبل . كان يعلم انها ترق أمام الحادثات كأنها تسيل . ولكنها الآن قد ذهبت بددا ، غادرها العزم وغادرتها القدرة على اصطناع الاحتمال ، حتى ليعلم ان جزعه على النبى بداية وجزعها فى ميقاس الأحزان هو الغاية التى لا تبلغ شأوها غاية ..

* * *

ثم رآها أخيرا تتحرك فى مكانها متمهلة من جهد ، تهم ان تنهض فتنوء ، ثم تنوء كلما همت مرة ومرات . وتستطيع ان تقف فيسرع اليها . ويتبعها صامتا اذ تسير ، وهو يأبى — ترفقا بها — ان يردها أو يعكر الصمت الذى التزمته وفرضه على كيانها هول ما تحسه . وانها لتمشى الى الباب فتنفذ منه ، فيعلم فيم خروجها هذه الساعة.. لم يعد لها بالبقاء بعيدا عن مثوى أبيها طاقة ، وقد فرقت بينها وبين هذا الحبيب الراحل فترة من الزمان جاوزت — فى حسبانها — آمادا . وخرج على خلفها الى القبر ، فاذا النهار قد انتشر ، والشمس يملأ ضوءها الفضاء ..

وأقبلت هى على المثوى الطاهر تطوف به حيرى كأنها تلتمس فى جوانبه المنفذ الى محمد . وراحت أنفاسها تتردد كالهمس ، وقلبها يخفق فى صدرها كمثل طائر حبيس . أما عيناها فقد صنعت لهما من الدموع اهدابا .

واكبت بوجهها على القبر تمسح خديها على تربه ، وقبضت بكفيها على حفنتين من ثراه الرطيب فرفعتهما الى شفتيها وعينيها تقبل وتبلل . ولم يستطع زاء شهدها فى تلك الآونة ان يظل يشهد ، بل مال عنها ببصره رفقا بنفسه ان تذهب أسى ، وبقلبه أن يقضى حسرة ، ولكن الأصوات علت بالبكاء ، وملأت الزفرات المكان حتى اختلطت بهمساتها الخافتات التى راحت بها ترثى أباها . وبلغ الموقف الحد الذى يعز فيه الصبر وينوء به الجلد ، فتقدم زوجها نحوها ، مترفقا

بها ما استطاع ، حتى ألقت اليه القياد ، واهنة لا تكاد تقوى على المسير من اعياء .

وتلفتت ناحية القبر تشخص برهة قبل أن تغادر المكان . فما اسرع أن تبينت من قريب رجلا يهم أن يسعى الى المثوى الطاهر ، ناكس الرأس خافض النظرات . ولكنها عرفت فيه ذاك الذى وسد رسول الله مقره الأخير ، فوقفت برهة تتلبث به ، حتى اذا صار منها على مبعدة خطوات قليلات . هتفت به فى صوت راعش النبرات :

« أنس بن مالك ! »

فأسرع الرجل اليها ، مضطرب الخطو ، غامت على عينيه دموعه ، وهمس يجيب :

« لبيك يا بنت رسول الله ! »

فما زادت على أن تمالت له وهى تغادر المكان :

« كيف امكنك يا انس قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله ؟. »

وخلفت الحجرة غارقة فى الشئون والمدامع ..

١٢

آثر أبو بكر هذه المرة ان يقتحم على الأسد عرينه !.

لم يكد يطلع النهار حتى كان الشيخ قد أجال فى ذهنه احتمالات الأمر . ان العباس ، بلا ريب ، لن يخفى عن ابن اخيه من مساومة الأمس شيئا . وخقيق بعلى بعد هذا أن يغضب لحقه ، ويغضب أكثر من هذا لاهمالهم المسير اليه ، ثم لعله بعدها يرتب قواه ويقدم على المناجزة والكفاح .

وكانت المدينة اذ ذاك قد بدأت تثوب الى نفسها ، وبدأ ينجاب عن الناس فيها ذهول الحزن فيقدرون ويصيبون بعد أن كانوا فى غمرة الاسى لا يقدرون ، وان قدروا أن يميلوا الى الاستسلام والاقرار ، وكان لغط الالسن حريا بأن يصل الى اسماع على ، واسف الناس على ضياع حق الرسول يسرى حديثا هامسا فى المحافل . وليس عجيبا من بعد

أن يقدم من لم يقر بالبيعة على دعوة الآخرين الى نقضها ، والعمل على تنفيذ ما تم فى فضاء بنى بياضة من اتفاق ..

ولم يكن على من جانبه يعير الأمر التفاتا لأن حكم الناس كان ابغض الأمور الى قلبه الا أن يؤدى فيه حق الله . وكانت الخلافة فى ذاتها وسيلة يتوسل بها لغاية يرتجيها . وقد آمن دائما انها حقه ، وانه الأولى بها فى الناس . ولكنه آمن كذلك انها لا تكون الا عن مشيئة الناس ، فاذا هم خرجوا بالحق الى غير أهله فهذا خطأ منهم عليهم وزره ، حسابهم عنه عند الله .

لذلك نراه يرقب الأحداث من كثب ولا يدلى فيها بدلو ، بل يدع القوم الى عقولهم وضمائرهم غير محاول ان يردهم عن بغيهم عليه أو يدعوهم الى الانتصار له . وليست هذه حال طالب السلطان ، الساعى اليه ، بل هى أحرى بالزاهد فيه النائى عنه .

ولكن ابا بكر أتى عليه يوم وفاة النبى وهو من الناس كأحدهم ، لا يساوى فيهم الا مقدار ما يستوعب قلبه من الايمان .. ثم مر عليه اليوم فاذا هو منهم الحاكم صاحب الأمر والسلطان . قلب بصره فعرف موطىء قدميه فكان أولى به أن يحرص على الأرض من تحته ان تنهار !.

***

ما كان ابو بكر حقا بالذى استهواه حب التملك او التآمر على الناس . ولكن الأيام نصبته فى مقام فكان لزاما عليه أن يرعى حق هذا المقام . ولقد دفعته لهذا الحرص وحدة الامة ان تنشق ويذهب بريحها تناحر الأحزاب ، وقوة الدين الناشىء أن يميل الناس عن الجهاد فى سبيله الى الجهاد فى سبيل الأشخاص . وكان الرجل عالما تمام العلم انه قد بلغ بالبيعة الحد الذى يحسن بعده الاقدام وتسوء عقبى التردد والنكوص ، وهو حقا ليس بخير الناس – كما قال بلسانه ليكون منهم الأمير المسود . ولكنه كان أدنى الى اصابة جانب الخير فى الحكم لو انهم عملوا على المنهج الذى ارتسمه لنفسه حين خطبهم بالأمس فقال :

« أما بعد ، ايها الناس ، انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان احسنت فاعينونى ، وان اسأت فقومونى ... »

ولكنه اليوم لا يستطيع أن يترسم الخطا التى عاهد الله أن يسير وفق نهجها الواضح المعلوم . وهو ان يستطيع هذا بحال حتى يحرص على الأرض تحت قدميه أن تنهار !..

وهكذا نراه يعاود ما كان أخفق فيه بالأمس عساه يفىء برضاء على ومن بعده آل محمد وصحبه المخلصين ، ثم من بعدهم حشود مخالفيه من المسلمين ..

ذهب فدخل عليه داره وقد حف به صاحباه عمر وابن الجراح : وتوسل ما وسعه باللين ورقة الحديث . ولكن عليا ظل الثابت على حقه ، المستمسك به ، لا يسلم وان كان لم يتذرع بالعنف أو تأليب الناس للفوز بهذا الحق المسلوب .

وقال أبو بكر محاولا أن يصل الى اقناع غريمه باثارة الخوف فى قلبه على وحدة الاسلام :

« ابن عم رسول الله ، وختنه على ابنته ، يريد أن يشق عصا المسلمين ؟ »

فأسرع العباس يقول ، وكان حاضرا :

« ما أحد أولى بمقام رسول الله منه ! »

وقال على ، رابط الجأش ثابت الجنان :

« انا احق بهذا الأمر منكم ، فلا ابايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى .. »

« فهل كانت بيعتى عن غير رضا من الناس ؟ »

« ولكنكم زعمتم للأنصار انكم أولى بها منهم ، اذ كان محمد منكم ، فأعطوكم القادة . ولست احتج عليكم الا بمثل ما سلف لكم من الحجة على الأنصار . »

قال عمر :

« قد كان رسول الله منا ومنكم »

فالتفت على نحوه ، غاضبا . يقول :

« نحن أولى برسول الله حيا وميتا !.. يا عمر ، انا آله ، موضع سره ، ولجأ أمره . وعيبة علمه ، وموئل حكمه ... لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة احد ، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا !.. »

هنا عاود ابن الخطاب عنفه ، فاندفع يقول :

« انك اذن لست متروكا حتى تبايع »

فصاح به على :

« أفتلزمنى البيعة يا بن الخطاب ! »

وقال ابو بكر بهدوئه المعروف :

« يا أبا الحسن ، ان الناس قد اختارونى عليهم . وانى احب لك ان تدخل فيما دخل فيه الناس ... »

وعقب عمر :

« يا خليفة رسول الله ، لقد لزمته طاعتك اذ بايعك الناس ... »

فثار ثائر على ، وهتف به يزأر ، وفى صوته رنة سخرية وتهكم :

« يا عمر !.. احلب حلبا لك شطره ، وشد له اليوم يردده عليك غدا ! ... »

ثم التفت الى ابى بكر يقول :

« اما والله لقد تقمصتها وانك لتعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى ، ينحدر عنى السيل ولا يرقى الى الطير !... »

وهم عمر أن يتكلم فأسرع ابو بكر يحول دون ذلك خشية ان يصل الأمر الى ما لا تحمد عقباه . قال له :

« على رسلك يا عمر ! »

ثم أقبل يتلطف بعلى ويقول ، وهو يسير الى الباب :

« لا عليك يا أبا الحسن . فان لم تبايع فلا اكرهك . »

وخرج يتبعه صاحبه . وبقى أبو عبيدة لا يبرح عساه ان يبلغ من على بلين كلامه ما لم يبلغه رفيقاه .

أجل فقد راح ابن الجراح يحاول أن يفوز للخليفة بالبيعة من آل الرسول ، فيتحدث اليهم عن عروة الاسلام ، وعن وحدته ، وعن الرجل الذى شاءه الناس لهم واليا كيف اجتمعت له صفات تؤهله لما هو فيه من مقام . وكان على جالسا ينصت وحوله اهله ، لا يتعجل لحظة الجواب على هذا الداعية الذى كانت له اليد الطولى في تنصيب أبى بكر قبل أن تخطر الخلافة فى بال ابى بكر !...

قال أبو عبيدة اخيرا بلفظ ناعم يحسب أن يستطيع به تاليف على :

« يا ابن عم ... انك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم بالأمور ... »

فرد على وهو يبدى له الهدوء وقلة الاكتراث :

« اما السن فما ازعم لى بها على الرجل قدم ! »

« فهلا يا ابن عم بايعت ؟ ... انى أرى أبا بكر أقوى على الأمر منك »

فما أسرع ان القى على اليه جواب السؤال فى سؤال :

« أفأنتم خير أم رسول الله خير ؟ »

« بل رسول الله »

« لقد كان رسول الله بعث أسامة بن يزيد على جيش فيه مشيخة قومك هؤلاء ، لم يطعن فيه أنه صبى ! »

فلم يحر ابو عبيدة خطابا . ان شأن أسامة ليس بخاف عليه اذ أمره رسول الله على جيش الشام ، وأسلمه بيده الراية . وكان من بين جنوده ابو بكر وعمر وغيرهما من صحب محمد الأقربين اليه اعلاهم سنا ، فساء قوما منهم أن يتقدمهم فى القيادة غلام لما يبلغ عامه العشرين . ومشوا يجعلون من حداثته نقيصة يطعنون بها فى امرته ، حتى خرج اليهم الرسول قبيل موته يهتف بهم مغضبا ويقول :

« أيها الناس . انفذوا جيش أسامة . ان تطعنوا فى امارته فقد كنتم تطعنون فى أبيه من قبله ... وايم الله انه لمن أحب الناس الى بعده »

كان أبو عبيدة يعلم هذا . ويعلم أن حديث الرسول قد حد من ثورة الناس . ثم هو يعلم الآن انهم قد عادوا بعد وفاة محمد الى ماكانوا عليه لا يريدون الاقرار للغلام بالامرة عليهم ، ويودون لو انه استبدل بأمير شيخ ... لقد أخذ هذا العصيان يملك ناحية من فكر أبى بكر بعد أن آل اليه أمر الناس ومشى اليه الكثيرون يطلبون خلع الأمير الصغير . ولكن الذى يعلمه أبو عبيدة تمام العلم هو أن خليفة الرسول لم يقبل مطلقا أن يغير ما أقره الرسول ، لأن السن ليست مقياس القدرة على الاضطلاع بالأمور ...

كان أبو عبيدة يعلم هذا فعلم كيف عداه التوفيق اذ حاول ، أمام على ، ان يجعل للحداثة وتقدم العمر شأنا فى الخسران أو ترجيح الميزان ... ولكن لسانه كان قد كبا ولا يستطيع بعد هذا ان يملك ما ند عنه . فما له الآن — وقد جاء داعية — لا يحاول منحى آخر من الحديث لا يتكلف فيه سوق الحجة حتى يأمن أن ترتد الحجة عليه ؟!..

قال اخيرا ، وهو يضفى على حديثه رقة ، ويميل به الى التلطف والمداجاة :

« انى ، يا بن عم ، انما عنيت أنك حديث السن ، انك ان تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق ، وبه حقيق ، فى فضلك ، ودينك ، وعلمك وفهمك .. ونسبك .. وصهرك »

ولكن هذا الكلام اللين الرقيق أثار من نفس على ما لم يثرها من قبل ، فصاح به :

« الله الله يا معشر المهاجرين !.. تخرجون سلطان محمد فى العرب من داره الى دوركم وتدفعون أهله عن مقامه فى الناس ؟ ... اما والله لنحن — أهل البيت — أحق منكم بالأمر ، ما دام فينا القارىء لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ... »

وتريث هنيهة ثم عاد يقول بلهجة المطمئن الواثق :

« وانه والله لفينا يا أبا عبيدة !. انه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله ، وتزدادوا من الحق بعدا ... »

وقطع بهذا الجواب على الرجل كل خطاب !

١٣

كان أدنى الى اتساق الأمر لأبى بكر الا يمشى الى العباس .

وكان أدنى الى هذا الاتساق من بعد الا يطلب طاعة على بلسانه هو فضلا عن جفوة الخطاب على لسان ابن الخطاب .

ولكن الرجل شاور وعمل بالمشورة ، فدلت العاقبة على خطأ المشير وخطأ المستشير !.

كان على عازفا عن السلطان ما لم يأته حتى الباب ... وكان العباس آسفا على ذهاب السلطان ، ولكنه لم يملك طلبه لان الأولى به فى الناس اعتزل الناس وقد ساءه أنهم عدلوا عنه ولم يقدموه .

اما وقد مشى الخليفة ، كمشورة المغيرة ، الى العباس يترضاه فقد مشى الى من لا تعدله الكثرة من الساسة الدهاة ، ولا تنفع فى

سلبه حق ذويه مداراة ولا مداجاة . وبحسبنا ان سمعناه يوجز فيفحم ، ثم لا يثبت أمام حججه القاطعة دليل ولا برهان .

فاذا نحن ضممنا الحجة فى كلامه الى الحجة فى كلام ابن أخيه ، فقد وضح كيف خسر أبو بكر حيث ظن النجاح ، لأنه دخل دار العباس ودار على وفى يقينه أن يعود منهما بالرضا والوفاق ، فما تركهما الا بعد أن أثار فى النفوس مكامن الخلاف والشقاق .

فالعباس الذى كان مستمسكا بالصمت على كره ، اقتداء منه بعلى ، ساءه أن يكون ابن أخيه هدفا للدس والوقيعة يمشى بهما خصومه بينه وبين عمه وذويه ... وعلى الصابر على الحيف ، المنطوى على نفسه ، الساكن الى ركن داره ، ملأه بالأسى والغضب أن يرى سالبيه حقه لا يقرون حتى يركبوه بالعنت والاعتساف ، وقد كان لهم فى سكونه وكفه عنهم مندوحة عما توسلوا به من قطعه آونة بالعنف. وكان هو قبل هذا لا يبتغى عن الصمت سبيلا ، ولا يروم — بعد بيعة أبى بكر — أن يتوسل الى استرداد حقه المغصوب بالقوة ، او بعنف الأسلوب . ولم يكن هذا لينا منه مال الى الضعف أو رفقا جنح الى التخاذل ، ولكنه كان منطق الرجل الذى يرى الأمور من خلال الواقع الملموس ، ولا يراها بعينى حالم نزاع الى الخيال .

جاءه أبو سفيان بن حرب ، ثانية ، بعد مجيئه يوم وفاة الرسول يعاود ما كان منه قبل ، ويعرض أن يبايعه بالخلافة . ولكن عليا يأبى ، ولا يقبل ، بل يقول :

« يا أبا حنظلة .. انك تريد أمرا لسنا من أصحابه » .

وهو يعنى بهذا ما سوف تقود اليه خلافة رجلين فى آن من ثورة تتهدد كيان الاسلام .

ويهتف أبو سفيان ، مقاطعا محرضا :

« مهلا يا أبا الحسن !.. فأنت والله — » .

ولكنه لا يدعه وما يقول ، ويرده ردا حتى يذهب الشيخ شاكيا الى العباس . ويظن أبو سفيان أن تراث الرسول ، بعد رفض على ، قد صار لشيخ بنى هاشم ، أو هو أولى بأن يصير اليه فيمد نحوه كفه ويقول :

« فامدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » .

« تبايعنى ؟ » .

« نعم ، وانك والله لها لأهل ، واحق بميراث ابن اخيك » .
فلا يخفى العباس بسمة تنطق بمرارة قلبه ، ويجيب :
« يا أبا سفيان ؛ أيدفعها على ويطلبها العباس !.. »

* * *

ويجتمع الناس مرة الى هذا ومرة الى ذاك من قطبي آل هاشم ، يحرضونهما على استرداد هذا الحق المسلوب فلا يجدون لديهما سمعا. وتمتلىء المدينة بالحديث ، وما من رجل فيها غير زار عليهما ان تركا تراث النبى يخرج من بيته الى غير اهله ممن لم يبلغ شأوهما نسبا أو علو منزل ، ولكن عليا كان لا يأبه لهذا لأنه كان يعلم أن هذا النسب الحرى برفعه على رقاب الناس هو الذى اتخذته قريش ذريعة الى خذلانه . لقد كرهت من بنى هاشم أحقابا أن استطالوا عليها ، فقامت تنافسهم حتى ردها عنهم القصور . ثم كرهت فيهم أن تكون بينهم — من دونها — نبوة ، فحسدت صاحب الدعوة السماوية وقد أحنقها عليه أن جاءها بما لاتستطيع أن تباريه في ميدانه لو أرادت المباراة .. وهذه كلمات الحكم بن هشام — أبى جهل — ما زالت تفصح عما ملأ قلوب قريش من حقد لآل على ولآل الرسول ، وانها لكلمات تتخذ شعارا للحسد عند أكثر الحساد حقدا !..

قال الرجل اذ سمع أن محمدا قام يدعو قومه لدين جديد :

« واللات هذا لن يكون !.. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا .. حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء !. فمتى ندرك مثل هذه ؟.. واللات لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه !. » .

كان على يعلم هذا من قريش ، ويعلم ان علو آله عليها هو سبب خذلانها اياه كما سعت من قبل الى خذلان محمد لولا ان قهرها على الالتفاف حوله . اما وقد اصبحت اليوم تستطيع ان تنصر وتستطيع أن تخذل ، فقد سارعت تمد اكفها الى شيخ بنى تيم مؤيدة وتلوى رقابها عن الأولى منه ببسط الاكف واجتماع الآراء .

كرهت قريش اذن ان يذهب بشرف السلطان عليها رجل من الالى باءوا في العصور بمر حقدها عليهم . وابت أن تجمع لدار هاشم شرفين:

شرف النبوة وشرف الخـلافة . ولو كانت استطاعت أن تخلع عن رقابها هـذا الشرف الأول لما توانت كما سارعت الى الثانى تنفضـه عنها .. بل هى حقا حاولت أن تتحرر منه .

وكأنها كانت تتلبث بالزمن الذى قهرها على أن تدين للاسلام كرها حتى جاءها النبأ بوفاة رسول الاسلام .. وما كان أعجب هذهالنفوس التى بدت من قبل كأن قد ملأها الايمان ثم تكشفت اليوم عن أضغان هتكت ستر هذا الايمان ! لقد قامت تهم أن تخذل محمدا فى مماته بعد اذ أعياها أن تخذله ابان حياته . ونهضت تجيش شراذمها بمكة . داعية لخلع رداء الاسلام . وانتشرت الفتنة هناك . وقويت شوكتها حتى خشيها عتاب بن أسيد ، عامل رسول الله على البلدة الحرام ففر منها يتلمس النجاة . ولكن الله أبى الا أن يعز دينه ويعلى كلمته على القوم الضالين فضربهم ثانية على الاسلام كما ضربهم في حياة محمد ، عليه . فاذا سهيل بن عمرو — رجلهم يوم الحديبية — يقف بينهم ، بعد فرار عتاب ، محذرا متوعدا يقول :

« يا أهل مكة !.. كنتم آخر من أسلم فى الناس فلا تكونوا أول من ارتد من الناس . يا أهل مكة .. والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله . ومن رابنا ضربنا عنقه !.. »

فخشيت الرقاب ، وعاودت العقول الصواب !.

***

عرف على هذا كله فى قريش ، ونظره رأى الواقع لا بعين الخيال فآثر أن ينطوى على نفسه ويقر في داره ، لا يدعو الى خلاف ولا تأييد . ولئن كنا شهدنا قوما من أصحابه يجتمعون فيدبرون ليستعيدوا حقه من يدى من ابتزوه ، فلقد ساقهم الىهذا صدق ولائهم لايمانهم بمقامه في الناس بعد مقام الرسول . ولقد سمع على ، وهو قائم على جهـاز محمد ، بما تم من بيعة أبى بكر فى السقيفة فلم يترك ما هو فيـه ، ولا أسرع يؤلب الأنصار أو يعتب عليهم .. ثم جاءته أنباء البيعة الثانية ثانى صباح فوقف منها موقفه الأول ، يكتب فى نفسه مرارة ما لقى من خذلان الناس ولا يرى الا أن يعتزل الناس .

ولكن أبا بكر — فيما يبدو — خشى منه هذا السكون والاعتزال فقام يسعى سعيه الى العباس عساه ان يقطع بين العم وبين ابن أخيه. ثم قام من بعدها يتوسل بلينه مرة ، وبعنف ابن الخطاب ثانية ، وبرقة أبى عبيدة أخرى لينتزع الرضا من على عن بيعة يرى هذا فيها عدوانا على حقه أى عدوان ، فهل من رأى رجلا ينظر بعينيه الى حقه يضيع فيقر لسانه هـذا التضييع ؟ كان لسان على دائما ترجمان قلبه ، يجرى أحاسيسه مجرى الكلام فليس بعجيب الا يخرج عن عهده في هذا المقام . وما أحسب نفسا بشرية لها قيمتها ، ولها قدرها على صاحبها ، تقبل — اذ تغضى عن الضيم — أن يردف منافسوها الضيم بالضيم ولا تنهض الى استنكاره ، ثم الى دفعه ، ثم الى استعداء من تستطيع على موقعيه ما وسعها دفع العادين واستعداء المناصرين ..

وكذلك غضب على لحقه الهضيم ، وقد أغضبه التواء الأسلوب الذى تذرع به خصومه للنيل منه — وكفى بالوقيعة التى مشوا بها بينه وبين العباس أسلوبا ملتويا وسلاحا غادرا لم تدع الى سلهم اياه دواعى الحال . وكذلك خرج عما كان قد التزم نفسه من سكون وعزلة يلتمس النصرة فى قوم غير قريش الشانئة له الحاقدة عليه فيمم ناحية الأنصار . وراح مع الليل يدور بهم والى جواره زوج ابت ان تدعه يستقبل الأمر وحده اذ كان امرها مرتبين .. ان الزهراء لا تبرح دارها ولا تغادر مجثمها ذاك بجوار رسول الله لغير هدف يطفو بنفسها الولهى فوق لجة الأحزان وكان تراث أبيها ذلك الهدف ثم من بعده حق على فيه .

لعبت فاطمة دورها وهى شديدة الايمان بأنه لزام عليها ان تفعل ، وان تدعو ، وان تكافح غير وانية . ووقفت الى جوار زوجها المظلوم تنضح عنه باللسان وليس لها عدة سواه .. فكأنها بفعلها قد ارتدت « خديجة اخرى » ، لا يقعدها خذلان القوم زوجها عن الكفاح ، بل راحت ترسم نفسها بلون الماضى لتبدو صورة بارزة الظلال والأضواء ، واضحة المعالم ، نابضة بالحياة ، عاشت فيها الأم فى الفتاة .

ولكن الذين بايعوا أباها على الموت وناصروه لم يستطيعوا لها نصرا . صحا فيهم خلق العربى واستمساكه بكلمته وشدة وفائه بعهده .. ولم يخفوا عنها هذا ، بل كانوا يقولون ، خافضى الرءوس كاسفين :

« يا بنت رسول الله .. قد مضت بيعتنا للرجل »

وتجيبهم هى مستنكرة :

« أفتدعون تراث رسول الله يخرج من داره الى غير داره ؟ » .

فلا يجدون لهذا الاستنكار ردا سوى الأسف على ما سلف منهم ، والاعتذار عنه :

« يا بنت رسول الله .. لو أن زوجك سبق الينا قبل أبى بكر لما عدلنا به .. »

فيقول على :

« أفكنت أدع رسول الله فى بيته لم أدفنه ، ثم أخرج انازع الناس سلطانه ؟.. »

ولكنها حجة لا تغنى فى حساب السياسة النهازة العادية وان أغنت فى حساب الأخلاق القويمة الصافية .. وان فاطمة لتعبر عن هذا فى أوجز بيان فتجيب القوم وهى تنهض عنهم ، نافضة يدها من تأييدهم المأمول .

« ما صنع والله أبو الحسن الا ما كان ينبغى له .. وقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه ! »

١٤

أنف على بعد هذا أن يعاود الكلام فى شأن البيعة التى سبقه اليها شيخ بنى تيم أو يختلف فى أمرها الى الناس . وانطوى ثانية على نفسه في داره ، رفيقه فيها كتاب الله يعمل ما وسعه فى جمع شتاته أن يغيب عنه . وقد وجد فى القرآن خير مسلاة له عما هو فيه ، فأقبل عليه بكل ذهنه يجمعه ويضم آياته الكريمة واحدتها الى الأخرى .

ولكن بيته لم يزل الكعبة التى يؤمها الذين آثروا الانحياز اليه وأبوا أن تميل قلوبهم عنه الى أبى بكر ، فلم يخل يوما من الزبير أو أبى ذر أو المقداد ومن تابعهم من صحابهم على الرأى ، يجتمعون ثم ينفضون فلا يدفعه اجتماعهم الى الأمام خطوة ولا يرده انفضاضهم خطوة ، بل ظل مقيما على ما أخذ به نفسه من اعتزال الناس واعتزال الأمر كله

بعد ما أصبح لأبى بكر وبعد ما شاهد من حيرة النفوس بين حقه وبين ما سلف منها الى غريمه من الادلاء بالسـلطان . ولقد كانت الأنباء تاتيه تترى من الخارج عما اخذ يفور يصدور الأنصار من الندم لانهم لم ينصروه فكان لا يحرك لها ساكنا ولا يلقى اليها بالا ، ولا يعنى بأن يتقصاها أو يعمل على اذكاء الندم لينقلب فتنة أو ينقلب ثورة يفيد من ورائها ما فاته . ولقد مشى اليه أناس يحاولون حمله على المطالبة بحقه المسلوب ويعرضون أن يؤازروه فى الدعوة اليه او فى نصره فما كانوا يصيبون منه تلبية النداء وان اصابوا حسن الاصغاء .. قدم خالد بن سعيد ، أمير رسول الله على اليمن ، الى المدينة فلقى عثمان ابن عفان ، وراح يعيره أن قعد وآله على الهضم ، . ثم انفلت عنه بعد قليل فدخل دار على وهو فيها جالس بين ذويه ، وراح يوجه اليهم جميعا الخطاب وان عنى بحديثه هذا الساكن المظلوم :

« يا بنى عبد مناف !.. طبتم نفسا عن أمركم يليه غيركم ؟ »

فما فعلت كلماته المثيرة فى نفس الشاب فعلها المنشود ، بل جاءه الرد من لدنه فى هدوء :

«يا خالد .. هذا أمرنا أبت قريش أن تؤتيناه »

« يا ويح قريش !.. وهل فى الناس احد اولى بمقام محمد منك؟ »

لا أحد والله !.. ولكنه الحسد والغل والضغن القديم !.. ولئن أبت قريش هذا على خير رجالها اليوم ، فلقد أبت مثله من قبل على سيد البشر وخير الناس أجمعين . ولكنها كانت موكولة برى الأحقاد والغليل من ذلك الغريم المظلوم ، الذى وترها آله من قديم بنباهة الذكر ورفعة المقام ، ووترها هو في الاسلام بحد الحسام !.. وما اصدق قولا فى هذا المعنى من الفضل ابن العباس ، حين طلع على القوم ذات يوم يقول على الملأ منهم ، مترجما بحروف بيانه عما خامر نياتهم واختلط منهم بدماء القلوب :

« يا معشر قريش .. يابنى تيم !.. انما أخذتم الخلافة بالنبوة ونحن أهلها دونكم : ولو طلبنا هذا الأمر الذى نحن اهله لكانت كراهية الناس لنا أعظم من كراهيتهم لغيرنا ، حسدا منهم لنا وحقدا علينا !. »

***

تلك كانت مشاعر قريش قبل علي وقبل آله في ذلك الحين ، فلم يروا في خذلانه أو في قعودهم عن نصرته ، وهم يستطيعون النصرة ، الا امرا وافق منهم هوى النفوس مع ما كانوا يعلمون من حقه ، وانه أولى بأن يتقدم على كل ولي وكل أمير ، ولكنهم حقدوا وغالوا ، وحسدوا فاغتالوا .

وأمام هذه المشاعر المعادية كان الأنصار في عسكر آخر .. اقبلوا على بعضهم وقد راحت غمرة الحزن على وفاة الرسول ثم راحت من بعدها غمرة النخوة التي تركتهم يستمسكون بما سلف من كلمتهم ببيعة ابي بكر — اقبلوا يتلاومون ، ولا يلقى الرجل منهم أخاه الا معاتبا ففيم كان اذن عدوانهم على صاحبهم سعد بن عبادة يوم السقيفة يسلبونه السلطان الذي كادت أن تتقبض أصابعه عليه ؟ — فيم كان وقد نقلوا به الامرة من قريب الى غريب ؟.. وفيم كان وقد اخرجوا به الحق من أهله ووضعوه في غير أهله ؟. وفيم كان وقد أضاعوا الولاية من قرشي هو اولى الناس بتراث محمد ثم هو ادنى الناس قرابة من الأنصار ، اذ كان حفيد عبد المطلب صهر بني النجار !..

ندم الأنصار اذن على ما سلف منهم حتى سال الأسف بنفوسهم كل مسيل . واخذ الندم يتجمع في القلوب حتى امتلأت به ففاض يتلمس متنفسا له على الألسنة ومن بين الشفاه . وكانت قريش صاحبة الأحقاد فوقفت لعواطف القوم بالمرصاد ، لاتني تحصى عليهم الحروف قبل الألفاظ ، وتعده خروجا عن طاعة السلطان أن يتحدث الناس بسجايا سواه . وبدا الحديث مديحا يقابله مديح وثناء أمام ثناء . ثم سار جدلا حال الى ملاحاة حتى ترددت كلمات السيف والقتال والقتل بين فريق الحاسدين البغاة . وكانت الأنباء لا تفتأ تأتي عليا بما يدور بين الحزبين فيزيد انطواء على نفسه . وكان الأنصار يودون لو انه طلع عليهم فاصابوا بظهوره بينهم قوة تؤلب حوله الرجال وتدفع بقضيته الى الامام . ولكنه ظل ، كما اعتزم ، مؤثرا أن يبقى بعيدا عن المعترك خشية أن يفتتن به الناس وما يجيء في أعقاب هذا الافتتان من انقسام الأمة في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الاسلام . ولم يغير من مسلكه أن جاءت جموعهم اليه ذات يوم تحيط بداره ، وتهتف باسمه داعية اليه ، منادية اياه أن يبرز لها تبايعه وتعيد له ما ضاع من حقه المسلوب .

في هذه الآونة كانت الثمرة ناضجة ايما نضوج ، دانية القطاف لمن أراد ، حتى حسب الأكثرون ان امر ابى بكر لن يلبث ان يولى مع النهار ، وتهيأ الناس لما أوشك أن يصير . وامتلأت قلوب آمالا وقلوب أحقادا وموجدة حسبما كان كل فريق يميل . ومن عجب أن تكون قريش هي اكثر النافخين في نار هذه الفتنة لانها — وقد نصبت نفسها قوامة على ألسنة الأنصار — أثارت في نفوسهم طبيعة العناد والاصرار ...

واستبق ابو سفيان الى دار على وهو يحسب أن قد جاءت اخيرا اللحظة التى ارتجاها واوشك أن يتحقق حلمه في أن يفوز احد آله الأقربين بالسلطان . وراح يكرر العرض الذى القاه امام ابن ابى طالب مرتين من قبل ، ويماود التحريض ...

قال شيخ بنى امية وقد فرغ من الثناء وبقى عليه أن يفضى بما جاء فيه :

« أما والله لئن شئت لأملأنها على ابى فضيل خيلا ورجلا ، ولأسدنها عليه من أقطارها !... »

فابتسم له على وقال :

« يا أبا سفيان ... هذا ماء آجن ، ولقمة يغص بها آكلها » .

« ماء آجن !!. أتراث ابن عمك يا أبا الحسن تدعه نهبا ؟ »

« مجتنى الثمرة لغير وقت ايناعها كالزارع بغير ارضه » .

فراح الشيخ يوالى التحريض :

« يا عجبا ! . رضيتم يا بنى عبد مناف ان يغلبكم عليها اذل بيت في قريش ؟ »

قال على بهدوء ما بنفسه :

« ما رضيت ، بل صبرت وفي العين قذى ، وفي الحلق شجا .. »

« اذن يتحدث الناس .. »

وفهم الشاب مارمى اليه شيخ بنى أمية من وراء كلماته هذه ، فتلهب وجهه غضبا وقال :

« ويح الناس !... ان اقل يقولوا حرص على الملك ، وان اسكت يقولوا جزع من الموت ؟ ... اما والله لابن ابى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى أمه ! »

وصمت برهة حتى هدأت سورة غضبه ، ثم عاد يتم بصوت هادىء ، فى نبراته حزم وتوكيد :

« يا أبا حنظلة . انى سدلت دونها ثوبا ، وطويت عنها كشحا ، ورأيت أن الصبر على هذا احجى .. »

١٥

ما أشد ما نال عليا من عسف قريش !. انها لترى فيه « هاشما » وترى « عبد المطلب » وترى « محمدا » قبل أن يقهرها على اعتناق دين الله ، فتضم الى حسدها لابن ابى طالب حسدها لأولئك الأعلام أجمعين . حسدته علما مرفوعا على هام الناس ، اذا ذكر العلم ، وذكر الفضل ، وذكرت شجاعة القلب واللسان ، فأرادت له غير ما هيأته له مواهبه الفذة ونسبه العلى وشرفه المريض . وقامت تناوئه محاربة فيه البيت الهاشمى الكريم ، وتحتشد حول منافسه صفوفا حتى تم له الانتصار وباء بصفقة المغبون من كان أولى الناس بهذا الانتصار . ثم حسدته مخذولا بعد اعتزاله الأمر ، لانها ابت عليه أن تزأر العاصفة فيتجنبها لتمر بسلام وهى لا ترضى له بالسلام ... وانها لتأتلف الآن وتصطف جموعا محاولة ان تثير عليه النفوس حتى يظل ما عاش بعيدا عن عطف الناس .

وقف سهيل بن عمرو عقب مجيئه الى المدينة بعد فتنة مكة ، وقد هاله ما بدا من حب الانصار وندمهم على خروج تراث النبى من كف ابن عمه الى سواه . وقف يحف به اعيان قريش يخطب القوم ويقول :

« يا معشر قريش ... ان هؤلاء الناس قد دعوا الى انفسهم والى على بن ابى طالب ، وعلى فى بيته لو شاء لردهم ، الا فادعوهم الى صاحبكم والى تجديد بيعته ، فان اجابوكم ، والا فاقتلوهم !.. فوالله انى لارجو الله ان ينصركم عليهم كما نصرتم بهم »

افترای هذا الشانىء القرشى خير أم كان الذى التزمه على هو الخير ؟.

ما احسب سهيلا كان جادا أو موفيا على الصواب وهو يعلم أن ظهور على أمام الناس كان كفيلا بأن يثير فيهم من الحماس لقضيته ما لا تحمد معه مغبة انتقاضهم وثورتهم على الخليفة ، مهما جاهد ابن ابى طالب فى تسكينهم وجاهد معه لهذا الفرض آلاف سواه ... ولكنها كانت « حكمة » قرشية قمينة بأن تغيب عن خاطر على وان سارعت الى خاطر سهيل وغيره من طغمة الحاسدين البغاة !..

ثم تلاه من بعد الحرث بن هشـــام ، احد بنى مخزوم آل ابى جهل يقول :

« أيها الناس ... ان يكن الأنصار قد تبوأوا الدار والايمان من قبل ، ونقلوا رسول الله الى دورهم من دورنا فآووا ونصروا ، فانهم قد لهجوا بأمر — ان ثبتوا علية فانهم قد خرجوا مما وسموا به . وليس بيننا وبينهم معاتبة الا السيف !... »

وقال عكرمة بن أبى جهل :

« لولا قول رسول الله ، الأئمة من قريش ، ما انكرنا امـــرة الأنصار ... اعذروا القوم فان ابوا فاقتلوهم ! »

فهلا ذكر عكرمة انه قد فات أوان الحديث فى امرة الأنصار ، وانهم ما دعوا من بعد الا الى امرة قرشى هو من قريش امامها وامام بقية المسلمين ؟.. ولكن ابن ابى جهل — فيما يبدو — اراد ان يقابل « حكمة » سهيل « بشجاعة » لسان لا يستطيع ان يلهج باسم ابن أبى طالب فى مجال حساب أو عتاب !...

أولئـــك كانوا دعاة التخذيل عن على ، والمناوأة عليه ، وهم من عرف الناس لهم دائما السبق الى حرب الحق وعداء محمد ، ومن عرف لآبائهم قبلهم امتلاء قلوبهم على بيت هاشم بالحقد والبغضاء . ولقد غضبت الأنصار وحميت نفوسهم حتى قام فيهم ثابت بن قيس يهدىء من سورتهم ويقول :

« يا معشر الأنصار . انما كان يكبر عليكم هـــذا القول لو قاله أهل الدين من قريش ... »

وكفى بها كلمة أبلغ أثرا واصدق قولا من الف بيان وبيان !...

***

ولكن الجسد ، وان كان بلا نهاية ، فان طاقة الحلم تنفد عند غاية ... امعنت قريش في غيها ما شاءت ، وركنت الأنصار بالعنت وسلاطة اللسان ما وسعها أن تفعل ، ثم ظلت دائبة على هذه السياسة حتى لم يعد في طوق رجال المدينة ان يملكوا السنتهم منها . وانقلب الناس بهذه المعركة الكلامية الى عسكرين متناجزين ، كلاهما يدعو لرجله ويخذل عن الآخر ما استطاع التخذيل .

وكانت الأخبار لا تزال ترد بنماء شوكة المتنبئين ، والتفاف أجلاف الأعراب حواليهم هنا وهناك ، في أطراف الجزيرة ، ثم لايزال يزيد هذا الالتفاف حتى يتسع نطاق الرقاع التي تمسك بزمامها جحافل المرتدين . أما عاصمة الاسلام فقد غدت عورة مكشوفة لأعدائها هؤلاء ، ولسواهم من جموع مانعي الزكاة لو شاءوا لاقتحموها وهي عزلاء خاوية الوفاض من الرجال والسلاح بعد أن خرج أسامة بجند المسلمين قاصدا الى الشام .

في هذه الفترة العصيبة كانت وحدة الأمة الاسلامية هي غاية كل مسلم سليم البصيرة يحسن النظر في عواقب الأمور . كانت حلم أبي بكر الذي لا يفتأ يراوده في اليقظة وفي المنام ، ثم لا يبرح لحظة واحدة ذهنه المشغول بالتبعات الجسام .. وكانت رجاء عمر الذي أقامت منه الظروف مشيرا للخليفة ووزير صدق يحمل عن كاهله من العبء ما استطاع ... وكانت الأمنية التي لا يبخل على في سبيل تحقيقها بكل ثمن من أمانيه أو تراثه أو نظائر ما بذله من قبل من أجل الاسلام .

كانت الوحدة اذن شاغل عمر بن الخطاب فيما صدر عنه من سلوك ، عنف نسلوكه أو وافق ما ترضاه النفوس من رقة ولين . وقد نظر الى الأحداث السياسية التي تلاحقت في هذا الوقت العصيب من هذه الزاوية ونسى أمام شاغله بقية الاعتبارات . وكان الرجل محقا في نظرته حتى الغاية ؛ مخلصا لهدفه تمام الاخلاص .

وكانت نظرة على — هو الآخر — الى الامور لا تخالف نظرة ابن الخطاب ولا تتجه الى مرمى سوى مرماه ، فلم يتوان المرة بعد المرة عن اباء أخذ البيعة لنفسه من الناس اذ علم أنها حرية بأن تشق صفوف المسلمين وتتركهم حزبين يتلاحيان ويختصمان فيخرجون

جميعا عن الاعتصام لرفع شأن الاسلام ، الى الخلاف والكفاح من اجل هذا او ذاك .

ولكن أول الرجلين راى وغضب فحاد به غضبه العنيف عن التزام الطريق المثلى للوصول الى ما اراده من صواب . وغضب الثانى فكبح جماح نفسه ، وطوى حقه الشخصى وهدفه السياسى من اجل الهدف الأعلى وهو اقرار الخير العام .

رأى عمر — فى البدء — كيف ظهر الخلاف بين المسلمين اول ظهوره فى سقيفة بنى ساعدة بحى الأنصار والقوم هناك يدعون الى ابن عبادة دون صحب الرسول ... ثم يدعون — وقد ابى هو عليهم مطلبهم وأبى صاحباه — بأمير منهم وامير من المهاجرين . فلما شاءت الظروف ان يختلف الأنصار فيما بينهم ، وتم لأبى بكر الأمر بهذا الخلاف ، لم تزايل عمر الخشية على وحدة الاسلام ، فكان ان قام يهم بقتل الرجل الذى أجمع عليه من قليل راى الأنصار ، لأنه رأى فى حياته عودا للفتنة وعودا بعدها الى الانقسام .

ثم رأى من بعده ، أن اولئك الذين ناصروا سعدا ، ثم عادوا فخذلوه ، قاموا ثانية الى رجل خذلوه يحاولون ان ينصروه ... واجتمعت جموعهم — آونة فى الخفاء واخرى على ملأ — يدعون الى ابن أبى طالب لأنهم رأوه أولى الناس بأن يلى امور الناس ، ثم تألبوا حول داره يهتفون باسمه ويدعونه أن يخرج اليهم ليردوا عليه تراثه المسلوب ... فاذا بالمسلمين أمام هذا الحدث مخالف او نصير . واذا بالمدينة حزبان ، واذا بالوحدة المرجوة شقان اوشكا على انفصال ، ثم لا يعرف غير الله ما سوف تؤول اليه بعد هذه الحال .. فهلا كان على — كابن عبادة — حريا فى نظر ابن الخطاب بالقتل حتى لا تكون فتنة ولا يكون انقسام ؟.

كان هذا أولى بعنف عمر الى جانب غيرته على وحدة الاسلام . وبه تحدث الناس ولهجت الألسن كاشفة عن خلجات خواطر جرت فيها الظنون مجرى اليقين ، فما كان لرجل ان يجزم او يعلم سريرة ابن الخطاب ، ولكنهم جميعا ساروا وراء الخيال ، ولهم سند مما عرف عن الرجل دائما من عنف ومن دفعات . ولعل فيهم من سبق بذهنه الحوادث على متن الاستقراء فراى بعين الخيال ، قبل رأى العيون ، ثبات على أمام وعيد عمر لو تقدم هذا منه يطلب رضاءه

واقراره لابى بكر بحقه فى الخلافة ، ولعله تمادى قليلا فى تصور نتائج هذا الموقف وتخيل عقباه فماد بنتيجة لازمة لا معدى عنها ، هى خروج عمر عن الجادة ، وأخذه هذا « المخالف » العنيد بالعنف والشدة !.

وكذلك سبقت الشـــائعات خطوات ابن الخطاب ذلك النهار ، وهو يسير فى جمع من صحبه ومعاونيه الى دار فاطمة ، وفى باله ان يحمل ابن عم رسول الله — ان طوعا وان كرها — على اقرار ما أباه حتى الآن . وتحدث اناس بأن السيف سيكون وحده متن الطاعة !.. وتحدث آخرون بأن السيف سوف يلقى السيف !.. ثم تحدث غير هؤلاء وهؤلاء بأن « النار » هى الوســيلة المثلى الى حفظ الوحدة والى « الرضـــا » والاقرار !.. وهل على ألســنة الناس عقــال يمنعها ان تروى قصة حطب أمر به ابن الخطاب فأحاط بدار فاطمة ، وفيها على وصحبه ، ليكون عدة الاقناع أو عدة الايقاع ؟...

على ان هذه الأحاديث جميعها ومعها الخطط المدبرة او المرتجلة كانت كمثل الزبد ، أسرع الى ذهاب ومعها دفعة ابن الخطاب !.. أقبل الرجل ، محنقا مندلع الثورة ، على دار على وقد ظاهره معاونوه ومن جاء بهم فاقتحموها أو أوشكوا على اقتحام . فاذا وجه كوجه رسول الله يبدو بالباب — حائلا من حزن ، على قسماته خطوط آلام وفى عينيه لمعات دمع ، وفوق جبينـــه عبسة غضب فائر وحنق ثائر ...

وتوقف عمر من خشية وراحت دفعته شعاعا . وتوقف خلفه — أمام الباب — صحبه الذين جاء بهم ، اذ رأوا حيالهم صورة الرسول تطالعهم من خلال وجه حبيبته الزهراء . وغضوا الأبصار ، من خزى أو من استحياء : ثم ولت عنهم عزمات القلوب وهم يشهدون فاطمة تتحرك كالخيال ، وئيدا وئيدا ، بخطوات المحزونة الثكلى ، فتقترب من ناحية قبر أبيها .. وشخصت منهم الأنظار وأرهفت الأســماع اليها ، وهى ترفع صوتها الرقيق الحزين النبرات تهتف بمحمد الثاوى بقربها تناديه باكية مرير البكاء :

« يا أبت رسول الله .. يا أبت رسول الله !.. »

فكأنما زلزلت الارض تحت هذا الجمع الباغى ، من رهبة النداء .

وراحت الزهراء ، وهى تستقبل المثوى الطاهر ، تستنجد بهذا الغائب الحاضر :

« يا أبت رسول الله .. ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب ، وابن أبى قحافة !؟ » .

فما تركت كلماتها الا قلوبا صدعها الحزن ، وعيونا جرت دمعا ، ورجالا ودوا لو استطاعوا أن يشقوا مواطىء اقدامهم ، ليذهبوا فى طوايا الثرى مغيبين .

١٦

بكى أبو بكر حين أتته قصة شكوى الزهراء . وبكى عمر وقت الحادث ثم عاد ثانية الى البكاء وهو يرى ما كان . وكانت في الرجل رقة خافية وراء غلظته البادية . فثاب الى الدمع عساه يفىء على نفسه بعض الراحة بعد اذ صعدت الشكوى منه الى اسماع الرسول .

واقبل على صاحبه يتوسل ويقول :

« يا خليفة رسول الله .. انطلق بنا الى حبيبة رسول الله نترضاها ، فانا قد اغضبناها .. »

فأجابه أبو بكر لتوه :

« انى منطلق .. »

لقد لقيت هذه الدعوة مكانها من قلب الخليفة اذ كان يحن الى لقاء فاطمة ، والى رؤيتها ، والى رضاء هذه السيدة التى لم يحب رسول الله مثلها انسانا ولم يحبه مثلها انسان . وهو الى هذه الرغبة التى ما فتئت تراوده على هذا اللقاء كان يدفعه — غير استرضائها عما سلف من صاحبه — أمله فى أن يمحو ما لعله علق بنفسها يوم أبى عليها ان يكون لها نصيب في أرض فدك ، التى مات عنها الرسول ، وكان يدفعه أيضا حبه ان يلقى عليا ، بعد هذه القطيعة — التى فرضتها ظروف الحال — ولم تفرضها موجدة أو ضغن قديم .

أجل ، قد كان ابو بكر حنانا الى لقاء الرجل الذى خالفه في الراى ونازعه مقاليد السلطان ، وان لم يتوسل مطلقا فى نزاعه بغرية او وقيعة

او سقطة لسان ، بل ظل ابدا عفا لا يلج فى الخصومة ، نبيلا لا يتذرع بكيد ، صافي القلب يتحرج ان تند منه الكلمة نابية تخدش شعور خصمه . بل عسى أن يكون على هو الأول والأخير بين الناس الذى أبى على انصاره ان يتحدثوا عن غريمهم بما يسيء اليه ويجرح كرامته ويحط من قدره ، حتى لقد انكر على ابنه — قبل كل الناس — أن يجبه ابا بكر على الملأ بكلمة حق افلتتها شفتاه ، ثم لم يكفه أن يبدى الاستنكار بل قفاه بالاعتذار — لم يقعده عنه أن الحسن كان اذ ذاك صبيا لا يجيد الخصام وان اجاد الكلام !.

حدث هذا ذات يوم قريب ، وقد قف ابو بكر على منبر المسجد يخطب الناس ، فبينما الجميع قد القوا اليه الأسماع ، وسكنت حركة المكان حتى ليسمع فيه تردد الأنفاس ، اذا صوت رفيع حاد يأتى من طرف المسجد صائحا بالخطيب :

« انزل .. انزل عن منبر أبى !.. »

فوقفت الكلمات بحلق ابى بكر ، وبهت الناس ، وتطلعت أبصارهم الى ناحية الصوت مشدوهين .

ولكن ابا بكر لم يلبث حتى استرد خاطره ، وسكن جأشه ، ولعبت بسمة هادئة على شفتيه وهو يلتفت الى هذا الصائح الصغير : الحسن سبط الرسول ، ويقول له فى حنو ورفق :

« ابن بنت رسول الله ؟. صدقت والله . وانه لمنبر ابيك لا منبر أبى »

ووصل الخبر الى على فاسف وأنكره على ابنه اشد الانكار ، ثم لم يهدأ باله وتطب نفسه حتى بعث رسولا من لدنه الى ابى بكر يقول :

« اغفر ما كان من الغلام ، فانه حدث .. ولم نأمره »

فكان جواب الخليفة :

« انى أعلم ، وما اتهمت أبا الحسن »

* * *

كان ابو بكر حنانا الى لقاء على ، والى لقاء فاطمة حنينه الى رضائها ، فما أبدى عمر له رغبته حتى صادفت لديه القبول .

وانطلقا . واستأذنا على فاطمة فابت ، ثم استأذنا فابت . فما كان اعجب من سيرهما الى على فى الاستئذان لهما عليها الا رضاه أن

يمنحهما من لدنه الاذن ، فيدخل بهما ويقبل على زوجه يرجوها ان تحدثهما كأنه كان وليا لهما ولم يكن الخصم الفريم .

ودخلا . وقرآها السلام فلم تجب . وتقدما فقعدا امامها فولت وجهها عنهما الى الحائط . وراحا يلحفلان في الرجاء أن تسمع لهما أو يظلا لا يبرحان ما أبت عليهما الانصات او الاذن بالكلام .

وقال لها ابو بكر ، أخيرا ، وقد اذنت له :

« يا حبيبة رسول الله .. والله ان قرابة رسول الله احب الى من قرابتى ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات ابوك انى مت ولا أبقى بعده .. أفتراني أعرفك واعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟. الا انى سمعت رسول الله يقول :

« لا نورث ما تركناه فهو صدقة » .

ما احسب ان ميراث فدك كان كفيلا بأن يشير الى هذا الحد غضبها على أبى بكر ، بل هى أولى أن تعلم هذا الحديث عن ابيها . واولى أن تنهج نهجه وقد عاشت معه مطبوعة بطباعه ، ناسجة على منواله في العزوف عن عرض الدنيا ونشب الحياة . ولكنها كانت سارت الى الخليفة فى أمر فدك لان رسول الله — كما اعلمتها أم سلمة — قد اوصى لها بهذه الأرض نحلة . فلما رأت أبا بكر لا يعلم بهذه الوصية ، ثم يأبى أن يترك لها فدك وان شهدت أم سلمة ، ما دامت الشهادة فى الاسلام لا تصح الا اذا اداها رجلان او رجل وامرأتان .. لما رأته يأبى عليها هذا الميراث ، ويبدو كالمتشكك فى شهادة سيدة قمين بأبى بكر أن يسمو بها عن التشكك ، نفضت فاطمة يدها من الأمر ولم تراجع الخليفة فيه . ولئن ظنها هو واجدة عليه من أجل هذا العرض الضئيل ، فقد جاء ردها عليه لا يشير الى الميراث من قريب ولا من بعيد ، لان حب المال — كما احسب — لم يكن أدنى الى طبعها ، والى خلقها ، سيما وهى تعلم عن أبيها انها لن تمكث فى هذه الحياة الدنيا بعده الا اقل القليل .

قالت تخاطبه وهى تشرك عمر فى الخطاب :

« أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله ، تعرفانه وتعملان به؟»

أجابها وصاحبه :

« نعم .. »

« نشدتكما الله .. الم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من

رضاى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة ابنتى فقد احبنى ، ومن ارضى فاطمة فقد أرضانى ، ومن اسخط فاطمة فقد اسخطنى ؟ »

« قد سمعناه من رسول الله » .

فرفعت وجهها وكفيها الى السماء ، وراحت تقول فى حرارة :

« فانى أشهد الله وملائكته انكما اسخطتمانى وما أرضيتمانى .. ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما اليه !.. »

فما كان أشدها كلمات أخف من وقعها ضربات السيف !.. مادت الأرض تحتهما ، ودارت كالرحى حتى سارا من هول ما لقيا يترنحان. وغادرا الدار وقد خيا املهما فى رضا زهراء الرسول ، وعلما مدى الغضب الذى أثاراه عليهما فى قلبها ومدى السخط الذى باءا به .. أما عمر فقد عاوده ثانية ندمه على ما فرط منه في حقها فثاب الىالدمع يلوذ به عساه ان يلهمه الراحة .. واما أبو بكر فقد احس كأنما الدنيا ضاقت عليه حتى لا يرى له فيها مقاما ، وكره ، بعد ذلك الموقف ، أن يصيب من الحياة أو تصيب منه . وبحسبه أن يستطيع الانطواء على نفسه في داره يعالج همه بعد اذ أبت عليه فاطمة رضاءها الذى كان نفحة عاطرة من رضاء محمد رسول الله . ولكن أمانة الحكم فى عنقه ، ولن يخلص بنفسه الى ما يريده من عزلة حتى يسلم الناس أماناتهم ويرد عليهم بيعتهم التى أدلوا بها اليه .. كان هذا أمله ، فأسرع الى الناس مهموما يطلب اليهم أن يقيلوه ويرجوهم اشد رجاء .

* * *

غير أن الأحداث عادت ثانية تلعب دورها كما لعبته من قبل .. أن جيوش مانعى الزكاة قد أصبحت اليوم على قيد البصر تحاصر المدينة ، وتتربص بها ، وعاصمة الاسلام قد غدت عورة مكشوفة امام الأعداء ليس يحميها منهم عتاد ولا رجال الا القليل الذى ليس فيه غناء فى ذلك الوقت الذى كانت فيه جنود المسلمين بامرة اسامة ما زالت غائبة على حدود الشام .

وتدبر المسلمون الأمر ، وتفكروا فيما يطلبه منهم الخليفة فى هذه اللحظة العصيبة فما رأوا أمامهم من الوقت فسحة تتسع لاقالة تتبعها

بيعة مع ما يتصل بهذه وتلك من خلاف قد تسوء معه العقبى ويتحين فيه العدو سانحته التى تلبث ينتظرها منذ حين ..

لذلك أبى المسلمون ، أو أبى أكابر من بايعوه ، ان يجيبوا الخليفة الى ما يطلب ، وأبوا ان يقيلوه ، وزاد المسلمون فى هذه الآونة الحرجة حول أبى بكر التفافا رغبة منهم فى حفظ كيان الاسلام ، ولقد كان على أسرع الناس الى نصرة الرجل فى هذه المحنة ، لأنه راى فى الانتظار له ابقاء على دين الله وابقاء على الأمة المحمدية الناشئة التى كانت قد بدات أولى خطواتها الى المجد ، وتقدم عاريا من الخصومة ، خاليا من الخلاف يعرض على الشيخ نفسه وسيفه يستعملهما فى كشف الغمة الوشيكة الوقوع كيف يشاء .

تلك شيمة ليس يتصف بها الكثير من الرجال ، ولكنها شيمة نفس نقية من الشوائب وقلب ناصع ، شيمة مثلى لرجل امثل ، اذ كان ابن أبى طالب خلال فترات حياته جميعا معنيا دائما بالتماس الكمال ، وأخذ نفسه باحتذائه ، وان قام بناء هذا الكمال على انقاض غاياته الشخصية وأهدافه السياسية . ولئن خالف من قبل ابا بكر ، وقام ينازعه السلطان فلغير صولة الحكم كان الخلاف ، ولكن لأنه كان مؤمنا أشد الايمان أنه أقوى من خصمه هذا ومن غيره من الناس على اعزاز شأن الاسلام .

١٧

« يا ابن العاص ، انك لسان قريش ورجلها في الجاهلية وفى الاسلام .. »

« فما تريدون ؟ »

« ارأيت الى الانصار كيف تفضلوا علينا ؟ »

« قد فعلوا . »

« فقم اليهم فلا تدعهم وما قالوا .. »

كان عجبا ان يدور مثل هذا الحديث بين بعض قريش بعد سكون الفتنة ونوم نوازى الشر .. ولكن دعاة قريش كانوا اناسا فيهم عصبية،

وفيهم حمية الجاهلية ، وليس يرضيهم ان يفاخرهم غـيرهم ولو بالحق !.

ولذلك انطلق عمرو الى مسجد المدينة يتناول بلسانه ما كان من الأنصار اذ ارادوا ان ينصروا عليا بعـد خذلان ، فيفيض فى نقدهم ويمعن .

قال وهو قائم يخطب الناس :

« والله لقد دفع الله عنا من الأنصار عظيمة ولما دفع عنهم اعظم .. كادوا ان يحلوا حبل الاسـلام كما قاتلوا عليه ، ويخرجوا منـه كما ادخلوا فيه » ..

ثم لا يلبث ان يتطرق به الحديث الى ما كان منهم يوم السقيفة ، وان عفى الزمن على آثار ما كان !.. ولكنه الحديث الذى يستطيع من خلاله ان يضع فخر الأنصار ويرفع هام قومه مفاخرا ما استطاع ..

« لئن كانوا سمعوا قول رسول الله : « الأئمة من قريش » ثم ادعوها فقد هلكوا واهلكوا . وان كانوا لم يسمعوا فما هم كالمهاجرين، ولا سعد كأبى بكر ، ولا المدينة كمكة ... »

ويزدهيه الفخر ، بعد هذا ، فيرفع الصوت معتزا ويقول :

« الا انهم قاتلونا امس فغلبونا على البـدء ولو قاتلنـاهم اليوم لغلبناهم على العاقبة !.. »

فماذا كان يريد الا ان يستعلى بحديثه هذا على الناس ؟ وماذا وراء هذا الاستعلاء — بعد ان سكن ثائر الأنصار — الا اثارة حفيظة القوم وبعث الفتنة من مرقدها فى وقت أولى بالجميع فيه ان يغلقوا الأفواه ويصطفوا على وفاق ؟..

ولكن عمرو بن العاص قبل كل اعتبار من قريش التى غلبها الانصار — في البدء كما قال — وقهروها على اعتناق دين الله . ولعل الرجل ، اذ قال ما قال ، قد عنى أن يقتص لقومه كيفما كانت ذريعتـه الى القصاص ؟ ومع ذلك فان لسانه لاقى فى هذا الميدان لسانا أقول ، كما لاقى ذهنه ذهنا انقى واشد بديهة . فلم تكد كلماته تشيع بين الناس حتى انفرجت صفوفهم عن رجل قصير احمر ، لا يكاد ان يملأ العين منظره ، وان لم يغب خطره عن الرائين .. انفرجت الصفوف عن شاعر الأنصار النعمان بن العجلان يتقدم الى « لسان » قريش فى هدوء ويقول :

« يا بن العاص .. دع العاقبة ودع البدء ، فما كان الله ليخرجكم من الاسلام بمن أدخلكم فيه !.. »

وكان الفضل بن العباس قد ألم بالمكان وسمع ، فسارع مغضبا يقول لعمرو :

« يا عمرو !.. انه ليس لنا أن نكتم ما سمعنا منك ، وليس لنا أن نجيبك وأبو الحسن شاهد بالمدينة الا أن يأمرنا .. »

وذهب بالخبر الى ابن عمه عساه أن يحسم ما كان من نزاع بعد أن كادت النفوس أن تسكن عن النزاع .. أما ابن العاص فقد خشى اللقاء فأسرع يختفى من بين الناس . وأما على فما القىاليه بنبأ ما كان حتى غضب وقال :

« ويح ابن العاص !.. آذى الله وآذى رسوله .. »

ثم انطلق من توه الى المسجد فدعا اليه الناس حتى اجتمعوا ، وقام فيهم يقول :

« يا معشر قريش . ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق . ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق .. ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق ! ولقد قضوا ما عليهم وبقى ما عليكم » .

وأصغى اليه القوم . وهو يهيب بهم ويسترسل :

« يا معشر قريش .. انالله رغب لنبيكم عن مكة فنقله الىالمدينة. وكره له قريشا فنقله الى الأنصار .. يا معشر قريش ، انا قدمنا على الأنصار دارهم فقاسمونا الأموال ، وكفونا العمل ، حاربنا الناس بهم ، وانتصرنا ببذل غنيهم وايثار فقيرهم .. يا معشر قريش . اذكروا أن الله تعالى انزل آية من القرآن جمع فيها للأنصار خمس نعم اذ قال: « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » .

وتريث قليلا يجول ببصره فى الناس عساه أن يقع على من كاد أن يعيد الفتنة ثانية الى الحياة ، ثم راح يقول :

« الا أيها الناس أن عمرو بن العاص قام مقاما آذى فيه الميت والحى ، ساء به الواتر وسر الموتور ، فاستحق من الحاضر الجواب ، ومن الغائب المقت ، فمن أحب الله ورسوله أحب الأنصار .. وليكفف عنا ابن العاص نفسه .. »

فكان لهذا الخطاب من بعد أبلغ الأثر فى قلوب الجميع ، اذ أرضى الأنصار وافاء على أرواحهم السكينة وحفز قريشا على تجنب اغضاب ابى الحسن ، فمشت الى عمرو بن العاص تقول :

« أما وقد غضب على فحسبك واكفف ! »

وكانت هذه خاتمة النزاع بين فريقى الاسلام ونهاية التراشق بالألفاظ الذى كاد يؤدى الى تحكيم الحسام . وفرغ المسلمون الى تسطير مجد الدولة الناشئة فى سجل التاريخ . وراحوا يبداون بخضد شجرة المرتدين ويقصفونها شوكة بعد شوكة ، وبقى على — بعد أن ذاد عن المدينة جموع مانعى الزكاة هو ومن عينهم ابو بكر لهذا الأمر — منطويا على نفسه ، لأن الخليفة ضن به على الحروب كما ضن به قبله رسول الله ، فعاد يشغل نفسه بجمع القرآن .

* * *

وكأنما أبت الأيام أن تسالم الرجل الذى طالت اساءتها اليه أو تهادنه . فما لبث فى عزلته تلك الا قليلا حتى فدحته بأعتى مصاب بعد رزئه فى الرسول . وانه لتحضره اليوم ، وهو قائم على فراش زوجه التى برحت بها آلام المرض ، ما كان من نبوءة محمد لها فلا يملك الا ان يتملكه الأسى وينشب الحزن بقلبه اذ يرى الفجيعة المخوفة بآتته على مبعدة ساعات . لقد حان أخيرا موعد اللقاء بين الأب الحبيب وزهرائه فى دار سوى الدار وهذه فاطمة ، وهى لا تقوى على تقليب جنبيها من وهن واعياء ، تجاهد حتى تستطيع أن ترسم بسمة خافتة اللون على شفتيها الذابلتين . فاذا سارع اليها زوجها ، مدت كفها الناحلة فلمست بها منكبه . وهمست له :

« صدق رسول الله ! »

فلا ينطق ، لأنه لا يأمن ان تند من فمه انة حزن مع الكلام . ولكنه يفهم ما تعنى . وتحضره الصورة القديمة — كما ذكرتها هى له — يوم عادت رسول الله فى بيت عائشة ذات يوم فحدثها بما أبكاها ثم حدثها بما أضحكها فكأن هذا كان بالأمس لا من شهور .

ويطلق على بصرا غائما الى الفراش . ثم الى جانبيه حيث وقف الحسن ووقف الحسين ، صامتين أمام رهبة ما يريان ، قد جمدت

فى مآقيهما الأدمع رفقا بأمهما أن يؤذيها البكاء . وتنتقل النظرة الى زينب الصغيرة .. الطفلة التى لم تنهل تماما من حنان الأم ، لأن الأيام لم توسع لها ولم تترفق بحداثتها . وان قلبها الصغير ليشعر بفداحة المصير فتجثو على الفراش الى جوار فاطمة تتاملها برهة فيعييها أن تحتفظ بالسكون ، وتنطلق عبراتها فترتمى كعادتها على صدر والدتها كما تفعل كلما حزبها امر من امور عالمها المحدود ، وتدفن وجهها فى الصدر الحنون ثم تذهب فى نشيج مكتوم ..

وتلوح على وجه فاطمة سحابة رقيقة من الرثاء للطفلة وللغلامين ولكنها تحاول أن تبدو متجلدة ، وان رأت الحسين يسعى الى جانبها ويسعى اخوه الى الآخر يتناولان كفيها بالتقبيل واللثم فى خشوع ... فاذا استطاعت بعد هذا أن تثوب الى نفسها وقد ترفق الأب بالأطفال حتى خلفوا المكان ، عاودت تتم حديثها فى خفوت :

« هل صنعت ما اردت ؟ »

فيجاهد وسعه ليجيب :

« نعم »

« فهل أنت صانع ما آمرك به ؟ »

« نعم »

« فانى أنشدك الله الا يصليا على جنازتى ... ولا يقوما على قبرى .. »

فيميل بوجهه عنها ناحية حتى لا ترى فى عينيه الدمع .. انه ليبكى الآن أسى كما يبكى رحمة . وان أساه لعلى هذه الزوج التى كان يتنسم من اردانها طيب رسول الله وكانت عزاء له بعده ... وانه لعلى شبابها الغض الاهاب الذى عاش فى الدنيا كعمر الزهور .. وانه لعلى حدبها عليه وحرصها على حقه حرصا فاق حرصه هو على هذا الحق مرات ومرات ، حتى لقد ظلت ابدا غاضبة لا يتفتح قلبها عن الرضا على من سلبوه اياه . وكانت الرحمة التى شاركت الأسى فى دمع عينيه من اجل ذينك الرجلين اللذين اغلقت قلبها دونهما مع ما بذلاه من استرضائها ما وسعهما البذل ..

اجل ، بكى على رحمة من اجل ابى بكر ومن اجل عمر لفرط ما بكى الشيخان تأثرا وندما .. ولقد شيعهما من قليل الى الباب وهو لا يدرى كيف يسوق اليهما كلمة ترفيه . جاءا يعودان فاطمة

فابت عليهما والحا ، فكان ردها دائما هو الاباء ؛ وتقدم زوجها اليها بالرجاء تلو الرجاء ان تكف عن ابائها ، حتى اذا رضخت كان اذنها باللقاء أمعن فى قلبيهما وخزا من الرد والاباء .. دخلا فأعرضت وسلما فأشاحت بوجهها عنهما ناحية وحدثاها فلم تعن بالجواب كأن غيرها المعنى بالخطاب !.. ثم ها هى الآن ، وقد خرجا تأخذ على زوجها الميثاق ان يضن عليهما بالصلاة عليها وهى جثمان فارقته الحياة !.

ولكن هذه الضاوية التى اشفت على نهاية ، أتت عليها لحظة بدت فيها كأن قد فارقتها الأوصاب وتشبثت بها الحياة وان كانت هى — بقلبها — تغالب تشبث الحياة ... وكان على قد أمن من القدر فجاءاته ذلك اليوم الموسوم بنزول الخطب ، فغادر الدار وفى نفسه بعض الطمأنينة ، ووكل شأن فاطمة الى سلمى زوج أبى رافع مولى رسول الله ، تقوم عليه ...

وكانت المراة جالسة فى هدوء وقد سربلتها الفرحة ان وجدت بنت رسول الله على خير ما ترجو لها اذ ذاك من حال حين أتاها صوت فاطمة هادئا يقول :

« يا أمه ... »

« لبيك يا حبيبة رسول الله » .

« اسكبى لى غسلا يا امه » .

فقامت فأتت لها بما طلبته من ماء ، حتى اذا اغتسلت كما كانت تفعل ابان العافية ، هتفت ثانية :

« ايتينى بثيابى الجدد » .

ففعلت سلمى .

وعادت فاطمة مرة اخرى تقول :

« اجعلى فراشى وسط البيت »

فكأنما قدت سكين من قلب المراة شطرا ... نهضت المراة عجلى اليها تحوطها بذراعيها وتذرف عندها الدمع .

« بأبى انت وامى يا حبيبة رسول الله ؟.. »

فابتسمت فاطمة ، ولم تزد على أن تعيد فى هدوء حديثها المغرى بكل نقيض للهدوء والابتسام :

« اجعلي فراشي وسط البيت »

فأذعنت سلمى ودماء قلبهـا تنزف من عينيها . وقامت فاطمة الى الفراش فاضطجعت عليه . واستقبلت القبلة ، ثم التفتت الى المرأة تقول :

« يا امه ... انى مقبوضة الساعة ، وقد اغتسلت ، فلا يكشفن أحد لى كتفا ... »

أما سلمى فلم تدر كيف مضى بها الوقت الا أن كانت عينا ممدودة ويدا مقبوضة ، كلاهما لا تستطيع دفعا ، لا اولاهما تدفع البكاء ، ولا أخراهما تدفع أنكى الأرزاء ... وقضت فاطمة فكانت يومها ذاك بآخر ضجعة على آخر فراش لها فى الدنيا التى دفعتها الى ظهرها زهرة ، ثم اخذتها زهرة ما زالت على ما كان لها من النضرة وحسن الرواء .

* * *

هكذا فارقت حبيبة رسول الله هذه الأرض لتلحق بأبيها الكريم فى السماء ... وخرجت من الدنيا آخر عهدها بها مع الليل ، يشيعها الى مثواها الأخير حفنة من الرجال ، ومضت الى ربها بقلبها المبرور ، فانقطع بمضيها آخر من كان على قيد الحياة من نسل رسول الله .

وعلى القبر الكريم تحت النجوم ، بناحية من البقيع ، وقف زوجها الثاكل المحزون يناجي رسول الله وهو يرنو الى زهرائه الطاهر البتول ، ويصوغ من الحسرات كلمات :

« السلام عليك يا رسول الله ، عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك ... قل يا رسول الله عن مصيبتك صبرى ، ورق عنها تجلدى ... الا ان لى فى التاسى بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز ، ولقد وسدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحرى وصدرك نفسك ... انا لله وانا اليه راجعون ، لقد استرجعت

الوديعة واخذت الرهينة . اما حزنى فسرمد ، واما ليلى فمسهد ، الى ان يختار الله لى دارك التى انت بها مقيم ، وستنبئك ابنتك بتضافر امتك على هضمها ، فاحفها السؤال واستخبرها الحال — هذا ولم يطل بك العهد ولم يخل منك الذكر . والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم ، فان انصرف فلا عن ملالة ، وان اقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين ... »

أشواك

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَة ، نَزِدْ لَهُ
فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا
نُؤْتِهِ مِنْها وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيب »

١

آده الصمت والوحشة وبعد الرفيق . لم يعد عمره الآن يقاس بمألوف ما اعتاده الناس من سنين وأعوام ، لا ولا بشهور عام تتعاقب في زرقائه الأهلة .. انما خواطره مقاييس جريان الفلك واختلاف علائم الزمان ، وانه ليشعر أن قد طفر الى الكهولة من شبابه الريان في دفعة . وأن اكداسا من الأجيال حطت على كاهليه . وأن الصورة البادية للعيون من جسمه وملامح محياه لم تعد تعكس بأمانة ما يملأ قلبه .

ولكنه بقي في محنته القوى الصابر . لا يسلم قياده لحزنه .. ولا يدع اليأس يوصد دونه باب الحياة .. كان أعلم بالدنيا من راغب فيها ، أبصر بخباياها من راغب عنها ، فلم يغره منها المظهر ، ولم يغب عنه الجوهر ، وبقيت له مكشوفة بناحيتيها ، وبقي لها كما كان ابدا ، سيدها الممسك بزمامها ، يرخيه بحساب ويجذبه بحساب . قد يتمهل بها آونة ، او ينحرف اخرى الى شمال او يميل ثالثة الى يمين ، ولكنه كان حريصا على أن يسدد على الدوام خطاها الى هدف واحد لم يبرح مطلقا مرمى بصره .

وحتى في هذه الأيام التى طالعته فيها الآلام ، وقفزت به خواطره الدكن بعيدا عن نطاق عمره ، لم ينس أن له في دنياه رسالة ، وأن حياته في الأرض مركب الأداء ، وأن الحزن الفياض لا يغرق عزما ، وأن أهواء النفوس الحرة ومطامح القلوب الكبيرة أحرى بها أن تكون وسيلة واجمل الا تكون غاية . وذوو المثل في الدنيا شعل تضيء للناس ، ولا يضيرها أن تفنى ما دامت قد أفاءت على الجموع الضياء .

* * *

مضت به الأيام وئيدة حتى تكاملت في حساب الزمان الوافى شهورا ، وفي حساب الفكر العانى قرونا ودهورا ، وهو في غرفته من الناس كمن في حصن غلقت أبوابه ، يرى من الكوى ولا يشارك .

وكان هذا على نفسه الوثابة عبئا ، ولكنه كان أيضا الضريبة الفادحة التى اقتضاها الحزن . ومن لاتى فى دهره كمثل همه لا يلأم جرحه تجلد وصبر ، ولا يجد نجاء من أساه بغير قبر . اما هو فقد قدم فى باله الألم والصراع قبل أن يقدم الراحة والمتاع ، فلم تأت له دنياه بجديد ممرور لا يستطيع ذوقه ، بل جاءت بما كان منها اشكل بطبيعتها ، وادعى ان يعلم به قبل أن يجرع صابه ..

كل أولئك الذين عرفوه جحدوه ، وكل أولئك الذين سبقهم حسدوه فلم يغير هذا شيئا من بياض قلبه . ولكن غاية الألم ذاقها من تحالف الناس والزمان .. لكأنما البوا دهرهم حربا عليه ، او لكأنما صفهم زمنهم عليه جندا ... وكأى من حال لبسوها جميعا ، فلم يعرف قلبه طعم الحقد . تحلب حقا مر الهزيمة وشرق به حلقه . ولكنها هزيمة أصابت العرض ، ووقفت أمام الجوهر مكتوفة الأيدى. وهل عسى يضيره أن تعدوه الخلافة الى سواه من اصحاب الرسول بقدر ما يضير هؤلاء الصحاب أن تعدوه ؟.. وماذا كان مأربه من وراء حكم الناس الا أن يحملهم على الخير او يحمل اليهم الخير ؟.. وياترى لم تعد له من الأيام بقية يدخرها الأجل لتحقيق الأمل ؟.. الا فليكن عند قول أبى عبيدة بن الجراح ، وليطوين فى نفسه الطموح حتى يشب او يشيب لأنه بعد صغير والأمر له ان طال به بقاء !..

وانفرجت ثناياه فتبسم عن كره ، ذلك الصباح الندى الوضاء .. ان رسوله قطع الطريق الى المسجد وهم ان يحيى الشيخ . وانه ليكاد يراه الآن من وراء المسافات يسر الى ابى بكر ما ارسله فيه ، ثم يقرأ على صفحة الوجه المشرق الجليل سطور دهشة مازجها رضاء ، ثم يتوسم فيمن حضر نظرات تشوق وفضول أو خشية واشفاق . ولقد يفضى الشيخ لمن حوله بفحوى الحديث . ولقد يثنيه عن استجابة الدعوة قليلون أو يحفزه على تلبيتها كثيرون . ولقد يهم وزيره ان يسير فى أعقابه اكبارا لشأنه أو تخوفا عليه . ولكن الشيخ كان قمينا بأن يلبى ، وبأن يلتزم فى التلبية نص الدعوة حرفا بحرف . وبأن يقطع الدروب وحده الى دار على يهرول مشوقا ليلقى ، بعد قطيعة شهور ، ذلك الشاب الفريد فى الرجال .

***

الصراع الذى فات بين خصمه وبينه لم يغير مطلقا من بياض قلبه ، وانما ثمالة الألم ذاقها من تحالف الناس والزمان : ولقد كان قويا على ذنب الناس فعفا ووسعهم غفرانه . ولكن كلم الزمان فى قلبه كان غائرا يدمى . وبحسبه بعد وفاة رسول الله أن ينكب بوفاة فاطمة فتغيب عن حياته أسطع الشموس ، وأن تنضم غرفته على وجوه ، لا يفتأ كلما وقع عليها بصره ، أن يرى فيها اطيافا من الراحلين الكريمين . وأن يذكر — اذ يرى — هول النكبة التى أصابته بهذا الرحيل . وأن يرود خاطره بعد لحظات نهاره وثوانى ليله ، حدب الأم الذى فقده الصغار ، وعطف الجد الرفيق البار . فبأى من تلك العواطف الغائبة السخية يستطيع قلبه الآن أن يجود ؟.. وهل تثبت عينه فلا تسخو وهى لا تنى تقرأ على قسمات الأطفال أساهم نديا ؟.. وكيف يقسر وجهه على اصطناع السكون أمامهم وكان دائما لقلبه مرآة ؟..

ان تلك الشهور قادرة وحدها على التحدث لو نحلت اللسان واوتيت البيان . وقوى على ذهنه أن يغلب ذكراها ، عصى على قلبه ان ينساها ، فكلما نطقت زينب وخطرت ام كلثوم ، سمع فاطمة ورآها ، وكلما مشى الحسين وبدا الحسن تبين فى مشية أولهما خطوات رسول الله ، وفى ملامح الثانى قسمات محياه . ومن وراء هذا كله صور تتداعى أمام عينيه متواترة تختلف فى تتابع لكلا حبيبيه ... أما هو فقد كمن فى جوفه قلبان ، ينزع به قلب أن يغمض بصره ويسد أذنيه حتى لا يقع على مثار حزنه ، ثم يهتف به قلب ان يرهف اداتى الرؤية والاصغاء فلا يغيب عنه صوت الحبيبة او صورة الحبيب .

وكذلك عاش على مع قلبه فى صراع . لا شىء يلهيه عما هو فيه الا أن يصطنع شاغلا عن عواطفه فى أويقات . وفى عالمه الذى يحده من كل جانب جدار — فى تلك الغرفة التى انطوت على أطفاله وعليه ، لم يكن شاغله سوى أمر أولئك . خلال مسافات من سنى عمره بدا هذا الأرمل الصغير فى عيون مريديه كمن قد صيغ من روح ، وفى عيون شانئيه كانه فولاذ !. ولكنه حقا جمع الرأيين فكان الرخاء والمضاء . ولكليهما سار فى الحياة وافاء على أطفاله ما أفاء ، فاذا الصغار تتشكل نفوسهم ، مع الزمن ، بشاكله كلما نهلوا من دينه

وعلمه او قبسوا من شجاعته وعزمه . وقد يسر لهم أن يجيدوا عن أبيهم الأخذ بكل ما ورثوا عن اسلافهم وجرى في عروقهم من كريم الخلال .

وكانت هذه ناحية من رسالة علي في هذا الوجود ، بل قد كانت منها — اذ ذاك — أبرز النواحي . فلقد ظل دائما معنيا بالتماس الكمال في المعرفة حتى بدا فيها الرجل الزاهد العزوف عن الطعام والمال ، منهوما غاية النهم لا يشبع من حكمة وعلم ، لا يني يجيع بطنه ويشبع ذهنه ، وكان بثروته هذه كالكريم المضياف يمد أطايب موائده امام قاصديه ليصيبوا من ذخر عرفانه كما يشاءون . ولقد بلغ من هذا الأمر المدى الذى لم يبلغه سواه حتى أصبح المرجع في مستعصيات المسائل ، وتسنم مقعد المعلم الأول في ذلك الحين مع ما كان من حداثة سنه ، يأخذ عنه الملتفون به من صحب الرسول ، ويستهدون بآرائه يذيعونها في المجالس لنفع الناس ، وحرى بمن نهل الحكمة من نبع النبوة أن يكون كما كان .

ولكن الزمن ابى أن يدع له طويلا هذه المتعة الروحية ينعم بها في ابان محنة حزنه ، فلقد أخذت حلقات الصحاب تضمر وتقل جموعهم عنده وتتفرق شراذمهم الملتفة به كلما دعاهم داعي الجهاد بمكان . ولم يلبثوا ، بعد ان استعرت الفتنة في جانب من الجزيرة ، أن يتركه الواحد بعد الآخر حتى أمسى وليس له من تلاميذه الا بعض أهله واولئك الأربعة الصغار .

والى جانب هذه المتعة الروحية التى انتقصتها الحرب ، ظلت الناحية الأخرى من نشاط على معطلة مذ اعتزل الناس . ولكنها — مع ذلك — بقيت كالسيف المجلو بتارا قاطعا وان احتواه قراب . ولطالما رمى بناظريه خارج داره فرأى جموعا تذهب وجموعا تجيء دارعة تدج في السلاح ، فكان يطوى قلبه على هم جديد فوق ما طوى من هموم ، ثم يرد طرفه اليه في حسرة . كان مشوقا الى ما هم فيه، حنانا الى عالمهم الصخاب بصليل السيوف ، وقعقعة الرماح وازير القسي عند انطلاق النبال . فلمثل هذه الحياة الحافلة بالدماء عاش . ولمثل يومهم هذا هياه طبعه . وللغاية التى من أجلها يخوضون اليوم غمار القتال كان يرنو ببصره وهو بعد طفل صغير يقف الى جوار ابن عمه العظيم ويقول غير آبه بمن حضره من كبار اهله في ذلك الحين :

« لا يحزننك والله اعنات القوم فعليهم ضلالتهم ، وانى انا يا رسول الله عونك ! انا حرب على من حاربت !.. »

اجل قد كان هذا شعاره فى الحياة وكان هدفه الذى لم تمل عنه عيناه . نصرة محمد كانت هدفه ، فمن ورائها انتصار دين الله . وعند ما طوى اللحد ذلك الآتى الى العالمين بالنور ، قام على من بعده يتهيأ لقيادة الناس على النهج الواضح المرسوم . وكان قد وجد فى قلبه القدرة على الاضطلاع بالأمر ومجالدة الاحداث — التى اخذت تجتمع فى الآفاق محاولة ان تحجب هذا النور — فنذر نفسه شابا ، كما نذرها من قبل صبيا ، ووهبها لغايتها المثلى .. فأما وقد افلت من بين يديه حكم الناس ، فان اداته لنصرة دين الله واعلاء شأنه ما زالت بعد تحت يده : مجلوة بتارة وان احتواها قراب !..

والقى ببصره الى جانب من الغرفة فعلق فيه بسيفه الذى أهداه محمد اياه . وامتلأ قلبه زهوا وهو يرمقه اذ كان كبضعة منه . واكتسى وجهه بلون من الرضا المشوب بالعزم ، وهمت يده ان تمتد فتسله وتداعب نصله لولا ان نما الى سمعه صوت قال :

« أبو بكر !.. »

فتلفت ناحية الباب ليرى الشيخ الجليل مقبلا عليه ، فى ناظريه ابتسام ، وعلى محياه هدوء وسلام ، وقد سار نحوه مشوقا يهتف به فى صوت رقيق النبرات :

« السلام عليك يا ابا الحسن .. »

ولكن عواطف القلوب كانت ابلغ من كل تحية وكلام . فما ان تقابل اللحظان حتى اعتنق الصاحبان القديمان ، وراحت قطرات من الدمع تترقرق فى مآقى الشيخ ثم تنثال فى رفق بين شعيرات لحيته البيض . وبدا الصمت لهما هنيهة خيرا من الف حديث .. وتقبل على بالرضا وراحة الفؤاد هذا البياض الذى تكشف عنه قلب ابى بكر فى دقائق اللقاء ، فقد ظل كعهده نقاوة وصفاء ولم تغيره قطيعة ولا خلاف . لكان قلبيهما كانا شطرى قلب .. أما الشيخ فلعل الأريحية التى بدت له فى هذه اللحظة من صاحبه والتسامح الذى بلغ الى حد نكران الذات ، كان بعض ما حرك قلبه وأرسل الدمع صيبا من عينيه ..

وأما الشـــاب فلغير مثل هـــذه العوامل الشخصية وجه دعوته يستقدم خليفة الاسلام ، وان كان قد اتخذ التسامح والأريحية مطايا لبلوغ ما اراد . . وما كان له من مأرب الا ان يراب صدعا . او يهيىء رشدا ، او يهز سيفا في سبيل مجد الاسلام .

٢

حتى في هذا الموقف الذى تهيمن فيه المجاملة ، ولا تدع ســبيلا لســـواها من خلجات الشعور الى النفس الانســانية ، لم ينس على صراحته ، ولم تخنه شجاعة الراى الطليق الحر . . كان مخلصا غاية الاخلاص أمينا غاية الأمانة لنفسه ولصاحبه على السواء ، فلم يغمط الأولى حقا آمن انه لها ، ولم يخف عن الثانى هذه الخاطرة التى لو شاء لتركها من قلبه فى قرار سحيق . ولكنه أبى ان يدع بهذا القلب جانبا غير مكشوف لعين الشيخ ، او ان يظهر له الناحية الملساء ويطوى الأخرى عنـــه ، بل آثر أن يبـــدو امامه بناحيتيه كلتيهما بلا مواربة ولا اخفاء . .

قال وقد انتهى حديث العاطفة بينهما على خير انتهاء :

« يا أبا بكر . . انه لم يمنعنا من أن نبايعـــك انكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك لخير ساقه الله اليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هـــذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا به . . »

وبهذه الكلمات القصار لخص الشاب قضيته التى ابت لها الأيام الا الخسران . ونفض يده من خلاف لم يكن هو اول مثيريه وان كان اول مناجزيه .

وكأنما مس كلامه وترا فى القلب الكبير الرفيق ، فانبرى ابو بكر يجيب :

« والذى نفسى بيده يا ابا الحسن . . لقرابة رسول الله احب الى ان اصل من قرابتى ، واما الذى شجر بينكم فى هذه الأموال فانى لم آل فيها عن الخير ، ولم اترك امرا صنعه رسول الله الا صنعته . . »

وصدق الرجل فيما اجاب وان لم يتناول كل اطراف القضية بهذا

الجواب !. ولكنه أعاد فقط ما كان من امر فدك الى الأذهان وشأنها كله لا يكاد ان يخسر او يزيد فى الميزان ، غير ان عليا لم يكن اليوم فى مجال حساب فاكتفى بالعتاب ، واسدل بالصمت على الماضى سترا ثم سارت به أريحيته إلى المسجد ليعلن فى الملأ الحاشد بكلمات جلية رسمت حقه ورسمت فضل منافسه ، انه اصبح على راى الناس فلا قطيعة ولا خلاف . حتى اذا انتهى غادر المنبر يشق الجموع الى حيث افضى الى ابى بكر فبايعه ويدعو على الأثر آله ومن تخلف من انصاره عن البيعة أن يتابعوه .

ودخل بهذا فى الحياة العامة . واخذت المدينة تشهده ثانى اثنين يلازمان خليفة المسلمين . ولكنه مع ذلك لم يحظ بأمنيته فى الجهاد ، بل بقى جليس المسجد بعد أن كان حبيس الدار تطوف به الأحداث حديثا .

على انه استطاع أن يجد متنفسا لطاقته العلمية فى مجتمع اقل ما يقال عن افراده انهم كانوا من العلم امام طراز جديد . وعن له ان يدلى بآرائه الصائبة كلما اشكل امر من الأمور على أصحاب الرأى المبرزين .. وفى تلك الايام الأولى من صدر الاسلام والدين جديد على قلوب معتنقيه ، ومشكلات نواميسه واحكامه عصية على اذهان القوم بعد وفاة المهذب الأول للكون . في تلك الأيام التى غاب عن آفاقها حامل شعلة الهدى ، وجد الناس لدى سليل هاشم الصغير اقباسا من النور تضيء لهم احناء حياتهم الروحية والمدنية كلما تشعبت الآراء أو أصابها حسر . ولم يكن على يفتى فيما يعرض له من المسائل والقضايا الا عن رأى صائب مسنده القرآن أو سنة رسول الله أو ما جرى من العرف المأثور . وله بعد هذا الاجتهاد بالقياس أو الترجيح ان أعوزه الوقوع على النص الصريح .

فى هذه الآونة وما بعدها من عهود خلفاء محمد كان على ميزان القضاء والافتاء ، ذخيرته حكمة قبسها من نبع النبوة واتساع أفق وعلم فياض ، لا يباريه فى ميدانه صاحب ولا رفيق حتى أصبح فى المستعصيات ذا الرأى الحاسم الأخير . وكتب بأحكامه الفذة أصول التشريع الاسلامى فيكل نواحيه . والقىأضواء لامعة من ذخيرة معرفته على مشكلات الحياة ومسائل القضاء حتى كان ابن الخطاب — وهو صاحب القضاء على عهد أبى بكر — يقول فيه :

« لا بقيت معضلة ليس لها ابو الحسن !.. »

وقنع على من دنياه بنصيبه هذ من تفقيه الناس . وترك سيفه مغمدا الى حين ، لان خليفة الرسول التزم ما كان قد التزمه رسول الله فى اخريات ايامه من الضن بابن ابى طالب على الحروب . ولكنه كان دائما لأبى بكر الناصح الأمين كلما حزب الأمر ودعا ان يتقدم بمشورة. واتصلت بين الرجلين الفة غذاها ما كان يملأ قلبه من الوفاء دائما لصحبه وان سبقوا اليه بحيف او بعدوان . وان الذى يساير الأحداث هونا ، ليرى هذا الوفاء لامع الصفحة حين يلمح هذا الشاب متقدما على استحياء الى اسماء بنت عميس يطلبها لنفسه زوجا ، بعد ان مات عنها ابو بكر ، ويضم محمدا ابنها الى داره كأحد بنيه .. ثم يرى هذا الوفاء باديا على خير وجوهه ، اذ يلمحه منطلقا ، واله النفس ، مصدوع القلب ، الى دار الخليفة : يبكى ويقول :

« رحمك الله يا ابا بكر !.. كنت والله اول القوم اسلاما ، واخلصهم ايمانا ، واشدهم يقينا .. صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخل الناس ، وقمت معه حين قعد الناس .. كنت والله للاسلام حصنا وللكافرين ناكبا . لم تفلل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك ، كالجبل لا تحركه العواصف .. كنت والله كما قال الرسول فيك : ضعيفا فى بدنك ، قويا فى دينك ، متواضعا في نفسك، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا اضلنا بعدك » .

وكفى بهذا الشاب نقاوة قلب وصفاء نفس ، أن ينسى فى هذه الملمة ما سلف من الشيخ اليه ، وان ينبذ وراء ظهره ما كان من خلاف بينهما وحيف عليه ، كفيل بأن يوغر صدر سواه ، فلا يذكر لهذا الراقد الا فضله وحسناه . وأن يسمو على انسانيته سموا ينزع به عن بنى البشر فلا ينطق الا بلسان البررة الأطهار من سكان السماء ، فى آونة اضاف قبيلها ابو بكر حيفا جديدا الى حيفه القديم على حق هذا الغريم المظلوم. ان طاقة النفس البشرية لا تتسع فى عصر من العصور، كما اتسعت نفس على ، لمثل هذا التسامح وهذه الأريحية وهذا السخاء فى انكار الذات ، وذكر اجمل النعوت والصفات لواتر لا يعز على خصمه أن يذكر له الأخطاء والهنات . فلقد نسى على الماضى ورماه دبر ظهره ، ثم نسى الحاضر وهو ما زال يسير على مثل شوك القتاد أو قطع الحجر من هذا الحاضر . وليس أمسه عليه ببعيد ، لا ولا يومه الذى لم تكد

تغرب شمسه الا منذ قليل ، وكلاهما شهد لأبى بكر موقفا كان كفيلا بأن ينطق عليا بغير منطقه هذا لو أنه ساير ما جبلت عليه نفس الانسان ولكنه سما على انسانيته بنحو فريد . وشهد واغمض عينيه عما شهد ، وسمع ثم سد اذنيه دون ما سمع .. شهد هذا اليوم ابا بكر موعوكا الح عليه داؤه واشتد به برحاؤه ، تكاد امراته اسماء ان تحمله لفرط وهنه وهو يشرف على الناس من داره ليقول :

« أيها الناس .. اترضون بمن استخلف عليكم ؟ انى والله ما ألوت من جهد فى الراى . ولا وليت ذا قرابة ، وانى قد استخلفت عمر ابن الخطاب فاسمعوا له واطيعوا ... »

وكان هذا حريا بأن يفعم بالغضب قلب على لأنه اصرار على الحيف بعد الحيف . ولكنه كظم وصبر ، ولم يضره ان يأخذ مقعده فى ذيل الناس ما دام صحاب رسول الله قد بيتوا الأمر على نزع سلطان محمد من آله والخروج به ثانية من عقر بيته . ولم يكن هذا بمستغرب من قريش ، ولكنه كان عجيبا غاية العجب من الشيخ الجليل بعد ان استوت بينه وبين على الأمور ، فلم تعد خافية على ابى بكر مكانة الشاب وأثره فى حياة الجماعة الاسلامية من تضحيات وبذل عند ولادة الدين ، ومن حكمة وفضل ودولة الاسلام تشق طريقها الى الاكتمال .. وكان عجيبا غاية العجب منه ، وهو الملتزم دائما السير على منهاج الرسول ، ان يخرج على هذا المنهاج فيوصى لصاحبه بعده وكان أولى به لو ترك للناس أمرهم شورى — كما فعل محمد — يختارون الذى يشاءون . ولئن بدا أبو بكر يوم السقيفة مدفوعا تسوقه الأحداث امامها ولا تدع له الا احد سبيلين : هما الخلافة لنفسه ولقريش فى شخصه ، أو فوز الأنصار بها دون المهاجرين ، فانه اليوم لم تدفعه الأحداث ولم يبدر من المسلمين تنافس أو خلاف يسوقانه مكرها الى الاستخلاف .

.. وبلا معارضة او اباء ، قابل على الحيف الجديد على حقه بصدر رحب ، وارتضى ان يرتد ثانية عن الصدارة الى ذيل الناس . ولكن صمت لسانه لم يعف جنانه من ان يلوك خاطرا مر بباله ، فذكر بلسان الحال ما نطقه بعد اعوام بلسان المقال :

« أرى تراثى نهبا ، فياعجبا !.. بينا هو يستقيلها فى حياته اذ عقدها لآخر بعد وفاته .. لشد ما تشطرا ضرعيها !.. »

٣

لا ريب ان ابا بكر راى لعمر عليه حقا حين استخلفه ، كما راى للمؤمنين صلاح حالهم بهذا الاستخلاف . ولكن الأسلوب الذى انتهجه عند الاختيار كان أسلوبا يستطاع وسمه بالهنات والاخطاء . فان الشيخ لم يتناول الأمر بالصراحة الواجبة ، بل بدا كأنه اضمر التبييت وشاء تدبيره على غير علم من آل بيت الرسول . ووقع بهذا فى الخطأ الذى وقع فيه عمر من قبل عند وفاة النبى اذ خرج بصاحبه الى سقيفة بنى ساعدة ولم يدع واحدا من آل هاشم الى الخروج .

وكذلك اسقط أبو بكر من حسابه عليا الذى كان اولى بالرعاية وبالحساب من سواه . وشاور غيره من صحبه قبل ان يقدم على اختيار من يخلفه وان لم تكن المشورة — فيما يبدو — بقادرة على أن تجعله يحجم عن هذا الاختيار ، ولكن الذى كان أحرى بخلقه الكريم لم يفعله ، كأنه خشى — لو أدخل عليا فى الراى — أن يلويه عنه أو يخالفه . ومع ذلك فماذا كان على بمستطيعه بالمعارضة وقد عزم الشيخ أمره وانتهى الى قراره قبل أن يشاور ويستطلع الآراء ؟.. وأى الناس فى العرب كان يفضل ابن عم رسـول الله أو يقوم مقامه حتى يغضى أبو بكر عن دعوته ليشاوره فى الأمر ؟.. وكم من راى لصحب محمد يعلو رأى هذا الشاب فى شأن من الشئون ؟.. ان العجب كل العجب أن يلتمس الخليفة الصواب عند على كلما اختلفت الآراء فى مصير فرد واحد من رعاياه ثم لا يشاوره اذا أراد البت فى مصير دولة جمعت رعاياه !..

كان هذا عجبا حقا من رجل خلف دنياه وهو على غير يقين اكان هو صاحب الأمر من بعد رسول الله ام كان الأولى به سواه حتى لقد قال قبيل وفاته وعنده ابن عوف :

« لوددت انى كنت سالت رسول الله عن هذا الأمر فلا ينازعه أحد » ولكنه ، مع ذلك ، شاور صحبه قبل ان يدلى بهذا الأمر لعمر ولم يشاور أولاهم بالمشورة وبسط الرأى . ودعا اليه عبد الرحمن ابن عوف يسأله :

« أخبرنى عن عمر .. »

قال عبد الرحمن :

« يا خليفة رسول الله . هو والله افضل من رايك فيه من رجل ولكن فيه غلظة .. »

« ذلك لأنه يرانى رفيقا ، ولو افضى الأمر اليه لترك كثيرا مما هو عليه . يا أبا محمد ، انى قد رمقته فرايتنى اذا غضبت على الرجل فى شيء أرانى الرضا عنه ، واذا لنت له أرانى الشدة عليه .. »

وهم ان يقوم ابن عوف فقال له الخليفة محذرا :

« يا أبا محمد .. لا تذكر مما قلت لك شيئ .. »

ثم دعا اليه عثمان بن عفان يسأله :

« يا أبا عبد الله . أخبرنى عن عمر .. »

« انت اخبر به يا خليفة رسول الله » .

« فأخبرنى .. »

فقال عثمان :

« اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأن ليس فينا مثله»

فتفرجت أسارير الشيخ وهو يقول :

« رحمك الله يا أبا عبد الله !.. ولو تركت عمر لما عدوتك »

ثم أوصاه أن يكتم ما دار بينهما من الحديث .

واشتد فيما بعد بالشيخ وصبه . وخشى أن يموت قبل ان يوصى ويسجل وصاته هذه فى كتاب ، فبعث الى عثمان يستكتبه العهد ، فلما جاء راح يملى عليه :

« اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .. »

واخذ صاحبه يكتب .

« ... هذا ما عهد عبد الله بن عثمان الى المسلمين ، آخر عهده بالدنيا ، واول عهده بالآخرة ، فى الساعة التى يبر فيها الفاجر ويسلم فيها الكافر » .

ثم وهن منه الصوت قبل ان يتم املاءه ، واغمى عليه :

ورفع ابن عفان عن الصحيفة عينا يتطلع بها قلقا نحو صاحبه ، فاذا الرجفة تأخذه اذ يراه مهيضا . وكانما خشى أن يكون الخليفة قد فارقته الحياة قبل أن يتم عهده ، وخاف من الناس أن يختلفوا على الأمير بعده ، فسارع يكتب متمما الوصية :

« .. أما بعد ، فانى قد استخلفت عليكم ابن الخطاب .. »

وافاق الشيخ بعد قليل من غشيته فاطمأن عثمان ، وقرأ عليه ما كتب قال له أبو بكر :

« انى لك هذا !.. »

« ما كنت لتعدوه .. »

« أراك خفت أن يختلف الناس ان افتلتت نفسى فى غشيتى »

« نعم يا خليفة رسول الله »

« الله أكبر !. أصبت ، فجزاك الله خيرا عن الاسلام . اتمم كتابك »

وعاود الاملاء .

وابرم بعد قليل العهد الذى اراده أبو بكر فتم لعمر الأمر .

ودخل طلحة بن عبيد الله على الخليفة وهو بين بعض صحبه حين نما اليه خبر الوصية .. وقال معارضا :

« ما انت قائل لربك غدا وقد وليت علينا فظا غليظا تفرق منه النفوس وتنفض عنه القلوب ؟.. »

فبدا الغضب فى عينى الشيخ ، وصاح بابن عمه :

« ابالله تخوفنى يا طلحة ؟. اذا قال لى غدا ذلك قلت له : وليت عليهم خير اهلك »

« أعمر خير الناس يا خليفة رسول الله ؟ »

فاشتدت ثورة حنقه وأجاب :

« اى والله !. هو خيرهم وانت شرهم !.. اما والله لو وليتك لجعلت انفك فى قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذى يضعها ، قم عنى !.. »

والتفت الى ابن عوف يقول له ، ولما يزايله غضبه :

« استخلفت عليكم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم لذلك انفه يريد أن يكون الامر له دونه لما رايتم الدنيا قد جاءت !.. اما والله لتتخذن ستور الحرير ونضائد الديباج ، ولتألمن الاضطجاع على الصوف الأذرى كما يألم أحدكم أن ينام على حسك .. ووالله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض فى غمرة الدنيا .. »

فكأنما جلت سكرات الموت للشيخ بصيرته فنفذت الى المستقبل حتى لاح أمامه مبسوطا وتكشف عن صحبه الباقين قد اكتنفهم الترف ومالوا الى رفاهة العيش بعدما كان من نزوعهم عن الدنيا ونأى عن أوطارها وعن مآرب الحياة .. ولعل هذه النبوءة قد طافت من قبل بخيال ابى بكر ، وملأت قلبه بالخوف من المستقبل الذى رسمته ، لأنا نجده ، حين احس دنو اجله ، يسارع الى رجل عرفت فيه الزهادة فيختاره اميرا للناس حتى يجنبهم المصير الذى يخشاه ... ولقد أصاب باختياره -بد التوفيق فاستطاع ان يمد فى أجل الخلافة الروحية بضعة أعوام ، ولكنا نراه ، حتى فى هذا الصواب قد افتات ثانية حق على الموسوم بالتقشف والزهد سمة قد تسبق به عمر بن الخطاب لو سار كلاهما فى هذا الطريق . وإفتات ثالثة حق على بمنطق اللسان حين سمعناه من قليل يقدم عليه ابن عفان اذ يقول :

« لو تركت عمر لما عدوتك يا أبا عبد الله »

فمن فى الزاهدين كان عثمان ؟ .. واية ميزة تفرد بها دون ابن ابى طالب واستحق معها التقديم ؟.. وبأى لسان نطق أبو بكر هذا البيان ؟.. أكان حديثه يا ترى بلسان المجامل الرفيق ، أم بلسان محقق التزم فى حكمه قواعد الحساب الدقيق ؟.. هذه خواطر لعلها لم تغب عن ذهن الشيخ اذ ذاك وان جاء جوابها من لدنه على غير ما كان يجدر أن يجىء عليه الجواب .. وللأحداث من بعد الحكم وفصل الخطاب ؟...

٤

المبدأ الذى التزمته قريش فى اختيار خلفاء رسول الله كان خروجها دائما على أهل رسول الله ، ونزعها حقهم من أيديهم ... هذه حقيقة أيدتها دائما وقائع الحال ، كانت فى البدء يحجبها — حديثا — فى حلوق أصحابها ستار وان بدت فى الافعال ، ثم اخذت على الأيام تخرج من نطاق الاسرار الى المجاهرة والكلام ...

ذلك بدا جليا غاية الجلاء ، ولو لم تتحرج قريش عند وفاة محمد واتساق الأمر بعده لأبى بكر ، لوسعها ان تقول لبنى هاشم فى أصرح بيان وبأعلى صوت :

« كرهنا أن تجتمع النبوة والخلافة لهذا البيت ... »

ولقد امرت عليها — انفاذا لمبدئها المرسوم — شيخا من تيم لا ريب كان له مثل رايها ذاك ولكنه كان فطنا ، فيه كياسة وحذق فلم يجأر بالذى كانوا يسيرون ، وجرى أحيانا بينهم مجرى الهمس بعد جريانه كالعقيدة فى الأخلاد والظنون . وبقى طاويا فى نفسه شعور قومه تجاه آل الرسول وان لغطت الألسن رويدا رويدا بأنهم أصابوا الجادة حين اختاروا خليفتهم من غير بيت النبى ، رغبة فى البعد بخلاف الاسلام عن التشيع للعصبية التى نهى عنها الاسلام . الا انه منطق يعوزه السداد وان بدا كالسداد ، فما كانت العصبية جرما الا ان تمنع صاحب حق حقا يستقيم له بغيرها ، أما الاعتذار بها فهو الجرم كله ان منع حقا يستقيم لصاحبه بها كما يستقيم له بدونها على سواء .

ولكنه الاعتذار الوحيد الذى انتحلته قريش لتدرأ الشبهات عن حيفها وركوبها آل محمد بالعدوان . وما كان لها ان تلجأ الى سواه وهو ذريعتها لتبدى — فى صورة غير واضحة الظلال والألوان — ما طوت عليه جوانحها للبيت الهاشمى من حسد مكتوم وحقد مكظوم .

والباحث وراء هذه الاحقاد يستطيع أن يردها الى أصولها القديمة فى أحداث التاريخ ، كما يستطيع أن يحس عواطفها المنبعثة

عنها فى قلوب القوم كلما آنت لحظة يقفون بها فى موقف الحكم امام هذا البيت الكريم ، ثم لا يستعصى عليه بعد هذا ان يعلل احكامهم التعليل الصحيح . كذلك تألبت قريش على محمد وهى على ضلالتها ، وهو يحمل اليها ناموس الهدى والنور . وكذلك فعلت من بعده حين تجيشت بقضها على ابن عمه ولم تنصفه وجاء النصف من جانب قوم من غير قبيله هم الأنصار . وكذلك مدت فى طغيانها عليه يوم الاستخلاف ، وان صدر عن شيخ بنى تيم لأنه لم يكن سوى المعبر عما يحس به قومه ويبتغونه كثرة او يبتغونه وهم على اجماع .. وفيما اتى بعد هذا من فرص النصف ظلت كدأبها من على فى المعسكر المنحرف عنه المتحيف عليه ؛ وليس من سبب واحد اقصاه عن مقعد الحكم الذى هو به جدير سوى هذه العاطفة ، وان لاح تعدد الذرائع والاسباب . ومن احس الريب وخالجته الشكوك فى اثر هذا المانع الوحيد الاصيل ، فبحسبه أن يسمعه عن لسان ابن الخطاب .. فلقد وسعه أن يعتذر مرة عن حيف قريش بسبب مطروق سلف اليه قبله رأى ابى عبيدة ابن الجراح .. وثانية بسبب واه كان ظنا خالصا لم يؤيده فيما بعد منطق الأحداث ... لكنه فى الثالثة تكلم بوحى قلبه فأجاد التأويل وأصاب التعليل ..

... أما الاولى فكان يحادث فيها إبن العباس فقال فيما قال :

« ما ارى ، يا بن عباس ، صاحبك الا مظلوما .. »

« فاردد اليه ظلامته يا أمير المؤمنين »

فوقف الشيخ هنيهة يهمهم كأنما يحدث نفسه ، ثم عاد يقول :

« ما اظن القوم منعهم منه الا ان استصغروه ... »

... وأما الثانية فمر فيها بعلى ، وهو بفناء داره ومعه ابن عمه ، ذات ليلة فألقى عليهما السلام ، ولما هم ان يسير الخليفة لشأنه هتف به ابن ابى طالب :

« أين تريد ؟ »

« البقيع »

« افلا نصل جناحك ونقوم معك ؟ »

فوافق ، وأشار على لابن عمه أن يصحب عنه امير المؤمنين . ومضى الرجلان فى جوف الليل ، الأمير صامت كأنما قد شغله التفكير ، ورفيقه لا يحب ان يقطع عليه فكره بالحديث . حتى اذا

جاوزا البقيع بقليل التفت عمر الى صاحبه وقال :

« يا بن عباس ... اما والله ان صاحبك لأولى الناس بالامر بعد رسول الله ، الا انا خفناه على اثنتين ... »

« فما هما يا أمير المؤمنين ؟ »

قال عمر :

« خفناه على حداثة سنه ، وحبه بنى عبد المطلب »

... واما الثالثة ففى بعض مجالس امير المؤمنين وقد جلس اليه نفر يتذاكرون الشعر والشعراء . ومر بهم اذ ذاك عبد الله ابن عباس ، فقال عمر للذين حوله وهو يدعوه :

« قد جاءكم الخبير ... »

ثم التفت اليه يسأله :

« من اشعر الناس يا عبد الله ؟ »

« زهير بن ابى سلمى يا امير المؤمنين »

« فانشدنى بعض ما تستجيده له ... »

قال ابن عباس :

« مدح قوما من غطفان يقال لهم بنو سنان فقال :

لو كان فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم او مجدهم قعدوا

قوم سنان ابوهم حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا

انس اذا امنوا ، جن اذا فزعوا ... مرزءون بهاليل اذا جهدوا

محسدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله منهم ماله حسدوا »

فقال عمر :

« والله لقد احسن . وما ارى هذا المدح يصلح الا لهذا البيت من هاشم لقرابتهم من رسول الله ... »

« وفقك الله يا امير المؤمنين فلم تزل موفقا »

وكأن عمر اراد ان يوائم بين رأيه هذا وبين ما سلف من قريش فى حق هذا البيت الكريم فراح يقول :

« اتدرى يا بن عباس ما منع الناس منكم ؟ »

« لا ... يا امير المؤمنين »

« لكننى ادرى »

« فما هو ؟ »

« كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفا ، فنظرت لأنفسها فاختارت ، ووفقت فأصابت »

ويبدو ان ابن عباس لم يكن متهيئا هذه الآونة للسكوت فبادر الى الجراب الذى ظل اعواما يكتمه في ذات نفسه ولا يفصح عنه ..

قال لابن الخطاب :

« أيميط امير المؤمنين عنى غضبه ؟ »

فأمنه عمر قائلا :

« قل ما تشاء »

« أما قولك أن قريشا كرهت ، فان الله تعالى قال لقوم : « ذلك بأنهم كرهوا ما انزل الله فاحبط أعمالهم ... » واما قولك انا كنا نجحف ، فلو جحفنا بالخلافة جحفنا بالقرابة ، ولكنا قوم اخلاقنا من خلق رسول الله الذى قال ربه فيه : « وانك لعلى خلق عظيم ... وقال له : واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ... واما قولك ان قريشا اختارت ، فان الله تعالى يقول : وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ... وقد علمت يا أمير المؤمنين أن الله اختار من خلقه من اختار ، فلو نظرت قريش حيث نظر الله لوفقت واصابت ! ... »

فتفكر عمر هنيهة ، ثم قال وقد آذاه من ابن عباس هذا الحديث الصريح :

« على رسلك يابن عباس !... ابت قلوبكم يا بنى هاشم الا غشا فى أمر قريش لا يزول ، وحقدا عليها لا يحول »

« مهلا يا أمير المؤمنين !... لا تنسب قلوب بنى هاشم الى الغش فهى من قلب رسول الله الذى طهره وزكاه . وانهم لأهل البيت الذى قال لهم الله (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ... واما الحقد فكيف لا يحقد من غصب شيئه ويراه فى يد غيره ؟ .. »

فغضب عمر ، وصاح وقد حضره فى هذه الآونة امر كان يكتمه :

« ما انت يا بن عباس ؟... انى قد بلغنى عنك كلام اكره ان اخبرك به فتزول منزلتك عندى ... »

« وما هو يا أمير المؤمنين ؟... اخبرنى به ، فان يك باطلا فمثلى

اماط الباطل عن نفسه ، وان يك حقا فان منزلتى عندك لا تزول به . . . »

« بلغنى انك لا تزال تقول : اخذ هذا الأمر منا حسدا وظلما »

فلم ينكص ابن عباس . ولم يتزحزح عن مواطىء قدميه ، بل قال :

« نعم حسدا ! وقد حسد ابليس آدم فأخرجه من الجنة . ونعم ظلما !. . . وانك لتعلم يا امير المؤمنين صاحب الحق من هو . . . يا أمير المؤمنين ، الم تحتج العرب على العجم بحق رسول الله ، واحتجت قريش على سائر العرب بحق رسول الله ؟ فنحن احق برسول الله من سائر قريش »

وبدرت اذ ذاك من الشيخ بادرة ليس فيها معنى الرضا عن سلوك هذا الفتى الذى لا يعييه ان يمتلك نواصى الحديث بالحجة وقوة الجدال؛ فلم ير عبد الله بدا من ترك المجلس . فلما رآه عمر قائما يريد ان يبرح ، خشى أن يكون قد اساء اليه فأسرع يقول متلطفا به :

« أيها المنصرف ! انى — على ماكان منك — نراع حقك »

فالتفت الفتى اليه يقول ولم يزايله جده :

« ان لى عليك يا امير المؤمنين وعلى كل المسلمين حقا برسول الله . فمن حفظه فحق نفسه حفظ ، ومن أضاعه فحق نفسه أضاع !. . »

ومضى عنه وفي أعقابه كلمات تقدير وانصاف قالها الأمير للجالسين:

« واها لابن عباس !. . واها له . . فما رايته لاحى احدا قط الا خصمه » .

٥

جرت السياسة العمرية على ان يظل صحاب رسول الله الاقربين حبيسي جدران الحجاز .. لم يبن الخليفة الثاني سورا ، ولم يغلق عليهم الأبواب ولكن شكيمته كانت اقوى من الف سور وباب ، فوقف الصحابة حيث اراد لهم ، لا يبرحون الا باذن ولأجل موقوت ، ولا يتفرقون فيما فتح الله به على الأمة الاسلامية من بلدان كلها خصوبة وخير — الذاهب اليها متعلق بها حتما ، مربوط بما تغله من ثروة ، تنادي كل ذي مطمع ان يتزود من دنياه بأوفى نصيب .. وأولئك الذين بعث بهم عمر في الآفاق لم تغمض مطلقا عنهم عينه ، ولم ينأوا عن باعه ، بل كانوا قيد بصره اليقظ النفاذ ، وكفه القوية الباطشة . وهم بعد هذا احد رجلين : زاهد في المتاع ، له من نفسه وازع يعصمه من الزلل ، لأنه لا يستطيب الدنيا فلا يستطيب الاشتهاء . وطامح يتذرع بالحذر ولا يخطو الا بحساب لأنه لا يأمن العقاب وعنف الجزاء . وكانت هذه السياسة خطة أبي بكر ايضا ، ووصاته لخليفته من بعده يترسمها وهي في ذاتها حكمة ايدتها الاحداث التي اصابت بناء الدولة الفتية في عهد لاحق بصدوع نشأت عن التهاون في الاخذ بها حينا ، ثم باهمالها جملة ، وهي في نفس عمر لاقت صدى من شعوره الصادق وبصيرته التي طالما نفذت الى بعيد ، ولاقت هوى كذلك لأنها اتفقت والمعروف عنه من الشدة وكبح الجماح فيه وفي الآخرين . وقد ظل طوال عهده تتردد في اذنيه كلمات سلفه :

« احذر هؤلاء النفر من اصحاب رسول الله ، الذين انتفخت اوداجهم وطمحت ابصارهم » .

وهو في تأثره خطى صاحبه كان يخشى ، ان تفرقت رءوس قريش في الأمصار ، ان تشتد سواعدهم ثم تسول لهم النفوس ان يستقلوا بدويلات تنتقض على أمها الحجاز . او يركنوا الى ترف ينسيهم خشونة الصحراء ، تنبرى به الأجساد وتهن العزائم . ولقد طالما اخذ عمر الواحد منهم بالشبهة فخلعه من ولاية كان ولاه اياه ، او اخذه بالهنة فحرم عليه ما يملك من مال ومتاع ورده الى بيت المال ، فاما الذين

لم يستعملهم على البلاد فأولئـك الذين كانوا أدنى من الآخرين الى رسول الله وارسخهم مكانة وطيب سمعة فى قلوب الناس . ذلك لأنهم كانوا أقرب الى السلطان لو ارادوه ونامت عنهم عين عمر .. ولكنه كان دائم اليقظة موصول الحذر حتى ليأتيه الرجل منهم يستأذنه فى الخروج للجهاد فيمنعه ويقول :

« اقعـد !.. قد كان لك فى غزوك مع رسـول الله ما يبلغك . وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك !.. »

ثم اشتد عمر غاية الشدة فى تطبيق هذا المبدأ ، فراحت حلقـة الحصار يوما بعد يوم تضيق على هذه الفئة حتى حبسهم فى نطاق مدينة الرسول .. قد كان حقا اعلم بنفوسهم وابصر بما تنطوى عليه .. لو امتد به الأجل لتكشفوا لعينيه على الشاكلة التى بدوا بها فى عهد عثمان ، ولو اطاعهم لقربوا عهد الفتن والخلاف . ولكنه عصاهم غاية العصيان ، واطاع فيهم حق الدولة فى النماء على حسابهم وعلى انقاض اهوائهم ، فباء منهم بالثورة التى تكتمها خشيتهم منه ، وبالسخط عليه يضمرونه وان اظهروا الرضاء عنه ، ولعله علم منهم هذا ، ولمحه فيما بدت به سحنهم امامه فقام فيهم مرة وقال :

« ان قريشا يريدون ان يتخذوا مال الله معونات دون عبادة . الا فاما وابن الخطاب حى فلا !.. »

وقطع عليهم بهذه الصراحة الحاسمة كل سبيل . ثم التفت الى الوجوه المشرئبة والعيون الشاخصة ، يبصر أصحابها بحكمة رايه ، ومدى ما فيه من الخير المؤجل لهم فى حياتهم الآجلة ، دون ما تهوى انفســهم من الكسب المعجل فى هذه الآجلة . كم بدا الرجل ماردا جبارا فى تلك اللحظة !.. شامخا كالجبل الأشم يخز السحب ويصد الريح ، اذ يقول :

« انى قائم دون شعب الحرة ، آخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا فى النار !.. »

* * *

وكذلك — فى هذه الحقبة من الزمان — عاش على المشرع الحكيم العالم دون بقية نواحيه ومزاياه . لم يتح للشاب أن يفيض على أمة الاسلام بكل ما عنده ، فأطلق من لدنه هذه الطاقة التى لا يحدها قد

من السياسة التى التزمها الخليفة الثانى .. اما على الحاكم وعلى الجندى ، فقد ظلا كالنصل لا يسل عن قراب . ولم يكن قيامه بالتشريع عن تكليف ، ولكنه تقدم به طواعية لا يمنعه عن الادلاء برايه ان فاز عمر دونه بالخلافة ، ولا يوغر صدره انه يرى حقه مسلوبا منه مباحا لغيره . فقد تعلم ان يساير لاحداث بسجية المسالم الذى ينأى عن الفتنة ، الصابر ما كان الحيف مصيبا من ذات نفسه هو دون اصابة المجموع ، لان خير الأمة وحده كان ديدنه وان جاء على يد سواه ..

ساهم على اذن فى الحياة العامة ، كما وسعه ، وكما لم تشل من طاقته حدود ولا قيود . وافاء عدله وعلمه وحكمته ، كدوره فى عهد ابى بكر وعلى مدى اوسع . بل كان نصيبه من المساهمة ابان حكم عمر تتمة لما كان منه فى العهد السابق .. ثم هو ، قبل هذا ، نصيب تطلبته منه الظروف نفسها ومقتضيات الأحوال . والمتغلغل فى ادراك الخليفتين الاولين وفى دنيا علمهما ، يعلم ان ابن الخطاب كان افقر من سلفه الى علم ابن ابى طالب واشد حاجة ..

ان العدل العمرى موسوم بأنه قمة العدل ، وان الشدة العمرية كانت دائما ضمان اقامته بين الناس . ولكن الذى لا يرقى اليه الخلاف ، هو ان الفقه العمرى — بمحصول عمر وحده — لم يكن قاعدة مكينة غاية المكانة تقوى على احتمال هذا العدل الأمثل . وليس يطعن على المرء بأنه لم تكتمل له كل نواحيه . وليس يضير عمر فى شىء أن يكون به ضعف هنا او ضعف هناك ، اما القوة كل القوة ان يعرف الرجل نفسه — وقد عرفها ابن الخطاب حقا — ثم يكمل نقصها بما اتيح للآخرين ..

ولعل آفة عمر كانت دفعته ، تلك التى اوقفته دائما مواقف انكرها من نفسه كلما فاتت آونتها ، واتسع امامه مجال التفكير .. ومن كان على شاكلته تلك ، جدير به أن يلتمس له من اصحابه ومعاصريه العون الذى يحول بينه وبين عثار الاندفاع . وكان الرجل يعرف هذا الضعف فى نفسه . وقد طالما أفتى بالحكم ثم عاد فنقضه اذ يتروى ، وقد طالما دفعته الرغبة فى الاصلاح الى سن الشرعة التى يظنها كفيلة بما يريد ، فاذا بها لا تلبث أن تتقوض امام شرعة اعلى جرت على لسان غيره .. اراد أن يقف بمهور النساء عند حد معلوم لا تتعداه فقال :

« لا يبلغنى أن امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبى الا ارتجعت ذلك منها . . »

فاذا امرأة تنبرى له تقاطعه :

« ما جعل الله ذلك يا عمر !.. انه تعالى قال : وان آتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينا ؟.. »
فعجب لنفسه كيف غابت عنه هذه الآية الكريمة كما غابت من قبلها اخت لها يوم وفاة رسول الله . ولم يستطع بعد هذا الا ان يسحب شرعته ، ويجيب صاحبة الحجة بما هو ابلغ من الاعتذار :

« كل الناس أفقه من عمر حتى ربات الحجال !.. الا تعجبون من امام اخطأ وامراه أصابت ، فاضلت امامكم ففضلته ؟.. »

ولكننا ، مع هذا ، لا يجدر بنا أن نعجب ، لأن الخطأ والصواب متلازمان فى أعمال الانسان . ولسنا ايضا نعيبه عليه ، لأن طاقته الشخصية الآدمية اضيق من أن تتسع للكمال . ولو انه آثر أن يستبد برأيه لكان هذا منه جديرا بكل مَذمة وعيب ، وان أتى رأيه بالمعجز الذى لا ينفذ اليه ريب . ولكنه كان رجلا حرا لا يأبى الحرية لغيره ، هضم عقله الشورى — ذلك المبدأ الاسلامى اس الحكم ، واقر بحكمته وفضله . وانطلق يتزود منه ويسد به نقصه ليكون حاكما امثل . وعجم الأعواد جميعا فتخير من بين صحب رسول الله أصلبها ليتوكأ عليه ، اذ يسير طوال اعوام خلافته . .

اجل ، لم يكن له معدى عن ابن أبى طالب فى هذه الناحية وهو من عرفه علما وفقها ، وحصافة راى . فلم ينس له ان قال رسول الله ذات يوم فيه :

« اقضاكم على » .

ولم ينس له ان محمدا بعثه على قضاء اليمن فى أواخر ايامه ، وانطلق لسانه المبارك بالدعوة المباركة له :

« اللهم اهد قلبه وثبت لسانه » .

لقد كانت هذه الدعوة خير ضامن اعلى بعدل قضائه وما يند عن شفتيه من آراء واحكام — والا فأى الدعوات اولى بأن يستجيب لها الله من دعوات نبى الله ؟.. وحتى على نفسه زودته هذه الكلمات الطاهرة بثقة فى الوقوع على الصواب حتى لطالما كان يقول فى معرض الحديث عنها :

« ما شككت بعدها في قضاء بين اثنين .. »

وكذلك شاء الله لهذا الشاب أن يسد نقصا في ناحية من خصمه السياسي الثاني لم يكن يستطيع ان يسده سواه .. ولندع لابن الخطاب بيان خطر المهمة التي اضطلع به عنه خصمه بان نسمعه يقول كلماته البعيدة المعنى القليلة الالفاظ :

« لولا على لهلك عمر » ..

٦

« لولا على لهلك عمر » ..

هذا جماع رأى رجل بدين بمستقبله الروحي كله لآخر ، او هكذا نطقت الفاظه . وهو مع هذا بين الرجال ذو رأى ليس بنقصه النضج ، يلم احيانا بأطراف الالهام .

لم يكن عمر بالذي يلقي القول لانه يجامل ، ولو جامل لابعد عن نطاق لين الفاظه مثل ابن ابى طالب ، فان كلا خلق الخليفة وماضيه بهذا ينطقان .

ولكنه في خلال زمان قصير من صدر خلافته علم من على ما لم يكن قد علمه او اقر له به بعد كتمان ، فعرف له بعد تجربة اى نوع فذ في الرجال كان .. واتسع مكان الصدارة من مجلسه لذلك الذي كاد في ذات يوم أن يشعل عليه داره ويجعله وآله للحطب طعاما !..

اجل قد كان يعني القول ويعلمه حق علمه ، فقد جنبه هذا الشاب الذي افتات مع قريش على حقه ، كثيرا من مواطن الزلل في امور دينه فضلا عن تسديده خطاه في كثير من امور دنياه .. واستطاع على في فترة قصيرة أن يكون الرائد الأول لابن الخطاب الى الحق الابلج كلما اشتبهت عليه الأمور وتعددت مسالك الآراء . وجلس منه بحكمته المستقاة من نبي الله في صدارة المشيرين عليه .. بل هو قد غلب عليهم اجمعين ، وسلبهم الالسن اذا نطق وان لم يسلبهم السمع وحسن الاصغاء واصبحوا امامه طلاب العلم الراغبين في التزود من نبعه ، لا ينطقون لانهم ينقصهم ان يوفوا مثله على الاحسان ، او لانهم

يحرصون امامه على التزام الصمت والانصات ، اذ هما طريق الصواب كما تبينوا من قول ابن الخطاب :

« لا يفتين احد في المسجد وعلى حاضر » .

ذلك ان الخليفة كان يتحرز لدينه ويتوقى أشد التوقى ان تاتيه الفتيا من عويلم ، ثم لا تلبث ان تجره يخطمه الي مورد هلكة ، او تزل به دفعته كما فعلت به من قبل فلا يستطيع أن يتجنب المهوى . انه لم ينس بعد كم كان قاب قوسين من التردى فى خطأ لم يكن يأمن معه ان يسخط الله حتى اذا اوشك ان تنزلق به القدم بادر على فتلقاه .

كان ذلك ذات يوم جلس فيه عمر الى الناس بمجلس القضاء . وتقدمت له امراة أبى القوم الا ان يلحقوا بهـا الخزى .. سالهـم فأجابوه :

« يا امير المؤمنين .. انها ولدت لستة اشهر » .

فاحرقها بنظرته الغضبى ، وارتفع بصره الملتهب منها الى الوليد الموسوم بميسم السفاح ، وارتعدت الأرض تحت قدمى الأم المتهمة حتى ودت لو انشقت عنها ، ثم اطبقت شقيها فاستراحت من عناء ما تلقى من هيبة الرجل ، وفى موقف كهذا أصاب امراة حاملا من خوف عمر ماجعلها تلقى ما في بطنها وتجهض جنينا ميتا ..

واغضى الخليفة عابسا برهة ينكت فيها الأرض بدرته ، فلما رفع ثانية راسه ، كانت الكلمة الرهيبة التى ندت عن شفتيه :

« ارجموها !.. »

على انه لم يكد يلفظ آخر حروف هذا القصاص الرهيب حتى احس يدا على منكبه تمسك به ، فتلفت صوب صاحبها يهمس :

« ما وراءك يا ابا الحسن ؟ »

قال له على فى صوت ثبت رصين :

« يا أمير المؤمنين ، لا تفعل !.. فلو خاصمتك المراة بكتاب الله لخصمتك .. »

فارتاع ، وارتد وجهه حالكا .

وراح على يتم حديثه :

« ان الله تعالى يقول : وحمله وفصاله ثلاثون شهرا . ويقول جل قائلا : والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة .. فاذا تممت المراة الرضاعة ، وكان حمله وفصاله ثلاثين شهرا ، كان الحمل ستة اشهر يا أمير المؤمنين » .

فخلى الخليفة سبيل المراة فى التو ، وصار هذا الحكم تشريعا باقيا على الزمان . وبمثل هذه البديهة اللماحة والذهن اليقظ كان على يهب عونه لعمر ويبصره فى اكثر الأحايين بمواطن خطئه ، لا يقصر الارشاد على النواحى الفقهية التى لم يستوعبها مثله أحد من صحب رسول الله فى اعلام الاسلام ، بل جرى شوطه فى كل الميادين ، وادلى بآراء عقمت العقول عنها لولاه .

بعث عبد الله بن عبد الله بن غسان الى المدينة رءوس النصارى من عرب اهل الجزيرة وقد اظهره الله عليهم وارتضوا الصلح ، فلما وقفوا بين يدى عمر قال لهم :

« أدوا الجزية وانطلقوا » .

فأبوها ترفعا ان يضاموا وهم عرب مثله ، وقالوا :

« بل ابلغنا مأمننا ، فوالله لئن وضعت علينا الجزية لندخلن ارض الروم . اتقضمنا من بين العرب ؟.. »

فأحنقه عليهم هذا الترفع بلا مزية ، وهذا التهديد بالفرار الى عدو يلتمسون عنده الملاذ ، فصاح بهم مغضبا :

« والله لتؤدن الجزية وانتم صغرة قمئة !.. ولئن هربتم الى الروم لأكتبن فيكم ثم لأسبينكم » .

فاذا ابن ابى طالب تسارع بديهته بما يضع حدا للجدل والنقاش.. قال وهو يوجه الخطاب للخليفة :

« يا أمير المؤمنين الم يضعف سعد بن مالك عليهم الصدقة ؟.. »

« بلى ، قد فعل » .

واعجبته هذه اللفتة وحسن الراى فرضى بما كان من هؤلاء الأعراب .

ولئن الم علم على بكل نواحى التفكير ، وفاض بآرائه السديدة فى كثير من الأمور فان أبقى تلك الآراء على الدهور كان رايه حين دعت الحاجة الى وضع التاريخ .

جاء رجل الى عمر يخاصم آخر بدين له عليه وكان معه صك مكتوب يحل به الأداء فى شعبان ، فلما القى الخليفة بصره عليه ، بادر يسأل الدائن :

« أى شعبان ؟. أمن هذه السنة ، أم التي قبلها ، ام التى بعدها ؟.. »

فأجابه صاحب الصك ، ولكنه كان ينقصه البرهان ، فمن ذا يدرى مدى الصدق فى قوله ما دامت الكتابة لم تنص صراحة على حقيقة تاريخ الأداء . .

وفى الحق لم يكن اهمال النص عن العام الذى يحدد الشهر يمكن القاء تبعته على صاحب الدين وحده ، لأنه كان خطأ شائعا بين الناس اجمعين ما داموا لم يستنبطوا الوسيلة لتحديد الأعوام على وجه ثابت معلوم ، ولعل عمر وضح لعينيه اذ ذاك هذا النقص فالتفت الى صحبه يقول :

« ضعوا للناس شيئا يعرفون فيه حلول دينهم » .

قال احدهم :

«نفعل كما تفعل الفرس : فانهم يؤرخون بملوكهم ، كلما هلك ملك ارخوا بولاية من هو بعده » .

وقال آخر :

« نؤرخ بتاريخ الروم من زمان اسكندر » .

وقال ثالث :

« أرخوا من مولد رسول الله » .

« بل من مبعثه » .

وتضاربت هكذا الآراء ، ولم يستقر نقاشهم عند حد لولا ان جاء على بن أبى طالب من لدنه بالمعهود من الراى السديد . .

قال :

« يا امير المؤمنين . . نؤرخ من يوم هاجر رسول الله الى المدينة من أرض الشرك ، فانه اظهر من المولد والمبعث » .

فهتف عمر مصوبا معجبا :

« لا زلت موفقا يا ابا الحسن » .

وبدات الاعوام من تلك اللحظة بأبرز أحداث هذه الدنيا وأبلغها اثرا فى حياة البشر ، بهجرة محمد بن عبد الله سيد البشر . .

٧

بدا الميل الى صحبة على بينا تتضح سماته كلما توالت على عمر الايام . واخذت الجفوة فى خلق ابن الخطاب تتقلص رويدا لتحل مكانها الرقة له والاقبال عليه ، وكان الزمن قد علم الرجل خطأ ما كان من سوء ظنه بابن عم الرسول . وكلما مر الوقت تكشفت له ناحية جديدة من خلق الشاب تهيىء صاحبها لخير منزلة عنده ، ولأعلى مكانة بين صحبه اذا رأى الخليفة ان يتلقاهم جميعا بالمفاضلة ، ويعجم أعوادهم عودا عودا . ولم يكن فضل على خفيا من قبل على كثيرين ، ولكن الحالة النفسية التى اعتورت عمر بعد البيعة لابى بكر كانت حرية بأن تتركه نادر الرضا على اى منافس غريم !..

على ان يد الزمان الآسية ابرأته من الماضى !.. كذلك تغيرت نفسه ، وطاب قلبا لبنى هاشم ، وان طالعه من قومه الحقد عليهم . فلم تكن عينه لتخفى عليها خافية الانفس التى تمت اليها نفسه ، وكانت كاحداها ، تشعر بشعورها ، وتنطوى مثلها على ما انطوت فى الغابر عليه ، ولكنه نفض عنه ماضيه ، ولم يعد ببصره الى الوراء بعد ان تفتحت امامه آفاق وآفاق من نفس فتى بنى هاشم السيد المحسود !

... وظهر منه الوثوق فى على والركون اليه يتبعه الاقبال على أهل بيته حتى لم ير فى جمع الا تصدره ابن ابى طالب ، ولا فى خلوة الا كان ثانيه فيها ابن عباس . ولعله لقى عند هذا الفتى الصغير صفاء لم يشبه ما سبق هو اليه من حيف على حق ابن عمه ولم يؤثر المرير فيه فاتخذه نجيا ، والقى دائما اليه بما يخفى صدره ، وكان ينأى به عن أسماع غيره ... حتى ملابسات هذا الحدث التاريخى الذى أوقع بين الخليفة الثانى وبين الأسرة الهاشمية حاجزا من النفور لم تعد سرا يكتمه عمر عن عبد الله ...

في خلوة جمعت الأمير والنجى اقبل عمر على صاحبه الصغير يقول :

« يا عبد الله ... ما تقول في منع قومكم منكم ؟ ... »

قال ابن عباس ، وان علم خلاصة الاسباب قبل ان يسمع الجواب :

« لا اعلم يا امير المؤمنين » .

فأطرق عمر هنيهة يفكر ثم قال :

« اللهم اغفر ! .. ان قومكم كرهوا ان تجتمع لكم النبوة والخلافة فتذهبون فى السماء بذخا وشمخا ... »

وتريث عن الكلام . ولم يكن هذا على اذنى عبد الله بجديد ، ولكن الجديد حقا ، والسر الذى لم يكشف عمر عنه الغطاء قبل يومه ، هو ما ذكره وهو يتم الحديث ويقول :

« لعلكم تقولون ان ابا بكر اراد الامرة عليكم وهضمكم — كلا ،.. ولكنه حضره أمر لم يكن عنده أحزم له مما فعل ، ولولا راى ابى بكر فى عند موته لأعاد امركم اليكم . ولو فعل ما هنأكم مع قومكم .. »

ثم هز الرجل راسه كالآسف واردف :

« انهم لينظرون اليكم نظر الثور الى جازره يا عبد الله !.. »

وقد أصاب التشبيه حق اصابة واصاب به حقيقة القوم ! اما الذى جرى على لسانه مما هم أن يفعله الشيخ سالفه ، فانه ذهب مع قلب ابى بكر سرا طواه لحده .. ولكن البين مما طالعتنا به صحائف الحقبة التى تلت وفاة رسول الله هو ان خليفته استثقال الناس بيعتهم وكاد ان يخلعها عن عنقه . ولو انه فعل اذ ذاك لارتد الى صاحبه الحق ، ولجرت الخلافة مجراها الطبيعى فى دوحة الرسول . ولكن الأحداث المتلاحقة وفتنة المرتدين ومانعى الزكاة وقفت حائلا دون رغبته ، فلما أن انجابت هذه الغمة التى امتحنت الاسلام فى مستهل حياته باقسى محنة ، ولم يعد الشيخ — على الأرجح — قادرا على أن يحمل قريشا الشانئة على النزول عن رايه الحبيس فى نفسه .. او هو خشى — كالمفهوم من كلمات عمر — ان هو طالعها بهذا الرأى أن تجأر بالخلاف له تتبعه الفتنة والثورة عليه ما دامت تراه يهم ان يسلم اعناقها الى سكين الجازر !..

هذه ناحية ظلت خافية فى نفس عمر ، لم يكشف عنها الا حين تبين له الخافي من قلب على ، فاذا غضبه القديم يتوارى ، واذا شدته تنقشع ، واذا تأويله الخاطىء للأسباب التي دعت ابن أبي طالب الى السعى لمنافسة أبي بكر تبدو على حقيقتها النقية فيعلم منها عمر كم اخطأ من قبل فى حق الشاب .. وأصبح كلما انطوت من الزمن ايام يجد نفسه مندفعا الى هذا المشير الأمين مقبلا عليه وعلى اهله

المظلومين واياه ، حتى لقد صار لهم العطوف الودود وصاروا له خير اعوان . وفى كلا نقاوة قلب على ورجاحة عقله ، وجد ثانى الخلفاء فينا يظلل حبه له ، ويستمد منه بعض ما نقصه من نواحى القوة فى العلم والتشريع . وربطت بين الرجلين رابطة وثيقة العرى اساسها التقدير ، ودافعها اخلاص كليهما للواجب الموكول اليه ، وشدة حرصه على الخير العام . ولكن عمر ظل ابدا يطوى فى قلبه املا عز على ماضيه ان يهبه التوفيق فى اجتناء ثمرته .. انه حقا بلغ في قومه الذروة سلطانا وسطوة ، وخلف عليهم فى مكان تبواه منهم — الى قليل — رسول الله وخير خلقه ، وبلغت هيبته من نفوس الناس ان خفض اكابرهم الصوت فى مجالسه ، هو ابن الخطاب الذى قال عمرو بن العاص ذات يوم فيه :

« لعن الله زمانا صرت فيه عاملا لعمر !.. والله لقد رايته واباه ، على كل واحد منهما عباءة قطوانية لا تجاوز مابض ركبته ، وعلى عنقه حزمة حطب !.. ورايت العاص بن وائل فى مزررات الديباج .. »

بلغ السلطان والسطوة والهيبة ودانت له رقاع ممدودة من الامصار لا يبعد اقصاها عن طرف درته لو انه شاء !.. ولكنه ، مع ذلك كان مجدا دون المجد المأمول . فهو ان زهدت نفسه في الكثير والقليل من نشب الحياة لم يكن بمستطيع ان يقهرها على الزهادة فى مجد جدير بان يجهد فى نواله وان يركب اليه الف سبيل وسبيل !..

في حياته كلها لم يخفق قلبه كخفقه لمحمد . لو استطاع ان يموت دونه لما احجم ، بل لعل اقسى ما مر به من لحظات الحياة تلك التى تبين فيها ان محمدا فارقه الى جوار ربه ، فعز لقاؤه الا فى غير هذه الدار .. وفى حياته كلها لم ينعم بأمل احلى من ان يرتبط الى محمد باقوى رباط . وقد اسعده ان يزف حفصة اليه ، ولكن سعادته كانت أحرى بأن تكون اضعافا لو وفقه الله فجعل له عقبا من احدى بنات رسول الله .. اما وقد حال بينه وبين فاطمة ان ادخرها محمد لصفيه وابن عمه : على ، فان الأمل المذب بقى مع الزمن فى قلبه لا يبلى ..

ولعله اليوم راى ان اجتناء الثمرة جد قريب وهو يسير الى على ، فلم يعد يفصل بينهما خلاف ، ولم تبق ثمة وسيلة يقترب بها منه ويتحبب اليه الا عالجها ، ثم هو قد راى فى الشاب خير خدين

وخير ناصح امين ، فاذا استطاع ان يصاهره ، فقد قضى على البقية الباقية من غضب آل هاشم بسبب موقفه القديم منهم ، وأصاب المجد الذى تهفو اليه مطامح النفوس ، وتهفو زهادتها على سواء ..

وكذلك اقبل على صاحبه يقول :

« ذكرت اليك أم كلثوم يا أبا الحسن » .

فتلفت على نحوه برهة ولم يجبه لتوه . قد كان فى خاطر الاب امر جعله لا يبادره بالجواب .

ولكن عمر لم يقعده الصمت عن طلب الرضا عما جاء فيه . فاعاد عليه الحديث ، فقال له على فى تردد وحياء :

« يا أمير المؤمنين .. انها صبية » .

فلم يقنعه هذا بل سارع يقول :

« انك والله ما بك ذلك .. ولكن قد علمنا ما بك » .

فابتسم على ولم ير بدا من مجاهرته بما كان يخفيه :

« انما حبست بناتى على بنى جعفر .. » .

ذلك انه كان يحب بنى أخيه حبه ولده ، ويؤثرهم بكل خير فلما راى عمر ما كاد ان يعزم على عليه امره ، خشى ان يفوته اليوم ما فاته يوم تقدم لرسول الله فراح يتالفه ويحاول أن يفوز برضاه .

قال وهو يصور له حاجته اليها وقد جرى العرف قبل هذه الخطبة ان يصور الرجل حاجة المراة اليه :

« أنكحنيها يا على ، فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحابتها ما ارصد ؟ » .

فأطرق على وغلب فى هذه الآونة عليه طبعه الحيى وسجيته المجبولة على الا ترد حاجة او طلبا .. وبانت فى عينيه الموافقة التى جهد لها عمر ، فامتلأ بالفرحة قلبه . وانطلق من لدنه الى مجلس صحبه بالمسجد يسبقه بشره ثم لا يكاد أن يستقر به المقام بينهم حتى يهتف :

« رفئونى .. رفئونى !.. »

قالوا له يسالون :

« بمن يا أمير المؤمنين ؟.. »

« بابنة على بن ابى طالب » .

فاقبلوا عليه جميعا يهنئونه وراح هو فى غمرة فرحه بتحقيق مبتغاه يقول :

« ان النبى قال : كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة الا نسبى وسببى .. وكنت قد صحبته فاحببت ان يكون لى هذا ايضا » .

وكان له ما اراد من اللحاق بنسب رسول الله . فلم يكد يعود الى منزله حتى كان على قد امر ببرد فطواه وقال للصبية :

« انطلقى بهذا الى أمير المؤمنين فقولى : ارسلنى ابى يقرئك السلام ويقول ان رضيت البرد فأمسكه ، وان سخطته فرده .. »

وسارت ام كلثوم كما امرها ابوها وهى لا تدرى المعنى الخفى فى رسالته .

واستاذنت فاذن لها ، فادخلت الى الخليفة والقت امامه بالكلمات التى لقنتها :

وقال لها عمر :

« بارك الله فيك وفى ابيك .. قد رضينا » .

فعادت من حيث اتت حتى اذا سالها ابوها سارعت تجيبه وقد غلبتها الدهشة :

« ما نشر البرد يا ابت ، ولا نظر الا الى !.. »

فتبسم لها ضاحكا ، وراح يعد لها ما يهيئها لحياتها الجديدة .

٨

حق لقريش بهذا الزواج أن تتهيب موقفها .. فى خواطرها تجسم خطر بنى هاشم ثانية وفى أخلادها جرت ظنونها بعودة ما حسبته غاب عن حياتها فى قرار سحيق . وقد كان أولى بالاتساق مع تفكيرها ان ترى ان نجم على آخذ في الاستعلاء بأفق السياسة من جديد ، وان السحائب التى ظللته طوال الأعوام السالفة ليس تبديدها بعصى على اصابع أم كلثوم . ولئن برز أبوها فى المجامع بعلمه ، وسبق اكابر رجالها بأشواط ، فحرى بالنسب الجديد ان يوطد قدمه ، ويدفع بغيره من الطامعين فى الخلافة بعد عمر الى ما وراء الصفوف .

ولكنها فى الحق ظنون استحدثها الوهم ، وخواطر اوحت بها غاية الغايات التى استهدفها القوم .. وقديما قر فى نفوس قريش على بنى هاشم شىء ما زالت تحرص جاهدة على ان يثبت فى اخلادها ثبوت الأطواد ، وأن تظاهر غايتها منه بكل سلاح وان كان سلاح الخيالات والظنون .

هذه مخاوف لا يحسبن امرؤ ان قد برئت منها نفوس الاكثرين من أولئك الرهط فى ذلك الحين ، وهم عند الاعذار ليسوا على اى حال بملومين . فكلهم رجل اعماه الحقد حتى ليتسمع دبيب النملة فى الغاب المليء بالمجيج والزئير ، او يتصيد الحبة ثم يبرزها قبة ليشبع رغبته من التحوط والاحتراز .. او رجل آخر غرير ليس بالنافذ العين فى اغوار الناس قد استغلقت عليه نفس بنت ابى طالب ونفس زوجها ابن الخطاب ... وكلا هذين الصنفين من الرجال سيطر على اذهانهم نبأ قديم سرى بعيد وفاة رسول الله على الألسن ليسوا اليوم يخشونه لذاته ، فقد جاءت وقائعه لهم بالخير ، وانما يخشون ان يعود آخر مثله الى الظهور بعد حين ، مؤذنا بزوال غايتهم المرتجاة .. فنتائج الاحداث تعرف بقياسها على السوابق من الأشباه .

قد كانت قريش جد آمنة على غايتها التى لا تعود دون الابتعاد بسلطانها عن اليد الهاشمية لولا ان بدا ذلك النبأ القديم يحلق ثانية فوق الرءوس ، ويمد خطمه من الماضى صارخا بما تستطيع امراة ان تفعله فى تشكيل مصير امة وفى اقرار اداة حاكمة عليها دون اداة . ولم يكن خافيا اذ ذاك مدى سلطان عائشة فى بيت محمد ولا قربها من قلبه حتى ليزعم البعض — أو يحمدون لها — انها فى فترة مرضه الأخيرة بذلت وسعها ليمرض فى بيتها دون بيت ابنته ، ثم بذلت وسعها لتسير الأحداث من بعد على النسق المأمول . فلقد كاد أن يغيب عن المدينة ابو بكر فى طريقه مع جيش اسامة الى الشام لولا أن لحقهم رسول بالجرف يحمل نبأ اشتداد وطاة المرض على محمد ، ولم تكن عائشة وحدها صاحبة الامر بانفاذ ذلك الرسول ليستعيد شيخ بنى تيم وصاحبه عمر ، وانما جرى الخبر بأن الرجل كان رسولا من لدن نساء النبى بغير تحديد ، وهن على اى الحالات صورة مكررة للمراة !.

وبلغت الوعكة برسول الله بعد هذا غايتها ، فتلفت فيمن حضره وقال :

« ابعثوا الى على فادعوه .. »

قالت عائشة :

« يا رسول الله ، لو بعثت الى ابى بكر .. »

وسمعت حفصة فسارعت هى الأخرى تقول :

« .. لو بعثت الى عمر .. »

ووقف الرجال الثلاثة بين يديه بعد قليل فأجال فيهم بصره ، ولم يلق اليهم بما عساه كان يريد الادلاء به الى واحد منهم دون صاحبيه وانما اشار لهم وقال :

« انصرفوا .. فان تك لى حاجة ابعث اليكم » .

وانتهى الأجل ..

ذاك كان النبأ الذى حلق فوق رءوس قريش بعد أن بنى عمر ابن الخطاب بأم كلثوم ، وانه لنبأ يحمل فى طياته ما تستوعبه عين عابرة وان انطوى على كثير من الخطر لدى الذين يشاءون التأويل . فلقد حالت كلمة امراة دون غاية لعلها اوشكت ان تكون وانجيت غاية كانت بعيدة حتى ذلك اليوم عن الاخلاد والظنون . ولمن ابى أن يقر هـذا المنحى من التفكير ان يرسم فى خياله صفحات التاريخ على نسقها المنتظر لولا رسول نساء النبى ثم لولا الحيلولة فى اللحظات الاخيرة بين محمد وبين على .

جرى هـذا فى خاطر قريش حين دخلت ام كلثوم بيت عمر ، وتهيبوا أن تقع مثله عند ما يازف الوقت ، ويدعو داعى الموت امير المؤمنين للاستخلاف . ولئن لم تستطع عائشة من قبل أن تعمل بطريقة فعالة على ان يخلف زوجها أبوها ، ووقف بها دورها عند حد معلوم ، ففتاة بنى هاشم اذن طريقها معبد الى الهدف الذى ظنوها ترجوه ، ليس يحده حد ما دمنا نعلم البون الشاسع بين شخصيتى الزوجين كليهما امام امراته ، ونعلم لأولهما طبيعة بشرى يحوطها عن النزوات سياج من عنـد الله ، والثانى نفسا تميل مع الهوى ما وقعت فى يد امراة تحكم التدبير وتجيد التأثير .

ومع ذلك فان أولئك الذين تهيبوا الموقف كانوا حقا يسيرون فى ركاب الخيال . فلم تكن ام كلثوم سوى طفلة غير ذات دهاء ولم يكن عمر سوى امرىء خشن لا تغلبه مراوغات النساء ، وفى حياته كلها كان أقرب الى البغيض اليهن منه الى العنيف المرهوب ، حتى

ليعد عليه انه فارق من تزوج بهن فى الجاهلية وطلق الكثيرات بعد الاسلام .. وكانت النسوة المسلمات — على الاطلاق — ان لم يكرهنه — يرهبنه ، والاثر بهذا بين ؛ حين دخل ذات يوم على رسول الله وعنده نسوة يلغطن بالحديث ، ففررن لدى دخوله وتركن نه المكان .. وساءه منهن هذا الفرار فصاح :

« يا عدوات انفسهن .. اتهبنني ولا تهبن رسول الله ؟ »

فلم يفت النسوة ان يثارن منه فجاءه على السنتهن الطويلة الجواب خشنا بلا مواربة ولا اخفاء :

« نعم .. أنت اغلظ وافظ !.. »

واللائى عرفنه من النساء وطمع هو في أن يسكن اليهن بالزواج ، ابين عليه لم يشفع له لديهن سلطانه ولا ائتمار اعتى الرجال واقواهم جاها وسطوة بأمره . وحسبك ان تطوف بمجلس عمر لتعرف كيف كانت هيبة الرجل حتى فى قلوب من كانوا من قبل يبزونه نفوذا ، وما زالوا يعلونه بالحسب العريض .. ولعلك ملاق هناك أبا سفيان ابن حرب كبير قريش جالسا خافض الراس لا ينبس وابنه اللصيق به زياد قد تحدث وهو بعد غلام ، فأحسن الكلام ، حتى ابدى على اعجابه فقال :

« لله هذا الغلام !.. لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه » .

ويتلفت ابو سفيان بحذر ، حتى اذا امن عين عمر قال هامسا :

« أما والله يا ابا الحسن لو عرفت اباه لعرفت انه من خير اهلك »

وكان نسب زياد مجهولا فى ذلك الحين فقال على :

« ومن ابوه ؟ »

« أنا .. وضعته والله فى رحم امه ! »

« فما يمنعك من استلحاقه ؟ »

فنظر الشيخ صوب عمر ، وقال بصوت لا تكاد تلتقطه اذن جاره :

« أخاف هذا العير الجالس أن يخرق على اهابى !.. »

.. فاعجب اذن لهذا السلطان المستطيل كيف لا يستهوى المراة .. وكيف — وقد حاد عن هواها او حادت بهواها عنه — تعصيه ولا تخشاه ، لأن لها على نفسها السلطان الذى لا يصل اليه سلطانه ،

ولاتها وزنته — بطبيعة المسلمة — حاكما فاكبرته ، فلما وزنته — بطبيعة المراة — زوجا ، ابته وانكرته ..

ارسل ذات يوم من لدنه رسولا الى ام ابان بنت عتبة بن ربيعة يخطبها له ، فكرهت لنفسها المقام عنده زوجة وردت رسوله وهى تقول :

« كلا ! انه ليغلق بابه ، ويمنع خيره ، ويدخل عابسا ويخرج عابسا .. »

وكذلك فعلت ام كلثوم بنت ابى بكر حين خطبها وقالت :

« لا حاجة لى فيه .. »

قالت لها عائشة وهى تعجب :

« ترغبين عن امير المؤمنين ؟ »

« نعم . انه خشن العيش ، شديد على النساء » .

وان رجلا هذا نحوه لعصى على امراة ان تقوده او تسدد خطوه الى هدف شاءته ، لان طبعه كفيل بأن يضع كثيرا من الحوائل بينه كرجل وبين امراته كزوجة .. ناهيك عن عراقيل السياسة ذات الدروب الملتوية التى تضل فيها النسوة الدهاة فضلا عن الفتاة .. ثم دعنا نسال — وان بلغ رضاء عمر على بنىهاشم وملاينته لهم الشاو والذروة خلال عهده — ان كان قد استطاع أن يخلع عنه قرشيته فلا يكون على سجية قريش ، ولنا بعد هذا ان نقرا الجواب فى وصية ابن الخطاب .

٩

عندما اقبل كعب الاحبار يلقى الى عمر بمكنون علمه ، لم يبد على اليهودى القديم الا كمسحة الغموض على اسارير منبىء بالغيب ولم يبد على امير المؤمنين الا الريب ..

قال له كعب الاحبار :

« يا امير المؤمنين اعهد .. »

فبانت البغتة فى عينى عمر وبان الانكار وهو يهتف بالرجل :

« اعهد .. »

« نعم فانك ميت بعد ثلاث » .

« وما يدريك ؟ »

« اجده فى كتاب الله : التوراة » .

فضحك عمر ضحكة كشفت عن سخره وريبه فى نبوءة صاحبه وفى علمه وقال بلا اكتراث :

« انك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ! »

« اللهم لا . ولكنى اجد صفتك وحليتك » .

ولم يلق الأمير بعد هذا بالا الى الحديث . ولم يعن فى الحين بأن يتثبت من صدق هذا اليهودى القديم ، وتأوله على السفر القديم او زعمه النطق بما جاء فيه . ومضى لشأنه من الفراغ لشئون الدولة وشئون المسلمين ، قويا موفور الصحة كعهده ، لا يكاد أن يتوقع له احد قرب حينه .

ومع ذلك فقد كانت فى الأفق سحابة لم تخف عن عين عمر ، وكان جديرا به غب هذا الحديث أن يخشاها .. ولكنه كان رجلا قويم الايمان ، شديد الوثوق فى الله ، راسخ اليقين فى ان المجهول الذى سوف يصيبه لا بد سيصيبه ، فاذا بدا له من وراء هذه السحابة الدكناء التى تظل راسه وجه ابى لؤلؤة فيروز ، فقد امن اذن الشر ، ما دام عدله المشهور وسع كل الناس وأرضاهم وان اسخط بالأمس — فى لحظة غضب وتذمر — هذا الغلام المجوسى المتبرم بما وضع عليه من خراج .

على أن هناك امرا كان أولى بالتطير وخوف المصير الفاجع لو أنه سمع بنبوءة كعب الأحبار . ذلك كان عبد الرحمن بن ابى بكر وقد مر ليلة اليوم الذى طعن فيه عمر بالهرمزان وفيروز وجفينة غلام سعد ابن ابى وقاص حتى اذا قاربهم ، رأى خنجرا له راسان نصابه فى وسطه ، يسقط منهم . ولم يكن الأمر اذ ذاك مما يثير ظنة الا ان كان فى اجتماع ثلاثة نفر من الاعجام بمنحى ما يبعث الشكوك . ولكن الليلة لم يطلع لها صباح حتى كان امير المؤمنين موسدا بفراشه ، بعد ان اصابته جراح قاتلة من خنجر نصابه فى وسطه وله راسان ..

لم يكن عبد الرحمن قد سمع بنبوءة كعب الاحبار حتى يتحوط للحدث قبل وقوعه ، فلما دهم الرزء سار بشكه الى عبيد الله بن عمر ، وقد كان حريا بعبيد الله أن يغضب لأبيه ، وأن يبلغ الشك عنده

يقينا ، وان ينقلب موجدة على اولئك النفر الذين حومت حولهم الشبهة . وزاد من لصوقها بهم — في وهمه — انهم امير فارسي سابق اعتنق الاسلام وراسه تحت حد السيف ، ومملوك مجوسي نقم من عمر ابقاء خراجه باهظا ولم يرفعه ، وغلام آخر اجنبي يدين بالمسيحية جيء به اسيرا من الحيرة ، وكل الثلاثة لعل قلوبهم لم تخل من حقد على الرجل الذي داست جيوشه بلادهم واوطأتها العبودية .

ثم هلا كان اولى بأن يكون الأمر كله اقرب الى المكيدة المدبرة لو نظرنا بعين التشكك — كما نظر عمر — الى حديث كعب الأحبار المزعوم عن ورود نبأ المصرع الوشيك في التوراة ؟.. هذه ريب تمينة ان تلصق بالرجال الاربعة جميعا ثم قد تدع رابعهم عارفا بالحادث قبل وقوعه ، فمحاولا ان يلبس به ثوب العليم بالغيب النافذ البصيرة الى اطواء المجهول ، عسى ان يستطيع نفوذا الى بعض النفوذ ، ويكون له من ورائه عليها سلطان !..

ولقد غالب عبيد الله بن عمر ما في نفسه اياما ، فلما قضى ابوه ، مضى مشهور السيف يجذ الرقاب .. قتل ابنة فيروز بعد ان سبقه غيره الى صرع القاتل ، وقتل جفينة والهرمزان فكان هكذا موتورا ركب غاية الشطط في الاخذ بثأره . لأن الظنة وحدها تدرأ الحد ولا تدعو اليه ، ولأن البينات على جرم اولئك النفر كانت معدومة .

اما كعب الأحبار فقد بقي معافي لم يمسسه شر ، بل لقد بلغ مكان الصدارة في مجلس الخليفة التالي او كاد ، لا ينساه في مشورة .. واما ابن عمر فقد امسك ليرى فيه امير المؤمنين الجديد امره ، ثم لم يعد قضاؤه فيه أن اطلقه ولم يأخذه بدم احد ضحاياه تلوما من قتله ظالما بعد مصرع ابيه مظلوما .. والذين يلتمسون المعاذير لصاحب هذا الحكم ، قد يأتون منها بالآحاد او بالعشرات ثم يعوزهم بعد هذا أن يروه قضى بشرعة الانصاف !

وهكذا بدأ عثمان بن عفان عهده بالتحيز لأن طيبة قلبه غلبت على الاعتصام بالعدل المفروض في الامام .. هذه الطيبة التي كانت دائما آفته وما زالت تستشرى كلما تقدمت به السن فتميل به رويدا عن جادة الحق حتى أوردته حتفه .

***

وحمل ابن الخطاب وهو ينزف من المسجد ولما يبدأ صلاته بالناس. وكان واهن القوة لكثرة ما سال من جراحه الستة من دماء . ووسدوه فرشه وهو ينوء وقد تجمعوا لديه ذاهلين . أما هو فقد استطاع أن يجيل بصره فيهم آونة حتى يقع على خير بنيه فيقول له :

« يا عبد الله بن عمر .. اخرج فانظر من قتلنى » .

وكان الناس فى المسجد قد اسروا القاتل بعد أن أصاب منهم قتلى واثخن الجراح ، وحملتهم ثورة غضبهم لخليفتهم وحرمة بيت الله ان يقضوا سراعا على العبد الزنيم .

وعاد عبد الله يقول لأبيه :

« يا أمير المؤمنين .. قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة » .

فرفع ابن الخطاب عينيه الى السماء وقال وقد لاحت على وجهه علائم الرضا والاطمئنان :

« الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل سجد لله سجدة واحدة » .

ذلك انه كان يخشى أن يوسم باتيان ما قد يقتله به مسلم هداه الاسلام فعرف حده وعرف حقه وحق ربه على اميره ، اما وقد علم أن المصرع جاءه على يد آبق كافر فهنا الرضا عن نفسه ، والتسليم بعده للموت قرير العين مرتاح الضمير ..

ولم يبق له غب هذا الا ان يختار الجوار الذى لا بد لائذ به بعد قليل ، وأن يطمئن على مثوى جسده بعد أن طابت نفسه بمصير روحه الموكول برحمة الله : وكما كانت غايته ابان الحياة ان يلوذ بنسب من الرسول الكريم يشرف قدره ، فكذلك كانت غايته وهو يهم أن يستدبر الدنيا ويستقبل نصيبه من التراب ، فليس اشهى اليه فى كليهما ، ولا احب الى قلبه من جوار رسول الله بالصهر وفى القبر ..

ونادى عمر ابنه ثانية :

« يا عبد الله .. »

« لبيك ! »

« اذهب الى عائشة فسلها أن أدفن مع رسول الله .. »

١٠

« لولا راى ابى بكر فى عند موته لاعاد امركم اليكم .. »

يا ترى قد ذكرها عمر اليوم وهو يحس الموت يزحف اليه من خلال جراحه ؟..

ما كان حريا بالرجل ان ينساها لحظة واحدة ، وخاصة وقد وقف الآن الموقف الذى يجب عليه فيه الاستخلاف . وما كان له أن ينساها وقد سمعه من صاحبه قبله ، ثم اسمعها في ذات يوم ابن عباس . وما كان له فوق هـذا وذاك ان يغيب عن ذهنه قدر على وصفته ، وقد بدا له — من بين صحبه المتجمعين حول فراش موته — وجهه وسمته .. ذاك ان لم يجد فى قرابة ابن عم رسول الله موجبا للتقديم بغير ما يوجب التقديم .

ولكنه سمع واسمع ، ثم رأى مع هذا ان يأتى بخلاف ما اقر به من قبل ، وان يدع الظلم — الذى وسم به قريشا اذ نحت ابن ابىطالب عن خلافة رسول الله — فى مكانه حيث كان ، لم يمحه ، ولم يبدل منه لانه ظل حتى الموت قرشيا من غلاة القرشيين بغير كثير تبديل . ولمن اعتـذر للرجل بانه خشى — ان هو أوصى بعلى — أن تنتقض قريش وتأباه ، فعنده اذن الجواب بأنها قبلت كارهة من أبى بكر أن يوصى لعمر ، ولم تنقلب عليهولها العذر الحاضر للانقلاب من شدة ابنالخطاب ، ومن بيته بين بيوتها اذا هى وزنته بميزان الأحساب !..

قيل له وهو مهيض :

« يا أمير المؤمنين .. لو استخلفت » .

فتفكر مليا فى الأمر ثم أجاب كأنما يشاور نفسه :

« ان استخلف فقد استخلف من هو خير منى ، وان اترك فقد ترك من هو خير منه .. »

ثم التفت الى محدثه ، ولمن حضره من الصحاب . وقال بنبرة الأسف :

« لو كان أبو عبيدة حيا لأستخلفته ، وقلت لربى لو سألنى : سمعت نبيك يقول انه أمين هـذه الأمة .. ولو كان سالم مولى

ابى حذيفة حيا استخلفته وقلت لربى لو سألنى : سمعت نبيك يقول ان سالما شديد الحب لله .. »

فهلا ذكر اذن — فى هذا المقام — قليلا من الكثير الذى قيل فى ابن أبى طالب على لسان رسول الله ؟

انه بلا ريب ذكره وذكر معه كل ما حدث به من قبل ابن عباس ، ثم ذكر الى هذا وذاك قدر على — لا كما جرت به سيرته على شفاه محبيه ، بل كما علمه هو وخبره وقدره القدر الذى يعلو به على الآخرين ولكنه أيضا ذكر السياسة العليا التى استنتها لنفسها قريش ، وكان اما مترسما لها برغبته اذ يراها الصواب ، واما دفع مستكرها الى ترسمها فعداه — فى كلا الحالين — التوفيق ، ولم يلتزم النهج الأقوم .

وتقدم المغيرة بن شعبة اليه يهمس :

« أأشير يا امير المؤمنين ؟ » .

« أسرع » .

« ول عبد الله بن عمر » .

فرمى اليه مسرعا بنظرة كالشهاب وصاح فيه :

« قاتلك الله ! والله ما الله أردت بهذا الأمر . أتشير على برجل عجز عن طلاق امرأته ؟.. »

وتلفت الى الحضور يستأنف خطابه :

« لا ارب لعمر في خلافتكم . ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من اهل بيتى ، ان تك خيرا فقد اصبنا منه ، وان تك شرا يصرف عنا ، وحسب آل عمر ان يحاسب منهم واحد ، لا ها الله !.. »

وكان الجهد قد اصاب منه فوهن واغمض عينيه ، ولم ير الناس بدا من التفرق عنه لساعة صحو — فتركوه .

***

الا منذا يدرى كيف مرت بعد هذا به اللحظات ؟. لا ريب لم تطرف عين خياله لحظة واحدة عن التجول خلال امته ، وعن استكناه شأنها ، وعن تصور الاحداث كلها التى مرت به حتى الخنجر .. وهو قد كان جديرا بأن يستشعر الرضا عن اعماله وجهوده لرفع هامة الاسلام .

ولكنه الى ذلك كان جديرا بأن يرهب المستقبل على امة محمد من بعده فأنى لغيره ان يسوس الدولة الناشئة ويرعاها ، كأنما يمسك الناس فيها بزمام ؟...

طبيعى أن يمر كل هذا وكثير غيره بخاطر عمر ، وأن يراوده ابان الساعات القلائل التى فصلت بينه وبين حفرته ، وأن يعاوده أمره مرات فى يقظته هما وفى غشيته حلما .. والمشغول بشيء لا تنام عنه عينه ولا واعيته ، ويظل دواما عالقا به حتى يقضى ، وكانت الغيرة العمرية على شأن امة الاسلام أرهف الحواس عند ابن الخطاب ، وكانت هى رائده فيما صدر عنه من اعمال حتى تلك التى لم تجنبه شططا ، وانك لتستطيع دائما أن تجد عذره حاضرا امامك لو أحصيت عليه اخطاءه القليلة ، لأنك ان رددتها الى أصولها بدت لك غيرته على مستقبل بلده من وراء كل أصل . وليس موقفه من بنى هاشم حين تأمير أبى بكر ببعيد عن الأذهان .

ولقد ظلت هذه الغيرة — المحمودة اذ تظاهر هدفا عاما — تنمو فى نفسه مع الأيام وتزيد شدة ، لا يهدىء من تأجج نارها تقدم سنه ، بل يرفع لهبها ويسعره قوة شعوره بواجبه ، وانه كان مع نفسه عسير الحساب . وما من رجل يمكن أن يقال فيه قد فتر حماسه لتسويد أمته وهو القائل ، كما قال ابن الخطاب :

« والذى بعث محمدا بالحق ، لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات خشيت أن أسأل عنه » .

رجل هذا منطقه : وهذه غيرته على الأنعام ليس بعجيب منه أن يقول فى شأن الدولة التى أظلها حكمه :

« لئن عشت لأسيرن فى الرعية حولا ، فانى اعلم أن للناس حوائج تقطع دونى . اما عمالهم فلا يرفعونها الى ، واما هم فلا يصلون الى .. »

ولكنه لم يعش ليفعل ما أراد ويقسم العام سواسية بين أقطار الدولة ليرعى شئونها بنفسه ، وحيل بمنيته دون أمنيته . وانه اليوم وهو طعين مهيض تنزف الحياة من ثقوب جراحه مع دمه المسفوك لأشد غيرة على الرعية من قبل لأنه اشد شعورا بمسئوليته امام الله ، والقبر موشك أن يفغر فاه . واحسبه أبدى واعاد ثم ابدى واعاد فى خاطره اسم الامام المرجو من بعده . وفى حياته كانت له عين فاحصة وبصيرة نفاذة علم بهما أى الأعواد أقوى واشد صلابة من بين

أولئك الذين تركوه منذ قليل . ولكن نفسه فيما يبدو ، كانت نهبا ، تتنازعها عواطف وعوامل شتى تعيى بها نفس سليم صحيح . تأرجحت به الى يمين تارة ، ثم الى اليسار اخرى ، ثم تكرر الجذب مرارا بين هذا وذاك ، وهو بينهما كالقارب يتداوله اصطفاق الموج .

ودخل عليه الناس وقد عاوده الصحو .

وقيل له :

« لو عهدت يا أمير المؤمنين ... »

فحضره ما كان بينه وبين نفسه في وحدته ، وتريث برهة ، ثم رفع عينا الى القوم واصبعا الى علي وقال :

« قد كنت اجمعت بعد مقالتي أن أولي أمركم رجلا أحراكم ان يحملكم على الحق .. »

ولم يلبث أصبعه المشير الى علي أن سقط ساكنا الى جواره ، وصمت ، واغضى بصره . ولكنه ترك ابصار الناس تتحدث في صمت ، والسنتهم تتحرك بلا صوت ، وقد اتجهت نظراتهم الى فتى بني هاشم الذي لم يختلج محياه .

وعاد عمر يتم حديثه وفي نبراته وهن وتخاذل :

« ... ثم رهقتني غشية ، فرايت رجلا دخل جنة فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمها اليه ويصيرها تحته .. فخفت أن أتحملها حيا وميتا ... » .

واسلم نفسه ثانية للصمت .

فما أسعدها غشية رهقت عمر بعد اجماعه الرأى على تولية ابن أبي طالب ، وما اسعده حلما تنثلج به صدور قريش ! ... ان الرجل أول رؤياه — ان لم نقل على قدر عاطفته فعلى قدر معرفته . ولكنها المعرفة بالتأويل دون البرهان والدليل . فليكن ابن أبي طالب كيفما كان . وليبعد عن تولي مقاليد السلطان . وليأت من كرهوه بالأسباب والمعاذير لاقصائه عما اهلته له خصائصه ، ثم لسوف يعجزهم أن يجعلوا الأثرة التي الصقها به حلم ابن الخطاب احد هذه الأسباب ! ..

ومع ذلك فمتى كانت الأحلام — وان انبأت بالأحداث — تحدد تاريخ وقوع هذه الأحداث ؟ وكيف غلب على ظن عمر أن رجل جنته تلك هو علي وليس آخر سواه ؟ .. ثم أين بعد هذا حلمه عنه من علمه به ؟

ولكنها رؤيا أولها ابن الخطاب على قدر معرفته بالتأويل ، وحبس بها الحق عن صاحبه المجلى بين الناس ، والمؤيد بالف دليل . ولقد يستطيع من شاء ان يغفر لعمر تأويله فلا سلطان له على حلم سرى اليه ابان غشية ، ولكنه لن يستطيع ان ينفى عنه انه قرشى كأولئك القرشيين ، استبدت به عاطفته كمثلهم ولو عن غير وعى . لأننا نعرف ان الرؤى والاحلام ليست سوى وسيلة للتنفيس عن المشاعر المختزنة في النفوس ! ..

١١

ضاع العلم في طوايا الحلم ! .. فقد أوصى عمر حسبما شاءت رؤيا وشاءت حافظته وان لم تشأ معرفته وتجربته . وذهب كل ما خبره في ابن ابى طالب بددا ..

ولم يكن الرجل — وان أوصى — قد اختار ولكنه رسم حدود هذا الاختيار وحصر الامر فى ستة نفر من اصحابه لن تعدو الخلافة احدهم بحال ، ثم ترك لهم وحدهم ان ينتخبوا امير الاسلام .

ومع ذلك فمنذا يستطيع ان يقول انه لم يحدد موقفه اذ ذاك من على غاية التحديد ؟ ولم يقطع — بالتلميح دون التصريح — عليه الطرق الى ولاية الناس ؟ ولم يدل بدلوه مع الدلاء التى أخذت من حق هذا الهاشمي المحسود ؟ ان الرجل لم يناد صراحة باقصاء على عن الامارة . ولكن وضعه اياه مع أولئك الآخرين على سواء كان يصرخ بأنه ليس يبزهم ولا يعلو عليهم مرتبة في الشأن الذى اختيروا له . وما احسبه الا واضحا ما سوف تخسره قضية على بهذه المساواة !..

ثم دعنا نستعرض اسماء أولئك الانداد ونعرف أين مكانهم من صفوف ذوى الاحقاد ... ما من ريب فى ان ظلالا من الحسد قد لفتهم او اسرهم أو فروعا منها . وليكن خيرهم لعلى — وقد ادخلنا الانساب فى الحساب — ابن عمته الزبير ، ولكننا رغم هذا لا نستطيع أن نذكر خيره له الا مشوبا بالغيرة منه . وموقفه فى الماضى من على مذكور معروف . وموقفه منه من بعد دونه منايا وحتوف !..

لقد الب عمر — عامدا أو بغير تدبير — على سليل هاشم احقاد قريش . وكتب له — اذ أودع الشورى اولئكم الخمسة — مصيرا مآله الفشل. ومن لعلى برضا بنى تيم بعد أن نافس شيخها ابا بكر وغالبه غب وفاة الرسول على ولاية الامر ، وهذا طلحة التيمى له رأى الآن فى الانتخاب قد يستغله فى الثأر ؟ .. ومن له بمحو الأحقاد الأموية على بنى هاشم من قلوب أصحابها بعد أن ظلوا أجيالا يربون هذه الأحقاد فى قلوب الأبناء والأحفاد عسى ان يثأر ذات يوم سليل لأمية من سليل غريمتهم الهاشمية ؟... قد كان يكفى أن تجمع شورى عمر بين على وبين التيمى طلحة والأموى عثمان ليبوء أول ثلاثتهم بالهزيمة والخسران !...

ولكنا نرى عهد الخليفة الطعين باديا فى صورة من الامعان فى تأليب قوى العصبية كلها ضد ابن ابى طالب . فلقد ضمت الشورى أيضا سعد ابن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وكلا الرجلين من زهرة ، ولكليهما نسب موصول ببنى امية أتى الأول من ناحية امه . حمنة بنت أبى سفيان ، وأتى الثانى من ناحية زوجه ام كلثوم بنت عقبة أخت عثمان . فاذا علمنا هذا ، فماذا بقى بعده يدع لعلى فرصة واحدة للفوز ؟ ... وأى بطن من قريش ينصف قضيته وقريش كلها خصومه وقضاته فى آن ؟...

وكذلك كانت وصية عمر بالشورى تومىء الى الرجل المغلوب كما يومىء عهد مكتوب !..

وخرج أصحاب الشورى من لدن الشيخ الجريح بوجوه غير التى دخلوا بها عليه ، فى قلوبهم الوان تباينت من المشاعر ، وفى نفوسهم أهواء شتى تصطخب وتتلاطم وكل له هم سوى هم أخيه .

وكان الناس عند الباب فى جموع تنتظم الكبير والصغير ، قد تدافعوا ينظرون الرجل الذى ظنوا أن انعقد له اللواء . ولكن الأمر بدا كان لم ينضج ، وتعلقت آلاف العيون المتطلعة الى ذلك الربعة الضخم وهو يسير اليهم كما ينحدر السيل . وبدا لهم وجهه الأسمر النبيل ، وقد انحسر ما كان من شعر يتوجه فى الماضى عن جبهة يتحدث فى سعتها الذكاء . ونطقت عيناه ببسمة حنان تغشاها اسى وشاه الاستحياء . وهفت القلوب اليه ، ولكن هيئته أوحت لهم باصطناع السكون وكبت ما يضمرونه من حب مكنون . ولكنهم انطلقوا

نحوه مكشوفى العواطف تحت نقاب النظرات الرقيق ، فأولئكم العامة كانت نفوسهم اصفى من أن تعرف المراءاة وانقى من صفحة مرآة .. لم تفسدها الأغراض ولم تشبها ، بل كانت ان كرهت فلله ، وان احبت فلله ..

تكأكأت عليه الجموع وكلها مستضعف وزاهد وفقير .. ولئن تباينوا بين عبد وحر الا انهم فى الحرمان كانوا سواء : هذا لا يملك ما يملأ معدته ، وذاك لا يملك ان يفك رقبته ، وانما الفت بين قلوبهم عاطفة الاكبار والاخلاص لابن عم الرجل الذى جعلهم ناموسه فى صف واحد مع أعلى الناس .

ولم تكن العاطفة وحدها هى التى الفت بين قلوب الشعب على هذا الرجل الضخم الاصلع القصير ... لقد احبوه حقا بحبهم رسول الله ، وقربوه الى نفوسهم لقربه منه . ولكن سجايا له ظاهرت هذه العاطفة فى قلوبهم ومكنت لها ، وخصالا رفعته فى اعينهم كما رفعت ابن عمه الكريم ولما يهبط عليه وحى من السماء . وان الكثيرين منهم ليذكرون عليا من مهده فلا يستطيعون الا اكباره فى كل مراحل حياته ، ويحصون المحامد فى الناس مجتمعين ، ولا يسعهم الا جمعها له منفردا ، ثم تبقى له بعد هذا صفة واحدة جديرة بأن توليه عطفهم الخالص ، هى أنه مظلوم بأنداده ، محروم من تراثه الذى كان له اهلا منذ اكثر من عشرة أعوام ، وكفى بهذا الحرمان صفة تؤلف حوله قلوب أولئك الذين ذاقوا فى حياتهم مر الحرمان .

ومضى على صامتا فى زحمة الناس وهم يتهيبونه فيه غضبة ليث مشى على عرينه غريب . وكان المه باديا فى عينيه ، وغضبه قد نم عنه هذا العرق الضخم الذى نفر فى جبهته يكاد ان ينبجس منه الدم . ثم لم يلبث الزحام أن تفرجت صفوفه ، وانثغر عن شيخ اشيب مهيب يشق طريقه بين الناس ويوسعون له تهيبا لقدره ... حتى اذا أصبح من ابن اخيه قيد خطوة استطاع ان يسمعه يهمس :

« يا لله وللشورى !... »

فتوجس العباس . وهتف به يسأله :

« فما العهد يا أبا الحسن ؟ »

« جعلها فى جماعة زعم أنى احدهم ... »

وبان الألم في عينيه .. ولم يفه العباس بحرف كأنما قد يفته

ما سمع . ومضى الى جوار ابن اخيه يسمع منه نبأ الشورى ولايملك ان يميط الدهشة عن نفسه .. قد كان هذا اليوم اولى الأيام بعودة الحق الى صاحبه بعد ان عرف الاسلام طريقه الى النفوس ، واستقر فى القلوب أعواما كفيلة بأن تنسى الناس عصبية الجاهلية ، وتميت الأحقاد القديمة التى توارثوها . ولكنه الآن علم انه احسن الظن بطبيعة البشر .. وتكررت للمرة الثالثة امام عينيه نفس الصورة التى بدت له عند وفاة الرسول . وظهرت قريش تماما كعهدها الأول، حاقدة ناقمة على بنى بيته وبيت آبائه ، متربصة لهم تتحين السانحات ... وليس اختيار ذينكم الرجلين تباعا بعد موت محمد سوى مظهر لاستمساك القوم بشريعة الأحقاد ..

وزفر على تبرما وهو يذكر ما فات ، ثم قال باستنكار :

« متى أعترض الريب فى مع الأول منهم حتى صرت أقرن الى هذه النظائر ! ... »

أجل متى اعترض الريب فيه مع أول الخليفتين !.. الا قد كان جليا غاية الجلاء لكل مبصر ان ابن أبى طالب وشيخ بنى تيم لم يكونا على سواء ، وان الهاشمى الصغير كان اذ ذاك اولى بالأمر من أبى بكر ، لولا تدافع الأحداث مرة ، والاستجابة لهذه السخائم القديمة مرات ! .. ولقد مرت بأول الرجلين فترة اراد فيها أن يستقيل الناس بيعتهم . ثم فترة اراد فيها ان يرد الأمر مختارا الى ذويه ، ولكنه فى اللحظة الاخيرة رأى رايا فى رجل هو بدوره فى اللحظة الأخيرة رأى رؤيا .. فكان الذى كان !..

وهز العباس راسه هنيهة يتفكر ، ثم قال وفى صوته نبرة عزم :

« يابن اخى .. لا تدخل معهم ، وارفع نفسك عنهم »

وصمت . وتفرس على فيه يرقبه ثم اطلق لذهنه العنان يعمل مسرعا على استيعاب فكرة شيخ بنى عبد المطلب الرشيد .. قد كان رايا كفيلا حقا بأن يضعه موضعه الحق على راس اهل الشورى الذين يعلوهم هو ولا يعلونه ، ولن يكون متجنيا على الواقع لو جاهر بأنه يأبى ان يكون واياهم على سواء ، وانه يتوقف عن الاشتراك فى الشورى ، لانها مظهر وضع من قدره اذ سوى بينه وبين غيره .. ولكن ماذا عساه سيفيد من وراء هذا التوقف ؟.. وهل ان رفعه درجة فى عيون مريديه لن يثير عليه حفيظة نفوس أناس سيرون فى

توقفه تعاليا وصلفا ؟.. ومنذا يملك من كل هذا الشعب ان ينصره ويؤمره بعد وصية ابن الخطاب وتحديده من لهم حق الانتخاب ؟.. ثم هلا كان توقفه أدعى الى استجلاب نقمة اهل الشورى عليه — وهم الذين يملكون وحدهم أن يبرموا الأمر دونه ويثأروا منه بتاميرهم واحدا من بينهم سواه ؟..

لذلك حزم على أمره ، وقال يرد فكرة العباس ، ويتوسل فى ابائها بأرفق جواب :

« انى يا عم اكره الخلاف .. »

فتلفت الشيخ نحوه مهموما ، وقال بحرارة :

« اذن ترى ما تكره !. »

ثم مضى عنه تهمه وألمه .

١٢

لم يغب مغزى كلمات العباس عن ذهن على ، بل ان هذه النبوءة جرت فى خاطره قبل أن تجرى كلاما على لسان الشيخ ، وعلم مآل حقه من الضياع منذ اللحظة التى كان الجريح يذكر فيها اسماء الذين حصر فيهم الأمر ...

كان هذا واضحا غاية الوضوح بلا حاجة الى اعتساف دليل او سماع قول صريح يدلي به الخليفة الطعين . ولئن كان عمر قد ذكر ابن أبى طالب بين أصحاب شوراه فانه فعلا قد اقصاه ، وبحسب المرء أن يتبين الأنساب ليعرف حقيقة الجواب !..

ولكن عليا آثر أن يتناول الأمر بالرفق والتريث ، ولم يشأ أن يتولاه بالعنف الذى اراده عمه مخافة أن يرميه خصومه بحب الخلاف والصلف والاستعلاء ، او ان يتهموه — على احسن الفروض — بالعجلة والقفز الى الخواتيم قبل أن يثبن وقتها المفروض ... هذا لو كانت فى نفوسهم حياله بقية لاحسان الظنون .

قر اذن فى فهمه ما سوف يكون وبان لبصيرته ما يرجون .. لا خطرة من نفوسهم تغيب عنه ، ولا ظن يميل به عن الواقع الوشيك

الحدوث الى الوهم الذى يستحدثه الخيال . ولكنه الاستقراء الصحيح والرأى الرجيح يسيران جنبا الى جنب مع المنتظر من اربعة من المختارين — على التحقيق — كما تسير الأرقام فى العملية الحسابية فتنم بلا كبير عناء عن الجواب المرقوب .

قد كان احدهم حقا غائبا عن المدينة لم يعد بعد . ولكن اجماع الثلاثة الآخرين لا يعوزه تأييد من هذا الصاحب البعيد ، ولن ينقض طلحة امرا يبرمه هؤلاء ، ولن يكون من رأيهم الا كما يشاءون . بل لقد بدا من علمهم بموقفه — وان غاب — ما كان من حديث سعد مع ابن الخطاب .. قال عمر وهو يوصى الخمسة مجتمعين :

« .. وطلحة بن عبيد الله شريككم فى الأمر ، فان قدم الى ثلاثة ايام فأحضروه امركم ، والا فأرضوه .. ومن لى برضى طلحة ! » .

فأسرع سعد اليه بالجواب :

« أنا لك به يا أمير المؤمنين ، ولن يخالف .. »

ومع ذلك فدع هذا الغائب وطف بأولئك الباقين ، وليحضرك في هذا الطوف ولاء الاعراب لنواميس الجاهلية وان ضمهم الاسلام .. تلك النواميس التى تقدس عصبية الأسرة وتقدمها ، وتعيش فى حاضرها بهم الانتصار الموروث من عاداتها ومن ثاراتها .

لقى على بعض بنى هاشم فحدثوه عن وصية عمر ، فقال لهم ، وقد حضرته مواقف قريش من آله منذ أجيال ، وتواترت أمام بصيرته سلاسل أحقادها ومواجدها :

« ان أطيع فيكم قومكم ، لم تؤمروا أبدا !. »

فلم يعد حقيقة الحال فى الماضى والاستقبال ، وقد كانت الطاعة لقريش والإستجابة لسياستها العليا هى المظنون وقوعه من نفر الشورى الذين يمثلون قريشا أصدق تمثيل .

***

... ثم طف بأولئك الباقين فانظرهم — خلف الدين — عربا وقرشيين .

وسر قدما بعد هذا الى الجواب المرقوب من العملية الحسابية بلا كبير عناء ! ولتجدن الزبير نفسه ، ظهير على ، لن يصدر فى تأييده

اياه الا عن استجابة لقرابته وعصبينه ، ثم لترين الثلاثة الآخرين صفا واحدا امام سليل الهاشميين .

لا ريب كانت هذه اللحظة فرصة قريش المواتية اعادها القدر ثانية في يدها — بعد تأمير ابي بكر — لتعاود فوزها المرجو على بيت هاشم .. وكان للقوم شغف بمجالدة البيت المحسود منذ اوقعت الأيام — من قديم — بينهم وبينه النزاع على النفوذ والجاه .. وكانت امية دائما اعتى القوم واشدهم عليه موجدة ، وهى الآن ، برجلها عثمان — وشيكة ان تقتص لنفسها فتنتصر وتحقق مالم يسعها قبل اليوم تحقيقه من حلم الاجيال .

ولسنا نستطيع أن نرمى ابن‌عفان بالنهم — اذ ذاك — الى السلطان ، ولكنا لا نستطيع أيضا ان نظن له الزهد فيه .. واذا كانت طيبة قلبه وحياؤه وعلو سنه كفيلة كلها بان ترده عن طلب السطوة على الدولة ، فان حق اسرته عليه ونداء الماضى ، وعوامل الوراثة التى جرت فى عروقه مع الدم كانت تحفزه جميعا على أن يطمح حيث لا حرج عليه من الطموح ، وعلى ان يتقدم ليفوز وقد هيأ له قدره اسباب الفوز ووسائل الانتصار .

هيأ له قدره هذه الوسائل والأسباب أم ترى هيأتها له وصية ابن الخطاب ؟ لن يغير من الأمر ان نتلمس المعاذير ، ونترفق فى التقدير ، فنحسب ان الخليفة أوصى وهو لا يميل الى ترجيح واحد من الستة على من عداه .. ذلك لأن الحساب لا يجب البيان ، والظن وان نفته كياسة العقل فقد أثبته الفعل .. وما كان لامرىء من الناس الا ان يعلم مقدما بفوز عثمان بن عفان قبل فوزه وقبل ان يقر أصحاب الشورى على قرار وهو لا ريب عالم به مستيقنه من خلال أسماء الرجال الموكول اليهم الاختيار .. وكفى بعثمان أن يكون له ظهيران فيهما عبد الرحمن ، ومكان عبد الرحمن من‌الشورى ليس يعلوه مكان .

كذلك نرى عبد الله بن عباس ، لا يكاد أن يسمع بما كان من وصية عمر حتى يسرع دهشا ، جلل القلق والحيرة وجهه وخاطره ، فيقابل ابن عمه يستخبره الامر :

« أقال لكم أمير المؤمنين : ان رضى ثلاثة منكم رجلا منهم ، ورضى ثلاثة رجلا منهم ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ؟ . »

« نعم .. »

فيهتف الفتى مستنكرا في ضيق :

« قد ذهب الأمر منا ! » .

ولم يكن هذا بالجديد على علم على لانه استيقنه من البدء وقال فيه لعمه العباس :

« .. سعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر لعثمان لا يختلفون ، فيوليها عبد الرحمن عثمان او يوليها عثمان عبد الرحمن .. »

ولكنه مع علمه هذا آثر الصبر لأنه كان يرمى الى امر ..

وقال هادئا يشرح الأمر لفتاه :

« انى اعلى يا عبد الله .. ولكنى ادخل فى الشورى معهم لأن عمر قد اهلنى الآن للخلافة وكان من قبل يقول ان النبوة والخلافة فى بيت واحد لا تجتمعان .. »

أجل فقد كان هذا رأى عمر ، او هكذا كان يقول فى الماضى ملتمسا الحجة فيه لقريش على ما سبق من عدوانها على حق على ، وحرمانه ولاية الأمر بعد رسول الله .

وراح ابن ابى طالب يدلى برأيه لابن عباس :

« أردت أن أظهر ان روايته تناقض فعله .. »

وحقا نقض الفعل الرواية وان جاءا كلاهما بنفس الغاية !..

ومع ذلك فلم يرفع على نفسه عن الشورى ، ولم يمتنع عن مجلس الستة بل آثر أن يسير معهم فى الطريق المرسوم وهو يعلم الى اين سيفضى .. لا يخالجه الشك لحظة واحدة فى انه لا بد مقطوع ما بينه وبين حقه ، مبتز تراثه ، مقضى عليه بالهزيمة فى ميدان جردوه فيه من كل سلاح ..

١٣

غلب على عمر اجله ، ومضى الرجل عن فراشه بداره الى مثواه بجوار رسول‌الله ، محمولا على‌اعناق بضعة نفر من‌صحبه ، ولو ترجمت مشاعر النفوس الى فعال لحملته رقاب من وسعتهم الدولة الاسلامية من نساء ورجال .. ولكنه ذهب عن الدنيا عازفا عنها ، مرجوا منها ؛ وقطع الموت ما بينه وبين دنياه من اقبالها ومن قلاه ..

وانكفأ النـــاس عن القبر بأوصاب وآراب ، تجاورت فى القلوب كسير الأمل فى أعقاب المحنة . والحياة دائما تورث الفواجع ثم تؤرث على اثرها المنى الســـواطع .. انكفأوا عن طـــريح الثرى بالبرحاء وبالرجاء . فلما غابت عن عيونهم الحفرة التى طوت العلم ، استدبروا الهم الواصب في اليوم الذاهب ، وتهيأوا ، مفتحى القلوب لاستقبال الغد المرقوب .. وما سنة البشر فى عيشها على هذه الأرض ســـوى ان تطرح همها لأمسها وتصل رجاءها بغدها .

وكذلك انطلق الناس من لدن القبر ، وكلهم قد علق بالغد القريب فكره ، يود لو استطاعت بصيرته نفوذا الى الغيب فراى كيف تسير الامور بعد العاهل الصريع .. وكيف توطىء الاحداث لخلفه ؟. ومنذا فى النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض سوف يكون اميرا على المؤمنين ؟

كانت الجموع كلها تأمل ، وتسير فى قلوبها — مع الأمل — خشية المستقبل لا فرق فى هذا بين فريقى الاسلام اذ ذاك : قريش لها من فوزها بالامر دفعتين بعد وفاة محمد ، أمل عريض فى ان تفوز ثالثة ، وان بدت الحال الآن على غير ما كانت من‌قبل بعد تفتح الأذهان لما سبق من سطوها على السلطان وابتزاز الحق من ذويه ، ولكنها ما زالت تأمل في الفوز على صاحب الحق كان تكرر انتصارها جملها تشعر انهـــا جديرة بالنصر ، وان لم تكن صاحبة الامر !.. واهل المدينة من الانصار ومن لف لفهم من المهاجرين المنصفين لهم امل معقود على على وهوى أن يعود له ما سلبه اياه قومه طغيانا وموجدة ، ولكن الأمل المعقود

والهوى المنشود ألقت عليهما شورى عمر ظلالا قد لا تستطيع معها المفول أن تنفذ الى مصيرها المجهول ، أو تستطيع ، ثم لا تعود من نفوذها الا بغير المأمول !.

على أن الذى لا يحتمل الشك هو ان الكثرة الغالبة من الناس — وفيهم قريش — لم يكن يسعها الا الاقرار لابن ابى طالب بما يميزه ويرفعه درجات على بقية المختارين . وكان هذا واضحا لكل ذى نظرة عابرة بلا حاجة الى تكلف المقارنة أو محاولة التدليل . وما من احد من الناس الا لعله الم بطرف من رأى عمر في النفر الستة ، ثم ما من أحد الا قد أخذته الحيرة من مسلكه ازاء على حين جمعه الى خمسة رأى هو انهم لا يثبتون أمامه عند الموازنة والتفضيل !.

قال عمر لصحبه وقد اجتمعوا لديه وهو طعين :

« .. ما أظن الا ان يلى أحد هذين الرجلين : على أو عثمان ، فان ولى عثمان فرجل فيه لين ، وان ولى على ففيه دعابة ، واحر به أن يحملهم على طريق الحق .. »

مع ذلك فلم يوص للرجل الحرى بحملهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء ، بل آثر أن يدعه وشأنه للنفر الآخرين يستخلص منهم حقه لو استطاع !.. وانى لهذا الهاشمى أن يستطيع وقد مثلت قريش كلها في أنداده او فى مناوئيه !.

ولكن هوى شعب المدينة كان مع على ، وما زالت قلوب أفراده مقيمة على ودها القديم له ، وان احدى عشرة سنة ليست بالستار الكثيف الذى يحجب عن ابصارهم منظر فاطمة الزهراء ، اذ خرجت تطوف بمجالس الأنصار تدعوهم ان يظاهروها لتسترد لزوجها تراث أبيها . تلك ليلة جديرة بأن تبقى على الزمن فى الأذهان ، وأن يثير ذكراها قوية ، لها كلسع الجمر فى قلوبهم ، ما كان من قعودهم عن نصرتها وهم يرون تراث نبيهم نهبا آل الى غير اهله . كم بدا طيف الزهراء فى هذه اللحظة كالشهاب الثاقب يشق ظلمة الأعوام !. انهم ليكادون يرونها الآن رأى العين ، تسير مرفوعة الرأس ، على جبينها يتألق شعاع ، قد نم محياها عن ملامح محمد او كاد . ثم هذا الهواء المنثور حولهم يتحدث اليوم عنها ، وينطق بلسانها ، وقد مضت عليها فى قبرها أعوام حال فيها الموت بينها وبين الكلام . كأن الماضى انعكس ثانية على مرآة العيون والأسماع ، وكأن الزمن آب بعد ذهاب ! وكأن

ما ضمته النفوس من ذكرى مطوية قد نشر احداثا حية تسير فيهـا فاطمة بين اهل المدينة وهى تدعوهم وتقول :

« افتدعون تراث رسول الله يخرج من داره الى غير داره .. ؟ »

تلك دعوة صحت اليوم من سبات ، ومشت فى قلوب الشـعب كخفقها تشعر بالحياة .. وما كان الناس حين ترددوا عن الانتصار لابنة رسول الله من خليفته الاول الا كالنائم على الشوك لا يلبث ان يحس وخزه ، وهم اليوم قد تفتحت عيونهم بعد طول رقاد ، ورأوا الحق القديم حيث كان ، والعدوان عليـه لا يغيره تغير الاشخاص ، ولا اختلاف الزمان ..

ولكنهم بهتوا وهم ينظرون ، وقصرت ايديهم عن ان تنال من قلعة عمر !.. ان الرجل ليبدو وقد بنى سياجا من الفولاذ حول « ولاية الامر » لا تستطيع مشيئتهم اجتيازه ، ولئن كان الاصل فى الشورى ان يكون للشـعب حق اختيار واليـه ، فماذا ترك لهم عمر من حق الاختيار ؟.. واين شوراه الشكلية من الشورى الصريحة الاسلامية ؟ وكيف جرى بخاطره ان راى رجال — قد لا يعدون الثلاثة — يعادل آراء كل افراد هذا الشعب او ينطق بالسنتهم احمعين ؟

وفي الحق لقد كانت الشورى العمرية ضربا جديدا من العهود ، لا الى الشورى ولا الى الوصية ، ولم يكن لها مثيل قبلها فى الاسلام . وهى ينحوها هذا نوع من « الاختيار قبل الانتخاب » لولا انه سلب الشعب حق الانتخاب ونحله نفرا ستة ، مهما علت اقدارهم فليسوا يملكون الا ستة آراء !.. ولقد كانت لعمر — بلا ريب — مندوحة فى الشورى المثلى التى ينم عنها روح الدين وتدعو اليها شريعته التى سوت بين الناس . واذا كانت الاحداث لم تتح من قبل للمسلمين ان ياخذوا بامثل نحو من انواع انتخاب الامير ، فقد عالجوا غب وفاة الرسول نحوا قريبا منه ، بأن اشترك فى اختيار ابى بكر كثير منهم ، لعلهم يمثلون بقية ذوى الآراء او اغلبهم على اقل تقدير ، وهم اليوم بعد انتشار الاسلام وركوز تعاليمه فى النفوس كان اولى بهم أن يلتزموا الشورى الحقة التى دعت اليها هذه التعاليم .

ولكن ابن الخطاب راى رايا وابرمه ، وانتهج بهـذا نهج صاحبه ابى بكر ، فكلا الرجلين قد آثر أن يحول بين شعبه وبين مزاولته حق انتخاب واليه ، أبى الا ان يفرض — منفردا — على الناس رأيه . ولئن

كانت هناك أسباب دعت الاول الى املاء مشيئته ، أو معاذير اضطر الثانى حيالها الى الجنوح للاملاء ، فانها جميعا لن تحجب عن الأذهان البون الشاسع بين نظرة الخليفتين ونظرة غريمهما المغبون الى حقوق الشعوب فى اختيار الولاة . وبحسبك ان تعود قليلا الى الوراء لتسمع كلمات على فى هذا الشأن ، حين أراد العباس وابو سفيان ان يبايعاه يوم وفاة رسول الله ... لقد ابى عليهما ما اراداه لأنه يعلم ان راى الشعب لا يغنى منه رأى رجلين أو بضعة رجال . ورفض الأكف التى احبت أن تقدم اليه السلطان ! وقال :

« لا والله !.. فانى أحب أن أصحر بها .. »

وكانت كلماته هذه مركبه الى خسران قضيته فى تلك الآونة من الزمان ، ولكنها مركبه أيضا الى العظمة التى تتسنم القمة ، لأنها ـ وان جارت على حقه فى الولاية ـ فقد اقامت الدعامة الثابتة لحق الشعوب فى تنصيب الولاة .

١٤

قصة الشورى جديرة بأن يتلكأ عندها برهة ذهن المتدبر لأن فيها ـ برسمها المعروف ـ شيات : فيها خروج على مبدأ الشورى الذى املاه على النفس البشرية حب الحرية قبل ان يمليه دين او تسنه قوانين ... وفيها تحكم الفرد في الجماعة اذ يلزمها ان تترسم رايا رآه فى نفر اختارهم وفق تقديره ان لم يكن وفق هواه ... وفيها تعسف التسوية بين ستة تجاهر المزايا والفوارق بأنهم ليسوا على درجة واحدة في شرعة المساواة .. وفيها تكتيل للقوى العصبية وللأحقاد القبلية وتجييشها صفا يرجح ميزانها ويمد لها في حبل الطغيان .. ثم فيها قبل هذا وذاك نكوص عن الراى الصائب الذى كانت تفرضه منذ البدء مصلحة الشعب ، رأى متعثر لم يكن قرين الصواب ...

ما كان عمر بالرجل الذى يعمل عفوا دون أن يهدف الى غاية من وراء عمله ، أو بالغرير الذى يكل الأمور الى تصريف المقادير . ولكنه كان موفور الحنكة ، بصيرا بمواقع خطاه . ولو انه حين اختار اولئك

الســـتة كان طعينا يعانى من جراحه آلاما قد تحــد من قدرته على احسان التفكير ، الا انه كان جلدا قويا على دائه الى حد لم يدع آلامه تعيى عقله .. ونحن عهدناه من قبل تغلب عليه الدفعة حتى لتركبه شططا ، فان اختياره أهل الشورى لم يكن عن دفعة بل جاء عن تريث وروية ، ليس ادل عليهما من انه كاد فى بادىء الأمر ان يوصى لعلى ثم عاد فنحاه عن فكره ونفض منه يده ..

ومع ذلك فما من حكمة يستطيع من يمعن التدبر أن يراها ماثلة وراء عهده بالشورى وحصره الخلافة فى ستة يختارون من بينهم اميرا .. وان عمر الذى تعودنا ان نرى له العذر ظاهرا فيما صدر عنه من امور تحسب عليه لا نستطيع ها هنا أن نلتمس له عذرا . فاذا قيل انه توسم فى النفر المختارين خلاصة المسلمين ، وانهم الأفراد الذين تلتقى عندهم مشيئة شعبه ، وان اختيارهم واحدا منهم يكون اقرارا من الباقين على كفايته ، وان هذا المختار سيكون له من الاقرار سند يلف حوله الناس ويجمع كلمتهم عليه فلا يشجر بينهم خلاف .. ان قيل هذا كله على انه الحكمة الماثلة وراء قصة الشورى ، والهدف الذى رمى اليه عمر اذ ذاك ، فان قائليه اذن قد فاتهم الصواب فى التعليل ولم يحسنوا التأويل !. وبحسبك أن تعلم ان عمر نفسه كان لا يرى هذا الراى حين انتهى به الأمر الى ان عهد عهده ، بل قال لأصحاب الشورى وقد دعاهم اليه غداة الاعتداء عليه :

« انى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هــذا الأمر الا فيكم ؛ وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض .. انى لا أخاف الناس عليكم أن استقمتم ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس » .

هكذا كان الرجل يخشى أن يختلفوا عند جلوسهم لانتخاب احدهم وكان محقا فى خشيته ، له من ماضيهم ومنازعهم وتقاليدهم الموروثة نبراس يضىء امامه المستقبل القريب فيراهم قــد اجتمعوا لاتفاق وانفضوا على شقاق !..

اجل كان هــذا ماثلا امام عينيه كأنه صــور مرسومة ، واضحة المعالم ، تفصح ولا تخفى وكان فى استطاعته ان يستعرضها جميعا فتبدو امامه كالمرايا ينعكس على صقالها الخلاف الوشيك الوقوع . كان جديرا بأن يرى فى اولاها طلحة متمردا على الخمسة الباقين،

لا يقر لأحدهم بالسبق عليه لانه عاش قبل اليوم عشر سنوات يحلم بتسنم الحكم وهو بعيد عنه ، فاحرى به ان ينتصر لنفسه وهو قريب منه !.. ولئن غاب طلحة عن المدينة ابان أيام الشورى فلقد كان المظنون فى البدء أن يحضر قبل الفراغ من الاستخلاف . فاى المواقف كان لعله واقفه لو استطاع الحضور ؟ ومن من بين الرهط الذين رضى عنهم رسول الله كان سيختار ؟. ان الصورة التى لا بد قد استعرضها عمر كانت تبين الرجل فى اجلى بيان ، وتبديه طامعا فى الخلافة من عهد ابن عمه أبى بكر ، متوقعا من يوم الى يوم أن يحين أجل الشيخ ، وان تقترب منه منيته قربا لا يرى معه بدا من ان يرعى حق القربة فيوصى لطلحة من بعده .. فأما وقد خالف أبو بكر ما كان مرجوا منه. وأدلى بسلطانه الى عمر ، فقد غضب الحالم الطامع وثار بابن عمه .

« ما أنت قائل لربك غدا وقد وليت علينا فظا غليظا تفرق منه النفوس وتنفض عنه القلوب ؟.. »

ثم لم تغب عنه أمنيته لحظة ، وظل التفكير فى الهدف المرموق ديدنه حتى استطاع ان يتالف بعض الناس ويتخذهم حزبا يحلمون له !.. وكان لاجتماعه بهم سمات قد يظن معها التآمر والتدبير في الخفاء اذ حرصوا جميعا على التلاقى سرا والتحدث سرا ، ثم لا ينون كلما شاهدوه أن يقولوا له :

« .. لو مات عمر لبايعناك » .

وفي الحق لا يسع المنصف أن يجزم بأن طلحة كان ميالا الى ابتزاز سلطان عمر عنوة ، ولكن الجموع السياسية لا يمسكها دائما العقل ، وهى أحيانا لا تعدم ان يكون فيها من لا يقر التريث وامهال الأيام حتى تجيء له بهدفه ، بل يرى عليه حقا أن يتعجل ساعة تحقيق مأربه .. واذا كانت هيبة الخليفة اذ ذاك قد جعلت هذا الحزب يقرن البيعة لزعيمه بشرط وفاة عمر ، فانه شرط كفيلة به الأيام اذا فرغ العمر ؛ أو شرط كفيلة به دفعة شاب قد ينوء بالتريث !. والأحزاب السياسية عادة تتوسل بكافة الوسائل لنيل اغراضها ولن يعيى فردا منها ان أبطأ بغريمه الموت أن يصطنع له نوعا منه !.

على ان عين عمر الساهرة النفاذة استطاعت أن تهتك ستر السر وتكشف عما يدور في الخفاء . فارتقى المنبر وراح يحذر الناس .

« .. قوما يقولون ان بيعة أبى بكر كانت فلتة . وانه لو مات

عمر لفعلنا وفعلنا .. الا فاى امرىء بايع امرا عن غير مشــورة من المسلمين فانهما بغرة ان يقتلا !. »

ومع ذلك فان عينه تلك شاءت ان تغلق أجفانها دون هذه الصورة ودون أخريات فيها سليل بيت النبوة ، وفيها حفيد امية وآخرون كانوا نتاج الأحقاد القرشية .. لكأن الرجل آثر ان يغضى عن هذا كله وتركه لأفراد شوراه يتعثرون فيه ـ اما وقد أوصى كما شاء فبغير اتفاق هــذا الجميع على أصلحهم للأمر جاءت وصــيته ان لم نقل سبقت نيته .. ولغير الصالح العام كان عهده المعهود لأنه كان يعرف منذ البدء أى الستة كان اولى بأن يوكل اليه أمر شعبه .. وعلى غير العدل المشهور عن عمر ، الموسوم به طبعه قام أس الاستخلاف ، وما على المتدبر ، وقد أعياه أن يرى خلف الشورى حكمة تتفق والمظنون بصفاء ذهن الرجل ورجاحة عقله الا ان يطرح جانبا قصة الشورى ، وذهن الخيفة وعقله ، وآيات عدله المأثور عنــه ، ثم يبحث في طوايا النفس البشرية عن الحكمة الخفية : اجل فما عمر الا بشر له هواه ، وقد ارضاه فأرضى قريشا كلها من ورائه لأنه وطد سلطانها بشوراه !.

هذه حقيقة ناصعة ليس للريب اليها سبيل ، ولقد كان عمر فيها رجلا من قبيله وقومه ، له مشاعرهم وان جنحت الى حيف ، وكانت وصيته وسـيلة لتنفيذ السياسة التقليـدية التى استنتها لنفسها قريش منذ وفاة الرسول ، ثم هى متممة للسياسة التى جرى عليها سلفه ، والتى جرى من قبلهما عليها قومهما حيال بنى هاشم بضعة اجيال .. ولا ادل على انها كانت طابعا وسموا به ونهجا التزموه ، من قول على عنهم :

« انى لأعلم ما فى انفسهم .. ان الناس ينظرون الى قريش ، وقريش تنظر فى صلاح شانها فتقول : ان ولى الامر بنو هاشم لم يخرج منهم أبدا ، وما كان فى غيرهم فهو متداول فى بطون قريش » .

١٥

كان طبيعيا أن تفشل الشورى من اول اجتماع ، وأن يحتدم الجدال بين أصحابها مسعرا حسبما اوحى طبع كل منهم ، أو طمعه ، أو شعوره بحقه أن يطلب الأمر لنفسه . وما كان لخمسة اختلفت منازع أهوائهم أن يلتقوا عند رأى .

وكان أبى طلحة الأنصارى ، تنفيذا لمشيئة عمر ، واقفا قرب الدار يرقبهم وقد صف جندا على راسه المقداد يمنع عنهم الناس . وكان الشعب ينتظر فى لهفة ما سوف يسفر عنه الاجتماع ، والفضول يأكل قلبه حتى ليوشك أن يقتحم البيت لولا هذا الحرس الشاكي السلاح . ولم تكن هناك بادرة تنبىء عن قرب الاتفاق ، بل كلما مر الوقت اتسعت رقعة الجدل وعاد أصحاب الشورى القهقرى الى حيثما بدأوا الحديث والحوار . ومرارا تكأكأ افراد من العامة على المكان عسى ان تلتقط آذانهم كلمة أو كلمات .. ومرة ازدلف عمرو بن العاص فجلس بالباب ثم تلاه المغيرة بن شعبة : ذانك الداهيتان أرادا أن يرفعا من منزلتهما في عيون الشعب بهذا القرب بعد أن عداهما اختيار ابن الخطاب !.. على أنهما مع هذا لم ينعما بالمكانة الموهومة طويلا لان ابن ابى وقاص قام اليهما يقول بغلظة وهو يردهما عن الباب :

« تريدان أن تقولا حضرنا وكنا فى أهل الشورى !.. »

ولكن الفضول الذى حملهما ، وحمل الكثيرين من الأفراد ، على المكث قرب الدار ، لم يكن مرده الشوق وحده لمعرفة الخليفة الجديد ، بل كان هناك ما هو أولى باجتذاب اهتمام الجماهير وقد قل فيهم من لم يعلم بنبأ الأمر الذى القى به الخليفة الراحل الى المقداد وابى طلحة حين قال :

« .. اذا وضعتمونى في حفرتى ، فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلا منهم . وقم على رءوسهم ، فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وابى واحد فاضرب رأسه بالسيف . وان اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وابى اثنان فاضرب رأسيهما . فان رضى ثلاثة رجلا

منهم وثلاثة رجلا منهم فحكموا عبد الله بن عمر .. فان لم يرضوا ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس » .

ما من احد من الذين تكأكأوا حول الدار الا مرت بذهنه صورة راس او رءوس توشك ان تطيح على حد سيف فجلس يترقب حلول ساعة الجلاد !.. اجل ، فلهذا تربص ابو طلحة ، وتهيأ المقداد وصف جنده وبه رسم عمر الناحية التى تتمم بعنفه في الموت ما كان من عنفه المشهور في الحياة !..

ومع ذلك فالارهاب سلاح وقتى ضعيف لا يلبث ان ينثلم حده ، وهو ليس دائما سبيل الرضوخ والتسليم . بل لعله اولى به أن يزيد من شكاسة النفوس حينما تلوح لها الفرصة لانه يجعلها تشعر حياله بهوان تأباه . وقد اعيى القوة ان تملك حرا وان اصابت منه اذ هى ضرب من اللغات غير مفهوم عند الأباة .. وانما منطق الأحرار الحق .

وكما بقى الجمهور خارج الدار نهبا بين القلق والفضول ، فقد بقى الخمسة المجتمعون نهبا لآرائهم المتباينة لا يقرون على قرار . وطال الحديث بينهم فيما لا طائل تحته ، كلما جاء احدهم برأى سمع نقيضه من لسان غيره . ولو انهم جنحوا جميعا الى الهدى ، وتخلوا عن اغراضهم لحظة ، لتبينوا ايهم اجدرهم بامرة الناس ، ولآثروا صلاح الأمة على صلاح الأشخاص ، ولوسعهم بلا كبير عناء ان يصلوا الى الغاية المرجوة برد الحق الى صاحبه الذى حرمه مرتين .. ولكنهم كانوا بشرا قبل كل شىء ، يعيش فيهم حب الذات وتميل بهم الأهواء . واذا كان الماضى قد الفت آثاره — التى علقت بقلوبهم — بين عثمان وسعد وعبد الرحمن ، فان عمر بن الخطاب اذ قرنهم فى الشورى بعلى ، قد ولد فى نفوسهم نوعا من الشعور جعلها به ترتفع فى اعينهم الى ما فوق القدر الذى عرفوه لها من قبل ، وما كانوا اليوم بعد شعورهم هذا ليقروا لابن ابى طالب بالتقدم والفضل !..

ان ها هنا — بلا ريب — اناسا غلبتهم على الحق الاهواء ، ومن القدم كان الهوى آفة الحكم ، ولولا ما يعتور نظرة الانسان الى نفسه من تحيز لبانت لهم أسباب تدعوهم الى التأخر عن صاحبهم وترك السبيل له .. وليكن سعد محاربا فذا وجنديا أمثل اتسعت رقعة الدولة الى المدى الذى وصله حد سيفه ، ولكنه ليس الرجل الذى يستطيع ان يسوس

أمة بعد ان عجز من قبل ومن بعد عن حكم جزء واحد من هذه الامة ، حتى عزله مرة عمر ، وعزله ثانية خلفه .. وليكن طلحة كبيرا فى قومه مسموع الكلمة ، قد حلقت به اطماعه الى السماك ، ولكن مطامع المرء لا تنبىء عن قدره ورفعته بل قد تنبىء عن ضعفه وآفته . وقديما قال فيه ابن عمه أبو بكر :

« .. أما والله لو وليتك لجعلت أنفك فى قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذى يضعها !.. »

... ولتكن سابقة الزبير فى الاسلام ، وصلته برسول الله اذ هو ابن عمته صفية بعض ميزته ، ولكنه في هذا المقام كان جديرا به الا ينسى ما ينأى به عن حكم الناس وقد اجمله له عمر حين قال :

« .. اما انت يا زبير فوعق تعس .. مؤمن الرضا كافر الغضب . ولعلها لو افضت اليك ظللت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير!. »

.. وليكن لابن عفان من كرمه ، وحلمه ، ووصله رحمه ما قد يؤهله لان يسود اسرته ، ولكنها صفات تجنح به دائما عن حد الاعتدال الى التطرف والمغالاة حتى تنقلب غلطات ، وبها تعثر بعد ان انتهى الأمر اليه ، وعلى بعضها لقى مصرعه . واللين احيانا سجاحة ولكنه فيه كان ضعفا معلوما غير خاف على أكثر صحبه ، وفيهم ابن الخطاب حتى خشى مغبته عليه فقال له :

« كأنى بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها اياك ، فحملت بنى أمية وبنى أبى معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفىء ، فسارت اليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحا !.. »

.. وليكن ابن عوف صورة صادقة من كلمات عمر عنه :

« .. ولو وزن نصف ايمان المسلمين بايمانك لرجح ايمانك به .. »

ولكن الايمان وحده لا يقدمه ما دام قد جمع اليه الضعف الذى يرتد به الى نهاية صفوف المستخلفين .. وهذا وصف ابن الخطاب قد جاء فيه بفصل الخطاب :

« ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك » .

لم يكن هذا كله خافيا على الرهط المجتمعين وقد جلسوا للحوار والنقاش ، وظلوا يبدئون ويعيدون ثم لا يصل بهم حديثهم الى الحل المنشود المرضى عنه اذا قيس بمقياس الحق . وما دامت النفوس منطوية على هوى فقد تجنبت الجادة وخرجت عن الهدف المحمود .

اما على فقد استوعب كل كوامن قلوب زملائه ، وعرف ما تضم بلا حاجة الى كلمات تنمقها افواههم ويدعون بها للاتفاق . وما كان بالذي يغره منطق اللسان وقد علم مشاعر الوجدان .. انهم الآن يضعون أقدارهم في الأخرى ، بل يزنونه بعواطفهم ؛ وللعواطف في نهاية الأمر الرجحان !

ولكنه مع ذلك لم يشأ ان يسير واياهم في طريق الالفاظ ، بل تركهم قبله يتحدثون مداورين ، يحومون حول القضية التي اجتمعوا لها ولا يبدى احدهم حجة ترفع شأنه وتثب به الى مقعد الأمارة .. انتهى حديثهم الى نهاية هي البداية ، ووقف هو يتحدث بصراحته في لب الموضوع .

قال لهم :

« الحمد لله الذي بعث محمد منا نبيا ، وبعثه الينا رسولا .. فنحن بيت النبوة ، ومعدن الحكمة ، وامان اهل الأرض ، ونجاة لمن طلب .. لنا حق — ان نعطه — نأخذه ، وان نمنعه نركب اعجاز الابل ولو طال السرى .. لو عهد الينا رسول‌الله عهدا لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا لجادلنا عليه حتى نموت ، ولن يسرع احد قبلى الى دعوة حق وصلة رحم » .

وكذلك بهذه الكلمات القصار رسم مزاياه ، ورسم خطة العمل التي آلى أن ينتهج دربها ان منعوه او اختاروه ، وقطع قبل هذا وذاك الألسن اللاغطة التي قد تدعى على رسول الله وصية لابن عمه ، فكان بهذا الحسم — الذى لا يدع مجالا لتأول ولا ادعاء — رجلا يؤثر الصدق ولو جاء اليه الصمت — ولا تقول الكذب — يملك الارض .. اما وقد جاء منطقه صورة صادقة لقدره ، ولأمانته المثلى عند رسم التاريخ ، ولحرصه على وحدة أمته وان نزعوا حقه ، فقد بقى عليه اذن أن يبصرهم بسوء مغبة ما يعلم انهم مقدمون عليه عسى يستطيع ان يجنبهم التردى في حمأة ستدفعهم اليها الاهواء .. ما كان انفذ بصيرته وأصدق نظرته !. لكأنما كان في تلك اللحظة يتلو من كتاب مفتوح سطور الفتن والمنازعات التي غرسوا بذرتها في أيام الشورى ، لتجنى الأمة — بعد بضعة أعوام — ثمرتها المرة ..

قال لهم محذرا وقد رنت عيناه الى بعيد :

« اسمعوا كلامى .. وعوا منطقى .. عسى ان تروا هذا الامر

من بعد هذا المجمع تنتضى فيه السيوف ، وتخان فيه العهود ، حتى تكونوا جماعة ويكون بعضكم ائمة لاهل الضلالة وشيعة لاهل الجهالة .. »

ولو انهم آمنوا اذ ذاك بقوله ووعوه لكان خيرا لهم وللأمة جمعاء وللاسلام ولكنهم ابوا ان ينصتوا لمنطقه حتى صدمهم الزمن بحقائقه وراوا انفسهم ائمة اشياع جردوا الأسياف وظاهروا الخلاف !..

١٦

اشرف ابو طلحة الانصارى على الجمع المتفرق الآراء ، وقال لهم وقد هاله ما ظلوا عليه من خلاف :

« قد كنت لأن تدفعوها اخوف منى لان تنافسوها !.. »

وهز الرجل رأسه هزة الاسف وخيبة الرجاء .. ولكنه لم يدعهم حتى أوضح لهم عزمه على ان يلعب دوره لحرفه :

« ... لا والذى ذهب بنفس عمر !.. لا ازيدكم على الايام الثلاثة التى امرتم ... »

وأخذت فترة الزمن تضيق حلقتها ، والساعات تفر سريعا من أيديهم ونقاشهم عن الأمير المرجو حيث كان ، لا يتقدم خطوة . وراح الأجل الذى ضربه عمر للاختيار يتقلص عنهم .. وحبل الخلاف دائما طويل ممدود .

ثم جاء عبد الرحمن من لدنه بالحل الذى ظنه سيصل بهوباصحابه الى الغاية ويحسم النزاع .. قال لهم وقد اعياهم جميعا منطق الجدال .

« أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها ، على ان يوليها خيركم ؟ » .

فتطلعوا نحوه مبغوتين ، وعقدت الدهشة السنتهم آونة فلم يبادروه بجواب على سؤاله الغريب .. افكان هذا حلا موفقا حق التوفيق ؟..

ما من رجل يعلو قدر نفسه على اقدار منافسيه يستطيع ان يأخذ نفسه بالموافقة على الراى المعروض : ذلك انه بخروجه من

الأمر — سيهدد اولا حقه ثم يدعه مباحا لآخر ادنى مكانة واقل قدرة منه على الولاية . فاذا كان أمينا لواجبه ، ولحق أمته عليه ، فانه اذن قد نكل عن الواجب وخان الأمانة . وليس لعلى الى احدى النقيصتين سبيل ! ..

وكأنما راى صاحب الاقتراح فى صمتهم ما يكاد ان يهدد اقتراحه بالخذلان ، لأن موافقة احدهم عليه لن تكون الا على حساب كبريائه ان لم تكن على حساب حقه . وما كان بالخافى على عبد الرحمن ان يعلم ان اجدر اصحابه بالأمر لن يخرج نفسه منه فيضيع طواعية حقه المعلوم وان الباقين لابد ستدعوهم عوامل نفسية واخرى زمنية الى التشبث بحق موهوم .

راى هذا عبد الرحمن وايقنه وهو يعيد سؤاله ولا يسمع الرد عليه . وخشى ان يفشل حله الذى أوحى به ضيق الزمن ، فلم يجد بدا — لينقذ وينفذ اقتراحه — من أن يمشى على كبريائه هو عساه يستطيع أن يحملهم على القبول .

قال بعد قليل :

« انا انخلع منها . »

فما نطقها حتى هتف به عثمان :

« انا اول من رضى »

وتتابع بعده رضاء الباقين .

ولكن عليا وحده ظل صامتا لا يكشف عن قبول . وكيف ياترى يسمه وهو الخاسر بهذا الحل الجديد على التأكيد ؟.. ان عثمان : الخصم الذى يؤبه له بين الجمع قد توطد الآن موطىء قدميه لأن مصيره — قبل الاقتراح — كان موكولا الى خمسة قد يختلف بعضهم عليه ، فاذا به الآن موكولا لفرد واحد معلوم ميله اليه !..

ومع ذلك فدأب ابن ابى طالب الا يتنكر لمبادئه وان راى استمساكه بها يجر عليه الوبال ... وما دامت هناك كثرة اخذت باقتراح عبد الرحمن فقد وجب ان يرضخ لمشيئتها ويأخذ به ، ثم له — بعد هذا — أن يتحرز للعدالة المفروضة فى الرجل الذى قبلوا ان يكون حكما يقضى بينهم بما يراه .

قال حينئذ يستوثق من صاحب القول الفصل :

« أعطنى موثقا لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم، ولا تالوا الامة ... »

فاجابه عبد الرحمن :

« على ميثاق الله »

ومضى عنهم يستشير الرءوس والاشراف فى امر رجلين اثنين من أهل الشورى ، قر فى باله انهما المتنافسان : هما على بن أبى طالب وعثمان بن عفان .

افكان هذا ميزانا معدلا ؟... واين راى جمهور الشعب والعامة ، وهم الكثرة الغالبة فى الأمة ؟ .. ومن يا ترى من رءوس تيم كان سيرضى بعلى منافس شيخ تيم ؟.. ومن من أشياخ امية كان سيقبل سيادة غريمتهم الهاشمية ؟ ومن عسى من زهرة كان قمينا بأن ينكل عن عثمان صهر رجلهم عبد الرحمن ؟. ثم من لعلى برضا بنى عدى ؟ .. من له وقد رات شيخها عمر قد هم أن يوليه ثم عاد فنكص ، كأنما ذكر — فى اللحظة الأخيرة — منقصة فيه توجب العدول عنه ؟..

* * *

... وطلعت الليلة التى تكمل بها المهلة ، وتأرجحت دقائقها ثقيلة على النفوس المنتظرة فان هو الا صباح ... وكان ابن عوف قد ارق واقض مضجعه الفكر فانطلق فى دروب المدينة الهاجعة يسير ، حتى اذا بدا له فى نهاية المطاف باب ، ذهب يطرقه على ساكنيه ...

واستجاب له بعد قليل ابن اخته المسور قد هب على الطرقات من مرقده وما زالت جفونه يثقلها النوم .

« ... اراك نائما ولم اذق هذه الليلة كثير غمض ؟ »

« انى قائم معك انى شئت يا خال » .

« فانطلق فادع الزبير وسعدا ... »

وانفرد هو فى مؤخرة المسجد بصاحبيه — وقد لبيا دعوته — يحدث واحدهما بعد الآخر ... قد راى انه اجدى على غايته أن يستطلع راى كل منهما وحده ، فلما عرف ما اراد ، قال للأول :

« خل ابنى عبد مناف وهذا الأمر »

ذلك انه ايقن أن القوم لا يعدلون بعلى أو بعثمان ، فلم يعد هناك مجال لمنافسة يعقبها خلاف ينشب بين الباقين . وكان هذا راى

عمر قبله ، صرح به ولم يكتمه عن اصحاب الشورى ، ولكنا لا ندرى اكان عبد الرحمن قد اخر الاخذ به حتى يستوثق ، أم يا ترى لانه ظن — فى البدء — نفسه حقيقا بالخلافة ثم عاد فخذله الظن الآن ؟ . .

وقال له الزبير وقد حميت فى عروقه دماء القربى :

« نصيبى لعلى ... »

فمضى الى سعد يشرح له غرضه فى اللقاء ، ويحضه أن يدع التنافس مقصورا على ابني عبد مناف . ثم قال له وهو يحاول أن يختم الحديث :

« ... انا وانت كلالة ، فاجعل نصيبك لى فأختار »

وكذلك وضح ان مقياس هذا الاختيار الخطير لم يكن قدرة الشخص الجدير بأن يقع عليه الاختيار .. ولم تكن آراء ناخبيه فيه توجهها مكانته او يوحيها فضله بقدر ما كانت قرابتهم منه او صلات ارحام بعضهم ببعض قادرة على التوجيه . وبحسبك أن رايت الزبير يمالىء عليا للقربى ، وعبد الرحمن يأخذ من سعد نصيبه فى الانتخابات لانهما كلالة وابنا عم .. بحسبك هذا لتعرف ان الشورى لم تكن ميزانا وزن فيه التفضيل والتقديم بالقسطاس المستقيم !..

وقال سعد يجيب ابن عمه :

« .. ان اخترت نفسك فنعم ، وان اخترت عثمان فعلى احب الى .. »

ولكنه على اى حال تفضيل لا يرجح كفة المقضى عليه بالخسران ما دام يبقى بعده الراى الذى يخسرها ، وهو راى عبد الرحمن !.. ثم هو أيضا تفضيل موقوت بأجل لانه كان رهينا بعاطفة عابرة متوهجة كلمعة البرق ثم خبت في لحظات . ذلك أن سعدا ذكر فى مقامه هذا أن عليا — وقد خشى منه الميل الى عثمان — جاءه من قليل وقال :

« .. اتقوا الله الذى تساءلون به والارحام ، ان الله كان عليكم رقيبا .. اسألك برحم ابنى هذا من رسول الله ، وبرحم عمى حمزة منك الا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا على ، فانى ادلى بما لا يدلى به عثمان » .

أجل كان سعد — فيما بدا — ما زال واقعا تحت التأثير العابر الذى ولدة فى نفسه هذا الحديث . ولكن الاثر لم يلبث حتي ؛ ابله ولما

يزايل هو موقفه امام عبد الرحمن !.. وعاد قلبه ثانية سيرته الاولى ، لأنه ما نطق بكلماته لابن عمه حتى سارع يردفها بهذا الاستدراك :

« .. أيها الرجل ، بايع لنفسك ، وارحنا ، وارفع رءوسنا ! »

فما اعجبه اذن من كلام يؤيد به عليا ثم يعدل عنه في آن !..

واجابه عبد الرحمن ولم يعد بوسعه أن يستجيب لتحريضه :

« انى قد خلعت نفسى منها على ان اختار ، ولو لم افعل وجعل الخيار الى لم اردها » .

وبهذه الكلمات كشف الرجل عن خبىء نفسه ، ودل على ضعف ثقته ضعفا لا يستطيع معه تحمل تبعة حكم الناس .

وعاد بعد قليل يستانف الحديث :

« .. يا أبا اسحق . انى رأيت كروضة خضراء كثيرة العشب ، فدخل فحل لم ار قط اكرم منه ، فمر كأنه سهم لا يلتفت الى شىء مما في الروضة . ودخل بعير يتلوه فاتبع أثره حتى خرج من الروضة.. ثم دخل فحل عبقرى يجر خطامه ، يلتفت يمينا وشمالا ويمضى قصد الأولين حتى خرج .. ثم دخل بعير رابع فرتع فى الروضة — ولا والله لا أكون الرابع ، ولا يقوم مقام ابى بكر وعمر احد .. »

فرمقه سعد بنظرة محذرة ، وقال له :

« انى اخاف أن يكون الضعف قد أدركك » .

❊ ❊ ❊

وهكذا — مرة أخرى — تحدد الرؤى — والأحلام اتجاه الأشخاص ومع ذلك فمنذا لا يقول انها ليست وحيا يوحى بقدر ما هى خلجات المشاعر التى تملكهم ؟.. انها بلا ريب الصدى لما في النفوس والصورة المنعكسة البادية من خباياها ، وليس لهـا — ها هنا — تأويل ظاهر اقرب الى الصواب سوى أن عبد الرحمن بن عوف ، بعد اعمال فكر ، تبين بوضوح صدق راى عمر فيه فعلم الآن عن يقين انه حقا اضعف من أن يسوس دولة ، ولم تعـد له فى نفسه ثقة باقيـة تحمله على الطموح الى خلافة سلفيه .. وكعذر عن تجنبه تحمل تبعة الامرة التى آمن بأنهـا عبء يعييه ، اسعفته واعيتـه برؤياه ليراها تعيى ايضا كل امير سواه !..

١٧

مال عمرو بن العاص على أذن على ، وهمس له :

« يا ابا الحسن .. ان عبد الرحمن رجل مجتهد ، ومتى اعطيته العزيمة كان ازهد له فيك ، ولكن الجهد والطاقة فانه ارغب له فيك .. »

وتفكر على مليا ثم ابتسم لنفسه فلم يأت الرجل بجديد .. على نحو ما ، هذا رأى يتفق وميله لأن المبدأ الذى يستلهمه كان حرية العقل وطلاقة التفكير . وعلى قدر جهد الراى من حكيم بصير ياتى الخير ، وليس على قدر اسلاس القياد جزافا لراى الغير ..

ثم مضى ابن العاص الى عثمان بن عفان يناجيه :

« يا ابا عبد الله .. ان عبد الرحمن رجل مجتهد ، وليس والله بمبايعك الا بالعزيمة ، فاقبل منه » .

كذلك راح الداهية يوجه وجاء بوجه . ونصح لثانى الرجلين أن يستمسك بما نصح اولهما أن يقلع عنه !..

افكان عمرو ذكيا الى الحد الذى يستطيع معه أن يقرأ ما فى قلوب الرجال الثلاثة ؟..

كان قمينا ، بحق ، ان يعلم سلفا راى عبد الرحمن في تردده وضعفه وقلة ثقته بنفسه .. وان يعرف ان الضعيف دائما هياب ، لا يسلك السبيل الا اذا امه سواه . واذا وثق بهذا فقد آمن ان ابن عوف سيتخذ من يد غيره تكأة يستند اليها ليأمن العثار ، ويشق بعونها سبيله .. وهذه اليد أسعفت بها رؤياه ..

نعم اسعفه حلمه وزوده بما لا يعجز بعده عن الاضطلاع بالمهمة التى وكل امرها اليه . وما عليه الا أن يغمض عينيه آونة يستعيد فيها الرؤيا الى ذهنه ، ويلمح الروضة الخضراء ، ويلقى ببصره الى الفحل الكريم حتى يقطعها ، ثم يستقبل من بعده البعير الأول ، فالثانى على اثره يمضى قصد سايقيه .. حتى اذا اكتملت لديه الصورة بذلك الذى رتع فى الروضة فاساء حيث أحسن الآخران . سارع ففتح عينيه ليبعد منهما ظله .. وما دام هذان قد نهجا نهجا مباركا فليكونا

اذن مثـلا أعلى لما يمكن أن تقاس به كرام الاباعر !.. وليحفظ دائما صورتهما فيمخيلته ، وليتوخ ان يكون على غرارهما ذاك التالى المرجو ويلزم نفسه بانتخابه خلفا لهما يتأثر خط سيرهما خطوة خطوة !..

كان قمينا بعمرو ان يقرا هذا فيما جبلت عليه طبيعة ابن عوف من تردد وضعف . وكان من الذكاء بحيث يجعل من هذه النفس ، التى تنقصها الثقة ، منظارا يرى من خلاله ما سوف يكون من تصريف ذينك الرجلين المتنافسين : على وعثمان ، حسبما يوحى لهما خلقهما ويدعوهما استعدادهما النفسى الى تناول الحياة .. أما عثمان فأمره ميسور لأنه لا يكاد ان يكون نسخة ثانية من ذلكالحكم الضعيف فأحرى به أن يتأثر خطاه .. وأما على فان اعتداده بنفسه ، وفكره الطليق ، وتكوينه الخلقى الذى صاغ شخصيته على اساس من القوة متين — كلها نمت مقدما على انه لن يلعب أمام سواه دور الظل !..

ولكن هذا ليس وحده دليل الذكاء فى ابن العاص ، ولن يكون عمرو ابنا لأمه لو خطفت امام عينيه فرصة تبرق ولم ير على التماعها مصلحة يلتقطها ! وفىالعام الماضىاستطاع هذا الجزار القديم أن يحول أنفه دائما ليستقبل مهب الريح ، ويتنسم ما فيها . وكان دائما ككلب الصيد يشم الفريسة ثم يتحرك بعد هذا الى حيثما تسير .. وهو اليوم لم يعد طبعه ، ولم تتخل عنه سليقته ولا داب التاجر الذى يزن الأمور بميزان الذهب قبل أى ميزان .

أجل ساير عمرو طبعه . والقى بنصحه للجهة التى أرشدته اليها الريح ! — القاه الى الرجلين ، المتنافسين اللذين لن يكون غير أحدهما بعد قليل خليفة المسلمين ويكون ابن العاص فى نظره المشير الأمين ! وهو بهذا قد ضمن المثوبة ممن يملكها ، وليس يفيده حنق المنقلب بالخسار ..

وكذلك راهن ابن النابغة على الجوادين فى آن ..

❋ ❋ ❋

واوشكت الليـلة الباقية من مهلة عمر على زوال . واتت لحظة الفصل او هى تطرق الباب ، فانطلق عبد الرحمن الى ابن اخته ..

قال له :

« يا مسور .. اذهب فادع لى عليا وعثمان » .

« بأيهما أبدا يا خال ؟ » .

« بأيهما شئت » .

ولم يغب الرسول سوى قليل ، ثم عاد بالرجلين الى المسجد ، وكان عبد الرحمن قائما فى القبلة فتريثوا به حتى اتم ، فلما لمحهم سارع منطلقا الى ناحية ابن أبى طالب لا يريم .

كاد لهذه اللفتة ان يغيض امل عثمان !. ولكنه لا يملك ان يحتج او يثور ولا يملك ان يدعوه ليبدأ به ، فليدع اذن ما بدا من ميل عبد الرحمن — او ما ظنه هو ميلا — الى منافسه .. ليدع الرجلين يتساران .. وليمل هو الى آخر المسجد يقبع فيه مستحييا ، محاولا ان يخفى قدر وسعه ذلك اللون الباهت الذى رسمه على محياه شعوره بقرب الاخفاق .

وقال عبد الرحمن لعلى وهما بمنحى :

« .. انى قد سألت عنكما وعن غيركما ، فلم اجد الناس يعدلون بكما » .

ثم تمهل برهة عاد بعدها يستأنف الحديث :

« يا ابا الحسن .. هل انت مبايعى على كتاب الله ، وسنة رسوله، وفعل أبى بكر وعمر ؟ » .

فرمقه على بنظرة نفاذة ، وقال ولم يتردد :

« بل على كتاب الله وسنة رسوله ، واجتهاد رأيى » .

كان هذا هو الجواب الحاسم ، الجدير بأن يلفظ به من له قوة خلق على واعتداده بنفسه ، ولن يضيره أن يفقد صولة أو ملكا بقدر ما كان يضيره لو آثر ان يصل الى السلطان عن غير طريق حرية رايه وجهره بما يعلم انه حق ابلج لا تعتريه شبهة ، وما كان لامرىء ان ينكر على ابى الحسن علمه وحكمته ، ونضج آرائه وغيرها من سجاياه المثلى التى تؤلف من بينها أقوى دعامة يمكن أن يستند اليها حكم فاضل قويم ، ما كان لأحد أن ينكر عليه هذا أو بعضه وان كان أبا بكر ، او كان ابن الخطاب بعد أن خبرا فيه نواحيه واستعانا دائما برايه الصائب اثناء اقتعادهما أريكة الحكم ..

ومع ذلك فان عبد الرحمن شاء ان يبدو كمن ينكر عليه ما اقر به صاحباه وآثر أن يسبق الاختيار باختيار التزم فيه نهجا لم يرسمه له

عمر قبل موته ، ولم يدع الى الاخذ به منطق مقبول ، جاء من لدنه بشرط للبيعة كان اولى به أن يعفى عليا منه ، وان وجب ان يلزم به كافة الناس سواه ، ولكن هكذا شاء الحكم العدل لانه جاء وفى خاطره بعيران يحاول أن يجد على نحوهما ذاك الذى يجمل به أن يتأثرهما كما لم يرسم — وان أوحى — الحلم !.. شاء هذا عبد الرحمن ، فضرب به مثلا عجبا لأصل بتبع فرعه ، وحسناء وخيالها ، هو يبرزها نابضة بالحياة وليست هى التى تعكسه صورة صامتة على صقال مرآة !..

***

ماذا عسى كان ابن عوف يريده بشرطه ؟. ليحذر السياسة العليا للدولة ؟ — ذاك مرده بلا جدال الى صاحب الأمر ، له طريقته وله خطة العمل التى يراها كفيلة بأن تسير آلة الحكم بانتظام الى الأمام ، وهو رهين أبدا بالظروف والأوقات ، لكل زمن نهج تعالج به مشكلاته ، قد لا يستقيم به علاج مثيلاتها فى زمان سواه .. ولئن بدا لعبد الرحمن أن يثبت من الأسس التى يزمع على أن يقيم عليها حكمه أفلم يكفه أن يكون ذلك الأساس كتاب الله وسنة الرسول ؟.. وأى دستور وضعى يستطيع ان يسع ، من النظم التى تضىء العدل وتضىء القوة ، ما وسعه دستور السماء ؟.. وفيم اذن ولم الشرط بتأثر خطى أبى بكر وعمر ما دام المشروط عليه قد اقر على نفسه بالتزام أوضح نهج واقوم تشريع ؟..

ولكن ابن عوف — فيما يبدو — لم يرضه هذا الاقرار بالتزام الأصول بقدر ما كان يرضيه ان يجمع اليه التزام التفاصيل ... وعجب أن تكون هكذا نظرته ويكون شرطه ، هو العالم بأن الدستور الالهى فيه غناء عن فعل ذينك الشيخين ايما غناء ؛ وانهما آدميان ، بلا قداسة ولا تنزيه ، قمينان بالأصابة وبالوقوع في الأخطاء . ولو أن الرجل تفكر قليلا لعلم استحالة قبول على شرطه .. وكان حريا به حقا أن يتفكر لو انه قدر سياسة حكم الدولة حسبما اشارت عليه رؤياه . اغمض عينيه عن الواقع الملموس وعاش في اغفاءة حلمه ! ونسى فى هذه الآونة — التى نصبه القدر فيها صانعا للحكام — أن

بعيريه الأمثلين لم يتأثر ثانيهما خطوات سابقة تمام التأثر ، بل خالف نهجه ، وخالف ايضا نهج رسول الله فى كثير من الأمور .. ولو كان عبد الرحمن قد محص رؤياه حق التمحيص لعلم انها غررت به ولم تشر عليه بصواب .. على اى حال ، لا بد ان يكون قد عرف أن رجلا جاء ذات يوم الى عمر بن الخطاب يقول :

« يا امير المؤمنين .. عنبت أمتك منك اربعا . ذكروا أنك حرمت العمرة فى اشهر الحج ، ولم يفعل ذلك رسول الله ولا أبو بكر ، وهى حلال .. وذكروا انك حرمت متعة النســاء وكانت رخصة من الله ، نستمتع بقبضة ونفارق عن ثلاث .. وذكروا انك اعتقت الأمة — ان وضعت ذا بطنها — بغير عتاقة سيدها .. وشكوا منك نهر الرعية وعنف السياق » .

هذه امور — على هوانها — تومىء الى ناحية من عمر اغفلتها رؤيا عبد الرحمن !.. ولكنا ها هنا لا نناقش الخطأ والصواب فيما رآه ابن الخطاب . بل نلمس الدليل الحاسم على انه راى حقا لعقله عليه فتركه يعمل ويأتى بالنظرة المخالفة نظرة سلفه الى الأمور ما دعا الى هذا تغير الظروف واختلاف الأحوال . وحتى تلك النواحى التى لها خطرها من السياسية العامة للدولة قد امتدت يده اليها بالتبديل والتعديل ، وتناول منها النظام المالى المعروف فهدمه واقام آخر مغايرا على انقاضه ، لم يمنعه عن ذلك علمه براى رسول الله وعمله ، أو عمل خلفه ابى بكر بذلك المبدأ القديم .

كان عمر فى هذا حاكما له سياسته التى آمن بصلاحيتها ، فلم يقف امام سلفيه مكتوف اليدين أو معقود اللسان ، ولم يدع الماضى يحول بينه وبين غرضه . بل سار قدما الى شوطه ولما ينصرم من الوقت الا قليــل على وفاة أول خلفاء رســول الله . وجاءت السنة الخامسة عشرة من الهجرة بنحو جديد لتقسـيم العطاء على الناس ، لم ينحه محمد او ابو بكر بعده ، فألغى عمر المساواة — اساس التقسيم — وفرض الأعطيات بدرجات .

فاى السياسات اذن أراد عبد الرحمن ان يلزم بها عليا قبل أن يدلى اليه بالبيعة ؟ وعلى اى الدساتير المستقاة من فعل الخليفتين السابقين كان عليه أن يسير ؟ وباى الشيخين كان يقتدى والأمور

لديهمـــا تختلف منازلها هكـــذا وفق ما يوحى اليهما من اختـــلاف النظرات والآراء ؟..

اما انها اذن لرؤيا حجبت كثيرا من الحقائق عن ذهن ابن عوف حين اراد ان يلزم عليا شرطه !.. ام هو يا ترى قد آمن بأنه لن يقبل شرطه ، فشرطه !..؟

١٨

الأفق البعيد كاد أن يبدو صافى الزرقة من وراء ستار رقيق شابه سواد ، والأنجم غاب عنها بريقها ، كعيون وسنى ، والسكون تحت السماء أضجره النوم ...

وكانت رمال المدينة صـديا ، يفيض فيهـا ــ كقطرات مياه ــ دبيب الأقدام القليـلات التى مشت على الدروب .. وبين آونات كانت ترن فى الصمت من هنا ومن هناك جلاجل قافلة تمر بالبطاح ، أو ترنيمة حاد يحث ابله ، أو رغاء وثغاء .. ولكن اللحظات أخـذت تترى ، وكاد الرمل ان يبلغ ريه حتى لم تعـد له طاقة على ابتـلاع خطرات الأرجل ، قد سارت الآن فى ركاب الزمن علائم الحياة ..

ومن الظلمة الممدودة اخذت تلمح اطياف ضوء واهن وتنشق بها أسجاف الليل . اذا رنت نحوها العين رأتها محيا رائقا خلف نقاب من دقائق السحاب ، تكاد غرته أن تسفر وتهب الدنيا بشير النور . وفي السماء كان اللألاء هو الدعوة الصامتة الى البشر لاستقبال الفجر ، وعلى الأرض تردد النداء جليلا رافعا ، باسم الله ، للصلاة ..

ولكنه ليس فجرا كسواه يبدأ يوما كبقية الأيام ، وليس نداء ككل نداء . انه مستهل المجهول المأمول ، وبداية المرقوب المرهوب .. كل أولئك الذين لبوا الدعوة جاشت بخواطرهم الرهبة مع الرجاء ، ومشت الأرجل تحتهم مضطربة كأنما تحاذر ــ جهدها ــ أن تنهال تحتها الرمال ، وتسارعت دقات قلوبهم دراكا كأنما تطاردها خشية واشفاق او تحثها منى وآمال ..

« الصلاة جامعة ! »

حتى هذه الأحرف اعتورتها هزة !.. أمن خوف المستقبل رجفت شفتاه ام من شوق لعهد قابل تمناه - ذلك الداعى في اعقاب السحر ؟. انه هو ايضا من قومه ، صورة لكل مجيب لدعوته ، قد عاشت فيه ذات العواطف التى ملأت جوانح من قدموا على ندائه ، فملأوا رحبات مسجد الرسول وفاضت بهم ، فى الفضاء حوله . جموعا تزخر ..

ولم تطل بهم الصلاة وان بدت بلا نهاية فى حساب الافكار ، وكانت الاعين موكولة بالمنبر ترسل نظراتها اليه وتتعلق بكل من يخطر نحوه . ومضت اللحظات دانية فى تمهل ، والقوم سكون ينظرون حتى بدا عبد الرحمن بن عوف الى جوار قبلة الانظار ..

آن اذن وقت الفصل ، وجاء أوان اللحظة الحاسمة فى تاريخ هـذه الفترة من الزمان .. واتسعت الأعين واشرابت الأعناق الى الرجل الذى يهم أن يرسم مصير امته بكلمات . كان يكاد ان يغمض عينيه ، ساهما لا تتعلق نظراته بشىء ، صامتا كصمت المكان . ولكن سمات القلق التى سرت فى اعضاء الجمهور لم تسر اليه ، وهمهمة الهمس التى تنقلت من افواه لآذان لم تصب بعدوى النطق شفتيه .

ظل ساكنا فى موقفه هنيهة ، لا ينبس بكلام . وطال على النفوس المتلهفة اطراقه ، وطالت به حيرة الناس ، وظللت جبينه سحابة . وانعقد الوجوم على راسه حينا . ثرثرت فيه السن كل من عداه .. اما هو فبقى ، في حسبانهم ، كمن اصابه حصر - هو داعيهم لالقاء اذان وسماع بيان !..

ثم استطاع بعد جهد ان يرفع راسه ، ويمد البصر الى الجمع الحاشد فى جنبات المسجد وحوله .. ووسعه أخيرا أن يقول بصوت خافت لم تتمكن أن تتلقفه كل الأسماع وان تمكنت لجج الهمسات ان تطويه :

« .. ان الناس قد احبوا ان يلحق اهل الامصار بأمصارهم وقد عرفوا من اميرهم .. »

« انا نراك لها اهلا » .

هـذه نبرات صوت جاءه من أسفل المنبر يقطع عليه الحديث . وبحركة هدب مالت بها نظرات عينيه . استطاع عبد الرحمن أن يلمح رجله - نصيره المهيب به أن يتقلد سيف السلطان !.. كان هذا نسيب بنى الخطاب : سعيد بن زيد ختن عمر على أخته فاطمة .

ولكن ابن عوف لم يعد فى مقدوره الآن ان يستجيب لاغراء الدعوة ، بل تأبى وقال :

« بل اشيروا على بغير هذا .. »

ثم التفت ثانية يخاطب القوم :

« انى قد سألتكم ، سرا وجهرا ، فلم اجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين : اما على واما عثمان .. »

وكرة أخرى قطع عليه الخطاب ، ولكنه الآن بجرس داو رج المسجد :

« ان اردت الا يختلف الناس فبايع عليا .. »

فاستدارت الوجوه الى حيث انطلق الصوت ، وانتهبت عيونهم ذاك الآدم الأشهل . جاء حقا بدعوة حق !.. وكالنار اذا علقت بهشيم جاف ، سارت دعوته سراعا الى الشفاه والحلوق تتردد عنها حرفا حرفا .. لكأنما كلمات عمار بن ياسر كانت المفتاح الذى فض اقفال الأفواه !. من كل ناحية أتت الصيحات داعية الى الأخذ برأيه ، وتجاوبت فى أرجاء المسجد كأنها صدى ما نطق به عمار .. ومن بين هذا الهتاف جاء صوت المقداد :

« صدق عمار .. وان بايعت عليا سمعنا واطعنا » .

وكاد أن ينتقض الصفاء على ابن عوف ، ويضطرب الأمر . وهمت ان تخرج من يده سلطة اختيار الخليفة الجديد بأن تسلبه اياها ارادة الجمهور . ولعله فى هذه اللحظة قد اشتبه عليه الرأى فلم يدر لأى الرجلين يجدر به أن يلقى الأمانة التى لديه ، على أى الحالات قد حلت به فترة — وهو قائم على منبر النبى — لم يكن هو فيها سيد الموقف .

يا ترى هل كتبت على امية أن تنخذل ثانية أمام هاشم ؟. كان حريا أن تجرى الرياح بغير ما تشتهى — فى قبره — ذاك القمىء الدميم ، وبغير ما يشتهى الحاضرون من بنيه .. وكادت أن تبغتهم قلوب الشعب التى اختلط بدمائها حب الهاشميين حبين : بأبيهم الذاهب صيته ومجده الى السماء رفعة ، وبابنهم رسول الله النبى الكريم . فأى الخواطر جالت بأذهان سلالة عبد شمس وامية اذ ذاك ؟. وكيف استقبلوا ثورة العاصفة النفسية العاتية التى فاضت بها نفوس الشعب . فكادت أن تطفىء نارهم ، وتكفىء قدورهم كما فعلت

بهم — وبقريش المتألبة معهم على محمد فى يوم الخندق — تلك العاصفة الجوية التى أرسلتها عليهم السماء ؟.. احسبهم اصابهم العى الى حين ، وتلفتوا ينظرون بعين المبهوت حتى حمل لواء الدفاع عنهم دعى لصاحبهم ، ربطه واياه ثدى امراة ، فقام يصيح :

« يا عبد الرحمن !.. ان اردت الا تختلف قريش فبايع عثمان » .

فكانما وضعت هذه الصيحة شقا من الناس على اهبة الكفاح !.. اكبروا بادىء الامر جراة ابن ابى سرح اخى عثمان فى الرضاع وتقبلوا منه دفاعه حامدين .. ثم لم تلبث ان حميت فيهم دماء العصبية لكبير بينهم الذى وضعته الاقدار ، ورجل بنى هاشم فى كفتى ميزان .

ولكن ابن ياسر لم يدع الصائح بلا جواب ، بل انبرى له يسأله فى تهكم مرير :

« ابن ابى سرح !.. ومتى كنت تنصح الاسلام واهله !؟ »

وانه لاستنكار جدير بان يزم الشفاه ويكمم الافواه .

اجل صمت داعية امية وعقد الخزى لسانه ، فما زال كما كان فى نظر الناس ، قد تجمل عليه كل ثياب الا ثوب الناصح الأمين للاسلام . وان رجلا على شاكلته خان ثقة رسول الله فيه ، وعبث بالوحى الذى وكلت اليه كتابته لاولى به أن يبتعد عن الحياة العامة عسى الأيام ان تسدل على خيانته ستر النسيان . ولكنه من ناحية اخرى اراد ان يجزى احسانا باحسان ، ويرد لليد التى دفعت عن عنقه سيف الجلاد كفاء بعض فضلها عليه ، وما دام عثمان قد استأمن له محمدا عند فتح مكة وترضاه حتى قبل ان يبقى عليه ، فان اقل القليل منه اليوم أن يقف داعية ينتصر لعثمان ..

الجمه الخزى فطاش جوابه وصوابه وقبع يجتر حنقه ، ولكنه كان قد استطاع بكلماته القصار ان يعيد الى اصحابه الحياة .. لم تعد القضية الآن بين على وعثمان ، ولا بين هاشم وامية وحده ، تشكلت بشكل جديد . انها كيان قريش كلها قبل كيان الافراد والأشخاص ، قريش التى كانت سياستها العليا دائما حسد بنى هاشم واقصاءهم قدر الطاقة عن مقعد الحكم ..

وقام منها رجل حفزه غضبه ينتصر لابن أبى سرح ويصيح بعمار :

« عدوت طورك يا بن سمية !. وما انت وتأمير قريش لانفسها ! »

وكاد بعد هذا أن يفلت الزمام تماما من ابن عوف . علا الصخب فى كل مكان ، وارتفع الجدل بين الفريقين ، وأوشك ان يقع بين الناس ما تخشى عقباه ..

وأهاب سعد بن أبي وقاص بصاحبه يحثه !

« يا عبد الرحمن .. افرغ قبل أن يفتتن الناس » .

كانت السرعة حقا جديرة بأن تحسم النزاع وتقف به عند حد مأمون . ولكن الحكم العدل لم يغب تردده عنه وبقى كدابه .. فى حديثه منذ قليل مع على وعثمان حزم امره على أيهما يختار ، ودعا لاجتماع الناس اليه ليسمعهم قراره ، فلما جاءت لحظة الفصل التى أعد لها عدته وشى به طبعه الضعيف وغلبه التردد .. وللمرة الثانية دعا اليه عليا ودعا عثمان ليسمع منهما الجواب المألوف على شرطه المعروف ..

قال له أول الرجلين بثبات :

« بل على كتاب الله ، وسنة رسوله ، واجتهاد رأيى » .

وقال الثانى وهو مسلس القياد :

« نعم » ..

فصفق بكفه على يده وقال أ

« اللهم انى قد جعلت ما في رقبتى من ذاك فى رقبة عثمان !. »

وكذلك — بين الصخب والضجيج واضطراب الآراء — فاز سليل أمية بالمجد الذى حلم به أجداده طويلا ، وتمت له امرة الناس — لا بالناس — انما بمشيئة رجل فرد من قريش كان هو الآخر يترجم فعله عن عاطفة قبيله . تلك لحظة من الدهر بدت فيها الأنانية العصبية كما لم تبد بمثل وضوحها فى غيرها من لحظات الاسلام السوالف ، ولسوف تكون عنوانا على عهد تقدم فيه الشخصيات على الجماعيات . ولئن لم يكن عثمان متهما اذ ذاك بحبه ذاته فلقد كانت من ورائه اسرة تدفعه امامها كما يدفع الريشة نوء ، وانى لها ان تصمد له !..

١٩

اهذه حقيقة ماثلة ؟..

اولئك الذين فجأتهم كف عبد الرحمن اداروا أعينهم فيما امامهم كأنما استيقظوا لتوهم من كابوس ! قد كان الرجل أسرع الى قطع الأمر وهم يقطعون الوقت بينهم وبين غرمائهم فى جدال ، وسبقت كفه الى يد عثمان تشد عليها قبل ان يسبقوا بحجتهم حجة الحزب الآخر ، فلما استطاعوا أن يعودوا الى الوعى وتبينوا الموقف راوا عثمان قد اقتعد من منبر رسول الله الدرجة التى وقفت عليها قدما عبد الرحمن واقبل الناس عليه يبايعون ..

اهو التسليم يا ترى ام هى الثورة ؟.. قد كان فى مقدور الفئة المغلوبة ان ترفع علم العصيان بل كان أولى بحالتها النفسية اذ ذاك ان تعلن التمرد ، وكان رجالها — لو فعلوا — من جند الحق . كلهم ذو قدم في الاسلام وذو يد عملت جاهدة لرفع صرح الدولة ، وما فيهم — هم الذين حملوا ارواحهم على الأكف ابان اصطراع الشرك والايمان — الا المشوق الى الموت في سبيل مبدأ ، الزاهد فى الحياة مع الطغيان . وانهم لكتائب الله الأولى التى آزرت نبيه ، واندفعت معه من شعاب مكة — افرادا — بقوة اليقين حتى غطت اقطار الأرض ، لم تنحلها النصر عدة السلاح بقدر ما قطفته يانعا من أشواك انكار الذات ، ولو انهم اعوزتهم الأسنة لحاربوا العالم اجمع — في سبيل قضيتهم — وغلبوه بالظفر وبالناب .. ولكنهم اليوم ليسوا عزلا تماما .. وأن فى أيديهم لعدة تترجم عن ايمانهم باللغة التى يفهمها الغرماء ، وفى عدادهم المقداد راس الجند الموكول اليهم حفظ النظام ..

ولكنهم جهدوا ، وجاهدوا انفسهم حتى الزموا التريث . وتعلقت ابصارهم برجلهم المحبوب المغلوب .. فى هذه الآونة لمحوا عبد الرحمن يشير اليه بعين ويدعوه . فيم الدعوة هذه ؟ — من البين لكى يبايع . وتلبثوا ينتظرون ، وحبسوا الأنفاس وارهفوا الآذان .

في صوت خافت كأنما يحدث نفسه ، قال عبد الرحمن :

« ومن نكث فانما ينكث على نفسه .. »

أدعوة هذه يا ترى أم وعيد ؟

وجاءه الجواب من ابن أبي طالب صريحا واضحا كسجيته :

« حبوته حبو دهر ! »

والتفت صوب قريش الملتئمة الجمع حوله ، المتالية الاحقاد عليه ، وقال بنبرة المرور :

« .. ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » .

ما كان له في مثل هذا المقام الا ان يحكم الله فانه غالب على أمره ، ان شاء عفا أو شاء عاقب ، ولكن لا يستطيع مطلقا أن ينصب من نفسه خصما وحكما لعبد الرحمن في آن ، ولا يقره على ههنا طبعه .. وحتى ان احس الغضبة في قلبه تثور لحق سلبوه اياه ، فان منطق العقل عنده كان يسبق دائما منطق عاطفته . ولو انه أراد لأثار فتبعه جموع وجموع ، ولكن الاسلام كان أكرم عليه من ان يثير الفرقة بين اهله من أجل حقه المغضوب . وقديما وقف هذا الموقف الضنك فآثر أن يبوء بالخسران وامته موحدة عزيزة الجانب ..

ولم يملك عبد الرحمن أمام هذا الاتهام الصريح الا أن يبرر تصرفه فيقول :

« ... انى قد نظرت ، وشاورت الناس فاذا هم لا يعدلون بعثمان » .

ففيم اذن كان عرضه الأمر على إبن ابى طالب لو صح ما قال ؟.. وفيم المساومة على أمر تبين له وظهرت خواتيمه ؟ وهب عليا قبل منه شرطه أفكان اذن جديرا بأن يقلده الأمر على غير رضا من الناس ؟.

وجاءه الجواب قاطعا كالسيف :

« والله ما وليت عثمان الا ليرد الأمر اليك .. »

فسرت الهمهمة في انحاء المسجد . أما على فقد عاد ثانية يواجه الخصوم بشجاعة قلبه ، ويخاطبهم بمنطقه السليم عن المبدا القويم الذى ألزم به نفسه ، قائلا :

« لقد علمتم أنى أحق الناس بها من غيرى .. والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور الا على خاصة ، التماسا لأجر ذلك وفضله ، وزهدا فيما تنافستموه من زخرفه .. »

وشق طريقه فشد على يد عثمان ، ثم غادر المسجد وعلى شفتيه هذه الكلمات :

« سيبلغ الكتاب اجله ! »

***

أجل كل بدء الى نهاية ، وكل مستهل الى غاية ، ولن تكون العواقب الا كما تنبىء البدايات ..

استقبل الرجل عهده بخلاف وانهاه بخلاف . ومضت ايامه فى التاريخ مثلا للفرقة التى مشت ديدانها فافسدت جماعة كانت مثلا للألفة ، وقضت على كيان صلد متين ... حقا لم تتمزق الدولة ابان حكمه ، ولم يصبها الوهن ، ولكنها اضحت دولة كالأخر لا تمسك اجزاءها الا القوة ، وكانت من قبل تشدها الى بعضها البعض الأخلاق ... والخلق دعامة ركينة تهب القوة ولا تحطمها قوى السلاح فى ميدان صراع وكفاح ...

هذه خواطر جرت بأذهان بعض الحشد القائم فى المسجد يتأهب لبيعة عثمان ، وكادت تتجسم امام أبصارهم وهم يرونها بعين البصيرة ... اولئكم أصحاب العقائد والمبادىء والمثل العليا . الذين وهبوا حياتهم للحق وعاشوا به ، لا يخشون بطش السيف ولا حدة السلاح.

قام بينهم عمار بن ياسر ، وقد غلبت غضبته على ادمة وجهه حتى كاد ان يتلون بحمرة الدم ، وصاح ينذر تلك القبيلة التى عادت على حق صاحبه وسلبته اياه بالعصبية لا بالجدارة :

« يا معشر قريش ! اما اذا صرفتم هذا الأمر عن اهل بيت نبيكم ، ها هنا مرة ، وها هنا مرة ، فما انا بآمن ان ينزعه الله فيضعه فى غيركم ، كما نزعتموه من اهله ووضعتموه فى غير اهله . »

وهتف من بعده المقداد :

« ما رايت مثل ما أوذى به اهل هذا البيت بعد نبيهم ... »

وكأنما خشى ابن عوف مغبة هذه الثورة النفسية التى ما زالت نارها تضطرم بين الجوانح فسارع يحول بينه وبين الاستمرار فى حديثه ... حتى بكلماته تلك كشف « صانع الحكام » من غيرته على المجد الذى طوق به جيد قبيلته ، ورفع الغطاء عن عصبيته ... قال بلهجة السادة المترفعين عن طبقات الناس :

« وما انت وذاك يا مقداد »

فابتسم له « ابن الشعب » بسمة كالعبسة ، وصاح به :

« انى والله لأحبهم بحب رسول الله ، وان الحق معهم وفيهم . يا عبد الرحمن ... اعجب من قريش وانت تطولهم على الناس !..

اهل هذا البيت قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله بعده من ايديهم ... »

وعلا جرس صوته ، ورن داويا كالزئير وهو يتم كلامه :

« اما وايم الله ، يا عبد الرحمن ، لو اجد على قريش انصارا لقاتلتهم كقتالى اياهم مع رسول الله يوم بدر ! »

فاى استقبال حافل هذا الذى قابل به خير صحابة رسول الله عهد عثمان ؟ وبأى الأحاسيس ملأت احاديثهم المرة قلبه ؟.. بدت مشاعره على وجهه سمات معلومة تقرأها الأعين المتطلعة ، حين وقف بعد قليل على المنبر ويقول أولى خطبه لشعبه ... كان حسن الصورة مليح المحيا رغم تقدم عمره ، ولكن لونه غلب عليه شحوب عابر أحاله باهتا كالفضة ، وحتى هذه النكتات التى خلفها الجدرى على خديه ، وكانت قمينة أن تظهر سمراء ، كادت تخفى عن عين الرائى . وكان وجهه مرآة الحزن ، طافت الكآبة بقسماته لكأنما استطلعت نفسه ضمير الغيب !.

وحتى كلماته أيضا !... لقد كانت تقطر بما يحسه ويعتمل بقلبه من هم واصب جره عليه شعوره الحزين ، وما كان لامرىء أن يصف بغير كآبة النفس من يقول مثل ما قال :

« ... انكم فى دار قلعة ، وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم ... »

ولكن هذا الشيخ المهموم ، المنقبض الصدر فى ساعة ظفره ، الذى زوده بالحزن شعور غامض ، اجتمع له سوء الطالع الى جوار همه ، وأبى النحس الذى حالفه من بعد طوال عهده الا أن يسير فى ركابه مذ اللحظة التى دفع قدمه الى المنبر ليخطب الناس ... لم يكن هو ملقيا باله الى خطواته بل تقدم بلا وعى يعلو درجات المنبر حتى وقف على نفس الدرجة التى كانت تطؤها أقدام الرسول . كان هذا جديرا بأن يثير عليه الاستنكار وغضب الناس وقد علموا اى مكان كان يقفه ابو بكر ويقفه عمر من درجات هذا المنبر . ما جال يوما بذهن السلفين أن يضعا اقدامهما وقدمى رسول الله على سواء كما يفعلّ هذا الخليفة الجديد . اهو الكبر والصلف والاستعلاء ؟..

بل هو نحس نجمه وسوء طالعه . ابيا عليه الا ان يستفتح عهده بالخلاف وهمس الاستهجان والانكار بدل الترحيب والهتاف ساعة الانتصار ...

٢٠

الكآبة التى احس بها عثمان لم يكن لها صدى الا في قلبه . كان خافض الرأس مهموما اذ يسير الى داره قبيل غروب يوم نصره . لم يحس فرحا أو راحة لاختياره سيدا للناس . ولكن الفرحة التى لم يستشعرها فاضت بقلوب ذويه ... حفوا به من كل ناحية ولفوا حوله كالسوار ، وانطلقوا معه ، خفافا يكادون أن يسيروا على الهواء . هذا يوم خالد على الزمان !...

اجل انه هو اليوم الذى اطلع — فى خواطرهم — امية من قبره ، ونشره حيا فى شوكة مجده : ذهب عنه خزى النفى الى الشام وما ذاق من مرارة الهزيمة التى جرعه كأسها عمه هاشم ، واستطال شرفا — هذا اليوم — على غالبه القديم ... أما ذلك الماضى وما كان له من ذكرياته فقد غاب وتوارى وجهه ، وبقيت منه هنات توافه لا تعلق بالنفس الا لتحفزها على التشبث بالغد المرقوب — ذلك الغد الذى استخفت اشراقته بنى امية حتى انطلقوا حول عثمان خفافا كأنما يسيرون على الهواء !...

وضمتهم معه الدار . كل من فيها طافت به نشوة الظفر الا ذاك الذى لبس تاجه ... ومن ناحية أقبل رجل مشتعل الرأس بالشيب شوه الجدرى وجهه فزاد من قبحه ، وتغورت احدى عينيه فبدت كالفجوة . وكان بدينا بادى القصر ، يتلمس طريقه فى ظلام بصره — ذاك أبو سفيان بن حرب قد شاخ وفقد ضياء ناظريه ...

أقبل على بنى بيته ، منفرج الفم عن بسمة سبقت فيها الشماتة فرحته ... وقال يسأل :

« افيكم أحد من غيركم ؟ »

« كلا »

فنصب قامته ، ورفع من احناءة راسه التى خفضها العمر . لعل أحلام شبابه كلها حضرته فى هذه الآونة وهو يهيب بالحاضرين :

« يا بنى أمية ... تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذى يحلف به أبو سفيان ما زلت ارجوها لكم . ولتصيرن الى صبيانكم وراثة !.. »

وانها لدعوة !... وانها لحلم نفذ من الأجيال المتعاقبة خلال عبد شمس وامية وحرب ثم استقر الآن حقيقة ماثلة امام اذهان احفاده الحالمين به ! .. فما أسعدها اليوم حقيقة ! وما اجلها غاية أتى بها الزمان !..

كادت الحناجر ان تدوى بالهتاف للشيخ ثناء عليه ، وتنطلق داعية كما انطلقت نفوسهم — فى قراراتها — مؤيدة ملبية ... فهذا المجد الجديد الذى اشتاقوه من قديم جدير بأن تهفو قلوبهم اليه ، وتعض انيابهم عليه !

ولكن عثمان لم يكن صافى المزاج فى اثناء الدعوة فلم يتلقها بقبول ، انه لم يسغ للامرة طعما شهيا حتى يلح بها على ذوقه !.. ولم يكن فى الحق بالرجل الذى يملك حب الحكم عليه نفسه — لا عن زهادة فى المنصب ، بل بعدا عما يعييه الاضطلاع به . ولكن كان طالعه قد نصبه على راس امته ، فما احسبه احب ان تنزلق الامرة من بعده الى أسرته .

على ان رغبته وحدها ليست بالثقل الذى يرجح الميزان . أو العامل الفعال ذى التأثير الأخير فى سير الأمور . فما من امرىء يستطيع ان يعثر على اثر واضح للرجل فى شأن أتاه ابان حكمه الا ولمح اصابع آخر . او آخرين من آله ، قد دفعته اليه .. لم يكن عثمان صاحب مشيئته او سيد عزمه ، بل كان رخوا دائما فى اكف اسرته .. او كان الثوب الذى استطاع ان يلبسه بنو امية قبل أن يحين لهم لبس أمثاله من ثياب ! ولا أحسبه منافيا لحقيقة الحال ان يؤرخ لهذا الرجل كأول عاهل فى دولة الأمويين ! ...

* * *

نهر عثمان أبا سفيان ، ولكن البذرة التى وضعها امية جاء أوانها لتثمر ، وبدات مع الزمن تنبت من ارض الحقد . وكانت كلمات الشيخ هى العهد الذى جدد به — امام بنى بيته — طموح أسلافه . ولم يكن هناك

هاشم يفض من حولهم الناس بكرمه . ولم يعد هناك محمد أيضا ، الذى قهرتهم شريعته ، وايدته في كفاحه باطلهم يد الله ... ولكن الباقى في المعسكر المناوىء لهم كان شابا أوفى على رجولته بحساب العمر ونضج واكتمل نماؤه بمقياس الفكر ، ليس بذى جاه يجذب اليه من استهواهم الجاه ، ولا بذى مال ، يشترى النفوس ويملكها سلعة ... وانما كان صاحب حق في آونة كاد طابعها أن يكون استباحة الحقوق..

ومع ذلك فقد انطوى على نفسه كما فعل من قبل وآثر ان يغض البصر عن تراثه المسلوب ، وان يصبر ، ويركب اعجاز الابل وان طال السرى وامتدت الشقة واجهدته المشقة .

هكذا كان الرجل الذى اقصاه عبد الرحمن وكانت سماحة طبعه : لم يلتمس حقه مطلقا عن طريق عنف أو ثورة وكان بمقدوره ان يسترد لو اراد . ولكنه كان من طينة اخرى غير التى جبل منها خصومه ، لا ينقض وعده وان ضاع حقه بالوفاء . وكان ممدود النظر الى ابعد الآفاق .. وبينما كان هو يتوخى دائما صلاح أمته على حساب نفسه كانوا هم يحرصون على صلاح انفسهم بدافع من العصبية وحب الأهل أو حب الذات ... وكانوا دائما امامه يحملون لواء العداء تماما كما ارتسمت لهم سنة الأسلاف لأنهم كانوا يناجزون فيه هاشما قبل أى انسان .

هذه حقيقة وعتها نفوسهم وانطوت عليها وان حاولت جهدها أن تنكرها الألسن ، لا فرق فيهم بين رفيع أو وضيع المقدار ، لأنها كانت جرثومة الحقد ، التى سرت في دمائهم موروثة عن الأجيال المتعاقبة من الآل ...

***

وهل كان التاريخ الا صورة مكررة ؟

ذات يوم مضى ، شفى أبو سفيان من جسد غله .. وكان الجسد على الأرض لقى شائها ، مست فيه سكين امراته التى فاقت ضراوتها وحشية لباة الغاب ، وعبثت أصابعها بأحشائه بعد أن بقرت بطنه ، ولاك فمها هنيهة كبده المرير ثم لفظته ، ومضت عنه .. واقبل من بعدها زوجها يشتفى .. أهذه صورة أخرى من هاشم على ثرى أحد ؟..

ثم راحت السنون ، واستبدل الرجل بشركه الاسلام . فالى اى مدى يا ترى خفف الدين الجديد من غلوائه والان قلبه ؟..

انه ليسعى الآن امام العين كمثل سعيه الأول ، على ذات الأرض ، بسفح احد .. ولكنه اليوم قد وهن قوى ، ودب بخطو مضطرب ، يكاد به أن يتعثر فيما يصادف قدميه لولا غلام الى جانبه يقوده .

كان عائدا لتوه من دار عثمان ، فى قلبه قد اصطخب الفرح ونشوة النصر ، يتمايل عن تيه وخيلاء . وكانت المدينة قاعدة امير المؤمنين الجديد وراء ظهره ، ومكة بلدة البيت قبلة خطوه .. فلم تكن به حاجة الى التزام هذه الناحية من الطريق ، ولكن هاتفا بقلبه دعاه أن يفعل فراح يسير بين القبور ..

اهى روح عزيز لديه دعته أن يمر بمثواه ؟. بدا هذا ، فقد مال على أذن الغلام وهمس له ، وتقدم يحث خطاه . امشوق ؟ اهاجت بقلبه ذكريات أيام حلوة قضاها فى شبابه وصاحب المقبرة ؟ مشوق حقا لأنه يكاد أن يثب وثوبا رغم عماه .

وتوقف بعد قليل .. ها هنا حمزة الشهيد — عم رسول الله ، مسجى تحت الحصى والرمال . وقف امامه ابو سفيان يتطلع ببصره الجاف .. عسى الرجل أراد ان يكفر عما فات من قسوته ، وتمثيله بعد امراته — ايام كفره — بهذا الجسد الطاهر ، اشنع تمثيل !.. لعل اسلامه قد الان قلبه !... لعل نازعته صلات القربى فجاء يترحم على هذا الثاوى فى طوايا التراب !..

وتقدم ثانية خطوة او اخرى ، والقى ببصره المتغور على القبر ، ثم حرك شفتيه بالكلام .. فأى كلام ؟

انفرج فمه الأدرد القبيح عن أقسى بسمة تستطيع ان تصوغها شفاه لتعبر بها عن الحقد والشماتة ، ثم خرج من جوفه حديث كأنه فحيح أفعى ، وقال :

« يا أبا عمارة !.. ان الأمر الذى اجتلدنا عليه بالسيف امس فى يد غلماننا يتلعبون به ! »

وركل برجله القبر ، ثم مضى مثلوج الصدر اذ اصاب ثاره !..

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)

الإمام

علي بن أبي طالب

الجزء الثاني

تأليف

عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان

بيروت

٣

صيحة رافعة . . . تسمع الصم ولا تستطيع دفعها أذن نائم . لها في السمع دوى مجلجل ، وفى القلوب أصداء ، وعلى الشفاه همسات تلثم حديثاً بيناً يطير فى الآفاق .

هى فى أصلها شعور قلب : رقيق كالنسمة السابحة مع الفجر ، صاف كالنبع المتفجر من صخر . . . استوعب مشاعر فقراء قومه وما زخرت به قلوبهم من عذاب الحرمان ، ووعى فى ذهنه خواطرهم التى كتموها حينا ثم راح يبثها بلسانه فى كل مكان .

وكانت رهيبة كصوت القدر ، قاطعة كالسيف لأنها حق ، رنانة الجرس كقصف الرعود أو صليل السلاح . . . ما سمعها أحد ينكرها إلا تلفت حواليه من خشية . ثم انطلق يفر من جزع وقد اضطرب فؤاده كالجناح بين جنبيه ، وود لو ردها عنه أن يضع أصابعه فى أذنيه .

وكانت أيضاً شجية كأغاريد ، رقيقة حانية ، قد تسكر السامع وتحرك المدامع . . . إذا رددها الليل هفت إليها قلوب من ولعوا بها قبل الآذان ، وإن حملها الصبح تلمسوا مصدرها ، مشوقين خفافا ، كما يلبى العابد نداء الأذان .

جاءت كنسمة الصبا من الشمال ، طيبة ريانة . . . ثم انطلقت سباقة إلى الوادى الأجرد ، تقطع الصحراء — بغير ونى — من الشام إلى قلب الجزيرة حتى حاضرة الإسلام . . . لم تقف بها فى مسراها أودية وشعاب ، ولم يخفت من حدة صوتها حجاب أو باب . . . بل مشت فى أعقاب صاحبها — الهاتف بها من قلبه — كما يتبعه ظله .

حتى المدينة أيضاً سار فيها ظله . . . فحين دلف بهيكله الضامر ، وخطت قدماه الناحلتان على دروبها ، وتطلع ببصره النفاذ إلى معالمها ، رهقت وجهه

المروق غبرة حزن ... أهذه حقاً مدينة رسول الله ؟ .. الأرض الطيبة المحيا والممات ؟ .. البلدة التي خلفها منذ أعوام عالماً وحدها من الإيمان ؟ .. لكم لعب بها الزمن إذن وأحال معدنها الحر إلى مظاهر وقشور ، ومشت عليه شراهة النفوس حتى صدئ وغاب لمانه ! .

أضحت بلدة غير البلدة ، كأنها استعارت ثوب أختها في الشمال ... كذلك بدت في عينيه لأول وهلة حتى حسب أنه في دمشق لم يبرحها ولم يخرجه منها عاهلها العاتي ... ولكن ذهنه ثاب إليه في لحظات وقد وخزته آلام تخذيه . ألا غفر الله لمعاوية وأوسع له في عفوه بقدر ما أساء إليه ... وعفا أيضاً عن صقالبته الخمسة : أولئك الذين وكلهم بهذا الشيخ الذاوى النحيل يطيرون به الطريق كلها من الشام ، خلال سعير الصحراء ، على بعير عار ولا يتريثون به مرة واحدة ليستريح ... ومع ذلك فقد حاول أبو ذر طوال الرحلة الشاقة أن ينسى آلامه ، وأن يهيء نفسه لمقام — خير من مقامه ذاك على حدود الروم — تطيب نفسه فيه .. فماذا لقى بعد أن انتهى به المسير ؟.

كاد الشيخ أن يطالع صورة ثانية من حاضرة الشام في حاضرة الإسلام .. أما البلدة الفاضلة — مدينة محمد القديمة — فقد كادت أن تختنق خلف البذخ الصارخ . أين ما هى فيه اليوم من رفاهة ولين مظهر مما نشأها عليه الإسلام من خشونة وصلابة عود ... وكيف غلبت عليها سريعاً هذه الميوعة المنتقلة إليها كالوباء من أرض الروم خلال بلاد ابن أبى سفيان ؟ .. يا ترى هل آثرت أن تستبدل بمسوح الزهد والوقار غلائل الترف والاستهتار لتعرض نفسها سلعة في سوق الدنيا ؟ .

واعتصرت يد الأسى قلبه الكبير وعصفت به . ما كان أحب هذه الأرض إليه وما أشد ما أصابها عليه ... إن تربها الذى طهرته أقدام الهادى ، وبللته دماء الشهداء ، وذكت فيه دوحة دين الفطرة يهم اليوم أن يطلع نباتاً خبيثاً . فأينما ولى الشيخ بصره في نواحي البلدة رأى رفاهة

وترفًا وجدة حتى لأوشك أن يحسب نفسه الشيء الفقير القديم الوحيد فى المدينة! حتى مسجد الرسول زالت عنه بساطته السالفة وحشدت على حيطانه النقوش والزخارف فبدا اليوم على غير ما كان . وهذه الدور ، التى كان عهده بها مساكن صغيرة لا تكاد أن تمنع عن أربابها لفح الهجير وقر الزمهرير ، مالها ذهبت الآن قصوراً شامخة تطاول السماء؟ ... أرقت الأجسام فوهنت القلوب التى قومتها قوة الإسلام ؟ .. إنه ليقلب كفيه أسفاً وبصره يتنقل حائراً بين هذه المظاهر التى لا ريب تنبىء عن خور وجنوح إلى الرخاوة والضعف . وما كان له إلا أن يأسف وهذا أمير المؤمنين نفسه — الرجل الذى صاحب نبيه الزاهد العزوف ، قد أقام له قصراً كالعروس المجلوة بين هذه القصور ، له شرفات وأبراج على عمد من مرمر شفاف كالعاج .

هذه المعالم الفاخرة لم تكن فى ذاتها ما ملأ قلبه أسى وحسرة ، بل دلالتها ... إنها العنوان البغيض لسفر الأخلاق الذى سطرته حديثاً شهوات الأنفس الزائغة عن بساطة الدين إلى زخرف الحياه ! ... إنها الرده ثانية إلى متع جوفاء كادت دعوة محمد أن تغيبها فى قبر الغابر . وكان أبو ذر دواماً يؤمن بالجوهر ويكفر بالمظهر : يعلم أن قوه المرء فى قلبه لا فى ثوبه ، وحدة الحسام بحده لا بغمده .

كذلك بدت المدينة — غب نفيه إليها — فى ثوب دمشق . متبرجة كالصنم فى يوم عيده ... لم يكد يحس فيها براحة النفس التى عناها ، بل سريعاً عاوده شعور الاستنكار وهو يجوس دروبها تماماً كما كانت حاله من قبل وهو يذرع طرقات حاضرة الشام ويجأر فيها بصيحاته . ما ترك الجنوب إذن للشمال منقصة لم يباره فيها ، لا ولا مذمة ! .. وهؤلاء الرجال الذين طالما شد آباؤهم على بطونهم حجارة — تأسياً برسول الله — لقهر الجوع ، قد أصبحوا يخطرون الآن فى مصبغات الديباج ، مصعرين الخدود شامخين بالأنف ، ولا يأبه أحدهم أن يطأ فى خيلائه أخاً له فى الدين ألقاه الطوى على الثرى وآذاه الجوع .. يا رحمة الله ! هذه أمة ، بفضل إيمانها المبنى

على نكران الذات ، دان لها العالم المترف ورجالها فى أسمال ، فمالها اليوم تدين بشريعة المال وتعنو لسلطان المال ؟ .

ويمثل دوى الرعود القاصفة ، وصليل السيوف ساعة الجلاد ، عادت كرة أخرى إلى الظهور دعوة هذا الشيخ الذى نذر حياته لإنصاف الفقراء من ذوى اليسار :

« . . . وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار » .

٢

. أهى زلة عصية على الغفران أن يملك عثمان المال ويبنى فيعلى فى البناء ؟ . . من عجيب أن النفوس التى ثارت عليه ، وصلت إلى حد كانت لا تستطيع معه أن تنفر ، لأنها رأته — وقد جعلت الخلافة الأمر له — كمن أراد أن تكون الدنيا أيضاً له وما أحسبه إلا قد زودها من مقومات الثورة وأسبابها بأدسم زاد .

هذه هى نقطة التحول فى حياة الخليفة المنكود • أو — على التحقيق — فى الأثر النفسى الذى انضمت عليه جوانح شعبه حياله ··· أما الواقع فلا ينكر على الرجل أنه كان مترفاً طول عمره من قبل الإسلام • وكان غنياً سماحاً ، سخى الكف والقلب ، له فوق هذا من السجايا الخلقية ما يجذب إليه الناس ويؤلفهم حوله • ولكن الشعوب دائماً تحصى حركات قادتها ، وتمنى بتصيد هنات حاضرهم بغير اعتبار لما أولوها فى غوابر أيامهم من أفضال • وقد نظرت الأمة الإسلامية إلى عثمان من خلال نفس المنظار الذى كانت ترقب به سالفيه ، فهالها أن تجده من طراز آخر : معنياً بمظاهر دنيا لم يقبلا مطلقاً عليها وزهد فيها قبلهما رسول الله ··· وكذلك كانت الحال حين تفتحت العيون على الترف السابغ الذى خاضت فيه الدولة الناشئة

وخاض فيه الخاصة . واستطاع كل عاتب مغرق فى الاتهام ، أو عاتب مستلهم بساطة الإســلام أن يرمى الرجل بالتشبث بالجانب الباطل من الحياة : هــذه الرفاهة وهــذا الولع بكنز المال ... فما كان – فى رأيهم – إلا مثلا لسواه من عماله وذوى قرباه والـكثرة الغالبة من صحابة رسول الله ؛ ساروا جميعاً على شاكلته ونهجوا نهجه . أو كان – بأعـدل الآراء – الحاكم الذى له القدرة على الحد من غلواء أولئك المترفين ولـكنه أغضى عن هذه الغــلواء .

على أن المنصف يمكنه أن يمد عنه اللوم قليلا . فلم يكن هو الذى أغرى الناس بالترف وحب الثراء ، بل هى طبيعتهم البشرية التى حضتهم على التملك ، وظروف الدولة الفتية التى انفسحت رقعتهــا فى أعوام معدودة فضمت تحت جناحها نصف العالم الخصيب . وما أحسب بدوياً نبت خــلاله جدوبة الصحراء ، وعانى مرارة الحرمان فى رمالها المستعرة ، إلا يعمل قدر وسعه – وقد تفتحت أمامه الأبواب – على جمع المــال الذى يجنبه الفاقة والشظف وسوء الحال .

بهذا قضى منطق الحوادث قضاء لامعدى عنه ، فاستجابت له طبيعة الإنسان ، وله اتسع فهم عثمان ، كما اتسعت موارد دولته الآخذة فى النماء ، فزاد عطاء الناس مائة درهم منــذ اليوم الذى امتلك فيه مقاليد الحـكم . وهكذا أبدى الرغبة الصادقة فى أن تعمل الدولة جاهدة لمصلحة الفرد . وخط عنواناً أنيقاً لسياسة حسنة – لو أنه احتــذاها طوال أيام عهده – لـكان تغير تاريخه المعروف .

وفى الحق لسنا نملك إلا أن نحكم له بحسن نواياه حيال الشعب كلما تتبعنا عن كثب الخطوط التى رسمها لعماله فى البــلاد وأمرهم فيها بتقديم خير رعاياه على كل ما عداه ... كان أول كتاب بعث إليهم به .

« ... إن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة . . »

وأوضح النهج الذى يسير عليه عمال الخراج بقوله :

« . . . إن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق ، وأعطوا الحق به . . . والأمانة الأمانة ! . . قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم . . . والوفاء الوفاء ! . . لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم . . . »

ولكن هذه السياسة لم تكن كفيلة وحدها باقتلاع البذرة التي أثمرت على الأيام دوحة السخط في نفوس الناس . ولم يكن عثمان غارس هذه البذرة بل كان — لسوء طالعه — ذلك الذي انفرد بالحصاد . . . أما الباذر فكان عمر . وضعها نواة صغيرة في مبدأ عهده ، ثم تركها تنمو ليجني منها خلفه ثمرتها المرة .

هذه حقيقة واقعة ليس إلى نكرانها سبيل . ولعل عمر لو امتد به أجله كل هذه الأعوام التي حكم فيها عثمان بلاد الإسلام ، للقي مصرعه بغير خنجر ذلك المجوسي الحاقد . ولئن حسب أن هيبة ابن الخطاب كانت قمينة بأن تحميه من ثورة النفوس فإنه إذن أخطأ جانب الصواب . ذلك أن التذمر نار آكلة ، لا تفتأ تدب في الخفاء ، تحت الرماد ، حتى يتاح لها ما يكشف عنها الغطاء فتنبعث سعيراً ذاكي الضرام . ولقد أشعل عمر الجذوة حقاً ثم لم يمهله العمر ليصلى حريقها المشبوب .

أشعل عمر الجذوة وتركها تتقد وتأكل النفوس . . . وتلفت الناس بعد مضيه عن الدنيا بأعوام ليروا عالماً غير ذاك الذي ابتناه لهم الإسلام . فلقد أوشكت المساواة بين الأفراد أن تكون معدومة ، بل إنها امحت أصلا مادام قد قر في أذهان الجمهور أنه لامساواة إلا بتكافؤ الفرص أمام الجميع للرزق الميسور .

ولكن هذه الفرص كانت انطوت مع الماضي . وانقضى أجلها بانقضاء أجل ابن الخطاب . فهذا الرجل الذي كان مثالا تحتذيه العدالة القضائية لم يكن كذلك في نظر العدالة الاجتماعية — أم خانه التوفيق حينما أمر بتنفيذ طريقته في تقسيم العطاء بين الناس ؟ إنه لابد قد حضرته إذ ذاك

عوامل رجحت لديه رأيه . ولكن مما لاريب فيه أن عوامل أخرى أقوى من السالفة قد غابت عنه وكان أحرى به — لو استشفها من وراء حجب الغد القريب — أن يعدل عما حزم عليه أمره واستقر فى باله . ولكنه رأى رأيا فالتزمه . لم يحد به عنه علمه أن سلفه قبله لم يقبله ، وأن رسول الله ، صاحب خير الآراء ، كان يسير على نقيضه .

وكذلك نحا عمر نحوه الخاص فلم يجعل الناس سواسية عند التقسيم ، فبينا نسمع الصديق يأبى أن يفضل أهل السابقة إلى الإسلام على غيرهم ويقول :

« . . . إنما أسلموا لله وعليه أجرهم ، يوفيهم ذلك يوم القيامة . . . »

إذا بابن الخطاب من بعده يخالفه ، ويجمل سياسته الجديدة فى كلمات :

« . . . إنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله . فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته . . . » .

وبهذا الأساس الذى وضعه عمر للتقسيم لم يجعل المسلمين كلهم على سواء بل رتبهم درجات ومنازل لكل درجة حظ من العطاء معلوم . . . ولعلنا نستطيع أن نفهم كيف رأى أن يخالف شرعة صاحبيه التى التزمت المساواة ، وكيف آثر عليها هذه التفرقة فى القسم حين نسمعه يقول : —

« . . . لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه . . . »

وإنها حقاً لفكرة جميلة ، ولكنها أيضاً غير سديدة . . . وهى هكذا تكشف عن عمر رجلا تسرع به دائماً عاطفته . غير أننا نبخسه حقه إن تركناه قائماً بصحة رأيه حتى ساعة حينه . . . ذلك أنه فى آخر عهده ود لو ثاب ثانية إلى نظام التسوية ، بل قد أعد العدة للعود إليه ، ورسم الخطة المثلى التى هدته إليها التجربة وتداول الأحداث .

وقال فى آخر عام من أعوام حكمه :

« . . . والله لئن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ، ولأجعلنهم رجلا واحداً . . . »

ولـكنها رغبـة أبت أن تحققها له الأيام . ومضى الرجل عن الدنيا إلى مثواه وقد خاف أمته طبقـات ، تختلف — على مر الزمن — بين ذروة الغنى والثراء وحضيض الحرمان والفاقة . فلما انعدمت بين أفرادها المساواة ، واتسعت هوة الفوارق الاجتماعيـة ، كانت ثمرة السخط قد نضجت وحان قطافها بيد خلفه النـكود .

٣

كانت صيحة أبى ذر صـدى النتائج اللازمة التى تولدت عن اختلاف التقسيم . وكانت النتائج هذه الفوارق التى نمت مع الزمن حتى لم تعد تستطيع هضمها نفوس الفقراء . . بل تبدلت حسداً ، وسرت إنـكاراً ، وانقلبت حقداً على أولئك الأشراف ، الذين نبتت طبقتهم من بين أوائل المسلمين ، وبدأوا حياتهم — أيام رسول الله — مثالا يحتذى فى البذل والإيثار ونكران الذات ، ثم ختموها — أو كادوا — بالترف المغرق والغنى والدأب على جمع المـال . . . أى المحرومين إذن كان يرى كيف اجتمع لزيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كانت الفؤوس وحدها أداة تـكسيره ثم لا يلتهب الحسد فى جوانب صـدره ؟ . . وأين محتاج يستطيع أن يرد طرفه راضياً بعد أن يشهد ماشية ابن عوف وما اقتناه من أباعر وأفراس عديدها الآلاف ؟ . . وهل من معوز يسمع عن مئات العبيد والإماء عند طلحة ، وعن قصور الزبير بمصر والبصرة والـكوفة وسواها من البلدان ، لا ينكر هـذا أشد استنكار ؟ . . يا عجباً من أولئك الذين آزروا نبيهم فى دعوته لدين المساواة تجمع بهم مطايا الثروة والترف والرفاهة بعيداً عن المساواة ! . .

هكذا جرت خواطر الناس فى أذهانهم وهم يرمقون السادة الجدد بعين حاسدة ، وكان عهدهم أنه لا سيد ولا مسود فى الاسلام . وبه اعتملت

عواطفهم كالنار فى قلوبهم ، تأكل وشائج الاخاء فيها وتميت الرحمة . ولم يكن أولئك الذين حف بهم الاستهكار هم وحدهم أصحاب المطايا الجامحة نحو نعيم الدنيا ، بل كانوا أمثلة محدودة للبقية الباقية من صحب محمد ، الذين أقبلوا على الحياة وقد استهواهم منها جانبها البراق بعد أن كانوا من قبل يميلون تعففاً عن مظاهر الحياة . . ولكن الفراغ والمال آفتا النسك والزهادة . وهذا عطـــاء عمر لا تكاد حاجاتهم أن تأكل منه ، والأعطية المتوالية فى عهد خلفه تتكدس لديهم العام بعد العام كلما امتدت رقعة الدولة ووسعتها الفتوح بين قرنى الشمس . . . ثم دع عنك بعد هذا ما أفاءه عليهم الاتجار بمختلف الأمصار من خير سابغ وقد خلى عثمان بينهم وبين بلاد الدولة جميعها يذرعونها وفق هواهم وأباح لهم منها ما منعته سياسة ابن الخطاب .

ثمروا إذن فائض أموالهم حتى بلغت إلى ما يكل عنه الاحصاء . وانبسط أمامهم عيشهم ليناً وحياتهم ناعمة رخية غاية الرخاء ··· إنهم فى الواقع لم يبخسوا الناس حقاً ولا جاروا على فريضة الزكاة للفقير المحروم · ولكن الزكاة لم تكن وحدها مجزية تسد حاجة الطبقات الفقيرة فى زمن بيعت فيه النخلة — وثمرها خبز العربى — بألف دينار · ولئن كان الدين قد ضربها على أصحاب المال ؛ فلأنها وسيلة للتخفيف عن أثقالهم أعباء الحيـاة وليس لأنها غاية الغايات فى النظم السماوية التى جيء بها لوضع الفـــاقة عن كاهل البشرية ··· وما من امرىء أشرب قلبه روح الاسلام إلا عرفه دين إخاء ، وما من إخاء بغير مساواة إن لم يكن بالتقديم والايثار ··· وهل كان لغير طائل قول رسول الله حين قال :

« إخوانكم خولكم ، جعلهم الله قنية تحت أيديكم ، فن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه ؛ وليلبسه من لباسه ؛ ولا يكلفه ما يغلبه ··· فإن كلفه ما يغلبه فليعنه ·· » ·

هـذه هى الناحية الانسانية فى الدعوة الاسلامية ما أحسب إلا أخفتها عن عيون القوم أكداس النضار الوهاج · ولو أن الناس عنوا بانتهاجها حق

عناية لوسعهم أن يجتثوا شجرة البؤس من الأصول والجذور . ولكن الانسان هو الانسان فى كل عصوره ، منهوم أبداً ، لا يشبع من مال . اما صحب محمد فقد عسر عليهم بعده أن ينظروا إلى الدنيا بمثل نظرته ، وأن يعالجوا شهوة النفوس بالصبر والرياضة ، وأن يجعلوا متع الحياة تحت مواطىء الأقدام . . . كان عصياً بلا ريب على طبائعهم البشرية — أمام إغراء الذهب — حتى أن يقولوا كما قال :

« ما يسرنى أن لى مثل أحد أنفقه فى سبيل الله أموت وأترك منه قيراطين . . . »

قيل :

« أو قنطارين يا رسول الله ؟ »

« بل قيراطين ! »

* * *

هكذا كانت نفوس الخاصة والأشراف فى تلك الفترة من تاريخ الاسلام . . . ولم تكن صيحة أبى ذر هى الصوت الأوحد الذى ارتفع يحارب هذا النهم ويحاول أن يردهم عنه ، بل سمعت هاهنا وهناك همسات تنكر الترف ، وأصوات تدعو جاهدة إلى السبيل الواضح السليم ، ليست كلها على ألسنة ذوى الحاجات . وكان طبيعياً أن يتململ فى عزلته معلم الناس الأول ؛ وحكيمهم بعد رسول الله . وأن يتحرك قلقاً كما يفعل أسد حبيس قفصه إذ يلمح ما يهيج ثائرته من خلال القضبان . . . كان دائماً يشعر أن هذه المظاهر البراقة التى جنح إليها أصحاب محمد ، رجال كتائب الايمان الأولى ، إن هى إلا جراح فى قلبه تدميه لأنها خدوش أحدثتها شراهة النفوس فى كيان الدين . ولكنه لم يكن يملك غير لسانه يفيض بجوامع كلمه — تماماً كالأسد إذ يلعق به دماء كلمه . كم من يوم مشى على إلى أولئك المترفين من الصحاب ، تارة بالنصح وتارة بالعتاب ! . . وكم من مرة واجه فيها عثمان برأيه فى سياسته المبنية على التهاون واللين إزاء تهالك

هؤلاء السادة على زخرف الحياة دون بساطة الزهادة ! . . وكلما عاد من حديث ملامة عجب لهذا المال كيف يستعبد الرجال ، ويشترى منهم قلوبهم رخيصة . . إنه هو واحد منهم ، نهل كمثلهم من نبع هاديه وبدأ وإياهم السير على سننه . . فما لهم توقفوا من دونه عن إتمام الرحلة ؟ . . وإنه أيضاً واحد منهم ، له عطاء كمثل عطائهم أو يزيد قليلا ، فما له لو أراد شبعا لأعوزه أن يجد فى بيته ما يملأ بطنه من دقيق الشعير ؟.

ولكن أمن المستطاع حقاً أن نقرن به غيره ، هو الذى ولى الدنيا ظهره ، وزهدها مقبلة أو مدبرة ، وقرن فيها البذل وإنفاق المال بالايمان فقال :
« لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده . »

٤

غلبت فتنة البذخ على نفوس الكثرة من كبار رجال الإسلام ، واستهواهم الثراء وحب الاقتناء . وكان عثمان كأحدهم ، لولا أنه يملك مفاتيح بيت المال فيستطيع متى شاء أن يهب بيمين وشمال . وكان سخياً حيياً ، ما قصد إليه امرؤ إلا أطلق له كفه . . . غير أن الحياء والسخاء كليهما كانا عون أهله عليه ، ووسيلتهم إلى قلبه الرقيق . . . وهل يسعه أن يرفض لهم حاجة وقد اتخذهم من دون المسلمين بطانة وأعواناً يسندون ملكه ؟ .

إنما وسعه أن يغدق عليهم من الأموال ما جادت به أريحيته وتسامى إليه كرمه . ولكنه فى البذل لهم لم يكن مسوقاً بسجيته السخية بقدر ما دفعته ظروف الأحوال . . . كان يعلم حق العلم أى الرجال بين الناس كان ذووه ، وأى المنازل نزلوها فى قلوب شعبه ؛ وبأى النظرات كانت تراهم عيون الأمة . . . ما من واحد منهم إلا تهامست به الألسن اللاغطة أو اقتحمته الأبصار وثارت به القلوب النقية الصافية والعقول الذاكرة الواعية . . . كانوا فى الناس ذوى ماض مشوب السيرة

معتكر السريرة . وحتى الذين كانوا من بينهم أنق صحيفة ، لم تكن الأذهان قد نسيت أنهم أرغموا على اعتناق دين الله فدخلوه وأعناقهم تحت ظل السيف ، وأن قلوبهم لم يعمرها الايمان أو يعلق بها إلا بعد أن تألفها رسول الله بالأعطية والهبات حتى لا يحملهم ضعف نياتهم على أن يمالئوا عليه الكفار . وكان محمد — العارف بطوايا الأنفس وأهوائها — يقول فيهم ، وفيمن كانوا على غير غرارهم ممن آمنوا ابتغاء مرضاة الله :

« إنى لأعطى قوماً أتألف ظلعهم وجزعهم ، وأكل قوماً إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الخير والغنى . »

ولعلنا فى هذا المقام يحضرنا كيف وجدت الأنصار أن رسول الله يعطى بعض قريش — وفيهم ابو سفيان بن حرب وابناه معاوية ويزيد — ما غنمه فى حنين ، فتقدم إلى أنصاره معاتباً يقول :

« أوجدتم يامعشر الأنصار فى العلالة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا؟. »

هؤلاء المؤلفة قلوبهم كانوا خير بنى بيت عثمان وكلهم تأخر عن الإسلام إلى أن وضحت فى الأفق شمس نصره . وإن منهم لمن تخلف عنه — حتى بعد أن فتحت مكة أبوابها لمحمد بغير أداة حرب — وقام تدفعه الجهالة وسوء تبصره بالأمور إلى إشهار سيفه فى عصبة من موتورى الكفار . ذاك كان يزيد بن أبى سفيان : حسب أن قد آن له أن يمنع بلدته ، فما وقف حتى وقع فى الإسار .

وكانت هناك أيضاً بقية منهم فيها عمه الحكم بن أبى العاص الذى خاض فى رسول الله من فحش القول والإشارة بما لم يغفر له بعد إسلامه ونفى من أجله إلى الطائف لا يبرحها بأمر رسول الله . وظل منفاه بعيداً فى عهد أبى بكر وإن شفع له لديه عثمان . فلما استخلف عمر ، ومشى إليه عثمان ثانية بالرجاء ، نهره وقال :

« يخرجه رسول الله وتأمرنى أن أرده ؟ ... إياك يابن عفان أن تعاودنى فيه بعد اليوم ! . »

ولكنه ما كاد يعتلى مقاليد السلطان حتى أكرم طريد رسول الله ورده معززاً إلى المدينة ومنحه مائة ألف .

وكان فيهم ذلك الفتى ابن أبى سرح الذى أسلم — فيما يبدو — نكاية فى الإسلام ، حتى إذا وكل إليه محمد كتابة بعض الوحى خان الأمانة وحاول أن يبدل ويغير فى التنزيل ، فأهدر الرسول دمه ، ثم عفا عنه عام الفتح واتسع له حلمه .

وكان أيضاً فيهم الوليد بن عقبة الذى عاد إلى رسول الله — وقد كان بعثه إلى بنى قريظة بعد إسلامهم — فزعم أنهم هموا أن يفتكوا به . . . وغضب له المسلمون ، وكادوا أن يشعلوها حرباً من أجله لولا أن تداركتهم آية من عند الله قالت فيه :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

ولقد حقت فعلا كلمة الله عليه ، لأنا لانلبث إلا قليلا حتى تطالعنا من تاريخ هذا الفتى صفحة ملطخة ، هى الصورة الواضحة لنفسه التى كشف عنها القرآن الكريم قبل كثير من الأعوام .

* * *

هذه ألوان من أسرة عثمان انعكست عليها عواطف شعبه منذ اليوم الذى تملك فيه أمور الناس . . . وكان رجلا يجتمع فى قلبه إلى جوار طيبته حبة بيته ومنه كل أولئك الذين أبت عليهم أقدارهم إلا أن يذهبوا فى التاريخ مثلا حية لعداوة الإسلام قبل أن تقهر نفوسهم على الولاء له . ولم يكن هذا بالعجيب منهم وهم أمويون . ولكن العجيب أن ينشأ من بينهم عثمان السمح ذو النورين . . . فلما استطاع أن يوليهم منة لم يحجم أبداً ، وتقدم راضياً بمنحهم من خيره وفضله . وما أحسبه قد خالف طبيعته البشرية إذ فعل ، ولكنه استجاب لها . ولمن كان مثله ، تقدم به العمر ووهن قوى ، وأوشك أن ينوء بمعظم الأمر الموكول إليه ، أن يؤلف حوله بطانة تشدد

عزمه وتحمل عنه بعض وقره . . . وأوفى الناس له بلا ريب هم أدنى الناس إليه . فلما علمهم موسومين بشبهات ماضيهم ، رأى أن يعوضهم عن حسن السيرة بحسن المظهر امله مستطيع بهذا أن يبهر النظرات الشزراء التي عهدها تقتحمهم من قبل . ولقد يكون المجد العارض مغنياً عن نقاوة السمعة بعض غناء ، والثروة السابغة مدعاة للتوقير والاحترام .

غير أنه نسى فى هذا أن الشعب الحانق على تفضيل السابقين إلى الإسلام فى العطاء لا يستطيع أن يغفر تفضيل من لهم تاريخ معلوم فى عداء الإسلام وإن كانوا أهل بيت عثمان . . . ولكنه كان رجلا كلفاً بذويه . لا يقدر — لفرط حبه إياهم — أن يتبين خطأ فى منة يعدهم بها ويرفع من مقامهم بين الناس . وكانت نفسه السخية تحبذ لديه الكرم حيثما اختلف وضعه . ولوصله قرابته بر يقبله الله ! .

كذلك كانت نظرته كلما اغترف من المال فغمر به ذوى قرباه . وبهذا جرى فى خاطره رأيه فاقتنع به أشد اقتناع . وكان عسيراً عليه أن يقلع عنه وإن عاتبه فيه صحبه ولاموه عليه . . . مشى إليه ذات يوم على بن أبى طالب ومعه نفر علموا أنه وهب أحد ذويه مائة ألف فعاتبوه فأجاب .

« إن له قرابة ورحماً » .

فأنكروا عليه حجته وسألوه :

« فما كان لأبى بكر وعمر قرابة وذوو رحم ؟ . »

قال :

« إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان فى منع قرابتهما ، وأنا أحتسب فى إعطاء قرابتى » .

فقاموا عنه غاضبين وهم يقولون :

« فهديهما والله أحب إلينا من هديك ! . »

٥

بدا عثمان كمن حرص على أن يعمل جاهداً لتزيد هوة الفوارق بين الطبقات اتساعا فى وقت دعت الحكمة فيه إلى محوها أو تضييقها فى القليل . ولكنه كان يحمل فى صدره قلباً لا تنعكس عليه مشاعر شعبه ، قد ملأه حب ذويه حتى لم تبق فيه سعة لغير الكلف بهم ، والفناء من أجلهم وفيهم . وكانت له عين تقصر عن الرؤية إلا لمدى معلوم ، لأن آله وقفوا يحجبون عنها بأشخاصهم وهيا كلهم ما وراءهم من أبعاد ومسافات . وكان عقله بعد هذا عقل شيخ . فقد مزية الصبر على معالجة ما يعرض له من أمور ، وكل فآثر أن يستعير منهم الرأى والفكرة .

وفى الحق لم يكن الرجل فى ثانى شطرى عهده إلا ثوب عثمان وذهن مروان ... أينما خطر أمام الناس رأوا الأمير الشيخ ، فإذا عمل بدت فى العمل آثار المشير الشاب .. . حتى الكلام لم تكن له سبيل إلى اختيار ألفاظه كأنما كان يلقنه قبل النهوض له . أو كأنه الستر الذى يتحدث من خلفه مروان . وإنه لمن الإجحاف بحق الخليفة الثالث أن يؤخذ بجريرة كل ما نسب إليه إلا إن تركت اليد الجانية وحوسب عنها القفاز .

كان مروان بن الحكم بن أبى العاص هو الحاكم الحقيقى للدولة ، والحاكم أيضاً لحاكم الدولة ! . . وكان ابن عمه فى يده ملهاة ، أضرت به طيبة قلبه وسلاسة قياده . ولكن الشيخوخة تقتل العزم ، وتطفىء جذوة التوقد فى العقل والحمية فى القلب . وعسير على من بلغ سن عثمان أن يظل معافى فى كلا الذهن والبدن ، وأن يملك نفسه أن تلين لضغط من كان أشد مراساً منه .

ولقد عرف مروان من قلب الشيخ طوية سليمة ، فلم يعجزه أن ينفذ منه كما ينفذ شيطان ... ولعله ظل طوال النصف الأول من عهد عثمان يحيك خيط شباكه فبقى هكذا فى الخفاء لا يسمع بسطوته الناس . ولكنه كان

متربصاً لوقته ، متحيناً للفرصة التى آمن أن لا بد سيثمرها دأبه . وما دام أمير المؤمنين كلفاً بأهل بيته ، قد أوسع فى قلبه لهم ، وغمرت مكارمه البعيد والقريب منهم ، فليكن إذن مروان من الأدنى أدناهم . وليتقدم إلى ابن عمه بما يقدمه على كل أولئك الرهط المتهافتين على ابن الشيخ تهافت الفراش على النور والنحل على الزهر . . . وهل هناك أجدى عليه من زواج يزيده بأمير المؤمنين توثق صلة وعلو منزلة ؟

ومن اليوم الذى زف فيه إلى أم أبان ابنة عثمان أخذ نجم ابن طريد الرسول يعلو فى حكم الدولة . وراح الناس يتطلعون إليه تطلعهم إلى مالك أقدارها المتحكم فى مصايرها . ولو كان كيساً لم يركب شططه ، لوسعه أن يصلح ما أفسد الزمن من سلطان صهره . ولكنه كان مفتوناً بالصلف ، مستبد النزعة ، يثيره النقد حتى الحماقة ، ولا يدفعه إلى معالجة الخطأ بقدر ما يدفعه إلى الإصرار عليه . وهذه صفة كانت علماً على سياسته التى أغرى بها عثمان حتى أورده حتفه .

وكأنما كان الرجلان كفتى ميزان ، رجحان الواحدة على حساب الأخرى ... فكلما زادت شوكة المشير ، وهنت هيبة الأمير ، وأخذ ما بقى له من إجلال فى نفوس شعبه يذهب بدداً ... ولو أن عثمان كان أنفذ بصيرة وأقوى على اكتناه نتائج الأمور لاستطاع منذ هذا الزواج أن يأخذ حذره ويتبين موقع قدميه . ولكنه كان ينظر بغير عينيه . وكان كلفا بمروان مفتوناً أشد افتتان ، لا يطيق أن يسمع فيه كلمة حق وإن جاءت على لسان من لا تعلق به شبهة .

وكان قد منح زوج ابنته يوم عرسه مائتى ألف من بيت المـــال سوى ما كان قد أقطعه إياه من قطائع . فلما أصبح ، جاءه مع الصباح زيد بن أرقم خازنه ، حزيناً يشرق بدمعه يرجوه أن يقيله .

استغرب عثمان غاية استغراب من البكاء والرجاء وراح يحدس فى ذهنه الدافع الذى حدا بعامله أن يترك عمله ، ويتوسل إلى الإقالة باعتصار عينيه .

فلما أعيا ذهنه أن يقع على سبب واضح معقول ، واستوضح الرجل وعلم سره، بلغ به العجب مداه .

وقال أخيراً محيراً ، بعد أن ألقى زيد إليه بما فى نفسه :

« أتبكى يا ابن أرقم أن وصلت رحمى » ؟ .

فأجابه خازن بيت المال بلا موارية ولا إخفاء :

« لا يا أمير المؤمنين . . ولكن أبكى لأنى أظنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته فى سبيل الله فى حياة رسول الله . . . والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً » !

فأغضبته هذه البادرة أيما غضب وصاح محنقاً بالناصح الأمين :

« ألق المفاتيح يا ابن أرقم فإنا سنجد غيرك » ! .

* * *

على أن هذه الواقعة لم تكن إلا حلقة من حلقات سخاء عثمان ، وحرصه على أن يتنعم آله بأسباب الجاه . . فحيثما جرت العين فى سطور تاريخه رأت إغراقاً فى البذل تكاد أن تحسبه من خيالات الأوهام . حتى فى بدء حكمه — فى ذات اليوم الأول لخلافته ، منح أبا سفيان شيخ بنى أمية مائتى ألف درهم ... ففيم هذا الكرم المغرق العجيب ؟.. وهل كان أداؤه لسبب معلوم؟.. لعل الرجل كان يلبى نفسه المطبوعة على الأريحية ! . . لعله —على حد قوله— آتى المال ذوى قرباه زلفى إلى الله ! .. لعله كان يستجيب لهذا أو لذاك من الدوافع الشخصية . ولكن المنافح من أجله ، المدافع عنه ، سيعيبه لا بد أن يقع فى حياته على جواب واحد يشفع له ويقوم مقام أوهى الأعذار . .

أما الناقد الداحض فيسير عليه أن يثبت له . وأن يجبهه بكل صنوف الاتهام . ألم يكن هذا الإنفاق فى غير وجوه الاصلاح العامة إلا عبثاً كاملا بالأموال ؟ .. وهذه الآلاف المبذولة — إن عرف جدواها على بنى أمية فما جدواها على الأمة الإسلامية ؟ .. وما للشعب ولأم أبان يتزوجها مروان —

ولعائشة أختها يتزوجها الحرث أخوه فيجزل الأمير للرجلين العطاء ويمهرها كأغلى ما تمهر النساء ؟ . قد كان عثمان غنياً حقاً يسعه أن يبذل العون لأهله ، ولكن أى ثروة هذه التى تحتمل توزيع مائة ألف دينار على الحكم بن أبى العاص ورجال بيته ، ومائة ألف ثانية على بنى عثمان ، ومائة ألف ثالثة على بنى أمية وآل أبى سفيان .. ثم غير هذه المئات المؤلفة على البقية الباقية من أسرته الوفيرة الفروع والأفراد ؟ .

هذا الإغراق فى السخاء كان حرياً بأن يشكك فى الأمير شعبه الفقير ، ويضعه من العيون الفاحصة فى نطاق الشبهات ، فما كان للطبقات المتربصة لأخطائه أن تصدق أن نصف هذه المنح المبذولة — فى القليل — لم يكن من بيت المال ، وأن ثروته القديمة ، التى أنفق جانبها الأكبر فى الكفاح لنشر الاسلام ، تحتمل أن تبقى فيها بقية تفى بكل هباته الجديدة .. ولعل أولئك المستريبين فيه لم ينسوا أن عطاءه طوال حكم عمر ، وكان لا يزيد على خمسة آلاف درهم فى العام ، لا يمكن بحال أن يبلغ جزءاً واحداً من مائة جزء مما وسعه إنفاقه على ذويه .

ولكنها سياسة اختطها الرجل لنفسه والتزمها أشد التزام . إذا وزنها الفاحص المتريث أعوزه أن يتلمس لها المعاذير وإن كان لا يعوزه أن يقدر دوافعها ونتائجها فلا يخطىء فى التقدير .. ولئن غابت عنه دعوة أبى سفيان لذويه — يوم استخلاف عثمان — أن يجعلوا الإمرة ملكا تتوارثه الأسرة ، فليذكر إذن هذه الدعوة الآن .. وليعجب أكانت إيحاء خفياً من شيخ بنى أمية رسب بواعية الخليفة الثالث ، ثم طفا آونة فى صورة جود يزرى بكل جود ، وثانية فى مظهر جاه يعز على النظائر والأشباه ! .. ثم ليسأل من بعد هلا يفىء المال منعة وقوة ، وهلا تفىء القوة سلطانا وسطوة ؟ .

٦

إنه الأمس فقط .. الأمس القريب الذى لم يكد ينطوى فى ألفاف الماضى إلا من قليل وإن بقى ذكره حاضراً فى أذهان الناس لا تغب آثاره .. وإنها الدعوة أيضا .. الدعوة السافرة الجريئة التى حاولت كلمات الخليفة المستنكرة أن تلفها فى غلالة تخفيها ، فجاءت الغلالة رقيقة رقة نفسه ، شفافة أبدتها على هيئتها الأولى ، كما أرادها صاحبها الداعى بها : شيخ قريش .

أجل إنه الأمس الماثل والدعوة السافرة . كلاهما له فى نفوس الناس أثر عالق لم يعد الزمن إليه يداً لتمحوه بقدر ما كان يعدها لتثبته أو تضيف إليه .

فما من رجل فى الأمة كان يرى الخليفة مرة إلا ذكر الواحد وذكر الثانية . . الأمس يتجدد فى كل نهار ، والدعوة يعلو صوتها كأنها تخرج لتوها من بين شفتى أبى سفيان كلما رأى الناس جديدا من فعال عثمان .

كان العصر كله يوما واحدا ، هو اليوم الأول لخلافة الشيخ الأموى ، يتكرر مع الصباح ولا يتغير ، كالصور الشتى لأصل معلوم ، وكان موسوما بسمات طبعها عليه الماضى قبل أن يطبعها الحاضر . ولو استعان المرء بخياله لهل حواسه على استخلاص صورة جامعة عنه ، لوسعه أن يراها فى ذلك المنظر الماثل فى الذهن وإن غاب عن العين ، بدار عثمان يوم استخلافه ، وقد اجتمعت شرذمة من أسرته يهيب بها شيخها وبالخليفة الجديد :

« يا بنى أمية .. تلقفوها تلقف الكرة . فوالذى يحلف به أبو سفيان ، ما زلت أرجوها لكم ، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة ! .. »

هذا المنظر القديم هو الصورة التى تحمل فى معالمها كل دقائق العصر . بل هو — فى الحق — الصورة المتكررة لكل أيامه حتى لكأن أبا سفيان كان يقف نفس موقفه هذا فى كل صباح ليدعو بدعوته .. بهذا تحدثت الوقائع من بعد كأنما لسان ابن حرب كان لها لسان حال . وبه تكلمت

الأحداث التي تلاحقت دراكا . فما مر يوم واحد من حكم السليل الأموى إلا وفى ثناياه دليل بالغ على التزامه النهج الذى رسمه سيد قومه . ولا جاءت لحظة إلا حملت منه الولاء لدعوة شيخه غاية الولاء .

ضرير بنى أمية دعا ، وأمير بنى أمية لبى .. ولا عبرة بعد هذا بما كان من استنكار الثانى بادىء الأمر للدعوة .. وإنما العبرة بأنه احتذاها خطوة خطوة ! .

* * *

بدأ عثمان — أول أمره — كمن أنكر على أبى سفيان دعوته السافرة إلى احتلاب السلطان ، وإلى تبديله من خلافة شورية إلى ملك متوارث فى بنى أمية .. ثم فعل كمن غلبته تلك الدعوة على عزمه .. قد كان حقا رجلا رخواً لا يملك أن يسوس نفسه ، ولكن عوامل كثيرة أخرى تضافرت عليه فسلبته حتى القدرة على الاستمساك بإنكاره . وقهرته — حتفت أنفه بغير افتراض — على سلوك الطريق المؤدية إلى تحقيق مطامع الأمويين .. هذه الأسرة الحالمة بالمجد منذ عبد شمس ، الطامئة إلى السيادة فى شخص أمية ، الساعية بسيف أبى سفيان وحقده لهدم كل سلطان يبزها ولو كان سلطان الدين ، قد آن لها أخيراً أن تشبع نهمها من السطوة والسيطرة والنفاذ .

فى كل فعاله كان عثمان يسير على غرار معلوم .. لكأنما كانت تدفعه دائما تلك الكلمات القلائل التى نطق بها يوم الاستخلاف شيخ الأمويين .. أو لكأنما كان أبو سفيان على أذنه يوسوس له قبل كل عمل يأتيه .. أم هو يا ترى نداء الماضى أيضا كان ينفذ إليه من خلال الأجيال ؟ .. إن الوراثة أخيراً قد قهره سلطانها الغلاب ، وإن الدم الأموى قد اقتضاه ضريبته الواجبة الأداء .

ولقد استجاب الرجل لنداء الماضى ، ولان لسطوة الوراثة ، ودفع ضريبة الدم .. إنه أموى المولد أموى التكوين ، موصول قلبه بأهواء

أسلافه ... وإذا كانوا جروا من قبله أشواطاً فى طريق السيادة ، ووقفوا طويلا ينافسون المجلين عليهم فى الميدان ، وأمعنوا فى منافستهم حتى ناجزوا فى محمد نفسه ســـلطان السماء ... إن كانت قد ركبت بهم نفوسهم كل هذه المراكب ثم قهرهم زمانهم على النكوص والتخلف ، فإنهم إذن اليـــوم قد أوشكت شمسهم على البزوغ • وأوشكت أحلامهم العريضة الموءودة أن تجد لها منفذا إلى الحياة بعد أن أصبحت فى يد أحدهم دولة عريضة تكاد ألا تحـدها حدود .

عثمان أمير المؤمنين قد استتب له أمره ، وانقاد له الناس ، وألقت إليـــه بطاعتها الأمصار . . . هذا الأموى أصبح الآن أمامه حقيقة ما كان أمية يرنو إلى بعضها بعين الخيال . تجمعت بين أصابعه خيوط يحرك بها دولا وشعوباً كيفما يشاء .. دانت له الرقاب ، وعنت الوجوه ، وسالت تحت قدميه الأموال.. إنه ليس بالطامع الذى يستذله الشره ، ولا بالمفتون بالجاه ، ولا بالنهم إلى عرض الحياة . إنه كان تقى القلب ، صافى السريرة ، نفسه غير مشوبة بسواد الأحقاد/. . إنه لم يكن مغرقاً فى الأموية كبقية الأمويين ! .. ولـكنه مع ذلك إنسان كغيره من الناس ، له طبيعة بشرية ، ودم حنان ، وعرق دساس .

هذه كانت وحدها أداة عثمان إلى تحقيق أهـداف أسرته . هذه الحوافز النفسية كانت هى الأداة . . أما هو فلعله أنكر دائماً بظاهر عقله — كما أنكر بلسانه — أن يقر لهم بحق واحد فى بلوغ هذه الأهداف . ولـكن العقل الظاهر فى مثل هذه الحالات جدواه قليلة . . معدوم الحيلة . والـكلمة النافذة فى النهاية ليست لمنطق اللسان ، بل لتلك القوة الدافقة الدافعة . . للعقل الباطن والواعية التى ليس لصاحبها عليها سلطان .

الحوافز النفسية دفعت عثمان للسير على غرار معلوم . وتحت ضوئها الساطع يستطاع فهم كل أخطائه . . هو لم يعرف مطلقاً أنه أخطأ ، ولم يقر على نفسه

بوزر ارتكبه لنعل أتاه . . ذلك لأنه كان يعمل دائما بحسن نية . أو كان حقا لا يعمل بنية مبيتة — على الإطلاق .

كذلك سار الرجل طريقه ، مقودا بزمام نزعة قديمة كالغريزة ، انتقلت مع الأجيال الأموية المتعاقبة فى عروقه وجرت دما قانيا لا يغيض . وراح بإملاء هذه النزعة يسود أهله ويرفعهم عاليا فوق رقاب الناس ، ثم لا يعدم — لو وقف موقف لوم أو موقف حساب — أن يتلمس لنفسه المعاذير فلا يعييه أن يقع عليها فى حسن اضطلاع بالأمور فضلا عن صلة الرحم وقرب الأنساب .

وكما سبق أبو سفيان بقية أهله إلى سخاء الخليفة وبره حتى فاز منه بأول هبة أخرجها يوم الاستخلاف ، كذلك كان هو أول من أفاد من أسباب النفوذ حين شاء عثمان أن يمكن لآله فى السطوة بعد الثروة . . فلم يكد يمضى عامان من حكمه حتى ارتفع نجم معاوية بن أبى سفيان فى الأفق ولمع . . وغدا ، بعد عامل لعمر على دمشق والأردن ، أميرا للخليفة الشيخ عليهما وحمص وقنسرين وفلسطين . واجتمع له بهذا حكم الشام كخطوة ثابتة إلى امتلاكها وامتلاك الدولة كلها بعد أعوام .

ثم سار الخليفة يذرع بواعيته البلاد فيقيم عليها هنا وهناك عمالا من ذويه ، ويضع فى أكفهم صوالج السلطة . وأخذ أفراد الأسرة الكبيرة ينتشرون فى الآفاق أمراء من لدنه على الرعية والجند ، يمسكون بالزمام فى البصرة والكوفة ومصر وغير هذه من بلدان . ولم يمض سوى قليل حتى قفز إلى أماكن الصدارة أمثال ابن عقبة وابن عامر وابن أبى سرح وسعيد ومروان ممن كانوا إلى عهد قريب بين صوف الأحلاس ومغمورى الناس .

وكذلك مكن عثمان لأهله فى الدولة ، ومكن بهذا لدعوة شيخه الضرير أن تتحقق . . وأصبحت البلاد فى أكفهم كذبابة أوقعها سوء الطالع فى نسيج عنكبوت ! . .

٨

كيف مضى الزمن والرجل حبيس هكذا بين أسوار تفكيره الخاص ؟ كيف ظلت غشاوة الأثرة على بصيرته لا تنجاب أبدا ؟ . . كيف عاش أيام حكمه كلها فى عالم لا يكاد أن يسمع فيه سوى رغبات أقربائه ؟ .

ليس عجبا أن يبقى عثمان طوال عهده مفصولا بينه وبين شعبه لا يتبين شيئا من مشاعره نحوه ما دام أفراد أسرته كانوا الترجمان غير الأمين لتلك المشاعر . هذه الشرذمة لم تصدقه مطلقا القول ، ولم تنفرج شفاهها المتحدثة عن كلمة واحدة تنبه ذهنه ، ولم تشر أصابعها مرة إلى موطن الداء . . . كل ما أخذوا به نفوسهم كان إخفاء الحقيقة عنه ، وتغطيتها بستار كثيف من التمويه والزور . وكان الرجل ، وقد أولاهم ثقته ، يسمع بآذانهم ، وينظر فلا يرى بعينيه ! .

وكانت صوالحهم هى وحدها أسمى الأهداف . وكانت غاياتهم ركوب هام الناس والنفوذ إلى المآرب من أى سبيل . . أما هو فكان ساذج القلب ، بريئا كالزهرة ، يعيش فى نطاق مضروب حوله من النحل ! . . وكان أيضا له سن شيخ وسريرة طفل . يلهبه الغضب ثم يرده الترضى إلى طبيعة اللين والاسترخاء . فإذا أوشكت تيارات العواصف الشعبية أن تهددهم فى أغراضهم أحيوا فيه حدة الشيخ وغضبته الفوارة على كل قائم أمامهم بالمناجزة والكفاح. وإذا هدأت العاصفة ومرت فوق رءوسهم بسلام فالطفل الكامن فى نفسه كفيل بأن يفىء عليهم من الخير كل ما يطمعون فيه ما استطاعوا أن يمسحوا على شعره بكف الملاينة والاسترضاء .

هذه هى الخطة التى التزمتها الأسرة ، والتزمها — أشد التزام — مروان ابن الحكم حيال عثمان . وبها استطاع ابن الطريد أن يملك وحده نواصى السياسة فى الدولة ، وأن يتحلب حكمها ويفرض نفسه فرضا على فكر الحاكم .

لم يكن فحسب مشيرا للأمير ، ولا وزيرا ينصاع لإرادته ويعمل وفق أمره ، ولا أداة يستعين بها عثمان على إنجاز ما يريد ، ولكنه كان أولئك جميعا فى حساب المظاهر ، وكان أيضا الأمير فى حساب الواقع الصريح السافر ! .

وكان امرأ لم يعوزه الخبث إلى جوار الشره وبعد الأهواء ، يحرك بأصابعه الخيط فى الناحية التى تمليها عليه شهوته ، ويعمل دائما وهو محجوب عن الناس بهيكل الخليفة الشهخ فيبدو العمل ويبدو عثمان فى آن . مثله بلا ريب كتلك الهوام تخشى النور وتدب فى الظلام . الخفاء كان ميدانه ، والدس سلاحه ، والتمويه مركبه إلى هواه . أفلا يشى كل هذا بجبن طبعه ؟ .

بلى قد وشى وانحسر الستر ! . . . ولكنه استنهض خبثه وراح يجيش كل ما استبطن من خبىء نفسه ليستعين به على المحنة . . فى بادىء الأمر قبل أن يدلهم الخطب كانت الكلمة الواحدة يوسوس بها للخليفة كفيلة بما يريد . ولم يكن التذمر إذ ذاك يعدو تهامس الناس ببعض أخطاء عثمان، أو تناولهم — فى كثير من الحرص والتحرز — عماله النابية ببعض الاستنكار . . ولو أن مروان كان حقا وزير صدق لوسعه أن يتدارك الفتنة ، وأن يكشف مخلصا عن مكمنها ثم يشير على ولى نعمته بالعلاج الحاسم . ولكنه كان امرأ جبان الطبع، لا يستطيع أن يواجه الحقائق فاستمان دائما على الأزمات بأسلحة الظلام .

سل الدس والخداع والوقيعة ، ومشى بين الخليفة وبين شعبه ، يرسم الحوادث وفق هواه ثم يثير كافة العوامل النفسية التى تضطرم بها دماء الرجل. استغل فى عثمان بره بأهله فصور له كل ناقد فى صورة ناقم عليه هذا البر ، حاسد أهله ما أصابوا من خير . واستغل فيه ضيق الخلق الذى يلازم الشيخوخة فأوغر صدره على كل من مشى إليه يرجو الإصلاح أو يطلب الإنصاف. واستغل فيه تشبث الشيخ المهيض بما فى يده من سلطان — وطبائع الشيوخ أدنى إلى طبائع الأطفال — فلون له من عارضه من الناس بلون الساخط الملول ، يتمجل

نهايته أن تحين وحكمه أن يزول . حتى طيبة نفس عثمان وحلمه استغلهما هذا الباغى وجعلهما فى عين الشيخ ذريعة الناس إلى الاستهانة به والجرأة عليه .

كذلك لم يبق فى الأمة رجل مشى إلى الخليفة بكلمة نقد إلا ألبسها مروان ثوب باطل . ولا دعوة تحدثت بها الشفاه إلا حاول خنقها قبل أن تذيع . وكان يستلهم دائماً نفسه فيسعفه خبثها بالذرائع والأسباب ، ويمده جبنه بألف وسيلة للمناهضة والكفاح . . . ولم يكن فى هذا بحامى الخليفة ولا بالذائد عنه بقدر ما كان ذائداً عن جاهه هو وعن سلطانه . قد علم فى قرارته فيم كان تذمر الشعب وإلى أين تؤدى به استجابة رغباته وأساس الاستنكار دائماً كان الترف الذى غرق فيه أهل بيت عثمان ومن لف لفهم ، وما جره الترف على بقية الأمة من الفاقة والحرمان .

حارب مروان النقد ليدافع بهذه الحرب عن نفسه ، وحاول خنق حرية الرأى لأن حياته الناعمة وحياة آله لا تكون إلا فى ظلام الاستبداد . ولو استطاع لقطع ألسنة الناس ليأمن سماع ما فاضت نفوسهم به من الشكوى المرة . غير أنه بقليل جهد أمكنه أن يجعل الأمير مؤمناً أشد الإيمان بأساليبه يقره على انتهاجها بغير توان . . هو حقاً لم يبد للعيان فى صورة المناجز . ولكنه اتخذ من عثمان ستاراً توارى خلفه . وما أحسب خطأ واحداً من أخطاء الشيخ إلا وفيه آثار واضحة من أصابع ابن الطريد .

وهكذا مضت الأيام والخليفة الشيخ غافل ، لا يستطيع أن يمد بصره لأكثر من نطاق داره ، ولا أن يرهف أذنه للصيحات التى جاءت تترى من هنا ومن هناك . فإذا رأى فحديث آله أصدق عنده من رؤية عينه ، وإن سمع فتفسيرهم لما صك سمعه هو إذن محور السماع . . . خشى معاوية أن تفسد عليه دعوة أبى ذر شعبه وتبتزه ما هو فيه من رفاهة واستبداد بأموال الناس يحتجنها أو يصرفها كما يشاء فكتب إلى الخليفة يقول :

« إن أبا ذر أعضل بى . . . وقد اجتمعت إليه الجموع ولا آمن أن يفسدهم

عليك . فإن كان لك فى القوم حاجة فاحمله إليك » .

فكأنه لم يخش من الداعية الزاهد إلا أن يفسد الأمر على عثمان . وكأن خوفه هو منه على نفسه لم يطف له ببال .

ومع ذلك فإلى أين أدى به هذا الصوت الداوى الذى ملأ كل الأسماع؟.. وكيف تلق الدعوة التى جاءته من الشام عبر الصحراء ؟ . . ولأى مدى استوعبها قلبه وتفكر فى قيمتها ذهنه هو العالم بأن صاحبها ما كان لينطق عن هوى أو ليدعو بها لغير وجه الحق الواضح المبين ؟ .. عجب أن ينسى عثمان كل هذا ويذكر فحسب — كما ألهمه معاوية — أن أبا ذر أراد أن يفسد عليه الناس ! .

ولكنه كان قد أولى آله ثقته . يسمع بآذانهم . وينظر فلا يرى بعينيه .. ولو مشى إليه بالشكوى آلاف الناس لأصم عن شكواهم سمعه ولتناولهم بأغلظ العقاب كما يشير عليه ذووه . . . لا يشفع للشاكى عنده شفيع من حقيقة ماثلة فى شكواه ، ولا من إخلاص وأمانة تنم عنهما كل مراحل ماضيه . وبهذه الروح التى جانبت الإنصاف وواجب الحاكم حيال رعيته ، تناول عثمان كل ما عرض له من نقد أو دعوة إلى إصلاح .

وكذلك راح يناجز المصلحين والدعاة ويقمعهم بسلاح أظلم الطغاة ، لايدع وسيلة من وسائل النكال إلا ركبهم بها عسى أن يقهرهم بالظلم على الإقرار بالظلم . . . حتى ذلك الصحابى الجليل لم يسلم من يده . لكأنما نسى له عثمان ماضيه وصحبته وعزوفه عن الحياة .. بلى قد نسى — فيما يبدو — لأنه أراد أن يذكر فحسب أن أبا ذر — ولمعاوية فى هذا القول الفصل — جأر بدعوته ليفسد عليه الناس .. ألا فأين الصواب إذن إن لم يكن فى دعوة هذا الشيخ ، وحضه الموسر على أن يرحم الفقير ولا يكتنز مالا يسعه أن ينفقه من أجل أخ له، وفى سبيل الله ، وعملا بهدى القرآن .

ومع ذلك فلن يعيي طاغية أن يقمع داعية . . . ولن يعجز صاحب طول وسلطان أن يقهر من يريد على ما يريد . . . وإن السلاح فى يديه حاضر ،

وإن البطش لـكثير الألوان والأساليب . وبحسب هذا الهزيل أبى ذر أن تبعد داره ويشق مزاره ويوارى وجهه عن الخليفة بأرض فلاة . . . بحسبه أن ينفى إلى الربذة فلا يلقاه النـاس عساه أن يمـوت فيها وتسكن عن ذكره ألسنة الناس !

٨

فيما حدثتنا به الآثار ، أوصى عمر الخليفة من بعـــده بالمهاجرين الأولين خيراً ، يعرف لهم سابقتهم . وبالأنصار خـيراً يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم . وبأهل الأمصار خيرا فإنهم رده العدو وحياة الفىء .

وأوصاه بفقراء الأمة يأخذ من حواشى أمـــوال الأغنياء فيرده عليهم . وبالعدل فى الرعية لا يؤثر غنيهم على فقيرهم . وبالشــدة فى أمر الله وحدوده ومعاصيه على القريب إليه من الناس والبعيد عنه .

ثم أوصاه بجماعة المسلمين أن يجل الـكبير ، ويرحم الصغير ، ويوقر العالم . وأن لا يضربهم فيذلوا ، ولا يستأثر عليهم بالفىء فيغضبهم ، ولا يحرمهم عطاياهم عند محلها فيفقرهم ، ولا يجعل المـال دولة بين الأغنياء منهم .

ولقد كانت حياة عمر فى ذاتها سفرا كاملا لهذه الوصايا لمن أراد أن يستعين بالأمثال النابضة بالحياة ، ولـكننا لا نستطيع — كلـما امتد الزمن — أن نرى فى خليفته رجلا يحسن قراءة الوصايا المـكتوبة فضلا عن التزامه النهـج الذى دعت إليه ، لأن عهد عثمان كله لا يكاد ينبئنا عن هذا بقليل ولا كثير !

خلف الرجل فنأى بجانبه عن المهاجرين والأنصار . وانحاز تحت ضغط عوامل خاصة إلى فئة من أهله مكانهم فى الذيول والأعقاب إذا ذكرت منـــازل ذوى الفضل من المسلمين السابقين إلى الإسـلام . وترك صوالج السلطة بأيدى شرذمة مفتونة من غلمة بيته ينفذون بها إلى اسـتعباد أهل الأمصار . وأوسع

للا ثرياء فى رحابه يستظلون بآلائه ويغرفون من نعمائه ، والفقير المحروم مقطوع بينه وبين ماله فى تراث الغنى من حق معلوم . وأرهف الشدة فكانت سلاحاً ذا حدين : واحد قاطع قمع به شكوى المظلوم ، وآخر مثلوم داعب به بغى الظالم، ولا مقياس له عند الحساب غير شريعة الأنساب . . . ثم بدا فى نهاية الأمر كمن آلى على نفسه أن يقرأ وصية عمر فيأتى من بعد بكل نقيض لها ، فآثر الاضطهاد والنكال عند محاسبته ناقديه : يستذلهم وينفيهم ويضربهم ويقطع عنهم موارد عيشهم من الفىء والعطاء كلما جاؤه بنقد أو أرادوه على التزام إصلاح.

كذلك فعل الرجل وكذلك رأيناه . . تحدث أبو ذر بما فاض بذهنه من آراء بادىء الأمر فى المدينة فنبذه إلى الشام . وارتفع صوته هناك لحق الفقراء فى أموال الأغنياء فرده للمدينة شر ردة . وأعضلت به الدعوة من بعد فنفاه بفلاة وفى ظنه أن النفى والتشريد هو السلاح القاطع لألسنة المصلحين ودعوة الدعاة .

وأنكرت فئة من خيرة صحب رسول الله عليه بعض أخطائه فناب عنها لديه عمار بن ياسر يحضه على الإقلاع عما وقع فيه ، ويبصره بالخير فى النزوع والرجوع فلم يلق منه سوى الغضب الذى غلب كل روية والعنف الذى بلغت حدته أقسى التنكيل والإيذاء .

وخالفه ابن مسعود فى رأيه عن جمع القرآن فلم يعالجه بالإقناع أو يصرفه بالمعروف والإحسان ، بل أمر به أن يؤدب لاجترائه فضربه بعض عبيده وضربوا به الأرض إمعاناً منهم فى الشدة عليه حتى كسروا أضلاعه ، ثم لم تقر عين الخليفه حتى أتبع هذا التعذيب بقطع العطاء عنه .

ومع ذلك فإن شبح مروان بدا جلياً فى هذه الوقائع ومثيلاتها من الأخطاء التى علقت بذيل أمير المؤمنين . كان هو القائم على تنفيذ مشيئة الخليفة إذا أخذنا بظاهر الأمور ، ولكنه حقاً كان صاحب المشيئة الغلابة أو منفذ المشيئات على الصورة النابية التى ترضى خيلاءه . . اعترض سبيل

على بن أبى طالب وقد خرج فى جماعة من مريديه يشيعون أبا ذر حين تركه المدينة فى طريقه إلى منفاه ، وحاول بما ركب فى نفسه من طبائع الصلف والغرور أن يبدو فى عين الجمع كأكبر مما يطيقه وسع ثوبه . . . جلس مزهواً على راحلته ، وركض بها يسبقهم إلى الرجل الذى جاءوا لوداعه ويسد عليهم طريقهم إليه . . . وتخير من بينهم أرفعهم قدراً يوجه إليه الحديث بنبرات جملتها الكبرياء كالإملاء .

قال :

« يا على . . . إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر فى مسيره أو يشيعوه ، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك ! »

فلم يطق منه على هذا التهديد الذى جمع إلى عنف التبليغ جفوة التنفيذ ، وبادره بالسوط يضرب به وجه الراحلة التى سدت عليه الطريق ، وهتف يقول :

« تنح . . . نحاك الله إلى النار ! »

وتذاكر عمار بن ياسر ونفر من الصحابة ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله فانتهى بهم الرأى إلى كتاب رفعوه إليه . . . فلما دخل به عليه عمار ، قال له الخليفة وهو لا يخفى الاستياء :

« أأنت كتبت هذا ؟ »

« نعم » .

« ومن كان معك ؟ »

« نفر تفرقوا فرقاً منك » .

« فمن هم ؟ »

« لا أخبرك بهم » .

« فلم اجترأت على من بينهم ؟ »

قال مروان وقد وجد الفرصة مواتية لإشباع ناحية فى قلبه صديانة للشر والإيذاء :

« يا أمير المؤمنين ... إن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس ، وأنك وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه » .

فما أسرع أن أقره عثمان على رأيه العجيب البغيض . وتناول عصاه فضرب بها الشاكى . وأعانه على الضرب أهل بيته ومن حضر مجلسه من بنى أمية حتى فتقوا بطن الرجل وألقوه على جانب الطريق — ذلك اليوم البارد المطير — وهو فاقد الرشد بين الموت والحياة . . . كذلك فعل عثمان بعمار الذى جاءه بالنصح فى ثوب شكاة لأنه رأى فى شكواه اجتراء من العبد على السيد يكشف نواحى الضعف فيه ، ولم ير جوانب الحق التى تنطوى عليه المظالم والشكايات فى أغلب الأحايين .

فى هذه الوقائع تبدو لنا من عثمان ناحية أصيلة فى طبعه هى القسوة البالغة التى دعته إلى الإمعان فى النكال : بالتشريد وفتق البطون وكسر الأضلاع وقطع الأرزاق ! .. ولم يكن العنف ديدنه من قبل . ولم تكن الشدة بعض ما جبل عليه . ولكنها كلها صفات مكتسبة وزلات أوقعته فيها مشورات شيطانه مروان — هذا المغرور الذى حفزه مركب النقص على الكيد لكل من هم خير منه وأعلى درجة عند الله وفى عيون الناس .

أما الخليفة فمن حقه على كل ناقد أن ينتصف له ، وأن يرد سهولة انقياده لشرور مروان إلى الشيخوخة التى زودته بفتور الهمة وضعف العزم وخور النفس أمام سطوة مشيره الشاب . . . وما أحسبه إلا كان يندم غاية الندم غب كل خطأ قسره مروان على اقترافه ، ويود بجدع أنفه أن يعرف السبيل إلى إصلاحه . ولعل موقفه — فيما بعد — من ابن مسعود يلقى ضوءاً على رغبته فى التوبة والنزوع . .

. . . خف إلى الرجل يعوده فى مرضه ، وذابت نفسه عليه حسرات وهو يرى كف الموت تكاد أن تلقفه ، فقال له يواسيه :

« يا أبا عبد الرحمن ... ما تشتكى ؟ »

قال ابن مسعود هادئاً وعينه على السماء :

« ذنوبى » .

« فما تشتهى ؟ »

« رحمة ربى » .

« ألا أدعو لك طبيباً ؟ »

فلاحت على وجهه بسمةساخرة وأجاب :

« الطبيب أمرضنى ! ... » .

فغص عثمان بريقه . وذكر فى هذه الآونة التى تدنى غريمه من آخرته كم كان متجنياً عليه . متحاملا غاية التحامل ، ظالما له حين أتبع إيذاءه إياه بقطع نصيبه من العطاء إمعاناً فى النكال ...

وراح من بعد يحاول أن يصلح خطأه ، فقال :

« أفلا آمر لك بعطائك ؟ »

فرماه ابن مسعود بنظرة ثابتة فيها ترفع وإباء وفيها استنكار وازدراء ، وقال:

« منعتنيه وأنا محتاج إليه وتعطنيه وأنا مستغن عنه ! » .

« يكون لولدك » .

« رزقهم على الله » .

فلما أعيي الخليفة أن يذكر له ما يرضيه نهض عنه وهو يرجو منه العفو ويقول :

« فاستغفر لى يا أبا عبد الرحمن ... » .

ولكن المريض الموتور أباها أيضاً عليه ، وقال عوضاً عن المغفرة والرضا :

« أسأل الله أن يأخذ لى منك حق ! » .

ومع ذلك فقد حز موته فى نفس عثمان . وآلمه أكثر الألم أن يشيعوه إلى قبره دون أن يؤذنوه بوفاته ليصلى عليه ... ومشى فى هذا إلى عمار بن ياسر يعنفه لأنه أخفى عنه نبأ الوفاة فقال له عمار :

« عهد إلى ألا أوذنك » .

فبان فى وجهه التأثر وغلبه الدمع ... ووقف هنيهة صامتاً بجوار القبر الذى خاف صاحبه الدنيا بقلب ملأ السخط جوانبه على الخليفة حتى أبى له أن يقوم على جدثه بالصلاة .

وتمالك أخيراً نفسه . فراح يترحم على الميت ، ويذكر مآثره بالحمد والثناء ، وقال للحضور :

« رفعتم والله أيديكم عن خير من بقى » .

قال الزبير ساخراً وقد وارى الخليفة عنهم وجهه وغادر المكان :

« لا ألفينك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادى !... »

٩

لعل مدافعة على لمروان يوم تشييع أبى ذر كانت اليد التى أسدلت حجاباً كثيفاً بين ابن أبى طالب وبين نفس عثمان ... لعلها الواقعة التى ورت الأزمة ... لعلها القشة التى رزح تحتها البعير لما أضيفت إلى وسق ضخم كان — لولاها — لا ينوء به ... على أى حال قد بدأ بها العهد الذى انفصمت فيه بقايا عرى الثقة التى كانت تربط من قبل رفيق النبوة بسليل السادة الأمويين.

وكان مروان هو الشخص الذى قطع الخيط الموصل بين الرجلين . وكانت وقيعته هى السكين ذات النصل المرهف الجديد . فلم يكد يعود إلى أميره حتى مال على أذنه . وكدأبه فى أمثال هذه الحالات راح يموه وينمق . ويصب فيها من نزغ لسانه ما يرسم خصمه فى صورة باغ ويصوره هو فى هيئة شهيد . وكانت الوسوسة سلاحاً أعاره إياه الشيطان ، فاستطاع أن يثير به من نقمة الخليفة وسخطه ما رآه كفيلا بأن يأخذ له من على كل ما أفقده الجبن عن أخذه منه ساعة الملاحاة .

وطارت فى القوم غضبة عثمان التى أرثها مروان . وبلغهم السخط الذى فارت به نفسه على الغريم المرهوب وما عقد النية عليه من الثأر لصاحبه منه ، فاستقبلوا علياً يقولون :

« ... إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر » .

فهز لهم رأسه وقد بان له هوان السبب ، وأجاب بلا مبالاة :

« غضب الخيل على اللجم ! »

غير أن الغضب لم يكن — فيما يبدو — وليد الحرص وحده من عثمان على أوامره أن يطيعها الناس ، بل كان أيضاً نتيجة حرصه على هيبة مروان أن يهدرها على . فما جاءت العشى حتى استقدمه إليه يحاوره فيما كان منه :

«ماحملك على ماصنعت بمروان . واجترأت على ، ورددت رسولى وأمرى؟»

قال على يبين له :

« أما مروان فإنه استقبلنى يردنى فرددته عن ردى ، وأما أمرك فلم أرده»

« أو لم يبلغك أنى قد نهيت الناس عن أبى ذر وعن تشييعه ؟ »

فأجابه وهو لا يخفى عنه الاستنكار :

« أوكل ما أمرتنا به من شىء يرى طاعة الله والحق فى خلافه اتبعنا فيه أمرك ؟ ... بالله لا نفعل .. »

وكأنما رأى عثمان أن الطاعة التى فرضها لنفسه على الناس لا تكاد أن تثبت أمام حجة هذا المجادل القوى البرهان ، فسارع يسد الناحية الخطرة ويقول:

« فأقد مروان » .

« وما أقيده ؟ »

« ضربت بين أذنى راحلته ... »

فقاطعه وهو يعلم إلى أين يريد الخليفة أن يسير بالحديث :

« أما راحلتى فهى تلك ، فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته

فليفعل . وأما أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ، ولا أقول إلا حقاً » .

وأوضح بهذه الصراحة موقفه أجلى وضوح . وتخيرها رداً حاسماً على ما ساف به لسان عثمان حين تحدث للناس بأنه سيعطى مروان حقه من على وينصره عليه . وما نحسب امرأ بظن الخليفة كان من السذاجة بحيث عى أن يكون القود ضربة سوط يسددها ابن عمه إلى بعير خصمه وينتهى بها الجزاء المطلوب .

هنا غلبت على عثمان حدته وضيق صدره فصاح كاشفاً عن مراميه :

« ولم لا يشتمك إذ شتمته ؟ فو الله ما أنت عندى بأفضل منه! »

فثار به على :

« ألى تقول هذا القول ، وبمروان تعدلنى؟ ... فأنا والله أفضل منك ، وأبى أفضل من أبيك ، وأمى أفضل من أمك . وهذه نبلى قد نثلتها فهلم فاقبل بنبلك ! »

وكاد الأمران يصل لعقبى غير مأمونة لولا أن جرى الناس بينهما بالاصلاح . ولكنه كان إصلاحاً ظاهره الرضا والقبول وباطنه من جانب الخليفة التحفز للاسترابة أو إساءة التأويل ... عذير عثمان فى هذا ما يكون عادة بين الرجل وبين خصم له عزيز الجانب معدوم العثرات قد أحاطت به هالة من إكبار الناس ... وعذيره أيضاً الحلقة المتصلة من ماضيهما يوم تأرجح السلطان بينهما وهمت كفة الغريم أن ترجح لولا عوامل شتى من الأهواء والميول . وللضعيف الغالب حذر دائم يحسه تجاه القوى المغلوب .

ثم شاء القدر أن يعد للخليفة فى حبال التوجس . كان كمن وكل نفسه بإحصاء خطوات على بل خطرات أنفاسه . فلم يفته أن يجد فيها دائماً محوراً يدور حوله شكه . وكانت آفته ضيق أفقه عن أن يتسع لفهم مشاعر الناس حق الفهم . وعجزه عن ردها إلى أصولها المنبعثة عنها بعد أن أحالته شيخوخته سطحياً يقيس الأمور بظواهرها دون النفوذ إلى ما عساها قد تنبئ عنه .

أحصى إذن على منافسه القديم خطواته وخطراته . وحكم عليها كما استطاع ضيق خلقه وما أثارته حولها وسوسة مثيرة من شكوك وشبهات ؛ فلم يعدم أن يسيء الظن ويسيء التأويل . وكان يجنح دائماً إلى التفرد برأيه أو الرأى الذى إياه لقن . ويعتقد فيه الصواب بغير تمييز ، ويرى الخطأ فى كل ماعداه . لذلك نجده فى كل خلاف نجم بينه وبين على عن تباين فى وجهتى النظر لا يرى إلا حرباً موجهة نحوه . وفى كل نقد دار حول ما كان يفعله آله يحسب مرماه هدم أولئك الآل وقص جناحيه هو بهذا الهدم . وعسيرعلى رجل هذه طريقته فى تناول النقد وتقبل الآراء أن يحسن الحكم على الأمور أو على الرجال .

ولقد زوده العصر بصنوف شتى من مثيرات الشكوك والمخاوف لأنه كان مليئاً بالكثير الجم من أخطاء آله وما ترتب عليها من استنكار لهجت به ألسنة الناس ومكان على منهم مكان الإمام . فلم تكن الشادة على تشييع أبى ذر ودفعه مروان آخر المشادات ولم تكن أولاها أيضاً . بل سبقتها وتبعتها أنواع تداولت حلقاتها حتى انقضى عهد الخليفة الشيخ على أسوأ انتهاء .

. . . قدم عليه من الكوفة وفد هم صورة لما انطوت عليه جوانح أهلها من السخط على واليهم : أخيه لأمه الوليد بن عقبة . ولم يكن مبعث نقمتهم اليوم ما أصابهم من سوء معاملة الوليد بقدر ما كان باعثه غضبهم فى حق الله . . . فلقد فسق الوالى ، وشرب الخمر بمجلس سمر بدار الإمارة . وخرج تتخبطه النشوة إلى المسجد فصلى الصبح بالناس أربع ركعات . . . كاد أن يتبعها بركعات ! . . .

هذا حدث خطر أنبأت عنه سيرة الأمير العربيد منذ اليوم الأول الذى وطئت فيه قدماه أرض الكوفة . وأنبأت عنه قبلها كلمات الله إذ نعته بالفسق فى آية من آيات الكتاب الكريم منذ قديم . وإن له لدلالته الواضحة أيضاً وضوح على سوء اختيار عثمان ولاته بغير استكناه نفوسهم ،

وكان له فى استكناه النفوس — لو شاء أن يفعل — ميزان سليم ،

ولكنه كان مفتونا بأهله . معنياً برفعهم إلى النجوم وأن وجد فى ماضيهم ما كان يجب أن يعدل معه عن تفضيل شأنهم على كثيرين بل قليلين . وبحسبك أن تعجب إذ ينسى لكل ذى فضل فضله فى سبيل أن يرفع أهله . . . ولعلك من بعد مغرق فى العجب إن علمت أن هذا « الوليد » جاء الكوفة بأمر الخليفة ليأخذ إمرتها من يد رجل من خير الناس هو سعد بن أبى وقاص . وليس للوليد عليه فضل معلوم إلا قرباه .

ما لامرىء يريد أن يجيش المعاذير لعثمان فى توليته أخاه يستطيع جاهداً أن يقع له على عذر مقبول . حتى ولو تذرع عثمان إلى عزل سعد بما كان قد دب بينه وبين ابن مسعود من خلاف ، فإن ذريعته تلك إن أوجبت العزل فليست توجب التعيين . . . وإنه لميسور عليه إذ ذاك أن يجد من المسلمين مائة أو ألفاً يصلحون لإمرة الكوفة فلا يقع فى ذيل أسمائهم اسم ذلك الماجن الخليع . . . وإنها لحقيقة قرت فى أذهان الناس أجمعين إذ ذاك حتى قالوا وقد رأوا أميرهم الجديد :

« بئسما استقبلنا به ابن عفان . . . أمن عدله أن ينزع عنا ابن أبى وقاص الهين اللين القريب ويبعث بدله أخاه الوليد الأحمق الماجن الفاجر ! . »

ولم يسعهم إلا أن يقولوا ، وهم يبررون هذا الاختيار أسوأ تبرير :

« أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمة محمد » .

ولئن كان تنصيب الوليد والياً قد أصاب من أهل الكوفة النقمة فإنه قد أصاب أيضاً من نفس سعد غاية العجب والاستنكار .

قال يسأله إذ دخل عليه :

« يا أبا وهب أمير أم زائر ؟ »

فرد الوليد :

« بل أمير » .

فما أسرع أن عقب سعد بجواب تملأه الدهشة والاستغراب :

« ما أدرى أحمقت بعدك أم كيست بعدى » .

ولقد نهج الوليد بالكوفة منحى من الحياة الخاصة كله خلاعة . ولف حوله فئة من المفتونين بالمجون . يقضون الليالى على أشهى ما تستطيبه النفوس اللاهية . ولم يعن مطلقاً بأن يرعى حق المنصب وما يجدر من توفيره له من توقير . ولم يعن أيضاً بأن يرعى حق أخيه عليه . فكان للأمراء أضل مثال ، ولأسرته كلها أسوأ عنوان . وراح يجمع من ضروب اللهو والتسلية بدار الإمارة ما جر عليه السخط والإنكار . وهو أبداً سادر فى غيه ، لا يكبح نفسه ، ولا يحاول أن يستر مساوئه عن العيون . وانطلق يعب من الخلاعة حتى جرأ الناس على مجلسه فاستباحوه . دخل عليه ذات ليلة جندب بن عبدالله الأزدى فوجده قد أنس إلى ساحر اصطفاه ، يلعب بين يديه . ويغر الناس بمكره وخداعه ، فغضب جندب لهذا المجون المرذول ، ومضى بسيفه أمام الوليد فأطار رأس الساحر وقال :

« إن كنت صادقاً فأحى نفسك » .

وكانت هذه الجرأة علامة الانذار للوليد لو شاء أن يفيد منها ، ولكنه لم يرعو عما كان فيه ، ولم يتناول الأمر كله إلا من ناحيته الظاهرة ، فحبس الأزدى لاجترائه حتى فرفيما بعد فكان عليه أشد المؤلبين والمناهضين حتى اقتلع من مقعد الإمارة ومضى على الزمن مثلا ناطقاً لحمق الحكام .

غير أن الذى يدمغه الله لايهديه الإنسان ، بل يظل موسوماً أبداً بفسقه لا يتحرر منه ؛ وتبقى السبة عالقة به ما بقى القرآن الأبدى الخالد البقاء . وكفى بالوليد عاراً أن وسمه الله فى تنزيله ، ثم وسمه من بعد شعر تندرت به المحافل وتناقله السمار ، ونظمه الحطيئة سيد الهجائين فجاء فيه بأقذع الهجاء .

قال عربيد الشعراء فى عربيد الأمراء :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه	أن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم :	«أأزيدكم؟» ثملاوما يدرى
ليزيدهم أخرى . . . ولو قبلوا	منه لقادهم على عشر

فأبوا ، أبا وهب ، ولو فعلوا لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو خلوا عنانك لم تزل تجرى

ومع ما كان قد سبق إلى علم عثمان من سيرة أخيـه ، ومن حكم الله عليه ومن خوض النـاس فيه ، فإنه عز على نفسه أن يسمع من أهل الكوفة كلمة واحدة تؤنبه بخلاف رأيه الذى يأبى إلا أن يعتقد له الصواب دون جميع الآراء . وبلغ من تعصبه أن سبقت رحمتـه لأخيه وثقته به الغضبة على الرجلين اللذين حملا إليه شكوى الشاكين .

قال لهما — ولم تخف من كلماته رنة سخط مكتوم :

« وما يدريكما أنه شرب الخمر ؟ »

« هى الخمر التى كنا نشربها فى الجـاهلية » .

وكأنمـا رأيا الريب فى عينى الخليفة فأتياه من لدنهما بالبرهان المبين الذى لا يقبل النقض : خاتم الوليد سلباه إياه وهو فى صرعة الخمر غارق لا يفيق .

ولـكنه الدليل الذى يفقد قيمته إذا نظر إليه بعين المستريب فى كل ناقد ؛ المسىء تأويل المشاعر والشكايات . لأنها — فى ظنه — لا تزيد عن كيد أريد به أو أريد ذووه . وما دامت الشكوى تمس أهله ، وتعلق أدرانها بأذيالهم فإنها إذن حسد حاسد أو تبييت موتور .

وهم الخليفة من مكانه ؛ وتقدم إلى الشاهدين وعلى وجهه علامات نفور ، ثم دفع فى صدريهما محنقاً وصاح :

« تنحيا عنى » .

وكذلك آثر الشيخ ألا يقصد مقصد الحكم العـدل ، وأن يكون سياجاً لأخيه دون القصاص المفروض .

وعجب الناس لموقفه ؛ ولغطت الألسن حتى سمع بالأمر على فأقبل يعاتب الخليفة ويستنهضه أن يؤول إلى الصواب .

قال له وهو يستنكر ماسمعه عنه :

« دفعت الشهود وأبطلت الحدود » .

فأغضى الرجل مهموماً محيراً ، ثم رفع بصره وهو يسأل فى استحياء :
« فما ترى؟ »

« أرى أن تبعث إلى صاحبك ، فإن أقاما الشهادة عليه فى وجهه ولم يدل بحجة أقمت عليه الحد »

فلم ير الخليفة بداً من الأخذ بهذا الرأى . واستحضر الوليد فلزمته شهادة الشهود ، ولم يبق إلا أن يؤخذ منه حق الله .

فى هذه الآونة غلبت هيبة الخليفة شجاعة الحضور فلم يتقدم واحد منهم إلى السوط يجلد به السكير ويقيم عليه الحد . وغلبهم أيضاً حياؤهم أن يضربوا أمام أمير المؤمنين أخاه المذنب ، وغلبهم ثالثة ما رأوا فيه الوليد من مذلة وهوان ... حتى الحسين بن على ، حين أمره أبوه أن يقيم على الرجل ما أوجب تاسكا وقال:
« يكفيه بعض ما ترى » .

ولكن ابن أبى طالب لم يكن بالذى يعرف الهوادة فى حق الله ، فأقبل والسوط فى يده على الجانى يهم أن يحده . ورأى الوليد الجد فى عين على والتصميم فى محياه ، فساءه منه عزمه ومسارعته لما أحجم الآخرون عنه ، وركبت نفسه ثورة عنيفة من السخط جعلته يسب جلاده ويروغ منه فى أرجاء المكان ، غير أن السقم لم يكن شفيعاً له ولا حائلا دون القصاص لأن ابن أبى طالب ما لبث أن تمكن منه ، وحاول جهده أن يتخلص من القبضة القوية فأعيته المحاولة . وراح يناضل عن نفسه ما وسعه النضال ويضرب بيديه ورجليه كما يفعل طائر أطبقت عليه الشراك ... ولكن ما هى إلا جذبة حتى وقع طريحاً على الأرض وعلاه بالسوط .

وأخذت الشفقة عثمان بأخيه ، وأحنقه هوانه وخزيه قبل أن يوجعه عناؤه وألمه ، فقال بلهجة غضب كأنها عتاب :
« ليس لك أن تفعل به هذا » .
قال على والسوط فى يده يتحرك على جسد الجانى فى صعود وهبوط :
« بلى ... وشر من هذا . إذا فسق ومنع حق الله أن يؤخذ منه » .

١٠

لولا ما انطوت عليه نفس عثمان من تحفز للغضب على منافسه القـديم والنفور منه لأعيى المرء أن يقع فى حياتهمـا على سبب واحد يوجب المخاصمه والنفور . فنى الواقع لم تكن مثيرات الخلاف بينهما سوى هنات يسع الحليم أن يفسح لهـا فى صدره ، ويسع المنصف أن يراها على هيئتها التى لا تنطوى إلا على الرغبة فى الإصلاح . ولـكن عثمان لم يكن حليما ، أو هو كانه فى زمان مضى قبل استخلافه ثم انتهى أجله بوقيعة الأمويين الذين أجادوا اللعب على أوتار شيخوخته الحادة المزاج . ولم يكن منصفاً أيضاً لأنه آثر أن يسيء الظن فى كل ناقد لم تربطه به من قبل منافسة ، فوسعه أن يسيء الظن فى على آلاف المرات . ولو استقصينا كل خـلاف نشأ بين الرجلين لرأينا الخليفة متجنياً على خصمه فى الاتهام ، جانحاً عن عقله إلى عاطفته ، ميالا عن نهـاه إلى هواه .

لم يكن على وحـده ناقد عثمان ، ولا مخالفه فى النظرة إلى الأمر الواحد ، ولا بالراغب — منفرداً — فى الميـل به عن السياسة التى جرت عليه سخط الأمة . ولـكننا — مع ذلك — نشهد الخليفة يلقاه بحذر ويودعه بحذر ، ثم لا نحسب إلا أنه اتخذ لنفسه شماراً نم عن مدى الضيق الذى خالج نفسه حياله ووضح غاية الوضوح فى كلماته القليلات :

« إنه يعيبنى ، ويظاهر من يعيبنى » .

أجل هذا هو جماع الشعور الذى كانت تنطوى عليه جوانح عثمان . وهو نتاج سوء ظنه الذى أفسد العـلائق بينه وبين على فى وقت كانت أحوج فيه إلى النقاوة والصفاء . ولئن كان أمـير المؤمنين قال قولته تلك حين سعى إليه مروان بالوقيعة يوم تسيير أبى ذر ، فإنها بقيت من بعد علماً على شعوره نحو على واستراتيته فيه . ولـكننا لا نجد علياً جاء الخليفة بغـير ما يجيء به الناصح

الأمين ولا نقده إلا استهدافا لصلاحه فى حكم الناس . لم يجاوز نقده مطلقاً العيب فيه أو الطعن عليه كما جاوز كلام غيره عنه . وبحسبنا أن نراه أقصى عابا فيه من الآخرين الذين كان عثمان يظن انحيازهم له وعطفهم عليه . وليس أبلغ فى هذا المقام من أن نورد هاهنا ما قاله فيه عبد الرحمن بن عوف وقد رأى منه ما أنكره وأنكره الناس .

قال نادما على ما سلف من إدلائه بالبيعة إلى عثمان :

« لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما وليت عثمان شسع نعلى » .

وقال ثانية وهو على فراش الموت وقد شهده يوطد سلطانه بتولية ذويه :

« عاجلوه ... عاجلوه قبل أن يتمادى فى ملكه » .

ولكن عثمان — فيما يبدو — كان حقيقاً به أن يغفر لمخالفيه أجمعين مالم يسعه أن يغفر بعضه لمنافسه القديم وإن كانت محاور الخلاف بينهما لا تعدو — من جانب على — التزويد بالنصيحة أو إزجاء النقد النزيه . ففيم كان شك هذا الشيخ إذن ، واسترابته ، وجريه وراء نفوره لأقصى الحدود ؟ .

لغير سبب معلوم سوى التوجس الذى يملأ قلب الغالب الضعيف من خصمه المرهوب المغلوب ، ولغير ذريعة إلا ما جبلت عليه طبيعة إنسان يخشى على ما فاز به أن يسلبه إياه عزيز مكين . وإن الشك للسياج الوحيد الذى تتحصن خلفه نفوس الضعفاء من قوة الأقوياء .

بهذا يفهم سلوك عثمان ، وعلى ضوئه نرى على أية صورة من الصور كان يتقبل نصح على أو نقده الذى كانت غايته خير الأمة وخير أميرها المستريب فى آن . كان يأتيه بالرأى القويم فى الأمر من الأمور فيرفضه الخليفة ويأباه . وكان يبصره ثانية بالنهج الواضح السليم فلايقره إلا ريثما يستطيع بعد قليل أن يتذرع بتوافه الذرائع التى تحله من هذا الإقرار . وهو فى الأولى قد حفزه على الرفض إباؤه أن يعترف لغريمه بالتفوق ، وفى الثانية يلين هنيهة لضغط الظروف ثم لا يلبث أن تستبد به طبيعة الأهواء والعناد ، وكلا السلوكين فى نهاية الأمر يلتقيان .

وكانت له أيضاً حال وسط بين الحالين ، تلزمه الحجة ، ويقهره المنطق القوى السليم فيصبح نهباً مقسما بين الرغبة فى الاستمساك بمناد غايته خطل ، والنزول على رأى ليس له فى ابتكاره فضل ، فلا يلبث أن يؤثر الأولى ليجنب نفسه الظهور أمام خصمه على هيئتها الملومة من الافتقار إلى استنباط الرأى الراشد الحكيم ... عاب الناس عليه إتمامه الصلاة بمنى أثناء الموسم فجاءه بعدها على — فيمن جاءه من صحب رسول الله — فقال :

« ... والله ما حدث أمر ، ولا قدم عهد ، ولقد عهدت نبيك يصلى ركعتين ، ثم أبا بكر ، ثم عمر .. وأنت صدراً من ولايتك ، فما أدرى ما يرجع إليه » .

فلم يحمله السؤال الذى جاءه فى صورة استفسار على محاولة تبرير الخطأ إن لم يكن حافزاً له على الإقلاع عنه أو الوعد — على الأقل — بالعودة إلى الصواب ، بل رده محرجا يرد بجواب هو لا جواب :

« رأى رأيته ! . »

شخصيته جمعت عجباً من النقائض التى طبعت سلوك صاحبها بألوان شتى تنافرت وتجاورت بغير اتساق . بدا فيها اللين الأصيل البالغ إلى الرخاوة متصلا بالعنف المكتسب الجانح إلى القسوة . والحلم الذى منشؤه الطبع بالحدة التى اغرى بها التطبع . والخضوع الذى يلازم النفس الضعيفة بالصلابة التى يولدها الافتتان بالتزام قوة كانت من قبل عزيزة ممنوعة . وإنها جميعاً لصفات مجزئة بأغراضها لو أحسن وضعها فيما يصلح بها ، ولكنها كفيلة أيضاً بأن تقصر دون الأهداف وتجر إلى العثرات إذا لم يستوح المرء — عند استعمالها — الكياسة والتبصر ودقة التقدير .

لقد كان عثمان — أمام مسائل عهده — طبيباً غير بارع . توافرت بلا ريب فى جعبته الأدوية ولكن أشكل عليه التميز بين الأدواء ، فوصف الدواء لغير دائه وعالج المريض بغير دوائه ... وكان كلما أخطأ و تزايد حوله اللغط وكثر فيه العائب والناصح ، سارع إلى الإرهاب والقمع دون الانتصاح

وإلقاء السمع ، حتى أصبحت كل مسألة تتبعها مشكلة ، وكل مشكلة تجر في أعقابها مشكلات أثارت عليه نقمة الغريب وسخط القريب .

أجل .. حتى بين أهله لم يعدم أن يجد مناجزاً يؤلب الناس عليه ويدعوهم إلى خلافه والانفضاض عنه .. ولكن مرد التأليب في هذه الحالة لم يكن غيرة محمد بن أبي حذيفة على مصير الأمة الإسلامية بقدر ما كانت الغضبة لمصلحته الشخصية . فهذا الفتى المفتون بالسلطان افتتان بقية أقارب عثمان ، آذاه أن يؤثر الخليفة عليه سواه من أهله فيهبهم الولايات والمناصب ترفع من شأنهم بين الناس ، وتحيلهم — من دونه — أمراء ذوى سطوة على العباد والبلاد . ولم يكن هو — في عين نفسه — أقصر باعاً منهم أو أقل كفاية وقدرة ، فامتلأ قلبه مرارة على الخليفة .. كان يلقى الرجل عائداً من غزو الروم فيتخابث ويسأل .

« .. أمن الجهاد ؟ » .

« نعم » .

فيشير بإبهامه إلى ناحية الحجاز ويقول :

« أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً » .

« فأى جهاد ؟ » .

« عثمان ! » .

ثم لا يني يبث سمومه في نفوس الناس واحدا بعد واحد حتى مضى ، وحقده رائده إلى مصر يلوذ بجماعات المخالفين ، ويضم صفوفهم ، ويرفع صوته بدعوتهم حتى آن له أوان الثأر من سيد بيته الذى منعه ما أباحه الفتية الآخرين.

هذه الصور المتواترة من المخاصمة والخلاف كانت جديرة بأن تملأ نفس الخليفة الشيخ بالريبة في أغلب الناس إن لم يكن في كل الناس ، وأن تدفعه ضيق الصدر على كل ناقد أو حاقد ثم ترمى به إلى أحضان فئة قليلة من أهله وجد عندهم الرضا عن أعماله بغير نقد ولا مراجعة ، يمعنون له في إظهار الرضا

فيمن هو فى الميل إليهم والثقة بهم إلى غير حدود . كانوا يمسحون بأكف المراءاة على رأسه فيهدأ لهم كالطفل بين ذراعى أمه حتى ينام ويغمض عينيه عما حوله من أحداث .

ولقد نام الرجل بعد أن فترت أجفانه ألفاظ التدليل والتمويه التى حرص مشيروه أن يسمعوه أياها . ومضت أمامه الحوادث تترى فما رآها إلا بعينى غافل ، ولا تلقاها بجد أو احتفال . حتى إذا بلغ خطرها حدا أعيى فيه إخفاؤها أولئك الذين كان ديدنهم الإخفاء عنه ، أصبح شأنه كمن سار وهو نائم ثم استيقظ وقدمه فى النار ! .

ثم فتح عينيه أخيرا ، وانتبه فى آونة تساوت فيها اليقظة و إغماض الجفون. فإذا المسألة ليست نقد ناقد أراد أن يتصيد الهنات والأخطاء ، ولا حقد حاقد أعياه أن يستر غل قلبه ، ولا شنآن موتور غلب على أمره فى مهدان المنافسة فاستطاع من بعد أن يتأهب للثأر . . كلا ، بل أمحى كل هذا فى لحظة واحدة ، وتوارى فى ارفة عين كأنما بقوة ساحرة ليبدو بداله النتاج الحقيق لثورة النفوس على الشيخ الغافل .. الحصاد السام الذى وضعت بذرته عوامل شتى ، وأنبتته كل أرض وسعتها الدولة المريضة التى قام عليها عثمان فأظلها منه الحكم ولم ترعها الحكمة .

١١

لم يكن التذمر فردياً نشب بنفوس بضعة من الناس دون بقية الرعية ، ولا طائفياً نضحت به قلوب طبقة دون غيرها من طبقات ، ولا قومياً ألم بأحد الأجناس الكثيرة التى انضمت عليها الدولة الإسلامية المترامية الأطراف . ولكنه كان جامعاً ، شمل الأمة أفرادا ، وعمها جماعات ، ولقى صداه لديها شعوباً عديدة النحل والألوان .

غير أن الذى لم يكن فى الحسبان أن تكون قريش نفسها من بين أولئك

المتذمرين . وأن تتقدم الصفوف أمامها مناهضة رجالها ، داعية عليه مخذلة عنه ، كأنما فاتها أنه أحدها يسيء إلى هيبتها ما يأخذ منه . ويضعه بفشله مثالا ناطقاً على فشلها هي وعدم إحسانها القيام على أمر الناس .

قد كانت حقاً في الخليفة نواحي ضعف لا تدع لمنصف قادر على كبح لسانه ألا يخوض فيه أو ينقد عمله . ولكن قريشاً في الأغلب لم تتوخ في النقد الإصلاح لذاته ، بل اتخذته ذريعة إلى أغراضها أو التزمته ثأرا منها لهذه الأغراض التي فوتها عليها عثمان . وكلما جرى المرء وراء الأسباب التي أثارت نقمتها وسعه أن يرى خلف أكثرها أسباباً شخصية هي الطمع في المال أو الجاه أو النفوذ . وما من رجل في العالمين كان يستطيع أن يرضى نزوات كل هذه النفوس الظمأى إلى أنواع متباينة من عروض الحياة مادام قد سار سيرة عثمان ولم يلتزم شرعة المساواة عند معاملته الناس .

أجل كان تفريقه في المعاملة هو أس البلاء . وهب فأنقم عليه من لم يساوهم بغيرهم من المحظوظين والمحسوبين عليه . ونصب الحكام والولاة فباء بغضب الأثيرين عنده بالمال ، لأن الحكم متعة تفوق متعة الغنى والثراء . ولو أنه جعل العدل أساساً للبذل ، والكفاية مؤهلا للولاية لجنب نفسه سخط كل طامع في مال أو منصب . ولكنه وكل لهواه وحده توزيع الهبات والولايات ، والهوى دائماً خداع .

وكذلك وسع قريشاً أن تضج من شيخها — هي أسرته الكبرى — لأنه آلى بمعظم خيره أسرته الصغرى آل أمية والحكم وأبي معيط . ولم يكن الشعب ، النافر حتى الآن بغير إظهار ، الطاوى في قلبه تذمره ، يهمه أن ينصر أحد الفريقين على الثاني ، أو يغضب لمن آل منهما بالصفقة الخاسرة . ولكنه كان متفتح النفس للتبرم فأمدته قريش بمادة جديدة للسخط على الخليفة الشيخ. واستطاعت — وهي في عين الناس السادة والقادة — أن ترسم للرأى العام طريق النفور الذى أدى إلى الثورة ، وأن تحمل علم العصيان فتسير خلفها العامة. ولم يبق من بعد أحد كان يتحرز من البوح بسخطه على عثمان إلا قد أكسبه

موقف قريش جرأة على الرجل ، فسارع بإظهار سخطه بعد أن رأى قادة الرأى فيه لا يستطيعون ستر نفورهم من صاحبهم ولا يحاولون تخفيف اللام عنه.

بهذه النظرة حكم الرجل فاستطاع أن يرفع من شأن دولته على حساب أمته . عقد الألوية وسير الجنود ووسع الحدود ، ولكنه لم يكن حريصاً على الارتفاع بشعبه إلى مستوى من الحياة الاجتماعية أجدى عليه من تلك الفتوح، وغلب دائماً صالح الوحدة السياسية التى ضمت شعوبه على صالح هذه الشعوب نفسها ، وأولى بالحكومة الرشيدة أن تستهدف أولا خير رعاياها .

لكن عثمان لم يكن يعتنق هذا المبدأ ، أو — على القاول — أجبرته ظروف الأحوال التى أحاطت به على ألا يسير عليه . أما هدفه الحقيق فكان الاستزادة من رقاع الأرض التى يرفرف فوقها علم حكمه . وكانت متعته الأولى أن يلق بالنظرة على شعوبه فيراها كلها أداة دائبة على العمل من أجل دولته . ولئن كانت هذه الأداة هى القوة التى تحقق له أغراضه السياسية إلا أنه لم يوفر لها ما يحفظها مجلوة موفورة النشاط ، مقبلة بكل نفسها على الواجب الذى وقفها عليه . لقى عمرو بن العاص بعيد أن عزله عن ولاية مصر فقال له مزهوا معتزا وهو يشير إلى أموال جمة بعث بها إليه عامله الجديد عبد الله بن أبى سرح:

« إن تلك اللقاح درت بعدك » :

فما أسرع أن أتاه الجواب الذى يزرى بزهوه واعتزازه . . . قال له عمرو فى كلمات قليلات تدل أبلغ دلالة على سياسة الاستنزاف التى جرت عليها الحكومة فى تلك الفترة من الزمن حيال الشعوب المحكومة :

« ولكن فصالها هلكت يا أمير المؤمنين ! . . »

فى الحق لسنا نتهم الرجل بالعمل على ابتزاز الولايات مواردها ، ولكن عماله على تلك الولايات جعلوا هذا بعض ديدنهم وبدت الأمصار المختلفة — فى أعينهم — كقطيع الأبقار يدر الخير على قلب الدولة الحجاز . . . ثم

فى هـــذا أحد نوعين : وال استغرقه حب الترف فحرص على استجلاب الأموال لنفسه ولمن خلفــه بالعاصمة من مدبرى الحـكم ، وآخر قهرته الأحوال على استجلابها ليشبع نهم غول الحرب التى شنتها الدولة فى كل اتجـاه تنفيذاً لسياسة الفتوحات . . . ولـكنهم فى الحالين أمعنوا فى استنزاف الشعب ، وجاروا على حقوق الناس فى الفىء فنعوها عنهم أو أنقصوها لأنها لم تعد — فى نظرة الولاة — حقاً واجب الأداء . . . وقف معاوية بن أبى سفيان على منبر دمشق وقد عـلم أن الناس سرى فيهم التذمر من حبس هذه الأموال . فقال :

« إنما المال مالنا ، والفىء فيئنا ، فمن شئنا أعطيناه ، ومن شئنا منعناه »

وقد كان من أثر هذا الإرهاق الاقتصادى الذى وقعت الشعوب تحت وطأته أن بدأت العيون تتفتح فيها على حقائق كانت قد غابت عنها إلى قليل . وكما وضح للناس التفاوت بينهم وبين آل الخليفه وقريش فى استحقاقهم للمزايا من المهات والمناصب فقد بدا بينا تفاوت من نوع آخر بين الشعوب الدخيـلة كلها وبين الشعب الأصيل الذى ضمها تحت رايته . ولم يـكن التباين الاقتصادى هو الآفة التى أوشكت أن تنخر فى عظام الدولة بل الشعور بالهوان هو الذى جرح نفوس أهل الأمصار وهم يرون العرب يعلونهم سيادة وثروة . . . فـكل عمال الخليفة على رقاع الدولة كانوا من أهله فقبيله . وكل عـلم بارز فى شئون المال والتجارة كان يتصل بهذا القبيل بأكثر من سبب واحد إن لم يكن من رجاله الأعلين . وما كان لمصرى أو كوفى أو بصرى أن يشق طريقه بين هذه الطبقة السائدة وقد حيل بينه وبين المزايا التى تؤهله للاندماج فيها إلا إن كان لهم بطانة أو تابعاً يسير فى الركاب.

أى فارق إذن بين هــذه الدولة الجديدة وبين الدول البائدة من الفرس والرومان ؟ . . وأين دعوة المساواة التى نادى بهـا الإسلام واستجابت لهـا طواعية هذه الأجناس الشتى من شعوب الأرض ؟ . . قد كانت المبادىء التى بثها النبى ووضعها أساساً لعالم جديد سعيد كفيلة بأن تؤلف من الشعوب المختلفة أمة

واحدة توثق بينها المحبة إذ تسودها المساواة . ولكن الطريق المستوية وجدت من ينحرف عنها ويستبدل بهـا أخرى ملتوية لا تقوده إلى العالم المأمول . . وقد بدا الناس كأنما الآمال التي بذر الدين في قلوبهم نواتها قد أو شكت أعوادها أن تميل وتتقصف . وراحت الثمرات المرجوة تتساقط فجة تحت الأقدام قبل أن تينع . وكلما ألقى امرؤ ببصره في الناحية التي أمل طويلا أن تبزغ منهـا شمس المساواة لا يلبث حتى تطالعه سحائب دكناء تلف الأفق كله وتحجب عنه الضوء . . . ولم يعد هناك إلا ظلام الماضي بما فيه من جهالة واستبداد يطارد هذه الشعوب التي لم تكد تتحرر من ربقة الدول البائدة حتى رأت نفسها تخبط في الطريق الجديد إلى مستقبل مجهول مبهم . . .

هذه الشعوب التي خلفت وراءها الغابر مثلوجة الصدور أضحت اليوم تتهيب موقفها وهي ترى غـدها في مرآة حاضرها المظلم . . . أهي ما زالت تعيش في الماضي ؟ . . أكانت هـذه الفترة من السنين القلائل السالفات التي أعقبت رسالة محمد حلماً هانئاً ما لبثوا أن ارتدوا منه إلى يقظة شقية ؟ . . إن يومهم هذا موصول إذن بماضيهم الذي لفه استبداد فارس والروم . وحياتهم في ظل الدولة الفتية ليست إلا حلقة من حياتهم في ظل أختيها الذاهبتين خلف ستار التاريخ . ولكن عيونهم التي أغمضها من قبل ذل الظلم ، وبصائرهم التي رانت عليها حلكة الاستعباد قد بدا لها في شريعة الإسلام قبس يوشك أن يضيء أمامها الحياة . وأخذ الشعور بحب الانطلاق والتحرر يراود النفوس الحبيسة . فلم يعد الناس من بعد يفزعهم سيف الإرهاب وقد علمتهم الدعوة المحدية أن سلاح الظلم مفلول الحد وأن دولته دائمـاً إلى زوال .

أجل . ففي الكتاب الجديد جاءت شرعة تعلموا منها أن الناس جميعاً في هذه الدنيا سواء . وأن حق الحياة الحرة مكفول لكافة الأجناس . وأن أحـداً لا يفضل آخر أمام الله إلا بتقواه وإن حلك لون الفاضل وابيض لون المفضول .

فقد ذهب زمان العنصرية ، وبشر الدين الجديد بعـــالم تسوده العدالة .

ولـكن الأمل الذى خالج القلوب الظمأى إلى هـذه العدالة لم يلبث أن خبا ضوؤه . . . لم يتغير المبدأ السامى الذى قرره القرآن ، ولم يتبدل كتاب الله أو يصبه تحريف ، بل انحرفت وحدها نفوس القائمين على إنفاذ شريعة السماء ومالت إلى هواها القديم . وبدأت عوامل الوراثة والبيئة التى اختفت آونة قصيرة فى حياة محمد وحياة خلفه تعود ثانية إلى الظهور كهيئتها الأولى قبل الإسلام . عاودت العرب عزتهم بالجنس وتعصبهم المقيت الذى نهى عنه الله . وارتد العربى ثانية إلى تقاليد جاهليته الرثة التى عصبت عينيه بمرآة عاكسة لا يرى فيها غير نفسه . . . طبيعى كان هذا الشعور أحرى به أن يلازم نفوس شعب فتى يهم أن يأخذ مكانه على هام بقية الشعوب ويحاول أن يفرض شخصيته على العالم . ولـكن هذا الشعور القوى بالقومية بث فى نفوس البلاد التى دانت لطاعة الجزيرة قلقاً على كيانها هى أن تطغى عليه شخصية السيد الجديد . . . وكدفاع عن نفسها لم تر بدأ من التعصب هى الأخرى لقوميتها أمام العرب . ثم نما فيما بعد هذا الشعور فى كل منهـــا حتى راحت تتنافس فيما بينها لإظهاره ، وتشتد الواحدة منها فى التعصب لجنسها أمام أخواتها الأخريات كما وقع بين أهل الشام وأهل الـكوفة حين اجتمعا على حرب بعض النواحى الثائرة بفارس فأبى كل فريق منهما — اعتزازاً بجنسه — إلا أن تـكون له الإمرة على زميله .

لم يـكن عجباً إذن أن تتولد الروح الوطنية فى الأمصار التى ضمتها الدولة الإسلامية الجديدة ، وأن تنمو مع الزمن نمـواً يطرد وازدياد شعور العرب بعصبيتهم وحرصهم المتواصل على الاستمساك بها . وكلما جنح الشعب الحاكم إلى الاعتزاز بجنسيته مالت الشعوب المحكومة أيضاً مثل ميله . ووجدت من نفسها اندفاعاً إلى الخوف على جنسيتها أن تفنى فى شخصيته ، وإلى قوميتها تلسيج بهـا أمام ذلك التعصب ، وإلى وطنيتها الوليدة تغذيها يوماً بعد يوم ليـكون لها هى

الأخرى كيان قائم تمتز به . ووجد الناس ، بفارس ومصر والعراق وغيرها من أجزاء الدولة ، فى تاريخ أقوامهم الأقدمين دواعى فخر تدعهم أقرب إلى النفور من السادة الجدد الذين قفزوا إلى أماكن الصدارة فى العالم بغير ماض مجيد يهيئهم لهذه الصدارة . ولم تلبث أسباب المفاضلة أن برزت أمامهم واضحة فأسوا على مجدهم القديم الذى فقدوه وورثته دونهم هذه الحفنة القليلة من أبناء الصحراء .

هذا شعور مرده من جانب إلى تلك الغيرة النفسية التى تراود عادة نفس المفضول على فاضله المتفوق عليه . برز بروزاً واضحاً على عهد عثمان . واتخذ فى البدأ مظهراً ساميا لا يعاب ، هو رغبة هذه الشعوب فى أن ينشر بينها وبين العرب ميزان العدل ويجمعهم معاً قانون التسوية فى الحقوق والواجبات . ولكنه من بعد أصبح نقمة شديدة الخطر كأنها الشوكة المرهفة فى جنب الدولة لا تنى تدميها وتجرعها من المآسى والويلات ما ظل ينخر فى هيكلها على مدى الأحقاب المتعاقبة بعد ذلك التاريخ . . . وما كانت الحكومات التى قامت فى حواضر البلاد المقهورة والدول المختلفة التى تركزت فى الأمصار دون الحاضرة الإسلامية الأصلية إلا نوعا من التعبير عن هذه النقمة . فلقد اندثرت بها رويداً رويداً سلطة قريش خاصة والعرب عامة . وانتقلت بها الرياسة بمظهريها الدينى والسياسى من يد المتبوع إلى أيدى أتباعه واحداً بعد الآخر . . . حتى معاوية الذى نصب من نفسه مدافعاً عن الخليفة وقومه لم يستطع أن يقيم ملكه فى أرض أولئكم القوم واعتاض عن كليهما الشام وأهله مجاراة منه لتيار القوميات . كذلك من قبله فعل على . وكذلك من بعده فعلت كل أسرة حرصت على الاستئثار بالسلطان على الدولة العريضة ، وكل حاكم أراد أن يدوم حكمه ، لأنهم عرفوا جميعاً مدى القوة التى أكسبتها الوطنية هذه الشعوب التى كانت تابعة حتى حين . وعرفوا كيف يستغلون حماسها لأجناسها فى إقامة حكومات فى بلادها يشعر معها أهل تلك البلاد أنها تستند إلى أكفهم وليس لها بدونهم حياة . وكل حركة أريد بها

أن تقوم دولة فى الحجاز لم يكتب لها النجاح ، لأنها كانت على معنى ما تحدياً لشعور تلك الشعوب .

١٢

أكانت هذه القوميات وليداً جديداً لم ير النور إلا على عهد الخليفة الثالث ؟ .. أكانت عواطف الشعوب المحكومة التى ازدخرت فى قلوبها بالنفور والسخط والنقمة على الأمة الحاكمة حدثاً لم يتخذ مظهر الحياة إلا فى زمان عثمان ؟ .. بل هى ثمرة أنضجتها الأيام وكانت بذرتها مغروسة من قبل فى النفوس . فلم يكن الشعور بالذات جديداً على أقاليم الدولة . ولم تكن الغضبة للجنس وللوطن المغلوب إحساساً مفاجئاً راود أهل الأمصار ، وإنما يستطاع رده إلى عهد غبر وتولت أيامه ولا يكون ثمة خطأ فى التقدير ... فما مقتل عمر إلا أولى المؤامرات السياسية التى شهدها الحكم الإسلامى وأريق فيها دم كريم حرام . وما خنجر أبى لؤلؤة سوى وسيلة للتنفيس عن تلك النعرة الوطنية التى جمحت عن حدها واستبدت بقلوب بضعة من أولئك المغلوبين على أمرهم . تلفتوا فإذا بين عشية وضحاها بلادهم تدوسها أقدام أبناء الجزيرة . وتستبيح حرمة كل عزيز على أصحابه من أراض وذكريات . وللثورات المشبوهة ببعض نواحى فارس أواخر عهد ابن الخطاب حديث مبين يعلو به صوت هذه القوميات .

ولقد مضى عمر إلى ربه ضحية بريئة للوطنية الجامحة التى يعصب عينيها التعصب ويدفعها عمياء . وتخلت بمضيه القبضة القوية عن الزمام الذى كان يمسك الدولة الكبيرة لتخلفها قبضة ضعيفة مسترخية ، هى أوهن من أن تقبض على ناصية الأمور التى أخذت خيوطها تتعقد وتتشابك . وكان من أثر السياسة التى استنها عثمان فى تنصيب ولاة غير ذوى حنكة ودراية على تلك البلاد التى بدأت تتهيأ للفتنة ما مكن للقوميات الناشئة فى الظهور ثم

الطغيان . يحفزها من ناحية حبها أمها وحرصها على أن تستمتع بحقها الكامل فى حياة كريمة حرة ، ولا تساق أمام العرب سوق الأنعام . ومن ناحية أخرى يدفعها إلى التحرر من استعلاء الأمة الحاكمة عليها خيبة أملها فى العدالة المنشودة التى حلمت أعواما أن تسود قاب الدولة وأطرافها على سواء . وخرج التذمر رويداً رويداً من دائرة الرغبة المكبوتة إلى حيز الدعوة الصريحة المناجزة يحمل ألويتها أناس انقادت لهم البلاد المقهورة طواعية وقد استكبرت أن تدين للعرب الذين لا يبلغون مثل مجدها فى صحائف التاريخ . ثم ما لبثت هذه الدعوات حتى تعبد طريقها فاستحالت من بعد إلى مناجزات عنيفة مسلحة أثخنت الدولة فى كل ناحية بأفدح الجراح .

على أنه يجمل بنا ألا نحمل عثمان بمفرده مغبة السياسة الخاطئة التى جرى عليها تنصيب ولاة الأقاليم والأمصار ... هو حقاً لم يتوخ فى اختيارهم أن يجتمع لهم الحنكة وحسن الإدارة . ولكن سوء الاختيار لم يكن وحده الذى أثار فى تلك الشعوب قوة « الشعور بالذات » ... وإن أراد أن يبحث عن السبب الأصيل الذى نمت به القوميات فليبحث إذن وراء هذا الشعور . وليعلم أن غارسه فى نفوس تلك الأقاليم كان عمر قبل أن يكون عثمان .

سياسة عمر فى تنصيب الولاة — وفى عزلهم على السواء — كانت سبباً لا ينكر أثره فى تكوين الشخصيات القومية . وفى نهوضها . وفى طغيانها على مرور الأيام . ولكنه فى الواقع كان خطأ من جانب الخليفة الثانى أريد به الصواب . وانحرافاً بدا فى حينه . كالإصلاح ولم يرد به غير الإصلاح . فلقد كان الرجل لفرط حساسيته ، وشدة شعوره بالمسئولية الملقاة على عاتقه كأمير للدولة المريضة ، يأخذ نفسه بالعمل على إرضاء الشعوب الإسلامية المختلفة غاية الإرضاء لا يكاد تأتيه الشكوى — مهما كان هوانها — يسوقها إليه بضعة نفر فى حق عامله عليهم ، حتى يسارع إلى عزل العامل ، وتنصيب سواه ... فلكم أخذ ولاته بالهنات وحاسبهم أعسر الحساب ابتغاء مرضاة ضميره ومرضاة فئات قليلة من رعاياه . ولكم تناولهم بجزاء أهونه الخلع

فأقالهم من مناصبهم وأقام عليها من لدنه من حسبهم أدنى إلى قلوب أصحاب الشكايات

هـذه السياسة التي انتهجها عمر نتيجة لشـدة شعوره بواجبه ومسئوليته تجـاه أقاليم دولته ، ورغبة منه في الفوز برضاء شعوبه عنه ، وجرياً وراء توفير السند القانوني الذي بغيره لا تـكون للحكم شرعيته الواجبة ٠٠٠ هذه السياسة التي غايتهـا رضاء المحكوم عن حاكمه والتي تعتبر في نظرة القوانين والشرائع أمثل السياسات لم تـكن في نظرة الواقع الملموس كذلك . بل انحرفت عن وجهتها التي رسمت لها وقادت إلى عقبى غير محمودة ، لأنها أشعرت تلك الشعوب الحديثة العهد بالشعور بالذات أنها تملك أن تغـيير ولاتها كما تشاء وأنها — تبعاً لهذا — لا تملك التغيير إلا لأنهـا أصبحت من القوة بحيث تستطيع الإملاء .

وهكذا أسيء تأويل البواعث الطيبة التي دعت عمـر إلى الحرص على إنفاذ رغبات أهل الأمصار . فلما خلفه في مقعد الإمارة عثمان ، كان ضعفه مغرياً للشعوب بالمغالاة في الشعور بالذات ، وبالإمعان في الطغيان نتيجة لهذه المغالاة ٠٠٠ وأوسع لهـا في ميدان التطرف في الإملاء وفرض رغباتها أن ولاة الخليفة الثالث كانوا — في الأغلب فضلا عن نواحي النقص فيهم وعن سقطاتهم الشخصية — شباناً غير ذوي دراية لا تجربة لهم ولا يحسنون تدبير الحـكم .

بهـؤلاء الولاة واجه عثمان الفتن التي تجمعت في الشطر الثاني من عهده المنـكوب وهم الذين وكل إليهم علاج الآفات التي راحت تنخر في عظام سلطانه ٠٠٠ كانوا عينه وأذنه وكفه المـمـدودة إلى الأقاليم ، فلم يستقبلوا الحوادث بأبصارهم إلا بمثل ما استقبلها به على البعـد — بالنظرة الـكليلة والأذن الوقراء والـكف الشلاء ٠٠٠ لـكأنما كانوا هم صدى له حتى قل أن أحسنوا له النصح أو عملوا له في مناطقهم ما كان يجمل بالحـكام ذوي الغيرة أن يفعلوه ٠٠٠ دخل سعيد بن العاص الـكوفة ، وقد خلف الوليد بن عقبة

على إمرتها غب قصة الخمر ، فأمر بمنبر المسجد أن يغسل عسى أن يتطهر من أدران سلفه . ثم اعتلاه فقال للناس :

«... والله لقد بعثت إليكم وإنى لكاره . ولكننى لم أجد بدأ إذ أمرت أن آتمر ... إلا أن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها ... ووالله لأضربن وجهها حتى أقمها أو تعييني . »

فعلى أية وجهة كان يريد حمل سامعيه ... على تصديق فعله أم تصديق قوله ؟ .. إنه مذ وضع الماء على درج المنبر قد أقر على سلفه بالخزى الذى استحق عليه العزل وأقر للناس — تبعاً لهذا — بأنهم أحسنوا إذ ثاروا عليه حتى خلعوه . فما معنى أنه يرميهم فى حديثه بالشغب والتزام الفتنة إلا أن يكون قد رأى فى استنكارهم عمل سلفه نوعا من الثورة يحاسبون عليه بالقمع أو بالتهديد .

ومع ذلك فإن الأثر السيء الذى تركته هذه الكلمات المضطربة فى نفوس سامعيه كان أولى به أن يزول لو نزع سعيد عن السياسة التقليدية التى أثارت الشعوب التابعة على الشعب المتبوع . ولو أنه كان حاكماً فيه كياسة وحكمة لأشعر منذ اللحظة الأولى أهل البلاد أنه جاء يستوحى خيرهم ويعمل جاهداً له ولكنه كان هو الآخر صورة من العرب فى إجمالهم ومن قريش على التخصيص . يرى بمثل عينهم ويسير على نهجهم المعروف من التعصب للجنس فما كاد يستقر به المقام فى الكوفة حتى نقم على أهلها أن شعروا بكيانهم وحاولوا أن يعيشوا والأمة الحاكمة حياة كريمة تسودها المساواة . وأبت عليه نزعته إلا أن يرى الخطأ كل الخطأ فى نظرة الكوفيين إلى الأوضاع الاجتماعية القائمة إذ ذاك . وأن ينكر عليهم حقهم فى العدالة التى نشدوها وقاموا يسعون إليها ، فكتب إلى الخليفة يقول :

« إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم . وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة . والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها .

فاثبت بهذا أنه يرى وجوب التفرقة فى المعاملة بين التابع والمتبوع ، وهى نظرة عجيبة تضع الدخيل موضع الأصيل وصاحب البيت مكان النازح الغريب .

وكان الرأى الذى أشير به على عثمان كعلاج للحالة التى رسمها سعيد هو فى ظاهره وباطنه تأييداً للعصبية العربية وقمعاً للشعور القومى الذى أخذ يفور فى قلوب أهل البلاد . . . ذلك أن الكوفة — كسواها من أقاليم الدولة الإسلامية — لم تكن فى نظر الخليفة وولاته كمكة أو المدينة أو أى من المدن التى ضمتها رقعة الحجاز . ولم يكن أهلها كالعرب ذوى الجنس النقى الممتاز ، وإنما هم روادف وأتباع . . . ولتبق إذن الحال كالحال بدون تبديل أو تغيير . ولتظل المسافات الاجتماعية قائمة على هيئتها بين السيد وبين المسود . ولتكن الفوارق العنصرية هى أساس السياسية العليا للدولة كما كانت وكما يجب أن تكون .

بهذا أشير على الخليفة وبه أمر سعيد . والتفت الناس بالكوفة فإذا التعصب العنصرى الذى أنكروه قد أضحى اليوم على يد الحاكم الجديد أشد طغياناً وأعتى منه فى أيام سلفه . . . وإذا النظرة إليهم تحمل التحدى سافراً ولا تحتاج إلى اصطناع المداورة لإخفاء الازدراء ومواراة الاستعلاء . . . وإذا عاملهم لا يستطيع أن يقرهم على الرغبة فى معاملتهم كشعبه الممتاز سواء بسواء ، بعد أن استقر الرأى فى حاضرة الدولة على ألا يطمعهم فيما ليسوا له بأهل ، لأنه — على حد قول الخليفة وقول مشيريه — إذا نهض فى الأمور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأشاع فيها الفساد .

وكان لابد وقد أعلنت الحرب هكذا على الشعور القومى بالكوفة أن يمكن لسعيد فى سلطانه ويزود بالقوة التى تشد أزره ليستطيع تنفيذ هذه السياسة . . . ولم تكن تلك القوة إلا أرجالا من قريش . هبطت كالجراد على البلدة . وهيأ لها عثمان كل ما يكفل لها بالكوفة عيشاً رغداً ومنزلة كريمة لتكون بطانة للوالى مرهوبة يستخدمها فى مرافق الإقليم كما يشاء ويستشيرها فى تسيير أموره التى

يضن على أهل البلاد نفسها أن يكون لهم فيها يد عاملة أو رأى مسموع .

١٣

البصرة خامدة كالرمادة . . . نفضت يدها من الأشعرى وقنعت بالفتى الجديد الذى ولاه عليها عثمان . إن أهلها قد أصابوا إذن وطرهم . وانزاح عن صدورهم أبو موسى ، ذلك الشيخ الذى لم ينسوا له أنه أبى — حين أمره عمر عليهم أول مرة — إلا أن يدخل بلدتهم وفى ركابه تسعة وعشرون سيداً قرشياً لتستمين بهم حكومته دون أهل البلاد أنفسهم . ومضت بمضيه الأعوام الطويلة التى قضاها فى الإمرة مترسماً فيها خطوط السياسة العنصرية التى رسمتها المدينة لزملائه الآخرين فى بقية الأقاليم . قد كان حقاً رجلا رضى الخلق فيه طيبة تميل نحوها النفوس ، ولكن هذا وحده وإن اجتمع له رضاء حاضرة الدولة عنه ، لم يكن معفيه من تذمر أهل إقليمه الذين تفتحت أعينهم لحقهم فى الحياة السياسية التى حبسها على بنى جلدته . وكانت طيبته التى ولدها فيه ورعه تحمل الناس على أن يظنوا فيه زهادة فى المظهر الذى يمكن أن يوفره له منصبه الضخم . غير أن هذا أيضاً ما لبث أن انفرج عن ثغرة استطاع السخط أن ينفذ منها . فقد راح الرجل على الأيام يتبدى فى ثوب لا يلائم النسك . واجتمعت له أموال من ماشية ومتاع أثارت عليه رعاياه . . . هو فى الحق لم يبلغ من الترف مبلغ سواه من الولاة . ولكن النفس المتحفزة للانقلاب تتوسل دائماً بأوهى الأسباب . وإذا كان أهل البصرة لم يبلغوا بعد حد القوة الذى يجاهرون معه بانتقاضهم على سياسة العنصرية التى جعلتهم فى بلادهم ذيلا لقريش ، فلا أقل إذن من التماس سبب آخر يتخلصون به من الرجل الذى صيرهم ذيلا . ولا بأس عليهم فى شرعة التوصل للغايات بأى الوساطات أن يتحينوا الفرصة التى تنيلهم غرضهم المنشود .

وكذلك اعتسفوا السبب الذى يكسب تذمرهم لون الحق يوم دعاهم أبو موسى لحرب الأكراد . فلقد قام فى الناس يحضهم على الجهاد ويهيب بهم أن يسيروا إلى الميدان رجالا حتى يكون لهم فضل الرجلة . لعله فى هذا كان يريد أن يستنفرهم على دوابهم دون دواب الحكومة . لعله كان يعلم أن دواب الجيش من القلة بحيث لا تكفى لحمل كل نافر إلى الحرب . . . ولكنهم أمام دعوته كانوا نفراً سمع وأطاع فسار كأمر الأمير . وآخر حانقاً رأى أن يتريث فتربص . فلما أن خرج أبو موسى من قصره . ووجدوه قد أخرج ثقله (متاعه) على أربعين بغلا ، لاحت لهم الفرصة سانحة ليضربوا ضربتهم بعد أن أصبح فى يدهم السبب الذى يستطيعون اعتسافه .

هو هكذا بدا لهم فى صورة الداعى الذى لا يؤمن بالدعوة فلا يجعل من نفسه لغيره قدوة . . . وبدا أيضاً فى صورة المترف الشديد الإسراف فى التزام المظهر حتى ليحمل متاع حربه على أربعين راحلة . . . وقديماً علمهم عمر الشدة على عماله المترفين حتى كان يعزلهم أو يقاسمهم ما أصابوه من أموال ومتاع . وهم الآن إذن بصدد رجل حق عليه العزل فى الشرعة التى سنها أمير المؤمنين الراحل.

فى عين الحق هذه حجة كانت لا تساوى أن تنال عند الخليفة أكثر من اختلاج جارحة . ولكن عثمان أوهن من أن يثبت أمام حجة مهما وهنت ما دامت البصرة تستطيع أن تحسن عرضها تحت عينيه .

أرسلت إليه من قالوا له :

« . . . ما كل ما نعلم نحب أن نقوله فأبدلنا به » .

قال الخليفة اللين الذى ينفر طبعه من البحث والاستقصاء :

« فمن تحبون ؟ . »

قال غيلان بن خرشة رأس الوفد :

« يا أمير المؤمنين . . . فى كل أحد عوض من هذا العبد الذى أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا . فلا ننفك من أشعرى كان يعظم ملكه

على الأشعريين ويستصغر ملك البصرة . . . إذا أمرت علينا صغيرا كان فيه عوض منه . أو مهتدأ كان فيه عوض منه . ومن بين ذلك من جميع الناس خير منه . »

فمن يا ترى ذلك المهتد الذى عناه غيلان ؟ . . إنا لنعلم من الكلمة أنها تعني الولوع بناحية من نواحي الفساد دون مبالاة ما يقال . ولعلها فى حديث غيلان عنت الغرام بالشراب . فهل أراد رسول البصرة الحصيف الأريب أن يقترح على عثمان اسم أخيه الوليد ؟ إن غيلان إذن لداهية . وسمه أن يلعب على الوتر الحساس فى نفس الخليفة باستغلال كلفه بأهله . وإن دهاءه لأداة فعالة عرف كيف يشق بها الطريق إلى هدف قومه . إعزل الوالى الذى أبغضوه ، وبالفوز بآخر يملكون زمامه فى ان ، لأنهم يعلمون أن سقطته القديمة ستكون سلاحاً فى أيديهم يسلونه على رقبته متى يشاءون . ومع ذلك فإن فى حديث رئيس وفد البصرة الحكيم بقية تكشف عن شدة تحوطه وفرط حرصه على الفوز ببغيته إذا عرفنا أيضاً من ذلك الصغير الذى جمع الاقتراح بينه وبين المهتد السكير .

قال الرجل ثانية يغرى الخليفة :

« . . . حتى متى يأكل الشيخ الأشعرى هذه البلاد ؟ . . يا معشر قريش . أما منكم صغير فتستشبوه . . . أما منكم خسيس فترفعوه . . . أما منكم فقير فتجبروه . ؟ »

فوضح بهذه الكلمات مرماه . وبان من خلالها أنه يريده أميراً من فتيان قريش . وإذا ذكرت قريش أمام عثمان فنى أهله بقية تليق للسلطان .

وكذلك ولى ابن خاله عبد الله بن عامر وهو إذ ذاك فتى فى الخامسة والعشرين .

وتخلصت البصرة من أميرها الشيخ وفازت بصغير ، لعلها طمعت أن تجعله حداثة سنه ألين فى يدها فتستطيع أن تجبله كما تشاء . وبقيت فترة من الزمن خامدة كالرماد تنتظر أن تسعفها الأيام بالإصلاح المنشود على يد واليهـا

الجديد . . . لقد أثبت خـــلال الشطر الأول من حكمه أنه جندى مجيد . ولـكن الجندية ليست دائمـاً عنوان الحزم ، ولو أنه استطاع أن يخضع للدولة بقية من فارس كانت لاتنى تجر عليها المتاعب ، وتمكن بهذا أن يؤمن حدوده ، إلا أن إقليمه فى داخله كان بحاجة الى أمن لم يوفره له . وامتدت يد عابثه إلى الرماد تقلبه وتنبش عن الجمر المتقد فيه . وإن هو إلا قليل زمن لم يكد يستقر فيه ابن عامر على أريـكته حتى وضعت فى أرضه بذور الثورة .

أجل . فى هذه الناحية من الدولة الإسلامية ظهرت أقوى الحركات الهدامة فى تاريخ الإسلام . جاءت من الجنوب كالسموم . على يد أسود من إحـدى الدويلات التى أنفت حتى فى أيام النبى أن تخضع لحكم البلاد المقدسة وحاولت أن تخلع سيادتها لولا أن قهرها ابن أبى طالب على الطاعة . . . من اليمن جاءت . وعلى لسان ابن السوداء عبد الله بن سبأ سالت كالسم . وانطلق بها الرجل إلى الحجاز يهم أن يبثها ، لولا أن وجهه ذكاؤه إلى بلد أكثر تقبلا للدعوة من مهد الدولة ، وأبعد عن أيدى الخليفه وأعوانه بالمدينة أن تمتد إليه . لقد كان ابن سبأ خبيراً بنفوس الناس ، عالماً بنواحى الضعف التى يستطيع أن ينفذ منها إليهم ، ملماً بأحوال البلاد التى انتظمها الإسلام تمام الإلمام ، فعرف أى تربة من بينها يمكن أن تنمو فيهـا بذوره .

من صنعاء حيث غرسته أمة اليهود السوداء خرج إلى الحجاز ، وفى المدينة حاضرة الدولة الـكبيرة — التى ينطوى قلبه لها على مثل مايملأ قلوب أهل ملته من المقت والضغينة — خلع ثياب دينه القديم وأظهر الدخول فى الإسلام . ولـكن الدعوة التى جيش لها ذكاءه لم تـكن لتثمر ثمرتها المرجوة فى الأرض المقدسة . . . إنه لا يخشى أن تبطش به يد الحـكومة بقدر ما يخشى أن يخذله الرجل الوحيد الذى جعله عـلم دعوته . هو يقرأ جيداً نفوس الرجال ويرى ضمائرهم مكشوفة أمام عينيه بغير نقاب . وهو يعلم جيدا أن دعوته فرية إن جازت

على بعض النفوس فى الحجاز فلن تكون لها مطلقاً حياة لو أن ابن أبى طالب فتح شفتيه . وما كان له أن يأمن علياً على السكوت فضلا عن موافقته ورضاه؛ لأن خلقـــه الكريم حرى بأن يثيره على الدعوة ويدفعه لحربها باللسان وبكل سلاح ، وإن كانت فى ظاهرها قد جاءت لتضع فى يديه السلطان .

ولكن البصرة بعيدة عن كف على وعن لسانه . بعيدة أيضاً عن بطش الدولة الذى فتك بدعوات الإصلاح وحارب الدعاة . . . فليبد خلها إذن ابن سبأ . ويرفع بهـا عقيرته كما يشاء . وليطمئن على بذرته الخبيثة إذ يضعها فى تربتها الكفيلة بإنبات دعوات التذمر والانتقاض ، فإن الأذهان هناك مهيأة . وإن بالناس فيها — كما فى بقية الأقاليم التابعة للدولة الإسلامية — لشغفا إلى اعتناق أية دعوة تصل بهم إلى الخلاص من رجال هــذه الدولة التى لم تحسن سياستهم وعاملتهم بغــير المساواة التى فرضها الإسلام بين الشعوب تابعة أو متبوعة ، وبين الأفراد سادة أو مسودين .

« إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد »

هذه كلمة السر التى جاز بهـا اليهودى الأسود نفوس الكثرة الغالبة من المسلمين وهم إذ ذاك قليلو إلمام بمكنون آيات القرآن . ولقد انتقاها آية تتفق فى ظاهرها وتأويله ثم مضى بين الناس يعقب عليها ويقول :

« العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع . ويكذب بأن محمداً يرجع . »

فلما وضح له أن كثيراً من القوم تلقوا قوله بقبول حسن ، وأعجبهم أن يبشر بعودة نبيهم ثانية إلى الحياة الدنيا ، راح يلون دعوته الدينية بالأصباغ السياسية التى أيقن أنها كفيلة بأن تفعل فعلها ، وتديل وشيكا دولة الإسلام .

١٤

إنه خبير بالنفس الإنسانية شديد الشعور بالأحاسيس التي تناوبت قلوب أبناء زمانه ، على علم كامل بالمواطف التي احتضنتها شعوب الدولة في أركانها المختلفة . وهو بعد هذا رجل قد أتيح له ذكاء لماح وقدرة خارقة على التدبير بعد التقدير .

وفيما أحسب ، كان الخاطر الأول الذي راود ذهنه هو العبث بالعقيدة الإسلامية وبث اللغويين مبادئها الراسخة . وكان في هذا مدفوعاً بنفسه الموتورة التي أكلها الحقد على الإسلام . وكان الخاطر الثاني ذيلا للأول ؛ فقد أنبأه إدراكه أنه لا دين بلا دولة كما لم تكن دولة قبل الدين . فلما رسخ هذا في عقله راح يصوغ المعاول التي تهدم البنيان الأشم الذي قام على أنقاض بلاده وغيرها من البلاد الخاضعة للحكم الجديد .

أما وقد بذر بذرته الأولى فتلقفت ثمارها أيدي سواد الناس من الجهال وقليلي المعرفة بأمور عقيدتهم ، فقد حق له أن يمضي قدماً نحو هدفه ، وأن يسعى سعيه ليقع على الأداة الكفيلة بإنجاز الهدم على الوجه المطلوب .

تنسم الجو . وامتد به أنفه يشم الريح . لو أنه بدا للناس في ثوب الهدام لانكشف من أمره ما أراد ستره . ولو ضحت نواياه أمام العيون مهتوكة . ولكنه أحكم من أن يدع الشكوك تدنو منه ، وأحرص على حياة غرضه من حرصه على حياته . وما دام ذكاؤه يسعفه فلا عليه أن ارتدى ثوب البانى وخطر في النـــاس يحضهم على معونته ليقيم الصرح المنشود على الأنقاض القديمــة .

إنه عول إذن على أن يهدم . وعزم أمره على تقويض بنيان الدولة الإسلامية بدك الهيئة الحاكمة التي قامت على رأسها . ولكنه في هذا كان

مؤملا أن يقنع الناس أنه سيقيم لهم نظاما خيراً من ذلك الذى أبغضوه . ويستبدل بالرأى المكروه سواه أقرب إلى قلوبهم وأحرى أن يلتفوا حوله وينهضوا إلى نصرته دون تردد ولا فتور . إن الأيام التى فاتت على الإسلام منذ ظهوره قد أبقت فى وفاضها أشخاصاً ما زالت لهم قداسة فى نفوس أكثر الناس . تتطلع إليهم الأبصار خاشعة . وتهفو القلوب ولهى بحبهم إذ يبدون كالمثل التى تتجسم فيها روح الدين . كل منهم قائم وحده كالعلم بين العامة بتاريخه وسابقته وشخصيته . . . فلينظر ذلك اليهودى الأسود من بين أولئك يصح أن يكون علم الأعلام .

منذا ياترى كان المنار الأرفع ؟ . . أى الحفنة القليلة الباقية من صحب رسول الله أولى بأن تلتف عليه العواطف التفاف الثوب المحبوك بالجسد المشوق ؟ من الأثير عند الأرواح ، الجدير بالتسويد إذا استبدلت سيادة بسيادة ، والحقيق بملء المكانة التى راحت الدعوة السبأية تجهد جهدها لإخلائها من شاغلها المملول ؟

هو إذن فرد واحد تكاد أن تتقصف الرقاب المشرئبة الطامعة دون بلوغ شأوه . له بكل قلب حظوة . وفى كل عين تقدير . ولدى كل نفس ولاء ، إن غشيته أحياناً أحداث السياسة فقد مكنت له ووثقته القدمة . . . هو ابن الرسول . وابن عمه . وأخوه فى الدنيا والدين . فى الحاضرة وفى الآخرة . وختنه على الزهراء . وأبو سلالته الطاهرة وعدته الخلصاء . . . هو على بن أبى طالب. ومن سواه كان يا ترى المنار الذى ينشد السراة ضوءه ، والعلم الأرفع المولى بأن تنضوى الجموع تحت ظله !

وكذلك راح ابن سبأ يحسب ويقدر . ثم راح يرتب وينظم . فلما اطمأن إلى النتائج التى استخلصها أخذ ينتقل بخطوات وئيدة ثابتة من دعوته الدينية إلى الدعوة السياسية الكفيلة بتقويض نظام الحكم الذى ملته وعابته الجماهير . وتقدم صفوف أنصاره المفتونين بقصة الرجعة يسير بهم وهم كمعصوبى الأعين إلى عوالم من الآمال وسيعة الآفاق فتحتها أمامهم

ألفاظه المعسولة التى استغلت العواطف المنطوية عليها قلوبهم من أجيال .
وهو كلما نطق حرفاً أو سار شوطاً انسالت الجموع خلفه تتدفق ، مستبشرة
راضية النفس إذ آنست قرب حلول يومها الموعود !

كان جماع المبدأ الذى أحكم لهم رسمه وتلوينه :

« . . . إنه كان ألف نبى ولكل نبى وصى . وكان على وصى محمد ، ومحمد
خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء ... فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله
ووثب على وصى رسول الله ، وتناول أمر الأمة » .

وهذه كلمات لمست بإحدى ناحيتيها أو بالأخرى قلوب العامة ، فانتشرت
فيهم كما تنتشر النار فى هشيم جاف : ما من رجل سمعها إلا لقيت صدى فى
نفسه ، من استهوتهم الرجعة تلقفوها جد مشوقين لأنها الفصل المتمم للقصة ،
ومن خشى على عقيدته الساذجة السليمة أن يصيبها رشاش من خيال العقيدة
السبأية الجديدة يفسدها ، استراح منها إلى الشق الذى تضمن الدعوة إلى تحقيق
هدفه وهدف إخوانه المتذمرين ببقية الأمصار ... ومن بين أولئك وهؤلاء
أناس استطاعوا أن يرتدوا بأخيلتهم إلى الماضى ، وأن يركبوا جناح ذكراتهم
إلى مشهد خالد عسير نسيانه على الذاكرات . وأن تتسرب أبصارهم وآذانهم
خفافاً بين ألفاف الأعوام تطويها وهى تسير فيها القهقرى حتى تلم من كثب
على الزمان والمكان ... ها هو الستر قد انجاب وتبدى الموقف سافرا أمام
الأعين المتطلعة ، ناطقاً بأحداثه ، يهمس للاذان المتهيئة ثانية للسماع بعد أن أوفت
الرحلة الزمنية بكل مسترجع مستعيد على المشهد القديم الجديد . وها هو اليوم
الذاهب فى الغابر يعود حياً كهيئته الأولى ، شديد الهجير تلفح شمسه الوجوه
وترميها من لدنها بمثل ألسنة النار ... وهاهى الجموع العائدة من حجة الوداع
تحث خطاها على طريق المدينة يود آخرها أن يسبق أولها فراراً من وهج الحر .
ولكن نداء رافعاً يحبسهم فى أماكنهم ويدعوهم إلى الوقوف دون المسير . وينطلق
القوم صوب الداعي ، وتلتف به آلافهم المؤلفة عند غدير خم . ويلقون

السمع والبصر والفؤاد جميعاً إلى نبيهم وقد وقف يستظل من الشمس المستعرة بثوب علقوه على شجرة سمرة ... ذلك يوم لم يغب عن الأذهان أثره ولا خطره، جديرة صوره بالتدبر قبل التذكر، وبالادراك قبل التصور.

وعلى الملأ الحاشد، وبين الجموع الزاخرة التي وقفت تنصت، سرى صوت رسول الله عالياً، ثابت النبرات يقول:

« ... أيها الناس، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ »

فارتفعت من كل ناحية أصواتهم تجيب:

« الله ورسوله أعلم ».

قال:

« ... إن الله مولاى، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم ».

ثم أخذ بيد على وهو إلى جانبه فرفعها حتى رؤى بياض آباطهما وعرفه القوم أجمعون. وأردف يتمم الحديث:

« ... فمن كنت مولاه فعلى مولاه ... اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه ».

كذلك استعاد الناس فى أذهانهم هذه الصورة الباقية من صور الماضى ووعتها خواطرهم إذ بشر فيهم ابن السوداء بتعاليمه الجديدة. وكان الرجل ماهراً فى عرض فكرته وماهرا فى الربط بينها وبين أثر مقدس لا يستطيع امرؤ نسيانه أو نكرانه، فآمن بالفكرة من آمن بالرجعه ومن أنكرها على سواء وراح الكثيرون يستنبطون من الحديث النبوى تلك الدلالة السياسية التى أرادهم على استنباطها ابن السوداء.

ولكن إدراك الباحث جدير بأن يبز إدراك الجماهير ويصل دونهـا إلى قمة الحقيقة ... ذلك أنها فى الأغلب أسيرة العاطفة، لا تصدر فى حكمها إلا عما تنطوى عليه رغبات الجوانح. ولا تعمل إلا بوحى النفس المنساقة مع الهوى والميول. ولقد آنست العامة إذ ذاك فى دعوة اليهودى الصابئ الأداة التى بها ينهدم عهد عثمان وتنتهى المتاعب التى عانتها منه ورأت من

ورائها شمس الخلاص وشيكة البزوغ فلم تمن باستقصاء ما هية الدعوة قدر أندفاعها إلى تقبلها ، مفتوحة الأيدى ، مرهفة السمع ، راضية النفس إذ جاءتها تهبها التحرر والانطلاق .

أما الباحث فله معها شأن سوى رضاء الجماهير ، يميل به إلى نكران الدلالة التى استخلصها العامة وينحرف به عن التصديق . لا ريب هذا حديث لا يعتوره باطل ، ند عن شفتى رسول الله باجماع الرواة ... ولكن المرمى السياسى من ورائه توشك أن تخفيه ظلال كثيفة . وإذا كان ابن سبأ قد نصب نفسه داعيه إلى حق على وقام يؤيد قوله بإثارة النص النبوى فى أذهان سامعيه ، فإنا لا نحسبه كان أكثر غيرة على الحق من صاحب الحق عليه . ولا أسرع إلى التماس الأسانيد المؤيدة لعلى من على نفسه . ولا أعرف بالوصية السياسية فى قول رسول الله من الرجل للذى أوصى بها له ... ولنا فى كلام ابن أبى طالب بعد غدير خم ما ينبىء عن استجازة هذا الداعية اليهودى لما لا يجوز . وعن ركونه — فى سبيل أغراضه — إلى تدليل هو عين التضليل ، وكفانا أن نسوق الدليل من الحديث الذى دار — قبيل وفاة النبى — بين العباس وبين على .

قال له الشيخ إذ ذاك يستحثه :

« ... انطلق بنا إلى رسول الله ، فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه . وإن كان فى غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس . »

فجاءه الجواب :

« والله لا أفعل ... فوالله لو منعناه لا يؤتيناه أحد بعده »

فهل من رجل كان يعرف لنفسه حقاً ثابتاً فى الخلافة بعد رسول الله يستحقه بالتعيين وعلى سبيل الإلزام لكافة المسلمين ثم يقول كما قال ابن أبى طالب ذلك الجواب الذى يحمل معنى احتمال استخلافه كما يحمل احتمال تركه على السواء ؟ .. كلا ! .. بل هو جواب حاسم يسد الطريق على التقول ويخرس لسان المتأول ولا يدع من بعد مجالا لفرية أفاك أو لتعصب نصير .

لسنا ننتقص بهذا من حق على فى الولاية السياسية ، ولـكنا نربأ أن نلتمس له أدلة معتسفة . . . إن فضله بين صحاب رسول الله كان ثابتا لامرية فيه ، وإن علمه كان مأثوراً استفاء به كل أولئك الأعلام ، فكان لأمور دينهم ودنياهم الظل الأورف . وإن حب رسول الله إياه رفعه على رؤوس كافة المسلمين وبوأه مكانة عزت على سواه . . . بهذا وبغيره من مزاياه الخلقية ونواحى شخصيته الرحيبة كان جديراً أن يصبح على رأس الدولة مذ اليوم الذى خلت فيه الدنيا من صورة ابن عمه الكريم . ولـكنا — مع ذلك — نأبى أن نحمل النص النبوى أكثر من مبناه أو يـكون ابن سبأ قد أدرك المعنى الخفى فيه وأغفله على — وحاشاه .

ثم انظر من بعـــد كيف كان موقفه من أصحاب الشورى ، وعلى أى الدلالات دل خطابه فيهم حين قال :

« . . . لو عهد إلينا رسول الله عهداً لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا لجادلنا عليه حتى نموت . »

فلم يعهد إذن رسول الله عهداً سياسياً ، وإنما عناها ولاية قد تعنى التعميم دون التخصيص . ووصية آلى بهـا قومه إن أرادوا أن يتجهوا إلى الخير أينما كان . وهى بوضعها لا تلزم الناس بأمير بعينه ولا تحمل فى طيتها معنى الإجبار ، بل هى إرشاد وتوجيه ولهم بعدها حـــرية الاختيار .

١٥

عبد الله بن عامر جعدى مجيد إلا أنه حاكم غير رشيد . . . لم يكن بعد قد تم نضجه . ولم تـكسبه سنوات عمره القليلات الحنـكة التى يجدر أن يتصف بها كل موكول بقيادة شعب من الشعوب . حين بدأ حياته العامة بالبصرة همت آمال أهلها أن تنعقد عليه ، أو ليس نتاج اختيارهم وحده ؟ أو هو — على الأقل — الرجـل الذى أوصوا باختياره إلى الخليفة من طرف واضح أوطرف خفى . . . أو لبست حداثة سنه قد أطمعتهم فى أن يـكون رخو

القوام بين أصابعهم يصوغونه على الشاكلة التي يريدون ؟ . . ولكن الآمال راحت تذوى مع الأيام ، لأن الفتى القرشي كان أيضاً قرشي النزعة كسلفه . ما كاد يستقر به مقعد الإمارة حتى ولى وجهه شطر قومه يتخير منهم ويحشدهم فى مناصب دويلته كأنه لم يكسب عبرة من مصير الأشعرى الشيخ .

على أن البصرة كانت خامدة كالرماد ، قد اختفى فيهـا الجمر تحت السطح البارد . . . لعل الفتى أمن أن تمتد إليه يد القوم بما امتدت به إلى سابقه مادام ينهج فى سياسة الولاية نهجاً سلمياً لامغمز فيه لأى حاقد . لعله استراح لصلته الوثقى بأمير المؤمنين وعدها سياجا يحول بينه وبين تذمر الجماهير . . . على أى حال قد كان صورة ناطقة لغيره من ولاة ذلك العصر الذين أبت طبائعهم أن تتغلغل بهم فى نفسية رعاياهم ، ففاتهم بهذا أن يكشفوا عن الداء الكامن ويبادروه بالعلاج . وكان إلى هذا مفلول العزم غير حازم . جرده طبعه من ملكة الحسم وقوة البت فى المشكلات التى نبتت تحت قدمية كالعواسج . . . ذلك أنه لم يكن يحسن إدراك الأمور أو يستطيع أن ينفذ سريعاً من خلال مقدماتها إلى النتائج التى لن تلبث حتى تترتب عليها . بل لقيها دائمـاً بلا مبالاة أو بعلاج كان فى حقيقته كلا مبالاة . . .

بهذا تناول الدعوة السبأية ، فجلس فى بادىء الأمر يرقبها بمين وسنان . ومضى بها اليهودى الأسود تحت بصره وأذنه يبثها فى أرجاء الولاية ويغرس بذرتها فى القلوب والصدور . ولو قد أتيح لابن عامر من التبصر ما هو قمين بأن يتوفر فى عامل على أقليم لكان وسعه أن يفهم الخطر قبل أن يكشف عن أنيابه ، ولقتل الفتنة فى مهدها قبل أن تستفحل ويستعصى أمرها على كل من أراد أن يخضد شوكتها أو يجتثها من أصلها الخبيث .

أجل كان بوسعه أن يقضى على تلك الدعوة الهدامة منذ اليوم الذى تبدت فيه للأذهان دعوة دينية خالصة لاتتصل بكيان الدولة من بعيد أو من قريب . وكان له — لو فعل — سند من الدين نفسة الذى لايجيز الرجعة لأنه لم ينص عليها فى دستوره السماوى الذى وعته قلوب الكثيرين ، وفيهم بقية من صحب

رسول الله ، كان أحرى بهم أن يملوا من صاحب الرسالة المقـدسة إن كان سيعود ثانية فى هـــذه الدنيا إلى الحياة . . . ولـكن الفتى الحاكم جلس يهوم كالوسنان كأنما الأمر لايعنيه ، أو كأنما أيقن أن دعوة ابن سبأ ضلال محض لن تلبث حتى تضل طريقها إلى نفوس النــاس . . .

وهكذا تنقلت البذرة الخبيثة فى أطوارها المختلفة حتى نضجت ثمرتهـا ، وراح صاحبها يسير بها فى طريقه المرسوم ويلف حوله الجموع التى لم تعوزها الرغبة فى الثورة وإن أعوزها حسن الأدراك . فلما رأى سبيله ممهدا لاتقطعه عليه قوة حازمة ، فرق أنصاراً له فى الأمصار يبشرون بتعاليمه ثم راح من بعد يرسم لهم خطة العمل بعد الـكلام . . .

قال لأولئك الأنصار :

« . . . إن عثمان قد أخذها بغـير حق . . . »

فأمنت على قوله الجماهير التى طمعت فى الخلاص من حكم عثمان ، ثم أرهفت لتعاليمه الآذان والأذهان . . .

ثم قال :

« ... هذا وصى رسول الله ، فانهضوا فى الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على أمرائـكم . . وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس » .

ومضى صحبه يأتمرون بأمره فى كل مكان ، وتقبلت العامة بالأقاليم الإسلامية دعوته بخير قبول لأن نفوسهم الممرورة من الحـكم العثمانى كانت تربة صالحـة لـكل دعوة تحمل معنى الثورة ومعنى الانتقاض . ولم يكن يعنيهم إذا ذاك أن يجيئهم الخـلاص على يد عبد زنديق بقدر ما كان يعنيهم أن يجيئهم ذلك الخلاص . . . بل عساهم نسوا الشطر الدينى من السبأية أمام حماسهم للشطر السياسى الذى مس من قلوبهم وتر السخط والنفور .

وانتبه أخيراً ابن عامر من غفلته كمن لذعته نار . . . ولـكن زمام الموقف كان قد أفلت من يده ، فلم يكن بالهين الآن قمع الداعية الداهية . لأنه لوحاول هذا لقاومته الجماهير ، ولوجال بخاطره أن يرد شكاستها لأعياه الأمر ولـكان

متعجلا للفتنة ، نافخاً فى الرماد ، حتى يؤرثه سعيراً مشبوب الأوار .

لكن خاطره أسعفه بالوسيلة التى اتسم بها العصر كله كأداة معروفة لكبح الدعوات وقمع الدعاة ... فليخرج الرجل إذن من البصرة وليرسله بعيداً عنها إلى إقليم سواها ليأمن خطره على أهل إقليمه ... وليم هو بعد ذلك قرير العين مرتاح البال .

هذا والله أسلوب فذ فى معالجة الأدواء ... ولكنه الأسلوب المعمول به طوال حكم عثمان ... كذلك فعلوا بأبى ذر حين أعضلت بهم دعوته . وكذلك يفعلون بابن سبأ وبمثله سيتناولون كل داعية قام ينادى بفكرة أو يحض الناس على اعتناق مبدأ أو تأييد ثورة .

أهو التفكك بين أقاليم الدولة بعضها وبعض ، حتى إن الإقليم منها كانت لا تعنيه السلامة العامة للدولة بقدر ما تعنيه سلامته الخاصة ؟ .. أم هو يا ترى قلة شعور الحكام بواجبهم تجاه الأمة جمعاً وحسبانهم أن مسئوليتهم تنتهى عند حدود ولاياتهم وحدها ؟ .. من عجب أن يتناول ولاة ذلك العصر كل دعوة خطرة تدهم أقاليمهم بمثل هذا العلاج . وأعجب منه ان يقرهم عليه عثمان ... لكأنهم جميعاً كانوا ضالعين مع أولئك الدعاة فمكنوا لهم من نشر مبادئهم فى كل مدينة لم تعرفها ولم تأخذ منها بنصيب ... قد كانوا كمن نصب نفسه لكفاح وباء فلم يحصره فى أضيق نطاق بل خلى بينه وبين كل الآفاق يستشرى فيها وينشر عدواه .

بمثل هذا السلاح حاربوا ابن سبأ ، ولو علموا لأدركوا أنه ليس فحسب سلاحاً مفلولا لا يصيب مقتلا من فريسته بقدر ما هو سلاح مردود إلى نحور الضائقين به . وهو حينئذ قاطع شديد الصلابة عديد الذؤابات .

وخرج الرجل من البصرة منفياً ... لكأنى به قد استغرقت وجهه كل بسمة لا تخفى سخره وفرحته حين تأهب لدخول الكوفة ... لكأنى به — فى خاطره — قد راح يردد آيات الشكر لمناوئيه الذين أخرجوه ...

ألم يعملوا من لدنهم على انتشار الوباء ؟ . . ألم يتيحوا له رحلة هى أجدى على دعوته من قعوده بها حيث كان ؟ . . ألم يهيئوا له أرضاً أخرى يغرس فيها مبدأه ويتعهد بيديه بذوره ليثمر ؟ . . إن أنصاره بالأرض الجديدة لأحرى بهم أن يضاعفوا الجهود حين يرون بينهم قائدهم حتى يصيبوا المرجو من غايته وغايتهم . . وأنه إذن لأدنى إلى انجاز مايريد .

وكما أخرج من البصرة طردته الكوفة . طرده منها سعيد واليها المزهو بجنسه وقومه . إن هذه البلدة كانت أخصب من أختها ، تربتها أدنى إلى استنبات التمرد ، وأهلها أسرع إلى تقبل الدعوة الهدامة والسير بها نحو غاياتها المشوبة ، ولكن ابن سبأ رضى بنصيبه من سياسة التشريد ثانية ، ومضى بوفاضه الملىء بالخبائث إلى الشام — الأرض التى احتواها معاوية فى قبضته .

فى ذلك العصر كانت المدينة — حاضرة الدولة — تكاد أن تغض طرفها إكبارا لدمشق . وكان ساستها يوشكون أن يترسموا الأساليب التى ابتكرها واليها . . . قد كان حقاً رجلا خبر زمانه فوسمه أن يخضع شعبه لسلطانه . ولكنه مع هذا لم يأت من لدنه بجديد ، بل عرف نوازع الشر فى النفوس البشرية فاستمهد النفوس بنوع الشر الذى تستجيب له . وكان جارا للروم على حدوده مازالت صروح ملكها قائمة . ونظامها الذى دان له العالم عصورا طويلة ما فتىء يستمد حياته من شرعة الدنيا ونفس الإنسان . فلم يكن الحكم بها للأخلاق . لا ولا للنواميس المثل السامية التى يجدر أن تستلهمها البشرية وتسير على ضوئها لتبلغ الخير والكمال ، ولم يكن أيضاً هناك دين مرفوع الصوت يكبح جماح الناس ، بل الطبائع البشرية هى الحاكم المسيطر، والسلامة إذ ذاك لمن سار فى غمارها كما يسير عود جاف فى تيار ماء .

هذا درس فى الحكم كتبته الروم ، ووعيه معاوية من جيرانه ، ووعيه معه شعب قريب عهد بقانون الأخلاق الذى أرشد إليه القران . هو . من قبل ومن بعد له مظهر جذاب يستهوى الآدمى الذى لم يتحرر من قيود

آدميته أو قيود حيوانيته على أبسط تعبير . وهو جدير بأن ينساق إليه كل من يؤثر السلامة من أهون سبيل ، فما من شك أن طريق الأخلاق هو الطريق الوعر ، وقمع الرغبات أشق على نفس المرء من إطلاقها بغير حدود ، أو بقيود هينة لا تصد العاطفة ولا تحبسها فى نطاق المثل العليا أو نواميس الدين . ولم يكن معاوية — فى الواقع — حاكماً إنسانياً يتوخى غاية الإنسانية فى أخص معانيها وأسماها بقدر ما كان آدمياً تخضع سياسته لعواطف الآدميين . ولم يلتزم نهجه هذا عن معرفة بطبائع النفوس بقدر ما كان يستجيب فيه لوحى نفسه هو وميول طبيعته المجبول عليها ، فليست حنكته الإدارية مكتسبة كلها . بل هى ناحية من نواحى نفسه الطليقة المنساقة مع الدنيا كذلك العود الذى يجرفه التيار. ولقد آثر السلامة فحرص على أن ينالها من أهون سبيل وأخضع سياسته كلها لنزعات النفوس حتى يأمن أن يستقيم له الأمر . وكانت الحدود التى رسمها الإسلام للأخلاق تلق لديه — بوصفه حاكماً إسلامياً — كل تبجيل وإكبار. ولكنها لم تلق منه الترسم لها ، السائر على نهجها فى كل الأحايين . إنما كان الربح المرجو والغرض المنشود غايته المثلى ، وما كانت المعايير الخلقية لديه إلا نوعاً من المعايير يزن به الأمور إن أعوزه أن يجد لها كفاء فيما تعرفه طبيعته الآدمية من معايير .

هذا هو الرجل الذى كانت تتطلع إليه المدينة ، ويتطلع إليه ساستها كلما حزبهم أمر وأعياهم أن يقفوا له فى وفاضهم على دواء . لقد بهرهم جميعاً نجاحه وأكبره فى نظرهم أن ظلت ولايته ساكنة لا تحتمل فيها فورات ولا ثورات. وكان هو هادىء الطبع لا يكاد أن تحركه الخواطر الجامحة التى انتشرت بغير الشام فضلا عن أن تفزعه أو تثير قلقه. ذلك أنه كان يؤمن بالنفس فآمن بالمادة أشد إيمان . ووسعه من وراء إيمانه هذا أن يوطد ملكه ويضمن سلامته، لأن قيادة النفوس لا تتطلب الجهد اللازم لقيادة الأرواح ، وبحسبه أن يستعين بالرشوة وبالكذب وبالخداع ليستعبد كل من تستجيب نفسه لأمثال هذه الشرور .

ارسلوا إذن إليه ابن سبأ ، وفى ظنهم أن الوسائل الأموية بالشام كفيلة بقمعه وتأديبه . ولكنهم نسوا أنهم وذلك الحاكم الأريب الرشيد أمام رجل يسيره مبدأ ولا يستعبده عرض . وأصحاب المبادىء دائماً هم أصحاب عزائم تعجز دون ثنيها أو ترويضها كافة العروض . ولقد عرف معاوية القلق إذ ذاك، وثارت فى نفسه عوامل شتى من الخوف والإشفاق على ولايته أن يلفها الداعية فى برده . ثم زاد به قلقه حتى أوفى على حد الجزع حين بلغه أن ابن سبأ قد ألب عليه صحابياً جليلا لا تملك الأسماع النافرة من صاحب قصة الرجعة إلا أن تميل له . وإذا كان هناك الحاكم قد اطمأن نوعاً إلى إدراك الناس وما يحتمل من انحرافهم عن تصديق اليهودى الأسود ، فإنه أيقن أنهم أمام دعوة أبى ذر ليسوا كذلك ، فلم يكن هناك من يرى راعى الفقراء بأدنى شبهة ، أو يستطيع أن يحول بين الطبقات المحرومة وبين تصديقه . وما دام معاوية اليوم فى ميدان تصطرع فيه سلامته الشخصية كأمير وسلامة الدولة كلها كوحدة ، فإنه إذن لا يعوزه التفكير لاختيار الطريق الميسور. وأحسبه قد سارع فاختار لأن كفاح المبادىء قد يصل به إلى النجاح ، وقد يصل به إلى خسار .

أجل شق عليه أن يقمع المبدأ الهدام وإن كانت سلامة الإسلام كله فى قمعه . وآثر أن تبقى له إمارته قائمة تدين له فجنح إلى الحل الذى مال إليه كل أمراء الدولة إذ ذاك لا فرق فيهم بين ضعيف وقدير . وكما فعل ابن عامر من قبله ، نرى أمير الشام قد سارع إلى نفس الأداة التى توسل بها صاحباه فأخرج ابن سبأ إلى ما وراء حدوده ليؤمن هو ملكه ، وليستطيع من بعد أن يعيش قرير العين مرتاح البال .

وكذلك انتهى المطاف بالسبأية فحط شيخهم رحاله بمصر ، وأخذت دعوته بها تنمو مع الزمن ، وتهيمن على النفوس المتمردة بكافة الأقاليم الإسلامية ، ثم تنتشر انتشاراً نامياً على يد الرسل والرسائل ، وتمد سلطانها فى البلاد كما تمتد أذرع الأخطبوط !

١٦

حصار من الأحداث والاضطرابات الفكرية ضرب نطاقه على الدولة الإسلامية ولفها من أقطارها كأنها فى ثوب ، تبدت منه حاضرة ملك عثمان كما يبدو من بين الموج الثائر وجه غريق. الرجل أمامها حائر. مضت الآن فترة الطمأنينة المفتعلة التى بثها فى نفسه مشيروه أعواماً ، وغلب على قلبه الطيب قلق أكال على مصير أمته . حتى فى عقر داره لم يعد يأمن أن تناوشه اضطرابات أخر . بل إنها ناوشته فعلا . وراحت تحز جنبيه . فما كانت المدينة بالمكان الهادىء ، وما أصبحت الإمارة بالمقعد المستقر الذى يرتاح إليه . . . حقاً إن الدعوة السبأية لم تجد لها مرتعاً فى حاضرة الدولة ، ولكن أبا ذر كان قد حرك فى نفوس الفقراء جرثومة الحسرة التى تورث النفور ، وأخذ العبيد والموالى بها تفور بخواطرهم انفعالات الغضب من أجل حقوق لهم مرجوة ولكنها ضائعة، وانبرت عيونهم وآذانهم تتربص بكل كبيرة وصغيرة يأتى بها الحكام عسى أن تجد فيها مادة للتذمر . والسادة أيضاً ملأتهم المرارة لأسبابهم الخاصة ، وأصحاب الدين العازفون عن عروض الدنيا وسعهم أن يشعروا بالأسف على ما آلت إليه الأمور فى هذا العهد . وأن يعزوا التدهور الخلق الذى غزا النفوس إذ ذاك إلى ضعف الخليفة ووهن قبضته ... كان مما لا يعابون عليه أن تروح نفوسهم فريسة لهذا الإحساس لأنهم يؤمنون أن حالة الشعب ليست إلا مرآة تنعكس على صقالها قدرة الحاكم ، ولقد عانى الشعب أنواعاً شتى من الآلام انبعثت عنها شكاواه ، ولكن الذى أصبح جديراً بأن يثير قلق كل مسلم غيور على دينه أن يتدلى الناس إلى حضيض الأخلاق الذى كافح الدين طويلا حتى انتشلهم منه . . . ألم يفشو القمار بين الشبان ؟ ألم يجهد المترفون ليبتكروا صنوفاً من المراهنات استهوت النفوس الضعيفة ؟ ألم يتنافسوا فى الرمى عن الجلاهقات وفى طيران الحمام فى مباريات كانت تقود إلى

ربح وخسارة تأباهما روح الإسلام ؟ . . هذه ألوان من العبث كانت بلا شك للشام اليد الطولى فى بثها بأرض الجزيرة . فمن بلاد الروم أقبلت ومثيلاتها تخترق التخوم والحدود ، ومن مستقر معاوية انطلق خطرها يغزو النفوس التى سرها أن تتحرر ثانية من عقال الأخلاق لتساير سجيتها الآدمية النزاعة إلى الهوى ورى الغرائز . . . لم يكن كفاحها الضعف البشرى فى ممتنعيها كفاحاً مريراً بل كان هيناً أشد هوان . فقد انقضى عهد سيادة الروح إلا قليلا وبدأ العصر الذى أصبح فيه المستمسك بدينه كمن تقبض كفه على جمر . وكان الجيل العفقد أخذ يودع الحياة ويخلى مكانه لجيل من نوع آخر ، بهرته الدنيا الخارجية، واستهواه زخرفها البراق وفتنة المظهر التى قاربت أن تسود كل شيء ... وكان الشباب الوشكون أن يرثوا الدولة بعد بناتها الأول خليطاً من دماء شعوب وثنية أو أخرى لم يبق لها من دينها السماوى المنسوخ إلا بقايا تافهة لا تستطيع أن تمسك الحياة الروحية وتحفظها قائمة . وكانوا أيضاً ودائع فى أيدى أمهات من السرارى جيء بهن من البلاد المغلوبة ولسن على أسس من الخلق قويمة كتلك التى دعا إليها الإسـلام ولا تنطوى جوانحهن على احترام حق له . . . وهل الشعب بعد هذا سوى الأمهات ؟ .

على أن عثمان — فى الحق — لم يغفل دينه ، ولم يدع هذه الشراذم المفتونة تعبث فيه كما تشاء حرة طليقة ، بل أدى رسالته لربه ، وراح يقمع العصاة جاهداً ليردهم للجادة ، فما كان بالمتهم فى غيرته وحرصه على أصول الإسلام ، ولا بالذى ينام على أمثال هـــذه الفتنة وإن نام على فتنة السياسة ، ولقد لقى عنتاً فى كفاحه هذا لأنه كان يحارب نفوساً جرى فى دمائها التهاون والاستهتار بكل تقليد نبيل ووضع قويم ثم من بعد بكل محرم مقدس . ولكنه لقى أيضاً عداوة له مدفونة فى قلوب هـــذه الفئة التى شن عليها غارته وحرمها حقها المزعوم فى الحيـاة الملونة التى ارتضتها ، وأوشك أن

يصبح لها هى الأخرى موقف منه ، لا يبعدها عن صفوف خاذليه .

ولكن هذا الكفاح — على صدقه — لم يلق جزاءه ، ولم يتقبله الناس القبول الحسن الجدير به ... وهل كان بمقدورهم أن يفعلوا ؟.. هل كان بوسعهم أن يتلقوا جهاد الشيخ بالثناء وهذه شخصية إسلامية كبيرة ، لها فى نفوسهم منزلة لا يكاد أن يرتفع إلى شأوها سوى قليلين ، ما برحت ترميه بكل ما يثير نفوسهم عليه ... إنهم ليعلمون لها فى الدين سابقة ، وفى حفظ تراث محمد الروحى يد ومأثرة ، وفى بلوغها من العلم مدى يجعل لرأيها فى عثمان قوة الحكم الدامغ غير المنقوض ... أولبست هى من أوصاهم رسول الله بأن يلتمسوا لديها الهدى فى شئون دينهم إن أرادوا الهداية ؟ . . ألم يقل لهم حديثه خذو عنها نصف دينكم ؟ . . بلى . هى كل هذا وأكثر منه ... إنها زوج محمد ، الزوج الأثيرة عنده من بين نسائه ... إنها ابنة صاحبه الصديق التى تربت فى أحضان الدعوة ، وما كان لمثلها أن تتهم بغير علم ، وما كان لها أن تقول فى عثمان إلا حقاً صافياً غير مشوب .

ها هى قد نأت بجانبها عن الشيخ نفوراً وموجدة ، وراح لسانها ينال منه ، لم يعد الرجل فى خاطرها الآن أميرا للمؤمنين ، ولم يعد الغيور على حرمة الدين ، بل هو لم يعد مطلقاً ذات عثمان المبجل القديم ... فى سخريتها مجال لنعته إذن باللفظة التى تجنبها ذكر اسمه لأنها أصبحت تعاف أن تنطق به . . . وفى علمها المأثور عن زوجها الكريم ما يزرى بكفاية هذا الخليفة — هذا النعثل — إن أريد أن يقاس مدى علمه بدينه الذى أؤتمن عليه . . . نعثل ... نعم فما أشد انطباق هذا الاسم الجديد عليه ! . . وما أقوى دلالته اليوم على صاحب الأمس الذى لم يبق منه إلا مظهر خارجى تنم عنه هذه اللحية الضخمة ذات الشعر الملتف الكثيف !

فقد الرجل إذن — فى نظر عائشة — مخبره القديم وإن استبقى الهيئة الظاهرة السطحية ، كمثل الأبرص لا تزينه حسن برده . . . ومضت هى فى غضبها عليه تبث فى النفوس دعوتها الناهضة . ولقد هداها فكرها إلى نوع من

التأليب أشــد أثرا وأبلغ نفوذا إلى النفوس والأذهان ، فسارعت إلى قيص لرسول الله فنشرته بيينها كلما مر به امرؤ قالت له .

« هذا قيص رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته . ! »

فهل من سامع لهذا الـكلام يستطيع من بعد أن يحسن الظن بكفاية الخليفة فى رعاية الدين وحفظ فروضه وسننه إن وجد إلى اليوم من كان يحسن الظن به فى رعاية شئون الناس وحسن قيامه بأمور دنياهم ؟...

ومع هذا فلم يقف نشاط عائشة فى دعوتها للتخذيل عن عثمان عنـد المدى الذى ساقها إليه حرصها على كيان الدين ، بل احتضنت مع الزمن الدعــوة السياسية التى أخـذت تعمل لهدم الرجل وهدم سلطانه . هى فى هذا كانت لا ريب مدفوعة بحرصها على أن علا مقعد الإمارة الإسلامية بمن تظنه جديرا به ، وأشد غيرة على الواجب الدينى والدنيوى من ذلك الأمير المغضوب عليه . ولـكنها فى اندفاعها نسيت واجبها هى كأم للمؤمنين عليها أن تدعو إلى السبيل الأقوم ببث الحب والحـكمة دون العداء والتفرقة بين أبنائها المسلمين . ونسيت أيضاً مكانتها فى الناس كزوج لرسول الله تنطلع إليها عيونهم فى توقير لايمكن أن يتوفر لها إن آثرت السيرفى غمار الأحزاب . غير أن الشعور بالتفوق حفزها إلى الاستزادة منه . وطاقة النشاط التى انبعثت عن شبابها ، وما كانت فيه من فراغ لا يشغله ما يشغــل المرأة عادة من ولد أو زوج ، قد اجتمعت كلها عليها لتبدلى بدلوها فى الشئون العامة وقد حرمها الزمن أن يكون لها شأن خاص تقف حياتها عليه . . .

نفضت عائشة عنها خمول البيت ، ووحشة الوحـدة ، ومضت لطيتها إلى ميدان أولى به نشاطها وحيويتها عسى أن تـكون لها يد فى رسم مصير الشعب الذى أحبته باللون الذى ترتضيه . ولقد دفعتها الأحــداث أمامها كما يدفع السيل المنحدر صخرة ، فلم تستطع التمهل ولا التريث . ومضت فى النهار حتى آخر الشوط ، ولـكنها كانت تهدف بلا ريب إلى الخير لدينها ولأمتهـا حسبما دلتها نظرتها إلى الأمور ، وان أخضعت هذه النظرة لطبيعتها الأنثوية .

فلم تغفر قط لعثمان أن تناول سنة زوجها بالتبديل والتغيير . وقامت لهذا تشنها عليه حربا شعواء لاترضى من نتائجها بأقل من خفضه عن مقعد الحكم الذى خلف عليه رسول الله ، بل إنها سارت بحنقها إلى مداه حتى جاهرت بالرغبة فى أن ترفع بصرها فلا تراه فى هذه الحياة الدنيا ، ولو كان لها فى ذهابه عنها نصيب ... قالت تكشف عن حقدها عليه وقد علمت أن وفود الثوار أقبلت لحصرته فى داره حتى لايعلم إن بقى له أمل باهت فى الخلاص .

« ... والذى نفسي بيده ، لوددت أنه الآن فى غرارة من غرائرى مخيط عليه فألقيه فى البحر الأخضر . .. »

ولكن طبيعتها الأنثوية التى جنحت بها هذا الجنوح الموغل فى الإسراف للاحتقاد على الرجل الذى وتر زوجها فى سنته ، كانت هى نفس الطبيعة التى أفعمت من بعد قلبها بالرحمة له حين وجدت الناس قد تكالبوا عليه فقتلوه . لاعجب فى رحمتها تلك ولا فى الخطة المعادية التى اتخذتها حيال شراذم الثوار وإن كانت هى نفسها قد أمدت الثورة المندلعة بكثير من الوقود • بل العجب فى أن تظل فى مكانها حيث كانت فى صفوف الناجزين العتاة .. إن قلبها أكبر من أن ينقاد أبدا لغضبتها الجامحة بغير عنان ، وإن نفسها الطاهرة لم تعن مطلقا ما كان لسانها ينطق به فى ساعات انسياقها للغضب الفوار ، وإن عاطفة الأنوثة الفياضة لأولى بها أن تبدو فى صورة الأمومة الحانية التى يتسع حنانها لكل إنسان ، وهى أم المؤمنين ، وعثمان أحد أولئك الأبناء الذين شملتهم أمومتها الجامعة • ثم هو أجدر بأن يتقطع له قلبها أسى لأنه من أولئك الأبناء الضعيف الواهن المهيض الجناح .. وهل هناك أولى برثاء الأم ودمعها من ولدها المصـــاب ؟ .. وهلا تمحو نكبتها فيه كل ما أحسته نحوه من سخطها القديم ..؟

أجل كان قلبها الكبير أجدر بأن يوسع للرحمة حتى تطرد الحقد من نواحيه ، ولقد فعلت عائشة كما تفعل فى موقفها كل انثى أمينة على عواطف الأنوثة لم تجردها الأهواء من خصائص طبيعتها الرقيقة • ولم تكن فى هذا

تصطنع الحنان بل الحنان غمر فؤادها كالسيل · ولعل الندم هو الذى اقتحم على قلبها باب الرحمة المختزنة ولعل المحنة الواقعة هى التى تناولت بكفها القوية نفسها فجلتها وخلصتها من صدأ الضغينة ·· ولكنها فى كلا حقدها ورحمتها لعثمان كانت لاتعمل إلا بوحى عواطف نبيلة ، من بينها الولاء لسيرة زوجها الحبيب الفقيد ، والحزن الفاجع لمصرع الخليفة الشهيد .

على هـذا النحو يفهم ما كان من عائشة حق الفهم فلا يبدو فيه تناقض كثير . وبه يستطاع أن يبعد عنها بعض اللوم فتجنب عسرة الحساب عند الزارين ، فأحق منها بالزراية من عمل عن غير عاطفة شريفة كريمة وان سار وإياها فى طريقتها يلتمس مثلها نفس الغايات ·· أحق منها بهذه الزراية ابن النابغة عمرو بن العاص الرجل الذى كان فى ذلك الزمان عبدا لنوازع الشر التى ملأت نفسه · فلغير غرض نبيل ناجز عثمان وراح يؤلب عليه ، ولغير عاطفه كريمة قام يناضل عن دمه أو يبدو كمن يعمل جاهدا ليثأر له · بل انطلق فى البدء جامحا تستعبده المادة حتى أسرف فى تحريض الناس وبذر الحقد فى قلوبهم على الخليفة ، ثم ارتد فى النهاية — وقد أينع ثمره الخبيث — تستعبده المادة أيضا ؛ فمضى يستنهض الدموع والبكاء ليثأر لضحيته كمن دفعه الولاء والوفاء ·

هذا رجل أخضع النبل الإنسانى للغرض الشخصى حتى لم يعد هنالك نبل معلوم يجيش بصدره ، ولم تعد بقلبه عاطفة كريمة ينبض بها عرق واحد فيه ·· بل هو كافح لتدعيم النفعية لأنها أجدى عليه من قداسة الخلق الفاضل وصفاء النفس الشفافة · كان صورة أخرى لسيده معاوية كأنهما أصل وخيال · لم يرع كلاهما إلا الغرض الذى يدر عليه الربح المنشود ، ولم يلتزما فى حياتهما العامة المقاييس الخلقية الشريفة لأنهما علماها عند قياس المادة تبوء بخسران ·

كذلك كان عمرو ، وهذه نفسه التى جبلت شرورها فى البدء للأخذ من عثمان ثأرا للنفع الذى حرمها الخليفة إياه ·· وهل كان بوسع عبد الأهواء والنزوات أن يغفر لأمير المؤمنين أن قد سلبه مقعد إمارته بمصر

فمطله من مناط فخره ومصدر مجده وعزه .

قدم المدينة بعد عزله عن ولاية مصر ، ومضى يخوض في سيرة الخليفة ويطعن فيه ما شاء له حقده وشاء هواه . فدعاه عثمان إليه يؤنبه على ما كان منه ويعنف له في المقال . . قال له :

« يا ابن النابغة . ما أسرع ماقمل جربان جبتك . . إنما عهدك بالعمل عاماً أول . . أتطعن على وتأتيني بوجه وتذهب عني بآخر ؟ »

فأجابه الرجل وقد أخزاه أن يقف عثمان على مراءاته :

« إن كثيراً مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل . فاتق الله في رعيتك يا أمير المؤمنين . »

فلم يكن لمداهنته أثر في نفس الخليفة يمحو الشعور بالغضب عليه . فقال له مقذعاً في الخطاب :

« والله لقد استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك » .

« قد كنت عاملا لابن الخطاب ففارقني وهو عني راض » .

« وأنا والله لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت . ولكني لنت عليك فاجترأت علي . . أما والله لأنا أعز منك نفراً في الجاهلية وقبل أن ألي هذا السلطان » .

« دع عنك هذا فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وهدانا به . . قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان ، فو الله للعاص كان أشرف من أبيك » .

ومع ما بلغ من تهافته آونة على الاعتذار ، وإمعانه ثانية في الانتصار لنفسه من التهم التي كالها له الخليفة ، فإن الرجل لم يرعو عن غيه ، بل اندفع يحدوه حقده الذي أبى عليه أن يغفر لعثمان عزله من منصبه . وراح يملأ النفوس بالتذمر ويبذر فيها — انتقاماً لنفسه — بذور السخط على أمير المؤمنين . لم يسلم من بثه أحد كان بالمدينة حتى ابن أبي طالب أيضاً والزبير وطلحة . . ثم أخذ ينطلق في موسم الحج فيختلط بالناس الآتين من كل فج وقطر فينفث فيهم سمومه ، ويعترض سبيلهم ينبئهم بأخطاء عثمان . . .

ولعل خير صورة ترسم لنا جهوده المادية ماقاله هو عن نفسه غب مقتل عثمان :
« . . إن كنت لأحرض عليه حتى إنى لأحرض عليه الراعى فى غنمه برأس الجبل » .

بهذه النفسية عمل عمرو . وبها حارب الخليفة ، ثأراً لمنصب الإمارة بالفسطاط . ولهذا المنصب نفسه راح بعد المصرع يبدو أمام الناس داعية يريد أن ينتصف لعثمان .

ماذا بقى بعد هذا لا يؤجج النار حول عثمان . . ولأى دعامة من الدعامات استند منصبه ، أو ملكه ، أو الخلافة التى كانت فى البدء ذات أساس روحى يمنوله وجه الدنيا فأصبحت اليوم مظاهرة دنيوية تخضع لكل نزوات الإنسان . . الأحداث تلاحقت واصطفت كما اجتمعت سحائب دكناء فى جوانب الأفق منذرة بعاصفة . . والشعب فى أقطاره التى باعدت بينها المسافات ، قد ألف بين قلوبهم نفورهم من العهد الملول . . والقدر أيضاً مد أصابعه لينسج خيطه . يتهيأ الناس دائماً للثورة بضغط عوامل مادية شتى تدفعهم إلى تغيير ماهم فيه . ولكن قوة الأثر المعنوى الذى ترسبه فى نفوسهم هذه الماديات هو وحده الذى جعل من الثورة حقيقة واقعة تدمر ما أمامها ولا تأبه لما يعترض سبيلها من حواجز وسدود . وقد توفرت الدوافع النفسية المدمرة فى عهد عثمان . وبدت جلية فى سخط الفقير المحروم . وفى غضبة المظلوم المهضوم . وفى مطامع أصحاب الأهواء الذين أذلهم عرض الحياة . ولكن القدر أبى إلا أن يشتد فى حبك خيوطه لنزيد الأنشوطة متانة . وكانت المادة التى اتخذها قوام نسجه هى النفس. وكانت النفس طيعة يسير صوغها فى ذلك الزمان . لاتكاد أن تثبت أمام نزوة أو عاطفة . . لقد شاء القدر أن يبدأ عثمان حكمه بإثارة استنكار الناس حين خطا إلى المنبر فاقتعد نفس الدرجة التى كان يقتعدها رسول الله . هو بهذا لم يعن الاستعلاء على سلفيه العظيمين . ولا التطاول إلى مقام محمد الذى لا يبلغه أحد قبله أو بعده . إلا أنه كان عملا لم يعلق به عواطف الجماهير .

بل أصابها بجرح احفظها عليه لأنه مس — فى نظرتها — معنى القداسة التى كانت تؤثر أن يظل منفرداً به شخص رسول الله . ولئن كانت الأحداث من بعد قد تواترت سراعاً حتى أوشكت يدها الآسية أن تخفى الجرح القديم وتلفه فى رباط النسيان ، فإن القدر مد أصابعه ثانية ليكشف عنه ، وليعبث به وليرتد به دامياً يحز النفوس ويعيدها للذكرى المرة .

وكان الرجل سىء الحظ — فيما يبدو — تألبت عليه القوى جميعاً وفيها المصادفات .. وكما عثر به نجمه ساعة استخلافه وقاده شؤم الطالع إلى تلك الدرجة من منبر الرسول . فكذلك شاءت له تعاسته ذلك اليوم حين جلس ساهياً بجوار بئر أريس . ينبش التراب لغير غاية إلا العبث بلحظات فراغ . ولم يكن ملقياً بالا إلى شىء فغاب عنه أن ينتبه إلى خاتم الرسول ينزلق من أصابعه. فلما ثاب ووسعه أن يتبين الأمر انقبض صدره وبدا الجزع والأسى فى عينيه .. ولكن جهده فى البحث لم يرد إليه الأثر المفقود . وضاعت معه أيضاً جهود من أمرهم بنبش التراب حول المكان وبالغوص فى مياه أريس .

وتطير . والعرب كلها أمة تتطير وتكاد أن تستنبط الشؤم من كل مظهر ، والعامة منهـــا أولى بأن تتحكم فيها القوة الغامضة التى تنشأ عن أمثـــال هذه المظاهر الصغيرة وتكون لها فى نفوسهم قوة العقيدة . وقد ذهب النـــاس بهذا الحادث مع التشاؤم إلى غايته . وانقبضت صدورهم له . وصورت أوهامهم نتـــائجه فى صورة حملت إليهم الجزع والانزعاج .. على أى حال عادت ثانية إلى أذهانهم قصة المنبر وما استخلصوه منهـــا من معانى العبث بالقداسة التى أضفتها شخصية الرسول على كل آثاره . ثم وسعهم بعد هذا أن يسترجعوا صورا شتى من الماضى . بارزة الجمال والدلالة . لها فى نفوسهم آثار بعيدة الأصـــول . . . وأن تتجمع فيهما ذكريات حبيبة ذكروا بها محمداً وذكروا عهـــده ، والأيام السعيدة التى أهنأتهم . والحوادث التى كان لها فى بناء الدولة كيان . وفى كل صورة من هـــذه بدا لهم الخاتم قطعة منهـــا رائعة . له قداسة صاحبه . وله السحر الذى التف به كالهالة كلما ذيل به محمد

موثقا من مواثيقه أو كتابا من الكتب التى كان لها يد ماهرة فى رسم رفعة الإسلام . وبقيت له قداسته بعد محمد ببقاء الذكرى . وبقى له أيضاً سحره الذى أورث اليمن والبركة كل صحيفة طبعها بطابعه . وكل عهد مكتوب ختمه به الشيخان أبو بكر وعمر فى عهديهما الرخيين على الأمة .. أفآن اليوم أن تختتم هذه الصحائف المجيدات .. . وهل انقضى زمن الخير .. وهل آذن ضياع الخاتم بحلول عصر ليس له من عصر النبي وصاحبيه نصيب ؟

كان حريا بالنفوس أن تأسى عليه وتحزن لضياعه وأن تتهيب مما عسى أن تأتى به الأيام بعد ذهاب عنه . وأن تشفق من المستقبل وتخشاه ثم ترتد بالحنق على الرجل الذى أفقدهم عبثه هذا التراث الميمون . وكان أولى بها أن توغل بحنقها إلى السخط البالغ . وبحزنها إلى الجزع المشفق على التطير . وقديماً غالى العرب فى استنباط الشؤم من أوهن الظاهرات . وهم اليوم أقرب إلى طبعهم وأشد خضوعاً له وهم يستحضرون فى خواطرهم صور عهدين فلا يسلم آخرهما من سمات مادية منكرة مهدت لكرههم إياه وتطيرهم منه . .

ومن عجب أن يكون هذا الشعور الذى انقبضت به صدور القوم صادقا تمام الصدق . وأن ينبىء عن الحقيقة الواقعة التى أسفرت فيما بعد عنها الأيام . فلقد وقع ضياع الخاتم فى عام انقسم به عهد عثمان شطرين أحدهما صالح مرضى عنه ولى مع ماسبقه من عهد رسول الله وعهدى خليفتيه وكلها كان على الأمة ذا جدوى معلومة . والثانى ثقيل مكروه استفتح زمان الخلافات وانطلقت من بعده الفتن تنوش القلوب والشعوب . وتصيب الإسلام من المتاعب والويلات بما هاض جناحه . وانتهى بحكمه إلى الوهن الذى هو عليه الآن . . . .

١٧

أينع الغرس . وتدلت ثماره المرة ناضجة تنتظر القطاف . وكانت الكوفة أول الأقطار التي بادرت للاجتناء ..

كانت تلك ليلة مشهودة ، لها ما بعدها من ليال كثيرة الحادثات . امتدت فيها اليد القاطفة إلى الفرع الداني .. وكانت يدا متمرسة قوية لم ترهبها الأشواك . أقبلت فجردت الغصن وجنت الثمرة بلا تردد لأنها رأت لها في الجنى حقا .. إنها يد التحرر المقتحمة التي لا تلين للصعاب . يد القومية التي تدين بكرامة الحياة وإن كانت في ظل عذاب . يد البلدة التي أحست بذاتها وعلمها نضج شخصيتها كيف تأبى الخضوع للذل وإن عاشت في أكنافه على الذهب والحرير .

هبت الكوفة . ونفضت عنها سباتها القديم . فقد نضج فيها الوعي القومي وتهيأت روح التحرر للانطلاق . وآن أخيراً لأهلها أن يغضبوا لكرامتهم أن يمشي عليها عزيز ، ولحقهم المعلوم أن تلقفه دونهم يد سائدة . لو أنهم ارتضوا لأنفسهم مكان الذيول لوسع الفتنة أن تطأطىء رأسها للتخاذل . ولكنهم كانوا قوما قويت ذاتهم حتى رفعتهم عن مدارك الذلة ، وأصبح شعورهم بكيانهم مرهفاً كالسيف . ولم يعودا بعد متاعاً في كف سيد . ولم يصبحوا عباد مال أو منصب أو جاه يمن بها عليهم أمير . ولم يكونوا صوراً متماثلة من مواطنهم الذليل . ذلك الفتى المتخاذل عبد الرحمن بن خنيس .. كلا . بل هم اليوم رجال ذوو أنفة ، نمت فيهم عزة الوطنية حتى أحالتهم أقراناً لحاكمهم المفتون بجنسه ، المستعلي بقومه عليهم وعلى غيرهم من أقوام .

أجل . لم يخفضوا الرأس للهوان فتموت الفتنة لأنهم أبوا أن يدعوا اللحظة الفاصلة تمر . ولم يتركوا الثمرة الناضجة تسقط دون أن يلقفوها .

بل بادروها بالقطاف لا يأبهون لما حولها من أشواك . ومضوا لطيتهم بغير تردد فى طريق الصعاب والدماء ، لأنه يصل إلى النصر . ولأن لهم فى الدنيا رسالة لا ينجزونها إلا إذا ساروا فيه . ولأن عليهم لشعبهم حقا أن يناضلوا من أجله وفى سبيل حياة له كريمة وإن جادوا له بالحياة ..

وحانت أخيراً اللحظة المرجوة .. ساعة المد الذى طالما انتظره الشراع .. الليلة المشهودة التى لن تلبث أن تجر فى أعقابها مثيلات جمة تموج بالحادثات . .

كان إذ ذاك سعيد بن العاص فى مجلس سمره بدار الإمارة يحيط به وجوه الناس . وقد بدا القصر والبلدة كلها كالكوة المشرفة على سهول العراق ، وأخذ الهواء الرطب يهب من ناحية النهر المنساب غير بعيد وقد اكتنفته الخضرة من جانبيه حتى لا تخطئها عين . وكان جو الجلسة هادئاً . لا يكاد ينبىء عن الثورة القريبة تماما كهدوء الليلة البادى فى صفاء السماء وكان الحديث يسير بالقوم ليناً إلى غير غاية وقد اجتمع فيهم ذو الجاه وذو المنصب وذو الكلمة النافذة إلى قلوب قومه . وألمت أطراف الكلام بسيرة طلحة بن عبيد الله ، وبجوده ، وبالثراء البالغ الذى أصبح الرجل عليه ، فقال سعيد :

« إن من له مثل النشاتيج لحقيق أن يكون جواداً .. والله لو أن لى مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً .. »

فاستهوت الأمنية نفس الفتى ابن خنيس فد أصبعاً تشير إلى جانب الفرات حيث قامت ضياع كسرى . وقال يتملق الأمير :

« لوددت أن هذا المطاط لك » .

فندت من بعض الجلوس همهمة غضب واستنكار . وصاح أحدهم فى الفتى الداهن :

« اسكت . فض الله فاك ! »

ولكنها كانت صيحة لم تعجب الأمير . ولم تمسح على عصب الغرور فيه . فإذا به ينظر للقوم مستعلياً ويقول بلا مبالاة :

« إنما هذا السواد بستان لقريش ! »

السواد ؟ .. العراق كله ؟ .. كأنما لم يكفه ماجاءت به أمنيه فتـاه ولم يرض بالنصيب الذى عناه .. هذه إذن بلاد قريش . أرضها ، ضيعتها التى تملكها وتلعب بها كما تشاء .. أما أولئك كلهم فمن حوتهم الضيعة من موال وأتباع .. عبيد يكدحون للسادة ، وليس لهم فى الحياة إلا حق المملوك عند ربه إن كان هناك حق لمملوك .. أما الشعب فآلة والحاكم فإله .. أما الذين بدمائهم رووا الأرض وبأسيافهم شقوا باطن الدولة الغاصبة الذاهبة لتخلص لهم بلادهم حرة فهم اليوم عند الأمير القرشي المسلم كحالهم بالأمس عند فارس تحت نير الأكاسرة عباد النار ..

ولـكن الصبر قد انقطع حبله ، والصمت على الهوان ذهب زمانه ، والثمرة ناضجة والغصن دان يمد نفسه للقطاف ! ..

فى هـذا اللحظة تجمعت كل مرارة الماضى ، وعصفت بالنفوس الثورة المـكتومة ، فانطلقت على لسان مالك الأشتر كأنها حمة بركان .

انتفض الرجل من مكانه يزأر بالأمير :

« أتزعم أن السواد الذى أفاء الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ .. والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا يا سعيد » .

وعبس سعيد . وبهت لهذه الغضبة المفاجئة التى لم يتهيأ لها أو يعد عدته . وخذل لسانه الـكلام . ولـكن صاحب شرطته أسعفه خاطره بما زاد من إذكاء النار .. انبرى يظهر الولاء لسيده ويدفع عنه فراح يرد على الأشتر ومن معه ويعنف لهم فى المقال . حتى قال :

« أتردون على الأمير مقالته ؟ »

فما أسرع أن وثبوا عليه محنقين يتناولونه بالضرب والسباب ، لا يرعون للمجلس حرمته ، ولا يحسبون حساباً إلا لرى حفيظتهم عليه وعلى أميره سواء بسواء ..

وانتهت الجلسة أسوأ انتهاء . وخرجوا من لدن سعيـــد وقد تركوا

فريستهم فى غشية . وذهب الزهو من نفس الحاكم ليفسح مكاناً للجزع وخشية كل يوم لم تطلع شمسه . هذه الجرأة تنبىء عن قوة مستترة وشدة خبيئة لعلها تدخر إلى ساعة مناهضة وجلاد . وهذه الفئة لا ريب لهـــا ما وراءها . إنها تمنى البدو الذين تكلم رجالهم أولئك برأيهم الآن . وتعنى المقاتلة غير قريش من القبائل والأعراب . وتعنى أيضاً عامة الناس فى البلاد من أصحابها الذين أمضهم استعلاء الحكام . إنها الدعوة القديمة للمساواة .. الدعوة التى بدأت هادئة مسالمة فى صورة إرشاد قد انطلقت اليوم صرخة مدوية لن تلبث حتى يستجيب لها كل مشوق إلى المساواة ..

وكذلك كانت : واندلعت ألسنتها فى كل مكان . وأقبل الناس عليها وقد أعدتهم جرأتها فأصبحوا كدعاتها الأول جرأة وإقداماً دون خشية للأخطار . واختلط الأمر على الوالى . وحارت فيه تجربته الفجة فراح يستلهم العلاج من أمير المؤمنين ..

كتب له يقول :

« .. إن رهطاً من أهل الكوفة يؤلبون ، ويجتمعون على عيبك وعيبى والطعن فى ديننا ، وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثروا .. »

فماذا كان جواب عثمان ؟ .. كأنى به قد بدت له إذ ذاك دمشق . وبدا فى عينيه أميرها الأموى معاوية كالعملاق الذى تعنو له المشكلات ..

« سيرهم إلى معاوية » .

وكان هذا فصل الخطاب ، والدواء الذى حسبه الخليفة حاسماً للداء ..

ولكنه فى — الحق — ظلم ابن أبى سفيان ..

نعم ظلمه لأنه حمله من الأمر فوق ما يطيق . وهل كانت سياسة معاوية إلا التماس السلامة لنفسه من أى سبيل ؟

بلى .. فالرجل الداهية خذله دهاؤه . وقعد به الذكاء الذى زعمه له الآخرون . فلم يتلق المشكلة إلا باليد التى يتلقاها بها أى أمير آخر من أمراء عثمان . ولم يبد حيالها الحذق الخارق الذى حسبوه له . وهل كان من الذكاء والحذق

والدهاء أن يعالج أولئك الثائرين على الكبر والترفع والاستعلاء بالكبر وبالترفع والاستعلاء ؟

ذلك ما انكشف عنه وفاض معاوية وانحسرت جبهته . ونمت عنه سياسته التي كانت في نظرة ولاة ذلك العهد أرشد السياسات .. ..

قال لهم ذات يوم مباهيا بقومه :

« .. لقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً . وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم .. إن أئمتكم لكم إلى اليوم جنة فلا تسدوا عن جنتكم . وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة .. فوالله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر .. » .

فلم يصبروا على زهوه وإن جاءهم في ثوب إرشاد . بل انبرى أحدهم يجيبه :

« أما قريش فلم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية .. وأما الجنة التي ذكرت فإنها إذا اخترقت خاص إلينا » .

وبهذا رسموا له المبدأ الذي ناضلوا عليه وأوضحوه بأقصر بيان . إن القوة المزهوة التي بوأها القدر مكان الصدارة في الدولة قد نسيت رسالتها التي نصبها الدين لبثها في الحياة .. نسيت دعوة المساواة التي أراد الإسلام أن يجمع بين كل الشعوب والأفراد وتؤلف بينهم جميعاً أمة واحدة تسودها المحبة .. بل إنها بكبرها ضنت على غيرها من الشعوب والقبائل أن تبلغ مثل شأوها . ووقفت لهم حائلا دون التحرر الذي نشدوه . والمساواة التي أباحهم إياها الدين الحق . أفكان عجباً إذن أن تتألب هذه القوى المهضومة على ذلك السياج فتكسره حتى تنطلق منه إلى حياة النور والعدالة ؟

ولكن الرد الواضح الصريح أخرج الداهية عن طوقه . ونزع عنه الحلم الذي وسم به ، ثم رده في نهاية المطاف مفتوناً أشد افتتان بجنسه . وبقومه وبأهله الذين يرتفعون في نظرته فوق الهام .

قال لهم وهو محنق مغيظ :

« أخزى الله أقواما أعظموا أمركم .. إن الله بنى هـذا للملك على قريش وجعل هذه الخـلافة فيهم ولا يصلح ذلك إلا عليهم .. لقد كان يحوطهم فى الجاهلية وهم على كفرهم ـــ وقد حاطهم فى الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم — أفلا يحوطهم وهم على دينه ؟ »

ثم التفت إلى محدثه يثور به ويكيل السباب والقدح لهم :

« يا صعصعة بن صوحان . . إن قريتك شر قرى عربية . أنتنها نبتا وأعمقها واديا وأعرفها بالشر . . كنتم جيران الخط وفعلة فارس حتى أصابتكم دعوة النبى . . يا شر قومك . . أفبعد أن أبرزك الإسلام وخلطك بالناس وحملك على الأمم التى كانت عليك أقبلت تبغى دين الله عوجا . . لا يضع ذلك قريشا ولا يضرهم . ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم . إن الشيطان عنكم غير غافل . قد عرفكم بالشر من بين أمتكم فأغرى بكم الناس .. وإنه لصارعكم . »

بمثل هذا وبغيره من ألوان الشتم والسباب تناول القوم . حتى إذا أفرغ ما فى صدره من الغيظ وانفثأ عنه غضبه أو كاد ، عادل ثانية يحاول إرشادهم على الطريقة التى يوشك ألا يعرف لها قرينا .. أجل فإنما بتجسيم هيئته أمام عيونهم حسب أنهم يرهبونه ويخفضون له جناح الطاعة والرضوخ .

عاود الكلام ثانية عن شأو قريش ومجدها ورفعتها . وراح يرسم بحديثه صوراً عنها تغرى الرؤوس من غيرها بالإذعان . فلما أن بلغ وطره من الإسهاب . انثنى إلى الناحية التى تشبسع فيه حب المباهاة .

قال وهو يكسب كلماته لينا وطراوة :

« . . . إنى والله ما آمركم بشىء إلا قد بدأت فيه بنفسى وأهـل بيتى وخاصتى . وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلا ما جعـل الله لنبيه . . وإنى لأظن أن أبا سفيان لو ولد النـاس لم يلد إلا حازماً . »

فلم يطق صعصعة هذا البهتان . بل بادره يقطع عليه حـديث الصلف والمباهاة الذى اوشك أن يغرق فيه :

« كذبت . . »

فارتج الرجل لأن الـكلمة أصابت خيلاءه بأرهف سيف ولـكن صراحة الخصم وصرامته أبت النـكوص . .

« كذبت . . قد ولدهم من هو خير من أبى سفيان . من خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه . وأمر الملائـكة فسجدوا له .. فـكان فيهم البر والفاجر والأحمق والـكيس .. »

وخرج معاوية من لدنهم مدحوراً .

على أنه فى الليلة التالية شحذ سلاحه الماضى الذى حسب أنه لا يخونه . . ذلك السلاح الذى تركزت فيه سياسة الدهاء كلها التى ظنت له .. المادة التى تثير الغرائز الدنيا فى النفوس وتتملق عواطفها المنطلقة بغير عنان حاكم من دين أو أخلاق ..

قال لهم وهو يلوح بالعروض والأمنيات :

« أيهـا القوم .. ردوا على خيراً أو اسكتوا . وتفـكروا .. وانظروا فيما ينفعكم . وينفع أهليـكم . وينفع عشائركم . وينفع جماعة المسلمين فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم » .

هـذا بلا ريب عرض سخى . حرى بأن يعقل الألسنة ويكم الأفواه . ولـكن الداهية — فيما يبدو — قد غاب عنه إذ ذاك أن سلاحه أولى به أن يصبح مفلولا عند مناجزة ذوى المثل والمبادىء وأن النفوس ليست فى ميدان الأهواء سواء ..

لم يفت صعصعة أن يكشف عما انطوى عليه هذا الإغراء الذى يحاول معاوية أن يشترى ضمائرهم ويستعبدهم به . فبادره بجواب فيه تقريع وتأنيب وفيه تهـكم وسخرية :

« لست بأهل ذلك . . ولا كرامة لك أن تطاع فى معصية الله . . » .

وهل الرشوة التى أحب لو توصل بها لإخضاعهم وطاعتهم إلا معصية ؟

غير أن الحاكم الداهية بدا كمن لم يفهم . وراح يبتسم بهدوء ويقول :

— أو ليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعته وطاعة نبيه . وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا .

— بل أمرت بالفرقة وخلاف ماجاء به النبى .

وإنها حق للسياسة التى انتهجها هو وغيره من الولاة .. سياسة معاملة الناس بغير مساواة وبغير العدالة التى جاء بها رسول الله ..

وآن له أن يداورهم ويصطنع لهم النزوع عما كان منه والاعتذار عما فرط فى حقهم فقال :

« فإنى آمركم الآن إن كنت فعلت فأتوب إلى الله . وآمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه . ولزوم الجماعة وكراهة الفرقة . وأن توقروا أئمتكم وتدلوهم على كل حسن ما قدرتم . وتعظموهم فى لين ولطف فى شئ إن كان منهم » .

أما وقد طلب منهم العظة والنصيحة فليقلها له صمصمة دون مواربة :

— فإنا نأمرك أن تعتزل عملك . فإن فى المسلمين من هو أحق به منك .

فكأنما انقضت عليه صاعقة .. أهذا هو النصح الذى يختصونه به .. أهذه هى العظة التى يزجونها إليه لخير دينه وخير دنياه ؟ ..

قال له وهو يكتم غيظه :

— فمن هو ؟

— من كان أبوه أحسن قوما من أبيك . وهو بنفسه أحسن قوما منك فى الإسلام .

كذلك حتى لاتكون الإمرة خاضعة للحدود التى رسمها لهـا عثمان من القربى واتصال أنساب أمرائه به ..

وثار الأمير .. بدا الخطر الذى يتهدد منصبه بعد أن تطرق الحديث بهم إلى هذا الحد . ولم يعد فى طوقه إلا أن يدل ثانية بمكانته وقدرته فقال :

— ... ليس فى زمانى أحد أقوى على ما أنا فيه منى ... لعمرى لو كانت الأمور تقضى على رأيكم ما استقامت لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة . . . ولكن الله يقضيها ويدبرها . وهو بالغ أمره . فعاودوا الخير وقولوا . . .

— لست أهلا لذلك .

— أما والله إن لله لسطوات ونقمات . وإنى لخائف عليكم أن تتابعوا فى مطاوعة الشيطان حتى تحلكم دار الهوان من نقم الله فى العاجل والخزى الدائم فى الآجل .

وثار بهم ثورته فقاموا له . وأمسك بعضهم بلحيته وبعضهم برأسه . فصاح غاضباً :

— مه . هذه ليست بأرض الكوفة ... والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بى وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم ...

وقام عنهم وهو لا يكاد أن يملك نفسه . ولم يأت الغد إلا وقد تبين له الأمر كله ... إن هذه الشرذمة لن يحملها شيء على الطاعة إلا اعتزاله واعتزال بقية ولاة عثمان من أقاربه وبنى بيته الذين فتنتهم أنسابهم وجنسهم فمضوا يمشون على رؤوس الناس فى البلاد ، ويحتجزون لأنفسهم الأموال والمناصب لأنهم يرونها لهم حقاً لا ينازعهم فيه غيرهم ولا يقوى عليه ... أفينفسون عليه إمرة الشام — هو معاوية ابن أكرم قريش وابن أكرمها وأكرم الناس ... ابن أبى سفيان الذى لو أنجب لم ينجب سوى حازم حزم هذا الأمير الراشد الأريب ذى الدهاء ... ألا فليسلن دهاءه وحزمه . وليرينهم حسن السياسة كيف يكون ...

ولكنها اللعبة الوحيدة التى يجيدها . والدهاء الذى يستوى عنده كل أمير ضعيف وقدير ... والحل الذى يبعد عن إمارته الخطر ويضمن له السلامة ولو إلى حين ...

ومن ثم كتب إلى أمير المؤمنين :

« ... إنك بعثت إلى أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين . . وإنما يريدون

فرقة . ويقربون فتنة . قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم . وتمكنت رق الشيطان من قلوبهم . فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة . ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم. فارددهم إلى مصرهم الذى نجم فيه نفاقهم ... والسلام » .

١٨

أرعد عبد الرحمن بن عوف ... وثارت نفسه غضباً وهو يصيح بابن أخته: « يا مسور ... اذهب أنت فأطلقها . ثم ادعنى أنظر ... »

فمضى الرجل مدوعاً بأمر خاله . ومعه صاحب من بنى عبد يغوث إلى مرابض الإبل فأخرجاها . لم يستأذنا أحداً : لا الخليفة . ولا مالكيها . ولا أصغر قائم على حراسة الدواب .

وأقبل عبد الرحمن من بعد . ولم تزل فى جبينه غضبته . فنظر ملياً إلى الإبل. ثم أشار بها ففرقت بين الفقراء .

وأتم بهذا تحديه لعثمان . . ذلك التحدى السافر لذلك الشيخ الذى كان هو صاحب اليد فى استخلافه . . ولم تكن هذه أول مرة أبدى فيها استنكار أفعال الخليفة . ولكنه الآن أبداه على ملأ من الناس حتى تحدثوا به . وأنكروا كمثله . ووسع كل منهم أن يلفظ باسم أمير المؤمنين الذى احتجز إبل الصدقة لبضعة من بنى الحكم أقربائه دون ذوى الحق فيها من المسلمين .

هذه صورة لما بلغ إليه هوان عثمان وهوان أوامره بين الناس . فى البدء كانت المهنة كالصفحة الهادئة . الماء منبسط عليها . ساكن لا يكاد يتكشف عما يعتمل فى أغواره . ولكن الأزمات تلاحقت من بعد فى أطراف الدولة وراحت تفعل فعلها . آونة سراعاً . وآونة مستأنية فى تريث واسترخاء . . . فإلى أي مدي تقبلتها حاضرة الإسلام .؟

ماذا فعلت المدينة ..؟ وكيف كان موقفها من تلك الحوادث والأزمات الفكرية والمادية التي راحت تعهد بالدولة ؟ صامتة تنظر . متربصة ترقب حتى تحين سانحة .. جانحة إلى هذه أو تلك من الطوائف التي أخذت أكفها تتناول نظام الحكم بالخدش أو بالتمزيق .

بل سبق إليها التذمر ولما يمر قبلها ببلدة . وتناول فيها صحب رسول الله أنفسهم فغير قلوبهم على الخليفة الشيخ . وانطلقت ألسنتهم تخوض في سيرته بما أطلق فيها ألسنة العامة .. أما عثمان فكان غير آبه . ولم يلق السمع لهذه الأحاديث الخافتة التي راحت تنتقل بين الشفاه والآذان . ولا الاستجابة لتلك النقدات العابرة التي كان يطالعه بها صحبه في صيغة النصح بين حين وحين ، ولكن الزمن الجاري لم يلبث أن خلع القفاز الأملس .. الصفحة الرائقة أبدلتها التيارات الخفية هياجاً بهدوء .. النفوس المواجع ارتدت يقظى .. لم تبق الآن بقية لمخافتة أو إسرار ، لأنه لم تبق فيها بقية لاصطبار . غلب على الناس ضيقهم ففاض . آدهم الكتمان وأعياهم فأسفروا عن سخطهم وأظهروه . حلت في نفوسهم الجرأة على الخليفة مكان خشيتهم منه . فما عادوا يلقونه بمثل ما كان له عندهم من توقير . ونسوا التبجيل الذي هو أولى بتقدم عمره فضلا عن علو قدره . وفرغت نفوس الكثيرين من هيبته حتى لأصبح الواحد منهم لا يكاد أن يرمي إليه إلا بالنظرة الزارية كلما ضمه وإياه طريق . بل بلغ من هذا أنهم كانوا لا يزجون إليه التحية ولا يردونها إن بدأ بها ثم يكون من يردها عليه محور العتاب ولوم اللوام ..

قال جبلة بن عمرو وقد سمع بعض قومه يردون السلام على عثمان :

« أتردون على رجل فعل هكذا ؟ » .

ثم انفلت من المجلس وفي يده جامعة . فقطع على الخليفة طريقه وصاح به :

« والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه » .

فآثر عثمان — وإن آلمته الجرأة — اصطناع الأناة . فقال :

« أي بطانة ؟ فوالله إني لا أتخير الناس » .

« مروان تخيرته .. ومعاوية تخيرته .. وابن عامر تخيرته .. وابن سعد تخيرته . منهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول الله دمه .. »

فنظر الشيخ إليه مبهوتاً برهة ، ثم مضى عنه صامتاً لا يعقب . ولكن جبلة أبى إلا أن يمعن في زرايته ، فما لبث أن راح يلوح بقبضته في الهواء متوعداً ويصيح :

« والله لأقتلنك يا نعثل ... ولأحملنك على قلوص جرباء ... ولأخرجنك إلى حرة النار ...

ثم خرج السخط رويداً رويداً من أسوار المدينة ، واستطاع أن يجد له قدمين يحملانه إلى بقية الأمصار .. من حاضرة الدولة كتب أصحاب رسول الله إلى زملائهم المتفرقين في الآفاق بالثغور بغية الجهاد ، ينبئونهم بأحداث عثمان ، ويحضونهم على تبديل ما عمله ، وكان مدار استهجانهم ومعابتهم . ويهيبون بهم أن ينفروا إلى جهاده فما من جهاد أولى بالمسارعة إليه وتلبيته من كفاح هذا القائم على أمر الدين بغير إحسان . وعلى أمر الدنيا بغير كياسة وتدبر ... قالوا لهم فيما قالوه :

« إنكم إنما فرحتم أن تجاهدوا في سبيل الله . تطلبون دين محمد . ألا فإن دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك .. فهلموا فأقبلوا فأقيموه .. » .

ووضح للناس في الآفاق أنهم وأهل المدينة في الهم سواء . وأن الآفة ليست من الولاة بل من صنائع أولئك الولاة . وأن أخطاء حكامه جميعاً يمكن ردها إليه ثم لا يكون ثمة تجن عليه ولا إقحام له في الأوزار بغير سند ملموس .

وأصبحت الحاضرة الإسلامية ذات يوم فإذا بها تموج بألوان من الزائرين الزارين .. لعل الكثرة كانت من صحب رسول الله الذين خلفوا بلدته من أعوام يصطلون نار الحروب رغبة في إعلاء دينه وكلمة ربه . ولكنهم اليوم عادوا وعاد في ركابهم بضعة من أهل الأمصار الذين ذاقوا من مرارة سياسة الخليفة في أقطارهم البعيدة . وكانوا جميعاً قد أقبلوا

استجابة لدعوة أهـل المدينة . وأملا فى أن ينزع أمير المؤمنين — إن رفعوا إليه طلباتهم — عما هو فيه . وأن يبدل طرائق الحكم التى سار عليها وكان لها شأن فى تذمر بلادهم منه وتذمر بقية الناس الذين أظلهم عامه . وراحوا فى دروب البلدة يتحـدثون جماعات وينضم الـكثير من أهلها إليهم . ويبحثون بينهم شكاياتهم حتى وسع من لم يسمع أن يعرف أن الشكوى عامة . وأن التذمر شامل ينتظم كافة الأمصار .

من بين أولئك تخير نفر منهم رجلا موسوماً بورعه وإن أودت به ذات يوم وشاية حتى نفي من بلدته البصرة إلى الشـام .. دائماً الشام كانت المنفى ودار القمع التى تخيرها أولئك الحـكام الطغاة . ولـكن العنبرى لم يكن مذنباً . ولا داعية إلى فتنة . ولا رأساً لجماعة ثائرة . بل هو ناسك عازف عن الدنيا . انطوى على نفسه فى داره يعبد ربه ولا يلقى الأحداث السارية إلا بنظرة حكيم . غير أن سوء طالعه أبى أن يدعـه فى مستقره . فإذا ابن عامر يمر يوماً فى جماعـة بجوار بيته فيذكرونه لديه . فينفلت منهم واحد مفسود — كان عثمان قد غضب عليه فأخرجه من المدينة — يقول للامير :

— الا اسبقكم فأخبره ؟

ومضى فدخل على الرجـــل داره وهو جالس فيها قد استغرقته القراءة فى مصحف بحجره .. فأهاب به :

— الأمير أراد أن يمر بك . فأحببت أن أخبرك .

فلم يرفع العنبرى بصره عمـا هو فيه . ولم يقطع قراءته إكباراً لـكلام الله أن يقطعه كلام إنســان عظم أو هان .. فى ذلك الوقت كانت الشكوك لا تنى تراود نفس ابن عامر على بعض سكان البصرة . ويكاد الرجل أن يستريب فى كل سكون — كما كان يستريب فى كل حركة — خشية أن يكون له ماوراءه من تأليب على النظام . والخفية دائماً يصحبها الظن . وهذا العنبرى يستخفي وينقبض عن الناس . وهو من عبد القيس وعهـد الحـاكم

بحركة ابن سبأ التى دبرت فى الخفاء ونشأت فى حى هذا الرجل ليس ببعيد .

غير أن ذلك الرسول المفسود آثر أن يضيف إلى شك الوالى موجدة توغر صدره على الزاهد النائى عن الجمهور . فسارع إليه يقول :

— جئتك من عند امرىء لايرى لآل إبراهيم عليه فضلا .

فأسرع ابن عامر فاستأذن على الرجل وحدثه فيما بلغه عنه .. قال له :

— . . إن هذا يزعم أنك لا ترى لآل إبراهيم عليك فضلا .

فلم يجبه . بل صفح كتاب الله وقرأ أول ماوقع بصره عليه :

« . إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . »

ومع ما بدا من استيقان الحاكم من براءة الرجل . وتركه إياه حراً يعبد ربه مستخفياً كما يريد . فإن ذلك المدنى المغضوب عليه أبى إلا أن ينتهز الفرصة ليسترد رضاء عثمان عنه . فسار إليه يوغر صدره على العنبرى ويعلاه بالشك والريبة . ولم يعدم أن يجد نفراً مثله مبطلين يؤيدون وشايته لدى أمير المؤمنين.

وكذلك دفع إلى معاوية بالبرىء المظلوم . ولكنه لم يكن مذنباً . ولا داعية إلى فتنة . ولا رأساً لجماعة ثائرة ، فليس له من سبيل إلى خشية الطغاة ، ولعل معاوية نفسه قد علم براءته وأيقن بها حتى رق له قلبه وود لو أثابه بما يريد . كان يقول له :

« قل حاجتك » .

فكان العنبرى يجيب ببسمة هادئة فيها إشراقة الإيمان :

« رد على من حر البصرة لعل الصوم أن يشتد على شيئاً فإنى أراه يخف على فى بلادكم » .

هذا هو الرجل الذى تخيره بعض الذاهبين إلى المدينة ليكون لسانهم عند عثمان . ينطق بشكواهم ، ويذكر حوائجهم ، ويزجى للخليفة وسائل الإصلاح التى يرغبون .

وأدخل القصر . ومثل بين يدى عثمان ، ثم راح يشرح رسالته

بالصراحة التي يوسم بها أمثاله من رجال الله :

« .. يا أمير المؤمنين . إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا فى أعمالك فوجدوك قد ركبت أموراً عظاما . فاتق الله عز وجل . وتب إليه وانزع عنها » .

فما أسرع أن تلفت عثمان إلى من حوله . وقال ساخراً وهو يقطع على الرسول حديثه :

— أنظر إلى هذا فإن الناس يزعمون أنه قارئ ثم هو يجئ فيكلمنى فى المحقرات .. فو الله مايدرى أين الله .

قال المنبرى بهدوء :

— أنا لا أدرى أين الله ؟

— نعم . والله ماتدرى أين الله .

— بلى والله . وإنى لأدرى أن الله بالمرصاد لك يا عثمان .

وخرج الرجل مغضباً من لدنه ليترك للناس اختيار الوسيلة التى يرونها صالحة للبلاغ .

١٩

أما من وسيلة .. هذا شيخ عزم على أن يصم أذنيه دون صوت الناس : ولا يسمع النصح . ولا يسوغ النقد . ولا يستطيع مطلقاً أن يرى أعماله على محك الفحص والمناقشة . كم من مرة كلمه أصحابه . وكم شكوى سرت إليه من شعبه الذى ضاقت صدوره وهو صامت ساكن كأن لا شكوى ولا تذمر . أم هى الحيرة يا ترى أوقفته حيث هو حتى لايعرف كيف يتناول الأمور بالعلاج المنشود ..

ولكن الزمن لم يقف له . ولم يتريث به . وسبقه بأحداثه إلى الحدود التي دون بلوغه إياها انبهار أنفاسه . وقد تخلف الشيخ عن موكب الزمن .

وعاش يفكر جامد لا يستجيب للتطور الذى قطعت الأفكار الأخرى أشواطه. فبقى بهذا وحيداً فى واد والناس كلهم فى واد ..

ومع ذلك فقد وجب على الشعب أن يفعل شيئاً إزاء هذا الجمود . وأن يقسر الشيخ على سماع صوته . وأن يحمله كرها فى موكبه . وما كانت المدينة إذ ذاك إلا كالقافلة المقبلة على رحلة شاقة . بعيدة المسافات . دون هدفها أشواط وأشواط . ولكن الدليل نائم لاتكاد أن توقظه جلبة التأهب .. أفيتخلف الركب كله يا ترى أم الخير أن يتخلف الدليل الوسنان ؟ ..

وكرة أخرى بعد الكرات السوالف آثر الناس أن يوقظوا الدليل . وأن يهزوه فى مرقده ليفتح عينيه ويرى مدى ما أصبحوا عليه . وأن يسلموه الزمام وهو منتبه غير غافل ليقودهم على الدرب المأمون ..

فمن الرجل الكفيل إذن بإيقاف الغافل .. إن العيون كلها تتطلع فى مناح شتى ثم لاتلبث نظراتها أن تلتقى على فرد واحد فى الرجال . له جرأة لا يفسدها اندفاع . ورزانة تنبعث عن الحكمة دون الجمود . وشجاعة قلب تعرف الصراحة ولا تعرف البذاءة والإقذاع . وهو أيضاً مهيب كليث . إذا خطر خشعت له الأبصار فلا تقتحمه . فياض البلاغة كغير شبيه . إذا تحدث ملك القلوب قبل الأسماع . عادل كالميزان . صارم كالسيف ..

تطلعت النظرات إذن إلى كل ناحية فما وسعها إلا أن تلتقى كلها على واحد ... على علىّ وحده استقر رأى الناس أن يكون لسانهم إلى عثمان . يحمل رسالتهم عنهم لتؤدى لدى الخليفة خير أداء . فلقد كان ابن أبى طالب — فضلا عن علو منزلته بين أصحاب رسول الله . والتفاف قلوب العامة كلهم حوله — هو الرجل الذى له قلب كقلوبهم يشعر بمثل مايشعرون ويؤمن كإيمانهم بحقهم فى الحياة الكريمة التى لاتطؤها أقدام لحاكم طاغ أو وال مزهو بجنسه أو بقرباه . ويألم إذ يرى حقوق الناس — وكانت حرما — قد أصبحت كأنها اللقى المستباح ..

وهكذا أخرجته من بيته الجماهير . وسارت به حتى رحبة القصر . ولم

يكن ثمة من تكلم عن الخليفة بخير طوال الطريق . لا ولا فى المدينة كلها إلا عائب عليه ضائق به . وكانت الألسنة تذكر له كل كبيرة وكل هنة . وتعدد من أخطائه مالم يبق بعده بقية لم يشملها الإحصاء .. حتى أهلها أيضاً كانوا يحملون عليه . بل لعلهم كانوا يسبقون غيرهم فى استنكار أعماله وفى اللهفة إلى توبته ورجوعه إلى الصواب . ولم يكن هناك إلا نفير منهم يؤيدونه عن رحمة لا عن عدل . عددهم لايتجاوز أصابع الكف ..

وتم أخيراً بين الرجلين اللقاء الذى انعقد عليه الرجاء ..

وقال على وهو يحرص أن يكون فى حديثه لين الكلام :

« .. إن الناس ورائى . وقد استفسرونى بينك وبينهم . ووالله ما أدرى ما أقول لك .. ما أعرف شيئاً تجهله . ولا أدلك على أمر لاتعرفه . إنك لتعلم ما نعلم . ماسبقناك إلى شيء فنخبرك عنه . ولا خلونا بشيء فنبلغكه ، وقد رأيت ما رأينا . وسمعت كما سمعنا . وصحبت رسول الله كما صحبنا . وما ابن أبى قحافة بأولى بعمل الحق منك . ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك . وأنت أقرب إلى رسول الله وشيجة رحم منهما . وقد نلت من صهره ما لم ينالا .. »

ووسعه بعد هذا القول الناعم الرخى أن يزجى إليه النصح . ويبين له عساه أن يعطى الناس الحق من نفسه . وينزع بها عما أنكروه . قال يتمم الحديث :

« .. الله الله فى نفسك . فإنك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهل . وإن الطرق لواضحة . وإن أعلام الدين لقائمة . فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدى وهدى . فأقام سنة معلومة . وأمات بدعة مجهولة .. وإن السنن لنيرة لها أعلام ، وإن البدع لظاهرة لها أعلام . وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به . فأمات سنة مأخوذة . وأحيى بدعة متروكة . وإنى سمعت رسول الله يقول : يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر . فيلقى فى جهنم . فيدور فيها كما تدور الرحى . ثم يرتبط بها فى قعرها .. »

ثم راح يلق اليه بالنذير المستنبط من شعور شعوبه نحوه . وبالحدث الفاجع الذى توشك أن تسفر عنه الأحوال فى أنحاء الدولة إن لم تعالج الأمور بالحكمة . وهو فى هذا لا يتحدث عن الشر الذى سوف يحيق بعثمان ، بل يراه قد انتشر من بعده فشمل كل قوى الإسلام القائمة وكل رعاياه . وهو ايضاً لم يتردد فى أن يصف له بصراحته الآفة التي توشك أن تسبب كل هذه النكبات عساه أن يبادرها بالدواء الناجع .. قال :

« . . إنى أنشدك الله أن لا تكون إمام هذه الأمة المقتول فإنه كان يقال : « يقتل فى هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة . ويلبس أمورها عليها . ويبث الفتن عليها . فلا يبصرون الحق من الباطل . يموجون فيها موجاً . ويمرجون فيها مرجاً . . فلا تكونن لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السن وتقضي العمر . »

مروان ! . إذن فهذه هى المسألة . . أيما ولى الشيخ وجهه وأرهف أذنيه للهمسات جاءه هذا الاسم تلوكه الألسن . مامدى تذمر الناس منه ؟ .. ما غايتهم من وراء لومهم فيه ؟ . . وأى العواطف انضمت عليها قلوبهم إن لم تكن عاطفة الحسد لمشيره الأمين ؟.. أم هم ياترى يفرضون عليه أن يضع ثقته فيمن لا يدين بالولاء له . ؟

ثم تبق من بعد النتيجة الكبرى التى تنبىء عنها هذه المقدمة الصغيرة . . تبق قصة القرابة بفصولها الشتى قائمة أمام الخليفة . وعذل الناس إياه من أجلها . . فما مروان إلا رأس أولئك الأهل الذين قدمهم عثمان . وما سعى الناس لخلعه إلا الخطوة الأولى نحو إقصاء بقية بنى الحكم وأمية ومن لاذ بهما من مناصب الدولة . وإلى أين يجر هذا الإقصاء إن لم يدع الخليفة الشيخ من بعد كالطائر القابع فى عشه بغير ريش .

أحسبه قد جالت بفكرة هذه الخواطر وهو يحدث علياً فيقول :

« قد والله علمت ليقولن الذى قلت أما والله لو كنت مكانى ماعنفتك ولا أسلمتك . ولاعبت عليك . . . أجئت منكراً أن وصلت رحما

وسددت خلة وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولى ؟ » .

وتريث قليــلا وهو يستعيد إلى ذهنه الأمثلة التى تؤيد منطقه فلما وسعه أن يرتبها عاد يستأنف الحديث .

— .. أنشدك الله يا على . هل تعلم ان المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟

— نعم .

— فتعلم أن عمر ولاه .

— نعم .

— فلم تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟

قال له على :

— سأخبرك .. إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه إن بلغه عنــه حرف جلبه ، ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ... ضعفت ورفقت على أقربائك .

— هم أقرباؤك أيضاً .

— إن رحمهم منى لقريبة . ولــكن الفضل فى غيرهم .

— ولــكن عمر ولى معاوية خلافته كلها .. وقد وليته .

— فهل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟

عمر ثانية ... عمر دائمــاً .. واها لابن الخطــاب فقد أفسد الأمر على من بعده ... لــكأنه فى مرقعته ، بيمينه الدرة قد وقف شــامخا كجبل يحبس عن العيون من وراءه . أو هو منار فى ظلمة كست الآفاق لا يستبين امرؤ طريقه فيها إلا إذا سار على هديه .. هكذا كان وهكذا أصبح بعد أن طوته الدنيا ولم تطوه الحياة . فما كان مثله بالذى يموت فى الخواطر . بل يبقى أبداً ماثلا فى الأذهان . حياً فى فؤاد كل إنسان . هو اليــوم النموذج الأمثل للأمير الــكامل . ما من عمــل يكتب له الإتقان إلا إن رجح فى ميزانه . وما من حاكم يتوفر له رضاء محــكوميه إلا إن سار على سننه . فالناس جميعاً وإن ضاقت بهم شــدته فى حياته فقد وسعتهم عدالته . وأصبحوا من بعــده

يحنون حنين الصادى إلى عودة عهده .

خشونته قمعتهم ولكنها جذبتهم . وجمعتهم كلهم بين يديه . أما هذا .. أما خليفته الشيخ .. أما عثمان الطيب الخافض الجناح فلينه أطمع فيه شموبه وأغراهم به .. ألا فمن له اليوم بشدة ابن الخطاب ؟

نفض الرجل يديه من جدل على . ومن حججه وبراهينه . وكفى نفسه مؤونة الاقناع والاقتناع . وانطلق بعد مجلسه ذاك إلى المسجد بقلب سوى قلبه . وطبيعة سوى طبيعته . ولو وسع من وقفوا تلك اللحظة يرنون إلى جهامة وجهه وعبسة جبينه وهو واقف على المنبر لو وسع أولئك أن تلمح عيونهم تلك الصورة النفسية التى تقمصها عثمان فلربما أوشكوا أن يروه فى مرقعة ، بيمينه درة ، قد استعار لهم من الماضى سمت سلفه ، وهو يخاطبهم فيقول :

« ألا قد والله عبتم على بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله . وضربكم بيده . وقمعكم بلسانه . فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم . ولنت لكم . وأوطأت لكم كتفى . وكففت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم على ... أما والله لأنا أعز نفراً . وأقرب ناصراً . وأكثر عدداً . وأقمن إن قلت هلم أتى إلى ... ولقد أعددت لكم أقرانكم . وأفضلت عليكم فضولا . وكشرت لكم عن نابى . وأخرجتم منى خلقاً لم أكن أحسنه . ومنطقاً لم أنطق به . فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم . فإنى قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطق هذا ... »

فمن الرجل الذى عناه الخليفة وكفه عن الناس ولوح به تلميحا أمامهم حتى يرهبهم ويلزمهم الطاعة له ؟. وأيهم من بين ولاته أو أهله أو مناصريه .؟. أم هو يا ترى بهذا القول قد أراد نفسه فى سمتها الجديد الخشن ذى الشدة والبطش ؟ ..

ثم جاءهم من بعد بجماع سياسته كلها فى كلمات ... أليس هو صاحب

الأمر الآن ؟ . . أليس الحاكم المطلق الذى له أن يعمل وفق مشيئته ويسوس الناس كاشتهائه ما داموا قد عقدوا له البيعة واختاروه خليفة عليهم ؟ ولأى من الأسباب إذن كان هذا الاختيار إن لم يكن لتفرده بينهم بالرأى الراجح والنظرة الصائبة والقدرة الفذة على اكتناه حقائق المشكلات ؟ . . هذه صورة صادقة لناحية الضعف فى نفس الرجل . وللعناد الذى أكسبه إياه هذا الضعف ليبدو فى قوة . وهو فى أطواره جميعاً كذلك . لا ينى يستمسك برأيه ويتعصب له لأنه يأبى أن يقر لأحد بالتفوق عليه .

وهكذا قال يتم لهم حديثه وهو يكاد أن يحمل كلماته من الاستنكار ما لم يخف على سامع :

« . . . أما والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ومن لم تكونوا تختلفون عليه . أتفقدون من حقوقكم شيئاً . . . فالى إذن لا أفعل فى الفضل ما أريد . . . ولم كنت إماما . ؟ . »

ولم يسعهم أن يردوا عليه . بل كان ردهم قميناً بأن يصبح جدلا لا خير فيه بعد أن بصروه بما عابوه عليه فجاء يحدثهم وكأنهم لم يبصروه . . . بل انطلق بهم الزمن قبل أن يتبينوا آخر كلماته ففاجأهم بمروان إلى جواره بيده سيفه . قد التفت نحوهم يرميهم بلهب من بصره . ويتوعدهم فيقول :

« إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف ... إنما نحن وأنتم كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم مغارسكم تبنون فى دمن الثرى

ولكن عثمان ، الذى أحس أن قد بلغ فى هذه الآونة أوج البطش أبى أن يشرك أحداً فى هذا الثوب الجديد الذى لبسه — ولو كان مروان — حتى لا يبدو ثانية أمام شعبه ضعيفاً بحاجة إلى قوة يعده بها سواه . لذلك صاح بصاحبه وهو ينهره :

« أسكت لا سكت . . . دعنى وأصحابى . ما منطقك فى هذا . . . ألم أتقدم إليك ألا تنطق ؟ . . »

٢٠

تمت الغلبة لابن سبأ وحزبه فى ذات اللحظة التى غادر فيها عثمان منبر المسجد بعد أن حلا له أن يبدو فى ثوب الباطش المهيب ذى القوة والحول . فقد كانت خطبته وقوداً جديداً ، حطباً جافاً زاد تسعر النار . لم يأت فيها بجديد يؤلف قومه ويردهم عنه سوى هذا الوعيد الذى أثار النفوس وحفزها إلى الثورة عليه . ولم يحاول أن يحسم الأمر برأى يصد تيار النفور المتدفق ، ولا بوعد يزجيه فيطمئن معارضيه ، ولكنه شنها حرباً سافرة على شعوبه فى وقت لم يكن يملك فيه العدة ولا السلاح . . .

وترقبت الأمصار . وزلزلت حين جاءتها الأخبار تترى بموقف الشيخ . إن النبأ أورثها قلقاً لا يعرف حداً ، والخطبة بكلماتها المنطوية على العنف البالغ لم تدع لها فرجة لأمل . وكل حرف حين انتقاله من فم إلى سواه انضمت إليه حاشية من هنا وإضافة من هناك . فلما أن قطع الرواة المراحل بين المدينة وأقطار الدولة كانوا كأنما ينطلقون بفوهة بركان ! . . .

وكان السبأية متربصين بأوكارهم المنبثة فى كل مكان ، ينتظرون الفرصة السانحة ليضربوا ضربتهم . فلما علموا الأنباء تلقفوها ، ووسعهم أن يتخذوها مطية لغايتهم وأن يقهروا الناس على الإصغاء لهم بعد أن تحققت نظرتهم فى الشيخ ، وعلى السير خلفهم ، وعلى المناداة بمثل ما نادوا به من وجوب نفض الأكف منه . . . أليسوا الآن بصدد أمير أعيا الناصحين إرشاده ، يأنف أن يستمع لنقد ، ويأبى عليه عناده أن يتحرر من قيود الأخطاء التى كبلته ، فمن أين تكون له المرونة التى تصرفه عن إصراره ؟ . . ومتى ينزع عما هو فيه إلى ما يضمن صلاح أمته وقد رأته لا يكفيه أن يقف من شكاياتها موقفاً سلبياً يدعها قائمة بغير علاج ، بل يتوعدها بعزة نفره ووفرة عدده ، ثم يثنى مشيره مروان فيهددها بالسيف ؟ . .

وكذلك أصبحت الخطبة مادة جديدة للنقمة على عثمان وزيادة الحقد عليه من حيث أرادها وسيلة للقمع . وراحت الأيام تنجاب عن فورات النفس فى أنحاء الدولة. ونشط ابن سبأ وأصحابه فتكاتبوا فيما بينهم وراء الحدود والتخوم. وحضوا على الفتنة . ودعوا إلى تجييش القوى المناهضة لهذا الحكم ، وبثوا بذور دعوتهم الهدامة فيمن تبعهم ومن لم يتبعهم على السواء . فقد أصبحوا فى العيون كأنما دعاة إلى بلوغ هدف عام . واستغلوا يأس الناس من إصلاح خليفتهم حتى جعلوهم يؤمنون بأن لا معدى لهم عن الخلاص منه .

ثم ارتدت الأنباء إلى المدينة بعد حين تحمل ما أوشك أن ينعقد عليه رأى أهل الأمصار . وشعر جيران رسول الله بشبح الخطر يهم أن يجثم على قلب الدولة ثم لا ينهض عنها إلا عن شر . ووسعهم أن يعلموا أن التردد هو الآفة ، وأن البلية فى تراخى خليفتهم دون مجابهة الأمور بالحزم الواجب . فأقبلت عليه طائفة منهم كانت لا تزال ترى أن فى الوقت بقية للاصلاح فقالت له :

— يا أمير المؤمنين . . أيأتيك عن الناس الذى يأتينا .. ؟

فأجابهم بلسان الغافل عن الشر الحاصل :

— لا والله .. ما جاءنى إلا السلامة .

فلما أخبروه ، وتبين ما عسى أن يتمخض عنه الأمر ، التفت إليهم قلقاً ، وقال :

— انتم شركائى ، وشهود المؤمنين فأشيروا على ..

ثم عمل بالمشورة . فأنفذ إلى البلاد رسلا يستطلعون له الأخبار ويستكنهون حقائق الأحوال عن كثب ، بعث إلى الكوفة محمد بن مسلمة ، وإلى البصرة أسامة بن زيد ، وإلى الشام عبد الله بن عمر ، وإلى مصر عمار بن ياسر . وبعث غيرهم أيضاً إلى غيرها من البلدان يقابلون الحكام ويحادثون الخاصة ويخالطون العامة ، لعلهم يستطيعون الوقوف على أسباب هذه الثورة الوشيكة الوقوع .

فمن عجب أن يعود الثلاثة الأول وتعود أيضاً بقية الرسل فيبدو أن ليس في وفاضهم شيء مع ما سبق من ظهور تذمر الناس وعيبهم على الخليفة في كل مكان ، وأن يلتقوا بعثمان بعد عودتهم ثم ينبثوا إلى المسجد يبلغون من حضرهم من أهل المدينة كأنما كانوا يتكلمون بلسان واحد . قالوا :

« أيها الناس : ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكر أعلام المسلمين ولا عوامهم، فالأمر أمر المسلمين . وأمراؤهم يقسطون بينهم ، ويقومون عليهم .. »

أفكان هذا حقاً رأى الشعوب التي أسخطها حكم عثمان ، أم كان رأى الولاة . . ؟ أم هي يا ترى سياسة مقررة . . ؟ أم هي خطة حملهم عليها الخليفة أرادهم بها على حفظ ما استخلصوه في طي الكتمان حتى لا يطمع فيه أهل المدينة ولا يكون تذمر الناس بتلك الأمصار إغراء لهؤلاء بالتذمر . . . ؟ هل أراد أمير المؤمنين من سكوتهم أن يوسع لنفسه في التفكير عساه يستطيع تدبير الأمر في جو هادىء قبل أن ينقض عليه مقر الخلافة . . . ؟ قد يؤيد هذا أن رسله أولئك ليسوا بذوى غفلة أو يعوزهم التبصر وفيهم مثل ابن مسلمة الذى كان ثقة لعمر ورقيباً على ولاته ، يبعثه إلى القطر الشاكى فيستقصى ثم يأتيه من بعد بنتيجة البحث التي تهيىء للخليفة وضع كل أمر في نصابه الصحيح .

من عجب أن يعود ذلك الرقيب فيعلن كرفاقه على الملأ أنه لا إنكار على عثمان ، ولا شكوى من أمير ، ولا مظلمة يود الشعب لو تلمس لها عدالة . وأن تنتهى رحلته بغير ما بدأها به . . . فلقد خرج من المدينة وهو عليم بما اصطخب في نفوس أهل الأمصار من السخط على خليفتهم وطعنهم فيه . وغادرها وكانت إلى قليل مسرحاً من مسارح ذلك التذمر الذى شمل أقطار الدولة. أفمن خالط الناس غابت عنه شكاياتهم التي كانت قائمة أمام بصره كالأعلام وهو عنهم بعيد .. ؟

لا ريب أن الإخفاء كان سياسة مقررة وضعها عثمان أو أشار بها مروان وإن جاءتنا بغير هذا صفحات التاريخ . فلم تكن السحب المتجمعة في الأفق

لتخفى على عين غرير فضلا عن عليم خبير . ولم تكن النذر الخطرة بحاجة إلى استكناه أو غوص فى أغوار النفوس الساخطة على عثمان وعهده فى آن . . . ولكنها وسيلة — فيما يبدو — أريد بها بث السكينة فى حاضرة الدولة عسى أن يستطيع الخليفة أن يحزم أمره . ولعلها خطة ممهدة . ولعل القائمين على الأمر أحسنوا إذ أعلنوا فى المدينة رضاء الرعية ، سواء أكان إعلانهم هذا تقريراً لحقيقة حادثة أم وسيلة لحال مرجوة . ولكن رجلا واحـــداً أفسد عليهم هذا التدبير أو هم فى الواقع الذين أفسدوه . فقد تخلف عمار عن أصحابه ، وطال غيابه بموطن بحثه حتى ظن أنه اغتيل ومكث طويلا بمصر لا يعرفون مصيره ولا يسمعون عنه . ثم جاءهم من ابن أبى سرح واليها خطاب يقول فيه :

« . . إن عمـــاراً قد استماله قوم انقطعوا إليه ، منهم عبد الله بن السوداء . . . »

ولم يخف الساسة النبأ بل أشاعوه . وكان إلقاؤه على هيئته هذه مغريا للناس بالانقسام تجاه ابن ياسر إلى فرقتين . واحدة سارت وظنون رجال الحكم بالمدينة فى درب واحد فرمت الرجل بالكيد لعثمان ، وأخرى كانت تعــلم للصحابى الجليل قدره ، وتقر بفضله ، وتبعد به عن مواطن الظنة والشبهات ، فآمنت أنه مال إلى حق ولم يجنح لباطل . .

وفى الحق لقد بدا من بعد أن أخرى الطائفتين هى راجحة الرأى . فالرجل وضىء الإســلام ، حرى به ألا تستهويه ضلالة . وهو أيضاً دائم الإخلاص لدينه ، قوى الشعور بواجبه نحو أمته ، شديد الخشية لله . . إنه نفس عمار الذى ألبس أدراع الحـديد وطوح به على رمضاء مكة عسى أن يفتنوه عن العقيدة التى دان بها أو يبيعهم مبدأه بسلامة حيــاته فآثر الموت على أن يفتنوه . . ولو أن عثمان لم يعرف له تغليبه ضميره على كل شهوة لمـا أرسله أو وثق به ، ولكنه آمن بإخــلاصه للهدف العـام الذى يرومونه جميعاً وهو صلاح الأمة فلم يتوان عن بعثه . بل غلب فى نفسه ما يعرفه من

أمانة الرجل على ما كان بينهما من عداوة قديمة . .

فإذا كان عمار قد اجتمع بابن سبأ أو ببعض أصحابه فلغير تأييدهم كان اجتماعه . ولغير الاتفاق وإياهم على النهج الذى يتبعونه إزاء الخليفة ، لأن الخيانة ليست من خلق الرجل . ولكنه بغير شك اجتمع بهم ليتعرف آراءهم فى الشيخ ، وليعلم أسباب انتقاضهم عليه ، وليتبين عن كثب مدى النشاط الذى تبذله طائفة من الشعب هى فى الواقع أشد القوى المعادية لعثمان ، وهو بهذا يبدو مخلصاً لرسالته تمام الإخلاص عاملا جهده على تأديتها خير أداء ، باذلا ما فى وسعه لاستكمال أوجه بحثه . وهو إلى هذا رجل كانت له نظرة مخالفة فى أعمال الخليفة ، لا تعرف مطلقاً التعصب له أو مداهنته ، فوسعه أن يسير فى الطريق الصحيح الذى لا بد أن يؤدى إلى إنجاز الواجب الذى وكله إليه الأمير . . ثم هو بميزته هذه كفيل — وقد علم الداء — بأن يعرف مكانه . . ولو أنه كان صنيعة لابن سبأ لظل مستخفياً بمصر حتى يقدم مع الوفود التى أودت بالشيخ . ولكنه ما لبث أن عاد إلى المدينة يسفر عن رأيه ويدعو للاصلاح علانية كغيره من ذوى الغيرة على الدولة والإسلام .

أجل بدا بلا شك رجحان رأى الذين لم يأخذوا بخطاب ابن أبى سرح على وجهه . ووضح للناس بالمدينة أن شكوى إخوانهم بالبلدان الأخرى جديرة بالنصف . بل وضح هذا أيضاً لعثمان وأعوانه بعد أن طالت مداورتهم للأمور وإهمال أخذها بالحزم الواجب ، فكان أن بعث إلى الأمصار كتاباً يقول فيه :

« . . ألا لا يرفع على شىء ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته . وليس لى ولعيالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم . . لقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون وأقواما يضربون . فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان ، منى أو من عمالى . . »

وأردف عثمان كتابه بدعوة إلى أمراء الأمصار يحثهم على المسارعة للاجتماع عساهم أن يقولوا ويقول فيعلم أين يكون الخير .

وقال لهم بعد أن عرفوا فيم الاجتماع :

« . . أنتم وزرائي ونصائحي وأهل ثقتي . وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إلى أن أعزل عمالي ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى مايحبون ، فاجهدوا رأيكم وأشيروا على . . »

فأي حال يا ترى من الحرج كان فيه أولئك العمال إذ سمعوا أن عزلهم من ولايتهم كان أول مطالب لرعاياهم ؟ . . وبأي أنواع المشورة كان الواحد منهم حقيقاً بأن ينصح الخليفة ؟ . . في لحظة ذكروا رسل عثمان إليهم فوسعهم أن يسارعوا بالجواب الذي ينطوي على معنى واحد وان اختلف بيانه :

« يا أمير المؤمنين . . ألم تبعث ؟ . . ألم ترجع إليك الخبر عن القوم ؟ . . ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء ؟ . . لا والله ما صدقوا ! . . وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ، ولا الانتهاء إليها . »

واستطاعوا أن ينفضوا بهذا عن رقابهم سيف الإرهاب .

— فأشيروا على . .

قال له عبد الله بن عامر :

— رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك ، فلا يكون هم أحدهم إلا نفسه .

فأصدق بها مشورة من محارب ! .

وقال سعيد بن العاص :

— احسم عنك الداء ، واقطع الذي تخاف ، واعمل برأيي تصب .

— وما هو ؟

— إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر .

كأن قد ذكر تلك الضجة التي أثارها عليه الأشتر وصحبه من غلاة الوطنيين !. .

وقال معاوية :

— أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك عن الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك ما قبلى .

وإنه لرأى الرجل يرى نفسه فى عافية فلا يعنيه أن يبحث فيما يكفل العافية لسواه ! . .

وقال ابن أبى سرح :

— إن الناس أهل طمع ، فأعطهم من هذا المال تعطف قلوبهم عليك .

ومن أولى بالاعتراف بسيادة المال على النفوس من هذا المشير الذى منحه عثمان ذات يوم خمس أفريقية ؟ . .

كذلك تكلم كل أمير يشجوه . . . ولكن الخليفة لم يجزم برأى ، ولم يقطع بأمر ، بل ألقى عينه إلى ناحية فى الجمع . . ها هنا رجل صامت ، لم ينطق إلى الآن بكلمة ، قد ثبت بصره فى العشرين واحداً بعد واحد ، ولكن أذنه كانت غائبة عنه . . طوال الوقت كان لا يكاد أن يفرغ رجل منهم من رأيه حتى يسارع هذا الصامت فيرهف سمعه لما يعج خارج المكان . . . إن الجدل لا ينى يأتيه مشوشاً مضطرباً لا تكاد حروفه أن تبين ، ولكنه واضح الدلالة . . هذه الجموع المزدخرة من الشعب كانت هى الأخرى فى شبه جلسة — تماماً كما لكى أمرها من هؤلاء الولاة ! ولكن همها يضنيها ، والقلق على مصيرها يملأ قلوبها خشية لأنها شكت ، وجمعت أسباب شكواها ، ثم تقدمت بقضيتها إلى حكام هم الخصوم . .

طوال الوقت كان ذلك الرجل معنياً بالجماهير المزدخرة فى الخارج ، يكاد أن يسمع مناقشاتها وإن لم يصله كلام ، وأن يعرف آراءها الجافية فى أولئك الحكام . وكان ذهنه صافياً وإن ازدحمت به الخواطر ، وقلبه هادئاً ثابتاً فى قراره لا يكاد أن يلعب به الخوف . بل لعل فمه قد راح يتلون بأطياف بسمة بين فينة وفينة ، صفراء فيها شماتة . . إنه ليس أميراً كهؤلاء . لم يعد أميراً بعد أن نحاه عثمان . ولكن لحظته حانت أخيراً . وجاء الوقت الذى سعى فيه الخليفة إليه ليستهدى به بعد أن أطبقت عليه شراك

الأحداث . أفآن له أن يقسو على واتره أم يصفح عنه ؟ . .

بل هو رجل لا يستجيب للعواطف إلا بمقدار ما تشبع أثرة نفسه . الحقد عنده بحساب ، والحب بحساب والنصح أيضاً بحساب . وهو فى كل زمان ومكان لا يبذل منها إلا القدر الذى يضمن له الربح ويجنبه الخسران . . .

وأتاه صوت الخليفة الواهن كأنه من قرار سحيق :

— وأنت يا ابن العاص . . . ما رأيك ؟ .

فالتفت إليه وما زالت تستهوى سمعه ضجة الجماهير ، وقال بلهجة فيها الحقد ، وفيها الخبث ، وفيها الشماتة :

— أرى أنك ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم أن تعتدل . فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل . . فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً . . .

فكأنما لم تخف الرنة الكريهة فى حديثه عن مسمع عثمان : فصاح به :

— مالك قمل فروك ! . . أهذا الجد منك ؟ . .

فلم يجب . بل ترك أذنه ثانية تنعم بالأصداء المنبعثة عن أصوات الصاخبين فى الخارج . وهو الآن قد أشبع حقده وثأر لنفسه من الشيخ الذى نحاه عن مصر وأذهب عنه جاه المنصب . فى ظنه أنها دولة أوشكت أن تدول وعهد قاربت شمسه الأفول ، ثم يأتى على أثره آخر يستند إلى أعضاد هذا الشعب الثائر . ولقد قال كلمته فى صاحب العهد واستطاع أن يسوقها فى الثوب الذى لا بد سيروق الجمهور . ولن يلبث إلا قليلا حتى يتسامع الناس فيكون هو عندهم الرجل الذى لوح بقبضة يده فى وجوه الطغاة ! . .

ولكنه ابن النابغة ! . وليس هو بابن أمه إن لم يعلك فى يمينه الأمر ثم علك فى يساره نقيضه ! . . ليس هو إذن بعمرو ذى الوجهين إن لم يراهن فى آن واحد على جوادين ، لا يعلم على التحقيق أيهما الخاسر فى السباق ولكنه يعلم أن واحداً منهما مكتوب له التفوق فى نهاية الشوط بكل تأكيد . . .

لذلك لم يزايل مجلسه . وظل ثابتاً لا يريم . فلما أن انفض جمع الأمراء

وبقى هو وحده من دونهم ، تقدم بخطى ثابتة لا تعرف الاستحياء فأظهر الولاء لعثمان وقال فى انكسار :

« يا أمير المؤمنين . والله لأنت أعلم من ذلك . ولكنى علمت أن بالباب قوماً قد علموا أنك جمعتنا لنشير عليك . وسيبلغ الناس قول كل رجل منا ، فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى فأقود إليك خيراً أو أدفع عنك شراً » .

فإن هى إلا مراءاة جبلت عليها طبيعته ولن يلبث أن يهتكها لسانه إذا تواترت الأيام ..

٢١

فشل مؤتمر العمال . فلم يسفر عن تحقيق رغبات الناس . لا ولا أولاها وبقى الولاة على أقاليمهم وقد أعاد تثبيتهم فيها عثمان .

ونظر الناس فيما بعد بالأمصار إلى نتائج الاجتماع فهالهم ما انطوت عليه . إنهم ثانية قد ارتدوا لما قبله . ووقفوا شاخصين إلى موكب الزمن السيار ، وجنحت حياتهم العامة إلى زاوية من الجمود . لكأنه عبثاً كان جهادهم طوال تلك الأعوام وسعيهم الدائب إلى نوع آخر من العيش الإنسانى الذى تظله الكرامة . لكأن عثمان وقد نفضت مشكلاتهم أمامه آثر أن يلقاها بهز كتفيه ..

أفهم عند أمير المؤمنين بهذا الحد من الهوان ؟ .

بل أهون شأناً على نفسه منهم بالأمس ، وأتفه من أن يوسع لهم فى الإصلاح المنشود ، فقد كذبتهم آمالهم هذه المرة أيضاً وخانتهم بقايا الثقة التى أودعوها الخليفة . . عند ما جاءهم دعوته للقيام بموسم الحج — قبل دعوته الأمراء — ظنوا أن شمس الإنصاف آذنت ببزوغ ، أو هكذا حسب الأكثرون ، ولكنهم بعد قليل أصبحوا فرأوا عمالهم يتهيأون للرحيل ، فلم تعد هناك حاجة إلى إسراعهم بشكاواهم إلى الخليفة . . كانوا أمام كتابه لهم فرقتين . واحدة أحسنت الظن فآمنت أن دعوة الأمراء لن تلبث حتى

تسفر عن خير ، وأخرى ملكتها الاسترابة فأيقنت أن عثمان الذى انقاد دائماً لعماله على البعد لن يسمع من وفود المتذمرين وأولئك العمال يحيطون به كالسور ، وهذه وتلك آثروا أن ينتظروا النتائج التى ستبدو غب الاجتماع .

ولكنهم جميعاً آذتهم النتائج وهالهم ما انطوت عليه . فلم يكن بها معنى الإصلاح ولم تبق ما كان كما كان ، ولكنها انحدرت بحالهم إلى أسوأ من سوء . ومن عجب أن يأخذ الشيخ برأى ابن عامر المحارب فيأمر بتجمير الناس فى البعوث ثم لا يلقى باله إلى رأى ابن أبى سرح بتأليف قلوبهم بالأموال ... أفنسى الصفة الاقتصادية التى كانت عليها شعوبه ؟. أغاب عن خاطره أنه ما من شكوى فاضت عن النفوس إلا كان لها من ورائها سبب مادى ؟. وهل عوامل الانتقاض على حكمه آثارها شىء غير الفوارق الاجتماعية بين الطبقات التى نشأت مرة من التفرقة فى التقسيم ، وثانية من كيل الهبات لطائفة دون الآخرين ، وأخرى من حجز الفىء عن بعض المستحقين ، ومع ذلك فإن الشيخ بعد انتهاء الاجتماع قد أمر ولاته بتحريم الأعطيات على الناس ليطيعوا ويحتاجوا إليه .. إنها إذن سياسة حسم الداء بالداء .. إنها الخطة التى تفتق عنها ذهنه وأذهان مشيريه الدهاة الذين كان هدفهم الإبقاء على صوالج السلطة فى أيديهم بأى وسيلة وإن كانت إذلال الشعب الثائر على الفقر ، بالفقر وبالحرمان .

هذه حرب جديدة شنها عليهم عثمان. ليس أداتها السلاح . ولا التخويف بعزة النفر ووفرة الأتباع . ولا الإرهاب بشدة العقاب وقسوة العذاب .. ولكنها حرب عدتها المادة ، كان لها مثل طعم المر فى أفواه الناس .. حرب جائحة شنها الشيخ على الأرزاق .

ولكنها فشلت كما فشلت من قبل وسائل عثمان ولم يكتب لها النجاح .. فلقد أساء بها الخليفة كعادته اختيار الدواء الذى يصلح للداء . وكأنى بالكوفة غب انفضاض مؤتمره قد احتممت كلها بمسجدها حتى ضاق ، وتذاكر الناس شأنهم قلقين .. كأنى بيأسهم من إنصاف الشيخ يبلغ منتهاه

ذلك اليوم من أيام الجمعة وقد عاد إليهم الأشتر من المدينة يحدثهم بما كان .

ولم يكن هناك عقل يتكلم ، بل العاطفة هى التى ملكت نواصى الحديث ، والقنوط البالغ هو الذى حرك أقدام الناس . وكانوا جميعاً أشبه بقاطع أجمة خلت كنانته من السهام ثم بصر بليث هائج يسد عليه منافذ النجاة ، فما أسرع أن امتدت يده بقوسه يدفع بها عن نفسه وهو يعلم أنها فى الأغلب قليلة الغناء ..

ولكن أهل الكوفة كان يحركهم اليأس . فقد غلبوا على أمرهم أخيراً وضاعت عبثاً أعوام وشهور قضوها فى الجهاد . وأدهى من هذا كله أن ثقتهم فى عثمان قد ذهبت هى الأخرى هباء . فلم يبق ثمة أمل فى إصلاحه وتغييره طريقه القديم . ولم يعد لهم معدى عن العمل لأنفسهم بأنفسهم ، وأخذ حقهم بأيديهم ممن غصبوه ..

وكذلك رفعوا القوس يذودون بها وإن علموها توشك أن تكون قليلة الغناء . وانطلقت جموعهم الثائرة تبارح المسجد كأنها عاصفة . حسب الناس أن يثبت عثمان عليهم سعيداً واليه ليملكوا القدرة على التمرد .. وراحت الأفواج تنطلق إلى خارج البلدة وينضم إليها الأنصار من هنا ومن هناك . وراحت أيضاً تندس فيهم طوائف من أصحاب ابن سبأ دعاة الفتنة يصبون الزيت على النار .. وخرجوا جميعاً إلى الجرعة بقرب القادسية وقد تزودوا بالسلاح ..

وقال لهم الأشتر مالك بن الحرث وقد تجلل وجهه بالغبار ، وهو متقلد سيفه :

« والله لا يدخلها علينا ما حملنا سيوفنا ! »

وأقبل أخيراً سعيد . وعجب للقوم وقد سدوا دونه الطريق إلى الكوفة . فلما علم منهم ما أجمعوا الرأى عليه وقف هنيهة ينقل فيهم بصره ، ثم قال باسما بغير اكتراث وفى صوته رنين ترفع وسخرية :

« إنما كان يكفيكم أن تبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلا وتضعوا لى رجلا ! ..

وهل يخرج الألف إلى رجل واحد ولهم عقول . . »
وانثنى عنهم يقطع الدرب صوب المدينة .

يا ترى كيف تقبل عثمان هذا العصيان ؟ . . فى لحظة واحدة نسى ما كان قد اصطنع لنفسه من البطش وارتد ثانية كعهده ليناً غاية اللين ، متخاذلا أشد التخاذل ، ضعيفاً مسرفاً فى ضعفه . وسعه أن يخفض رأسه لثوار الكوفة كأنما يقر لهم بحقهم فى التمرد . . ولكنه بهذا قد هون أمره على الناس قبل أن يهون عندهم أمر سعيد ، وراحت هيبته لكى لا يكاد أن يحتفل بها رجل واحد ، وزادت الجرأة عليه فيما وراء البلدة حين سرى نبأ الحادث حتى أوشك أن يكون نذيراً بانقضاء سلطانه ، ولم يكن عجباً أن يأتيه من بعد نبأ عن حادث مماثل يقع بناحية أخرى من أقاليم الدولة ، وأن يخلع قوم طاعته هنا أو يخلعها غيرهم هناك ، فقد علم الناس أن يعصوه وأغراهم بعصيانه . وهم الآن لا يعرفون له حقاً عليهم ولا رقابة ولا قليلا من سيادة تردهم إلى مركز التابع من المتبوع ، بل أصبحوا سادة أنفسهم ، أمرهم فى أيديهم وشأنهم إليهم ، لا يقرون لمثله بسلطان ، وليس بدعاً أن يصبح الحكم من بعد فوضى تبتزه شراذم الثوار حينما تشاء .

أما المدينة فقد استقبلت مؤتمر العمال بأمل وودعته بملل ، بل أوشكت أن يسودها توجس وقلق ، وهى تلقى ببصرها من خلال أعماله إلى المستقبل القريب . لم يسفر للناس عن شيء يهدىء مخاوفهم ، أو يرد عنهم خشيتهم على مصيرهم فى ظلال هذا الحكم ، بل هو ألقى حجاباً كثيفاً بين الشعب وبين حكامه ، وأيقن بمده كلا الفريقين أن عزته فى هدم أخيه .

أجل ؛ أصبحت هكذا الحال ، وما أحسب أمرأ ينتظر أن تصيب قضيته العدالة لدى خصمه . وما أحسب عاملا من عمال عثمان يستطيع أن يفهم أن غلبة الشعب عليه وعزله من منصبه هو نصر له لأنه نصر لشعبه . . . لذلك بات الناس بعد انتهاء المؤتمر بإقرار الولاة على أقاليمهم يكادون أن ينفضوا الأكف من إصلاح الحال ، وعادوا يسيرون ثانية فى دائرة التيه .

ولكن لمحة من أمل خطفت أمام الأبصار فى الأفق كأنها خط البرق ، فقد دعا الخليفة إليه أصحاب رسول الله ليسألهم المشورة ، فحسب الناس أنه لقاء لا يتمخض إلا عن خير ، وتلبثوا ينتظرون راجين ، والتأم الجمع بسعد وطلحة والزبير وطائفة أخرى من المهاجرين ، وكان الوقت قد آذن بدخول الأصيل ، ومسجد النبي أوشك أن يفرغ من الجموع بعد صلاة العصر حتى لم يبق فيه غير نفر قليل . وكان على فى ناحية منه ، إلى جواره ابن عباس يحدثه حين أقبل رسول من لدن عثمان يدعوه ..

والتفت أبو الحسن إلى ابن عمه :

« لم تراه دعانى يا عبد الله .. ألا تنطلق معى ؟ » .

ودخلا حيث اجتمع الصحب بأميرهم . فما إن استقر بهم مكانهم حتى وقف عثمان فقال :

« إن ابن عمى معاوية هذا كان غائباً عنكم وعن ما نلتم منى وما عاتبتكم عليه وما عاتبتمونى فيه .. وقد سألنى أن يكلمكم ، وأن يكلمه منكم من أراد .. » .

فأدار سعد بصره عنيهة فى الحضور كالمستنكر . إن هذا الشيخ لا ينى يتخذ من آله أستاراً يختفى خلفها ويحتجب بها عن قومه . ولو أنه آثر أن يلقى الناس بنفسه لكان خيراً له .. .

وقال له سعد وهو لا يدارى عنه ضيقه بهذا الأسلوب من التفكير :

— وما عسى أن يقال لمعاوية أو يقول إلا ماقلت أو قيل لك ؟

— على ذلكم يتكلم .

وأشار لصاحبه فوقف بينهم . فماذا يا ترى أغراه باتباع تلك اللهجة المعادية حيال أولئك الناس ؟ . . إن معاوية بغير شك رجل فيه حذر ، وفيه عناية بسلامته وسلامة أمارته كفيلة بأن ترده حريصاً على التماس رضاء هذا النفر من أعوان رسول الله — هذه البقية الباقية من أهل الشورى الذين لن تلبث الخلافة أن تأتى أحدهم طواعية فلا يأمن أمير الشام بعدها أن يبقى له أمره . ولكنه مع ذلك تكلم . وعنف فى خطابه إيام

إلى حد كان يحمل معنى التحدى لهم والرغبة فى إثارة غضبهم . . بل لقد بلغ من استهانته بأقدارهم أن لف حديثه بالوعيد والتهديد فقال :

« . . إن وراءكم من إن دفعتموه اليوم اندفع عنكم ، ومن إن فعلتم الذى أنتم فاعلوه دفعكم بأشد من ركنكم وأعد من جمكم ، ثم استن عليكم بسنتكم ورأى أن دم الباقى ليس بممتنع بعد دم الماضى . . »

إن هذا إلا صلف أغرته به نفسه ، واعتزاز بقدره وسطوته عند الخليفة وفى ولايته البعيدة التى اشترى نفوس أهلها بماله وبغيره من الأساليب التى يستجيب لها الضعف البشرى ويخضع لإغرائها المجتاح . ولكن علياً أبى أن يقره على إدلاله فصاح به يقطع عليه الحديث :

— كأنك تريد نفسك يا ابن اللخناء ؟ . . لست هنالك !

فأجابه معاوية بلهجة المعاتب :

— مهلا عن بنت عمك ، فليست بشر نسائك . .

ثم راح يتمم لهم حديث التهديد :

« . . إنما ينظر التابعون إلى السابقين ، والبلدان إلى البلدين . فإن استقاموا استقاموا . . وأيم الله لئن صفقت إحدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين ولا البلدان للبلدان . وليسلبن أمركم . ولينقلن الملك من بين اظهركم . فما أنتم فى الناس إلا كالشامة السوداء فى الثور الأبيض . ولقد رأيتكم نشبتم فى الطعن على خليفتكم . وبطرتم معيشتكم . وسفهتم أحلامكم . ألا فالصبر على بعض المكروه خير من تحمله كله . . »

فأى أثر تركه هذا الرجل فى صدور سامعيه ؟ ، ولأى الغايات رمى من وراء تخويفهم ببطشه ؟ ، وبأى حق نصب من نفسه حاميـــا للخليفة وأولى بعثمان أن يكون هو حامى الولاة ؟ ، وهل كانت يا ترى نبوءة خالصة ألهمها صاحب الشام حين تحدث لهم عن نقل الملك من مدينة الرسول ؟ .

أحسبه كان جاداً فى كل ما قال ، يعنيه إلى آخر حرف من حروف كلماته ،

فلم يلق حديثه عبثاً بغير روية أو لغير غاية . ولم يثر فيهم حفائظهم إلا وقد دبر أمره أو أيقن أنه يستطيع تدبيره . ولم يطف بوعيده عليهم إلا وهو عليم بقدرته على إنفاذه .

أما الوعيد فلم تكن هذه أولى الكلمات التى نضحت به بل سبق به ذات يوم لسانه وقد لقى بالمدينة عمار بن ياسر وقال له بلهجة الجد الصارم :

« .. إن بالشام مائة ألف فارس ، كل يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم ، لا يعرفون عليا ولا قرابته ، ولا عماراً ولا سابقته ، ولا الزبير ولا صحابته » .

وراح يردد أسماء صحب رسول الله برنة تعريض ثم انثنى إلى أسلوب الإرهاب :

« فإياك يا عمار أن تقع غداً فى فتنة تنجلى ، فيقال هذا قاتل عثمان وهذا قاتل على» .

فكأنه بهذا قد علم أنه حقيق بأن يعتمد على قوة جنده إن دعت الحال .

إنه على أى حال رجل كبير الأطماع ، قد دأب خلال الأعوام العشرين التى قام فيها بحكم الشام على أن يوطد بها أمره ، ويثبت أقدامه ، ويتخذ حيال أهليها كل ما هو كفيل بأن يجعلهم أطوع إليه من بنانه . وهو قبل هذا له عندهم نفوذ اكتسبه من تلك الصلة القديمة التى نشأت على يدى أمية جده حين نفاه هاشم إلى الشام فراح يؤلف الأقوام بها حوله ليكونوا له عدة على عمه . وهو ثالثة قد خلف على إمرتها أخاه يزيد بن أبى سفيان الذى كان عاملا لأبى بكر وعمر . ومنذ تلك اللحظة وهو قائم على أمورها ، يتبدل الولاة والعمال فى الأقاليم حوله وسلطانه عليها ثابت ، ومكانته بها وطيدة لا تعصف بها غير السياسة . فلما أن ولى عثمان أضاف إلى قوته قوى جديدة بأن ضم إليها بضع ولايات جمعت له حكم الشام بأقاليمها المختلفة . وأصبح معاوية بكل هذا يمتاز على أقرانه من الولاة . فلم تكن له كمثلهم صفة الولاية بقدر ما توافرت فى إمارته صفات الملك المتوارث الذى دان له

دهراً يوشك أن يبلغ مثل عمر الإسلام فى أرض الشام .

علم الرجل رسوخ قدميه بأرضه هذه فوسعه أن يزهى ويقول ليس يرده من زهوه واعتداده بقوته استحياء واجب عليه نحو خيرة صحب رسول الله ، ولا أقدار لهم كفيلة بأن ترفعهم فى عينه كما رفعتهم فى عيون بقية الناس ، ونسى فى تلك الساعة أنهم أكرم على النفوس من أن يتناولهم بمثل تهديده . وإن صاحبه كان هو الأولى بالعتاب والملامة ما دام لم يرع خلافته حق رعاية، ولم يرع كذلك حق شعبة حتى حق أن تميل عنه القلوب .

أما كان معاوية إذن يشق طريقه بأقدام الو ثق ، ويبنى صرح مستقبله السياسي وهو جد عليم بأنه وطيـــد الأساس ؟ . . ما أحسبه إلا قد آمن أن أزمة عثمان سوف لا تنجلى عن خير ... وما أظنه إلا استشف نتائجها المحتومة وهو بالمدينــة لم يبرحها ، بل وهو بعيد عنها لم يدخلها بعد ، ولعله قد استطاع إذ ذاك أن يرخى لأطماعه العنان ، وأن يتركها تنساق أمامه إلى أقصى الحدود . والرجل الطموح لا ينى يرقى فى سـلم غاياته بلا انتهاء . . . وكان صاحب الشام ذلك الرجل . وكان كذلك حريصاً بجيد التدبير قبل اختياره الطريق التى تبلغه هدفه ، ولقد دبر لنفسه ، ودبر له أيضاً حسن حظه من قبل حتى اجتمعت فى كفه ناحية من الدولة الإســلامية وسيعة ، لا تكاد تنطق قبل أن يشير ، أفئن مد بصره إلى بعيد أفيكون عليه ثمة جناح ؟ .

بل ليس عليه من جناح بعد أن تهيأت له قوى من رجال ومال تؤيد طموحه . وبعد أن توفرت لديه أسباب النجاح فى الحالة الخلقية التى أصبح الناس عليها فى ذلك الحين وقد غلب فيهم سلطان المادة على قوة الروح ، وكان هو خير من يعمل على تغليب ذاك السلطان . وبعد أن ألف السيادة أعواماً — بنفسه وبأهله — كانت أطول من عمر هذه الدولة التى وسعها طموحه ، فما من شك وهذه حاله أن يعمل قدر طاقته على أن يسود الأمة الإسلامية كلها فلا يكاد يحس أنه يعمل لأكثر من توسيع رقعة الأرض التى دانت

له بضم دويلة من هنا إليها ودويلة من هناك .

بمثل هذا العناد النفسى الذى استشعره الرجل من وراء ميزاته استطاع إذن أن يلقى بقية صحب محمد ، وأن يتهمهم ، وأن يبسط أمامهم وعيده . . . اما كلماته عن نقل الملك من بين أظهرهم فلعلها لم تكن نبوءة ، ولعلها أيضاً لم تكن كلها تهديداً ساقه ليرهب سامعيه . . . هى فى الحق كانت أقرب إلى التمهيد منها إلى التهديد — المقدمة التى لن تلبث حتى تنكشف نتائجها عما قليل.

ما كاد ألا يبقى لمعاوية بالمدينة مقام حتى قال لعثمان :

« يا أمير المؤمنين . . . انطلق معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به . فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا . . . » .

فلم يرض عثمان . ولكن العرض فى ذاته كان حرياً بأن يرفع صاحبه فى عينيه ، ويضعه منه موضع الغيور على الخلافة ، الأمين قبل غيره على سلامة الشيخ . وهو هكذا اقتراح قد تكون له جدواه على عثمان لو قبله ، ولكنه محقق الجدوى على معاوية فى حالتى الرفض والقبول . فما من ريب فى أن نقل الخلافة الإسلامية إلى الشام خطوة لا ثانية لها إلا نقلها إلى كنف معاوية ، سواء عن وصيةٍ من الشيخ عند قرب حينه أم عن اختيار متروك إذ ذاك لأهل الشام قبل غيرها من البلدان . أما وقد أبى عثمان أن يأخذ برأى ابن أبى سفيان، فقد كفى هذا أن يسبق غيره من الولاة فيبدو حامياً لخليفته ، ويبدى المرشحين للخلافة كلهم فى مظهر لا تطيب له نفس عثمان .

ومع ذلك فلم يبرح مكانه حتى استوثق لنفسه . كان حاذقاً إلى الحد الذى يجعله لا يكل تدبير أمره للظروف فدبره قبل أن يغادر المكان . . . عرض فى البدء على عثمان أن يعده من لدنه بجند يحميه ، فلما أبى استطرد فصور له الخطر المحيق به ، ثم قال :

— . . . فاجعل لى الطلب بدمك إن قتلت . . .

— هذه لك .

فخرج وكأنه ليس الرجل . . . ومر فى طريقه بالمسجد على بضعة من

الصحابة فيهم على وطلحة والزبير . وكان قد ارتدى ثياب سفره وتقلد سيفه ، فلما لمحهم تريث برهة ، واتكأ على قوسه ، ثم راح ثانية يحذرهم إن أصغوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب أن يسلبوها . وبدا فى هذه المرة أكيس منه فى سابقتها فألبس وعيده ثوباً ناعماً من الرقة حتى كان كعهده يجمع إلى الشدة لطف الحديث . وانتهى كلامه لهم بأن قال :

« . . . إنى قد خلفت فيكم شيخاً ، فاستوصوا به خيراً وكاتفوه . . . »

وتبعته الأعين وهو يبتعد . لم يكن هو حقاً نفس الرجل . . إنه الآن محوط بهالة من السيادة ، وبطيف من الرحمة حتى أوشك أن يظهر بما لم يكن فيه . . .

وقال على لمن حوله وبصره لم يرتد عن هيكل الراحم الرحيم :

« . . . ما كنت أرى أن فى هذا خيراً . . . »

أفعنى أنه لبس لبوساً لا يوائم حاله ؟ . . من يدرى . . ولكن الزبير بدا كمن استهوته هيئة صاحب الشام وألقت فى قلبه شيئاً من المهابة له ، لأنه أجاب :

«لا والله . . ما كان قط أعظم فى صدرك ولا فى صدورنا منه الغداة . .»

وانطلق معاوية . . كان حقاً غيره من قبل . على الأقل لاح هكذا فى عينى نفسه بعد عينى الزبير وعينى عثمان . الأطماع التى كانت تلمع أمامه دائماً عند حد الأفق كادت أن تلمسها أنامله الآن . . إنه برز إلى الصف الأول بين صحب الخليفة وقام على رأسه . . وتقدم قريشاً كلها بعد أن جرح ولاء شيوخها لعثمان وفيهم أهل السابقة والشورى وخيرة المهاجرين . . وأصبح سيد أمراء الدولة وأكثرهم غيرة على سلطان سيده وعلى سلامته . . ثم جمع إلى هذا كله السبق على أهله جميعاً وقد بات من بينهم المنفرد بولاية دم عثمان . .

أجل إن الأطماع الآن أوشكت أن تتقبض عليها كفاه . . وفى طريقه

إلى الشام لعله استذكر هذا وراح يجيله فى ذهنه . وانطلق به الركب إلى مقر إمارته وهو جد سعيد . وكلما ألقى عينه على بغلته تحته وهى تخب به استشعر الرضاء والطمأنينة . . ما كان ليحلم أن تسير الأمور بمثل هذا اليسر وهذه السهولة ، وما ظن مطلقاً يوم غادر دمشق أنه سيدخل المدينة بحال ثم يغادرها بغير تلك الحال . لعل نجمه إذن أوشك أن يبزغ ، وأن يعلو لامعاً فى سماء الحظوظ حتى يكسف غيره . لعل الزمن أخيرا شاء أن يسير سيره المرغوب وأقبل يمد نحوه يده . لعل نبوءة كعب صدقته ، فكعب كما علمه صادق النبوءات .. ما كان أقرب هذه الذكرى منه ، وما كان أحبها إليه .. إنه لن ينساها . لن يستطيع هذا ولو راض نفسه على النسيان ، ولو مضت أيضاً على قصتها أحقاب . وإنها لجديدة أبداً فى ذهنه ، ثابتة لا تكاد تبرحه ، تراوده فى كل لحظة كلما التقت نظراته على بغلته الشهباء

وانفرجت شفتاه عن رضا واطمئنان ، والركب يسير ، وموكب أفكاره أيضاً يسير . وكر ذهنه وئيداً إلى الذكرى الحبيبة وإلى القصة العاطرة التى أصبحت الآن رفيقة سفره . ولم يكن اليوم ببعيد . إن هى إلا أيام قلائل تقضت على الساعة السعيدة التى أطلعتها . . وإن هو إلا نفس المنظر الذى يحوطه الآن .. ركب كالركب ، وقافلة كقافلة تضرب فى لجج الرمل ، ورنة حاد لها صدى فى هدوء الصحراء . . كان إذ ذاك فى ركاب عثمان العائد بهما إلى المدينة بعد الموسم حين رجز ذلك الحادى الجرىء بصوت حنون :

قد علمت ضوامر المطى   وضمرات عوج القسى

أن الأمير بعده على   وفى الزبير خلف رضى

وطلحة الحامى لها ولى

وانتفض معاوية . إن شيئاً خشناً كالشوك أوشك أن يمس قلبه ، ولفحة مسعرة كالنار مرت به . ولكن رجلا بالركب أفاء عليه فى لمحة عين هدوءه ، وأسبغ الطمأنينة حين هتف بالراجز فى نبرة رصينة :

« كذبت ! . . . »

فاستدار معاوية يلتفت إليه . هذا هو كعب . وهذه أصبعه تشير نحوه . وهذه كلماته الهادئة تتم الحديث :

« الأمير بعده صاحب الشهباء ! »

فكأنما كان لنطقه مثل السحر ، رفع الكف الشائكة عن القلب وأبعد عنه لسع النار . . على الأثر تغيرت هيئة أمير الشام ، وأشرق وجهه ، والتمعت عينه راضية فرحة وهو يلقى بها فى جلال وهدوء على الدابة التى تخب تحته . . على بغلته الشهباء ! . .

٢٢

عام انقضى أو أوشك والحال هى الحال . الشكوى باقية ، والأمير ساكن ، والشعب يكاد أن يحتويه الاضطراب . الشام وحده هو الغارق فى الهدوء . وحاكمه وحده هو القرير ناعم البال وإن أيقن أن سيده يجلس على بركان . والكوفة لم يقر قرارها بعد . إنها وإن احتلبت بعض حقها عنوة وهنأت به ، إلا أنها ظلت بضعة أشهر أخرى تتوقع المزيد . هى حقاً نصبت عليها من ترضاه ونزعت عنها صلف الفتى القرشى سعيد بن العاص . ولكن هذا ليس كل ما صبت إليه . إن فى آمالها بقية تنتظر التحقيق . وفى شرعة المساواة سطوراً كثيرة ظلت مطموسة لم تظهرها براعة عثمان . كم أبلى أهلها فى نواحى فارس وأثخنوا فى أراضيها ، ثم عادوا وعلى أكفهم النصر وفى ركابهم الغنائم من سبى وأسلاب ، ففازوا منها بنصيب ، وفاز بالأنصبة غيرهم من القرشيين الذين لم يهزوا رمحاً ولم يرفعوا قدماً من مكان لمكان وكانت مصر أيضاً شاكية ، أبى حظها أن تهنأ بمثل هذا القليل الذى وسع أختها أن تناله ، وظلت مغلولة الصدر فى كنف ابن أبى سرح . وبقيت البصرة هى الأخرى قلقة ، ترقب نافذة الصبر قليلة الحيلة أن تطلع عليها شمس اليوم المأمول . .

ولـكن شهوراً طويلة مضت منـذ اجتماع العمال لم تسر فى ركابها بشرى واحدة بقرب انتهاء فترة القلق والانتظار . الأيام لها على النفوس وقع . والليالى بطيئة راكدة تجر فى أعقابها مثيلات لها تعيي الصبر وتوهن التريث . الوقت كله متخاذل ، يزحف كما تزحف سلحفاة . طويل كهيئته فى عين مسهد طرف نبا به الفراش . شديد الوطأة ثقيل كوقعه على مريض .

كان الزمن هو العدو الذى ضاق به الناس ، وحاصر جلدهم حتى أوهاه ، وعاش بهم فى ظل حياة سقيمة مملولة هى إلى الموت أقرب منها إلى الحيـاة . ولقد وسعهم فى البـدء أن يصطبروا ، وأن يتلبثوا به ويلاينوه . ولـكن فترة الترقب كانت طويلة العمر ، بدت كأن كانت بغير نهاية . وموالاة الانتظار لا تأتى بخلاص وإنما بانتظار جديد . والتريث آفة توشك أن تورث النوم فـكفى الشعب الآن ما انتظر وما نام .

كذلك انتهى الرأى إلى وجوب العمل ثانية ، ووجوب الإسراع فيه هذه المرة والحرص على استخلاص نتائج حاسمة منه . إلى هذا انتهى رأى النـاس فى الأمصار وماهدوا نفوسهم عليه . حتى فى الـكوفة استطاعوا أن يجـدوا أسباباً ، بعضها نفسى والبعض مادى ، دعتهم لمشاركة إخوانهم الآخرين ، وكانت الرسائل ترد دائماً إليهم فيها علائم التذمر والخطوط التى رسمت لإبرازه ، ثم ترتد عنهم مثيلاتها عبر حدودهم لـكل الجهات . وكانت طريقة ربط كل بلد بغـيره دقيقة غاية الدقة ، منظمة أتم نظام ، قد أشرف عليها أناس وكانوا بهذه الشؤون فأحسنوها . أما رأس الحركة الذى دبر كل الأمر فرجل موهوب ، شديد الذكاء ، عالى الهمة حتى لاينام عن غايته أو يغفل عنها لحظة . . . إنه ذلك اليهودى الأسود ابن سبأ . الذى ذرع البلاد الإسلامية كلها من الجنوب حتى الشمال ، ثم استقر به قراره بمصر فأقام بها يعهد لبث عيونه وأنصاره بكل قطر ودرب ودار . هـــذا الداهية استطاع أن يقرأ خلجات الأنفس فدبر أموره قبل أن تنطلق من عقالها أعمالا تبدو للأعين أو أقوالا تلفظها الألسن .

عرف ابن سبأ أن الناس داورهم زمنهم حتى أيسوا من خليفتهم وبرموا بإمهاله أكثر مما مدوا له فى حبل الإمهال . وأن أفكارهم هفت ثانية إلى الأمير تعاود المناداة بالعدالة . وأنهم موشكون أن يفموا إليه ظلامات دعاهم أن يبثوه إياها عامهم السالف فأرجأوا رفعها طمعاً فيما حسبوا أن سيتمخض عنه مؤتمر العمال ... عرف هذا فكاد أن يراهم بعين التصور منطلقين من هنا أفراداً ومن هناك جماعات ، لا تجمع بينهم وحدة العمل وإن جمعتهم وحدة الغاية . يأتون الخليفة متفرقين ثم ينفضون عنه ثانية متفرقين بعد وعد منه أو بعد وعيد . أفليست هذه إذن هى اللحظة التى ترقب شيخ السبابية حلولها أعواماً ؟ .. هل ثمة فرصة خير من هذه يوشك أن يسفر عنها الزمان ؟ .. أو لم تحن بعد ساعة الصراع التى تربص بها الرجل طويلا ورتب لها طويلا بغير ونى ولا إمهال ؟ .. إنما الأجدى على دعوته ألا يدعهم يذهبون هكذا ، متفرقين ضائعى القوى من التفرق ، إلى الموسم حيث تبتلعهم أفواج الحجيج . بل الأجدى على دعوته الهدامة أن يرسم لهم خط السير وساعة التجمع وخطة العمل ليفجأوا الشيخ فى المدينة قبل أن يبرحها إلى البلدة الحرام .

ما كان أقصر مرمى عين عثمان إذ ذاك وما أشد بصره كلالة ! ، ليكاد ألا يرى لأبعد من قيد يده . إنه غاف عما يحدث خارج نطاق بلدته ، غافل عنه ، وحتى ما دار بالمدينة كان يراه بعين سواه . استمار دائماً أبصار حاشيته لينظر ، وعقولهم ليفكر ، فلم ير الخطر إلا حينما رأوه ، ولم يبادره إلا بأكفهم وأيديهم . كل ما يشغل همه اليوم رجل واحد ، واحد فرد من الرجال ملأ سمعه وبصره وآفاق تفكيره . حياته كلها امتلأت به . إن سار لقيه ، وإن أصغى سمعه ، وإن تلفت رآه . كأنه الصخرة تسد طريقه ، وكأنه المزيم يؤذى أذنيه . وكأنه وهج النار المشبوبة يبدو له وإن أغمض دونه عينيه ... ألا فما بال هذا الكهل الخشن المظهر لا يكاد أن ينأى عنه . ليوشك أيضاً أن يفسد عليه لياليه كما أفسد أيامه ! ، وإنه لثابت فى خاطره أبداً وإن غاب

عن لمح طرفه ، كل من بالمدينة ينطق به وينطق عنه · وكل من خارجها أيضاً كما حدثته الأخبار .

إنه فرد واحد ضاقت به حياة عثمان · هو طوائف المتذمرين مجتمعة فى شخص ، وعوامل التذمر حية تسير على قدمين ، إنه المارد الذى يوشك أن يهدم عليه صرح حكمه ! ، وكلما استذكر الشيخ الماضى عجب للصورة القديمة التى كان عليها إذ ذاك هذا الغريم · كلما ألم فكره بناحية من نواحى شخصية على إبان صباه الأول ، وإبان شبابه ، وإبان رجولته ، لم يملك إلا أن يتهم هذه الصورة الجديدة عنه ، التى رسمها له مروان وأعوانه · ليكاد صاحب الأمس أن يكون غير غريم اليوم ، عهده به من قبل عنواناً على المروءة ، سباقاً إلى النجدة ، يسارع بيده ولسانه وقلبه إلى نصرة كل ضعيف مظلوم ، وإن الخليفة لمظلوم تجنى عليه قومه · فماذا يا ترى أقعد ابن أبى طالب عنه ؟ ، بل ماذا عسى قد دفعه إلى مظاهرة الناس عليه ؟ ، أفهو الآن آثر أن يخلع ثوبه القديم فيبدا على غير ما كان ، أم هى صورة شائهة زيفتها حاشية عثمان ؟ .

ولكن الخليفة لا يسعه اليوم أن يستجيب للماضى أو يهدأ له ، ليس له بعد ذهن خاص ، ولا فكر محرر ، ولا عين ناقدة تنفذ إلى الحقائق التى سترت عنه · إنه أنس إلى طائفة من أهله أمدوه بالعين وبالرأى · إنه لا يرى من الناس إلا أنهم خالفوه · ولكنه لا يرى أن أسباب الخلاف كلها مبعثها منه ، وعلاجها كلها موكول إليه · لقد أراده مشيروه الثقاة على الرؤية فرأى ، ثم أرادوه على ألا يعمل فلم يعمل · أجل لقى الفتنة الوشيكة التسعر بالسكون والجمود ، ولم يحاول مطلقاً أن يمنع عنها الوقود الذى أرسلها مشبوبة · أو لم يحاول حقاً؟ ، بل علم أن أعوانه أشاروا له على ذلك الكهل الخشن المظهر وقالوا : إن هو إلا مؤرث النار ! .

السياسة العثمانية إزاء الفتنة الناشبة كانت مغالطة مرة · فى تلك الأيام بدا الشيخ كالنعامة لوت رأسها عن الخطر الداهم ثم حسبت أنه لا خطر

على الإطلاق ! . كذلك فعل عثمان . وأغمض عينيه عن الأحداث حتى نام . ورضي لنفسه بالخطة التى أشار بها أعوانه والتزموها حيال الخطر النامى فتجاهله ولم يأخذه بالعلاج الناجع السريع . فى اعتقاده أنه لم يكن ثمة خطر من ناحية الناس لأنه لم يكن وحكامه يقرون بحق النــاس فى النقد أو إبداء الآراء . فلما أن جاء الخلاف من كل صوب ، وتكلم الناس فيه بما يشاءون ، أصبح يرى أن هناك امرءاً واحداً يستطيع أن يملك ألسنتهم لأنهم لايسمعون إلا له . فإذا تركهم على وشأنهم يتحدثون فقد قصر إذن فى حق الخليفة عليــه . وإذا ظاهرهم وأيد عنده مظالمهم فهو الذى يجنى وحده الثمرة التى يوشك أن يتمخض عنها هذا الخلاف ! .

بهذه النظرة العجيبة كان عثمان يرمق ابن أبى طالب ، ولا ينى يضع تحتها كل حركة يأتيها أو كلمة يسوقها من أجل خير ممنوع يود أن يقيمه أو شر قائم ينادى بهــدمه . ما من مرة مشى فيها إليه إلا سبق إلى ذهن الشيخ أنه رمى إلى كشف ناحية ضعيفة فيه ، وهتك الستر عن نقص كان هو يجهد أن يستره عن عيون أمته . ولو أن فــكر الخليفة اســـتقام حق استقامة ، ونظرته إلى الأمور كانت نفاذة بعيدة ، لوســعه أن يفتح صدره للنقد ويقبل عليه ، ولــكن سوء ظنه كان يغلب فيه الحــكمة ، والتوجس من المــكانة الشعبية التى نعم بها على بين الناس كان مغرياً له بالحذر منه . ولم يكن على وحده هو المصطلى بنار النفور التى أججها الشيخ ، ولــكنه كان من بين صحابة رســـول الله أولاهم بالاصطلاء لأنه أولاهم بولاية الأمر عند الاقتضاء .

وكذلك عاش على هذه الفترة الصاخبة من عهــد عثمان كالعربة يتجاذبها فرسان ، واحد من جهــة وثان من أخرى . فلم يستطع مطلقاً أن يوفق بين رغبات الشعب وبين سياسة الأمـــير ، وأصبح بين إن سكت متهماً من الأمة بالتقصير فى أداء الواجب الذى وكلته إليه ، وإن تكلم متهماً من الخليفة بممالأة الناس وتحريضهم عليه ، وليس له للجمع بين الغايتين من سبيل .

لقى ابن عباس معاوية وهو بالــمدينة أثناء اجتماع العمال ، فأقبل عليه هذا

يقول كاشفاً عن رأى بقية أهله وفيهم عثمان :

« يا ابن عباس ، إنا كنا وإياكم فى زمان لا نرجو فيه ثواباً ولا نخاف عقاباً ، وكنا أكثر منكم ، فوالله ما ظلمنا كم ولا قهرنا كم ولا أخرنا كم عن مقام تقدمناه ، حتى بعث الله رسوله منكم فسبق إليه صاحبكم ... فوالله ما زال يكره شركنا ، ويتغافل به عنا ، حتى ولى الأمر علينا وعليكم . ثم صار الأمر إلينا وإليكم ، فأخذ صاحبنا على صاحبكم لسنه . ثم غير ، فنطق ونطق على لسانه ... لقد أوقدتم ناراً لا تطفأ بالماء ... » .

أبالدم إذن يستطاع الإطفاء ... ؟ معاوية وحده يستطيع أن يفصح عن هذا وإن كان فى هذا المقام آثر الإخفاء ... ومع ذلك فهل بغير هذا الخاطر جرت أفكاره تلك اللحظة التى أدل فيها بمكانة قومه وعزتهم قبل ظهور الإسلام ؟ إن هذه السلالة التى أعجبته جديرة بأن تنسى كل شىء ثم لا تستطيع مطلقاً أن تنسى أن سلالة أخرى بزتها أمام الناس — سلالة جاء منها هاشم وجاء محمد ، وجاء على الذى حسبوه اليوم يحاول أن يغلبهم على السيادة التى غلبهم عليها سلفاه .

وألق إليه ابن عباس بالرد الهادىء المتسامح الذى يزرى بكل تفاخر واعتزاز .

« كنا كما ذكرت ، حتى بعث الله رسوله منا ومنكم ، ثم ولى الأمر علينا وعليكم ، ثم صار الأمر إلينا وإليكم فأخذ صاحبكم على صاحبنا لسنه ، ولما هو أفضل من سنه ... فوالله ما قلنا إلا ما قال غيرنا ، ولا نطقنا إلا بما نطق به سوانا ، فتركتم الناس جانباً ، وصيرتمونا بين إن أقمنا متهمين ، أو نزعنا مستبين ... وصاحبنا من قد علمتم : والله لا يهجهج مهجهج إلا ركبه ولا يرد حوضاً إلا أفرطه » .

لكأنى بهذه الأسرة لا تنى تتشكك فى منافسيها وفى رأسهم على الخصوص . ولكأنى بعثمان قبلهم وقد علم فيم كان الخلاف بينه وبين على لا يكاد أن تطمئن نفسه إلى على ، ولا إلى النصح الذى أولاه إياه ... إن

سداً هائلا من سوء الظن وقف بين الرجلين ، وخاطراً بغيضاً لقنه الشيخ افسد عليه أمره ولطخ صـــورة صاحبه القديم بالاتهام . ولقد كان عثمان بتكوينه النفسي وتقدم سنه حقيقاً بأن يميل عن عقله لظنته ، وأن يجنح إلى الوشايات التي لفقها آله ، وأن يجمح وإياهم في الخشية من علي والاضطغان عليه . فلقد كان الواشي والسامع كلاهما من فئة أتاها زمنها بخير حسبت أنها عليه محسودة . وكان ذلك الموشي به من أخرى غمطها الزمن حقها حتى حسب أنها موتورة . وكان هذا إجماع الرأى الذى آمن به الخليفة ودفعه نسبه الأموى قبل أى عامل سواه إلى الإيمان به . . لــكانى به لم تطب نفسه لأسباب الخلاف التى عرضها عليــه علي ، ، فآثر أن يستكنه الحقائق من لسان هاشمي سواه عسي أن تبدر في الحديث بادرة يعرف منها الدوافع الخفية .

قال ذات يوم لابن عباس وهو يتلطف به :

« يا ابن عمى ، إنه لم يبلغنى عنك في أمرى شيء أحبه ولا أكرهه . على أو لى ، وقد علمت أنك رأيت بعض ما رأى الناس فنمك عقلك وحلمك من أن تظهر ماأظهروا ، وقد أحببت أن تعلمني رأيك فيما بيني وبينك فاعتذر . . » .

فما اعجب أن كان الجواب خلاصة رأى علي الذى أدلى به إليه من قبل .

قال ابن عبـاس :

ـــ يا أمير المؤمنين ، إنك قد ابتليتني بعد العافية ، وأدخلتني في الضيق بعد السعة ، ووالله إن رأيي لك أن يجل سنك ، ويعرف قدرك وسابقتك . فوالله لوددت أنك لم تفعـل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك ، فإن كان شيئاً تركاه لمـا رأيا أنه ليس لهما علمت أنه ليس لك كما لم يـكن لهما ، وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفــة أن ينال منهما مثل الذى نيل منك تركته لمـا تركاه له ، فلم يكونا احق بإكرام نفسيهما منك بإكرام نفسك . .

ـــ فما منعك أن تشير على قبل أن أفعل ما فعلت ؟ .

ـــ وما علمي أنك تفعل ذلك قبل أن تفعل ؟ .

فصمت الشيخ . لاجديد إذن عند الرجل ولا حقيقة خافية كشف عنها حديثه ، وإنما الموقف كما كان . وأسباب الخلاف على عهدها الأول تلوح كالماء لقاطع الصحراء ، بعيداً عن حد الأفق حتى ليحار أهو سراب خداع أم هو حقاً ماء .. ولقد بدا من بعد أن عثمان أبلى قدميه فى ابتغاء السراب ! ..

أجل . أولى الشيخ ظهره للحقائق السافرة وعنى بالتماس غيرها فى نفسية على .. وظل هكذا أبداً ، مخطئاً أبداً ، ومتجنياً على هذه النفس الرائقة التى لم يكن لها من هدف إلا صلاح الأمة بصلاح عثمان . ولكن أمير المؤمنين لم ير الماء لأن أعوانه حولوا عنه نظرته ؛ وأطلقوه يبحث عنه فى سبيل مضاد .

ووسعه مرة أن يجمع أنفاسه ، وأن يهيب بشجاعة قلبه أن تحمله إلى على يحدثه بشكه فيه .. وكان هذا قد انتحى ركناً بالمسجد بعيداً عن الضوضاء ينفرد فيه بوجهه ، وقد عصب رأسه ؛ وبدا على ملامحه وهن المريض .

وقال له عثمان بصيغة ، قد لا تحمل معنى من المعانى فى غير هذا المقام ، وإن أوشكت أن تسوق الآن معنى الشماتة إلى ذهن شاك عليل :

« يا أبا الحسن . ما أدرى أشتهى موتك أم أشتهى حياتك ! .. » .

فلعل علياً تلقاه إذ ذاك بنظرة استغراب . ولكنه على أى حال لم يقل شيئاً . بل أنصت فى هدوء إلى بقية الحديث .

واستطرد عثمان .

« .. والله لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك ، لأنى لا أجد منك خلفا . ولئن بقيت لا أعدم طاغياً يتخذك سلماً وعضداً ، ويعدك كهفاً وملجأ ، لا يمنعنى منه إلا مكانه منك ومكانك منه .. فأنا منك كالابن العاق من أبيه ، إن مات فجعه ، وإن عاش عقه .. » .

أكذلك عنى الخليفة أن لا لوم عنده لابن أبى طالب ، ولا نقمة لديه منه ؟ .. أهو حقاً قد خلت نفسه من شك فيه ، ومن موجدة لعل هذا الشك أورثه إياها ؟ .. أصفحة على مازالت نقية صافية فى نظر عثمان لم تشبها

شوائب الريب التى ولدتها الوشايات ؟ .. لولا أن الشيخ أضاف على حديثه بقية لحسبنا هذا . ولكنه مالبث أن أفصح عما انضمت عليه جانحته ، فأردف كلماته اللينة — التى لفهـا بثوب من المجاملة رقيق شفاف — بهذا الاتهام الصارخ والتحـذير العنيف الذى كان له فى النفس البريئة النقية وقع أشد من ضربة سيف الاتهام .. قال :

« .. إما سلم فنسالم ، وإما حرب فنحـارب . ولا تجعلنى بين السماء والأرض .. إنك والله إن قتلتنى لا تجد منى خلفا ، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً .. ولن يلى أمر هذه الأمة بادىء فتنة .. » .

وأطبق الصمت الثقيل على الرجلين . لفترة بدت دهراً كاملا لكليهما ، ظل على يرمق صاحبه فى سكون . فى جبينه بوادر عبسة أخـذت تتجمع كما تتجمع سحائب عاصفة فى يوم شات . وفى نظرات عينيه التى ارهقهـا التعب بدا لهب هائج سعره الغضب ، وفى صدره الضخم اضطرب قلبه حتى لأوشك أن يقفز منه .. هيئته توحى بثورة مجتاحـه . وكيانه العليل العانى انقلب قوة وفتوة . وهيكله الراكد الهامد مشى فيه تحفز ليث .. ولكن هذا كله كان لفترة ، فترة لا تكاد تحسب بالدقائق وإن لاحت دهراً كاملا فى حساب التوجس والانتظار . ثم مسحت يد السكون ثانية عليه ، وعاد الهدوء يشمله . وانطفأت شعلة النار من ناظريه وتبعتها لمعة نور .. بدا الآن وديعاً كما كان ، رائق النظرة ، تكاد أن تفيض كلماته بالرقة لهـذا الشيخ التائه عن الحقيقة ، وتمتلىء رنة حديثه بالرثاء له وهو يقول :

« .. إن فيما تكلمت به لجواباً ، ولكنى عن جوابك مشغول بوجعى . فأنا أقول كما قال العبد الصالح : (فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) .. » .

وبهت عثمان . وتمتم مروان على الأثر بكلمات . ولكن علياً آثر أن يغادر المكان . . . لا جـدوى بعد من وراء الجواب والعتاب .. لا نهاية لهـذا الأمر كله وقد بلغ اضطغان النفوس عليه غايته . وإنما الجدوى فى

البعد عن ميدان هـذا الصراع وفى النأى بنفسه عن المد والجزر اللذين يثيرهما دائماً عثمان والناس . لعله إن غاب خفت اللغط عنه ووقف السعى إليه .. إنه ليعلم أن الأمة وثقت به ولن ترضى لها بلسان ناطق بشكاواها إلاه . ولـكن غيابه قد يخفف من خلافها نوعاً ، ومن تذمرها نوعاً ، أو فى القليل سيقهرها على أن تضم جوانحهـا على مشاعرها وتصبر زمناً على المظالم . وإنه ليعلم أن ضميره المرهف لم يألف الصبر على حيف . وأن قلبه المشغول بالتماس الـكمال سيزيد من همه صمت لسانه عن المناداة بالعـدالة . ولـكن بعده عن المدينة قد يرى عثمان الحال على حقيقتها فيجنح إلى إرضاء الناس .

وكذلك خلف على داره . وخلف جوار محمد وهو حزين مقهور . ولقد كان انصرافه عن البلدة عبئاً مرهقاً لأعصابه ، غير أن مكثه ليس خيراً منه . فليس اتهام عثمان بأول ماسمع ولا نما إلى سمعه ، وليس بآخر ماف جعبة الاتهام أيضاً .. وانطواؤه ببعض ميـاهه خارج المدينة فيه إخلاد إلى السكينة نفسه الآن أحوج إليه ..

ومع ذلك فهـل نعم بهذا الهدوء طويلا ؟ . لـكأنه رجل ولد والتعب فى زمان ومكان .. فلم يفز مطلقاً بالقرار ، ولم يعرف مطلقاً راحة الجسم أو راحة البال . بل مضت حياته كلها من بعد حلقات متواترة من الحركة الدائبة والـكفاح المرير .. حتى فى خلوته تلك كان أيضاً نهباً بين الرعية وبين الأمير ، لا تمضى أيام ثم يجيئه وفد يخرجونه ليكلم عثمان ، ثم لا تمضى اخر حتى يأتيه رسـول ليفض أناساً عن دار عثمان . وهو بينهم وبين خليفتهم ماض أبداً بالشكاية والوعيد ، والشكايات دائماً بلا نهاية . والوعود دائماً بلا قضاء ، وإنه بعد هذا اللوم من كلا الفريقين كأنه يملك وحده أن يكم الأفواه أو يحقق الشكاة ! ..

ثم جرى الزمن جريه ، وأقبلت الساعة الرهيبة التى جهد الرجل منفردا لردها عن الإسلام ، وبذل من لسانه وقلبه وأعصابه ماملك حتى لا تصيح أمته .. ولـكن جهوده راحت مع الريح ، وما هى إلا أيام قلائل ، ثقيلة كأعوام ، حتى ينطلق سيل الأحداث ، قاسياً رهيباً ، يقتلع مايعترض طريقه من سدود وحدود.

حصاد الفتنة

١

إنها ليلة فى الشتاء قارة ، خاصمتها الرياح ، ومشى البرد فى ركبها السارى تحت عين النجم . كانت باهتة الظلمة وإن أوغل الزمن بالمساء ، لكأن لون الثرى انعكس على صفحة الأفق السوداء فأكسبها لوناً ، وكأن السماء تبسم من عل للرمال الوسنى ولكنها بسمة لا تحمل خفة الكواكب الزهر ، فيها صفرة وفيها مرارة ، ليست تفىء البهجة وإن غدت بلمحة نور . . . وكان السكون على الأرض كالسلام وإن أوحى إلى النفس أحياناً التوجس . مهيب تارة وتارة رهيب .

صفاء كأنه غيوم ، وهدوء كأنه مرسوم . . الجفون مثقلة على حذر ، والقلوب منطوية على اضطراب . . والقلق يكاد أن يشيع فى الجو كهذه الحبات السافية من الرمل كلما حركتها نسمة فارقها النوم . إن شيئاً مجهولا يزحف مع الظلام ، خافت النأمة كأنه حية ، لا ينى يسرى مع الليل إلى الصدور فيلمس الأفئدة بأصابع مثلوجة . إن هاتفاً يكاد أن يهمس فى آذان القوم ، الرقود منهم والأيقاظ ، له فى أسماعهم رنة نذير . والأولى أغمضوا العيون دونه عاشوا به فى كابوس ، والأولى انتبهوا باتوا منه كمن جاس بطلل ، فريسة لخوف خفى لا يعرفون مأتاه .

ليلة صفوها طلاء ، وحشوها بلاء . . قضاها عثمان على هم ، وقضتها معه نخبة أعوانه وخلاصة مشيريه وعمت خشيتها دار الإمارة كلها والمدينة من بعد . إنه حدث ليس كمثله حدث ، وفتنة توشك ألا تكون بعدها فتنة . ليكاد الناس يؤمنون أنها النهاية ، ويكاد الأمير أن يوقن أنها المصير، عند ما نزل به رسول ابن أبى سرح منذ زمن قريب ، لم يحسب الشيخ أن الخطر بهذه القرة . . لم يسىء أبداً الظن فى الناس إلى هذا الحد . . لم يوف به حدسه على مثل هذا التدبير الخطير ، كان دائماً رجلا سمحاً ، رحيب القلب ، نفسه

لم تعرف السواد ، فظن الناس على شا كلته .. ولكنهم بدوا الليلة من معدن مغاير ، طلب العدالة وحده ليس غايتهم ، بل الثأر .. منه هو جاءوا يطلبون القصاص ! ..

وكان الفجر يوشك أن يسفر والرجل جالس يفكر .. إن عماله حقاً لم ينصروه .. إنهم قصروا فى أداء واجبهم فأساءوا إليه بهذا التقصير وإن تمنوا نصره . خانوه . وهل التقصير هكذا إلا خيانة ؟ . قد كانوا جميعا أثيرين عنده ، رفعهم على هام الناس ، وقدمهم حين أخر من عداهم من خسيرة المسلمين ، وكانت له فيهم ثقة تامة لا يشوبها شك ، وبقدرتهم إيمان راسخ عميق ، وبحذقهم فى سياسة شؤون الدولة يقين ثابت ، فليته علم قبل اليوم أنه كان مخدوعا فيهم فنظر إليهم كنظرة الأمة ، لو أنهساير الشعور العام نحوهم لكان نحاهم عن مقاعدهم ولكان جنب نفسه هذه الأزمة ، ولكنه ظل متعلقا بهم أبداً ، رابطا مصيره بمصايرهم ... وها هو يرى الآن كيف كانوا أكفاء ! .

أثمة حاكم ، يقدر تبعته ويعلم واجبه حق علمه ، يعرف أن نفراً من رعاياه أرادوا شراً برئيس الدولة ثم لايهم بهم ويزجرهم عنه ؟ . عبد الله ابن أبى سرح كان ذلكم الحاكم ، علم أن قوما من المصريين ممن عرفوا بشدة العداء لعثمان دبروا أمرهم فيما بينهم على شر مبيت فسكت عنهم ، كل ما فعله أن أرسل من لدنه رسولا للخليفة يخبره بنبأهم ، ويقول إنهم أظهروا الرغبة فى الحج والعمرة ، ولم يكونوا بضعة نفر يستطاع أن يؤمن جانبهم وإنما كانوا عدة مئات .

وخرج الثوار من مصر بجموعهم الجيشة ، ومشى فى ركابهم زعيم خطير لهم يشيعهم حتى عجرود . . لقد كان سير هذا الزعيم وإياهم خير كاشف عن الغرض الذى اضمروه ، فلم يكن مجهولا عداؤه لعثمان . ولا حقده البالغ عليه وإن كان قريبه وولى نعمته ، ولكن ابن أبى سرح حاكم لا يعرف تبعته ، ولا يقدر عظم المهمة الملقاة فى يديه ، وكان فيما يبدو واهن العزم

شديد التردد . ولو أنه كان فى شك من المهمة التى أرادوا الاضطلاع بها لكان شكه وحده موجباً لحذره منهم وتحوطه للأمر قدر وسعه ؛ وللزمه أن يقطع شكه فيهم بيقين ثابت ما دام قد عرفهم من أعداء سيده . ولكنه كان شديد التردد ، يضطرب عند النوازل وتعوزه القدرة على الحسم .

وكذلك خرج أولئك وأكثرهم من السبأية ، تحت أنفه وعينه ، ومضى فى ركابهم محمد بن أبى حذيفة حتى ودعهم بعجرود ، ومضت جموعهم المائجة صوب الجزيرة كالسيل المنحدر . . أما ابن أبى سرح ، فقد كان يعلم أنه مامن شىء يعصم عثمان عنهم لو أنهم أرادوه . . ليس هناك جيش يحميه ، ولا أعوان أعزاء الجانب يحيطون به عند الخطر ، وليس له جدار منيع بمقامه فى المدينة لأن العبدان والموالى فيها ينقمون منه ومع ذلك فحاكم مصر حسب أنه بلغ الحكمة كلها حين أرسل إلى الخليفة يعلمه بالأمر . . وخرج رسوله فى أثر القوم ، واستبق دونهم الطريق إلى المدينة يركب البيد إحدى عشرة ليلة طويلة فى الشتاء ، لا لشىء إلا ليحمل عنه كتابا إلى سيده منتهى ما فيه :

« إن ابن عديس وأصحابه وجهوا نحوه ، وقد خرجوا وهم يظهرون العمرة ، وشيعهم محمد بن أبى حذيفة حتى عجرود » .

وتوجس عثمان ، واضطربت نفسه ، فقد وضح أمامه الأمر كله ، ولم يملك إلا أن قال حين جاءه الرسول :

« يريدون بزعمهم العمرة ؟ . والله ما أراهم يريدونها . . ولكن الناس قد دخل بهم ، وأسرعوا إلى الفتنة ، وطال عليهم عمرى . . أما والله لئن فارقتهم ليتمنون أن عمرى كان طال عليهم مكان كل يوم بسنة ، مما يرون من الدماء المسفوكة »

ولعله عجب من هذا الجهد الأبتر الذى تكلفه ابن أبى سرح حيال أولئك الخارجين ، فراح يتناول الأمر بيديه ، ويبادره بالعلاج الذى وسعه . . . بعث إلى من بمكة يحذرهم الفتنة التى حسب المصريين يوشكون أن يشوها

فيهم . ثم ورد رسول عامل مصر إليها يأمر واليها أن يتعقب الثائرين .

ولكنها مبادرة كان أوانها قد فات . لقيت تدبيراً ضخماً وخطة محكمة ، فلم يذهب المصريون إلى مكة . ولم يستطع ابن أبي سرح رغم مسارعته أن يلحق بهم في الطريق ليردهم عما أرادوه لو أنه شاء ، بل هو في الحق لم يكن قد تهيأ لملاقاتهم بعدة تخضعهم . وكان من سوء إدراكه للأمور حتى بدا كأن قد خرج إلى نزهة ! . . لو أنه تلقى المسألة باحتفال وجد لدبر الأمر قبل خروجه ، ولأعد قوة محبته يستعين بها على رد جموع الثائرين أو مناهضتهم في المدينة إذا سبقوه إلى الخليفة ، ولكنه نسي في هذا الموطن الجدير بالتبصرة والحكمة أنه كان ذات يوم رجل حرب عليما بما يتطلبه الكفاح والجلاد . ومضى في سبيله لا يتعرف مواطىء قدميه ولا ما هو مقبل عليه . . . فلما كان بأيلة فجأته أخبار مروعة : جاءه من مصر نبأ بأن محمد ابن أبي حذيفة قد غلب على البلد واستجاب الناس له . وجاءه من المدينة نبأ بأن الثوار قد حصروا فيها عثمان . وأشكل عليه الأمر . وحار أشد حيرة وقد نازع همه على الخليفة همه على المنصب المضيع . . . فإذا بلغ به الأمر حد الموازنة والاختيار فإنه اختار أن يرتد ثانية إلى مقر إمارته دون الوقوف إلى جوار عثمان ساعة المحنة ! . .

نزل الثائرون قرب المدينة على مبعدة قليل منها ، ذلك اليوم في أعقاب الشتاء . ولم يكونوا زمر المصريين وحدهم ، بل كانوا أخلاطاً منهم ومن البصرة والكوفة ألفت بينهم وحدة الغاية ، وجمعتهم دقة التدبير وحسن التأهب للأمر الذي هم بسبيله . واضطربت بخبرهم دار الإمارة . ووجفت قلوب فئة من أهل المدينة الذين طالت عليهم عهود الدعة والسكينة وبعدت عن نواظرهم عهود الصراع . ولم يأمنوا أن يقعدوا عزلا خشية أن يحدث ما يفاجأهم ، فراحوا يلبسون السلاح ويتخذون الأهبة لحماية أنفسهم إذا حزب الأمر ... هذه فترة لم يعر مثلها بالبلدة منذ أيام أبي بكر حين أحاطت بها جموع مانعي الزكاة . لم تكن مهيأة إذ ذاك للدفاع عن نفسها بعد خروج جيش أسامة

للشام . وكذلك هي الآن . ليست بها حامية . ولا للخليفة قوة حرس خاصة كما استحدث بعض عماله في الأقاليم .

وضرب النازلون خياماً على حدود المدينة : ثلاثة معسكرات قريب بعضها من بعض ، لا تفصل بينها إلا مسيرة ساعات . في المروة نزل أهل البصرة ، وفي الأعوص أهل الكوفة ، وفي ذي خشب عسكر المصريون الذين كانت لهم الكثرة وزعامة قوى الثوار . وتلبثوا جميعاً قليلا يتشاورون في الخطوة التي يجدر أن يتخذوها بعد ... كرهوا أن يبدأوا أعمالهم بالعدوان والعنف ، أو يدخلوا البلدة على أهلها عنوة وفيها أزواج النبي وخاصته وأهل بيته ، وآثروا أن يستأذنوا حتى يقابلهم الناس بالعطف والتقدير . . . هم في عمومهم لم تكن نية إيذاء الشيخ تعيش في خواطرهم وإن لاح أنها توارت في بضعة رؤوس الكبار لهم حبسوها لحين فرصة . إنما أقبلوا ولهم هدف قوامه حمل الخليفة هذه المرة على الرضوخ لرغباتهم والنزول عند مشيئتهم . الوعود اليوم أصبحت لا تلقى لديهم السمع بعد أن ألفوها دائماً بلا قضاء . بل أيسوا ونفضوا منها الأكف لجاءوا وفي نيتهم أن يقسروا الشيخ على النزوع عما كان منه أو يعزلوه . ووطدوا العزم على البقاء لا يبرحون حتى تأتيهم منه توبة يتبعها تحقيق مطالبهم وقدروا أن يستجيب عثمان لهم حين تبدو له القوى التي صفوها له دون أن يطلقوها عليه ...

ومع ذلك فلم يكونوا مجمعي رأيهم على رجل واحد يولونه أميراً على المؤمنين إن دعت الحال إلى عزل عثمان . بل كانت أهواؤهم شتى ، تفرقت تظاهر ثلاثة من أصحاب رسول الله هم خير بقية أهل الشورى وأول من تتجه إليهم الأبصار عند الاختيار ... ولقد رنت إليهم أنظار الثائرين وانطلقت من معسكراتهم على البعد ترمقهم بالإعجاب والتأييد . هوى البصرة مع طلحة ، وهوى الكوفة مع الزبير ، وعلى علي التفت قلوب سكان النيل ...

ولم يكن أحد من الثوار قد دخل المدينة ، ولكن الأخبار تواترت

فيها بأن القوم قاتلو عثمان . ولم تكن ثمة حركة تشى بالفتنة المرقوبة ، ولكن الناس تهيأوا لساعة الصرع أو لساعة الصراع . وكانت الرهبة تملأ الجو وتهيمن عليه . وكانت النفوس نهباً فى أيدى قلق الانتظار ، والقلوب تأكلها اللهفة وتكاد أن تسبق الزمن إلى الغد المجهول عسى أن يسفر لها عما يخفيه ...

ثم مضى رسول والليل ، ترك ذا خشب خلفه وسار قدماً إلى دار على . وكانت إذ ذاك جامدة ، يلفها من جوانبها هدوء أقوى من الصمت . وكانت الظلمة سابغة ، بدت لفرط كثافتها كأنها فراغ . وكانت الريح ساكنة سكون الرمل ، وانية لا تستطيع أن تنقل نأمة فى تلك الليلة الذاهبة فى أعقاب الشتاء ...

وبدا على لطارق الليل ، معلماً بسماته وصفاته ، تكاد بشاشته أن تنطق عنه ، وتلك الهيبة التى جللت محياه تشع سحراً يجذب إليه القلوب وإن أبقى أصحابها على قيد منه لفرط ما يحسون له من رهبة . وتكلم الرسول . وتكلم أيضاً من عساهم قد انطلقوا معه إلى هذا الكهل الذى هوت إليه الأسماع والنواظر وهفت القلوب والخواطر . فما أسرع أن تبدلت البسمة التى داعبت ثغره إلى عبسة انعقدت على جبينه . وإذا كلماته تندفع إليهم حادة صخابة . وإذا الغضب يستغرق كيانه كله فيبدو لهم بأسه . لم يكن بالثائر فيقرهم على الثورة ، ولا بالساعى إلى صولجان الحكم فيتخذهم مطية ، ولكنه طراز وحده فى الرجال . لا يقيس الأمور إلا بخلقه ، ولا يستجيب لغير نداء المثل العليا التى التزم نهجها من القدم حتى أصبح هو أكلها وأسماها مثلا . ولعله فى موقفه هذا قد تكشفت لعينيه وسائل العنف التى لا بد سيتخذها الثوار حيال عثمان ذات يوم فحرص على أن يقتل نواتها فى نفوسهم قبل أن تنمو . فما كانت الكلمة الطيبة إن نطقها فى مثل هذا المقام إلا إغراء لهم على السير فى طريقهم الشائك ...

عنف على برسول أهل مصر وهم الذين أقبلوا من ضفاف النيل يحملون

إليه تأييدهم له . وردهم عنه رداً غير جميل . وسفه موقفهم من الخليفة حين ظنوا أنهم جاءوا إلى نصير قوى يحملهم عليه ، وصاحب أولى به أن يظاهر قضيتهم التى لا تعدو فى نهاية الأمر أن تكون نصراً له ... إن النصر فى رأيه هو التعفف . والظفر الذى يأتيه من طريق العصيان خذلان كله وهزيمة نكراء . وما أحسبه فى هذا الموطن إلا قد ذكر أمثالا له أوشك إبانها أن يجتمع فى كفيه الأمر فقبض دونه يدبه لأنه رآه مدعاة لتفرقة شمل أمته وفتح ثغرة فى صفوفها المرصوصة .

حتى هذه الرسالة السرية أباها أيضاً — هذا الكتاب الذى بعثه إليه من مصر محمد بن أبى حذيفة — رفض حتى أن يمسك به أو يظهر على مافيه حينما امتدت به إليه يد الرسول ... لود طارق الليل إذ ذاك لو لم يبعثوه فى مهمته . لأوشك أن يؤثر بطن الأرض على مكانه الآن أمام هــذا الرجل المثالى العجيب . تجمع الدهر كله عليه فى لحظة ، وغلبه الخزى حتى جرد جسمه من الحركة ... وحينما استطاع فى النهاية أن يبرح موقفه ، كان كأن قد ولد من جديد . ومضت قدماه — كقدمى مولود يدرج فى مهده — تصارعان موطئه . وتدأبان به ليكون بعيداً عن تلك الدار ... وكانت دهشته تمر معه — العجب من هذا الكهل الذى يأبى أن يأخذ الثمرة المشتهاة إذ قدمت إليه وغيره من الناس يجهد كل عمره ليقتطفها وإن قطع من أجلها سبلا شتى مليئة بالدماء والأشلاء ! .

كان هــذا الموقف لعلى ضربة قاصمة للأهــواء والمطامع التى أخذت فى ذلك الأوان تلعب بنفوس كثير من قادة الرأى وزعمــاء المسلمين . فهى سابقة لهــا أثرها . وخطة للعمل إزاء الثوار رسمها هو ولا يستطيع غيره من كبار الصحابة المرشحين للحكم إلا التزامها بدقة أو يثيروا على أنفسهم لغط الاتهام بالمساهمة فى الفتنة . قطع على الطامعين طريقهم وحصرهم فى مكان واحد لا معدى لهم عنه هــو مظاهرة عثمان ومخالفة أولئك النازلين على حدود المدينة . وأصبح حتما على كل رجل منهم يرى لنفسه حقا فى أن

يلى الخلافة أن يعزف عنها هـــذه المرة برغمه . . . كذلك كانت النتائج ، وكذلك وقف الزعماء موقفهم من الثوار فساروا سيرة على ، وردوا عنهم الرسل الذين جاءوهم بغرار ما جاءوا ابن أبى طالب به ، وأصبح طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ولهما موقفان إزاء أنصارهما من الكوفة والبصرة يماثلان موقفه من المصريين .

وسمع عثمان بمـا كان من على ورسـول للثوار يستأذن عليه فارتاح وهدأ خاطره . . . وأمر بالرجل فأدخل عليه ، فإذا كتاب معه يشرح له غرضهم الذى جاءوا من أجله ، قالوا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . أما بعد ، فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فالله الله ، ثم الله الله ! . . إنك على دنيا فاستتم إليها معها الآخرة . ولا تلبس نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدنيا . . واعلم أنا والله لله نغضب ، وفى الله نرضى ، وأنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مبلجة . . . هذه مقالتنا لك وقضيتنا إليـك ، والله عذيرنا منك . . . والسلام » .

فلم يزد عثمان على أن أمر بالرسول فأخرج من الدار .

غير أن الهدوء الذى اصطنعه الشيخ لم يكن وحده كافياً لاجتياز الأزمة ، بل أن الخطر من ضيوف الضواحى وإن توقف عن الظهور هنيهة حتى يرى القوم خطوة أخرى أجدى على قضيتهم من الركون إلى الأقطاب الثلاثة ومن ترك مهمة التوجيه فى أيديهم ، هذا الخطر بدا فى لحظة لاحقة أهون شأناً ممـا ظهر من سـكان المدينة . . . كان عثمان عليما بأحوال حاضرته وبنفوس أهليها إلى أين تميل ، يعرف أنها اليوم فى يد طوائف الموالى والعبدان والعامة التى أوغر صدرها عليه انحيازه عنها إلى الأشراف من العرب والقرشيين ، وإنها لقوى كفيلة بأن تنتصر له بعد أن زودها وقوف الثوار على أبواب البلدة بزاد

معنوى تستطيع بعده أن تظهر موجدتها على الخليفة ثم تعصف به ، وهى آمنة أن تقف لها تلك الفئة القليلة التى ما زالت تظهر العطف عليه .

تفكر عثمان هنيهة ، واستعرض الخطر أمام عينيه ثم راح يجهد لإيجاد الوسيلة التى تخرجه منه . . . لا طاقة له بقتال القوم أو أخذهم بالشدة الكفيلة بإقرار النظام وإفاءة الأمن والسلام ، إن هو توفرت له العدة والرجال فإن الجرأة لم تتوفر له . . . ولم يكن هياباً يخاف الطعان ، ولكنه كان رجلا أفسده التسامح حتى ليتحرج أن يقيم صرح أمره على دم ، وكانت الرحمة فى قلبه تسبق الحزم ، واللين يتقدم العزم .

أدار فى خاطره الأمر كله فأبى أن يتخلى عن طبيعته السمحة فيقابل الناس بالعنف الواجب فى أمثال هذه الظروف ، بل آثر أن يعطيهم من نفسه لينا وتسامحاً ورحمة ، وأن يبذل غاية ما يستطيع طبعه من ترفق ، فلن يلقى قوام الجيشة بأمثالها ، ولن يشهر فى وجههم عصا وإن هاجموه بعتاد الحرب وآلة الصراع .

على هذا قر رأيه ، وانتهى به التفكير إلى ضرورة فضهم عنه راضين ، ولم يكن ميسوراً أن يفوز بثقتهم فيه ، ولا بركونهم إلى كلمة يزجيها تحمل إليهم عزمه على إجابة ما يطلبون . . . إن أكداساً من الوعود القديمة تقف حائلا دون هذه الثقة ، عالماً منها برمته يفصلهم عنه . . . ولكن ساعة المحنة جديرة بأن تجلو ذهنه وترده صافياً تنعكس عليه الحقائق واضحة بغير إبهام . ولم يكن ثمة من وسيلة تؤيد وعده الجديد وتهبه قوة ينفذ بها إلى قلوب الناس إلا أن يسوقه إليهم رجل يثقون به ، له شخصية أخاذة وكلمة نفاذة إلى تلك القلوب ، ولقد نثر عثمان ذلك اليوم كنانة الرجال ، وراح يتخير من بينهم أقوام على المهمة وأحراهم بإنجازها على الوجه المطلوب . . . وأنسته اللحظة العصيبة هواطفه الشخصية ، ووشايات أهله ، فارتد رجلا آخر يتبلج أمامه نور الحق وهو يسرع الخطا إلى دار على متستراً بالليل .

والتقى الرجلان . . . التقى المدفوع إلى الظلم بالصاحب القديم — بالغريم الجديد المظلوم . . . وقال إذ ذاك عثمان :

« يا ابن عم . . . إنه ليس لى متركـ . وإن قرابتى قريبة ولى حق عظيم عليك . وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم ، وهم مصبحى . وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً ، وأنهم يسمعون منك . فأنا أحب أن تركب إليهم فتردهم عنى ، فإنى لا أحب أن يدخلوا على ، فإن فى ذلك جرأة وليسمع بذلك غيرهم ... » .

فتلفت نحوه على يرمقه برهة . إن شيئاً جديداً يلوح فى وجه الشيخ . عاطفة جديدة بدت إلى جوار لهفته إلى النصرة كأنها الرغبـة المضطرمة لإنقاذ عزم يوشك أن تتحدث به عيناه ؟ . .

وقال على وهو يريد أن يستوثق منه :

— علام أردهم ؟

— على أن أصير إلى ما أشرت به على ورأيت لى ... ولست أخرج من يديك.

ولـكنها لم تـكن الأولى مع ذلك ، بل سبقتها نوايا طيبة كثيرة طالما أبداها الخليفة لشعبه ثم عدل عنها بغير ما مسوغ للعدول... ولم يكن وعده الجديد هذا بوعده اليتيم ...

وأتاه على الأثر الرأى السافر الصريح :

— إنى قد كنت كلمتك مرة بعد مرة ، فـكل ذلك تخرج فتقول ، وتعـد ثم ترجع . وذلك كله فعل مروان وسعيد وابن عامر ومعاوية أطعتهم « وعصيتنى »

— فإنى أعصيهم وأطيعك .

وقبل على أن يركب إلى الثوار فيحدثهم ليرجعوا عن الشيخ بعد أن بانت له حرارة التوبة فى ألفـاظه . وخرج ومحمد بن مسلمة ، وطائفة من الأنصار والمهاجرين إلى ذى خشب ليحدث النـاس . وأمر الخليفة نفراً من أصحابه وأهل بيته ليصحبوه . وأمر أيضاً سعد بن أبى وقاص ليـكون رسوله إلى عمار ابن ياسر على أن ينضم عمار إلى وفد التوفيق فيـكون عوناً له بعد أن كان من

معارضيه .. بدا عثمان فى هذا حريصاً على أن يكسب إلى جانبه كل خارج عليه. ولـكنه كذلك بدا متشككا كثير الريب فى أصحابه وإن كانوا من الساعين بالإصلاح بينه وبين غيرهم من مخالفيه . . . فما كاد ينطلق سعد فى مهمته حتى بعث كثير بن الصلت الـكندى فى أثره ليرى كيف يكون الموقف بين الرجلين ، وليعلم فى خفية مدى إخلاص رسوله للرسالة التى وكلها إليه ، وهل هو حقاً سيحرض عماراً له أم يحرضه عليه ! . .

وجلس الرجلان يتحادثان ، ووقف كثير بنجوى عن عيونهما متجسساً يرهف السمع ... قال سعد :

— يا أبا اليقظان ، ألا تخرج فيمن يخرج ؟ . . هـذا على يخرج فقم معه واردد هؤلاء القوم عن إمامك فإنى لأحسب أنك لم تركب مركباً هو خير منه..

وتفـكر عمـار برهة ، والتقطت أذنه حركة خفيفة خارج داره فارتاب فى الأمر . . . وانطلق خفيفاً إلى ثغرة الباب فإذا عين هناك ترقب فـما أسرع أن مد يده بقضيب من خـلال الثغرة ردت ذلك الجاسـوس بصرخ وهو يفر من المـكان وخلفه كلمات عمار الهادرة تشيعه :

— يا ابن أم قتيل ! . . أعلى تطلع وتستمع حديثى ؟ . . والله لو دريت لفقأت عينك !

ثم انثنى غاضباً إلى سعد يقول له

— والله لا أردهم عنه أبداً ...

وفسد الأمر الذى أقبل فيه ابن أبى وقاص . وضاع جهـده ، ثم لم يلق من عثمان غير الريبة والاتهام . . .

ولـكن علياً نجح فى مهمته الـكبرى ، وأثمر اللقاء بينه وبين الثائرين ثمرته المرجوة . فلم يلبثوا أمام سحر حديثه أن لانوا له ، وصفت قلوبهم على الخليفة .

ولما أن تهيأ على وصحبه للعودة ، أقبل ابن مسلمة على بضعة نفر من زعماء المصريين يحذرهم الفتنة وينهاهم ثانية عن عثمان . . . قال .

— ... إن فى قتله لاختلافا عظيما ، فلا تكونوا أول من يفتحه ، ولسوف ينزع عن الخصال التى نقمتم منها عليه ، وأنا ضامن لذلك .

قالوا :

— وإن لم ينزع ؟

— فأمركم إليكم .

وقام عنهم ليلحق بوفد التوفيق العائد إلى المدينة ، فهتف به ابن عديس :

— ألا توصينا يا أبا عبد الرحمن بحاجة ؟

فالتفت إليه وقال ثانية يحضهم على الاستمساك بوعدهم الذى قطعوه لابن أبى طالب منذ قليل :

— تتق الله وحده لاشريك له ، وترد من قبلك عن إمامه فإنه قد وعدنا أن يرجع وينزع .

— إنى فاعل إن شاء الله ...

٢

قال على حين عودته لعثمان يبصره بالموقف ، ويشير عليه بالعلاج الذى يراه حائلا دون قيام فتنة جديدة بعد أن انطفأت فتنة المصريين :

— يا أمير المؤمنين .. تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ، ويشهدون عليه ، ويشهد الله على مافى قلبك من النزوع والإنابة . فإن البلاد قد تمخضت عليك فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة فتقول : يا على اركب إليهم ، ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً .. ويقدم ركب آخرون من البصرة فتقول : يا على اركب إليهم ... فإن لم أفعل رأيتنى قد قطعت رحمك واستخففت بحقك .

ثم جاء محمد بن مسلمة على الأثر فقال له هو الآخر يحذره ويبصره :

— .. الله الله ياعثمان في نفسك ! .. إن هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون

دمك ، وأنت ترى خذلان أصحابك لك ، بل هم يقودون عدوك عليك ..

فتفكر عثمان . إن الحقـائق واضحة أمامه تحدث عن نفسها فى جلاء . ولقد صـــدقه إذن على . وصدقه أيضاً ابن مسلمة ، لأن كثيراً من كبار رجال المدينة لم يمدوا له يداً معينة فى ساعة المحنة كأن ضياع أمره كان أمنية تجول فى نفوسهم .. وما أحسبه فى هذا المقام إلا استعرض أمام عينيه كيف غاب عن نصرته اليوم طلحة والزبير وكثيرون من أعلام الإسلام لولا أن بادر ابن أبى طالب فوقف إلى جانبه ثم رد الثائرين عنه ..

وقام الشيخ إلى المسجد . أيقن الآن أن وعد اليوم ليس له ما بعده إلا القضاء .. وأن نصيحة على جـديرة بأن تجنبه كثيراً من المتاعب التى لعلها تنتظر فرصتها لتنطلق . وأن كلمات قلائل لينة كفيلة بأن تجمـع حوله ثانية قلوب أمته وتفتح فى حياته السياسية صفحة نقية .. لذلك سارع يعمل بمشورة ابن أبى طالب . فوقف على المنبر يخطب الناس خطبته التى أعطاهم فيها الحق من نفسه ، ونزع تائباً عما سلف منه .. قال :

« .. إنى منتنى نفسى وكذبتنى ، وضل عنى رشدى . ولقد سمعت رسول الله يقول من زل فليتب ، ومن أخطأ فليتب ، ولا يتمادى فى الهلكة ، إن من تمادى فى الجور كان أبعد من الطريق .. »

ثم رفع يديه ووجهه إلى السماء ، وانطلقت عينـــاه تجودان بدمعه حتى اخضلت به لحيته وهو يتجه بالدعاء إلى الله :

« اللهم إنى أتوب إليك ،اللهم إنى أتوب إليك،اللهم إنى أتوب إليك » .

وكان فى ابتهاله حرارة ، وفى كلماته صدق ، وعلى قسمات وجهه مسحة من الطهر ساحرة أكسبتهـا الدموع رقة ودت معهـا قلوب سامعيه أن تخلف صدورهم ثم تلتف عليه .. وأجابته العيون من أنحاء المسجد . وجرى الدمع يبل كل وجه شهـده فى موقفه ذاك ، وصفت النفوس للشيخ حتى نسيت كل ماسلف منه وذكرت فحسب أنه شيخ هاض جناحه وليس يرى النصرة إلا فى رحاب الله..

وأردف من بعد يتم الحديث :

« أيها الناس .. مثلى قد نزع وتاب ، وأنا أول من اتعظ . أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه . فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم فليرونى رأيهم . فو الله لئن ردنى الحق عبداً لأستنن بسنة العبيد ، ولأذلن ذلة العبيد ، ولأكونن كالمرقوق إن ملك صبر وإن أعتق شكر . فالى مذهب من الله إلا إليه . . . أيها الناس لا يعجزن عنى خياركم أن يدنوا إلى . فو الله لأعطينكم الرضا ، ولأزيدنكم على الرضا ، ولأنحين مروان وذويه ، ولا أحتجب عنكم . . ولئن أبت يمينى لتتابعنى شمالى . . »

وتفرج عنه همه حين فرغ من مقاله . وأحس أن القلوب النافرة قد أقبلت تمنو له . ودخل منزله ذلك اليوم وهو راض عن نفسه وشعبه ، لاتكاد تشوب قلبه على الناس شائبة من ضغن أو ريبة . . ثم أمر ببابه أن يفتح حتى يدخل عليه من أراد . .

كذلك كسب الشيخ بهذه الخطبة الرقيقة كسباً جما لو عرف كيف يستعين به ، وأوشك أن يثبت له أمره . ولقد تمت بينه وبين فئة من المصريين مقابلة أرضته عنهم وأرضتهم عنه حتى لقد قال :

« ما رأيت والله وفداً فى الأرض هم خير لحوباتى من هذا الوفد الذين قدموا على . . »

وأقرهم على ما طلبوه من خلع واليهم عنهم وتولية محمد بن أبى بكر عليهم ، وإباحة العطاء مستحقيه من المقاتلة دون أهل المدينة الذين لا حق لهم فيه إلا من بقى من أولئك الشيوخ أصحاب رسول الله . وأقروا له هم أيضاً بحقه عليهم ألا يخلعوا طاعته أو يناوئوه . .

غير أن الأهواء الشخصية أبت أن تدع الريح تسير رخية طيبة . بل شاءت أن تثيرها عاصفة هوجاء مجتاحة تدمر . فما كان لأولئك النفر الذين ألفوا أن تسير الأمور فى طريق مطامعهم أن يدعوها تنحرف عن ذلك الطريق الذى لا جدوى عليهم فى غيره . . . ما كان لأولئك الذين نمموا

بالسلطة أعواماً طوالا ألا يتركوا صولجانها ينفلت من أيديهم ، وأن يخلوا بين الناس وبين خليفتهم يلقونه ويلقاهم فى خير ، ما دام صلاح ما بينهم لن يكون إلا على حساب تلك الأهواء . .

نظر مروان وذووه غب هدوء الحال فإذا عثمان رابح . وإذا الشعب أيضاً رابح . وإذا الخاسر وحده هو مروان وذووه . . إنهم المنبوذون اليوم من كلا الشعب والأمير . . إنهم الضحية التى توشك أن تقدم رخيصة على مذبح هذا الإصلاح ! .

وتربص الرجل الخاسر الذى أمضته مرارة الهزيمة .. تربص مروان ، الذى جزع من ضياع نفوذه وسلطانه حتى حانت له لحظة مواتية اجتمع فيها بتلك الشرذمة الجازعة كجزعه من بنى أمية ، فانطلق بمجلسهم يوسوس فى أذنى عثمان كأنه شيطـــــان . . قال له وهو يحرص على أن يبدو فى هيئة المشير الأمين :

« ياأمير المؤمنين . . اتكلم أم أصمت ؟ »

ولكن نائلة زوج الخليفة كانت أقرب إلى شفافية النفس فى تلك الساعة ، فألهمت أن الشر كل الشر فيما سيتكلم به مروان . . لم تنتظر لحظة واحدة . ولم تدع لهذا الدساس الطامع فرصة لبث سمومه ، بل بادرت تسد عليه سبيل الكلام .. صاحت به :

« لا بل اصمت !.. لأنتم والله قاتلوه وميتمو أطفاله . . إنه قد قال مقالة لا ينبغى أن ينزع عنها . . »

فثار الغضب فى جوانح مروان على هذه المرأة التى توشك أن تفسد عليه تدبيره . وأعماه حتى عن واجب التظاهر بإجلالها فى حضرة سيده وولى نعمته حتى لقد قال :

« وما أنت وذاك ؟ . . فوالله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ ! »

فلم يعجزها المنطق الذى لا يعجز فى مثل هذا الموطن أمثالها من النساء وانبرت ترد عليه .

« مهلا يا مروان عن ذكر ابى إلا بخير . أتخبر عنه وهو غائب وتكذب عليه ؟ .. أما والله لولا أن أباك عم عثمان وأنه يناله غمه لأخبرتك من أمره بما لا أكذب عليه ! .. »

وبهت الرجل . وأصابه الحصر من لسان امرأة .. على أنه ما كاد يخلو إلى الخليفة ثانية حتى راح يتهيأ للوقيعة التى فوتتها عليه نائلة . . أقبل وهو يصطنع الولاء والإخلاص ويبدو كمن يريد إزجاء الرأى الراجح السديد، فقال:

« بأبى أنت وأمى يا أمير المؤمنين . . والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنت أول من رضى بها وأعان عليها ، ولكنك قلت ما قلت وقد بلغ الحزام الطبيين ، وخلف السيل الزبى ، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل .. والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها ! فما زدت على أن جرأت الناس عليك .. »

فتردد عثمان . ماذا لو كان فيما بسطه صاحبه علائم كثيرة من الصواب ؟..

وهمس الشيخ المتخاذل فى استحياء :

— قد كان من قولى ما كان ، والغائب لا يرد ، ولم آل إلا خيراً ..

— إن الناس قد اجتمعوا ببابك أمثال الجبال ..

— فما شأنهم ؟

— أنت دعوتهم إلى نفسك . فهذا يذكر مظلمة ، وهذا يطلب مالا ، وهذا يسأل نزع عامل . .

وسكت عنه وإن كانت نظراته ملأى بمعانى التوجيه والإيحاء ..

وقال عثمان بعد قليل :

— . . إنى أستحى أن أردهم . . فاخرج أنت إليهم فكلمهم .

وكانت هذه هى اللحظة التى ترقبها مروان ، واشتاق أن ينتهز سانحتها قبل أن تفوت فيضيع من يده كل الأمر ، ويغدو الضحية الرخيصة التى يقدمها عثمان على مذبح إرضاء رعاياه . .

خرج من الغرفة مزهواً بنصره ولو علم لعرفه نصراً أهون شأناً وأمعن فى استجلاب الشر من كل هزيمة وخسران . ومضى إلى شرفة الدار يلق ببصره على الجموع التى ازدحمت بالباب كالعباب . فلما أن وسعه أن يجتر هنيهة شماتته بهم ، ويغرق فمه وملامح وجهه كلها بألوان السخرية والازدراء ، صاح بهم فى جفوة وخيلاء :

« ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب ؟ . . شاهت الوجوه ! . . أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ . . أغربوا عنا ، فو الله إن رمتمونا لتمرن عليكم ما حلا ، ولنحلن بكم مالا يسركم ولا تحمدوا فيه غب رأيكم . . إرجعوا إلى منازلكم فإنا والله غير مغلوبين على ما فى أيدينا . . »

وعاد وقد خلف للناس مرارة فى النفوس كادت أن تتذوق طعمها الشفاه ، وحقدا على وليه سرعان ماعرف طريقه إلى الهدم وإن نجا من معوله هذا الجهول مروان ، وأصابت ضرباته القاصمة ذلك الشيخ المظلوم عثمان . . . مضى الناس عن الدار حيارى . خاب أملهم وغلبت دهشتهم كل ما سبق من إحسانهم الظن بالأمير . فما بمثل هذه السرعة يمكن أن يكون نقضه الوعود . .

ولكنهم لم يثوبوا إلى نفوسهم من الدهشة الغالبة حتى احتوتهم ثانية دهشة جديدة أزرت بكل حيرة سابقة وبكل ماتستطيع أن تتنبأ به الخواطر والظنون . فلقد صعد الشيخ إلى المنبر كأنما ليقطع عليهم الشك باليقين ، وراح يخطبهم بأسلوب مشيره وعلى السنن الذى صوره له فقال :

« أما بعد أيها الناس ، إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا إلى بلادهم . . »

فبأى لسان كان يتحدث عثمان ؟. أحسب أن كلماته تلك كفيلة بأن تحجب عن الناس حقائق الحال ؟ . . ولكنه فى كل سنى حكمه كان مقودا بيد مروان وبقى الزمام كما كان حتى وصل به إلى أسوأ ما تنتهى النهايات .

وصاح من أحد جوانب المسجد صوت مستنكر يقطع عليه الخطاب .

إنه ابن العاص يهتف به في احتقـاد شابه الغضب لنفسه قبل الغيرة على صوالح مواطنيه :

— اتق الله يا عثمان . . . إنك ركبت أموراً وركبناها معك ، فتب إلى الله نتب . . .

فتلهب وجه الشيخ وثار به :

— وإنك ها هنا يا إبن النابغة ؟ . . قملت والله جبتك منذ تركتك من العمل ! . .

ولـكن المسألة في عين الناس كانت قد عدت طور الخلاف على الشخصيات وأصبحت جلاداً على شأن عام يأباه عليهم عثمان . فما كادوا يلقفون كلماته حتى ضج المسجد عن فيه ، وجاءت كلمات الإنـكار من كل جانب حتى غرق في لجتها صوت الشيخ الواهن الضعيف .

ولغطت المدينة بما كان . وتحدثت بسقطة الخليفة وحماقة مروان . وانطلق الناس إلى علي يشكون إليه فأسرع غير مصدق إلى المسجد يريد أن يستوثق . . فلقيه هناك عبد الرحمن بن الأسود . .

قال علي يسأله وقد عرف أنه يعلم قصة الأمر :

— أحضرت خطبة عثمان ؟ .

— نعم

— أفحضرت مقالة مروان للناس ؟ .

— نعم .

فضرب الرجل كفاً بكف وقال وهو آسف حزين :

« عيـاذ الله ! . يالمسلمين . . ! إني إن قعدت في بيتي قال : تركتني وقرابتي وحقي . وإني إن تكلمت فجـاء ما يريد لعب به مروان . . لقد صار سيقة له يسوقه حيث شاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله » .

ثم انطلق من فوره مغضباً حتى دخل على عثمان فقال له :

« أما يرضى مروان منك إلا أن يحرفك عن دينك وعقلك ؟ لأنت منه

كجمل الظعينة يقادحيث يسار به ! والله ما مروان بذى رأى فى دينه ولاعقله ، وإنى لأراه يوردك ثم لا يصدرك . . وما أنا بعائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك . أفسدت شرفك وغلبت على رأيك » .

وخرج بغير تريث . ودخلت على الأثر نائلة ، فإذا زوجها منقبض حزين كأنما ينازعه الأسف على ما بدر منه بعد أن تبين سوء المورد الذى قاده إليه مروان ، وأيقن بالخطر الداهم الذى يوشك أن يحدق به . وقالت المرأة الوفية الذكية تدلى بالرأى الذى تعلم أنه كفيل بكشف الغمة ورفع الملمة :

« قد سمعت قول على لك ، وأنه ليس براجع إليك ، وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء » .

فألقى ببصره إلى الأرض هنيهة يفكر ، ثم رفعه فبانت لها منه نظرة مغلوب مهيض ، وهو يحدثها بصوت مازجت فيه نبرات الحيرة لهفة السؤال :

— فما أصنع يا نائلة ؟ .

— تتقى الله ، وتتبع سنة صاحبيك ، فإنك متى أطعت مروان قتلك ، وليس لمروان عند الناس قدر ، ولا هيبة ، ولا محبة.فإنما تركك الناس لمكانه . وإنما رجع عنك أهل مصر لقول على . فأرسل إليه فاستصلحه ، فإن له عند الناس قدراً ولا يعصى .

غير أن علياً كان قد بذل للناس من ماء وجهه مع وعود عثمان ما لم تعد بعده بقية لبذل . فقال للرسول الذى جاء من قبل الخليفة يطلبه :

— قل له ما أنا بداخل ولا عائد ! .

وكأنما كان لمروان عيون بين الشيخ وزوجه تنقل له ما يتساران به . .

مالبث هذا الشيطان أن أسرع إلى الخليفة خشية أن يكون فى استصلاح على ضياع أمره ، فقال له :

— يا أمير المؤمنين . . إن نائلة بنت القرافصة . . .

فلم يصبر عليه عثمان فى هذه المرة ، بل ثار به يقاطعه وقد أيقن من سوء نيته :

— لا تذكرنها بحرف فأسوىء لك وجهك ! ... إنها والله أنصح لى منك ...

على أن نتيجة اللقاء بين على وبين الرسول قد خيبت أمله . وأوشكت أن تذهب بالبقية الباقية التى مازالت تتعلق بها نفسه . وسكت الشيخ على هم . وطوى فى قلبه مرارته . وتلبث مضطرباً لا يدرى أين ينشد النصرة ولا النصيحة الرشيدة ، وهذا ابن أبى طالب قد أدار له ظهره . حتى إذا دخل الليل ، ونشر سواده على الكون كالستار ، رأى بقية من أمل تلمع فى أفقه . فما يستطيع أن يوقن أن علياً يخذله أو يتنكر له .. وانطلق فى هدأة المساء يقطع دروب المدينة ، ويسير فيها حائراً متستراً بالظلمة . وأشرف من بعد على الدار المنشودة . على الجبهة التى لا ريب تنضم على دواء دائه . طرق الباب ودخل على استحياء .

واستقبله على هناك بما يجمل به وإن بانت على محياه آثار غضبته الأولى عليه. وراح عثمان يبسط له الموقف ويلق بعذره ، ويحاول جاهداً أن يستهديه وهو لا يكف من بعد عن بذل الوعد تلو الوعد ...

ونظر ملياً إليه على . بدا كأن لا جدوى من وراء نصحه فليس الرجل بسيد نفسه . ولا قضاء لوعد يسوقه لأنه لم يعد يملك القضاء . إنما لسانه وحده هو الطليق ثم على فكره وعلى يديه رقباء ! .. وقال أبو الحسن أخيراً وهو لا يستطيع أن يخدعه :

« أبعد ما تكلمت على منبر رسول الله ، وأعطيت من نفسك ثم دخلت بيتك نخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك ؟ » .

وبانت عزمة التصميم فى وجهه . وبدا للشيخ أنه اليوم أمام قرار حاسم لا مرد له . وازدحمت فى نفسه همومه . وجاورتها أيضاً شكوكه وريبه وهو يذكر ما كان يحدثه به أهله عن على : « لو شاء لما كلمك أحد » ... ولكنه الآن لا يشاء ! ... وحضرته أيضاً مواقفه منه ، وشدته عليه كلما استهداه . لكأن كلمات مروان هذه صدقت فيه :

« هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسلفه وابن عمه ... فما ظنك بما غاب عنك عنه ؟ . . »

وأوسعت له الذكرى فى الاستزادة . وأحس بقلبه تقبضه يد قاسية مدها خذلانه . فقام عنه متهافتاً يقول :

« خذلتنى يا أبا الحسن وجرأت الناس على » .

فالعجب له ! .. لا يزال دم خطيئته على كفه ثم يلقى بوزرها على كاهل سواه ... وأجاب على وهو يشيعه إلى الباب :

« والله إنى لأكثر الناس دفعاً عنك ، ولكنى كلما جئتك بشىء أظنه لك رضا ، جاء مروان بغيره فسمعت قوله وتركت قولى . . . »

فلم ينبس الشيخ ، بل مضى مطرقاً بلا كلام . وغاب هيكله الضاوى عن عينى ابن أبى طالب . ولكنى أحسب تلك العينين قد غامتا برهة وهما تنظران خلفه فى جوف الليل . . .

٣

اضطربت خواطر أهل المدينة ، وقلق بالهم ، وملك نفوسهم يأس جامح من إصلاح خليفتهم بعد ما سمعوا منه ومن صاحبه مروان . ثم لعلهم أوشكوا أن يروا بعيون الخيال بوادر العاصفة التى همت أن تتجمع فى أفق البلدة .

ولم يكونوا يأسون على مصير الشيخ . ولا مالت نفوسهم إلى الرثاء له . لو أنا عنينا بإحصاء محبيه إذ ذاك لما جاوزوا عدة الأصابع . ثم لنحسبهم بضعة من الخاصة لم يربط بينهم وبينه وفاء بل استعبدتهم له الهبات والأفياء . . أما الإجماع فقد انطوت قلوبهم على النقمة منه . لعلهم اقتنعوا اليوم بضرورة مخالفة هذا الخليفة الذى لاح دائماً كالحريص على إغضاب شعبه لحساب أهله .. لعلهم رأوا صلاح الحال فى تنحيته عن الطريق ليستقيم شأن أمته . .

لعلهم جنحوا لأهواء لهم تحقيقها رهن بالخلاص منه . . على أى حال ضمت البلدة زمراً من كل أولئك وهؤلاء تحالفوا عليه .

ولم تخل أيضاً من عيون لأصحاب الثورة بثوها عسى أن تنقل لهم ما يجد بها من حركات بين حين وحين . فما نزل عثمان عن المنبر بعد أن نقض عهده حتى انطلق جار له إلى القوم ، وهو عمرو بن حزم أحد رجال الأنصار . ذهب ليخبرهم بما كان من عثمان . فما انقضت أيام حتى جاء النبأ بأن المصريين عادوا ثانية إلى ذى خشب وبعضهم بالسويداء .

أفكان أولئك الثوار قد ارتدوا حقاً عن ضواحى المدينة وركبوا الطريق إلى بلادهم بعد حديث على وابن مسلمة ، أم هم يا ترى تلبثوا بمكان قريب حتى يعلموا ما يكون من أمر عثمان ؟ . . . أغلب الظن أنهم ، وقد فقدوا الثقة فى وعوده ، انتظروا ببعض الطريق حتى يأتيهم من ينبئهم بحقيقة الحال . فإما وفاء من الشيخ وصدق توبة فترحل جموعهم ، وإما نقض كما عودهم فتكر إليه .

وريع عثمان . واختلط عليه أمره . وألق ببصره على أصحابه وقد أوشك الخطر أن يحدق به فما وسعه أن يرسل ثانية إلى على بعد ما سلف منه فى حقه . بل حسب الخير عند محمد بن مسلمة ، فأرسل إليه عساه أن يكون أرفق به وأحنى عليه .

قال له :

— يا أبا عبد الرحمن ، هؤلاء القوم قد رجعوا ، فما الرأى ؟

فقلب ابن مسلمة كفيه حيرة وأجاب :

— والله ما أدرى . إلا إنى أظنهم لم يرجعوا لخير ! .

— فارجع إليهم فارددهم .

فهتف الرجل مستنكراً :

— لا والله ، ما أنا بفاعل ! .

— ولم يا أبا عبد الرحمن ؟ .

— لأنى ضمنت لهم أموراً تنزع عنها فلم تنزع عن حرف واحد منها . فلا والله ، لا أكذب الله فى سنة واحدة مرتين !. .

فسدت أمامه جميع المسالك أو كادت بعد أن أبى عليه هذا الرجل مطلبه . ليس له من سبيل إلى آخر غيره من أصحاب رسول الله . . . فلم ؟ . . وكيف لم يدر بخاطره أن يلجأ إلى سعد ؟ .. أما زالت نفسه تحمل الشكوك منه ؟.. وأين ذهب عنه طلحة بن عبيدالله ؟... وفيم سكوته عن طلب النصرة على يد الزبير ؟ . . كلما أطلق المرء لتساؤله العنان ارتد به التساؤل ثانية إلى نقطة البداءة ، ووقف حسيراً لا يستطيع أن يرى لهذا كله إلا معنى واحداً ليس له سواه هو أن الشيخ أيقن أن النصرة لا تأتيه من هذا الاتجاه ! . .

واستعصى الحل على ذهنه المكدود . وزاد من متاعبه أن أهل المدينة أنفسهم لم يترفقوا به فى هذه المحنة النازلة . فقد جاءه من لدنهم كتاب يحتجون به عليه ، ويقسمون فيه ليقتلنه أو يعطيهم ما يلزمه من حق . . . بدوا كأن قد وجدوا ظهيراً لهم عليه بعد عودة الثوار .

وجمع الشيخ مشيريه من أهله وقد عز أن يجد فى غيرهم المشير ، وقال لهم عسى أن يجيئوه بالنصيحة :

— قد صنع القوم ما قد رأيتم ، فما المخرج ؟

فأجابه مروان :

— يا أمير المؤمنين ، مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب . فأعطهم ما سألوك ، وطاولهم ما طاولوك .

— إنهم لن يقبلوا التمليل . وقد كان منى فى قدمتهم الأولى ما كان . فتى أعطهم ذلك يسألونى الوفاء به .

— إنما بغوا عليك فلا عهد لهم . . . فأرسل إلى على أن يردهم عنك ، ويعطيهم ما يرضيهم حتى تأتيك أمدادك . . .

فبئس النصح لا ينطوى إلا على خلف للوعد بعد خلف ! . . ولكنها

النفسية الأموية التي تستعين دائماً بالغدر والدهان نضحت بها عقلية مروان ! . .

وأقبل على من بعد يستجيب لدعوة الخليفة وقد علم أنه أصبح في حال توجب الدفاع عنه . . حتى إذا استقر المجلس بالرجلين قال عثمان :

— يا أبا الحسن ، إنه قد كان من الناس ماقد رأيت ، وكان مني ما قد علمت ، ولست آمنهم على قتلي ، فارددهم عني فإن لهم الله عز وجل أن أعتبهم من كل ما يكرهون ، وأن أعطيهم الحق من نفسي ومن غيري وإن كان في ذلك سفك دمي . . »

قال له مترفقاً وهو يبصره بحقيقة الحال :

— يا أمير المؤمنين ، الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك ، ولكني أرى قوماً لا يرضون إلا بالرضى . لقد كنت أعطيتهم في قدمتهم الأولى عهداً من الله لترجعن عن جميع ما نقموا منك ، فرددتهم عنك ، ثم لم تف لهم بشيء . . فلا تغرني هذه المرة فإني معطيهم عليك الحق .

— فأعطهم يا أبا الحسن ، فوالله لأفين لهم .

وخرج ابن أبي طالب من لدنه ، فإذا طوائف من الثوار تقبل عليه بعد أن سعت تلتمسه في كل سبيل وقرأ في وجوههم علائم حنق جائح ، وفي عيونهم ومضات غضب جبار ، ولكنه لم يعن بمعرفة أسباب الفورة النفسية التي كانوا يعانونها إذ ذاك بقدر ماضاق صدره بنقضهم وعدم له بالارتداد والرحيل .

قال مستنكراً وقد قاربوه :

— ماردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟

فأجابه متحدث من المصريين :

— أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا .

وسلموه الوثيقة التي عثروا عليها مع خادم للخليفة أوشك أن يجتاز بها الصحراء إلى مصر لولا أن صادفوه ، وعجب على دون أن يبدي لهم ، فهذا كتاب عثمان لعامله ، يأمره أن يقتل منهم نفرا ويحبس آخرين ،

وكانت علائم الغدر واضحة فى الكلمات . وهذا خاتم الشيخ على الكتاب ، وهـذا خادمه أيضاً بعد أن أمسكوا به قبل أن يقطع شوطه ، ويبرم لهم أسوأ مصير .

وتفكر أبو الحسن ملياً فى الأمر . . وأدار بصره بحذر فى القوم وفيمن تزاحم حولهم من الناس . . ها هنا طلحة يحدث نفرا من البصريين . . وثمة الزبير يحدث نفرا من الكوفيين . . وفى لمحة خاطفة كومض البرق قفز خاطر إلى ذهن على ، فهذه ثغرة يستطيع أن ينفذ منها شكه .

قال وهو يجيل عينه فى أنصار صاحبيه :

— وأنتم فيم جئتم ؟

فأجابوه :

— لننصر إخواننا هؤلاء ونعنهم .

فما أسرع أن صاح بهم وهو يرمق متحدث البصريين بجانب عينه :

— وكيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل ! .

فبهتوا واستعصى عليهم أن يثبتوا لحجته ، لعلهم كانوا قد أجمعوا الرأى على الوقوف ببعض الطريق بعد أن تظاهروا أمامه أنهم تهيأوا للرحيل . . لعلهم لم يأمنوا أن يتركوا الشيخ قبل أن تبدو لهم بادرة تطمئنهم على إنقاذ وعوده . لعل بعض عيونهم بالمدينة قد علموا بأمر هـذا الكتاب وما انطوى عليه من الكيد لهم فأبلغوهم عنه فكان أن تربصوا بالرسول . . إن فرضاً من هـذه الفروض يفسر عودة القوم مجتمعين وكان كفيـلا بأن يلقى ضوءاً على القصة لولا أنهم شاءوا — لأمر من الأمور — أن تظل مجهولة التفاصيل . أما وقد رآهم على يلوذون بالصمت فلم يسعه إلا أن يقول :

— هذا والله أمر أبرم بالمدينة . .

فما زادوا على أن أجابوه فى تبرم وضيق :

— فضعوه على ماشئتم ! . . . لا حاجة لنا فى هذا الرجل ، فليعتزلنا .

ورأى منهم الجد والتصميم فراح يحاورهم ، ويعمل جاهداً ليوفق بينهم وبين الشيخ . ولعله راح يعتذر عنه بأنه مظلوم . وأن الغدو الماثل فى سطور الكتاب أولى بأن تفتضح به غير نفس عثمان . . لعله قال هذا وكثيراً مثله وهو لا يعلم أنه هو الآن مطية لغدر جديد . .

وقال لهم أخيراً وقد أنس فيهم الميل إلى الاستماع له :

« . . إنكم إنما طلبتم الحق أيها النـاس ، فقد أعطيتموه . . إن عثمان منصفكم من نفسه ومن غيره ، وراجع عن جميع ما تكرهون فاقبلوا منه . . »

فأجابوا وقد لانت نفوسهم ثانية للشيخ :

« قد قبلنا . فاستوثق لنا منه فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل » .

«على ذلك لكم » .

وتم الاتفاق بين على وعثمان على أن يجيب هذا مطالب الناس ، ولا يتركها اليوم وعودا لا تساوى حروف الكلام الذى ينطق بها بل ينجزها على الفور ويخرجها إلى حياة الأفعال . . وقال عثمان يستمهله :

« يا أبا الحسن، اضرب بينى وبينهم أجلا يكون لى فيه مهلة ، فإنى لا أقدر على رد ما كرهوا فى يوم واحد . »

« ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه ، وما غاب فأجله وصول أمرك » .

« فأجلنى فيما بالمدينة ثلاثة أيام . . »

فكتب له عهداً أجله فيه ثلاثاً على أن يرد كل مظلمة ، ويعزل كل عامل كرهوه . ثم أخذ عليه ميثاق الله أن يفى بوعده ، وأشهد عليه أناساً من الأنصار والمهاجرين . .

وكف الناس عن الخليفة . واطمأن بال المصريين فعسكروا بذى خشب ينتظرون أن تأتيهم أنباء المدينة بإنفاذ العهد . وصفت النفوس كلها ، أو هى تجردت حيناً من أضغانها واتجهت إلى المستقبل متفتحة للرجاء . ولكن فئة قليلة ظلت وحـدها طاوية قلوبها على الضغن ، تشحذ همها للكيد وتود لو أسعفتها هـذه المهلة القصيرة بإنفاذ خططها الغادرة . . . أولئك كانوا بطانة

عثمان وعلى رأسهم مروان مشيره وصاحب الكلمة المسموعة لديه . فلقد سل الرجل سلاح غدره ، ومضى يجيش القوى التي يستمين بها على القصاص من أولئك الذين أرادوا أن يسلبوه سلطانه . كان كل همه أن يحفظ على نفسه وأهل بيته أبهة الحكم والصولة التي حلم بها أجيالا طويلة ذووه من بنى أمية. وعاونه فى مهمته نفر من أهله لأن قضيته قضيتهم ، ولأنهم خشوا هم أيضاً أن تضيع هيبتهم المكتسبة من تقبض أيديهم على الصولجان .

أما الخليفة فقد ظل مغمض العينين عما يدور حوله كأن الأمر كله لا يعنيه فى قليل ولا كثير . وجلس هادئاً يرقب سياسة مروان التي رسمها لفض الأزمة عنه . بل لعله كان مطمئن النفس واثقاً من خطة صاحبه أشد وثوق . أفلم يقاربهم حتى يقوى ويبذل لهم من الوعود ما يسكنهم عنه ؟ ولقد وعدهم فسكنوا ، واتخذ من ابن أبى طالب مطية لهذا السكون . والرأى عنده أنهم لن يلبثوا حتى يتفرقوا عنه كما فعلوا من قبل مرات ومرات . وكان مروان فى الحق رجلا لا يستطيع منصف إلا أن يشهد بحمقه إذ ذاك . فقد أوغل فى الأخطاء وفى التحدى وهو يحسب القوم أهون من أن يصلوا إليه . وبدا مستصغراً لشأنهم يحمل أميره على التسويف والمطل كما يشاء . فمن عجب أن تكون هذه خطة يقره عليها عثمان مع ما انطوت عليه من الغدر ونقض ميثاق الله الذى أخذه الشيخ على نفسه . ولكنهم — فيما حدثه مروان — كانوا قوماً باغين فلا عهد لهم عليه ! !

وانقضت المهلة كما بدأت ، فلا مكروه تغير ، ولا عامل عزل ، ولا حق من حقوق الناس رد عليهم . لم تبدر بادرة من ناحية القصر تحمل الناس على إحسان الظن بساكنيه . ولغطت بالخليفة الألسن أولا بالمدينة ثم جاوز اللغط حدودها إلى منازل الثوار . وبات البناء ، الذى جهد على دائباً حتى أقامه ، مهدداً بالانهيار . ولكن مروان ظل مطمئن القلب كما كان ، لا تختلج له جارحة ، بل لعله كان يسخر فى ضميره من تلك الجموع التي أغضبها نكث الوعود ، فما لغضبها ذاك من جدوى ولا أثر فى تغيير سياسته ما دام قد أعد

لها العدة وأحاط الدار بطائفة كبيرة من رقيق الخمس هياها وأحسن إعـدادها بالسلاح . وإن هى — فوق هذا — إلا أيام حتى تصل الأمدات التى راحت الرسل تستمدها من البلاد .

وكان النازلون بالضواحى قد أعياهم المطل وأمضهم طول الانتظار . فما هو إلا أن حزموا أمرهم حتى هجموا البلدة بجموعهم المجيشة . وانتشروا فى نواحيها يملأونها بالتهليـل والتكبير ، وينادون أهلها أن كفوا أيديكم فتصبحوا آمنين . وهل كانوا بحاجة لهذا النداء وأهل المدينة من علم موقفهم من تصرف عثمان .

كذلك غدت البلدة صاخبة تمج بالجموع التى ملكها التذمر . وأشكل فيها الأمر على الناس فما يتبينون أملا فى غد مقبل أو يوم قريب ، وباتوا من سياسة خليفتهم فى ظلمة لا بصيص فيها من نور الرجاء ، ولكن الدفعة التى تأسر عادة نفوس أصحاب الثورات لم تأسرهم ، بل راحوا أميل إلى الهدوء والتريث . فما هجموا الشيخ الذى لعبت بهم وعوده ، ولا آذوا صاحبه الذى كان يتحين بهم الفرص للايذاء والنكال ، وإنما حكموا العقل فى الأمر ، ومدوا فى حبل اصطبارهم ماوسعهم أن يمدوه . ومضوا إلى الرجل الذى كان دائماً الصلة بينهم وبين أمير المؤمنين ، وطالما سكن من حدتهم وسخطهم عليه . . أجل ، فلم يكن لهم مفزع إلا إلى على فراحوا يلاحقونه فى كل مكان ؛ ويستنجزونه أن يفى لهم بالوعود التى قطعها باسم عثمان . فما أشده موقفا لابن أبى طالب رمته به الأحداث ، كله حرج ، لا هو به يستطيع أن يقهر هذا على الوفاء ، أو يحمل على الرضا هؤلاء ! .

ومضى الناس إلى محمد بن مسلمة يحدثونه فى الأمر وألم بهم الحديث على قصة كتاب عثمان إلى عامل مصر لينكل بهم ، فقال محمد لهم :

« وما يدريكم أن عثمان كتب بهذا ؟ »

فأجابوه مستنكرين :

« فيفتات مروان عليه بهذا ؟ . . فهذا شر . . فليخرج إذن نفسه من الأمر » .

ثم قالوا له :

« يا أبا عبد الرحمن ، انطلق معنا إليه ، فقد جئنا سعد بن أبي وقاص فأبى وقال لا أدخل في هذا الأمر ، وجئنا غيره فقال كما قال . فانطلق معنا فقد كلمنا عليا فوعدنا إذا صلى الظهر أن يدخل عليه . . »

ووقفت جموعهم بباب عثمان فى الموعد المضروب . ودخل على وابن مسلمة على الشيخ فحدثوه :

« إن المصريين يا أمير المؤمنين بالباب ، فأذن لهم . . »

فهتف مروان كأن مرجع الأمر كله إليه :

« دعنى — جعلت فداك — أ كلمهم . . »

فما أسرع أن صاح به عثمان :

« فض الله فاك ! . . ما كلامك فى هذا الأمر ؟ . . اخرج عنى . . »

وأيقن ابن مسلمة أن الكتاب بأمر مروان لأن الغدر الذى نضح عنه هو أدنى إلى طبعه وما جبلت عليه نفسه . وأقسم الشيخ أنه ما كتب ولا علم ولا أمر ، فلما بانت لهجة الصدق فى كلامه قال على :

« فأدخلهم عليك فليسمعوا عذرك » .

فكأنما استحيى أن يواجههم وهو على ما هو فيه من النكث وقلة الوفاء بما بذله لهم من وعود ، فأجاب :

« يا أبا الحسن ، إن لى قرابة ورحما ، والله لو كنت فى هذه الحلقة لحللتها عنك . . اخرج أنت إلى القوم فكلمهم فإنهم يسمعون منك » .

فأبى هذا عليه . حسبه ما فات من بذل ماء وجهه ، فقام براضين من بعد يأس وعد ووعد . . ورضخ الشيخ أخيراً وهو كاره لمشيئة على ، فأدخل عليه الناس ، وطال بينه وبينهم النقاش فى قصة الكتاب ، وفى أحداثه ، وفى عماله ، وفى نقضه التوبة المرة بعد المرة دون أن يقرن القول بالفعل ،

وعلى وابن مسلمة لا ينى الواحـد منهما يظاهره ويؤيد جانبه مرة بعد أخرى حتى انتهى الحديث بالناس أن جنحوا إلى القهول منه .

وقالوا له :

« .. فإنا لا نعجل عليك وإن كنا قد اتهمناك ، فاخلع عنا عمالك الفساق واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا ، واردد علينا مظالمنا » .

وأحسبهم بهـذا قد فاقوا كل مأمول ، ولـكننا لا ندرى أى يد أمسكت بلسان الشيخ فانحرفت به عن المفروض منه فى هذا المقام إلا أن يكون أحب أن يتحـدث إليهم بلسان مروان ! .. أفلم يطلب ذلك الشيطان منذ قليل أن يتحدث عنـه إلى القوم ؟ .. فـكذلك كان ، وإن نطق لسان عثمان !..

قال الشيخ الغافل وقد ركبته عزة المنصب فأنسته الحـكمة الواجبـة فى هذا المقام :

« ما أرانى إذن فى شىء إن كنت أستعمل من هويتم وأعزل من كرهتم.. الأمر إذن أمركم ! »

فبهت القوم ، وحار على وصاحبـه كيف تأتى لأمير المؤمنين أن يجىء هكذا بمنطق سقيم ، ولـكنه على أى حال المنطق الذى يفسر نـكث وعوده الـكثيرة ومطله المتواصل لـمـا أخذ به نفسه . وهل يشك الآن من يحب أن يتلمس للشيخ المعـاذير فى أنه كان دائماً يقول وقد وطن نفسه على كل شىء سوى الوفاء ؟ . .

فما لبث أن أجابه ابن عديس بصوت هادىء رهيب .

« والله لتعزلن ، أو لتقتلن ! . . فانظر لنفسك أو دع ... »

ووقع هـذا الإنذار كوقع الصاعقة على نفس الصاحبين اللذين جاهدا لإنقاذ الشيخ فأبى إلا أن يحرم نفسه ثمرة الجهاد . وراحا يرمقانه عساه أن يفىء إلى الحـكمة ، ولـكنه كان أسرع من لمح عيونهمـا إلى الجواب ، فقال بعناد :

« لأن أقدم فتضرب عنق أحب إلى من أن أخلع قيصاً قمصنيه الله » .

« فلسنا إذن بمنصرفين عنك حتى نعزلك ونستبدل بك ، ولئن حال دونك من معك من قومك وذوى رحمك لقاتلناهم حتى نخلص إليك فنقتلك أو تلحق أرواحنا بالله ! . . » .

٤

تلبثوا ينتظرون أن تصل الأمداد لتكون ردءاً لهم من الناس ، فقد ساءت الأمور ، وتربص القوم بالخليفة الدوائر ، وأصبح كل يوم يمر يزيد ثغرة الخلاف بينهم وبينه .

وكانت الرسل قد مضت بكتب للشيخ إلى النواحى يستحث أهلها أن يسارعوا لنصرته ، ويكونوا عوناً له على عدوه .

قال فى كتبه هذه وهو يذكر قصة الكتاب الذى وقع فى أيدى الثوار :

« . . . إنما انتكث الشر بأهله ، وبدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب . . وازدادوا على الله جرأة حتى أغاروا علينا فى جوار رسول الله وحرمه وأرض الهجرة ، وثابت إليهم الأعراب فهم كالأحزاب أيام الأحزاب . . فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق . . »

وأرسل إلى معاوية — ولى دمه ! يستنىء بعطفه وقوته ، ويلتمس عنده العون الذى حسب أنه لايبطىء به . . فقال :

« . . إن أهل المدينة قد كفروا ، وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة ، فابعث إلى من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول . . » .

ولكن ابن أبى سفيان كانذا رأى آخر أمام نصرة الشيخ ، وله شأن فى البدار إليه يخالف العجلة والاسراع وإن أحس الغيلة تكاد أن تفجأ صاحبه ، وإن علم أن القتل يتربص به منذ عام !

أجل . لم يبادر صاحب الشام بالنجدة التى كانت توجبها عليه قرابته

قبل أن توجبها وظيفته . بل اصطنع الأناة بغير موجب لها إلا ما في نفسه من غرض خفي ، وتلبث ساكناً لأنه — فيما حدثتنا الأسفار — قد كره أن يظهر مخالفة أصحاب الرسول كأنهم قهروه على هذا التريث المرذول ! . . أفكانوا إذن من القوة بحيث يخشاهم ذلك الجبار الذي عهدناه يدل عليهم بصولته ودولته ويخوفهم بعلشه كما شاء التخويف ؟ . . .

ولكنه معاوية فحسب ! ... وإذا ذكر فقد ذكرت معه التدبيرات الخفية والأغراض المشتبكة الملتوية ... أما عثمان فقد كان رجلا سليم النية شديد صفاء النفس حتى راح ثانية يستحثه ويشير فيه العطف الذي حسب ألا يلقاه عند سواه ، فبعث كرة أخرى يقول له :

« ... إن القوم طال فيهم مقامي ، واستعجلوا القدر في . . . فياغوثاه يا غوثاه ! . . . ولا أمير عليك دوني ، فالعجل العجل يا معاوية ، وأدرك ثم أدرك ، ولا أراك تدرك . . . »

فكان الجواب أن أعد الرجل قوة أمر عليها يزيد بن أسد القسري ، وقال يأمره وهو يتأهب بجيشه للمسير :

« إذا أتيت ذا خشب فأقم بها ، ولا تتجاوزها ، ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فإنني أنا الشاهد وأنت الغائب . . . »

فكفاه بهذا أنه كان — وإن أرسل — كأن لم يرسل ! . . فلم تدخل قواته المدينة ، ولم تنجد سيده ، ولم تفرق عنه الثوار لأنه أراد لها موقف الغريب المشاهد دون خطة الولي المجالد ! ...

وكذلك فشل تدبير الأمداد الذي علق عليه مروان كل آماله ، ودفع بعثمان إلى التهلكة في سبيله . ومضت الأيام ثقيلة عليه وعلى سيده ، مظلمة لا يبدو في سمائها رجاء . ومع هذا فقد ظل متشبثاً بالخيط الضئيل الذي بقي له وهو احتمال أن تصل النجدة بين حين وحين . ومضى في غيه معصوب العين لا يحاول أن يعالج الداء بالدواء الحاضر ... وهل كان بوسعه أن يفعل وهذه جموع الناس لا تني الآن بعد الآن تهتف بالخليفة أن يسلمها مروان ؟ ...

دون الرجل المستبد الأحمق دماء الخليفة والله ! . . . فما زال عثمان يراه جديراً بأن يضن به ويدخره ويحميه ، ولعل مروءته وحدها هى التى دفعته إلى هذا الاستمساك الخاطىء بعشير أثبتت الأحداث أنه ما من مصيبة داهمة إلا حركتها أصابعه . . .

لكم آذات أحداث هذه الفترة العصيبة عليا وأخذت منه ! . . . كلما سار تبعته الجموع تهتف له وتدعوه أن يفض هذه الأزمة الحازبة التى نالت من قدر الحاكم ومن راحة المحكوم . . . وكلما انطوى على نفسه بداره أقبلوا يخرجونه ويستحثونه أن يفرج عنهم الضائقة . ولم يكن يملك أن يفعل شيئاً ، ولكنهم لفرط ماشهدوه يسعى بينهم وبين الخليفة بالتوفيق حسبوه صاحب كلمة مسموعة لديه . أما عثمان فقد آذاه منهم التفافهم هذا بفريعه ، وحز فى نفسه أن يراه معقد الرجاء وهو ملوم محسور ، وزاد فى مرارته ما عسى أن يكون ذووه قد أوغروا به صدره على ابن أبى طالب من ألوان الوقيعة وسط الاتهام .

وقال الناس له :

« فليدفع إلينا مروان حتى نعرف كيف يأمر بقتل رجال من أصحاب رسول الله وقطع أيديهم بغير حق ، فإن كان عثمان كتب عزلناه ، وإن كان مروان كتب نظرنا فيما يكون من أمره . . . »

ولكن عثمان آثر أن يصم أذنيه دائماً عن أمثال هذا النداء ، وأحنق موقفه الناس وأثارهم فرأوا أن ينفضوا أكفهم من اللين به . حسبهم ما بذلوا له من الصبر والأناة ... وعنفوا عليه فى اللقاء والمقال ، وجروا فى سيرته بأسوأ ما تقول ألسنة ... ثم أجمعوا على أن لا يدعوه بخير ...

فلما كان ذات يوم من أيام الجمعة واقتعد المنبر ليخطبهم كدأبه ، لم يلق منهم الإصغاء الذى عودوه من قبل ، بل لغطوا ، وامتلأت عليه نواحى المسجد بالضجيج ، وأرادت طائفة أن يمنعوا العنف الذى هم يوشكون أن يضربوه فثاروا بها وأخرجوها من حرم الله ، واشتعلت الفتنة فتحاثوا

بالحصباء ، وأصيب عثمان وهو بموقفه ببعض ماتراشق به القوم فصرع وأدخل داره وهو غشيان . .

وعلم علي بالنبأ — وكان قد آثر منذ مدة أن يحتجب بعيداً عن الصراع — فأسرع مني داره إلى دار عثمان . ودخل عليه يعوده ويستخبره ما كان . . قال بنبرة المعطوف الملهوف .

« مالك يا أمير المؤمنين ؟.. »

فما أسرع أن ثار به بنو أمية ... وما أعجبه جزاء ما ناله من هذه الفئة التي دفع عنها كما لم تدفع هي عن نفسها قط !..

قالوا له بمنطق واحد كله موجدة واحتقاد :

« أهلكتنا يا علي ، وصنعت هذا الصنيع بأمير المؤمنين . . إنا والله لئن بلغت الذي تريد لنمرن الدنيا عليك ! . . »

فأجال فيهم نظرة حيرى صوبها من بعد إلى الخليفة ، فإذا على وجهه سكون الراضي بما كان . فما كان أقل عرفانه بالجميل إذ ذاك . .

وقام علي عن المجلس مغضباً ، ولم ينطق ، بل مضى لتوه إلى داره وفي نفسه مرارة . لكأن عثمان نسي هذا الجهد الجبار الذي بذله أبو الحسن ، ثم عاد قلبه سيرته الأولى من البغض له أو الريبة فيه . . كيف ياترى ينكر الشيخ اليد الطولى التي أوشكت أن تقيم ملكه لولا هذه الطغمة الحمقاء من ذويه ؟ . . أم حسب أن علياً ترك سلاحاً واحداً في جعبته لم يسله من أجله ؟ . . أم غاب عنه أنه دافع عنه حتى خشي أن يكون قد أسخط ربه لأنه دافع عمن آثر خفر العهد ونكث الوعود ؟ . .

ومع ذلك فلا تثريب على الشيخ الغافل عما يدور حوله وهو ساكن كأن قد أغمضت عيناه . . فها هي المدينة تثور به ، وهاهم الناس يتربصون به ويتحينون كل سانحة للقصاص منه ، وهاهم أولئك أصحابه أجمعين قد سكتوا عن نصرته وقفوا من موطن الكفاح بعد الأعين المشاهدة دون الألسنة والأكف لتنضح عنه . . . ومن لم يسكت عن خير فقد تكلم

بشر ومضى ينصب من نفسه داعية للثوار ، أو قائداً لهم يسير بهم الجهاد الخليفة والنيل منه . فكثير ألبوا وأعانوا عليه ، وكثير عصفت بهم الأهواء والمطامع حين لمت لهم من بعيد شمس الإمارة . وهل فات عثمان كيف كان موقف طلحة بن عبيد الله منه ؟ .

هذا الرجل من تيم له فى الخلافة مطمع قديم يرتد إلى أيام ابن عمه أبى بكر ، وهذه هى الأيام تواتيه ، والظروف الرخية عليه الشديدة على خصمه تحالفه ، وها هى الجموع تلتف به بعد أن أعجزها أن تغرى ابن أبى طالب بعفطر الصولجان .

ومع ذلك فعثمان ينسى المكروهة تأتيه من كل إنسان ، ثم يسعه أن يقابل إحسان على له بالإساءة إليه لأن بنفسه الأموية ضغناً يرتد إلى بضعة أحقاب ، ولأن أهله الأمويين يربون فى قلبه هذا الضغن ، ويتعهدونه بدسائسهم حتى يفرع عوده ويضرب إلى السماء . . ولقد سمع لهم ، وأخذ مراراً بآرائهم فأبعد علياً عن المدينة لئلا يلتف به الناس ، وأمره أن ينزل خارج المدينة بعيدا عن عواطف القوم . . . ثم لطالما بعدها أعاده ليدرقهم عنه ، ثم عاد فرده لعلهم ينسونه فلا يكون ثمة منه كبير خطر على إمارة الأمير .

ولكن الأيام وحدها كفيلة بأن تفتح عينى عثمان . . . فما استطاع الخليفة بعد يوم الحصباء أن يسير بين الناس ، ولا أن يجتمع بهم فى مكان . حتى المسجد أصبح حراماً عليه وإن كان مكثه فيه لا يزيد عن لحظات إقامة الصلاة . حرموا عليه كل موقع من مواقع المدينة ولم يبيحوه منها إلا داره . وتركوه محصوراً يكاد لا يملك من حرية المشى إلا خطوات . ولقد ثقل هذا عليه وبرح به ، ولكنه كان امرءاً مصابرا لا يعيبه التسليم بحكم الضرورات . وكان أيضاً شديد الوثوق — كما يبدو — بدهاء مروان وقدرته على حل الأنشوطة التى انعقدت بعنقه وشددت عليه الخناق ؛ فقد ظل حتى نهاية الشوط لا يفرط فى مشيره ، واستمسك به فى إصرار . وكلما مضى يوم عليه فى الحصار زادت الحلقة ضيقاً ، وزاد الثوار إمعاناً فى الضغط عليه بقدر

ما كان يزيد تأليب المؤلبين وإثارة المثيرين . وأخذت الأطماع الشخصية تلعب دورها وتأسر نفوس العامة بكل ما يستعبد النفوس الساذجة التى أضربها طول الحرمان . وكلما مرت فترة من الزمن تفتحت عينا الشيخ على صورة جديدة بغيضة من صور الأهواء التى عصفت بقلوب فئة من الخاصة ظن من قبل أنها ممتنعة على الأهواء . . . جلس الخليفة يوماً داخل بيته ومعه ضيف يناجيه ، وكان الناس كدأبهم جموعاً تلغط خارج باب الدار . فإذا عثمان يهم من مكانه واقفاً ويقول للزائر على حين غرة :

« أفلا اسمعك كلام الناس يا عبد الله ؟ »

وأمسك بيد الرجل يقوده إلى حيث لم يفصل بينهما وبين الجمهور إلا الباب . . وسرى إلى السمع حديث الناس واضحاً حيناً وحينا مبهماً مشوش الكلمات . ولكن الضجيج لم يكن يمنع الزائر أن يتبين ما أراده على تبيينه عثمان ثم يهتف كالمذعور :

« طلحة بن عبيد الله ؟ . . »

فأجابه الشيخ فى ألم بدت آثاره على وجهه كضربات سوط :

« هو والله يا عبد الله . . »

وأصغى الرجل ثانية لما يدورخارج الدار ، فإذا القوم قد استغرقهم الحديث وانتثرت زمرهم ها هنا وهناك ، كل طائفة لها رأى ولها نوع من أنواع البيان . . وسمعهم يتحاورون :

« ما تنتظرون به ؟ . . »

« بل لا تعجلوا به ، فمساه ينزع ويرجع . . . »

ثم استرسل بهم الحوار فى مصير الشيخ هكذا بين فرقة المتعجلين وفرقة المتريثين . . .

وألقى عبد الله من بعد نظره فى القوم . وراح يحدد البصر فى ناحية معلومة لا يتركها . فإذا طلحة بن عبيد الله قد انثنى إليه ابن عديس أحد زعماء ثورة المصريين فتناجيا برهة بصوت خفيض . فلما غاب طلحة عن عين الزائر كان ابن عديس قد عاد ثانية إلى أصحابه يقول :

« أيها الناس ، لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان أو يخرج من لدنه . . »

فما سمعها عثمان حتى حال لونه ، وقال وهو يرفع بصره إلى السماء :

« هذا ما أمر به طلحة ! . . اللهم اكفنى طلحة فإنه حمل هؤلاء القوم وألبهم على . . والله إنى لأرجو أن يكون منها صفراً ويسفك دمه ، فقد انتهك منى ما لا يحل له . . »

ولم يمض قليل وقت بعدها حتى كان هشام مولاه قد انطلق من المدينة مستخفياً قدر وسعه حتى خرج من نطاق الثوار . ومضى مسرعاً لا يستأنى إلى خيبر ؛ فبها الرجل الذى يدخر دائماً للملمات . . بها على بن أبى طالب قد اعتزل الناس حتى لا تمشى عليه ظنون عثمان ، قد خرج اليوم رسول عثمان يدعوه . .

وأسرع أبو الحسن يلبى النداء فإنها لحظة حازبة ينسى فيها كل خلاف . فما أشرف على الدار حتى هاله ما هى فيه من حصار . فلم يكن قد تركها كذلك . ولم يكن الثوار بمثل هذا الطغيان حين غادر المدينة إلى خيبر ، بل كانوا بها كأهلها وأمير المؤمنين حر الحركات حتى ليخرج إليهم ويؤمهم والناس فى الصلاة . . وأدار على فى الناس عينا تتلهب . ومضى فى بحرهم الزاخر فما وسعهم إلا أن يفتحوا الصفوف له ، وجاز حلقتهم المضروبة على الدار حتى خلص إلى عثمان .

وقال له الخليفة المغلوب يشكو ويطلب العون :

« يا أبا الحسن ، إن لى عليك حقوقا : حق الإسلام ، وحق القرابة ، وحق الصهر ، وما جعلت لى فى عنقك من العهد والميثاق . . . فو الله لو لم يكن من هذا شىء ثم كنا إنما نحن فى جاهلية لكان عاراً على بنى عبد مناف أن يبتزهم ملكهم أخو بنى تيم » .

ولم تكن الحال لتخفى على بصيرة على الذى أسرع فقال :

« أنا على ما ذكرت يا أمير المؤمنين . وسأكفيك . . »

ثم انثنى خارجاً إلى دار طلحة فلقيه قد التف به الناس واجتمعوا له حتى غص بهم المكان . . فدعاه إليه ، وقال بغير تمهيد :

« ياطلحة ، ما هذا الأمر الذى وقعت فيه وصنعت بعثمان ؟ »

فرفع الرجل حاجبه كالمستغرب ولون ثغره ببسمة دهاء ، ثم أجاب فى هدوء :

« ياأبا الحسن ، أبعد أن مس الحزام الطبيين ؟ . »

فلم يتريث على . لم ير جدوى من وراء محاورة هذا الواثق من أمره وخطره . وقام مسرعا فلق أسامة بن زيد فصحبه ، ثم مضى وإياه إلى بيت المال . .

كانت النظرة التي ألقاها على الذين امتلأت بهم دار طلحة كفيلة بأن تكشف له عن أمور تكاد تجرى فى الخواطر مجرى اليقين . ولم يكن غراً ليشتبه عليه الأمر ، بل كان نفاذ البصيرة فى المستغلقات والمجاهيل . وكان أيضاً عليما بأولئك العامة ، عارفاً إلى أين تنزلق أقدامهم وأى الأشياء يقسرها على الانزلاق . وكان الحرمان وحده باب السر . . الحرمان المر الذى عانوه طويلا وجاهدوه طويلا ثم لم يتحرروا من قبضته بعد . وكان البذل هو مفتاح الباب . ولمن ملك المال أن تفتح له المغاليق ولا يستعصى مطلقا عليه رتاج ...

أفايقن على إذ ذاك ان طلحة قد أوشك أن يملك أولئك العامة المحرومين ؟ . .

الرجل حقاً ثرى ، وليس مقبوض الكف ، بل هو أميل إلى إسباغ البذل والسخاء . قد فشت له فاشية من أموال اتخذ على بيوتها وخزائنها — فيما حدثتنا عائشة — مفاتيح . فهلا إذن كانت سيرته مع القوم الثوار خاضعة لجوده المعروف المأثور . .

على أى الحالات موقف القوم اليوم لا يستطيع أن يملكه غير الجود . ونفوس الكثرة الغالبة فيهم كانت أولى بأن تسارع إلى استقبال البذل بعد أن حرمت أعواما طويلة إحدى متعتى الحياة . ولم يغب هذا عن نفس على التى تعرفت نفسية الجماهير ، ولا عن ذكائه وخاطره اللماح . وأحق

بالبذل اليوم أناس حرموا أفياءهم أو انتقصت عليهم . وأنسب الساعات له . ساعة بلغ فيها التذمر من الحرمان إلى حد الثورة والجموح فى العصيان . . بهذا الخاطر مضى على إلى بيت المال ، وقال لمن حضره هناك :

« افتحوه . . »

فأرسلوا إلى خازنه . فلما وجده قد ابطأ عليه ، ضرب الباب فكسره بنفسه ، وراح يفرق ما فيه من الأموال ...

وشاع الخبر فى المدينة فأقبل الناس عليه من كل ناحية عسى أن يكون لهم فى هذه الهبات نصيب . وسمع المجتمعون ببيت طلحة فأخذوا يتسللون تباعاً حتى فرغ عليه المجلس ...

وأثمرت الخطة . وفرح عثمان أيما فرح فقد نصر على غريم قوى عنيد . وتلفت طلحة يخشى أن يفقد مكانته عند عثمان بعد أن أوشك أن يفقدها عند الناس . . . لكأنما حسب الرجل فى تلك اللحظة أن تيار الأمور قد تحول إلى غير مجراه ، وريحها جرت بما يخالف هواه ، وأراد أن يكسب إحدى الحسنيين فسارع يدخل للخليفة محاولا أن ينفى عن نفسه الظنة ، ويعتذر عما قد يساء تأويله منه ...

ولكن عثمان فى ساعة نصره المفاجئة أبى أن يلين له ، بل قال بلهجة الشامت المسرور :

« أجئت تائبا ؟ .. والله ماجئت إلا مغلوباً ! .. فالله حسيبك يا طلحة .. »

٥

« لا أصلى بكم والأمام محصور ... »

هذه هى الكلمة التى ألقى بها على فى وجوه الثوار حين جاءوه يعرضون الإمامة والخليفة محصور عليه حلقة منهم حالت بينه وبين الخروج للصلاة . وهى بمغزاها بيان لرأيه فيهم ، وإنكار تام لوسيلة العنف التى ركبوها لنيل

مراميهم ... أفظنوه الرجل الذى يجنح كثلهم للعدوان ولو أريد به حق ! . إنما دنس الذرائع منبىء عن دنس الغايات . والحق لا يستعين مطلقاً بباطل أو يكون قد خالف ذاته وأقر على نفسه بالبطلان . وهل النور والظلمة يجتمعان ؟.

كانت معنى فى خاطره قبل أن تجرى مبنى على لسانه . ما قصد بنطقها إلى دلالة الألفاظ ، ولكنها صورة من صور خلقه تنضاف فى سجله النقى إلى مثيلات ومثيلات . . . لو علموا إذ ذاك لردوها إلى أختها التى طالعهم بها عند ماجاءوه بكتاب ابن أبى حذيفة ، ولرأوها تماماً كما رأوا الأخرى ، ولأيقنوا أنهم بإزاء شخصية فريدة ديدنها سمو ، ونهجها ترفع ، وهدف حياتها كله رسم المثل العليا بعدها لكل حياة .

لم يفته أن فى الإمامة سمة سياسية قد يؤخذ عليه أنه استباحها والإمام محصور . وأنها مظهر للزعامة الرسمية قيامه بها كفيل بأن يعتبره البعض سعياً وراء تلك الزعامة . وأن قبوله إياها فى هذه الآونة أولى بأن يكون — فى الأذهان والعيون — اعترافاً خفيا بشرعية ابتزازها من الشيخ . . . فإذا سلف منه فى حق الثوار ما هو معروف من مخالفة وإنكار فقد وجب إذن أن يأبى على الفور عرضهم ويرده دون تمهل فى الإباء .

ومضى عنهم وتركهم مقهورين . . . لم يغلبهم بأسه وعدته ، بل غلبهم إباؤه وأنفته . فلقد حسبوه بحاجة إليهم فوجدوه الغنى عنهم . وجاءوه يعرضون المجد والسلطان فعلمهم أن للنفس المترفعة مجداً أخلد وسلطانا غير محدد ، دونه ما قدموه وعرضوه . ووقفت حصانة روحه ثابتة أمام زخرف الإغراء .

وكما ذهبوا من قبل يلتمسون الموافقة عند سواه فكذلك ذهبوا اليوم . ومضوا إلى طلحة بن عبيد الله يقلدونه الإمامة فقبلها فهى بلا ريب خطوة إلى الأمام ! .

وبقى عثمان قعيد داره . كأنى به نام وأسلم نفسه للأحلام ! . فلم يحرك

يدا ، ولم يفعل شيئا ، بل ظل أليف استخذائه وتسليمه ، أسيراً خاضعاً لحماقات مروان يأمل كثل أمله فى وصول الأمداد .

حتى الفرصة التى أتاحها له على حين فرق الال على العامة لم ينهزها الشيخ، بل تركها تمر دون احتفال وهى الجديرة بأن يفيد منها بعد أن فاءت بها نفوس أكثر الناس إلى الرضاء . وبقى كدأبه الأول ساكناً لا يخطو شبراً واحداً ليقترب من شعبه ، ولا ينطق بكلمة واحدة تصل ما بينه وبين هذه القوى التى أمسكت بالزمام . وغلبه دائما عناده ، وملكته كبرياؤه . وزاد من استمساكه بموقفه شعور قوى بأنه صاحب حق إلهى فى الحكم لا يملك أن يغير فيه إنسان! . أو لم يكن هو القائل للناس حين طلبوا إليه أن يعتزل الأمر :

« اتبرأ من الأمارة ! . . لأن تصلبونى أحب إلى من أن أتبرأ من أمر الله وخلافته ! . . »

وأخذت السحب الداكنة تتجمع فى الأفق فلم تعد المدينة معلمة كعهدها بالهدوء والسكينة . وصار الأمر فيها للجموع المضطربة النفوس والجوانح ، والكلمة النافذة لزعماء الثوار . حكمها عقل الثورة إن كان ثمة عقل يمسك بجماح الثورات . ثم سادتها شريعة الإرهاب حتى منع الناس غيرهم من الكلام والاجتماع . . حتى طلحة أصبح اليوم سواه بالأمس . وبدت الجماهير لا ترمقه إلا كما ترمق قناة فى أيديها إن شاءت هزتها أو شاءت تركتها معطلة حتى حين . فلقد كان رجلا — فيما يبدو — جرفه السيل ، لم يؤت القدرة على قيادة الجموع ، وكما منحوه كرامة الإمامة فى يوم فقد استطاعوا أن يسلبوه إياها فى آخر لأنهم لغير قدره منحوه، بل ليكون هو خطوة الانتقال الوئيدة من سلطان لسلطان ، فما عادوا من بعد يحرصون على أن يؤمهم فى الصلاة بعد أن فازوا بإقراره لهم بشرعية منعها عن عثمان ، بل استوى الآن قيامه بها أو قيام سواه ، فإذا انتهوا إلى هذا فأولى بها ابن النافق وهو زعيم المصريين الذى دانت لهيبته طوائف أهل

البصرة والكوفة وألقت فى يديه الزمام .

عقل الثورة هو الذى كان يدبر . وشريعة الإرهاب هى التى سادت البلدة فى تلك الحقبة العصيبة من تاريخ الإسلام. أما عثمان فقد لاح كمن أعجزه الداء وأعياه أن يبادره بأى دواء. وبات لا يعرف له وسيلة يركبها سوى الإخلاد إلى السكون والإمعان فى الهدوء والركود ... لكأنما فرغت البلدة منه وفرغت أيضا من داره . لكأنما الأحداث سلبته القدم واللسان .. وأما مروان فقد ظل أسير حمقه ، كليل البصر فى العواقب والخواتيم . كان شديد الكلف بنفسه ، بالغ الأثرة ، حريصاً على سلطانه وسلطان ذويه فلم ير مطلقا أن يسارع إلى التضحية الوحيدة الكفيلة بتجنيب البلاد ويلات الانقسام ... هذه التضحية التى لم يكن يملكها سواه أباها الرجل على دينه وأمته لأن متعة النفوذ — عنده — غاية لا يعز فى سبيلها إتيان كل محظور ، ويهون دونها انتسلم البلاد ومايتبع الانقسام من وهن الإسلام .

سدر فى الغى وركب غروره ، وأبى أن يتنحى عن سلطته وإن علم تنحيه كفيلا بأن يفىء الهدوء والسلام . وراح يصابر الزمن ما وسعه عسى أن تجيئه لحظة سعيدة بأنباء وصول الأمداد . إن أمله فيها لم يتمدد به ، وحلمه الهانىء عنها لا ينى يراوده فى اليقظة وفى المنام ، وإنه لعلى يقين من حضورها ذات يوم فيشتفى بها لنفسه ، ويقمع عدوه ، ثم يقف على أشلاء أولئك الذين أرادوا هدمه وهم لقى شائه تحت قدميه ، ممزقين هامدين ، لا يستطيعون دفع بلائه ولا كبريائه .

ولكن الزمن كان عدواً له ولعثمان ، فلم تصل الأمداد ، ولم يسارع أهل النجدة بالأمصار إليه . بدا عمال الخليفة الذين علق عليهم حياته كأن قد حالفوا الثوار عليه ! ... فلقد أبطأوا ، أو هم لم يقدروا هول الخطر المحدق به حق التقدير ، أو عساهم لم يلقوا استغاثته بجد واحتفال لأنهم ظنوها أزمة كغيرها

من أزمات كثيرها لن يلبث حتى يجتازها بسلام، أوغلب عليهم ترددهم القديم المعهود فأعياهم أن يتبينوا موقفهم وما عسى يجمل بهم أن يعملوه . فإذا المرء أحسن بهم الظن فهم غير جديرين بمناصبهم ، وإذا حاسبهم فالتزم الجد فى الحساب فهم متهاونون أجرموا فى حق وليهم الشيخ ، وإذا قدمنا فى خواطرنا ما سلف من مواقفهم لما وسعنا إلا أن نراهم — كمن قبل — حريصين على مافى أيديهم من سلطان ، يؤثرون السلامة لأنفسهم ولتلك الإمارات التى ارتفعوا بها على هام الناس .

أم هم ياترى اختاروا دور المشاهد من بعيد انتظارا لما قد تسفر عنه الأحداث ؟ .. السلامة تنادى بالموازنة بين أمر وأمر ، وبين مغامرة ومغامرة وإن كانت المغامرات لاتستهوى المعنيين بالسلامات . . . ولكن عمال عثمان قهرهم الزمن على الاختيار بين نوعى مغامرة فوجب أن يستميتوا بالحذر عند الاختيار . أعلى عثمان أم على الثوار ؟ .. أى أولئكم ياترى ينصرون — بل أى أولئكم سوف يعقد له فى نهاية الأمر لواء الانتصار ؟ . ما أحسب إلا خواطر من هذه الشاكلة طافت برؤوس ابن عامر ومعاوية وسعيد وهم يقرأون كتب عثمان . وما أراهم إلا تدبروا طويلا ، ثم ترددوا طويلا قبل أن يستقر أحدهم على حل يرضاه . ولكنى أراهم جميعا لم يسارعوا لإنقاذ الشيخ الذى حوصر عشرات الأيام وكان فى استطاعة جيوشهم أن تصل إليه فى أيام قليلات .

ثم دنت اللحظة الفاصلة التى توشك أن تحسم بين عهدين وتسير ببدء النهاية إلى النهاية .. فلقد أسرع الثوار بالأزمة إلى ذروتها ، وجردوا على الأمير أعتى سلاح ينجز الكفاح : منعوه الماء فأصبح ، وهو بداره ، كمن فى متاهة صحراء وإن كان قاطع البيد يستطيع عادة أن يعلل النفس بالسراب دون الشراب !..

سلوا على عثمان سيف العطش ، ووقفت جموعهم ببابه تحول بينه وبين من عسى تأخذهم الشفقة فيسمون إلى بل أوامه بشربة ماء . . . عذيرهم فى هذه

القسوة أن الأيام تصرمت تباعا وهو على عناده ، مسرف فيه،لا يتقدم إلى وفاق، ولا يسمع لهم وإن جأروا لديه بالنداء ، ولا تجيبهم لمطلب واحد مما طلبوا . وسعوا إليه جاهدين آنا با لنصح والملاينة ، وآنا بالعف والمخاشنة . فإذا جاءتهم الأنباء بمدطول اصطبارهم وكفهم عنه بقصة أمداد تزحف عليهم من لدن عماله، فقدرأوا إذن حقاً عليهم نحو نفوسهم ونحو مراميهم أن يراعوا ثورتهم ويتحصنوا عن أهدافها بكل سلاح .

ويعلم على فيسترجع ويأسى لحال عثمان . ويفيض به الحنق أضعافاً على الثوار ، ولكنه يفور على أصحاب رسول الله آلاف الأضعاف ، فهذه الفئة المعلمة بين الناس بالهدى والرشاد نامت عن المحنة النازلة بصاحبها وقعدت عنه ، ولم يتقدم منها واحد إلى كفاح ذلك البغى المرذول، بل لا حواجبعاً كن يؤثرون السكوت على تصرف الثوار عن رهبة منهم أو عن مصانعة . وهرب الكثير بأنفسهم من حلبة الصراع لتبعد الظنة عنهم . ومن لم يقم منهم بدور كأدوار هؤلاء فقد شارك أهل الثورة وركب مركبهم إن لم يكن قد ألبهم على الشيخ بزخرف الأقوال وبذل المال ...

ولكن علياً أبى عليه قلبه الكبير أن يخلى — كغيره — بين الثوار وبين الخليفة المحصور . وهاله قذر الأداة التى جردها القوم لنضاله . فما كان أى كفاح عند أبى الحسن إلا مبارزة نظيفة بين خصمين ، لاتصح بغير تعادل السلاحين . . . امتثاله لشرعة الفروسيه أملى عليه هـذا ، أو قل إنها نفسه الكريمة النقية التى رسمت هكذا شريعة الفروسية . . . فلما أن رأى الثوار يجحفون ولا يلتزمون الرحمة،ويجورون فى سبيل النصر على مروءة الانسانية ، هب من فوره رجلا فرداً تظاهره مثله ويؤيده نبله ، ليناضل وحده كل هـذه الآلاف .

كان يعلم أن رجال الحصار تحينوا دائماً أيام غيابه عن المدينة بخيبر أو بعاء ينبع ليشددوا حلقتهم على الأمير . ولكنه لم يكن يملك شيئا من أمر مكثه أو ذهابه ، بل هو رهين بمشيئة عثمان ، إن شاء نفاه أوشاء أبقاه . فلقد أبى الشيخ

حتى فى أحلك ساعات محنته أن ينزع أصول الشك من قلبه . وظل كمهده واجداً على على ، لا يستطيع أن يتحرر من ذلك الشعور الموروث بالنقمة منه ... لـكأن مر الأعوام عجز عن استلال ما فى صدره أو إخفائه بالنسيان فى قرار سحيق . لعل شجرة الحقد لاتعرف الخريف ، بل هى مورقة أبداً ، خضراء أبدا ، تتجدد أغصانها وتخرج طلعا مع كل صباح ... أفنسى عثمان ياترى الجهود الدائبة التى بذلها على من أجله وجاوز فيها كل مأمول من ولى محالف فضلا عن غريم مخالف ؟ بدا هذا من تصرف الشيخ وعت فعاله عنه . فما زال ابن أبى طالب نفس الهاشمى القديم والمنافس الغريم . ولئن ألزمت الظروف يوما عثمان على محالفته فإنها إذن محالفة ضرورة، موقوتة بحين ... كذلك ظللت حال الخليفة نحو على بالرغم مما خبره من دأبه على صيانة حكمه المنذر بالانهيار. فإن هى إلا حال نفسية لاسلطان للشيخ عليها وليس له إلى إصلاحها سبيل . وما دمنا عرفنا إبان سطوته واستتباب أمره شديد الريبة فيه فلسنا إذن ننكر عليه ريبته . وهو فى إبان محنته وخاطره فريسة سائغة فى فم الظنون ... وكذلك راح ذهنه الـكليل المـكدود يراوده على النقيض والنقيض. إذا تحزبت عليه الأمور وخاف الناس على نفسه بعث إلى على فأدناه ، وإذا رآهم لانوا له وسكتوا عنه رأى فى سكونهم هذا مدى سلطان غريمه عليهم فخافه واقصاه . ثم لاينى هـكذا يدنيه ويقصيه والرجل صابر لايبرم به ولاينقممنه قلبه الـكبير الـكريم . بل يستجيب له فى النفى وفى الدعوة كليهما سواء بسواء ...

استنفره ذات مرة إلى الثوار يردهم عنه ويترضاهم له ، فلما علمهم قد فاءوا إلى السكون ، لعب الوهم بعقله وخشى مغبة افتتانهم به مادامت له عندهم هـذه الـكلمة المسموعة من دون الناس ... وأرسل ابن عباس يقول له ·

« يا أبا الحسن ، إن أمير المؤمنين يأمرك بالخروج إلى ينبع ... »

فابتسم . ولم يزد على أن قال فى هدوء وهو يهم بالرحيل :

« ما يريد عثمان إلا أن يجعلنى جملا ناضحاً بالغرب. أقبل وأدبر !.. بعث إلى أن أخرج ، ثم بعث إلى أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث إلى أن أخرج . . . أما والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً . . . » .

ومع ذلك فلم يحمل ضغناً ، بل انطلق إلى نصرته سباقاً وقد علم أن الحصر جاوز فى الشدة كل حدود ، وأن مرد الأمر فيه لطلحة دون زعماء الثوار الذين اتخذوه ستاراً يدفع عنهم العيون والظنون ، ويضفى على حركتهم سمة الحق الجديرة بها شخصية هذا التيمى صاحب رسول الله . علم هذا كله فجاوز الجموع حتى خلص إليه ، وقال له يهيب بمروءته وأريحته :

« يا أبا محمد ، نشدتك الله إلا رددت الناس عن عثمان . . . » .

فهز الرجل رأسه بإباء ورد فى اعتداد

« لا والله . حتى تعطى بنو أمية الحق من أنفسها .. »

ولكن الساعة لم تتسع للمساومات . وإنما هى مسألة حياة حفظها رهين بأيدى اللحظات قبل الساعات . .

ولم يطل بعلى غياب ، بل أقبل على القوم من بعد تتبعه على الأثر ثلاث قرب تنضح بالماء ، فما بدت لأعين أصحاب الحصار حتى لغطوا ، وشمل الهمس شفاههم ، وملأت الدهشة نواظرهم من هذا التحدى الذى يطالعهم به ابن أبى طالب ، ولكنهم تهيبوا أن يمنعوه . ومضت أبصارهم تلتف بطلحة وتستقر على وجهه كأنها تناجيه أو تستوحيه . . .

وأقبل الرجل على على ، متمهلا كأنه يقسر نفسه على السير ، وراح يرمقه فى هدوء وسكون . وتحدث فى عينيه إباؤه على صاحبه ما جاء فيه ، ولكنه لم يقل شيئاً . وأخذ الناس يلتثمون عليهما من كل ناحية حتى ضربوا حلقة حولها ، ثم وقفت فئة متأهبة فى وجه حامل الماء تسد عليه الطريق . . .

فما أسرع أن صاح على بهم صيحة غضب واستنكار وهو يوجه حديثه إلى ذلك الزعيم :

« أدخلوا عليه الروايا أيها الناس » .

فاستخذى القوم، وانفرجت صفوفهم على كره . وأخذ الغضب من طلحة مأخذه وهو يرى القرب تدخل الدار . ولـكنه طوى فى نفسه سخطه حتى غادر على المـكان .

ولـكنها كانت مرة واحدة ، المفاجأة فيها شلت حركة الثوار وظاهرت علياً حتى أنجحت مسعاه . فلما أن انقضى الأثر الذى خلفته بنفوس القوم راحوا ثانية يحزمون أمرهم ويضيقون حلقة الحصار ...

ثم عادت الحال إلى ما كانت عليه ، وأصبح عثمان يتلفت فلا يرى قطرة ماء بداره تبل صداه وصدى أهله وفيهم نسوة وأطفال . وأرسل كرة أخرى يستنجد بعلى . فمن عجب أن يكون رسوله إليه هو أحد أبناء الرجل الذى مهد لمقتله وأعان الثوار عليه ! .. لم يكن يستطيع أن يبعث أحد مواليه لأن القوم ضيقوا على الدار ومنعوا كل خارج منها كما منعوا كل داخل إليها ، فـكان رسوله هذه المرة ابن جار له من بنى حزم ذهب عنه يطلب المعونة من على ، ثم انثنى إلى بقية الصحابة ومنهم طلحة ، فأزواج النبى ومنهن عائشة ، عسى أن يستطيع أحدهم أن يبادر إليه ..

ولـكن الحلقة كانت اليوم من حديد، وطريق الدار قد سدته كتل متراصة من الثوار لا تريم عن مواقعها .. حتى ابن أبى طالب لم تسعفه هيبته عند القوم ، بل أبوا عليه ، وحالوا دونه ودون بغيته ، ووقف يهيب بهم فلا يسمعون له ، وينصحهم فلا يرعون عنه ..

قال لهم عسى أن تنفذ كلماته إلى قلوبهم فتلين :

« يا أيها النـاس ... إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الـكافرين . لا تقطعوا عن الرجل المـادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسق . وما تعرض لـكم هذا الرجل فبم تستحلون حصره وقتله ؟ . . » .

فما زادهم حديثه إلا عناداً ، وقالوا له :

« لا والله ولا نعمة عين ! ... لا نتركه يأكل ولا يشرب ... »

وكان الليل قد مضى إلا أقله ، وظلمة الغلس تلف المـكان كله فى ستار قاتم

تحجب الدار عن الأعين . وتلفت على برهة إلى ناحية بيت عثمان لعله يرى أحداً من ساكنيه فيشير إليه بأنه فشل فيما جاء فيه عسى أن يدبروا أمرهم بطريقة أو بثانية ، ولكن الظلام رد طرفه .

وتفكر هنيهة . وجب إذن أن يعلم عثمان أنه صدع بأمره وقام له ثم حيل بينه وبينه حتى لا يركن الشيخ إلى أمل وصوله ساعة بعد ساعة . وحتى لا يذهب باله إلى أنه تخاذل عنه ... فلما أن أعياه أن يشير لأهل الدار بما أراد ، خلع عمامته ثم طوح بها إليهم لتكون مغنية عن أفصح الإشارات .

وكذلك أفلت زمام الأمر وأصبحت ثورة تنقاد كغيرها لعقل الثورات ، وزاد طغيان أصحابها بقدر زيادة الأنباء بقرب وصول الأمداد ، وعنفوا بكل مخالف وإن أتاهم بنصح أو حضهم بخير ، ولم يعودوا بعد يرعون مكانة أحد أو يجلون قدره ، بل ركبهم الغى حتى اجترأوا على أم حبيبة زوج الرسول حين أتت تريد أن تعطف قلوبهم على الشيخ المحصور ليدخلوا إليه الماء ، وضربوا بغلتها حتى ندت بها ، وأوشكت السيدة أن تتردى عن مركبها قتيلة لولا أن تلقفها بعض الناس .

بهذه الروح الجامحة وبأمن منها فى الجموح والعصيان كانت تسير الثورة المشبوبة حتى أيقن على أن الشر النازل بات يطرق الباب ، وأن على الخليفة اليوم حقاً حيال نفسه يسبقه آخر حيال أمته ، وكلا الحقين رهين بالآخر متوقف فى البدء والنهاية عليه ، كان العلاج فى يده وحده ، فى يد هذا الشيخ العنيد الذى أبى طوال عشرات الأيام أن يأخذ بعلاج واحد يحسم سريان الداء ، ولم يكن دواء عصياً يستحيل عليه ، بل هو فى مقدوره وقيد يده ، فلو أراد الجد فى استصلاح الأمر لما أعياه أن يلتمس الخير ، ولوسعه أن يلين مرة لمشيئة الإجماع ، ولاستطاع وهو بعيد عن الخطأ كل البعد أن ينحى مروان عنه ، ويخرجه من أمره فيستقيم له الأمر . فما أحسب أحداً من الناس كان يطمع من خليفته فى أكثر من هذا الإجراء ، بل أحسبهم به جد قانعين ، وما دام الرجل

الذى كانت أصابعه تحرك أميرهم كما تشاء ، وعلى غير ما يشاءون وتشاء الأمة جمعاء قد أريد له البعد عن السياسة لغير عود ، فإنه إذن قد صلح الحال واستقر السلام . ولكن عثمان أبى عليهم مطلبهم وأوطأ رقابهم كرها صاحبه مروان ، وراح فى سبيل إبقائه يتخبط فى الوعود دون وفاء . . . أفهو يا ترى قد آمن بحسن سياسة مروان فأبى إلا إقراره ؟ . . . أم قد خجل — وهو الأريحى البر بأهله . . . أن يخذله ويقعد عن نصرته فى ساعة محنته . . أم قد أيقن أنه مظلوم تجنى عليه الناس ؟ . . لا نراه فى أى هذه الحالات قد التزم الصالح العام حين أبقاه ، لأن إجماع الرأى على عزله كان أجدر بأن يلقى عند عثمان أذناً سميعة ونفساً راضية مطيعة . وما نرى مروان إلا رجلا أعماه حبه لنفسه حتى استمسك بصالحه وإن كان دونه حتف ناصره وانقسام صفوف الإسلام .

تفكر على جاهداً فى الحل الذى يكشف الغمة عن الأمة . فما وسعه أمام عناد الشيخ إلا أن يراه فى تفريق الثوار بأية وسيلة من الوسائل عسى أن يتيح للخليفة مهلة بعد ذهابهم لإحسان التفكير ، ولم يكن يستطيع إلا أن يشير وإن كاد ليعلم أن مشورته ستكون دبر أذن فهم عثمان ، ولكنه رغم هذا رأى على نفسه حقاً نحو ضميره قبل أميره ، فهم ليسعى إليه بالرأى فى جعبته التى فرغت بعده من ذخر الآراء . . .

هم ليخرج من منفاه فاذا رسول يأتيه فينبئه باشتداد الطعن على عثمان بعد أن أبعده عن المدينة ، فقد اغتنم الزبير وطلحة كدأبهما غيابه فنشطا فى العمل ، ورجوا أن يميلا إليهما قلوب الناس . . . ثم قدم إليه الرسول كتاباً من عثمان يقول فيه :

« ... أما بعد ؛ فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين . وارتفع أمر الناس فى شأنى فوق قدره ، وزعموا أنهم لا يرضون دون دمى ، وطمع فى من لا يدفع عن نفسه .

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد كان يقال أ كل السبع خير من افتراس الثعلب ... فأقبل على أولى :
فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق »

فما شاب صفاء نفسه هذا الغمز الذى دسه عثمان فى طوايا الكلمات. بل غفره ومضى سريعاً إلى الدار وفى خاطره أن الساعة لم تعد ساعة توفيق بل ساعة جهاد وأن عثمان وقد أبى طريق الموافقة والانقياد فعليه بطريق الكفاح والجلاد ، وأن الثوار اليوم لن يسمعوا لأى كلام ولكنهم قد يذعنون للحسام وانطلق بطائفة من أهل بيته قليلة فيهم الحسن والحسين ابناه ، وعبد الله بن جعفر ربيبه وابن أخيه ، وقد اعتم بعمامة رسول الله وتقلد سيفه ، وحوله وأمامه مشى أولئكم الفتية الأمجاد .

وأشرف على جموع الثوار وقد لمعت فى أكفهم النصال والحراب كأنهم فى ميدان قتال . وعلم أنهم اليوم لن يوسعوا له إلى باب الدار إلا أن يقهرهم بسيفه صاغرين ... فهجم سريعاً . وبغت بنفيره آلافهم المجيشة . وبدت الآن منه صورة صادقة لذلك الرجل الذى قال فيه رسول الله إنه جيش وحده فى سبيل الله . فما أسرع أن فرق القوم أمام هيبته وتفرقوا له . ومضى بينهم غير مدافع حتى دخل الدار ..

ولقى عثمان هناك قد أخذ منه الهم مأخذه . كئيباً محزوناً قد أثقله وقر الأحداث فراح يبين له الأمر ويهديه إلى ناحية العمل التى لم يعد له إلى سواها سبيل ..

وقال له بعد تمهيد قليل :

« يا أمير المؤمنين ، لا أرى القوم إلا قاتليك .. »

فأجاب الشيخ بتهافت واستسلام :

— حسبي الله ونعم الوكيل .

— فرنا فلنقاتل يا أمير المؤمنين .

فرفع الشيخ يديه كأنما ليحول بينه وبين ما يريد ، وقال :

— أنشد الله رجلا رأى لله حقاً وأقر أن لى عليه حقاً ألا يهريق فى

سبى ملء محجمة من دم أو يهريق دمه ..

— يا أمير المؤمنين مرنا .

وأبى عثمان . وأصر على الإباء كما أملت نفسه الرقيقة . فهل علم أن وصول الأمداد كان كفيلا بقمع الفتنة دون إراقة دماء ؟ .

وخرج على من لدنه وهو أسيان عليه ، فارغ الجعبة من كل أداة بمقدوره أن يسخرها فى عون الشيخ ، ولكن عثمان التزم دائما سياسة الإباء ، فأبى كل العروض المبذولة لإعادة السلام وإقرار النظام ، سواء بطريق القوة أو بطريق التوفيق ، فلا هو أجاب مطالب الثوار ، ولا هو اعتزال الأمر ، ولا هو قابلهم بالقتال قبل أن يقتلوه ..

ولكن علياً لم يرض أن يدع الرجل وشأنه لأنه عهده لا يحسن القيام على أمر نفسه ، بل بعث إليه ابنيه سبطى رسول الله ، وبعض أهله ، ونفراً من مواليه زودهم بالعدة والسلاح ، وأمرهم أن يلزموا باب الدار فلا يفارقوه

قال للحسن والحسين وهما يتأهبان للذهاب :

« اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان ، فلا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه .. »

فصدع الفتيان . وتوجهت هذه الطائفة من بنى هاشم ومواليهم إلى باب عثمان يترسون بصدورهم دونه ، ويذودون عن الشيخ الضعيف المغلوب ، عن ذلك الرجل الذى غلبه تردده ووهن عزمه قبل أن تغلبه عدة عدوه وخصمه . وكانوا بهذا أول من سلوا سيفاً لرد الثوار .

وخجل بضعة من الصحابة من أن يقوم على فيما قعدوا عنه ، فترسموا خطاه وبعثوا بأبنائهم كبعث الحسنين .. حتى طلحة بعث ابنه ، وحتى الزبير أيضاً خشية أن يرميا بقلة المروءة . فما كانا فى الواقع يريدان قتل عثمان وإن أرادا نزع ملكه عنه ..

ودخل الحسن من بعد على أمير المؤمنين ، متأهباً بعدته ، وفى يده سيفه ، وعليه لباس القتال .. وقال له كأنما ينطق بلسان أبيه :

« يا أمير المؤمنين .. إنى طوع أمرك فرنى بما شئت .. »

فلم تتغير لهجة الشيخ عنها من قبل ، وأجاب :

« بل اجلس يا ابن أخى فى بيتك حتى يأتى الله بأمره .. »

ذاك رأيه الذى التزمه حيال مشورة على حين أراده على التوسل بالقوة لفض الثوار وإعادة النظام ، تقيد به الشيخ حتى آخر لحظة من عمره ، وأراد أن يلزم به مناصريه .. ولكن الحسن كان قد تلقى الأمر من أبيه فوجبت له الطاعة . وحق عليه أن يدفع عمن أبى الدفع عن نفسه وبات منها بمنزلة غريم ! !

٦

أجال عثمان بصره فيمن وقفوا ببابه ، كاملى العدة ، مشرعى الأسنة تأهباً لرد الخطر عنه إن كان ثمة حاجة للكفاح ، وراح يستعرض الوجوه النبيلة التى لم تفسدها بعد الأيام ، فكلها مرايا لهذه القلوب الفتية الصافية التى تخفق فى صدور هؤلاء الفتية الأمجاد .. هذه زهرة هاشم ، نسله الطيب الكريم ، تنم عن قدر ذلك الرجل الأول الذى أصبح ذكرى شذية تعطر التاريخ ، وتعيد الآن إلى الأذهان بموقفها النبيل صور نبله وأريحته . لا قرين إذن له ولا شبيه فى النفوس لهذه المروءة التى أنجبها على الزمن رجالا تعز فى الرجال ، وتقل فى الأشباه والأمثال ، وكفى بهم رفعة دونها تطاول الأعناق والجباه أن كان منهم سبطا رسول الله ..

ثم أدار فى عقله خواطره .. ها هو الموسم يقبل ، والناس يتهيأون فى المدينة وفى بلاد الإسلام للخروج لبيت الله الحرام . والأمة كلها توشك أن تمضى إلى مقام إبراهيم . والشوق يملأ قلبه أن يسير فى طليعة الركب فيزور دار الهجرة ودار دين الفطرة القويم . ولكنه الآن خاصمه يومه وتبدل قومه . وأصبح من بيته فى قيد حديد لا يستطيع معه أن يبرح إلى قريب أو إلى بعيد ..

وأعاد عينه ترمق الفتية ، وعر بالوجوه النبيلة التي أحالها غضبها من أجله وجوه أشبال ، وبالعيون النقية التي انعكس في صفاتها لهب الغيرة عليه وتلونت نظراتها بإشراقه . وبالأجساد القوية التي بدت لطرفه رماحاً .. داره الآن كعرين بدر ، تلك الجنة التي أشرف منها على المعركة رسول الله ، وقام أصحابه حولها يدافعون عنه .. فيالطوباه اليوم وهو بعرين يذود عنه حفدة رسول الله ..

وهفت للذكرى نفسه . وغامت عينه برقائق دموع ، ولكنه سارع فرقأها ليفرغ لما جاء فيه . فما عاد ثمة وقت يجوز أن يضيع .

ونادى بصوت رقيق بين الجميع :

— يا عبد الله .. يا عبد الله بن عباس .

فانطلق الرجل إليه خفيفاً ليسمع منه .

— لبيك يا أمير المؤمنين ..

— اذهب أنت على الموسم يا عبد الله .

فاعترضه دون إمهال وهو يشير بسن سيفه إلى خارج الدار :

— والله لجهاد هؤلاء يا أمير المؤمنين أحب إلى من الحج .

— بل نشدتك الله أن تنطلق . إني قد استعملت خالد بن العاص بن هشام على مكة ، وقد بلغ أهلها ما صنع الناس فأنا خائف أن يمنعوه الموقف فيأبى ويقاتلهم في حرم الله وأمنه . فرأيت أن أوليك .

وبعث معه بكتاب ليقرأه بالموسم عسى أن يعطف عليه القلوب فيقدم الناس من مكة ناصرين . وخرج ابن عباس يلتمس علياً لينبئه ويستأذنه في السفر والقيام بالمهمة الموكولة إليه . والقوم إذ ذاك خارج الدار قد أوهى جلدهم تواتر الأخبار بوصول الأمداد من الكوفة والبصرة والشام . كانوا يديرون الأمر في أخلادهم فلا يستطيعون أن يجدوا حلا ينقذهم من النازلة التي أوشكت أن تدهمهم وهم على الوعد الذي قطعه لهم عثمان من زمان طويل ، وهو على النكث الذي أصر عليه ... فلقد ظل الشيخ معانداً أبداً

لا يستمع لنصح راشد . ولا لمشورة أمين . ولا يعمل من جانبه لفض هذهالفتنة التى همت أن تسيل فيهـا الدماء وقاربت أن تفرق أمر الإسلام . بل استكان لتلك الطغمة الخاسرة من ذويه حتى قال على — ذلك اليوم — فيه :

« ... ما يريد عثمان أن ينصحه أحد . اتخذ بطانة أهل غش ليس منهم أحد إلا قد تسبب بطائفه من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها ... »

فقال ابن عباس وليس يسعه فى هذا المقام إلا الاسترحام :

« فلو رأيت أن تقوم دونه يا أبا الحسن ... فإن له رحماً وحقاً . »

فتكلمت الرقة فى عينى ابن أبى طالب ، وتكلم الرثاء ... ثم تكلمت معهما قلة الحيلة بعد ما بذل فى استصلاح شأن الأمير الذى نفـــدت معه كل وسيلة .

ومضى عبد الله ، وأوشك أن يخرج من المدينة اليوم كل راغب فى زيارة بيت الله الحرام والطواف بالكعبة الغراء ... وعلم عثمان ومن بداره أن عائشة تتأهب هى الأخرى للمسير لمكة فلعله بعث إليها إذ ذاك يريد أن يستأخرها عساها تستطيع أن ترد عنه الثوار . أو لعل أحداً آخر من أهله أراد أن يرمى بهذا السهم الذى لم يبق سواه ... أو لعل مروان نفســـه وقد رأى القوم يتحلبون للشر وقد أثارهم نبأ اقتراب الأمداد قد أراد أن يعمل على تسكين الناس حتى تفاجأهم الأمداد ... على أى حال لا نرانا نلبث إلا قليلا ثم نجد ابن الحكم يستطيع بوسيلة أو بأخرى أن يغادر البيت الذى ضربت عليه حلقة الحصار ، فيمضى إلى أم المؤمنين ومعه زيد بن ثابت ، يحاولان معاً أن يحملاها على البقاء وعلى تسكين الثوار .

وتصغى السيدة لما يقولان ، وتقسر نفسها على الصمت والسكون حتى يفرغا من الحديث ، ثم لا تستطيع فى نهاية الأمر إلا أن تهتف بزيد فى لهجة ساخرة مبطنة بالاستنكار .

« وما منعك يا ابن ثابت ولك الأساريف قد أقطعكها عثمان وأعطاك من بيت المال عشرة آلاف دينار ! ... »

فبهت زيد ولم يرجع عليها بحرف . وحاول مروان من بعده أن يتكلم فنهرته ، وأشارت له بالقيام ..

ونهض الرجل من مجلسها مستاء . وألقى حديثها العنيف بقلبه مرارة ارتدت خلال حلقه فهمهم بكلام وهو يهم بالخروج ..

ولكنها سمعته بأذن المرأة التى لا يعز عليها سماع الهمسات .. فما أسرع أن صاحت به :

« يا ابن الحكم .. أعلى تمثل الأشعار ؟ .. قد والله سمعت ما قلت. أترانى فى شك من صاحبك .. والذى نفسى بيده لوددت أنه الآن فى غرارة من غرائرى مخيط عليه فألقيه فى البحر الأخضر !. »

ولكنها حين خرجت فرأت كيف اشتد أمر الثوار خشيتهم على الشيخ وامتلأت نفسها بالرثاء له إلى جوار سخطها عليه .. فلم تكن لتريد له ذلك المصير المخوف الذى بات منه على قيد ساعات ، لم تكن تريد أن يراق دمه وإن جاهدت طويلا لتخرجه من أمره بعد يقينها بأنه أساء السيرة فى الأمة ولم يعطها حقها عليه .. غير أنها — مع ذلك — لم تستجب لرغبة مروان فى البقاء حين عاد إليها يقول :

« يا أم المؤمنين .. لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا الرجل .. »

فأجابت . وهى تحاول أن توائم بين السخط وبين الرثاء :

« أتريد أن يصنع بى كما صنع بأم حبيبة ، ثم لا أجد من يمنعنى ؟ .. لا والله ، ولا أعير ، فلست أدرى إلى ما يسلم أمر هؤلاء ... »

ثم رحلت عن البلدة ، كما رحل غيرها من كبار الرجال ليكونوا بعيدين عن مهد الفتنة . فلا حقا نصروا وقاموا فيه ولا باطلا ناهضوا وأعانوا عليه . ولكنهم فروا من الميدان تهيباً من الكفاح ، وتركوا الخليفة المهيض الجناح لا يجد من يحمى ظهره أو يكفكف عنه ، بل هم فى غالب الأحايين كانوا قد ألبوا عليه من البدء لغاية عامة أو لغرض خاص وفى حسبانهم أن تسير الأمور على ما يشتهون ، فلما أن رأوا زمامها قد أصبح دونهم فى أيدى

الثوار تواروا عن الأعين عسى أن تنام عنهم الظنون .

سار بها الركب حتى شارف الصلصل فلقيها هناك ابن عباس وهو يشق طريقه إلى قبلة الإسلام ... ورأى لزاما عليه أن يتقدم فيحييها ، فإذا بها قد نسيت رثاءها لحال عثمان ورقتها له حين غادرت المدينة ، وهى طعمة سائغة بأيدى محاصريه ، ونسيت أيضاً استرحام مراون ومازالت كلماته فى سمعها ندية لم تطل عليها الأيام ... وأقبلت على الزائر توغر صدره على الخليفة ، وتدعوه كسابق عهدها مع سواه للتأليب عليه .

قالت له تخاطبه :

« يا ابن عباس ... أنشدك الله — فإنك قد أعطيت لسانا إزعيلا — أن تخذل عن هـــذا الرجل ، وأن تشكك فيه الناس . فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ، ورفعت لهم المنار . وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم ... وقدرأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر ... »

فما أسرع أن أجابها على الأثر ، كأنه علم خلاصة عرضها فأعد له الجواب من زمان طويل :

« يا أمة ... لوحدث بالرجل حدث مافزع الناس إلا إلى صاحبنا ! ... »

واكتفى بهذه الاشارة القصيرة التى تغنى دلالتها عن كل بيان . وأحست بحرارة الخيبة وقد كانت تطمع فى نصرة ابن عباس ووقوفه إلى جوارها للكفاح من أجل الهدف المرموق الذى ترجوه . وبان لها هى المنار ووضح السبيل الذى سوف تسير فيه رغبات الناس ! ... فما هم إذن بناصرى صاحبها ولا بمجمعى رأيهم عليه . وليس المال أداة الترجيح فى هذه الحال ، ولكنها مزايا وصفات دون أثرها الفعال إغراء المـــال . أفئن دهم الأمر لن يفزع الناس لغير على ؟ ... لغير غريمها القديم الذى لا تملك إلا أن تضيق بسماع اسمه فضلا عن ضيقها به ؟. لودت فى هذه اللحظة أن تكشف عن دخيلة نفسها نحوه أمام ابن عمه ... وأن

تذهب فى إطفاء موجدتها عليه إلى المدى الذى يستطيعه لسان ناطق عن قلب حانق ... فما نسيته قط منحرفا عن شد أزرها إبان قصة الافك ، ولا منافساً خطراً أراد أن يبتزأباها خلافة الإسلام ، ولا شريكا لها فى حب زوجها يأخذ بعض نصيبها من قلبه الجدير بأن تضن به على غيرها من نساء ورجال ... إنها المرأة الخالدة ! .. إنها ذات الطباع والخلال والميول وإن هذبها كساء زوج الرسول ! .. وهل المرأة إلا أهواء ؟ ..

وفى هـدوء يخفى ماثار بصدرها من الضيق وشعورها بالخالان ، هتفت ترسم نهاية الحديث ،

« إيها عنك !. إنى لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك .. »

وانطلقت بالركب إلى غايته : وانطلق كذلك عبد الله ليتلو على أهل مكة ومن حضرها من حجيج رسالة عثمان :

«... وجئت نسوة النبى حتى كلمتهن ، فقلت ما تأمرننى ؟ . فقلن تؤمر عمرو بن العاص وعبدالله بن قيس ، وتدع معاوية فإنما أمره أمير قبلك، فإنه مصلح لأرضه راض به جنده . واردد عمراً فإن جنده راضون به ، وأمره فليصلح أرضه . فكل ذلك فعلت . وإنه اعتدى على ... كتبت إليكم وأصحابى الذين زعموا فى الأمر استعجلوا القدر ، ومنعوا منى الصلاة ، وحالوا بينى وبين المسجد ، وابتزوا ماقدروا عليه بالمدينة .. كتبت إليكم وهم يخيروننى إحدى ثلاث : إما يقيدوننى بكل رجل أصبته خطأ أو صواباً غير متروك منه شىء ، وإما أعتزل الأمر فيؤمرون آخر غيرى ، وإما يرسلون إلى من أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فيبرأون من الذى جعل الله لى عليهم من السمع والطاعة . »

ومع ذلك فلم يكن الشيخ قد أرضى حقاً الثوار وفعل كما أشاروا عليه ، بل هو أنف أن يخضع لمطالبهم ويستجيب لها ... وحتى عمرو بن العاص لم يكن رده بل بقى بعيداً عن الإمرة التى اختارها له .. ولو أن امرءاً فى هذه اللحظة التى قرئت فيها رسالة عثمان استطاع أن يقطع الأطوال والمسافات

فى لحظات ، لوسعه أن يرى ابن العاص جالساً بقصره العجلان بناحية السبع من أرض فلسطين ، بعد أن ألب الناس على عثمان فى المدينة ، وبعد أن راح يؤلب نفوس من يلقاهم بأى مكان وبكل مكان ، وبعد أن غادره محصوراً ببيته تهم به زمر الثوار . . . لو أن امرأ شاهده بمجلسه إذا ذاك لرآه شديد اللهفة على مصير الأمير ، لا عن خوف من خطر دائم أن ينزل به ، وإنما تعجلا لهذا الخطر أن ينزل ... يستطلع كل ركب يمر به فيقول :

« من أين قدمتم ؟ »

فإذا جاءه جواب السؤال : « المدينة » قفز قائماً وسأل بلهفة وفضول :

« وما فعل ذاك ؟ »

« تركناه محصوراً شديد الحصار ... »

هنا يطمئن باله ويهدأ خاطره ، ثم يهتف بغبطة ومباهاة :

« أنا أبو عبدالله ! .. قد يضرط العير والمكواة فى النار ... »

ثم لا يمضى به سوى قليل حتى تأتيه الأنباء بمشتهاه ... فما انقضت بضعة أيام قلائل ، حتى جلس هـذا الحاقد الموتور نفس مجلسه ، بقصره ذاك ، وقد أحاط به ابناه — محمد وعبد الله — ومعهم سلامة بن روح الجذامى ، ومر بهم إذ ذاك ركب راح عمرو يسأله كعادته حتى جاء الجواب الذى فيه شفاء نفسه :

« قتل ! »

فلعله أوشك على الأثر أن يطلقها صيحة ابتهاج ... ثم قال يفخر بموقفه من الشيخ ، ذلك الموقف الذى أثمر انتصاره على غريمه بعد طول اصطبار :

« أنا أبو عبد الله ! .. إذ حككت قرحة نكأتها ! »

وتريث هنيهة يجدد فيها زهوه ، ثم أردف يقول :

« ... إن كنت لأحرض عليه حتى إنى لأحرض عليه الراعى فى غنمه براس الجبل ... »

ولقد صدق فيما قال . فلقد فعل ، ولقد ألب المدينة على عثمان ، وألب

صحبه . ومضى يعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث الخليفة ويحرضهم عليه ... صدق ابن العاص وملأ الأرض والفضاء بالدعوة إلى الخلاص من عثمان ... حتى إذا أينع ثمره ، وقتل الشيخ ، وسالت دماؤه المسفوكة ، قام هو نفسه لا تأخذه تلوم ولا استحياء ، وقد سل حسامه ليطالب بدم الخليفة المظلوم عثمان ! . .

ولكنها نفس ابن النابغة التى تبيح المحظورات حين تشاء ! وهى صورة صادقة لكثيرين من معاصريه الذين لا نحسبنا مستطيعين تخيل حال نفوسهم قبل الإسلام عادامت هذه أحوالهم بعد تمالمية الهادية الغراء ... ولعل ما يملأ نا اليوم بالدهشة قد ملأ بعضه إذا ذاك قلب الجذامى ضيف عمرو ... فقد بهت الرجل حين سمع حديث صاحبه ، وأخذه العجب ، وهتف به فى استنكار :

« يامعشر قريش . إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه ، فما حملكم على ذلك ؟ . . »

فما وجد ابن النابغة من جواب يحضره إلا التمويه والتمسح فى الحق فقال :

« أردنا أن نخرج الحق من خاصرة الباطل ، وأن يكون الناس فى الحق شرعاً سواء ... »

أما المدينة فقد باتت بعد خروج عائشة هشيما جافا ينتظر الشرر . الناس فيها على الأهبة ، والقلوب متحفزة ، والسيوف مشرعة ... وكان زيد ابن ثابت قد راح ينشد فى الأنصار مالم يفز به عند أم المؤمنين . وأطمعه فى مناصرتهم إياه أنهم قومه . ولكنهم قعدوا عنه ولم يجيبوه، بل ركبوه بالسخرية وعرضوا به . وكان الجواب الذى لقيه منهم تكاد ألفاظه تكون صورة أخرى من رد عائشة عليه ، كأنهم والسيدة كانوا على اتفاق :

« تريد أن ننعمه ؟ . . . فما يمنعك يازيد أن تذود عنه وقد أعطاك عشرة آلاف دينار ، وحدائق من نخل لم ترث عن أبيك بمثل حديقة منها !؟ ... »

ووضح اليوم مدى الخذلان الذى أصابه الشيخ لدى كلا الطائفتين :

المهاجرين والأنصار . وعظمت الفتنة ، واشتد الأمر وإن بقي مروان كدأبه ينتظر أن يغير وصول الأمداد اتجاه الريح ...

ولقد جاءت أخيراً لحظته المرقوبة ، اللحظة التي ملأت قلبه ابتهاجاً ونفسه طمأنينة وثقة وردته كسالف عهده رجلا يستطيع أن يزهى ويتيه على الناس ... وصلت الأمداد ... جموعهم من الشام في طريقها الآن ، وجموعهم من البصرة تكاد أن ترى المدينة رأي العين . فقد نزلوا بصرار ولم يعد يفصلهم عنها إلا مسيرة ساعات .. لا تكاد ليلة واحدة تمضي حتى يكونوا طوع أمره وتصلى بنارهم زمر الثوار ! . .

وفزع الناس ، وانطلقت جموعهم صوب الدار ، وأحاطوا بها من كل جانب ينادون عثمان وقد ملكهم الغضب عليه . فقصة الأمداد لم تعد شائعة تجول بالخواطر المضطربة وعلى الألسنة اللاغطة ، بل أصبحت حقيقة توشك أن تدهمهم ببلاء ...

وانفلت من بينهم شيخ مهيب . طالت به أعوام عمره ، فتقدم الصفوف ، ونادى بصوت رافع جهير :

« يا عثمان ... يا عثمان بن عفان .. »

فأقبل الخليفة على النداء ومعه طائفة من أهله ومواليه . وتطلع من أعلا داره يشرف على القوم ، ويجيل عينه في الجموع الزاخرة تحته لا وفاق إذن اليوم ... ذهبت اللحظة التي كان يستطيع فيها أن يسيطر على عواطف الناس!.. جاوز ركب الأحداث ركب تفكيره وتخلف هو وحده عن الزمن السباق !.. وتطاير . وقعدت عنه ثقته بنفسه وثقته بغيره ، فلم تعد الوجوه التي يطالعها الآن تنبيء عن خير ...

وعاد يسدد بصره إلى حيث جاءه الصوت . وتفرس طويلا في هذا البحر الزاخر من العيون التي أوشكت أن تغرقه بنظرات السخط ، ومن الوجوه التي اكتست نقاب الغضب الفوار . . وتبين أخيراً بينها صاحب النداء ، فهتف بصوت أراد له الثبات فخذله ووشي بسوء ما يعانيه :

« نيار الأسلمى ! ... »

أجل نيار ، صاحب رسول الله ، قد أقلقه ما أصاب أمته من اضطراب ، وخشى عليها الفتنة ، وأوشــك أن يرى الفرقة دانية منها تهم أن تمزق وحدة الإسلام ...

« اتق الله يا عثمان ! »

« فما تريد يا نيار ؟ »

كف عنا وعن نفسك البلاء ، واخلع عنك ما ألبسك الناس ، وقل هذا أمركم فاختاروا له أيها الناس ...

لم تبق وسيلة إذن إلا الاعتزال ؟ ... لبئس ما أشــار به الرجل وأشار الثوار !.. ومع ذلك فهل من سبيل إلى اعتزال إمارة يؤمن عثمان أنها أمر له من عند الله ؟..

وغضب الشيخ . وعز عليه أن يكون شأنه على قومه بمثل هــذا الهوان . وانطلق يجادل صاحبه ويعنف به ؛ ويعنف بالناس فى المقال . ومضت لحظات على الجمع وهو صامت منصت ليرى ما سوف يسفر عنه هذا الجدال ...

فإن هى من بعد إلا لحظة خطفت كالبرق ثم اختفت كومضة ، تلفت القوم على أثرها مذعورين ، ثم سيطر عليهم وجوم رهيب .

ثم دبت الحياة فيهم بغتة . وأقبل بضعة منهم على صــاحبهم الطريح . يكذبون العيون ويقلبون جسده الهامد مشدوهين ، ولــكن نفسه فارقته حقاً . وانطوى سجله فى الدنيا فلم يعد ثمة نيار ... لشد ما أسرع به حينه ، كأنه السراج نفخته الريح !.. مضى إلى مصيره المحتوم فى لمحة ، وانتهى عهــده بالأرض وإن بقى عليها جثمانه ، وانقطع ما بينه وبين الحياة إلا جرحا ما زال يتنفس ويلفظ بقايا الحياة ... فهذه دماؤه ما برحت تنزف وتسيل تحت الأقدام تخالط الحصى والتراب ..

عادوا إلى الوعى ، وانتبه فيهم وحش الغضب على رائحة الدم المسفوك ؟ . إنهم لا يعرفون أى العصبة المجتمعة فوق الدار قد أصماه . لا يذكرون من

مصرعه إلا أن سهماً لمع فى الجو وحجراً ضخماً قد انقض ثم انطرح الصريع .. وتحركت جموعهم كموجة صوب الدار . وعلت أصواتهم المهتاجة كأن الأرض تحتهم أضحت غابا يمج بزئير أسود ...

وبهت عثمان . وتلفت ترمق عينه أهله ومواليه وفيها نظرة حرج ونظرة إنكار . فما كان يقر هذا الغدر أو يرجو أن يتناول الأمر بمثل هذا الأسلوب . وتصايحت تحته الجموع تطلب أن يعينها على القاتل ويسلمها إياه . فليس ثمة صراع يمكن أن يستباح فيه هذا الدم الحرام ، ولا زاد نيار عن إزجاء رأى ظنه يحسم الشر وينتهى بالفتنة الناشبة إلى أحسن انتهاء ...

وتردد عثمان وهو يصغى إلى الزئير المهتاج . وملكت نفسه رهبة هذه الفترة العصيبة الحرجة بأن يفلت فيها زمام الجماهير من كل قائد وأمير . ولكنه عالج هيبة الموقف بإظهار العزم والتوسل بالكبرياء والصلابة . وبقى هادىء الوجه يجيل طرفه فى الناس ثم يرده إلى العصبة الملتفة به لعل أحدها أن يشير عليه . ولكن أفرادها جميعاً آثروا السكون ، وتركوا الخليفة وحده يواجه الأمر حسبما يستطيع أن يسعفه جنانه ، ويزوى لسانه .

قال عثمان للجموع برنة قليلة المبالاة فيها مروءة وفيها كبرياء :

لم أكن لأقتل رجلا نصرنى وأنتم تريدون قتلى ...

فسرعان ما تلهب غضبهم كما تلقى زيتاً على النار .

وتأهب الفتية الواقفون بالباب . وأشرعوا الأسنة فى وجوه من عسى ستحدثهم نفوسهم لاقتحام الدار إلى الأمير الشيخ ... وعصف القلق بنفس عثمان . وسرى منه إلى العصبة الملتفة به وهى توشك أن تلمس الخطر الوشيك النزول ... ولكن رجلا منهم كان راضى النفس ، بقى وحده ناعم البال فى هذا العباب المصطخب الفوار ثم انثنى يتسلل من بينهم فى هدوء ، وقد ومض ناظراه بلمعة انتصار وأوشكا أن ينما عما بقلبه من شماتة بالقتيل وأصحابه الغضاب . وكانت بسمة غامضة تلعب بشفتيه تخفى خلفها كل عاطفة ثم لا تخفى مطلقاً معانى الاشتفاء ... أفهو يا ترى الذى قدر الحساب ثم نفذ

فأصاب ؟ ... أكانت الخطة حقاً من نتاج تدبيره ؟ ... ألاح له شبح النصر من وراء الأمداد التى باتت على مسيرة ساعات فهان عليه الآن ما كان يخشى من بطش أعدائه مناجزى عثمان ؟ ... أأراد أن يتعجل ساعة الجلاء فأوحى لمن ألق فى الميدان بأول سهم ليكون البادىء بإراقة دم ؟ ... كلما سار المرء بذهنه خلال هذه الفترة استطاع أن يوسع فيه لكل هذه الفروض التى لا تغاير طبيعة مروان . أجل مروان ... فما نحسب غيره كان وراء هذا الغدر وهذا العدوان . وحسبنا حماقته المشهور بها لتقرن به فعلته تلك . وحسبنا الرغبة الملحة التى كانت تسيطر عليه وتدفعه دائماً إلى التزام وسائله الخاصة فى الغدر ومجافاة الوفاء . وحسبنا تلك الخشية التى أقضت مضجعه وتركته حليف هم وهو يرى كيف هدفت ثورة الثوار إلى تجريده من جاه المنصب وأبهة الحكم ... ليوشك الزمن أن يطالعنا بصور شتى من أسرته الأموية التى لا يقف بها خبث الذرائع والمقدمات دون بلوغ المقاصد والغايات .. ليوشك بين عهد وعهد أن يكشف لنا فى سجلهم عن ألوان الغدر تزرى بكل إثم ووزر وإذا كان الأمس قد كشف لنا عن هند ووحشى العبد الحبشى تدفعه ليصمى أسد الإسلام ، فإن اليوم انكشف عن مروان وعتيقة أبى حفصة اليمانى يدفعه ليصمى داعية السلام ... ثم لعل الغد لا يعجز من بعد عن مطالعتنا من هذه الصور البغيضة بأمثال وأمثال على تعاقب الأجيال .

٧

ثبت الفتية الواقفون بالباب فلم يرعهم الموقف ، ولم يذهلهم حماس الثوار عن مراسهم وشكيمتهم ، بل ألفوا بالرماح والسيوف سوراً دونه الحتوف ، لا يكاد يقترب منه جمع حتى يتفرق ، ولا ثائر هائج حتى يعيده إلى وعيه خيال حينه . ووقفت الآلاف المجيشة دون اقتحام الدار .

وبدا مروان من قريب ، على وجهه سمات اعتزاز ، وفى عينيه نظرات تهاون وبيده سيف مصلت حديد السنان ، يتيه به ، ويدل بقدره وحسن بلائه كأنما يحمله الحسام ملاك الحمام يوشك أن يفرقه على أخصامه كما يشاء ، ثم راح يرتجز ويقول :

قد علمت ذات القرون الميل والكف والأنامل الطفول،
أنى أروع أول الرعيل بغارة مثل قطا الشليل .

فما رآه عثمان حتى سارع إليه يحول بينه وبين ما يريد ، ويجذبه من ردائه ، ويناشده ألا يزيد فى استعار النار .

« اجلس يا مروان . »

« يا أمير المؤمنين ... »

« اجلس فلا أراك تخرج . »

« والله لا تقتل ولا يخلص إليك وأنا أسمع الصوت . »

ثم انفلت خفيفاً إلى الباب يعيد ارتجازه ، بنفس اللهجة الساخرة ، وبنفس النظرة المستهترة ، وسيفه يكاد أن يمس العيون التى ودت نظراتها الملتهبة أن تحرق كيانه المقيت ، وهو لا يكف عن تحديه إلا حين أخذ يهتف فى خيلاء :

«رجل رجل أيها الناس ! . ألا من يبارز ؟ . »

وخطر أمامهم فى تيه وتجبر ، فما وسع القوم إلا أن يضيقوا بصلفه . وغلبت عليهم الحمية فأنشبوا القتال . وانطلقت جموعهم كالسيل المتحدر صوبه إلى ناحية الباب ، وكان ابن عديس قائماً إلى قريب يسند ظهره بمسجد الرسول ويشهد الأمر عن كثب ، فما رآه وسمع تحديه حتى أشار بهدوء إلى فتى من أعوانه وقال :

« قم إلى هذا الرجل يا غلام . »

فاستجاب للأمر شاب طوال مديد القامة ، أسرع فتمنطق بدرعه ، وسل حسامه ، ثم مضى إلى مروان .

وكأنما رأى عثمان الخطر الذى يجثم وراء هذا التحدى ، والمصير القاتم

الذى ينتظره وينتظر أهل بيته غب المبارزة . فلا الناس مردودون إن أصاب صاحبه واحداً منهم ، بل هم أولى بأن تفيض بهم فورة الغضب وحمية الثأر فينقلبوا إلى الدار كحمم النار ، ولا هم إن فازوا بعروان غير طامعين بعده فى الظفر بمن عداه . هذا خاطر كفيل بأن يجول إذ ذاك بذهن الشيخ فيبصره بعواقبه ويرده إلى اصطناع الحذر قدر ما يستطيع . ولقد انكشف له من خلاله مصير ليس يحمد معه السكوت فهم يحاول درأه ، ويعمل جاهداً على الخلاص منه قبل استفحال الأمر . ولكن الحمية المروانية — أم الحماقة ؟ — كانت قد تناولت وحدها الزمام ووجد الناس فيها جسراً للعنف فعبروا عليه . فإذا الموقف فى لحظات قليلات ينتكث فيقابل الكيد بالكيد ، والصمام الذى حكم حتى الآن بغضاء الثوار يفسد فلا يمسكها شىء .

الحماقة المروانية أرثت النار النائمة تحت الرماد ، ودفعت الناس فى ركاب الأحقاد . فما رفع الرجل سيفه فى وجه الثوار حتى فتح على نفسه وصحبه باباً للفتنة ليس ثمة من يستطيع أن يسده اليوم ، وانطلقت الجموع إليه مشتعلة النفوس تزأر وتصخب ... وتنادت من كل جانب تطلب الثأر ، وتطلب قبله الظفر بالشيخ الذى جرأ هكذا عليها صاحبه ، وركب حقها — الذى طالما أقر لها به — بباطله الذى أبى إلا الإصرار عليه ... أما عثمان فقد أوشك صوته أن يضيع فى ضجة المكان وهو يصيح بحواليه :

«من أغمد سيفه فهو حر أيها الناس ... نشدتكم الله ... من أغمد سيفه ... »

ولكن حماسة الجلاد أصمت دونه الآذان ، وراحت طوائفهم تتبع الفتية القلائل الذين وهبوا أسنتهم للذود عنه . ولم تحل النار التى أنشبها الثوار بالباب وبالسقيفة بين كتيبة الدفاع وبين ما أخذت أنفسها بالاضطلاع به ، بل لعلها كانت سياجاً حائلا دون الناس وولوج الدار ... ووقف الحسن فى اللهيب المشبوب يضرب بسيفه ، ويشد أزره صحبه الشبان من أهل بيته

ومواليه وأبناء صحاب رسول الله ، لا ينسكلون ، ولا تنبو فى أيديهم السيوف ، وتصايح بهم ثانية عثمان :

« إلله الله ! .. أنتم فى حـــل من نصرتى ... من كانت عليه طاعة فليمسك داره ، فإنما يريدنى القـــوم ... »

ولـكنهم لم يسمعوا له . واستغرق الـكفاح وعيهم كله ... حتى إذا رأى الشيخ أن شجاعة الحسن وحسن بلائه اماهما أغريا الفتية على الثبات ، أقبل وقد بدت فى عينيه نظرة تقدير وبانت خشيته عليه يناشـده أن يكف ليجنب أباه رزأه فيه ، فيقول :

« يا ابن أخى ، إن أباك الآن فى كرب عظيم ... فأقسمت عليك لما خرجت ... »

فما ألقى الفتى بالا إليه ، ولا توقف عن القتال سيفه كأنما كان نذره لرقاب الثور ! . . ولم يقعد به جرحه عن مواصـــلة الجلاد ، بل هو كان أدعى لإثارة حماسه . ولم يلق الخشية فى قلبه أن أصيب الحسين وأصيب قنبر خادم أبيه وهما ذراعاه والذائدان عنه وعن عثمان فى آن . بل الدم الســـائل دعاهم داعيه فلبوا النداء ... ومضوا غير هيابين فى قلب المعركه يختلط فى وجوههم العرق بالدماء وهم من النار التى التفت بهم كأنهم فى إتون .

وعسر على الخليفة أن يحسم القتـــال الناشب . فما استجاب له إلا نفر من مواليه آثروا السلامة مع العتق على المناجزة مع الرق ، ومضى مهموماً إلى حجرته يفىء إلى كتاب الله فيستروح به . وجلس والمصحف بحجره يرتل حتى غاب مع التنزيل فى عالم من الفـكر بعيد .

وعسر أيضـــاً على الثوار أن تفشل حركتهم ، وأن يكون فشلها هكذا على يد بضعة نفر من الفتيان قربوا صدورهم للأسنة المشرعة فأخطأتهـا ، وقدموا للموت رقابهم فنـكل عنها الموت واجتبتهم الحيـــاة . . . وراحت الجموع الزاخرة خارج الدار تجهـــد الأذهان فى بلوغ غايتها ، وتفرقت هنا وهناك طوائف ، بعضها يجالد الحماة ؛ وآخرون يدبرون وسيلة لإنجاز ملجاءوا

فيه ، وثالثة تعلق الأنظار بهذه الصـــــورة الجديدة التي أراد أن يرسمها لهم مروان .

أجل ، كان مروان إذ ذاك قد خرج يصاول ، والتأم سيفه بسيف غريمه الغلام ، وكانت فئة واقفة لا تنشب قتالا قد راحت تلتف بهما لتشهد لأيهما سوف ينعقد النصر ، وتمنى الجميع أن يسقط الخصم المبغوض ، وأن ينزف — مع دمه ـــ صلفه من جرح قاتل يصيب قلبه ، وأن تنجاب المبارزة عن جسده لقى على الأرض لعل نفوسهم أن تشتفى به ، ولـكن أمنياتهم هـذه كلها ظللها خوف على غلامهم ألا يكون ندا لهذا الشقى وقد رأوه يدل بسيفه كالواثق من قدره وخطره .

وتصاول الخصمان ، وحسب الناس أن سيشهدوا مبارزوه تجل فى النظائر ، وعلقوا الأنفاس من خشية ومن رجاء ، ولـكنها كانت لحظة مضت كلمح الطرف تحرك فيها السيفان ثم سقطا ، وسقط بعدهما الغريمان .

وبادر الثوار إلى صاحبهم ، فاطمأنوا إذ وجـدوه قد أخطأته ضربة مروان فلم تصب إلا من قدمه ، وأسرع بعضهم إلى غريمهم ليشتفوا منه فأزعجهم أن سيف فتاهم لم يسلبه حياته وإن قطع بعض عنقه . وانطلق إليه على الأثر رجل منهم رأى السلامة فى اقتضائه كل نفس ما زال يتردد فيه .

فسرعان ما أنقذه حسن طالعه كأنما الأقدار أرادت أن تملى له وتبقيه على هـذه الأرض حتى يفرغ كل ما فى جعبة طغيانه ! . بدت فى التو فاطمة ابنة أوس كأنها نبت أطلعته أنفـــاس الشيطان ، ووقفت بهيكلها الذاوى لتحمى الطريح وتدفع عدوه . ثم مالت عليه تجره إلى مأمن وتبتعـــد به ، فما كانت حياته لتهون عليهـــا وهى ظئره التى ألقمته فى مهده ثديها فأصبح منها بمثابة ابن .

وصاحت بالرجل الذى عدا خلفها يحاول أن يدفف على الجريح :

« يا ابن رفاعة حسبك ! إن كنت إنما تريد قتـــل الرجل فإنه قتل ، وإن كنت تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيح . »

فكف يده عنه وفى حسبانه أنها صدقته . وردته عن الشق خديعة العجوز . .

غير أن القتال لم يتوقف ، بل تسعر واشتد ، فما صبر رجال عثمان حين رأوا مروان بادىء الأمر يخرج إلى الوطيس ، ولا تريثوا عساه يصيخ لنداء الخليفة . بل انطلقوا عصبة خلفه يحملون على جموع الثوار ، ومضى فى أثره سعيد بن العاص فى طائفة تحاول أن تشق حلقة الحصار . وخرج بعدهم المغيرة ابن الأخنس بن شريق يصول صولتهم . وينضم إليهم بين فترة وثانية من وسعهم أن يغادروا الدار ليظاهروهم ويرجعوا كفتهم ، فما هى إلا سويعة حتى تفرقوا فى الغمار كالقطرات ، ولقوا من شكيمة القوم ما ردهم عنهم فآثروا أن يلوذوا ثانية بالدار أو يستخفوا بدروب البلدة من الثوار . وبدا الميدان بعد قليل خالياً إلا من أشلاء فريق منهم ودماء آخرين ... أما الفتية حماة الباب فلم يبرحوا ، ولم تكل فى أيديهم السيوف ، وإنما ظلوا ينضحون عنه كأنما تعاقدوا بأرواحهم عليه ، وجرح سبطا رسـول الله ، وشج قنبر مولى على ، وأصيب عبد الله ابن الزبير ، ثم جرت دماؤهم تحت مواطىء أقدامهم كلون اللهب المشبوب فوق رؤوسهم بالسقيفة ، فلا فرقتهم ألسنة النار ، ولا أرهبتهم أسنة الثوار .

وتفكر زعماء الثورة فى الأمر وهم يرون هذه الحفنة من حماة الباب ثابتة لا يفل عزائمها لسع ضرام أو حد حسام . وأوشك اليأس يقعد بهم دون ولوج الدار ، وأوشك أيضاً أن يعصف بقلوبهم القلق من مصير مجهول يكاد أن يفجأهم بعد قليل ، فما نسوا أن جيش الأمـداد فى الطريق لا يفصله عنهم إلا ساعات ، وأن أنباء المعركة دخلت الآن كل بيت وهى حرية من بعد أن تخرج سراعاً من المدينة فيلتقفها الجيش وينبرى يناجزهم حتى تذهب ريحهم إلى غير بقاء ، وما نسوا أيضاً أن خطراً آخر يكاد أن يدهمهم من داخل البلدة ثأراً لصرعى سيوفهم وجرحاها ، إن قريشاً لن تصبر لهم على إيذائهم رجالها . وإن بنى هاشم قبلها لن يدعوا دماء زهرتهم تجف على الأرض دون أن ينهضوا

لكفاح مريقيها . وإذا ذكرت هاشم فقد ذكر على ووجفت قلوبهم لذكره ، ثم أيقنوا بانتقاض أمرهم عليهم وضياع ثمرة نصرهم هذا وثمرة ثورتهم .

أداروا الفكرة فى رؤسهم فما رأوا غير البدار إلى اقتحام الدار ليحفظوا عليهم نتائج الكفاح . ولكن دون الباب فتية كالليوث الغضاب ، وقفوا يمنعون الخليفة الشيخ من أيدى قدره . وما نحسب عثمان فى هذه الآونة وهو يرتل مصحفه إلا كان هادىء البال إذ أودع أكفهم مصيره . إنه بسيوفهم فى قلعة وإن ولى عنه أكثر أهله ومواليه ، وبصدورهم فى جنة حصينة لا يخترقها أشجع مناجزيه . قد أمن بمجاسه أن يناله سوء وقد سدت السبيل الوحيدة التى يجتازها الخطر إليه .

ولكن النازلة لا يعييها التماس الأبواب والمسالك إذا فرغ الأجل ولم تعد فيه بقية لإمهال . . . فمن مأمنه أتى عثمان . تسورت عليه داره عصبة من الثوار نفذت خلسة من دار جيرانه بنى حزم أولئك الذين كانوا أحيانا يمدونه بالماء حين تضيق عليه حلقة الحصار . وكان إذ ذاك هادىء البال قد استراح إلى مصحفه فوضعه بين يديه وراح مع الآيات فى عالم روحى بعيد عن هرج الناس ، وبعد عن الحومة باله ، وفنى فكره فى السطور التى كان يطالعها بصره ، وصفت نفسه فما عاد يشغلها هم دنياه ولا هذا الخطر الذى أخذ يزلزل تحته الدار . فالموت والحياة إبان صفاء الروح سيان ، بل لعله فى هذه الآونة كان جد مشغوف بالرحيل عن الأرض ، يود لو استطاع تعجل قدره واستباق الزمن إلى اللحظة التى ستكون مجازه إلى العالم الأخير ، لشد ما طال عمره فطال به شوقه إلى لقاء الرسول ! وما أبطأ زمنه اليوم من أداة لهذا اللقاء ! .. إن روحه لتهفو إلى محمد وتحن حنيناً لم تعرف له من قبل هذه الحلاوة ، وإن قلبه ليكاد أن يثب إلى دار الخلد ويخلف جسده لو استطاع ، وإن سمعه ليستطيب الآن الكلمات القلائل الرقيقة التى سمعها بحلم ليلة الأمس فيستعيدها مشوقاً فتنساب إليه شجية بغير صوت لأنها حديث روح لروح .. هذه هيئة محمد ، تبدو له فلا يراها بعينه فحسب

وإنما يستشعرها بكل كيانه وقد ملأت عليه مسرى أنفاسه ، لا تغيب عن خاطره ولا ناظريه ، بل تلوح له فى فضاء حجرته ، وعلى صفحات المصحف ، وفى حينما امتد بصره ، ثم لا ينى يسمع منها نفس الدعوة التى أسمعته بالأمس أثناء الحلم :

« ... افطر عندنا الليلة ... »

ومضى فى التلاوة وقد زاده الصوم رقة وصفاء . يتنقل بين السور والآيات ولا يكاد أن يلقى نظرة إلى ما يدور فى الخارج . وأحس بالشغب يقترب منه وترامى إلى أذنه صوت كلام مضطرب كأنه الهمس أخذ رويداً رويداً يبين له ... ولكنه كان مشغولا عنه بما فى يديه . فما كرثه ما سمع ولا نال من هدوئه ، بل طفق صوته يرتل كلام الله .

ووضح الضجيج بعد قليل يختلط بصوت الخطا السائرة فى اضطراب ، وعلت الحركة ، وسادت الردهة خارج الحجرة ضوضاء فيها لغط وفيها وقع أقدام كلها تنم عن طائفة استطاعت أن تقتحم على الشيخ داره وتخلص إليه ، وكلها يومىء إلى الخطر الداهم الذى يوشك أن ينقض عليه . ولكنه فى هذه الآونة كان فى عالم من صفاء الروح ، القرآن فيه حاديه ، قد سار به أشواطاً باعدت بينه وبين الناس حتى نسيهم فلم يأبه لما يتوه من شرور ، بل كان هادىء الوجه ، عامر القلب بالطمأنينة وقد بلغ من تلاوته إذ ذاك قول الله :

(... الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ...)

ثم بدا من فرجة الباب رويجل كأنه ذئب ، صاغ الله وجهه على هذه الشاكلة ليكون مرآة صادقة للغدر الذى ينطوى عليه قلب إنسان ، تطلع بعينيه الماكرتين برهة فى الحجرة ، ورمى بنظرة صفراء إلى عثمان ، ثم ارتد سريعاً كما جاء ، أكان هو يا ترى طليعة الطائفة التى دخلت الدار ؟ .

وفاتت لحظة ، وتبعتها ثانية كأختها فى هدوء . ثم امتلأت على الأثر الحجرة بالجمع الغدار ... ولم يرفع عثمان إليهم عينيه ، ولم ينح المصحف عن

موقعه من حجره . ولم تصمت شفتاه مطلقاً عن التلاوة بل ظل يردد الآيات في هدوء ، حتى حين تعاوروه بالأذى كان كمن غاب عنهم بوعيه وإن حضرهم جسمه . وأقبل بعض نسوة الدار على الضوضاء . وصرخن وقد شهدوا الواقعة فانجفل عنه العادون . ولكن خلفوه هامد الحركة وقد حسبوا أنه فارق الحياة.

ولكنها كانت غشية أفاق منها الشيخ بعد قليل ، فما فتح عينيه حتى دخل عليه محمد بن أبي بكر ... في البدء ظن الفتى — وقد سمع الصراخ — أن عثمان قد انطوى من الدنيا سجله . فلما اجتاز باب الحجرة إليه ورآه معافى ، صاح به وهو لا ينسى موجدته عليه مذ أوشك أن يغري عامل مصر بالفتك به :

« أما أخزاك الله يا نعثل ؟ » .

فابتسم عثمان بسمة مرة ، فقد أوشك في هذه الآونة أن يسمع عائشة بلسان أخيها ! .. ثم قال يجيب الفتى في هدوء :

« ما أنا بنعثل ، ولكني أمير المؤمنين » .

فابتدره محمد بقهقهة ساخرة ، وقال في استنكار :

« فعلى أي دين أنت ؟ .. »

« على دين الإسلام » .

« بل بدلت كتاب الله » .

« كتاب الله بيني وبينك » .

ومد بالمصحف يده وهو هادئ الوجه فأثار غضب الفتى حتى قفز يمسك بلحيته مستهيناً بشأنه ويصيح :

« ما أغنى عنك معاوية ؟ .. وما أغنى عنك مروان ؟ .. وما أغنى عنك ابن عامر ؟ .. إنا لا يقبل منا يوم القيامة أن نقول : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل .. »

فما دفعه عثمان ، ولا حرك يده نحوه ، بل قال بصوت هادئ رقيق وعينه تبعث نحوه بنظرة عتاب وحنان :

« يا ابن أخى ، دع لحيتى فقد كان أبوك يكرمها ، ووالله لو رآك لبكانى ، ولساءه مكانك منى ... »

فكأنما الزمن قد ارتد بمحمد إلى طفولته وكلمات الشيخ لم تجف على شفتيه ، انتفض الفتى ، وهزته الرقة التى خاطبه بها عثمان . وبدا كأن عاد ثانية إلى محضر أبيه قبل عشرين عاماً ، طفلا طرى العظام يتهيب مجلس أبى بكر ولا يكاد من حيائه أن يصوب إليه بصره ، لاح كأن أباه اليوم قد امتدت عينه من خلال الماضى فرمقته بإنكار ، وتقبلت فعلته بالزراية الواجبة لكل فعلة تنطوى كمثلها على إغفال التوقير المفروض على الصغار حيال الكبار ، من خلف الأعوام مثل أبو بكر فى خاطر ولده فرده كما كان فى حياته ، يستشعر الرهبة والخشية فى حضرة أبيه ، ويتوقى أن يمد لسانه فضلا عن كفه بما يثير غضبه عليه ، فى مثل اللمح فنيت شخصية الفتى القوى الصخاب فى صورة الطفل الحيى الهياب فغاب عن باله كل جبروته ، ومضى عنه اعتداده بنفسه ، ولم يبق منه إلا الطفل الآثم أمام عينى أبيه وقد كادتا أن تتسعرا عليه .

فإن هى إلا تلك الكلمة الرقيقة نطقها عثمان حتى سلبت الذكرى محمد ابن أبى بكر كل إرادته ، وجاءت بطفل الماضى على جناحها ، ضعيفاً أخزاه إثمه فاخفى وجهه فى كفيه عساه ينأى عن نظرات أبيه الغضبى ، ثم أسرعت به قدماه إلى الباب ودمعه يبتدر ، وقلبه من فرط الحزن يكاد أن ينفطر ، ولقى هناك عصبة تهم أن تخلص إلى الشيخ فتنال منه مالم تنل طليعتهم ، فوقف يسد أمامها المجاز . لقد انقلب الآن غيره بالأمس ، وارتد آخر يستشعر واجباً جديدا نحو عثمان . إن ذكرى أبيه حملته رسالة واجبة الأداء نحو هذا الصديق المخذول فى ساعة المحنة التى عز فيها الناصر وولى الولى الأمين .

جاهد محمد أصحابه ودفعهم عن الباب بعنف أنكروه منه وملأ نفسهم بالعجب قبل الغضب . ولكنهم ما كانوا ليدعوه يحرمهم ثمرة جهادهم وهى دانية تهد الأنامل . أو يركنوا إلى النصح الذى محضهم إياه إذ ذاك وإن عرفوه

من قبل ثائراً كثلهم يمنى بنجاح خطتهم كئل عنايتهم ، ولكن المداورة التى انتهجوها بادىء الأمر حياله لم تردّه عن عناده ، بل جعلته أشد مراساً وأصلب شكيمة كأن أبا بكر كان على رأسه إذ ذاك ! .

غالبهم الفتى ما وسعه ، وردهم عن باب الشيخ الذى أقدموا يحملون له الموت فما أغنى غلابه ولا كفاحه ، وما أغنى عنه ندمه أو حياؤه اللذان سددا تصرفه فى هذه الآونة التى كان القدر قد أتم فيها رسم طريقه إلى مصير عثمان ... فقد ظفرت العصبية أخيراً بما شاءت ، وغلبت محمداً على موطىء قدميه ، ثم جاوزت الباب إلى الخليفة المستسلم لقدر الله .

وبدأت فى التو المعركة التى سادت فيها فوضى الجمهور ، ليس يسيرها عقل، ولا تمسكها حكمة ، الحيوانية البشرية وحدها هى التى كانت تعمل ، والهمجية الرابضه فى نفس الإنسان استوت مارداً عاتياً يشبع شهوته من الحقد والضغن والانتقام ... لكأن كل واحد من أولئك الثلاثة عشر الذين اقتحموا على الشيخ حجرته كان شيطاناً لم يعرف قلبه طعم الرحمة ، ولم يستشعر مطلقا عاطفة نبيلة جرت فى جنبيه ، بل انطلق بهم جميعا الغل إلى غايته حتى لودوا لو كان منهم مائة كف فى كل كف مائة حربة ، لكل حربة ، مائة ذؤابة يطعنون بها الخليفة الأعزل ! .

كان الشيخ مأدبة لذئاب نفوسهم المهومة ! . أهوى عليه أحدهم بحديدة، وعاجلة ثان بلكزة من نصل حسامه ، ووجأ ثالث بمشقص فى ترقوته ... فلما هاض وأوهى قوى لم يهاود ، ولم تأخذهم الشفقة بضعفه ، بل أمعنوا فى قسوتهم كأن لون الدم الذى أخذت تلفظه جراحه زاد وحشيتهم ، وتعاوروا عليه بكل أداة ملكتها أيديهم ...

ثم جاء رجل قد أفرغ من قلبه الإيمان فتقدم بسيفه إليه،وضرب المصحف برجله فأطاحه ... وحز الألم فى قلب عثمان وقد رأى قرآن الله يمتهن هذه المهانة ، وعز عليه ان يدعه لقى فوق الأرض فجهده وسعه ليلتقطه . فإن هى إلا

حركة دارها النصل حتى انفصلت الأصابع الراعشة عن كفها ، وسقطت تنتفض إلى جوار الكتاب .

وألقى عثمان عينا دامعة على سلامياته الملقاه ، وعض على شفتة من فرط وجمه ، ثم رفع إلى جلاديه وجها ينضح بألمه العميق ، وهمس بصوت خافت لاتكاد أن تلقفه الأسماع وهو يهز أمامهم كفه البتراء :

« أما والله ... إنها لأول يد خطت المفصل ... وكتبت آى القرآن ... »

وأقبلت نائلة على الأثر ولهى ، تحاول أن تحاجز بين زوجها وبين عداته ، حتى خلصت إليه ... واحتوته فى صدرها كطفل وهو ينوء ، وأكبت عليه حين سقط فسترته عنهم ، وجعلت من جسمها درعا تقيه ، ورأت سيفاً يلمع نصله كالشهاب فوق رأسها ويهم أن ينقض على الشيخ فسارعت بكفها تتلقاه وتدرأ ضربته الصاعقة عن زوجها المهيض ، ولكنها لم تغن شيئاً عنه فى النهاية بل لقداندفعت من الغرفة تولول ويقفوا أثرها خيط من الدم الذى نبع من منابت أصابعها المقطوعة . . . ومضت لاتتبين طريقها بعد أن خلفت عثمان هامد الأنفاس ، قد نال جلاده الوطر وإن بقى يتمتع نفسه بالمثلة كما يشاء ، ويضع السيف فى البطن المبقور ، ثم يتكىء بصدره على مقبضه ليغوص فيه النصل كله ، كأنما أراد أن يسمع قرقعة عظام ظهره وهى تتقصف تحت وطئه كقطع الخاف .

وقضى الأمر ، وانطوى سجل عثمان .. وبدت الحجرة بعد قليل فارغة إلا منه إن بقى من جسده الشائه ما ينبىء عنه ، وكان الدم لازال دافئاً لما يبرد ، سيالا يفيض من جراحه ، ويتحدث بلسان صامت عن الهمجية التى لم تستأصل جذورها من النفس البشرية قوة دين ركين ناشىء لم يجف بعد المداد الذى كتبت به تعاليمه ! .. فلقد رقد المصحف بجوار الجثة غير بعيد منها ، عنوانا على السلام الذى أراده الله ورسمه فى آياته للانسانية ، إلى جانب الوحشية التى أبت إلا أن تنضح عنها النفس البشرية ، حتى المصحف المقدس أصابه من عنت الإنسان بلاء ، ومن كفرانه اعتداء ... ولكنه فى صمته كان أبلغ من كل حديث يستطيع

أن يصوغه ناطق مبين ، فلقد حدثت فى هذه اللحظة آية لمن أراد التماس العبرة من هذه القصة الفذة فى العدوان ... كان دم الخليفة لايبى ينبع وئيداً من جراحه ، وينطلق قليلا قليلا فى نفثات كأنفاس النزع ، ويتجمع قطرات تلساقط على صفحة مفتوحة من الكتاب ، حتى إذغاض النبع ، وجمدت الجراح وجف سيل الدم المراق على الآيات ، بدت هى من تحته مكتسية لونه ، حمراء قانية كأنها تومىء إلى غضب الله الساهر الذى لا ينام ، فتقول بغير لسان فى أوضح بيان :

« فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »

ونفذ القاتل — وسيفه مازال يقطر من سنانه دم الخليفة الشهيد — فاندفع فى غمار الثوار ، على وجهه سمة الذئب المرتوى من دم فريسته ، وفى عينيه بسمة شماتة كريهة ، وبقلبه قد استراح وحش الغدر وطاب مهده ... مازال يتفرس فى الوجوه المتطلعه نحوه ، ويحث خطاه بين الجموع ، ويشق طريقه غير مبال بما يثيره فى النفوس مظهره المريب إذ يصيح :

« قتل عثمان ! . مضى الرجل أيها الناس ، فأين طلحة بن عبيد الله ؟ »

ولكنه لم ير طلبته ، ولم يستطع أن ينبئه الخبر الذى كان يزجيه كالبشرى السارة ... فقد غاب عن الحومه طلحة ، وانزوى بعيداً حتى لاتلصق به الشبهات ، ففاته أن يشهد بعينيه الثمرة التى طالما تعهد غرسها الخبيث .

.. وغام ضوء الحجرة مسرح المأساة ، واخذ لون السماء خارجها يتحول دامياً وقد صبغه الشفق ، وكان الأفق البعيد يوشك أن يتلقى الشمس التى أوهنتها رحلة النهار وهى تنزلق نحوه وئيداً لتخفى وجهها المحزون فى نقاب المساء . ثم راحت أطياف تنفذ خلال الشرفة ، خافتة كخفقة السراج الخاف ، وإنساب شعاع وان إلى جثمان الطريح يمسه ، ويمر عليه فى ترفق كأنه أم حانية مدت كفا لتوقظ وليدها الوسنان ، فلقد طال رقاده ، وآن له أن ينتبه ويتهيأ لموعده المرقوب مع الرسول الحبيب ... أليس الغروب قد آذن الآن بانتهاء الصيام ؟ ...

الإمام

١

كان المساء قد ألقى ظلاله على الدار وامتد يلف ما حولهـا من رحاب ، وكانت جموع الحصار حيرى ، قد ألقت السلاح ووقفت واجمـة تعلق الأبصار بموئل الخليفة الصريع ، كأن قد هالها ما أقدمت عليه ، شملتها الرهبة التى غلفت المكان كله ، وعمها الصمت حتى ليسمع تردد الأنفاس .

وكانت الغرفة التى شهدت المصرع ساكنة كأنهـا قبر وإن وسمها ظهر الأرض ، معتمة وإن طوفت بهـا أضواء النجم السارية من خلال الغرفة ، لايبدو شاغلوها إلا كأشباح . مذ انجاب ضجيج المعركة لم تمتد لها يد بالتغيير ، بل بقيت كحالها ، فى جانب رقد جثمان عثمان ، لف من دمائه فى ثوب . وعلى مقربة منه المصحف المضرج ، مازالت إلى جواره سلاميات الأصابع ، مختلطة لا يعلم أيها للشيخ وأيها للزوج الثكلى . والأرض كلها حمراء قانية ، لونها ما سال من جراحه وجراح جلاديه ، فإلى الباب رقدت ثلاث من جثث الثوار دفع أصحابها من حياتهم ضريبة الجريمة ، وقيد خطوات منهـا بضعة قليلة من موالى عثمان آثروا أن يثأروا لسيدهم فقاتلوا عنه حتى تبعوه إلى المصير المحتوم .

ثم تحركت فى الغرفة ظلال حيرى ، انبعثت عن نفر دخلوها بغير ضجيج كما تتحرك الأشباح . لكأنما كل حاضر نبا به الآن موطىء قدميه فليس يستقر على أرضها القانية بمكان . الرهبة ملكتهم ، والأسى عصف بقلوبهم فما زالت قوة اضطرابها فى جنوبهم تهز كيانهم فتردهم إلى وراء أو تدفعهم إلى أمام . العواطف سيطرت على خطوهم ، والمشاعر الجياشة كانت النوء الذى يلعب بالقارب السارى فى غمار العباب . والحزن الفاجع غشى عيونهم بدمع كثف على مآقيهم حتى أخفى عنهم المرئيات إلا ماتنقبت به من ضبابه . قد سكنوا إلا همسة ، وصمتوا إلا نفسا غير موصول ، فلا تنبىء عن حياتهم سوى الزفرات التى تتردد عنهم . وألقوا السمع والبصر جميعاً إلى الجثة المسجاة التى غلها فوق ثوب دمائها دمعهم السيال . وألقوا الفؤاد ايضاً إلى ذلك الهوكل المطرح من

اسى إلى جوار عثمان . وأمسكوا أنفاسهم يرقبونه بإشفاق ، ذلك على قد غلبته الفجيعة وأودى به حزنه ففامت عينه ، وهمد حسه ، وراح فى غمرة غشية عاتية أحالته صامتاً صمت الموات . . .

ومضت اللحظات بهم كأنها الدهر الخالد . أو كأن الفلك السيار قد توقف عن دورته فجمد الزمان على حافته جمود المكان . . . وثقلت عليهم نفوسهم حتى غدت شيئاً يحسونه وينوءون تحت وقره ، وتأرجحت أنفاسهم فى الجو تتردد ولا تتبدد . كلهم شغلتهم الواقعة وأذهلتهم عن كيانهم . وقاربت بينهم وبين خمود العدم . وأوشكت أن تميد بهم فتطرحهم كصاحبهم الراقد إلى جوار جثة الخليفة ، لولا مسكة من شعور أبقت عليهم فتعلقوا منها بالوعى بما يشبه الخيط الرقيق . ولم تزل دماؤهم تسير فى عروقهم وانية كأنها تتردد بين التوقف وبين التدفق ، حتى رأوا عليا يتحرك وينفض عنه غشيته فدبت فيهم الحياة . .

وتبعوه فى وجوم وصمت وهو يقهر قدميه على المسير . وكان ابناه واقفين فى صحبهم الشبان ، ناكسى الرؤوس حين جاء الخبر إليهم بمصرع الخليفة . . فما أشرف عليهما حتى سارعا إليه ، وخفت اللغط الدائر على ألسنة القوم . ودار على بنظرات غضبى فى وجوه الفتية . وتلهبت عيناه وانعقد مابين حاجبيه فى عبسة يكاد ان ينبجس منها الدم . . . ثم أهوى بكف على وجه الحسن وبالأخرى على وجه الحسين . وثار بأصحابهم يلحاهم فانطووا على أنفسهم لا ينطقون هيبة منه لولا أن انبرى له طلحة يقول :

« مالك يا أبا الحسن تضرب وتشتم ! . . . »

فصاح ولم تخف سورة غضبه :

« يقتل أمير المؤمنين وهم بالباب ، ولم تقم عليه بينة ولا حجة ؟ »

« لو دفع مروان ما قتل . . . »

فصمت على . إنه ليعلم أن الخطر على الخليفة كان يجثم دائماً خلف أهل

بيته ، أولئكم العصبة الأموية التى كان على رأسها مروان . فلقد أساءوا توجيه الشيخ ولم يخلصوا له النصح ، وكانوا أقدر على تجنب الفاجعة لو سلكوا سبيل الرشاد . ولكن صلفهم أعماهم ، ومطامعهم الشخصية أبت عليهم إلا التضحية بكل شيء فى سبيل مآربهم . حتى فى هذه الأزمة الأخيرة كان فى مقدورهم إنقاذ سيدهم ، ولكن حماقة مروان أرثت النار الهامدة فى نفوس الثوار ، ولم يكفه أن كانت سياسته من البدء مدعاة لإثارة سخط النـــاس حتى صار كلما هم الخليفة بإصلاح الأمور يوسوس له فينقض وعوده ويعدل عن الخطة المثلى التى كانت كفيلة بالتفاف القلوب عليه . فلما أن بلغ الحنق فى النفوس مداه ، وأيقن أن القوم غير تاركى عثمان حتى يعزل مشيره الخبيث ، تعجل بنفسه الخاتمة وقد سبق إلى وهمه أنه غالب عليهم ، وموطد سلطانه بقوة السلاح مادامت جيوش الأمداد قد باتت من المدينة على مسيرة ساعات . . .

ولكن تقديره خذله ، وانتهت دولته أسوأ انتهاء ، وبات وأهله لا يستطيعون أن يملكوا لأنفسهم نفعاً ولا مضرة . ومن بقيت بقلبه بقية جلد استخفى عن عيون الناس بمعزل خشية أن يظفروا به فيقتلوه . ثم راحوا يتحينون السوانح للفرار من حاضرة الملك التى شهدت لهم صوراً من السيطرة والطغيان ظلت ماثلة فى أذهان الشعب الموتور لا تريم .

واختلط الأمر بالمدينة ، وخرج لتوه من أيدى قريش التى قسمتها الأهواء ، فأصبحت مزقا محاولة بعد أن وحدها قصى من أجيال وجعلها كتلة ترهبها العرب فتعنو لها الجباه . فما بقى منها اليوم قبيل يشعر بشعور أخيه ، أو يمد كفه ليأخذ بناصره ، بل تفرقوا جميعهم أمام القوى المتحدة من أهل الأمصار ، وراحت مطامعهم تتجمع لتأخذ لنفسها السلطان ، وكما كانوا فى حياة عثمان يعملون جهدهم لنزع أمره منه ، فقد راحوا الآن يدأبون على الحيلولة بين السلطة وبين كل من أحسوا أنه بسبيل الفوز بها لمزية توشك

أن تؤهله للسيادة . ركبتهم ثانيه عصبية الجاهلية . وغلبتهم على حقهم المشترك بين قبائلهم تلك الرغبة الجامحة التى جاشت بنفوس كل فرع منهم للتفرد بالإمرة من بقية الفروع .

وساد الإرهاب بلدة الرسول ، لايكاد أهلها أن يثبتوا أمام أصحاب الثورة رأى وإن كانوا قد أعانوهم على غايتهم ، فلم يكن ثمة فى أيديهم سلاح يستطيعون به أن يملكوا الزمام ، ولم يكن بينهم رجل واحد يرضون جميعاً أن يلتفوا عليه بعد الخليفة القتيل ، بل مزقت المطامع شمل وحدتهم . حتى قوى الأمداد التى جاءت من الشام لنصرة عثمان لم تتحرك حين بلغها مقتله إلا لترتد على أعقابها كأمر معاوية عائدة إلى الشام ، فقد انتهى الآن واجبها الفعلى ، وأحسنت القيام بدور الغائب الذى أرادها عليه إن وقع المصرع تحت سمعها وبصرها ، لأنها ما بعثت لتنصر وإنما لتبدو فحسب فى ثياب النصير ! ..

ودانت الرقاب لرجال الثورة ، وأصبح الحكم بحاضرة الإسلام فى كف الغافقى أمير المصريين يصرف الأمور ويؤم الناس فى الصلاة ، ولم يكن هذا لأنه طمع فى الخلافة ، ولكنه أيس من تقليدها رجلا يرضاها ويرضاه الناس فلقد أباها على وعزف عنها ، وظل يباعد القوم كلما جاءوا يعرضون البيعة ، ويلوذ بفضاء المدينة بعد أن هجر داره حتى لايلحقوا به ... كان يرأ أن يؤول إليه الأمر على يد الطائفة التى توسلت إلى غايتها بالعدوان ، فلما أن طال احتجابه عن الناس تفكرت طائفة من أهل البصرة أن تدلى بالبيعة إلى طلحة ، وأخرى من أهل الكوفة أن تدلى بها إلى الزبير . ومضت كل إلى صاحبها تحاول أن تقدم له هديتها ، ولكن غمرة الحماس كانت قد ولت مع الصباح ، وعادت إلى السيطرة دولة العقل بعد دولة العواطف ، فما إن رأى القوم صاحبيهما يضمهما المسجد حتى صاح فيهما من صاح :

«أيها الرجلان .. إنكما وقعتما فى أمر عثمان فخليا إذن عن أنفسكما ، ودعا الأمر ! ..»

ولعلها كانت دعوة من خبير بخفايا الانقلاب أحب أن يبعد بالخلافة عن كل ذى مطمع ركبت به أهواؤه سبيل الحيف على الخليفة القتيل ... ولعلها من حكيم شاء أن ينهى عهد الطغيان بقطعه الطريق على ذينك اللذين أعانا عليه ... ولعلها من صاحب رأى فى الصاحبين يضن بالإمرة على كليهما وهو مؤمن أنهما أهون شأنا من أن يصلحا لقيادة شعوب الإسلام ... على أى حال لقيت هـذه الدعوة عند الجموع المزدحمة بالمسجد ذلك النهار هوى جعلها تتقبلها أحسن القبول . وترددها جادة غير هازلة . وتطلق أحاديثها المتجاوبة فى أبهاء المكان تجبه الرجلين بأشنع اتهام ولا تتحرج أن تلقى على رأسيهما تبعة قتل عثمان ...

وفزع طلحة فقد رأى الناس يثوبون إلى عقولهم بعد أن انجابت عنهم غمرة العواطف ، ويندمون أشد الندم على ما انتهى إليه مصير الخليفة الشهيد ، ويأسون لحاله أسى ودوا معه لو كانوا استطاعوا التريث به وإمهاله لعله ينزع عما عابوا عليه . وفى كل قلب منهم إذ ذاك نقمة من الزمن الذى جرى بهم شوطة إلى نهاية كريهة تعجلها فى البدء غضبهم ثم أنكرها وعيهم حين لم تعد ثمة جدوى من الإنكار ... فزع طلحة من هول الاتهام الموجه إليه وتبين شناعة الصورة التى تجلت منه لأعين المسلمين ، فقام إلى المنبر لعله يستطيع أن يضفى ظلالا كثيفة تحجب عن أذهان الناس ما مثل فيها من صورته الشوهاء ...

قال يوضح لهم حقيقة موقفه من عثمان :

« ... أما بعد ، أيها الناس ، إنا والله ما نقول اليوم إلا ما قلناه أمس . إن عثمان خلط الذنب بالتوبة حتى كرهنا ولايته ، وكرهنا أن نقتله ، وسرنا أن نكفاه ، وقد كثر فيه اللجاج ، وأمره إلى الله » .

وهب الزبير على الأثر يدفع عن نفسه ، ولكنه فى دفاعه كان أحكم من صاحبه ، وأعرف منه بالوسيلة تشغل عنه ظنون الناس لأنه كان أقدر على توجيه انتباههم إلى قضية آثر عندهم من قضية الاتهام ، هى الاستخلاف قال .

« أيها الناس ... إن الله قد رضى لكم الشورى فأذهب بها الهوى ، وقد تشاورنا فرضينا علياً ، فبايعوه ... » .

وتهامس القوم ، وتنقلت نظراتهم الدهشة بين الصاحبين ، قد أجمعا إذن الرأى ، وخرجا من البيعة لمن رأياه أولى بها عند الاختبار فألفا بين تيارات الأفكار المختلفة التى كانت تتفرق بها آراء أهل الأمصار ، لامدعاة الآن إلى الخلاف بين الكوفة والبصرة ومصر مادام الزعيمان قد دانا فى النهاية وأقرا بالإمرة للثالث العظيم .

وراح الزبير يتم حديثه عن عثمان والناس بحسبانى يشغلهم عن الإنصات لخاتمة بيانه جلال ما أزجى إليهم فى مقدمته .

« ... أما عثمان فأنا أقول فيه إن أمره إلى الله ، وقد أحدث أحداثا ... والله وليه فيما كان »

ولكن علياً لم يستجب لهم ، وظل مؤثرا الاعتزال ، يرد كل من جاءوه منهم يعرضون البيعة ، ومضى يوم،وتبعه آخر والأمر على ما هو عليه ،لا يستبين الناس لهم مخرجا من الحرج الذى أصبحوا فيه . وثقل على الثوار أن يسير فى البلاد نبأ مقتل عثمان ولا يسير معه نبأ اختيار خالف له على الأمة فتفسد الأمصار ويتناحر أصحاب الهوى والأغراض فتنحل عرى الدولة . وكانت الحيل قد أعيتهم من قبل دون حمل أحـــد من أصحاب رسول الله المقربين على قبول الخلافة .

فلقد آثر سعد الحيدة ، وأبى ابن عمر إلا إعتزال السياسية والبعد بنفسه عن خضمها الصخاب ، ووضح لهم موقف الزبير وصاحبه وما بدا من تهيبهما إدخال أنفسهما فى أمر يرى الناس أنهما جنحوا فى سبيل الفوز به إلى العدوان . ثقل على رجال الثورة أن يذهب جدهم هذا عبثاً فأجمعوا الرأى على سلوك طريق العنف والإرهاب،عساهم به يستطيعون توحيد الكلمة وإنهاء مشكلة الاختيار.

وتنادوا فيما بينهم ، وانطلقت رسلهم بالمدينة إلى كل صوب يجمعون من

يلقون من أصحاب رسول الله ومن كبار المهاجرين والأنصار، ونشطت الرسل فيما طلب إليهم ، وأخذو تباعاً يعودن بذوى الشأن فى البلدة ومنهم من قد أوشك أن يبرحها إلى مكة أو استخفى فيها بحائط أو بناحية ... فلما حشدوهم جميعاً فى مكان واحد ، وفيهم طلحة وسعد والزبير والكثرة الغالبة من الصحابة قام فيهم متحدث عن المصريين يقول :

« ... يا أهل المدينة ، إنكم أهل الشورى ، وأنتم تعقدون الإمامة ، وأمركم عابر على الأمة ، فأنظروا رجلا تنصبونه ونحن لكم تبع » .

فتهاتف الناس من كل جانب :

« على ... على بن طالب ... نحن به راضوان . »

« فدونكم ، وإنا لمؤجاوكم يومين اثنين ، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً من رجالكم كثيرين ! ... »

وشهد مسجد رسول الله لثالث مرة منذ وفاة محمد تلك الفئة الخالصة القلوب من الشوائب ، الذائدة عن الحق للحق ، تجتمع لتجأر بالدعوة التى أشربتها نفوسهم الصافية، وغلبهم الزمن عليها أعواماً حتى أوشكت ان يحتويها النسيان ، شهد المسجد أولئك النفر من أصحاب محمد الأوفين الذين لم تفسدهم الأهواء والمطامع ، يقومون ثالثة لنصرة القضية التى قاموا فيها ساعة استخلاف أبى بكر، ويوم اختيار عثمان ، ويرفعون أصواتهم فى الملأ اليوم يطلبون بها النصف عند كل حريص على إقامة الحق ورفع دعامانه، لم ينتقص مر الأعوم من شجاعتهم،ولا إخلاصهم لصاحبهم الذى آمنو بحقه ومزاياه ، ولم ينفكل عنهم واحد من جمعهم القديم إلا من كان التراب قد طواه ، وإنا لنراهم الآن من خلال الماضى كما كانوا من قبل ، لولا أن الزمان جرى بهم أشواطا طويلة فى خريف العمر ، ولكنهم مع ذلك ظلوا ذوى قلوب فتية وأرواح قوية قوية . قد التأم جمعهم القديم كسابق عهده لتحقيق هدفهم المرموق ، فيهم عمار ، وأبو الهيثم ، وأبو أيوب

ورفاعة ، ومالك بن العجلان ومن لف لفهم من أصحاب على الغيورين على حقه أشد من غيرته عليه .

التأم جمعهم بالمسجد ذلك النهار كاجتماعهم بفضاء بنى بياضة تلك الليلة الأولى من عهد أبى بكر ، يتدارسون الحال ، ويتذاكرون الوسيلة الكفيلة بإعادة الحق القديم إلى صاحبه وصاحبهم صفى حبيبهم رسول الله ، وكانت طوائف من أهل المدينة قد علمت بأمرهم فأقبلت عليهم ، ثم طفقت الجموع من بعد تفد فتمتلىء بها رحبات بيت الله حتى ضاق المكان بمن فيه .

ووقف أخيراً فيهم عمار يقول :

« أيها الأنصار ، قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه . وأنتم اليوم على شرف من الوقوع فى مثله إن لم تنظروا لأنفسكم ، وإن علياً أولى الناس بهذا الأمر ، لفضله وسابقته » .

فامتلأ المسجد بصوتهم الداوى ينطلق كمن فم رجل واحد :

« رضينا به » .

فالتفت صوب الحشد الزاخر وفيه كثيرون من المهاجرين وقال :

« أيها الناس ، إنا لن نألوكم خيراً وأنفسنا إن شاء الله . وإن علياً من قد علمتم . وما نعرف مكان أحد أحمل لهذا الأمر ولا أولى به » .

فجاءه على الأثر من الجموع الحاشدة الجواب الذى أثلج صدره وطيب خاطره وباله :

« قد رضينا ، وهو عندنا على ما ذكرتم وأفضل » .

فانطلقت طوائفهم إلى على وفيهم الزبير وطلحة تتبعها زمر من أهل المدينة ومن رجال الأمصار على السواء . وكان معتزلا بداره فضربوا عليه بابه حتى أخرجوه وهو مستكره . والتفوا عليه من كل جانب يهتفون له ، ويهيبون به أن يقبل بيعتهم ، قالوا له :

« يا أبا الحسن . إن هذا الرجل قد قتل . ولا بد للناس من إمام . ولا نجد

اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب من رسول الله » .

فأبى أن يستغل عاطفتهم الكريمة التي دفعتهم الآن إليه . بل قبض دونهم كفه ، وأجاب :

« لا تفعلوا ولا أفعل ، فإني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً » .

فتهاتفوا به ثانية :

« أنت لنا رضى » .

فهز لهم رأسه إباء وقال :

« لا حاجة لى فى أمركم أيها الناس . أنا معكم ، فمن اخترتم فقد رضيت به » .

وصاح به من بينهم الأشتر مالك بن الحرث أحد زعماء أهل الكوفة :

« والله لتمدن يدك نبايعك أو لتعصرن عينك عليها ثالثة ! » .

فلعله حسب أنه بصدد رجل يأسى على ما فات من نصيبه فى هذه الحياة ، أو يعنى بعرض من عروضها جل أو هان .

ولكن علياً لم يعجل به ، ولم يستسلم للغضب عليه ، بل قال فى هدوء يخاطبه ويشرك القوم فى الخطاب .

« دعونى والتمسوا غيرى أيها الناس ، إنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان ، لا تثبت عليه العقول ، ولا تقوم له القلوب » .

وأحس الأشتر على الأثر بسوء ما كان منه . وشعر أنه حيال رجل ليس كسواه بل من طراز فذ فى الرجال يستقبل الأمر بالنظرة الجادة التى تستطيع النفاذ إلى أغواره واستكناه خفاياه ، ولئن كانت الخلافة هدفاً له منذ قديم فإنها لم تكن مطلقاً كل أهدافه ، ولم تكن غاية رنا إليها طموحه ، بل هى وسيلة إلى غايات أعز عليه من السيادة وحكم الناس هى العمل لإعزاز الدين والسمو بنفوس الناس ، أما مظهرها ، وجاهها الرفيع ، والمجد الذى قد تسبغه على شاغل مقعدها ، فكلها هنات لا تملأ من قلب ابن أبى طالب مثل ما تملأ شعرة .

ورفع الأشتر إليه وجهاً يفيض بالإكبار . وراح فى توسل يهيب به باسم الإســلام واسم الأمة أن يستجيب لثقة الناس به فيقبل الواجب الذى لا يستطيع غيره القيام به فى هذه النازلة التى توشك أن تدك صرح الدولة الفتية . . ثم أردف توسله فى ختام حديثه بأن قال :

« ننشدك الله ، ألا ترى ما نرى ؟ . ألا ترى ما حدث فى الإســلام ؟ . ألا ترى الفتنة ؟ . ألا تخاف الله ! ؟ . . »

وأنصت القوم من بعد صامتين ، وقد تعلقت عيونهم بشفتي الكهل الذى تجسمت فيه آمال أمته ، وانتهت إليه مشيئتها وقد أشفقوا أن يجيئهم جوابه بغير ما يشتهون . ولـكنه قال بعد روية وتفكير :

« قد أجبتكم لما أرى منكم . . . ألا فاعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتمونى فإنمــا أنا كأحدكم ، بل أنا أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم » .

فصاحوا به هاتفين وقد تفرجت منهم الصدور :

« ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك » .

فابتسم لهم ابتسامة رقيقة ، وقال وهو لا ينسى خطته فى التزام مثله العليا حتى فى هذه اللحظة التى أجمعوا فيها رأيهم على تقليده إمارتهم :

« إن كان لا بد من ذلك ففى المسجد ، فإن بيعتى لا تكون خفياً ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين ، وفى ملأ وجماعة » .

واتعدوا الغد ، وتفرقوا عنه وكلهم راضى النفس يكاد أن يرى الخير فى ركاب المستقبل ، فلما أشرق نهار الجمعة ساروا والشمس إلى قبــلة أنظارهم ومهوى عواطفهم ، وطفقت جموعهم تزيد وتتكاثف حول داره حتى غص بها الفضاء ، وخرج إليهم فتداكوا عليه تداك الإبل الهيم على وردها حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً من فرط ازدحامهم عليه وشدة رغبتهم فى الخلوص إليه كأنما لم يشاهدوه إلا اليوم . . . ثم انطلقوا وإياه إلى المسجد وأصواتهم لا تكف عن التهليل والتكبير .

وصعد المنبر ، وألقى بصره هنيهة على الجموع الزاخرة التى ضاق بها المكان فوقفت خارجه كأنها البنيان المرصوص ، ورفع صوته بالكلام ، فحبسوا الأنفاس.

قال بصوته الرصين :

« ياأيها الناس .. عن ملأ وإذن ؟ .. إن هذا أمركم ، ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم ، وقد افترقنا بالأمس على أمر ، فإن شئتم قعدت لكم ، وإلا فلا أجد على أحد » .

فزلزلت الأرض بالهتاف له ، ثم بان جوابهم الصريح كالهزيم :

« نعم .. نحن على ما فارقناك بالأمس » .

« ألا أنى كنت كارهاً لأمركم فأبيتم إلا أن أكون عليكم .. رضيتم ؟ »

« نبايعك على كتاب الله » .

« اللهم اشهد عليهم » .

فتدافعوا إليه كالموج ، يلتفون بالمنبر وقد سبقهم نحوه كبار المهاجرين والأنصار ... كل يرجو أن يكون له شرف البدء بتحيته قبل غيره بسلام الخلافة .

ووقف حبيب بن ذؤيب على كثب منه ، وقد منعه تدافع القوم من الوصول إليه فآثر التريث حتى تبين له فرجة بين الجموع ، وراح يرقب البيعة ، ويتلهى بتصفح الوجوه التى اجتمعت حول المنبر وأصحابها يهمون أن يعلنوا ولاءهم للأمير الجديد . وأخذت نشوة الفرح بقلب الرجل . وطابت نفسه وهو يشهد وحدة قومه بعد تفرق ، لتكاد المدينة كلها أن يحتويها المكان . وأوشك ألا ينقص الجمع الزاخر أحد من أصحاب رسول الله . بدت البيعة ذات جلال ، جامعة ، قوية العمد إذ تستند إلى إرادة الشعب ، فلم يتخلف عنها السادة ولا الجمهور . وقاربت روعة هذا أن تنبىء عن عصر زاهر سعيد يلتئم فيه شمل الأمة ويعلو شأو الإسلام .

ولكن ابن ذؤيب قعد عنه أمله ، وذبلت فرحته ، فإن هى إلا عين رفعها

إلى المنبر حتى غاص قلبه وأوشك أن يكف عن وجيبه ، إن هاتفاً راح يهمس له الآن فى أذنيه ، تلك اللحظة التى رأى فيها طلحة يصعد درج المنبر إلى على ، هاتفاً عاتياً ، مدوى الصوت فى سمع ضميره أخذ يلح عليه بوسوسته حتى ماملك أن طفق يردد لنفسه فى ذهول :

« أخلق بها أن تنكث » .

ثم ثاب . فلما أن وقعت عينه على المنـــبر ثانية ، ورأى هناك يد طلحة تمسك بكف الإمام ، أحسها تعتصر قلبه فى قبضتها ، وتستنزفه ما بقى فيه من قطرات أمانيه فى العصر الزاهر السعيد المأمول ، وقال وقد غلب عليه التطير :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، أول يد بايعت أمير المؤمنين شلاء ؟ . لا يتم إذن هذا الأمر » .

٢

ترك عثمان تراثاً من العوسج فى أيدى خلفه ؟ . . الأهواء تلعب بنفوس السادة حتى لا يتفق اثنان فيهم على رأى . والتذمر يأكل قلوب العامة وهم يرون الخاصة قد استلبوهم حقوق المساواة التى أقرها لهم الإســـلام ، والفرقة تضرب بين أقطار الدولة حتى ليحسب كل قطر أنه الجدير بالسيادة دون بقية الأقاليم . . حتى أولئك الذين هيأهم الزمن منذ قديم لقيادة العرب كانوا قد مزقتهم المطامع ، وأصبحوا الآن فرقاً تعرف بأسرهم بعد أن كانوا كتلة تعرف بقبيلتهم فترهبها بقية القبائل وتدين لها بالطاعة . فما عادت اليوم ثمة قريش التى عنت لها الجزيرة فى الجاهلية وإبان الأيام الأولى من ازدهار الإســـلام ، بل غدت بيوتاً محلولة لا يؤلف بينها ذلك الهدف القديم الذى استوحته من ماضيها المجيد والتزمته فسادت به على الرقاب . فلقد صحت أحقادها ثانية . ورجع إلى الحياة ما كان قد نام من أضغان بعضها على بعضها الآخر . وأصبح الرجل منها لا يأخذ نفسه

بانتهاج السياسة العامة لقريش فى سيادة العرب بقدر ما يأخذها بانتهاج السبيل الذى يرفع شأن بيته وحده . ثم قد لا يتوانى عن طرح هذه السياسة الجزئية واعتناق أخرى فردية إن ظن هذه كافلة له سيادته هو على بقية أهله وذويه . .

كذلك كانت الدولة الإسـلامية حين تسلمتها يدا على . وكذلك كانت النفوس فيها تتقاسمها النوازع والأهواء الشخصية ولا يربط بينها غرض عام ولئن بدا من بعد أن كثيراً من فروع قريش قد اصطفت جيشاً واحداً تناجز الفرع الهاشمى فى شخص على ، فلغير مصلحة عامة كان هذا التجمع ، بل كانت جميعها تعمل وفى بالها أن تزيح من طريقها منافسها الخطر الذى لا تستطيع — متفرقة — أن تقدر عليه . فإذا فرغت منه فأيسر اليسر بعد هذا أن يستقيم الأمر لأحدها إن عرف كيف يخضد شوكة بقية الفروع . . .

هذا هو الطابع الذى وسم خطط منافسى على ووحد كتلهم على كثرة ما كان بينهم من اختلاف ، فلقد كان لكل فئة منهم هدفان : واحد عام يسدد خطوها وخطا زميلاتها جميعاً ، وآخر خاص تنفرد وحدها به ، وتعمل جاهدة لبلوغه بغير معونة سواها وإن وطئت فى سبيله بقية الأحلاف . فليس عجباً إذن أن ينتظم معاوية والزبير وطلحة وابن العاص وغيرهم من حساد على عقد واحد ، يجمعهم كلهم حرباً عليه كى يكاثروه فيغلبوه ما دامت كل طائفة منهم ستجهد لتكون وحدها المنتصرة فى نهاية المطاف . وما نحسب هذه الظاهرة إلا جلية تمام الجلاء فى تصرف الزبير وطلحة الذين نكثا بيعة الإمام واعتسفا الأسباب للشغب عليه . فلقد وحد بينهما حسدهما فقاما فى جيش لجب يحاولان انتزاع الأمر من يد على ، وإنهما ليختلفان فى الطريق على أيهما تكون له الإمرة بعد الانتصار .

تراث من العوسج خلفه عـــثمان ! ولـكن علياً لم يكن الرجل الذى يرهب الشدائد أو تنقصه القدرة على الـكفاح . فمنذ اللحظة الأولى تبين

خطر المهمة التى تنتظره . ولم يخف عنه شىء مما فى نفوس القوم أو خلف الأحداث . بل استشف الحقيقة كلها فعلم أنه مقبل على أمر له وجوه وألوان لاتثبت عليه العقول ولاتقوم له القلوب ، يوشك أن يفتتن فيه الناس ويتفرقوا شيعاً شتى ، تتناحر فرقهم ، ويضرب بعضهم بعضاً ، لم يغب هذا عن عين بصيرته ، ولم يكتمه عن أمته بل طالعها به منذ اللحظة التى أدلت فيها إليه بالبيعة حتى لكأنما كان يقرأ من كتاب مفتوح وهو يخطب الناس فيقول :

« .. ألا إن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم ... والذى بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم . وليسبقن سابقون كانوا قصروا ، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا . . . والله ما كتمت وشمة ، ولا كذبت كذبة ، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم ... »

ولكنه قرن به واجب لزام عليه أن ينهض به . فليس يعفيه من التبعة أن ينكل عما وكل إليه وإن استشف النتائج الكفيلة بتثبيط عزمه . . . كلا . فإن هو إلا صاحب رسالة واجبة الأداء فى دنياه لا يقاس فيها إخلاصه بالنتائج وإنما بالجهد المبذول فى سبيل الوصول إلى الغاية التى من أجلها كافح كفاحه . والخير له أن يناضل الباطل بلسانه وكفه وسيفه ثم يقع فى الميدان من أن يقبع صامتاً دون أن يحرك جارحة ويفىء بالأمن والسلامة .

كلفه بالحق لذات الحق هو الذى قسره فى النهاية على قبول الولاية . فلم يكن يعرف أحداً فى الناس أصلح منه لقيادة شعبه ، ولا أقوى على حمل الأمانة التى تضعها تبعات الحكم على كواهل الحكام ، ولا أعلم منه بمعاقد الطرق التى تؤدى به إلى العدالة الشاملة التى كانت الغاية من رسالة الإسلام .
وقد كان هذا الشعور دائماً مفتاح صراحته وشفافية نفسه ، ومركبه إلى غاياته بغير مداورة ولا التواء . . . سئل غب مقتل عثمان عن رأيه فلم يكتم عن الناس ما يحسه . ولم يحد عن ديدنه فى المجاهرة بما يرى فى وضوح

لا يتلبس بمجاملة الشيخ القتيل أو يتملق الجماهير المادية عليه وإن كانت إذ ذاك صاحبة الكلمة العليا والجناب المهاب . بل قال :

« . . . أنا جامع لكم أمره : استأثر فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع . ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع . »

وتلك الصراحة السافرة التى ميزت أقواله قد وسمت بطابعها أيضاً فعاله . فكما جعلته من البدء يعلن على الملأ حين أرادوا بيعته أنه سيركب بهم ما يعلم ولا يصغى إلى قول قائل أو عتب عاتب ، فكذلك أتبع القول بالفعل حين بايعوه ولم يصبر عليهم بعض يوم حتى بادرهم بما يعلم ، وسار سراعاً إلى الخطة التى آمن من قديم أنها الأقوم ...

لم يصبر عليهم سوى بعض يوم تهيأ فيه لإلغاء النظام القائم منذ عهد عمر نحواً من عشرين سنة نحاته الرسوخ فى الخواطر كرسوخ الإيمان . . .

فلقد كان على ثقة من أن عمر ، حين أمر بتقسيم الفىء وفق أقدار الناس وقدمتهم ، قد استجاب لعاطفته أكثر مما استجاب لعقله . وأنه بنحوه ذاك فى التقسيم قد استحدث نوعاً من العدالة الخاصة جنح به عن العدالة المطلقة . أما هو فقد أبى اليوم أن يقر السياسة العمرية ويسير عليها كما سار سلفه . لم يصده عن إبائه أن أصبح لها بمر الزمن مثل قداسة العقيدة فى بعض الأذهان، ولا الغضبة التى لا بد سيثيرها التغيير فى قلوب أولئكم الفئة التى ميزها بالعطاء عمر وعثمان . . . إنه ليعلم أنهم سادة ، وأن خلفهم زمراً من الأهل والنصراء يغضبون لهم ، وأن ملكه الجديد غير وطيد قد تعصف به أية معارضة يشنها عليه القوم . غير أنه وقد آمن أن طوائف الشعب كلها فى الحق شرعاً سواء ، لم يروجها لتمييز الخاصة ، بل وضعهم مواضعهم حيثما وضعهم قبله النبى على ذات الدرجة التى تبوأتها العامة . وقام فى المسجد ثانى أيام بيعته يدلى برأيه ، ويبسط السياسة التى شاء كافه بالعدالة المطلقة أن تكون قوام عهده وقال :

« . . . أيها الناس . . . إنما أنا رجل منكم ، لى مالكم ، وعلى ما عليكم .

وإنى حاملكم على منهج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمرت به ... ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود فى بيت المال ... فإن الحق لا يبطله شىء . ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك الإماء ، وفرق فى البلدان لرددته . فإن فى العدل سعة ، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق ... أيها الناس ... ألا يقولن رجال منكم غداً — قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار ، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيل ، واتخذوا الوصائف المرققة — إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التى يعلمون : «حرمنا ابن أبى طالب حقوقنا » ... ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته فإن الفضل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله ... ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله فصدق ملتنا ، ودخل ديننا ، واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده . فأنتم عباد الله .. والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء ... فإذا كان الغد فاغدوا علينا إن شاء الله ، ولا يتخلفن أحـــد منكم ، عربى ولا عجمى كان من أهل العطاء ... »

وبهذا الوضوح رسم لهم سياسته القائمة على العدالة الشاملة التى تسع جميع الناس سواء بسواء ، ولا تضع حواجز من المزايا تفرق بينهم أدنى تفريق . وهدم بها ما كان قائماً حتى اليوم من شرعة عمر فى التقسيم . بل هو فى الحق حقق حلم عمر الذى كان يراوده فى أيام عهده الأخيرة لما تبين أن سياسته فى توزيع العطاء قد جرت إلى قيام حواجز مالية واجتماعية بين طبقات أمته كانت فيما بعد ذات أثر هدام فى بناء الدولة الوطيد ...

ونشط فى إنفاذ ما عزم عليه فصادر ما أقطعه عثمان بعض آله ورجاله من أراض وأموال .. وتتبع كل درهم بذل فى غير وجهه ولغير مستحقيه فأعاده إلى بيت المال . وغدا الناس عليه فى الموعد كما أمرهم فقال لكاتبه ابن أبى رافع :

« ابدأ بالمهاجرين يا عبيد الله ... »

وما زال قائماً معهم يفرق عليهم أنصبتهم حتى أخذ كل رجل من المسلمين حقه كاملا غير منقوص من العطاء ، لا فرق فيهم بين كبير وصغير ، ولا بين أصيل ودخيل ، ولا بين سوقة وخاصة ، بل استووا كلهم لديه وإن اختلفوا فى الجنس والمقام ، فكذلك جعلهم الله فى الشرع سواء .

فمن عجب أن تنكر عليه بعض النفوس هذه العدالة الجديرة بأن تلقى منهم أطيب الثناء ... ولكنهم كانوا فئة ألفوا أن يتميزوا على الناس وتكون لهم من دون الشعب طبقة رفيعة تعتز بالمزايا المادية كما تعتز بالمزايا المعنوية التى ورثتها فى قطرات الدم الأصيل الذى تمتلىء به خدودهم المزهوة ، فما العرب كقريش ! وما العجم كالعرب ! وما الدهماء المغمورون كالسادة الأمجاد ذوى الأنساب .. ولقد بلغ من شدة إخلاص هذه الطائفة لتقاليدها الجاهلية أن نسيت أنها وقد اعتنقت الإسلام قد أقرت لغيرها من المسلمين بحقهم مثلها فى التمتع بقوانينه وإن فرقت بينهم وبينها فوارق من اختلاف اللون واللسان ، وغلب عليها الصلف حتى حسبت أنها إذ تمشى إلى الإمام تبلغه إنكارها هذه السياسة الجديدة فإنه سيبادر مسرعاً إلى استرضائها وإعادة الأمور على ما تريد .

وكذلك اجتمع له جمع منهم كانوا أحرص على دنياهم ، فلما أن سألهم عما جاءوا فيه ، ألبسوا مطالبهم ثوب النصح ، وراحوا يبدون كمن يخشى عليه الثورة التى توشك أن تؤججها سياسته فى نفوس من أودت بمزاياهم من علية القوم .. فقال لهم وهو لا يخفى عنهم دهشته وإنكاره لما يطلبون :

(أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟ . والله ما أطور به ما سمر سمير وما أم نجم فى السماء نجما ! .. لو كان المال لى لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله ؟ ... ألا وإن إعطاء المال فى غير حقه تبذير ، وإسراف ، وهو يرفع صاحبه فى الدنيا ويضعه فى الآخرة) .

أفغاب عن هذه الطائفة إذ ذاك أنها كانت تتشبث بحق موهوم لا سند

له من دين الله أم هم يا ترى غضبوا للدنيـــا وحرصوا على عروض الحياة ؟ أم المال كان فتنة طغت على الصفاء الروحي الذى كان قد أوشك الإسلام أن يهبهم إياه ؟ . لئن التمسنا لهؤلاء العذر فى تحيفهم على الحـق الأبلج وركوبهم هوامم ، فهل ثمـــة عذر واحد نستطيع التماسه لصاحبي رسول الله — لطلحة والزبير — للذين اعانا الدين إبان محنته ، وناضلا عنه حتى انتشرت ألويته فى الآفاق ، ولم يتوانيا فى سبيله عن البذل بالدماء والأموال ، وعرفا قبـــل غيرهما أنه شرعة إيثار وتضحية وناموس عدالة وتسوية ؟ . . لقـد يجهد المرء فى البحث عن الأسباب التى حملتهما على معارضة الإمام فى نظام التقسيم الجديد ، فلا يستطيع مع إحسان الظن بهما إلا ان يجـدها سبباً واحداً ، هو الهوى الشخصي ، دفعهما إلى مناجزة على وهو على حقه ، وإلى اعتساف الدواعى التى تشغب عليه امره وتضع فى سبيله العوائق والعراقيل .

ولـكن أمير المؤمنين لم يثر بهما حين جاءا يـكشفان له عن أولى بوادر الخلاف التى أوشكا أن ينشباها فى صرح حكمه . . لاحا كأنمـا هما أن يشيرا عليه مشورة خير ويلقيا أمامه بالعتاب الناعم الذى يرجوان من ورائه استقامة الأمر له ، ولـكنه كان على بينة من حقيقة المشاعر التى يخفيان . . . قال بصوت هادىء يسوق فيه العظة والملام فى آن :

« أما ما ذكرتما من أمر الأسوة يا إخوتاه فإن ذلك أمر لم أحـكم أنا فيه برأيى ، ولا وليته هوى منى ، بل وجدت — أنا وأنتما ! — ما جاء به رسول الله قد فرغ منه ، فلم أحتج إليكما فيما فرغ من قسمه وأمضى فيه حكمه ، فليس لـكما والله — ولا لغيركما — عندى فى هذا عتبى » .

فلما أوشكا أن يبرحا عنه ، لم يفته أن يزجى إليهما النصح الواجب والحـكمة البالغة ، وكلاهما يفصح عن موقفهما منه وموقفه منهما أتم إفصاح .

قال وهو يشيعهما إلى البـاب :

« ألا رحم الله امرءاً رأى حقاً فأعان عليه ، أو رأى جوراً فرده وكان عوناً بالحق على صاحبه ! » .

ومع ذلك فقد مضيا مع الهوى إلى الغاية ، وخرجا من لدنه إلى السادة ورؤوس الناس يحرضانهم عليه ، وينقمان منه أنه خالف سنة عمر فى التقسيم ، كأن عمر حرى بأن يصيب دون رسول الله ! . . ولقد لقيت دعوتهما صدى فى النفوس الصاغية للدنيا فالتف بهما قوم ميزهم التوزيع العمرى ووضعهم العلوى حينما أرادت شرعة المساواة . . ووقفوا جميعاً يتحينون اللحظات عساهم يستطيعون أن يديلوا دولة هـذا الرجل الذى لا يأبه فى حكمه بمراقة الأنساب أو مفاخر الأحساب ! . . والذى نزل بأقدارهم إلى مثل الدرك الذى كانت عليه أقدار الفرس والمصريين ونحوهم من الأجناس الدنيا حتى أمس القريب ! .

ولكنه لم يلق بالا إليهم ولا إلى ما لغطوا به ، فقد كانوا أهون عليه من أن يثير بينه وبينهم فتنة على خلاف لم يتعد بعد حيز الدعوة الخافتة التى تجبن عن رفع صوتها بين الناس ، وآثر أن يصبر عليهم ، فإن فاءوا إلى الرشد فخير ، وإن لجوا فى الغى فليس يمىي حقه أن يقوم لباطلهم ، وبحسبه أن ينهض اليوم لنشر رسالة الإسلام بالتمكين لتعاليمه فى القلوب قبـل نشر بنوده وأعلامه فى أقطار الأرض ، وإنه لآخذ بهذه السياسة منذ اللحظة الأولى التى بدأ بهـا حكمه ، عامل على إقرارها لأنهـا المبدأ الأسمى الذى بعث الله به رسوله وجعله الوسيلة إلى جمع العـالم كله فى دولة ، الأجناس البشرية كافة فى وحـدة إنسانية لا تفاوت بين طبقاتها وأفرادها رغم اختلاف الألوان ، إنهـا العالمية ، قبـل أن تتحرك بهـا ألسنة الدعاة والمصلحين ، دعا بهـا محمد بين النـاس ، والأخوة الشاملة لجميع الخـلق ، رسم خطوطها القرآن وأقامها على عالم مرجو فاضـل ، عماده المساواة فى الحقوق والواجبات ، لقد جاء اليوم على ينفض عنهـا ما علق بجوهرها من آفات الأهواء ، وأخـذ نفسه بالتمكين لهـا فى قلوب أنصارها الأولين ليكونوا لها دعاة هادين تدين بمثلهم العليا أقطار الأرض ، فلقد علمـه الزمن أن الحياة بلا هدف سام عبث مرذول تأباه كل نفس مشرقة تؤمن بوجودها قبـل أن تؤمن بوجود الأديان

ولقد كفى الإسلام هذه النفوس المشرقة مؤونة استقصاء الأهداف المثلى لأنه وضعها تحت بصائرها صريحة واضحة فى غير تلبس ولا إبهام ، وجمعها كلها فى كلمة واحدة نمت عنها آيات كتابه ، وبدت جلية حتى فى شمائره ... ولعل ثمة شعيرة من شعائر الإسلام لا تنطق بالمساواة ولا تدعو إليها بأفصح لسان؟.. إنا لنلمسها بينة فى الصلاة يستوى فيها العزيز والذليل ويقفان موقفاً واحداً بمكان واحد ، ينطقان بنفس الألفاظ ، ويأتيان نفس الحركات . ونلمسها فى الزكاة التى تأخذ من الغنى بعض عروض الحياة لترده على الفقير حتى يشعر كلاهما — وإن باعدت بينهما الأنساب — بشعور الإخاء . ونلمسها فى الحج تزدحم بأرضه المقدسة أقدام الرجال والنساء ، فلا يميز بينهم فارق واحد من الفوارق الاجتماعية التى قد تملى لها أهواء الإنسان ، بل تراهم عند القيام بمناسكه حفاة شبه عراة ، لا يسترهم إلا ذات اللباس يستوى فيه كافة الناس ، أردية الأكفان ! . التسوية الحقة هى جماع الإسلام والغاية التى هدفت إليه شعائره وتعاليمه وأتاح لهم جميعاً تكافؤ الفرص فى موقفهم أمام الله ، لافضل لعربى على عجمى ، ولا لخاصة على عامة ، ولا لأمير سائد على عبد مملوك بل لعل أبلغ مظهر من مظاهر التسوية أن هداهم إلى رب واحد —وكانوا من قبل يتجهون إلى آلهة شتى — لتكون المساواة بين الخلق أجمعين تامة فى كلا الروحانيات والماديات .

هذا هو الهدف الأمثل الذى عنى على بإخراجه من حيز الكلمات المنقوشة فى الأسفار إلى الحياة العملية ، وأخذ نفسه من البدء بتطبيقه على شعوب دولته المترامية لتكون شعباً واحداً كرجل واحد ، فتتحقق به وحدة العالم الوسيع الأطراف .

العالمية كانت الغاية التى سعى إليها مهتدياً فى طريقة بنواميس الشريعة وبما جبلت عليه طبيعته المنطوية على إنسان كامل يريد أن يطبع على شاكلته كل إنسان ، ولقد عاش عهده كله وهذا رائده ، فكان قويا كالرمح ، عادلا

كالميزان ، تستجيب له كل نفس كلفة بالمثل العليا كنفسه ، مؤمنة بحق الإنسانية الفاضلة عليها ، وبحق الأخلاق السامية ، المتجردة من أوشاب الأهواء ...

٣

كيف استقبلت قريش بيعة الإمام ؟ ... ليكاد أن يبرز وجه الماضي سافرا من خلال الحاضر . فالحسد هو الحسد . والحقد هو الحقد . والوسائل الخفية التي جيشت من قبل الحرب بني هاشم هي ذات الوسائل . ولو كان خلي بين قريش وبين الأمر لوسعها اصطناع الأساليب الكفيلة بإقصاء علي عن الحكم قبل أن يصل إليه ، ولكن الشعب وقف دونها هذه المرة ودون ماتريد ، ومارس حقه الطبيعي في الدعوة للرجل الذي يرضاه مادام النظام السائد إذ ذاك قصر حق الانتخاب على أهل المدينة من المهاجرين والأنصار دون بقية أهل الأمصار ، وتمت البيعة هكذا لعلي لأنه كان أولى الناس بها من أعوام ولأنه كان وحده الجدير بأن تلتف حوله إرادة الأمة الإسلامية بما ضمت من أجناس شتى، آمنت كثرتها العظمى بأن إليه منتهى رجائها ، وعليه تنعقد الآمال في أن يقودها إلى الأهداف المثلى التي لاريب ستحقق لها ما تنشده من حياة كريمة في أكناف الحرية والكرامة والمساواة

أرادت هذه الوفود القادمة من أطراف الدولة فاستجابت لها حاضرة الإسلام ، وهتفت باسم علي فرددت المدينة خلفها الهتاف ، أقبلت كلها إلى الإمام في زمر متدفقة كالأمواج تدعوه أن يتسلم زمامها ويقودها إلى حيث يريد . . . . ولم تسمح له بمجرد التردد في القبول ، ولم توافقه على أن يدع قيادة أمورها لغيره ، بل إن الحرية التي مارستها لأول مرة هذا اليوم في الاختيار سلبته إياها ، إذ أبت عليه أن يكون هو حراً مثلها ، يرفض

البيعة إن شاء . . . قهرته على التسليم لها ، وأجبرته على الرضوخ لمشيئتها لأنها رأت فيه القائد الذى لا يصلح أمر الأمة بسواه .

وكانت قريش فى الأيام القلائل السابقة للبيعة جالسة تنظر ، يمنعها الخوف أن تجهر بالرأى الذى تحب أن يصير إليه الإجماع ، ويملأها الأمل فى أن تصدف الجماهير عن هذا الذى ظل يراوغها ويبتعد عن طريقها لتفوته الإمرة .. فلما أن غلبت عليه إرادة الأمة وحملته على قبول ما تريد ، لم تر قريش بدا من مسايرة الشعور العام خشية أن تثير على نفسها ثائرة الشعب ، وسارعت تبايع علياً بالخلافة وهى تخفى بقلوبها غير ما تبديه .

ومع ذلك فأحسب أن ثمة طائفة منها ما لبث الندم أن راح ينهش قلبها غب بيعتها للإمام، وأخذت تنحى باللائمة على أكفها أن امتدت نحوه بتحية الولاء ! . . . لو أنها صبرت لجنبت أنفسها مؤونة نكث العهد الذى لزم رقابها له ، ولكانت إذن حرية بأن تخالفه وتجاهر بخلافه إن شاءت وهى آمنة اتهام التاريخ . . . ولكن ما غلب على أذهانها من رهبة الجماهير أشاع فى قلوبها خوفاً أركبها ما تكره ، وقهرها على البيعة دون بادرة واحدة من الشعب تحمل معنى الإقهار ، وجعلها من بعد تقف موقفاً — إن رضيته هى — فليس يرضاه لها الوفاء ، فما كان على بالرجل الذى يأخذ لنفسه البيعة من امرىء أباها عليه وإن كان ذلك الإباء وليد موجدة قديمة أو سوء إدراك لحقائق الأمور . . . ولقد جىء له بابن أبى وقاص وإنه لمتوقف عن الدخول فيما دخلت فيه جماعة المسلمين لغير سبب معقول سوى قوله :

« لا أبايع حتى يبايع الناس ... والله ما عليك منى بأس »

فلم يثربه . بل سمع منه حجته الواهية ثم قال للناس :

« خلوا سبيله . . . »

وأباحه الأمن والطمأنينة كمن والاه . . .

وكذلك كان موقفه من عبد الله بن عمر ذلك النهار ، فلم يكرهه على البيعة

بل أخذ موثقه ألا يشغب عليه . وطالبه أن يختار له من بين القوم رجلا يضمن التزامه هذا الوثق وعدم خلفه . . . وقال له :

« ائتنى بحميل. . . »

فأدار ابن عمر عينه لحظة فى الجمع الصاخب عليه ، ثم ردها بغير عناء إلى على تلقى عليه نظرة وسنى . . . وقال بصوت لعله اشتمل نبرة تحد إلى جوار قلة المبالاة :

« لا أرى لى حميلا . . . »

فالتهبت عليه موجدة القوم . وضاقت صدورهم بموقفه ، فلو شاء لفاء إلى الحق وله معدى عن تجاوزه بما لقيه من أناة الإمام وترفقه به ، ولكنه كان قد عقد النية على الخلاف لغير سبب يوجب عليه هذا الخلاف .

وصاح الأشتر وهو بادى الغيظ وقد رفع فى يده سيفه :

« خل عنى أضرب عنقه يا أمير المؤمنين ! . . »

فاستمسك الإمام جهده ، لقد أبى أن يستجيب للغضب الذى جاش بصدره ، وداور نفسه ، حتى إذا سل منها سخطها على غريمه وأبدلها مكانه الصفح عنه . . قال :

« بل دعوه . . . أنا حميله . . . »

وقيل له بعدها عن نفير قلائل من أهل المدينة احتجبوا عن بيعته وأبوا الظهور للناس حتى لا يدفعوهم إليه . . . فلقد أراد أعوانه أن يأتوا بهم إليه راضخين مقهورين ليرى فيهم رأيه ويبايعوه ، فنهاهم وقال :

« لا حاجة لنا فيمن لا حاجة له فيها ... »

أحسب هذه الصور الشتى من ترفق الإمام بمخالفيه قد تبدت الآن أمام أعين بضعة من قريش كانت سارعت فبايعته وهى تخفى له غير ما تبديه ، وأحسبهم وقد شهدوها ودوا لو كانوا صورة منها فلم تسبقهم إليه أكفهم بالولاء ... أما وقد عاهدوه على الطاعة ، وعقدوا فى رقابهم بيعته ، فقد باتوا يعدون اللحظات ويتعجلونها أن تسرع بهم عسى يستطيعون اعتساف

الدواعى التى تحررهم من عهدهم وتردهم إلى الموقف الجديد بهم والذى هم به جديرون . . . وهل ثمة أليق بقريش من مسايرة مشاعرها القديمة على بنى هاشم ، لا ينجو من عنتها سليل هاشمى حتى تتربص بسليل بين كل جيل وجيل !؟.

تكتلت إذن الأحقاد العصبية ثانية . وتوحدت بيوتات قريش — المتنافسة فيما بينها — أمام سليل سيدهم القديم . فالغاية اليوم أن تطيح به ثم تفرغ بعده للتغالب على السلطان ، يستوى فى هذا من بايع له ومن قعد عنه ، ومن قام من بداية الأمر يناجزه ويحرض عليه الناس ، فمن عجب أنهم نسوا جميعاً الدواعى التى تفرقهم عن بعضهم بعض — على كثرتها — وذكروا سبباً واحداً اتفقوا عليه هو الحسد الذى لم تحرر نفوسهم من براثنه بعد . وقاموا يدعون علانية وخفية لفض المسلمين عنه . ويعتسفون العلل الكفيلة بتأييد دعوتهم وترسيخ هواهم فى نفوس القوم ولو بالإعنات والتضليل دون التدعيم والتدليل ، ويتذرعون بكافة الذرائع التى يكون من ورائها بث العوائق والعراقيل فى سبيل الإمام . لا غاية لهم إلا الشغب عليه وإفساد أمره ، وإظهاره للملأ آونة فى مظهر العاجز الضعيف وثانية كالمستغنى بقوته عن كل قوة ، وثالثة كالمتثاقل عن إقامة حدود الدين ، وأخرى كالشديد فى غير هوادة والعنيف فى غير لين ، إلى غير هذا وذاك من أوصاف متقاربة ، تصل بين أطرافها المتباعدة أنواع الاتهام ، ثم لا تكون فى رأى الحقيقة إلا حجة له تدفع باتهامها كل أولئك الأخصام .

ثم لا تكاد تنطوى من دورة الزمان إلا أيام حتى يبادر جمعهم إلى الشغب على الإمام لكل فريق منهم طريقة فى النيل منه تختلف والأخريات وإن التقت وإياها فى نهاية المطاف ، فابن أبى وقاص الذى وعد من نفسه إحسان السلوك لم تسكن نفسه وإن سكن جسمه . ولم يضع قلمه وإن أغمد سيفه . بل لا نلبث حتى نراه قد أرسل إلى ابن العاص كتاباً يصف الأحداث حسبما

رأى هواه ، ويكشف عن خفايا دخيلته ببيانه مالم يكشفه بمنطق لسانه ، قال في الخطاب :

« ... إنك سألتنى عن قتل عثمان . فاعلم أنه قتل بسيف سلته عائشة ، وصقله طلحه ، وسمه ابن أبى طالب ، وسكت الزبير وأشار بيده ، وأمسكنا نحن ، ولو شئنا لدفعنا عنه » .

هذه الرسالة تلقى ضوءاً على جانب من حلقة الوقائع التى حدثت أثناء تلك النازلة التى دهمت الإسلام ، وتكاد فى مجموعها تكون صورة صادقة لموقف قريش . رسمتها ريشة رجل منها يستبعد منه أن يتجنى عليها ويظلمها أمام التاريخ ، ومع ذلك فلسنا نرى فيها إلا تحيفاً ظاهراً على على ، مرده فيما نحسب إلى تلك العاطفة التى ما فتئت تثور بجوانح سعد وأمثاله ممن جرت فى عروقهم الدماء القرشية ، .فليست الحقائق السافرة هى وحدها التى أنطقت قلمه وأرسلته يرسم هذه الصوره الفذة لأبطال تلك الحقبه المليئة باصطراع الأهواء . فإنما قريش هى التى سلت السيف وصقلته وسمته ثم دفعت به فى نهاية المرحلة الفاصلة إلى أيدى النادين ليضربوا به الضربة التى خجلت هى أن تضربها . وامتلاء نفوسها بالمطامع هو الذى دفع بها إلى ذلك السبيل . وتفرق هذه المطامع بينها هو الذى ضرب بعضها ببعض ، وردها آخر الأمر إلى فرق تتنازع السيادة وتتذرع بكافة الذرائع للفوز بما تريد . وما كانت حين نقمت من عثمان فعاله بالغاضبة للحق بقدر ما كانت موكولة بتحقيق مراميها من حب السطوة ومظهر السلطان .

ولقد كانت منها فئة قليلة آثرت اعتزال الصراع الناشب بين بقيتها وبين الخليفة القتيل . وجلست صامتة ترقب الأحداث التى أخذت تتجمع رويداً رويداً كسحب الغيث قبل حلول أوان العاصفة الجتاحة ... وكان سعد من هذه الفئة المنتظرة ، فقعد يشهد ما يدور حوله ولا يمد يده إلى شىء منه . لقد فاء من نفسه إلى همة فترت بعد طول نشاط وخمدت جذوتها بعد وفرة تسعر . لم يتحرك مطلقاً لنصرة حق أو لدفع باطل ، كأنما الأمر لايعنيه فلما

بدا له الختام الحزين الذى أسفرت عنه الوقائع ، ملكه الندم على ما سلف منه إلى جوار شعوره بالنقمة على قومه الذين أعانوا بالفعل واللسان على تقويض دولة ابن عفان . وأبى عليه إحساسه القديم ، الذى هو صدى المشاعر القرشية تجاه البيت الهاشمى ، إلا أن يتحيف على على . . . وإلا فكيف نسيغ هذا الحكم من رجل قعد وآثر السلامة على رجل طالما ناضل وكافح من أجل عثمان كما لم يفعل مطلقاً سواه من الخلصاء والأعوان ؟ أم ترى لسان ابن أبى وقاس أرفع صوتا وأعلى جرسا من حديث الحقائق الواضحة والواقع الثابت الذى لايفيد فى نقضه وانتقاصه سوق أتهام وإزجاء إيهام ! ؟ .

ولكنه كان واحداً من بين بقية أهل الشورى الباقية فى الأحياء ، والتى لم ينس لهم موقفهم من ابن طالب حين كان فى مقدورهم ترجيح كفته لوشاءوا السير على المنهج القويم . بل لعله اليوم أرفق بالحق منهم وإن لم يكن ألصق به ... بل هو أقدرهم على امتلاك ناصية مشاعره القرشية حين أفلت منهم زمامها ولم يسعهم كبحها بعنان . ولقد يكون مرجعه إلى عقدة نفسية غرسها فى واعيته فشله مرتين فى إحسان القيام بمنصبى الحكم اللذين وكلا إليه : مرة فى عهد الخطاب وأخرى على أيام عثمان ، ولقد يكون مرجعه إلى غير هذا أو ذاك من أسباب ، ولكنه فى الحق لم يسلس القياد لهواه كما فعل صاحباه بل لعله فى عين كل منصف يقدر سطوة الدوافع النفسية ولايفوته إدخالها فى الحساب ، لم يستجب لعاطفته إلا بمقدار قد يغتفر له ولا يلام عليه إلا أيسر الملام ...

أما الآخران فكانا على النقيض تجمعت فيهما شهوة النفس وشهوة الحس حتى أصبحا على غير ما يجمل بخدينين مثلهما من خيرة صحب رسول الله . مال بهما الهوى القديم وغلب حبهما الدنيا على حبهما الحق ، وهو واضح أمامهما ، مشرق ، سافر الوجه ، لا يخفيه عن أعينهما إلا الكلف بالذات كلفاً تعشى به النواظر وتطمس العقول والبصائر ، ولسنا بهذا نتطاول على مقام الشيخين أدنى مطاولة ، ولكننا نثبت الحالة النفسية التى كانت لهما فى ذلك الزمان

والتى لم يستطيعا أن يتحررا من قبضتها الحديدية إلا إن استطاع أن يتحرر من خفق فؤاده كائن حى ثم لا يهجره بعده عامل الحياة ! فقد تأصلت فيهما عاطفة الميل عن على كما تأصلت فى الأسلاف القرشيين من عدة أحقاب وجرت فى عروقهم كجرى الدماء . ولكنهما بغير شك كانا أدنى مرتبة من صاحبهما سعد بمقدار وأحرص منه على عروض الدنيا . ووسعه هو ما لم يسعهمـا . فحكم عاطفته وبالغا هما فى إسلاس القياد .

وجرى ابن عمر أيضاً على سياسة ابن أبى وقاص ، فلم يصغ لهواه كل الإصغاء . وجانب الفريقين المختلفين طوال مدة الخلاف وإن كان الأولى بمن هو مثله أن يظاهر الحق ويتبعه حيثما يسير . ولكنه هو الآخر صورة قرشية ، قعد عن نصرة الحق لما وجده فى جانب ابن أبى طالب ، أفلو رآه فى قومه أ كان يتوانى لحظة عن القيام فيه ..

لقد يعيي المرء أن يستقصى أسماء أولئكم السادة الذين بادروا علياً بالسيف واللسان يضربونه على حقه بباطلهم ، ويحشدون له صفوفاً من التعلات تغرى به جهال الناس ، ولكنا نعلم أن هذه التعلات لم تكن وقفاً على طائفة منهم دون طائفة ، بل اشتركوا جميعاً فى صوغها على الشاكلة التى تستهوى ضعاف القلوب . وأن المدينة لم تكن وحدها مباءة أولئك المناوئين ، بل انتشروا بكل مكان كان فيه مقام لنفس مريضة أو لضمير مثلوم ، أو لعل أكبر هذه المباءات وأفسحها رقعة بلاد الشام ، تلك التى غدت مسرحا . يمثل عليه مأساة هاشم وأمية كرة ثانية : الإمام على والنهازة معاوية ! ..

٤

بالشعب وللشعب .

ما من خطة احتذاها على فى حياته السياسية إلا كانت تسير وفق هـذا

الشعار . حتى من اللحظة الأولى التى تفلد فيها البيعة وحتى فى أحلك ساعات تاريخه القصير ظلمة . . دفعه إلى هذا تكوينه الخلق وسجاياه . ثم ظروف الأحوال التى أحاطت به وسايرته يوما فيوماً .

هذه حقيقة ثابتة يستطيع المرء أن يستشفها من خلال حياة الإمام . . وإن عرضا موجزاً لقصته لكفيل بأن يرينا كيف كان للأحداث أثرها البالغ فى طبع نفسه بالنزعة الشعبية التى هى صورة صادقة لمشاعر الشعب كالحال فى الأصال والخيال . . . فنى طفولته الباكرة لا نحسبه أحس مطلقاً كما يحس أمثاله من أبنـــاء الأشراف . فقد فتح عينيه على عيش ضيق أوقر كاهل أبى طالب حتى دفعه إلى توزيع أولاده على طائفة من أهله ليحملوا عنه بعض عبئه . وخرج على من دار أبيه إلى دار محمد وإن بقلبه لشعور الطفل الذى لم يرتو بعد من عطف أبويه . وإذا كانت الأيام ما لبثت أن كشفت له عن فيض من حنـان الأبوة والأمومة لا يتسع لمثله قلبان ، فإنه بداره الجديدة لم يعرف العيش المترف الذى كانت تحياه السادة فى ذلك العصر ، بل هو فى أغلب الأحايين كان أدنى إلى حياة الخشونة من أفراد الطبقة الفقيرة ، إذ عاش فى كنف رجل لم يلق باله إلى نعيم دنياه ، وإنما راح يهيىء نفسه وآل بيته لرسالة سامية ارتفعت ألويتها بأيدى المحرومين ، لأنها جاءت لتنشلهم من وهدة الهوان النفسى الذى خلقته الحاجة ، لتكسر الحواجز القائمة بينهم وبين ذوى الثروات وأبناء البيوتات ، ولتقيم للناس عالما جديداً على أساس مغاير هو صفاء الروح . بعد أن كان عالمهم قائماً على المادة الصماء .

وجلى بعد هـذا أن سنى الطفولة طبعته على الغرار الذى شـهدناه فى صباه وفى بدء شبابه . وأن هـذا الدرس الأول كان له فى نفسه أثر خالد . فلما سارت به الأيام فى طريق العمر أخـذت تبدو أمام ناظريه عوامل أقدر على تشكيل الخلق من النظرة العابرة التى تلقيها على الدنيا عينا حـدث . وبدأت مقومات شخصيته تتجمع مما استخلصه من سيرة محمد قبيل وفى

مستهل الدعوة السماوية . فلقد كان النبي وحده مثله الأعلى ، وكانت أعماله كلها هي النبراس الذي سار على ضوئه ، سواء في هذا ما اتصل منها بمظاهر الحياة المادية كالمشي والأكل واللباس وما كان ينم عن اتجاه خلقي معين أو نزعة نفسية ذات طابع خاص .

لقد اتسع دائماً قلب محمد للرحمة . والرحمة لاتبذل إلا لمحروم . والحرمان كلمة تستطيع أن تشمل كل شقاء البشرية ؛ فالضعيف حرم القوة والحول ، والمريض حرم نعمة العافية ، والمظلوم حرم حماية العدالة ، وكل أولئك وأمثالهم ألوان من إنسان يحيي حياة لم تكتمل لها بعد أركان الإنسانية الصحيحة ، قد سلبه المجتمع بعض حقه عليه . . .

هذه صور حية للحرمان الذي يعيش عادة في وكر الفاقة ويمتص غذاءه من دم الفقير . لا تتعدد مثيلاتها إلا في الطبقات الدنيا التي تؤلف الكثرة الغالبة في كل مجتمع آدمي . ولا تتلقى الرحمة إلا من قلب اتسعت جوانبه لمشاعر الإنسانية وما انطوت عليه من آلام . ولقد عاشر على أرحب قلب أنجبته البشرية ، وعرف آيات صفائه وعطفه . فإذا الرحمة التي أضفاها محمد تجد لها صدى في قلبه . وإذا الألم لهم يهز كيانه ويملأ نفسه بالأمل في تخفيف ويلاتهم حين يستطيع ، مرة ليستجيب للشعور الكامن في أعماقه ، وأخرى ليضيف إلى مقومات شخصيته دعامة أخرى من خلق الرجل الكامل الذي أصبح له مثلا أعلى في هذه الحياة .

ثم جاءت رسالة الإسلام . ومضت دعوتها تشق طريقها جاهدة إلى أرواح الناس . وتفتح بها وعي علي ، وآمن بها قلبه ، وصفت لها روحه صفاء لم يعد له في غيرها صفاء . فما تكشفت له عن تشريع وتقنين بقدر ما تكشفت عن رحمة سابغة تستوعب كل الرحمات وتتناول الشقوة الإنسانية بالدواء الذي يحسم أدواء البشر في كل زمان ومكان . فإنما الدين هدى . والهدى رحمة تمحو ظلمة الجهالة التي رانت على بصيرة الإنسان . والجهالة في نهاية الأمر حرمان من النور الروحي أيما حرمان . . .

جلاء الروح كان الغاية المنشودة فى الدعوة المحمدية لأنه الطريق الوحيد إلى إسعاد البشرية . وأيما تشريع نزل به القرآن فهو وسيلة لتنظيم المسائل المنبثقة عنه انبثاق الفروع عن أصل الدوحة . أو هو رياضة دائبة للنفس حتى يتمكن فيها الصفاء كما يمكن الرى للبذرة فى النماء . وقد حرص الإسلام على أن يرفع ظل الحرمان عن الأرض فدعا إلى التحرر من عبودية الدنيا . . دعا إلى السمو عنها ، والارتفاع بالنفس إلى آفاق يتضاءل فيها جبروت المادة فلا يكون لها ثمة سلطان . بل تنقلب فى النهاية مطية طيعة للانسان الكامل الذى تهم أن تصوغه الدعوة الجديدة .

الرسالة السماوية رسمت إذن للناس النهج الأمثل . ونادت نصوص آياتها وروح معانيها بالتزامه لتصل البشرية إلى الخير المطلق — أو الخير الممكن ما دامت لا تتوفر العصمة لإنسان . وكان جماع مبادئها حرب الحرمان فى كافة صوره ، وغايتها محو آثاره عن هذه الدنيا التى اتخذ منها مباءة . وما دام الصفاء قد شمل روح البشر فقد انجلت البصائر ، وصفت الأذهان ، وخلصت النفوس من شوائب الهوى التى هى ركام المادة . وأيسر اليسر بعد هذا أن تتوحد مشاعر الناس من كل جنس وفى كل عصر . فوحدة الشعور هى الخطوة الأولى اللازمة لبناء البشرية على أساس سليم . أو هى فى الحق كل الخطوات . والأعمال المنبعثة عن إحساس واحد متسقة بدون ريب ، لاتفاوت بينها ولا اختلاف ، لأنها صادرة عن نبع واحد كما ينفث القلب الدم إلى الجسد، لا يؤثر عضواً ولا يحرم آخر لأن البلاء فى التمييز وفى الحرمان على سواء .

جاء محمد رحمة للناس من لدن رحيم . فى يمينه تنزيل يبدد ظلمة الجهالة ، وينير بصائر الخلق للحق . ومن استوعب لب الإسلام فقد عرفه دعوة صريحة لسيادة الصفاء على النفس الإنسانية ، وتبييناً للأساليب التى تمكن له ، وتنظيما للأعمال التى تنبعث عنه . إنه هداية إلى حقيقة الصلة بين الخالق والمخلوق ، وبين الخلق بعضهم حيال بعض ، وما يتبع هذا كله من حقوق

وواجبات . وهو فى مجموعه عرض يشمل كل مشا كل المجتمع البشرى ما بقيت على الأرض حياة إنسان . ويصف لكل منها العلاج الذى تستتطب به .

وما من امرىء عنى باستقصاء أصول هذه الأدوية الناجعة إلا وجدها مشتقة من الرحمة . وهـل ثمة عاطفة أولى منها بتوحيد شعور بنى الإنسان، واجدى فى النهاية على آحادهم ومجموعهم ماداموا بها وحدها يرون أنفسهم أعضاء فى بدن واحد ليس يصح كله إلا بصحة أفراده ؟ .

ما من ريب فى أن سعادة البشرية وقف على وحدة الشعور ، وأن هذه الوحدة بدورها وقف على جلاء الروح الذى هدفت إليه تعاليم الإسلام . ولقد استطالت الأعصر بعد محمد وتوالت على الأرض . وتعددت مآسى البشر وويلاتهم وفق تعارض ما يعتمل بنفوسهم من أهواء ، ثم حفزت البلايا طوائف من دعاة الإصلاح إلى اصطناع الأساليب التى عساها تحسم عن الإنسان ما يقاسيه ، فما نرى عقولهم أسعفتهم بوصف حلول تحوم كلها حول ما فصله القرآن . ولقد استيقن على قبل مئات الأعوام جدوى تعاليم الإسلام وتشريعاته فى شفاء الشقاء البشرى فكان أحرص الناس على تطبيقها فى مجتمعه ، فى البدء ببذل الرأى لذوى الأمر ، ومن بعد بقيادة أمته على هذا النهج الأقوم إذ علمه السبيل الوحيد لاستكمال جوانب الإنسانية . ولم يخف اتجاهه هذا عن العيون من قبل أن يلى السلطان . بل كان بادياً منه هذا الحرص لكل صحبه ولجمهور الناس حتى قال عمر فيه إنه أحرص قادة الأمة الإسلامية بأن يحملها على الحق الواضح والمحجة البيضاء .

ولم يكن إيمان على بالرسالة الإسلامية إيمان انقياد وتسليم ، وإنما كان وليد بحث ودراسة عميقة . وإذا كنا فى البدء رأيناه يبادر إلى اعتناق الدين الجديد وهو فى سن لعلها لا تصاحب النضج الفكرى التام ، فإن قسوة التجارب التى مرت بها الدعوة فى أعوامها الأولى كانت كافية لتصقل ذهناً كذهنه دل دائماً على التبكير فى النضج . وكانت المشاهدة من بعد كفيلة بأن تريه جدوى الإسلام على النفوس التى تفتحت له — على هذه

الحفنات القلائل من الرجال والنساء الذين اعتنقوه فهذبهم أيما تهذيب حتى بدوا بين قومهم الجاهليين كما تبدو الزهور النضرة بين الأوحال ! ومع ما لقيت هذه الفئة الصغيرة من نكال وتعذيب ، فإنها استمسكت دائماً بعروة الدين لأنها استثمرت منه سعادة لم تتذوق مثل حلاوتها فى حياة الرذيلة والأنانية وقلة المبالاة التى كانت تحياها من قبل . فلأول مرة أحست بإنسانيتها الكاملة لأنها ربطت هناءة كل فرد منها بهناءة الآخرين .

نضج تفكير على بالمشاهدة ونضج أيضاً بمعاشرته لصاحب أنضج تفكير أتيحت له الحياة فى هذا الكون . ثم انطلق على الأيام يشبع ميله إلى نهل الحكمة من نبعها الأول : كتاب الله . فما استظهره كما كان يفعل الرواة والحفاظ ، بل استوعبه استيعاب تأمل واستقصاء . وراح يستشف ما وراء ظاهر النصوص ، ويقيس الآية فيه بمثيلاتها ليستخلص أتم الأحكام . وبلغ فى هذا غاية الشأو حتى أصبح عند أهل زمانه صاحب الرأى الاخير فى التفسير ، وصاحب الحكم القاطع فى الفقه والشريعة . وبقيت من بعده آراؤه ودراساته أصولا ثابتة للعلوم الإسلامية فى كل الأجيال .

وبقدر إيمانه بكمال الشرائع التى تضمنها الاسلام ، وكفايتها لتنظيم المجتمع الإنسانى على أساس سليم ، فكذلك كان إيمانه بسنة الرسول . فإن هى إلا تبع للأصل ، وتفصيل لما أجمله القرآن . وإن طاقة العقول البشرية بعد هذين النبعين لمحدودة ، وجهدها فى اصطناع الأساليب التى تستطيع إصلاح العالم لقاصر أيما قصور . فما ثمة أحد أرحم بالناس من الله ، ولا شريعة أكمل من شريعته ، ولا علم بأحوال خلقه كعلمه .

كذلك أخذت نظرة على إلى مجتمعه تنعكس من نظراته العميقة إلى لب الدين . وإذا كانت الرحمة هى الوسيلة الوحيدة لتوثيق الصلة بين المجموعة البشرية ، فهى نور يهب المعرفة ، ومعرفة تبصر الإنسان بأوصابه وأوصاب إخوانه من بنى الإنسان . وعاطفة نبيلة لاتنبعث إلا عن نبيل وبكل نبيل من الخصال والفعال . وأولى العالم بها مجتمع ضعف شعور أفراده بإنسانيتهم

فغلب عليه الحرمان من العلم أو العدالة أو أمثال ذلك من ألوان الحرمان

وطبيعى أن تتعلق رحمة على بأوساط العامة لأنهم أدنى طوائف المجتمعات إلى الحرمان ، فحيثما كانت الفاقة نبلت مآبى البشر ، وحيثما استشرى الفقر فسدت المجموعة الإنسانية التى تحتويه ، لا لأن الفقر فى ذاته رذيلة ، ولكن لأنه مظهر من مظاهر فساد خلقى جدير بالكفاح ، هو انعدام العدالة الاجتماعية بين أبناء المجتمع الواحد ، وإن مرد هذا بلا ريب إلى انعدام وحدة الشعور .

على أن الرحمة التى استشعرها على حيال الطبقات الدنيا لم تكن وحدها ما علا قلبه ، بل جاورها إعجابه بنبلهم ، وإكباره لما بدت عليه نفوسهم من صفاء . لكأن الحاجة صهرت قلوبهم وطهرتها مما يعلق عادة بالقلوب من أدران . . لكأن حسهم أرهفته قسوة الآلام التى أذاقهم إياها المجتمع الظالم وجلت عنه ركام الهوى والمطامع .. فهذه الفئة المحرومة التى كانت إذ ذاك نفاية الطبقات كانت أول طوائف العرب إلى تقبل الهداية ، وأسرعها إلى تلبية دعوة السماء حين جاءها محمد برسالة الإسلام ، ولقد شهد لها على ألواناً من الإخلاص لم تطف ظلالها بنفوس السادة والأثرياء ، ورآها دائماً أقرب إلى الرسول من بردته ، تلتف به ، وتفتديه ماوسعها الفداء ، وتبذل فى سبيل رفع لواء دينه كل ما استطاعته من جهود وتضحيات ، بينما وقف الخاصة يناجزونه وقد حسبوا أنهم قادرون على النيل منه والقضاء على رسالة الهدى والنور .

قد كان لهذه العوامل وأمثالها أثر فعال فى صبغ على بصبغته الشعبية ، وفى توجيه وجهته إلى أحضان الشعب ، حتى من قبل أن يصلب عوده ويعرف لنفسه حقها فى زعامة الأمة . ثم تلتها من بعد أمور وحادث له إيمانه بالشعب وزادته اقتراباً من الطبقات الفقيرة التى تؤلف الجانب الأكبر منه ، فلقد لقى بعد وفاة محمد عنتاً من قومه أيما عنت ، وغلبته أهواؤهم الجامحة على حقه الواضح لأنهم نفسوا عليه أن يفوز هاشمى مثله بالخلافة ،

وعملوا جاهدين على ابتزاز سلطانه كلما آن له أن يلى هذا السلطان . . وما من مرة مد بصره إلى صفوف مناوئيه إلا شهدها قد انتظمت أبناء الطبقات المريقة وذوى الأحساب والشرف العريض ، يقفون منه كموقفهم من محمد فى أمسهم القريب . . وما من مرة رد طرفه إلى من وقفوا خلفه يظاهرونه ويرتجون نصره إلا وجدهم من ذات الفئة المستضعفة التى صهرت نفوسهم نار الحرمان — أولئك الذين سارعوا إلى الهداية ، ونشروا الإسلام باستمساكهم به وثباتهم على عقيدته قبل أن ينصروه بأسنة الحراب ورموا بأوطار الدنيا وآرابها دبر ظهورهم إذ لا غاية لهم من هذه الحياة فى مال أو جاه .

ومضت هذه الفترات التى كرثته فيها الحوادث ، والتى عنت فيها رقاب أولئكم السادة لشريعة الحسد والأحقاد ، وانطوت فى الزمن السيار كانطواء الغل فى قلوب أهله . . ثم انتشرت على أثرها صحيفة جديدة من تاريخ الإسلام كانت حرية بأن تكون ألمع صفحاته إذ انتهت مقاليد الأمر إلى أولى الناس به وأصلحهم له بعد رسول الله ، فما يغيب عنا حين نستذكر بيعة الإمام ، ونستعرض العوامل التى أدت إليها ، أن نرى كيف كانت مشيئة طبقات العامة هى الغالبة ذلك اليوم ، وكيف قامت دولة على وحكمه على أكتاف جمهرة الشعب الإسلامى فى كل الأقطار وإن كرهت الخاصة وكره الأشراف .

بالشعب وللشعب .

شعار دائم لم يتغير . وعلم ظاهر على سياسة الإمام لم تبدله الأحداث . وخطة واضحة استمدت وحيها من الماضى بتجاربه ومشاهداته ؛ ومن الدين بتعاليمه وروح آياته ، ومن الحاضر بتبعاته والتزاماته . وبحسبنا أن نصحب أعمال الرجل الذى سوده شعبه لنعرف إلى أى مدى كان مخلصاً للمبدأ الذى اختلط بدمه وأصبح جزءاً من كيانه . . . حتى من أول خطوة حين قوض التقسيم القديم القائم على التفرقة على توزيع الأعطيات على

الطبقات ، ورده إلى نظام المساواة ليقيم صرح العدالة الاجتماعية التى استهدفها الاســـلام . . . وحتى فى ثانى خطوة حين استجاب لشكوى المحــكومين من الحــكام فراح يعمــل على بناء حكم صالح لا يقوم بغير صلاح الحاكم ورضاء المحــكوم .. وحتى فى كل خطوة بعد هذه وتلك سارها إبان عهده القصير الذى اصطلحت عليه الفتن والخلافات ، وغالته المحن والشدائد فلم تصب أيها من جلال صاحبه ولامن رعاية قلبه واتساعه لأمته ، ولا من صفاء روحه الذى عاش ومات وهو يجهد أن يطبع الناس على غراره النبيل ..

٥

كاد الناس أن يتبينوا فى أفق الحاضر سمات الانقلاب الذى يوشك أن يتولى الأوضاع المـألوفة ، فما غابت عنهم نظرة الخليفة الجديد ، ولا آراؤه فى الحالة القائمة بكافة أركانها فى السياسة والاجتماع والاقتصاد . ولاخفى ما تميزت به أخلاقه من نزعة مثالية لا تهدأ إلى ما كانت عليه الأخلاق العامة من رخاوة حين ذاك . ولأولى بمن كان على شاكلته ألا يصبر يوماً وبعض يوم على هذا الانحراف الخلقى وهو يعلم أن دعامة الأمم الأخلاق .

ولقد بادر الإمام بتنفيذ خطته المثلى فى ذات اللحظة التى رقى فيها منبر الخلافة أول أيام عهده . وفجأ القوم بسرعة البت فى الأمور وحسمها على النسق الذى يؤمن به ويرضاه . ولم يكن ثمة قانون يلتزمه سوى تشريع الله وســنة الرسول لأنهما غاية ما تستطيع أن ترق إليه العقول . فهمـا نهجه الواضح ، والقبس الذى يضىء أمامه الطريق إلى بلوغ الـكمال . وهو بنصوصهما والروح التى انطوت عليه جد عليم . ليس ينقصه بحث ولا دراسة ليتبين الوسائل التى تقىء الاصلاح المنشود .

استشف القوم بشائر الانقلاب الشامل الذى آذن به اختيار على لولاية أمر الدولة الاســـلامية واختلفت نظراتهم إليه بين إكبار وإنكار . فلقد

كان جمهور الأمة يتوقع الخير من خلافته لأنه آمن بأن الإمام رئيس أمة قبل أن يكون حاكم دولة . يعني بشئون الناس كعنايته بشأن أسرة . ويستلهم صالحهم العام بوصفهم مجموعة بشرية لها مشاعرها ، ولها حقوق حياله قبل أن يتقاضاها ما عليها من التزامات . وكان الكيان السياسي في نظر على تبماً للكيان الإنساني ، ونتيجة مترتبةعليه . وكانت وحدة الشعور وحدها بين أبناء المجتمع الواحد هي الكفيلة بضمان الوحدة السياسية . ولن تجد دولة تستطيع أن تعز وتسود إن لم تسد بين أفرادها شريعة الإخاء .

وبقدرما استقبل العامة عهدالإمام بالترحيب فقد عبست له طبقة الأشراف، وساءهم منه أن يبدأ بتقويض المزايا المادية التي كنبوها في عهدي سلفيه . وبإنزالهم عن المكانة الاجتماعية العليا التي كان التقسيم العمرى أحد مظاهرها . وكفى بهم حنقاً عليه أن قد سوى بينهم — هم السادة ذوى الأحساب — بالدهماء والأوشاب . ووضعهم وإياهم أمامه بمنزلة واحدة كما هم في حقيقة الأمر أمام الله . .

لا ريب أن مبعث غضب الخاصة على الامام كان نظامه الجديد في التقسيم ، أو عوده — بأدق تعبير إلىذات النظام الذى أستنه رسول الله . فلقد استيقنوا أنه خطوة لن تلبث أن تتلوها خطوات تحرمهم بأسهم وما كانوا عليه من نفوذ وجاه . وإذا كانوا قد ارتضوه خليفة وبايعوه على ملا من الناس فمن غير طواعية اختاروه ، بل انقياداً لسطوة الشعور العام . أما وقد انتهت فورة النفوس الآن ، وأوشكوا أن يطمئنوا إلىهدوء الحال ، فخيرهم إذن معقود ببث المراقيل في سبيله . أو على أقل القليل — ببذلهم الجهد للابقاء على بعض الأوضاع التي كانوا يعلمون أن الامام سوف يتناولها بالتغيير . .

بغير هذا لا يساغ فهم موقف المغيرة بن شعبة حيال مشيئة على في تغيير ولاة عثمان . فلم يكن المغيرة من أنصار الامام . ولم يعلم عنه أنه أضمر له شعور الولاء . بل هو لم يبايع له وإن بايع له كثير غيره من الكارهين .

فمن صعب أن يتكلف — رغم هذا — بذل النصح لعلى ويبدو كالمشير الأمين حين لا تكون المشورة من مثله إلا إغراء مستتراً على ارتكاب الأخطاء . . .

قال الداهية وهو يداهن الإمام :

« إن النصح رخيص ، وأنت بقية الناس ، وإن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد ، والضياع اليوم تضيع به ما فى غد » .

وأمسك برهة ليرى مدى تأثير قوله . فلما رأى علياً جانحاً إلى السكون عاد فاستأنف الحديث :

« . . إنى مشير عليك أن توسل إلى عمال عثمان بعهودهم . أقرر معاوية على عمله . وأقرر ابن عامر على عمله . وأقرر العمال على أعمالهم ، فإنهم يبايعون لك ، ويهدئون البلاد ، ويسكنون الناس » .

فبادره الامام برأيه القاطع فى أولئك الولاة :

— والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيى . ولا وليت هؤلاء ، ولا مثلهم يولى .

— .. اكتب إليهم بإثباتهم ، فإذا أتتك بيعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت .

فجاءه الجواب الحاسم ، الولى به خلق على :

— لا أدهن فى دينى ، ولا أعطى الدنى فى أمرى .

ولكن المغيرة لم ييأس بعد ، بل حسب أنه مستطيع أن ينفذ بعض مشيئته بشكل من الأشكال . . فقال :

— فإن أبيت فانزع من شئت وأقرر معاوية ، فإن لمعاوية جرأة ، وهو فى أهل الشام يسمع منه . ولك حجة فى إثباته ، إذ كان عمر بن الخطاب قد ولاه . .

— لا والله . . لا أستعمل معاوية يومين أبداً .

فخرج المغيرة مغلوباً على دهائه ! .

غير أنه — كغيره من الوصوليين — رأى أن يأخذ بالشمال ما لم يستطع

أخذه باليمين . فما هى إلا ليلة حتى عاد ثانية إلى مجلس الامام يعتذر مما سلف منه بالأمس . ويعلن أن رأيه الذى ناضل عنه طويلا وأراد به إقرار ولاة عثمان كان بعيداً أيما بعد عن الصواب . . لقد آثر الداهيــة أن يبدو فى ثياب المؤيد لسياسة أمير المؤمنين وإن لم يكن فى صفوف أعوانه ومناصريه ، وكفاه أن يقف موقفاً لا يثير عليه نقمة الامام ولا يبعده عن عطف أعدائه ليستطيع حين تسنح الفرصة أن يكون صديقاً لا تقفل فى وجهه أبواب الفريق الغالب ! .

فما كان أرخص دهاءه ، وأفضح رياءه ! . . ومع ذلك فقد استمـع له على حتى أتم اعتــذاره ثم شيعه إلى الباب ببسمة ساخرة فيها رثاء بين للحالة التى تدلت إليها رجولة الرجال ! . . وتلاقى المغيرة حين خروجه بابن عباس وقد عاد لتوه من الحج حيث كان أميراً من قبل عثمان . وتبادلا التحية ثم مضى أولهما لشأنه ودخل الثانى على الخليفة الجديد .

وقال ابن عباس ولم يخف عنه أن الدهية الذاهب إنما كان بمجلس الامام لأمر له فيه شأن .

— يا أمير المؤمنين . . ما قال لك هذا الخارج من عندك الآن ؟ . .

فابتسم على . وقص له ما كان .

— يا أمير المؤمنين . . أما فى الأولى فقد نصحــك ، وأما فى الثانية فقد غشك . .

— نصحنى ؟ .

— نعم . وإنك لتعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر . .

— ويحــك يا ابن عباس ! . . إن الذى يلزمنى من الحق والمعرفة بعمال عثمان لا يجعلنى أولى منهم أحداً أبداً . فإن أقبلوا فذلك خير لهم ، وإن أدبروا بذلت لهم السيف .

فــكأنما لم تلق هذه الــكلمات مسمعاً لدى الشباب ، لأنه عاد يقول :

— .. أنا أشير عليك بأنْ تثبت معاوية ، فإذا بايع لك فعلى أن أقلعه من منزله — » .

— لا والله .. لا أعطيه إلا السيف ! .

— يا أمير المؤمنين ، أنت رجل شجاع لست بأرب الحرب . أما سمعت رسول الله يقول الحرب خدعة ؟

— بلى .

— فوالله لئن أطعتنى لأصدرن بهم بعد ورد ولأتركنهم ينظرون فى دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها فى غير نقصان عليك . ولا إثم لك .

فلم يزد على — بعد هذا الرأى العجيب الذى أبداه ابن عباس وكاد أن يكون صورة من نصيحة المغيرة — لم يزد على أن أجاب بحزم وفى إيجاز :

— يا ابن عباس ، لست من هنياتك وهنيات معاوية فى شىء .. تشير على وأرى ، فإذا عصيتك فأطعنى .

— أفعل . إن أيسر مالك عندى الطاعة .

قد كان معاوية وأصحابه من ولاة عثمان أهل دقيا فى نظر الناس ، أفكان على كذلك ياترى فى نظر ابن عباس ؟ .. بل التوفيق جانب الشاب الهاشمى هذه المرة نتيجة لشدة حرصه على توطيد إمرة ابن عمه ، ونتيجة أيضاً للاثر الذى تركه فى نفسه رأى المغيرة الذى كان موسوماً بالدهاء إذ ذاك . وأوشك الفتى ، مقوداً بهذه المؤثرات ، أن يتخذ من المقاييس الخلقية المنحرفة وسيلة لقياس أخلاق الامام كأنه أنسى أى طراز من الرجال كان . .

ولكن النهج الواضح الذى اختطه على لنفسه لم يكن بحاجة إلى رأى مشير لايضاحه أو لادخال تعديل عليه هنا أو هناك ، فما كان يصدر فى أعماله إلا عن دستور قويم واحد ، لا يمكن أن يتناوله التحريف ، هو الدستور الالهى الذى نزل به القرآن وكانت غايته إصلاح المجتمع الانسانى كله بإصلاح الأخلاق . ومن العبث أن تأخذ الفروع بالعلاج وأنت تدع

الأصل فريسة للداء . وكان الأصل فى الدولة الإسلامية أولئكم الولاة الذين أشفت البلاد تحت إشرافهم على حافة انهيار روحى يوشك أن يكون فاتحة كل انهيار . فما كان حكمهم قائماً إلا على استثارة النزعات النفسية الوضيعة فى المحكومين تارة بالترغيب وتارة بالإرهاب ، حتى وصلت بهم الحال إلى سلطان هو الطغيان . فقد ضمر فيهم الشعور بقوة المبادئ السامية والمثل العليا وأوشك على الزمن أن يموت . وإذا فتر هذا الإحساس فإنهم أقرب إلى تضارب الأهواء منهم إلى توحد الغاية ، وانطلق كل فى طريقه نحو هدف خاص يشغله عن الهدف الأمثل الذى يجدر أن يلتمسه مجموع الأمة الإسلامية التى أرادها دين الله على قيادة البشرية كلها إليه .

المثل السامية التى دعا إليها القرآن كان أثرها وشيك الزوال إذ ذاك من قلوب الناس . وكان عثمان عن هذا أول المسئولين . فهو الذى مكن لنقائضها فى النفوس بسياسته الرخوة ، وأقام ملكه على أكتاف عمال أهلتهم للولاية قرابتهم دون كفايتهم . وكان ضعيف الرقابة عليهم . بل هو فى الحق كان يطلق أيديهم فى العمل كما يشاءون ، فانتهجوا من الأساليب كل مايحفظ عليهم سلطانهم ويوفر لهم مظاهر السطوة والجاه ، وإن عارضت هذه الأساليب لب الإسلام ، واتخذوا من بعض رعاياهم أعواناً على البعض ، فقدموا فئة وأخروا ثانية ، وميزوا بالهبات والمناصب رجالا لا يفوقون بقية الأمة إن سلكوا وإياها فى عقد الموازنة ، بل هم أولى بأن يتخلفوا إلى ماوراء الصفوف ، وبعد أن كان العمل وحده هو أساس التفضيل والتقديم ، اصطنع أولئك الولاة أسسا شتى لاجتباء الأعوان : فيها صلة القربى ، وشرف الأنساب ، والزلفى إليهم بكل طرائق المداهنة والرياء . وبعد أن كانت المساواة هى النبع الذى تستقى منه العدالة ، وكان الناس سواء كما وضعهم الله ، أصبحوا فى نظرة الحكام طوائف وطبقات ، وبات التمييز لطبقة دون غيرها هو العدالة السائدة . وكذلك نبت الجور على حقوق أغلبية الشعب من أجل تمييز قلة فيه . ولم تعد

هناك حاجة بالولاة لأخذ الأمة جماء بشريعة المساواة مادام اختيارهم هم أنفسهم للقيام بشئون الولايات لم يكن مرده إلى هذه الشريعة التي لا تعرف المحاباة .

كانت القرائن كلها تدل دلالة بينة على انحراف السياسة العامة عن الجادة التي أوضحها الله . وكان كل عقل يستلهم في تفكيره روح الإسلام يرى — دون تردد — وجوب تغيير هذه السياسة . وهدم النظام الفاسد الذي أقامته وأملت له في البقاء . ولم يكن على يعرف هذا فحسب ، بل آمن به تمام الإيمان . وحزم أمره على تجييش كافة قواه الذهنية والمادية لإقامة صرح دولته على ذات الأساس الوطيد الذي انطوت عليه نصوص رسالة السماء . لقد بدا جلياً تعذر التعاون بينه وبين عمال عثمان لاتساع ما بينه وبينهم من هوة فكرية ، ولاختلاف مبدئه ومبادئهم اختلاف النقيض والنقيض . وهل كان بمقدوره أن يكل إليهم إنفاذ نهجه الجديد وهو يعلم أنهم لا يؤمنون به ؟ ... وكيف يسعه أن يأغنهم على سياسة قوامها نبذ الأهواء وإنكار الذات هم الذين أشربوا الهوى واستعبدهم حب الذات ؟ . . فإذا استطاع — رغم هذا — أن يتقبل مشورة المغيرة ، وينزل على رأى ابن عباس في إقرار أولئك الولاة مع ماعرفه من كراهة رعاياهم لهم وثوراتهم المتواترة التي انتهت بمقتل عثمان ، أفكان إذن يأمن ألا ينتقض عليه أمره بهذا الإقرار في كافة الأقطار ؟ ..

لا حافز غير الحرص على توطيد دعامة الحق دفع علياً إلى الاستمساك برأيه في إقصاء العمال الذين ولاهم سلفه . ولا هدف رمى إليه سوى إعادة سلطان الأخلاق إلى مكانه في قلوب الناس كما كان على عهد رسول الله . ولئن وجب عليه أن يقصى ابن أبي سرح وابن أبي عامر عن أريكة الحكم استجابة لرغبة المحكومين، فقد وجب أن يقصى قبلهما معاوية وإن دانت لطاعته الشام . فما من ريب في أن هذا الرجل كان لا يستلهم في كل أعماله غير ذاته ومنافعه الشخصية ، وكان لا يتجه إلا حيثما ناداه طموحه ، ولا يتوسل لهدفه إلا بالوسائل التي يراها ذات جدوى في مجتمع رانت عليه الأطماع وغلب فيه

سلطان المـــادة . ذلك أن الشام كانت أدنى أرض المسلمين إلى الأمبراطورية الرومانية التي اضمحلت شوكتها وأخذ كيانها السياسى ينهار نتيجة لانحلال الأخلاق . وكانت بقربها هذا مرتعاً خصبا لـكافة الآفات الخلقية التى تصيب النفس الإنسانية . وإذا كان ثمة حاكم إسلامى قد أفاد من وراء هذا الانحلال الخلق فمعاوية ذلك الحاكم لأنه وجده أداة طيعة يستطيع أن يصل بها إلى السيادة بأيسر مجهود . وما عليه إلا أن يعرف جوانب الضعف فى نفوس رعاياه ثم يستعبدهم بنوع الإغراء الذى يستجيبون له . أما استكمال هـذه الجوانب وسد ثغرات النقص الخلق بالوسائل التى أوضحها الإسلام فذلك كان أبعد عن استعداده وأعسر على نفسه الموكولة بتحقيق أهدافها الشخصية دون التقيد بالتزام سبيل الهدف الإسلامى العام . ولعله من قسوة القدر على الدولة الفتية أن عنت جبهتها ذات يوم لمعاوية . ودانت لحـكمه رقاعها الممدودة لأنه — وإن نشر ظلها على أقاليم جديدة من الأرض — قد قلص فى نفوس أبنائها سطوة الـكمال الخلق الذى كان الغاية الأولى لدعوة الإسلام ...

على إذن كان منطلق النظرة إلى بعيد . أرسلها تخترق الحاجز إلى المستقبل وتسبق التاريخ قبل أن رسم أحداثه ، وتستشف من هذه الأحداث التى لم تكن قد كتبت بعد صدق رأيه فى الرجال الذين أبى أن يدع فى أيديهم مصاير الأمة الإسلامية ، ومصاير السمو البشرى الذى كان الهدف الأسمى للرسالة المحمدية . وكانت نظرته أصدق ما تكون فى معاوية . وكانت سريعة كأنها الفـكرة الملهمة لم يعوزه لصوغها كثير تدبير . وبقدر ما حوت من الغيرة على مصير الشريعة الهادية فإنها لم تخل من غيرة على مصير الـكيان السياسى الذى أصبح هو الآن رجله الأول . فما غاب عنه أن فى إقرار ولاة عثمان ضياع الدولة الناشئة وتفتيت وحدتها . ما دام بقاؤهم فى أعمالهم سيلاقى حتما بثورة رعاياهم عليهم وعليه . وأولى به إذن أن يجلوهم عن مناصب الحـكم ، لخير الحق ولخير الخلق .

لذلك لم يتلبث أقل القليل ليحسم الأمور ، بل بادر فكتب إلى أمير الشام :

« من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان .

« أما بعد — فقد علمت إعذارى فيكم ، وإعراضى عنكم ، حتى كان مالا بد منه ، ولا دفع له . والحديث طويل ، والكلام كثير . وقد أدبر ما أدبر ، وأقبل ما أقبل . فبايع من قبلك . وأقبل إلى فى وفد من أصحابك . . . »

وطوت الدابة رقعة الصحراء بغير إبطاء . وقطعت الطريق من الجنوب المجدب إلى الشمال الأخضر النضير ، ثم اجتازت أسوار دمشق إلى القصر الباذخ . وأجال الراكب عيناً حائرة فى الترف الذى طالعه من كل مكان فليس له شبيه فى حاضرة الإسلام ، حتى إذا انفرجت له صفوف الحراس فى ثيابهم الأنيقة ، وبأسلحتهم الشاكية البراقة ، قيد من باب الدار إلى ردهات خلص منها إلى قاعة الإمارة . فإذا ثمة بطانة كبيرة من رجال وعبيد . وإذا بصدر المكان وسادات من حرير اتكأ عليها معاوية تحفه مظاهر الجلال والخيلاء ، تعيد هيئته إلى الأذهان ما تسامعت به الأذن من ملك الروم .

وقدم الرسول كتاب الإمام . وفض الأمير الخاتم ثم ألقى على السطور نظرة ووجهه جامد لا ينبئ عما بقلبه من شعور . ولكنه إذ غاب القادم عن عينيه بعد قليل ، استطاع أن يبتسم فى ازدراء . وفى اتئاد وهدوء وضع رسالة أمير المؤمنين بجواره . ومد يده فالتقط أخرى كانت غير بعيد ، نشرها تحت بصره ؛ وراح يقرأها وشفتاه لا تكفان عن ذات البسمة التى لونتها قلة المبالاة .

« من عمرو بن العاص ، إلى معاوية بن أبي سفيان :

« أما بعد ... ما كنت صانعاً فاصنع ، إذ قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه ، كما تقشر عن العصا لحاها ! . . »

وصدق ابن النابغة . فهاهى الأخبار قد جاءته بما انتواه على من مصادرة القطائع والأموال التى بعثرها عثمان .

٦

الشام غضبى ... حديث القلوب فيها لوعة ، وحديث الأعين دموع ، يوشك رجالها أن يجردوا السيوف ، ويتدفقوا عبر الصحراء كالسيل صوب الجنوب ... ولكن زمام عواطفهم كان بالقصر — فى يد الأمير الشحيم ، المندحق البطن الواسع البلعوم ! ... فهو وحده يستطيع أن يسير آلة الحقد الضخمة التى يؤلفون أجزاءها ، يدفعها إن شاء ويوقفها إن شاء ، أصابعه فيها الحركة وفيها السكون ، كأنها أذرع الأخطبوط تتحرك إلى كل وجهة وهو ثابت فى مكانه .

كان تاجر أهواء . كل نزوة نفسية لها فى قائمته ثمن معلوم ، وكل هوى يلقى فى سوقه من الرواج بقدر ما يجره عليه من الربح . يستعرض العواطف كما يستعرض السلع ، وينتقى منها أجداها عايه ، ومن وراء أسوار قصره المنيف كان يلعب بأحاسيس الناس . ويربط بين قلوبهم وأطماعه كما ترتبط الدمى بأصابع مهرج قابع خلف ستار . . . وكان حاذقا يجيد التمثيل ، يكاد أن يرى الأثر الذى ينشده من الاعيبه آخذا سبيله فى النفوس ، بالغاً منهسا أعمق أغوارها وإن بقى هو ساكنا إلى وساداته ، ساجى الطرف ، يشبع نهمه من الأطعمة الشهية التى كانت — بعد أطماعه السياسية — أحب هوية إليه فى الحياة .

أصابعه الماهرة استطاعت أن تحرك الجماهير • وتلعب على أعصابهم حتى ملكتهم العواطف الجياشة وأشفت بهم على حافة الجنوح • ولم يكن يخشى أن يفلت منه الزمام فما للدمى مشيئة سوى مشيئته هو الذى يمسك الخيوط • ولم يخش أيضاً فتور المشاعر المشبوبة ، فقد أحسن إمدادها بالوقود • ولن يفتأ الناس كل مطلع شمس أن تضطرم فى قلوبهم نار اللوعة حين يدخلون مسجد دمشق ، ثم تعصف بهم ثورة الغضب حين يبرحون أبوابه ولن يكف شعورهم عن التذبذب

بين هاتين العاطفتين بضع مرات فى اليوم بعدد الصلوات . فثمة على المنبر مشهد تغلى له دماء الرجال ، وتتقد نخوتهم . وما دامت فيهم عين ترى فلن تهدأ لهم ثائرة قط . فهذه بقايا المأساة التى شهدتها المدينة قائمة أمامهم تتلقفها الأبصار كلما تولت شطر القبلة . إنها شعيرات من لحية عثمان تجمد عليها دمه ، وقميصه قد بدت فى ديباجته الدامية تلك الخروق التى نفذت منها أسنة الثوار إلى قلبه وحملت إليه الموت ، وسلاميات أصابع جافة برزت من بين ألفافها كأنها تهيب برجولة أهل الشام أن يبادروا للانتقام ! .

إثارة النزعات النفسية كانت تجارة معاوية سليل التجار ! ... وقد أثارها كما شاء وملأ بها قلوب رعاياه حتى لم يعد ثمة رجل منهم إلا يتحفز للثأر ممن أشعلوا نار الفتنة على عثمان . وبحسبهم أن تطالعهم آثار المأساة فى كل ساعة من الليل والنهار لتظل موجدتهم مشبوبة لا يخمد لها ضرام . فما استطاعوا أبدا أن يعرفوا الأسباب الحقيقية للثورة ، ولا مدى المسئولية التى كانت واقعة على الخليفة تجاه أمته وأدى تهاونه فى الاضطلاع بها إلى اندلاع لهيب العصيان. ولكنهم ألقوها نظرة عابرة على حادث المصرع كشفت لهم من الناحية السطحية منه — الناحية الحزينة العاطفية التى يبدو من خلالها شيخ واهن أثقله العمر ، قد اقتحمت عليه مأمنه فئة باغية لم تأخذها فيه شفقة وراحت تستمتع باعتصار بقايا الحياة من جسده الضعيف .

بذلك القميص الذى مزقته الأسنة ، وبالسلاميات الجافة ، وبالشعيرات اللاصقة بمنبر دمشق استطاع معاوية أن يصل من قلوب رعاياه إلى مالا تستطيع بلوغه أبلغ خطب التحريض وأشدها حرارة . الآثار الثلاثة كانت باعث غضب جامح مجتاح عصف بالنفوس كأنها الخرقة الحمراء حين يلوح بها أمام ثور! ... غير أن حاكم الشام لم يجن من وراء عرضها إثارة سورة الغضب الهائج فحسب، بل وسعه أن يبدو بها بطلا ماجدا فى عيون شعبه لا يقعد عن الثأر لضعيف مظلوم .

بدا فى ثوب الناقم على قتلة الخليفة ، الحزين غاية الحزن لمصرعه . ولكنه إلى هذه اللحظة لم يكشف عن خطته ولا عن الطريق الذى يريد أن يوجه فيه نقمة هـذه النفوس الغضبى . لم يكن قد أكل نسج شباكه فآثر التريث ، غريزته التجارية دلته على أن التمهل أجدى على أهدافه المريضة وأدعى إلى تحقيقها على الوجه الذى يرتضيه . ولئن لاح سخطه واضحاً على مثيرى الفتنة التى سالت فيها دماء عثمان فإنه لم يبين « من » هو أولاهم بتحمل تبعة هذه الدماء المهراقة . واكتفى بأن ظل ينفخ فى النار التى أججها بصدور أهل إقليمه . عساه يستطيع — إن أسعفته الظروف — أن يدفعهم عبر الصحراء صوب الجنوب ! .

ثم أخذ رويدا رويدا يتبين السبيل الذى يصل به فى نهاية الشوط إلى مراميه . وراحت الأخبار تترى عليه من كل جانب فتزيده استمساكا بأطماعه ، وأملا فى قرب تحقيقها على النحو الذى يريد . وكانت عينه دائماً على المدينة . ترقب كل ما يحدث فيها . وعلى الجالس الآن بمسجدها يحاول أن يوجه سياسة الدولة المترامية التى آل حكمها أخيراً إليه . ولم يفته اضطراب الأحوال بالحاضرة الإسلامية غب مقتل عثمان . ولا القوة التى ظلت فى أيدى الثوار كالسيف المصلت على الرقاب . فقد بقيت لهم شوكتهم عزيزة مرهوبة بعد أن حققوا بالأسنة ما أعياهم تحقيقه بالوسائل السلمية . وباتت لهم فى النفوس رهبة ، إذ ظلوا على اجتماعهم ولم يتفرقوا إلى أمصارهم كما كان المتوقع منهم بعد إنفاذ مشيئتهم . وكان من العبث أن يقهروا على الخروج وهم يملكون من السلاح والعتاد مالو شاءوا لكروا به ثانية على أهل البلدة العزل الآمنين .

ومن حق غالبية الثوار أن ننصفهم أمام التاريخ . فلم يلجئوا إلى الثورة حباً فى الفتنة والعصيان ، ولكنهم كانوا فى الحقيقة أفرادا أثارهم الظلم الذى وقع على مجتمعهم بأيدى ولاة عثمان وبأسباب نظمه السائدة التى دب إليها الفساد فى أخريات أيامه . فلما أن ثقلت عليهم وطأة العنت هبوا يلتمسون

عنده الخلاص . وساروا إليه حيث كان بحاصرة الدولة يحملون ظلاماتهم عسى أن يرفق بهم وينزع عن سياسة الوعود المتوالية التى لا يفرغ لها معين . ولم يكن لهم مطلب قبله سوى أن يوفر لهم الحياة الإنسانية الكريمة التى وعدهم إياها الإسلام . ولكن السبأية انتهزوا الفرصة السانحة فأشعلوها فتنة مشبوبة تحقق لهم أغراضهم الهدامة وترد الدولة الفتية مزقا محلولة كما كانت قبل الرسالة ، واستطاعوا بأساليبهم الملتوية أن يوجهوا الوفود الساذجة النازحة من البلدان وفق هواهم ، ويتخذوا منها آلة هدم وتقويض . حتى إذا انتهت الفتنة ، ورأوا دماء الخليفة الصريع تبالل أيديهم ، خشوا إن هم انفضت عنهم جموع أهل الأمصار أن يسهل تناولهم بالقصاص ، فراحوا يوقعون فى روع كل رجل شرك فى الثورة أن أمنه رهين بأمنهم ، وسلامته موقوفة على بقائهم فى الحياة .

وكذلك تماسكت هذه الوفود ، ووحدت بين أفرادها خشية النهاية كما جمعتهم فى بادىء الأمر وحدة الغاية ، ووقفوا عن كثب يرقبون نظرة أهل الحاضرة ونظرة الخليفة الجديد فيهم ، وكانت طوائف كثيرة من موالى المدينة وعبدانها قد انحازت إليهم إبان الثورة وظلت بعدها لا تحيل عنهم ، بل ساكنتهم معسكراتهم المنتشرة على أطراف البلدة .

على أن اضطراب الأحوال ، وتقلقل الأمن بالمدينة لم تكن وحدها ما يهيج خاطر حاكم الشام ، فقد علم أنهما عارض عابر كتلك الاضطرابات التى تجىء عادة فى أعقاب الثورات وتهدأ حدتها على الزمن . وعلم أيضاً أنها عائق — كبقية العراقيل الطارئة — كفيلة أقدام ابن أبى طالب أن تسحقه لو أمهل له فى تناولها بحنكته وتدبيره ، ولكنه رأى بثاقب نظرته من خلالها أحداثاً شتى تهم أن تسير سيرها وتفسد على الأمير الجديد أمره إن وجدت اليد التى تعرف كيف تحركها وتدفع بها إلى الأمام ، وكان قدر معاوية فى عونه ، والظروف إذ ذاك تتواتر وفق رغباته فى ذلك الوسط الذى كانت الكلمة العليا فيه للأهواء والمطامع ، حتى لكأنما كل شيء كان

يتحرك بإملائه ، فما عدم قط اليد المحركه وإن لم يدفعها هو إلى الحركة ، ولم تنم عينه اليقظى عن تتبع أصابعها التى كانت تعمل دائبة فى السر والعلانية من أول يوم تسنم على فيه مقعد الخلافة . وكان الرجل بمجلسه فى قصر دمشق وهو يرقب الحوادث دائم الرضا عن زمانه ، موفور الثقة فى المستقبل الخصيب القريب ، يكاد يتبين حلمه القديم ينفلت من ألفاف الماضى — من قبر أمية وحفرة ابن حرب — ويثب قائماً على قدميه ينفض نثائر أكفانه . . ويوم أتاه كتاب عمرو بن العاص ، لمعت فى أفقه بوارق آمال رأى على أضوائها كافة العوامل التى يسعه تجنيدها لتنطلق به نحو النصر ! .

إن ثمة رجالا شردتهم الثورة قد ضربوا واجفى القلوب فى زوايا الأرض وما زالوا يحلمون بتبوؤ مراكزهم تحت الشمس ، وثمة آخرون من أقرباء الخليفة القتيل وخلصائه ينقمون اليوم من على قراره بحرمانهم الهبات والقطائع التى منحهم إياها عثمان ، وثمة طوائف الأشراف والسادة الذين أخذت من زهوهم شرعة المساواة الشاملة ونزلت بهم إلى صفوف أبناء الشعب ، وهؤلاء جميعاً ينتظرون ساعتهم ، ويستطيع معاوية أن يلحقهم به ويؤلف منهم كتلة العصيان التى تناهض الحاكم الشرعى للدولة ، ولم يكن ينقصه لنسج خيوطه وحبك مؤامرته إلا أن يبدو بطلا أمام التاريخ أو على الأقل بطلا فى عين رعاياه وأعين سواهم من سذج البلاد الإسلامية ليمهدوا له طريقه إلى تحقيق حلمه القديم فى السيادة

كان ينقصه العلم الذى يلتف حوله أنصاره — الفكرة السامية التى تظهره مناضلا من أجلها ، باذلا فى سبيلها وحدها الجهد والدم والأموال ، لا فى سبيل منفعته الشخصية أو مأربه الخاص ، ، فما أتيح قط لحركة أن تنجح إلا إذا هدفت لغرض نبيل أو تظاهرت بأنها قامت تهدف إليه .

وقد وسعه أن يستخلص الغرض الذى يبدو فى مسوح النبل لكل مفتون بظواهر الأمور لا يعنى بتقصى جواهرها ولا بالغوص إلى ما عساها تنطوى عليه ، وكان هذا الغرض هو الغضبة لعثمان ، والأسى على مصيره ،

وما يتبع هذا وذاك من لزوم السعى للأخذ بثأره والاقتصاص من قاتليه العتاة .
نبه لاح موكولا بمحاربة البغى الذى وقع الشيخ المهيض فريسة لعدوانه ، وكان
هو ولى دم القتيــل ، فهو إذن أولى الناس بالانتصاف له ، وإذ كان أقوى أهله
وأبلغهم سطوة ، فإنه أقدرهم على بلوغ هذا الهدف الإنسانى النبيل ، وكان فى
حاجة إلى معونة الجمهور أكثر من حاجته إلى معونة أصحاب المطامع الذاتية ،
الذين لا بد سيحتويهم وإياه نفس الطريق المؤدية إلى مناجزة الإمام . فلما أثار
فى الأول حميــة النخوة ، ولوح للآخر بالمنافع المنتظرة ، كان قد استطاع أن
يخضع لأهوائه أنبل العواطف البشرية وأخسها فى آن .

من قصر دمشق امتدت عينه ترقب حوادث المدينة فلم يفته منها شىء ،
وإذا كان عمرو بن العاص قد نصب من نفسه هادياً يوضح الأمور له ويدعوه
للمبادرة إلى العمل المنتج الفعــال ، فهذه منة لعلها تستحق أن يذكرها سليل
الأمويين بالشكر وعرفان الجميل . ولــكنا لا نحسب معاوية إلا مزج الشكر
بالسخرية . وافترت شفتاه عن بسمة ما كرة صفراء فما خفيت عنه نفس صاحبه
القابع هناك بحــدود فلسطين يشم الريح كما تفعل الضبع فى وكرها ، إذ ترهف
أنفها لتتعرف إلى أين تدب لتستمتع بأشــلاء جيفة ! . . . الوصولى الثانى فى
الإسلام كان هو الآخر يخضع قلبه وعقله لقواعد الحساب . ولا يبذل الحركة
والــكلمة إلا بثمن معــلوم ، وإنها لناحية من نفسه مكشوفة بغير شك لعين
معاوية سيد الوصوليين ! .

كأنهما شق رحى ، أحــدهما كفء الآخر ، قد جمع بينهما نفس المحور ،
بل هما جدولان انحدرا من ذات النبع ، لا يتميز المرء منهما علامة خــلاف ،
ولقد بلغ من استمسا كهما معاً بشرعة المنافع وتقديمها على ما وضعته الإنسانية
من اعتبارات أدبية ومقاييس خلقية أن قرنا فى الصف الأول من عبـــاد
المادة وأسرى الطبيعة الآدمية التى كبلتها قيود الغرائز البدائية ، وكانا
شكلين ، عطفت قلبيهما الأهواء الدنيوية ، ومازجت بينهمـــا حتى لاحا فى

الناحية النفسية كتوأمين . فما نلوم بعد هذا من رد نسبهما إلى صلب واحد خرجا به إلى هذه الحياة ! . . وثمة صحيفة من صحائف فجور الجاهلية تنتشر عن النابغة أم عمرو كامرأة تلقفتها آونة مضاجع الرجال ، فلما خرج ابنها إلى النور تهامست الألسن عن أبيه ، وتاهت حقيقة نسبه بين بضعة نفر من سادة العرب إذ ذاك ، منهم العاص ، ومنهم أبو سفيان .. ولكن الأم حزمت أمرها على أن تلصق وليدها بأول الرفيقين ، إذ كان أوفر النفر ثروة ، وأسخاهم عليها فى الإنفاق ، فكأنها بهذا الاختيار قد ضربت لابنها أول مثل فى تغليب المادة على أوثق العلاقات ، وإنه لمبدأ رضعه من ثدييها ، وظل يدين بناموسه مدى عمره المديد ، حتى غاب جثمانه فى التراب ! ..

على أن معاوية رأى فى ابن العاص نموذجا للرجال الذين يؤيدون له قضيته حين تدعوه الحاجة إلى حشد جيوش الأباطيل . وكان لم يزل بعد فى دور الإعداد فادخره إلى ساعته . وا كتفى بأن يرقب الحوادث السيارة بقلب الدولة ، ويجهد قدر وسعه للإفادة منها وتحويلها إلى صالحه الخاص . كان شديد الحذر كدأبه ، لا يكشف عن غاياته إلا إذا حان الوقت المرقوب . لذلك لم يبادر الإمام بالخصام حين أتاه كتابه ، بل آثر التريث فلم يستجب لدعوته ولم يجاهره بالعداء . وإنما ظل ساكناً يداور الرسول الذى ينتظر ببلاطه بضعة أشهر دون أن يفوز منه بالرد المطلوب . فلعله خشى إن هو أظهر الخلاف أن تستقيم الأحوال لعلى فيستطيع أن يهدم تحته إمارة الشام فضلا عن تقويضه صروح آماله العريضة فى حكم دولة الإسلام . وبقى رابضاً بقصره يلقى سمعه وبصره كليهما على المدينة ويدبر خططه حسبما يأتيه من الأنباء .

ولم يطل به الانتظار فإن الهوى ابتنى عروشاً فى قلوب كثيرة سوى قلبه . ولكن خبراً واحداً كان له فى نفسه فعل الخمر . أحس على أثره بنشوة فتحت له باب أحلامه على مصراعيه ... لقد أوشك الزبير وطلحة أن يتمردا ويرفعا علم العصيان ...

اثنان من أهـل الشورى ! . . أئمة من هو خير منهما بين صحب رسول الله ؟ . . . بل الثالث الباقى على قيد الحيـاة لم يبايع هو الآخر ! . . بل عائشة أيضاً تلك المؤلبة الأولى ضد عثمان ، المنادية بالثورة عليـــه بصوتها الجهير ، الداعية إلى قتله بكل مكان ، قد أصبحت اليـوم تذرف الدمع ، ورأيت باطلا ما رأته حقـاً بالأمس ، ثم مضت تسير على رأس فتنة جديدة لن يصلى نارها سوى الإمام ! . .

ماذا فعل على ليبوء بنقمة هذه الصفوة المختارة من بناة الإسلام ؟ . . . التاريخ لا يعلم . . صحائفه فى هذه الناحية بيضاء ، ليس بها نقطة واحدة تشين الخليفة الجديد . ولـكن سفر النفوس الناقمة كان شديد السواد ، ملأته أحقاد الماضى إلى دفتيه . والناس فى كل زمان ومكان هم الناس ، أسرى ماضيهم . تجرهم خلفها الأهواء المنبعثة عنه دون أن يتبينوا إلى أين تسير . .

كل ما بدا من أسى عائشة لمصير عثمان ليس بغريب . بل هو أدنى إلى الرقة التى ينطوى عليها قلب المرأة ويتفجر نبعها إذا ما جرحته الملمات . ولقد كانت عائشة — فيما يلوح — امرأة فوارة الأحاسيس . لا تعرف القصد فى عواطفها ، بل تطلقها إلى أقاصيها . فلما غضبت على عثمان استرسلت على سجيتها إلى ذروة الغضب فدعت إلى قتله . حتى إذا جاءها نبأ مصيره الفاجع لان قلبها ، وعطفها عليه رحمـة دافقة فياضة مسحت غضبها القديم منه ودفعتها إلى المبالغة فى الغضب له . وإذا كانت بهذا الشعور الجديد قد استجابت لرقتها كامرأة ، فإن موقفها من على فى ذات اللحظة يبديها أنثى وفية لأنوثتها غاية الوفاء ! قد ملـكتها غريزتها الأنثوية حتى انساقت فى حقدها عليه إلى مدى لم تسيطر عليه حكمة ولم يحده عقل .

لعلها قلبت سفر المـاضى ، ذلك اليوم من ذى الحجـة ، وركبها المنطلق الى المـدينة قد وقف بالطريق ينتظر أمرها بالمسير . والذكريات ماثلة أبداً للواعية اليقظى ؟ والمشاهد التى تبعثها تنبثق عنها كما ينبثق النور عن ومض البرق ، سريعاً ، لا تستغرق من الزمن إلا لمحة من لحظة . . . فما إن سمعت

أن البيعة انعقدت لابن أبى طالب حتى حضرها كل ماضيها وانكشف أمام عينيها كلوحة مرسومة . . .

وصاحت بالركب الواقف ودماء وجهها من بغتة الخبر تكاد أن تغيض : «ردونى ! . . ردونى ! . . »

واستدار الركب . وراحت القافلة تضرب فى عكس اتجاهها الأول ، عائدة صوب مكة التى لم تكن برحتها إلا منذ قليل — تماماً كما انطلقت الآن مشاعر السيدة إلى عكس مسلكها السالف . فما أعجب أن تكون أحاسيسها طيعة هكذا فى يديها ، تحركها فى ذات اللحظة من أقصى النقيض إلى أقصى النقيض ! غير أنها طبيعة أنثوية دافقة ، لا سلطان للعقل على عواطفها الجياشة. وما كانت عائشة لتستطيع أن تملك نفسها فى تلك اللحظة إلا أن استطاعت أن تمنع بكفيك انحدار سيل ! . .

وهتفت وهى حانقة مغيظة وبصرها يشير إلى السماء ثم ينخفض فيشير إلى الأرض :

« والله ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لابن أبى طالب ! . . . قتل عثمان والله مظلوماً . . والله لأطلبن بدمه »

فحركت كلماتها فضول من سمعها ، فإذا رجل منهم يقول لها فى استنكار :

— ولم ؟ .. فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ! .. ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد فجر . .

— إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول.

ولكنها حجة لا يبررها ما سلف به لسانها فى حق عثمان ، كما لا يبررها قعوده عن صد أذى أهل الأمصار وإصراره على إبقاء ظلاماتهم معلقة بدون علاج . وعائشة أنكرت هذا منه وظلت ناقمة عليه حتى لقد أبت أن تبقى بالمدينة لتكف عنه الناس حين حصروه بداره ومنعوه الماء . بل ودت لو ألقته بيدها فى البحر لتخلص الأمة من عهده ! وتمضى على الأثر إلى مكة

فلا يمنعها خروجها لأداء واجب دينى مقدس من محاولة التخذيل عن الشيخ وبث كراهيته فى نفوس الحجيج القـادمين من كافة الأقطار . ولولا أن أبى عليها ابن عباس أن يكون لسانها الداعى بدعوتها لشهدت البلدة الحرام ناحية أخرى من نواحى حقدها على عثمان . . . ثم راحت وهى بموطن الإحرام لاتنى تستنبىء كل قادم وتتنسم أخبار المدينة بلهفة عسى أن تعلم ما يهدىء خاطرها ويجنبها قلق الانتظار . فلما أن ألقى إليها ذات يوم بنبأ مكذوب عن انتصار الشيخ على خصومه وقتله المصريين صاحت فى غضب واستنكار:

« . . . أيقتـل قوماً جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم ؟ . . والله لا نرضى بهذا . . . »

فما كان أعجب غضبها له بعد قليل ! . . ومع ذلك فهل اقتنعت هى حقاً أنه تاب ؟ . . وهل التوبة عن حيف يكفى أن تكون بلفظة لسان دون تغيير الحيف ؟ . . وإلى أى مدى نزع عثمان عما أثار عليه سخط عائشة وسخط الناس ؟ . . وماذا يا ترى منعها من النهوض لنصرته حين كان فى حاجة إليها وهى بالمدينة ما دامت قد آمنت بصدق توبته ؟ . . وكيف وسعها البقاء بمكة دون أن تستعدى أهلها على الثوار لصالح هذا التائب الذى تركته فى مأزق لا يرجى له منه خلاص ؟ . .

لا حجة لها فى الدفاع اليوم عن عثمان سوى حقدها على الإمام . فما زالت نفسها مقروحة منه . وما زالت مشاعرها ، بكل ما تنضح به النفسية الأنثوية التى تجمع النقائض ، تزدخر بالكره له . فهى امرأة قبل أن تكون عائشة ، لها خلائق المرأة ، ولها طبيعتها . وهى جامحة الأحاسيس تنقاد لشعورها حتى غاياتها ولا تملك أن تحد من غلوائه . وقد زودها الماضى بذخر من البغض ادخرته لابن أبى طالب مذ الساعة التى شهدته فيهـا لا يقف إلى جانبها حين حاكت حولها الألسن الباغية حديث الإفك . وهى أيضاً مشبوبة الغيرة ككل حواء ، لا تستطيع أن تحرر قلبها من سلطانها القاهر .

وكأية أنثى كان صدرها يجيش بعواطف أمومة مختزنة تنتظر أن يعينها الزمن على إطلاقها لتحبو بها صغيراً تسعد به ، فلم يسعفها القدر بتحقيق حلمها الجميل وبقيت طوال الأعوام التى عاشتها زوجاً عاقراً لا تستطيع أن توثق الزوجية برباط من البنوة . لكم ودت لو دفعت إلى محمد طفلا من دمها ومن صلبه يضفى عليه فيض حنانه ، وتعيش هى على مدى الأحقاب فى ذراريه ! . . ولكنها نعمة حرمتها فأحزنها الحرمان . وما أحسبها إلا كانت تشعر بشىء فى صدرها يشبه الحسرة وهى تنقل بصرها فترى زوجها الحبيب يهب رعايته فتاته الزهراء . ويوليها عطفاً كانت تود عائشة لو أولاه طفلة تمتزج فى عروقها دماء الزوجين . غير أن خديجة نعمت دونها بهذه الميزة . وعاشت فى ذرية محمد بعد الموت إلى نهاية الأبد . خديجة الزوج الأولى ، التى عاشرت رسول الله ربع قرن لم تغضبه خلاله مرة ! وتزوجها وهو شاب وهى فى طريقها إلى الكهولة فلم يجمع بينها وبين زوجة أخرى ، ولم تسعده امرأة بعدها بمثل ما أسعدته ! خديجة هذه تنال من حب محمد ما لم تستطع عائشة نيله وإن كانت فتاة حلوة صغيرة السن ؟ وتهبه من الولد وهى عجوز ما عجزت عنه الجميلة الصغيرة ؟ وتبقى على الدوام ماثلة فى خاطره بعد موتها لأنها لم تبرح أبداً قلبه ! وما أكثر ما سمعت عائشة رسول الله يذكرها أمامها بعبارات إعزاز كانت تشعر معها أن هذه الغائبة عن وجه الدنيا تستأثر دونها بأكبر نصيب من حب زوجها العظيم ... ولندع عائشة تفصح بلسانها عن شعورها الحقيق إذ تقول :

« ما غرت على أحد من نساء النبى ماغرت على خديجة . . . وما رأيتها، ولكن كان النبى يكثر ذكرها . وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ، ثم يبعثها فى صدائق خديجة . فربما قلت له كأنه لم يكن فى الدنيا إلا خديجة . . فيقول إنها كانت . . وكانت . . وكان لى منها ولد » .

فهى باقية وإن ذهبت . تعيش اليوم فى خاطر محمد كما عاشت بالأمس فى دنياه . وتكاد أن تملأ عليه آفاق فكره لا يشغله عنها وجود عائشة ،

ولا حسنها ، ولا صباها . باقية أبداً فى الزهراء الرقيقة ، وفى الحب الأبوى الكريم الذى يفيض به قلب رسول الله . باقية أيضاً فى خلجات نفس عائشة بقاء شعور الغيرة العجيب الذى لا ينى يراودها فى كل لحظة . وهل آلم على نفس الزوج الصغيرة من إحساسها بالخوف من امرأة ماتت ... وضعفها أمام شبح يطل على بيتها من خلل الماضى ويلقى ظلالا قاتمة على سعادتها الزوجية .. الزمن لم يستطع أن يشفيها من هذا الخوف ، أو يحجب عنها صورة ضرتها الخطرة وراء ستر النسيان . بل قد حالف خديجة ، ومضى يعيدها إلى الحياة مرات ومرات . ويكررها فى أحفادها كما كررها فى بناتها وأولادها . فإذا هى صور شتى تطالع عائشة كل يوم ، وتطوف عليها بيتها فتملأ سمعها وبصرها بعد أن كانت صورة واحدة لشبح يعيش فى وهم الذهن . فأى خليط من المشاعر كان يجتاح نفسها كلما ألقت العين على محمد وهو يداعب أحفاده ويوليهم حنان قلبه الرحيب ! أهو الغيرة على الزوج الأولى التى صارت اليوم فى أشخاصهم حقيقة تتجدد بعد أن قاربت أن تكون ذكرى !.. أم الحسرة على حرمانها الولد الذى حلمت أن يكون نسلا لها من رسول الله تعيش خلاله على مدى الزمن السيار !.. أم الحقد على غريمها ابن أبى طالب وقد تفرد وحده بنقل سلالة زوجها الحبيب إلى الأحقاب !..

كانت أنثى كأية أنثى ، تسمع لوحى قلبها وتلبى نداءه . فما خالفت طبيعة المرأة حين غارت ، وحين ملكتها الحسرة ، وحين حقدت . فإن هى إلا واعيتها التي تكلمت — برغمها — وتحركت ، ودفعتها إلى موقفها العدائى للإمام . وإذا نطقت الواعية فلها الكلمة المسموعة ، وضاع صوت العقل الهادىء الخفيض فى ضوضاء المشاعر الصخابة ...

٧

جاز ركب عائشة دروب مكة فاجتذب إليه الأنظار . وملكت الدهشة نفوس الناس حين رأوها تعود ثانية ولما تبرحهم إلا من قليل . فعهدهم بها قد خرجت تروم المدينة بعد أن قضت عمرتها . ولكنها الآن قد غيرت وجهتها ، وسار ركبها والألسن تلغط حوله . ويتحدث كل امرىء بظنه عن السبب الذى عادت من أجله أم المؤمنين . ولم تفصح هى عن شىء . بل جنحت إلى الصمت . وكانت الأعين قد انتبهت إلى الموكب فتبعته الأقدام وسارت خلفه إلى باب المسجد . وأناخت السيدة بعيرها ، وترجلت ، ثم انطلقت إلى الحجر فاستترت فيه ، ومن ورائه قامت تخاطب الجموع :

« يا أيها الناس . . »

فألقوا إليها الأسماع . وهل عساها تعود فتخطبهم إلا فى أمر خطير عظيم ؟.

« . . . إن الغوغاء من أهل الأمصار ، وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب ، واستعمال من حدثت سنه ، وقد استعمل أسنانهم قبله ، ومواضع من الحمى حماها لهم ، وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها ، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم . فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً خلجوا ، وبادروا بالعدوان ، ونبا فعلهم عن قولهم ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام . والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ! . . فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ، ويشرد من بعدهم . ووالله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه ، أو الثوب من دونه إذا ماصوه كما يماص الثوب بالماء . . . »

وتفرق الناس بعد حديثها هذا شيعاً ، وكان أولى بهم أن تتوحد كلمتهم فى هذه المحنة الحازبة التى أصابت الإسلام . ففيم تدعوهم اليوم أم المؤمنين ؟

وإلى أية غاية تريد أن تسير بهم ؟... لحرب الغوغاء ؟... للزحف على المدينة وفيها الأمير الشرعى للبلاد؟... قدأوشكت كلماتها أن تشكك الناس فى مسلك على حيال أصحاب الفتنة إن لم تكن قد ألقت فملا ظلالا سوداء على نواياه وهى بعد فى قلب الغيب. وراحت البلدة الحرام — وهى مباءة قريش تطن بالضوضاء حول اسمه طنين الخلية .

وتلقف القوم خطاب عائشة فلاكوه فى أفواههم وخرجوا منه ما شاءوا من أقاويل ، فكذلك وجهتهم كلمات الذائدة اليوم عن دم عثمان . وهل عساهم يستخلصون من حديثها ومن عودتها الفاجئة حين علمت ببيعة ابن أبى طالب إلا أنها — لأمر لابد يتصل بدعوتها الجديدة من قريب أو من بعيد — قد آثرت أن تتجنبه وتلجأ فى الانتصاف للخليفة الشهيد المظلوم إلى غيره من الناس ...

وكانت مكة إذ ذاك تعج برجال الحكم المهدوم من ولاة عثمان وخلصائه وأقربائه . فما سرت إلى أسماعهم صيحة أم المؤمنين حتى رأوا فيها القشة التى قد تنقذ بجدهم الغريق. وأسرعوا جميعاً إليها . يلتفون حولها ، ويضعون أنفسهم فى خدمة الغرض الذى قامت فيه . ولو أنها دققت نظرتها لوأتهم أجمعين أقبلوا لخدمة مآربهم وإنقاذ سلطانهم القديم أن يضيع . والتحقت بها أيضاً طوائف كثيرة من الأهلين الذين استهوتهم من دعوتها ناحية المروءة فيها ودفاعها عن مظلوم ، واستهوتهم أيضاً شخصية عائشة وما لها من مكانة عالية فى القلوب . وكان بنو أمية لاريب أول من لحقوا بها ، وانضووا تحت رايتها . فإن هى إلا ساعات حتى اجتمعت بها رؤوسهم الذين شردتهم الثورة ، فيهم سعيد ابن العاص ، والوليد بن عقبة ، ومن كانت مكة موئلهم فى ذلك الحين ، وهم على شبه يقين أن دولتهم لن تلبث حتى تعود ثانية إلى الحياة .

وانطلق إليها الحضرمى أمير البلدة الحرام من قبل عثمان يسألها ويقول :

« ما ردك يا أم المؤمنين ؟ »

فأجابت وقد ملكتها غلواء عاطفتها حتى ما درت أنها بهذا الجواب

تخالف موقفها الذى وقفته من عثمان من بضعة أيام ، وتنتقل به من النقيض إلى النقيض :

— ردنى أن عثمان قتل مظلوماً .

— فما ترين ؟

— أرى أن الأمر لايستقيم ولهذه الغوغاء أمر . فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام ...

فما أبرأ مظاهرها من كلمات فى باطنها فتنة مشبوبة . . إنها بها قد هدمت أول دعامات الحكم الشرعى فى الدولة بأن اغتصبت حق توجيه الولاة ، وإلقاء الأمر إليهم دون تفويض بهذا ممن له وحده حق التوجيه . واستغلت قدرها عند الناس فى امتلاك ناصية سلطان ليس لها وليست تقدر عليه . فما أوتيت العلم بأمور السياسة . ولغير هذا أهلها طبعها الحاد الذى يقفز بها دائماً إلى أقاصى الغايات دون إفساح الطريق لحكمة العقل . وكماها خطأ أن غضبت لفتنة أوشكت أن تخمد فقامت تعالجها بفتنة جديدة لن تلبث أن تتأجج نارها وتندلع ألسنتها المحرقة حتى تعم الدولة الإسلامية كلها وتلهبها بسياطها فى كل مكان .

ويعجب المرء لهذه الهمة الفائقة التى راحت عائشة تبذلها لجمع الناس تحت رايتها . ولهذا النشاط البالغ الذى وسعها أن تبديه فى هذه الآونة العصيبة ؛ هى التى ظلت طوال عمرها قعيدة دارها تكاد لا تساهم فى الحياة العامة بأى نصيب . فما زاد دورها من قبل عن خبرة بالشئون الدينية ترشد بها من أراد علماً ومعرفة . وقد انقضى عليها بعد وفاة رسول الله نحو ربع قرن من الزمان كان أثرها خلاله مجهولا تماما عن صحائف التاريخ لولا ما يدر من نقمتها على عثمان فى أواخر أعوام عهده . حتى هذه النقمة لم تنفرد بها ولم تثرها وحدها عليه . بل سايرت فيها الشعور العام الذى أجمع عليه جمهور الأمة الإسلامية . أما هذه الدعوة الجريئة الجديدة فقد بدت وثبة عالية إلى النشاط السياسى غير متوقعة منها ، يكاد المرء أن يتساءل معها محيرا :

أكانت ابنة الصديق تقفزها لو أن الجالس على مقعد الخلافة كان رجلا آخر سوى الإمام ؟ . .

غير أنها كانت وثبة على أى حال ... وثبة موفقة فى نظر المشاعر التى اضطرمت بنفسها على الأمير الجديد ، ذلك الرجل الذى امتلأ قلبها بالبغضاء له وناصبته العداء لأنه ذات يوم لم ينصرها على الشبهات التى التفت بها وإن يكن لم يرمها أيضاً بكلمة اتهام . ولكنها طبيعتها الجامحة مع العواطف التى دفعتها إلى هذا الموقف تقودها إليه عوامل شتى من السخط والغيرة والحسرة ، حتى انتهت الفتنة التى أشعلتها بالحوادث إلى أسوأ انتهاء . فما يمكن أن ينسى أثر موقفها فى المصير المحزن الذى اختتم به عهد الإمام ، بل اختتم به عهد السلطان الروحى الذى كان يرجى من ورائه كل خير للدولة الإسلامية الناشئة لو كان أجله قد امتد بضع سنين . وهل من ريب فى أن فتنتها كانت سلاحا حاداً فى أيدى الأهواء والمطامع ، تلقفه بنو أمية وغيرهم من الوصوليين ليبلغوا مآربهم ، ويقيموا دولة زمنية على أنقاض الحكم المثالى الذى قصد إليه الاسلام ؟ .

كانت دعوتها نداء عالياً أيقظ فى النفوس أهواءها النائمة ، وكانت أيضاً دعوة إلى التمرد على الحاكم الجديد ، وإلى تهوين شأنه عند رعاياه ، وعند الولاة القائمين على الولايات حينذاك ، فقد لاح طلبها بدم عثمان فى بادىء الأمر دعوة إنسانية بريئة ، ولكنه فى حقيقته كان خطة سياسية بعيدة الغور تحمل فى قاعها الانتقاص من قدر على بوصفه الأمير الأول الذى يجب أن توجه بلسانه أمثال هذه الدعوات ، وعليه دون غيره الانتصاف لكل مظلوم من ظالميه ، وله وحده الكلمة النافذة عند شعبه وعماله . وقيام عائشة بدورها هذا جعل كثيراً من الناس يحسبونها ماقامت قومتها إلا لأن أمير المؤمنين قد أبى أن يبدأ القيام ، أو فترت همته دون إيقاع القصاص بقتلة عثمان ، بل إن منهم من رأوا فيه رجلا قعد عن نصرة حق وجب أن ينصر لأن له مأرباً من وراء هذا القعود ، وجرت ألسنتهم فيه بالظنون الظالمة حتى أظهروه فى أحاديثهم

شريكا للثوار نقع على رأسه مثلهم دماء القتيل ، وكان هذا أرهف سلاح أمدت عائشة به معاوية وأنصاره ، فما زالوا يشهرونه فى يد باطلهم حتى نالت الأقدار من على نيلها وغيبته عن ميدان الصراع .

ولم تكن دعوة عائشة ذات أثر فحسب على نفوس ذوى الأطماع الذين رأوا فى قيام حكم علوى ما يبدد أحلامهم فى النفوذ السياسى ، بل تجاوزتها إلى كل من رنا إلى هدف شخصى ومنى نفسه ببلوغه ، وإلى طائفة من ضعاف العزائم الذين لا يثبتون عند رأى ويميلون مع النزعات المتضاربة كل ميل ، وإلى السذج الذين يستهويهم فى الأفكار المبثوثة زخرف سطحها دون قيمة جوهرها ، وإلى المغلوبين على مشيئتهم ممن بايعوا علياً انسياقا مع الرأى العام دون رغبة حقة فى تنصيبه للخلافة . . فكل أولئك جرفتهم دعوة عائشة فى غمارها فانطلقوا معها إلى آخر الشوط ، واستجاب لهم من كانوا على شاكلتهم بغير مكة ، كلما سرت أنباء صيحة أم المؤمنين إلى بلاد الدولة الإسلامية مع الركبان ، وكانت مدينة الرسول أول بلدة صك سمعها صوت الفتنة إذ جاءها على ألسنة العائدين من زيارة بيت الله الحرام ، فما نشب أن وقع فيها خلاف بين على فى ناحية وبين طلحة والزبير فى الأخرى ، أدى فى النهاية إلى ضياع ما قاما فيه وحاربا عليه من أيديهما ، ووقوعه طعمة سائغة لابن أبى سفيان .

يكاد المرء كلما أجال ذهنه فى شأن الصاحبين أن يجزم بأنهما لم يخلصا النية حين بايعا الإمام . هاحقا تقدمنا إليه صفوف الناس ، وبادرا فسلما عليه بتحية الخلافة قبل أن تمتد إليه كف أخرى ، ولكنهما — مع ذلك — لا نراهما فعلا هذا انسياقا لشعورهما الخالص بقدر ما فعلاه مجاراة للشعور العام . ولقد يبدو أنهما رأيا السلامة فى البيعة له ، وخشيا على نفسيهما من غضب الجمهور إن جاهرا بالامتناع ، فآثرا إعلان غير ما يحسان . ولكنها أيضاً خشية معزوة إلى الوهم واضطراب الخيال وليست إلى الحقيقة التى أثبتتها من

قبل ومن بعد قرائن الأحوال فما علم قط عن على أنه دفع الناس للتحزب له أثناء الأزمة التى انتهت بمقتل عثمان ، ولا اتخذ دعاة يروجون لتوليته ويأخذون معارضيهم بالعنف كى يناصروه . بل الثابت أنه كان أبعد الزعماء عن ميدان التنافس على السلطان ، وأزهدهم جميعاً فى السعى إلى الخلافة ، وأكثرهم اعتزالا للجماهير التى ظلت بضعة أيام تهتف باسمه، حتى إذا قهرته على الاستجابة لمشيئتها لم يقبل منها البيعة إلا أن تكون بالمسجد ، على مسمع ومرأى من الخاص والعام ، ليرى الكافة رأيهم فيه قبل أن تسند إليه الإمرة ، راجياً من وراء هذا أن يوفر حرية الرأى للجميع على السواء ، يؤيده من شاء ويرفضه من شاء . وتمت له بيعته على النحو الذى أراد . فما علمنا أن أحداً خالفه قد أخذ بالعنف الذى يؤخذ به العصاة ، بل تركهم أحراراً وبالغ فى الترفق بهم وإن واجهوه بالرفض والإباء .

ومع ذلك فقد لاح أن الندم لم يكف عن الطواف بقلبى طلحة والزبير منذ اللحظة التى أدليا فيها بالبيعة إلى الإمام . فما غادرا المسجد ذلك اليوم حتى تبينا إلى أن مدى غمط كلاهما حق نفسه حين مسحا بكفيهما على يد الرجل الذى أصبح على الأثر أميراً للمؤمنين . وبدا لهما أنهما قدماه بغير موجب وآثراه بأمر هما أولى به . فما سعى سعيهما إلى الخلافة ، ولا نشط كنشاطهما فى تأليب الناس على عثمان وتحريض الثوار حتى حصروه وقتلوه ، بل قد كانت حياة الخليفة القتيل أدنى إلى النجاة لو أنه استمع لرأى على واستجاب لإرشاده . وكانت خطط الصاحبين وتدبيرها لبلوغ السلطان أقرب إلى الفشل لو أقره عثمان على قتال الثوار وأخذهم بالعنف قبل اشتداد ضغطهم عليه .

وفى الحق لسنا نرى إلا أن الندم هو أولى الانفعالات وأجدرها بسكنى هاتين النفسين بعد الذى أصاباه من خيبة الرجاء . فقد ذهبا يدأبان لابتزاز سلطان عثمان فما أفادهما الدأب . بل سقطت الثمرة المشتهاة فى حجر على وهو ساكن لا يرفع إليها بنانه . وعجيب أن يهدم القدر صروح

أملهما المنشود فى اللحظة الأخيرة ، ولكن الأعجب منه أن يتخذ منهما معول هدم . . . منيا النفس طويلا بخلافة يشتركان بها فى حكم الدولة الإسلامية العريضة ، أو لعلهما اتفقا على قسمتها دويلتين تدين كل منهما لأحدهما وحده ، أو ربما استنبطا نظاماً جديداً من الحكم ادخراه ليوم النصر ، ولكنهما أحالا النصر المرقوب إلى خذلان لم يدر ببال ، ومزقا بكفيهما ستر الحلم الجميل ، الذى ظلا طويلا يرنوان نحوه ، فانهتك عن حقيقة شوهاء طالعتهما من خلاله .

كانت فرصة ذهبية ، أتاحتها لهما الظروف المواتية فى الوقت الحاسم ، فضيعاها . كانت فرصة العمر كله ، جاءتهما ذلولا وقدم على لم تثبت بعد على درج المنبر ... فى هذه اللحظة الفاصلة كانا أدنى إلى إمرة المسلمين منه ، وأقرب إليها كما لم يكونا مطلقا من قبل . وأوشكت أن تنعقد البيعة لأحدهما أو كليهما حين خيرهما ابن أبى طالب بين أن يبايع لهما أو يبايعاه . . . بل قد مد إليهما كفه يكاد أن يحييهما بتحية الخلافة . وكانت البيعة إذ ذاك حرية أن تتم بيده لو قبلاها . حرية أيضاً أن تلق رضاء الشعب الذى كان يلقى السمع والطاعة إليه . فلو قبلاها ...

ولكن الخشية التى نزلت بقلبيهما فى تلك اللحظة أضاعت الفرصة ، وقلبت النصر هزيمة ، وما أمر الخذلان ساعة ارتقاب الفوز ! . . الخشية من الجماهير المفتونة بحب على دفعتهما إلى التردد فى قبول عرضه السخى الكريم ، ثم إلى الإحجام عن قبوله ، ثم إلى رفضه بمنطق اللسان وإعلان غير ما يحسان . وما نحسب طلحة إلا يذكر تلك اللحظة وهو آسف محسور ، ويجيل بذهنه مادار فيها من حديث قصير ونفسه تقطر ندماً .

يقول له على :

« ابسط يدك يا طلحة لأبايعك »

فتندفع الكلمات إلى طرف لسانه بالجواب غير المرقوب :

« بل أنت أحق بها ... أنت أمير المؤمنين فابسط يدك ... »

فلعله نطق بها دون أن يريد : ولعله لم ينتبه إلى خطرها على آماله إلا بعد أن انفلتت من بين شفتيه وسمعها كأنها آتية من غير فه ! ... ولكنها كانت قاطعة كالسيف . ما أسرع أن قررت مصيره وقصفت عود أطماعه فى الخلافة بعد أن ظل يتعهد نضرته وأزهاره منذ عهد الصديق . ومضت تلك الساعة خاطفة ، لا تستأنى ، ولا تمهله ليصلح سقطة لسانه ! .. وراحت حوادثها تعرق كالسموم ، وتتدفق كالسيل المتحدر من شواهق الجبال . ولو استطاع الرجل الجهد ليسترد كلمته ثم يخفيها عن الناس فى قرار سحيق ! ... لكنها كانت شيئاً كلحظات العمر ، يذهب إلى غير مآب . يملكها صاحبها مرة واحدة إذ هى هامدة الحس خلف شفتيه ، فإذا عرفت اليقظة فإنها كفيلة بأن تملكه على مدى الدهر مرات تزيد وتتجدد بقدر الأسماع التى تستقبلها ، ما دامت قد تحررت من أسر الصمت وسرت مع أنفاسه إلى فضاء الانطلاق .

ما ونت هذه الصورة تبدو لطلحة وزميله وتفسد عليهما صفو الأيام ، وتعكس فى نفسيهما ظلالا قاتمة من حسرة هى نتاج الندم المر الذى أصاباه . وهل آلم على المرء من أن يمكن لغريمه فى أسباب التفوق عليه ، والفوز دونه بالنجاح المأمول ؟ ..

ولكنهما جاهدا الحسرة ، وأحالا طاقتها المستعرة إلى نقمة حاقدة تطوف بالإمام ، وكلما عادت بهما الذكرى — فيما بعد — إلى ذلك اليوم الذى ضيعت فيه كلمة عجلى غرس الأعوام ، راحا يهربان من عتبى النفس ، ويحاولان التأسى على ما فات باعتساف سبب من الأسباب يعزوان إليه ضياع الثمرة المشتهاة ... وما كان أكثر تحدثهما بهذا السبب الموهوم ، فى كل زمان ومكان ، جهرة وفى الخفاء ، كلما سئلا فى قصة البيعة ... كانا دائماً يقولان :

« .. إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا ، لقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا ! ... »

ولقد سبق إلى يقينهما عقب انعقاد الأمر لعلى أنه لن يكون لهما فى

عهده شأن معلوم ، ولن يصبحا كبيرى أثر فى توجيهه إلى معالجة الأمور كما يريان ، لأنهما يعرفان اعتداده بقدر نفسه ، وشدة وثوقه فى صدق نظراته ورجاحة رأيه ، وعسير عليهما إذن أن يجدا عنده غير مايلقاه سواهما من أصحاب رسول الله ، فما هو بمتهافت الإرادة فيستعير منهما العزم ، ولا بالجبان فيسألهما الشجاعة ، ولا بالغر فيطلب منهما المشورة ، وليس ثمة ثغرة فى شخصيته يمكن أن تسدها ميزة يملكها دونه أحد الصاحبين ، بل هو أدنى النـــاس — بعد محمد — إلى الكمال بألوانه العديدة ، وأقربهم إلى التزام منهاجه . . عرفا هذا فى خلقه ، وفى علمه ، وفى سداد رأيه ، وفى كل صفاته ومزاياه ، فعلما من أول لحظة أنه مستغن عنهما بما زودته به طبيعته وفطره عليه تكوينه ، وأيقنا بضآلة الأثر الذى سيكون لهما فى نظام هو القائم عليه ، وما يتبع هذا من ضعف نفوذهما فى دولته ضعفاً أفصح عنه طلحة فأحسن الإفصاح حين قال :

« مالنا فى هذا الأمر إلا كحسة أنف الكلب ! » .

فهذه مشاهد من نفسيهما تضاف إلى ذلك المشهد القديم الذى يطالعنا من خلال الماضى وتنطق خطوطه وألوانه بالحســد للإمام ، والغيرة على المكانة التى بلغها بسجاياه وميزاته من قلب محمد وبرز بهــا على كافة قادة الإسلام . وهى تفسر لنا كل ما يصدر عن هذين الصاحبين من تصرفات كانت فى الواقع صدى لمشاعرهما التى ظلت آونة محتبسة فى صدريهما من خشية . . فلما أن رأيا من على ترفقــاً بمن رفضوا بيعته ، وجاءت على الأثر صيحة عائشة تحمل فى طواياها الانتقاص من قدره ، اتقــدت فى قلبيهما جذوة النقمة ، ومضيا يهدفان — علانية وخفية — إلى النيل منه . فما تركا أبداً موقف المتربص به الذى يحتمل جاهداً أن يتصيد له الهنات ، بل راحا ينتهزان كل فرصة عابرة لإظهار معارضتهما له ، التى قصدا فى الواقع أن تكون خطوتهما إلى العصيان وإعلان التمرد عليه . وما نراهما كانا مدفوعين بدوافع صادقة تستلزم ســـياسة الشغب التى انتهجاها حياله ، ولو أننا

استعرضنا محاور الخلاف بينهما وبينه لم نجد فيها واحداً يدعو إلى الخصام بالكلام فضلا عن امتشاق الحسام ، ولكنهما سارا كما قادهما السخط ، وكما دعهما الفتنة التى انطلقت من مكة ، فاندفعا بغير تبصر فى سبيل العداء ، حتى ليبدو لكل عين أن إفساد أمره عليه كان وحده الغاية التى يبغيان .

على أن من حق الشيخين علينا أن ننصفهما فنقول إنهما ذهبا إلى الإمام ينذرانه قبل أن يجاهراه بكل هذا العداء ... أجل قد فعلا . وانطلقا إليه بعد البيعة يحدثانه بغير استحياء ويكشفان طوية نفسيهما فى وضوح وجلاء .. قالا له :

« أتدرى يا أمير المؤمنين علام بايعناك ؟ . . »

فأجابهما بالجواب الذى ليس ثمة سواه :

— على السمع والطاعة وما بايعتم به أبا بكر . .

— كلا ... ولكن بايعناك على أننا شريكاك فى هذا الأمر ..

شريكان ؟... فهذا نوع جديد إذن من المساومة على اقتسام السلطان ! ..

وطبيعى أنه رفض ما عرضاه . وطبيعى أنهما أيضاً ثارا لرفضه الذى انقطع به كل أمل لهما فى السيادة ، فانطلقا يعلنان سخطهما ، ويغلوان فيه بغير تبصر وإن حمل فى ألفافه معانى الاتهام لهما دون اتهام الخليفة . . . بل لعل حديثهما ذاك كان خير شهادة منهما بنقاء صحيفة على مما أعلقوه بثوبه — فيما بعد — من قطرات دماء عثمان ...

. . . وقف الزبير فى حشد من قريش يشكو إليهم عسف الإمام ، وقلة بره به فقال بصوت ممرور :

« هذا جزاؤنا منه . . . قمنا له فى أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب وسببنا له القتل ، وهو جالس فى بيته قد كفى الأمر ، فلما نال بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا ... »

ونهض طلحة على أثره فقال :

« ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى . كرهه أحدنا ، وبايعناه وأعطيناه ما في أيدينا ومنعنا ما في يده ، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجوناه . . »

وما كان لهما من رجاء بعد أن أبى عليهما هذه الخلافة المشتركة إلا أن يبعثهما واليين على بعض الأقاليم ! فما زال لهما حزبان بالبصرة والكوفة وشيعة عسى أن يتسربا بها ذات يوم إلى احتلاب النفوذ كله في الدولة الإسلامية . ولكنه بعث دونهما ولاة آخرين فحق إذن أن يلحياه ! . .

وشاعت مقالتهما هذه في الناس حتى بلغت مسامع الإمام . ولعل شيوعها كان بعض خطتهما عسى أن يغنما من ورائه ما كانا يطمعان فيه . ولكن علياً ظل ثابتاً على رأيه فيهما ولم يزد على أن أرسل إلى ابن عباس يستشيره فيما كان ...

قال له :

— بلغك قول هذين الرجلين ؟

— نعم يا أمير المؤمنين .

— فماذا ترى ؟

« أرى أنهما أحبا الولاية . فول البصرة الزبير وول طلحة الكوفة ، فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان . . »

فضحك علي وأجاب بهدوء :

« ويحك يا ابن عباس ! . . إن العراقين بهما الرجال والأموال . ومتى تملكا رقاب الناس استمالا السفيه بالطمع ، وضربا الضعيف بالبلاء ، وقويا على القوي بالسلطان . . ولو كنت مستعملا أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام . . »

٨

الوقت عليهما ثقيل ، لا يكاد يتقلص ظله . فى حسبان الشعور عاشا أحقابا طويلة تحت راية هذا العهد الذى أبغضاه ، وتحت حكم هذا الرجل الذى سادهما فى غفلة منهما ودون انتباه . . . وفى حسبان الزمن ماعاشا سوى ليلة أوليلتين كل لحظة فيهما كانت الدهر بطوله .

ولكن الليلة الواحدة تستطيع أن تتسع لشغب العمر ، وتفيض خلالها نقمة الصدور المقروحة فى دفعة . فما يطيقان التريث ولو إلى غد ، ويرميان بصرهما إلى المستقبل الفسيح أمام كل نفس تتعلق بالغد القابل بعد أن تودع. الأمس الراحل فيريانه أضيق من كف بخيل . . . بل لعلهما لم يرياه على الإطلاق ، وحسبا الشمس ستكف بعد لحظتهما هذه عن البزوغ ، وأن الكون سيسكن ويقف وقفة الأبد . . . وإن فى قلبيهما لسخطا فياضا ماله حدود ، قد يستغرق الزمن بأكمله إن أطلقاه رويداً رويداً على مدار الأيام . فأولى إذن بهما أن ينفضاه الآن .

الآن ؟ ... إنها الكلمة ! ... وهى الزمن كله وليس بعدها آنات أخرى ولا أزمان ! ... وهى الجعبة التى تتسع لحشد كل ما يحسان ! وهذا شعورهما: فى النفوس عذاب ، وفى القلب نار حامية ذات لهب مشبوب . كلما أكلت من القلب ذكت وعلا ضرامها الطاغى فالتهم التبصر وحكمة العقل ، ودفع الصاحبين المعنيين فى الخصومة إلى غمار الخلاف كما يندفع المحروق إلى الخلاء على غير هدى وإن علم قبل أن تعلق بأذياله النيران أن لفح الهواء يسرع به إلى مهاوى الهلاك .

ولم يكن قد فات سوى يومين على البيعة — على العهد الذى ارتبطا به أمام الله وأمام الناس . ومع ذلك فلم يكفا عن معارضته والشغب عليه . وأطاعا النفس الحاقدة فى عصيان من وجبت له عليهما الطاعة . بادراه

بالخلاف من أول لحظة ، ولو أتيحت لها الفرصة المواتيـة لبادراه به أثناء البيعة ... فـكأنى بهما — وهو على المنبر — قد أخذا يده ليقطعاها لا ليشدا عليها ويصافحاها برهاناً على الولاء .

ولـكنها نزوة تملـكت نفس طلحة ، وأعدت الزبير بعدواها .وسقطة وقع فيها الأول بدافع شهوة الحـكم التي نمت بقلبه أعواماً طويلة،وانساق إليها الثانى بدافع حسده للإمام المعروف عنه منذ عهد الشباب ، وبدافع الإغراء أيضاً الذى زينه له ابنه عبد الله — ابن أسماء بنت أبى بكر وربيب عائشـة أم المؤمنين . فأعجب بها من زمرة تنتهى فى النهاية إلى أصل واحد هو أول الخلفاء — أول منازعى على على تراث رسول الله — وتتصل به صلة قربى من بعيد ومن قريب!.

هذا حزب من تيم ! . . . اجتمع فيه طلحة ابن عم الصـديق ، وعائشة ، وأختها أسماء ، وزوج هـذه وابنها الزبير وعبد الله . قد ربطت بينهم عصبية الأسرة قبل أن تربط بينهم غاية مشتركة . ثم قرنتهم الموجدة على الإمام فى سلك واحد لأنه من بيت يطولهم إن ذكرت مفاخر الجاهلية ، وأمجاد الإسلام ثم ألف قلوبهم على منازعته أنه نازعهم ذات يوم سيادة كانت له وابتزها منه شيخهم الأول . ثم لعبت بأحدهم شهوة الحـكم حتى رأى نفسـه أولى بالإمرة من كل أمير . وجنحت واحدة لوحى قلبها الملىء بالغيرة على غريمها القديم . ومال الفتى كيل خالته التى رعته كابنها وقد حرمت الولد فـكره مثلها ذلك الغريم ، وهفا إلى المجد إذ كان حفيد خليفة رسول الله وفرع أسرة أصبح لها اليوم فى أعين الناس مكان مرموق ، وأطوع المجد إليه هو ما يأتيه من خلال أبيه : ابن عمة محمد وصهر الصديق ، وأحد أصحاب الشورى المرشحين للخلافة ، فهلا يستجيب الزبير لإغراء ولده ، ولدعوته إلى الـكفاح من أجل السيطرة إذادعاه وفى نفسه بضعة من حسد لابن أبى طالب راسبة منذ عهد الشباب .

يقول على :

« ما زال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشئوم عبد الله ... »

وقد صدق الإمام . وجاءت الحوادث من بعد فأيدت حديثه . وبدت خلالها أصبع الفتى توجه الرجل إلى كل خلاف . وتكاد فى كثير من الأحايين أن تصفو نفس الأب فيهرع الولد إلى تعكير صفوها بتحريك النزوات التى رسبت وكادت تستقر فى القاع لتطفو على الصفحة وتعود ثانية إلى الظهور .

كلها عوامل شخصية تلك التى حملت الزبير وطلحة على مخالفة على وإبداء العداء له ... مشـــاعر ذات ألوان ، لها على النفوس سطوة عاتية ... نقمة أسرة !... وقد استجاب الصاحبان لها ، وانساقا أمام التيار النفسى بغير روية يحاولان هدم الإمام وتقويض إمرته تحته . ولغير غاية عامة انطلقنا مسرعين فى هذه الطريق المحفوفة بالأغراض والمطامع . فكأنما رانت الأهواء على بصائرهما فلم يميزا بين الخطأ وبين الصواب ، بل راحا يعارضان الإمام فى كل عمل قام به أو أوشك على إنفاذه حين كان يجدر بهما أن يؤيداه ويشدا أزره . وليس أبلغ فى الدلالة على انسياقهما مع الضغن من تحريضهما الناس عليه لمـا سوى فى القسمة وهما يعلمـان تمام العلم أنه لم يأت ببدعة من لدنه وإنما أقر نفس النظام الذى سنه رسول الله .

ومع ذلك فقد أغضى كريماً عن هذا الاجتراء ، واكتفى بأن قابلهما بحجته القاطعة ومنطقه الدامغ . ولكنهما لم يكفا عنه ، ولم يقعدهما عن دعوة الفرقة والشغب وضوح حقه . بل انطلقا يؤلبان عليه أصحاب الأقياء الممتازة والأعطيات السخية من ذوى الأنســاب العريقة — أولئك الذين نقموا منه تسويته إياهم ببقية أبناء الشعب . فهل ترى غاب عنهما أنهم جميعاً كانوا أنصار قضية يخذلها الحق تضعهم أمام عيون التاريخ فى صف الباطل ...

نوشك أن نتهم ذكاء الرجلين لو حسبنا فطنتهما إلى هـــذا الحد من القصـــور . ونوشك أيضاً أن نغمطهما القدرة على استحداث كل أساليب الفتنة والخلاف التى حذق استحداثها طلحة على أهون تقــدير . وتنطق

الحوادث نفسها بغير هذا الافتراض الذى ينقص من مهارة الشيخين وتشهد لهما تبييت النية وإتقان التدبير . فقد كانا أبرع من أن يرميا بسهم واحد ولا يرميان بآخر على أثره حين أرادا إصابة الهدف المطلوب . . . وكل ما جرى فى الفترة القصيرة التى قضياها معه بالمدينة يكاد ينبىء عن سياسة مرسومة جماعها إحكام التصويب وكيل الضربات المتتالية إلى الرجل الذى ناجزاه . فما انطوى من عهده سوى يومين اثنين حتى طالباه بما يكفل — فى وهمهما — تقويض إمرته . كأنهما استبطآ ألا تنشب عليه الثورة بعد انقضاء فترة كهذه — طويلة ممطوطة ! — وهو ما زال فى مقعد الحكم !

يومان اثنان انقضيا على البيعة ، وعلى مجاهرتهما بالولاء للإمام تحت رأى العيون وسمع الآذان فى أقدس موضع تتجه فيه القلوب إلى الله ... يومان اثنان فى حساب الزمن ولكنهما فى حساب المشاعر المنبعثة عن الأنفس المليئة بالحقد والضغينة أطول من الدهر الخالد والأبد الآبد . فإن هو إلا أن حل ثالث نهار بعد بيعته حتى انطلقا إليه ، كأول مرة ، فى ثلة من كبار أهل المدينة وأصحاب الكلمة المسموعة بين الناس ... انطلقا وفى وفاضهما بذور فتنة جديدة ، الأرض التى تصلح لاستنباطها هذه المرة هى نفوس العامة ونفوس الخاصة بهذه البلدة وغيرها على سواء ...

فكأنما كان حديثهما صدى لصيحة عائشة بمكة ، يكاد ينقل دعوتها فى أمانة وحرص ... قالا له ، وشاركهما فى بث مكنون الصدور بقية الوفد الأمين الذى رأساه :

« يا على ... إنا قد اشترطنا إقامة الحدود . وهؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل . وأحلوا بأنفسهم ... »

فبدت له الفتنة النائمة تنفض عن نفسها غطاء الركود ، وتتحرك على أطراف ألسنتهم ثم تهم بالانطلاق واتسعت حدقتاه كمن بوغت بسلاح يمتد إلى صدره من خلال الظلام . ثم ألقى بصره إلى الخارج : إلى طرقات المدينة التى كانت تعج إذ ذاك بطوائف الثوار من أهل الأمصار ،

وبأصحابهم من موالى البلدة وعبيدها الذين آزروهم أثناء الثورة ، وبالأعراب وأهل المياه الذين انحدروا من أراضيهم على الحدود وكان لهم فى الفتنة نصيب... كل أولئك مثلوا فى خاطره تلك اللحظة وإن لم تطف بهم نظرات عينيه . ومثل غيرهم كثيرون منهم كانوا قد انبثت معسكراتهم على تخوم المدينة وأقاموا حولها فى شبه حصار ...

وكما أغضى عن الخلاف الذى أنشبه الصاحبان عليه بالأمس حين جاءاه يمارضانه فى السياسة التى رسمها للتقسيم ، فكذلك آثر أن يغضى اليوم ويبدو كأنه يملم عنهما سلامة الطوية وبعدهما عن إرادة تدبير فتنة جديدة عاتية هوجاء ... وراح يتذرع بالهدوء والصبر وهو يقول :

« يا إخوتاه ... إنى لست أجهل ما تعلمون . ولكن ... كيف لى بقوة والقوم المجلبون على حد شوكتهم ، يملكوننا ولا نملكهم ؟ .. »

ومد يده يشير بها إلى ناحية الطرقات والدروب ، وإن بصوته لرنة سخرية وهو يعاود الكلام :

« ... ها هم هؤلاء.. قد ثارت معهم عبدانكم . والتفت إليهم أعرابكم. وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ... فهل ترون موضعاً لقدرة على شىء تريدونه ؟. . »

وران الصمت على المجلس هنيهة كأنهم يدبرون فى أنفسهم ما قال ، ويستوعبون منطقه الذى لا تنفذ إليه كلمة اعتراض . ولكنه لم يعدم أن يسمع صوتاً من بينهم يقول :

« ... فلو عاقبت قوماً ممن أجاب على عثمان ... »

كأنما أخذ بعض الثوار بالعقاب دون البقية الآخرين فيه علاج الحال ...

وأسرع إليهم بالجواب الصواب ، يبين لهم ثانية حقيقة الداء ويصف أنجع دواء... قال بلهجة حاسمة ، وصوت تبدو من خلاله نبرات الحزم والتصميم:

« ... إن لهؤلاء القوم مادة . والناس من هذا الأمر — إذا حرك —

على أمور : فرقه ترى ما ترون ، وفرقه ترى مالا ترون ، وفرقه لا ترى هذا ولا ذاك . فاصبروا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق مسمحة . فاهدأو عنى ، وانظروا ماذا يأتيكم به أمرى . . . ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة ، وتسقط منة ، وتورث وهناً وذلة . »

على أن هذا الحديث الواضح المبين ، وهذا التحليل الدقيق لموقف الشعب حيال الثوار ، وهذا العرض الأمين لحقيقة الحال ، كلها لم تقنع المخالفين ، ولم تستطع أن تهدئهم عنه . فبالرغم من أن الجمهور كان ينقسم فرقاً بعضها يعطف على رجال الثورة ويرى فيهم مجاهدين خلصوا الأمة من شر مستطير ، وبعضها الآخر يراهم عصاة خارجين على القانون ... وبالرغم من تجمع قوى الثوار بالمدينة وعلى حدودها الدانية ، وامتلاكهم ناصية الحال فيها بقوة السلاح فوق مالهم فى نفوس أهلها من قوة الرهبة ، وبالرغم من أن الزمن هو الكفيل وحده بتهدئة الخواطر المبلبلة فى كلا الثائرين والأهلين ، ويحمل الفرق المختلفة أدنى إلى تكوين رأى صحيح عن الثورة ورجالها بعيد عن التأثر بالعطف أو بالخوف ... وبالرغم من هذا كله يبدو أن الوفد لم يستجب لنداء على لهم أن يمهلوه ثم يحكموا بعد قليل على ما يأتى منه . بل والوا الضغط عليه . وظلوا يضغطون عسى أن يقطع فى الأمر بقرار ، ويخطو خطوة حاسمة فى سبيل تنفيذ ماجاءوه فيه وإن كان الوقت لم يحن بعد للحسم . وإن كان الحسم فى غير أوانه كفيلا بزيادة الموقف تعقيداً واستعصاء على الحلول .

لاح هذا لأنا لانلبث أن نشهد الإمام فى ذات اليوم يخرج إلى المسجد وحوله أولئك الصحاب ، فيقف فى الناس يخطبهم ثم يهب بهم فى حرارة وابتهال ، فيقول فى ختام الكلام :

« ... أيها الناس ، برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه . . . أيها الناس ، أخرجوا عنكم الأعراب ... يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم ... »

فإذا الهمهمة تسير فى أفواه الجماهير ، وإذا البغتة تبين على الوجوه ،

وإذا السبأية يلمحون فى الأفق نذراً لاتطمئن نفوسهم إليها . وإن هى إلا لحظة حتى تنادوا من كل جانب ، واتحدت الأصول والذيول . وأبى أى رجـــل من الجمع أن يطيع النـــداء لا فرق فى ذلك بين طوائف العبيد أو السبأيين أو الأعراب .

فـكأنها دعوة إلى لم الشمل،وتـكتل القوى التى أراد أن يفرقها أصحاب الوفد وعلى رأسهم طلحة والزبير ! وألقى على نظرة حانقة على الصاحبين ومن معهما . فهذه هى النتيجة التى خشيها منذ البدء وحاول جاهداً أن يتجنبها ... ومضى غاضبـاً إلى داره وهؤلاء خلفه يسيرون نا كسى الرؤوس كأنما أخزام سوء ما أسفرت عنه مشورتهم الهوجاء ... وفى غيظ مكظوم ، وبهدوء قاس تكاد أن تجمـد له الدماء فى العروق قال لهم وأصبعه تشير إلى الجماهير التى تكتلت فى جموع :

« دونكم ثأركم فاقتلوه ! ... »

فما تحرك فى أفواههم لســـان ، بلى غلب الخزى عليهم حتى سكنوا فى مواقفهم كأنهم ظـــلال . . . وعاد هو ثانية يجيل فيهم عينيه ، ويلقى نظراته الغضبى على وجوههم التى تقطر جموداً . ثم هز رأسه ، وقال بصوت ممرور :

ولو أن قومى طاوعتنى سراتهم أمرتهـــم أمراً يديخ الأعاديا

فـكأنما وجدا مخرجا لـمـا أصبحا فيه . أو بأصدق تعبير وجدا وسيلة إلى تحقيق مأربهما القــديم . . . تقدم إليه طلحة وهمس له فى هدوء كمن يشير بالدواء الذى يميت الداء :

« يا أمير المؤمنين . دعنى آت البصرة فلا يفجأك إلا وأنا فى خيل . . »

وأسرع الزبير يهمس كصاحبه ، وبذات كلماته :

« ... دعنى آت الـكوفة فلا يفجأك إلا وأنا . . . »

البصرة لطلحة ، والـكوفة للزبيرحيث أعوان كليهما الداعون لهما بالخلافة منذ أيام ؟ . .

ولـكن الإمام قال دون تردد وهو يبدى لهما غاية ما يستطيع إبداءه من قلة المبالاة :

« حتى أنظر فى ذلك » .

وقطع جوابه عليهما سبيل الأحلام ! . .

٩

قويت شوكة أصحاب الثورة ، وازدادوا التفافا حول أنفسهم ، وحرصاً على لم قواهم وحشدها بمكان واحد بعد الذى لمسوه من انقلاب الأفكار عليهم وسيرها فى اتجاه عدائى سافر . ولم يكونوا فى البدء يوجسون خيفة ولـكنهم اليوم وقد لمحوا نذر النقمة عليهم تتجمع فى النفوس وتوشـك أن تنطلق كالإعصار ، لم يروا معدى عن التزام الحيطة ، وإرهاف حواسهم كلها خوفا على سلامتهم العامة . وبقيت جموعهم حيث هى بالمدينة وعلى تخومها ، متراصة لاتبرح ، لأن هلاكها المحتوم فى التفرق .

كان هـذا هو الشعور الذى سادهم ، وطبع حركاتهم بالنفور من كل هيئة نظامية يوشك أن يكون لهـا سلطان عليهم ، من كل حكومة تستند إلى غير سواعدهم ... وفى اليومين السالفين كانت لهم آمال كبار علقوها على الخلافة العلوية لأنها — فى ظنهم — حصاد ثورتهم . ولعل كثيرين منهم حسبوا أن هذه الدولة الجديدة دولتهم ، وأن علياً يدين لهم بالإمرة التى أفلتت من يديه بضعة وعشرين عاماً غبرت وكانت موشكة أن تفلت بضعة أخرى قد تمتد إلى انتهاء عمره لولا الضربة التى وجهوها لعثمان . ولـكن هـذه الآمال كانت قصيرة الأجل ، لم يمهلها القدر لتعيش وتثمر ، بل انقصفت أعوادها فى ذات الساعة التى بزغت فيها شمس العهد الجديد . وتلفت أصحابها فإذا الإمام ليس كما ظنوه ، وإذا أول عمل سياسى يأتيه هو إغفال شأن الثوار ، والانطواء عنهم ، والضن على زعمائهم بأن يكونوا من أعوانه المختارين لإقامة حكمه أو تدعيمه فى الأمصار .

بدأ هذا حينما أرسل عمالا من لدنه إلى البلاد يخلفون ولاة عثمان فما بعث قط برجل شرك فى الثورة أو عرف بأنه أيد أصحابها وظاهرهم وإن كان دونهم نقى الذيل لم تعلق به قطرة واحدة من دماء الخليفة الشهيد . ومع ما كان معلوما من ولاء أكثرهم له ، وشغفهم ببذل كل مايسعهم فى سبيله ، وإيثارهم إياه على نفوسهم بغاية ما تطيقه نفس بشرية ، فإنه لم يستعمل أحداً منهم فى عمل من أعمال الدولة كأنما تعمد أن يحول بينهم وبين النفوذ . بل قد كان فى سياسته هذه جانحاً إلى الغلو الشديد ، حتى إنه ولى قيس بن سعد إمرة مصر وقبضها عن محمد بن أبى بكر الذى اختاره أهلها وكاد يصبح عاملا عليها قبيل مصرع عثمان . ولم يكن محمد ممن وقعت على رؤوسهم دماء القتيل ، بل لم تعلق به من هذه الناحية شبهة ، ولم تضطرب حوله الروايات ، وإنما ثبتت براءته ثبوتاً قاطعاً بشهادة نائلة . ومع هذا فإن علياً لم يدفع به إلى عمل رسمى يتولاه من قبله . وضن عليه بالمنصب الذى كان من حقه أن يناله برضاء زعماء الرأى فى مصر لأنه رآه ضالعاً منذ البدء مع الثوار ، فرأى توليته — فى هذه الآونة الحرجة التى تفتحت فيها الأذهان لاستقبال الظنون — كفيلة بأن تطلق ألسنة خصوم الإمام بالتقولات الظالمة فى نظام يريد له أن يكون فوق الشبهات .

كانت كبرى المسائل الشائكة التى اعترضت سبيل على من اليوم الأول لخلافته مسألة رجال الثورة المسلحين الجاثمين بمدينة الرسول . وقد أمعن النظر فى الأمر وقلبه على وجوهه فوجد من الحكمة إرجاء البت فى شأنهم بقرار حاسم خشية أن تنقسم الأمة حيالهم إلى معسكرين : بين مؤيدين ومعارضين ، يجر تناحرهما إلى حرب أهلية قد تودى فى النهاية بقوة الدولة . وما من ريب فى أنه توخى بهذا الرأى الصالح العام ، وجنب الإسلام نيران فتنة عاتية كانت حرية بأن تندلع فى كل الأمصار ، بل كانت حرية بأن تجعل الطوائف الثائرة تقهض بيد من حديد على صولجان السلطة بالحاضرة الإسلامية فى بضعة أيام ما دامت تملك — دون الحكومة الشرعية —

السلاح والعتاد . فمن هذا المصير المخوف كان يحذر طلحة والزبير ، ويدعوهما إلى الاصطبار حتى تهدأ النفوس المهلبلة ويقر اضطراب الخواطر فلا تستعصى الأزمة بعدها على الحلول . ولهذا جنح أيضاً إلى الغلو الشديد عند اختياره رجاله ، فلم يستعن فى شئونه بأحد من الثوار . وبالغ فى اجتنابهم توقياً لمظنات خصومه وأقاويلهم المجترئة التى أوشكت أن تنطلق فتسلكه ظلماً فى عقد أعداء عثمان .

وهكذا أوجس رجال الثورة خيفة من على ، وباتوا على حذر منه . وضاعف من خوفهم على سلامتهم أن الأنباء راحت تترى بالتنكر لهم فى كل مكان .. فى مكة ، وفى الشام ، وفى مصر أيضاً نبتت فيها نابتتهم . وامتدت منها فروعها إلى بقية الأقاليم . حتى طلحة أيضاً تنكر لهم وقاب جلده الأملس .. ولو أن ثمة رجلا كان يجدر به أن يستمسك بهم ، ويوليهم من صفوه وتأييده لوجب أن يكون طلحة الرئيس المقنع لحركاتهم الثورية !.. ولكنه اليوم غيره بالأمس قد أفلته الهدف الذى ركبهم إليه ، فراح يلتمس مطية أخرى لعلها تصل به إلى أغراضه من طريق سوى الطريق !..

غير طلحة إذن إهابه ، وأبدى لأصدقائه القدامى ما كان يبديه من قبل لعثمان . فنى جوار الحرم الآن أصدقاء آخرون — مطايا أخرى تمدها له داعيته !.. هناك عائشة قد استبدلت بعلمها القديم آخر راحت تلف حوله الجموع ، وترفعه عالياً فوق رأسها يرفرف كألسنة النار .. وإذا كانت لا تهتف اليوم صراحة باسم طلحة ، ولا تدعو إلى تنصيبه خليفة للمسلمين يتبوأ مقعد غريمها الجديد كما دعت منذ قريب أن يتبوأ مقعد غريمها القديم .. إذا كانت قد أكسبت الآن صيحتها رنة تفجع على الأمير القتيل بعد أن كانت نداء مدوياً للخلاص منه ، فإن الغاية التى لا بد ستنتهى إليها هذه السياسة ذات الوجهين لن تعدو أن تكون ملكا لتيم يتسنم عرشه رجل لا تحس السيدة التيمية نحوه بمثل البغضاء التى تحسها حيال الإمام .

ولا تنى الأحداث تطالعنا بالأسانيد التى تثبت أن الطالب بدم عثمان

ما كان إلا أقصوصة اشترك فى صوغها كل منافس لعلى ، حاقد عليه قدره وسلطانه ... فلم تكن قط دعوى جدية ، أو هى فى القليل لم تسر فى طريقها إلى هدفها الذى رمت إليه . بل نراها فى تبدل وتغيير بين يوم ويوم حتى تفقد روحها ولا يبقى منها سوى ألفاظ جوفاء . وقد وسعت كل شىء ، ووصلت إلى كثير من الغايات إلا الثأر للشيخ المقتول . ولكنها فى عين خصوم الإمام كانت مبدأ أخاذاً يعينهم على حشد الأنصار ، وعلماً خفاقاً يستهوى بعض النفوس البريئة الكامنة بالمروءة ، وكل النفوس الزائغة المفتونة بنصرة الأباطيل !

ولم تبق دعوة عائشة محصورة بمكة ، بل سرت مع الركبان إلى بلدة الرسول ووجدت بها آذاناً صاغية . وكان أول من استجاب لها بنو أمية وأحلافهم ، فتسللوا واحداً فى أثر الآخر وهم يرجون أن يستردوا من ورائها ملكهم المفقود . وتبعتهم طوائف شتى من الأشرار القرشيين . أولئك الذين أضافت إمرة على إلى قلوبهم ضغناً جديداً يجاور الأحقاد القديمة . وكانت تدفعهم أيضاً إلى الخروج لمكة خشيتهم جموع الثوار الذين يمثلون على وجه من الوجوه سلطان الطبقة الفقيرة ، واليقظة القومية فى الشعوب الدخيلة .

وبدأت رقعة المتاعب تتسع أمام أمير المؤمنين . فقد كانت هذه الهجرة مشكلة لا بد سينجم عنها ضياع هيبة الدولة عند رجال الثورة . ولتوشك أن تكون لهم فى حاضرة الإسلام الكلمة المسموعة النافذة واليد المحركة للسياسة العامة إن خلا الميدان من العناصر العربية الصميمة التى تشد من أزره عند الحاجة ، وتضمن تكافؤ الأصلاء والدخلاء إلى حد معقول . ولو حدثت هذه الهجرة فى ظروف عادية لما تبرم بها ، ولوسعه أن يقبلها راضياً لأن جميع طبقات شعبه فى نظره سواء . ولكنها وقعت فى أعقاب فتنة ، وفى وقت يخشى فيه طغيان الثوار على النظام العام إن رأوا منه الميل إلى كبح جماحهم عند حد محدود ، وإلى بلدة تتهيأ هى الأخرى لفتنة إطلاق

حرية الهجرة إليها بغير قيود كأنه وقود جاف يلقيه فى قلب حريق .

لذلك بادر على إلى حسم الشر قبل استفحاله . فحرم على قريش الخروج وحبسها فى أسوار المدينة كما فعل قبله ابن الخطاب . واشتد فى هذا الأمر غاية الشدة حرصاً على سلامة الدولة ، وعلى وحدة أمته أن تتمزق . فكأنه إذ ذاك عمر قد عاد كرة ثانية إلى الوجود وراح يردد قوله المأثور :

« ... إنى قائم دون شعب الحرة . آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار .. »

ولكن قريشاً أبت اليوم إلا أن تضمر الخلاف للامام، وتبديه كلما وجدت سبيلا إلى المجاهرة بالعداء . فما عادت تقف منه موقفها السالف من عمر ، ولا رأت فيه رجلا يجدر بها طاعته والحرص على إنفاذ مشيئاته ، وإنما ظلت تنظر إليه بنفس عيون أسلافها القدامى فترى فيه هاشمياً آخر أولى بها أن تحسده على سطوته الزمنية وقد حسدته من قبل على سطوته الأدبية . لذلك جهدت فى استنباط كل وسيلة تؤدى إلى عصيانه . وإلى إهدار هيبته بين رعاياه كما كم يجب الائتمار بأوامره والانتهاء عند نواهيه . ولم يكن دورها الطبيعى فى الدولة الإسلامية كبقية أبناء الأمة من المحكومين . ولكنها كانت ذات كيان خاص له أثره فى توجيه السياسة العامة للدولة يكاد سادتها أن يكونوا نوعاً ما من مجلس نيابى أو هيئة استشارية تعاون الخليفة بما تبذل له من آراء كلما دعته الحاجة إلى التماس المشورة . فهى إذ تنتقض على هيبته فإنما يحمل انتقاضها معنى من معانى انتقاض بعض الهيئة الحاكمة على بعضها الآخر ، وتضرب للشعب أسوأ مثل للتمرد على السلطة الشرعية .

ومع ذلك فلم تر حرجاً فى إفساد الأمر على الامام بين كل يوم ويوم . ومضت تستحدث الأسباب التى تنتقض على هيبته فى نفوس أمته ، وتكيل الضربات إلى النظام الرسمى الذى كان يجدر بها معاونته والتمكين لسلطانه حرصاً على الصالح العام ، فأخذت تتسلل من المدينة وتلحق بأصحاب الفتنة

التي أرثتها عائشة في البلدة الحرام . ثم لا تني تبث في الطريق وفي الأسواق دعوة التأليب عليه . ومن مكة التي كانت مركزاً تتفرع الدروب منه إلى الشمال والجنوب انطلق بهتانها إلى بقية البلاد فبنى في كل منها عشاً للفتنة .

أما الذين حالت الحوائل دون خروجهم عن الحاضرة الاسلامية فلم يقعدهم عن ثابه قربهم منه ، بل ملأوا أوقات فراغهم بالطعن عليه والدس له بين الناس يحرفون كلمه ، ويفسرون مقاصده دائماً بالنقيض ، ويتربصون بأعماله عسى أن يقعون فيها على هنة يجسمونها أمام العيون ، فإذا أعوزهم الكيد له في هذه الناحية راحوا يخالفونه جهرة في أمور جلية لا يختلف فيها إثنان . وما دام الناس لا يشهدون مجالس النقاش الذي يدور بينه وبين خصومه بل يسمعون فقط بنتائجه وهي في الصيغة التي تروق أولئك الخصوم ، فإن تواتر الخلافات إذن كفيل في نهاية الأمر بأن يشكك فيه الجماهير .

كان طلحة دائماً على رأس هذه الفئة التي أصبحت شوكة مسنونة تدمي جنب الامام . وكان الزبير يقفوه كظله ، ويتبعه إلى حيث يريد . فقد توحدت خطة الرجلين . واتجها معاً إلى غاية مشتركة لا يبلغانها إلا بعزل علي من الخلافة . وهل ثمة غاية هدفاً إليها سوى ابتزاز الحكم من بين يديه واحتجازه لهما معاً يتبوآن مقعده الأثير الخلاب ؟ .

ولكننا إذ نلقي البصر إلى الأحداث لا نشك لحظة واحدة في أن الزبير كان ضحية لأطماع طلحة . وكان أيضاً مطيته ... فما نحسب الصاحب التيمي كان مقاسماً زميله السلطان لو نجحت خططه وآلت إليه مقاليد الخلافة الاسلامية ، بل هو أقرب إلى التفرد بها دونه واحتجازها لنفسه لأن هذا أشكل بطبعه وأدنى لشغفه البالغ بامتلاك نواصي النفوذ . وهل تراه يكافح أعواماً طويلة لتحقيق أطماعه ثم يقتسم الثمرة الشهية وآخر في نهاية المطاف ؟ . ونكاد أيضاً نرى الزبير مغلوبا على رأيه ، قد خرج حتف أنفه على ابن خاله ، وسار خلف طلحة على طريق الشغب وكأنه مسحور ، فما نحسبه نسي كلف صاحبه بالسلطان . ولئن نسيه فالعهد غير بعيد بكلمات عائشة ودعوتها السافرة

إلى عزل الخليفة القائم على الحكم إذ ذاك وتنصيب قريبها مكانه . وهل مضت سوى أيام قلائل على قولها لابن عباس :

« ... قد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح ، فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر ... »

الزبير بلا ريب مغبون الصفقة . ضياعه فى مأدبة السطوة أمر محتوم .. وما تزال كلمات عائشة هذه تذكره بدوره . وترسم لنا صورة منه . ولكنه — فيما يبدو — رضى متهوراً بنصيبه فى الفتنة . وقنع ببوارق الآمال التى لوحوا بها أمام عينيه وإن أيقن فى صميم قلبه أن ليس له إلى تحقيقها سبيل . ثم انطلق فى ركاب طلحة ، مشدوداً إليه بأهواء آسرة! .

وتمضى الأيام والصاحبان يجهدان فى إثارة خلاف جديد مع الامام ، فلا تسعفهما الظروف به ، ولا تدع أعمال ابن أبى طالب ثغرة واحدة ينفذان منها إلى الطعن عليه . وقد لاح لهما فى البدء أن معارضتهما إياه فى التقسيم بالسوية كفيلة بأن تثير عليه العناصر العريقة ذات النفوذ فى الأمة . فاذا بهما اليوم قد رأيا قريشا تفر وتدعهما منفردين فى الميدان ... وكان حتما عليهما — فى شرعة الشغب — أن يبدلا من هذا الركود الذى ساد الجو السياسى بالحاضرة ، ويعدا الناس بمادة جديدة للخلاف بينهما وبين الامام تسبح فيها الشائعات والأقاويل فذهبا إليه يجادلانه فى أمر لم يتمخض الزمن بعد عن دواعيه ... ذهبا يعتبان عليه أنه لا يستعين بهما على مشكلاته ولا يشاورهما فى أموره وإن علما أن العون والمشورة كليهما رهينان بنشوء مسائل تقتضيهما ولم تنشأ بعد ، أو على الأقل نشأ منها ما لم تدع الحاجة عليها الى التماس معونة أحد أو رأيه فى علاجه .

وقد بدا من حديثهما أنهما لا يعنيان أمراً بعينه ولم يحددا مسألة واحدة وجب أن يطلب على رأيهما فيها ثم أهمل فى استنباطهما الرأى المطلوب . بل ألقيا إليه العتبى مطلقة بغير تحديد ، وبدون إشارة الى أمر واحد دفعهما إلى إزجاء هذا العتاب ... فما سمع مقالتهما حتى بادرهما

بالجواب الكفيل بأن يسد عليهما باب التعلات والجدال ... قال :

« ... ألا تخبرانى أى شىء لكما فيه حق دفعتكما عنه ؟ ... وأى قسم استأثرت عليكما به ؟ ... أم أى حق رفعه إلى أحد من المسلمين ضعفت عنه ؟ أم جهلته ؟ أم أخطأت به ؟ » .

فما أظنهما فى هذه اللحظة إلا أدارا الذهن فيما عرفاه من أعماله ثم عاد إليهما الذهن كليلا لا يحمل فى وفاضه أمراً واحداً يستطيعان به أن يردا عليه حجته الغلابة . ولعلهما آثرا الصمت ، ولعلهما قد أصاب كليهما الحسر أمامه فلم ينطقا بحرف . ولكنه قرأ من مكنون القلبين ماسترته قسمات وجهيهما الصامتة . فان هو إلا الهوى قد دفعهما لمثل هذا الموقف . وإن هى إلا المطامع والآراب فى ابتزاز الحكم من يديه تسوقهما دائما إلى معارضته والشغب عليه . وقد ألم حديثه بطرف من هذا ، ولمس لمسات خفيفة مشاعرهما نحوه حين عاد يستأنف الكلام :

« ... والله ما كانت لى فى الخلافة رغبة ، ولا فى الولاية أربة . ولكنكم دعوتمونى إليها وحملتمونى عليها . فلما أفضت إلى نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته ، وما استسن النبى فاقتديته . فلم أحتج فى ذلك إلى رأيكما ولا رأى غيركما . ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخوانى المسلمين . ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما ... »

لم تكن له فى الخلافة رغبة ، أفما كانت لهما رغبة فيها دفعتهما إلى اعتساف كل هذه التعلات ؟ .

ستنجاب السجف . ويتهتك الستر . وتبدو خفايا النفوس واضحة للأعين بغير حجاب .

عمارة بن شهاب عامل على الجديد على الكوفة ، ظهر ثانية بمدينة الرسول ولما تمض على خروجه منها إلا فترة وجيزة ، وصار يشق الطريق إلى دار الإمام وإن فى وجهه لوجوما ظلل قسماته بلون خذلانه ، وعلى ثوبه غبار رحلته الشاقة المزدوجة التي قطعها بين الحاضرة الاسلاميه وبين مقر إمارته دفعة واحدة فى الذهاب والعودة ، فقد امتنعت عليه الكوفة ، وحال بينه وبين دخول أرضها نفر رأوا أن ينقضوا أوامر الامام .

ويسير الرجل مهموماً إلى أمير المؤمنين ليحدثه مما لقيه ، فما نسمع طرفا من حديثه حتى نراها عودة كفيلة بإثارة التوجس فى الأنفس لأنها تنبىء عن بوادر الانقسام فى الدولة ، وبدء هبوط هيبة الخليفة فى عيون بعض رعاياه ، واجترائهم على مخالفته والتمرد عليه ... ثم مايتبع هذا كله من وجوب العمل الحاسم لخضد شوكة العصاة .

ولكننا أيضاً لا نملك أن نمنع بسمة ساخرة يطيب لها الطواف بثغر كل منصف يحاول أن يستقصي أسباب كل فتنة ، ويرد مظاهرها البادية إلى أصولها الخفية ... فاذا وسعنا هذا الاستقصاء فانا نعجب لأصابع القدر ، التى نسجت شباك العصيان حول الامام أثناء حكمه ، كيف استطاعت ان تستمد كل خيوط هذه الشباك من مادة واحدة — من غل الأنفس التي أكلتها الأحقاد ؟ . . . لم يعد عصياً على العين المتجردة من الهوى أن ترى فى باطن كل امرىء ناجز عليا ، ووقف منه موقف عداء ، قلبا مظلماً كليلة فى الشتاء غائرة النجم ! إنما الحسد هو الذى ناجزه ، والضغينة الجامحة والنقمة العمياء ... وتعدد الخصوم والأعداء ، فلا نراهم إلا صوراً شتى لأصل واحد فى مختلف الأوضاع ، خلفهم دوافع من الهوى الشخصى يسوقهم — قسراً أو طواعية — إلى محاربة رجل كل جريرته أنه على :

الوريث الشرعى للأحقـاد والضغائن التي عاشت أزماناً فى صدور مقروحة ، ولفحت نيرانها هاشميات ذات يوم ، ثم محمداً من بعـده ، حتى حسمها عنه رحمة الله ! . .

لا أحـد ممن عادى الامام كان يبتغى من خصومته نصرة صالح عام ، بل كانوا يسيرون صفين يقود أحدهما الحسد ، وتقود الآخر ضمائر مدخولة ، وما منهم إلا من زخرت واعيته برواسب قديمة من مشاعر هوجاء لم يسعفه الزمن بالتنفيس عنهـا ولم يسعف آباءه ، أو من له تاريخ مشوب الصحيفة فاضت سطوره بالموجدة على رسول الله ، وقد جاء يوم على أولئك الواجـدين قهروا فيه على الخضوع للاسلام ، واضطرهم السيف أو اضطرتهم الحاجة إلى الدخول فيه فأسلسوا قياده لمحمد،ولـكن نفوسهم المدخولة لم تتطهر بل رسبت مواجدها زماناً فى القاع كأنها النار المخبوءة تحت الرماد .

وكان على هو الشخص الذى ادخروا له نيران الأحقاد . وإنه إذن لطعمة ميسورة ، فليست له قداسة كقداسة ابن عمه تحميه من حسد الصدور المقروحة أو غل الضمائر المدخولة ، ولـكن الصدفة وحدها أعجز من أن تؤلب عليه هذه الصور المتشابهة من الخصوم ، وتصف جموعهم كلها جيشاً عابثاً يكيد له : بل هو التبييت والاتفـاق على الغدر ، فما من امرىء عاداه إلا نستطيع إذا رددنا الطرف أعواماً إلى الوراء أن نراه قد عادى الرسـول قبله وكاد له . . وعمارة ابن شهاب رأى هذا أيضاً ذلك اليوم وهو على باب الـكوفة يهم أن يدخلها عاملا من قبـل على ، ولمسه بنفسه حين برزت له حفنة من الرجال يحملون السيوف ويأبون عليه دخول مقر إمارته . مخالفين بهذا إنفاذ أوامر الامام .

ويرفع عمـارة بصره والبلدة بادية له من قريب ، فإذا على رأس القوم الذين قطعوا طريقه إليها رجـل هو الخزى بذاته لو كانت للخزى قدمان . ولا يستطيع عمارة أن يفعـل شيئاً فليس يملك عتاداً ولا رجالا يضرب بهم هؤلاء الخصوم ، ولـكنه يسمع صامتاً وعيد زعيم القوم إذ يقول :

« ارجــع . . . فإن القوم لا يريدون بأميرهم بدلا ، وإن أبيت ضربت عنقك ! . . . »

فيكظم العامل غيظه ، وينطلق راجعاً إلى الحاضرة الإســلامية ليخبر أمير المؤمنين . ولـكن الذكريات تنثـال على مخيلته كما تراود الآن الخواطر النافذة إلى ما وراء ظواهر الأمور . إنه حقيق بألا يدهش من تصرف ذلك الزعيم ، ومن إعلانه العصيان والتمرد على الآمام لأن عصيانه حلقة تضاف إلى ما سبقها من حلقات ، فالرجل الذى تمرد على محمد إذ كانت فى يده رسالة السماء خليق بالتمرد على على وهو لا يملك برهاناً من السماء ، والنفس الآثمة التى سول لها البهتان أن تتحدث بلسان الله لايعجزها أن تتحدث بلسان أهل الـكوفة ! وليس ببعيد عن الأذهان موقف بالأمس لهذا الزعيم الزنيم ، وقفه فى حيـاة محمد ، مدعياً أنه نبى آخر من عند الله ! فإن لم يكن حسده مكانة رسول الله بين الناس ، وتوسله بكافة الأساليب التى قد ترفعه فى العيون ، وإن كان أسلوبه هو الافتراء على الله ، وزيغ قلبه عن جادة الحق الإلهى إلى الهوى النفسى الممعن فى الضلال حتى غاية الحـدود . إن لم يكن هذا كله هو المشاعر المقيتة التى دفعته إلى ذلك الموقف البعيد عن كرامة العربى العادى فضلا عن كرامة مسلم مثله أقر ذات يوم بالإيمان ، فأى المشاعر إذن كانت توجه فيه خطاه ؟ . .

إنها لعاطفــة انبعثت عن أحط الانفعالات فى نفس ذلك النبى المزعوم ! فى نفس طليحة بن خويلد متنبىء بنى أسد ، الذى ارتد عن الأســلام فى حيـاة محمد وادعى نبوة جديدة حين أبى عليه حسده أن ينفرد محمد دونه برسالة السماء ! . . فذلك الرجـل الذى تصدى بسيفه لإمارة بن شهاب ومنعه من دخول قاعدة حكمه ، كان يتحدث بلسان أهــل الـكوفة بغير تحرج ، وفى يسر عجيب لا مثيل له إلا تحدثه من قبل بلسان الله ! . . وقد نم هذان الموقفان عن حقيقة قلب طليحة وقدر الايمـان الذى يعيش فيه . كان أشبه شيء بالتربة القاحلة الصلبة ، لا تطلع زرعاً وإن بولغ فى تعهدها أزماناً طويلة

بالسقيا . وإذا كان التاريخ ينبئنا أنه ادعى النبوة وارتد بعد إسلامه ، فإن الأولى بنا أن نقول إنه ادعى الإسلام من البدء ، ولم يعرف قلبه طعم الإيمان . ولانخالف بهذا القول حقيقة الحال ! ..

لقد ذهب طليحة وأشباهه من المتنبئين أمثلة خالدة فى تاريخ الافتراء ، ورسمت نبوءاتهم صوراً من الغدر بالغة الضخامة لأنهم غدروا بالله وناموسه ورسوله فضلا عن غدرهم بأحلام الناس . ولقد عاد الرجل ثانية إلى الإسلام فما نراه دخله إلا مقهوراً بسيف أبى بكر الذى سله على عنق الردة ، وما زالت بنفسه بقية من الشك فى الدين المنتصر وبقية من التمرد مدخرة إلى حين — هو يحدثنا عنهما بذات لسانه حين يجىء إلى عمر مبايعاً بعد وفاة الصديق . . .

يقول له ابن الخطاب وهو لا ينسى بهتانه القديم :

— يا خدع ! . . مابقى من كهانتك ؟

— نفخة أو نفختان بالكير ! . .

ولا يكاد ينطلق الزمن فى أبراجه حتى نرى الكذوب طليحة صادقا هذه المرة ، يختص ببقايا إفكه وحسده على ابن أبى طالب وخلافته بعد أن فشل بالأمس فى الكيد لمحمد ورسالته . وإذا هو حين تجيئه الأنباء بقيام حزب الثأر لعثمان يرى الفرصة مواتية لينفخ بكيره — نفخة أو نفختين ! — فى رماد الفتنة عساه يؤجج النار على وريث الرسول . .

عاد عمارة بن شهاب إلى المدينة مردوداً عن إمارته . ولكنه لم يكن آخر عامل للإمام دفعه الناس عن دخول قاعدة حكمه بل نرى على أثره سهل بن حنيف قد رده أيضاً فريق من أهل الشام . وتبدو علائم التمرد سافرة لعينى أمير المؤمنين . وتبدو معها سمات الانقسام فى صرح الدولة واضحة كأنها الصدوع فى البنيان . . فهذه بغير شك الثمار المرة التى أطلعتها صيحة عائشة فى وديان البلد الحرام .

تكاد أن تتفق الآراء الصائبة الرشيدة على الحل الوحيد الذى ليس ثمة

سواء لأمثال هذه المحنة وهو قمع الفتنة وقتلها فى المهد قبل أن يتم لها النضج . وإنه للرأى الذى جال بخاطر على إذ ذاك غير أن الامام كان كعهدنا به رجلا لايسارع إلى إذكاء نار العداء ، بل يؤثر الهوادة كخطوة أولى فيمهل ولا يهمل. ويمد فى حبل اللين ما وسعه عسى أن يتبين مناوئوه سواء السبيل . كان دائماً لا يبادر بالضربة حتى ينذر . وقد عزم من البدء على معالجة الحال كما تملى عليه مصلحة أمته التى أصبحت أمانة فى عنقه ، ووفق ماتوجبه عليه مسئوليته أمام الله وأمام الأجيال كرئيس دينى وزمنى للدولة . ولكنه رأى لزاما عليه أن يعمل بحذر وحيطة حتى لا يدع فى قراره أية ثغرة قد تنفذ منها عناصر الشغب من النهازين وأصحاب المطامع والغايات .

وكان اول من حسب حسابهما طلحة ورديفة الزبير ، فأحب أن يشاركاه فى القرار الذى يتخذه . ذلك لأنه عرفهما لايرضيهما الرضا ولا يقران حياله على حال . بل هما دائماً أقرب إلى الشغب عليه من سواهما وأدنى السادة إلى أفئدة الجمهور المفتون عادة بالشخصيات البراقة وهما يدأ بهما أبدا على الشكوى منه والضيق بكل تصرفاته دون موجب ، أدعى الى مخالفته وإثارة الاعتراض عليه إن حزم أمره وعالج الموقف الجديد دون أن يشاورهما فيه . ثم لعل أول مادفعه إلى إشراكهمـا فى الرأى رغبته فى تنقية جو المدينة من الشغب الذى لا بد سيثيرانه لو أنه أغفل شأنهما حتى يستطيع أن يجابه مناوئيه فى الخارج وهو مطمئن الى التفاف الجبهة الداخلية حوله فى حاضرة الدولة .

لذلك أرسل اليهما ليعرض أمامهما المحنة الناشبة كيلا تكون لهما عليه حجة . وليسألهما الرأى المدخر الذى يستطيعان بذله . فلما حضرا مجلسه ، راح يبسط لهما الموقف لا يدع صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووصفها بما كاد أن يجعلها مرئية رأى العين ... ثم أردف فقال :

« ... ان الذى كنت حذرتكم قد وقع ياقوم ... وإن الأمر الذى وقع لا يدرك إلا بأماتته . وإنها فتنة كالنار ، كلما سعرت ازدادت واستنارت »

فأى الردود كان حقيقاً بأن تنفرج عنه شفاه الصاحبين ••• وبأى لسان ينطلقان ؟ ••

أحسبهما لم يجدا القدرة على الجواب بعد أن تحدثت قبلهما الأحداث . ولعل خواطرهما جرت سراعا إلى خارج نطاق الدار ••• ثم بعيدا عن أسوار المدينة •• ثم إلى بلدة الحرم حيث نزلت عائشة ولحق بها كلُ مناوىء للإمام من بنى أمية وأحلافهم ومن تعلق بأذيالهم من ولاة عثمان ••• كانت هناك مسلحة تامة الجهاز فيها أموال ورجال وسلاح ، قد أخذت أهبتها للانطلاق عبر الصحراء على بريق السيوف ، بل سبقتها دعوة التمرد على الحاكم الشرعى للبلاد مجللة بنقاب الثأر للخليفة المقتول ، تمهد الطريق أمامها للجيوش المجهزة ، وتقتحم على الرعايا الوادعين ثقتهم بالإمام قبل أن تقتحم بلادهم صفوف الجنود •

أفأسف الرجلان وقد شهدا الآن نتائج هذه الدعوة الهدامة ، أم رأيا فيها أولى خطواتهما الى إدراك مايبغيان ؟ ••• إنهما على أى حال قد آمنا بصدق فراسة علي ونفاذ نظره إلى عواقب الأمور ، فتكشف لهما اليوم الى أى مدى كان محقاً فى مخاوفه حين جاءاه يريدان قهره على الاقتصاص من قتلة عثمان •• فى ذلك اليوم حذرهما مغبة التسرع • وأهاب بهما أن يصبرا حتى يهدأ الناس ، وألا يجاهرا بدعوة ، الخطر الجاثم وراء بثها لن يصطلى منه الثوار بقدر ما تصطلى الأمة كافة ويصطلى نظام الاسلام ، وهل فاتهما إذ ذاك أنها دعوة فرقة ، حرية أن تتشعب حيالها الآراء وتتمزق وحدة الأمة ، ثم تنجاب آخر الأمر عن حرب أهلية بين أبناء الشعب الواحد تندلع نيرانها فى كل إقليم ؟

على أنهما الآن لم يدليا إليه بجديد ، ولم يسعفاه بالرأى السديد الذى ثارا من قبل لأنه لم يلتمسه ••• بل قالا له :

« فأذن لنا أن نخرج من المدينة • فإما أن نكابر ، وإما أن تدعنا . . »

فإلى أى مكان أرادا الخروج ؟ ••• قد يقف المرء وقفة تفكير طويلة

عند هذا الجواب الذى لايحدد الغرض منه تحديداً واضحاً يكشف عن نواياها للاذهان ، ولـكنه حين يزن الألفـاظ التى ألبست ثوب غموض يراها أدنى إلى ذلك الغرض القديم الذى انطوى على رغبتهما فى ولاية العراقين وأباه عليهما الإمام . ولعل هذا هو ماعلق بذهن على إذ ذاك ورأى معه أن يكفيهما مشقته، لأنه مالبث أن قال :

« . . . سأمسك الأمر ما استمسك . فإذا لم أجـد بدا فآخر الدواء الـكى . . . »

وكذلك آثر أن يمهـل العصاة الذين ردوا عماله عن الـكوفة والشام . واختار اللجوء إلى الوسائل السلمية فـكتب إلى أبى موسى وإلى معاوية عسى أن يظفر منهما بجواب يتضمن نزوعها إلى سبيل السلام .

ولم يلبث أن جاءه الرد المرقوب من أبى موسى يعلن فيه طاعتـه وطاعة أهل الـكوفة — أولئك الذين تحدث بلسانهم منـذ أيام طليحة بن خويلد وأعلن تمردهم . . . ولـكن ابن أبى سفيان لم يرسـل حرفا . وظل ضاربا فى صمته حتى يتبين أى الطريقين أجدى على مطامعه : طريق الوفاق أم طريق الشقاق .

ثم حانت أخيرا ساعة البت ذات يوم خلال الشهر الثالث لمقتل عثمان . . . فى غرة ربيع الأول اخترق دروب المدينة راكب جذب إليه أنظار الناس . فقد كان معتدلا على راحلته ، ممدود الرأس إلى أقصى مايستطيعه عنقه المطوط ، لاينزل بصره إلى المارة أو الجالسين . وكانت يده مرفوعة إلى أعلى ، بها طومار مختوم يلوح به بين لحظة وأخرى كأنه يشير به انتباه كل متطلع إليه . . . وقد كان حقاً خليقاً بأن تتعلق به العيون ثم تهمس على أثرها الشفـاة فى دهشة واستنكار ، ناطقة بالـكلمات القليلة المـكتوبة عليه :

« من معاوية إلى على » .

من معاوية ؟ . . . بغير هذا اعتاد العمال أن يكتبوا إلى الخلفاء . . . بغير هذه القحة وهذا الاستعلاء . . . ولـكن ابن أبى سفيـان لا يضيره

أن يدهش الناس ويغضب عليا ، لأنه قد اختار طريقه وأعلن العصيان ..

وأدخل رسول المتمرد إلى الإمام . وتقدم إليه بالطومار المختوم ففضه ، فإن هى إلا نظرة واحدة حتى رفع بصره إلى الشامى يستوضحه الأمر .

كانت الرسالة فى جوفها بيضاء لا تحمل كلمة واحدة . . .

— ماوراءك يا رجل ؟ ...

فتلفت الرجل حوله فى حذر ثم قال:

— آمن أنا ؟ . . .

— نعم إن الرسل آمنة لا تقتل .

- ورائى أنى تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود ..

— ممن ؟

— من خيط نفسك !

فلم يغضب الإمام لهذا الاتهام الظالم ، بل تذرع بالهدوء والتريث ليسمع بقية الحديث وأردف الرجل يقول :

— .. وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق .

— منى يطلبون دم عثمان ؟

— نعم .

— ألست موتورا كترة عثمان ؟ .. اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان .

ولم تعد ثمة بقية فى الكلام ، فأشار للرسول :

— اخرج .

— وأنا آمن ؟

— وأنت آمن .

ومضى عائدا يجتاز دروب البلدة وإن الناس ليهمون به لولا أن سبقت له كلمة الإمام بالأمان ..

١١

معاوية أسفر عن دخيلته ، وسدد أولى ضرباته . ولكننا نراها ضربة أصابت الإسلام قبل أن تصيب الإمام . وقضت فى النهاية على السلطان الروحى الذى مكنت له العقيدة فى القلوب والخواطر . أما الصرح الشامخ الذى وضع محمد نواته ، ورعاه من بعده خلفاؤه الذين ترسموا خطاه ، فقد أوشك أن يصبح ظلا للماضى ، يطوف به الذهن كما يطوف بالطلل الدارس .

بهذه الضربة انفتح السبيل أمام الأهواء والمطامع ، وكسر القيد الذى كان يحبسها فى نطاق ضيق من خشية الله ومبادىء الأخلاق القويمة . وانطلقت الأنانية بغير حاكم تسود النفوس والضمائر ، ويتحكم ناموسها فى الأفراد الذين وهنت فيهم سطوة الإيثار والتضحية وحب الحق . فإن هى إلا أعوام حتى نرى الدولة الإسلامية تستند إلى قوى ظاهرية بين مال وعتاد وإرهاب ، بعد أن كانت تستند إلى الإيمان بحقها فى هذه الحياة ، وبواجبها الذى يفرض عليها نشر رسالة ترفع البشر من وهدة الظلام ، وبقدرتها الكامنة فى قلب كل مواطن — لا فى سيفه — على سيادة العالم . ولئن ظلت لها زماناً رقعة الأرض التى أظلتها أعلامها الخفاقة ، فإن بقية من القوة الدافعة التى انبعثت عن قوة الدين فى عهده الزاهر هى التى حفظت لها هذه الأرض . وما نلبث كلما تقدم الزمن أن نجد الوهن يسير فى عظامها بقدر ابتعادها عن جوهر العقيدة وخضوعها لأهواء النفس . ذلك أن سلطان الروح بدأ يفتر فى القلوب حتى دالت أخيرا دولته وأخلى عرشه لسلطان المادة . وما كان لنظام سياسى أن يعيش ويأخذ فى النماء إذا لم توطد المثل العليا أركانه ، وتمسك ما بينها كما يمسك الملاط ما بين أحجار البنيان ..

إن جريرة معاوية لا تقاس بنتائج عصيانه للإمام وتمرده على خلافته ،

وإنما تقاس بالنتائج البعيدة التى أصابت صرح الإسلام حتى اليوم . ولسنا نشك فى أن الأقدار هى التى شاءت لهذا الدعى أن يشق طريقه . ولكنا نؤمن بأن الدولة الإسلامية كانت حقيقة بأن تبقى على الزمن خالدة ، تنشر أجنحتها حيثما أشرقت الشمس لو أتيح لها أن تعيش كحالتها الأولى خاضعة لناموس الروح . على أن ابن أبى سفيان كان لا يستطيع أن يعيش إلا فى جو أطماعه . وقد علم أن عليا رجل مستقيم المنهج ، لا يدين بغير شرعة الله ، ولا يقر للأنانية بالحق فى الحياة . بل قد خبره يأخذ نفسه قبل إمرته بتسويد المثل العليا وجعلها الهدف الذى يجب أن يلتزمه كل إنسان مؤمن بإنسانيته ، فهو إذن بعد أن انتهت إليه مقاليد الحكم أحرص على هدفه وأقدر على نصرته . وما دام هذا طابع عهده فليس ثمة اختيار لمن يدين بغير هذه المثل إلا أن يختفى أو يعمل على اختفاء هذا المثالى من الميدان .

كان الطومار الفارغ الذى قطع الصحراء من الشام هو الدعوة السافرة لأصحاب الفتنة المتآمرين ليبرزوا من أوكارهم ويعملوا علانية . فقد اطمأنت به خواطرهم ، وعرفوا أنه عنوان قوة من الرجال والعتاد تربض فى الشمال يستطيعون أن يركنوا إليها فى شد أزرهم إذا أعلنوا هم أيضاً العصيان ، وقد تقووا فعلا بتمرد معاوية ، واستشعروا شجاعة ، كانت تخونهم قبل اليوم تتدفق ثانية فى عروقهم كما تتدفق الدماء . واهل المدينة لم تسمع لغطاً من قبل للائتمار بالنظام القائم كما سمعته فى هذه الفترة وكما همست به ألسنة الحاقدين على الإمام . ولعلها لم تشهد هجرة كهجرتهم من جنباتها إذ ذاك وفرارهم منها كلما استطاعوا الفرار . كان أولئك النفعيون عباد الذات ينظرون إلى تمرد ابن أبى سفيان كفاتحة عهد جديد ، آن أن يظفروا فيه بتحقيق الأوطار وبلوغ أجدى الغايات .

. . . ثم نرى طلحة بن عبيد الله يبرز ثانية على رأس الصفوف هذه المرة لا يسير جدلا جديدا بغير طائل ، ولا يتصدى لمعارضة كلامية تخونه فيها حجته أمام منطق الإمام . إن الظروف قد تغيرت والريح تسير له رخاء كما يلوح ودوره

اليوم أصبح غيره بالأمس ، حين كان لا يعدو تجسيم الهنات ثم الانتظار . لم تعد به الآن حاجة للتربص ولا للسكوت قاعداً يشهد موكب الحوادث الذى أخذ يسير ، ووجب عليه أن يكون فى ركابه أو يضيع .

وجب أن يلحق بموكب النضال ويعمل لجده ، وهاهى عائشة بمكة قد انتشرت دعوتها ونمت الحركة التى بدأتها منذ أربعة شهور ، وزاد أتباعها حتى ليسهل أن يكون منهم جيش مرهوب . أما ميلها السياسى فمعروف . وأما الخليفة المرجو الذى لن تدعو لسواه فليس سواه . فمن البدء كانت داعيته ، أو ستظل كذلك فى قرارتها حتى يتبين لها أن تعاود النداء باسمه مقرونا بلفظ الخلافة الجليل ؟ .

على أنه لم يعدم شعوراً خفياً يزحف إلى صدره كزحف الحية الرقطاء وهو يتجه بعينه صوب الشام . هو حقاً فرح بتمرد معاوية على الإمام وعده خطوة واسعة نحو النصر ، ولكنه مع ذلك كان قلق الخاطر وخياله تطوف به صورة سليل الأمويين . . فهذا الأمير منافس خطر بغير شك يجب أن يحسب له ألف حساب . إنه فضلا عن حسن تأهبه بالعتاد والرجال وامتلاكه ناصية رعاياه ، له فى السيادة مطمع قديم . وهو أيضاً ولى دم عثمان الناهض الآن لأخذ الثأر من كل امرىء شرك فيه . فاذا ذكر دم القتيل لم ينس القاتل ، ولم ينس أعوانه وإخوانه ، ولم ينس قبلهم من دفعهم بتحريضه إلى ارتكاب الجرم . فهل يستطيع طلحة أن يخفى عنه كفه الحمراء ؟

بحسبه جاهد ليبعد هذا الخاطر عن ذهنه حتى لا يفسد عليه أمره ، واكتفى بالفرصة التى أحسها حين علم بتمرد معاوية وإعلانه العصيان على الإمام . . . إن قوة عاتية فى الشمال تؤيد إذن خطته ، وتهب لذات الدعوة التى استحدثتها عائشة بمكة . . . تهب لمناجزة الخصم المشترك وإدالة سلطانه ، وتهيأ لضربه الضربة التى ينتظرها هذا المتطلع إلى مقعد الحكم وكل متطلع مثله إلى النفوذ أو إلى إشباع هواه . ويوم يتحقق لطلحة أمله ويخلو الميدان من خصمه المرهوب ، يهون عليه بعده أمر كل خصم سواه !

أما الآن فقد وجب أن يلحق بموكب الضلال ويعمل لمجده ! . . وإذا كانت نفسه أكبر عنده من أن يحملها على الفرار فإنه لا يعدم وسيلة أخرى يخرج بها من المدينة ولا تنقص من قدر كبريائه . وأيسر هذه الوسائل ما كان يتعلق بالدين ، لأنه به يستطيع الفوز برضاء الخليفة وإقراره . . . كذلك صحب رديفه الزبير ، وانطلقا معا إلى على يطلبان منه الإذن بالخروج .

قال له :

« إيذن لنا يا أمير المؤمنين . . . »

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التى طلبا فيها السماح بمغادرة المدينة ، منذ جاء طومار ابن أبى سفيان ! .

— نريد العمرة .

فرمقهما هنيهة بنظرة نفاذة ، ثم قال برنة المستريب :

— والله ما العمرة تريدان ! .

— والله ما نريد إلا العمرة .

— بل الغدرة ونكث البيعة ! .

انكشفت له مغاليق القلبين كما ينكشف عن الصحائف غلاف كتاب ، فأى شعور يا ترى اجتاحهما وقد نزلت كلماته عليهما كلسان السوط ؟ .

لوددنا لو كان الزمن لم يطلع على الصاحبين تلك اللحظة ، أو جنبهما الهوان الذى زخرت به ، ولكنها كانت مشيئة نافذة جرت بها يد القدر فى سجله ، وكتبت على الزبير وطلحة ما يرجو كل عارف لقدر أمثالهما من قادة الإسلام لو تنزها عنه . فقد مضى الشيخان يؤيدان قولهما ، ويدفعان عنهما تهمة أمير المؤمنين بأيمان مغلظة هما يعلمان بغير شك أنها قسم حانث . . ولكن الحلف وحده كان الوسيلة التى تبلغهما ما يريدان .

وقال على وما زالت نفسه مترعة بالشك والريبة :

— فأعيدا البيعة لى ثانية . . .

فعسلا دون تردد ؟ وبايماء كرة أخرى وهما يعقدان له المواثيق والعهود بأيمان جديدة ... ثم مضيا عنه خفيفين كأنما أتيح لهما الخلاص من نار ، وانطلقا إلى درب مكة ، وإن بصدر كل منهما آمالا مبسوطة الرقعة كامتداد الفضاء الفسيح ..

وكانت المدينة إذ ذاك صامتة ترقب سير الحوادث ، وتنتظر القرار الذى لا بد سيتخذه الإمام حيال متمرد الشام . لقد جاءت الأخبار بطاعة أبى موسى فى الكوفة وببيعته وبيعة أهل إقليمه لأمير المؤمنين ، وها هو الزمن يمر ولا جواب يأتى من قبل معاوية رغم ترفق على به ، ورغم إرساله إليه يعظه ويبصره ويهيب به أن يستجيب لمشيئة جماعة المسلمين ... انقضى الزمن وابن أبى سفيان موغل فى صمته وموغل فى عصيانه ، فدل بهذا على إضماره العداء ، وانطوائه على نية الخلاف . وإن الناظر إلى سياسة على حيال ولاة عثمان ليعلم الآن مدى صوابه حين أبى إلا اخلاءهم وتولية سواهم ممن يؤمنون بمبادئه ومثله ، ويعلم أيضاً أنه كان نفاذ البصيرة ، مؤمناً باستجابة البلاد كلها له لأنه لم يعمل إلا ما أملاه عليه شعور أهل الأمصار نحو أولئك الولاة . وها هو الزمن قد أثبت فراسته ، فجاءته الطاعة من كل إقليم . أما الشام فلها وحدها شأن تنفرد به لأنها فى قبضة رجل مفتون بالسلطان ، إقراره عليها — كعزله سواء بسواء — لن يسفر إلا عن عردة لأنه لا يرضى بغير احتلاب السلطان الذى وقع فى كف غريمه القديم . ولعله لو أثبته الإمام فى حكم الشام لوسعه أن يبدو فى أنظار الجماهير أقوى منه فى حالة العزل ، لأنه يستطيع حينئذ أن يقول للناس إنه يأبى البيعة لمن ولاه ، ولا يعتبرها إلا ثمناً يشترى به أمير المؤمنين صمته عن اتهامه بمقتل عثمان ! ..

ولم يبق ثمة أمل فى إصلاح الحال برد معاوية عن غيه بوسائل الترفق . فقد كشف عن وجه الغدر وأسفر عن دخيلة نفسه . وكانت الأخبار تطالع المدينة بين كل يوم وآخر بتأهبه واستعداده . وكان أنصار على يترقبون

أمره وينتظرون ما ينجاب عنه تقريره ، والحدس يتراوح بهم بين انتصار سياسة الإمهال أو سياسة القتال . فلما أن انقضى الزمان فى ركود ، وملكتهم الحيرة ، دسوا إليه زياد بن حنظلة عسى أن يعرف لهم حقيقة الخطة التى سينتهجونها فى النهاية . فما هو إلا أن دخل عليه زياد وراح يحاول الطواف بحديثه حول الموضوع ، حتى بادره الإمام :

— يا زياد تيسر ...

— لأى شىء يا أمير المؤمنين ؟

— لغزو الشام !

— بل الرفق والأناة أمثل ...

« ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم »

فعاجله أمير المؤمنين بقوله :

« متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم ! »

ووضح بهذا ما خفى هنيهة عن الأذهان . بانت الخطة التى لم يبق اليوم معدى عن اتخاذها حيال متمرد الشام .

وخرج زياد فاستقبله الناس بالباب :

— ما وراءك ؟

— السيف ياقوم ؟

على أن ابن أبى سفيان حالفه زمنه ، فيسر له أمره ، وفرش طريقه أمامه بالورود ! .. فلم يكد على يطالع أصحابه بما عزم عليه ، حتى امتدت أصابع القدر إلى ذلك العزم فطوته ، وإلى الضربة القاصمة التى كان وشيكا أن يوجهها إلى خصمه فأرجأتها ... ذلك أن القسم الغليظ الذى حلفه طلحة والزبير كان خدعة ، وكان سترا أريد به حجب الغدر الذى بيتاه ... فقد جاءته أخبار مكة تحمل إليه بداءة « العمرة » التى انتواها الشيخان ! ... إن النبأ قد صورهما يدعوان الناس إلى الإصلاح .

وقال لأعوانه الذين سألوه :

« ... ألا إن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالأوا على سخط إمارتى ،

ودعوا الناس إلى الإصلاح ، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم ، وأ كف إن كفوا ، وأقتصر على ما بلغني عنهم . . . »

ولـكنه فى قراراته كان لا يسلم من الشك . ولا يستطيع أن يقسر نفسه على الهدوء ، والاطمئنان . وقد صدق شعوره . فقد جاءته الحقيقة الواضحة بعد قليل ، وعلم أن حزبهم بمكة قد تعبأ للقتال ، وهم بالسير إلى البصرة . . . فإلى أى شيء يسيران إن لم يكونا قد اعتزما أموراً أهونها حمل أهلها — مثلهم — على نقض إمرة الإمام ؟ . . .

وهتف على وهو يكاد أن يرى بعينيه لهيب الفتنة يعم أقطار الدولة : « إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين . . . »

وقد فعلوه . وتواترت الـكتب والأخبار بما عزموا عليه . ولم يعد فى نفسه ظل ريبة من حقيقة الموقف الذى اختارته عائشة وصاحباها ، ومسارعتهم إلى تقويض بنيان الدولة بهذه الدعوة التى خرجوا بها من حيز القول باللسان إلى المناجزة المسلحة بالسيف والسنان . علم على كل هذا وأيقنه ، ولـكن أمراً واحداً لم يكن قد علمه بعد ، وكان إذ ذاك بعيداً عن ظنه .. ولو استطاع أن ينفذ ببصره إلى مغاليق السر عنـد الشيخين ، لعرف السبب الحقيقى الذى دفعهما إلى تعجيل حربه ؛ ولرآه ممثلا فى كتاب صغير قطع الصحراء من الشام إلى مكة حتى صار إلى يد الزبير يقرأ فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« لعبد الله الزبير أمير المؤمنين . من معاوية بن أبى سفيان .

سلام عليك ، أما بعد فإنى قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الحلب . فدونك الـكوفة والبصرة لا يسبقك إليهما ابن أبى طالب ، فإنه لا شيء بعد هذين المصرين ، وقد بايعت لطلحة بن عبد الله من بعدك . فأظهروا الطلب بدم عثمان ، وادعوا الناس إلى ذلك . وليـكن منكما الجد والتشمير . . أظفركما الله وخذل مناوئكما ، والسلام . . . »

(تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث)

الإمام

علي بن أبي طالب

الجزء الثالث

تأليف

عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

١

لم يكن خافياً عليه ما بيتوا ، بل كان أمامه كما فى كتاب مفتوح . . إن له عينا بكل مكان حسبوا أنهم يأمنون فيه الرقيب ، وله فى أرضهم رجال لم تقعدهم الشدة عن الولاء له ، ونسوة وددن لو افتدينه وجنبنه المصير الذى راح يعده أولئك الخصوم . ولئن كانت مكة لذلك العهد حصن عدوه وموئله ، فإن حركات أهلها كانت لديه محصاة لا يغيب عنها تفصيل . وكانت الكتب ترد منها عليه وهو بظاهر المدينة فى النفر القليل من رجاله الذين خرج بهم يبتغى — فى البدء — أرض الشام . وإنها لتحمل له صوراً واضحة من مأساة الفتنة ، وتكشف عن كثير من الخطوط التى رسمها المتآمرون عليه من أجل السلطان . فما أغفلت الرقاع الآتية من البلدة الحرام حركات الجند المتأهب ، ولا تدبير الحزب المفتون باحتلاب السيادة ، ولا الموارد التى غذت جيش عدوه بالعتاد . . وحتى حديث الهمس والمسارة بين كبار مناوئيه لم يقف به دون علمه أن كان فى خلوة بين الجدران الصماء !

فلعله أسف إذ استعرض هذه الصورة وجال بعين ذهنه فيما تومئ إليه . إنها نذر الانحلال ، وبوادر التدهور الخلق تتجمع فى أفق الإسلام كما تتجمع علائم العاصفة ولما يكد يغيب عن عيون الناس طيف الرسول . فها هى « الدنيا » تنتصر ثانية أو توشك على الانتصار كأنها قد تعجلت الثأر ! . . وها هى « المادة » ترفع ألويتها على أنقاض الروح وما جف بعد المداد الذى سطروا به تعاليم الدين . إن حب الحياة الذى أورد الغابرين مهاوى الهلكة قد هم يطوح أمته الناشئة فى الغابرين ، وأهواء الأنفس التى ألهبتها سياط الأطماع راحت ترين على صفاء القلوب . ولو أن الخلاف الناشب كان مناجزة حرة بين فكرة وفكرة لوسعه أن يقدم باسم الثغر كفارس يلقى كفؤاً له فى ميدان نزال . ولكنها كانت أشبه بإغارة قطاع طريق استبيحت فيها المبادئ المثلى وجيشت قوى الهدم والظلام

تريد أن تطغى على البناء والنور . وهل غاب يا ترى من حقه جانب عن أولئك الذين قاموا يناصبونه العداء ؟ . . .

ليس هذا عليه بجديد : ليس هذا كله نبت ساعته بل هو قديم ممتد فى غور الماضى بجذور دوحة موغلة فى الأرض حتى الصخر أو نبع الماء . فقد كان دائما فريسة بغضاء مجنونة ، وضحية اختارتها شياطين الحسد لتكون قربانا يتقدم به قومه على مذبحها البغيض . وإنه لصورة أخرى مما أريد برسول الله لولا أن عصمه ربه فأنقذه من بين مخالب الغل الفوار فى الصدور . فاسمعه كيف يجيب عقيلا أخاه حين أتاه منه ما ينبئ عن تجهيز القوم لحربه بعد نكثهم بيعته وخلعهم ماكان فى رقابهم له من ولاء مفروض .

« . . . دع عنك قريشاً وتركاضهم فى الضلال ، وتجوالهم فى الشقاق ، وجماحهم فى التيه . فإنهم قد أجمعوا على حربى كإجماعهم على حرب رسول الله قبلى . . . جزت قريشاً عنى الجوازى ! . . لقد جهلوا حقى ، وجحدوا فضلى ، وقطعوا رحمى . وسلبونى سلطان ابن أمى ، وجدوا فى إطفاء نور الله . . » .

كان يعلم هذا كله من البدء ، ويوطن النفس على الاصطلاء بنيرانه . وما أغفل قط من حسابه أن الزمن سوف يتكشف له يوما عن حرب تشنها عليه النفوس المقروحة وتتقدم فيها بكل سلاح وبأى سلاح تستطيع أن تشهره . فلم يعجب قط حين جاءته الأخبار بائتلاف النقائض عليه ممثلة فى الواتر وفى الموتور . . . نعم ، فقد اجتمع أولياء الدم المهراق بمن عملوا جهد طاقتهم على إراقته وسفكه . . اجتمع بنو أمية وأولياء عثمان الشهيد بأولئك الذين فرشوا الأرض تحت قدمى الخليفة الشيخ بالقتاد ووضعوا الحجر المسموم فى أيدى قاتليه ، وتألفت من النقيضين قوة موحدة الغرض هدفها الأول هو القضاء على مظلوم جديد !

ولكنه تقبل هذا منهم بنفس راضية ، ألهمها حقها الثقة ، فلم تستشعر الخوف من المجهول القادم ، ولا أشفقت مما عسى أن تنجاب عنه الأيام من مصير

مظلم أو مرهوب . أليس طريق الصواب واضح المعالم وإن اعترضه الصخر وتناثرت فيه الأشواك ؟ . . وهل الحق إلا أولى بالبذل وإن سدت سبله المشاق والصعاب ؟ . إنه لكلف دائما باستهداف غايته ، وإنها لأمثل الغايات ، ولن يقعده عنها حائل أو عوت . فليدع إذن أولئك المناجزين وما وطنوا عزمهم عليه ، فما أهونهم عنده إذ اصطنعوا باطلا والتفوا به ينصرونه ، كأنهم عابد الوثن يصنعه بيده من حجر الأرض ثم تعنو جبهته بالسجود له ! وما أكثر مزالقهم بعد ، لأن الخطأ الأول سوف يقود حتما إلى سلسلة أخرى من الأخطاء والضلالات — تماما كطليعة الإبل فى القافلة يجر خلفه قطاراً طويلا من الجمال ! وحسبه الآن ، مصداقا لشعوره ، هذه البوادر التى أخذت تبدو له خلال أعمالهم حين حاولوا التماس المنعة بتأليب القوى عليه وساروا فى الطريق الملتوية معصوبى الأعين . . . فقد تنادوا بدعوة ظالمة ، وأغروا باتباعهم كل مفتون ، وشطروا وحدة الأمة . فلما تبينوا أنفسهم فى ساحة كفاح يجب أن يوفروا عتاده وعدته ، أقبلوا فى لهفة يعدون أيديهم إلى مال حرام فاحتجزوه ، واستباحوه ، ثم قدموه وقوداً لهذا الكفاح الحرام !

هكذا فعل القوم ، وإلى مثل هذا المنحدر انزلقت أقدامهم . . . فقد أباحهم ابن عامر ما جلبه من أموال البصرة بعد خروجه منها ، ووهبهم يعلى بن منية ما حمله من أموال صنعاء . وما كان لأى الرجلين حق فيما وهب وأباح إلا كما لرسول من رسالة مولاه . فقد كانت العادة المسنونة أن يجتمع عمال الأمصار فى موسم الحج بالخليفة كل عام ومعهم ما وسعهم جمعه من خراج ليسلموه إياه كى يضمه إلى بيت المال ويعده للإنفاق فى الأوجه التي يراها تعود بالخير على مجموع الأمة . فهم أمناء حفاظ على ما جلبوه وليسوا يملكون توليه بالبذل ولا بالعطاء . ولكن هذين استهوتهما الدعوة التى تنادت بها عائشة فى أرجاء مكة عقيب مصرع عثمان فانحازا إليها ، وأقرتهما هى وصاحباها على احتجاز أموال المسلمين لخدمة مأرب خاص ، ولتكون عدة الحرب الأهلية التى لن تلبث أن تستشرى وتفكك عرى الإسلام .

لكم آلم عليا أن يرى صفوة قومه فريسة للهوى المغرض ، هم الذين كانوا أكرم على نفسه من أن ينزلقوا فى مثل هذا المهوى الذى احتفرته لهم الأطماع ، وأولى الناس عنده بمجانبة الباطل ، وأجدرهم بمداناة التنزه والسمو على مآثم الحياة ... ولكنهم اختاروا لأنفسهم ، وسلكوا الطريق الذى شاءوا دون تردد كثير . ولعل منهم طائفة استشعروا الندم على ما اقترفوا ، واستجابت لهم ضمائرهم بالوخز ، ولكنها يقظة ساعة ثم راحت القلوب بعدها فى سبات ! إنه دون ريب ندم موقوف ، ووخز كأنه مس كف حنون ! فلقد ساروا أشواطاً تعذر بعدها النكوص ، وبدا الهدف البراق يلتمع لهم من قريب على قيد ذراع ! . . .

لات حين ارتداد ! . . . النكوص على العقب الآن عسير وإن كان فى نصرة واجب ، والإقدام هين يسير وإن كان فى نصرة فتنة ، وما إلى وجهة الحق الذى خلفوه دبر الظهور منفذ بعد أن وقفت نزغات الأنفس وأحلام النصر تسد المسالك كردة الظلام ! . . . ولكنك مع هذا لا تعدم عذرا لكل مفتون ضال يضيفه إلى صحيفته ، ويحرص أن تنعكس أخطاؤه من خلاله كالمآثر ، لأن الإقرار بالذنب على النفس ثقيل . . . وهذه عائشة تزعم أنها ما دعت دعوتها تلك إلا وهى تبتغى من ورائها توحيد الكلمة ، وما نهضت إلا لتحاجز بين أتباع على وبين الذين تواروا خلف الطلب بدم عثمان . . . تزعم هذا هى التى صاحت صيحة البسوس — غب المصرع — تستنهض الناس للثأر ، ثم سارت على رأسهم تحدوهم للحرب وتشحذ عزائمهم ليثيروا فتنة شعواء على البلاد التى كانت تدين للإمام بالولاء . . فما كان أصدق نظرة ضرتها أم سلمة وأبلغ كلمتها حين أرسلت إليها تقول :

« . . . ما كنت قائلة لرسول الله لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات على قعود من الإبل من منهمل إلى منهمل ؟ . . . ما كنت قائلة وقد هتكت حجابه الذى ضرب الله عليك ؟ . . . ألا لو أنى أتيت الذى تريدين ثم قيل لى : ادخلى الجنة ، لاستحييت أن ألقى الله ! . . . »

ولكن ابنة أبى بكر مضت لطيتها ، ولم تقعدها هذه النصيحة الخالصة عما انتوته . لقد كانت تشعر أن الأقدار نصبتها لأمر خطير ، وأن فرصة العمر جاءتها أخيراً دون تدبير ! . . ولئن قامت أم سلمة تثبط همتها ، وتحاول بالحجة ومنطق اللسان أن تحول بينها وما تبتغيه فهذا من السيدة الناصحة معلوم مفهوم ولكنه غير مقبول . فمتى أقرتها عائشة على أمر ؟ . وكيف تنتظر أن تحظى منها بالرضاء والإقرار بعد كل هذه السنين الطويلة من التنافر والازورار ؟ . . . إنها لم تكن قط لها صاحبة ترتاح إليها النفس ، ولم يجمعهما أبدا فكر وإن جمعهما رجل ، وما زاد ما بينهما — وما نقص — عما يكون عادة بين الضرائر من تباعد المشاعر . وها هو الماضى يطل عليها فلا ترى فى ذكرياته إلا صورا من التنافس بين الضرة التى جملها الحسن والضرة التى جملها الصبا والشباب ، تتهافت كلاهما على حب الزوج المحبوب . . . وأما الأمومة فقد كانا فى ميدانها سيان ، حرمتهما الطبيعة نعمتها إذ ضنت عليهما معاً بنسل طاهر من صلب سيد الناس . ولكن إحداهما ذاقتها من قبل فلما أن احتواها بيت محمد ووسع قلبه الكبير أبناءها الذين أصابهم ذل اليتم ، كان قلبها ما زال نابضا بعاطفة الأم فراحت تفيض من ذخرها على الزهراء المحرومة من حنان الأم . واستطاعت برقتها أن تعوض عليها بعض عواطف خديجة حتى تجاذبت روح المرأة وروح الفتاة . أما الأخرى فكانت طفلة — طفلة فى حساب الزمن وفى حساب المشاعر الناضجة . . . كان قلبها الصغير أضيق من أن تسع رقعته حبا آخر إلى جوار حبها الزوج ، فبقيت عمرها كله مفتونة برجلها دون سواه ، حريصة على ألا يشركها غيرها فيه وإن كان ابنته الزهراء . . .

ولقد كان طبيعياً أن تعترض أم سلمة سبيل عائشة اليوم ، وتجهد لتحولها عنه . فما هى إلا أم لفاطمة بالعاطفة والتآلف ، تحرص ما وسعها على إسعاد ابنتها ثم على إسعاد زوجها بعد أن غاب جدثها فى التراب . وإنها لخليقة الآن إذن بأن تحفظ ذكرى الطاهرة التي ارتحلت ، وتجدد ولاءها لها بالولاء لزوجها الإمام . بل الأليق بها فى المحنة الحاضرة أن تشهر — لو استطاعت — سيفا

في وجوه خصومه ومبغضيه وتقود جحفلا ضخما من الموالين لتقطع على ضرتها وصحبها درب الفتنة الذى ارتادوه وتدفعهم عنه بقوة الحديد ! ولـكنها كانت امرأة تعرف ما خلقت له فلم تقحم نفسها فى غير ما هيأتها له الطبيعة ، وآثرت النصح — فى البدء — تزجيه عسى أن يصلح الله به نفوس من جانبوا الروية والحـكمة ومالوا مع الهوى الذاتى حيث مال . . . كانت تأمل فى بقية من رشاد بعقول القوم العادين كفيلة بردهم إلى الصواب فعلقت أملها المخدوع بسراب ! .

٢

عاد ثانية إلى الحياة ذلك الصراع الخفى الذى طوته الأعوام . . . برز من الماضى بما فيه من مرارة وذكريات تهيج التنافر القديم ، واستوى قائماً على قدميه ليأخذ مكانه فى قيادة الأحداث . فما ثمة صفحة حب ولا صفحة حرب إلا سطرها مداد العوامل النفسية التى تتناوب القلوب الإنسانية . ولا مصير لأمة أو لفرد إلا استوحت الأقدار عواطف النفوس قبل إبرامه . عائشة تعلم هذا تمام العلم لأنها فى الفتنة القائمة أمثولته الحية . . . فما بالها أغفلته من حسابها اليوم ؟ . أم ترى آثرت أن تنساه لحظة من زمان وهى تحسب أن فسحة الوقت التى مضت راكدة بعد وفاة الرسول قد سلت بذرة النفور من قلب ضرتها ؟ . . إن الزمن لم يفعل شيئا ، ولم يشفها هى أيضاً من شعورها الغابر ، وما استطاع فيما نرى إلا أن يغيب إحساسهما المتبادل تحت ستر رقيق من أعوامه . فلعلها أسيت بعد أن تقدمت إلى أم سلمة تستنصرها على الإمام وأخفقت فيما ترجوه . ولعلها قد استشعرت طعم الندم بعد هذا الرد الذى جاءها ناطقاً بالملام . فما كان أغناها عنه وعما طوى من ترفع واستعلاء . أفماشت حتى ترى تلك تزجيها النصح وتبصرها بمواطن الغى والرشاد ؟ . أما زالت فى عين السيدة نفس الطفلة الصغيرة الغريرة التى يلزمها التدبر ويعوزها حسن الإدراك ؟ .

فى الحق أبداها النصح — فى عين نفسها أيضاً — صغيرة ، هى السيدة

الأولى فى الإسلام التى يتلقف الناس الحكمة من طرف لسانها وينهلون من علمها كما يفعل الظامئ بنبع الماء ، يقبل وهو صاد ويصدر وهو ريان ! . . ولكن ضرتها المتمرسة بالحياة عرفت كيف تلعب أمامها دور المؤدب، وراحت بين وقت وآخر ترسم لها طريق السداد . . . فلم تكن تلك هى المرة الوحيدة التى تقدمت فيها إليها بالنصح ، ولم ينته عندها دورها الكبير ! وكم طالما بذلت لها الحكمة فى رفق ، وبصرتها بعاقبة ما تسير فيه غير مدخرة وسعاً فى الكشف لها عن الحقائق التى سترها هوى النفوس . بل قد عمدت فى أحاديثها إلى صفحات من حياة الرسول تقلبها أمام ناظريها لتريها آيات من إعزازه وتقديره للإمام ، ولتبدى لها صوراً واضحة المعالم بليغة الدلالات قال فيها الإلهام النبوى كلمته العليا فى قدر هذا المظلوم وما سوف يتربص له به أعداؤه البغاة . . . وإن قصة واحدة مما روته لها أم سلمة كانت حرية وحدها بتنكيس السيوف المشرعة وتفريق الجند المتأهب لهذا النضال الحرام . ولكن القدر كان قد أبرم قضاءه فلم يهد النصح المبذول . وكانت القلوب الشائنة قد امتلأت إلى حافتها بأحقاد الماضى ولا بد لها أن تفيض. وعميت العيون التى عصبتها الأغراض فراح أصحابها يتخبطون فى الظلمات المتراكبة حولهم ولا يشعرون أنهم يقتحمون درب الضلال .

على أى حال وضعت عائشة نصح السيدة دبر أذنيها فلم تع منه إلا أنه أتاها على لسان ضرة !.. ومضت فى سبيلها تستعدى على غريمها من توسمت فيهم الاستجابة لدعوتها مبادرين . وما كان أكثر من جمعتها وأياهم وحدة الفكر واتساق الشعور !.. فلتول إذن وجهها إلى معسكرها . . إلى الذين يدينون لها بالولاء وتفنى ذواتهم فى شخصيتها القوية الطاغية . وإذا أريد لدعوة أن تبلغ الأسماع وتهفو النفوس لها بالانصياع فليلتف بها أولا صاحب هيبة أو اسم رنان . وكان هذا ميسوراً اليوم بعد أن انحاز الزبير وطلحة إلى الدعوة فضمنت بهما نصرة الكثير من رجالهم بالكوفة والبصرة . ولكنها شاءت أيضاً لحركتها أن تبدو لغير غرض دنيوى خاص ، وفى سبيل شىء آخر سوى التناحر على الخلافة وجاه السلطان . ولم يكن خافياً عليها أن صاحبيها هذين قد أغرقتهما الأطماع

السياسية حتى الأذنين ، وأن وجودها — دون سواها من ذوى الماضى البراق — إلى جوارها قد يدمغ الدعوة بسمة التطلع إلى زخرف المنصب . فراحت تجد لتضم إليها نوعا آخر من العلية الذين لم تعلق بأذيالهم أمثال هذه الشبهات .

ولم يكن هذا عليها بعزيز — هكذا لاح لها الأمر فى بدئه ومكة إذ ذاك تعج فى موسم الحج بنخبة من الرجال والنساء توفى سمعتهم على مراتب القداسة ، ولأسمائهم رنة فى الأسماع تعنو لها قلوب عامة القوم بالإكبار . وهل ثمة آثر عند الناس من أزواج الرسول ؟ .. إنهم يتنسمون من ثيابهن روح الهداية ويتبعونهن كما يتبعون مشاعل نور . وإن كانت أم سلمة قد أبت الانحياز لحسب عائشة سواها كثيرات . بل كفاها من بينهن أن تضم ابنة عمر الجبار .

وكرة ثانية وحدت العاطفة بين السيدتين ابنتى أول خليفتين فى الإسلام . فكأنما عاد الحزب القرشى الناهض للخلافة الطبيعية إلى الحياة . وكأنما بعث أبو بكر وعمر إلى هذه الدنيا يعيدان ما أبرماه فى البدء ويحولان بين على وبين حقه فى ولاية الأمر كما فعلا غب موت الرسول . ولم يكن عجبا أن تنحاز حفصة إلى جانب عائشة وتشد أزرها فى إشعال نار الفتنة المقبلة ، بل العجب لو ترددت أيما تردد هى التى كانت ذيلا لها طول حياتهما الزوجية تعمل برأيها ، وتسير على السنن الذى ترسمه حتى فى الشئون البيتية ، وترجح كفتها على الدوام لو وقع بينها وبين غيرها من الزوجات أدنى خلاف . . . إن ابنة عمر الجبار لم تنحلها الأقدار شيئاً من شخصية أبيها العاتية فرضيت من قبل أن تعيش فى ظلال عائشة ، وهى اليوم تلعب دورها السابق بنفس الإتقان ، سواء أكان مرد هذا إلى اعتيادها عليه أم إلى بقية من شعورها القديم بالنفور من الرجل الذى نافس أباها ذات يوم على سلطان الإسلام . . . أما بقية من كن بمكة من أزواج محمد فأمرهن على عائشة هين ، فقد ألفوا الانقياد لها وهى بعد طفلة حين كان لها فى بيوت الرسول ما يشبه العرش والصولجان ! .. وها هن أولاء فى ركابها ثانية ، أشارت فتبعنها مسلمات الوجوه ، تماما كما كن فى الماضى لا يصدرن عن عمل قد يغضب سيدة الزوجات ! . .

فلعل عائشة حسبت أنها قد كسبت بهن قوة ، وخرجت بالدعوة من دائرة الشبهة فى خضوعها لشرعة السياسة إلى نطاق العمل فى سبيل مطلب سام يتطلب الفداء ونكران الذات . ولكنها فى الواقع ظلت بعيدة عن الرضا بما فازت به ، وظل أصحابها أيضاً كذلك . وهل فات الناس أن يتبينوا الحقائق الخفية من وراء هذا الستار الرقيق ؟ . . هل يستطيع انضمام زوجات رسول الله إلى دعوتها أن يجعلها فى عيونهم خالصة لوجه الحق بعيدة عن المطامع والآراب ؟ . . هل يستر انحيازهن إلى صفها ما كان معروفا من تكالب كل من عداهن فى ذلك الحزب على أبهة الحكم ! إن طلحة نفسه استشعر فى حركتهم ثغرة وجب أن يسدوها حتى يستقيم لهم الأمر باطمئنان الناس إلى خلوص الدعوة من الأطماع الذاتية وبعدها عن أن تكون مطية لخدمة غرض خاص . وكاشف بهذا صاحبه الزبير ذات يوم :

« . . . ليس شىء أنفع ولا أبلغ فى استمالة أهواء الناس من أن نشخص لعبد الله بن عمر . . . »

فأسرع يستجيب له . وانطلقا سوياً إلى الرجل الذى لا يشك امرؤ مطلقا فى أنه قد باعد ما بينه وبين الدنيا واشترى دينه بزخرف الحياة . . . فلو أن مثله انضم إلى الحزب لكان عنوانا براقا أمام الشعب . . .

قالا له يبسطان الأمر بالطريقة التى يحسبانها تغريه :

« يا أبا عبد الرحمن . . إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس . فاشخص معنا ، فإن لك بها أسوة . . فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها. »

فما أبهظ الثمن الذى يعدانه لو أنهما صدقاه القول ! . . ولكنه فى حساب النفوس النقية هين تافه ، وإن كان جاه المنصب ، وإن كان عز الدنيا ، وإن كان عرشاً يضم ما بين قرنى الشمس ! . .

وتبسم لهما ضاحكا ، ثم قال بهدوء :

« ... أتريدان أن تخرجانى من بيتى ثم تلقيانى بين مخالب ابن أبى طالب ؟

أيها الشيخان ، إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم ، وقد تركت هذا الأمر ، فانصرفا عنى ! . . »

فخرجا من لدنه وقد خبا فى صدريهما أمل وهاج . ومع ذلك فلا بد للقافلة أن تسير ! . . لقد قطعا من الشوط مراحل طويلة وجب بعدها أن يتما الرحلة . أما إلى أين المسير فهذا لعائشة وحدها تبت فيه ، وما عليهما إلا الائتمار بما تراه لأنها تضفى بشخصيتها على حركتهما نوعا من القداسة فى أعين الكثيرين وهو أمر له حسابه فى نجاح المشروع . .

كانت ابنة أبى بكر منذ البدء ترى تسديد الضربة أولا إلى القلب فتتداعى بعده سائر الأعضاء ، وتخف ، لو نجحت ، بقية الأمصار فى الدولة الإسلامية إلى الخضوع . وكانت الخطة فى ظاهرها معقولة ، تتفق وما قامت فيه من وجوب القضاء على رجال الثورة التى قضت على عثمان . وإذ رأت أولئك الغوغاء قد لاذوا بالمدينة ، والتف بهم الأعراب والعبيد فيها ، فقد بان لها أن السير إليهم هو العمل الوحيد الذى يخلص منهم حاضرة الإسلام ويستأصل شأفتهم من بقية البلاد . . ولم يكن رأى الزبير وطلحة يعارض هذا التدبير — أو هكذا فهم الناس مما ردداه . ولكنهما اليوم يستشعران رهبة ، ويتوقعان فشلا ساحقاً لهذه الحملة العسكرية المعدة يقضى إلى أبد الدهر على حلمهما المنشود . فما لرجالهم طاقة بأولئك الثائرين المتأهبين لرد القصاص المنتظر غاية التأهب . ولن يدع ابن أبى طالب أيضا عاصمته نهباً مستباحا للقوى المقتتلة تفعل بها ما تشاء وهو جالس يقلب ناظريه فى سكون. إنه صاحب الرأى الأخير ، وله حق الدفاع عن دولته أمام أى الناس تحدثه نفسه بحمل السلاح ، وليس يملك سواه إقرار النظام فيها سواء بالقضاء على عناصر الشغب أو بالضرب على أيدى غيرهم ممن يحاولون الانفراد دونه بالعمل كأنهم قوامون عليه . ولقد أوضح لهم رأيه من قبل ، ودعاهم إلى الحذر والتريث حتى تسكن الفتنة ، ويتبين كل موقفه منها ، وتخف قبضة الثوار عن عنق الدولة وهو اليوم كمثله بالأمس ، لن يدع هيبته ملهاة فى يدى عابث يتستر عبثه بالثأر لمظلوم . وهبه خلى بينهم وبين ما يريدون ثم أظهرهم الله على الثائرين .

أفثمة نتيجة سينجاب عنها النصر إلا استتباب الأمر لابن أبى طالب وتوطيد دعائم نظامه ؟ . . .

لغير هذه الخاتمة جيشوا الجيوش ! . . ولو قد كانوا حقاً مخلصين لما ادعوه من وجوب القضاء على عوامل الشغب وتخليص الأمة الإسلامية من شرورها ، إذن لوسعهم أن يتلاقوا والإمام فى نقطة يبدأون العمل منها سويا . وما كان أهون عليهم لو أبدوا له الرغبة فى الائتلاف للقضاء على العدو المشترك وأبلغوه أنهم يملكون بمسكة قوى تأتمر بأمره إن أشار وتنتظر كلمة منه فتقبل مددا . ولكن قصة عملهم على محق الثوار لم تكن غاية يجدون فى سبيلها لذاتها بغية إعلاء كلمة الحق أو تطهير الدولة من فساد محيق ، بل هى وسيلة أريد بها اضطراب أمره ، وذريعة للقضاء على سلطانه قبل أى شىء سواه .

فلير الصاحبان إذاً رأياً . وليجمعا الأنصار والأتباع يعرضان عليهم خلاصة هذا التفكير عسى أن يفوزوا برأى جديد كفيل بما يرومان . وما أيسر إقناع عائشة بالتخلى عن خطتها ، إذا أجمعوا هم الرأى ، ورسموا النهج الذى به يقضون أولا على دولة الإمام ! . .

٣

جمعتهم دار عائشة ، ندوة أصحاب الفتنة المتآمرين إذ ذاك . وغلقت أبوابها عليهم أعوانا وأولياء وكانوا بالأمس خصوما وأعداء ! .. ولكنها شرعة المطامع والأهواء تستذل النفوس حتى لتعرضها فى السوق سلعة رخيصة ، تقوم بجاه منصب أو ببريق دينار !

ما من رجل فيهم إلا استبق به مأربه إلى هذا الاجتماع . . . لوحت لهم الدنيا فتبعوها ، وما كانت لتقودهم إلى صواب ! .. إن منهم من خدعته مظاهر الأمور فلم يرسل عينه لتكشف الحقائق الراسبة فى الأعماق . ومنهم من أضله هواه فسار كالمفتون كأنه طائر استهوته حية رقطاء فزحف إلى جحرها وهو مبصر

وليس بيقظان ! . . . ومنهم من لمه علم وقدر ثم آثر أن يمضى قدما على أشلاء صميره الملقاة فى الطريق ! . . . ولكنهم كلهم جمعهم هدف ووحدتهم فكرة ، وهم اليوم يجهدون لتحقيق رغباتهم وبلوغ آرابهم من أيسر سبيل .

وحين بدأوا الحديث لم يكن ثمة امرؤ بمكة يجهل أنهم قد تجهزوا لغزو الدينة ، فبهذا تحدثت عائشة بعد المصرع ، وإليه دعت الناس . ولعلها اليوم وهى تشهد اجتماع صحبها من خلف ستار لم يطف بخلدها أن خطتها تلك سوف يتناولها التعديل . وإنما أجتمعت بهم لتشاورهم فى الأمر ، وتعرف ماسوف ينجاب عنه النقاش بعد أن أعدت العدة ، وتزودت لحملة « التطهير » بما تستطيع .

ومن البدء ظهر جليا أن غزو المدينة ، واقتحام العرين على أسده ليس بميسور . ذهبت الآن عنهم حدة الحماس . وأفسحت العواطف الصاخبة الطريق أمام العقل والتدبر . إنهم فى كفاح تتأرجح فيه مصايرهم ، ويتجاذبهم الموت والحياة من طرفين . فأولى بهم إذن أن يدرسوا الموقف بهدوء ، ويتبينوا مواقع الخطأ قبل الإقدام . وهل يجديهم أن ينفذوا إلى هدفهم من أضيق باب ؟ .

لأول مرة منذ رفعوا راية العصيان يقرون راغمين بحكمة على ، ولا ينكرون — فى ضمائرهم — بعد نظره وإدراكه السليم للحقائق التى كانت خافية عليهم من قبل أو التى أضلهم عنها هواهم . إن شعورهم ليهيب بهم أن يسددوا أولى الضربات لقلب المدينة عسى أن يقضوا بهذه على غريمهم الممسك بأعنة السلطة . ولكن عقولهم تأبى عليهم الانسياق مع العاطفة الهوجاء ، وتقبض على خناق هاتفها الملحاح . فإذا بهم يرتدون إلى ما ارتآه الإمام فى البدء ، وما نصح به لصاحبيهما الزبير وطلحة من وجوب التريث وإرجاء مقاتلة الثوار حتى يعد عدته وها هى الكثرة منهم — وفيها الزعيمان — ذلك اليوم بدار عائشة فى البلدة الحرام ، تردد رأى على ، وتتوخى الأمانة فى نقله بروحه ومعناه ، فنسمعها تقول دون حرج وبغير إخفاء .

« المـــدينة ؟ ... ليس لنا بأهلها طاقة ، فإن من معنا لا يقرنون بما بها من غوغاء . . . »

فأعظم بها كلمة حق من لسان باطل ! . . . وأين منها ادعاؤهم السالف أنهم ما خرجوا على سلطة الإمام إلا لأنه أبى عليهم رغبتهم فى المبادرة بالقضاء على رجال الثورة الذين اغتالوا عثمان ؟ . . . إنهم اليوم قد جمعوا الجند والسلاح فلم أحجموا عن المسير إلى وكر الفتنة ! . . وكيف يؤثرون — وهم فى قوتهم المتأهبة — نفس التريث الذى نصحهم به أمير المؤمنين حين كان فى وهن لا يسده عتاد وجنود ؟ ... إن لسان العقول الذى نطقوا به اليوم قد أنصف — يرغمهم — عليا ، وغسل ما أعلقوه بثوبه من ادعائهم القديم ، ثم هلهل عنهم مسوح الرياء التى طالما خطروا بها أمام السذج من الجماهير . فما كانت رغبتهم فى الثأر لعثمان ، ولا حرصهم على تخليص الأمة من طغيان الثوار ، ولا أى من الأسباب التى اعتسفوها هى الدافع لهم على العصيان . . .

وتداولوا فيما بينهم الآراء وعائشة من وراء سترها تنصت ولا يغيب عنها حرف . وبدت الشام لهم ملاذاً أمينا ، وبؤرة تنتشر منها جيوشهم الغازية فتغطى بقية أمصار الدولة وتقضى على الحكم المكروه . وتلقف الزبير الرأى بحماس ، ثم راح يقول :

« نعم إلى الشام ، فيها الرجال والأموال ، وعليها ابن عم الرجل ، ومتى نجتمع يولنا معاوية . . . » .

ثم ألقى عينه على طلحة ليرى أثر هذا الحديث فيه بما احتواه من أمل معسول!.

ولكن يعلى بن منية كان أقدر من زعيمه على استشفاف الحقائق فصاح وفى صوته رنة تحذير :

« أيها الشيخان ، قدرا قبل أن ترحلا . . . » .

« فقل . . . » .

« إن معاوية قد سبقكم إلى الشام وفيها الجماعة ، وأنتم تقدمون عليه غدا فى فرقة ، وهو ابن عم عثمان دونكم . . . أفرأيتم إن دفعكم عن الشام أو قال أجعلها شورى ، أتقاتلونه ؟ . . أم تجعلونها شورى فتخرجا منها ؟ . . » .

فلم يدريا ما يقولان . ما زال الخطر الذى يهدد حلمهما جاثما بالشمال ! . .

وما كانا ليغفلا عن هذا ، اليوم ، وما أغفلاه من قبل ، ولـكنها السياسة اللعينة تعرف كيف تهادن بين الأعداء المتنافسين حتى حين ، وتدفع الأكف إلى المصافحة إبداء للأمن والطمأنينة وإن انطوت القلوب على توجس مدفون . ولقد صدقهما اليوم ابن منية وأخلص لهما النية . فما عبرت كلماته إلا عما انطوى ذهناهما عليه . فثمة بدمشق قد ربض الغول الأموى يتحفز للوثوب بغية اقتناص الفريسة من الغاصب المرتقب بعد المغصوب ! . . .

وسار الحديث ثانية فى فنون فلم يعنيا بالجدل الذى أسفر عنه . بل راحا من أفكارهما فى غمار . . وكانت عائشة ما زالت تصغى للقوم من وراء حجابها والقلق ينهب قلبها خشية أن ينتهى بهم نقاشهم إلى خلاف يجر التخاذل . وكان مروان بن الحكم قد زم شفتيه واكتفى ببسمة صفراء تلون ثغره وتبدى من سخريته ما أراد ألا تكشفه الكلمات : فهو مؤمن بالنتيجة المقدورة ، عالم بها قبل أن تنحسر عنها أسجاف الغيب المجهول . . وهل راوده الشك لحظة واحدة فى أنهم الأداة الطيعة التى سيلتقط بها بنو أمية شرائح الشواء الشهية من فوق النار؟ . . وكان ابن عامر وسعيد بن العاص يتلاحيان ، ويرمى ثانيهما الأول بنقيصة الجبن إذ فر من البصرة ولم يكفكف فتنتها عليه فيكفيهم مصرا آخر يدين اليوم بطاعة الإمام كما كفاهم معاوية الشام ...

على أن مروان لايني خبثه يلح عليه ، ولا تنى رغبته فى العبث بالصاحبين تراود نفسه حتى يستجيب لها ، ويقذف الشيخين بنصيحة هى فى حقيقتها أحبولة صائد أعدها لصيد غرير ! . . يقول كأنه يخلص المشورة ويمحضهما النصح الذى يزرى بكل ما عداه :

« ما يمنعكما أن تدعوا الناس إلى بيعة مثل بيعة على ؟ . . . لئن أجابوكما فقد عارضتماه ببيعة كبيعته . وإن لم فقد عرفتما ما لـكما فى نفوس الناس . . » .

فلو أجاباه لهتكا إذن الستر الذى يبقى عليهما بعض الهيبة والتقدير فى أعين الـكثيرين من الأتباع . فقد حرصا دائما على إخفاء الغرض الحقيقى لهذه الحركة ونأيا جهدهما عن الظهور بمظهر الطامع فى الحـكم ، المشغوف بابتزازه ولو على

حساب المبادئ . فأحر بهما لو طلبا البيعة أن يبدوا على نقيض ما يرجوان فينفض عنهما من أحسنوا بهما الظن فضلا عن وقوفهما من أمير المؤمنين موقف عداء سافر صريح .

فلعلهما انتبها لأحبولة مروان وما تسوقهما إليه من خطر قبل أن يؤلفا حولها بقية الأمصار . . أو لعلهما حسباها آية من آيات غفلته وليس العهد بحمقه وضعف رأيه عليهما ببعيد . . أو لعلهما أرادا الإبقاء على المظاهر المضللة حتى يئين الكشف عن الأغراض المستورة . وكيفما كان ما فهماه من مرامى هذه النصيحة فإنهما رفضاها دون تردد ، فقال طلحة بحذر السياسى ولباقته :

« إن الناس بايعوا عليا بيعة عامة ، فبم ننقضها ؟ »

وعقب الزبير ، الرجل الصريح الذى يثب قلبه دائماً إلى طرف لسانه :

« ويعنعنا أيضا تثاقلنا عن نصرة عثمان وخفتنا إلى بيعة على ! » .

فهز مروان كتفيه بلا مبالاة وهو يقلب بصره فى الوجوه . إنه على أى حال لن يعدم فرصة أخرى يستطيع أن ينصب فيها شراكه ويوقع الصيد ، وموعدها فى حسبانه قريب . وران الصمت قليلا على القوم ، لحظات أوشك فيها تخاذلهم أن يتجسم حقيقة ماثلة بعد أن فشلوا حتى الآن فى الإجماع على قرار . . . ولكن ابن عامر أتاهم فى اللحظة الأخيرة برأى يكشف الأزمة ، دبت به فى أذهانهم الحياة . . . قال وهو يوجه الخطاب إلى زعيمى الجمع :

« اذهبا إلى البصرة ، فإن لى بها صنائع » .

البصرة ؟ . . . كيف فاتهما أن يفطنا إليها من قبل ؟ . . . أو الكوفة فهما سيان ؟ . . . وهل كشعبيهما فى الدولة الإسلامية شعوب تنضم قلوب أهليها على مثل ما يحسه نحوها أهل المصرين ؟ . . . ومن أولى باحتضان دعوتهما ونصرتها منها ، ولها هوى فى طلحة معروف ؟

أحسن إذن عبد الله ! . . . إنه قد لمح الإعجاب برأيه تلتمع به عيون الشيخين . ورأى أيضاً الموافقة تكاد تلعب على شفاه أكثر المجتمعين ، فسارع يعزز اقتراحه ، ويلقى بما يؤيده أمام القوم :

« اذهبا إلى البصرة أيها الشيخان : فإن غلبتم علياً فلكم الشام ، وإن غلبكم على كان معاوية لكم جنة . . . وهذه كتب أهل البصرة إلى . . . »

هذه حقا هى الخطة المثلى ، وما أجدرهما بالتزامها ما دامت توفر لهما نصراً يعز فى سواها . ثم هى قبل هذا كفيلة بأن تبقى هيبتهما عند معاوية ، وتدنيه من الولاء لهما دون أن تقسرهما على الولاء له . فبها سيصبحان فى منعة ، ولن يكونا كلا على ابن أبى سفيان ينزلان عند أمره ويتبعانه كالظل . بل ستكون لهما الكلمة ، ويكون الرجل فى أيديهما أداة ! . . .

وتدبر مروان الرأى فى دخيلته . لتكاد هذه الخطة أن تبعدهما عن كنف سيد بيته وعن العمل كهواه وستطلق أيديهما ولو إلى حين . ومع ذلك فليس ثمة من حرج عليه أن يظهر الموافقة ويتبعهما أينما يسيران . فأيان ذهبا سيستطيع أن ينصب شراكه ؛ وما أهونه من حمى يقودهما إليه ابن عامر الرجل الذى هان شأنه على أهل إقليمه وهو أمير مزود بالنفوذ فقام يدعى الآن القدرة على امتلاك ناصية البصرة وهو الهارب الطريد ! . .

ونادى هاتف القوم عائشة من وراء الحجاب :

« يا أم المؤمنين . دعي المدينة ، فإن من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التي بها . واشخصى معنا إلى البصرة ، فإنا نأتى بلدا مضيما ، وسيحتجون علينا فيه ببيعة على بن أبى طالب فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة . . . »

٤

أبرموا الأمر . . . حسبهم أن أقرتهم عليه عائشة وتركت عزمها القديم على اقتحام المدينة ، فما كان شأنهم ليستقيم لو أنها خالفتهم ولها كل هذا النفوذ الروحى عند عامة الناس . ووافقهم أيضاً مروان ، عميد الأمويين بالحجاز ، والحليف الذى لا بد سينقاد له أهل بيته ، وكل مغلوب على أطماعه من حاشية عثمان ، وكل عامل فى دولته المنهارة يحسب أن نفوذه لا بقاء له فى ظلال حكم الإمام .

وسوف يأمن أصحاب الفتنة بهذا كله معاوية ، ويؤلفون وإياه حلفا عاطفياً ينتهى حتما لحلف سياسى تباركه وحدة الهدف واتساق العمل الجاهد لبلوغ غايتهم المشتركة . فهل ينتقض من عنفوانه حركة المقاومة التى دبروها ألا يتحمس لها سعيد بن العاص أو ينأى بجانبه كما بدا منه قبيل ختام الاجتماع ؟ .

كلا ! . ففى غيره من زملائه غناء . بل هو أدنى إلى النزول على عزمهم ومتابعتهم لو جد الجد وأخذ ركبهم فى المسير . فلقد كانوا أعلم به من نفسه وأعلم بأمثاله من عباد الجاه . . . حسبوا هذا حتى ركنوا إليه كأنه يقين ، وباتوا على ثقة من معونة أصحاب المآرب والغايات . إن الأحلام غذاء شهى لبعض الأذهان ولهم منها ذخر لا ينفد معينه . . . وهذا طلحة قبلهم يبسم الأمل فى خاطره وتتهاوى عليه المنى السواطع ! فلم يعد يرى طريق البصرة خطوته الأولى بعد كفاح مرير بقدر ما كان يراه مجازا إلى النصر ! . . وإنه ليكاد أن يجده مفروشاً بالزهور ، ممتداً حتى ملتقى الأفق دون أن تعترضه العقبات والصعاب . وهل يسعه أن يغفل بها حزبه القوى والدور الذى لا ريب سيلعبه فيستميل أهليها إلى جانبه ويجنح بهم إلى الطاعة لدولته المنتظرة ؟ . . أما الكوفة فأمرها وأمر أختها سواء ، وحين يطلق أولى علائم الفتنة القريبة ستعنو هى الأخرى له وبها حزب الزبير صاحبه يعرف كيف يجذبها إلى الخضوع أو تنحدر على أطرافها سيول جيشهما اللجب من البصرة فتحمل قومها على احترام منطق السيف ؟ ... وما أضعف حيلة ابن أبى طالب بعد هذا وما أقل خطره أمام قوة هذين الإقليمين وبأس حليفتهما الأموية بالشمال ! .

ومع ذلك فقد آثر الصاحبان ألا يغفلا أثر العوامل المادية فى تدبيرهما المقرر . ولم ينسيا الحذر فى غمرة الحلم الجميل تمام النسيان . فأولى بهما أن يعدا كل عدة ، ويضربا فى سبيل غايتهما بالظفر وبالناب ! . . وما دامت لابن عامر صنائع بالبصرة فلتكن لهما مددا . وليجندا منها دعاة يشدون الأزر ويعملون وأولياءهما فى نفس الميدان . أليس على قدر قوة الضربة المسددة إلى صدر على يكون تداعى بنيانه ؟. وهل تكتيل القوى وتجميعها سوى العامل الكفيل بتعجل ساعة النصر المرقوب؟

ومتى كان للزمن حسابه الذى يتقدم على كل حساب إن لم يكن ذلك فى أوقات الكفاح والصراع ؟ .

لهذا قادهما التفكير ، وبه أغرتهما الكتب التى حدثهما ابن عامر أنها جاءته تحمل فى طواياها رغبة صفوة البصريين فى خلع طاعة الإمام . فلم يكن عجباً أن يشاوراه ويلتمسا عنده ما يحقق الخروج بالنوايا المكتوبة إلى مجال العمل الحاسم السريع . . سأله الزبير :

« ومن رجال البصرة يا عبد الله ؟ . »

فقال :

« ثلاثة كلهم سيد مطاع . . كعب بن سور فى اليمن ، والمنذر بن ربيعة فى ربيعة ، والأحنف بن قيس فى البصرة » .

فما بارحوا مكانهم حتى كتبوا لهم يستنهضوهم ويستنهضون بهم أقوامهم للغضب من أجل عثمان ، وللقيام فى ثأره ، وللتأهب لاستقبال جيشهم السائر نحو البصرة الاستقبال المرجو منهم ، والحقيق بسادة مثلهم أن يبادروا إليه . . . وإنك لتلمح فى الكتب ما يثير النخوة ، ويتملق حتى مفاخر الجاهلية القديمة . . اسمعهم كيف أهابوا بهذه الأمجاد التي تقدس الثأر فى كلتهم المبعوثة إلى ابن ربيعة :

« . . . إن أباك كان رئيساً فى الجاهلية ، وسيدا فى الإسلام . . وإنك من أبيك بمنزلة المصلى من السابق يقال كاد أو لحق . . . ولقد قتل عثمان من أنت خير منه ، وغضب له من هو خير منك . . . »

ومع ذلك فما أغنت عنهم كتبهم فتيلا ! . . . لم تؤجج حمية النفوس ، ولم تشعل نار الفتنة المنتظرة . . . ولعل أبلغ رد جاءهم هو ما بعث به إليهم ابن ذلك الرئيس الجاهلى المجيد ! . . فقد كتب لهم فى إيجاز :

« إنه لم يلحقنى بأهل الخير إلا أن أكون خيرا من أهل الشر ، وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس وقد كان بين أظهركم فخذلتموه ! . . »

فأصدق بها من كلمة صورت لهم حقيقة ما وعته عنهم القلوب ! . . وهل ظنوا ، هم الذين استعدوا لهم شيعة من البصرة على عثمان وهو فى عقر داره حتى حانت ساعة مصيره ، أن الشعب بها قد فاته ما كانوا دبروه لعثمان بالامس ! . .

لو أن طلحة أنصف لما قام فى الأمر بنفسه ، ولكان وسعه أن يعمل فيه من خلف قفاز يخفى كفه التى جنت على الشيخ المقتول . ولكن الأهواء لا ترى الحقائق وإن تجلت سافرة كشمس الصيف . ورجل بنى تيم يستطيع النسيان حين يريد ، ويستطيع أيضاً أن يغرى غيره على النسيان . فليس كصاحبه الزبير الذى يستبق الحق على لسانه فيقر بالذنب ويعلن الندم عليه . . بل هو ماهر فى مداورة الناس ومداورة نفسه على السواء ! . .

لم تلق إذن دعوتهم بالبصرة أذنا سميعة ، ولم يسارع أهلها إلى طاعتهم وعونهم كما حسبوا ، وكما صور لهم حديث ابن عامر عن صنائعه . . . بان لهم الآن أن سعيد بن العاص لم يكن متجنيا على زميله كل التجنى حين لاحاه خلال اجتماعهم بدار عائشة ، ونصحهم ألا يركنوا إلى كلامه المعسول . . . وراحت كلمات سعيد تقرع ثانية آذانهم ، أعلى جرسا منها من قبل ، وأحد نبرة كأنها صوت نذير :

« . . . يدعوكما إلى البصرة وقد فر من أهلها فرار العبد الآبق وهم فى طاعة عثمان ، ويريد أن يقاتل بهم علياً وهم فى طاعه على ! » .

إن السخرية لتقطر منها فياضة ثم يكون لها فى قلبى الصاحبين مثل طعم العلقم المرير . أما الحيطة فقد ولى زمنها الآن ، والنصح الذى رغبا عنه ذهب مع الماضى ولم يعد فى مقدورهما العودة إلى الانتفاع به . فقد جاءت مشورة ابن عامر بنقيض المرجو من ورائها . وبعد أن كانت لهما بالبصرة كلمة مسموعة لعلها كانت كفيلة بلف قومها حولهما لو أحسنا استغلال الظروف ، أصبحا اليوم والبلدة تكاد تجمع على استنكار الدعوة التى بثاها فيها بعد أن نبهت كتبهما أذهان كثير من أهلها — وفيهم صنائع ابن عامر نفسه ! — إلى ضعف الحجة التى توسلا بها لتبرير العصيان . وكفاهما أن كتبهما تلك قد استقبلت بالبصرة أسوأ استقبال حين ورودها عليها . فما هو أن تلقفها أولئك السادة وأظهروا عليها الناس حتى أقبلت وفودهم من كل مكان يعلنون رأيهم فى الفتنة وفى مثيريها . ووقف فيهم من خطبهم فقال :

« مالنا ولهذا الحى من قريش ! . . أيريدون أن يخرجونا من الإسلام بعد

أن دخلنا فيه ، ويدخلونا فى الشرك بعد أن خرجنا منه ؟ . . . لقد قتلوا عثمان وبايعوا عليا ، فلهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم . . . » .

هذه هى السياسة التى حددها لنفسهم أهل البصرة ، ورسموا بهـا موقفهم من الفتنة المقبلة . إنها سياسة حياد صريح ، لا يتحيف ملتزموه على فريق من أجل فريق ، ولا يبادرون بالنفخ فى نار لم يشعلوا هم جذوتها الأولى . فالرأى عندهم هو أن الأمر أمر العاصمة الإسلامية قبل غيرها من البلاد ، وأمر أهلها من المهاجرين والأنصار قبل غيرهم من المواطنين . . . فهم قتلوا وهم ولوا ، وعليهم التبعة من قبل ومن بعد ، وليس لسواهم أن يقحم نفسه فيما لم يكن له فيه رأى ولا مشورة . وهى ذات السياسة التى التزمها عثمان ابن حنيف عامل الإمام بالبصرة حين أقبلت عليها جيوش عائشة وكان بها معبرا عن الرأى العام فى ولايته أصدق التعبير . فلم يبادر الرجل بقتال جحافل المتمردين ، ولا هز فى وجوههم قناة إذ ذاك . بل صبر عليهم . وترك لشعبه أن ينضم إليهم منه من شاء دون إكراه . وأمهل لهم حتى آذوه ، ونقضوا عهده ، وجازوه شر الجزاء على هذا التسامح الكريم . . .

وعاود أصحاب الفتنة مرة ثانية شعورهم بالنقص ، وبحاجتهم إلى الشخصية التى تضفى على حركتهم قوة معنوية فى أعين الناس بعد هذا الخذلان الذى نم عنه موقف البصرة . . . كرة أخرى وجب أن يقنعوا الشعب بتجرد هذه الحركة عن المطامع الذاتية وبعدها عن خدمة أغراض خاصـــة لامرئ أو لسواه ، فما يتحقق النجاح لأمر لم يستهدف غاية مثلى تستجيب لها العواطف النبيلة . . . وهل أبلغ فى استمالة أهواء النفوس من رجل نقى الصفحة لم تشب ماضيه شائبة ، ولم يدمغ من قبل بسمة التطلع إلى زخرف الحياة ؟ . . .

وكأنما عجموا الأعواد فلم يروا فيها أقوم من ابن عمر فى ذلك الوقت الذى أخذت فيه النفوس تنحرف عن الجادة وراحت الدنيا تجذب وراءها البقية الباقية من صفوة صحب رسول الله . عبد الله له وحده فى قلوب أمته مكانة إذ هو وحيد رجال الشورى الذين لم يطمعوا قط فى الخلافة ، ولم تجرفه تيارات السياسة

الهوجاء من قبل ، ولم يأخذ من الدنيا أبداً بنصيب لفرط ورعه وعزوفه عنها ، بل كان فيها يعيش كالغريب منطويا على نفسه ، قد اتخذها لحسب مجازا إلى آخرته . . . ومع أنهم أخفقوا من قبل فى جذبه إلى جانبهم ، فقد رأوا الحاجة تدفعهم ثانية إليه عسى أن ينجحوا اليوم فيتخذوه علما للدعوة يلتف به الكثير من العارفين بنقائه . فإن هو أن تحدث مروان فى شأنه إلى الزبير وطلحة حتى أسرع إليه الشيخان . . .

ولكنهما فى هذه المرة أبعدا عنهما ظنون سعيهما إلى ابتزاز السلطان من ابن أبى طالب ، وحاولا أن يرسما صورة جديدة أنيقة تبدى رغبتهما فى جمع كلمة الأمة الإسلامية ، وتجنيبها الفرقة الوشيكة أن تقع فى صفوفها بسبب اختلاف البلاد على الإمام ، وقيام بعضها بالدعوة لسواه . . .

قالا له وهما يخلطان الذنب بالتوبة ، ويلقيان على غيرهما أمر الخلاف ، ثم يبديان الرأى الذى يريانه يحسم الأمور :

« يا أبا عبد الرحمن . . إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه فلما حضر العذر قضيناه بالحق فيه . . إن عليا يرى إنفاذ بيعته ، ومعاوية لا يرى أن يبايع له ، وإنا نردها شورى . فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور ، وإلا فهى الهلكة . . » .

فتمهل الزاهد برهة قبل أن يجيب بنبرة اعتذار :

« إن يكن قولكما حقاً ففضلا ضيعت ، وإن يكن باطلا فشر منه نجوت ! »
ثم ارتفع فجأة صوته ، ورمى إليهما بنظرة نفاذة ، وأردف يقول فى صراحة مريرة :

« أيها الشيخان ! . . اعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنتما المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف ! . . لن يقاتل عليا إلا من كان خيراً منه ! . . أما الشورى فقد والله كانت ، فقدم وأخرتما ، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفيانى أنفسكما ! . . . » .

فغادراه دون أن يقدرا على جواب ! . . فلما أن قابلا مروان راح يوسوس لهما ثانيـــة ، ويدفعهما إلى طريق جديد ظن أنهما يستطيعان من خلاله الفوز برضاء عبد الله ... دفعهما إلى أم المؤمنين حفصة ورضاؤها عن خطتهم معروف ، ورأيها لرأى عائشة تبع من قبل ومن بعد فى كل أمر من الأمور ، لعلها تعرف كيف تحمل أخاها على القبول .

ولـكنها كانت أعلم به منهم ، وأعرف بعناده ، فردتهم عنه . وقالت تجيب الصاحبين :

« لو أطاعنى أطاع عائشة . . دعاه . . »

وبهذا فشل جهدهما فى التستر وراء امرئ نقى الصفحة من المطامع السياسية التى وسمهما بها القوم ووسمتهما جهودهما الدائبة من قبل على الظفر بالسيادة من كل سبيل . ولم يبق إلا أن يوجها الركب للمسير ، وحسبهما أن يكون فيه ابن عامر ، وابن عقبة ، ومروان وأضرابهم من الموغرة صدورهم ، المفتونين بالمناصب وجاه السلطان . . .

٥

دق طبل الحرب حين هتف منادى القوم فى أرجاء مكة :

« أيها الناس . . إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة . فمن كان يريد إعزاز الإسلام ، وقتال المحلين ، والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركب ولا جهاز فهذا جهاز وهذه نفقة . . » .

فتهافت الناس من كل صوب ، قد استهوتهم الدعوة المغشاة بالجهاد كما يجتذب الضوء اللألاء فراشات رقيقة . وأقبلوا يحملون رءوسهم على أكفهم ، ويلتحقون بكتائب أم المؤمنين .

وتم جهاز الجند ، وزودوا بالمطايا والسلاح مما أعـد ابن منيه وابن عامر بأموال اليمن والبصرة . والتأمت الصفوف ، وتهيأت قافلة القتال للمسير . . .

فإذا « عسكر » قد خلف مريضة ، وخطر أمام هـذا الحشد الزاخر متلع الجيد فى الفضاء ، ثم راح يدب مزهوا بين غيره من الإبل والنياق . ألعله استيقن قدره من هذه الأنعام وعزته عليها براكبته المهيبة التي هيأوه لها مطية ؟ . . إنه ليتهادى والعيون ترمقه ، والقلوب تهفو نحوه ثم يستقر لجبها وخفقها جميعا على هذا الهودج الفاخر المرتكز على سنامه . فهاهنا سيدة الموقف ، الصارخة الأولى فى هذا الوادى وكل هذه الجموع أصداء . . . إنها تخلف اليوم الحذر إلى مهوى الأسنة والسهام المريشة . . . تترك رقة المرأة فى بيتها وتخرج مع القوم فياضة القلب بحمية القتال . . . تسير بهذه الحشود إلى وديان الموت . . . حتى الهودج الذى احتواها فقد هو الآخر دلالته وبدا كحصن منيع يحمل نفوس من التفوا به على ارتقاب صراع خطير .

البلدة يتحدر أهلوها فى دروبها كالسل ، رجالا ونسوة ، كأن هذه الدروب غدت أنهاراً من الناس ! فما من بيت أغلق بابه إذ ذاك على إنسان وما من أحد آثر القعود إلا القليل . بل خرجت جموعهم تسير فى ظلال زوج الرسول . . . بعضهم قد التحف زرده ليكون درعا يدرأ عن السيدة قبل أن يدرأ عن نفسه ، وحمل سلاحه ليضرب فى سبيلها به وإن اقتضاه الصراع أن يبل مواطىء قدميها بدمه المهراق . . . وبعضهم سار خلفها على هدى دمعه ، لأن لساعة الوداع فى القلوب وقعا تستجيب له العيون البوادر ، ولذعا كألسنة النار هو نتاج الخشية على هذه الأمة من المصير الكامن وراء الفتنة المشبوبة . وحين انتهى بهم الموكب إلى « ذات عرق » وآن لركب القتال أن ينفصل عن مودعيه ، غامت الأعين المتطلعة ، وشرقت الحلوق بالدموع المنثالة ، وسجل القدر فى كتابه ميلاد « يوم النحيب » ! . . . فلقد تجاوبت كثبان الرمل المبثوثة على الأديم بصوت بكاء القوم يرج الأرض والسماء فى آن . واهتزت الصحراء بأنة جامعة صدرت منهم فكأنها ندت من الفضاء الرحيب ! . . . لم يكن من قبل حزن كهذا ، وما أتيح للشمس أن تبرز من برجها على يوم كان أكثر منه باكياً للإسلام وباكيا عليه — ذلك اليوم من ربيع الثانى ، الذى فتح الباب على مصراعيه أمام

الحرب الأهلية لتدلف منه أداتها الرهيبة تمزق وحدة الأمة الإسلامية وتدمر وشائج الصلات القائمة بين أولئك وهؤلاء من الإخوة فى الوطن والله . . .

والتف زوجات محمد بصاحبتهن يذرفن الدمع أسى ولوعة ، ويبدين معه الأسف لهذا الفراق الذى لم يكن فى الحسبان . . . كن جميعا قد عاهدنها على المسير ، وأظهرن العزم ليكن فى الركاب . ولكن اليوم ليس كالأمس ، والمقصد غير المقصد . وما يسعهن أن يسرن الآن وإياها على درب البصرة وقد كانت الوجهة المتفق عليها هى المدينة دون غيرها من البلدان . أما وقد اختلف القصد فقد لذن بالعودة ، والأسى وحده يشيع السيدة الأولى عنهن ويسير خلفها حيثما تسير . والحسرة أيضاً لا تبرحها وقد رأت نفسها تنطلق فى زحمة الحوادث وحيدة إلا برجال — وإن سمت بهم شجاعتهم — ليسوا ممن تطمئن القلوب التى لم تشبها الأغراض إلى نواياهم المكنونة ... وحتى حفصة تخلت هى الأخرى عنها . حفصة صفيتها وظلها الذى لا يغيب ! . . . أم تخلفت برغمها حقا كما أبلغوها إذ حال أخوها بينها وبين الخروج ؟ ... ويغفر الله لابن عمر ! . . . إنه أبى أن يعد الحركة بقوة معنوية هى فى أشد الحاجة إليها الآن ، فلم يقرن بها اسمه اللماع الرائق الصفاء ، ولا اسم أخته . . . فياترى هل كان إباؤه هو الأسوة التى اتبعتها أمهات المؤمنين ؟ . . .

لكم أضناها الفكر وهى تقلب الأمر وتستعيد فى ذهنها كل هذه القصة ، هذه الفصول الجريئة التى استهلتها بالتخذيل عن على كتخذيلها عن عثمان إلى أن تصل بها الخاتمة إلى اليوم المغيب القريب عندما تنطق الأسنة ويفتح الموت صدره مرحبا بالرجال ! . . . إنها لا تعلم على أية هيئة سيكون ، ولكنها فى دخيلتها تستشعر الرهبة حين تفكر فيه . فها هى تسير على أرض ميادة لا يستقر فوقها شىء ، خطوها المضطرب سوف يقودها دون ريب إلى مجاز رهيب ، كقاطع غاب يدلج بليل تتخبطه مرابض الوحش ومسارب الأراقم كلما حرك قدميه ! . . . الأفكار فى خاطرها تتلاحق وتزدخر كموج اللجة فى يوم عاصف مجنون الريح تختلط فيه لمحات الضوء الخاطف الرقيق بقتامة الظلال الكثيفة السود . . . إنها تشعر أين

هى ولـكنها لا ترى موقعها برأى الذهن المدرك المستنير — لا تستطيع أن تهتك كل هذه الظلمات المتراكبة طبقات فوق طبقات ، ويعسر عليها أن تفعل إذا أرادت وإن التمست فى خاطرها أقباس من الضياء الضئيل بين حين وحين . . . خيط الشعاع الخابى الذى يرتسم على صفحة الأفق الدكناء معلنا ولادة الفجر لا يكشف أحناء متاهة ملتوية الدروب أمام حيران ضال . . وهذا قبس أوقدته لها أم سلمة فما لبث أن ابتلعه الاعتداد ، وآخر جاء به ابن عمر فغاب فى ظلمة العناد . . . فلعلها الآن تحس أنها منطلقة إلى طريق ليس فيه نور ، أما اللألاء الباهر خلف ظهرها خلفته هناك قبل أن تصرخ صرختها وقبل أن يخطر بها « عسكر » التياه الرشيق ، وتركت كل من نـكصوا عنها يسبحون فيه ! . . .

ومع ذلك فلا معدى لها عن التقدم . . إن الهائم فى بحار الرمال يرى الموت فى المـكث ويجدد السير أمله ، ثم قد يقوده إلى راحة الأمان .. وقد سارت هى . عاودت المسير عسى أن تلمح عند حد الأفق شجرا يانع الخضرة تنعـكس ظلاله على الأرض الصفراء .. فماذا يا ترى يخفى لها الزمن فى جعبته ؟ . . النبع والدوح أم السراب الخداع ؟ . .

ولـكن نبع الرجاء لم يجف كله فى قلبى الصاحبين . . طلحة قبل زميله كان متفتح النفس ، يستقبل معالم الطريق مشوقا به حنين ، فهو إلى منازل حزبه يسير ... وإنه ليحس القدر ذاته فى ركابه ، يؤيده ويسمل له . وهل كان يحسب من قبل أن يتبعه من الناس كل هؤلاء ؟ . . وإذا كانت نسوة النبى قد قعدن عنه بعد اتفاق فحسبه عائشة تلتف بها الجماهير كأنها العلم والجنود . ثم ها هنا أيضاً سعيد بن العاص ، قد راجع عقله فيما يلوح ورأى الخير فى الانضمام إلى الحركة بعد أن تأبى عنها يوم الاجتماع . . وها هنا المغيرة بن شعبة سيد ثقيف ، وداهية العرب فى الجاهلية وفى الإسلام .. أقبلا معا وهما يجهدان ليستطيعا اللحاق بالركب قبل أن يغيب .

وخف إليهما الزبير وطلحة ، فإذا سعيد ينتحى بالصاحبين ناحية ، ويهمس لهما بسؤال :

« إن ظفرتما أيها الشيخان لمن تجعلان الأمر ؟ . . أصدقانى . . »

فتوجسا شرا منه ، ولكنهما آثرا أن يجيباه :

« لأحدنا أينا اختاره الناس »

« بل اجعلوه لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه » .

« ولد عثمان ! . ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم ؟ »

فلما وضح له أنهما يتخذان من دم الخليفة الصريع أداة تقتضى لهما السيادة ، هز رأسه آسفا وقال :

« لا أرانى إذن أسعى لأخرجها من بنى عبد مناف ! »

واستدار ومعه المغيرة . ولكنهما لم يعودا فى التو ، بل انطلقا إلى صاحبة الهودج . وتقدم سعيد فسألها هى الأخرى :

« أين تريدين يا أم المؤمنين ؟ »

« البصرة » .

« وما تصنعين بها ؟ » .

« أطلب بدم عثمان » .

فاستضحك ساخرا وقال :

« فهؤلاء قتلة عثمان معك يا أم المؤمنين ؟ . . »

ومضى فالتقى بمروان بن الحكم فى نفر من صحبه وأوليائه ، فيهم أبان والوليد ابنا عثمان ، قد انطلقوا جميعاً فى ركاب طلحة والزبير ، يدعون بدعوتهما ، ويميلون حيث يميلان . . فإذا سعيد يصيح فيهم وقد بدوا له مطايا إلى غايات الشيخين ، ويوجه أعنف حديثه إلى ابن الحكم عميد هذا الفريق :

« وأنت أيضاً تريد البصرة ؟ »

« نعم ، أطلب قتلة عثمان . . »

« فهؤلاء هم ! . . »

وأشار إلى حيث كان الصاحبان ، ثم أردف يقول :

« إن هذين الرجلين قتلا عثمان وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلما غلبا عليه ، قالا نغسل الدم بالدم ، والحوبة بالتوبة ! . . »

فهل تجنى عليهما سعيد ونسب إليهما ما لم يقولاه ؟ . . أبدا . . بل ليكاد ينقل إلينا نفس الكلمات التى بدرت من أحدهما من قبل ، حين ذهب إليهما عبد الله بن خلف وقد علم بعزمهما السير إلى البصرة يريد لو أقعدهما عنه . . قال ابن خلف إذ ذاك :

« إنه ليس أحد من أهل الحجاز كان منه فى عثمان شىء إلا وقد بلغ أهل العراق . وقد كان منكما فى عثمان من التخليب والتأليب ما لا يدفعه عنكما جحود ولا ينفعكما فيه عذر . وأحسن الناس فيكما قولا من أزال عنكما القتل وألزمكما الخذل ! . . وقد بايع الناس علياً بيعة عامة . . فإذا لاموكما غداً ، فماذا تقولان ؟ . . »

فكان الجواب الذى أتاه من طلحة :

« ننكر القتل ونقر بالخذل ! . . ولا ينفع الإقرار بالذنب إلا مع الندم عليه ، وقد ندمنا على ما كان منا . . »

وهو الجواب الذى نقلته كلمات سعيد بأمانة تعز عند الرواة ! . .

وهتف سعيد ثانية بمروان ومن معه :

« تذهبون وثأركم على أعجاز الإبل ! . . اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم يا قوم ! »

ونادى المغيرة بعده بصوت جهير :

« أيها الناس . . من كان ها هنا من ثقيف فليرجع . . »

ثم امتطى كل راحلته ، وتبعهما كثيرون تبينوا من الأمر ما كان خافياً عليهم من قبل ، وتركوا بقية الركب تسير إلى مصيرها المجهول . . .

٦

أذن مروان للصلاة . . ابن الحكم دون غيره من أتباع الجمل قام يدعو بدعوة السماء فى الناس ! . . فلعلة فعل الرجل ، وسارع قبل سواه بهذا النداء . وهل كان — فيما عودنا من قبل ومن بعد — إلا مفتوناً بالتدبير ونسج خيوط الأحابيل ! . إنه نفس مروان القديم صانع الدسيسة ، وهو اليوم يعد عدته لنصب شرك جديد ؟ . .

واستجاب القوم للداعى وللدعوة . وتهيأوا لأداء شعيرة الإسلام الأولى فأقبلت حشود الجيش تنتظمها الصفوف ، وتتجه منها العيون والقلوب وجهة واحدة شطر المسجد الحرام — نحو البلد الذى خلفوه منذ قليل وشهد مولد الرسالة السماوية التى رفع محمد مشاعلها تبدد غياهب الظلام . . وران عليهم الخشوع وهم يوشكون أن يلقوا الله فى الصلاة . كل قد اتخذ مكانه فى هدوء ، ساجى البصر ، خاشع الفؤاد ، فلا حركة ولا نأمة إلا ما تهمس به الشفاه من دعاء وتسبيح . . . ولكن إمامهم وحده لم يقف موقفه — بل من هو يا ترى كان ذلك الإمام ؟ . . طلحة أم الزبير ؟ . . الرجل الذى حالفته عائشة من البدء ودعت له بالإمرة حتى فى أيام عثمان ، أم الزميل الجديد الذى ربطته به حوادث الخلاف الجديد ؟ . من ذا يدرى من القوم الحاشد أى الصاحبين سيبرز أمام الصفوف ليؤمهم فى الصلاة ؟ . .

لا أحد يدرى على التحقيق وإن توزعت عواطفهم بين هذا وذاك . فلكل فى الجيش حزب وأعوان . وقد أرهف التساؤل حذر الفريقين معا وخشية الواحد من تقدم زعيم الآخرين إلى الاضطلاع بالإمامة فى هذه اللحظة الحقيقة بأن ترسم المصير السياسى للصاحب وللفريق الذى يناصره فالإمامة عندهم زعامة على الصلاة ، وزعامة بعدها فى كل ميدان للدنيا وللدين . وأحر بمن يتقلدها الآن أن ينعقد له لواء الخلافة من بعد . .

ولكنهم كبحوا عاطفتهم إلى حين . . ادخروها حتى يأتى لهم أن يروا رأى العين من سيكون صاحب الأمر ، وأى الرجلين منهما سيخطو أولى خطواته إلى السيادة إذ يتقدم الصفوف المنتظرة ويرفع صوته بتكبيرة الإحرام ! . . حبسوا الشعور فى الصدور ، فما يحسن أن يدعوا ريح الخلاف تعصف بهم ولما يتبينوا بعد نصيبهم من النصر أو الخذلان ، وأولى بهم وأجمل أن يتريثوا فقد آن وقت الأداء . .

هكذا حرك مروان رماد الغيرة بين الفريقين عسى أن يكشف تحته عن جمر التحاسد والخلاف ، وأوقع فى قلوب كل فريق التوجس من الآخر . فكلاهما الآن على حذر ، وكلاهما أيقن أنها هدنة موقوتة لم تكتب لها حياة طويلة ، لأن ظلها وشيك أن يتقلص غداً إن لم يتقلص اليوم ، ثم يتجاذبون بينهم السيادة كما يحاول الصاحبان جذبها من أمير المؤمنين . أما ابن الحكم فلم يكشف شيئاً عما أضمر قلبه ، بل سار إلى طلحة والزبير وعلى وجهه من سلامة الطوية قناع كثيف . . وإذا به يسألهما فى هدوء :

« على أيكما أسلم بالأمرة وأؤذن بالصلاة ؟ »

على أيهما ؟ . . ذات السؤال الذى يراود الآن ذهن كل إنسان . . . ودون الجواب عليه بغضاء ودماء ! . .

فكأنه ألقى عليهما ناراً تتسعر ! . . للحظة ثبتت عيونهما على وجهه نظرة ذاهلة تفصح عن تعجبهما تمام الإفصاح . . هذا أمر لم يدر لهما ببال ، أو قد دار ثم أرجآ الجواب عنه حتى حين — حتى اليوم الذى يتدخل فيه القدر على نحو من الأنحاء فيخلى الميدان لأحدهما دون صاحبه ويأتيه بالإمرة له وحده دون شريك . . لقد شغلهما على عن التفكير فى كل ما عداه . . وشغلهما ابتزازهما إياه أريكة الحكم عن التفكير فيمن سيعقبه عليها منهما الاثنين . فالوقت لم يتسع لتدبير كل هذا ، ولا الذهن اتسع لتدبره وإعداد العدة لأى احتمال قريب وبعيد . أما الآن — هذه اللحظة التى أثار فيها ابن الحكم ما كانا يتناولانه بالمطل والتسويف فراراً من الواقع الذى يخشيان . . الآن وقد فاجأهما الرجل بسؤاله العارى عن الكياسة ، أو قل عن المواربة والتمويه —

وصاح به عبد الله بن الزبير فى حنق وفى اعتداد :

« على أبى عبد الله ! » .

« بل على أبى محمد ! » .

فلم تختلج لمروان جارحة . بل نقل بصره وهو ساكن بين ابن الزبير وابن طلحة ، ثم راح يرمق الشيخين بثبات كأنه يستحثهما على الجواب .

ولكن طلحة كان قد حزم أمره . . العمل الحاسم السريع أجدى عليه فى هذا المقام من ألف جواب . فما أسرع أن هم يريد أن ينطلق إلى مكان الإمامة ويتقدم الصفوف . فإذا الزبير يهم كذلك ، كأنما قد استجابا معاً لتوجيه ذهن واحد . وتدافع الرجلان كل يبغى أن يكون له وحده هذا الشرف المأمول ويجهد فى دفع صاحبه عنه ! . وكان لابد أن يثير تدافعهما جدالا كريها كانا فيه كطفلين يتجاذبان بينهما دميــة ! ... ولغط لساناهما بملاحاة ، وتلاحى أيضاً عبد الله ومحمد ، ومروان لا تنى البسمة الساخرة الخبيثة تلعب على شفتيه . . . فما كان أعمقها من هوة حفرها لهما بتدبيره ، وما كان أجداها من أحبولة ، ما نصبها حتى تخبط فيها الصيد لا يدرى كيف يكون الخلاص ! . .

وهمس معاذ بن عبيد الله لنفسه وقد شهد هذا السباق العجيب بين زعيميه على إمامة الصلاة :

« والله لو ظفرنا لافتتنا ، ما خلى الزبير بين طلحة والأمر ، ولا خلى طلحة بين الزبير والأمر ! . . » .

فلعل هذا المشهد كان شعاعاً جديداً أرسله القدر عسى عائشة أن تستضىء به ، وترى مستقبل الحركة التى احتضنتها على هديه . ولكنه لمع هو الآخر فى خاطرها كلمعة البرق ثم غيبته الظلمة ، فلم تتبين شيئاً على سناه . أو هى قد آثرت أن تغضى أيضاً عنه كما أغضت من قبل عن سواه . وكما تفعل الأم التى تشهد الخطر يكاد أن يدهم وليدها فعلت هى إذ استشعرت الخطر على حركتها من فتنة مروان التى ألبسها براءة المظهر وسلامة الطوية . فسرعان ما أرسلت إلى الرجل الخبيث تقول :

« ويحك ! . . أتريد أن تفرق أمرنا ؟ . . »
ثم أصدرت أمرها :
« فليصل ابن أختي . »
بهذا استطاعت أن تجتاز الأزمة العارضة وتسكن الفتنة التي كاد يوقظها مروان . وسعها أن تحسم خلاف الشيخين على السيادة ثم تقف برأيها حائلا بين أعوانها وبين الافتتان بتهدئه نفوسهم المتحفزة للتناحر . . . ولكن رأيها في الواقع لم يكن حكمة كله ولا دواء ناجعاً للداء . ولو قد أتيح لها النصر لتحقق قول معاذ . كذلك هي جنحت به عن موقف الحياد السليم بين صاحبيها المتنافسين حتى أوشك الناس أن يعلموا إلى أين تميل وأي الرجلين تختصه بالتقديم على صاحبه وتخصه حتما بالاجتباء لمقعد الحكم لوخلى بينها فيما بعد وبين الاختيار . أو ليس عبد الله هو ابن الزبير من أختها أسماء ؟ . إن حفيد أبي بكر قد بدأ الآن أولى خطواته نحو تحقيق الآمال الضخمة التي تملأ قلبه . مهدت له خالته صاحبة الهودج سبيل الطموح فأخذ يسير قدما فيه ، ولن يتأخر كثيراً ذلك اليوم الذي سنراه فيه قابض على ناصية الأمور ببلاد الإسلام بيد حديدية ، يناجز دولة الأمويين ويقض مضاجع ولاتها ثم يشيع الهزيمة المرة في صفوف جندها حتي ليوشك أن يهدم بنيانها كله في بضعة أعوام .

كانت عائشة برأيها ذاك أن تقدم لأنصار الجمل عنوانا واضحا على موقفها القابل من الصاحبين . وهل كان يغيب عنهم المعنى الذي يضمره اختيار عبد الله للصلاة ؟ . . لئن كان الولد جديرا بالزعامة السياسية فأبوه منه أجدر . ولأولى بالزبير أن يتسلمها منه ثم يفوز أيضا بالزعامة السياسية بعد حين قريب .

هذه الخواطر كانت خليقة بأن تجول بأذهان الناس إذ ذاك ، وتتأرجح بهم بين الرجاء والخوف حسبما كانت مشاعرهم وكان اتجاهها نحو الشيخين . ولم تكن كلها رجماً بالغيب ، ولا أوهاما جسمتها أخيلتهم السباقة إلى اكتناه الخواتيم . فهاهي المقدمات أمامهم جلية ، تنبيء عما سيسفر عنه حجاب المستقبل ، وتومىء إلى أميرهم المنتظر كأنه قد تسنم عرشه ودان له شعبه بالولاء . . . فالزبير الذي ظفر ابنه بالإمامة قد صارت له هو أيضا إمرة الجنود كأنما الأقدار تحرص على تجميع

كل مظاهر السلطان وأدواته فى يديه . . انعقد له لواء الجيش السائر إلى الظفر المرجو فمن ذا يا ترى يقوى على سلبه ثمرة النصر حين يأتى قطافها وقد اجتمعت له قوة الجند والسلاح ؟ . هل يجرؤ أحد حينئذ على مجاهرته بالعداء ؟ . . لعل طلحة غدا يرى من الحكمة أن يؤثر طريق السلامة فيهادن رفيق اليوم ، ويتبع ركاب جبروته مشيراً أو وزيرا أو فى أيما ثوب يختاره له الأمير المرقوب ! .

من يدرى ؟ . لعله سيؤثر هذا لو جرت على سننها البادى مراكب الأحداث . وقد جنح منذ البدء إلى المهادنة فاستجاب لأمر عائشة ، وارتضى فى الزبير إماما يصلى خلفه ويأتم به . قنع من كل أطماعه العريضة بدور الشريك المغلوب على نصيبه ، يملك دون أن يكون له حق التصرف فيما يملك . . حتى مظهر هذه الشركة بدوا كأن قد أرادوا أن يسلبوه إياه . فكان الناس يتجهون للزبير بتحية الإمارة ويدعونه « أيها الأمير » ! . أم ترى هذه دلالة على إمرته الجند فحسب ؟ على أى حال لقد كان اللقب يقترن باسمه هو أيضاً فى قليل من الأحيان كلما طاب لبعض أعوانه أن يشعروا أنفسهم أنهم وأعوان رفيقه بمنزلة سواء ! .

ويبدو أن عائشة أحست أنها تحيفت أكثر مما ينبغى لها على حق مرشحها القديم للخلافة ، لأننا لا نلبث أن نرى مشهداً آخر فى التاريخ تتجاب أسجافه عن أمير للصلاة سوى عبد الله ... فقد أنبأتنا بعض روايات الرواة أنها قدمت أيضاً عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ليصلى بالناس . فلعلها أرادت بهذا أن ترد على طلحة بعض اعتباره ، وتوحى إليه أنها ما اختارت ابن الزبير وهى ترمى إلى أمر . ولعل عبد الرحمن وعبد الله كانا يتناوبان بالإمامة فى فترات حسبما سمحت بهذا السوانح ، أو اجتزأ أحدهما بفريق واجتزأ الآخر بفريق من أولئك الأتباع الكثيرين . ومع ذلك فما لهذا كله من دلالة سوى تناحر الفريقين على السيادة ، وجريهما أبدا وراء موكبها الفاخر ! . . ولقد كانت السمة البارزة لهذه الحقبة من الزمان الافتتان ببلوغ السلطان حتى أوشكت الخلافة أن تكون صيداً يطمع فيه كل من استشعر فى نفسه قدرة على هز رمح ، أو اجتلاب أعوان ، أو انتحال قصة قد ترفع من قدره فى أعين الناس . دع عنك طلحة فغرامه بها قديم مشهور .

ودع الزبير الذى استهواه صاحبه فأوشك أن يكون فارسها المجلى كما رأيناه . ثم انحرف أيضاً عن عاهل الشام فله وحده حساب وكتاب ! . . . ومل بنا إلى نفر من ركب الفتنة نجد أشخاصاً قد استذلتهم شهوة الحكم أيما استذلال أو استطاع حب السيادة أن يدنى منهم العروش المؤثلة ولو فى يقظة الخيال ! . . فلعلنا لا نحرم ابنى عثمان : الوليد وأباناً ، من لذة الحكم بعد أن علما حديث سعيد بن العاص ! . ومن يدرى ، فقد تجرى لهم ريحهما رخاء . . . وهذا أيضاً مروان بن الحكم كيف لا يأمل أن يجتمع له إمرة الإسلام والمسلمين ذات يوم قريب وهو الذى نفخ فى نيران هذه الفتنة لتفىء عليه المغنم المطلوب ؟ . . لقد كان الرجل هو الخليفة الفعلى ردحاً من عهد عثمان ، بغيره لا تبرم الأمور ولا تساس البلاد ، فهلا يكون حقاً له الآن أن يستأنف سيادته ، بمظهرها وجوهرها كليهما ، حين تنضج ثمار تدبيره ؟ . . إنه لم يتخل قط عن مطمحه حتى بعد أن ذهبت ريح فتنته وفشل تدبيره مع خصوم الإمام . وعندما خانته الأيام ، وسبقه ابن أبى سفيان إلى السطوة بقى وفياً لحلمه يغذوه ويرعاه وهو مستيقن أنه التالى بعده على عرش الأمويين . فلما أن أكره معاوية الناس على البيعة لابنه المفسود يزيد ، كاد مروان يثيرها حرباً شعواء على سيد بيته لولا أن توسل إليه هذا بالمداهنة والدهاء . . كذلك نجد عبد الله بن الزبير بين هذا الفريق المفتون بالسيادة وإن حدثت سنه . ولكنه لم يعدم اتساع أفق الآمال ولا انبساط الخيال . والأمل والخيال الوثاب حليفا الشاب وها هو اليوم قد استعان بعدته منهما فطلع على الناس بقصة عجيبة ، زعم فيها أنه الخليفة الشرعى لعثمان عن وصية منه قبيل مصرعه يوم الدار ! فهو إذن أولى بالأمرة من سواه وأجدر وإن كان الساعى إليها أباه .

كانوا بالركب عصبة أربها معا استلاب خلافة ابن أبى طالب ، وأرب كل فرد منها وحده احتجازها لنفسه دون غيره . . . فأعجب به من هدف جمعهم وفرقهم فى آن ! . . وما أشبها كتيبة تتنازع الأسلاب ولما تبدأ المعركة . ولكنهم حازوا بأخيلتهم النصر ، وأغفلوا حكم الواقع الذى لن يلبث حتى يرفع عن عيونهم غشاوتها . ثم لا يكادون يتبينون مواقفهم حتى يتبدد حلمهم ، ويرقدا كثرهم صرعى على ثرى البصرة . . .

٧

توالت الرقاع على الإمام تحمل له أنباء الفتنة ، والخطة التي رسم القوم العصاة لأنفسهم كي يناوئوه . وما زالت الرسل مقبلة عليه بالأخبار ، محصية حركات حزب عائشة بين يوم ويوم ، من مكة أولا ، ثم من الطريق التي سلكوها وهم يقصدون البصرة بعد أن عقدوا العزم على السير فى عصيانهم إلى مداه . ولعل أكثر هذه الكتب وقعا فى نفسه كان كتاب أم سلمة . إن هذه السيدة الفضلى بقيت على ولائها له لم يبدلها الزمن ، ولم تقطع وفاة فاطمة ما كان موصولا بينه وبينها من إكبار وعطف متبادلين منذ دخولها منازل رسول الله . . . فلما عادت من البلدة الحرام بعد أن أعياها رد عائشة عما أبرمته ، سارعت تلقى الإمام فتحدثه وفى عينيها دموع :

« يا أمير المؤمنين . . . لولا أن أعصى الله عز وجل ، وأنك لا تقبله منى لخرجت معك ... فهذا ابنى عمر ، وإنه والله لأعز على من نفسى ، يخرج معك فيشهد مشاهدك . فاستوص به خيرا يا أمير المؤمنين ... »

فهى وما ملكت ! .. نضحت عنه بمنطقها ، ثم بهذه البضعة الحية منها تذود عنه . . . وكانت بهذا صورة ناطقة للوفاء ، وللفناء فى سبيل ما تؤمن به . . . وإنك لترى أشباها منها كثيرين زخرت بهم هذه الحقبة التى غلبت الأهواء فيها على نبالة النفوس . ولكن الحق أبدا لا يعدم النصير .

ونهض على لشأنه . للواجب الذى ألقته الأقدار على عاتقه ، فإذا هو أشق واجب وأكرهه لقلب سليم ، إن صبر وسالم أكاوه ، وإن قام يقابلهم عدة بعدة وسلاحاً بسلاح لم يأمن أن تتفرق الأمة شيعاً بينهم وبينه ، يضرب بعضها بعضاً ، وتأتى على عنفوانها أداة الحرب ... وها هو الخبر اليقين يأتيه من قثم بن عباس ، وكان قد بعثه إلى مكة يستنبىء له سير الأحداث ، بأن المتآمرين قد اختاروا الطريق الوعر ، لم يقعدهم عنه حلمه ولا تريثه بهم عسى أن يجنحوا إلى الهداية . . أرادوها فتنة وأضرموها ، وانطلق اللاهب فى آثارهم صوب البصرة .

فكم غمه ما بلغه ، وأثقل قلبه ، وألقى ستراً من الظلمة أمام عينيه ! . . لو كانت له أزمة النفوس البشرية لمال بهم عن الغى . ولو كانت بلاغته مغنية فى هذا الموطن لأوسعهم النصح حتى لايبرح المنبر ! . ولكن المحنة أينعت وأوشكت أن تثمر أشلاء ! . وها هى رائحة الحرب تملأ الجو وتزكم الأنوف ، فما بقى غير حديث واحد يصغون إليه : حديث السيوف للسيوف ! . .

ومع ذلك فثمة أمل لا يزال يبرق فى خاطره ويكاد يلهمه الطمأنينة . ولعل القدر يسعفه بتحقيقه فتعلو كلمة العقل الراشد على صخب الهوى الغرير ! . إن البصرة تدين لسلطان عامله فهى أميل إلى الولاء له ، ومسيرهم إليها كفيل بأن يحد من غلوائهم عندما يرون أهلها لا يسارعون بالانحياز إلى فتنتهم . فإذا بان للخواطر أن غالبية سكانها ليست من أصل عربى أوشك استمساكها بدولة الإمام أن يكون حقيقة واقعة بعد أن عرفوه رجلا جعل المساواة التامة بين العناصر جميعها عماد سياسته . هذا ما قر فى ذهن على وزوده بالأمل حينما علم أن العصاة لم يقصدوا الكوفة مباءة العرب الذين تسودهم شريعة العصبيات . . وبه تحدث مظهرا ارتياحه فقال لابن عباس :

« لأن يأتوا البصرة لأحب إلى من أن يأتوا الكوفة » .

« وكيف يا أمير المؤمنين ؟ » .

« إن الكوفة فيها رجال العرب وبيوتاتهم ؟ » .

فلعل ابن عباس حسب أن رجالات العرب بالكوفة أقدر على الوقوف فى وجه الفتنة وأحرص على كبحها من سواهم لو سار جيشها إليهم ، أو رأى فى افتتان زعمائهم بالسيادة وتناحرهم الرتقب فيما بينهم عليها ما يفسد اتحادهم فى عداء الإمام ، فقال :

« إن الذى يسرك من ذلك ليسوءنى يا أمير المؤمنين . . الكوفة فسطاط فيه أعلام العرب ، ولا يحملهم عدة القوم ، ولا يزال فيهم من يسمو إلى أمر لا يناله ، فإذا كان كذلك شغب على الذى قد نال فيفسد بعضهم على بعض » .

وكان رأى قيس بن سعد بن عبادة جامعاً لما أجمله صاحباه ، وكاشفاً عما ينطوى عليه قلبه نحو أصحاب الفتنة وهو يقول :

« . . والله ماغمنا بهذين الرجلين كغمنا بعائشة ، لأنهما عندنا حلالا الدم لنكثهما بعد البيعة ، ولأنها من علمت مقامها فى الإسلام ، ومكانها من رسول الله ، وفضلها ، ودينها ، وأمومتها منا ومنك . . »

وهز رأسه أسفاً ، ثم أردف يشير بما يراه :

« يا أمير المؤمنين . . إنهما يقدمان البصرة وليس كل أهلها لهما ، وتقدم الكوفة وكل أهلها لك ، وتسير بحقك إلى باطلهم . . لقد كنا نخاف أن يسيرا إلى الشام فيقال صاحبا رسول الله وأم المؤمنين فيشتد البلاء وتعظم الفتنة . . فأما إذ أتيا البصرة وقد سبقت إليها طاعتك ، وسبقوا إلى بيعتك ، وحكم عليها عاملك — فسر فإن الله معك »

وأى وجهة انتهى إليها عزمهم فقد بقى على كعهده جانحاً إلى السلام ، يود لو استجاب خصومه له بالحسنى فجنبوا الأمة شر الانقسام والفرقة . لقد كان المسير إلى الكوفة رأياً صواباً كله قد يحمل عربها على الالتفاف حوله قبل أن تستهويهم مظاهر المروءة التى لبستها الدعوة العائشية ، وقبل أن يفتنهم التشيع للعصبية العربية ، التى يكلفون بها غاية الكلف لاستعلائهم بجنسهم على بقية الأجناس ، والتى لا ريب كانت حرية بأن تميل بهم إلى جوار طلحة والزبير وأضرابهما من رجال العصيان إذ كانوا المعبرين عن خواطر السواد من قريش المفتونة بخلاف الهاشميين . وكانت أيضاً موقعاً وسطا بين الحجاز والشام ، يستطاع منه صد الفتنة لو غالت البصرة وانطلقت إلى الشمال لتتصل بمعاوية ورجاله ، أو شاء ابن أبى سفيان أن يمدها بعونه لتنتزع بقية البلاد الإسلامية من يد الإمام . . ومع ذلك فلم يتخل على قط عن أمله فى معالجة الأمر بالهوادة ، لعل الله أن يصلح النفوس فتفىء إلى السلم . لم يقعده عن غايته تلك حماسة أصحابه ، ولا إيمانهم بحقه وجور مناجزيه عليه . وإنك لتسمع منهم آيات من الوفاء كانت حقيقة بأن تبطر غيره فى مثل هذا الوطن ، وتنحرف به عن هدفه السلمى إلى سل الحسام وهز القناة تعجيلا لنصر مسلح . . وإنك لترى أضراباً من أبى قتادة كثيرين ، يحملهم إليه الولاء وتدعوهم الرغبة الخالصة فى الفناء من أجله ، يهيبون به أن يدفعهم إلى

القتال ، وأن يرمى بهم فى غمرة الوغى كيف شاء ، فإذا به هادىء ساكن ، لا يفتنه كل هذا الوفاء عما عزم عليه من الإعذار قبل تسديد ضربته ، ومن تقديم الهوادة والنصح على التحدث إلى أخصامه بمنطق الحرب .

يقول له أبو قتادة وقد استغرقه حماسه وفاضت به حميته ؛ وهو يهز فى يده حساماً مغموداً :

« يا أمير المؤمنين .. إن رسول الله قلدنى هذا السيف ، فشمته فطال شيمه . وقد أنى تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة غشا ! . . فإن أحببت أن تقدمنى . . . » .

فلا يكون لهذا القول ولأمثاله بضعة من أثر تحوله عما اعتزم عليه . . . إن الحرب التى تنتظره ليست حربا تتهاوى فى حقلها الرءوس وتتمزق الأجسام . . ليست صراعا صاخباً بين الرماح والأسنة . . . ليست كفاحا يقاس فيه النصر بمقدار الأرض التى يحتلها فريق وتنحسر عنها جيـــوش الآخر ؛ بل هى فتنة هوجاء ويل فيها للغالب والمغلوب ، الأمة كلها حقلها وساحتها وحين تحيق الهزيمة بإحدى الطائفتين فستلقى فى قلوب أفرادها بذور حقد تنمو على الزمن دوحا شامخا يظل أبداً ظامئاً للدم ! . . أما النصر فلن يكون فى يد الأخرى غير ثمرة فاسدة مريرة المذاق . . . ولكن الإمام يعزف عن نصر مسلح يجر فى أعقابه حقداً يرسخ بأفئدة غريمه ولا يزول أو يزول الدهر الداهر . إنما غايته أن ينتصر على النفوس الضالة والقلوب التى ضرب الهوى عليها أكنة . آثر أن يسمو بالعواطف الإنسانية إلى ذروتها الطاهرة فتستجيب للنبل والحق المطلق . ويوم يستطيع التغلب بسلاح رفقه على عدوه فستذوى الدوحه الخبيثة فى منبتها قبل أن تبدو لها ساق ، وتمحى كلة الثأر من سجل العلاقات بين أبناء أمته . . وإنه إذن ليوم النصر المرجى الذى تعقبه وحدة وثيقة تؤلف قومه ، ويرفرف فيه على الرءوس لواء واحد ، ويسجل القدر فى لوحه مجداً للاسلام ليس بعده مجد .

هذا هو الأمل الذى جاش بصدره فعمل جاهداً على تحقيقه ، وبه استهدى وهو يسرع إلى طريق نجد بتلك النواة لجيشه الذى كان قد بدأ يعده لغزو الشام

ولما يتم اكتماله . وكانت خطته أن يسبق أصحاب الجمل ببعض الطريق ثم يردهم بالحسنى عن البصرة قبل أن يبلغوها ويفتنوا الناس . ولم تكن له فسحة من الوقت ليتأهب بما يكفيه من عتاد ورجال تحوطا لما عسى أن يسفر عنه عدوه من لجاج قد يثير حرباً لا تتعادل فيها القوتان . ومع ذلك فإنه لم يتردد كأنما كان موقناً بنصره السلمي عند اللقاء ، وخرج بفئته القليلة دون أن يتعبأ تعبئة حرب تامة ، بلا كفاية من زاد ولا سلاح ، متخففين ما وسعهم كأنهم يسيرون إلى مرتاد نزهة ! . . .

ولقيهم بالطريق عبد الله بن سلام . . . الصحابي الجليل كشفت له نفسه الصافية عن أمر فسارع يرد القوم عن مهوى القضاء المنتظر . وإنه ليندفع إلى الإمام وليأخذ بعنان دابته فيلويه كأنما أراد أن يدفعها عن السير . وكانت الدموع تلتمع في عينيه ، وكيانه كله يهتز بما انطوى عليه صدره من مشاعر كما تهز الزلزلة الأرض . . ثم هتف وصوته المهتاج تفيض منه نبرة التوسل :

« لا تخرج ! . . لا تخرج منها يا أمير المؤمنين ... فو الله لئن خرجت منها . . لا ترجع إليها ، ولا يعود إليها سلطان المسلمين . . أبداً . . »

فبادرت إلى الشيخ طائفة تصده . وزجرته طائفة . . . وهمت به أخرى تؤذيه بالقول الخشن وتكاد أن تنال منه . . . فإذا علي يصيح بالجمع :

« دعوه فنعم الرجل ! . . . »

أفلسنا نرى الصدق في كلمات هذا الصاحب الكريم ؟ . . لا ريب . فذاك رأي للإمام قديم . وإن قلبه لما زال يردد — حتى في هذه اللحظة التي يستهدي فيها بأمله — نفس هذه الطيرة التي رددها إمامه عبد الله . . إنه منذ قليل طالع صحبه بذات الرأي وهم يوشكون أن يبرحوا المدينة . . . ألم يقل لهم حينذاك :

« . . . إن في سلطان الله عصمة لأمركم ، فأعطوه طاعتكم غير ملومة ولا مستكره بها . . والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام ثم لا ينقله إليكم أبداً . . . »

ومن له الآن بمن يضمن اعتصامهم بأمر الله في هذا الزمن الذي حكمته الأهواء ؟ . . .

.. ثم سرى رجال الكتيبة والليل ، يشتدون فى مشيهم قدما . . . وكان يسير على رأسهم وشعوره يعصف به ، ومع ذلك فقد دفع عنه يأسه وراح يضرب مع القوم . . . وإنهم ليتوثبون لغايتهم أيما توثب ، ويسرعون الخطا حتى ليكاد يحملهم من نشاطهم جناح : أفكانوا والقدر أفراس رهان فجهدوا ليغلبوه فى ساحة الزمن ويسبقوا تصريفه المغيب ؟ . لقد تزودوا بالرجاء فى رحلتهم النبيلة فلم يأبهوا فيها بمشقة . وسلوا عزمهم مرهفا كما تسل السيوف البواتر . ومضوا مبادرين نحو ما أرادوه . . . ولكن القدر سبقهم ، وبسط الصحراء الفسيحة أمامهم كسجل مفتوح ، أقدامهم عليها أقلامه التى راحت تخط دراكا سطور المأساة القريبة كلما تقدمت بهم على أنقاء الرمال ! . . .

٨

كانت ليلة من ليالى الخريف ، وسنانة الريح ، شف جوها دفء رقيق لعله بقية الصيف الراحل . . . ساجية كحلم هانىء ، نديه كنسمة البحر ، قد أشاع فيها السحر المطلول أنفاساً ريانة حملت لها بشائر الشتاء . وكانت صافية الأفق كصقال مرآة ، برامق نجمها الساهر الرمل بلمحه فيتألق كذهب سيال ... نقية السما لايشوبها ظل . الصحراء الفضاء تحت صفوها بدت كلوحة الذهن الذاكر ، تلاقى عليها ضياء السماء بلألاء الأرض كالتقاء الماضى الغابر بالحاضر الغض فى خيال مدكر !

الكتيبة الآن تدرج على هدى النجم ، يتراءى رجالها فى خفقات ضوئه كأشباح . لاتكاد السرعة البالغة تتيح لأقدامهم لمس الأرض ... إنهم يتحدرون بين الرمال ولهم مثل صوت اللجة فى بحر متلاطم ، وينتقلون كأنهم كثيب دفعته أمامها الريح حين إعصار . كلهم انطوى على الرجا . وإن أحس يد الرهبة تطرق باب قلبه ، فليس ثمة سوى فراغ وفراغ . وأينما وجهوا العيون طالعتهم الرمال الجديبة ، صامتة خرساء لاتكشف لهم عن سر القـــوم الذين ركبوا المشقة ليدركوهم . . لا أثر هنا لجيش ، ولا لمدلج بليل . . وحتى مواقع الأقدام التى

لعلها قطعت قبلهم هذا المجاز لم يحفظها الرمل بل انطوت فى خضمه ، ولم يبق لهم سوى أمامهم يتأرجح بخيط .

ولكنهم مضوا يغالبون الصحراء ، ويقتطعون الشقة بعد الشقة من رقعتها المبسوطة لعلها تشرف بهم على الغاية الموجودة فى نهاية الطواف . . . انطلقوا على أديمها المياد صامتين إلا دبيبا مكتوما ينجاب عن وطء الأرجل ، وأنفاساً لاهثة ترددها الصدور ويبددها حفيف النسيم أما المشاعر فلها فى القلوب اصطفاق تدافع وتتراجع ، وقد أثارها السكون الذى لف السكون . فما أكثر ما يهيج الهدوء ذكريات النفس فتنبعث خواطرها الدفينــــة فوارة كماء الينبوع ! . وما أسرع ما يلهم الصفاء التأمل ! .

كان ينطلق فى طليعة الكتيبة ، خفيفا مبادرا ينتهب الأرض . ولكنه لم تغمره ضوضاء جيشه ولا ضجيجه . . فى حساب إحساسه كان نائيا عن رجاله بواد سحيق بعيداً عن دنيا الناس ، وقد احتجزته لنفسها الذكرى واحتواه التأمل إنه فى ركاب قافلة الفكر ! . . ولئن ضربت به راحلته مهاد الأرض فليس لوقع أرجلها صوت . . . ولا كل هذه الجلبة المنبعثة من سير جنوده تطرق سمعه. وحين التقت عينه بصفحة هذا المكان السابح فى ضوء النجم ، انبثق أمامه الماضى كانبثاق ألوان الطيف عن وجه النعيم فى يوم ماطر ! . . فها هو الفضاء الرحب يزخر بمشاهد من حياته قديمة . وها هى الصحراء قد انقلبت نخلة تحل تهز بأصوات عادت له من الغابر الغائر فى أعماق ذاكرته كأنها نبت اللحظة الوليدة . . . التقى أمسه على صفحة ذهنه بيومه ، وذابت حدود الزمن وأحيازه فلا سلطان له على الذكريات . وازدحم حوله السكون بالأصداء والصور ، وكلها جلى غض . . وإنه ليتبين منها صورة قريبة إلى قلبه ، فيها صاحب جليل له وللرسول راح يدرج على بساط الرمال وقد براه الهزال وآده ضعفه ، وفيها صدى من الماضى يهتف رءوفا حانيا وراءه : « يمشى وحده . . » . . . ثم تبدو له أخرى تهز مشاعره وتجعل نفسه تسيل من الأسى والتفجع . انطبع عليها ذلك الهزيل الضعيف وهو مسجى ساكن الجوارح على جلد شاة وقد نزفت من أوصاله الحياة . . . فلا يلبث الصدى الرحيم أن يهمس : يموت وحده . . . »

وقد مشى الصاحب وحده ، ومات وحده مصداقا لحكمة الغيب التى أنطق الله بها لسان رسوله وأعادتها الذكرى ثانية صدى فى أسماع الإمام . وذهب مثلا خالداً فى الأعصر لإنكار الذات والفناء فى سبيل غاية نبيلة ، ولم يبق الزمن منه إلا لمحة فى الخواطر المستعيدة ...

ويهتف الدليل الذى أم الفرقة فى مسراها ، بصوت يشق السكون :
« الربذة . . »

الربذة المنفى الذى انتجعه أبو ذر حين ضاق به عثمان فسيره نآيا به عن أصحاب الثروات ؟ . المثوى الذى ضم رفاته فطهر به ؟ .. روى الله ثرى الشهيد المرهوب ! وأصدق بمحمد إذ قرأ له مصيره هذا وهو بعد فى لوح الغيب : « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض . . » وها هى الفلاة .. ها هنا فى ثراها انطوى الشيخ الذى قهر الدنيا لأنها نادته فأدبر ، وراودته فاستعصم منها بإيمانه بالجوهر دون المظهر . . عليها كان محياه ، وفيها رقد جثمانه ، ومنها مجازه من زيف الحياة الرخيصة إلى العيش الآبد فى عالم ليس يكدره سلطان الناس . . .

وألقاها على نظرة عجلى على وادى الرمل تروده إلى ناحية فيها اطلال وفيها آثار . . فاذا عينه تلتمع بدمعة ، وإذا قلبه تملؤه رهبة ، وإذا كيانه كله يحتوى الخشوع وهو يكاد أن يسمع من جانب المثوى الساكن ذات الكلمات النقية التي رددها صاحبه الثاوى منذ أعوام :

« رحمكم الله أهل البيت . إذا رأيتك يا أبا الحسن وولديك ذكرت بكم رسول الله . . »

أما الآن فقد مضى محمد ، ومضى أبو ذر ، ومضى فى أعقابهما كثيرون ستظل أحيازهم فى الدنيا فارغة لا يستطيع أن يملأها إنسان .. فكأنما الخير ولى بعدهم على الأثر ، وفارق حتى هذه النفوس التى كان يرتجى منها الخير . فللدنيا اليوم سطوة على الخلق تفتنهم بزخرفها وان انطوى على ضلالة . وتسير بهم كيف تشاء فيتبعونها كأنهم ظلال . . .

وما عتم أن التوى عن الذكرى ذهنه ، وخلف قافلة الفكر ليتابع موكب الحاضر . . . فإن هى إلا لحظة حتى انفرج الأفق الأشهب عن راكب يطير نحوه مع خيوط الفجر . أهذا بعض طلائعه التى بعثها ترود السبل قد جاءه بنبأ عن القوم ؟ . . .

وهدأ سير الركب . وتعلقت أنظار من فيه بالفارس الذى أطلعته جوانب الظلمة الرقيقة . إن عليه لوعثاء مرتحل نشر من البوادى وطوى مراحل صبغت أردانه . وهذه أذياله انبسطت على جانبيه كالجناحين . وفى وجهه وجمة محاذر ، وعلى آثاره انطلقت كتائب القلق تهم أن تغزو القلوب التى لعبت بها أكف التوجس . . . وعندما طالعهم كان أملهم لا يزال معلقاً بخيطه ، ولكنه إذ قاربهم زحف إلى صدورهم خوف غامض هو طليعة ذلك القضاء المرهوب الذى يوشك أن تنفرج عنه شفتاه . . . أفآن يا ترى لهذا الأمل أن يذوى عوده ثم تسقط ثمرته فتضيع بين رمال هذه التاهة كما تغيض قطرة الماء ؟ . . .

على لمح النجم تبينوه وهو يسعى مبادراً إلى مكان الإمام . وحين ترجل كانت أنفاسهم تلاحقه . فلما أن فتح بالحديث فاه سكنت تلك الأنفاس . . تعلقت بالهواء الذى حفهم لا تذهب ولا تروح . . . وأرهفوا حواسهم كلها فنى جوارحهم كلها آذان . . .

وهتف عطاء بن رئاب وفى كلامه مثل رنة النذير :

« لقد أمعنوا يا أمير المؤمنين . . . » .

فما أسرع ما حملت لهم هذه اللحظة كل ماصادفهم من المشاق فى الطريق الذى قطعوه واستشعرت أوصالهم إعياء كان يخفيه عنها شعورهم السالف بقرب النجاح . أما وقد غاض أملهم فإن نشاطهم ذاب فى دفعة واحدة . . رسب إلى القاع وطفت فوقه المتاعب التى كانوا ينفضونها عن كواهلهم من بدء الرحلة . إنك لتنسى أوصابك ولا تحس بها وأنت تستبق الأخطار إلى هدفك المنشود ، حتى إذا كبوت دونه وانقطع بينه وبينك الطريق حضرك من آلامك ماكان هونه أملك . . فالأمل دائما خفيف مفراح ، وعلى النفس اليائسة من قنوطها مثل أوثاق الصخر ؛

ومع ذلك فليس الشعور الذى امتلك الكتيبة الصغيرة كان من خشية عدوها السباق ، ولا إشفاقاً من لقاء الأسنة التى أعدتها لها جيوشه . . . بل هو وليد الأسف على مصير الأمة التى حلقت فى جوها هامة الحرب تنادى بظمأها للدماء !
إن أصابع القدر لتكاد كلها تشير إلى صراع دموى عنيف ينتظر قوى الإسلام فيفرق بين الإقليم والإقليم ، وبين البلدة والبلدة ، وبين المرء وأخيه ، وما لعلى الآن يد بإدراك العصاة قبل أن يشعلوا نار هذا الخلاف الرهيب ، وليس له سلطان على عقولهم يهديها كما يرجو إلى مسالك السلام . . .

أمعنوا ؟ . . . مضوا إذن لطيتهم ضاربين فى الطريق إلى وجهتهم وعما قليل يشارفون أسوار البصرة ثم يدقونها للدخول أفيستجيب لهم أهلها ويلحقون بركب الفتنة أم يصدونهم عما جاءوا فيه ؟ . . لا معدى عن التحام الأسلحة فى الحالين ، وعن ضرب الهام وتمزيق الأجسام ، وإذا تكلم السيف ساعة تحدثت بعده العداوات ، وضربت معاول الفرقة فى بنيان الوحدة الإسلامية ، فلن يستكين لهم عامل على هناك : عثمان بن حنيف ، على الأقل لن يدعهم يبتزون منه سلطان مولاه وهو ساكن ينظر دون أن يهز رمحا أو يحاول رفع حيفهم ولو بإشارة بنان ، وحينئذ لا محيص عن اقتتال الفريقين : أحدهما يضرب ليفوز ، والآخر يدفع ليذود عن كيانه وعن الولاء المفروض عليه حيال صاحب الأمر الشرعى فى البلاد .

وخفض أمير المؤمنين رأسه وهو يطوى على الرثاء جنبيه . . . ما لهذا القدر الذى سبق بالتدبير فأبرم ما شاء ! . . على أنه مع ذلك لم ينفض يديه من رجائه فثمة بقية فيه لعلها تترعرع إن ظل بالنفوس الضالة فضل إدراك . . ومن يدرى ما عسى أن يسفر عنه الغد ؟ . . أما اليوم فواجبه أن يضن على الإعياء بقوى الرجال . لزام عليه التأهب للصراع المنتظر إن طالعته الظروف بالصراع . وهل كان يفوته وجوب الحيطة وأخذ حذره لكل احتمال ودون بلوغه البصرة مراحل تأكل جهد الجيوش المعبأة للحرب بخير عتاد وخير زاد دع عنك كتيبته الصغيرة هذه التى خرجت وليس فى حسبانها خوض غمرة القتال ؟ . .

على هذا حزم أمره فآثر المكث بالربذة حتى يأتيه المدد من الجند والسلاح والمؤونة ، ثم يزحف بأداة قتال مكتملة التعبئة إلى مواقع عدوه . . ذلك أدنى إلى إرهاب العصاة ، وأدعى أن يفيئوا إلى السلم المنشود أو يقمعوا صرعى إن ركبوا طيشهم وقاتلوه . . . وكما ترك لقثم بن عباس أن يشرف على التعبئة بالحجاز فكذلك بعث برسله إلى بقية الأمصار الموالية يستمدها العون ، ويدعو الناس فيها أن ينفروا إليه غير مكرهين . . . كتب لأهل الكوفة يقول :

« أما بعد . . فإنى خرجت من حيي هذا إما ظالما وإما مظلوما ، وإما باغيا وإما مبغياً عليه . وإنى أذكر الله من بلغه كتابى هذا لما نفر إلى . فإن كنت محسناً أعانني ، وإن كنت مسيئاً استعتبني . . . » .

وإذا عزم على البقاء حط رجاله الرحال . وغار النجم تلك الليلة والربذة تعج بالقلوب التى عمرها الولاء للرجل الذى ائتلف على هضمه الزمن والنفوس . ولكنه كان راسخ الإيمان بحقه ، عظيم الثقة فى أنه يسير على النهج الواضح المستقيم . وهل عمل قط لدنياه أو انقاد لزخارف الأباطيل التى طالما استهوت من الناس أشدهم أخذا بأسلوب التوقى من إغراء الحياة ؟ . . . إن تحت الثرى قلباً يعلم هذا فيه — وعيه عنه منذ أعوام ، ويود لو هتف به الآن على الملأ الحاشد لو كان لجانب قبره لسان ! . . ها هنا ذاك القلب ، فى هذا الركام الذى لعبت به أيدى الريح وسفت عليه رمال الصحراء ! . . . ولو قد تستطيع أعظم الثاوى أن تتجمع ثم تلتئم بشرا قادرا كما كان أبو ذر لهبت من رقدة العدم تنضح عن الإمام وتسير فى ركابه أينما سار . فما علم هذا الصاحب الذاهب امرءاً يستمسك بالحق كمثل على ويحتذيه ، ولا أحداً أكلف منه بالتزام الجادة السواء . . . لا أحد مطلقاً بعد رسول الله ... سواه ... وليس أصدق صورة لنفس ابن أبى طالب من تلك التى رسمتها كلماته المزجاة للشهيد الراقد بهذه الفلاة يوم شيعه حين أخرجه عثمان . إنها سكة قلب ملهم مستنير فمل بنا إلى قبر الزاهد نسمعها منه أو لعلنا نجد منها على رفاته بقية آثار ! . . .

« يا أبا ذر . . . إنك غضبت لله فارج من غضبت له . إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، فاترك فى أيديهم ما خافوك عليه واهرب منهم بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم وما أغناك عما منعوك ! وستعلم من الرابح غداً والأكثر حسداً . . . يا أبا ذر ، لو أن السموات والأرضين كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا . . . يا أبا ذر ، لا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشك إلا الباطل . فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، ولو قرضت منها لأمنوك ! . »

فهل من كلمة أبلغ دلالة على الأنفس البشرية بلونيها من هذه التى نطق بها الإمام ؟ . . . إنها لترسم لنا صورة من قلبه النقى كيف كلف بالمثل الأعلى حتى رمى دبر ظهره كل فتنة الحياة ، وتصف السادر فى غمرة الدنيا حتى لينسى أن ثمة نهاية لدنياه . ولسوف ينطلق الزمن فى بروجه بالجميع ، وتنطوى صحائف الرجال فلا ينشرها بعد على الأجيال إلا ذكر يرفع صاحبه أو يهوى به إلى قرار . فإذا ذهب العمر وبقى الذكر فستنشر من أمجاد على أسفار وأسفار تجعله فى الموت أقرب إلى حسد عدوه منه فى حياته . ذلك أنه اشترى الحق بهذه الدنيا فراجت سلعته ، ونفقت بضاعته ، وضلوا هم عن سوائه فأقبلوا على تجارة مآلها عند الأحقاب المتعاقبة ثم عند ربهم بعدهم ، خسران وبوار ! . . .

٩

بهت الليل . . . شحب ظلامه كأن يد السحر راحت ترفع أسجافه واحداً بعد واحد عن وجه الكون حتى بقى منها وشاح رقيق شفاف . وأخذت نضرة الضوء تترقرق فى صفحة الأفق ، على طرف الصحراء البعيد ، وتتكسر موجاتها الصغيرة خابية اللون ، خافة إذ تهمس بالبشرى عن النهار الوليد . . . وحين جرى اسم الله على وادى الرمل شاعت فيه صحوة الحياة . فى أركانه رنت دعوة الفجر ، وانطلق داعى السماء يردد نداءه فى الفضاء الرحيب فتخشع له الكائنات ، حتى الحصا والندى ونسمة الريح ... وما أسرع ما استجاب رجال الإمام النداء ،

كأنه الصوت وهم صداه . خفافا قاموا للصلاة نافضين عنهم مشقة المسير واستظمتهم فى عقدها الصفوف . وخفافا ألقوا قلوبهم إلى رب الكون ، متجردة إلا من خفقها الرتيب الوئيد . . .

وسرت على خيط الضوء قافلة تسير ، فى خطوها الرفيق وسن وهى تدرج فوق بساط الرمل كأنها تمشى على ماء . . إبلها المكدودة قد أعياها طول السرى حتى أوشكت أخفاقها أن تلتصق بالأرض ، وبدت لبطئها لا تقبل ولا تريم . وركبها لفهم برد النوم ونأى بهم عن دنيا الوعى . ولكن نداء الفجر شق عنهم الغطاء ، فأيقظ هاجعهم ، وأسرى الحمية فى أوصال البهم فمضت تستبق إلى ذلك الحشد المتهيء لاستقبال بيت الله ، المتولى صوبه بالأفئدة وبالوجوه . . . عندما كان أصحاب الركب على مبعدة حسبوا الحشد قطعة من الليل لم تمسها يد البكور الوضىء ، ولكنه الآن فى مجال عيونهم رجال . . . أصحاب وغى كما يلوحون ، فهذه أدراعهم حولهم غطت جانباً من المكان إذ خلعوها وهم يهمون للصلاة . وتلك أنعامهم على كثب رابضة فى سكون وتهويم . . . ولو انجاب آخر وشاح من الظلمة لتبينهم الركب ، إلا أن غبشة السحر كانت ترد الأنظار .

مالت القافلة الصغيرة إلى النداء . . . وغمرها مع أضواء الفجر غامر الزحام فاندست فيه . . . تلك الطائفة من أهل الكوفة التى خرجت تروم العمرة قد استقبلت بالطريق أفواجا مناط آمالهم رجال الكوفة ، علقوا بقصبة السواد لأم الصدع الذى يوشك أن يصيب الإسلام . . . فهاهنا الإمام ، وهاهنا صحبه الذين مضوا يتبعونه اتباع الظل ثم تريثوا معه حتى يأتيه المدد الذى بعث يستمده — أفتدع القافلة أمير المؤمنين وتمضى لشأنها صوب مكة ؟ . . . أم تلحق به لكفاح أعدائه الذين ركبوا السرعة فجاوزوا بها يده الممدودة للصلح والسلام ؟ . . . أم الخير يا ترى فى الخروج على سلطانه انحيازا إلى الصاحبين وأم المؤمنين ؟ . . . إن طرفا من أنباء الفتنة التى أشعلها حزب الجمل لاريب قد بلغ الركب على ظهور الرواحل التى كانت تجوب الصحراء ، ونتفا منها قد تجمعت فى أخلادهم مرة من هنا ومرة من هناك . ولكنهم لم يستشعروا حقيقة الخطر الذى توشك

الأمة أن تكون هدفه إلا فى هذه اللحظة ، حين رأوا العزمة التى بدت فى عيون هذا الجيش الصغير . . . سينطلق الرجال إذن ، قدما سينقلون ، إلى مكان سوف يخضبه الدم . وهذا القتال الوشيك يهز كيان الأنفس المخلصة للوطن ويزلزل القلوب . إنه يقدها قداً وإن لم تندلع شرارته بعد ، وإن لم يشهر سلاحه ! . . . فللمشاعر عيون . والأفئدة النقية تستطيع أن ترى الأحداث قبل أن تنجاب عنها الغيوب . . .

وغشت الوجوه وجمة مباغتة ، وخالط لونها الأسمر شحوب الحيرة . . . إن الشفاه لتنضم وتنفرج ثم لاينِد عنها كلام ، والعيون تتذبذب قلقة فى محاجرها ، والصدور تضطرب بأنفاسها المحبوسة . وحينما فاءت النفوس إلى أمنها بعض الفىء ، تردد الهمس مخافتاً بين أصحاب الركب :

« . . . إنا لله وإنا إليه راجعون . »

نعم فهذه كلمة من أعيته الحيلة ، وغلب على باله الاضطراب . . وكم من أناس فى العالم الإسلامى إذ ذاك كان شأنهم كشأن رجال هذه القافلة الحيرى بين مسلك فريق عائشة وفريق الإمام ، يتجاذبهم شعورهم آونة إلى أولئك وأخرى إلى هؤلاء ، وقد غم عليهم الحق فما عرفوا أى جانب يحتويه . وما أكثر من ظلوا حيارى مضيعين فى ميـدان هذا الصراع الأهلى ، لا يقطعون برأى حاسم ، بل يظلون يهمسون لأنفسهم ما همس به لنفسه طارق بن شهاب وقد أوفت به قافلته على أصحاب أمير المؤمنين بالربذة ، تلك الساعة الباكرة من ذلك الصباح :

« . . . آتى عليـا فأقاتل معه الرجلين وأم المؤمنين ؟ أم أخالفه وإن هذا لشديد ؟ . . . » .

ولـكنها حيرة تفسر لنا الأمور أجلى تفسير . فهى مرد توانى الـكثيرين من عامة الناس عن نصرة الإمام ، وعن الخروج فى جيشه الناهض لرد العصاة . وهى كذلك نار صهرت القوم فلم يثبت منهم لشدة حرها إلا الخلصاء الذين آمنوا بحق على أثبت الإيمان . فما لحق به إلا عيوف عن الهوى ، زاهد فى العرض ونشب دنياه . وما انضم لركب أخصامه إلا كل سادر فى غيه ، حريص على إشباع

نهم نفسه من مفاتن الحياة . وهذه الظاهرة النفسية لم تغفل عنها قط نظرة الإمام . فطالما رد الكثيرين عن السير معه . وكم من قبائل أتته تعرض عليه أن تحارب تحت لوائه فأبى عليها أن تنتصر له ، وآثر أن تكف وتقعد عنه . . كان يعلم أن ثمة — سوى الإيمان بقضيته — دوافع من الكسب والغنم فى القتال هى التى استقدمتهم له ، فكان يرفض عونهم ويقول :

« ... الزموا قراركم أيها الناس . فى المهاجرين كفاية ! . . »

وهذه دون شك ، من وجهها الآخر ، خطة رجل يؤثر السلام ، ويكاد أن تسبق رغبته فيه وحرصه عليه ما نعلمه من تكالب بناة الدول على توفير كل أسباب القوة حولهم ليؤيدوا بها ملكهم ويدعموه . . . ولكنه كان صاحب رأى قبل أن يكون صاحب سلطان — صاحب مبدأ سام يعنى بنشره وإقامة دعامته فى نفوس الناس عناية الهداة من أصحاب الرسالات . فما فرح قط بما فى يديه ، ولا استهواه زخرف السطوة الذى أفاءته الخلافة وتقطعت دون بلوغه أعناق سواه . إنما كان خير أمته هو شاغله والغاية التى يسعى لها ، والإمرة وسيلته . وكل دفاعه عن الإمامة كان دفاعا عن الأمة التى علمها لن تنال فى ظل غيره ما تناله فى ظلال سلطانه القويم ... دخل عليه ابن عباس ، ذات يوم قابل وهو بذى قار ، وكان جالسا يخصف نعله ، فما استقر حتى رفع على إليه عينه وقال :

« يا ابن عباس . . ماقيمة هذا النعل ؟ . »

« لا قيمة له يا أمير المؤمنين » .

فتبسم يتم الحديث :

« والله لهى أحب إلى من إمرتكم ، إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلا ! »

على أن هذه السماحة وهذا الزهد لم يقعدا به عن التزام جانبا الحزم حين تأزف الأمور . فليس بخوار . ولا رهبة تسكن قلبه من مخلوق . وعندما وجب عليه أن يختار بين الصبر على المهانة ، التى لحقته كحاكم شرعى لما خلع طلحة وأصحابه عنهم الولاء له ، وبين السير لهم حتى البصرة لردهم ولو دعت الحال بقوة السلاح ... حين بدا ألا معدى عن المفاضلة بين العنف والتخاذل ، لم يتوان لحظة واحدة

فى طروق السبيل الذى يوائم رجولته ، ويودى به إلى قضاء الواجب المفروض عليه حيال سلامة الدولة الإسلامية وحفظ وحدتها غير مصدوعة ...

ووقف عقيب أداء فريضة الفجر يهم أن يخطب الجميع مفضيا لهم بما قد رآه . فإذا ابنه الحسن ينهض له ، ويقبل نحوه على تردد واستحياء وإن حنانه وإشفاقه على أبيه ليغليانه حتى أصابه الحسر وذاب فى دموعه الكلام . وتلبث على به هنيهة ، وقطع من الحديث ما كان يتدافع على لسانه منذ لحظات . فلما رأى الفتى ممعنا فى بكائه صاح :

« جئت تحن حنين الجارية ! ... » .

فأغضى الحسن حتى فاءت إليه نفسه الحزينة ، ثم أجاب :

« أمرتك فعصيتنى ، فأنت اليوم تقتل بضيعة ، لا ناصر لك ... » .

فكان بهذه الإشارة منبئا عما طوى عليه نفسه من رأى قديم ... إن خواطر هذا الابن الرقيق الفؤاد لاتشغل من بال الإمام أكثر مما يشغل هذا الجمع الصغير من رقعة الصحراء ، وليست عنده بذات خطر لأنها وليدة عاطفة جياشة حساسة تجسم توافه الأوهام ... إنها رؤى أبدعتها عاطفته ولم ينجبها عقله ، وما بالقلوب تساس عظائم الأمور .

ومع ذلك فقد آثر على أن يدع الحسن وما يراه ، وأن يجلى له فى الكشف للناس عن خاطره المكنون حتى يتبين لهم أين الخطأ وأين الصواب ، ثم يدع الحجة وحدها تأتى بفصل الخطاب ...

قال يستحث الفتى أن يفصح عما أراد :

« حدث القوم بما أمرتنى به ... »

« أمرتك يوم أحيط عثمان أن تخرج من المدينة ، فيقتل ولست بها ، وأمرتك يوم قتل ألا تبسط يدك ببيعة حتى تجول جائلة العرب وتأتيك وفود أهل الأمصار وبيعة كل مصر ... وأمرتك حين سارت هذه المرأة وصنع هؤلاء القوم ماصنعوا أن تلزم دارك حتى يصطلحوا ، فإن كان الفساد على يدى غيرك .. فعصيتنى فى ذلك كله ... »

وهذا حديث معاد مردود ! . . وهل كان على علك أن يدع عثمان محصوراً ثم يكف يده عن الدفاع عنه وتخذيل المتآمرين كلما استطاع ؟ . ألو فعل لأعفاه اعتزاله من عذل أعدائه الذين لم يعوزهم عذله حتى بعد دفعه عن الشيخ المهيض ؟ أم كان ذاك يرفع عنه التبعة أمام التاريخ ؟ . . لقد طالما خرج لماله بينبع حين كانت تعييه الحيل فى إصلاح عثمان والتوفيق بينه وبين الثوار فكان الخليفة إذا تأزمت عليه الأحداث يبعث إليه فيدعوه . فلما جرى القدر بالقضاء فى القتيل فر على من البيعة ، وراح يطاول الناس ويتأبى عليهم لعلهم يختارون للإمرة سواه . ولكن تأبيه لم يغن شيئاً ، ولم ينزع من قلوبهم افتتانهم به فحملوه حملا من داره إلى المسجد فبايعوه . إنه ليرسم صورة حية من حرص الناس عليه يوم البيعة تكاد تنقلنا إلى الجماهير التى أحاطت به حينذاك ، وتحيى بنا فى الجو الذى تم فيه السلطان له إذ يقول :

« ... ! طتم يدى فكففتها ، ومددتموها فقبضتها ، ثم تداككتم على تداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها ، حتى انقطعت النعل ، وسقطت الرداء ، ووطىء الضعيف . وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياى أن ابتهج بها الصغير ، وهدج إليها الكبير ، وتحامل نحوها العليل ، وحسرت إليها الكعاب ... »

فما بال الحسن يقول ما قال ؟ ... وهل أنسى أن البيعة كانت من حق أهل المدينة وحدهم . وأنهم اختاروا من قبل أبا بكر ، وأقروا عمر ، وأبرموا بيعة عثمان ، فلم تأت بيعة الأمصار لكل هؤلاء إلا بعد أن تربعوا عرش الخلافة ؟ . . أم كان يرى أن يدع أبوه الأمر فوضى فى يد الأقاليم الإسلامية — وليس يخلو واحد منها من طامع فى السيادة — فيتفرق أمر الناس بين طائفة من نهازى الفرص والأدعياء ؟ . . ذلك إذن رأى مردود ! . . وأضعف منه أن يصبر الإمام على عباد المنصب فيدعهم يحتلبون الإمرة التى أولاه الشعب ولا يمد يده لإقرار الأمن والنظام . .

ونهض على فاستقبل الجمع . ونقض آراء ولده بما شاء ، حتى إذا انتهى إليه

ذكر حركة العصيان كان لا بد له أن يختار بين مذلة الجبن والتخاذل وبين العنف والاحتكام إلى السيف فصاح :

« . . . والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم حتى يصل إليها طالبها ويختلها راصدها ! . . ولكننى أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه ، وبالسامع المطيع العاصى المريب أبدا ، حتى يأتى على يومى . . »

١٠

وصل مدد المدينة ، وأخذت الربذة تموج بالرجال . ولكن الكوفة لم ترسل مددها بعد ... الكوفة التى قدمها على الأمصار وآثر أهلها على غيرهم حتى كتب لهم يقول :

« . . . إنى اخترتكم والنزول بين أظهركم . . . وفزعت إليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا ، وانهضوا إلينا ، فالإصلاح ما نريد ، لتعود الأمة إخوانا . . . »

أقعدوا عنه أم أريدوا على القعود ؟ ... لا خبر . لم يأته من محمد بن أبى بكر نبأ عن القوم ، ولا كيف استقبلوا رسالته إليهم ومحمداً سفيره . الظن وحده لا يشفع عنده للقطع برأى وإن كانت بنفسه شكوك من واليه أبى موسى الأشعرى الذى تملكه طبيعة التردد . . .

بوسعه الآن أن يبدأ الزحف ، وئيدا وئيدا ، ثم يصله رجال الكوفة وهو ببعض الطريق . إن الزمن يمر مسرعا كالغيمة وقت العاصفة التى تزأر فى أجوائها هوج الريح . . . وحزب الجمل لا بد قد بلغ البصرة ، وطرق أبوابها أو اغتصبها عنوة . هو لا يخشى أن يفوز طلحة دونه بالخلافة ، أو يفوز الزبير ، ولكنه يود لو استطاع أن يخمد الفتنة قبل أن يملق شررها ببقية البلاد . الصاحبان ليسا عنده بذوى خطر مرهوب لأنه بقدريهما لدى شعبه عليم ، وبمكنون نفسيهما على بينة . الأيام كفيلة بهما وبما انتوياه ، تكشفه اليوم أو غداً أو بعد عام . حتى

لو أتيح لهما الظفر لما أمهل القدر لهما فى الفرح به ، لأن التناحر على السيادة سيقطع ما بينهما فى نهاية الأمر ، ويردهما عدوين يتخاصمان . . . وما كان على بالذى تشكل عليه خبيئة الأنفس التي يشى بها الفعل وتنم عن مكنونها مقدمات من الهوى والشهوات . . . وهذا حديثه عنهما يصورهما كحقيقة الحال ، بما فيها من الأضواء والظلال . . . وصفهما مرة فقال :

« . . . كل واحد منهما يرجو الأمر له ، ويعطفه عليه دون صاحبه . . . لا يمتان إلى الله بحبل ، ولا يمدان إليه بسبب . . . كل واحد منهما حامل ضب لصاحبه وعما قليل يكشف قناعه ، والله لئن أصابوا الذى يريدون لينتزعن هذا نفس هذا ، وليأتين هذا على هذا ! . . . » .

وقر رأيه على المسير فنادى مناديه فى الناس ، ورتب للأهبة جيشه الصغير . الراية لابنه محمد بن الحنفية ، وعلى المقدمة أبو ليلى ، وعلى الميمنة ابن عباس ، يقابله على ميسرة القوم عمر بن أبي سلمة الذى خرج يدرأ عن الإمام فى المقام الذى طالما تمنت أمه زوج رسول الله أن تقوم فيه ... وعندما أوشكت القوة أن تبارح الربذة نهض ابن رفاعة يستنبيء السياسة التى انتهى إليها عزم أميره ، فقال يسأله :

« أى شيء تريد ، وإلى أين تسير بنا يا أمير المؤمنين . . . » .

فأجابه دون تردد :

« إن أريد إلا الإصلاح ، إن قبلوا منا ، وأجابونا إليه » .

« فإن لم يجيبونا ؟ . . . » .

« ندعهم بعذرهم ، ونصبر . . . » .

« فإن لم يرضوا ؟ » .

« ندعهم ما تركونا . . . » .

« فإن لم يتركونا ؟ » .

« امتنعنا منهم » .

وكذلك وضح أنه ما زال يستمسك بالسلم ويحرص عليه حتى اللحظة الأخيرة وإن خالفه أعداؤه وأقاموا على العناد . وسيصبر عليهم جهده ، ويركن للحق

فلا يبادئهم بعدوان ، بل قد عزم أن يمتنع عنهم ما وسعه الامتناع عسى أن يكون في هذه المقاومة السلبية ما يفل من حدة افتئاتهم عليه فيرتدوا إلى محجة الصواب . . .

وهتف ابن غزية الأنصارى مثنياً على هذه السماحة التى تمز فى الدعاة دع عنك رجال الحرب والقتال :

« والله لأرضينك بالفعل كما أرضيتنى بالقول ، ولأنصرن الله كما سمانا أنصارا ! . . . » .

وانطلق الجيش ، يؤمه على على ناقة حمراء ، والراجز أمامه يهزج للجنود التى أفعم قلوبها الإيمان :

« سيروا أبابيل وحثوا السيرا إذ عزم السير وقولوا خيرا . . . »

إلى ذى قار كان يرنو طرفه فيها يستطيع أن ينتظر مدد الكوفة وهو منها ومن البصرة قريب ، أو ينتظر من ابن أبى بكر أنباء الأشعرى ومدى اهتمامه بالدعوة إلى النهوض بالجند والسلاح . . . مضى برجاله يقطع الصحراء ، فى تريث ومهل ، يكاد يستنبئ الأرض نفسها خفى الأخبار . ولم يكن طريقه موحشاً كله . بين كل مرحلة وأختها كان يطلع له الناس ، من أهل القبائل الضاربة فى البيد ، يعرضون أن يستلحقهم بجيشه ليكون لهم أجر الكفاح من أجل مثله ، وتحت رايته ... ولكنه استمسك بعزمه الأول فردهم . كان يتحرج أن يشرك معه أحداً من الأعراب خشية أن يكونوا ممن أعان على عثمان فيكون فيهم لأعدائه حجة عليه . . . أتته أسد إذ نزل بفيد يعرضون أنفسهم فأباهم ، وأتته بعدهم بكر بن وائل فلم يفوزوا فى كتائبه بمكان . . . وعندما بلغ من طريقه بعض مراحله ، استقبل رجلا من أهل الكوفة فاستنبأه خبر بلدته ، لعل لديه من أمر الأشعرى نبأ قال يسأله :

« من الرجل ؟ . . . » .

« عامر بن مطر » .

« فما وراءك ؟ . . . » .

فأجاب بعد أن تحدث بطرف من أخبار المصر :

« إن أردت الصلح فأبو موسى صاحب ذلك ، وإن أردت القتال فما هو بصاحبه . . . » .

فمنذ أعلم الوالى المتخاذل أن الإمام كان يضمر لأعدائه غير ما كان يتحدث الناس أنه يبديه ؟ . . . أم هى وسيلة الأشعرى إلى القعود وتثبيط همة أهل إقليمه عن النهوض استجابة لأمر الأمير ؟ . . . وكيف أحل لنفسه أن يتصرف فى الأمر من دون ولى أمره فيسمع حين يشاء وبالشرط الذى يرضاه ، ويرفض إذا شاء ؟ . . .

ولكن الأخبار ما برحت تأتيه دراكا كلما اتسع خطوه فى الفلاة واقترب من ذى قار . . . فى فيد علم طرفا من سياسة أبى موسى ينم عن انحيازه إلى التخاذل والتثبيط . وفى الثعلبية بلغه نبأ المهانة التى لحقت بعثمان بن حنيف ، عامله على البصرة ، من رجال عائشة الذين دخلوا البلدة فى ثياب الغزاة . . . وفى الآساد عرف بما أصاب حكيم بن جبلة ، وبالمقتلة التى أشاعها حزب الجمل فى جماعة كبيرة ألصقت بها تهمة اغتيال ابن عفان . . . الله وحده يجزى الطغاة الباغين ! . . . وهل يملك على فى هذه الآونة إلا أن يسترجع ويردد أسفه : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب . . . » ؟ . . .

ولكنه ظل يطوى نفسه على أساه فما يستطيع أن يرد الأقدار . ومضى بجنده عبر الصحراء . فإن هو إلا قليل حتى بدا له راكب يسرع السير ، على وجهه وعثاء رحلة طويلة ، وتكاد أن تستروح النفس الملهمة من أردانه ريحاً تشى بسر يطويه . . ولم تخب فراسة الإمام ولم يضله حدسه ، فالراكب كان حقاً على بينة من كثير وكثير . .

وهتف على به يدعوه :

« أيها الراكب ! »

فأقبل .

« أين أتيت الظعينة ؟ . . »

فعليت الدهشة على سيماه . من أين لأمير المؤمنين علم ما كان ؟ . . ولكن الرجل أحس أنه حيال امرئ بصير ، كأن الأنباء تصل إليه على متن الريح ! . .

وحدث بما شهد ، لم يضمر شيئا . . كل تلك الرحلة التى كان هو دليلها منذ بارح ركب أم المؤمنين مكة حدثهم عنها . . وكان حديثه قصة ضمنت الأعاجيب ! . .

ثم أردف من بعد يتم الكلام :

« وهذه معى ناقتها ، بعتهم بها جملى الأحمر يا أمير المؤمنين . . »

« فهل لك دلالة بذى قار ؟ . . » .

« لعلى أدل الناس . . » .

ثمانى ليال مضين عليه وهو بالطريق منذ غادر المدينة ولم يعد بعد محمد ابن أبى بكر من سفارته لأهل الكوفة . إن آفة الأمر هى هذا الأشعرى دون ريب ، الذى أباح نفسه ما لا يجوز من عامل مأمور بالطاعة ، وراح يبث العقبات فى سبيل الإمام . ولو أنه استجاب للدعوة فبعث من لدنه يحدون جيش على الصغير لبلغت كتائبه البصرة قبل أن يستطيع أصحاب عائشة أن ينالوها بشىء ولوسع عليا أن ينفذ خطة الإصلاح التى انتواها ساعة الخروج . . ولكن الوالى الماضى سدر فى تردده ، وفى تقاعده ، حتى تجمعت كل أسباب الخلاف وافتتن الناس ولج العصاة فى الطغيان بعد أن أغراهم النصر الرخيص الذى نالوه بالبصرة على واليها الذى صبر عليهم وجنح للسلام حتى خدعوه . . آفة الخطة كلها هذا الأشعرى المتخاذل ، وإنه عن الأحداث اللاحقة لأول مسئول . .

وها هو الإمام وقد نزل بذى قار يأتيه عنه ما يثير غضبه ، وعلا بالحزن والأسف قلبه . إن الشيخ المفتون يمعن فى عناده إلى غير حدود . . وهل أدل على خطل رأيه وبروز العداء من موقفه من هذه الرسالة الموجزة التى بعث بها هاشم بن عتبة إلى على وكان قد أرسله للكوفة ليسبر غور ذلك العامل الخارج على طاعة مولاه ؟ . . « . . قد قدمت على رجل غال مشاق ظاهر الغل والشنآن ! . . »

١١

هذا حديث العرنى ، صاحب عسكر ، الذى تحدث به حين صادف الإمام قبيل ذى قار :

« . . بينا أنا أسير على جمل ، إذ عرض لي راكب فقال :

« يا صاحب الجمل ، أتبيع جملك ؟ »

« نعم »

« بكم ؟ »

« بألف درهم »

« ويحك ! . . . أمجنون أنت ؟ . . جمل يباع بألف ؟ . . »

« نعم . جملى هـــذا . فما طلبت عليه أحداً قط إلا أدركته ، ولا طلبنى وأنا عليه أحد قط إلا فته . . »

على أى حال قد أرضوه فى نهاية الأمر ، ومنحوه مالا وناقة فى نظير عسكر الجميل . . وسار أمام رواحلهم يدلهم على الطريق . . كلما نزل بأرض أعلن لهم منزله ، أو مر بماء صاح باسمه مهونا عليهم بقية المراحل . إنه لم يكن رجلا يعبأ للتنازع الذى غمر القوم ، ولا كان يعنى مثلهم بالنشاط السياسى الذى مارسوه . كل همه أن يقطع الأرض ، ويطوى ذى الصحراء الوسيمة ، وعد بأنفه المرهف فيعرف الفجاج والدروب كأنه يشم ريح فريسة ! . . فهذه هى حياته ، وذلك عمله منذ عرف الحياة ، وعندما أشرف على تلك البقعة أحس أنه قد وصلها وإن لم ترشده إليها المعالم ، وإن لفها الظلام فى وشاح . كان شعوره هو الذى يهديه ، وكان يسبق نظرات عينيه فيعلن المكان قبل أن يتبين للحظه . . وقبل أن يصل إلى مسامعه رغاء بعير أو ثغاء شاة أو حفيف غصن ينم عن الحياة فى جانب هذا البلقع المديد ، رفع العرنى صوته فأعلن المكان :

« الحوأب ! . . »

ولكن الكلمة تاهت فى دوى النباح الذى أطلقته كلاب الدائرة الساهرة ، فلم يصل جرسها إلى ساكنة الهودج صافيا يحمل لها دلالته . . الحوأب يا ترى قال ؟ . . سمعها ولم يعنها ، ولم يعدها الرجل ثانية . . للحظة قضت عائشة ترهف السمع ، وتكاد أن تمسك الأنفاس . ودت لو أرسلت أذنها عبر هواء الأمسية لتلتقط الكلمة قبل أن تبددها الريح ! ولكن حروفها توارت عنها فى ثنايا النباح . الكلاب الساهرة تلقفتها قبلها بأفواه منهومة ! وراحت حلوقها تتبارى بهرير وعواء وزئير ! . .

ومدت السيدة أصابعها فى قلق فحسرت بعض الستر الذى كان يغشى الهودج ، وألقت نظرة على ما حولها فإذا ابن طلحة منها قريب . .

« أى ماء هذا يا محمد ؟ . . »

« ماء الحوأب يا أم المؤمنين » .

فكأنما انقضت على فؤادها صخرة . . . وهتفت وهى تلهث حتى لأوشك صوتها أن يبدو قادما من أعماق سحيقة الأغوار :

« ما أرانى إلا راجعة ! . . . »

« راجعة ؟ . . ولم ؟ تقدمى يرحمك الله ! »

فلم تصغ إليه ، إنها لم تعد هى . مضت المرأة الراسخة القلب الثابتة الجنان وجاءت على أثرها أخرى قد ملكها هلع مجنون ! . . كفها التى حسرت بعض الستر انطلقت تضرب عضد عسكر ، راجفة مضطربة ، بغير وعى ولا إرادة ، وصوتها الهامس اللاهث استحال صرخة مدوية شقت هدأة الفلاة :

« إنى لهيه ! . . ردونى ! . . »

فيم هذه الثورة وهذا الصراخ ؟ . . العرنى لا يدرى شيئاً ، ولم يدرك أن كلمة من بضعة أحرف تحتل موقع مكان لها مثل هذا الأثر المفزع فى نفس أم المؤمنين . لعل الركب كله كان مثله ، ليس على بينة من الدلالة التى عليها دل ماء الحوأب ، فقد تلقفوا الصرخة واجمين ، وراحت الألسنة تتجاوب بالهمس والتساؤل . وقع الاضطراب فى الجيش المدل يجبرونه كأنما لقيه عدو عنيد

سؤال ، وتناوبته سيوفه من كل جانب . . وأقبل الناس صوبها فى دهشة غامرة ، فأناخوا مطيهم حيث أناخت بعيرها وما زالت تبكى . . . ودلف بينهم فتى أشم فارع ، صلب العود ، يتوثب فى مسيره كأنه ذئب ، أطلس بلونه ، على وجهة المضيم لمح العزم وإن حدثت به السن ، وفى عينيه ومضات رجولة وإن بدا أمرد ، لا لحية له ولا شعر يحف وجنتيه . فما أسرع ما أفسحوا له حين تبينوا فيه عبد الله ابن الزبير ، ربيب عائشة ، وحفيد الصديق . . .

« يا أمه ؟ . . » .

فصاحت ثانية ولما تبرحها غاشية خوفها الجياح :

« أنا والله صاحبة كلاب الحوأب ! . . ردونى . ردونى ! . . »

وكانت صاحبتها حقا ! . فلو أصغت من قبل لنصح أم سلمة لما رأت نفسها بهذا الموقف العسير ، ولغالبت قدرها وتجنبت هـذا المصير . ولـكنها كلمة حق نطق بها رسول الله ذات يوم وهو يلق بعينيه فى غمرة الغيب فيرى زوجه بهذا المكان ، ناهضة فى فتنة شاء لو ارتدت عنها . . ذلك يوم منقوش بذهن عائشة ، لم يبدد ذكراه الزمن ، ولم يغشها النسيان . منذ أيام قلائل أعادتها لذهنها ثانية ضرتها أم سلمة وهى تحاول أن تثنيها عن عزمها فى المسير على رأس جيش العصاة . ولـكنها لم تسمع منها ، ركبها عنادها أو اعتدادها حتى أغفلت ذلك الحديث . . أما الآن فهو يدوى فى سمعها دوى الطبول . ويعيدها بخيالها إلى ذات المشهد الذى مرت عليه الأعوام . . إنها لترى نفسها جالسة وأمامها إناء تأخذ من مائه فتغسل رأس زوجها العظيم ، وإلى جوارها أم سلمة تخلط تمراً بلبن وتمد منه طعاما . . فأى خاطر إذ ذاك قفز بذهن رسول الله حتى جاوز السنين وأشرفت عينه على الموقف الذى تقفه عائشة اليوم ؟ . . أومضة إلهام ؟ . . أفرجة فى ستر الغيب انجابت أمام بصيرته المشرقة اللماحة ؟ . . لقد حرر رأسه من كفيها ، وألق نظرة عجلى تنقلت بين المرأتين وهو يهتف بهما فى صوته الهادئ الرزين قولا تذكر من معناه أنه كان يضم مثل هذه الـكلمات :

« يا ليت شعرى . أيتكن صاحبة الجمل الأذنب ، تنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة عن الصراط ؟ . »

فرفعت أم سلمة يدها من الطعام مذعورة ، وسارعت تجيب :

« أعوذ بالله وبرسوله من ذلك ! »

« كأنى بإحداكن قد نبحتها كلاب الحوأب . . . »

وضرب بكفه على ظهر عائشة وهو يتم الحديث :

« إياك أن تكونيها يا حميراء . »

فكانتها ! . . كانتها ولم ينفعها التحذير . . . لودت لو أصغت لنصح أم سلمة فقد وضح كيف أخلصت لها النصح منذ أيام . أكتب عليها أن تكون حقاً صاحبة ذلك القدر المقدور ؟ . . أما يسعها أن تهرب منه ؟ . . لترجعن ! ولتهربن إذن فرار الريم . . .

أفتستطيع ؟ . . لولا ابن اختها لفعلت ، ولارتدت على عقبيها إلى مكة مخلفة ركب الفتنة عن فيه . . ولكن عبد الله كان يدرك الخطر الذى سينجم من فرار عائشة — الخطر على الدعوة الباغية وعلى حزب أبيه ! . . لقد كانت أم المؤمنين لواء جيشهم ، من أجلها تبعهم الناس ، وبها اقتدت العامة المفتونون بالأسماء البراقة . ولو خلى بينها وبين العودة .فأحر بأكثر جندهم أن ينفضوا عنهم ، فتفشل خطتهم ، وتذهب ريحهم ، وتتقوض أركان مطامعهم التى وضعوا أسسها على مناهضة سلطة الإمام .

فليتخذ الفتى إذن قربانا يضحى به على هيكل غرضه ، وليكن قربانه المرئى المسكين . . ما كان أهون أن ينسب الغفلة إلى الدليل . ويلصق به خطأ هو منه براء عسى أن يبقى على أم المؤمنين بين الصفوف . . فى لحظات قلائل وسعه أن يدبر ، وأن يحكم تدبيره ، وأن ينزع بذرة الخوف من قلب خالته الجزعة . . فلقد أقسم لها وأتاها بشهود من الأعراب أقسموا أمامها أنها واهمة ، وأن الماء ليس بالحوأب الذى كانت تخشاه ، فكانت أول شهادة زور سجلت فى الإسلام ! . .

ولكن عائشة ظلت حيرى بين الشك واليقين . لم يقنعها تماماً قسم عبد الله ، ولا شهادة أعرابه الذين وضع فى أفواههم حيلته الكذابة . وأوشك التردد الذى ملك السيدة أن يفسد على الفتى تدبيره ، ويردها ثانية ميالة إلى الرجوع حرصاً منها على التزام الصراط ، واستجابة لحديث زوجها وتحذيره . . فإن هى إلا لحظات أخرى حتى فتح جعبته على حيلة جديدة ، نجحت حيث أخفقت سابقتها وكانت أجدى عليه .

رد طرفه عن الأفق المترامى ، ثم أقبل وهو يصيح بصوت مدوى الرنين :

« النجاء النجاء ! . . لقد أدرككم والله على بن أبى طالب . . . »

فركبت الناس فزعة جعلتهم يستبقون إلى مطيهم ، يضربون آباطها للفرار . . وكانت عائشة أول الناجين ! . . حملها عسكر ، ومضى بها فى هودجها على رأس الركب .

أما العرنى فقد خلفوه ولم يكد ينجو من سبابهم المقذع ، لأنه تكلم بما عرف وهو لا يعرف أنهم كانوا يؤثرون له السكوت ! . . ومضى الرجل حائراً ، وحيداً فى البيد ، حتى لقيه الإمام ، فروى له حديثه العجيب .

وسار الركب . وجلست أم المؤمنين فى ملاذها تستعيد الأحداث ! . . لنوشك أن نراها فريسة للظنون ، يراودها الشك فيما أكده لها عبد الله . يا ترى أصدقها القول ؟ . . محمد بن طلحة ليس عندها بمتهم ، وقد قرر أنه ذلك الماء . والدليل نفسه كذلك . وقلبها أيضا ! . . . قلبها ما زال يأكله الريب . كلما اهتز بها الهودج نفث ذهنها من ذكرياته شيئا يزيد فى بناء قلقها لبنة . إنها تكاد توقن الآن أن عدوها هى غيرتها ، فلولاها لأبصرت طريقها لا يغشيه ضباب الأغراض ، ولتبينت الحقيقة ، ولرأت الحق فى جانب الإمام ثم لم تتحيف عليه إن لم تعنه وتدعو له . ولكنها نظرة المرأة . . طبيعتها الغلابة هى التى أوقفتها هذا الموقف العسير . وكم من قبل أوقفت بها على مثله لم تصغ لصوت العقل . . حتى وزوجها بهذه الحياة كانت عاطفتها تركب بها الشطط ، أم إفراطها فى حب ذلك الزوج هو الذى

جنبها الحكمة ؟ . . . بل هو هذا الحب الذى جرفها تياره فلم تملك معه لقلبها قياداً ولا لعقلها عقالا يمسكه أن ينحرف إلى المغالاة . . إنها لتذكر يوماً حدث هذا فيه ، ولم يحد من غلوائها ولا اندفاعها عنها فى العاطفة أن كان رسول الله منها قريباً يشهد ما تورطت فيه . أم سلمة أيضا شهدته ، وذكرتها بخبره قبيل سير مواكب الفتنة ، فلم يغن عنها التذكير . . أما الآن وقد خلت بنفسها فخيالها يهيم فى الماضى حتى يلم بالحادث الذى أورثها حياء يضرج لونها لهذه الساعة . . كان رسول الله قد هبط إذ ذاك من قديد ذات الشمال، ومعه بعض نسائه ، فيهن عائشة وفيهن أم سلمة ، فخلا بعلى ناحية يناجيه . وأسرف — فيما بدا لابنة أبى بكر — فى الحديث والمناجاة . ولعبت بقلبها الغيرة فكبحتها ... ، ثم جدت ، ثم زأرت ، ثم عصفت حتى غلبتها على نهاها وحكمتها . . وتوسمت أم سلمة فى صاحبتها أمرا تهم أن تبرمه فردتها عنه . ولكن عائشة لم تصبر ، ولم تسمع للصاحبة الناصحة الأريبة . بل انطلقت غضبى إلى الرجلين لتنفث ما اعتمل بصدرها من غل الغيرة . .

هجمت على على وصاحت به وهى لا تدرى أى خطل تأتيه :

« . . . ليس لى من رسول الله إلا يوم من تسعة ، أفما تدعنى يا ابن أبى طالب ويومى ! . . . »

فلم يفه بكلمة . بل أغضى عنها فى هدوء وحلم . . .

ولكن محمداً لم يصبر ، حلمه الوسيع ضاق هذه اللحظة عن غيرة زوجه ، فإذا وجهه يندفع إليه الدم ، وإذا بصره يشتعل بالغضب ، فينهرها بحدة غير مألوفة منه :

« ارجعى وراءك ! . . . »

فوقفت باهتة حيرى . . الآن فقط عرفت أنها ركبت الشطط . .

وأتم رسول الله حديثه وهو ما زال غضبان :

« . . . والله لا يبغضه أحد من أهل بيتى ، ولا من غيرهم إلا وهو خارج عن الإيمان ! . . . »

فاساقط الندم فى قلبها كمثل الدمع الذى ابتدرت عيناها به ، وجرت قدميها ، وعادت على خزى .

أفكانت هى تبغض عليا كما تعنى كلمة البغض ؟ . . . كلا ، قطعا ! . . وإن هى إلا نزوة نفسية ، أيا ما كانت وكان باعثها ، فقد كانت توقفها منه دائما موقف المنافر . وحتى حين جاءها بمكة نبأ إمرأته وأبت عليه أن يؤول إليه سلطان الإسلام . لم تكن تبغضه . هى لا تستطيع سبيلا إلى بغضه وتحرص أبداً أن تنأى بنفسها عن هذه الخطيئة . فما نسيت أنه كان أدنى قومه إلى قلب محمد ، وآثرهم وأحبهم إليه . وهو لليوم أتقاهم معدنا وأطهرهم طبيعة . . . إنها تعلم هذا ولا يخالجها فيه شك ولكنها مغلوبة على علمها بذلك الشعور المنافر . وهل غاب عنها كيف أوشك زوجها ذات يوم أن يوصى له بالأمر بعده وصاة سافرة لا تحتمل التأويل لولا خشيته أن يتفرق عنه الناس لهذا السبب أو لذاك ؟ . . لم تنس . لا يسعها إلا أن تذكر . كرة أخرى يرن فى سمعها حديث أم سلمة كأن السيدة معها الآن بالهودج تحدثها به . فالحادث وقع فى سفر أيضاً . كسفرها هذا ، وإن طوح به الزمن فى غور الغابر . . . وشهدته معها أم سلمة كالآخر . كانتا ذلك اليوم ورسول الله فى خلوة عندما طرق أبو بكر وعمر الباب ، فقامت السيدتان إلى الحجاب . . .

وأقبل الشيخان وقد أذن لهما فسلما على محمد ، حتى إذا استقر بهما المجلس راحا يحدثانه فيما جاءا فيه . . . قالا له :

« يا رسول الله ، إنا لا ندرى قدر ما تصحبنا . . . فلو أعلمتنا من يستخلف علينا ، ليكون لنا بعدك مفزعا . . . » .

فرمى ببصره إلى بعيد ، كأنما ينظر إلى ناحية ليس تصل إليها عينا سواه ، ثم قال بهدوء :

« أما إنى قد أرى مكانه ! . . » .

وعندما توقعا أن يدلهما عنه ، باغتهما بهزة من رأسه وقال فيما يشبه صوت الآسف الحزين :

« . . . لو فعلت لتفرقتم عنه كما تفرقت بنـو إسرائيل عن هارون ابن عمران ! . . » .

فغضا الطرف . وخرجا بعد قليل من لدنه لا يلويان . . .

أى الناس يا ترى كان رسول الله يعنيه ؟ . . السيدتان خلف الحجاب يأ كلهما الفضول . لو انساقتا مع الترجيح لوصلتا معا بذهنيهما إلى رجل واحد .. فرد من الصحابة المجتبين يكاد أن يوفى إليه هذا الحديث . إن ثمة دلالة أخرى تشير إليه . . حلقة ها هنا تربط بين حديثه هذا وبين آخر سلف به لسان محمد ذات يوم إلى التصريح ووجه خطابه فيه إذ ذاك إلى ابن عمه فقال :

« . . . أنت منى بمنزلة هارون من موسى . . . » .

ذات الـكلمات ، وذات التشبيه ! . . . أعليا كان يعنى وقد قال فيه من قبل نفس ما أعاد ؟ . . لا تعلمان . لا تحبان أن تركنا فى مثل هذه الأمور إلى اتباع الظن الذى قد يخطئ كما يصيب . وإن نهم المرأة إلى الثرثرة ثم إلى إشباع الفضول الغلاب ليدفعهما معا إلى الاستقصاء . ما عليهما من حرج لو فعلتا الآن . وها هى عائشة تهيج بها قبل صاحبتها الرغبة إلى المعرفة واستكناه المجهول ، فتبارح الستر ، وتندفع متسائلة إلى زوجها الـكريم :

« يا رسول الله . . . من كنت مستخلفا عليهم ؟ . . . » ..

« خاصف النعل ! . . » .

ولم يزد . وتركها لنفسها تحدس كما تشاء . . .

ولـكن الظن لم يطل بها مداه . فى لحظات قصار أصبح يقينا لا يغشيه من الشك نقاب . عرفت هذا فى وجه محمد ، ومن لسانه أيضاً بعد قليل ، وقد خرجوا جميعاً يبارحون المـكان . . . فعلى مقربة ، وفى ظل سمرة رأت بعينها خاصف النعل المنشود يرتق نعلا لزوجها بين يديه . وعندما ألقت على وجهه نظرة مستطلعة عرفته أى الرجال كان . . . لقد صدق الحدس ، وثبتت الدلالة ، ووضح لديها أن الحلقة بين الحديثين قائمة بلا انفصام .

وهتفت وصوتها هذه المرة به من العجب أكثر مما فيه من الفضول :

« . . . ما أرى إلا عليا يا رسول الله ! » .

« هو ذاك ! . . . » .

ثم ها هي الآن ! . . . فى هذا الهودج على ظهر عسكر ، وبين هذا الحشد المحشود من الجند الشاكى السلاح ، وعلى هذا الطريق المؤدى إلى أسوار البصرة قد خرجت لغاية لا تعلم أى مصير سوف تجره على أمنها ، وعلى الرجل الذى اجتمعت عليه كلمة الشعب قبل كل الرجال . . . وأى خروج ؟ وأى رجل ؟ . . إنه نظير هارون الذى تفرقت عنه بنو إسرائيل !

فرسان حكيم

١

ألقت نظرة من خلل الستر إلى الوراء ، فإذا الصحراء مديدة ، فارغة ، تغرق في فضائها الرحيب العين . لا أرعة لجيش على ، لا إلى اليمين ولا إلى اليسار . ولا ما ينبئ عن اقترابه . كانت إذن صرخة ابن الزبير حيلة لحملها على المسير . . .

ثم ردت الطرف فطالعت وجهة الركب . بدت الخفير لها على قيد عين . أما البصرة فإن هي إلا مسيرة يوم وبعضه ثم تشارفها . . . وأهلها آمنة لا يدرون على أي حال سوف يصبحهم أو يمسيهم هذا الجيش الزاحف من البلدة الحرام . . . لو ترك الأمر للسيدة لتنادت تطلب من رجالها أن يلووا أعنة المطايا عائدين . ولكن أتستطيع ؟ . . أيسمعون ؟ . . إن كل نقلة خف تدني جملها من الهدف تحس هي كأنها على فؤادها المثقل . ليست تدري كيف تبدل شعورها هكذا من النقيض للنقيض . وليست تدرك لم الإقدام ، والإحجام كان أولى وأمثل . الدلالات على خطئها قائمة لها أعلام ، والطريق إلى الحق معلم مرسوم ، يتجه إلى وراء لا إلى أمام ، ومع ذلك فهي تنطلق قدما على كره كأنما شدوها إلى الركب الزاحف ؟ . . . كلما عاودتها الذكرى ورن في سمعها هاتف الرجوع دوت أصوات سواه فأغرقته في ضوضائها الرفيعة وراحت تزين لها دعوة الإصلاح . كلاب الحوأب ذاتها عفى على نباحها الدوي الرفيع ! . . وخاصف النعل ذابت صورته في ضباب الأبنية التي تراقصت أمامها الآن كالأشباح ! . . . في غمرة قلقها تشبثت بظنها في أن تكون ذات بركة على الناس . تؤلف بينهم ، وتردهم كرة أخرى إخوانا على صفاء . أما كيف سيكون هذا التوفيق ، وأنى لأداة حربها هذه أن تكون أداة سلام ، فهذا ما لم تكن تدريه ! حسبها أن تضمر نية نقية ثم تفيد من مر الأحداث !

على أن ثمة أمراً آخر كان يدفعها إلى المسير . ليس هو بالحقد على أمير المؤمنين ، ولا بالرغبة فى استنزاف ملكة من يديه . بل تلك الهامة التى تبدو فى الخيال قائمة بناحية من حش كوكب ، على قبر تائه فى اللحود احتوى جثمان الخليفة القتيل . . . لتكاد المشاعر أن تعود إلى خرافة الجاهلية فتسمع روح عثمان على طرف قبره تصيح : « اسقونى » وهى ظمأى إلى الدماء ؟ . الكلف بالثأر كان هو الذى يقود خطا أم المؤمنين . إنها تنهض للقصاص . . . موتورة تسعى إلى رى الهامة الظمآنة ! . . فذلك وحده عذرها فى المسير .

كانت تعلم أن القتلة قد خلفتهم خلفها بمكان غير هذا المكان . وفى الحاضرة خلفتهم ، علىكونها بقوائم المزودة بالمديد والسلاح . وكأن أولى بها أن تضم قواها المجيشة هذه إلى صاحب الأمر الشرعى فتكون عوناً له على الخصوم . ولكنها مضت وانتهى الأمر ، قطعت الشوط كله فليس ثمة مجال إلى النكوص . على أى حال ها هنا جانب من أهل الفتنة يجدر أن ترتوى الظبا منهم فجيشها إذن لا ينقصه التبرير ! . . . ولو وسعها لثأرت ثم رجعت خفيفة الضمير ، لا يعلق بها ندم على ما سلف منها فى حق الشيخ الذى ألبت عليه إنكار الناس فى كل الأقاليم وكان قذفها فيه أول سلاح ماض أشهر عليه . . . ستأخذ له اليوم بقدر ما أخذت منه ثم تستريح ! . . .

ذلك كان ظنها أو ما عقدت النية عليه . ولكن النوايا مرايا لا تطابق دائماً بين الأصل والخيال . لطالما خالف الفعل النية وقضت الأحداث بغير ما تضمر الطوية عائشة الآن توشك أن تضلها المرآة فلا تعكس من فعالها ما لعلها حسبته نتيجة محتومة لنيتها الخالصة . ستبدى لها بعد قليل صورة قبيحة شوهاء حتى لتنكرها أشد الإنكار ثم تندم أشد الندم ما عاشت فى هذه الحياة . ولكن أنى لها أن تقتحم الغيب وتتبين سره حتى تجتنبه قبل أن تجرى به المقادير ؟ ...

لا حيلة لها فيما لا حيلة فيه ! ... أما اليوم فصرخة الهامة ملأت عليها الآفاق ، وأبنية البصرة قربت ما بينها وبين القصاص . . . أتقتحم البلدة ؟ . . . أتسير إلى ثأرها على طريق تمهده الأشلاء ؟ . . كيف لها برضاء ابن حنيف

عما جاءت فيه لتجتنب مقتلة قد يصلاها كثير من الأبرياء ممن لا يد لهم في مصرع عثمان ؟ . . .

هذا عمير التميمي قد أقبل عليها بالجواب المطلوب . فما أسرع أن رأت نفسها قد بارحتها الحيرة حين سمعته يقول :

« يا أم المؤمنين . . . أنشدك بالله أن تقدمي اليوم على قوم لم تراسلي منهم أحدا فيكفيكهم . . . » .

فهتفت مبسوطة الأسارير :

« إنك لامرؤ صالح ! . . . جئتني بالرأي . . . »

« فعجلي ابن عامر فليدخل ، فإن له صنائع يلقون الناس حتى تقدمي فيسمعوا ما جئتم فيه . . . » .

ففعلت . لولا ما هي فيه من ضيق ما ألقت بدعوتها بين يدي هـذا الذي تعلم أنه طريد أهل البصرة منـــذ وقت قصير . ولـكنه على أي حال أداة . بل الأداة الوحيدة التي تملكها اليوم ولا بد لها من الضرب بها عسى أن تجيء ببعض المأمول ، فلن يعدم الرجل أن يكون له بين جدران البلدة أنصار وإن كانوا من بطانة التفت به أيام إمرته لتصيد الآراب . . . ظهوره لا ريب سيحيي الأمل في نفوس أعوانه القدامى ويدفعهم إلى العمل بجانبه ومن أجل حزبه لعل عهد مجدهم يعود ! . . .

وقد نجحت هذه الفـكرة بعض النجاح ، بل كان لها أثر في تحويل جانب من الرأي العام بالبصرة لناحية عائشة ، وجانب آخر أشاعت في نفوس أصحابه التردد فما يعلمون بأي فريق من الفريقين يلحقون ، وبقيت طائفة على ولائها للإمام لا تحيد . ولم يخف هذا عن الوالي وإن ظلت بنفسه بقية من شك لا يملك معها القطع برأي في مدى تبليل الأفـكار ، فلما أراد أن يسبر غور النفوس ، دس بالمسجد رجلا قام يتحدث في الملأ الحاشد ويقول :

« . . . أيها الناس . إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم إن كانوا جاءوكم خائفين فقد جاءوا من المكان الذي يأمن فيه الطير . . وإن كانوا جاءوا

يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلة عثمان . . . أطيعونى فيهم فردوهم . . . » .

فما بلغ من كلامه هذا الموضع حتى صاح به آخر معارضا فى استنكار :

أو زعموا أنا قتلة عثمان ! . . إنما فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتلته ، منا ومن غيرنا . وإن كان القوم أخرجوا من ديارهم ، فمن يمنعهم ؟ . . الرجال أم البلدان ؟ . » .

عندئذ أيقن ابن حنيف أن للزاحفين ناصراً بدار إمرته . . . نوعا من جيش سرى يتأهب دونهم فى الخفاء . . .

بعثت عائشة إذن بابن عامر إلى البصرة ليتألف صنائعه ويتخذ منهم دعاة يضمنون لحزبها بعض التأييد . وبعثت أيضا بكتب منها إلى وجوه البصرة تناشدهم أن يلتفوا حولها وينصروها . . . بذرت بذرها ثم قرت فى انتظار ساعة الحصاد ! . . .

أما الوالى فقد اضطرب عليه حزمه ، والتوت مسالك البت فى الأمور . الظواهر كلها تفزعه ، وتشير إلى فتنة هوجاء تسندها الأسنة ويسعى إليها القوم ، وإلى عصيان سافر بغير نقاب ينتقص أولا من هيبة مولاه ثم لا يلبث أن تصير له عقبى واحدة جد معلومة هى هدم السلطان القائم على الشعب وبالشعب ولكنه مع ذلك كان يشفق من إطلاق يده فى التصرف حسبما توحى إليه هذه الظواهر . فما يعلم لو ضرب ضربته ودفع بقواه المسلحة لرد العصاة إن كان سوف يرضى الإمام . وما يعلم أيضا لو صبر عليهم وكف عنهم سلاحه أنهم لا يثبون عليه ولا يعاجلونه بالعدوان قبل أن يصله من على أمره الذى يحتذيه . وبين هذين الرأيين تأرجح فكره وحارت نظرته . ولكنه لم يستطع أن يسكن إلى التردد ، بل رأى لزاما عليه أن يستطلع غاية أصحاب عائشة من هذا المسير الذى يوشك أن يحدث فى الإسلام حدثا خطير المغبة . فلما انتهى به هداه إلى هذا الحد سارع فأرسل رسولين من لدنه تخير أن يمثلا الوعى الأهلى أقرب تمثيل : عمران بن حصين ، رجل عامة ، له عاطفتها ، وفيه خفة الفكر التى تستهويها الأعراض قبل الجواهر ، وأبا الأسود الدؤلى ، رجل خاصة ، له عمق

التفكير وعناية بالغوص إلى العوامل الخفية حتى ليحسن استخلاص الرأى من بين غمرة العواطف ، ولا يفوته أن يحكم التدبر قبل اعتناق فكرة من الأفكار وقبل تمحيصها أشد التمحيص . . .

وبلغ الرجلان الحفير فقصدا إلى عائشة ، فلما أذنت لهما تحدثا إليها فى هدوء :

« . . . يا أم المؤمنين ، إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك ، فهل أنت مخبرتنا ؟ . . . » .

فأجابتهما :

« والله ما مثلى يسير بالأمر المكتوم ، ولا يغطى لبنيه الخبر . . . » .

ثم راحت تسرد عليهما رأيها الجديد فى نقاوة صحيفة عثمان وما كان من قاتليه من استحلال دمه بغير عذر عليه ! . . . نعم رأيها الجديد الذى لم يجل بخلدها إلا بعد ولاية الإمام ! . . . فلما أطنبت فى حديثها بما شاءت انثنت تدعو بدعوة الثأر فى لباس من رقيق الألفاظ :

« . . . إنما خرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ، وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا . . . لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس . . . . . . » .

« فهل معك عهد من رسول الله فى هذا المسير ؟ . . »

فردت وهى تكتم ما هم أن يشتعل بنفسها من الحنق :

« غضبنا لكم من السوط والعصا ولا نغضب لعثمان من القتل ؟ . . . » .

إن ريحا من الأمانة يهب لا ريب من كلام السيدة حتى ليقرها السامع على ما جاء فيه ، فالقصاص كان غايتها وما لها من غاية سواه ، ولكن أعلى هذا يا ترى كان صاحباها ؟ . . .

ويمم الرسولان شطر العسكر ليعلما رأى الرئيسين المسيطرين على مصائر هذا الجيش وناديا ، فلما أن برز لهما طلحة سألاه :

« ما أقدمك علينا ؟ . . . » .

« الطلب بدم عثمان » .

فانبرى له أبو الأسود يقول :

« يا أبا محمد ، قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا فى قتله ، وبايعتم عليا غير مؤامرين لنا فى بيعته ، فلم نغضب لعثمان إذ قتل ولم نغضب لعلى إذ بويع ... ثم بدا لكم فأردتم خلع على ، ونحن على الأمر الأول . فعليكم المخرج مما دخلتم فيه ! ... »

وقال عمران :

« يا طلحة ، إنكم قتلتم عثمان ، ولم نغضب له إذ لم تغضبوا ! . . ثم بايعتم عليا وبايعنا من بايعتم ... فإن كان قتل عثمان صوابا فسيركم لماذا ؟ . . وإن كان خطأ فحظكم منه الأوفر ! ... »

هنا استطاع طلحة أن يقول :

« يا هذان ! . . إن صاحبكما لا يرى أن معه فى هذا الأمر غيره ، وليس على هذا بايعناه ! ... » .

فنهضا عنه . وضحت لهما طويته حتى قال أبو الأسود لصاحبه وهما فى الطريق :

« أما هذا فقد صرح أنه إنما غضب للملك يا عمران ! ... » .

وأتيا الزبير .. فإذا هو أكثر صراحة ، وإذا نفسه الشفافة لا تخفى عنهما شيئاً مما يطويه ، وإذا قلبه يسبق لسانه بالحديث وهو يقول :

« . . . إن طلحة وإياى كروح فى جسدين . وقد كانت منا فى عثمان فلتات احتجبنا فيها إلى المعاذير ، ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا نصرناه ... » .

وكانت لهما حجة أخرى إلى جوار ما أخبرا به الرسولين ، قوامها أنهما بايعا الإمام وعنقاهما تحت شفرة السيف ! . . الله وحده يعلم إن كان هذا قد حدث ، ومتى ، وهل ليد على فيه تدبير ! . . ولكنها حجة على أى حال ساقاها تخلصا من عار النكث الذى وقعا فيه ، ما أهون شأنها ، وما أوهى بناءها كأنها نسيج عنكبوت ! . . فلقد غاب عن البيعة كثير ، وأباها كثير فلم يسر إليهم على قط ، ولم يفرضها على أحدهم كرها ، بل خلى بينهم وما اختاروه . . وهل موقف ابن عمر وموقف ابن أبى وقاص وموقف أسامة بن زيد غفلت عنها الأذهان ؟ . .

ولكنها كما أسلفنا حجة على أى حال ، وتبرير لنقض البيعة هو اعتذار عن الذنب بالذنب الممعن فى الخطيئة وفى البطلان . . عذر يخفى وراءه تبييت القوم لم يخف عن ذهن الدؤلى . فحين مضى إلى أميره لم يزد فى رواية خبرهم ورأيه على أن قال :

« يا بن حنيف قد أتيت فانفرْ وطاعن القوم وجالد واصبر
وابرز لهم مستلئماً وشمر ! . . »

تلك كانت نصيحته وما هداه إليه إدراكه حقائق الأمور المستورة . دواء الداء عنده قبل استفحاله هو الكى ، ولا إمهال قبل هذا ولا تردد . وبنفس هذا الرأى طالع عائشة أثناء عودته من مجادلة صاحبيها ، لم يخف عنها ولم يداور. سألته إذ ذاك مستطلعة :

« بلغنى أن ابن حنيف يريد قتالى . . . »

فسارع يجابهها بما يراه ، وبما ظن أن الوالى لا ريب سيأخذ به :

« نعم والله ! . . قتالا أهونه تندر منه الرءوس ! . . . »

ولكن ابن حنيف كان لا يزال فى غمرة من الحيرة ، فما سمع دعوة صاحبه له إلى امتشاق الحسام حتى هز رأسه كالأسيف المضيع وهتف :

« إنا لله وإنا إليه راجعون : دارت رحى الإسلام ورب الكعبة . . »

وقال عمران :

« . . . والله لتعركنكم عركا طويلا ثم لايساوى ما بقى منكم كثير شىء »

« فأشر على . . »

هنا جاء الرجل بالرأى الذى تمليه العاطفة المندفعة ولا تمليه الحكمة والسياسة التى تحسب قبل كل شىء حساب العواقب والغبات ... قال كاشفا عن فكره :

« إنى قاعد فاقعد ! »

« أقعد ؟ . بل أمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين . . »

« بل يحكم الله ما يريد ! . . »

وخرج فلحق بداره وقد أشفق أن يشهر السيف فى وجوه إخوان له فى الإسلام، ولو تبصر لعلمها حرباواجبة..حربا مقدسة تمسك على الإسلام وحدته وترد عوادى

الشقاق عنه . ومن يدرى إن كان قد عولج الأمر بالحزم قبل استفحاله أكان لا يجنب البلاد ويلات الحروب والخلافات اللاحقة الناجمة عن فتنة عائشة وطلحة والزبير . ولكن هكذا كانت نظرته وليس على المواطف رقيب حساب ! ...

وجمع عثمان بن حنيف صحبه من ذوى الرأى يشاورهم فى الأمر . وقام يخطبهم مبينا لهم ما يراه :

« يأيها الناس ... إنما بايعتم الله ، يد الله فوق أيديهم . فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما . . والله لو علم على أن أحداً أحق بهذا الأمر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره لبايع وأطاع وما به إلى أحد من صحابة رسول الله حاجة ، وما بأحد عنه غنى ، فلقد شاركهم فى محاسنهم وما شاركوه فى محاسنه . ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريد الله ، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع ، والرضاع قبل الولادة ، والولادة قبل الحمل ! . وطلبا ثواب الله من العباد ... » .

كان مؤمناً بعدوانهما على حق مولاه وبحسدهما إياه ، يعلم أن نكثهما البيعة له ما وراءه من الأهواء والمطامع الذاتية وإن ألبسوه ثوباً من التمويه . ولكنه مع ذلك لم يرد أن يركب العنف ، ولعله فى هذا كان مشفقا من الشقاق الذى لاح أنه يوشك أن يعم أهل إقليمه ويقسمهم فريقين بين الحزبين . . . فلقد شهد كيف كان موقف عمران يعارض موقف الدؤلى ، وإنهما لمثلان لبقية الناس ... بل قد كاد يركن قليلا إلى التزام واجبه فى إطفاء الفتنة بقوة السلاح ، حتى قال له هشام بن عامر :

« يا عثمان ، إن هذا الأمر الذى تروم يسلم إلى شر مما تكره . . . إن هذا فتق لا يرتق ، وصدع لا يجبر ، فسامحهم حتى يأتى أمر على ، ولا تحادهم » .

وتفكر ملياً ودفعت الحمية حكيم بن جبلة فهتف به :

« إن دخلا علينا قاتلناهما ، وإن وقفا تلقيناهما ... ووالله ما أبالى أن أقاتلهما وحدى ! أيها الأمير ، هذه دعوة قتيلها شهيد وحيها فائز ، فهلم ! وهذه ربيعة معك ! . . . » .

ولكنه آثر الأولى وجنح للسلام . . .

٢

تحركت قوات عائشة ، وزايلت مواقفها بالحفير . لعل صبر ابن حنيف قد أطمعهم فيه . أولعلهم رأوا أن المربد خيرمكاناً من موقفهم الأول فسعوا إليه . وربما لم يكونوا قد أزمعوا بعد أخذ أخصامهم بحد السيوف وإنما ساروا ليخبروا عزم القوم . . إن فى بالهم أن طائفة من البصريين جمة العديد سوف تنصرهم وإن كان الوالى قد أخذ الحيطة وتواقف جنده مدججين . . .

وتوافد عليهم أهل البلدة ، فيهم المبغض الزارى وفيهم الولى الحميم . ولم ينم عنهم عثمان بن حنيف ، بل خرج فى رجاله حتى غص المكان بأولئك وهؤلاء . أفكان أصحاب الجمل قد جاءتهم الأخبار من عيونهم بأن صنائع ابن عامر فعلوا فعلتهم وأغروا النفوس حتى خلعت أو كادت تخلع طاعة الإمام ؟ . أوشك هذا أن يكون ما عمر أخلادهم وبات إلى حسبانهم أقرب من جند عتاة يملكون عليهم المسالك ويدفعونهم دفعا عن استهواء الناس وتجييشهم فى صف الفتنة . . وكان حدسهم صوابا أو قريبا من الصواب إذ بدت الطريق أمامهم مكشوفة لا يعترضها حماة . وحتى حين التقوا فى نواحيها ببعض قوات الوالى لم تلقهم مقاومة ، بل أوسعت لهم دون قتال . .

على اللاينة عقد ابن حنيف العزم ، فالسلم رام . كان رأيه بعد أن شاور صحبه أن يكف عن هذه الجيوش النازحة إليه من الجنوب ما كفت عنه ، حتى يأتيه من أمير المؤمنين أمر . كبح عنها سلاحه ، ورد جماح الكثيرين من رجاله الذين كانوا يرون الخير فى المبادرة إلى قط الهام ! . . وبالمربد اجتمع الفريقان ، كل إلى ناحية منه : جيوش عائشة فى الميمنة ، وبالميسرة الوالى وأهل الإقليم . لاموقف سلام كان أدنى للحرب من مقامهم ذاك ، ولا أسنة كأسنتهم أقرب إلى صدور مشرعيها . . لو طارت شررة واحدة فى الجو حينئذ لكانت كفيله بأن ترتد حريقا يؤجج سعر النار ، فالنفوس فى أعماقها ثورة كالبركان قبل أن يدفع حممه ، والحواس متحفزة ، والأعصاب توترت كتل القوس عند إعدادها للتصويب .

وكان طلحة هو الذى أثار الشررة ... حينما مد بصره بين الجموع المزدخرة لم ير سعة ميدانا خيراً من هــــذا يخرج منه ملىء الكفين بالأسلاب ! . . غايته وطائفته من هذه الرحلة كسب الأنصار والأولياء ، وما أقربهم الآن إليه . فقريباً كان للبصرة هوى فيه ، قريبا قبل ما دون العام ، من شهور ، خلال الأحداث التى جرت بمصرع عثمان . فيها له حزب قوى لاريب يسارع إلى نصرته إذا أشار . . وفيها أيضاً صنائع ابن عامر ومن عسى أن يكونوا قد اجتذبوا لناحيتهم من أناس استهوتهم الدعوة أو غرتهم الأمانى المبذولة بغير حساب . أما بقية الأهلين ففرقتان واحدة لن ينزع نازع من قلوبها الولاء للإمام ، وثانية حرية بأن تميل مع الهوى ومع الإغراء كل مميل ، وما الأولى عليه بذات خطر بعد أن علم أن ابن حنيف يحد من غلوائها ويكبح حميتها ليبقى على السلام .

فى هذه الحشود الزاخرة وقف طلحة بجانب المربد الأعن يزجى الـكلام رقيقا معسولا يدغدغ به عواطف الناس . فـكأنه نسى ما سلف من عيبه على عثمان وشدته فى التأليب عليه ولم يذكر سوى أنه كان بارا ، فاضــلا ، مظلوما جوزى من مناجزيه أسوأ الجزاء . . أيطل دمه ياترى ويضيع ؟ . بل القصاص أولى وأقوم وأدعى إلى احترام أوامر الله واجتناب نواهيه :

« . . . أما الطلب بدم الخليفة المظلوم فحد من حدود الله ، فيه إعزاز دين الله وسلطانه وإنـكم أيها الناس إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليـكم ، وإن تركتم لم يكن لـكم سلطان ولم يقم نظام . . . » .

وتــكلم بعده الزبير بمثل كلامه والجموع حولهما تتهاتف وتصيح بين المعارضة والتأييد . ليوشك الأمر أن يصل حد الافتتان ، فإذا قامت عائشة تتحدث بين الناس فأحر بها أن تــكسب لحزبها أولياء ، وأن تضع عن نفسها هذه المعرة التى لحقتها إذ تركت ما كان أولى بها أن تلتزمه من الحجاب والتستر خلف الجدران . فما زال الناس يلحونها لهذا الخروج ، وما فتئوا ينـكرون منها إذ هى قدوة لنسوة المؤمنين . . .

وقامت ، وخاطبت الجموع بصوت جهير :

« أيها الناس . . . »

فغطى هتافها على الشغب المشبوب ، وألقوا إليها الأسماع .

كرة أخرى جردت عثمان من كل ما سبق أن أعلقته بثوبه حتى أعادت الثوب نقيا ناصع البياض ! . . إن عذرها فى تغيرها هذا معلوم وإن أخذت خصومه أن سمموا لها حق قتلوه ! . . أما الآن فالرجل مظلوم ، ودمه المطلول لا بد أن يرده القصاص .

وقالت للقوم :

« . . . كان الناس يتجنون على عثمان ، ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا . . فننظر فى ذلك فنجده بريا تقيا وفيا ، ونجدهم فجرة كذبة غدرة ! . . »

فلو قالت هذا قبل بضعة أشهر فلعلها كانت تؤخر نهاية الصريع الشيخ ! . ولكن عائشة اليوم غيرها بالأمس . فقد اجتثت من فؤادها دوحة الغضب واستنبتت على أثرها دوحة رحمة وإشفاق وتشيع لعثمان ! . . من حقها دون ريب أن تحزن للقتيل ، وأن تدعو للثأر ممن بغوا عليه لأن القتل جريمة نكراء لها قصاص مفروض ، وليس يجدر أن يخلى بين قاتل وبين الحياة يستمرئ فيها العيث بالرقاب . وإذا كان تطرفها فى الغضب بالأمس قد أنساها الحكمة حتى أهابت بالمسلمين أن يأخذوا على يد ابن عفان بالعنف ولو قتلوه ، فذلك لم يكن فى حسباننا إقرارا منها لشرعية الجريمة ولادعوة إليها جادة . . كان تأليبها على الخليفة بصورته القاسية تلك خطأ منها بغير شك ، استشعرت له الندم فيما بعد فقامت بحركتها لتكفر عنه . ولكنها الآن تهم أن تعالج نتائجه بخطأ أفحش منه ينصف المظلوم بظلم برىء سواه ! . . ألا تراها كيف راحت تدعو الناس ، إلى جوار حماهم على الثأر للقتيل ، بدعوة جائرة تحيف على حق الإمام أبلغ التحيف وتوشك أن تؤجج عليه نيران الفتنة فى كل الأقطار ؟ . . كانت تقول :

« . . . ألا إن ما ينبغى ولا ينبغى لكم غيره ، أخذ قتلة عثمان ، وإقامة كتاب الله . . . من الرأى أن تنظروا إلى قتلة عثمان فيقتلوا به . . . ثم يرد هذا الأمر شورى على ما جعله ابن الخطاب ! . . . » .

فيالها من دعوة ! ويأله من منطق ساقته السيدة عجيب ! . . .

وتصايح الناس . وساد الشغب والهرج جوانب الفريقين حتى لقد تقاذفوا بأقذع التهم ثم تحاثوا فيما بينهم بالحصباء . وأوشكت الفتنة أن تشيع فى الصفوف والأكف تشتد على مقابض السيوف ثم تهم أن تهزها للنضال . ولكن عائشة على أى حال قد بلغت بعض شأوها أو شأو حزبها فى الصحيح ؛ ربحت الجولة الأولى من معركة البصرة ، ووسعها أن تعدو على الصقر الهاشمى وهو بعيد فتنال من طرف جناحه بعض ريشات ! . فما انجاب خطابها إلا عن خلاف بين رجال البلدة التى كانت تدين حتى ساعة بطاعة الإمام . وتفرق النفر الأكبر من أصحاب الوالى عنه بعد أن فتنتهم السيدة عما كانوا عليه ، ثم انطوى تحت لوائها منهم فريق عظيم . . .

كادت الأسلحة أن تتحدث بين رجال ابن حنيف : الباقين فى أمره ومن انشقوا عليه وخالفوه . ولولا بقية حكمة تذرع بها الناس لشاعت فيهم المقتلة بأسنتهم . أما عائشة فقد انحدرت برجالها ومن تبعها من مفتونى البصريين إلى المربد فى موضع الدباغين ، وإنها لتشهد كيف أثار وجودها هذا الشقاق بين الإخوة الآمنين ، ولسوف تشهد له آثارا دامية عما قريب .

وخرج جارية بن قدامة وقد بلغه نبأ هذا النزاع فلحق بالقوم . فحين وسعه أن يصل إلى مقام السيدة تقدم إليها وقد ران الحزن على قسمات وجهه وغلفها أسفه ، ثم قال لها فى إنكار :

« يا أم المؤمنين . والله لقتل عثمان بن عفان كان أهون علينا من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح . قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك . . . أما والله إنه من رأى قتالك فقد رأى قتلك ! . »

فكأنما فك حديثه عقالا كان يمسك ألسنة الناس ! . . . سرت فيهم الجرأة بعد التهيب ، وغدوا أدنى إلى معارضة أشياع السيدة وجدالهم مما كانوا من قبل . . فاذا رجل ينفلت من بينهم يهتف باسم طلحة ، حتى إذا جاءه صاح به على ملأ من القوم وهو يهز كتابا فى يده أمام عين الزعيم :

« ياطلحة بن عبيد الله . . . أتعرف هذا الكتاب ؟ . . »

فتريث برهة ، والقوم حوله يرهفون الأسماع ، ثم أجاب :

« نعم » .

« فما ردك على ما كنت عليه ؟ . . . »

فلما لم يأته جواب نزع إلى الإيضاح فى غير إبهام وهو يستأنف الحديث :

« . . . كنت أمس تكتب إلينا تؤلبنا على قتل عثمان ، وأنت اليوم تدعونا إلى الطلب بدمه ! . . زعمتما أن عليا دعاكما إلى أن تكون البيعة لكما قبله . . . فأبيتما إلا أن تقدماه وبايعتماه . . . فكيف تنكثان ؟ . . . »

« إنه دعانا إلى البيعة بعد أن اغتصبها وبايعه الناس ، فعلمنا حين عرض علينا أنه غير فاعل . . . ولو فعل لأبى ذلك المهاجرون والأنصار . وخفنا أن نرد بيعته فنقتل فبايعناه كارهين ! . . . »

« فما بدا لكما فى عثمان ؟ . . . »

« ذكرنا ما كان من طعننا عليه وخذلاننا إياه فلم نجد من ذلك مخرجا إلا الطلب بدمه ! . . »

فخروجهما إذن ندم على ما سلف وتكفيرا ! . . .

« فما تأمرانى به ؟ . . »

« بايعنا على قتال على ونقض بيعته »

« أرأيتما أن أتانا بعدكما من يدعونا إلى ما تدعون إليه ، ما نصنع ؟ . . »

« لا تبايعه ! » ،

فارتسمت على شفتيه بسمة ساخرة وأجاب :

« ما أنصفتما ! . . أتأمرانى أن أقاتل علياً وأنقض بيعته وهى فى أعناقكما ، وتنهيانى عن بيعة من لا بيعة له عليكما ؟ . . . »

ثم استطرد وفى صوته نبرة تهكم واستنكار :

« أما إننا قد بايعنا علياً ، فإن شئتما ، بايعناكما . . بيسار أيدينا ! . . »

وتوالت بعد هذا مشاهد شتى تؤذى أعين الرجلين وأسماعهما ثم يكون

لها فى فؤاديهما مثل وخز النصال . . . أقبل عليهما فتى من بنى سعد كان سمع حديث ابن قدامة لأم المؤمنين منذ قليل ، فبادرهما بهذا السؤال :

« أرى أمكما معكما ، فهل جئتما بنسائكما ؟ » .

« لا » .

فهز كتفيه دون اكتراث ، ثم لوى عنهما وجهه وهو يقول :

« ما أنا إذن منكما فى شىء ! . . »

ومضى يتهاتف بشعر يصور سخريته ويزرى بهما أشد الإزراء . . .

إن تلك الفترة من الزمن التى قضياها بالمربد ، والتى حسباها فى البدء أطلعت عليهما أول خيوط شمس النصر ، قد حملت لهما من شكوك الناس ومن لجيهم وتهكمهم أنواعا لم تجر لهم فى حسبان . ولكن ثمة نوع آخر كان أقسى عليهما من سوابقه ، إذ جاءهما على لسان ولى لا ينكر إخلاصة لكليهما أو لأبيه منهما فى القليل . . . فلقد صك سمع طلحة إذا ذاك حديث لولده محمد جثم على صدره وأصاب من براءته ومن كبريائه حتى لأوشك أن يوقع الخلاف بينه وبين فتاه . . . كان ذلك حين أقبل شاب من جهينة ، على محمد بن طلحة ، فقال له :

« . . . أخبرنى يا محمد عن قتلة عثمان . . . »

فتفكر ملياً ، ثم أجابه بالرأى الذى يرتأيه وإن عينه لتقع على البعير الأحمر الذى كان يمتطيه أبوه :

« دم عثمان ثلاثة أثلاث ، ثلث على صاحبة الهودج ، وثلث على صاحب الجمل الأحمر الذى كان يمتطيه أبوه ، وثلث على على بن أبى طالب . . . »

فتضاحك الفتى الجهنى وقال :

« ألا أرانى على ضلال ؟ . . »

وانقلب يروم عسكر الإمام ليلحق به وإنه ليهتف وهو يبارح ابن طلحة :

« . . . صدقت على الأولين ، وأخطأت فى الثالث ! . . . » .

وإذ بلغ نبأ هذا الحديث طلحة سارع إلى ابنه يلحاه .

« أتزعم عنا قولك إنى قاتل عثمان وكذلك تشهد على أبيك ؟ . . . »

فلما لم يأته منه إلا الصمت . صاح مغضباً به :

« كن كعبد الله بن الزبير ، فو الله ما أنت بخير منه ، ولا أبوك بدون أبيه . وكف عن قولك أوفارجع ، فإن نصرتك نصرة رجل واحد وفسادك فسادعامة ! »

فلم يكتم الشاب حينئذ رأيه ، وقال دون مبالاة :

« ما قلت إلا حقاً ، ولن أعود ! . . »

٣

ساد البصرة الاضطراب الذى يجيء عادة فى أعقاب الانقسام . لا يتلاقى رجلان من أهلها إلا كان ثالثهما جدالا أو ملاحاة وخصومة أو صراعا قد يوفى على إراقة الدماء . ولا بيت فيها انضم بعد ذلك اليوم على هدوء أو ذاق طعم السلام . ولا قبيلة بقيت لها عروتها وثيقة فأجمعت كلها الرأى على نصرة فريق من المتناجزين دون سواه ... أولئك الذين فتنتهم عائشة بدعوتها رأوا حقاً عليهم الطلب بدم عثمان المظلوم وإن جرت دونه أنهار من الدماء وأنهار . وأولئك الذين حالفوا الإمام ثبتوا حيث أوجب الوفاء عليهم الثبات . ولكنهم فى حقيقة الأمر لم يصدروا فى ثباتهم هذا عن الرغبة وحدها فى استمساكهم بالولاء للأمير الذى بايعوه ، بل عن حافز أقوى وأشد هو عندهم جماع هذه الحياة . . . إنه التقيد بالمبدأ الذى اختطوه لأنفسهم وناخوا عنه ، والتزام محجة المثل الأعلا الذى كالخوا طويلا حتى أوشكت أن تبزغ فى سمائهم شموسه . أما اليوم فثمة غيم فى الأفق كثيف يكاد أن يحجب الضياء . النذر تتجمع حولهم فى كل مكان مشيرة إلى طلوع عهد جديد ، بغيض ، تثور فيه العواصف وتجمح الأعاصير . . . أم هو ياترى عود إلى الماضى المظلم ؟ . . أينما وجهوا العين فى صفوف هذا الجيش الذى جاء ليغلبهم على ما كسبوه طالعتهم الوجوه البغيضة . . . بدت أشباح ذلك الماضى الذى انفرط ، وما كاد ، على سحن كثيرين ممن احتوتهم الصفوف . فها هو ابن عامر ، عاملهم القديم الذى قشروه عن البلدة ، يعود ! . . . وهذا ابن عقبة الفاسق

الخليع هو الآخر يعود ! . . . وها هنا أيضاً يرون مروان ابن طريد الرسول . . مروان الطاغيه الذى أشعل النار فى الديار وأودى حمقه بحياة عثمان ! . . . ثمة هؤلاء كلهم ومن أشباههم كثر كلما تطلعت إليهم الأبصار أصابت الحلوق غصة ورجفت القلوب مشفقة على مصائر الأمة التى نكبت بهم فى العهد الخالى ونكب الشعب حتى ساموه الخسف وسلبوه كرامة الحياة . . . أفما وجدت عائشة خيراً من أولئكم ظهيرا يسندون دعوتها ويسيرون حولها فى الركاب ؟ .

ليس الأمر أمر أشخاص ، يؤخر فيه هذا ثم يقدم ذاك . . . ليس قصة خليفة يعزل وآخر على أنقاض عرشه يقوم . بل هو أخطر من هذا وأجل . فما يفيد الناس أن يذهب على ويأتيهم من هو خير منه ، إن استطاعوا إليه السبيل ، أو مثله ، فى القليل ، يقوم على أحوالهم فيحسن القيام . وهل لهم فى الإمام هوى غير هواهم بمثله وأهدافه الكفيلة بأن تهبهم الحرية والعدل والمساواة ؟ . ولكن النفر القادمين من الجنوب زاحفين على صليل السيوف وقعقعة السلاح هم عنوان الكتاب الذى تهم السيدة أن تضمه أمام أهل الإسلام وتقول هاؤم اقرأوه ! . ويا شره من عنوان وأتعس به من كتاب . . .

هذا لا ريب عود إلى ظلام الماضى ، بما فيه من إجحاف بحق الشعوب الإسلامية فى الحياة الأبية التى لا يسيطر عليها طغيان طائفة من الخاصة والأشراف . ليست دعوة الثأر لعثمان إلا غطاء يستر جشع السادة الذين غلبهم الشعب على مآربهم وتحرر من ربقتهم ونأى برقابه أن تطأها أقدامهم الثقيلة . . . إنها غشاء للنهم إلى السلطان والتملك والتحكم كيفما يوحى لأفرادها الاستعلاء . ولو قد أتيح ثانية لهذه الطغمة أن تعود سيرتها الأولى لعرفت كيف تسوس من أبوا أن يقروا لها بذلة العبيد .

ما من رجل بين الذين أوجسوا من حركة عائشة إلا كان يراود خاطره من هذا التفكير نصيب . كلهم لا ينكرون عليها دعوة القصاص ، ولكنهم يعلمونه قصاصاً ظاهره عدل وباطنه هدم . . هو هدم للأسس التى جاهد الشعب

جهاده حتى أقامها بعد مشقة وجلاد وطول كفاح . وهو هدم للمبادئ التي أريد بها لم الأمة بطبقاتها جميعا في وحدة تسودها العدالة الاجتماعية وتنمحى منها فوارق الجنس وفوارق الطبقات . وهو هدم للرجل الفرد الذى يستطيع أن يحقق وحده هذه المثل الكريمة لكل من جمع بينهم الإسلام ثم ينافح عنها ما أفسحت له في رحابها الحياة ... وإذا كان الأسى قد أخذ بقلوب فريق من أهل البصرة إذ ذاك إذ يشهدون كيف فرقت دعوة أم المؤمنين بينهم وبين إخوتهم . فإن أشد الأسى وآلمه لذعاً أنها باعدت بينهم جميعاً وبين تحقيق المبادئ التي صبوا إليها لأن دونها اليوم ميادين وسيعة من الخلاف والمناجزات ...

نعم فقد هبت الريح ، وأوشكت النذر المتجمعة أن تشير إلى جو عاصف ونوء قاصف تودى بسفينة الإصلاح . فعنوان الكتاب معروف ! ... والمستقبل الذى تتحدث عنه صفحاته صورة من الأمس الراحل الذى حسبوه قد ذهب وانطوى ولن يعود ... ثم ها هم الآن ، فكيف الخلاص ؟ ...

من استطاع من أهل البصرة صبراً قهر نفسه على الصبر المر ، وقليل استطاع ؛ ومن دان لأميره ابن حنيف بالطاعة سكن كمثله مؤثراً الإبقاء على السلام أن يتمزق إهابه وتتقطع أسبابه ؛ هؤلاء انحرفوا عن جيش عائشة ، ومن لاذوا به ، ووقفوا على فم السكة ناحية المسجد عن يمين الدباغين يعنون الناس ويأخذون عليهم الطريق . ولكن ثمة طائفة أثارتهم خيانة ذلك الفريق من مواطنيهم الذى تنكر لمبدئه وانحاز لعسكر الغزاة ، فلم يملكهم الصبر ، وآدهم الصمت والقعود .. أولئك نفذت أبصارهم إلى ما خلف المظاهر البادية ، وما وراء السلم الذى يلبسهم ثوب تخاذل ثم قد تكون له مغبة تضيع فيها المبادىء التي ناضلوا عليها من قبل ، ويأتيهم غدهم بشر مما كانوا فيه بالأمس في عهد عثمان الذى كان مروان وأضرابه يتربعون عرشه . . لم يستطيعوا صبراً على ما يشهدون ، وهذه ثمار جهادهم توشك أن يبتزها حزب عائشة ، وتلك الطغمة من مواطنيهم الخائنين ، وتلك الشرذمة من الولاة المنبوذين . فحين تسامعوا بالأنباء كان يعتمل في صدورهم مثل إحساس الأسد يتأهب لحماية عرينه ، ويدفع عنه العاديات بالظفر والناب . وكانت الأنفة

فى دمائهم تضطرم كنار . فليس لعلى غضبتهم بقدر ما هى لكيانهم القومى وكرامتهم كشعب له منزلته الواجبة فى نفوس حكامهم وإن كانوا عربا خلصا من ذلك العنصر الذى حسب لنفسه السيادة على بقية الأجناس . فما عادت العنصرية شيئاً يؤمنون به ، بل الإسلام . فلقد علمهم كيف يكون الناس كلهم سواسية ، إخواناً على سواء ، فلا سادة بعد ولا دهماء . . .

بهذا دارت الأمور فى الخواطر ذلك اليوم عند المربد وأصحاب الحمية يرون تلك الطغمة من الخونة ومن الولاة القدامى أهل الطغيان . . . ومنه استشعروا قوة غامرة تدفعهم دفعاً إلى النضال ، حماية لحريتهم وقوميتهم أن تطأها أقدام الأشراف . . . وإنك لتكاد أن تشهد كيف يتوثب بهم حماسهم فلا يستقرون ، ولتسمع أصواتهم اللاغطة تبدأ همسا خافتا ثم تسرى قليلا قليلا ، وتشتد قليلا قليلا ، حتى تعلو فتشبه الصياح . فإذا انزاح عن صدورهم وقر الصبر الذى اصطنعوه ، تبدلت بهم الحال غير الحال ، فلم يصغوا لنصح ناصح ، ولا لردع رادع وإن كان عاملهم وصاحب الأمر فيهم بعد الإمام . بل يتهافتون مغضبين ، وتلعب بهم ثائرة الثورة ، وترتجف فى أكفهم رماحهم ثم يكرون كالسيل الدافق على عسكر عائشة ليس يردهم ولا يرهبهم أنهم قلة أمام كثرة حسنة العتاد . . .

ويصيح حكيم بن جبلة ، الرجل الذى ود لو قاتل وحده جموع الجمل الغزاة ، فيهتف بمن تبعوه من الفرسان :

« إنها قريش ! إنها قريش ! . . ليردينها جبنها والطيش ! . . »

فما أسرع ما يستجيبون لندائه فتنحدر بهم خيلهم حتى تركب زمر الملتحقين بعائشة وجندها حتى لتذهلهم المفاجأة فيقفوا كأنهم حيارى مضيعين . ويشد عليهم حكيم ، وتنزاح قدامهم رويداً رويداً عن الأرض التى كانوا قد اتخذوها لمنزلهم . فلعل فريقاً منهم حسب لو لقى المهاجمين بالأناة وكف عنهم انثنوا عنه . ولكنها كانت دفعة ليس يمسكها صبر ، فإذا الأسنة بعد قليل تعتنق وتتشابك فيختلط فى الغمرة الفريقان . ثم علك الحماس طائفة أخرى ممن شهد هذا القتال من أهل البصرة ، أولئك الذين كانت دورهم تشرف على ميدانه ،

فيحصبون بالحجارة وهم بأعالى بيوتهم من كان على قيد مرماها من هذا الفريق أو من ذاك . هنالك سالت الدماء على فم السكة عند المربد حتى أوشك لونها أن يغلب الناس على حكمتهم وكادت الفتنة أن تعم فيأ كلهم القتال . ولقد كان أقرب إلى الحدوث أن يتقهقر الفرسان بعد قليل أمام عدوهم حين يرتد إليه جنانه الذى طاشت به المفاجأة فى البدء ، ولكن ما حدث كان النقيض . فإذا برجال عائشة الكثر يجنحون للانسحاب وما تزال الخيل تشد عليهم وتضغط أيما ضغط ، ولولا أن وقعت عليهم ظلمة الليل ماتحاجزوا ولا انثنى عنهم فرسان حكيم .

أمرت عائشة إذن رجالها بالتقهقر إبقاء على هيبتهم أمام الناس أن تنال منها مثل هذه القلة ، أو رغبة فى الظهور كمن يحرص على السلام . فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بنى مازن يلقفون أنفاسهم مليا ويستريحون . وكان الليل قد غشاهم هنالك بستر وجدوا فيه الأمن والطمأنينة . وبدت لهم من بعيد أشباح خصومهم تنحسر رويدا رويدا عن الساحة التى خلفوها ، وتثوب راجعة إلى البلدة تنفض عنها وعثاء القتال . وإذ حسبوا أنهم الآن قد باتوا بمعتصم يعسر على عدوهم أن يفاجئهم فيه ، فقد أوشكوا أن يجعلوه مثابا . غير أن رجلا من تميم عليما بمواقع الأرض فى أرجاء البصرة ، جاءهم فدعاهم إلى مكان سواه أمثل وأحصن ، فتابعوا رأيه . ومضوا خلفه فى وادى الموت ، خلال القبور ، تحت ستر المساء حتى انتهوا إلى دار الرزق فضربوا فى ساحها معسكرهم ، ثم أقبلوا فى همة وجلد يعدون العدة ويتأهبون لمعركة الغد . لقد عزموا أمرهم على الأخذ بالثأر حين يسفر النهار .

فأى مشاعر كانت تتناوب الوالى تلك الليلة وقد ثاب إلى دار الإمارة ؟ . إنه ليرى بعينيه كيف اشتبكت عليه الأمور وغدت هوادته شرآ لن يسلم معه هو أو امرؤ ممن بايعه على السلام . فعددهم جميعاً قليل ، وعدوهم فى منعة بمن أجلب معه ومن حالفوه من رجال الإقليم . لقد حمق حقاً حكيم إذ ركب حزب الجمل بفرسانه وإن أوشك أن تظهره عليهم شجاعته وكادت تدنيه من النصر . ولكنها كانت دفعة ، وكانت غمرة حقيق بجندهم الضخم أن يثوب من غشيتها فيعود

أقوى على معاودة الصراع بعد قليل . وها هم لا ريب قد ملكوا أعصابهم ، وراحوا يتأهبون . أفيهجمون ؟ . أيسيرون إليه فى جحافلهم عند إشراقة الصبح ليقهروه ؟ . ومن له بقتالهم لو عقدوا العزم حقاً على القتال ؟ ...

ثمة أمل واحد كان ما زال يداعب قلب ابن حنيف : أن يثبتوا عند عهدهم له فيصبروا عليه حتى يأتيه رد من الإمام . فقد كان ذلك عهدهم قبل أن يفجأهم حكيم ... لقيهم الوالى غب قدومهم فسألهم :

« ما نقمتم على صاحبكم ؟ ... » .

فقال له الصاحبان :

« لم نره أولى بها منا . وقد صنع ما صنع ... » .

فلم يحاجهما فى شىء ، وإنما أجاب وهو يبغى أن يسود بينه وبينهما الأمن والصفاء :

« ... فإن الرجل أمرنى . فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له ، على أن أصلى بالناس حتى يأتينا كتابه ... » .

فأظهرا الرضا ووافقاه ، وكتب بهذا إلى أمير المؤمنين ...

ولكنه الآن لا يأمن أن يظلا على ذلك العهد بعد ما كان من ثورة حكيم . بل هو لم يأمنه كذلك من قبل وفى حزبهما كل أولئك الرجال أصحاب الخدع المفتونين بالغدر وتدبير المؤامرات أم يصبر يا ترى مروان . ويجنح للسلم أشياعه من صنائع العهد البائد ولن يأتى من على إلا ما يفضح تبييتهم ويكشفهم أمام الناس عرايا لا يستر غاياتهم تمويه ؟ ... قلبه يقول لا ، وماضيهم أيضا ، وسيرى كيف يغدرون ...

وغدا الرجل فسار والشمس ، كلما قطع من الطريق شوطا تكاثرت عليه الأنباء عن تأهب القوم للقتال . ولكنه رأى لزاما عليه أن يلقاهم عسى أن يؤيدوا له عهدهم بالسكون . وسار فوجدهم بساحة دار الرزق على رجل ، مدججين شاكين . وما نحسبه قد مشى إليهم يبغى قتالا وهو أعلم بما صار إليه من فقر فى السلاح والنصير بعد أن فتنوا عنه كل أولئك الجوع من أهل الإقليم . لقد كان كل أربه

أن يقفوا مواقفهم ، بسلام ، حتى يأتيه جواب أمير المؤمنين وما نحسب أيضاً أن ثمة طائفة من أهل البصرة كانوا يطمعون أن يفوزا على خصومهم بحد السيوف . ولكن ابن جبلة كان لا يقر هذه السياسة ومن تابعه من عبد القيس ، وإنهم لقلة . غير أنه كان أنفذ من صاحبه بصراً وأجلى بصيرة ولو أطاعه ابن حنيف منذ البدء فالتي جموع عائشة بالعنف لما وسعها أن تقص هكذا جناحيه ، وتجعل لها اليد العليا فى مصائر الأمور . . .

وفى لمحة عين تبدل الجو ، وذاعت فى ثناياه رائحة الحرب . . . فما بدا حكيم ورجاله أمام أصحاب الجمل حتى طارت الشررة التى أججت النار . . . لم يصبر هو أن يدنع أعوان الباطل وأمنهم ، ولم يصبروا أن يدعوه ولا ينالوا منه ثأر ليلة الأمس . وكان شديد الإيمان بما يقوم فيه وإن أورده هلكه . وكان مشبوب الحدة فوار الغضبة فما يطيق أن يعترض سبيله شيء . وإنه ليمضى إلي القوم وهو يزمجر كالليث ، ويندفع سخطه من فيه كسم الرقطاء ينوش عائشة التى يراها أصل كل هذا البلاء ... وعندما يلحاه رجل من الناس على نيله من السيدة بلسانه الهدار بالزراية يسرع فيلقمه الرمح جواباً على هذا اللوم ! . . نعم قد فعل ، ثم عاود أيضاً فطعن امرأة قدحت فيه كما قدح ذاك وصاحت به فى إنكار :

« يا ابن الخبيثة ! . . ألأم المؤمنين تقول هذا ؟ . . . »

على أى حال ، مالاح حكيم ورجاله لأشياع الجمل حتى شب القتال . الله يدرى أيهم أنشبه ، وإن كان لصحب عائشة دم عند عبد القيس قد يناديهم للثأر ، وكانت لابن جبلة دفعة قد لا يطيق معها الصبر على قناتة أن تظل نظيفة لا يلوثها دم ! . .

وقعت الواقعة . وحمى فيها الصراع والشمس تخطو أولى الخطا نحو الضحوة وتأور لهبه وهى تجنح للغرب . قضوا النهار كله يتقاتلون ، ولا يصغون لغير صليل السلاح . لم يصخ منهم واحد لصوت العقل كأنما همهم أن يحيلوا مواقع الأقدام تحتهم بركة قانية ! . . وحين بلغ من جزع عائشة أن دفعت مناديا يدعوهم للكف غرق صوته فى هدير المعركة . وبقوا على حالهم مفتونين عن التبصر حتى كثر القتلى فيهم وشاعت الجراحة . . .

ثم تداعوا إلى الصلح حين لم يعد منه محيص بعد أن نالت الوغى منهم أيما منال ثابت نفوسهم أخيراً إلى قرار ، فأوقفوا عجلة الموت . . . شدوا على رحاها الدائرة وقد كادت أن تردهم إلى مهل وتراب ! . . وتواقفوا على أشلاء صرعاهم متحاجزين ، منكسى القنا والرماح . . .

كذلك جاءت هدنتهم غب محنة ولأواء ، فكتبوا عهداً بينهم وأبرموه أن يقيم كل فريق منهما حيث أدركه الصلح على ما فى يده لا يضار فى مسجد ولا سوق ولا طريق ، على أن يبعثوا أمينا إلى المدينة يأتيهم بحقيقة مبايعة الزبير وطلحة أمير المؤمنين ، فإن كانت عن رضا دخلا فيما دخل فيه الناس أو غادرا البصرة ، وإن كانت كرها فلهما الأمر فى البلدة وخرج منها عثمان بن حنيف .

وعلى هذه الهدنة جفت الصحف ورفعت الأقلام ! . . .

٤

أقرت السيوف فى أغمادها بعد الهدنة ؟ . . أبقيت صفحة الماء هادئة لا يحركها شيء ؟ . . لم يتح ذلك ، وجاء الأمر على نقيض ما كان الناس يرجون كأنما إذ أنسوا للسلم من وراء ذلك العهد المكتوب إنما كانوا فى حلم سوف تبدده يقظة مباغتة يذوب بها فى أضواء النهار .

وكان أولى القوم بعلم زيف عهدهم أولئك الذين جاءوا فى ذيل عسكر يقطعون الفلاة لأمرهم وحدهم مبيتوه . فهذا الحزب من قريش رسم خطاه قبل أن يسير ورتب مواطىء أقدامه بحيث تقوده فى نهاية الشوط إلى الهدف المأمول . ما كان لهم من غاية إلا نقض بيعة الإمام واحتلاب سلطانة تحت ستر موهوه بدم الخليفة القتيل . استباحوا فى البدء ذلك الدم ثم قاموا من بعد ينوحون عليه كالثواكل . وذوو الغايات ، فى سبيل مآربهم ، لا يأنفون من ركوب كل محظور

أرسلوا إذن أمينهم عقب الهدنة إلى المدينة ليأتى لهم من لدن أهلها بحقيقة مبايعة الصاحبين أمير المؤمنين . . . فكأن هذين قد غابت عنهما الحقيقة

أو ألبست بشبهة ! .. ولو قد آثرا تجنب الانحياز إلى هواهما لطالما الناس بالصدق الذى لا يغشاه زيف ولا تمويه ، ولصارحاهم بما يعلمان أو بما يكتمان . . . إن فى جعبتهما كتاباً يجيد رسم هذه الحقيقة ، ولكنهما ليسا من الإخلاص لمهدهدنة فى درجة تدفعهما لنشر ذلك الكتاب ! . . من خطل الرأى — فيما يظنان — أن ينشراه ، ومن الإدراك السياسى ـ الذى لا يتكلم بغير لغة التوصل إلى الغايات بأى ما سبيل — بحيث يقدمان الكتمان ويطويان على سطوره الوفاض . . . وإذا أتيح لامرىء أن يقرأ ما فيه لرآه جاءهما من أمير المؤمنين ، يلزمهما به الحجة ويلزمهما البيعة التى أراداها بالنكث إذ كانت كادعائهما من غير رضا واقتناع .. كتب لهما على يدحض زعمهما ويقيم الأمور حيث يجب أن تقام :

« . . . قد علمتما — وإن كتمتما ! — أنى لم أرد الناس حتى أرادونى ، ولم أبايعهم حتى بايعونى . . وإنكما ممن أرادنى وبايعنى ... فإن كنتما بايعتمانى طائعين فارجعا وتوبا إلى الله من قريب . وإن كنتما بايعتمانى كارهين فقد جعلتما لى عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية !.. ولعمرى ما كنتما بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان ، وإن دفعكما هذا الأمر من قبل أن تدخلا فيه كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به . . . » .

ثم عرج على قصة مصرع سلفه ، فأنصف غاية الإنصاف إذ أراد أن يجعل الحكم بينه وبينهما فيها كل رجل من المدينة آثر أن ينأى بجانبه عن التشيع له والانحياز لصفهما ، لعلهما بهذا التحكيم يأمنان أن يتحيف عليهما الناس بالاتهام . قال بذيل ذلك الخطاب ولم يغفل أن يسديهما النصح خالصا لوجه الله :

« ... وقد زعمتما أنى قتلت عثمان . فبينى وبينكما من تخلف عنى وعنكما من أهل المدينة ، ثم يلزم كل امرىء بقدر ما احتمل ... فارجعا أيها الشيخان عن رأيكما ، فإن الآن أعظم أمركما العار من قبل أن يجتمع العار والنار ! ... » .

ولكنهما آثرا أن يطويا الكتاب عن الأنظار كما طويا من قبل حقيقة ما كان من بيعتهما التى كانت عن رضا واختيار . . . أفأمنا يا ترى الناس أن يعلموا ما أخفياه ؟ .

بل الحق معلم له نور يهتك دائماً حجب الظلمات . وإذا كانت البصرة ، موئلهما الآن ، بعيدة عن يد الإمام . فما هى ببعيدة عن الأخبار تسرى إليها مع الركبان من كل إقليم ، ومن جارتها الكوفة قبل غيرها من البلدان . فإلى هذه كتب على يروى نبأ صاحبيه ، وموقفهما وموقفه من عثمان بن عفان ، لم يستر شيئاً إلا رواه فى هوادة وترفق وإن وسعه أن يعنف ولا يجاوز بالعنف حد الإنصاف :

« إنى مخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه . إن الناس طعنوا عليه ، فكنت رجلا من المهاجرين . أكثر استعتابه ، وأقل عتابه ، وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف ، وأرفق حدائهما العنيف . وكان من عائشة فيه فلتة غضب فأتيح له قوم فقتلوه ، وبايعنى الناس غير مستكرهين ولا مجبرين ، بل طائعين مخيرين . . . » .

بمثل هذا تناقلت الألسنة حقيقة القضية التى أخفوا خلفها المطامع والآراب . وبأعنف منه وأقرب إلى الصراحة التى ترسم مكان الصاحبين فى مأساة المصرع فلا تغفل أدق الخطوط ، كان الأمام يتحدث فتطير أحاديثه إلى كل مكان . . . وصلهما طرف من كلامه هذا بغير شك ، ووصل أيضا حليفتهما فجعلهم جميعاً أدنى إلى مجالس الاتهام ! . . ولقد ألقاه ذات مرة حديثاً مدويا زلزل تحتهم أركان الأرض ، وجاوز فيه الهوادة إلى الصراحة المريرة ، فهل ارعووا وسالموه ؟ .

كلا ، بل لجوا فى الغى ! . . ومضوا فى طريقهم — وهم الفئة الباغية كما طبعهم بلفظه — يطلبون حقاً هم تركوه ، ودما هم سفكوه ! . . فلعلهم — إذ فتنوا أهل البصرة — قد حسبوا أن قد ملكوا فى أيمانهم الشمس ، لو شاءوا أطلعوها أو شاءوا طمسوها ! . . فكذلك كان شأنهم من البيعة ، قالوا قلدناه إياها كرها وعلى الناس أن يؤمنوا بما يقولون ، على الأمة جمعاء أن تخلعها من أعناقها لأنهم أرادوا النكث وحنث اليمين ! . أما المدينة فإنها نظرة إلى خلاص أو تلبث إلى خلاص أو تلبث إلى حين . وهل كانت إلا عهداً كبيعتهم تلك يجوز عليها نقض ما جاز على سابقتها منذ قليل ؟ .

إنك لن تحسب أن الحال قرت بالبصرة تلو ذلك العهد المكتوب ، وساد فى جنبات البلدة الهدوء . . . عبثا تضع الحطب بين ألسنة النار ثم تكف عنه الاشتعال ! . . عبثا تسكت زمزمة الريح ! . . عبثا تقف حاجزا فى مسيل الطوفان ! . .

لم يهدأ الخلاف بالبلدة وإن خفت حدته بين الحزبين . ففى النفوس نزع ليس للعقول عليه سلطان . وقد بقى من فريق الولاء ابن جبلة وفرسانه ، وأهله وشيعته من عبد القيس ، لا يزالون يضطربون غيظا وموجدة أن يروا دوله الحق هكذا تدول تحت أبصارهم وتهدم الولى والنصير . وبقى الفريق الثانى على ما كان عليه من خطته المرسومة ، يرتب ويبيت وينتظر ساعة التنفيذ . كل طائفة كانت تتوجس شراً من غريمتها ، وتتوقع منها الغدر فى كل حركة . فإذا اقترب بعض الموالين عفواً من منازل الغزاة كانوا فى حسبان هؤلاء قادمين فى شر ، أو مرت بضعة من أصحاب الجمل دانية من رجال عامل الاقليم استقبلوها بالتحفز إذ يحسبونها تحمل الغدر . ولقد حدث يوما أن أقبل محمد بن طلحة فقام مقاما قريباً من عثمان ابن حنيف ، فأسرع نحوه الحرس فنحوه خشية أن يكون قد أقبل ينتزع حياة واليهم غيلة . ولو شهد هذا الحديث فريق مسلح من أعوان محمد لما انجاب إلا عن معركة خطيرة . . . .

على هذا التوتر كانت الحال بين الحزبين ، لم تهدأ ثائرتها الهدوء الذى كان تحتمه الهدنة . بل بقى الناس يتوشهم قلق خفى كأنما تشيع فى الجو أنفاس الفتنة ، ويمتلىء الهواء حولهم برائحة الدم . وما كانوا فى شعورهم هذا إلا صادقين لأن الزمن كان يثب بهم وثباً إلى محنة مجتاحة . فإن هى إلا ليلة ذات ظلام ورياح حتى زأر قصف الأحداث .

كانت العاصفة تدوى زمزمتها بين دروب البلدة حتى بدت معها البصرة كغاب ملأته ليوث هائجة وأسود غضاب . والليل فى بكوره ذاعت فيه وحشة السحر المتأخر . وكانت أعين السماء وسنانة ، رانت عليها كسف من الغيم حتى طمست النجوم . وأسبل الظلام أستاره على الطرقات ، كثيفة لا تنم عن شىء ،

فلا أضواء ولا ظلال . ولولا حركة الريح وهى تذرع المكان فى خطوات نشوان لا يعرف إلى أين يتجه به السير ، لكان أشبه بمقبرة ثقيلة الصمت ، ساعة هجوع الأحياء ، لا تسودها إلا هدأة الموت . . .

وكان المسجد بادى الفراغ ، يوشك أن يخلو من الناس إلا نفراً تفرقوا فى جنباته ، لفوا أردانهم حولهم اتقاء قرة الليلة ، والتصقت لحاهم بركبهم وهم منكمشون فى جلسة القرفصاء . . . ولكن ثمة أيضا أشياء غير الجسوم المرتجفة أحتوتها الثياب — ثمة سيوفا ونصالا مخبوءة ، أعدت للحظة الطعان .

إنك لو كنت معهم يومذاك ، لشهدت من مجلسك فى عيون هذا الفريق من المنكمشين لمعة تحفز ، ولأوشكت أن تقرأ لغتها فلا يفوتك أن تراها حروفا إذا التأمت لكونت لفظة الغدر ! . . كيف استباحوا هذا ؟ . . وفى وقت هدنة ؟ . . وفى بيت الله ؟ . . ولكنها شريعة السياسة تستهين حين تشاء بكل الشرائع ، ولا يقعدها عن تحقيق آرابها وازع أو دافع . . .

اجتمعت تلك الطائفة من رجال الجمل بمسجد البصرة ، تلك الأمسية المظلمة من أماسى الشتاء ، لا يعلم عنهم غيرهم إلا أنهم جاءوا يصلون . وكان موعدالعشاء لم يحن ، فأهل البلدة درجوا على تأخيرها منذ دخلهم الإسلام . والليل ما زال فى بكوره وإن تقدمت الظلمة السابغة بغمره . . ولم يكن كثيرون من أهل الولاء للإمام قد حضروا بعد ، فبالوقت فسحة ممدودة ، والرياح الهوجاء ترود طرقات البلدة وتعوقهم بعض التعويق . ولم يكن الوالى نفسه قد حضر لإمامة المصلين ، وإنما انتشر نفر من حرسه خارج المسجد وبمقربة منه يسهرون على سلامته حين يجىء . . . وها قد أوشك أن يبدو لهم خلال ساعة أو بعضها ليقوم بفريضة الله ، ويؤدى بالناس الصلاة . . .

ولكنها صلاة لم يكتب لها الأداء فى موعدها المفروض. لأمر أو لآخر حسب النفر من أصحاب الجمل أن ابن حنيف قد أبطأ فدفعوا ولياً لهم هو عبد الرحمن ابن عتاب ، ليأخذ مكانه أمام صفوف المصلين . . . أكان ذلك حرصا منهم ألا يؤخروا الصلاة أم لغاية عزموا عزمهم عليها من قبل ؟ . . . على أى حال كان

فعلهم نكثا لما عاهدوا عليه الوالى من قيامه وحده بالإمامة . فإذا أضفنا إلى هذا ما تواضع الناس عليه بالبصرة من تأخير العشاء ، لتوقعنا كيف يستقبل حرس ابن حنيف هذا الخرق للهدنة بين أميرهم وهؤلاء الخصوم . نعم قد استقبلوه بالغضبة الواجبة منهم لحق ولى أمرهم أن يضيع ويسلبه أعداؤه تحت ستر الصلاة ، فما أن رأوا عبد الرحمن يتقدم نحو المحراب حتى أشهروا السلاح فى الوجوه لعل أصحابها يفيئون إلى العهد ويرتدعون عما أوشكوا أن يقترفوه .

فإذا المسجد فى الحال ينقلب إلى ساحة قتال . . . فى لمحة عين ظهر السلاح الخبيء تحت الأثواب ليعمل فى الصدور والرقاب، وفى لحظة ضاق المسجد الوسيع عن كانوا فيه ، وانقلب القلة من أصحاب الجمل المتفرقين بجنباته إلى كثرة غالية علأ رحابه حتى يضيق بها ، كأنما أطلعتها الأرض أو أمطرتها السماء . . . وهل يسع الحرس أن يردوا كل هذه الجموع المبثوثة حولهم فى كل مكان تنوشهم من كل جانب ، وما يعدون أربعين رجلا أمام قوة مناجزة تستطيع لو شاءت أن تقتلع حصنا باذخا ذا معاقل وأسوار ؟ .

ولكنهم مع ذلك جالدوا القوم جلاداً شديداً ، وصبروا لهم ما أمكنتهم أسنتهم وما بقيت أقدامهم تمس بطونها صفحة الأرض . فلم يلقوا السلاح من أكفهم قط ، ولا نبت بهم مواقفهم أو تزحزحوا قيد شبر ، بل ظلوا حيث كانوا لا يريمون حتى تخطفهم الموت ، واحداً إثر واحد ، كراماً . ووقعوا صرعى بأحناء المسجد ، تروى دماؤهم رحابه . . .

فلعل رجال عائشة قد ازدهاهم هذا النصر الذى أحرزوه وإن جاءهم على حساب هيبة بيت الله والمفروض من توقيره . إنهم لا ريب كانوا يدفعون عن حياتهم أن يسترخصها حرس ابن حنيف ، أو هكذا بدوا فى عيون أنفسهم وهم يغفلون أنه لولا عدوانهم على حق الوالى فى إمامة الصلاة لم يكن ذلك الدفاع . . ولكنه نصر حازوه كيفما كانت المقدمات والأسباب ، وسواء أكانوا قد بيتوا من قبل عزمهم عليه أو جاءهم عفوا بغير تبييت ، فإنهم راحوا يفيدون منه ، ويتبعونه الخطوات الباقية التى توفى بهم على تمام الانتصار .

نسوا وشيكا فريضة العشاء ، ونسوا هـذه الإمامة التى خاضوا من أجلها نهراً من دم ، وذكروا عامل الإقليم . فى هذه الآونة التى قضوا فيها على فرقة حرسه ذكروه . ولم يشاءوا أن يصبروا هنيهة حتى يأتيهم فينبئوه لو كانوا قد عدى عليهم وهم براء لوسعهم الصبر والانتظار لأن العنف ليس شيمة البرىء المنتصر بل التعذير . ولو ساروا إلى ابن حنيف — إذ استبطأوه — يشكون إليه ما كان من حرسه الملق برحبة المسجد لا تسع لهم تبرير سفك تلك الدماء . . ولـكنهم لغير هذا مشوا إليه ، تحت خمة الليل . . . إنما ليتبعوا الضربة الضربة ، أقوى هذه المرة وأشد ، عسى أن يفرغوا من أمر هذه البلدة ، وواليها ، وما بقى فى أحنائها من قوى ما زالت تصدهم عن السلطان المطلوب . . .

إلى قصر الإمرة مضوا فى غاشية المساء والريح حولهم تدرى وتعصف ، لا يتريثون ولا يمهلون . وكان ابن حنيف لم يبرحها بعد لأداء العشاء ، وبضعة من جنوده على حوافيها تسهر عليه أن يناله بعد تأزم الأحداث مكروه ... ولم يكن الرجل يعلم شيئاً عن وقعة المسجد ، ولا ما أصاب حرسه ، فهو بهذه الغفلة فى طمأنينة وأمان ، وكانت فرقته الساهرة برحبة الدار قد لاذت بمواضع منها تمتنع فيها من قصف الريح ، والسماء تمطر غيثا كأنه الطوفان . كل ما حول القصر لا يشى بمحنة وشيكة ولا ينبىء عن اقتراب خطر الهدوء فى جنباته ، والسلام فى قلوب ساكنيه .

ولـكن ظلالا ، تحركت فى أطراف الرحبة ، خافية فى ثنايا الظلام السابغ عن العيون ، مضت تزدلف كالأشباح ، ليس لسيرها على الأرض وقع مسموع ، ضلت عنها أسماع فرقة الحراسة وأبصارها الحديدة ، بين زمجرة العاصفة وجهامة المساء الضرير . كذلك تسلل رجال عائشة إلى دار الإمرة ، وكذلك باغتوا الجنود . . . وعندما أوشكت حركاتهم أن تنبه إليهم الحرس ، كانت أسيافهم قد سبقت إلى الرقاب تطيح بها ولما يكد فرد من جند الوالى يبعث من صدره صيحة استغاثة . . .

وعلى الأثر عصف الهاجمون بالدار ، على رأسهم قائدهم رائد الغدر مروان

ومن خلفه طلحة ورديفة الزبير . . . من عجب أن يخرج الشيخان مخرجا كهذا لا يحمد عند أضرابهما من ذوى القلوب التى تدين بشرعة الفروسية وهى مروءة وإيثار ولكنهما الآن حقيقان بأن ينسيا ما هو أمثل بهما فى غمرة النصر . حريان بأن يركبا فى سبيل هدفهما كل صعب ومحظور . . .

ألقوا قياد رحلتهما إذن إلى ابن الحكم يفعل كما يلى عليه طبعه فلما أمكنهم الحظ من حرس القصر وتركوهم صرعى برحبته بعد أن أضافوا إلى سجل القتلى من ضحاياهم تلك الليلة أربعين جثة جديدة ، وجهوا نحو ابن حنيف وهو وحيد مهيض النصر . . .

ولكن كرامة الوالى أوقفته أمامهم على قدميه ، يذود كريما عن نفسه ويدفعهم حسبما يستطيع . . . ونال منهم ونالوا منه ، وتكاثر عليه أعوانهم حتى ضيقوا الحلقة عليه ، فوقع أسيرا فى يد مروان .

واستقبله الطاغية ببسمة حاقدة ، وبنظرة أفعى رقطاء . ما لأعزل عند ابن الحكم حرمة تمنعه منه ، ولغير الرفق بهذا الضعيف يتسع قلبه ، فالرحمة على أموى مثله حرام ! . . وإنك لترى كيف يخلص الرجل لطبعه فيفعل كوحش الفلاة إذ يلغ فى دماء فريسته وإن لم تهمد بعد فى قبضة الموت ! . . يقبل فيأخذ بمخانق الأمير . ويدفع به إلى بضعة من رجاله كزبانية النار يقيدونه ويشلون حراكه . فإذا رآه قد فقد القدرة على مقاومته أخذ سوطه وراح يجلده حتى كلت يداه فلعل مروءة الفروسية قد استيقظت هذه الآونة بجنبي طلحة والزبير وهما يشهدان المنظر الأليم . ولكنها كانت يقظة موقوتة لم تغن شيئا عن ابن حنيف ولم تنقذه من قسوة جلاده . بل ومضت لحظة بأعين الصاحبين فى نظرة إنكار ثم توارت كخطفة البرق ! . . الوحش الأموى كان إذ ذاك أجدى على قضيتهما من الوالى المغلوب ! . . .

وعند ما حسب الناس أن خطوط الدم التى رسمها السوط على جسد الأسير قد روى غليل مروان ، كانوا لا يدركون نزوات طبعه الكلف بالنكال . . . فقد أكب على الوالى ، المهيض كأنه حطام ، وراح يتم رسالة التعذيب ! . . مضى

وأنيابه منفرجة عن بسمة شامتة ، يشد شعر الرجل ، ويسله شعرة شعرة ، من رأسه ، ومن لحيته ، ومن حاجبيه ، وحتى من أهداب عينيه . وإنه ليستعذب أن يشهد كيف يتجسم الألم الصارخ فى ملامح الوجه الذى خضبته الدموع والدماء ، ويحس فى تعذيب غريمه لذة سابغة ، ومسلاة أى مسلاة . . .

ويستقيل ابن حنيف قدره وهو يجاهد ليكتم وجعه ، ثم يرفع إلى معذبه عينين تبديان الجلد والتصبر من وراء ضباب الدمع ، ويهتف بصوت خافت كله أنين :

« أما أنك إن فتنى بها فى الدنيا يامروان ، لم تفتنى بها فى الآخرة . . . » .

ولكنها شكاية لا تحد من طغيان الجبار ، يعضى لشأنه ، يعذب فريسته وإن راحت فى غشية ، ليتم ما لم يؤده بعد من رسالة النكال ! . .

٥

أضحت البصرة لقى مستباحا لحزب عائشة بعد أسر ابن حنيف ، فقد عملوا وفق خطتهم ، وأخذوا القصر ، وسيطروا على جند الوالى ، وأمكنهم الليل من إنفاذ بقية المؤامرة فلم يصبح الصباح إلا وفى أيديهم أيضاً بيت المال . . .

وغشيت البلدة غشية من القلق والتردد ، ثم لم يلبث أكثر سكانها المسالمين أن عرفوا إلى أى جانب يميلون . وهل يسعهم اليوم خلاف قد شهدوا مغبته ، وأمثولته البادية عاملهم المسكين ؟ . . اليد العليا الآن لأصحاب عسكر ، ومالناس بساحة غيرهم ملاذ . . .

ووقف طلحة وقد تملك السلطة بين أصابعه كالخيوط ، فخطب الجموع التى التأمت بدافع من الخوف وبدافع من الفضول ، فقال :

« أيها الناس . . . يا أهل البصرة . . . توبة بحوبة ! . . . » .

فدعاهم إذن أن يتوبوا عما اقترفوه ، أم كان يرى أن الخليفة القتيل قد أثم ثم تاب فلا عليه من بأس ؟ . . هذا رأى لعائشة قديم ، يردده الشيخ التيمى بألفاظ أبدتها أم المؤمنين فى رسم آخر يوم قالت : « استتابوه ثم قتلوه . . . » .

وسرت همهمة خافتة من أفواه الحشد ، ولكنها لم تقطع على الخطيب الكلام :

« .. إنما أردنا أن يستعتب أمير المؤمنين عثمان ، ولم نرد قتله ، فغلب سفهاء الناس الحلماء حتى قتلوه . . » .

فلم يصبر بعض السامعين على هذه المغالطة الصارخة وموقف طلحة من ابن عفان معروف . فصاح أحدهم به مجاهراً بكلمة الحق التى لا ينبغى أن تضيع بين زخرف الأحاديث :

« يا أبا محمد ! . . قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا ! . . . »

فأرتج على الشيخ وأصابه الحسر ! . . ورأى الزبير أن أمرهما يوشك بهذه الفلتة القديمة من صاحبه أن ينقلب وبالا ساعة النصر الحاسم ، فسارع يتبوأ مكان زميله ، وقال لذلك المجادل العنيد :

« فهل جاءكم منى كتاب ؟ . » .

واستطاع بهذه اللفتة أن ينأى بأفكار القوم عما أوشكوا أن يلجوا فيه . ولكنها أيضا كانت بادرة الاختلاف ، أو نقطة التحول فى ذلك الوفاق الظاهر بينه وبين صاحبه لو أتيح للزمن أن يمتد بهما وهما على الحلف الذى أملته وحدة الهدف . فالزبير لا ريب أنقى صحيفة من صاحبه لو كانت النقاوة عنوانا لموقفهما من عثمان . وهو بهذا أدعى أن يلتف به الناس دونه وأدنى أن يتبعوه . ومن قبل آثره معاوية بالتقدم ، لنفس السبب فيما حسب ، فدعاه بلقب الإمارة ، وآثرته أيضا عائشة فقدمت ابنه للصلاة بالناس !...

ولكنه مع ذلك لم يكن موفقا تمام التوفيق فى خطابه . . . ازدهاه نصره المفاجىء فأنساه كيف يجب عليه فى هذه الآونة الفاصلة أن يمسح على رءوس الجماهير المفتونين ببطولة الأبطال فيحدثهم الحديث الذى لا يسىء إلى مشاعرهم ، وكلهم دون ريب منضم على هوى للإمام وتقدير وإن خشوا القوة الظافرة فكتموا عواطفهم . نعم ، فقد زلق لسان الزبير ، ومضى به فى غمرة زهوه بظفره ينال من على — من بطلهم ويلحاه ، والقوم يشدون على صدورهم أن تنفث فى وجهه حقيقة ما يشعرون . حتى إذا بلغ من ذمه ولحيه مبلغا ترخص فيه

الخشية على الحياة ، انتفض امرؤ قائما من بين الجمع ، يصيح مغضبا بلا مبالاة :

« أيها الرجل ! .. أنصت حتى نتكلم ... » .

فاضطرب على الأثر حبل الهدوء . كل من فى الحشد ألقى عيناً على هذا الجرىء من عبد القيس أتبعها كلمة إعجاب أو نفثة عجب ، فقد وضع الرجل فى هذه اللحظة رأسه على كفه .

وكان عبد الله بن الزبير فى الحاضرين ، فبدا له أن ترك العبدى وشأنه كفيل بأن يفسد عليهم الأمر ويطمع فيهم الجوع ... هذا « ابن جبلة » جديد ... من نفس القبيلة التى ما فتئت ترفع عليهم علم العصيان ، فليرده إذن عما يروم ...

وهتف به عبد الله :

« ومالك أنت وللكلام ! .. »

فلم يأبه له . بل مضى وما أراد ، يجبههم باستئثارهم وحدهم باختيار الخلفاء — وقتلهم أيضاً ! — دون مشورة من البصريين، فكيف بهم اليوم يسألون البصرة فى أمر لم تكن لها يد فيه ؟ .

وأصغى الناس للعبدى وهو يتم حجته :

« ... ثم اخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا . ثم أنكرتم منه شيئاً فقتلتموه ، عن غير مشورة منا ! .. ثم بايعتم علياً ، عن غير مشورة منا ، فما الذى نقمتما عليه فنقاتله ؟ .. هل استأثر بفىء ؟ .. أو عمل بغير الحق ؟ .. أو عمل شيئا تنكرونه فنكون معكم عليه ؟ ... »

فاستعصى عليهم الجواب ! .. ولكن للقوى لغة أخرى غير منطق الحجة هى حديث السيف . وهل كانت القوة المادية إلا ضعفا يستتر دائما خلف مظاهره التى تشيع الرهبة ولا تشيع قط الرضا والاقتناع ؟ ..

لذلك ملك أصحاب الجمل ما يملك أشباههم من الأقوياء الضعفاء فى مثل هذا الموطن الذى يزرى بالعتاد والسلاح ، فقاموا إلى الرجل يهمون أن يقتلوه عسى أن يخرسوا لسانه عن كلمة حق يستطيع أن يقذفها رافع الرأس وهو يهزأ بأعتى الأسلحة والجيوش ! .. أفعبد الله بن الزبير يا ترى قد أغراهم به ليأمن أن تهدر أمام الناس هيبة حزبه الكبير ؟ ..

ولـكنهم على أى حال لم يقدروا على النيل من العبدى ذلك النهار، فقد وقفت لهم عشيرته تحميه ، وتمنعه أن يصيبه عدوان العادين . وعندما بدا لأخصامه أن انسياقهم لدفعتهم قد يؤجج عليهم النار فى وقتهم فيه أحوج إلى اكتساب رضوان الناس ، كفوا أيديهم عن الرجل ، سكتوا عنه وهم يضمرون فى نفوسهم أن يؤخروا ضربتهم المسددة إلى قلبه حتى حين ...

ولم يطل بهم الإضمار ولا الانتظار ، فما أن جاء الغد حتى نالوا منه وطرهم فقتلوه . لم تغن عنه عشيرته شيئا هذه المرة ولم تحاجز دونه ، شهدتهم الشمس فى شروقها صرعى على الثرى مجندلين ، سبعين رجلا ، حول جثة صاحبهم الشجاع .

ليست هذه قصة الغدر الأولى بصحائف البصرة فى تلك الحقبة القصيرة من أحقاب التاريخ ، لا ولا الأخيرة فمثلها حدث كثير ، ولعل العذر الذى يقف بجانب الشيخين فى أمثال هذا العدوان أنهما كانا يبنيان ملـكا جديدا فليس يضير إن قام البناء على جثث وأشلاء ! وأنهما أيضا كانا أمام سيل عرم من أعوان لهما انضمت نفوسهم على حب الغدر وأفعمها الـكلف بالدس والتآمر ! . . وهل من عجب أن تصدر هذه الأفعال من رجال كان فيهم مروان وأشباه له كثيرون ؟ . . إنما العجب أن تمر الصفحات التى سطروها نقية لا يدونها قلم غمسوه فى مداد من دم . .

ثم ها هم الآن ! . . البصرة اليوم قد غدت تحت الأقدام وإن هى إلا فترة من الزمن وجيزة ثم تدين لهم بالطاعة . كل ما كان يمنيهم فى البدء أن يملـكوا مواردها . وقد فعلوا الآن سيطروا على قواها المادية جميعا فغدت فى أيديهم مصائر الأمور . استولوا على السلاح ، وأخضعوا الحرس، وملـكوا ثروة الإقليم بعد أن استولوا على بيت المال . ولم تعد ثمة حيالهم غير نفوس يسير عليهم ابتزاز ولائها أو حياتها لو عرفوا كيف يبذرون الذهب أو يهزون السيف ! . . فعلى الشدة والمال تقوى دعائم الملك العضود المنشود . .

ومضوا إلى بيت المال خفاقا على أجنحة النصر وقد عزموا أن يشتروا الولاء بالسخاء ويبذلوا لأعوانهم من أهل البصرة عن الطاعة أرزاقا وأعطية .

ولكن ابن الزبير وحده ليس يرى ما يرون. أبى عليه شحه وغل كفيه أن يرتضى سياستهم المرسومة ، فراح يحاج أباه :

« إن ارتزق الناس تفرقوا . . »

فلم يأبه له . وأقبل وصحبه يفرقون الأموال ويغدقون منها على صنائعهم وأوليائهم وقد قر فى أخلادهم أن البصرة كلها رهينة بهذه الدنانير ، آتية على رنينها ولمعها لتلقى لديهم السمع والخضوع . وهل من رجل فيها يجسر الآن على مجاهرتهم بخلاف ؟ . . لقد تقلص منها اليوم ظل الإمام ، وغدا واليه فى أيديهم لا يملك من نفسه غير ما يشاءون . ولسوف ينال منهم كفاء عنته جزاءاً يستنزفه ما بقى فيه من دماء . .

تركوه لقية فى يد عائشة تختار له المصير الذى تراه حقيقاً بأمثاله من العصاة ، لعله يكون أمثولة تردع عنهم من تحدثه نفسه بعده بمناجزة حزبهم الظافر . وكانت السيدة اليوم غيرها بالأمس ، أولتها الحرب قسوة العنف بعد رقة الضعف ، فلم ترفق بأسيرها المخذول ، ولم ترع فيه الأمن الذى يفيئه الأسر ولا الرحمة الواجبة من القوى القاهر على المهيض المقهور ، بل اصطنعت شدة الطغاة وهتفت بابان ابن عثمان إذ جاءها يستلهمها رأيها فى ابن حنيف :

« اقتلوه ! . »

فأسرع الفتى يتعجل فى الرجل قضاء الله، بل قضاء السيدة التي لبست ثوب الخصم وثوب الحكم فى آن ، وأوشك أن يتلون سيفه بدم الضحية . ولكن امرأة أخرى — امرأة لم تأكل الأحداث من قلبها رقة الأنوثة ولم يجف فيها نبع الرحمة ، هالها الحكم فصاحت منكرة ، ومتوسلة ، فى رنة بها ضراعة وبها تأنيب :

« نشدتك بالله يا أم المؤمنين فى عثمان وصحبته لرسول الله . . نشدتك بالله ! . »

فأغضت عائشة ، ثم تحدثت هامسة بعد قليل :

« ردوا أباناً . . . »

فردوه . وألقت إليه بأمرها الجديد . هذه المرة بدت قسمات وجهها ألين وأرق :

« احبسوه ولا تقتلوه . »

فأحنى لها الفتى رأســه موافقا ، ومضى عنها كارهاً لأمرها وإن لم يسمه العصيان ، حتى لقد قال قبل أن يبرح :

« لو علمت أنك تدعينى لهذا لم أرجع ! . . »

على أن الغدرة التي نزلت برجل عبد القيس وعشيرته السبعين ، والمؤامرة التى قضت على الحرس ساعة المشاء وعصفت بقصر الإمارة ومن فيه ، والجزاء الباغى الذى أصاب الوالى المخذول لم تذهب كلها هباء فى ربع خال ، بل كان لها صدى له دوى شديد . ابن جبلة ساهر لم تنم عينه ، ولم يطر جنانه ، ولم تذهب الأمثولة القاسية التى رسموها على صفحة وجه أميره بشجاعة قلبه الثابت الركين . فما جاءته أخبار البغى حتى هب كالليث وقد أثاره من أولـئكم القوم انحدارهم مع الطغيان ، ونقضهم الهدنة التي عاهدوا عليها ابن حنيف . ووقف غاضبا يزأر فى أعوانه وفرسانه :

« لست أخاف الله إن لم أنصره ! . . »

وتأهب للسير نحو مجتمع القوم وهو يهدر هديره . وعلمت عائشة نبأه فناشها القلق خشية أن تستشرى فتنته ويتألب على حزبها الناس . ورأت من الحـكمة أن تسكن الثورة قبل أن تضطرم وتتسعر فأرسلت إلى صاحبها تقول :

« إن حكيما فى الجمع . لا تحبسا عثمان ودعاه ... »

وتناقلت الألسن رسالة أم المؤمنين وما احتوت من رفق على الوالى الأسير . فلعل السيدة رأت أن تحرير هذا الذى نـكلوا به كان كفيلا أن يهدىء ثائرة من غضبوا له ، ويفرق الناس عن حكيم . . .

على أنها ضربة سياسية — لو كانت السيدة قد عنتها حقا — لم تأخذ من تدبير ابن جبلة ، ولم تصبه على غرة منه ، فقد كان أمعن فى المـكر وأقدر على إحسان التدبير . نظر الرجل فيما حوله نهاله أن يسير هكذا إلى قوم كثر كاملى التعبئة وهو فى نفر من فرسانه قليل ، فهداه دهاؤه أن يستغل نزوة النفس البشرية وكلفها بعرض الحياة . فإذا به يذيع على الطوائف المضمرة بقية من غضب على

المتمصرين أن هؤلاء قد زووا عنهم ما يستحقونه من عطاء وأباحوه أولياءهم فحسب . . . فمن أراد رزقا فليسر خلفه إذن إلى بيت المال ؟ . . .

فهذه حرب تكافأ فيها سلاح الفريقين ! . . تألفوا الناس بالمال فأغراهم هو أيضاً بالطمع فيه . وكذلك زاد عديده ، وانطلق على رأس كوكبة فرسانه الأجلاد ، وطائفة من أفناء ربيعة ، ورجال عبد القيس الموتورين ، وجموع أخرى من بكر بن وائل ، سار أكثرهم حباً فى الثروة قبل مسيرهم فى حق أو بغية الانتصاف لمظلوم . . .

وكرة ثانية غلبت الدفعة على ما فى نفس حكيم من الحذر والتبصر . تماما كما حدث بالأمس ... إنه ليهدر هديره ويخوض بقذع سبابه فى أم المؤمنين إذ يراها خالقة الفتنة المشبوبة ، فتقف له امرأة فتلحاه . فإذا سيفه يسبق إليها لسانه فيرديها صريعة . . . عندئذ يملك الغضب قومها من أوليائه فيثورون به :

« فعلت بالأمس وتعود لمثلها اليوم ؟ . . والله لندعنك حتى يقيدك الله ! . . » .

ويتخلفون عن صفوفه راجعين ، فلعلهم إذ عادوا قد حالفوا القدر عليه ، وقربوا هلاكه الوشيك . ومن يدرى كيف تكون مغبة الصراع المنتظر بينه وبين أصحاب الجمل لو لم يتخل عنه كل أولئك الأعوان فى لحظة كان فيها أشد حاجة إلى تألف النصير . . .

ومع ذلك فلم يفل هذا من عزمه ، ولم يرده عما أراد . وإنما سار فى الفلول الباقية له وهو أمضى عزيمة منه قبل ، لا يخيفه وهن قواته ولا ترهبه كثرة الخصوم . وسار بنفره القليل حتى بلغ بهم مدينة الرزق منزل الأعداء . . . هناك لقيتهم جنود عائشة وأداتها الحربية الرهيبة . وبدا لهم من بعيد عبد الله بن الزبير يسعى إليهم ، فلما وقفوا بالرحبة ، مثل أمامهم مدلا فى خيلاء واعتداد ، وقال غاضبا يخاطب قائد الثوار :

« ما لك يا حكيم ؟ . . »

فتخابث هذا وأجاب فى هدوء .

« تريد أن نرتزق من هذا المال » .

أفلم يكن يعلم ياترى أن هذا الأطلس البخيل حقيق بأن يرفض طلبه ويتنكر له وقد أوشك منذ قليل أن يزوى الأرزاق عن أوليائه لولا أن منعه أبوه ؟

وجاءه الجواب الذى لا جواب سواه عند ابن الزبير حين يسأل العطاء وبذل الأموال :

« لا نرزقكم شيئا ! . . »

فلعل ابن جبلة قد سره هذا الكلام ، واستشعر له صدى بقلبه فرحة غامرة أن زوده خصمه بالوقود الذى يشعل نار الغضب فى نفوس من ساروا كل هذه الأشواط من أجل الارتزاق . . .

واستطرد يتحدث يتخابثه إلى ابن الزبير فى السبب الأصيل الذى قدم فيه :

« . . وأن تخلوا عثمان بن حنيف ، فيقيم فى دار الإمارة على ما كتبتم بينكم حتى يقدم الإمام . . »

فكان رد عدوه أن شمخ بأنفه استعلاء وكبراً ، وقال له دون مبالاة ، بلهجة من استيقن أنه بموقف يستطيع فيه الإملاء :

« لا نخلى سبيل عثمان بن حنيف حتى . . . يخلع طاعة على ! . . . »

هكذا ؟ . . برح إذن الخلفاء ، وكشف الحزب عن مراميه ؟ وما حديث إطلاقه الأسير إلا حيلة أريد بها تثبيط الناس ؟ . . وما هو أيضاً بغادر قيده إلا أن يشترى حريته بخيانة مولاه ؟ . . وكذلك كانت غايتهم من خروجهم ابتزاز سلطان ابن أبى طالب وإن طالما ستروه بدعوة الثأر لعثمان ؟ . .

وصاح حكيم ، عند هذا ، محنقا غاية الحنق وهو يراهم ينحدرون بأهل بلدته من خيانة إلى خيانة ، ويغرونهم أن ينكثوا مواثيقهم وبيعتهم ، آونة بالمال وآونة بتجنيبهم ذل الأسر وسياط النكال :

« والله لو أجد أعواناً عليكم أخبطكم بهم ما رضيت بهذه منكم حتى أقتلكم ! . . . »

ثم ألقاها نظرة استفزاز إلى الجموع التى سعت معه لهذا المكان كأنه يشعل دماء رجولتها ويستثير نخوتها أن تقول : « ها نحن أولاء ! . . . » فلما رآهم

تلهبوا بغضبهم واستجابوا لحيته المشبوبة ، رد عينه ثانية متأورة بجمرة إلى وجه عبد الله ، وعاود حديث التحدى والاستنكار :

« . . . والله لقد أصبحتم وإن دماءكم لنا لحلال بمن قتلتم من إخواننا ! أما تخافون الله ؟ . . . بم تستحلون سفك الدماء ؟ . . . »

« بدم عثمان بن عفان ! »

« فالذين قتلتموهم قتلوا عثمان ؟ . . . »

فكانت الحجة الدامغة التى تخرس ألسنة المكابرة والجدال ! . . . أم يسع ابن الزبير أن يزعم أن مذبحة المسجد ، وصرعى القصر ، وقتلى عبد القيس ، كل أولئك كان ثأر عثمان ؟ . . إن أباه ، وطلحة ، وعائشة وأعوانهم أجمعين راموا قاتلا فرموا بنصالهم مئات لم يكن بينهم ذلك القاتل الذى وقعت على رأسه دماء الخليفة الصريع . . . أفهذه عندهم عدالة القصاص ؟ . . .

ورفع ابن جبلة بصره إلى السماء يشهد الله :

« اللهم إنك حكم عدل ، فاشهد ! . . . »

والتفت إلى زمر رجاله خلفه ، وقال :

« أيها الناس . . . إنى لست فى شك من قتال هؤلاء ، فمن كان منكم فى شك فليرجع ! . . . »

وكانت كلماته هذه نفخة البوق التى آذنت بالقتال . . .

٦

شجاعة ابن جبلة وحدها هى التى أدارت المعركة ، وشبتها نارا تلظى على عدوه . من بدء دخول عائشة وأصحابها البصرة كان الرجل يتحرق شوقا إلى لقائهم فى ساحة وغى يحتكون فيها إلى منطق الأسنة . لم يبال قط بأن يكاثروه بجحافل مجيشة تبدو قواته أمامها كبقايا الطلل أو كظلال الدارة بين متاهة الفلاة . الموازنة بينهم وبينه لم تدر بخلده ، ومراجعة الأرقام لم تطف بباله وهو يعتشق حسامه

ليضرب في صفوف مرصوصة متكتلة كأنها كسف الغيم . عاطفته هي التي كانت تعمل ، وعقل وراءها عقله . وعندما أشهر سيفه في وجوه أصحاب الجمل ذلك اليوم برحبة مدينة الرزق ، لم يقدم في خاطره إلا أنه يهز منجل حصاد ! . .
ثم فقد وجب عليه أن يقطف هذه الرءوس التي خرجت لفتنة ، ومضت على وجوهها كل هذه المراحل الطويلة من بطاح مكة لسواد البصرة ، وهي تروم أن تنكث وتنقض وتقوض دعامة الخلافة التي شادها الإمام . أليس الدفع عن دولة علي في الله وما بايعوا إذ بايعوه سوى الله ؟ . .

لم يعن حكيم قط بأن يتفكر في أنه بحيال آلاف وآلاف من الرجال المزودين بخير العتاد والسلاح ، وهو في ثلثمائة من الأعوان فحسب . ولكنه كان قائما في حق ، فبحسبه أن يسنده إيمانه . وليدع لهم كتائبهم المعبأة تغرقه لو شاءت في خضمها العجاج ، فلعله يستطيع أن يغالب سطوة اللجة ويشق جبال هذا الطوفان .

والتحمت الأسنة . كل فرد من أعوان الجمل خرج يهز رمحه في وجوه هذه الطائفة الصغيرة ، ويضرب ويجول . حتى طلحة خرج ، وحتى الزبير أيضاً ، كأنهما يقومان لجيش عات عديده الألوف . بل قد رتبا لها الفرق ، وقدما عليها القواد : أربعة زحفوا جادين إلى تلك الفئة المستضعفة بعددها ، القوية بعزمها ، كان طلحة أحدهم ، يقود كتيبة في وجه حكيم ولكن هذا لم تهله الكثرة المتدفقة ، ولم ينخلع لها فؤاده ، بل قابلها ثابتاً مالكا جأشه وسيفه ، شعاره أن يهزج فيقول :

« أضربهم باليابس　　ضرب غلام عابس
من الحياة آيس ! »

فلقد قدم الوفاء على الدماء . ورمى بحياته رخيصة على مذبح إيمانه . . .

كان من البدء يعلم أنه لن يقوم لكل هذه الجموع الزاخرة من جند المتمصرين ، ولن يستطيع دفعاً لأداتهم الحربية الرهيبة أن تطأه وتدهس أعوانه القلائل وكان أيضا عارفاً بخلجات أنفس أولئك الخصوم ، عليما أن لواءهم الأكبر الذي التفوا به وما يزالون هو عائشة بنت الصديق ، فلو سقط ذلك اللواء — لو فقدوه وهم في عنفوان المعركة إذن لأخذتهم الرهبة وتبددت شجاعتهم وقد غدوا وليس

أمامهم ما يضحون عنه إن تقديس السيدة كان وحده يمسك عليهم وحدتهم ، ويثير فى دمائهم الحمية ، ويحبب إليهم القتال . . . الله يعلم إن كان حكيم قد أراد فى هذه الآونة أن ينال عائشة بسوء ، أو أزمع سعيه إليها ليأخذها رهينة ثمينة يستطيع أن يبادل بها قومها صلحا مشرفا يرد للإمام شوكته بالبصرة . ويعيد سلطانه المسلوب . . .

ما إن نشبت المعركة حتى اندفعت طائفة من أصحابه إلى دار أم المؤمنين عند رحبة مدينة الرزق لتقتحمها على صاحبتها الآمنة بعض الأمان . إنها بغير ريب مجاز أولئك القلائل إلى النصر ، وأملهم الباقى لإفاءة الهدوء على بلدتهم وعلى أمتهم على السواء . ولكن بابها كان أمنع من أن تعصف به تلك الحفنة المهاجمة وتفض رتاجه ، فدونه كانت صفوف من الأولياء من قيس والأزد والرباب ، كلهم وقفوا يردون عنه العوادى ، ويتمثلون فى دفاعهم عن الدار أن وراء جدرانها الصامتة امرأة لها قداسة أن لاذت أعواما بكنف رسول الله .

وأخذت المعركة بعد قليل تميل جذوتها إلى الخمود عن التأور والاحتدام . وشهد باب عائشة حينذاك أجساما يفريها الطعن ، ورءوسا تتبعثر على الثرى فى جواره ، تحت ضربات سيوف أولئك الحراس الشداد . لم يغن إقدام هذا النفر القليل عنهم شيئاً ، ولم يؤخر قدرهم المحتوم . بات واضحا أن شجاعة ابن جبلة ، وإن أبلغته مكانة الأبطال فى الأساطير ، لم تعد مستطيعة أن تحمله على متن النصر المأمول . وإنما تناولته الأسنة من كل صوب ، وتعاورت صحبة ألوف من الأيدى وألوف ، تمتد إليهم بسلاح سطعت شفراته كومض البروق وحملت أطرافه الموت الناقع . . لو كان أعداؤه جميعا عزلا لوسعهم أن ينالوه . ولو حصبوه وصحبه بدقائق الحصا والتراب لبانوا منهم الوطر . . . ولكنه مع ذلك لم يتقهقر قط ، ولم يدر ظهره ، ولم تزلزله المحنة ، بل ثبت بموطئه لا يبرحه كأنما بنى فيه على قدميه . وظل سيفه بكفه لا يكفه لحظة عن الحركة . . .

ثم آنت أخيراً اللحظة التي بدأت تحسم النزاع . . . ازدلف امرؤ من أصحاب الجمل إلى حكيم ، فبالقضاء عليه تسكن ثائرة اللظى المشبوبة ... وعند غرة منه ،

أتاه من خلفه ، وضرب بحسامه إحدى رجليه . فما أن مرق الحسام ثم ارتد حتى طارت الساق . أفرأى الضارب يا ترى أن حكيما بنيان راسخ القواعد لا ينقض إلا إذا قوض تحته أساسه ؟ . . كذلك حسب ، وكذلك أيقن يقينه واثلج فؤاده وهو يشهده كيف اهتز للضربة الصيبة حتى اختلجت كفه ، فسقط سيفه بين أشلاء الصرعى وساقه المبتورة ! . . .

فى هذه الفترة الحازبة التى تذهل المرء من نفسه فتحيله كيانا من الألم الصارخ لم يهن جلد الجريح ، ولم تتخل عنه شجاعته المثلى التى يعز شبيهها فى بطولة الأساطير . . . لوى عنقه فى التو إلى غريمه ، وألقى عليه نظرة صارمة استوعبت حقده المرير . فلعلها استقبلت فى نظيرها أخرى سودتها الشماتة وبسمة سخرية وآراء طافت هنيهة بشفق حليف الجمل إذ رأى موتوره أعزل لا يملك أن يرد عليه ضربته . بل عساه استشعر أيضاً الرثاء حتف رغبته ، هذا الضارب الصحيح المنتصر ، وقد شهد حكيما يميل كمن مادت به الأرض فيوشك أن يهوى من تخاذل وإعياء . . . أمن إعياء ! . . أحقا أوشك الجبار أن يتخذ له مرقداً بين الأشلاء إذ هو حطام ؟ . . إن لمح الطرف لأوسع فسحة من أن يضيق عن الحركة المباغتة التى أتى بها الجريح ، ففى أقصر منها كان قد مال ، ثم رفع ساقه المبتورة ، ثم استوى كما استطاع الاستواء على ساق ، ثم رمى عدوه برجله البتراء فصرعه حيث كان . وقبل أن ينتبه الصريع كان الموتور قد وثب عليه ، وبالسلاح الذى لم يعد يملك سواه — بأصابعه ، راح يجهز عليه حتى اعتصر من بدنه الحياة ! . . .

وتريث حكيم هنيهة يلقف أنفاسه المبهورة ، وإن الرضا ليشيع على قسمات وجهه فيستر ألمه ويخفيه . بين الرءوس الطائرة والأشلاء المتناثرة ، وفوق أديم المعركة التى لم يكف فيها الصراع ، اتخذ على جثمان عدوه مجلسا لعله لم يقتعد أوثر منه قبل اليوم ؟ . . وكانت نهكة الجهد قد نالت منه ، ودمه النازف من جرحه الكبير يجرى به وئيداً وئيداً إلى غشية قريبة ، كجرى الفلك عن أضناه طول الإبحار إلى شاطئ ظليل فيه راحة واستقرار . ولكنه حتى فى هذه الغمرة

التى تشبه الوسن لم يذهل عن طبعه ، أو لعله كان يحلم بسجية الشجاعة وهو يهم أن يتيه فى نعاس الموت . . . فراح يردد بصوته الضعيف ، ويرتجز نفسه يزدهيها الفخار :

« ليس على أن أموت عار فالعار فى الناس هو الفرار
والمجد لا يفدحه الدمار . . . »

وكانت به بقية من حياة عندما مر فارس من أعوانه وهو بمرقده ذاك ، هتف به إذ رآه .

« حكيم ! . . مالك يا حكيم ؟ . . »

« قتلت . . . »

« ومن قتلك ؟ . . . »

فلم تغب عنه قوة جنانه ، وهو بموقفه الضنك ، ولم يتخل عنه مرحه فأجاب وهو يبتسم :

« وسادتى ! . . . »

فسارع الرجل يحمله إلى مكان آمن عليه مما هو فيه . والتف به بقية صحبه الذين أخطأتهم الأسنة حتى الآن . فلما شهدهم حوله ، انتحل من حياتهم حياة ، ومن قوتهم قوة ، وأمرهم فسندوه حتى وقف بينهم على رجل واحدة . . إن النصر قد فر حقاً منه ، ولكن النفوس تستطيع أن تختزن الحقد أجيالا طويلة ، وتتوارثه ، وتنقله إلى سواها كما تنتقل العدوى ، فما له لا يؤلب قومه مرة أخرى على هؤلاء الغزاة العادين قبل أن يموت ، فتكون لكلماته الأخيرة قدامة وصية واجبة الإنفاذ ؟ .

وأنصت له النفر الملتفون به ، وإن السيوف لتأخذهم فلا يتهيبها ولا يرعون . . . ومضى هو يقول :

« أيها الناس . . إن خلفنا هذين ، وقد بايعا عليا ، وأعطياه الطاعة . . . ثم أقبلا ، مخالفين ، محاربين ، يطلبان بدم عثمان بن عفان ، ففرقا بيننا ، ونحن أهل دار وجوار . . . اللهم إنهما لم يريدا عثمان »

ولم يطل به الحديث ، فقد جمدت أنفاسه وحالت بين كلماته الباقية أن تبلغ الأسماع ، الموت أطبق بأصابعه الباردة على شفتيه وإن بقية حديثه ليلحقه ، فماتت ألفاظه قبل أن تولد . وعندما انجاب غبار المعركة ، وسكن صليل السيوف والسلاح ، كان الرجل ملقى على التراب الذى رواه الدم ، إلى جوار أشلاء ولده الأشرف ، وأخيه الرعل ، وبين جثث أولئك النفر من فرسانه ، الذين ظلوا يصغون إليه حتى اللحظة الأخيرة ثم تبعوه مسارعين فى مجاز الموت كما قادهم من قبل فى دروب الحياة . . .

ومهما اختلفت الآراء فيه ، وتباينت نظرات من يفحصون فعاله تحت أضواء شتى يشعها تغاير النزعات . . ومهما أنكر المنكرون عليه إزراءه بعائشة ، وقذفه إياها بهجر القول ، وسعيه أن يقتحم عليها بيتها — وهى امرأة لها من أنوثتها سياج ، دع ما يجب لها من توقير عند الناس . . . مهما يكن من أخطاء الرجل أو ما يبدو أمام خصومه كأنه أخطاء ، فليس من ريب فى أنه مضى مثلا فذا لإنكار الذات ، والذود عن رأيه وإيمانه حتى ليعز أن يكون له شبيه فى الرجولة بين الرجال ، وفى البطولة بين الأبطال . وكفاه أن آثر اعتناق الموت على أن يعيش مستذلا ، ومستظلا أفياء الدعة والتخاذل . فمضى لربه وما عزم عليه ، راضياً بموقفه : قريرا أن ناضل عن حرية شعب أبى له أن يركبه عدوه بالطغيان ويقهره ليدين بما ليس يؤمن به كل الإيمان . . . إن حكيما كان يرى فى رجال عائشة جيشاً غازياً ، عاديا ، يهم أن يسود البصرة بقوة السلاح ، ويبدل شعبها بعهد النور والتحرر ، الذى بزغت شمسه وماكادت ، عهداً كله عسف وظلام . لهذا هب هبته وقام يدرأ النكبة بلسانه وقلبه ودمه . وها هى كلماته تحمل عقيدته وترسم نفسه التي لم تقر الخضوع والإذعان . . دوت هنيهة فى الآذان فصارت لواء التف به أعوانه ومن رأى رأيه ، وناضلوا عنه حتى نضال حتى غاض منهم معين الحياة . . . ولسوف تدوى مثيلاتها أبداً ما كان للحرية فى هذا العالم صوت مسموع وما بقى لها على أديمه ناصر . كان قد قدم قبيل المعركة يستثير همم ذويه ونخوتهم أن يظاهروه فى كفاحه ودفعه الغزاة عن بلده الأبى الأمين ، فراح يهيب بهم ويقول :

« يا معشر عبد القيس . . اشخصوا بأبصاركم ، وجاهدوا العدو . . فإما أن تموتوا كراما ، وإما أن تعيشوا أحرارا . . . »

فاستجابوا للنداء وماتوا وهم كرام . . . ذهبوا فى سبيل الحرية ، صرعى ، ضحايا وقرابين . . .

ولكنهم كانوا ثمناً أرخص لمطلب ثمين ! فكم للحرية من شهداء ، وما أكثر ما يبذل من أجلها من فداء ! . : لم تكن دماؤه وصحبه آخر ما أريق ذلك اليوم على مذبحها الموموق . النصر الباغى لا يشبع نهمه ولا تكف أنيابه عن النهش ولا بلعومه عن البلع والازدراد ! . . . فما أن أيقن أصحاب الجمل أن وسن الموت قد غشى ميدان الصراع وأتى فيه على كل خصومهم سوى قليل ، حتى تنادوا فى أرجاء البلدة بين القبائل التى أفزعتها أنباء المذبحة :

« من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة ، فليأتنا بهم . . . » .

فمن غزا المدينة ؟ . . لأن مصير سوف يساق هؤلاء يا ترى وهم مئات ؟ . . . وبأى جريرة يساقون ؟ . . وهل غابت عن الزبير وطلحة أنه كان لهما فيهم أنصار طالما استعدوهم إذ ذاك على عثمان ؟ . . إن عائشة نفسها كانت ترثى أيام ابن عفان للقوم — أولئك الذين قصدوا المدينة — لأنهم كانوا فى عينها مظلومين يبغون رفع ظلاماتهم عند الخليفة ، ويجب لهم عليه الإنصاف ، فكيف تدعهم اليوم وتتخلى عنهم ؟ .

الهوى يبدل أسباباً بأسباب ويختلق ما يشاء من المعاذير ! .. وها هو الرثاء ينقلب نقمة على مستضعفى الأمس المظلومين فتتنكر لهم نفوس من اتخذوهم لهم أنصاراً وأولياء من قبل . بغير هذه النقمة وهذا التنكر لا تستقيم الدعوة العائشية المنادية بالانتقام لعثمان ! . . وما أهون على طلحة وصاحبه من اصطناع ضحايا يكفرون عن خطاياهما فى حق الشيخ حين يجب عليهما التفكير ! . . . أم حسبها الناس سيؤمنون أنها بريئان وقد شهدوا غيرها يناله القصاص ؟ . . كلا والله ، وقد أخطآ لو حسباه ! . . بل طلحة يعلم بأى شىء تلونت كفه فى محنة عثمان وهو القائل :

« . . . كان منى فى عثمان شىء ليس توبتى إلا أن يسفك دمى فى طلب دمه ! . . . »

ومع ذلك فقد آثر أن يسفك دم سواه ! . . فوجىء له ولحزبه بأولئك القوم « ممن غزا المدينة ! ! » من أهل البصرة ، كما يجاء بالكلاب فقتلوا جميعاً أمام أعينهم ، لم يتسع لأحد منهم عذر ولا تبرير ! . . الله وحده يعلم كم من مظلوم قتلوا وكم من برىء ، ويعلم أيضا إن كانت نقمة أعوانهم عند هذا القصاص لم تتسع لكثير « ممن لم يغزوا المدينة » وإنما ألصق بهم قسرا ذلك الاتهام ! .

إن السياسة على أى حال لها أسلوبها الخاص ، وليست بذات قلب وضمير !..

كفى بها أن أنالتهم ما يبغون فها هى البصرة دانت لهم بعد طول تمنع وازورار ، وخضعت ولو تحت سيف الإرهاب . . وها هم أهلوها يبايعون الصاحبين على الطاعة والخضوع . النصر الأكبر منهما الآن جد قريب ، يوم تدين بقية الأمصار . . .

وعلى ذلك بادرا وعائشة يرسلون الرقاع إلى الأقاليم تحمل نبأ ظفرهم وتدعو بدعوتهم ، التى تؤلب على الإمام ، أو تهيب بالناس أن يقعدوا من نصرته . . .

كتبوا بهذا إلى الشام ، وإلى اليمامة ، وإلى المدينة ، ثم إلى أهل الكوفة وهم يأملون أن يأتيهم من كل أولئكم نصير يشد أزرهم ويعينهم على ما يريدون . . .

ولكنهم كانوا يبدون بكتبهم غير ما يخفون . حرصوا أن يظهروا أمام الناس كمن لا يبغى أربا من سيادة أو سلطان ، بل هى نهضة لله تقتص للقتيل المظلوم .

« . . . إنا نناشدكم الله فى أنفسكم إلا نهضتم بمثل ما نهضنا به ، فنلقى الله عز وجل وتلقونه وقد أعذرنا ، وقضينا الذى علينا . . »

فما كان أرقه من ستار يشف عما خلفه ! . . فهذا الزبير ، لا يكاد يرفع يده عن كتبهم هذه ، حتى يمضى بين أهل البصرة — أعوانه الجدد — يحفز ولاءهم أن يستجيبوا له فلا يكون كلامه إلا دعوة سافرة تكشف عن مبلغ طمعه فى السلطان . . . ينادى فى الناس :

« ألا ألف فارس ، أسير بهم إلى على ، فإما بيته وإما صبحته ، لعلى أقتله قبل أن يصل إلينا ! . . . »

فتذهب دعوته الظالمة بدداً فى الريح ، ويذهب معها اعتزازه بما أصاب من نصر لم تخلق جدته الأيام ! . . .

وما أسرع ما ينتاب الرجل الضيق والتردد . وإنه ليحس ، فى ساعة تأمل وقد خلا بنفسه ، أن سحابة من الشك تغشى بصيرته فلا يجيد تبين الأمور . . اشتبه عليه موقفه وملأ قلبه التوجس مما هو فيه وما صيرته إليه الأحداث ، حتى ليهمس محدثا نفسه :

« إن هذه لهى الفتنة التى كنا نحدث عنها . . . » .

فإذا أذن أخرى قد لقفت همسه ، فيرتد عما كان فيه من شرود الذهن على صوت مولاه :

« أتسميها فتنة وتقاتل فيها ؟ . . »

« ويحك ! . . إنا نبصر ولا نبصر . . . »

ثم هز رأسه فى أسف وأردف يقول :

« . . . ما كان أمر قط إلا علمت موضع قدمى فيه غير هذا الأمر ، فإنى لا أدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر ! » .

عـــزلة

١

بعد الصبر عن القصد ! . .

فى علاج الأنفس المنحرفة عن الجادة يستطب بالرفق فتستقيم ، وبالعظة الحسنة فتفىء إلى الحق إذ تراها مشعلا يضىء أمامها فيكشف المفترق بين الضلال والهداية.. بين عماية الباطل ويقظة الصواب المنير ، ولكن الذين أغواهم هواهم ليس يهديهم من غى راشد ، ولا يميط عن قلوبهم أكنتها . . . الأرب الذاتى وحده غايتهم ، إليه يسعون ، على الصعب والذلول ، بأى وسيلة وظهر ، ومن أى سبيل ، إن الطريق تزين لهم فى غلالة من الضوء رقيقة هى أشبه بلمعة الفجر الكاذب فى جانب السماء وإن حسبوها بشير الإصباح . المنى الآن حيالهم بارقة ، لما سنى بانت تحته الدارة المنشودة فيها مياه وظل ظليل . والمرحلة الباقية قصيرة ، خطوات ثم يبلغون ما يشتهون . أفيلقون ثمة جنى وغصونا وارفة فينانة أم هى يا ترى خفقة السراب ؟ . . .

إن هذا لوهم المخدوع عن بصره وعن بصيرته ، فقد جمحت بهم مطايا الغايات وهاموا فى فلاة يختلط فيها انعكاس السراب بفراغ كأنه التيه . جاوزت بهم أمانيهم القصد ، نأت عنه كما نأى الصبر بالإمام . عندما ترفق بهم ونزع إلى الحسنى كان صبره عليهم فى الله ، وللوطن الذى شاء من أجله أن يمهل لدعاة الانقسام عسى أن يكون فى إمهاله إياهم علاج ما بنفوسهم من انحراف . أما اليوم فقد عرف أن داءهم عزيز على دوائه فليس له أن يدعهم إذن عدوى تصيب الباقين . نصرهم بالبصرة — وإن جاءهم على متن الغدر — حرى أن يفتن ضعاف النفوس بغيرها من البلدان وما أكثر ما يحسب الخلق الحق فى جانب الظافر . وإذا كان قد أمهلهم بالأمس فقد وجب الآن أن يعالجهم حتى لا تسير الأقاليم الأخرى على آثارهم فى درب الفتنة . فكم بها من متربص يهزه جشعه للسيادة أن يغامر بالانتقاض على إمرته وهو لا يهدف ، إذ يفعل ، إلا إلى إرضاء شهوة خاصة ، أما خير وطنه ودينه فتلو مشتهاه . . .

على الإمام الشخوص إلى مباءة العصاة ليئد هناك فتنهم . وليلحد فى حلبة نصرهم قبرا يضم مطامعهم . إن لهم فى جعبته لدواء ناجعاً يشفى من أدوائهم العصية ما عز على الموعظة والترفق — لهم عنده العنف ولهم السيف ! ... ومع ذلك فلم تبرح الرحمة قلبه قط ، بل كان دائما أقرب إلى الرثاء لهم من هذا الغى الذى سدروا فيه ، وظل يرجو أن يتغلب التبصر فى نفوسهم على الطيش فيبقى السلام ويلتئم صدع الإسلام . وما كان عدوانهم على البصرة ، ولا سومهم أهلها الخسف بذلك الإرهاب الذى اختطوه ، لينزع من قلبه الرجاء فى عطفهم إليه باللين والهوادة . وحين جاءه ابن حنيف وبوجهه آثار مثلتهم كتم فورة غضبه قدر وسعه حتى لا يثير لواعج الألم فى نفس الوالى المغلوب ، وتلقاه قائلا فى دعابة :

« انطلق هذا من عندنا وهو شيخ فرجع إلينا وهو شاب ! . . »

ثم ربت ظهره مواسيا وقال :

« ... أصبت أجراً وخيراً يا عثمان . . . »

ومع ما بدا من تهوينه شأن هذا العدوان فلم يغفل عما قد يجىء فى أعقابه من أخطار لو ظل مستمسكا بصبره . ولكنه كان من أمره كالمضيع ، يرى الخطر تحت قدميه ولا يملك رده . فما زال ينقصه مزيد من الرجال والعتاد ولو أن امرأ آخر كان مكانه لما أبى نصرة القبائل التى أتته دراكا تعرض نفسها عليه أن يقبلها فى جيشه ، أما هو فقد بقى وفيا لرأيه الأول لا يحيد عنه حتى يظل نقى الصفحة أبدا ، نائيا عن اقتحام الشبهات . ولكم غل يديه استمساكه بهذا المبدأ وتركه رهينة رأى أبى موسى الأشعرى والى الكوفة الذى لم يكفه القعود عن نصرته بل راح يحض أهل إقليمه ألا يلحقوا به ولا يمدوه بالرجال والسلاح . فما كان أعجب موقف الأشعرى المتخاذل ، وأتعس به من نصير ووال ! . . .

كم حز فى نفسه أن تثبط همة الكوفة عنه ، هى التى آثرها بحبه على بقية البلاد وشاء أن يتخذها ردءاً له وللوطن يدفع عنهما غائلة العصاة . وكم عانى إذ ذاك من قلق الانتظار . لقد أرسل يستمدها مرة ، ثم ثانية ، ثم أخرى فما بالها لم تلب دعوته ؟ . . آفتها دون ريب واليه ، فهل من عجب أن تحوم حول الأشعرى

الشكوك حتى ليحسبه الناس ضالعا مع الأعداء ؟ . . لم تجد الرسل ، ولم يغير العامل العاصى موقفه . وهذا محمد بن أبى بكر يعود من الكوفة ولا جند وراءه ، ويخبر الإمام كيف خبر بنفسه حقيقة دخيلة أبى موسى فاستيقن أنه تنكر لأدنى واجبات الولاء . . . كان محمد قد مضى بكتاب من على إلى الوالى يستنفره فيه وأهل إقليمه أن يوافوا جيش التأديب بذى قار ، فلم يلق عند الأشعرى أذنا سميعة ، وعندما بلغ الناس قدوم رسول الإمام ذهب وجوههم إلى عاملهم يطلبون منه المشورة :

« ما ترى فى الخروج ؟ . . . »

فقال دون مبالاة :

« كان الرأى بالأمس ليس باليوم . إن الذى تهاونتم به فيما مضى هو الذى جر عليكم ما ترون . . . »

ثم أردف يبث فيهم التخاذل فقال :

« . . . إنما هما أمران : القعود سبيل الآخرة ، والخروج سبيل الدنيا ، فاختاروا أيها الناس ! . . » .

فكان من الطبيعى أن يثاقلوا عن دعوة الإمام بعد هذا الرأى الذى ساقه واليهم الحصيف ! . . .

وعلم محمد بما كان من الرجل فأسرع يجادله فى الأمر . ولعله ذكره بما عساه قد غفل عنه أو أغفله من وجوب استمساكه بالولاء لأمير المؤمنين فى هذه المحنة التى أوشكت أن تزلزل صرح الإسلام . ولكن أبا موسى تشبث بعناده . وبدا كأن قد حزم حزمه على القعود ، وعلى تثبيط الناس ، وعلى عمل كل ما هو كفيل بغل يد الإمام عن قمع الثوار . لم يصغ للنصح ولم يلن أمام غضب رسول مولاه . بل ظل بموقفه العجيب لا يتزحزح عنه . . . وكأنه أراد أن يبدو فى عينى ابن أبى بكر كمن يخشى على الحق أن يضيع ، ويحرص على العدالة لتسير فى نهجها ، فقال بعد قليل يبرر مسلك العناد الذى التزمه :

« والله إن بيعة عثمان لفى عنقى وعنق صاحبك . فإن لم يكن بد من قتال لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان . . »

فهذا ترديد لقول قديم نطق به طلحة والزبير عقب بيعتهما الإمام ! . . فبأى عدة ياترى يستطاع الفراغ من قتلة عثمان وثمة أحزاب شتى كلها يدعى لنفسه الحق فى القصاص ولا يدفع إلى يد الحاكم الشرعى للدولة بجندى واحد يستعين به فى إنفاذ العدالة فى أولئك القتلة المطلوبين ؟. ومن كانوا الجناة المخضبة أكفهم بدماء الخليفة القتيل ؟ .. وكيف يساغ أن يطلب من الإمام الثأر لعثمان وقد تفرق دمه بين القبائل وأهل الأمصار بل الطائفة التى نهضت تدعى لنفسها ولاية الدم ؟ . . إن العجب كل العجب أن يسألوه الاقتصاص من كل أولئك الجماهير ثم يضنون عليه بالسلاح الذى يقابلها به ، وبالجند الذى هو عدة من يريد إقامة حق ودحض باطل ليس إليهما من سبيل إلا بقوة السواعد وحد السيوف ! .

لقد أوشك الأشعرى بمسلكه أن ينحاز لأهل الفتنة المنتقضين على الإمام . وهل كانت فتنتهم سوى عصيان يكاد الرجل أن يقرهم عليه ؟ . وعلى لهم فيه ؟ . . ويغرى غيرهم بتأثر خطاهم المريبة ؟ . . فتقاعده عن نصرة مولاه مكن لهم فى البصرة ، وهو كفيل بعد أن ينيلهم أربهم فى البلدان الأخرى مادام على لا يملك ردهم عما يريدون . لا ريب كان مفتاح الموقف كله فى يد أبى موسى تلك الأيام لو شاء خذل أو شاء نصر . وكان فيما يبدو يستشعر هذه القوة التى حباه بها زمانه وأصبح من طريقها قواما على مصير الدولة ، فظل طويلا يستمتع بما أضفته عليه من اعتزاز بنفسه ومقداره ، وغلا فى عناده ما وسمه الغلو والتيه فراح يلوى جيده عن رسل الإمام الذين ما فتئوا يقصدونه تباعاً ليستجيب لدعوة أمير المؤمنين . . قصده ابن أبى بكر وابن جعفر ، ثم من بعدهما عمار بن ياسر ، والأشتر ، وابن عباس ، والحسن سبط رسول الله . وكانوا جميعا نخبة من خيرة الناس تنفتح أعصى المغاليق والأبواب لكلمة تند منهم إلا باب قلب الأشعرى المفتون بالعناد . فما زال الرجل ممعنا فى غلوائه ، أو فى عدائه ، حتى ضاق عنه صدر على الذى لا يضيق ، وكتب له يقول :

« من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس .

أما بعد ، فقد بلغني عنك قول هو لك وعليك . فإذا قدم رسولي عليك فارفع ذيلك ، واشدد مئزرك ، واخرج من حجرك ، واندب من معك . فإن حققت فانفذ وإن فشلت فابعد . . . وأيم الله لتؤتين حيث أنت ، ولا تترك حتى يخلط زبدك بخاثرك ، وذائبك بجامدك ، وحتى تعجل عن قعدتك ، وتحذر من أمامك كحذرك من خلفك ! . . وما هى بالهوينى التى ترجو ، ولكنها الداهية الكبرى ، يركب جملها ، ويذل صعبها ، ويسهل جبلها ؛ فاعقل عقلك ، واملك أمرك ، وخذ نصيبك وحظك . . فإن كرهت فتنح إلى غير رحب ولا فى نجاة . . والله إنه لحق مع محق ، وما نبالى ما صنع الملحدون . »

أفكان التفشل أو الجبن هو وحده باعث تقاعد الأشعرى عن نصرة الإمام ؟.. على ترفق غاية الترفق بواليه العاصى ، الذى خذله وخذل عنه فلم ير فى خطابه أن يرميه بالخيانة ، واكتفى بأن رسمه خواراً ضعيف الرأى قصير النظرة بالغ التردد ، يتشابه عليه أمره حتى لا يدرى أين يجب عليه أن يضع قدميه . ولقد تجتمع الآراء فى نظرتها لهذا الرسم وتتفق غاية اتفاق ، ولكن منها بغير شك ما لا يحرم الوالى صفة أخرى هى التنكر لطاعة الإمام وبعده عن الولاء له. هذه الصفة كانت ثوبا لنفس أبى موسى لم تخلعه فى أحرج المواطن وأدعاها إلى الاستجابة للوفاء والنصرة ، بدت جلية خلال محنة البصرة ، وستبدو من بعد أجلى وأظهر حين يسخر القدر سخريته المرة فيجعل من الأشعرى ، الذى لم يؤمن قط بحق مولاه ، صاحب الكلمة الفاصلة فى هذا الحق عند التحكيم . .

على أنها كانت محنة اختبرت فيها نفوس الرجال فنضح إناء أبى موسى بما فيه ! . . . وقد آثر الرجال أن يبقى بموقفه ، تماما كالأتان الحرون ، وإن ألهبت ظهره من ألفاظ أميره سياط لساعة ! . . . وإن تناوبه الرسل بالحث واللحى والوعيد . فلأمر كتمه كان مسلكه ، أوكان من غفلة لا يصلح معها أن يؤتمن على ولايته ولا ثقة مولاه . . . وعندما يئين الوقت فسوف نراه ، ليس بحسب ذلك العامل العاصى الغافل ، بل الأداة القاطعة التى سدد القدر حدها لدولة الإمام .

٢

العزلة . . .

هذه هى السياسة التى شاء أبو موسى الأشعرى أن يحمل عليها أهل إقليمه ، وإنها للفظ هين رقيق يرسم صورة لنواياه لو استطعنا إحسان الظن بما يطوى عليه خاطره وأغفلنا مابدا من تنكره لواجب الولاء لأميره وفى عنقه بيعة توجب عليه هذا الولاء . ولكن الرجل رأى رأيه ، وحط سبيله وسار قدما فيه . وهو بهذا يوشك أن يكرر مرة أخرى نفس المأساة التى وقعت فى العام السالف بحاضرة الإسلام ويلعب دور ذلك الفريق من الصحابة ، الذين تقاعدوا خلال محنة عثمان فى وقت دعتهم الدواعى فيه إلى عمل إيجابى حاسم ، وآثروا النأى بأنفسهم عن تناول الأمور حتى أبرم القدر قضاءه فى الخليفة الشيخ . . . فلو أدلوا بدلوهم إذ ذاك ، ومضوا وما تفرضه عليهم مكانتهم بحسبانهم رءوس الناس ، وواجبهم من نصر الحق أو كبح الباطل فربما وسعهم يومها أن يكتبوا صفحة أخرى فى التاريخ أنقى وأطهر ، لا يلوث أديمها مداد الدم ، ولاستطاعوا أن يدفعوا عن عثمان عادية الفتنة ، أو يحملوه على التزام السبيل السوى فيجنبوه مصرعه . وها اليوم يعيد الأشعرى قصتهم ، ويرد ما كان من توا كلهم ثانية إلى الحياة وهو ينأى بنفسه وبأهل إقليمه عن أميره كما ينأى الناس عن راع استصرخهم على ذئاب جياع ! . .

وكان رأى أبى موسى أن يدع الراعى ويدع الذئاب ، لا يعدو من أجل فريق منهما على فريق ! . . جماع سياسته كان هـذا القعود وأمر العادى والمستصرخ كليهما للأقدار ! . فتنه الاعتزال شر افتتان لا نحسبه يجىء إلا عن غفلة تجاوز كل الغفلات ، أو عن مكر سيئ يراد من ورائه أن يشتبك الأمر وينتقض على أمير المؤمنين . ولقد كاد الخطب يدلهم ، وأوشك أن يطلع عواقب وخيمه ؛ فما هز هذا شعرة فى لحيته ! وما دفعه قط عن سياسته السلبية ، بل ظل ودأبه ، يحض أهل بلدته أن يقعدوا مثل قعدته كأن الأمر ليس يعنيه . وكأن كل ما فى

جبته من علاج للداء الموشك على الأخذ بخناق أمته من وراء الخلاف المشبوب هو ما تحمله هذه الـكلمات :

« . . . أغمدوا السيوف ، وانصلوا الأسنة ، واقطعوا الأوتار حتى تنجلي هذه الفتنة . . . » .

فالدولة إذن والأقدار إن شاءت مالت بها إلى يمين أو طوحت بها إلى يسار ... مصير الأمة الإسلامية كلها كان لا يساوى عنده خطوة يخطوها فى توفيق أو سيفا يسله فى دفاع ونصرة . . . لا عملٍ سوى ألا يعمل ! . . .

فما أعجب أن تـكون هذه هى الخطة التى ظنها تودى لخير ! . . . أم كانت عزلة حقيقية لا ترجح كفة جانب من الفريقين ؟ . . الأشعرى هكذا آثرها ، وقام يبشر بها بين الناس كأنها حيدة صريحة أمينة لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء من الطائفتين اللتين ثارت أو كادت أن تثور بينهما الحرب الأهلية . وحين تحسن الظن بالرجل قد تراها برأى عينه ، ولـكنك لو فـكرت قليلا لـكدت تنـكر على المصادفة وحدها أن تضع فى فيه لسان ببغاء يردد نفس كلمات عائشة أو يكاد ! . .

نعم وإنك لحق فى هذا الإنـكار ، أو متردد — فى القليل — يجتذبك الشك وتلعب بك الريبة ، فما تستطيع أن تنسى أن بمثل دعوته دعت عائشة من قبل وبعثت بكتبها إلى أهل الـكوفة عقب انصياع البصرة لطاعتها عنوة بعد ما لفها جيشها فى وشاح إرهاب ... كتبت إذا ذاك إلى بلدة هذا الأمير تقول فى خطاب لها طويل !

« . . . فثبطوا الناس عن منع هؤلاء القوم ونصرتهم ، وجلسوا فى بيوتـكم . . . . . » .

وبمثله أيضاً بعثت إلى طائفة من رجالات هذا المصر ، تحضهم على القعود ، وجرت هكذا رسالتها إلى زيد بن صوحان :

« من عائشة ابنة أبى بكر . أم المؤمنين ، حبيبة رسول الله ، إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان .

أما بعد ، فإذا أتاك كتابي فأقدم فانصرنا على أمرنا هذا ، فإن لم تفعل فخذل الناس عن على . . . . » .

فلصالح من كان هذا التخذيل ؟ . . وإذا كانت السيدة لم تجد فى زيد لسانا ناطقا بدعوتها فها هو الأشعرى يرفع بها عقيرته ولا يكف لحظة واحدة عن ترديدها وصبها فى الآذان . كان دأبه الدائب أن يثبط الناس عن مولاه استجابة منه — على أهون افتراض — لخطته التى سماها سياسة الاعتزال .

ويمر الوقت . وتستطير الفتنة فلا تخفى مغبتها الخطرة عن ذى عينين ، منذرة بشر مآل ينتظر دولة الإسلام ، وآخذة بين يوم ويوم من هيبة الرجل الذى أقسم له يمين الولاء ، ومع ذلك فما يفى أبو موسى يسدر فى غيه ، ويعمن فيه أيما إمعان . بل هو يكلف بالحرص على هذا الإصرار فلا يزحزحه عنه شىء ، ولا يرده إنسان . وكلما جاءه رسول من الإمام يهيب به أن يندب الناس ، بدا كأنما فى الإهابة مايغريه باللج فى عناده . ولا يكاد يمضى عنه ابن أبى بكر يائساً من استمالته ومن هدايته ، ويقبل ابن عباس مبعوثاً جديداً من قبل الإمام ، حتى يعاوده كلفه بالتثبيط هذه المرة أعمق وأشد ، فيردد ما كان قد سلف منه للجموع وإنه ليصطنع لنفسه فى خطابه الجديد مقاما يجعل لحديثه عذوبةً فى الأسماع . . . اسمعه كيف قام يقول :

« يا أيها الناس . . إن أصحاب النبى الذين صحبوه فى المواطن أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه ! . . وإن لكم علينا حقا ، فأنا مؤديه إليكم . . . »

فهو إذن أبصر بالموقف ، أعرف منهم بالحقائق الخفية إذ كانت له بالنبي صحبة وله إذن عليهم السمع ، ولقوله فصل الخطاب والقطع ! . .

وكرة ثانية يلم بحق عثمان على الناس إقامة يغلفها التلميح دون التصريح ، ويشير بها هونا لما اجترحه الشعب فى ولايته التى ما كان لامرئ أن يخلعها أو يخدشها وهى منحة من عند الله آثره بها دون سواه . ثم يمضى وحديثه المعاد المعهود . فإذا به الآن لا ينسى أن يضمنه دعوة أخرى إلى جوار دعوته السالفة إلى التخاذل والقعود . . . يقول وهو يستأنف الكلام :

« . . . كان الرأى ألا تستخفوا بسلطان الله ولا تجترئوا على الله . . . وكان الرأى الثانى أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ! . . . »

ويحار الذهن أشد حيرة وأبلغها حين يحاول أن يستقصى المعنى المستتر وراء هذه الكلمات . إنها لتنضم على بغى سافر على حق أمير المؤمنين وتكاد تجأر بوجوب نقض بيعته التى تمت عن رضا من وجوه المسلمين واختيار حجة الأشعرى فى هذا أن ثمة طائفة لم تجتمع بعد على على ولم تدن له بالطاعة وإن علمها العامل المشاق قد نكثت عهدها السالف وحنثت بيمين الولاء . وإنه ليسدر فى بغيه حتى الغاية ، ويعضى ودعوة تخذيله وانتقاضه إلى حد أن يشترط ثمنا لاستجابته لأوامر الإمام — أى إمام كما يلوح ! — أن يتفق على تأييده كل الناس ولا يتردد أحد منهم فى الادلاء بالبيعة له . فما أعجب أن تكون هذه هى نظرة الرجل إلى إمرة أميره ، وما أدلها كلمات فضحت نواياه ! . . أم يعوز المرء أن يتلمس أبلغ منها دلالة على رأى الأشعرى فى ولاية على ، وهى ترسمه لنا مستهيناً بها ، لا على احتفال ، يرى نفسه فى حل منها لو شاء ، وخاصة وما غفل قط عن الإعلان بأن بيعة عثمان ما زالت فى عنقه ! . .

من العبث أن نصطنع العذر المقبول الذى يكون تبريراً لما قال . فما يستطيع أحد قط أن يكون مخلصا ظاهر الولاء لعهد ثم يخلص فى ذات الوقت لعهد آخر قام على أنقاض الأول . وقد يصح هذا لو لم تنتغر ثمة ثغرة بين العهدين تباعد أحدهما عن سابقه وتضرب بين أنصار كليهما بالعداء والخلاف . فلأى الحزبين كان أبو موسى يميل ! . . ولدولة من من الخليفتين يهب تأييده ! . .

الجواب الصريح نضحت عنه ذات الخطبة التى ألقاها والى الكوفة ، ذلك اليوم بمسجدها ، فى حضرة ابن عباس . إن الدعوة الأخرى التى رافقت دعوة القعود ونادى بها بين سامعيه . إنه الرأى الثانى الذى قوامه : أن يأخذوا من قدم عليهم من المدينة فيردوهم إليها . . .

من قدم من المدينة ؟ . . لو قد جرت الأنباء بأن طائفة من خصوم الإمام همت أن تنزح إلى الكوفة أو تزحف إليها بجيش لوسعنا فهم دعوة الأشعرى . ولكن هؤلاء الخصوم ، وكلهم لعائشة شيعة حتى الآن ، أتوا من مكة لم يخرجوا من المدينة ، وساروا صوب البصرة دون غيرها من البلدان ، فليسوا إذن من عناهم الرجل . ولو مشت فرق من الحزبين المصطرعين تؤم أرض إمرته لاستطعنا أن نسيغ دعوته على ضوء افتتانه بالوقوف منهما معا موقف حيدة واعتزال ، ولكننا أيضاً لم نسمع قط بنفر جاهر علياً بالعصيان أوشك أن يتخذ من الكوفة ملاذا ودار هجرة أو تأليب . فمن كان إذن أولئك القادمون ؟ . .

ما كان ليكفى الأشعرى أن يخذل الناس عن على جريا على السياسة السلبية التى اختطها لنفسه لأنه بات لا يرى الجدوى إلا من وراء عمل إيجابى حاسم يقوم به ، ويحض أهل إقليمه على مظاهرته فيه . وكان هذا العمل وقوفه حجابا حاجزاً بين « من قدم من المدينة » وبين الكوفة يردهم عنها إلى دار خروجهم حتى يجمعوا أمرهم على إمام ! أى إمام ! فليكشف لنا إذن نواياه ، وليبد لنا من سياسته سوأتها البغيضة فيدفع عن بلدته أنصار مولاه الذين قدموا وحدهم من المدينة ويردهم أن يلوذوا بحماه . أم يا ترى ثمة غير على قد تنادى بالملاذ بالكوفة وقد كتب إلى أهلها عقب خروجه من حاضرة الإسلام كتابه الذى قال فيه : « إنى اخترتكم والنزول بين أظهركم » ؟ . .

فهى إذا سياسة عداء متصلة الحلقات دبرها هذا الوالى العاصى ليصاول بها أمير المؤمنين . بدأت بالدعوة إلى الاعتزال الظاهر الذى يخفى خلفه العصيان ثم سارت حتى بلغت منه ذروة الجحود والتنكر ، فطوعت له نفسه أن يصد مولاه عن بعض أرض ولاياته ، ويحرم عليه دخولها كأنه طريد ! . . فهل ترى أراد الأشعرى بدعوتيه ، وبث سمومهما بين أهل إقليمه ، أن يهيء أذهانهم بعد تثبيطهم عن الإمام إلى شنها حربا شعواء عليه ، حين تتوافر لدى الداعية الأسباب وتسنح فرص الأيام ؟ . .

دخيلة قلب هذا الباغى يعلمها الله ! . . ولكنك تعجب غاية العجب لو كنت تصغى إلى خطبته حتى لتكاد أن تنكر على أذنيك ما سمعتاه . . . أما هو فقد سار وشأنه ، هادئا فى غير استحياء ، ينفث سمه الناقع ، وينفخ فى رماد نار سوف تشب عما قليل ، وإن دخانها ليكاد أن يتخلل شعيرات لحيته فيصبغها بالسواد ، لو أنك أوتيت من رأى العين مثل حدة الخيال ! .

٣

فى بدء المحنة ، ظل شعب الكوفة مبقيا على هيبة أميره . لم يجاهره رجل فيها باستنكار السياسة التى جهد الوالى جهده لإنفاذها حتى الغاية . ولكنه كان إبقاء لا يستجيب لدافع غير ولع الناس بالدعة وإيثارها على الحرب بما هى حقيقة أن تجره من دماء ودموع . أما الولاء فما نحسب امرأ بالبلدة كان يضمر سواه للإمام . بل ثبتوا على عهدهم منه ، وعلى نظرة الإكبار التى كان يقتضيهم إياها ماضى على ، ومقامه من محمد ، وحسن بلائه فى الإسلام ، ومزاياه الخلقية التى يكاد أن يتفرد بها وتؤهله لإعزاز الدولة . والدين ولو أتيح لهم من البدء من يهز عواطفهم الكامنة بالقلوب إذن لاندلعت لهباً وفاضت كحمم البركان فى ثورته تجتاح أمامها كل ما يعترض سبيلها من دعوات التخذيل وصيحات المثبطين .

ولكن سحرهم من أميرهم دعوته الخلابة ، فما ينكر أحد ولا يكره نداء السلام وقد كاد أبو موسى أن يدخل أذهان الناس داعية سلام ، يبشر بحقن الدماء وإحلال الأخوة والصفاء فى مكان العداء والخصام . وأقبل القوم فى البدء يصغون إليه ، وتخدر عقولهم بحديثه الناعم . ولكن الزمن كان من عداته يتربص له ، ويزخر أيامه ولياليه لسحق خطته ، وردها فى نهاية الأمر شراً عليه ، ففى كل لحظة كانت الحقيقة الخافية وراء معسول اللفظ تتبلج لذهن من الأذهان وتلتمع كومضة شعاع . وبكل ومضة كان الوالى المتمرد يفقد أذنا كانت من قبل مصيخة لتناديه . ولئن بقى القوم زمانا مبقين على هيبة الرجل بينهم لا يردعونه

جهرة عما افتتن بالقيام فيه فلأن مشاعرهم الزارية عليه لم يتح لها المحرك المثير . .
على أن يوم النكس لم يغب طويلا . طلعت شمسه وأبو موسى قد أمن إشراقها على أرضه لفرط ما آمن بجدوى دعوته . لم يظن قط أن عصاه السحرية لن تعود أفعى حية ! . .

كان سلاحه الذى ضرب فى الميدان هو الإعادة ، يتحدث برأيه ، ثم يتحدث ، ثم يعيد التحدث ما وسعه أن يعيد . وكان فى هذا عزيز الضريب فلم يكف لسانه قط عن التخذيل ، ولم يمل تثبيط الناس . بدا كأن قد وكل بهيبة الإمام ينتقص منها ويغرى شعبه بالانتقاص . فلعلك لا تلحى الرجل كل اللحى وقد علمت مدى إيمانه ببيعة على وبحقه عليه من الولاء والوفاء . غير أن القوم لم يظلوا عند ظنه بهم ولم يظل أمامهم صاحب النصح الذى يبصرهم بمواطن السلام ليلتزموها فيحقن دمهم أن يهراق . بطل اليوم سحر دعوته . وأخذت غشاوة البصائر تنجاب عنها قليلا قليلا حتى راحت الشكوك فى نواياه تنتهب الأنفس . وبدلا من أن يصغى الناس إلى دعوته الخبيثة فى سكون ويلقفوها إذ هى من لسان صاحب لرسول الله أعلم منهم بالحقائق المغيبة ، راح همس الحيرة يتنقل بينهم من فم إلى أذن ، ثم يتبعه حديث إنكار ، ثم ثورة الغضب تضطرم فيم تبادلوه من كلام .

وأينع إنكارهم عليه بعد قليل . نفست الصدور الجياشة عن غضبها المكتوم . كان لا بد أن يلقى الرجل عاقبة هذا التمويه الذى به غرر بأهل إقليمه لأن حبل الزيف مآله إلى انقطاع . وحين وقف ذلك اليوم يردد نفس أنشودته ، لم يكن يحسب أن قليلا من الناس ، بل واحداً منهم ، سوف ينأى بسمعه عن شدوه . فإذا بثقته تنهار فجأة عندما قام عبد خير الخيوانى يقطع عليه الحديث . آن وقت مناقشة هذا الأشعرى الحساب ! . . .

قال عبد خير وهو يعنى ما كان من فتنة طلحة والزبير اللذين لا شك كانا صاحبى الغنم من وراء دعوة واليه :

« يا أبا موسى . . . هل كان هذان الرجلان ممن بايع عليا ؟ . . . »

فلم ير سبيلا إلى الإنكار ، وأجاب :

« نعم » .

« هل أحدث حدثاً يحل به نقض بيعته ؟ ... »

« لا أرى » .

فصاح به فى حنق ولم يتهيب :

« لا دريت ! . . وإنا تاركوك حتى تدرى ... »

ولكنه لم يشأ أن يبرح مكانه حتى يسد على العامل المتمرد مسالك المعاذير ، فأنشأ يبين موقف كل طائفة من المسلمين من هذه المحنة النازلة بالبلاد ، وإنها جميعا لتمد إليها بسبب من الأسباب ، ولكل دور فى غمارها معلوم :

« يا أبا موسى . . هل تعلم أحداً خارجاً من هذه الفتنة التى تزعم أنها هى الفتنة ؟ . . . »

فاستغلق الرد على الأشعرى ، ومضى عبد خير يتم الحديث :

« يا أبا موسى . . إنما بقى أربعة قرون : على بظهر الكوفة ، وطلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وفرقة أخرى بالحجاز لا يجبى بها فىء ولا يقاتل عدو . . »

« أولئك خير الناس . . . »

« بل غلب عليك غشك ! . . »

وكان حقا للبلدة أن تعجب لواليها كيف يدعو هكذا بدعوة لا معنى لها غير الإملاء للعصاة فى العصيان ، وللنا كثين فى النكث . فقد تبين أن انتقاض زعيمى الثوار على الإمام لم يكن وليد غيرتهما على صالح الرعية ، ولا نتيجة لازمة لحدث أحدثه خل به خلع طاعته من أعناق الناس ، بل هو ناشىء عن حب التسلط الذى سيطر على أنفسهما وعلى بضعة نفر معهما فتنتهم الأطماع والمآرب الخاصة . . وكان ثمة طائفة من أهل الكوفة تميد بهم مواطنهم ، ولا يستطيعون ثبوتا على ولائهم لأمير المؤمنين بعد هذا التبلبل فى الآراء ، ولا انحيازا إلى أخصامه المناوئين وإن كانت دعوة الثأر التى نادى بها أولئك الخصوم ظلت تخاطب فى نفوسهم النخوة التى تستجيب مسارعة لنصرة المظلوم . . . هذه الطائفة لم تقدم

مبادرة إلى اختيار جانب من الجانبين ، وإنما بقيت ردحاً بمفترق الطريق تصطرع فى نفوسها نزعاتها المختلفة . حتى إذا استبدت بهم فى النهاية حيرتهم رأوا واجبا عليهم نحو الحق أن يبعثوا من لدنهم فريقا إلى حاضرة الدولة يستقصى لهم ما أحاط بمصرع عثمان وأدى إليه فى مواطنه ، عسى أن يروا بعد هذا إلى أين ينتهى خط ذلك الدم الحرام المسفوح . . .

ولكنهم ما كادوا يشرعون فى إنفاذ عزمهم حتى جاءهم الحسن بكتاب الإمام ذلك الذى رسم لهم قصة المقتل ودور كل من دعاة الانتقام فيه ، ونقل به إلى أذهان أهل الكوفة صورة حقيقية لأمر عثمان جعلت « سامعه كمن عاينه » . . . عندئذ هدأت خواطرهم ، ووسعهم تبين السبيل الذى يجدر بهم أن يلتزموه ، فوقف بينهم شريح بن هانىء يقول :

« لقد أردنا أن نركب إلى المدينة حتى نعلم قتل عثمان ، فقد أتانا الله به فى بيوتنا . . .

ثم ألم بدعوة أمير المؤمنين إياهم أن يناصروه ، فأردف يكمل الخطاب :

« . . . لا تخلفوا عن دعوته أيها الناس . والله لو لم يستنصر بنا لنصرناه . . »

وكذلك راح التيار يتجه بالكوفه على خلاف ما أراد أبو موسى له من اتجاه وخرج الرجل من داره ، وقد علم بمحضر سبط رسول الله ، يخب إلى المسجد . ألتلبية نداء إمامه كان ذلك الخروج ؟ . . بل قد بقى عند موقفه ، لا يحيد ولا يتزحزح عنه . وسوف يرينا ألوانا أخرى من عناده وتشبثه بقصده المرسوم . .

ووصل أخيراً منتجع القوم ، مسجد الكوفة ، وقد التأم الناس زمرا حول الحسن بن على وعمار بن ياسر . إن محياه ليفيض بالبشر ، وإن قدميه لتسرعان به صوب حفيد محمد ، وإن ذراعيه لتنبسطان ثم تضمان ابن ذلك الرجل الذى طالما دعا أهل إقليمه للانفضاض عن رسالته ... من عجب أن يجد أبو موسى بقية من عاطفة بقلبه تكفى أن يبدى للحسن كل هذا الترحيب !.

على أن لحظة المجاملة ولت سريعة ، فأقبل الأشعرى يحدث ابن ياسر فى لهجة لم تخل من تهكم وهو يطوف بأمر عثمان :

« يا أبا اليقظان ، أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين فأحللت نفسك مع الفجار ؟ . . . »

فغضب عمار وأجاب :

« لم أفعل . لم تسوءنى ؟ ... »

فآثر الحسن عندئذ أن يقطع حبل الجدال بين الرجلين . وأقبل برقته المعلومة ، على الأشعرى ! وبرقيق لفظه يحدثه بنبرة هادئة لطيفة :

« يا أبا موسى ، لم تثبط عنا الناس ؟ . . »

وتمهل به برهة ، ثم استتلى يقول :

« يا أبا موسى . . والله ما أردنا إلا الإصلاح . وليس مثل أمير المؤمنين يخاف على شىء ...

فضاقت بالرجل مكابرته أو مداورته ، ولم يسعه إلا أن يخفض رأسه مؤمناً على ما سمع ، وإن وسعه فى ذات اللحظة ألا يغفل تذييل جوانبه باستدراك كأنما أبت نفسه عليه أن يسوق ردا خالصاً كله امتثال ! ... قال :

« صدقت ، بأبى أنت وأمى ! .. ولكن — المستشار مؤتمن ... » .

« نعم » .

« سمعت رسول الله يقول : إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم . والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الراكب ! ... »

فهتف به عمار :

« أنت سمعت هذا من رسول الله ؟ ... »

« نعم . وهذه يدى بما قلت » .

« إنما قال لك رسول الله هذا خاصة ، فقال أنت فيها قاعدا خير منك قائمـا ! ... » .

فزلزلت سخريته من عزة الوالى المتمرد . وانبعث رجل بالمسجد من أنصار الأشعرى يسب عمارا ويصيح :

« اسكت أيها العبد ! ... أنت أمس مع الغوغاء ، واليوم تسافه أميرنا ؟ ... »

وكأنما استشعر أبو موسى شجاعته ترتد ثانية إلى صدره بعد مظاهرة هذا النصير ، فعاود الخطاب :

« . . . لقد جعلنا الله إخوانا ، وحرم علينا أموالنا ودماءنا فقال : يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » . وقال جل وعز : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم . . . »

وإنها لدعوة حق أريد بها باطل ما فى ذلك مراء . وإلا فما عسى كان يعنيه الأشعرى من وراء هذا الحديث ؟ . ومن ذا قتل أميره السابق الذى ما زال يدين له بالولاء من بين رجال أميره الجديد الذى يدعوه اليوم أن يندب الناس ؟ . . وهلا عل الرجل هذا الكلام المتكرر المعاد عن التخذيل والقعود ؟ . . إن عمارا ليتوثب به الآن غضبه ، وليثور دمه ناراً حامية فى شرايينه وهو يلق السمع إلى ما يزجيه صاحب الكوفة للناس من تمويه . ولو أفسح له وقته إذن لقام مثل مقامه السالف فى وجه هذا المتمرد ، ولصاح به كصيحته بأمس القريب :

« . . . إن أبا موسى ينهاكم ، أيها الناس ، عن الشخوص إلى هاتين الجماعتين . ولعمرى ما صدق فيما قال ، وما رضى الله من عباده بما ذكر . . قال عز وجل : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . . وقال : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . . »

هذا هو حكم الإسلام حين تفرق فتنة بين أبنائه ، وبه تكلم عمار ورد على إرجاف والى الكوفة منذ أيام . ولقد هم عمار أن يعيد تلاوة النص السماوى على أسماع الناس فى اجتماعهم ذاك بالمسجد دحضا لزعم واليهم ، لولا أن أتيح لهم من بينهم من كفاه مؤونة سوق الاحتجاج ، وتناول منه السلاح الذى يحسن تصويبه إلى الأشعرى المفتون بالخداع . .

أجل ، فقد أقبل فى هذه الآونة الحرجة زيد بن صوحان ، الرجل الذى سمته عائشة ابنها الخالص ودعته لنصرتها أو للتثبيط عن الإمام . أقبل وفى يده كتابها ذاك وكتابها الآخر الذى بعثت به إلى أهل الكوفة تخذلهم ، وإنهما

معاً لحجة قائمة على أن التثبيط عن على ليس اعتزالا للفتنة بل انتصاراً وتشيعا لدعوة الخصوم العصاة . . .

وقام زيد بين الناس فتلا خطاب عائشة إلى شعب بلدته ، ثم أتبعه بتلاوة كتابها الخاص إليه ، وقال بعد فراغه من التلاوة .

« رحم الله أم المؤمنين ! . . أمرت بأمر وأمرنا بأمر : أمرت أن تقر فى بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به ، وركبت ما أمرتنا به ! . . »

فساد الشغب جوانب المسجد ، وتداول اللغط بين موافقة وبين إنكار . من ها هنا صاح رجل بالمتحدث : « يا عمانى ، سرقت بجلولاء فقطعك الله ، وعصيت أم المؤمنين فقتلك الله ! » . . ومن هناك ثارت فتنة فى وجه الوالى وناصريه حتى أوشك أن يقتتل الناس . وكان أبو موسى بينهم كالضيع ، لا يعرف كيف يثبت بمكانه ، ولا كيف يؤدى الرسالة التى اضطلع بها . . جاهد مراراً ، وكفكفهم مرات ، وما زال صوته يحاول أن يشق له طريقا بين الضوضاء إلى الأسماع :

« أيها الناس ... أطيعونى . أطيعونى تكونوا جرثومة من جراثيم العرب ، يأوى إليكم المظلوم ، ويأمن فيكم الخائف . . . . »

ومضى يتابع خطابه وإن أوشكت الألفاظ أن تغرق فى غمرة النزاع المشبوب :

« . . . إنا أصحاب محمد أعلم بما سمعنا . . إن الفتنة إذا اقبلت شبهت ، وإذا أدبرت بينت . وهذه الفتنة باقرة كداء البطن ، تجرى بها الشمال والجنوب ، والصبا والدبور . تسكن أحياناً فلا يدرى من أين تؤتى ، وتذر الحليم حيران كابن أمس . . . »

ثم اشتد ، وعلا صوته بدعوة التفريق :

« . . أيها الناس ، الزموا بيوتكم ! . . خلوا قريشا — إذ أبوا إلا الخروج

من دار الهجرة — ترتق فتقها ، وتشعب صدعها ! . . فإن فعلت فلأنفسها ، وإن أبت فعلى أنفسها ! . . . » .

قريش ؟ . . هذا نوع من الدعوة جديد . كأنى بالعامة حينذاك أمسكوا الأنفاس ، وأرهفوا آذانهم وهم يتدبرون ما يقول . فهى فتنة إذن شبتها قريش ، عليها وحدها أن تصلاها . . الحى المستعلى على العرب وعلى بقية شعوب الأمة الإسلامية بأحسابه وأنسابه آنت اليوم ساعة محنته ، فليقطف العوسج ، وليهو وحده إلى أسحق قرار ! . .

٤

أكانت هذه قضية قريش وحدها أم قضية الإسلام ؟ . .

أبو موسى طالع شعبه برأى يقف حائلا بينه وبين السياسة العامة للدولة ، ويتنكر للأمن الجماعى فيها . خاطب فى الجماهير عاطفتها نحو طبقة الأشراف وقد لاقوا منها ترفعا وصلفا خلال السنوات العشر الأخيرة ملأ قلوب الناس عليها نقمة وموجدة . فلعله استحضر بذهنه هذه العاطفة وهو يسوق لأهل الكوفة رأيه الجديد ، وظن أنه بها كفيل أن يبلغ هدفه . . . كفاه أن يبدى للشعب أنها قضية غرماء ، يتطاحنون فيما بينهم ثم يبوءون فى نهاية الأمر بغنم أو بغرم لهم وحدهم ، وعليهم آثاره . فما للكوفة من وراء هذا النزاع مأرب . وليس يفيدها إن أكلت المتناجزين جميعاً شرة الحرب الأهلية وقضت عليهم معا أو على أحد فريقيهم قضاء لا يبقى منه على شىء ! .

بهذا اللون رسم الرجل صورة التناحر ، فإلى أى مدى كان رسمه يطابق الأصل ؟ .

لو أنه كان خلافا بين طائفتين من جمهور الأمة وعرضها لأنكرت عليه الأصول المرعية فى سياسة الشعوب ومبادئ فن الحكم هذه النظرة الكليلة ، فكيف وهو تمرد صريح أعلنه فريق من العصاة على صاحب الأمر الشرعى فى البلاد ؟ . .

ولكنه خاطب — كما بدا — فى نفوس العامة عاطفتها المتنكرة لقريش ،

الزارية عليها ، ليستطيع من وراء هذا الخطاب أن يجنى ثمرة غرسه الذى تعهده طويلا — ذلك الغرس الذى كانت سياسة التثبيط نواته . فإذا أدبر الناس عن قريش بحزبيها القاعين فى الخلاف الآن ، فثمة حافزله سحر على نفوسهم وسلطان تدفعانهم لهذا الإدبار . وثمة من بعد نتيجة لازمة هى قعودهم عن نصرة الإمام ؟ . .

إن هذا الأسلوب من التفكير ليكاد أن يرينا فى الأشعرى رجلا انتهازيا مداوراً يتوسل إلى غاياته بأية وسيلة على نقيض ما قر فى أذهان المسلمين من سذاجته ، أم قد كان يا ترى عن غير تدبير كأنه خبط عشواء ؟ . . يعسر أن تكون الغفلة وحدها باعثته أو أن نغمض العين عما سلف من خطوات الوالى فى هذا السبيل ! . . فكلما تقصى الباحث دعوة الرجل اقترب رويداً رويدا من الإيمان بأنها خطة محكمة متصلة الحلقات وكلما تراكمت فى صدره مكونات هذا الإيمان بدا الأشعرى تحت أضواء تقصيه عدواً لعلى وإن حاول جاهداً أن يضمر العداء خلف نقاب من الخشية على دم الشعب أن يهراق ، أو النأى بالعامة عن البذل من أجل سادتهم الأشراف ، أو تفرده دون سواه بالعلم بالحقائق المغيبة التى أطلعه عليها حديث للرسول مزعوم ! . . أيما حجة ساقها لتأييد دعوته كانت تلقى من يحسن الإصغاء إليها بين سامعيه . وأيما رأى نشره كان حقيقاً منهم بالتدبر ثم بالقبول وخاصة إذا داهن به عواطف الجماهير . ولكن الأنفس المسترببة فى نواياه كانت حرية أيضاً أن تتقبل قوله وهى على حذر منه أبلغ الحذر ، حقيقة أن ترده وتأباه وهى ترى له مغبة واحدة — لو سار عليه الناس — هى انتشار حبلهم ، وإشاعة الفوضى فى الدولة الوسيعة البعيدة الأطراف .

على أنه مضى وخطابه ، يكاد أن يحمل القوم حملا على ما يراه بهذه الدعوة الجديدة التى بثها لتضرب الفرقة بين صفوف الأمة . وراح يعاود تناديه أمام الجموع :

« . . . استنصحونى ولا تستغشونى . وأطيعونى يسلم لكم دينكم ودنياكم ، ويشقى بحر هذه الفتنة من جناها . . . »

فما بلغ من حديثه مبلغه وأوشك أن يبرح مكانه من المنبر حتى صاح به زيد ابن صوحان :

« يا عبد الله بن قيس ! . . رد الفرات عن دراجه ! . . اردده من حيث يجيء حتى يعود كما بدأ ، فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد ! . . . »

فبانت البغتة فى وجه الأمير . وتلفتت الزمر المحتشدة نحو زيد وهو يتم خطابه، ويده المقطوعة قد ارتفعت تشير إلى أبى موسى فى إيماءة وعيد :

« . . . آلم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * » .

وكانت هذه الآيات التى نطق بها لسان التنزيل أبلغ وصف وأصدقه لحالة من اختاروا القعود والتخاذل ، وآثروا النأى بأنفسهم عن دفع الفتنة ومنعها أن تذيع ، مرتضين من إيمانهم أن يبوئهم مقعد المشاهد دون الانخراط فى الجهاد من أجل إنفاذ التعاليم التى سنها الكتاب القدسى ، ومن غير القيام بالدور الإيجابى الذى حتمته النصوص السماوية وأوجبته على كل قادر ، التجاريب والمحن وحدها محك إيمانه .

وبقى الحسن خلال ذلك بمجلسه . الله جنبه حتى اللحظة منازعة الرجل المتمرد وكفاه مشقة أن يقهر غلواءه وإصراره ويعفر جبهته المستعلية وخده المصعر فى الرغام ! . ولو قد شرع سبط الرسول منذ البدء فيما جاء فيه وبطش بطشه بالوالى المشاق لما لامه على الشدة أحد ، ولكنه كان امرأ رقيقا كله وداعة ، يتحرج أن يركب العنف ويتوسل به . وما زال يؤثر الترفق ويقدمه على غيره من الأساليب حتى فى ألصق أمر بدولة أبيه وأمسه بحفظ حكمه الذى راحت تنوشه أطماع المنافسين. فلقد خرج من ذى قار وإنه ليعلم أن هذه آخر سفارة يوفدها أمير المؤمنين إلى الكوفة لاستنفار الناس ، ويعلم أيضا أن إمرة الأشعرى لم تعد لها فى العمر إلا ساعات ثم ينطوى عليها سجل التاريخ ! . . نعم ، فهذا قرظة بن كعب الأنصارى أوشك أن يصبح صاحب الأمر فى البلدة من قبل الإمام بعد أن ضاقت الحيل عن رد أميرها المتمرد إلى الجادة . وقد بعث على مع الحلف كتاباً يثبته ويعزل به السلف عن ولايته يقول فيه :

« . . . قد كنت أرى أن تعزب عن هذا الأمر ، الذى لم يجعل الله عز وجل

لك منه نصيبا ، سيمنعك من رد أمرى . وقد بعثت الحسن بن على وعمار بن ياسر يستنفران الناس ، وبعثت قرظة بن كعب واليا على المصر . فاعتزل عملنا مذموما مدحورا ! . . فإن لم تفعل فإنى قد أمرته أن ينابذك . . . »

فهل من ريب فى أن الحسن كان يعلم من أمر هذا الكتاب ما يعلم قرظة ، ثم رأى أن يقدم الحسنى فى معاملة الأشعرى ثم فى حمله فى النهاية على الاعتزال ؟ . . حقيق بطبع سبط الرسول أن يكون هكذا ترفقه ولو بمثل هذا العامل الممعن فى العصيان وفى الإساءة إلى أمير المؤمنين ، وحقيق أيضا به ألا يشتد فى طلب نصرة أهل الكوفة بحق ما يخوله تمثيله الحاكم الأول للدولة وقيامه بتدبير الأمور باسمه . ولكنه فيما يبدو جنح للهوادة ، ورأى أن يترك للناس تدبر الأمر وهو يؤمن أنهم سوف ينهضون رويداً رويدا لتأييده عن اقتناع وإيمان ليس عن خشية وإذعان .

وكذلك انكشفت خبيئة الأشعرى . فلم يغن عنه شيئا تملقه عواطف الجماهير بل انتكث عليه خيط تدبيره . وإذا صوت ابن صوحان يشق طريقه إلى الآذان ، رافعا ينادى فيهم الواجب والحق وحمية الرجال :

« سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين ! . . . انفروا إليه جميعا تصيبوا الحق ! . . » .

وقام على أثره القعقاع بن عمرو ، هادئ النفس يحدثهم بصوت العقل دون صوت الحماس :

« أيها الناس . إنى لكم ناصح ، ولأقولن قولا هو الحق . . . إنه لابد من إمارة تنتظم الناس ، وتزع الظالم ، وتعز المظلوم . وهذا على يلى بما ولى ، وقد أنصف فى الدعاء فإنما يدعو إلى الإصلاح . . . »

وتحدث بمثل قوله أيضا سيحان ، ثم أردف يقول :

« . . . هذا أمير المؤمنين يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه . وهو المأمون على الأمة ، الفقيه فى الدين . فمن نهض إليه فإنا سائرون خلفه . . . »

ثم تكلم من بعدهم كثير حتى كاد الرأى أن يجتمع على النصرة والنهوض

فى تأييد الإمام . وأولئك الذين لم يكونوا من أمرهم على بينة ، متأرجحين بين القعود والتلبث حتى تنقشع غيمة هذا التبلبل فى الآراء ، ما عتموا أن استجابوا للدعوة ، وساروا من كل صوب يتهيأون للخروج . . قيل لعدى بن حاتم :

« ماذا ترى ، وماذا تأمر ؟ . . »

فأجاب :

« ننتظر ما يصنع الناس » .

فلما أخبره قومه بنبأ الحسن وما دار بمسجد الكوفة مما تحدث به أولئك الرجال ، لم يتردد فى المسارعة إلى التلبية وقال :

« نحن سائرون ! . . »

على أى حال لم يعد ثمة شك فى تحول التيار إلى غير ما اشتهى الأشعرى . وما موقف عدى إلا صورة من موقف غيره كثيرين . ولكن أبا موسى كان — فيما يبدو — شديد الثقة فى انتصار تثبيطه ، شديد الإصرار على ما هو عليه ، بالغ العناد . خفى عنه أن تخذيله إلى زوال ، وأن توسله إلى هدفه بشتى المعاذير لم يعد يجد له طريقا إلى أذهان الناس ولا إلى قلوبهم على السواء . وإذا كانت كل هذه النذر البادية خلال أحاديث أصحاب الرأى فى الكوفة لم ترده إلى الصواب ، فهو إذن حقا مشاق ، بادى الغل ، كما نعته هاشم بن عتبة يوم أبلغ نبأ سياسته إلى الإمام ! . . .

ونهض الرجل لا يبالى الآن بعاطفة الجمهور ، ولا بهذا الإجماع الذى وحد بينهم جميعاً صفا واحداً خلف على وعلى وفق ما أراده من شعبه . . نهض ثانية يعاود حديث التخذيل كأنما لسانه ليس يحسن من الألفاظ سواه ! . . فأى شيطان يا ترى تلبسه وقاد خطوه ؟ . . . وأى معاملة حقيقة بأن تهديه خيرا من ترفق الحسن وطول صبره عليه ؟ . . غير أن من النفوس البشرية ما تزيده الحسنى شموسا وشكاسة . وكان أبو موسى من هذه الشاكلة التى لا تستجيب للين ولا تسلس قيادها لغير الشدة والقهر . ولو صدقت نظرة فى امرئ لكانت نظرة الإمام لهذا الوالى هى أصدق النظرات . فقد كان يرى الخير فى أن يخلع عنه إمرة الكوفة

فتستقيم له بها الأمور لولا أن رده الأشتر النخعى عن عزمه وهو مخدوع فى ولاء الرجل وإخلاصه . ولو قد عزله الإمام منذ البدء لتجنب كل هذه المناورات ، ولبقى أمامه وقته ممدودا يصاح فيه شأن مناوئيه أو يدفعهم بسيفه قبل أن تستفحل فتنتهم ، وبدلا من ضياعه فى استصلاح نفس الأشعرى الشارد الحرون ! . .

ولكن أوان الترويض فات ، وبقيت لحظة القهر والعنف معلقة كالسيف المرهف فوق رأس المتمرد . فمن عجب أن يكون شفيعه فى البدء هو مخاصمه الآن وجلاده الذى لا يلين . . . إنه الأشتر ، وسيعلمن الأشعرى نبأه بعد حين ! . . .

٥

الأشتر تقاسم نفسه الندم والخجل والغضب الهتاج . فالأنباء ما تنى تأتيه من الكوفة فتمد فى رقعة أسفه ، ويرفع بصره متردداً إلى عينى الإمام فيقرأ فيهما من اللوم ما يزيد شعوره بالخجل حتى ايسارع بالإغضاء ورد نظراته عنه . وهل كفت الأخبار لحظة عن حمل تقاعد الأشعرى وما أخذ به جنانه ومنطقه من خذل على وحض أهل إقليمه على هذا الخذلان ؟ . . . كلما مضت الرسل ثم آبت من البلدة بغير أنصار ولا عتاد كانت أوبتها هكذا تحز فى قلب الأشتر وتكاد أن تفريه وكان دائما يستشعر غب عودتها خاوية الوفاض مما ذهبت فيه ، بمثل طعنة النصل تمزق فؤاده ، ومرارة العلقم على شفتيه . فلقد خانته نظرته فى دخيلة الأشعرى كأنما ضلت فى منعرجاته الملتوية فغاب عنها غشها المستور الكامن فى غورها السحيق . وأخطأه أيضاً توفيقه حين أحسن الظن بصاحب هذه الدخيلة فأمن له ووهبه ثقته . تبدت له حقيقة هذا الرجل على صفحة الغيب لما استشفع له لدى على ، ولما أبقى عليه إمرته ، بل لعله كان يبوئه مصيرا يجعله أمثولة بين الخونة وناكثى العهود والمتنكرين للجميل . ولكن القدر سبق على لسانه كما شاء إلى ما شاء ، فظلت الكوفة ، بشفاعة الأشتر وحدها ، تحت إمرة الأشعرى ، ترد دعوة الإمام وتلوى عليه أمره الكرة بعد الكرة ، وتوفى بالدولة على التمزق . . .

ما أشق على نفسك أن ترى موئل ثقتك يتنمر لك ، ويستجيب لنقيض ما آمنت أنها مستوجبة عليه . لكأنك فى هذه الحال حاضن ثعبان كادت تعوله قرة الزمهرير فلما استشعر الدفء بين ردنيك ذكر طبيعته الخوانة فمد نابه يجزيك عن حسناك بنهشة الهلاك ! . . .

بمثل هذا كان الأشتر يحس ، وبأفدح منه وأبلغ كانت تتعذب نفسه . ليألم وليشقى كل لحظة ليل وكل ساعة نهار . ولئن كان بعض شقوته مرده انتكاث حدسه وخيبة ظنه بذلك الأمير الجاحد المتمرد ، فبقيتها من أجل على ، صاحب الطاعة على المؤمنين ، الذى عز عنه فى الكوفة النصير ، ولقى العصيان والخيانة على يد واليها الغالى فى المشاقة والشنآن حتى أبعد الحدود . . . إن الندم والخجل والغضب العاصف لتعاور كلها نفس الشفيع وتفسد حياته عليه . وإنه ليقضى الثوانى واللحظات متقلباً من شعوره على مثل الجمر ، يوجعه أن تعجز الوسائل عن هداية العاصى إلى محجة الصواب ، فما عاد يصغى لغير صوت هواه وإن زأرت حوله نذر الأحداث . الأشتر يرى نفسه عن هذا الموقف الذى التزمه الأشعرى أول مسئول . وإنه حقا لكذاك . وكم جهد ليتحرر من تبعته تلك بإصلاح الأمور لمولاه فلم تجده محاولاته . حتى إذا رأى الوقت يتسرب من بين يدى سيده وأوليائه كتسرب الماء ، وخشى أن تزيد الأحداث اضطرابا فيعسر استنباط دواء لدائها العياء ، بادر فاستلهم عزمه ، وتدبر أمراً وأبرمه ثم طوى عليه نفسه ، ومضى إلى الأمام يتحدث إليه :

« يا أمير المؤمنين . . . إنى قد بعثت إلى الكوفة رجلا قبل هذين ، فلم أره أحكم شيئاً ولا قدر عليه . وهذان أخلق من بعثت أن ينشب بهم الأمر على ما تحب ، ولست أدرى ما يكون . . . »

وتمهل يرى كيف يكون جواب مولاه حتى سمعه يقول وإن فى نبراته لرنة عتب وملامة :

« يا أشتر ، أنت صاحبنا فى أبى موسى ! . . . »

« نعم . فإن رأيت ، أكرمك الله يا أمير المؤمنين ، أن تبعثنى ، فإن أهل

الكوفة أحسن شيء لي طاعة ، وإن قدمت عليهم رجوت أن لا يخالفني منهم أحد ... » .

« الحق بهم » .

فتحقق له ما أراد . الآن سوف يستطيع أن يصلح ما أفسد ، ويجرد الأشعرى من الثقة التى لم يكن لها أهلا ثم يجرعه غصة خذله وعصيانه ! .

وكان الناس ، إذ دخل البلدة ، مجتمعين بالمسجد ، يصغون تارة إلى دعوة واليهم ، وأخرى إلى أقوال الوجوه والسادة ورجال الشعب الذين راحوا يتناوبون الكلام . وكان الحسن جالساً بينهم ملقياً سمعه ، واسع الحلم كعهده . وعمار قد غالب طبعه الثائر ومزاجه الحاد فاستسلم صابرا لما يدور حوله وقد بدت بشائر التفاف الناس حول على وانفضاضهم عن الأشعرى . .

وازدلف الأشتر فاتخذ مقاماً له بين الناس ، يبين لهم من الأحداث السالفة ما خفى عنهم وغمت عليهم دوافعه ومثيراته . وكان من الطبيعى أن يبدأ بسوأة الجاهلية يهتكها ، ومآثر الإسلام ومحامده يسرد منها وينتظم آلاء فى مثل عقود الزهور ذات الريحان ! . . وكان من الطبيعى أيضاً أن يطوف آونة بخصومه مناوئى الإمام ، وأخرى بأخطاء عثمان ، ولكنه حين بلغ هذا الشوط من حديثه لم يعدم بين الجموع صوتا ينبرى له فيزجره ويصيح :

« قبحك الله ! ... لأنت كلب خلى والنباح ! ... »

فتقبلها وسكت ، لا لأنه خشى على نفسه مغبة ما قد يثير زاجره الغاضب ، بل لأن القوم أعفوه من مشقة الجواب . فقد ثاروا بالصائح ، وهموا أن يعصفوا به .

عندئذ تسلل الأشتر ، وترك الناس وما كانوا فيه . إن أمامه خطة لا يحتمل إنفاذها المكث والتريث ، وما للتراشق بالألفاظ والمهاترات جاء ! ...

وغادر المسجد وكان له بالبلدة مكانة مرموقة ، وبنفوس كثيرين من أهليها نفوذ . فما التقى بطائفة من الناس فى ناحية إلا راح يحدثهم حديثه فلا يلبثون أن يميلوا إليه . كلما مر بجماعة استهوى منها نفرا ، أو بقبيلة استلحق بضعة

من رجالها بموكبه ، أو بحشد دعاهم أن يتبعوه . إن له سلطاناً قهاراً على أبناء الشعب جعلهم يسلسون القياد . . .

وعندما كان أبو موسى يعاود تثبيطه وهو على المنبر ، وتثور به آونة فئة من سامعيه أو تؤيده فئة ، كان الأشتر يزحف بكتيبته الشعبية على دار الإمارة ، وهو يهتف بمن خلفه :

« اتبعونى أيها الناس . إلى القصر ! . . . »

لن تجد أقرب إلى نفس الدهماء والعامة من دعوة تناديهم للغض من هيبة رجل يعلوهم قدراً فى النظام الاجتماعى الذى يكونون قاعدته . فانبرم بحالهم حافز للتمرد على الأوضاع ، دافع إلى استباحة الفوارق . وكفى بهم أن يجدوا فرصة تعلو بهم فوق « العالى » وتجعلهم مالكى مصيره . فهذا نصر قلما يتاح مثله ، ولن يتاح ، إلا بهدم الحواجز بين الطبقات وإنها لعصية إلا على معول ثورة أو شغب أو اضطراب بل هو ثأر من التميز الذى رسب بهم فى قاع الدنيا ، وطفا إلى الحافة بمواطنيهم من الأشراف والسادة . أو هو فى حقيقته تنكر لحكم الأقدار ، انتقام منها إذ أقرت هذا التميز وجعلته سنة بين الناس . . . ولن تجد قط امرأ فى هذه الحياة راضيا بقسمه ما دام يرفع عينه فيرى غيره يتبوأ دونه مكانة علية من العلم أو من الجاه أو من السلطان .

فلعل هذه العاطفة كانت بعض عون الأشتر عند الجماهير يؤيدها ما كان من ولائها للإمام . ذلك أن الشعب الذى بقى هادئا طويلا ، يسمع بدعوة عامله النكراء فلا يحرك أصبعا أمام وجهه ، أقبل مسرعا يلوذ بدعوة الأشتر ويتحدر خلفه صوب القصر كما يتحدر السيل . . . عز من قبل محرك العاطفة النائمة والميول الحبيسة وها قد جاء المحرك المثير !

ولم تستعص عليهم الدار ، ولا استطاع أن يردهم عنها جند أبى موسى وغلمانه وما أسرع أن أضحى القصر لقى مستباحا تحت أقدام المغيرين وتفتحت أمامهم مغاليقه ، وأصبحت الكلمة العليا فيه للأشتر من خلال الجماهير . . .

وأسرع بعض الحرس إلى المسجد يحملون إلى سيدهم نبأ نكبته . .

قد كان إذ ذاك يحسب نفسه سيد الموقف ، له الحول والطول وما يظاهره أن يأمر فيطاع . نداء الإمام ، وحديث الحسن ، وخطب الخطباء وضعها كلها دبر أذنيه وسد عنها سمعه . أما دعوته فهى الدعوة ، وأما قوله فهو الفصل وليس لأحد أن يعترضه من قبل ومن بعد . وحين دخل غلمانه كان متسنما المنبر ، يكرر كلامه المثبط ، ويسرد سياسته عوداً على بدء . بلغ به غيه مداه ، ولج فى العناد والمكابرة ، حتى أعيي الحسن الحليم الرقيق أن يستمسك بصبره فمضى يصيح به فى ثورة وهدير :

« اعتزل عملنا أيها الرجل ، وتنح عن منبرنا لا أم لك ! . . . »

ولكن الحرس حسم النزاع . فقد أسرع منهم رجل إلى الخطيب ، مال على أذنه وهمس فيها بشىء جعله يبرح مكانه فى التوكمن أصابه مس لا يلوى ولا يتريث ، ويغادر المسجد وإن بخطوه لمثل نزع النشوان . . .

وعجب القوم ، وساد بينهم لغط الحدس والتخمين . فما عسى قد أصاب الأشعرى فبلبل خاطره ، وأزعجه كل هذا الإزعاج ؟ . لا أحد يدرى ، ولا يستطيع أمرؤ منهم أن يمتد به فكرة فيتنبأ بحقيقة الأمر . ولكن القصر ليس ببعيد . وصوت الهرج فيه قد أخذ يتسلل قليلا قليلا إلى أسماع الناس بمتجمعهم فى المسجد . . . وراح الخبر يتكون فى قالبه الأخير حرفاً بعد حرف ، وكلمة بعد كلمة ، ويحمل فرحة طروباً إلى القلوب الحميمة ، لقى إذن هذا المنابذ جزاءه فقشر عنه سلطانه ! . . وعاد كما بدأ — إلى حين — فرداً مغموراً بدون خطر ، يمر به التاريخ فلا يلقى عليه عينه ، ولا يتلكأ — إن رآه — لحظة عن المسير ! . . .

وهز عمار بن ياسر رأسه ، كأنما يتدبر حكمة الله التى أبرمت نهاية الطاغية ، وقوضت قلعة اعتداده ، ودكت دكا جبروته . . . هز رأسه وقد انزاح عن صدره ذلك الكابوس ، وقال فى هدوء وإيمان :

« . . . غلب الله من غالبه ! . . . » .

٦

بقيت له الذلة ! . . الرجل الذى كان جباراً مريداً لا يصغى لصوت خيار مواطنيه وأرجحهم رأياً غدا تعنو جبهته ويستذل للغوغاء . فى دقائق قليلة بات قصره مرتاداً لعرض شعبه ، وراحت هيبته فى أكفهم ملهاة . . . عندما تبع غلمانه إلى البيت ، حسبها فلتة غضب ندت بها نفوس الدهماء، ولن يلبث ظهوره بينهم أن يبتعث فى قلوبهم الخشية منه ورهبة سلطانه . ولكن ظنه خانه لما توسط القصر ، ورأى كيف همت الجموع أن تعصف به ، بعد أن حكمها قانون الثورة ، ولم تعد تخضع لشريعة سواه . وحين نجا من عبث المغيرين ، واستطاع أن ينفذ من بينهم إلى مأمن ، بدا له الأشتر النخعى ، شفيع الأمس وديان اليوم ، يفيض وجهه بمقته ، وتتقد من غضب عيناه . وفى انكسار تقدم الأشعرى ، على سيماه من خزيه ومن هزيمته آثار ، وإن بنفسه للاعجا يوشك أن ينطق بمسكنته لو أوتى اللسان . ولكنه قرأ العزم فى قسمات مالك مصيره ، ورأى العنف الذى يزلزل القلب . . .

وصاح به الأشتر ، فى نبرة كصوت القدر ، تقطر حقدا ومرارة :

« اخرج من قصرنا لا أم لك ! . . . » .

فتردد برهة . يا ترى ألا يستجيب هذا الرجل تارة أخرى لداعى المروءة كما استجاب بالأمس ، فيعفو ويشفع ؟ . .

غير أن الأشتر لم يدعه وأحلامه ، بل عاود ثانية زئيره :

« . . اخرج ، أخرج الله نفسك ! . . فوالله إنك لمن المنافقين ! . . »

فبارحته على الأثر كل سجاياه ، وبقيت له الذلة ! . . وأغضى الطرف وهو يجهد ليجد مخرجا من موقفه الضنك ، ثم نطق بصوت واهن ضعيف :

« فأجلنى هذه العشية . . . »

« هى لك ، ولا تبيتن فى القصر الليلة » .

وكان هذا غاية ما يطمع فيه ، فما يسمه البقاء بين ظهرانى « رعيته » بعد هذا الهوان الذى أصابه منها . وليس يأمن — إن بقى — أن يكون فريسة للسخرية والتهكم . . . بل هو لم يلبث ، ولما تنته بعد مهلة الأشتر القصيرة ، أن أضحى نهبا لما هو شر من السخرية وأفدح . فقد اجتاحت قصره زمر من العامة ، كأمواج البحر هدفها مال واليها المغلوب ومتاعه . جاءت تستبيح ما يملك وتهم أن تحتلبه كأنه غنيمة حرب ! . . .

ولكن الأشتر لم يتنكر لعدوه المهزوم لم ينسه غضبه المروءة ونخوة الرجال ، فوقف فى وجوه الجموع الهائجة يردهم عن القصر ، ويحول بينهم وبين ما ابتغوه :

« إنى قد أخرجته أيها الناس ، فكفوا عنه » .

فارتضوا من نصيبهم فى أسلاب الأشعرى بالنصر عليه ، وبنقض سياسته النكراء . وكفاهم الآن غنيمة أن قد هزموه فى نهاية الشوط بعد طول اصطبار ، وحرروا رقابه من سلطانه . . .

وهدأت حدة الأمر بعد قليل ، وبدأ العقل يسيطر ثانية على نفوس الجمهور . . . وكان اجتماع المسجد ما زال منعقدا ، والحديث فيه هذه الآونة يؤيد عليا أتم تأييد ، ويدعو الناس بدعوة سفيريه . . .

عندئذ قام الحسن يتحدث إلى الناس ، وقد شهد إجماعهم على نصرة أبيه :

« أيها الناس ، إنى غاد . فمن شاء منكم أن يخرج معى على الظهر ، ومن شاء فليخرج فى الماء . . . »

فما أصبح الغد حتى التأمت الجموع ، وعجت الكوفة بالنفار آلافا كثيرة ، يستبقون الطريق صوب ذى قار ، على مطيهم فريق وفى السفائن فريق . قد تآمر عليهم وجوههم ممن شهدنا ولاءهم أثناء تثبيط أبى موسى ، واستمساكهم بعهد أمير المؤمنين . وكان فيهم غير الأشتر ، القعقاع بن عمرو ، وزيد بن صوحان ، والهيثم بن شهاب ، وحجر بن عدى ، وسعد بن مالك ، وعدى بن حاتم وغير أولئك ومن أشباههم كثير . . . وحين غدت جموعهم على ذى قار تلقاهم الإمام فى طائفة من خلصائه منها ابن عباس ، فرحب بهم وأحسن اللقاء . . .

وكان لا بد أن يبين لهم سياسته ، ليكونوا على بينة مما سينهضون فيه . إن قصة الزبير وطلحة وعائشة بالبصرة قد انتهى لا ريب نبأها إليهم وعلموها كما خطها مداد الحقيقة ، من كتبه مرة ، ومن رسله أخرى ، ومن ألسنة الرواة مرات ... ولكنا لا نحسب أحداً رسمها فأجاد الرسم لم يغفل منها هنة يسيرة كمثل ما رسمها الإمام في قول له :

« . . . فخرجوا يجرون حرمة رسول الله كما تجر الأمة عند شرائها ! . . متوجهين بها إلى البصرة ، فحبسا نساءهما في بيوتهما ، وأبرزا حبيس رسول الله لهما ولغيرهما ، في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة طائعاً غير مكره . فقدموا على عاملي بها ، وخزان بيت مال المسلمين ، وغيرهم من أهلها ، فقتلوا طائفة صبراً ، وطائفة غدراً . . . فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلا واحداً معتمدين لقتله بلا جرم جره لحل لي قتل ذلك الجيش كله . . . »

ومع ذلك فقد كانت نفسه الصافية تميل إلى الصفح والغفران ، وتود لو استطاعت أن تجنح بعدوه إلى صلح يجنب الإسلام وأهله مصارع السوء ، ويعيد الأمة كتلة موحدة . . . وكما تحدث في صحبه قبل خروجه من الربذة إذ سأله ابن رفاعة عن موقفه من العصاة ، فكذلك تحدث لأهل الكوفة عندما تلقاهم بذي قار ، بنفس المعنى ونفس السماحة التي تأبى عليه أن يحتجن غلا بقلبه على متمرد أو عدو مبين . وقف يخطب جموعهم ولما يستقر بها المقام ، فقال :

« يا أهل الكوفة . . أنتم وليتم شوكة العجم وملوكهم ، وفضضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم . . وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ، فإن يرجعوا فذاك ما نريد ، وإن يلجوا داويناهم بالرفق ، وبايناهم حتى يبدأونا بظلم . ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه إن شاء الله . . . . » .

فهذه شيمة رجل حريص على الوحدة حريص على السلام . ولو قد صفت نفوس شانئية لأقبلوا سراعاً يفيئون إلى طاعة أنكروها وبيعة نقضوها ، إبقاء على دينهم ودنياهم . فما كان لينفس عليهم شيئاً قط . ولكنهم شاءوا أن يشغبوا

عليه أمره خفت عليهم شريعته المثلى : « إن شغب شاغب استعتب فإن أبى قوتل ! » . . . وجرحوا إمامته ما استطاعوا سبيلا إلى التجريح وهم يصطنعون من الحجج والمعاذير مالا يستقيم والواقع المشاهد . زعموا تارة أنهم أقروا بها كرها ودون اختيار فألزمهم الحجة بفيض من بيان البرهان أغضوا عنه عيون الأذهان ! . . . وطورا زعموا أنها بيعة غابت العامة عنها وما عنوا إلا الأمصار بل — أغلب الظن — قد عنوا الشام . ولكن برهانه فى هذا حاضر ، وليس يعتسفه اعتسافا ، إنما يسوقه المنطق السليم الذى لا يلتبس بهوى ولا غاية : « فلئن كانت الإمامة لا تنعقد حتى يحضرها عامة الناس فما إلى ذلك سبيل . ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها ، ثم ليس للشاهد أن يرجع ، ولا للغائب أن يختار . . . » .

إن أولئك الذين قاموا يناجزونه لم يتسلحوا قط فى نزالهم بكلمة حق تؤيد قضيتهم وإن تسلحوا بعدة من حديد ! . . وكانت قضيته من قبل ومن بعد ، بادية الرجحان بينة اليسر ، ليس فيها ظل من شبهة . أماهم فقد تخبطتهم الغايات ، وتنازعتهم الأغراض والمطامع ، فركبوا إلى تحقيقها الصعب والعسير . ولو أريد لهم نعت يطابق حالهم فلا يخطئه ، لكان النعت كلمات الإمام حين أراد أن يبين للناس أى الناس حربهم ودفعهم عنه بالعنف حلال :

« . . . ألا وإنى أقاتل رجلين : رجلا ادعى ما ليس له ، وآخر منع الذى عليه ! . . . »

وقد ادعوا ومنعوا فى آن . وأسرفوا طويلا فى المنع وفى الادعاء . ومع ذلك فلم يبادرهم بأداة حربه قبل الاستعتاب وإفساح المدى أمامهم ليرجعوا عن الغى . وعندما تهيأت له أسباب القمع والردع وتجيشت الجيوش تحت ألويته ، استمسك أيضاً بصبره ، وبعث إلى القعقاع بن عمرو — إذ هو صاحب لرسول الله أولى بأن يلين له العصاة — ليستسفره إليهم قبل أن تعصف بهم كتائبه . . .

قال له يأمره أن يرد البصرة فيجهد وسعه أن يتألف بها العصاة عسى أن ينشب الله به الأمر وتجتمع الأمة وحدة منيعة بعد طول تفرق واختلاف :

« الق هذين الرجلين يا ابن الحنظلية فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظم عليهما الفرقة » .

فمضى الرجل يتأهب لهذه السفارة التى ليس أكثر منها بركة على الإسلام لو أتت بما رجاه الإمام . وحين أوشك أن يبرح ، وكاد أن يقطع أولى خطوات المرحلة صوب هدفه ، أقبل على عليه يسأله :

« كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصاة منى ؟ . . » .

فأجاب :

« نلقاهم بالذى أمرت به . فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى اجتهدنا الرأى ، وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغى . . . »

فسره جوابه ، وطاب نفسا بحكمته وأثنى عليه :

« أنت لها ! . . »

وانطلق القعقاع . . .

غير أنها لم تكن أولى السفارات التى بعثها لذلك الحزب ولا آخرها . بل زخرت الروايات بأشباه لها كثيرة ، منها رسل ومنها رسائل ، راح أمير المؤمنين يسوقها إلى الصاحبين وأم المؤمنين ، يرجو بها وجه الله وصالح الأمة التى ضربت بين صفوفها معاول الهوى الهدامة . كم من مرة لوح لهم براية الأمان فلم يقبلوا منه ، وأمعنوا فى المشاقة واللجاج غاية الإمعان كأنما أغرتهم سماحته بالعناد . وحين حسب أنه ملاق عند عائشه ما أخطأه فى نفسى صاحبيها من التبصر ، ودعاها أن تعود عما جاءت فيه ، وتلزم حجابها وبيتها ، لم يكن يظنها تكابر كمثلهما حتى أتاه خطابها الذى لم تزد فيه عن قولها العجيب :

« جل الأمر عن العتاب ! . . . »

فلو أن رجلا غيره قام مقامه لما تريث بهم كل هذا التريث ، ولما صبر عليهم صبره ، ولقضى فيهم قضاءه الواجب منه فى غلاة العصاة . ولكنه بقى يتلمس الفرص والسوانح ولا يتبين مظنة للتفاهم إلا نهزها عسى أن يتجنب أداء ذلك الواجب الكريه . وكان يعلم أن فى صفهم طائفة لن تستجيب قط لدعوته السمحة

بل قد تثير بقية الحزب على صم آذانهم والمغالاة فى العناد والغى — تلك من آمنت أن سيخطئها النفع الذاتى لو التزمت الجماعة وأقلعت عما غدت فيه من خلاف . ذلك أن أفرادها قد استيقنوا أن الآراب لا تسير فى ركاب الإمام ، وأن من ألقى إليه بالزمام حقيق أن يتجرد من أطماعه وما لمثل هذا قاموا يشبون نار الانقسام . . .

ومع ذلك فهو على بينة منهم ، ليس يحسن بهم الظن على الإطلاق . وإنما ود لو بلغت دعوته آذان الفئة التى تلوذ بالحكمة لعلها تستطيع أن تقهر هؤلاء على تقبل الصلح ، وعندما بدا له ذات يوم أن يستسفر ابن عباس ، تخير له من يبث دعوة الوفاق فيه إذ هى أحرى أن تلقى عنده مالا تلقى لدن سواه . . . قال له إذ ذاك :

« يا ابن عباس . . لا تلقين طلحة فإنك إن تلقه تجده كالثوار ، عاقصاً قرنه ! يركب الصعب ويقول هو الذلول . . ولكن الق الزبير ، فإنه ألين عريكة ، فقل له : ثم يقول لك ابن خالك : عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق ، فما عدا مما بدا ؟ . . » .

تلك كانت نظرته إلى الأمور ، وغيرته على صلاح شأن الإسلام وأهله ، ما توسم فى ناحية خيراً إلا بادر يلتمسه حيث كان . . . وهذه فراسته ، صدقت دائما فى الرجال ، ولنا على صدقها فى الزبير ، من قبل ومن بعد ، أكثر من برهان . . .

دعوة إلى السلام

١

إنه حديث ليل ، مضت عليه الليالى . . . همست به رؤيا عابرة . حين غفوة ، إلى خاطره فصورت له بعض المستقبل . وعندما فتح عينيه ، واستقبل بهما ضياء النهار ، تواردت الحيرة على ذهنه مع الشروق . فمن يا ترى ذلك العليل النائم الذى أطلعه الحلم ؟ . . . ومن هذه المرأة التى اقتعدت عند رأسه مكاناً تستطيع فيه أن تحميه ثم لم تفعل ؟ .. ومن كل أولئك الناس المتدافعين نحو المريض وفى عيونهم علائم الغدر والشر السافر ؟ . . .

ليس يدرى « كليب » . لم يكن ذا علم بتأويل همس الليالى فى ضمائر الغفاة . ولو كان لعلم ، ولرأى الأحداث — قبل وقوعها — تجرى من بعد فى واقع الحياة بمصداق ما جرت به فى الحلم الغامض . . .

ومضى من حيرة يقص رؤياه ، ويلتمس لها الفتيا الكاشفة عند أصحاب المعرفة والبصائر . ولكنه لم يئو بغير عجبهم منها ، وبقيت له حيرته . وراح طويلا يستنبئ من يعرف ومن لا يعرف من الناس ، حضرهم وباديهم ، فى حله وترحاله ، فى سفره واستقراره ، فما أجدى عليه السؤال ولا الاستنباء . . . حتى إذا هم أن يجعل الحلم دبر تفكيره ، وبدأت تنأى به الشواغل ، بادر القدر فجاء بفتياه ! . . .

عندئذ قال له الناس :

« رؤياك يا كليب ! . . . »

وكان ذلك حينما صرع عثمان ، فهذا هو المريض العليل ، ومن غاله وأورده حتفه فأولئك ذوو الشر السافر الذين أبدتهم الرؤيا يتدافعون بغدرهم إليه ولا تردهم عنه — وإن ملكت — صاحبته .. أما المرأة فظلت بعيدة عن عين كليب وعن رأى خاطره ، بنجوى كالسر . تلوح صورتها دائما فى خياله ولا يدرى من هى ولا ما هو « شخصها » فى النساء .

وسارت به الأيام ، وأمعنت مواكبها سيراً فى درب الأحداث . وانقضى عهد وجاء آخر على آثاره . وتبدلت بحال حال والمرأة خفية عنه .

ثم انتشرت عند حد الأفق غيمة تكاد أن تحجب وجه الشمس ، سدت منفذ البصرة . فلما تبينها الناس رأوها كتائب مجيشة ، أقبلت من البلدة الحرام يسوقها الزبير وطلحة وأم المؤمنين . وليس مجيئها إلا الخلاف رفعت لواءه على الإمام ، ومقدمات غارة تهم أن تشنها على سلطانه .

وقع من الأحداث بالبصرة ما وقع . وناشتها نكبة تجر نكبة نظم أمرها العصاة . . ثم تكلموا بمنطقهم فلم يشفوا عجب كثيرين من أهليها بذلك المنطق وما احتوى من تبرير . بل اشتبكت على سامعيهم الأمور ، واختلطت خيوطها أنكاثا تاه بينها خيط الحقيقة وضلت عنه النهى والعقول .

كان الحدس وحده سبيل القوم إلى التعرف على الأسباب الخفية وراء هذا الغزو وهذا الخروج ، وطالما قادهم إلى ظلام . وكانت النفوس القلقة تلعب بها الحيرة آونة والريبة آونات ثم لا تأمن إلى قرار . فما يسعها الاطمئنان إلى ذرائع الغزاة ، وليس تستطيع الركون إلى حججهم وقد أبدوا وجها من الأمور لعل غريمهم أن يبدى سواه فلا يخالف به صورة الصواب . فلكل حجه حجة ، ولكل بيان بيان .

وكذلك قد عزم الناس بالبصرة أن يوفدوا من لدنهم سفيراً إلى مقام الإمام ، يعلم منه رده على منطق الخصوم ثم يسير عليهم من بعد أن يزنوا القول والقول ، ويقرعوا الرأى بالرأى فيظهر لأيهما الرجحان .

وقالوا إذ ذاك لكليب الجرمى :

« إن هذا الأمر اختلط علينا يا كليب ،فامض إلي علي وأصحابه فسلهم عنه . . »
فانطلق وصاحبين له .

لم تكن الشقة عليهم بعيدة ، وليست قط على ناشد حقيقة وإن طالت بها المراحل والمسافات . فما لأشهى من حق وأقرب منه على النفس الصافية تسير قدم أو يركب ظهر . ولا كمثله يهون الصعاب والمشقات . وقد كلف الرجال الثلاثة بنشدتهم فنسوا من أجلها النصب وركبوا إليها جناح العزم ، وإن بقلوبهم لشغفا يجب عن جسومهم متاعبها ويبعث فيها نشاطاً متجددا ، يفيض ولا يغيض ينبوعه .

وبدا لهم أخيراً عسكر الإمام شاعت الحركة فى كل نواحيه . فقد راح الجند يتأهبون أهبتهم لمرحلة أخرى من سيرهم تقرب ما بينهم وبين البصرة . وأخذت رنة السلاح تزحم السكون والأكف تتلقفها للامتشاق أو لتثبيتها فى المناطق . وصهيل الخيل وهدير الجمال يتردد كأنما هى تدعو الفرسان ! . . وكانت الظلمة الخابية تلف الأخبية والخيام ولكنها لا تسترها عن العين ، فما زالت بالغروب خفقة تضىء بعض ضياء . . . وحينما دنا الرسل أقرب الدنو من هذه الساحة ، طالعهم فارس فى وجهه إشراقة ، وعلى ملامحه من الحسن رواء يكسوه جلالا وينحله رجولة . فما وقعت عليه أبصار الغرباء حتى همس كليب لصاحبيه :

« هى والله ! . . . »

فأعدى الرجلين تعجبه ، وهتفا به :

« من يا كليب ؟ . . . »

« أرأيتم إلى المرأة التى كنت أحدثكم عنها أنها كانت عند رأس العليل فى رؤياى ؟ . . . »

« نعم » .

« إنها بهذا الرجل أشبه الناس ! . . . »

ومضوا وفى أخلادهم تسبح الدهشة . ولكن طرفا من مسارتهم كان قد طرق أذنى الفارس وخال به أنهم عنوه . أو لعله استراب فيهم إذ أنس فى خطاهم ترددهم الغريب ، فما هموا أن يتبعوا الخطوة الخطوة حتى صاح :

« قفوا ! . . »

فثبتوا لا ينثنون . والحق هو أمره بسؤال :

« ما الذى قلتم وقد رأيتمونى ؟ . . . »

« لم نفه بقول » .

« فلن تبرحوا إذن أو تقولوا لى ! »

فدخلتهم منه هيبة هتكت حجب الكتمان التى شاءوا لو ظلت مسدلة على خافية السر . . . وأقبل الجرمى يحدثه برؤياه ، لا يكتم شيئاً ؛ حتى فرغ .

حينئذ انتقلت الدهشة منهم إليه ، وهمس ، كأنما لنفسه ، وهو يدعهم ويمضى لما كان فيه :

« والله إن ما رأيت لعجيب ! . . »

وغاب عنهم فى ظلال الغسق الممدودة .

إذ ذاك انثنى كليب إلى أدنى أهل المسكر منه ، قال يسأله فى خفوت :

« من هذا الفارس ؟ . . »

« محمد بن أبى بكر »

فعقلت الحيرة هنيهة ألسن الصحاب . وجاءت إثرها كراهية غلابة لأمر أولئك القوم الذين خرجوا على طاعة الإمام ، وعصفوا بالبصرة ، وغلبوا عليها بحجة أنهم قاموا فى الثأر لعثمان . أم بقيت ثمة من الرؤيا بقية لم تحققها الأيام ؟...

بل انكشف عن حلمه الغطاء ، وأتت الحوادث دراكا بتأويله . وإن الجرمى ليمضى لغايته صوب على ليعرف من لسانه حقيقة حال أولئك الغزاة العادين وليس به حاجة إلى ماضيه ، ولا إلى استنبائه منطقا يدحض منطقهم ، أو حجة تقرع حجتهم المتسقة . . . فلقد أنبأته الآن رؤياه :

« هى عائشة بنت أبى بكر ! . . . »

ولكنه مع ذلك سار مسيره يتبعه رفيقاه ، وما فى حلمه يعاود خاطره كمن قبل — فى اليقظة هذه المرة ! ... فذلك عثمان ، واهن الحول مهيض الجناح ، قد تكأكأ الغدر عليه فى صور أناس . وهذه عائشة عند رأسه لو شاءت دفعت غائلة الشر وكفتها عنه . . فلأمر رأته لم تعد يداً مكفكفة ، ولم ترد كوسمها عن الأمير المنكوب . إنما خلته ومصيره الموجع ، وقضاءه الفاجع . اكتفت من دور الرؤيا بأن تقعد وتشهد حتى مضى القوم إلى الغافى النائم فسلبوه الحياة ، واستلوا عصارتها من هيكله الجاف ! وا كتفت من دورها فى حقيقة الحياة بمثل ما كان فى دنيا الحلم بل هى ها هنا أشد قسوة إذ أعانت على المريض ! . . .

واستأذن رسل البصرة على أمير المؤمنين . وأقبلوا عليه يستخبرونه فما أخفى عنهم هنة مما سلف من أنباء مصرع عثمان والأسباب التى هيأته والحوافز

التى ساعدت عليه . لكأنه بهذا السر كان يفق الجرمى عن تأويل رؤياه ! . . .
وحين أشرف على نبأ معارضيه ، طفق يتحدث عن عمرة طلحة والزبير التى غدت غدرة ! . . وعن غيرة عائشة بنت الصديق التي أعرت دعوة تتوارى خلف عدالة القصاص !.. ومازال يصف من خصومه ما كتموا عن الناس حتى أوفى على أمر الفتنة التى شبوها عليه يريدون بها اجتياح كيانه وهدم بنيانه ، ولو دروا لعلموها محنة حازبة تهم أن تجتاح الإسلام . .

« فتبعتهما ، لكيلا يفتقوا فى الإسلام فتقاً ، ولا يشقوا جماعة . . »

ثم سكت عن بيانه .

وقلب كليب بصره هنيهة على صاحبيه ، وأخرى على الفريق الذى شهد مجلسهم هذا من أولياء الإمام ، وثالثة على محيا هذا الأمير المحسود المظلوم . . إن إشراقه الحق لتتبلج على قسماته وتضىء حوله للنفوس الحيرى سبيلها للهداية . . ما من حاجة الآن لكليب أن يزن حجة بحجة ولا لقومه ، وقد جاء على بفصل الخطاب . .

وهتف بهم بعض الأعوان ، فى همس خافت ، كأن الألسنة تهاب محضر الامام :

« والله ما يريدون قتالهم إلا أن يقاتلوا . وما خرجنا إلا لإصلاح . . . »

وهمس آخرون :

« فقدموا فبايعوا ، رحمكم الله . . . »

فلم يتلكأ الرجلان لحظة عن التلبية ، بعد ما عرفا الحق أين مأتاه ومع من يسير . أما الجرمى فقد تريث ، وبات حائرا أيتابع صاحبيه على ما عقداه أم أولى به الصبر حتي ينقل لقومه نبأ ما رآه ليروا رأيهم فيه .

وفى غمرة حيرته ، سرى إليه صوت الإمام ثابتا ، هادىء الجرس ، خافض الرنين :

« ألا تبايع ؟ . »

فبغت الرجل وعالج الاضطراب الذى ساد كيانه حتى استطاع لسانه أن يجيب على استحياء :

« أصلحك الله !.. ولكنى رسول قوم ولا أحدث حدثا حتى أرجع إليهم .. »

فابتسم له أمير المؤمنين بسمة هونت من اضطرابه وأفاءت على نفسه السكينة ، وقال :

« أرأيت لو أن الذين وراءك بعثوك رائداً تبتغى لهم مساقط الغيث . فرجعت إليهم ، وأخبرتهم عن الكلأ والماء فخالفوا إلى المعاطش والمجادب . . . ما كنت صانعاً ؟ . »

« كنت تاركهم ، ومخالفهم إلى الكلأ والماء » .

« فامدد إذن يدك ! »

ففعل على الأثر ، لم يستطع أن يمتنع بعد وضوح الحق ، أبلج كضحوة النهار ..

وحين آب الثلاثة ، وشارفوا بلدتهم ، وكانوا جميعهم لسان حال للإمام ، ينطقون بمنطقه ، ويسوقون حججه ، واحدة تظاهر أختها ، على أنفس الناس وما كان فيها من تردد وشبهة . فهو امرؤ يحارب الانقسام وينشد السلام ، ظلمه أصحاب الجمل إذ باينوه ، ونكثوا عهد ربهم عندما خالفوه .

وراحت الوفود بعدهم تترى ، وقد بلغتها الدعوة التى نهض بها على ، ونفذت إلى قلوبها سماحته . . . كلما مرت بأرض فيما بين البصرة وبين ذى قار بدوا جموعا تستبطىء المطى ، وتود لو حملتها الريح إلى الرجل الذى نفض عنه غضبته على شانئيه . وقدم العفو والصلح ابتغاء وحدة الوطن الذى كادت أن تغوله عوادى الفتنة ، وتنخر فى بنيانه الشامخ أهواء بنيه ! . . .

٢

كانت خطة على دهاء ... سفارة القعقاع أدنت أصحاب الجمل من حتف معنوى أشد قضاء عليهم من وقدة القتال . فقد بانت الحقائق بها للناس فى ضياء جديد ، واستنارت لهم مناهج التفكير والتدبر . . . ها هو الإمام ليس يسعى لتثبيت حكمه ، ولا للقصاص من خصومه إذ غالبوه وظلموه ، بل سارع يمد نحوهم كفه ، فيها صلح وفيها عفو وفيها سلام ، ويهيب بهم من أجل وطنهم جميعاً أن يتلقوها .

ويقبلوا دعوة الصفاء ... إنه ليؤمن خائفهم ، ويحقن دمهم ، ويغضى عما أسلفوه فى حقه من إساءة . إنه لينسى انتفاضهم عليه ، وعبثهم بعهده ، واستهانتهم بهيبته إذ هو أمير نافذ الأمر فيهم ، وواجب الطاعة عليهم . . . لقد تجرد من نزعاته النفسية كل التجرد ، ومن مشاعره نحوهم التى طالما جرحوها بالفعل أو بسقطات الألسن الزارية العيابة . فما لهدف خاص قد هدر وغضب . ولا لمأرب ذاتى كان إليهم مسيره ، وحين تدبر الناس موقفه فى روية وحكمة ، وجدوه كمهدهم به قبل الإمرة ، ومن يوم عرفوه وله فى الحياة العامة دور يضطلع به ، نفس ذلك الذى قال ذات يوم غابر :

« . . . لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا على خاصة . . . »

فكذلك كان أبدا مبدأه وكان شعاره . وهو الآن يعيد من تجرده إلى الأذهان الغافلة ما غفلت عنه . ولو أنه أراد تأديب العصاة ما أعوزته الوسائل ولا أقعدته عنهم . فليس عن خشية إذن دخلت قلبه منهم كان هذا التريث ، وهذه السماحة التى تعز فى النظائر . لا ولا رهبة القتال ردته . إنما قد آثر هذا حرصا على سلامة المجموعة الإسلامية أن يودى بها التناحر ، وإشفاقا على خصومه أن تأكلهم غائلة الحرب ، وليس يضيره قط أن يمهل لهم ليجتنبوا الهلكة . ولقد قال من موطن كهذا سوف يأتى نبأه بعد حين :

« ... والله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بى طائفة فتهتدى بى ، وتعشو إلى ضوئى . فذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها . . . » .

فالصلح إذن كان خطة منه لخير ، وعلى دهاء وحكمة . ولو قد رفضه أصحاب الجمل لبدوا فى أعين الرأى العام ساعين لفتنه ، ملبين دواعى الهوى والأطماع الشخصية ، دون داعى الصالح الجماعى ، دع تنكرهم لنداء المروءة ودعوة التسامح . ولو سارعوا إليه يتلقون كفه المبسوطة بالصفاء ، فهى مسارعة إلى لأم الصدع وتوثيق وحدة الأمة ، وهى فى ذات اللحظة مسارعة إلى الانضواء تحت لوائه ، واعتراف صريح بخطأ نظرتهم القديمة التى نفضتهم عنه ، وإقرار

أيما إقرارا بأنهم أساءوا أبلغ الإساءة إلى من وجبت له عليهم الطاعة ، وجانبوا الحق حين نقضوا البيعة وتنكروا للولاء . . .

ولكننا مع هذا لسنا نستطيع أن نفهم كيف يبادر أولئك القوم لاعتناق دعوة القعقاع ، وإن بين صفوفهم لكثيرين يهيضهم الصلح ويقضى على كيانهم الذى لا يتنسم أنفاس الحياة إلا فى كهوف التنابذ . وحين نعيد إلى الذهن أسماء مروان وابن عامر وأضرابهما من النهازين يسعنا أن نرى كيف سيقوم الصلح على أنقاض آرائهم ومطامعهم . وحين نستعرض هذه الآراب نوقن أنه عسير غاية العسر أن يقروا — مختارين — دولة لن يكون لهم فى توجيه سياستها مثل أعلة ، بل هى قائمة على طلل سيادتهم القديمة ، مؤذنة بانقضاء آمالهم حتى آخر الزمان . فلعلنا إذ نلم بطرف من برم أولئكم بالصلح الذى يسد عليهم منافذ الأهداف الخاصة لا نكون قد تجنينا ولا جانبنا منهج الحقيقة ، ولعلنا أيضاً حين نذكرهم إنما نوردهم كمثال ، فليسوا وحدهم أصحاب ذلك النحو من التفكير .

وعندما نتحرر من ترددنا بعض التحرر ، ونسوق القول ميسوراً ، عارياً عن التقيد بأقدار الزعماء ، لا نلبث أن نلحق بطلحة بعض مظنة وهنة شبهة ، وهل كان قط إلا مفتوناً بالإمرة يركب إليها كل صعب وعسير ؟ . . . إنك لن تغفل أبداً ماضيه فى هذه الناحية ، ولا حتى حاضره الحاضر . ولك أن تستقصى معى كيف غلب عليه ذلك الماضى وساق له الآن فكره فى ذات الطريق القديمة ، فلم يرض له الخضوع للإمام ، بل أبداه أمعن فى مشاقته وخلافه منه من قبل ... كان هذا فى يوم غير بعيد ، من بضعة أيام ، حين بعث على إليه وإلى صاحبه بكتاب يستفيئهما إلى طاعته ، والتزام جماعة المسلمين ، فردا بجواب يقولان فيه :

« .. إنك سرت مسيرا له ما بعده ، ولست راضياً دون دخولنا فى طاعتك . فلسنا بداخلين أبداً ، واقض ما أنت قاض ! . . . »

فهذا رد قاطع ، لا يدع سبيلا إلى التفاهم ولا يحتمل من التأويل إلا الإصرار على ملاقاة الإمام بالقتال بعد العصيان . فإذا أبديا الاستجابة من بعد للصلح والرغبة فى الوئام ولما تنقض على كتابهما إلا أيام ، فإنه إبداء حرى بأن تحوم حوله

الشكوك ، أو قد ند عن تحول أفكار الناس إلى العطف على على وتقدير نظرته ، وخضوع منهما — دون اقتناع تحت ضغط الرأى العام .

على أننا ندع هذا كله إلى حين عندما تحركه الأحداث ، ثم نسير وئيدا فى ركاب القعقاع صوب البصرة وقد بات أهلها فرقاً مختلفة الهوى ؛ بعضهم مع على ، ممن والوه وظلوا على الوفاء له ، وممن وترهم الغزاة فرأوا الثأر لقتلاهم لا يكون فى غير انحيازهم إلى خصوم العادين . . . وبعضهم على على قد استهوتهم دعوة أصحاب الجمل الطلب بدم عثمان ومدهم بالإيمان بها أن نهضت فيها بنت الصديق . . . وبعضهم بين أولئك وهؤلاء أخفت عنهم سبيلهم الشبهات ، وغشى التردد نفوسهم فتركهم حيارى أينحازون إلى هنا أم إلى هناك . هذه الطائفة التى اختلط عليها الأمر أخذ النهج الواضح يبين أمامها قليلا قليلا ، كما ينجاب الضباب فى الضحى ، بعد أن آثرت تلمس الحق فى مواطنه فخرجت ، أفراداً — فى البدء — ثم جماعات ، إلى مقر الإمام تعلم منه ثم تذيع بين قومها ما علمته . وكان فيها من الجرمى أشباه . ومن بعده كثير تحدثوا بمثل منطقه وأغروا غيرهم بالتحدث . . . فليس من عجب لو شهدت الجموع تنحـدر من البصرة لتلحق بعسكر الرجل الذى كشف للناس قلبه ، وأعلن على ملئهم أنه يبتغى السلام .

كانت الأذهان متهيئة بالبلدة للوفاق ، والنفوس فى عمومها راغبة فيه . فليس أحب إلى القلوب من عيش وادع رضى فى ظلال الأمن ، ولا أبغض من محنة تحز الرقاب وتخضب الأرض بالدماء . ولم يكن هذا الشعور ليخفى عن القعقاع ، بل لعله استيقنه وأحس أيضاً نظيره . وحين اتخذ سبيله إلى دار عائشة قبل مسيره إلى الصاحبين كان يخط أول حرف من وثيقة الوفاق وإن لم يمتشق قلما أو يهيء صحيفة . . . ذلك أن النساء أدنى إلى اجتناب المذابح التى تنصبها الحرب ، أخشى الناس للقتال ، أولاهم بامتثال الدعة والرفق والسلامة . . .

هو لا ريب كان يوطن نفسه لكسب نصير فى مقر قيادة الخصوم — أقوى نصير ! . . ولم يخنه تقديره حينذاك . فقد استقبلته السيدة خير استقبال ، وأقبلت فى اهتمام تصغى إليه . . .

وقال لها بعد قليل :

« أى أمه ! . . »

« أى بنى ! »

« ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ »

« إصلاح بين الناس »

فاطمأن إلى جريان الحديث بالمجرى الذى يشتهيه ، وهتف يدعوها أن تجمع لديها صحبها لبحث الأمر :

« فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى منى ومنهما . . . »

ففعلت فى التو . وجاء الصاحبان وما من أحد منهما يدرى فيم دعوة أم المؤمنين .

وخاطبهما القعقاع :

« إنى سألت أم المؤمنين ما أشخصها ؟ فقالت : إصلاح بين الناس . فخبرانى ما تقولان ، أمتابعان أنتما أم مخالفان ؟ . . .

« متابعان » .

« فما وجه هذا الإصلاح ؟ . . . والله لئن عرفناه لنصلحن . . . »

« قتلة عثمان »

« قتلة عثمان ؟ . . »

« نعم ، فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن ، وإن عمل به كان إحياء للقرآن . . . »

من البدء تلك حجة الخصوم وشعارهم فى عصيانهم أمير المؤمنين . أفكانوا يا ترى أولياء دم القتيل ؟ . . . ألهم إلى هذا الطلب سبيل وله من دونهم أسرة وأبناء ؟ . . ومن كانوا العادين على عثمان بين الناس ؟ . .

ذات يوم كتب إليهما على يقول :

« . . ما أنتما وعثمان ! . . هؤلاء بنو عثمان فليدخلوا فى طاعتى ثم يخاصموا إلى قتلة أبيهم . . . »

ولـكن الواتر — إن عرف ! — والموتور كلاهما ظل خارجاً على الدولة التي تملك أن تدين وتقتص ، فبقيا جميعا — بهذا الخروج — حقيقين بالتأديب والقصاص ! .

وقال القعقاع يرد حجة الصاحبين ، ويضربها بمنطقه :

« قد قتلتما (قتلة عثمان من أهل البصرة !) وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم . . . قتلتم ستمائة إلا رجلا فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظهركم . وطلبتم ذلك الذي أفلت فمنعه ستة آلاف . . . فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم — »

فهتفت به عائشة وقد غمها أن ترى نفسها بين أمرين أهونهما شر :

« فتقول أنت ماذا ؟ . . »

« أقول هذا أمر دواؤه التسكين »

وتريث هنيهة ثم عاد يتم حديثه :

« إنكم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم نصرة لهؤلاء القوم الذين أغضبتم ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هـذا الحدث العظيم . فإذا سكن الأمر احتلجوا . . . »

فلم يعقب منهم أحد على حديثه ، بل راحوا يتفكرون ، ويقلبون رأيه في روية وإعمال ذهن . لكأنما كلماته جديدة لم تطلعها من قبل حكمة ولم يفه بها لسان ! . . إنها لتحسن وصف المأزق الذي وقعوا فيه ، وتصف أيضاً دواء دائه . . . ليت الأيام عادت سيرتها الأولى إلى يوم كانوا بالمدينة لم ينقضوا بعد بيعة علي ، إذن لسمعوا الحكمة من لسان ذلك الأمير — الذي آثروا عصيانه — حين قال :

« . . . اصبروا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق مسمحة . . . ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة ، وتسقط منة ، وتورث وهنا وذلة . . »

ولكنهم لم يصبروا حينذاك . وضاقوا بحكمة الحكيم — أم ترى ضاقوا بإمرته فانتقضوا عليه ؟ — ثم فعلوا الفعلة التى حذرهم ، فماذا — غير الوهن الذى حدثهم عنه ؟ . .

إن الأحداث الآن بصرتهم بصدق نظرته ونفاذ عينه إلى أغوار المستقبل . ولو صدقوه إذ ذاك وصبروا كما أشار لجنبوا الأمة هذه الفتنة التى لم تنلهم شيئاً مما طلبوه أو . . . ادعوه على مسمع من الناس ! . . . فدم عثمان كان وحده حجتهم فى اختلافهم على على ، وعذرهم الظاهر لذلك الخلاف ، ثم ها هم قد أطلوا ذلك الدم ولم يأخذوا من مريقيه ثأره ! إنما جنوا لحسب انقسام جماعة المسلمين وقيام بعضهم يقاتلون بعضهم الآخر ، بينما غاضت قطرات ذلك الدم فى غبار الصراع ! . . . ها هم بعد أن كان القتلة يحميهم بالمدينة بعض طوائف من العبدان والأعراب ، قد غدا أحدهم تحميه ألوف ، يغضب لهم ألوف ، ثم قبائل شتى تجمعها العصبية لتظاهر أولئك الحماة . . . فلقد أفلت حرقوص بن زهير — وهو أحد أهل البصرة الذين خرجوا فيمن خرج من أهل الأمصار إلى عثمان يطلبون منه الحق وينكرون الجور — ولحق ببنى سعد بعد الوقعة بين أصحاب الجمل رفرسان حكيم فكان وحده الناجى من المذبحة ممن شهد حصار عثمان . وطلبه رجال طلحة فمنعه بنو سعد ، وغضبت له عبد قيس ، وبقى من طالبيه فى أمان . . .

وأردف القعقاع يبين لسامعيه أين يجدون الخير والسلامة :

« . . . إن أنتم بايعتمونا فعلامة خير ، وتباشير رحمة ، ودرك بثأر الرجل ، وعافية لهذه الأمة . وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه فعلامة شر ، وذهاب الثأر . فآثروا العافية يا قوم ترزقوها ، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم . . . »

وتلبث يرى ما ينطقون به إثر منطقه ، فما عتموا أن بادروه يصوبون نظرته :

« نعم القول ، فقد أحسنت وأصبت . . . ارجع يا قعقاع ، فإن قدم على وهو على مثل رأيك صلح الأمر . . . »

وكذلك بدت علائم الصلح فى الجو إذ أقر الصاحبان وعائشة عرض الإمام . وأوشكت الأمة أن تسير إلى عهد وئام يضم فرقها المختلفة ، ويوثق عروتها ، ويبدلها طمأنينة وأمنا بالحرب الأهلية التى همت أن تأتى على كيانها الموحد — لو صفت الأنفس وخلصت النيات ! . . .

٣

كانوا ثلاثة . قبلوا الهدنة واستجابوا لدعوة الوفاق . ولكنهم ليسوا وحدهم حزب الجمل بطبيعة الحال . كلما رميت ببصرك وراء عسكر طالعتك وجوه غيرهم كثيرين ، لهم فى إنشاب الخلاف إصبع ، وفى الصلح المرجو رأى لا يوافق رأى الزعماء ، تحدثت عنهم الميول القديمة ، ونضحت بما فى النفوس . وحين لبى رءوسهم نداء الإمام لم يشاوروا ولياً منهم ، ولم يصدروا فى التلبية عن جماعة العصاة . . . أفيستقيم لهم نهج الصلح ويسعهم أن يحملوا أولياءهم عليه ؟ . . .

من البدء لاحت الهدنة خدعة كبيرة ، لا لأن الثلاثة إذ قبلوا أضمروا الرفض وأبدوا غير ما يريدون ، بل قد خدعهم عن حقيقة ميول أتباعهم نبأها الساحر وما رجوا وراءها من سلامة وخير فما زالت نفوس الكثرة من رجالهم تميل للقتال ، وتدين بشريعته . وما نشبت دعوة الطلب بدم عثمان تريهم أنها لن تتم إلا بدم . وقد غلب على أذهان أولئك الأعوان ما ظلت أقوال عائشة وصاحبيها تبث فيهم من « تخاذل » على عن الثأر وترفقه بالقتلة حتى لظنوه ضالعاً فى المصرع يشيم مطمعاً فيه ! بل قد سلف منهما ومنها فى حقه زعم يلحق به تهمة القتل بعد الخذل ! . . أفيسع أصحابهم بعد هذا أن يؤمنوا حقاً ببراءة الإمام ؟ . . .

دون هذا ويلتوى الأمر ! . . . وهاهم أولاء يهرعون إلى الرجلين حين بلغهم ما مشت به الشائعات من نبأ الصلح ، وكلهم موقن أن الحرب هى الدواء . وأقبل منهم رأس الأزد صبرة بن شيمان يقول :

« . . . انتهزا بنا هذا الرجل فإن الرأى فى الحرب خير من الشدة ! . . . »

وقال أبو الجرباء للزبير :

« إن الرأى أن تبعث الآن ألف فارس فيمسوا هذا الرجل أو يصبحوه قبل أن يوافى أعوانه ! . . . »

وصاح كعب بن سور :

« وما تنتظرون يا قوم بعد توردكم أوائلهم ؟ . . . اقطعوا هـذا العنق من هؤلاء ! . . . »

ويعجب المرء لهذا الصائح كيف امتلأ قلبه هكذا حماساً لنصرة طلحة والزبير حتى ليدعوهما دعوته الملحة لقطع « عنق هؤلاء » وما عنى حين قال إلا علياً يهيج نقمتهما عليه . . . أفأنسى كعب يا ترى موقفه الأول ، وكتابه إليهما يوم أرادا الاستعانة به فى النهوض معهما للثأر لعثمان فأبى عليهما ورد يقول يومذاك :

« إن يك عثمان قتل ظالماً فما لـكما وله ؟ . . وإن يك قتل مظلوما فغيركما أولى به ! ... وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل !.. »

قد نسى هذا فيما يلوح . والأيام دائماً كفيلة بالنفوس ، تميل بأكثرها فلا يثبت منها على منهاجه سوى قليل . ولقد مال ابن سور ميله ، وغدا الآن على قضية الصاحبين أشد منهما غيرة ، وأحرص على إبلاغها أبعد مما يرجوان لها من نجاح ! . . .

وكيفما كانت رغبة الصاحبين فى الصلح وكان الأساس المرتكزة عليـه فإنها رغبة لم يكتماها إذ ذاك ، ولقيت عندهما هوى غير منـكور . ولـكنها كانت دعوة حرية بأن يعوزها فى منطقهما الحرارة التى تبعث فى قلوب رجالها الحماس لها ، وفى أذهانهم الاقتناع بها والمبادرة إلى اعتناقها بغير إمهال . فما بهذه السرعة يمكن حمل الناس على نسيان مزاعمهما السالفة وكل تلك الاتهامات التى جهدا طويلا ليلطخا بها صفحة الإمام . وليس يسيراً على أعوانهما الآن أن يؤمنوا بأن الوفاق هو وحده الخطة المثلى والرأى الذى تهون أمامه بقية الآراء . . .

على أن ثمة عاملا له حسابه فى جنوح طلحة والزبير إلى إيثار السلام على الحرب ، والمخاصمة هو ما أخذت الأيام تبديه من غزر موارد على فى العدة وفى الرجال .

فقد لبته الكوفة ، وبعثت من لدنها كتائب تلتحق بجيشه ، آلافا من الجند يسعهم الحصر ولكنهم بين كل عشية وضحوة يزيد عديدهم وتتبعهم زمر وجموع . وكان أيضاً هناك رجال القبائل المنبثة فى البيد على تخوم البصرة وفيما حولها من أصقاع أولئك هواهم فى الإمام معلوم . وهم أدنى إلى مظاهرته وشد أزره . وحين تتطلع العين إلى الطريق بين البلدة وبين ذى قار لا تعدم أن ترى الوفود تترى لتلحق به ، وتكون مدداً لقواته . ولقد يغلب على الظن آونة أنهم لم يسيروا سيرهم إليه إلا وقد جذبتهم دعوة الصلح ، وعرفوا أن حديث الحرب أوشك أن تصمت عنه الأفواه . ولكنهم عندما تخفق الدعوة ، ويصبح لا معدى عن اشتباك السيوف فإنهم إذن ، ودون ريب ، سيختارون جانبه ، إذ هو المدفوع عن السلم بعنت الخصوم .

وكذلك ليس يسع المرء أن يغفل شأن فريق كبير من أهل البصرة غلبهم على ميولهم الإرهاب الذى سادها فى الأيام القليلة التى شهدت بها غلبة أصحاب عسكر وحكمهم القصير . فهذا فريق يتربص دون ريب بالغزاة وينتظر الدوائر أن تنفتح فى بناء الأحداث فرجة ينفذ منها إلى تقويض دولتهم ، والثأر لكل هذا الدم الذى أراقوه . وهل نسى عدوهم على العبدى وعشيرته ، وركوبهم ابن حنيف بالغدر والمهانة ، والمذبحة التى أشاعوها فى الأمنة ممن ألصقوا بهم تهمة قتل عثمان بعد وقعة حكيم ؟ . . . إن هذا الفريق لحقا شوكة تدمى جنب حزب عائشة ، إذ يؤلف نوعا من جيش سرى لا تؤمن منه الغرة والمفاجأة حين يستعر القتال بين جندهم وجند الإمام . ولقد صدقت فى هذا الشأن قطعاً نظرة أبو الجرباء ، وكان تحذيره الصاحبين تحذيراً أملاه حسن التقدير .

إن هذه العوامل ، لو كانت وحدها ما حمل الرجلين على المهادنة وقبول الصلح ، لكان فى رضوخهما لدعوة الإمام ، وتقبلهما إياها ، خير ما يسعهما أن يقراه مما توجب الحكمة وتفرض السياسة الرشيدة . ولكننا لا نجردها أيضاً من نزعة إلى الصلح ابتعثتها الرغبة فى لأم صدع الجماعة الإسلامية بعد أن خذلتهما الظروف — أو أوشكت — ووضح لهما صدق رأى الإمام فى القصاص لعثمان

وعلاجه أمر قتلته بما كان يوائم حالة الأمن إذ ذاك وحالة الثوار . فالتريث كان وحده الخطة المثلى حتى تهدأ الفتنة ، وتسكن النفوس ، ويتفرق عن المدينة أهل الأنصار . وبجدواه الآن اعترف الصاحبان ، واعترفا معه بخطئهما حين أبياه . . فقد قالا لمن جاءهما من دعاة الحرب يحضونهما على المبادرة إلى قتال على رداً على ما أسلفناه من حديث :

« ... قد زعم قوم أنه حدث لا ينبغى تحريكه ، هم على ومن معه ، وقلنا نحن : لا ينبغى أن نتركه ولا نؤخره ، فقال على : إن هذا الذى أدعوكم إليه شر، ولكنه خير من شر منه . . وقد كاد أن يبين لنا أنه الرأى » .

فلعل بعض ما دفعهما أيضا إلى اعتناق دعوة الصلح هو الندم على ما فرط منهما فى حق أمير المؤمنين من اختلافهما عليه فى شأن وضح اليوم أنه كان فيه أبعد نظرة وأصدق فراسة .

ونستطيع بعد هذا أن ندع حديث الجوانح وما ضمت من نوايا خفية فلسنا موكلين بالضمائر ! . . فما لهذا الحديث آخر . وليس الناس إلا نزوة تحركهم إلى هنا ثم أخرى تردهم إلى هناك ! . . وحسبنا لتتم جوانب الصورة التى تنقل لنا تلك الحقبة من تاريخ الإسلام أن نسير قدما إلى عسكر الإمام .

من البدء كان على يبغى الإصلاح ، ويروم تجنيب الأمة شر الفرقة التي كانت لا ريب نتيجة لازمة لدعوة الخصوم المستترة خلف الثأر للقتيل . وحينما سارع بتلك الحفنة القليلة من أعوانه يرود طريق نجد ليقطع السبيل على أصحاب الجمل قبل بلوغهم البصرة ، لم يكن قط يعنى ردهم عن نشدتهم بقوة السلاح ، وإنما بالبيان والحجة الدامغة والبرهان الذى لا ينهض له برهان . وعندما أرسل يستمد أهل الكوفة ، كانت كتبه إليهم لا تكاد أن تستمدهم جنداً بقدر ما تريدهم حكاما يقضون برأيهم فيما شجر بينه وبين الخارجين من طاعته . ولقد ظل وظل رسله يتحدثون بأمر الإصلاح ودعوة الوئام والألفة ، لم يتنكروا لمبدئهم قط ولا حادت بهم عنه حمية النزاع المشبوب .

ومع ذلك فليس بمايشين دعوته أن نجد فى صفوفه قوما كانوا يؤثرون القتال ويودون بجدع أنوفهم لو استطاعوا إليه السبيل ، فما من جماعة فى الدنيا يمكن أن يسودها رأى واحد ، أو تنمحى من رءوسها العقول التى تميزها عن الأنعام والعجماوات . وما من أمر يعرض لأناس إلا رأيتهم ينظرون إليه من جوانب شتى ، فتفترق آراؤهم فيه ، أو تتلاقى بقدر اختلاف هذه الجوانب أو اتفاق النظرات . ومن العبث أن نسمى هذه الفرقة الكلفة بالحرب بين أعوان على بالرغبة فى مناوأة سلطانه ورد طاعته ، بل أدنى إلى الحق أن نراها ساعية إلى تدعيم قوائمه وتثبيته والتمكين له أقوى تمكين . ذلك أنها لم تكن تطيق أن تغفر لناجز مناجزته ، ولا لمخالف خلافه على صاحبها الذى أنزلته من قلوبها منزلة تقارب القداسة ، وكانت ترى فى التسامح ما قد يغرى آخرين كثيرين بمعاودة العصيان ، فالشدة إذن أولى من اللين وأجدى على الدولة من الغفران .

وكان ثمة إلى هؤلاء طائفة يشق عليها الصلح أيما مشقة ، وتكاد أن تستروح منه نذراً تؤذنها بمصير مرهوب . . . أولئك من شهدوا حصر عثمان من المدينة وأهل الأمصار ؛ فظل يحبس عنهم عدالته حتى أنشب القدر فيه غائلته . بالأمس كانوا أصحاب حق ، جاءوه — كقول عائشة ! — « يطلبون العدل وينكرون الظلم » ، فما للنظرة إليهم الآن قد تبدلت بنظرة كأنها إلى نقيض ، وللعطف عليهم من قلب السيدة يغيض ؛ ثم يخلفه على الأثر اتهام كفيل بأن يمحقهم ويسلم أعمارهم إلى يد الموت ؟ . . ثوار الأمس لم يعودوا بعد الفاجعة طلاب نصف ، بل غدوا قتلة وإن لم يشهر أكثرهم عصا فى وجه الشيخ — وإن لم يشهروا جميعا ، إلا واحداً أو بضعة . . ومع ذلك فقد باءوا من عائشة وحزبها بالسخط الذى اتسع حتى ضم فى جنباته كل مناهض لعثمان ، زار عليه ، متبرم بعهده المثير البرم فى قلوب كافة الناس . بقى الاتهام الذى ساقه حزب الجمل مصلتاً على الأعناق يجتز منها ما شاء حين يسعه أن ينتهز سانحة أو غرة تيسر الثأر من عشرات ومئين . وما المذبحة التى أودت بجم غفير من أهل البصرة إلا ناقلة إلينا رأى عائشة وجوابها الجديد على هذا السؤال الذى ما زال يحير الأذهان : « من هم ، وكم هم قتلة عثمان ؟ . . » .

لا ريب أن الصلح المأمول بين الإمام وبين أصحاب الدم ومن زعموا أنهم أولياؤه لن يكون إلا على حساب الطائفة التى شهدت الحصار . فبهذا شهدت المقدمات ، وعنه توشك أن تنجاب الخواتيم . فإذا خشى هذا الفريق دعوة الصلح أن تنجح فقد حقت له الخشية ، وحق له أن يخاف النذر المؤذنة بالمصير المخوف . ولقد كان على يتوقى أشد التوقى أن يدع لأصحاب الجمل شبهة من حجة عليه ، فأبى منذ البدء أن يلوذ بجيشه أحد من رجال القبائل والأعراب والعبدان ممن لعلهم شهدوا الحصر أو أعانوا عليه ، ومع ذلك فثمة فئة منهم قد لحقت به حين تداعى وأخصامه إلى الصلح ، مهما كانت نفيراً قليلا ؛ فلها مشاعرها الخاصة ، ولها رأى كتمته فى السلم المنشود .

أما الإمام فقد سره أن لبى الصاحبان دعوته ، لأن التلبية خطوة إلى دخولهما جماعة الأمة ولأم للانقسام . وبادر يحض أصحابه على التزام الصبر والتريث وامتلاك ناصية الأنفس عن إثارة الشحناء ، فما زال رأيه الكف عن خصومه ، ومدافعتهم بالحسنى والسكون عليهم وهم على حربه ، فكيف وقد أبدوا الرغبة اليوم فى الوفاق ؟ . . وحين قام منهم رجل يسأله عن خطته بعد حديث الصلح ، أجاب :

« الإصلاح ، وإطفاء الثائرة ، لعل الله يجمع شمل هذه الأمة ، ويضع حربهم . وقد أجابونى . . . »

وسأله آخر :

« أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله عز وجل ؟ »

فقال :

« نعم ، إن كانوا أرادوا الله عز وجل »

« . . . وترى لك حجة بتأخيرك ذلك ؟ »

« نعم ، فالشىء إذا كان لا يدرك فالحكم فيه أحوطه »

وقام فخطب رجاله :

« يا أيها الناس . . . املكوا أنفسكم ، وكفوا أيديكم وألسنتكم عن القوم ، فإنهم إخوانكم . واصبروا على ما يأتيكم . وإياكم أن تسبقونا ، فإن المخصوم غدا من خصم اليوم . . . »

٤

تحركت كتائب الإمام هذا الجيش الذى خرج من المدينة فى عديد من العشرات ليس بعد و بضع مئين ، قد مضى الآن ترتج له الأرض ، ويدوى الفضاء حوله بصدى خطوه ، متوالى الجرس مرتب النغمة ، كأنما يهتف : « النصر ! النصر ! . . »

ولن يكون نصراً على عتاد وجند ، الأداة الحربية وسيلته . ولكنه ظفر بأهواء الأنفس المنحرفة يمحقها ، ويرد أصحابها إلى الجادة . . . أوشك الحق أن يظفر بعدوه ، وتكون له العقبى وحده . وما السير الآن إلا لتقويض بنيان الانقسام ، وهدم حصنه بعد أن كاد يرفع على أبراجه رايات التسليم !

وكان على بادى البشر كدأبه لم يطف بقلبه التطير . الرجاء الذى استشعره من قبل فى جمع الكلمة ما زال ساكناً بنفسه ، يستبق به الخطا إلى أسوار البصرة ، ويهم أن يرسم له دنيا أخرى يسودها الأمن والوحدة والمساواة . والمبادئ التى اعتنقها منذ صباه توشك أن تثمر طلعها المبارك . غاية الغايات من رسالة الإسلام تتبدى لعينه قريبة ، لألاءة السنا كهذا الضوء الذى راحت الشمس تشعه أمامه وهو يؤم جيشه فتحيل به الصحراء وادياً بسيطاً من نور . . فلهذه الساعة الغراء كان يرنو دائما خياله ويهدف أمله ، ليستقيم من بعد شأن وطنه على السنن الذى خطه محمد بوحى التنزيل .

إن الجنى الآن لدانى القطوف ، قريب من الأنفس النقية لولا أن تعبث به أيدى الشر . أفيحفظه القوم يا ترى نضراً ناضجاً حتى يثين الحصاد أم يسبقهم إليه الشيطان ؟ .

هو من موطن الخطر على حذر ، لا تغفل عينه ولا تنام ، وإنه ليعلم أن للشر دعاة وألسنة أينما كان أناس وكانت حياة . . . حتى فى صفوفه ليس يأمن أن تتسلل بضعة من حزب الشيطان لتقطع طريق السلام . فلو كان له علم بخافية الأنفس لوسعة القمع ، ولما أعياه أخذها بالعنف فتهلك أو تفيء إلى هدى الحق .

وإنه ليعلم أن فى خصومه فريقا مثلهم كهؤلاء يتربصون بالصلح ويتحفزون للردة عليه ! وعندما يقفون هنة فهى ذريعتهم إلى نقض عهد الهدنة الذى لم يبرم ، ووسيلتهم للسعى بالفساد بين الراغبين فى السلام .

ولـكنه لا يملك أن يكبح خفى الأهواء . ولا يستطيع أن يعرف بين رجاله أناسا بعينهم يؤودهم الوفاق المنشود ، وإن عرف أن خصومه قد يتملون للخلاف بأوهى الأعذار . . . فالنفس المغلوبة على الأمر من الأمور تبدى الرغبة فيه وهى تبطن الرغبة عنه فهى حرية بأن تعتسف الفرص لنقضه والخروج منه ، ما شاءت إلى تصيد مبررات نسكسها من الشبه والمظنات . . .

مع ذلك فقد فعل ما يسعه للقضاء على تلك الهنات التى قد يتخذها بعض خصومه ذرائع لإفساد الصلح ، ووقف يحـذر أعوانه ، ويتوعد من عساه منهم يكتم فى دخيلته ما يسىء إلى دعوة الوفاق . وكان أولئك الذين خشيهم على السلم أشد خشية ، هم من شركوا فى فتنة عثمان وأعانوا عليه ، فراح يحذرهم نفسه ويقول: « . . . أيها الناس ، إنى راحل غداً فارتحلوا . ألا ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشىء . . . وليغن السفهاء عنى أنفسهم ! . . »

وقد راح الأمس وجاء الغد المرقوب . ومضى الإمام مع الصبح على رأس جيشه نحو غايته حتى بدت لهم البصرة على قيد النظرة . ونزل بهم الزاوية يتلبث وقتا يعلم فيه : آلقوم مقيمون على عهدهم وما فارقهم عليه القعقاع ؟ . . وعندما شارف البلدة ، وتسامع الناس فيها بنبئه ، لم يعد عديد أنصاره كما جاء بهم من ذى قار ، بل انفلت من أسوار البصرة أقوام يلحقون به مبادرين يدعمون قواته ويشدون أزره بعد أن وسعهم الآن أن يظهروا بعض ما يحسونه من ولاء غلبهم عليه الإرهاب . . .

وشاعت الحركة فى الناس ، وجرت بأرجلهم الحية . . . وتأهبت بكر ابن وائل ، وتأهبت معها عبد القيس تأهب غيرهم ممن عج بهم مكان التقاء الجيشين . وهم رجالها أن يمضوا إلى غايتهم تحت الألوية المرفوعة ويتخذوا مواقفهم فى الصفوف ، فما هو أن خطت بهم قدم حتى بعث شقيق بن ثور إلى عمرو بن مرجوم العبدى يقول :

« . . . إذا خرجت فمل بنا إلى عسكر على . . . » .

فكأنما كانت كلماته صدى لما بنفس عمرو ، ماسمعها حتى استجاب لها لم يتمهل ، وقاد الجموع الزاخرة كرأى رفيقه وجهتها ، منحدراً بها صوب عسكر الإمام ينحاز إلى جانبه ، ويمهد بها قواته .

وشهد الناس إذ ذاك مشهداً لعل الأيام لم تطالع عليهم بمثله منذ عهد الرسول . . . فهذا « زيد بن حارثة » جديد يحمل راية القوم ويكون له فيهم مكان الصدارة كما كانت لزيد راية أصحاب محمد وجنده فى مؤتة ... أو « أسامة » آخر كذلك الذى نصبه الرسول قائداً لجيشه إلى الشام وحاملا للوائه المظفر . . . فقد مشى على رأس بكر وعبد القيس امرؤ لصيق مرقوق ليس بذى حسب ، ولا ماض يتصل بشرف لأجداده رفيع .. هو «رشراشة» مولى ثور يحمل راية القبيلتين ...

حينئذ أحمى الغضب بنفس وعلة بن محدوج الذهلى ، قائد بكر الكوفة ، أن شهد شرف بقية قومه ينتهى إلى عبد مجهول النسب تائه الأصل فى الأصول ، وأن تدفع إليهم رايتهم دون السادة والفتية الأمجاد ، فثار حانقا بابن ثور :

« ضاعت الأحساب ! . ويحك ، أتدفع بكرمة قومك إلى رشراشة ؟ . »

لقد كان وعلة فيما يبدو يعيش فى الماضى — فى ضباب العصبية الجاهلية ، التى تقيس أقدار الناس بمقياس ثراء الآباء وأمجاد الأجداد — فغم عليه أن يرى شمس الإسلام تسطع خارج فكره القديم ، ذات سنا وهاج ، لا يلقى ظلا من تمايز بين أخوين جمعهما الدين . . . المساواة الآن هى الشرعة ، وهى النهج الذى سنه الله للبشر ينطلقون فيها جميعاً ، سادة ودهماء ، أشرافاً ذوى أصول وأحساب وعبيداً أرقاء . . . رثت اليوم مفاخر الجاهلية وطأطأت رأسها لناموس العدل الاجتماعى فلا فوارق ولا طبقات . ونصب للناس ميزان آخر ، ترجح فيه أقدارهم بغير ما ألفوه من قبل وورثوه . . . فما صدارة إلا لكفاية ، ولا جاه إلا بعمل ، ولا حسب إلا بجهد يقدمه القلب واليد واللسان ! . . .

وتلك بادرة بدرت ذلك اليوم فكانت ناضجة بتهيؤ الأنفس لاعتناق المثل العليا التى سنها التنزيل . جاء أوان تطبيق هذه المبادئ السامية بالفعل بعد بثها

بالدعوة ورسمها بالحروف والقول . . . وإنها لعنوان لـكتاب العهد الجديد الذى يفتتحه الإمام ، ويود بكل قطرات دمه وخفقات فؤاده أن يكون تتمة عصر الرسول لو أمهلت له الأيام .

فلعل ابن ثور حين جاءه تأنيب وعلة واعتراضه قد ذكر ما كان من غضب أصحاب محمد حين قدم عليهم زيداً مرة ، وأخرى ابنه أسامة . ولعله ذكر أيضا كيف استقبل محمد غضبتهم التى لم تؤججها إلا عصبية للجاهلية بقيت بغضبة أشد منها وقال :

« . . . لقد بلغنى أن أقواما يقولون فى إمارة أسامة . ولعمرى لئن قالوا فى إمارته لقد قالوا فى إمارة أبيه من قبله . وإن كان أبوه لخليقا للإمارة . وإنه لخليق لها ! . . .

وإن رشراشة لخليق وإن توطأت به منازل الجدود ، وتاه حسبه فى غمار المجاهيل ! . . .

وكذلك لم تحرك حمية العصبية ، التى ود وعلة أن يثيرها فى قلب صاحبه ، شيئاً من نفس ابن ثور ، ولا لقيت كلماته صميما لديه ، بل وجده يبعث إليه بجواب يقطع عليه السبيل :

« أغن شأنك ! . . فإنا نغنى شأننا يا ابن محدوج ! . . . »

ومضى بالرجال ، ومولاه على الراية ، إلى عسكر الإمام . . .

وتهاتف الناس وهم يرون خروج هذا الفريق الذى تنطق فى وجوههم الشجاعة ، ويرتسم العزم ، وتبدو علائم الجلد والصلابة :

« الغالب من كان معه هؤلاء ! . . . » .

على أن علياً لم تـكن به حاجة لجند يشد أزره ، ويرجح كفته على كفة خصومه فما رنا لغير الصلح ، وليس يسعى قط لإنشاب قتال . . إنه ليود مخلصاً كل الإخلاص لو انثنت الطائفتان جميعاً عن الحرب ، وأصغوا لصوت الحـكمة عسى الله يلائم الصدع ، ويجمع الـكلمة ويلم الصفوف . . . ولقد أبى فى هذا الموطن الذى رأى فيه جند عدوه عديداً يفوق جنده أن يستمد الناس ، تماماً كما

كان من قبل . . . وها هو يرد عون الأحنف بن قيس ، ويأبى عليه أن يأتيه بقومه مددا ، فكفاه الآن ما لديه ، فما يروم إلا الإصلاح . . .

أقبل الأحنف حين رأى جحافل الإمام تشارف البصرة ، فقابل أمير المؤمنين، ثم قال :

« يا أبا الحسن . . إن قوما بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غداً تقتل رجالهم ، وتسبي نساءهم . . . »

فعجب الإمام . . . أهي دعوى يا ترى بثها خصومه لتخذيل الناس عنه ، بل لجمعهم في صفوف مناوئيه حتى يتجنبوا مصيراً فاجعاً لن يتجنبوه إن هو انتصر على أولئك الخصوم ؟ . . وهل لها وأمثالها في النفوس إلا إثارة الخصومة والمنازعة وإضرام نار الحرب التي عمل جاهداً على تسكين ثائرتها ، وهدم كل ما بناه في أساس السلم المنشود ؟ . .

والتفت إلى الأحنف يجيبه في توكيد تشوبه الزراية بهذه الأباطيل :

« ألم تسمع قول الله عز وجل : لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر ؟. يا أحنف . . . إنهم قوم مسلمون ، وما مثلي يخاف هذا منه ! . . . »

فهدأت نفس الرجل ، واطمأن باله . وود في هذه الآونة أن يمد يداً بالنصرة لهذا الذي لا ينضح قلبه بغير الصفاء وخشية الله ، فقال :

« أصلحك الله ! . . أما لئن شئت أتيتك — »

وراح يعرض عليه عونه .

ولكن الإمام كره منه أن ينقض لأجله عهداً قطعه على نفسه للزبير وطلحة بعد دخولهما البصرة ، باعتزال القتال هو ومن تابعه من قبيلته والانحياز دون الرمي فيه بسهم إذا نشب بين الحزبين . . . كره نقض العهد وإن كانت له من ورائه قوة وشد أزر ، وقال له :

« وكيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال ؟ . . »

فأجابه الرجل في حماس :

« إن من الوفاء لله عز وجل قتالهم ! . . »

فلم يلق على جوابه بالقبول . . . إنه ليأبى عوناً يأتيه من نكث وهو المفتون بالمثل العليا ، المجاهد فى انتصار مكارم الأخلاق . . .

وقال يسأله بعد قليل :

« فهل أنت مغن عنى قومك يا أحنف ؟ . »

« نعم . »

« فكف من قدرت على كفه . . »

وحسبه هذا منه إذ هو وفاء بالعهد . . .

وهكذا ظلت غيرة أمير المؤمنين على الصلح ، وحرصه الدائب على تدعيم أسبابه بغير انتهاز للفرص لدعم قوأته ، ولا عدوان على المبادئ الأخلاقية من أجل إضعاف خصومه ، وإن كان الموطن يوشك أن يكون موطن حرب ترخص فيه المبادئ ، وتصبح الكلمة فيه للسلاح والجنود . . . أما هو فالخلق القويم جنده ، والحق سلاحه — الحق الأمثل الذى لاتشوبه الشبه ، ولا يتغير اتجاه وجهه مع الريح ! . .

٥

قال على :

« الكلام فى وثاقك ما لم تتكلم به ، فإذا تكلمت به صرت فى وثاقه . . . »

هذه حكمة بالغة ، بقيت علما على وفائه بالوعد ، ونهجا واضحا ألزم الناس هديه ، وحملهم عليه ما وسعه . وليس عهدنا بحديثه مع الأحنف بن قيس ببعيد .

وكانت شعاره منذ راود الصلح خاطره ، ومن البدء راوده — من اليوم الأول الذى أتاه فيه نبأ انقلاب عائشة وصاحبيها عليه . فظل أبداً مستمسكا بكلمته ، لا يمل الصبر ، محاجزا دونها أن تفسدها وقيعة . يبلغها خصومه على أحرف الكتب ، وفى حديث الرواة ممن سمعوه ، وبألسنة من استفسرهم وهو منها فى وثاق شديد . . . ولقد بلغ من حرصه على أداء دعوة الوفاق غير ملتبسة بشبهة إلى الشعب وإلى المنتقضين ، أن كان يتخير رسله ذوى قدمة فى الدين ،

وصحبة برسول الله ، ورأى تتلقاه الأذن بحسن الإصغاء . . . كان من دعاته لها عمار ، والحسن ، وابن أبي بكر الصديق ، ومحمد بن جعفر أخيه . . وكان سفراؤه لأصحاب الجمل القعقاع بن عمرو ، وعبد الله بن عباس ، وحكيم بن سلامه ، ومالك ابن حبيب . وإنهم جميعا لخيرة . . .

وذات يوم استعان أيضا بصاحب آخر من أصحاب الرسول ، له في الإسلام شأن وماض معلوم ، ولديه من نبيه بينة قد تهدى القوم . ذلك أنس بن مالك . فلو ذكر الصاحبين لذكرا ، ولو عاد بذهنيهما القهقرى إلى عصر النبي فلربما سمعا من بين غواشي الذكرى صوت محمد يجيء من الغابر ، محذرا إياهما هذه الفتنة الواقعة وما تكشفت عنه من حرب هما أن يشناها على ابن عمه وهما ظالمان له ... إنه حديث مضى أسمعهما الرسول ، وشهدها أنس يسمعانه من فم الإلهام . ولكنه إذ بعثه إليهما الإمام التوى به عنانه دون القصد . . . ذهب وعاد ولم يقم بما ذهب فيه — لم يذكرهما الحديث وعندما سأله على عن نتيجة سفارته قال :

« إني أنسيت ذلك الأمر . . . » .

أنسيه . . أحقا أنسيه ؟ . . أم أغفله ؟ . . . أم ركن إليهما ثم آثر أن يحتج بالنسيان ؟ . .

ورماه الإمام بنظرة فاحصة يسبر دخيلته . . . ورد عليه في هدوء رهيب :

« إن كنت كاذبا فضربك الله بها بيضاء لامعة ، لا تواريها العمامة . . . » .

وندع ابن مالك ومصيره ، ينبئنا التاريخ نبأه بعد حين . . . فقد حقت الدعوة عليه ، وأمضى حياته من بعد ملثم الوجه يخفي البرص الذى شاع فيه ! ...

وكذلك لم تقعد الإمام الوسائل عن استفاءة الصاحبين إلى السلم ، ولم تعوزه الرسل ولا الرسائل . وظل مقيما على وفائه بوعده . وحين نزل البصرة برجاله كانت لهفته على الصلح أشد . فما نحسب إلا أن بعض النفوس بها لم تخل من توجس ، ولم تنمح منها آثار ريبة وأصحابها يشهدون إقبال جنوده الجيشين في حشود حافلة صوب بلدتهم التي راودها الأمل فترة في السلام . . . وهل شيء أبعد عن أذهانها من الرجاء في وفاق يجيء في ظلال الأسنة المشرعة والسهام

المريشة ؟ . . فلكل كتاب عنوان ... وها هى الجحافل تنطلق إليهما كالسيول وفى خطوها تنطق الحرب . . . وها هى أداة القتال الرهيبة تشارفهم فتشارف معهم أداة مثلها ذات بأس شديد . أفئن ندت هنة عن رجل من فريق فى حق خصومه أليست تكفى أن تؤجج لظى الحرب . فى هذا الوقت الذى توترت فيه الأعصاب ، قبل أن يسع الحكمة تدارك الأمر وكبح المتحفزين للصراع ؟ وهل تؤمن من كل أولئكم شررة تطير فتسعر النار ولما يستقر بعد فى قلوبهم الإخلاص للصلح المنشود ؟ .

فلعل علياً لم يغفل هذه النزعة التى انطوت عليها جوانح كثيرة وهو يقارب أصحاب الجمل ذلك اليوم بقواته . . ولم يغفل معها أيضاً ما يبثه دعاة الوقيعة بين الناس لتوسيع الخرق كى يعز على الرتق ويعيي الراتق . فما أن استقر به مكانه حتى رأى أن يبادر إلى العمل قبل أن تثير النفوس رؤية العدو عدوه يخطر آمنا على قيد ذراعه ومرمى رمحه ، فتلك تجربة شاقة على البشر يعسر أن يطيقها كل الناس ، ومحنة للقلوب التى أفعمتها البغضاء والعداوة ، وإغراء لا يثبت له إلا من كان ذا سلطان غالب على مشاعره وقدرة قهارة تملك نزعاته .

- كان يعلم أن السلم أضحى بعض رأى الصاحبين ، فكذلك نقل إليه القعقاع ، ولكنه من خلجات صحبهم على غير بينة . . وكان يعلم أيضا أن الصلح جرى كلمة على لسانيهما ثم علم القلبين عند الله ، فقد دعا بذلا له وعدا ونقضاه . . . وإذا كانا اليوم يعنيان حقا السلام فيا ترى كيف إليه السبيل ؟ . . على أى أساس يريدان إقامة صرحه ؟ . . ما هى التفاصيل التى تبرم عهده فتحيله حقيقة واقعة بعد إذ هو مشيئة تختلج فى الصدور ؟ . .

ذلك ما لم يتبد له بعد فى ضوء يكشف الغياهب عن النيات . . . ثمة حاجة به لاستنبائهما بقية شرح بعد الإجمال فلئن كانا أقرا للقعقاع بجدوى « التسكين » — الذى لا بد جاء فى أعقاب السلم — على الأمر الذى قاما فيه لأنه كفيل بتهدئة الأنفس ، عون على قتلة عثمان . . وقبلا أيضاً أن « يبايعا » ، فما أحد يدرى على التحقيق إن كانا يعنيان البيعة على صلح مشروط أم على إمرة الإمام ؟ . . .

اللقاء إذن خير ما يحسم الأمر . ويكشف عما تكن الصدور . . . وهو أدعى إلى ترقيق الأنفس وميلها إلى اللين ، لما قد يثير من ذكريات قديمة عزيزة على المتلاقين تنقشع بها غيوم الخصومة . . .

وكان الزبير قد بدا على رأس جيشه ، تخطر فرسه به أمام الصفوف وهو دارع فى الزرد والحديد ، متقلداً سلاحه ، تياها بماض له فى الحرب عريق ، فما أن بصر به الإمام حتى لانت له أساريره ، وقال لمن حوله من رجاله :

« أما إنه أحرى الرجلين إن ذكر بالله أن يذكر ! . . »

ومضى إليه من لحظته حاسرا ، بغير درقة ولا درع ، غير ملق بالا لتحذير أعوانه ، وإهابتهم به أن يعد العدة لهذا الفارس الشاكى السلاح . . . مضى مزوداً بالإيمان وحده نحو خصمه الشجاع ، فإذا طلحة أيضاً هناك ، كامل التأهب كصاحبه ، تام العدة ... ودنا منهما أمس دنو وأقربه حتى اختلفت أعناق مطاياهم ، وظن كثيرون أن قد جاء للنزال لولا أن رأوه أعزل . . . ثم راح يحدثهما فى هدوء وعينه تتأجج نظراتها على جندهما المحشود :

« لعمرى لقد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا ، فهل أعددتما عذرا عند الله ؟ . . . »

وأردف وإن بصوته رنة نذير :

« . . . اتقيا الله ! . . ولا تكونا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ! . . » .

فراحا معا يتأملانه النظر برهة من النظر قصيرة تحدثت فى عيونهما خلالها الحيرة . . إنه نفس الرجل ، كأن الأمس لم يذهب عنه ولم يطلع عليه يوم جديد . ذات القلب الراسخ ، والجنان الثبت ، والكيان الوطيد الذى لا تنال منه عواصف الأحداث إنه أعزل . . . حاسر ولكن هيبته غطت هيكله كله بالدروع حتى حوافر المطية ! . . .

والتفت هو إلى الزبير فدعاه إليه ، وانحاز به ناحية بعيدة عن رفيقه يناجيه :

« ما حملك يا أبا عبد الله على ما صنعت ؟ . . . »

« أنت ! »

فعجب :

« أنا ؟ . . »

ولكنه عجب كان يشوبه بعض الإعجاب ، فقد كان يكبر فيه الصراحة التي تضع دائما خفق قلبه على طرف لسانه . . .

وأنصت هادئا لرأى الزبير وهو يتابع الكلام :

« نعم أنت . ولا أراك لهذا الأمر أهلا ، ولا أولى به منا ! . . »

« لست أهلا له بعد عثمان ؟ . . »

« نعم . »

فلاح الأسف على وجه على وقال :

« قد كنا نعدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك — ابن السوء ! — ففرق بيننا وبينك . . . »

عندئذ ساد بينهما الصمت . . لكأن الزبير شام الحق فى كلمات غريمه فسكن يتدبر . . إن الحديث هاج ادكاره ، ورده إلى عهد غابر كان الصبا فيه غضا ، وكان الشباب ريان كبواكير الزهر ! . . ذاك عهد جمعت فيه بينهما القربى وعطفت القلب على القلب ، ومضت بعده الأيام فوثقت الوشائج وزادتهما ألفة ، إذ وصل الإسلام بين الروحين فى حب الله . . . وطافت به الذكرى فى ماضيه ، وبتلك المحنة التى شهدته ينحاز لابن خاله بعد موت الرسول ويقوم مناضلا عنه ، مدافعا عن حقه فى تراث النبى وإن باء فى سبيله بغضب الصديق ، وإن عصف بهما معا حنق ابن الخطاب فجمع الحطب حول دارهما ليجعلهما طعمة للحريق . . كم للذكريات من يد آسية تمسح حزازات الأنفس حتى لتوشك أن تطهرها تطهيرا من أدران الأهواء . وكم لها على القلوب الذاكرة من سلطان يردها سيرتها الأولى كأنها وليدة لا تعرف الضغينة — لم تطعم لبان الحقد ، ولم تلقم ثدى البغضاء . . .

وبدا الصفاء هنيهة على أساريره . . فلولا أن ثمة حجة لا تكف تعرض له ويمكن أن تثبت فى مجال الجدال للانت عريكته وأسلس قياده إلى ابن خاله . . . أما الآن فإنها تقطع عليه خيط ذكرياته ، وتفىء به ثانية إلى اللجاج فيقول :

« . . . وأطلب بدم عثمان ! . . »

فهز الغضب العاصف نفس على لهذا الادعاء ، وقال بجفاء :

« دم عثمان ؟ . . بل أنت وطلحة وليتماه ، وإنما توبتك منه أن تقيد نفسك وتسلمها لورثة الشيخ ! . . . »

أفيسعه يا ترى أن ينكر هذا الاتهام الذى ساقه إليه الإمام فى غير لبس ولا خفاء فينكر معه ما وقع منه — وشهد به الناس — فى حق الخليفة القتيل من التأليب والتحريض وإثارة أعوانه عليه حتى نزل به القضاء ؟ . . دون هذا بغير شك ويصيبه الحسر ويستعصى عليه الكلام !

وأسرع على يتم حديثه ، لين اللفظ ، بادى الرقة هذه المرة :

« يا أبا عبد الله . . . »

فانتبه الرجل من غمرة جزعه ، وألقى السمع .

« . . . نشدتك الله ، أتذكر يوم مررت بى ورسول الله متكىء على يدك وهو جاء من بنى غنم ، فسلم على وضحك ، وضحكت إليه لم أزده ، فقلت أنت : لا يدع ابن أبى طالب زهوه ؟ فقال لك : صه ! . . إنه ليس بذى زهو ، ولتقاتله وأنت له ظالم ؟ . . »

فأغضى الزبير حتى لأوشك جبينه أن يمس صدره ، وغاض لونه ، ومشى بقلبه الندم كزحف الرقطاء وهو يجيب :

« اللهم نعم . . »

« فماذا تقول ؟ . . . »

« لقد كان ذلك ولكن الدهر أنسانيه . . . ووالله لأصرفن عنك ! . »

وغادره ، لم يرد إليه طرفه والأسى يغشى عينيه بدمع التوبة ! . . .

٦

. . . أما طلحة فكان منتفخ النحر، عاقصاً قرنه كما وصفه الإمام ؟ . .

إن ربوة من الطموح سامقة تحت قدميه، تكاد أن تناطح به صفحة السماء ! الأعوام الماضية كلها لم تذهب عبثا. ولم تغب شموسها قط عن رجائه . . إنما الأمل كان يسير بين يديه ، على وقع خطاه، ويعهد له الطريق . وكان المجد السياسى شاغل قلبه وعينيه . هو فى الليل رؤيا حالم، وفى النهار حلم يقظان ! . .

وكانت عشرين بل أكثر . أربت عدداً حتى أوشكت أن تصير نصف أيام حياته فى هذه الأرض . . . سنوات من الطموح الدائب كانت عمر آماله، وكانت الربوة التى اعتلاها إلى هدف غدا الآن فى نطاق العيان وقيد البنان . فكيف يسعه أن يدع هذا البناء الشامخ وينزل — دفعة واحدة — من عليائه ؟ . . كيف يهدم بيديه ما غالب عليه الحدثان حتى استطاع أن يقيمه صرحا باذخا ذاهبا فى السحاب ؟ . . أفيهوى هكذا من حالق بلفظة لوم عابرة يأتيه بها ابن أبى طالب أو بكلمة عتاب ؟ . . .

منذ وضع أبو بكر قدمه على حافة قبره حلم الرجل بالمجد، وتهيأ أن يتسربل بطيلسانه . فقد كان أحد قلائل من صحب محمد المختارين، وفرداً فذا ممن قامت على أكتافهم رسالته . وكان أيضاً سيداً فى قريش ذا حول، لا تطول قدره من بينها إلا قلة، وذا قربى بالخليفة الأول وثيقة العروة . ولكن الموت لم يأته بهدفه إذ أوصى قريبه لغيره بإمرة المسلمين ففاز بها ابن الخطاب . فلو كان أفضى بها إليه لاستقامت، ولبلغت شأوها وبلغ شأوه . غير أن ثمة شيئاً احتجز عنه هذا المجد فكان امرءاً فى غمار الناس أو يكاد، لا ميزة له إلا سابقته . . وكلما راح يتدبر كيف أغفله الصديق من حسابه عند الوصية وقدم عليه سواه، استشعر الهم ومرت نفسه . فتلك أعوام طويلة من الدأب لإعلاء شأن أمته ورفع كلمة الله كانت أمامه، غير أنها مضت به فارغة إلا من المنى والأحلام . . .

وهو الآن يعيش أيضاً فى الحلم . ولـكنه حلم تحله حماسه بعض حرارة الحياة ثم أتته الأيام ببعضها الآخر . . كم طالما عابوا عليه شيئا يراه فضلا ويرونه نقيصة وكنظرتهم كانت نظرة الشيخين إليه . . فهو عندهما واسع رحبة الأمانى ، إن أحسن اختيار التعبير وأريد الترفق ، يرى نفسه بغير أعين الناس، وبغير أعينهما هما على الخصوص . وما زال حتى الآن يذكر كيف جبهه أبو بكر بصراحة تؤذيه ، لم تعرف الترفق ولا المداجاة فى الخطاب ، عندما وجده يعترض وينكر اختياره عمر أميراً للإسلام . . . قال له خليفة الرسول حينذاك :

« . . . والله لو وليتك لجعلت أنفك فى قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذى يضعها ! . »

كأنما الاعتداد بالنفس كان شيئا يعاب . . .

وحتى ابن الخطاب كذلك لم يكن أرفق من سلفه ، ولا خيراً له منه . كان يتحدث له بلسان صاحبه ، وبالمعنى الذى تنقله ألفاظه القديمة . ما من رجل فيهما وجد فى اعتزاز طلحه فضيلة تعزز جانبه ، وترفع قدره على أقدار غيره من أصحاب الرسول . كانت العزة فى معجمهما كبرا وعلوا ، وكان الاعتداد صلفا وزهوا . بل قد أوشكا أن يدعوا صفته غرورا يؤخذ به ويلام عليه . . . وما كان به غرور إلا أن يرمى رجل ، يستشعر فى نفسه قدرة على الاضطلاع بالأمور ذات الخطر ، بمثل هذه النقيصة . . .

وها هو اليوم يرى عليا يؤازر الآخرين . . . ولو أنصفو ثلاثتهم لـكان حماسه شفيعا له لأنه حافز قوى يدفعه إلى إحكام تدبير شئون الدولة لو أفضت أمورها إليه . فبقدر الرغبة يكون العمل ويكون الدأب فيه . ولو أنصف الثالث لرآه حقيقاً بالمـكان الثانى بعده فى الدولة — على الأقل — إذ كان وحده مقوض عهد عثمان ! . . إن هذه الخواطر التى تموج فى ذهنه ، وهو يشهد الإمام يسير نحوه بعد أن فرغ من حديثه والزبير ، كانت تعده ببعض ما يصلح حجة له فى الجدال القريب . ولم يكن يغفل أن ثمة ثغرة فى براهينه قد تقلبها عونا عليه لا عونا له . ولـكنه فيما بينه وبين نفسه كان يؤمن أنه مخلص فى طلبه بدم الخليفة القتيل

فقد رام عزله ، لم يرم قتله لولا أن غلب السفهاء ومضت بهم الثورة فى غير سبيلها المرسوم من قبل ؛ لأن الثورات كالسيل ، إذا تحدر لم تعد بأحد طاقة على اعتراضه . . .

وبقى بعد هذا أنه شهد الأمة منقسمة على نفسها — أمته التى حلم طويلا بأن يقودها فى مطالع المجد قد فرقت بينها دعوته جيشين عدوين يتصاولان بالسلاح بعد المجادلة والنقاش ! . . إنه لا ينكر أن بضعة من تبعة هذا الصراع تقع على كاهليه ، فلو أخذ برأى على من البدء وتلبث معه حتى يتفرق الناس وتفىء إليهم نفوسهم بعد مصرع عثمان لكان خيراً لهم أجمعين ، ولبقى للدولة تماسكها وظلت وحدتها وثيقة ، ثم بلغ من الجناة وطره . . . ولكنه لا يملك إلا أن يرى فى هذه الفرقة ذاتها حجة له إذ كشفت عن جانب كبير من الشعب لا يدين لعلى بالطاعة . هذا الجانب الذى يرى المبادرة إلى القصاص كان لا شك برما بسياسة الإمام ، برما كذلك بإمرته ، فما يعصيه وهو يواليه . . . وهو أيضاً قوة لها خطرها ، لا يجدر أن يغفل شأنها ، ولا يستهان برأيها أو ينكر حقها فى اختيار من تراه حقيقا بتوسد أريكة الحكم من بين أولئك الذين تشمر نحوهم بالرضاء ولا تمنع عنهم الولاء . . .

وعندما أقبل على عليه ، وهم أن يحادثه ، كان الرجل قد أخذ الأهبة حتى لا تشغله الهيبة ، التى يحسها تقع بقلبه حين يرى ابن أبى طالب ، عما يريد مصارعته عليه ومجادلته فيه . . . وقف يتحفز ، ثابتاً فى مكانه يروض نفسه على رباطة الجأش . . .

وسأله الإمام :

« يا أبا محمد ، ما جاء بك ؟ . . » .

فبادر من فوره يجيب :

« دم عثمان » .

« قتل الله من قتله ! . . »

أتعريض ؟ . . أعنى على أنه يلصق التهمة به كما رماه بها غيره كثيرون ؟ يكاد هذا أن يكون . فذات يوم قال الإمام فيه :

« . . . والله ما استعجل متجردا للطلب بدم عثمان إلا خوفا من أن يطالب بدمه لأنه مظنته . ولم يكن فى القوم أحرص عليه منه ، فأراد أن يغالط بما أجلب فيه ليلبس الأمر ، ويقع الشك ! . . . »

ومع ذلك فتلك الحرارة التى أحسها طلحة فى دعوة خصمه ، والتى استشعر معها رجفة بفؤاده إذ صافحت لفظاتها القليلات سمعه، لم تستطع رده عما عزم عليه، بل مضى يقول :

« إنك ألبت الناس على عثمان . . . »

فكان الجواب الذى تلقاه ، وعلى قد طوفت بثغره بسمة إشفاق ، وغطى الهدوء قسمات وجهه وعيناه ترنوان للسماء :

« يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين . . . »

عندئذ صمت الرجل . لقد كان أولى به أن يسير قدماً إلى بغيته دون التوسل بكل هذه المزاعم التى تبعده عن هدفه ولا تدنيه ، وتضيف وقراً آخر على ضميره الذى أثقله الندم على ما فرط منه فى حق عثمان . . . وحين وسعه أن يلوذ ثانية بالهدوء الذى أوشك أن يعصف به هدوء هذا المظلوم البرىء ، راح يقول بغير تلعثم وفى إصرار عجيب :

« فاعتزل هذا الأمر ! . . . »

« أعتزل ؟ . . . »

« نعم . ونجعله شورى بين المسلمين . فإن رضوا بك دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن رضوا غيرك . . . »

فهذه هى القضية ؟ . . هذه هى النية الخفية وراء قصة القصاص ؟ . . .

وقال على ولما تختلج فيه جارحة :

« أو لم تبايعنى طائعاً غير مكره ؟ . . . »

« بايعتك والسيف على عنقى . . . »

فصابر لم يدع هدوءه ، وقال له :

« ما كنت لأكره أحداً على البيعة لى . . . ولو كنت مكرها أحداً لأكرهت سعداً وابن عمر ومحمد بن مسلمة ، أبوا البيعة واعتزلوا فتركتهم . . »

ولم يكن طلحة بحاجة لمن يذكره قصة البيعة ، وما تم فيها ، ومبادرته إلى كف على يسبق إليها الناس بالولاء . لم يكن به حاجة إلى من ينقل له صورة صادقة لذلك اليوم القريب إلى الأخلاد وقد كان هو ممن رسموه وسطروا أحداثه فى سفر التاريخ . . . ولكنه الآن غيره بالأمس . تبدلت به الحال غير الحال . ومالت المشاعر فمال . هذا الصرح الباذخ من المنى والأحلام عزيز عليه هدمه . فلقد أخذ من حياته أعواما توشك أن تكون نصف عمره ، وأوفى به على الغاية اليوم . . . الحلم القديم هم أن يشرق وتسطع شمسه ، وما أعسر على النفس أن تنفض الأكف من أحلام المجد ! . .

فى لحظة غدا الرجل كما وصفه ابن عمـــه خليفة رسول الله . يجعل أنفه فى قفاه ! . . . الزهو والكبر والاستعلاء سدت دونه مسالك التفكير ، فلم ير أحداً أحق منه بالأمر ، ولا هذا الذى عاهده علانية على الولاء . أم لا فكيف إذن نقض البيعة وحنث فى اليمين ؟ إنما له حجة تؤازر النكث وتقوم ذريعة تبرره ، ونبش الماضى حتى عثر بها فى أطلاله ، ثم نهض يرمى بها وجه غريمه فى اعتداد وخيلاء :

« يا على . . . كنا فى الشورى ستة ، فمات اثنان . . . وقد كرهناك نحن الثلاثة ؟ . . . »

شورى عمر عادت ثانية إلى الحياة ؟ . . . لوح بها طلحة كما يلوح بسيف ، وقد حسبها البرهان الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! . . . لقد يعجب المرء كيف يراها الرجل حجة له تؤيد دعواه اليوم بعد أن دالت فى الغابر ، ولكن عجبه يخف هونا بغير شك إذا تدبر الحال النفسية التى كان عليها طلحة فى هذه الآونة التى حاج فيها الإمام . . . إنه ليتحدث بمنطق من يتصيد الأدلة ولا دليل ، فكانت حجته تلك قشة الغريق ! . . .

ومع ذلك فلنر إلام سوف تسوقنا ذريعته ، وإلى أى مدى تستطيع أن تظاهره وتسند ادعاءه . . . فقد جاء عمر غب الطعنة بشوراه وهو يتحرج أن يوصى بالأمر لامرىء بعينه ، أو يدع الناس يختارون لأنفسهم فتقع بينهم فتنة تؤدى إلى

الانقسام . وكان يخشى كلا السبيلين ، فاختار نهجا وسطا لأمته . وحدد نفرا من خيرة صحب الرسول حبس فيهم خلافته ،ومنحهم وحدهم الحق فى اختيار الخليفة . فكان نهجه هذا ترشيحا وانتخابا فى آن . . .

فمن كان أولئكم الناخبون المرشحون ؟.. ومن بقى منهم فى الحياة اليوم ؟ . . وأيهم أقرب أن يعهد إليه زملاؤه بالأمر ؟ . .

هم الآن ثلاثة سوى الإمام : طلحة ، والزبير ، وابن أبى وقاص . بايع اثنان ونكثا ، واعتزل الثالث . ومن كلا النكث والاعتزال استخلص طلحة حجته المزعومة ! . .

وأول ما ينقض هذا الزعم المتسف أن شورى عمر كانت وصية نفد الغرض منها بعد أن تمت البيعة لعثمان . فما يسع عاقلا أن يراها خالدة على الزمن تلزم الناس بعد انقطاع عهدهم بصاحبها ، وبعد انتقال العهد منه إلى غيره ، لأن الحق فى الإيصاء غدا لخلفه دون سواه ، ولم يوص الخلف الأمة بشئ . فهى وصية واجبة النفاذ ما بقيت بغير نفاذ ثم تذهب ريحها بذهاب الطرف الذى أوصيت فيه والسبب الذى شرعت له . . فمن عجب أن يبيح طلحة لنفسه تحميلها غير ما تطيق ! . . .

وثانى ما يدحض تلك الحجة ، لو ترفقنا بها وسرنا وزعم طلحة ، أن اثنين بايعا واعتزل ثالث ، فصحت إذن بيعة الإمام بثلاثة أصوات . ولا عذر عليه فى نكث الناكثين ، بل الإثم يلزم من نقض العهد وحنث باليمين ! . . .

ولكنها — كما أسلفنا — حجه من يعتسف الحجة ويتصيد الأدلة ولادليل، والقشة التى يحسب الغريق أنها عاصمته من الغرق ! . . . فما زال طلحة يحلم بالمجد ويجهد لبلوغه من أى سبيل ، وإنه ليمد بصره فيراه دانياً منه لولا هذا الذى يسد عليه المنافذ ويفسد الوسائل . أفما يحق له أن يعمل على تنحيته من طريقه لعل نفحة من الحظ تواتيه فيختاره الناس أو يختلب هو النفوذ حين سانحة تعن له أو تسوقها إليه الأقدار ؟ . .

وهز على رأسه آسفاً لهذا اللجاج الذى آثره الرجل على المحاجة بالدليل والاحتكام إلى البرهان دون التضليل . وهم يغادر المكان عائداً إلى صفوفه وإن نفسه لحزينة على رفيق ماضيه . فما كان شيء أحب إليه من هدايته وتألف تماسه . . . وماسار مسيره هذا إلا ليستفيئه إلى موطن الحق والوفاء . . . على أنه مع ذلك رأى أن يرد عليه زعمه قبل أن يبرح ، فلعل الله أن يهيء له رشاده . . .

قال له مصابراً ، فى رفق وهوادة :

« يا أبا محمد . . إنما كان ألا ترضى قبل الرضا وقبل البيعة ، وأما الآن فليس لك غير ما رضيت به ، إلا أن تخرج عما بويعت عليه بحدث . فإن كنت أحدثت حدثا فسمه لي . . . »

فلم يجب بشيء . وهل كان بمقدوره أن يجيب ؟ .

وعاد الإمام — وقد شهد حسره — يعاتبه ، عسى أن يمينه العتاب على نقاشه فالاقتناع من بعد . . وكان عتابا كله مرارة واستنكار :

« . . أليس أعظم الحدث أن أخرجتم أمكم ؟ . . أ كان رضا لرسول الله يا أبا محمد أن تهتكوا ستراً ضربه عليها وتخرجوها منه ؟ . . »

« إنما جاءت للاصلاح . . »

فابتسم الإمام بسمة فيها عجب وفيها زراية :

« يا أبا محمد . . . هى لعمر الله إلى من يصلح لها أمرها أحوج ! . . . »

وبعد عنه . . .

وحين بلغ صفوفه ، وسأله صحبه عما انتهى إليه الحديث قال :

« أما الزبير فقاده اللجاج ، ولن يقاتلكم ، وأما طلحه فسألته عن الحق وأجابنى بالباطل . ولقيته باليقين ولقينى بالشك فوالله ما نفعه حق ولا ضرنى باطله ! . . »

ثم رمى بعينه إلى بعيد . . إلى المجهول الغائب عن رأى العيون والضمائر ، وانثنى بعين تجول فيها دمعة ، وهو يهمس — كأنما لنفسه — بصوت خفيض :

« أما إنه لمقتول . . غدا . فى الرعيل الأول ! . . »

٧

أعن رهبة وضعف وانهيار عزم ؟

كثيرون حسبوا هكذا الأمر — ظنوا حرصه على السلم كان وليدخشية تملكه كلما جال ذهنه فيما حشدوا له من رجال وعدة قتال . . فلعلهم إذن نسوا ماضيه ، وذلك التاريخ الحافل الذى انقضى به وفى كل صحيفة منه سطور خطتها شجاعته، ورسمت بها صورة له فريدة بين الأبطال ، غاب عنهم ذلك الفارس القديم المقدام ، الذى شهده الزمن فى مطالع الإسلام معلما مجلى لم يبلغ شأوه من قبل ضريب ولا من بعد قرين . أخدعتهم الأعـــوام عن حقيقته فاختفت عنهم وراء ستر النسيان ؟ . . أم قرنوا الظن بتقدم عمره وقد خاض السن التى يلين فيها العزم وتتهافت الصلابة ؟ . أم لا فآثر الدعة والسلامة تأتيانه فى نعومة الحياة ؟ . بلى قد رأوه بأعين حدسهم عدا عليه هرمه ، وركن للتخاذل ، ودبت الشيخوخة إلى عزيمته دبيبها فى ملامحه حتى أصبح وليس له من فروسيته الأولى غير ذكرى تراوذ الذاكرات . .

وكانوا فى حسابهم مخدوعين ! . . لو استطاعوا نصفاً لأنصفوه . ولكن ظنهم دفعهم عن الحق ، ومشى بهم عن الغاية . فلم يكن لحسب خطرة من الخواطر العابرة تجول فى الخلد ثم تفر كأن لم يكن لها من قبل كيان ولم يعد بقاء ، بل مضت حديثاً تلوكه الأفواه ولغطاً تبعثه الألسن زراية وسخرية ، فى السر والعلانية . فكم أرجفوا بوهنه ، وبجبنه ! . . وكم عيروه وعابوه حتى لقد طال ما كان يدفع ويقول :

« . . ومن العجب بعثهم إلى أن أبرز للطعان ، وأن أصبر للجلاد . . هبلتهم الهبول ؟ لقد كنت وما أهدد بالحرب ، ولا أرهب بالضرب . وإنى لعلى يقين من أمر ربى ، وغير شبهة من دينى . . »

ولكنهم رأوه قولا لا ينضح بغير المباهاة بماضيه ، والاعتزاز بهمة له غربت فى الغابر . . أما أمسه فذهب إلا قبساً خافتاً كأنه لمح النجم خلف

الغيوم ! . . وأما الحاضر فشمسه مشرقة على آفاق عالم من آمالهم فسيح . إنهم على ثقة منه ، فيما يتصل بهم من دلالاته وأحداثه وما يتصل به . . . وأما الغد فهذه أمامهم بشائره ، كطلع الزهر وبوا كيره ، كلما رنوا بالعيون إليها ازدادوا إيماناً بنصر قريب .

لقد كانت الأنباء تأتيهم بخبر رجال يظاهرونه ، شدوا إليه المطى وانتظمتهم صفوفه ، ولكنها جاءتهم أيضاً بنبأ كثيرين تخلفوا عن ركابه وكثيرين خيبوا أمله فيهم فنقضوا عهدهم له باعتزال القتال مؤثرين الانحياز إلى جانب أعدائه عونا لهم وحربا عليه . . . فما كان شيء أبعد عن وهم أصحاب الجمل من أن تواليهم طائفة من رجال الأحنف بن قيس . أما اليوم فقد غدا ما عز على الوهم والتصور حقيقة واقعة . وبعد أن كانوا يرهبون عشيرة الأحنف حتى تألفوه وسعهم ليعتزل بها عن النزاع بوادى السباع ، أصبح الرجل عاجزا عن امتلاك عنان أعوانه ، وانشق عليه منهم فريق كبير التحق بخصوم الإمام . . . هذا أمر لم تخف عنهم أخباره ، بل قد بلغتهم بشراه . فما أن نادى الأحنف قومه إلى الاعتزال حتى نهض المنجاب ابن راشد يهيب بفريقه منهم :

« . . يا آل الرباب لا تعتزلوا ، واشهدوا هذا الأمر ! . . »

وهتف بعده أبو الجرباء :

« يا آل عمرو لا تعتزلوا ! . . » .

وصاح هلال بن وكيع :

« يا آل حنظلة لا تعتزلوا ! . . » .

وكذلك اختلط على الأحنف رأيه ، وجرت الأمور بغير ما شاء ، وبنقيض ما وعد به الإمام .

وقال الرجل يعاتب هلالا :

« أفلا ترى الاعتزال ؟ . . »

« بل مكاتفة أم المؤمنين ! . . . »

فصمت لم يعقب . وأهاب جزينا بمن أطاعه أن يتبعه إلى معتزله فلعل خاطرا

راود ذهن هلال إذ ذاك دفعه أن يغرى شيخه بالعدول عن عزمه ، فقال فى مصانعة وكبرياء :

« أفتدعنا وأنت شيخنا وسيدنا ؟ . . . »

فرماه الأحنف بنظرة ، وأجاب وصوته يقطر المر مع الكلام :

« إنما أكون سيدكم غدا ، إذا قتلت وبقيت ، فأنا الشيخ المعصى وأنت الشاب المطاع . . . ! »

ومضى عنه بمن أطاعه من بنى سعد إلى وادى السباع . . .

كان هذا نصرا بغير شك ، حازه أصحاب الجمل قبيل القتال . فتلك فرقة لها حسابها فى المعركة المقبلة ، كانوا يخشونها على أنفسهم ، ثم زادوا بها الآن نصيرا ومنعه . . . أما البصرة فغدت اليوم دار أمان ، يسعهم أن يسندوا ظهورهم إليها وهم مطمئنون بعد أن غادرها أولئك الذين كانوا ذوى هوى مع الإمام . وإذا كان للوفرة أثرها فى ترجيح الميزان فلسوف إذن ترجح كفتهم ، وتشيل كفة العدو لقلة معينه . ولن تشهد الوقعة القادمة غريمهم إلا واهنا بنفره ، يرقون عنه كما يرق الثوب الشفاف ! . . . أما هم فجندهم كثير ، وأما عديدهم فموفور ! . . . .

ثم قد بدت الغلبة الآن إلى أين تميل ، وفيمن منهما تكون . ولو صدقت الأنباء لكان ابن أبى طالب فى عشرة آلاف من الأولياء ينضحون عنه أمام ثلاثين ألفاً أعز وأوفر . فقد خرج من المدينة فى سبعمائة ، ثم تلبث بذى قار حتى صاروا سبعة آلاف ، ثم انطلق بهم صوب ميدان الصراع فزادوا ألفاً أخرى أو ألفين ممن لحق بهم من القبائل الضاربة حول المكان . وأسخى الأنباء قد زعم له جنداً لا يبلغ غير نصف جندهم ، أو أكثر من النصف بقليل . فهلا كان هذا بشيراً لشمسهم بالإشراق ، نذيراً لشمسه بالأفول ؟ . . .

غاب عنهم الصواب فأخطأوا الحساب . أم كان ابن أبى طالب بتقديرهم بأنه للنصر وحده ويسعى إليه ؟ . . لو مشوا معه بدرب عمره خطوة بعد خطوة للقنتهم حياته درسا حقيقا على الدوام بالتذكر ، كفيلا بأن يبديه لهم كما جبله طبعه .

فما هو بالمفتون بالغلبة هياب الهزيمة إن جرعته كأسها دنياه . ولكنه رجل حب الحق بضعة من طبيعته ، وكلفه بنشدانه يأخذ عليه كل مسالك تفكيره . كذلك انقضى به صباه ، وتصرم شبابه ، ومضت عهود الكهولة والشيب . وأولى بهم إذ صاحبوه أزمانا أن يذكروا له هذه السجية التى لم يتنكر لها قط حين فعل أتاه . أم كان يقدم فى باله النصر ، ويتهيأ ليستقبل الفخر يوم الخندق لما وقف يصاول عمرو بن عبد ود وكانوا فى الجاهلية يقومونه بنحو ألف من الفرسان ! . أم شام الغيب فرآه ينطوى على ظفر ينتظره عندما انقض على حصن ناعم من خيبر وقد ترس عن نفسه بباب حتى أصاب الفتح الذى استعصى قبله على أبى بكر وابن الخطاب ؟ .. أم حسب الموت لا بد سيعدوه وقد رقد عرقد رسول الله ليلة الهجرة وكل قريش تظنه محمداً وما منها إلا رجل قد شحذ سيفه وتهيأ أن يرويه بدم هذا النائم فى لفائف الفراش ؟ . .

فيما سلف من سنيه كان يومه صورة ماضية ... صورة لاتنى تتكرر كل مطلع صباح فلا تختلف فى الدقائق التوافه عنها فى سابقاتها قبلها فضلا عن الخطوط البارزة والشكل العام ... ذات المادة ، وذات الألوان ، وذات الأضواء والظلال . كان آنس بالموت من الطفل بثدى أمه ، يسعى مشوقاً إلى غواشيه لا يرهب مأتاه . ويسير تحت ظله أو هجيره ، فى رحابه أو دروبه ما رأى الحق غاية للسير . فلم تكن الشجاعة ثوبا اكتساه إنما بضعة من أعصابه ! . .

ولكنها قريش القديمة عادت تفترى عليه الأكاذيب ، وتجهد لتنتقص منه وتنكر عليه سجاياه . كشأنها بالأمس مع رسول الله ودت أن تخدع عنه الناس . وهى اليوم تريد أن تخدعهم عن الإمام فما خدعت إلا أنفسها حتى ليستبد بها الغرور فتراه على نقيض ما سوف تراه . وليس موعد اللقاء بينها وبينه ببعيد . . .

أما هو فكان راضى البال إذ سلك نهجه المستنير وإن خالفوه ، فقد أوفى ما عليه لله إذ دعاهم إلى الكلمة السواء . إنه لا يطلب النصر بل ينشد الحق ، ولينقبن عنه خاصرة باطلهم حتى يخلص إليه بسن الحسام بعد أن وهن صبره دون حملهم بالحسنى على التزام الجادة :

« . . . والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين . وإنى لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم ! . . . » .

كم فيهم ممن نفذت إلى قلوبهم دعوته السمحاء ؟ . . بضعة لا تغنى عن البقية ، غير ذات خطر لا تملك شيئاً ولا تقوى على إبرام شيء . حتى طلحة نأى بجانبه وآثر أن يسير وهواه ، ولعله يتشرع للحرب تشرع أولئك المفتونين الذين ضمهم ركابه ، ومضى يتهيأ للوقعة الكبرى يحسبها ورجاله سوف تحسم الأمر وفق ما يشتهون . . .

فلعل الله أن يهدى الرجل كما هدى رفيقه منذ قليل . إن الأمل فى الوفاق لم يغب قط عن قلب على ، ولم يبارح تصوره . حتى فى هذه اللحظة التى أشرعت فيها الأسنة الحديدية وسلت السيوف الظمأى كان ما زال يطمع أن يكون الله قد ادخر للشيخ مخرجا قريبا من الخلاف الذى نفخ فى سعيره . فما أضيق المدى بين الهدى والضلال ، وما أرقه من فاصل ، كأنه شعرة دقت كما يدق الصراط بين الجنة والنار . . . وإن هى إلى خطوة إلى يمين أو إلى يسار تكتب المصير ! . . .

وكان الإمام يأمل أن تجنح نفس طلحة إلى اليمين ! . . . كلما كر بذهنه إلى ماضى الرجل : وتلك الأيام الأولى من عمر الإسلام التى شهدته يبلو فى الله أحسن البلاء ، رآه أكرم على الله من أن يفرق به شمل الأمة التي كان له بعض الفضل فى تشييد بنيانها الركين ، وزاد إيمانا بأنها محنة موقوتة لن تلبث شدتها أن تزول . . . كان الرجاء فى على يكاد يسبق الحقائق البغيضة ويود لو يحجبها عنه . وكان اهتداء الزبير إلى الجادة يوشك أن يملأ قلبه إيمانا بقرب اهتداء صاحبه وميله عن هواه . أم الزبير كان أهدى بصيرة وآثر من رفيقه عند الله ؟ . . .

تأبى الرغبة إلا أن ترسم للمرء صورة المستقبل الذى يشتهيه ، وكذلك فعلت رغبة الإمام . حبه السلام أفعمه ثقة فى نجاح دعوته إليه ، ويقيناً بتلبية خصومه نداءه الذى سيوثق عرى الوحدة بين فريق الإسلام . ولم يكن شعوره هذا وهما كله ينبعث من الأصداء التى ترددها نفسه النقية ، بل الواقع أيضا أمده ببعض الثقة وبعض الاطمئنان فلقد شهد كيف أسلس الزبير ، فى اللحظة الأخيرة ،

مقاده ونزع عما كان فيه . غدا رجلا غير ما كان ، وفعلت كلمة واحدة بنفسه ما لم تفعل عشرات من الكتب والرسائل طالما حملت له العظة والعتب والملام ، وبضعة من الرسل والسفراء عجزوا عن تألفه ، فى شهور وأيام . . .

وكانت كلمة كأنها السحر . . ليست تلك التى أنبأته بما أنسيه من حديث رسول الله ، بل أخرى فتحت قلبه ونقته حتى أحسن استقبال ذلك الحديث . . وكان هذا قبيل التقاء الجمعين ، ذلك اليوم المشهود من جمادى الآخرة بساحة القتال إذ ذاك كانت طلائع الزبير لا تنى ترود له الطريق ثم تعود إليه بأنباء تحرك جيوش الإمام . وكم من رائد أتاه ، وكم من نبأ بلغه حتى بدت أجناد على قيد النظرة من البصرة فجاءه النبأ الذى حول تيار أفكاره إلى غير مجراه . . .

أقبل عليه أحد طلائعه يقص ما استقصاه ، ثم قال :

« . . . ثم لقيت عمار بن ياسر ، فقلت له . . . »

فما تركه يتم بقية الحديث ، بل صاح به كالمفزوع :

« ابن ياسر ؟ . . . إنه ليس فيهم ! . . . »

« بلى والله أيها الأمير » .

« والله ما جعله الله فيهم ! . . . »

واعجب أنت مع الشاهد الذى يكذبه غائب عن موطن مشاهداته ! . . .

وزد عجبا من الزبير وهو يمعن فى التكذيب والإنكار كلما أكد الرجل صدق نبئه . . . أما الرسول فقد امتلأ حيرة ودهشه من موقف أميره منه وهذا القلق الذى رآه يغشى وجهه لخبر كهذا من عرض الأخبار . وأما الزبير فلم يجد معه التوكيد ، ولم تزحزحه الأيمان ، بل مضى وإنكاره وإن كيانه ليهتز من فرط خوف خفى ملكه فصيره مثل ريشة فى مهب إعصار . . .

وكأنما شاء أخيرا أن يخرج مما أوقعه فيه ذلك الخبر المزعج المخوف فهم يقطع الشك باليقين . . وهتف ببعض أهله ، وصوته تعتريه رجفة تكاد أن تتناثر بها حروف الكلمات :

« اركب وانظر أحقاً ما يقول . . . »

ووقف فى غمرة من فزعة غامرة ينتظر فصل الخطاب . . .

ولكن الذى خشيه هو الذى كان . فما رأى مبعوثه يعود حتى سأله كالملهوف

« ما عندك ؟ . . »

« صدق الرجل »

فبغته الجواب . ونال منه أشد منال حتى صاح ، ثم هاض ، ثم تماسك جهده ومضى يفر فى زحمة الناس . . .

وكان جون بن قتادة واقفا ينظر ، لم يخف عنه شىء من القصة منذ بدأها الرائد ، فقال هامسا لنفسه وهو مشدوه :

« هذا الذى كنت أريد أن أموت معه أو أعيش معه ؟ . . ثكلتنى أمى ! والذى نفسى بيده ما أخذ هذا ما أرى إلا لشىء قد سمعه أو رآه من رسول الله . . . » .

ولقد سمع الزبير حقاً من رسول الله ما خلع فؤاده ، إذ ذكر ، ورده إلى الصواب . سمع بنبأ الفئة الباغية التى ستقتل ابن ياسر فأشفق أن يكون الأجل سوف يوافى فى هذه الملحمة نفس عمار . . وسمع أيضاً كلمات محمد عن قتاله عليا هو ظالم وهذا مظلوم ، فرضى من أمره بالفرار . . .

وكذلك تفتحت نفسه للحق ، وفعلت كلمة عابرة فعلها فيه . . . كلمة واحدة كان لها ما لومضة البرق الخاطف إذ تنير لمدلج بليل فيتبين على سناها معالم طريقة بعد طول تخبط فى الظلام . . . أفما آن أن يصغى طلحة لمثيلة لها ترده عن غيه وتفىء به إلى جماعة المسلمين فيتحقق الوفاق ؟ . . .

ليس هذا على الله ببعيد . فما أقرب المدى بين الهدى والضلالة ، وما أرقه فاصلا كأنه شعرة دقت كما يدق الصراط بين الجنة والنار ، تحدد المصير فيه خطوة إلى يمين أو أخرى إلى يسار ! . . .

الجمـــــل

١

جو ساج ، وليل داج ، قرت الريح فيه بعد ثورة ، وصمت ما كان من عزيفها الذى شابه عواء الذئاب وزئير الليوث الغضاب . . . الطبيعة الثكلى رقأت دمعها ولاذت بالسكون الحزين ، تكاد تكتم الشهقة والزفرة . وأسدلت على وجهها نقاباً كثيفاً من الظلام يخفى عن العيون الوجيب المكنون . . . والضوء الباهت الذى تخلف عن القمر الغارب كان كالطيف يلون جوانب السماء بخيوط شاحبة من نور كلا نور ، تنشر الظلال كأنها أعلام سبقت موكب الظلام . .

ولكنه هدوء مرسوم موهوم . بدت سماته فى الأراضى الوسنى ، ولاحت آياته على رقعة الأفق النعسان . إنه طلاء . أو هو الجلد الناعم المرقش اكتسته رقطاء . . أما الخبيء فنار حامية فى جوف بركان ، تتحين لحظة اندفاع للاندلاع . لا خباء فى العسكرين كان باطنه كظاهره يشيع فيه الهدوء ، بل كانت قشرة من السلام تغشيه وفيه حمم وضرام . . بل العيون المسلمة جفونها لهدأة النوم قد غمضت أيضاً على توجس . بل النفوس الحالمة بالدعة تجيئها فى أعقاب الفجر قد تنازعت فى أحنائها ملائكة السلم ومردة القتال ...

وكان الرجل من القوم إن خلا بنفسه ينفصل اثنين لهما كيانان : فى أحدهما قسوة المحارب ، وفى الآخر رقة المواطن الوديع . . وكانت الحيرة هى التى تشطره ، تارة مع الرجاء ، وتارة مع الطيرة . فإذا تقاسمه الهم الذى يحالف الحيران ، أسلم عينيه للنوم لو أنه استطاع ، أو هام خياله فى وادى حدس تملؤه أشباح من الرؤى والأوهام ، أو مال إلى رفيق يبادله فكرة بفكرة ، ونظرة بنظرة ، ثم تسلمهما معاً يد الوسن إلى الغامض المجهول الذى ستبزغ عليه شمس الصباح ..

لا أحد فيهم حاد به الليل عن التخمين إلى اليقين . كلهم كان من حيرته فى بحر لجى عجاج الأمواج لا يدرى على أى شاطئيه سيكون مرساه . . .

حق الإمام المفتون بالسلام كان موزعا بين القلق وبين الرجاء ، يود لو ترفقت به وبقومه رحمة الله فأنزلت السكينة عليهم أجمعين : أولياء وأعداء ... وحق طلحة اللائذ بحد الحسام ، السافر اللدد والخصام ، قد اشتبهت عليه النتائج ، أيصبح وفى يده سيف انسلخ من إهابه أو قر فى قرابه ؟ . . . آية الوفاق التى استجابت لها نفس رفيقه قد زعزعت إيمانه بشبوب نار القتال ، واحتدام الضرام ، تلبيه لدعوة الانتقام . . . بل الزبير أيضاً لم يكن من موقفه على بصيرة . استبان له الهدى فى المهادنة والتزام الجماعة والفىء إلى الطاعة ، ولكنه كان كالسائر على شوك من آراء أعوانه يعوق وصوله إلى مبتغاه الرشيد . . . وعندما حسب أنه سيجد نصيراً له فى أم المؤمنين كان مجاوزاً حدود الواقع الذى تنتهى عنده الثقة فى التفاؤل . فما أقرته السيدة على نظرته الجديدة التى هى توبة بعد حوبة ، بل ردته رداً زلزل فيه الفرحة بنشدان الحق ووجدانه وكادت أن تدفعه إلى جانب الباطل الذى أوشك أن يتحرر من إساره وما كاد . . .

أقبل الرجل عليها فى حياء ، يتخير من الكلام ما يحسن التعبير عن الراحة التى يحسها بعد إذ قابل وحادث الإمام ، فقال صافى النفس خفيف الضمير من وقر ما اجترح وأصاب :

« يا أم المؤمنين . . . إنى والله ما وقفت موقفا قط إلا عرفت أين أضع قدمى فيه إلا هذا الموقف ، فإنى لا أدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر ! . »

فإن هى إلا نظرة أرسلتها إليه حتى عرفت خبيئته ... لأمر ما توسل الرجل بهذا الحديث الناعم الذى يتبطن بالتوبة ! . . . ولغاية يكتمها كان يسوق كلماته لينة ، عسى أن يلقى منها ما يعينه على الكشف عما يخفيه ...

ولكنها لم تترفق به ، ولم تعل له فى الإفاضة بالاعتراف ، بل هتفت وئيدة اللفظ تقطع سبيل الكلام :

« يا أبا عبد الله ... أظنك فرقت سيوف ابن أبى طالب ! ... »

فصمت كالمبهوت . آده هذا الهجوم المفاجئ الذى شنته عليه ، وهذه السخرية المرة البادية من خلال كلماتها الرقيقة وبسمتها التى تفيض بالتهكم .

ولم ينبس بشيء ، بل وقف صامتاً وقد عاجلته سراعا بما جمد اعتذاره فوق شفتيه :

« . . . إنها والله سيوف حداد ، معدة للجلاد ، تحملها فتية أنجاد . . . ولئن فرقتها فقد فرقها رجال قبلك يا أبا عبد الله ! . . » .

غير أنه كان أمراً بعيداً عن الجبن والخشية ذلك الذى دفع الزبير إلى اختيار الموقف الجديد وإن لاقى من ابنة أبى بكر الزراية . فكم تنكر للحق الناس ، وكم استقبلوه بالعيون العشواء لا ترى فيه النور لأنها انطوت على ظلام وقتام !...

وندع الرجل وما أصبح فيه ، قلقاً قد لعبت بقلبه التوبة المطهرة وعبثت بنفسه الريب المحيرة ، يطوى ليله ساهر الجفن تذود الكرى عنه أفكاره ثم لايفقد الرجاء قط فى أن يأتيه الصبح القريب بما قد يضفى على ضميره الهدوء والطمأنينة . أولم يعلم أن المتمسك بالحق أثناء فتنة كمثل القابض على جمرات النار ؟ . . .

بلى قد علم فبقى على رأيه ما وسعه البقاء ، وكمثله كانت طائفة رأت الحق حيث كان فى جانب الإمام ولكنها لا تملك أن ترد نوازى الشر أن تعبث به وتقوض أركانه فأسلمت الأمر إلى يد القدر تنسج مصيره كما تشاء : سلما مجزية أو حرباً عادية باغية . . . وكان ثمة طائفة أخرى دانت بالباطل وانساقت له وهى موقنة أنها إنما تظاهر الصواب وتنضح جاهدة عنه ، تلك ساء ما تراه . . . أما الثالثة فأصحاب البهتان تلبسوا بالوزر والضلالة ، وضح أمامها النور اللألاء فآثرت اللياذ بالظلمة العمياء . وإنك لتسمع طرقا من أنبائها بعد حين ، عندما ينجاب الغبار عن حلبة القتال مخلفا على أديمها جرحى وشهداء . ولكنك قبل الوقعة المقبلة لن تسمع لها نأمة ولن يسرى إلى أذنيك منها صوت لأنها رجال ليل ، يعملون فى الخفاء مستترين بسجف الظلام وغفلة النيام ، رواق المساء مسبخهم كأنهم خفافيش ! . .

أولئك كانوا أعداء على وأعداء أعدائه على السواء . بل هم عدو الأمة والدين . الحفنة التى ليس لها من حياة إلا فى الفرقة ، بين مسيل الدم ومهوى الأشلاء .

غايتهم الذات يروون غلتها من أى سبيل . وهدفهم أشخاصهم التى استهوتها الدنيا يسعون إلى إشباع نهمها من الحظوظ والمـآرب ، وما كانوا قليلين حينذاك . . .

ما كانوا قليلين لو حسبنا كل ذى هوى فى إنشاب القتال كى ينال طعمة عاجلة ، أو يحقق مطمحاً قديماً عز عليه من قبل تحقيقه ، أو يسترد جاهاً فقده إذ دالت دولة عثمان فعلم أن لا مكان له فى دولة الإمام التى لا تعرف التحيز ولا تستهدف خير أفرادها إلا وهم كيان وثيق العرى ولا تراهم فرادى مفرقين . كل أولئك كانوا دعاة القتال والتفرق ، ود الواحد منهم لو استطاع أن يشب نار الحرب كما يشبها فى هشيم . وغيرهم أيضاً فرقة موتورة وأخرى واترة ، هذه شركت فى الثورة التى أودت بحياة الخليفة القتيل فخشيت إن كان صلح أن تقوم دعائمه على رقابهم التى سيحتزها القصاص ، وتلك وترها الإسلام إذ غزا قلوبها وأراضيها فأسلمت على ضغن ، وراحت تصانعه وتصانع سلطانه عسى أن تجيئها لحظة الثأر المرقوبة ، ذات يوم قريب ، فى ركاب فتنة كهذه يختلط فيها الهدى بالضلالة ، وتشتبه على الناس الدروب والطرائق ، ويغم عليهم اكتناه عقبى الأمور . . .

هنا يهمس التاريخ كرة أخرى باسم ابن السوداء ، يهودى اليمن الذى أبدى الإسلام واندس بين أهله ليفسد عليهم عقائدهم السمحاء ، ويفرق جمعهم شيعاً تسود فيها شريعة الخصام . وكما هى الحال المألوفة فى أمثاله من بنى جنسه وملته تحمل إلينا الصحف التى رددت ذكره أنباء ما طوى عليه صدره من عداوة للدين الناشئ وللأمة الفتية هى صورة مما طواه اليهود كلهم من قديم من الغل والضغينة لكل شعب عاشروه منذ وصم وجودهم على الدنيا جبين البشرية . . . فلم تكن الأمة الإسلامية وحدها مستقر بغضائهم بل جرى الحسد والحقد فى شرايينهم مع الدماء ينوشون بهما جميعاً الشعوب والأفراد . وعداوتهم الآن حلقة من سلسلة طويلة طول الدهر ، ممتدة مع الزمن حتى تطهر منهم الأرض . . .

فى تلك الليلة تحرك ركاب الشيطان ، وامتدت يده الشائكة تقلب مهد الفتنة وتكشف جمراته . وكيفما كان الدور الذى لعبه اليهودى الآثم فقد اندلعت النار وعلا لهيبها يصيب وجه السماء . انطلقت من قربها السيوف وتطايرت الأسهم

المريشة تروى الأرض الظامئة من سيل الدم . . . أما التاريخ فقد وقف وقفته يعرض موكب الحوادث ولا يعنى بأن يحدث الأجيال من أين كان مبدأ مسيره . إنه لا يشير إلى ابن سبأ إلا بإيماءة كأنه خالق الخطر الناشب ، أو كأنه بعض خالقيه ، أو كأنه خط من خطوط تكتمل به الصورة . فهاهنا لا تتفق الروايات المنقولة بل تختلف هونا حينا وتتباين أحيانا أشد التباين . تارة ترى الصحائف غفلا من اسم اليهودى الحاقد قد تطهرت من حروفه حتى لتحسب ذكره مضى فى قبر الغابر ، وأخرى تجده باديا من وراء السطور والكلمات . فإذا ركنت إلى التوفيق جهدك بين هذه الروايات المختلفة لم يستعص عليك أن تقر للرجل بنصيب من الفتنة القريبة لا ينكره عليه ما ألفناه من ماضيه الموسوم . . .

نعم قد أدلى ذلك الهدام بدلوه مع غيره من الدلاء حتى نشبت الحرب التى شاءت لو تجنبتها أحلام العاملين للسلام ، وكان ذلك وراء ستر كثيف من ظلمة المساء ، تلك الليلة الشاتية فى جمادى الآخرة قرب مسجد الحدان . عندئذ جرت خواطر اليهودى حتى ظن أن الوفاق سيلأم الفريقين من أصحاب على وأصحاب عائشة لأما يجمع الشمل ويرتق الفتق فلا ييسر عليه أن يكيد كيده للإسلام الذى قرح قلبه . فإن هو أن ظن ظنه وخشى خشيته حتى قام يؤلب ويحرض وينفث فى أسماع من أصغوا إليه سم الرقطاء .

تخير له فرقة ممن غلبت عليهم الوساوس ورأوا فيما سلف منهم خلال محنة عثمان شبهات قد تبدى أكفهم أمام الناس ملطخة بدم الشيخ المقتول . . أولئك الذين شركوا فى الثورة الدامية وآذن الصلح المرجو أن يجعلهم أكبش القصاص. أفيعسر عليه أن يجسم مخاوفهم حتى يثيروها حرباً طاحنة تقضى على الوفاق قبل أن يقضى عليهم الوفاق ؟ . . .

وكذلك أسروا الغدر والناس نيام . وما علم أمرؤ قط سوامم بما بيتوه ، ولا وضحت نياتهم الخفية حتى تحت صحوة الشمس والمعركة محتدمة الأوار ، ولكن التاريخ حدثنا عنهم وأبلغنا نبأهم بعد حين بعيد ، عندما سكن النقع وتوالت الأجيال تباعاً جيلا فى إثر جيل ، فلم يخل حديثه من قصد فى دقة الرواية وإسراف فى شطحة الخيال ! . .

٢

أغرق الرواة فى الخيال أيما إغراق عندما أضفوا على ابن سبأ روعة الأساطير!.. الرجل كان حقاً ذا كيد ، غارق النفس فى بغضائه ، يضمر للإسلام عداوة ليست تخفى تحت أثواب ورعه . ولكنا لا نستطيع أن نرى أصابعه وراء كل فتنة ، تنسجها خيوطا ثم تحيكها ملاءة من نار تلف الأرض والسماء ! . .

لنكاد أن نحمله فوق ما تقوى عليه طاقته لو أصغينا لكل ما سطر الرواة عنه . ولنوشك أن نلمحه مارداً جباراً يملأ الفضاء الرحيب بهيكله الضخم إن ألقينا العين على الصورة العجيبة التى تبدت لنا من بعض صحف التاريخ . أما الهدم فكان ديدنه ، يحاول أن يتولى به الكيان الإسلامى بغية نقض بنيانه . وأما الحقد فكان مركبه إلى غايته المتلبسة بإثم الآثام . غير أنه لم يكن بقادر على خلق الحوادث أو ابتكار المناسبات التى تؤلف لجة يسبح عليها شراعه . إنما كان يتربص بها ، وينتظر تدبير القدر أن يعينه ، فإذا وقع حادث نفخ فى رماده الملتهب حتى تستشرى النار . . .

كذلك كان دوره أيام عثمان ، وكذلك هو الآن ، ينتهز الثغرة التى ينفذ منها بتدبيره اللئيم . وهو إذ رأى بوادر الانقسام بين الأمة ، ودخان الحرب الأهلية يكاد ينبئ عن كارثة عامة ، لاحت على شفتيه بسمة شيطان ! . . فلما أن حسب الصلح سيؤلف بين جمعيها سارع يصوغ أحابيله . . .

ومن العبث أن نظنه وحده عدو الوفاق . بل كان فرداً بين طوائف وجماعات قادتها الأهواء العمياء إلى اختيار طريق التفرق . فلو قد خلصت النيات حينذاك وأجمع الشعب رأيه على الألفة ولأم الصدع لما كان وسعه أن يضار الوحدة المنشودة . ولذهب كيده حصاة فى محيط . . ولكن التاريخ ألبس الرجل غير طيلسانه حتى بدا من خلال السطور كأنه السبب الأول ، بل الأوحد ، لإنشاب القتال بين أحلاف الجمل وبين على وما كان غير عامل واحد بين كثير غيره من العوامل والمسببات . . .

وحين يعرض المرء سيرة اليهودى على ضوء الحوادث المتعاقبة منذ جأر بفتنته الدينية حتى وقعت الواقعة ، يكاد يجزم أنه لم يتبد فى الميدان سافراً صريحاً إنما شرك فى دواعى الفتنة الجديدة من خلف ستار ، متخفيا بالظلمات فى مسابح الخفافيش ! . . وهل كانت قصة الرجعة التى تأولها على التنزيل السماوى لا تعوق تقدمه ولا تحد شيئاً من اجترائه على الدنو من صفوف الإمام ؟ . .

بل قد كانت حرية بأن تقتضيه دماء روحه وخفقة أنفاسه فى هذه الحياة لو أنه أقدم غير هياب للانضواء تحت لواء ابن عم الرسول . وعندما نخاله غريراً واهى التبصر وقد سعى إلى اللحاق بمعسكر على والسير فى ركابه فإنما نحرمه مكره ونراه قد مشى مختارا إلى حتفه ووضع رأسه بين فكى الليث ! . . وليس الرجل بالساذج الغرير . وليس على بالذى يغفر له قط تأويله الأثيم ويشترى منه نصرته بما سلف من افترائه على الله . بل قد كان أولى بمن هو مثل الإمام الذى لا يساوى فى حق الناس ، ويعالج بالسيف تحيف بعضهم على بعض ، أن يعالج هذا اليهودى الصابىء على تنزيل السماء بنفس تلك الأداة . وما نحسب إلا أن صفحة من التاريخ كانت حرية بأن تبدو لنا اليوم ، دامية مروعة ، تنقل لنا نبأ ما أصاب ابن سبأ من عقاب رادع على يد الإمام جزاء وفاقا لافترائه على الله . . .

نعم كان هذا أدنى إلى الحدوث لو أن الرجل وقع بين أصابع على فى ذلك الحين ، ليكون أمثولة لسواه من أصحاب الرجس ، الداعين إلى الفتنة ، البائثين الخرافات فى ثنايا العقيدة ، ولكن بعده عن الإمام فى هذه الفترة أولا ، ثم فيما تبعها من الأيام بعد ذلك حتى نهاية عهد على قد جنبه — فيما نعتقد — جزاءه الرهيب . فإذا تركنا جانبا غلواء التاريخ إذ أرانا الرجل عاملا فى صفوف على ، منتصراً له عند البصرة قبيل الوقعة . فقد ييسر أن نراه خلف الصفوف ، متربصاً بالفريقين الدوائر حتى تحين فرصة يضرب فيها ضربته وهو قابع فى الظلال . . فما سوى الخفاء ميدانه ، وما الظلمات إلا مسارب خطاه .

غير أن هذا الافتراض نفسه حقيق بالتدبر لو أننا أخذنا بما بقى من رواية الرواة . فقد حدثنا التاريخ فى شطحته أن ابن سبأ استمال إليه رجالا ممن شرك

فى دم عثمان راح يحضهم على إنشاب القتال خلسة والناس نيام حتى يأمنوا أن ينال منهم القصاص الذى لا بد واقع بهم عندما يبرم الصلح ويتم الوفاق . ولسنا ننكر على اليهودى ترتيب مثل هـذا التدبير ، ولا البث ببضعة من العقول الواهنة التى تستجيب لنزغه ووسوسته ، فما هو إلا شيطان ، ولـكن قصة المؤامرة المبيتة فى الظلام تجاوز الحقيقة فى بعض سطورها وتتبدى لنا أسطورة نسجها الخيال ولفقتها الأغراض عندما نلقى العين على أسماء أبطالها المتآمرين فيطالعنا من بينها اسم الأشتر : مالك بن الحارث النخعى أخلص رجال الإمام . وهل يسع المرء إلا أن يجزم بأن هذا الاسم النبيل قد أقحم إقحاما فى هذه الرواية فى عصر لاحق بغية النيل من براءة صاحبه ، وإلقاء ظل من الشبهة عليه يوهن موقف على إذ يبديه ضالعا مع قتلة عثمان ؟ . .

إن التاريخ نفسه يجأر بأن اشتراك الأشـتر فى مؤامرة ابن سبأ كان أكذوبة ، ودليلنا على هذا سيرة النخعى وخلق على . فمـا شرك الأشتر قط فى اغتيال عثمان ولا علق به من دمه رشاش . وإنما كان رجلا ممن أساء الخليفة القتيل إلى مواطنهم ، فاستشعر إنـكاراً كان به يعبر عن الشعور العام الذى شمل بقية الأقطار ، وهب هبته كغيره من دعاة الإصلاح يبغى إفاءة العدل والطمأنينة على البلاد . ولم يكن أيضاً رجال خفاء ، يحسن تدبير المؤامرات ، بل كان شجاع القلب يجاهر برأيه ولا يكتمه وإن أضرت به الصراحة وتركته هدفا سهلا لنقمة الخليفة ورجال عهده الذى لاحق أصحاب الشكايات بالتشريد والعسف والنـكال . . . انظره كيف نقد تصرف عثمان وعاب سياسته فى كتاب إليه خاص حين كان غيره لا يجاوز بشـكواه دائرة الهمس والإسرار . . . كتب إلى عثمان إذ ذاك يقول :

« من مالك بن الحارث إلى الخليفة المبتلى الخاطئ ، الحائد عن سنة نبيه النابذ لحـكم القرآن وراء ظهره ! . . .

أما بعد : فقد قرأنا كتابك . فانه نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين نسمح لك بطاعتنا . . وزعمت أنا قد ظلمنا أنفسنا وذلك ظنك الذى

أرداك فأراك الجور عدلا والباطل حقا . . . وما محبتنا فأن تنزع وتتوب ، وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا . وتسييرك صلحاءنا ، وإخراجك إيانا من ديارنا ، وتوليتك الأحداث علينا . وأن تولى مصرنا عبد الله بن قيس أبا موسى الأشعرى وحذيفة ، فقد رضيناهما . واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك إليه الهوى من أهل بيتك إن شاء الله ، والسلام . . .

ولسنا نعرف أن امرأ يبطن غدراً ويبيت التآمر للخلاص من خصمه يسدى لهذا الخصم النصح الذى يرفع من قدره ، ويصلح أمره ، ويرده مرضيا عنه من كل الناس لو أنه احتذاه ، إنما الغريم الذى يتهيأ لتسديد الضربة القاضية هو من يكتم خطواته ويملى لغريمه فى الغى والفساد . وما كان الأشتر من هذه الشاكلة ، بل قد شاء لو صلح إمامه فصلحت الرعية بصلاحه ، وقام من لدنه يهديه إلى محجة الصواب .

فإذا استقصينا بعد هذا الأسباب التى أحنقت الأشتر على عثمان وأثارت فيه كوامن الخصومة ، رأيناها فى جماعها تكاد أن تكون مطلبا « إقليمياً » لا يعدو إبدال حاكم بحاكم وأمير بأمير يسوس أمور بلدته الكوفة خيراً مما ساسها سلفه المكروه . وعثمان فى نهاية الأمر قد استجاب لهذا المطلب ونصب أبا موسى بعد سعيد ، عاملا برأى ناصحه ، فلم تعد إذن ثمة حاجة بالاشتراك إلى الإقامة على خصومته دع عنك تبييت الغدر وتدبير المؤامرات . ولعل أبرز ما يظهرنا على صفاء ما بين الرجلين أن عثمان ، حين اشتبكت عليه الأمور وضاقت حلقة الحصار ، بعث إلى الأشتر يستنصحه ويطلب منه المشورة التى تكشف عنه البلاء وتفض جموع الثوار . . . قال له :

« يا أشتر ، ما يريد الناس منى ؟ . . . » .

فأجاب دون إخفاء :

« ثلاثا ليس من إحداهن بد » .

« ما هن ؟ . . » .

« يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول : هذا أمركم فاختاروا له من شئتم ، وبين أن تقص من نفسك ، فإن أبيت هاتين فإن القوم قاتلوك » .

« أما من إحداهن بد ؟ . . »

« ما من إحداهن بد » .

فلو كان استغشه لما استشاره ، ولو كان المشير يضمر الغدر ويرجو الإيقاع بالمستشير لخدعه عن شأن عدوه ، ولأخفى عنه حقيقة موقفهم منه . غير أن الأشتر كان نقيا أمينا يبتغى رضوان الله وصلاح الشعب والخليفة عندما قام يناهض عثمان . وكان كذلك جديراً بسيرته التى لم تتلبس بالشبه والمظنات ، وبالثقة التى أودعه على إياها فيما أقبل من الأيام لأن طبائع النفوس لم تكن لتستغلق على فراسة الإمام . . . وهل كان صفى محمد وأطيب الناس بعده خلالا وخلائق بالذى يستصفى غادرا وهو الذى قد وصف مالكا بعد انقضاء أجله فقال ؛ مجملا الوصف فى خير مقال :

« كان الأشتر لى كما كنت لرسول الله . . »

وكذلك يظهر أن ظلال الاتهام التى شاءت أن تلصقها بالرجل رواية الرواة لم تكن غير نسيج وهم متذائب ، أو عقل كلف بالافتراء وصياغة الأباطيل أراد أن ينتقص من قدر على خلال النخعى . . . وليس هذا على طبيعة الأمويين ببعيد .

وندع جانبا هذه الأسطورة الباغية التى ود ملفقوها أن تنال من قدر الأشتر ومن نقاوة صحيفته ثم نردد ما بقى لنا من سطور التاريخ التى لم تدمغها شطحة الخيال ولم تشبها الأهواء والأباطيل فكيف نرى الرجل إذ ذاك ؟ نراه رزينا لا ينطلق كغيره مع المغالاة وإن منهم لكثرة بالغة من أعداء الإمام كانوا بالأمس حربا مشبوبة اللظى على عثمان غدوا بعد مصرعه يدعون لأنفسهم ولاية دمه والقصاص له ! . . . وما نغالى إذ نقرر أن الأشتر قد أنكر اندفاع الثوار وركوبهم بالعنف خليفتهم حتى قتلوه . . . بل قد اعتزلهم ولم يدل فى فتنتهم بمنطق لسان دع اشتراكه بسيف وسنان . بل قد كره عدوانهم على الشيخ وإهراقهم

دماءه الحرام حتى ظن الناس أنه لن يفتر عن اللحاق عن دعوا بدعوة الثأر ...
قال علقمة ، وقد عجب إذ رآه لا يؤازر طلحة وأعوانه ، على خلاف ما كان يتوقع منه :

« قد كنت كارها لقتل عثمان ، فما أخرجك بالبصرة ؟ . . »

فأجاب معبرا عن طبعه الذى يأبى الغدر ويكره نقض العهود والمواثيق وهو يعنى ما كان من خلع طلحة والزبير طاعة الإمام من بعد ولاء :

« إن هؤلاء بايعوه ثم نكثوا ! . . . »

فلغير هذا العف الطاهر يساغ سوق الاتهام . وما كان مثله بالغرير الذى تستهويه بدعة أو تفتنه ضلالة وإن أزجيت إليه بلفظ معسول على ألف لسان ولسان تندلع بكلمات يهودى اليمن من شدق الشيطان ! . . .

٣

من أخرج الجمر من رماده ؟ . . من نافخ البوق للقتال ؟ . . من أشعل النار فى الهشيم ؟ . . .

سليل إسرائيل ؟ . أم رجل فى القوم سواه ؟ .. أم أفراد انطووا على مثل غدره وتبييته ؟ . ليس هذا بذى أثر ، ولا كان محولا تيار الصراع عن مجراه . ولو قد سكن الرجل لوقعت الواقعة ، وإن تأخر الزمن بها قليلا إلى ساعة من نهار ، بعد بضع ساعات . . .

أما الآن فداهمة الأمر دهمت الناس حين غفوة وهم رقود ما زالت تنادم الأكثرين منهم فى السكرى أحلام السلم . . . كان كل من فى العسكرين آمنا ، ظن هدأة الليل جنة وقته شرة القدر الغادر فأسلم مصيره إلى طلعة الصبح . غير أن الغسق أتى بالملمة ، . فلما بزغت الشمس بعد قليل على أرض البصرة ، كان شعاعها الدامى كأنه خيال الثرى المصبوغ !

وهب اليهودى سكنت نفسه تلك الليلة ونام عنه شيطانه ، أليس ثمة أنفس أخرى كانت تأكلها اللهفة على إثارة القتال ؟ . . بلى وكثير ! . . وعندما ننشرها للإحصاء قد يعيينا الحصر . وإذا وسعنا أن نستقصيها فلن نراها جميعها كذات ابن سبأ سوداء ضليلة . بل فى أصحابها أناسى على إيمان . أم ابن الزبير علكنا الشك فى حسن إسلامه ؟ . .

إنه لا ريب واحد ممن شغفهم القتال حتى ودوا لو أنهم تعجلوه . ولم يكن يخفى شغفه ، ولا احتجزه لنفسه دون أن يعدى به سواه . إنما قد راح حينذاك يبسطه كبسط البنود ، وعندما آثر أبوه أن يقعد عن الحرب ، ويفىء إلى الحق والطاعة ، ثار به حتى آذاه ...

قال له الزبير ، وكان حديث الامام قد ألان شكاسته وعطفه إلى التزام السلام :

« ... ما لى فى هذه الحرب بصيرة .. »

فصاح به عبد الله :

« إنك قد خرجت على بصيرة ، ولكنك رأيت رايات ابن أبى طالب ، وعرفت أن تحتها الموت فجبنت ! . »

« ويحك ! .. »

ولم يشفع له عند ابنه أن يعتذر بقسم أقسمه ألا يقاتل الإمام ، بل قال له الفتى العنيد المشغوف بالقتال :

« كفر عن يمينك بعتق غلامك . . . »

تلك صورة من صور تظهر لنا مشاعر طائفة من القوم ، كثيرة العديد ، لم يأبهوا للسلم ولا ارتضوه وإن لم يسيطر على قلوبهم ما يملك فؤاد ابن سبأ من الزيغ والإلحاد ، وإن لم يبطنوا مضرة للإسلام . فلو غاب اليهودى عن الميدان ولم يقدم خديعته فى أطواء الظلمة ، لقاموا عنه بإشعال الحرب فى واضحة النهار ..

ومع ذلك فالقطرة الأولى من الدماء المسفوحة لم تكن بنت الليل ، كم من راو أنبأتنا أخباره أن طلائع الصراع بدت مبكرة ، قبل أن يوغل الليل فى مسيره ،

وقبل تهيؤ مواكب الظلام لاستقبال باكورة الفجر . . . ثمة ضحايا لقوا مصارعهم تحت سرادق النور ولما يولد المساء — رجل ، ثم بضعة ، من صحب على ، أصابتهم الأسنة الغدارة وما التق الجمعان فى ساحة وغام .

ولكن الإمام تحاجز دونهم بصبره . سكت عن العادين وفى نفسه بقية من أمل أن تسترقهم سماحته فتتفتح قلوبهم للوفاق . قد كان يطمع أن يصغوا أخيرا لمنطق العقول الرشيدة والحكمة المنجية الهادية وإن لجوا بدءاً فى غيهم وسايروا هواهم إلى مداه . فعندما نزل البصرة أول نزوله قنت لربه مخلصا أن يهدى غاويهم ويؤلف عاصيهم على دماؤهم ألا تهراق . ولما اصطفوا أمامه ، جموعا فى سلاحهم شاكين ، قد باتت سورة الوغى فى مآقيهم ، دعا جنده أن يصابروهم ولا يبدأوهم بعدوان وطعان :

« . . . لا تقاتلوا القوم حق يبدأوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة . وكفكم عنهم حق يبدأوكم حجة أخرى » .

غير أن الذى تبطره الكثرة وتملكه السورة وتقوده الغدرة ليس يهديه رفق ولا تسامح . وكذلك كان أحلاف الجمل ذلك النهار أو كان سوادهم الكبير كثرة غادرة مهتاجة . فما هو أن بدت لعيونهم أجناد على ، عند الحافة الأخرى من خندقهم ، حق بدأوا العدوان .

وسقط امرؤ علوى أول ساقط فى الساحة ، وقد أصماه سهم خرق إلى صدره خباء الهواء . . . لم يكن آخر ضحية طل دمها وذهب مهدرا دون ثأر ذلك اليوم قبل إعلان بدء الوقعة ، فما هو الاعتداء من على هدوءه ولا أخرجه عن الترفق بالعدو المغتال . . . ولم يكن أيضا الضحية الوحيدة بل أتبعتها السهام العادية ضحايا تترى ، كأنما حسب أصحاب عائشة أنهم إذ يرمون أخصامهم يتلهون بصيد سانحات من الطير ! . . .

وغضبت لهذا التحدى طائفة من رجال على ، أقبلوا يحملون صاحبا لهم ممن دهتهم إحدى تلك الرميات وحملت إليهم المنون . فلما أصغى إليهم الإمام هتفوا به يقولون :

« يا أمير المؤمنين هذا أخونا قد قتل . . . »

ولبثوا ينتظرون أمره . أفطالعهم بغير ما ردده عليهم من قبل كلما حملوا ضحية منهم اقتنصتها سهام الخصوم ؟ بل قال كما اعتاد أن يقول :

« أعذروا إلى القوم » .

فلم يتسع حلمهم هذه المرة اتساع حلمه . وقال ابن أبي بكر له وقد أخرجه عن طوره ما قابل على به بغى القوم وتحديهم من هوادة لغير أهل ورفق نظير قتل :

« إلى متى ؟ . قد والله أعذرنا وأعذرت إن كنت تريد الإعذار . والله لتأذن لنا فى لقاء القوم أو لننصرفن ا . . . »

وكأنما أحس الفتى أنه جاوز حده فأردف وفى صوته رنة من الندم يشوبها أسى عميق :

« . . . يا أمير المؤمنين ، إلى متى نستهدف نحورنا للسلاح ، يقتلوننا رجلا رجلا ؟ . . . » .

فلعل هذا الحادث وأشباهه كان آفة الأمل الذى ظل يراود بضعة من النفوس فى أن ينتصر السلم . العدوان المتواتر من جانب عسكر الجمل فت فى عضد على ، وأثقل قلبه ، وطمس آية الوفاق التى تبدت فى آفاق أفكاره كنجم غائر فى جوف الظلمات . ولم يبق من رجاله أحد إلا أقام على خشية ، لا يستريب قط فى أن عدوه سيدهمه حين لحظة تحين . . .

ومع ذلك فجمعهم قر تلك الليلة . ولانت له المراقد فأسلم العيون للنوم إسلامه مصيره إلى الصباح القريب . ما حسبوا قط أن ليلهم خادعهم وحامل إليهم فى أطوائه الوغى المقتالة . . . وكيفما كان الدور الذى لعبه ابن سبأ فهو دور كان حقيقا أيضا به سواه من خصوم الإمام الذين تلبست نفوسهم بالنهم إلى الدم . فما يدرى امرؤ من أين أتت أول طعنة ، وأى صدر من الفريقين استقبلها والغلس ينشر ظلامه كثيفا على المضارب والأخبية التى ملأها الجنود . وعند ما نصغى قليلا إلى رواة التاريخ نسمع كيف وصفوا لنا اضطراب العسكرين فى عماية الظلمة

والسلاح يشق صدورهم ونواصيهم وفى حسبان كل فريق منهما أن عدوه قد بدأه بالعدوان . وبين ظن الظنون ورجم التخمين يتيه أول عاد ركب الناس بغدره فى مراقدهم ، وتضل الحقيقة حتى يعسر أن يهتدى المرء منها إلى رأى قاطع وحكم حاسم صريح . . .

فليكن إذن ابن سبأ مشعل النار ونافخ البوق للقتال . ليكن هو قبل سواه — لا دون سواه فكثير غيره إلى الفرقة ساع وإلى الدماء منهوم ! .
أما الواقعة فوقعت منذ انطلق أول سهم فى جوف الليل ، ضريراً يندفع عن غير بصيرة ولا إحكام تصويب حتى استقر بصدر أو نحر . . . وقعت ، ودهمت داهمتها الناس وهم رقود ، فاءوا إلى المضاجع فى أحضان حلمهم بالسلام ! . . .

واندلعت ألسنة الحرب . واختلط القوم من الفريقين شر اختلاط وأبغضه ، يضرب بعضهم وجوه بعض وما يدرى الرجل أيقتل رفقاءه أم يقتل أعداءه . فمن عجب أن تختار سهام الرماة ورماح الكماة أقرب أناس إلى قلوب أصحابها وأحبهم إليها . . . كانت تختار لها أهدافاً من الأهل والعشيرة . ذلك أن رجال على عندما نزلوا البصرة رأوا أن يعسكروا تجاه أبناء قبائلهم من جند عائشة ، فنزلت عن الكوفة إلى عن البصرة ومضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة وكلهم يظنون أن صلحهم قريب . . .

وانطلق على إلى الغمار وقد فجأته الضجة التى علت على غير توقع يهيب بالجموع التى ملكتها حمى القتال .

« أيها الناس ، كفوا . . . كفوا فلا شىء . . »

فكان صوته يغرق فى الضوضاء كما غاب هيكله عن العيون فى الظلمة الكثيفة ، لا يكاد امرؤ أن يراه أو يسمع دعواه . . .

ومال إلى رجل دان يسأله عما دهى الناس ، فأجاب :

« ما فجأنا إلا وقوم منهم بيتونا فرددناهم من حيث جاءوا ، فوجدنا القوم على رجل . . . »

عندئذ قال ونفسه تسيل أسى وموجدة على ما انتهت إليه حال رعاياه من تفرق وانتشار :

« لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة ، وأنهما لن يطاوعانا . . . »

فكأنما صبها بأحرفها فى فمى غريميه تنطلق كلاما عبر عمــــا ظناه ، سألا أصحابهما عن الداهمة ، فلما قالوا :

« طرقنا أهل الكوفة . . . »

أجابا وهما يسترجعان ، بنفس ما قاله فيهما الإمام :

« قد علمنا أن عليا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة ! . . »

وكذلك أخذت الريبة على كل فريق مسلكه إلى التفاهم والمصافاة مع الفريق الآخر ، وسدت دونه الطريق . . . فإذا الحكمة تتوارى ، وإذا العقل يهيض ، وإذا المنطق الرشيد يخلى المنبر ليخلفه السيف البتار ! . . .

٤

أتم على طوافه ثالثة بين رجاله ، ثم رفع المصحف أمام عيونهم فى عناء ونادى وما زالت بقلبه أمل أن تتدارك الناس رحمة الله :

« أيكم يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه . . . وهو مقتول ! »

فنهض له الفتى الكوفى الصغير — نفس ذلك الحدث الذى أجابه إلى دعوته مرتين من قبل وإن نفسه لتفيض حماساً ولهفــة ، وإن لمح عينيه ليتلهب من عزيمة وتصميم :

« أنا يا أمير المؤمنين » .

فأشاح برهة عنه . ود لو الغلام تأخر عن هذه المهمة لمن هــو أقوى منه وأشد ذيادا عن المنون بشبابه . . .

وقال الإمام وعينه ترقب الشاب :

« . . . فإن قطعت يمينه أخذه بيساره ، وإن قطعت يساره ، أخذه بأسنانه . . . »

فلم تختلج فى انعلام جارحة من خوف . بل زاده التلويح بالخطر الذى ينتظره تمسكا بعزمه .

ودفع على إليه أخيراً بالمصحف .

« اعرض هذا عليهم ، وقل هو بيننا وبينكم . . . والله فى دمائنا ودمائكم » .

فانطلق الفتى به فى الغمار مزهواً ، ينطق تطلق أساريره ، وتلك البسمة التى شاع نورها فى محياه بمقدار فرحه ، كأنه يسير إلى عروس مجلوة ساعة زفاف وإن قباءه الأبيض ليعلمه ويزيده رواء على روائه . . .

ووقف جند الكوفة فى صفوفهم يرقبونه تكاد قلوبهم أن تسير حوله وهو يشق لنفسه طريقا بين أسنة الأعداء . لو نجح إذن لاحتقن الدم ، ولو استجاب رجال الجمل لدعوته القدسية التى يتحدث بطهرها كتاب السماء لعاد الناس كلهم إخوة على صفاء : فما بال هؤلاء يتنكرون له ، ويبطرون بالنعمة التى تقدم يزجيها فى دعوته السمحة الرضية ؟ . . . قد أكلتهم شرة العداوة فانقلبت إنسانيتهم ضراوة ، واختفت فيهم طبيعة البشر خلف تنمر الوحوش وسكان الغاب . وإن أسنتهم لتلعب إذ ذاك دور المخلب والناب فتتعاور الغلام وتضرب فيه ، لا تكبحها حرمة المصحف المرفوع فى يمناه . ولا تردها عنه ما يرد العداة عن خصومهم إذ يسيرون نحوهم حاسرين ، بغير سلاح ، يعلنون وهم عزل غير شاكين ، أنهم فى أكناف الأمان . . .

تعاور أصحاب الجمل هذا الفتى الأعزل إلا من كتاب الله غير متلومين ، تقد منه أسنتهم الباغية وتفريه . ولكنه صبر أمام العدوان ، ومضى وما عزم عليه يناديهم إلى الكلمة السواء وإن خانته يمينه وتخلفت عنه فى مضيه شلوا مبتوراً رقد على الثرى وقد أغرقه الدم ! . . . فما زالت ثمة يسراه تستطيع حمل الرسالة المقدسة ، وما زالت قدماه تحملانه إلى حيث لعله يستطيع الأداء . . . وما زالت أيضا له أسنان تمسك بكتاب الله عند ما تأتيه ضربة أخرى عادية فترسل يده الثانية لقى على الأرض . . . أفلا يسعه أن يحتضن المصحف بين صدره ونحره ويجاهد طاقته ليسمع القوم دعوة السلام :

«كتاب الله بيننا وبينكم . . . الله الله فى دمائنا ودمائكم . . . » ؟ .

ولكنها صيحة لم يتح لها التردد إلى كثير . صمت عنها فى البدء الآذان ثم خرس عنها صاحبها الآن !.. المخلب والناب ووحشية الغاب قضت منها الوطر ، ورمت بالفتى الصغير ، أو ببقاياه ، ساكنا على الأديم قد راح قباؤه الناصع البياض مزقا حمراء ! . .

أثمة للصبر بقاء ؟ . . أفيه ذماء ؟ أم تفرى إهابه وتقطعت به عن الوجود أسبابه ؟ . . ود على لو قدم على مذبح السلم ضحايا أخر وقرابين تصل بينه وبين خصومه ، فتلين له عاصيهم ، وتؤلف عليه شاردهم ، وتمسك وحدة أمته أن تنهار . ولكن بوادر الصراع أيقظت الفتنة ، ورائحة الدم المسفوح انسابت من الخياشيم إلى الأوردة والشرايين تحرض الدم الحبيس على الفوران والتحرر . فى كلا العسكرين حميت نخوة القتال وبان فى العيون التنمر . وعندما رد الإمام طرفه عن الفتى الصريع ، الذى مزقته الأسنة ، إلى صحبه وأجناده طالعته منهم غضبة ليث جريح مزير . قتل صغاره ، وديس غاره .

ما لعلى بعد هذا سبيل إلى الإعذار ، إنه قد أعذر حتى ظن أنه خوار وصبر حتى حسبوا الصبر منه مجبنه . بل لعل عدوانهم على جنده ، وملاحقتهم رجاله — وإن كانوا كانين — يبغى السيف ونار الحتف لم يكن لولا حلمه الذى أطمعهم فيه وأملى لهم فى الطغيان . أما وقد كف وصابر حتى كاد أن يصبح عونا لعدوه على أوليائه ، فلم يعد له معدى عن ترك الحلم إلى الحزم والكف إلى السيف ؟ . . .

وهتف وما زال يلوح لعين خياله الفتى الحدث فى قبائه الناصع البياض كما تلوح بقية رؤيا رق عنها الوسن :

« حل قتالهم . الآن طاب الضراب ! . . . »

ودعا قواده فأقامهم على أماكنهم فى الميمنة والقلب والميسرة من جيشه . وكان كعب بن سور فى صفوف الجمل واقفا ينظر ، فما رأى تأهب الإمام حتى أخذته خشية أن تستعر الحرب بين الجمعين . . . إن هاتفا فى أعماقه يحذره ، ويكاد أن ينذره بشر قاصم سوف يلقاه فريقه غب الالتحام .

وانتقض الرجل فبرح المكان مسرعا صوب عائشة ليخبرها الخبر ، ويهيب بها أن تجهد وسعها لتكف عن أصحابها المصير المخوف الذى سيجنونه كفاء الطغيان :

« يا أم المؤمنين .. أدركى فقد أبى القوم إلا القتال ، لعل الله أن يصلح بك ... »

فبرزت من حيث سترتها الدار ، مضطربة واجفة ، فقد أعداها ما أحسه ابن سور وعاناه . . وجاءوا إليها بعسكر على الأثر ، ألبسوه الجلود وشدوا عليه هودجا درعوه بالحديد حتى بدا كأنه القلعة الحصينة . الله يعلم أى أمر طوته وهى تحت مطيتها الدارعة إلى الميدان ! . . ولكنها حين شارفت الساحة ، ورأت الجموع فى التقائها تمتد ثم تنحسر كالأمواج ، وسمعت السلاح يصطفق والسيوف تعتنق أخذتها رهبة غلبت ماكان من قبل فى نفسها من صرامة ، حتى همست أسيانة إذ التقطت سمعها تلك الجلبة المدوية من جانب جيشها الذى ملكه الهرج وشاع فيه الضجيج :

« أى الفريقين كانت منهم هذه الضجة فهم المهزومون ! . . »

ونأت بعينها رائية . . . ولوت جيدها نحو كعب بن سور تهيب به بلهجة فيها حدة الأمر وفيها رقة الضراعة :

« خل يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله فادعهم إليه . . . » . ودفعت إلى كفه بمصحف كما فعل على قبلها مع الفتى الكوفى صاحب القباء ولكن رسولها لقى مصرعا كمصرع سلفه . استنزف منه دم الحياة وما استجاب امرؤ إلى ندائه ...

عندئذ صاحت وقد أشفقت أن تأكل شرة الحرب الناس . . . عادت بها رهبة الموقف الضنك وشبح الموت الذى حلق على الرءوس إلى ما هو مألوف فى هذه الموطن من طباع النساء ، فراحت تصيح :

« . . . يا بنى البقية المبقية ! . . . الله الله ! . . اذكروا الله عز وجل والحساب . . . » .

فلم يلق أحد منهم بالا إلى دعوتها ، ولا بدوا كأن قد سمعوا صوتها الرفيع الجهير . بل مضت الوغى سبيلها فى سورة مجتاحة ، تأكل من عرض للظاها أو تأخذ منه . والساحة بعد هذا تغطيها رويداً رويداً الدماء ، ثم الأشلاء ، ثم

الهام بعد الأقدام .. ! فما ارتضى امرؤ توقفا عن الطعان ولا آثر التريث ، يستوى في هذا أولئك وهؤلاء .

ومع ذلك فثم قلة ودت لو أصغى الناس إلى دعوة السلم المرتفعة من بين القعقعة والصليل ، عسى الله أن يهدى إلى سبيله ويحقن دماء المحاربين . وإذا كان الغلام الكوفى قد لقى من أهل الجمل شر جزاء على خير دعاء ، فليس مصيره بمقعد سواه عن القيام مقامه والتنادى تناديه . . . وما هو رجل من صحب على من عبد القيس ، يزدلف خفيفاً نحو عائشة إلى أعوانها المضريين ، فيحدثهم هادئاً غير هياب :

« أيها الناس ، إنا ندعوكم إلى كتاب الله . . . »

فصاحوا به محنقين :

« وكيف يدعونا إلى كتاب الله من لا يقيم حدود الله ، ومن قتل كعب ابن سور داعى الله ! . . . »

ذكروا صاحبهم ونسوا صاحبه كأنما ليس لغير صريعهم حساب . . .

ثم وشت بهم نواظرهم بعد قليل ، فإذا لمح النقمة يتأجج فى مآقيها تأجج النار ، وإذا جمعهم يلتف بالداعى المتفرد يسد عليه منافذ النجاة ، ثم يرمونه بنبلهم كأنما عن قوس واحدة حتى غدا جسده ، من ما فرط رشق به من سهامهم كأنه جسد قنفذ غطته الأشواك . . .

وضاعت الحكمة فى حلبة النزال المجنون. وانقلب الناس كالوحوش لا يدينون بغير شريعة الغاب ، ولا يصغون لغير حديث السيوف والحراب .. وعندما أسفر النهار، وألقت الشمس وشاحا من ضيائها البراق على جوانب الكون ، كان النور يملأ الأرض ولكن الظلمة كانت تملأ العقول ! ... ولم يعد أحد يشهد إلى أكثر من مرمى عينيه ، فالبصر سليم والبصيرة كليلة ! . . وأخذ السلاح يلتمع ، إذ يتهاوى فى سرادق الضوء ، كالمرايا المصقولة . . .

٥

هذه صيحة الحرب راحت تزأر : « يا لثارات عثمان ! » فيها مثل قصف الرعود ، وعزيف الإعصار ، ودوى الانفجار المجلجل جاشت به فورة بركان...

من ناحية « عسكر » أقبلت مدوية ، رجفت لها الأرض والسماء . . في طيها غضبة وفي إثرها رهبة قد أطلقتها ألوف من الحناجر الصاخبة وألوف . بضع عشرات جمة ، في جرس واحد ثابت كأنما أرسلها لسان وشفتان ! . .

إنها نداء الدم .. شعار نقمة هوجاء رفعته النفوس الموتورة كرفع الكتيبة العلم .. دعوة للقصاص فطرية ، ترددت عن قلوب ملأتها إلى حوافيها شهوة الانتقام وآمنت أعمق إيمان وأقواه بشريعة الثأر كإيمان إنسان الكهوف والمغاور ! . .

وكان فيها رنة غير رنة النقمة الحبيسة تندفع من عقالها بعد طول احتباس اندفاع الينبوع الفوار . . . فيها أيضاً تنغم النشوة ينبئ بزهو غامر بعثه الشعور بالتفوق فتلك آية النصر بادية ، لاحت لهم بواكيرها ولما تأكل الحرب منهم سوى قليل .

حينما مد امرؤ من رجال « عسكر » عينه إلى أطراف الساحة التي عجت بالأسنة المشتبكة كر إليه بصره وفيه إشراقة التمعت بها بسمة الرضا والطمأنينة . الراحة في القلب والفرحة في العين ، والأمل المعسول كخفق الضياء يداعب النهى والخواطر . حتى عائشة بهودجها ازدهاها الظفر الظاهر ، وغدا أمامها حقيقة مجسمة ما كان من قبل حلماً طوف بها في هدأة التصور . فرغت الآن مما عراها من اضطراب ففاءت إليها نفسها بعد خشية ووقع قلبها الجزوع موقعه . وطلحة ابن عبيد الله . . أين منه اللحظة هدفه — ذلك الوهم القديم الجميل ؟ . . كاد هاهنا يلتقي حلمه المنشود بالواقع المشهود على أديم الميدان وفي غيمة النقع الثائر من حوافر الخيل وحركة المشاة ، لا يفتأ يبدو لعين خياله المقعد الأثير ، وسيف الحكم ، وطيلسان الخلافة تهم أن تتقدم بها نحوه النتيجة القريبة المرقوبة نصيباً حلالا له وحده بعد ما كان من نكول الزبير ! . .

النصر إذن لم يعد بارقة رجاء ولا نسج خيال ، وإنما أوشك أن تنقبض عليه كفاه . إنه ليراه مقتربا منه ، دائبا على الاقتراب ، يدنو إليه خطوة كلما دفع رجاله بجند على خطوة إلى الوراء . ولقد دنا حثيثا ، وقطع أشواطا جمة بدل الخطوات. وما دام نصره قرين هزيمة الإمام فإنه منـــه مستيقن لأن هزيمة خصمه غدت تدق عليه الأبواب ! .

ليس يخامره شك الآن فى عقبى الواقعة بعد أن شهد من مكانه بقلب جيشه كيف راح جنود الكوفة يركنون إلى الارتداد . ما كاد ينزو عليهم جناحاه حتى نكلوا عن الثبات . الضربة الأولى ألزمتهم التقهقر ، فعسى الضربة التالية أن تلزمهم الفرار ! . .

كذلك كان عامر القلب بثقته ، يغمر نفسه البشر والتفاؤل . فما كذبه حدسه فى قائديه ، ولا خابت فيهما فراسته . وساعة أن نصب أولهما . عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام على ميمنته ، وبعث الآخر : عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ليقود ميسرته ، كان موقنا أنه أصاب أوفق اختيار ، فأنعم بما قام به السميان ونعم ما أبلياه ! . . هما أن تصبح لهما الكلمة العليا فى الصراع الدائر فيبلغاه وطره من عدوه . ولولا أن ثبت قلب جيش الإمام كل هذا الثبات لانقض السامر ! . .

ومع ذلك فليس يكتم عن نفسه أن النصر الذى حازاه جاء خاطفا سريعا أكثر مما تخيله وهمه . كل من شهد الوقعة عجب كيف زالت هكذا ميمنة على وزالت ميسرته عن مواقعهما تحت هجمة الخصوم . وحق لمن شاء أن يعجب كما يشاء . فما كان جناحا الإمام من الوهن والتهافت بهذا القدر الذى يردهما القهقرى بعد أولى الضربات. لا وليست تعوز رجالهما الحنكة الحربية ، ولا البأس والصبر فى مواطن الجلاد . أفثمة يا ترى أسباب خفية فرضت عليهم التقهقر أو قهرتهم عليه ؟ . . أعن تدبير ؟ . . أم هى ضربة مفاجئة بدأهم بها جيش « عسكر » قبل أن يأخذوا أهبتهم لملاقاته بالقتال ؟ . . لعلهم أخذوا على غرة وإن اشتبهت حقيقة الأمر على الرواة . . أو لعل علياً هو الذى مكن لعدوه من هذا النصر الخاطف السريع ، فقد كان مسرفا غاية السرف فى الصبر والموادة

كما عهدناه ، متحرزا أشد التحرز وأبلغه من لقاء خصومه فى حرب إلا أن تعجزه أناته عن الضن باللقاء ، ولطالما صبر من قبل وأعذر فلا عليه لو أملى لهم هذه المرة كذلك لتكون له على طلحة وحزبه الحجة البالغة بأنهم أصحاب العدوان .

على أى حال قد كان هادئا تلك اللحظة بقلب جيشه الذى ثبت أمامهم ثبات الرواسخ ، تشهد عينه ولا يضطرب جنانه ، وإن وجدهم ينالون من رجاله ويضغطون مجنبتيه ضغطا شديدا حسبوا معه أنهم هازموه . الشك لم يراوده قط فى نتيجة المعركة ، وإن بدت للعيون مقدماتها لا تبشر بخير كأنه قد علم عاقبتها قبل أن تحين . . .

إنه هادئ الخاطر رخى البال ، لا تكاد المحنة الحازبة التى أصابت جناحيه على يدى قائدى غريمه أن تنال منه . بل قد بدا محسور الطرف عن أطراف الميدان وعما يدور فيه . . . ثمة هدوء سابغ ، كأنه الكلال أو سنة كرى ، جلل محياه المطمئن القسمات ، حتى ظن أدنى قومه منه أنه راح فى خفقة نعاس ! .

ولكنه رفع رأسه بعد قليل ، فى حركة بطيئة وئيدة ، ومال بأذنه يرهف سمعه إلى صيحة شقت نحوه غلالة الهواء من ناحية الهودج الدارع . إنها تختلط بصليل السلاح وصخب الأجناد ، حتى لا يصله منها سوى ضجيج مبهم تضطرب حروفه ويوشك أن يغيض فى غمار الضوضاء . . .

ويلتفت ، وقد أعياه تبين الصيحة ، إلى امرىء قريب منه يسأله فى هدوء :

« ما هذه الضجة ؟ . . »

« عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان »

فترسم على الأثر بشفتيه بسمة حزينة ، فيها رثاء وعطف ، وتلتمع بعينه نظرة تسيل رقة كأنها دمعة يسكبها وهو يذكر الشيخ ، ويقول بصوت عميق حروفه لأحاسيس قلبه أصداء :

« لعن الله قتلة عثمان . فى السهل والجبل . . »

ثم يفىء ثانية إلى الهدوء ورضا البال ، كأنه ليس بموطن حرب تتهاوى فيه الرءوس والجوارح ، وتتحدث الألسنة بمنطق الدم . .

عندئذ يقبل عليه ابن جهين ، والعجب يستبد به ، يحدثه وقد كادت ألفاظه أن يقطر منها اللوم ويفيض الإنكار :

« تالله ما رأيت كاليوم قط . . . إن بإزائنا لمائة ألف سيف ، وقد هزمت ميمنتك وهزمت ميسرتك ، وأنت تخفق نعاسا ! . . »

فرمقه على مليا فى سكون حتى ظن الرجل أنه لم يسمعه ، وهم أن يعيد عليه ثانية ما قال . . . فإن هى إلا لحظة ثم رآه لا عه يرفع وجهه ويديه نحو السماء ، رانياً بنظرة ابتهال وضراعة وهو ينطلق فى المناجاة :

« اللهم إنك تعلم أنى ما كتبت فى عثمان سواداً فى بياض ، وأن الزبير وطلحة ألبا وأجلبا على الناس . . . اللهم أنت أولانا بدم عثمان فخذه اليوم . . . »

وبأسرع من كرة الطرف نفض عنه هجعته أو ما بدا كأنه هدأة النعاس ! . جرت فى أوصاله حمية الشباب القديم دافقة فكأن بها ثورة إعصار . فلم يكن ثمة بقية لإمهال ولا تريث ، ولا معدى بعد عن مقابلة هجومهم بهجوم يرد عنه العوادى بعد أن شد ابن الحارث على ميمنة الكوفة شدة ألصقتها بالقلب حتى زوحم الإمام . . .

وهتف بين رجاله نفر يقول :

« الموت ليس منه فوت ، يدرك الهارب ولا يترك المقيم ! »

فكانت هذه مجاز جنده إلى الثبات . تدافعوا نحوه من كل صوب تدافع الفراش للضوء ، فإذا هم حلقة حوله كأنها السوار .

وأخذت الشمس فى مستقرها تسير ، وئيدة الحركة ، رويداً رويداً لتتوسط السماء ، ضاحية السنا كمين يقظى راحت ترقب الجموع المزدخرة بميدان الوقعة . كان الوقت يقترب بهم من الظهيرة ، والجو الملىء بالدفء يزيد الجسوم توتراً وحرارة ، حتى ليندفع المرء منهم إلى حتفه دون إرادة إلا بإملاء عصبه ، ويندفق بين ردائه وأعضائه ماء دافق سيال ، فلا يدرى أهو عرق الجهد أم دماء الجروح . ما كان فيهم امرؤ يستطيع أن يتحكم فى وعيه أو يدرك الشعور الذى يقوده إلى هنا أو هناك . فإن هو إلا مس يحرك المشاعر ما لهم عليه سلطان . . .

فلعله نشوة الصراع لعبت بعاطفتهم الفطرية لعب الحميا برأس المخمور ، وهل الناس إلا غريزة قديمة ، عريقة القدم إلى عصور الفطرة التي لم تعرف سطوة العقل ، ولم تدن له بطاعة ؟ .. جميعهم تحرر من ربقة إدراكه هذه اللحظة التي حجبت فيها الأسنة ما هذبته منهم العصور ورققته من طباعهم البدائية . فعاد الإنسان الأول ، الكامن فى أعماقهم ، إلى الظهور ...

بوحشية الغاب والكهف استمر القتال ، ذلك اليوم من جمادى الآخرة على أرض البصرة ، حتى لتشهد الميدان اكتسى بأناس اشتبكوا ، فلم تكن بين المرء وغريمه فرجة ينفذ منها الهواء . التصق الكتف بالكتف ، والصدر بالصدر ، والذراع بالذراع .. وكان بدء صراعهم بينهم بالنبل تتطاير عن أقواسها كرشاش الماء ذات يوم مطير ، ثم خلوا حديثهم بعدها للرماح والحراب . فلو كنت هناك لأعجزك أن تصل من صف أولئك إلى صف هؤلاء إلا أن تعبر جسراً من القنا الناشبة ! ...

فى هذه اللحظة الحازبة ، التى رخصت فيها الأرواح أيما رخص ، وهانت الأنفس على أصحابها كل هوان ، رأى على أن يشن على أعدائه هجومه المضاد .. ولم يكن هذا مما يسهل من فريق أوشك أن ينهزم جناحاه ، وضاقت عليه حلقة أخصامه ، حتى كادت أن تشل حركته . ومع ذلك فليس معدى للإمام عن القيام بكرة يسترد بها من الأرض موطئاً لقدميه ، ولا سبيل أمامه إلا أن يقتحم ذلك الجند المعادى الذى أحرز بالسبق إلى الهجوم مزايا جعلته كالبنيان المرصوص ...

وأخذ الراية فدفع بها إلى محمد ابنه ، وقال يأمره :

« تقدم » .

فأجال الفتى بصراً حائراً فى القوم حياله — فى هذا السد من الجند الذى يسد دونه الطريق . أثمة على الأديم فسحة لقدمه يمضى عليها بخطوه ؟

ثم أحس يد أبيه تدفعه من الوراء ، وسمع صوته المهيب الآمر كرة أخرى يصيح به :

« تقدم ، لا أم لك ! .. »

فأجاب وهو مضيع حيران :

« لا أجد متقدما إلا على سنان رمح . . . »

« أدركك عرق من أمك ! . . »

وخطف راية القتال منه . فإن هى إلا رجعة الطرف حتى رأى الناس عليا يحمل العلم بيسراه ، ويشهر ذا الفقار — سيف رسول الله — فى يمينه ويقتحم وحده جند الأعداء . . .

لقد كانت هذه لحظة فذة فى تاريخ الشجاعة ليس لها قط مثيل : أن يخوض امرؤ فرد جيشا برمته فيشقه ، كما يشق أديم التربة سكين المحراث ! . . ولكنه ابن أبى طالب، لا عجب فيما يأتيه وإن حارت العقول فى تفهمه وأعياها إدراكه ، وإن عز شبيهه عن طاقة غيره من المحاربين الأبطال . . . إن إقدامه هو الذى كان يفتح له فى صفوف عدوه المكتلة — المأثور عندهم من جرأة قلبه الفريدة قبل شفرة السيف ! . . فكأنه كان صاعقة فجأت الجموع المدلة بنصرها منذ قليل لم يكن إلى اجتنابها سبيل . وكأنه نازلة القدر الداهم بطشت بمن اعترضها ، لم تترك جلداً ثبت لسيلها المجتاح ، أو رعديدا نكل وآثر السلامة من خلال الفرار ! . . .

شق جيش العدو وحده ، وفتح ثغرة عميقة فى بنيانه المرصوص ، والرقاب تهاوى على حد حسامه ، والناس يسقطون صرعى بين يديه كأنهم أوراق الشجر وهو هبة قارسة من رياح الخريف ! ولولا أن نبا سيفه عن الطعان فانثنى فى يمينه لما كف ولا عاد . . .

والتف به بنوه وأجلة صحبه ، وفيهم الأشتر وعمار ، يهتفون :

« نحن نكفيك يا أمير المؤمنين . . . » .

فلم يجب ، وما رد إليهم بصره ، بل مسح بكمه قطرات العرق التى بللت محياه ، ومد يده إلى إناء دفع به إليه أحد رجاله ليطفئ غلة عطشه ببعض ما فيه . . .

وقال بعد أن حسا حسوة :

« . . إن عسلك هذا لطائفى . . . » .

« نعم . وعجبا منك والله يا أمير المؤمنين أن تعرف الطائش من غيره فى هذا اليوم وقد بلغت القلوب الحناجر ! . . » .

فابتسم وقال بهدوء :

« يا أبن أخى، إنه والله ما ملأ صدر عمك شىء قط ، ولا همه شىء ... » .

وأمسك سيفه المحق فأقامه بركبته ، وهب بجأة كالإعصار على عسكر أعدائه يغوص فى صفوفهم كما يشق سجف الظلمة السوداء شهاب ! . . .

٦

الآن حانت الظهيرة . رقت الشمس الضاحية محاور الرءوس ثم مضت قدما تتم رحلة النهار . . . قليلا قليلا راحت تزايل مستقرها العالى وتنحرف عنه إلى طريقها المذهب صوب المغرب البعيد فكأنها حينذاك كانت ميزان الوقعة المستعرة ، مالت فيه كفة فريق وشالت كفة الآخر بعد طول رجحان . . .

وخط القدر فى تلك اللحظة أو سطر من نتيجة الصراع المشبوب . بدأت عند ذاك نقطة التحول فشهد الجمل أولياءه فارين وقد كانوا سادة الموقف ومالكى مصيره منذ قليل . وأخذت البصرة تستقبل منهم فلولا مولية فى إثر فلول ! . . .

أما على فقد أينعت جرأته ، وأعرت هجمته الفذة ثم أتته على أعقابها بنصر مؤزر . . . وحين ألقى عينه على الميدان طالعته الفوضى تقود أخصامه ، فقد أعوزهم الآن التماس القواد ! . . غاب عنهم الزبير مؤثرا أن ينكل عن المعركة بجسمه كما نأى عنها قبل نشوبها بقلبه . . وغاب أيضا طلحة بن عبيد الله . مضى يلتمس لنفسه منتمجا نائيا عن مهاوى السهام والحراب عسى أن يجد هناك آسيا لجرحه فما كان أسرع نضوب أمانيه ! . . وما أشبه أمله الآن بجسمه الجريح ، راح ينزف حتى وشك أن يجف عوده ! . .

فلعل أعجب ما فى قصة هذا الحالم بالسيادة أن يتنكر له فى محنته ولى ويأسى له غريم . بل قد كانت نكبته هذه من نسج حليف له ... عدا القدر عليه فى ثوب صديق طالما أبدى له الولاء والطاعة ثم لم يمهله فى وقدة النزال إلا ريثما يجعله

أمثولة أمام الناس لمن آوى الحية الرقطاء بين ردنيه وهو يحسب أنها سوف تجزيه وفاء صرفا على حسناه ! . . . ولكنها الحرب تنضو عن النفوس الزيف وتهتك المظاهر ، ثم تبديها عارية بلا طلاء : معادن خبيثة أو جواهر نقية الصفاء ، تريك النبل لا تشينه الخصومة ولا تنال منه . . .

لقد كان الأمر انكفأ على طلحة بأسرع مما تخيله وهمه حتى عجب لجنده المظفر كيف حاقت بهم هزيمة مباغتة ولما يكد ينعم بنصره إلا لحظات . بدت له آية ظفره المنهار كأنها سراب خدعته فى البدء عنه ثقته فلما انكشفت عنه نشوة اعتداده رآها بلقعا بلا ظلال . فما بقيت لجنده عزمة تحملهم على الثبات ، إنما غدوا شراذم نهكتها الحرب فمضت تستبق سبيلها إلى الفرار . . . كلهم فتنته نفسه عن الواجب ، وشغله حب الحياة . أما طلحة فظل بثوب الجندى وطبعه ، لم تخنه شجاعته ، ولم يفقد جلده . فراح يتذرع بالصبر عسى أن يسعفه الوقت بما يعينه فى هذه النازلة فيستطيع المقاومة ثم يستطيع بعدها الثبات . وهل الحرب إلا تأرجح دائم بين نعمة النصر ونقمة الهزيمة ؟ . . وهل حركات الجنود المصطرعة فى ساحات القتال إلا كمثل الأمواج ، يلعب بها المد آونة فتفيض ؟ . . ويكبحها الجزر أخرى فتغيض . فكذلك محنته الآن ، لعلها تنحسر عن شاطئه . وما دامت الحلبة لم تخل من رجاله فإنه سيعتصم بالرجاء . . .

وأهاب الرجل بمن بقى من جنده أن يؤازروه ، وثبت جهده للحشود الدافقة من رجال الإمام . فلو التف به نفر يبايعونه على النصر أو الموت لكان هذا أجدى عليهم وعليه ، إن ظفروا فلهم العزة أو قضوا فموت الكرام . . .

على أن ثمة امرءاً فى صفوفه كان قد أيس النصر ، وقر فى عزمه أن الثبات الذى يبتغيه طلحة ليس إلا خفقة السراج قبل انطفائه ، فقد جفت الفتيلة وفرغ الزيت ! . . بدت الآن الدولة المنشودة حلماً بدده الصبح . وصاحبها الحالم سوف يحتويه الغبار . وأنصارها البناة قد انقض بناؤهم ولما يرتفع عن أساسه فهم الآن صريع وقتيل ، وهم غداً أسير وشريد . فما غاية الناس من قتال مآلهم من ورائه قتل أو ذل ؟ . .

بهذه النظرة استقبل مروان بن الحكم عناد طلحة ورغبته فى المقاومة والكفاح ماوسعه الرمى بسهم أو الطعن بسنان . وعلى ضوئها رنا أيضاً إلى أطماعه تلك التى منته بسطوة جديدة فى الدولة الجديدة تعيد له بعض جبروته فى دولة عثمان . الحلم الجميل انقلب كابوساً ، ثم أضحى حقيقة مفظعة أهون على نفسه منها صرعة الكوابيس ! . . . غربت منه آماله إلى غير مآب وأوشك أن يشهد لها بهذا الميدان قبراً يضمها رفاتاً محطمة ! . . لم ينل من السلطة وطره ، ولا من الواتر ثأره . . أفيدع يا ترى الحلبة هكذا فى غمرة الهاربين دون أن يفوز بهدف واحد مما جاء هاهنا يبتغيه ؟ . . .

الآن بطلت المواربة وفرغ الرياء . لم تعد به حاجة إلى التوارى خلف أعذار مصنوعة هو يعلم أنها مصنوعة من زيف خالص . . . فدونه إذن الثأر إن عداه الوطر فى رجائه المعسول وحلمه الجميل . ولن يعود إلا بعد فراغه من الانتقام . .

وسل الرجل من كنانته سهماً ركزه بقوسه ، ورمى بعين يلتهب لحظها صوب حليفه الكبير الكسير ، ثم أتبع النظرة الرمية فأصاب ! . .

عندئذ اشتفت نفسه وأحس الراحة تملأ قلبه . فلأول مرة فى حياته أرضى مروان ضميره إذ استجاب لصرخة طالما ترددت فى أعماقه فلم يلبها إلا الآن . . . وحين رأى السهم قد نشب بطلحة أحس أنه نال شقا من هدفه ، هو الثأر لعثمان . .

فيا ترى قد فاء إلى الحق إذ رمى فأعلن للدنيا أى امرئ كان قد قاتل الشيخ أو فى القليل من كان أول عون فى القضاء عليه ؟ . . أم علم الثعلب أنه لن يشم بعد يومه فائدة ترجى من وراء الضيغم المهيض ، فاستأسد وأصماه ؟ . . . إن وقت النفاق قد فات ، والحلف الذى كتبه الطمع بينه وبين طلحة لم يعد له الآن بقاء بعد هذه الهزيمة القاضية على المنى والأحلام ، وكذلك نزع الرياء عن ولائه الموقوت . .

وغامت عين القائد الجريح . فلعل بعض قطرات من عرق الجهد رانت على ناظريه ، أو لعلها دمعة سفحها وقد شهد كيف يكون تنكر الحليف للحليف . . . ولكنه مع ذلك لم يبرح أرضه ، ولم يحن ظهره أمام الأحداث التى راحت تنوشه

كأنها كلاب . . بل قوم الرجل من قامته ، وشد رأسه جليلا مهيباً كما يجدر بقائد يعرف لنفسه أنه العلم لجنوده ، ما يزالون يلتفون به ما بقى خفاق الديباجة . . . ثم كظم آلامه المبرحة وصاح :

« إلى ! . . إلى عباد الله ! . . الصبر . . الصبر ! . . »

ولكنها كانت صرخة فى فلاة . أو كأنها دعوة إلى النجاة ! . . إنه ليشهد قومه تأخذهم فزعة فلا يزيدون إلا انفضاضاً عنه ، وفراراً صوب البصرة إلى منتجع حسبوه يدخر لهم الأمن والسلامة . . . ولولا أن كبح من زمام مطيته الفزعة لخبت شوطها هى الأخرى مع الفلول المهزومة .

فما كان أمر عيشه تلك الآونة وما أقساه ! . . ود لو نزف الدماء الباقى من عمره مع دماء جرحه ولا يرى عاراً هو من الفشل عليه أشد . فكم غرته الأمانى كما غره الآن أولياؤه . وكم غلبه اليوم على شجاعته وهنه . ولو أسعفته كفه لصال سيفه ، وللقى مصرعا حريا بجلد الأبطال . . .

وإنه لنهب ضاع بين وجع جرحه وألم نفسه إذ مر القعقاع به فشهده يكاد أن ينوء ويتهاوى إلى الأديم لا يتماسك من ضعف ولا من هزيمة ، فرق له قلبه ، وأذاب النيل فيه حقد الغريم ، فأسنده فى عطف وقال :

« يا أبا محمد ، إنك لجريح ، وإنك عما تريد لعليل ، فادخل الأبيات . . »

فأرسلها إليه نظرة تفيض بشكره ، وهتف بخادمه بصوت واهن خفيض :

« يا غلام . . . أدخلنى ، وابغى مكانا . . . »

وكذلك غاب الرجل عن الميدان ، مخلفا على أدعه مع الأشلاء المتناثرة لجنده ، أشلاء الآمال المريضة ، والأحلام الحلوة التى طالما راودته من قبل فى اليقظة وفى المنام ! . . .

٧

أمسكت عائشة فى يديها الزمام . .

إنها لحظة حازبة ، تذهل المرء عن كيانه . ندرت فيها الرؤوس ، وهاصت النفوس ، وغدا المصير وقفا على الأقدام السباقة ! . . ولكنه كان سبقا إلى فرار ومنتجع هزيمة . كلما رمت السيدة بعين متلهفة من خلال ستر الهودج طالعتها النتيجة المريرة ، مقبلة عليها سريعة كسرعة خطا جيشها الهارب ! .

ولم يكن ثمة شىء يمسك على قومها عزمهم المنهار ، فلا قوة لهم معنوية تثبتهم وإن توفر لديهم العتاد . . وهل النزال إلا رباطة جأش وثبات جنان قبل ضربة سيف أو طعنة سنان ؟ . . إنما أصحابها غدوا قطيعا من الشياه الفزعة أعارها الخوف أجنحة تنأى بها عن الذئاب المنقضة . . . وفيما بدا قد فرغت قلوبهم من الشجاعة لأنها فرغت من إيمانها بالقضية التى قاموا يناضلون عنها . فلو كانوا ذوى مثل سامية لعز على قوى البشر أجمعين أن تزحزحهم شبرا واحدا عن مواطىء أقدامهم فى الميدان . . .

أما الآن فليس معدى من علاج حاسم سريع حسبما تقتضى الآزفة وقد ذهب الراعى فانتشر أمر القطيع الجزع أيما انتشار ، وتفرقت هاهنا وهناك فلوله فرادى وجماعات . . . ذهب الزبير ، وذهب طلحة على أثره ، وتركا وراءهما شراذم فى حاجة إلى من يرأب صدعها ويربط بين قواها المحلولة ، أفتتقدم السيدة فتمسك الزمام الذى أوشك أن يفلت أم توجه «عسكرا» وجهة البصرة وتفر هى الأخرى مع المندحرين ؟ . . .

لم تعرف الجبن وإن كانت امرأة طبعها أميل إلى حب العافية والسلامة . فبقلبها بقية من إيمان بأنها أقبلت لهدف محمود هو إقامة حد من الحدود — الاقتصاص بالدم لدم حرام مسفوح يكاد أن يضيع . وكانت أيضاً تستشعر الرغبة فى الانتقام لطلحة بن عبيد الله ، فما تدرى وقد ترك الوقعة أقضى أم سيمهله جرحه حتى مطلع النهار . . . أما صاحبها الآخر ، الزبير ، زوج أختها أسماء ، فمصيره

بكفة القدر ، لا تعلم أى أرض الآن وطأتها قدماه أو أضحت مثواه . فلو قضى تحت عينها إذن لبرأت شيئاً من هذا القلق البالغ عليه لأن الدنيا كلها — فيما تشعر — مفروشة أمامه بالمصارع ! . . .

وكان حقا ما حدثها به قلبها عن أبي عبد الله ، فما ألقت عليه مرة عينها بعد لحظتها تلك ، حين رأته يوشك أن يكون فريسة سهلة لرمح عمار . . . إذ ذاك شهدته وبقلبها وجيب ، وبحلقها غصة بمثها الهلع ، وبعينها دمعة حيرى يرسلها الخوف الطاغى ثم يهم أن يمسكها الرجاء الذى يراود النفوس ساعة النكبات المجتاحة . فقد مشى عمار يشق الصفوف ، وإنه لشيخ أوفى به عمره على آخر مرحلة من مراحل الحياة ، فما أقعده الكبر ولا أبطأت به شيخوخته عن خوض غمرة الموت . . . ثمة شيء — فيما يلوح لعينها الرقيبة — يسير خطا هذا المعمر الواهن الحمش الساق . شيء غير القوة ، وغير حمية الشباب ، وغير الدم الحار فى العروق والأوصال كان يركب به من المواطن ما ينكل عن ركوبه الشباب الأجلاد من العزائم المواضى والصلابة التى لا تلين وكان مندفعا خلال جندها كأنهم أغصان تقصف لضغطه وهو إعصار ، فإن هى إلا لحظة حتى رأته قد نفذ إلى الزبير فى مستقره فحازه برمحه المسدد ، وسد عنه كل منفذ فلا عاصم ولا نجاة . .

عندئذ أحست الوجيب ، وعانت الغصة ، وعالجت برهة ، دمعتها الحيرى بين محجر العين وسياج الأهداب .. . لاح الزبير شارد النظرة ، مضيعا ، على قسماته مشى اضطرابه كمشى البغتة فى ملامح فريسة احتوتها الشراك ... ولاح ابن ياسر فى غبرة لونه ، وبما اكتساه من فراء ، كثعلب ، ثوبه الإهاب ورمحه المخلب ! ..

فلأمر ما أعاد الوحش الظافر ظفره إلى إهابه وعف عن الفريسة المخذولة بنابه ... فى اللحظة التى حسبت العيون الرقيبة أن ستشهد الدم يخضب سن حربته خلفته الضراوة ، ولم يكن ثمة ما يحمله على رد رمحه عن غريمه فى هذه الآونة التى يملك الحماس فيها النفوس وتأخذ المحارب صرعة الوغى حتى تشغله عن كل حواسه .. ومع ذلك فقد نكس الشيخ أداته الظامئة للدم . عاطفة غامرة شملت كيانه فامتلأ لها قلبه رقة على عدوه المغلوب نقضت للمألوف من الوحشية فى شريعة الحروب ... هتف به الزبير فى هوادة كأنها ضراعة :

« أتقتلنى يا أبا اليقظان ؟ . . »

فسرعان ما انتفض عمار للنبرات المبتهلة الحزينة ، فذاب عنفه ، وفاضت بقلبه الرحمة ... إن يكن ظفره بهذا الغريم نصرا فإن المروءة عنده فوق النصر ..

وقال مجيباً وهو يدلى رمحه إلى جانبه ، فى لفظ هزته عبرة غلبت عينه المغضية من استحياء :

« لا ... يا أبا عبد الله ... » .

وكان هذا آخر عهد الزبير بالقتال . ركب فرسه ثم خلا منه الميدان كما خلا بعده من رفيقه ، وراح مصير كليهما فى غمار المجهول .

و تلفتت عائشة حولها من جزع وحيرة ... أهكذا تهن عزائم الرجال ؟ وهل من مهرب يا ترى من قضاء ؟ وأين ذهبت المروءات ؟ ... ما رأت جندها إلا رجلا مال عنها إلى يمين أو انحاز مسرعا إلى يسار ثم لا يجمع بينهما غير درب البصرة : مسلك الفرار . فكأنهم جميعا قد عميت أبصارهم عن الهودج القائم بينهم كالقلعة . شغلتهم عن المحنة المحيقة التى خلت البدن وأكلت الروع . ولكن المحن أحيانا تلهم ، وهذه زودت السيدة بما أجل هونا نكبة الهزيمة وأرجأ داهمتها حتى حين ... !

صرخت فيمن كانوا يعدون من حولها متلمسين النجاة . فإذا الخزى يوقف الأقدام الفارة ، ويشلها أن تمعن فى الهرب تاركة خلفها حبيبة الرسول للمصير المخوف ... آبت القلوب ، وقرت النفوس المذهوبة ، وعاودت الناس حمية بعثتها فيهم المروءة فإذا صرخة الحرب تنطلق ثانية من أفواههم ، مدوية الجرس فى نبراتها ابتهال مع الدعوة إلى القتال ...

وهتفت عائشة — وقد رأت الزمر المذعورة فاءت كرة أخرى إلى الثبات ، ملتفة بالهودج كأنها سياج — تدعو قائدى جناحى الجيش ، ابن عتاب وابن هشام ، أن قفا أمام السيل ...

وكان — أول من لباها مضر ، راحت تنضح عن الجمل ما وسعها الدفاع ، فقد مضت النبل ترشقه من كل مكان حتى غدا الهودج عليه كالقنفذ ، ثم تبعتهم

بقية المناصرين. ورويدا رويدا تكون القلب ، فما تكتلت فيه الجموع حتى انفصل بعضها يؤلف الميمنة والميسرة للجيش الوليد الذى تمخضت عنه المحنة ، وعاد القتال كبدئه مسعر الأوار ...

وكذلك أمهل فى عمر الوقعة . وإنك لتشهد الحماس يشيع فى الناس فتعجب كيف أوتيت صرخة امرأة قوة تستطيع أن تحيي موات الأنفس وتملأ القلوب رجفة وثورة . وما أسرع ما عادت صيحة الحرب على شفاههم إلى الحياة ، يزأرون بها ثانية ، كمثل صراخ القساورة فى بطن الغاب .. دوت من جديد « يالثارات عثمان » . فيها ضغينة الموتور وثورة الغاضب ، تتنقل بين الأفواه ثم تتجمع مع الأنفاس اللاهثة فى جو الساحة كأنها ملاءة كثيفة تحجب عن الآذان كل ما عداها من الهرج والضجيج ..

واندفعت عائشة فى حميتها المهتاجة فأخذت بكفها قبضة من حصى الأرض استقبلت بها رجال الأمام المتدفقين على حماتها تدفق السيل ، فحصبتم بها وهى تصيح: « شاهت الوجوه ! ... »

ولكنها لم تجد شيئا من قوة الهجوم وإن لهجت بدعوتها تلك مرات . بل بلغ التدفق على هودجها أشده . وتلاحمت حوله الرماح ، ثم تلاصقت الأبدان حتى غدت الحراب فى أكف أهلها مشلولة ، عز عليها الحراك . فلعل وقعة قبل هذا اليوم لم تكن قط كالجمل من فرط اشتباك الأسنة حتى لتستطيع أن تسير فوقها مواكب حاشدة من المطى والخيول ! ...

وندت من رجال الأمام صيحة لحربهم جديدة . مضى الآن عهدهم بالترفق وإثارة الذكريات فى النفوس المدخولة عسى أن تفىء بها الذكرى إلى طهرها القديم ... كانوا فى بدء المعركة يهتفون : « يا محمد » كأنهم يشهدون الرسول على أمر إخوة لهم فى الدين آثروا الانقسام بعد الوئام ، ولكن الاسم الطاهر لم ينق الأنفس ولم يغير القلوب . ومضى أصحاب الفرقة وشأنهم ، بعيداً فى مشاقتهم ، وإن ساروا شوطهم على أرض رشوها بالدم . ولم يعد من دواء لهم فى الوطاب إلا العنف يشفى ما ملأ عروقهم من العنت والضغينة ...

هتفوا الآن صائحين :

« يا منصور أمت ! ... »

وانطلقوا على أثرها ينحون الموت فرائس جديدة ! ...

وهتف بهم على وقد شهد التحامهم بالخصوم :

« السيوف يا أبناء المهاجرين ! . . »

فخلوا النبل والحربة وهزوا الحسام وهل غيره سلاح يستطيع الآن صيالا وقد التصق الغريم بالغريم ؟ . . إن السيف كان وحده أداة القتال فى هذه الآونة ، يصول ولا يكاد . ويهتز ثم لا ينال غير الأطراف ، من قدم أو ساق ، حتى لم ير قط معركة أكثر يداً مقطوعة أو رجلا بتراء . . .

ومع ذلك فقد نزع النصر وطال الصبر والناس على ما كانوا فيه من شدة التحام . كلما رميت بالعين فيهم أعياك أن ترى بينهم ثغرة عز منها النظرة ! . . بل غدوا سوراً ضخماً ، وطيد القوام حول « عسكر » كأنه بناء وثيق الجدر ، لبناته وأحجاره من أجسام ! . .

وظلت الرحى دائرة ، قطبها الجمل ، لا تكف لحظة عن الدوران ، ولا تنى تطحن العظم وتعصر الدم ، ما وقع بين شقيها فريق من أولئك أو غيره من هؤلاء فكلا الفريقين وليمة شهية ، تستطيبها الوغى المنهومة ! .

٨

لم يفتر القتال حتى أوشك النهار يزول . وكان الجمل العلم بين أصحابه ، التفت به الكتائب الدافعة . بل غدا لهم مثل الحجر الأسود داخل البيت العتيق ، له قداسة جمعت القلوب والخواطر ، وهفت نفوس كثيرة مفتونة ، أطافوا به إطافة الحجيج بالحرم ، واستشعروا نحوه بما يحسه الوثنى لصنمه . . وهذه الأزد لا تنضح عنه فحسب بالروح إنما فتنت له ، وراح منها رجال يفتون بعره ويرفعونه إلى آنافهم يشمونه فى نشوة من التقديس الضال وهم يلهجون :

« بعر جمل أمنا ، ريحه ريح المسك ! . . »

وكانت عائشة قد راودتها الآمال . كلما ألقت البصر أحست الأمن يقاربها شيئاً شيئاً ، والنصر يلوح لها ببارقاته . فما دام جيشها عرف الثبات من بعد فراره ، فثمة فى رحاب المنى بقية . . لقد غدا الدفاع عنها شرفاً تسابقت عليه القبائل ، واستهانت بالردى فى سبيله . بل كانت تستقبله بالرضا والابتسام ، مشرقة الوجوه كما استقبل المياه ظمآن .

لم ينكل رجل قط إذ ذاك عن موقفه ، ولا أخذته على حياته خشية . فما غدت الحياة عندهم غاية كما كانت ساعة الفرار . دماؤهم الآن فدية رخيصة للجمل الدارع ، وللهودج الحصين ، وللسيدة التى رفعت لهم عصا القيادة . وإنها لترى ما غمر قومها من حمية فتزيدهم بحديثها حماساً على حماس ، وتنطلق الكلمات من ثغرها الذى شده العزم ونحله صلابة ، تهيب بهم ، وتذمرهم إلى المقاومة كأنها تصور أمام عيونهم أبواب الجنة فيندفعون فى طرائق الموت سراعاً يبتغون الخلود . . .

التفتت يسرة ، وسألت حماتها هناك :

« من القوم ؟ . . . ؟ »

قال صبرة بن شيمان :

« بنوك الأزد يا أم المؤمنين » .

فردت تبث فيهم النخوة وتثير من أمجاد الماضى بأنفسهم مايشترون بمثله الموت سلمة ثمينة :

« يال غسان حافظوا اليوم على جلادكم الذى كنا نسمع به . . .

وجالد من غسان أهل حفاظها　　وهنب وأوس جالدت وشبيب »

ونظرت يمنة وسألت :

« من القوم ؟ »

« بكر بن وائل »

فهتفت فيهم .

« لكم يقول الشاعر :

وجاءوا إلينا فى الحديد كأنهم　　من العزة القعساء بكر بن وائل » .

فما كان لأحد فيهم يسمع هذا الحديث منها وأمثاله إلا استبسل وثبت ثباتا لا يتزحزح عنه أو يهلك ، ثم يتلوه آخر من قومه مكانه ، كأنهم جميعاً شلال ماء ليس يبطل اندفاقه . . . وما سمعها امرؤ من قوم أخر إلا سقط على أجله يتصيده لعلها مزجية حديثا إليه يرفع فى السير شأنه شأوا عاليآ وشأن أهله . كان سباقا إلى الموت لم تخل حلبته ، تدافع فيه الناس غيرا كأفراس سبق كريمة . .

عسكر كان محور الحومة . على خطامه تساقط الأبطال من أعوانه كأنهم فراشات جذبتها وضاءة اللهيب . ولكنهم ظلوا جهدهم يجالدون الهجوم الذى لم يفتر ولم تنحسر عنهم أمواجه . وما كانوا قط فريسة سهلة لجند الكوفة المهاجمين بل جاوزوهم دراكا الهام بالهام والحسام بالحسام ، كلما استقبلوا منهم فئة خروا وإياها عند قوائم الجمل صرعى كأنما كانوا جميعآ على موعد والحتوف قرب أخفافه ! .

فلعل الأرواح لم تعرض قط سلعة رخيصة كعرضها بهذه السوق !. . وكان اليوم قد صار أصيلا يصبغ الثرى بسيله ، حتى احمرت الأرض فلا يدرى أمن لون الشفق سكبته الشمس المائلة عند جانب السماء أم الأفق غدا صقال مرآة انعكست عليها حمرة الجروح . أما الأنفس فخالت غيرها منذ قليل ، إذا اقتحمت بخيالك الجسوم المكدودة إلى القلوب فيها سمعت خفقها الدائب يردد أكرم الأحاسيس . الآن شغلها النبل عن الذات . خلفتها الأثرة البغيضة وملأها الإيثار . أصحاب عائشة أبدلتهم المروءة غيرهم رجالا تثور فى عروقهم دماء النخوة أن رأوا أمامهم أنثى توشك أن تكون مرشقا للسهام ، وأعوان على زادتهم المقاومة صلابة فعادوا عزائم مشدودة كوتر القوس عند التصويب ، لا هدف لهم إلا أن يتبعوا التضحية بأخرى تشغل وعيهم عن نداء الحياة . .

وكانوا آية فى إنكار الذات والفناء فى شخص قائدهم العظيم . كانوا سفرا حافلا من الإيمان بحقه تقلب صفحة فتطالع بعدها صفحات أجل من سابقاتها وأزهر ، فاقت الإحصاء وجاوزت الحصر حتى هان بها المجد ورخص الفخر ! . .

من البدء كانوا أحرف الوفاء ! . . الهول الذى خاضوا غمراته لم يباعد قط ما بينهم وبين إخلاصهم للإمام ولا بثل خط اليراع . . . ! ولا شابت الوغى

المحتدمة حبهم إياه بشائبة من ريبة وإن عم الكرب أو فدح الخطب . ولكم همت الحرب أن تدع بيوتاً لهم خواء إلا من أنة أرمل ثكلى ودمعة صغير يتيم ومع ذلك فلم تستطع الانتقاص من رجولة الرجال ، إنما مضوا أشواطهم جميعاً — من شباب وشيب — على أرض الساحة يستبقون متنافسين إلى موت أعز عندهم من الحياة . .

استبق الجند يعصفون بمن حيالهم من حماة عسكر ، لا يردهم غير الهلاك وإن تشابكت حوله الأسنة ، وإن نافح عنه أقوام أشداء أجلاد بالعدد أو بالعتاد . ولقد وقفت مضر كالطود عزيزة النفر تنثر الموت لمن حدثته نفسه بالتقدم فلم تغن عنها عزتها ، بل انبرت لها طائفة قليلة فيها بنو صوحان يسدد خطاهم ولاؤهم للإمام ، ليس منهم رجل تمسكه خشية أو يرده وعيد . وحين سمع زيد من بين الناس صوتا محذراً يقول له :

« تنح إلى قومك يا ابن صوحان . مالك ولهذا الموقف ؟ . . ألست تعلم أن مضر بحيالك ، وأن الجمل بين يديك ، وأن الموت دونه ؟ . . » .

ابتسم على الأثر وقال :

« الموت خير من الحياة . الموت أريد ! . . » .

فكانت له على الفور طلبته . وسار سبيله إلى حتفه يتبعه أخوه سيحان ، ثم يوشك أخوهما صعصعة أن يرد نفس المورد لولا بقية من أجل حرمته أمنيته ...

وكذلك مضى المقاتلة من جند الكوفة يعصفون بأهليهم ورجال قبائلهم البصريين ، ويقصفون قصفا شديدا كل من وقف أمامهم بعقام صيال . وبقدر ما بلغت حمية أزد عائشة الذين قدسوا الجمل بلغ حماس الوغى بأزد على ذراه ، فتساقطوا على عسكر عسى أن ينالوه ، لا يعنيهم أن يقعوا تباعا صرعى بل يهمهم ويعلك بالهم أن تميل رايتهم . . . انبرى بها في البدء مخنف بن سليم يشق قلب الجموع فصاده حينه ، فتناولها منه الصقعب فقتل ، فالتقطها أخو مخنف عبد الله . وظلت هكذا رافة خفاقة ، كلما أوشكت أن تفلتها كف قائد صريع بادر آخر من بيته يرفعها ليخلف سلفه على مزالق الحمام ! ...

بمثل هذا تتابعت فرائس الموت ذلك النهار . وبأبلغ منه نالت الحتوف نيلها من بكر وعلها إذ ذاك فى أيدى الذهليين . . فلعل قادتهم أمعنوا إلى أبعد الأشواط فى التضحية والفداء ، واسترخاص الحياة ، لأننا نسمع أبا العرفاء الرقاشى يقول للحارث بن حسان الذهلى ، حامل الراية ، وهو مشفق عليه :

« أبق على نفسك وقومك يا ابن حسان . . . » .

فلا يأبه لتحذيره ونصحه ، ولا يلقى نظرة نحوه أولى بهـا موقع القتال ، بل يهز علمه ويصيح بقومه بصوته الجهير :

« يا معشر بكر بن وائل . إنه لم يكن أحد له من رسول الله مثل منزلة صاحبكم فانصروه . . . » .

ويندفع راضيا نحو حتفه ، ويسير على أثره ابن له ، ثم خمسة إخوة يسلكون نفس المصير . . .

وتشيع المقتلة توآ فى الذهليين فيسقط منهم خمسة وثلاثون تباعا فى فترة من الزمن قصيرة كلمحة الطرف . إنهم تهاووا كما تهاوت السنابل على منجل الحصاد . ولكنهم لاينثنون قط ولا ينكلون . وتمضى بقيتهم شوطها فى الحومة يتسامرون كمن فى ندوة . . يقول رجل منهم لأخيه وسيفه يقد الأعناق :

« يا أخى ، ما أحسن قتالنا إن كنا على حق »

فيعاجله الآخر وقد خشى أن يكون إيمان صاحبه مسته ريبة :

« فإنا والله على الحق . إن الناس أخذوا يمينا وشمالا وإنما تمسكنا بأهل بيت نبينا . . . » .

سفر حافل بآيات الإيمان بالهدف الذى قاموا يناضلون عنه ، ملأته صور من الوفاء والبطولة تجل عن الحصر ليهون معها المجد ويرخص الفخر ! .

٩

شاعت المقتلة فى أصحاب على شيوعاً عز مثله فى الوقائع والمعركة تسير سيرها إلى النهاية . وكان الموت إذ ذاك نقاداً يتخير الخاصة من القواد قبل الأجناد ، فهم على كتائبهم ، يشقون بها أمواج العدو كما يشق النيزك كسفة الظلمة . وما منهم إلا رجل قد وعى وصية إمامه التى أدلى بها إلى ابنه محمد حين دفع إليه براية الجيش وقال يبصره ويحضه على الثبات عند اقتحام الغمرات :

« تزول الجبال ولا تزل ! . . عض على ناجذك . أعر الله جمجمتك . تدفى الأرض قدمك . ارم ببصرك أقصى القوم ، وغض بصرك : واعلم أن النصر من عند الله سبحانه . . . »

ما من رجل فيهم إلا اعتنق هذه الوصاة شرعة أعز على التبديل والتأول فكلهم للإمام ولد يأسره البر وتملكه الطاعة . وليس منهم إلا راغب فى مصير يشارك به رافع اللواء وإن فدحتهم المصاير ، فحظهم جميعاً سواء . وعندما أمر على ابنه أن « أقدم بهذه الراية حتى تركزها فى عين الجمل » لم يكن يدفع به لغير فكى الموت ، ولم يكن أيضا قد تجرد من شفقة عليه بل كانت نفسه تسيل رقة وخشية على فتاه أن يتخطفه أجله . ولكنه كان يرنو لغاية أعز من عاطفته يرخص فى سبيلها الفداء بالمال والولد والروح .

على أنه كان يحتجز ولديه الآخرين عن اقتحام المهالك ، فذانكم سبطا رسول الله لو ذهبا لانقطع نسله العاطر وعطلت دوحته الزهراء من ثمارها الطيبة . . فكأنه استهدى سنة محمد فى أخريات أيامه عندما احتجز علياً عن القتال بعد مصرع أخيه جعفر حرصاً عليه أن تنقطع ذريته الطاهرة بموته . وهل بقى الآن لرسول الله غير سبطيه أحد ينقل نسله إلى الأجيال ؟ . .

قيل ذات يوم لمحمد بن على :

« لم يغرر بك أبوك فى الحرب ولا يغرر بالحسن والحسين ؟ . . »

فقال الفتى الذى عرف لأخويه قدراً عند ربه وعند النـاس يغبطهما ولا يحسدهما عليه :

« إنهما عيناه وأنا عينه ، فهو يدفع بيمينه عن عينيه . . . »

وكذلك كان يركب المهالك ويخوض غمرات الموت راضى القلب رخى البال يقوده الولاء والإيثار ، وتدفعه شجاعة تدفقت فى أوصاله من صلب أبيه . وعندما انبرى للجمل ليركز فى عينه الراية لم يقعده الهول عن التقدم ، ولم تؤخره الوقدة الحامية التى شبها رجال عائشة حول حصنهم الحى حتى غدت الأرض دونه قطعة من الجحيم . . . فكأنه إذ ذاك أعدى جنده بهذه البسالة التى تغلغلت فى كيانه فاندفعوا إلى الغمار مثل اندفاعه لا ينكصون كأنما قد مات الموت ! . . وأخذت الرحى الدائرة تطحن منهم القادة ، كابراً بعد كابر حتى قتل على علم على من اليمن وحدها عشرة ، وعلى راية ميسرته طائفة موفورة ممن تألفت منهم كتائبها المختلفة الأصول والبطون . ولو نزع المرء إلى الحصر لأعياه أن يلم بالمصارع . ولكنها كانت منجلا حصاده الرءوس من كلا طائفتى المقتتلين ، يسبق قادتهم إلى الحتوف تتبعهم من الجند ألوف تلى الألوف ! . . .

ونظر على وما زالت المعركة أمامه مصطفقة ، بين مد وجزر كأمواج اللجة فى مهب العواصف . . هذا سراج البصرة يضطرب ويتذاءب ، يلعب بذبالته تداول الصراع ، وها هى خفقاته تلتمع آنا وهاجة وآنا آخر خابية الضوء كأنها أشرفت على الخمود . ولكنها لا تكف عن بعث سناها ينير لأصحابها طريق الجلاد المرور . وما دامت البهيمة الدارعة باقية بينهم على قوائمها فلا نجاء إذن لهم ولا لخصمهم سواء بسواء ، ولا حياة لامرئ أو بقاء .

الإمام علم هذا قبل أن تشيع المقتلة فى الناس كل هذا الشيوع . وحال من البدء أن يكف غائلة الهلكة فهتف بأصحابه :

« من رجل يحمل على الجمل ؟ . . . » .

فانتدب له هند بن عمرو المرادى ، ولكنه لقى مصرعه بسيف فارس كان يحمى البهيمة ، ويمسك بخطامها معتزاً كما أمسك فى يديه بوثن معبود ! . . ولقى أيضا مصارعهم حفنة آخرون من خيرة العلويين ، منهم زيد وأخوه شيحان ، وعلباء بن الهيثم ، كلهم اخترمه سيف الفارس ، ونفذ إلى صميمه برجفة الموت . . .

عندئذ دعا الإمام إليه الأشتر ، وعمار بن ياسر ، فوجههما نفس الوجهة وهو يقول :

« اذهبا فاعقرا هذا الجمل ، فإن الحرب لا يخمد ضرامها ما دام حيا . . . إنهم قد اتخذوه قبلة . . . »

فانطلق الرجلان فى فتية من مراد . واستبق عمار سبيله فى ثوبه الفرو وقد شد خصره بحبل من ليف . . إنه ليسرع الخطا ما أمكنته التسعون التى قضاها بهذه الدنيا عازفا عن وجهها مستدبرا أطايبها وأمانيها المغرورة . حتى إذا شق له سيفه طريقا بين عدوه قطعه على الأشلاء والجماجم ، انبرى له نفس الفارس الرهيب الجناب ، يهم أن يستقبله ، كما استقبل الذين قبله ، بالحمام النهم على شفرة حسامه . . .

ذلك كان ابن يثربى ، سلف كعب بن سور على قضاء البصرة ، قد نشط وتيته ونفر عرنينه ! . . الشجاعة كانت لحنا يترنم به خفق قلبه ، والخيلاء جاءت صدى لنصره على تلك البضعة من أخصامه الذين راموا الجمل فدهتهم الردى من دونه . . . فلعله حين رأى الشيخ يدب نحوه حسبها خطوة لعمار نحو القبر فابتسم رثاء أو استهانة . وهل امثال كابن ياسر طاقة بعجندل المغاوير ؟ . . .

ولكن عمارا كان أبصر منه بالمغامز ، أعرف بالنفوس من أين ينفذ إليها العطب نفوذ الديدان فى الحمأة الرخوة . كان الشيخ واسع الحيلة كثعلب ، عرف من غريمه افتتانا بالفخر فنفذ إليه من خلال خيلائه . فما أن سمعه يرد مزهوا شعرا غنا يشيد بانتصاره على ضحاياه حتى هتف به عمار :

« إن كنت صادقا فاخرج من هذه الكتيبة ، فلقد لعمرى لذت بحريز وما إليك سبيل . . . »

فكبر على ابن يثربى تحدى الشيخ المعروق ، وخشى إن هو لم يسرع فيلحقه بمن أصاب أن يتكث عليه فخره . . فليردينه إذن ثم يعود إلى خطام الجمل يمسك به ، وإلى الهودج ومن فيه يحميه . . .

واندفع غاضبا نحو عمار ، وهز سيفه سريعا ثم انقض به انقضاض صاعقة . ولكن الشيخ الواهن الضعيف كان أسرع منه حركة وأكثر يقظة . قبل أن تنتبه العيون الرقيبة سبقت درقته اللحظ كما سبقت السيف الهاوى فتلقت الضربة .. وفرت من ابن يثربى فرصة للمباهاة ! . .

فما أسرع ما انتقلت البسمة من فم الفارس الساخر إلى شفتى ابن ياسر ! . . وما أضل عين الكبرياء الجريحة ! . . فى سورة من غضبه اندفع ابن يثربى يعالج السيف المنتشب بدرقة غريمه فكان كمن شاء اقتلاع دوحة بعيدة الجذور فى أغوار الأرض . عصاه السيف وتخبطه الاضطراب الذى أوقعه فيه حرج موقفه أيما تخبط . فقد غدا الآن أعزل لا يملك شيئا لنفسه ، حياته ملهاة فى يد العدو الهزيل . . .

وشهد الناس إذ ذاك مجندل المغاوير مسلوب الحول ، ذلك الذى شق خندقا من الموت حول عسكر هم أن يحتويه خندقه ، وأضحى الرثاء كله الذى أحسته الجموع نحو الشيخ الواهن منذ قليل يحوط البطل الصنديد . ولم يمهله حينه ، ولا ترفقت به النازلة التى أعدتها خيلاؤه لخصمه المجترئ عليه ، بل جاءته سراعا فى برقة من حسام عمار لمعت ثم هوت فأطاحت عنه ساقيه . وتركته لقى على الثرى قد انهار دفعة واحدة كما انقض بنيان . . .

فكم من صريع إذ ذاك رقد عند قوائم البهيمة ؟ وكم علما انتكس ونجما هوى من الأعلام والنجوم ! . . طائفة جمة من الوجوه والأكابر . وزمرة بالغة لقيت الحتوف وافرة وما فيهم إلا أماجد وفحول ، حتي لقد ثكلت قريش من أعيانها على خطامه سبعين . . إن عائشة لتنظر فلا تبصر ، فالدمع حجب عنها مضاجع الفواجع والأسى السابح فى جو آمالها سحابة من قتام اليأس وسواده ، ردتها توا من نعمة الحلم إلى نقمة الواقع . . .

وأخذ الزيت فى السراج ينضب . وبدأت الذبالة تجف وتخفق خفقتها الباقية المؤذنة بالانطفاء . . أين من الحومة الآن بنو ناجية ، أولئك الذين كانت تذمرهم السيدة فتقول : « سيوف أبطحية وسيوف قرشية ! » ؟ . وأين الأزد التى فتت البعر

تشمه فى نشوة غامرة من الولاء والتقديس الضال ؟.. وأين بكر الدارعة فى الزرد والحديد ذات العزة القعساء ؟ . . تخطفتهم جميعاً المصارع ، وخلت منهم ساحة القتال إلا أشلاء منثورة على أديمها تؤلف أدسم وليمة للنسور والعقبان ! . .

ومع ذلك فلم يبرح الرجاء قلب عائشة بعد نزول كل هذا البلاء . وما زال النصر يخطف بخيالها خطف البرق فى ليلة قر كثيفة الغيوم . فثمة بخيالها بنو ضبة ، الذين دعتهم « جمرة الجمرات » تحملهم أقدامهم وترتفع هامهم ، وإنهم ليدفعون عنها كدفع الليوث ، وينطلقون فى جلادهم خفافا كأنما راموا هزيمة الموت ! . .

ولكن السور الذى بناه أولئك الأبطال من جسومهم حول الهودج راح يرق مع اللحظات ، كلما حميت الحرب وزاد الكرب . . أخذت تنثغر فى كيانه المتين ثغرة هنا وثغرة هناك ، الموت أعتى عليهم عدواً من أن يستطيعوا جلاده ! . وبدأت أيضا ترق معه غلالة الأمل التى كانت تغشى خيال عائشة وتمسك قلبها الشجاع أن يذوق وخزة الهزيمة .

عندئذ همست ، وصوتها الخفيض الراعش تحبسه أن يجاوز سمعها ، وقد سرح همها على خديها فى دمعة :

« ما زلت أرجو النصر حتى خفتت أصوات بنى ضبة . . . »

وردت نفسها عن اليأس الطاغى ، جاهدة ، إلى حفنة منهم بقيت فى الحياة . نعم ما كان من بلاء قومهم من أجلها ، ومن وفائهم لها وفاء لم يأكله الموت وإن أكل كثرتهم ! . . إن قلبها المثقل بالأسى لا يستطيع أن يكن حزنا عليهم يكافىء ما أبدوه من شجاعة . وإن عينها لتطيف بمواقع أقدامهم فتراها خواء لولا شرذمة أخرى من الجند ملأتها وخالطت بقيتهم ، تهم جهدها أن تتلوهم فى مسارى الخلود . . .

وقالت عائشة تسأل عن الحماة الجدد :

« من أنتم ؟ »

« بنو عدى ، خالطنا إخواننا من ضبة . . . »

فزفرت من حسرة تقول :

« مازال رأس الجمل معتدلا حتى قتلت بنوضبة حولى . . . »

فكأنما لسعتهم من كلامها بنار ، سرت دماؤهم فى عروقهم شواظا فوقعوا تباعا على الموت يحاولون رد موكبه وسد السبيل دونه عن الهودج ومن فيه ، حتى أقاموا كرة أخرى رأس الجمل رافعة شماء . . .

ولكنها كانت الخفقة الباقية للسراج يلفظها ثم لا ينير . . .

وكما يسطع ضوء الذبالة أزهر وهاجا فى خفقته الأخيرة ، فكذلك أبدى رجال عائشة من ضروب الشجاعة والجرأة فى الدفاع عنها مالم يبده أحد منهم قط من قبل ، وما يعز مثله على طاقة البسالة .

١٠

هاض جيش عائشة .

لم يعد جيشاً بعد . لا ساقة ولا جناح . غدا كله قلبا ، بل شرذمة من القوم عند الجمل ، تنضح وسعها عنه فى اضطراب وزحام . يتنافس أفرادها فى مسك خطامه ، وفى رفع رأسه عاليا كما يرفع القائد اللواء . كلما سقط حام مجندلا تحت قوائمه زحف آخر ليمسك بعده الراية العجيبة ، ليتبعه إلى نفس مصيره . . .

ولم يعد لهم أيضاً قائد يوجه قواهم ويسدد خطاهم . كلهم غدا ذلك القائد ، يعمل عفو خاطره وحسبما تملى عليه حركة الصراع العنيف المشبوب . . . حتى ابن عتاب رضى مختاراً أن يترك عصا القيادة وآثر عليها الخطام ، بل آثر وهو مكره فلا مجال أمامه للاختيار وإنه ليظل حامل هذا اللواء حتى تأتيه ضربة سيف تفصل عنه يمينه ، ثم ترسله على أثرها حطاما بين الأشلاء . . .

وأضحت السيدة الآن لا تذمر الكتائب ، ولا تثير فى الناس حماس الحرب بالتحدث عن أمجاد قبيلهم وأهليهم ، فقد تفككت وحدتهم ، وباتوا فرادى بعد تكتل واجتماع . وراحت عينها تستهدف الزمام وحده ، كلما أمسكته يد سألت عن صاحبها ثم أثابته عن بلائه بلفظ مثير . . .

وسألت عن ممسك الخطام فقيل :

« محمد بن طلحة » .

فدعت له . واستلهمها الفتى ما تريد :

« مريني بأمرك يا أماه . . . » .

فقالت وقد أخذها الريب فى بقائه حيا إلى كثير :

« يا بنى . آمرك — إن تركت — أن تكون كخير بنى آدم . . . »

وكان هذا آخر ما سمعه فى الوقعة كلاما واضحا بغير إبهام . وكان آخر قوله أن صاح وهو يحمل على السيول الدافقة من جند عدوه :

« حم . . . لا ينصرون »

ثم إحتواه الرغام . . .

ثم أقبل امرؤ طوال نحيل ، أجرد الوجه لا يخف وجنتيه شعر ، أطلس اللون مثل ذئب الصحراء . فعندما أمسك زمام البهيمة لم يعلن نفسه كما كان يعلن سواه ، بل ختم على شفتيه بالصمت . . . قد كان يؤثر أن يجنب السيدة مغبة الإعلان . . .

ولكنها سألته . ثمة رجفة من القلق زحفت إلى صدرها ، لها مثل ملمس الرقطاء ، جعلتها تسأله فى اضطراب :

« من أنت ؟ . . »

« ابن أختك . . أنا عبد الله » .

فصاحت جزعة من خشية عليه :

« واثكل أسماء ! . . »

غير أنه لم يزايل مكانه ، ولم يتخذ لنفسه ملاذا بعيداً عن الموقف الذى كان شدقا للموت يزدرد كل من دنا إليه وإن جزعت خالته وودت مخلصة لو جاوزه وتركها وحدها لمصيرها كيفما يكون . . . بل وقف يذود ويصول . . .

فإن هى إلا لحظة حتى جاء الأشتر وقارب الوجار ؟ . . . إنه ليمشى إلى مربض الذئب الأطلس ، يروم صيداً يقصف به الجمل ، ويخضع صاحبته ، ويثكل أسماء !.

ولمحه من أعوان السيدة عبد الله بن حكيم بن حزام ، فأسرع يحول بينه وبين مبتغاه . لم يغب عنه قدر الأشتر ، ولا شك لحظة فى أنه جاءهم برسالة الهلاك . . . ولـكن ضربة واحدة قضت على المعترض وفتحت الطريق . . .

ووقف القرءان وجها لوجه تلتمع فى حدقهم نظرة الضراوة . فما تقابلت عيونهما حتى تقابل سيفاهما ، وما اختلفا ضربات إلا كان لجسم عبد الله بن الزبير منها أوفى نصيب ، كلما رمى غريمه بطعنة أصابته مقابلها بضع طعنات . . .

أما السيدة فى هودجها فلعلها ذاقت الممات مرة بكل ضربة أسالت من ابن الزبير ولو قطرة واحدة من الدماء ... فخصمه شديد عنيد ، بدا كأن قد آلى على نفسه ألا يدع ربيبها إلا جدثا هامداً فارقته الحياة . . .

وصاحت كرة أخرى من قلبها الـكسير :

« واثكل أسماء ! . . . »

وكان الأشتر حينذاك قد فل من حد مصاوله ، وأحاله كتلة صامتة من اللحم لا تنطق فيها إلا ألسن الجروح . . ومع ذلك فقد ترفق به وسمه ، ورد سيفه أن يجهز عليه . كم لقى المنتصر من هذا الـكبح الذى حرمه لذة الظفر كاملا غير منقوص ! . . . إن بقلبه هاتفا رحيما يمسك عليه عنفه — ذكرى من الماضى الغابر يوم كانت النفوس كلها تدين بالألفة وقد صفت من شوائب الضغائن . . .

ولم يجد الرجل متنفساً لضيقه الذى أحسه غب الـكتمان إلا أن يأخذ برجل خصمه المهيض فيقذف به فى الخندق كقذفك الصخرة وهو يقول :

« والله ، لولا قرابتك من رسول الله ما اجتمع منك عضو إلى آخر ! . . »

وتركه حيث رماه نهبا تقاسمه الموت والحياة . . .

كان على حينذاك قد أبطأ عليه الحسم . فالبعير ما زال قائما ، رافع الرأس كالعلم بين الـكتيبة ، وحماته نسوا الموت وإن لم تنسهم نوازله ... كلما مضت إليهم فئة من أخصامهم حكموا بينهم وبينها السيف حتى شاع القصف وذاع الحتف . وظل كلا الفريقين على عناده لا يتزحزح ، ولا يطأطىء رأسه للشدائد ...

أبطأ على الإمام الفصل حتى غدا بينا لديه أن الناس لن ينفضوا أو تسقط عائشة صريعة فى الغمار . وخشى عليها هذه المغبة الحزينة التى ستجلل حتما بالعار جهاده وتسم جلاده . . . ومتى كان يستبيح من الأقران المغاوير إلا الأكفاء دع النساء ! ... وأين له النصرة عند الأجيال لو صرع رجاله امرأة وإن أجلبت عليهم بالخيل والرجل وعدة القتال الرهيبة بعد إجلابها بالحقد والضغينة ؟ . . وكيف يستطيع إذن أن يحتفظ بوفائه لذكرى صفيه رسول الله لو حم الآن فى امرأته القضاء ؟ . .

عندئذ صرخ فى أعوانه ممن هم أدنى إلى البعير منه :

« اعقروا الجمل . فإنه إن عقر تفرقوا . . »

ثم انثنى إلى رجل من ضبة فأمره :

« دونك الجمل يا ابن دلجة ! . »

نخف الرجل لما انتدب له يشق زحمة الخلائق المشتبكة على مواطىء البهيمة وإن شعوره ليدفعه دفعا إلى القيام بهذه المهمة الحبيبة إلى نفسه عسى أن يبقى على ما فضل من بنى ضبة أهله الذين راحوا صرعى إلا قلة . .

غير أن الاشتباك أوشك أن يفسد عليه أمره ، فما يرى فرجة فى الناس ينفذ من خلالها إلى البعير ، ولو نفذ لما أمن أن تهتبله طعنة يضيع على ظبة سيفها أمله كما يضيع دمه ... فلعل القعقاع رأى من حيرته حينذاك علائم علت ملامحه ، فقال له يبسط رأيا يحقق أربه :

« يا بجير ابن دلجة ، صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين ... »

فلمعت على الأثر عيناه الآن تدرك الحيلة مالا يدرك البأس

وصاح من مكانه بقومه الضبيين حماة البعير :

« يال ضبة ! ... يا عمرو بن دلجة! »

فإذا صوت ابن عمه يأتيه :

« ما تريد يا بجير ؟ . . »

« ادع بى إليك . . »

فدعا به . حتى إذا بلغ مقربة منهم قال يستأمن :

« أنا آمن حتى أرجع ؟ . . »

« نعم . . . »

فما رنت بسمعه الكلمة حتى وثب وثبة شيطان جعلته من الدابة عند قوائمها. وقبل أن ينتبه أحد إلى ما يروم ، كان سيفه قد انسل ، ثم هوى فاجتث ساقها وأهوى بها تهدر من ألمها على الأديم .

حدث هذا ولما يطرف لحظ ، ولما ينقشع عن الجو صدى لفظة الأمان التى ألقاها ابن عمه إليه . ووجم الناس فقد أذهلتهم المفاجأة ، ولكنها وجمة مباركة، شلت حركة الحماة أن يعاودوا القتال . . . لقد ذهب العلم فهاض أمر الكتيبة ، تحطم الصنم الذى قدموا له كل هذه الضحايا والقرابين ! . .

وهتف على فى ذات اللحظة التى سقط فيها البعير :

« أيها الناس ، إنكم آمنون . . . »

فارتدوا إلى وعيهم حيارى ، ولكنهم منحوا الحياة . . . انطوت الآن محنة الحرب ، وبقيت محنة السلام ! . . .

بعد المعركة

١

هدأ النقع وهمدت النار . الجمرة التي تأورت فشبت جحيما عادت سيرتها الأولى سوداء باردة ، قد غلفها رماد الهزيمة ورماد الانتصار ... وفاءت النفوس بعض فيئها إلى الطمأنينة . والقلوب التي تملكتها من قبل سورة الوغى حتى التمست أمنها في المنايا ، غلبها الآن على مبتغاها الحياة فوجدت أمنها في السلام ...

وكانت كلمة الأمان قرب السيوف المسنونة . ما إن دوت حروفها في أرجاء الميدان حتى أسلم القتال علمه ، فترجل الفارس ، ووقف الراجل ، ورقدت فورة الحماس في ظلال السكينة ، ثم ألقوا جميعاً زمامهم إلى وجهة مذهلة ، لا يعرفون أيان تفضى بهم إلى مصيرهم الخفي المجهول...

ولكنه كان مصيرا لا يغشى الظلام دربه ، بل سطعت في مسراه بارقات الرجاء . إن قلوبهم لخبرتهم بخير وإن امتلأت إلى حوافيها بمرارة الهزيمة ، فذلك عهدهم بابن أبي طالب وما يعرفونه من خلقه الرفيع . إنه الخصم الشديد العنيف حين البأس ولكنه المترفق الشريف حين القدرة إذا ما ضاقت عن عفو غيره من الغالبين جعبة الغفران . وما كانوا في استمساكهم بالرجاء واهمين ، ولا أخطأوا تصور سماحته ، فها هو مناديه يجوب الصفوف رافعا صوته على ملأ من الناس :

« ... ألا لا يتبع مول ، ولا يجهز على جريح ، ولا يقتل مستأسر : ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن تحيز إلى عسكر الإمام فهو آمن ... »

فأعجب بالنصر كيف غير النفوس الظامئة إلى دمائه ودماء ناصريه أخرى تزاحمت على ابتغاء رضوانه ! .. ولكنهم الناس دائما في كل أرض وحين ، بطانة الغالب وخصم المغلوب ، والويل منهم لمن توطأت له المزالق . فإنك لتشهد ولما ينقشع عثير المعركة ، جموعا من أجناد البصرة أتوه صاغرين ، أحنت هامهم الطاعة ، يبسطون بالبيعة الأكف بعد بسطها بالسيف ! .. بل قد كان منهم فوج سارعوا إلى استرضائه والقتال مرفوعة بنوده ، بل لعلهم زمر إذ ذاك وأفواج ،

كتلك الطائفة من الأزد التى راحت تبث فى طريقه الحتوف ، فلما طحنتها المنايا سارعت تلوذ بالولاء له ... هتف أحدها حينذاك يهيجها وقد أخذته حمية الصراع :

« كروا .. كروا .. »

فاتبعوه ، ينزلون على عدوهم نزول الصواعق . فلولا أن لقيتهم من أصحاب على فئة تمرست بالشدائد . لقصفوها . ولكنهم قابلوا أطواداً رواسخ ليست تميد ، يقودها حيالهم محمد بن على فيزلزل فى قلوبهم ثقتهم كما زلزل تحتهم الأرض .

عندئذ صاح من بينهم من كان يؤثر الحياة :

« يا معشر الأزد .. فروا ! .. »

فما أغنى عنهم الفر بعد الكر ، ولا جنبهم المصارع . إنما آبت بهم الضربات القاصمة التي اعتورتهم إلى اللياذ بالمعتصم الأوحد الذى يرد عنهم الغوائل ، فإذا بهم يصرخون ضارعين :

« نحن على دين على بن أبى طالب ! .. »

وكذلك آب مثل أوبتهم ، غب الموقعة ، سواد جند البهيمة ، وفاءوا يبتغون رضوان الغالب . وإنهم ليزدحمون على التحير إلى عسكر الإمام وإلقاء السلاح ازدحاما أشاع فيهم جلبة دونها جلبة المعركة المحتدمة ، لحب البقاء عادهم ثانية . ثم استبقوا يريدون الإدلاء بالبيعة إلى الرجل الذى حاربوه أشهراً بالسيف والضغينة ، إلى قلة منهم تفرقت فى مشارف البصرة تعتصم بالفرار ...

ولم يكن على ليأبه إذ ذاك بالأكف الممدودة . ثمة ما هو أولى الآن باهتمامه وأحرى بأن يلقى باله إليه قبل غيره من الأمور . ثمة عسكر والهودج وساكنه أم المؤمنين ، لئن أغضى عنها جميعها حتى حين فقد يعن حدث يخلط عليه العواقب . إنه لا يأمن أن تهتبل بضعة من الغوغاء فى جنوده فرصة الاضطراب السائد فتنال السيدة بشر يعيذها منه ، فما زالت النفوس فى أغلبها تجيش بالرغبة فى الثأر منها إذ هى عند أعوانه أصل الكرب ونافخة الحرب .. وهو أيضاً لا يأمن أن تفتتن بضعة كبيرة من جند البصرة بتلك البهيمة المضلة ، كمثل الأزد التي قدستها ، لو خلى بينها وبين الحياة ولو خفقة نفس أو تردد زفير ، فما زالت فى أولئكم نفوس

ضعيفة ، تغلبها سذاجتها كما تغلبها جهالتها على تلويث عقيدة الفطرة التى لا تستجيب لزخارف الأباطيل . . لذلك ما كادت الموقعة تؤذنه بالنهاية بعد عقر الجمال ، حتى دعا على إليه محمد بن أبى بكر ، فوجهه إلى عائشة وهو يقول له :

« انظر هل وصل إليها شىء . . . »

وألحق به عمار بن ياسر ، فانطلقا سويا صوب الهودج فاحتملاه بعيداً وصاحبته فيه لم يصبها أذى ، بعد إذ قطعا بطان البعير ، ثم انتظرا ما يأمر به الإمام .

وكانت نجاة عائشة أول ما أفاء الهدوء على على وأعاد إلى قلبه الطمأنينة . فما يحمل بها قط ضغنا ، وإن نفسه لأصفى معدنا من أن تمتلج بها الأحقاد .

وألقى على الأثر قضاءه فى الدابة المضللة ولها إذ ذاك هدير يصم الآذان ، أمر بها أن تقتل ، ثم تحرق ، ثم يذرى رماد جثتها مع الريح فلا تبقى منها بقية تفتن البله وضعاف الإيمان ، وحين فرغ أصحابه من الجمل ، وغدا ترابا يذروه الهواء ، قال :

« لعنه الله من دابة ، فما أشبهه بعجل بنى اسرائيل ! »

ثم تلا وعينه تنتقل من جند البصرة إلى ذرات الرماد المتطاير فى الجو فوق الرءوس :

« . . . وانظر إلى الهك الذى ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا ! . . »

وكان المساء قد أخذ يضرب خباءه على الجموع ، ظافرهم ومخذولهم ، وقد جرت فى هوائه قرة الشتاء — ولكن علياً لم يلذ بأسوار البلدة التي مدت إليه أكفها بالترحيب . آثر أن يظل حيث هو بساحة الموقعة حتى يفرغ من الأسرى والسلاح والغنائم ، وحتي يفرغ الناس من دفن موتاهم واستنقاذ جرحاهم . وقد ظن بعض صحبه أنه لن يدع من عدوه أحداً حياً بعد أن أظفره بهم الله فجاء إليه من قال :

« ياأمير المؤمنين اقتل هؤلاء الأسرى . . . »

فأبى وأجاب :

« لا أقتل أسيرا من أهل القبلة إذا رجع ونزع . . . »

وجيء إليه على الأثر بموسى بن طلحة والناس يتساررون بينهم : « هذا أول قتيل » . . . فما حسبوا قط أن يلين ابن زعيم الناهضين إمرة الإمام وإن وقع عنقه تحت شفرة السيف . ولكن الفتى أقبل فبايع ولقي من علي رفقا أسكن بقلبه الطمأنينة . . .

ومع ذلك فلم يقتل الإمام امرأً من أخصامه أتت به إليه ذلته ، يستوى عنده من تاب وبايع ومن علم الآخير من ورائه وإن أبدى طاعة هي في حقيقتها بنت القهر ثم أخفى خصومة ناقعة كإخفاء الناب اللامع سم الثعبان ! . . بل هو اتسعت رحبة عفوه لأعتى خصومه عليه عداء وضغينة . وسنرى من آيات رفقه وحسناه جلائل رائعة في القريب .

وقضى وقته من بعد عيدان الوقعة ، يتفقد فيها أمور جنده وأسراه ، ويعنى بجرحاهم وجرحاه . . . وهو لا يني في كل لحظة تسنح له عن كبح غلواء أعوانه ، وما استجاش بقلوبهم على أعدائهم من زهو النصر . كان يروض وسعه كراهتهم لأولئك الخصوم لعلها تعود ثانية إخاء ومودة ، فخير شعبه الآن في الألفة ، ولا غناء في رأيه لأحد من الفريقين عن تصفية النفس من أدران الحقد وشوائب الحزازة . . .

إنه ليضرب المثل لهم بلغة يتحدث بها فعله قبل قوله . فما مر بقتيل من عدوه إلا ذكره بخير أو بكاه فأبكى حوله الناس . ولا صادفته جثة منهم تبين صاحبها إلا نشر من فضائل خصمه الصريع صفحة مطوية . . . توقف هنيهة عند أشلاء كعب بن سور فترحم عليه ثم قال لمن حضره من رجاله :

« . . زعم أنه لم يخرج إلينا إلا السفهاء ، وهذا الحبر قد ترون . . . »

ولما شهد جثة محمد بن طلحة بان الأسى على محياه ، وقال وهو يرد دمعة تغالبه :

« رحمك الله يا محمد ، لقد كنت في العبادة مجتهدا ، قواما آناء الليل ، صواماً في الحدور . . . » .

ثم التفت إلى أصحابه وقال وعينه لم ترتفع عن الصريع :

« هذا رجل قتله بر أبيه ! . »

وكذلك ظل يرثى قتلاهم ، وينشر من أمجادهم على الناس ما أباحه وقته القصير . بل قد صلى على الموتى منهم ومن أجناده على السواء . وأمر بقبر كبير أن يحفر ليحتوى الأطراف الكثيرة المقطوعة من الأيدى والأقدام . . .

وحين مر فى البصرة بتلك الخربة التى شهدت آخر لحظات طلحة بن عبيد الله على أديم الحياة ، ذكر من مشاهد الصداقة القديمة والصديق القديم ما أعادته الجثة الطريحة إلى ذاكرته ، فإذا عينه تبتدر ، وإذا دمعه يلتمع تحت ظلمة الليل . . . ووقف برهة خاشعا ، قد ختم حزنه على شفتيه بالسكون وإن تحدث بقلبه أساه فى خفق دائب متذائب .

وقال بعد قليل ينفس عن بعض ما يعانيه :

« أعزز على أبا محمد أن أراك معفرا تحت نجوم السماء ، وفى بطن هذا الوادى ! . . أبعد جهادك فى الله ، ودفعك عن رسول الله ؟ . . أما والله لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب . . . »

وملكته العبرة حتى لم يسمع سوى صوت أنفاسه ، لولا أن هتك امرؤ عليه هدأة الحزن يقول :

« يا أمير المؤمنين ، أشهد لقد مررت عليه بعد أن أصابه السهم وهو صريع فصاح بى : « من أنت » ؟ . . فقلت : « من أصحاب أمير المؤمنين » . . فقال لى : « امدد يدك لأبايع لأمير المؤمنين » فمددت إليه يدى فبايعنى لك ... »

فرفع على رأسه فى هدوء كأنما قد انجاب عنه إذ ذاك وقر ثقيل ، ثم قال :
« أبى الله أن يدخل طلحة الجنة إلا وبيعتى فى عنقه .. »

ثم مضى طريقه وإن قلبه من صفائه ليرجو المغفرة للعدو قبل الصديق . وإنه ليرد طرفه الذى غشاه الدمع عن جثث القتلى المتناثرة فى جنبات الميدان ، ثم يهمس فى ابتهال وعينه على السماء :

« إنى لأرجو ألا يكون أحد من هؤلاء نقى قلبه إلا أدخله الله الجنة .. »

٢

كان محقاً إذا خشى أن تنوش عائشة سفاهة السفهاء، فماله على النفوس المغلولة سلطان ، ولا تستطيع عينه أن تكون رقيبا على هذه الألوف المحتشدة من جنده الذين تغريهم نشوة النصر ، فتدفعهم إلى ركوب المحظور .

ولقد صدق إذ ذاك حدسه ووقع بعض المكروه وإن لم يتسع الوقت لتكرار وقوعه ، ولكنه على أى حال صورة كانت حقيقة بالتكرار إذ ذاك ، لها دلالة واضحة على ما علق ببعض النفوس من زراية بعائشة ، والتهاون بقدرها الجدير بالسمو عن الزراية والامتهان فقد أقبل غب الموقعة أعين بن ضبيعة المجاشعي فمد عينه تقتحم الهودج حتى اطلع على ما فيه فروعت السيدة جرأته المبغوضة، وصاحت به مستنكرة :

« إليك لعنك الله ! . »

فضحك اللئيم باستهانة وقال وهو يهز كتفيه :

« والله ما أرى إلا حميراء !

وتركها تستنزل عليه أقسى الدعاء ..

جنبها على هذه المشاهد المرذولة التي تضيف على قلبها بعد ذلة الهزيمة مرارة الهوان ، فأمر أخاها أن يضرب عليها قبـــة بعيدة عن مهاوى الأشلاء وشماتة المظفرين . وكان الفتى وابن ياسر قد استنقذاها من بين القتلى واحتملا هودجها فوضعاه حريزا فى خباء بعيد ، فلما خفت حولهم حركة الجنود أقبل فمد يده من خلل الستر معلنة عنه .

حينذاك أجفلت مروعة ، وهتفت به .

« من أنت ، ويلك ! »

فلم يزد محمد على أن قال :

« أبغض أهلك إليك ! »

فعرفته فى التو :

« ابن الخثعمية ... »

« نعم . أخوك البر »

« عقوق ! . »

ولوت وجهها عنه مغضبة .

على أن نفسه السيالة عليها بالرقة ، المليئة بالعطف والرثاء ، لم تطاوعه أن يلقاها بمثل غلظتها التى أثارتها فى قلبها مرارة الخذلان ، فقال لها فى ترفق :

« يا أخية . . هل أصابك شر ؟ »

فسايرت غضبها إلى مداه :

« ما أنت من ذاك . . »

« فمن إذن الضلال ؟ »

« بل الهداة ! . . »

وساد الصمت بينهما لحظة غالب فيها كلاهما خفق قلبه ، فلما أن خلفتها سورتها ، وآبت نفسها إلى عواطف الأخوة التى جهد غضبها أن يكتمها عنه ، ارتدت كرة أخرى أنثى ضعيفة ، تنازعتها عواطف الحنان والتراحم ، فهمست له فى صوت جاش بفرحتها أن شهدته أمامها يزدخر فيه ماء الحياة :

« بأبى أنت وأمى ! . . الحمد لله الذى عافاك ... »

ونسيت فى هذه اللحظة ما كان بينها وبينه من خلاف . نسيت الغضب والحرب والحزازة ، وأقبلت عليه نملأ ناظريها بمنظره . .

ووسعهما من بعد الحديث بفنونه ، وعا تشعب منه من عتاب وملام . أما هو فقد كفاه نصره الإمعان فى إثارة المواجد بنفسها المغلوبة ، وأما هى فقد جهدت طاقتها لتنأى بالكلام عن مغامز الألم التى ينكأها بقلبها الخوض فى محنة اليوم الناشئة عن أخطاء أمسها القريب ، حتى لقد ودت بعمرها لو لم يثر فيها الفتى الشجن حين قال :

« ... أما سمعت رسول الله يقول : على مع الحق والحق مع على ؟ ... »

بل قد علمت إن لم تكن سمعت لولا أن للزمن سطوة وللنفس كبوة . ولو قد خلى الآن بينها وبين عمرها فلعلها ترتد به إلى الوراء أعواما جمة ثم تغير من فعلها ما يجنبها اليوم مرارة الندم ووخزة الضمير ...

إن المرء لا يكون خالصاً لعاطفة بعينها تسيطر عليه ، وتوجه خطوه فى كل طريق ، بل هو دائماً نهب لقدر من العواطف ، فيها توافق وفيها تباين ، لا تنى تتجاذب نفسه وتلعب بخطاه . وما على غير هذا النحو كانت عائشة عندما عادت الإمام ، فهى صورة من النفس البشرية فى ميولها وفى استجاباتها للنزعات . طالعتنا بحقدها على على حقداً ألب عليه البنود والجنود ، ثم كشف لنا عن قلب جرى الندم فى عروقه جرى الدم ... ولم يكن ندمها إذ ذاك مستحدثا أبدعته الهزيمة ، إنما استشعرته ولما يبدأ بينها وبين خصمها الصراع ... ألست تراها عند بدء الوقعة تصيح وقد سمعت من جيشها اللجب ضجة وضوضاء :

« المنازعة فى الحرب خور ، والصياح فيها فشل ... وما برأيى خرجت مع هؤلاء ... »

فلعل إذن نزعة هاجتها وأخرى ردتها ! ... كبقية الأنفس البشرية لايسيطر عليها ميل فرد ، بل تكون دائماً نهبا تتقاسمه شتى الميول والنزعات ! .

وكذلك — فيما نحسب — بقيت السيدة حيرى ، لا تعرف على أى شاطئ ترسو سفينتها المضطربة بين نوء المشاعر . فلما أتتها الهزيمة بالاستقرار ، وفاء قلبها فيئا فلا تهزه الحمية ولا يفسده الحماس للصراع ، وجدت نفسها التائهة بين اصطخاب العواطف المختلفة التى كانت تتجاذبها فتضلها عن الصواب ...

نعم ذاقت الندم الآن حق ذوقه وطعمت صابه . وهل أبعث له من قدرها المهيض هذه الساعة فى أعين الناس وكانوا قبلها لا يكاد أحدهم يتناول اسمها على لسانه لفرط شعورهم نحوها بما يفوق الإكبار ويوشك أن يبلغ مرتبة التقديس؟.. الآن غدت ملهاة الألسن العيابة وأضحى شأنها مخاض زراية الحثالة وعرض الجمهور . ولقد هز هذا من اعتدادها حتى أوشكت نفسها أن تنهار إلا بقية من الندم أورثتها إياها المحنة ... زارها ، بعيد انتشالها وهودجها من بين القتلى بعد نهاية المعركة ، القعقاع بن عمرو مسلماً فقالت له :

« إنى رأيت رجلين بالأمس اجتلدا بين يدى وارتجزا ، فهل تعرف كوفيك منهما ؟ . . »

فأغضى الرجل يخفي تأثره ، وقال في خفوت :

« نعم ، ذاك الذى قال : أعق أم نعلم . . »

ثم أردف يهون عليها الأمر :

. . كذب والله . إنك لأبر أم نعلم ، ولكن . . لم تطاعى » .

ولكن تهوينه ومواساته لم يردا عن نفسها شعورها بالألم ولا وخزة الندم ، فقالت وهى تعالج دمعها أن يفيض :

« والله . لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ! » .

ثم راحت تتخيل من كرامة الموت ما كان أولى بأن يكفيها الآن ذلة الحياة . .

ولم يطل بها المقام بالقبة المضروبة لها على أرض الساحة . رأى الإمام أن ينزلها منزلا أكرم وأسهل ، فأمر بها أن تؤخذ إلى البصرة قبل أن يوغل المساء .

وغشى وجوه الناس تلك الليلة فسطاط عائشة ، مسلمين أو شامتين . وكان ابن ياسر ممن سعوا إليها ، مع الأشتر والنخعى ، فلما وقفا ببابها قال عمار :

« كيف رأيت ضرب بنيك اليوم يا أمه ؟ . »

فهاجها حديثه الذى قطرت منه سخريته ، وقالت له :

« من أنت ؟ . . »

« أنا ابنك البار عمار »

« لست لك بأم »

« بلى وإن كرهت ! » .

فصاحت به فى غضب مهتاج :

« فخرتم أن ظفرتم وأتيتم مثل ما نقمتم . . هيهات والله ! . . لن يظفر من كان هذا دأبه . . »

وسكتت ملياً تذود عن نفسها الحنق الذى تملكها . وسكت أيضا عمار ولكنها استشعرت حركة بباب الخباء آذنتها بامرىء غيره هناك معه ، فقالت تسأله بعد قليل :

« يا عمار ، من معك ؟ . . »

« الأشتر » .

فقالت وهى تعنى النخعى بالحديث :

« يا مالك ، أنت الذى صنعت بابن أختى ما صنعت ؟ »

فأجاب :

« نعم . ولولا قرابته من رسول الله ما اجتمع منه عضو إلى آخر ! »

عندئذ لعقت الجرح الذى أصابها من كلامه الصريح المرير ، وهتفت به تؤنبه :

« يا مالك ، أما علمت أن رسول الله قال : لا يحل دم مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير حق ؟ »

فلم تلجمه حجتها ، بل أجابها على الفور :

« على بعض هذه الثلاث قاتلناه يا أم المؤمنين ! »

ما كان أكرم الصمت لها ولهـذين الزاريين لو استطاعته وحملتهما عليه ! أما وقد عيراها فقد غلباها . إنها تشعر أن الوهدة التى انزلقت قدمها فيها كانت بتدبيرها هى ، ولو كانت أصغت من البـدء لأم سلمة ، ولقولة الحق فى منطقها حينما نصحتها أن تنأى عن الخروج وتقر فى بيتها مكنونة ، إذن لـكفت نفسها الشماتة وكفتها التعيير .

وسمعت من خارج الخباء صوتا يقول :

« يا أم المؤمنين . » :

فأصغت إليه . ثمة فى نبرانه شىء غير مرارة الشماتة ، هو أدنى إلى العتاب الرقيق :

« يا أم المؤمنين ، ما أبعد هذا المسير من العهد الذى عهد إليك . . »

حقاً ما أبعده مما كان أجمل بها وأجدر . . الآن تبلج لبصيرتها الحق الذى غم عليها من قبل . .

وقالت بصوت خفيض :

« أبو اليقظان ؟ »

« نعم » .

« والله إنك ما علمت قوال بالحق . . »

فنزلت الراحة على قلب عمار أن فاءت السيدة الطاهرة إلى الصواب وقال :
« الحمد لله الذى قضى لى على لسانك . . »

وكانت الظلمة إذ ذاك قد شملت جنبات المسكان ، والهدوء قر فى أنحائه فإذا الإمام يلم بموضع القبة عندما فرغ من بعض شواغله الجمة ، ويقف بالمضرب يستأذن ساكنته . . .

ولم يزد حين لقيها على أن قال :
« كيف أنت يا أمه ؟ . . »

فاختلجت لنبرة صوته الهادئة ، التى لم يبطنها شىء من صاب الغضب ولا زهو الانتصار ، وقالت تجيب :
« بخير » .
« يغفر الله لك . . . »
« ولك . . . »

٣

الآن قرت البصرة . وجد الأمن فى قلوبها مساكنه ، فأغلقت دورها على سلام . وآب الناس فيها إلى نفوسهم بعد طول اضطراب . ثم مسحوا أدمع المآسى التى أراقها القتال .

فى مشارفها رقد لهم أحباء ، تحت أعين النجوم الساهرة ، قد سبتهم المنايا النوازل ولم تخلف من حياتهم إلا أسطورة . وفى دروبها سارت جموع أحيائهم على أسى عميق كأودية ، شقه الحزن ومهدته الفجيعة . ولكن صرعاهم أحتوتهم المثاوى فسكنوا لهدأة غامرة ، الهدوء السابغ حيالها ضوضاء وضجيج . فللموت بيان بلا لسان تحت أطباق التربة ، وللصمت الحى ألسنة جمة تحت القبة . أليس للألم هواتف بأحناء القلوب الحزينة تملأ على أصحابها الدنيا نواحا وإن يتردد فى جنباتها صداه ؟ . .

ولكنه حزن أورث الراحة وقرت به أنفس قطان البلدة بعد طول قلق وحيرة . الآن بانت لهم طرائق الحياة مبسوطة ، لا يعوق راكبها خوف طالما سد

سبيله فى الليالى السوالف . مضى الغابر بما كان يبثه فيهم من خشية الترقب ورهبة انتظار الغد المجهول ، وامتد أمامهم حاضرهم صافياً شفافاً يرون من خلاله مستقبلا لا تحفه المخاوف . إنهم فى أبهج أحلامهم لم تطف بهم قط رؤيا أطلعتهم على مصيرهم رخيا بعد الهزيمة كما أطلعتهم عليه حقائق الحاضر . هم اليوم المغلوب حسب على سلاحه ، ولكن حياتهم وحياة الغالب تسير معا فى نفس المجرى لنفس المصير . الأخوة عادت ثانية تربط بين الفريقين ، وترتق مامزقته المعارك . وما من رجل ضمته البصرة أصبح آسياً على هزيمته أو أحس لها فى فؤاده مرارة . . .

فنعم ما أولاهم الإمام ! . . . إن أحدهم لم يحسب مطلقاً أن غريمهم بمثل هذه السماحة . خلال الأيام الطويلة التى سبقت الوقعة ، كان طالما يثيبهم على لجاجهم أناته ويعدهم حسنى ، ظنوها من بوارق الوعود ، حقيقة أن تنقلب عليهم نقمة مستطيرة إذا سالموه أو أظفره الله . . . أما الآن فقد كشفته لهم المحنة التى أصابتهم صديقاً رفيقاً ، سرعان ما نسى إساءتهم واتسع لتمردهم عفوه وغفرانه . . .

الناس لا تكف ألسنتهم تتحدث عن ضروب رفقه بهم ودفعه عنهم . إنه ليغالب من أجلهم جنده الذين كتبوا له النصر سطوراً من الدماء وأقاموا له صرحاً باذخا على أشلاء الألوف من الضحايا والشهداء . فلقد أطمع الفوز الجند حتى غدوا يرون العدو سلعة حق أن تكون فى المغانم ، وحدثوا إمامهم أن يبيحهم رقابهم وأموالهم وذراريهم وكل مالهم من متاع . . .

قالوا له :

« اقسم بيننا أهل البصرة نتخذهم رقيقا ! . . . »

فعجب للجشع كيف ينسيهم رفق الإسلام . لو لم يبين لهم قبل الوقعة سيرته فى العدو ، فى كلا النصر والهزيمة ، لكان لهم بعض العذر . ولكنه كان أوضح لهم ناموسه ولما يشتبك سنان ، ولما يلتحم صف من رجاله بصف من أعوان عائشة الذين تجيشوا لحربه . . .

قال لهم حينذاك ، وهو بعد على حدود البصرة ، فى خطاب له طويل :

« . . وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبراً ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا

بقتيل . وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا أستره ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً . . . ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف العقول والأنفس ، ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات . . . »

بهذا الدستور القويم طالع رجاله والمعركة لم تزل غيباً فى الغيب . وإنه لقضاء الدين ، وشرعة الفروسية ، وسنة مكارم الأخلاق . ومع ذلك فإنهم الآن أغضوا عن بيانه عين الأذهان . . . فيما يبدو قد أبطرهم النصر ، أو بهظهم عنه فغالوا اليوم فى تقويمه وتثمينه أيما مغالاة حتى لا يرضون دون امتلاك عدوهم المغلوب امتلاك السلعة أو رقاب الإماء والعبيد . . .

وأبى عليهم الإمام ما أرادوه :

« لا . فالقوم أمثالكم ! »

فأنكروا منه رأيه وصاحوا به :

« فكيف تحل لنا دماءهم وتحرم علينا سبيهم ؟ . . »

« كيف تحل لكم ذرية ضعيفة فى دار هجرة وإسلام ؟ . . »

ثم راح ثانية يبصرهم ، ويرسم لهم الحدود والمحارم :

« أما ما أجلب به القوم عليكم فى معسكرهم فهو لكم مغنم . وأما ما وارت الدور وأغلقت عليه الأبواب فهو لأهله . . . وما كان لهم من مال فى أهليهم فهو ميراث على فرائض الله ، لا نصيب لكم فى شىء منه . . »

عندئذ أغضب حكمه طائفة من الغلاة غدوا من أبعد نواة الخوارج الذين تربصوا له الدوائر بالسيف واللسان . ومضوا يهيجون من امتثل ويكثرون عليه باللجاج والعنت حتى ضاق بتفكيرهم وسئمتهم نفسه . فلما رآهم لا يردعهم شىء عن مجادلته ، أبدى الرضا لهم وهو يضمر درساً سوف يردهم عن جشعهم الفاحش البغيض . .

قال لهم فى هدوء :

« اقترعوا . . هاتوا سهامكم . . . »

فعملوا فرحين وهم يعنون النفس بالمغنم الجزيل . وإذا به يسألهم بغتة :

« فأيكم يأخذ أمه في سهمه ؟ . . أقرعوا على عائشة لأدفعها إلى من تصيبه القرعة ! . . »

فبهت القوم وصاح سوادهم يعلنون التوبة :

« نستغفر الله يا أمير المؤمنين ! »

وقضى بهذه الحكمة التي ابتدعتها بديهته على الفتنة ، وإن كانت بقيت في نفوس بعضهم بقية موجدة عليه سوف تظهرها الأيام بعد حين . . .

وكذلك أبقى على عدوه كرامتهم ، وضرب للناس أمثولة عن الخصومة الشريفة التي تتنزه عن الدنايا كيف تكون . وما كان قضاؤها إلا شرعة لآداب الحرب وآداب النصر يجدر أن تحتذيها البشرية في كل آن وجيل .

وأقبلت عليه الوفود تترى مبايعة ، دفعت بهم البصرة إليه لم تنتظر دخوله ، فقد سرى الحديث بهذه السماحة مع الهواء فاستشعر الناس لنبئه راحة تغمرهم ، إذ أمنهم — قبل أمنهم على المال والولد والرقاب — على كرامة الحياة . .

ثم دخل البلدة المغلوبة ، بعد مكثه بميدان الوقعة ثلاثة أيام فرغ فيها من شواغله . . . الآن لا تستشعر البصرة نحوه شيئاً من ضغن ، فقد استعبدها له أن جنب رقابها الاستعباد ! . . إنما الحياة عنده إباء وكرامة ، ود لو رآهما تسودان أنفس الناس ، فحفظ لعدوه حياتهم حرة ونفوسهم شماء كريمة . بل هو مد لهم في مروءته ، يتفيأون من ظلالها ما لا يعده الولي الحميم . . . كانت حربهم إياه — في اعتقاده — عن ضلالة ، الرفق أولى بكشفها عن قلوبهم الغاوية . كانت صفحة من الجهالة سودتها أيديهم ، فإذا به يمزقها ، ويلقي بها في متاهة الغابر السحيق ليستقبل بصفحه الكريم من سفر حياتهم أخرى بيضاء ! . .

بهذا جرت سيرته فيهم ، لم يعدل عنه لحظة من نهار . إنه العدل والعطف والمروءة ، بل غدت كلها وأمثالها من المكارم ظلا له ! . . فمن عجب أن نرى هذه الخلال الشريفة التي استأسرت خصومه ، تثير عليه غضب بعض أوليائه . فما عدم حظه العاثر أن زوده بطائفة من أنصاره رانت على أبصارهم غشاوة التعصب حق

أرتهم الضياء ظلمة كثيفة أخفت عنهم حقائق الأمور . أولئك بلغ من حبهم إياه وإخلاصهم له أن أبوا عليه الرفق بأيما رجل كان قاتله أو خان عهده ، فقد كان أعداء الإمام فى رأيهم أئمة كافرين لا يستأهلون رحمة أو يكون راحمهم قد خالف فيهم شريعة الله ! . . وحينما بدا للإمام أن يعفو ويرفق كان إذن يسمح بمغفرة ليست من حقه لم يقره عليها أولئك الأنصار . . .

هكذا غلت تلك الطائفة من شيعته وأخشت فى الغلو حتى تنادت فيما بينها ذات يوم بكفر على إذ أباح أعداءه صفحه ونزل لهم عن بعض حقه عسى أن يعطفهم ويؤلف حوله كتلة الأمة الإسلامية ، ملمومة الشمل وثيقة الجماعة . وعندما تنطلق مواكب الزمن موغلة هونا فى درب المستقبل فإننا سنراهم حربا على الإمام أعتى عليه من خصومه ، ينالون بأسيافهم وألسنتهم من سلطانه ومن إيمانه . أما الآن فهم وليد تمخضت عنه اليوم خلاله الشريفة ، لن يلبث سوى قليل ثم يشب من الطوق ويصلب عوده . . .

عاده أمسية دخوله البصرة ، موسى بن طلحة ، فاستبقاه برهة لديه يحدثه حديث الصديق ، وقد صفت نفسه من مواجدها ورق قلبه للفتى الزائر . فلما أن عرضت لهما خلال الكلام سيرة طلحة بن عبيد الله ، قال الإمام ، وقد بان فى وجهه الرثاء :

« يا ابن أخى . . . إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم :

« ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين : . . »

فما كان أبلغه من عزاء ، وما كان أجلها من إشادة بسيرة الراحل الكريم . .

وفارقه الفتى المرزوء فى أبيه وقد انعطف قلبه ، وخفف رفقه السابغ شيئاً من حزنه ومن فجيعته . . .

على أن هذه السماحة كان لها صدى خبيث الدوى بنفس امرىء من غلاة أنصاره هو ابن الكواء الذى غدا فيما بعد رأس الخوارج . فما إن دخل ، عقيب خروج موسى على الإمام وسمعه يلهج بعطفه على زائره ، حتى سأله عنه .

قال على :

« كان عندى ابن أخى . . . »

« من هو ؟.. »

« موسى بن طلحة » .

فصاح الرجل صيحة نكراء :

« شقينا إن كان ابن أخيك ! . »

عندئذ عصف الغضب بالإمام أن رأى عونا له قد نزع التزمت من قلبه عاطفة الرحمة حتى غدا كالصخر الصلد وران التعصب على بصيرته حتى خفى عنها الهدى . وهتف به يلومه ويرد غلوه البغيض :

« ويحك ! . . إن الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم . . . »

فخزى ابن الكواء . ولكنه خزى ساعة ستتحرر نفسه منه فى القريب لتعود كرة أخرى أصلب عوداً فى العناد ، وأشد شكيمة فى المغالاة .

٤

أين الحفنة الغالية فى عدائه ، الحالمة أمسها القريب بالمجد، السابحة — فى بحار من النكث — للصولجان ؟.. أى أرض توطأت لهم مراطئ ، وأى منزل أثابهم مرقداً ناعماً وضجعة رفيقة ؟ .. ومن ذا ترى فى الناس أمدهم بالسلام الذى منعوه أمتهم وأبدلوها به الدماء ؟

إنهم لضالون . بالأمس ضلوا نفوساً وقلوبا عن محجة الحق الواضح واليوم ضلوا جسوما حيرى وعقولا فزعة. فما لهم الآن من مثابة الأمن وإن عرفوا الأمن قد مد على غيرهم رواقه . يكاد القلق أن يسوقهم للمصارع . هم من خشية الموت فى موت داهم ، ومن خوف الأسر فى أسر دائم ، خيفتهم خفيتهم الملكة ثم جثمت على صدورهم تنازعهم الحياة ، وحجبهم عن العيون الهروب ولا طمأنينة !.. وهل من فرار من الفرار ؟ ..

تستروا بالظلام . نسجوا من سواده ردنا تسربلوا بطيلسانه ... أصاحب الليل آمن وفى قتامة رهبة تهد القلب ووحشة تزعزع الجنان ؟ كلما خفقت النسمة

الندية تلفت جزعا بلفتة المستريب ، فهى تحمل إليه وقع أقدام طالبيه . أو كثف السكون حوله حسبه هدأة متربص يتحين منه سانحة غرة . إنه الطريدة الحيرى ، والظلمة مسرب لكلا الفريسة والطارد .. لا راحة له قط فى شعابه ، والصمت عليه ثقيل ، والليل طويل طويل !

ود الفرار لو صبروا ساعة بأرض الموقعة يعرفون بعدها مصيرهم إلى أى قرار: أعيش العبيد أم ممات الأحرار ؟ . أم العفو يمسح عن جباههم غبرة الذلة كما يحقن عليهم دم الحياة ؟ . ولو كانوا قدروا عدوهم حق قدره إذن لرأوه فياضاً قلبه بالرحمة على سربهم الخائف ، رحبا حلمه وغفرانه . فما حركوا شيئاً من نفسه حين قاتلوه حتى يحركوه الآن إذ هم فى أيدى الفلاة أو حبيسو جدران . وكفاهم هوانا عليه أن خشوا لقاءه . وسيفه مغمد !

غير أن فيهم من عزت على الإمام عقباه . . ذلك الزبير . طواه حينه وهو عنأى عن ساحة القتال فهلك هلكة هارب لا ميتة محارب ، وكان المجلى بين الأبطال . فما للقدر تعقبه حتى أصماه ؟ . لتوشك المنايا أن تبدو كلفة به حتى تأثرته بعد نأيه عن الصراع ثم طحنته غيلة ، كأن قتله كان نذراً حق عليها وفاؤه ! . . إن عليا ليأسى وقد جاءه نبأ الفاجعة التى ختمت أجل الرجل وطوت سجل حياته الحافلة من بعد نشور ، أبعد ما كان من رجوعه للصواب . . وركوبه إلى الهداية ؟ . . وتوبته الخالصة لله ؟ .

ود على لو أبقى الزمن فى عمر غريمه النادم بقية ينعم فيها براحة التوبة . ولو استدبر الآن من أيامه القلائل ما فات فلعله كان احتجز الزبير عن مصيره . ولكنها أمانى ، تخفف عنه هوناً وطأة الفجيعة ، وفيها ملاذ لنفسه الحزينة المرزوءة ، وإنه يستجلب جهده الصبر بالتصبر . فعسى التأسى أن يمسح أساه ، والزمن أن يمحو الشجن ، وقد رد صاحبه وديعة إلى الله

ونفض الإمام عنه بعض دمعه . من عجب أن تحسب طائفة دم الزبير قربى إلى على تدنيهم منه وتفىء عليهم رضوانه . وها هو ذا الأحنف بن قيس قد دخل عليه يخبره الخبر ، وجاء معه فى ركابه ابن جرموز ، الرجل الذى تلطخت

بدم الضحية البريئة كفاه ... فلو علم الأحنف أى حزن سوف تثيره الفاجعة فى قلب على ، وأى غضب عليه وإنكار لكان جنب نفسه اللقاء .

ورأى الريبة فى عينى الإمام ، وسمع صوته بطنته المرارة وهو يهتف به فى هدوء رهيب :

« تربصت يابن قيس ! .. »

فأجفل . قد كان حقا ذا يد فى الخاتمة الأليمة التى انتهت بها حياة القتيل . لعله وحده هو الذى رسم خطوطها دون غيره من الناس وإن لم تعلق بكفه قطرة دم . فليته ظل قابعا بوادى السباع فى معتزله لم يشترك فى هذه الخاتمة بشىء كما لم يشترك قبلها فى القتال ، ولكنها كانت محنة سارعت إليها نفسه وهو يحسبها منة يسديها إلى الإمام فتقربه منه ، وترفع درجة مكانته التى هبط بها الاعتزال . ظن فى البدء أنه حقيق برضوان على إذا كفاه عدوه الزبير ، فلما أتبع ظنه المؤامرات التى قضت على حياة الغريم ، غدا نهبا للحيرة ، لا يدرك أهو أحسن أم أساء حتى إذا وقف الساعة بين يدى الإمام تبددت عنه حيرته وهو يرى لمح الغضب يكاد أن يلسعه بشواظ من نار ..

وأغضى مليا . ما لكلامه يعصيه ؟ .. شفيعه الآن نيـة رامت الخير فضلت عنه ...

ثم ألهم الجواب من بعد ، حديثا رقيقا فيه وعد وابتهال ومعذرة :

« ما أرانى إلا قد أحسنت ، فارفق يا أمير المؤمنين .. إن طريقك الذى سلكت بعيد ، وأنت إلى غدا أحوج منك أمس . فاعرف إحسانى ، واستصف مودتى ... ولا تقولن مثل هذا فإنى لم أزل لك ناصحا .. »

وتلبث ليسمع كلمة ترد قلقه . ولكن الإمام آثر الصمت ، وأشاح عنه . ما جدوى لومه الآن بعد نزول القضاء .. وهل من سبيل إلى إجازة اعتذارة بنية مكنونة فى طى ضميره ؟ .. إنما أمر هذا الحرض وأمر الضحية كليهما إلى الله هو أعلم بما تكنه السرائر ...

ثم دعا إليه بالقاتل الخاتل ، فإذا ابن جرموز أقبل وهو يمشى على نغر ، الرجاء يملأ قلبه ، والأمانى تحرك خطواته . . أم لا وطمع نفسه ماونى يحدثه طوال الطريق بجزالة المثوبة المأمولة جزاء وفاقا بما قدمت يداه ؟..

وسأله الإمام بصوت خافض عميق :

« أنت قتلته ؟ . . »

فأجاب بخيلاء :

« نعم يا أمير المؤمنين . »

غير أنها رنة للمباهاة لم تلبث سوى قليل . بددها على الأثر أن سمع عليا يقول فى مرارة وحزن :

« والله ما كان ابن صفية جبانا ولا لئيما ولكن الحين ومصارع السوء . . »

وحلقت غيمة من الصمت كثيفة فى جو المكان ، سترت الحاضر هنيهة عن على ، وأرسلت بخياله بعيـــداً يرود وادى الذكريات . . هذه ملاعب الصبوة ومراتع الشباب جمعته وغريمه أخوين على صفاء ، قد فرغ قلباهما إلا من حب وسلام . . من بطحاء مكة ومشارف بيتها العتيق إلى حدائق المدينة وبساتينها النضيرة وثقت بينهما دعوة السماء وألفتهما جنديين فى كتائب الله ، يدفعان عن رسوله ، كتفا لكتف ، بخفق القلب ، ومنطق الشفة ، وبطش الكف . وبين ماء بدر وسفح أحد ووادى تهامة سارا معاً يخضدان عوسج الضلالة ، ويغرسان فى الأرض الطيبة زهر الهداية . كلما ركز المضلون فى سبيل الدعوة قنا ورماحا تثير الحرب وتشعل نيرانها مسعرة عصفت بها الكتائب الهادية فخبا الضرام وانتشر الإسلام ، حتى رفرفت بنوده على العالمين خفاقة .

ذاك أمسه البعيد ، فليت الزمن لم يطلع بأمس القريب الذى شاب الحب وفرق القلب من القلب ، ولكنها مشيئة سبقت فى الغيب ، وسنن جرت عليه المقادير ، ولا دافع اليوم لواقع ، ولا راد لحاضر . . .

وآب موكب الذكريات بالخيال السارى فآن لغيمة الصمت أن تنقشع وحان أن ينثلم بناؤه الركين عندما هتف الإمام بابن جرموز .

« ناولني سيفه . . . »

ففعل الرجل ، ومد إليه يده المغتالة . . .

وهز على السلاح فى كفه ثم قال فى نبرة آسية :

« سيف طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله »

ترى أن خاطر راود الآن ذهن القاتل الأثيم حتى عدا به بعيدا عما يجيزه له المقام ؟ . . أى خطل ركبه الرجل الطامع فى المثوبة على إثم ، النهم إلى إحسان على مضلة ووزر ؟ . . ابن جرموز أركبه جشمه مركبا ليس يحمده ، ليته لم يركبه ولم تود به سقطة من لسانه . فقد اجترأ فى هذه الآونة أخبث جرأة وأسوأها وقال للإمام :

« الجائزة يا أمير المؤمنين . . »

فاخترمته نظرة قاسية على الأثر ، أخف من وقعها ضربة رمح تغوص فى فؤاده وسمع بعدها جواب على . رهيباً كأنه كلمة القدر الداهم والقضاء القاصم :

« النار ! . . ورحم الله أبا عبد الله . . »

ثم سرح باله هنيهة إلى بعيد ، وراء الأعوام السوالف ، وعاد يهمس محدثا نفسه :

« أما إنى سمعت رسول الله يقول : بشر قاتل ابن صفية بالنار . . . »

٥

أورد الغدر صاحبه الهلكة . . .

وإنها لهلاك الروح لا هلاك الجسد . . اللعنة التى تتبع المرء وهو مزيج من اللحم والعظم والدم على ظهر دنياه ثم لا يستطيع الفكاك ، وإن غدا ذكرى تعيش فى الخواطر فى حياته الآخرة تتعقبه تعقب الظل ، وتظل تنهش بقاياه نهش السباع فريستها الدسمة ! . .

فلعله كان قد غاب عن وعى ابن جرموز حين باغت الزبير ثم أرداه أن اللعنة ستكون له كفاء غدره . ولكنه كان أمراً مسطورا وقدراً عليه مقدوراً ، همس

به الوحى ذات يوم فى صدر رسول الله . ولم يكن هـذا الجزاء سراً خافياً عام الخفاء ، فقد تحدث به بضعة ، وروته طائفة ، وبشر به على القاتل فلم يعد ببشراه ما نطق به محمد منذ أعوام ! . .

وكان المصرع قصة الجشع والغدر والخديعة . . .

وهل من مناقص أسفل دركا من كل أولئك وأحرى منها باصطلاء الجحيم ؟ . . .

من اللحظة الأولى التى شهد ابن جرموز خلالها فريسته ، لعبت بنفسه الأثيمة أوزارها ودفعته دفعا إلى الكيد للهارب التائب ، عسى أن يتحين منه سانحة تمكن له من حياته ، وتفىء عليه سلبه ، ثم تجعل الزبير فى نهاية الأمر سلعة يساوم عليها ويبيعها بغنم من عروض الحياة . .

جاش ذلك بذهنه ساعة أن شهده ، وقد ترك الموقعة ، وهام يجتاز وادى السباع . . .

كان الزبير قد رأى الفىء للمدينة ، لعل عودة إلى حاضرة على تؤذن الناس فيها بندمه على ما سلف منه فى حق الإمام . أو عساه آثر المكث فى جوار قبر الرسول ، يقضى بالبقعة الطاهرة ما بقى من حياته فى هدوء ودعة ، بعيدا عن الأحداث التى أخذت تعصف بأرض الإسلام . .

وشهد الناس ذلك اليوم فارسا يتستر جهده ، ومطيته تخب به ، وخادم له يتبعه ، وقد شق سبيله من البصرة وراح يجتاز وادى السباع . ومرت القافلة الصغيرة فى سيرها بمضارب الأحنف بن قيس ، وهو منحاز إذ ذاك بقومه عن وقعة الجمل ، يعتزل القتال . . عندئذ لعبت الشكوك بقلب الأحنف والفارس ينساب مستخفياً عنه وعن سواه ، وعجب أى عجب لأمر الزبير وتخلفه عن المعركة وهى إلى سيفه وشجاعته أحوج الآن إذ اشتد ضرامها والتحمت النصال .

وهمس الرجل لنفسه بنبرة المستريب :

« والله ما هذا انحيازا ! . . . »

وحق له أن تنوشه الريبة . . لأمر ما يخرج الزبير هـذا الخروج ويدع أطماعه وأمانيه لقى بالميدان . لأمر سوى أن يكون قد فاء إلى الحق بعد لجه فى العناد وما اشتهر من إبائه الصلح والمهادنة ، فلعله رأى اليوم من غرعه قوة تستعصى على جيوشه ، فخرج يؤاب أقواما ممن لم يلحقوا بعد بأحد من الفريقين ، أو يستمد لعسكره أمداداً من هنا وأخرى من هناك تدعم أداة حربه . . .

وتلفت الأحنف حوله يستحث بعض رجاله ممن شهد معه فرار الزبير :

« من يأتينا بخبره ؟ » .

فنهض على الفور عمرو بن جرموز وقال :

« أنا آتيك . . »

فـكأنما الشقاوة أنطقت لسانه ، أو الشيطان نفسه تحدث فى فيه ! . . منذ تلك اللحظة تحدد مصير الرجل ، وكانت اللعنة نصيبه ، فقد قام يتبع الزبير وإنه ليضمر له الغدر فى دخيلته ، ويعدو بإضماره الحد الذى رسمه له الأحنف بن قيس . لم يرض أن يقوم بمهمة الجاسوس يتقصى خطوات الطريدة ويستكنه سر الأمر الذى تهم أن تسير له ، بل غلب الجشع عليه فسل الخديعة وأخفى الغدر وبيت المـكيدة ، كلها أدوات تنيله مأربا غثاً من مآرب الحياة . . .

وحانت له الطريق لحظة أدنته من فريسته فسارا معا كعابرى سبيل جمع بينهما السفر والمصادفة ، حتى إذا امتد هنيهة بينهما الحديث فاجأ الزبير بقوله :

« يا أبا عبد الله ، أحييت حربا ظالما أو مظلوما ثم تنصرف ؟ . . . أتائب أنت أم عاجز ؟ .

فتوجس سامعه الشر ، ولـكنه جنح إلى الصمت يلوذ به عسى أن يكون فى الصمت ما يدفع عنه فضول الغريب . غير أن ابن جرموز بقى على دربه ، يسير فى آثاره كما يزحف ظله ولا يحيد قط عن سبيله . . .

وكذلك أوجس غلام الزبير ، ومال على أذن مولاه يحذره هذا المتأثر خطاه :

« إنه ممد يا أبا عبد الله . . . »

فهز الفارس كتفيه مستخفا وقال :

« وما يهولك من رجل ؟ . . .

ثم التفت صوب مقتفيه :

« ما وراءك ؟ . . . »

« إنما أردت أن أسألك . . . »

فتفكر أبو عبد الله هنيهة . ماذا لو مد للرجل شيئاً في حبل الحديث فأشبع فضوله ثم فرغ منه بانقضاء الكلام ؟ ...

« فقل . . . »

« حدثني عن خصال خمس . . »

« هات ما عندك . . . »

« خذلك عثمان ؟ . . »

فأغضى الزبير برهة ثم قال بصرامة :

« أمر قدر الله فيه الخطيئة وأخر التوبة » .

« وبيعتك علياً ؟ . . . »

« ما وجدت من ذلك بدآ وقد بايعه المهاجرون والأنصار . . . وخشيت القتل . . . »

« وإخراجك أم المؤمنين ؟ . . »

« أما إخراجنا أمنا عائشة فأردنا أمراً وأراد الله غيره » .

« وصلاتك خلف ابنك ؟ . . »

« إنما قدمته عائشة أم المؤمنين ، ولم يكن لى — سوى صاحبي — أمر » .

« ورجوعك عن الحرب ؟ . . »

فتفرسه مليا قبل أن يجيب :

« ظن بي ما شئت غير الجبن ! . . »

هنا فرغت جعبة الفضول والتساؤل ، فبدا ابن جرموز كمن اقتنع بما سمع ، وسار صامتا مع القافلة الصغيرة . ولكن نفسه الخبيثة هتفت به وقد حركها ماركب فيها من طبيعة الغدر :

« أضرمها ناراً ثم أراد أن يلحق بأهله ؟ . . قتلني الله إن لم أقتله ! » .

ثم وارى بغضاءه الآثمة خلف ابتسامة . الآن يفعل الختل مالا تفعل الشجاعة ، والمكر ها هنا أمثل . . إنه ليبدى العطف ويظهر الرقة لرفيق الطريق ، ويمضى وإياه في الحديث ناصحاً له ، ويمحضه وده في لفظ حلو . مالزبير علم بالغيب ليستشف ما وراءه . . . حتى إذا رآه قد وهت فرسه ، أو لاح كأنها قد عسر عليها نوعا قطع رمل الصحراء ، وأمامها منها حتى غايتها البعيدة أشواط طويلة شاقة ، رسم الغادر على شفتيه بسمة حانية ، وفي نظراته لمحة رحيمة وقال :

« يا أبا عبد الله هل أدلك على أمر هو خير لك ؟ . . . »

« نعم . . »

« إن دون أهلك فيافى ، فخذ نجيبى هـذا ، وخل فرسك ودرعك فإنهما شاهدان عليك بما تـكره . . . »

فتريث الزبير برهة ثم أجاب :

« حتى أنظر فى ذلك . . . »

وأقبل عليهما المساء . ومضى طرف منـه ولما يخرج الركب بعد من مشارف البصرة . إن دون مدينة الرسول مشقة تعيي أجود الأفراس وأكرم الجياد ، والرمال تحت حوافر فرسه لينة رخوة ، تـكاد تغوص فيها قوائمها فتحرن به ، وتوشك الا تسير . فلو كان قد أعد للرحلة عدتها الحقة ، إذن لاختار ناقة تسبح على أديم هذه الصحراء الشاسعة كالسفينة . أما الآن فما أهون الظفر به على من أراد إدراكه . . .

ويبدو أن إلحاح ابن جرموز ظل يلاحق الزبير حتى نزل عند غرضه ، أو قصور مركبه عن بلوغه الغاية هو الذى دله على الأخذ بالنصيحة ، لأنه ما لبث أن بادل رفيقة نجيبه نظير درعه وفرسه ، وقد أنس إليه ولم يعد يخشاه .

غير أنها طمأنينة موقوتة ، ما لبثت أن تبددت من فؤاده وعاوده القلق والتوجس . . . فما هو إن نزل منزلا يستريح فيه ويقضى به بعض ليله ، حتى جاءه النذير فى رجل من بنى كلب تحين غرة من ابن جرموز وهمس للزبير :

« يا أبا عبد الله ، أنت لى صهر ، وابن جرموز لم يعتزل هذه الحرب مخافة الله ، ولكنه كره أن يخالف الأحنف . . . وقد ندم الأحنف على خذله عليا ولعله يتقرب بك إليه . . »

فوجم الزبير وشم رائحة الكيد حوله فى هذا الجو الذى علقت به أنفاس رفيق الطريق . . .

وراح الكلبى يتم حديثه :

« . . لقد أخذ منك درعك وفرسك ، وهذا تصديق ما قلت لك » .

« فما ترى يا أخا كلب ؟ . . »

« بت عندى الليلة ، ثم اخرج بعد نومه فإنك إن فتهم لم يطلبوك . . »

إلا أن المستريب الذى تتداوله أيدى الشك تضيق عليه دائما رقعة الأمان . . وهل كان ليأمن الآن على نفسه من هذا العابر — الذى ود لو استضافه بين جدر — أكثر من أمنه عليها من ذلك الآخر ؟ . . أما إن كليهما الآن عنده متهم ، وغيرهما أيضاً ، وبقية الناس حتى يبلغ مأمنه بعيداً ببلدة الرسول .

وأمضى طرفا من وقته ، ذلك المساء ، يستكنه سر الرجلين : أيهما غادر خائن وأيهما ناصح أمين ، محاولا أن يقطع فيهما الشك باليقين . . ولكن ظنه لم يسعفه ، ولم يفتح له إلى تعرف الصواب . .

وكرة أخرى همس له الكلبى فى صوت نذير :

« يا أبا عبدالله إنى أرى أن ترجع إلى فرسك ودرعك فتأخذهما ، فإن أحداً من الناس لا يقدم عليك أبداً وأنت فارس » .

غير أن الضياء جاءه بالسكينة . مشت فى نفسه الطمأنينة مشى إشراقة الصبح فى السكون المستيقظ فنسى معها رنة النذير . أم أنعش البكور فيه شجاعته الوسنى فأودع الخوف دبر ظهره ؟ . . لقد كان الزبير دائما ثبت القلب راسخا جنانه لا يكاد يهزه وعيد ، فما يهوله الآن من رجل فرد يسير فى ركابه ويتمسح فيه تمسح هر أليف ؟ . ولقد غاب الليل وامحت بامحائه مسارب الدسيسة . . أما عينه فيقظى ، وأما حسه فرهف ، وأما جوارحه كلها فعلى بصيرة من رفيقه ان شاء إبداء غدره وكشف ما فى طواياه . .

وراحت البكرة ، وجاءت الضحوة والركب يسير . وخطت الشمس خطوها من الشرق تمد ظلة من اشعتها على القافلة حتى أوشكت أن تتسنم الرءوس . ثم مضت أيضا صعدا ومضوا قدما تحت وهجها المذهب ، والهدوء فى البيداء الممتدة والأمن فى القلوب .

عندئذ هتف هاتف منهم :

« الصلاة ! . . الصلاة ! . . »

فهذه هى الظهيرة حانت ، وحل موعد فريضتها اللحظة . .

وتوقفت القافلة . وراح ابن جرموز يردد نداء السماء حتى تهيأت لها الرفقة الصغيرة . ثم انثنوا معا يتخذون مسجدا لهم من رمل الصحراء يقرب ما بينهم وبين الله . . .

فى تلك الآونة التى يبتعد فيها المرء بروحه عن دنياه ، ويتجرد من مادية جسده الثقيلة ، ويتحرر قلبه من شواغل الحياة حتى يغدو عنصراً من الصفاء والنقاوة ، ويدنو إلى خالقه بغير حجاب ، مستودعا إياه جل شأنه شعوره وديعة . . فى تلك اللحظة التى تخمد فيها مطامع الجسد وتنشط آمال الروح ، وعلى هذه البقعة التى غدت باسم الله حرماً أقدس ، وطهر أديمها الركوع والسجود . . . فى تلك البرهة الحافلة بالسلام ، وعلى هذه الأرض النقية المطهرة ، جرت نوازع الشر ، وسرح شيطانه ، بغير حائل من قداسة يرده فقد ركب مطية ذلولا إلى خبائثه : نفس ابن جرموز ! . . .

وحين سجدة عنت فيها جبهة الزبير لله ، وقرت روحه ، وخشعت جوارحه ، قطع الغادر الأثيم الصلاة ، واستدبر خلسة إمامه الآمن ، ثم ضربه برمحه ضربة مغتالة ، نفذ بها السن من الظهر إلى القلب حتى غاص فيه . . .

وحقت عليه عندئذ نبوءة الرسول . كتبت على روحه اللعنة والشقاء الأبدى يتبعانه منذ الآن إلى أن يغدو رمة بالية تتأذى من خبثها حجارة قبره ، ثم روحا معذبا تتداوله الزبانية فى الأوابد . . .

أما نفسه فقد غاب عنها سوء ما اقترفته فى حق الله . استبد بها شرها إلى غايته ، وحسبت نصراً ما أتته يجمل أن يتلوه نصر يشفى ما تحسه من الغدر ، فعدا صاحبها على الجدث الهامد فاحتز رأسه ، وأخذ ثوبه وسلبه ثم خلفه جيفة ببطن الفلاة يتولى الغلام مواراتها التراب .

وعاد ابن جرموز فخوراً مزهواً من رحلة غدره ، قد نال السلب والدرع والسيف ، تخب تحته فرس ضحيته . . . عاد إلى منتجع قومه ونفسه لا تنى تحدثه بالفوز الأعظم : ذلك المغنم الذى لا بد سوف يهبه الإمام إياه حين يستقضيه عن وزره . . .

وأقبل عليه الناس عندما قارب المضارب . فلما عرفوا من لسانه القصة ، آذتهم فعلته ، وأنكروا ضراوته ، وصاح أحدهم به فى تقزز ونفور :

« ويحك يا بن جرموز ! . . فضحت والله اليمن . أتقتل الزبير رأس المهاجرين ، وفارس رسول الله ، وحواريه ، وابن عمته ؟ . . والله لو قتلته فى حرب لعز علينا ذلك ، ولمسنا عارك . . . »

فأشاح بوجهه استكباراً وقال :

« . . والله ما أخاف فيه قصاصاً ، ولا أرهب فيه قرشياً . وإن مثله على لهين ! . . . »

وانطلق يسير ، نحو البصرة ، ليقبض الجائزة من الإمام . . .

٦

حليف الهموم لو ذاق طعم الوسن لنامت همومه ! . . لكن عينه الساهرة ردت الغمض . ففيها قذى يهيجها ويقرحها ، ودمع سخين ينثال ، وأهدابها غدت كشوك ! . . ليت عائشة تستطيع الرقود ساعة من ليل لعل ادكارها ينام . الفراش تحتها يؤرقها . ويؤذى جنبها المستسلم لغفوة عصية كأن حشوه قتاد . .

ليس يثيرها الهوان الذى سبحت فيه ، ولا هذه الهزيمة النكراء قد أكلت هدفها واهتضمته . بل وقر التبعة الثقيلة التى ألقتها على كتفيها الأقدار . بكل قطرة مهدرة من جرح ، وبكل شلو مقطوع ، وبكل حياة استباحها الموت

الداهم فى مجال الصراع طالعتها الرؤى المثيرة ، مرة بعد مرة ، فى ساعات صحوها الطويل البادى بغير انتهاء ، بمشاعر أسى محض مرير . لكأن حياتها غدت بحيرة من الدمع ! ..

حتى البيت الذى استضافها اليوم كان بؤرة ألم . فما نى صفية بنت الحارث تملؤه عليها بالعويل والنواح إن أسفر صبح ، وتهيم فى جنباته أنات بكائها المكتوم إن جن ليل تفجعا على زوجها عبد الله بن خلف . بل البصرة كلها صارت مأتما قائما ، تتجدد فيه مظاهر الشجن يوما فى إثر يوم ، كأن أهلها أنسوا للحزن واستطابوه ! .. وفيم هذا كله ؟ فيم الحرب التى نثرت المصارع وبثت الفواجع ؟ ولأية غاية من الغايات ؟ .

إنه سببه ودت بقلبها أن تنساه لو أجدى عليها النسيان . وأنى لها اليوم إغفاله ؟ . نتاجه المشئوم لا يكف يطالعها مع اللحظات وإن أشاحت بناظريها عنه ، فإن لضميرها لعينا تراه . . وكانت النواة نزوة — جمحة عاطفة عدت بها طور الحكمة فلم تزل تعدو حتى رمت بها وبأمتها بهذه الوهدة السحيقة . من لها اليوم بمن يبصرها بعقبة السكره الذى آثرت به الإمام لعلها تثوب ؟ ..

الأحداث الآن بصرتها . . الكوارث التى أحاقت بالناس لأنها ذات لحظة مشئومة أطلقت للسانها العنان تؤلب على صهرها ، ابن عم زوجها ، أحقاد خصومه .. ومع ذلك فأين الجنى الذى اجتنته بيد الكراهية ، والحصاد الذى حصدته بمنجل البغضاء ؟ .. إنها لترى ثمار فعلتها قانية الحمرة خضبها الدم ، ذابلة جافة نصرها الموت . . فى المدائن تراها وفى البيد ، فى الغريب والقريب ، فى الدور والمضارب . . فى فمها أيضا تحس لها طعم العلقم ، وفى قلبها تستشعر لها برودة تجمد الحياة . .

لها الله ! . . ألا ينام عنها همها هنيهة ؟ ..

ما زال بالها يهيجه الادكار كلما رنت بذهنها إلى الجنوب ، نحو أرض الحجاز ثمة أخية حبيبة تستروح الأبناء ، ثمة أسماء . وحين تقطع الأخبار هذه الشقة الواسعة من الرمال فسيكون من نصيبها الترمل ، ومن يدرى ؟ ألا يكون أيضا

من نصيبها الثكل ! .. فهذه المفازة انشقت قبرا يضم زوجا باسلا قضى قضاء آبق فرار ولم يمت ميتة بطل . وفيها عدت قدما ابن طموح شاب تتلمس له مسالك النجاة ولا نجاة ، هرب من الأسر إلى أسر ، وفر هائما على وجهه فرار أطماعه ! ..

أفتغفر أسماء ؟ . . .

عائشة لا يهولها أن تنقم أختها منها أنها كانت سبب النكبة القاصمة . لم يعد بقلبها موضع لغير القلق الذى ملأه بعد فرار عبد الله بن الزبير ، ربيبها الأثير .. عندما بشروها بنجاته ، إبان الوقعة ، من سيف الأشتر ، دفعت عشرة آلاف درهم لناقل الخبر نظير بشراه . أما اليوم فكم تود لو دفعت نصف عمرها لمن يخبرها عنه . بل لتؤثر أن تغمض أجفانها غمض الموت إن أمنت عليه الذل والخوف والهلاك . فما من امرئ غيره يملأ عليها دنياها التى أفعمتها الأحزان . . .

فكأن القدر عاد فهادنها بعد حربه المسعرة ورسم بسمة على شفاهه أضاءت لها قتام القنوط . ها هنا رجل يسعى ، ويمشى بخطو المريب ، قد أقبل وفى وفاضه الخبر المرقوب . . .

وقال ذلك الأزدى ناشراً رسالته :

« إنى أعلم مكان عبد الله ! . . »

فابتدرت من فرحة عيناها حتى غامتا بالدموع . . . وقالت عندما استطاعت الجـواب :

« على بمحمد . . . »

« يا أم المؤمنين ، إنه قد نهانى أن يعلم به محمد بن أبى بكر . . »

فلم تبال شيئاً من الأمر . ودعت إليها أخاها وأمرته :

« انطلق مع هذا الرجل حتى تجيئنى بابن أختك . . »

وحين جاءها الفتى الجريح ، وملأت عينها بمشهده ، ثابت نفسها وعرفت الهدوء . الآن قد أمن سربه ، واحتقن دمه ، ففى كنفها سيطعم الطمأنينة ، وتعتد به الحياة ، ولن يستطيع أحد أو شىء أن يناله بمكروه . إنها لعلى يقين . عاودتها ثقتها فى ذات اللحظة التى دخل فيها مثابها الآمن . . وحتى ابن أبى طالب لن يخرق

عليها اعتدادها الوطيد ، فهو أسمى شأنا من أن يفسد عليها فرحتها بربيبها الحبيب ، أطهر نفساً من أن يثأر من عدو مغلوب . . .

وصدق حدس السيدة فى الإمام . فقد نسى كل مساءة سلفت من الفتى الطموح فى حقه ، ونسى عداءه السافر البغيض ، وقذفه فيه وسبه إياه على رءوس الأشهاد يوم الجمل حين أفحش السب فقال للناس :

« . . قد أتاكم الوغد اللئيم على بن أبى طالب ! . »

عن ابن الزبير أغضى على كل الإغضاء ، وأوسع فى صدره للصفح عنه . فلما أن استشفعته عائشه لم يزد على أن رمى ربيبها بنظرة ثاقبة نكراء وقال له فى غير مبالاة :

« اذهب فلا أرينك ! . . »

بمثل هذه السماحة كان الإمام يلقى خصومه ، فتلك سجية فيه عزيزة فى طباع البشر . بل قد كان أيضاً يمنحهم الود فوق رفقه ومغفرته ، ويأبى على رجاله أن ينالوا منهم بمنطق اللسان النابى ، دع القصاص والعقوبة وإن حقت عليهم قسوة الجزاء . . دخل البصرة فرأى لزاما عليه ، عن بر وليس عن مجاملة ، أن يزور عائشة حيث نزلت ليعرف بنفسه أطابت لها الإقامة ، فإذا به ييمم شطر مقامها على الأثر بعد خروجه من بيت الله ، لم تشغله شاغلة ، حتى إذا انتهى إلى دار عبد الله ابن خلف ، وشهدته صفية ابنة الحارث ، قطعت نواحها على زوجها القتيل وراحت تصيح :

« يا على ! . . يا قاتل الأحبة ! . . يا مفرق الجمع ! . . أيتم الله بنيك منك كما أيتمت ولد عبد الله منه . . »

فلم يرد شيئاً على المرأة المحزونة . وما زاد على أن قال لعائشة عندما استقبلته ، بصوت هادئ رحيم :

« جبهتنا صفية . . أما أنى لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم . . »

نفسه طوعه ، راضيا على الفضائل . بل الفضائل هى التى نبعت منه . . عرف كيف يستقبل العقوق بالبر ، والشر بالخير ، والإساءة بالحسنى والمغفرة . وما من عدو له آذاه ذات يوم وأمعن فى الإيذاء إلا تلقاه ساعة ظفره وانتصاره بصفح كريم .

وعندما فرغ من زيارته ، وهم أن يخلف مثاب عائشة ، لم يملك أن يرد بسمة ساخرة لعب طيفها على ثغره . . أحسب القوم أن قد خدعوه ؟ . . إنما غرهم الوهم إذ ظنوه طعمة هينة وظنوا سكوته عليهم غفلة ! . فمن اللحظة الأولى التي اجتاز فيها الدار كان يعلم ما يكنون . ثمة في جو المكان شيء قد علق مع الأنفاس ، له رائحة الغدر ، أو الخديعة ، أو المؤامرة حيك نسيجها على حياته . الأبواب المغلقة نفسها كأنها كشفت عن سرها له ، وأبدت ما ضمته الحجرات . . ومع ذلك فإنه استمسك بأناته ، وأغضى عينه ، وكتم عن مضيفته أنه فهم ما أخفته الدار .

ولما ودع السيدة ، وغدا على مبعدة من مثابها قليلة ، ألقى نظرة عابرة على الأبواب المغلقة وراءه وهو يشير نحوها واحداً بعد الآخر ، وقال :

« أما لهممت أن أفتح هذا الباب فأقتل من فيه . . ثم هذا فأقتل من فيه . . »

فلقد كانت الحجر تضم طائفة من أعدائه ، جرحى أصحابه ، ضاق بهم فرارهم فآوتهم عائشة سراً لديها دون أن تعلمه . فمنذا كان يدريها أن أحدهم لاتهيجه مواجده ولا يطلق سهما على حين غرة من خلل أحد الأبواب إلى ظهر ضيفها فيرديه ؟ . . لعلها ظنت الخوف كفيلا بشل جوارح أولئك المختبئين ، أو جبانتهم مقعدتهم عن ركوب هذا المركب العسير . . أو لعلها حينذاك عاهدتهم على ألا يغدروا وفيهم بضعة ، حرية بألا يقيدها عهد ، غدرة فجار ! . . كيفما كان شأن السيدة مع صحبها أولئك فقد كان لزاما عليها ألا تستغل في علي طبيعته السمحاء وكان أولى بها وأكرم أن تجنبه الوقوف على حافة الهاوية . .

أما هو فلم يكن يهاب موقفه . فمنذا يملك أن يحرمه ساعة من حياة سجلها الله له في صفحة عمره ؟ . . إنما الموت قدر ، موقوت بأجل ، ليس تقدمه غفلة ولا يؤخره حذر . . .

وكانت ابنة الحارث ما زالت بمكانها ذاك عند الباب تنوح على زوجها وتبكيه فلما أن شهدت الإمام يغادر دارها عاودت شتمه بأقذع ما يستطيعه لسان عياب فانظر كيف لقيها ثانية بحلمه وأناته وعندما سمع رجلا استاء منها يصيح :

« والله لا تفلتنا هذه المرأة ! . . »

أصماه غضبه حينذاك على الغاضب له ، وهتف به يذكره رأيه السالف بوجوب الرفق بالنسوة العاديات ، ثم قال يحذره وصحبه الحاضرين .

« لا يبلغني عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس ! . . »

وانظره أيضاً كيف قابل تدبير عائشة ، أو سوء تدبيرها ، إذ آوت من عدوه من كان حريا أن يفتك به غيلة لو لم تكن له فسحة من الأجل باقية ...

لحق به امرؤ ممن سمع حديثه عن ابنة الحارث ، فلقيه ببعض طريق العودة وقال له :

« يا أمير المؤمنين ، قام رجلان ممن لقيت على الباب فتناولا من هو أمض لك شتيمة من صفية . . »

فجزع وصاح :

« ويحك ! . . لعلها عائشة . . »

« نعم . . قام رجلان منهم على الدار ، فقال أحدهما :

جزيت عنا أمنا عقوقا . . .

وقال الآخر :

يا أمنا توبى لقد خطئت . . »

فما أسرع ما بعث إليهما بالقعقاع بن عمرو فأحضرهما إليه . ولم يمهلهما برهة يفران فيها من غضبه . فلولا أن استشفع لهما الناس عند ذاك لأرداهما قتيلين جزاء على عيبهما السيدة التى لم تكف عنه عيبها وأغرت به الضغائن . . ومع ذلك فلم تنقذهما من بطشه الشفاعة ، بل قال وهو محنق :

« لأنهكنهما عقوبة ! . . »

وفعل . فقد أمر بهما فجلدا مائة مائة أمام الأشهاد . .

وكذلك نراه يغضى عن عدوه ويوسع لهم فى صفحه ، ثم يشتد على أصحابه أيما شدة وأبلغها . ذلك لأنه أراد أعوانه على أن يكونوا قدوة تأتم مكارم الأخلاق ويسير فى هديهم الناس . أما أولئك الذين كانوا ينالون منه فإنهم فى عافية ،

بصبره أو بغفرانه ولعل خير ما يصور لنا سيرته فى أخصامه ذلك القول الذى غدا شعاراً له ، وكان يردده دائماً بأمثال تلك المواطن :

« متى أشفى غيظى إذا غضبت ؟ .. أحين أعجز عن الانتقام فيقال لى : لو صبرت ، أم حين أقدر عليه فيقال لي : لو عفوت ؟ .. »

وهكذا كان أبدا دأبه : يؤثر الرفق والصفح والصبر عمن ألحق به المساءة والشر . إن قدر غفر ، أو عجز صبر . .

٧

ما وراء هذا التجمع ؟ .. دار صفية ابنة الحارث غدت خلية تطن فيها همسات خصومه ، أولئك الذين أبت عليهم المواجد أن يسيروا إليه يستأمنونه على أنفسهم ، ويرجون مغفرته ، وكلهم لقومه حينذاك رأس مدبر .

ولكنهم كانوا آمنة لا يخشون عادية نقمته ، فبينهم وبينه عائشة سياج ولو جال يوما بباله أن يقتص منهم أو يثأر لما وسعه الأمر وهم فى نجوة عنه بتلك السيدة التى ما زال يراها صاحبة حق عليه . ولن يجول قط بخاطره الثأر فذلك يخالف سجاياه . إنه ليملك مصيرهم فى يديه ، لو شاء ترك أو شاء أهلك .. ولكنه كان دائما إلى العفو أميل ، فليس يستطيع قهر نفسه على ركوب ما تنفر منه .

عقب نصره قالت له عائشة فى ضراعة :

« يا بن أبى طالب ، ملكت فأسجح . . »

فكان قولها صدى لإحساس قلبه ، ورسما صادقا لما ألهمته من تصرفاته حيال أعدائه . فلم يعنف قط بامرئ منهم ظفر به ، بل وسعت مغفرته عدوانهم ، وأباحهم صفاء نفسه كفاء ما تجرعوه من غصة الهزيمة . أمن الخائف ، وحرر الأسير ، وأملى للهارب فى حبل فراره إلى أن أتيحت له أرض ثابتة لا تميد تحت قدميه . . حتى هذه الطائفة الغالية فى عدائه أغضى عن ماضيها الملىء بالضغينة والحقد عليه ، هى التى أججت سعر الحرب وأصلت أمتها الهموم والكوارث .

كان يعلم أن عقابهم عداله مطلوبة ، ولكنه كان يعلم أيضا أن العفو شيمة كريمة ، حريه بأن تسبق العدالة ، فالعادل الظافر أقوى منه الظافر الغافر . ولن يزيد شيئا فى بأسك أن تنال من عدو مهيض

ومع ذلك فقد بدوا كأنما استباحوا منه هذه الأريحية النفسية إلى غير حدود ، وبلا احتراز ولا تعفف . ولو أنهم أنصفوا لجاءوا إليه سراعا ، فى قلوبهم الندم ، وعلى شفاههم التوبة ، وفى أكفهم الطاعة ، ولكنهم عدوا ما هو جميل بأمثالهم من المغلوبين ، واتخذوا دار صفية بنت الحارث ندوة تسرح فيها همساتهم الناطقة بالدس والضغينة . وها هى عائشة تؤويهم إليها بدون إذنه ، كأنما تملك دونه العفو وتملك المثوبة . . .

لم يكن شأنهم ليكرثه حين نصره بعد أن دانت البلدة له وسجدت تطلب الصفح وتقدم الخضوع . غير أنها بلدة حديثة العهد بالولاء له حرية — إن سنحت فرصة — أن تفتتن عن الطاعة . فما زالت بها بقيه مريبة ، ملكها القهر لم يملكها الولاء ، لا تنى تتطلع إلى ساعة ثأر ترد عليها ما ضيعته الهزيمة . وإنها لترنو بمين اللهفة فتديم الرنو إلى دار ابنة الحارث ملاذ الزعماء المستظلين ظل عائشة ، عسى أن يخفق من هناك ، ذات يوم قريب ، لواء تمرد جديد . . .

ولقد يحسن المرء بالسيدة الظن فيراها آوت أولئكم الحفنة الباغية عن رحمة ولكنه لا يستطيع أن يأمن عليها من وسوسة البغاة وهمسهم فى ضميرها بمعاودة العصيان ، فكلهم حاقد أو موتور . . وكلهم قادر أن يهيج بصدرها مواجدها على على وضغنها القديم ، فتلك عواطف غائرة فى النفس حتى الأعماق ، سارية مع الدماء فى الجوارح ، لم تجتثها الهزيمة ، ولن يكفها شىء إن خلى بينها وبين الانطلاق ..

إن فى طبيعة البشر من أمثال هذه المشاعر كثرة موفورة ، تقود خطوهم دائما إلى الخطيئة . . . وعائشة ضرب فى النسوة جامع الأحاسيس . أو هى هكذا على الأقل كلما نصبت من شعورها حكما فيصلا بينها وبين الإمام . ولقد طال حكم هذا الشعور بينهما ، فى الماضى الغابر والحاضر الماثل ، فكان الغلو الذى لا تكبحه حكمة ينطلق بها مسرفاً فى انطلاقه بغير روية أو قصد ، كأنه السيل الدافق ، لا يحكمه حابس ولا يمسكه سد . . . أفئن غدت اليوم طعمة لوسوسة بضعة من

دعاة الشر فى أصحابها الموتورين تهيج ما نام من حفظيتها ، أليست حرية إذن بالإصغاء لهم ، حقيقة بتلبية نداء حقدها القديم ! .

بلى ! . . . هذا أنسب عشاعرها ، أدنى إلى سخطها على على وإن رأيناه عد لها فى رقاع كرمه ، ويجازيها على موقفها السالف منه برآ بنسكران، ومروءة بعصيان . فما الناس إلا عبيد العواطف ، إلا من عصم الله وحصن نفسه بسياج من الإرادة عصى على غلواء الأهواء . . ولقد كانت فيا نحسب ولا ننكر ، تود لو كبحت نفسها عن الجموح فى عداء على بعض أشواطها البعيدة ، فلم تفدها هذه الرغبة فى القصد ولم ترد عاطفتها عن الجموح .

وكان الإمام لا تغيب عنه هذه الحال ، ويترفق هوناً بالسيدة العادية عليه فيعزو عدوانها إلى قلة تبصر ليست غريبة فى طباع النساء . ومع ذلك فلم يكن لينسى لها ما هى به جديرة من احترامه وتوقيره كفاء قدرها بين الناس ومنزلتها عند رسول الله . . وإنك لتصغى إلى حديثه عنها فتسمعه رأياً يجيدرسم مشاعرها ثم لا يغمطها شيئا من حقها . . . قال فأجمل المقال :

« . . . أدركها رأى النساء ، وضغن غلا فى صدرها كمرجل القين ! . ولو دعيت لتنال من غيرى ما أتت إلى ، لم تفعل ! . . ولها بعد حرمتها الأولى . والحساب على الله تعالى . . »

فإذا بلغ منها بعد هذا أن تستفئ إليها طائفةمن غلاة عدوه وأعتاهم له خصومة يستظلون جناحيها ، ويختفون حتى لتدنو خفيتهم درجة من التربص والمؤامرة . . . وإذا استباحت لنفسها من كرمه ما يحتلبه هيبته فى عين الناس ،ويديها كمن يملك العفو دونه عن كل عاد عليه : كاشح أو سافر . . إذا كان هذا وذاك فإنها إذن صاحبة مشيئته ، تجرى على سلطانه كالقضاء فتنتقصه ، بل تشله وتقضى عليه ثم لا يكون من ورائها إلا إغراء العصاة وسفهاء الحلوم به ، فى بلدة مغلوبة ، وبين ظهرانى قوم قد قهرهم على الولاء .

لذلك كان حقا عليه حيال إمرته وحيال أمته على السواء ، ان يخلى تلك الحلية التى راحت تطن بها همسات أعدائه ، فإن هى إلا مثابة للدسيسة . . ولقد

كان بوسعه أن يعصف بلاجئيها ولكنه كره ، لو فعل ، أن ينال من قدر السيدة التى منحتهم الامان ، وأبى أن تهون كلها وإن بذلتهامن وراء ظهره . ولم ير خيراً من تسييرها عزيزة الى دار لها بالحجاز ، وفى جوار قبر الرسول ، فيتفرق عنها دعاة العدوان .

على أن بقية من كبرياء العناد انحرفت بعائشة عن مسلك الحكمة . فلقد بدا كأنها أبت الامتثال للأمر بالرحيل لعلها ظلت لا تعرف لعلى عليها حقا بأمرة هى قد أغراها بعصيانه اليوم وسواس الطائفة الذين آوت ، عسى أن ينالوا منه بالتمرد الجديد وكيفما كان الحافز الذى جعلهاترفض العودة إلى المدينة فلم يقرها الإمام وأبى إلا أن تطيع أمره . .

ودخل عليها ابن عباس ، رســـولا من لدنه . فما رأته حتى لقيته بما يشبه الازدراء أو قلة المبالاة . ثم لوت عنه جيدها نافرة ، ولم تقدم له وسادة ليجلس ، ولم تأذن له ...

عندئذ مد هو يداً إلى متاعها فأخرج منه ما جلس عليه . فآذتها جرأته ونالت من كبريائها ، فصاحت به مغضبة :

« يا بن عباس ، أخطأت السنة ، فقعدت على وسادتنا ، فى بيتنا ، بغير إذننا . . . »

فليتها لم تهج لسانه بالكلام ! . . ذلك اللسان الذى عرفته قبل غيرها بصيرا بجوانب الجدال ، فياض المنطق ، حار الألفاظ كالشواظ ! . .

أجابها على الأثر ، فى هدوء أشد إيلاما لسمعها من فورة البراكين :

« وليس هذا بيتك الذى أمرك الله أن تقرى فيه ! . . »

فلم ترد على حديثه بشىء . . .

وعاد يبلغها ما جاء فيه :

« إن أمير المؤمنين أرسلنى إليك يأمرك بالرحيل . . . »

فقطعت عليه جملته فى تهكم واستنكار :

« أين أمير المؤمنين ؟ . . ذاك عمرا . . »

« عمر وعلى . . . »

« أبيت ! . . . »

وتنبئنا رواية الخبر بتتمة لهذا الكلام إن تكن وقعت فليست تجمل بمن كان مثل ابن عباس ، وإن أثارته السيدة ، وأمعنت فى إهاجة ثائرته . . فلقد طوف بسيرة أبى بكر فتحيف على الشيخ غير مقصد ، ونال من قدره بغير ما ضرورة أجازها الجدال أو دعت إليها طبيعة الحديث . ولا نظنه إلا شطحة رواية ، أراد أن يضفى على خبره بعض المتعة ، فركب خياله المسرف إلى حد أساء به إلى عبد الله ..

وندع جانبا ما ننزه عنه لسان ابن عباس ولا نقره عليه . ثم نتناول بقية جدله فإذا فى بعض أطرافها عنف مقبول ، أعانته السيدة على أن يلقاها به . وهل حسبناه يصبر لها على التزامها العناد وإباء الصدوع بأمر مولاه وإن أغرتها كبرياؤها بالعصيان ؟

قال لها وهو يذكر ما أتته من خروجها على الإمام ، وتأليبها عليه نزغ الأنفس وعدة القتال :

« . . والله ما كان أمرك إلا كحلب شاة حتى صرت لا تأمرين ولا تنهين ، ولا تأخذين ولا تعطين »

ووضعها بألفاظه حيث كانت ، ، وحيث يكون كل مغلوب . .

عندئذ آلمتها الحقيقة التى أسفر عنها كلامه الصريح ، وأحست بكبريائها تنالها جروح سال عنها دمعها يبتدر . . وحين وسعها أن تملك روعها ، أبت مع هذا أن تقر بالهزيمة ، وراحت تخفى قهرها خلف جواب تغمز به غريمها العاتى وإن شابت نبرات غضبها الجامح رجفة البكاء ...

قالت له :

« إنى معجلة الرحيل إلى بلادى إن شاء الله . . . والله ما من بلد أبغض إلى من بلد أنتم فيه ! ... »

فلم يمهلها أن تستشعر لذة غمزتها ، وأسرع يجيب :

« ولم ذاك ؟ »

وتريث برهة عسى أن يأتيه رد استنكاره . فلما رآها اعتصمت بالصمت عاود حديثه بهدوء بطنته سخريته :

« . . . والله لقد جعلناك للمؤمنين أما ، وجعلنا أباك صديقا ! . . »

فثارت به :

« يا بن عباس ، أتمن على برسول الله ؟ . . »

« ما لى لا أمن عليك بمن لو كان لمنت به على ! . . »

وحينذاك آثرت أن تلوذ بالسكوت لتكف عنها جدل صاحب اللسان الإزعيل ! ..

٨

تهيأت عائشة للرحيل .

ما لها اليوم معدى عنه . طلع عليها فجر السبت غرة رجب فأرسلت على خيوط ضوئه عيناً دامعة ، املها لم تذق بليلتها ، تطوف نظراتها الساهمة بما يبدو لها من البصرة تحت نور البكور . . . أى شيء ها هنا أودعته الثرى الصامت ؟ . . وأى مقام كان على أدعه ؟ . وبأية حال تهم أن تخرج الآن ؟ .

الفى المريضة انطوت فى الرمال . كأنها كتبتها على صفحتها الرخوة ثم جاءت هبة ريح فمحت السطور ! . . والمقام لم تلن لها جوانبه . نزلته مقهورة فنبا بها المنزل حتى خلفته مقهورة . . . غدت أداة تحركها الأيدى ليست لها على نفسها مشيئة . فتلك الأيام القلائل التى قضتها بالبلدة أطلمها هم وأنهاها هم ، كلما انقضى منها يوم أسلمها بعده إلى غد شر منه .

إنها لتشعر أن حياتها لم تعد لها خاصة . أصبحت كلها منة أسداها الصفح والترفق : عيشها ، وتفكيرها ، وحريتها .. فما تملك أن تعيش أو تفكر أو تنطلق إلا بقدر قدروه . ليست الآن من أطاعتها الطاعة وأطاعها معها العصيان ! . . ليست صاحبة الكلمة لاتكاد حروفها تلتئم على شفتيها فتجيئها الجيوش والوفود والنفوس مؤتمرة . . . ليست حتى ذات الدار المهيبة والذمار المصون فى القلوب والعيون . بقى لها فحسب من حياتها أن تعيش عيشاً تفضلوا عليها به فى حرية إن جنبتها مذلة الأسر فهى كأسر ، وبذهن يتبع الفكر ولا يبدع الفكر ! .

ثم ها هم اليوم أولاء ، يحبسون روحها فى سياج من منهم منيع ، وما أبغض منة القاهر إلى قلب المغلوب ! . . حتى الأشتر أيضا لم يعفها من تجرع غصة الذلة . أزجى إليها جميلا لو تقبلته لهان قدرها لديها ، ولكنها أبته كل الإباء . . . إنها لتنعم بأن تجتر حقدها على الرجل ثم تعود فتستره ، وتعيذ نفسها الآن من قبول هبته خشية أن يخف نفورها منه ويقل سخطها عليه ! . .

وكذلك استقبلت رسوله ، غضبى نافذة الصبر مهتاجة . . .

قال لها :

« يا أم المؤمنين ، مالك يقرئك السلام ويقول إن هذا البعير مكان بعيرك . . »

فصاحت حانقة :

« لا سلم الله عليه ! . . . »

وردت عليه الهدية .

ومع ذلك فلم تكن لتستطيع رفض كل ما قدموه أو تؤذيها الحاجة . . . رأت لزاما عليها أن تنزل بكبريائها درجة ، وإلا فمنذا هنا يجهزها لكل هذه الشقة البعيدة حتى تبلغ الحجاز ؟

جهزها الإمام وأعد لها قافلة طويلة لا ينقصها فيها شيء . ثم منحها اثنى عشر ألفاً من المال تستعين بها على الزمان . .

وكانت هبة سخية حقا . منة أخرى من مننه الكثيرة التى طوق بها جيدها على كره منها . . . غير أن ابن أخيه : عبد الله بن جعفر أبى إلا أن يثقل فى وقر السيدة من المنن والهبات ، فقد استقل المنحة ، وأخرج من لدنه مالا وفيرا يعي الإحصاء ، أفاءه عليها وهو يقول :

« إن لم يجزه أمير المؤمنين فهو على . . . »

ووقفت عائشة مليا خافضة الرأس قبل أن يسير بها الركب ، أثقلتها أريحية غريمها كما أثقلتها مروءته ونقاوة نفسه . فلم يحتجز عنها شيئا علم أنها تحتاج إليه من مركب أو زاد أو متاع ، ولا تهاون قط فى توفير ما يحفظ عليها كرامتها من مظهر ومجد . بل قد بالغ فى كرمه ما شاء حتى أباح كثرة من صحبها الذين حاربوه أن يرافقوها فى الرحلة . . .

وحين أوشك الركب أن يتحرك قال لابنه :

« تجهز يا محمد فبلغها . . . »

وأمر الحسنين أن يسيرا معها نهارا وليلة .

عندئذ وقفت وهى تشرف من هودجها على الجموع التى أقبلت مودعة ، وقالت بصوت اختلج من فرط التأثر :

« يا بنى . . . تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة ، فلا يعتدن أحد منكم على أحد بشىء بلغه من ذلك . . . »

ثم مدت بصرها حيث وقف الإمام ، ومضت تقول :

« . . . إنه والله ما كان بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها . . وإنه عندى على معتبق من الأخيار . . . »

فما سمع على هذا منها حتى خاطب الجمع :

« يا أيها الناس ، صدقت والله وبرت . ما كان بينى وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة . . . »

على أنها ، مع ما أكرمها به ، لم تنس أن تناله بمقذع اللفظ وهى ببعض الطريق . فلقد أرسل معها حرسا ضخما من عبد القيس أربعين فردا ، وقام على شأنها قيام العبيد والإماء ، فهالتها كثرته . وظلت كلما وقعت عينها على فرد منه ، تهتف برمة وتقول مظهرة سخطها على الإمام :

« هتك سترى برجاله وجنده الذين وكلهم بى ! . . . »

ذلك أنها حسبت الحرس رجالا وكن فتيات تنكرن فى ثياب الفتيان ! . .

فلما بلغت غاية رحلتها ، ودخلت دارها ، أقبلن فكشفن عن رءوسهن العمائم ، وهتفن ضاحكات :

« إنما نحن نسوة ! »

وكان هذا آخر عهدها بالرجل الذى حاربته بالبغضاء فحاربها بالحلم والمروءة ، وغالبته بالعنف والتآمر فغلبها بأريحية نفسه وصفاء قلبه من الحقد والضغينة .

وكان أيضا آخر عهدها بالشئون العامة ، فقد أغلقت بابها عليها ، وقرت بيتها بعيدا عن معترك الحرب والسياسة ...

أما هو ففرغ لشأنه وقد خلت خلية الدسيسة ، وتفرق عنها ما كنوها البغاة . . . فقد أباح بقيتهم صفحه ، ونسى كل ماسلف منهم من الغدر والعدوان. اتسعت رحبة عفوه لأعتاهم عداوة له ولم يستشعر ندما على معروفه ، حتى مروان ابن الحكم ظفر بغفرانه وإن كان أعدى عدوه وأجدرهم أن ينال منه عذاب الهون . . . جى به إليه مستضعفا ذليلا ، قد ضاقت عنه مسالك النجاة فلم يمسه بشيء ، وأغضى عابساً وهو يصغى لشفاعة الحسن والحسين فيه . . .

وانتهى الفتيان بعد قليل من استرحامه ، واستنزال عفوه على الباغى المقهور ، ثم أردفا يقولان :

« يبايعك يا أمير المؤمنين . . . »

فلم يزد على أن رشق عدوه بنظرة أودعها خلاصة ازدرائه . .

ومد مروان نحوه كفاً مرتجفة ، فيها خضوعه وذلته . ولكن عليا عف عن تناولها ، وأشاح عنها وعن صاحبها إلى سبطى رسول الله ، وإلى من حضره من رجاله حينذاك ، وقال يوجه إليهم الخطاب :

« أولم يبايعنى بعد مقتل عثمان ؟ . . لا حاجة لى فى بيعته ، إنهـا كف يهودية ! . . . »

ثم علق عينيه بعد لحظات بذلك الغادر الذى كانت حياته لا تساوى غير لفظة لسان أو إشارة بنان . وراح يتبعه فى مسرب انطلاقه بنظراته حتى اختفى عنه خلف المجهول . .

غير أن اختفاءه عن العيون لم يحجبه برهة عن بصيرة الإمام . إنه ليراه الآن بعين الإلهام ،ويخترق إليهأسجاف الزمن ، وأستار السنين ، وظلمة الغيوب. ثم يظل يتبع خطوه السارى فى المستقبل، الموفىبه إلىنهايته، الممتد بعده لذراريه . .

ويسمع الحضور صوت الإمام ، عميقا خافتا كأنما يأتيهملفظه من قرار سحيق بعيد الأغوار :

« . . . أما إن له إمرة كلعقة الكلب أنفـه ! . . . وهو أبو الأكبش الأربعة . . . وستلقى الأمة منه ومن ولده يوما أحمر ! . . . »

ويصمت لسانه الناطق بنفثة البصيرة ، ويدع الحديث للزمان . . .

الإمام

عَلي بن أبي طالِب

الجزء الرابع

تأليف

عَبد الفتّاح عَبد المقصُود

مَنشُورات مكتبة العِرفان

بيروت

١

كان سلما إلى حين ، حتى تنجاب عنهم غاشية الذلة ويهدأ الروع . . آفة الشر فى نفوسهم مقيمة ، لها دبيب ووجيب . والقلوب التى استشعرت الأمن من بعد خوف تحركت بها مواجدها . فلا الحرب صهرتها فطهرتها ولا المغفرة أسرتها فغيرتها . إنما عاد لها شنآنها القديم سيرته الأولى ، يغلى ويفور ويثور . كان خفقها الضغينة ، وهل لقلب بغير نبض حياة ؟

ذات مرة أحكم وصف عواطف الناس نحوه فقال :

« لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفى هذا على أن يبغضنى ما أبغضنى ، ولو صببت الدنيا بجماتها على المنافق على أن يحبنى ما أحبنى . ذلك أنه قضى فانقضى على لسان النبى الأمى أنه قال : يا على لا يبغضك مؤمن ، ولا يحبك منافق . . . »

فصدقت قولته بصدق ما سبقها من نبوءة الرسول .

وها هو اليوم : يطعم من أحقادهم صابها وعلقمها وما انفك عن رقابهم كرمه . . . لعلهم فى ذات اللحظة التى أباحهم فيها الأمن والحياة والحرية كانوا فى دخيلة نفوسهم يدبرون ما يفسد عليه أمره ، ويزلزل سلطانه ، ويهد كيانه . . لعلهم يصطنعون مكراً جديداً يثيبه على إحسانه إليهم إساءة . . . لعلهم يختلونه ويختلون عنه قوما لم تستنر بصائرهم ليهضموه ثمرة حقه بعد أن وجثت دونها بالأمس رقاب وفريت أسباب . أفيعجب ؟ . . أم هى هكذا طبيعة الأهواء ؟ . .

كم منهم عطفهم إليه عطفه ؟ . . كم منهم استأسرهم عفوه — هذه الطعمة الباقية من وليمة الموت ؟ . . عندما كان قدرهم على طرف لسانه ورهين بنانه . اشتروا منه آجالهم بذلتهم . فيهم فئة خشيت الحتف فلاذت بفرار وبقية أعمار ! . .

وفيهم أخرى قهرها الخوف قبل السيف فأحنت الهام وخفضت الجباه ليحلى لها فى الحياة ! . . أولئك شهدوا بيعته على أرض الوقعة حين انجلى عن أديمها غبار الصراع وراحوا يرددون مع الناس : « علينا عهد الله وميثاقه بالوفاء ، لنكونن لسلمك سلما ، ولحربك حرباً ، ولنكفن عنك ألسنتنا وأيدينا . . . » — بل

قد فعلوا ، ومدوا إليه الأكف بالتسليم وإن عف هو عن تقبل هذه الأيدى التى انبسطت نحوه تظهر الخضوع وتكتم الخداع . ومع ذلك فقد كبح عنهم بطشه، ورد نقمته ، وكان صفحه صدى طبيعة كريمة ليس وسيلة إلى استخلاص طاعة أو كسب ولاء .

لكنهم لم يعرفوا له جميله الذى طوق أجيادهم وقلدهم . لم تنعطف قلوبهم إليه من بعد شرود . لا ، ولم يجنحوا — فى القليل — إلى مهادنته أو الصبر عليه ، كأنما العار فى الطاعة أو القرار ليس فى خلافهم هذا كل العار ! . . فاعجب إذن منهم ، كيف اشتبهت عليهم القيم ، والتوت بهم مسالك النظر حتى أصبح جزاء العمل عندهم كفاء عكسه لا كفاء جنسه ! . .

أبمثل هذا الجحود يلقون مثيله ؟ . . وبالإحن الشاقة يستقبلون منه هذه الطبيعة السمحاء ؟ . . غيره جدير منهم بسوآت الأنفس الناضحة ببغضائه المنكرة لآلائه ، التى لا تزال يقبضها شر ليبسطها شر ثم لا يكفها غلوها فى كراهته دون أن تجرع من كؤوس حسدها حتى تخلص إلى ثمالة الشرور ! . . لكنه كان يسمو بنفسه عن مقابلة الصغار بالصغار ، ويعلو بالطبيعة البشرية التى خالطت روحه ترفعاً عن الغرائز الدنية ، ويقهر الهوى لينصر الله . أو ليست الأهواء الجامحة محاريب إبليس ؟ . . .

الإمام كان أعرف بالسنة الهادية . كان صاحب رسالة راح ينشرها لتحصين الأخلاق . وكانت وسيلته الأولى لنشرها أن يكون هو أسوة ، وأن يضرب بفعله وقوله الأمثال للناس . وفى الصراع الذى انتشب بينه وبين عدوه وسالت خلاله الدماء كالجداول ، حرص دائماً على أن يكون مرآة مصقولة ، من شهد فيها استبان رشده وطالعته أقوم الخلال — فى الخلاف السلمى وفى الخلاف الحربى سواء بسواء . . . ولم يكن كرمه بهم وسيلة لعطفهم إليه ، بل كان عفوا للعفو وصفحا للصفح ودرسا ترشد به الأنفس التى تميل إلى الاستيعاب ولا تتغافل عن طريق الصواب . . . . أجل ، كان أبعد امرئ عن تسقط النصير من سبيل استذلاله بخوف أو استشاره بمكرمة . كذلك شهدناه وكذلك هو على الأيام ، وإنه ليبرح المدينة فى أعقاب أم المؤمنين وصاحبيها فلا يستبطن إلا من توثقت به النية

على غير خذلاته ، فمن عرفه مدخولا قلبه استغنى عنه . ومن كان نقى له سريرته ثم ثبطه عن مظاهرته حين الصراع شىء لم ينله بالقهر ليحتلبه المعونة . . . وإنه ليترك قبلها ، يوم استخلافه بالمدينة ، أناساً وشأنهم رأوا أن يحبسوا عنه بيعتهم ما كان أيسر أن يركنوا — لو عنف بهم قليلا — إلى الخضوع . . . وإنه ليخلى إبان مسيره صوب البصرة بين قيس وطائفة أخرى من القبائل وبين اعتزاله فى الفتنة التى شبتها عائشة ، وأذكاها طلحة ، وأقحم فى سيرها ابن العوام وأمدها بالوقود مروان وطغمة أمية الموتورون . ولو قد شاء لأخـــذ بالشدة أولئك وهؤلاء . ولكنه كان داعية حق يهدى إلى السبيل السوى ؛ فليس السيف إذن بأقطع وسائله ، إنما الحجة كانت وحدها سلاحه . ولئن وثب ، يوم الجمل، بخيله ورجله على جحافل مناوئيه ، فلقد فعل بعد أن أعيته الحسنى، ومضى يحارب فيهم الردة عن الحق ، وخلف الوعد ، ونقض العهد ، وصدع الأمة الإسلامية التى لم شتاتها — قبل غدرهم — جهاد الرسول . .

أما الآن — إذ خمدت الفتنة — فالحجة هى الحجة ، والإعذار هو الإعذار ما من سبيل له إلى قلوب من قعدوا عنه وأفهامهم إلا أن يبصرهم عن أن يروا طريقه واضحاً سوياً لا تضل عنه البصائر ولا تزيغ الأبصار . ليس الختل سبيله . ولا الملق ، ولا شراء النفوس سلعة رخيصة مبخوسة بذهب الإغراء . . . هو نفسه لم تقو الدنيا بنشبها وزخرفها وسلطانها العريض الباذخ على ابتياعه ، فكيف إذن يتخذها أداة فتنة فى كفه يلوح بها أمام أعين الآخرين ؟..

بغير هذا يقوم الإمام فى الناس . وإنه ليدخل الكوفة غب ظفره بأعدائه من جند الجمل فلا يفتنه عن مثله المستقيمة زهو الانتصار . إنما يغدو أشد تأبيا على سطوة النفس ، أدنى تواضعا إلى الله كحاله منذ عرفته دنياه . . . يقبل عليه أنصاره ، وقد هيأوا له دار الإمرة بحاضرة ملكه الجديد ، يسألون :

« يا أمير المؤمنين ، أين تنزل — أتنزل القصر ؟ » .

فيتواضع تواضعا هو قمة الترفع وأعلاه عندما يجيب :

« قصر الخبال لا تنزلونيه ! . . » .

ويأمر فينزل الرحبة لأنه أراد تجنيب نفسه منازل الأبهة والاختيال وإن كانت

عصية بطبعها على الغرور منيعة عن بنانه . فحسبه أن يقيم بنجوة عن دار كانت قبله مقام فرقة من الطغاة أصحاب الجور . . .

لقد كانت الدنيا بعزها تافهة ، بغيضة لديه ، يدفعها دفعك الحية الرقطاء وإن استهوتك من جلدها الرقش زخارفه . ولم يكن مجهولا عنه أنه طالما قضى الليالى مسهداً يناجيها وفى نبراته تنطلق سخريته كنطق نسكه وتأبيه : « هيهات! غرى غيرى . . لا حاجة لى فيك ، فعيشك قصير ، وخطرك يسير ، وأملك حقير !.. »
— كان أبدا يلقى بسماتها بغير احتفال ، وإقبالها عليه بالإدبار والزراية . ولم يكن فحسب يحصن نفسه دون اشتهائها والنزوع إلى مفاتنها ، بل ظل دائما يحصن — كما بدا — جمهرة الناس ، ويلقنهم ما وسعه بفعله وقوله كيف يكون كفاح النفس وجهاد شهواتها وإن جاء جهادهم هذا — فيما يحسب الغافلون — على حساب هيبته ، وهو صاحب الأمر فيهم، ومن حق له عليهم أن يستقبلوه بمظاهر التجلة والهيبة ، وعلائم الإعظام والتوقير . ولكنه وفى لمثله ، حريص على غرس أصولها عميقة فى القلوب ، ونشر فروعها عليه فى الضمائر حتى لنشهده يغضب أشد غضب وأبلغه لأن فريقا من دهاقين الأنبار قد ترجلوا له عن خيولهم ومشوا يشتدون بين يديه من إجلال . . . يقول لهم حينذاك وقد ساءه ما رآه :

« ما هذا الذى صنعتموه ؟ . . . »

فيجيبه القوم وهم فى عجب من أمره إذ يثيبهم الإنكار على ما حسبوه مجلبة رضائه وما هو دائما مبتغى سواه :

« خلق منا نعظم به أمراءنا ، يا أمير المؤمنين . . »

عندئذ يأسى لهم من بعد زراية ، لجهلهم بحزنه حقيق ، ويقول باسطا لهم آفاق الهداية :

« والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم ، وإنكم لتشقون به على أنفسكم فى دنياكم ، وتشقون به فى آخرتكم . وما أخسر المشقة وراءها العقاب ، وأربح الدعة معها الأمان من النار ! . . . »

ما هو إذن بصاحب دنيا فيشترى من الناس نفوسهم بعرض الحياة كما يفعل غريمه نزيل دمشق المنحدر من أصلاب التجار ! . . ولا طالب جاه من منصب

أو سلطان فيرائيهم لينصروه ، إنما جاهه خلقه ، وسلطانه حقه . وهو رجل دعوة مثلى ، بالحق تنادى وعلى الحق تقوم ، فليس يكرثه إلا أن تنحرف أساليبه إلى غير ما يؤمن به ويناضل عنه وحاشاه أن يحيد . . . أما الدنيا فليس لها عنده حساب . وليس يجب أن تكون ذات شأن فى تفكير رجاله وأخلادهم فيبادرهم بما يهون أمرها ويقمأ خطرها — يخاطبهم ، ويعظ الناس ، ومن فوق منبر الكوفة يوم دخلوها وفى ركابهم النصر . بعد أن ذهبت ريح جند البهيمة :

« . . . إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة . . . ألا إن الدنيا قد ترحلت مدبرة ، والآخرة ترحلت مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة . . اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ! . . . »

غير أنه ، وإن كان قليل الاحتفال بهذه الدنيا ، سادرا عن مفاتنها ، لا يزدهيه فيها نصر ولا يبطره جاه ، إلا أنه لم يكن الذى ينام على الهضم فيدع حقه نهبا مضيعاً بين نوازع الهوى الضالة . لقد كان أدنى إلى صفحه وصبره على ضيمهم لو قد جاروا على حقوقه خاصة ، ولكنه فى حق الله ليس بالصافح الصابر . وما نكث الناكثون بيعته فحسب ، حين نكثوا ، وإنما اجترأوا على حق الأمة ، وفرقوا الكلمة بعد اجتماع ، وثلموا فى دين الله ثلمة غدت عزيزة على الالتئام . وإذا كان قد ألقمهم بظلمهم السيف ، ومشى على هامهم بالمنايا الحاصدة ، فأولئك الذين آمنوا بالقضية التى قام ينصرها ثم تقاعدوا عن تعزيزه لهم جزاء المتخلف الذى أوشك الونى أن يسلكه مسلك المتحيف . . .

لذلك لا يبرح له المنبر حتى يهتف بأهل حاضرته الجديدة :

« . . إنه قد قعد عن نصرتى منكم رجال ، فأنا عليهم عاتب زار ، فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون حتى يعتبوا ، ليعرف بذلك حزب الله عند الفرقة . . »

إنما أراد أن ينصف فلا يأخذهم بتقاعسهم عنه قبل أن يعذر إليهم ، حتى يتبين أعن غير عداوة كان ذلك القعود أم رضوا أن يكونوا مع الخوالف حقت عليهم قولة الله فى المنافقين بالمدينة إبان عهد الرسول : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ، وقيل اقعدوا مع القاعدين » .

لـكن الحمية تملك نفس مالك بن حبيب اليربوعى ، فلا يكاد يسمع من الإمام هديه حتى يغضبه هذا الرفق بالخوالف ، فيقول :

« والله إنى لأرى الهجر وإسماع المكروه لهم قليلا . والله لئن أمرتنا لنقتلنهم ! . . . »

فلا يرضى الإمام منه بأن يخرجه غضبه عن طوره ، وعن السبيل المأمون ، فيرده عن غلوائه :

« سبحان الله يا مال ! . . جزت المدى ، وعدوت الحد ، وأغرقت فى النزع ! . . »

« يا أمير المؤمنين . لبعض الغشم أبلغ فى أمور تنوبك من مهادنة الأعادى . . »

« ليس هكذا قضى الله يا مال . قتل النفس بالنفس ، فما بال الغشم ! » .

ثم لا تكاد الجموع أن تقبل عليه خافضة جناحها لسلطانه ، خاضعة له ، حتى يلتفت منهم إلى السادة الذين اعتزلوه يجبههم بعذله فى صراحة مكشوفة :

« ما بطأ بكم عنى وأنتم أشرف قومكم ؟ . والله لئن كان من ضعف النية وتقصير البصيرة إنكم لبور ! . . والله لئن كان من شك فى فضلى ومظاهرة على إنكم لعدو ؟ . . »

ويردف العتاب بقول الله :

« . . وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيداً ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ، كأن لم تكن بينكم وبينه مودة : يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما » .

بهذا الأسلوب الواضح المستقيم كان يلقاهم، غير باغ ولا عاد، وهو مستمسك بحقه عليهم، ملتزم حدود الشريعة العادلة السمحاء أدق التزام . وكانت صراحته، على عنفها ، أفعل فى النفوس من ختل معاوية غريمه ، أقدر على استعبادها من الدهان والمراءاة . ولعل فى نبأ سليمان بن صرد ، وزياد بن أبيه ، وسيرتهما المأثورة فى الوفاء له طوال النوازل التى ألمت بعهده ، ما قد يؤيد لدينا منهاجه الواضح السليم . . .

يدخل عليه سليمان ، غب رجعته من البصرة ، مسلما ، فيلومه الإمام :

« ارتبت وتربصت وراوغت ! . . وقد كنت من أوثق الناس فى نفسى ، وأسرعهم ، فيما أظن ، إلى نصرتى ، فما قعد بك عن أهل بيت نبيك ؟ ومازهدك فى نصرهم ؟ »

فيعتذر له الصحابى الجليل ، ويجيبه فى استحياء يخالطه رجاء :

« يا أمير المؤمنين . لا تردن الأمور على أعقابها ، ولا تؤنبنى بما مضى منها ، واستبق مودتى تخلص لك نصيحتي . . وقد بقيت أمور تعرف فيها وليك من عدوك . . . » .

ثم يؤوده ما بدا من على من الإغضاء ، فيسرع إلى الحسن سبط الرسول يستجير به على غضبة أبيه :

« ألا أعجبك من أمير المؤمنين وما لقيت منه من التبكيت والتوبيخ ؟ . . »

فيلقاه الحسن بالمأثور من رفقه وسجاحة طباعه :

« إنما يعاتب من ترجى مودته ونصيحته » .

« إنه بقيت أمور سيستوسق فيها القنا ، وينتضى فيها السيوف ، ويحتاج فيها إلى أشباهى ، فلا تستغشوا عتبى ، ولا تتهموا نصيحتي . . »

عندئذ يربت الحسن كتف الرجل النادم الأسيف ، مهدئا روعه :

« رحمك الله ، ما أنت عندنا بالظنين » .

وكان سليمان حقا أبعد عن متناول الشبهات ، فبقى أبدا مخلصا للإمام طوال أيام عهده ، وفيا لذكراه من بعده إذ احتوته روضته ، حتى لقى مصرعه فى الطلب بدم الحسين الشهيد .

وكذلك وفى لعلى زياد . أو هو فى القليل ظل له الولى المؤتمر بأمره ، المزدجر بنواهيه إبان سنى خلافته وصدرا من عهد معاوية — ولئن التزم فى البدء الحيدة ، واحتجب فى البصرة أثناء الصراع الذى لون ثراها ، وحق عليه بهذا الاعتزال لحى الإمام ، فلقد لاذ عقيب الجمل بأبى السبطين حليل الزهراء ، وأخذ ينضح عنه وعن غايته فى ولاء وغيرة حتى أراد الله لعهده القصير أن يزول ، بل هو قد

ظفر من ثقة على فى ذات اليوم الذى استحق فيه تأنيبه بما أوشك أن يذيله إمرة البصرة ، لولا أن اعتذر وقال :

« . . بل رجل من أهل بيتك ، يا أمير المؤمنين ، يسكن إليه الناس فإنه أجدر أن يطمئنوا ، وسأكفيكه ، وأشير عليه . . . »

وقد فعل . فكان المشير المخلص الناصح لواليها دونه عبد الله ابن عباس . وكانت له فى سياسة الأمر فيها حكمة أدلى بها للأمير حقيقة بأن يصلح بها شأنها فى مثل ذلك الوقت الذى أطلع الفتنة :

« اضرب بمن أطاعك من عصاك ومن ترك أمرك ، فإن كان أعز للإسلام وأصلح له أن يضرب عنقه فاضرب عنقه . . . »

ثم كان من بعد يدا لعلى قوية القبضة ، أمسكت نواحى من دولته أن تنهار . لم يغره عن الوفاء له نسب يلحقه بأبى سفيان ويلصقه أخا بصاحب الشام غريم الإمام ، ولعل أبلغ ما قد يشير إلى المحاولات التى ظل معاوية يبذلها لفتل ابن أبيه ، والميل به عن الولاء الذى استنه لنفسه وارتضاه ، ذلك الكتاب الذى بعث به أمير المؤمنين ، بعد حين ، إلى زياد ، يبصره بخديعة أخيه :

« . . وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزل لبك ، ويستفل غربك ، فاحذره ، فإنما هو شيطان يأتى المؤمن من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ليقتحم غفلته ، ويستلب غرته . . . وقد كان من أبى سفيان فى زمن عمر فلتة من حديث النفس . ونزغة من نزغات الشيطان . لا يثبت بها نسب . ولا يستحق بها إرث . والمتعلق بها كالواغل المدفع . والنوط المذبذب » .

لكن معاوية لم تقعد به وسائله عن الكيد للرجل الواضح المحجة . السوى السبيل . فإن له إلى النفوس مسارب ملتوية كأنها مسارب الأراقم والثعالب الرواغة ! . . ولئن أعجزه أن يلقى غريمه بالحجة فليس يعجزه أن يلقاه بالخداع . ولئن بات كالخفاش يعشيه النور فمجاله إذن ظلمة الدسيسة . ولئن عز عليه أن يستلحق زيادا وإن لوح له بالنسب الأصيل بعد الصلب المجهول . فهين أن

يستلحق غيره ويلفهم حول عروض دنياه كالتفاف الضباع بالجيفة ! . . يسير هذا عليه ما بقيت النفوس كلفة بالآراب والمطامع ، وما أكثر من استجابوا سراعا لنزغة واستعبدتهم شهوة الحقد ، أو سطوة المنصب ، أو فتنة الثراء .

حتى أولئك الذين اصطلوا بمحنة الجمل وودوا لو جنبوا نفوسهم محنة غيرها تالية ، لم يعدموه محركا لنفوسهم على الإمام . . . نجا ابن عامر من البصرة بثوبه وما يكاد فطوى فى حشاه همه وقبع ببقعة بعيدة عن النضال يجتر فيها طموحه الذى التمع آونة من عمر الغابر فى أفقه التماع السراب ، فلما قنع من كفاحه الفاشل بالأوبة ، وغنم البقيا ، وحسب الهدوء والأمن فى حيثما أقام ، جاءه من معاوية كتاب يثيره ، ويوقظ فى فؤاده أطماعه الجريحة ، ويحرك فى نفسه جذوة الحقد التى أوشك أن يدفنها رماد الاندحار .

إذ ذاك كتب الرجل — الذى ما زالت فى دخيلته بقية تحضه على أن يلوذ بالسلامة — يرد على كتاب الشيطان :

« . . إنى أقحمت طلحة والزبير إلى البصرة وأنا أقول : إذا رأى الناس أم المؤمنين مالوا إليها ، وإن فر الناس لم يفر الزبير ، وإن غدر الناس لم يغدر مروان . فغلبت عائشة ، ورجع الزبير ، وقتل مروان طلحة ، وذهب مالى بما فيه . . . وإن اليوم كأمس ، والناس أشباه ! . . »

فلم يوئس الجواب ذلك المفتون بالسلطان . الساعى إليه من كل سبيل وإن كان تمزيق الأمة وتفريق وحدتها ، بل عاود نزغه هذه المرة أبلغ وأشد فكتب يقول :

« . . أما بعد ، فإنك قلدت أمر دينك قتلة عثمان ، وأنفقت مالك لابن الزبير ، وآثرت العراق على الشام فأخرجك الله صفر اليدين ، ليس لك حظ الحق ولا ثأر القتيل . . »

ومضى يدور بابن عامر ، يعالج جماحه ، ويهيج فيه ما خمد من نخوة الثأر ويوقع فى فؤاده الحسرة على ما أنفق فى فتنة الجمل من أموال ، حتى يلين لوسوسته . . . فإذا رآه ترك نجوته ، وشد نحوه الرحال ، وابتسم لنفسه راضيا عن أحابيله . . . أليس به قد استزاد أصبعاً جديدة فى مجموعة الأكف التى أعدها كى تجتذب له الشواء الشهى من بين النار ؟ . .

٣

غدت المدينة بلدة الذكرى ! . . لم تعد موطن الحكم ، ولا مستقر الحياة السياسية التى أخذت تصبغ الدولة من طرفيها بأصباغ فيها اختلطت حمرة الدماء ! . . إنما باتت وأصبحت فإذا خطرها قد ذهب ، وضمه الماضى ، وبقيت لها منه الصورة الباهتة التى تتحدث سماتها البوادى بدورها القديم فى تاريخ الإسلام .

سبعة أشهر من التنافر والاضطراب قضت تماما على مكانة البلدة الطيبة ، وخرجت بها عن معترك الأحداث التى مضت تنحرف بمصير الأمة إلى خلاف ما رسمت لها رسالة الرسول . وإلى غير ما أملت نفوس قوم رفعوا فى السنين الخوالى ألوية الكفاح والجهاد . وكان الدين الناشىء القويم يأسى ، والقلوب الخالصة لله تقطر بالحزن خشية من مستقبل غامض يهم أن يقودهم إلى التناحر . غير أنه قدر جرى على بلاد السلام لم يكن له من مغير ، ومصير مقضى به قبل أن تتجمع فى الأفق مقدماته وأسبابه ، الله بالغ به أمره . ومنذ اللحظة التى أمسك فيها عبد الله بن سلام بعنان دابة الإمام يود أن يرده عن الخروج من حاضرة محمد ، كان ذلك المصير قد استوى قائما على قدميه ، وراح يدب على صفحات التاريخ دبيب الدابة على صفحة الرمال . فما انثنى على ، بعد مسيره فى أعقاب جند عائشة ، إلى مدينة الرسول . ولا عادت البلدة ثانية إلى ما كان لها من المجد ومن القوامة السياسية على أمصار الإسلام . ولكنها تخلفت عن مكان الصدارة ، ونزلت مقهورة عن دورها السالف إلى سواها ثم قبعت كسيرة فى قتامة الظلام ! . .

وكانت الكوفة هى الوارثة . برزت إلى ضياء الحوادث ذات يوم من الشتاء ندى الريح . وتسلمت صوالج الحكم من الحاضرة الأولى ، التى احتضنت النبوة ، وآوت شرودها ، وأمنتها من خوف ، ثم شهدت من بعد انبعاث المستضعفين من كتائب الله ، وانتشارهم فى الآفاق على الحواضر والبيد ، ذوى أيد شديد وفى أكفهم مشاعل النور . . . الكوفة أخذت عن أمها الهادية الراية . وقامت على الأثر

بجهد لتترسم خطاها فى سبيل نصرة الدين . ولقد أبى عليها الطالع أن ينفسح أمامها الزمان ويمتد به سلطانها جيلا تستطيع خلاله أن تمكن فى القلوب لبذرة الهداية . . . لكنها ، على أى حال ، قد وسمها فى فترة سيادتها القصيرة ، كليلة السيف ، أن تفرق الهدى من الضلال . وما أجله من سفر سطرته فى الحق أصابع الإمام حينما أقام فيها سلطانه . وما كان أنضر عهده من أيام لو أدخلنا فى حساب حكمنا المبادئ القويمة التى اختطها بتلك المدينة لتكون شريعة ، بها تستطب القلوب وتستنير الأفهام .

غير أن الهوى خوان ، فشقيت بدائها الضمائر ! . . أم تستقيم الحياة على محجة سوية وإن للبشر لأنفساً تحيد وتميل ، وأعيناً تعشو عن السبيل ؟ ... بل الناس استدنوا طريق الدنيا فأقبلوا عليها ، واستطالوا طريق الآخرة فأدبروا عنها ، وبئس لهم ما فضلوا من مقام ! ... كانت للشيطان فى قلوبهم حصون وقلاع ، وبينهم موال وأتباع ... وكانت تلك الزمر من حشوده وجنوده لا تربض فحسب بالشمال ، إنما فى حيثما اختلبت اللب غاية ذاتية فطغت بصاحبها على قانون الأخلاق . لكن الشام — فيما أحسب — كانت حينذاك أرضاً وبيئة يموت فيها الإيثار ! ... أما الأثرة فلها هناك طلع منضود وظل ممدود . فلقد دعا معاوية فيها بدعوته التي حركت فى النفوس شرها بإثارة شراهتها ، وفتحت أمام العيون آفاقا وسيمة من الدنيا كلها متاع .

فى هذه الفترة العصيبة من حياة الأمة العربية وقفت الكوفة تنضح جهد الطاقة عن تراث النبى ، الذى انتهى إلى ابن عمه ، فلا تدانيها — إذ تنضح — عن سلطة الإمام قدر دفاعها عن مبادئ الاسلام . كفاحها فى حقيقته لم يكن يستهدف بسط سطوة زمنية بذاتها ، ولا فرض حاكم بعينه على البلاد والعباد ، بل قد كان كفاحا خالصا لتقويم الطباع وكبح جماح الأطماع . وفى خلال الأعوام القليلة التى تسنمت فيها منصة الحكم سارت دائما على سننها لا تحيد ...

كانت نصيرة الفطرة السليمة والخلائق المستقيمة ، فمضت قدما تحمل البشر على حق الله . وكان الصراع العنيف الناشب بين دمشق وبينها ، حقيق بأن يجلى شيء للعارفين المدول ، صراعا بين عماية الظلمة وصفاء النور ... كانت

قصبة الشام ، ومن ورائها أميرها العاتى ، تحالف المادة وكانت الكوفة تناصر الروح . ولمن شاء أن يستقصى ما شاء فيستوثق كيف كانت سياسة الإمام البادية للعيون ، تلتزم الصراط ، وتستهدى فى الكفاح المرير بالمثالية ، بينا غريمه كان يغوى ويدس ويبيت ، حتى أقام له سطوة على أكتاف مردة الظلام ! ...

بنفس الأسلوب الذى بنى به محمد دولته الناشئة بالمدينة مضى ابن عمه يبنى فى الكوفة . فلا مخاتلة ولا إغراء . ولا هوادة فى حق أو مساومة فى باطل ... لا انحراف قط عن الخطة المثلى التى اختطها الله فى كتابه سبيلا للناس يسمو بالبشرية عن وهدة الضلالة والجهالة العمياء . فمن اليوم الذى انتهى فيه إليه أمر أمته كان الإمام فى قرارته يشعر بأن عليه عبء تقويم الجماعة الإسلامية على النسق الذى أرادها عليه الرسول . ولو قد خلى له ليختار لآثر النأى عن تقلد الخلافة زهادة ، لكنه رأى قومه بباب فتنة ، وقد ثابوا إليه ، وأجمعوا إجماعهم ذاك على تنصيبه فكان أليق به أن يبادر بغوثه عسى أن يردهم عن اقتحام المزالق . ولو تركت له الخيرة بعد استخلافه لظل جارا لمثوى محمد وليه وهاديه . غير أنها أحداث جرت بغير ما يهوى قلبه فأخرجته عن مقامه الحبيب ، ومضت به ، تخط وإياه تاريخاً جديداً لقصبة جديدة هو فى حياة البلاد أقباس نور ...

أما وقد تبعنا الإمام عبر الصحراء ، من الحاضرة الإسلامية الأولى صعدا إلى مستقره بالرحبة ، بعد انقضاء فتنة الجمل وتوقف النزاع للسلاح إلى حين ، فجدير بنا تبين الدوافع التى جعلت الكوفة أثيرة لديه حتى اجتباها مركزاً لدولته دون غيرها من المدائن ... ألأنها موئل عزيز لأوليائه ؟ ... أم لتوسط موقعها فى رقعة بقاع الإسلام ؟ أم هى أدنى بلدة فى الأمصار من دمشق فلا تخفى ليه فيها خافية مما يبيت له معاوية بالشام ؟ ...

حين نكر بالزمن خطوة إلى الوراء ، بضعة أعوام ، نرى ثمة عاملا يتبدى فى ضياء الحوادث المضطربة حينذاك ثم يسبح مناضلا حتى يبلغ بنفسه أكداس السخط المتجمعة كالهشيم فيشعل فيها النار ! ... إن عزة الكوفة بأنصار على ، وتوسط منزلها ، ودنوها من موطن دسيسة الأموى الأول ، كانت لا ريب دوافع ليست منكورة الخطر ، ذات أثر فى اجتبائها حاضرة ، ولكنها لا تحيط بكل

الأسباب . إنما نجد ذلك العامل الذى أجج الفتنة على عثمان فى ذيل عهده كان هو صاحب اليد الطولى فى الخيرة ، وبريشته وحدها تلون مصير المدينة ، وتلون مصير البلدة التى قامت اليوم تتزعم بلاد الإسلام ، وتلون من بعد كذلك مصير هذه الأمة الناشئة مدى أجيال وحقب طويلة .

فى الكوفة حينذاك بزغ فجر القوميات . . . بأرضها انغرست بذرتها ، ثم نمت ، ثم اشتد عودها واستطال حتى استقضت الخليفة الشيخ أجله . ولم تكن فى حقيقتها فتنة أريد من ورائها تبديل حاكم بحاكم ، إنما قد كانت ثورة على وضع من الأوضاع أمعن فى تأييده أمير المؤمنين عثمان وغدا جماع سياسته فى الأمصار فأبت البلدة أن تخفض له الجناح . . . ومن الإنصاف الذى تجأر حوادث تلك الفترة بمقوماته ، أن نقرر خطل تلك السياسة إذ هى لا تنهض على عمد وطيدة من الدين . كلا ! بل كانت كذلك لا تتفق ولب الرسالة المحمدية التى نادت نداءها لتسلك البشرية كلها فى وحدة عامة ، المنطوون فيها سواء .

هذه المساواة التى انبنى عليها صرح الإسلام واجتذبت إليه الشعوب على اختلاف العناصر واللغات والألوان ، لم تجد فى عثمان من يعلى لها ، ويمكن لسطوتها على النفوس . إنما شهدته ينحرف إلى مثل العصبية الجاهلية الأولى فيؤثر من الأمة فريقاً دون البقية ، هاديه فى إيثاره : قوميته الخاصة ، ثم قبلها أو بعدها قرابة الأقربين . ولقد نتلمس له العذر حين نحسبه أرادها دولة عربية خالصة أقدر على نشر الإسلام ، فى دور تأسيسه ، أشد غيرة عليه من بقية الشعوب . ولكننا إذ نتتبع سياسته لا نلبث أن نراها سياسة قبلية تجتبى قريشاً ثم تختص منها الفرع الأموى الذى ينتهى إليه نسبه فتؤثر رجاله ، دون غيرهم من العرب ، بالنفوذ والسيادة . ولو قد أحسن الشيخ انتقاء عماله من بين ذويه ، لكان هذا أدنى إلى تجنيبه مصيره . لكنهم كانوا فتية غير ذوى مرس وخبرة فأساءوا السيرة فى الأطراف التى تولوها وهم يرون فى إمارتهم ميراثاً خاصا يديرونه كيف يشاءون . ولسنا هنا بسبيل حصر ما أتوه من أخطاء فنعدد لهم ما ارتكبوه ، لا ولا يعنينا أن نعرض لهم عرضاً يظهر شخصياتهم التهافتة المريضة ، ولكننا نجتزىء من أمراضهم النفسية بذلك الصلف الذى حركته فيهم

دماؤهم العريقة وأحسابهم الرفيعة فمضوا به يستعلون على رعاياهم ، ويرمقونهم بعين السيد رمق عبده الرقيق .

غير أن الذين أشربت قلوبهم مبادئ الإسلام وعرفوا أن نواتها المساواة بين أبناء بلاده كافة ، أبوا أن يطأطئوا الجباه لصلف الولاة . فلئن كانت قريش فى القديم أعرق العرب وأعلاها شرفا فلقد غدت وإياهم بمنزلة سواء أمام الشريعة . ولئن حسبت العرب لأنفسها قدمة على غيرها فى الدين فهى بانتشاره باتت شعبا من بين شعوبه ، نأت أو دنت منازل هذه الشعوب من تخوم الجزيرة . أولئك وهؤلاء أضحوا طائفة من الشعب الإسلامى الكبير الذى لم تعد تفصل بين عناصره العديدة فوارق جنسية أو حدود إقليمية — عضواً فى كيانه ، ولبنة فى بنيانه ، لا يتفردون ولا تتفرد زعيمة حسبهم قريش بفريضة فى الدين أو مزية مما كتب ربهم على المجموع . . . .

الإسلام بث إذن روح المساواة فى نفوس أبنائه مؤلفاً بها بين العرب والأعاجم وإن اختلف اللون من اللون وتباين العنصر عن العنصر . غير أن السياسة العثمانية — فيما يبدو — لم ترقها المساواة فسايرت هواها ، ومضت شوطها وهى تحمل فريقا من أبناء الأمة على فريق وتختصهم جهاراً وخفية بأكرم الأنصبة والمقادير . وكانت قريش عامة ذات الحظوة الأولى عند التقديم ، وآثرها به وأسبقها إليه أهل بيت الخليفة حين توزع المناصب أو تقطع الإقطاعيات وتوهب الهبات ، يحتزئون بالنفوذ والمال . . . فلم يكن عجباً — وهذه هى الحال — أن تنشأ فى البلاد طبقة جديدة تحصن أفرادها بالثروة والحسب والسطوة فغدوا ذوى قوة عاتية فى تسيير أقدار الدولة وصبغ مصيرها بالصبغة التى يشتهون .

فلعل امرأ يذكر هاهنا طبقة نظيرة لهذه سبقتها إلى الحياة ، وبرزت بالمجتمع الإسلامى فى عنفوان دولة ابن الخطاب . تلك كانت لا ريب تصلها بلاحقتها سمة واحدة من التشابه ثم تفصلها عنها سمات من الخلاف . ففى عهد عمر سار الرجل على سنة فى الأفياء خالف بها المأثور عن رسول الله وعن خليفته إذ أجراها على غير سوية وقسمها بين الناس أنصبة مختلفة المقادير . وكان من أثر هذه التفرقة أن ظهرت على الزمن — طبقة باذخة الثراء فى المسلمين تكتنز المال ،

أدى وجودها إلى تذمر البقية الفقيرة . لكن الحزم العمرى عرف كيف يكبح أولئك السراة — وكلهم من الصفوة والسباقين إلى الإسلام — عن استرقاق الأنفس بجاه المال ، فحبسهم بالمدينة إلى جواره ، لا ينتشرون فى الأمصار ، ولا يحركون شيئاً فى سياسة الدولة التى امتلك أعنتها فى قبضة كفه القوية . . . أما عثمان فلم يكن له حزم سلفه ، ولم يرع فى منح المال ما كان ذلك يرعاه . ثم راح أيضا يوزع إمارة الولايات على ذويه ، ومقياس بذله المال واستعماله العمال هو القربى ، دون الحاجة ودون القدرة على الاضطلاع بالأمور . . .

هكذا نشأت فى الدولة طبقة ثرية حسيبة فى أيديها السلطان . فلم يكن مما يخالف الطبيعة البشرية أن ينظر أفرادها إلى عامة الأمة من علياء برجهم الاجتماعى نظرة الصلف والتكبر ، فهم أصحاب الثروات ، ذوو الأحساب ، مالكو الرقاب ! . . ولم يكن أيضا مما يخالف الطبيعة البشرية أن يتبرم الناس باستعلائهم ، سواء فى التبرم من غضب لله إذ أهدروا المساواة ، ومن غضب لنفسه عن حسد لهم وغيرة مما انفردوا به من ألوان الجاه . وكانت الشعوب المغلوبة أسبق غيرها إلى استشعار الضيق بصلف هذه الطبقة ، المتمثلة حيالها فى أمراء عثمان ، لأنها أبت لماضيها التالد ذى الأمجاد ، أن يطأه كبر عصبة من الحكام تنتهى — فى حساب الحضارة — لشعب كان حتى أمسه القريب بغير تاريخ ! . .

« الأرستقراطية القرشية » هى التى كانت وحدها المقصودة بالتدمير حين الثورة على عثمان . فى الأمصار اضطرم عليها السخط والتذمر بنفوس الموالى والأعراب سواء بسواء . ومن الكوفة طارت شرارة اللهيب . وبالمدينة تهاوى الحطام . . . ولعلنا هنا فى غير حاجة إلى معاودة تبيان غضبة الأشتر وصعصعة ابن صوحان وأصحابهما على سعيد بن العاص ، ليلة ملكه غروره ، وأخذته العزة بحسبه ، فادعى سواد العراق قنية خالصة لقريش من دون سكانه الأصليين ، وفاتحيه ، والنازحين إليه من قبائل العرب غب دخوله فى الإسلام . كذلك لا نرانا بحاجة إلى تكرار عرض الحوادث التى أدت لاستشراء الثورة فى بقية أرجاء الدولة وانتهت بهدم سلطان عثمان . إنما يكفى الإقرار لهذه الحركة بالنجاح وبلوغها مارنت إليه . فلقد وسعها اقتلاع الطبقة الحسيبة الحاكمة ، وقشرها

من نفوذها ، وابتزازها ما كان أضفى عليها جورا من الهبات والإقطاعيات ثم رده إلى بيت المال حقاً لعامة المسلمين . . .

بالانتصار لحق العامة بدأ عهد الإمام . . . كان على وليهم ، تتجاوب فى فؤاده أصداء مشاعرهم . وكان هو الرجل الذى اختاروه — حتف رغبته — ليصلح فى الأمة ما أفسد سلفه ، ويعيد الأمور فيها على النسق الذى رسم الله ووضع أساسه الرسول . فليس إذن بمستغرب أن ترى الطبقة المستعلية صوالحها فى غير سبيله ، فتتحد على حربه عساها تستعيد نفوذها الذى غلبتها عليه عامة الأمة . أو تتجيش حشوداً وجنوداً تظاهر أيما رجل وقف منه بموقف مناجزة . وليس أيضاً بعجب أن تصطف خلفها قريش تنضح معها عن عزتها القبلية ومزاياها الاجتماعية التى أهدرتها سياسة الإمام الهادفة إلى تحقيق المساواة التامة بين المدلين بالأحساب وبين سواهم من بقية العناصر فى شعوب الإسلام .

وكانت المدينة — وهى حينذاك موطن السادة — حرية بأن تخلص ثانية لأهلها حرة ، حين تنحسر عنها أمواج الوفود القادمة عليها من الأمصار إبان فتنة عثمان ، وأفواج العبيد والأعراب الذين ظاهروهم على تدمير سلطانه . فلم تكن إذن ، وهذه حالها ، بالتى تصلح عنوانا معبرا عن المادة التى يحتويها سفر العهد الجديد بين غلافيه ! . . . ولئن كنا شهدنا أشرافها يبادرون إلى الإدلاء بالبيعة إلى الإمام ، فلقد شهدنا منهم ، حين قرت الأمور وارتحل عنها الثوار ، فريقا سارع إلى نقض البيعة ونكث الأيمان ثم لم يكفه إلا أن يجلب على أمير المؤمنين بالخيل والرجال : . . وشهدنا كذلك فرقة تذاءبت فترة بين الإباء وبين الإقرار عسى أن تسفر لها غيوم الأحداث عن الجانب الذى تستطيع أن تنحاز إليه وهى فى أمان من الوبال ! . . . أولئك وهؤلاء قد شهدنا ، ثم من بعدهم غيرهم : بقايا الأرستقراطية القرشية ، يتسربون تباعا من مكامنهم ، تسترا وخفية ، فيبرحون دورهم بالمدينة وسواها من بلدان الجزيرة ، ليلحقوا بمعاوية غريم على وحليفهم الطبيعى . لعلهم بمظاهرته يستعيدون مكانتهم التى لا رجعة لها إلا فى التفاوت بين الطبقات . . .

الكوفة إذن هى العنوان ! . . فى اتخاذها حاضرة جديدة للعهد القائم

الجديد بشير لأهلها خاصة ، ثم بعدهم للساخطين من أعاجم وأعراب ، الذين انبسطت لهم رقاع البلاد المتقطعة من ملك فارس والروم . . . أم لا والإمام لم تقم له دولة إلا على كواهلهم ، ولم يعز عندهم مكانه إلا لأنه أقدر الناس على الرجوع بسياسة الحكم إلى ذات الأسس السليمة التي وضعها الدين وبنى عليها الرسول ؟ . . الآن ، وهو قائم على أمته ، كفيل بإنفاذ شريعة العدالة التي أمامها يستوى الكافة ، فلا تمييز بين فرد وفرد ، أو عنصر وعنصر . لا حياة في المجتمع الإسلامي لهذا التفاوت بين الطبقات الذي ابتدعته الأحساب والثروات والمنازل وأضرابها من مزايا مادية . إنما ينبغي أن يقاس التفاوت بينها بمقياس روحي : هو حرصها على التشبث بالدين ، وسبقها إلى التزام تعاليمه . . أجل . في سيادة الكوفة بشير . وفيه أيضاً نذير رائع الصوت ، حري به أن يقرع أسماع الأشراف والسادة ويدوى في آذانهم دويه ، معلنا لهم في كل لحظة وحين أن الله قدير أن يذهب ريحهم ، ويورث غيرهم عزتهم مابقوا هكذا سادرين في انحرافهم مع الأهواء عن سبيل هديه القويم . . .

هذه بعض مشاعر الكثرة من المسلمين حين تسنم على الحكم في دولتهم ، وحين طفت الكوفة على صفحتها ورسبت بلدة الرسول في القاع ! . . وهي تحت التأمل حرية بأن تصبح قوة معنوية لدولة الإمام ، إلى جوار القوة المادية ، التي آزرته وسندت سلطانه الشعبي ، المتمثلة في أهل الكوفة الغير على حقوقهم ، وفي أبناء الشعوب الأخرى المستلحقة بالدولة حينذاك من أعاجم وأعراب . فلقد كان على يكون وحده الرجل الذي فهم هذه المشاعر وهي بعد تصطخب في نفوس أصحابها قبل الانفجار ، فكان يرى دائما أن تتخذ سبيلها إلى الحياة لأنها جديرة ، في نطاق ما رسم الله ، بأن تتنفس وتعيش . لكن غيره أغمضوا العيون . . . وها هو السخط انبعث كطوفان ! . . وها هو الدوى أقض مضاجع السادة النيام ! . . وها هي سنة الله تحق عليهم كما حقت قبلهم على من سلف من بني العصور الغوابر الذين جانبوا العدل وآثروا الجور . . أفقد حسبت قريش أن ربها مستحدث لها وحدها سنة تغاير ناموسه الأزلي الذي لا يقبل التحول ؟ . .

إنما غرها الكبر وخدعتها الخيلاء فتعلقت من دنياها بمثل السراب ! .

أما أمير المؤمنين فأعرف بما تبطن وبما تظهر الحياة ، لا يستهويه منها طلاء ولا يفتنه زخرف . . . إن عبرة الماضي تعيش دائماً في ذهنه ، وحكمة الأعصر تتدفق عن لسانه تدفقها في منطق الحوادث المتواترة على البشرية طوال الأزمان . . . يجيئه بالكوفة أهالي السواد فيخلو منهم إلى « نرسا » يستفسره بعض أنباء قومه :

« أخبرني عن ملوك فارس ، كم كانوا ؟ . . »

فيجيبه الفارسي :

« كانت ملوكهم في هذه المملكة الآخرة اثنين وثلاثين ملكا » .

« فكيف كانت سيرتهم ؟ . . »

« ما زالت سيرتهم في عظم أمرهم واحدة ، حتى ملكنا كسرى بن هرمز فاستأثر بالمال والأعمال ، وخالف أولينا ، وأخرب الذي للناس ، وعمر الذي له ، واستخف بالناس ، فأوغر نفوس فارس حتى ثاروا عليه فقتلوه . . »

وعند ذاك يقول الإمام :

« يا نرسا . إن الله عز وجل خلق الخلق بالحق ، ولا يرضى من أحد إلا بالحق . وفي سلطان الله تذكرة مما خول الله . . »

وكذلك هذه تذكرة لمن يعي ، تتحدث بها الشواهد التاريخية ، وينطق التنزيل . ثم لا يزال العالم يسير على السنن الواضح ما لزم حكامه الخطة المثلى التي رسم الله بعداد العدل لسياسة الرعية .

لكن النفوس قلب ، والقلوب غير . ما يدعها الهوى في مستقرها إلا كطرفة العين ثم يميل بها مرة إلى يمين وأخرى إلى شمال . ولا تكاد الضمائر تثبت أمام إغرائه حتى تأخذها أمواجه وتتقاذفها أواذيه . وهانحن أولاء قد شهدنا الإمام ، من أول يوم سلطانه ، تضطرب حوله الأهواء كأنواء ، فتندفع بسفينه بعيداً عن البلدة التي رحبت بهجرة الرسول ، في البدء ليقهر شراذم الجمل الخارجة عليه ، الناكثة لعهد الله ويردها إلى الطاعة ، ومن بعد ليقمع شهوات صاحب الشام ويلزمه الفيء إلى كلمة الجماعة . . . ها نحن نتبعه على أودية الرمل ، وفي مغاور البادية الفسيحة كالتيه ، وهو يسل سيفه آونة بالنقمة ، ويحرك لسانه مراراً بالحكمة ، ليأخذ النفوس الشاردة بتلك السنة الإلهية التي تنظم العلاقة بين الحاكم

وبين المحكوم ، وتضمن للبشرية — شعوباً وأفراداً — عدالة مثلى لا ينتهب فيها الحق ولا تستباح الكرامة . . إنه ليمضى . . قدما يسير غير آبه — فى الله مسيرة ، وإليه مصيره — يدوس الصعاب ويطأ الأوصاب . . إنه ليدع وراءه أسوار بلدة طيبة ، عزيزة الذكريات ، خلع فيها إهاب الشباب ، وروى تراب التخوم حولها من جراحه ، واستودع ثراها الرطيب أحب صفوة إلى قلبه : الرسول والزهراء . . إنه لينطلق عنها فى هجرة ، كما أتاها فى هجرة ، ليبدأ نضاله عن حق الله ، وتحرير الناس من ربقة الناس — ينطلق شوطه العسير القصير ، فى فؤاده يقين ، وبروحه هدوء الإيمان ، فلا يزال بقية عمره بين مد الحوادث وجزرها حتى يعانق السلام بدنه وهو نازح ، نائى الموطن ، غريب الديار ! . .

٣

أنى له أن ينسى عهده . عهده الذى قطعه أمام الله وإنه يومها لطفل أبى جبينه أن يعنو للباطل المتمثل فى أوثان تخلقت من حجارة منحوتة ؟ . . . الحق أبدا ، والحق وحده غايته ، وإن مشى إليه فوق الأشواك ، ومد نحوه حبلا من روحه ، وسبح على نهير من عرقه الناضح ودمه المسفوك . . .

ولقد وخزه الشوك ، وأذاب من روحه ليهدى العصاة . وبلل بالدماء والعرق الجبل والقاع . . . غيره كان حريا بأن يتلقى الأمور بالدعة والسكينة ، وبالرضا والطمأنينة ، فقد انبسطت تحته الدنيا ، كما عرفها عالم تلك الأيام ، إلا بقاعا قليلة كانت وشيكة أن تطويها أعلامه . . . إن ملكه قد ضرب بين قرنى الشمس . استغرق فارس ، ولامس الهند والصين . . . هز تاج الروم ، مطوحا بأهله عبر الصحارى الإفريقية الوسيعة ، يقتلعهم من شواطىء الأبيض فيها إلى مياه الأزرق فى غربها البعيد . . تاخم شمالا بلاد الجليد وتاخم جنوبا مواطن السود . . ذهبت الأكاسرة ، وذلت القياصرة ، وغدت الدنيا على اتساعها تضيق عن همة قومه الفاتحين . . . لكنه هو لايقنع ، ولا يرضى بهذا التراث الذى انتهى إليه عن أسلافه يقتعد عرشه وهو مستعز قرير . ليست العزة فى حساب رأيه بالرقعة

الممدودة ، المحدودة بالجهات ، الممدودة بالأقاليم . . . ليست بكثرة الشعوب والأجناس التي تخضع لهيبة الحاكم ، المنعكسة على أشفار السيوف وأسنة الصوارم . ليست بتلك الخيرات الدافقة على حاضرة الدولة . المبتزة أو المجلوبة من البلاد المغلوبة . . . هذه كلها مظاهر يراها غثة ، تبدى القوة لعين المخدوع ، وما هي بقوة ، وتبدى العزة وقد يكون حشوها هباء ! . . إنما المنعة أن تمتنع النفوس على الهوى ، وتعز عن مناله . العزة أن تتحصن دون نزغه وزيغه . أن تتحرر الأفكار من إسار الوساوس . أن تتطهر الأرواح من أدران المادة . أن تلفظ القلوب مضغة الشهوة . وحينما يجد الحق طريقه للأفهام والأحلام ، وتسبح له نواة في عروق البشر من رعيته تلون دماءهم ، وتنمو وتثمر — عندئذ يكون الإسلام قد حقق مبادئه ، وامتلك أعنة القوة ، فغدا حريا بأن تنتشر ألويته على الآفاق ، ويسير شوطه إلى الأمام .

هو عليم بأن دينه لا يقوم على غزو البقاع وامتلاك الرقاب ، وإنما على غزو الأنفس وامتلاك الألباب . والرقعة التي تخضع له لا تقاس بالأرض التي تطؤها جيوشه ، بل بمقدار من أشربت أرواحهم تعاليمه . وما كانت قط غاية هدف إليها الإسلام أن ينشر على العالم بأقطاره نفوذاً سياسيا من لون خاص . ولا أن يلتئم طائفة من الدويلات في دولة ذات حدود تستمد هيبتها مما تدخر من عتاد وتحشد من كتائب وأجناد . . . « الإيمان الأول » هو وحده السلاح القاطع الذى يستطيع المسلمون به بسط سلطانهم على الدنيا الضالة ، لأنه سلاح من عند الله يضل ماعداه . الايمان الذى غرس محمد — عهد تبشيره بالرسالة السماوية — نواته في قلوب حفنة من المستضعفين والعبدان فأعادها نشأة جديدة ، ذات بأس شديد على ذوى الأيد والجبروت من أصحاب العروش والصوالج . تمشى على ملكهم مشى الإعصار المدمر والطوفان الجائح . . . كانت هذه قوة روح تنحسر أمام مدها قوى المادة الصماء ، وتذل ، وتتلاشى حتى كأن لم يكن لها قبل التلاقى كيان . لكنها اليوم ليست كالأمس . فترت خبا ضرامها : بردت جذوتها أو تكاد فلم تتقد في الجوانح اتقادها القديم . ولئن ظل علم الاسلام يرتفع على ساريته ، وبقى حكمه يمتد فيشمل بقاعا من بعد بقاع ، فتلك بقية من القوة الدافعة التى

ابتعثها ذلك الإيمان ما زالت تحرك دولابه ، وتسدد ركابه حتى يثين لها أن تفنى — بعد جيل ، أو حقبة ، أو قرون — لولا أن تبادر النفوس الغافلة فتثوب !...

على مثل هذا النحو كان على يفهم واجبه الذى لزم عنقه منذ ولى الأمور . وفى ضوئه كان يلمح المصير الذى ينتظر أمته وينتظر معها البشرية . ومن عظات الغابر السحيق والماضى الدانى راح يقبس الأمثال فتلهمه ليكافح حتى لا تغدو عقبى الإسلام عبرة منذرة لمن أراد تلمس العبرة وإلقاء سمعه للنذير . . . فلم يكن للعبث ما سلف من جهاد الرسول . ولغير هذه الغاية المخوفة كان تبشيره . وإن الفرد ليذهب ، وإن العروش لتتهاوى ، وإن الدول لتضمر أو تتقلص عنها ظلال الوجود ثم لا يبقى بعد هذا كله وغيره من العروض والأباطيل إلى شىء ينفرد وحده بالبقاء فى الحياة كالدهر هو الحق الذى لا يفنى له جوهر ولا يزول . . .

فلتمتد إذن إلى سلطانه يد الأهواء تهم أن تنوشه من كل ناحية ... ليتربص به المتربصون . . . ليقعدوا له كل مرصد ومدخل . لكنه لن يستسلم . لن تهن روحه قوى . لن يشترى منهم أمنه وراحته بعطية يلقيها إلى شهواتهم كالعظمة إلى الكلاب الجياع ! . . لقد كان أدنى إلى هدوء باله واستقرار السلام فى أطراف دولته لو رضى لهم بإمرة هذا المصر أو ذلك القطر يسودونه وتبقى لهم به بعض مظاهر الكبرياء والعزة وبعض علائم النفوذ التى تسيل لها نفوسهم تحرقا ولهفة . غير أنه يأبى الهدوء الذى يأتيه على أنقاض مبادئه وأشلاء المثل العظيمة التى يؤمن بها حق الإيمان . ليس فى خلقه أن تثبت تحت قدميه رقعة أرض يظلها حكمه بينما تتحطم قواعد الحق وتتهاوى فى روحه . وإذا كان معاوية يكاد يشنها عليه حربا شعواء وهو يظهر للناس بداره إلى الثأر لدم عثمان ، فإنه ليسر الحرص على استبقاء ما فى يديه من نفوذ ، وليوشك أن ينسى ولاية الدم لو لوح الإمام له بولاية الشام ! . . .

لكنه تلويح محال . ومنطق للناس من ناقدى السياسة العلوية يعوزه الاستناد إلى القواعد الخلقية وإن وجدت له من قواعد الرياء بضعة أسناد ! . . فما يحق أن يلام من يدرأ عن اللب والجوهر قبل العرض والمظهر . وكان الحق هو الأصل . المبادىء المثلى التى سنها الإسلام للبشر شرعة لعالم مثالى هى الجذر

والبلاد التى تنضوى تحت حكمه هى الفروع . ولن يضير الدوحة أن يتقصف منها غصن أو يتكسر فنن ، وإنما يضير ويأتى عليها من القواعد أن يدب الفساد إلى جذورها الغائرة فى الأعماق ! . . .

وكان الإمام على بينة من الأمر الذى أخذ نفسه بإقراره ، فصلب فيه واشتد حتى العناد . وقد كان كفيلا بمعاوية ، قديراً على أن يخضعه وأضرابه ، ويسوقهم إلى الانصياع لهديه المنبثق من روح الإسلام ، وإلى الامتثال للقيم الإنسانية العليا التى دعت إليها تعاليمه . ولكنه كان كذلك أبعد الناس عن الغرور والاعتزاز بما فى يديه من قوة ، فللزمن أحياناً جموح ، وللظروف الدنيوية بدوات قد تخفض العزيز كما قد ترفع الذليل . وهو أمام عواملها المجهولة ، المتسربلة بالغيب . التى لا يكاد يدربها حسبان الحاسب ، يرى « ربما » حرية أن تتخايل أمام عينيه ! . . فمن يدرى ؟ . . لربما فشت فى القوم فاشية من حب الدنيا فقدموا الدعة وأخروا الجهاد ؟ . . لعل أن يحوزهم باطل ! . . قد يستأسرهم من معاوية سرفه وترفه فتمتنع الشام على جنود الإمام ! . عندئذ لا يعدم على عاذلا يعذله لأنه لم يهيئ لنفسه أسباب السلامة ولم يرض بمهادنة تبقى الدولة بها سليمة ، وتظل دمشق ، وعاملها المشاق ، تحت ظله . . . أما هو فقد وطن على العذل نفسه ، ووطنها على أسوأ ما قد تنجاب عنه الأحداث من فروض وأحداس . وإذا كتب لابن أبى سفيان وأشباهه أن تكون لهم فى دولة الإمام إمرة فلتكن إذن حين ينبو سيف على وتتقطع أسبابه ، ولا يقولن بعدها امرؤ عنه إنه خشى على سلطانه فداهن وهادن ، وأقام ركناً لدنياه على أنقاض مبادئه ، وساوم فى حق الله وحقوق الناس ! . . .

نظائر هذه الخواطر وأمثالها كانت دائماً تمثل بخلد على ، لا تريم لحظة عن باله ، ولا يكف ذهنه عن لوكها كلما تبدى لناصح أن « ينصح » أو لعاقل أن « يشير » . فإنما غدا النصح والمشورة مضغة فى أفواه الذين تخدعهم الظواهر ولا تهديهم البصيرة . وطالما انبرى للإمام منهم من أهاب به أن يبقى ولاة عثمان على ما فى أيديهم فيبقى بهذا على كيان سلطانه ، ويمنع عنه الانتقاض فى الأقاليم النائية بعض النأى عن كفه وسيفه . بهذا نصحته طائفة غب البيعة وهو بالمدينة ،

وبمثله أشار عليه المغيرة بن شعبة : أن يثبتهم على أعمالهم ، أو يثبت — فى القليل — منهم معاوية ، حتى تأتيه بيعتهم فيعزل بعد هذا من شاء ... حتى ابن عباس أيضا كان ذات يوم من هذه الطائفة الناصحة ، التى ترى الدهاء فى المداجاة إلى أن ينفسح الوقت للحسم ولقاء الأمور بغير الهوادة كأنما الوقت ما آن . وكم من قبله رأوا رأيه ، وكم بعده من خلصاء الإمام . . . لكنه رد هذا « النصح » وارتفع بذهنه عن استيعابه ! . . فما هو إلا سياسة المتردد المستريب فى أساليبه ، الأخذ بها رياء ، والنكول عنها — بعد إقرارها — غدر ، وكلا الأمرين ليس فى شيمة الذى يقول قولته فى أهل الغدر ومن يرونه دهاء وكياسة :

« . . . لقد أصبحنا فى زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيساً ، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة . ما لهم ، قاتلهم الله ! . . قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأى عين بعد القدرة عليها ، وينتهز فرصتها من لا حريجة له فى الدين . . »

فليس هو إذن بالذى يتحرر من نطاق المعايير الخلقية ، أو يخضعها لأهواء الأنفس أو دواعى الظروف . ليس أيضا بالذى يلف بها ويدور ثم لا يزال يشذب من أطرافها وينتقص من نواحيها لتطابق فكرة مصنوعة وبدعة موضوعة . إنما طريقه سوى ، ونظرته إلى الأمور مستقيمة تخترق منها القشور واللباب . وإن شأنه ومعاوية كشأنه بالأمس ، وكشأنه فى الغد القريب والغد البعيد . لا مداهنة ولا مهادنة . لكنه يظل يعذر إليه ، المرة بعد المرة ، حتى ينفد الصبر . .

وكان يعلم أن إعذاره إلى الرجل الذى ادعى لنفسه ولاية الدم كالصرخة فى الربع الخالى ، لا تردد سوى صداها . فما نفسه عنه بخافية ، ولا نداؤه بمسمع صممه ما دامت على قلوب أكنة وعلى عيون غشاوة ! . . ومع ذلك فإنه على كتابا ، يود لو وسعه به أن يستفىء غربه ويهديه عن غيه حرصا على السلام والإسلام . وهو هذه المرة لا يوفد إلا رسولا يكاد معاوية يرضاه ، فإنه عنده ناصح ثقة . وما فعل إلا وقد رجا أن تبعث هذه الوفادة فى نفس العاصى طمأنينة تسوقه لخير . . .

وكان رسوله جرير بن عبد الله ، صاحب همدان فى عهد سلفه . جاءه الكوفة فبايعه ، بعد أن نزعه من إمارته ، وعرض نفسه للوفادة . . فقال إذ ذاك :

« . . . ابعثنى إلى معاوية ، فإنه لم يزل بى مستنصحاً ودودا ، آتيه فأدعوه أن يسلم لك هذا الأمر .. على أن يكون أميراً من أمرائك ، فأعمل بطاعة الله .. وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك — وجلهم قومى وأهل بلادى — وقد رجوت ألا يعصونى . . »

والناظر فى شأن هذا الرسول قد يوشك أن يتبين ميله لابن أبى سفيان بعض ميل وإن هو حرص من بعد على أداء ما بعث فيه على نسق قد لا تناله المءابة . فهو يشير بأن يظل معاوية على إمارته ، عاملا من عمال على ، يخضع ولا ينزع ، كأنما فاته ما سلف على أمثال هذه المشورة من إباء الإمام . .

ويميل الأشتر إلى أمير المؤمنين عند سماعه قول جرير :

« لا تبعثه . ودعه ، ولا تصدقه . فوالله إنى أظن هواه هواهم ، ونيته نيتهم » .

لكن علياً لا يحكم بالظن فيدع اليقين . وقد نزع جريراً من ولايته التى ولاه عثمان فلم يجنح الرجل للخلاف ، بل سارع فنزل عند أمره ، وقال فيما قاله لأهل همدان وفى يمينه كتاب خلعه ، حينذاك :

« ... هذا كتاب أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وهو المأمون على الدين والدنيا . . . وقد بايعه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان . . . ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقهم بها ... ألا إن البقاء فى الجماعة ، والفناء فى الفرقة وعلى حاملكم على الحق ما استقمتم ، فإن ملتم أقام ميلكم . . »

فإن يكن قد خطر له اليوم أن يشير بإبقاء معاوية على عمله بالشام فلعله ترديد رأى قديم كانت بضعة قبله تراه . .

أما الإمام فلم يأخذه بالظنة ، ولم يستمع فيه للوم اللوام . من العدل أن على له ويسبر دخيلته حتى ينضح إناؤه بما فيه ! . . ولذلك نراه يقول للأشتر :

« دعه حتى ننظر ما يرجع به . . »

ثم يختم رسالته ويدفع بها إلى جرير :

« ... ائت معاوية بكتابى . فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا فانبذ إليه . وأعلمه أنى لا أرضى به أميرا ، وأن العامة لا ترضى به خليفة . . . »

يجب بقوله هذا مشورة الرسول وأشباهها من أنصاف الحلول ! . .

وكانت رسالة داعية واعية . دعت إلى الحق من أقصر سبله . وبأوضح أساليبه . . ووعت قصة الاستخلاف ، التي أثارت كل هذا الخلاف . بما سبقها وما لحقها من المقدمات والخواتيم . . . وكانت فوق هذا وذاك عظة جارية ، وحكمة هادية لمن أراد الهداية وشرح الله صدره وفجر في فؤاده ينبوع النور . فلم يغفل الإمام فيها أمراً جرت ألسن الناس بذكره إلا بينه . ولم يدع ثغرة ينفذ منها خصمه إلا سدها دونه . . . ما من شيء كان معاوية يستطيع أن يحتال به ، أو يدعيه حجة تؤيد خلافه وتسند انحرافه إلا مد له الإمام معولا من سطورها — حديداً شديداً — يدمر باطله ، ويقوض معاقله . . .

وشهدت دمشق ذات يوم عاهلها . مبهور النفس ، عليه فترة من اضطرابه ، وهو يلقي ساكناً بسمعه إلى حديث الرسول القادم صوبه من الجنوب :

« ... يامعاوية . إنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين . وأهل المصرين ، وأهل الحجاز ، وأهل اليمن ، وأهل مصر ، وأهل العروض وعمان ، وأهل البحرين واليمامة . فلم يبق إلا أهل هذه الحصون التي أنت فيها ، لو سال عليها سيل من أوديته غرقها ! . . . »

وكان القول ما قال جرير . فتلك الرقعة المبسوطة من بلاد الإسلام بين قرني الشمس كانت تظلها راية ابن أبي طالب إلا ثغورا في أقاصي الشمال تتاخم الروم قد غدت في يد الأمويين منذ وليها — خلال عهد أبي بكر الصديق — يزيد بن أبي سفيان . وهي اليوم بعده في حوزة أخيه . فلعل بقاءها في يد الأسرة هذه الحقبة من الزمن التي تزيد عن ربع قرن من السنين قد أطمع فيها معاوية ، فمضى يراها كالتراث الموروث . ولعل نفسه أبت إلا انتهابها طعمة له ولذويه ، يصطنع لامتلاكها الحيل ويحشد الذرائع ، ثم يحسب في خلعه عنها إهداراً لحقه وابتزازاً لسلطانه .

لكن جريرا لم يدع خيالات العاهل تسبح به إلى بعيد :

« . . . ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن . ألا وإن العرب لا تحتمل السيف . وقد كانت بالبصرة أمس ملحمة إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس . .

فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس . فإن قلت : استعملنى عثمان ثم لم يعزلنى فإن هذا أمر لو جاز لم يتم لله دين وكان لكل امرىء ما فى يديه . ولكن الله لم يجعل للآخر من الولاة حق الأول ، وجعل تلك أموراً موطأة ، وحقوقا ينسخ بعضها بعضا . . . »

فسرح الوالى بعينيه برهة ، يذرع بهما ملامح الرسول . وتفكر مليا . حتى إذا أعياه الجواب الصواب ، همس يقول :

« انظر وننظر . وأستطلع رأى أهل الشام . . . »

فإلى غد . فإن غدا فرجة الحيران ! . . .

٤

تلك الليلة لم يغمض جفنه . . . جاشت بنفسه همومه . تحركت وساوسه . تداعت رؤى الأمل نصب عينيه — أمله القديم الذى ابتنى له هيكلا فارع الذرا والعماد فيه عرش وصولجان ! . . يا ترى يرخى قبضته ؟ . . أيدع القنية الثمينة يفلتها كفه بعد حرصه على إمساكها كل هذه الأعوام ؟ . . هل يخضع للنزع فينزع ، وللخلع فيخلع ، ويرتد ، كغيره من الولاة القدامى مسلوبى الحول ، امرأ فى الغمار من عرض الناس ؟ . .

لم يكن بالغر . . الأحلام التى تضطرب فى جوانحه لا يحركها الوهم وحده . وأطماع نفسه التى تجنح به إلى تسنم غارب السيادة لا تستند فحسب على قاعدة هشة من خيالات مخدوع ... هو لا يلوى طرفه بعيدا عن السحائب التى تجمعت فى أفقه . لا يغفل عن الحقائق الجلية البادية وإن فدحته وأثارت باله . وهذه الرقعة المبسوطة تحته ، الخاضعة لسلطانه ، هى لا ريب أهون شىء على غريمه حين يستعر القتال ويغدو السيف وحده هو الفيصل . وهى كذلك محط شراهة الروم ، لا تنى سرايا جندهم تنوشها وتغير على ثغورها الدانية منهم لتردها كرة أخرى إلى أحضان أمها القسطنطينية . ولكنها جنة له على أى حال . وملاذ أمين يحميه من على إلى حين حتى تتكشف وجوه الأحداث . فلن يعدم وسيلة تكف

عنه غائلة القيصر الرومانى المستأسد ، إن بالصلح والمهادنة ، وإن بالمال والهدية ليفرغ من بعد للصراع الكبير . ولن يكل عند ذاك للغد وما يجن من عوامل خفية أن يحسم ما بينه وبين الخليفة الإسلامى الذى بات لا يرضيه غير استئصاله وقشره عن الشام . . إنما سيعمل ! . . لسوف يجيش كل فى طاقة البشر من جهود وحيلة . . . ليمدن إلى أطراف دولة خصمه ألسنة النار ! . . لتكونن كل بلدة من بلدانها مشغولة بنفسها ، لا تعرف الدعة ، ولا تستطيع فى محنها التى تترى أن تمد الخليفة بمال ورجال ! . . ليجعلنها مراداً لحفنة من العصابات المنهومة إلى العبث وانتهاب الأسلاب ، فتنام على غارة لتصبح على غارة ! . .

حتى الظروف نفسها بدت كأنما تؤازره . . . هذه سجستان وطئت أرضها جموع من هراب البصرة غب الجمل فغلبت عليها وقتلت عامل على هناك . وهذه خراسان انسلخ أهلها من الطاعة ، وانسلخوا كذلك من الدين صابئين ، ثم أمدهم رجال كسرى من كابل بما أجج ثورتهم حتى أوشكت أن تذهب فيها ريح الإسلام . . . إنها النذر . الأنسام الوانية التى تسبق المواصف ! . . وإذا كان ابن عباس قد بادر فاسترد سجستان وأعاد فيها راية ابن عمه خفاقة ، وإذا كان خليد قد مشى على خراسان فأوقع بالمرتدة فى نيسابور وغنم وسبى وساق بنات كسرى إلى الكوفة أسيرات ، فذلك نصر قد لا يجف له قلب غريم يقيس النتائج البعيدة بقياس المقدمات الماثلة للعيون . أو ليست هذه الفترة فاتحة تكاد تنبىء عن سلسلة أخرى من الثورات قد تسير غدا أو بعده فى ركاب الإمام ؟ . .

ليوشك معاوية أن تتبدى له الدولة كلها تزلزلت نواحيها ، لا يهدأ فيها بركان إلا ويثور بركان . . . وقد كانت المنى أحياناً هى التى توجه نظرته ، وتنفذ بها فى المستقبل إلى خواتيم مأمولة . وكانت الحقائق دليله فى بضعة من الأحايين . حتى مصر التى أثقلت فؤاده وعادته من أحوالها الهموم ، لم يعدم بها فرجة تنفس عنه بعض برحائه فما زالت ثمة فئة على ضفة النيل يتوقع عندها الخير . إنها هناك رابضة — وقد فتنها مقتل عثمان عن التزام جماعة المسلمين — تتربص بقريتها ، وتنتظر سانحة من الزمن تسنح لتعلن التمرد باسم الثأر للقتيل . هى تحتجر بخربتا احتجار الثعالب . تتلمس الأمن فى الاعتزال . تقر هادئة عن تخاذل

وخشية . ولكنها لن تلبث أن تضحى بعصر بؤرة تشل سلطة على ، وتفسد عليه أموره أيما إفساد لو عرف الغاوى كيف يحرك منها على الخليفة النفوس ويوغر الصدور ...

غير أن هذا كله لم يعد معاوية بالطمأنينة ، فالزمن الذى يحالفه اليوم قد يحالف فى غـد غريمه . والريح الرخاء التى يسبح فى مهبها شراعه قد تزمجر كالإعصار . بل هو لحظته هذه راحت تضطرب فى أعماقه عوامل خوفه وتدور أعتى من اضطرابها أمسه . فإنما مصر بلواه ! . . بها المال والرجال . وبها من الزاد وفرة تكفى أمة ضخمة من الجيوش تشرق وتغرب فى فجاج هذه الدنيا الفسيحة ثم لا تكفها عن الزحف حاجة ! . . وبها اكتملت لابن أبى طالب مادة الحرب كلها — بعد إذ غدا العراق ملك يمينه — من ذخيرة الجند والمؤن والعتاد حتى أوشك ألا تكون قط مادة لأحد سواه . ومنذ غلب عليها ابن أبى حذيفة وطرد منها عامل عثمان وهى شجا فى حلق صاحب الشام . قذى فى عينيه . حربة مسمومة تشق جنبه وتدميه . وليس يأمن الآن أن يأتيه جند منها وجند من الكوفة فيصبح بالجندين بين شقى الرحى ويشخب جنباه ! . . .

وأحس كأنما قدمه على مزلق تحتها هاوية سحيقة الغور إلى أبعاد تضل فيها النظر ضلالها فى السواد الكثيف الذى نشرته حوله هذه الليلة الباردة من ليالى الشتاء . وكانت العيون فى القصر وسنى . والصمت يشمل كل جزء من أبهائه ونواحيه . وكانت الريح ذات دوى وزئير وهى تجوس معولة بين غابات أشجار الحور التى أشرعت جذوعها كالمآذن وشبكت غصونها كالقباب ! . . ولم يكن ثمة فى الليل أنيس إلا الوحشة ، ولا سمير إلا العزيف والعواء ! . . لا هيئة إنسان ولا همسة لسان . الهدوء فى الدار والثورة فى الغاب ! ولو قد أتيح له أن يتكلم بمنطق الشجر والريح ، لبادلها وجيفا بوجيف وعزيفاً بعزيف ! فما أثقل الصمت على نفس الحائر ! وما أشقها من وحدة حينما تتكاثف حوله ظلال الهموم ! . . إنه ليتلفت فيما اكتنفه بحجرته ، وفيما امتد إلى ما خلفها خارج أسجاف الشرفة المنفغرة بكمام كفم المتوه ، فلا تقع عينه إلا على صحراء من الخرس والظلمة . . . إنه ليطرب أمام خلجات خاطره . . إنه ليحس بدنه يهتز على ضربات قلبه

الواجف . . . أفيدعو إليه عتبة أخاه يبثه بعض شجوه ؟ . . أيصفق فيأتيه من فتيانه غلام يعلا عليه بعض هذا الفراغ ؟ . . أيتربص بالحارس الذى أخذ وقع خطواته الوانية يتردد خافتاً فى الردهة ، ثم يبرز إليه يحادثه أيما حديث تجريه اللحظة على لسانه ؟ . . لقد تاق سمعه لـكلمة ، وتاق ثغره لـكلمة ، فمن له بسمع وسامع ؟ . .

ولم يشعر أن قدميه قد انسابتا ، كما فى حلم ، تحملانه إلى الباب حتى هم أن يجوزه . لـكن نسمة باردة ردته لوعيه قبل انفلاته إلى البهو ، وعادت به ثانية إلى الغرفة الـكئيبة . . . تأبى عليه نفسه أن يكشفها لمن يرونه صاحب قدره وسيد مصيره . تأنف عزته . دون هذا وتحرن خيلاؤه ! . . كلا ، لن يدع الناس يقولون إن شيئا حزبه وأمرا أهمه وهم يرجونه كلما اشتبهت الأمور والأشياء على الدهاة والأذكياء ! . . . إنما سيحفظ فى قرارته همه حتى ينبلج الصبح وتنقشع غمة هذا الليل الطويل الثقيل . وعندما يتبدى الفجر ستبدأ له شواغل تنأى به عن تيه أفـكاره . وحتى يسفر النهار فإنه سيزجى الفراغ والوحشة بالحديث والسماع . سيتكلم لسانه وتنصت آذانه ! . . .

وكرة أخرى عد أصابعه إلى الـكتاب الذى أقبل به عليه وافد الإمام . الآن لا يقرؤه قراءة عين . لا يتجول ناظراه فى سطوره وهو صامت يفـكر . إنما يلوك فى حلقه حروفه فتتذبذب لهاته بألفاظه ، ويفر الصمت على جرس صوته الخافت الوئيد :

« . . . أما بعد فإن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد . وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضا . فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ويصليه جهنم وساءت مصيرا . . .

إن طلحة والزبير بايعانى ، ثم نقضا بيعتى ، وكان نقضهما كردتهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما

دخل فيه المسلمون ، فإن أحب الأمور إلى فيك العافية إلا أن تتعرض للبلاء . فإن تعرضت له قاتلتك ، واستعنت الله عليك . . .

وقد أكثرت الكلام فى قتلة عثمان ، فادخل فى الطاعة ثم حاكم القوم إلى أحملهم وإياهم على كتاب الله . فأما تلك التى تريد فخدعة الصبي عن اللبن فى أول الفصال ! . .

لعمرى يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ الناس من دم عثمان ، ولتعلمن أنى كنت فى عزلة عنه إلا أن تتجنى فتجن ما بدالك ! . . واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ، ولا تعقد معهم الإمامة ، ولا تعرض فيهم الشورى . وقد بعثت إليك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والهجرة السابقة ، فبايع . ولا قوة إلا بالله . . . »

ثم صمت الحديث ! . . عاد السكون يملأ أطباق الحجرة ، والوحشة ترود فراغها الثقيل . ورجع البكم مرة أخرى يحاور أذنيه ! . . ولكنه مع هذا لم يدع ذلك الكتاب من يمينه . ظل برهة من زمن ، طويلة على وهمه ، يقلبه فى كفه ، لغير مرمى أو غاية . لبث يتبعه نظره يمد عينا لكلمة منه هنا وعينا لكلمة هناك . ففيم سبحه الآن على خضم أفكاره ؟ . . أقد استخذى إذ يعير بماضيه وتخلفه الغابر عن اللحوق بأهل القدمة والسابقة فى الإسلام ؟ . . أود لو يستشف حقيقة الوعيد الذى أزجاه على إليه فى ثوب رقيق من الرفق والسماحة ؟ . . أمست قلبه واعتصرته العبرة التى نضحت بها فى البصرة عقبى أصحاب طلحة الناكثين ؟ . .

هو لا يدرى ، وأنى له ، أى هذا كله جرى فى باله — تلك الساعة المتأخرة فى السحر ، الدانية من الفجر — وإن ذهنه لتختلط فيه ولائذه من خواطر وأوهام ، وخطط وأحلام . غير أنه استطاع أن يرى من خلال تلك السطور صورة لذلك القصير ، الذى دبج الكتاب ببيانه وأملاه بلسانه ، أطلعته فى غير الهيئة التى يرسمها الحمق . . . كلا ليس بالغر ! ليس ابن أبى طالب بالذى تفتله خدعة مخادع أو حيلة محتال . . . وحتى قصة الثأر التى أهاجت عليه فرقة من أهل الشام ، وكانت حقيقة بأن تحد من غلواء أى خليفة سواه وتنال من صلابته ،

لم تكن ذات أثر مذكور فيما وطد عليه عزمه منذ بدء اضطلاعه بأمر الدولة ، بل لعلها زادته استمساكا برأيه ، وإصراراً على خلع مدعى ولاية القتيل . فما دم الشيخ نهبة للناس من شاء منهم تولى ثأره . وإنما الأمير الشرعى وحده وليه ، يأخذ مهريقه ، وينفذ فيه كلمة العدالة . أما عشيرة القتيل وذووه فأفراد فى الدولة يلتمهم كغيرهم قانونها العام ، لهم حق الاحتكام فى ثأرهم إلى الحاكم دون حق الحكم فى المذنب ، فإذا سولت لهم نخوتهم ابتزاز سلطة القصاص ، فهم خارجون على النظام . . .

كل هذا قد انبسط فى الكتاب وتبينت حجته بلقاء لا يقدر أن يخفيها ادعاء مغرض ذى هوى وإن لف ودار وسم الأفكار وسحر الأنظار ! . لكن معاوية اليوم فى حرب فناء ، يتوسل إلى كسبها بما يستطيع . فما يفيده أن يعين إذا المين نصره ، ولا أن يغش إذا الغش عززه ، وعندما يصبح سلطانه الدنيوى فى كفة ، والقيم الخلقية العليا فى كفة ، فلن يتردد لحظة فى أى الكفتين يختار . ولقد أعز حقا غرسه فتعلقت به نفوس أهل حاضرته ، وراحوا يعاقدونه على الثأر الذى أبداه فى عيونهم بطلا يستجيب لدواعى المروءة والنجدة كما تتحدث بها أساطير الأبطال ! . ولم يكن تعاقدهم ذاك وعدا موقوتا بأجل النخوة التى ابتعثها فى قلوبهم غضبهم الطارئ للدم المسفوك ، ولكنه كان عهداً صادقا قطعوه عن سلامة طوية ونذرا خالصاً نذروه عن عزيمة وإصرار . فما زالوا إلى يومهم لا يمس جلودهم غسل ، ويعيشون فى بيوتهم كرهبان الدير لا يقربون النساء ! . . . وإنهم فى غد حريون أن يظلوا على موثقهم حتى ينالوا ثأر الخليفة المقتول أو ينحرف بهم كبيرهم عن التماس القصاص .

وابتسم معاوية . عرف البشر الآن طريقه لوجه المكروب . ومض الأمل فى أعماقه التى ملأتها قتامة الهموم . خف قلبه الثقيل . . . وعندما كان يلقى بنظره الساهر إلى الظلام الذى أخذت ظلاله ترق خارج الشرفة فى لفائف الغاب ، كان خاطره يسبح به عائداً إلى ذات أمسية حارة من الصيف الذاهب ، وانية الهواء وسنانة النسيم . . لقد أصاب الحجاج بن خزيمة إذ ذاك ، وصدقت نظرته فى طبائع النفوس حين جاءه تلك الليلة يضرب عليه بابه لينبئه خبر ما جرت به الأقدار فى مدينة الرسول . . . يقول له معاوية :

« . . . ما وراءك يا حجاج ؟ . . »

فيجيبه الرجل وهو ساهم حزين :

« إني لك النذير العريان ، فقد قتل أمير المؤمنين . . . »

وتظلل سحابة من الفكر وجه السامع وأخرى من الأسى وجه صاحب الحديث ويسيطر الوجوم برهة على المكان . ويتفرد كل منهما قليلا بهمه حتى يعودا إلى ما كانا فيه من الإنصات والرواية . فإذا بلغ الحجاج من خبره غايته مضى يقول :

« . . . وإني يا معاوية مخبرك أنك تقوى على علي بدون ما يقوى به عليك ، لأن من معك لا يقولون إذا قلت ، ولا يسألون إذا أمرت ؛ ومن مع علي يقولون إذا قال ، ويسألون إذا أمر . فقليل ممن معك خير من كثير ممن معه ! . . »

وابتسم الماهل مرة أخرى وهو يثوب لنفسه من خواطره . وطاب فؤاده وصفا محياه . . . كانت الذكرى بشرى له بالأمان ! . .

ثم أقبل الفجر عليه من المشرق . أطلعت الظلمة له غرة لاحة بلون آماله تطل من خلال الظلال التي مدتها حول قصره مردة الشجر في الغاب . وكانت عقود الضياء تنبثق من بعيد كقطر الماء من فم الينبوع . وكانت حباتها الدقاق البيضاء تنتظم وتتضام ، رويدا رويدا ، في رحاب الفضاء الفسيح حتى غدت فيضا راح يغمر الدنيا بلألائه . . . وتبدت السحائب المنبثة في جوانب الأفق ذات ألوان في مسيل الشعاع ، بها من دكنة الليل ، ورقة اللازورد ، ووهج الفضة ، وحمرة الياقوت . وأخذت مسحة من الضوء في نصاعة الثلج تجلل رءوس الروابي وقمم الأشجار التي أتلعت أجيادها ترنو مشوقة إلى جبين النهار الوليد . . . وعندما زحف إلى شرفته أول شعاع ، وطرفت أهدابه على وميض نوره ، وانطوى الليل الساهر في غلالة الصباح ، كان الماهل المكدود الذي استخفه بشره يجتر الذكرى ، وتتراءى أمام عينه الوسنانة صورة صاحبه ، فيهتف لها — وهو باسم — بين خفق النعاس :

« . . . ما وراءك يا حجاج ؟ . . »

٥

كأنه فوقعة طوتها صدفة ! . . كان واجما ، غامض النظرة ، قد غلب على محياه السهوم وأخذت قسماته مسحة فيها عبوس وفيها جفوة . .. وكانت عينه جوفاء ، جللت لحها سحابة من الشرود كالضباب الذى يغشى أحيانا بركة من الماء الآسن ! . . فى قرارها تنام حيرته ثم يخفيها وقاره المصنوع كما تخفى غيمة الضباب الحمأ والطين فى قاع البركة . وتحت أهدابها انتشرت دكنة خلفها سهرة كتلك الظلال التى تعدها على حوافى المياه الكدرة أعواد الشوك . ولم تكن نفسه هادئة وإن أوحى مظهره الساكن بالهدوء والطمأنينة . ولم يستقر له خاطر خلال النهر والليالى التى ملأها بتفكيره . فما يزال يتنسم القلق منذ جاءه جرير . وما تنى ألوان شتى من التوجس والخشية تتواثب على ذهنه كالأشباح . ولقد كان فى البدء يوشك ألا يحفل بوافد الكوفة إذ حسبه رسولا كالرسل ، يبلغ رسالة ثم يعود ، فإذا هو عنده ماكث مقيم ، وإذا هو كالصدى فى القصر الخالى يتردد دويه فى هذه وتلك من حجراته وأبهائه حسبما يفسح له فراغها فى الرجع والتردد . . . فكذلك غدا جرير . وكذلك لبث عنده لا يبرح إلا أن يرده عنه بجواب ما جاء فيه . .

بضعة أيام قضاها معاوية هدفا سهلا لإلحاف جرير لايعرف لنفسه مهربا منه إلا التسويف . فلقد حصرته دعوة الإمام للطاعة فى أضيق الأركان ، وسدت دونه كل مسلك إلا المجاهرة بالسلم أو المبادرة بالعداء وكلا الأمرين عليه شديد . ولكنه اختار أن يتربص بزمنه ، ويستأنى به لعله يجيئه بالخلاص . فنى الزمن لكل حائر ملاذ . . . وحسبه الآن أن يراوغ ، ويحتجر من الرسول كالضب أو الثعلب ، ويمسك قلبه خشية ثم يمسك لسانه تحرزا فلا يعلن البيعة ولا يشهر العصيان !! .

ويلتفت ذات ليلة وقد أطبق عليه إلحاح الرجل :

« . . . ياجرير ! . . إنها ليست بخلسة . وإنه أمر له ما بعده ، فأبلعنى ريق ! . . . »

غير أنه لم يكن يرمى بعطله الجديد إلى الإفساح لنفسه فى التدبر ووزن الأمور . فالنهج أمامه واضح والطريق مستقيم . إنما لغاية يبطنها شاء أن يستمهل ، وأن يرجىء وسمه البت فى دعوة غريمه برد صريح . ومن يدرى ؟ . فلعل البريد أن يأتيه الآن بالجواب الذى بات طويلا يترقب أن تنشق عنه صحارى فلسطين . .

وفرغ والظلمة إلى خلوته . . . وكانت نفسه حزينة كالليل . وكان قلبه ثقيلا كالرمل . وكانت عينه ندية كالطل . بينا عوامل القلق تتناوب ذهنه الكليل كأنها ذئاب جياع تناوبت فريسة ! . . لكن هذا كله لم يمنع سمعه أن يمتد إلى الخلاء والرياض حول قصره العالى ينصت فيها لوقع الحوافر على الحصا والحشائش . غير أنه لم يتلقف فى الوحدة الهامدة إلا همسات الوحشة فما ثمة جياد . ولا ثمة بريد يجيئه بما يريد . وإن الليل ليخضى به والهدوء شامل . وإن الصمت يتراكم حوله كما تكاثفت فى السماء غيوم أمسيته المطيرة . وأن الأنجم لتبرز مطلة عليه من بين السحب كالعيون السواهر ، ثم تزهر ، ثم تبهت فتغيب ومازال سمعه المترقب معلقاً بالمجهول . . . أيا ترى طاشت هذه المرة مشورة عتبة أخيه ؟ . . . أم النهار سيسفر عن أمله ؟ . . أم ذلك القابع بناحية البيع من فلسطين قد آثر أن يشخص بنفسه إليه فلا مدعاة إذن لتحرير رقعة لوفادة رسول ؟ . .

أينما جرت به أحلامه أو همومه فمشورة أخيه لاتنى تتردد فى فراغ ذهنه الأجوف ، حتى فى هذه اللحظة التى اختلى فيها بحيرته كان صوت عتبة يعاوده ، ويملأ خلوته ، ويدوى فى أذنيه دوى الطبول . . ولم يكن قد أغفل تلك المشورة التى لقنه سليل آخر من سلالة أبى سفيان ، ولا أمهلها حينا حتى يتبين ما لعلها تحتوى من رشد أو تسفر عنه من عار ، وإنما تلقفها ملهوفا من فم المشير وقد لاحت له كأنها القشة التى تنقذ الغريق ؟ . . ومع ذلك فما كفت — منذ احتضنها وأنقذها — تلح بلفظها عليه ، وتضطرب فى خاطره ، ويعلو جرسها رويدا رويدا من طوايا ماضيه الدانى حتى غدا يسمعها — ليلته هذه — كأنها تند لتوها من شفتى عتبة ، صاخبة هادرة كزبد الشلال : « اجتمعن بعمرو ! » . . « اجتمعن على هذا الأمر بعمرو ! » . . « اجتمعن على هذا الأمر بعمرو

ابن العاص ، وأنى له بدينه ! » . . . فما لعمرو ينام عنه كل هذه الليالى الطويلة فلا يقبل ولا يبادر بجواب ؟ . . .

كانت دعوته — وليدة المشورة — التى وجهها إلى نزيل فلسطين ، بسيطة ، ساذجة المظهر لا تنطوى على التواء : « . . : قدم علينا جرير فى بيعة على ، وقد حبست نفسى عليك حتى تأتينى : أقدم أذاكرك أمرا » . . . كانت تتحدث فى يسر ، بلسان راغب فى النصح باحث عن الصواب . كانت رخية اللفظ ، ناعمته ، تنم عن خطاب ند لند أثير لديه حتى ليدع ثقاته وخلصاءه أجمعين ممن فى متناول عينه بالشام ثم يستمد هذا القاصى رأيه ويستهديه عبر الصحراء . كانت غفلا من التلويح بالمغنم واستثارة شره الأنفس المفتونة بالمناصب وأسباب الجاه . فلولا أن ابن العاص عليم بخافية داعيه لأخذه الزهو حينذاك ، ولتاه عزة وكبرا وهو يرى داهية الشام يحبس نفسه على مشورته لكنه خبير به ، يعرفه أخا حذر ، ويعرفه أيضا طويل المعطس يمد أنفه إلى مهاب نفعه كما يمتد خرطوم الفيل ! . . فإذا دعاه معاوية ، فلغير الحق أو صلة الصحبة دعاه . وإذا هو لبى ، فلغير ذاك أو هذه تكون شوراه . . . كلا الرجلين يجيد قواعد الحساب ! . .

وإذن فهذه رحلة إلى دمشق تنتظره ، وعناء ووعثاء ، ويد سخية عند نهاية الشقة تمسح عنه عرق المشقة ! . . إن ابن العاص كذلك أريب ، داهية كداعيه لا يتنكر طائعا للطبيعة الجائعة فى نفسه التى يمتزج فيها القليل من النور بالكثير من الطين ! . . إنه لا ينسى الجبلة البشرية ، النابتة من الأرض ، الرانية إلى الأرض ، المشغوفة من الدنيا بما لا يوشك أن يجاوز مجال الحواس . أما الروح فأمرها عليه هين ، والضياء الذى ينبثق من صفائها فقد غشاه درن المادة ، والقيم الإنسانية المثلى فقد غمرتها عبادة اللذات ! . . كان الرجل واقعى النظرة ، يؤثر أن يغوص بقدميه فى الطين على أن يسمو فوقه بجناحى ملك ترفعانه بعيداً عن نطاق عيشه . . كان وفياً لذاته غاية الوفاء ، مشغوفا بها غاية الشغف ، حتى لتوشك أن تكون كل همه وكل شاغله . . وعندما اكتوت الأمة بالفتنة التى كان عثمان قربانها ، مضى يراقب الأفق فى صبر ، ويتبين طلعه ، ثم همس لنفسه وهو متذائب بين اليأس وبين الرجاء :

« . . . إن يله طلحة فهو فتى العرب سيبا ، وإن يله ابن أبى طالب فلا أراه إلا سيستنظف الحق . وهو أكره من يليه إلى ! . . »

وها هو اليوم ، بعد طول تلبث وأناة ، يعلم بفاجعة البصرة . ويرى الناس يلتفون بعلى ، ويتبعون هديه الذى يقدم المبدأ على النشب . . . وها هو يشيم بشائر دولة توشك أن تقوض الأثرة وترسى عمدها على الفداء والإيثار . . وها هو مبشر جديد يدعو قومه إلى مكارم الأخلاق دون كرائم الهبات والأرزاق ، يحذرهم البهرج والزخرف ، ويحملهم على الشظف والزهادة فى مغانى الدنيا ليرتدوا كرة أخرى إلى دعوة الله . فهل فى ساحة مثله لابن النابغة مكان ؟ . . .

ويومىء عمرو إلى ولديه وفى يده كتاب ابن أبى سفيان :

« ما تريان ؟ . . »

يقول له عبد الله :

« . . إن نبى الله قبض وهو عنك راض ، والخليفتان . . فقر فى منزلك ، فلست مجعولا خليفة ، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا أوشك أن تهلك فتشقى فيها . . . »

ويقول محمد :

« . . إنك شيخ قريش ، وصاحب أمرها ، وإن تصرم هذا الأمر وأنت فيه خامل تصاغر أمرك . . فالحق بجماعة أهل الشام فكن يدا من أياديها ، واطلب بدم عثمان » .

الثأر لعثمان ؟ . .

هذه هى القضية ! . . وإنها لدعوة رنانة الجرس كقرع النحاس ! . . وإنها لراية حمراء فى لون الدم تنساق وراءها حمية الجماهير الكلفة بتأثر مواقع البطولة ! . . وهى التكأة التى يمكن أن يرتكز عليها عرد معاوية . وهى النبع الذى ترتوى منه أطماعه . وهى مجازه الوحيد للمجد حين أعوزه طويلا الفوز بغيرها من وسائل الأمجاد ! . . ليوشك عمرو أن يلبث ساعة يقلب فيها الأمور فى باله ، وهو يتدبر أساليب صاحب الشام لتستشف الخبىء خلف ندائه المدوى للدم . . أفهو صادق فى القصاص إذن على ابن العاص حين يذكر الوالغون

فى دماء عثمان ؟ . . أم هو كاذب فدعوته لأطماعه ستار تلتقى وراءه يد الباغى الواتر بيد الدعى الموتور ؟ . .

إن معاوية ليبدو كأن قد آثر طائعا أن يستمد ابن النابغة دهاءه من أجل مطامع وآراب، ترق لها الدماء كالماء، وينسى الثأر فلا يصبح له حساب، ويتحالف الحسام الغاضب بالحسام المخضوب ! . . . لأمر ما يسالم الرجل واتره، ويؤازر مهريق الدم الحرام المسفوك على الثأر من برىء. فما دور عمرو فى الفتنة بمجهول، وما تأليبه على القتيل بغائب عن مدعى ولاية دمائه، وما شماتته يوم أتته أخبار المصرع إلا لها بقية لا تزال تلفظها حتى اللحظة شفاه الرواة . . . ومع ذلك فابن العاص لا يستغش داعيه، ولا يتهم التماسه المشورة لديه. إن شعورا غامض الكنه يفىء الثقة على نفسه وهو يقلب بين أصابعه كتاب عاهل الشام. إنه لا يقرأ الغدر بين الكلمات. لا يشك قط فى حاجة معاوية إليه، ولا يظنه يريد استلحاقة وهو يخفى له غيلة — كلا، فهذا بعيد. ولقد يوشك الحلف ألا يقوم بين مؤمنين بهدف، مخلص كل منهما لصاحبه، يتبادلان ثقة بثقة وولاء بولاء، ولكنه يقوم أيضا بين مربيين، يلتقى نفعهما، كالحال فى البيع والشراء . .

ويحدث عمرو ولديه وقد تعبد له مسرى تفكيره :

« . . أما أنت يا عبد الله فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى، وأما أنت يا محمد فأمرتنى بما هو خير لى فى دنياى . . »

ثم لا يكون له فى أى الرأيين حسم إلا أن يجنه الليل. فالليل مسرح الفكر كما هو مسرب الهوى والتآمر ! . . لكن الجشع لا يدع له مهلة ليقدر أمره حق قدره، ويبتغى فيه وجه الله. إن الطين فى طبيعته طغى على النور ! . قوة مطامعه غلبت إيمانه. استذله زخرف الجاه. هو نفسه لم يستطع من بعد أن ينكر ما كان من جنوحه — هذه اللحظة — إلى متاع الحياة. كان عصيا عليه أن ينكر، عسيرا أن يهدأ ندمه ولما تبق بينه وبين عدالة الله إلا نفس واهن يلفظه صدره ولا يستعيده، وخيط واه من أجله تعلق به وجوده، وحفرة فى الأرض هى دار قراره، وحفنة من ترابها هى كل دثاره ! . . فعندما لم يعد له أمل

إلا في الرحمة ، وذبل بدنه كعود الهشيم ، وفغر القبر فمه بعد بضع سنين قليلة ليلقاه ، بكى واستعبر ، وناجى الله :

« اللهم إنك أمرتني فلم آتمر ، وزجرتني فلم أزدجر . . »

فكم كان أولى له لو استشعر وخزات ضميره وكيانه ركين ، وبناؤه متين ، والعمر أمامه مديد فسيح للتوبة ! . . لكن المنى خدعته حينذاك عن آخرته ، ولمعت في أفق حياته التماع السراب ، فانطلق مع الهوى إلى حيث لا جنى ولا ماء ! . وإنه عندئذ ليتشبث بدنياه بمثل حرص البخيل وشره المنهوم فلا يدع من كفه كتاب صاحب دمشق ، ولا يدع من باله عروضه التي اختفت وراء ألفاظه . . فإذا هو يمضي يتهيأ لرحلته وإذا هو قد ألقى بنظرة الوداع على ممتزله ، وإذا القافلة به تسير ، خلفها البيع وأمامها الشام . .

وتخب المطايا . ويترنم الحداة . وينساب الخف على الرمل الناعم انسياب الشراع . ويتأرجح الركب على الظهر فيتأرجح الفكر . . دون الهدف الذي سعى الرجل إليه مراحل تضطرب فيها الخطا كما تتضارب الشواغل . فالعاجلة شاغله ، والآجلة شاغله . المغنم والمنصب والنفوذ تصارع الحق والهدى والسلامة . وفي غمرة هذا المعترك كانت نفسه مضيعة ، لا تعرف مكانها اللازم بين القوى المصطرعة ، إلى هذه أم هاتيك . . وإن الركب ليمضي فيهتف به أن يفيء للقرار . وإنه ليقر فينادي بالسير وإنه ليبطيء فيعجله أو يسرع فيمهله ، والرفاق حوله في حيرة مما يبديه . .

ويهمس له غلامه وردان :

« خلطت أبا عبد الله ! . . »

فيلحاه :

« ويحك ! . . »

ولا يأبه العبد شيئا باللحى ، بل يعاود الحديث :

« أما إنك إن شئت أنبأتك بما في نفسك . . »

« هات . . »

« اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت : على معه الآخرة فى غير دنيا ، وفى الآخرة عوض عن الدنيا ، ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة ، وليس فى الدنيا عوض من الآخرة . فأنت واقف بينهما . . . »

عندئذ يطوف بشفتى عمرو خيال بسمة وهو يقول :

« فإنك والله ما أخطأت . فما ترى يا وردان ؟ »

« أرى أن تقيم فى بيتك ، فإن ظهر أهل الدين عشت فى عفو دينهم ، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك . . . »

فيغضى الداهية مليا يفكر . ثمة فى نصح عبده دهاء . هو أناة قد تثمر له راحة البال أو رفاهة الحال . فيه أمن من مغريات الحياة المضلة ، إلى حين ، حتى يتبين لمن الغلبة فى نهاية الصراع . . لكن ممه وحده لقف النصح ولفظته بعده كل جارحة فيه ، فإنما الدنيا أدنى ثمرة ، وأشهى لمن تعجل الحظوظ ! . . . وهو الآن قد جاعت نفسه بعد كل هذا الانتظار ، وشفها الظمأ إلى المجد ! . . . وهو قد هيأ لمصيره المرموق ركابه وجند أصبابه ! . . . وهو إنما يخرج مخرجه هذا ، كما يحسب أهالى فلسطين وكلهم لمعاوية رعية وظهير ، عن مروءة ونجدة ، تلبية منه لصيحة الدم ودعوة الثأر للخليفة القتيل . . . فهل إلى إحجامه سبيل ؟

ويهز رأسه فى تمهل ونفسه تحدثه :

« الآن لما شهدت العرب مسيرى إلى معاوية ؟ »

وتهتف كل جارحة فيه :

« كلا ! »

ثم يلتمع العزم فى ناظريه وهو يلقى بأمره ، صريحا صارما ، إلى غلامه :

« ارحل يا وردان . . . »

٦

عندما التقى الثعلبان تراوغا فترة . . . كان لقاء على دخل ، لم يأمن فيه أحدهما لصاحبه ، ولم يركن له . فما يستطيع حاف تقيمه الأنانية وحدها أن يربط بالثقة بين شخصين . . .

لكن مر الأيام قرب ما باعدته الريبة وراح يردم الهوة المحفورة بين وصولى بنى سهم ووصولى الأمويين . وهل للمراوغة دون غيرها كانت رحلة ابن العاص ؟ وهل للتعالي والكبر كانت دعوة معاوية ؟ . أن ضغط الحوادث لينادى صاحب الشام أن يبادر الأمور بالحسم والمعاجلة . فالزمن يتسرب من بين يديه ويفر كالغمائم الرقاق فى إبان عاصفة . . . والنهز والسوانح قد تقبل ثم تدبر ثم لا تعود كرة أخرى إلى الظهور . . . وها هو عمرو عنده ، قد جاءه دون ريب لنفع ، وبذل من دينه وآخرته ، وأراق من ضميره بقدر الخطا التى قطعتها قافلته طوال طريقها من فلسطين إلى الشام ! . كلا ، لم يكن ابن العاص بالمخدوع فتغشه كلمات صاحبه التى غلفها له بطلب المشورة وبطنها بالنخوة للدم المراق ، كلا لم تغب عنه جبلته فيظاهره نصرة لحق أو يشايعه حقيقة على واتر ، بل النفع هو الذى يرسم الصلة بينهما ، ويختم بخاتمه صك الاتفاق ! . . .

ويخرج ابن العاص من التلميح بطلبته إلى التصريح السافر عندما تؤوده مداورة حليفة وتعييه :

« . . . والله يامعاوية ما أنت وعلى بعكمى بعير ! . . »

فلاتغضب العاهل هذه المجابهة، ولا ترده عن الإنصات . ويعاود عمرو الحديث :

« . . . مالك هجرته ، ولا سابقته ، ولا صحبته وجهاده ، ولا فقهه وعلمه . ووالله إن له مع ذلك حدا وجدا ، وحظا وحظوة ، وبلاء من الله حسنا . فما تجعل لى إن شايعتك على حربه وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر ؟ . . »

قال معاوية :

« حكمك . »

« مصر طعمة . »

فتلكأ حينذاك صاحب الشام . أهالته فداحة المطلب وسرفه أم غلبته الخشية على نفسه وعلى أهدافه من خبث حليفه ؟ . . لكنه أغضى هنيهة عن شكوكه ، وراح يرد طمع مساومه باللين والدهاء :

« إنى أكره يا أبا عبد الله أن يتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت فى هذا الأمر لغرض الدنيا . . »

فتجهم عمرو . وأجابه فى اقتضاب :

« دعنى عنك ! »

ثم أولاه ظهره ، ومشى ليغادر المكان .

لكن معاوية لم يتركه . إن الأطماع دربها طويل . فيه حزون ومفاوز . فيه أودية كثيرة من التيه توحش السارى وتزرع الخوف فى خياله . وفيه أيضا عوسج وشوك . . . وعندما قر فى عزم ابن أبى سفيان أن يرود هذا الطريق ويقطع مراحله لم يغب عنه أن يهيئ لنفسه المطية ، فليس من الحكمة الآن أن يدفعها إلى الشرود ! . .

وآنئذ ابتسم لصاحبه بسمة خابية ، رقيقة الشعاع كأنها من شفق أب رحيم عليم لطفله الأحمق الحرون ! . . ثم قال فى هدوء :

« . . إنى لو شئت أن أمنيك وأخدعك لفعلت . »

فثار ابن العاص :

« لا لعمر الله ! . . ما مثلى يخدع . لأنا أكيس من ذلك . . »

قال الأخير بغير مبالاة ، بعد أن ضرب الصمت بينهما برهة :

« ادن منى أسارك . . . »

وفى اهتمام ولهفة دنا عمرو . . . أقبل على صاحبه ، ولصقت أذنه بشفتيه ليسمع السر وهو يمنى نفسه بتحقيق آماله . . فإن هى إلا لحظة لما تمض حتى ندت من فمه صرخة مكتومة كأنها الفحيح تنبئ عن حنقه قبل أن تنبئ عن ألمه حين غافله صاحب الشام وعض إحدى أذنيه !

ولم يزد معاوية بعد هذا على أن قال :

« هذه خدعة ! »

وابتسم راضيا عن نجاح مكره .

لكن العابثة لم تعنه أن يعاود وقاره ثانية فيقول لحليفه المخدوع :

« أبا عبد الله . ألم تعلم أن مصر مثل العراق ؟ . . »

« بلى . ولكنها إنما تكون لى إذا كانت لك . وإنما تكون لك إذا غلبت عليا فى العراق . »

إن ثمة حقيقة ظاهرة ، عمادها المنطق ، يقوم عليها رأى ابن العاص . وثمة أيضا لهفة على طلبته ، ورغبة تتوثب فى حروف كلماته أن يظفر بما يريد . . . أفيكفى حنينه إلى اقتعاد أريكة النيل أن ينم عن عزمه على الانتصار لمعاوية ، ثم الإخلاص لدولته المرتجاة إذا قدر لعرشها أن يقوم ؟ . .

معاوية ما زالت بنفسه بقية من خشية ، وبقية من شك فى الثقة بهذا الحليف الذى يقاس ولاؤه بانتفاعه ، ويتنسم الهواء دائما فيدور بوجهه يشم ريح الشواء ؟ . ومع ذلك فهو أريب . أجل ، إن ابن العاص لكذلك ! . . له رأى فى الأمور ثاقب ، وله دهاء يحاور به ويطاول الأحداث إذا واجهته وضيقت عليه الحصار . ولقد أسفرت الأيام القلائل التى مكنتها يحاوره عن بعض مكر يجنه حرى أن تصلح به الأمور المضطربة ويستقيم شأنها حين يخفق العنف فى مقام الحيلة . . وهو قبل هذا أخو حرب عرس زمنا بشدتها ولفحته وقدة القتال . وعندما يذكر ماضيه لا تنسى مصر ثم لا يغيب عن بال الذاكر أنه عالج فيها سياسة النيل سلحة من عمره الطويل عرفت خلالها البلاد من حزمه ولينه واقتداره ما لا يبعد معه أن تكون له فى نواحيها شيعة باقية حتى اليوم .

على أن هذا جميعه لم يبدد غيمة الشك التى أوشكت أن تستر مزايا ابن النابغة عن ثقة داعيه . فما زالت ظلال من الريبة قائمة بنفس معاوية ، تشعره الرهبة ، ويسير منها فى ظلام من الحدس والوساوس لا يدرى إلى أين مداه . . . وكرة أخرى تؤرق العاهل هواجسه ، وتمضى به ساعات ليله بطيئة ثقيلة فى مثل وفى تأملاته الثقال . . وإنه ليرضى ساعة ، ثم يأبى ساعة ! . . وإنه ليوشك أن يبتسم ، ثم يعبس ، ويزور وما كاد يأنس ! . . فإذا أشفى به الضيق على حدوده ، والتف به الهم ، وسامته الحيرة أطلع السحر عليه عتبة أخاه . . .

ويقول له عتبة فى رفق مشير وعتب نذير :

أما ترضى أن تشترى عمرا بمصر إن هى صفت لك ؟ »

« إنما مصر كالشام . » .

« فليتك لا تغلب على الشام ! . . » .

وكذلك أذابت النصيحة تردده وهتك نذيرها الستر الذى حال قليلا بين التقاء كفه وكف عمرو على عداء الإمام ... فلم ينشب الصبح أن شهد اجتماع الرجلين يبرمان صك الاتفاق ، ويوثق كل منهما به المواثيق حتى لا يخونه خدينه .

كانت مصر هى الدارة التى هفت إليها نفس عمرو الظمآنة . وها هى اليوم فى حوزته — فى حوزته على القرطاس ! . . إنها لتلمع الآن له من بعيد ، وتنعكس على صقال مياهها صور نفوذه وسلطانه ، وتتبدى فى ذهنه ألوان الخير التى تطلعها حدائقها الزهر وحقولها الخضر حتى لتوشك أن تكون ذهبا فى لون الرمل الذى يمتد وطاء لأقدام النيل ! . . كانت معقد آماله ، ونبع أحلامه التى ما ونت منذ برحها تتهادى بخياله . . . أموى رده عنها وأموى يردها عليه . فما أعجب أن تكون ثمنا يتناوله فى نظير طلبه بدم ذلك الغريم ! .. ومع ذلك فليس يفيده اليوم أن ينتصر لعثمان وقد كان فى أمسه يسخطه ويود لو أنه اقتص منه . . لا يضيره أن يفعل ما دامت مصر سترجع إليه . كانت شاغل خاطره ، ومهوى ناظره . هى أوطاره وآرابه . . . هى واحته ، أم هى يا ترى سرابه ؟ ولكنه يسعد بالعهد على أى حال ، وتطيب نفسه وترضى ، ويمضى يشحذ من همته ما أمله كفيل بأن يردها عليه . . .

ولقيه بعد الموثق ولداه :

« ما صنعت ؟ » .

« أعطانا مصر . »

قالا له :

« وما مصر من ملك العرب ؟.. »

ولقيه ابن أخ له ، ذو أناة وبصيرة :

« ألا تخبرنى بأى رأى تعيش فى قريش ؟.. أعطيت دينك ومنيت دنيا غيرك !.»

وغضب مروان بن الحكم حين علم بما انتهت إليه المساومة فحادث نفسه وهو واجد مغيظ :

« وما بالى لا أشترى كما اشترى عمرو ! . . »

إن القوم ليلحون الرجل على ما نال . تصغر فى عيونهم الطعمة — مرة من طمع فى مزيد ومرة إذ هى ثمن بخس لدينه وآخرته . أو يصغر شأنه أخرى من حسد له فتكبر وتهول . . . أما محمد المعنى بدنياه فقد ود لو شارك أبو صاحبه فى ملكه القابل ما داما قد تحالفا على المشاركة فى الصراع . . وأما الثانى التقى عبد الله وابن الأخ الذى يرقب الله ويخاف سطواته فإنهما أنكرا عليه جشعا أنساه الحق وإنه لأحق بالاتباع . . . وأما ابن الحكم فقد أثاره أن يراه أثيرا لدى معاوية يفرض له دولته ولما تقم لها دعامة . . . ولكن ابن العاص لا يكاد يحركه شعرة عتب عاتب أو غضبة غاضب . فهذا وغيره لا يرده عن القصد وما وطن النفس عليه . وإنما يسير شوطه . السطوة منه قيد خطوة . الدنيا تلقى بمفتاحها إليه ! . . الزمن أيضا حليفه على نيران المدل وشعلة الضغينة . وها هو مروان ما يكاد تثور ثائرته حتى ينبرى له معاوية بما يترضاه :

« يا ابن العم ، إنما نشترى لك الرجال ! . . »

ومن تلك الليلة بات عمرو فى عين صاحب الشام . أصبح حارسه . أضحى درعه فى الصراع القريب . غدا ظله الذى يقتفى خطاه ... إنه لا يكتمه المشورة ، ولا يبخسه النصح حين تتأزم عليه الأحداث . إنه ينطلق أمامه حين البأس يعبد له الطريق الذى يقوده إلى المجد والسيادة . وها هو الآن ، والمداد لين على الميثاق يبادر بعونه وينثر أمام حليفه ذخره من الدهاء . . . كانت الأنباء حينذاك تقض على الأمير الطامح مضاجعه ، وتفسد رقاده وصحوه بالأخطار المتوثبة من بينها كأبالسة النار . فلا يكاد معاوية يأمن ابن النابغة ويأنس إليه حتى يستهديه :

« يا أبا عبد الله ، طرقتنا فى ليلتنا هذه ثلاثة أخبار ليس منها ورد ولا صدر ؟ . »

« وما هى ؟ . . »

« . . أن محمد بن أبى حذيفة قد كسر سجن مصر فخرج هو وأصحابه . وهو من آفات هذا الدين . . . »

فيجيبه فى هدوء وقلة اكتراث :

« ما يتعاظمك من رجل خرج فى أشباهه أن تبعث إليه خيلا تقتله أو تأتيك به . . . »

فبعث بخيل إلى مصر ، عليها مالك بن هبيرة الكندى يحاول أن يقتحم بها الحدود إلى الغريم المخوف . لكنها استعصت دونه واستغلقت كالسر . فلما أن أعياه أن ينفذ ظافر إلى الغرين ظل يكايد ويطاول حتى خرج إليه محمد فى قلة من رجاله ووفرة من غروره وإدلاله . فإذا الإعداد يغلب الاعتداد . وإذا الكثرة تطغى على الجسارة . وإذا الخيل تكر وتغير حتى تحصر محمدا بالعريش وتقضى عليه وهو على قدميه قائم ، فى بركة من دمائه ، يذود العداة . . .

« . . . وأن قيصر زحف بجماعة الروم إلى ليغلب على الشام . . »

فينصحه عمرو :

« فأهد له من وصفاء الروم ووصائفها ، وآنية الذهب والفضة ، وسله الموادعة فإنه إليها سريع . . . »

فيفعل ابن أبى سفيان . ويهدى إلى عاهل الدولة العجوز المتاخمة كنوزا من الذهب والنفائس ، ودرا من الجوارى والغلمان تلهيه عن حربه ، وتميل به إلى المهادنة ووضع السلاح فى أغماده إيثارا للسلم والسلامة . . .

« . . وأن عليا نزل الكوفة متهيئا للمسير إلينا . . . »

على ! . . .

هذه عقدة العقد يعى حلها الدهاة ممن تجرى لهم سيرة فى المكر كالأساطير ! . .

أم ترى تجدى الغارة ، أو تثمر وسائل الملق والموادعة مع الإمام ؟ . .

بل هى بيعة أو قتال ، بلا تذبذب بين طرفى القرار ... ولقد يوشك ابن العاص أن يكفى حليفه — بتدبيره — أمر ابن أبى حذيفة بمصر ويرد عنه عاديته . ولكنه لو فعل فقد أمن الخطر فيها إلى حين ثم لم يضمن من بعد أن تلين تحت قدميه جنة النيل . . . ويوشك أيضا أن يكبح عنه شرة القيصر وبنى الأصفر من ذنابه البيزنطية . ولكنه لو وسعه فقد أمن منهم حدوده الشمالية — وهم حينذاك عدو مريض مهيض ، منتفخ الإهاب مثلوم الناب ! — ثم ترك بقية الحدود والتخوم نهبا سهلا لغريم غيرهم ذى قوة وأيد ... فما هى إذن جدوى تدبيره والحال هى الحال :

أمير أمر وعامل عصاه ، والدولة هي الدولة : وحدة سياسية — إلا ولاية — في كنف علي ، وشعب مخلص — إلا فرقة — على الولاء لسلطانه الشرعي بين أهل الإسلام ؟ . .

ويتفكر الداهية . ويعبس . ويتعقد جبينه الذي غضنته أعوام عمره الطويل . . . للحظة بدا كأن قد غامت عينه وفارقها النور حتى حسب معاوية أن غفوة أطبقت على جفونه . . . للحظة تراقصت على صفحة وجهه الأسمر ظلال وأطياف حتى ظنها من دكنة لونها هوة عميقة من الظلام غرقت فيها لمة الرجاء . . . للحظة تقلصت منه شفتاه على ولائد وأجنة من الألفاظ يمسكها الحذر ثم توشك أن تفلتها الحيرة . . . ولكنها لم تكن غفوة ، ولا ظلة ، ولا حيرة تلك التي اعتورت قسمات ذلك العريق في الخديعة . إنما انساح فكره بين صفحات التاريخ القريب والبعيد يهم أن يستلهم الرأي والمشورة . وعندما آب ذهنه من الرحلة ، أضاءت التماعة عينه الخابية ، وانبسطت الراحة على غضون محياه ، وتوثبت بسمة عريضة تتراقص على شفتيه نشوانة قبل أن تند الحروف من بينهما ترسم الخدعة الجديدة .

٧

في وهمه تراءت دولة عريضة ، ممتدة مع الأشعة التي ترسلها الشمس كل ضحوة ، ومع الظل الذي ينتشر عندما تجنح عائدة إلى عوالم المساء . . . واسعة المدى مبسوطة الأطراف حتى لتلتئم كل أهل الإسلام ، وتنتظم في عقدها الطويل أقطاره .

وفي صحوة تراءت دويلة ، قال الناس إنها ولاية ، وقال الواقع إنها دولة في الدولة ، نسيج وحدها بين غيرها من الولايات ، قد بكرت في النمو وبكرت في الانقطاع عن الوحدة السياسية التي ضمت كافة الأقاليم الإسلامية كأنما رشدت وجاوزت حد اليفاع ! . . .

ولكنه يدع عن نفسه وهمه ، فصاحبه أمامه جاثم ينتظر منه رأيا يصلح له من شدة الحقيقة ، ويهيء السبيل إلى السيطرة على الأحداث التي مضت تتزاحم حواليه . . معاوية ما زال في لهفة من أمره ، يكاد يتلقف ذات الأنفاس التي تند عن شفتي

عمرو لعل كلمة تبدر منها فترسم الخلاص . وإن نفسه لحيرى ، وإن عينه لقلقة غاية القلق وأعتاه وهو يمد ببصره إلى مشيره الذى بدا صمته قطعة من الجمود . . .

غير أن ابن العاص ، وقد آب لتوه من رحلة ذهنه فى فيافى التاريخ ووديانه ، كان مشغولا عن صاحبه ، وعن دولة الوهم التى أقعده عرشها الباذخ ، بتأمل دولة الحقيقة التى ما فتئت تفسد عليه خيالاته . . فما معاوية فيها ؟ . . ما سلطانه المستفاد من هذه الولاية التى تتاخم الروم ؟ . . ما غاية شأوه وقصاراه لو نجح كفاحه فبقيت له إذا حالفته دنياه ؟ . . إنه لا ريب غير ذى خطر . ليس شيئاً فى عين الدولة القائمة اليوم : بيدها وحضرها ، أبيضها وأسودها مما وسعت رقعتها الممدودة بين الشروق والغروب ، وممن ضمت شعوبها الشتى من الروم إلى النوبة ومن البربر إلى الصين . . . ليس شيئاً إلا أن يقاس قدره بنظرات أهل إقليمه فإنه حينئذ شىء على أى حال . إنه فى عين شامه رب سطوة لا تستطيع النظرة الزارية تخطيه أو اقتحام مقداره هو حقا فى اعتبار السلطة الزمنية ، وفى اعتبار الرأى العام الإسلامى فى مجموعه ، وال من الولاة ، ولكنه فى اعتبار الحقائق الناطقة ليس كالولاة . فما ينكر أحد أن الرجل قد وسعه مع الزمن أن ينفذ إلى نفوس أهل إقليمه باللين والبذل وحسن الحيلة وغير هذه وتلك من وسائل تربط برباطها الوثيق بين الحاكم وبين المحكوم . . . وولايته — على هذا الاساس — يمكن أن تغدو له رداء يحميه وجنة يتحصن بها إذا ما تأزمت عليه الأحداث . . . وأنصاره فيها — أو قل رعاياه — قد يشفى بهم حماسهم له على أن يشرعوا الأسنة حينا من الزمن ، ذودا عن سلطانه عليهم أو — فى الحق — عن إحسانه إليهم عرفانا منهم بجميله وأياديه . . .

ومع ذلك فإلى أى مدى تستطيع أن تثبت الشام ؟ أقد أخلصت له صفوف أهليها بغير فرقة بينهم ولا خلاف فيطمئن عمرو عندما يحكم تدبيره إلى أنه لا يبنى على أرض رخوة ؟ . . أكلها أموية ؟ . أتستجيب حين الجد لدعوة الصراع فتكون صدى صادقا لصيحة معاوية ، تردد عنه وتؤازره ، وتحمل وسعها حتى تقيم له الإمرة المنشودة على أنقاض إمرة الإمام ؟ . . .

لايدع عمرو هنة فى الغابر ولا فى الحاضر إلا أحصاها ثم طاردها بالتمحيص والاستقصاء . وها هو لا يأبه شيئاً بلهفة حليفه الذى جلس أمامه ساعة كالدهر

ينتظر رأيه فى ثالث الأنباء التى هزت خاصره وزلزلت هدوءه . إنما يمضى شوطه فى الاستقراء وهو يعرض أمام باصرته مشاهد من تاريخ هذه الدويلة القريب والبعيد . إنه منه على بينة : أولئك الذين يميلون فيها إلى ابن هند هم الكثرة الغالبة إذا استمسك بحذره فى التقدير ولم يرجم الكافه ... فيها جاوروه السنين الطوال بعد أن جاوروا قبله أخاه يزيد بن أبى سفيان أميراً لهم فى عهد الصديق . . وبها انتأوا معه — عن مقر الخلافة الإسلامية — فى رياضها وغياضها المنقطعة عن مدينة الرسول بمئات من الأميال والفراسخ وعديد من الفلوات وأودية التيه . فعسى هذا النأى قد وهب معاوية نوعا من التفرد فى ربوع الشام بالحكم والسيادة دون عين ترى فتنقد فعاله أو رقيب ينقض ويحد استقلاله . . . عسى طول عهده بحكمها قد زوده بنوع من الاستقرار على سلطانها أدناه هونا من أصحاب الملك الراسخ ذوى العروش والصوالج ... عسى الجوار أيضا أورث أهلها الألفة به ، والخنوع له ، والتسليم بأن يكون عليها ماشاء وشاءت له سعوده أو ظروف أحواله .

هذه مزايا حرية بأن ترفع معاوية فى الشام إلى ذروة التفوق حين ينحصر الخلاف بينه وبين غريمه ابن أبى طالب على الشام . ولكنه تفوق لا يغمض عين عمرو عن سواه من الاعتبارات الأخرى . فما الشام إلا ولاية كالولايات . وما أهلها إلا ناس كالناس . . وفى خلال الأعوام الطويلة السالفة ، منذ أصبح فيها للعرب سلطان ، لم يكن لفرد من رجالها رأى فى اختيار الخليفة إلا بقدر ما يأتى الخبر فى اختياره فيبايعه الوالى وتبايعه على البيعة أتباعه . ما من امرئ منهم نقض أو ثار ، بل كانوا جميعا لعاملهم الصدى والظل كحال غيرهم من الأهلين فى غيرها من الأقاليم الدانية والنائية ، التى لم يكن لها فى الشورى كلمة حتى اليوم . فلم نشهد قط ، بعد حركات الردة وعصيان مانعى الزكاة خلال عهد أبى بكر ، عاملا أو مواطنا حاول أن يتمرد على البيعة التى تعقدها المدينة . أيما رجل فى القوم لم يعص ، ولم يخالف ، ولم يجل له بخاطر أن ينحرف مرة عن الطريق التى كان يرسمها دائما ذلك «المجلس النيابى» بالعاصمة ، المتمثل فى جماعة المهاجرين والأنصار . إنما كان حقا خالصا لتلك البقية من صحابة الرسول أن تختار خلفه على أمته ، وأن تقتضى المسلمين كافة فى أنحاء الدولة الوفاء لعهدها الذى أبرمته والطاعة لمختارها الذى ارتضته . . .

كان هذا حقا المدينة غير مردود دون غيرها من المدائن . ثبت فى الضمير الجماعى للذين ألفهم دينها وأظلهم علمها الموحد وإن فرقتهم الأمصار مشرقين ومغربين وتقسمتهم الأرض بين الجبل والوادى والقاع . ولقد ألف الناس الأمر حتى غدا مع الزمن عرفاً ثابتا مقررا له فى نفوسهم رسوخ التقاليد المسيطرة وقوة القانون النافذ ، وأوفوا به وامتثلوه أصدق امتثال حتى أصبحت له عندهم قداسة .

البيعة إذن أمر والرضا بها التزام . هذه حقيقة نطقت بها دائما وقائع الحال منذ كانت هناك بيعة عقدتها « ندوة المدينة » أو « مجلس الأمة » أو أيما اسم يمكن أن ندعى به تلك النخبة من حواريي محمد وصحبه الذين التأمهم مجتمع حاضرته وغدوا على تراثه خلائف وأمناء ... ابن العاص قد علم هذا وأقره ، ونزل دائما على ماتعارف عليه المهاجرون والأنصار وقضوا به لأبى بكر ، ثم لعمر ، ثم لعثمان . لكنه اليوم غيره فى أمسه ، وهو فى غده أميل إلى الزيغ والانحراف !.. كما تبدت رويدا رويدا خيوط نفعه فى آفاق الزيغ والانحراف ! .. وإنه ليتنكر للبيعة الرابعة كما لم يتنكر لما سبقها من بيعات . ويجهر بخلافه وانتقاضه على الإمام خلافا لاتغذيه إلا عاطفته وانتقاضا توجهه صوالحه الخاصة . ولئن قيل غضب الرجل لدم عثمان بعد ندمه لما سلف منه فى حقه فمن حق أى أمرىء أن يغضب كما يشاء دون أن يساير انفعاله إلى المدى الذى يتجاوز به حدود العرف والقانون والمقدسات . وإن اعتذر له بأنه يفسق إمرة على غيراها موضوعة فبأى عذر يساغ سعيه لتأمير معاوية خليفة للإسلام ! . فلقد سعى لهذا سعيه وإن توارى خلف الثأر وليس هدفه الشخصى بغلاف زائف من المروءة . أو لا فكيف يساوم حليفه على مصر إلا أن يكون قد وضعه فى خياله ، وفى تقديره ، موضعا تكون له به السيطرة عليها وعلى غيرها من الأمصار ؟ . .

من اليوم الذى أتته فيه كلمة ابن هند وهو منتجعه ذاك فى فلسطين حزم عمرو على الخلاف أمره ، ورسمها فى باله إمرة للمؤمنين يقوم عليها أهل الشام وينسلخ منها الإمام . وما أحسبه إلا سبق بهذا التفكير معاوية نفسه الذى كان قصاراه لو أقره على إقليمه وأبقى له به السيادة القديمة . . . وإنه فى سبيل ما أضمر ليتخذ لكفاحه عدة من الدس والمكر والتآمر ويحرك فى القلوب الساذجة شغفها

بالمروءة والنخوة وولعها بالقصاص وفق شريعة الغاب ! . . إنه ليفتح أمامها باب الثارات وسيما على مصراعيه بعد أن كان الدين قد أوصده وحرم على أهله اقتحامه منذ حين . . إنه فوق هذا يبتكر فرقة جديدة يضرب بها حق بين أهل نفس إقليم صاحبه ، فالنار — فى رأيه — تأكل النار والانقسام يقضى على الانقسام ! .

نظر عمرو فرأى لزاما عليه ليبلغ أربه أن يحيي من العصبية القبلية ، ومن التحزب الأعمى للأصل ، ما كاد يموت ... كان عليما بأن الشام يمنية ، فبها ثقة كبيرة من بقايا غسان منذ استظهر الروم بهذه الفئة العربية قبل الإسلام ووطدوا لها على حدودهم ملكا يدرأ عنهم شرة الأكاسرة وغارات بدو الصحراء . وكان عليما بأن الهجرة الإسلامية بعد الفتح قد مكنت لليمنية أيضا فى التفوق العددى بالإقليم وأفاءت عليهم نوعا من الشعور بأنهم غدوا أولى القوة فيه أو أنهم أوشكوا أن يعيدوا دولتهم الغابرة للحياة . . . فمنذ بعيد ، عندما كانت العرب مزقا محاولة وكان أبناء شمال الجزيرة ووسطها يعيشون معيشة قبلية خالصة ، تقدمهم إلى التكتل ، ثم الوحدة السياسية ، طوائف من قبائل الجنوب فبنت لنفسها سلطانا فى دويلة هنا ودويلة هناك كما نعلم عن ممالك الغساسنة والمناذرة وكندة اليمنيين . تقدمت اليمن إذن إلى التملك ، وسبقت غيرها من العرب فى مضمار الحضارة ، فلما أن أتى الدين الجديد فى قريش ، وعلت به مصر . وربطت يد الحجاز بين قبائل العرب أجمعين فى الجزيرة : من ولد عدنان وولد قحطان ، هفت العزة بنفس الغالب ولعبت الغيرة بنفس المغلوب . ولولا أن دعا الإسلام بين أهله بدعوة السوية لما انطمرت فى قلوب أولئك وهؤلاء — حق حين — عوامل المنافسة والتفاخر وما قد تجر إليه من تناحر وشنآن . . .

لكن عمرو بن العاص لم يرد لتلك الحزازات الانطمار ! . . إن التلويح بقاعدة إسلامية فى الشام تساس منها الدولة الناشئة قد يكون لمعة السراب . ولكنه على أية حال محاولة تستحق منه أن يجربها إذ هى حرية بأن تبتعث الرجاء فى نفوس اليمنية وتدفعهم إلى الطموح عسى أن يستردوا فخرهم المسلوب ويعودوا إلى تسنم ذروة مقامهم السالف على هام العرب أجمعين . . ولئن كان معاوية من قريش فإن الإمرة المرقوبة له لن تقيمها إلا سيوف « جنوبية » يعرف فضلها عليه حين

يأتى حين المفاضلة بين قبيل وقبيل . وما أحراه عندئذ بأن يقدم اليمن على غيرها فتطفو بهم « غسان » القديمة من القاع ! . . وما أولاها إذن بمكان الصدارة فى ملكه دون مضر التى لن تؤدب إلا بالتخلف إلى الذيل ! . . .

كان منطق الأشياء ، وأصداء التاريخ ، ودقة الاستقراء كلها تمهد الطريق لتدبير عمرو وتقديره فلا يكاد يلمح عقبة واحدة تسد السبيل دون « المغامرة الكبرى » التى حزم عليها أمره تلك الليلة وهو يتلكأ بشوراه عن صاحب الهموم . . . غير أنه آثر التريث قبل أن يدلى برأيه ، فما تؤمن اليمن بالحين يتنازعان ! . . وما يستطيع هو أن يحملها على الثقة به وعندها من هو بهذه الثقة أولى منه . أترى انكشفت خبايا تفكيره للإمام فتحرز له وأعد العدة التى تفسده عليه ؟ . إنه حين يجده قد بعث جريرا رسولا من لدنه إلى معاوية يكاد يؤمن بأنه فتق حجاب الغيب ولما تنفسح الأيام لتفكير مفكر ولا لتدبير متآمر . فجرير من بجيلة وبجيلة من اليمن واليمن هى التى يهم عمرو أن يتخذها عدة فى الصراع المرقوب ، الذى راح ماكرا يرسم خطوطه ، لكثرة من انتشروا من بطونها وأعجازها فى إقليم الشام . . فهل يستقيم له دسه على على بين أولئك اليمنية وهم حريون بأن يكونوا أسمع لجرير وأدنى إلى الوقوف بجواره منهم إلى الانحياز لصف عمرو بن العاص ؟ . .

فليضرب إذن الرسول القادم من الكوفة ببعض أهله ! لتكن من اليمن نفسها أداته القاضية على نفوذ ابنها جرير ! . . فليطلق النار تأكل النار ! . .

وابتسم راضيا عن نفسه وقد شارف به تفكيره نهاية المطاف ، ولمعت عينه الخابية كأنها شهاب . وامتلأ بالزهو والاعتداد عطفاه وهو يلقى بسمعه فى تراخ إلى تساؤل خدينه الملهوف :

« وما ترى فى على ؟ . . »

« أرى فيه خيرا . . »

فلو أن امرءا سوى معاوية كان سامعه لهبطت هذه الكلمات القلائل بقلبه إلى مواطئه ! فما أرقها ملقا يمسح على ظهر غريمه وينشر حوله هالة مضيئة من الإجلال . . لكن سليل أمية كان أقدر على كبح شعوره أن يشى باضطرابه حتى مضى صاحبه يكمل حديثه :

« يا أبا يزيد . أتاك فى هذه البيعة خير أهل العراق ، ومن عند خير الناس فى أنفس الناس .. ودعواك أهل الشام إلى رد هذه البيعة فيه خطر شديد ! .. »

قال معاوية وهو يعالج قلقه باصطناع الهدوء :

« فما ترى يا أبا عبد الله ؟ . . »

« أرى أن رأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندى ، وهو عدو لجرير . فأرسل إليه ، ووطن له ثقاتك فليفشوا فى الناس أن عليا قتل عثمان . وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل ، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب ، وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشىء أبدا . . »

عندئذ استضاءت عين الداهل ، وهدأ زفيره ، وتباج وجهه المكدود وهو يهتف كالحالم :

« شرحبيل ! . . »

« عدو جرير ! . . »

ومضت الليلة وئيدة الخطا ، على جناحها كتاب وعى أقل لفظ وأدله ، اندفع به البريد من دمشق إلى الشمال حتى بلغ حمص فأودعه يد شرحبيل .

« . . . إن جرير بن عبد الله قدم علينا من عند على بن أبى طالب بامر فظيع . فأقدم . . . . »

وأصبح الصبح وقد اتسعت رقعة التدبير فضمت من بنى عمومة المراد بالدعوة طائفة من أسد ، وزبيد ، وطىء ، هم قادة قومهم من اليمن وقحطان ، دسوا على صاحبهم يرورون له القول ويرهونه على ما اشتهى معاوية ، ووفق خطة ابن النابغة وتدبيره . . .

واختلف الناس فى بدء المحنة على شرحبيل ، اختلفوا عليه خلاف رأى ومشـــورة لا خلاف عداوة وعدوان ، فهو منهم الرأس وهم منه الفروع والأطراف . . . يقول له ابن غنم الأزدى :

« . . إنه قد ألقى إلينا قتل عثمان ، وأن عليا قتله . فإن يك قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار وهم الحكام على الناس . وإن لم يكن قتله فعلام تصدق معاوية عليه ؟ . . »

ويقول له عياض الثمالى :

« . . . دع قول المضلل ! . . فإن ابن حرب ناصب لك خدعة . . »

لكنه فى تردده ، واستجابة منه لغل توارى بقلبه ، يأبى السمع ، ويصر على المسير إلى دمشق ليلقى معاوية فيها ، ويتلقى عنه فصل الخطاب . . . فإذا رأى ابن غنم منه تصميمه ، هتف به ناصحا يحذره مرة :

« يا شرحبيل بن السمط ! . . لا تهلك نفسك وقومك . . . »

ومغريا يحضه أخرى :

« يا شرحبيل بن السمط ! . . إن كرهت أن يذهب بحظها جرير فسر إلى على فبايعه على شامك وقومك » .

ولقد كره وإن حسب أنه تلمس وجه الحقيقة دون وحى من عدائه القديم . . وإنه ليمضى شأنه ، لا النذير يردعه ولا الإغراء يلويه . يمضى قدما إلى معاوية . . . إلى دمشق حاضرته التى موهتها الفتنة . . . إلى طغمة بها رتبت فى طريقه كنسق بيادق الشطرنج وفرسانه ومحاربيه ، هيئت لها خطواتها سلفا إلى غاية مرسومة ، ووضعت فى أفواهها الألفاظ لتمجها عند اللحظة الحاسمة ترديد ببغاء ! . . ومن وراء هذا كله ، من خلف ستار ، يد معروقة تحرك الخيوط فى الظلام ، وتدفع الدمى ، إلى مصير محتوم ! . . .

١

كان الغروب منسكفىء الظلمة ، شاعت فى جنبات أفقه الدامى خطوط المساء سوداء عريضة كأنها تؤلف الإطار الحزين الذى هم أن يطوق المدينة . وكان الهدوء يعلق فى الجو كالضباب ، وينساب خلاله انسياب الظلال التى راح ينشرها الليل ، لا يكاد يشى لكثافته بما ينبىء عن العاصفة الوشيكة الوقوع التى أخذت تعتمل فى الأنفس وما بدت مقدماتها فى الطبيعة . . النسمة وانية . الشجر تفتر وتهدلت غصونه . الماء ركد فى جداوله كقطع المرايا المصقولة يستقبل الشعاع ثم يوشك لخدره وتراخيه ألا يعكس الشعاع ! .

الطمأنينة التى اكتست بها السماء ، وأغفى الجدول ، ونعس الغاب لم تلق ظلا من ظلالها على الناس . لم تعد فى دناهم رواقها الآمن . لم تلف تزغ نفوسهم بأبراد الهدوء والسكينة — على الأرض سكون ، وعلى الأوجه خداع . . .

ها هى دمشق فى أمسيتها صامتة ، وسنانة المظهر وإن كان قلبها يضج كخلية النحل ! . فشت فيها دعوة الإفك التى لفقها عمرو وملأها الطنين كغاية ما تهفو إليه مطامع حليفه معاوية . . . تواتر فيها الهمس . توالت الفرية تتبع الفرية . تزاحمت ألسن أهلها على البهتان . . .

أينما خطوت فى القصبة المفتونة التى تهيأت بحديثها الملفف لاستقبال شرحبيل ، صك سمعك اللعب بسيرة الإمام ، وقصة محنة شارك فيها — كاختلاقهم — بسيف مخضوب . . ومنظر دم حرام موهوا فيه بالزيف ولعبت ريشة أخيلتهم فى جنباته بالنقصان والزيادة . . .

لكن الطنين ، والرسم ، واصطخاب القلوب بالنقمة لم تعد كلها نفس معاوية بالطمأنينة ، لم يحس فى قرارته الراحة التى حسبها الصدى اللازم لهمسات قومه ، ولغطهم بالفتنة ، وتناديهم فيما بينهم بالقصاص . فما زال قلقه يأكل يقينه ويفرى أمانه . وما ونى أمله يضطرب به على مثل اللجة الحائرة ينشرها المد آونة ويجذبها الجزر آونة . . . هدوءه مفقود ، وقلبه مفئود . وحين تلوح له فرجة للرجاء بين تدبير مشيره لا يلبث اضطرابه أن يسدها ويبنى عليها بالطين ! . . فلعله الآن قد خشى أن يفسد دس ابن العاص فلا ينطوى له شرحبيل . . من له

بائتلاف اليمنية معه على غريمه وإنهم لشيع بعدد البطون والقبائل وبقدر المشارب والأهواء ؟ . . أيستطيع أن يأمن منهم بدواتهم وهم لجرير ذيول ؟ .

كلما أوغل المساء حمل من قتامه إلى دخيلة نفس ابن أبي سفيان ، وعفى على أحلامه المونقة بظلاله . . الآن حقاً في حوزته الشام ، ملك عينه وإحسانه ، ولكن أمرها في غد في يد الغيب . . . هي أموية ، والته عشرين حجة طويلة ، وحرية بأن تواليه بعدها عشرين لو بقيت حالها كأمس وأمهل له الأجل في الحياة . غير أنها — بعد أيام ، عندما تتفاعل الدسيسة التي دبرها ابن العاص — سيغدو مصيرها معلقاً بخيط ، بكلمة قد تفلت من هذا الفم أو من تلكم الشفاه ، فإذا أمرها ينتهى إلى غير رجعة ، وأمله يذهب مع الريح ! .

وحد هونا من اضطرابه ، ورد من ثائرة خيالاته . إن القلق ليلعب بنفسه ، وما يحسن بالسياسي الأريب أن يعطل العقل ، ويعمل بأعصابه . . لم يعد يؤمن اليوم بالنتائج التي حدسها عمرو وإن كان ليؤمن بالمقدمات بعض إيمان . وهل ذلك التدبير إلا مغامرة ؟ . . وهل النجاح إلا صنو الفشل في أمثالها من المغامرات ؟ . . . إن كاد ليقنع بجلوسه ينتظر ما تنجلى عنه التجربة لو علم أن شامه باقية له خاب تقدير مشيره للخواتيم أو أصاب . ولكنه هو وحده محور التجربة : المادة التي تنصهر على نار الانتظار . فما مآله لو لم تخلف التجربة في البوتقة إلا رماداً أو ما هو أتفه من الرماد ؟ . .

أليق إذن بطبعه ألا يدع مصيره ومصير إقليمه في يد نتيجة مجهولة تسفر عنها أحابيل عمرو . ليس هو بالذي يكل شأنه للمصادفات ، أو لرجل كشرحبيل تلعب بنفسه جمحات عاطفته فلا يؤمن جنوحه ألى يمين أم إلى يسار ، أو لحفنة من رءوس اليمن قد تضطرب ميولهم بينهم فلا تتفق كلمتهم على قرار . ليس هو بالذي يبيع ما في يديه ليشترى سلعة خبيئة لما يطلعها الغيب . . . إنما من حق أهدافه عليه أن يستبقى الجسر الذي يربطه بماضيه لا يهدمه لعله يكون مجازه — حين محنة — إلى ضفة الأمان ! . .

وهدأ جأشه لهذه الحيطة الواجبة منه ، فانطلق من لحظته ، الليل وطاؤه والخفة رداؤه . . . فلما أن جنته دار رسول الإمام ، ألقى العبء الذى أثقله خلال انفراده بأفكاره :

« يا جرير ، إنى قد رأيت رأيا . . »

فانبسطت أسارير الرجل الذى برح الـكوفة ، وقطع من الفلاة شوطاً ومن الزمن سلخة فى سبيل الوفاق :

« هاته يا أبا يزيد »

« اكتب إلى صاحبك يجعل لى الشام ، ومصر جباية — »

« وتبايع ؟ »

« فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة فى عنق . وأسلم له هذا الأمر . وأكتب إليه بالخلافة . . . »

فتفـكر جرير . . . ما عليه لو فعل ، عسى الله أن يرأب الصدع ويحقق الجماعة ؟ . .

قال :

« اكتب بما أردت ، وأكتب معك . . »

فلو أن هذا الرسول احتذى حقاً نهج سيده الذى إليه أرشده لما خط كلمة واحدة فى كتاب ابن أبى سفيان ، ولما ارتضى منه هذه المساومة . إنما بعثه على لبيعة غير مشروطة يقتضي معاوية إياها ويقتضيه معها إمرة الشام : التسليم وحده كان مجاز الأمير المشاق إلى رضاء الإمام عنه ، والوسيلة إلى الإبقاء على وحدة الأمة بلا انفصام . . . لـكن جريرا جاوز حدوده ، وتحيف على أمانة الأداء المفروضة فى كل رسول ، فضح بما فى نفسه بفعله ، وتبدى لنا كرة أخرى — كيدئه قبل تركه الـكوفة إلى دمشق — فردا من أولئك الذين يلوون الحق ليلائم الهوى وفرقته كأنما حسبوهما يجتمعان . . .

أفتصدق عليه إذن كلمة الأشتر : « إنى لأظن هواه هواهم » فهو خائن بهذا التقدير ؟ . . إن المرء ليوشك أن يساير الشك فيؤثم الرجل ، ثم يوشك أن يحسن الظن به فإذا به هو مخدوع . ولـكننا على الحالين نرى علياً صاحب المبدأ الأمثل الذى لا ينحرف قيد شعرة مع الباطل وإن جاءه الانحراف بالدنيا جميعها مسومة تناديه أن تـكون متنة ! . . ونراه. كذلك رجل السياسة الذى يجـد المساومة آفة تأ كل من هيبته كما تضعف مثله وتقوض خططه التى جعلها أعمدة

دولته . فما من امرئ يعلمه هاود بعد طول تمسك وإصرار إلا أيقن أنه أضعف الفريقين غلبه الحق على عناده . وإنه إذن لحرى بأن يكون ألعوبة فى أيدى عماله يجبلون طينته على الشاكلة التى توائم هواهم ، متهافت القدر فى عيون شعبه فلا يؤمن فرد واحد بأهدافه . . .

خدع جرير أو خان فالإمام ثابت فى مكانه ، رسخت قدمه على عزمه ، وصحت نيته على انتهاج المحجة المستقيمة بغير زيغ ولا انحراف فليس هو بالذى يساوم الباطل أو يهادنه . وليس هو بمن يفتله زخرف أخدوعة ! . . العقدة لا يحلها أن يدعها بل أن يقطعها ! . والحية إن بتر منها ذيلها ثم أطلقها فلن يكف عن اللدغ نابها السام ! . . .

ولذلك كان جوابه إلى جرير يكشف عن حيلة معاوية ويهتك سترها المموه بزيف الرغبة فى الخضوع والطاعة :

« . . . إنما أراد معاوية ألا يكون لى فى عنقه بيعة ، وأن يختار من أمره ما أحب . وأراد أن يريثك حتى يذوق أهل الشام . . . »

لقد صدق حقا حدسه فى البدء والنهاية ، فإنما رحلة الكتاب وأوب الجواب مهلة مطوطة يقرت لمعاوية عن دخيلة عنية إقليمية ورأسهم شرحبيل فهذه دمشق تحتوى الرجل بعد أن تخمرت بالدسيسة ! . وها هو يبيت فيها كمن فى خلية ، ملأت أذنيه بالأزيز والطنين . . وها هى استقبلته كاستقبالها الغزاة المظفرين ، يلسب حديث صنائع أميرها بإعانه ويمسح تناؤهم على غروره ! . وعندما تفتح له أبواب القصر يمشى فيه كأنه متبوع ، يوشك معاوية أن يسير بين يديه من خضوعه ! . .

ويفرغ الرجلان من بعد الخلوة ، يقبل معاوية على زائره خلالها فى استحياء العذراء :

« يا شرحبيل . إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على . وعلى خير الناس لولا أنه قتل عثمان . . »

فيتفكر سيد اليمن هنيهة وهو مشغول . هذه نفس الصورة التى شهدها طوال طريقه بالحاضرة الأموية حتى بلغ دار الأمير . ذات الطنين . ذات الخلية المضطربة

بالوسوسة والأزيز . . يا ترى هذا كله كلة مصنوعة وزعت على الألسن ووضعت في الأفواه ؟ . . أتلفيق ؟ . . أتواطؤ على مكيدة ؟ . . هو يخشى أن يكون رأيه ملهاة لقوم يزيغون به مع هواهم ويخطون به مجراه . لكنه يكبح نفسه أن تنساق وإن آمن في ضميره باستحالة إجماع كل من قابلهم على ضلالة . وإنه إذن ليتحرز فلا يتعجل بحكمه ، فإنما الخير في الحيطة .

ويبدى الريث في تساؤله :

« رأيك ؟ »

فإذا معاوية لا يجيبه إلا بما يتملق اعتداده بمقداره بين الناس :

« . . إني قد حبست نفسي عليك وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أرضى ما رضوا وأكره ما كرهوا . . »

عندئذ يطمئن خاطر شرحبيل وتهدأ وساوسه . فما هذا حديث مولع بفتنة كما حدث ابن غنم ، ولا بخدعة مضلل كما ظن ابن عياض . بل هو قول من يحب أن يتلمس الحق حيثما كان ، فيصدر في رأيه عن شعور أهل إقليمه ، وفي فعله عما يحملونه عليه . . .

ونهض شرحبيل راضيا وهو يقول :

« أخرج فأنظر . . »

وحسب بهذا أنه بلغ ذروة التحرز وطلب الحق الخالص في مآويه !

٢

كرة أخرى احتوته الخلية ! . . الآن أرفع أزيزا حتى بلغت المهمهمة مثل عواء العاصفة في الغاب . الرياح نفسها راحت تحمل الثورة على الإمام . . قطر المطر على دروب عاصمة الشام كان له مثل قرع الطبول الداعية للحرب . . ليالي الشتاء الحالكة كانت مرآة تعكس العواطف الحزينة التي فاضت بها القلوب أسى لعثمان . .

أينما مضى الرجل يستطلع نبتت ألسنة في مسارب قدميه تناديه للقصاص . ضاقت السبل عليه بغير وطأهم له معاوية ومشيره . ملأ النحل عليه هدأة الفضاء ! .

إن جرسهم جميعا واحد ، بغير تفاوت فى الرنين كأنما صدر من ذات الناقوس ا. سحنهم كلها واحدة قلبها الغضب وبدت فيها تكشيرة الذئاب ! . . تلويحهم أيضا واحد ، تقبضت به الأصابع تتوعد كأنها تشد على حسام مسنون ! . .

وفرت الحيطة موليه أمام هذه المظاهر الناقمة ، فهاج شرحبيل :

« يا معاوية ! . . أبى الناس إلا أن عليا قتل عثمان . ووالله لئن بايعت له لنخرجنك من الشام أو — لنقتلنك ! . . »

فكتم الحاكم المجدود غبطته بغفلة حليفه الجديد ، وقال وهو يبدى التسليم :

« ما كنت لأخالف عليكم . وما أنا إلا رجل من أهل الشام . . »

« فرد هذا الرجل على صاحبه إذن . . »

إن بارقة واحدة للحق تبلجت هنيهة فى ذهن شرحبيل وكاد يستضىء بها ضميره ذات ليلة أراد أن يدل فيها على جرير بسلطانه بين قومه من رجال الجنوب. فما نراه بعد لقائه معاوية ذاك إلا أن ملكت نفسه الشماتة ، واستبدت به رغبته فى التشفى علاجا لغله ، فمضى يقرع رسول الإمام وهو يحرص على أن يملأ حديثه له بغمزات سخريته وازدرائه :

« . . . أتيتنا بأمر ملفق لتلقينا فى لهوات الأسد ؟ . . وأطرأت عليا وهو قاتل عثمان . . . »

فجبهه جرير :

« . . والله ما فى يديك من ذلك إلا القذف بالغيب من مكان بعيد ! . . »

واحتدم بين الرجلين حوار أحسب كلا منهما كان يدافع عن قدره قبل دفاعه عن أهداف صاحبه . ولكنه حدل بذر الشك فى نفس شرحبيل ، وذكره ما أضمر بين الحقد على منافسه وما أخوف من كلفه بجاه النفوذ . . وإنه لتلعب به الريبة فلا يدرى أين يضع تأييده حتى يسمع من ابن أخت له شعرا لو ترك معه وشأنه لكان حربا على معاوية ولكن ما أهل الشام كان أنفذ بصيرة ، وأسرع إلى معالجته عن التزام جانب النصفة فإذا الصنائع تفتله ثانية ، وتتهم عنده عليا بدم عثمان ، وتقيم البينات والحجج على ما ادعته : كتبا مختلقة وشهادة زور ! . . وعندئذ يحمق ويعود عناده حتى لود لو اقتضى ابن أخته ما يجعله أمثولة :

« هذا بعيث الشيطان ! .. والله لأسيرن صاحب هذا الشعر أو ليفوتنى .. »
ورين على بارقة الحق فى ذهنه بظلمة الضلال . وباع نفسه للباطل . . وكتب على الأمة الفرقة . . .

وإذ أوشك أن يبرح دمشق حج ثانية إلى كعبته : قصر الأمير المغامر ، يعاقده على ما انتهى إليه تفكيره :

« . . . أنت عامل أمير المؤمنين عثمان ، وابن عمه ، ونحن المؤمنون ، فإن كنت رجلا تجاهد عليا وقتلة عثمان حتى ندرك ثأرنا أو تفنى أرواحنا استعملناك علينا ، وإلا عزلناك واستعملنا غيرك ممن نريد ثم جاهدنا معه حتى ندرك بدم عثمان أو نهلك . . . »

فهلّ لغير هذا سعى معاوية حتى يتردد لحظة فى اعتناق ما عرضه شرحبيل ؟. إنه قد غامر وأفلحت مغامرته بعض فلاح ، ودبر وكاد يجدى عليه تدبيره ، وعندما يمضى شرحبيل عنه إلى منازله ، وإلى مآوى قومه ، وإلى بطون من قبائلهم وأفخاذ تؤلف الكثرة الغالبة من أهل الشام ، فحينئذ سيسرى هناك رأيه كالعدوى ، فتطيب به عزتهم ، وتصبح طرية دانية تنتظر آن القطاف ! . .

ومع ذلك فلم يقطع صاحب الشام برأى فى وفادة جرير حين كر عليه يستحثه البيعة ، ويستفيئه الدخول فى الجماعة . فلقد أبطأ حتى لم يعد بعد هذا مجال لإبطاء ، ومضت به الأيام والأشهر وهو يستمهل رسول الإمام عسى أن تتفاعل دسيسة عمرو فيتعرف خبيئة أهل إقليمه ، ويذوق طعم دخيلتهم المغشوشة ! . .
وإذا كان شرحبيل قد سره هونا ، وزوده من تأييده بأدسم زاد ، إلا أنه ما زال يؤثر التريث حتى يجيئه الغد باليمنية كلهم ظهيرا وتكأة . . . وإنه ليجلس الآن ، فى قلبه ثقة ، وعلى وجهه مثل صمت الجلمود ، يستمع إلى جرير وهو يتلو عليه آخر ما وصله من الإمام :

« . . . أما بعد . فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل معاوية على الفصل ، وخذه بالأمر الجزم . ثم خيره بين حرب مجلية ، أو سلم مخطية ، فإن اختار الحرب فانبذ له ، وإن اختار السلم فخذ بيعته . . . »

فلو أن بينه وبين محدثه حجابا ساترا لحركت حروف الكتاب من قسماته ما ينبئ عن انفعاله وهو آمن أن تراه اللحاظ الناقدة والعيون الرقيبة . ولكنه راض عاطفته على البقاء فى قرارة جليدية ، تنطفئ فيها جذوة قلقه واضطرابه . بل قد حبس لسانه فى حلقه لا يحركه ، حتى ليحسب مشاهده أن كل جوارحه همدت فيها حركة الحياة إلا سمعه المرهف لبقية الحديث ! . .

وراح فى سكونه يعد أذنه الصاغية لوعيد جرير ، ولكنه كان إنصات المشغول بأمر بعيد . دونه فسح من الزمن وأشواط من المسافة . . فإلى الشمال قد مضى خاطره — إلى منازل شرحبيل — إلى حمص التى لا بد قد وصلها رأس الجنية الآن ومضى فيها يعدى الناس بنفسه المريضة ! . . وإن قلبه ليتبع داعيته الجديد هناك . وإن عينه لتتأثر خطاه أينما مضت به القدم فتتعلق منه بكتابه الذى لا ريب قد تلقاه . . لقد كان لا بد لإتمام الخطة ألا يقبع شرحبيل بمستقره ، قانعا بسخط الإمام وغضبه عليه . بل أن يسير بنقمته تلك يذرع الإقليم ، ويغرس نواتها فى أيما رجل كانت نفسه تربة صالحة لاستنبات الفتنة . . . وما كان أيسر هذا على معاوية وقد ضمن ميل شرحبيل إليه . ثم رسم له النهج الذى أراد بكتاب منه لحق به غب مبارحته دمشق ، يقول فيه :

« . إن هذا الأمر الذى قد عرفته لا يتم إلا برضا العامة . فسر فى مدائن الشام ، وناد فيهم بأن عليا قتل عثمان ، وأنه يجب على المسلمين أن يطالبوا بدمه » .

ورد معاوية عن متابعة رحلة الخاطر أن صك سمعه ختام الحديث الذى كان قد ساقه جرير :

« . . . أراك قد وقفت بين الحق والباطل كأنك تنتظر شيئا فى يدى غيرك ! . . »

فرفع برهة عينا تائهة إلى محيا الرسول ، ثم حمل لسانه على الجواب :

« ألقاك بالفيصل أول مجلس إن شاء الله » .

غير أن ذلك المجلس لم يتح له أن يكون إلا بعد أن مضى داعية الباطل وخطة عامله ، يغير النفوس ، ويثير الثائرة ، ويؤلب الناس . ولقد يكون من حق الواقع الإقرار هنا بتلك المعارضة التى صادفها شرحبيل ، ولكنها مع ذلك معارضة

سلبية ، لم تجد لها صدى فى نفوس العامة الذين تتألف منهم كثرة أهل الشام . كانت حيدة التزمتها طائفة من نساك حمص ، ممن صفت قلوبهم لله وأبت الزيغ فلم يصغوا للدعوة . ومع ذلك فلم يؤثر تقاعدهم شيئا فى همة الداعية المفتون ، بل راح ينفث سمومه حتى لم تبق فى الشام مدينة إلا استجابت له وقد سمعته يقول :

« . . . إن عليا قتل عثمان بن عفان ، وقد غضب له قوم فقتلهم ، وهزم الجميع ، وغلب على الأرض . . . وهو واضع سيفه على عاتقه ثم خائض به غمار الموت حتى يأتيكم . . . ولا نجد أحدا أقوى على قتاله من معاوية . فجدوا ، وانهضوا . . . »

فلعل هذا النجاح قد أغراه باهتبال غيره أبلغ ، تكون له المنة به على صاحبه والحظوة لديه عندما يستقيم أمره على غاية ما يشتهيه . فما إن فرغ من رحلاته فى بلدان الإقليم ، ورأى تبشيره قد أتى بثمره ، حتى راح يقلب كتاب معاوية فى كفه وهو آخذ عليه ما بدا فيه من قناعة ومطلب يسير ؟ . . أفيكتفى الآن بالإمرة ؟ . . ألا تتطلع عينه لما هو أعلى من مكانته ! . . أضاقت دنياه إلا عن الشام ؟ . .

وهتف الداعية لنفسه :

« هذه سقطة ! . . »

ثم قام من فوره يكتب إلى أميره

« . . . إنك أخطأت خطأ عظيما حين كتبت إلى أن أبايع لك بالإمرة . . قد بايعت ومن قبلى لك بالخلافة ! . . »

وقد فعل .

وسافر البريد إلى دمشق بالكتاب والأخبار .

عندئذ آن لمجلس معاوية أن يكون ، فقد ذاق أهل الشام ، وطعم من حلوهم ما لم تطلمه قط أحلامه ! وإذا به يمد يده إلى رسول الإمام بالرد الذى طال عليه الانتظار ، ثم يقول فى خيلاء :

« ياجرير ، الحق بصاحبك ! . . »

٣

أين هدأة الطمأنينة؟ .. أين سكينة الوفاق والوحدة ؟.. أين منهم ، جميعاً ، السلام ؟ . . خياله كان وهم أفئدة خشيت الفرقة أن تمزق الأمة وتعيدها ثانية قبائل محاولة كبدئها الواهن فى صحارى الجزيرة . حديثه كان أمنية وحلم حالم . . أما الآن فما للسيوف تؤثر العرى ؟ . . إنها تهيأت تنضو القرب وتخلع الأغماد . الحراب شحذت والسهام ريشت . الرماح أتلعت الجيد فى الفضاء وشدت القوام ، يكاد صقالها يخطف البصر وسنانها يقطف الهام ! .

اليوم لا سلام ! . . حق الكوفة للصابرة لا كت الحرب . الصمت آدها وأعياها . الركود الذى ارتضته فى الله لم يعد له فى أعضائها مسرى بعد إذ لقيت دعوتها إلى الاتحاد العنت والجحود والترفع . . ليس فيها اليوم من يستطيع رد نفسه عن لقاء عدوها العاصى بما يغرى ادعاءه ، ويقمع طمعه ، ويقمأ خيلاءه . كل أهلها الآن غاضب ثائر ، تمردت كبرياؤه على صبره . .

وكان الإمام لا ريب أولى امرئ فيها بأن يثور كصحبه ويصبح لهم فى غضبهم طليعة . ذاق من الشام مرها وعلقمها . طعم من تمرد أميرها الصاب . لكن طبعه جنبه الدفمة ، وأبت عليه حكمته أن يلى لحنقه أو يفسح السبيل لعواطف قومه فتطغى على أناته . وإنه ليكبح منها الجماح ويمسك عنانهم أن يتفلت من كفه فيلقاهم بالملاينة كلما تلاسبت نواظرهم لتلبث جرير وشدوا على سيوفهم وقربوا الخيل وصكوا الأنياب :

« . . وقت لرسولى وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعا أو عاصيا » .

وما كان يريثهم رهبة ، إنما رغبة فى استنفاد كل معذرة قد يسوقها غريمه ، وفى إنفاذ كل حجة إليه ، ثم ينتضى بعد هذا حسامه ! . . . أما الآن فقد مضى وقت الإعذار إلى غير رجعة . فشلت المصابرة ، ونبذت الحجة المؤزرة . . عاد أخيرا جرير ، وها هى الأرض توشك أن تميد به ، أمن قلق أم من خيبة ؟ . . وهذا حديثه يترنح به . . . وتلك ملامحه عليها غبرة ، أو صمة عاص أو سمة مخدوع ؟ . . .

ويقبل الإمام بسمعه ، ثم يغضى بعقله عن كلمات رسوله التى جابها معه من الشمال كأنما لقنها من لسان عاملها وقومه العصاة . . يغضى عن أسلوب الوعيد ، وقصة مئات المئات من ذوى الخيـــل والأسنة المتمرسة بالحروب ، ونبأ الخطر المنبثق من اجتماعهم على التنادى بالثأر انبثاق سيل الطوفان ! . . فأما مكابرة معاوية فلا يغض عنها جنانه — مكابرته التى حملها جرير من دمشق فى كتاب ، أديمه زيف ، ومداده افتراء . . .

يقرأ سطور الإفك المنقوشة أمامه وهو آسف حزين لما انحدر إليه ضمير ابن هند ووجدانه :

« . . . لعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبى بكر وعمر وعثمان . . . ولكن أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف . . . وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان . فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين . . . »

فما كان أعجبها فرية لا تكاد تلزم عليا تحمل دم القتيل ، وإن ألب وخذل وشرك فيه ، تتهافت وتتهاوى ، على بها قاتل برىء ! . .

وتتهم العقل ، لاريب ، إن أقدمنا على فحصها تحت مجهر المنطق ، أو رددنا أسنادها إلى وقائع التاريخ . . لكننا نؤثر التخلى عن الجدل فيما لا يجدى فيه . ونحاول أن نلم بهذه الآونة التى أشرعت فيها الأسنة تستعد للتشابك فلا نراها إلا فترة من حرب لفظية سبقت حرب الحديد والنار . كل فريق أخذ اليوم فى الإعداد ، وجذب الأنصار ، وجمع الكتائب المكتئبة تقيم له أهدافه فوق دعامة من الجماجم ! . وما نريد بهذا أن نرمى الإمام بالظمأ للدم ، إنما نراه — وقد غلب على صبره — لم يجد معدى عن لقاء خصمه ببعض الأسلحة التى اختارها للصراع ؛ وكان من بينها سلاح المحاجة والمكايدة والتبشير . .

غير أننا لا نستطيع هنا أن نغمط معاويه حقه من التفوق فى هذا الميدان . لقد كان أملك لأدواته من على ، أقدر على العمل بها قاطعة حديدة لأنه رجل لم يرده وازع عن التماس أى أسلوب فى حربه الباردة ، مشروعا كان أو غير مشروع . لم ير حرجا فى الدس ، ولا فى الغدر ، ولا فى الادعاء بالباطل ماوصلت به طرائقه

الملتويه إلى مطمن قاتل فى غريعه . كان همه أن يفوز وإن وطئت قدمه الملوثة قدس الحق وقيم الأخلاق . كل حرمة مباحة ، وكل ضلالة حلال . الحق باطل ما عارضه ، والزيف حق ما أيده ، فهو بما اجتمع له وزودته به خصاله وشيمه صاحب اليد العليا فى حرب القلم وحرب اللسان . .

وكانت الخطة التى اتبعها على ها هنا دفاعية ، تماما كأختها التى التزمها من قبل ومن بعد فى القتال . فما عرف عنه قط أنه هاجم ليكون بادئا بعدوان ، بل « الرد » كان أسلوبه . الرد ليبصر ، أو يدفع تهمة ، أو يقمع فتنة عدت على حقه الذى هو حق الأمة التى نصبته حارسا عليها يذود عنها الدواهى الداهمة والعوادى المغيرة . . . فلا عجب أن يكون خصمه فى ميدان المكايدة « أخف حركة » منه ، يبدأ حين يشاء ، ويختار من جنبات الحلبة ما شاء . وأن يكون « حر الكف » يتناول السلاح الذى يوائم طباعه وليس عليه من ضميره رقيب يزعه عن فعال تسيل لأشباهها بالندم ضمائر الأحرار ! . .
لم يكن الرجلان إذن فى مجال هذا الصراع اللفظى على مكانة سواء . رجحت كفة العادى وشالت كفة المفترى عليه . تباينت الأسلحة ، فهى فى يد على محدودة وفى يدى خصمه وفيرة عديدة جمعت كافة الصنوف والأنواع . تعددت ميادين المحاجة والتبشير أمام معاوية وضاقت حلقتها على الإمام — إلا ما أقره منها الدين وارتضته المثل الإنسانية الرفيعة . بل الغرائز البشرية فى صورها الشائهة لمعاوية ظهير إذ هو امرؤ أجاز لنفسه تسويد المادة على كرائم الأخلاق .

تحت هذه الأضواء التى تشعها أدوات الصراع يمكن فى يسر فهم التفوق الظاهرى الذى حازه ابن هند حتى علت به يده فوق كف غريمه . وإنه لتفوق ترفعت عنه شيم الإمام وسجاياه وهو غير عاجز عن حيازة مثيله . إنما قد أباه وهو عالم أنه بإبائه هذا مغبون . فلقد آثر ألا يعد دينه ومثله السامية سماطا تطعم منه أهواء اللئام فتشبع البطون وتجوع الأرواح . ولقد رضى باللحى يمذله به الجاهل العائب ، والشانىء الثالب وإنه لعارف أن تفوق خصمه تفوق غدرة لا تفوق قدرة ... وها هو يكشف لنا عن حقيقة الحال فى النزال الذى لم تتكافأ فيه القوى المتنافرة فى الجانبين ، عندما يقول :

« والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس . . . »

فالقياس هنا بين قدرتين : إرجاف بالباطل ، وتحيف على أصول المقارنة ، ومجانبة الإنصاف . وهو كمثل صرك الماء فى ثوب ، وحصرك الشعاع فى قبضة ! .

فأما العائب الزارى الذى أضله هواه فرفع معاوية درجة فى مراتب الدهاء ، وقرر ذكاءه . ووفر له من مقومات الحنكة السياسية ما شاء ، فهلم فليقدم ليكشف لنا متى جرد الداهية من باطله ما عجز حتى الإمام عن الثبات له ثم فشل من بعد دون دحره واستذلاله ! . . .

جيش عاهل الشام من مكره وأخاديعه الكتائب التى تعمل له ، وفرق منها فى الميادين الإسلامية . . . فى مكة والمدينة بث دعاته . وفى أرض النيل . وفى إقليمه هو الذى كان حريا به أن يطمئن لولائه ، بل فى الكوفة أيضا نشطت له فرقة من العيون والجواسيس ... وكان يعلم أن أفيل أسلحته هو ما هاجم به عليا فى إمامته ، ونال من شرعية البيعة التى غدت له فى عنق الناس فلم يأله تنقصا وتجريحاً ، ولا ونى عن معاجلته باللمزة تتبع اللمزة ، والهمزة تردف الهمزة ، تكاد تتفق فى معانيها وإن تباينت فيها الحروف والألفاظ . . كان يفترى ، ثم يعاود الفرية ، ثم يكرر المعاودة ما وسعه أن يكرر عسى أن يقر افتراؤه فى نفوس صحبه يقينا ، أو يثبت الريبة فى نفوس أعدائه فينحدر بهم تيار الشكوك إلى دركه ومهواه . وإنه بهذا الرابح على أى حال ما دام مستطيعا أن يخفى عن الناس الجوانب التى لا تظاهره ويبدى كل ما عداها : ما ينتقص من سمعة الإمام . . .

ولم يكن كتابه الذى احتمله جرير أول ما نطق بكذب ، ولا آخر ما أتى ببهتان . . . إنك لتكاد تعد من أمثاله ما يعيى الحصر ثم توشك لو شئت أن تختزلها جميعها فى واحد يغنيك لبابه عن الكثرة الوفيرة . ولكنك لن تجده قط انبرى بإفكه إلا انبرى له على بحقه ، فيه دحض وحجة وإفحام . فهذه الحرب اللفظية التى شنها لقيت أمامها الكفء القادر على أن يحيلها سجالا لا ترجح فيها كفة العادى إلا بقدر ما يتهيأ خصمه لرد العدوان ، ولو أن عليا صمت فلم يجب على تلك الكتب المبطلة لما نال صمته من قدره فى نفس أى امرىء يتحرى

النصفة ، ولكنه كان عارفا بطبائع الناس ، عالما أن السكوت قد يساء فهمه عند العامة الذين تستهويهم مظاهر الأشياء فيرون الحسر فى الصمت ، والكف عن الجواب توأم الحرج والاعتراف بالهزيمة . لذلك لم يغض الإمام قط عن فرية ساقها معاوية ، ولا عن كتاب هاء الرجل أن يزخرفه بزيفه وأباطيله ، ولعل اجتزاءنا ببعض رده على ما احتمله جرير فيه غناء عن الإطناب وسوق الأمثال .

كتب عند ذاك إلى العاهل المتمرد يقول :

« . . . أتانى كتاب امرئ ليس له نظر يهديه ، ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبعه . . .

زعمت أنه أفسد عليك بيعتى خطيئتى فى عثمان ، ولعمرى ما كنت إلا رجلا من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلالة ، ولا ليضربهم بالعمى . وما أمرت فيلزمنى خطيئة الآمر ، ولا قتلت فيجب على القصاص . . .

وأما قولك : ادفع إلينا قتلة عثمان ، فما أنت وعثمان ؟ . . إنما أنت رجل من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى بذلك منك ! . . فإن زعمت أنك أقوى على دم أبيهم منهم ، فادخل فى طاعتى ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على المحجة . . .

. . . إنها بيعة عامة ، لا يثنى فيها النظر ، ولا يستأنف الخيار . . . »

وإذ كانت العرب فى جملتها أمة « سامعة » قبل أن تكون قارئة ، فقد استغل الفريقان منها هذه الصفة فحرص كل فريق على أن تصل دعوته إلى السمع تصكه وتغزوه . . . لذلك تراميا — فيما تراميا به من أدوات هذه الحرب السلمية — بالنظم يزجونه ، كل إلى غريمه ليهز تحته مواطئه . فالشعر مدخل إلى النفوس قد يستغلق دون غيره من فنون البلاغة ، وله ذيوع يشق على ما سواه من صنوف الكلام . إنه صحف العرب السيارة التى تخلق الرأى العام أو تصوغه وتجيله . له مسرى على أجنحة الريح ، مع الظاعن الراجل والفارس الراحل . . . الرواة يتناقلونه ، والحداة يترنمون به ، حتى يبلغ الحضر كبلوغه الوبر ، وحتى يقتحم السكوخ كاقتحامه القصر ، والندى كالحدر . . .

ترامى الفريقان بالشعر خطير المرمى بعيد الغاية ، يستعدى الناصر ويجذب

المعين ، فإذا هذه الحقبة كالتربة الخصيبة ، أطلعت نفرا وفرا من شعراء السياسة ، يدعون بدعوة الكوفة أو الشام ، ويتأنقون فى إبراز القضية التى يظاهرونها بمنطق القصيد الذى يستهوى السمع والعاطفة ، حشوه الحجة والبرهان . . . يحدثنا بعض شعر من تخيرهم معاوية لنصرة أهدافه . فى مجال التعريض بعقيدة رجال الإمام :

وقالوا : على إمام لنـــا فقلنا : رضينا ابن هند ، رضينا
وما فى على لمستعتب مقال سوى ضمه المحدثينا
وإيثاره اليوم أهل الذنوب ، ورفع القصاص عن القاتلينا

فما يكاد شعره يصل الكوفة حتى يكون له صدى : شعر آخر يجاوبه ، ويتردد فى غياض دمشق ورياضها :

« . . أتاكم على بأهل الحجاز وأهل العراق ، فما تصنعونا ؟
يرون الطعان خلال العجاج وضرب الفوارس فى النقع دينا
جعلتم عليـــا وأشياعه نظير ابن هند ، ألا تستحونا ؟ »

ثم لا تقتصر هذه الحرب الشعرية على أن تتناقلها الكتب أو الرواة عبر الفلوات ، بل نرى جموعها زحفت تقتحم على معاوية معقله ... فإن هى إلا أيام حتى كان على قد بعث إلى الشام خفاف بن عبد الله ، أحد بنى طىء فى زيارة لبعض أهله هناك لعله أن يلغ بهم أميرها ابن هند فيلقى فى روعه من حديثه وشعره ما يكسره ويكسر معه رجال إقليمه . .

ويستقبل معاوية الرجل وقد قدمه له حابس ، سيد طىء ، فيسأله حين يعلم أنه حضر فتنة المدينة :

« . . . حدثنا عن عثمان »

فيجيبه خفاف :

« حصره المكشوح ، وحكم فيه حكيم ، ووليه محمد وعمار ، وتجرد فى أمره ثلاثة نفر : عدى بن حاتم ، والأشتر النخعى ، وعمرو بن الحمق ، وجد فى أمره رجلان : طلحة والزبير ، وأبرأ الناس منه على »

« ثم مه ؟ . . »

« ثم تهافت الناس على على بالبيعة تهافت الفراش ، حتى ضلت النعل ، وسقط الرداء ، ووطئ الشيخ . ولم يذكر عثمان ولم يذكر له . . . ثم تهيأ للسير ، وخف معه المهاجرون والأنصار . وكره القتال معه ثلاثة نفر : سعد بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة . فلم يستكره أحدا ، واستغنى بمن خف معه عمن ثقل . . . حتى إذا كان فى بعض الطريق أتاه مسير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، فسرح رجالا إلى الكوفة فأجابوا دعوته ، فصار إلى البصرة فهى فى كفه ثم قدم إلى الكوفة فحمل إليه الصبي ، ودبت إليه العجوز ، وخرجت إليه العروس فرحا به وشوقا إليه . فتركته وليس همه إلا الشام . . . »

وما يعنينا أن نتناول هنا القصة التى رواها خفاف بالتمحيص والنقاش ، فقد فرغنا قبل من حديث الفتنة وأنصفنا فيه . ولكنها على أية حال ، أبرأت عليا من الدم أمام من لفق اتهامه ، وبلسان امرئ كان لا يسخط عثمان . وإن معاوية ليتدبر ما فى رواية الزائر فلا يقع منها إلا على ما يرد كيده ، ويهدم دعواه ، ويكاد يكسر عنه أعوانه لو خلى بينهم وبين السماع . . . وإنه ليخشى الخشية كلها على كفاحه ، حتى ليوشك أن يطوى مجلسه عن سيد طيئ وصاحبه مذعورا مضعضع النفس من خشيته ، لولا أن يصطنع قلة المبالاة وهو ينصت لبقية الحديث . . .

ويقول حابس :

« . . ولقد أسمعنى ، أيها الأمير ، شعرا غير به حالى فى عثمان ، وعظم به عليا عندى . . . »

فهبط قلب عاهل الشام . ولكنه يتجلد جهده ، وينظر إلى خفاف :

« أسمعنيه . . . »

فإذا الرجل قد بهته بقريضه ، وأتاه من ألفاظه المبينة بمثل صوت التحام الأسنة ، وقعقعة السيوف والصوارم ، ما أوشك أن يصم سمعه ! . .

ويمضى خفاف فى قصيده :

« . . ارهب اليوم إن أتاك على صيحة مثل صيحة الأحقاف !
إنه الليث عاديا ، وشجاع مطرق نافث بسم زعاف

فارس الخيـــل كل يوم نزال ونزال الفق من الأنصاف
واضع السيف فوق عاتقه الأيـ ـن يذرى به شؤون القحاف
سوم الخيال ، ثم قال لقوم تابعوه إلى الطعان خفاف :
استعدوا لحرب طاغية الشا م ! .. فلبوه .. .. »

فما عاد المتمرد يستطيع أن يستمسك ! لقد عصف به قلقه ، وذعره ، وانزعاجه . . . إن الجدران حوله لثملة ، تترنح وتميل . والأرض تحته ميادة . وقلبه يضطرب بين جنبيه كانتفاضة الطائر الذبيح . . . لـكأنما القتال استحر . لـكأنما الخيل حصرته . لـكأنما السلاح اعتوره وهو ملقى على الثرى ، موطئا للحوافر ، تنفث جراحه بقية حياته قطرات حمراء ! . . .

ونفض معاوية الرؤيا المفظعة عن ذهنه المحموم . ورفع وجها باهتاً إلى سيد طيء ، ثم مال عليه يسر بقدر ما وسع نفسه اللاهث :

« يا حابس . إنى لا أظن هذا إلا عينا لعلى . . . أخرجه — أخرجه عنك لا يفسد أهل الشام ! . . . »

٤

أحديث خفاف ، أم بعض الخطط المرسومة هو ما أوحى إلى معاوية بتوجيه دسه إلى الحجاز ؟ . . ابن العاص — على أية حال — لم يشر عليه ، ولم يكن من تدبيره أن يبعث صاحبه كتبه ورسله إلى الجنوب . وإنها لسقطة منه ما كان يحسن أن تغيب عن دهائه . فبث القتاد فى طريق الإمام أولى بمثله ، وأقمن حين الصراع أن يعلو بصاحبه على غريمه .

لـكنه ، لأمر لعله أسره ، ود لو رد معاوية عما عقد رأيه عليه ، وعندما سمعه يقول :

« إنى قد رأيت أن نلقى إلى أهل مكة وأهل المدينة كتابا نذكر لهم فيه أمر عثمان ، فإما أن ندرك حاجتنا ، وإما أن يكف القوم عنا . . . »

أبى ، وحاجه :

« إنما تكتب إلى ثلاثة نفر : راض بعلى فلا يزيده ذلك إلا بصيرة، أو رجل يهوى عثمان فلن تزيده على ما هو عليه ، أو معتزل فلست بأوثق فى نفسه من على . . . »

غير أن معاوية لم يحل به هذا الاعتراض شعرة عن عزمه ، بل عساه ارتأى فى بعض أهل الحجاز تربة قد تثمر فيها بذوره ، امل هوى فى نفوسهم أن يجنح بهم إليه فيكونوا له النصير . . .

وتخير الرجل من فوره ألمع أسماء هناك يجاور أصحابها مقام محمد وبيت الله ، فما وجد خيرا من أولئك النفر الذين اعتزلوا الأمر ، ونأوا بجانبهم عن مظاهرة على وعن ثلبه على السواء ، فنى نفوسهم بقية من شك قد يزعزعها نفثه .

كتب إلى سعد بن أبى وقاص :

« . . . إن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش ، الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره ، وقد نصره طلحة والزبير — وهما شريكاك فى الأمر، ونظيراك فى الإسلام — وخفت لذلك أم المؤمنين . فلا تكرهن ما رضوا . ولا تردن ما قبلوا ؛ فإنا نردها شورى بين المسلمين . . . »

وكتب إلى عبد الله بن عمر ، وإلى محمد بن مسلمة .

فأما أولهما فليمنيه الإمرة ، وليسلس له من إغرائه ما عساه أن يستهوى به لبه ويحرك خياله الذى رانت عليه تقواه :

« . . . لم يكن أحد من قريش أحب إلى أن تجتمع عليه الأمة بعد قتل عثمان منك . . . إنى لست أريد الإمارة عليك ، ولكنى أريدها لك » .

وأما الثانى فليعذله إذ خذل قومه الأنصار عثمان ، وبات هو مثلهم خاذلا له بعد موته ، يدع واتريه ولا يرفع فى وجوههم سيفه ولا ملامته ، وإنما آثر السلامة فى الاعتزال .

وتلقت جيرة الحرمين تلك الحقبة الحازبة من عمر الإسلام على هوى تنطق به السطور قد حملته إليهم كتب عاهل الشام . لكن زيف الداهية لم ينلهم ، ولم تفتلهم عن الحجة أباطيله . كلهم أبى أن يكون متنه إلى أطماعه التى لم تعد تخفى عن البصائر وإن سربلها دونهم بألف ادعاء . . . حتى العامة فى البلدتين الحرام أجمعوا الرأى على رد دعواه ، فنضح كتابهم إليه بفشل حيلته .

بعث إليه ابن عمر :

« . . . ما أنا كعلى فى الإيمان ، والهجرة ، ومكانه من رسول الله ، ونكايته فى المشركين . . . فأغن عنا نفسك ! . . . »

ورد ابن مسلمة :

« . . . لعمرى ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى ، فإن تنصر عثمان ميتا فقد خذلته حيا ! . . »

وأجاب سعد بن أبى وقاص :

« . . . إن عمر لم يدخل فى الشورى إلا من يحل له الخلافة من قريش ، فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه . . غير أن عليا قد كان فيه ما فينا ولم يك فينا ما فيه . . . فأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيرا لهما . والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت ! . . »

وكان رد المسور بن مخرمة بلسان أهل المدينة :

« . . أخطأت مواقع النصرة وتناولتها من مكان بعيد . . . ما أنت والخلافة يا معاوية ؟ . . أنت طليق ، وأبوك من الأحزاب ! فكف عنا ، فليس لك قبلنا ولى ولا نصير . . . »

وعندما حمل إليه البريد رجع الدسيسة التى ود لو أفرخت له فى الحجاز ، شمت عمرو وقال :

« كيف رأيت يا معاوية رأيى ورأيك ؟ . »

فأجابه وهو مكمود :

« رجوت ماخفت !.. »

لكنه ، مع هذا ، لم ينم للقنوط ، فما زال الميدان وسيعا لدسه وادعائه. وإذا كان تأليبه على على لم يجد صدى فى نفوس فئة كهؤلاء يتحرجون أن تلعب بهم أساليبه ، فإن كثرة غيرهم حرية أن تنحرف إليه لأنها طرية فى يدى زيغة يستطيع أن يصبها فى قالبه: أولئك هم طوائف الأعراب من القبائل المنبثة فى صحارى الجزيرة وفى نجادها ، الذين زودتهم حياة البداوة والفطرة بسذاجة لا يفطنون معها إلى

ما يسوقه من أخاديع . وهل دعوته بينهم إلا صورة من صور النخوة التي تهز فيهم المشاعر ؟ . .

بات البدو إذن في الجزيرة مرتع تجاريبه ، يبثهم باطله في ثوب من النجدة براق ، ويحضهم أن يؤازروه على الانتصار للخليفة القتيل من واتريه فلا يحرك في قلوبهم إلا إيمانها بالمروءة وولعها القديم بالثأر لمظلوم ، ولم يكن ثمة حقل أخصب لدعوته من الموسم ، عند المسجد الحرام ، حينما يتوافد الحجيج . فهناك البدو الذين يقبلون محرمين من النجاد والفلوات . وهناك التجار تجمعهم الأسواق . وهناك أيضا وفود الأقاليم والأمصار ينتشر بينهم نفثه ويحملون منه بقية معهم حين العودة . هؤلاء رسله ، وإن جهلوا ، إلى أقوامهم، ودعاته في بلادهم الدانية والبعيدة الذين يتطاير من أحاديثهم شرر النار !

ولم تغب عن علي هذه الدعوة السرية التي شنها غريمه بين الجميع ، يوقع بها في نفوسهم ما يريده ، ويخذل جموعهم عن صاحب الحق في ولاية الناس ، ويثير فيهم التمرد عليه ، فأرسل إلى ابن عمه : قثم بن عباس ، عامله على مكة ، يبصره :

« ... إن عيني بالمغرب كتب إلي يعلمني أنه وجه إلى الموسم أناس من أهل الشام الذين يلتبسون الحق بالباطل ، ويطيعون المخلوق في معصية الخالق .. »

لقد كان الصراع السلمي عنيفا بين الرجلين إلى غاية عنفه، لم تخمد ناره طوال هذه الحقبة التي انطلقا فيها يتصاولان بالقلم واللسان . وإنه ليكشف لنا عن نواحي لم يكن فيها معاوية منفردا وحده في مجال الصيال ، بل لعله كان مسبوقا حين نستشف من خلال كلمة الإمام لابن عمه كيف تأهب علي لملاقاة خصمه في ميدانه، وشحذ له من أساليبه ما يفل من سلاحه ؛ حتى لقد بث العيون في قلب إقليمه تأتيه بنواياه من قبل أن تذيع في الناس .

ونباعد الحق لو حسبنا معاوية لم تكن له بالكوفة رصدة تنقل له ، وتعمل لغاياته : فأدنى الدهاء ، أن يفعل ويستشف ما وسعه خطوات خصمه . وإن عليا ليوشك أن يكتب الناس ويمضي بهم جموعا ليجتاح الشام فتنجاب له السجف عن حقيقة بعض من ظنهم الناس أعوانه . . . ينادي القوم داعيا إلى الفصل :

« . . . سيروا إلى أعداء الله ! . . سيروا إلى أعداء السنن والقرآن ! ..

سيروا إلى بقية الأحزاب ، قتلة المهاجرين والأنصار ! . . »

فعندئذ ، حين لم يعد من الحرب مناص ، نرى امرأ مدسوسا عليه قد نهض يجادله جهرة لعله أن يرمى بالوقيعة بينه وبين أنصاره :

« أتريد أن تسيرنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم ؟ كلا . ها الله إذن لا نفعل ! . . »

فلعلها كادت تستشرى فتنة لولا أن عاجل الأشتر الأمر فصاح :

« من لهذا أيها الناس ؟ . . »

فإذا الصيحة تثير الجموع ، فتلاحق الرجل فى فراره أمام غضبتها، ثم تتعاوره بالأكف ، ونصال السيوف ، والأرجل ، حتى يقضى ويموت دمه فى لهاته !...

ويقبل الأشتر محاولا أن يطيح بما عساه قد علق من أثر بنفس على نتيجة لدعوة الجاسوس :

« . . . يا أمير المؤمنين ، لا يهدنك ما رأيت ، ولا يؤيسنك من نصرنا ما سمعت من مقالة هذا الشقى الخائن — »

ولكن أمير المؤمنين لا ينسيه التفاف رجاله عليه دم الخائن القتيل ، فيستقصى مصرعه :

« . . من قتله ؟ »

« قتلته همدان ، وفيهم شوبة من الناس »

فيأمر فى الحال بتوديته :

« قتيل عمية لا يدرى من قتله ديته من بيت مال المسلمين »

هذه الصورة من التجسس والدس لها أشباه ، فى الكوفة ، وفى طريق جيش الإمام طوال سيره إلى مرابضه فى صفين لملاقاة معاوية بعد فشل دعوة الوفاق . فى كل خطوة قدم كانت الأرض تطلع عليه عينا يرصد حركته ويكاد يعد أنفاسه ، أو منافقا يبدى له النصرة وهو يكتم الخداع والعداوة . . . دخل عليه ، ساعة تهيئه للرحيل بجنوده رجال من غطفان وتميم ما كادوا يلمحون عزمه ، حتى انبرى له منهم حنظلة بن الربيع :

« يا أمير المؤمنين . إنا قد مشينا إليك بنصيحة فاقبلها منا . . . أثم ، وكاتب

هذا الرجل ، ولا تعجل إلى قتال أهل الشام ، فإنى والله ما أدرى ولا تدرى لمن تكون إذا التقيتم الغلبة . وعلى من تكون الدبرة . . . »

وكأنما كانت الفرقة كلها على اتفاق ، ولقنت ما تقول ، وجاءت شوطها لتبثه وتدعو إليه ! . . فما لبث أن نهض منهم ابن المعتم يردد مثل ما قال صاحبه . ثم قام بعده غيره ، ثم غيره وغيره كثيرون ما مأرب لهم إلا تأخير السير ، كأن قد أرادوا بهذا الإرجاء إيقاع الوهن فى صفوف جيش على ، أو أفساح فسحة من الزمن لذلك القابع هناك فى الشمال . . .

وأصغى الإمام لحديث التردد الذى أتوه به فى أحرف نصيحة ، ثم قام فيهم وفى الناس ، يحدثهم بمنطق إيمانه :

« . . . إن الله وارث العباد والبلاد . . . يؤتى الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء . . . أما الدبرة فإنها على الضالين العاصين ، ظفروا أو ظفر بهم . وأيم الله إنى لأسمع كلام قوم ماأراهم يريدون أن يعرفوا معروفا ، ولا ينكروا منكرا . »

فهتف به أحد رجاله : معقل بن قيس :

« إن هؤلاء والله ما أتوك بنصح ، ولا دخلوا عليك إلا بغش . فاحذرهم فإنهم أدنى العدو » .

وصاح صاحب شرطته ، مالك بن حبيب :

« يامير المؤمنين إنه بلغنى أن حنظلة هذا يكاتب معاوية »

وقال عياش بن ربيعة :

« . . . إن صاحبنا عبد الله بن المعتم قد بلغنا أنه يكاتب معاوية ، فاحبسه أو أمكنا منه نحبسه حتى تنقضى غزاتك . . »

ولئن كان الإمام قد رأى الترفق بدعاة التردد المدسوسين فما كان هذا عن إحسان ظن بهم أوشك منه فى ترددهم عنه . ولكنه رفق القادر الكريم . وهل يغيره مثل هذا التقاعد من فرقة لم تكن يوما له ، وهو يعلم أن قومهم لابد ينكرون تقاعدهم ؟ . بل لعله أراد أن يريثهم عسى أن يأسرهم حلمه ، فلا يكونوا عليه إن لم يصبحوا له . . على أية حال ، لقد غدوا بقومهم سبة قبلهم عنده ، ومعرة يتنصل من وصمتها الكبير والصغير من ذويهم حتى ضاقت عليهم الكوفة

فبيتوا أمرهم بليل ، وخرجوا منها هاربين من المذل والمساءة ينتجعون ارض الدسيسة فى جوار جند الشيطان ! . . .

ولئن كانت هذه الفئة المنحرفة قد وجدت أمنها فى الخروج ، فإنها لم تجد لها فى زيغ معاوية غاية مرضية يمكن أن تحمل فى سبيلها السلاح . إنما قعدت بمستقرها الجديد عن مؤازرة الأمير المتمرد ، وركنت إلى اعتزاله . ولم يسمع عنها إلا كلمة لحنظلة ، ما تراها ندت من بين شفتيه إلا حين مقامه بالكوفة فأخذت سليه فيما أخذت من وسائل اتصاله مع الشام وإن قيل نطقها من بعد فراره — لم نسمع إلا أبياتا يحرض بها ابن هند على خلاصة الناس هى أالفاظ لم تجاوز القول ، ولم يخرج منها إلى حيز التأييد العملى ولا بتحريك سيفه المغمود ! . . . يقول ذلك المحرض الفار :

« أبلغ معاوية بن حرب خطة ولكل سائلة تسيل قـــرار
لا تقبلن دنية تعطونها فى الأمر حتى تقتل الأنصار ! . . »

فر إذن حنظلة ، وفر ابن المعتم وقلة من رجالهما معهما إلى الشام . فلم يخسر الإمام شيئا بهذا الفرار . ولم يكسب معاوية شيئا بالانضمام ، فلو كانوا خونة فقد حسبت عليا طهر من الخيانة صفوفه ، ولو كانوا مرتابين فهم كذلك منذ بدئهم . قد اعتزلوه من قبل ، ولم يلحقوا به حين دعاهم إليه إبان محنه عائشة وصاحبها فى البصرة ، بل آثروا القعود . وإنهم لأشبه عندى بمنافق المدينة ، أو بضعاف الإيمان فى فجر الإسلام الذين أبرم رسول الله عهد الحديبية فلم يحملهم بنصوصه على النكث بين أنصاره إذ لم يحمل قريشا على ردهم إليه بعد أن ارتدوا وخلفوه . أولئك كهؤلاء — سوسة فساد تنخر فى كيان جمع وفى سليم فما تنجح قضية نصيرها مرتاب . وما أجدى فرار فريق حنظلة وابن المعتم على معاوية مثل خردلة — إلا أن تكون الجدوى أن لحقوا به ثم اعتزلوه فكان أولى أن تشيع الريبة فى أهدافه بالاعتزال ! . .

غير أن ابن هند كان يكفيه أن يأتيه أمثالهم : مخلصين أو مرتابين ! . . فلن يطلع قومه من صور اللحاق به إلا على ما يرضيهم ويرضيه : إنما أشباه حنظلة أصحاب هجرة أنكروا منكرا من الإمام ! . . إنما قد عرفوا موطن الحق فجبوا

إليه ليلتزموه ! . . إنما هم ، وغيرهم : نفر آخر من أصحاب الأسماء الضخمة الرنانة ، سيكونون كتابه الذى يتقدم به فى عينه لأهل إقليمه — كتابه الذى سيضم منهم مادة جوفاء فارغة يسرها لنفسه ! فلن يكشف قط عن صفحاته للعيون . . سيكتم عن الناس باطنه ، سيطوى أسطره ويبدى ظاهره . أفما يأمن إذن غدرة زمانه وهؤلاء أنصاره ومريدوه رجال عدموا الرؤية ، وجلاء البصيرة ، وعمق التفكير ، كل همهم غلاف أنيق ؟ . .

٥

هذا كتابه يتقدم به . . . له هيئة ، وفيه فتنة ظاهرة تدعو إليه العيون المسحورة . ذو منظر ولون ، قد لمع غلافه وتزخرف شغافه ! . إنما يعنيه أن يجذب الناس إلى راية ذات زبرق وإن رخص فيها النسيج . فالقوم عنده كمثل الثور الذى تجذبه الحمرة ! . .

الرجل حقا قد سبر طبيعة الجماهير ، وخبر مغاور العاطفة التى تنطلق بهم إلى الأقاصى البعيدة دون حاجز يقف بها من التعقل أو التدبر . ومتى كان العقل يحكم الثورة ؟ . . ومتى كان الثور يلقى بعينه إلى السيف الخبىء وراء القماشة الحمراء ؟ . . لو قد عرف أن قومه مناقشوه حين يتبدى لهم كتابه لفكر عشرا ولم يتقدم . لو قد عرفهم مستنبئة ما تضمه الصحائف ابات لياليه وهو مكروب وقطع حياته وهو مغلوب . ولكنه عرفهم « لا يقولون إذا قال ولا يسألون إذا أمر » . إنهم رجال تسليم . عطلوا الفكر إلا فكره ومضوا خلفه إلى حيث شاء كأنما يقودهم بلجم ! . . وهو قد ألهب فيهم الحمية فحق أن يزودها بين اليوم واليوم بالوقود . وكان الوقود إفكه وأكاذيبه وزخارف الخداع والتمويه . .

والآن إذ فاته أن يخلب إليه بقية أهل الشورى ، وجيرة الحرم ، ومنتجعى الأمان الروحى عند قبر الرسول ، لفق الصور فتانة ، تسحر الأنفس التى تستدلها المظاهر . . . الآن لكتابه أغلفة ، أكثر من غلاف ، براقة أنيقة . . . الآن له أكثر من عنوان ، كل منها يملأ الفم بحروفه الضخمة الرنانة ! . . سيستطيع

أن يطلع على قومه بين اللحظة وتاليتها بسفر كأنه جديد ما هو بجديد ، أصله واحد وأغلفته عديدة ، يلبسه منها ما يروقه ، اليوم هذا والغد ذاك ، كأنه غانية فى أسواق المتعة يتشكل حسنها فى عيون عشاقها بتغير الشفوف ! . .

وقال ذات يوم لعمرو بن العاص :

« إن الله قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدوم عبيد الله بن عمر ، وقد رأيت أن أقيمه خطيبا فيشهد على على بقتل عثمان وينال منه . . . »

فهذا إذن عنوانه الجديد ! . . أعياه عبد الله فالتمس عبيد الله ! . وهل من فارق فى نظر صحابه بين الأخوين وكلاهما من صلب الفاروق العادل الذى جرت الألسن بطيب ذكراه ؟ . .

وجىء بالفتى إليه يصغى لتحريضه :

« إن لك اسم أبيك . فانظر بملء عينيك ، وتكلم بكل فيك فأنت المأمون المصدق . . . فاصعد المنبر واشتم عليا ، واشهد عليه أنه قتل عثمان » .

قال عبيد الله وهو بين تردد واقتناع :

« . . . أما شتمه فإنه على بن أبى طالب ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، فما عسى أن أقول فى حسبه . . ؟ وأما بأسه فهو الشجاع المطرق . . . وأما أيامه فما قد عرفت . . . ولكنى ملزمه دم عثمان » .

فهتف عمرو :

« إذن والله قد نكأت القرحة ! »

وعندما برح الفتى . وخلا المكان بعده للداهل المخادع يجتر ذكرياته وآماله ، لم يطق معاوية كتمان رأيه الصريح فى ابن عمر — فى تفاهة عنوانه الجديد الذى سيخلب الناس ! . .

قال لابن العاص :

« أما والله لولا قتله الهرمزان . ومخافته عليا على نفسه ما أتانا أبدا . . . ألم تر إلى تقريظه عليا ؟ . . »

فطمأنه عمرو :

« يا معاوية ، إن لم تغلب فاخلب ! . . »

وكان هذا فى الواقع شعاره . فما يهمه إلا الوجه الذى سيتبدى للقوم فأما اللب فسيخفيه . إنه ليستنصر بابن عمر ، ويستعديه ، ويتلمس عنده الشهادة على على وإنها لمكذوبة أو تبطنت بالهوى والغرض ، ولكنه يرتضيها إذ هى الرقعة الحمراء التى تجتذب نظرات ثيرانه ! . . . وإنه ليتلهف عليها ، ويظل حالما باليوم القابل القريب الذى يتسنم فيه شاهده ذروة المنبر ليزور كلامه وينشر اتهامه ... حسبه أن « له اسم أبيه » . حسبه أن الآذان ستلقف حديثه والأذهان ستؤمن بما فيه . وهل يجرى بخاطر المفتونين أن يعين عبيد الله وإنه لمن عمر صاحب السيرة التى تؤرخ للحق والعدالة ؟ ...

لقد كان معاوية على بينة من دخيلة الفتى يوشك أن يدفعه إلى الطريق التى يرسمها له فلا يراه يحرن أو ينكص عن التزامها أو يحيد . عرفه كارها للإمام ، يجزع حين تلوح صورته له فى خياله فيلمح منها قسمات صلبة لاتلين ، ونظرة عين تحترم المجرم ، وحد سيف يتهيأ لإنفاذ شرعة القصاص . . . وكان عبيد الله هو المجرم الذى قهرت العدالة ذات يوم على إفلاته إبان عهد عثمان إذ هو امرؤ — فى عهد ذلك الخليفة القتيل — ليس كالناس ، يجل دونهم عن العقوبة !.. وكان على حينذاك يراه قد تلوثت كفه بإثمه فلا عفو له على معصية أو تصبح الشريعة سلاحاً فى يد الحاكم له حدان ينال بحديدها المستضعفين والعامة ويربت هازلا بثلومهما على ظهور الخاصة من ذوى الأحساب ! . .

إن قصة ابن عمر هى صورة محنة من تلك التى تذل العدالة فى كل عصر تمرض فيه الضمائر وتتهاوى قوائم الشعور بالمسئولية . قصة الهوى يحرك القانون . قصة طبقة تخصها الدولة بمغانمها وإن أساءت وطبقة غيرها ليس لها فى وفاضها سوى المغارم . . . قصة خيانة الناس الله ! . . .

أجل قد خانوا ربهم ، أحسبهم ، يوم أطلقوا الفتى حرا ولما يجف من كفه دم الهرمزان ! . . فبأى حجة أطلقوه ؟ . . وما هى المعاذير التى تلمسوها له لإبرائه وقد عجز هو عن تلمس المعاذير ؟.. وكيف يستطيع القانون ، بعد حكمهم ذاك ، أن يسير فى الناس إلا شائها مهيضا منضيا من معرة واستحياء ؟ . .

كان ذلك يوم أن طعن ابن الخطاب بيد أبى لؤلؤة فيروز غلام المغيرة وأخذت

روحه تنزف رويدا رويدا من جراحاته . . . وعلم عبيد الله بمصاب أبيه فانتضى سيفه ، ومضى فقتل الهرمزان وإنه لمسلم تشهد عند ذاك ودماؤه تسيل ، وقتل ابنة أبي لؤلؤة : فتاة صغيرة بلا جريرة ولا حول ، وقتل جفينة : رجلا من نصارى الحيرة كان يعلم الصبيان في المدينة — فلولا أن تكاثر عليه الصحابة ، وسارع بن أبي وقاص فأخذ بناصيته ، وخطف منه سيفه ، ومضى به فحبسه في داره لكان انطلق إبان غضبه المجنون فقتل كثيرا من السبي وفئة من الأنصار والمهاجرين صور وهمه له أنهم شركوا في دم أبيه . . .

وعلم عمر في وجعه بعدوة فتاه على الهرمزان فسأل الناس :

« ولم قتله ؟ . . »

قيل له :

« قال : قتل أبي »

فهز الخليفة الطعين رأسه منكراً وهو حائر مرتاب ثم قال :

« ما أدرى ما هذا . . . انظروا إذا أنا مت فاسألوا عبيد الله البينة على الهرمزان هو قتلني ، فإن أقام البينة فدمه بدمى ، وإن لم يقم فأقيدوا عبيد الله من الهرمزان . . . »

ولم تكن إقامة البينة هينة لأنه لم تكن ثمة بينة على الإطلاق ! . . . فما أشهر الهرمزان خنجرا في وجه ابن الخطاب ، ولا رآه أحد عند الطعنة يؤازر المجوسى القاتل ، وما عرف عنه أنه أكن للطعين موجدة . كل الذى حرك غضبة الفتى عليه رواية راو ترسم الهرمزان ذات يوم قبل الطعنة وقد أقبل يناجى أبا لؤلؤة فلما افترقا سقط بينهما نفس الخنجر الذى أصاب عمر بعد أيام . . .

وقال عثمان — وما كان بعد قد ولى الأمر — يعنف بعبيد الله :

« قاتلك الله ! . . قتلت رجلا يصلى ، وصبية صغيرة ، وآخر من ذمة رسول الله . ما فى الحق تركك »

وسأله في استنكار :

« وما ذنب بنت أبي لؤلؤة حين قتلتها ؟ . . »

واشتد سعد على الجانى ، واشتد معه من صحابة محمد كثيرون رأوا أن ينفذوا

فيه عقوبة جرمه وفق ما تحتم الشريعة وإجازة لوصية أبيه . فلما قضى عمر ، وخلفه على الأمة عثمان تبدلت الحال بحال ! . .

أقبل ابن العاص على الخليفة الجديد — حين رأى أن ينظر فى الاقتصاص من عبيد الله — يزلزل فيه رأيه الحازم الذى جهر به منذ أيام :

« يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان . إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك ! . . »

فهل وقوع الحدث فى غير عهده يبت العقوبة ؟ . .

لقد بدا كأنما الرقة أخذت عثمان حتى استحيى أن يتناول بالقصاص عبيد الله بعد مصرع أبيه : وبدا أن العامة وقد فقدت خليفتها الحبيب المرهوب جمحت بها العاطفة إلى العطف على ولده فألهاها عطفها عن وجوب التزام شرعة الله فيه كالتزامها فى سواه . . تهامست حينذاك طائفة :

« أبعد الله الهرمزان وجفينه ! . . يريدون يتبعون عبيد الله أباه ! . . »

وقال بضعة من المهاجرين :

« قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ! »

ومال عثمان إلى الرقة الأصيلة فيه فأغفل تناول القضية بالحزم الواجب ، والعدالة المفروضة التى يستوى أمامها الكبير والصغير . . .

وكثر اللغط ، وزاد تحدث الناس عن هذا التهاون فى إنفاذ القانون فى مجرم وفى ممالأته على غير ما تنص أية شريعة : سماوية أو موضوعة ، حتى لامه الكثير :

« ألا تمضى وصية عمر فى عبيد الله ؟ . . »

فلم ير مناصا من حسم الأمر بالقطع ، فجلس بجانب المسجد فى الناس ، ودعا المهاجرين والأنصار ، وأمر بالفتى فأحضر بين يديه . . . ثم استشار :

« أشيروا على فى هذا الذى فتق فى الدين ما فتق »

فأجمعت كلمة الأكابر من أصحاب رسول الله وذوى الرأى على أخذه بظلمه . .

وقال على بن أبى طالب :

« أرى أن تقتله . . . »

وعاود ابن النابغة ما أسلف من حديث الإعفاء . . .

وتحدث العامة والأوشاب — كثرة وفيرة — بما لايحسنون غيره من منطق العاطفة . . .

وعندئذ اعتلى الخليفة المنبر يخطب الحاضرين :

« أيها الناس ... فقد كان من قضاء الله أن عبيد الله بن عمر أصاب الهرمزان وكان الهرمزان من المسلمين ، ولا وارث له إلا المسلمون عامة ، وأنا إمامكم ، وقد عفوت أفتعفون . . . ؟ »

فتهاتف من حوله جمهور العامة :

« نعم ... نعم .. »

وثار على وقد رأى حق الله يستلبه من ليس له حق فيه ، ومن إذا وكلت إلى عواطفهم الحدود لانقطع النظام وجبت الحدود التى تحفظ على المجتمع حياته سليمة وأوضاعه مستقيمة :

« أقد الفاسق فإنه أتى عظيما ، قتل مسلما بلا ذنب ... ».

قال عثمان فى عناد :

« ألا إنى ولى دم الهرمزان ، وقد وهبته لله ولعمر ، وتركته لدم عمر »

فغضب المقداد بن عمر ، الصابى الجليل ، ورمى بصيحته فى وجه عثمان :

« إن الهرمزان مولى لله ولرسوله وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله ! .. »

وحينما استشعر على من الخليفة التخاذل ، والجنوح مع الرقة إلى تقويض قوائم العدالة ، ولى الشريعة للأهواء ، وتعطيل الحدود ، قال يتوعد عبد الله :

« يافاسق ، لئن ظفرت بك يوما لأقتلنك بالهرمزان ! »

وأمام هذه الثورة للحق الواضح من أعرف الناس به ، وأشدهم حرصا عليه لم ير عثمان غير أن يظهر النزول عن عناده ، فقال لهم فى ترفق ولين :

« فننظر وتنظرون ... »

لكنه لم ينظر ولم يدع لأصحاب الرأى معاودة النظر فى القضية حسبما خط ناموس الله . فقد كان — كما بدا من بعد — أبرم قراره وبيت إصراره . فإذا هو يخرج عبيد الله من المدينة نأيا به عن المستمسكين باتهامه وتفسيقه ، وينزله داراً بالكوفة لا يطوله فيها حديث القصاص .

وتلك قصة عنوان ! . . .

٦

بنى وعلّى فى بناء أحلامه التى عقدها واثقا على عبيد الله !.. جلا المنبر للأعين جلو العروس ! . . حشد له الزحم والجموع حوله كأنه وثق فى ليلة عيده ! . .

وسبق بذهنه الزمن . طفر خفيفا إلى لحظة نصره المرقوب الذى لن يلبث ذكره أن يشيع فى المجامع ، ويزحم المحافل ، ويمـــلأ الأفواه . . . هى ساعة ويظفر — كلمات يسوقها الفتى الخطيب . . .

وفى إبان ابتهاجه ، والأعناق تتطاول إلى المنبر ، والعيون على عبيد الله ، والآذان تعلقت بشفتيه ، ونأى معاوية عن قبلة السمع والبصر ومال يهمس لشيطانه :

« ما منع عبد الله أن يكون كعبيد الله ؟ . . »

فابتسم عمرو له وقال :

« شبهت غير شبيه ! . . »

أقذ سخر ؟ أم تخابث ؟ أم كان رده عفو الخاطر ؟ . . معاوية على أية حال لم يلق باله إلى الجواب ، ولم يأبه له ، النشوة شغلته عنه . . . وخطيبه بدأ ، والقوم أصغوا إليه . والمسجد الجامع الذى ملأته الزحم المحشودة لاح من سكون الحركة فى جنباته كمقبرة ! . . كأنهم أموات ! كأنهم صفوف لحود ! . . أليسوا جميعهم صرعى فتنة ؟ . .

ما تركت هيئة ابن عمر لهم سوى أنفاس ، ولم يجذب شىء انتباههم عنه . الأعين إليه شاخصة ، الأسماع محدودة والقلوب مصغية . . . فى الصدور رهبة ، وعلى الأوجه خشوع .

طوال مديد القامة ، فارع كالنخلة . . عريض مبسوط البنية بين منكبيه ، كأنه مارد يسد عليهم المكان . . . لولا هنة فى ثوبه ، وهنة فى جوارحه ، وهنة فى ملامحه لكان ذات العملاق الذى كانه ذات يوم أبوه . . . عليه مسحة من هيبة ، وفى صوته جلجلة ، ونظراته لها شعاع نافذ جسور يقتحم الأنفس على أصحابها بلا تخاذل . . . أدرة تلك فى يساره أم هو الوهم خدعهم عن حواسهم لتكمل لهم صورة ابن الخطاب ؟ . .

وارتاح معاوية لهذا التوفيق ، فقد سحر بصاحبه القوم . هم بين عارف بعمر يتوسمه الآن من خلال ذكرياته ، وسامع بصفته يتوهمه بأعين خيالاته ، كلهم أحسوا الرهبة من خطيبهم وأعنوه عنها الإجلال . . . الجو حولهم تغير ، ليس هو الذى اعتادوه ، فما هذه دمشق المألوفة . . والزمن أيضا تغير ، ليس حاضرهم المعروف ، فماهو بامتداد يومهم حين عموا الجامع الكبير . . . إن أنفاسا رقيقة من الماضى تهب عليهم ندية ، وقوة آسرة من ذكرياته المجيدة تلف خواطرهم ، ثم تثب بهم إلى الوراء ، عبر السنين والمسافات .

ها هى المدينة تلوح ، نقطة نضرة ، كقارب أخضر فى محيط الرمال . . . تلك آطام يهود على تخومها تحف بها خربة خواء . . هنا روضة البقيع : عالم الموت فالخلود ، ومجاز الإيمان إلى الآخرة دنيا السلام . . . هذه بقايا خندق سلمان ، والسور ، ومدخل البلدة الآمنة . والبساتين والزروع ومغارس النخيل ، والدروب التى طالما وطئتها قدما محمد أو أخفاف القصواء . . .

ثم الرحبة ، وقبر الرسول ، وحجرات الأزواج ، والصفة التى كانت منزل صفوة باعوا الدنيا ليقربوا من الله .. ثم المسجد كله فرشه حصباء وعمده جذوع .. ثم القبلة ، والمنبر الساذج الذى شهد ولادة الدولة ، فيفاعها ، فعزها الذى رفرفت فيه راية الإسلام على أركان العالم . . لكأن عمر الآن فوق أدنى درجاته يبايعه الناس فيصفق على أكفهم بكفه العريضة . . . لكأنه آب لتوه من تجواله بين الرعية فجلس يقضى أو يسمع أو يشاور الصحاب . . لكأنه فى مرقعته قام يحصى الأسلاب من كنوز كسرى أو نفائس الروم ، ثم يخر ساجدا شكرا لله على النصر الذى حازه جند الله . . .

إنها لصور تترى . صحائف من المجد جديرة بأن تداعب خواطر الجماهير المحشودة حول منبر دمشق تلقى سمعها مرهفا إلى فتاه . . أفليس هذا من ذاك ؟ أما هو شبله ؟ . . ألا تهيج فيها وقفته ، وهيئته ، ونبرات صوته سيرة الذى فات من عدالة أبيه فتراه مثله لسان حق يوشك ألا ينطق بهواه ؟ . .

وأصغى معاوية وعبيد الله ينطلق حديثه رقيقا هادئا كماء الجدول ... وتلهف على اللحظة الحاسمة ، والكلمة المبطلة المنشودة . . . وسبق بسمعه لهاة الفتى ينصت

إلى ألفاظ الفرية المقررة وسبة الاتهام التي وضعها بنفسه في فيه . . الآن سيذهب الهدوء . . سيخلي مكانه على ملامح الخطيب للثورة . . . الآن سيعنف خطابه ويبدو نابه ! . . الآن سيهدر هدر الشلال ، سيزأر كإعصار ، ستنطلق كلماته حامية مدمرة كمثل الحمم والصواعق !

فما هي إلا منى مخدوع ! . . كل هذا الذي انتظره معاوية من خطيبه ظل خافيا في ضميره كأنما ابتلعه الفتى وواراه ! . . لقنه فأبطنه ! . . رعاه جنانه ولم يلفظه لسانه ! . . إنما تحدث بحاجته ساعة حديث الآمل ثم خلف المنبر وغادر المكان . .

وأسرع معاوية صوبه يمسكه بطرف ردائه ويفح له من بين أسنانه وهو مبهوت :

« ابن أخي ، إنك بين عي أو خيانة ! . . . »

فتفرسه برهة عبيد الله كانت ثقيلة مديدة كالدهر أجابه بعدها بغير إخفاء :

« كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان ، وعرفت أن الناس محتملوها عني ، فتركتها . . . »

فلم يعقب الداهل . وهل يجديه التعقيب ؟ . . . ألا ليت عمرو بن العاص لا يتشبث برأيه فالفتى في الحق ، لأخيه شبيه ، يفرقهما حرف وتجمعهما فكرة! ومع ذلك فمعاوية لا يفلته ، ولا ينبو بأمثاله ممن ألقت بهم أقدارهم في مسالك طريقه . وإنه ليغضب في البدء ، ويخيب أمله فيه ، ويوشك أن ينبذ عبيد الله أو يعاديه ، ولكنه لا يلبث يوما ثم ينفسح له صدره ، ويبعث فيرضيه ويدنيه إليه . . . حسبه أن يبقى بجانبه ، فإنه على أي حال عنوان ! . . .

ولم يقف بالرجل مكره ، ولا وسائله التي تفتن وتخدع وتجذب نحوه أنظار الناس ، فلئن فاته لف الكثرة من صحاب الرسول فقد لف فئة من أبنائهم حواليه وإنهم شباب لا تتحقق لهم مطامعهم إلا في محيط أطماعه العريضة . ومن يدريه ؟ لعلهم يكونون يوما عونا له على الآباء المباعدين يفتلونهم كذلك إليه ! . . إنا لنراه قد استقام له حدسه . زاره ذات يوم بعد صفين فأوشك أن يكون ما ارتجاه لولا ما كان من عناد ابن أبي وقاص ، وشدة مراسه ، ورأيه الثابت الذي لا يلين . . .

فى ذلك اليوم دفع سعدا فضوله فمضى يتنسم أخبار الحكمين : أبى موسى وابن العاص وهما بدومة يتبادلان ويسران مداولتهما عن الناس ؛ ونزل سعد بأرض البادية على ماء النبى سليم فى مكان قريب ، فلما أن علم عمر ابنه بأمره ، أطمعه فيه مجيئه ، فأقبل عليه يحاول أن يميل به عن اعتزاله إلى مناصرة قضية معاوية . . .

حدث الفتى أباه :

« يا أبى ، التقى الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك حتى تفانوا ، ثم حكموا الحكمين : عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص . . . »

فلقيه الرجل بنظرة مستريبة لكنه لم يقطع عليه الحديث .

ومضى الشاب :

« . . . وقد حضر ناس من قريش عندهما ، وأنت من أصحاب رسول الله ، ومن أهل الشورى ، ومن قال فيه رسول الله : « اتقوا دعواته » . . ولم تدخل فى شىء مما تكره هذه الأمة . . »

قال صاحب الرسول :

« ثم مه ؟ »

« فاحضر دومة الجندل فإنك صاحبها غدا . . »

عندئذ هتف الوالد بولده :

« مهلا يا عمر ! . . إنى سمعت رسول الله يقول : (يكون من بعدى فتنة خير الناس فيها الخفى التقى) . وهذا أمر لم أشهد أوله فلا أشهد آخره . . »

وطال بينهما جدل طمع الفتى إبانه فى استمالة الشيخ عسى أن ترجح به كفة ولى أطماعه فتنفتح أمامه وفى رجائه وسيعة حسبما تأمل خيالات شبابه ، ولكن سعدا كان أعصى على إغرائه ، وأشد شكيمة فإذا هو جبهه بالرأى الفصل الذى لا سبيل بعده إلى مراجعة . قال له :

« يا بنى : لو كنت غامسا يدى فى هذا الأمر لغمستها مع على ! . . »

رضى معاوية بعبيد الله يقيم عنده على ما يشتهيه : إن شاء اتهم الإمام أو شاء كتم الاتهام ، فحسبه أن له اسم ابن الخطاب ! . . وتصيد عمر بن سعد بن أبى وقاص

ليكون شركا — إن استطاع — لأبيه . . . واجتذب عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد بجمله على رايته يوم صفين لعله أن يعيد إلى الأذهان ذكرى القائد العبقرى : سيف الله الذى نشر ألوية الدين عالية ، وقهر الشرك ، وقاد جند الإسلام إلى النصر أينما حمل السيف وهز الحسام ... كلهم فتية لهم مطامع وآراب يهيجها الشباب ، كلهم ذوو أسماء ، كلهم عناوين ! ..هم أغلفة أنيقة براقة تستهوى الأعين المفتونة باللمعان والأسماع التى تستعذب الرنين ! . . .

بل القدر أيضا أمده بغيرهم : طائفة أثيرة على عواطف الناس ، ذات غابر ساطع له إشراقه . فعندما تعبس الدنيا ، وتمتد سياطها إلى الظهور لاذعة . وتبدى المخلب والناب ، تهزم البشر إلا صابراً ذا حصانة . . .

وقد عبست ، ودارت رحاها عنيفة تطحن النفوس . . . لو لقيها ضحاياها بمثل صبر الإمام ما كرثتهم شيئا ، ولا نالت من عزتهم وعزمهم إلا بقدر ما تناله بعوضة من قرن الثور ! . . هى أهون على القلوب الركينة والدخائل الحصينة . محنها موقوتة ونعمها مبتوتة . المتعلق بها آمل فى غير أمل . وصاحبها راحل إلى معاد بلا زاد . . . ولقد خبرها على فكشف ما تبطن ، وحذر منها من يغرهم بها الغرور :

« . . . أخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم . ففيها اختبرتم ، ولغيرها خلقتم . . . إن المرء إذا هلك قال الناس : ما ترك ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ . . »

وهى أيضا كقوله :

« دار شخوص ، ومحلة تنغيص ، ساكنها ظاعن ، وقاطنها بائن ، تميد بأهلها ميدان السفينة تقصفها العواصف فى لجج البحار ... فما غرق منها فليس بمستدرك . وما نجا منها فإلى مهلك . . . »

فنيم إذن — وهذا صدق حالها ، ومآل آلها — يرجوها الناس فيتداركون عليها تدارك الإبل الهيم على المورد العذب بعد طول إصحار ، ويتهافتون عليها فى اضطراب ولهفة تهافت الفراش على شعلة النور ؟ .

إن فيهم لطائفة لم تحصنهم القناعة . وهنت منهم العزائم فأسلسوا لها القياد

وهى الجلد وخار الصبر . حابتهم بعرضها الزائل وسخرها الحائل ، وكانوا مع ذلك ذوى غابر ساطع له إشراق ! . .

ولم يكن الإمام بالذى يمذل العافى المحروم ولا يستقبل هناته بالعذر والرحمة . فالفقر وقر وقهر ، والعيلة مذلة . . . وعند ما تلمس الفاقة المرء توشك ألا تدعه إلا وقد جرحت عزته وأدمت قلبه وكبرياءه . كم حزن لفقير ، وعطف على ذى حاجة أسيف محرور ، فحاول وسعه أن يرأب فيهم الصدوع ويلأم الكلوم والثلوم ، فى شبابه وهو حينذاك فرد من الرعية ، وفى كهولته وهو من بعد راع مسئول كان يسخو لهم بما تملك يمينه — وإن كان طعام يومه وآله — ويبيت راضيا على جوع . . وكان يسر عطاياه ، ويأسى الأسى كله إن بذلها علانية . ففى العلن من ، والمن مفسدة لبذل الباذل ، ومذهبة لحياء السائل . لذلك طالما كان يقول :

« من كانت له إلى منكم حاجة فليرفعها فى كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة . . . »

غير أن دخله المحدود كان يقف به كثيرا على حد العجز حين تهول الطلبة فتعى قصاراه . فما عطاؤه ؟ . . وما أفياؤه وإنه ليعين الشظف فلا يكاد يحس مثل حرمانه أفقر رجل بين رعاياه ؟ . . كان المال ينساب فى كفيه انسياب المياه ، والفضة والذهب فى خزائنه كثرة وفيرة كأنها الحصى والحجارة . فما لحظها يوما برغبة ، ولا انحدر إليها هواه وإن رمقها غيره رنوة شهوة ، وتطاولوا نحوها بأعناق الاشتياق ! . .

وقد رنت الأعين ، وهفت الأنفس ، وصغت القلوب لفتنة الحياة . . . طمع فى مسكة من المال نفر من أصحابه ألحت الدنيا عليهم بإغرائها ، فاشتهوا السعة وعافوا القناعة . . . حين جاءوه حسبهم يشكون إليه حاجة قاصمة فهم يردها عنهم بما فى وفاضه — بملك يمينه وإنه لراض قرير . لكنهم — لعجبه — أبهظوه الطلب ، وأعضلوا به فى السؤال . وهل من حيلة ويده قصيرة ؟ . . والمال قليل ؟ . . والمورد ضحضاح ؟ . .

وثار ضيقا وقد تبين أن صاحبه : عبد الله بن زمعة جاء يراوده عن منحة تصلح شأنه من بيت المال ، وضج يقول :

« . . . هذا المال ليس لى ، ولا لك ! . . . إنما هو فىء المسلمين وجلب

أسيافهم ... فإن شركتهم فى حربهم كان لك مثل حظهم ، وإلا فجناة أيديهم لا تكون لغير أفواههم ... »

* * *

إن الذى جبه على به ابن زمعة كان ناموسه الذى التزم دائما سننه على الأيام. فلم يظلم الرجل ، ولم يتنكر له . بل هو رعى حق الأمة كافة ووثق أمانة الراعى المسئول .. . كانت تستوى عنده الحظوظ . فالمال وأصله ، والمال وأهله ، والمال ووجوه إنفاقه ... لا رضيخة ولا منحة ولا قطيعة ، بل امرؤ وما فرض الله ...

السوية شعاره . فالقوم سواء ، وأعطيتهم سواء . لا يتميز فلا يعز. إنه ليأخذ نفسه بما يشق على غيره من خشونة المأكل وخشونة الملبس ، ولا يرضى أن يرزأ المسلمين شيئا من مال الدولة ، وفاق قدره عندهم وتقدمه عليهم ، وإن دعوه أن يفعل راضين مختارين . بل نراه وقد رفقوا به يرد رفقهم ويأباه . . يقول أحدهم له وقد وجده ، ذات يوم قارس البرودة ، يرعد فى خلق قطيفة عليه :

« يا أمير المؤمنين . إن الله قد جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيبا ، ثم أنت تفعل هذا بنفسك ؟ . . »

فيكون جوابه :

« ما أرزأكم شيئا . وما هى إلا قطيفتى التى أخرجتها من المدينة . . . »

ويلوم آخر تأثر به فى عزوفه عن الدنيا فانحرفت به سبيله — غير جانح لإثم ولا مبطن لمعصية — إلى التخلى عن ماله ، وهجرة عياله . . . ينهاه عن التزام أسوته :

« ويحك ياعاصم ! . . لست كأنت . إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره . . . »

وإنه ليؤدب عماله بأدبه ، فيحملهم على انتهاج نفس نهجه فى أموال الناس ، لا يكرهونهم على أداء صدقة ، ولا يستأدونهم به غير ما فرض الله ، ويؤثرونهم بخراج أرضهم يصلحونها ويصلحون شأنهم به ، ثم يرسلون إليه ما فضل منه . . ويحذرهم أن يعيثوا بأمانتهم فيأكلوا ما تحت أيديهم . . . يكتب لأحد عماله على الصدقات :

« . . لا تروعن مسلما ، ولا تجتازن عليه كارها ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله فى ماله . . فإن قدمت على الحى فانزل بمائهم ، من غير أن تخالط أبياتهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فسلم عليهم . . ثم تقول : عباد الله أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه ؟ . . فإن قال قائل : لا ، فلا تراجعه . وإن أنعم منعم فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له . فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه . . ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ، ولا تسوءن صاحبها فيها . . . واصدع المال صدعين ثم خيره ، فإن اختار فلا تعرض لما اختاره . ثم اصدع الباقى صدعين ثم خيره . . . فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله فى ماله . . »

ويكتب إلى الأشتر حين بعثه على مصر :

« . . وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد . . فإن شكوا ثقلا ، أو علة ، أو انقطاع شرب أو بالة ، أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يثقلن عليك شىء به المؤونة عنهم ، فإنه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك وتزيين ولايتك . . وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر . . »

ويكتب إلى الأشعث بن قيس ، بعد بعثه إياه واليا على أذربيجان ، يبصره بحقيقة عمله :

« . . إن عملك ليس لك بطعمة ، ولكنه فى عنقك أمانة ، وأنت مسترعى لمن فوقك ، ليس لك أن تفتات فى رعية ، ولا تخاطر إلا بوثيقة . وفى يديك مال من مال الله عز وجل ، وأنت خزانه حتى تسلمه إلى . . »

وإنه ليراقب ولاته ، ويحاسبهم على ما تحت أيديهم ، ويرسل إليهم رقباء يفحصون أعمالهم ثم يرفعون إليه سيرتهم بين الناس فى الأنفس وفى المال ليرى إن

كانوا يلتزمون سنته ويحتذون منهاجه . . أرسل مرة لكعب بن مالك يقول له :

« أما بعد ، فاستخلف على عملك ، واخرج فى طائفة من أصحابك حتى تمر بأرض كورة السوداء فتسأل عن عمالى ، وتنظر فى سيرتهم فيما بين دجلة والعذيب . . . »

وبعث بكتاب إلى عامل — جعل مال المسلمين وسيلة لصيته بين أهل إقليمه — قال فيه :

« بلغنى عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك ، وأغضبت إمامك : إنك تقسم فىء المسلمين الذى حازته رماحهم وخيولهم ، وأريقت عليه دماؤهم ، فيمن اعتامك من أعراب قومك . . . فوالذى فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان ذلك حقا لتجدن بك على هوانا ، ولتخفن ميزانا ! . . فلا تستهن بحق ربك ، ولا تصلح دنياك بمحق دينك فتكون من الأخسرين أعمالا .

ألا وإن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين فى قسمة هذا الفىء سواء ، يردون عندى عليه ويصدرون عنه . . »

وعلم يوما أن شريح بن الحارث قاضيه اشترى لنفسه دارا ، فدعاه إليه يعظه ويحذره ، ثم يبكته أشد تبكيت وآله وإن لم يشك فيه . . . بدأ يسأله :

« بلغنى أنك ابتعت دارا بثمانين دينارا ، وكتبت كتابا وأشهدت فيه شهودا . . . »

أجاب شريح :

« لقد كان ذلك يا أمير المؤمنين »

فرمقه الإمام رمق عاتب زار ، وقال وهو كالأسيف :

« يا شريح : أما إنه سيأتيك من لا ينظر فى كتابك ، ولا يسألك عن بينتك حتى يخرجك منها شاخصا ، ويسلمك إلى قبرك خالصا !.. فانظر يا شريح لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك ، أو نقدت الثمن من غير حلالك ، فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة . . »

ثم استأنى برهة أتم بعدها حديثا خلط فيه الجد الأجهم بالدعابة الساخرة :

« . . . أما إنك لو أتيتنى عند شرائك ما اشتريت ، لكتبت لك كتابا على هذه النسخة ، فلم ترغب فى شراء هذه الدار بدرهم فما فوق . . »

وكان كتاب الشراء الذى اقترحه الإمام :

« هذا ما اشترى عبد ذليل من عبد قد أزعج للرحيل : اشترى منه دارا من دار الغرور ، ومن جانب الفانين وخطة الهالكين ، ويجمع هذه الدار حدود أربعة : الحد الأول ينتهى إلى دواعى الآفات . . . والحد الثانى ينتهى إلى دواعى المصيبات . . . والحد الثالث ينتهى إلى الهوى المردى . . . والحد الرابع ينتهى إلى الشيطان المغوى وفيه يشرع باب هذه الدار . . . اشترى هذا المغتر بالأمل من هذا المزعج بالأجل هـــذه الدار بالخروج من عز القناعة ، والدخول فى ذل الطلب والضراعة . . . »

أفمن كان هذا حاله ، وتلك أمثاله ، يدع مال المسلمين لكى تستبيحه طائفة تقدمت بقربها منه وإخلاصها له ؟ . . أما هو فلا يفعل وإن نفسه لمحصنة ، وإن قلبه لفى جنة مانعته عن الجور والتحيز . . . حتى حينما تنوس المغويات أهله لا يفعل ، بل يستمسك معهم بعبدئه ، ويشتد أعنف الشدة عليهم وإن أكلتهم الحاجة . . .

يقبل عليه بالكوفة أخوه عقيل ، علت السن فثقل ، وغلت السلمة فأملق ، لعله أن يجد لديه ما يعينه على الشدة . . .

ويتلقاه الإمام بالاحتفال والتجلة وإن عينه لتكاد تدمع على ما نال منه زمنه ، وقلبه يئن لصبيانه هؤلاء وهم أمامه شعث غبر ، ملكهم الفقر ومسهم الضر .

ولكنه يكتم فى نفسه رثاءه ، ويسأل أخاه فى ترفق ورحمة :

« مرحبا بك وأهلا . . ما أقدمك يا أخى ؟ »

يجيب عقيل :

« ركبنى وهن عظيم ، فجئت لتصلنى . »

فيربت له الإمام ظهره مواسيا ، ويقول :

« إذا خرج عطائى فهو لك . . . »

غير أن الرجل الذى خلف بلده وراءه ، وخرج فى ضباب ناظريه يقوده صبيته فقطعوا به المراحل الطويلة ، لم يكن كل همه أن يطوى المهار والقفار ليتبلغ بمسكة من المال كهذه لا تكافىء مشاقه ولا ترد إملاقه !! . . إنما كان ظنه أن

صاحب كل هذه الدولة العريضة لايؤوده أن يفتح له بيت المال ثم يدعه وما شاء فيه يغترف ويحمل حتى يكل وينوء ! . .

ويلح عقيل . ويعاود بعد معاودة ، وهو يعنف فى الطلب ويشتد فى السؤال :

« وما يبلغ منى عطاؤك ! »

ويحلم الإمام ويصابره :

« وهل تعلم لى مالا غيره ؟ . . »

ثم يتهاوى صبره ذات ليلة بلغ فيها أخوه من إلحافه ومن تعنيفه أقصى جهده وغاية قصاراه . . . فى البدء يقبل بسمعه عليه ، ويبدى له من الرقة ما يطمعه فيه . حتى إذا حسب الشيخ أنه بالغ أربه ونائل طلبه ، مد له الإمام حديدة حمراء محماة فأدناها منه فانبعث من حرها بصيح ! . .

عندئذ يعصف على به يزجره :

« ثكلتك الثواكل ياعقيل ! . . أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه ، وتجرنى إلى نار سجرها جبارها لغضبه ؟ . . »

ليس الإمام إذن بالذى يخون أمانة الله فى يده فيهتبل نفوذه ليرضخ الرضائخ ويقطع القطائع ويجعل مال المسلمين دولة فى طائفة منهم وإن تزلفت إليه بصحبة أو صلة رحم . لا يفعل ، وغيره يفعل — معاوية ! . . فما يعنى عاهل الشام أن يمنح من شاء أو يمنع من شاء ، فإنما المال — فى اعتباره — قنية له خالصة ، شهواته وحدها ترسم حدود إنفاقه ثم لا رقيب ولا تثريب ! . . .

* * *

برق الذهب ثم قال : « هيت ! » . . فأما ابن زمعة فقد عمه . وأما عقيل فقد خرج إليه . وأما معاوية فقد استغرقت البسمة ما بين أذنيه ! . .

ويتفكر العاهل الوصولى والفرحة تفيض به وتريق لونها على محياه ، كما يسيل لعاب معتوه ! . . فهذان جلب الخير ، أول القطر ، والغيث بعد مدرار ! . . وعبيد الدينار والدرهم كثر ، وما أقل القنع الأحرار فى هذه الدار ! . . حالفه قدره ، والطمع والفاقة . وها هو ذا وقد أقبل زمانه يقوم فينثر ادعاء جديدا له على الملأ من رجاله المفتونين . . يعتلى منبره ثم يخطب وهو يلوح باسم عقيل :

« يا أهل الشام . . . هذا سيد قريش وابن سيدها عرف الذى فيه أخوه من الغواية والضلالة فأناب إلى أهل الدعاء إلى الحق ! . . . »

ويسمع عقيل فيشتعل غضبه لهذه الفرية الكافرة ، ويأبى لنفسه أن يبتلع ما احتوته من تنقص وجور ، فإذا هو يثور :

« . . . قد عرفت من فى عسكر أخى لم أفقد والله رجلا من المهاجرين والأنصار . ولا والله ما رأيت فى عسكر معاوية رجلا من صحاب رسول الله ... »

ثم يغرق احتجاجه فى تهاتف الجماهير .

وعندما يجلس العاهل مجلسه ، ويرى ما ناله ادعاؤه من كرامة ضيفه ، ينثنى فيلين له الحديث عسى أن يهدأ غضبه ، ثم يدفع إليه بثلثمائة ألف دينار ، عطية سخية يشترى بها رضاءه . . . ويهمس له بخبث تبطن بنفاقه :

« أنا خير لك من أخيك . »

فلا تلوى الشيخ الضرير المنحة الثمينة عن الحق وطريقه ، بل يسرع بجوابه ساخرا كأنه لسعة السوط :

« صدقت . . إن أخى آثر دينه على دنياه ، وأنت قد آثرت دنياك على دينك ! . . »

ثم يمد عينه التى غلفها الضباب كأنما يحاول أن يستشف أثر رده فى ملامح مضيفه ، ويرهف سمعه . ويشحذ لسانه يهيئه للسعة جديدة ! . .

لكن معاوية لا يجيب . وما جواب يجد الجدال والملاحاة ؟ ... إنه لمشغول . . . خواطره تهيم فى آفاق آماله . تطوف به أرض الإسلام ورقاعها الفسيحة بين قرنى الزمن . تطوى دياره وتقطع أقطاره .. فى الحجاز دارت ، عند الحرمين . وفى مفاوز الفلاة التى تنبسط كالتيه عبر الجزيرة . وفى العراق بمصريه البصرة والكوفة ، وخلال سواده الذى جرى ماؤه فلانت حصباؤه وملأه الحين والظلال . . . أينما انطلقت عينه فى هذه الأقاليم التى جاورته انثنت نفسه راضية . قد تصيد من رجالها حفنة طيبة ، هم بين أهلهم أعلام . وما دامت الدنيا حسبه ، والزيف وسيلته ، والذهب حيلته ، فإنه لآمن لا يضع قدمه على مزلق ... فليمل إذن ميله ، وليخط خطوة جديدة لأرض جديدة ، عسى أن يجد فيها أناسا من

نفس ذلك الطراز الذى وقع شراكه . . . ليبسط جده ولعبه ، ولينثر مكره وذهبه ، وليقر على طمأنينة ، فلسوف يؤتينه التهم ، والأنفس التى أعياها الصبر ، والضمائر الجريحة طائفة أخرى تتعلق بأسبابه ، وتسير فى ركابه ، ذات غابر فى الغوابر ، ساطع الطلعة ، له إشراق ! . .

٧

الذى أهمه فى البلاد إقليم : جنة يانعة ، بطلع منضود وظل ممدود . تأتيها نعمها وفرة ، على فترة ، كلما طما النهر فسال به واديه الأصفر ، وفاضت قنيه كالعيون ومس بكفه الساحرة صفافه الجرد فجرت بهجة ونضرة . . . وكانت بعيدة عنه بالقلب ، دانية بالقرب ، كأنها من إقليمه الساكن دثار لشعار ! . .

والذى أعياه فى الرجال مارد : جنى من الإنس أو إنسى من الجنة ! . . يهوله طوله ، ويعجزه دهاؤه ، وتكمده خيلاؤه . . . فما كانت قامته بالتى يجزيها أن يقال عنها مديدة ، بل كأنها من نسيج أسطورة ! . . إذا وقف فبرج . وإذا مشى فى الناس تذاوبت رءوسهم بين صدره وخاصرته . وإذا امتطى الفرس الأشرف كان راكباً راجلا تخطط فى الأرض رجلاه ! . . أما دهاؤه فمكر شيطان . وأما خيلاؤه فإدلال بقدرة . وليس مع ذلك بمغرور .

والذى أسأمه فأسقمه ، وأجرى غيظه كالحمى الكاوية فى دمائه : اجتماع الجنة اليانعة إلى المارد الماكر ، وانضواؤها تحته ، يوليها الدهاء فتوليه الولاء . . . منذ دخلها سكنت له ، وخفضت جناحها مختارة غير مقهورة . فما اغتصبها عنوة . ولا نالها بسيف أو ركبها بخوف ، وإنما جاءها — حين جاء — فى سبعة من رفاقه ، قطعوا إليها الفلاة فى ركابه كأنهم ندماء صحبهم لتهون عليه وحشة الطريق . ودخلوها معه بغير اقتحام دخول الأضياف فاستقبلتهم بالقرى والتجلة . .

ولم يكن فى الحق نائما عن مصر ، وعاملها المارد ، وخراجها الضخم الذى لو أحيل عدة لفتح العالم بشرقه وغربه . . أينما سرح فكره بدت له هذه الجنة سعيرا تحترق فيه أحلامه !.. وقد حسب فى الماضى أنه أمن شررها وشرها حين

بعث بجند اختلب ابن أبي حذيفة من ربوعها إلى حتفه . لكنها ظلت حصينة دون هواه بعد وقعة العريش التي انتصر فيها جنوده ، وباتت على عهدها إلى اليوم للإمام لا ترد كلمته ، ولا تخلع طاعته ، وإن عاشت فيها فرقة عثمانية انطوت على نفسها بقرية صغيرة كانطواء ثعلب جبان بجحره ! .

وأسف معاوية . فلولا أن عمل عليها قيس بن سعد بن عبادة من لدن على على الأثر لكان قد وسعه أن يجيش لها كرة أخرى من غاراته ومكر عمرو مايردها فوضى بلا صاحب حتى تنضج بها فتنته فتسقط فى حجره وهو رخى سقوط الرطبة الطرية !.. لكن الإمام لم يعل له فى رسم خططه ، وتنظيم تدبيره ، ونسج أحابيله ، بل رماه فيها بمن تصغر فى عينيه خدعه فلا يراها سوى عبث غلمة ! ..

لقد كانت العرب تعد دهاتها فتقدم منهم خمسة لا يسبقهم إلى الدهاء سباق . فيهم عمرو ، وفيهم معاوية ، وعلى رأسهم قيس وإن أنف دهاؤه أن يقوده إلى مأثم . . . كان يقظا كذبابة ، ماكرا كشيطان ، ناعما كحية ! . . وكان حبه الإمام يتوثب به إلى الفداء والتضحية ، وإخلاصه له تفانيا فيه ، وإجلاله إياه أدنى درجة إلى التسبيح ! . . وعندما اختاره على عاملا من قبله على الجنة التى اشتاقها معاوية وتاقت روحه إلى امتلاك برها وبحرها ، لم يكن مسيره إليها مسير آمل فى منصب ، أو متوفز إلى جاه ، بل رجاها قناة حادة تخز بسنها عدو إمامه حتى تستلبه حياته . . .

قال له الإمام فيما أوصاه يوم ولاه :

« سر إلى مصر فقد وليتكها ، واخرج إلى ظاهر المدينة ، واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتى مصر ومعك جند ، فإن ذلك أرهب لعدوك ، وأعز لوليك . . . فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن على المحسن ، واشدد على المريب ، وارفق بالعامة والخاصة فإن الرفق يمن . . . »

فأبى عليه إشارة وليه على نفسه أن يستبطن جندا قد يكونون عدة تعين الإمام فى ذلك الوقت الذى تنادت البصرة فيه للثأر ، وتشرعت للحرب ، وطاف رجالها بهودج عائشة طواف المجوس بالنار ! . . قال يجيب مولاه :

« رحمك الله يا أمير المؤمنين ، قد فهمت ما ذكرت . . . فأما الجند فإنى

أدعه لك فإذا احتجت إليهم كانوا قريبا منك ، وإن أردت بعثتهم إلى وجه من وجوهك كان لك عدة . . ولكنى أسير إلى مصر بنفسى وأهل بيتى . . . »

فإن هى إلا أيام حتى كان قد دخلها ، وما فى ركابه إلا سبعة ، وما فى عينه سوى دعوة بيعة . ثم شهدته الفسطاط يقف على منبر جامعها يخطب الناس فى طمأنينة وثقة :

« الحمد لله الذى جاء بالحق وأمات الباطل ، وكبت الظالمين ... أيها الناس ، إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله . فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم . . »

ومع ذلك فلم يقنط معاوية ، إن مصر بايعت لكن دعاته بواديها الأخضر فى جنة ومعقل — تلك الفرقة العثمانية المعادية التى ترنو إلى دمشق بنظرة الولاء لم يمسسها من الأمير الجديد عنت ، ولم يلحقها عسر أو ضر . . . لان لها قيس وإن أبت الطاعة ، وأفسح لها فى رحابة صدره ما بدت به عزيزة الجانب فى أعين من يرونها تأبى وتخالف فلا يصيبها جزاء المخالف ! . . إنها ، على تمردها ، لموفورة السلامة ، آمنة السرب كحمام الحرم ! .. لكأنها من وجارها ذاك لصيقة بصاحب الشام دونها حصونه ! . . لكأن « خربتا » دمشق صغيرة فى أرض النيل ! . . لكأن أهلها — كالأولى تحدثنا بسيرتهم الأساطير — قد أحصنوا جلودهم بالرقى المعيذة تعنهم الحتوف فترهبهم السيوف ! . .

وكتب إليهم قيس :

« إنى لا أكرهكم على البيعة ، فأنا أدعكم وأكف عنكم . . . »

فكان حقا لمعاوية أن يستمسك بأمله فلا ييأس اليأس كله . بل يتربص مع الأيام عسى الأحداث تعينه على الإفادة يوما من حزبه الرابض بالقرية الصغيرة .

فلعلها السياسة . أو لعله الدهاء قد زين للعامل المارد هذه الخطة الناعمة يتناول بها فرقة المعارضين العصاة أو لعلها ظروفه التى لم تدع له إلا طاقة محدودة قد قهرته على الصبر والموادعة . فما دخل إقليمه بقوة حربية كالتى حضه على اتخاذها الإمام تشد من أزره فترهب أعداءه ، وتعز أولياءه ، وهل كان حوله سوى نفير من أصحابه لا تكاد دماؤهم حين البأس تروى حديدة حسام ! . .

رفق بهم إذن وقد كانوا جديرين منه بغير الرفق والهوادة . وداورهم جهده وإنه — فيما نحسب — لقهور على أداء دوره ، مغلوب أمامهم على أمره ، وهل كانت ظروف أحواله : فقره فى السلاح ، وقلة النصير ، وترقبه البيعة تأتيه من أطراف إقليمه إلا تملية عليه أن يبدى من الحية جلدها الناعم ويخفى نابها السام ؟ .

أما هم فلعلهم كانوا أشد قوة بتوحد كلمتهم ، واجتماعهم فى رقعة صغيرة من الأرض هى بهم كالحصن وإن كانوا ذوى عديد قليل . فما طاقته ؟ وما قصارى جهوده إن هو بادأهم بالعنف وإنه لـكالأعزل ؟ . . أولى به إذن أن يستشف عقبى إقدامه قبل أن يقدم ليتخير خاتمة آمن وأسلم ، وأن يعمل بحذر فيعالج الداء العصى بالدواء الأيسر وإن لم يكن الأنجع الأحسم ! . .

فياترى قد تجنب الخطر أم تجنب الحزم حين استباح لنفسه أن يتحرر من وصية الإمام فلم يشدد منهم على مريب ؟ . ما تركته الفرقة المتأبية لحظة من زمان — منذ دخل الفسطاط — فى أدنى شبهة مما يبيتون . . . إن بلدتهم لدار فتنة : وإن نهجهم لعصيان . وإن عزمهم لتشرع لاعتداء مسلح عليه وعلى وليه وعلى السواء حين تلوح فى أفقهم بارقة ظفر . . . لم يكن قيس فى شك من هذا كله أو يكون دهاؤه اختلاق راوية ! . . ولـكنه مع هذا يلزم الروية والريث ، ويبدى لهم من اللين ما يوشك أن ينتقص من هيبته — حتى حينما تنادوا فيما بينهم بالتمرد ، وتهاتفوا جهرة بالانتقاض ، ودعوا إلى خلع الطاعة بألفاظ الثأر لعثمان، لا تراه يهز فى وجوههم قناة أو يلوح بوعيد ، إنما يتلقاهم بما هو دون اللوم وأدنى إلى العتاب الرقيق فيبعث إلى داعيتهم : مسلمة بن مخلد الأنصارى ، يقول :

« ويحك ! . . أعلى تثب ؟ . . فوالله ما أحب أن لى ملك الشام إلى مصر وأنى قتلتك . . . »

ويبعث كذلك إلى القوم كلهم يؤمنهم :

« إنى لا أكرهكم على بيعة . . . »

فإن هى إلا هدنة عقدها ، وعهد قطعه على نفسه حتى كان الخبر قد جاءه من البصرة بمصارع الخارجين على إمامة الإمام . . . الرحى الحاصدة التى خافها

معاوية على شامه وأحلامه قد عملت . دارت شقها هناك بالعراق . مشى على على عدوه بالمنايا المغيرة . عصف بجندهم عصف الأهوية الثائرة بالهشيم . أكلت ناره « الجمل » ثم ذرت عظامه رماداً مع الريح ! . .

ويصبح صباح ، ويمسى مساء ، وصاحب الشام بين يد قلقه مضيع ، يوشك من خوفه أن يرى الجحافل الغازية تفيض عليه كطوفان ، من مجرى دجلة ، من مفازة الجزيرة الجرداء ، من شاطىء الفرات الأدكن ، من ضفة النيل عبر رمل سيناء . . . أمس وحده كان عمر راحته ، وهدوء خاطره ، وطمأنينة باله ثم دفنه الليل فى سواده ! . . وعندما فاز حزبه المصرى بتلك الهدنة العارضة ود بقلبه لو طال عهدها فترة من زمان يمد فيها إعداده . أما اليوم فهى فى الغابر — حبل أمنه قصير ! . .

ويتلفت الداهل القلق وهو ريشة فى لجة اضطرابه فلا يسعفه ذهنه بغير الحدس والظنون والرجم بالمغيب المجهول من كل مرتجى ومأمول ! . . فلو قر على . . . فلو أقره على أرضه كما ولاه قبله عمر وعثمان . . . فلو نسأه الحرب إلى حين . . . إنها منى الثن كذبته من بعد لقد ظلت زمنا مفتاح السياسة التى انتهجها طويلا قبيل وقعة الجمل وفى أعقابها وكان بها يداور ويحاور عسى أن يفوز ببعض أربه . ولكن عينه كانت دائما على قيس ، فى إبان شدته ورخاء حاله على السواء . وهو اليوم لا يميل بوجهه عنه ، ولا يغفل لحظة عن أية حركة تند منه بالوادى الأخضر ! فكل همه أن يدرأ عن نفسه دهاء المارد وطاقة بعمر مكتنزة لو خلى بينها وبين الانتشار لهزت الدنيا ، وفتحت العالم بشرقه وغربه ! . .

لكن شق الرحى الثانى لم يدر دورته ! . . همد حركة . جنح صاحبه به إلى الركود . . . فما تحركت بعصر قدم أخذت طريقها إلى الشرق نحو فلسطين ، فدمشق ، فأعمالها الكثيرة المتاخمة للروم . ولا انعقد بها لواء . ولا تكتبت كتيبة لحرب متمرد الشام . . . فلولا أن يقال مخدوع اقال معاوية إن صاحب النيل قد آثر القعدة بضفتيه يتفيأ نعيمه ويستروح نسيمه ! : لكنه عرفه أخا بصر وبصيرة ، فلأمر ما قد تثاقل إذن عن اهتبال فرصة النصر ، الذى حازه الإمام بالبصرة ، وسار ذكره فى الأمصار فكبت أعداءه وأعز خلصاءه وأولياءه . . .

لأمر ما يدع قيس الآن عليا فى عرقه ، وفى النقع الغامر الذى انجاب عنه القتال.
وفى هم حازب غالب من الإعداد لملاقاة خصمه العنيد فى دمشق ثم قبع ينظر ساكناً من مغانى جنانه !..

ففيم كان سكونه وكان انتظاره وقد عز جانبه وعلت كفه وكف الإمام بعد نصره ذلك المؤزر ؟ . . إنه ليس عن فتور همة ، ولا عن غفلة ، ولا عن قلة حيلة أو قصور فى عتاد وأجناد . فلقد دانت له البلاد فى واديه إلا بلدة ، وخضع الناس من رعاياه إلا فرقة ، وجاءه خراج أرضه وفرا خالصا بغير عنت ولا منازعة فى الأيام القلائل التى تلت دخوله الفسطاط أعزل ، استطاع العامل الداهية المملاق أن يسوس فيحسن حتى غدت أمور إقليمه خيوطا معقودة بإبهامه ، ففاض المال ، واتخى الرجال ... فلو قد أراد أن يعد لأعد ، وأن يحشد لحشد . ولو قد مد إصبعاً بحركة وعيد إلى خربتا لأقبلت إليه تهطع وهى تخفض له رأسها ذليلة . . ولو قد تأبى عليه أهلها ساعة لما شهدتهم بعدها ساعة إلا صرعى على غبارها ، لفظهم الحاضر وحضنهم الغابر ! ..

غير أنه رآها ، كأنما شاء أن ينسئها أجلها إلى حين ! . . وبقى على عهده لها ، محاجزا بينها وبين نابه ، حاويا بأسها فى إهابه ، كحية وعصفور ! . . فيما أحسب كان قيس مؤمنا يقدر نفسه أقوم إيمان ، واثقا بجدوى تدبيره أعظم ثقة ، فلم يرده شىء عن احتذاء خطة له رسمها فى حيطة وراح ينفذها فى تحرز وكتمان . . . إنه ليسر نواياه ، ويلفها من الغموض بأبراد ثقيلة كثيفة حتى لتختلط حقيقة أمره على نصيره اختلاطها على غريمه . . من البدء كان هكذا ، ومن بعد امتثل نفس المنوال . . أو ما أقدم حين كان يجب الإحجام فدخل على أمة ديارها وهو أعزل بغير عدة ولا أعوان ؟ . . أو ما أحجم حين كان يجب الإقدام فأغمض عينه عن خربتا وأهلها المخالفين وقد هاض حزب عائشة واستطار من أنباء ظفر الإمام ما دفع أعتى عدوه إليه يتكفف الأمان ؟ . .

إنها خطة ، لا مراء ، عصية على الفهم ، ليس لها من المنطق عماد . . . حتى معاوية ضل فيها دهاؤه . يوم استقبلت مصر قيساً بالصمت ترقب العاهل الأمور فى صبر ، فلما رآها يهادن فيها ثعالبه تطلع نحوه بحذر . . . كان الموقف حينذاك

لا يكاد ينضح بعقباه . كانت فوقه غمامة ناشرة حجبت من الأفق صفاءه وشابت رواءه حتى لقد حار الذاهل التائه فى مجاهل ظنونه أتلكم الخطوط الداكنة فى سمائه عبسة الغروب يتبعها ليل أم ظلة سحر يعقبها فجر ! . .

وفى ثنايا توجسه الحائر جاءه الزمن بالجواب .. صاحب الشام لم يطل قلقه ، ولم يضرب به خياله أشواطاً وسيمة فى غمرات الحدس والوساوس . فلقد أقامت نشوة النصر إقلاع سحابة صائفة ، وسكنت الأنفس التى كان يزلزلها الخوف ، وقرت القلوب الفزعة من بعد وجيب . . . ومع ذلك فقيس هناك بمكانه على النيل ، مازال على لحربتا فى الأمان واللين ، لا يشحذ سيفا ، ولا يهز إصبعاً بوعيد ، كأنما كل همه قعدة ناعمة على الضفاف الخضر فى مغانى جناته ! . .

٨

الزمن له ! . . هذه فسحة منه طال بها عمر أحلامه . كانت بلسما لحيرته . شعاعا هاديا فى ظلام حاضره يبدو كسفة من ضباب غده المجهول . دعامة جديدة فى مجازه إلى مجده . . .

وطاب نفسا معاوية . وحق له . فحين يستنبئ الآن رجاءه يرى دنياه فى عينه ، كأنما أقبلت عليه مجلوة ، على وجهها سلام وعلى ثغرها ابتسام . . . وحين يحاول أن ينشر الحيلة لا تتعثر به الوسيلة ، فالجبهة وسيعة ، والخدع حاضرة ، والباع طويل ، والخطر قليل . . .

ذات يوم ضل حدسه فى سياسة المارد الداهية الذى يحكم النيل . كانت عميقة كهاوية ، مشوبة كصفحة البحر الثائر فى يدى عاصفة ، خافية السكنه كالفضاء المغيب . . . أمس ظنها هدأة الطبيعة الخادعة تتهيأ لإعصار ، فأورثته القلق والتوجس . كان غموضها يملأ الجو عليه بالوساوس ، وكان خرس صاحبها عنه ينضح بالريبة . . . لكأن غفوته تلك بالوادى الأخضر تربص ذئب ينام بعين ويرقب بعين ! . . وقعدته إقعاءة الوحش يتهيأ للانقضاض . وهل كان قيس إلا حية مخاتلة ؟ . . .

ثم مضى الأمس هادئا كسابقه، وانقضى اليوم ناعما كأمسه . وغاب الغد على أثرهما فى رمسه . . ليالى ونهر ما كان أطول سويعاتها الحائرة وما أشقها وأثقلها على نفس عاهل الشام ، إنها صهرت عزمه ، وأوهت صبره . . . شدت قبضتها العاتية على نحره ، وجثم شيطانها على صدره . . . ألصقت أهداب عينيه أمسيات طويلة بالنجوم الماحة ! . . ولكنه تحصن أثناءها بأمن اليائس الذى لا يملك سوى انتظاره إشعاعة الفجر وبوارق إصباحه. وراح يتلمس جهده ثغرة ان كانت كسم الإبرة فى سور همه فمساد أن يتنفس من خلالها نسيم الخلاص ! . .

وها قد أملت الهدنة له ، وجاءته بليالى من هدوء جأشه استطاع فيها أن ينقب بظفره الجدار ! . . ولم تكن فى الحق هدنة قد عقدت له ، بل هى عهد بالمسالمة بين قيس وخربتا الناوئة . ولم تكن سلاما ساد بين مصر والشام ، بل هى غفوة عارضة شاءها النيل الزاحف فى مهاده الرملى كالأفعوان ! . . ومع ذلك فما كان معاوية ليأمن مغبة ذلك الهدوء الثقيل الذى التزمه حارسه العملاق القابع له خلف الأسوار ، أيما رجل غيره كان حريا به كشفه أن يحار ذهنه فى الخطة المسربلة بالغموض . المسترة من الإسرار بألف ستار وستار . إنه ليؤوده أنها مختلطة الخطوط ، مطموسة المعالم كعبث الأهوية الهوج فى نقا الرمل أو بصفحة الماء . لا ترتكز على منطق معلوم فلا يتبدى من نتائجها ما قد توحى به المقدمات ولا تسير فى اطراد وموكب الحوادث السيار . . ليست سلماً يعلن فيؤمن جنابه ، وليست حربا يشهر فيتسع رحابه وتشرع أسبابه . إنما كقارب ضال ، كسير الشراع ، فى يدى نوء مجنون ، يجذبه ثم يرخى له ، ثم يرخى له ويجذبه فلا يلوح لذهن ثاقب أين مرساه .

على أية حال استطاع عاهل الشام أن يتنفس الرجاء فى أعقاب الهدنة التى امتد بها الأجل بعد انقضاء آجال « عسكر » وأجناده ، الذين شهدتهم البصرة صرعى على ثراها المبلل . وسمه من تلك اللحظة أن يتبين فى الأفق ظلة فرصة مولية شابت سماء مصر بالدكنة ، ولمعة فرصة مواتية أشرقت فى سماء شامه وأحلامه . لكنه فى ذروة بشره لم يكن يحلم بأن يهد على العامل الداهية عرينه أو يشوش سكونه . حسبه أن يرقب سنته ، وأن يقابل وناه بوناه ، وأن يقبض

كفه أن تقطع عليه رقدته فتوقظ فى صميمه غضبة جبار تعقب الويل وتورث الدمار ! . .

لكن كر الليالى ، وتوالى الساعات عليه وهو فى مرقبه ، وذلك الشلل الذى ضربه على أصابعه المتحفزة للنضال ، لم تكن كافية أن تتقدم به إلى الأمام خطوة نحو أربه . ذلك الجهد السلبي الذى بذله تجاه خطة غريمه الخافية عن تقصيه كان مضيعة لعمره ، مثقلا لقلبه ، موهنا لأعصابه . وإن غده لمجهول . وإن أجنة الزمن التى لن يلبث أن يدفعها ولائد إلى الحياة لملفعة من الغيوب بما يحجبها عن وعيه ، وعن استقرائه ، وعن استيقان ملامحها أهى سليمة أم هى شوهاء ؟ . . فما يدرى على أية هيئة ستكون ظروفه ، ولا فى أى قالب يسويها قدره . وما يسعه لحظة من هنيهة أن يثق باليوم القابل وإن اطمأن إلى اليوم الراحل بعض اطمئنان . وهل فى مقدوره أن يقيس غده بحاضره وقد حذرته خطة قيس المغشاة ألا يركن آمنا إلى القياس ؟ . .

كلا بل يعمل . ويعمل فى عجلة لا تنسيه حذره . ويعمل ليومه فى يومه دون ترقب لما يحتمل أن يطلع به غد غائم لما تتضح له تباشيره . الآن إذا غفت مصر ليس بعينه من خطة أميرها شىء إلا أنه فى غفوة ، مخلبه قد انكمش فى إهابه ، وخطره نام إلى حين . والإمام أيضا مشغول عنه ، ينفض عن نفسه غبرة الحرب ويلعق كالليث جراحه ! . . وتلك الوفادة التى ماونت تحثه على الطاعة دواؤها لديه حاضر . وهل أنجع لها من مطل يردها عنه خدرة كليلة ؟ .

فى هذه السويعات الحاسمة من تاريخه بدا معاوية كمن قد أوتى حاسة هادية توجه خطاه ، وتسدد نظرته ، وتوفى به رويدا رويدا على غايته المرتجاة بغير عسر ولا مشقة . لكننا ، فى الواقع ، نسلبه نصيبه من الحزم إن وكلنا تصرفه كله إلى جده السعيد ، ونجنى على الحقيقة السافرة بما يحجب وجهها عن العيون . فما كان صدفة ما هداه . ولا صوتا هاتفا من السماء تنزل بالخطة المثلى إلى هذه الأرض فانحرف سراه إلى سمع شيطان ! .

لم يكن غيبا انهتك ستره وتكشف سره فوضحت لأهل الشام من خلاله المعالم ، إنما نفسه دليله . هى هاديته . كانت مشعلا له أنار السبيل الذى اعترضته

الحيرة ، وسدته ظلمة الغد المجهول ، مضت به إلى مراميه وهى تحترق من جزع ، وتتوهج ، ويسيل ذماؤها فى كل خطوة كقطر الشموع ! . . إنه لم يكن غرا ، ولا مخدوعا عن هدفه ، ولا جبانا يرده النكوص وإن أبدى ريثا كان يلبسه أحايين كثيرة ثياب متوا كل قليل المبالاة أو متردد مفلول الحيلة . . وحين رأى مصر تعنو لخصمه ، راحت الحيرة تعبث به عبثة الكأس بنشوان لكنه لم وعيه المبعثر ، ونفض عن رأسه النشوة المغيرة . وما زال ذهنه يسير به حتى التقى همه برمل سيناء فجمل بإزاء أرضها ثلاثة رهط من أعوانه أشدة ، أقامهم على فلسطين ليدرأوا عنه ثعبان النيل لو شاء زحفا على تخومه . . ولم ينم لياليه أيضا حتى كاتب الثعالب المحتجرة بالقرية الصغيرة ، فرقته بخربتا ، عسى أن تكون له فى الوادى عدة حين يأزف الصراع . . .

تستر الرجل بالخفية فى ضلته بمعتزلة مصر ، مناهم عونه ، فرشهم عروضه ودنياه . سارهم وناجوه سرهم ونجواه . . . ولم يكن يخشى عليهم غائلة من أميرهم الجائع إلى سنته ، فقد علمه ذا وفاء ، لا يتنكر لعهد ، ولا يمتثل لغدرة . . ومع ذلك فما أعجب أن تكون الخطة التى رسمها معاوية فى كفاحه قيسا ، تدور رحاها كلها على اختبار العهود المقطوعة : أهى عارض أملته الحاجة ، أم سليقة أنجبتها الخلائق النقية المطبوعة على كل خلة كريمة وسجية أبية مستقيمة . . . وكانت نفسه هاديته ، كما أبنا ، فى هذا الميدان . ففى مرآتها يرى غيره ، فيحسب له الوفاء عجزا ، أو حيلة ، أو وسيلة ! . وقد انتهى به تفكيره فى حال غريمه ، القابع هناك فى مغانيه ، إلى العلم بما فى يديه من قدرة وحول اجتمعت بهما له أفياض المال وسواعد الرجال . . . وأيقن أيضا أن الحيلة فى جعبة قيس إن كانت معدة حاضرة فهى عدة الظلام لا يطولها حدسه وقد تطيش فى استنباء كنهها ظنونه . . . كلا الفرضين لم يكن مسعفه على التقدم إلى هدفه ، فلم يبق سوى « الوسيلة » علة يفترضها لصمت داهية النيل ! . .

ولم يضيع وقته ، فالعمل وحده قد يكشف له عن مسالك يشقها كيده ! . . وكانت الفكرة التى لا ريب سيطرت على ذهنه تتفق ونهجه فى الحياة ، وتسير وطبعه فى سبيلها . إنها سليقة التاجر النهوم للربح يلتمسه من أدنى طرقه

وإن خاض إليه على أنقاض الذمة ! . . إنها شيمة المساوم النهاز ، يمد الصاع ليغنم الأصوع ! . . وهل يجول له بخاطر أن صمت قيس عنه وعن أضرابه المخاتلين من معتزلة النيل كان ابتغاء مثل سامية ، ونبت نفس كريمة تنفض الأثرة وتدنى الإيثار ! . .

وفى عجلة وأمل غمس قلمه فى مداد المنى الخداعة ، وزيف الأباطيل ، وبرق العروض السخية التى تغوى ، وتفتن ، وتميل بالقلوب النهمة الوصولية إلى كل مميل . . وكتب بيد المساوم المضلل رقعة سوداء ، كلها رياء ، وافتراء ، ومراودة ملحة عن الخيانة :

« من معاوية بن أبى سفيان إلى قيس بن سعد :

سلام عليك . أما بعد . . .

إنكم إن كنتم نقمتم على عثمان فى أثرة رأيتموها ، أو ضربة سوط ضربها ، أو فى شتمه رجلا ، أو تسييره أحداً ، أو فى استعماله الفتى من أهله ، فقد علمتم أن دمه لم يحل لكم بذلك . . وقد ركبتم عظيما من الأمر ، وجئتم شيئاً إداً . .

فتب يا قيس إلى ربك إن كنت من المجلبين على عثمان . . فأما صاحبك فإنا استيقنا أنه الذى أغرى به الناس ، وحملهم على قتله حتى قتلوه ، وأنه لم يسلم من دمه عظيم قومك .

فإن استطعت أن تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل . تابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إن أنا ظفرت ما بقيت . . ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان ، وسلنى غير هذا ما تحب ، فإنك لا تسألنى عن شىء إلا أوتيته . . .

والسلام » .

وختم كتابه وإن بنفسه لجزعة من مغبته أن يوقظ غضبه الثعبان النائم . وإن بها كذلك للهفة أن تصادف عنده ضميرا يكون خيالا لضميره ! . .

ولتنبئنه الأحداث . . .

٩

أما الافتراء فهو ديدنه . ما انثغرت أمامه قط ثغرة إليه إلا اقتحمها بلا ونى أو تلبث . . كان عماد سياسته المناهضة للإمام والمحور الذى يدور حوله تدبيره . وحتى عندما قضى الخليفة الشريف أيامه الدنيوية ، ووسعته رحمة السماء ، ولم يدع على هذا الكوكب الدنس إلا تراثا روحيا له نقاوة الندى فى البكرة ، وطهارة قلب المولود ، وعطر الزهرة الريانة حين تتفتق عنها الأكمام — حتى بعد أن غدا الإمام ذكرى للذاكر ، ونورا من الغابر يهدى فى الحاضر ، وزادا طيبا للعقول والخواطر ، لم ينِم معاوية يوما واحداً عن رميه بأباطيله المفتراة . . وإنك لتراه وقد غدت الدنيا بكفه ، وجثا الإسلام عند قدميه ، لا يفى يأمر الناس أن يسبوا عليا ، ويهيضوا من قدره ، ويركبوه بكل مذمة ومنقصة . فإذا قيل له ليكف اندلاع لسانه الكذوب العياب : « إنك يا أمير المؤمنين ، قد بلغت ما أملت ، فلو كففت عن الرجل » — أبى وقال : « لا والله ! . . حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير ، ولا يذكر له ذاكر فضلا ! . . . »

وأما الجزعة على مصيره أن يرسمه قيس فنبأها مع الليالى الطويلة التى حالفته فيها اليقظة ! . ما كان ليقر جنبه أو يلين فراشه وذلك العملاق يتراءى له فى خيالاته كأنما يوشك أن يعبر سيناء ، ويقتحم فلسطين ، ويدق عليه أبواب قصره فى دمشق الفيحاء . . فلو فعل لجاءت النهاية ، وجاءته من جانبين ، شطرها من العراق والآخر من النيل . وهو بهما حينذاك كمن شدت أوصاله جميعا إلى فرسين ثم ضربا ليجمحا : هذا إلى يمين وذلك إلى يسار ! . .

وأما الرجاء الذى احتوته لهفته فقد طلع عليه ذات ليلة صافية الأنجم فى حساب أوهامه وإن كانت حقا غائرة الأعين كثيفة الظلال . . . إنما ضل فيها حسبانه . بدت له كظنه من خلال الطبيعة الحادثة التى أخذت حينذاك تنفض عن نفسها رهق الصيف ، وتخلع ثياب الهجير ، وتتعرى من أبرادها الخضر تبترد فى نسمة الخريف البليلة ! . . ولاحت كذلك من خلال أمله الشهى الحلو ، الذى حمله

كتاب وولده كتاب ! . لكأنها جاءته بحلم عمره ، وغاية المرجو من قدره المترفق وحظه المواتى السعيد .

فليكن له إذن وهمه . وليكن له بشره ساعة أو سويعات من ليلته تلك « الصافية — الدكناء » وهو يرتل جواب قيس له كأغنية ! . . ففيه متعة . وأطياف رجاء . ومزلق يؤدى عاجلا إلى الخيانة كظنه السارح الضليل ؟ . . قرأ معاوداً وهو نشوان :

« . . بلغنى كتابك . وفهمت ما ذكرت فيه من قتل عثمان ، وذلك أمر لم أقارفه ، ولم أطف به .

وذكرت أن صاحبى هو الذى أغرى الناس بعثمان ودسهم إليه حتى قتلوه ، وهذا ما لم أطلع عليه .

وذكرت أن عظم عشيرتى لم تسلم من دم عثمان ، فأول الناس كان فيه قياما عشيرتى . .

وأما ما سألتنى عن مبايعتك على الطلب بدم عثمان ، وما عرضت على من الجزاء به ، فقد فهمته . وهذا أمر لى فيه نظر وفكر ، وليس مما يعجل إلى مثله . . . وأنا كاف عنك ، وليس يأتيك من قبلى شىء تكرهه ، حتى ترى ونرى . . . والسلام » .

وبطيه الكتاب الذى أقبل عليه من مصر إقبالة النسمة المعطرة ، طوى معاوية إحدى صفحات قلقه . إن سفر متاعبه ضخم ، والسطور التى خطها الزمن فيه تكل فى تبينها وفى استيعاب ألفاظها المتذائبة عيناه . ولكنه مع هذا قانع قرير ، قانع أيما قناعة ، وقرير إلى غير قرار . أم قد خدعه حينذاك تقديره فماش صدر ليلته تلك وهذا الكتاب عيش طفلة ودمية ؟ . على أية حال غمرته الفرحة المفاجئة — لاريب — من هامة لساق . ظفر خياله السارح فطوف به كالنحلة فى مغانى أحلامه ، انتشر أمله الجامح انتشارة الضوء بين وضحة الفجر وحمرة الغروب . . . فهلا أمن ؟ . . بل يوقن . بل يطمح . بل يبنى البواذخ الشم على دعائم التصور ، وطيدة رفيعة كأنها الصروح ذات الأبراج ، فالمارد الجبار خلع جبروته : استأنس الوحش الذى تهيأ طويلا للانقضاض ، غدا وادعا كحمامة ، أليفا كهرة ، حيياً كعذراء !

ما كان أبهاه بدء ليله ؟ . . فما يريبه الآن ، وما يشغله فى مصر ، من جيرة النيل ومفازة سيناء ؟ . . . هذا عهد من الداهية فى كتاب ، مصانعة ، كتابة كيابية ! أم لا فأين الساعة وولاء قيس لعلى وإنه للمليم حق العلم أنه شهيد فرية ؟ .. فيم صمته إذن عن هذه التهمة التى ألصقوها بسيده ، الموغلة فى الحيف ، الغالية فى الباطل ، المنسوجة من خيوط الحقد بإبرة المطامع ؟ . . كيف لم يدفع بحد قلمه ، لا حسامه ، عن إمامه فجاءت سطوره لينة على استحياء كأن قد أنفت الإنكار ورضيت الإقرار ؟ . .

فى خاطر العاهل ، الذى استخفه فرحه ، كانت « الوسيلة » وحدها هى التى سطرت حروف الجواب ... ذاك حسبانه صدر ليلته . وإنه ليفكر ساعة بشره هذه فى أمر قيس ، وموقفه اليوم وموقفه أمس ، فلا يرى علة تفسر له نعومة غريمه المارد إلا إضماره فى دخيلته العميقة كالبئر هدفا خالصا محببا لنفسه ، راح يعد له ، ويصابر فى حذر ، ويستأنى بزمنه عسى أن يبلغه إياه ذات يوم قابل وهو رابض هناك بجانب النيل . وما هو بمردود أبدا عن وطره الخفى المأمول . وما هو بثمنه إلا هذا السكوت عن غريم صاحبه مرة ، وعن ثعالب خربتا مرة ، حتى تأزف آزفة يستطيع خلالها أن يساوم من شاء على ما شاء . ولعله ، إذ ينادى النفير للحرب ، وتدوى الطبول فتنفلق الهام وتتناثر على الثرى فتات الأجسام ، عامد إلى الفرصة السانحة المرقوبة ، فناهض فيها لأمره ، يساوم أو على وهو حينذاك القوى الأغلب الذى لم تصبه بعد قارعة ، ولم ترهق سيفه الحادثات الجسام ! . .

ويقلق معاوية . دون هذا ويسود ليله ! . . تلك الأمسية التى تبدت لعينه صافية الأنجم أخذ ينقب وجهها ضباب . كلما انطلق به الفكر ، والزمن ، فى ساعاتها الوئيدة : من جبينها ، إلى النحر ، إلى الصدر ، إلى الخصر ، إلى الأطراف التى همت توفى به على النهار ، وجدها ذات وحشة وظلمة ، غارت نجما — فى باله — كليلة فى الشتاء عابسة وإن عرفها من بواكير فصل الخريف . . ! اكتسى هيكلها كله بمثل القار ! ..

وكان اضطراب ذهنه ، لا غيوم السماء ، هو ما حجب صفاءها الرائق عنه ، وعبث بأمنه ، وطرد طلائع الطمأنينة التى غزت خياله الفسيح ساعة الغروب ! ..

فما وراء هذه المصانعة ؟ . . ما غاية قيس من الليونة التي خطها جوابا على الإغواء والنعومة التي استقبل بها الافتراء ؟ . . أحقا التوى ومال ؟ . . أعن حب نفع ، وصدق نية على تبادل المغانم واقتسام الأسلاب المتخلفة بعد من أنقاض دولة الإمام أم هو لين الرمال الرخوة ما تلمسها قدم حتى تميد تحتها وتنهال ؟ . . أم نعومة الحية المخاتلة ؟ . . أو تلألؤ السراب ؟ .

ذات غد غير بعيد ، حين فشل إغواؤه ، وضلت وسائله عن ضم قيس إلى صفوفه ، وتسعرت بينهما المناجزة والجفوة ، كتب إليه معاوية يذمه ويعرض به :

« إنك يهودي ابن يهودي . . . . . »

فجاء نعتا إن يكن لا يطابق في حقيقته صفة المنعوت فقد صور لنا رأى ناعته فيه ، ولم يكن معاوية — إذ نعت — ملهاة غضبة جارفة ، ولا أسير خيال أحمق مريض ، وإنما استملى ظروف ماضي المارد ، وعيشه الشباب بالمدينة ، وعشرته فيها قبائل اليهود جيران قومه الخزرج وأحلافهم قبيل الدعوة . . . فإن كان هكذا رآه ، فقد وفر له من طبيعتهم النهازة ، وأثرة تأسره ، وتلوى خطواته وتدفعه أمامها ريشة خفيفة في رياح أطماعه .

لتوشك إذن هذه الصفة أن تجمع الغريمين في سبيل ، يلتقيان على نفع . . . ومع ذلك فمن يدريه أنه لم يقبس من اليهود غير هذه من خبائث ؟ . . بل يؤوده أن يطمئن له ، غداً كأمس ، وإن غدا بعد رقيق فضله وبذله مما تسعه تلك الأماني والعروض . فهو يومه — إن مال — خائن وليه الأول : الإمام، وهو في غد — إن وفى لطبعه — للجديد أخون ، وتلك شيمة كل غادر خؤون ! .

ويصابر معاوية هذه الفروض المثيرة التي أمطرتها سماء أمسيته ! . . لود لو انطوى في فراشه وهو نشوان بنصره صدر الليل ، والرجاء حينذاك يهدهد خياله ، لكنه الآن لقى في أيدي قلقه ، وخضم أفكاره ، والوساوس التي تترى عليه أمواجا وراء أمواج . . . فذاك « اليهودي » قد حيره ، وما يحسبه ، هذه اللحظة ، إلا انطوى مثله في أمسيته ، يفكر ويعاود التفكير وقد أمسك كتابه بكف يهودية ، وراح يطالع سطوره الملتوية المرة الثانية ، للثالثة ، للعشرين بعد المائة على عادة إسرائيل الحذرة ! . . أفتقتله يا ترى الوعود ؟ . .

بل كلا . أيما رجل غيره ولو كان غرا لا تجوز عليه هذه الحيلة ، التي لبست

بالعروض السخية وبطنت بالأمانى المعسولة ! . . وما كان قيس بالغر الذى يفتنه الزخرف البادى على اللب الزائف المموه . . ليس غرا فيرتعى فى لهفة على قبس الضوء الذى شبه مساومه ارتماء فراشة فى لسان اللهيب . ليس غافلا فيهطع إلى خيال الرضيخة السمينة المشتهاة ، المنعكس من خلال كتاب الإغواء ، كأنه محروم منهوم . . ليس أحمق — قبل هذا وذاك — فيؤمن بصدق النية التى لوحت له بنصف ذلك الملك المؤمل الفسيح . .

وعندئذ حق لمعاوية أن يلوم نفسه أعنف اللوم ، ويغرق فى عذلها كل الإغراق ، فلو اقتصد فى عروضه لكان خيرا له ، وأجدى عليه ، وأحرى بها أن تبدو للعيون صادقة فتميل إليه نفس قيس لو شاء أن يميل . ولكنه أباحها بقلمه مالا يبيحه بقلبه ، ومط أمامها رقعة السخاء مطا شديدا حتى رقت وكشفت من خلال شفافيتها خدعته ! . . أم لا ، فما الذى بقى خالصا له ، هو الخليفة المرجى ، من الدولة التى وسمتها أطماعه وسلبها خداعه ؟ . ما الذى تحتويه كفه وقد أهدى مصر لابن العاص ، وأقطع العراقين قيسا وله غيرهما ما أحب لو شاء وفرض لأهله أيضا الحجاز ؟ .

كان فلك أمسيته إذ ذاك قد أقلع لغايته ، عند شاطىء السحر . والنجوم فى الأفق وسنانة . ونسمة الخريف الندية تطل وجهه المحموم . كل شىء حوله احتوته الظلمة التى أراقها سواد أفكاره ، حتى البواذخ الشم من خيالاته التى تبدت له صدر الليل كأنها الصروح ذات الأبراج ! . . ومع ذلك فما زال يصابر جزعه ، ويتشبث بأوهامه . وإنه ليجد عينه من خلال ستر الظلام فيتبدى له شعاع كالخيط ، يسرى خافتا من ناحية النيل — من عامل مصر — من نفسه اليهودية النهازة ! . ألا لو يصدق حدسه فإن المارد إذن لمطواع ، حريص على ما سحا به حرصا ينميه خوفه أن تفلته الفرصة ، وجشعه الذى ماله مثيل إلا فى إسرائيل !. ولسوف يلوح له ثانية بوعوده ، وبوعيده ، فتستجيب فيه طبيعة اليهود ، وينقاد ! . .

وكتب إليه :

« . . قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدك سلما ، ولم أرك تباعد فأعدك حربا . . وليس مثلى يصانع بالخداع . . فإن قبلت الذى عرضت عليك فلك ما أعطيتك ، وإن أنت لم تفعل ملأتها عليك خيلا ورجلا . . والسلام »

١٠

كان كالبادى المصحر ، أليف ظعن وترحال . أكل قدمه الرمل ، وهقق القيظ إهابه ، وتحلب العطش ريقه . . . لكنه سائر شوطه ، لقدر مقدور . فى النهار والليل ، تحت وقدة الشمس ، وفى قرة الظلمة — حتى فى كوابيس حلمه التى تطالعه كل لحظة إعياء تقسر رأسه على التهويم وجوارحه على الارتخاء . . . إنه لا يأمن التوقف . بحسبانه — لو فصل — أن حرارة الحياة فى أعضائه ستخمد ، وأن قبره سينشق عند منتهى أثر قدميه . الموت يرصده فى كل مكان فلا أمان بمكان . إنما سير ، ومعاودة سير ، وسرى يسلم إلى سرى . فعناء وحياة خير من قرار وموت ! . .

ومن خيالات وهمه كانت النجاة تنبثق له ، كشعاع النور فى ليلة ضريرة ، كالنبع فى الصخر ، كالظل فى الفلاة الجرداء . . . فإن يكن سرابا فإنه أمل ، ومهرب من يومه وما احتوى من كروب ، ونظرة إلى غد باسم ذى ضياء ، ومسرب ذى زروع . . .

وكان لا يثق بالسراب ، ولا يؤمن ؛ ولكنه انطلق نحوه ، بلا فتور ، ففيه راحة إلى حين . راحة لنفسه الحائرة ، وقلبه الخافق المقلقل . فمن ذا يدريه مايضمه أفقه عند التقاءة الأرض بالسماء : خيال ماء أم هو ماء ! . . وشبح دارة أم دارة ؟ . . والأمل دائما يسبق الرؤية . والرجاء شطاح ، بجناح وبغير جناح ! فلعله — إذا انخدع ساعة لوهمه — أن ينخدع بعدها وهمه ، فتبدو النجاة من قريب ! .

لكن الليالى حدثته غير شجوه ! . فالماء خيال ، والدارة طيف ، والرجاء هباء وقبض الريح . . . المغانى الخضر منعته جناها : ظلها تقلص ، ونبعها غاض . لا ثمرة ولا قطرة وإن ثقلت الغصون ، والتف الشجر ، وجرى الكوثر بفيضه على الأيام بجرى الشمس والقمر ! . . كلا فما انحرف النيل ، وأنى له أن يميل وصاحب أمره ومالك عنانه قائم دونه صلبا كقناة ؟ .

هو كالرمح — ذاك الرابض هناك فى مصر — قد يشدخ ولكنه لا يلوى ،

أو يكسر ولا يعصر . ولقد ظن معاوية . إبان خياله وعنيه أنه لابد يوما لاويه .
فها هو اليوم ، وهاهو قيس ، كما لم يعهده ، ثابت ، شديد . عنيد . . . لكأنما
الإغواء قوى عزمه ، والوعد وثق مراسه ، والوعيد زاده صلابة كالماء
للحديدة المحماة .

« . . . العجب من اغترارك بى ، والطمع فى ! . .

أتسومنى الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة ، وأقولهم للحق ، وأهداهم
سبيلا ، وأقربهم من رسول الله وسيلة ، وتأمرنى بالدخول فى طاعتك — طاعة
أبعد الناس من هذا الأمر ، وأقولهم للزور ، وأضلهم سبيلا ، وأبعدهم من الله
ورسوله وسيلة : طاغوت من طواغيت إبليس ؟ ! . . »

إنها إذن سراب خادع تلك اللمعة التى تبدت لعينة ذات مساه من أماسى
الخريف وقد بعث النظر إلى أفقه البعيد عند التقاءة سماء حلمه بجنة النيل . وضح
عبث التمنى ، بغير جدوى انتظاره ، وتربصه ، ورفقه المموه المزعوم . . وكان
يعلم من البدء أنه مخدوع عن الحقيقة ، كالبادى المصحر الذى ضل سبيله فلم يكفه
المحير عن المسير . لكن هذا كان بالأمس ، اليوم أيضا ، اللحظة التى سلفت
ورود هذا الكتاب العنيف . فإن يبق له الآن شىء من راحة البال فهو يأسه
من غرعه ، واليأس على أية حال إحدى الراحات ! . .

والقلق أيضا قد عاده ، أشد وأمض . . فما نسى قط من بعد ، خلال حياته
الطويلة — وحتى فى ثنايا انتصاره ، ذلك الوعيد الذى لطمه به قيس ، ورماه
فى وجهه كقبضة تراب . كان خطرا يرصده ، سيفا مصلتا فوق رأسه قد عاق
بمثل نسيج عنكبوت ! . فإن خشيه فقد خشى قبله اللحظة المجهولة التى ينقطع
فيها خيطه الواهى فيقد رقبته أو يفلق هامته .

ويعاود مطالعة ذلك التهديد وهو مشغول :

« . تملأ على مصر خيلا ورجلا ؟ .

والله ، إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لذو جد ! . . »

وإنه لذو جد ! طالعه سعيد ، وقدره الآن فى عينه وإن ركبه غرعه بالتهديد .
فالآن قد انكشف الستر ، وبرح الخفاء ، ولم يعد ثمة مجال لطمع فيه ، وهل
فى سراب جنى وظل ؟ فما وعد حتى أخلف ، كطبع اليهود !

وكتب لقيس :

« . . . إنك يهودى ابن يهودى ! . . إن ظفر أحب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك ، وإن ظفر أبغضهما إليك قتلك ونكل بك . . . »

غير أن غصته لم يطفئها التعريض . وغضبته لم يخمدها ذمه وتهديده . . وكان ثائرا كأعصار وخائفا كعصفور فى براثن حدأة جارحة ، حائرا كوحش أطبقت عليه الشراك ، لكنه استقبل نفسه بوجه واستقبل قومه بآخر . فإن هو إلا الصباح حتى طوى همومه ، ولبس قناعا كثيفا على كربه الثقيل ، واغتصب بسمة الرضا والارتياح وهو يخطب الناس :

« . . . يا أهل الشام . . .

إن قيسا قد تابعكم ، فادعوا الله ولا تسبوه . . . لا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شيعة ، تأتينا كتبه ونصيحته سرا . ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عنده من أهل خربتا ، يجرى عليهم عطاياهم وأرزاقهم ، ويحسن إليهم ؟ . . »

وما يضيره إن كذب ، فتلك شيمة فيه ! . . فالكذب مركب هين يبلغه هدفه ، على نفسه أهون من صدق يقعده ، ويكبح طمعه ، ويتخلف به فى سباق الحياة للمجد . . . وما يكرثه الساعة من الناس حوله ولن يتبين أحدهم أنه مخاتل كذوب ، فأيما امرىء منهم جاءه النبأ من مصر بتخلف قيس عن معالجة الشام بالهجوم ومبادرة خربتا بالشدة ، حرى بأن يظن به أبعد الظنون . . .

بل أولئك الذين لم يدوروا فى فلك معاوية ، كانوا عدوا له عنيدين ، يتربصون به ، ويرصدونه كل مرصد ، ظنوا به كظن أولياء الماهل المخاتل ، وتبدت أمامهم — لجزعهم — قدما قيس على هاوية . . . ليس فحسب عامة الناس بالحاضرة الجديدة ظنوا به ظن السوء ، بل الخاصة فيها ، الخيرة ، الصفوة الخالصة من رجال الإمام الأمناء الذين يؤلفون من أعوانه طليعة الصفوف . . .

وجاءت منهم الإمام طائفة ، تدفعها الريبة ، فحدثته فى الأمر وإنه ليوشك حينذاك على الخروج للنخيلة بأجناده ليتشرع منها لحرب الشام ، فلا يكاد يلقف من شكوكهم همسة مخافتة حتى ينبرى يذود عن خدينه .

« والله ما أصدق بهذا على قيس ! »

فيبادره منهم ابن أخيه : عبد الله بن جعفر ، لا يداجى ولا يمهل ، ملقيا بظنه وشوراه .

« يا أمير المؤمنين ، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . . . »

أجل فثمة شبهة غير منكورة وإن غشاها على إيمانه الوطيد في وفاء قيس . وليست بالأولى . لا ولا الثانية ، توالت النذر عليه جديرة بأن تزلزل يقينه كلما حملت له عيونه المبثوثة هناك بالشمال ، مع كل إشراقة ، وفي كل إمساء ، خلال هذه الفترة الأخيرة من الكفاح ، أنباء وفاق سرى تهامس الناس بانعقاده بين رجله وبين صاحب الشام ، فلو صدقته فصحبه الذين يحاورونه الآن قد صدقوه أيضا النصيحة . .

ويفكر وإنه لنهب بين يقينه وبين الظنون . ويتدبر الخطوة اللازمة في أناة وروية . . . لقد يسعه أن يجنح إلى قولة السوء ، ثم يخذل نصيره ، ثم يقطع الثقة الممدودة نحوه إلى غير رجعة وما هو إن فعل بالجائر . قد يسعه اللحظة أن يعده حربا وكان من قبل يعده لصائقة . قد يجيزه الحذر بعد الأمان أو يسعه كوسمه الغدرة ! . . ولكنه ليس بظنين — ذلك العامل الطوال الأجرد ليس عنده بمتهم ، بل ولي وفي شكور مشكور سما بنفسه عن الخيانة . وما هي إلا فرية صبها صنائع ابن هند في أسماع العيون ، قد عقها لسان كذوب ، ونسج وشيها الخبيث قلب دءوب على الدسيسة ، فمضت بدونها وراء الحدود . . .

ويثني عبد الله :

« اعزله يا أمير المؤمنين . فوالله لئن كان هذا حقا لا يعتزل لك إن عزلته — اعزله ! » .

ويعلو جرس نصحه إلى صيحة ، فغضبة ، فثورة تهز قلبه وفرعه . فإذا رجعه في الآذان دوى ، وفي الأذهان نذير ، يضطرب ويفور فيدفع هتافا تملظته الشفاه كالزئير :

« اعزله يا أمير المؤمنين ! . . »

غير أن الإمام ينطلق عنهم بعينه إلى بعيد . . . إلى غبرة في الأفق تعلو أمامه كالسحابة ، وتطير صوبه كالدخان . وإلى ضجة تخرج من الغيمة الزاحفة ، في بدئها خافتة كخطوة النسمة ، ثم تدنو فتعلو . ثم تبدو نواتها وتتسق خطواتها حتى تميل نحوها العيون الرقيبة . . .

وعندما ينجلى الغبار ، ويترجل الفارس ، وتأخذه الأبصار . يصمت القوم من توجس ، وتحتبس صيحاتهم المتمردة وراء الأفواه . فعلى الرجل وعثاء راحل أبلى السرى وأعيى الرواحل . فى عينيه سهوم حائر ، وفى وجهه وجمة محاذر ...

وفى سكون ثقيل مريب ، يميل على أذن على يسر إسراره ، كأنما لسانه قلم يرسم فى صماخها حديثه . . . فإذا فرغ ، دفع إليه بكتاب فى رقعة ، وتمهل على أهبة ينتظر . . .

فلولا أن أودع الإمام وجهه الكتاب ، يكتب على سطوره ببصره وخاطره ، لبدت لهم خلجات نفسه بلا حجاب عميقة الأثر فى جبينه . لكنه لا يبيحهم مشاعره . ويمضى معاودا يتلو من الصحيفة كلاما ، بناظريه دون ثغره ، له فى فؤاده مثل وخز الرماح :

« الأمير معاوية بن أبى سفيان من قيس بن سعد :

سلام عليك . . .

أما بعد . . . إنى لما نظرت لنفسى ودينى ، لم أر يسعنى مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلما محرما . برا تقيا . فنستغفر الله لذنوبنا ، ونسأله العصمة لديننا .

ألا وإنى قد ألقيت إليكم بالسلم ، وأجبتك إلى قتال قتلة عثمان إمام الهدى مظلوما . . . فعول على فيما أحببت من الأموال والرجال .

والسلام . . . »

ويعاود أيضا . يتلو بعينه ولا يعقب . . . إنهم حوله كبنيان عليه مراقب من عيونهم تربصت بأفكاره . كأسوار قلعة . . . كطوق النجاة . . . لكنه لا يبدى لهم إلا عينا جوفاء تحيد سريعا عن نظراتهم اللاحمة المخالسة لتبدو بنجوة كالحصاة الصلدة إذ يطلها ندى الصباح ! . . إنما شغلته صورة تشعبت خطوطها من سطور الكتاب ، ثم تقاربت ، ثم تجمعت فى أضواء وظلال رسمت الحياة الدنيا فتنة تستذل الرجال ، بها هوى ختال ، وعابد ضال ! . . أفكذلك يريق الحاضر من سوأته ظلمة تكفن فى سوادها الغابر المجيد ، وسيرة كانت أمس كالشمس وضاءة ، ونفساً منيحة على الغواية منعة أحد على عواصف الريح ؟ .

أما الجمع فقد نقلتهم الرقعة التى مدها إليهم الإمام ، من حدسهم وحيرتهم ،

إلى مثل نوء عنيف من العواطف ، يضطرب بهم ، ويدوم ، ويدور . فى وجوههم دكنة الحزن ، وشحوب الأسف ، وحمرة الثورة . فما هذا بقيس الذى عرفوه . ليس هكذا تستطيع أن تجمح الأخيلة فتخلط الخبيث بالطيب ، وتجمع النقيض للنقيض . أسيد الخزرج ، علم الإسلام ، ابن النقيب سعد بن عبادة الذى احتضن الدعوة وإنها لطفل هزيل مهيض ، والدعاة وإنهم لحفنة يتخطفهم الخوف ، هو الذى يخط مثل هذا الوفاق ؟ . . لقد يوشكون أن يحسبوه تمهل ، أو قعد ، أو أهمل ، ولكن ظنهم ، قبل يومهم هذا ، ما كان قط مستطيعا أن يقرنه وخيانة . . .

كلهم غاضب ، وكلهم أسيف . على ملامحهم مثل غبرة . وفى حلوقهم شجى ، وفى عيونهم وميض نار ... حتى الحسن الذى تشرق من جبينه سجاحة الطباع ، وترف الطيبة والسماحة فى محياه . . . وحتى الحسين الذى كان ذكرى حية لجده رسول الله تعيش فيها قسماته . . . وعمار أيضا الآدم الرقيق الذى لم يترك تقدم العمر فيه بقية لموجدة . . .

كان لحنهم : « اعزله ! » . . وصوتهم « اعزله ! » . . وأنفاسهم المتذائبة بين الصدور والمناشق : « اعزله ! » . ثورة وحنق . صخب وغضب . عواء وزئير . لتهتز الأرض من هتافهم ميادة كمن زفير بجوفها انشق عنه قلب بركان ! .

اعزله ؟ . . بل لو كان حضرهم معاوية لهتف مثلهم : « اعزله ! . . » فإنها هدفه . سعيه وقصاراه . . . إنه ليبدو الآن للإمام ، تحت شعاع البصيرة الكاشفة ، بقصره هناك ، كشيطان راح ينفث فى روعهم من بعيد أحرف اللفظة المؤلبة . . . أم يدع قيساً وجنته ؟ . . أم يتركه شوكة تخزه ؟ . . أم يسلمه أطماعه المريضة ملهاة فى كفه يعبث بها ثم يحطمها حينما يشاء ؟ .

ورفع على يده إلى صحبه يكفهم عن اللغط ، فالأمر إن خفى عن إدراكهم إبان السخط ، إنه لشاخص تحت عين الروية ، عار بلا دثار ، ظاهر بلا ستار . . . وما هو قط فى قيس بمستريب . ولا بمنكر وفاء . ولا بعازله اليوم وإن تجيشت عليه مواجد رفاقه . ولقد ينثر الآن جعبة الفعال التى أنجزها بمصر عامله فيرى فيها تمهلا يبدو كتقاعد ، وأناة كتردد ، وسكوناً كغفلة . ولكنه مع ذلك لا يذبو بذلك العذر الذى ساقه إليه قيس عن التمهل والسكون والأناة :

« ... إن قبلي رجالا معتزلين قد سألوني أن أكف عنهم حتى يستقيم أمر الناس ، فنرى ويروا رأيهم ... وقد رأيت أن أكف عنهم . ولا أتعجل حربهم ، وأن أتألفهم فيما بين ذلك لعل الله أن يقبل قلوبهم ، ويفرقهم عن ضلالتهم »

ولقد فعل ما كتب ، وأمن الخائف ، وأمهل المريب ، وكان بذلك هدفا سهلا لخصومه وأصدقائه على السواء . فلعله الآن أن يقطع صمته ، ويجمع حزمه ، وينفذ ما أبلغه إياه إمامه ساعة خروجه إلى قاعدته فيبدأ ضربته قبل أن يستطير شر أولئك المعتزلة بمصر ، ويقوى بهم حزب الشيطان .

وعندئذ بعث إليه الإمام :

« ... سر إلى القوم الذين ذكرت ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون وإلا فناجزهم ! . »

ومع ذلك فقد أبى قيس ... أية خطة تلك سوغت له أن يدع عدوه وشأنهم ، وإن اليوم ، بل الساعة ، بل اللحظة تزيدهم جميعها منعة وعدة بعد إذ كانوا قلة ضعيفة تهاب اللقاء ؟ ... بذهنه فحسب ما أضمر ، فلم يطلع أبداً على تدبيره صباح ؟ .

١

حم القتال ! ... لا فرجة اليوم لطاعة ، أو موادعة ، أو وفاق ... العيون تلتهب . تزلزلت بقيحها الصدور . باتت العقول فى مشافر السيوف وفى رءوس الأسنة . وأينما تحرك البصر أو تربص السمع كان خيح ووسوسة ، وألوية وبنود ، وصليل وقعقعة فى كلا دمشق والكوفة — فى القصر والرحبة . ها هنا جموع تلتها جموع ، وزمر محشودة ، وصيحة للدم . وهنا نداء ودعوة ، ولفظة جهاد ، وحركة إعداد . والقلوب التى حلمت بالوحدة المرتجاة قشع حلمها تردد الضجيج ! ...

لكن قلبه كان قد أشرب الرحمة ، ونفسه صفاء ، وروحة تملأها اللوعة . فما كان أشقه من سفر على فؤاده تحفه من كلا جانبيه الجماجم ! ... وما أبغضها محنة ، هذه الحرب ، تختبر فيها النيات ، يقتل الرجل فيها أخاه ، والوالد ولده ، والابن أباه ! ... أرض محراثها سيف ، وبذرها مهج ، وريها دم ، وطلعها المجتنى بعد هذا كله قبور وأحزان

ولم يكن — مع ذلك — ليقعده أسفة ، ولا الحسرة الحبيسة بقلبه توشك أن تسبق الزمن فتفيض كالدمع قبل أن تتبدى أمام أعين الحياة تلك الكوارث المرقوبة ... وهل كان بيده أن يغير الأنفس ؟ .. إنه كافح فى هذه الناحية كفاحه ، بمنطقه ، وسن قلمه ، حتى تهاوى لسانه وكل بنانه . ولكنه ، والوفود تترى عليه ، وصيحة الحرب تلوكها الحناجر ، أتبع محاولاته بأخرى جديدة لعلها أن تبقى على السلام

وكانت قدمه لم تسر بعد شوطها فى طريقه إلى النخيلة عندما جاءه الجواب . هذه المرة لم يحدث معاوية ، ولم يلتمس من لدنه الفصل أو الفىء للصواب . فبحسبه ما كتب له ، وما لو كان قد أتيح إسماعه الجلاميد لخرت صعقة تستجيب للهداية ! ... إنما كتب دونه لصاحبه ، مستقر سره ونجواه ، عمرو بن العاص :

« ... إن الدنيا مشغلة عن غيرها ، وصاحبها مقهور فيها ، لم يصب منها شيئاً قط ، إلا فتحت له حرصا ، وأدخلت عليه مؤونة تزيده رغبة فيها . ولن

يستغنى صاحبها بما نال عما لم يبلغه ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع ! ... فلا تحبط أجرك أبا عبد الله ... »

وأحبط عمرو أجره ! ... سخا بآخرته وبخل بدنياه . فتمرة في عينه اليوم خير عنده من جنات وظلال ، وخمر وعيون ، وحور عين !

لم يجد جهده ، هذا الآخر ، على السلم مثل خردلة ، ولم يدع ثغرة للرجاء إلا في ويل ، وحرب مجلية تسوق لدمار ، وفتنة حصادها خلاف وفرقة ، طويلة الأجل إلى أجيال ، فقد أبت نفس ابن العاص إلا أن تعيدها جزعة :

« الذى فيه صلاحنا ، وألفه ذات بيننا ، أن تنيب إلى الحق ، وأن تجيب إلى ما تدعون إليه من شورى ... »

فكان بجوابه العجيب أشد غلوا من رفيقه ، وأبعد في العنت والعناد . فتح باباً في القضية لم يفتحه قبله سواه ...

وزم الإمام شفتيه في عزم ، على غضبة ثائرة ، وهو يطوى الكتاب الذى نقل إليه صورة أخرى من صور الأثرة . ابن النابغة ووليه سيان ، مرئى ومرآة ! ... ولولا أنه على ، بخلقه على المناقص ، عف اللسان والفكر ، لجال تلك اللحظة بذهنه ما جال حينذاك بخواطر الناس ، فرد كلتاهم بنوة الشبيهين جميعا إلى أبي سفيان ! . .

بل قد عصمته أيضا سجاياه أن يبيح أصحابه الخوض في أنساب أعدائه ، وإطلاق الألسن تتناولهم من أساليب الذم والمعابة بما قد يباح وإنه ليعلم أن حجر بن عدى ، وعمرو بن الحمق ، جهرا مرة بالبراءة واللعن من أهل الشام ، فلا يمهلهما أن يسايرا المواجد ، ويقول :

« كفا ! . . »

فيحاوره الرجلان :

« يا أمير المؤمنين ، ألسنا محقين ؟ »

« بلى . »

« أو ليسوا مبطلين ؟ »

« بلى . »

« فلم منعتنا من شتمهم ؟ »

قال :

« كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين . ولكن . . . لو قلتم مكان لعنكم إياهم ، وبراءتكم منهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم من ضلالتهم . . . كان هذا أحب إلى وخيرا لكم . . . »

وتوالت عليه الوفود والزمر ، كلهم قادم كأن لهجرة فى الله ، قد خلف أهله وراءه ابتغاء الجهاد . فما كان عمرو فى اعتقادهم بعاص ، ولا معاوية بمتمرد ، ولا من تابعهما على الغى بظنين . . . إنما قوم عدوا حق الله ، وأدبروا عن سبيله أن صدعوا الأمة بظلمهم فصدعوا الدين . وإنهم لينسون ربهم فى غمرة انكبابهم على الحياة فيدعهم فى النهاية أذلة لإبليس ! . . يصف غاياتهم المضلة الضالة ، وحوافزهم الخاسرة ، عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى ، فيقول للإمام :

« لو كانوا الله يريدون ، أو لله يعملون ما خالفونا . لكن القوم إنما يقاتلون فرارا من الأسوة ، وحبا للأثرة ، وضنا بسلطانهم ، وكرها لفراق دنياهم التى فى أيديهم . . . »

ويقول عنهم المرقال : هاشم بن عتبة بن أبى وقاص :

« . . . نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعملوا فى عباد الله بغير رضا الله ، فأحلوا حرامه ، وحرموا حلاله ، واستولاهم الشيطان ووعدهم الأباطيل . . . »

وكان قدر آجالهم فى نظرة عمار :

« إن سفك دمائهم ، والجد فى جهادهم لقربة عند الله ! . . »

كذلك كان أصحاب على ، وكذلك صحت منهم العزائم عندما تشرعت فى أكفهم البواتر المصقولة ، وتهيأت لهم ضوامر المطى تهم جميعها أن تجوز بهم البادية من سواد العراق إلى غوطة الشام . وما كان سفرهم إلا كحجة غدت عليهم فريضة ، وشعيرة من شعائر دينهم مستحقة الأداء ! . . وليس بينهم سوى قارئ وناسك وعابد ، الليل والنهار فى التهجد لديهم سواء . الأرض لهم مسجد ، والزمن صلاة ، والعمر عارية ، والآخرة وحدها الحياة . . .

ونادى بينهم مناديه :

« أيها الناس . اخرجوا إلى معسكركم بالنخيلة . . .

قضوا إليها على الظهر والقدم . إن يكن لخطوهم حسيس على الثرى الندى ، وفى برودهم حفيف ، وفى سلاحهم رنين ، ففى حلوقهم دعاء وذكر وتسبيح لها فى الفضاء الفسيح جلجلة . . . نهر من الرجال دافق ، منبعه الكوفة ، ومجراه ذلك الطريق المنساب بحذاء الفرات نحو البلدة الصغيرة انسياب ثعبان ، ومن دون ذلك له روافد وجداول من عجيشة البصرة وأصبهان والمدائن وغيرها من بلاد أقبلت تغذى ذلك النهر المتلاطم الطويل ! . .

وأصبحت النخيلة وهى محشر لكل صاحب جبهة سوداء ، يبس جبينه من كثرة السجود ، وأصبح معاوية وإنه لعلى جزع يأتيه نبأ هذه الحركات منجما ، ساعة ساعة ، كأنه حلق سلسلة . فلا يكاد يتبين فيه الجد الأجهم ، والنهاية المخوفة المقدرة ، حتى يفزع إلى رجال إقليمه :

« يا أهل الشام ! . . قد كنتم تكذبونى فى على ، وقد استبان لكم أمره . والله ما قتل خليفتكم غيره ! . . أمر بقتله ، وألب الناس عليه ، وآوى قتلته ، وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصدا بلادكم ودياركم لإبادتكم . . . »

أما الحق ، فالإمام لم يرحل إلا وقد تعاقبت زمر الناس على معسكره ، من حواضر ملكه وبواديه ، على وفودهم أعلام من رجالهم لهم بلاء ، فى سيوفهم ردى وفى قلوبهم أمن ، وفى حلوقهم شهادة ! . . فالحرب قد دوى بها النفير ، والجهاد نشر راياته ، والجنة قريب . . . وما فى البلاد رجل مست روحه نفحة إيمان إلا تشرع لها بإيمانه ، وتهيأ بصبره ، وتعجل من خلال لفحها ونقعها ودمها سبيله إلى موعود ربه الذى وعده التقاة الأبرار . . .

وفى مسيرهم من الكوفة إلى النخيلة ، كانت خواطرهم ما تزال نشوانة بحديث الرجل الذى تألفتهم كرائم سجاياه ، وازدراؤه بدنياه ، وفناؤه — من يفاعه ، إلى شبابه ، إلى كهولته حتى يومه ذاك — فى الله :

« إن الله قد أكرمكم بدينه ، وخلقكم لعبادته . . فانصبوا أنفسكم فى أداء حقه ، وتنجزوا موعوده . . . »

وعلى رنين السلاح ، ومطيهم تخب ، وأقدامهم تدرج بهم على الرمال ، راح يتردد كالصدى فى آذانهم مع الصليل ، قول الحسن الذى تزودوه قبل خرجهم إلى النخيلة :

« . . . لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدتهم . فاحتشدوا فى قتال عدوكم : معاوية وجنوده . ولا تخاذلوا ! . إن الإقدام على الأسنة نجدة وعصمة ، لأنه لم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة . . . »

وبين إيمانهم الذى تحلهم الثقة ، وعزيمتهم التى وهبتهم الإقدام ، ظلت صيحة الحسين تقرع سمعهم كالنذير ، لتجنبهم مهاوى الغرور والهلكة .

« . . . ألا وإن الحرب شرها ذريع ، وطعمها فظيع ، وهى جرع متحساة فمن أخذ لها أهبتها ، واستعد لها عدتها ، ولم يألم كلومها عند حلولها ، فذاك صاحبها . ومن عاجلها قبل أوان فرصتها واستبصار سعيه فيها ، فذاك قمن ألا ينفع قومه ، وأن يهلك نفسه . . . »

وقد أعدوا ، ولم يشدوا إليها رحالهم بغير زاد ! . . عديد وعتاد ، وعزيمة واعتداد ، بين يدى حنكة ويقظة ، ولئن قاربوا حلبة الصراع وإن عدوهم حينذاك ضعفان ، فكذلك دائماً أصحاب الدنيا أوفر نفراً ممن نذروا حياتهم للشهادة ، وآثروا ما عند الله . . .

وتواثبت بهم خواطرهم ، وظفر الخيال قبل الخيل ، وسبقت العقول العقائل إلى ساعة فى الزمن تطلع النصر فى تاريخهم شمسا قانية ذات دفء ، بعد زمهرير هذا الشتاء ، حرها كفاح ، وأشعتها دم . . أما الآن فهم على أهبة ، ينتظرون منه أمره لينطلقوا . فى أثناء الفرات ، أو محاذاة دجلة ، أو مع البادية الجرداء التى يضمها الرافدان وهى كبعير السقاية يحمل الماء وهو ظمآن . . إنهم لن يمضوا كأطيار ضالة وإن ودت جموعهم لو كانت من ذوات الجناح ، ولن يقطعوا الشقة كوحش الفلاة تتخبطه الوهاد والروابى وإن ماثلوا الوحش فى الظفر والناب . . . إنهم من هدفهم على بينة ، ومن خطوهم الوشيك كهذا النهر الذى ينطلق فلا يجاوز مجراه ... وها قد مضت قبلهم طلائع ، ترود الطريق ، إلى حيث وجار الثعلب الختال فى الشمال ، غدت لهم كمشعل لسوف يسيرون فى ضيائه . . .

ثم حانت لهم لحظتهم المرقوبة ، عندما وقف منهم الإمام يأمر جحافلهم المكتلة بالتقدم وهو يرنو بعينه صوب ماء الفرات :

« . . . إنى بعثت مقدماتى ، وأمرتهم بلزوم هـــذا الملطاط حتى يأتيهم أمرى . . . . »

ورد طرفه إلى بعيد ، نحو دجلة الذى لا تلمحه من مقامه فى معسكرهم الأبصار وإن يسر أن تراه عين التصور ، وأتم يقول :

« . . . وقد أردت أن أقطع هذه النقطة إلى شرذمة منكم موطنين بأكناف دجلة فأنهضهم معكم إلى أعداء الله . وقد أمرت على المصر عقبة بن عمرو الأنصارى ، ولم آلكم ولا نفسى . . فإياكم والتخلف والتربص، فإنى قد خلفت مالك بن حبيب اليربوعى ، وأمرته ألا يترك متخلفا إلا ألحقه بكم عاجلا إن شاء الله » .

فتهاتفت كتائبهم بتهليل ، وخفقت الرايات ، وغمر النفوس غامر الشوق للجهاد ، والرضا بالمسير ، والفرحة بالمصير الذى دنا وإن كان رحلة بلا معاد ، وهجرة آمدة تنحهم القبر وتسلبهم العمر . كلهم قرير أما مالك بن حبيب فمحزون. وإنه ليأخذ بعنان دابة الإمام فيلويه بين أصابعه فى اضطراب ولهفة . ويغضى بعينه فيأبى دمعه أن ينطبق جفناه . قلبه يضطرم ، وثغره يختلج ، وكيانه يهتز بمثل رجفة محموم . ولـكنه يغلب أساه ، ويقول هامسا بصوت كله ضراعة :

« يا أمير المؤمنين . . . أتخرج بالمسلمين ، فيصيبوا أجر الجهاد والقتال وتخلفنى فى حشر الرجال ! »

فيرق له القلب الـكبير ، وتربت كتفه اليد الحانية ، وتداوى حزنه النبرات الرحيمة :

« يا مالك . . . إنهم لن يصيبوا من الأجر شيئا إلا كنت شريكهم فيه . وأنت ها هنا أعظم غناء عنهم منك لو كنت معهم . . . »

وتحركت دابته فتحرك الناس .

ورجز حينذاك راجز :

« يا فرسى سيرى ، وأمى الشاما وقطعى الحزون والأعـــلاما
ونابذى من خالف الإماما
إنى لأرجو إن لقينا العاما جمع بنى أميـــة الطغاما
أن نقتل العاصى والهماما »

وعندما توالت الكتائب ، وأدبرت عن الديار ، شاعت البسمة فى ملامح نفير ثلاثة ، تملأ منهم العيون والثغور . فلقد خرجوا الآن مخرجهم هذا عن بلادهم وهم أعزة ، طوعا لا كرها ، لبلاء لا بإجلاء . . .

وأولئك فريق ممن كان قد نفاهم عثمان ، وأخرجهم من ديارهم بالكوفة إذ عاتبوه فى عامله عليهم سعيد بن العاص ، نبوا بصلفه ، فدفع بهم إلى ابن هند يسومهم من تجبره ، ويسقيهم الهوان . . .

وتلا منهم جندب بن زهير والرواحل تسير :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . . . »

وهز فى يمينه قناته وإن عينه لتومض بعزمه وغضبته وهى تتجه كالشهاب إلى ناحية الشام . . .

وهتف صاحباه :

« صدق الله العظيم » .

ثم تبعاه . . .

٢

مضت إلى وجهها مقدماته : اثنا عشر ألفاً مكتبة ، كأنها السيل وهى تلازم الفرات فى زحفها السريع الثابت ، مغربة بثقلها إلى الشمال ، نحو غاية لها مرومة لن ينالها اليوم إلا السلاح . . . كل راكب فيها وراجل يعرف قصده ، ويعى واجبه ، ويسير على جادة من أوامر مولاه كالصراط . جمعهم خرج فى الله ، ينصر حقه ، ولا يلتوى قيد شعرة عن الشرعة القويمة . الكفاح الذى يطلبونه ليس وسيلة لدولة ، بل جهادا فى دين . والأطراف والجماجم المتحفزة للتناثر إن هى إلا دعائم فى بناء « الإمامة » نذروها اختيارا ، لا لبنات تقيم معقل « الإمام » . . . فإنما الله يريدون .

السلطان الزمنى لم يكن لهم فتنة ، ولا هدفا يرمقونه أثناء زحفهم بالقلوب

المشوقة والعيون النفاذة إلى مستقره البعيد كالشعاع . ولا جنة يفيئون إلى جناها الشهى وظلها المديد بعد كد الصراع . . لا مرمى ، ولا قصد من متاع هذه الحياة وعناصر الناس والجاه — بل الإسلام الغاية . . .

وكانت كل حركة محددة ، وكل خطوة مسددة الطريق مرسوم . والخطة مرسومة بما احتوت من دفاع ومن هجوم . بل شؤون الأجناد ساعة السير ، وإبان الرقبة والانتظار ، قد أعدت أوفى إعداد وأحكمت بأدق مقدار . . . بل سيرة الجيش ، فرادى ومجموعة ، فيما يجتاز من بلاد ويلقى من ناس ، مقدورة كأنها صورة يحدها إطار ! . . لم يدع على أمرا إلا دبره ، ولا شيئا إلا أحاط به وأحصاه . لا هنة . لا شاردة ولا واردة وعندما انطلق قائداه : زياد وشريح ، على مقدماته بجانب الفرات ، سبقته إليهما نشرة منه ترسم الخطة المثلى لسياسة الزحف والرصد والاستطلاع .

« . . . إن مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم . فإذا أنتما خرجتما من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع فى كل جانب ، كى لا يغتركما عدو أو يكون لكم كمين . . .

لا تسيرن الكتائب إلا على تعبية . . .

فليكن معسكركم فى قبل الأشراف ، أو سفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار كى ما يكون ذلك لكم ردءا ، وتكون مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين . . .

اجعلوا رقباءكم فى صياصى الجبال ، وبأعالى الأشراف ، ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن . . .

حفوا عسكركم بالرماح والأترسة . ورماتكم يلون ترستكم ورماحكم ، فما قوم حفوا عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم فى حصون . . .

احرسا عسكركما بأنفسكما ، وإياكما أن تذوقا نوما حتى تصبحا إلا غراراً أو مضمضة . . .

وليكن عندى كل يوم خبركما ورسول من قبلكما . . . »

وكان نهجه فى سياسة جنده التسوية ، وبر الكبير بصغيره ، عليهم له واجب الطاعة . ولهم منه حق الوفاء :

« . . . إن الله جعلكم فى الحق جميعا سواء ، أسودكم وأحمركم ، وجعلكم من الوالى وجعل الوالى منكم بمنزلة الوالد من الولد ، وبمنزلة الولد من الوالد الذى لا يكفيهم منعه إياهم طلب عدوه والتهمة ؛ ما سمعتم وأطعتم وقضيتم الذى عليكم . وإن حقكم أيضا لكم ، والتعديل بينكم ، والكف عن فيئكم . فإذا فعل ذلك معكم ، وجبت عليكم طاعته بما وافق الحق . . . ونصرته على سيرته ، والدفع عن سلطان الله . فإنكم وزعة الله فى الأرض . . . »

وحذر أمراء جيشه أن تبيحهم ضرورة الحرب ما لا تبيحه قوامة الخلق وشرعة السجايا الكريمة إبان السلم والطمأنينة ، من السلب أو العدوان :

« . . أبرأ إليكم وإلى أهل الذمة من معرة الجيش ، إلا من جوعة إلى شبعة ومن فقر إلى غنى ، أو عمى إلى هدى فإن ذلك عليهم . . فاعزلوا الناس عن الظلم والعدوان ، وخذوا على أيدى سفهائكم ، واحترسوا أن تعملوا أعمالا لا يرضى بها الله . . .

لا تألوا أنفسكم خيرا ، ولا الجند حسن سيرة ، ولا الرعية معونة ، ولا دين الله قوة ، وأبلوا فى سبيله ما استوجب عليكم . . .

مضت هكذا أوامره ترسم السيرة ، وتنظم الصلة بين كل قائد وفرقته ، وكل جندى وزميله . وكل جيشه وغيره من رعاياه ممن سيخرق الجند عليهم بلادهم وأراضيهم . فأما أمره للمقدمة فالسير والفرات صوب الشمال ، عيونا وطليعة ، لا تعجل بقتال إلا أن تحمل عليه ، ولا تنتهج خطة إلا أن يزودها ببيان ، وهى فيما بين هذه وذاك تكون ملتزمة جانب الحذر واليقظة والاتئاد . . .

أما القوة الرئيسية فقد استأخر بها بعض زمان لا يبرح مقامها ولا تبرح حتى تكاملت له القبائل واجتمعت المقاتلة ممن حشد عماله وولاته من الأقاليم . ولم يطل بعد هذا إعداد . فتكتب الناس ، وانتظمت الأخماس . ثم عقد الألوية ونادى مناديه بالرحيل . . .

حينذاك كان العام فى ربعه الأخير . وكان الشتاء يلفظ من أنفاسه بقية كالذماء إن تكن توحى بمقدم الربيع ، فقد خلفت السكون بعدها مثلوج النسمة ، والورق النابت مبكرا على غصونه يرتجف بمثل اختلاجة مقرور . . .

وكان النهار فى إبان مولده باسم الطلعة أبلج الجبين . والشمس المطلة من سماء صفا أديمها صفاء مرآة ؛ قد أسفرت عن وجهها المتألق الصبوح ، وانسدل شعاعها على جوانب الأفق كشعر غانية : خيوطا دقيقة من نحاس كلون اللهيب ، رفافة رقيقة ، ليس فيها وقدة من حرارة النار وفيها رحمة من رخاوة النور ! . .

الأربعاء اليوم . وشوال الشهر . والزمان مستهل الربيع . . . النخيلة تعج عجيجها عن حملت ، ومنافذ الكوفة ، والدروب الطويلة المؤدية إلى الفضاء الفسيح الذى انساب فى أديمه الناعم الفرات انسياب ثعبان . . . للنجائب رغاء ، وللخيل صهيل ، وللأسنة صليل . والصدور التى تتوق للقاء شهيقها دعاء وزفيرها تكبير ! . . .

الإمام قائم على رأس قوانه ، يشق أمامها الطريق فى وقار وتؤدة . لا يعضل بالناس فى سير ، ولا يؤودهم حين اعتلاء شرف أو اجتياز غور . . بقلبه طمأنينة ، بعينه دعة ، على ملامح وجهه سلام . يحسبه الرائى — وهذه حاله — أخا سفرة إلى مراح آمن وادع وليس بنازح إلى غمرة تحفها المصارع . . .

ما ادرع ، ولا اكتسى الزرد والحديد . كل ما عليه ثوب مرقوع ، قصير إلى ركبتيه ، إن يكن ستره فليس بكاف أن يقيه عادية البرد فى ساعات البكرة أو ليالى البوادى المثلوجة . . . لا ملحفة إلا هذا القميص من الصوف والجلد والليف ، ولا درع إلا شعر صدره الكثيف ، يطل من ثقوب ثوبه كأنه الشوك ! .

وكانت عينه طوال الطريق وانية ، أدنى إلى الوسن منها إلى الانتباه ، كأنما يؤثر النظر بالبصيرة ، فلروحه اليقظان طرف لماح يرى المكان بدا أو غاب ويرصد الزمان من خلف حجاب .

وكانت رحلة تنشد الدم . ولكن الحرب لم تستغرق كل همه ، وفكرة الموت الجائمة من ورائها لم تشغله عن مقومات الحياة . . . ففى الطريق دائما عظة لمن ألقى السمع وأدار البصر أينما مضت قدم . وفى العظة تقويم خلق ، وإصلاح معاش . وما هو بالذى تجمد خواطره وإن أحاطت به عدة الحرب كالسياج . . .

لم تلهه الحومة المقبلة عن دوره الذى احتذاه عمره من تثقيف الأنفس ، وتهذيب الطباع ، وتأديب الناس بأدب الشريعة الهادية ليعملوا بعده مشاعل النور . . .

وإنه ليضع رجله فى الركاب قبل المسير فلا يكاد يستوى على ظهر دابته حتى يذكر ربه : « باسم الله » ... ثم يرفع وجهه يناجيه : « اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل . . . » ويمضى ، فيتبعه الجيش كله على يقين . . .

... وينزل منزلا بجمعه الحاشد فيتقدم يصلى ركعتين . فالأرض كلها مسجد ، والصلاة قربان . حتى إذا فرغ قام فقال ، ليعلم الجاهل ، ويبصر الغافل :

« أيها الناس . . . من كان مشيما أو مقيما فليتم الصلاة فإنا قوم على سفر . ومن صحبنا فلا يصم المفروض . والصلاة المفروضة ركعتان . . . »

ويمر فى سيره بآثار كسرى ، فيسمع صاحبا له يتمثل :

« جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد »

فينهـــاه :

أفلا قلت : « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » .

ثم يستقبل بعد هذه التلاوة الجمع بالتحذير :

« إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين . إن هؤلاء لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية ... » .

... ويلقاه بعض الدهاقين قد أتوه بدواب وطعام هدية له ولرجاله ، فيأبى ويقول :
« أما دوابكم هذه فإن أحببتم أن نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم أخذناها منكم . وأما طعامكم الذى صنعتم لنا فإنا نكره أن نأكل من أموالكم شيئا إلا بثمن ... »

عندئذ يحاولون أن يحملوه بكياسة على القبول :

« يا أمير المؤمنين ، نحن نقومه ثم نقبل ثمنه ... »

فيضحك وقد فهم حيلتهم :

« إذن لا تقومونه قيمته ! . نحن نكتفى بما دونه »

فإذا ألحوا عليه عبس وقال :

« ويحكم ! . . نحن أغنى منكم . . »

ويتركهم وهديتهم الفخمة على الطريق . .

* * *

ويمضى .

المطايا تخب والركب يسير . . .

دورة اليوم تنطلق بساعاته إلى حافة الأصيل . . .

الرايات تعتنق ثم تفترق فى النسمة البليلة . . .

كل امرئ فى الحشد الزاخر ذلك النهار بأمره مشغول : برحله ، بدابته ، بسلاحه ، بالشقة الطويلة التى ما يفى الأفق يطلع عليه من مراحلها طولا من وراء طول . . .

وهو أمامهم يقظان كغافل إلا حينما تند منه خاطرة فى شأن دنيا أو شأن دين . متوثب كخامل إلا على الظهر تحتـــه الذى لا يحس ثقله وإن حسبه القوم كلا على الراحلة . .

وعند ثنية فى الطريق يمتلئ جسمه البدين بالحياة فتنطلق الأعين إليه ترمقه، من كل جانب بعيد وقريب ، وقد شهدته يثب إلى بقعة من الأرض يرنو إليها بنظرة واجمة . . .

وتلقف الآذان صوته الهامس الحزين :

« ها هنا ، ها هنا ! . .

ها هنا موضع رحالهم ، ومناخ ركابهم . . .

ها هنا مهراق دمائهم . . . »

فتأخذ الناس من حديثه رجفة ، ويسألون فى توجس وإشفاق :

« وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ . . »

ويتمهل بهم ، حتى إذا دارت عينه فرأت الحسين ، توقف نظرها على محياه فى رنوة حانية ، ندية غائمة ، وهتف يجيب :

« ثقل لآل محمد ينزل هاهنا . فويل لهم منكم ، وويل لكم منهم . . . ويل لهم : منكم تقتلونهم ، وويل لكم منهم : يدخلكم الله بقتلهم إلى النار . . . »

ويسير ناكس الرأس إلى مطيته . . .

إن لروحه لطرفا لماحا ، يرى المكان بدا أو غاب ، ويرصد الزمان من خلف حجاب . . .

فتلك البقعة « كربلاء » الشقية ! . .

٣

منها إلى المغانى الخضر بين النهرين ، سوداء التربة ، زهراء الماضى ، التى سمت قبل بأمجادها إلى مدار الشموس ... من كربلاء الحزينة مشى على الماء ، مخلفا وراء ظهره بقية من قلبه الأسيف الأسيان ، رفت يومه كالغمامة على الثرى المغبر ، ثم مضت دمعة تندبه ، ثم غدت مع الليالى السود التى تكشفت عنها بعد عهده الأحداث جدولا من الدم جرى سلساله من فؤاد الحسين الشهيد ! . .

فلتمل به عينه الآن عن مصارع بنيه ، ومحنة حازبة يدخرها القدر ، وغدر فاجع يعده العتاة لعترة الرسول . فإنما الغد القابل رهين بساعاته ، والغل القاتل خبىء فى غلالاته لا تدركه اللحظة فراسة العيون . . وإن عينه الندية ليخفيها جفناه ، وإن قلبه العانى لتمسكه يمينه أن يترنح بين جنبيه أو يميد ، وإن الرعدة من محبة وإشفاق لتمشى فى أوصاله فإذا هو فى هنيهة قد نفضها فثبت كيانه كالبنيان فى الله ما يلاقيه . وفى الله أيضا محنة بنيه ، ونكبات قاصمة تحيق بذراريه ، فالدعاة أبدا هدف الطغيان . . .

وخطت به الدابة تخوض يتبعها جنده الأباة من كل فارس وراجل ، فرقة وراء فرقة ، وقبيلا فى إثر قبيل . قرابة خمسين ألف تأثروا خطاه فى مسيره ، يسلمهم الفرات إلى دجلة ، ويدوى وقع أقدامهم على الأرض السوداء النضرة دوى الطبل . ولم تكن بابل برقعة مجهولة المسالك على الكثيرين ممن يطأون ظهرها الآن ، ففيهم ثلة من الأُلى فتحوها ونشروا فى ربوعها دعوة الإسلام ، ولكنه لم ينخ فيها الدواب ، ولم يتمهل بالركب . لقد كان حسبه أن يمر عليها كالطيف ، ويدعها ورقعة منها كانت يوما ملاذ الشيطان . . .

وقال حينذاك لمن استنبأه هذه العجلة :

« إن يابابل أرضا خسف بها ، فحرك دابتـــك لعلنا أن نصلى العصر خارجا منها . . . »

كانت الشمس خمرية الشعاع ، ذرت ضوءها على الأفق كأنه حبات التبر تلتمع فى الأصيل وهاجة . وكانت أنفاس الشتاء رطبية رتيبة ، تتردد على مهل فلا خفقة للنسيم هوجاء ، ولا نفحة صقيع ، ولا سحابة تنشر الظلال قاتمة اللون فوق المروج . . . الطبيعة رائقة ، والسكون هادئ تلفه السكينة كأنما ألقى السمع بعد الخطا التى تواتر جرسها المنتظم على الثرى الناعم . والشمس كذلك بدت وانية ، كأنما ثقلت حركة فى مجراها وهى تنساب للغروب . وقطر الذهب فى وشاحها الوضىء راحت تصبغه الحمرة رويدا رويدا ، بيد خافية ، خطا قانيا وراء خط ، وطيفا داميا بعد طيف . ثم احتضنها الشفق . ثم حفها الغسق . ثم آن حين وسنها فالتحفت المساء . . .

وأصبح اليوم وهم بساباط تتبدى لهم فى مجال النظرة بشاطئ دجلة البعيد قصبة كسرى ، التى تمثل فيها عمر دولة عتت زمانا على الناس ، واستذل عواهلها زهو دنياهم فحسبوا لأنفسهم الخلود . . . بدت للدانى من وراء ، بين الزروع ، على التربة العنبرية تأتلق فى الضياء الذى يسكبه المشرق . وكان قصرها الأبيض الكبير ، وإن عدت عليه العوادى ، لا يزال يلتمع كالغرة فى جبين الصبح الأدهم ساعة البكور . . . إنه البقية من عزة قديمة . وهى معه كذكرى حلم نسخته اليقظة . وشطرها الدانى من كتائب الإمام إذ تغادر إليه ساباط حلقة من سلسلة النصر التى طرقتها سواعد قوم ضعفة ، على الفطرة ، كادوا لولا نفحة سماوية أن يسيروا فى ركاب البشرية هملا ضائعا بغير تاريخ ! . .

غير أن الإسلام بدلهم بحالهم حالا ، فأورثهم الأرض ، ومنحهم العزة ، وملكهم بعد ضعف مصاير الشعوب . وهذه الطائفة التى انطلقت تزحف الآن إلى الأمام ، صفوة منهم على بصيرة ، النور ينبثق من حيث تسير . إنها لتملأ الأعين بما ورثت فتخشع وتمتلئ منها بالثناء القلوب ، لتوشك أن تخر ساجدة ، هذه اللحظة التى طالعتها خلالها أمجاد فارس القديمة ، تمجيدا وحمدا لملهم الصبر ،

واهب النصر ، قاهر الطغاة . فلقد صدقها وعده ، فلا كسرى اليوم ، ولا عبدة نار ، ولا إدلال بقدرة لا يغلبها غالب طالما ثرثر بها فى هذه البلاد حزب الشيطان . . . ذهب الكل وبقى الله . وها هى الآن بهرسير ، الشطر الدانى من قصبة الأكاسرة على الشاطئ القريب للنهر ، قد غاب غابرها الصلف فى حاضرها الخاضع ، وغابت معه دولة عاتية ، وملك تمرد كما تبدد مع المواصف دخان . .

ويتلفت هاشم بن عتبة بن أبى وقاص إلى البلدة الخافضة الجناح بعد إدلال ، فينتبه خاطره ، ويلتمع ناظره ، وتهز نفسه المطمئنة الذكريات . . . على خده الآن دمعة ، ظهرها بكاء ، وليها ثناء . وفى قلبه فرحة وإيمان ، وعلى أهدابه رنوة تتوثب ، فيها ثقة يحفها خشوع ، وفخر يخالطه شكر ، ورضاء يزينه دعاء . . . وعندما دنت معالم بهرسير والجيش يسير ، خفقت شفتاه تهمسان نفس الهمس الذى ردده بنفس الوطن منذ أعوام :

« . . . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل . . . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ . . »

بلى أقسموا أسمهم ليخلدن — أولئك الأكاسرة وكتائبهم المغرورة بوران — ثم صبحهم العذاب . وكأن ملكهم حلم ليلة نسخته اليقظة . وكأن عزهم ظل أمسية ذاب فى النور . وكأن عرشهم بيت عنكبوت ! . . هم الآن ذكرى للخواطر المستعيدة ، وعبرة للعقول الرشيدة ، والعيون الشواخص الشهيدة ، وكم بجند الإمام اليوم من راشد وشاهد ومستعيد . وكم من بينهم له على هذه الربوع دم ، وتحت ثراها الصامت شهيد . . كلما تحركت به راحلة ، أو مشت قدم ، ثار من وقعها مشهد من ذلك النصر الزاهر الذى احتازه سعد منذ سنين ولم تغير الليالى نخاره . كرة الزمن لا تبليه ، وتواتر الفتوح فى أعقابه بين جناحى الشمس لم يطو عنهم لواءه الرفيع ، فقد جثت له القادسية ، وتمزق رستم ، وفنيت بوران ، وظفرت الكتائب الإسلامية وهى نشاوى بريح الدماء تجتاح السهل والحزن ، الجامد والماء ، نحو القصر الأبيض وفى أقدامها اجتياح إعصار ! . .

والتوت أجياد . فهنا الآن مظلم ساباط . وهذه خلفه المدائن مطلة على النهر كالشرف العالى تزاحمت عليها أطياف الشفق . وبهرسير بينهما على الضفة الدانية لدجلة كأنها درع تمنطقت به حاضرة فارس — ذاك منذ أعوام ! . . أما الآن فالماضى يثور من وقع الخطا الرتيبة . الغبار لوحة الغابر ، الوقائع البائدة تترى خلاله للعقول الذواكر ، الأعين الراصدة يلتقى لحها ولمح التصور على الأمس واليوم فى مكان . ها هنا اللقاء . فى ذات البقعة . بأرض المظلم اجتمعت الذكرى إلى العيان .

وعندما التقت العيون يحيا هاشم تحييه كانت الأذهان قد استحيت ساعة من سويعات ماضيه . هو إن وسعه لأغلق على الذكرى التى يكبرونها واعيته من استحياء ، فلا من لديه ، ولا زهو ، ولا إدلال . لكن الذين حضروه حين الفتح — من جنود الإمام — يرونه اليوم بنفس مقامه حينذاك . النقع الذى يثور من أخفاف مطيته على ذات البقعة قد أعاد أمامهم صورته ، وسيرته ، على رأس حفنة صغيرة من الرجال ، بعثها سعد بن أبى وقاص طليعة له إلى بهرسير . . وكانت غبرة القتال ما تزال عالقة بالأردان ، والأبدان فترتها المشقة . والإعياء الزاحف على الأطراف والجوارح يتحول لوسن . وكانت أشعة الشمس واهنة ، يذيبها الغسق ، وينشر منها على المكان ظلالا عريضة . والفرقة الكليلة تلمس المأمن لتنام .

لكن آهة محاذرة أبلغتهم جميعا شف التوجس . . ثم صيحة مخافته . . . ثم صرخة فزعة أطاحت من العيون خفق النعاس .

ودوى على الأثر زئير تجاوبته أركان الليل كأنه قصف صاعقة زجرت فى الفضاء . فى رنينه ثورة ، وفى إرعاده هلاك .

كانت هدأة الطمأنينة هى وحدها ما يسيطر على قلب هاشم إبان الجزع الذى ملك رجاله ودفع بأفئدتهم إلى الحلوق ! . . ومن خلال العتمة التى نقطتها أضواء الأنجم ، مد عينه الثابتة إلى موئل الهدير ، تقتحم الوحش الذى أبطره عنفه وعنفوانه . . .

وتقدم الرجل على سكينة ، وأقبل الليث على اهتياج ، قد شحذ نابه ، وتفخ إهابه ، ونشر لبدته الكثة على جيده كأنه الشوك .

فإن هى إلا وثبة حتى بدا هاشم لأصحابه على باب قبره . . . احتوته أحضان الوحش كأنما غاص فى جلده . والتحمت الأنياب فى الليل . وانفغر الفم الهادر بزئيره . . . اعتنقا برهة كالدهر سكنت خلالها أنفاس الناس . فلما افترقا برق فى الظلمة الثقيلة وميض غدا الوحش بعده لقى على الأديم ، صبغه دمه ، هامد الحركة كالدمية إلا خوارا أطلقته الجراح ! . .

ومسح هاشم شفرة سلاحه ثم أودعه غمده . بغير زهو فمل . على استحياء كهذا الحياء الذى يجلل اليوم محياه ولمح العيون الشهيدة والخواطر المستعيدة يحييه ! . .

وكما همس من قبل ، يهمس اللحظة وهو يجوز مظلم ساباط صوب بهرسير ، فى هدوء وإيمان ، وعينه تدور بالمكان :

« . . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ . . . »

ثم ينطلق خلف الإمام .

٤

كان مسيره والرافدين . مرة إلى هذا ، وأخرى إلى ذاك حتى بلغ مخنق الأرض بينهما فمال يسرة إلى الفرات ، تاركا دجلة ، مغربا نحو الأنبار ، فمصعدا من بعد فى الجزيرة إلى أقاصيها كأنما رام أن يتخذها مرقبا يطل من علياته على سهل الشام .

العراق كله مراده . سواده الخصيب الذى حفه الماء عن يمين وعن شمال ، وباديته التى هى مهاد نهريه ، وأشرافه التى تحدرت منها الحياة فى روافده سيالة تحدر الدماء فى الشرايين . . لم يدع على فيه ركنا إلا نفضه ، ولا شعبا إلا اعتلاه ولا قاعا إلا انطلقت عيونه وطلائعه فى ثناياه . داس جنده السهول والوديان ، المحل واليانع ، والربا واليفاع . بجانب الفرات مشت مقدماته والضفة اليمنى ، على حافة البادية ، تذرع الرمل المنبسط نحو الغرب كالتيه ، وتشق سبيلها مغاذرة إلى الشمال على هدى الماء . وفى جوار دجلة خرجت فرقة له من المدائن ، تعلو مع الأرض إلى مكان الموصل ، ثم تنفذ إلى نصيبين ، ثم تتكفأ فى حذاء نهير

الخابور مخترقة جبال سنجار وقد أوشكت أن تبلغ السور الضخم الذى تؤلفه الهضبة الأرمينية الذاهبة فى السماء . أما مجازه بجيشه الكبير فوسط الجزيرة ، مع انحرافه عن الشرق ، حتى الرقة الواقعة على مصب رافد للفرات ، والمطلة على حوض حلب حيث ينفتح منها الطريق لينا إلى وجار أعدائه .

وكانت الخطة أن تلتقى بهذه البلدة الجيوش الثلاثة : الأصل والمقدمات والطليعة ، وقد هبطت الشام من أعاليه فأمنت أن تجد عنتا أو تصادف مقاومة إلا متى وأينما اختار . فالمشرق الآن له : فارس وما وراءها إلى غاية ما بلغته أقدام جند الإسلام . والجنوب له : ما امتدت الصحارى الفسيحة إلى بحر الهند مجاوزة النفود ونجدا والحجاز . والشمال أيضا له ، حتى حدود أرض الصقالبة ، ولاياته موالية ، وحافته البعيدة هى الحائط الأرمينى العالى الذى تضرب قننه فى الفضاء إلى خطوط الجليد .

أينما خطا كانت قدمه ثابتة ، لها موقعها الأمين المعلوم فمجارى المياه رده له ، والجبال فوقه رده ، والصحارى إلى يساره رده ، وقد جنب نفسه أن يخترقها من الكوفة ليبلغ بين قيظها ومحلها حاضرة الشام ، أما وكر خصمه فركن منبوذ ، من تحته رمال ، ومن فوقه تلال ، وعن يمينه عدة وأعداء ، وعن يساره اصطخاب الأنواء . فليس البحر إذن بواقيه إلا أن يتخذه مسربا للفرار . وليس الرمل إذن بعاصمه إلا أن يتسلل من خلال دروبه إلى فلسطين فتتلقفه على تخومها تماسيح النيل . ولئن كانت دولة الروم اليوم فى عهده ، مهادنة له ، قد سكنها عنه ذهبه وهداياه ، فإنها حين الوقعة حرية أن ترقب حركة الصراع شامتة ، لعل القدر أن يقذف بصاعقة تدك خصميها القريب والبعيد ! . .

لكن معاوية إن يكن آده انطلاق الكتائب الزاهدة إليه ، التى باعت الدنيا بكفن ، تروم أن تدق عليه أبوابه ، وتشق عن قلبه إهابه ، فقد راحت نفسه تتسرب فى الظلام ، تتلمس الهنة هنا والثغرة هناك فى صفوف الإمام عسى أن ينفذ من ثناياها بالدسيسة ! . . فما يعييه الكيد ، ولا إثارة الحسد وإشعال حريق البغضاء ما وسعه وما أمكنه مكره أن يفوز بفرقة مدمرة تقوض دعائم الوحدة التى يرتكز فوقها سلطان غريمه . وإن هى إلا ساعة جاءه فيها نبأ إقامة أمير المؤمنين

حسان بن مخدوج على رياسة ربيعة وكندة دون الأشعث بن قيس حتى نفخ حليف الظلام والمكيدة فى شرر عصبية القبيلة الذى كان الإسلام قد وأده فى رماد التسامح، ونفث فى روع صاحب له من كندة كنفث الشيطان :

« اقذفوا إلى الأشعث شيئا تهيجونه على علىّ . . . »

ففعل شاعره .

فلولا أن الفتنة لم تكن نضجت على غصنها حينذاك ، وأن الزمن قد تلكأ قليلا فى سيره لأغر الشعر غره المر ! . . فلم يكن الأشعث للإمام بالولى الأمين وإن تبعه كظله إلى قبره ... وإن خاض معه الدم ... وإن اكتسى فترة فى العيون كسوة الفيصل يسير قدما بلا حيدة عن الحق أو تحرف ! . إنما كان امرأ أعجبته نفسه فرفعها للأبصار ، واقتحم بها الصفوف حتى غدا فى المقدمة يدفعها إليها أصل ونخوة وكبرياء . ولولا أن فاضل بين الخصمين فرجح على ابن عم الرسول لكان آثر ابن هند ودنياه فلحق بركابه وتعلق بأسبابه . ولكنه تدبر فأيقن أنه هنا ذيل ، وأنه هناك ذيل ، فاختار أن يكون خير الذيول ! . .

لم يكن الرجل ، فيما رأيت ، وفيا بقلبه وجارحته ، بسره ونجواه على السواء وهو يتبع الإمام شبرا من الأرض بعد شبر إلى غاية سراه ، وحتى انقضاء حياته وانتهاء دنياه . . . على كان من بدء الأمر لا يكاد يأمنه ، ثم يغلبه فيه أمله على شكوكه ، ثم يرى من حاضره صحائف تمحي أمامه أخرى مشوبة من ماضيه فتوشك الريبة أن تملك على قلبه الكبير مسالك الرجاء فيه . عندما انتهت إليه بيعة الناس بعد مصرع عثمان ، كتب له وهو إذ ذاك عامل على أذربيجان يدعوه للولاء والطاعة فكان من كتابه :

« . . . لولا هنات كن فيك كنت المقدم فى هذا الأمر قبل الناس . ولعل أمرك يحمل بعضه بعضا إن اتقيت الله ... ... »

فما صح فيه من بعد أمله وإن صح حينذاك حدسه إذ أتاه منه الولاء . فلقد بايع وإن قدمه لعلى حافة المعصية والتمرد ثم لم يكن له قدر ذرة من الفضل حينما أطاع . . . إنما حثه على الطاعة خلصاؤه ، ودفعته كبرياؤه أن يلحق بعلى ليكبر فى الأعين بشرف هـذا اللحاق . . . يقول لأصحابه قبل أن يبايع وهو لا يكتم عن أحدهم نواياه :

« إن كتاب على قد أوحشنى . . وهو آخذى بمال أذربيجان — أنا لاحق بمعاوية ! . . »

وقد حق له أن يميل بفكره إلى هذا النهج فصاحب الشام ليس آخذه — إن اتبعه — بتبعة أو بمال . . !

لكن صحبه يعيرونه :

« الموت خير لك ! . . أندع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام ؟ »

فاستحيا . خجل أن يخون ثقة أناس أودعوها عنده أمانة وهو سيد لهم فيعيد ثانية إلى الحياة قصة خيانة سلفت أوشك الزمن أن يدفنها فى طواياه . . هو الآن شاخ . انفلت به الأجل إلى شفا الهوى . غفلت العيون والعقول عن كبيرة قارفها إبان شبابه فوضعته زمانا فى مهب الهوان . لكن الذاكرات جعبة تختزن كل هنة وموبقة ، فإن هزها فاضت بحديث ارتداده عن الإسلام غب موت الرسول ، رغبة منه عن الله ، وصدا عن دينه الحنيف إلى الملك والعرش والتاج ! . .

حينذاك والشباب مورق ، والمنى تسحر ، وأحلام النفوذ والجاه تتراقص فى خياله كتلك الظلال التى تنثرها شمعة تداعب نورها مع الريح ، كانت الجزيرة العربيه مهد فتنة ضالة مضلة ، أثارها الشيطان فعصفت بها عصف الإعصار وجدث محمد ما زال فى فراشه ، مسجى ، تندبه من الأفئدة جراح وصدوع ، ومن الأعين شئون ودموع . كانت دعوة إلى الغواية . استذلت القلوب المريضة والضمائر المدخولة المهيضة . فمنعت طائفة الزكاة . وتنبأ فريق كأنما الوحى همل مباح . وارتدت فئة كبيرة عن ضياء الإسلام إلى ظلمة الجهالة العمياء . . . وكان أبو بكر هو الربان الذى أمسك بدفة السفينة التى اعتورتها كل هذه الخروق فأوشكت بها أن تبلغ القاع . . .

فإن هى إلا أشهر قليلة حتى رتق الخليفة الشيخ ما انفتق ، وعبر سفينه العاصفة رافع الشراع ! . . لقد بعث فى فجاج البادية بموته ، كتائب مجندة عتادها الإيمان ، أقوى من الموت فلا تخشاه ، وأعتى من الطوفان فاجتاحت الصحارى تبل محلها بفيض العقيدة . فإذا الأرض سلام ، وإذا الكفر هباء ، وإذا الأنفس

صفاء . دان مانعو الزكاة . وتردى الأنبياء الكذبة . وبهتت الردة وانكمش ظل دعاتها وأوليائها إلا فلا هنا أو فلا هناك ضاقت به الفلاة الفسيحة فراح يستخفي ويحتجر كالهوام !.. وكان من هذه الفلول شرذمة من بني وليعة فرت ببقية عمر من أسياف زياد بن لبيد ، قائد الصديق ، الذي ألقمهم الخوف والحتف ، وأشفى بهم على الفناء . أولئك استأخرت آجالهم ، وأمهلتهم المنايا فسحة من زمان شدوا خلالها مطاياهم إلى ديار كندة ، يستنصرون سيدها الأشعث ، ويحتمون في رحابه ، ويستمدونه على حماة الإسلام .

ولم يردهم الأشعث ، ولم يحجب لهم عندما استعانوه فقلبه في عشاء ! . . .

كان إيمانه كبعض أبراده ، إن شاء خلعه أو شاء وضعه ! . . فنسي الهدى الذي اعتنقه ، والعهد لله أن يصونه أو يقضي دونه . إنه ليغضي العين عن لؤم وليعة فينسى شماتتها حين جاءها نبأ موت الرسول . وينسى كذلك كيف غنت بغاياها وخضبن البنان ، وقرعن القداح مترعة بالراح ، فرحا بوفاة الذي أعزهن دينه عن الفحش والفسوق . وينسى أيضاً سوى هذه وتلك آصرة صهر ربطته بمحمد إذ تزوج أخته قتيلة وإن لم يلق ربه ولما تجمعه بها دار . . .

إنما ذكر الرجل الفتون ظمأ نفسه إلى المجد والسيادة فقال لمن استنصروه :

« لا أنصركم حتى تملكوني ! »

فملكوه . وتوجوه كما يتوج الملك من قحطان ، ولو عدوا لرضوا مؤثرين أسياف زياد تتخطف نواصيهم في حومة الجلاد . . . ولكنهم وضعوا حياتهم أمانة رخيصة في كف من خان أمانة الله فكان لهم أخون ، وكانوا عليه أهون من حفنة من تراب ! . . .

ويستعز الرجل حينا بتاجه . ويتخبطه صلفه فيحشد الحشود تناوئ جند الإسلام . ويحلم زمنا بملك عرد يأكل اليمن وحضرموت وعمان . ثم تصبحه بعد ذلك الهزيمة فيلجأ إلى النجير : حصن ضخم ، عساه يعصمه . لكن الموت ينصب عليه من خلفه ومن قدامه ، تصبه جنود المهاجر وزياد ، فليس له ولا لأعوانه كاشفة اليوم من قدر الله ، فإن بدت له بعد فرجة إلى نجاة فإنها الخيانة ! . .

ولا تلومه نفسه ، فبعده الطوفان ! . . وإن الليل ليشهده قد تدثر بظلمائه ، يخرج مخالسا كالخفاش إلى « عكرمة » أحد قادة الجيوش التى أتت تقاتل الردة فحصرت أهل الكفر من حصنهم فى وجار . فإذا لقيه ولقى المهاجر وزيادا باعهم نواصى رجاله ، وحرية النساء والأطفال ، ببقية عمره ! . .

قال لهم :

« أستأمنكم »

فسألوه :

« علام ؟ »

« أهلى ، ومالى ، وعشرة ممن أحب ، ثم أفتح لكم الباب . . . »

وفتح الباب .

ووقع ملكه المزعوم كله طعمة فى يد جند الإيمان .

وجىء له بكتابه الذى ضمنوه الأمان للعشرة الذين اختار ، فما تبينه حتى أخذ قلبه يتسرب قطرات بين حبات الرمل ! . .

إنه فى ساعة حرصه على الحياة نسى أن يكتب لنفسه الحياة وكتبها بعهد أمانة لعشرة سواه . .

وهتف المهاجر ساخرا ، وقد فرغ جنده من حصد أهل النجير وهم ثمانمائة فارس وراجل صريع وقتيل :

« الحمد لله الذى خطأك نوءك ، ياعدو الله ! . »

فسجد يستجير ، والسيف يبرق على عنقه .

وعندئذ حدث عكرمة رفيقه المهاجر :

« ألا تؤخره ؟ . . أبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم فى هذا ، وإن كان رجل نسى اسمه أن يكتبه وهو ولى المخاطبة أفذلك يبطل ذاك . . . »

فأخذوه إلى المدينة ، مع بنى قومه وأسراهم من نساء وأطفال ، مصفدا بالحديد ، لا تكاد تلمحه عين امرأة منهم حتى تنحرف عن شؤمه أن دك بيتها وأخربه إذ أثابها الثكل والترمل ، ولا عين غلام غر دق عنقه عن حديدة الحسام ، فلم يصده الحمام ، إلا تأورت عليه من حقد إذ أثابه اليتم والذلة . فبسدره

هاض ملكه ، وعرف السيف طريقه إلى قومه ، وأذاق قلهم غصة الهوان ، وهان ! . . .

ويتردد فى أذنيه ، والأصفاد ترن فى معاصمه ، والدرب أمامه المدينة طويل ، ولولة الأيامى والثكالى والأيتام ، مختلطة بذلك النعت الذى ألصقوه به ناطقا بغدر :

« يا عرف النار ! . »

إنما الذاكرات جعبة ، تختزن الحسنات والسيئات فإن هزها اليوم فاضت بحديثه بعد أن كادت العقول تنساه ! .. فهل يجسر ؟ . . لكأنه ، هذه اللحظة وتحريض الشاعر يحرك منه مكامن الخيانة قد سد أذنه ، وكن قلبه المفتون بغطاء من الخجل والتحرز أن ينفلت ثانية إلى ماضيه . . وما هو بغرير ، وما هو إن أصغى إلى نظيم الوقيمة بآمن أن تتبعه كندة كما تبعته قبلها وليمة . فالخير إذن فى الخضوع لأمر على ، والسلامة فى الاستسلام . . .

ويقبل عليه حسان بن مخدوج ، وقد حزر حقده وغيرته يريد أن يخفف عنه :

« لك راية كندة ، ولى راية ربيعة . . . »

فتأخذه النخوة أن يتفضل عليه منافسه :

« معاذ الله ! .. ما كان لك فهو لى ، وما كان لى فهو لك ... »

لكن ابن مخدوج كان أعلم به فلم يرد فرقة تدب فى صفوف أعوان على . لإمرة على طائفة يتولاها هو أو يتولاها غيره . فإذا افترقا ، أخذ راية القيادة فلحق به فركزها له فى مقامه .. وعندئذ يسارع الأشعث إلى الإمام لينفى الشبهة عن نفسه :

« يا أمير المؤمنين . إن يكن أولها شرفا فإنه ليس آخرها بعار ... »

فيرمقه على هيبة ، ثم يرضيه :

« أنا أشركك فيه . »

وتخمد شعلة الوقيمة ، وتتوارى الخيانة إلى حين ...

٥

الأيام التى أعقبت المحنة النفسية التى عاناها الأشعث بعد رسالة الدسيسة ، شهدته وفيا غاليا فى وفائه . . . بدا كأنما الماضى الأسود الذى كتبه فى سجله غدره القديم لا يني يطل عليه من خلال ساعات يومه ، وآناء ليله ، كمثل السوأة المكشوفة تؤذى الأبصار ولا تحتجب عنها بدثار ! . . فوفى لخير وفى ، وأخلص كأدنى ولى ، ومضى الزمان كله — حتى اللحظة التى غلبته نفسه فيها على احتراسه — يضرب بظفره ونابه ، ويثير من رهج البذل والشجاعة لغاية الإمام ما يشغل العيون عن زلته ، ويمسك الألسن أن تردد حين تلقاه : « يا عرف النار ! . . »

وقنع بدوره الذى أملى عليه : لبنة فى البناء الكبير المؤلفة منه أداة الدولة الإسلامية فى تلك الحقبة الصاخبة بالحوادث الجسام . إن يكن فاته أن يكون من عمدها فالعماد حينذاك الخليفة والكل عصبة وأوتاد . أو يكن فاته أن يجبل من مصيرها ما قد شاء فإنه الزمن الذى لم يسعفه ، والوعى العام كان فى انتباهه ، كإقعاءة الأسد عند الخطر ، قد تهيأ وتحفز فليس يؤتى من غرة ولا يغمز ! . . فما عدا الجمع الضارب الآن بالقدم والظهر إلى جار الروم أن يكون فرقا من كتائب الإيمان ، خرجت فى الله ، لتعز دينه ، وتنصر عهده ، وتنشر لواءه عاليا على صروح النفاق . وكأين من رجل اليوم هجر داره ، وسار مسيره ، قد التوت به الذكرى إلى الأمس ، عندما هاجر الرسول للمدينة من البلدة الحرام ، فرأى نفسه صديقا آخر يوشك كلما امتدت الخطا به فى الشعاب أن يتبدى له على مدى النظرة الكليلة « حراء » ! . .

على أنه مع ذلك لم يكن من العروض — هذا الأشعث الذى تلبدت رأسه بشعرها فأعلمته من بين الناس ! . . وكانت الأفكار فى ذهنه أيضا ملبدة ، والنبات فى فؤاده ، والآراء بين شفتيه . . . بل الأرض تحته غدت مشتبكة الدروب ، مختلفة المسالك كشرك الصياد ، فليس يدرى أيها مجازه . إنه لفى حيرة ، فالشدة أقسى ما تمتحن فيه الضمائر . وإن يكن مضى شوطه ، بعد وقيعة الشاعر ، إلى أرض الشام وهو يدخر لها من سلاحه وجلده ، فقد ادخر عاملها له من

دسائسه وهو على بينة بما يهدهد رياءه ، ويمسح على غروره ، ويلوى بعنانه إلى الغاية التى يروم . . .

ولكنه انطلق فى ركاب الإمام للأمام ، علما بين أعلامه إذ ولاه ميمنة أهل العراق . الآن هو شىء فى أعين قومه ، وفى جسد الجيش ، وحيال النظرة الزارية حين تود اقتحامه يمز دونها على الاقتحام . . . حتى أن تهدأ نفسه ، وأن يسكن جأشه ، وأن يطيب خاطره ، وعندما تأزف الآزفة سيرين ربيعة ، وكندة واليمن جميعا أنه فى حسابهم ذو خطر ، لا يلقن دوره كما يلقن سواه ، ويسعه وحده أن يخط مصيره بيمناه !

* * *

والجيش بعد هذا يسير . والزمن أيضا يسير فتلبس الأنجم الصفا ، ويرف النسيم بالدفء ويزهر الأرض كالرياض . فقد أقلع الشتاء بصقيعه ، وخفقت فى الجو أنفاس الربيع تبعث اليقظة فى الأوصال المقرورة . مضى شوال . وأقبل القعدة ثم خطا إلى حدوده . ووافى الحجة فى النفوس حنين بعقدمه إلى الكعبة الحرام ، وبالقلوب إلى مثوى الرسول وله وغرام . لكنهم إلى اللقاء أشوق — أولئك الكتائب الزاحفة من جند على تروم بزحفها جيرة الروم !.. كلهم يتعجل الزمن إلى ساعة الجلاد ، وإن أتت بحينه ، ليسل سيفه ويجلو سنه على الرقاب . فما الموت بزلزل يقينه ، ولا هو راده عن الغاية وإنه لغاية تهون أمامها كل الغايات ! . .

فى خلال هذه الفترة ، مضت الأمور على ما اشتهى على ، ووفقا لما جرى بتقديره . . . ذرعت الطليعة الصغيرة الأرض صعدا إلى نصيبين . وقطع جيشه الكبير الجزيرة بغير معوق ولا مقاومة . وأخذت مقدماته على عنق ضفق الفرات حسبما رسم لها خطة المسير . غير أنها فى الطريق قلبت الرأى فرأت أن تعبر النهر عند « هيت » حين جاءها النبأ أن معاوية قد زحف بجموعه ليهاجم القوة الرئيسية التى يقودها الإمام . على عجلة عبرت بعد أن قطعت نصف الشقة إلى « الرقة » لتربط مصيرها بمصير سيدها ، وكل جندها وقادتها يرددون :

« ما هذا لنا برأى : أن نسير وبيننا وبين أمير المؤمنين هذا البحر . . . »

ثم أمعنت فى السير والضفة اليسرى للنهر ، فإذا هى من بعد لاحقة لا سابقة ، قد بلغت فى «قرقيسيا» مؤخرة الجيش وهو يوشك أن يجتاز عند ثنية الخابور . فلما تقدم زياد وشريح للإمام خفقت بسمة على ثغره وخاطبهما فى دعابة :

« مقدمتى تأتى من ورائى ؟ . . »

والتأم الجمعان . ومضى الجند حشدا واحدا حتى نزلوا على جانب الفرات « بيليخ » . هنا تبينت لهم مواقفهم ، وراحت سمات العداء تتجمع سمة سمة وهى تنبئ باقتراب ساعة الحومة ، فقد لوت الرقة بأعناق أهلها عن الإمام ، فغلقت الأبواب لا تعينه بشيء ، ورفعت سفنها من الماء لا يعبر ، وردت طلبه أن تجسر جسرا بينها وبين مستقر أعدائه يصبحهم منه أو يمسيهم ! . . كانت البلدة عثمانية الهوى ، لاذت بها من الكوفة فئة فرت من كفه ، وغلت فى شقاقه ، ونزعت نزعها إلى ابن هند ، تكاتبه ، وتعنو له ، وتلتزم نفس نهجه فى اللدد والخصومة .

ومع ذلك فلم يعضل عنتها بالإمام . ولم يدفعه إلى حافة غضبه فينكل بها وإنها لفئة واهنة : مئات قليلة ، لا تكاد دماؤها تشبع حسامه ! . . فالدم عنده حرمة إلا فى مأثم عز دونه كل دواء . والعنف أبغض وسيلة من وسائل المجالدة والكفاح . ولئن جيش ، وزحف ، وامتشق ، فإن نفسه ظلت كافة بالسلام تحتال لالتماسه ولو من سم إبرة ! . . وما كان يعييه حينذاك أن يقمأ فرقة مثل هذه ضالة ويحملها على ما تكره . ولكنه طفق يرجو — إن يفسح لها فى رفقه وصبره — أن تجنح إلى الحكمة وأضرابها من الغلاة فى شقاقه ، فيملك الأمة أن ينفرط عقدها ، وتتقسمها الشيع فتذهب مع الريح . . .

على ظلمهم تركهم ، تلك الليلة من ليالى ذى القعدة، ويحسبون حصونهم مانعتهم بطشة المنية . وما هى قط بمانعة إن يهز فى وجوههم حسامه ، ولا بدافعة عنهم البلاء إن يعدد نحوهم إصبعا تنطلق معها جنوده يسحقون الديار والأعمار ! . . غير أنه آثر الرفق ، وقدم المهلة ، ونثر رقعة الأرض التى تليهم فاختار العبور من جسر « منبج » ليقحم جيوشه إلى « حلب » من الشمال .

ومن الرقة بعث بكتاب :

« ... إلى معاوية ، ومن قبله من قريش :

إن لله عبادا آمنوا بالتنزيل ، وعرفوا التأويل ، وفقهوا فى الدين ، وبين الله فضلهم فى القرآن . . . وأنتم فى ذلك الزمان أعداء لرسول الله ، تكذبون بالكتاب ..

فلا ينبغى لمن ليست له مثل سوابقهم فى الدين ، ولا فضائلهم فى الإسلام ، أن ينازعهم الأمر الذى هم أهله وأولى به ...

ولا ينبغى لمن كان له عقل أن يجهل قدره ، ولا أن يعدو طوره ، ولا أن يشقى نفسه بالتماس ما ليس له ...

فاتقوا الله الذى إليه ترجعون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ... »

وكم من كتاب ! . . ولكنه اليوم نذير .

لئن ترفق وأملى لهم ، فقد ترفق قبله محمد بسلف لهم ، وبهم ، وبأمثالهم كثير . وما على بالذى يعدو طوره فينحرف عن تأثر الخطا المرسومة التى طبعها الرسول المظيم فى الدعوة . « فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ، فهى خاوية على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد » ... « وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ، ثم أخذتها وإلى المصير ... »

٦

هم كانوا أهله ، أولئك العصبة الجامحة فى خلافه . من العشيرة الأدنين . عاهم وإياه فى الزمان أصل ، ثم ربطهم به من بعد صهر وجوار . إن يسيروا على دربهم فلن يضيروه ما عاد أمرهم إلى الله فهو أعلم بهم ، إليه الرجعة وعنده الحساب ... أو يتيهوا بقضهم فما يغنى الجمع حين تلتقى الأسنة وتبدو الآخرة من غير حجاب ! ... إنه على بينة ، يمده الحق وجنوده . وهم على شبهة ، تبعوا الطاغوت فضاقت المسالك ، ودنت المهالك وغدوا بغيهم فى تباب ! ...

وكان عزيزا عليه هذا البغى الذى إليه أنسوا يقطفون من ثماره الخبيثة . فالهوى شقوة . والمصير شقوة ، قصر عمرهم أو طال ، وعندما تشرع سيوفه فسوف تتربص بهم على أشفارها مناياهم ثم تحمل فلهم على امتثال نهجه الذى تنكبوه عنوة وكرها ، ولات حين توبة إن غر الأمل فخم الأجل وأقبل المآب ! . . .

الكرة بعد الكرة حذرهم الفرقة . بالرفق فعل ، وبالموعظة الحسنة ، وبالحكمة وبالبيان لايتشكى السأم لسانه أو بنانه . كانت الرحمة دائما تغمد حسامه والرحم ، وحق الجوار فى الوطن والله . كلما دعاه عنتهم وجد قلبه إليه أقرب ، فداوى بالحرف مايداوى بالسيف ، وله فى نبيه الهادى مثال . . . فى بطحاء مكة كانت أعين خياله تراه ، وبين الشعاب ، وعلى دروبها التى فرشتها الشمس بوقدة من الهجير كالنار . لم يغب محمد عنه ، ولم تغب أماثيله . دورة الزمن لم تستطع أن تطمس الذكريات . والواعية فتية ندية وإن صلب بدنه وشاخ . وحين تراوده القنا والحراب عن مصارع الفلاة فى الكيد له ، تشرق أمامه البسمة الحانية ، والفم الذى ترف الشفقة على شفتيه ، والعينان اللتان تفيض منهما المغفرة كالدموع وإن مشت على الملامح الرحيمة مسحة من الحزن قد رسمها مايلاقيه من عناء وقسوة وتعذيب . فإن يكن يحزن لما يصيبه فحزنه لهم أشد أن خالفوه فارتضوا عمى الليل دون نور النهار . أو يكن لم يعجزه منهم النكال ولم يصده عن السير فى سبيله ، فالرجاء فى جذبهم إلى حظيرة الهدى كان حلم أيامه ولياليه . . .

كم من ساعة أظلتهما معا — الرائد وفتاه — فى كنف الكعبة ، وحيال الستر ، وعند الحجر . هذا يدعو بقرآن الله ، وذاك يرقب . وهو غلام ، خوالج الأنفس المفتونة بغيها كيف تطفح استكبارا وعنتا وسخرية على الوجوه . . وكم من لحظة وارتهما معا وراء الظلال نأيا عن الأكف الأثيمة التى تربصت للنبى بالعدوان . . . كان محمد حينذاك هو النور ، وكان على الظل الذى يتبعه ويدور معه حيثما يدور ، وذاك عهد انطوى سجله . مضت شروره حتى ظن أنه لا شر ، ودفن الماضى شياطينه فى « القليب » ! . . فلو أنهم أسعدتهم نجومهم لفقهوا الإسلام قبل الحمام فحققوا رغبة طالما ألحت زمانا على الرسول أن يجنبهم الضلالة إذ كانت لهم به وشيجه ، وفى قلبه مكانة ، وبين قومهم أقدار . ولكنهم غووا ،

على خلاف مشتهاه ، حتى نفض منهم يديه ، ووقف على أشلائهم وهى لقى على الرمال تهم أن تتخذ من القليب منقلبها ومثواها ، يلحى جحودهم وطغيانهم :

« يا أهل القليب ، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ! ... كذبتمونى وصدقنى الناس . وأخرجتمونى وآوانى الناس . وقتلتمونى ونصرنى الناس ... هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ . . فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا ! . . »

واليوم على على صراط رائده . إن يكن قد ذهب النور فتقلص الظل على أثره فما يفى الصوت يتواتر جرسه وتتردد فى أعقابه رنة صداه ! . . الشعاب تعتلىء برجعه ، والنجاد ، والربع الخالى ، والبوادى السارحة حول المياه والخضرة . إلى الغاب والشجر ينطلق ، وإلى العيون التى تفجرت من الصخر ، وإلى منزل أشم بمكان أفيح تأرجت بأنفاس زهره نسمة الشمال ...

لكن الغى كتاب ، والرشد كتاب . والقدر من فوقهم يحرك يمينه فيدفعهم بظلمهم إلى بوار . فباءت يدان بالخسران كتبتا على صاحبهما الغواية حين خط ما أملته عليه الأهواء .

« من معاوية بن أبى سفيان ...

أما بعد :

ليس بينى وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب »

نشر القدر صحفه ، وصرف بقلمه ، ثم طوى سجله على المصير المقدور ، وقد اختار للخلف محنة السلف الذين شاقوا الرسول ...

فليكن هو الهوى المضل ، أو هو الطمع المذل ، أو زخارف الحياة التى صيغ نسجها من أباطيل قد فتلها الشيطان الغاوى خطاما يقود به أولياءه إلى مهواه ... فلتكن هذه كلها ما أغوى معاوية وانحرف بخطاه عندما سطرت يمينه كتابه وختمه بخاتم محنة لسوف تمزق أمته وتدفع بها شيعا ضعيفة محاولة يتخبطها التفرق والانقسام . غير أن سوسة الغل كانت تنخر كذلك فى سويدائه ، وعفن الحقد ، وقبيح المواجد القديمة التى لم تبلها فيه سماحة الإسلام وإن وارتها زمانا كالجذوة المتقدة طمرها الرماد !

وتتردد لحظة فى سمع الإمام كلمات كان قد ألقاها على الناس عبد الله بن بديل ابن ورقاء الخزاعى قبيل مسيرهم إلى أرض الفتنة لمناجزة العامل المشاق :

« كيف يبايع معاوية عليا وقد قتل أخاه حنظلة ، وخاله الوليد ، وجده عتبة فى موقف واحد ؟ . . والله ما أظن أن يفعلوا . ولن يستقيموا لكم دون أن تقصد فيهم المران ، وتقطع على هامهم السيوف ، وتنثر حواجبهم بعمد الحديد ! . . »

وصدق عبد الله . فقد ود على السلامة للعشيرة الأدنين ، وأبى ابن هند إلا أن يشملها نارا تأكل منها بحطبها من تأكل ، وتقذف بقايا جيفهم ، كسلفهم ، فى قليب جديد ! . .

ويأسى على أسى محمد إذ خذله أهله أمس ونبوا به حين دعاهم بدعوة السماء . ويتريث وقتا كمن يتوق أن يتدبر لهم — وإن كرهوا — ثغرة إلى الهداية ، فلما أن يؤوده الفكر ، وتعييه الحيلة ، وتعز عنه الوسيلة ، يهمس لنفسه فى حسرة وإشفاق :

« إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين . . . »

ولا يرد عينه الغائمة بدمع الرحمة عن رسالة الخلاف التى أقبلت عليه مزهوة من المنزل الأشم بالمكان الأفيح الذى تتأرج بأنفاس زهره نسمة الشمال . . . لا يردها وإن ضربت حولها عيون الأشتر والحسن وعمار ، وبقية صحبه وأوليائه ، سياجا من العواطف اختلفت أعواده وتباينت آحاده ، فيه التحدى ، وفيه الحزن ، وفيه الرغبة تسبق الزمن إلى سويعة جهاد . إنما يظل يرمق الأحرف وهى تتوثب أمام ناظريه كألسنة النار ، كاسفا أسيفا . وشفتاه تنطلقان فى التلاوة بصوت رخيم عميق رقيق :

« . . . وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ؟ — ولكن أكثرهم لا يعلمون . . وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين . . . »

وعندئذ تضطرم قلوب بشغفها ، وتتطلع أعين ، وتتهيأ سواعد وأقدام . . . ذهبت المحاسنة . دنا البأس . ملأت الجو ريح الحرب والدم والنار ! . . . لبس كل لأمته ، ورحل دابته ، وغدوا جميعا على أهبة كأنهم ، لفرط تحفزهم ، يقفون على أعلة قدم ! . . الآن لم تعد بهم حاجة إلى التمهل . ولا إلى الإملاء في الصبر للعدو العنيد . وإذا كان الإمام لم ينل بعنفه أهل الرقة حين حبسوا عن رجاله سفنهم ، وأبوا أن ييسروا له عبوره إلى أرض الشام ، فالآن لم تعد ثمة مدعاة إلى الرفق والهوادة وهذا دليلهم الذى يأتمرون له قد أسفر اليوم عن وجهه ، وخطت يمينه دعوة الصراع . .

فإن هى إلا سلخة من الزمن ، كيوم أو بعضه ، حتى ثارت بالأشتر حميته ، فاندفع إليهم بحصنهم وهم محتجرون ، يدق عليهم بسيفه الباب ، ويزأر لهم الوعيد :

« يا أهل هذا الحصن ! . . إنى أقسم بالله لئن مضي أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم حتى يعبر منها لأجردن فيكم السيف ، ولأقتلن مقاتلتكم ، ولأخربن أرضكم ! . . »

فأخذهم الخوف فجسروا . . . وبعث هو إلى على ببعض الطريق « نحو منبج » فعاد . . . ثم عبر الجيش إلى أرض الفتنة ، كتيبة كتيبة ، فرسانا ومشاة ، يزدحمون جميعا ويستبقون كأن لأقدامهم أجنحة طير ! . . .

كانوا على شوق . فهذه الأحرف التى أتتهم من قصر دمشق طريقهم إلى الكعبة ! — إلى منى القلوب ! — إلى غاية ينشدونها من زمان على قطر الدم ، ومزق الجوارح ، وبقية الروح ! . . . لم يعد يمسكهم الأمل فى صلح ، ولا طيف سلم . إنما رفع معاوية ذلك الرتاج الذى كانت تنحبس خلفه عواطفهم فتدفقت كالسيل يحمل الدمار فى تياره إلى العصبة الجاحدة التى أضلها الهوى عن الحق إلى شفا المصارع ! . . .

واحتشد الجمع العابر على الضفة الثانية للفرات يمد عيونه وشوقه عبر الصحراء إلى ملاذ أعدائه . . . كله رغبة فى اللقاء . لا رهبة ولا خوف . فى القلوب

شغف . على الشفاه بسمه ... اللامح الصلبة كأنها صخر نحته العزم فأبدع تشكيله . والصدور أفسحت ، والأذرع فتحت لتحتوى هناك فى أحضانها — إبان الحومة — فرائد الحور ! ...

وتمهل هنيهة على الشاطىء فارسان ، عقلا دابتيهما ، ثم مضيا معا إلى النهر يخوضان ماءه ... كانا قد ازدحما على الجسر حين العبور يرجو كل منهما أن يكون له على زميله فضل السبق عسى أن ينفذ بسيفه قبله إلى صدر مفتون ، فإذا الخطا تشتبك ، فيضطربان ، وتسقط إلى النهر قلنسوة هذا وقلنسوة ذاك . . .

ويقول أحدهما لصاحبه وهو ينشل قلنسوته :

« يا بن الحجاج .

إن يك ظن الزاجرى الطير صادقا   كما زعموا أقتل وشيكا ، وتقتل ! »

قال الثانى ، والفرحة حينذاك تغمر محياه :

« ما شىء أوتاه ، يا عبد الله ، هو أحب إلى مما ذكرت » .

وأسرعا يمتطيان ، ليسبقا الجمع . . .

فالوجهة الجنة ! ...

١

لولا أن حاجز بينهم وبين القتال ، فربما غرسوا على شاطئ الفرات ، بعد المعبر ، جنة من الجماجم ! . . ما كان يصدهم أن تكون الرمال الأكفان ، والدم الغسل ، والنصال التي تقصدت في قلوبهم صحائف تدل عليهم ، وتعلم لخودهم أمام الأعين وهم رقود عاشوا بالموت بعد أن فارقوا الحياة ! ... فالمنية لديهم بداية ، والشهادة فريضة ، والدم قربان . وحين تحركت بهم دوابهم تدع الماء وتوغل في البلقع ، كانت المنى لا تزال تخطف في أخيلتهم ساعة الغدوة كهذا الشعاع السابح يتوثب به موج النهر ، إن مد برق أو جزر غرق ... فالجهاد حلمهم الذى غذا خواطرهم . واللقاء في ظلال الأسنة غاية الأنفس تتوق إليه في حنين . والإمام — إن كان نهاهم ، يومهم هذا ، عن المبادأة بسل الحسام — فالنذر في الجو تهم أن تتجمع فيوشك معها أن يدعوهم لرى الفيافي الظمآنة ! . .

هم قد خرجوا يرتادون ، وما من حيلة لمرتاد ... إن الأرض أطلعت عليهم الأمن سكنوا ، أو العنف شدوا على عدوهم بجالدوه وياما آثر الكثيرون منهم لو استقبلهم عدوهم بالصوارم ! ... اليوم أعيام الحلم . أسأمهم السلم . تقطعت نفوسهم حسرة على تلك الفترة من أعمارهم التي أمضوها يطاولون خصمهم بغير طائل ... لكن علياً كان يدخر الحرب إلى لحظة في خاطره ، خفية عن كل خاطر ، بعيدة عن أناة الحالم وصبر المصابر . فما هو لهو ، ولا هي حشد ، ولا هي غيلة . بل صراع شريف بين جمعين : تعاقد يختمانه بالقبول أن يحتكما إلى الأسنة لتحسم ما لم يحسمه كلام ولم تقطعه أقلام ! ...

لم يكن قط ليخلب النصر من غرة ، أو يعمل القنا في ظهر ... فليست الحرب غارة تسير وفقاً لشرعة العابثين بالمحارم من قطعة الطريق ومحترفة القتال . وليس يبيحها أن يخالف فريق ويشاق إلا أن يعلنه الآخر بها ليصبح على أهبة وحذر ، إن شاء خضع فبايع ، أو شاء أبى فدافع وهو حينذاك متبين سبيله الذى اختار ... تلك شريعة ارتضاها القدامى ، وتعارفت عليها جيوش الأسبقين من الدول والشعوب ، كان القتال وفقاً لها صراعا سافراً نبيلا بين الأجناد ، لا يقر

البغتة قبل الإعذار ، ولا تتهيأ له مقوماته دون إعلان ، فلا فجأة ولا غدر ، يلتقى فيه القرنان وهما على بينة : كفتان عالمان ، وجها إلى وجه ، وصدراً إلى صدر .

فى هذا الضوء الذى يبدد ظل الشبهات ، خرجت كرة أخرى مقدمات الإمام من الجانب الغربى للفرات تجاه الرقة ، ترتاد الأرض فى طريقها إلى الشمال . وكان عليها هذه المرة أيضاً زياد وشريح . وكان هدفها أن تنفض السبل أمام القوة الرئيسية التى كانت حينذاك تتجمع وتنتظم بعد عبورها من الرقة لتحث الخطا إلى منزل لها تختاره فى ديار الفتنة . فما يأمنون جميعاً الغدر من معاوية وإن جاءت على غير ما تبيحه شريعة الحروب ، لأنه يبيح ما لا يباح ، ويقاتل بأى سلاح ! . .

ومضت بهم مطيهم محاذرة ، تخب هونا على طريق حلب . فليسوا يخشون جانب دمشق وقد علموها البؤرة التى تركزت فيها جحافل الشام ، وإنما الحذر من هذه المدائن الضاربة إلى تخوم دولة الروم ، والتى قد تكون جبهة لفرق إضافية أعدها ابن هند لتفاجئ الإمام من مأمن ، فتكر عليه من الشمال بينا تزحف الجحافل الشامية عليه من جنوب وغرب تسد دونه المسالك فيغدو بها فى حلقة وثيقة ليس فيها ثغرة للخلاص إلا مياه الفرات ...

ولم يغب طويلا عن أمير المؤمنين نبأ مقدماته التى انطلقت غرب النهر ترود له الأرض ، وتعد الآنف والآذان والعيون إلى تجمعات أعدائه . بل هو يوم أو بعضه ثم بعث فأحضر الأشتر :

« يا مالك ... إن زيادا وشريحاً أرسلا إلى يعلمانى أنهما لقيا أبا الأعور السلمى فى جند من أهل الشام بسور الروم ، فنبأنى الرسول أنه تركهم متوافقين . فالنجاء إلى أصحابك النجاء ... »

وأمره عليهما يعملان تحته على ميمنته وميسرته ، على أن يعذر إلى عدوه ، المرة بعد المرة ، ولا يدانيه جانحا لاعتداء ، متشرعا لحرب :

« ... إنى أمرت عليكما مالكا . فاسمعا له . فإنه ممن لا يخاف رهقه ولا سقاطه ، ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم ، ولا الإسراع إلى ما البطء عنه أمثل . . . . »

وتواقف الجمعان : مقدمة على ومقدمة معاوية بسور الروم بقية النهار . يوشك الرائى ألا يلمح فى وجوههم عداوة ، بل سكينة وطمأنينة . يتبادلون الحديث فى وئام عن الوحدة ولأم الصدع ، منهم معذر ومنهم مخالف . فاجتماعهم لبيان ، وافتراقهم بإحسان .

غير أن الليل كان يبطن الغدر فى سواده ... فلم تكد تعابث الأعين فى معسكر الأشتر هجمة حتى دهمتهم الخيل يقودها أبو الأعور وهو يحسب أن الغرة مجزيته الظفر . إنه ، فيما يبدو ، على دين سيده ، لا يأثم ولا يتحرج ، فكل ما يثيبه الغلبة حلال ! . . لكن القوم الذين ظنهم لقية هينة بلا سياج من الحذر والتأهب ، قد غالبوه هجمته ، فاضطربوا ساعة ، وثبتوا ساعة ، ثم كروا فما أسفر الصبح حتى كانت أرض الوقعة من أبى الأعور وأجناده الغدرة خواء . .

كما استتر بالظلمة قدامهم ، توارى بالسحر مخلف المكان مصعدا برجاله عن سيوف خصمه ، نازحا بهم إلى الشمال ... ترك خلسة سور الروم ، وأسحر منها إلى ملاذ ... إن كان لغاية أضمرها الرجل فى دخيلته ، فلعله خشى أن تنال من جمعه الأسنة إن هو ثبت ، فاستمهل إلى حين هنيهة الجد حتى يزيد أهبة ، وتثين له فرصة جديدة . أو لعله قاس فسحة الزمن فعلمها فى حسبانه سويعات إن تبق له على رجله وخيله فإن غدا مطلع عليه بعدها وليه فى حشود تملأ الأرض فتشد أزره وتعلو به على عدوه أو لعلها مكيدة الحرب ، والحرب تراجع وفر كما هى صبر وكر على أية حال ارتد أبو الأعور يبتعد ، وتحرك الأشتر مع البكور ، فى طائفة من المقدمة ، ينشده على الدروب والمسالك المتفرعة من البلدة حتى ثقفه قد لاذ من « قنسرين » — فى منتصف الطريق نحو حلب — بربوة تحميه ، وتهيئ له من شرفها حصنا يدرأ عنه غرة الهجوم ... وكان النهار قد تبين . والصبح يلقى ظله ونوره ، والقفر حولهم ينبت الوحشة من كل ذرة فى رماله ، ويومئ إلى الفراغ ...

حتى أولئك الذين قد عرسوا بالقتال من أعوانه ، وراحوا يدلون بفروسيتهم ، ما ثبتوا برهة حتى حصدت بعضهم سيوف غلمة من أجناد الأشتر فانطووا فى الثرى مغيبين كانطواء ذكر لهم كان — إلى ساعة حينهم — كأسطورة ! . . ونكص

البقية على الأعقاب إلى تلك الجنة التى ادرع بها أبو الأعور، يلتفون حوله يعصمونه إن أغارت عليه هذه الطائفة من مقدمات الإمام . لكنها لم تكن حربا توفرت لها شرائطها ، واكتملت مقوماتها — وإن عاجل فيها صاحب معاوية أعداءه بالعدوان . فلم ير الأشتر أن يندفع بوحى غضبته ، بل استحضر نصب عينيه وصية على ، فآثر الكف جهده عن الباغى ، وقدم الأناة .

لكنه لم يكن ليأمن منهم عدوة مباغتة ومبادرة كأمس إلى الغدر والخديعة ، فأحب أن يكف عن نفسه وعن جنده بلوى القائد الغادر ويناله بجزاء بغيه وطغيانه . إنه مراوغ كثعلب — ذلك الرجل الذى باغته ثم انسرب من بين يديه يحتجر تحت ستر الظلمة ... وهو فارس القوم . وهو ظفرهم ونابهم . فلو حرك فيه إدلاله بقدره ، واختياله بشجاعته فى مجالى الطعان ، فلربما وسعه أن يختلب هذه المقدمات الشامية نابها ، ويقلم ظفرها ، ويدعها مكفوفة الأذى حتى يلتقى الجيشان فى ميدان الحرب ، يتناجزان أو يتوادعان ...

رام القائد ولم يرم الفرقة ، فاحتجارها عن رجاله استئمان ... كف إلى حين ... مهادنة موقوتة بساعة أو بساعات . فلم يكد يصف جنده على أهبة ، ويؤمن منزلهم ، ويحفهم بما يجنبهم بغتة الغريم ، حتى دعا الأشتر إليه فتى من قومه النخع ، فأمره بأمره :

« يا سنان ... انطلق إلى أبى الأعور فادعه إلى المبارزة » .

فهتف الغلام :

« مبارزتى أو مبارزتك ؟ »

« أو لو أمرتك بمبارزته فعلت ؟ »

« نعم ، والذى لا إله إلا هو ، لو أمرتنى أن أعترض صفهم بسيفى فعلت حتى أضربه بالسيف ! . . » .

عندئذ ابتسم القائد لفتاه ، وقال وهو يربت كتفه :

« ... إنما أمرتك أن تدعوه إلى مبارزتى ، لأنه لا يبارز — إن كان ذلك من شأنه ! — إلا ذوى الأسنان ... ولكنك حديث السن يا سنان » .

لكن السلمى — فيما بدا — كان جديرا بسخرية مالك فلم يكن من شأنه

لقاء الأقران ! . . فما هو أن سمع الدعوة إلى المبارزة حتى راغ وهو يعتل بتعلة لعلها أن تدارى اضطرابه ... سكت طويلا عن الرسول ، وأغضى يتفكر ويتدبر ، فلما آن أن يرفع عينيه وجبينه ، كانت عبسة تظل ملامحه ، وتغشى على وجهه بالوجوم .

وقال لسنان :

« إن خفة الأشتر وسـوء رأيه هو الذى دعاه إلى إجلاء عمال عثمان من العراق ، وافترائه عليه : يقبح محاسنه ، ويجهل حقه ، ويظهر عداوته ... إنه سار إلى عثمان فى داره وقراره ، فقتله فيمن قتله ، فأصبح مبتغى بدمه ... » .

فلم يلو اعتسافه الأباطيل ذلك الحدث عن مجابهته بمعارضته ... قال الشاب وهو يحاول أن يرد إفكه عليه :

« قد تكلمت فاسمع منى حتى أخبرك » .

لكنه أبى أن يصغى ، وصاح :

« اذهب عنى ! . . لا حاجة لى فى مبارزته ... » .

وضحك الأشتر بعد هذا ، وقال :

« لنفسه نظر ! . . » .

ثم نثر على حد الأفق نظرات عينيه ، ترود الأرض ، وتود لو آنست من وراء هذا الفضاء حشدا يحرث الرمل بأقدامه ، وينشر الظلال فى منبسط النور ...

٢

الوقت يدنو من الضحوة . نسمة الصبح مسترخية ، فاترة الحركة ، قد مسها من الليل وسن لم تنفضه يقظة النهار . الأرض ندية بالطل ، قفر بلقع ملؤها نور ! — لا جنى فلا ظل . . إلى صخرة حتها الريح فوسمها بميسم الزمان ، أو كثيبا جمع حباته ثم نثر منها وفرق وأهال . أو رقائق من صلصال هى بقايا آنية عابر ، عاشت فى الحاضر ورحل دونها إلى الغابر ! . .

هذه وحدها هى الظلال الهامدة ، قد تناثرت على الأديم النقى فبدا بها

كإهاب حية ... أما غيرها من خطوط الظل ففيها حياة ، تسكن وتميل ، وتقصر وتطول إن تحركت أصولها ، أو أخذت الشمس سمتها إلى الزوال ... فيها أعين شفها الأرق ، فيها قلوب نهشها القلق ، فيها آذان تسمع الرعد فى همسة النسمة ، ودوى الصاعقة فى زحف الهواء ! ... فلئن باتوا ليلهم فى أمان فإنه أمن النائم على جرف السيل . ولئن أمهلتهم الآجال فما درأوا منايام بهذه الأسياف التى حملتها أكفهم طول الليل ... طالت الرقبة وما طلع معاوية . لم تظهر لهم أفراسه المسومة . ولا فرسانه المعلمة ، ولا عتاده وأجناده وقد حسبوها رحلة ساعة ثم يبدون قبل مطلع النهار . وها هنا أمامهم . على قيد النظرة حيال الربوة ، فرقة تربصت على حرد ، تحصي عليهم الأنفاس . فهل إلى لقاء ؟ ...

لا هو الخوف ، ولا هو الحتف ، ولا هو التردد يقعد بهم عن الصراع . فما بهم خور . ليس فى قلوبهم وهن . سيوفهم صليبة مسنونة لم يصبها ثلم ، وأجسادهم دارعة لبست الزرد والحديد ... لكنهم حيارى . هذا سيدهم لم يوافهم بجمعه . هذا معسكر عدوهم على أهبة . مشت فيه الحركة من بعد سكون ، وبرقت الأسنة منه فى ضوء الشمس تخايل عيونهم وتدفع بهم إلى الحذر واليقظة ... آن الخطر . نهضت المطى وركب الفرسان ...

كانت الربوة ملاذا حصينا يحمى ظهورهم أن تنالها نبال الأشتر ، تعد لهم فى الدفاع ما أرادوا الدفاع . وكان جمعهم كثرة ، وعدتهم وفرة . غير أنهم ما انسابت العاصفة من المعسكر المقابل إلى جنتهم حتى اضطربوا ساعة من زمان ركنوا بعدها إلى الارتداد ...

كرة أخرى ارتد صاحب معاوية وترك الميدان . جلا عن قنسرين ساعة الضحوة وتركها لغريمه . وما كان عليه لوثبت من جناح أن تتقطع وسائله ، أو تجندل فلوله وتلقى مصارعها أمام عزمة الأشتر على احتلاب النصر بأفدح ثمن وبأغلى قيمة . فمن عجب أن نظن أبا الأعور توقع الهزيعة فآثر السلامة ، والنصر حينذاك أدنى إلى عينه منه إلى كف خصمه ... فهل كان ارتداده — ولما يبذل الجهد كله فيما لاح — حكمة ؟ . . أخطة مدبرة وقصد مقدر ... أم الخشية وحدها أن يسحق العدو قواته قد جعلته يجنح إلى التراجع ؟

ليوشك المرء حين يتبع الرجل ، منذ خطر على أرض الحلبة إلى الآن ، أن يراه يخطو على نهج مرسوم ، لهدف علمه وكتمه . في سور الروم يتراءى نهارا لزياد وشريح ولا يبادرهما بعدوان ، حتى إذا أمدهما الإمام بالأشتر . تسربل بالليل ، فضرب ثم هرب . وفي قنسرين يلوذ بشرف من التلال يحميه ويجعل فرقه في مثل الحصن ، فلو شاء ثبت فدافع وكبد غريمه من الخسائر ما تنوء به العصبة أولو العزم . ولكنه ، كدأبه ، اضطرب ثم هرب ... فرار يتبعه فرار ، ولحاق يتبعه لحاق ، كأنه رام أن يشد إليه مقدمات الإمام ، يجرها من موقع لموقع ، ومن بلدة إلى بلدة عساه أن يشردها وينأى بها عن القوة الرئيسية لجيشها الغازي إلى أبعد مقام . وما أحسبه وصاحبه إلا اختطا هذه الخطة حتى تتوفر لصاحب الشام القدرة على مباغتة جيش أمير المؤمنين وهو أبتر بلا مقدمات تستطلع له ، وتصد عنه خطر الضربة المفاجئة . فإن أصاب غايته فقد رجحت كفة معاوية وشالت كفة علي في غمرة لأولهما فيها ميزة البدار للقتال ، وميزة المعرفة بطبيعة الأرض ، وميزة ولاء أهل الإقليم ... .

أما التراجع فقد أفلح ، وطوى قائده الفراسخ خارج البلدة ينأى منها عن سلاح أعدائه . وأما الموقع فسقط طعمة للأشتر غير منافس عليه ولا مغالب ، ينزل منه مكانا أفسح رحب السعة عند شاطئ الفرات . وأما المطاردة فكانت حلما سلخته الحقيقة وبددته كالدخان ... فلم يتعقب الأشتر فرار أبي الأعور ، ولم يطأ آثاره التي تركها على الرمل . إنما سكن من قنسرين بمنزل ذي جنى وظل عسكر فيه بفرقته ، يطلون منه على شريعة الماء ، ويصوغون حلقة في سلسلة المقدمات التي باتت اليوم منتشرة بشاطئ النهر ، من هذه البلدة ، إلى سور الروم ، إلى ما يواجه الرقة عند نهاية الجسر .

عن هذه الخاتمة انجلت الموقعة في قنسرين بين الأشتر وأبي الأعور ، أو انجلت في الحقيقة الحكمة المنشودة من وراء الارتداد ! . . انكشف عنها الغطاء فإذا هي ثمرة مريرة كريهة المذاق تلك التي غرس نواتها معاوية ، وتعهدها زمانا بسقياه ، ثم طعمها في نهاية المطاف حتف أنفه وكان يعدها وليمة لخصمه ! . . الآن له القفر ، وله الظمأ ، وله لفحة الهجير والرمضاء . السراب وحده ، والخراب.

وحده ! . . وحين يهل بخيله ورجله على المكان فلن يجد أمامه لهم مستقرا إلا أن يصفهم عند حافة البادية ، وعلى شفير الصحراء . .

ولم يكن ثمة أدنى ريبة فى أن أمير المؤمنين قد أقر قائده على موقعه ، ودعاه أن يستمسك به ، ويحرص عليه ، ويحتال لحفظه ما وسعه الحرص وأمكنته الحيل والقدرة . فهو ردء جيشه كله . وهو معبر إلى العراق تجيئه منه موارده وأمداده من عتاد وجند وميرة . وهو منزل سهل لين لا يشق على الناس ، وتخرج منه السبل وتنتهى إليه معبدة ممهدة إلى مدائن الشام .

وانحدر الإمام من جانب الفرات يزحف هونا إلى الغرب عساه يلتقى بأعدائه المصعدين صوبه من ناحية دمشق قبل أن يأخذوا مكانهم فى الميدان . لكن معاوية كان قد سبقه ، فمواطئ جيشه طوال الطريق هينة ، فلا ماء ولا صحراء . . . ونزل العامل المتمرد . ونزل الإمام على كثب منه ، وتوافف الجمعان يعدان ، لم يجنحا لعنف ، ولم يشهرا السيف . إنما شغلتهما الشواغل فترة من الزمن يعد هذا إعذاره ، ويعتسف ذاك تملاته ، قبل صف الرجال وبدء القتال .

فكأنى بابن هند ، وإنه حينذاك للجانب الأذل ، قد اضطرب وتينه واسترخى عرنينه ! . . نظر لنفسه فكان الوبال المآل . يكاد يستنشق الهزيمة من الريح وهى تقبل عليه ريانة بماء الفرات ! . . توشك أطماعه أن تضل فى تيه من القلق والوساوس كهذه البادية التى تهيأ إلى جواره لابتلاع مثله وهو مزق وفلول ! . . وعندما استقرت به نواه ، واحتواه فسطاطه مع الخلوة . كان جبينه قد عقدته الفكر ، وعينه قد أغمضها التصور ، وذهنه ينساح به فى عالم من الظنون والهواجس فسيح ...

غير أن الرجاء أملى له ، تلك الليلة التى لم يرقد خلالها جنبه ولم يغفل هدبه ... أم ينام على عواسج وأشواك وهذا على دونه قد احتاز الماء فغدا بمأمن لا ينوشه الخطر من ثناياه ؟ . . كلا بل سهر ، يصطلى الفكر ! . . وإن قدره الآن لجاثم بهذه الثنية من مياه النهر التى اتخذها الإمام معسكرا لجنده — الضفة ترسه ، والموج حرسه ! . . وإن عينه لتجوس فيها بلمح التصور فتراها كأنها السياج الدارع ، أدانيها الجسر قد أحال الشام عنده مرادا مباحا لأهل العراق ، وأقاصيها

موقع الأشتر فى قنسرين ، الذى اختلبه ظلفه ، وقبضته كفه . . . وفيما بين هذه وتلك كتائب كمثل الجلاميد ، يشدها الإيمان بما أقدمت له ، ويعصبها يقينها بأنها تدفع محنة توشك أن تنال وحدة الإسلام بالانقسام . . .

وأبحر الليل . ضرب سفينه فى لجة السحر ، إلى شاطىء الفجر . . كم من ليلة عاشها معاوية فى هذه الليلة ! . . كم من سنة . . كم من جيل ! . . لولا الصباح قد تسللت منه إشماعة إلى باب فسطاطه لحسبها ليلة بلا صباح ! . . ومع ذلك فالضياء الضئيل جاءه بالرجاء ، وراح يفىء عليه بعض السكينة . طابت الآن نفسه من بعد حيرة . هدأ جأشه من بعد قلق . قرت روحه وقد أحسها طوال أمسيته تنفلت منه فتشرد وتهيم . فإن هى إلا نفثة الشيطان فى أمنيته حتى استحضر جعبة حيله وأخاديعه ، كما يفعل ساحر ، فنثر منها وعجم ، وخبر واختبار ، ثم مضى راضيا لما انتواه .

وشهد النهار عند الثنية ، فيما يلى موقع مقدمة على ، إلى الشمال ، جمعا جما ، معهم الفؤوس والمكاتل ، قد انتحوا من البر ناحية لاحوا كأنما يختفون فيها عن الأعين ، وراحوا يحفرون الأرض ويخدون فيها الأخاديد . . أولئك لم يرهم من المسكر رقيب فيملك عليهم أيديهم . لكن الرصدة مشت ينبئهم فلقفه الناس بالعجب ، وتأولوه كل تأويل . .

وشهد النهار أيضا سهما مريشا ، أز فى الجو أزيزه ، ثم سقط فى المعسكر بين قوم من مقدمة الإمام . هنالك أخذوه وهم يحسبونه مؤذنهم ببدء القتال فإذا هو مؤذنهم ببدء التفرق ، وتمزق العزم ، وانفصام ما بين حلق هذه السلسلة التى كانت أمس السياج الحارس لجند أمير المؤمنين أن يناله مقتحم ، أو يثغره مهاجم . . .

وهمس رجل لجاره ، وعينه على السهم .

وأكبا معا يقرآن ما فيه :

« من عبد الله الناصح .

إنى أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات . .

فخذوا حذركم ! . . »

عندئذ بدت فى وجهه بهتة . أعدت الآخر ، فإذا هى بغتة ، ثم رهبة ، ثم حيرة وقلق ، ثم خوف وفرق . . .

ولغطت ألسن . ومالت شفاه على أسماع ...

وحينما ذاعت القصة ، وغدا المعسكر نخلية نحل ، كانت ملامح مغبرة ، وأوصال ميادة ، وأفئدة هواء ! . .

فأين هم من الإيمان وأهله ؟ . . أين صدقهم وصبرهم ، وحزمهم وقدرهم أولئك الذين فرقوا من رقعة ، فنشرتهم فزعة . وطوتهم فزعة ، ووثبت قلوبهم إلى الحلوق ؟ . .

لولا أن تنم عنهم مواضيهم المجيدة فترق بهم فوق الظن . لوسمهم الجبن ، ثم بقيت سمته على جباههم أبدا ذات أثر يلحق بهم إلى القبور ! . .

لكنهم ليسوا سواء . فيهم أشبال أصحاب بدر وأحد والخندق ، وأقران آساد الجمل والقادسية ، الذين يلقون الهول فيلين كحمل ، والموت فيهبهم الأجل إنما كان ذلك المعسكر خليطا من اليقين والشبهة . فيه طائفة صبرت فبرت ، وفيه طائفة خارت فبارت وإن بدا جمعهم كله ، حين المحنة ، على غير ماكان يجمل ، فسرى الخور فى نفوسهم ونخر . وهل كانوا إلا فرقة تسودها « نزعة الجماعة » التى طالما أتت ما يأباه الفرد ويترفع عنه لو ترك له الأمر ليصدر فيه عن هدى ضميره ووحى تفكيره ؟ . . بل هم أيضاً شراذم شتى لا يجمع بين ميولها تجانس ، من قبائل وبطون ، تباينت بهم منازل الولاء للإمام والوفاء لغاياته ، وتذاءبت أحلامهم بين عمى الجهل ، وحمق السذاجة ، وجلافة البداوة ، وبين إشراقة الفهم ، واستنارة البصيرة ، وحسن التقدير ...

ليس الموت ما يخافونه وقد حركوا نحوه مطاياهم ، بل الموتة التى صورها الوهم . فلغيرها تهيأوا ، يقدمون الصدور والنحور للأسنة ، ويستبقون للمصارع على قطر الدم . أما هذه فغيلة . إحناء الرقاب للذبح . ميتة السوائم ! . .

وسخر على وقد نبأه خبر الأخدود الذى يحول الفرات عن دراجه ، وقصة السهم ذى الرقعة . وبعث برسول :

« ويحكم ! . . إن الذى يعالج معاوية ، لا يستقيم له ، ولا يقوى عليه . . وإنما يريد أن يزيلكم عن مكانكم فالهوا عن ذلك ، ودعوه . . »

فكم منهم سمع ، وكم منهم وعى وهذه دقات الفئوس فى الأرض ينقلها

الوهم من بعد فتصم منهم الآذان ؟ . . وكم قد استطاعوا أن يتبينوا الصواب في الخطاب ، وما لهم من نظرة إلا تطوف حولهم قلقة ترود الأرجاء لتبحث فيها عن سيل الطوفان ؟ . . خرست الألسن عن كلمة الصبر ، وعميت الأعين عن الحقيقة ، وبات خفق القلوب نفثة ملهوف وشهقة مخوف :

« هم يحفرون ! . . هم يحفرون ! . . لنرتحلن ! . . هم يحفرون الساعة ! . . يحفرون . . يحفرون . . لنرتحلن ! . . والله لنرتحلن ! »

وبعث علي ثانية ، ينذر ويحذر :

« لاتغلبوني على رأيي ... »

فغلبوه ! . . بعضهم من خور ، وبعضهم من جهالة ، وبعضهم وهو مفلول الحيلة ، قد رحل مثلهم بعد أن أوهوا بيانه ، ولمظوا دعاءه إلى الصبر ، فهو غالب ومغلوب ! . .

٣

أفرخ الكيد ، وضحك الشيطان ، وأدل معاوية ما شاء له إدلاله بهذه الوسيلة من وسائل الخداع الذي لا يضيق عنه باعه ، ولا يقصر ذراعه ! . فقد خدت أخاديده في صف علي قبل خدها في جانب الفرات ، وأصاب سهمه منه ثغرة مفغورة نفذ فيها بسنه وسمه ! . . فإذا المقدمات الناوئة قد تراجعت عن شريعة النهر تخلي الأرض التي كانت لها ملاذا وجنة ، وللجيش كله ستارا حافظا ودرعا منيعة ...

ولم تردهم دعوة الإمام عما اعتزموه ، ولا حث بعضهم بعضهم أن يلتزموا الأمر ، ويدعوا الخور ، ويثبتوا على قدم إنما ملكتهم حينذاك جنة فمضوا لطيتهم ، على غير وعى ، يرتدون عن الماء إلى البلقع ، وعن الخضرة إلى القفر . وكانت خشية الغرق هي ما يملأ منهم الأذهان نفكرهم هباء ، ويأخذ عليهم الجنان فقلوبهم هواء يستبقون إلى الفرار حذر الموت كالسوائم ، زاغت الأبصار ، وانطمست الضمائر ، وبلغت القلوب الحناجر ! . . حتى هذه المسكة من الولاء التي

ربطتهم زمانا بابن عم الرسول ، وأوفت على الفداء ، انفصمت الآن عروتها ، ووهنت وحدتها فعاجوا عنها بالتمرد ، يعجلهم فرقهم إلى الخلاف ، ويدنو بهم من العصيان ... فلقد تهامسوا ، ثم هتفوا ، ثم صاحوا بغير تحرج ولا حياء ، وقد سرى إلى أسماعهم دعاؤه ونجواه :

« لترحلان ! . . لترحلان والله ! . . فإن شئت فأقم . وإن شئت فارتحل ! . . »

فإن هو إلا أن خلت مهم الشريعة حتى أسرع معاوية فاقتحمها بجنده ، معسكرا فيها بأرض يستطيع منها أن يقطع عن الإمام كل نجدة أو زاد قد تأتيه حين الحاجة من جانب العراق ، ويملك الضفة عليه أن يردها رائد من رجاله أو دوابه وقد باتوا الآن بنجوة عن الماء ، بمكان يابس عند صفين ، عزلتهم فيه عن الفرات هذه الجحافل الوفيرة من كتائب الشام ...

هكذا انقلب الميزان ، وتبادل الجيشان موقعا بموقع فساءت خيرة المخالفين ! . . لكأني بهم ، هذه الفرقة ، وقد ثابت إليهم الخواطر ، ووعت الألباب ، فرأوا ما عملوا حاضرا ، تأخذهم الرجفة أن عصوا أميرهم وتفرقوا عنه رأيا وكلمة ، كما اختلف على موسى بنو إسرائيل ! . . هم أمس أمروا أن يثبتوا على مقرهم — وفيه ظل ومنعة وأمن — فزايلوه . وأولئك قبلهم تمردوا على منزلهم — وفيه رغد وسلوى ومن — فأنكروه . كلاهما أعماه هواه فانحرف وتمرد وشق الطاعة . فكم اليوم من رجال الإمام من رحل بخياله فاستحضر بباله — هذه اللحظة المنكودة — كلمة الله التي سخر بها حينذاك من يهود :

« أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ . . اهبطوا مصرا ، فإن لكم فيها ما سألتم ! . . »

أولئك عصوا وسخرت السماء . وأولاء عصوا وسخر على ... ثم غضب وأنكر . ثم ثار وزأر . ثم صبر . فما له اليوم إلا الصبر على عصبة خالفوه حتى غدا بهم فى محنة ، تورث الهم ، وتأكل العزم ، وتكشف منه لأعين عدوه رمية لا تخطئها رمية ! . . كطغام إسرائيل قبلهم ضلوا . أمرهم « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم » فباتوا على ضيم ! . .

وينظر الإمام فإذا القوم على الأفق كالجراد ، يهطعون من هلع وهم يوشكون

أن يخشوا الظل الذى شيعهم ، والنقع الثائر فى أعقابهم من أثوابهم ، وحركة الظلف والخف ؛ وخفقة النسيم ! . . وأسى لهم . وأسى أيضا لهذه البقية من جيشه التى مستطعم الصاب الذى جناه التمرد . . . . الآن ينبو مقامه ، وتضطرب خطوطه وخططه ، ويرى الأمن فى التحول مليا عن مواقعه ليلاءم الصدع فى صفوفه الذى نعأ عن الانسحاب . . .

كم من الخواطر اليوم طاف بباله ، وهو محزون ، من وراء هذه الهزيمة التى أصابته ولا جراح ، وضربته بلا سلاح . . كم من هواجس وريب ، وكم من وساوس وظنون . . ليس هو الوهن الذى نال من خطوط قواته ما يثير شجنه ، ولا تقدم عدوه إلى الموقع ، ولا الخدعة الفاجرة ، بل التمرد الذى لطخت به نفوس فئة كان يظنها أسبق الناس إليه طاعة ، وأسمعهم له . وأسرعهم إلى الفداء فى سبيله . فمنذا يدريه أنه لن يتجدد فى كل صباح ، ويتكرر فى كل مساء ، وتتعاقب عليه أمثاله مع تعاقب الليل والنهار ؟ . .

ولكنه يرد نفسه أن تتطير ، أو تعبث بها الشكوك . فإن هم إلا أناس كأناس ، ونفوس كنفوس ، قد غلبهم حرصهم على الحياة إذ هى نفس يلقفه الصدر ويلقيه ، كما غلب إخوة لهم وأباء ولدات ، إذ هى مغنم ومطمع وأسلاب ... فلئن عقه اليوم صحبه فقد عق غيرهم قبلهم محمدا حتى انفرجت بهم عنه الصفوف المرصوصة ، فدانته الخيل . وطالته النبل ، وسال بدمه محياه ...

إن مشاهد الزمن تتكرر ، وتتواتر على اتفاق ، كأنها صورة تعددت حيالها مرايا الأيام !... محنة كمحنة ، ويوم كيوم ، وموطن كموطن تلك التى تطالع المرء من عهد محمد إن أرجع إليه البصر ، وحملته الذكرى فذكر .. فلولا أن ها هنا الماء والظل وهنالك الجدب والمحل ، وهنا الحاضر وثمة الغابر ، لكانتا محنة ومرآة ...

إذ ذاك مد الرسول عينه إلى الجموع الكثيفة التى أتت لتثأر ... لقد قهرها بظلها منذ عام ، وأنزل بها على ماء بدر نكبة قاصمة صدقت بها رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب ، فإذا السادة من قريش يتقصفون كالقصب الجاف . وإذا بيوت مكة مزار للموت ، لم يدع منها بيتا إلا اقتنص من شبابه أو من شيبه . وإذا العزة لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين ...

وبهت الشرك الذى كان مستعزا بنفره . وراح من بعد يلعق جراحه ، ويكتم أساه ... إن يكن يستعيد الفجيعة فلتحفزه على التأهب للانتقام . وها قد مضى على بدر الحول ، وأملى الزمان لقريش وأفسح . فأعدت ، وشحذت ، وصقلت الأسياف . ثم أجلبت بقضها على محمد ، عند أحد ، فيها المقاتلة ، وفيها النساء ، وفيها القيان . وما من فرد فى جموعها إلا أقبل وهو يرجو أن يعينها « هبل » على الله ! . .

وإذ تراءى الجمع ، خرج الرسول فى رجاله فخط لهم موقعهم ، وصف منهم خمسين على الجبل من ورائهم ، بأيديهم الأقواس ، ليحموا ظهورهم أن يأتيها عدوهم بغتة ، فتذهب ريح الإسلام :

« قوموا على مصافكم هذه . انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا . فإن رأيتمونا قد غنمنا ، فلا تشركونا ... وإن رأيتمونا قد تخطفنا الطير ، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم ... وإن رأيتمونا هزمنا القوم ، وظهرنا عليهم ، وأوطأناهم ، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » .

فخالفوه ! . . خلفوا الجبل — أولئك الرماة — حين لاحت لهم بارقة ظفر ورأوا قريشا تهجر الميدان خوف المنية ... وما لهم يثبتون ، وقد تعاورت عدوهم حراب محمد وأصحابه فأثخنت فيهم ، وفرت ، وصرعت ، حتى ذهل أهل الشرك عن نفوسهم فتخطفهم الخوف ، كما يتخطف الطير الجيفة ! . . الآن أسفر النصر . الآن بانت الهزيمة . الآن تلمع الغنيمة على أرض الوقعة تدعو من طلبها : « هيت لك ! » فهى حرم مباح ! .

وليوا العرض ! . . نسوا فى هذه اللحظة ما أمرهم به الرسول فزايلوا الجبل ، يندفعون إلى السبى والأسلاب كالذئاب المنهومة ! . . ولكنها نشوة عمرها قصير ، وفرحة ما برقت فى أخيلتهم حتى خمد وهجها فلتهم الخيل من المكان الذى زايلوه ، وطالتهم النبل ، واضطرب عسكر المسلمين كله وحصدته أسنة العدو حتى ظن أن محمدا مات ...

وصاح حيذاك أنس بن مالك لمن هدهم نبأ مقتل النبى فأذهلهم عن البأس وأوطأهم اليأس :

« مات ؟ . . فما تصنعون بالحياة بعده ؟ . . انهضوا فموتوا على ما مات عليه ! . . »

محنة أطلعت خطمها ، وحركت زبانياها تضرب بهما فى يمين وشمال بين أهل الإيمان حتى طحنت بينهم خلاصة فرسانه ... كفى بها من محنة أن أكلت حمزة بن عبد المطلب ، وطرحت به فى يدى هند فريسة هامدة ، لا تستطيع دفعا فنهشتها المرأة ، ولاكت منها ، واتخذت بعض مزقها قلادة ! . . وحين ارتوى زوجها من شماتة ، وطابت نفسه بالمصيبة ، وقف تهزه عاطفته المجنونة فيهتف وهو نشوان :

« أنعمت فعال ! يوم بيوم بدر ... اعل هبل ! . . اعل هبل ! . . »

ولم يعل هبل ! . . وما كان ، فالله أعلى وأقدر . .

ولم يمت محمد . وما كان ، فقد استأخره ربه لساعة نصر تأتى إليه بهند ، وبأبى سفيان ، وبالملأ كله من أهل الشرك قمأة صاغرين ...

ولم تضق أيضا نفسه الكريمة عن الصفح عمن أوقفه نهمهم ، واختلافهم على أمره ، هذا الموقف الضنك ، بهذا الموطن ، فى هذا اليوم الذى دمى فيه قلب الإسلام وتفجر الحزن من جراحه كالينابيع ... إنما صفا لهم . مسح غضبه عليهم حين مسح دماءه عن محياه . فالنصر قدر . والفشل قدر . ولن يخزى الله حزبه وإن بهت — حينا — الأمل ، وإن شمت ذو غل ، وإن امتدت الرقبة وطال الأجل ...

***

وصفح على الليلة كصفح هاديه . لم يضق قلبه عن الصبر ، ولا عن الأمل ، ولا عن المغفرة .. فإن هى إلا نار مطهرة — هذه المحنة — تخلص فيها نفوس قومه من شوائبها ثم ترتد مجلوة . فالذى اكتنفه الظلام يهفو للنور . والذى شرد به القفر يحن للظل . وإن ربه لمجنب رجاله العثرة من بعد ، ومسدد خطوهم إلى رشاد ، وجامع قلوبهم على تعزيزه فهم بقية الخير ...

وعندما وعت عيناه كتائب مقدماته ، والتأمها وجيشه المنزل الجديد ، لم يكن انسحابهم ما يهيج خشيته ، ويدفع به إلى الجزع ... إنما يحز فى فؤاده اللحظة

أن تتسع الهوة بينه وبين صاحب الشام سعة تنذر ولا تبشر . فليس معاوية بصغ إليه ، ولا حائدا عن مجافاته ، ولا خافضا جناحه لدعوة السلام وهذه أزمة الأمر كله فى عينه ، لو شاء غدر أو شاء صبر ... باتت الحرب وحدها هى المركب — القتال ، دون الحسنى ، وسيلة الوحدة المنشودة ...

وابتسم حينذاك صاحب الشام ...

ساعة كساعة . وموطن كموطن . وصل كأفعوان ...

« هذا والله أول الظفر ! » ...

وفرك كفيه من غرور ... وانتفخ نحره ولمعت عيناه ...

إن مشاهد الزمن تتكرر ، وتتواتر على اتفاق كأنها صورة تعددت حيالها مرايا الأيام ! . . كأبيه قبله عند أحد ، وقف الابن مستمرا بصلفه ، وبثمرة خدعة ، وبنصر ساعة أورثته إياه فرقة قوم على وليهم واختلافهم من جهالة وغفلة . . على الماء وقف ، ذلك اليوم ، يتجبر ويعلو ويتيه ، كأن هذه القناة الجارية قناة مسنونة صلبة فى ذؤابتها القضاء والفناء ، ركزها رهبة ، وهزها غلبة ! . . ثم مضى وما بدأه من الوعيد :

« يا أهل الشام ! ... لا سقانى الله ولا سقى أبا سفيان إن شربوا منه أبدا ، حتى يقتلوا بجمعهم عليه ! » ...

٤

التيه والصلف والزهو عاشوا ليلة فى خبائه ! . . كانوا ضيفانه لم يكونوا أعوانه . ولم يكونوا كذلك مواليه ... وعندما أشرق النهار ، وملأ ضوءه الأفق ، وابتردت الشمس فى الفرات ساعة الغروب ، كان رحيلها مؤذنا بأفول كبريائه ! ...

لم يعمر الظفر ... فى البدء ظنه حليفه . توأم خطاه . مطية له إلى غاياته فوطىء به ظمأ خصمه ، وعتا عتوا كبيرا كأنما الأقدار فى عينه ، والأعمار ، وهذه الأهداف التى غالبوا عليها الحياة والموت ... فح كالأفعوان ، وصلب كالرمح ، واستطار أشرا فى سماء زهوه كالعقاب ! . . لم يرده عن التجبر أن

السلم لم تكن تقطعت بها الأسباب . وأن الحرب لم ينشق عنها الحجاب ... لم يلوه عن عناده واعتداده أن الإمام لم يبدأه بعدوان ، ووراثه غاية الريث عسى أن يتذكر ويدع لدده فتتحد الكلمة بين شطرى الأمة ، وتبعد المحنة عن الإسلام ... لم يكفه أنه مدغل مبطل ، جانح لإثم ، متجانف لمعصية يسوقه إليها هواه ... لم يرع الله !

حتى الذين جاوروه وناصروه ، بنوا حينذاك باستكباره . فني التراب أحيانا تبر ، ومن الوحل قد ينمو خير ! . . أقرت له طائفة بظلمه وأنكرت طائفة . هلل فريق وأسف فريق . وحينما حلت له الشماتة ، وراح غروره يحرك لسانه : « هذا والله أول الظفر » ... انبرى له من رجاله من يجيبه :

« هذا والله أول الجور ! . . » .

فعجب له ... لكن هذا العاتب عليه كان زاهدا تيمه بجهالة لم يتبعه طامعا فى دنياه ، ولم يسر مسيره فى صفوفه وهو يرنو لعرض ، أو يطمح إلى جاه ...

ثم زاد دهشة . ثم غضب . ثم هزت الجرأة كيانه والرجل يمضى غير آبه فى عتابه أو فى عابه :

« يامعاوية . . سبحان الله .. الآن سبقتم القوم إلى الفرات تمنعونهم عنه ؟ . . تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ؟ . . أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه ! . . »

فبهت العاهل المفتون من خزى . فلما ثاب ، ووسعه أن يستجمع نثار عنته ، ثار ، وسارع يردع الرجل ، ويكبت إنكاره أن يذيع فى الناس :

« اكفنى نفسك . ما أنت عندى بذى رأى ! . . »

لكنه أخطأ الرمية ... فلقد راجعه الناسك كرة أخرى بالعيب واللوم ، وراح يقذف إليه بحممه :

« هذا والله أول الجور ! . . لقد شجعت الجبان ، وبصرت المرتاب ، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك »

وصدق . كأنما ستر الغيب — هذه اللحظة — قد انزاح عن مكنونه فبلغ برمق عينيه خفاياه ! . .

كان هو على شبهة من الأمر الذى جاء فيه ، فأبصر ، وولى ببقية دينه يفر

إلى المعسكر الآخر ، لينضح هناك عن حق الإمام ، ويضرب باطل عدوه بملء عينه ، وبكل إيمانه ...

وكان الحذر بالأمس فى صفوف مقدمة الأشتر هو علم الفئة التى آثرت الانسحاب . فلما اجتنبت الغرق الموهوم إلى صدى محتوم ، تلاومت ، وثابت ، واستردت العزيمة .

وكانت طائفة من الناس معتزلة ، تشهد الخلاف الناشب بين الجمعين وهى تأمل أن يرأب الله بها الصدع حين تمكنها فرصة وإن احتشدت الجيوش وشرعت الرماح ونزعت لنجاز ... فجاء عنت معاوية ، وعتوه ، وعدوانه الجديد بغير ذريعة للعدوان ، يفتح لها ثغرة للنيل منه ، والانحراف عنه ، والإعجال إلى مجافاته ...

حتى ابن العاص لم يرتض الغدر من وليه ، ولم ير فيه وسيلة إلى انتصاره . فلما عرف منه العزم على حرمان خصمه الماء ولما تنتشب حرب ، راح يعظه أن يدع غروره ، ويخلى بين عدوه وبين الشريعة بغير جور ولا تحيف ، يردون ويصدرون ما طاب ورد وصدر :

« خل بينهم وبين الماء ، فإن عليا لم يكن ليظمأ وأنت ريان — وفى يده أعنة الخيل — وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت ... »

فنفخ الماهل وزفر :

« ألا تدعنى ، أبا عبد الله ؟ . . »

« إنك تعلم أنه الشجاع المطرق ، ومعه أهل العراق وأهل الحجاز ... ولقد سمعته ، أنا وأنت ، وهو يقول : لو استمكنت من أربعين رجلا » .

أجل قد قال :

معاوية يذكر ، وابن العاص ، وفئة أخرى ممن شهدوا ذلك اليوم ، الغائب فى الغابر ، الماثل الآن بذكراه المفجعة فى الحاضر ، كيف كانت ثورة الغضب ونار الحزن تلتهبان على وجه على ، وتأكلان منه حلمه وصبره ... حينذاك لم يكن للحلم موضع بصدره ، ولا للأناة عليه سلطان . كالليث إذ يداس عرينه ويغشى على ذماره المسكين ثعلب ؟ ... فقد غمطوه . أنكروا عليه حقه وقدره

وصهره . تواثبوا فى جموعهم ، وهو معتزل ، يعصفون بداره ، ويقصفونها . ويبثون حولها النار ...

ذلك يوم خالد فى الزمان بغله وضغنه ، بحيفه وجوره ، بحسده وشنآنه ، ترب الطلعة مغبر الجبين . . . ماكان عمرو لينساه ، أو معاوية ، أو هذه البقية التى بقيت اليوم من قريش ، ثم من بنى عبد مناف . ثم من بنى هاشم الذين سلبوا حقهم فى تراث الرسول ، وود حقد قومهم لو تخطفتهم المصارع ، ووطئتهم الأقدام وهم نثائر وأشلاء ! . . من خلال كل هذه السنين السوالف تشق أحداثه أطباق الزمن إلى الخواطر ، كالقبس فى الظلمة . كألسنة النار التى أوشكت أن تندلع حول البيت تهم بحصده وتدميره . كالصرخة المدوية التى أطلقتها حينذاك فاطمة تجأر فيها بشكواها إلى رسول الله ! ...

ولم يكن محمد ، وهم يعدون هذه العدوة على دار زهرائه ، قد عزب ذكره من الأذهان . قبره ندى بدمعهم .. جسمه رطيب كأنما لم تفارقه كل الحياة ... شبحه حاضر يملأ عليهم الفضاء ، كالشذى العاطر ، يغيب الطيب وهو ماثل لا يغيب ! . . ومع ذلك فلم يكادوا يشيعونه إلى الجدث ، حتى استرقهم مس ، وملكهم هوس ، فانطلقوا إلى دار ابنته كمردة الشياطين ! . . . معهم الشعل . فى أيديهم الحطب والحراب . ظلالهم دمار ونار . . .

الموجدة على على ، والحسد لقدره ، والخشية أن يفسد اعتزاله هذه البيعة التى أدلوا بها إلى أبى بكر بغرة من آل بيت الرسول ، قد حركتهم جميعاً على حرد نهاية المطاف فيه احتلاب صفى محمد تراث ابن عمه ، وإخراج الأمر من عينه فلا تجتمع الرسالة والخلافة فى هذه الدار من هاشم ، التى نبت قريش كلها بشرفها ، وسؤددها ، وعزها إبان حقبة الجاهلية وبعد مولد الإسلام . . . كرهوا لها أن تطولهم بالأمرة بعد سموها بالنبوة ، وأن يقوم منها سيد بعد موت سيد . وأن يستأثر رجالها بالحكم ، ويستأسروا بأقدارهم ومزاياهم هذه الجزيرة الفسيحة التى تعج بالقبائل كأنما عقمت عن إنجاب أمثالهم سائر البطون ! . .

وعلى ضياء شعلة مما طوق الدار ، ولون الأفق ، وأشاع فى الجوحره ، لاح عمر وقد تغير وجهه بحنقه ، وتبلل بعرقه . وتخلل الدخان لحيته ، ولمع حسامه فى عينه كجذوة النار . . . إنه أحمس شديد فى دينه ، أحمس شديد فى عدله ،

ولكنه اللحظة أحمس شديد فى عنفه واندفاعه وهو يؤم الباب ... إنه ليثير الجمهور ويهيج الفتنة ، ويهيئ الحطب ليؤرث الحريق . . .

واستأسد وتنمر . وتصايح وزأر . ثم اندفع من خلال الجموع كالشرر ، يدق البيت على ساكنيه . . . ليس هذا بعمر ! . . ما هو بابن الخطاب ! . . الذى جرى بقدميه إعصار . . . الذى انفجر بصدره بركان . . . الذى استوى على لبه مارد ! . . . إنه الآن مخمور الأمس ، عاد سيرته الأولى كحاله من بضع سنين ، حين أعماه شركه ، وأضله هواه ، وختله عن الهدى غروره فسل حسامه وانطلق على درب مكة ينشد النبي ، ولسانه إذ ذاك يجرى بكفره وخمره :

« لأقتلن محمدا بسيفى هذا ! — هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش ، وعاب دينها ، وسفه أحلامها ، وشتت مجالسها وضيع بهارجها ! . . . »

واليوم أيضا ختله اندفاعه ، وبقية بنفسه لا تزال راسبة من حسد الجدود وبغضاء الأجيال ... هوى كهوى يعضى به ، ويحيد بخطوه الثابت ، فيغدو ويروح على لهيب المشاعل ، يوسوس لنفسه ، ويهتف بالعصبة التى تؤازره على هجم الدار :

« والذى نفس عمر بيده ، ليخرجن أو لأحرقنها على من فيها ! » . .

قالت له طائفة خافت الله ، ورعت الرسول فى عقبه :

« يا أبا حفص ، إن فيها فاطمة . . . »

فصاح لا يبالى :

« وإن ! . . »

واقترب . وقرع الباب . ثم ضربه واقتحمه . . .

وبدا له على ...

ورن حينذاك صوت الزهراء عند مدخل الدار ..

فإن هى إلا رنة استغاثة أطلقتها « يا أبت رسول الله .. » تستعدى بها الراقد بقربها فى رضوان ربه على عسف صاحبه ، حتى تبدل العاتى المدل غير إهابه ، فتبدد على الأثر جبروته ، وذاب عنفه وعنفوانه ، وود من خزى لو يخر صعقا تبتلعه مواطئ قدميه قبل ارتداد هدبه إليه ...

وعندما نكص الجمع ، وراح يفركنوافر الظباء المفزوعة أمام صيحة الزهراء ، كان على يقلب عينيه من حسرة وقد غاض حلمه ، وثقل همه ، وتقبضت أصابع

يمينه على مقبض سيفه تهم من غيظه أن تغوص فيه ... أكذلك ينتهبون حقه ، وتراث هاديه ، ثم يلوون على انتهاب عمره وعمر أهله : البقية الباقية للرسول؟.. أكذلك الهوى يضل ؟ ... الآن ظهيره قل يستبيحون منه ما لا يباح لحرمه لهم حل ، وأمنه عليه حرام ! . .

ومد طرفه نحو قبر محمد يناجيه :

« يا ابن أم ... إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ... »

وتقلصت شفتاه . وعضت راحته كرة أخرى على حسامه من أسى وحنق وحسرة ... ثم أغضت عينه ...

لا حيلة ! . .

فاته الزمن ...

بيت القوم أمرهم بليل ... هذه الفروع والأصول فى الجزيرة أزهر اليوم نجمها فغدت عد الأعناق مستطيلة تختال . أصابت ثأرها . بلغت وطرها من هاشم . فضلته بعد كل هذه الأعصر الطويلة ! . .

الآن عزت قريش . علت تيم بابن أبى قحافة وقد انتهت إليه الخلافة . زهت عدى بابن الخطاب إذ هو صاحب المشورة والوزارة فى الدولة الجديدة . طابت نفسا زهرة وأمثالها من البطون والأبيات وقد نالت جميعها مبتغاها من هذه الدار التى سمت عليها فى الغابر حتى أمس بالشرف والمجد والمكارم إلى ذروة كانت عزيزة عن تطلع العيون ، وتصور الأخيلة ، وشطحة الأحلام والظنون ! . .

كلهم عقدوا النية ، وتناصرت حفائظهم القديمة على على فنازعوه سلطان رسول الله حتى انتزعوه وهو حينذاك فى غفلة من الأمر ، مشغول عنهم ، وعن تدبيرهم وتآمرهم ، بالجثمان الطاهر المسجى يجهزه ليرحل الرحلة الأخيرة ! . .

مضى محمد لغير أوبة . فرغت الدنيا من نوره . غاب فى قبره وغاب معه ولاء طالما تسابقوا به يولونه آل بيته ، قربانا وزلفى وفريضة ... وعندما انجاب ظلهم عن باب فاطمة ، وانقشع جمعهم العادى ، وخلصت ساحة الدار من مواجدهم وحسدهم إلى حين ، تلفت على يرود ببصره المكان ، ينشد العون ، ويبحث عن النصير ...

وكن يعصر الماء من صخرة ، ومن يطلب الجنى من سراب ، ومن يحاول ملء راحتيه بالريح ؟ همس فى حسرة وقد ارتد بصره إليه وهو حسير :

« لو استمكنت من أربعين رجلا ! . . . »

عمرو يذكر . . . ومعاوية . فما كان له من سبيل إلى النسيان وأبوه قد تصدى إذ ذاك يعرض العون على آل بيت رسول الله ، ويعنيهم النصرة لو أطاعوه فأثاروها فتنة على الصديق ، تشرد به ، وتنزل العزيز من عليائه ! . . ومع ذلك فالابن اليوم لا يجرى على سنن أبيه . أحلامه ترده وتقصيه . تحضه أن يشاق . تهم به تراوده وتغويه . .

ومال بجيده عن صاحبه ، وعن الذكرى ، وعن مياه الشريعة وقد وقفت دونها شراذم رجاله تمنع روايا الإمام أن تبلغها أو تبل بقطرها الأوام . ولقد أوشك الناس أن يقتتلوا عليها . بل تسرع فوارس من فوارس على صوبها إلى ناحية معسكر معاوية فوزعهم أمير المؤمنين عن القتال حتى يأخذ عدوه مصافه ، فيصاحبه بالحسنى ، ويعذر إليه . .

لكن معاوية لم تكبحه هذه الأريحية النادرة من غريم ، فمضى وما اعتزم من عدوانه . . إن حوله الآن جمعا من آله لهم ترات تحرك فيهم مكامن الضغينة ، راحوا كالأبالسة ، ينفثون فى روعه وينفخون فى غروره ؛ وكالسياج ، يضربون أكنة على فؤاده فلا يرى الرشاد . . إن جراح أسلافه نكأتها أطماعه فسال قيحها ودمها وعفنها تلبس الهدى بالضلالة . إنه مفتون . البأس والظفر والغلبة الآن أعلامه ! . . الظمأ والصدى من جنوده ! . . بيده الآجال . وإليه المآل !

وعندما أتاه حارس من رجاله يعلن قدوم وافد ، تلفت اختيالا وكبرا ، ثم عقص قرنه ، وألقى بنظرة متفضلة على مدخل الخباء . .

وقال له صعصعة بن صوحان دون أن يستقر به المجلس :

« يا معاوية . . إن أمير المؤمنين يقول لك » .

فسأله بغير اكتراث :

« رسول ؟ . . »

« نعم . . . إنا سرنا مسيرنا هذا وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم . فقاتلتنا قبل أن نقاتلك ، ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك . . وهذه أخرى قد فعلتموها : حلتم بين الناس وبين الماء . . فخل يا معاوية بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ، وفيما قدمنا له وقدمتم . . »

قد المتجبر طرفا ساخرا يقتحم الوافد ، ثم يميل عنه إلى من حصره من شياطينه وفيه من الشماتة شعاع . .

وأكمل الرسول فى طمأنينة ونبرات صوته الهادئة تتنغم برنة وعيد :

« . . إن كان أحب إليك أن تدع ما جئنا له ، وندع الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب ، فعلنا ! . . » .

وصمت برهة يذرع الجمع بنظره ، ويلم فى نهاية طوافه بسيدهم الذى ناشه الفكر وعقد ما بين حاجبيه . . . ثم عاد يسأل :

« ما ترد على ؟ . . »

قال معاوية وبصره على أعوانه :

« ما ترون ؟ . . »

فتحدثت الأحقاد ! . .

انفلت منهم الوليد بن عقبة ، يعصف :

« امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان : حصروه أربعين يوما ، يمنعونه برد الماء ولين الطعام . . اقتلهم عطشا ! . . »

ـ فجهد عمرو ليتقى مغبة الدفعة ، ومضى يراجع بنصحه :

« بل خل بينهم وبين الماء ، فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ، ولكن لغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم . . »

وثار يزيد بن أسد القسرى :

« كلا والله ! . . لنقتلنهم عطشا كما قتلوا أمير المؤمنين . . »

وهاج الوليد ثانية :

« اقتلهم عطشا ، قتلهم الله ! . . »

وقفى ابن أبى سرح على آثاره ، وهو يحاول أن يبدو من خلال حقده فى ثياب القائد الماهر الذى يهدف للغلبة :

« امنعهم الماء إلى الليل ، فإنهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ، وكان رجوعهم هزيمتهم . . امنعهم الماء ، منعهم الله يوم القيامة ! . . »

عندئذ نبا بصعصعة حلمه ، ولم يطق صبرا على سفههم فهتف بلا مبالاة :

«إنما يغنمه الله يوم القيامة الكفرة ، الفجرة ، شربة الخمر ضربك وضرب هذا الفاسق ! . . »

ثم نهض يحدث أميرهم :

« ما ترد على ؟ . . »

« سيأتيكم رأيي . . . »

وقد أتاهم ، ولما يبلغ الرسول مأمنه . . .

دعا إليه أبا الأعور فأمره :

« ياسفيان . . . امنعهم الماء ! . . . »

٥

الشريعة حرم . نأت الآن عن اللسان اللاهث ، وعن الحلق الجاف ، وعن الشفاه التي شققتها حرق الأجواف . . . لا واردة . لا راوية . لاشربة ولا زاد ماء . . . الآن لا يتربص الرجل للرجل من خصومه ، ولا الفارس للفارس تربص الأمس الذى أملته حينذاك الخصومة أو نوازع اللدد والسخيمة . بل تجيش الجمع . اعتد وتأهب كما تحتم طبيعة الصراع . . . هذه عدة وعدد وعتاد . جنود على تعبية . أداة حرب على أهبة وحرب على الباب ! . .

استوت الصفوف . شرعت الأسنة . جرت الرصدة خفية تشم الأنباء ... على طول المجرى انتثرت قوات الشام فى نظام . فيهم الراجل والفارس . عليهم الدرق والدروع . بأيديهم السيوف والنبل كأنهم سور من السلاح واليقظة دون اقتحامه . المنايا الحاصدة ، والموت القاصف ، والجراح والدم ...

وعلى كثب منهم فى الجانب الآخر يجثم الصدى والهم . واللوم والحسرة . والمنى القعيدة التي تمد عينها إلى سراب ! . . الدواب تلهث . والأناسى تشرق بقية الريق . رغاء كبكاء وصهيل كعويل . ورنين كأنين ... كلما مضت بالإمام بينهم قدم سمع الزفرة فى النبرة . وجرس الندم فى آهة الألم ... من ديار مذحج . من منازل كندة . من ألوية الأنصار ، ورايات الأزد ، وخيام بجيلة

كلهم أسيف مغموم . الرثاء خفقه القلب . والدمع طرفة العين . والأسى والحسرة اختلاجة اللسان . . . ففيم مكثهم هنا على الرمل الجاف يمتص جلودهم بقية مياه الحياة ويعتصرها قطرة قطرة ، ثم يدعهم لقى ضائما تنتهبه السباع والعقبان ؟ . .

لموتة على الضفة هناك ، عند حد الأفق ، يبلها الدم أشرف وخير ... إن يكن الصدى يخفهم ، ويشف منهم الحلوق والألسن ، وينهش أجوافهم بحرقة . فالقنا الآن فى أكفهم ظماء ! . . إنهم ليرجون مناجزة . يحنون إلى قتال . يشتفون لو انطلقت بهم إلى الغاية القدم والظلف والحافر تحمل النصال الحديدة ، والعزائم الصلبية الشديدة إلى هذا السور الذى حمى الفرات دونهم كالحرم ، تنال منه ، وتثغر فيه ، وتخط على جدرانه الحية — بأحرف حمراء — عقبي أخدوعة ! . .

ورن فى الفضاء ، تحت هدأة الليل الساكن صوت وجيعة ولوم ودعوة :

« فما بالنا أمس أسد العرين   وما بالنا اليوم شاء النجف ! . . »

من ديار مذحج انطلق النداء . من قوم الأشتر . من بين الفئة الذين عاج صاحبهم بالارتداد عن مواقع الماء إلى القفر حين تبين الخور فى جنوده يذهب اللب ، ويأة كل القلب ، ويهد عزيمة الأبى الصابر ... فكيف اليوم أمنهم ؟ . . كيف هجرة لم كانت فى الله ؟ . .

وهمس الإمام ، مع رجمة الصدى الحزينة ، بسمع رفيقه :

« ألم تغلبنى على رأيى ، أنت والأشعث ؟ . فدونكما ! . . »

فارتج الأشتر ...

ولو كان يسعه الفرار من هذه الملامة الساخرة ، كما وسعه أمس التقهقر ، لبذل من عمره سلخة ليهرب من النبرة الزارية ... ولكنه يصبر على هذا اللوم ، ويثبت له ، ثم يغضى الجبين وهو يقبل على نفسه يحاسبها وإنه لخزيان . . فلقد غلبه . بلى غلبه وهو حينذاك مغلوب على ركوب ما يكره ، ويكره الإمام منه ... غير أنه لم يتمرد . حاشاه ! ما كان ليعصى أمير المؤمنين فى أمر أمره وإن علم الطاعة ستقتضيه أجله وتبتزه الحياة . إنما هذه الظروف التى ألمت به ، قد جرت بخطوه ، على غير رغبة منه ، وفى حين غفلة ، إلى وجهة ظن فيها السلامة ...

كان قد حاز نصرا مرموقا فى حساب الاعتبار الحربى وطهر الأرض أمام القوة الرئيسية لجيش الإمام عندما دق شراذم أبى الأعور السلمى ودفع بها مهرولة إلى ما وراء قنسرين ، لكن الفتنة لم تطعمه ثمرة نصره ، ولم تمل له فى البقاء بالموقع الجديد إلا زهاء ليلة طلع صبحها ومعاوية يدب فى فيالقه على الطريق . فعندئذ لزمه التدبر ، وغدا حقا عليه أن يستحضر فى تقديره طاقة جنده وجهده . . إن هو بقى حيث أقام ثم ثار به خور أصحابه تقسمه وإياهم الآلاف ، وشردت بهم أجمعين مخاوفهم الموهومة . وإن هو ظهر على تخاذلهم . فصبر وثبتوا معه بعزمهم وقعوا إذن بين مثل الرحى الطاحنة من جحافل الشام : مقدمتهم التى تراجعت أمس فرارة ، وحشودهم المقبلة اليوم تزحف نحوها زحفها السريع . فلقد سبق معاوية جيش الإمام عند صفين ، ونزل منزلا وسطا بينه وبين الأشتر ، يشطرهما ويبتر المقدمة الظافرة عن جيشها المتخلف حتى لتوشك أن تغدو بمعزل هى فيه فريسة مفلولة الحيلة ، مغلولة الوسيلة ، حيال جمعه الوفير ذى الحول التام على المصف بكل دفاع ، والبدء بأى هجوم .

هذا الوضع الذى أصبحت فيه فرقة الأشتر هو الذى أملى على قائدها حركة التقهقر على غير رغبة الإمام . ومع ذلك فلم تكن بالحركة اللازمة التى لا حيلة دونها لمحتال ، ولا محيص عنها فى ضرورات فن القتال غيرها كفيل بالغلبة . ونهجها سرف من الأشتر فى التطير والحذر ، وفى التماس مسارب الفرار والنجاة حينما يجدر الصبر الضمين بالظفر . ولئن كانت الظواهر البادية حتمتها مرة ، فحكمة الحرب حرية بأن تنكرها مرات . فالموقع المهجور جدار يحتمى به الجيش ويمنعه أن يلتف حوله عدوه من سبيل مأمن . وهو مشرب الجند والدواب . وهو معبر الزاد والمدد والعتاد . وهو منفذ الرجعة . وهو بعد هذا كله شق رحى يرهب هذه الفيالق الكثيفة العادية ، التى قدر عليها أن يسلمها زحفها السريع إلى الوقوع فيها يشبه الكمين ، بين معسكر الإمام عند صفين ، وبين الشقة الممتدة إلى الشمال من الرقة ، إلى سور الروم ، إلى قنسرين التى سيطرت عليها المقدمات المنصورة . . .

كانت خطة لاشك مكفولة لها عناصر النجاح لو أحسن العمل على نسقها ،

واستمسك الأشتر وأصحابه بالتزامها ، والصبر جهدهم على بلوغ حدها المقدر وما نبيح هنا الادعاء بأنها اختطت من قبل أو رسمها على قبيل مخرجه أو إبان مسيره إلى الشام قبل نزوله منزله المعلوم . ولكنها انبثقت له ، فيما يبدو ، عندما قر به وبغريه القرار . وهى تنم عن بديهة فيه لماحة ، وتبصر بالأمور غير منكور ، تراه من خلالها على خير ما يجب أن يكون قائد ماهر ، ومحارب قادر مداور ، يستطيع أن يفيد من جماع الظروف والغير والمفاجآت التى تجد — دون توقع — على حلبة القتال . . . فلقد كانت مجموعة جيوشه ، قبل الانسحاب ، تستند بظهرها إلى الفرات ، وتؤلف فى انتشارها من معبر الرقة مثل القوس ، طرفها البعيد فى قنسرين ، وطرفها القريب عند صفين . وكانت فيالق معاوية المبتورة المقدمات ، فى موقع وسط ببطن القوس ، محفوفة بالعدو من جهاتها الثلاث . حتى لترسم حولها حشود العراق والحجاز مثل منجل الحصاد . . . من الشرق والشمال والجنوب حصرها على وأغلق عليها المسالك . لامنفذ لها إلى النهر ، إلا أن تقتحم دونه الشقة على كتائب زياد وشريح ، المنبثة على طول مجراه ، والمتخذة لها قاعدة حربية فى سور الروم . ولامهرب لها صوب حلب ، إن أرادت الاتصال فى مشارفها بفرقة أبى الأعور المبتورة ، لأن الأشتر كان يسيطر على منفذ المدينة . وحتى إذا وسعها التسلل إلى شريعة الماء شرق صفين من الفضاء الواقع بين معسكر على ومراكز مقدماته ، فسوف تجابه حينذاك فرقا أخرى من كتائب الإمام ، قد خلفها حلفه على أهبة ، عند المعبر ، لتؤمن خطوطه ، وتكون ردءا يدفع عنه أيما هجوم مفاجىء قد يشنه عدوه ذات يوم ، فيقطع صلته بالعراق . . .

لم يكن إذن لمعاوية من خلاص ، إن هو آثر الفرار من مأزقه ، إلا فتحة عند الغرب ، تسلم جنده إلى البادية — اجتيازها حقيق بأن يوقع جيشه فى هلكة ، أو يقوده إلى ضياع فما مغامرة بانفلات من ثغرة يتربص له الخطر على كلا جانبيها ، خيرها قتال وشرها وبال وسوء مآل ، وعقباها هزيمة أو استسلام على أية حال ؟ . . ليوشك أن يتبدى له مصيره الرهيب وهو حينئذ يستقره الضنك فلا تطالعه من قتامة الأفق إشماعه سلامة ... الحلقة عليه محكمة . الإمام

عن يساره ، والأشتر عن يمينه ، والحائط المسالح على الفرات من وراء ظهره تصب كلها الويل ، وترميه بالموت والمصارع حين يجنح إلى المشاقة أو إلى الانسحاب أم يحسب غريمه عند ذاك تاركه يجوز الثغرة فلا يسدها ، ولا يهز منجل الحصاد ؟ . .

هو فى شرك . غدا العنف لا يجديه ، فالهلاك والمغامرة سواء ، وشق الطريق عنوة قضاء عليه بالفناء . . . هذه محنة . أحبولة لا يبرحها إلا بالحيلة . وعندما تطبق عليه الأمور ، وتشتبك خيوطها ، وتضيق رحبة الفضاء ، فالإقدام نافلة ، والإحجام هو الفرض ، والسلامة الغاية ! . . إنه فيما علمنا أريب ، وفيما يحسب ملى دهاء . . . وله أسوة فى الغصن اللدن الذى ينثنى إذا عصفت الريح ! . .

لهذه الساعة كان يرنو الإمام وهو عندئذ بمستقره قرب صفين يبعث الرسول بعد الرسول ليحمل الأشتر على الثبات . فقد خايله النصر . وشم رائحة القهر تنطلق من لدن معاوية وهو كالثعلب فى حبالة الصياد ، إنه صبر ساعة ، أو سويعات أو بضعة أيام تعدها الأصابع إن امتد بصاحب الشام أجل كفاحه ولم يعل من أول لحظة إلى المبادرة للنجاة عن طريق التسليم . وما كان ليستمسك حينذاك بعناد يورثه هلاكا لا مراء فيه ، تجهمت فوقه غيومه ، وقطر قطره فأنذر بوبل هطال ما كان ليلوى جيده كما هو الآن يلويه ، ولا ليمقص قرنه ، وينفخ نحره نفخة المدل الغرير . ولكنه كان حريا بأن يروض من شماس نفسه . ويعلك من جماحها فيدع أحلامه وأوهامه ، ويميل إلى الوادعة ، ويقبل وهو كظيم يهادن الإمام فيرتفع الدم ، ويخمد الخصام ، وتتحد كلمة الإسلام . . .

غير أنها فرصة ولت . ذهب أوانها فلا معاد . وعندما أدرك القوم قدرها ، وأبصروا مزاياها ، كانوا كالصائد ، أفلت الطير وفرغت الشراك ! . . فلقد قضى عليها الخور ، وتقهقر الأشتر ، وانساب الأشعث على آثاره حتى أصبح الجيش وهو فصائل مقطعة ، ووصائل بلا عصابة . ولولا أن بادر على فصمد مليا بمن معه ليلتقى بالمخالفين ، لما استوت صفوفه ، ولبقيت جموعها بقضها وحشدها تتهددها هذه الثغرات التى خلفها بينها الاضطراب وفتحتها فوضى الانسحاب . . .

* * *

وأقبل الأشعث يحدث الإمام :

« يا أمير المؤمنين ، أيمنعنا القوم ماء الفرات ، وأنت فينا ومعنا السيوف ؟.. خل عنا وعن القوم ، فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت . . . »

وضح له الآن خطل ما أعان عليه ، وعقبى خلافه ، والنتيجة التي أسلمته ألعوبة في يدى معاوية ، لو شاء عابث ، ولو شاء حطم وهو حينذاك غير مدافع ولا مردود . . .

وعاود حديثه ثانية . هذه المرة لم ينكر الوزر الذى بثه فى طريق الانتصار الضيع كغرسه الشوك والعوسج تحت أقدام طفل غرير :

« . . . سأداوى ما أفسدت اليوم من ذلك . . . »

ولم ينم على وعده . . .

الموت الآن هو مجاز الحياة الفداء ، والبذل ، وإنكار الذات . إنه امرؤ جسور . لا تعوزه الشجاعة ، ولا يتردد اللحظة الواحدة فى التقدم ورأسه على عينه إلى اقتحام الأهوال . . . ليس بخوار . ما هو الذى يفرق أو تهتز تحته أوصاله إن حمى البأس ولاح الحين ، وامتلأت المجاج والمفاوز عليه بالمصارع . فالسلاح ملهاته ، والحرب رياضته ، وهذه الحياة البدوية التى عاشها عمره الطويل زودته بزاد من الخشونة ، والجلد ، والحمية راض نفسه على الكفاح . . .

ويمضى يؤذن الناس بالتأهب للصراع المقدر :

« من كان يريد الماء ، أو الموت ، فميعاده الصبح ! . . فإنى ناهض إلى الماء . . »

ثم يثنى إلى أهله يقوى فيهم الهمم ويشد العزائم :

« يا معشر كندة . . . لا تفضحونى اليوم ولا تخزونى . إنما أقارع بكم أهل الشام . . . »

حتى فى هذا الموطن ، لا ينسى الرجل تلكم الخيلاء التى أفعمت فؤاده ، ووضعته وقبيله ، فى عين نفسه على رءوس غيرهم من المعاشر عندما يثين اللقاء ، وتدعو الدواعى إلى الصبر فى البلاء . . فلقد علم أنه ليس وحده الناهض فى حرب ، الناهد اليوم إلى مناجزة عدو مدل بأقداره ، مترصد لهم على شريعة الماء . . . ليس وحده السائر إلى الحتوف الرواصد ، والمنايا الحواصد . فخين

رفع صوته بالنداء يدعو الناس للأهبة ، كان موقناً غاية اليقين أنه غير مغن فتيلا فى الوقعة المرقوبة ، إلى أن يعينه عليها معين ، ورفيق جهاد ، وعدة أجناد : فوارس على خيول كأنها الأعاصير ، تنطلق أمامه فتمشى على وجار خصمه العنيد بالدمار ! . .

يقول حينذاك للإمام ، يستأذنه ويستمده المعونة :

« يا أمير المؤمنين . . . أنا أكفيك . قر الأشتر فليمل بخيله فيقف حيث تأمره . . . » .

فيجيئه الإذن :

« ذاك إليكم . . . » .

لكنه امرؤ فخور ! . . يود لو يتملق به الفضل حين يأزف الفصل ، وتنتهى إليه الأسباب عندما يشرق النصر ، بعد التقاء النصال والحراب ، وتقضب الجذوع والرقاب ! . . إنه مختال ، ذو سرف فى كبره وخيلائه . مزهو ، له غلو فى علوه وازدهائه . ولقد يأنف الموبقة ، ولقد يأبى السقطة ، ولقد يأتى المكرمات . ولكنه فى فعله ، يكاد لا يصدر عن سليقة مستقيمة أو طبيعة سخية كريمة : بل بقية من نخوة الجاهلية أو حمية البداوة هى التى تسدد خطاه . . .

السيرة المستطيرة ، والذكر ، والأحدوثة مأمولة . . . أن يلغط باسمه السامر . أن يتحدث الندى . أن يبيت ثم يصبح وهو مذاق الشفاه ورواية الرواة ! . . ودعه ينطلق فى الحومة ، يهجم ويكر ، ويغدو على شلو ويروح على شلو ، وتتقصف أمامه المقاتلة كالأعواد — أيما محنة جازها ، وأيما خطر دهم ، وأيما بلايا وأرزاء لا تذهله لحظة عن الوفاء لنفسه وجنسه وإن نسى ، فى كلا الأمن والنعمة ، الوفاء لمن حق له عليه الوفاء . . .

. . . يرى الأشتر يبلى نخير ما يؤمل من مثله ، ويضرب بسيفه جموعا تتدفق عليه كالطوفان حتى يكشفها عن الماء ، فلا تهزه هذه الشجاعة النادرة بالرضا بقدر ما تزلزله بالغيرة ، فيصرخ هاتفا بحامل لوائه :

« لله أنت ! . . ليس النخع بخير من كندة . قدم لواءك . فإن الحظ لمن سبق . . . »

. . . ويلتقى بعمرو بن العاص قبيل التحام الأسنة ، فيزجره ، ويخوفه أنفة قومه البدو الأباة ذوى النخوة :

« ويحك يا عمرو ! . . أترانا نخليك والماء ؟ . . تربت يداك وفمك ! . . . أما علمت أنا معشر عرب — لقد رمت أمرا عظيما ! . . »

.. : وتدور دائرة الواقعة فى النهاية على البغاة ، فلا يرى النصر ، الذى أسهم هو فيه بحظ وافر ، كفاء لبعض حق وليه أمير المؤمنين ، ولا لبنة فى بناء الهدف العظيم الذى أبلوا من أجله . . . إنه ليبدو على ريبة كمن لا يدرى ما هى الغاية ، وفيم القدوم . أو لا ، فإيمانه بحق على — أن يكن آمن به — تسليم ، وولاؤه لمثله ونواياه ولاء مريض سقيم . . . يقوم غب انجلاء الوقعة عن الظفر :

« ... والله إن كنت لكارها قتال أهل الصلاة ! . . ولكن معى من هو أقدم منى فى الإسلام ، وأعلم بالكتاب والسنة . . . »

ولكنه امرؤ — كما رأينا — نخور . هدفه السيرة المستطيرة ، وتذاكر السمار ، ورواية الرواة . وحافزه الغيرة ، والحمية . . . حتى عندما انتدب نفسه للقتال على الماء ، لم يكن الندم ما دفعه ، ولا شعوره بخطأ ارتداده ، ولا الرغبة الخالصة فى مظاهر غاية الإمام . إنما تحركت نفسه بزهوها وكبرها وتلك الخيلاء حينما سمع من دياره هاتفا يحثه على حمل السيف ، ويدعو للنجدة ، ويثير فيه مكامن الغرور :

لئن لم يجل الأشعث اليوم كربة	من الموت فيها للنفوس تعنت
فنشرب من ماء الفرات بسيفه	فهبنا أناسا قبل كانوا فموتوا
فإن أنت لم تجمع لنا اليوم أمرنا ،	وتلق التى فيها عليك التشتت
فمن ذا الذى تثنى الخناصر باسمه	سواك ، ومن هذا إليه التلفت ؟ »

٦

وقف الأشتر بين فرسانه ، على فرس له أشرف ، محذوف ، أدهم كحلك الغراب ، يرنو إليهم بمين ، وإلى الفرات البعيد بمين . ثم أقبل يحثهم ويحرضهم ، وقد حان وقت اللقاء :

« فدتكم نفسي ! . . شدوا شدة المحرج الراجي الفرج . فإذا نالتكم الرماح فالتووا فيها ، وإذا عضتكم السيوف فليعض الرجل على نواجذه فإنه أشد لشؤون الرأس . . . »

وهتف الأشعث بن قيس برجاله :

« بأبي أنتم وأمي ! . . : تقدموا قاب رمحي هذا . . »

وراح يلقى برمحه ويتبعه ، والقوم على آثاره ، سيوفهم على عواتقهم ، والحمية تلتمع بمثل ومضة الغضب فى لحظ الأعين . . .

تقدم الرجلان للحومة وما فى الخاطر إلا العنف والقتال والشهادة . كل جهد بذلاه للإبقاء على السلم عبث ، وكل سبيل فتحاه للموادعة على الماء دون لقاء ، سده معاوية وصحبه . . . اليوم لا مهادنة . لا فرجة لصلح وإن يكن هذا الماء غير ما اختلفوا فيه ، وقدموا له ، وتذرع العسكران بالصبر والسلاح والجموع الكثيفة لبلوغ مداه . . .

فى غمرة هذه المحنة التى طوقت بعلى ، وأحاق شرها بأجناد ، نسى صاحب الشام والذين معه تلك الذريعة التى اتخذاها لجيشهم راية ، ورفعوا على رءوسهم ديباجتها المصبغة بلون الدماء ! . نسوا ثأر عثمان الذى احتجوا به ، وجاءوا فيه ، وحركوا القلوب والألسن لتقيم عمرها على الغط به وترديده . . إنما أمس لفقوا الحجة ليبلغوا من الدنيا جاهها وسطوتها ، فأتتهم اليوم فرصة خير من حجة ، وسانحة دونها كل ذريعة ، إذا أرادوا التوسل إلى هدفهم بالسبل الموطأة دون الأسباب المصنوعة ! . .

الآن لم تعد لهم إلى التعلات حاجة ! . . بلغ طموحهم مأمنه ، غدوا على قيد خطوة من هذا المجد الذى سبقوا إليه الزمان والقدرة والمزايا الخلقية التى يجب

أن تتوفر لكل طامح سلطان . القوة فى ملاكهم . العدة أعدت والحشود حشدت . اليد الطولى يدهم فى موقف أصبح غريمهم فيه كمن شد وثاقه وكبلته الأغلال . فما لهم اليوم والمطل ، وقد كان المطل أمس مركبهم حين كان البدار حريا بأن يقودهم للدمار ؟ . .

بل يبادرون لحظتهم هذه إلى اهتبال الفرصة التى لم تجدهم بمثلها الأيام ، ولم تهنأهم بصنوها أضغاث الأحلام . فلقد مات الآن عثمان فى خواطرهم فلا تفكير فيه . ومات أيضا ثأره فلا حديث عنه ولا محاجة ولا ادعاء . ومات كذلك كل جدال كانوا يزعمونه وسيلة فيئهم إلى الجماعة ، والدخول فى رحبة الإمام ، ونبذ الانقسام .

لم يدع منهم داعية بدعواهم القديمة : أن ينال قتلة الخليفة الشيخ الجزاء ، أو يسلمهم على عن يد وهو صاغر لسيد الشام ، أو ترجع الأمور شورى فى الناس فيؤمر الملأ من يشاء . . . كلا ، فما هذه كلها — الساعة — مطلب . لا أرب لهم فيها . لا غاية يأمنون أن يبلغوها من ورائها ، وهى تملات ، كهذه الغاية المؤكدة المضمونة التى خايلت عيونهم ، وخالجت ألبابهم ، وأوشكت أن تطولها أكفهم ، وهم بموقفهم الحريز المنيع على ضفة الفرات . . .

ويهتف الأشتر بابن العاص وقد تواقفا عن كثب ، يتهيآن للنزال :

« . . . يا ابن العاص والله لقد نزلنا هذه الفرضة والناس تريد القتال على البصائر والدين . وما قتالنا سائر اليوم إلا حمية . . . »

أجل حمية . فلغير الهدف الذى أقبلوا جميعا ، من هنا ومن هناك ، من أجله يقاتلون . . . لغير الاحتجاج بدم عثمان . لغير شق الطاعة على جماعة الإسلام . لغير الوحدة المنشودة . إنما انتهز زعيمهم ابن أبى سفيان ، هذا الموقف الضنك الذى أصبح فيه خصمه ، فهزه سلاحا باترا ليفتح به ثغرة تنفذ من خلالها مآربه ، فيسقط دولة ، ويقيم دولة على أنقاضها لنفسه طالما غازلت فيه عرائس الخيال .

وينادى الأشعث حينما يقارب القوم ، وهو يحسر لهم عن رأسه ليروا شعثه فيعرفوه :

« أنا الأشعث بن قيس ! . . خلوا عن الماء . . . »

فيبادره أبو الأعور :

« أما والله لا ، حتى تأخذنا وإياكم السيوف »

« قد والله أظنها دنت منا ! . . »

وبمثلها أجابه عمرو :

« والله لانخلى عنه حتى تأخذنا السيوف وإياكم ، فيعلم ربنا أينا اليوم أصبر ! . . »

وعلم ربهم صبرهم ، بل خورهم ، ذلك اليوم على النهر ! . . فما أن بلغ عنتهم غايته ، وأبوا الشرب على عدوهم ، وحسبوا موقعهم الحصين مانعهم ، حتى أرسل الأشعث إلى صاحبه :

« أقحم الخيل ! . . »

عندئذ انطلق الأشتر بفرسانه كأنهم مردة أطلقوا من عقال طال فيه احتباسهم منذ عهد سليمان ! جاءهم الفرج بعد ضيق . تنسموا الحرية فى ريح الموت . وما الموت ، وهم يرونه اليوم فى الوثوب ، كما رأوه فى التقاعد ؟ . . . وما غاية حياة يحفها الضيم ، ويحدها الخسف ، وتباعدها الكرامة ؟ . . وفيم ذلتهم الآن لذليل ، رقيق طليق ، استرقه أمس كفره حتى حطم محمد هبل والعزى ومناة ، وغيرها من مسوخ مؤلهة ، فأكره حينذاك وأبوه وأهله على الخلاص من قيود الضلالة ، وشرك الشرك ، وأغلال الجهالة العمياء ؟ . .

لود الأشتر لو تعبد له طريق الاستشهاد ، أثناء هذا الصراع ، عسى أن تغسل دماؤه حوبته ، وتمحو خطأه عند ما خالف الإمام . . . لكن أجله أمهله . لم ينؤ به . ظل ثابتا تحته كفرسه لأدهم الأسحم ، يقفز به على مهاوى الردى ، ويحمل معه من غبارها الفاتك ، الذى يتناثر من حوافر جواده ، ما يبثه على رءوس مناوئيه ! . . بقية الأجل كانت درعه ، وذلك الفرس الكريم المنطلق به فى النهار كقطعة من الليل كان مركبه . والإيمان فى فؤاده هو الذى كان يحمل ويشد ويقصف بمن عارضوه من صفوف المقاتلة ، فيجرعهم الحمام فى الخوف قبل أن يذوقوه فى قذفة الرمح وضربة السيف . . كان شيطانا على شيطان ! . . وكان جواده نذير شؤم للذين يستقبلونه ، إن ثبتوا عصف ، وإن التووا عن مهبه انعطف كأنما حينهم كان يشده إليها بخيط موصول ! . . هو كالموت ، له سواده ولونه الحزين ، وله رهبته ، وعلى دبيب خببه ، وركضه ، وعدوه ، كانت تتراقص أبالسة المنايا المنهومة ! . .

ومضى يحمل الشكل واليتم والفواجع . . . يقط ويقد الأجسام والهام وسيفه غير ناب في كفه ، وفرسه الحالك بلون الغراب ، كغراب ، أو عقاب ، يطير به فوق نصال السيوف وأسنة الحرب . . . في البدء كانت الخاصة أهدافه . الفوارس الأمجاد . الأبطال الذين سرت لهم سيرة في الشام يجل مثلها عن شطحة الأساطير . . فما أن عثر بابن فيروز ، صاحب البأس فيهم ، وسمعه يرتجز وهو يناديه : « يا صاحب الطرف الحصان الأدهم . . . أقدم . . . » حتى أقدم يلبيه ، ودهم ، فلم يدعه إلا شقين ، قد فلق ظهره برمحه ، وبعث بروحه وذكره على السواء ، إلى حيث لا معاد في خاطر مفتون ! . .

ثم ثنى بمده بغيره : فئة كثيرة لها بلاء وبسالة ، من الفرسان الأشدة الأعلام ، فيهم زامل حامل اللواء ، وفيهم مالك بن أدهم فارس الشام ، وفيهم الأجلح الذي عدوه فيمن ذكرت العرب من أبطالها القساورة . لكنهم تخطفتهم عينه ، وكان الموت يتأرجح فوقهم وفوقه حتى ليوشك أن ينثنى عنهم إليه ، ثم يميل صوبهم دونه ، كأنما اجتلى فيه رهبة ترده وتقسر شبحه على الفرار ؟ . . .

شد عليه ابن أدهم وهما راكبان حتى غشيه ، وظن الناس أنه قاتله . فلما اندفع نحوه الرمح مال عنه إلى بطن فرسه فرعور . وأخطأته الضربة بمثل شعرة ، وغريمه حينذاك مبهوت . . . وإن هي إلا لحظة حتى التوى ، ثم استوى ، ثم ثبت على ظهر أدهمه ، وهو يصيح كالساخر :

« خانك رمح لم يكن خوانا . . . . »

وعاجله ، فجندله . . . .

وانبرى له زامل يود لو أصابه بأصحابه الصرعى ، فينال ثأر قومه فيه . يمشي إليه على حذر ، على جواد مدرب أصيل . ويلقى إليه كل عينه ، وكل ذهنه . ويتربص به غرة يجوزها إليه القضاء . . . فما أسرع ما احتبست الانفاس ، والنواظر عند ذاك عالقة بجسد الأشتر قد أطاحت به الطعنة الصارعة بين القوائم السود ! . .

ولكن قبره لم يكن هناك ! . . درأ الطعنة درعه . انثنى عنه رداه . . . وقبل أن تطرف عين ، هز سيفه مرة وهو راجل فقط قوائم جواد خصمه ، ثم هزه أخرى فإذا زامل صريع ! . .

ولم يكن للأجلح عنده نصيب يفضل مصاب صاحبيه ، وإن أصاب ذكرا في موته سطرته المدامع ، ورددته المجامع ، وسار في الناس مثلا يعز شبيهه في الوفاء . . . فلقد ضاقت أخته بعده بدنياها ، وأ كلها الحزن ، وبرى البكاء عينيها إذ غدا لها دمعها العزاء ، وحزنها الشراب والغذاء ! . إنها لا تنساه . لا تطيق أن تصبر نفسها على الفجيعة فيه . لاتني الليلة بعد الليلة ، والنهار بعد النهار ، ترثيه بذوب الروح ومن شؤون الفؤاد حتى قضت حسرة عليه . . .

ويسمع الإمام ذات يوم من رثائها الحزين :

« ألا فابكى أخا ثقة فقد والله أبكينا
أتانا اليوم مقتله فقد جزت نواصينا
كريم ما جد الجديـ ن يشفى من أعادينا ...... »

فلا ينضح لها بغير التوجع لنكبتها ، والأسى عليها . حتى إذا بلغ الرواية من نظيمها :

« شفانا الله من أهل الـ عراق فقد أبادونا ! . . »

دار بوجهه في أصحابه يهون عليهم من دعوتها ، ثم رفعه إلى السماء :

« أما إنهن ليس عليكهن ما رأيتم من الجزع . أما إنهم قد أضروا بنسائهم فتركوهن أيامى حزانى بائسات ، من قبل ابن آكلة الأكباد ... اللهم حمله آثامهم وأوزارهم ، وأثقالا مع أثقالهم ؟ ... » .

وكم تركوا اليوم وراءهم من أيامى ويتامى — أولئك الذين أبوا إلا أن يشعلوها فتنة كنار الجحيم اصطلوا حرها من أجل جاه الحياة ! . . طاش عن المدى صوابهم ، وضل فيها حسابهم ولم يجدهم الأمل المأمول . ولا عتوهم بما امتلكوا اليوم من بأس الحرب ومنعة الموقع قد أغنى عنهم ، إنما غدوا وقودا للنار ، تعتد لها ألسنة نقادة تتخير منهم الجياد ، وتأكل الفوارس ، وتحرق الأبطال الأجلاء . . . الأشتر يضرب ويصرع ، والأشعث يضرب ويصرع . والمنجل يحصد والرحى تدور ...

ولا يطول صبر ولا كر . بل هي حملة ثم أختها يخلص بها القائدان من خاصة خصمهم إلى جمهوره . فإذا الأول بفرسانه يشد في ناحية ، وإذا الآخر برجله يشد في أخرى . فما يثور النقع حتى تتهاوى صفوف العدو المدل وتنثلم ، وتنفرج

عن زعيمها الذى حسب زمانه آتيه الساعة بالمجد والنصر والصولجان أسارى أذلاء يعرغون الجباه فى تراب قدميه ! . .

وعندما بانت الهزيمة لمعاوية ، وتخايلت أمام عينيه سوداء مغبرة ، كهذا الأدهم الذى أركضه إليه الأشتر فوق هام عصبته ، لم ير صاحب الشام فى الصبر نجاء ... إنما مال عن موقعه ، ولاذ عن خصمه بالفرار ينحاز بقومه ثلاثة فراسخ ، ثم ينأى ، ثم يمعن وسعه عسى المكيدة فى غد تنيله ما لم ينل بسيفه ! . .

وبعث إلى البقية من أصحابه التى استمسكت بالدفاع :

« لا تقاتلوا ... خلوا بينهم وبينه ... » .

وهل كان ثمة مجال لقتال ؟ . . بل المجال كله وسيع فحسب لمن يؤثر الحياة فى ضيم ، ويلتقط أجله وهو مبعثر على الأديم الندى بالدم ، بين نثار الأبدان ومزق الأجساد ثم لا يكاد ! . . فلقد ظفر من باع نفسه لله ، وخسر من باع حظه من آخرته بشهوة الحياة . علا الحق فهو سماء ، وزهق الباطل فهو جفاء ...

وعندما غمست خيل على سنابكها فى مياه الفرات . وفر معاوية وجنوده مقهورين بملاذهم البعيد الجديد ، انفلت إليه صاحبه عمرو ، على ثغره مع قترة القهر بسمة صفراء ساخرة :

« يا معاوية . . . ما ظنك بالقوم إن منعوك الماء اليوم ، كما منعتهم أمس . أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه ؟ . . . » .

فأشاح عنه وهو يهمس عن كمد وغيظ :

« دع عنك ما مضى منه ! . . » .

ثم ألقى بعينه إلى الماء ، تسبح هناك هنيهة بين الحشود المظفرة ، إلى غاية نظره ومداه . إلى مناط فكره . إلى المخيلة الصافية للإمام ، والطبيعة النقية الكريمة . . . فإن هى إلا برهة تقضت عليه وهو يفكر ، ويقدر ، ويستخلص عواقب الأمور حتى شاع الرضا على محياه . . .

وقال بعد هذا لصاحبه :

« ما ظنك بعلى يا ابن العاص ؟ . . » .

فأجابه وقد حدس مرماه :

« على ؟ . . ظنى أنه لا يستحل منك ما استحللت منه . وأن الذى جاء له غير الماء . . .

٧

طلع ذو الحجة بالأمل فى سلم ترد عليهم جميعا الوحدة ، وتنزع من القلوب الغل ، وتدع الناس وهم على جادة سواء ، لا تلتوى الطرق بهم ولا تتشعب المذاهب . بدت غرته كوضاءة البدر فى الليل ، كالجبين الأبلج ، كالشامة البيضاء فى جبهة الأدهم . لها من إشراقة الرجاء شعاع . فيها أمن ، عليها طمأنينة ودعة . حتى الذين نالت منهم الجراح ، وخضبهم الدم ، طابت نفوسهم بمولده . . .

كلا الفئتين هدأ منهم الروع . لاح قرارهم فى بشائر صباحه ... الآن يتنسمون الأمان حاضرهم عليه سكينة ، غدهم القابل مأمول ، يوشك ملائمهم أن يتخيل فيه عروة غير مفصومة توثق بين الحزبين فتعيد الأمة ، كأمسها القريب ، مؤتلفة ، تجمع النازل الدانى والنازح الغريب . . . وما لهم لا يأملون وشهرهم هذا يعلمهم الألفة ؟ . . وهو موعد التواصى بالتعاصب ولأم الصدوع ، وهو موسم خير ، تهوى فيه أفئدة كل مسلم ومسلمة ، وعيونهم وأبدانهم ، إلى بقعة ذات أمن وعين ، بأرض مكة قد طهرها الله ، وأقام فيها قواعد بيته الحرام بيد أبيهم إبراهيم . . .

ومضوا على صفاء . . . يومان كاملان مرا قبل هذه الغرة وهم إخوة ، نأت عنهم المواجد وخلفتهم الأحقاد . المحنة التى باعدت بينهم ، ولوت زمانا بأجيادهم عن الوفاق ، وأرسلتهم يتراشقون بالموت على مشافر الأسنة غدت الآن فى ظل الغابر . توارى وجهها بعد وقعة الفرات كأنما أغرقتها إحدى لججه حين اقتحمه جند على بخيله ورجله وغمسوا فيه القائمة والساق ! . . فما أملى لهم أمير المؤمنين فى الشماتة . ولا أعانهم على البطش . ولا أمكن لهم فى الثأر من عدوه الذى منعه شربة الماء ... وعندما جاءه الأشعث بن قيس ، وعليه رهج القتال ، يدل بالنصر :

« أرضيتك يا أمير المؤمنين ! . . قد غلب الله لك على الماء » .

قال للناس :

« خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا إلى عسكركم » .

فلما سمعهم يزأرون :

« لا والله لا نسقيهموه ! » .

أبى عليهم ما أرادوه :

« أيها الناس . . . إن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم . . إن الخطب أعظم من منع الماء ! . . »

ثم بعث إلى معاوية يهدئ جأشه ويبث فى نواحى نفسه الأمان :

« إنا لا نكافيك بصنعك ، هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء . . » .

وكذلك شاء أن يخلص لمثله الكريمة ، وطبيعته النبيلة السمحة فلم يبادر خصمه بمثل عدوته ، ولم يسل عليه سيف الصدى الذى ابتزه إياه . وكذلك اختلفت الروايا من الطائفتين إلى الشريعة ، والخيل والدواب ، ترد وتصدر على طمأنينة . . . يومان كاملان انقضيا لم تهز كف رمحا ، ولم ينطلق من قرابه حسام . فلم يكن الخطب فى الحقيقة شربة تبل عطش الظامىء وتنقع غلة الصديان . بل هو خطب هذه الأمة التى جمعها فى الزمان عهد ، وفرقها الآن عهد ، وأخذت تنوشها الأهواء الجامحة والمقاصد المفتونة بما ينذر بالتدهور والانهيار ! . . إنه خطب الحرب . خطب الإسلام الذى توشك الحوادث الدامية أن تعصف بأعواده ، فتقصف فروعه الطرية النضر ، وتجتث جذوره الفتية الخضر ولما تشب بعد دوحته وتصلب على الأيام . . . فلقد أجلبت العرب : نصفها على نصفها . بأسها بينها شديد ، فغالبها خاسر ومغلوبها خاسر ! . . .

وأحضر الإمام بعض صحبه إليه :

« ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله عز وجل ، وإلى الطاعة والجماعة ، وإلى أمر الله تعالى . . . » .

كأنما عسى أن يرعى معاوية ربه ، فى قومه وأمته — إن لم يرعه فى دينه — فيبادر وهو على شفا الويل حينذاك بإلقاء سلاحه ، ضنا بالدم ، وإبقاء على الناس . عسى أن يرشد من بعد غواية . عسى أن تعطفه الرحمة على عشيرته أن تنالها المصارع . عسى أن تستميله هذه السماحة والنبل والرفق من على بعد وقعة الفرات فيقابل إحسانه بإحسان . .

وسأله منهم سائل :

« ألا نطمعه ، يا أمير المؤمنين ، فى سلطان توليه إياه ، ومنزلة تكون بها له أثرة عندك إن هو بايعك ؟ . . . » .

فأبى أن يرضخ له الرضائخ ، أو يساومه فى الحق :

« ائتوه فالقوه ، واحتجوا عليه ، وانظروا ما رأيه . . . » .

فلم يجشّهم معاوية بجديد . إنما عنت وعناد وإصرار . يأتونه من آخرته فينأى ويحيد ، من أطماعه فيسرف ويزيد ، كأن قد عقد النية على أمر ، ومضى إلى غاية له على مزلق ، كالهاوى مع جرف السيل ما لقدمه من ثبات ! . . .

قال له أحدهم :

« يامعاوية . إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة . . . فأنشدك بالله أن تفرق جماعة هذه الأمه ، وأن تسفك دماءها بينها . . . » .

فأجاب كالساخر :

« فهلا أوصيت صاحبك ؟ . . » .

« صاحبى أحق البرية فى هذا الأمر ، فى الفضل والدين والسابقة والإسلام والقرابة من رسول الله . . . وإنى أدعوك إلى تقوى ربك ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق — » .

« ويطل دم عثمان ؟ . . لا والرحمن لا أفعل ! . . » .

وعندئذ انبرى له شبث بن ربعى . لم يطق أن يسمعه يلوك حجة مردودة عليه ، هو يعلم وهو يلوكها أنها زيف ، ومنطق باطل ، ودعوى منقوضة . . .

« لا يخفى علينا يامعاوية ما تقرب وما تطلب ! . . إنك لاتجد شيئا تستغوى به الناس ، ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا أن قلت لهم : (قتل إمامكم مظلوما فهلموا نطلب بدمه !) . . فاستجاب لك سفهاء طغام رذال . وقد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل بهذه المنزلة التى تطلب — ورب مبتغ أمرا يحول الله دونه ! . . . . . . والله لئن أخطأك ما ترجو إنك لشر العرب حالا . ولئن أصبت ما تتمناه لاتصيبه حتى تستحق صلى النار ! . . . » .

فجبهته صراحة شبث حتى أخرجته عن طوقه من هدوء الطباع ، فثار به وبأصحابه :

« كذبت ولويت أيها الأعرابي الجلف الجافي ! ... انصرفوا من عندي ، فليس بيني وبينكم إلا السيف ... » .

ولم تكن هذه أول مرة ركب فيها معاوية عناده ، وأسرف سرفه في المشاقة حتى تهدد وتوعد وأوشك أن يسل الحسام في وجه دعوة السلام . ولم تكن هي الأخيرة ، فلقد سبقها كثير وتلاها كثير . ولكنه في كل مرة كان يمعن في عنته وإن بدا هو أمام أناس كالساعي إلى الوحدة ، العامل على الوفاق ...

... ... كان همه ، إذ لعلي في النفوس قداسة ، أن يشغل عنه قلوب القراء فلا يلوذ به لائذ منهم ، ولا يظاهره على ابن هند ظهير فلما أن ضاق خلافه بأبي الدرداء وأبي أمامة الباهلي ، وهما حينذاك عنده بالشام ، ووجدهما يراجعانه :

« يا معاوية . علام تقاتل هذا الرجل ؟ ... فوالله لهو أقدم منك سلما ، وأحق بهذا الأمر ، وأقرب إلى النبي » .

لوى بهم :

« أقاتله على دم عثمان ، وأنه آوى قتلته ... فقولوا له فليقدنا من قتلته وأنا أول من يبايعه من أهل الشام ... » .

وفعل بالساذجين مكره ، وقد فاتهما أن القصاص حق ولي الأمر في المسلمين وحده أو يضطرب حبل النظام . وما لمعاوية إذن والقود وهو فرد من الرعية ؟ . وفيم دخوله في هذا الأمر إلا أن وجده مطية تحمله إلى سواه ؟ ... وأين هذه الساعة دماء عثمان وهي هدر وكانت أمسها حرما يوشك أن يستعصي على صارعيه لو سارع إليه معاوية بنصره حين عزت النصرة له إلا من الإمام ؟ ...

وخرج الرجلان يظلعان بهذه الحجة المفلوكة إلى صفوف علي وفي ظنهما أن سعيهما سيثمر الوفاق . فكيف لقيتهما حينذاك الجموع ؟ ...

دخلا على أمير المؤمنين يسألانه مطلب معتسف الشام ، فلم تغب عنه المكيدة المسترة ، والطلبة المستحيلة التي دونها ندور الهام ؟ ... ولكنه أخذهما معه إلى صفوفه ، ثم أشار :

« هم الذين ترون ... » .

فما أن جالا في القوم ، وسرى فيهم نبأ ما قدما فيه ، حتى انبرى لهما قرابة

عشرين ألفا من المقاتلة مسربلين فى الحديد ، لا يرى منهم سوى الحدق ، يهتفون بمثل قصف الرعود :

« كلنا قتلة عثمان ! . . » .

. . . . . وأخرى أيضا . . .

أخرى من هذه الحيل التى تواترت تكشف لنا عن عنت معاوية ، واعتسافه الذرائع والتعلات التى تدنيه من بلوغ أربه ثم تنئيه عن شبهة المشاقة والاعتساف ! إنه ها هنا ليبدو كمن يعيد للخواطر خرافة الذئب الذى اشتهى الحمل فراح يتذرع إلى افتراسه بعشق التلفيق وصوغ صنوف من الأسباب والمعاذير تخفى منه عنت المتحيف وتظهر منه هيئة المنصف ! . . . أو هو فى الحق تلك القدوة التى تأثرت خطاها الملتوية فيما بعد كافة الذئاب ! . . تأتيه من القراء ، مرة ، طائفة ودت لو ترده عن عزمه ، وتميل به عن سبيل العناد الذى يوشك أن ينتهى بالأمة الإسلامية إلى محنة حازبة مآلها إلى بوار ، فلا يكاد يشم منهم اللوم حتى يمضى به طريقه الدائر : بحلقة من تعلاته تسلم من حجة إلى حجة ، ومن ذريعة إلى ذريعة كلها مفتولة مصنوعة ! . . فإذا صدموه ببيان ، أو جبهوه ببرهان ، فعين زعمه لا يغيض . . :

يجيئهم بدعواه . ثم يقفى بعدها على آثارها بسلسلة طويلة مبطلة ، حلقة حلقة . كلما راجعوه أتاهم المرة بختل جديد :

« أطلب بدم عثمان ، من على . . . هو قتله وآوى قاتليه . . . » .

« إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالأ . . . » .

« إن لم يكن فعل هذا فليمكنا من قتلة عثمان ، فإنهم فى عسكره وجنده وأصحابه وعضده . . . » .

« فما له ابتز الأمر دوننا على غير مشورة منا ؟ . . . » .

« الناس تبع المهاجرين والأنصار ؟ . . فما بال من ها هنا منهم لم يدخلوا فى هذا الأمر فيؤمروه . . » .

علة وراء علة ، وذريعة وراء ذريعة تدنيه من بلوغ أربه ثم تنئيه عن شبهة المشاقة والاعتساف ! . ولكنها معاذير مفضوضة ، وحجج منقوضة لا ثبات لها

أمام منطق الحوادث ، ولا فى سيل الحقائق الدافق الذى لا يحتاج لبرهان . فما كان عثمان ضحية ثأر ، ولا صريع نقمة فردية نضحت بها نفس رجل من الناس . ولكنه حاكم ضاقت بحكمه رعيته ، وملكها غضبها عليه حق ثارت به ثورة عامة انتظمت الكبير والصغير ، والخاصة والحثالة ، والدانى والقاصى من سكان المدينة إلى أهل الأمصار والأقاليم . . .

ويقول على للذين أرادوه على القصاص من أولئك الثوار وقد علوهم يعدون بالألوف :

« تأول القوم عليه القرآن ، ووقعت الفرقة . وقتلوه فى سلطانه وليس على ضربهم قود . . . » .

ويراجعه من أذناب معاوية من يقول :

« أتشهد أن عثمان قتل مظلوما ؟ . . » .

فلا يتوانى عن الجواب :

« إنى لا أقول إنه قتل مظلوما ، ولا إنه قتل ظالما . . . »

وقبيل الفتنة كان يحذر عثمان :

« الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك ! . . »

فلما أساء فيهم السيرة وقتلوه ، طالعهم الإمام برأيه فى القتيل ، ورأيه فى القاتل ، بغير إخفاء :

« استأثر فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع ! . . . ولله حكم واقع فى المستأثر والجازع . . . »

غير أن معاوية كان لا ينى ، كلما توطأت له مناهج المعارضة والخلاف ، يلوح بهذه الراية الدامية أمام الأبصار ، عسى أن يلف رمقها إليه ، ويحتوى برقعتها المصبغة غوافل العقول فى أحضانه . . . فالناس عبيد الحمية . والعرب عامة أمة يفتنها الثأر . والشام من بينهم درجت على طاعته ، وشبت تحت ظل سلطانه ، فليس فيها من يقابله بغير التسليم برأيه والامتثال لأمره ونهيه . . . حتى فى هذا اليوم الذى طعم فيه وجنوده ذلة الهزيمة ، لم يراجعه من قومه مراجع ، ولم يحملوه أو يسطوه أن يلين جانبه فيسمع لدعوة الوفاق التى دعا بها الإمام .

وعندما أقبل الليل ، وغابت غرة الشهر الحرام فى الظلمة ، كانت أمانى السلم قد توارت كذلك عن النفوس الراجية إلى وهدة من اليأس بعيدة المهوى عميقة القاع . . .

ودخل عليه حينذاك ، والمساء يرسم ظلال غسقه على السحب البيض حمراء كالدم ، عبيد الله بن عمر بن الخطاب . . . فما أن شهده الإمام يزدلف إليه فى مشية المعجب ، حتى هتف به بما يهد كبرياءه :

« أنت قاتل الهرمزان ! . . لقد كان أبوك فرض له الديوان وأدخله فى الإسلام . . . »

فأسمعه الفتى صلفه :

« الحمد لله الذى جعلك تطلبنى بدم الهرمزان ، وأطلبك بدم عثمان ! . . »

وعندئذ تبين الإمام عنت أخصامه ، وعزمهم الثابت الذى لن يلين ، فقال للمفتون بصوته الوئيد الرزين :

« لا عليك . . . سيجمعنى وإياك الحرب غدا . . . . . . »

وفى غد تسير العزائم ! . . .

٨

بدت صفين كالإهاب المرقش . كجلد الحية : به سواد وبياض . . . كانت رقعة من السلم خرقها العنت ، أو ديباجة من الحرب خرقتها الأناة . . . كانت هدنة هفا إليها داعياً على ، وسعى سعيه لتكون مجازه إلى سلام دائم يؤمن سرب أمته ، ويهبها الأمن والحياة . . .

لم تكن سلماً كالسلم . ولا هدنة كالهدنة . ولا حرباً كالحرب . إنما أخذت من أولئك كله بطرف حتى ضاع وجهها بين ألفاف هذه العوامل المضطربة الخطوط ، والمختلفة الظلال والألوان . فيها عداوة وفيها صفاء . فيها قرار وفيها دم . فيها رقبة للخير وفيها تربص بالأحيان . . . الحياة تصطرع آنا تذود عن مقوماتها فتغلب الموت . والموت يصطرع آونة يدافع عن خرابه فيقهر الحياة .

وفى كل هذه الأثناء كان الناس فى هم من رجاء يخطف سناه ، وقنوط يدهم سواده . على شبهة من يومهم ومن غدهم ، فلا يدرون أنومهم على طمأنينة أم إصباحهم على قتال . . .

على هذه الهيئة انطلقت الأيام . سلم ولا سلم ، وحرب ولا حرب ، كأنما أمانيهم حلم حالم طالت الرقدة به فلم تنفتح عينه على حقائق الصباح . . . وكان الإمام دائماً حليف الحياة . وكان ابن هند دائماً حليف الموت ، يعده بالزاد بعد الزاد من الوقيعة والعنت والعناد . ويلوى جيده عن الوحدة المنشودة إلا أن ينتكس عليه تقديره ، وتشتبك أموره فيخفض حينذاك جناحه ساعة أو بعضها لدعوة الوفاق . إذا خايله الظفر تجبر ، وإذا لاحت الهزيمة صانع وخادع حتى يفلت من أنيابها بحيلة تدنيه فى الأعين الماشية من الله ، وتبعد به عن الملامة . .

لكن المرادعة والمخادعة كليهما لم ينجيا القوم من قدر لازم حق عليهما قبل أن تتحرك بهم الأقدام . فالحق بين والباطل بين ، والمطل إن جاز مرة على الممطول فإنها أناة تريث وتزول ، وفترة من الزمن لا تطول . وعند ما يفيض بالنفوس صبرها لا تمسكها حيلة . وعندما تطفح الكأس تسيل . ولقد لغط الناس : ضجت طائفة ، وشكت طائفة ، وهم يرون عدوهم أمامهم مدلا لاهيا لا تزعه دعوة ولا يناله حسام . العاذل تقبضه عيبة وتبسطه عيبة . والشاك تنشره ريبة وتطويه ريبة . والإمام بينهم غرض تقاذفه نثار الظنون التى حسبت صبره على غريمه مرة شكا منه فى لزوم القتال ، ومرة كراهة الموت . فلما أن نبا به اللغط ، وساءه الهمس السارى من الشفاه للمسامع . لم يعد له معدى عن مصارحتهم بخافية ما اختلفوا فيه :

« . . . أما قولكم : أ كل ذلك كراهية الموت ؟ — فوالله ما أبالى أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إلى . . . وأما قولكم : شكا فى أهل الشام — فوالله ما دفعت الحرب يوما إلا وأنا أطمع أن تلحق بى طائفة فتهتدى بى وتعشو إلى ضوئى ، وذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها ، وإن كانت تبوء بآثامها . . . »

وقديما كان يقول مثل هذا القول ، ويسير على نهجه ، ولا يني يتريث عسى الله أن يمد عدوه بالهداية ، ويجنبه غواية إبليس . وهو اليوم أيضا يصبر ليفسح لأمله . وهو فى غد يطاول معاوية وما أبه بحوله وطوله ، ولا بخيله ورجله . . .

لقد كان إبان القتال الذى حمى من بعد يأسه ، وفارت سعره ، يحث أصحابه على الثبات أمام هبة الهلاك العاصفة ، ويهون عليهم المصير ، فيتلو لهم :

« قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذن لا تمتعون إلا قليلا . . . »

وكان يهتف بالذين ينثنون عند ما تضيق عليهم حلقة الأسنة يسرعون من فروجها إلى النجاة :

« أين فراركم من الموت الذى لن تعجزوه إلى الحياة التى لن تبقى لكم ! . . »

وكان ينطلق فى الصفوف المتربصة به حين احتدام الوغى وثوران رهجه ، حاسراً بلا عصابة ، عاطلا بلا درع . فإذا خاف صحبه عليه مغبة إقدامه ، ابتسم وقال بغير مبالاة :

« أبالموت تخوفونى ؟ . . إن على من الله جنة حصينة ، فإذا جاء يومى انفرجت عنى وأسلمتنى . فحينئذ لا يطيش السهم ، ولا يبرأ الكلم ! . . »

كلا لم ترده عن قتال أعدائه خشية الموت ، والموت على الخلائق لزام ، وعلى المؤمن صلاة وقيام ! . . إنما كان يستأنى بأهل العناد طاقة جهده واصطباره لعل أحلامهم تصيب من بعد جهالة ، أو تؤوب للهدى من ضلالة . فالقضية قضية الكافة . قضية الإسلام . لا لمعاوية ولا الإمام . وحين يتهيأ للنجل ، ويهتز للحصاد ، لن يتخير من الثمار ! . .

ومضت صفين . مضت على وجهها إلى غايتها فى طريق لين من الأمن قد اعترضته صنوف كثيرة من صخر الحرب ، ومن حفر الموت ، ومن جداول الدم المسفوك ! . . عاشت من عمر الدنيا نحوا من مائة يوم ، ومن أجل القتل نحوا من تسعين وقعة . ولكنه قتال — فى أعظم حالاته — كأنى أدنى إلى المناوشة والغارة . لا حسم فيه ولا فصل ، ولا تجييش بالعدة كلها وبالعدد كله . إنما كان على يأمر الرجل من أصحابه ، فيخرج فى جماعة من المقاتلة تلقى جماعة من عدوه ، فيقتتلان فى اليوم مرة ، وفى اليوم مرتين ، ثم تؤوب كل فرقة إلى جيشها عند ما يغرب النهار . يخرج الأشتر آونة ، ويخرج قيس آونة ، ويخرج غير هذا وذلك ، كل فى يوم ، من أعوان الإمام الأباة ، أبطال يناجزون من جنود معاوية النظائر الأمثال . . .

مناجزات أوشكت أن تكون فردية . حرب ولا حرب . صراع مائع استغرق كل ذى الحجة كأنما خشى كلا الفريقين أن يتقدم بكل جمعه إلى القتال مخافة الهلكة والاستئصال . فدعوة الصلح آسرة . والرجاء فى السلام لم يغض معينه . ودعاة التوفيق من أهل الورع والقراء لا يزالون يحرثون النفوس ليغرسوا السكينة — النية خالصة ، أو حسبها جلهم كذلك ! . .

وحين أقبل المحرم ، أغمد السيف ، وجف الدم ، وانبرى اللسان والقلم ! .. الشهر الحرام فاء بالناس للموادعة . حنهم أمنه على تلمس الأمن . دفعهم عرفه لطى الضغينة . . . فلما استهل الهلال جرت الرسل كرة أخرى تلوح براية السلم ، وتعمل لحقن الدماء ومنع البلاء . . .

حتى معاوية بدا فى قومه كالساعى للوحدة . ما كان ليحجم ، والملأ أوشكوا أن يعقدوا الأمل على صلح لمع بريقه فى الخواطر ، وتجاوبت ببشراه الأنفس حتى خايل العيون النواظر . . إنه لم يرم وحدة ، ولم يجد لألفة ، ولم يتطلع إلى وئام بجيشه على حساب أطماعه وأنقاض طموحه ومراميه . ولكنه شهد الناس قد هفوا إلى الحياة الرخية فى ظلال الإخاء والطمأنينة ، فشق عليه أن تذوب أحلامه العريضة كما تذوب الظلال فى سطعة النور : وأن يخالف جمعهم فيكشفوه داعية شقاق وعدو وفاق . لم تكن له حيلة إلا التظاهر بالسير فى غمار هذه الرغبات التى انبثقت عينها من قلوب المجموع . . . وإنه ليفكر . وإنه ليدير أمره ويشحذ حرصه وحذره فلا يعييه أن يصطنع الوسيلة التى تبديه مسهما فى الهدف العام ، ثم تدنيه من أحلامه ! . .

يبعث برسل إلى على ، ظاهر دعوتهم ألفة وخبيئها خلاف يرددون عنده ثانية ما أسلف به صاحبهم ، ويطلبون منه المحال ، وهم يعلمون أنه محال ؟ . . يقول قائلهم :

« . . . إن عثمان كان خليفة مهديا ، يعمل بكتاب الله ، وينيب إلى أمر الله . فاستثقلتم حياته ، واستبطأتم وفاته ، فعدوتم عليه فقتلتموه . . . فادفع إلينا قتلة عثمان نقتلهم به . فإن قلت إنك لم تقتله ، فاعتزل أمر الناس فيكون أمرهم هذا شورى بينهم ، يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم . . . »

فكم من ذريعة مصنوعة . وكم من حديث مثله معاد ! . .

ويتلهب بينهم وبين الإمام النقاش . هم على إفكهم ، وهو على حقه ، لا ينحرفون شعرة عن عنادهم وغيهم ، وإن أتاهم بالحجة الواضحة ، والبينة المسفرة الوضيئة كإشراقة النهار . فما لهم من سبيل سوى خلافه ولا من غاية إلا نزعه من حيث نصبه الناس . . . وحق عند ما يحاول أن يثير فيهم عاطفة الولاء التي يكنها كل مسلم غيرهم للرسول الكريم ، بعد أن غلفوا قلوبهم عن براهينه ، يبدون كأنهم فى غير واديه . أفئدتهم صخر . آذانهم بها وقر . أبصارهم عليها غشاء . . . لا يكادون يفقهون قوله أو تهزهم دعوته وهو يعظهم وينشدهم الله :

« . . . عجبنا لكم ، ولإجلابكم معه ، وانقيادكم له ، وتدعون أهل بيت نبيكم الذين لا ينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ، ولا أن تعدلوا بهم أحدا من الناس . . . إنى أدعوكم إلى كتاب لله عز وجل ، وسنة نبيكم ، وإماتة الباطل ، وإحياء معالم الدين . . . أقول قولى هذا وأستغفر الله لنا ، ولكل مؤمن ومؤمنة ، ومسلم ومسلمة » .

غير أنها دعوة إن لقيت اليوم منهم الصمم وهى وسيلة إلى رأب الصدع ، فسوف تكون فى غد صرختهم وهى وسيلة لبذر الفتنة . . . فالله ليس غايتهم : لكنه — علا وجل — سيلوحون باسمه راية لهم قد لونوا أديمها النقى بالبهتان . وعندما يضطرب أمرهم بينهم ، ويأكلهم الوهن ، وتستشرى فى صفوفهم حريق الهزيمة ، سيحملون الكتاب ، ويهتفون بالله ، ويتنادى شياطينهم بدعوة حق سخروها لباطل ، ولوثوا وجهها بالضلال .

وكذلك تظاهر معاوية بالرغبة الجادة فى تلمس وسائل الوئام والسلام وهو ينفخ غير وان فى نيران الفتنة ويعمل جاهدا للانقسام . . . وما كانت رسله إلا غشاوة تخفى غرضه عن نظرة الغافل ، وفهم الجاهل ، وإدراك الفئة المفتونة من عصبته الذين يشدهم هواهم إليه ، ونشب دنياهم ، ومواجد قلوبهم كما يقاد البعير الغرير لنصل الجزار ! . . وما كان دعاؤه سوى نفاق ، أريد به لى الأعين عن حقيقة آرابه التى شف عنها كدحه الحثيث لاحتلاب السلطة ، وامتلاك أعنة الأمور فى الإسلام . فلقد علم ولما يبعث برسله هؤلاء ، ومن قبل علم ، ومن بعد علم ، ألا رأى له فى بيعة أبرمها من لهم وحدهم حينئذاك حق الإبرام — وهم خلاصة

المهاجرين والأنصار بالمدينة — إلا أن يوافق فتنتظمه الجماعة وتلزمه الطاعة ، أو يخالف فيخرج على النظام . ولكنه أباح نفسه ما لا يباح ، وأقحمها غير حقه وموضعه . . .

فشل وفده ، وعادوا إليه ينبئونه بما هو به عليم ! . . وفشل قبله وبعده غيره من الوفود . لكن ابن هند كان دائما يتصيد من الفشل كل نهزة قد تدنيه هونا من هدفه ، يعز بها عند رجاله ، ويثغر بسنها فى صفوف خصمه وأسواره ما وسعه تحين الظروف . فلم يكن يدع الوعيد ، يلوح به كلما جاءه من على رسول يحدثه ، إن حسب وعيده مبلغه من نفس الوافد بعض ما يرتجيه . ولا كان يكتم المصانعة واكتساء الرياء حين يظن فى التملق الشفاء . ولا قعد مرة عن إثارة طمع الأنفس إذا قدر أنها تسترقها الشهوة وتستذلها العروض ، أيما باب ولجه وأيما محراب اعتلاه ! . . وهو فى هذا كله كان دائبا على خلط المداجاة بالوقيعة :

عب وقعه الماء ، يأتيه بشير وشبث وسعيد ، بعثة من لدن أمير المؤمنين ، يدعونه إلى الطاعة . فما يكاد شبث يتقدم رفيقه سعيد بن قيس إلى الكلام ، حتى يلقف العامل المرائى هذه البادرة ، فيدع الأمر الذى جاءوا فيه ، ويحاول أن ينفذ بين الصاحبين بدسه الرخيص . . .

يقبل على شبث معنفا يلومه وهو يظهر الغضب عليه من أجل سعيد :

« . . . إن أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك : قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه — ! » .

لكنها وقيعة رمى بها الرفيقان دبر الآذان ! . . .

. . . وفى المحرم . حين يعوده شبث وعدى ويزيد وزياد ، وفدا آخر من لدن على ، لا يكاد الرجل يلقى باله إلى دعوة السلام إلا بقدر ما يبيحه إياه حرصه على الظهور كالموادع المسالم . فإذا صك سمعه من الدعوة نبأ نكبة الزبير وطلحة ، استأسد وثار . . .

يقول له عدى بن حاتم :

« إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ، ويحقن الله به دماء المسلمين . . إن ابن عمك سيد المسلمين ، أفضلها سابقة ، وأحسنها فى الإسلام آثارا . وقد اجتمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذى رأوا فأتوا ، فلم يبق أحد

غيرك وغير من معك . . . فاتقه يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل » .

عند هذا يثور . لاتنفعه الذكرى ، ولا يصغى للعبرة . ولكنه يسرع — كأنما رأى فى هذه الإشارة الخلاص — فيزوق الكلام وعيدا حافلا برشاش زئيره ، يتهددهم به :

« كأنك جئت متهددا ولم تأت مصلحا ! . . هيهات ياعدى ! . . كلا والله ، إنى لابن حرب ، ما يقعقع لى بالشنان ! . . . » .

ثم لا يثوب به إلى فىء الهدأة أن يقطع علته زياد بن خصفة جنوحه إلى تلمس الأسباب المشاقة .

« أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب الأمثال لنا ! . . دع ما لا ينفع من القول والفعل ، وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه . . . » .

لاتثوب به هذه الملاينة إلى الهدى ، ثم لاتحمله إلى السكون إلا هنيهة يعد فيها دعاواه وافتراءه . فإذا أعد وهيأ فقد أتى كرة أخرى — وكم من كرة ! — بأباطيله التى جهد زمانا لتثير الشبهة حول مسلك الإمام . فهو عنده قاتل واتر ، أو محرض مؤامر ، أو منافح عن الجناة ناصر . ما لابن هند وسيلة يفلت بها من تقبل الدعوة الجامعة إلا هذا التيه من الجدال والإفك يلف فيه ويدور . ولا غاية له يرنو إليها بروحه إلا إفساد كل سعى هدفه الأمن وانتظام الأمور .. فلما أن فشلت الوفادة كمبتغاه ، وخرج الرسل من خبائه ، راح يدعو إليه خدعه يستنهضها أن تمده بالدسيسة .

وعندما يدهم الليل ، وتغفل الأعين إلا عين دساس خاتل ، يبعث الرجل إلى زياد من دون أصحابه الأخر يدعوه . . .

حينئذ تحسب يلبس الأسد جلد هرة ! . يبرد إرعاده ، ويختفى وعيده وتهديده ، وتتوارى فيه عزة المدل بنفسه وبأبيه خلف ستر من الملق والرياء ، نسجه كيده ، ورقشه وعده ، وزركشه نفثه وعقده ! . .

يقول لزياد بصوت لين تسيل منه الضراعة :

« يا أخا ربيعة . . . إن عليا قطع أرحامنا ، وقتل إمامنا ، وآوى قتلة

صاحبنا . وإنى أسألك النصرة عليه بأسرتك وعشيرتك ، ولك على عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أوليك أى المصرين أحببت . . . » .

حسب كل النفوس سلعة يشتريها الجاه . حسب كل القلوب بضاعة مزجاة فى سوق الحياة . حسب هذا التيمى مستجيبا لنفثه وتأليبه ثأرا لدم طلحة ابن أسرته الذى أراقه على على ثرى البصرة . . .

ثم يتربص . إنه ليرمق بطرف حيى — ما هو بحيى — آثار تحريضه وعهده على محيا الرسول . يخالسه النظرة ، وينتظر الغرة ، ويتبين الثغرة أقد أغارت عميقة فى ضميره فهان أم هو جل عن الهوان . . .

ورنا نحوه زياد بطرف ثابت ، جمدت أجفانه ، وقر إنسانه ، وبرق وميضه كوهج النار . . . هذه عين لا يعميها نشب . بصيرة لا يطمسها ذهب . هذا ذهن لا تفتله الحيلة إن بالعطية الشهية وإن بحمى الحية وإثارة الغضب للدم . هذا رجل يسير فى النور ! ...

وفى هدوء وسكينة تنفرج شفتا زياد عن كلمات ، قاطعة كالسيف ، لاسعة كالجذوة ، فيها عزة وكبرياء :

« يا معاوية ... إنى لعلى بينة من ربى ، وبما أنعم على ، فلن أكون ظهيرا للمجرمين ! . . » .

٩

تلا الإمام :

« إن ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليم . فتوكل على الله إنك على الحق المبين . إنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » .

فلقد جف الصبر . ذبل الرجاء والأمل . ذهبت الأيام والليالى السوالف جفاء لا غناء فيه ، ولا جنى أطلعته مع جهد الغرس ، ونصب السقيا ، وحرص الرعاية . فمن يطلب النبع فى سراب ؟ ومن ينشد الثمر فى صخر ؟ — الأنفس الموات لا تنضح بخير ! . .

ولم يندم على الزمان الذى تسرب من بين يديه تسرب القطرة فى الرمل بقدر ما أسى للمصير القدر ، والمحنة المقبلة ، والدم المضيع بثرى صفين يهم أن يسطر بسن الموت على أمته الشكل والوهن والخراب . . . فهو أسيف . وهو واله محزون . وهو جو براه شجنه ، يكاد دمعه يبل صدره لولا أن بكى القلب فغاض النبع فى مآقى العيون ! . . فما هذه إلا معركته — هذا الجهاد السلمى الذى شمر له قرابة العام ، ولهج به ، ودعا إليه ليعلى كلة الإسلام ، وهو الوقعة الكبرى التى ود بروحه ولبه وعصبه لو حاز النصر من غمارها ونال لقومه الأمن والإخاء والعزة . . . لكن حملة السلام التى أعدها . ثم قادها ، لقيت الهزيمة ! . . كسرها الجشع والهوى والأحقاد . وعندما يظهر ذات يوم عدوه ، ويطأ الأمة المنكوبة بقدميه ، وينشر فوق ربوعها الحزينة حكمه كالظلال السوداء التى تبسطها الظلمة ، فلن يكون نصر ذلك الغريم صدى لخطره وقدره ، ولا نتيجة لجلده وصبره ، ولا وليد نصيره ونفره ، بل النهاية الطبيعية لهذه الدبرة التى أصابت عليا وهو يكافح كفاحه المرير فى وقعة السلام ! . .

فلولا أن قد علم المبغضون للإمام نيته ، وسبروا غوره وسره ونجواه ، لجنى الناس على الحقيقة فظلموه . . . وكم ظلمه إلى الساعة أناس ، وقد أزموه هذه النتيجة التى انجلت عنها فى البدء صفين ، ثم من بعد الخدعة الضالة المضلة التى انفرجت عنها مهزلة التحكيم ! . . تترفق طائفة فتراه غفل . وتغلو طائفة فتراه ضل . ثم يوشك الذين يقيسون الأمور بالخواتيم ، ويحكمون على الخطة بعقباها دون تدبر الظروف الطارئة والعوامل الدخيلة التى تنكث الخيوط وتمحو الخطوط ، أن يصوروا ابن أبى طالب قد مد يده عن غير تبصر فصاغ بنفسه المصير المؤسف الذى آل إليه عهده المقلقل القصير . . .

هذه المصابرة التى طاول بها على خصمه الشهور الطويلة كانت الحجة القائمة عليه من كل ناقد ألصق به مغبة انتكاث الأمور وألزمه بوار نضاله وسعيه : « فلو أنه عاجل غريمه ! » . . . . . . « فلو اقتحم على معاوية الشام غداة ظفره العزيز فى البصرة » . . . . . . « فلو حرمه وجنده شربة الماء ثم أباحهم الظمأ والسيف عقيب وقعة الفرات ! » . . . . . . ولكنها ومثلها فروض

معتسفة ، تهاوت جميعا تحت طرقات الواقع الذى هدمها بعوله ، وأقام الإمام على أنقاضها وخرائبها ، رافع الرأس ، منيع الجانب عندما انتزع النصر من براثن عصبة عاتية ، مثل ضعفين من جنوده . جمعها الجشع فأدلت ، ثم أكلها الفزع فتولت تنشد السلامة فى الهرب بجلدها من ميدان صفين ! . .

كلا ، لم تضاره المصابرة ، لم تنل من عزمه ، ولم تفل حده المشحوذ للقتال . لم تعد خصمه المتربص بأى عامل من عوامل الفوز والتفوق . ما من علة أزجاها ناقد . وما من فرض ساقه عاذل ، كانت له أصبع فى النتيجة الحربية التى انجاب عنها غبار المعركة . بل هى كلها ، فيما أحسب ، ذرائع مصنوعة أريد بها بعد الوقعة النيل من تبصر على ، ومن قدره السياسى إن لم تكن ستاراً حاجزاً يخفى خلفه هذه الخيانة التى قارفها دعاة التحكيم فإنما ضاره رفاقه . حفنة منهم لها حول ، وفيها نزغ ، ومن مواضيها القديمة انبثقت الإحن والشكوك والغيرة ، ونظائرها من النوازع النفسية ، انبثاق القيح من القروح ! . وما كان للعامة فى جيشه عند ذاك إلا أن يتابعوا خاصتهم وقد رأوهم اللحظة — والأسنة حواصد — يدعونهم إلى كتاب الله كما طالما ردد الإمام . . .

فكأنى بعلى قد شفت له الأنفس المغشوشة عن دخيلتها ، فسبق بذهنه ضعفها وترددها ، حينما حث قومه على الصدق عند اللقاء ، والجد فى المناجزة ، والتشبث بحقهم أن ينفرط منهم عقده إذا مسهم ضر . أو جنحت طائفة من النفوس المسترية لخور . . . يحضهم وقد مارى معاوية ورجاله ، وحادوا حيادا عن دعاء السـلام :

« لا يكون هؤلاء بأولى فى الجد فى ضلالتهم منكم فى حقكم وطاعة إمامكم . . . . . »

ثم يتلو عليهم :

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ، إن الله مع الصابرين . »

فإن يكونوا تنازعوا من بعد وهان أمرهم عليهم ، حتى غدوا وقد أضلهم عنادهم ، لا يعرفون الحق كمعرفتهم الباطل ، ولا يبطلون الباطل كإبطالهم الحق . وحتى بلغ من جحودهم ومن كنودهم أن بات على وهو الغرض الذى أوشكوا أن

يرموه بالنواصل ، ويطأوه بالمناسم . . . وحق ذلوا كذلة الساعة فود لو صارفه بهم معاوية واحدا من رجاله بكل عشرة منهم — إن يكونوا قد لجوا فى العمى والجهالة ، وأخذتهم الغفلة — وهم الأعلون — فسهم الوهن ، وحصبتهم الفرقة ، وتداعى اجتماعهم تداعى الرداء الخلق مزقته الخروق ، فما انفراجهم حينذاك عنه إلى رجع نزعات أنفس مريضة مال بها عن الجادة خيال ذهن ، أو ضيق عطن ، أو غرور حمق ، صورت لهم جهلهم معرفة ، وغفلتهم حكمة ، وعماهم بصيرة . . .

وندع الذى يكنه الزمن فى ضميره إلى ساعاته . . . فالحوادث وشيكة أن تسير فى طريقها المقدور . والمحن تهم أن تتلاحق بأخذ بعضها بذيل بعض كإبل القافلة ... فإن هى إلا أيام ثم يسفر الصبح الذى ننتظر إقباله — وما ارتجيناه ! — كئيب الطلعة ، علية غبرة أعلته فى الأعصر . . .

* * *

ومضى المحرم . .

مضى بالأمل والرجاء وحلم هانىء رلود الخواطر وخالج القلوب ببشراه حتى أوشك السلام أن يكون بعض خفقها الرتيب . . .

وحل صفر . . .

لمع هلاله فى سمائه ، والنفوس مشحونة بيأسها وهمها وشكها فى لياليه ، حتى رأته كالجذوة الكفيلة بإرسال شررها على الأنام ، وملء الدنيا بسحب الدخان ولظى الحريق . . .

النهار ينسلخ من نوره . الشمس تنحدر نحو العتمة بقايا الضياء القرمزى الذى يسكبه الشفق يغمر جانب الأفق بألسن حمراء متقدة تشيع فى القوم العرق والفتور ... فالصيف فى أوجه ، وحره يلفح الخضرة فتذبل ، ويلمس القطرة فتجف ، ويلوح البدن بمثل سمرة السنابل . . . حتى فى هذه اللحظة التى سرحت خلالها ظلال الغروب ، ولف ثوبها الأغبر الساحة ، وخطر الجند فى غواشيها كالأشباح لا تتبين الأعين منها خطوط الملامح ، كان الهواء أنفاس شكلى محزونة ! . . .

ومن بين أطياف العتمة الوليدة . انطلق مرثد بن الحارث الجشمي ، تزاحمت على ردائه الناصع غبرة الغسق ، وحمرة الشفق ، ونقع الرمال الذى نثرته نسمة الليل ، يوسع الخطا وهو ساكن الجأش جامد القسمات ، كأنما يسر همه عن محياه ! . فلما غدا على مسمع من معسكر عدوه ، تحدث شجوه على ملامحه ، وعلا صوته يملأ الفضاء والسماء :

« يا أهل الشام ! . »

وكان الصدى يردد وراءه :

« يا أهل الشام ! . . »

إن أمير المؤمنين يقول لكم : إنى قد استدمتكم ، واستأنيت بكم ، لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه . واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه ، فلم تتناهوا عن طغيان ، ولم تجيبوا إلى حق . . . والله ما كففنا عنكم شكا فى أمركم ! ولا بقياً عليكم . . . وإنما كففنا عنكم لخروج المحرم — ثم انسلخ ! . .

يا أهل الشام ! . .

« إنى قد نبذت إليكم على سواء . . . إن الله لا يحب الخائنين . »

وترك فيهم نذيرا راعدا رددته الفلاة ، هز القفر ، وحرك الماء ، ورج دويه السمع والفؤاد . مضى جمعهم يقلبه بين جد وحيرة ، وبين وجل وأمل ، وبين ندم على الوعد الذاهب ، ورهبة للوعيد القريب . . .

وعند ما آب مرثد إلى معسكره ، كان الإمام قد قام فى رجاله يدور عليهم بمنازلهم : يحثهم ، ويهيئ صفوفهم ، ويعقد الألوية والرايات . . . الليلة بطولها لم يزرهم النوم . إنما عنوا لأمره وهو ينطلق بينهم كالنسمة السارية ، من جانب إلى جانب ، ومن قوم لآخر ، لا تكل حركته . . . حتى إذا بدا لهم خيط الفجر فى ناحية المشرق ، كانوا كتائب مرصوصة ، تخفق أعلامهم ، ويلتمع سلاحهم فى ضياء النهار . . .

ووقف بينهم يبصرهم . . . ما من مرة مثلها تواقفوا والسيوف شرع ، والحتوف دانية ، وإلا أخذهم فيها بمناهجه ، وحثهم أن يستمسكوا بسنة الفروسية ، وشريعة النبل والمروءة :

« لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة ، وتركـكم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى لـكم عليهم . . .

فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبرا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تـكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل . . .

فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا دار إلا بإذنى ، ولا تأخذوا شيئا من أموالهم إلا ما وجدتم فى عسكرهم . . . ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وتناولن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول . . . . . . » .

غير أن القتال لم تتأجج ناره وتعلو هجيره عقب هذا النذير . انتهى حقا ترفق الناس بالناس ، وسياسة الموادعة واللين ، والاعتزاز بالرجاء والألفة . ولـكن صفر شهدهم مرة أخرى ، كما شهدهم قبله ذو الحجة ، يقدمون الحذر ، ويؤخرون الشدة ، ويجعلون على نفوسهم رقيبا أن تغلو فى خصومتها غلوا ينجب الفناء ويجتث منهم الأصول والجذور . إنما حركوا الألسنة فى أكفهم بمقدار ، يجتزئون بهذه الفرقة لهـذه الفرقة ، وبذلك اللواء لذلك اللواء . لم يصطرعوا كافة ، لم يحركوا الرحى الحاصدة كرحى هواها لتطحن الثمر والزهر والبراعم ! . .

عشرة أيام تقضت عليهم وهم بهذه الحال . من ثانى أشهر العام السابع والثلاثين للهجرة ، من صبح غرته ، فى ذات الأربعاء . . . وكان العراق فى الحلبة نصف الشام . هان دونها عدة ، وإن لم يهن عليها قدرة وشدة . وكان أجناده قد استووا على القدم والأهبة . صفوفا متراصة : أحد عشر ، تقابل مثيلاتها من كتائب العدو ، ويواجه الصف منها قرينا يضم من أهل بطنه أو قبيله أو عشيرته من دفعته الخصومة إلى اللياذ بمعاوية . فإذا تنادوا بينهم بالنجاز ، انبرى الصف للصف ، فالتقى الأهل . يحارب الولد أباه ، والأب ابنه ، والأخ أخاه . . . الجياد تجاول . والفوارس تصاول والرجالة تنازل ما وسعهم صبر اليوم ، ثم لايكاد يحمزهم البأس وتحفزهم الوقدة حتى يتراجع الجمعان : كل فرقة إلى صفوفها ولما يقاربوا النصر أو تقارعهم الهزيمة . .

فـكأن النفوس كانت ما تزال تختزن — حتف لددها — بقية من حرص على الدم ، وطمع فى السلم ، فى كلا العسكرين كانت الرغبة فى تلمس الأمن والأمان

كالجذوة الحمراء تحت الرماد . . . حتى الأشتر عندما قاد أولى الكتائب . في أول وقعة ، في أول يوم لم يعض بعنفه إلى مداه أو إلى عتمة الليل . . . وحتى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص . . . وحتى ابن عباس أيضا طاول جهده إلى الظهيرة . . .

ولم يكن هذا منهم شكا في هدف . ولا قعودا عن غاية . ولكنها كانت حينذاك طبيعة القتال الذي يمسكه الحرص على الدم ، وتمنعه الخشية من المهلكة أن تجمح أداته إلى صراع موصول يأكل الناس بغير رخصة أو تحرز . وهي كذلك حال المعارك في ذلك الزمن ، تسير بمقدار ، هينة رخوة ، أولها شرار ، وآخرها دمار ونار . . . ومع هذا فلم تكن كلها مناوشات تجتلد فيها السيوف ساعة ثم تسكن . بل قد غلبت على بعضها سمات الوقائع الجادة التي يبدؤها اللقاء والكر وتختمها الهزيمة والنصر . . . وها هو عمار . حينما تثين نوبته ، يندفع إلى الغمرة وهو على بينة ، ويخوضها على متن عزمه ، فلا يكاد حسامه ينشرع في عينه ، وصفوفه تستوى أمامه ، ورجاله وفرسانه ينصتون له ، حتى يراها حرجة للجهاد ، ليست غارة موقوتة للمصاولة والجلاد . . .

ويهتف الرجل بجمعه ، وإن شوقه إلى الكفاح ليتألق على ملامح وجهه المضيم المعروق :

« يا أهل الإسلام . . . أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله ؟ — ألا إنه معاوية ! . . فالعنوه لعنة الله . وقاتلوه فإنه ممن يطفئ نور الله . ويظاهر أعداء الله ! . . . »

وعندئذ يهمس له امرؤ من رجاله :

« يا أبا اليقظان . . . ألم يقل رسول الله : قاتلوا الناس حتى يسلموا فإذا أسلموا عصموا مني دماءهم وأموالهم . . »

فيجيبه حازم الرأى قاطع النبرة بغير إمهال :

« بلى ! . . والله ما أسلموا ، ولكن استسلموا ، وأسروا الكفر حتى وجدوا عليه أعوانا . . . »

ثم يشد بفريقه شدة الواثق المطمئن على صف عمرو بن العاص . لا رخصة تردّه ولا رهبة تثنيه . كطفرة النمر ينطلق . كثورة السيل . كهبة العاصفة ! . . فلا يزال يخوض المنايا إلى عدوه — والمنايا حسيرة ! . . — حتى يحصد ، فيقتل ويثخن وتتداعى أمامه المقاتلة كالبناء المنهار ، تنفرج عن صاحبها ، وتتكشف عنه كشف الرداء الخلق عن عورة ! . .

ويتلفت عمرو . . . الصبر مزق ونثار . المنعة نسيج عنكبوت . المنافذ إلى الحياة مسدودة ! . . وفي غير ونى أو تردد يستجمع الثعلب المغلوب بقايا أجله ، ويصوغ من فزعه جناحين ، ثم يروغ — فالفرار أمن ، والهرب سلامة ! . .

١٠

ليست هجمة ابن ياسر وقعة فصل كتبت الخاتمة أو حسمت النزاع . كانت غارة بدأها كر ، وختمها نصر ، وتلتها بعد ذلك معارك جادة ، إن لم تكن قضت في الأيام القلائل الباقية على خصمه القضاء الأخير ، فقد صاغت الحروف التي تؤلف الهزيمة . . . كانت ضربة عنيفة سددتها إلى العدو دعوة حارة إلى الله ، وغضبة دوت لدينه ، وتهمة ألصقت الكفر والضلالة — دون ريث ولا تحرج — بصاحب الشام . . .

كانت حملة صدق وصبر ، لم يقف بها عن بلوغ غايتها نصب المقاتلة ، أو حذر المصرع . أو انحراف النهار . وكانت أيضا معركة دعوة ، سل فيها عمار سلاح العقيدة يلوح به ، ويهزه مشحوذا قاطما في وجه غريمه ، كهزه القناة والرمح فما معاوية بخصم سياسي حين يرد الخلاف إلى المبادئ لا إلى الأهداف . ما هو بمسلم وإن استسلم . ما هو أليف إيمان . إنما قهره على المدى — بل الطاعة — خوف الحتف وشفرة السيف ، والجزيرة حينذاك تجثو على ركبتيها طوعا وكرها أمام شوكة محمد ، وتخفض الجباه لله . . . وما حزبه الذين يظاهرونه اليوم إلا على نهجه ، لفهم بنزغه ، وطواهم كطيك السجل للكتاب في غلاف زيفه وزيغه . إن أضلتهم الغفلة فمعذرة لا تسعها مغفرة ، وإن فتنتهم الدنيا عن الآخرة

فتنة إلى حين ، ظلها زائل ، وعهدها حائل ، ومجدها خيال . . . والنفوس التى عنت له ، لم تغض منها كلها ينابيع الخير . فيها بقية ترعى الله . فيها قلوب تقشعت أكنتها ، كما انجاب الغيم — من هبة الريح — عن صفاء السماء . فيها أعين كشف الحق عنها غشاوتها فأبصرت النور . . . وعندما تسلل شمر بن أبرهة من معسكر معاوية ، فى طائفة من قراء أهل الشام ، فلحقوا بعلى ، كان ندمهم نذيرا زلزل على العاهل العاصى غروره ، وأوشك أن يذيقه التخاذل . .

وقال له عمرو :

« يا معاوية . . . إنك تريد أن تقاتل بأهل الشام رجلا له من محمد قرابة قريبة ، ورحم ماسة ، وقدم فى الإسلام لا يعتد أحد بمثله . . . إنه قد سار إليك بأصحاب محمد المعدودين ، وفرسانهم وقرائهم وأشرافهم ، ولهم فى النفوس مهابة . فبادر بأهل الشام مخاشن الوعر ، ومضايق الغيض . واحملهم على الجهد ، وأتهم من باب الطمع . . ومهما نسيت فلا تنس أنك على باطل ! . . »

لكن معاوية كان أقدر من خدينة على معالجة الموقف ، ومعاجلته بما يصلحه . فليس الجاه هو الذى يرد وحده إليه النفوس الشوارد ، والقلوب التى غدت تتذاءب اليوم بين دعوة باطل ، إن تكن مجزية فهى مخزية ، وبين دعوة حق تطيب لها الضمائر النقية ، وإن تأجل لها عن الحياة الجزاء . . ليست الدنيا هى التى تفتن المتشبث بآخرته . . ليست المنافع سبيل أصحاب الأنفس التى عليها من خشية ربهم حارس ومن إيمانها الخالص رقيب . إنما الدين وحده السبيل . التلويح به طلاؤه يمحو ويستر الأباطيل ! . .

وكذلك وقف معاوية فى أجناده ، على لسانه منطق التقى الخاشع ، وفى دخيلته نزغة المضل المخادع ، يقول بفيه ما ليس بقلبه :

« أيها الناس . . أعيرونا أنفسكم وجماجمكم ! . . لا تفشلوا ولا تخاذلوا ، فإن اليوم يوم خطار ، ويوم حقيقة وحفاظ . . إنكم على حق ، وبأيديكم حجة . إنما تقاتلون من نكث البيعة ، وسفك الدم الحرام ، فليس له فى السماء عاذر ! . . »

حتى ابن العاص قد ذهب أيضا يحاول امتشاق نفس السلاح الذى سله عليهم عمار . إنه خشى فتنة قومه ، ورجا فتنة عدوه ، فتراءى للناس بين الجمعين وقد

رفع رقعة سوداء فى رأس رمح كانت لواء عقده له ذات يوم رسول الله . فلما امتدت إليها الأعين . ولغطت بأمرها الألسن ، وحسبت فئة أنها علامة أدنت الرجل إلي الهدى . وبعدت به عن الريب فيه ، بادرهم الإمام يحذرهم الفتنة :

« هل تدرون ما أمر هذا اللواء ؟ . . »

قالوا له :

« هذا لواء عقده له رسول الله . . »

فأجابهم على :

« إن عدو الله عمرو بن العاص أخرج له رسول الله هذه الشقة فقال : (من يأخذها بما فيها ؟ ...) فقال عمرو : (وما فيها يا رسول الله ؟) . . . قال : (فيها ألا تقاتل بها مسلما ، ولا تقربها من كافر) . . . فأخذها . فقد والله قربها من المشركين . وقاتل بها المسلمين . . . »

ثم رفع وجهه إلي السماء ، وأصبعه تومئ إلى قبة الغاهل المتمرد المشاق ، وجأر بقسمه ودعواه :

« ... والذى فلق الحبة . وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا ، وأسروا الكفر ، فلما وجدوا أعوانا رجعوا إلي عداوتهم منا — إلا أنهم لم يدعوا الصلاة ! . »

واهتزت أنفس وترنحت خواطر ... الرأى ينقلب لنقيضه . الثقة تتزلزل وتنهار . الشكوك التي راودت فى معسكر الشام فئة ممن لم يبيعوا بعد قلوبهم للشيطان ، غدت يقينا باسق الفروع ، ثابت الأصل كجذور الدوحة . . . وكان عمار هو الذى حرك البركة الراكدة ، ورج ماءها الآسن الثقيل . وكان عزمه وصدقه وإصراره على الثبات فى الميدان حتى ينتزع النصر من عدوه ويثبيه عليه الهزيمة ، هى النواة التى أطلعت فى نفوس أقرانه من رجال الإمام زهرة الصبر ! ... فما مسح عن جبينه عرق الحرب ورهق النصب عندما غرب يومه ، حتى نشط أصحابه مثله إلى مواطن اللقاء يطلبون النزال ، ويتعجلون الآجال ، وينشد الرجل منهم الغلبة أو الشهادة ...

وحميت الوقدة . كل واحد من رفاق الإمام وخلصائه كان له فيها دور ، وله حملة ، وله جولة أدته ساعة من الظفر وساعة من الموت ... حتى ابن عباس

قد خرج إلى القتال مخرجه ... وحتى ابن على : محمد بن الحنفية . فلقد غدا القتال دولة بينهم يتركه كابر ليلقفه كابر ، كأنما القوم يحرصون على اقتسام شرفه بقسطاس ! ... بل الإمام أيضاً أوشك أن تدفعه النجدة إلى الغمار ، يقتحم عليه حرمه ولما يلتق الجيشان فى وقعة جامعة . فما هو أن قام عبيد الله بن عمر يتحدى محمدا ويدعوه : « أن اخرج إلى ! » حتى أخذه شغفه القديم بالمناجزة ، فنخس دابته إلى المدل المفتون :

« أنا أبارزك فهلم إلى ! ...

فبغتت الدعوة عبيد الله ، وبددت شجاعته ، وغاض على الأثر ماء اعتداده وزهوه . فإذا محياه يشحب . وإذا فرسه تستدير لتدبر . وإذا رمحه فى يمينه يسترخى كالسوط ! ...

وهمس الفتى وهو ينأى بعمره :

« ليس لى فى مبارزتك حاجة .. »

وعتب محمد على أبيه :

« منعتنى من مبارزته ! ... فوالله لو تركتنى لرجوت أن أقتله . . »

فابتسم على بسمة نضحت بحنانه وقال له :

« لو بارزته أنا لقتلته . ولو بارزته أنت لرجوت أن تقتله ، وما كنت آمن أن يقتلك ... »

لكن الحسرة لإفلات الفريسة الفارة دعت محمدا أن يراجعه :

« أتبرز بنفسك إلى هذا الفاسق اللئيم عدو الله ! ... والله لو أبوه يسألك المبارزة لرغبت بك عنه ! ... »

وعندئذ زجره الإمام ونهاه :

« يا بنى لا تذكر أباه ولا تقل فيه إلا خيرا ! ... يرحم الله أباه ... »

* * *

غير أنها — فترت أو استعرت — كانت كلها مناوشات لم تعل بأى الفريقين عن مواقعه ، ولم تنل منه إلى الغاية التى تسكتب عليه الخذلان ... كانت تجربة ! .. هكذا يشحذ الهمة ! ... نارا تصقل الصبر والعزم ! . . وحين لاحت الثمرة المريرة

جنية ، لم يكن هناك معدى عن اقتطافها ، ولوك لبها وقشرتها ثم انتظار كلمة القدر ! ...

وغدا الناس — ذلك اليوم الذى استنهض فيه معاوية أولياءه باسم الدين — والإمام بين أصحابه ، قد غلبت على محياه عبسته ، وتحدث الجد فى جبينه وعينيه ... فأصغوا له :

« حتى متى لا نناهض القوم بأجمعنا ؟ ... »

ولم تبارحهم الشمس ، أصيل يومهم وفى أدانى غروبه ، حتى رأوه متوكئاً على قوسه ، محيطة به الصفوة الباقية من أصحاب الرسول ، وهو يخاطب جموع المقاتلة والفرسان من جنوده :

« أيها الناس ...

اسمعوا مقالى ، وعوا كلامى !

إن الخيلاء من التجبر . وإن النخوة من التكبر . وإن الشيطان عدو حاضر يعدكم الباطل ... ... شرائع الدين واحدة . وسبله قاصدة . من أخذ بها لحق ، ومن تركها مرق ، ومن فارقها محق ...

ليس المسلم بالخائن إذا اؤتمن ، ولا بالمخلف إذا وعد ، ولا بالكذاب إذا نطق . ونحن أهل بيت الرحمة ، وقولنا الصدق ، وفعلنا الفضل . منا خاتم النبيين ، وفينا قادة الإسلام ...

ألا وإن من أعجب العجائب أن معاوية بن أبى سفيان الأموى وعمرو ابن العاص السهمى أصبحا يحرضان الناس على طلب الدين بزعمهما ! . . وقد علمتم أنى لم أخالف رسول الله قط ، ولم أعصه فى أمر قط . أقيه بنفسى فى المواطن التى ينكص فيها الأبطال ، وترعد فيها الفرائص : نجدة أكرمنى الله بها ، فله الحمد ...

أيها الناس . .

وايم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها إلا ما شاء الله . . . »

فرجف عمار . . .

لقد كان الشيخ الجليل ذا بصيرة نفاذة تستطيع أن تبلغ من اللفظ مدلوله الخفي الذي يتسلل إلى اللب ولا يطرق المسامع . فلما انتهى الإمام من قوله ، زلزله ختامه وأحزنه ، وخد في وجهه الهزيل خطوطا أعمق مما حفرت أصابع التسعين ! . . .

وهمس الرجل للذين حوله وهو مهموم :

« أما أمير المؤمنين فقد أعلمكم أن الأمة لن تستقيم عليه أولا ، ولن تستقيم عليه آخرا ! . . »

وسجل القدر ! . . .

١١

في معسكر معاوية ، ساد الهرج ، وشاع الهمس ، واضطربت النفوس والأنفاس حين حملت إليه نسمة الصبح نذير الحرب ينادى به عليهم منادى الإمام :

« يا أهل الشام ! . . اغدوا على مصافكم . . . »

ومضت الصيحة . وكان صباح كالليل ! . . .

كان اليوم غرة الأربعاء . . . الشمس تدرج في مهدها البعيد عند حد المشرق . خطاها وسنانة . نهارها يحبو على خيوط الأشعة . سناها تصبغ السكون أطيافه . . . وكان دفئها رطيبا كريح الشمال . رقيقا كقطرة الطل . رقيقا كأوراق الزهرة ليس فيه من وقدة حامية تنبئ بهذه الشعلة التي ستجتاح الموقع عندما ينتهي البكور . . . وكان أفقها من عسجد ولازورد ولجين ، نقى الصفحة كقلب الوليد . لم تشبه الحمرة القانية التي لن يلبث أن يعكسها على صفاته مكان الحومة حينما يبله الدم ... السلام على الأرض ، والهلاك في الخاطر . وهذه الهدأة التي لفت الميدان ساعة البكرة بستر السكينة ، كانت غشاء خادعا ، كسطح الماء في المحيط ، يخفي تحته اصطراع الحياة والموت ، العسف والقوة ، جواهر الحقيقة وأصداف الزيف ! . . فما من سنة الطبيعة أن يتوافق ضدان ، ويأتلف نقيضان . . .

ظهرت المنايا وبرزت الأحيان ! . . الآن توشك الرحى أن تدور . الوغى الحاصدة تتربص وتشحذ الظفر والناب . الأرواح توافقت على مخارج الجروح . والمفاتيح : رءوس الأسنة ومشافر السيوف ، فى يد القدر ، ثم عدها فتفتح بها محابس الدم ، ثم تدعه والانطلاق ! . . .

عشية الأمس خطب على رجاله :

« الحمد لله الذى لا يبرم ما نقض . ولا ينقض ما أبرم .. لو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة ولا من خلقه ، ولا تنازع البشر فى شىء من أمره ، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله ... ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، وجعل الآخرة عنده دار الجزاء والقرار ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . . . »

ثم رزق رقمة البقيا وأعلن الجد فى الشدة :

« . . . ألا إنكم لاقوا العدو غدا . . . اسألوا الله الصبر والنصر ، والقوهم بالجد والحزم ، وكونوا صادقين . . . »

ومضى بينهم . طوال ساعات تلك الليلة الفاصلة راح يعدهم للصراع الخطير الذى سيسفر النهار عنه ، فيكتبهم ، ويسوى صفوفهم ، ويقدم دارعهم على حاسرهم ، ويعدهم للقاء ربهم بالشهادة فيحصن نفوسهم بذكره ، ويطيل وإياهم القيام ، ويتلو القرآن ...

وعندما برح الليل . وانقشع سواده انقشاع الغمامة ، وأقبلت من المشرق طليعة النور ، دعا عدوه للنزال ، فليس يرضى أن يأتيهم من غرة ، وما من طبعه مباغتة غافل ...

وعندما صاح داعيه ، ودوى فى الهدأة نذيره ، أصبح معاوية وجنوده على بينة ...

ومع ذلك فقد شاع فيها الهرج ، وسرى الهمس ، واضطراب نفس وأشفقت نفس ... الأفئدة فى صدورها تواثبت . والقلوب فى مقارها ارتجت . لا بقيا بعد ، لا هوادة اليوم فقد مضت فترة التجاوز الرخى التى حسبوها موصولة على

النهر والليالى ، ومطوها جهدهم ليسأم على مقامه ، ويثلم سيفه ، وتفتر عزائم رفاقه عن القتال ...

* * *

وهتف صاحب الشام فى عجلة ، ولما تنفض النوم أهدابه :

« أين الجند المقدم ؟ ... »

فخرج له أبو الأعور السلمى على كتيبة

ثم هتف ثانية ، وقد ثبت قليلا لحظ عينيه :

« أين أهل الأردن ؟ . »

فجاءوا يسعون . . .

ثم هتف ثالثة ، وقلبه ركين كالصخرة :

« ... وجند الأمير ؟ . . »

وما فتئ يهتف والكتائب تأتيه ، كتيبة كتيبة ، وفرقة فرقة ، فى سلاحها وأدراعها ، وعلى ألويتها وراياتها : جموعا غفيرة تشد عزمه وهمته يذوق نصفها كل أعدائه ...

وحينما غدوا على أهبة ، وجال بين الصفوف ينظر ، ويعجم القدر ويسبر الغور ، لم تهزه فيهم بادرة من بوادر الخور والتخاذل . . . فقد ذهب عنهم الروع ، وانجاب الهرج الذى أشاعته بغتة الدعوة . الثقة فى القلوب ، والعزيمة على الملامح . فما بهم هياب . ولا هم بأحلاف جبن ، وإن شطحت بهم منازع الهوى وحملتهم بعيدا عن الجادة . وعند ما بان الجد ، انبرت فرقة إلى معاوية فبايعته على الموت ، وأخذت نفسها بالذود عنه ، أو تتخطف رءوسها المصارع . فإذا بهم يطيفون به ، ويبنون حوله سياجا ساترا : خمسة صفوف كأنها قلعة حصينة ذات أسوار ، إن انثلمت فى سور ثغره . سارعت صدور من الذى يليه تسدها بالقلوب والجماجم ! . . فهو بها فى جنة غير مخروقة . عزيزة على الهجمة والغارة ، منيعة على الإقدام والجسارة ، لا تنفرج عنه إلا أن تشقها جميعا المنية ... وعند ما تواقف المقاتلة ، وتهيأوا لخوض الحومة أقبلت « عك » تهزها حميتها فتعاقد رجالها على الصبر كالأوتاد فوق أرض الموقع . وجاءوا بحجر فوضعوه بينهم ، ثم تهاتفوا بلسانهم الذى كان يبدل الكاف بالجيم :

« لا نفر حتى يفر هذا العسكر ! . . »

وقد صدقوا وعدهم وكانوا رجال صبر ، لهم فى سجل البطولة أقدار مسطورة وصحائف مسجورة ، يعصف الفناء بهم فلا يريعون ، ويبغي فينثنى ولا ينثنون . كأنما سمروا أقدامهم فى مواطئها ، وحالفوا الموت والثبات ! . .

على أن هذه العزائم الجبارة لم تكن بالتى تلهى معاوية ورفيقه عن تلمس الحرص والتشبث بأسباب الحذر والحيطة . فما إن تواقف الجمعان على أهبة تهفو قلوبهم إلى التحاجز قبل اشتباك الأسنة ، حتى تذاكر الرجلان الأمر ساعة أفضت بهما إلى وجوب تنظيم الجيش على أسلوب مغاير ...

وقال العاهل لصاحبه :

« فما الرأى ؟ .. »

قال عمرو بن العاص :

« قد عرفت ما بيننا من العهد والعقد ، فاعصب هذا الأمر برأسى »

« إنى أفعل » .

« وأرسل إلى أبى الأعور فنحه عنى ودعنى والقوم ... »

فسرح معاوية صاحب مقدمته عن موقع ابن العاص إلى غير بعيد ، على تل :

« يا سفيان . إن لأبى عبد الله رأيا وتجربة ليست لى ولا لك . وقد وليته أعنة الخيل فسر ... ودعه والقوم ... »

وأقبل عمرو بعد ذلك على واجبه ، ينظم ويغير ويرتب صفوف المقاتلة من فرسان ورجالة ، حسبما رأى بنظرة القائد الذى صقلته تجربته ومرسته الحروب ... وكان يعينه على أمره ابناه : عبد الله ومحمد . فالعدو الماثل حياله عنيد ، على الذكر فى مجالى الطعان ، يرمى عن القدر والمنية ! .. والجنود الذين يظلهم لواؤه ، أقدموا لأمر أقصاه شهادة وأدناه نصر ! ... وعند ما تركوا خلفهم ديارهم التى نأت عن الضوامر الجرد والرواحل الشديدة ، كانوا قد ادرعوا بالإيمان ، وتحصنوا بالخطة ، وإن قل نفرهم وناصرهم . فليست تغنى فى لقائهم ساعة الحومة حشود ككسف الليل لا ينتظمها نهج محكم يسدد خطوها فى القتال ...

وقال عمرو لولديه :

« إن هؤلاء قد جاءوا بخطة بلغت السماء ! .. قدما لى هذه الدرع ، وأخرا عنى هذه الحسر ... »

فمضيا ينفذان ...

ثم راح يمشى بنفسه بين الزمر ، فغير وبدل ، وأقر وعدل ... فلما أحسن الصف والتسوية ، وطاب خاطرا بما فعله ، أقام لنفسه منبرا بين جيشه فى موقع يشرف منه على المكان ، ويحرك وهو فيه أجناده إلى خطوطهم عندما يدوى النفير . ويتسعر السعير ... وإنه ليأمر فتطيف به جحافل من اليمن ليكون فى جنة مانعة ويكونوا حوله كأسوار القلعة ، لا يخلص من خلالهم إليه حاسر أو دارع ، ولا يستطيع امرؤ أن يروعه بشر :

« لا يقربن هذا المنبر أحد إلا قتلتموه كائناً من كان ! .. »

كذلك دبر ، وكذلك فعل . غير أنها حيطة لم تكن كلها لوجه النزال . ولا بدافع من حرصه على التفوق واجتلاب راية النصر من ابن أبى طالب الرابض لهم على قيد الخطوة كأنه الليث يترصد الفريسة ! .. فما هو بغافل عن حقائق الحال : لغيره الظفر إن هو ظفر . ولغيره الثمرة إن هو غرس ، ثم سقى ، ثم اقتطفها وهى جنية شهية من سياج الأشواك ... إنه عبد طبعه ! .. إنه عمرو !. وحين يفى فليس وفاؤه وليد شغفه بالخلال الكريمة ، ولا صدى لطبيعة نقية قويمة أو سجية سوية سليمة ... كلا ، لا يهزه النبل ، ولا يهيم بالأريحية ، بل النفع وحدة هدفه ومرماه . الوفاء عنده له شرطه ، وكل جهد على قدر ثمنه ، والمحامد كلها مطايا لغايته ، كأنها فى جعبته سلعة يبيع منها بمقدار ! ..

هكذا بدا ذلك النهار ، وأمسه أيضا ، وبقية عمره على السواء . لم يتحيف على طبعه ، ولم ينحرف عن طريقه المرسوم الذى شقته نفسه المنهومة أبدا بجاه الحياة وزخرف السطوة ، فما همس برأى . ولا أدلى لصاحبه بمشورة ، ولا أشار بكلمة تكشف فرجة يستطيع معاوية من خلالها أن يستقبل القتال وهو آمن على مصيره إلا بعد أن أمن هو قبله على غايته التى رنت إليها أطماعه ... فلهذه الغاية قد جاء . ومن أجلها خاصم الحق ، وعنا للباطل ، ومال راضيا عن الجادة السواء ... من أجل الكسب والنفع والمأرب ! إنه ليصغى إلى معاوية فيميل

نحوه بكل سمعه ، ويشهد قلقه حين بغتته دعوة الحرب فيقلق له ، وينظر معه إلى جيشه وفيه ما فيه من اضطراب الخطوط وخلل المنازل فيهتم همه — ولكنه مع هذا كله يكتم الرأى عنه إلا بثمن ! ..

يشترط وقد استمانه معاوية :

« على أن لى حكمى ! ...

فيدهش العاهل :

« حكمك ؟ ... »

« نعم — إن قتل الله ابن أبى طالب ، واستوسقت لك الأمور ... »

« أليس حكمك فى مصر ؟ . . »

وعندئذ تنفرج شفتا المساوم عن بسمة لينة صفراء ، فيها ملق وجشع وسخرية :

« وهل مصر تكون عوضا عن الجنة ؟ ... وقتل ابن أبى طالب ثمنا لعذاب النار ؟ ... »

فلا يراجعه صاحب الشام ، إنما يحذره نقلة القالة إلى الآذان المتربصة للمآخذ ، ثم يمنيه :

« رويدا لا يسمع الناس كلامك ! ... ولك حكمك أبا عبد الله ... »

وما رآه أسرف حين منى ، ولا مولاه شط عندما تمنى ، فإنما هى حلبة بحلبة ، وعطية بجهد ، وسلعة بدينار أو دنانير ! ... ومن يطلب الحسناء يرخص المهر ! ...

أما على فقد صف على الأهبة رجاله ، كلهم راغب فى القتال مشوق له ، يكاد يسبق إليه أجله . فلما أن توطأت لهم مواقعهم ، وحشدت الكتائب ، وخفقت البنود ، صرخ بهم يحرضهم :

« ... إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . فسووا صفوفكم كالبنيان ... قدموا الدارع ، وأخروا الحاسر ... أميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل . والتووا فى أطراف الرماح فإنه أمور للأسنة .. وراياتكم فلا تميلوها ، ولا تزيلوها ، ولا تجعلوها إلا فى أيدى شجعانكم ، المانعى الذمار ، الصبر عند نزول الحقائق ، أهل الحفاظ ... ... »

لكن أرفع راية وأمنها كانت فى يمين صاحب ميمنته : عبد الله بن بديل ابن ورقاء . ولم تكن فى يد راعدة هيابة . ولم تكن رقعة من قماش ... وعند ما خطا القائد بين الصفوف فى رجاله ، يخاطب منهم الروح والقلب والبصيرة ، علقت الأعين بذلك العلم الذى نسجه الله ، وابن بديل قد رفعه إلى مدى ذراعه ...

وسمعوه يقول :

« أنتم والله على نور من ربكم ، وبرهان مبين ... قاتلوا الطغام الجفاة ، ولا تخشوهم . وكيف تخشونهم وفى أيديكم كتاب من ربكم طاهر مبرور ؟ »

وهز فى يمينه رايته : كتاب الله ، ثم زأر ، ونظره يرمى إلى عدوه بنار :

« قوموا إلى عدو الله ! . أتخشونهم ؟ ... فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ... ... »

١٢

غلبته الرحمة ! . .

الجحافل التى استقبلت فى الوغى جنوده لم تنل من عزمه . حشودها التى غشت الأرض كالضباب ، وانتشرت عليها كأرجال الجراد ، وأخفت معالم البقعة عن الأعين ، لم تمس قلبه برهة ... كانت الثقة موطئه ، والطمأنينة ملاذه ، والإيمان بالنصر هو السلاح الذى تهزه يمينه . وعند ما دفعه النهار على موجة ، ورده الليل على موجة ، وراحت حركة القتال فى مدها وجزرها ، تقبل به حينا وتدبر به حينا على متون أمواج تليها أمواج ، لم يطف بباله أن يدرأ الهزيمة المخوفة بالصلح إذ الهزيمة لم تدرله مطلقا ببال ، ولكنه كان ينظر إلى حمية أعدائه ، وإلى اندفاعهم فى غمرة الموت اندفاعة السهم عن قوسه . وإلى جموعهم الكثيفة كسحب الشتاء ، فيحميه عن الرهبة إيمانه ، وعن الفرق يقينه ، ثم يغنيه عن الكثرة المدلة بوفرتها روح له رق أمامه ستر المجهول حتى ليراه ! . . إنما ذاق من مرارة القلق والوجيعة حينما كسرت قلبه هذه الحرب التى أخذت تأكل وهى

منهومة كل مقدس من الصلات يجله البشر ، وتهدم كل آصرة ، وتستبيح كل حرمة للنسب والقرابة . فلقد مضى اليوم كله ، وبقى من الليل أقله ، والناس كافة ، من فريقه ومن مناوئيه ، فى حلبة كأنها غاب وكأنهم ذئاب ! .. حكمت بينهم شريعة القرون الأولى ، وطبيعة النسر والضيغم . يقتتلون كالوحش ، فينهش الرجل لحم ولده ، ويقطع الأخ جوارح أخيه ، وتسيل بينهم دماؤهم كالماء ! ..

وكان هو إبان الحومة يهتف برجاله كلما لاحت له من جانب العدو طائفة رفعت الأعلام وشدت القسى وهزت النبال وهى تبتدر للقتال :

« من هذه القبيلة ؟ .. »

فيقال :

« الأزد ... »

فيدعو إليه أزده ، ويأمرهم :

« أكفونى الأزد ؟ »

ثم يسأل :

« من القبيلة ؟ ... »

فيخبره قومه :

« خثعم ... »

فيقول لخثعم التى معه :

« أكفونيهم ! »

فأكانت العرب نفسها ! . جزت عنقها بيمناها وهى تنقاد للحمية ، ودعوة الدم ، ذلك اليوم من صفر فى صفين ، وقد حمزها الطعان ...

ولم يكن عليه فى هذا حرج ، فليس فى الحرب حريجة . ولم يعد به طوره كقائد ، ككل قائد قدير راشد ، يستقبل الأكفاء بالأكفاء ، ويوفر الأهبة للغلبة قبل أن يحين اللقاء ... فعن قوسه يرمى السهم . وآفة الشيء من جنسه . وليس أعرف بهذه الفئة أو بتلك من بنيها ، الذين جمعتها وإياهم وحدة الطبع ، وحد الاحتمال ، واتفاق حيل القتال . . .

غير أنه لم يصغ فيهم لدعوة الخصومة كل الإصغاء . فالضغن داء داوى نفسه من بلائه . والصبر اليوم على الأسنة فناء ، والسلم بقاء . . فكأنه اطلع من

مكانه ذلك بصفين على الدخائل المكنونة فأشفق أن تبذر محنة الحرب بكل قلب بذرة ، ثمرتها مرة ، سوف يجنيها على الزمان قومه فتطعمهم الصاب وتشربهم العذاب ! .. إنه الغد ، أو بعضه ، أو سويعات قلائل من الذى يليه ، ثم يلتهب ثأر بكل صدر ، وينشق قبر بكل دار ، وتنعقد على الرءوس سحب الأحزان ...

وخاف على قومه الهلكة . وخاف القلة والذلة بعد الوفرة وعزة الجناب . وخاف أيضا على هذه الصلات ذات القداسة ، التى خلقتها الأصلاب . وربطتها الأنساب ، وجعلها الله كالحرم أن تضطرب بها زلازل المواجد ، ثم تتهاوى على الثرى صريعة ...

عندئذ غلبته الرحمة ! ...

وكانت نتيجة القتال فى أصحابه ، ذلك اليوم ، عدل عقباه فى عدوه ، لم تعل كفة النصر بأولئك ، ولم تشل كفة الهزيمة بهؤلاء . ومع ذلك فقد أهاب بأعوانه الذين خضبهم العرق ، وملكتهم الحمية ، وهاجهم لون الدم يدعو فيهم ، ونفسه تسيل رقة ، بدعوة السلام :

« من يذهب بهذا المصحف إلى هؤلاء القوم ، فيدعوهم إلى ما فيه ؟ ... »

فبهت الناس . وأرسلوا نحوه عيونا محلقة جامدة الجفون والأهداب ، تفرسته مليا دون أن تطرف أو تريم كأنها خواء ! . . سلبها قوله الحركة وسلب منهم اللسان والبيان . ولولا مكانة له فى نفوسهم علية رفيعة ، تجل عن الريبة لأنكروه . . .

ولكنه على عهده . على سجية السخى الكريم ، وطبيعة السمح الذى يقدر فيغفر ، ويملك فيسجح ، ويدين فيصفح . على شريعة القلب الذى فيضه حب ، وغيضه حب ، ووقعه صفاء ، ورجعه صفاء ، ووسعه يحتوى البعيد والقريب ، والبغيض والحبيب سواء . . .

وأعاد الدعوة . . . أولئك الذين كانوا معه فى أرض البصرة ، من بضعة أشهر ، شهدوا له موقفا كهذا قبل أن يحرق الجمل ويذريه فى الريح . كرت الذكرى بهم إلى الموقع ، وإلى عدة وأجناد ، وصلف وعناد ، وجنوح إلى الهوى صرف عدوه هناك أن يصغوا إليه وهو يدعوهم الى كلمة الله فأبت نفوسهم إلا الغى

حق تـكفنوا بالعراء ! .. وإنه الآن لـكأمسه ، على نفس دأبه وخطته ، يشاء أن يعلى لخصمه الجديد ، ليقبس العظة من عقبى العصيان ...

ونهض إليه من بين صحبه غلام ، غض العمر كالزهرة ، وقد هزه النداء فاستجاب :

« أنا صاحبه ، يا أمير المؤمنين ...

ولم يلبه من الجمع سواه .

فلعلهم إذن قد خشوا غدرة العدو . أو لعلهم قدروا تأبيه وعناده . أو لعلهم أحيوا الأمس فى خواطرهم فآمنوا أنها قضية السلام الذبيح ! .. فما ينفع رفق ، ولا تجدى هوادة ، ولات حين اتفاق ...

ونقل بينهم عينه وبين الغلام ، فلم تتحرك لأحدهم جارحة ، ولم يهمس فم ، ولم تنم عن حياتهم إلا الأنفاس ...

ثم ألحف الفتى الطرى العود ، الصليب العزيمة :

« أنا صاحبه .. »

« فدونك ! »

وخلاه وقصده إلى صفوف الأعداء ...

* * *

لم يعد الراحل . كصاحب له قبله فتك به جنود البهيمة الذين كانت تقودهم عائشة ، ذهب هو الآخر إلى قدره ! .. كفه التى رفعت المصحف بترها البغاة . ونفسه التى هفت للســـلام لفظتها جراحه . وعوده الأخضر قصفه الموت وما اكتمل ، وألقى به فى الرغام جيفة ! ..

وعندما أصبح الصباح ، وغابت عن المشرف الخطوط الدكناء ، وصحا السكون الذى ضاق ذرعه بحمق البشر ، طويت صحيفة ونشرت صحيفة ، فغفا الأمن ونام ، وطفرت الحرب إلى غايتها الحمراء ، شعواء مستعرة . تطأ الرحمة والرحم ، وتبذر الحزن والوجيعة ، وتحصد الحقد والثأر ! .

ونحى الإمام عنه بغله الذى كان يمتطيه ، ثم صاح :

« ائتونى بفرس ! ... »

فسمعوا الجد من صيحته ، وقرأوا العزم على محياه ...

الآن اختفى فيه الأريحى المهاود . رقد أخو السلم الذى يضن بالدماء أن تهدر ، وبالحرمات أن تباح ، وبالحياة البشرية أن تتخطف مثلها ، وتهدم تراثها زبانية الحديد والنار — رسب فى القاع ، وطفا على الأثر آخر ، مارد قوى جبار ، يفرق الرفق من هيئته ، وتهرب الموادة ، وتفر الأعمار ! ... الفارس الذى يركب الردى إلى أهدافه ، ويقتحم على الهول عرينه ، نفض عن نفسه نومه وقام كباشق الجبل حينما يطالعه النور ، هز قوادمه ، وحرك خوافيه ، وتأهب على القمة السامقة يذرع بعينه الأفق حتى تلوح الفريسة ! ..

وأتوه به أدهم كالليل ، له صلابة الرمح ، وخفة الفهد ، وسرعة العاصفة . أقبل معهم يخب على خيلائه . شديدا يقاد بشطين ، متحفزا لا يطيق عرفه على جيده ، قلق المنزل يبحث الأرض بقائمتيه كأنما يضيق بالقرار ويتوق إلى طى المراحل وإثارة الرهج والغبار ! .. شثن الصدر فى غير ثقل ، ضامر البطن فى غير هزال ، ضخم العضلة نحيل القوائم . إذا حمحم فجلجلة ، وإذا صهل فزئير ! ..

وهدأت الدابة حينما لمسها ببنانه ، فتلا :

« سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ... »

وما استوى على الظهر ، حتى استقبل القبلة ، ورفع يديه إلى السماء فى ضراعة وابتهال ، وهو يناجى الله :

« اللهم إليك نقلت الأقدام ، وأفضت القلوب ، ورفعت الأيدى . وشخصت الأبصار ... نشكو إليك غيبة نبينا ، وقلة عددنا ، وكثرة عدونا ، وتشتت أهوائنا ، وشدة الزمان ... ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين ... أعنا عليهم بفتح تعجله ، ونصر تعز به سلطان الحق ... »

ثم هتف برجاله :

« سيروا على بركة الله .. »

فإن هى إلى سويعة حتى انطلقت المنايا من العقال ! ..

كان النهار لم يعل الضحوة حين تحرك الإمام ، يتقدم الكتائب المشوقة إلى

اللقاء ، المفتونة بالشهادة ، الغالية فى إيمانها بنصر الله . يتبختر به فرسه الأدهم وهو يحث الرمل فى تهاديه ، ويخط ذيله المترسل الطويل فى نقاه ... وكان هو على الظهر كقطعة منه . لا يرتج إن عدا الجواد ، ولا يتمايل إن تثنى وحاد . وجهه الوضيء يكسف النور ، ويكاد يبهر غداة الصباح ! .. على جبينه هدوء آمن ، وفوق ثغره وميض إيمان ، وطرفه الأدعج ارتخى جفناه ، والتفت أهدابه كأنما الوسن يناغيه ..

ليست هذه بهيئة حرب ! .. فالأدهم تحته يختال فى رقة ، ويتحرك بدلال ، ويرفع الحافر بمقدار ويضعه بمقدار ، كأنه يخطو على زهر ! .. ليست هذه بسحنة محارب ! .. فالوجه سكينة ، والعين هدوء ، والثغر صفاء ... الطمأنينة التى نقبت محياه لا تشى بجبروته . ملامحه دعة . لمحاته فيض دافق من السلام عذب الينبوع ! .

غير أن جسده الذى استوى على جواده ، ولصق به لا يريمه ، كان يوحى بالرهبة .. فكالصخرة كان . له جهامة الصوان ، وخشونة الجلمود . وهذه المسربة التى امتد شعرها الكثيف الغزير بين بطنه وصدره بدت كأنها شظايا الصخور ! .. وإن كفه لتنبسط فتلوح كالرحى الحاصدة . وإن كتفه لتميل حين يتلفت فإذا عظامها مشاش ليث ! .. وما يبين فى ذراعه عضد من ساعد ، فكلاهما استوت ضخامة وتكافأ صلابة ، وأدمجا معا وحدة متسقة كالصفاة المنحوتة قدها الله من جبل ! ..

واستقبلت الأعين المتربصة فى المعسكر المقابل هذا الفارس الحاسر ، العاطل الرأس من جمة ، ومن لمة ، سوى خفاف كأنه بقية الأثر ، البادى الصدر دون درع ، سوى شعره الكثيف كاللبدة ! .. استقبلوه من خطوطهم ، من بعيد ، فأرهفوا الحقد فى النواظر ، وهيأوا الثنايا على المشافر ... كلهم إليه ساق . أسيافهم يهزها نحوه الحنين ، والنهم ، والظمأ للدم ! .. جموعهم تدافعت صوبه تدافع الجواد للخضرة ، كأنها طوفان . خيالهم مزقه ، وشق له فى الفلاة قبره ! .. ليس فيهم من تمهلوا به حتى يدانيهم بهذا الجواد المدل المختال ، الذى راح يقطع الرمل فى ونى ثقيل كمشية السلحفاة : بل قد طفرت بهم مطاياهم . وجرت الأقدام ، وعدت النفوس والشخوص والظلال لتعجل به إلى حينه ! ...

وبقى هو على هدوئه . وعلى سيره الرتيب الوئيد . وعلى هذه الإغفاءة التى بدت تغشى عينيه وماهو بوسنان . لا يزيده قربهم منه سرعة فى مشيه، ولا دنوهم إليه ميلا عن سمته . إنما امتد رمق بصره إليهم من خلال أهدابه ينظر ويرقب ويعد الخطوات ... عن يمين وعن يسار يقبل الجناحان . الأرض الخالية يطويها الزحف . الشقة بينه وبينهم تضيق — ولكن الطائر الذى بدا على هيئته جيش الشام قبل التقدم ، التوى قوامه ! .. اختلت وحدته وتضعضع انسجامه ! .. ليوشك بدنه أن يكون قد لفظ ريشه أو انفصلت عنه قوادمه وخوافيه وهى منطلقة وحدها إلى أمام ؟ .. أما جسدها فمستأخر ، يثبت بذات مكانه الذى برحه جناحاه فهو عار مكشوف

وتبسم الإمام . لهذه اللحظة كان يدخر الابتسام ! .. لمعت عيناه من وراء أهدابه المرتخية . وشاعت الحركة فى كيانه الفتر نشاطا خافيا فى دمائه وعزمه وخاطره لم يرتسم ظله على محياه ...

إذ ذاك كانت ميسرة عدوه — أدنى الجناحين منه — تنطلق نحوه انطلاقة السهم للهدف . وكانت أختها الميمنة ، من مقرها البعيد ، تقطع الشوط جادة إلى موقعه كأنها تضن على صاحبتها وحدها بفخر مصرعه ! .. أما هو فعلى ذات الصورة : سكينة ووسن وإيمان ... صخرة على ظهر ، ومشية على زهر ! ...

ومد عينه ترود الأفق ثم تثقب بلمحها الجحافل المغيرة ، المندفعة إليه فى عنف . المادرة كالعاصفة ، المنحدرة كالشلال ... من خلالها انسرب نظره على جناح فكره وتقديره ، إلى قبة عظيمة هناك ... إلى سياج من المقاتلة حولها قاموا صفا وراء صف . وحلقة وراء حلقة . إلى غريم تستر عن المنية بحصون حية ، بناؤها أجساد ، وملاطها عزائم ! ..

خلف هذه القلاع والأسوار ، أخفى معاوية عمره من أصابع الصراع النابشة كما يوارى البخيل كنزه . كنه بفسطاطه . ولفه بخمسة صفوف من مقاتلته المقالين ، الواحد يليه تاليه ، والفرد لاصق بصنوه حتى ليعسر أن تمر من خلالهم خفقة الريح ! .. وكان الماهل بقلب جيشه ، ذلك القلب الذى ثبت مكانه إلا قليلا عند ما تحرك الجناحان ، وكان حماته من خاصة جنده ، وأخلص قومه

وأنصاره له وللغاية التي أطلعتها أحلامه . وكانت الجموع تزحف وهم ينظرون . على أهبة وحذر ، حتى تحين لهم ساعة الفداء . فلقد بايعوا أميرهم على الموت دون أن تنكص بهم قدم . عهدهم ثبات وصبر . هدفهم فناء أو نصر . شعارهم : « هنا القبر ! » إذ استقاموا على مكانهم كالأوتاد ! ... فلعلهم ، حينما وقفوا ، جعلوا آجالهم تحت أرجلهم ، فلا تقدم ولا تقهقر ولا ميل ... أو كأنهم نخل بدت الجذوع والفروع ، وغاصت الجذور في الأغوار ...

ثم تلفت الإمام ..

كانت لفتة مباغتة ، على حين غرة من المغيرين الذين قروا لو ناه وهو جاثم على فرسة ، رخى الهدب ، مفتر الأوصال ، يحاكي بدنه وأعضاؤه قطعا ضخمة من الجنادل ! .. كومضة البرق في خطفه . كلمة السيف إذ ينشال ثم ينحط في انقضاضه . ما بدرت منه حتى فاض من قوامه المربوع زخر الحياة . ثم رجت في رجاله الساكنين مكامن الثورة من القاع . ثم امتدت منهم الميمنة وكانت قبلها تسير مثل سيرة ، بخطو قصير كأنها لا تسير ! ... فإن هي إلا لحظة كطرفة العين حتى أسرع القدم والحافر . عدا الرجالة وطفرت الأفراس . برقت الصوارم وأزت السهام ...

وعلى الأثر اضطرب الميزان .. حين تحركت حشود الشام من قليل ، كانت الأرض تحتها ثابتة ، والهدف بينا ، والطريق مفتوحة ... أما الأرض فسهل مبسوط ، قر وطاؤه ونامت حصباؤه ، وأما الطريق ففرجة بين جناحى الإمام يكاد لا يسدها رجاله الذين أقبلوا الهوينى معه كأنما يثقلهم وقر أو يعييهم السير . وأما الهدف فراكب على أدهم ، الجواد خائر والفارس نعسان ! ...

كذلك انطلاقهم كان ، بدء الهجمة ، والسلاح في أكفهم كالعيون الرواصد ، أطرافه تشخص إلى الغريم لا تريم . بأعين السيوف رمقوه . وشخصوا إليه . وطوت غلباهم صوبه المسافة بلا كلال وهي ظمأى إلى دمائه ... ولولا طاقة للمطى محدودة ، وأشفار لحقدهم مفلولة مثلومة ، تثلب ولا تجرح ، لجنبوا النجائب والخيل ، وركبوا دونها عقائل الغل عساها تعجل بهم إليه فيدفنوه حيث قام ! ...

ولكنها لفتة ثم اضطرب تقديرهم ، وشال ميزانهم ، وتزلزل الميدان تحتهم زلزاله — أولئك الحالمين بقبر له غير معلم فى العراء بجانب صفين ! .. رمى إليهم بعين ، والشقة بينه وبينهم لا تطويها الرمية . ورمى إلى ميمنته بعين ، وخطوها إلى جواره هين وئيد ، فإذا السكون ضجة ، وإذا الغبار إعصار ، وإذا الهجمة التى وجهوها إليه التحام ، ثم تقلقل ، ثم نكول ، ثم تقهقر وفرار ...

ونالت البغتة من الجحافل المغيرة إنها أخفت الحصا ، وغطت الرمل ، وسترت الأفق عن العين . ولكن المفاجأة التى بادرتها بها ميمنته أذهلتها عن البأس ، ولوت بعنان خيلها وجندها وقادتها إلى وجهة لم تكن تريد . كر عليها ابن بديل . وركز عنف حملته على أدنى فرقة فيها رامت الإمام بالغارة حتى انتكث نظامها كالخيوط ، وتداعت ، ثم تهاوت على ماوراءها من صفوف أصحابها كما تهاوى جدار ...

ولم يعل لها الحظة فى التدبر . ولا فى التصبر ، وما كان ! ... لم يمهلها هنيهة لتثوب أو تستعيد جأشها المسلوب . إنما انطلق ، بغير ونى ، يحرض رجاله : « أتخشونهم ؟ ... فالله أحق أن تخشوه ! ... » وهو يتبع الضربة الضربة ، والشدة الشدة وفى يديه سيفان يختلفان على رقاب أعدائه كأنهما مقص الأجل ! ...

١

ثلاث ليال وأيامها سطرت ساعاتها الخاتمة الحزينة للصراع المسلح الذى سجلته صفين . وثلاثة رجال .. والثغرة التى فصلت بين هذا الزمن وهؤلاء الأناسى وسع القدر أن يجتازها على جسر قائم من نزغ الأنفس ، وعبث الأهواء ، واضطراب الجوانح بالغرور والجشع والضغينة ...

وكانت الأقدار ساخرة . فكان تدهور فى ناحية ولم تكن هزيمة . وكان تصبر فى أخرى ولم يكن نصر ... معاوية تقوضت خطوطه ، وانتكثت عليه خططه وخيوطه ، ولكنه بات يملك الزمام ! والإمام تقدم رجاله ، وأبلى أبطاله ولم ينل نيله من شراذم الشام ... والذين مدوا له على الأديم من أشلائهم مهادا لينا يسير فوقه إلى الظفر كان فداؤهم هواء ، وفناؤهم فى سبيله هباء وجفاء : تناثرت جسومهم على الرمل فكان بذل ولا نيل ، وتضحية كأنها رنين طبل ضائع الصدى والدوى فى عالم فسيح من الصمم والفراغ ... والذين ضنوا من رجاله على الحرب بالجراح ، وادخروا الدم ، لم يهنهم بعده فى حياتهم عيش ، ولم يقر لهم فى هـــذه الدنيا قرار حتى باعوا العمر سلعة رخيصة فى سوق الغفلة ...

ولكنها نهاية محتومة : وغاية فى لوحة المصير مسطورة ، مقدورة المقدمات والخواتيم من قبل أن يرسم البشر من صورتها أول الخطوط ، أو يحددوا من رقعتها مواقع الظلال والأضواء ... فما الناس إلا همل حينما يشرع القدر سنانه ويهيىء مداده وألوانه . ما هذه الليالى الثلاث وأيامها الحوالك إلا ديباجة النقش وأديمه . وما أولئك الرجال الذين خطوا النتيجة الحزينة إلا أقلام : وما تلك الأنفس المفتونة عن الحقائق المغيبة والأسرار المستورة إلا المادة التى أذاب سيالها جمد الألوان ، وألف منها بين الشتيت والضريب ، والمثيل والغريب ، حتى جرت منظرا حافلا بالهدى والحكمة ، بالحسم والتخاذل ، بالموت والحياة فكان الصورة المجتباة ! ...

أما الليالي فمن صفين ، رأس العشرة الثانية فيه . وأما الرجال فمن علي ، أئمة نصيره وأوليائه . وأما الأهواء فغرة وغرور وتخاذل ، أخذت سمتها إلى قلوب غلت في الوفاء له ، والذياد عنه ثم لم يجنبها ولاؤها المفروض سقطة عارضة لجمته بمدها في أهدابه .. وكان ابن بديل الفاتحة ، وفي عقبه أضاف الأشتر خطوطا وعناء ، وعلى الأرجاء أشعث فأكمل الصورة الحزينة ...

ودع القدر يذبذب ، ويمزج ، ويؤلف ، ثم عد إلى الرقعة بأقلامه . دع اللوحة الخالدة على الزمان ، الماثلة أبدا أمام أعين الخواطر ولمح الأذهان ، يقترب فيها الضوء من الضوء ، ويلتقي الظل بالظل ، ويفنى الخيال في الأصل ، حتى تبرز مقيتة المهيئة ، قاتمة السمات ، شوهاء ... دع هذا كله إلى مقدماته . إلى الخطوط المبكرة فيه ، إلى الخيوط التي تبدت — عندما عطف ابن بديل في ميمنة علي على ميسرة الشام — كأنها بشارة الفجر ، لمحة النهار ، طليعة الغلبة والانتصار ، فإذا هي بعد ساعة أو سويعات تستبين : فاتحة ظلمة ، وغسق ليل ، وبداية دبر ، إن تكن حقنت الدم ، فقد أكلت الظفر ، وأوهت العزم ، واستذلت المثل والمكارم ! ...

ومع ذلك فليس ابن بديل الخزاعي بالمتهم في إخلاصه ، ولا في قدرة إمامه ، ولا في هذه الشجاعة التي تمهر الغلبة وتستقدمها عروسا مليحة تزفها الحرب للجندي المقدام . ولكنه بدا امرأ تغلبه الدفعة فينسى العقبى ساعة الزهو بالنصر كما ينساها الذي أعلته خمر . . أطاح بجند حبيب بن مسلمة ، فتفرقوا عن كفاحه فلولا منهوكة ، وشراذم نالت منها المفاجأة قبل أن تنال السيوف ، وضاقت عليها الرحاب الوسيعة في جنبات صفين كضيق المصاف والصفوف . حتى حينما استجاشها معاوية في محنته ، أذهلها البأس والخوف عنه ، فلم تصغ له وهو يدعوها ، ووضعت صرخاته دبر الأذن مرة ومرتين وثلاث مرات . وإذ ذاك لم يعد لعاهل الشام رده يحميه من عصفة القائد المغامر إلا تلك المعقلة الذين بايعوه أن يموتوا دونه ، والتفوا بفسطاطه حلقة بعد حلقة في خمسة أسوار ، ثابتي الأقدام كالأوتاد المغروسة ، ملتصقة جسومهم بعزمهم كأحجار جدار . . .

ولم يعي صبرهم هذا الخزاعي ، ولم يفل من إصراره على بلوغ سيدهم المستتر

عنه بالقبة العظيمة البيضاء ، وبالمفدين والفداء من أمام ومن وراء ... إنما انطلق يضرب بسيفيه جميعا ، وبعنفه وحزمه وصبره جميعا ، ولو كان يسعه لأنفذ إليهم الأحيان من كل ثغرة وكل باب وإن كادمهم بالنواجذ وأعمل فيهم الأنياب ! . إنه يروم منهم معاوية ، قدمهم الغالى فى التمرد ، المفرق الأمة ، الصادع عليها شملها ووحدتها ليسقيه الهلكة فيكفى الناس الانقسام ..

ومضى يهدم الجدار بعد الجدار — يقصف الصف بعد الصف فتتهاوى جموع المعقلة تحت أقدام أصحابه ، وتتكسر تكسر الأعواد الجافة ... ولم تكن محاولته أولى الحملات للقضاء على ابن هند وهو بين عسكره ، بل سبقتها أمس أخرى لم تسارع إليها الجحافل المغيرة والقوى المحشودة الغفيرة . وإنما انطلق بها امرؤ فرد على جواده ، لم يزل يحمل ويقتحم ، وينساب بنفسه بين العدو انسياب ثعبان حتى دخل على معاوية خباءه ، ولم ينجه منه إلا الفرار ...

على أن الجرأة فشلت فى ميدان لا مجال فيه للدفعة . فحبطت حيلة المقتحم الجسور ، ورقد هامد النفس ، بارد الجوارح والأطراف ، قد ناشه الصخر من كل جانب ، فشدخه ورضخه ! .. وحبطت أيضا حملة ابن بديل وإن تبدى بدؤها كلمة الفجر بشرت بطلعة النهار ! .. فأما فشلها فقدر . وأما هدفها فأمنية حالم ذابت فى الدم . وأما الحافز الذى التوى بقدمى القائد المغامر عن تتبع الميسرة المدحورة إلى اختراق القلب صوب القبة البيضاء فهى الغفلة المسترة من الجرأة الرعناء بستار ! ..

الغفلة هى التى عدلت لا ريب بابن بديل عن مطاردة جند ابن مسلمة حتى يكف خطرها عنه ثم عن بقية جيوش العراق . ولكنه تعجل الخاتمة . ودفعت به حماسته ، وذلك النصر السريع الذى اهتبله ، إلى مركب صعب حسبه سيورد معاوية الهلكة ... كان يأمل غير مستريب أن يقضى بحركته على غريم الإمام دون حاجة إلى واقعة جامعة تشتبك فيها كتائب العراق وجحافل الشام . وكان الذى قر فى ضميره أن هجمة أخرى خاطفة تنحرف به عن سمته المقرر من ميسرة أعدائه إلى قلب جيشهم المتخلف عن الطعان كفيلة بأن تجرع الذعر ممقلة الماهل الأموى ، وتشيع فى صفوفها الفرق والاضطراب فتتفرج ذاهلة عن ابن هند

هدفا بين المقاتل ، لينا للمناصل ، هينا على العوائل . فلو كان أجدى حسابه لجنب المسلمين بهذه الجرأة غمرة فاجعة ، جالت فيها بعد ذلك أبالسة الحرب وهى صديا منهومة تجرع وتبلع فلا تشفيها الدماء المهدرات من أوام ، ولا يشبعها من الرءوس الطائحات غذاء وطعام ؟ ..

ثم خابت ظنه الجسور ! .. فى حساب الشجاعة جرت له سيرة هى أمثولة للبطولة . وفى حساب الحروب تنهمه الحنكة والدراية بما يجب أن تكون عليه إدارة المعارك وقيادة الجيوش . فما على شاكلته يكون قائد يقدر خطوه ، ويقيس أبعاده وآماده ، ويتقبل الخطر وإن هان بالحذر ثم يزنه بمثقال ؟ .. إنما كان ينبغى أن يدير فى باله كل مقدرات النصر واحتمالات الهزيمة دون أن تفتنه الجرأة أو يضله التفاؤل ولكنه افتتن . وخف عليه شأن تلكم الميسرة الفرارة فلم يهدها بالمطاردة . وعندما حسب نصره الأول عليها مفضيا به إلى نصر ، كانت هى قد نفضت عن قلوبهم أثارة الجزع التى أجبنها البغتة ، واستعدت بالجلد ، واستعانت العزيمة ..

وأتاه حينه من مأمنه ... إنها سويعة من النشوة قصيرة ثم ذاق القائد المغاص الصعاب ! .. شق بين أعدائه طريقه وهو يضرب ويثخن ويقتلع هذه الشخوص الثابتة فى مواطنها ثبات الأوتاد . وكان يهتف بصوته العريض : « يالثارات عثمان ! » ... ولم يكن بطبيعة الحال من الذين ينتصرون للخليفة الصريع الذى أشعلت دماؤه نار الحرب الأهلية بين أمة الإسلام . ولم يكن أيضا مخادعا يروم بندائه أن يحول العدو عن الثبات له أو الوقوف فى طريقه وهذه دعوتهم يلوكها لسانه وهذا شعارهم الرامز إلى الثأر شعاره . ولكنه فى الحقيقة إنما مضى يحث نفسه على التصبر بذلك النداء الذى أشكل عليهم مغزاه وهو يطلب منهم دما أهرقوه ، عزيزا عليه . يوم جندلوا أخا له كان يدعى عثمان ! ..

وكانت نفسه الموتورة تسدد خطاه . وكان قلبه الأسيف الحزين يوجه سيفه إلى القبة الكبيرة البيضاء ... للفريسة الآن فى الجو رائحة ! .. لهيكلها الشحيم الجسيم طيف يكاد يملأ الفضاء ! .. للقضاء أنشودة وقعتها الحوافر ودقتها الأقدام على طبول الرمال وهى تنطلق للواتر . فليس معاوية ببعيد . على مرمى حربة . العين تناله وإن كان الحسام لا يطوله ...

هذه اللحظة الحازبة كانت المنجل المسنون وكان ابن هند سنابل الحصاد ؛ إن عوده ليضطرب . إن عنقه ليتشبث بموضعه . إن عنفه ليذوب ... وعندما دنا القدر منه استشمر الحياة فى ريقه حلوة شهية فبخل بها على الكفاح ! ..

وكذلك أمن الغمرة ، وهو يستأخر بعمره وينأى عن مواطن الجراح . فما بدت له طلعة العادى ، واستيقن الخطر فى الثبات حتى مال غير وان ينشد الأمان فى الفرار ... تراجع ببقية أجله . ومن بين يديه ومن ورائه اندفع معه قلب جيشه ميلا آخر عن الفرقة المغيرة والقائد المخاطر العنيد ، وغدا احتمال الظفر ، تلك اللحظة ، أمام الخزاعى ، كاللمحة البارقة من جانب المين ، يمتها جفن ليسترها جفن ! .. أو كخفقة الذبالة الجافة أو كومضة الحلم فى عمر نائم . فلقد عدلت حركة التقهقر صفوف العاهل المخرقة فعادت سوية قوية . ثم أمدتها خيله ، ثم كرت إليها فلول حبيب بعد زوال فزعتها وهرجها وجأشها الذاهب الشتيت . ومع ذلك فلم يبدل الموقف من عناد ابن بديل ولم ينل من عزمه وإصراره . إنما مضى وغايته . وظل وهدفه الأول لا يشغله شاغل عن رقبة معاوية . لا يذهله بأس ، لا ترهبه كثرة ، لا تحمله على التردد أو النكوص خيل ولا نبل ، ولا برده عن التقدم والاقتحام هذه الجحافل المناجزة التى أطبقت عليه كالسوار من يمين ومن يسار ، ومن وراء ومن أمام ...

حتى عندما تساقط رجاله حوله كأوراق شجيرة عبثت بها يد العاصفة لم يكف لحظة عن غلوائه ، ولم يلتمس مفاوز الأمن والنجاء ، فللموت جاء . للمنية لخصمه أو لنفسه على السواء ... وإن قوام جمة لتهده الحرب ، ويتمزق شلوا شلوا ، وجارحة جارحة .. وإن النكبة لتلد النكبة ، والخطر يفرخ الخطر ... وإن الرحى الحاصدة لتنطلق تدور فتكسر وتعصر ، وما هو يعلق باله إلا لذلك العنق الذى مطه الباطل ، ونفخه الحقد وأتلعته الخيلاء ... فإن يكن فقد جنده فلديه بقية يشوقها الجلاد ويطيب عندها الاستشهاد . وهذه الفئة الصابرة معه حرية أن تظفر أو تقبر وكلا الأمرين جنة ورضوان ! ..

وتقدم بهم . لايفى حلقه المكدود من نصب القتال وحرقة العطش وحر الظهيرة يهتف محرضا هتافه الذى سمعته منذ سويعة لحظات نصره : «أتخشونهم؟..

فالله أحق أن تخشوه ... » ولاتنى قدمه تشق فى الطريق للأمام وسيفه يدق أو يخرط الهام ... ولاتنى لعزمة تتلألأ فى ناظريه تلألؤ البرق فى اليوم الماطر وبلل العرق على حاجبيه كقطر الغمامة ! ... كلما شد عليهم عدوهم شدوا ، وكلما أحكم حولهم حصاره لم تخنهم الحيلة ولم تنقصهم الوسيلة فانفلتوا خفافا من شركه الحبوك انفلاتة الرقط والأراقم . ولكنهم مضوا فى كفاحهم وإن أسلمهم الكفاح المرير من شرك إلى شرك ، ومن أحبولة لأحبولة ...

ظهرا لظهر ، وكتفا لكتف ، تساند فريقهم وتماسك كالسور . لا ثغرة بينهم لاقتحام ، ولا فرجة لسن سهم . جلودهم دروعهم . سوقهم مطاياهم ... كانوا قلعة من البشر ، جراحهم وحدها منافذها وأعينهم الوامضات بالصبر والبشر والعزيمة هن المراقب على أجساد صلب بناؤها وشمخ إباؤها كأنها بروج . وهذه الدماء المهرقات منهم خد مسيلها مثل الخندق حول القلعة الحصينة ...
وكانو مائة ! ...

٣

لم يطل كثيرا عمر الجهد الذى بذله عبد الله بن بديل لاقتطاف رأس معاوية من فوق بدنه ... كان هجمة خاطفة تبعها سريعا ذلك التوقف على أبواب العالم الآخر الفسيح يدقها الرجل بسيفه ويديه وقدميه ، وبعزمه وصبره ، وبشوقه وشغفه إلى مبارحة دنيا لا تعيش فيها المكارم إلا كعيش الزهرة الرقيقة فى رعاية زهار ، مبتورة الجذر ، كسيرة العود ، غريبة الدار . فهى مجاز وهى معبر إلى راحة ، وهى عناء لقرار . وهذا القطر ، من الدموع والعرق والدم ، هو الجدول الذى تنطلق عليه السفائن الراحلة للآجلة ، دراكا خفافا ، تحمل الأرواح العانية والموصوبة والضائقة بذلة الحياة ...

وكانت الحياة فى فم الرجل كريهة المذاق ، قد أفسدتها عليه أهواء الناس ، خليطا من قتاد وعلقم . فيها حسد وبغض وأثرة . وجوهر الحب النقى الذى أودعه الله دخيلة القلوب كان كدرة فى صدفة ، الصدفة فى صخرة ، الصخرة فى غور من الرمل والحصا والأعشاب ، الغور فى قاع بحر بعيد المهوى ، معتكر الوجه ،

عاصف النوء ، طاغي الأمواج ... حتى حينما نال منه الوهن ، وأكلت من بأسه وآد صحبه شدة النضال ، وخارت بهم أقدامهم مهيضة على الثرى القانى الندى بالدم ، كان طعم التراب الذى حشا أفواههم وهم جثى أحلى مذاقا عنده من طعم حياته . ومع ذلك فلم يؤثر الموت وإن سعى إليه . ولم يتعجل لنفسه القضاء إلا بقدر تعجله اقتناص الرأس الذى جر جشعه كل هذه الداهية الدهماء . وليس بين الذين صاحبوه فى مصيره امرؤ واحد خطر بباله التماس السلامة فى التسليم أو فى الهروب ...

وكانوا مائة ! ... كانوا حفنة بين أمة من الأعداء . قطرة فى خضم . حصاة على أديم صحراء ! .. حين خرجوا والضحى تقارب الظهيرة كان لهم العنفوان وإن لم يكاثروا القريم المدل المختال ، وكانت لهم العزة بالجلد دون العدد ، وبالعزم دون النفر ، والإيمان قبل العدة من الخيل والجياد ومن السلاح والعتاد .. وشهدتهم الصخرة عمالقة انكمش أمامهم عدوهم كالأقزام . وشهدتهم الوغى مردة على حلبة الصراع لا تنكص بهم قدم ، ولا تفتر ذراع ، ولا تهمد حركة . وشهدتهم الأرض كأن لم تشهدهم ، فأقدامهم ما تكاد تلمس ثراها حتى تطفر خفيفة سريعة تخوض لجة الهواء ! ...

لكن الظهيرة اقتربت وهم جثى ، رقد محمد على صفين كالموات . هى سويعة اثبات ، ثم سويعة أدبرت فإذا نصرهم ذاك غيمة بددتها الهزيمة ... ولم يفت أمرهم إمامهم وإن هم فاتوا هدفه — فيما أحسب — ومالوا عنه إلى اقتناص صاحب القبة البيضاء . فكأنى بعلى قد حذر غايتهم منذ اقتحموا جحافل القلب وأشفق أن تغولهم دونها الغوائل فقدم نحوهم سهل بن حنيف فى فرقة المدينة لعله أن يخفف عنهم ، ويشد هونا من أزرهم وبأسهم إذ تعاورهم القوم وحميت وقدة الصراع . غير أن فسحة الزمن كانت قصيرة . فهى ساعة وبعضها أقم السكر وقيتها ، هم يسكرون ثم لاتلبث الحرب أن يميل ميزانها عليهم فى مثل خطفة البرق فيكر عدوهم من كل جانب : معقلته وخيله وميسرته ، وتبدأ الرحى تدور . مابين الضحى والظهيرة كان النصر وكانت الهزيمة انتظما فى خيط ! ... ولو أوتى سهل سرعة الريح ، ومشت بأقدام جنده الأعاصير والصواعق ، لما وسعته قدرته أن يبلغ موضع القتال قبل أن ينقلب مجنه .

إنها حركة لم يسبقها الإعداد تلك التي غامر بها الخزاعي ، كانت مفاجأة لمعاوية ولعلى على السواء . وعندما فشل تدبيره ، وقعدت به قلة جنده وكثرة غريمه دون غايته ، كان أوان إصلاح خطئه الحربي قد فات . ومع ذلك فثمة عوامل أخرى نزلت حلبة المعركة ، أضافت الكثير إلى خطوط المحنة التي انجلى عنها بعد ساعة واحدة الغبار . فالميمنة التي انفلت من يمينها سلاح المبادأة هدتها القوى التي تكتلت عليها وقطعتها شرازم . ومدد سهل ردته حسيرا خيل كالليل قد أفسحت لها هزيمة الخزاعي واضطرب أمره في حرية الحركة وسرعة الكر والهجوم . وقلب جند العراق لم يخل حينذاك من عناصر كانت تؤمن بحق على على حرف ، فلم يكد يبدو في الأفق تفوق الأمويين حتى انسحبت اليمنية من صفوف الإمام كأنها آثرت الا تهز سيفا في وجوه إخوانها من يمن الشام ، بل مضر أيضا تلكأت عن النجدة ، وجنحت هي الأخرى إلى مبارحة الميدان في لحظة كان ينبغي خلالها الصبر والثبات إن لم يجدر التقدم والاقتحام . وعندما حسب الناس أن المأزق الذي وقع فيه ابن بديل وميمنته ليس سوى هزة طارئة هي جانب من طبيعة الحرب التي تتسم دائما بالتقلب ، ويختلف تيارها بين لحظة ولحظة من حظ لحظ ، من مد لجزر ، كان الموقف كله في حقيقته أبعد عن رجاء الآمل ، وبشر المتفائل ، وأدنى إلى خطر داهم يوشك أن ينجاب عن نكبة مستطيرة ...

حدث هذا كله في سرعة مذهلة . في كسفة قصيرة من نهار . في دقائق قلائل التأمت فيها ساعة مرت كالمحة ، وثقلت كالدهر ، وتسابقت خلالها الأحداث نحو الغاية كأنها ريشة يجرفها التيار ! ... العيون قصرت عن متابعة الصور التي حركها الزمن . الأذهان كلت عن استكناه النتائج لأنها عجزت عن ملاحقة البواعث أو الأسباب . حوافر الجياد التي تداركت تركض وتعدو وتطوى المسافات بدت كأنها تقفز وتطفر وتتوثب وهي بنفس مكانها لا تريم ! ... فأما النصر فغيمة ، وأما الهزيمة فغيمة ، وأولئك الجند في الفريقين استظلوا السحاب المترحل يترى فوقهم قطعة قطعة ، لا يحركونه بل تسوقه الريح ...

وانتبه الإمام مثل غشية ... فإذا ميمنته انهارت . وإذا مدده قد ضربته

خيل عدوه وردته فرادى ومثانى ومزقا محاولة تهطع مهيضة إلى النجاة . وإذا الميدان حيث نشب الصراع يستحيل جزرا وقطائع من الأقطاع فى بحر طام من الهرج والموت والفواجع ... هنا شرذمة وهناك شرذمة . هنا فلول من جنوده لصقت جسومها بالثرى المبلل وهناك فلول تصارع الهلكة على بقية أجل وعلالة أمل كما يضطرب فى الحبالة الطير وهو يحاول أن يتحرر وينفذ إلى الفضاء . هنا وهنالك دحرة ودبرة ، ووهن وتهافت ، مصرع ودم — أينما انطلقت عينه طالعتها صور شتى من النكبة القاصمة ، فى الميمنة ... فى الميسرة ... فى القلب ... فى كل بقعة من أرجاء الميدان ...

ومع ذلك فلم يفقد الجنان . لم يفقد القلب الذى يترنم بين ضلوعه بالخفقة ورجيعها وهما جسارة وإيمان . لم يفقد بعد يمنى يديه ولا يسراه وهما له جناحان !. هو جيش وحده . وفرة من عزم ، وعدة من بسالة . فما تخلف النصير عنه ؟ — ما تألب العدو ؟ — ما الموت ؟ ... وعندما عزم على أن يلقى إلى المعركة بيديه . كان عليه أن يشق طريقه إلى حديقة الموت بين محبيه قبل خصومه . فلقد انبرت له من أولئك طائفة ، فيها أبناؤه ، تجهد جهدها لتفتديه وتنأى به عن الغمار . والتفت به . وقدمت إلى محلة الخطر مهجها دونه ؛ والصدور والنحور والأبدان تؤلف حوله سياجا مانعا أن يخترقه إلى فم الهلاك المفغور ...

لكنه عصف بهم . مضى يدفعهم دفعا عن نفسه وهو يشق بينهم طريقه واثقا إلى الغريم . راح يتجرد من هذه الدروع . ويقصف تلك الحصون المؤلفة من دم ولحم ، ومن أنفاس وحياة ، ومن تضحية وحب وإيثار ، ليخرج خالصا إلى العراء يدق على الهول بابه ، ويشق إهابه ، ويقتحم نوبه وأنيابه ! ..

وكان عاطلا غير دارع ، حاسرا بلا ترس ، أعزل اليد من السلاح سوى رميح كالعصا القصيرة . ومع ذلك فقد بدا كمن لا يحذر ، ولاح لصحبه لا يحترز من الردى المتربص له على مقربة فى صفوف أعدائه الذين ظفر الدد من عيونهم ، وحرضهم الحقد ، ورددت صدورهم أنفاس الضغينة . إنما مضى يدنو منهم ، ويحاول أن يخالط جموعهم فى لحظات كان خلالها قبلة لكل عدوان ، وهدفا هينا لكل طعان ... وعجب له صاحبه سعيد بن قيس فهم يرده عما اعتزم وما هو فيه .

« أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يقتالك أحد وأنت قرب عدوك ؟ ...

فلم ينل منه تخويفه ، بل رد نصحه وأباه وهو يجيب فى طمأنينة :

« يا سعيد ... إنه ليس من أحد إلا عليه من الله حفظة يحفظونه من أن يتردى فى قليب ، أو يخر عليه حائط ، أو تصيبه آفة . فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه ... »

وانطلق . كلما اعترضه من ولده من يبتغى أن يستقبل عنه بصدره سهام قناصة الشام أسرع فدفعه ، أو نحاه ناحية ، أو احتمله فألقاه بين يديه أو وراء ظهره لتنفسح سبيله إلى الصفوف المغيرة ... كان فى هذه الآونة يواجه جيشا برمته . وكان ظاهرا كالسلم فى أديم سواء لا تخطئه عين ، وكالهدف ترنو صوبه الأسنةالنهومة . كانت النبل تنطلق إليه كالصواعق ، وتئز حوله بصوت الرعود ، وتتناثر كقطر منهمر وهى تكاد تبل عنقه ومنكبيه بدمائه . عند ذلك غلبت الرقة ابنه الحسن فأقبل أيضا يحاول معه محاولة سعيد :

« ما ضرك لو سعيت حتى تنتهى إلى هؤلاء الذين صبروا لعدوك من أصحابك؟ »

فألقى الإمام نظرة عابرة إلى جانب الميدان حيث ميسرته ، ثم ابتسم غير آبه :

« يا بنى .. إن لأبيك يوما لن يعدوه ، ولا يبطئ به عنه السعى ، ولا يعجل به إليه المشى ...

وعاود انطلاقه ...

كيف يهاب ؟ ... العمر قدر ، والأجل كتاب . ونفحة الإيمان التى تفيض بفؤاده كانت له الملاذ والجنة . هو لا ينكص . هو لا يحرص على بدنه إذ البدن ثوب وغشاء ، ولا يتشبث بهذه الحياة فهى زبد وجفاء . إنما البقيا للروح . للسيرة دون الصورة . المثل والمبادئ لا للجيفة النابضة بالدم ، المصوغة من عظم ، الملفوفة بلحم وإهاب ! ..

ثم انطلق لم يتردد فى انطلاقه المنقض هنيهة ، ولم يتوقف عن التقدم سابحا على الهول ، غائصا فى الحراب والنبل يضرب فيهم ويقتلع ـــ أولئك الذين تقدمت بهم مصارعهم يروم حقدهم أن يذوق من دمائه ! .. فكأنما غرهم به انفراده ، وقلة النصير خلفه ، وهذه السمات البوادى للهرج والخور فى صفوفه على طول

جبهة القتال فأقبلوا إليه مهطعين تزدهيهم الكثرة ويخايلهم الظفر وكأنما بدا لأحمر ، مولى أبي سفيان ، أن قد آنت اللحظة ليحسم الأمر ويثيب وليه ابن هند على كفاحه الزنيم للتاج . فما هو أن بصر بالإمام يخطر ، وأيقن أن نيله قريب ، حتى انفلت يركض فرسه ، ويشرع سيفه ، ويسبق إليه النظير والقرين ليعود وحده بفضل اغتياله . ولكنه أخطأ الحساب . حظه خاب . حينه كان قد دعاه ! فلم يكد يدنو ، ثم يرفع النصل ، ثم يسدد الشفرة المصقولة إلى الصدر العاري ، ثم يهوى بها تحمل الموت كالقضاء ، حتى كانت يد الإمام أسرع إليه من ومضة الحسام في عينه ، فإذا هي تختطفه من صهوة جواده ، وتعلو بجسده في الفضاء كالدمية ، وتجلد به الأرض جلدة قوية هشمت عظمه ، وعجنت لحمه ، وخلفت له من علائم الدد والغرور والحياة آهة بلا صدى ، وأنة بلا ترجيع ! ...

كانت ربيعة حينذاك وحدها في ميسرته ، ثبت رجالها على قدم . لم يفزعها الهول . لم تذهلها هذه الموجات المتوالية من قوات العدو التي راحت تعتور جوانب الموقعة . لم تمل بها خشية الخطر ، التي تملكت نفوس بقية الجند في الجيوش العراقية ، إلى حركة انسحاب أو إلى فرار ... ومع ذلك فلم يلذ بصبرها ، أو يتخذ من صفوفها الراسخات جنة . وعندما انكشفت عنه الميمنة ، وخلا القلب إلا منه ، وهربت مضر بالأعمار ، أقبل وحده ، كما شهدناه ، يقتحم الغمرة ...

غير أنه لم تشغله شاغلة إبان تألب المنهزمين لدمائه عليه عن إدامة النظر في حال رجاله الذين حزبتهم المحنة ، وحربتهم الحرب ، وفرق شملهم وأعدادهم اختلاط الأمر واضطراب حبل الكفاح : إنما كان يضرب وهو يرتب ، ويهجم وهو ينظم . فلم تكد المعركة في إقبالها وإدبارها تلقى به في جانب البقية الباقية من ميسرته ، حتى راح يستثيب الذين هجروه ، ويحثهم على الصبر ، ويحذرهم مذلة الفرار ... وكان الأشتر قد دفعه إليه مد القتال ، فدعاه :

« يا مالك »

« لبيك يا أمير المؤمنين ... » .

« ائت هؤلاء القوم فقل لهم : أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم ؟ »

أينما كانت حركة فى جنبات الحلبة ، وأينما كان نفس ، كان على يرسل بصره ويشرك تدبيره . وفى خلال الأيام والليالى الثلاث التي استغرقها القتال ، وحمى فيها أو فتر وطيسه ، كان يشهد — وإن نأى — تقدم الجند واستئخاره ، الهجمة والدحرة ، الكرة والفرة . كل هنة وصغيرة فلم تخف عنه من مواطن الخطر خافية ، لم تغب لحظة عن إدراكه خطوة راجل أو وثبة فارس مهما نأى بها الميدان ... إنه لينظر إلى المعركة كمن يتصفح صحيفة . ويعمل كمن يخط على أديمها بقلمه فيمحو أو يضيف ما يشاء ... ولم تهن قط عزمته . ولم تحز به الشدة فى إبانها بقدر ما حفزته فإذا هو مضاء وأنفة وإيمان . وعندما استشعر المحنة التى تردى فى قلبها رجاله ، كانت عينه تسبق العلة ليمد لها ذهنه الدواء — جمعهم ولى إلا حفنة . صبرهم هاض ما عدا مسكة — ريحهم ذهبت سوى أثر كأنه بقية الربوع الدوارس . أما هو فله صبره ، وله أيضا بشره وإن كرثه الانهيار ، وله ثقته واعتداده : فلم يكد يبدو له من صفوفهم خوار ، حتي انطلق يقتحم الغمرة ، بغير ونى أو فتور ، يهجم ويصول ، ويناضل وحده موجا عاتيا من جموع الأعداء ، لا ليظفر ، بل لينفث الثقة فى القلوب ، ويرسم الأسوة لكل متردد ، ويحمل على الصبر كل فرار ...

وكان له نهج ناجح يهد الكثرة التى خايلها النصر ، ويعد القلة التى أفزعتها الهزيمة . فحين تقطعت أوصال جيشه ، وغدا شراذم كالجزائر فى طوفان من جحافل الشام ، سارع هو فنفض جبينه ، ثم بادر عايرد عن صحبه المادية ، ويزلزل خصمه ، ويطفئ جمره ، ويكفئ قدره ! ... حينذاك شحذ الحيلة ، فقدم الولاء والفداء والتضحية طليعة مناصرة إلى أولئك الذين تحلق حولهم عدوه . وتركهم من حصاره فى شر ، أعتاه أسر ، وأهونه هلكة ، وكان تضليله خصومه الأقوياء عن حقيقة الحال ، وبثه الذعر فى قلوبهم ، وإيهامهم أنه الأعز هى الخطوط التى وضعها تدبيره . وكانت قوة الإيمان ، والجرأة ، وحب الإيثار هى الدعائم التى أقام فوقها جسرا مر عبره جنوده المفصولون عائدين للحرية ... فذات ساعة فى الوقعة ، حملت خيل لمعاوية كثيفة على فرسان من العراق فقهرت منهم ، ومزقت ، وبترت ألفا حيل بينهم وبين الخلاص : عند هذا نادى الإمام :

« ألا رجل يشترى نفسه لله ويبيع دنياه بآخرته ؟ .. » .

فأتاه رجل من جعف ، مقنع فى الحديد ، تشع عينه نظرة تخيف الموت :

« يا أمير المؤمنين ... مرنى بأمر ، فوالله ما تأمرنى بشىء إلا صنعته ... »

فقال له على يسدد خطاه :

« أبا الحارث ، شد الله ركنك ! .. احمل على أهل الشام حتى تأتى أصحابك فتقول لهم : أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام . ويقول لكم هللوا وكبروا من ناحيتكم ، ونهلل نحن ونكبر من هاهنا : واحملوا من جانبكم ، ونحمل من جانبنا على أهل الشام ... »

فأسرع يفعل ، وشهده اليوم يعدو به جواد كالليل ، أدهم الجلد والغرة . خف حمله على الريح ! .. لم يزل يمضى به فى صفوف العدو المرصوصة ، مرة خلسة ، ومرة عنوة ، وهو قابع على ظهره كالقلعة ، لا يصيبه سهم ، ولا يناله حسام .

وبلغ الجعفى هدفه . فلما لمعت من بين قناعه الحديدى عيناه . قرأ أصحابه المحاصرون فى نظراته بشير السلامة ...

وسألوه :

« ما فعل أمير المؤمنين ؟ . . »

قال :

« صالح ، يقرئكم السلام . . »

ثم أدى لهم رسالته .

فإن هى إلا لحظة حتى اهتزت الأرض بالتهليل والتكبير ، من هذا الجانب ، ومن ذلك البعيد . ووقعت جماعة الشام فى حلقة منه . وفى حيرة من هذه الحملة المفاجئة التى بادرها الفريق المحاصر المستضعف . وفى فزعة من تلك التى أنبأهم التكبير خلفهم أنها ستحمل إليهم المصارع ... غلب على أوهامهم حينذاك أن عليا قد استفاء جندا ضخما — ثم ذلك الزئير عن أعداده — وأقبل فيه من ورائهم ، فخافوا الوقوع بين فكى المقراض ...

وكذلك نجت الفرقة المحصورة . وانفسح لها سبيل الخلاص واسعا فى صفوف العدو الذى ختله عنها التهليل ، وفرقه الخوف ، وأوفت به حيلة رجل ، وجرأة

آخر حول الفناء ... وكذلك نشهد الإمام دائما خلال الوقعة قد جمع حواسه ، وإدراكه ، وعلمه بالقتال والرجال ، عدة واهبة تكبح عنه جمحة النوازل ، وتدرأ غائلة الويل . فإذا أجزى الختل ختل ، وإذا أجدت الجرأة غامر ، وإذا أعز الضراب صال ...

٣

بدأت دعوة الأشتر الناس للثبات كالصرخة فى الربع الخالى ! .. شغلهم عنه الخطب . أذهلهم الروع . وكانوا يفرون من حوله كالجراد . وكالظباء الشوارد . وكالحمر المستنفرة فرت من ضيغم ! .. ولم يردد الفضاء صيحة كصيحته فيها اللهفة والاستغاثة ، والرقة مع العنف ، والتوسل مع الوعيد . وكان يجأر بصوته المجلجل : « أنا الأشتر .. إلى أيها الناس ؟ » فيقبل واحد ويدبر عشرة . وكان يرميهم بوحشى لفظه : « عضضتم بهن أبيكم ! » فيلقونه بسمع أصم ...

فاستفاء منهم قومه :

« أخلصوا إلى مذحجا ! .. »

عندئذ أخذت غشية الذهول تنجاب هونا عن النفوس المفزوعة : وبدأت الأرجل تثبت ، والقلوب تثوب . لكأنما هز العرب من غير قبيله أن رأوه لا يباليهم ، ويكفر بنخوتهم ، ويؤثر النخع عليهم ، فراحوا ينعتون عيونهم إليه بعد لى الأجياد عنه ... ولكنه انطلق يستجمع أهله . ورويدا رويدا كان نفرهم يقبل ، وأعدادهم تأتلف وتتكتل . فلما شهدهم قوة تستطيع أن تقف على قدم ، فتدفع خطراً أو تسد ثغرة ، وقف بينهم يخاطبهم ونبرات اللوم تتناثر من بين شفتيه كالحمم :

« عضضتم بصم الجندل ! .. والله ما أرضيتم اليوم ربكم ، ولا نصحتم له فى عدوه ، فكيف بذلك وأنتم أبناء الحرب ، وأصحاب الغارات ، وفتيان الصباح ، وفرسان الطراد ، وحتوف الأقران ، ومذحج الطعان ! .. »

وتركهم برهة يلوكون فيها تقريعه . حتى إذا نضحت سيماهم بالندم والتوبة ،

رق صوته ، ولان لهم محياه . ثم مد يمينه ، وهو يحرضهم ، يشير بها إلى مقاتلة الشام :

« ... اجلوا سواد وجهى يرجع فى وجهى دمى ! ... والذى نفس مالك بيده ، ما من هؤلاء رجل على مثل جناح بعوضة من دين الله ... »

قالوا له وقد حركتهم حميته :

« خذ بنا حيث أحببت ... »

كان عليه أن يعيد بناء ميمنة على التى تهاوت ، وخرقت جدرها الشقوق والثغرات . فلم تعد سوى خرائب وأنقاض ، وأوشكت معاول الهدم التى تناولها بها رجال ابن هند أن تدكها وتأتى عليها من القواعد . ولئن كانت المهمة التى أخذ نفسه بها عسيرة ، فإن المادة الصالحة للترميم ، ورتق الفتق ، وإقامة الدعائم ، كانت لاتزال على مدى عينه . هنا ملاط وعمد وأحجار ! — هنا طوائف لم تستكين أو تفر بالعمر وفيها بعد ذماء من روح ، ونفثة من دم ، ونفس حياة ... ولكنها تلفتت لتجد الميدان قاعا خاليا حولها إلا من نفيرها المهشم الذى نهكته الحرب ، وأكل منه الكفاح . أما عدوهم فسبقهم إلى النصر . وأما حليفهم فهجرهم إلى المهرب ، وأما هم فرقأوا أدمع الحسرة ، وامتقوا دم الجراح ، وساروا الهوينى على محجة الموت لعل هذا الفضاء من حولهم يطلع جحفلا من الغريم المدل يبلغون ثأرهم أو يثيبهم لفاؤه الشهادة ! . . .

ولقيهم الأشتر . أولئك شوية من همدان . شباب بواسل شم صلاب ، مزقتهم الوغى الخوانة ، وحالفتهم الخطوب فلم يغضوا لها ذلة الجباه . بالدماء ضمخوا قتلاهم . بالثرى كفنوا أحياءهم . فات حظهم غار النصر فآثروا وهم أعزة ركام القبور . بالرضاء والبشر والطمأنينة استقبلوا الأحيان .

وكانت لهم راية عزيزة فى الرايات ، ظلت على مدى القتال ثابتة كالطود ، رافعة كالقمة ، تطاول غيوم السماء ، لم يقصفها حدث ، ولم تعل بها محنة ، حملها رجال غير أمجاد . وركزوها فى قلوبهم فلم يدعها واحد منهم إلا وهو يودع آخر نسمة من أنفاس العمر ، ينفثها الصدر ويلفظها النحر ، ولا يتوسد على الأديم رمسه حتى يتلقفها من فؤاده قلب آخر . وحين هذا تطيب نفسه ، ويهدأ باله ، وتومض عينه ببسمة رضاه ، ثم يخر على الثرى القانئ المبلل وينام ...

دونها قتل ستة أخوة ، ثم ثلاثة ، ثم اثنان . ضمهم فى الردى التراب كما جمعتهم فى الحياة الأصلاب . فلما أن خاصمت قومهم ربة الحرب ، وفنيت منهم القدم والحافر ، وتقطعت بهم عن الطعان الأسباب تهاتفوا بحسرتهم :

« ليت لنا عديدا من العرب يحالفوننا . . فلا ننصرف حتى نقتل أو نظهر ! . . »

وعندئذ لقيهم الأشتر . فأهاب :

« إلى ! . . » .

فلبوه . . .

* * *

ولم يطل به التجوال — كما أسرع الناس منذ ساعة للتفرق بادروا الآن إلى التجمع حوله كلما بلغهم نداؤه ودعواه . فلقد هدأ منهم الجأش ، وسكن الروع ، وتبددت غمة الضعف والتخاذل فما بقى منهم إلا نادم وأسيف . فى جموعهم تلك لم يكن خائن . إنما زلزلتهم البغتة ، وجمحت بهم أقدامهم عن غير وعى إلى مسالك النجاء . وإنه ليهتف فتأتيه من هنا طائفة ، وتلحق به من هناك فرقة ، وتأتلف عنده الفلول والشراذم وهى تنفض عن أردانها غبرة الخور وعن وجوهها معرة الفرار . وإنه ليمضى وشمس الظهيرة تنطلق للعصر ، فيكون سيره كليلها ، ونفره كظلها ، كلما استقدم نما نصيره واستفحل ، وكلما مالت امتد ظلها وطال ! . . .

فردا فردا جمع رجال الميمنة المدحورة ، حجرا حجرا لم جدارها المنقوض ، وشيئا شيئا راح يرسى له القواعد ويقيم العمد والدعامات . . . ولم يلبث جهده أن أجدى جدواه . فالعيون القلقة ثبت حملاقها على مواطن الخطر . والقلوب الفزعة أمنت من خوف ووقع خفقها نغم الجهاد . والجوارح المرتجة فاءت للعزم فصلبت للملامح ، ورسخت السوق ، وشدت الأيدى على الصوارم . وعندئذ أخذ الأشتر بهم حيث كان زحف ابن بديل قبله ، فلا يكاد يصمد لكتيبة من عدوه إلا كشفها ، ولا لجمع صلف منهم إلا حازه . . كانت ربة القتال هاديته . كانت تسبق خطواته. كانت تفرش له الأرض بالنصر . . . أما صحبه فقد حلت لهم خمر الغلبة فراحوا يعبون من كؤوسها حتى النشوة . وأما خصمه فقد بهتهم بلاؤه ، وثبات جنانه ، وارتماؤه على الأسنة المشرعات صوبه كأنه يتعجل حينه . إذا ثبتوا له اقتحم .

وإذا انحرفوا عنه طارد . وإذا حركوا القدم للهرب كان أسبق منهم إلى منافذ النجاة يسد عليهم الخروق والمسارب . وأينما نقلوا العين فى جوانب المكان لم تقع إلا على حديدة سيفه ، الخاطفة خطف الشعاع ، المتلألئة كالماء الجارى ، الصافية كالمرآة راحت تعكس على صقالها مناياهم ! . .

حتى رجاله الذين جاوروه فى الحومة بهرهم صدقه القتال ... تحادث أخوان عنه وهما يشهدانه يقصف ويعصف ، فخارا فيه . قال منقذ :

« ما فى العرب رجل مثل هذا ، إن كان ما أرى من قتاله على نيته ... » .

فتساءل حمير :

« وهل النية إلا ما ترى ؟ . . » .

وعندئذ هز منقذ رأسه وهو مستريب حيران :

« إنى أخاف أن يكون يحاول ملكا ! » .

ولكنه كان لا يبتغى وجه دنياه . كان يرجو الآخرة ، ونصرة المكارم ، وإحدى الحسنيين : غلبة أو شهادة . ولقد ساقه الزحف حتى رأى امرأ من رجال الإمام يحمله نفر وهو على أكفهم خضيب ، فسأل الناس :

« من هذا ؟ » .

فأخبروه :

« زياد بن النضر . استلحم عبد الله بن بديل ، فتقدم زياد فرفع لأهل الميمنة رايته ، فقاتل حتى صرع . . . » .

ثم رأى بعد هنيهة جريحاً آخر فسأل :

« وهذا ؟ . » .

فقيل :

« يزيد بن قيس ، لما صرع زياد ، رفع لأهل الميمنة رايته فقاتل حتى صرع . . »

وعندئذ غمر رضا محياه ، وقال :

« هذا والله الصبر الجميل ، والفعل الكريم . ألا يستحى الرجل أن ينصرف لم يقتل ولم يشف به على القتل ؟ . . . » .

فالصبر فريضة ، والجرح فخر ، والموت فى معامع القتال مثوبة وذكر . أما الملك فنشب يفتتن الذين استذلتهم الحياة . . .

وزحف بجمعه . . .

كان ماردا على صهوة جواد . خف لحمه فكان كشبح . وطال قوامه كأنه برج ، وأفعم بدنه توثبا وحركة فلاح كثعبان . . . وكان يذرع الميدان كالإعصار الغاضب ، ويجتاح اجتياح عاصفة . لا تكاد تثبت تحته القوائم ، ويوشك من نشاطه وسرعته أن يظهر هنا وهناك ، وهناك وهنا فى آن ! .. ولم يكن همه فحسب أن يلتحم ويقتحم ، وأن يقتنص ويصيد ، وأن يقسط وهو يفرق الردى على أعدائه قسمة عادلة وحصصا سواء ! . . إنما كان يرجو أن تنجاب له غمرة النقع فيشهد الخزاعى ورفاقه الذين تعاقدوا معاً على الموت وهم الآن جثى بناحية كلت منهم الجوارح ولم تذل الأرواح . . .

حينذاك كان النهار يترحل . الشمس تميل . الأصيل يلتهب . الأفق يصطبغ بالشفق فيبدو جانب السماء كالحريق . . . وكانت الأرض مسرحا لأطياف المساء الذى تقدمت طلائعه . فهاهنا بقعة قانية هى من ثرى غريق فى الدم أم انسكابة الشفق تحلتها الحمرة ؟ . . وهنا كثيب من حجارة غبر ، أفمن لفحة الرمضاء أم قد مسها ظل الليل؟ .. والرمال الصفراء كانت منعكس النهار الباهت ، الذى خفت نوره وحال لون محياه ...

وتحت ظلة الغروب رآهم لصقا بالأديم كالإبل البرك بعد نصب الإصحار . فلما أن أحسوا فى جوارحهم بالقوى الزاحفة ، وحركوا نحوها العيون الكليلة ، ودبت الحياة فى أوصالهم دافقة عندما رأوا تلك الشارات من خطوط بيضاء تزين رءوس القادمين ومناكبهم ، وتنبئ أنهم من رجال الإمام ..

وتهاتفوا يسألون فى قلق :

« ما فعل أمير المؤمنين ؟ »

فأجابهم من أصحاب الأشتر من ردهم إلى الطمأنينة :

« حى صالح فى الميسرة ، يقاتل الناس أمامه » .

فرجع الفضاء بشرهم وشكرهم :

« حمدا لله ! .. قد كنا ظننا أن قد هلك وهلكتم ... » .

وقام ابن بديل يتوثب بقدميه ألف شيطان ! نسى وصبه . ونفض إعياءه . ورده ذكر على جبارا عاتيا كما كان ، يبحث عن الخطر ، يتحدى الهول . . .

وأهاب بأتباعه :

« استقدموا بنا ! . . » .

كرة أخرى عاود المغامر مجازفته . وجه بصره إلى القبة البيضاء ، وسيفه ، وقلبه الذى كان يضطرب بالمقت والزراية ... وعلى أثره سار رفاقه يستبقون الطريق ، ويوسعون الخطى حسبما أمكنتهم الجسوم المنهوكة ، وحمى الجراح ... وكانوا قد تساندوا بالمناكب ، يدبون دبة رجل واحد ، ورجل واحدة ، وقلوبهم فى جنوبهم تطفر شوقا إلى الردى أو الظفر . وكان الخزاعى علمهم ، خلفه انطلقوا ، ومشماهم ، قبلهم مضى يشق المجهول ، وعندما أتاه تحذير الأشتر : « لا تفعل ! . . » ابتسم ، ولم يضق ذرع خطاه ... وعندما جاءه نصحه : « اثبت مع الناس فهو خير لهم وأبقى ... » أبى السلامة ، وزود قدمه الزاحفة بجناح ! ..

وعبر لقدره ، دونه من عدوه سياج من المقاتلة كالغاب . جند ضخم تكاثفت جموعه تكاثف الظلمة فى الليالى المطيرة . صفوف كالموج . فبأى سيفيه أصاب ، وكم من رقاب ؟ .. كان كزورق ، وكان حسامه كجذاف ملاح . كلما خاض لجة برزت لجة فتحرك هذا وتحرك ذاك وانساب القارب على التيار الأحمر ؟ ..

ثم بدا الشاطئ فإذا هو وعر تحطم الزورق على صخوره ! .. على مدخل القبة البيضاء . على مرساه ! .. فلم يكد يخلص إلى معاوية حتى زلزلت جرأته أولئك الذين أحاط جمعهم بماهلهم فذهلوا عنه ، وغدوا عيونا جوفاء وأكفا مشلولة ! كانوا فى مثل حلم . كانوا رجالا كظلال . ولكن حرارة الحياة التى هجرتهم بغتة وتركتهم مسوخا صماء كالأصنام ، تركزت كلها فى حلق ابن هند الهلوع ، فراح يصرخ :

« ويلكم ! .. الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح ! .. »

فردهم إلى الوعى صياحه ...

من كل جانب تطاير الصخر والحجر إلى ابن بديل ليسلبه عمره . قذائف قذائف اندفع نحوه ! ورجما ورجما غمره بطوفان . ما من رجل منهم مشى إليه مشية جندى بسيف أو حربة . ما من امرئ جرؤ فدناه . إنما تناولوه عن بعد بهذا النوع من العدة الذى يكفيهم لقاءه ويكف عنهم شرة حساميه ، كأنهم

فى عمرة ، وكأنه إبليس يحصبونه بجمرات ! .. وحين أوهى قوى وناء ، وفته الصخر والحجر ، ورقد جسده الهامد كومة من مزق ودماء ، هتف معاوية برجاله وقد فاءت نفسه إليه :

« انظروا من هو ... »

قالوا :

« ابن بديل » ! ..

فأقبل نحوه يمد يده ليرفع غطاء كان قد ألقاه عبد الله بن عامر على الصريع . وعندئذ ابتدر دمع ابن عامر ، ثم صلبت ملامحه ، ثم رد اليد الممدودة ، بعنف وقسوة وهو يزأر :

« لا والله ، لا يمثل به وفى روح ! .. »

قال معاوية وقد هزته عزمة رفيقه :

« اكشف عن وجهه فإنا لا نمثل به .. قد وهبتهُ لك .. »

ثم ألقى بنظرة على المحيا الشائه ، فيها شماتة وفيها إكبار ، وهمس يقول :

« لو استطاعت نساء خزاعة أن تقاتلنا فضلا عن رجالها لفعلت ... والله ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها
وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا
ويحمى ، إذا ما الموت كان لقاؤه
قدى الشبر .. يحمى الأنف أن يتأخرا
كليث هزبر كان يحمى ذماره
رمته المنايا قصدها فتقطرا »

ومضى إلى قبته ...

ورقأ ابن عامر دموعه ، ثم جر على محيا الراقد الهامد الغطاء ...

٤

حق الأصيل . كانت الوقعة مضطربة السمات ، خليطا من تقهقر وصبر وإقدام ، خطوطاً مختلفة ، رفيعة وعريضة ، ذات معالم من هزيمة ونصر ، ومد وجزر ، كتلك الخطوط التي راحت الشمس في غروبها تصبغ بها جوانب الأفق بريشة الشفق ، فيتجاور فيها النهار والليل ، الضوء والظل ، صفاء اللآلئ وعتمة العنبر ، وتنبثق منها أشعة الطيف كنثير اللجين والتبر ، وتنظيم اللازورد والمرجان . . .

في الميمنة ذهب الأشتر يرم ويقوم . . . وفي الميسرة ثبت على يناضل ويصاول ، بغير ظهير ولا سند سوى هذه الطائفة من ربيعة التي دقت القدم في الأرض ، وألصقت السلاح بالأكف حتى لاح كل واحد منها كأن له إصبعا سادسة هي الرمح أو العنزة أو السيف ! . . . من اعتدال النهار لغروبه ، من الضحوة إلى الغسق ، والمساء لما تنتشر ظلاله ، وقفوا جميعا يقارعهم الموت ، وينازعهم الثرى الذي وطئوه حبة وحصاة حصاة . ولكنهم غالبوه بالعناد وإن لم يكاثروه بالأعداد . ما كان لامرئ حينذاك أن يقهرهم . لاقبل بهم لقوة ، وقد تحصنوا دون عدوهم ، بالإيمان يدرأ عنهم عادية الخوف وهي أفتك بالنفوس من أسنة النضال .

وسأل الإمام حين دفعه تيار الوقعة إلى هذه الفئة الصابرة ، التي ثبتت للموت :

« لمن هذه الرايات ؟ . . »

قالوا :

« رايات ربيعة »

فدعا لهم وهو يكبرهم :

« بل هي رايات الله . . . عصم الله أهلها . وصبرهم ، وثبت أقدامهم . . »

ثم أشار إلى غلام حدث منهم ، كان يرفع رايتهم الحمراء :

« يا فتى . . . ألا تدني رايتك هذه ذراعا ؟ . . »

« نعم والله ، وعشر أذرع ! . . . »

وقفز يتقدم . ثم قفز ليغوص في جحافل العدو الكثيفة بغير مبالاة ، وقد

أذهلته الحماسة عن الناس ، ومواطن الردى ، ومهاوى الهام . . لكنه سمع عليا من ورائه يحذره :

« حسبك ، مكانك ! . . . »

فثبت حيث قام . وثبت خلفه رفاقه لا يتخلل صفهم مغير ، ولا يهزم عن مواقع القدم مغامر . ناضلوا على الباع والذراع ، وعلى الشبر والفتر ، وعلى الحبة من الثرى والرمال . ولم تختلهم قط عن صبرهم تلك الحيل التى انتفخت بها جعبة ابن هند وود لو أبلغته هدفه . . فأنى له أن يختل ويخادع ، وأن يراوغ ويحتال ، والإمام على بصيرة من خافية ضميره ، لم يغب عنه أسلوبه فى التمويه ؟ . .

من قبل ومن بعد جرد معاوية خيله ليبعد الخطر عن نفسه ، وليخذل الناس عن على ، وليأتيه من حيث يأمن البغتة أو ترق خطوطه فى مواقع القتال فلا تستعصى على الثغرة . بالمال . بالمنصب . بالغرور الذى يستأسر قلوب الرجال . بكل وسيلة وحيلة احتال . . .

أنت تراه حين يوقن أنه بات غرضاً واضحاً ترصده الأعين ، وهدفاً بينا تسعى إليه المنايا الظمآنة على شفرات بضعة من المغامرين فى معسكر الإمام ، قد حصن نفسه عن النوازل الداهمات فنأى عن الميدان بفسطاطه . ثم اتخذ سياجا من الحماة . ثم أمعن فى الحيطة فقدم فارسا من مواليه شبيها به ، كان يلبسه مثل ثيابه ، ويزوده بمثل عدته ، ويقدمه فى الغمرات لعل الأعين العادية والأسنة المشرعات أن تنخدع فيه . .

وأغر حقا هذا التمويه . فكان الناس حين يخطر أمامهم حريث يتهامسون بغير تردد : « ذاك معاوية ! » . . وكان الماهل طيب الخاطر بحيلته . وكان دائم النصح لفتاه ، دائب الحرص عليه ، ففى سلامة مولاه أمان له هو نفسه وضمان لحياته . وكان كلما رأى دفعه إلى الميدان حذره قبل أن تنطلق فى غمرة الصراع قدماه :

« يا حريث . . . اتق عليا ، وضع رمحك حيث شئت . »

لكن الغرور أرداه ! — أردى الغلام المدل المختال الذى ود سيده لو ادخره واستأخر بأجله بعد هذا اليوم . ولغير هذه الداهمة القاصمة التى أتت بحينه ،

ورسمت اللحظات الأخيرة من عمره بكف صناع دون حذقها ودربتها جمحة الخيال وشطحة الأساطير ! . .

وكان الشيطان دليله . . مضى يهون عليه ، ويزين له ، ويلون قدره بكل زاه وبراق حتى هانت الأخطار ، وخفيت عنه قيم الأقدار . فلما انتفخ سحره ، وورم صدره ، ومال خده من الكبر ، أقبل يمشي على خيلائه وكأنما الدنيا تضيق عن خطوه ! . .

وكان عمرو شيطانه ! . .

قال له ابن النابغة يغريه :

« إن رأيت فرصة فاقتحم ! . . »

وكان على حينذاك على رأس جنوده . . .

ثم قال ثانية :

« ... إنه كره أن يكون لك حظها ... »

« من ؟ . . »

« معاوية ! . . إنك والله يا حريث لو كنت قرشيا لأحب صاحبك أن تقتل عليا ! . . لكنه كره أن — »

فصرت أسنان الفتى من الغيظ ... وفح فحيح ثعبان ،

« كره ! . . »

« فإن رأيت فرصة فاقتحم ! . . »

فاقتحم ! . . ولم يكن بالجبان الرعديد ، بل كان ذا بأس ، جلد القلب . شديد البنيان ، له ساعد دوار يطيعه سلاحه ! . .

وصاح المغرور :

« يا على ، أقدم ! . . »

فإذا هي آخر دعواه ، وكل ما لفظه حلقه من علائم الحياة ! . . حتى النفس لم يتردد بعدها فيه ، ولا كان له رجع . وحتى خفقة القلب التي ختمت عمره لم يهتز بها إهابه . وحتى اختلاجه العين وهي تظلم لم تختلج لها أهدابه . . . إنما هي كلمة رفع بها الإمام صوته ، يسخر ، وهو يقبل عليه : « يا أيها العبد الغرير — اثبت ! » . . . فإذا الغلام قد ثبت . ثبت كيانه على الأديم المبلل بدمه . على باب

رمسه ! . . هو فى الحق لم يثبت وإن همدت منه أعضاؤه ، وسكنت أنفاسه ، وصار جيفة يرنو لها الوحش والطير . لم يرقد بدنه على الأرض وهو جميع . لم يقع وحدة موصولة إلى وطائه . إنما تفرق . تمزق . انفلق جسده كحبة الفول : رمة فى اليمين ، ورمة فى اليسار وقد شطرته الضربة ! . . .

فأى المشاعر خالج الآن نفس ابن العاص ؟ . . الأسى أم الأسف ؟ . . الألم أم الندم ؟ . . أم الذى كان أدنى إلى طبعه غير هذا وذاك من عواطف وخلجات ؟ . . إنه لم يكن غافلا عن خطر على ، ولا هو حين أغرى الغلام ، كان يرجح أنه سيظفر . إنما أراه كان يعلم أن الحرف فى وسوسته ، واللفظة فى تغريره ، وكل ما احتواه أسلوبه الزائف المذاع هى جميعها إبرة تحيك كفن حريث ومعول يشق الثرى له عن قبر غائر يتوارى فيه ! . . ومع ذلك فلا عن ضغينة للفتى نزغ نزغه ، ونفث نفثه القاتل المسموم . .

لا لنقمة ولا لثأر . ولكنه كان رجلا يعرف نفسه ويعرف حليفه . وكانت نفسه هى بضاعته . وكان حليفه هو شاريها . فلو تعددت معها السلع فى سوق البيع ليبخسها معاوية ، أو زهدها ، أو هان شأنها لديه . .

بهذه النظرة الثاقبة الحاسبة كان عمرو يقيس العلاقة بينه وبين ابن هند . فالصالح الذاتى وحده هو مؤلفهما على هدف ، وجامعهما على غاية . وبقدر حاجة الواحد منهما لصاحبه يتوثق العقد ، وبقدر تغانيه عنه ينفرط . . ولقد أيقن ابن العاص دائما أن الزمن الذى أوشك أن يحقق له أطماعه إذ جعله ناصحا لسيد الشام لن يظل إلى الأبد فى ركابه إلا أن يؤمن التابع بفضل المتبوع ، ويعرف قدره ، ويقدر خطره . وما كان معاوية ليؤمن مثل هذا الأيمان حتى يهبط درجة من سمائه ، وتنتقص أطراف خيلائه ، وتقفر الأرض حوله من الأعلام والمشارف التى تخفى حليفه الوصولى عن عينيه ! . .

أدنى إلى طبيعة ابن النابغة إذن هذه الشماتة التى أراقها ثغره ، ذلك اليوم ، وحريث يدنو إلى حافة قبره وهو غرير . . فهو علم يندك . وهو مشرف ينهار . وهو ريشة فى قوادم الناهل أو خوافيه حين ينتزعها الموت ستعوق الباشق أن يحلق ويستطير ! . . وما كان عمرو ليرجو أن يوهن من قوة وليه إلا بالقدر الذى يخفضه به إلى مستواه ، فيقهره على اللجوء دائما له ، والتعويل عليه . .

حتى حينما كان يسمى إليه بالرأى ، كان يبطن الشورى بعسكره ، ويعزجها بما ينال من كبرياء العاهل المستشير واستعلائه . فلم ينقط عن غمزه ، وعن كشف هناته ، وعن تهوين شأن نفسه عليه ، هو الولع دائما بأن يبدو الأريب اللبيب الذى يختل المكر ، ويفتل النكر ، وتعنو له جباه الدهاة ! . يخرج على أليه ذات ساعة من القتال ، يناديه :

« يا معاوية ... »

ويكررها المرة بعد المرة ، والعاهل مجفل عنه لا يزيد على أن يقول لمن حوله :

« اسألوه ما شأنه ... »

« أحب أن يظهر لى ... »

عندئذ يدفعه عمرو إلى ما بين الصفين وهو فى الأغلب كاره ، ليسمعا الدعوة ...

« يا معاوية . ويحك ! ... علام يقتتل الناس بينى وبينك ، ويضرب بعضهم بعضا ؟ ...

فيرجه العجب .

ثم يصغى لغريمه

« ... ابرز إلى ، فأينا قتل صاحبه فالأمر له ...

فيرجه الخوف ! ..

ثم يسأل حليفه :

« ما ترى يا أبا عبد الله فيما ها هنا . أبارزه ؟ ... »

« اغتنمه منتهزا ! ... »

« ويحك ! ... »

« أنصفك الرجل ... »

فيكاد حلقه يغص بألفاظه الحيرى المكتومة ، وهو مشدوه :

« يا عمرو بن العاص ؟ ... »

« ... إن نكلت عنه لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقى عربى ... اغتنمه منتهزا ! ..

غير أن وسواسه لم يغلب ابن هند على حرصه ، ولم يلهه عن تبين القبر الذى

يعفر فاه على قيد الخطوة : إنها قدمه ترتفع ، ثم تنحط ، ثم لاتسكون الحياة ! ...

وصاح معاوية فى مشيره اللئيم :

« ما أحمقك ! ... ليس مثلى يخدع عن نفسه ... والله ما بارز ابن أبى طالب رجلا قط إلا سقى الأرض من دمه ... إن تريد إلا أن أقتل ! ...

وحفظ معاوية بقية أجله ..

وضحك على ...

وسخر عمرو :

« إيهاً أيها الرجل ! ... أتجبن عن خصمك ، وتتهم نصيحك ؟ ..

ثم انتفخ حتى حسب أن قد ضاق به مكانه . وا كتسى محياه مسحة من خيلائه وهو يملق لأميره فى اعتداد وصلف :

« والله لو علمت أنى أموت ألف موتة لبارزت عليا فى أول ما ألقاه ! ...

ولكنها سخرية عابث ونفخة مغرور ، فلم يمهله القدر حتى سلخ عنه إهابه الزائف المرقش وتركه عاريا أمام النواظر الزارية النقادة ... عاريا بدخيلته ، وعاريا بسوأته ، وبين هذه وتلك لا فرجة لفخر بطل ولا لعجب مختال ! ...

فلقد خرج يجتلد ، والرحى تدور ، فكادت النخوة ، وحمى الحرب ، ونجمه العاثر العاثر تقع به تحت كف الإمام . عند هذا تبدد السكبر من نفسه ، وجفت الخمر فى كأسه ، وغدا بدنه وذهنه وعينه جميعا مطايا له ذات أجنحة تطير بعمره إلى نجوة بعيدة ...

وأقبل على . إن رأى فالخطر ، وإن دنا فالحام ، وحينذاك لن ترده الصوارم القواطع عن رقيق دنياه ! ... وقد رأى . ثم دنا . ثم هم أن يدهم . فإذا ابن العاص أسرع بالحيلة من دهمة الداهم ، وضربة الباتر القاصم ... إلى ملاذ الحياة ... الداهية الخبيث تفزعة المهجمة ، فيلقى بدرعه ، ويلقى بسيفه ، ويلقى بنفسه تحت قدمى غريمة مفلول الحول ، مكشوف السوأة ، كله ضراعة ووهن ومذلة ...

ويأبى الإمام أن يلوث يديه بدم أعزل خافض الجناح ، تكرما وعفة ، فيخليه ..

ويقول الناس :

« أفلت الرجل يا أمير المؤمنين . . . » .

فيبتسم لهم :

« وهل تدرون من هو ؟ . . » .

« لا . . . » .

« فإنه عمرو بن العاص ، تلقانى بعورته فصرفت وجهى عنه . . . » .

وعندما رجع الرجل إلى معسكره ببقية أجل سبحت ناجية على ماء حياته ، سأله هناك صاحبه الشامت وهو لا يكاد يكتم سخريته :

« ما صنعت يا عمرو ؟.. » .

فلم يرده الخجل عن جوابه :

« لقينى على فصرعنى ... » .

وضحك معاوية . ما خفي عنه استخزاء رفيقه ، ولا هذه الملامح من الضعة والهوان ترهق وجهه بغبرة عاره وإن غشاها بنقاب خادع من الجمود ...

وزجى حديثه له بعد قليل ، رفيقا لينا كوجه اليم فى يوم صائف ، الصفاء على السطح ، والشوائب فى القاع ! ... قال وظاهر لفظه الفرحة بنجاته ، وباطن مدلوله السخرية :

« احمد الله ، وعورتك ! . . . » .

فثار ابن العاص وقد وخزته الغمزة :

« ما أشد تغبيطك عليا فى أمرى هذا ! . . وهل هو إلا رجل لقيه ابن عمه فصرعه ! . . . أفترى السماء قاطرة لذلك دماء ؟ . . : »

فكانت الكلمات الوانية التى أرسلها الهازل الساخر ، فى تعاوت وخبث :

« كلا . . . ولكنها معقبة لك خزيا أبا عبد الله ! . . » .

على أن هذه المساجلة بالمثالب بين الرجلين ، الحليفين الغريمين ، لم تكن لتفسد عليهما الألفة التى خلقتها المصلحة ، ووطدتها عبادة الذات . . . إنها اصطراع الموجة والموجة لا يعقد بهما عن التهاوى إلى الشاطىء الوسنان والاعتناق فوق فراشه الرملى الناعم . . . إنها سباق إلى التفوق بالجنان واللسان ، وبالدهاء والذكاء ، وبالزهو والخيلاء . . . إنها رياضة ذهنية مارساها وهما معا على بينة

من أهدافها ومراميها التي لم تكن قط لتحيد بالعين عن المرمى الأكبر ، والهدف الأوحد الذي رمقاه . . .

ذلك وحده غرض الشوط وغاية المباراة ! . . فما كان عمرو جادا حين راح يدفع إلى المبارزة صاحبه وهو يعلم أنها دفعة إلى فكي الأسد ودعوة سافرة للموت ! . . ما كان ليغفل أو يفقد على الأثر هدفه ، ومأرب حياته ، ومنتهى المأمول من دنياه . إنما عمل كمهده ليبدى سوأة الضعف فى معاوية ، ويضعه حيثما يجب أن يكون . وفى الفترة التي انعقد خلالها بينهما الحلف ، كان الرجلان فرسى رهان نحو المكر ، يحاول كل منهما أن يسبق رفيقه ، وأن يغلبه بحيلة . أن يركبه بخدعة تنال من كبريائه ، وثقته بنفسه ، واعتداده بنصيبه الموفور من الذكاء والدهاء الذي ظن أنه يبوئه مكان الصدارة بين الدهاء والأذكياء . . . ومع ذلك فلم يدخرا الوسع فى إيقاع على بشراك من الغدر محبوكة ، أملا أن تسد عليه المنافذ أو تزم الفروج لتوهن منه كلما أعياهما أن يلقياه جهرة لقاء أكفاء . . . وهما هنا والوقعة تضطرب ، والحرب تحرب ، وكفتهما فى مجال الصيال أثقل : بصف أثبت ، وجند أوفر وأغلب ، ونصر أدنى وأقرب ، يضمان معا أصابعهما العشرين . لتبتدع للإمام المزالق وتحفر الحفر ، وتنسج الأحابيل ... إنك تشهد لهما ظلا ينشر سواده على كل عمل يطوى خدعة وإن غلفاه بالنبل ، وموهاه بالمروءة ، ولفا لبة القتال بثوب خاتل من الكرم والأريحية كجلد الحية الرقش البراق ! . . يرسل عبد الله بن حنش رأس خثعم الشام إلى أبى كعب الخثعمى نصير على ، يحاول أن يفسد ولاءه :

« ... لو شئت تواقفنا فلم نقتتل . فإن ظهر صاحبك كنا معكم ، وإن ظهر صاحبنا كنتم معنا ولم يقتل بعضنا بعضا . . . »

لكن هذه المداجاة لم تخدع آبا كعب عن حقيقة الدعوة . فالظل بين . والنبل البادى الذى يقدس وشائج النسب والقرابة ويأبى لها أن تتمزق كان يشف من تحته عن تنكر للعهد وخرق للذمة . فما هو بحياد أريد به وجهه ، لكنه فى صميمه تخذيل عن الإمام ، وإغراء لأعوانه لينفضوا عنه . ولن يضير معاوية بحال ، وهو الأعز بالنفر والعتاد ، أن تنجح دعوة ابن حنش ، وتغمد خثعمة السلاح ، بل الغرم محيق حينذاك بعلى على أية حال . . .

وفشلت الخدعة ، أو فشلت خرافة الحياد ، ولم يحول من قلوب خثعم العراق عن أمير المؤمنين وقوف زعيم قومهم بالشام بيدى أسفه ، على ملأ من الفريقين ، ويتحدث لطائفته بلسان من ينشد السلام والحرص على صلات الأرحام :

« يا معشر خثعم ... قد عرضنا على قومنا من أهل العراق الموادعة صلة لأرحامهم ، وحقظا لحقهم ، فأبوا إلا قتالنا ... فكفوا أيديكم عنهم ما كفوا عنكم . . . »

ورد أبو كعب وهو يزحف بفريقه :

« يا معشر خثعم ، خدموا . . . »

قال ابن حنش ليثنيه :

« يا أبا كعب ، الكل قومك فأنصف . . . »

فما رد توسله . إنما انطلق وشرعة الحرب ، وواجب الولاء لإمامه ، يخوض المنايا غير ناكل عن قصده ، حتى فرغ دون بقية الصراع أجله ، فحاز الشهادة . .

وعندئذ بكى عليه قاتله ، وضمخ جسده الطعين بالدموع والحسرة :

« رحمك الله يا أبا كعب . . . لقد قتلتك فى طاعة قوم أنت أمس بى رحما منهم ، وأحب إلى نفسا منهم . ولكن والله ما أدرى ما أقول ولا أرى الشيطان إلا قد فتننا ، ولا أرى قريشا إلا قد لعبت بنا . . »

ثم لعبت أيضا الأصابع المشيرون لعبة جديدة ، أفدح وأخطر ، وأبعد أثرا فى تقويض دولة على وهدم سلطانه . . . فما تضعضعت أركان ميمنته ، وأضحى جيشه فرقة تذهل ، وفرقة تنكل ، وفرقة تؤثر الأجل فتهرب وتبور ، حتى سعى عبيد الله بن عمر إلى الحسن بن على يغنيه :

« إن أباك قد وتر قريشا أولا وآخرا ، وقد شنئوه . . . »

وكان قد وترها حقا الإمام وترها وهى فى شركها غارقة ، قد عنت للحجارة الصم وأبت أن تسجد لله . ووترها وقد صبت للإسلام ثم ملكتها الفتنة فخفضت لجاه الحياة الجباه ... فى بدر كما فى الجمل ، وفى أحد كما بصفين . وبين هذه وتلك كانت الترة بالدم ، والترة بالعلم ، والترة بالمحامد الزاكية والمكارم الرفيعة التى حسدت يوما عليها محمدا وهو مستضعف ، فلما ظهر ، وعلت به كلمة الله ، وآوى

الشارد لظله ، وجدت ضغائن القلوب المقروحة معدى عنه إلى صفيه النبيل تناله بالحقد والأذى والمكيدة . . .

وأكمل ابن عمر مراودته :

« . . . فهل لك أن تخلفه ونوليك هذا الأمر ؟ . . »

فصاح الحسن وقد لدغته عقرب الخيانة :

« كلا والله ، لا يكون ذلك ! . »

ثم تفرس مليا فى محدثه الغرر المغرور ، بنظرة تفيض بالترفع ، يقطر منها ذلك السم الذى خرق أذنيه ، وقال بامتهان وزراية :

« ... أما إن الشيطان قد زين لك ، وخدعك حتى أخرجك مخلقا بالخلوق ، ترى نساء أهل الشام موقفك ! . . . يا ابن عمر ، سيصرعك الله ، ويبطحك لوجهك ، وكأنما أنظر إليك مقتولا فى يومك أو غدك . . . »

وتركه بعد ساعاته ! ..

٥

حان العمل بعد الحيلة ..

الأن كفة معاوية ثقيلة . ميمنة على ما تزال فلولا يحاول أن يلم الأشتر شعثها من هنا ومن هناك . عن قلبه مولية . مضر الميسرة متخلفة عن مواقع القتال . . جموعه مفرقة ، وخطوطه ممزقة ، وليس يمسك المعركة أن تنجلى عن هزيمة ساحقة إلا جلد الإمام واصطباره

ونادى ابن عمر فى طائفة من الميمنة الأموية ، وهو يومئ لهم إلا ربيعة :

« يا أهل الشام .. إن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثأركم فى عثمان ، وهلك على وأهل العراق . . . »

فشدوا القامة ، وهزوا الحسام ، وخرجوا معه ، معلنين بالحضره

كانوا أعداء حمير ، عليهم ذو الكلاع . قد حرك فيهم معاوية تلك المواجد القديمة التى انطوت زمنا فى قلوب أمثالهم من عرب الجنوب على عرب الشمال . وكانوا نفرا وأربعة آلاف ، تعاقدوا معا على الفناء أو النصر . وكان النهار حينذاك

فى اعتداله ، الأفق ضياء ، والأرض رماد ، والنسمة لهب . لا تكاد وجوههم تصافح إلا لفحة ، وأقدامهم تطأ إلا جمرة ، وعيونهم ترى إلا قطر العرق الذى تجمع على أهدابهم ضبابا كثيفا اختلطت به حبات الرمل .

ولم يكن الجهد قد نال منهم وإن تبدى على ملامحهم القاسية بعض رهبة الموقف ، وبعض مشقة الطريق ، وبعض جد القتال لم يضيقوا الخطوة . ولا تهيبوا اللقاء . ولا خطر ساعة بأخلادهم أنهم يزحفون فى باطل . حتى ذو الكلاع لم يضطرب بالقلق فؤاده . . قبل نهوضه لهذا المسير ، من ليال ، كان الشك يحزه ، ويدمى ضميره ، ويوشك أن يشد قدمه إلي طنب فسطاطه ، ولكنه اليوم ، إذ زحف ، غسل من الحيرة نفسه ، ومن الريبة قلبه ، وبدد عن خاطره سحائب القلق فطاب . .

وردد الرجل بذهنه حديث ليلة فى الليالى أوشك حينها أن يفتنه عن أهل الشام ، وعن معاوية وأهدافه ، ويلوى به وبقومه اليمنية وراءه إلى مظاهرة على والانحياز لصفوفه . . وكان ذلك ذات أمس قريب . وكان مبعث التردد حينذاك كلمة جرت فى الغابر بسمعيه ، من بضع سنين ، ما كاد الزمن يعكس لفظها على ذاكرته حتى مشت الرعدة بأوصاله ، والحيرة بصدره ، والألم العاصف النابض فى محياه . . .

إن تكن هزيمة فالهزيمة فى الله نصر . وإن يكن نصر فالنصر فى الخطيئة هزيمة ... وذو الكلاع لا يجب أن ينام على ريبة أو ينطلق شوطه وهو عن الحق مخدوع . ليس بجمل يقاد بخطامه . ليس أداة صماء ... ولئن ربطته بمعاوية روابط من الود والولاء والعهد ، فدينه أولي بولائه ...

وبعث ذلك اليوم إلى ابن عمه ، أبى نوح ، حليف الإمام ، يستقدمه ليبثه همه ، ويلتمس لديه راحة الروح :

« إنى أريد أن أسألك عن أمر فيكم تمارينا فيه . . .

فلما أقبل عليه ، بعد استئمان ، قال ذو الكلاع له :

« إنما دعوتك أحدثك حديثا حدثناه عمرو بن العاص ، قديما ، فى إمارة عمر بن الخطاب . . .

فسأله ابن عمه :

« وما هو ؟ . . . »

« حدثنا عمرو عن رسول الله قال : يلتقى أهل الشام وأهل العراق وفى إحدى الكتيبتين الحق وإمام الهدى ومعه عمار . .

قال أبو نوح فى ثقة ، وقد توجهت عيناه :

« لعمر الله إنه لفينا . »

« أجاد هو فى قتالنا ؟ . . »

« نعم . ورب الكعبة لهو أشد على قتالكم منى . ولوددت أنكم خلق واحد فذبحته وبدأت بك قبلهم وأنت ابن عمى ! . . . »

عندئذ هتف ذو الكلاع وهو مفزع مهموم . قد زلزلته لهجة الحسم فى حديث صاحبه .

« ويلك ! . . علام تتمنى ذلك منا ؟ . . والله ما قطعتك فيما بينى وبينك . وإن رحمك لقريبة ، وما يسرنى أن أقتلك . . . ؟

فلم يعطف فزعه ولين خطابه قلب هذا القريب الغريم الذى لا يداجيه . بل صمه ثانية يعنف ويلهب وجهه وقلبه بسوط الصراحة :

« إن الله قطع بالإسلام أرحاما قريبة ، ووصل به أرحاما متباعدة ، وإنى لقاتلك أنت وأصحابك . . . نحن على حق ، وأنتم على الباطل مقيمون مع أئمة الكفر ورءوس الأحزاب . . . »

واهتز فزع الحليف الأموى . وغدت قدمه كأن على ماء ! . . ما لعينيه غامتا ؟ . . ما لبدنه وهن ؟ . . ما لقلبه خار ؟ . . إنه حديث عمرو . ذات ألفاظه . من ذات شفتيه وإن بعد العهد وكرت عليه الأعوام . . . أفلا يؤمن الآن ، ويفىء إلى جانب الهدى وقد وضحت المعالم ؟ . .

وصاح بابن العاص وهو مستوحش :

« ويحك يا عمرو ! . . »

نخلله الخاتل الداهية . وأشرق عليه بوجه رائق فيه تألق الشعاع الهادى ، وصفاء النبع يتفجر من صخرة ، وطهر الوليد . . . وكانت بسمة ناعمة كلمسة النسيم تمسح شفتيه ، وصوته الخافت الرقيق ينساب :

« إنه سيرجع . . . سيرجع إلينا ويفارق أبا تراب . »

ولم لا ؟ . .

بلى ، فهذه سمات يقين ، وعلائم إيمان . والغد القابل القريب سيكشف الغطاء . .

وتفكر مليا الرجل الحائر . . الريبة تقبل عليه مرة ، وتدبر مرة ، تغيم وتقلع كأنها سحاب ليلة ذات ريح . تخف عن قلبه وتثقله . . . فإن يكن كذب ابن العاص ، فعلى نفسه عقبي كذبه ، ووبال هذه الفرية التي أول بها رأى محمد فأساء التأويل وخادع وخذل عن قدر الله . وإن يكن صدق فليست هذه أول مرة يصبأ فيها من هنا رجل ، ويثوب فيها من هناك آخر . . طوال الليالي التي عاشتها المحنة الدامية فوق أرض صفين ، كان الكثيرون على شبهة ، يستبدلون بالفكرة الفكرة ، وبالمعسكر المعسكر ، وبمعاوية وعلى عليا ومعاوية . وقد يصبح الصباح فيتابعهم عمار ! . . .

هنا استشعر بعض طمأنينة . . . إن هذه الحرب حرباء ! . . غير قلب ذات ألوان . أرته الأضداد والنقائض بدهته بالغريب والعجيب . الحق فيها حيران قارب تائه . بلا شراع . وبلا ملاح . الرياح سكانه . والموج ربانه ، وهذا الشاطئ الداني كذلك الشاطئ البعيد . كلاهما بسط رجاءه ، ومهد رمله وحصباءه ، ونحى وعره وصخره ، وفتح صدره ينتظر أوبة الشريد ! . .

ثم نام الليلة في أحضان رجائه ! . . وحلم وأصبح . وأضحت الضحوة عليه وهو مستبشر . فابن ياسر الآن منهم قريب ، على رمية رمح : على قيد النظرة من الأمل حالفهم النصر وفرت أمامهم عوامل الهزيمة فرار الظلمة أمام الشعاع . فما الباطل بغالب . وما الأمر إلا ساعة أو بعضها ثم ينبلج الحق ، ويفيء أهله إلى ظله ، ويقبل عليهم عمار من هناك ، يدع الظلمة ، ويجتني النور . . .

إنها أماني . رؤيا حالم . آمال غرير مخدوع . ولكنها ليست وحدها ما أراح باله . فمدة الظفر في عينه ، والغلبة لها سفراء ورسل بعث بهم معاوية للمعسكر الآخر ، يعبدون الطريق لجيشه ، ويكشفون القلوب لسلاحه ، وينفثون السموم في الصدور . . .

وكانت الخيانة من رسله ! .

ثمة رجل في عينه الآن مفتاح الوقعة، وغاية الغايات من ذلك الصراع الناشب الذي تهيأت حمياه تأكل الظلف والقدم، كما يحرق اللهب الحطب وتذرو الزوابع الهشيم . . .

وثمة آخر توطدت له بين أهل العراق الكلمة، وتمكنت في يمنها السيادة. وكان لقومه في الغابر ملك ترنمت العرب بأخباره، ولهجت بذكره وسيرته حقبة من الزمان . . .

وكان أولهما من الشمال . من ربيعة التي تثبت اليوم للهول من دون الناس، تدفع عن علي بالسيف وبالكف، بالروح وبالقلب، بالظفر وبالناب، وإن تفرق عن نصره الحماة وتقطعت به عن مناجزة خصمه، القوى الوفير، الأسباب . . .

وكان ثانيهما من الجنوب . ما يزال بنفسه بعض الولاء للإمام، والإقامة على عهده . ولكنه امرؤ به زهو، وآثار عزة وكبر تخلفت عن أسلافه الملوك من كندة الذين راوده ذات يوم شيطانه على امتشاق صولجانهم البالي، ووضع تاجهم المحطم الدارس على مفرقيه وإن ارتد وخلع الإسلام ! . .

لهذين الكبيرين زحفت الخيانة ! ... لخالد بن المعمر صاحب اللواء في ربيعة، وللأشعث بن قيس صاحب الأمر في كندة، وكلا الرجلين كانت لهما يد من بعد في مصير الصراع . . .

وكانت البذرة الأولى الخبيثة، التي ألقاها معاوية في الأرض الحمئة، يوم دعا إليه عتبة أخاه فناجاه :

« ائت الأشعث بن قيس، فإنه إن رضي رضيت العامة . . . »

فخرج عتبة إلى صاحب الردة يدعوه، والناس حينذاك قد أكلتهم الحرب، وجنحت أنفس منهم إلى رخاء السلام .

« أنا عتبة بن أبي سفيان . . . »

فزها الحالم أمسه بتاج الجنوب، وقال :

« غلام مترف، ولا بد من لقائه . . . »

واستقبله، يسأله :

« ما عندك يا عتبة ؟ . . »

قال باذر الحبة الخبيثة وهو يهيء لها من صدر المدل المغرور مغرسها الصالح:

« يا أبا محمد . . . إن معاوية لو كان لاقيا رجلا غير على للقيك . . . »

« إن لقيني والله لما عظم عنى ولا صغرت عنه » .

فثنى عتبة عليه بالمصانعة والنفاق :

« . . . إنك رأس أهل العراق ، وسيد أهل اليمن ، وقد سلف من عثمان إليك ما سلف من الصهر والعمل . ولست كأصحابك ... ... »

ولقد كان

فهو عامله قديما على أذربيجان . وهو صهر له ، ربطهما النسب ، منذ زوج ابنته عمرو بن عثمان بن عفان . فكادت الصلة : عملا ونسبا تميل به — لولا أن عيره قومه — إلى مظاهرة الشام وابن هند على العراق والإمام

ورد والنخوة تحرك لسانه :

« .. الرأس المنيع والسيد المطاع على بن أبي طالب ! ... وأما ما سلف من عثمان إلى فوالله ما زادنى صهره شرفا ، ولا عمله عزا ... وأما عيبك أصحابي فإن هذا لا يقربك منى ، ولا يباعدنى عنهم .. »

وعندئذ رفع عتبة بسن محراثه إلى الأرض السبخة :

« يا أبا محمد . . إنك حاربت عن أهل العراق تكرما ، ثم حاربت أهل الشام حمية . . . وإنا لا ندعوك إلى ترك على ونصر معاوية ، ولكننا ندعوك إلى البقية التى فيها صلاحك وصلاحنا . . . »

فتفكر الأشعث برهة يزن الأمر وهو تياه إذ انتهى إليه وحده حقن الدم وإقرار السلام . ثم ما لبث أن أجاب :

« .. سنرى رأينا إن شاء الله . . . »

وقال معاوية لاخيه حينما عاد :

« يا عتبة . الرجل عظيم عند نفسه . . . وقد جنح للسلم . . . »

وما أخطأ الجاهل الصواب . فالتربة قلبها المحراث . والبذرة وضعها الباذر . والسقيا تمت : دهانا ورياء ومداجاة ، وعما قليل ، بعد ساعات . فى إبان الدعوة إلى الاحتكام لكتاب الله ، ستكون هذه النواة نمت ، وفرع عودها وطال . وغدت دوحة سامقة ذات ثمر مسموم !

* * *

وكانت البذرة الخبيثة الثانية قد استوت منذ ليال فى الأرض الجثة ، ساقا مورقة ، لها براعم ، وطلع كأنه رءوس الشياطين ! ذلك ما راب الناس ، وعلم على وخامت الألسن الزارية فيه بالسر حينا وبالجهر آونة عند ما حمل ذو الكلاع فى حمير ومعهم ابن عمر على ربيعة الباقية وحدها على الخط . الصابرة للخطر . . فإذ ذاك مال خالد بن المعمر السدوسى للانسحاب ببعض قومه كأنما لينأى بهم مشفقا عن المصارع . فلما رأى من عداه من أصحاب الرايات فى ربيعة ثبتوا ، انثنى فعاد . . .

وتغامز الناس . . .

وتهامس فريق بشكه القديم :

« إنا لا نرى خالد بن المعمر السدوسى إلا قد كاتب معاوية ! . . . »

ولغط فريق :

« أراد الانصراف فلما رآنا قد ثبتنا رجع إلينا ! . . . »

ودفع هو التهمة عن نفسه :

« لما رأيت رجالا قد انهزموا رأيت أن أستقبلهم ثم أردهم إليكم ، فأقبلت إليكم بمن أطاعنى منهم . . . »

ثم لم يغن عنه بلاؤه من بعد فى القتال ، وتحريضه القوم على الصبر . والدعوة التى دعاهم للجنة ! .. . كل هذا الغشاء لم يستر سره . لم يقتلع الدوحة النابتة فى ضميره . لم يجتث جذرها السام .. وإنها الليلة وركل النصر — يبيعه سلعة رخيصة فى سوق الغدر والنكث والغواية ، ثم ييمم وجهه شطر الشيطان » .

* * *

على أية حال ، كان ذو الكلاع وابن عمر حين زحفا بالكتيبة الخضرية الرقطاء قد آمنا أنها تسير للغلبة ، عدوها مهيض أوهنته الفرقة ، وأرضها لينة عبدتها الخيانة .. ولم يكن ثمة أمامها إلا ربيعة ، إن جالدت فحمية ، وإن صابرت فساعة . أما بقية جيش على فإلى الآن كالقطيع الضال ..

لكن ربيعة أبت أن تبور ، لا وهن ولا تخاذل ، ما تتهاوى منها فرقة حتى تقوم فرقة ، كأنما تعاقد الرجال فيها أن يتزاحموا على الموت دراكا تزاحم الإبل

الهيم على المورد المذب بعد شقة الرحلة تحت وقدة الهجير ! .. شهد الله كيف صبروا . وكيف ذاقوا المر فى الصبر ، وشهد أيضا تل الجاجم الذى استقبل منهم الهامة فوق الهامة ، كأنها الركام والحجارة ، تشمخ بها قمة ذلك الكثيب لمسبح السحب ، بهذه البقعة الحمراء بصفين ! .. حتى عندما نال اليأس من عزم خالد ، أو نالت الغواية ، فمال بشرفه ورايته إلى نجوة ، لم يفتن الناس عن الجلاد ميله ، ولم تستهوهم منه هذه الدعوة الصامتة إلى الحياة . . . إنما أنكروا عليه . وشنشوا فعله ، وساطت جسده ألسن حداد دفعت به ثانية إلى صفهم ، وردت حياءه فى محياه ؟ ..

من اعتدال النهار لغروبه ظلت الحضرمية تهز نصالها فى وجه ربيعة ، وربيعة أمامها تناضل ، كانت الصولة تقابل الصولة ، والكرة تقابل الكرة ، وإن همت الكثرة فى أحايين كثيرة أن تعصف وتقصف لولا هذه الإشاعة من الإيمان التى كانت تكشف دائما اضعاف المدد عن مغانى الجنة من خلال الدماء ! . . ما من رجل واحد بين الفئة التى ناشها سلاح الكتيبة الرقطاء كان يستبيح أن يترك الغمرة ليستريح ، أو يركز رمحه ليلقف أنفاسه . . . بل الزفرة التى يلفظها كانت تحز فى فؤاده لأنها هنيهة من عمره وات سيقصر بعدها أمد نزاله ! . بل الصلاة كانت رمزا : التكبيرة تغنى عن الشميرة . والخشوع يترجم عن السجود والركوع ! .. وفى خلال النهار كله لم تسر قدم إلا إلى أمام ، ولا يغمد سيف ، فالأغماد على سيوفها حرام ! ..

وغدت الحياة وليجة شهية الموت طعمها ضحوة ، وفى الظهر ، وساعة العصر ، وإبان تلون الأفق بصبغة الأصيل ، وذوبان الشفق فى ظلال العشية .. وكانت فكرة الفناء تطوف بأنفس ربيعة الصابرة فلا تفزعها بل ترفعها درجة فى مراقى الفداء . . وكانت فكرة الغلبة السريعة والنصر العاجل تذوى رويدا رويدا فى نفوس رجال الحضرمية وابن عمر وذى الكلاع .. فما عدوهم هؤلاء إلا مردة ، للرحمن [illegible] الناس أجل ، وللرجل منهم عدة آجال ! ..

[illegible] وصاح خالد بن المعمر يحثهم وقد أخذته حمية القتال فأنسته ما ألقى به معاوية فى روعة :

« يا معشر ربيعة . . الإقدام منكم عادة ، والصبر منكم سجية ! .. »

وأسرع زيادة بن خصفة إلى عبد القيس يلتمس عندها وقودا جديدا يبقى لظى هذا الكفاح مستعرة :

« لا بكر بعد اليوم ! . . . إن ذا الكلاع وعبيد الله بن عمر أبادا ربيعة ، فانهضوا لهم وإلا هلكوا ! . . .

وما كانت هذه الطائفة لتبيد ، فالحياة لمن زهد الحياة . والموت يرهب الشجاع المصابر . . . وإن عزمها ليصلب وإن عنادها ليشتد ، وإنها لتقذف غير هيابة بأعدادها إلى فم الهلاك فيخدش ولا ينهش ، ويكلم ولا يلتهم ، كأن مذاق لحمها كريه ، أو هو أتخم فخثت نفسه وعاف الطعام ؟ . . .

الإمام

عَلي بن أبي طالِب

الجزء الخامس

تأليف

عَبد الفتّاح عَبد المقصُود

منشورات مكتبة العِرفان
بيروت

١

نذر معاوية — وعينه من الصباح للغرب على هذه البقعة من الميدان — لئن أظفره الله من بعد بربيعة ليجعلنها أمثولة العرب مثلة ، وليقتلن منها المقاتلة ، وليسبين النساء ! . .

وكان حنقه هو الذي ألهمه نذره ... فالنهار انسلخ إلا أقله . ولمة الشمس غابت في الغرب . والمساء أقبل عليه بسواده وما تزال هـذه الطائفة ، كبدئها الوقعة ، كالعلم ، على قدم ...

حين أخرج «الخضرية» تزحف كان المصير كله في يمينه . العزة له . الدحرة لغريمه . الموت والخوف والفرار تنتشر أمامه في صفوف على انتشار النار .. في الميمنة .. في القلب .. في الطليعة .. في كل مكان من أرجاء الميدان إلا هذه البقعة الصغيرة من ميسرة أهل العراق التي دافعت عن حرمها « ربيعة » . وقد حمتها حقيقة كالحرم . ووقفت دونها ترد دنس الهزيمة .. من ساعة الظهيرة لم يرعها القتل الذي شاع في رجالها حتى انقضى عمر هـذا النهار ، وكانت ثقة معاوية والشمس تزهر أن ظفره بها رهين ساعة تصول فيها « حمير » ثم ينتهي بعدها القتال .

غير أنها لم تتزلزل . وجاهـدت باليد والقلب كتيبته التي أعلمتها الخضرة ، وحركها زهو ابن عمر ، وجيشتها حمية ذي الكلاع . لم يقض فيها معاوية وطره . ولم تفتنها — حتى هذه اللحظة التي شاعت خلالها عتمة المساء — أفانين تغريره إنما غالبته في قلبها كأنها كثرة ، وتعثرت بها خطاه الوصيفة حتى آثر جمه المدل المختال أن يمشي إليها الهوينى على حذر ، يصابر القدر ، ويداور الوقت عسى أن تلوح له في صفوفها المرصوصة ثغرة تنقض الجدار !

وطال بهذا العناد العجيب أجل الصراع وانقضت سويعات ذلك اليوم بطيئة رتيبة ، كعيس القافلة ، يتبع اللاحق السابق ، ويلوي بعضها على بعض ، دراكا دراكا على منبسط الرمل كأن آحادها المديدة دابة واحـدة تسير . ثم تدور وتسير ، ثم تعاود الدوران والسير ! . .

احتدام النزال لم يأخذ منها . ولا اشتداد العدو ولا تحول النهار .. إنما غيرها نالت منه الغمرة ، وهزه الجهد ، وأوهنته الساعات ... الزهو في صدر ابن عمرو بهت . الحمية في نفس ذي الكلاع بردت . الثقة بقلب معاوية في النصر السريع العاجل نزف معينها قطرة قطرة حتى عاد يؤمن ، وهو أسيف ، أنها كانت حدسا خالصا زيفه عليه وهم الخيال ... وعندما شحب لون النهار ، وغاض في الأفق ينبوع النور ، كان الخوف — كالظلمة الزاحفة على السكون — يزحف إلى فؤاد العاهل المتوجس زحف الرقطاء .

وانتفض كمحموم . من حنق وقلق . ومن خشية وحيرة ... ففي جوانب الميدان أخذت نقط صغيرة بيضاء تبدو لعينيه من بعيد على الأديم الأغبر كأنهما قطر الطل . ثم راحت تتقارب كالنمل . ثم صارت تلتئم وتنتظم هنا وهناك ، عقوداً موصولة ، فرقائق كالسحب ، فكسفة واحدة كثيفة من السواد وقد صبغتها ظلال المساء ...

الشراذم المقطعة من جند علي رتقت فتقها من بعد تمزق . والفلول الفرارة آبت إلى الصبر بعد الخور ، وإلى الوحدة بعد التفرق . . . الآن غابت فرصة النصر العاجل ، غربت كالشمس . خبا رجاء ابن أبي سفيان . غدت أهدافه — التي بدت له في النهار دانية — في مشرق الأنجم ! ..

ليس ثمة ، هذه اللحظة ، في جوانب الموقعة رجل واحد من رجال الإمام إلا نضا عن نفسه الفزعة الأولى ، التي أذهلته حين تهاوت الميمنة العراقية ، ثم لاذ بإيمانه . . . كلهم رجع يلتف بالأشتر . كلهم عاد إلى مكانه الأول قبل الفرار . كلهم فاء للولاء والفداء . وما كاد جمعهم يلتئم حتى التحم بعدوه وقائدهم الجديد الفارع ينطلق أمامهم كالرمح ، نافثا في أرواحهم من عزمه ، نافخا فيها من صدقه وهو يسبق إلى مهاوي الردى خطاهم ...

ورددت جنبات صفين صيحة الأشتر :

« . إن الفرار فيه سلب العز ، وذل المحيا والممات ، وعار الدنيا والآخرة .. »

فلم تبق بعدها أمامهم هنا قدم ثبتت إلا أن تكون قد بترها عن جسدها

حسام ، وكان اليوم حينذاك يدنو المغرب ! . . ولم تبق هناك حيال ربيعة من الخضرية أصابع تحمل السلاح إلا أن تـكون تقبضت عليه وهى على الثرى رمام ، وكان النهار حينذاك يذوب فى المساء ! . . .

عندئذ نذر معاوية فى ندرة : رجالها ذبح ، ونساؤها إماء ! . .

***

وضاقت عليه من بعد آفاقه . . .

الهواء الذى يحرك رئتيه ينفذ إليه من سم إبرة . قلبه إن خفق شرق ، دقته رجفة كاهتزاز السراج المريض وهو يلفظ آخر لمات شعاعه ، ونبضته خلجة كومضة الشهاب المنقض إلى هاوية الظلمة . . . المر فى حلقه . الحسرة فى نفسه . القلق فى لمح عينيه . حتى هـذه النجوم المجلوة — تلك الليلة الساجية من ليالى الصحراء — لاحت له تتذاءب وتضطرب ، وتظهر وتغور ، وتزهر وتعتم كأنما تداولتها سحائب من ضباب فـكره الحير ! . .

وقال معاوية لحليفه لعله بالحديث يقتنص فرجة لهمه :

« أما ترى ، يا أبا عبد الله ، ما قد وقعنا فيه ؟.. إنا لبمعرض خطر عظيم.. »

فأغضى عمرو وهو يجيبه الجواب الذى لا يخفف قلقا ولا يكف حيرة :

« إن أصبحت ربيعة متعطفين حول على تعطف الإبل حول فحلها لقيت منهم جلادا صادقا ، وبأسا شديدا ، وكانت التى لا يتعزى عنها ! . . » .

فيا لربيعة ! . .

يا له منها اليوم ، وغدا ، وبعده إن امتد به على أرض الوقعة أجل أحلامه ! . فهى الشجى الذى يغص به الحلق . وقد يشرق ، فلا يعود يزفر أو يشهق ! . . وهى قطرة السم فى الدسم ! . . وهى بعوضة «نمرود» ! . . وكلما انطلق والزمن طالعته من خلاله نكبة فيها لربيعة إصبع ، وعليها من أثرها ظل . تثبت حين ينفرط الناس . وتثبت فتوهى شداده وأجلاده . وتثبت حتى يلم الأشتر من شعث القرار ، ثم يقر ، فيصبر ، فيـكر كأنها حينذاك حصاة الللح غمست فى ماء أجاج فراح يجمد عليها ذوبه ، ويتبلور ملحه ، رويدا رويدا ، حصاة حصاة ! . .

كل أحلامه انهارت أمامه وأنباء هذا القتال تأتيه ، لحظة بعد لحظة ، فى قبته البيضاء . . لم يطل دم ابن بديل . لم يذهب هدرا . لم يدم مكث هذا الشهيد وحده إلا قطعة من يوم وهو بذلك المجاز المجهول الذى يفصل وادى الحياة الضيق عن أودية الموت . فما انقضت عليه سويعات ، منا كنا بمصرعه ، منذ تهاوى عليه الصخر ، حتى تبعه من عدوه مئة خاسرة ، فئة أخسر ، فئون بعدهم عديدة باءت مثلهم بالبوار ولحقت به إلى المجاز المجهول ! . . الميسرة التى شردت فى النهار ميمنة على طارت ترجع مع الغروب على جناح الهزيمة . مشاتها انثنت بهم سوقهم كالأعواد المقصوفة إلى مثاويهم فوارسها اختلطت جثثها على الأديم ببقايا الأفراس . والبقية الذين أمهلهم العمر أعجلهم الذعر فولوا سراعا عن الميدان ، يلصقون بقلب جيشهم . عند القبة البيضاء ، كأنما ينشدون فى ظل عاهلهم الحزين الحماية ! .

* * *

وقال الإمام لميمنته التى نشلها الأشتر من ذلة الخوف والقهر وطفا بها على سطح العزة :

« . إنى قد رأيت جولتكم ، وانحيازكم عن صفوفكم يحوزكم الجفاة الطغام وأعراب أهل الشام . فلولا إقبالكم بعد إدباركم ، وكركم بعد انحيازكم ، وجب عليكم ما وجب على المولى يوم الزحف دبره ! ولقد هون على بعض وجدى أنى رأيتكم بآخره حزتموهم كما حازوكم ، وأزلتموهم عن مصافهم كما أزالوكم ، تحوزونهم بالسيوف ليركب أولهم آخرهم كالإبل المطردة الهيم ! . فالآن فاصبروا ، أنزلت عليكم السكينة ، وثبتكم الله باليقين . . »

فصبروا كصبره . ولم يسدل الليل الذى زحف ظلامه على مواقع الحرب سترا حاجزا بينهم وبين الأعداء . كما فى النهار ، جمعتهم الأمسية على خصومة وتناجز . ليست الموقعة تدور الآن فى ركن ربيعة فى كل ناحية تتسع للقدم تدور . كالرحى الحاصدة لا تكف من أمام لخلف ومن يمين ليسار . كقطر الطل على الرمل تناثرت دماؤهم تبل صدى هذه البقعة التى أحرقتها حرارة النهار . . . ليست

القوى المتصارعة هي وحدها تلك التي قدمتها الظهيرة ، وصاحبها العصر ، وعكست جراحها الحمراء على وجنة الأصيل . بل الليـل أيضا أطل بعينه الوسنانة على الصراع . والظلف تبعه ظلف ، والخف تبعه خف ، والسواعد والأقدام تزاحمت على الفناء والنجاء من أمام لوراء ومن وراء لأمام ... عجت الحلبة بهم أجمعين : ثعالب وآسادا ، من هذا الفريق ومن ذاك ، عجيج الحلبة بنحلها تفيض بالدوى وتمتلىء بالطنين . وكانت الحناجر تهدر كالرعد ، والسيوف تلمع كالبرق ، والجياد تركض كعاصفة ، والليلة — دون هذه الملاحم الفوارة — فيها هدوء ودعة ، على سمائها صفاء وسلام ، وفي نجومها تزهر وابتسام ..

٢

عندما سكب الليل سـواده على رمال صفين ، لاح أمام معاوية قبس من الأمل ، رقيق كالطيف ، لامع كالشعاع . على دفئه تبددت همومه كما تبدد الصحوة ضباب البكور . وعلى برقه تبين أحلامه تنهض من كبوة ، فتنفض غفوتها ، وتلعق جراحها ، ثم تمضى قدما في طريقها للرسوم . . .

وارتاح الماهل . . . كرة أخرى يعاود عبيد الله بن عمر محاولته . الآن قام لما بدأ . تسربل بالليل . تسلل من بين ظلاله بكتيبته الحضرمية ، ليباغت ربيعة العنيدة من وراء ظهرها ، لعله يظفر منها في الظلمة بما أوهن عزمه طوال النهار . . .

وانطلق عبيد الله . وانطلقت خلفه الآلاف الخضر تشرب الرمال الظمأى وقع قدمها وخفها وحافرها ، وتستر دكنة الأمسية زحفها المريب . . . الأنجم في الأفق أعين . القمر ينسج للسكون الأغبر بردة رقيقة من خيوط نوره البيض . ولكن الجموع الزاحفة مضت لطيتها ، لا يشى بها الرمل ، ولا العيون الساهرات في منافذ السماء ، ولا الظلال التي ألقتها آحادها المديدة على الأرض ، فما كان أكثر الظلال التي مدها حولها في هذه الناحية كثيب ، وفي تلك كثيب . . .

فى خفية كان انطلاقه . وعلى روية وحذر . وإلى غاية له دانية تنفسح وراءها سبيله إلى النصر . . . البغتة سلاحه . الظلام سربه ، الصفوف التى تساندت هناك عند حد بصره آمنة السرب ، تغالب الإعياء بعد حرب النهار ، هى الفريسة المشتهاة . غير أن قلبه فى قفص ضلوعه كان — فيما أحسب — يتوثب كالطائر ، يضطرب من قلق ، يختلج على وقع قدميه . وكلما دنا من عدوه وضاقت الشقة ضاقت معها نفسه ، وانقبض صدره ، وامتد أنفه ليلقف الهواء ! . .

لكأنى به كان يحس أنه سائر إلى قدره . فما برحت دعوة الحسن بن على تصك سمعه وتسرى إليه على النسمة . من خلال الظلام المخيم . كان يبرز له وجه سبط الرسول كالغرة فى الليل ، ماثلا لعين مخيلته . أينما أدار بصره طالعه . وحيثما انطلق لاحقته همساته تصور له الختام الرهيب القريب . ولم يشغله عن الغرة زحفه ، ولا عن الهمس ضجيج جنده على أرض الميدان ، بل ظل ذلك المحيا الوضيء يبدو حياله فى سواد أمسيته ، وعلى صفحة القمر ، وبين ثنايا السحائب الرقيقة . وظلت الهمسة المنذرة تسرى إلى مسمعيه ، من الهدأة الساكنة ، ومن وقع الخطا المتزافة على الرمل ، ومن دبيب قلبه المضطرب وهى تردد له مصيره فى تواتر رتيب رهيب :

« سيصرعك الله ! . . ويبطحك لوجهك ! . . يومك أو غدك ! . . »

وما هى كذلك بالدعاء الوحيد ، فى يوم واحد نعب الشؤم فوق رأسه مرتين نعيباً هز فيه إيمانه بالمجد واطمئنانه إلى الحياة . . . عمار أيضا دعا ، بشفتيه الذابلتين ذبول وريقة الخريف ، دعاء ثقل له قلبه وشرق حلقه وغامت عيناه . وإنه ليمضى الآن إلى حيث يريد مباغتة ربيعة وفى أذنيه دوى ذلك الدعاء :

« صرعك الله ! . . . »

فيتلفت حوله ، باحثاً فى الظلمة عن الشفتين الذابلتين ، والوجه المضيم المعروق ، والقامة النحيلة التى براها عمرها الطويل وكأنما فى حسبانه أن عمارا روح تهيم فى الفضاء لا تردها عنه حدود الزمن والمسافة ، حتى إذا غارت فى الظلام نظراته ، وتاه باله الحيران ، نشط خياله المحموم فرأى وسمع ما لا تنقله صورة ماثلة ولا يؤديه لسان قوال :

« يا ابن عمر . . . بعت دينك بالدنيا من عدو الله وعدو الإسلام . . . »
وإذ ذاك يردد لنفسه كالمسحور :
« كلا . ولكن أطلب بدم عثمان . . . » .
« أشهد على على فيك أنك أصبحت لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله .
فانظر إذا أعطى الله العباد على نياتهم ما نيتك ! . . » .
ثم يهمد الخيال . . .

وما هذه أيضا بخاتمة الأحاديث التي هزت دخيلة فؤاده بالطيرة .. إنه في هذا الصباح — نفس هذا الصباح الذي يختم ليله بزحفته الخالسة ، قد سمع مازلزله ، وصبغ دنى أحلامه بالسواد . . . فلقد تهيأ حينذاك للقتال وقام نساؤه يشددن عليه — كعادته — سلاحه . إلا الشيبانية بنت هانئ انتحت عنه ناحية . فلما فرغ وهم أن يبرح ، مر بها كأنما يبكتها على ما كان من قعودها عنه .

قال لها وهو يدل باعتزازه :
« إني قد عبأت اليوم لقومك . وايم الله إني لأرجو أن أربط بكل طنب من أطناب فسطاطى سيداً منهم ! . . » .
قالت المرأة ، ولم ترفع وجهها إليه :
« ما أبغض إلا أن تقاتلهم . . » .
« ولم ؟ » .
« لأنه لم يتوجه إليهم صنديد إلى أبادوه . . . » .
فابتسم . أدل عليها فلعلها أدلت عليه . ولكنها ما لبثت أن أردفت بنبرة أسيانة :
« أخاف أن يقتلوك . . . » .
« ويحك ! . . . » .
« وكأنى بك قتيلا وقد أتيتهم أسألهم أن يهبوا لى جيفتك . . . » .
عندئذ ثار . وأهوى عليها بقوسه فشجها .
وحين غادرها ، خلف في أذنها كلماته المغيظة المزهوة :
« ستعلمين بمن آتيك من زعماء قومك ! . . » .

على أنه إن تغافل نبوءة الحسن وتناسى دعاء عمار ، واستهان بتطير الشيبانية لم يكن قط مستطيعا أن يمحو من ذاكرته كلمات الإمام يوم عدا على الهرمزان فقتله انتقاما لأبيه عمر الذى جند له خنجر أبى لؤلؤة . كانت ترن فى أذنه . فر فلاحقته إلى حيثما سار . طاردته خلال الأعوام الطويلة السالفة فى خلال خلافة عثمان من سنة لسنة ومن مكان لمكان،ولم تفلح حماية الخليفة الشيخ إياه،وتراخى قبضته اللينة عن عنقه ، أن تجعله فى مأمن من القصاص المنتظر . وها هو الآن وقد عاش كالشريد ، ولحق بالمعسكر الذى حسبه سيجنبه نقمة ذلك المستمسك بحق ربه فيه ، لا يزال يسمع من وراء الزمن كلمات على كأنها القضاء المقدور :

« لئن فاتنى فى هذا اليوم لا يفوتنى فى غيره . . . » .

يسمعها تنبع من مواقع خطاه . ويسمعها من صليل السلاح فى كتيبته الخضرية وهو يزحف بها تحت كسفة الظلام ويسمعها ويتلفت حواليه كأنما يتوقع أن يبرز له الإمام من ثنايا الليل لينفذ فيه ذلك القضاء حتى إذا أشرف على مقصده ، استغرقته بعد ذلك هذا حركة جنده ، فيمضى شأوه وقد نفض عن نفسه ما جسم وهمه ، وانطلق فى جمعه المعلم ، إلى غلبة خايلته ، ونصر تراءى له قريبا — قريبا هناك تنفسح سبيله وراء هذه الصفوف التى قامت دونه ودون مجده المرموق منذ الصباح . .

* * *

أما عمار فهو حينذاك فى خلوة مع ربه ،غاب فيها قلبه عن حومة الصراع ، وخشعت نفسه ، وامتدت عينه إلى القبة السامقة التى نطقتها الكواكب ، يضرع ويناجى الله ودمعه يبلل محياه :

« اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هذا البحر لفعلت . . . اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك أن أضع ظبة سيفى فى بطنى ثم أنحنى عليها حتى يخرج من ظهرى لفعلت . . . اللهم وإنى أعلم مما علمتنى أنى لا أعمل اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم اليوم عملا هو أرضى لك منه لفعلت ! . . » .

* * *

أما معاوية فقد أنساه رجاؤه المعاود ، ووثبة ابن عمر ، ولمعة الظفر التى صاحبتها فى بدء خطاه ، أن الامل والوثبة واللمعة جميعا رؤى وأحلام . إنها لتحجب عنه حقائق لولا وهمه لم تكن لتغيب . تحجب عنه ما فى يمينه . وتحجب عنه ما تحت عينيه . وتدع خياله الجامح يسبح به فى عوالم من الفراغ بغير نهاية ولا حدود . فصحيفة النصر التى كتبها له النهار قد طواها الغروب . أودعها الماضى . جعلها أسطورة ! . . ومنذ ثبتت ربيعة ، ثم قوم الأشتر بقية الخطوط ، ثم فرت الحضرية بات واضحاً أن حظ عاهل الشام فى هذه الحرب عثر ، وأن نجمه غار . وليس هذا رجما بغيب ، ولا انسياقاً لطيرة . ولكنه نتيجة حتمية نمت عنها طبيعة القتال والعوامل النفسية التى كانت تحرك خطا أعدائه وأوليائه على السواء . فما كان عمرو بكفء عمار ، ولا ابن عمر نظير هاشم ، ولا هو نفسه يطول قدر الإمام حين ينظر إلى نتائج المعارك خلال الإيمان بالفكرة قبل الإيمان بالكثرة ، ومن ثنايا القدرة على الجلاد والشوق للشهادة قبل تراكم العدة والأعداد من السلاح والأجناد . . . ومن اليسير أن نتبين أن الشك كان دائماً فى جانبه ، وأن اليقين كان دائما فى جانب خصمه . وحليف الريبة أبدا خاسر ، وصاحب الثقة أبدا ظافر وإن توطأت للأول المنازل وتوعرت دروب الأخير . .

على هذه الهيئة نفس معاوية والحضرية تعاود الهجوم : رجاء ساطع ولكنه سراب ، وقلق باهت ولكنه ثابت . وهل يغنيه أن يتشبث بعد هذا بالمنى العذاب الخلب وأفعى الريبة تنشب نابها فى فؤاده ؟

ومع ذلك فلم تنتصف له الحضرية ، ولم يختلب ثمرة النصر التى شق فى سبيلها جيشه الكبير كان الكفاح كرة وفرة ، وغلبة ودبرة ؛ والعيون التى لاحقت ذلك الصراع من ثنايا الظلام كان عسيراً عليها أن تميز المقهور من القاهر ، والخاسر من الظافر فالميدان مضطرب هنا وهناك بالخيل والرجل والمشاة والفوارس من هذا الفريق ومن ذاك ، وقد اختلطت الصفوف والخطوط كاشتباك الخيوط . والظلام مهيمن على الثرى المخضوب إلا لمحات كوكب طالت عليه شقة السير وأوهن عينه السهر ! . .

* * *

تلك ليلة حازبة ذاق فيها معاوية صاب الموت وما مات . لفحت قلبه فى جوها الرطب البليل ريح مثلوجة ، أوشكت أن تشله ، وتحيل الدم فى عروقه قطعة من جليد . . .

وكانت الريح من نفحات ربيعة !

إذ ذاك كانت هذه الفئة العنيدة من جند غريمه تخطو نحوه على زوبعة ، وتسرع على إعصار ، وتيمم من بين مصافه وفرقه وألويته شطر قبلة لها وحيدة ، بيضاء كالغرة بين مضارب عسكره ، لا تفلتها الأبصار .

ونحله حرصه على الحيـاة ذعراً مجنوناً ثار بجسده الذى شلته البغتة فاندفع يعدو إلى غير غاية كالفرس الجامح حتى خلف قبته البيضاء إلى خباء من أخبية جنوده يتوارى فيه . . .

وتلاحقت أنفاسه اللاهثة تختلط بهمسة :

« يا ويح ربيعة ! . . لئن أظفرنى الله . . . » .

ثم لم يتم صيغة نذره إذ نفث شيطانه فى ضميره فومضت عينه ، وهدأ جأشه ، ومال بفمه على أذن رسول . . .

وعندما تهاوت من صفوف حماته الخمسة ثلاثة ، وخرق الرابع ، وهمت ربيعة تقصف الأخير ، كان رسوله قد بلغ غايته ، وتقدم يسر لخالد بن المعمر رسالة العاهل المهيض المذعور :

« إنك قد ظفرت . . . لك إمرة خراسان إن لم تتم » .

ولم يعقب خالد .

وشهدت الواقعة الظفر يندثر . . .

وشهدت الليلة القائد المهاجم يعود . . .

وشهدت ليلة سراها لاحقة ، عقيب أعوام ، ذلك الخائن وهو يسير على طريق خراسان وفى يمينه كتاب توليته عليه خاتم ابن أبى سفيان ! . .

الرضا فى العين ، والحيرة فى الفكر . اللمة فى الأفق ، والجمر فى الصدر . . . معاوية إن نجا فإلى حين . وإن اجتاز من الخطر غمرة فأمامه بعد غمرات . . هو لا ينسى أنه الآن بإزاء عصبة من أصحاب على واحدهم فرقة ، وفردهم كتيبة ، يتوثبون إلى المصارع توثب النحل على الزهر ، خفاف الخطا ، ثقال القلوب من يقين فلا تهزها الخطوب ، ولا ترجها النوازل

الآن هو بإزاء هاشم بن عتبة بن أبى وقاص . دعاه الإمام : « أقدم ! » فلباه ، ووقف مصغيا بين يديه لحديثه وفيه دعابة ومزاح :

« يا هاشم . . حتى متى تأكل الخبز وتشرب الماء ؟ » .

فابتسم الرجل وأجاب :

« لأجهدن على ألا أرجع إليك أبدا ! . . » .

« إن بإزائك ذا الكلاع وعنده الموت الأحمر » :

« أما والله لتعلمن ، يا أمير المؤمنين ، إن شاء الله ، ألف بين جماجم القوم ! »

ثم استضحك ومضى بلوائه تملكه خفة ليست فيه هى عرس الشوق الفداء . فلما وقف بصحبه على حافة وديان الموت ، راح يسألهم وعينه تحيط بالمعسكر المقابل :

« من أولئك ؟ » .

قيـــل :

« أصحاب ذى الكلاع » .

« وأولئك ؟ » .

« جند أهل المدينة وقريش » .

« ومن عند هذه القبة البيضاء ؟ »

قالوا له :

« معاوية وجنده . »

« فإنى أرى دونهم أسودة . . . »

« ذاك عمرو بن العاص وابناه ومواليه » .

فأعاد عينه إلى رفاقه ، وهتف فى ثقة واعتداد :

« . . . إذا رأيتمونى هززت هذه الراية ثلاثا فاعلموا أن أحدا منكم لا يسبقنى إلى الحلة . . . »

ثم تخير من بينهم واحدا وأوصاه :

« . . . فإذا رأيتنى قد صرعت فخذها » .

وسار يرقل بلوائه ، وإلى جواره عمار بن ياسر نضا عن نفسه وهن التسعين واشتد فى سيره ، كلما رأى من رفيقه التؤدة فى الزحف راح ينخسه بسن رمحه معاتبا ويتعجله :

« أقدم يا أعور ! . . لا خير فى أعور لا يأتى الفزع ! . . » .

فيضحك هاشم ويرد عليه :

« رحمك الله يا عمار... إنك رجل تأخذك خفة الحرب . وإنى إنما أزحف باللواء زحفا وأرجو بذلك أن أنال حاجتى . . » .

ثم يتقدم فيركز الراية . فإذا تتامت له الصفوف عاد للزحف من جديد . . .

وقال عمرو بن العاص ، وقد بدت الفرق الزاحفة أمام عينيه تنطلق وئيدا ، وتقاتل وئيدا ، ولا تكاد تمضى بها القدم خطوة أخرى إلى أمام حتى تطهر الأرض من كل منازل :

« إنى أرى لصاحب الراية السوداء عملا . . . لئن دام على هذا لتفنين العرب اليوم ! » .

وتساءل معاوية :

« من هذا المقبل ؟ »

قيـــل :

« هاشم المرقال » .

فعندئذ طفرت به الفزعة ، وصاح :

« أعور بنى زهرة ؟ . . قاتله الله ! » .

ثم خاطب ابن العاص :

« ويحك يا عمرو ! . . إن اللواء اليـوم مع هاشم بن عتبة ، وقد كان يرقل به من قبل إرقالا . . . فلئن زحف به اليوم زحفا إنه لليوم الأطول لأهل الشام ! . » .

* * *

وهو الآن بإزاء عمار . . أفينكر قدره ؟ . . أم يغفل خطره ؟ . . أم ينسى تلك السنين المواضى التى سطر هذا المعمر الشيخ فى سجلها فخراً يزرى بكل فخر ، وصبرا أوهن عزائم الكفر قد باركه محمد وحياه الله ؟ . .

لا ينسى معاوية ما كان . إن الغابر لينساب إلى ذاكرته ، قطرة قطرة ، حسوة حسوة ، حتى تتجمع بها شوارد ظلاله وخطوط نوره وتلتئم صورة كاملة الفناء فى الحقيقة الواحدة التى كل ما عداها باطل هباء . فيومذاك — والعرب فوضى همل ، والحكم بينهم لهبل والعزى واللات ، والدين نزر والشرك بحر — عذب عمار ، وقتلت أمه سمية ، وفتك بأبيه ياسر أمام عينيه فلم ينل من إيمانه كل هذا الإيذاء مثلما يقذى عين ذباب ! . . وعندئذ أكرمه ربه ، وأنزل فيه والصابرين معه :

« والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا ، لنبوئنهم فى الدنيـا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . . . » .

فكأنما استأخره الله لموتة أخرى تبوء بإثمها طائفة من سلالة معذبيه ، وكأنما حدد أجله — ذات نهار سالف ، من نحو جيل — ذلك الحديث الذى جرى به لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . ذات نهار كان المسلمون إبانه يعاونون نبيهم فى بناء مسجده ، ويحملون إليه الأحجار حجراً حجراً ويحمل عمار حجرين حجرين ، والجهد على محياه ظاهر ، والخشية أن ينوء — وهو هزيل ضعيف — تضطرب فى خواطر الكثيرين . . .

وأشفق محمد عليه :

« يا أبا اليقظان ، لا تشفق على نفسك » .

ثم ما لبث — وقد تكشف لبصيرته أن تعب عمار ذاك ان يودى به ، وأن حينه لا زال بعيداً — أن رق له ، ومسح ظهره ، وبشره :

« إنك من أهل الجنة — تقتلك الفئة الباغية . . . » .

وها هى الآن : هذه الفئة المنكودة ، تضطرم نفوسها تحرقا لصرعه وإن بقيت فيها قلة ذكرت فراح القلق ينوشها خشية أن تحق عليها قولة الرسول فتبوء بشر منقلب ، وتؤوب أخسر مآب . حتى ابن العاص كانت الخشية تهز عصبه ، وكانت الريبة ترج قلبه ، وكانت نفسه المفتونة بزخرف الحياة يرين عليها الانقباض والوجوم كلما سبح خياله إلى ساعة من عمر هذه الحرب قد تطلع الليلة ، أو فى غد ، أو ذات صباح على عمار وهو مقتول .. ولقد ساقه فزعه إلى الشيخ يلقاه بكلام عساه يعطفه إلى صفوف فئته ، أو يبعده عن مهاوى الأجل بوقعتهم تلك ، فيجنبه حينه إلى حين ، تتجنب الشام أن تبوء بدمه . ولكن ابن ياسر كان قد عزم عزمه ، وعرف موطنه ، وعلم من نفسه أنها على هدى وحق ، فلم يختله الداهية الخاتل ، بل ذاق من لسانه كل مهانة وتحقير . .

وقال عمرو بعد فشل حيلته :

« . . ولم تشتمنى يا أبا اليقظان ولست أشتمك ؟ »

أجابه الشيخ :

« وبم تشتمنى ؟ أتستطيع أن تقول إنى عصيت الله ورسوله يوما قط ؟ .. » .

« إن فيك لسبات سوى ذلك . . » .

فسخر عمار من لمز غريمه :

« أيها الأبتر ! . . إن الكريم من أكرمه الله . . . كنت وضيعا فرفعنى الله ، ومملوكا فأعتقنى الله ، وضعيفاً فقوانى الله ، وفقيراً فأغنانى الله . . . » .

وغضب معاوية إذ فشا خبر ذلك اللقاء فى رجاله ، وإذ علم الكثيرون بحديث عمار والفئة الباغية التى تجندله فترد النار . . واستحضر إليه ابن العاص يلمحاه :

« ويحك ! . . أفسدت على أهل الشام » .

« وكيف ؟ » .

أ كل ما سمعت من رسول الله تقوله ؟

قال عمرو يعتذر :

« قلتها ولست والله أعلم الغيب ولا أدرى أن صفين تكون . . . قلتها وعمار يومئذ لك ولى ، وقد رويت أنت فيه مثل الذى رويت فيه . . » .

وقلب العاهل كفيه من حيرة ، وغام وجهه ، ثم أسر لنفسه وهو متوجس :

« هلكت العرب إن أخذتها خفة العبد الأسود ! . . »

* * *

وهو الآن بإزاء قيس بن سعد بن عبادة ، مارد الأنصار . لو قد هادن معاوية زمانه لقبع ذلك الداهية بالمدينة يجتر فيها آلامه ... لكن الحق أيقظه ، وأحيي غضبة الجبار فيه . . فما كاد يشعر كيد صاحب الشام ويخرج العملاق من أرض النيل حتى انبرت له طائفة بمستقره الجديد ، تنخسه بسخريتها مرة ، وبشماتها أخرى وهى ترجو أن تخيفه أو تذله . . . وكانوا جميعهم من حزب عثمان ، ومن جماعة ابن هند وأذنابه الذين أيدوه باللسان ، وناصروه فى صراعه بالبهتان ، ورنوا غير حافلين بالمبادى السوية إلى أن يعيدوا إلى الحياة عهداً مات ، قدطوى الغابر أيامه ، وختم شروره وآثامه ، وغربت الشمس على وجهه البغيض . . .

وقطع حمقهم غفوة الأفعوان ! . .

وعندئذ نفض إهابه ، ونفخ سحره ، وانطلق يسعى وهو يفح ، يضرب بذيله ، ويبدى نابه ، ويلوك لعابه ! . .

هنالك عيروه إذ نزعه ابن أبى طالب ووضع مكانه ابن الصديق عاملا على النيل . . .

توعده مروان . . .

وهدده الأسود . . .

وركبه حسان بن ثابت بالبهتان والشماتة :

« نزعك على ، وقد قتلت عثمان فبقى عليك الإثم ولم يحسن لك الشكر . . » .

فضاق بالمارد المقام ، وعنف بالشامت الضرير :

« يا أعمى القلب والبصر! .. والله لو لا أن ألق بين رهطى ورهطك حربا لضربت عنقك! .. » .

وسار من فوره فقدم صفين يضع عمره وسيفه فى يد الإمام ..

وربيع معاوية فبعث للأسود ومروان ، طرفى تلكم الجماعة المناصرة الحمقاء:

« أمددتما عليا بقيس بن سعد ورأيه ومكانه ... والله لو أنكما أمددتماه بمائة ألف مقاتل ما كان ذلك بأغيظ لى ! .. »

* * *

وبإزائه أيضاً الأشتر ، صاحب مذحج والنخع ، وأعدى الناس لباطل الشام ، وأول ناصر لحق الإمام .. وحين يذكر الأشتر فقد ذكر الذى لا يثبت لعناده صابر ، ولا يتقدم عليه مغامر ، ولا يسبق خطاه حين الغمرة مقدام . الذى حرك الدم إذ جمد ، وسعر القتال إذ برد ، واختلب النصر وكان التقى بين براثن الهزيمة .. ثبت وقد تفرق الناس ، ونهد وقد قعد الناس ، وكر بطوائف على وأجناده وهم حينذاك مزق وحلول فغدوا به كتلة مرصوصة من البطش والأيد ، ومن الصبر والجلد ، ومن البذل والفداء ، لا تزال تضرب وتنطلق فتهد من عدوها العزائم ، وتزلزل تحته المواقع ، وتنثر بينه الخوف والمصارع ، وليس لها من ورائه غاية إلا تلكم القبة الكبيرة البيضاء !

ثم دع عنه الأشتر ، فدونه غيره كثير . دونه الأحنف بن قيس ، ودونه سهل بن حنيف ، ودونه أبو أيوب الأنصارى ، وصعصعة ، وجارية ، وابن صرد ، وابن عباس — رجال لا يطولهم الأبطال ، وليس كمثلهم خلاصة الرجال . فمنذا له هو الآن ؟ عمرو ؟ .. ابن عمر ؟.. ذو الكلاع ؟ . أم هذه الطائفة من أهل بيته ، كعتبة والوليد ومروان ؟ ..

كلما أدار ذهنه فيهم طالعوه بالتخاذل .. جمعهم يأعرون حين تحزبت عليه الأمور عسى أن يحكموا له الرأى ، أو يسوقوا المشورة ثم يجرهم حديثهم إلى حمية تدفعهم دفعاً إلى الوقوف لابن أبى طالب صخرة عاتية تسد طريقه أو توهيه ...

وانبرى عتبة بن أبى سفيان — كأنما ينطق بنزغ أخيه — يثير فيهم النخوة وهو يذكرهم ثأرهم لدى على ، ودم الأسلاف الذى بل ردنه ، وصبغ كفيه ، وسقى التراب تحت قدميه :

« إن أمرنا وأمر على لعجيب ، ليس منا إلا موتور . . . »

ثم عدد لهم مصارع الآل :

« . . . أما أنا فقتل جدى ، واشترك فى دم عمومتى يوم بدر . . . وأما أنت يا وليد فقتل أباك وأيتم إخوتك . . . وأما أنت يا مروان فكما قال امرؤ القيس :

وأفلتهن علباء جريضا ولو أدركته صفر الوطاب

وتذاكروا جميعا بلواهم ، واجتروا همهم وما منهم إلا ناقم يكاد لسانه لو طال عليا لنال منه ما تجبن السيوف عنه ! . . . عندئذ حسب معاوية أن قد بلغ غايته ، فتكلم يحفزهم :

« هذا الإقرار ، فأين الغير ؟ »

قال مروان يسأله :

« أى غير تريد ؟ » .

« أريد أن يشجر بالرماح ! . . »

فإذ ابن الحكم — وقد قبدت له الحياة فى جانب يهم أن يقتحمه على عليه — غدا كالمدلى إلى قبره وما يزال نفسه ملء صدره ! . . أفما يتشبث بالحافة قبل أن يبلغ القاع ؟ . ألا يؤثر السلامة ، وينسى النقم ، ويطل الدم ؟ . .

بل قد آثر الرجل ، ثم سخر :

« إنك يا معاوية لهازل ! . . » .

وتبعه الوليد يتهكم :

« غير ؟ . .

أتأمرنا بحية بطن واد إذا نهشت فليس لها طبيب ؟ »

ثم عرض به حين نكل عن مبارزة على ، وعرض أيضا بصاحبه عمرو حين اتقى المنية بسوأته ! . .

وخزى ابن هند ، وصمت . . .

وغضب ابن العاص ، وثار :

« إن كان صادقا فليلق عليا أو ليقف حيث يسمعه صوته . . . »

٤

فرغ الشجار وانفض السامر . . .

انقضت تلك الجلسة بين معاوية وذويه ، وعلى هو هو ، ملفوفا برهبة تصدهم عن لقائه إلا أن تنوشه ألسنتهم العيابة . أما النخوة ، وأما خروجهم له فرادى فى مجال مبارزة ، أو خلسة لغيلة ، وأما ثأرهم منه لمن قتل من آبائهم وأهليهم فى باكورة الإسلام فظلت كأنها حديث حلم وهينمة نائم ! . .

ولم تكن هذه الجلسة وحدها مشهد الملاحاة الفريد بين العاهل وآله ، والخلص من رجال نيته ، والحيرة الملتفة حوله من عشيرته . . . فى كل يوم كان له معهم حديث ، ومنهم شكوى ، وفيهم حث ونفث وتحريض لعلهم أن يكفوه خصمه ، ويرسموا لغيرهم من الأعوان قدوة الكفاح . . . ولكنهم كانوا دائما يؤثرون السلامة إن علموا الغمرة ستدنو بهم من يد الإمام ، فالنأى عندئذ أجدى ، والتولى أجمل ! . .

ولقد بلغ من تهافت بعضهم ما لعله أطمع الناس فى مجموعهم بأكمله ، فكانت نظرة الجيش الأموى إلى خاصة معاوية كالنظرة إلى معرة . وأنكرت العامة تأمرهم ، وضاقت بهم قبائل المحاربين ، وبات معاوية لا يأمن بعدها أن يختلف عليه أجناده الذين قلد أمورهم رجالا من بين أولئك النفر من آله وقومه ، السلف بأصله ، المهين بفعاله . . .

جاءه من اليمن امرؤ لم يكتم عنه ما خالج النفوس من موجدة على أولئك الأمراء الذين قدمتهم الأحساب ، يقول له :

« يا معاوية . . . إنى قلت شيئاً فاسمعه ، وضعه منى على أنه نصيحة . . » .

« هات .. »

« عقدت لبسر وأصحابه وما الناس حولك إلا اليمن
فلا تخلطن بنا غيرنا كما شيب بالماء محض اللبن ! »

ومضى الرجل بشعر يضم فخره بقومه ، ولا يغفل غمز من تآمروا عليهم من خاصة العاهل وأقربائه ، حتى كبا لحديثه وجه معاوية وأظلمت من الخجل عيناه .

وأغضى ابن أبي سفيان مليا ، فلما رفع محياه الذي طافت به خطوط خزيه ، قال عاتبا لوجوه اليمن :

« أعن رضاكم ، قال هذا ما قال ؟ . . »

فلعلهم استحيوا حينذاك أن يجبهوه ، واكتفوا بأن ترفقوا له في الجواب :

« لا مرحباً بما قال ! . . » .

وعندئذ فاءت إليه نفسه ، وبطن رده عليهم بمألوف مداورته ولينه :

« إني إنما خلطت بكم ثقاتي وثقاتكم ومن كان لي فهو لكم ، ومن كان لكم فهو لي »

ولكنه في قرارة نفسه كان يعلم أن مدافعته إياهم ليست تنال الرضا منهم ، ولا تبدد من سخطهم على الوضع القائم إلا بقدر ما يبدد النسيم من جبل ؟ . . ما كان هذا ليخفى عنه وهو العليم بالناس ، الخبير بالأنفس ، العارف بأطوائهم كمعرفته طواياه . . . بل الأيام أيضاً صدقته حدسه وحققت له ظنه المستريب فيهم كما حققت يأسه من وفاء أهله له ، وبذلهم من أجل أهدافه سواء بسواء . .

وكان ذلك وقد حميت الوقدة ، واشتجر الناس ، وأوفت الحرب على الفصل . فإذ ذاك دعا إليه مروان يحثه :

« إن الأشتر قد غمني وأقلقني . فاخرج بهذه الخيل في كلاع ويحصب ، فالقه . . . » .

فما زاد ابن الحكم على أن أجابه بغير مبالاة :

« ادع لها عمراً فإنه شعارك دون دثارك ! . . »

قال العاهل يداهنه :

« وأنت نفسي دون وريدي . . » .

« لو كنت كذلك ألحقتني به في العطاء ، أو ألحقته بي في الحرمان . . . ولكنك أعطيته ما في يديك ومنيته ما في يدي غيرك . فإن غلبت طاب له المقام ، وإن غلبت خف عليه المهرب ! . . »

فقرغ صبر معاوية وصاح :

« يغنى الله عنك ! . . » .

وأقبل عليه عمرو يقول رياء وشماتة :

« والله إنى لا أقول لك كما قال مروان . . » .

فثار العاهل الحليم لهذا الملق المكشوف :

« ولم تقوله ؟ . . قدمتك وأخرته ، وأدخلتك وأخرجته ! »

وهنا لم يعوز عمرو أن يبدهه بما يكره :

« قدمتنى كافيا ، وأدخلتنى ناصحا ! . . قد أكثر القوم عليك فى أمر مصر ، فإن كان لا يرضيهم إلا أخذها فخذها ! . . »

ولكنهما تصافيا . وخرج عمرو فى كلاع ويحصب للأشتر ليعلم سيده أنه رام نصره لا يرجو ثمناً سوى رضاه . . فإذا هو — وقد سدد خصمه إليه رمحه — ينثنى ، ثم ينأى ، ثم يفر إلى النجاة والحياة ! . .

وعندئذ صاح به فتى من جنوده :

« يا عمرو ! . . عليك العفا ما هبت الصبا ! . . ياالحمير ! . إنما لكم ما كان معكم . . . أبلغونى اللواء . . . » .

وثبت الفتى حيث هرب قائده ، وقضى وهو قائم على قدميه فى الميدان .

وشمت مروان بعمرو . . .

وغضبت اليمنية ، وعاودت سخطها القديم . . .

وقال قائلهم لمعاوية :

« تولى علينا من لا يقاتل معنا ؟ . . ول رجلا منا ، وإلا فلا حاجة لنا فيك ! . . » .

وقال شاعرهم :

« معاوى إما تدعنا لعظيمة يلبس من نكرائها الغرض بالحقب
فول علينا من يحوط ذمارنا من الحميريين الملوك على العرب
ولا تأمرنا بالتى لا نريدها ولا تجعلنا للهوى موضع الذنب !..»

* * *

هذه غيرة خلصائه ، وتلك الروح التي سيرت خطاهم — أو قعدت بهم — والساعات تجرى سراعا إلى خاتمة صفين . ولقد أهمه أن ظل على دائما بنجوة عن المبارزة ، أو الهجمة ، أو الغيلة يتقدم بها إليه دارع أو حاسر من أبطال الشام حتى غدا لا يظهر لهم إلا لووا عنه أفراسهم وتحاموا لقاءه . وكم نقم منهم معاوية فعلهم ، وعاب عليهم تهافت القلوب وتبدد الحمية كأنما نسى أن نكوصة هو عن نزال الإمام قد عساه علمهم التشبث ببقية العمر ! . . وكان دائب الثلب لهم ، لا يكف عن تأنيبهم كلما ضاقت عليه الأحوال :

« العجب يا معشر قريش أنه ليس لأحد منكم فى هذه الحرب فعال يطول به لسانه ما عدا ابن العاص . . . فما بالكم ؟ . . وأين حمية قريش ؟ . . »

فقليلا ما حفلوا . . . لا يحرك حفزه وتعييره فيهم دماءهم الراكدة ، البيضاء كالماء ! . . إنما انطلقوا دائما وسنتهم المأمون ، يسمعون كسمع الصم إن ارتضوا السكوت عنه وعافوا الملاحاة والجدال . . . ولقد يشهد الرجل منهم الرجل من الدهماء والحثالة يستفزه حفز الماهل فيقدم حمية يبارز الإمام فلا يعد غير بصره يتابع اللقاء إن كاد . ولقد يحنق معاوية هذا الجمود الذى التزموه فيعدو حلمه ، ويعنف لهم فى القال فلا يدعونه وغضبته ، بل يبادلونه المرة بمرة ، ويردون عليه عنفه الصاع بصاع ، والذراع بذراع ، وإن جهره ، وإن على ملأ الأجناد

كذلك فعلوا غب نكوله عن مبارزة على ، وما من بينهم شريف واحد مقدام يسل سيفه ليدفع به عن « شجاعة » مولاه التى اقتحمتها الأعين ولاكتها الأفواه ثم لفظتها على الرغام ! . . إنما انبرى دونهم رجل من عرض الناس ، هو عروة بن داود الدمشقى ، يهم ليأخذ مكان سيده ، وقد امتلأ بالغرور صدره ، وحمى أنفه ، وعمى قلبه ، ولمعت عيناه — نطق حينه بلسانه فصاح :

« إن كان معاوية كره مبارزتك ، يا أبا الحسن ، فهلم إلى ! . . . »

وهدأ بال ابن هند وارتاح . . .

وعجبت الشام . . .

وتقدم إلى على بعض رفاقه يثنونه عن الغرور :

« ذر هذا الكلب فإنه ليس لك بخطر . . »

ولكنه أبى إلا أن يجيب المغامر إلى ما أراد ، وقال :

« والله ما معاوية بأغيظ لى منه . . دعونى وإياه . . »

ثم هتف يحدث المغرور المختال :

« اذهب يا عروة فأخبر قومك ! »

فإن هى إلا كلماته تنطلق ، بعضها لا يزال فى فيه ، وبعضها على النسمة ، وبعضها تلقفته الأسماع ، حتى هوت ضربته ، وهوى معها عروة بن داود : قطعة يمنة إلى هذا العسكر ، وقطعة يسرة إلى ذاك .

وارتج الميدان . . .

وصرخ ابن عم لعروة وقد هاجه الدم المهراق :

« واسوء صباحاه ! . . » .

ثم تقدم ليثأر . فإذا هو فى هنيهة لحم وعظام على الأديم الأحمر ، بجانب القتيل ! . .

عندئذ ارتجف معاوية من حنق وغيظ وهو يشهد رفاقه قد انكمشوا جميعهم فى جلودهم كأنهم قنافذ ، لا يجرؤ واحد منهم على تلبية دعوة على المبارزة ، وهتف فى ثورة :

« تبا لهذه الرجال ! . . أما فيهم من يقتل هذا مبارزة أو غيلة ، أو فى اختلاط الفيلق وثوران النقع ؟ . . » .

وكانت إصبعه تشير وهى تهتز إلى الإمام .

فما أتم حتى انبرى له الوليد بن عقبة يقول :

« ابرز إليه أنت ؛ فإنك أولى الناس بمبارزته . . » .

ولفظ بمثل قوله الرفاق الآخرون ، على ملأ الناس ، حتى ديست كبرياء العاهل وانتهك إباؤه . وحتى رأى عتبة بن أبى سفيان — ليحسم القضية — أن يعفيهم من الهول ، فقال لهم وهو يومئ إلى على وقد كان لا يزال يدعو صناديدهم لمنازلته :

« الهوا عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه ، فلا أرى أحدا يتحكك به إلا قتله . . . »

لكن معاوية خاف مغبة هذا الجبن الذى شاع فى قلوب أبطاله أن ينتقل لعامة جيشه فيعديهم ، ويبث فيهم الجزع والتخاذل . فما زال يحث ، ويحرض ويستصرخ القادة والأشراف ، حتى هم نفثه الساحر فى نفس بسر بن أرطاة أن يميل به . . .

وعاد يغريه :

« أتقول لمبارزته ؟ » .

« ما أحد أحق بها منك . وإذ أبيتموه فأنا له . . »

فمست الزاحة قلب الماهل أن استجاب هذا لتحريضه ، وقال :

« ستلقاه فى المجاجة غداً فى أول الخيل . . » .

وعلى هذا افترق الرجلان .

وقال ابن عم لبسر يسأله ، وقد آب ذلك اليوم من الميدان :

« إنى سمعت أنك وعدت من نفسك أن تبارز عليا . . . » .

« نعم » .

« فما يدعوك إلى ما أرى ؟ » .

فخفض بسر وجهه هنيهة ، ثم قال :

« الحياء ! . . خرج منى كلام فأنا أستحيي أن أرجع عنه . . » .

وحين آن اللقاء فى اليوم التالى ، راح بسر يشجع نفسه :

« وهل هو إلا الموت ؟ لا بد والله من لقاء الله ! . . » .

ومع ذلك فقد نكل — كصاحب له من قبل — وسقط أعزل على الأديم يدفع المنية بسوأته ! . . فعل فعلة ابن العاص . فلقد علم — فأمن — أن الإمام يأنف لسيفه أن يصيب خصما أعزل ، بغير عزة ، ولا حياة ، ولا سلاح ! . . واشترى الحياة . . .

ولكنه لم يلق بعدها علياً قط إلا تنحى عنه ناحية يتحاماه . وعلى هديه جرت بطولة الفوارس من الشام ! . .

٥

حتى ابن العاص قد بدا له أحيانا كالبقية الآخرين من أصحابه . يملك همه ، وتشغله نفسه عن الأهداف العليا التى كافح لبلوغها كل هذا الكفاح الدائب المرير ، الذى لطخ جبينه بالعرق ، وغمس ضميره فى الدم ، وجعله أمثولة لاحتيال الوسائل واعتساف الحلول ليقنص الغاية من أى سبيل .

هو لم يخذله . لم يقعد عنه فى أوان اصطراع . لم يلق كفاحه بقلة المبالاة التى كانت فى الأغلب الأعم شعار تلك الخلاصة من الرفاق . ولكنه أوشك الليلة — والذهول فيما يلوح قد تولاه — أن يسلمه إلى مخالب مصيره .

كان دائماً عدته . وكان صاحب شوراه . وكان عزاءه فى كل محنة وكارثة . . وحين احتدمت الوقدة — من قبل والآن — كان له درعه الحامية ، يرد عنه عادية عدوه ، ويذود فى سواد من فرسانه كثيف كسحب الأمطار أية هجمة تطلعت نحوه بقمة التل ومشت تهطع إلى الفسطاط الأبيض .

على سفح التل وقف يرقب حركة الجيوش العلوية التى دبت فى أوصالها الحياة وأقبلت عليه بالموت . راح يتأهب لها وسعه ، ويقدر ويعد ، ويرتب ويحتال . . . فى نظام وثبات . على حذر . بلا خور . . . إنه الآن فى جمع من المقاتلة راسخ ، عريض كالنهر . . كالخندق دون الفسطاط . كسور القلعة . ومن ورائه معاوية رخى البال ، يستشعر الطمأنينة ولا يرهب الخطر . فهو يحمى عمرو وجنده بجنة مانعة ، وفى كنفهم بملاذ آمن . .

غير أن طبيعة البشر فى ابن العاص بدلت الحال . فإن هى إلا جولة فى الميدان حتى اضطرب قلبه بين جنبيه ، لا من جبن ، بل من رقة وإشفاق . فلقد هزته عواطف الأبوة فنسى نفسه ، وخفى عنه واجبه ، واستحال كيانه كله كتلة نابضة بالحب الذى يفتن ، وبالوله الذى يذهل ، وبالهلع الذى يضل ، وبات ريشة فى عين إعصار ! . .

إذ ذاك كانت تلوح بحد الأفق ، على الضفة الأخرى من «نهر» جيوشه ، بقع من السواد تهتز ، فتلتئم وتفترق ، وتتباعد وتنتظم ، لحظة كأنها خطوط الظلال إذ تبعثها فتيلة مصباح عبثت به إصبع الريح . . . من بين يديه أقبلت . من تلك الناحية التي وضع عليها عينه طوال ساعات النهار والليل ليأمن منها البغتة على نفسه وعلى سيده الذي لاذ بحماه . من عسكر الإمام . . .

وسرح خيال عمرو . . إنها إذن الالتحامة التي تجفف المداد ، وتطوى الصحائف ، وترفع الأقلام ! .

أوان المزائم آن . في غد قد تطلع الشمس على أحلام ذابت وأحلام ثبتت وفرعت وطالت سرحة من الحقائق إلى السماء . . . على مغرب مجد ومشرق مجد . . . على دولة يحتويها الغابر ودولة يطلعها الحاضر كما تطلع الشجرة باكورة الثمار . . . وحمى ابن العاص . . .

ثم تقدمت البقع السوداء . ثم دنت . ثم بدت للعيون الرقيبة فوارس أجلادا ورجلا شداداً يميزهم بهيئاتهم وقسماتهم الحماة ، وعمرو ، وساكن القبة الكبيرة البيضاء وهم يصدون نحو التل كأنما ييممون شطره على جناح ! . .

وثار النقع من كثب كدخان حريق التهم شقة الأرض الحرام التي تفصل بين فريق صفين . ومن ثنايا غيومه انبرلاح على أدهمه يزفر لهباً ، ويرنو بشواظ ويسوق المنايا أمامه كما يسوق الحجيج هديه حين الإحرام ! . . فإذا الأرض تميد ، وإذا القبور تنشق ، وإذا الحلوق تجف ، وإذا القلوب تذوب . . .

عندئذ دوت بين جمع الحماة صيحة ثاقبة ، كنفخة الصور يوم الهول الأكبر ، زأرت بها حنجرة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وهو يحذر معاوية وجنوده :

« غشينا ثعبان مثل الطود الأرعن ! . . »

فتهاتف صحبه من رجال الشام :

« ثعبان ؟ . . » .

« على ! . . أثار قسطلا حال بيننا وبين الأفق ، وهو على أدهم شائل ، يضرب بسيفه ضرب غرائب الإبل ، كاشراً عن أنيابه ! . . » .

وتحركت لهاة العاهل برهة ، ثم حبس كلامه فى فيه .

إنه بباب خبائه ذاهـــل الذهن ، حائر النظرة ، جامد الجسد كوتد الفسطاط ! . لا يزال بصره القلق يتبع الإمام وهو ينقض ، ويلاحق سيفه وهو يخطف فلا يثبت إنسانه ولا يكف لحه ودورانه . جفنه يرمش . عينه ترعش . قلبه فى جوفه يسيل خشية حتى أوشك أن يحسبه بلل الرمال ! . .

وحين تحرك من بعد لسانه ، رجفت أذنه عندما صكها حديثه كأنما باغته سواه بالـكلام . وانطلقت نبراته خافتة كالهمسة ، حزينة كالأنين :

« والله إنه يجالد عن ترة له ، ويقاتل عن ترة عليه . . » .

ثم تعلقت نظراته بالغبار الـكثيف كالظلمة ، المنتشر كالغيم ؛ وبالصوارم اللامعة كالبرق ، الهاوية كالصواعق ؛ وبالصفوف الممتدة حياله كسور القلعة لتحميه — يبحث بينها عن صاحب سره ونجواه ، ورفيق همه وبلواه لعله يعيره الثقة أو يعده بالطمأنينة . .

لـكن ابن العاص كان إذ ذاك مشغولا عنه ، قد نضا عن نفسه إهاب القائد ولبس جلد « إنسان » . . نسى العهد ، والحرب ، والمجد ، والمطامع الطويلة العريضة وذكر فحسب أنه « أب » يوشك الردى أن يسلبه ولديه . .

وزحفت إلى قلب عمرو كف هاصرة ، تعتصر منه هدوءه وأمنه ، فهتف يتوجس :

« على من هذا الرهج الساطع ؟ . . » .

وإذا الجواب ، الذى تنبأ به من قليل فؤاده ، وهمست به فى ضميره حاسة الأبوة قبل أن يصوغ السؤال ، يأتيه :

« على ابنيك : عبد الله ومحمد . . » .

فما عتم أن قفز كالذى به مس ، يدفع الناس من جحفله ، هذا يمنة ، وذاك يسرة ، وهنا وهناك وهو يجالد ليفتح بينهم طريقا إلى الخطر . إلى الهول الزاحف . إلى الموت المقبل صوبه كالشلال . . .

كان كالطائر الحبيس يضرب بجناحه ، ويبحث بمخلبه ، وينقر لينقب جدار

قفصه الذى حرمه الفضاء . . . كان يناضل ليبلغ فرخيه وإن أثخنت بدنه الجراح وإن دمى طوقه . وإن انتثر ريشه فتطايرت قوادمه أو تمزقت خوافيه . . .

وفى غمرة العاطفة المندلعة بين جنبيه اندلاع السعير ، نسى الأب الواله أميره ، ونظام صفوفه ، ودوره اللازم فى قيادة قوة الدفاع ، وانطلق جزوعا ينادى غلامه :

« يا وردان ! . . »

فأقبل يأعر . . .

* * *

خبا لهذا لون صاحب الشام . . . فمن مرقبه بباب فسطاطه شهد صاحبه ، والفزعة التى تغشت محياه ، والنقلة الجامحة به من الثبات للهرج ، ومن الرسوخ للتقلقل . . . وهل بقى بعد لمعاوية إلا أن يرى فى الصورة الجديدة لحليفه نذير شؤم بانتقاض الخطوط التى تحميه وتقوض السور الذى يستره ؟ .

وهتف يأمره :

« يا أبا عبد الله . . . لا تنقض الصف والزم موقعك . . »

« فما ألقى إليه عينا ولا أذنا . إنما عاد يهيب بفتاه :

« يا وردان ! . . تقدم . قدم لواءك قدر قيس قوسى ولك منى جارية . . . »

فكرر معاوية نذيره وأمره :

« مكانك ، أبا عبد الله — لا تحملن . . . »

« هيهات ! . .

الليث يحمى شبليه ما خيره بعد ابنيه ! . . .

« إنه ليس على ابنيك بأس »

وعندئذ صرخ عمرو يزجر الأمير :

« ويحك ! . . إنك لم تلدهما ، وإنى أنا ولدتهما ! . . »

ثم حمل وهو لا يفتأ يحرض غلامه ، ويعاود تحريضه بصوت مجنون :

« قدر قيس قوسى أقدم ! . . أقدم ! . . قدم لواءك يا وردان ! . . »

ولم يدر عينه إلى معاوية إلا ليغمزه بنبرات تقطر منها مرارة نفسه ووجيب قلبه الملهوف :

« أو لو كان يزيد بن معاوية إذن لصبرت ! . . »

ومضى يشق الغبار .

* * *

على أنه — إلى هذا كله — كان أدنى صحبه منه ، وأكثرهم غيرة عليه ، وأشدهم رغبة فى تحقيق أطماعه وإن أبى الأمويون حينذاك إلا غمزه ، وحسده ، ونفس قدره لدى سيدهم الذى خصه — دونهم — بالتقديم . . فكم بذل العون . وكم ساق النصح . وكم حاك الحيلة . كانت الكروب تقيل فيشير . وكانت الأمور تضيق فيحتال . وكان القتال يحتدم فيخوض . . . ولم يكن معاوية يغافل عن حقيقة الدوافع التى تعطف عليه الرجل وتشده وإياه إلى طنب واحد . فلا عن مروءة كان بذل ابن العاص ولا عن نجدة قتاله . ولا عن وفاء نصحه أو احتياله . إنما عرفه على ما كان قد عرفه قبله ووصفه الإمام عندما قال :

« . . . يقول فيكذب ، ويعد فيخلف ، ويسأل فيبخل . . . فإذا كان عند الحرب فأى زاجر وآمر هو ما لم تأخذ السيوف مآخذها ! . . . »

وعلى ما كتبه إليه أيضا الإمام ، ذات مرة ، يكشف أمره . ويفضح سره الذى لبسه بدعوة مؤازرة ابن أبى سفيان فى الثأر لعثمان :

« . . . جعلت دينك تبعا لدنيا امرئ ظاهر غيه ، مهتوك ستره . . . فاتبعت أثره ، وطلبت فضله اتباع الكلب الضرغام يلوذ إلى مخالبه ، وينتظر ما يلقى إليه من فضل فريسته . . . . . . »

كان معاوية يعرف ابن العاص على هذه الهيئة الممسوخة من المروءة والولاء والبسالة ثم لا يبرم به ، ولا يضيق بخلجاته ما بقيت هذه الصفات مكتومة بذات نفسه لا تطفو من القاع ، ولا تخالط شوائبها تلك الأثرة الفاضحة التى تحرك لسانه وجنانه وسنانه وتدفع به إلى ذات الجادة الملتوية التى شقها عاهل الشام . فهو باذل ولا عن كرم . وهو ناصح ولا عن عقيدة . وهو ناصح ولا عن وفاء . إنما كان بذله ونصحه ونضحه جميعاً ينبثق وحيها من تأليه الذات دون يقين باستواء الوسائل أو نقاوة الغايات ، وإنه — على أية حال — لإيمان ! . .

٦

ربطتهما معا غاية — إن تكن لا تتحرى النهج الأمثل ، ولا الطرائق القويمة السليمة أو الوسائل النظيفة الكريمة — فهى مهوى الأنفس التى يستذلها الجاه وتسترقها زخارف الحياة . المنهومة للنشب . المفتونة بالعرض . الحبيسة فى نطاق الجسد من دم ولحم ، من شحوم وعظام . . فالذات الغاية . المادة . النفع . . ولو لم تكن فى القلوب نزعة تميل بها عن الصراط لقلب طرفه بين القوم . ثم لرده وهو حسير . لكن الناس هم الناس : من تراب ووحل وليسوا من صفاء ونور . والأنفس هى الأنفس : من هوى لا من تجرد . ولقد آمن معاوية الإيمان كله بالجانب المظلم من طبيعة البشر فنفذ إليهم من خلاله كأنه خفاش الليل الذى يعشى بصره الضياء ! . . إلى عمرو نفذ ، وإلى ابن عمر ، وإلى تلكم الطغمة من بنى أمية من أهل بيته الذين استعبدتهم الآراب والمطامع ومرغت منهم مزاياهم الإنسانية فى الطين وعندما تأزمت عليه الأمور لاين الجشع فى جنوده ، ففرض لمك على قتالها فريضة ليتألفهم بالمال . وخايل الناس بالمغنم : حيث كانوا له ومن كانوا عليه وما وسعته المخايلة . وأعظم فريقا فى عيون أنفسهم من استيقن أن آفتهم الغرور . . . بهذه وتلك من وسائله الملتوية خادع ابن العصر ومناه خرسان وداعب الكبر فى نفس الأشعث وراح دائماً يمط عنقه عساه يطول المستحيل ليأمن ويظفر وينام ! . .

كانت الدنيا هدفه ، والذى يهزه النشب يحسب البشر كلهم على مثاله فيمضى يقودهم بذهبه قيادة السائمة مادام هو بالذهب يقاد . فالمنصب لجام . والمغنم لجام . وحتى خلب المنى لجام . وقد طرق من هذه النهج وصاغ ما لا يحده حصر ، ولا تضيق عنه حيلة مضل ضال ، أو أخدوعة خاتل محتال ! . .

تفكر وقال :

« والله لأستميلن بالأموال ثقات على ، ولأقسمن فيهم المـــال حتى تغلب دنياى آخرته . . . » .

فشخصت إليه على الأثر الأبصار . ولم يبق من أهل العراق رجل فى قلبه مرض إلا أتلع نحوه جيده وهو يود أن يمد إليه كفيه ليأخذ باليمين واليسار ؟ . . وفشت هاهنا فاشية الطمع كما فشت من قبل هناك . . .

وقال المنذر ، فارس همدان ، للإمام :

« يا أمير المؤمنين ، إن عكا والأشعريين طلبوا إلى معاوية الفرائض والعطاء فأعطاهم ، فباعوا الدين بالدنيا . . إنا رضينا بالآخرة من الدنيا ، وبك من معاوية . والله لآخرتنا خير من دنياهم ، ولإمامنا أهـــدى من إمامهم . . . فاستفتحنا بالحرب ، وثق منا بالنصر ، واحملنا على الموت . . . » .

أولئك قد عصم الله ، ووقى نفوسهم شر فتنة المال ، فإذا دنياهم جيفة . وإذا زخرفها حرام ، وإذا هم حينذاك يسعون إلى النصر خفافا يختلبونه بحمد الحديد ومشافر الصوارم ، وبكل ضارب فتاك وضرب دراك حتى انكسر أمامهم عدوهم ، وولى الماهل المفتون بما قد ملـكت يمينه ، وهو جزوع يبعـد عمره عن مزالق الحمام . . .

* * *

بماله واحتياله لم يحاول معاوية فحسب أن يخدع العامة من جند على . . . لا ولا الخاصة الذين شام فيهم نزعة من الغرور ترفع من أقدارهم فى عيون أنفسهم فلا تزال بهم حتى يروا فى دهانه ومنافقته إياهم ما يرضى ذلك الغرور ، ويعلو بقدرهم إلى سمائه ، فإذا ملقه رقية ساحر بعقل مسحور ، وحمية كأس برأس مخمور ... ولا أيضا هذه الطائفة من نهازى الفرصة الذين يدورون دائما مع الريح وينشدون المغنم أينما ثقفوه — بل لغير هؤلاء كلهم أعد خدعه وأحابيله وإن كانوا يحصن حصين من أساليب فتنته ، وجنة تصد عنهم أفانين حيله . . .

وتفكر الرجل كلا لن يخضع لمستحيل . . . فذات مرة لم تغب بعد عن خاله موه وجاز تمويهه فاقتلع من ضفاف النيل أفعوانها الذى كان يذوده عن جنتها الخضراء أجدى مكره حينذاك وخرج قيس بن سعد من مصر فما له اليوم لا يختل كأمسه عساه — إذ لم يبلغ كل غايته — ينقب ثغرة فى سور عدوه تزيد سعة على الأيام ؟ . .

وابتسم — وقال :

« يا عمرو ! . . »

فأقبل ابن النابغة يلبيه

« يا عمرو ! . إن رأس الناس بعد علي ، هو عبد الله بن عباس . فلو ألقيت إليك كتابا لعلك ترققه به . . . » .

فضحك صاحبه عجباً ، وأجاب :

« ابن عباس ؟ . . إنه لا يخدع ولو طمعت فيه لطمعت في علي . . . »

ولكن معاوية لم ييأس :

« وإن ! . . فإنه إن قال شيئاً لم يخرج علي منه . وقد أكلتنا الحرب . . . فاكتب اليه . . » .

وراح يملي :

« أما بعد ... فإن الذي نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء ، وساقته العافية . وأنت رأس هذا الجمع بعد علي ، فانظر فيما بقي ودع ما مضى ، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولكم حياة ولا صبرا . . . وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم ؟ . . . وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا ؟ . . . . . . » .

وفي الحق لقد أصاب عمرو وأخطأ معاوية . فما وقع ابن عباس في الشراك المنصوبة له ، بل هو قد سخر من التفكير الذي دفع صاحب الخطاب إلى تسطير كلماته ، وإن يكن أخذ الكاتب بجريرة ممليه . . .

لذلك غضب ابن العاص وعنف بأميره عندما تلقى الجواب . . .

قال له :

« أنت دعوتني إلى هذا . . . ما كان أغناني وإياك ! . . . »

ودفع إليه رد ابن عباس ، ليقرأ فيه :

« . . . إني لا أعلم رجلا من العرب أقل حياء منك ! . . . مال بك معاوية الى الهوى ، وبعته دينك بالثمن اليسير ، ثم خبطت بالناس في عشوة طمعا في الملك فلما لم تر شيئا أعظمت الدنيا إعظام أهل الذنوب ، وأظهرت فيها نزاهة أهل الورع ! . . . . . »

لـكن معاوية لم تقعده لهجة الرد ، ولا غضبة صاحبه ، عما اعتزم من موالاة احتياله ودسه لبلوغ ما يريد ، فإذا هو بعد هذا يعيد الصحيفة إلى صاحبه ، ويقول بهدوء :

« إن قلب ابن عباس وقلب على قلب واحد ، كلاهما ولد عبد المطلب . . وإن كان قد خشن فقد لان . . . »

وإنه ليوم أو بضعة تشتد فيها الحرب على الشام ، حتى يناجى صاحبه :

« إن ابن عباس رجل من قريش ، وأنا كاتب إليه . . . »

فيلقى إليه عمرو نظرة فضول وتعجب ليست تدارى إنـكاره :

« فيم ؟ . . »

« . . . فى عداوة بنى هاشم لنا ، وأخوفه عواقب هذه الحرب لعله يكف عنا .

ولا يبالى انحراف زميله عن رأيه هذا بل يكتب الآن ، عن لسانه هو ، الـكتاب الجديد :

« . . . إنـكم يا معشر بنى هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار عثمان . . . . . . فإن يكن ذلك لسلطان بنى أمية فقد وليها عدى وتيم فلم تنافسوهم وأظهرتم لهم الطاعة ، وقد وقع من الأمر ما قد ترى ، وأكلت هذه الحروب بعضها من بعض حتى استوينا فيها . وقد رجونا غير الذى كان . . ولستم بملاقينا اليوم بأحد من حد أمس ، ولا غدا بأحد من حد اليوم ، وقد قنعنا بما كان فى أيدينا من ملك الشام فاقنعوا بما فى أيديـكم من ملك العراق ، وأبقوا على قريش . . أنت رأس هذا الجمع اليوم ، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع منا إلى على ! . . . . . . » .

« لو بايع الناس لى لاستقامت لى ؟ . . »

وسخط ابن عباس لهذه الدسيسة الرخيصة ، وقال فى نفسه :

« حتى متى يخطب ابن هند إلى عقلى ؟ ؟ . . . »

ثم كتب ، فيما أجابه به :

« . . قد بايع الناس عليا وهو خير منى فلم يستقيموا له ! . . » .

ومع ذلك فلم تكن هـذه كل محاولات الداهل الخاتل التي حسبها مبلغته أربه ، فما كان عليه لو أنه واجه عليا بغايته ؟ .. من يدرى ؟ . . إن يكن الإمام قد اعتدى بالأمس فعسى المحنة أن ترقق من شدته ، وعسى الرحم أيضا أن تعطفه من بعد ميل . . .

وقال الداهل ذات يوم لنجيه :

« قد رأيت أن أكتب إلى على كتابا أسأله الشام ، وألقى فى نفسه الشك والرقة . . » .

عندئذ ضحك ابن العاص :

« أين أنت يا معاوية من خدعة على ! . . »

فأغضى عن رنة السخرية ، وقال :

« ألسنا بنى عبد مناف ؟ . . »

« بلى . ولـكن لهم النبوة دونك ! »

ولـكنه كتب :

« . . . إنى أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا ، لم يجنها بعضنا على بعض ، وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منها ما نندم به على ما مضى ، ونصلح ما بقى ... وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمنى لك طاعة ولا بيعة ، فأبيت ذلك على ، فأعطانى الله ما منعت ، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس ، فإنى لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو ، ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف . وقد والله رقت الأجناد ، وذهبت الرجال . . . ونحن بنو عبد مناف ، ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يستذل به عزيز ، ولا يسترق حر » .

تلك الـكتب كانت بعض وسائله إلى ما يبغى ، وكانت حلقة من حلقات أساليبه أو ألاعيبه التى حرص منذ بدء الخلاف بينه وبين الإمام على ابتداعها وتجييشها فيالق منظمة تعمل فى الميدان إلى جوار قواته المحاربة . وهى لا مراء كانت ذات أثر فى بعض الأنفس والأفـكار تمدها بالشك والتذبذب . وكثيرا

خاب وقليلا أصاب ، ولـكنه — على أية حال — كان دائب العمل ، موصول الحركة لا يهمد له نشاط . وكان وفيا لهدفه وفاء لم يقعد به قط عن الإعـــداد والمخايلة والمخاتلة ما وسعه طاق الاحتيال . . .

غير أن سعيه الخثيث إلى ظفر سلمى كان أملا ما لبث حتى أصابته بالطعنة القاتلة كلمات الإمام :

« . . . إنى لو قتلت فى ذات الله وحييت ، ثم قتلت ثم حييت سبعين مرة ، لم أرجع عن الشدة فى ذات الله ، والجهاد لأعداء الله . . . فأما طلبك الشام فإنى لم أكن لأعطيك اليوم مامنعتك منها أمس . وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء فإنك لست أمضى على الشك منى على اليقين . . . والسلام »

٧

حسم اليوم التاسع الموقف بين الفريقين .

لم يعد القتال مبارزة بين رجال من هنا ورجال من هنـاك . ولا اشتباكا مضطربا ، أو تدافعا غير ذى غاية سـوى القتل بين طوائف من جنود الشام وأخرى من جنود العراق . إنما أصبح معركة عامة ، اشتركت فيها كل الوحدات المقاتلة ، وأخذت تتكون لها شيئا شيئا سمات الوقائع الحاسمة ، ثم تتضح ، ثم تبرز حتى أوشكت أن تومئ علانية إلى حيث النصر . .

كان الأشتر على الميمنة منذ قادها مغرب الأمس بعد مصرع عبد الله بن بديل ابن ورقاء ، وكان ابن عباس على الميسرة . وكان على حينذاك فى كل مكان ، ينطلق من القلب إلى هذا الجناح . ثم منه إلى ذاك . ثم ينثنى فيسرع يقدم أو يسرع يعود . . . أينما خطر له أن يلقى عينه على الصراع المشبوب كانت تمضى قدمه أو تخب مطيته ، ليرى من كثب حركات أوليائه وأعدائه فيقدر ويعد حسبما يجد فى الميدان من احتمالات القتال .

ومضت الجيوش على أرض الوقعة تختلط وتتلاحم ، وتلتصق وتتزاحم ، كموج البحر فى إبان عاصفة . يركب بعضه بعضا ، ويلوى بعضه على بعض وإن كانت غاية غاياته بعد هذا بلوغ الشاطئ القريب .

وأقبل القادة من رجال الإمام . أولئك الذين شهدوه فى القلب ثم افتقدوه لعبت بقلوبهم المخاوف . وأولئك الذين تركوه منذ قليل بجناح ثم غاب عن عيونهم بعد لحظات ، ملكهم الجزع والقلق عليه . ومن هذه الناحية ومن تلك فى أرجاء الميدان تواترت الهمسات عن مصيره المجهول تبعثها الخشية أن يكون قد أصابه عدوه . . .

وجاء الأحنف بن قيس يلهث . فلما ملأ ناظريه من الإمام واطمأن قلبه ، وقف يحدث الناس :

« يا أهل العراق . والله لا تصيبون هذا الأمر أذل عنقا منه اليوم ! . . فما يقاتلون على دين ، وما يصبرون إلا حياء » . . .

ثم التفت إلى على يستأمره :

« إنا إن تقدمنا اليوم فقد تقدمنا أمس . فما تقول يا أمير المؤمنين ؟ . . »

فألق إليه أمره :

« تقدموا فى موضع التقدم ، وتأخروا فى موضع التأخر . . تقدموا من قبل أن يتقدموا عليكم » .

المبادأة دائما . الهجوم قبل الدفاع . . .

وانطلق الرجل . ومضى على يرود أرض الموقعة بكلا عينيه وسلاحه ، لا تفتر له حركة ، ولا ينعس جفن ، ولا يغفل جنان . وعندئذ لقيه الأصبغ بن نباتة يبلغه ما يعلم من سير الأحداث :

« إن أهل الشام قد هدهم ما أصبنا منهم . ونحن فينا بقية . . . فاطلب بنا أمرك ، وأذن لى فى التقدم له » .

« تقدم بسم الله »

ولقد ظل موج القتال يدفعه آنا وينحسر عنه آونة حتى حسبت الكثرة من صحابه أنه قتل وكاد حسبانهم هذا أن يلفهم بالقنوط . من أولئك عدى بن حاتم الذى راح يخوض الغمرة تحت ظلة الرماح ، ومن بين أسنة السيوف وعلى مزق الأشلاء غير آبه بما قد يصيبه . إنما ظل خاطره معلقا بوهمه الموحش الحزين ، وظل

ناظره معلقا بالقتلى على الثرى ، والأحياء على الرواحل والأقدام ، يتفرس الوجوه وهو ساهم ثقيل الفؤاد فإن هو أن وجده حتى انفلتت من شفتيه تكبيرة مهللة تعلن ميلاد فرحته ، ثم اندفع إليه وقد تألق طرفه وغمر البشر محياه :

« أمير المؤمنين ! . . . أما إذا كنت حيا فالأمر أمم . . . » .

فابتسم الإمام وحياه . ومسح الرجل عن وجهه حبات العرق التي تجمعت على جبينه ثم راحت تنزلق على خطوط وجنتيه حتى إذا هدأ قلبه قليلا قال وكلماته تقطعها لهثاته :

« ما مشيت إليك إلا على قتيل ... وما أبقت هذه الوقعة لنا ولهم عميدا ... فقاتل حتى يفتح الله عليك » .

أجل لم تدع الوقعة ، هذا اليوم ، إلا بقية يسيرة من جموع الأبطال . ذهبت الكثرة تلقفتهم المضاجع على التراب . . . حتى الذين استهوتهم المنى والشهوات ، وخاضوا الحرب ليحققوا مآربهم ، رحلوا عن مقام المطامع وأمنياتهم تخايل عيونهم ساعة الموت كالسراب ! ...

مضى عن الدنيا ابن عمر ، فأية أمنية نال ؟ . . . لقد طالما حلم . وقد طالما جنح مع أحلامه ومال فإذا نصيبه الليلة من المجد قيد ذراع من ثرى صفين . ومن الشرف ضربة حسام شقت عليه زرده ، ثم جسده ، ثم غاصت بالسنان في حشوة جوفه فإذا هو بعد هذا صريع ...

وسقط ينوء . . .

وسخر القدر ...

فلقد فر الرجل ، وأمعن في الفرار أعواماً طويلة من يد علي ، فإذا الضربة القاتلة ، بعنفها وجبروتها ، تكاد تنبئ عن اليد التي ظلت تطارده كل ذلك الزمان في اليقظة والحلم ، وفي الحرب والسلم . وإذا الأنة الخافتة ، ووشوشة جراحه ، والطنين الذي ملأت به الحشرجة أذنيه لا تخفي عنه ذلك النذير القديم الرهيب :

« لئن فاتني في هذا اليوم ، لا يفوتني في غيره . . »

واليوم جاء ! . .

فأما الأمانى فهباء . غارت فى الليل كما يغور الشعاع ولم يرتب منها القدر إلا واحدة . ما كان أغنى الصريع عنها ، وما كان تحقيقها قصاراه . . . تلك نبوءة الشيبانية إن لم نرها تنتظم فى سلك الأمنيات

فى ذلك اليــوم ، وقد همد الطعين ، وجرى الخبر بقتله ، بعثت نسوته إلى معاوية ليرد إليهن بدنه ، فأرسل إلى ربيعة فى عســكر العلويين يطلبه منهم بعشرة آلاف .

وقيل لعلى ، فأبى وقال لأصحابه :

« قد أجبتم إلى ذلك ، فاجعلوا جيفته لبنت هانئ بن قبيصة الشيبانى زوجته . . . »

وأطاعت ربيعة . وتفــكرت كيف ترد إلى أهله جثته فرأت شدها إلى ذيل بغل يضرب حتى يدخل بها معسكر الأمويين . لــكن نسوته ، وقد علمن ، استصرخن معاوية :

« هذا أشد علينا . . »

عندئذ أشار الماهل بالرأى :

« ائتوا الشيبانية فسلوها أن تــكلمهم » . . .

ففعلن . . . ومضت المرأة لتوها لتحفظ على قتيلها بعد مظاهر التوقير :

« أنا بنت هانئ بن قبيصة . . . وهذا زوجى القاطع الظالم قد حذرته . . . فهبوا لى جيفته . . . »

نبوءة الصباح التى قالتها له وهو مدل مختال ، طلع بها عليها المساء ! . . .

* * *

ومضى أيضا ذو الــكلاع الحميرى . ذهب هو الآخر إلى غير مآب ، وخلف قومه الجنية فى حوزة معاوية ينضحون عنه بمثل حميــة سيدهم اليوم وغدا وعلى توالى الأيام حتى أقاموا له على كواهلهم ملــكا عريضا لا تغيب عنه شمس النهار . . . فماذا يا ترى كان جزاء هذا القتيل ؟ .

لا مبالاة ؟ . . كلا بل شماتة ! . . بسمة من معاوية صفراء ، وبسمة من خدينه عمرو بن العاص كأنها صدى يتردد عن الفرحة التى اهتز بها قلب العاهل

الذى أبى إلا أن ينكر الجميل ! ... فما إن جاءه الخبر بمصرع الرجل حتى التمعت عينه وقال :

« لأنا أشد فرحا بقتل ذى الكلاع منى بفتح مصر لو فتحتها ! . . . »

وقال للذين جاءوا من قوم القتيل يطلبون إليه أن يعاونهم فى استعادة جيفته :

« وما عسيت أن أصنع ! » .

ولم يكن صاحبه ابن العاص خيرا منه نية ، أو أدنى إلى الرثاء والرحمة ، بل أمعن فى الإفصاح عن سروره :

« والله ما أدرى بقتل أيهما أنا أشد فرحا ! . . والله لو بقى ذو الكلاع حتى يقتل عمار لمال بعامة قومنا إلى على ، ولأفسد علينا جندنا . . . »

هكذا التقى الصاحبان كذئبين على جيفة نصير لهما يأكلانها شماتة ! . . وهكذا تنكرا للرجل الذى ضللاه عن طريق الحق . واتخذاه مطية عمياء ، وما زالا به يركبانه ويدفعانه وفى نفسه بقية من شك حتى اغتاله حينه . فلقد مضى لا ريب إلى ربه وهو يكاد يؤمن أن ابن العاص لم يكذبه حين ألقى فى روعه أن عمارا سينقلب آخر الأمر على الإمام ويفىء إلى أهل الشام ، فإذا قتل بعدئذ فالفئة الباغية ليست إذن فئة معاوية بن أبى سفيان ! . .

* * *

لكن عمارا قتل ...

هاجمه الردى وهو فى صفوف على يكافح عن حقه ويذود جحافل الباطل عنه ... فلو استأخر العمر بذى الكلاع يوما أو بعض يوم ، وسمع بمصرع الشيخ الجليل ، لقضى الأمر فى حزب الشام ، ولا نسل منه رجاله عودا عودا ، حزمة حزمة ، وتركوه من بعد وليس فيه من ولى ولا ناصر إلا شرذمة أمية وقطائع أخرى من الأذناب ! . .

ولكنه مضى وابن ياسر ما يزال فى الميدان ، لم يفرغ أجله ، ولم تحق فيه كذبة ابن العاص . وترك للعاهل الأموى خيرة الأنصار من اليمنية الذين أقاموا له ملكه ، وكان هو سيدهم المطاع . . .

وجلس معاوية تلك الليلة يجتر فرحته ، ويستقبل أناسا من جنده جاءوه فرادى يستأدونه ثمن قتلهم صاحب رسول الله :

« أنا قتلت عمارا . . . »

فيسأل عمرو قاتلهم :

« فما سمعته يقول ؟ . . . »

فيمر الرجل ، أو يزيف الجواب .

ويأتى آخر :

« أيها الأمير ، أنا قتلته . . . » .

ثم لا يكون من حظه فى الرد على السؤال إلا الخلط والخبط والتزييف . . .

وإذا ابن جون السكونى ، وأبو العادية الفزارى يقبلان وفى وفاضهما الخبر اليقين .

قال ابن جون :

« أنا صاحبه . . . » .

فسأله ابن العاص :

« فما كان آخر منطقه ؟ . . . » .

« سمعته يقول :

اليـــوم ألقى الأحبـــة محمـــدا وحزبه . »

« صدقت . أنت صاحبه . . . »

ثم أطلق عينه تقتحم الرجل ، وقال على كره كأنما الله قهر قلبه على كشف الحقيقة :

« أما والله ما ظفرت يداك ، ولكن أسخطت ربك ! . . » .

وعجب الرجل ، وعجب زميله عجبه ، ومضيا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص يشكوان ، ويحكمانه فى سلب عمار لأيهما يكون . فإذا عبد الله تربد طلعته ، ويضطرب نفسه ، ويصيح بهما وهو مغيظ :

« ويحكما ! . . اخرجا عنى فإن رسول الله قال : ولعت قريش بعمار ، مالهم ولعمار ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ، قاتله وسالبه فى النار ! . » .

ولقد صدق عمرو ، وصدق ولده ، وخاض الناس من أهل الشام فى قصة القتل التى أشفت بهم على سخط الله حتى أخذ الخوف ينعقد أمام عيونهم سحائب غلفت بالسواد والضلال أوطار عاهلهم ، فكادوا يحملون أنفسهم على الميل عنه . غير أن الداهية المحتال لم يعدم الوسيلة التى تبدد عنهم خشيتهم ، وتضمن له نصرتهم ، فقد أضاف خدعة جديدة إلى سلسلة أحاديثه ، فقال وأذاع بين العامة من رجاله :

« إنما قتله من أخرجه ! . . . »

ونامت المخاوف ، واطمأن الطغام ! . .

٨

كان آخر عهد عمار بن ياسر بالدنيا حين فصلته الحرب عن صاحبه هاشم ابن عتبة . دفعت هذا موجة لناحية ، ودفعت الآخر موجة لأخرى . وظل كل منهما من القتال العنيف فى دوامة . . .

وشد الشيخ قوامه الذى أثقلته السنون . وثبت على جسده درعه البيضاء ، ثم ألقى بعين تجول فى أنحاء الميدان فلا ترى فيها إلا جدرا مرصوصة من الناس لا تكاد تنفذ بينهم النظرة . . .

وابتسم . لشد ما يفتقد رفيقه ! . . بعد الأعور عنه الآن ، ولم يعد ثمة سبيل لمزاح . . . فأما وقد انطلق هاشم قدما فقد علم عمار أنها انطلاقة النهر فى مجراه ، يعرف طريقه ، ويعلم من أين بدأ وإلى أين منتهاه . فهاشم يسير فى تؤدة ، وعلى بينة ، ولا يستخفه مد القتال إن خايله النصر كما لا يهوله جزره إذا خايلته الهزيمة لأنه قدر ما يقع فليس يخطو إلا بحساب .

كانت الطمأنينة تملأ صدر عمار ، فثقته بصاحبه غامرة ، لا تنضب ولا تغور . وهو آمل فى النصر ، وهو مؤمن قبل هذا كله بالغاية التى من أجلها يمتشق اليوم هذا الحسام ثم يشق به سبيله فى صفين ، إلى الحق ، وإلى الجنة . . .

وألقى نظرة تتفرس الناس حياله :

« إنى لأرى وجوه قوم لا يزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطلون . . . » .

ثم استضاء وجهه الهضيم المعروق بإشراقه إيمانه وهو يكمل همسه لنفسه :

« . . . والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر ، لعلمنا أنا على الحق . وأنهم على الباطل ! . . » .

ومضى كالعاصفة فى زحمة القتال .

إنه يقدم ولا يحجم . يضرب ما وسع كفه أن تحمل سيفه ، وما دار ذلك السيف فى يمينه . . . كلا ، ليست هذه اليد الهزيلة هى التى تضرب ، ولا هذا البدن المجهود هو الذى يحمل ، ولا هذه الساق الخمشة هى التى تثب ؛ إنما قلبه القوى بيقينه ، الركين بإيمانه . . .

وكان الميدان كالأتون . وكان العرق كالسيل ، فأحس شفته تلتهب ، وحلقه يجف ، فلو كانت الدماء تروى ، أو قطرات العرق المنثال تخفف بعض صداه ! . .

لكن امرأة من فرقة الروايا التى تصحب الجيش تقدمت إليه تسقيه من لبن .

فما إن حسا حسوة ، حتى انبعث يكبر وقد تألقت عيناه بالرضا والفرح والحنين :

« الله أكبر ! . . » .

وعجبت المرأة ، غير أنه كان من عجبها فى عالم آخر بعيد ، لا يحده زمان ولا مكان . . .

« الله أكبر ! . . صدق الصادق .

اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه ! » .

فلقد شعر الرجل بقرب ساعته ، وسفرته الأخيرة من هذه الدنيا إلى حبيبه الرسول فى جوار الله . . .

طفر هذا الشعور إلى جنانه وهو يستعيد فى ذهنه إعادة لرسول الله أنبأته عن آخر زاده فى الحياة . .

ورد الإناء المرأة ، ولعق شفتيه ، وهو يتمتم فى شغف :

« هذا آخر زادى ! ... » .

ثم انطلق ، مشوقا إلى المصرع — إلى لحظة اللقاء التى بعدت عليه إذ طال عمره ، وهتف فيمن حوله :

« أيها الناس ... هل من رائح إلى الله تحت العوالى ؟ ... » .

ومضى على رأس عصابة تبعوه ممن يستعذبون الموت فلا يشق عليهم أن يهجروه الحياة . وكلما هجم وأصاب ، كان صوته الرافع يرن فى الأسماع كصليل سلاحه :

« الجنة تحت الأسنة ! . . . » .

* * *

وكانت نهايته كطرفة هدب .

حمل وأثخن وقتل ، ثم حمل وأثخن وقتل ، سريعا سريعا كأنما كان يمضى على إعصار . وكان محمد دائما أمامه . وكانت الجنة تخايل عينيه . هو فى الحق قد ترك سيفه يجول ، أما وعيه فكان سابحا على غمامة من شوقه ، بيضاء رقيقة ، شفافة كروحه ، نقية كقلبه ، تعلو به فى فضاء فسيح فوق الدنى والزمان والأحياء ...

واستقبله حين هذه النشوة الروحية عبدان الدنيا ، مالا إلى جانبيه ليتقيا حملته ، ثم عاجله منهما ابن جون بطعنة ، وثنى أبو العادية ، ليشرك رفيقه فى نصيبه من النار ! ...

وسقط عمار ، ومحمد أمامه ، والجنة تخايل عينيه ، وعلى شفتيه النديتين بتلك الحسوة بسمة وهمسات :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! ...

اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه . . . »

* * *

وأطرق الإمام . . .

الحزن الذى هز قلبه لمقتل صاحبه كان أبلغ من الألم ، وأقوى من الدمع ... صلابة السيف فى عينيه بدت فى ملامحه . ظلال المساء التى أخذت تطوف بالمكان أطلت من بين جفنيه . .

ومشى على مهل . الآن قد خرج عمرو بن العاص كالعاصفة فرقا على مصير ولديه . الآن يتقدم ابن خالد بن الوليد بلواء معاوية الأعظم وبنفسه اعتداد كأنما يحلم بيوم من أيام أبيـه . نشطت الشام كلها نشطة واحدة . خيلها ورجلها . والرماح والسهام . حتى الحجارة كانت بعض السلاح . . .

لـكنه لم يأبه إلا لفرقة منها ثبتت أمام هجمات رجاله كالأطواد . لا تهتز . لا تضطرب يمنة أو يسرة . كأنها غرست أقدامها فى الرمال . . .

تلك غسان .

وعندئذ قر عزمه .

« إن هؤلاء القوم لن يزولوا عن موقفهم دون طعن دراك يخرج منه النسيم ، وضرب يفلق الهام ، ويطيح العظام ! . . .

ثم نادى فى أصحابه :

« . . أين أهل الصبر وطلاب الخير ؟ . . »

ودعا ابنه محمدا :

« امش نحو هذه الراية مشيا رويدا ، على هينتك . . . حتى إذا أشرعت فى صدورهم الرماح فأمسك يدك حتى يأتيك أمرى ورأيى . » .

وجهز فرقة للأشتر .

وهتف بعد هذا فى رجاله :

« أيها الناس . . من يشر نفسه لله يربح ! . . هذا يوم له ما بعده . . » .

حتى إذا اجتمع له منهم قرابة عشرة آلاف ، تعصب بعمامة رسول الله السوداء ، تيمنا وبركة ، ووقف يتهيأ لساعة الفصل . .

كان محمد حينذاك يسير كما أمره ، رويدا رويدا ، خطوة خطوة ، كأنما على شوك ، قد أشرعت فرقته فى أكفها الرماح ، واتجهت بها صوب غسان . ليست هذه بهجمة يتقدم فيها الاندفاع . لا مخاطرة ولا سرعة . بل هى حركة وئيدة ، تمضى بحساب ، وعلى حذر ، ولا يرام من ورائها الاقتحام . إنما كانت فى تدبير الإمام سورا من الأسنة المشرعات يبنيه ولده ورجاله أمام غسان ،

فيحملها على الثبات والدفاع ، ويشغلها بنفسها وما هي فيه عن الاشتراك في الهجوم الذي أخذت تشنه قوات الشام . .

هذه التؤدة التي التزمها محمد في تقدمه ، قد مكنت قواته الضاغطة من بلوغ هدفها وهي آمنة شر الدفعة . يقظة لكل حركة قد تأتيها من هناك وتقوم بها بعض الكتائب الأموية التي تعمل دون هدف مقرر ، ووفاقا لوحي الموقف ، ومد القتال أو جزره في الميدان . بل لعل غسان قد رأت في ذلك التقدم الوئيد من جانب محمد ورجاله أحبولة نصبوها لها لتندفع نحوهم مهاجمة حين يستخفها بطء حركتهم ، فتدع بهذا ثباتها الذي أعيي الكتائب الملوية ، وتزايل موقعها الحصين الذي وقفت بها من قبل كالصخرة العاتية في وجه أي هجمة أريد بها إخراجها منه .

ثبتت إذن غسان تتربص وهي مطمئنة . ومضت تنضح عن نفسها بالسهام . وثبت محمد على الخطة التي رسمها أبوه ، يتقدم في تثاقل ، ويمشي على هينة ، ولا تغريه أية فرصة سانحة بالتحول من البطء إلى الاندفاع . فما يحق له أن يقحم أو يهجم إلا حين يأمر الإمام . . .

ثم أتاهم أمره :

« شدوا ! . . » .

فشد على عدوهم شدة رجل واحد .

وحمل هو . . . وحمل الأشتر . وحمل بقية القواد في نفس اللحظة . . ثارت الآن أبالسة الحرب في كافة أرجاء الميدان ، والرماح حينذاك مشرعات في صدور غسان ، تشلها عن الحركة ، وتقف سياجا داميا لا يدع لها إلا الدفع عن نفسها وهي حبيسة في ذلك النطاق المشدود ، إن كان يسمها الدفاع . . .

٩

لا حرارة النهار ، ولا ظلام الأمسية الأغبر عند مسقط الغسق ، ولا أكداس القتلى من الجانبين على أرض الوقعة كانت تمنع المتحاربين عن الحركة أو تعوقهم عن موالاة الاندفاع فى القتال ... مضت المعركة والشمس — ذلك اليوم اللافح من يوليه — ثم شيعتها إلى المغرب . ومشت والغسق الباهت . وحلكة الليل حق ألمت بنصفه . وحين حسب بعض الناس أن الفريقين متحاجزان — على مألوف ما جرت به العادة إذ ذاك فى الحروب — كان الصراع قد بلغ ذروته ، والحمية قد أذهلت القوم من قادة وجند ، ونشوة الدم أنستهم الحدود الزمنية ...

وكانت الرايات لا تزال تختلط ، والفرق تلتصق وتتداخل ، والقوات المادية تضرب ، أحيانا كثيرة ، وهى لا تـكاد تأمن أن تصيب أصحابها الضربات . . . ومع ذلك فقد أخذت خطوط المصير المنتظر تبدو للبداثه الماحة خيوطا رقيقة ، رفيعة كنسائج العنـكبوت .

هزيمة الأمس التى ردت جناح الـكوفة يسرع إلى السلامة ذابت الآن فى هجمة اليوم ، خيانة ابن المعمر التى أفسحت لمعاوية فى البقاء بعد تهاوى صفوف معقله قضت عليها الخطة الجديدة . حراب محمد بن على مضت تحطم جدار غسان كالمعاول .. فى كل قلب فى رجال الإمام عزمة ماردة ، وفى كل خط من خطوط معاوية تـكسر ...

وأسرع العاهل الأموى يحث أولياءه :

« هذا يوم تمحيص ! . . إن القوم قد أسرع فيهم كما أسرع فيـكم . اصبروا يومكم هذا وخلاكم ذم ! . . » .

وفى الحق لم يتهاون رجاله لحظة واحدة عن الصـبر والصدق فى القتال . أمامه كان سور يقوم دونه من علك والأشعريين الذين فرض لهم الفرائض ومنائح العطايا والهبات الجزيلة . وعلى خيله مضى عمرو بن العاص يشد من عزمه دفاعه عن ابنيه وبلوائه الأعظم انطلق عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، لايفى عمرو يثير فيه الحمية ويشعل دماء :

« أقحم يا بن سيف الله فإنه الظفر ! . » .

لكن الأشتر كان لهم بالمرصاد . ولم يقف ليدفع ، بل قاتل شاقا طريقه إلى أمام . منذ أمره الإمام بالشد أقدم ، وراح يقدم ، لا تعترض سبيله مقاومة إلا حطمها ، ولا تقوم لمن يخالسونه الهجوم أو الدفاع قائمة ، ومن ورائه أصحابه الذين بهرهم بلاؤه يهتفون له :

« يوم من أيامك الأول ! . » .

وكان الإمام حينذاك فى القلب . . . هو فى الواقع لم يكن بقلب جيشه بقدر ما كان يغوص فى قلب الأعداء ! . . بعصابته السـوداء كالليل كان يندفع فى أعدائه اندفاعة السهم عن قوسه . وبسيفه كان يشق عليهم صفوفهم فتتناثر منايام إلى جانبيه كالرشاش ! . . ولم يكن له إذ ذاك من هتاف إلا اسم الله ، يهلل به ، ويكبر كلما شطر سيفه ، أو قد ، أو قط من هذه الرقاب والهام والأجسام التى دفعها قضاؤها المتعجل أمام يده الحمراء ! . .

كم أشفق صحبه وهو يخلفهم ويمضى عنهم إلى هذه الصفوف المعادية فلا يلبث أن يختفى منها وراء أستار وأستار ! . . إنه ليغيب حتى كأنه قد أصيب . ويطول عليهم غيابه بحساب الوقت وحساب الوهم حتى كأنه لن يرجع . ويأكل الجزع عليه من قلوبهم ما يكاد يهمدها فتسكف عن الخفوق والوجيب ... فإذا بلغ منهم اليأس مبلغه ، رأوا تلك الصفوف تنفرج ثانية عنه ، بطوعها ورغمها ، وهو آمن صحيح جميع إلا لطائخا من دماء ندية تقطر من ثوبه ، وقطرات من العرق تنحدر من جبينه على خديه ! ...

ويقبل وسيفه منحن فى يمينه من عنف ضرباته ، فيقيم حده على ركبته ، وهو يهتف بصوت خفيض :

« معذرة إلى الله ! . » .

ويعلم رجاله أنه أسيف ، فقد عاقته انحناءة السيف عن موالاة الضرب والبلاء فى الله حق البلاء !. ولكنه لا يكاد يملأ عيونهم من محياه حتى يشهر سيفه . ويعود فيخوض ، ويغوص فى أحشاء جيش الشام . . .

كان حركة دائمة ، خلال تلك الساعات ، تتأرجح من وراء الإمام ومن أمام لوراء . وكان مشغلة العيون والقلوب والآذان إذا هجم هلع العدو ، وإذا غاب جزع النصير . فما من رجل فى المعركة إلا قد غلبه منه الخوف على نفسه أو القلق عليه . حتى أولئك الصحاب الذين حرصوا على البقاء بقربة منه ، يقيمون سياجا من أبدانهم حواليه ، كانت عيونهم تدور لكى تسير فى فلك هجماته ، وقلوبهم تئن كلما غاص وغاب ، وآذانهم تمتد لتلقف على الهواء تكبيراته التى لا ينقطع جرسها المتواتر الرهيب ... كانت حركاته خطفات برق ، أو لمات مرآة تحت ذبذبة شعاع ! ... وكان غيابه موتا للقلب ، وشجا فى الحلق ، وظلمة فى العين ... وكان تكبيره بعد هذا كله أغنية ! — نشيداً حبيباً مرحاً تحن إليه أسماع أنصاره ، وترقص على ترجيعه قلوبهم رقصة العودة إلى الحياة ... إنه لنعمة أن يتردد صوته ، وإنها لمتعة ومسلاة أن يتابعوا بالإحصاء تكبيراته التى تصاحب ضرباته ، فتعلن لهم ، واحدة واحدة ، أعداد ضحاياه ! ...

* * *

وحين غام النهار وكسفه القتام ثم جنه الظلام ورقت النسمة وشف الليل ، كان قواد الإمام جميعاً لا يثنيهم شىء عن التقدم وإن نال منهم الجهد ، وأكلت الحرب من رجالهم ، ورويت ، واستقت الجراح !.. حتى الصلاة شغلهم عنها السباق للموت ! .. ومن ذكرها أداها إيماءة .. ولكنهم ظلوا الساعات الطويلة صدقا وصبرا ، قائمين على الأقدام ...

جاءه الأشعث بن قيس يلهث ليرفع إليه ما جرت به الأحداث :

« يا أمير المؤمنين ... خيل كخيل ، ورجال كرجال ، ولنا الفضل عليهم إلى ساعتنا هذه ... » .

ولم يستطع سعيد بن قيس أن يقبل ليبلغه ، فبعث إليه من يقول عنه :

« إنا مشتغلون بأمرنا مع القوم ، وفينا فضل . فإن أردت أن تمد أحدا أمددناه ... » .

كان اتصالهم به وثيقا إبان المعركة ، لاتنى رسلهم تأتيه ناقلة عنهم سير القتال ، ورسله تمضى إليهم مؤدية عنه أوامره . . .

لـكن هاشم بن عتبة لم يبعث له . انقضى زمن ولم تأته منه أنباء ... وحق الجانب الذى كان يعمل فيه من الميدان لاح كأنما خفت ضجيجه واحتواه الفتور ...

وأرسل الإمام إليه يأمره :

« قدم لواءك ! . . » .

فابتسم هاشم للرسول بسمة كابية ، خافتة الضوء زهقتها الظلال . ورمقه بعينه رمقة أسيانة شف عنها ندى دمعة حائرة ، وتحركت شفتاه تهمسان فى إعياء :

« انظر ! . . » .

ونظر الرجل إلى حيث أشار . . وشرق . وعض على شفته تحرجا ليكتم صيحة أوشكت أن تفيض من قلبه. ثم لوى جيده حزنا ورقة لينأى بعينيه عنه ...

فى هذه اللحظة ، كان هاشم بن عتبة يعصر الألم قلبه ، ويقطر الوجع من ملامح وجهه وعينه كقطر العرق والدموع ، وقد امتدت يداه تضغطان شـقا غائراً طويلا فى بطنه ، بينما أخذ دمه يسيل من بين أصابعه ، وأحشاؤه تندلق منها أطراف ! . .

وابتسم ثانية . ولمعت عينـــه كما تألق ذبالة السراج فى نفسها الأخير . ثم تهاوى على الأديم . .

رحل المرقال . . . سقط فى هدوء كانطلاقة من قليل فى جنبات ساحة القتال بهدوء وإلى جواره رقد سيفاه اللذان شرفا به ، وأبليا معه فى الله . . .

إنها لسويعات ـــ بضعة قليلة على هذه الأرض ، التى تناثرت عليها الجماجم ، ثم لحق بصاحبه عمار . . . فلعله دعاه ! . . . ولعـله هو الآخر لبى الدعوة ، وقد ضاقت بالفراق نفسه وشق عليها ذلك الوداع ! .

١٠

أخذ معاوية معرفة فرسه ، وناضل ما أمكنه بدنه الشحيم الثقيل حتى استطاع أن يرفع رجله ، ويضعها فى الركاب ...

هى قفزة إلى الظهر ، فاستواءة عليه ، فلـكزة بجانب الفرس ثم ينطلق . لا إلى حيث يشاء ، بل إلى حيث تمشى به قوائم الجواد . ولا إلى المعركة ، بل إلى الناحية الأخرى . . إلى أى مكان . بعيدا بعيدا عن هذه الساحة الدامية بصفين ، حقل الموت ! . .

كانت على ملامحه غبرة ، ليست بعض قتام هذا الغبار الثائر . وكانت بعينه غيمة ، ليست انعكاسة السواد الباهت الذى ما زال ينشره الليل ... الشحوب فى وجهه . والوجوم فى عينيه ... شفتاه اهتزتا ولا كلام . وحلقه اضطرب وما نطق ، ومن ثنايا صفوف المحاربين الذين بدوا فى ظلمة السحر كالأشباح ، كانت نظراته تتسلل ، هنا وهناك ، وفى كل منحى ووجهة ، زائغة ملهوفة تتلمس المهرب البعيد المنشود ، ثم ترتد إليه حسيرة لتذوب فى حيرته ! . .

ولم يكن حينذاك بالجبان . كلا . وما كان ... فى الصراع الذى اشتعل كل هذه الأيام ، نظم وأقدم وناضل . وطوال الأشهر التى مضت قبله دبر وأعد واحتال . وعلى مدى السنين التى اقتعد فيها أريكة الحـكم فى الشام رجا وتمنى وحلم . ثم هاهو الآن — هذه اللحظة بصفين ، ترده إلى الوعى يقظة عنيفة نسخت الحلم ، وأفسدت الاحتيال ، وقضت قضاءها المبرم فى نتيجة المعركة ...

أينما نظر شهد كارثة . بناؤه الضخم تهاوى وانهار . خطوطه تقطعت . صفوفه الممتدة غدت وصائل صغيرة تصل بين ثغرات ! . . حتى أولئك الذين قاموا دونه يدافعون عنه ، قد أعيام الصبر حتى لـكادوا أن يملوا القتال . لا رجاء له إذن فى نصر ، ولا فى مقاومة ، وهذه قوات على تسرع نحوه لتخرق عليه إهابه...

وتفرس بعين فى فرسه . ما من جدوى من البقاء بأرض الوقعة ... وحلق بأخرى فى رجاله الذين يتقصفون فى الهول الدائم كأنهم أعواد . ما من مصير لهم سوى الرقود على مواطئهم ، ضحايا وفرائس ، تطعم الأرض وتسق التراب !...

فكأنما قابل بين مصيرهم ومصيره . مثاويهم ومنجاه . موتهم حيث هم ، وفراره حيث الحياة ... وكأنما أثقلت هذه المقابلة قلبه ، وأوقرت ضميره ، فإذا هو يزم بالعزم شفتيه ، ويخلع رجله من الركاب ، ويتمتم لنفسه وهو خزيان :

« مكانك تحمدى أو تستريحى ! . . » .

وثبت حيث كان .

* * *

لكنه كان ثبات سويعات .

فنى الجانب الآخر كان على يصور لأصحابه حالة الحرب والمحاربين ، فيقول :

« ... قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ! . . » .

بل آخر خدعة ! . .

كأنفاس الليل التى أخذ يلفظها السحر ، كان جند الشام يلفظون عزائمهم لا قدرة . لا طاقة لهم باحتمال . القبة الكبيرة البيضاء أصبحت على قيد رمية . حرمها الآن مباح معاوية طلل عاهل ! . .

فلولا أن أضواء الفجر كانت شهباء ، لوسع الأعين فى جيش على أن ترى معالم المحيا الحائر الكئيب الذى يتخايل حيالها هناك . ولولا بعض قعقعة السلاح ، وهرج الأقدام ، ووقع الحوافر لسمعت الآذان اضطراب أنفاسه ...

ومرة أخرى راودته فكرة قديمة : أما من رجل من أهله ، أما من صاحب له ، أما من فارس من الشام ينهد لغريمه ، هذه اللحظة ، فيرديه غيلة ، أو يلقاه فى مبارزة لعلها تقلب الميزان ؟ . .

كان هذا أمله الباقى فى الوقعة ولا أمل سواه . ولكنه رجاء بعيد كالنجم ، موهوم كالسراب . فلم يقم للإمام واحد من جيش الشام وإن علموا جميعا أن ملاقاته وحده كملاقاته فى جمعه كلاهما خاتمته حمام ! .

حتى ابن العاص لم يكن أرفق به ... لم ينس فى هذه المحنة نفس عبثه القديم بصاحبه ، ونفس سخريته منه ، بل أعادها على سمعه ثانية : « ابرز له ! » فوثبت

الفكرة من جديد ... وعندما شاءت الأقدار من بعد أن يثمر الأمل في الملك ، وتقبل الدنيا على معاوية ، ذكر ذلك الموقف وهو على عرشه ، وراح يبكت به ابن العاص ...

قال له ، بعد سنين :

« يا عمرو .. هل غششتني منذ نصحتني ؟ .. » .

فأسرع يدفع عن نفسه :

« لا والله ! .. » .

« بلى والله ! .. يوم أشرت علي بمبارزة علي وأنت تعلم ماهو ... » .

وعندئذ لم يعدم ابن النابغة ردا أسعفته به بديهته التي تحسن الانسياب من كل ضائقة ، وبادر يجيب :

«دعاك إلى المبارزة فكنت من مبارزته على إحدى الحسنيين : إما أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزادد شرفا إلى شرفك . وإما أن يقتلك فتكون قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ! .. » .

فضحك معاوية وقال :

« الثانية شر من الأولى ! .. » .

وضحك أيضا ، ذلك الفجر بصفين ، وهو يرى كيف لعبت به الحيرة حتى جعلته هدفا لعبث ابن العاص . لكنها ضحكة جوفاء وقعها القلق على أوتار أعصابه ، لا تنطق بفرحة ، ولا تنبئ عن هم ...

وأغضى مليا ..

وحين رفع ثانية وجهه ، كان الشحوب يقطر من ملامحه ، والسهوم ينام في عينيه ، وعلى شفتيه المرتخيتين ترتجف همساته اليائسة :

« يا عمرو ... اليوم صبر ، وغدا خمر ... » .

فلم يزد صاحبه على أن قال له :

« إنا وما نحن فيه كقول القائل : الموت حق ، والحياة باطل ! .. » .

صدقه ابن النابغة . لم يغشه هذه المرة ولم يخف عنه وما كان ثمة سبيل لإخفاء وقد بات جليا لعينيه أن الحياة أصبحت من ضروب المحال ، وأن الموت الآن هو المصير اللازم ... فهذه جيوش العراق تسرع فى جيشه ، وتهمد كل ما يقوم لها منه ... هاهو على حياله ، ينطلق إليه ولا تفصله إلا شقة تقاس بالميل وبالأذرع ، وتكل القوائم طيها للأقدام ! . . ها هو الأشتر قد حمى فنزل عن فرسه ، وراح يسعى بقدميه كأنما يبتغى من الله المثوبة بسعيه ! .

لا قتال الآن يشبه ما سلف من قتال وما تواضع الناس على تسميته بهذا الاسم . لا أزيز لسهم . لا انطلاقة لرمح . المسافات بين الجيش ضاقت فلا حاجة الآن لرمية بنبل أو حربة . الجنود من الطائفتين تتجالد بالسيف ، وتعتنق فتتدافع بالكف وبالظفر وبالناب ... وفى أثناء هذا الصراع اليدوى الوحشى كانت تنطلق من هنا ومن هناك من بقايا صفوف الشام أصوات تهتف ضارعة :

« الله الله فى الحرمات ! ... الله الله فى النساء والبنات ! . . » .

وجزع معاوية ... إنه ليعلم أن ثمة أملا له ، بين الصفوف العلوية ، فى الأشعث ابن قيس حسبما جاءته الأخبار . ولكن بزوغه أبطأ عليه :

« يا عمرو ! . . إنما هى الليلة حتى يغدو على علينا بالفيصل .. فما ترى؟..» .

قال صاحبه إذ ذاك بهدوء ثقيل مريب :

« إن رجالك لا يقومون لرجاله ، ولست مثله ... أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء . وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لا يخافون عليا إن ظفر بهم ... » .

فلم يعقب الماهل المهموم . كتم بقلبه غمزة خدينه ... ووقف وهو حائر ينتظر قدره المقدور ، تلك الساعة ، والأشتر يسرع ، وعلى يمده من لدنه بالرجال وقد لاح الظفر كبشائر الفجر الجديد . .

وراح الأشتر ينطلق قدما ، ويدنو ، والموت يدنو معه ، إلى القبة الكبيرة البيضاء ... وسرى الهرج فى أهل الشام ... وتواترت صيحاتهم الضارعة تشق الفضاء وهم يعاينون صواعق الهلاك تنقض عليهم من كل ناحية فتسحقهم وتحيل

عظامهم إلى ذرات غبار . . واستبد بأميرهم فزعه ، فجذب مشيره يضرع إليه

« قد هلكنا ! . » .

فأغفى يفكر . . .

« نعلم مخبآتك يا ابن العاص ! . . » .

فكان سكون . . .

« تذكر مصر ! . . » .

عندئذ فرغ ابن النابغة من مشاورة شيطان خبثه ، والتفت باسما إلى صاحبه ، يقول له :

« ألق إليهم أمرا ، إن قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه اختلفوا ! . . » .

فالتمعت عينا الماهل رجاء ، وأرهفت أذناه . . . ومضى رفيقه يبين له :

« ادعهم إلى كتاب الله ! . . » .

ثم نادى فى الناس :

« يا أهل الشام . . . من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه ! . . » .

وكان هذا مولد خدعة جديدة ! . .

وكان فجر الجمعة الثانية من صفر يكاد يسفر عن محيا الصباح ! . .

١

الفجر ولى ، والبكور أقبل . السواد ذاب فى كأس النور . السماء ! كتست فى المشرق وشاحا من الزرقة ، أشهب كالبحر الكدر ، أغبر بلون الرماد . .

ضياء كظل ، وظل كضياء . . . غبشة الصبح تلف كل ما تلقف الأعين . على الأرض منها ضبابة ، على الأفق غيمة . الشمس أيضا توارت وراء سحب مضطربة من رهج الوقعة . والمكان ، بين سمائه وأرضه ، كان لوحة مهزوزة ، اختلطت فيها الألوان والمعالم ، وتداخلت الأضواء بالظلال ، ولولا الصليل والصهيل والصيحات لكان أدنى الى صورة بالية خرساء ! . .

حتى الأصوات كانت كأصداء . خفت الجرس . خف الوقع . ثلمت الحدة ، وباتت جميعها كالترجيع الأجوف ! . . وعلى مدى الساحة الفسيحة المنبسطة ، كانت الصيحة أنة ، والحركة إعياء . . .

الظافر والمهزوم كلاهما في وهن ، قد زلزلهما التعب ، وبدت جهدهما مشقة القتال . . . رجال على ترميم على عدوهم قوة دافعة — هي بقية تقدمهم — لا تكاد تمدها الإرادة بشيء ، وإنما تجرفهم أمامها اندفاعة الليل جرف التيار . وجند معاوية تمسك عليهم كفاحهم الباقي غيبوبة نفسية ، هي الحمية ، التي ما زالت تتحدر في عروقهم من الأجيال . ومن بين أولئك وهؤلاء تنبعث للحركة علائم من الصياح والهرج والأصوات ، عن غير وعي ، وبلا تدبير ، كانبعاث الضجيج من دولاب دائر دفعه المرء ثم تركه يسير ! . .

كانت الحركة التي تحن للوقفة ! . .

وكان الدولاب يتمايل ، من وهن ، إلى هنا وإلى هناك ، حتى يتهاوى أو يصدمه ما عسى قد يكفه عن انطلاقه ! . .

والنهار ، حين أصبح ، أتى القوم جميعا بتلك الصدمة الملجمة وبما أشبع الحنين ! . .

* * *

في اختلاطة النور ساعة المشرق ، بغبشة البكرة ، ورماد الغبار ، تخايلت لأعين المندفعين قدما صوب معسكر معاوية بضع مئين من الأعلام . . .

ولم تكن خفاقة يلعب بها نسيم الصباح . . . لم تكن — فيما بدا للرجال على — من ديباج ، ولا على شاكلة ما يعرفون من ألوية ترفعها السواعد أمام الصدور وفوق الأعناق . بل قد شدت إلى رءوس الرماح والحراب ، ورفعت على ظهور الجياد . . .

وعجبوا مليا . وتفرسوا . ورنوا . إنها تمتد حيال معسكر الشام كأنها أعواد سياج . متقاربة ، متدانية ، ومن ورائها احتمى الجنود . . .

لا حركة بين الأعداء . لا رنة سلاح . لا وقع قدم . كلهم وقوف ، بلا حراك كأنهم صفوف من الأعواد تؤلف بقية السياج . والسيوف في أكفهم مدلاة ، والقسي مرتخية الأوتار . . .

وعندما أعي رجال الإمام أن يتبينوا — من بين غيمة النقع — معالم تلك الرايات ، انطلق صــوت رافع مجلجل من فوق معسكر معاوية ، يصيح فى ضراعة وابتهال ! . . » .

« يا أهل العراق ... كتاب الله بيننا وبينـكم ! . . » .

فبهت المندفعون . . .

على الفور امتدت إلى الصائح الآذان ، وتطلعت الأعين ، وتعلقت منه بسن رعه التى رفع عليها مصحف دمشق الأعظم ، ووقف به فى شقة الأرض بين الجيشين التى كانت أرجل المشاة ، وقوائم الخيل فى الـكتائب المنطلقة قدماً تطويها خطوة بقدم وعدوة بذراع . .

كان النداء مفاجأة بدرت تـكلم القوات المنتصرة فوقفت بها ، أو كادت ، حيث انطبعت الأقدام ... فثمة حيالها دعوة إلى الله ، وجند عزل ، سيوفهم مدلاة ، وقسيهم مرخية الأوتار ! . . .

ورنت الصيحة المجلجلة :

« كتاب الله بيننا وبينـكم ! . . » .

واهتز مصحف دمشق الأعظم ، كأنه يردد النداء ، ومن ورائه اهتزت مثين مثله من الأعلام ! . .

ثم ارتفعت فى أعقاب هذا أصوات تضرع :

« يا معشر العرب ، الله الله فى نسائـكم وبناتـكم ! . . » .

« الله الله فى دينـكم ! . . »

« من لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ . ومن لثغور العراق بعد أهل العراق؟» .

« من لجهاد الروم ؟ . . من للترك ؟ . . من للـكفار ؟ . . » .

فى كل نبرة من هذه الألفاظ توسل ، وفى كل حرف من حروفها حزن ، خفى خجول ، يتسلل إلى الهواء على استحياء . وإلى العقول التى عاينت المحنة . وإلى القلوب التى خالطها التقى فسالت رقة ومرحمة — لـكأن الصدى الذى خلفته هو هذه اللمعة الحيرانة فى العيون الشاخصة إذ تتألق بندى الدموع ! . .

وتواترت الصيحات . وترددت مراراً ، مرارا راجفة عالية ، ضارعة مبتهلة تكشف الخشية من الفناء ، وترسم الخوف من غد قريب مجهول تصبح الأمة فيه — لو مضت المحنة إلى غايتها — طعمة لكل موتور ، وتفصح عن الأمل في بقيا حبيبة . . .

« هذا كتاب الله بيننا وبينكم ! . . »

وغرق رجال علي في طوفان ! .

من كل ناحية ترددت الهمسات . من كل فرقة وكتيبة ، من كل زمرة وجمع . حتى الذين زهدت شفاههم في ترديد الهمس وجمدت عيونهم عن التألق بنداها ، كان للضراعة في قلوبهم أصداء . . .

وسخط الأشتر . وحمى أنفه لبادرات الضعف التي على ملامح القوم منه رقة وفي أكفهم فتور يكاد يثقلها بما حملته من سلاح ، وفي أقدامهم بطء وهينة ... أهو التعب أم التخاذل ؟ ... أعن إجهاد أم الدعوة الضارعة لقيت منهم الملبي السميع ؟ . . .

وعلا صوته يشغلهم عن خواطر الأذهان المثبطة ، وينتقل بهم إلى الحياة في حرارة الكفاح !

« اصبروا ! ! ! اصبروا يا معشر المؤمنين . . . »

كان هذا دائما نداءه ، في كل ساعات الحرب ، وفي كل مرحلة منها قطعها بجنده من الشقة التي كانت تفصل بينه وبين معسكر معاوية ... الإقدام دعاؤه ، والصبر نجواه . كان مشعلة لرجاله بحماسته المشبوبة ، ومذهلة لهم باقتحامه الخطر غير هياب حتى ليستهويهم اتباعه فتندفع جموعهم وراءه مسحورة ، بغير تحرز ولا مبالاة . . . يقول واحد من الذين سمعوه وشهدوه وأعجبهم حينذاك سيره :

« أي رجل هذا — لو كانت له نية ! . . » .

فإذا آخر ينبري بالجواب :

« وأي نية أعظم من هذه ، ثكلتك أمك ! . . إن رجلا فيما ترى قد سبح في الدماء ، وما أضجرته الحرب ، وقد غلت هام الكماة من الحر ، وبلغت القلوب الحناجر وهو كما تراه جذعا يقول هذه المقالة ! . »

ويتبعه الرجال ، مسحورين ، بالقلوب والعيون والأوصال ، وهو منطلق في غمار الحومة الدامية

وفي الحق لم يكن الأشتر بالمتهم في صبره على القتال ولا في وفائه للإمام ونيته المعقودة على بلوغ أوج غايته فكذلك كان . وعلى هذا دأب حتى انتهت به حياته فجأة ، ذات يوم بالصحراء الشرقية ، على حافة حدود النيل . ولم يجر على الصدق من قال فيه من بعد :

« . . . وما أقول في رجل هزمت حياته أهل الشام ، وهزم موته أهل العراق ؟ . . » .

لكنه — على غير ما اشتهى — لون المشهد الأخير من وقعة صفين بلون باهت خايل الأنظار وداخل العقول حتى اقترن خيالها بما يشبه الهزيمة إن لم يكن هو الهزيمة النكراء . ولم يسعفه صبره إذ ذاك ووقفت نيته مشلولة والسويعة الباقية من عمر الحرب ، وقد قررت لنا دوره قبلها ، ستوجه سيره بعدها فاذا هو يجرى في خط بعيد البعد كله عن طريق النصر . . .

ومع هذا فلم يكن سيره ذاك عن خيانة ، ولا عن فتور بعزمه الذى كان يتحرق على موالاة الكفاح إلى الفوز أو إلى الموت . ولا إيمانا منه بصدق الدعوة الخاتلة التى دعا بها عسكر معاوية حين رفعوا القرآن . . . فالضراعة المرتجفة لم تمس قلبه . وصيحاتهم الملهوفة مرت دبر أذنيه وهو يندفع قدما صوب القبة البيضاء . . .

وتلفت العاهل المفجوع في حيلته ، والأشتر يقدم عليه غير ملق بالا الضراعات والمصاحف كأنه فقد الأذن والعين ، أو تلبس من اندفاعه بوقر وغشاوة . . . إنه لا يزال ينطلق . قدما ينطلق . بغير تريث . بغير تردد . بغير سمة من سمات العطف والرحمة التى ارتسمت الآن على وجوه بقية رجال الإمام . وها هو الموت يدنو معه . وها هى المسافة تذوب ! .

غير أن ريحا من الطمأنينة كانت تهب على معاوية ، بمأزقه هذا ، بيومه هذا ، فتبرد هونا من اضطرابه ، حلقه يندى من بعد جفاف ، فؤاده يقر بعض القرار . عيناه اللتان غشاهما الجزع بدأت الغشاوة تنجاب عنهما ، رويدا ،

وهما تسبحان به على لجة خياله عبر الصفوف التى ملكتها الرحمة ... ثمة بارقة أمل . فرجة لهمه . ثغرة بتلك الصفوف المخدوعة لن يلبث حتى يقتحمها خداعه فينفذ من خلالها إلى ما يريد ... ولم تكن هى العاطفة الإنسانية التى ترق لضارع ملهوف ، ولا نجدة الفروسية التى تعف عن مقاتلة أعزل . وليست أيضا العاطفة الدينية التى تفيض بقلوب التقاة الورعين فتسيل خشية وتلبية لهذه المصاحف التى احتوت كلام الله . كلا ، لا هذه ولا هاتيك . بل الدسيسة التى تسربلت بالظلمة ، ثم تسللت تسلل الأفاعى السامة فى أثناء الرمل ...

٢

الصيحات التى رددها الصبح من ناحية الأمويين لم تكن أولى الضراعات المرتجفة . سبقتها فى الليل أخوات كانت الفاتحة ! ... طليعة الحلة الخاتلة ! . . باكورة الثمار الخبيثة التى أطلعتها شجرة التآمر الملعونة ! . .

لكنها مضت فرادى حينذاك ، من هنا مرة ، ومن هناك مرة . تنطق بها أفواه بعض الناس من رجال الشام ، ولا تكاد تلتقطها إلا آذان بعض الناس من رجال العراق . غير أن أذنين اثنتين كانتا أحفل بها ، أحرص على الامتلاء منها حتى اضاقتا بغيرها من ضجيج الميدان وأخلاط أصواته . .

وأرهف الأشعث بن قيس سمعه ، الليلة الأخيرة فى حياة القتال ، ليلة الهرير وسكن يصيح :

« ياأهل العراق ! . . من لذرارينا إن قتلتمونا ؟ . . ومن لذراريكم إن قتلناكم ؟ . . الله الله فى البقية ، ياأهل العراق ؟ . .

أفهى العلامة التى تم عليها الاتفاق ؟ . . أم المصادفة وحدها قد دفعت أولئك القوم فى الجيش الآخر إلى هذا النداء الذى تردد مثله منذ قليل على شفتيه ، فيجدر إذن أن تكون الصدفة التى تزرى بكل اتفاق ؟ . . على أية حال كانت هذه الدعوات المنطلقة مع الليل صدى لما ردده الأشعث بن قيس ، فى نفس الليلة

قبل أن تذيع عندما وقف بين رجاله من كندة موقف الخطيب ، والرحى حينذاك تطحن ، ونار الحرب تأكل وتطلب المزيد ! . .

قام ، في تلك اللحظة الحامية ، بارد القلب هادئ الشاعر بين قومه ، يلجمهم ولا يدفعهم ، ويفل من عزمهم ولا يشحذه ، كأنما الخير قد غدا في التثبيط — والوغى تستعر — دون التحريض ! . .

قال ، والسامع يوشك أن يتوهم فيه بصره فيحسبه اكتسى الآن مسوح الحكمة والوعظ وخلع عن نفسه شكة القتال :

« يا معشر المسلمين . . .

قد رأيتم ما قد كان في يومكم هذا الماضي ، وما قد فني من العرب . فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قط . . . » .

وأصغت إليه كندة . . . بغير هذه الكلمات طالع الأشعث أمير المؤمنين منذ قليل . بالحمية ، والرغبة الطاغية في البذل ، وموالاة الحرب إلى غايتها حتى يفتح الله أو تكون الشهادة . . . فكيف تبدلت الحال ؟ . . ما الذي غيره ، وانتقل بنفسه هذه النقلة العجيبة من المغالاة في الهمة إلى المغالاة في التخاذل ، بين سويعة وسويعة ، ليلة الهرير ؟ . .

ومضى يقول ، وصوته يتشكل وفق منطقه ، إشفاقا ، أو رقة ، أو جزعا لعله يجاوز خشية الجزوع إلى أسف التائب ، وألم النادم على ما فات :

« . . . ألا فليبلغ الشاهد الغائب إنا إن تواقفنا غدا إنه لفناء العرب ، وضيعة الحرمات ؟ . . . أما والله ما أقول هذه المقالة جزعا من الحتف . ولكني رجل مسن ، أخاف على النساء والذرارى غدا إذا فنينا . . . » .

ويرفع وجهه الحزين للسماء :

« اللهم إنك لتعلم أني قد نظرت لقومي ، ولأهل ديني فلم آل . و ما توفيق إلا بالله . . . » .

* * *

لم توقع هذه الخطبة ، التي حببت القعود إبان النصر ، عوامل الوهن في قلوب كندة أصحاب الأشعث وحدهم ، بل تجاوزت نطاقها إلى غيرهم من الناس . لاحت بادىء الأمر رأيا خاصا بذله لطائفة خاصة هي قومه من اليمانية ، ثم لم يكد يسير فيها إلا أسطرا قليلة حتى أرادها عامة ، وجعل نشرها بين الكافة من جيش علي أمانة معلقة في أعناق أصحابه ، يؤدونها عنه ، شاهدا لغائب ، وسامعا مقيما لبعيد قد نأت به حركة القتال ... كانت بذرة جرثومة من جراثيم دائه رمى بها الجماعة السليمة ! . وقديما انطوت نفس الأشعث على دخل للإسلام حتى خلع نفسه وثاقه وارتد طائعا إلى الجهالة العمياء . وبالأمس القريب ، وحرب صفين في مدها وجزرها ، خايله عتبة بن سفيان ، بلسان أخيه معاوية ، وحرك فيه نزعات غروره واستعلائه . والليلة ، وجيش الإمام على حافة النصر ، والحق قد بلغ مقطعه ، يجنح المرتد المغرور إلى دعوة الوهن والتوهين وما تزال ضراعة أهل الشام سرا تسكنه الخواطر ، وغيبا تسره الظنون ! . .

فكيف تبدلت الحال ؟

ما الذي غير الأشعث ، وانتقل به هذه النقلة العجيبة من المغالاة في الحمية والهمة إلى المغالاة في التخاذل والتخذيل ؟ . . .

ليست الصدفة على أي وجه ، أو هي الصدفة التي تساوي التدبير المحكم ، وتمدل الاتفاق ! . .

وتنطلق العيون من هذا المعسكر إلى ذاك ، تبلغ معاوية الخطبة . فإذا هو يفيء إلى بعض طمأنينته . وإذا قلبه الذاهب يثوب . وإذا عيناه تسرحان مع خياله عبر الصفوف الماثلة ، الزاحفة إليه ، الداهمة كالقضاء . . . هذه إذن فرصته . الأمل المرقوب . الثغرة التي انشقت له في عدوه ينفذ منها إذا شاء لما شاء . . .

وعندئذ يحمد الرأي الذي دعا به شيخ كندة ، ويشيد به في حماسة واهتمام :

« أصاب ورب الكعبة ! . . »

ولم لا ؟ . لقد أصاب الوحدة العلوية في الصميم ! . .

ويمضي العاهل في ثنائه :

... لئن نحن التقينا غدا لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا ، ولتميلن فارس على نساء أهل العراق وذراريهم .. أصاب والله ! ... وإنما يبصر هـذا ذوو النهى والأحلام ... » .

ثم يذهب يستهدى رفيقه ابن العاص فينسج له ، ويحيك ، ويحيك الشراك التي نصبها عند اشراقة الصباح . . .

وفى الجانب الآخر يقع الاختلاف ... ما يكاد الأشعث يلقى بدعوته للموهة بالنصح ، المزيفة بالحكمة ، حتى تنتقل من أذن لشفة ومن شفة لأذن ، فتذيع بين القوات العلوية مقرونة باللفظ والمناقشة والجدال . لقيت هوى من لدن الأعضاء المفترة ، والأبدان المنهوكة ، وأوسعت لها فى دخيلتها مكانا نفوس قرحها الحزن ذوى قرابة ورحم حطمتهم الحرب القاسية هنا أو طحنتهم هناك ... الدولاب الدائر أخذ يترنح ويتمايل دون أن يبلغ غاية انطلاقه ! . .

وثار الجدل . مرارا كثيرة ، فى الليل والبكور ، توافق الصحاب يبحثون الأمر ، ويقلبون أوجهه . من عاد ليبلغ الإمام سير القتال . من نهد ليجد . من أفسحت لهم الحرب من لحظاتها ما يشغلونه بحديث ...

يقول عدى بن حاتم :

« يا أمير المؤمنين ... كل مقروح ، ولكنا أمثل بقية منهم . وقد جزعوا وليس بعد الجزع إلا ما تحب . فناجز القوم ! . . » .

ويقول عمرو بن الحمق :

« .. والله ما نصرناك عصبية على الباطل ، ولا طلبنا إلا الحق ، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوت إليه لكان فيه اللجاج ... يا أمير المؤمنين ، قد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا معك رأى ... » .

ويهتف الأشتر بعلى :

« ... اقرع الحديد بالحديد ، واستعن بالله ! . . » .

فى مستهل الجدال كان القوم أميل إلى المثابرة ، أحرص على موالاة النضال فى لحظاته الأخيرة حتى يثمر لهم نصرا قاطعا تتبعه وحدة وتقفوه سلم . لكن ...

الأشعث وحده هو الذى خالفها ، أو بدا حينذاك المستمسك بدعوة الموادعة التى أطلقها فى الليل . إنه لا يخضع للرأى الغالب . لا ينزل على حكم رفاقه . لا يزال يلحف ويلح حتى يبلغ به إلحافه وإلحاحه حد الغضب والثورة كأنما يريد أن يحملهم حملا على قبول دعوته :

« إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس . وليس آخر أمرنا كأوله . وما من القوم أحد أحنى منى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام منى ... فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق بهم منه . وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال ! ... »

ويهدىء على ثائرته

« هذا أمر ينظر فيه ... » .

لكن الرجل ، فيما بدا ، لا يرضى لرأيه أن يغفل ، أو يغلب ، أو يتناوله العقول بالتمحيص . فمضى ينشره ، ويروج له فى الصفوف ... لم يرض بالسكوت بل كان أعظم الناس قولا فى إطفاء الحرب والركون إلى الموادعة ، والرحى حينذاك تطحن ، ونار الوغى تأكل وتطلب المزيد ! ..

فى هذه اللحظة كان الأشتر يصيح برجاله ، صيحته التى تبعد عن أذهانهم خيالات التخاذل البادية فى ثياب عرائس السلام .

« اصبروا ! .. اصبرا يا معشر المؤمنين ! ... » .

إنه يمضى الحديث الذى زخرفه الأشعث لم يفل عزمه ، ولم يخفف ضرباته . الجدال الذى تركه وراءه بين رفاقه من قادة الرأى فى صفوف الإمام كان أدنى فى ظنه من محاورة قد تختلف فيه النظرات ثم لا توقع — آخر الأمر — الاختلاف . الحق بين والنصر بين ، وإن هى إلا خطوات إلى القبة الكبيرة البيضاء ويسقط آخر معقل للأعداء ، فيسكت المحاور وينفض السامر ! ..

ومضى قدما بلا تلكؤ بغير صدى يتردد فى خاطره لهذه الضراعات التى بحت بها أصوات جند الشام . بغير ظل للعطف أو الرثاء ترسمه على ملامح وجهه الصارم لهفة الغريم المغلوب . وها هو الموت يدنو معه ، وهاهى المسافة تذوب !..

ورجف معاوية .. ما لأمله لا يبزغ ؟ ما لفرسه لا يشمر ؟ .. ما لهذه الثغرة التي حسبها في الليل قد انفسحت له بين صفوف الإمام لينفذ منها الخداع والدسيسة قد بدت الآن تضيق وتضيق كلما تبلج النور ؟ . . .

ويجزع الرجل . ويجزع معه أصحابه الذين علقوا حياتهم بذلك الخيط من أمله ، فيصيحون صيحة :

« يا معاوية ! . . . ما ترى أهل العراق أجابوا إلى ما دعوناهم إليه فأعدها جذعة ! . » .

فيتفكر برهة ، وهل بقي له ولهم عزم ، أو فرصة للثبات على الأقدام !

وينفثون في روعه :

« . . إنك قد غمرت بدعائك القوم ، وأطمعتهم فيك ! . . »

لكنه لا يصغي . مرة أخرى يمد بصره على أجنحة خياله ما وراء تلك الصفوف المظفرة ، إلى وكر هناك تعيش فيه الدسيسة وتفرخ . مرارا أيضا يراود الأشعث بن قيس دعوة للوادعة ، وإطفاء الحرب ، والوهن والتوهين . والأشتر حينذاك ينطلق ، بغير أذن تسمع الضراعة ، وبغير عين ترى المصاحف المرفوعة حياله على الرماح كالأعلام ! . .

٣

ثار الإمام بالذين ما وتوا يلحون عليه في الاستجابة لضراعة أصحاب معاوية ، وتلبية دعوة الحكم بالقرآن :

« إنها كلمة حق يراد بها باطل ! . . » .

ولكنهم ظلوا يلحون . . .

الآن وجد توهين الأشعث بن قيس سبيله إلى النفوس ، في صورة حكمة ، وعطف الرحم ، وبقيا على الذراري والنساء ! . وأخذ ما كان يردده أهل الشام يتردد على ألسنة أهل العراق : « من الروم ! . من الترك ! من الكفار !. »

واستنامت الكثرة فى جيش على لمظهر الدعوة البراق دون الحذر من لبها الخبيث . فما يهمهم الغوص فى قلبها ، أو الكشف عن سرها المستور . إنما يجدى عليهم أن يقبلوها كما هى — وإن كانت طلاء وقشرة — ففى قبولها الحياة !

كالنعام أغمضوا عيونهم عن شراك الصياد ، وأخفوا رءوسهم فى الرمال ! . أولئك الذين نهضوا لله ، وهاجروا من ديارهم فى الله ، وحاربوا فقتلوا وقتلوا وهم على بينة وإيمان ، فترت الآن منهم العزائم ووهى الجلد والنصر أمامهم يعاينونه من قريب . . .

وهتف بهم يحذرهم :

« عباد الله ! . . إنى أحق من أجاب إلى كتاب الله . ولكن معاوية ، وعمرو بن العاص ، وابن أبى معيط ... ... ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إنى أعرف بهم منكم ! . . صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا ، فكانوا شر أطفال وشر رجال . إنها كلمة حق يراد بها باطل ! . . . »

ثم مد بصره إلى المصاحف المرفوعة كالأعلام :

« ... انهم والله ما رفعوها لأنهم يعرفونها ويعملون بها ، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة . . »

فما أجدى تحذيره . وبقوا يرنون إليه بعيون جوفاء . حتى إذا استيأس صرخ فيهم كأنما يستمين بقية من حميتهم القديمة ، وشرعة الجهاد والتضحية ، على نفوسهم التى قتلها خوف الموت ، وفتنها حب الحياة :

« عباد الله ! ... أعيرونى سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحق مقطعه ، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا ! ... » .

فقليل سمع ووعى ، وكثير عاند وكابر ...

تصايح فريق يلبيه :

« نقاتل ! . . »

« نقاتل القوم على ما قاتلناهم عليه أمس ! . . »

فإذا أصواتهم تضيع فى هدير معارضيه :

« أكلتنا الحرب ! . »

« قتلت الرجال ! . . »

« أجب القوم إلى ما دعوك إليه فإنا قد فنينا ! . . »

وماج الناس . وتواترت حشودهم عليه من أرجاء الميدان ، على أجسامهم الزرد ، وعلى وجوههم أقنعة الحديد ، وفي أيديهم السلاح ... جموعا وفرادى جاءوه . فرقا وكتائب من هنا ومن هناك . مختلفين الفراغ في الساحة . لغير تلبيته كان هذا الإقبال ! . لغير التبصر بما أشار ! . لغير نصرته كل هذه العدد والأعداد من الدروع والنصال ، ومن المغاوير والأبطال ! . . وقعت الفتنة واضطرب الميزان ...

وضاع صوت الإمام . أغرقه المرج والجدل والضجيج . فما بقي ثمة من هذه الجموع الحاشدة سوى عيون جوفاء ، وقلوب مغلقة ، لا تراه الآن إلا داعية حرب هم الذين كانوا يتبعونه ، منذ ساعات ، خفافا سراعا إلى مفاوز الموت ، في سبيل الحياة ! . . فما أعجب القلب من قلب ! . . وما أقوى الوهن وأعتى سلطانه حين ينطلق من عقاله فتسري إلى النفوس عدواه !

من فحمة الليل إلى تألق النهار تبدل الأمر حالا بحال . سرعان ما تغير . انقلب ... القلة المخدوعة ربت ، ونمت ، وأثمرت فأصبحت كثرة . والكثرة الواعية التي كانت ترى الاستمرار في القتال إلى النصر ، عزت الآن عليها الأعمار وهانت القيم الرفيعة ، فأخذت تتسرب ، رويداً رويداً في أغوار تخاذلها ، تسرب الوابل المطال في الرمل إلا بقية — كقطر الندى — على سفوح كثبانه ! . .

الآن قد استعصى الداء . كل ماحاول الإمام أن يعمل به رجاله على الاستمساك بالصبر ، والتذرع بصدق البلاء ساعة — ساعة واحدة تأتيهم بعدها العزة ، ووحدة الأمة ، والسلم الدائم ، لم يجد صدى في قلوبهم التي استعبدتها خدعة معاوية . لكنهم في الحق لم يكونوا جميعهم مخدوعين . فطائفة أضلها تقاها حين حسبت أن في إبائها الاحتكام إلى كتاب الله خروجا على شرعة الدين . وطائفة

أنهكتها الوغى ، وأكلت من عشائرها الموزعة بين جيش العراق وجيش الشام فآثرت تمجيل السلامة وطائفة ثالثة خاضت الحرب عن حمية لا عن إيمان فاكتفت بتلك الضروب البسالة التي أبدتها خلال ماسلف من أيام القتال ، ففيها غناء حين تمشي بسيرتها الأحاديث . وبين أولئك وهؤلاء فريق غيرهم خايلته دنيا ابن أبي سفيان ، إن بالملق أو بالمغنم من ثراء وجاه ، في وقت أيقنت فيه أن عليا صاحب آخرة ليست تطلب عنده أطايب الحياة ...

هذه الصفوف من « الأحزاب » لم تكن كلها في جيش الإمام يوم خرج مخرجه من ذي قار . ولقد رأيناه حينذاك حريصا الحرص كله على أن يوفر لقواته المواءمة والانسجام بين عناصرها ، فلم يستلحق أحدا كره النهوض معه ، كما أبى الإباء كله أن يضم إليه كل امرئ قالت الشبهات إنه شرك في دم عثمان ...

لكن انتصاره في البصرة على أصحاب الجمل قد أمده من العناصر التي خالطت جيشه ولحقت به ، بما لم يكن يرضاه لو وكل بالقلوب يقرأ خباياها ، وبالنيات المكنونة يكشفها ، وينقدها خالصة ومدخولة . فلقد جرى القوم حينذاك على ما يجري عليه الناس ، في كل زمان ومكان ، فلحقوا بذيله إذ هو غالب . وجاءته منذ ذلك اليوم من جمادى الثانية ، عامه الماضي ، زمر ووفود من أقاليم دولته لتساانده في كفاحه ...

من هذه الأخلاط كان جيش صفين . والغاية التي مضى إليها الإمام مضت معه وقد ازدهاها أن تساند ابن عم الرسول ، صاحب الحق الشرعي في ولاية أمر الناس ، وهي تبغي — إذ تظاهره — إعلاء كلمة الحق ، ورد كيد أيما مبطل حدثته نفسه بالتمرد على سلطانه . ومع ذلك ، فلم تكن نفوسهم بلا ريب فارغة الفراغ كله مما يداخل نفوس البشر من نزعات خاصة إلى الشهرة أو المغنم أو السيادة التي تفيئها عليهم الحرب المرقوبة وإن طغت عليها — حين الزحف — تلكم الحماسة الطاغية لله ، والإمام ، والمثل النبيلة الرفيعة التي أذهلتهم عن الذات .

أما الآن ، وقد خف ذلك الطوفان الأمثل الذي جرفهم إذ ذاك في عبابه ، وصدمتهم محنة الحرب ، وأصبحوا ينظرون بالعيون بعد أن كانوا يرون بالبصيرة ،

ويسمعون بالآذان دون القلوب ، فقد تبدلت بهم الحال ، وهووا من سماء الروح إلى أرض المادة ! . .

العيون مفتوحة ، والقلوب مغلقة . النفوس حاضرة والأرواح غائبة . هم شخوص وجسوم ، تسمع وتشخص وقد عدمت الوعى والتبصر . نضب فيها الفداء والإيثار . ذوى الشعور بالقيم . غلا الموت عليها فى سوق صفين ! . .

وضاق الإمام :

« .. لم يزل أمرى معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب . وقد والله أخذت منكم وتركت وأخذت من عدوكم فلم تترك ، وإنها فيهم أنكى وأنهك ... »

وكأنما هم بعضهم — على مألوف ماجروا عليه خلال السويعات القلائل صبيحة الجمعة الثانية من صفر — أن يقطع عليه حديثه ، إن بالتهوين أو بالمعارضة :

« يا أمير المؤمنين ... »

فلم يتمهل له ، بل أتم ما شرع فيه من كلامه ونبراته تقطر المر :

« ... كنت أمس أمير المؤمنين ، فأصبحت اليوم مأمورا !... وكنت ناهيا فأصبحت منهيا !... قد أحببتم البقاء ، وليس لى أن أحملكم على ماتكرهون.. »

وجلس وهو قانط نفض منهم أمره . .

وتحلقوا حوله ، حلقة وراء حلقة كأنهم فى ندى لا فى ميدان قتال ! . . .

وأقبل شيوخهم يتبارون فى أحاديث يلوونها ليا ، تلف فى ألفاظها المتأنية تهافتهم المخزى على الحياة . ومن ورائهم عامة الجند ينصتون للدعوة المثبطة ويتنادون جهرة بالموادعة والسلم .

يقف شقيق بن ثور البكرى ، يخطب :

« أيها الناس ، إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فردوه علينا فقاتلناهم عليه . وإنهم دعونا إلى كتاب الله فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم .. وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا فى الموادعة ... »

فكأنما شاء شقيق فى هذا الوطن أن ينسى أن صفين لم يقعقع بها سلاح فى يد علوى إلا بعد أن استنفد الإمام كل حيلة لمنع الحرب أن تنشب ، بالكتب

والرمل بضعة شهور . حتى عندما أخذت الأكف — فى بدء الوقعة — تتلون بالدم ، حاول أن يكبح شهوة أعدائه للقتال فدعاهم مخلصا إلى كتاب الله ، ولكنهم ردوه ، وأبوا الاحتكام إلا السيف . . .

نسى هذا كله شقيق ، بل هو قد حمل نفسه حملا على تناسيه ، فى ذلك الوطن ، ليجد حجة لتخاذله ، ويضع حجة فى أيدى أخصامه وإنه ليعلم حق العلم أنهم قوم صفرت يدهم من كل حجة ، وفرغ وفاضهم من المعاذير . . .

ويمثله يتحدث حريث بن جابر البكرى :

« ... إن عليا لو كان خلفا من هذا الأمر لكان للفزع إليه ، فكيف وهو قائده وسائقه ؟ . وإنه والله ما قبل من القوم اليوم إلا ما دعاهم إليه أمس ولو رده عليهم كنتم له أعنت . . »

أفلم يرده فعلا ؟ . . . ومع ذلك يزعم حريث أن الإمام « رضى » للوادعة فيحمل كلماته اليائسة غير ما تطيق ! . .

واحد فحسب من بين هذه الجماعة كان أقدرها على رسم صورة صادقة للموقف ، فيها صراحة آذت زملاءه ، وأقلقت معاوية من ورائهم وكان يتنسم ريح الأخبار التى تأتيه عن سير النقاش .. غلام منهم لم ترتفع به السن وإن ارتفعت الهمة ، هو الحضين بن المنذر الرقاشى ، صاحب راية ربيعة التى ثبتت بعد انهيار جناح عبد الله بن بديل ، واستطاعت بثباتها المعجز أن تميل بجيش على من الهزيمة إلى النصر ...

قال الحضين ، ذلك الغلام يرد على أولئك الأشياخ :

« أيها الناس . . . إنما بنى هذا الدين على التسليم فلا توقروه بالقياس ولا تهدموه بالشقشقة . . . إن لنا داعيا قد حمدنا ورده وصدره ، وهو المصدق على ما قال ، المأمون على ما فعل ، فإن قال لا قلنا لا ، وإن قال نعم قلنا نعم !.. »

فأغضب قوله المتنادين بالموادعة من البكريين ، الذين ادعوا أن تناديهم صدى لرغبة الإمام ! . . أغضبتهم صراحة الغلام ، وضاقوا بها ، وامتلأت لها نفوسهم بعداوة كادت توقع الشقاق بين قومهم وقومه ، وتدفع بهم إلى مقاتلة إخوة لهم فى السلاح فى نفس الوقت الذى اختاروه لمسالمة الأعداء ! . . .

وقلق أيضا معاوية . وأثاره من ربيعة وقتاها أن قلبوا عليه أمس ميزان نصره وهموا اليوم أن يحبطوا خدعته . . وعندئذ أرسل يستمين رجلا من أصحاب الإمام :

« يا مصقلة . . . ما لقيت من أحد ما لقيت من ربيعة ! . . »

فجاء الرد على الفور :

« أنا باعث إليهم فيما صنعوا . . . . »

وصدقه الوعد ، وألق بشعر يشبه الأمر على ربيعة ، ويرمى غلامها بالجوح فى الفتنة ، فلا يعدم من يردده ، ويؤمن به ، ويعدى بعدواه المثبطة سواه ...

فهل كان مصقلة بن هبيرة عينا لمعاوية فى صفوف على ؟ . أكان ممن نافقوا الإمام ، كالأشعث ، يبدون له الولاء ويكتمون الدخل ؟ . أكان كخالد بن المعمر مباءة خيانة ؟ ... عسير بلا ريب أن يقطع المرء باتهامه ، تلك اللحظة التى استجاب فيها طائعا لمعونة صاحب الشام ، فذاك من أسرار ضميره فلقد يكون مغلوبا على إدراكه فحسب الخير فى تسكين الحرب كما قد حسب كثيرون . ولقد يكون ذا نجدة أبت عليه القعود عن إغاثة ملهوف ولقد يكون أيضا ضالعا مع خصم أميره . . ولكنه كيفما كان ، يبدو للذهن بثوب علوى ونفس أموية ! . وحين تسير الأحداث لسوف تطلعه لنا من وراء سترها الكثيف رجلا لم تملكه النجدة وحدها ، ولا سيطرت عليه فحسب فكرة « الخير فى التسكين » بقدر ما غلبت عليه نزعات نفسية خفية ، كانت تموج فى أعماقه ، ثم انفجرت كحمم البركان فدفعته إلى حيثما كانت تود لاعجته — من بادئ الأمر — أن يكون ! . .

أجل ، قد كانت رغبة مكبوتة انطلقت فمضت من بعد بابن هبيرة من صف لصف من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . إلى نتيجة محتومة نمت عنها هذه المقدمة التى أسفرت لنا عن وجهها حين استجاب لأهل الشام فى أمر ربيعة ...

إذ ذاك كان مصقلة قد غدا عاملا للإمام على الأهواز . وكان بعض الجيش العلوى عائدا من البحرين بغنائم وسبى ظفر بها فى قتاله قوما خلعوا طاعة على وارتدوا عن الدين . فلما أن مر موكب النصر بالعامل ، صاح به نسوة من السبايا :

« امنن عليها . . . »

فأخذت ابن هبيرة أريحيته كما أخذته يوم استعانه معاوية على ربيعة . فإذا هو يشتريهن من بيت المال ، ويمن عليهن بالعتق

وهذه لا ريب مروءة ، تكشف لنا عن ناحية في خلق الرجل محمودة ، وقد تلقى ضوءا على موقفه ذاك من استعانة معاوية به ، فتبديه كلفا بالنجدة يبذلها لأيما ملهوف وإن كان صديقا أو كان عدوا في العداء . ولكنها — كما تلوح — نجدة منشؤها حب الفخر والمباهاة ، وليست عن إيمان بالمكارم . . . فما هو أن رأى أن ثمن العتيقات قد أبهظه ، وعسر عليه أن يؤديه لبيت المال حق حزم أمره ، وتخلى عن علي في وقت تزاحمت عليه الأزمات ، والتجأ إلى معاوية . فكأنما إذن قد آثر الفرار من الأداء على الوقوف بجانب أمير المؤمنين إبان محنته والوفاء لعهده ، والولاء له وهي لا ريب أكرم المروءات !

وقال الإمام فيه لما بلغه نبأه :

« قبح الله مصقلة ! . فعل فعل السيد وفر فرار العبد ! . »

٤

استشرت دعوة الموادعة في جمهور الجيش ، ولم يفد في كبح جماحها تحذير الإمام ، ولا صراحة الحضين ، ولا استدامة الأشتر الهجوم بفئته القليلة على معسكر معاوية . وخرج الأمر الآن من يد سادة العشائر الذين طالما تناولوها ذلك الصباح بجدل ونقاش ومداورات تظهر طاعة « رقيقة » لعلي تشف عن تمرد وعصيان ، وتبدي عزما على تأييده وراءه في الحقيقة تقاعس يداني الخور ، ويهوي إلى درك الانهيار . . .

وقعد الناس ، هنا وهناك . وما لهم يقاتلون والهدنة تلوح ؟ . . وارتخت القسي . وقرت السيوف في الأغماد ... في ناحية من الميدان خديعة ، ومصاحف كالأعلام ، ودعوة تصيح : « كتاب الله ! » . وفي الناحية الأخرى غفلة ،

وتمرد غير مستور ، ودعوة تصيح : « كتاب الله ! » . . ولا رهج إلا حيث ينطلق الأشتر . ولا ضجة حرب إلا على مقربة من القبة البيضاء . . .

وكأنما أبطأت على رقيق الحيـاة غايتهم ، فأقبلوا يهرعون صوب الإمام ، على القدم والمطى ، يتعجلون السلامة . . . كانوا جميعا من رجاله ، الغالين من قبل فى نصرته . كانوا المشوقين لإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة فإذا هم الآن يرون الحياة غاية الغايات . . .

فى شـكة القتال أقبلوا عليه السيوف على العواتق والرماح فى الأيدى . والدروع والأقنعة على الصدور والوجوه . ومن وراء الحديد الذى أخفى ملامحهم كانت الحدق تأتلق غضبا وموجدة . . .

لو أنك لقيتهم قبل يومهم هذا لحسبتهم ممن قال الإمام فيهم حين تحدث عن خيار العباد :

« . . لولا الأجل الذى كتب لهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب ، وخوفا من العقاب . عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم . فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون . وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون . . قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة . أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها . . . أما الليل فصافون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا . . .

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين وحزما فى لين . وإيمانا فى يقين . وخشوعا فى عبادة وتحملا فى فاقة . وصبرا فى شدة . . يمسى وهمه الشـكر . ويصبح وهمه الذكر . . . لا يدخل فى الباطل . ولا يخرج من الحق . . . . »

وقد كانوا حقا يتلون القرآن ، فهم حفظته وقراؤه وتهزهم معانيه هزا عنيفا فتخشع الجوارح وتدمع العيون . وصلوا نهارهم بليلهم ، تقربا إلى الله ، بالصلاة والقيام . وصرفوا وقتهم خشية من الله ، فى الدعاء والبكاء والسجود ، حتى بحت الأصوات ، وتقرحت الجفون ، واسودت الجباه . .

لـكنهم اليوم غيرهم بالأمس — أولئك الذين أقبلوا منهم على على عليهم الدروع

والأقنعة . فإن يكونوا قد بقيت بهم تلك الملائم الجسدية ، فقد غدت دخائلهم كأنما هم فرقة من أهل النفاق الذين وصفهم فقال :

« ... الضالون المضلون ! .. يتلونون ألوانا ، ويفتنون افتنانا ... يمشون الخفاء ، ويدبون الضراء ... قولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء ... إن سألوا ألحفوا ، وإن عذلوا كشفوا ، وإن حكموا أسرفوا . قد أعدوا لكل حق باطلا ، ولكل قائم مائلا ... يقولون فيشبهون ، ويصفون فيموهون .. » .

آلاف عديدة أتته منهم ، لم تغن عنهم قراءتهم ، ولا عبادتهم ، ولا شوقهم القديم للموت ابتغاء الثواب وخوف العقاب . وكانت الآفة التي نخرت في قلوبهم فأوهنتها هي نفس تقاهم — ذلك التعصب الديني الذي يضيق معه الأفق ، وتنحسر النظرة فلا تنفذ من الأمور إلى ما وراء سطحها المغلف بقشرة رقيقة من الدين ، فخفيت عندئذ عليهم قولته : « رب عالم قد قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه ! .. »

آلاف عديدة من أولئك القراء أضلتهم النظرة الكليلة ، وآلاف أخرى من اليمانية رجال الأشعث المصدرين عن رأيه إذ هو شيخهم الآمر المطاع ، وآلاف ثالثة من أعراض الجيش الذين شاموا البقاء في دعوة معاوية ، قد أقبلوا جميعا على الإمام ، ليفرضوا مشيئتهم ، وينفذوا الرغبة التي أملاها عليهم الجسد المنهوك ، والجنان الخليع ، والقلب الواهن الذي لا يثبت على لأواء ...

وتقدم هذه الطائفة المتمردة جمهور من أصحاب الجباه السود — قوام الليل ، عباد النهار ! — على رأسهم مسعر بن فدكى ، وزيد بن حصين وعصابة غيرهم ممن غدوا بعد رءوس الخوارج وعلى وجوههم قنع الحديد ، وفي أيديهم السلاح ، وفي أحداقهم اللامعة بغضبهم تتواثب أبالسة الفتنة ، يصيحون :

« يا على ! .. » .

حتى إمرة المؤمنين أبوها عليه ! ... وكيف يدعونه بها وقد صورت لهم أخيلتهم السقيمة أنه لا يستجيب لدعوة القرآن ؟ ... وأنى لنظراتهم الحسيرة أن تنفذ إلى غور الحقيقة بعلمهم وإنه لطلاء غطى منهم اللحى والجباه ولم يخالط القلوب ؟ ...

« .. أجب القوم إلى ما دعوك إليه ... » .

فرمقهم بعين محزونة . جمعته فيهم الأيام ! .. وهذا الأسى الذى يترقرق كالدمعة فى مآقيه كان لهم ، وعليهم ، فما نفعهم علمهم ، وما أغنت عنهم كثرة السجود ! ..

ونادوا يزجرون :

« أجب القوم إلى كتاب الله ، إذ دعيت إليه ، وإلا قتلناك ! .. »

فصاح بهم :

« ويحكم ! .. أنا أول من دعا إلى كتاب الله ، وأول من أجاب إليه ، وليس يحل لى ولا يسعنى فى دينى أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله — »

فقطعوا قوله :

« فأجبهم ! .. »

« .. إنى إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن ، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده ، ونبذوا كتابه ... »

هنا تردد صوت صائح الشام ، بين الصفين يتلو :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ... »

فكأنما الأشعث كان المعنى بالتلاوة ، فهتف بقومه :

« والله لا نأبى هذه أبدا .. »

وقال الإمام :

« لن نرضى أن نقاتل معك .. »

ودوى وعيد القراء ، من كل ناحية :

« يا على ... أجب ! . أجب ! .. »

عندئذ ألقى بآخر ما فى جعبته :

« .. قد أعلمتكم ! .. إنهم قد كادوكم . وإنهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون . فامضوا على حقكم ، وخذوا فى قتال عدوكم .. »

فتصايح الجمع :

« أندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله ؟ . . »

وتحلقوا حلقة حوله ، يهزون فى وجهه سلاحهم ، ويتوعدونه بالقتل إن هو لم ينزل عن رأيه ، ويستجب لمشيئهم المجنونة ولم يرضوا منه بأقل من أن يطفىء بنفسه بقية النار التى بقيت بعد مندلعة فى جانب من الساحة ، عند القبة الكبيرة البيضاء :

« ابعث إلى الأشتر ليأتيك ! . . »

كان الأشتر حينذاك قد أشرف على معسكر معاوية ليدخله ، لا تثبت أمامه قدم ، ولا تلقاه مقاومة تعرقل اندفاعه ... النصر معه والخذلان حياله فى فلول أحراس عاهل الشام . وإن هى إلا شقة ضيقة يقطعها ثم يفتح الله . . .

لكن رسول على جاءه :

« ائت أمير المؤمنين . . . »

فعجب الأشتر :

« آتيه ؟ . . قل له ، ليس هذه بالساعة التى ينبغى لك أن تزيلنى فيها عن موقفى . . . إنى قد رجوت الله أن يفتح لى ، فلا تعجلنى ! . . »

غير أن هذا الرد الذى عاد به الرسول ، ودلائل النصر التى بدت لهم واضحة والرهج يعلو وصيحات الهزيمة تنفلت جزعة من أفواه أهل الشام ، لم ترد أولئك القراء المتنين عن غلوائهم ، ولا خففت من عصبيتهم لرأيهم المتهافت . إنما تركتهم أنكى عمى ، وأشد ضلالة . فإذا بهم يعدون طورهم فيعصفون بالإمام فى تجبر وإعنات :

« ما نراك إلا أمرته بقتال القوم ! . . . »

« أرأيتمونى ساررت رسولى إليه ؟ أليس إنما كلمته على رءوسكم علانية ؟ . »

« فابعث إليه فليأتينك ، أو لنقتلنك بأسيافنا كما قتلنا عثمان ، أو لنسلمنك إلى عدوك ! . . »

ونظر الأشتر إلى الرسول وقد أتاه ثانية :

« أرفع هذه المصاحف ؟ »

« نعم » .

« أما والله لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع اختلافا وفرقة ... »

ولكنه لم يعد تمهل مليا كأنما نازعته نفسه إلى النصر الذى يفتح له ذراعيه . إنها لحظة العمر . فرصة الدهر كله قد أتته صاغرة بعد طول كفاح وجهد ومشقة . فما يدفعه الآن إلى إفلاتها من بين يديه ؟ . .

أحسبه حينذاك قد تفكر برهة يقلب الأمر . ثم يتفكر برهة فيؤثر البقاء بمكانه من الميدان . ثم يتفكر برهة فلا تخطئ النصر عينه وهو يشهد تصدع آخر الخطوط الشامية ، وتفرق الحماة عن قبة معاوية تفرق الصيد بعد رمية صياد ! . . لم يعد هناك شك فى الظفر . والوقت القصير الذى يقطعه فى العودة إلى على كفيل — لو ثبت بمكانه — أن يحسم الوقعة . . .

وسمع الرسول يلح :

« يا مالك . . إن الفتنة قد وقعت ! . . »

« ويحك ! .. ألا ترى إلى الفتح ؟ .. ألا ترى إلى ما يلقون ؟ .. ألا ترى إلى الذى يصنع الله لنا ؟ .. أينبغى أن ندع هذا وننصرف عنه ؟ . »

قال الرسول :

« أتحب أنك ظفرت ها هنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذى هو فيه يفرج عنه ، ويسلم إلى عدوه ؟ . . »

فارتج كيانه ، وهتف وكأنه يئن حسرة :

« سبحان الله ! .. »

وثقل قلبه . . ودار على عقبيه ، ناكس الرأس ، غاض العين ، خافت النفس وهو يقتلع قدميه من الأرض ليعود . . .

٥

لم يكد الأشتر يقارب القوم حتى اندلعت فى كيانه نار غضبه فعاد للحياة بعد أن كان كالحطام .. ولم تكد عينه تقع منهم على اللحى المرسلة والجباه الخشنة حتى تقبضت كفه على سيفه ، وصرت أسنانه وهو يصيح :

« يا أهل الذل والوهن ! .. »

فلم يباله أحد منهم ، فحسبهم أن قد عاد ! ..

وراح يرميهم بما يسعفه به لسانه ، مرة ضراعة ، ومرة جدالا ، ومرة لعنة ! . كالمغرق بين اصطراع الأمواج يستسلم آونة ، ويضرب أخرى بيمين وشمال ، ويتعلق ثالثة بأى طافية على سطح اللجة ...

قال كأنه يتوسل منهم بأنهام تدرك ، وتستطيع أن تستكنه عواقب الأمور :

« أحين علوتم القوم ، فظنوا أنكم لهم قاهرون ورفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ؟ .. قد والله تركوا ما أمر الله به فيها ، وسنة من أنزلت عليه ... لا تجيبوهم ! .. »

ولكنهم قالوا :

« لا ! .. »

« أمهلونى فواقا — »

« لا ! .. »

« أمهلونى عدوة الفرس ، فإنى قد طمعت فى النصر »

« إذن ندخل معك فى خطيئتك ! .. »

كان فى رأيهم خطيئة أن يظلوا يقاتلون وفق ما تملى شريعة الحرب وقواعدها حتى ينتهى ذلك الكفاح نهايته الطبيعية بنصر فريق وتسليم فريق — كان خطيئة دينية ! .. فكأنما قد وكلوا وحدهم بما سنه الله فى كتابه عن هذا النزاع وأمثاله يتأولون عليه التأويل الذى تشتهيه أنفسهم ، ويخرجون به عما أراد له الله أن يسير فيه .

لقد أوشك أراهم تشبثوا بقوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » ... أوشك أراهم تمسكوا بظاهر القول الإلهى دون لبه فتظاهروا بأن فى رفع أهل الشام المصاحف فيئا إلى الحق ، وعدولا عن البغى .

إنهم لاريب ضلوا السبيل ، واعتسفوا التأويل .. فالفىء رجوع . والرجوع يقضى إعادة الأمر إلى بدئه . والبدء فى هذه القضية الذى وقع بسببه النزاع المسلح بين الطائفتين هو إمامة على التى بغى عليها معاوية واستقبلها بعصيانه . فكان إذن حتما ، وفاقا لآيات الله ، أن يرجع العصاة عن عصيانهم ، ويقروا بخطئهم حين اقترفوه ، ثم ينظر من بعد فى الإصلاح بينهما وبين المبغى عليه .

لكنهم مع هذا أمعنوا فى البغى وأسرفوا فى التأويل وقفز بهم انهيار الروح المعنوية إلى نتيجة لا يقتضيها منطق الحرب ولا منطق السياسة ولا منطق الدين . وقد وضح من البدء هذا الخطأ الذى وقعوا فيه للإمام فجهد غاية الجهد ليجنبهم زلله ، مؤكدا لهم أن تنادى أهل الشام بالقرآن إن هو إلا تقنع بكتاب الله يحميهم السيوف والحتوف . ووضح لهم هم من بعد فقاموا ينقضونه ويدعون لنقضه ، ثم يغالون الغلو كله فيقرون على أنفسهم بالكفر يوم قبلوه . ووضح أيضا للأشتر وهو يحدثهم فشاء لو أمالهم عنه . . . قال يجادلهم وقد كاد الغيظ يخرج به عن طوقه :

« . . . خدثونى عنكم — وقد قتل أماثلكم وبقى أراذلكم ! — متى كنتم محقين ! . أحين كنتم تقاتلون أهل الشام فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون ، أم أنتم الآن مبطلون ؟ . » .

« الآن محقون » .

« فقتلاكم إذن ، الذين لا تنكرون فضلهم وكانوا خيرا منكم ، فى النار ! . . »

فأمعنوا فى المكابرة :

« دعنا منك ! . . قاتلناهم فى الله ، وندع قتالهم فى الله ! . . » .

ولم تعد هناك جدوى وراء مناقشتهم وقد أصروا واستكبروا . ووقع بينهم وبينه تلاوم عنيف ، ثم ثار بهم يسبهم :

« خدعتم والله فانخدعتم ، يا أصحاب الجباه السود ! . . كنا نظن أن صلاتكم زهادة فى الدنيا وشوق إلى لقاء الله ، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت !. . ألا فقبحا ! . ما أنتم برائين بعدها عزا أبدا ! . » .

ونزا عليهم بسوطه ، ونزوا عليه بالسياط . وساد الهرج . وهمت فتنة جديدة أن تنشب لولا أن صاح بهم على :

« كفوا ! . . »

وعندئذ اتجه الأشتر إليه :

« يا أمير المؤمنين . . . احمل الصف على الصف يصرع القوم . . . » .

فتصايحوا بأصوات محمومة ، اهتزت لها الأرض :

« قبل أمير المؤمنين الحكومة ! . . »

« لسنا نطيعك فاجتنبنا . . . »

« رضى أمير المؤمنين بحكم القرآن ! . . »

وانفلت الأشعث يخاطب الإمام بهدوء :

« . . ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن . . . »

فقلب عينا ساهمة ، من الأشتر ، إلى الأشعث ، إلى هذه الحلقات حوله من الحشود المتراكبة ككسف الظلة ، الهادرة كموج الشلال . . .

قال له مرة بعض اليهود :

« ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه . . . »

فرد يجيبهم :

« إنما اختلفنا عنه لا فيه . ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون . . . »

وقد وقع فعلا هذا الخلاف الذى فرق المسلمين أحزابا حول أمور لا تتصل بباب الدين ، ولا تمت إلى أصول العقيدة . ولـكنه خلاف أوقع الفرقة فى الصفوف ، ورمى بينها بالبأس والشدة والتناحر وفى ذات يوم من صفين ، كشف الإمام لأصحابه عن هذه الفتنة المؤسفة ، حين قال :

« ... ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها ... »

ويومها حزن عمار فقد رقت له هذه الـكلمات عن العقبى المخبوءة ، وقال وهو أسيان :

« . قد أعلمـكم أن هذه الأمة لن تستقيم عليه أولا ، ولن تستقيم عليه آخرا . . »

واليوم يكشف الزمن عن خبيئته فالأمة لا تستقيم وقع بينها بأسها . مضى الباطل لغايته ، ووقف الحق حيران . حدث ما نم عنه قول على وما استشفه عمار . .

قضى الأمر ! . . .

الآن حلت العقبى التى لعلها عصفت حينا فى خيال الإمام وصحبه حينذاك ملتفين حوله التفاف الـكتيبة بالعلم ، لا تدين به لياذ للستأمن بالحرم . الآن كأنما يرجع التاريخ أدراجه إلى سحرة الخلافة ، حين منعه قومه حقه ونازعوه المقام الذى كان أولاهم به بعد الرسول . الآن يفتقد بين جمعه اللجب نصرة الولى وولاء الناصر ، حتى لـكأنه يعيد — هذه اللحظة — على الأسماع ما صكها من كلامه القديم :

« . . . فنظرت ، فإذا ليس لى رافد ولا ذاب ولامساعد إلا أهل بيتى . . . فأغضيت على القذى ، وجرعت ريقى على الشجى ، وصبرت من كظم الغيظ على أمر من العلقم . . . »

فماذا أبقت الدنيا ، وماذا لعلها ستبقى له ؟ . .

أن يصبر مغموما ، أو يموت متأسفا كما قال ! . . فغى أولئك الذين استصفاهم

لنفسه من ذويه لم يعدم فيهم على دورة الزمن من تفرقوا عنه : بعضهم لخوف ، وبعضهم من يأس ، وبعضهم إلى مال ...

لقد غدا كما بدأ ، يدور في محن البلوى . أسبابه مفلولة ، فبمن ؟ . . وسبله مقطوعة ، فإلى أين ؟ . . الناس حوله يدنون من منزلة الفتنة التي أنبأه نبأها رسول الله ذات يوم .

« سيفتنون بأموالهم ، ويمنون بدينهم على ربهم ، ويتمنون رحمته ، ويأمنون سطوته ، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية .... »

وهو بينهم قائم على ما يمليه مقامه : يشير ويبصر ويحمل على الجادة ما أمكنه سلطانه . ولئن كان رجاله قد رضوا لأنفسهم الخروج عن حدود الرعية ، فقد بقي هو يلتزم حدود عمله ، ويعمل على نسق المبادئ التي رسمها للإمامة ، فإنما « ليس على الإمام إلا ما حمل من أمر ربه : الإبلاغ في الموعظة ، والاجتهاد في النصيحة ، والإحياء للسنة ، وإقامة الحدود على مستحقيها ، وإصدار السهمان على أهلها . »

صدق فيهم الآن حديثه :

« . . أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي ! . »

وحق عليهم عجبه وإنكاره :

« أشهود كغياب ، وعبيد كأرباب ! . . »

* * *

ويعود الأشعث بن قيس يخاطبه ، ملاينا مداورا ، ليستل منه إقراره :

« يا أمير المؤمنين ... إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد ، ونظرت ما الذي يسأل ... »

فهل لم يعلم السائل حقيقة الأمر قبل مشيه لقاء العاهل ؟ ... وفيم إذن سعيه ؟ . . وما هي جدوى استئذانه علياً في هذا اللقاء والناس جميعا يرددون : لمن المشيئة الآن ؟

يعلم الأشعث الجواب ! . . ويعلم أيضا لمن الـكلمة ! . . يعلمه لأنه احتضن مادته بذرة صغيرة غرسها فى نفسه منذ استهواه إبان الوقعة حديث عتبة بن أبى سفيان عن السلام . ولأنه صاغ من بعد هيكله ، فتنة عمياء أضلت العقول والقلوب بالأهواء الساهية والشبهات الـكاذبة . . ويعلم كذلك لمن غدت الـكلمة ، فما كان مستطيعاً أن ينسى ما لفظه على لفظ الثمرة المرة عندما قال : « كنت أميرا ؛ فأصبحت مأموراً . . . » ولـكنه ، مع ذلك ، يسأل ويستأذن ليبدو فى هيئة مأمور ! .

ويجيبه على ، على مضض ، وبغير مبالاة :

« ائته . . . إن شئت » .

٦

وهذه نهاية الأمر كله ! . .

هذه اللحظة التى أطلعتها صفين ، يوم الجمعة الثانية من صفر ، والجموع تتحلق حلقات ، والأسلحة تهتز متوعدة ، والأصوات تهدر مملية مشيئتها ، هى الخاتمة لإمرة الإمام .

ولم يكن يملك إلا أن ينزل على حكم القوم وهو كاره له ، برم به ، يراه يقودهم وإياه إلى فاجعة ، ولا يستطيع أن يصدهم عنه . كانوا شلالا يجرف الحصى والصخر لا طاقة لقدرة بمنع انحداره . وكان الأسى والأسف والغم هى كل ما تحس نفسه ويعتمل بباطنها ، ويفعل فيها فعل الشفار . . . ولو وسعه لثبت ، ولقاوم تمردهم ، ولـكنهم حفروا الأرض تحت قدميه ، ثم دفعوه للهاوية .

لـكم كان يود إذ ذاك أن يكرههم على الحق ، ويحملهم على الجد الذى تنكبوه ، لـكنها أمنية كالحلم تنسخه اليقظة ! . . ولقد تبدت رغبته تلك فى صورة من لفظه ، رصعها من بعد منطقه ، ونقل لنا فيها ما كان إذ ذاك يعانيه :

« . . أما والله لو أنى حين أمرتكم بما أمرتكم به ، حملتكم على المكروه الذى يجعل الله فيه خيراً ، فإن استقمتم هديتكم ، وإن اعوججتم قومتكم ، وإن أبيتم تداركتكم ، لكانت الوثق . . . ولكن بمن ، وإلى أين ؟ . . » .

أجل ، بمن ، وإلى أين ؟ . . ما تداويه بهم وهم داؤه ؟ أين عتاده ، ما أعداده ، من أولياؤه وهم بلاؤه ؟ . .

ليوشك الأشتر أن يبرز لنا من خلال هذا التساؤل كأنه وحده الرجل الذى كان يملك تغيير هذه الخاتمة الحزينة . . . حين تأزمت الأمور ، يوم الخميس ، وكادت الدحرة تقع فى الجيوش العلوية ، وسعه أن ينهد ، فيجمع الفلول ، فيقاوم ، فيهاجم حتى يبلغ « شاطىء » الظفر . وحين شاعت دعوة التخاذل يوم الجمعة ووقعت الفتنة ، كان قد أخذ يمد دلوه إلى « النهر » . . ففيم صدره عن النصر إذ ذاك وهو عطشان ؟ . .

من العسير أن نؤاخذه ، ومن العسير أيضاً الاعتذار عنه . فلقد كان واحداً من بين قواده وجبت عليهم طاعة القائد العام ، الائتمار بأوامره ، والانتهاء عند نواهيه . وهو بهذا مشدود إلى الجيش كله ، ليس له أن يتحرك حسبما تمكنه قدرة كتيبته وهو مغفل طاقة غيرها من الكتائب والألوية والصفوف . وهو كذلك حلقة فى سلسلة الخطة العامة الموقعة قد يسبب انفصالها عن بقية الحلقات كارثة كتلك التى أصابت جيوش الإمام حين بدا لابن بديل أن ينحرف بجناحه إلى قلب العدو ويدع مركزه للرسوم .

ومع ذلك فقد رأينا الأشتر يتردد فى الاستجابة لعلى عندما دعاه إليه بإملاء مثيرى الفتنة . يتردد ، ولايلبث أن يأبى ترك مكانه والنصر بادى الإشراق ويقول للرسول : « ليس الساعة ! . . » ؛ ثم يتردد ثانية ، ويرد الدعوى مرة أخرى ، أو يحاول أن يردها وهو يصيح بوافد على عليه : « ويحك ! . . ألا ترى إلى الفتح ؟ . . » ، ثم لا يدع ما كان من تردده فى قبول هذه المسالمة الخداعة التى أراده القوم عليها كما أكرهوا عليها الإمام ، ويظل مؤمنا بأن نصره رهن

دقائق لا تزال يضرع لهم أن يبيحوه إياها « أمهلونى فواقا ! . . أمهلونى عدوة الفرس ! . . »

فى تقديره — الذى لا نراه جانب حقيقة الحال — كانت بينه وبين الظفر خطوات . عدوة جواده . ما دون سويعة من زمان . . كانت قدمه على « الشاطىء » . وكانت يده بدلوه تتدلى فى « النهر » .

لكنه صدر وهو عطشان ! . . . ترك الدلو فارغا على الشاطىء وعاد ! . .

لقد كان خوفه أن يغتال « دعاة السلام » عليا ، أو أن يسلموه ، لو لم يأتمر بأمره فيرجع عن القتال ، هو كل ما قد دفعه إلى الرجوع . تمثلت فى وهمه فاجعة تطلع الإمام راسفا فى القيد وهو يساق إلى عدوه أو غارقا فى دمه وهو صريع بأسلحة تلكم الطائفة العاصية المخدوعة من رجاله : أصحاب الجباه السود . . . الخوف وحده من هذه العقبى هو الذى رده من النصر ، وقضى عليه أن يكتب بعودته آخر كلمة فى تاريخ الإمرة الفعلية لابن عم الرســـول . . . أفلم يجمح به خياله وهو يطلع عليه بهذه الخاتمة فى مثل صورتها السوداء ؟ . .

بل قد جمح لا ريب ، وساطته من وفاء الرجل لعلى ، ومن حبه إياه سياط ! ، . فما أحسب أمرأ فى الجيش تنادى بالموادعة ؛ وغضب للسلام ، كان يجرؤ فى تلك اللحظة على لمس أمير المؤمنين بسن حربته لو أبى الأشتر العودة وبقى حيث كان يواصل القتال . كانت نفوسهم — وإن تمردوا — لا تزال تتأرجح بهم بين إيمان مطلق تتأكد به « شرعية » الدعوة الأموية للاحتكام إلى القرآن ، وبين إيمان مقلقل بها ، سطحى لم يتعمق الشغاف ، وكانوا أيضا قريبى عهد بفتنتهم ، التى لم يمض على مولدها سوى سويعات ، فليس من طبيعة البشر بحال أن تذهلهم عن مواضيهم الطويلة ، وتنسخ — بهذه السرعة وهذا اليسر — عواطفهم للوالية ، الراسبة فى الأعماق ، وإن منهم لكثرة تعرف للإمام قدره ، وقدمه فى الإسلام ، ومكانه من الرسول ، وجهاده القديم ، وتكن له من مودتها وإكبارها ما لايجتثه انحرافها عن أمره ، وميلها عن رأيه فى دعوة التحكيم .

هذه عوامل أحسبها كفيلة بأن تمنع من القراء دماءه وهم بعد فى مستهل اختلافهم عليه ، وفى أول شوطهم من طريق الفتنة . وهى أيضا أكفل بدعوى تسليمه إلى يدى عدوه حتى لتجعلها أدنى إلى التشدق باللفظ الأجوف الطنان منها إلى العزم الراسخ الذى يتبعه التحقيق . فما معاوية فى رأيهم ؟ . وما قدره ومزاياه ؟ . وما جريرة الإمام — بعد هذا وذاك — إن دعا إليه الأشتر وشاء الأشتر أن يعصاه ويستمر فى القتال ؟ . . .

إنما كان قولهم وعيداً تلفظه ألسنتهم ولا تترجمه أسنتهم ! . . فطالما توعدوه ! . . مرة وهم يدعونه إلى قبول الوادعة . وثانية وهم يطلبون إليه رد الأشتر لتسكن ثائرة الحرب . وثالثة وهم يعاودون طابهم وقد رأوا الأشتر يؤثر البقاء والقتال على العدول والرجوع . ولقد أبى هو أن يخضع لخدعة السلم فلم ينالوه بعضرة . وأبى الأشتر أن يلبى أولى دعوتيه له فلم ينفذوا ما رددوه من وعيد . فهلا كان أولى بالأشتر إذن — حين بلغته الدعوة الثانية — أن يصم عن الدعوة أذنه ، ويصبر ، ثم يسدد فرسه إلى النصر فتكون عدوة إلى أمام لا إلى وراء ! . .

كان هذا أولى به . وكان أيضا يسعه ولا يعضله ... لكنه حين قدر النصر أصاب ، وحين قدر « الفاجعة » خاب ؟ .

فات الأشتر التوفيق . غلبته عاطفته على حسابه ، فطفا خوفه ، وغاص إدراكه فى القاع ! . . وليس يشفع له أنه كان قائدا من قواد يجب ائتماره للقائد العام . ولا أن كتيبته قطعة من الجيش لا تملك العمل وفق قدرتها وحدها . ولا أن سيره فى القتال حلقة من سلسلة خطة عامة .. لا يشفع له هذا كله . لا يبرر تراجعه . لا يكاد يعدل الاعتذار عنه ! . . فما كان ثمة تلك اللحظة ، وهو يبرح موقفه ليعود ، « قائد عام » . ولا « جيش » . ولا « خطة حربية عامة » . . .

إنما مضى الأمر ، بعد ذيوع دعوة للوادعة . فوضى . . . هنا فرقة تحارب ، وهنا أيضا فرق ألقت السلاح . فى هذه الكتيبة رجل يقاتل وفيها أيضا آخر يهادن . . . ولم يعد الحكم للقواعد والنظم التى تسود الجيوش فى الأحوال

العادية ، وتسوس أجنادها ، بل غدا الحكم للطبائع الملهمة ، والبداهة اللماحة التي يسعها أن ترى وتزن وتقيس — في مثل طرفة العين — دقائق الموقف ، ثم تنفذ من خلال عتمتها إلى العقبى المأمولة ، ثم تعمل على إدراك غايتها وهي تستعين القوى الموالية ، وتستغل الظروف المحيطة ، وفق وحيها وحده لا بخطة سالفة ، ولا بأمر مفصوب ! ..

وكانت ظروف الأشتر مواتية .

وكانت القوات الزاحفة معه موالية له

ولكن بديهته لم تسعفه إبان المحنة ، ولم تقفز به إلى ما كان ينتظر من محارب جرىء مثله أن يبلغه لو أنه أحسن التقدير . فما عدا ذلك الوعيد الذي اندلع في صفوف على من بين جحفل القراء أن كان ضجة تلقفتها طبيعة الجماعات فأعدت ألسنة القوم بعدواها حتى راحت ترددها كالببغاوات ! . وما كان تمردهم — في ساعاته الأولى — هيكلا راسخ الأسس ثابت القواعد بقدر ما كان مثل قلعة من ورق وطلاء . الهيئة تهول والقلب خواء ! .. ولو قد كان ابن بديل ، في بدء الوقعة ، أوتى « تريث » الأشتر والتزامه الخطط والأوامر لذهب معاوية وجنوده منذ يومين في الغابرين ، ولو قد كانت للأشتر اليوم « روح المغامرة » التي كانت لابن بديل لنال من عدوه الوطر فنزل « الشاطئ » وبلغ « النهر » وأدلى دلوه ثم عاد وهو ريان ! ..

كانت الأمور فوضى — كالجواد الجموح — تنتظر صاحب حاسة ملهمة مبصرة ، ونفس مغامرة ، ليقفز فيأخذ اللجام ! . كان القائد العام «مقودا» .. والخطة الحربية « هرجا » .. والجيش « زحاما » بغير نظام .. والموقف ينتظر الحسم . فماذا على الأشتر — ومعه فرقة طائعة ، وأمامه الفرصة التي لا تتكرر — لو أنه أسرع فغامر ؟ .. إنها عندئذ للمغامرة التي تضع اللجام بيمينه ، وتستوى به على الجواد الجموح ! . . وإنها إذن لاندفاعة في القتال — في عمر فواق كما قد قال — تبلغه الفسطاط الأبيض ! . . وإنه من بعد النصر الحاسم القاطع الذي يجنيه قبل أن يأتيه الرسول « ثالثة » والقراء لا يزالون — على رأيهم — يتشدقون بالوعيد !

هذا النصر الذى كان يمكن قطفه ، كان حريا بأن يشغل الأذهان عن كل ما عداه ، ويحرك الألسنة بذكره ، ويأتى على تلك القلعة من الورق والطلاء التى تهول وهى خواء ! . . فما أن يذيع حتى يتلقفه الناس — طائعهم وعاصيهم من جند على — بالعيون والآذان ، ثم يسرى على شفاههم نشيدا وأهزوجة . وكأنى بهم إذ يكون ، قد راحة الفرحة فى قلوبهم تهتف : « النصر ! » بعد أن كان يأسهم يهتف : « السلام ! » فالنصر عندئذ كيان « يقين » يشهدونه والسلام كيان « ظنى » كانوا يأملون أن يشهدوه وراء أستار دعوة التحكيم . . وكأنى من بعد بالقراء : أصحاب الجباه السود قد انتكسوا — كانتكاسهم بعد سويعات — وعاد إليهم صوابهم الذى أذهبته خدعة ابن العاص . وكيف لا والسلام الذى تمردوا له ، ودعوه إليه ، يقبل عليهم من أوسع السبل ومعه الظفر ؟ . .

غير أنه تقدير . .

تقدر . . ويقدر الأشتر . . والله قدر ! فما كان آلم للنفس أن يكون من قدر هذا الرجل الذى أحب عليا كما لم يحبه أحد من صحبه ، ووقف دائما إلى جواره يشد أزره على المحن وأفنى عمره كله فى الولاء له ، أن يكتب بعودته تلك — يوم الجمعة الثانية من صفر ، بناحية بصفين — آخر سطر فى سفر الإمرة الحقيقية للإمام ، وما انقضى على فاتحته سوى عام ، وشهر ، وأيام . . .

٧

ما كان أسرع انتقال الأمر من يد إلى أخرى ذلك النهار !. من يد على وقد تمرد عليه رجاله وخالفوه . ومن يد الأشتر وقد ترك موقفه فى الميدان وعاد . . أفلت من الصاحبين ، فلما تلقفه الثالث : الأشعث بن قيس تشبث به ، وعض عليه بالسن والبنان .

وأصبح الأشعث سيد الموقف . برأيه تهافت الخارجون على النظام العام تحت ستر السلام وبدعوته المثبطة لهجت ألسنتهم ، ثم اهتزت ألسنتهم لتترجم حديثهم إلى أفعاله ، وعندما غدا « التحكيم » رهنا بكلمة ينطقها على إذ هو

— فى حساب الظاهر ! — أمير المؤمنين وصاحب الرأى الأخير الذى تبرم به الأمور ، نطقوها هم بغير تردد كأنما أباحهم الكلام عنه ، ونحلهم لسانه ومكانه :

« قد رضى أمير المؤمنين . . . » .

وبهذا استقر للأشعث الأمر ، وسيطر وحده على مصير الأحداث .

ومضى الرجل المزهو إلى ابن أبى سفيان ، على وجهه هيئة نائب عن الأعداء وفى جوفه ضمير حليف ! .

وقال يسأل حيث لا موجب لسؤال :

« يا معاوية . . . لأى شىء رفعتم هذه المصاحف ؟ . . »

« انرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فى كتابه . . . » .

« هذا هو الحق ! . . »

فأى حق إلا أن يكون ذلك الذى أراد هو أن يكون ؟ . ذلك الذى غرسه ذات يوم بقلبه المدخول بذرة خبيثة عتبة بن سفيان حين دعاه أثناء القتال بصفين وقال له : « لو كان معاوية لاقيا رجلا غير على للقيك إنك رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن . . » .

الآن قد طابت نفسه المنهومة إلى الاستعلاء . ارتوى غروره وشبع حق التخمة. . . فلم يعد فرضا ما حدثه به عتبة ، بل حقيقة واقعة تلمسها الأصابع وتراها الأعين وتسمعها الآذان . صار وحده الرأس فى حزب على ، وصاحب الرأى النافذ المطاع من دون الخاصة والكافة . على فيستجيب الناس . ويشير فيحرك عواطفهم فى جنوبهم ، وأفكارهم فى عقولهم ، وأسلحتهم فى أيديهم فإذا هو يسوقهم أمامه كالقطيع ؟ . . آن أن يتأخر على ليتقدم هو — الأشعث بن قيس عرف النار ! — وعلى على بعد هذا ، الرضوخ له ، يأتمر حين يأمره ، وينتهى حيث ينهاه ! . .

وقال له معاوية يشرح خطته :

« . فابعثوا منكم رجلا ترضون به ، ونبعث رجلا . ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه . ثم نتبع ما اتفقا عليه . . »

وبمثل هذا المعنى جرت رسالة من العاهل إلى الإمام :

« . . . قد قتل فيما بيننا بشر كثير وأنا أتخوف أن يكون ما بقى أشد مما مضى . . . إنا سوف نسأل عن ذلك الموطن ولا يحاسب به غيرى وغيرك ، فهل لك فى أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة ، وصلاح الأمة ، وحقن للدماء ، وألفة الدين ، وذهاب الضغائن والفتن ؟ — أن يحكم بيننا وبينك حكمان رضيان ، أحدهما من أصحابى ، والآخر من أصحابك ، فيحكمان بما فى كتاب الله بيننا ، فإنه خير لى ولك ... ... » .

وانطلقت الفتنة بعض شوطها فرضى الناس بما جاء به الأشعث ، وما أجمله كتاب معاوية . وتلاقى فريق من قراء الشام وقراء العراق يمهدون بحديثهم التحكيم وينظرون فى الغاية التى هدفت إليها دعوته، وفى الوسيلة التى تبلغهم نهاية الشوط .

رضوا والإمام ساكت ، وقضوا والإمام مغلوب . فما عاد قيادهم فى يمينه ، بل قياده هو فى أيمانهم يتجاذبونه كيفما حركتهم الأهواء . لكن اجتماعهم على الدعوة الخداعة ، وإصرارهم على الاستجابة لها ، وإنفاذ كل ما يحقق لهم السلم وإن على حساب نصرهم ، قهره على الكتابة لمعاوية : يحذر ويبصر ويوافق فى آن :

« . . إن البغى والزور يذيعان بالمرء فى دينه ودنياه ... فاحذر الدنيا فإنه لا فرح فى شىء وصلت إليه منها . ولقد علمت أنك غير مدرك ما قضى فواته وقد رام أقوام أمراً بغير الحق فتأولوا على الله فأكذبهم ، ومتعهم قليلا ثم اضطرهم إلى عذاب غليظ ...

إنك قد دعوتنى إلى حكم القرآن ، ولست من أهله ، ولست حكمه تريد . وقد أجبنا القرآن إلى حكمه ... »

كان التحذير هو كل ما بقى له ، فلعله أن يرشد الغوى ويهدى الضال . وكان موقنا بأن معاوية غير مختار حكما عن أهل الشام إلا عمرو بن العاص فلم يرد أن يدع هذه الفرصة دون أن يحاول استمالة هذا الداهية إلى الحق وليه عن مزالق الباطل وحمأة الهوى وإن علم أن محاولاته هذه هباء وقبض الريح ! . ولكنه مع ذلك كتب يعظه ، ويحذره الزيغ والدنيا وسطوات الله .

« . . إن الدنيا مشغلة عن غيرها ، ولم يصب صاحبها منها شيئا إلا فتحت له حرصا يزيده فيها رغبة . ولن يستغنى صاحبها بما نال عما لم يبلغه . . . فلا تحبط أجرك أبا عبد الله . . »

وكتب أيضاً :

« . إن الذى أعجبك من الدنيا مما نازعتك إليه نفسك ووثقت به منها منقلب عنك ، ومفارق لك ، فلا تطمئن إلى الدنيا فإنها غرارة . ولو اعتبرت بما مضى لحفظت ما بقى ، وانتفعت بما وعظت به ... »

لكن عمرا كان صاحب دنيا ، وثق بها ، وسعى إليها ، ولم يزل يسير فى ركابها حتى أوهنه السير وقد فرغ عمره ودنا قبره . وعندئذ تبين أن نصيبه من دنياه غير مغنيه عن آخرته . فاستصغر جناه واستعظم جنايته ...

كان ينظر . أخريات أيامه إلى ماله ويقول :

« من يأخذ هذه بأوزارها ... »

وكان يحس الندم فينزع إلى التوبة التى عساها تخفف عنه عند ربه ، فيدعو:

«اللهم إنك آتيت عمراً مالافإن كان أحب إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله . وإنك آتيت عمراً ولدا فإن كان أحب إليك أن تثكل عمرا ولده ولا تعذبه بالنار فأثكله ولده . وإنك آتيت عمرا سلطانا فإن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه ... »

وحين دنا أجله بعد أعوام ، وحوم الموت عليه ، وعاده ابن عباس يسأله حاله :

« كيف أصبحت ، أبا عبد الله ؟ .. »

قال :

« أصبحت وقد أصلحت من دنياى قليلا ، وأفسدت كثيرا . فلو كان ما أصلحت هو ما أفسدت لفزت . ولو كان ينفعنى أن أطلب طلبت . ولو كان ينجينى أن أهرب لهربت ... فعظنى بموعظة أنتفع بها يا ابن أخى .. »

فرد زائره :

« هيهات ، أبا عبد الله ! ... »

وعندئذ رفع إلى السماء وجها غشاه يأسه ، ودعا الله :

« اللهم إن ابن عباس يقنطنى من رحمتك ، فخذ منى حق ترضى ؟ . . »

غير أنها دعوات من ضاق جهده ، وفتر أيده ، وأعجزته الحيلة ، وتقطعت به كل وسيلة عن طلب دنياه وتلمس المزيد فى الحياة . . . ولو قد كان يحسب فى هذه الآونة أن العمر موصول ، والبقاء مأمول ، لرجا أن ينال من الدنيا فوق الذى نال ، ولأبطره الرجا عن الدعاء ! . . . فأما وقد بلغ حافة اليأس من العاجلة الزائلة فلا يأس إذن من رحمة الله ! . .

وكذلك أفلحت حيلة معاوية فى خدع الناس . واستغلقت نفس عمرو عن الرشاد . وبلغ الأشعث بن قيس بعض ماراودته عليه نفسه من سنين حين ارتد عن الإسلام ليشترى بالردة ملك كندة ، ويعلو بعرشه المرتقب على البلاد والعباد علوا يغذى صلفه ويشبع غروره . فما هو أن اتقى الرجل معاوية ، وأحس من نفسه أنها أصبحت محور الرحى للحوادث الجارية ، حتى يروج لقضية الحكمين وهو يحرص الحرص كله على أن يظل الأمر دائما فى يمينه ، لا يفلته . وأن يبقى الرأى لسانه لايبرم بمنطق سواه وهل ثمة امرؤ فى أصحاب الإمام يستطيع الآن أن يرد على الرجل رأيا يراه وإنه فى عيون العامة لصاحبها ، والبطل الشعبى الذى دعا وروج حتى نجحت دعواه .

لقد كان واضحا من بدء الفتنة أن معاوية لن يعدل بعمرو بن العاص حكما له ، وأن أهل الشام لن يخالفوا عن اختياره ، فهم دائما أسرع إلى طاعته وأسبق إلى الاستجابة إليه من نفسه وإن دعاهم لباطل وهم كما قال فيهم عمرو الذى ذاق حلوهم ومرهم : « أطوع الناس لمخلوق ، وأعصاهم للخالق ! » . . وكان واضحا أيضا أن أهل العراق سيمضون على مزلقهم فلاخيرة لهم غير الأشعث إذا شاء ، أو من يرى لهم ترشيحه ، إن أبى هو أن يكون حكمهم المختار . فهم قد ساندوا رأيه ، واجتمعوا على إنفاذه ، وغرهم منه أن أتاهم من مأمنهم فكانت دعوته « كتاب الله » وإنهم لقوم تدارسوا الدين وقرأوا القرآن . وهم على قولة

ابن العاص أيضا — الذى خبر أمرهم ، وتكشف له بالنظرة المصيبة باطنهم من خلال ظاهرهم ، وعرف ما سيكون منهم بما قد كان : « أطلب الناس للعلم وأبعدهم عنه ! » . .

واختار معاوية ، فأمن رجاله على اختياره ..

وحاول على أن يختار فحيل بينه وبين الاختيار . . وهل كان هناك من جدوى لمحاولته وقد ابتزه القوم أمره ، وغدا كل ما يربطهم به خيط كالشعرة هو لفظة « الإمرة » — إن شاءوا مدوه ، أو شاءوا قطعوه ؟ . .

٨

قالت عصابة من قراء أهل العراق :
« قد اخترنا أبا موسى الأشعرى ... »
الأشـــعرى ؟ ...

وعجب على ، وهل نسى القوم موقف أبى موسى منه قبيل الجمل ، وتثبيطه الناس عنه فى الكوفة كأنه عدو وليس بولى ؟ . . كيف يستطيع امرؤ له قلب هذا الرجل أن يمثل الإمام ، وينقل إلى منافسيه وجهة نظره فى الخلاف بأمانة ، ويقوم بالدفاع عنها وما تراه كان مؤمنا بها فى يوم من الأيام ؟ . .

لو تعقل القوم لحضرتهم لحظتهم هذه كلمات الإمام التى أرسلها للأشعرى وهو عامل من قبله على الكوفة ، يحذره تمرده عليه ، وينذره مغبة تخذيل أنصاره عنه :

« بلغنى عنك قول هو لك وعليك . فإذا قدم رسولى عليك فارفع ذيلك واشدد مئزرك ، واخرج من جحرك ، واندب من معك فإن حققت فانفذ ، وإن تفشلت فابعد ... وايم الله لتؤتين حيث أنت ، ولا تترك حتى يخلط زبدك بخاثرك ، وذائبك بجامدك ، وحتى تعجل عن قعدتك ، وتحذر من أمامك كحذرك من خلفك ... ... » .

لكن العامل المتمرد لم يرفع حينذاك ذيله ، ولم يشدد مئزره ، ولم يخرج ملبيا دعوة أميره للجهاد حتى أعجل عن قعدته تلك ، ودخل الأشتر الكوفة وافداً من لدن على فأثار أهلها عاملهم الذى هرب ، ثم اعتزل لا يدلى فى نصرة أمير المؤمنين ولو بكلمة ! . .

فكيف اليوم يختاره الناس حكما يمثل الإمام ؟ .

من وراء هـذا الاختيار الأشعث بن قيس — لا ريب . فهذه إحدى الحلقات من سلسلة مؤامرته الطويلة التى بدأت يوم استماله عتبة بن أبى سفيان إلى اعتناق فكرة السلم بالملق والمداهنة والتعظيم . ثم امتدت حين وقف ليلة الهرير يحذر جنود العراق الفناء إن هم استمروا فى الحرب . ثم اتصلت بتهافته على دعوة القرآن التى ختل بها معاوية أعداءه عن النصر . ثم ارتبطت بحلقة جديدة وهو يبتز عليا سلطانه الفعلى وقد روج بين أنصاره للدعوة المخذلة ثم وقف بعدها يظاهرهم حتى هزوا سيوفهم توعداً فى وجه إمامهم ليرضخ أو يقتلوه . وها هو الآن وقد بلغ أوج نفوذه الذى ترتضيه نفسه الكلفة بالاستعلاء ، وباتت كلمته العليا ، يبخل أيضاً على أمير المؤمنين بالحق الطبيعى الذى يستطيع أصغر أجناده ممارسته ، ألا وهو حقه فى اختيار من يمثله . . .

وقال على وعجبه لا يغيض :

« إنى لا أرضى بأبى موسى ، ولا أرى أن أوليه . . » .

فإذا العصابة تنبرى له معارضة ، على رأسها الأشعث بن قيس ، وزيد ابن حصين ، وفريق من أشياخ القراء الذين أمعنوا من بعد فى عداء الإمام حتى تقدموا يقاتلونه :

« إنا لا نرضى إلا به ! . . » .

فما أقرب قاع الأنفس البشرية لا تكاد المحن تحرك ماءها الضحل حتى يتكشف ما جهدت لتخفيه فى الأغوار ! . . وما كان أشد عبث الأهواء بضمائر الناس ! بالأمس القريب ، وقد دعاه على ليلحق به ليطفىء معه فتنة البصرة التى شبها عليه أصحاب الجمل ، تردد الأشعث ، وخشى وهو الكلف بالسلطان والنفوذ ،

ألا يجد لنفسه مكانا مرموقا فى دولة الإمام ، وأن يقصيه عن عمله بأذربيجان كما أقصى غيره من ولاة عثمان ، فراودته نفسه على التماس دنيا معاوية ، وقال لخاصته :

« إن كتاب على قد أوحشنى . وهو آخذ بمال أذربيجان . وأنا لاحق بمعاوية . . . »

فلولا أن ثبته صحبه ، وخوفوه أن يصبح « ذيلا » لأهل الشام هو الذى يطمح إلى مكانة « الرءوس » لفر إذ ذاك إلى مغانم ابن أبى سفيان . .
فما الذى يربطه اليوم بالإمام وقد غدا وحده « الرأس » الذى تنتهى إليه طاعة بقية الرءوس ؟ . .

وبالأمس القريب أيضا كان زيد بن حصين يشتمل حمية ، ويتحرق حماسة إلى مقاتلة معاوية دون أن يسمع منه أو يصل جوابه على دعوة الإمام بالتزام الجماعة فوقف يصغى إلى مقالة عدى بن حاتم بالتريث وهو برم ، ضيق النفس ، مغيظ . . . يقول عدى :

« يا أمير المؤمنين . . . إن رأيت أن تستأنى هؤلاء القوم وتستديمهم حتى تأتيهم كتبك ، ويقدم عليهم رسلك فعلت . فإن يقبلوا يصيبوا ويرشدوا ، والعافية أوسع لنا ولهم . وإن يتمادوا فى الشقاق ولا ينزعوا عن الغى فسر إليهم وقد قدمنا لهم العذر . . . »
فيندفع زيد يسفه الرأى :

« . . . أما والله لئن كنا فى شك من قتال من خالفنا لا يصلح لنا النية فى قتالهم حتى نستديمهم ونستأنيهم . ما الأعمال إلا فى تباب !... ولا السعى إلا فى ضلال ! . . . إنا والله ما ارتبنا طرفة عين فيمن يبتغون دمه ، فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم ، القليل فى الإسلام حظهم ، أعوان الظلم ، ومسددى أساس الجور والعدوان ؟ . . »

وعندما يحاول بعض أصحابه أن يحد من غلوائه :

« أكلام سيدنا عدى بن حاتم تهجون ؟ . . » .

يسارع بالرد عليه :

« ما أنتم بأعرف بحق عدى منى ، ولكنى لا أدع القول بالحق وإن سخط الناس ! . . » .

أما اليوم فهو غيره بالأمس ، وما كان حقاً أبلج لا يداهن الناس فيه ، ويجبههم به وإن أسخطهم ، تنحرف نفسه فيراه الباطل الذى لا باطل سواه ! . .

ويحاول على ، بكل حجة ممكنة . حمل هذه العصابة الغالية فى معارضته ، على التزحزح عن رأيها ، الذى لا يستند إلى منطق ، ولا إلى دعامة من ماضى مرشحها الأشعرى ، ولا إلى ضرورة تقضيها طبيعة الحوادث الجارية :

« إنه ليس لى برضا ... قد فارقنى ، وخذل الناس عنى ، ثم هرب حتى أمنته ... ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك . . » .

فكأنما قد ختم على قلوبهم الشيطان فآثروا العنف وإن أودى بهم إلى خسران كل ما قاموا فيه . وما جاهدوا من أجله وإن قضى أيضا القضاء المبرم على أميرهم الذى كانوا يرونه إلى الأمس فقط ، المأمون على الدنيا والدين ...

يثورون به وقد عدموا مجرد القدرة على تخير اللفظ الذى يؤدى ولا يسيء :

« والله ما نبالى أ كنت أنت أو ابن عباس ! . . لا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر .. » .

بهذه الخشونة وهذه الجلافة واجهوه . ومعهما أيضا بالرأى النكفىء المقلوب الذى يصيب قضيتهم فى مقتل يستعصى على وسائل العلاج والمداواة ، ويهدمها من قواعدها هدما ينقض فيها كل جدار ، وكل حجر ، وكل حصاة ! .

فهل كان عمرو بن العاص رجلا هو من معاوية ومن على سواء ! . .

أم هو العناد والعنت وعمى القلوب والعقول ...

لمن شاء أن يعجب فليعجب لهذه الطائفة كيف تحرم على أميرها ما تحله لعدوه ، فتأخذ عليا بوجوب اختيار حكم له « محايد » ثم لا تدع له حرية الاختيار ، بل تملى عليه رجلا هو أدنى إلى عدائه ، أو هو أدنى إلى خذلانه وفى ماضيه

ما ينضح بهذا الخذلان ، بينا قد أباحت معاوية اختيار حكم أحرص منه على مطامعه ، وأكثر الناس انغماسا فى شأنه إلى أذنيه ! . .

ولمن شاء أن يعجب فليعجب أيضا لهذا الأشعث بن قيس — الذى دس وتآمر وأمر بالرأى السفيه الخبيط يضعه له الشغب والسلاح موضع النفاذ — كيف لا تبقى له بقية من حياء تمنعه أن يلحق جريرة تدبيره بالإمام ! . . . فلقد وقف على ذات يوم ، بعد هذه المؤامرة وعقب ارتداده عن صفين ، يخطب الناس فى شأن التحكيم ، فاذا رجل من القوم يسأله :

« نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها ، فلم ندر أى الأمرين أرشد . . . »

فأرسل الإمام عينا ترمق سائله ، وأرسل أخرى اخترقت الأشعث ، وصفق بإحدى يديه على الأخرى تأسفا وهو يقول :

« هذا جزاء من ترك العقدة ! . »

فإذا الأشعث قد وجد فى نفسه الجرأة على وأد الحياء وادعاء الغباء ، وآثر أن يبدو أمام الناس كأنما الإمام لا يعنيه بقوله ، ولا يلقى عليه وعلى حزبه المتمرد تبعة هذه النكسة ، فقال فى خيلاء :

« يا أمير المؤمنين . . هذه عليك لا لك . . »

وعندئذ هاجت غضبة الحليم فى صدر على ، فثار به :

« ما يدريك ما على مما لى ؟ ! — عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين ! . . حائك ابن حائك ، منافق ابن كافر . . والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى ، فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك . وإن امرأ دل على قومه السيف ، وساق إليهم الحتف لحرى أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد ! . . »

ولم يكن الإمام ليعنف كل هذا العنف بالرجل إلا وقد أيأسه أمره ، وأعضلت به مشاقته ومشاقة قومه اليمانية الذين تابعوه فأفسدوا النصر فى الحرب ، والأمان فى السلم سواء بسواء . وبهم قامت من بعد عمد الملك الأموى حتى ثله السجم بعد سنين طويلة وأقاموا على أنقاضه خلافة العباسيين . فليس إذن بمستغرب أن تخلى سماحة الإمام المكان لمثل هذه الغضبة الثائرة وهو يلطخ الرجل وقومه بأسود

ما نضح عنه تاريخه ، وبأقذع ما جرت عنهم الأحاديث . وقديما وصف خالد ابن صفوان — حكيم العرب الذى ذكرته فى أنبيائها — أهل اليمن فقال عنهم :

« ليس فيهم إلا حائك برد ، أو دابغ جلد ، أو سائس قرد ! . . ملكتهم امرأة ، وأغرقتهم فأرة ، ودل عليهم هدهد ! . . »

وأحدث من هذا فى حساب التاريخ ردة الأشعث بعد إسلامه طمعا فى الملك الذى عدمته كندة . فقد ارتد بنو وليعة بعد وفاة الرسول ، فلما قاتلهم زياد بن لبيد الأنصارى وعضتهم سيوفه ذهبوا إلى الأشعث يستنصرون به . . .

وقال لهم وقد وجدها فرصة سانحة لتحقيق حلمه فى عرش باذخ يعيد عرش كندة القديم إلى الحياة .

« لا أنصركم حتى تملكونى . . . »

فارتضوا شرطه . وصبأ عن الإسلام . وتوجوه كما يتوج الملك من قحطان . فلما أن حسب سلطانه الجديد مانعه ، وخرج فيهم يقاتل المسلمين ، لم يلبث سوى قليل ثم تبدد غروره ، وتهاوى كبره وهو يرى قوات زياد تضيق عليه الخناق حتى تحصره فى حصن لجأ ورجاله إليه . . وعندئذ تدبر أمره فآثر أن يشترى حياته بالغدر وإذا هو يستأمن للمسلمين فى غفلة من قومه ، على نفسه وعلى عشرة من أهل بيته ، ثم يفتح الحصن ، ويبيح « أعداءه » دماء رعاياه !

كبا به مرة طموحه إلى السلطان على حساب الدين ، فما له اليوم لا يحاول ممارسة نوع شبيه على حساب على ؟ . . لا تلوم ولا حريجة ، فطبعه الغادر بهذا كفيل ! . .

٩

وقف الإمام فى وجه السيل . . . ليست هذه بوقفته الأخيرة فلسوف يقف لسيول وسيول . إن محنة صفين قد فتحت ثغرة فى هيبته التى كانت تؤلف سدا هائلا يقوم بينه وبين الناس ، أخذت تتدفق من خلالها المشاقة والاجتراء والعصيان ، يوما يوما ، إلى آخر خلافته . . .

ولكنه لم ين عن بذل النصح ، ومحاولة إعادة العقول إلى الرءوس التى ملأتها الأوهام فلم تعد تدرك ولا تعقل . وهو الآن يحاول أن يخرج بالخلاف بينه وبين الداعين إلى تحكيم الأشعرى إلى ميدان أوسع ، يطل عليه ملأ الناس من رجاله ، قادة وجنودا ، أشرافا وحثالة ، ليغدو قضية عامة ، وليؤدى ما عليه من إعذار أمام الجميع . . .

وقال يخاطب الجموع وهو يبسط القضية التى بينه وبين مخالفيه الذين أبوا إلا أن يفرضوا عليه حكما بعينه يتحدث بلسانه ، وحرموه بهذا أحد حقوقه الأولية كفرد عادى ، فضلا عنه إماما له نفوذ وسلطان :

« . . . إن القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما تكرهون وإنما عهدكم بعبد الله بن قيس بالأمس يقول : (إنها فتنة ، فقطعوا أوتاركم ، وشيموا سيوفكم) . . . فإن كان صادقا فقد أخطأ بمسيره غير مستكره . وإن كان كاذبا فقد لزمته التهمة » . . .

وقد علم السامعون لا ريب هـذا التصرف الذى أتاه الأشعرى وهو عامل له على البصرة ، وما انطوى عليه من اجتراء على الأمير الشرعى للدولة لم يبلغ فحسب حد التقاعد عن نصرته بل مبلغ تخذيل الناس عنه وإنه لجريرة تقارب الخيانة . . . ومع ذلك ، فماذا كان رأيهم فى اختياره ليكون نائبا عن إمامهم عند الأعداء ؟ . .

لكأنى بتذكرة على إذ ذاك ذهبت صيحة فى مقبرة ، لا تملأ أذنا ولا تحرك جارحة ؟ . . فقد وقف الجمع يشهد ولا يرشد ، ويبصر ولا يتبصر ، وحتى أولئك القادة الذين كانوا من قبل يملأون العيون والخواطر ، ويكتبون مع على سطور التاريخ ،

قد ألقوا الآن — فيما يبدو — الأقلام ، وسكبوا مدادهم ، ثم انتظروا ما قد تسفر عنه الأمور . . . فلا الأشتر ، ولا ابن عباس ، ولا الأحنف بن قيس ، ولا غيرهم من الخاصة قاموا بدور إيجابي أمام الجماهير لتنحية الأشعري عما اختاره له الأشعث وعصابات القراء ... وما فعلوا ، على ما يظهر ، أكثر من لقاء على فرادى ، وفي خفية من العيون ، محاولين أن ينقض اختيار الرجل بعد أن أجبره المتمردون على التسليم لهم بما أرادوه ، وما أحسب تصرفهم هذا ، في مثل هذه المحنة الحازبة التي قوضت خلافة الإمام ، إلا دليلا واضحا على انفراد الأشعث بن قيس — في ذلك الوقت — بالسلطة انفرادا لا تؤمن معه مغبة معارضته والاختلاف عنه . .

وأكمل الإمام ما بدأه من حديثه :

« . . . ادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن عباس . وخذوا مهل الأيام ، وحوطوا قواصي الإسلام . . . ألا ترون إلى بلادكم تغزى ، وإلى صفاتكم ترمى ؟ . . . » .

هكذا ود لو يفيدوا — ما وسعهم ، وما أمكنتهم الظروف — من خدعة الهدنة التي جازت عليهم ، وسلبتهم وهم غافلون ثمار النصر ، فابن عباس أعرف الناس بألاعيب ابن العاص ، وأقدرهم على مفاوضته . وهذه الهدنة التي فرضت عليه فرضا هي على أية حال فسحة من زمن لا يجدر أن تتسرب وتنقضي دون أن يعملوا على استغلالها لتقوية جيوشهم ، وتنظيم صفوفهم من جديد تأهبا للقاء عدوهم ثانية إن فشل التحكيم . . .

لكنهم عموا عن رأيه ، وفشا بينهم اللغط الذي ينبىء بما اعتادوه من معارضته . مرارا عموا عنه ورفضوه ، ولم يشفع لديهم منطقه الذي لم تثبت أمامه لهم حجة ولم يستقم برهان . وكم من مرة بعد مرة حاول أن يحملهم على الاقتناع فما زادتهم محاولاته إلا لجاجا في العنت وإصرارا على الإصرار . . .

ثم يأتي الأشعث فيجهز بعنفه وعنفوانه على كل أمل في العدول عن ذلك العناد المرذول وهو لا يخفى ما تنضح به طبيعته التي شاءت أن تخرج بالأمر من قضية عامة يهم مجموعة المسلمين علاجها بما تتفق وصالحهم العام ، إلى قضية خاصة ينال

من كبريائه حلها بوسيلة لا توافق هواه ولا تفسح أمامه ساعة التعالى والاغترار ...

يقول الإمام فى بعض محاولاته :

« .. إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحدا هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص ، وإنه لا يصلح للقرشى إلا مثله . فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به ، فإن عمرو لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ، ويحل عقدة إلا عقدها ، ولا يبرم أمرا إلا نقضه ، ولا ينقض أمرا إلا أبرمه ... »

فماذا يكون رد الرجل على هذه الحجة التى تستلهم طاقات الأنفس البشرية فتعد للخصم كفوه ، المنحدر من نفس أصله ، النابت فى نفس بيئته ، التاهل وإياه من نبع كما تعد الحديدة لتطرق الحديد ! ..

إنه يثور ! .. لا يبالى تعرف المنطق السليم فى حديث الإمام أو تبين النتائج الناجمة عن إنفاذه . فلا كانت قضية ! .. ولا كانت نتيجة مرجوة ما نهض بالمفاوضة غير من شاء ، خصوصا إذا كان هذا الناهض رجلا من « قريش » يكاد هذا الغادر المريب أن يرى فى نهوضه دلالة قاطعة تدمغ « اليمن » بالقصور والهوان عن أن يسند إليها التحكيم ! ..

بمثل هذه النظرة الكابلة — بمثل هذا العمى يستقبل الأشعث بن قيس رأى الإمام فيدفعه صلفه إلى الوراء بضع عشرات من السنين إلى عصبية الجاهلية الأولى التى وأدها الإسلام . فهل حقا ثار ؟ .. أم هى الحجة المعجزة تلجئه إلى الفرار منسترا بالثورة حتى لا يحق عليه التسليم والإقرار ؟ ..

على أية حال لم تعجزه الوسيلة التى تحقق له غرضه ، وككل مكابر يغمض العين عن نور الحق حين ينبلج ، ويصم أذنه عن هتافه حين تدعوه دواعيه ، تظاهر الأشعث بالثورة ، أو زأر حقيقة وثار . فلعله غضب لنفسه وقد جرح غروره ، ولقومه وقد هانوا ، ولسلطانه الغض وقد رآه وشيك الانقصاف والذبول لو استجاب لرأى على ، وسلم لمنطقه ، وما كان قد نم بعد بهذا السلطان الإساءات ! ..

ويصيح كمخبول :

« لا والله ! — لا يحكم فيها مضريان إلى قيام الساعة ! ... »

فأى حجة هذه وأى برهان ! . .

ثم يندفع مرددا نفس رأيه القديم :

« اجعله رجلا من أهل اليمن إذ جعلوا رجلا من مضر ... »

فيجيبه على بهدوء :

« إنى أخاف أن يخدع يمنيكم ، فإن عمرا ليس من الله فى شىء إذا كان له فى أمر هوى . . »

لكن هذا التحذير الهادئ يزيده ضلالا ، فيقول :

« والله لأن يحكما ببعض ما نكره ، وأحدهما من أهل اليمن ، أحب إلينا من أن يكون ما نحب فى حكمهما وهما مضريان ! . . . »

* * *

وهكذا يكشف الأشعث خافيته فلا يخطئ امرؤ فى تبينه على حقيقته : رجلا يمكن لسلطانه ماوسعه التمكين . يستهوى الأنفس أولا ببريق دعوته المضللة للسلام . ثم ينشر هذه الدعوة حتى يغدو نبيها فى عيون الجماهير . ثم يفرض إرادته . حتى إذا غدا مؤزرا بالنزعات النفسية لم ينس أن يوفر أيضا لنفسه القوى المادية التى تضمن بقاء تحكمه فى مصاير الناس والأمور فيختار حكماً من قومه ويتحصن وإياه بالعصبية اليمنية وإن أفرادها إذ ذاك لحزب لا يستهان به فى جيش على ، وقوة غالبة فى جيش الشام . . .

هنا يحق أن نتساءل : أكان للرجل مطمع وراء التحكم ؟.. ماهى غايته ؟ . وما قصاراه من هذا التحكيم الذى قد مهد له ، ورسم خطوطه ، وابتدع له حكما من قومه صنعه بيديه هو ذلك الأشعرى اليمنى الظنين ؟

أخبال ، أم شرود مع الخيال ، أن يطمع الرجل فى إمرة المؤمنين لنفسه بعد كل هذا التدبير والتمكين ؟ . . قديما اشترى عرشا بدينه . وأمس فقط اشترى السطوة بهيبة على — بل بدولته ! . فلم اليوم — وقد اجتمعت له عوامل النجاح والقوة ، نفسية ومادية ، من نفوذ ، وسيطرة على عواطف الجماهير ، وأعوان غفيرة هنا فى هذا الفريق وأعوان تفوقها هناك فى ذاك — لا ترنو عينه إلى الخلافة وإن أحد الحكمين اللذين يملكان إلباسه طيلسانها لصنيعة يده ؟ . .

إنه أعلم باتجاه الأشعرى . . . يعلم أنه لن ينصر معاوية لأنه يرى فيه أحد طرفى الفتنة التى اكتواها السلمون كل هذه الشهور . . ويعلم أنه ينصر عليا فى غد وقد سلف منه أمس ما سلف من خذلانه . . . ولم يكن علمه هذا سراً خافياً ظل مستغلقاً على سواه ، ولا كان مما جرى فى الأفهام مجرى الظنون ، بل كان من قبيل الخبر الشائع على الألسنة ، المستقر فى الأخلاد استقرار اليقين ... نسمعه فى معسكر معاوية كما نسمعه فى معسكر على ، ونسمعه قبل أن يكتب الحكمان صحيفة التحكيم كما نسمعه بعد كتابتها . . . . . .

***

يقول الأحنف بن قيس لعلى يحدثه فى شأن أبى موسى :

« . . . قد حلبت أشطره ، فوجدته قريب القعر ، كليل المدية ، وهو رجل يمان وقومه مع معاوية . . . » .

***

وينشد شاعر من الشام ، هو أيمن بن خريم ، ينعى على أصحاب على سوء اختيارهم حكمهم :

« لو كان للقوم رأى يعصمون به ... من الضلال رموكم بابن عباس
لكن رموكم بشيخ من ذوى يمن ... لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس
أبلغ لديك عليا غير عاتبه ... قول امرئ لا يرى بالحق من باس
ما الأشعرى بمأمون ... ... »

***

ويلتقى عمر بن سعد بأبيه سعد بن أبى وقاص ، إبان اجتماع الحكمين بدومة الجندل ، فيقول له وهو يعنيه الخلافة :

« ... إنك لم تدخل فى شىء مما تكره هذه الأمة ، فاحضر دومة الجندل ، فإنك صاحبها غداً ... » .

***

ولا يكاد الأحنف بن قيس يودع أبا موسى الأشعرى إلى مقر الاجتماع ، حتى يسرع إلى الإمام يقول له :

« لا أرانا إلا بعثنا رجلا لا يشكر خلعك ! . . » .

* * *

فهل هو خيال ، أم شرود مع الخيال أن يطمع الأشعث بن قيس فى إمرة المؤمنين وقد مكن لنفسه كما مكن ، وأعد كما أعد ، وأمامه من قرائن الحال ما قد يغنى عن جواب سؤال ؟ . .

الصحيح أنه تآمر ، وأنه دبر ، وأنه احتال . ولا عبرة بعد هذا بفشله . فقد رتب المقدمات ثم خانته الخواتيم . ولو كان تدبيره كله لغير غاية رمقها من البداية فهو إذن عابث خامل ، يلهو بالسلطة ، ولا يهزه الطموح ، ولا يخايل عينه عرش كندة القديم ! . . .

١٠

ليوشك امرؤ أن يستبعد طمع الأشعث بن قيس فى خلافة كانت الناس ، إلى قريب ، تراها حقا لقريش دون غيرها من العرب . . . يوشك أن يكون هذا ، لولا أنه ، فيما أحسب ، استبعاد قد يساير النظرة الحديثة التى تنظر إلى المشكل الآن وهو غارق فى عشرات من الحجج والجدليات ابتدعتها مئات من السنين ثم لا يساير نظرة القوم الذين كابدوه حين نشوئه وعاشوا فيه . فالخلافة الإسلامية — كنظام من نظم الحكم — هى فى حقيقتها وليدة رأى وليست وليدة نص دينى ثابت لا يحتمل التأويل ورسول الله وهو يستقبل ربه ، بعد أن فرغ من أداء رسالته ، لم يوص لأحد بعده بالحكم وصية صريحة وإن بدرت منه فى أوقات شتى إشارات وتلميحات تاه أصحابه فى تفسيرها عقب وفاته بين الاحتمال والترجيح . وثمة أحاديث فيها من الصراحة ما قد يرسم لنا صورة للمستخلف بوضوح — كحديث « الغدير » وحديث « خاصف النعل » — ولكنها أحاديث «توجيهية» تهدى إلى الحقيق بالإمرة ولا تلزم الناس باستخلافه.

وحق على نفسه لم يدع الحق فى الخلافة بعهد من محمد قاطع يحبسها عليه ويحصرها فيه . بل كان يقول فى ذلك : « لو عهد رسول الله إلينا عهدا لأنفذناه . . . » .

كانت هذه نظرة القوم عامة إلى مشكل الخلافة والاستخلاف والنبي حينذاك لم يتوسد مستقره الأخير وبين هذه الحدود اضطربت الآراء من بعد ، وتشعبت شعبا ، وراح كل فريق من المختلفين يحاول أن يلتقط من أقوال رسول الله ، ومن أفعاله ، ومن تلميحه ، ومن الأحداث التى لازمت مولد الإسلام ونموه ما لعله يسند دعواه . وفى بدء الأمر كان ثمة معسكران للرأى : أولهما معسكر الأنصار ، وثانيهما معسكر المهاجرين الذى ما لبث أن انقسم على نفسه حتى فتت الخلاف كتلته القرشية ، فإذا به يغدو « بيوتا » كبيرة مستقلة إن يكن نماها أصل واحد فقد تفرقت بها فروعه . وإذا بكل بيت منها يرى الخلافة الإسلامية حقا له وحده ، ثم إذا بالبيت الواحد الكبير قد انقسم أيضا إلى « أسر » كل منها تنفرد بالعمل لحسابها الخاص .

وليس يعنينا هنا تتبع هذه الانقسامات فى الأعصر وما تفتقت عنه من الفتن والدول والدويلات . ولكننا نعود بها إلى نواتها الأولية يوم خرجت إلى الوجود ورسول الله مسجى على فراشه . فحينذاك لم ير الأنصار ضيرا فى التطلع إلى تقلد السلطان الزمنى الذى بات لزاما على المسلمين إقامة بنيانه بعد أن رسم لهم محمد خطوطه وأرسى قواعده . ولقد شجعهم لا ريب على هذا التطلع أن الإسلام وضع أهله جميعاً فى مكانة سواء ، ولم ينص على حصر الحكم فى طبقة بعينها أو أسرة بذاتها دون سائر الأسر والطبقات . وشجعهم أيضا دورهم الفعال فى نصرة الرسول مستهل الدعوة حين عز النصير من قومه ، وما كان من فضل هذا الدور فى استفحال شأن الدين واشتداد ساعده حتى بطش بالشرك فى الجزيرة العربية ودان له الناس . فالأنصار إذن وقد تقدموا يرنون إلى قيادة الدولة الجديدة الناشئة إنما يتقدمون ولهم صحيفة تزكيهم ، فيها « العمل » الذى أسلفوه ، الكاشف عن اقتدارهم على القيادة الزمنية ، الجدير بالثناء والجزاء ، وفيها « المبدأ الدينى »

الذى لا يميز بين المسلمين ولا يفرق بين طبقاتهم وأجناسهم وإنما يجعلهم جميعا سواء . . .

لكن هذه النظرة التى تدنو نوعا من التحرر اصطدمت فورا بأخرى تقابلها قد غلب عليها الخضوع للأحياز وكان من مبادئها تقييد « الأهلية للحكم » وحصرها فى حدود وشروط . فما اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة وهم رأيهم يجتمع على البيعة لسعد بن عبادة رئيسا سياسيا للدولة حتى انطلق رجال من المهاجرين إليهم يحاولون ثنيهم عما اعتزموه . وكان الناطق بلسان هؤلاء أبا بكر ، ومن ورائه وقف صاحباه أبو عبيدة وعمر يسندانه . وكان الرأى المناوئ الذى جاءوا به هو تضييق نطاق تلك الأهلية للحكم بالعدول عن التعميم إلى التخصيص ، وعن العرب إلى المهاجرين ، وعن المهاجرين إلى قريش ، وعن قريش إلى أدناها من الرسول .

واضطرب الناس ذلك اليوم بالسقيفة حتى لكادت الفرقة توقع بينهم فتنة لا تحمد مغبتها لولا تيقظ الخلاف التاريخى القديم بين الأوس والخزرج وانبعاثه من رقدته ، وعندئذ تفتتت وحدة الأنصار ، وتراخت قبضتهم على الخلافة فافلتوها وهم يرون السلامة — من انقسامهم ، ومن فتنة قد تصيب الأمة عامة — فى البيعة لقريش بالزعامة السياسية على العرب فى شخص أبى بكر الصديق .

حتى على فى هذه الآونة كان يرى رأى أصحابه أولئك من المهاجرين ولا ينكر منهم إلا خروجهم على ما دعوا له وألزموا به الأنصار من شروط . فلقد جاءته الأنباء بالحادث ، وما أدى إليه من استخلاف أبى بكر ، فسأل من أنبأوه :

« ما قالت الأنصار ؟ . . »

« قالت : منا أمير ومنكم أمير . . »

« فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله وصى بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم ؟ . . . »

« وما فى هذا من الحجة عليهم ؟ . . »

« لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية بهم ! . . . »

« فماذا قالت قريش ؟ . . »

« احتجت بأنها شجرة الرسول . »

وعندئذ قال :

« احتجوا بالشجرة ، وأضاعوا الثمرة ! . . »

ولقد أضاعت قريش « الثمرة » حين فوتت على على ما يراه حقه فى الخلافة إذ هو أدنى مهاجرى قريش حسبا ونسبا وقلبا من الرسول . ولكنها لم تر فى هذا ما قد يحسب عليها جريرة إذا ما قيست الجرائر بمقاييس النصوص الصريحة ولم تقس باجتهاد الرأى فى التأويل والمفاضلة والترجيح . فإن هو إلا رأى ارتأته إبان داهمة ، وما ثمة سند « رسمى » كان يلزمها البيعة لعلى وإن وضعته شروطها هى على رأس قائمة الحقيقين بالخلافة . . .

والذى لاشبهة فيه أن نظرة أبى بكر كانت دعوة صريحة إلى « أرستقراطية » الحكم لا ينكرها الدين وإن نجد اليوم من عساه ينكرها بين مروجى المبادىء الشعبية التى لا ترى قط افتراض حصر الرئاسات فى أسرة من الأسر أو فى طبقة من الطبقات . وهى فضلا عن أرستقراطية مظهرها قد توسلت أيضا بوسيلة مثلها أرستقراطية لتبلغ حظها من التحقيق . فما كان لعامة الناس رأى فى اختيار الخليفة ، ولا هم دعوا المشاركة فيه ، بل قد دعوا بعد الاختيار للموافقة والإقرار . وحين نعرض لاختيار أبى بكر ، ومن بعده لاختيار عمر وعثمان ، نرى « الخاصة » من المهاجرين والأنصار ، فى مجتمع المدينة دون غيرها من البلاد الإسلامية ، هم وحدهم الذين يبدأون البيعة فتبرم برأيهم إمرة المؤمنين ولا يبقى بعدهم لأهل بقية المدن والأمصار إلا قبول الاختيار . . .

فلتكن إذن هذه الخاصة التى نصبت نفسها لاختيار الخليفة نوعا من « المجالس النيابية » أسفر عنه « الانتخاب الطبيعى » فى مجتمع قبلى ، يتبع العرف والتقاليد ولا يعرف من أساليب الانتخاب الوضعية ما نعرف الآن . . . وليكن رأيها ممثلا للرأى العام ، محققا لرغبة الشعب إذ هى قادة الرأى فيه ، ومناط رجائه فى أمور الدنيا والدين — ليكن هذا ، ولتكن هذه . ومع ذلك فإن « المظهر الشعبى »

لانتخاب الخلفاء لم تتضح ملامحه إلا عندما « انتخب » على أميرا للمؤمنين بعد مصرع سلفه . فهذا الرجل الذى اجتمعت الآن الأهواء على حربه ، وتنكر له رجاله ، لم تنفرد باختياره الخاصة فى مجتمع محدود ، بل انتخبه أقوام من المدينة ، والبصرة ، والكوفة ، ومصر — أمهات بلاد الإسلام وأقطاره — كانوا يمثلون إلى حد كبير التيارات السياسية الشعبية .

هذا المظهر الشعبي الذى اصطبغ به انتخاب على هو فى الواقع نكسة شعبية أصابت الاتجاه الأرستقراطى الذى استن يوم السقيفة وأدى إلى اختيار الصديق . وهو تحرر جزئى وخطوة نحو الانطلاق . وإذا كانت هذه النكسة لم تمس مبدأ الاختيار ، ولم تهدم الحدود والقيود التى تحميه ، فإنها غيرت أسلوب التطبيق . وإذا كان الزمن لم يمتد بهذا التحرر ليسير فى طريق التطور الطبيعى ، وينمو ، ويبلغ اكتماله ، فرد الأمر إلى نكسة أرستقراطية مفاجئة ، عصفت به وهو وليد ، وأقامت على أشلائه الطرية الغضة ملكا عاتيا متوارثا لامجال فيه لانتخاب ولا اختيار . . .

كان انتخاب على إذن وسطا بين النظرة الأرستقراطية التى دعا لها أبو بكر وبين النظرة الشعبية التى دعت لها الأنصار فالأمة « عامة » — ممثلة فى أقوام من أقطار دولتها — قد انتخبته من « طبقة » محددة ، لها ما يرجح كفتها على بقية الطبقات حين لا تحسب المزايا بحساب التقاليد المرعية ، والنفوذ الأدبى ، والصلة بالرسول . والشعب الذى شارك فى انتخابه قد وجد فى هذه المشاركة متنفسا لرغباته ، واكتسب لنفسه حقا طبيعيا ، لم يكن له من قبل ، هو حق الانتخاب . . . ومع ذلك ، وحتى تلك اللحظة ، فإن الخاصة لم تكن لتقر هذه النزعة السياسية الجديدة ، وظلت ترى أن حق اختيار الخليفة وقف على طليعة المؤمنين وحدهم بالمدينة ، وتجعل تبعا لرأيهم بقية الآراء .

وما من شك فى أن رأى الخاصة ، وإن خالف الاتجاه الشعبي فى مظهره ، إنما كان يهدف مخلصا إلى الصالح العام للدولة الإسلامية الناشئة ، التى لم يمض على بنائها سياسيا إلا سنوات قليلة ، توفرت لها خلالها بعض مقومات الدول منذ جمع رسول الله من عناصر المجتمع المدنى المضطربة وحدة متسقة ، يحكمها قانون

مرسوم ، وتتركز آمالها جميعاً فى غاية واحدة لا تتهاون فى الدفاع عنها ولو بقوة السلاح . ويوم دعا أبو بكر لنظرته لم يكن فيما نحسب داعية يؤيد الأرستقراطية لذاتها ، ويوم تابعه أصحابه على هذا الرأى ، إبان عهده ومن بعده ، لم تكن متابعتهم فى حقيقتها الظاهرة والخفية تنكرا للشعب ، ولا انتصارا للخاصة فيه على حساب عامته ، وإنما كانت الدعوة والمتابعة كلاهما امتثالا لحكم الظروف المحيطة بدولتهم الجديدة . فالبناء حينذاك لم ترتفع منه إلا قوائمه . والدين الغض جب كثيرا مما خامر العقول والنفوس من العرف والعادات والتقاليد . والمبادىء الإسلامية قد تترنم بها الألسنة ولكنها لم تتعمق غالبية القلوب . . . لذلك كان أدنى إلى المنطق ، وأليق بمقتضيات الحال ، وأقرب إلى تحقيق الصالح العام للأمة أن يكمل البناء من شاركوا فى وضع قواعده ، وأن يحمى الدين من ثورة التقاليد المكبوتة من ناهضوا من البدء هذه التقاليد ، وأن يرسى مبادىء الاسلام فى القلوب من أشربوها ولم تنل منهم المحن والخطوب . .

فهل كان عجبا إذن — وقد اجتمعت كل هذه المزايا لقريش — أن ينادى لها بالزعامة السياسية فى وقت كانت العرب فيه لا تنكر عليها صدارة الناس ؟.. أو أن يلاقى النداء صداه فى النفوس التى عاشت طويلا تؤمن بالنفوذ الروحى لقريش منذ كانت لها ولاية البيت الحرام فى الجاهلية ثم من بعد إذ غدت موئل النبوة فى الاسلام ؟ . إنما العجب أن تفشل الدعوة وأن يتبدد النداء ولامتقبل فى الجزيرة العربية ولا مستجيب . . وإنما الأعجب بعد هذا أن يظل النداء يتردد وأن تظل النفوس تتقبل ، والعالم منذ مولد الدعوة تتكشف للعرب مجاهيل بقاعه ، وتتدانى أباعد رقاعه فتمد النظرة وينفسح الأفق أمام المفكرين والأفكار . . .

جيل جديد من الناس يبرز الآن من الأغمار . عنصر جديد . أخلاط من الشعوب التى احتواها الإسلام فى ذراعيه من بحر الهند إلى البحر المحيط ، ومن جبال القوقاز وسهول التركستان إلى هضبة النوبة بجانبى النيل . . . إن ثلث قرن من الزمان قد أتى بأحداث غيرت الأرض والبشر . فالدولة الناشئة لم تعد محصورة — كبدئها — بين أسوار بلدة صغيرة ، بل انسابت أماما وخلفا ، ويمنة

ويسرة ، تأكل العالم ، وتهدم الحدود كأنها طوفان . انتشرت تسرح كالنار وتفيض كالنور . استطاعت بين قرنى الشمس ... والشعب الإسلامى لم يعد فحسب عربا أطلعتهم الرمال ، وروتهم العيون والآبار ، ولا بدوا تخبطهم المحل فمرة جيرة الفرس ومرة جيرة الروم ، بل غدا أمما جمة ، تتناثر فى المشرق والمغرب ، وفى الشمال والجنوب على وجه ذلك العالم القـديم المعروف ، وتختلف بها الأصول والعناصر والألوان ، فتتباين فهما وفـكرا وعاطفة ... وبعد أن كانت «المدينة» خلال عهود الخلفاء الثلاثة الأولى حاضرة الدين والسياسة ، ومهوى القلوب والعقول والأنظار من أنحاء الدولة ، خبا ضياؤها لا يخطف ، وخفت صوتها لا يطاع ، وأشرفت على جيلها الثانى وهى بلدة فى عمر البلدان ! ..

تلك الثورة على عثمان أنزلتها من علياء عزها المؤثل . فقد هانت حتى اقتحمها أهل الأمصار ، ومن لاذ بهم حينذاك من عبدان ، وحكموا فيها بشرعة الثورة لا بشرعه التقاليد . الهيبة التى كانت تصدهم عنها غدت خيال غابر ، كثيف الظلال ، خفيف الأضواء ، والنفوذ الأدبى الذى تسربلته منذ عهد الرسول رث كأسمال . فالذين أسهموا فى بناء مجدها أكلت منهم الفتوح فغابوا عنها فى ثرى غريب ، أو استهوتهم العوالم الجديدة التى غزاها الإسلام فهاجروا إلى الخير والدعة والثروة . والذين مكثوا على أديمها تربطهم بها بقية من وفاء للغابر ظلوا قعودا شهودا لا يمنعونها عن مقتحميها ولو بإشارة بنان . بل إن منهم لمن أعان عليهم بحرض ونفخ فى النار يؤازر الثوار ...

وحين تذكر الثورة تذكر المساواة . فما هى إلا نتاج هذه التعاليم الجديدة التى طلع بها ذلك الدين الجديد على عالم من العبيد تملكه حفنة من الطغاة . فيها وجد الذليل عزه ، والخائف أمنه ، والضعيف قوته . وبها تحرر الأسود والهجين والأصفر من معرة الجلود والأبشار . وحيالها أصبح الناس سواسية ، لا فضل لأحدهم بعنصر ولون ، ولا بأصل وقبيل . . . وحين تذكر المساواة فقريش إذن على مكانة سواء ومن داناها ومن باعدها من رحل الصحارى ، وبدو العراق ، وبربر إفريقية ، وأهل الجبال فى هضاب آسيا ، وفالحى الأرض بشاطئ النيل . . .

كانت المساواة هى القبس الذى استضاءت به أذهان الناس فى البلاد الإسلامية . ثم استوى شعلة ، ثم توهج وتأجج نارا غضبى راحت تأكل الفروق الطبقية التى استطاعت لذروتها فى أخريات أيام عثمان . ولم تذد قريش حينذاك عن تراثها — عن تلك النظرة التى ارتآها لها أبو بكر يوم السقيفة وبوأتها سلطانها السياسى على الدولة الناشئة إلى جوار ذلك السلطان الروحى الذى استمدته قبله من ولاية البيت الحرام فى الجاهلية ، ومن ولاية النبى فى الإسلام. كان منها ، حقا ، من تقدم إلى اللهيب يحاول أن يطفئ نائرته ، ويهدئ ثائرته . ولكن أكثرها كان يشهده وهو ساكن أو صاغر ، وبعضهم كان يذكيه بالتحريض أو بالتآمر . فلما أن طعن عثمان وقضى نحبه ، لم تكن الطعنة التى أصابت خاصرته بأنكى من تلك التى أصابت قريشا قبيلته وذهبت بهيبتها مع الدم المراق .

إنه لأدنى إذن إلى مطابقة منطق الأمور — بعد هذا كله — أن يرنو إلى الخلافة كل ذى عين تستطيع أن ترنو ، وقلب يعرف كيف يطمح ، وذهن قدير على المكايدة والتدبير . أيما امرىء وسعه أن يفعل فلا حريجة ولا جناح ما اجتمعت له مقومات الطموح وأسناده ، يستوى فى هذا من شبه الرمل ومن أنبتته الظلال ، من انحدر من خاصة ومن كان من عرض الناس . . . فسلطان المدينة تقوض ، وهيبة قريش تهاوت ، وتلك الهالة حول أرستقراطية الحكم قد محاها التطور الفكرى وذهبت بها الانفعالات الشعبية . . . القوة الآن حيثما تكون القوة لا حيثما كانت التقاليد . وميزان التفوق هو الأسناد المادية وليس العاطفة الدينية . . .

١

جرى حديث الصحيفة الصفراء :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . .

هذا ما تقاضى عليه على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وشيعتهما ، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه . قضية عليّ على أهل العراق ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب ، وقضية معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب .... »

وبمثل هذه الفاتحة يدأو التحكيم . . .

فلولا أن استهلوا الوثيقة باسم الله لحسب المسلمون أنهم طووا زمانهم إلى الخلف جيلا حتى وقف بهم عند « الحديبية » يطالعهم فيها عنت قريش بلسان صاحبها « سهيل بن عمرو » وهو يملي عليهم مشيئة الجاهلية التي استسفرته لعقد الهدنة وكتابة عهدها حينذاك . . . فما عدا مما بدا ! . . . وما خالف الخلف عن سلفه كأنهم شخوص وظلال ! . .

كما أبو أمس أن يلحقوا النبوة باسم محمد أبوا اليوم أن يلحقوا الإمرة باسم على وإن علموا أنما قد بايعه بها الذين بايعوا قبله أبا بكر وعمر وعثمان . وهل يضيرهم وقد تأثروا خطا الآباء ؟ . . وهل يعضل بهم أن ينكروا عليه ما قلده الناس وسلفهم قبلهم أنكروا على ابن عمه الكريم ما قلده الله ؟ . .

يهول معاوية أن رآهم يلحقون الإمرة باسم خصمه في وثيقة التحكيم ، فيقول :

« بئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ! . . »

ويعقب صاحبه عمرو ، مخاطبا من كتب :

« اكتب اسمه واسم أبيه ! . . إنما هو أميركم ؛ وأما أميرنا فلا ! . . »

ويتلبث على مليا يفكر ، حين جاءوه بالصحيفة الصفراء ليمحو اللفظة التي هالت ابن أبي سفيان ــ يتفكر هادئا في غير ضيق ، وفي سخرية وترفع . وهل ينقص

المحو منه ؟ . . وهل يزيد الإثبات فيه ؟ . . . إنما كان ذهنه يكر به إلى أطياف الماضى ، من جيل ، إذ راح يكتب لرسول الله ، بجانب ماء الحديبية ، عهد الهدنة ، فيعنت سهيل ، ويحلم محمد ، ويمحو هو وإنه لكاره حتى تجيء الصحيفة على الهيئة التى يرضاها هوى سهيل ومن يعشوه . . . راح يكتب والنبى يملى عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . »

لكن سفير الجاهلية أبى :

« لا أرضى ! . . . اكتب : باسمك اللهم . »

فأمره الرسول :

« اكتب : باسمك اللهم . »

ففعل . محا وأثبت .

ثم كتب :

« هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . . . » .

فاعترض سهيل : « لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ! . . اكتب اسمك واسم أبيك . . . » .

وعندئذ غضب على :

« بلى والله ! . . إنه لرسول الله وإن رغم أنفك ! . . . »

غير أن محمدا يأمره :

« اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ... »

وكأنما يتبين النبى فى وجه ابن عمه التردد ، فيهدئ من روعه ، ويعيدها عليه :

« اكتب ما يأمرك ... إن لك مثلها . ستعطيها وأنت مضطهد ! . . . »

وهو يوشك أن يعطيها الآن ! . .

ويقبل عليه الأحنف بن قيس فى لهفة . الجزع فى قلبه ، والغصة فى حلقه ، والحزن يتواتر على وجهه ظلالا كثيفة دكناء :

« يا أمير المؤمنين ! . . لا تمح اسم إمرة المؤمنين عنك ! . . لا تمحها . . »

فيبتسم له .

ويعاود الرجل الجزع الرجاء والتحذير :

« لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضا ... إنى أخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبدا ! . . »

ثم يقبل عليه الأشعث . فى خطوة اختيال ، وفى قلبه خيانة ، وفى عينه تجبر... يقول باستعلاء :

« امح هذا الاسم ! . . »

فيبتسم أيضا له .

« امح هذا الاسم ! . . »

وفى سخرية وترفع يرمقه الإمام بعين لا تكاد تستقر هنيهة على شعثه حتى تنفلت تقززا ، إلى وثيقة التحكيم الصفراء فتنفذ منها إلى صحيفة الحديبية وعنت سهيل ، وحلم الرسول . . . ما عدا مما بدا ! . . الأمس واليوم فى لحظة ! . . السلف والخلف فى فرد ! . .

ويهتف على فى إيمان وتسليم :

« لا إله إلا الله والله أكبر ! . . سنة بسنة . . . »

ثم لا يأبى على المنت ما شاء ، فيمحو ويثبت . . . ويقول :

« أما والله لعلى يدى دار هذا الأمر يوم الحديبية حين كتبت الكتاب عن رسول الله . . . فاليوم أكتبها إلى أبنائهم كما كتبها رسول الله إلى آبائهم سنة ومثلا . . . »

٢

الأشعث ليس يسعه ثوبه !... انتفخ من فرح . وبدت على وجهه صولة الظافر وهو يلوح في يده بالصحيفة الصفراء كأنما قد ملك مفاتيح المجد . . .

وحق له ! . . فالقوة الآن في عينه : اليمن في ظهره . ودعاة المدنة . والمخدوعون . وكل منافق . وأصحاب الدنيا الذين تخايلهم مطامع السلام . ومن نهكتهم الحرب وأفزعتهم الدماء . . . وأمام عينيه ، إلى هذا كله ، دنيا فسيحة من أحلامه .

غدا الرجل سيد الموقف . الأمر له . والنهى له . لا راد لما أراد ، ولا معقب عليه . . . أكره عليا فقر السلاح . وأكرهه فكان حكمه من ذى يمن . وأكرهه فاعت إمرته من الصحيفة . والناس من وراء هذا شهود قعود ، من رضى فأقر ، ومن أكره فصبر سواء بسواء . . .

حتى الصفوة المختارة من رفاق الإمام وذويه اتسعت رقعة كتاب التحكيم لأسمائهم ، يذيلونه بها ، ويشهدون على أميرهم وشيعتهم وأنفسهم بما فيه . . . ليس عن تخاذل كان توقيعهم ، ولا عن فتور إيمان ، ولكنهم انحنوا للعاصفة ، وانساقوا مع التيار . . . وعند ما دار الأشعث بن قيس ، يضع الوثيقة تحت أقلامهم ، كانت في قلوبهم حسرة ، وفي حلوقهم مرارة ، وخلف أجفانهم للرغبة قطرات دموع تهم أن تسيل مع الحبر . .

ومد الأشعث بالصحيفة يده إلى الأشتر ، ليشهد كرفاقه . فإذا هو ينكمش ، وينأى كأنما مدت إليه حية . . . ثم يصيح في إنكار :

«لا صحبتنى يمينى ، ولا نفعتنى بعدها شمالى إن كتب لى فى هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادعة ! . . . » .

وبدت السخرية فى عين الأشعث ، ثم رد فى صلف واستعلاء كأنما يأمر :

« هلم فاشهد ! . . »

« أشهد ! . . أو لست على بينة من ربى ، ويقين من ضلالة عدوى ؟ . . أو لستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الجور ؟ . . »

فجاءه الرد ثانية ، قد أتخمه الغرور ، وقطرت من حروفه خيلاء صاحبه ، وكبره ، وعجبه بمقداره :

« هلم فاشهد على نفسك ، واقرر بما كتب فى الصحيفة ، فإنه لا رغبة بك عن الناس . »

وعندئذ ثار الأشتر ، واندفع جوابه كالحمم الملتهبة :

« بلى والله إن بى لرغبة عنك فى الدنيا للدنيا ، وفى الآخرة للآخرة ! . . ولقد سفك الله بسيفى هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندى ولا أحرم دما ! . »

وتقبضت يده على مقبض سيفه ، وانادلع من عينيه مثل الشرر . . . وما يمنع وبال غضبه عن هذا للشاء بالحور ، المدل بضلالة ؟ . . لولا أن يعصى إمامه — ولولا أن تكون فتنة جديدة لا يحتملها هذا الجيش الذى مزقته الفتنة ، لسل وقتل ، وألحق الغاوى المغرور بالغابرين . . .

وانكمش الأشعث فى جلده ! . . واستخزى . وتغير وجهه بمثل الرماد . . . وقيل للإمام :

« إن الأشتر لم يرض بما فى هذه الصحيفة ، ولا يرى إلا قتال القوم . . . »

فلم يغيره القول على صفيه الوفى . بل قد بدا كمن استشف من الخبر وقيمة نسجوا خيطها لتنفصل بينه وبين صاحبه ، فرد يلومهم ويثنى عليه فى آن :

« وأنا والله ما رضيت ، ولا أحببت أن ترضوا ! . فإذا أبيتم إلا أن ترضوا فقد رضيت . . . »

ثم انثنى يبين لهم وفاءه لعهده وإن أكره عليه ، وثقته فى رفيقه وإن دسوا له :

« . . . لا يصلح الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديل بعد الإقرار إلا أن يعصى الله ويتعدى ما فى كتابه . . . بلى ! .. إن الأشتر ليرضى إذ رضيت . وأما الذى ذكرتم من تركه أمرى وما أنا عليه فليس من أولئك ! . ياليت فيكم مثله اثنين ! . . يا ليت فيكم مثله واحدا يرى فى عدوى ما أرى ! . . إذن لخفت على مؤونتكم ، واستقام لى بعض أودكم ، لكن — نهيتكم عما أتيتم ، فعصيتمونى . . . . . »

على أن هذا كله لم يوقع الندم فى قلب الأشعث ، ولم يكفه عن اختياله . . .
إنما نضح بما فيه ، وفضح خافيته . فلقد مضى على عجل ، الصحيفة بيمينه ، والبشر على ثغره ، والزهو فى لمح عينيه ، يدور على الجيشين فيقرأ عهد التحكيم الذى أنجبه اليوم تزاوج حرام بين النفاق والخديعة ! .. مضى تياها بمولوده ، يكشف الناس عنه ، ويعرضه عليهم وهو يود لو حملهم أجمعين على الإشادة بحسنه وإن رأوا فيه قسمات أبيه ! .. فأما ذوو الأم : أصحاب الشام ، فقروا خاطرا وعينا ، ولعبت الفرحة بهم إذ جنبهم الفضيحة اعتراف الأب الأثيم بالوليد ! وأما ذوو الأب : أجناد على ، فمنهم راض ، ومنهم كاره مستكره ، ومنهم منكر أشد الإنكار ..

وما أكثر الآن من أنكر ! .. من سويعات ، حلت الحياة فى عيونهم فران على قلوبهم حب البقاء حتى آثروا الحذر واشتروا السلام بالتسليم ... ثم ، هاهم الآن : ذهبت السكرة . فترت النشوة . خفت عنهم حميا الدعة ، وحمى المخادعة والتضليل ..

ويعجب الأشعث الناس ، يطوف بصفوفهم ويعرض بضاعته ، كيف تبدلت بهم هكذا سريعاً الحال حتى توشك أن تفسد ما دبر ، وتجىء بغير ما قدر ...
لكنه يطوى عجبه ، ويكتم قلقه ، ويمضى شوطه مكافحا منافحا عن غرضه يلقى فى آذانهم نتاج دعوته : ما ضمته الصحيفة الصفراء ...

كان رأسها : فصل الإمرة عن الإمام . فهو على ، وليس له من أمر المسلمين شىء تنص عليه الوثيقة إلا مثل ما لخصمه وإن كرهت الحقيقة الواقعة وكرهت البيعة التى أدتها له الأمصار ...

وكان هيكلها كما رسموه :

« ... ... رضينا أن ننزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر ... ... وإنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكما فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى خاتمته ، نحيي ما أحيا ، ونميت ما أمات ...... »

وكان المحور الذى تدور حوله :

« . . . إن عليا وشيعته رضوا أن يبعثوا عبد الله بن قيس ناظرا وحاكما ، ورضى معاوية وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص ناظرا وحاكما ، وإنهم أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ، ليتخذان الكتاب إماما فيما بعث له لا يعدوانه إلى غيره فى الحكم بما وجداه فيه مسطورا . وما لم يجداه مسمى فى الكتاب رداه إلى سنة رسول الله الجامعة .. ... فإن لم يفعلا ، برئت الأمة من حكمهما ، ولا عهد لهما ولا ذمة . . »

وكان من ختامها :

« . . . . . . والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل . والسلاح موضوع . والسبل مخلاة . والغائب والشاهد من الفريقين سواء فى الأمن ...... وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما فى هذا الكتاب ، وهم يد على من أراد فيه إلحادا وظلما ، أو حاول له نقضا . . »

وإلى جوار هذا ، وفى ثناياه ، مشت نصوص بموعد الحكم ومكانه . فأما المكان فموقع عدل بين أهل العراق وأهل الشام يتفق عليه الحكمان . وأما الموعد فإلى انسلاخ رمضان إلا أن يرى الحكمان تعجيله أو تأجيله . فإن عجلاه فلهما ذلك ، وإن أجلاه فغاية الأجل انقضاء الموسم ، يجب عليهما الحكم خلاله وإلا كان للمسلمين أن يعودوا إلى أمرهم الأول من الحرب دون شروط لفريق على فريق . . . »

هذه هى الوثيقة التى وضعوها للتحكيم بين الإمام ومعاوية . وهذه هى شروطها نصوصها التى مضى الأشعث بن قيس ، فى غبطة الوالد بوليده ، يدور بها على جند على — بعد جند الشام — يقرؤها ، ويتحمس لها ، ويود لو آمن القوم مثله بمزاياها التى ابتدعها نفاقه ، وقرت لها عين هواه . . . إنه ليعجب : فيم همسهم ، وما إنكارهم الآن ؟ . . . ولكنه يمضى شأوه ، وهو يكتم عجبه ، ويطوى قلقه . فحسبه اليوم أن قد أنجب ولو من سفاح ! . . .

٣

صفا صفا ، وقوما قوما ، وراية راية جر الأشعث بالجيش يعرض وليده : الصحيفة الصفراء : وثيقة التحكيم ! . . ما أراه عرضها عليهم ليعلن شروطها ونصوصها ، وإنما ليروج لها ، ويخايل الظنون والأوهام بما احتوته من ألفاظ السلام ، والدعة ، والأمن على النفس والأهل والمال ، ومثيلاتها مما يغرى كل من قاسى من ويل الحرب .

وكان موقنا من رواج سلعته ، واثقا أنها ستلقى القبول . فمنذ قليل ، من سويعات لم تنسدل عليها بعد غبرة الغروب ، كانت الحشود الغفيرة إلى جانبه ، تعينه ، وتظاهره ، وتهتف به فى إلحاح أن يبادر بالإنتاج ! . . . فما لها الآن ، والسلعة فى يمينه ، تعرض إعراضا يكاد يهدد بضاعته بالبوار ؟ . .

وعجب . وقلق . وأحس خوفا مخالسا يزحف على صدره . . . هذا اللغط الذى استقبلوا به الوثيقة حرى أن يفسد أمره ويقلب عليه ميزان تدبيره . وهذه الحشود التى أيدته من قليل حرية أن تنفض يديها من شأنه الآن . فعهده بها بغاوات ، تنشرها لفظة وتطويها لفظة كما فعل بها نداؤه المضلل إلى التحكيم ...

أينما خطا كانت همهمة ، وأينما قرأ وتلا كان إنكار ... اللحظة لا يقابلونه باحتفال . إن أصغوا فإصغاؤهم وجوم وإنصاتهم إليه عن تشكك أو من تسليم . لا مؤمن الآن بعهده . لا متحمس له يلقاه بالثناء بل الناس من هذه الوثيقة اثنان : كاره صامت ، وكاره مجاهر . . .

« لا حكم إلا الله » كانت النداء الجديد . . فى بدئها كانت حديث السرائر . خلجة قلب ، وهمسة ضمير . ولكنها استوت بعد هذا فكرة تنمو وتكبر فتتخم الذهن وتفيض عنه على طرف اللسان ... كل من امتحن بعقله دعوة التحكيم بعد أن غدت صكا مكتوبا حار فيها لم كانت ، وفى جدواها كيف تكون ؟ . . وفى وكر هذه الحيرة القلقة أفرخ الفكر فتنة جديدة ! . .

فى صفوف « عنزة » سمعها الأشعث . وفى ألوية « مراد » ، وفى معسكر « بنى راسب » ، وفى رايات (تميم) . . كلما مضى بسلعته من ناحية إلى ناحية انطلقت نحوه تدق سمعه ، وتهز قلبه وأطرافه . وكانت آنا عاتية عاتبة ، وآنا آخر ثائرة غاضبة أوشك أن ينبثق لسيحتها الدم ! . .

هذان فتيان من عنزة يجابهان الأشعث بها :

« لا حـكم إلا الله ! . . »

ثم لا يكاد يسترد دهشته حتى يراهما انطلقا انطلاق إعصار إلى جند معاوية ، يثخنان فيه ، حتى يقتلا على باب رواقه . . .

وهذا عروة بن أدية التميمى ، يزأر به :

« لا حكم إلا الله ! . . أتحـكمون الرجال فى دين الله ؟ . . فأين قتلانا يا أشعث ؟ . . »

ثم يتبع إنـكاره ضربة سيف تمرق كالشهاب الثاقب . فلولا بقية من أجل لطالت الأشعث دون دابته ، وجعلت منه أحدوثة غابر ! . .

وكم من صور بعد هذا توالت . وكم من أفراد ومن جموع شاع فيهم هذا الإنـكار كالوباء والصحيفة لم يجف على رقعتها الحبر ! . . وكان الأشعث يشهد فيعجب ، ويشهد فيقلق ، ويشهد فيوجس الخيفة كل الخيفة على وليده الذى لم يهنأ به غير طرف نهار ، . لـكنه يصطنع لنفسه الثبات والطمأنينة ، ويأخذ سبيله إلى الإمام ليبلغه رضا الناس ! . . .

يقول له :

« يا أمير المؤمنين . . قد عرضت الحـكومة على صفوف أهل الشام وأهل العراق ، فقالوا جميعاً : قد رضينا . حتى مررت برايات بنى راسب ونبذ من الناس سواهم ، فقالوا لا نرضى ، لا حكم إلا الله —)

ثم لا يكاد يضع الأمر أمامه على هذه الهيئة الهينة حتى يردف تهوينه بما ينقضه ، ويكشف عن تمويهه :

« . . . فلنحمل أهل العراق وأهل الشام عليهم فنقتلهم ! . . »

نبذ من الناس ؟ .. قلة ! .. ففيم إذن دعوة الأشعث إلى الحل عليهم ؟ .

وكأنما يستشف الإمام خطرا خافيا وراء هذا التهوين ، فيسأل الرجل مستوثقا منه :

« هل هى غير راية أو رايتين ونبذ من الناس ؟ . . »

فإذا هو يؤكد له :

« بلى ! . . »

« دعهم . . . »

بل الصفوة أيضا من صحب على بدوا كأنما لا تسيغ حلوقهم مر الحسرة التى خلفتها دعوة المهادنة . ركبهم الهم ، وغمرهم الندم ، وجاءوا له يودون لو وسعهم أن يرجعوه عما أكره عليه ، وقد أنساهم الحزن أنه لا ينقض العهد ، ولا يخفر الذمة . . .

يأتيه سعيد بن قيس فى مقاتلة من همدان كثيفة عليهم السلاح كأنهم قلعة ... ويهتف به :

« يا أمير المؤمنين . . هأنذا وقومى ! . . لا نرادك ، ولا نرد عليك . فمرنا بما شئت . . »

فيجيبه الإمام بهدوء وهو يرمى بعينه إلى جند الشام :

« أما لو كان هذا قبل سطر الصحيفة لأزلتهم عن عسكرهم أو تنفرد سالفتى قبل ذلك ! . . ولكن ، انصرفوا راشدين . فلعمرى ما كنت لأعرض قبيلة واحدة للناس . . . »

ويأتيه أيضا سليمان بن صرد ، وهو يمسح عن وجهه دم جرح غائر كان لا يزال يشخب منذ أصابه سيف عدوه ذات ساعة من الصباح . . . يقبل سليمان محسورا يقول :

« أما لو وجدت أعوانا ما كتبت هذه الصحيفة أبداً ! . . »

وينبرى عند ذلك محرز بن جريش ، يضرع فى تلهف وإشفاق :

« يا أمير المؤمنين . . . أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ؟ . . فوالله إني لأخاف أن يورث ذلا . . . »

فيكون الجواب الحزين الذي يسمعانه :

« أبعد أن كتبناه ننقضه ؟ . . . »

ومع ذلك لم يكونوا نبذا — أولئك الذين استشعروا بعد سطر الصحيفة الندم ، وأسفوا على ما فرط من الاستجابة لدعوة الموادعة . . . ولم يكونوا أيضا أنباذا شتى مفرقة ، هنا وهناك بين الأجناد كتفرق السحب البيض على وجه الأفق في ليل صائف ! . بل قد كانوا جموعا غفيرة ، وحشودا جمة ذات قوة وخطر ، سواء أقيست القوى بالثبات والعناد أم بالسلاح والأعداد . وليس يدفعنا عن هذا الإيمان بكثرتهم أن قد شاء الأشعث بن قيس أن يرامم قلة ، وأن قد خدع الإمام بتقديره ذاك ، وأن قد خاب ابن صرد أو غيره في تلمس أعوان يناصرونه بالحرب — قبل سطر الصحيفة — على أهل الشام ويتابعون معه القتال . . .

كانوا كثرة قبل كتابة العهد ، حين راح الأشعث يلغط ورجاله بوقف الحرب والاحتكام إلى القرآن — كما كانوا كثرة بعد كتابته وإبرامه بالشهود والمواثيق . . . لكنها كثرة توهم بالقلة ، إن جمعتهم كلهم كراهة التحكيم فأقلهم جاهر بهذه الكراهة وأغلبهم كتمها في ذات نفسه حتى بدا التفوق العددي في جانب أنصار السلم . . . وكانت العلة وراء موقفهم هي الملل من الحرب — الملل الذي طمس البصائر وشل الأذهان .

ولقد عرف الأشعث حينذاك بدهائه كيف ينقب لدعوته المثبطة أكثر من ثغرة في صفوفهم تنفذ منها إلى ما اشتهاه . . . عرف كيف يستغل فيهم الوهن النفسي والإعياء البدني اللذين جرهما عليهم طول القتال . وعرف أيضا كيف يخاطب في نفوسهم المهطعة إلى الموت حب البقاء وعرف ثالثة كيف يلعب بعصبيته القبلية فيتهافت عليه قومه ، من يمن الشام ويمن العراق . ثم عرف إلى جوار هذه العوامل كلها كيف يحشد أنصاره ، ويضخم نداءه فلا يرى الناس سواهم ولا يسمعون سواه . . .

هذه كانت حقيقة الحال ... ما عن إيمان هتف من هتف من جند على لدعوة التحكيم ، أو سكت عليها سكوتا لاح كالقبول ، ولا عن روية وتدبر فى دوافعها وجدواها ... إنما كان الهتاف — كما كان السكوت — انفعالا انبثق فى النفوس من كراهة الحرب فتداعت له الأبدان المنهوكة ، وصاحت به ألسن الببغاوات ! ... كانوا مسلوبى الإرادة ، لا نظر ولا فكر ، كمن يسير وهو نائم إلى هاوية ! ...

ثم هزتهم الوثيقة فصحا النوم ! . انتبه الغافل والذاهل ، سرت فيهم الآن حميا اليقظة فجاشت القلوب والصدور ... فيم كان هذا الصك المكتوب ؟ . . كيف ؟ . . بمن ؟ . . ما جدواه عليهم ؟ . . ما غاية القوم من ورائه ؟ . . ما قصارى الحكمين فيه ؟ . . ثم ، قبل هذا كله ! ما هى القضية ؟ — ما هى ، إن لزم قضاء ووجب تحكيم ؟ ...

عشرات من الأسئلة راودتهم والأشعث يقرأ عليهم العهد والشروط . وعشرات غيرها خطرت لهم وقد خلفهم وهم منطوون على عقولهم كالقواقع ، يديرون فيها قصة هذا الوليد الأشوه الظنين ؟ . . عشرات وعشرات . عجب وتساؤل والعقول حيرى ، تلف وتدور كالدوامة ، والأكف مضطربة تنقبض على السيوف ، والنفوس ولهى تتلهف على معاودة الحرب ... فما من جواب معقول . وما من رد حاسم مقنع ، يسكن القلق ، ويكف التلهف ، ويرخى الأكف ، ويشبع الفضول ...

حتى قادة الرأى من صحابة الإمام قد أعياهم أن يردوا هذه الحيرة الغامرة عن الناس . وأنى لهم وما ردوها عن أنفسهم ؟ ... وكيف وهم كغيرهم فى غمرة ؟ ... هذا سهل بن حنيف ، رفيق صبا على منذ مولد الإسلام ، يعضل به أن يعالجهم إلا بقوله :

« أيها الناس ... اتهموا رأيكم ! ... فوالله لقد كنا مع رسول الله يوم الحديبية ، ولو نرى قتالا لقاتلنا ... »

وهذا الأشتر النخعى — ولى على فى الحلو والمر ، وحين الرخاء وحين الشدة ..

الرجل الذى ثار كالعاصفة لحظة انبثاق نداء الهدنة — قد هدأ الآن . . . ركد كالبركة الآسنة ! . . . مسه من اليأس ما جمد عاطفته ، وفكره ، ولمع عينيه فلاح كتمثال ! . . . حتى عندما عنف بالأشعث وهو يقدم له الصحيفة ، وزأر فى وجهه فأخزاه ، وحرك سيفه فشل كبرياءه ، كان عنفه عفو لحظة عاد بعدها إلى ركوده ، وقال فى تهافت واستسلام :

« قد رضيت بما صنع أمير المؤمنين ، ودخلت فيما دخل فيه ، وخرجت مما خرج منه . . . فإنه لا يدخل إلا فى هدى وصواب . . . »

وهذا أيضا على — على نفسه لا يجد لهم عنده غير اللامة على ما فرط . ملامة لا تشفى حيرة ، ولا تكف قلقا ، ولا ترد مصيرا قاتما أصبحوا يعاينونه من ثنايا الغد المجهول :

« إنما فعلت ما فعلت لما بدا فيكم الخور والفشل . . »

ولقد قال وأسرف فى المقال . . كم قال فأطال ، وقال فأقصر ! . . . كم حذر وكم بصر فما سمعوا منه . ولا وعوا عنه . . . وها هو الآن ، كمن قبل ومن بعد ، يضرب لهم الأمثال :

« .... ولقد كنا مع رسول الله ، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ، ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما ، ومضيا على أمض الألم ، وجدا على جهاد العدو... ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا . . يتخالسان أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المنون ، فمرة لنا من عدونا ، ومرة لعدونا منا . فلما رآنا الله صبرا صدقا ، أنزل بعدونا الكبت ، وأنزل علينا النصر . ولعمرى لو كنا نأتى مثل الذى أتيتم ما قام الدين ، ولا عز الإسلام . . . . »

ومع ذلك فمنطقه اللائم يرهف فيهم الشعور بالإثم ، ويورث الحسرة ثم لا يكف الحيرة ... وكيف له ! . . كيف للإمام الآن أن يشفى داءهم ، هم الذين لم يكفهم أن رموه بالداء بل أراقوا الدواء ! ...

ولكنه يصبر : وهل محيص عن الصبر على النقمة ؟ . . وهل سبيل إلى الرجوع ؟ . .

ويتلو عليهم :

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا . . . »

لقد جعلوا ! — غير أنهم حينذاك كانوا مسلوبى الإرادة من وهن الذهن والبدن ، لا نظر ولا فكر ، كمن يسير وهو نائم ! . .

٤

ما هى القضية ! . .

هذا هو السؤال ! — السؤال الذى لعله دار بكل خاطر ، وحار على كل شفة منذ كان ذلك العهد الذى كتبوه ، وما زال يدور ويحتار إلى الآن . . .

فالذين تهاتفوا بالرغبة فى الاحتكام إلى كتاب الله ، من الفريقين ، لم يفصحوا عن مداره . . .

والذين ترجموا هذه الرغبة إلى ألفاظ مكتوبة . فيها شروط وعليها شهود ، لم يبينوه . . .

وتلك الصحف ، التى طالعتنا مع الماضى الغابر بصور شتى من وثيقة التحكيم ، لا تدلنا عليه . .

وفى عماية هذا الغموض كله ، قد يعسر تلمس الجواب الحاسم ، فيبقى السؤال ليفرخ لنا مائة سؤال وسؤال ! . . .

عشرات وعشرات من الأسئلة تحيط بموضوع القضية كالهالة ، وتدور فى فلكه بلا استقرار ثم لا تبرح تلف وتدور . . .

فما الذى دعا لهذا الإبهام ؟ . . .

هل كان القوم إذ ذاك فى غير حاجة تلجئ إلى الإفصاح والبيان ؟ . . .

هل كانت القضية ، فى رأيهم ، بديهية من البديهيات التى تقابل دائما بتسليم ينتفى معه نشوء السؤال ولزوم الجواب ، فلا غناء إذن فى النص على موضوعها كما لا تقصير إن أغفلوه ؟ . . .

كأن بهم وهذه نظرتهم ! — أم لا فكيف تبرم على شاكلتها وثيقة خطيرة إلا أن يكون المتحاكمون جميعاً ، هنا وهناك ، يعلمون فيم التقاضى علما يرقى بهم إلى درجة التثبت اليقينى ، ويرقى بالقضية إلى ذروة البديهيات ؟ . . .

أجل ، ما هى القضية ؟ . . .

ما هى حين نشأت ، وهى إذ ذاك — فى حسباننا — ساطعة لا تشوبها ظلال ، واضحة لا تحتمل التأويل ؟ . . .

ما هى فى حساب هذا الفريق وإنه ، بغير شك ، حساب ذاك ؟ . . .

ثم . . . ما هى بعد ليها وتأويلها ؟ — ما هى من ثنايا خدعة الخادع ومن وراء وهم الموهوم ؟

وما هى — فوق هذا كله — أمس ، وما هى اليوم ، وما هى أبداً فى كل جيل تنفى فيه الحقائق عن الوثائق ، وتهتك الوقائع عماية الأباطيل ؟ . . .

يضرع أهل الشام ، عندما نهكتهم الحرب ، وأكلت عظمهم ودمهم ، وهم يرفعون للمصاحف :

« يا أهل العراق . . . كتاب الله بيننا وبينكم . . . »

ويستجيب الضراعة من استجاب ، فى البدء ، من رجال العراق ، فيكون الهتاف الذى يلحون به على الإمام :

« أجب القوم إلى ما دعوك إليه . . . »

كانوا يعلمون أنهم أسرفوا على أنفسهم ، كما أسرفوا على عدوهم ، بهذا القتال ، فإن تكن نجاة مما وقعوا فيه ، فبكتاب الله . . . كانوا يحسون هذا من قبل أن ترتفع لهم مصاحف الشام ، سواء منهم المنافق ، وعبد عمره ، وسواء المؤمن والمخدوع . . .

ويزيد الإلحاح . . .

وتبتدر الأقوال فى صور شتى من المشورة والمناصحة . ومن الإكراه والإملاء . . .

فشقيق بن ثور يقول :

« إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فردوه علينا فقاتلناهم عليه . وإنهم دعونا إلى كتاب الله فإن رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم . . . »

وسعيد بن قيس يقول :

« ... لم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم ، ولا أهل الشام إلى شامهم بأمر أجمل من أن يحكم بما أنزل الله ... »

والأشعث يقول :

« ... أجب القوم إلى كتاب الله ، فإنك أحق به منهم ! ... »

وكثرة غيرهم ، قبلهم وبعدهم ، على اختلاف فى اللفظ ، واتفاق فى الدعوة ... ومن خلال لفظهم وتناديهم لم يعل واحد منهم إلى موضوع الاحتكام فيفصح عنه بكلمة واحدة تجلوه ، وتهتك غموضه إن كان فيه مايستحق منهم الجلاء والتبيين.

بل الشام أيضا جرت على هذه الجادة التى يخالها المرء لأول وهلة فضاء فارغا بلا معالم كتيه الصحراء وما هى كذلك !... إن سيدها يعلن عن القضية فلا يجىء فى إعلانه بجديد ... وإن مشيره يتناولها فإذا حديثه عنها نفس ذلك الحديث الذى تلوح به غموضا من الغموض ...

يكتب معاوية إلى على :

« ... فهل لك فى أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة ، وصلاح للأمة ، وحقن للدماء ، وألفة الدين ، وذهاب للضغائن والفتن ؟ — أن يحكم بيننا حكمان رضيان ، أحدهما من أصحابى ، والآخر من أصحابك . فيحكمان بما فى كتاب الله بيننا ... »

ويكتب كذلك إليه عمرو :

« ... إن ما فيه صلاحنا وألفتنا : الإنابة إلى الحق . وقد جعلنا القرآن حكما بيننا ، فأجبنا ... »

وحتى الإمام ، رب البيان والتبيين ، لا يفصح أيضا عن القضية ذلك الإفصاح الذى يحسبه بعض الباحثين لازما كل اللزوم لإبراز موضوعها مكشوفا مجلوا يقطع الحدس والتساؤل ... فهو يكتفى حين يلح عليه رجاله ليقبل التقاضى بأن يقول :

« ... أنا أول من دعا إلى كتاب الله ، وأول من أجاب إليه . وليس يحل لى ،

ولا يسعنى فى دينى أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله . . . إنى إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن ... ... »

وهو يكتفى حين يجيب معاوية بأن يكتب إليه :

« ... إنك قد دعوتنى إلى حكم القرآن ـ ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن ، ولست حكمه تريد ـ وقد أجبنا القرآن إلى حكمه ! ... »

كلهم إذن أبهموا — كلهم ، من هذا الفريق ومن ذاك ، كما قد يبدو للنظرة العابرة التى لا تتعمق الأمور فلا تنفذ إلى الأصول والجذور ... وبمثل إبهامهم «الجماعى» جرى ذلك العهد الذى كتبوه ، وشرطوا فيه ، وأشهدوا عليه الشهود ليكون موثقاً وحجة ...

تقول وثيقة التحكيم :

« ... إنا رضينا أن ننزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر ، وأنه لا يجمع بيننا إلا ذلك ، وإنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكما فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى خاتمته ... ... »

كتاب الله هو الحكم ...

والقضية هى الخلاف ...

أما ، « ما هو الخلاف ؟ » فلا تفصيل ...

لا إفصاح ! ...

بل إجماع على الإبهام أيما إجماع ! ...

أجل ، فكلهم أبهموا ! — كلهم : الوثيقة ، وأولئك ، وهؤلاء ...

* * *

لقد يعسر ، فى عماية هذا الإبهام كله ، تلمس الجواب الحاسم الذى يبين لنا جلية القضية ، فيبقى السؤال عنها معلقا بلا جواب ، أو يفرخ عشرات من الأسئلة وعشرات ، أو تتنوع الأجوبة عليه بتنوع الظنون والأخلاد ...

قد يحدث هذا مع النظرة العابرة التى ترى الخاتمة وتغفل المقدمة ، ومع الرأى العجول الذى يلقف ما يحمل الزبد ولا يتقصى ما تضم الأصول ، ومع الهوى حيث سرح وانساب ! ...

إنه حقا إبهام — إن جاز لنا أن نسمى الأمور بظواهرها دون ألبابها ...

وهو حقا إبهام — إن جاز أن ننساق وراء رأى يرى الغناء كل الغناء في استخلاص المعاني من منطق الأشخاص دون منطق الحوادث ...

وهو حقا إبهام — إن جاز أن نغمض العين عن هذا « الإجماع على الإبهام » ولا نحاول أن نتبين دلالة هذا الإجماع ...

أجل ، لا إفصاح ..

ولكننا نقول : لا إفصاح لأنه لا إفصاح عن معلوم ! ...

٥

« لا إفصاح عن معلوم ! . . »

هذه هي الحقيقة الثابتة التي ينبئ عنها ذلك الإجماع على الإبهام ، وتنبثق لنا من منابع الحوادث ، وتنكشف أمام الاستقراء السليم ...

هذه هي ! ... بها تنهتك عماية الغموض ، وبدونها يتزعزع كل رأى ، وعلى غير هديها يبطل أى تعليل قد يجرى به مرة منطق هذا الفريق ، ومرة ثانية حديث ذاك في معرض المجادلة والتدليل ...

إنها مفتاح سر التحكيم ! . . .

فالقضية جليـة ، بديهية من البديهيات التي تقابل دائما بالتسليم دون حاجة إلى سؤال وموجب إلى جواب ، لأنها من الوضوح بحيث تغنى عن النص عنها ولو بالإشارة المختصرة مع المبالغة في الإسهاب . . .

جلية في ذهن على ، وفي خاطر معاوية ، وفي أخلاد أولئك وهؤلاء من الأنصار والأعداء على السواء ، وإن شابتها على الأيام أدران شتى من التعليل أو التأويل ، ومن التهاويل والأباطيل . . .

جلية بغير خلاف ، لأنه خلاف قط على « موضوع الخلاف » ! . . .

* * *

من اليوم الأول الذى آلت الإمرة فيه لعلى ، نشب ذلك الخلاف بين الرجلين

وإنه لمفترض قبل أن تبدو بواكيره ، ذائع شائع بعد أن فرع واستطال ، يعرفه الناس هنا وهناك ويعرفون دواعيه . . .

ما من مسلم عاصر هذه الحقبة من التاريخ ، عربيا كان أو غير عربى ، وما من فرد ألم بأمر الأبناء وسير الآباء ، وما من باحث رد المظهر إلى العلة والنتائج إلى الأسباب إلا قد تبين عن يقين : لم ، وعلام ، وكيف دب الخلف بين الرجلين اللذين نماهما أصل واحد ، وشاءت المقادير أن يتجاذبا سيادة الدولة الناشئة ومصير الإسلام .

أما ما هو الخلاف ، وما هى دواعيه فليس أبلغ فى تعريفها جميعا من إجمالها فى عبارة : « التنافس على السيادة » . . . ذلك التنافس الذى ولد مع الآباء ثم انحدر — جيلا جيلا — فى أصلاب الأبناء . . . وحين نكر إلى الماضى نجده محنة نفسية امتحن بها بنو عبد مناف فشطرتهم شطرين ، وأوقعت بأسهم بينهم ، مرة منافرة يسوقها التفاخر ، وأخرى خصومة م[illegible] الحسد ، وثالثة حقدا عن ترة ، ثم لا تزال المحنة تنتفخ وتنتفخ حتى تنفجر حربا مدمرة تكاد تأكل الخصوم والأولياء . . .

وندع جانبا ما وقع بين الآباء من فرعى هاشم وأمية من الخصومة فأمره غير منكور ، ونعرض فى إيجاز للخصومة الجديدة بين السليلين : على ، وابن أبى سفيان . . .

لم كانت ؟ . . وعلام ؟ . . وكيف والإسلام قد جب ترات الجاهلية وأمر أن تذاب فى سماحة تعاليمه ؟ . . .

وراء هذه الأسئلة كلها : « النفس البشرية » بما جبلت عليه من نوازع منحرفة قد يشذب الدين من أطرافها ، أو يلطف حدتها ، أو يداريها جملة إلى حين ، ولكنها — إلى هذا — تظل منطوية على ضعفها ، أو على بقاياه ، وهى تستمهل الزمن حتى تسنح لها فرصة مواتية ؛ وعندئذ ترفع رأسها ، وتنفض غفوتها ، وتسعى سعيها الوخيم الوبىء . . .

وكانت فرصة معاوية مصرع عثمان .

كانت هى الثغرة التى يستطيع أن ينفذ من خلالها إلى دنيا النفوذ والسيادة ، ومن أمامه حلم آبائه يخايله ، ومن ورائه رواسبه النفسية تدفعه وتحث خطاه . ولقدساعده على اهتبالها أنه كان تواقا للمجدلم يقعد يوما عن طلبه ، ولم يقنع بما بلغ فى الدولة الناشئة من شأن قنوع غيره من الولاة والعمال بل كان يعمل ما وسعه وما أمكنته الظروف على توفير عوامل القوة لنفسه حتى قبل أن يصرع عثمان وقبل أن تمتلىء القلوب والأذهان بالسخط على سياسته . . . وساعده أيضا على توفير هذه القوة المرجوة أنه تفرد بحكم الشام عشرين عاما طويلة لا يكاد يرجع عليه فى أمرها بشىء ، وأن أخاه يزيد عمل عليها عامين قبله فكانت بهما تحت حكم أموى خالص منذ دخلها الإسلام .

أجل كانت الشام فى حساب الواقع دويلة مستقلة منقطعة من الدولة الجديدة ، وفى حساب معاوية ، وكثرة غيره ، والظروف السياسية التى لازمتها ، أرضا أموية ، مع تفاوت صغير أو كبير فى درجات التقدير . فهو الذى كان يقيم من قبله على أقسامها العمال ، وهو الذى كان يكنز من مالها ما جمع لديه ثروة ضخمة يمسك منها أو ينفق إذا شاء ، وفى الأوجه التى يختار ، مخالفا بهذا السياسة العامة التى كانت إلى ذلك الحين تجرى على سنة تقسيم المال فى الناس . هو الذى شهدناه يتخذ الجند والأحراس على نحو يقارب ما نعرفه الآن فى الجيوش النظامية الحديثة بينما بقية الأمصار ، وعاصمة الدولة نفسها ، لم تكن تعرف هذا النظام .

جاءت إذن الأيام لمعاوية بفرصته ، وأعد الرجل لهذه الفرصة المنتظرة فأحسن الإعداد ، فما له لا يقدم ولا يقتحم وكل الدلالات تكاد تهديه إلى نجاح مضمون ؟..

فى الحق أعد ، وعمل ، وثابر . . . لم يكن الخامل القاعد الذى يحلم . ولم يكن النهاز الذى يغامر بغير أسناد ولا إعداء . فلقد رنا كما يرنو كل متطلع لهدف ، وعمل كما يعمل بناة الدول وليس يبخسه قدرته فى هذا السبيل التواء الوسائل أو اعتساف الأعاليل . ومع ذلك فقد كان « حاذقا » وهو يروض أساليبه على الالتواء نحو غايته ، « كيسآ » وهو يسوق التعلات والأسباب التى كانت ذرائعه

حتى بدا — فى أعين الكثيرين — كالمحق المنصف ، وبدا خصمه كالمبطل المتحيف . ومن ثنايا هذا الحذق وهذه الكياسة نستطيع أن نستشف الصورة الحقيقية للخلاف بينه وبين على وهو موضوع القضية الذى لم تنص عليه وثيقة التحكيم .

على نحو ما كتب الإمام — عند استخلافه — إلى عمال الأقاليم ، كتب أيضا إلى معاوية يطلب بيعته :

« . . . قد علمت إعذارى فيكم ، وإعراضى عنكم حتى كان ما لابد منه ، ولا دفع له . والحديث طويل ، والكلام كثير ، وقد أدبر ما أدبر . وأقبل ما أقبل . فبايع من قبلك ، وأقبل إلى فى وفد من أصحابك . . . »

البيعة — الطاعة للرئيس الشرعى للدولة هى كل ما كان يطلبه على ، بكتبه ورسله ، من معاوية . ورد البيعة ، أو العصيان فى كتمان أو إعلان ، هو جواب معاوية ، فى صمته ، وبكتبه ، وعلى ألسن وفوده ، إلى على . ولم يعدم أبدا فى أية مرة ذريعة تسند عصيانه أو تلفه فى علة مقبولة [illegible] تظهره أمام أنصاره غير جانح إلى العصيان ، وتدفعه خطوة إلى الأمام نحو غايته وهو آمن كل الأمان أن تزل به قدمه أو يفشل تدبيره . . .

كذلك أعد معاوية فى تؤدة ، وخطا على مهل . لم تغره قط مقومات القوة التى توفرت لديه كما لم تتوفر مثيلاتها لعامل آخر . لم تغش عينيه الرواسب النفسية التى راكمها الزمن والوراثة بعقله الباطن فيندفع فى تيارها يتخبط على غير هدى تخبط الخفاش فى وهج النور . لم يقفز — مسرفا فى التفاؤل والاعتداد — إلى غايته . إنما راح يتحسس طريقه فترا فترا ، وشبرا شبرا ، وهو يزيل مايعترضه من العقبات — صابرا مثابرا — حجرا حجرا ، بل حصاة حصاة ! ... وعندما نتعقب « العلة الكبرى » التى أصبحت مجازه إلى الإمرة المرجوة ، لسوف يدهشنا كل الدهشة ألا نجدها بين تعلاته منذ البيعة لعلى وحتى بدء صفين ! . . .

كانت علته الكبرى ذلك الادعاء الصارخ الذى رمى به الإمام ليبديه للناس وللتاريخ قاتلا لعثمان تلطخت يداه بدمائه . كانت هذه التهمة الشنعاء المختلفة هى العلة التى توارى خلفها حينا ليتحلل بها من الطاعة المفروضة عليه نحو الرئيس

الشرعى للدولة . ومن التزام جماعة المسلمين إبقاء على وحدتهم . فمتى ابتدعها؟..
وأين هى من ذرائعه الشتى التى اتخذها مرة بعد مرة لتنفى عنه معرة السعى على
أشلاء وحدة الأمة كافلا بتحقيق أحلامه وبلوغ مأربه الخاص ؟ . .

الواقع أن معاوية لم يحاول قط فى مستهل خلافة الإمام الخروج على الأسماع
باتهامه البطل الجرىء ، لا عن تحرج وتلوم ، بل لأنه لم تكن ثمة تهمة فلم يكن
إذن موجب للاتهام . فهو عليم بسير الحوادث وتطور الفتنة التى أدت لمصرع عثمان
علما يضع عليا على رأس الذين دافعوا عن الشيخ إبان محنته وكفوا عنه أذى
الثوار . ولكنه حين رأى عائشة والزبير وطلحة ينهضون بحجة الطلب بدم
الخليفة القتيل شام فى دعوتهم عاملا جديدا من عوامل القوة التى يستطيع بها
تحقيق سيادته . فالخلاف بينهم وبين على حقيق بأن يلقى بينهم الدماء والترات ،
ويضعف حزبيهم جميعاً . ويوهى تلك السيادة التقليدية التى للحجاز على أقطار
الإسلام . ثم هو بعد هذا كله كفيل بأن ينال بالشبهات من سمعة الإمام : خصمه
الذى لا منافس سواه يؤبه لخطره أو يحسب له حساب .

لهذا سكن الرجل إلى شامه ، فى بدء تمرد عائشة وصاحبيها ، يشهد ويترقب
دون أن يؤيد جانبهم تأييدا فعليا بقوة الجند والسلاح . لم ينغمس فى الصراع
الجديد انغماسا جديا كما كان ينتظر منه أن يفعل ، بل آثر انتهاج خطة مائعة
أوشكت أن تكون سلبية ، وأوشك بها أن يكرر نفس خطته عند اضطراب
الأمور واشتدادها على عثمان . فما زاد عن التفجع على القتيل ، والتحدث عن
فداحة الخطب فيه ، والقول المرسل بأنه مظلوم . وإذا كان قد كتب إلى الزبير
بالبيعة وإلى طلحة بولاية العهد بعده ، فلقد فعل وهو يعلم أنما بيعته للرجلين
ليست سوى الوقود الذى يشعل حماسهما ، ويدفعهما إلى الخروج بالدعوة من
نطاق الكلام إلى نطاق التنفيذ فتقع الحرب ، ويضعف الفريقان وهو وحده ،
من بعد ، القوى المكين الذى يسمه — فى يسر — السيطرة على مصاير الأمور .

معاوية إذن لم يتهم عليا — فى الأشهر الأولى من خلافته — اتهاما صريحا
بقتل عثمان . ولا هو أيضاً اتهم أحداً بعينه من الناس . إنما كل ما جرى به قلمه
أو لسانه فى تلك الفترة كان قولا مرسلا بغير تحديد ، مبهما بغير تصريح . . .

هو حقا — كما شهدناه — بعث إلى على ، بعيد استخلافه بشهرين أو ثلاثة ، برسالة مع رسول ، فارغة إلا من « بسم الله الرحمن الرحيم » ولا عبارة سواها تضىء خافية صدره وتكشف حقيقة نواياه . وهو ربما أباح رسوله الإفاضة فى الحديث عن سخط أهل الشام ، وقوتهم ، وتحفزهم الظاهر للأخذ بثأر عثمان ممن خلفه على إمرة المؤمنين ... ومع ذلك فلسنا نملك ، عندما نستشف الظروف الملابسة إذ ذاك ، إلا أن نرى ابن أبى سفيان قد أراد أن يساوم ويشغب فى آن . . .

أما الرسالة الفارغة فإلماع منه — فيما نحسب — إلى اتجاهه مؤقتا خطة سلبية مع الخليفة الجديد ، لا إلى موالاته ولا إلى معاداته ، حتى يذوق أمره ، ويستيقن سياسته ، ويستوثق لنفسه منه . ولعل اتخاذه جانب الحياد ، أو ما يشبه الحياد ، من بعد فى حرب الجمل ، فيه ما يومئ إلى هذا الإلماع . . . والرسالة الفارغة أيضا إن حملت معنى التلكؤ عن البيعة بالإمرة لعلى فهى ليست بالدلالة الواضحة على إنكار حقه إنكارا قاطعا حاسما فى البيعة . وهى بهذا قد يمكن اعتبارها « هدنة » تفسح الوقت للتفاهم ، أو « دعوة صامتة » من معاوية إلى على بمعاودة النظر فيما قر عليه عزمه من خلع صاحبها عن عمله بالشام .

وأما حديث رسوله فله ؟ كما يبدو ، هدفان : أبعدهما أن يعلن للأمة أن دم عثمان لن يطل وإن عز خصومه ، وإن داهنتهم المدينة ، وإن خافتهم كثرة رأت سلامتها فى الاعتزال . ومن وراء هذا الإعلان لاريب توجس الخصوم واستعدادهم . وتحفز للمعتزلة ومن يتابعهم للنهوض فى الطلب بالدم ؟ ووقوع الفتنة بين الفريقين بما يفسد الأمر على الإمام . . . وأقربهما تهديد على نفسه بغضبة كامنة ، وراءها أكداس من السلاح والرجال ، لا يستطيع أن يكف غلواءها عنه سوى صاحب الشام . ولعلى إذن الخيار بعد هذا ، لو شاء خلع العامل القادر ، ولو شاء أبقاه ...

هذه هى قصة الرسالة الفارغة التى أقبل بها رسول معاوية من دمشق بعيد البيعة للإمام فى المدينة بنحو ثلاثة شهور . وهذه دلالاتها وعبارتها لا تحمل اتهاما صريحا لعلى بقتل عثمان وإن حملت « إرهابا » و « فتنة » و « هدنة » و « دعوة صامتة » إلى العدول عن عزل معاوية إلى إبقائه على عمله ، وعن معاداته

إلى تألفه . وقديما تألف رسول الله معاوية بالعطاء بعد غزوة الطائف ، فما لابن أبي طالب لا يتألفه اليوم بالعمل ؟ . .

على هذا النحو « المائع » جرت سياسة ابن أبي سفيان صدر خلافة الإمام ، لا تقطع ، ولا تبت ، بل تلف وتدور ولا تكف عن اللف والدوران . كانت مشتبهة ، مهزوزة الملامح ، مختلطة القسمات . وعلى ما أكثر معاوية الخوض في قتلة عثمان فإنه لم يوجه تهمة القتل للإمام . وظل هكذا حتى بعد أن فرغ على من الجمل وتهيأ للزحف إلى الشام . ولعل في حديثه مع جرير بن عبد الله رسول على ، حين جاءه يطلب بيعته ، ما يؤيد الذى نراه . . .

يقول لجرير :

« اكتب إلى صاحبك يجعل لى الشام ومصر جباية — فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنق — وأسلم له هذا الأمر ، واكتب إليه بالخلافة ... »

وكتب جرير :

ولقد صدق الإمام عندما رد على رسوله يقول : « أراد أن يريثك حتى يذوق أهل الشام » . . . فالذى حدث فعلا هو أن معاوية بدأ بعد هذا يتهم عليا علانية بالقتل ، لا يتلوم ولا يتحرج . وقد مالأه عمرو بن العاص وحرضه ومضيا يدسان مما على رؤساء أهل الشام من يلصق التهمة بالإمام ويقيم عليها الشهادة الباطلة . حتى إذا عرف أن الدس قد جاز ، راح يتهم باجتراء . وبعد أن كان يقول : « إنى ولى عثمان وقد قتل مظلوما » — وسعه أن يفترى فيقول : « إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على ، وعلى خير الناس لولا أنه قتل عثمان . . . » ! . .

وهكذا ولدت التهمة ! . .

وهكذا ابتدعت العلة التى تحسب طائفة أنها مبعث الخلاف بين معاوية والإمام ، ابتدعت بعد الخلاف نفسه بشهور ! . . . فهل من نتيجة تسبق المقدمة ؟ وهل من معلول يسبق العلة ، إلا في منطق ابن أبي سفيان ؟ . .

٦

مهد معاوية للتهمة كأبرع ما يمكن أن يمهد لتهمة زائفة مختلقة لتبدو صحيحة مشروعة . وماله لا يفعل ؟.. إن مقتل عثمان ، لا ريب ، هو « المجال الحيوى ! » الذى تستطيع أن تتنفس فيه أطماعه . وهو وسيلته لما يريد . وهو أيضا الألوان الزاهية البراقة التى يسمها رسمه فى صورة أحد أبطال الروءات فى التاريخ ! . .

ولقد نجح معاوية حيث كان خيرا أن يفشل ، فإذا نجاحه ينزل به فى اعتبار الأخلاق . وفشل على حيث كان خيرا أن ينجح ، فإذا فشله يعلو به فى اعتبار الفضائل . ولئن قيل إنه لم يصابر ظروفه حتى تسعفه ، ولم يداورها مداورة السياسى المرن بل تعجل خلع خصمه فأثار خلافه ، وحرك عداوته فى وقت كان أحوج فيه إلى تألفه واستصلاحه — إن قيل هذا احتجاجا على على فالقول به إذن غلو فى اعتساف العلة ، والقائل به إذن مبالغ فى العذل . ولمن عذل واعتل أن يرينا كيف كان على الإمام أن يعالج الأمور إبان ثورة عاتية أول أهدافها اجتثاث عثمان وولاته وقلب كل ما ابتدعوه من أوضاع ؟ . .

نجح معاوية وفشل على ومن وراء النجاح والفشل عوامل شتى : نفسية وخلقية ومادية ، أصيلة وطارئة ، سبق بيانها ولسنا بحاجة إلى تكرارها والالجاج فيها إن بإيجاز وإن بتفصيل . . . وكان النجاح نكسة كما كان الفشل نكسة إذا ما حسبت النتائج بأسبابها الأولية الأصيلة ولم تحسب بالعوامل الطارئة والدخيلة . . .

ولكنه على أى حال نجاح قفز بابن أبى سفيان إلى إمرة الدولة بعد أن كان قد أعياه أن يظل واليا على الشام . وما يعنينا الآن أنه خالف ونجح بقدر ما يعنينا كيف خالف ، كيف تدرع لهذا الخلاف ، كيف « طوع » طمعه فى السيادة حتى غدا تهمة — أو بالعبارة الرقيقة ، « حجة » مقبولة — أقنع بها أصحابه ، وما تزال إلى اليوم تجد من الناس ، بين قارئى سيرته والباحثين فى تاريخه ، من ينصره بها ، أو يراها الأساس الحقيقى للخصومة بينه وبين على ، أو يعتبرها — بأرفق رأى — لعبة سياسية بارعة يحسبها له ولا يحسبها عليه . . .

والظاهر الذى لا نراه خافيا عن العين الفاحصة هو أن الرجل قد عاش صدرا من خلافة الإمام دون أن يلهم التهمة التى اتخذها من بعد مطية لآرابه، أو على الأقل دون أو يجاهر بها إن كان قد ألهمها فى ذلك الصدد الذى ذكرناه. ولعل خياله المبدع وبديهته الخلاقة لم يسعفاه إذ ذاك. ولعله تحرج وتلوم. ولعله خشى أن ينقلب عليه كيده إن هو انساق مع هواه وخامرت الناس ظنة فى حقيقة نواياه.

على أننا ندع ماقد عساه دار بضميره لنتابع ما كان يجريه فعلا — تلك الفترة — بسن قلمه وعلى طرف لسانه... فماذا نجد؟.. علام نقع فى بيانه المنطوق وبيانه المكتوب؟.. ما هى الأسناد التى تغنينا الغناء كله عن التملل والافتراض؟..

هنا نجمل فنقول: إن معاوية قد أقر على نفسه، قرابة ثلاثة أشهر، بأن عليا «لم يقتل» عثمان.

وهذه هى أولى الحقائق التى تنطق بها شواهد الحال ويفصح عنها بيان المقال.

وهى كذلك الحجة الداحضة لحجة معاوية المتسفة حين أعوزه من بعد تبرير مخالفته عن على بغير التعلل بأنه «قتل» عثمان.

فالبديهى أن التهمة — أى تهمة — وجرمها يتلازمان. والبديهى بعد هذا أن الجرم، لو كان قد وقع من على. لقفزت التهمة إلى على فى الحال، ولنضحت بها وأفصحت عنها أحاديث معاوية وخطبه وكتبه التى تعاصر الصدر الأول من خلافة الإمام.

لكن «تهمة القتل» التى ألصقت من بعد بعلى لم تلازم جرمها عند وقوعه ولا تفسير لافتراقها عنه إلا أنها لم تنبعث منه، بل انبعثت من خارجه. فمتى انبعاثها إذن، ومن أين كان؟.

بعد أشهر من المصرع، ومن داخل معاوية ولا جواب غير هذا الجواب!

من داخل معاوية انبعثت التهمة المتسفة. من دواعيه النفسية التى سيطرت طويلا عليه ولم تزل به حتى دفعته، بأهون تعبير، إلى إشباع نزعة طموحه وكلفه بالسلطان. وحين نتعقب المخالفات البيانية المعاصرة، التى تركها لنا ابن أبى سفيان

فى هذه الفترة ، سيظهر لنا أنها « فارغة » لا تحمل التهمة نصا ، ولا تشير إليها ولو بالإشارة العابرة ، لا من بعيد ولا من قريب . . .

ففى أول كتبه إلى الإمام لا يقابل البيعة بالرفض ولا بالإقرار ، ولا يذكر التهمة ، ولا يكاد يخط فى رقعة طوماره سوادا فى بياض . . .

وفى دعوته عمرو بن العاص ، إذ شاء أن يستعينه ، يشير إلى مقدم جرير عليه فى بيعة على ، ثم يخايله بالمغنم إذا لباه : « .. أقبل أذاكرك أمورا لا تعدم صلاح مغبتها . . . » ولا شىء بعد هذا أو قبله ينم عن اتهام أو خيال اتهام . . .

وفى بيعته المزعومة للزبير وطلحة ، لا نكاد نلمح إلا تحريضا على فتنة وقودها منافسوه ممن أهلتهم — دونه — سابقتهم ومزاياهم لإمرة المؤمنين ، وغايتها التى داعبت خياله القضاء عليهم ، أو تجريدهم ، فى القليل ، من قوامهم ليصبح وحده ولا منافس ولا نظير فى الميدان ... فهو يثيرهما على الإمام ، ويرسم لهما — وهو قاعد موفور آمن — خطة العمل وسبيل السير دون أن يعمل أو يسير :

« ... دونكما الكوفة والبصرة لا يسبقكما إليهما ابن أبى طالب ... » ... وهو يدعوهما إلى الالتفاف حول العلم المشترك الذى رفعاه ، أو رفعته صاحبتهما عائشة قبله : « . . . أظهرا الطلب بدم عثمان . وادعوا الناس إلى ذلك » ، ولكنه لا يقول ممن الطلب ، ولا أين ثأر عثمان فى الناس . فإذا علمنا أن أم المؤمنين وصاحبيها كانوا يرون دم القتيل إذ ذاك فى الثوار الذين أجلبوا عليه ، وأنهم توسلوا لاختلافهم على الإمام — فى أبلغ ما توسلوا به — بتريثه عن القصاص حتى تهدأ الثورة ، وتقر النفوس ، وتستبين الأمور . . . إذا علمنا هذا ، وضح لنا فى غير خفاء أن « تهمة القتل » التى شاء معاوية من بعد إلصاقها بعلى لم تكن ، حتى هذه اللحظة ، قد ألهمها خياله المبدع أو صاغتها بديهته الخلاقة ! . .

ونعود فنسأل : متى إذن اختلقها صاحب الشام ؟ .

بعد المصرع بأشهر كما أسلفنا ، وبعد مقدم جرير علية فى البيعة أيضا بوقت طويل : وبعد أن نفدت حيل معاوية فى مساومة على لإقراره على ما فى يديه على أى حال ! . .

وهذه حقيقة ثانية جديرة بالاعتبار ، تظهر الرجل لنا متجنيا فى اتهامه الإمام .

أجل . فلقد تردد معاوية منذ البدء فى رفض البيعة التى كان عليه أن يؤديها اتباعا لرأى المهاجرين والأنصار ووفود الأقاليم ومن بعدهم عمال الأمصار الذين بايعوا عليا بالإمرة بعد مصرع عثمان . تردد ، أو على الأقل آثر على الرفض الصريح الحاسم تمنعا قد يبديه فى هيئة المتريث ولا يبديه فى هيئة المخالف الذى يعلن العصيان . وهو بهذا ابتدع نوعا من الهدنة أجدى على غرضيه جميعا : غرضه البعيد وهو الإمرة ، وغرضه القريب وهو الاحتفاظ بعمله على الشام . . . ولعلنا لا نخطئ إذ نراها « هدنة مسلحة » يسندها تهديده بالجند والعتاد ، ثم نراها كذلك « هدنة مشروطة » توسع للمساومة ، وتفتح الباب أمام على للعدول عن خلعه ، تألفا له ، واستصفاء لوده وبأسه . وما كان معاوية بالخاسر على أى حال لو أنه فاز بأدنى غرضيه . فى إقراره على الشام دون بقية ولاة عثمان ، وفى إلحاق جباية مصر به ، ما سوف يعده بمزايا معنوية ومادية خطيرة تزيد فى تدعيم مركزه الحالى ، وهو عندئذ ، فى رأى الكثرة وفى نظرة الواقع بلا جدال ، الرجل الثانى فى الدولة . وهى لا شك مزايا كفيلة بأن تظفره بإمرة المؤمنين خلفا لعلى لو صلح ما بينهما وأخلص هو النية فى الولاء ، كما هى كفيلة أيضا بتحقيق ظفره معجلا إن أبى إلا النكث وآثر الشغب والانتقاض .

والأدلة على انتهاج الرجل سياسة المساومة فى تلك الفترة كثيرة ، ليس أبينها طوماره الفارغ — الذى استهل به ، فيما نرى ، عهد التلبث أو الهدنة المشروطة ، والذى قد يحتل عليه بأنه أداة تأويل وما هو بدليل . ومع ذلك ففيما نقلته إلينا الأخبار والآثار ما يغنينا عن التعلق بالطومار ! . . .

ففى حديث جرير إليه ما ينبئ عن اشتراطه البيعة شريطة هى بقاؤه على عمله . . . يقول له جرير :

« . . . فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس . فإن قلت : استعملنى عثمان ثم لم يعزلنى ، فإن هذا أمر لو جاز لم يقم لله دين ، وكان لكل امرئ ما فى يديه . . . »

وفى مقاله هو لجرير : ما يغنى عن الاستنتاج والتأويل إذ يقول باللفظ السافر الصريح :

« . . . يجعل لى الشام ومصر جباية ، وأسلم له الأمر ، وأكتب له بالخلافة . . . »

بل لقد قر فى الأذهان أن الرجل مثمن للبيعة ثمنا لا يعدل عنه ، هو عمله . قر هذا من قبل مقدم جرير عليه بكثير ، ومن بعد مقدمه بكثير ، وشفت عنه أعداد من النصائح والأحاديث . فالمغيرة ، بدء خلافة الإمام ، ينصح لعلى بأن يبقيه على الشام . وابن عباس يشير بمثل نصحه . وأشباههما كثيرون ينصحون ويشيرون وقد علموه لا ينهض فى شىء سما أو هان إلا أن يكون له من وراء النهوض فيه نفع أو — بعبارة السوم والمتاجرة ! — « جعل » حتى ولو كان هذا الشىء دم عثمان ! .. وصحب لعلى أيضا يشيرون به ، بعد استشراء الخلاف وإراقة بعض الدماء فى صفين ، فيقول منهم قائل ، والإمام إذ ذاك يستفسرهم لاستفاءة الرجل إلى الحق والطاعة :

« ألا نطمعه — ياأمير المؤمنين — فى سلطان توليه إياه ومنزلة تكون به له أثرة عندك هو بايعك ؟ . . »

ثم تفشل سياسة المساومة ، فماذا يكون ؟ . .

لا شىء إلا أن يقتل على عثمان ! . .

وهذه حقيقة ثالثة ، أو حجة الحجج التى تذرع بها معاوية للنيل من على ثم بلوغ أربه فى السلطان .

فلقد استنفد حيله فى الفوز بأصغر غرضيه عن مصالحة وتراض ، ولا معدى له إذن عن الخلاف ليدرأ العزل عن نفسه . . . فما عليه لو خالف فى سبيل هدفه الأكبر ما دامت ثمة عـــوامل معنوية ومادية تهيأت لعونه ، وما دامت « التهمة » سوف تبديه فى أعين الناس مناضلا عن هدف عام لا متهالكا على مأرب خاص ؟ .

ولكنه — تحوطا وحذرا — لم يفاجىء الناس بالتهمة فى صورتها النهائية الكاملة، فيهدم به لا يعرفها ولا ادعاها وكانت أمامه الفرصة سانحة للادعاء والاتهام

إثر مصرع عثمان أو عقيبة بأيام قليلة . إنما مضى يبنيها حجرا حجرا ، ويطورها طورا طورا ، ويقطرها قطرة قطرة فى الأذهان . فلما أن اكتملت ، وتخلقت تخلق الهوام الحقـــيرة برقة فغليجة فمذراء خشرة ، راح يحط بقدرها على سمعة الإمام ! . .

فلعل قائلا يقول : إنما تلبث معاوية هذه الشهور بعد مقتل عثمان ليستقصى ويستيقن لاليطور ويقطر ، فلما تثبت اتهم ولاجناح إذن عليه فى التلبث بالاتهام . . .

وهنا يسعنا أن نقول: وفيم التلبث للاستقصاء ، وما قصاراه وجدواه إلا الإعداد لباطل أو التذرع بمحال أو بما يكاد يشبه المحال ما دام للصرع قد كان على ملأ ولم يكن خفية ، وما دام القتلة — كما هو معلوم من اللحظة الأولى — كانوا فريقا من الثوار إن اختلفت فى أسمائهم الروايات فليس منها على على أى حال ؟ . .

ونـكر ثانية إلى تخلق التهمة المفتراة بعد مراحل وأطوار لنعلم ما هى الأطوار . . .

مع ما نسلم به من تفاوت بين الروايات التى تنقل لنا تاريخ العرب عامة وتاريخ هذه الحقبة الخاصة ، ومع ما يغلب عليها عادة من اختلاط بعضها ببعض ، وتداخل بعضها فى بعض تداخلا واختلاطا يصعب معهما التوقيت لهذه الروايات وترتيبها الترتيب الزمنى المستقيم الذى يجعلها ثبتا أمينا لتعاقب الحوادث — مع كل هذا التفاوت والاختلاط والتداخل ، لا يعجز العين الناقدة ، وهى تعرض الخطب والـكتب والأحاديث المعاصرة للأشهر الأولى من خلافة الإمام، أن تقع فيها على حقيقة هذه التهمة ، وأن تتعقب فى نصوصها ومعانيها على السواء قصة مولدها ، وأطوار نموها المختلفة طورا طورا من فم معاوية ، وبين أسطره ، وعلى لسان أخص حلفائه ومشيريه : عمرو بن العاص ، قبل غيرها من أسناد التاريخ . . .

يخاطب معاوية أهل إقليمه ، بعد حديثه إلى جرير ، خطابا « مائما » يذكر القتل ولا يمس عليا باتهام ولا بشبهة اتهام :

« يا أهل الشام . . . إنى ولى دم عثمان ، وقد قتل مظلوما . . . وأنا أحب أن تعلمونى ذات أنفسكم فى قتل عثمان . . . »

فهو يسند القتل لمجهول . وهو يدعى لنفسه ولاية الدم من دون ولد القتيل. وهو قبل هذا وذاك يستخبر الناس حقيقة موقفهم أهم يا ترى متابعوه لو أنه دعا للقصاص وما يهدف إليه من غاية خبيثة وراء القصاص ، أم لعلهم قاعدون عنه لا يجيبون ؟ . .

لكنهم يجيبونه ، وهل يستبيحون القعود عن دم مظلوم ؟ . . ويقدمون عليه — تحثهم النخوة — يبايعونه على الثأر ، ويقرون له بولاية الدم المسفوك . فإذا ذاق أمرهم ، وأيقن الجد منهم ، خطا خطوة جديدة فكتب للإمام :

« . . . أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف . . . »

أخذت التهمة تنفض ميوعتها ! . . لا تعميم الآن . لا إسناد إلى مجهول مادام فى طوقه إسناد بعض أركانها ، على الأقل ، إلى معلوم ! — وأى معلوم ؟ إنه أولى معلوم بالاتهام فى هم معاوية ومناه ! . .

ثم يقدم الرجل فيدفع بالتهمة إلى طورها الأخير . . . لقد أعد ومهد ، وهيأ الأذهان ، وملأ الصدور والآذان . ولقد تلبث وانتظر فما أجدى عليه الانتظار . فليقتل إذن على عثمان ! . .

وهكذا نراه بعد ثلاثة أشهر قضاها فى المراوغة قبل مقدم جرير عليه فى أمر البيعة ، وبعد ثلاثة مثلها قضاها فى المساومة عقب المقدم ، يطلع بالتهمة المفتراة كاملة التكوين ، فيقول لشرحبيل سيد اليمن ، ورأس أهل الشام ، وأقدر الناس على تحريك قومها وراء مبتغاه :

« . . . إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على ، وعلى خير الناس لولا أنه — قتل عثمان ! . . »

هذه قصة التهمة بغير حاجة إلى استلهامها من دوافع معاوية النفسية . فيها نطقت وقائع الحال ، وعنها شفت أسناد التاريخ ، ومنها ثبت أن « الإمرة » هى السبب الحقيق للخلاف بين على وغريمه ، ولا عذر بعدها لمن يحاول تلمس سبب آخر موهوم يجهد لاعتسافه من بين ذلك الغموض المزعوم الذى غلب على نصوص وثيقة التحكيم . . .

٧

نجحت « اللعبة السياسية » التى لعبها أبى سفيان . كانت حقيقة بأن يحالفها النجاح قدر ما تقدح من جدل ، وما توقع بين جماعة المسلمين من خصومة . . . وقد قدحت فأورت ، وأوقعت فأمعنت فى الإيقاع ، ثم مضت ترتب النتائج على المقدمات .

فما هى نتائجها ؟ .. ما غاياتها المنتظرة بعد عقد التحكيم أو قبل عقد التحكيم؟

ليس أخطرها على أى حال شل على عن ممارسة سلطانه فى الدولة فإذا هو « صورة » أمير ، أو هو — بلفظه — أمير مأمور . . .

وليس أهونها أيضا « قشره » عن عمله بإفساد يعته كقشره ولاة عثمان فيستوى العازل والمعزول . . .

وبين هذه وتلك من النتائج « حل معقول » تطلع به اللعبة السياسية وصاحبها من ورائها يعلم أنه قل من يقول إنه غير معقول . . .

هل يرى « تنحية » على عن الإمرة إلى حين . . .

أو — بلغة القانون — « رده » عن أن يقضى فى دم عثمان ! . .

* * *

تلك إحدى النتائج المحتومة ، وإنها لا ريب نتيجة «مقبولة» لا تأباها العقول التى تجيز اللعبة السياسية ، لأنها ترتبت على مقدمة « مقبولة » . . .

فعلى قتل عثمان ، أو حرض على قتله فى أهون صور الاتهام . . .

ومعاوية ولى الدم . . .

فلمن يكون الاحتكام ؟ . .

يأبى المنطق أن يكون على صاحب القضاء فى هذه القضية لأنه متهم ، ولا يقبل منه أن يكون خصما وحكما فى آن . . .

وإذن فقد وجب « رده » ضمانا لنزاهة الحكم ، وحرية التقاضى . ولن يجد امرؤ ينظر الأمر من هذه الزاوية ظل تحيف من معاوية على الإمام ، لأن «الرد»

هو الحل الوحيد المعقول الذى يدرأ الظنة عن القاضى ، ويوفر الطمأنينة للخصم ، ويكفل للقضية أن تمضى حرة إلى حيثما يجب أن تسير . . .

لهذا يكثر معاوية فى قتل عثمان ، وفى ولايته دمه ما وسعه سبيل الإكثار . لا يكاد يجد الفرصة أو ينتحلها حتى يكثر ويزيد ، ويبدئ ويعيد ، ولا غاية له من وراء هـذا إلا تثبيت حقه فى الطلب بالدم ، ثم تثبيت الدعوة إلى رد غريمه « القاضى الظنين ! . . »

يحدث بعض قراء الشام ، قبيل صفين ، وقد رأوه يتهيأ للقتال ورآهم يوشكون أن ينكروا عليه ، فيقول :

« ما أقاتل عليا وأنا أدعى أن لى فى الإسلام مثل صحبته ، ولا هجرته ، ولا قرابته ، ولا سابقته . ولكن . . . ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما ! . . »

قالوا :

« بلى ! »

« فليدفع إلينا قتلته فنقتلهم به . . . »

ويخطب الناس ، وقد طال تأبيه عن البيعة :

« . . . إنى ولى عثمان وقد قتل مظلوما . والله يقول : ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا . . . . . . »

لكنه يمزج ولاية الدم ، ودفع القتلة إليه ، بالشرط الوحيد الذى يحقق له غرضه الخبيء : إقصاء غريمه المفترى عليه عن الإمامة والسلطان ، فيكتب إلى أهل مكة عند مخرجه إلى صفين :

« . . . . . . إنما نطلب بدمه حتى يدفعوا إلينا قتلته فنقتلهم بكتاب الله . فإن دفعهم على إلينا كففنا عنه ، وجعلناه شورى بين المسلمين على ما جعلها عليه عمر بن الخطاب . . . وأما الخلافة فلسنا نطلبها . فأعينونا ، . . . . . إن أيدينا وأيديكم إذا اجتمعت على أمر واحد ، هاب على لما هو فيه ! . . »

عزل بعزل ! . . يريد على أن يعزله عن ولاية الشام ، فيدعو هو إلى عزل على عن خلافة الإسلام ! . .

ويمثل هذا الطلب يجبه عليا بعد أن فشلت المساومة :

« . . . قد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان . فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين . . . . . . »

هذه هي الدعوة التي دعا لها معاوية ، وروج جهد الترويج . وهي إحدى ثمرات لعبته السياسية ، وأهون نتائجها المنتظرة . وهي لا شك أحبولة محبوكة وقع فيها كثيرون في أيامه ولا تزال تطبق إلى الآن — فيما يلوح — على كثيرين ممن يعرضون لتاريخه بالمناقشة والتدوين . . .

على أنها حيلة لم تكن لتجوز على الإمام أو يخفى ما وراءها عنه . فذكره إياها متواتر ، ودحضه مزاعمها معلوم تفيض به كتبه إلى ابن أبي سفيان ، وحديثه عنه ، وسفاراته إليه . وبحسبنا منها عبارات تكشف الحيلة ، وتهتك الستر عن صاحبها حتى لتضعه من ولاية الدم موضع الدخيل المقتحم ، ومن خذل معاوية — لا من نصره ! — بحيث كان ويجب دائما أن يكون . . .

يكتب له الإمام مرة :

« . . . ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمر عثمان . فلك أن تجاب عن هذه لرحمك منه . . . فأينا أعدى له ، وأهدى إلى مقاتله ؟ . . أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه ، أم من استنصره فتراخى عنه ، وبث المنون إليه حتى أتى قدره عليه ؟ . . كلا والله ! . . لقد علم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم : هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . . .

وما كنت لأعتذر من أنى كنت أنقم عليه أحداثا . فإن كان الذنب إليه إرشادى وهدايتى له ، فرب ملوم لا ذنب له ، وقد يستفيد الظنة المتنصح ! . . »

وكتب أخرى :

« ... فأما إكثارك الحجاج في عثمان وقتلته ، فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلته حيث كان النصر له ! . . . »

وعلى هذا النحو جرى حديث أحد سفراء الإمام :

« يا معاوية !.. إنك لا تجد شيئا تستغوى به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا أن قلت لهم : قتل إمامكم مظلوما ، فهلموا نطلب بدمه !..

فاستجاب لك سفهاء طغام رذال . وقد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل بهذه المنزلة التي تطلب ! . . . . . . »

ويحق لنا أن نبين أن موقف معاوية من على في شأن عثمان على الهيئة التي بسطها الإمام لم يكن غريبا على الناس إذ ذاك أو خافيا عنهم ، بل كانوا يعلمونه حق علمه ، ويعذلون الرجل عليه ، وينكرونه منه وإن لم يكونوا ممن عرف تشيعهم لعلى . ويكفينا هنا مثلا رأى محمد بن مسلمة في هذا الشأن . فهو امرؤ أبى أن يدلى بالبيعة إلى الإمام حينما أدلى بها قومه الأنصار . وهو بهذا يحسب عليه ولا يحسب له . وقد يحسب بأرفق تقدير من المحايدين الذين لا إلى حزب العراق ولا إلى حزب الشام . . . يكتب ابن مسلمة هذا إلى معاوية يقول :

« . . . وأما أنت فلعمرى ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى . . . فإن تنصر عثمان ميتا ، فقد خذلته حيا ! . . »

وإذن فلم تخف المرامى الخفية وراء انتصا[illegible]ية لعثمان لا عن على ، ولا عن صحبه ، ولا عن أولئك الذين كانوا منه بمنزلة قطيعة أو كانوا منه ومن معاوية بموقف سواء . بل هى أيضا لم تخف عن أولياء ابن أبي سفيان وخاصة خلصائه وفى مقدمتهم : مرآة نفسه وأهوائه عمرو بن العاص ... فما كان انتصاره سوى انتصار لنفسه يلبسه بما يشاء لبيديه كما يشاء . بولاية الدم ، بالخذل ، بالتحريض ، بالقتل ، بأى من هذه التعلات المعروفة أو بها كلها مجتمعة . فيحسبه أن يبلغ أربه ، وأن يلقى بغريمه المفترى عليه فى الظلال ! . . .

ويكتب له على داحضا لملاته :

« . . . وأما قولك : ادفع لنا قتلة عثمان ، فما أنت وعثمان ؟ . . إنما أنت رجل من بنى أمية وبنو عثمان أولى بذلك منك . . . فإن زعمت أنك أقوى على دم أبيهم منهم ، فادخل فى طاعتى ، ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على المحجة . . . »

لكن معاوية لا يأبه . ظل دائما وهو — كوصف الإمام له — « الذاهب فى التيه ، الرواغ عن القصد » . . . يلزم « الأهواء المبتدعة والحيرة المتعبة » ، مع تضييع

الحقائق ، واطراح الوثائق » وإنه عندئذ ليعلم أنه غوى وأغوى ، ومال وأمال. عليم بهذا من فم خصمه ، ومن منطق الحوادث ، ومن لسان صاحبه عمرو ثم لا يرشد ولا ينزع عن غيه وإمعانه فى الادعاء . . . فلقد قال له عمرو مرة — وكم غيرها قال — فى معرض حديثهما عن الإمام وحقه الذى لا ينكر فى الخلافة:

« إنه لصاحب ما هو فيه إلا أن تظلمه ! . . »

ومع ذلك ظلمه ! . . اختلق ما اختلق ليلوى به العقول والألسنة ثم يجعله وسيلة للعصيان : وأعانه على الاختلاق عمرو نفسه — الناطق قبل بحق على ، العارف له ! — لأنه هو الآخر عبد هوى . ممن يثمن لهم بدينهم ، ويبيعون الفرى بمثقال ! . .

وقد نعجب لمعاويه كيف يرى الحق ويحيد لباطل ، ويرى الهدى وينحرف لضلال . وقد نعجب أيضا لصاحبه إذ يحثه على الظلم والحيف . وقد نعجب بعدهما لمن تابعهما من أهل الشام وهم على بصيرة من حقيقة الأمور — لكل هؤلاء قد نعجب ثم نرانا من بعد حقيقين بأن نزيد فى عجبنا أضعاف الأضعاف حينما نجد فى صفوف الإمام ، ومن بين رجاله وأوليائه ، فئة غير قليلة يلتوى بها منطق معاوية حتى لترى فى « دعواه » المختلقة « واقعة » يدخلونها فى حيز الحقائق ولا يطردونها إلى تيه الأوهام ! . .

أجل ، قد كان ! . . فمن رجال العراق من استخفهم حب الجدل فراحوا يسفسطون حول التهمة الباطلة التى ألصقها معاوية بعلى . لم ينكروها كما أنكرها صاحبهم ولم يدحضوها بمثل حججه التى تهدرها وتهدمها وتجعلها هراء وهباء.ولم يردوها إلى أصولها المخلقة ، طورا وراء طور ، إذ هى خلجة رعناء من أثر الماضى فى قلب حاقد ، ووهم شارد فى خيال حالم — إنما قد ازدهاهم عندئذ ، دون هذا كله ، « علمهم » بأساليب النقاش والجدل والمحاجة فمضوا شأو اعتدادهم أو غرورهم من التهمة ، يحللونها ويبررونها كما تناقش الوقائع الثابتة وتبرر بالعلل والأسباب . . .

فما كان قصارى ذلك النقاش ؟ . . وما هى نتيجته ؟ . .

كان قصاراه — فيما يبدو — إشباع تلك النزعة إلى التكلف بالنقاش فى كل ما يعرض لهم من الخواطر والآراء وإن كان الخاطر للهم ، والرأى الذى يجىء

بمقطع الحجة وفصل الخطاب . وما عهدنا باندفاعهم إلى مجادلة الإمام فى أوامره ونواهيه ببعيد . . .

وكانت نتيجته انتكاس قضية الخلاف بين على ومعاوية فإذا هى ، من لحظتهم، وعند التحكيم ، وبعده بالسنين والقرون ، تلوح للكثيرين خلافا على دم عثمان هل سفك بحق أم سفك بظلم ، ولا تتمثل فى هيئتها الحقيقية إذ هى خلاف على السلطة يعتسف معاوية دواعيه ، مظهره تمرده على صاحب الأمر الشرعى فى الدولة ، وآثاره انقسام وحدة الأمة ، وجزاؤه فى منطق الدين والسياسة على السواء جزاء التمرد والخروج على النظام العام . . .

يسفسطون ، مفسرين سبب الحرب بين أهل الشام وبينهم ، فيقولون بالمنطق الكلف بالنقاش ، وباللسان الذى يتكلف الترتيب والتخريج والتأويل :

« . . . إن الله عز وجل أحل البراءة ممن حكم بغير ما أنزل الله ، فتوليتم الحاكم (عثمان) بغير ما أنزل الله وقد أحل الله عداوته ، وأحل دمه إن لم يرجع إلى التوبة ويبؤ بالدين . وزعمتم أنتم خلاف حكم الله ، فتوليتم الحاكم بغيرما أنزل الله وقد أمر الله بعداوته وحرمتم دمه وقد أمر الله بسفكه ، فعاديناكم لأنكم حرمتم ما أحل الله ، وحللتم ما حرم الله ، وعطلتم أحكام الله . . . . . . »

ويسفسطون أيضا ، مثل سفسطتهم هذه ، مبررين قتل عثمان :

« ... قد قبلنا من عثمان بن عفان حين دعى إلى الله والتوبة من بغيه وظلمه . وقد كان منا عنه كف حين أعطانا أنه تائب حق جرى علينا حكمه بعد تعريفه ذنوبه ، فلما لم يتم التوبة ، وخالف بفعله عن توبته ، قلنا : اعتزلنا ونولى أمر المؤمنين رجلا يكفيك ويكفينا فإنه لا يحل لنا أن نولى أمر المؤمنين رجلا نتهمه فى دمائنا وأموالنا . . . فأبى ذلك وأصر . فلما أن رأينا ذلك منه قتلناه . . . . . »

وإذن فقد نجح معاوية — أعربته وترديده حتى التوت ، فى صفوف الإمام نفسه ، ألسن وأذهان بدعواه . . . ولم يكن جديدا على الناس خوضهم فى قتل عثمان فهو من ساعته مادة للحديث والنقاش . ولم يكن عجبا أن يذهبوا فيه طرائق ومذاهب شتى تتراوح بين الإقرار والإنكار . ولم يكن بمستغرب أيضا أن نجد بين

مقربه فئة تراه ضرورة سياسية ، وفئة تغلو فتمده واجبا دينيا ، وفئة أخرى بين هذه وتلك تأسف له ثم لا تنكر الظروف والدواعى التى انتهت به إذ تعتبرها حرية بأن تختم بمثل ذلك المصير حياة أى إنسان ، عثمان أو غير عثمان ... كلا لا نعجب ، ولا ننكر ، ولا علينا من الإثبات ، لأن تعدد الآراء فى قتل عثمان — من حيث هو جرم — واختلافها أشد الاختلاف فيه ، حقيقة تاريخية معلومة ، لا سبيل إلى إغفالها أو التهوين منها ، ومبحث كان مدار مجادلة وحوار ، ولا يزال ، منذ وقع إلى الآن . . . ولكن الذى نعجب له ، وننكره حقا ، ويجدر أن يكون دائما موضع تعجب وإنكار ، أن ينزلق هذا القتل — من حيث هو سبب موهوم لخلاف معاوية عن على — ثم ينزلق وينزلق ليدفع السبب الأصيل عن طريقه ، ويزيحه ، ويبقى وحده ولا سبب سواه . . .

لقد كتب على وقال . . .

وقد كتب معاوية وقال . . .

ومن ورائهما جرت ألسن وأقلام بأقوال أنصار هذا ، وأقوال أنصار ذاك ، وأقوال من دونهم ممن لا يحسبون فى الأنصار أو الأعداء ، على ما بيناه ، فلم نر فيما استفاض منها وشاع إلا « الخروج على النظام » علة لهذا الخلاف . . .

غير أن معاوية مضى شوطه ، يلبس ويشبه ، لتختلط الحقائق على الناس ...

ثم مضى أيضا شوطه ، يعاند ويكابر ، ويثيرها حربا من الفرى والادعاء ليغرق ذلك السبب الصحيح الأصيل فى قاع سببه الموهوم الدخيل . . .

وكيف لا ؟.. إنه لعليم بأن استجابته لحجج الإمام سوف تجرده من سلاحه ، ثم تدعه هملا فى الناس . فإذا هو خليع بلا مطمع ، بلا سطوة ، بلا شام ! . .

ومع ذلك فقد كفانا من تعلاته ، وكفانا من مكابرته وتأبيه ... ولتكن لنا نظرة عابرة فى ثنايا بعض أسطر الإمام وعباراته لنرى موضوع الخلاف الحقيق ، فى صورته البسيطة الأولية التى ظل عليها طول عمره ، منذ نشأ حتى انتهى إلى التحكيم ، وبغير حاجة ، كسبب خصمه ، إلى التطويع والتطوير ! . . . وإنها لصورة واضحة محلوة ، تضم ظلالها وأضواؤها كافة المبادئ التى تحدد لنا الإمرة ،

بمن تكون ، وفيمن تكون ، وحق الأمة في السلام والوحدة ، وواجب الأمير في الانتصاف لها من كل مخالف يمرضها الانقسام . . .

في هذه الصورة ، أو هذا الدستور ، يفصل الإمام الأمر في سهولة ويسر . . .

فالإمرة لأولى المسلمين بها :

« . . . إن أولى الناس بأمر هذه الأمة ، قديمهاوحديثها ، أقربها من رسول الله ، وأعلمها بالكتاب ، وأوفقها في الدين ، وأولها إسلاما ، وأفضلها جهادا ، وأشدها بما تحمله الرعية من أمورها اضطلاعا . . . . . . »

واختيار الأمير من حق تلك الصفوة المختارة من صحب محمد الذين كانوا بمثابة مجلس الأمة : لأنهم أعلم بحاجتها ، وبما يصلحها :

« . . . الناس تبع للمهاجرين والأنصار وهم شهود المسلمين في البلاد على ولايتهم وأمر دينهم . . . . . . »

وكلمة هذا « المجلس » في الاختيار واجبة الطاعة :

« . . . بيعة واحدة . . الخارج منها طاعن ، والمروى فيها مداهن . . . »

فمن أبى الطاعة فهو خارج على الجماعة ، شاق وحدتها ، لا يدرأ خطره عليها إلا أن يحمل على الخضوع بقوة الإقناع ثم بقوة السلاح :

«. . . إنما الشورى للمهاجرين والأنصار . فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماما كان ذلك لله رضا . فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين . . . . . . »

هذه هي المبادىء الأساسية في دستور المسلمين غير المكتوب الذي اتبعوه خلال عهود أبي بكر وعمر وعثمان ، أو تحروا اتباعه جهد استطاعتهم ، قد أعاده الإمام على سمع معاوية ، ومر به تحت بصره مرات . ولم يزل به يعيده ويكرره ، لا يمل ولا ييأس عسى الرجل أن يرشد وينزع إلى الصواب .

لكن معاوية أبى ، فلم يكن محيص لعلى من محاكمته محاكمة خارج على وحدة الأمة :

« ... لست أستحل أن أدع معاوية يحكم على الأمة ، ويركبهم ويشق عصاهم ... »

فإذا وقعت الحرب ، ثم تداعى المسلمون فى أثنائها إلى تحكيم القرآن فى الخلاف بين الرجلين ، فلا مراء إذن فى أن موضوع ذلك الخلاف الذى لا موضوع غيره هو خروج معاوية على جماعة المسلمين ، وإن التوت بدعوى ذلك الخارج الزائفة ألسن أقوام فى صفوف الإمام ، والتوت بها من بعدهم نوايا ابن العاص الغوى والأشعرى الظنين ! . . .

٨

قال يحدث صاحبا له :

« إن الفتن لم تزل فى بنى إسرائيل ، ترفعهم وتخفضهم ، حتى يبعثوا الحكمين يحكمان بما لا يرضى به من اتبعهما . . . »

فحذره حينذاك صاحبه :

« يا أبا موسى . . . إياك إن أدركت ذلك الزمان أن تكون أحد الحكمين . . . »

« أنا ؟ . . . »

« نعم أنت . . . »

فبان الإنكار فى وجهه :

« لا جعل الله لى إذن فى السماء مصعدا ، ولا فى الأرض مقعدا ! ... »

لكنه أدركه ! .. أدرك الزمان الذى اختلف فيه الناس ثم لم يزدهم التحكيم إلا أعنف اختلاف ! .. فالدنيا دارت . والأيام توالت تكدس على قومه أسباب الفرقة . والأمة التى كانت إلى أمس القريب كالصخرة العاتية توهى الصروف والمحن ، وتوهن الفتن ثم لا تهون ، قد أصبحت فلقتين مثل حبة الفول ! ... وها هو الآن فى معتزله ذاك الذى اختاره لنفسه ، ببلدة عرض ، بين الرصافه وتدمر ، يأتيه آت بما كان من قبل يكره أن ينهض فيه . . .

يقول له أحد مواليه :

« إن الناس قد اصطلحوا . . . »

« الحمد لله ! . . . »

« . . . وقد جعلوك حكما . . . »

فقلب كفيه كالحائر :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ! . . »

غير أنه لم يرفض . بل سارع ، كمن كان والنبأ على موعد مرتقب ، يتهيأ للرحيل إلى المهمة التي أشهد الأرض والسماء من قبل على تأبيه عليها ، وعزوفه عنها ، وتجنيب نفسه الكلفة بالسلم أمرها الكريه الثقيل . . .

وعندئذ يعجب صاحبه ، ويحاول أن يذكره ما عسى قد أنسى من رأيه المخالف القديم :

« يا أبا موسى . . . أتذكر مقالتك ؟ . . »

وما عليه لو ذكر ؟ . . إنه ليذكر ثم لا ينكر ! . .

على الزمن إلى إنكاره . . . فسخته اليوم سانحة تجيئه وهو قاعد ، غير ساع ولا آمل ، فتضع في عينه وحده مصير على بن أبي طالب كما لم تضع قبلها سانحة مصير عاهل في يد عدو موتور ولا ولى حميم ! . . طوته طي النهار الوضيء كابوس ليلة ! . .

فلعله فرح . . . إن الرجل من الناس قد يلغط بالرأى ، ثم يلوكه لسانه . ثم لا يفتر يعيده على الآذان كلاما . منغما أنغاما ، ما شاء له أن يردد ويعيد ، ومع ذلك فقلبه في جوفه ينكر عليه منطقه ، ونفسه تبرم به ولا ترضاه ، ودخيلة صدره تضمر خلاف ما يظهر ، حتى إذا وسعه من بعد أن يتحرر من نقاب تظاهره ، ويكشف عن خبيء ضميره ، جاء فعله غير قوله ، وطفت العقيدة الراسبة في أعماقه — بعد طول احتباس وكتمان — تطغى بدرنها وطينها ووحلها على زخارف لسانه وبيانه المخادع المعسول ! . .

* * *

وكذلك انطلق الأشعرى ، من بعد ، إلى حيث ينتظره دوره في التحكيم ، ليزن الأمور بميزان إدراكه الخاص ، ثم يسلكها المسلك الذى إليه تهديه رواسبه النفسية . . .

كان قدرا مقدورا أن الرجل حين دعى استجاب . قدرا لازما على الإمام لامناص منه ، ولا حيلة فيه ، بدت من خلاله الخاتمة وانكشف المصير المحتوم .. ما من فرد واحد فى الجانبين المتخاصمين ، من أهل الشام أو رجال العراق ، تجرد حينذاك من هواه وظنونه إلا استشف أن دولة على توشك أن تؤذن بمغيب كما توشك غبرة الأفق أن تشف عن طلائع الغروب ! .. حتى الذين كانوا من البدء فى عزلة ، ولم يسهموا فى الخلاف ، خايلتهم هذه الحقيقة . فالأشعرى اليمنى منشورة لهم أجمعين صحيفة ماضية ، منعكسة على رقعتها خبيئته ، مكشوفة نواياه — وإن حاول وسعه كتمانها — لكل من شاء أن يتطلع من ثنايا البداية إلى الخواتيم . . .

ومع ذلك فثمة طائفة من أصحاب الإمام رأت لزاما عليها أن تهطع إلى هذا الحكم بالتبصير أو بالتحذير ... لم يدفعها إليها أملها فيه ، ولا إيمانها بأنه قد أنسى ماضيه !.. قلقها هو الذى كان يدفعها . علمها أنه ليس بثقة ولا بمؤتمن على هدفها الذى طالما تنكر من قبل له وأولاه ظهره .. إنما كان هم كل منهم أن ينفض عن نفسه وقرا ثقيلا ، حريا بأن يظل إلى الأبد يثقله لو أنه لم يتقدم فى هذا الوطن بالنصيحة — وهى غاية جهده ومنتهى قصاراه — إلى هذا الأشعرى الظنين ! ...

يقول له ابن عباس حين يلقاه :

« يا أبا موسى ... إنه قد ضم إليك داهية العرب . وليس فى معاوية خلة يستحق عليها الخلافة ، فإن تقذف بحقك على باطله تدرك حاجتك منه ، وإن يطمع باطله فى حقك يدرك حاجته منك ... »

لكن الحق والباطل فى هذه القضية لم يكونا فى نظرة أبى موسى على الهيئة التى يراها العدول من الناس ! ..

ويمضى ابن عباس ينصح :

« ... واعلم ، يا أبا موسى ، أن معاوية ... يدعى الخلافة من غير مشورة ولا بيعة . فإن زعم أن عمر وعثمان استعملاه فلقد صدق : استعمله عمر وهو الوالى عليه بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهى ، ويوجره ما يكره . ثم استعمله عثمان

برأى عمر ، وما أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة . . . واعلم أن لعمرو مع كل شيء يسرك خبأ يسوءك . . . ومهما نسيت فلا تنس أن عليا بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان . وأنها بيعة هدى . وأنه لم يقاتل إلا العاصين والناكثين . . . »

بهذا الحديث الصريح البين حدثه ، فكشف له ، بما لا يدع مجالا لتأول أو شبهة ، حقيقة الخلاف بين الخصمين . ما هو إذن بدم أو ثأر ! . . ما هو بقتل عثمان ! . . . إنما كان تطلعا من معاوية إلى اغتصاب الخلافة ممن عصبها المسلمون برأسه وقلدوا بيعتها عنقه . . . وإنما كان انسياقا منه وراء نزوة أطماعه تحثه عليه « بيعة » أدلى بها إليه أنصاره أو « رعاياه » فى الشام . . ، وإنما هو إذن خروج منه على وحدة الأمة أوقع فى صفوفها فرقة وانقساما وليس له عند صاحب السلطة الشرعية ، الأمين على سلامة الدولة ، إلا ما لكل متمرد خارج على النظام . . .

وينطق أبو موسى جوابه ، كلاما ، منغما أنغاما ! ... ينطق من طرف لسانه فيقول :

« رحمك الله ! ... والله ما لى إمام غير على . وإنى لواقف عندما رأى ، وما أنت وأنا إلا بالله ... »

ومع ذلك فقد كان خليقا بشك الشاكين وريبة المسترببين ... الكثيرون ممن عرفوا ماضيه ، وخبروه فى أمسه القريب، يتهمون الآن منطقه . أقد صدق؟. أأخلص النية ؟ . أهذا الحديث منه اليوم مرآة قلب يؤمن حق الإيمان بما ندب له أم هو صدفة ظاهرها زخرف وجوفها فراغ ؟

ويقبل عليه الأحنف بن قيس ، يسرع به الشك ثم يبطئ اليقين ! ... إنه يحدثه . وينصح له ، ويشير عليه ، حتى إذا نصح وحذر بما يسعه النصح والتحذير أطلقها من بعد كلمات رقيقة ، بريئة للظهر ، ليبلوه ، ويعلم منه أصلحت نفسه حقا وصفت للإمام أم قد بقيت على رأيها القديم السقيم ؟ ... يقول الأحنف ، كأنما يسوق فكرة طارئة قد تؤدى مناقشات التحكيم إلى تبنيها حينما يعضل بالحكمين الاتفاق على الرأى الحق الذى لا وحدة ولا سلام بغيره :

« . . . فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلى ، فليتخذ أهل العراق من قريش الشام من شاءوا ، أو فليتخذ أهل الشام من قريش العراق من شاءوا... »

فلم ينكر الأشعرى فكرة هذا الاقتراح . ولم يبد عليه أنه لا يجد لها مكانا فى خاطره الجديد بأن تمتلئ مخارجه ومداخله بفكرة غيرها تذود عن الحق البديهى للإمام . . . فكأنما كان لا يرى جناحا عليه فى تقبل آراء تنأى به عن الجادة المستقيمة التى حددها كتاب الله لفض كل خلاف ، وعن الخطوط السوية التى رسمها دستور المسلمين غير المكتوب وتقاليدهم المقررة فى اختيار الخلفاء . وكأنما كان — بأرفق تعبير — لا يستشعر هنة من ضير فى زوال ولاية أمور الأمة عن صاحبها الشرعى وقد اختير هو حكما ليؤدى عنه ، ويدفع عن حقه باطل خصمه . . . كلا لم ينكر ! . . إنما تقبل الفكرة المقترحة بإقرار ، أو باستسلام يشبه الإقرار . فقال :

« قد سمعت ما قلت . »

وسمع على ! . . وهل كان يملك إلا أن يسمع ثم ينتظر ؟ . . إن الأحنف يسرع صوبه قلقا مهموما ، ويجأر وفى صوته رنة نذير :

« يا أمير المؤمنين . . أخرج أبو موسى والله زبدة سقائه فى أول مخضة ! . »

فيبتسم . هو بحقيقة الأشعرى عليم .

ويتم الأحنف :

« . . . لا أرانا إلا بعثنا رجلا لا ينكر خلعك ! . . »

لكن هذا النذير لا يهزه ... فما الإمرة ! .. ما ملك هذه الدنيا بأسرها !. ما النصر الذى يود الأحنف بن قيس — بجدع أنفه ، وحتف ثقته واستقرائه مقدمات الأمور — لو يجيء ، وإن على يدى الأشعرى : السفير الظنين ، كما تجيء الخوارج مباغتة ، وتقع المعجزات بغير إعداد ولا تدبير ! . .

ويجيبه الإمام بهدوء :

« الله غالب على أمره . . . »

« فمن ذلك نجزع يا أمير المؤمنين ! . . »

***

ثم يمضى أبو موسى شوطه ، وشأو رأى مكتوم — كان يحبسه من بضعة أشهر — أتيح له اليوم أن يطلقه من ربقة خوفه ، أو حذره ، أو تحرجه ، أو أيما عاطفة حكمته أن يجاهر — بعد عزله من الكوفة — بسياسة العزلة والتخذيل التي كانت ثمرته . . . وإذا كان الأحنف بن قيس قد داوره ، ولم يرد أن يجبهه بهذه السقطة القديمة ، فشريح بن هانئ جبهه ، وحذره أن تكون لها في نفسه بقية تفسد عليه نزاهة حكمه ، وتقضى على الرجاء الذى ظل رجال متفائلون يعلقونه به . . . يقول شريح وهو يودعه إلى دومة الجندل ، مقر التحكيم :

« يا أبا موسى . . . إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجبر صدعه ، ولا تستقال فتنته . ومهما تقل شيئاً ، لك أو عليك ، يثبت ... وإن كان باطلا .. إنه لا بقاء لأهل العراق إن يملكها معاوية . ولا بأس على أهل الشام إن ملكها على . وقد كانت منك تثبيطة أيام قدمت الكوفة ، فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقينا ، والرجاء منك يأسا . . . »

فإذا الرجل يبدو كالمغضب لهذا التذكير بسقطته ، فيجيب غير مهاود :

« ماينبغى لقوم اتهمونى أن يرسلونى لأدفع عنهم باطلا أو أجر إليهم حقا ! »

عندئذ يعقب صاحب له بالرجاء فيه :

« إن أبا موسى سيدرك حقنا . . . »

فيهدأ الأشعرى ويقول :

« والله إنى لأرجو أن ينجلى هذا الأمر وأنا فيه على رضا الله . . . »

على أن الرجاء واليأس منه قد حسمهما ، بعد هذا ، المغيرة بن شعبة . أحد الدهاة في العرب ، والرجل الذى كان له في ولاية معاوية رأى لم يقره عليه الإمام . . فلقد بعث معاوية حينذاك ، والحكمان لم يلتقيا ، إلى فريق من قريش كره أن يعينه في حربه ، يستلحقهم ليشهدهم خاتمة الأمر . . . وكان فيهم ابن الزبير . وكان فيهم ابن عمر . وكان فيهم المغيرة الذى أسرع به فضوله من الطائف بالحجاز إلى هذه البقعة بين العراق والشام . .

واستقبله معاوية بلاينه عسى أن يستصفيه ويستخلص دهاءه ليوم قريب .
وأصغى المغيرة إليه وسمع منه ، فلما أن فرغ تلطف ابن أبي سفيان وسأل زائره :

« . . . ما ترى يا مغيرة ؟ . . »

تفكر الزائر الحذر هنيهة ثم قال :

« يا معاوية . . . لو وسعني أن أنصرك لنصرتك . ولكن ، على أن آتيك بأمر الرجلين . . . »

وفعل . ودخل زائرا على أبي موسى ، يحادثه ليذوق أمره :

« يا أبا موسى ... ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره هذه الدماء ؟.. »

فلم يكن أسرع إليه من جواب الأشعري شيء :

« أولئك خيار الناس . . خفت ظهورهم من دمائهم ، وخمصت بطونهم من أموالهم ! . . »

وركب المغيرة إلى عمرو :

« يا أبا عبد الله .. ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره هذه الدماء ؟..»

فلم يكن أسرع إليه من جواب ابن العاص شيء :

« أولئك شرار الناس . . . لم يعرفوا حقا ، ولم ينكروا باطلا . . . »

من هذا الحديث وضحت نية الأشعري للمغيرة حتى لقد انطلق بها إلى معاوية يعلنها وإنه عند ذلك غير مخدوع :

« . . . أما عبد الله بن قيس فخالع صاحبه ، وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر . . . وأما عمرو فهو صاحبك الذي عرفت . . . »

ومن هذا الحديث أيضا يتبين لنا الرجل على ما كان عليه بالأمس ، له نظرته الأولى ، وسياسته السلبية التي أقعدته عن انحيازه لهذا الخصم أو لذاك . .

أفنلحاه يا ترى الآن إذ هو أخرج زبدة سقاته ، ونضح حقيقة بما فيه ؟ . .

لكأني إذن بفئة من الناس تراه ، أمس واليوم وفي غده ، مخلصا لرأيه ، ثابتا عليه ، ولم يغير منه شيء ، فإذا هو في حسبانها يرتفع إلى مستوى أصحاب المثل والمبادئ . . .

وكأنى بغيرها فئة أخرى تصوبه ، وتستطيع أن تزعم له صدق النظرة واطلاعها على المجهول ، إذ تنكشف له الأحداث فإذا الناس هذا اليوم فى فريقى العراق والشام ، قد « ثبطتهم » الظروف عن الحرب فقعدوا مثله يلتمسون عافيتهم فى السلام أو فى السعى إلى استفاءة السلام . . .

ومن حق الأشعرى أن يستمسك برأيه . ومن حقه أيضا أن يرى فى هذا التحكيم رجعة من الناس إلى تلمس خطة هينة ، ليس فيها عنف الحرب ، وتدنو هونا من خطته التى دعا بها وهو فى الكوفة إلى القعود عن المشاركة فى القتال ليجبر الخصمين على التزام الحسنى لفض ما وقع بينهما من النزاع . . . من حقه لا ريب كل هذا وكثير غيره مما عساه قد خاض ذهنه حينذاك ، ويخاض الآن أذهانا أخرى من الآراء والنظرات ، ثم من حقنا بعده أن نتساءل أكان أيضا له أن يخضع قضية التحكيم ، وهى قضية عامة ، لرأيه الخاص ؟ . .

كلا ! . . وكلا بلا جدال ! . . فلم يكن أبو موسى يمثل نفسه . كان يعلم أنه يمثل العراق والإمام . وكان يعلم أنه قد اختير ليتحدث عنهم برأيهم لا برأيه . وكان أولى به — إذ أيقن أنه لا يستطيع التحرر من رأيه القديم — أن يستقيلهم اختيارهم ، كما كان أولى به من قبل أن يستقيل الإمام ولايته على الكوفة ثم لا عليه لو اعتزل ، ملتزما سياسته السلبية ، أو داعيا لها بصفته الشخصية لا بصفته العامة . .

ولكنه لم يتجرد من نظرته الأولى . وأبى إلا أن يساير فى التحكيم هواه ، فخذل الذين جاءوا به ، ونصر الذين كانوا أولى عنده بالهزيمة والخذلان . ولئن قيل إنه « حكم » وما هو بنائب ولاسفير لأهل العراق فليس يحق إذن عليه التزام رأيهم والدفع عنه . . . إن قيل هذا فإن القول به لا يهدر الحدود التى كان على الأشعرى ، بأية صفة من الصفات ، التقيد بها والسير محكمة فى نطاقها المرسوم . .

لقد كان جليا له ، قبل اختياره وبعد اختياره ، فيم اختلف الناس ، ولم اختاره أهل العراق ، وأية مبادئ — بنص وثيقة التحكيم — عليه التزامها وهو يناقش رفيقه ابن العاص ليخلص وإياه إلى الحكم المطلوب . . . كان هذا كله جليا ، وأجلى ما فيه ذلك النص الصريح فى الصحيفة الذى أوجب « الحكم بالقرآن » .

فإذا رأى أبو موسى من بعد أن « يجتهد » الرأى ثم يحكم بما يراه ، فحكمه إذن مردود منقوض لأنه لايقوم على مبدأ « الحكم بالقرآن » ، واجتهاده إذن اسم جديد لهواه لأنه « لا اجتهاد مع نص » ! . .

ومع ذلك فقد مضى شوطه ... لعله كان أسير نظرته القديمة ... لعله انزلق فى دعوى معاوية . . . لعله خدعته خدع ابن العاص . . . على أى حال ، نسى الرجل — فيما بدا — لفتة الأحنف ، ووصية ابن عباس ، وتحذير شريح ، وهو يتخذ سبيله إلى دومة الجندل . أفلم يكن أجدر به أن يذكر ، فيعتبر ، ما عساه قد أنسيه ، وهذا كتاب من الإمام قد لاحقه ، إلى حيث أقام بتلك البقعة بين الشام والعراق ، فيه تذكرة ، وتلميح بالشك ، وتحذير من الميل والزيغ ؟.. لقد كتب على إليه إذ ذاك :

« ... إن الناس قد تغير كثير منهم عن كثير من حظهم ، فمالوا مع الدنيا ، ونطقوا بالهوى . وإنى نزلت من هذا الأمر (الخلافة) منزلا اجتمع به أقوام ، أعجبتهم أنفسهم ، أداوى منهم قرحا . . . وليس رجل — فاعلم ! — أحرص على جماعة أمة محمد وألفتها منى ، أبتغى بذلك حسن الثواب ، وكرم المآب . وسأفى بالذى أخذت على نفسى وإن تغيرت (أنت) عن صالح ما فارقتنى عليه !.. »

١

كانت العودة حزينة ... العيون ساهمة . القلوب مكلومة . الرءوس خافضة . وهذه الأجسام التى مشقتها خشونة الصحراء ، وضمرتها شدائد السلم والقتال لاحت رخوة متداعية كأنها بلا عظام وأعصاب . وهذه البشرة الحنطية التى أنضجتها حرارة الشمس ، ولوحتها أطياف الأشعة ، بدت شاحبة كأنما امتصها الرمل رونقها ، أو عكس عليها لونه الأصفر . . .

بلا حياة . فى خمول وتثاقل . بمثل حركة الظلال أو الدمى المنحوتة عادوا يطلقون الأقدام على طريق حياة هى الموت وقد خلفوا وراءهم ساحة موت كانت لهم فى جنباتها حياة ... تقهقروا إلى مواطن الدعة . ارتدوا للسلم ينسلون صوب الكوفة ففيها ملاذ لكل حالم بالطمأنينة يرخى جفنيه عن غوائل الحرب فعل النعامة عن سهام الصياد ! . .

وخلف ظهورهم كانت صفين . البقعة التى غدت بقعة كبيرة من الدم ! المثوى الفسيح الذى التقم وما تخم ، وشرب وما شرق ! . . الأرض الندية الحمراء ! فكم لونوها ! . . وكم أودعوها ! . .

كم تركوا عليها وهم يعودون ! . . كم خفقة قلب ، وخلجة صدر ، ولمحة عين من اللمحات اللواتى تترجم عن القلوب والصدور ! . . كم أهدروا ، هناك ، فوق أرضها من عواطف ، من حنان الأبوة . من وفاء البنوة . من التعاطف الذى كان حتى أمسهم القريب يربط بين الرفاق فى السلاح ! . . تلك الأعداد الوفيرة الكثيرة من الأعضاء والأجساد التى غيبوها عن عيون الأنجم تحت التراب . فى قبور غير معلمة ، ليست كل ما ضيعوه . فالصفاء أيضاً قد مات ! . . .

حتى النمط الذى صاحبهم عند مخرجهم من ميدان الموقعة ، مات هو الآخر ! . . دفنوه فى صدورهم . وأدوه جمرة حية تضطرب بعد أن عملوا نهارين وليلتين فى إهالة ثرى صفين على قتلاهم . أم لا ، ففيم هو الآن ؟ . . وما جدواه ؟ . .

لقد ربح من ربح وخسر من خسر وليس بينهم رابح على الإطلاق ؟ .. إنهم ليعلمون أن النقاش نقش على الهواء ! صرخة بلا صدى ! هينمة كهينمة النائم ! .. وإذا كان له ما وراءه ففرقة أقصى من هذه التى أشاعها بينهم ، منذ أيام ، نداء التحكيم . . .

كلا ما لهم اللحظة طاقة لجدل ، ولا قبل بحديث . . . هذه نفوسهم تبرم بهم . تعاف ما كان منهم . تخجل أن تبدئ فيه وتعيد . فالسلم الذى تنادت به بعض طوائفهم أطلع التسليم أو ما هو أدنى فى اعتبار الحقائق من التسليم . والحرب التى تصايحت بها بعض فرقهم كانت أدنى إلى أن تكون مذبحة تقط فيها أعناق قلة متحمسة بينما الكثرة المفتونة بإغماد السيوف واقفة تنظر . وبين أولئك وهؤلاء كانت طوائف وفرق تترجح فى حيرة ، لا تلحق بأحد الحزبين لأنها لم تكن على يقين مما تريد ... أما الآن فكلهم فى هذه الحيرة : أصحاب التردد ، ودعاة الحرب ، والمبشرون بالسلام . . .

كلهم فى هذه الحيرة وهم يحركون أقدامهم للعودة ، ينطلقون فى تثاقل ، ويتذاءبون على منبسط الصحراء فى مسيرهم متداعين ، بلا إرادة ، كالهشيم حين تدفعه الريح ! .. بلا عظام ، بلا أعصاب كأنهم ظلال ! .. والمشاعر فى صدورهم موءودة ، والخواطر فى عقولهم خرساء ، والكلام فى حلوقهم مختنق ، وليس فيهم من علائم الأحياء إلا زفرة تضطرب ، وخجل يرخى الأهداب ، وحسرة تحنى القامة . . .

وسمعوا الإمام يبتهل لربه ، فى نبرة حزينة :

« ... اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى المال والأهل . . . »

فكأنما هم فى حلم . وكأن دعاءه قد شد شفاههم إليه فرددوه بغير وعى ، خافتين . . . ثم ذابوا خجلا . ثم تهافتوا حسرة ، والأقدام والمطايا تتحرك بهم إلى الجنوب . . .

فى سهوم ووجوم . وفى انكسار وكآبة ، راحوا يأخذون على شاطئ

الفرات صوب النخيلة ضاحية الكوفة ، حاضرتهم التى شهدتهم من أشهر يتعجلون زحفهم إلى الشمال ليقطفوا النصر ! . . . فما أقرب اليوم من أمس ، وما أبعد الحال عن الحال ! . . إنهم ليسيروا سير الذاهل ، لا يكادون يلقون بالا لمن يستقبل ولا لمن يودع . أفواههم تعي بالكلمة ، وعيونهم تثقل بالنظرة . حتى الطريق التى أقبلوا عليها إلى صفين قد مالوا عنها ، وأخذوا غيرها أخرى ، كأنما أخجلهم أن تشهدهم وهم على مثل فشلهم ، وتهاوى أيدهم وعزمهم ، وتفرق رأيهم وهى التى من قبل شهدتهم وعزمهم منيع ورأيهم جميع . . .

واجتازوا هيت . وبلغوا صندوداء . . . وذهب مساء ، وجاء صباح . . .

عندئذ انتفضوا أحياء ! . . تدفق الدم فى وصائل الدمى المنحوتة ، وفى أطياف الظلال ! . . إنهم الآن قطعوا شوطهم . بلغوا آخر المراحل ... فها هى النخيلة . هاهى من ورائها أبيات الكوفة تلوح لهم كالبقع الشهباء فى ثوب النور . ها هى وجوه أقوامهم ، تكاد تطالعهم فى أخيلتهم الس[illegible] ـامتة زارية . . . وهل هى إلى سويعة أو بعضها ثم يلقون الناس ؟ . . ويسمعون لوما أو يسمعون سخرية ؟ .. ويرجهم عويل هنا وعويل هناك ؟. فما الذى تراهم أعدوه للقاء ؟ . . لا الصمت يجدى عليهم ، ولا الوجوم يغنى عنهم . . . هذه شفاههم تنفرج . وصدورهم تضطرب . وعقولهم تصطنع وتعمل المشاعر المدفونة فى أعماقهم تمزق الأكفان . الخواطر الحبيسة فى أذهانهم تكسر الرتاج . الكلام المخنوق فى الحلوق راح يتشكل همسا : فلغطا ، فطنيناً ، فتصايحا وصرخات ! . .

وعنف النقاش . . . فرغ الآن همهم من مشقة السفر ، ومشغلة الوجهة التى تحلهم إياها ارتدادهم الفاشل عن صفين ، وانبسط حيالهم من زمانهم فراغ تستطيع ألسنتهم المنهومة للجدل أن تتسابق فيه ، وأن تشتبك ، وأن تتصارع — فلا بد من حجة يسوقونها للناس ، وعذر يسترون به أوبتهم التى عادوها على استحياء ! . .

ولقيهم عن مدخل البلدة ابن وديعة الأنصارى : فأسرع يستقبل الإمام ، وأسرعوا هم يرجئون مهاتراتهم ، ليصغوا فى حديثه إلى ما قد يدلهم على رأى أهل حاضرتهم فيهم . . .

ويسأله على :

« ما سمعت الناس يقولون فى أمرنا هذا ؟ . . »

فيجيبه الرجل :

« منهم المعجب به ، ومنهم الكاره له . . . والناس كما قال الله تعالى : ولا يزالون مختلفين . »

« فما يقول ذوو الرأى ؟ . . »

فيتردد هنيهة ، متحرجا ، قبل أن يقول :

« يقولون إن عليا كان له جمع عظيم ففرقه ، وحصن حصين فهدمه ، فحتى متى يبنى مثل ما قد هدم ، وحتى متى يجمع مثل ما قد فرق ؟ . . فلو أنه كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه ، فقاتل حتى يظهره الله أو يهلك ، إذن كان هو الحزم ! . . »

هنا يظهر الغضب فى وجه الإمام ، ثم يتلوه أسى ، ثم تنطلق عينه تومىء إلى الجموع المائدة معه ، أو المائد معها إلى حيث أرادت ، ويقول بنبرة مرة وهو يقلب كفيه من عجب :

« أنا هدمت أم هم هدموا ! . . أنا فرقت أم هم فرقوا ! . . . . . . »

ويمضى وجهه . . .

ويعود اللغط والطنين والتصايح . . . صحا فى جيشه الخلاف بعد أن نام . وأقبلوا فيما بينهم يترامون ثانية باللوم والشتم ، ويتراشقون بالدعاوى والتهم : هذه الخاتمة المخزية التى انجلت عنها صفين قد جرها عليهم هذا الفريق ! — كلا بل ذاك ! — كلا بل أولئك الذين ترجحوا بين الفريقين لا يقرون ولا ينكرون !.. والتهم تحشد . والدعاوى تكدس ، والفرى تكتال بالكيل الأوفى وليس فيهم ، مع هذا كله ، رجل واحد إلا نزه نفسه من الوزر وألقى بالتبعة على كاهل سواه . ولولا ما كان بهم من إعياء الرحلة ، ولولا دنوهم هذا من الأهل والعشيرة لكانوا احتكموا حينذاك للسيوف والرماح بدل احتكامهم للعصى والسياط ! .

أجل . فلقد وسعهم أن يتشاتموا ، ويتنابذوا بالألقاب . ووسعهم أن ينزو بعضهم على بعض فيضرب بعضهم وجوه بعض . وأوشك سلاحهم آونة أن يتشابك

ويتلاحم . لم يتلوموا هنيهة ولم يستشعروا حرجا أن كان الإمام فيهم فما يحرجهم شيء ، ولا يكنفهم شيء . أفلم يهدروا هناك ، على رمال صفين ، كل العواطف الكريمة : حنان الأبوة ، ووفاء البنوة ، وحتى ذلك التعاطف الذي يؤلف دائماً بين الرفاق في السلاح ؟ . . .

مرة ، وثانية ، ومرات تلاحوا وتشاتموا وتضاربوا وهم على الطريق للكوفة . ولم تشهدهم البلدة من بعد إلا عدوين . ولم يستقبلوا أبوابها إلا فرقتين على خصومة جامحة . وعندما أخذت مطيهم وأقدامهم تطأ مدخل الكوفة ، كانت فرقة منهم تصيح بخصيمتها :

« ويحكم ! . . فارقتم إمامنا ، وفرقتم جماعتنا ، و . . . . »

فإذا الأخرى تزأر :

« يا أعداء الله ! . . أدهنتم في أمر الله ، وحكمتم ! . . »

ثم تنحرف بجمعها عن الصفوف العائدة كأنما ضاق أن يحتويها وإياها مكان أو يجمعها طريق . . . تنحرف في لجب وضجيج إلى قرية حروراء تلوذ بها عن هذه الحاضرة التي يعود إليها الإمام والذين تابعوه . فما لها معه مقام . فرقهما الرأي فليفرقهما الموطن ! . .

ويحزن الإمام . ويمضي بصفوفه الباقية في دروب حاضرته والألم يعصف برأسه ويرنح خطواته . . . في صمت أجوف يسير . ومن ورائه لا تزال تدوي كالطبول صيحات هذه الفئة الخارجة عليه من أصحاب حروراء . . . تدوي صاخبة هادرة ، غاضبة ثائرة يهتاف أكثر من عشرة آلاف لسان :

« البيعة لله ! . . . البيعة لله ! . . »

ولكنه لا يزايل صمته ، ولا يروض نفسه على التطلع نحوها إلى الوراء . . . إنما ينطلق قدما ، إلى منتجعه المنتظر بالكوفة ، بصفوفه الصامتة كصمته ، الأسيانة كأساه . . في وجومه الحزين ينطلق ، وئيدا وئيدا ، خطوة خطوة . حتى إذا طالعته القبور بظاهر البلدة ، ضيق الخطا ، وخفف السير ، وانقشعت سحابة الوجوم لتفسح لصفاء الخشوع على محياه . . فهاهنا دائما الخاتمة ، في حفرة كهذه الحفر ! . .

هنا تصغر النفس حتى تفنى ، ويرق الجسد حتى يشف ، وتذوب الخلافات والأطماع ! . . هنا تصبح الحياة عبرة . . .

ويقف يخاطب ساكنى ذلك القفر ، فى هدوء :

« السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة ، والمحال المقفرة . . . أنتم لنا سلف فارط ، ونحن لكم تبع ، بكم عما قليل لاحقون . . »

ثم يرفع وجهه إلى السماء ، يناجى ربه بالرجاء والضراعة :

« . . . اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم . . . . . . طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عن الله عز وجل بذلك . . . »

٢

عادوا من وادى الموت ينسابون إلى قلب البلدة انسياب الأنهار ، بغير ضجة ولا هرج ، فالأرض تحتهم خرساء لا تستجيب لوقع الأقدام . وكانت عودة هادئة ، لينة كأنما مشوا على ريش . ولكنها كانت أيضاً حزينة ، فأينما خطوا كان بكاء . وأينما كانت أدمع لاحت الأعين من وراء غيومها الرقيقة كسيرة ذابلة وهى تجول من صفوفهم فى ثغرات فارغة كان يملؤها أمس القريب أحباب واراهم التراب الندى فى صفين . . .

وكانت البيوت كالمهجورة . وكانت الطرقات موحشة وإن غصت بالرجال والصبية ، فالبكاء صامت والأنين مكتوم . من هنا تند زفرة ثم يستردها التجلد . من هنا تبدر أنة ثم تغرق فى الصمت . ووراء هذا الجدر لواعج ذاهلة ، لا تعربد ولا تصيح ، والجيش يسير فى تراخ ، ثقيل الخطا ، ثقيل القلوب . .

لكن غاشية الصمت التى لفت السكونة لم يتح لها حينذاك أن تدوم . كانت مثل غيمة من غمائم الصيف بددتها خفقة ريح . . الدمع الحبي ينطلق . الحلوق تنفسح للغصص . الصدور تضيق بالأنين . كلما تقدموا على الطريق أوغلوا

فى الحزن . وكلما أوغلوا سكت الصمت وتحدث التفجع . . . نطقت القلوب المتجلدة بالمواجع ، فكان صياح وكان عويل . . .

ويرتج الجمع . وتضطرب الخطا والبكاء فى هذا الحى قد زلزل تحتهم مواطئهم وهز عمد الفضاء . . . ويرفع الإمام عينا عاتبة ، فيها شعاع من الرثاء والمرحمة ، إلى رجل من أصحاب الطريق يلقاه . ويقول فى عطف مشوب بإنكار :

« أيغلبكم نساؤكم ؟ . . ألا تنهونهن عن هذا الرنين ؟ . . »

فيدارى الرجل من حزنه فى حيائه ، ويجيب بخفوت :

« يا أمير المؤمنين . . . لو كانت دارا . . . أو دارين . . . أو ثلاثا قدرنا على ذلك . ولكن — ليس دار إلا فيها بكاء . . »

ويطرق الإمام . ويسكت الرجل هنيهة وقد هاضه أن يسير فى الحديث ، ويرخى إلى الأرض عينيه . . . حتى إذا وسعه بعد قليل أن يرفع بصره كانت على أطراف أهدابه قطرات أدمع مستحيية ! . .

ثم يكتسى التجلد . . . يهز رأسه كأنما لينفى عن نفسه وأهل حيه الخور والتهافت والتسليم للفجيعة . ويضغط بأسنانه على شفته السفلى مغالبا عاطفته ، ويقول وهو يرسم على ملامحه المكتئبة أطياف بسمة مشرقة :

« . . . أما نحن ، معشر الرجال ، يا أمير المؤمنين ، فإنا لا نبكى . . . ولكن ، نفرح ! . . نفرح لهم ! . . . ألا نفرح لهم بالشهادة ؟ . . »

فيأسى على له . ويربت ظهره مواسيا . . . ويقول وصوته الهادئ يذوب حزنا ورحمة :

« رحم الله قتلاكم وموتاكم . . . . . . »

وإنها لرجاء ودعاء : الرجاء الذى يملكه حى لميت ولا غاية بعده لأمنية أو رجاء ، والدعاء الذى ينتظره ميت من حى ولا رقية غيره لمتلهف على دعاء . وإنها بعد هذا لعزاء . . .

ويمضى الإمام صابرا محتسبا ، تخب به دابته . ويمضى الرجل ، متصبرا يسير فى جواره . فإذا على عند هذا يكبح دابته فتقف ، ويخاطب هذا الرفيق المحزون :

« ارجع . . فإن مشى مثلك مع مثلى فتنة للوالى ، ومذلة للمؤمنين . . . »

ويأخذ سبيله وجيشه إلى القصر . . .

غير أنه لا يبلغه إلا وقد غدا هدفاً الهمزة من هنا ولمزة من هناك . فما سلم من لحى القوم ، ولو من لومهم هم الذين أولى بتبكيته وعذله وقد جنوا عليه ثم يوشكون أن يسلموه يومهم وغدهم لقبضة مصير مؤلم رهيب ... ولكن الناس هم دائما الناس ، يتربصون بالمهيض الدوائر وإن وطأوا له المزالق تحت قدميه.. وها هو رجل من القوم يسخر ، لا يرده عن السخرية ذوق ، ولا تكفه عنها محنة جديرة بالرثاء والتهوين ، يقول هذا الساخر في غير حياء !

« ما صنع علي والله شيئاً . . . ذهب ثم انصرف في غير شيء ! . . »

ويقلب كفيه ويهز رأسه . وتسري كلماته الجارحة ، دون أن يدري ، إلى مسمع الإمام فيلتفت إليه بنظرة زارية يغيض لها الدم في وجنة العاذل المجترىء ، ثم يقول لأصحابه :

« وجوه قوم ما رأوا الشام العام ! . »

فقد عذل وهو قاعد ، ولام وهو بقعوده أحق بالملام . ولكنها الألسن التي تتصيد الهنات ، والأعين الموكولة بالتطلع إلى ذرة الغبار في غيرها وفيها هي من القذى مثل الأعواد ؟ . . وكم غير هذا الناقد قالوا كقوله وكانوا قعودا لم يبلوا مع الإمام في كفاحه الدامي ، ولم يعانوا عناءه ، ولم يؤازروه ؟ . وكم غيره أيضا من الذين ارتادوا حقل الهلاك والنصر قد أضلتهم غفلتهم فذاقوا من الهلاك حتى تعموا عن النصر !.. كم من أولئك وهؤلاء يلحونه أو يعادونه وأجدر منه بهذا اللحى وهذا العداء أنفس لهم مريضة أو عنيدة قد أوهنت من أيده أو قهرته على إهدار نصره هناك على ثرى صفين ثم تأبى هذه اللحظة إلا أن تأخذه ، وهي ظالمة ، بإثمها وتحاسبه عليه ! . .

ولكنه يصبر ما له عن الصبر على الساخر والعائب والعاتب سبيل عسى أن تتبين الحقائق فيرشد الغواة إلى هديه إنما الذي آلمه وحز في نفسه تلك الطائفة الغالية في مشاقتها ، التي رافقته في الخروج وهي أمعن ما تكون غلوا في الانتصار له ، ثم رافقته في العودة وهي أمعن ما تكون غلوا في الانتقاض عنه . ما لها أجازت

إلى حروراء ؟ . أى الأمور تنكره منه ؟ . فيم خروجها عليه حين مرجعها وهى أحرى بأن تبدى له من ندمها وتوبتها عما فرط منها هناك ، بساحة المعركة ساعة الفصل ، بجر عليها وعلى إخوانها وعليه جميعا هذه العودة التى صارت مادة السخرية والملامة ؟ . .

أولئك الحرورية التوى بهم تفكيرهم حتى لتعيى فى مرادهم الأفهام . هم اليوم يأبون التحكيم . وهم أمس قد تقبلوه وغلوا فى تقبله حتى أجبروا عليه الإمام أو يقتلوه أو يسلموه . وبين موقفيهم هذين تفرخ الفتن وتنمو ، ثم تسمى وتعيث . . .

غير أنه كان رأيا رأوه واعتنقوه اعتناق العقيدة المنزلة فلا فسحة لغيره فى صدورهم الضيقة . هو القضاء الذى لا يبرم . تنزيل من التنزيل فلا نقاش فيه ! . . فمن عجب وهم القراء ، وأعلم الناس بالقرآن — فيما يتبدون للناس — تضيق بهم مواطنهم . ويختم عمى عصبيتهم الذهنية على قلوبهم حتى يغيب عنهم أن أولى وسائل الدعوة للرأى ، كما رسمها الدين ، هى الموعظة الحسنة التى توفر حرية المناقشة ثم تقود إلى استخلاص أرجح الآراء ، وأثبتها الحجة ، وأجدرها بعد هذا بالاتباع .

لكنهم كانوا كما تحدث رسول الله عنهم ، ذات ساعة استشف له فيها الغيب : « يتلون القرآن لا يتجاوز تراقيهم ! » . . . وهم الآن يتلونه ويلحدون فيه . ويتأولونه بما يعتسف لهم من المعانى غير ما تطيق آياته جريا وراء غاية لهم رسمها هواهم ، وتأييدا لرأيهم الشبه الخبيط ، وها هم أولاء تحصرهم كزازة عقولهم فى مثل كهف مظلم ضيق لا تنفذ إليه لمحة من شعاع الإدراك ثم يحسبونه طلاقة العلم والمعرفة ! . وإذا هم بزعمهم هذا هم وحدهم أصحاب النور . وإذا رأيهم وحده هو الرأى . وإذا إيمانهم وحده هو الإيمان وكل ما عداه عمى وضلال . . .

كذلك زعمت هذه الطائفة صاحبة حروراء ذلك اليوم الذى باينت فيه عليا وأبت أن تساكنه بمكان . فهو عندها ومعاوية سواء ، كلاهما قد انحرف ، وهو والذين تابعوه ليسوا من الهدى فى شىء منذ ارتضوا التحكيم فأقروا به مبدأ يهدم الدين لأنهم قبلوا أن يحكموا الرجال فيما لا حكم فيه إلا الله : وهو إذن أولى بأن ينابذوه ، ويخلعوا طاعته ، ويخرجوا عليه . . .

كان هذا ما « هداهم » إليهم تفكيرهم وانتهوا به إلى رأى فال كل الغلو ، مغرق كل الإغراق فى العسف والخطأ والتحيف يوشك أن تعتنقه شرذمة سوف تحدث أفظع فتنة أصابت الإسلام . وقد اعتنقته اليوم ، وستعتنقه شراذم لا تزال نطفا فى أصلاب الرجال . وسيمضى الزمن بالأعصر فإذا الجيل بعد الجيل ينجم فيه لهذه الخارجة حزب لا ينى يألو الأمة الإسلامية من مشاقته ما يشيع بين أبنائها الفرقة والعداوة والدم . وإذا كان أصحاب حروراء الآن قد أبوا على الإمام إمامته ، فإنهم من بعد سيأبونها على كل رجل لأنهم لا يرتضون إلا دولة « دينية » بلا إمام على الإطلاق فلا تنازع فيها « الكبار » على السلطان . إنما الأمر فيها لله ، والبيعة لله ! .

استحدثوا إذن نظاما جديدا من نظم الحكم ، شعبيا مغرقا فى شعبيته لا حاكم فيه ولا محكوم من الناس ، الكل فى ظله رعية الله . . واستبد بهم رأيهم هذا حتى أبوا أن يجعلوا على شرذمتهم رئيسا منهم تطبيقا للمبدأ الذى استخرجوه . فخرقوص بن زهير أبى الرئاسة . وحمزة بن سنان أباها . وشريح بن أوفى امتثل هو الآخر نهج صاحبيه . ولولا أن كانوا بسبيل حرب توشك أن تنشب بينهم وبين الإمام لأبى أيضا عبد الله بن وهب التزاما لما رأوا أن يأخذوا به الأمة جميعا من إباء الرياسات والإمامات ! . . ولكنه عندئذ استحل لفرقته ما أراد تحريمه على أمته ، فقال لأصحابه حين عرضوا عليه الزعامة وألحوا عليه فى القبول :

« هاتوها ! . أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا ، ولا أدعها فرقا من الموت ! . . »

وهكذا غدت « البيعة لله » شعارا لطائفتهم يلهجون به ويتخذونه دستوراً للحكم تقوم عليه « دولة مثلى » ابتناها لهم فى خواطرهم الخيال . وعجيب حقا أنهم تنادوا به . وأعجب منه أنهم رأوا تطبيقه فى الدولة الإسلامية وقد تبين لهم استحالة تطبيقه فى مجتمع فئتهم القليلة المفتونة . ولكنهم مع ذلك استمسكوا به أشد استمساك ، وحسبوه دارئا عن الشعب الخلافات والخصومات التى يجرها تنازع « الكبار » على السلطان . وصورت لهم أوهامهم أنه أقوم المبادئ والدساتير

وأدناها إلى مقاربة الدين واتباعه لأنه يحق أمر الله ، ويجنب الناس طغيان الحكام ! . .

ولقد عجب لهم على كيف تستمرىء عقولهم مثل منطقهم ثم تلج وتكابر ، وتأبى أن تستجيب لمنطق الواقع . فإذا بنا من بعد نسمعه يناقش مبدأهم ، ويطلعهم بهذه المناقشة على ما تحتمه ظروف المجتمعات الإنسانية فى كل زمان ومكان ، وفى حقائق الحياة لا فى سطحات الأوهام ، فيقول :

« ... نعم ، لا حكم إلا الله ، ولكن ، هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا الله ! ... إنه لابد للناس من أمير ، بر أو فاجر ، يعمل فى إمرته المؤمن ، ويستمع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل . ويجمع به الفىء ويقاتل به العدو . وتأمن به السبل ويؤخذ به الضعيف من القوى حتى يستريح به بر ويستراح من فاجر . . . . »

هذه سنة الحياة وإن أبى معتزلة حروراء ، وإن أغلقوا عيونهم دون حقائقها ، وأصموا المسامع عن دعوتها التى استجابت لها البشرية منذ درجت فى المهد حتى شبت وبلغت اليفاع . غير أنهم كانوا فريسة عناد أورثهم إياه عصبيتهم العمياء لرأيهم للشبه الحبيط ، فإذا هم دائما يجمحون فى الغى ، ثم لا يزالون يجمحون ويخبطون كالعشواء حتى تحشهم مصارعهم جيلا ناجما وراء جيل ! . . .

٣

لمعتزلة حروراء ، مهما قيل عنها ، أن تعتنق أى المبادىء تراه فى نظرتها أمثل الدساتير . وأن تجعل منه القاعدة التى تبنى عليها نظام الحكم الذى تحلم بتحقيقه وتحسبه أقوم النظم ، وأجداها على الجماعة ، وأولاها بالاتباع . وأن تدعو بعد هذا لنظامها ودستورها بكافة وسائل الترويج والإعلان . فما عليها أن تفعل ما لم تجر على حق الناس المشروع فى تقبل دعوتها بالحسنى ، أو رفضها بالحسنى . وما لم توقع بها بينهم فتنة . وما لم تخالف الدين . . .

من حق هذه الطائفة إذن أن ترى ، فى الحدود المقررة ، ما تشاء ، وأن تدعو كما تشاء لأن هذا الذى تراه ، على أى حال ، رأى من الآراء له أن يسمع ، وعلى المجتمع أن يوسع له فى الحياة ما ثبت للتمحيص والمحاجة . فهذه هى الحرية التى تكفلها دائما الشرائع ولا تنبو بها العقول . . .

ولقد لقيت دعوة الحرورية دائما من على سعة الصدر ، وانفساح الأفق ، والترفق الذى ليس بعده ترفق بدعوة مثلها قد اعتسفت اعتسافا لإهدار حقه هو والنيل من شخصه ومن دينه إمعانا منها فى مناهضته والانتقاض عليه ، ذلك لأنه كان « إنساناً » مثاليا قبل أن يكون حاكما مثاليا ، يعرف ما لحرية الرأى من أثر فى تجدد الأفكار ، ودفع الشعوب فى سبيل التطور والارتقاء إلى الأمام ، والبلوغ بالإنسانية إلى حياة أفضل . كما كان يعرف أن كبت هذه الحرية أو إهدارها هو فى حقيقته إهدار ظالم لآدمية الإنسان .

فعلى ما بدا من تلك الفئة من عصبية ذهنية عمياء ، ومن غلو فى العنت والتجنى ، ومن ركوبهم إياه بالمساءة التى لا تقرها قط أساليب الجدل للنصف النظيف ، ولا وسائل الخصومة الشريفة ، ظل على دائما يلاقيهم بالحسنى ، ويقابل زعمهم بالحجة ، ويقرع الرأى بالرأى دون أن يضيق بعنتهم أو يعضل به تجنيهم عليه فيروضهم بما فى طاقة الحاكم من ضروب الشدة والقمع والإرهاب . . . وحتى عندما بلغوا من إيذائه مبلغهم ، وتنادوا فيما بينهم بكفره ، وصلوا سيوفهم يبغون قتاله وقد أبوا إلا خلع ما له عليهم من طاعة . . . حتى فى تلك اللحظة الحازبة التى أسفروا فيها عن إنكارهم عليه حقه فى حرية الرأى التى مدها لهم ، وكشفوا عن عداوتهم المبيتة ، تراه يتعفف عن معالجتهم بشكيمة الحاكم ، ويترفق غاية الرفق فيقول لهم :

« إن لكم عندنا ثلاثا : لا نمنعكم صلاة فى هذا المسجد . ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا . ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا . . . »

ظل على هكذا من بدء اختلافهم عنه إلى أن شبوها عليه حربا عمياء متحيفة كانت وبالا عليهم . فما كان عنتهم لينال من سماحته . وما كان تجنيهم ليخرجه

عما التزم به نفسه من « مثالية » المعاملة ، للرفاق وللأعداء سواء بسواء ، مثالية ترسم للبشرية نهجا ومبدا مستقيما إلى حياة فضلى فى ظلال المساواة والحرية والكرامة ، ومنذ انحازوا عنه إلى حروراء ، عند دخوله الكوفة ، قالها فيهم قولة لأصحابه لم يحد عنها قط :

« إن سكتوا عممناهم ، وإن تكلموا حججناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم .. »

وكان يعنى أن لهم عطاءهم يعمهم جميعا به ماجنحوا للسلم . وكان يعنى أيضا أن رأيهم هذا الذى ارتأوا فى سياسة الحكم وفى شرعية التحكيم هو عليه هين لا يكاد يثبت لمنطقه إن هم تحدثوا إليه به ، لأنه كفيل بأن يحاجهم فيحجهم ويغلبهم بالبرهان . وكان يعنى بعد هذا أنه لا سبيل له سوى مقاتلتهم إن هم عدلوا عن الاحتكام للمنطق إلى المجاهرة بالخصومة المسلحة . . . كان يعنى كل كلمة قالها ، وبقى وفيا لكل عهد قطعه فيهم على نفسه ، ولم يكرثه أنهم نبذوه وغلوا فى شقاقه حتى تهافتوا بخلع سلطانه بغير حق ولا حجة لأنه عليم بأن الكارثة حين تجىء لن تلقاهم إلا وهم لها ولية ! . .

ومع ذلك فلم يدعهم وما اختاروا لأنفسهم من غى دفعتهم إليه فى الحقيقة كزازة الذهن وأغراهم به ضيق مسالك التفكير . إنما حرص كل الحرص على أداء واجبه نحوهم كاملا بأن يبصرهم ، ويعمل ما وسعه على انتشالهم من وهدة الخطأ الذى ترددوا فيه فإن فاءوا إلى الرشد فهم إذن منه ، وإن أبوا فليس عليه حسابهم وما هو عليهم بوكيل .

والواقع الذى نراه ماثلا أمامنا من خلال هذه المحنة هو أن الإمام لم يكن يعنيه أن يستفيئهم إلى جانبه ليستعز بفرقتهم ويقوى بها على غريمه ، إن عادت نيران الحرب إلى الاشتعال ، بقدر ما كان يعنيه أن يجهد لهداية طائفة ضالة قادها عماها الذهنى للانحراف . فهو دائما أحفل بالمعنويات منه بالماديات وهو أبدا يقدم رياضة العقول وطب الأرواح على رياضة الجوارح وطب الأبدان . وهو فى حياته كلها ، بالعظة والقدوة ، وكان مهذب النفوس قبل أن يكون مؤدب الأجسام وعندما ترى طائفة كهذه من الجماعة الاسلامية التى انتهى إليه أمرها قد عنتت وأسرفت

فى عنتها حق لتتأول القرآن فتسىء تأويله ، فإنه إذن حقيق بأن يسارع إليها ليكبحها ويأخذ بحجزها أن تشرد وتتهاوى فى النار . . .

وكان هذا هو الذى أهمه . فلقد يضيره — كرجل دولة — أن تخرج عليه من شعبه فرقة ، تشغب وتشق وحدة الناس . ولكن الأكثر ضيرا والأشق عليه — كرجل دين — أن يكون فى خروجها هذا عليه خروجا على مقومات الخلق البشرى السوى التى تدعو إليها الشرائع وتقيمها أساسا لمجتمع فاضل . ذلك أن دعوة الحرورية ، بخلاف بدعتها التى اعتسفت دستورا مزعوما للحكم الشعبى ، كانت فى حقيقتها تنطوى على التنكر للوفاء بالعهود والمواثيق ، وعلى الحنث فى الأيمان ، وعلى الحث على « دكتاتودية » فكرية تكاد تحرم حرية التفكير وتعطل العقول ثم تدعها شلاء . . .

كل هذه السقطات أودعوها دعوتهم التى بدت ، لأول وهلة ، وليدة غيرتهم على حق الإمام وتساميهم به عن أن يتناوله بالمناقشة فرد من الناس حتى ولو كان هذا الفرد حكما اختاره صاحب الحق أو اختاروه هم متحدثا بلسانه ونائبا عنه . فلقد أنكروا من على رضاءه بتحكيم حكمين ينظران فى الخلاف الواقع بينه وبين معاوية ولم يكفهم أن يروا فى رضائه هذا إقرارا منه بانسلاخه من حقه الثابت فى الخلافة ، بل تهاتفوا بأنه « كفر » وانسلاخ من الدين . . .

ونكاد نجزم بأن نظرية « الحق الالهى » فى السلطان إنما نشأت فى الإسلام من تلك اللحظة ولم تكن الدولة العربية من بعد بحاجة إلى استعارتها من فارس التى لقحت الفكر الإسلامى بكثير من جراثيم ثقافتها . ولقد يلوح هذا الرأى على شىء من المغالاة . ولكن دعوة الحرورية ، فى الواقع ، قد انفسحت لهذه النظرية فيما انفسحت له من النظرات والآراء . .

فما هى دعوتهم ؟ . . ومن أين استقوها ، أو إلى أى الأسناد أسندوها ؟ وإلام تومئ وتقود ؟ . .

نشأت هذه الدعوة ، وما زالت القوى المتصارعة على أرض صفين لم تبرحها عقب تنادي فريق الشام والعراق بالموادعة ، واتفاقهما على إبرام وثيقة التحكيم . وكانت حينذاك خافتة . ولعلها لم تعد أن تكون فكرة طارئة لجة قفزت إلى لسان امرىء متحمس قبل أن تنضج في ذهنه ، فألقى بها يعلن سخطه على هذا السلام الذليل المذل الذى حققته الوثيقة بديلا عن النصر العزيز المؤزر الذى كان آتيا لا محالة مع صبر ساعة أو نحوها على الحرب . على أى حال لا نراها إلا بدأت نخوة من حدث تضطرب حمية الشباب في دمائه فيرتفع عن قبول سلم هي الهوان ، وينبعث غاضبا وأخا له يحملان وحدهما على صفوف أهل الشام حتى يقتلا على باب معاوية . فلقد حدثنا التاريخ أن أول من نادى : « لا حكم إلا الله » حدثان صغيران من عنزة هما الأخوان « جعد » و « معدان » . . .

على أن نداءهما لم يمت بموتهما ، بل زاد جرسه علوا ، وزادت عبارته ذيوعا كأنما سقياه بالدم فترعرع وطال ! . . . ولم يكن عجبا أن يعلو ويذيع وله هذه « الرنة الدينية » الحقيقة بأن تسحر من القوم أسماع أناس يقرءون القرآن ، ويأخذون أنفسهم أخذا شديدا باحتذاء حروفه — فضلا عن نصه ! — احتذاء يعطل العقول ويشل الأذهان ويوفى بهم على شفا هاوية من الجمود الفكرى سحيقة . فما هو أن لقفوا اسم الله في النداء حتى ألقوا إليه القلوب والأسماع . وما هو أن تبينوا عباراته حتى رددوها ترديدا ذاتيا كأنه رجع الأصداء . وما هو أن خالط أفواههم حتى خاس عقولهم وأفئدتهم فسكرت به ، وغدوا منه فى «غيبوبة دينية!» حاجزت بينهم وبين الروية وسلامة الإدراك . .

تلقف أولئك القراء نداء الأخوين جعد ومعدان . وكلفوا به ، وهاموا هياما شديدا بجرسه الدينى فأخذوا يرددونه ، ويدعون إليه الناس بساحة صفين ما شاء لهم الدعاء والترديد . . وكان طبيعيا ألا يعدموا له نصيرا فى صفوف أمثالهم من ذوى الجباه السود . وكان طبيعيا أيضا أن تلتف بهم طائفة من غيرهم من الذين كانوا يرون البقاء على الحرب وأنكروا الصحيفة وما أقرت من سلم مخزية ذليلة . كان طبيعيا أن يحدث هذا ، وأن تنجم الدعوة الجديدة كقرن الماعز ، وأن يغدو

النداء الذى أجبته — فيا نرى — فكرة طارئة لجة ، مبدأ براقا يروجون له ، ويعصبون عقولهم وقلوبهم به ، ويناضلون عنه وهم يبثونه مهيئين له من الأسناد والدعامات ما يقيمه راية عالية ، وإنهم لا ريب لقادرون على إسناده ودعمه بما فى طاقاتهم المرنة من أدوات الجدل والتخريج والمكابرة . . .

لهذا تراهم لا يكادون يبرحون أرض الوقعة حتى يكون مبدؤهم قد لبس بالدين والتف به تلفيفا أخفى وراءه النخوة والحماسة وحمية الشباب المتقدة التى حركت شفاه جعد ومعدان بالنداء . فهو عندهم مثل نص منزل . وهو عندهم دين من الدين . وبعد أن كانوا يرون الشرك كل الشرك فى إباء أهل العراق الاستجابة للاحتكام للقرآن عندما رفع أصحاب معاوية مصاحفهم ، وبعد أن جاهدوا هذا الشرك بألسنتهم وأسيافهم حتى حملوا عليا ، وهو صاغر ، على التسليم بالتحكيم . بعد هذا وذاك يعدلون عن نظرتهم الأولى ، فإذا الشرك أن يبقى على عليها ، وأن يفى بموثقهم وموثقه . وإذا الإيمان أن ينكث بعهده ، وينقض الصحيفة ، ويعود إلى إنشاب القتال الذى أوقفوه . . .

كان رأيهم الذى ارتأوه واستمسكوا به أشد استمساك : أن الله أمضى حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا إلى وحدة الأمة ، ولا معدى عن أحد هذين الأمرين فى منطق كتاب الله . . .

وكان سندهم هذه الآية الكريمة :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

فمعاوية وأصحابه بغوا ، واستنفدت معهم وسائل الاستصلاح ، وقوتلوا على بغيهم فليس محيص عن أن يفيئوا إلى طاعة غير مشروطة ولا مختلف فيها ، يؤدونها صاغرين . . .

ذلك حكم الله .

أو ذلك حكمه الذى يفهمه أصحاب حروراء ، ولا مجال بعده لتأويل . . .

٤

تساءل فريق من قراء أهل الشام عن الخلاف الذى رأى أهل العراق حربهم به ، واستحلوا عليه دمهم ، وإنهم جميعا — أولئك وهؤلاء — مؤمنون بالله وكتابه فلا ينبغى أن تكون بينهم فتنة مسلحة . . . وقالوا :

« نحن قوم نقرأ القرآن وليس يخفى علينا منه شىء . فأفهمونا الأمر الذى استحللتم عليه دماءنا . . . » .

وكان هذا بعد تداعى الفئتين للهدنة ، واتفاقهما على تحكيم حكمين فيما اختلفا فيه . . .

وأجابهم قراء أهل العراق :

« فارقناكم فى تفسيره ولم نفارقكم فى تنزيله . . . نحن وأنتم نشهد أنه من عند الله . . . . . . » .

ثم قال بعضهم لبعض :

« هم يعرضون كتاب الله بيننا وبينهم ، ويسألوننا حجتنا عليهم . وإنما هم صادقون أو كاذبون فى نيتهم ، وليس لنا عذر فى إنصافهم . . . فإنما نطلب الحجة بعد العذر ولا عذر إلا ببينة ، ولا بينة إلا بقرآن أو سنة . . . »

وعلى هذا الأساس قام التحكيم لأنه الوسيلة التى تلزم المخطىء خطأه وتمهل له فى الرجوع للصواب . فهو فى حقيقته لايعدو أن يكون استنباء كتاب الله حكمه فى الخلاف بينهم وبين أخصامهم ، يتم به الإعذار ، وتتبلج به البينة . وإذ كان القرآن « حمالا » تتسع نصوصه — فى مجال المجادلة — لأكثر من تأويل ، فلهذا حكموا حكمين عارفين به ، ليتفقا على تفسيره بما يرضى الله ، أو ليحكما بالسنة الهادية إذا فاتهما هذا الاتفاق . . .

كان هذا هو الهدف من التحكيم ، على الأقل فى رأى قراء الطائفتين إذا أغضينا عن الغايتين السياسية والحربية اللتين استترتا وراءه وكانتا المطمع الحقيق لمعاوية وابن العاص والخلاصة من رجال حزبهما المقربين . وكان هدفا لايختلف

بقدر ما يتفق ، والدين . فالتحكيم مبدأ شرعي ، سنه الله عسى أن يلأم به صدع وتمنع فرقة . سنه في الصيد حين الإحرام . وسنه في الشقاق بين الرجل وزوجه . وسنه في النزاع بين طائفتين من المؤمنين . . . وما كان لقراء أهل العراق أن ينكروه ، أو يتنكروا لدعوة أهل الشام به ، وقد قرأوا في كتاب الله عنه ما يحثهم على الأخذ به .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . . . »

وقرأوا أيضا ما يعير به المنكرين له والمرتابين فيه :

« . . أفي قلوبهم مرض ، أم ارتابوا ، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون . . »

وقرأوا كذلك أنه يوشك أن يكون علامة من علامات الإيمان :

« . . . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون » .

كل هذا قرأوه ، وعلموه ، وأصروا إصرارا ملحا على العمل به حتى لنجد عصابتهم القارئة ، ذات الجباه السوداء ، وفيها زعيمان من زعماء الحرورية هما مسعر بن فدكي وزيد بن حصين ، تأبى الإباء كله على علي أن ينصح لها ، وأن يبصرها بخدعة معاوية المستترة بالمصاحف المرفوعة ، ثم تعنف به أعتى عنف وأظلمه لينزل عند رأيها ويقبل التحكيم . . .

وكل هذا أيضا تنكروا له وعابوه . أو هم أنكروه من أنفسهم — وما زالوا هناك بساحة صفين — واعتبروه معصية يحق عليهم العدول عنها ، والتوبة منها ، وإكراه علي بكل وسيلة على العدول والتوبة . . .

بمثل هذه السرعة قبلوا التحكيم ثم عادوا فرفضوه . وبها أكرهوا عليا على قبوله ثم ارتدوا يكرهونه على رفض هذا القبول . وهم حين فعلوا لم يعدلوا عن نظرة لنظرة ، ولم يستبدلوا رأيا برأي . إنما كانوا في الحقيقة يتنكرون لحرية الرأي في ذاتها ما دامت هذه الحرية من حق سواهم كأنما رأوا حقاً لهم دون غيرهم

من الناس أن يجروا العقول إلى حيث يريدون ، مرة إلى يسار ومرة إلى يمين ، بلا موجب لهذه القلقلة الفكرية إلا أن يسخروا الأذهان ويجعلوها ذيلا لتقديرهم المضطرب الحائر .

الواضح أن معتزلة حروراء كانت مترجحة الرأى منذ سمع لها صوت فى سياسة الأمور . فلم تثبت أبدا على رأى ، ولم تقطع أبدا فى شأن من الشئون العامة التى كانت تشغل آنذاك بال الجماعة الإسلامية قطع المتثبت المستيقن . إنما كان حالها حال أمثالها ممن يعنيهم المظهر دون الجوهر ، وتستخفهم السطوح والقشور دون الأصول والأغوار . وكأنى بهذه العصبية الذهنية التى كانت طابعهم قد أكسبتهم عجلة رعناء ، ككرة الطاط ، تقفز بهم من هنا إلى هناك ، ومن هناك إلى هنا ، كلما اصطدموا بفكرة طارئة ثم لا تكف عن القفز ما طرأت لها فى طريقها الضرس الأفكار . . . وفى خلال ذلك العام الذى كان عمر علاقتهم المضطربة بعلى ، والذى انقضى بين وقعتى صفين والنهروان ، كانت ترجحهم بين الآراء ذات الطلاء والرنين وكانت لهم بدوات تستطير العجب ، تفصح عن حيرتهم الذهنية وقلقهم الفكرى أيما إفصاح . . .

ونجمل ذلك القلق بإقصار فنراهم يهللون للمصاحف ويلبون دعوتها الصامتة للموادعة والإصلاح لأنها ، فيما يرون ويعتقدون ، دعوة « قرآنية » حقيقة بالتلبية وإلقاء السمع يهون معها عليهم أن يستقضوا الإمام حياته — أو حريته كأهون جزاء ! — إن هو خالفهم وأصر على ما كان يريده من موالاة القتال . . . ثم نراهم أيضا يسرفون عليه فيكرهونه على قبول أبى موسى ، حكما عنه وعنهم وعن طائفة أهل العراق ، غير آبهين شيئا لرأى على وريبته فى الأشعرى ، ولا لما سلف من تمرد الأشعرى وتثبيطه عن على . وما أحسبهم قد أصروا على اختيار هذا الرجل دون من عداه ممن رشحهم الإمام إلا لأنهم كانوا يرون فى أولئك المرشحين دعاة حرب قبل أن يروهم دعاة رأى ، كما كانوا يرون فى التحكيم وسيلة إلى « الله » تحقق ما تهدف إليه الدعوة « القرآنية » من سلام فأحق به إذن رجل سلام . ولعل حديثهم مع الإمام ، ومجادلتهم إياه عند ترشيح

الحكم تكشف لنا منهم عن هذه النظرة بجلاء . . . يجيئونه فيملون عليه أن « يختار » الأشعرى وما له من محيص عن هذا « الاختيار ! » :

« إنا لا نرضى إلا به ، فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه . . . »

فإذا أشار عليهم بابن عباس أبوا وأغلظوا له القول . وإذا ذكرهم ماضى حكمهم ازوروا عنه وعن الذكرى على السواء . وإذا عرض عنهم اسم الأشتر تصايحت عصابتهم . وفيها عندئذ زعيماهم الكبيران زيد بن حصين ومسعر ابن فدكى ، وردت بإزراء وإنكار :

« وهل نحن إلا فى حكم الأشتر ! . . »

فيستفسرهم :

« وما حكمه ؟ . . »

وهنا يكشفون عن نظرتهم :

« حكمه أن يضرب بعضنا بعضا بالسيوف حتى يكون ما أردت وما أراد ... »

وعلى الرغم مما بدا من حرصهم وتكالبهم على التذرع بالدين لإقرار دعوة المصاحف ، والتحكيم ، والحكم جميعا فإننا لا نلبث — وما مضت عليهم أيام — أن نجدهم أشد تكالبا على نقائضها وذريعتهم الجديدة لهذه النقائض هى أيضا الدين ، نفس الدين ! .. فإن هو أن يهتف فتيان صغيران ، احتدمت فى عروقهما حميا الشباب ، وهزتهما الحماسة للحرب : « لا حكم إلا لله » حتى تنقلب فى خواطرهم المعايير . فإن من بينهم جموع تردد الصياح .. وإذا أحدهم ، عروة ابن أدية ، يزأر غاضبا لدينه : « أتحكمون فى دين الله وأمره ونهيه الرجال ! » .. وإذا « إيمانه ! » يستخفه فينزو بسيفه على الأشعث بن قيس وهو يقرأ وثيقة التحكيم حتى ليكاد أن يصرعه جزاء وفاقا لأنه نطق عن الصحيفة بغير ما يرضى الله ! . .

وقد يعجب المرء لهذا التحول فى موقف معتزلة حروراء إذ ذاك . ولكننا نرى العجب آخر ما يمكن أن نتناول به تصرفاتهم ، كيفما كانت أو انقلبت ، فى ذلك الحين وفى غيره من الأحيان على السواء . ذلك لأن العجب ، فى الحقيقة ، ليس

سوى انفعال يصدر نتيجة لانحراف أى سلوك كان مقدورا استواؤه وغير مقدور شذوذه عن قاعدته وخروجه عن الاستواء ، بينما القاعدة التى التزمتها هذه الطائفة دائما — فيما اعتدناه من سلوكها — كانت الشذوذ ! . . وبحسبنا أن نذكر أنها بعد ما ارتأته من اعتبار التحكيم ضلالة ، واعتبار دعاته والمستمسكين به مشركين بالله ، واستحلالها قتلهم إن لم يتوبوا عنه — بعد هذا كله نرى فرقة منهم ، غالية فى رأيها هذا الذى بيناه أشد الغلو ، تنطلق وعلى رأسها أيضا ذلك الزعيم مسعر ابن فدكى ، لتترضى الأشعث — وهو الناطق بالشرك والثابت عليه ! — وتعتذر له عن نزوة عروة ! . .

كان تفكيرها إذن خاطئا ، وإيمانها بآرائها إذن خبطا بلا تثبت ولا استيقان . وما نرد هذا إلا إلى عصبيتها الدينية العمياء التى أكسبتها « حساسيـة » شديدة تدفعها إلا الاستسلام لـكل رأى يتصل بالدين ، ولو من بعيد ، ولو من ناحيـة المظهر والصفة الشكلية ، وإن لم يكن من جوهر الدين بسبيله فى شىء . فيكفى أن يقرن القرآن بكلمة عابرة ، أو يذكر اسم الله فى رأى طارىء ، ليخفوا سراعا إلى تلقف الـكلمة وتبنى الرأى ثم الجهاد عنهما ما وسـعهما الجهاد ، بلا روية ولا تدبر ، ودون أن يفسحوا السبيل لأى رأى مغاير ليثبت صوابه وخطأهم ما داموا يحسبون أنهم وحدهم تفردوا بالصواب .

لهذا كانوا دائما يعنتون ، ويشقون على مجادليهم كل مشقة ، فنقاشهم إملاء ، ورأيهم هو الرأى ولا حق لغيره من الآراء فى الظهور . ولهذا أيضا كانوا دائما متذائبين يترجحون بين مختلف الآراء من النقيض للنقيض ولا حريجة عليهم — فيما يظنون — إن ترجحوا ما بدت لهم فى هذا الرأى مسحة دينية لم تبد لهم فى ذاك ! . . هم حينا تشبث بفـكرتهم وتشدد وصلابة تبلغ موات الجمود والصمم ، وهم حينا آخر وهن وضعف ورخاوة تبلغ مهاوى التهافت والاستسلام . ولا عجب عندنا من ذلك فتلك شيمة كليلى النظرة الذين يعييهم تعمق الأمور وتستهويهم القشور والظواهر . وها نحن أولاء نشهدهم يمعنون فى التشدد غب العودة من صفين ، فإذا بهم قد اعتزلوا عليا إلى حروراء وحرموا على أنفسهم مسا كنته

بالـكوفة لأنهم يرون فى التحـكيم غير ما كان يراه . وهاهم أولاء ، بعد قليل ، يدعون تشددهم حين يستفيئهم منطقه فيعودون راضين . حتى إذا حسب الناس أن يده ويدهم جميعا على خصمه انبروا هم خصما يكيدون له ، ويهطعون إلى حربه فى غير تأثم ولا استحياء . ثم ها هى أخيرا جموعهم بالنهروان لا يكاد يطالعها بحديثه حتى تنسلخ منها كثرة تنضم إليه ، وتبقى قلة على صلابتها العمياء ، تتنادى بشركه ، وتأبى إلا قتاله إلا أن يقر على نفسه بالـكفر ويتوب ! . .

ويأسف على . فلقد استنزف كل سماحته ، واستنفد حلمه وعلمه ثم تقطعت جميعا به دون بلوغ شأوه من استصلاحهم وهداية نفوسهم المريضة . فما بالهم ؟ . . ما طبهم ، ما دواؤهم بعد كل هذا العلاج ؟ . . بحسبه أن أسمع وبصر ، وحذر وأنذر ، فإنما وزرهم على أكفهم يلقون به الله . ولئن أمهله عمره منهم بعض إمهال أن يلوك الندم والحسرة من بعد ، يوم لا يجدى ندم ولا تشفى حسرة ، وحين ينشق الزمن عن مصارعهم ، وتقبل الدنيا وفى يمينها لهم دم وقهر وإذلال .

على أن أشد ما حز فى نفسه منهم تلك الفرية الغالية فى الظلم التى جردوه بها من إيمانه كأنما قد وكلوا بحساب القلوب أو كانوا فيصلا عدلا يفرق الهدى من الضلال . فما خالفهم وخالفوه حتى أطلقوها بلا روية ولا تحرج . وما أطلقوها حتى مضوا بها يعيدونها ما حلت لهم إعادتها ، ويرددونها ما وسعهم الترديد . وإنه عندئذ ليعجب ، ثم يسخر ، ثم لا يملك أن يغضب ويثور :

« أصابكم حاصب ، ولا بقى منكم آبر ! . . أبعد إيمانى بالله ، وجهادى مع رسول الله أشهد على نفسى بالكفر ؟ . لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ! . . »

ثم يكاشفهم بذلك المآل الذى ينتظرهم ، ويخايل بصيرته من وراء المجهول :

« . . . أما إنكم ستلقون بعدى ذلا شاملا ، وسيفا قاطعا ، وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة ! . »

ولقوا ما قال . فما نجم منهم قرن بعده إلا قطعه خصومه الذين مكنوا لهم بعنتهم بالاستئثار بأمر المسلمين من دونه . وما اجتمعت فرقة فيما أقبل من الأيام على مبدئهم الخبيط المختبل حتى استقبلها القهر ، يعالج فيها الرأى بالسيف ، والفكرة بالشفرة !..

أما هو الذى ظلموه فلم يقابلهم قط بالشدة وله مندوحة عنها إلى الموعظة الحسنة . إنما ظل يصابرهم ، ويملى لهم ، ويطاول عنتهم وغيهم عسى أن تتفتح فرجة فى أذهانهم ينفذ خلالها النور . . . فكم أسفر إليهم . وكم دعاهم إلى الهداية بالكلمة الطيبة على لسانه وألسنة وفوده . وكم كف عنهم بطشه حتى عندما غلوا فى شقاقه وأمطروه موتا على مشافر الصوارم وأسنة الحراب والسهام . . .

٥

عندما أوفد الإمام إليهم ابن عباس بحروراء يفاوضهم فى العودة إلى الكوفة والتزام جماعة الناس من طائفته ، حذره أن يحاجهم بالقرآن . فالقرآن « حمال » تتسع نصوصه فى مجال المجادلة للتأويل . وهم عصبة مولعة بالجدل ، قد غرها من أنفسها أنها قارئة لكتاب الله حتى لتحسب أنه إليها وحدها ينتهى تفسيره . ولن تعدم وهذه حالها أن تتناول الآيات بالتخريج والتأول لتسند رأيها وتزكيه . . .

ورأيهم عندئذ معلوم ، تهاتفوا به عقيب سطر الصحيفة بصفين ، ثم ظلوا ينشرونه ويدعون إليه . ولم يكن يضيرهم فى شىء أن يقال عنهم إنهم هم الذين أكرهوا عليا على التحكيم ، ثم على قبول حكم بذاته فرضوه عليه فكيف إذن يعتبرون هذا التحكيم ضلالة . لم يكن يضيرهم هذا القول فى قليل ولا كثير لأنهم أقروا على أنفسهم بالكفر ، وأنكروا منها رأيهم ذلك القديم الذى انساقوا وراءه حتى أنجب الصحيفة وما احتوت من اختيار حكمين لطائفتى الشام والعراق ، ينظران فيما اختلفتا ، ويحكمان لإحداهما وعلى الأخرى بالقرآن . فأما دعوتهم الأولى إلى تحكيم الحكمين فشرك تابوا عنه ، وأما دعوتهم الثانية التى تنكر حق أيما امرىء كان فى تفسير القرآن فهى ، فيما يرون الآن ، هى الصواب وغيرها الخطأ الذى ينزل إلى وهدة الإلحاد .

والواقع أن نظرة الحرورية هذه عجيبة ، لا لأنها خالفت ما أجمعوا عليه من قبل ، ولا لأنها أيضا لا تستقيم والنصوص القرآنية التى تبيح أنواعا مختلفة من

التحكيم ، ولا لأنها كذلك تعطل أو تحجب ما فى كتاب الله من آيات تحث المؤمنين على الاستجابة دائماً للدعوة له . . . . لا لهذا كله العجيب منها ، وإنما لما تنطوى عليه من فكرة خطرة ترى « تجميد » النصوص القرآنية بحيث لا تكون غير حروف وعبارات يؤخذ بها دون مدلولها ومعانيها الواسعة التى ليست فى الحقيقة سوى « الكيان الحى » الناشئ عن تفاعل هذه الحروف والعبارات بالذهن البشرى .

لكن دعوة معتزلة حروراء ، حين نجردها ، نجدها تنادى « بالسطحية » . بمجرد « النظرة » إلى النص ثم بالتزام « العبارة » التى تلقفها هذه النظرة . أما إمعان النظر فى النص حتى تنتقل « مرئية » الآية «وجوهها» كله إلى الذهن ، وأما تفاعل الذهن بهذه «المرئية الكاملة» تفاعلا يثير فيه أفانين المعانى والمشاعر فليست لهم على بال . وما تحسبنا ، بحال من الأحوال ، متجنين على هذه العصبة ولا متحيفين . فرأيها الذى ارتأته وكلفت به أشد الكلف ، وتخذته لنفسها شماراً تلتف حوله وتندفع فى رعونة مناضلة عنه . . . . هذا الرأى ، إذ ينكر تحكيم الرجال فى دين الله ، إنما يحرم إنطلاقة الذهن فى القرآن ليتفهمه ويستنبئه مدلوله الذى ترسم عباراته وأحرفه خطوطه الأولية ، كما يمنع استواء ذلك الكيان الحى متكفيا عنه بظاهر الألفاظ . . .

ولقد يقول قائل ، وله لا ريب أن يقول : إن نظرة الحرورية تفسرها قولة عروة بن أدية صاحبهم الذى قال : (. . أتحكمون فى دين الله وأمره ونهيه الرجال ؟) . . فهى إذن لم تمن الدين على اطلاقه إنما اجتزأت منه بأوامر الله ونواهيه . وهى إذن حين تحرم انطلاقة الذهن فى القرآن إنما تحرم عليها الخوض فى كل (حكم) أوردته الآيات فى قضية من القضايا ، أو مشكل من الأمور ، أو حد من الحدود التى يقصر عن علاجها وحلها الذهن البشرى ، فليس له إذن الحق فى تناولها إلا لتطبيق الحكم . . . قد يقول بهذا قائل فيوشك إذ يقول أن يردد نفس الذى رددته معتزلة حروراء ، ذلك اليوم ، على مسمع ابن عباس ، وكادت به أن تعضله أو تصيبه بما يشبه الحسر لولا أن أتيح له الإمام ليسعفه ، ويظهر بمنطقه على جدال المكابرين . . .

وندع حديث ابن عباس إلى حين لنعرض لهذا الذى قد يقال فإذا الجواب عنه حاضر ، بالحرف والعبارة ، فى نفس النص الذى اتخذوه سندهم ، ودون حاجة إلى بداهة ولا جدال . . . فالمعروف أن الآية التى تأولها الحرورية لتحريم التحكيم هى آية الإصلاح بين المؤمنين عند انقسامهم ، ووقوع الخلاف بين فريقهم وقوعا ينشب الحرب ويشب نار القتال . وهذه الآية تدعو من يستطيع إصلاحا أن يصلح أولا ليطفئ الفتنة ، وأن يكون ثانيا حربا على الفريق الباغى حتى يفل حده ويخضع ، وأن يعود ثالثا إلى الإصلاح بالعدل بين الخصيمين وقد تداعيا جميعا للسلم . . .

نحن إذن من « حكم الله » فى هذه القضية حيال ثلاث مراحل : أولاها مرحلة « الاستصلاح » والقتال ناشب : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » . . وثانيتها مرحلة « مقاتلة » الطائفة التى لا تستجيب لهذا الاستصلاح وتبغى على خصيمتها بغير حق : « . . . فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله » . . . وثالثتها مرحلة « الإصلاح » التى تعقب فىء الفئة الباغية إلى الحق : « . . . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . . . . »

هذه هى المراحل التى ترسمها الآية ؟ وتحدد بها ما يجب أن يكون عليه سلوك المؤمن حيال أية قضية مماثلة . وهى مراحل ، كما تراها ، واضحة كل الوضوح ، بارزة الخطوط والمعالم فى غير لبس ولا شبهة . وهى إلى جوار هذا وسائل عملية إيجابية ، تنكر ما عداها من الوسائل السلبية كالحياد والعزلة . وتوشك أن تحرمها بمدلول المعانى لا بمنطوق الألفاظ . وبعضها استمسك على . وآخذ إخوة له فى الدين ، من خاصة صحب محمد ، كانوا جديرين باتباعها قبل غيرهم من الناس . فلقد دخل عليه ، ذات يوم بعد صفين ، سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، والمغيرة بن شعبة ، يطلبون عطاءهم منه . فإذا هو يبادرهم :

« ما خلفكم عنى ؟ . . »

قالوا يعتذرون ، ويبررون ، تخلفهم بما قد يهون ما كان من قعودهم وسلبيتهم :

« قتل عثمان ولا ندرى أحل دمه أم لا ! . . وقد كان أحدث أحداثا ثم

استتبتموه فتاب . ثم دخلتم فى قتله حين قتل . فلسنا ندرى أصبتم أم أخطأتم ، مع أنا عارفون بفضلك يا أمير المؤمنين وسابقتك وهجرتك . »

قال على :

« ألستم تعلمون أن الله عز وجل قد أمركم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ، فقال : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . . . »

فإذا سعد ينبرى معللا حياده :

« يا على . . أعطنى سيفا يعرف الكافر من المؤمن ! أخاف أن أقتل مؤمنا فأدخل النار . . . »

لقد كان سعد يقول دائما حين يخاطب فى اعتزاله :

« إنى سمعت رسول الله يقول : يكون من بعدى فتنة خير الناس فيها الخفى التقى » .

ولهذا آثر أن يلتزم الحيدة مخافة أن يكون الخلاف الناشب بين على ومعاوية هو الفتنة التى عناها الرسول . . .

ورد الإمام وهو يعرج على أمر عثمان :

« . . . إن عثمان كان إماما بايعتموه على السمع والطاعة ، فعلام خذلتموه إن كان محسنا ، وكيف لم تقاتلوه إذ كان مسيئا ؟ .. فإن كان عثمان أصاب بما صنع ، فقد ظلمتم إذ لم تنصروا إمامكم . وإن كان مسيئا فقد ظلمتم إذ لم تعينوا من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر .. .. »

ثم عاد لما بدأ فأكمل :

« ... وقد ظلمتم إذ لم تقوموا بيننا وبين عدونا بما أمركم الله به ، فإنه قال : فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله .. »

وما نسوق هذا الحديث ازدراء بموقف سعد ، ولا احتجاجا على المتخلفين عن نصرة عثمان الذين أكثروا القول فى أمره ، بعد مقتله ، تعصبا عليه أو لوما لعلى وريبة فيه وهم قاعدون كلا ، فما نصروا حقا ولاناهضوا باطلا . وإن أمرهم

لبين الخطأ أولا وآخرا حين اعتزلوا الفتنة التى شبت النار بين العراق والشام . فلقد فاتهم فى الأولى أن يعملوا بقول رسول الله : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » فلم يشدوا على يد عثمان ليعدل إن كان قد ظلم الناس ، ولم يعززوا جانبه إن كان قد ظلمه الناس . وفاتهم أيضا فى الثانية أن يعملوا بقول الله : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ... ... » فلم يسعوا بإصلاح ، ولم يقاتلوا الباغية . إنما وقفوا فى كلا الحالتين ينظرون . . .

لكننا سقنا الحديث الذى أسلفنا دلالة على وجوب التزام المؤمنين خطة إيجابية حيال الطائفتين المختصمتين تثوب بهما إلى الوفاق ، مراحلها كما تبين الآية هى الاستصلاح والمقاتلة والصلح ، أو هى بالألفاظ الحديثة : الوساطة والحلف وعقد الصلح دون أن نجور فى التعبير . فالدولة تختلف وأخرى خلافا يحتكمان فيه للقوة المسلحة . فإذا ثالثة تسعى بينهما لتكف الحرب ، فتعرض حلا سلميا ترى أنه كفيل بفض الخصومة ، محقق للعدالة أو موافق لمقتضيات الظروف والأحوال . وقد ترضى الدولتان . وقد ترضى واحدة وتأبى الأخرى . وعندئذ لا يكون عجيبا أن تحالف الثالثة هذه الراضية لتحاربا المتأبية حتى ترضخ ، ثم يعقد الصلح ليعيد الوفاق ، ويضع الشروط التى تمسح الخصومة وتنظم العلاقات . . .

بهذا تقول طبيعة الأمور . وبه يقضى ، دون ريب ، كل منطق مستو سليم . وعليه نصت الآية الكريمة التى اتخذها معتزلة حروراء سندا لهم يظاهرون به نظرتهم وما هو لها — فيما نعتقد — بظهير . فما يمكن أن يتم صلح قبل وضع شروطه ، وتنظيم دقائقه وتفاصيله ، ورسم خطة تنفيذه . . . غير أن القوم شاءوا أن يصروا على رأيهم كأنما كان يكفى أن ينزع معاوية الصلح ليدخل فيه دون شرط معلوم عليه ، وبغير جزاء — مادى أو معنوى — يؤخذ به الظالم ، ويؤخذ به للمظلوم . . .

كل ما فهموه ، أو تأولوه ، من آية الطائفتين إذن أن معاوية وحزبه فئة باغية ، حكمها فى القرآن أن تقتل أو ترجع . أما كيف يكون رجوعها هذا ، وما هى الشروط التى تنظمه ، وتضمن من بعد بقاء الوفاق والسلام ، ومن من

الناس يضعها ، فتلك كلها أمور ليس لها فى ذهنهم مكان . . . وعجيب منهم ذلك الإصرار وهم أعلم الناس بأن معاوية ، حين تداعى وفئته للصلح ، لا يمكن اعتبارهم فى حساب الحروب « مستسلمين » عن هزيمة حربيـة بقدر ما يصح اعتبارهم جانحين إلى « هدنة » لعلها تصلح الأمور إذ يتلاقى خلال مدتها الرأى بالرأى ، وتقترب النظرة من النظرة ، فتصفو الأنفس ، وتخلص القلوب ، ويقع الصلح المنشود . . ولئن أبت معتزلة حروراء إلا أن تراهم قد هزموا ، وتقطعت بهم وسائل الكفاح المسلح ، وألقوا بالسلاح وهم صاغرون . فثمة قبلهم فى تاريخ الإسلام طوائف محقتها الحرب ثم لم يقض عليها بالتسليم دون شرط ولا مراجعة وإن حالها حين ذاك لأهون من أن تباح المراجعة واشتراط الشروط ، وثمة غيرها أخرى أبيح لها التحكيم واختيار حـكم ترضاه وما كانت هذه وتلك بالطوائف المؤمنة أو التى يرتجى منها إيمان . وما كان من أباحها ما أباح « قارئا » أو « عصبة من القراء » من أمثال معتزلة حروراء ، بل قد كان رسول الله ! . .

حدث هذا فى غزوة بنى النضير بعد نقضهم العهد بينهم وبين المسلمين . فلقد أرسل إليهم النبى ، محمد بن مسلمة ليقول لهم بلسانه :

« . . . اخرجوا من بلادى فلا تساكنونى . . »

قالوا :

« نتحمل » .

فأبى عليهم أن يحملوا معهم شيئا حين جلائهم . وغرهم رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ووعدهم مؤازرته . فقاوموا أمر رسول الله ، ووقفت الحرب . وحاصرتهم جيوش المسلمين . فلما أن أضر بهم الحصار والقتال وعضتهم الهزيمة ، « صالحهم » النبى على الجلاء . وأجلاهم إلى الشام « على أن لهم » ما أقلت الإبل من أموالهم إلا الحلقة والسلاح .

وحدث أيضا فى غزوة بنى قريظة ما يتفق وما نقول . فقد خانوا الرسول إبان وقعة الخندق فذهب إليهم بجيشه يوقع بهم جزاء خيانتهم وحاصرهم نحو شهر لم يروا بعـده إلا التسليم ، وما كان لهم محيص عنه بغير الفناء . وعندئذ مشت الأوس إلى محمد فى أمرهم تشفع لهم إليه :

« يا رسول الله ، إنهم موالينا . . . »

قال ، وقد قبل :

« ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » .

قالت الأوس :

« بلى » .

قال :

« فذاك سعد بن معاذ » .

ورضى بنو قريظة ، أو هم كانوا الذين اختاروا سعدا ، وقالوا :

« ننزل على حكم سعد بن معاذ »

هاتان حادثتان ترياننا أنه لا ضير فى « المصالحة » وما تعنيه من عرض شروط للصلح من فريق ومراجعتها من الآخر حتى يتم بينهما الاتفاق على الأخذ بها بدون تعديل ، أو بعد تعديل ، وأنه لا ضير أيضا فى تحكيم حكم يرتضيه الفريقان ليبلغا به الفصل فى النزاع . لا ضير ، بحسباننا ، فى هذا ولا ذاك وإن أصرت الحرورية على خلافه ، وملأت الدنيا لجاجا وعنادا وعنتا أورثت فتنة ما كان أغنى المسلمين عنها لولا جمود الأفهام . . .

ونعود الآن إلى ابن عباس . . .

فما كان حظه منهم عندما أرسله إليهم الإمام ؟ . . وما كان قصارى جهده وشأو منطقه وهو صاحب اللسان الإزعيل الذى لا يغلب فى مقام جدال ؟ . .

الحق أنهم أعيوه أو هم على الأغلب الأعم أصابوه بالحصر أو أوشكوا أن يصيبوه . فلقد أعجله حبه الجدل إلى مجادلتهم مع ما سلف من قول ابن عمه له حين أوفده : « لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك » . . وقد استخفه علمه بالقرآن فجادلهم به مع ما سلف أيضا من نصح على له ألا يخاطبهم بالقرآن لأنه حمال . . . وشهدته عندئذ حروراء يناظرهم فإذا هم يتيهون به فى بيداء من النقاش . وإذا هم يتلقون من لسانه حجته عليهم فتكون حجة لهم عليه . وإذا هو بينهم محصور أو محسور حتى يخف إليه الإمام . . .

٦

تحاوروا ، فأثاروا فى ابن عباس نهمه إلى الجدل . فإذا هو لا يصبر ولا يطيق الانتظار . إنما يراجعهم :

« ما تنقمون من أمير المؤمنين ؟ . . »

قالوا :

« تحكيمه الحكمين » .

« وما نقمتم من الحكمين وقد قال الله عز وجل : إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ؟ . . . . »

ومضى الرجل يستعين علمه ليظهر لهم شرعية التحكيم فى أمور غير ذات خطر كبير ، فكيف إذن ينكرونه وإنه الآن لأحق أن يتبع فى أخطر محنة تمر بها أمة الإسلام ؟ . .

وأصغوا له . إن الجدل يأخذه . إن حماسته لردهم إلى ما يراه صوابا تنسيه حذره . إنه ليطوف بالقرآن ، وقد أغفل نصيحة ابن عمه ، يتلو منه على أسماعهم آيات توجب التحكيم أو تجيزه فى هذا وذاك من خلافات . . . فالله تعالى يقره بين الرجل وزوجه فيقول :

« . . وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما . . . . . »

والله تعالى يقره عند الإحرام فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة . . . . . »

لكن المسألة عند الحرورية ليست مسألة قياسية . إنما هى مسألة « النص » بالحرف والكلمة . ويبدو أن ابن عباس قد أخطأ تفهم أذهان أولئك الذين يناظرهم ، وما طبعت عليه من كزازة وسطحية يحصرانها من طلاقة الفكر فى أضيق الحدود ، فجاءها من حيث كان جديرا به ألا يجىء . وكأن بهم زارون

عليه يقتحمون منطقه وإن صابروه يسمعونه . فآية الطائفتين التى اتخذوها سندا يظاهر نظرتهم لم تنص باللفظ على حكم ولا تحكيم . وهى حقا تقدم الإصلاح بين الطائفتين المتخاصمتين ولـكنها توجب بعده مقاتلة الباغية منهما قتالا يجعلها تفىء صاغرة إلى أمر الله . ولفظة « حتى » تعنى موالاة القتال إلى غايته ، وما غايته إلا الفىء ، وما هذا الفىء فى رأيها إلا التسليم . . .

توشك معتزلة حروراء أن تمضى فى تفـكيرها على هذا النحو وابن عباس أمامها يجهـد لتجسيم رأيه ، وعرضه عليها فى ثوب بيانى خلاب يكتنفه القرآن فى جوانبه وحواشيه ، ويوشك ابن عباس أن يحسبها جانحة إليه بعض جنوح ، مقتنعة بجدله بعض اقتناع . لـكنها لا تقتنع ، ثم لا تجنح ولا تميل ، ثم لا تـكاد تأبه قليلا بمنطقه هذا الذى أساسه القياس دون النص السافر بالـكلمة الصريحة وبالحرف الصريح . . . وإذا هى تعارضه الحجة فتقول :

« أو تجعل الحـكم فى الصيد ، وفى الحديث يكون بين المرأة وزوجها ، كالحـكم فى دماء المسلمين ؟ . . »

ولا تتلبث به ولا بحديثه . فما يعنيها إلا أن تضعه حيث ترى أن يوضع بموضع حسر أو بموضع مخالفة عن نصوص القرآن التى ترسم أحكاما مقررة فى قضايا وحدود ومشكلات توجب اتباعها حرفا حرفا ، وتجب الاجتهاد ، وتسد باب القياس.. وإذن فهى تبين له القاعدة العامة التى لا يسعه حيالها إلا التسليم، فتقول :

« أما ما جعل الله حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له ، فهو إليهم كما أمر به . وأما ما حكم الله فيه وأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه . . . . . . »

وضربوا مثلا :

« . . حكم الله فى الزانى مئة جلدة ، وفى السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا فى هذا ! . . . »

وهذا كلام حق صادق لأنه ترديد لمبدأ ثابت مقرر فى الإسلام ، وفى كافة القوانين والشرائع ، لا يختلف فيه الناس : ابن عباس وغير ابن عباس ! . . فلا اجتهاد رأى مع نص . ولا قياس وثمة حكم معلوم فى قضية معلومة يجب الحـكم

فيها بالقياس . . . ومع ذلك ففيم يردد الحرورية الآن هذا المبدأ البديهى ، وفيم يسوقون عليه الأمثال ؟ . . إنما نحسبهم يجيئون بهذا كله تعمية . وبغية لى مناظرهم عن رأيه إلى ميدان المناقشة الذى يختارون ، وإيهاما لمن يسمعونهم أو يتسامعون بهم بأنه قد أتاهم بحجة بيانية مستنبطة فأتوه بحجة قرآنية منزلة لا مكان بعدها لدليل ، ولا وجه لاجتهاد أو تأويل . وما أرادوا أيضا إلا قد أرادوا أن يعيوه ، وأن يضعوه بموضع حسر أو فى منطقة خطرة لا سبيل له إلى اقتحامها إلا بجدل أو بتسليم . فإن جادل لزمته مغبة جداله فى مبدأ دينى الجدل فيه معصية . وإن أقر فعاجز يحسبهم منه التسليم ! . .

ويفلت ابن عباس . ويعاود النضال عن نظرته . ويعاودون مراجعته وهم يدورون ويلفون ويلجون ما شاء اللجاج . ولكنه يأبى إلا أن يجد هـذا التحكيم حقا ، وهذين الحكمين حقا لا موجب للإزراء به ولا للمكابرة فيه لأنه وسيلة المسلمين إلى خير عام :

« . . إن الله عز وجل يقول : يحكم به ذوا عدل منكم . . . » .

وعندئذ يماحلونه :

« فهذه الآية بيننا وبينك ! . . . »

ثم يراجعونه ساخرين ، وفى نبراتهم جرس الانتصار :

« . . أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا ؟ . . لئن كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حربه ! . . »

وهكذا يتصيدون الألفاظ ، ويلعبون بها ، فقوام شأنهم كله الحروف والألفاظ ! . . . وينظر الرجل إليهم وهو مبهوت يكاد يحس الحسر يعى لسانه . فما أغنى عنه حقه . وما أغنى منطقه . وماهم بكافين هذه السفسطة التى تبتدعها عقولهم الجامدة الصماء . .

ويأتونه من لدنهم بمقطع الرأى الذى لا يراهم يحيدون عنه مهما استعان عليه وحشد لهم من براهين :

« . . . قد حكمتم فى أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عز وجل حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا . . . إنا دعوناهم إلى كتاب الله فأبوه ، فبم كتبتم بينكم وبينهم كتابا ، وجعلتم بينكم وبينهم للموادعة والاستفاضة ، والله قد

قطع الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منـذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية ؟ . . . »

وسرت بينهم همهمة :

« لا حكم إلا لله ! . . . »

وتصايحوا فى وجهه :

« حكمتم الرجال فى أمر الله ! . . »

وتاه ابن عباس من شغبهم فى بيداء . . . إنهم لا ريب ينطقون عن هوى أو جهالة . . . فلئن كانوا حقا لا يرون فى هذه القضية إلا الأخذ بالنص ، فأين فى آية الطائفتين النص الذى يحرم التحكيم ؟ . . ولئن فسروا « الفىء إلى أمر الله » فى الآية الكريمة بأنه الرجوع ، أو هو ، بالمعنى الأوضح ، التوبة ، والدخول فى الطاعة ، ولزوم الجماعة ، فكيف إذن تستطيع النقلة من الخصومة إلى الوفاق بغير اتفاق تمهيدى على الدقائق والتفاصيل ؟ . .

لا جدال — بنص الآية — فى وجوب مقاتلة الطائفة الباغية حتى تفىء إلى أمر الله ولا جدال أيضا ، بنصها ، فى وجوب الإصلاح بين الطائفتين بعد الفىء ولن يكون فىء حتى يعلن ، ولن يتم وينفذ بمجرد النطق به أو الرغبة فيه . . إنما لابد أن يسبق تنفيذه إتفاق عليه كيف يكون . كيف يعامل المسىء . كيف يسلم العتاد إلى غير هذه وأمثالها من أمور تلازم دائما حالات وقف القتال .

غير أن معتزلة حروراء تأبى أن تفهم هذا كله وتمعن فى الإباء بغير موجب وهى تحسب — إذ تعقل — أنها تلتزم ما أمر به الله ، وما تتبجى حين نراها لم تلتزمه فى شىء . وما تخالها إلا خالفت بعنادها عن نص الآية التى اتخذتها سندا ، إذ اجتزأت منها ببعض دون بعض ، وراحت تستمسك بشطرها الأول ثم تغفل شطرها الأخير . ولكى نتبين منها هذا الإغفال أو هذه المغالطة نورد الشطر الذى لم تدخله عند عنتها فى الحساب . . .

يقول الله :

« ... فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين .
إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون . »

والذى يدلنا عليه النص وترتيب عباراته أن الفيء هو نقطة التحول من البغى إلى الحق ، تقف به الحرب ، وتقر العزائم على الوفاق . ولكنه مع هذا يوشك ألا يحسم الأمر كله إلا أن يلازمه ، أو يتبعه على الأثر ، إصلاح بين الطائفتين بالعدل والقسط ، يحقق اجتناء ثمرة الفيء سلاما وصفاء وطمأنينة تعيد المؤمنين جميعاً ، بشطريهم ، إخوة متحابين فى الله . وبيقيننا أن هذا الإصلاح عامل متمم الفيء ، أو منقذ ومنظم له وإلا ما كان الله أورده فى الآية ولا كرر إثباته مرتين توكيدا للزومه ولفتا للأذهان لتتحرى حكمته وتأخذ نفسها باتباعه . .

ومع هذا فقد غفلت عنه أذهان الحرورية ولم تر الحرص عليه . . . أعن جهالة أم هوى ! . . إنما عصبيتهم الفكرية ، فيما نظن ، هى التى أزلقتهم لأنهم كانوا أبعد الكلف بكل رأى يرونه حتى لتعمى بصائرهم عن كل ما عداه . ولو قد خففوا من كلفهم ذاك ، ومن غلوائهم الرعناء لاجتنبوا المزالق والمصارع على السواء ، ولجنبوا الإسلام فتنتهم الضالة المضللة ، ولما اعتنوا بابن عباس وهو يحاول هدايتهم حتى أيس منهم ، فانعقد لسانه ، وبهت منطقه وهم يتيهون به من شغبهم فى بيداء ! . . .

٧

كانوا لا يزالون يتصايحون حوله . من هنا ومن هناك ، فى عناد وصلف وحماقة : « لا حكم إلا الله ! . . أتحكمون الرجال فى دين الله ! . . »

وكان لا يزال يحاول ما حاول معهم نفس اليوم ، مئات المرات ، عساه يثيبهم إلى الهداية . فإذا صوته يذوب فى ضجيجهم ، وإذا صدره يضيق بالمغالطات والتملات التى حشدوها له ، وإذا لسانه يدور بكلمات تهتز على طرفه وهى تجهد لتشق لنفسها طريقا فى زحمة المراء والضجة . . .

وعندئذ دخل الإمام . . .

مشى بينهم وئيداً ، خطوة ثابتة بخطوة ثابتة . في قلبه ثقة ، وبنظراته طمأنينة ، وعلى وجهه هدوء :

وأتلعوا إليه الأعناق . ومدوا نحوه أعينا مبغوتة . وبدأت كلماتهم المبادرة تجمد على الشفاه . . .

وفي رقة وضع كفه على كتف ابن عمه . وبنبرات عميقة صافية تحمل العتاب اللين همس له :

« انته عن كلامهم ! . . ألم أنهك رحمك الله ؟ . . »

فنهض ابن عباس في الحال ، خفيفا كأنما أزيح عن كاهله جبل ! . . ووقف صامتا يتسمع لهذا الصمت الذي حف فجأة بالمكان وقد كان معرضا من قليل للجاج والمكابرة والصياح . . .

وألقى إليهم الإمام بنظرة تومض ، شملتهم أجمعين ، صفا وراء صف ، وفردا وراء فرد ، حتى إذا رأى انعكاسة النظرة الوامضة تطلعا في العيون المبغوتة ، خاطبهم بصوته الرصين :

« أ كلكم شهد معنا صفين ؟ . . »

قالت طائفة منهم بنبرة مسموعة بينما اهتزت شفاه البقية ترسم حركة الألفاظ :

« منا من شهد ، ومنا من لم يشهد . »

« فامتازوا فرقتين ، فليكن من شهد صفين فرقة ، ومن لم يشهدها فرقة حتى أكلم كلا بكلامه »

وعندما امتاز الجمعان ، دار بعينه لحظة فيهما وفيمن حضر مقامه هذا من غيرهم ، ثم قال للحشد كله :

« أمسكوا عن الكلام ، وأنصتوا لقولي ، وأقبلوا بأفئدتكم إلي . فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها . . . »

ثم التفت لمعتزلة حروراء :

« من زعيمكم ؟ »

قالوا :

« ابن الكواء . »

وتقدم نحوه ذلك الزعيم ، عبدالله بن الكواء اليشكرى ، أميرهم على الصلاة ورمقه على هنيهة . ثم انثنى عنه بعينه وذهنه وقلبه جميعا ، بعيدا ، بعيدا عن الناس ، ودنيا الناس . والخلائق والأمور فى هذه الحياة الدنيا بما تضم من مادة ومعنى ، ومن شىء وفكرة ... انثنى إلى ربه فى لحظات خشوع وابتهال يناجيه ونجواه تضطرم بحرارة الإيمان :

« اللهم إن هذا مقام من أفلج فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة . ومن نطق فيه وأوعث فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ... »

ثم عاد من مقامه إلى ما كان فيه . فإذا طائفة منهم أمامه ، قد دنت لتسمع وتراجع ، تكاد حلوقها تنشق عن حديثها الذى تحبسه ، وتتأهب به للقاء حبيبه ..

وسألهم وهم فى لهفة إلى سؤاله :

« ما أخرجكم علينا ؟ .. »

واندفعوا يجيبونه الجواب الحاضر ، الذى طالما لاكوه وأعادوه :

« حكومتكم يوم صفين » .

فابتسم . كانت بسمة فيها رثاء وحنان ، وفيها تهكم وزراية ، وفيها عجب ومرارة . فأمسهم لديه ماثل يقول إنها حكومتهم هم لا حكومته ، تحققت بفضلهم وبرغبتهم ، وبركوبهم إياه بالشدة والقهر وحد الحسام حتى أعطاهم ما أرادوه ...

ونفض عنه بسمته . ولبس محياه جدا صارما ترجمت عنه كلماته التى جرت إلى أسماعهم فى جرس ثابت عميق :

« ألم تقولوا عند رفعهم للمصاحف : إخواننا وأهل دعوتنا استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه ، فالرأى القبول منهم والتنفيس عنهم ... فقلت لكم : هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان ، وأوله رحمة وآخره ندامة ، فأقيموا على شأنكم ، والزموا طريقتكم ، وعضوا على الجهاد بنواجذكم ، ولاتلتفتوا إلى ناعق نعق ، إن أجيب أضل ، وإن ترك ذل ؟ ... ... »

ثم مضى يذكرهم والأسى يغلب على نبراته :

« . . . لكنكم رددتم على رأيي ، وقلتم : لا ، بل نقبل منهم ! .. فقلت : اذكروا قولي لكم ، ومعصيتكم إياي ... فلما أبيتم إلا الكتاب ، اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن . فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن ، وإن أبيا فنحن من حكمهما براء . . . »

فأغضوا مليا صامتين . إنه لم يفارق الحقائق التي يعلمونها — وهم سطروها حينذاك بعنادهم — بمثل دقة شعرة أو خيط عنكبوت . . . فمن يؤثمون ومنهم الإثم ، ومن يلومون وهم وحدهم فلك اللوم ومداره ؟ . . لكن في نفوسهم شيئاً من هذا التحكيم ، الذي فرضوه وارتضوه ثم عابوه ، لا تزال تحس معه الحيرة آنا ، والجزع آنا ، والعذاب النفسي الذي يلازم الشعور بالمعصية آونات . هو يشيم هذا فيهم ، ويراه يضطرب خلجة خلجة ويتلون طيفا طيفا على قسماتهم المكدودة ، فيرفق بهم . ويخفف عنهم بعض ما يعانونه من ندم على ما كان منهم من تداع إلى هذه الحكومة التي بلبلت خواطرهم وأقضت عليهم المضاجع ، فيقول :

« . . . قد كانت هذه الفعلة ، وقد رأيتكم أعطيتموها . . . والله لئن أبيتها ما وجبت على فريضتها ، ولا حملني الله ذنبها . ووالله إن جئتها إني للمحق الذي يتبع . وإن كتاب الله لمعي ، ما فارقته مذ صحبته . . . »

وتبدو عليهم الطمأنينة هونا ، فهو أعلم منهم بكتاب الله ، أحرص على التزام أوامره واجتناب نواهيه . . . ومع ذلك يسائلونه متلهفين ، عسى أن يمحو قلقهم بإرشاده :

« فخبرنا . . . أتراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء ؟ . . . »

عندئذ يبصرهم :

« إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن . وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين ، لا ينطق بلسان ، ولابد له من ترجمان ، وإنما ينطق عنه الرجال ... ولما دعانا القوم إلى أن نحكم بيننا القرآن ، لم نكن الفريق المتولى عن كتاب الله تعالى . وقد قال سبحانه : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ..)

فرده إلى الله أن نحكم بكتابه ، ورده إلى الرسول أن نأخذ بسنته . فإذا حكم بالصدق فى كتاب الله فنحن أحق الناس به . وإن حكم بسنة رسول الله فنحن أولاهم به . . . »

وطوف ببصره فيهم ليرى الأثر الذى يطبعه حديثه فى وجوههم ، فى هذه المرايا التى قد تعكس عواطف القلوب ... ومضت عينه من عامتهم إلى خاصتهم . إلى قلة بينها كانت أعنتها به ، وأعتاها عليه ، وأظلمها له ، قد أبى عليه أفرادها فى صفين إلا الانخداع مثلهم بدعوة المصاحف المرفوعة أو يسلموه لعدوه أو يقتلوه . فلما استجاب لهم ، أبوا ثانية إلا أن يختار حكما بذاته فرضوه . وها هم الآن ، فى هذه اللحظة التى يناظرهم فيها ، يأبون عليه كل هذا الذى حملوه عليه حتف رغبته من الموادعة والتحكيم والحكمين جميعا ، ويسائلونه فيه . . .

وتقع عينه منهم على فئة تشهد مقامه . ويتبع خياله فئة أخرى شغلها بعض أمرها عن شهود هذا المقام . فكأنه بالذين حضروا وغابوا على سواء قد أخزاهم الله إذ تبينت لهم الآن مغبة عصيانهم إمامهم ، واختلافهم عنه . وسوء رأيهم الذى أثابهم الندم والحسرة .. ولكنه يستحضرهم فى باله على ما كانوا عليه إبان عتوهم ، والقتال حينذاك ناشب ، والنصر على قاس رمح منهم . وهم يعجلونه عن هذا النصر استجابة لخدعة مفضوحة لعلها لم تكن لتجوز على ذهن غلام . فإذا هم عندئذ مردة . وإذا هذه الجباه السوداء ، التى أعلمتهم بكثرة السجود ، كأنما تخفى وراءها أفهام طفل أو عنت شياطين . وإذا زعيمهم هذا زيد بن حصين ، وزعيمهم ذاك مسعر بن فدكى ، قد أقبلا عليه فى عصابة من القراء أمثالهم ، يتلهب الغضب فى أعينها وهى لا تأبه قليلا بتحذيره ، بل تهدر وتزأر ، ملوحة بأسيافها أمام ناظريه :

« أجب القوم إلى كتاب الله . . . وإلا قتلناك ! . . »

ثم يستحضرهم أيضا فى باله ، على حالتهم تلك التى طلعوا بها عليه ، بعد استجابته ، بأفهام طفل وعنت شياطين !.. فإذا هم ثانية يشقون عليه ، ويكرهونه

على غير ما يرى ، ويحملونه على الرضا بأبي موسى حكما . وإذا شبث بن ربعي « هذا الذي كان لهم أمير حربهم في موقد حزبهم ، يقول :

« . . . إنا والله وإن خفنا على أبي موسى من عمرو مالا يخافه أهل الشام على عمرو من أبي موسى ، فلعل ما خفناه لا يضرنا ، ولعل ما رجوا لا ينفعهم . . . فإن قلت : في أبي موسى ضعف ، فضعفه وتقاه خير من قوة عمرو وفجوره ! . . فأغلق به البلاء ، وافتح به العافية . . . »

وإذا عبد الله بن الكواء اليشكري . هذا الذي جعلوه صاحب صلاتهم عند الاعتزال ، ويقف الآن منهم بموقف زعامة ، ينبرى إذ ذاك ، ساعة إصرارهم بصفين على اختيار الأشعري ، فيقول :

« ... إنك أجبت الله فأجبناك . ولكننا نقول : الله بيننا وبينك إن كنت تخشى من أبي موسى عجزا ، فشر من أرسلت الخائن العاجز . لست تحتاج من عقله إلا إلى حرف واحد : ألا يجعل حقك لغيرك فيدرك حاجته منك . . . »

ثم يباعد الإمام من باله هذه الصورة الباهتة من ماضيهم القريب التي أطلعتهم مردة عتاة ، ويستقبل بعينه شخوصهم التي تطلعهم الآن كأنهم أذلة على خزى وقد حضرهم مآل عصيانهم ، ووبال مشاقتهم .. فما أضعف جلد الحائر ! .. وما أشدها قوة يستطيع الحور أن يفرض بها سلطانه الجائر على النفوس القلقة ! ... وهاهم أولا — هذه العصبة العاتية المدله بالأمس ، يستكينون لحيرتهم . ويتطلعون للرجل الذي أعضلوا به ، وجرعوه من عنادهم مذاق العلقم ، مطوفين حوله بالقلوب والأبصار عسى أن يكون في وفاضه ، من ذخر علمه ، ما يثيبهم أمن الأنفس ، ويرد عنهم الحيرة الرعناء . . .

ويعاود ما كان من حديثه عن التحكيم :

« . . . إنا أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل . فإذا طمعنا في خصلة يلم الله بها شعثنا ، ونتدانى بها إلى البقية فيما بيننا رغبنا وأمسكنا عما سواها . . . »

ويعاودون مساءلته :

« تخبرنا عن الأجل ، لم جعلته فيما بينك وبينهم فى التحكيم ؟ . . . »
حتى هذا أيضا يسألونه فيه كأنما يغيب عن أذهانهم أن تدركه ولكنها نهكة الحيرة ، وغمة القلق النفسى . وكرب الاضطراب قد ابتزتهم الثقة بأنفسهم ، وشلت عقولهم ، وتركتهم بعشيمة . . .

ويجيبهم الإمام :

« إنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل ويتثبت العالم . ولعل الله أن يصلح فى هذه المدنة أمر هذه الأمة ولا تؤخذ بأكظامها فتعجل عن تبين الحق ، وتنقاد لأول الغى . . . »

ومضى يعظهم ويبصرهم . لا يستقبلونه بمسألة إلا أجابهم فيها بما يشفيهم . ومضوا يحاورونه ويسألونه ، لا تعرض لهم شبهة تدفع بها أذهانهم المكدودة ، وتنجبها نفوسهم القلقة إلا طالعوه بها ، واستخبروه طبها . حتى إذا فرغت جعبتهم اكتنفهم الصمت ، فقام يقول ، يعظهم :

« . . . ألا إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق ، وإن نقصه وكرثه ، أحب إليه من الباطل وإن جر إليه فائدة وزاده . . . . . »

ونهض فنهضوا معه . وخاطبهم فى هدوء ورفق عسى الله أن يهديهم ، ويلم بهم بعض شعث أمته :

« ادخلوا مصركم ، رحمكم الله . . . »

١

أعن هداية عادوا ، أم هى بدوة من بدواتهم ، ونزعة طارئة كبدواتهم ونزماتهم التى طالما تكشفت ثم لا يعرف الناس ، ولا يعرفون هم أيضا ، عقباها ؟ .. أحسبها راحة من قلق نفوسهم أفاءها عليهم حديث الإمام ، يومهم هذا ، فانفسحت هونا قلوبهم للرضا ، ولانت هونا عقولهم بها ، فلم يروا إثما فى العودة ... لم يكن ثمة مبرر لانحيازهم عن الكوفة وهم هناك بحروراء قاعدون إن أنكروا باطلا لا يناهضونه أو رأوا حقا لا يؤازوونه . فلقد مضت بهم أيامهم فيها والسيوف فى القرب ، والأكف عاطلة لا تضرب بسلاح ولا بسوط ، وأعضاؤهم كلها خدرة مفترة إلا هذه الألسنة التى أتيح لها أن تتحرك لحظة من ساعة ، أو ساعة من يوم تتحدث بنظرتهم كلما وفد عليهم من رجال على وافد أو نفر يناظرونهم — وقليلا كانوا — ثم تهمد بعد هذا خرساء ! .

فلعلهم بالكوفة ، إذ يخالطون إخوانهم ، تنزاح عنهم بقية هذه الحيرة الذهنية التى لا يزالون يعانون منها ولا تزال تلح عليهم كلما خلوا إلى نفوسهم يذاكرونها سلوكهم أمس ، وسلوكهم اليوم ، والنتائج المحتومة المغيبة التى لا ريب مطالعة الأمة قريبا أو بعيدا لو هم صبروا على هذه الحكومة حتى تبلغ مبلغها ، أو إن برموا فعاجلوها بالتقويض .. ولعلهم أيضا بهذه المخالطة منفسحون لجدلهم آفاقا تريهم الحق أين مأتاه ... ولعلهم بها كذلك أقدر على نشر دعوتهم ، وتصيد التابعين لها والأنصار لهم إن تبينوا أنها وحدها هى السبيل ...

أحسب هذا كله كان بعض ما خاص خواطرهم وهم يبرحون القرية إلى المصر ، ويدعون العزلة إلى الجماعة . فما بانحيازهم غير ملوم وإنهم بهخرس الأسنة . عاطلو الهام ، أشلاء الأجسام ! وما تضيرهم العودة الآن ، ولا قد أضارهم الاعتزال قبل ، فإنما راموا بهذه وهذا وجه الله لم يروموا وجه على ولا وجه غيره من العباد ... وتموج الكوفة بجمعهم كأنها فى يوم عيد . ويستبشر الناس فهذه الطائفة التى

أربت على عشرة آلاف من المقاتلة الأشداء ذوى الأيد قد أصلح الله شأنها فعادت تلزم الجماعة ليشتد بها الأزر . . . والناس من فرحتهم يرددون البشرى ، ويتناقلون الرجاء فى مستقبل عزيز وهم يذكرون أن الحرورية عادت إلى طاعة الإمام ، وفاءت بهديه إلى الصواب . . .

لكنها لا تكون إلا مدة قصيرة حتى يختلط الأمر على أهل الكوفة . لا تكون إلا مدة قصيرة ، أياما معدودات ، تعيشها البشرى ، ويحياها البشر ، ويستشعر القوم فيها عزة جانبهم ، ثم تجمد الفرحة ويغيض نبع الرجاء ، ويقبل الناس حيارى ، بعضهم على بعض ، يتساءلون عن حقيقة الدوافع الخفية التى خرجت بهذه العصابة العنيدة من معتزلها حين أيقن وفود أمير المؤمنين ، وصحبه ، والأمة جميعا من ورائهم ، أنها لن تكف عن غلوائها ، ولن تدع رأيها ، ولن تعود . . .

هنا وهناك فى دروب البلدة همس . هنا وهناك عجب وتساؤل . ما التقى رجل برجل إلا ساءله . ولا صاحب بصاحبه إلا ساره فى تحرج وحذر . فلقد ذاع أن هذه الحرورية لم تنزل لعلى عن رأيها ولكنه هو الذى نزل لها عن رأيه ، واشترى منها رجوعها إلى رجاله ، ورضاءها عنه بالتنكر لما كان قد خالفها عليه . . .

وعجب الناس . ولكننا لا نرى ثمة ما يثير عجبنا من هذه الأخبار ما دامت النفوس البشرية أبدا مجبولة على تلمس العذر تدعيه لتبرر به أى هزيمة تحيق بها ، فكرية أو مادية ، وتظنها — إن هى تركتها بغير تبرير — آخذة من مكانتها ، ومنتقصة من هيبتها فى مجتمعها بمقدار . . . ومعتزلة حروراء بشر من البشر ، نفوسهم كالنفوس ، ورجوعهم إلى الكوفة بعدما كان من تأبيهم إن هو إلا إقرار صريح بخطئهم ، واعتراف بليغ بهزيمتهم يتحدث به ملأ الناس ، فلا بد له إذن — فى حساب هيبتهم — من تبرير . . .

لكأنى بهم ، وهذه مشاعرهم ، لا يكادون يستقرون بالكوفة ، ويخالطون أهلها ، ويتسامعون بتلك الأحاديث عن نزوعهم إلى الجماعة والطاعة بعد عزلة وعناد حتى يقول قائلهم :

« إن أمير المؤمنين قد رجع عن التحكيم . . . »

وكأنى بهذه القولة بعد قليل تجر وراءها نتيجتها المحتومة فإذا هى تفصح وتقول :

« . . . إنما ينتظر أمير المؤمنين أن يسمن الكراع ، ويجبى المال فينهض إلى الشام . . . »

وكأنى بشائعتهم هـــذه ومثيلاتها تنطلق بين الناس ، فى الدروب والمحافل والدور ، فتنمو وتكبر ، وتتضح لها الملامح ، وتتخلق فيها زوائد وأطراف كلما انتقلت من فم لأذن ، ومن أذن لفم ، حتى تستوى كيانا كاملا لرواية كاملة تصور بعض ما جرى فى التقاء الإمام بهم ، فتبرز رأيهم ، وتبرز معه نزوع على إليه ، واقتناعه ، وتبنيه إياه بعد توبة واستغفار . . . تقول تلك الشائعات :

حدثهم الإمام فقال :

« أنشدكم الله ، أعلمتم أحدا منكم كان أكره للحكومة منى ؟ . . »

قالوا :

« اللهم لا ! . . . »

« أفعلمتم أنكم أكرهتمونى حتى قبلتها ؟ . . »

« اللهم نعم ! . . »

« فعلام خالفتمونى ونابذتمونى ؟ . . »

فأقروا على أنفسهم بالكفر :

« قد كنا كما ذكرت ، وفعلنا ما وصفت ، ولكن ذلك كان منا كفرا . . . وقد تبنا إلى الله عز وجل منه . فتب كما تبنا نبايعك ، وإلا فنحن مخالفون ... »

وهنا تقول الرواية إنه بايعهم على ما قالوا ، وأقر على نفسه كإقرارهم على أنفسهم ، وتاب :

« إنى أستغفر الله من كل ذنب . . . ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجبى المال ويسمن الكراع ، ثم نخرج إلى عدونا . . . . . »

على هذه الهيئة جرت شائعة العصبة القارئة صاحبة حروراء أو على أشباهها من صور وهيئات . وما ننكرها منهم ، فهى بحالتهم النفسية حينذاك أشبه .

وما نأباها كذلك كل الإباء ، ففيها حق لا يرده إلا مبطل ، وفيها باطل لا يقبله إلا أفاك . فهم أكرهوه على هذه الحكومة . وهم أكرهوه على هذا الحكم الذى فرضوه . . . لم يبالوا شيئا بنذيره ، وعصوه فى الأولى وقد قال :

« . . . احفظوا عنى نهيي إياكم ، واحفظوا مقالتكم لى . . . أما أنا فإن تطيعونى فقاتلوا ، وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم . . . »

ولم يبالوا شيئا بنذيره ، وعصوه فى الثانية وقد قال :

« قد عصيتمونى فى أول الأمر فلا تعصونى الآن . . »

ويأسف منهم لهذا العصيان ، ويقول :

« . . فعلة ضعضعت قوة ، وأسقطت منة ، وأورثت وهنا وذلة . . . وايم الله ما أظنكم بعدها توافقون رشدا ، ولا تصيبون باب حزم ! . . »

حتى إذا غلبوه على أمره ، وأعطى عهد الله وميثاقه على ما رأوا ، بين لهم :

« . . . فإذا أبيتم . . . فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديل بعد الإقرار . . . »

أفئن شاموا الآن فى عصيانهم المثنى ذاك معصية أقبلوا يهمون أن يثلثوه بمعصية جديدة ، يكفرون بها عما فرط منهم ويتوبون عنه ، هى نقضهم عهد الله ، ثم لا يكفيهم بعدها إلا أن يرموا بالكفر ذاك الذى حذرهم العصيان ؟ . .

على أى حال ، ذاعت هذه الذائعات فى الكوفة بعيد استقرارهم بها ، يعجب لها الناس . ينكرونها حينا وهم يرونها تنتقص من قدر إمامهم وما عهدوه من إيمانه الذى لا تطوله ظلال الشبهات . ويشفقون منها حينا آخر وهم يرونها تدنيهم من النكث وخفر الذمة وتبعد بهم عن الوفاء . ويضطربون فيها ثالثة اضطرابة الحيران القلق الذى توشك الشكوك أن تعصب عينيه . وهى خلال هذا كله تلعب على الألسنة ، وتملأ المسامع ، وتهز الأذهان كلما دارت معهم أينما داروا فى الدروب والمحافل والدور . . .

ودومة الجندل بعد هذا تخايلهم ، فموعد اجتماع الحكمين بها يدنو . والزمن ينطلق ويسير . ولكنه يمضى بهم وئيدا بطيئا يزحف ، ثقيلا شديد الوطء على

نفوسهم . فما يدرون أيجتمع الحكمان فتكون حكومة أم هذه الحكومة حقا ضلال فلن تكون . ويدع أناس ما كان من تحرجهم وهمسهم بتلك الذائعات فلا مناص الآن من إعلانها ، ولا حيلة لهم فى المشى بها إلى الأمام ليعلموا منه خبرها اليقين . . .

ويصارحه قائل مومئا إلى أصحاب حروراء :

«يا أمير المؤمنين . . . إن القوم قد تحدثوا أنك رجعت لهم عن كفرك . . .»

فيعجب . ويغضب من الفرية الممعنة فى البهتان .

ثم تكون الذائعات قد استعارت أجنحة طارت بها عبر البلدة ، تبرح أبوابها ، وتنتشر بعدها بين الشمال والجنوب ، وبين المشرق والمغرب ، فتملأ الحواضر والبيد حتى يأتيه من الشام من يقول :

« إن معاوية قد وفى ، فف أنت لا يلفتنك أعاريب بكر وتميم . . . »

عندئذ يرى لزاما عليه أن يكف عبثهم ، وأن يضع الناس على بينة من الأمر . وإذا هو ذات ظهيرة يدخل المسجد فيعتلى منبره ، ويخطب فيمن أقبلوا للصلاة . فلا يدع شيئا من قصة هذه الحكومة إلا ذكره ، ولا من هذه الشائعة التى تشيع حولها إلا دحضه ، ولا أناسا أذاعوها قد ابتدعوها إلا أكذبهم . . . ثم رماهم بنظرته فى الأمر بيضاء بلقاء بغير شبهة :

« . . . ألا من زعم أنى رجعت عن الحكومة فقد كذب ! . . »

فما هو أن ينطق بمنطقه ، حتى يثب من بين الناس رجل يصيح فى حدة كأنما قد تخبطه مس :

« يا على ! . . . أشركت فى دين الله الرجال ، ولا حكم إلا الله ! . . »

ويتواثب على أثره طائفة ، هنا وهناك بالمسجد ، يملأون أركانه صياحا وجلبة :

« لا حكم إلا الله ! . . »

« لا حكم إلا الله ! . . »

« لا حكم إلا الله ! . . »

ثم لا تكاد الصلاة تبدأ حتى يرتفع صوت أحدهم يتلو :

« . . . ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . . . »

فإذا الإمام لا يدع هذا التعريض الذى أراده به ذلك التالى المكابر ، فيبادر بتلاوة :

« فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون . . . »

ومن تلك اللحظة تسفر الحرورية عن عداوتها . فما كانت عودتها إلى الكوفة نزوعا إلى الحق والتزاما لجانب الجماعة بقدر ما كانت بدوة من بدواتها التى تخبطتها بين اليقين والحيرة ، وما تزال تتخبطها أبدا فى الريب والشكوك ما بقيت تسعى معصوبة العقول والأعين لا تستطيع أن تتبين الطريق .

٢

غدا المسجد موئل حجاجهم . أنى دخلوه أثاروا فيه ألوانا من الجدل والسفسطة . وغدا القرآن متأولهم ، يتخاطبون به ، وبه يخاطبون غيرهم ممن يخالفونهم فى الرأى ، لا يتحرجون عن إخضاع آياته لتأييد شعارهم مرة ، ونقاشهم أخرى ، وإن علموا أن هذه الآيات ما نزلت إلا فى غير هذا الشعار والنقاش . . .

وغدا على بعد هذا هدف ألسنتهم الزارية العيابة . تتناوله وهو غائب . وتتناوله وهو شاهد . وتتناوله وهو قائم فى صلاته بين يدى الله . كلما وسعهم أن يعيبوه عابوه ، وأن يشاقوه شاقوه . وهو أحيانا يغضى أو يلطف ، وأحيانا يرد ويعارض . . .

والأمثلة على غلوهم فى شقاقه كثيرة . . . يثورون بشعارهم فى وجهه ذات مرة :

« لا حكم إلا لله . . »

فيجيبهم بهدوء :

« كلمة حق أريد بها باطل ! »

ويثورون أخرى ، فيقول يتوعدهم :

« حكم الله أنتظر فيكم ! . . »

ثم لا يكون منه إلا التسامح الذى هو بخلقه أليق ، فلا يعنف بهم ، ولا يحرمهم حقهم فى معارضته وإبداء رأيهم حرا بغير حظر ولا تقييد ، فيعلن لهم سياسته فيهم :

« أما إن لكم عندنا ثلاثا ما صحبتمونا : لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه . ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا . ولا نقاتلكم حتى تبدأونا .. »

ومع هذا ينبرى له منهم من يقول فى غرور وصلف وهو يسوق مشاقته فى ثوب القربة إلى الله :

« . . اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنية فى ديننا فإن إعطاء الدنية فى الدين إدهان فى أمر الله ، وذل راجع بأهله إلى سخط الله ... يا على ! . . أبالقتل تخوفنا ؟ . . أما والله إنى لأرجو أن نضربكم بها عما قليل غير مصفحات ثم لتعلمن أينا أولى بها صليا ! . . »

لكن الإمام لا يثور . ويدعهم وصلفهم ، إنه ليعلم أنهم أهون عليه من غضبة يستقبلهم بها وهذه مصارعهم تخايله وتوشك أن تتحدث إليه غير مقصرة ولا موجزة ! . .

يظل يأخذ نفسه معهم بالروية فى أمرهم ، وبالتبصير والإرشاد والاستصلاح يجرى بها إليهم صحبه كلما وسعه أن يزجى نصحا أو رجا أن يهديهم . فإذا تسامحه لا يلين من جانبهم شيئا . وإذا هديه لا يزيدهم إلا إصرارا على رأيهم ومكابرة فيه . وإذا هم يعودون كيدنهم أو أشد عنتا فلا يكفيهم أن يغلوا فى القضية ما شاءوا حتى يبدو لهم أن يرددوا أمورا غيرها قد رث ترديدها ، وأن يقلبوا صحائف ماض دارس يلقفون منها أسطرا يحلو لهم أن يتخذوها مادة تضيف إلى إغراقهم فى اللجاج والخصومة . . .

هم إذن شعبوا خصامهم شعبا ، وفرعوه فروعا ، ما كانت لتنبت إلا عن كلفهم بالجدال والمحاجة . فليس يكفيهم الخوض فى هذه الحكومة ومناقشتها من حيث هى ،

فى حسبانهم . الخطأ السياسى الذى له آثاره الضارة بالجماعة ، ولا فى هذا الخطأ من حيث جسموه لجعلوه المعصية الدينية التى تبلغ الشرك فتصغر أمامها كل معصية . . . إنما يمضى بهم عنهم أشواطا فيجادلون فى الألفاظ التى كتبت بها الوثيقة ، وفى معانى ودلالات شتى يخرجونها من هذه الألفاظ وينحتونها نحتا ، آنا معقولة وأوقات كثيرة غير معقولة . ثم يشردون مع الولع اللجج بالنقاش فيجادلون فى أمور بعيدة كل البعد عن شعارهم ، لا تتصل به فى القليل ولا فى الكثير وقد سلف للناس الفراغ منها وباتت الآن فى طى النسيان . . . . . .

تشهدهم الكوفة إذ ذاك يعاودون عيبهم على الإمام أن قد حكم الرجال فى دين الله ، مع ما قد سبق من حجة له عليهم بحروراء وبالكوفة على السواء رسمها لسانه ورددتها ألسنة صحبه ووافديه ، لكنهم يؤثرون أن ينسوا حججه وبراهينه لأنهم يؤثرون أن يعودوا لبدئهم ليشبوها فتنة كاد يحتويها الرماد . ويحلو لهم دائما أن يطمسوا الذاكرات والأعين حتى عن مجلسه ذاك الذى لا يزال الناس يتحدثون به ويتندرون فى مجالسهم بما جرى فيه . فلقد شاء الإمام ذات يوم أن يأتيهم بالدليل « العملى » التى تحسر أمامه سفسطة جدالهم ولغوهم ، فاقتصد الدار لا يستقبل فيها إلا كل قارىء يحمل القرآن ويعيه . فلما أن امتلأ المكان بالقراء وضاق ، أخذ مصحفا فجعل يصكه بيده وهو يناجيه :

« أيها المصحف ، حدث الناس ! . . »

فعجب الجمع ، وقالوا له :

« يا أمير المؤمنين . . . ما تسأل إنما هو مداد فى ورق . وإنما نحن نتكلم بما روينا منه . فما تريد رحمك الله ؟ . . »

وعندئذ قال :

« أصحابكم هؤلاء ! . . »

وكانت لفتة تغنى عن المجادلة والبيان . . .

وتشهدهم الكوفة أيضا يكرون لما بدأوه من أخذهم عليه أنه محا اسم إمرة

للمؤمنين عن نفسه بالوثيقة مع أنه قد علل لهم من قبل هذا المحو فأحسن تعليله ولكنهم يعاودون :

« انسلخت من قميص ألبسكه الله ، ومن اسم سماك به الله . . . »

ثم لا يكفهم عن المعاودة والترديد أن قد تلا عليهم فى مجال المحاورة :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . . . »

فالرسول قبله قد محا الرسالة عن اسمه ، فى صحيفة الحديبية حينما أعنت به سهيل ، واقد قريش ، ولم يقل امرؤ عندها ولا بعدها إنه ليس برسول الله . . . لكنهم ، فيما يبدو ، أحبوا له ما لم يحبوه للرسول ، وكانوا أحرص منه على إمامته حتى ألبسوها قداسة تدخل فى روع الناس ما ليس فى الإسلام من عصمة الحاكم ، ومن حقه الإلهى فى ممارسة سلطانه بغير معقب ولا رقيب من الشعب المحكوم . . .

وتشهدهم الكوفة كذلك يستخرجون من صحائف الماضى وقعة الجمل فيعيبون على الإمام قائلين :

« قتل الأنفس الحرام ولم يقسم السبى والأموال . . . »

وكأنما قد نسوا أنه أبى عليهم بعد تلك الوقعة جشعهم الذى دفعهم إلى التنادى بعد النصر بتقسيم الأموال والسبى فيهم ، وأنه قال لهم حين أسرفوا عليه وعلى أنفسهم بالإلحاح :

« فأيكم يأخذ أمه ؟ . . أقرعوا على عائشة لأدفعها إلى من تصيبه القرعة ! . »

وكأنما نسوا أن ابن عباس قال لهم بحروراء عندما عادوا لهذا الحديث :

« قد كان فى السبى أم للمؤمنين ، فإن قلتم ليست لكم بأم كفرتم ، وإن استحللتم سبى أمهاتكم فقد كفرتم . . »

لكنهم ، ولعا بالجدل ، ينسون ! . . وهم أحرياء بأن ينسوا كل حجة يرونها تنهض لمنطقهم حتى يظلوا أبدا — فى أعين أنفسهم — أصحاب الفلج والرجحان . . . وستخال تصيبهم إلا قد أعماهم ، فالذى عصب بصره لا يرى سوى العصابة . ومن أغمض عينيه خليق بأن يشرد به الظلام كل مشرد ثم يختبل عن طريق النور .

وما كانوا إذن بمهتدين وقد غلوا بظلمهم فأغرقوا نفوسهم فى غمرة من الريب

والشكوك حق بها عليهم الضلال وما سلف من نبوءة رسول الله فيهم وإنهم إبانها لأجنة فى بطون المجهول . . . فلقد قال عنهم :

« تفترق أمتى فرقتين ، فتمرق بينهما مارقة فيقتلها أولى الطائفتين بالحق ... »

ولقد مرقت هذه المارقة على حين فرقة من الناس ، كما ذكر محمد ، لم يكفها علمها عن المروق . وأخذ شكها يتخبطها فمرة فى لدد ومرة فى هدنة ، وآنا تشق وآنا تفىء . وإنها لتفترق فيما بينها فرقا شتى لا يصبر جميعها على أمر واحد فإذا بعضها يخافت بعدائه ، وإذا بعضها يجاهر به ، وإذا منها من يسبق إلى التشرع للحرب يتعجل — بزعمه — الشهادة وما وراءها من رضوان الله ، ومنها من يقعد عنها تريثا وتؤدة ثم لا يكون مصير العجول والقاعد كليهما إلا مصارع سبقت فى الغيب تهيئها يدا الإمام . ولعلها أن تكون أطفأت من فتنة لولا سيفه لكانت أخلق بأن تسرح وتأكل وتمتد إلى حيث لا يعلم إلا الله . . .

ويسمع الإمام مرة قارئا يرتل :

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . . . »

فيبتسم ويقول :

« أهل حروراء منهم ! . . »

٣

الكوفة تضطرب . . .

النفوس فيها قلقة . الحديث فيها جلبة ولغط . الجدال يعلو إلى ذروة الخصومة ... فها هى دومة الجندل تتهيأ لتستقبل حكم الشام وحكم العراق . ها هو شعبان أقبل وموعد اللقاء حل . ها هم الناس يهرعون بالأخيلة والظنون — لا فى البلدة وحدها بل فى منازل الإسلام كلها — إلى ما سوف يسفر عنه هذا الاجتماع المرقوب . . .

وتضطرب الكوفة ...

وليس اضطرابها لأن مئين أربعا من أهلها توشك أن تخف بهم رواحلهم إلى الشمال ليكونوا شهودا على الحكمين اللذين اختير عن الفئتين ليحكما بكتاب الله . ولا لهذا الضجيج الذى يصاحب الرحيل عادة ويدفع المشيعين ، من هنا ومن هناك ، إلى وداع المئين الراحلة . ولا من قلق لما عسى قد تنجاب عنه الحكومة من نتائج وآثار . . . لا لهذا كله اضطراب حاضرة على فى هذه الفترة قبيل مسير وفدها ، ولا عند تشييعه ، ولا إبان مخرجه عن حدودها إلى منبسط الصحراء يدب على الدرب إلى مقر التحكيم ... إنما هزها أولئك الحرورية الذين أثاروا فيها جدلهم أضعافا ، ورفعوا أصواتهم صياحا وجلبة وهم يرون الحكومة التى ينكرونها ، وطالما حاربوها وهى فكرة ، تخطوا خطواتها الحاسمة نحو التحقيق . . .

الآن لا منطق ولا حجة . ناء جهدهم بالحديث . . . منطقهم كأنه عواء . حجاجهم سباب . نقاشهم تلويح بقبضات الأيدى المتوعدة وتقبض على القسى والسيوف . . . لم يعنفوا من قبل مثل عنفهم هذا . ولم يخرجوا عن طورهم كخروجهم هذا . ولم ينالوا الناس من مخالفيهم بمثل هذه المساءات التى أخذوا يحشدونها وينالونهم بها اليوم ووفدهم — هذه المئين الأربع — مودع ، وركبه يهم أن يسير . . .

ولم يسلم على منهم ، وما كانوا ليدعوه . عنتهم دائما يلاحقه . فى الدار ، فى الطريق ، فى المسجد ، وأينما ثقفوه . حتى فى صلاته كانوا يعارضونه بالعيب والعنف والمكابرة . إن هو أغضى عنهم وعف ثاروا ، وإن أجابهم لا يكادون يتركون فرجة ينفذ بها إلى أسماعهم حديثه من خلال ما يشبونه من الصياح والضجيج . بل إن منهم لأناسا كانوا يجابهونه بما يشاءون من لجاجهم فإذا شهدوه يحرك شفتيه ويهم أن يقارعهم لتوهم بحجته وضعوا أصابعهم فى آذانهم لكيلا يسمعوه ! . . .

وأكثر عليه صحبه فى أمرهم ولكنه بقى على ما انتهجه حيالهم من الرفق بهم ما وسعه ، ومن إمهالهم والصبر عليهم . فلعلها بدوة من بدواتهم تخففها الأيام ، ولعلها غمرة وتنجلى ... ويأتيه فيهم الأشعث بن قيس فلا يزيد على أن يقول له :

« لا أقاتلهم حتى يقاتلونى . . . »

ثم يسكت قليلا ، ويكمل وهو أسيف :

« . . . وسيفعلون ! . . »

« فلقد أخرجوا دخائلهم .

ومع ذلك فالخير فى أن يداريهم ويعالج شرورهم فى الغى بالكف عنهم والاستثناء بهم عسى أن تلهث منهم الأنفاس قبل أن يبلغوا شوطهم من اللدد والخصومة . وإن هى إلا أيام أوأسابيع ثم تبدو نتيجة هذا الاحتكام فيعلم موضعه ، ويعلمون مواضعهم ، وقد يؤلف بينهم وبينه حكم القرآن . . .

والحق أنه لم يكن له عن التصبر سبيل . فليس يستطيع أن يحملهم على ترك تذبذبهم هذا بين الهدى والباطل وهم مرة يرضون ومرارا كثيرة ينحرفون . وليس يستطيع أن يخاصمهم بمنطق القوة الذى غدا الآن منطقهم للفصل ومجتمعه فى هذه الآونة أحوج إلى الاحتفاظ بالهدوء والوحدة أو بمظهر الهدوء والوحدة حتى لا يطمع فيه عدوه ولا يكون للاضطراب والانقسام آثارهما فى رأى حكمه الذى أوفده وفى نتيجة التحكيم التى ينتظرها الناس . . .

هو إذن يداريهم ويمهلهم ما وسعه وإنه لعليم أن الشك هو الذى يميل بخطاهم ويسوقهم فى غلوائهم إلى أقاصيها حتى ليقول مرة وقد شهد منهم رجلا قد قام الليل يتهجد ويتلو القرآن :

« نوم على يقين خير من صلاة فى شك ! . »

وهو يترفق بهم ويعف فى أحايين كثيرة عن سفاهتهم . يسمع الشتم ولايرده عليهم ، ويرى من بعض صحبه الغضب له على مايصيبه فيكفهم عن الشاتم المسيء . . كان مرة يعظ الناس فأعجبت موعظته حروريا فإذا هو يهتف وهو كاره :

« قاتله الله كافرا ما أفقهه ! . . »

ويتسامح الإمام فيدع العائب وشأنه . ولكن بعض صحبه يثيرهم من الإمام حلمه كما يثيرهم من الخصم سفهه فيهمون بالحرورى يوشكون أن يقتلوه : وعندئذ ينهاهم على فى لين :

« إنما هو سب بسب ، أو عفو عن ذنب ... »

لـكن توقفه بالحرورية كل هذا الترفق لا يكفهم عن هذه المشاقة التي يصطنعونها في غير تأثم ولا حرج ويغرقون فيها كل الإغراق . بل لعله يزيدهم عنتا ولجاجة فيغرون به سفهاءهم وسلطاءهم يجبهونه في كل لحظة بما يسيئه ليعضلوا به ، ويبهظوه ويخرجوه عن طوره الخروج الذي يرمونه ويرونه الدواء الناجع فيه . . . حتى إذا طال عليه عنتهم وهو صابر ، وفرغت حيلهم دون أن تثمر ما أرادوه . مشى إليه زعيمان منهم ينذرانه ، ويسفران عن عداء جماعتهما بلا مواربة ولا إخفاء . . .

يدخل عليه الرجـــلان وفي ملامحهما ينطق تحديهم ، فيبادرانه بالهتاف التقليدي المعلوم :

« لا حكم إلا الله ! . . »

فلا يثور . ويردد وهو هادئ :

« لا حكم إلا الله . . . »

وعندئذ يخاطبه منهما حرقوص بن زهير ، مغفلا لفظة الإمرة ، مسرفا في عنف مقاله :

« يا علي ! . . تب من خطيئتك ، وارجع عن قضيتك ، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا . . . . . . »

ويمضي الرجل وإملاءه . ويمضي علي وإصغاءه إصغاء جميلا غير مشوب بمراجعة ولا مقاطعة حتى يفرغ الغوي منطقه فيجيب برفق وفي أناة :

« قد أردتكم على هذا فعصيتموني . وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتابا ، وشرطنا شروطا وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا . وقد قال الله عز وجل : وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليـكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . . . »

وما أتاهما بجديد ، فهذا حديث معاد سمعوه منه ورضوا به ثم آثروا الآن أن يرفضوه . ولـكنه هو الحديث وهو الدستور الذي يجب أن يحتذيه البشر في معاملاتهم في كل أوان ومكان لأنه لب الشرائع ونهج الأخلاق . . .

لـكن حرقوص بن زهير يأباه ، ويتعلل لإبائه بأن يقول :

« ذلك ذنب ينبغى أن تتوب منه ! . . »

فيجيبه الإمام يصحح له :

« ما هو ذنب ، ولكنه عجز من الرأى ، وضعف من الفعل . وقد تقدمت إليكم فيما كان منه ، ونهيتكم عنه . . . »

غير أن الرجلين يخلطان بين المعصية وخطأ التقدير . بين الدين وسياسة الأمور . بين ما المرء أن ينظر فيه ويدلى بالرأى وبالعمل وبين ما تمليه عليه الشريعة وليس له دونها اختيار . . .

ويصيح به ثانيهما . زرعة بن البرج ، يتوعد :

« أما والله يا على ، لئن لم تدع تحكيم الرجال فى كتاب الله عز وجل قاتلتك أطلب بذلك وجه الله ورضوانه ! . . »

عندئذ يهتف الإمام زاريا وإن لمحة من لمحات المجهول لتبدى لعينه مصارع القوم ومصرع هذا المدل بجبروته جزاء وفاقا على سوء رأيهم وانسياقهم مع الهوى إلى مصير محتوم :

« بؤسا لك ما أشقاك ! . . لكأنى بك قتيلا تسفى عليك الريح . . »

فأمعن الرجل فى مكابرته وعناده :

« وددت أن قد كان ذلك ! . . »

« ويحك ! . لو كنت محقا كان فى الموت على الحق تعزية عن الدنيا . ولكن الشيطان قد استهواكم ، فاتقوا الله ... ... »

لكنه لا يسمع الصم ، ولا يسمع الموتى فى القبور ! . .

٤

بيتوا أمرهم بليل . . .

كانت نذر خلافهم تتجمع فى الأفق ، واضحة لكل ذى عينين ، كتجمع خطوط الأصيل الحمراء خطا إلى خط حتى تكسو السماء بلونها الدامى الذى يرسم طليعة الغروب . . . وكان الزمان حينذاك مغربهم . وكانت أحداس النفوس تطلعهم صرعى ، دمهم كرقعة الشفق ، وشخوصهم على هذه الأرض كالظلال الباهتة التى تلقيها الأشعة الآفلة ثم لا تلبث أن تذوب فى المساء . . .

ما من امرئ إلا قد استيقن مصيرهم من قبل أن يحين . لا خير فيهم . لا جدوى من وراء مطاولتهم كل هذه الأيام والليالى . لا رجاء فى استعادتهم إلى الجماعة التى شقوها بعنادهم وباعدوا ما بينها وبين أنفسهم وإن ساكنوها بأبيات البلدة وقاربوها بالأبدان . فما أبعد الفكر عن الفكر ، والنظرة من النظرة ، ومشاعر القلوب من مشاعر القلوب . . .

إنهم أسرى وهم يلوح فى خواطرهم عقيدة . أوقعتهم فى براثنه كزازة ذهن . كبلهم فى أغلاله تعصبهم . حبسهم فى سجنه المظلم ضيق . أفقهم خالوه فى مثل انطلاقة الفضاء الفسيح . وكلما انفتحت لهم فى جدره كوى سارعوا فسدوها لا لأنهم يبرمون بالضياء الذى سيتسرب إليهم من خلالها بل لأنهم يخشون أن تقتحم عليهم بعض النسمات الحرة الطليقة محبسهم العطن فتطفئ ذبالة رأيهم الواهن الذى قد آثروا أن يعيشوا عليه . . .

وكانت شكوكهم هى التى تحركهم كما تحرك الرياح الهوج أوراقا جافة ذابلة فى إبان إعصار ، أحيانا يمنة ، وأحيانا يسرة ، ودائما تعلو بها معابثة وهى تدور كالدوامة ثم لا يكون شأو هــذه الحركة إلا السكون والعودة بالأوراق الحائرة إلى حيث كانت لا إلى حيث تصير وتسكون ! . فهاهم أولاء بعد طول مناظرة وحجاج وتحذير يكرون ثانية إلى بدئهم فينكرون ماتعبت الألسن فى دحض إنكارهم له ، ويتمسكون بما أظهروا ، مرات كثيرة ، صدق النية فى تركه والإقلاع عنه . .

حق ذلك الفاصل البين بين حق على وباطل معاوية قد غم عليهم هم الذين قد هرعوا إليه قبل القتال يعلونه حتى غدا سورا شاهقا ما إلى اقتحامه ولا تجاوزه سبيل . ولكنهم فى غمرة شكهم لا يرونه ، ولا يذكرون لبنة واحدة منه ، ويقبلون فى ساعة من ساعات حجاجهم لابن عباس وكأنهم أجهل الناس به . . .

يقول لهم ابن عباس وهو يهون عليهم ما يهظهم من أمر التحكيم :

« . . . ولقد أخذ على على الحكمين ألا يجورا ، فإن يجورا فعلى أولى من معاوية وغيره . . . »

فإذا هم يقولون وهم فى ريب :

« إن معاوية يدعى مثل دعوى على . . . »

كأنما يسوون بين الدعويين ولا ينكرون على عاهل الشام دعواه .

ويجيبهم ابن عباس كالساخر :

« فأيهما رأيتموه أولى فولوه ! . . »

« صدقت . »

لكنهم ينسون كل هذا الذى حاربوا عنه ، وجادلوا فيه ، وأظهروا المرة بعد المرة الاقتناع به ثم ينطلقون وهم أشد ما يكونون سخطا وأعتى حقدا على الإمام فيبيتون أمرهم بليل . . . فى ظلمة الأماسى ينسلون كالخفافيش من دار إلى دار ومن منزل لمنزل تتخبطهم وساوسهم ليتهامسوا بالتآمر . والعيون حينذاك عنهم فى غفلة . والخواطر تحسبهم لا يزيدون شيئاً على هذا اللغط الذى يجاهرون به فى الجامع وعلى ملأ الناس . . .

وتجمعهم مرة دار عبد الله بن وهب الراسبى ، ذلك الرجل ذى الثفنات الذى تقرحت جبهته من فرط سجوده . وإنهم جميعا لعلى مثل هيئته ، تحسبهم من سيام يغنون تقى ويذوبون زهادة ، كأنما كانوا من أولئك الذين يعنيهم على بقوله :

« . . . اتخذوا الأرض بساطاً ، وترابها فراشاً ، وماءها طيباً ، والقرآن شعارا ، والدعاء دثارا ، ثم قرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح ... »

فإذا بلوتهم فهم على غير مظاهرهم ، تكاد تصدق فيهم قولته التى ينعت بها المنافقين :

« ... يتلونون ألوانا . . . يعشون الخفاء ، ويدبون الضراء : قولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء . . . إن سألوا ألحفوا ، وإن حكموا أسرفوا . يقولون فيشبهون ، ويصفون فيموهون . . . فهم لمة الشيطان ، وحمة النيران . أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . . . . . . »

تجمعهم حينذاك دار صاحبهم ابن وهب وإنهم لقراء مثله ، لهم علائم السجود والتهجد ، ولا شعار يتنادون به بين الناس إلا كتاب الله . فإذا أجنهم ليلهم ، وغلقت عليهم الأبواب تجاهروا فيما بينهم بالمؤامرة يدبرون الشر ويمهدون طريقه . . .

ويقوم فيهم صاحب الدار يخطبهم :

« . . . أما والله ما ينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن ، وينيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا — التى الرضا بها ، والركون إليها ، والإيثار إياها عناء وتبار — آثر عندهم من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والقول بالحق وإن مر وضر ، فإنه إن يمر ويضر فى هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله . . . . . . »

ويمضى الرجل وعظته مليا ، ثم يطالعهم بهذا الأمر الذى جمعهم له ، ورأى أن يحرضهم على العمل به :

« ... فاخرجوا بنا ، إخواننا ، من هذه القرية الظالم أهلها إلى جانب هذا السواد ... إلى بعض كور الجبال أو بعض هذه المدائن ، منكرين لهذه الأحكام الجائرة ، والبدع المضلة ... »

ويعقب بعده حرقوص بن زهير :

« إن المتاع بهذه الدنيا قليل ، وإن الفراق لها وشيك ، فلا تدعونكم زينتها وبهجتها إلى المقام بها ، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . . »

كذلك يتمدون فيما بينهم الخروج من بين ظهرانى القوم الذين ظلموا لينكروا البدعة المضلة التى تمثلت فى التحكيم . فأما وسيلة هذا الإنكار ، وأما المهجر الذى عزموا على انتجاعه ففكرة لا تزال تدور فى الأخلاد دون ظهورها إلى نطاق النفاذ مجامع لهم تشهدها الأمسيات فى خفية ودبر العيون والأسماع . . .

ثم تجمعهم ، ليلة ثانية ، دار زيد بن حصين فلا يكون وعظه إياهم بأدنى من وعظ صاحبه ، ولا حثه بأقل أثرا فى نفوسهم المفتونة بفكرة الجهاد وإن غرتهم نفوسهم فخلطوا بينها وبين الفتنة . وإنه ليحرض ، ويتلو عليهم من القرآن حتى يشتعلوا حمية فتتلهف عزائمهم على ما صورته أوهامهم من صدق البلاء فى ذات الله . . .

يقول لهم فيما قال :

« . . . إن الله قد أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقول بالحق ، والجهاد فى تقويم السبيل ... وقد قال عز وجل لنبيه : يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد . . . وقال تعالى : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . . . . . . »

ولا يزال يتلو عليهم ما شاء حتى يبلغ من قلوبهم مبلغه ، فيقول لهم ، مصارحا فى غير إخفاء :

« . . . اللهم إنى أشهد على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم قد اتبعوا الهدى ، ونبذوا حكم الكتاب ، وجاروا فى القول والأعمال ، وإن جهادهم حق على المؤمنين . . . »

ويفعل قوله فيهم فعله حتى لينهض من بينهم رجل ، تثب به حميته وتهزه مشاعره وثوبا أرعن وهزا عنيفا فيبكى ويصيح وهو يكاد يشرق بدموعه :

« ... اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم ! .. فإن أنتم ظفرتم وأطيع الله كما أردتم ، أثابكم ثواب المطيعين له ، العاملين بأمره . وإن قتلتم ، فأى شىء أفضل من المصير إلى رضوان الله وجنته ؟ . . »

وما كان هذا بآخر اجتماع .. بل كأنى بهم لا يزالون يجتمعون الليالى المتعاقبة فى هذه الدار أو فى تلك من دور رءوسهم وأساطينهم ، يجالسون فيها بمجالسهم ولا حديث لهم إلا تدبير هذا الخروج الذى غدوا وهم لا يجدون عنه محيصا لإحقاق حق الله والجهاد فى سبيله . وما كان شىء يمنعهم من المبادرة بتنفيذه إلا أن يحكموا له

التدبير ، ويهيئوا المقومات التي تكفل إنجاحه وتمضي به إلى الغاية التي تخايلهم من وراء تفكيرهم السقيم . . .

والتقت وضحت الآن خطوط هذا التدبير ..

فأما مهجرهم فذاك بمكان لعلهم يضمرونه إلى حين .

وأما وسيلتهم لإنكار البدعة المضلة فليس الأمر بالمعروف ، ولا النهي عن المنكر اللذين لغطوا بهما من قبل وأكثروا فيهما بالحديث . ولكنه التنكر لمنطق المحاجة بالحسنى والانحياز إلى منطق القوة وضرب الجباه والوجوه . . .

وما يمنعهم ؟ . . إنهم — فيما يوقنون — بسبيل هجرة ! — خروج في الله كتلك الهجرة التي فر بها محمد بدينه ، منذ قرابة ثلاثين عاما ، من بين ظهراني قومه الذين كذبوه وساموه الاضطهاد والعذاب . الآن عزموا على أن يفروا فراره ويخرجوا كمخرجه ، يسيحون في الأرض إلى ملاذ يمنعهم من ضلالة مخالفيهم أن تضلهم وتفتنهم ويدعهم خفافا يفرغون إلى لقاء الضلال المناوئين لعلهم أن يحملوهم قهرا على الجادة ويلزموهم أمر الله فإن نجح سلاحهم فذاك قربة إلى ربهم ، وإن تقطعت بهم أعمارهم دون غايتهم المنشودة في الله إذن هجرتهم ، وفيه مصارعهم ، وعنده المآب والثواب . . .

وتمضي الليالي تباعا ودورهم تتلقاهم ، وأبوابها تغلق على سرهم ، ومذا كرتهم أمرهم تمدهم في كل ليلة بحطب جديد الفتنة . . .

وتمضي أيضا والناس من مخالفيهم في شاغل عنهم بذلك الوفد الذي بارح الكوفة ، وبذلك الآخر الذي بارح دمشق ...

ثم تمضي كذلك وعيون المسلمين من كل مصر ، ومن كل رأى ، تمتد إلى دومة الجندل . إلى أبي موسى وعمرو بن العاص . إلى الحكمين اللذين انتهى بهما المطاف إلى البلدة الصغيرة على الحدود بين العراق والشام . وتتعلق الأنظار بهما وبهذا القرآن بينهما الذي قد أبرم العهد على أن يستخبراه حكمه فيما شجر بين الفريقين من خلاف .

وتعلو صدور وتهبط . وتسكن قلوب وتضطرب . ولكن الأخيلة جميعا

فى دولة الإسلام عامة ، تدنو من شفاه هذين الحكمين تنصت فى توجس ولهفة إلى كل كلمة ، وكل حرف ، وكل همسة قد تكون أنفاسا خلت من الحروف والكلمات ، عسى أن تتبين فيها المصير اللازم الذى ينتظر الناس ...

أما هذه الحرورية فعلى بينة الآن مما يريدون فعله فقد أينع تدبيرهم ، وقرت عزائمهم ، اتفق الحكمان أو اختلفا ، اجتمع الناس أم افترقوا ، لأنه لا مناص من جهادهم فى الله ! . .

٥

كان الناس بدومة الجندل كألوان الطيف ! . . طوائف شتى ، وأفكارا شتى . فيهم العلوى . وفيهم الأموى وفيهم أيضا الحرورى بالعاطفة وإن لم يستمله الهوى كل الميل فيرفع السيف فى مذهبه كإخوانه الذين عانت منهم الكوفة . . . وفيهم بعد هذا فريق يؤثر التطلع ويراه متعة لنفسه ثم لا يبالى أن يقع الأمر فى يمين أولئك أو يمين هؤلاء من طائفتى الخلاف . . .

البلدة الصغيرة تحتويهم فإذا هى بهم مثل خلية تعج بالطنين . ودخائل نفوسهم تجيش بهم فإذا هم منها فى مثل لجة عاتية من القلق ، تهدر وتضطرب مدا وجزرا وليسوا يدرون أمنتهى مطافها بهم إلى بر آمن أم إلى مهوى القاع . . .

هنا ، فى هذه الناحية ، أصحاب معاوية من وفد الشام ، يتكتمون فى صدورهم لواعجهم ، ويرسمون على ملامحهم السكينة . لقاؤهم حذر . حديثهم بينهم إيماء . نقاشهم ، إن تحركت به شفاه ، مسارة . الأسماع المتربصة بهم قد تلتقط بعض همسهم بين آن وآن ولكنه لا يكون عندئذ إلا هينمة مبهمة لا تخلو عن خفقة نفس ولا تكاد تفصح عن حرف . فإذا اجتمعوا فعلى رضا ، وإذا انفضوا ففى سلام . . . .

كان معاوية يكتب إلى عمرو ، فيقبل رسوله بالكتاب ثم يؤوب فلا يدرى الناس فيم أقبل أو بم آب ، لأن وفد الشام ذا المئين الأربع من الشهود والفرسان

لا يسأل الرسول ولا يسأل الحكم ، أو هو يسأل فى خفية ثم لا يسمع الناس شيئا لا من سؤال ولا من جواب . . .

وهناك ، فى تلك الناحية ، أصحاب على من وفد العراق . لا حيطة ولا حذر . أمرهم لغيرهم مكشوف . لا تكاد صدورهم تستقبل سرا حتى تعيى به فتلفظه على الشفاه وملامح الوجوه . . . حديثهم جلبة . ونقاشهم صياح . وسرهم دائما غرض للتربص ، ولقية من لا يعنى نفسه بمطاردة الأسرار على السواء . إذا اجتمعوا اختلفوا ، وإذا افترقوا اختلفوا فهم دائما فى شقاق . . .

كان على يكتب إلى ابن عباس ، صاحب صلاتهم ، فلا يكاد الرسول يترجل عن مطيته حتى يلتف به وفد العراق يسأله نبأه ويلحف فى السؤال ما شاء . ولا يكاد يدبر حتى ينقلب الوفد إلى ابن عباس ليعلم منه الكتاب والجواب ، وإن جهرة وعلى ملأ الناس . ثم يدور بينهم جميعا الجدل ، وما يجره الجدل من هتك السر ومن إثارة الخلاف والشحناء . . .

وكم سألوا ابن عباس :

« ما كتب به إليك أمير المؤمنين ؟ . . »

فإذا استأناهم لحين خلوة غاضبوه وأكثروا عليه بالإلحاح . وإذا كتمهم ظنوا به الظنون وتركوا حدسهم يستنبط لهم ألف جواب ! . .

وإذا أعيوه إلحافا فصارحهم ، قدموا الشك فيه ولم يصدقوه :

« ما نراك إلا كذبتنا ! . . »

وهو بينهم دائما حائر . يضيق بهم ، وتبهظه حماقتهم حتى لقد طالما كان يثور ويعنف لهم فى المقال وإن أيقن أنه لا طائل من العنف ولا طائل من الحلم والهوادة . . .

وكثيرا ما كان يكتمهم :

« ويحكم ! . . أما تعقلون ؟ . . أما ترون رسول معاوية يجىء لا يعلم أحد ما جاء به ، ويرجع لا يعلم أحد ما يرجع به ، ولا يسمع لهم صوت ولا صياح وأنتم عندى كل يوم تظنون الظنون ؟ . . . »

كان هذا دأبهم ودأبه منذ احتوتهم دومة الجندل مثنى أربعا جاءوا ثلة حتى خلفوها بعد التحكيم فرادى مفرقين .. لاحيطة . ولاحرز لسر . ولاتجرد إيهام لهذه الزمر الحاشدة حيالهم من خصوم وأولياء يضعهم فى أخــلادها حين علانيتهم أو نجواهم على هيئة وفاق . والناس من ورائهم يشهدون من خلافهم ، ويسمعون من لغطهم ما ينبئهم عن خطر فشل مقدور . . .

على أن أجدر فرقة مما ضمت البلدة الصغيرة إذ ذاك باستثارة الفضول كانت التى وسمها ماضيها البعيد والدانى بالانحراف كل الانحراف عن الإمام — تلك التى تخلفت عنه تخلفا كالحيدة فلا إليه ولا إلى غريمه ابن أبى سفيان ، أو تناءت تنائيا بلغ بها كراهة النصر له إن لم يوغل فى هذه الكراهة إلى أغوارها حتى يصل إلى ألد العداء . فمنها من قعد عن بيعته وعن نصرته كليهما وهو يبدو كمن آثر السلامة فى القعود . ومنها من ثبط نفسه عن المشاركة فيا وقع بينه وبين معاوية وهو مع هذا إلى معاوية أميل . ومنها من كان حربا عليه مجلبة ثم كفه عنه العجز فإذا هو يخلد إلى نجوة ، أو إلى عزلة سياسية يستأنى بها الزمن عسى أن يطلع له سانحة يستطيع فيها أن يعاود لدده ويشبها على الإمام من جديد خصومة مدمرة . . .

من هؤلاء شهدت دومة الجندل كثيرين — أفرادا وشيعا يخالطون فيها الجموع الشاهدة والوفود الرسمية ويعدون بينها أسماعهم وأعينهم هنا وهناك تتصيد اللمحة والهمسة وتجمع النذر لتستخبرها نتائج التحكيم . . .

فنيم مقدمهم ؟ . . فيم خروجهم الآن من معازلهم التى سكنوا إليها كل هذه الشهور ؟ . . أبغية رقبة ؟ . . أعن تشوف وفضول ؟ . .

عجب الناس لهم وأكثروا فى أمرهم بالمساءلة والاستفسار . فإن منهم عبد الله ابن الزبير . وإن منهم المغيرة بن شعبة . وإن منهم عبد الله بن عمر . وإن منهم أيضا سعد بن أبى وقاص تجرى الألسنة بأنه أقبل ، وتجرى أخرى بأنه على عزلته ، وتجرى ثالثة بأنه بين هذه وتلك قد آثر أن يشهد الأمر عن كثب وهو بنجوة لأنه كره أن يخالط الناس وأن تكون له فى ندوتهم المعقودة صورة حاضرة أو خيال منظور . . .

ومع ذلك فالناس لا يملكون عجبهم ، ولا يملكون أيضا ألسنتهم أن تخوض فى سيرة أولئكم الأفراد وأمثالهم ممن تعيدهم غوابرهم إلى الذاكرات وهم مع على على مشاقة أو علاقة لا يفهم قط أن من معانيها الولاء . . . كلا ، ليس الفضول وحده هو الذى ساقهم ، ليست بغية الرقبة ، ليس ولعهم باستباق زمنهم والطفرة من حاضرهم وحاضر الناس على أجنحة الاستقراء إلى تلك اللحظة المرتقبة من مستقبل قريب مجهول ، التى ستطلع عليا لهم على ما يشتهون ، أو على غير ما يشتهون . . .

وحق العجب ثم حقت بعده الريب والظنون ! . . أم لا فيم إذن قد أقبل للمغيرة بن شعبة الذى له ، منذ ولاية على ، رأى فى معاوية كان خليقا بأن يضعه حيث هو الآن من الشام ، غير مدافع ولا منكور عليه حقه فيها ، وإن كرهت طبيعة الثورة التى ما قامت إلا لإقصائه وأمثاله من ولاة عثمان ؟ . فيم أيضا مجيئه الآن ، وإنه ليمضى فى هذا المجمع يشم الريح ، ثم يكر إلى معاوية بلسان بشير؟.. ثم فيم ، بعد هذا ، بشراه ؟ . .

وفيم كذلك مقدم ابن الزبير ؟ . . ذلك الأطلس كالذئب الذى أغمد سيفه بعد الجمل وهو مقهور ، واعتزل الأمر وهو كاره ، أيجيء لخبر ؟ .. أجاء ليشهد كما يشهد الناس ، ويسمع مايسمع الناس؟.. أتكفيه من هذه الغمرة النظرة ؟ .. لتوشك الشماتة أن تسبق إلى أخلاد الجموع كل نظراته البريئة الخاتلة ، فالشماتة — فيما يحدسون — كان إقباله اليوم على مجمعهم ، يشفى بها نفسه التى أصابها على بالقرح ، إن أطلعت اللحظة المرتقبة عليا هذا وهو مقهور ! . . لكأنهم به يشهد ليشمت . . أو لكأنهم به يسهم فى الأمر ما وسعته حيلة أو وسيلة لتأتى نتيجة التحكيم بما يفسح له فى شفاء ضغنه على الإمام . . . أو لكأنهم به قد استخفته منزلته إذ هو ابن الزبير ، وابن أخت عائشة ، وسبط أبى بكر ، والساعى إلى الإمرة ذات يوم بأبيه ، وصاحب السابقة فى الدين ، فجاء يعرض الآن نفسه فى سوق الاستخلاف ، إذا اضطرب الناس ينشدون رجلا يجمع الشمل ويحسم الخلاف ! . .

وفى الواقع لم تخل أذهان الجموع فى دومة الجندل من أمثال هذه الخواطر التى تطلع تلك الطائفة من المتزلة طامعين فى الخلافة ، لا يشهدون مجمع التحكيم إلا راجين أن يختارهم الناس . فما تغيب عن أحد سابقتهم إلى الإسلام ، ولا استطالتهم بقريش ، ولا — قبل هذا كله — بعد كثرتهم عن الانغماس فى الفتنة التى أسالت الدم ، ونشرت الفرقة ، ونالت من عزم الدولة ، حتى أوشكت أن تسوقها إلى مضيعة . وإذا كان ابن الزبير قد انغمس فى الخصومة التى مزقت الأمة ، فلهم عنه عوض فيمن هو خير منه ، وأنقى يدا وأخلص نية : عبد الله ابن عمر ، أو سعد ابن أبى وقاص . . .

وهكذا يكثر الناس فى الرجلين ، يستنبطون الدوافع ، ويتخيلون النتائج ، ولا يكفون عن ظن الظنون وحدس الأحداس . فما هو أن يظهر ابن عمر بالبلدة الصغيرة ، حتى تتعلق به الخواطر وتشرئب إليه الأنظار . وماهو أن يذكر ابن أبى وقاص ، حتى تستبق الأخيلة ترود مكانه ، هنا أو هناك ، بدومة أو بخارجها ، وتنسج حوله الروايات . . .

وهكذا تنطلق الأمانى بالجموع ، ظنا وتقديرا وخيالا يشطح فيدانى الحقائق مرة ، ثم يجانبها مرات ، وهم مع هذا آنسين إلى أنفسهم ، راضين عما تزخرف لهم حتى ينهض القدر إلى شوطه ، فإذا هو يسبق كل ظنونهم بما تتقطع دون بلوغه الأنفاس ؟ . .

٦

لم يكن سعد بن أبى وقاص ، فى الأغلب ، قد دخل دومة الجندل ، وإن دخلها دونه ذكره ، ولا شهد شيئا من مجمعها التاريخى الخطير ، وإن شهده اسمه الرنان . . . ولعله كره شهود ما تمخضت عنه تلك الفتنة التى توقاها جهده . أو لعله ربأ بنفسه أن يكون من هذا الاجتماع بمكان المقتحم الذى يثير الشبهة ، ثم لا يسلم من الملامة ، فما ينسى موقفا وقفه بماضيه ، وعاب فيه على الخلاء

للمتخمين شهودهم ما لم يدعوا له غب مصرع عمر واجتماع أهل الشورى لاختيار خلفه . . .

كان ذلك والأمة من مقتل ابن الخطاب فى جزع ، ومن اختلافها بعده على نفسها فى خشية إن هى لم تجتمع على أحد الستة الذين رشحهم الخليفة الصريع لولاية الناس . وكان الستة فى دار المسور بن مخرمة ، يديرون بينهم حديثهم بعيدا عن العيون والأسماع ، ثم لا يكادون يدرون إلى أيهم يدلون بالبيعة . . . وعندئذ أقبل عمرو بن العاص ، ثم أقبل من بعده المغيرة بن شعبة ، وقد استخفهما الفضول وغرتهما مكانتهما ، فانساقا إلى باب الدر ينصتان ، أو يحاولان الإنصات. فإذا سعد يبادرهما ، فيأخذ عليهما مسلك المقتحم الدخيل ، وإذا هو ينهرهما نهرا شديدا ، ثم يحصبهما بالحصباء ، ويطردهما وهو يقول :

« جئتما لتقولا حضرنا الشورى ! . . »

وحرمهما الفخر الذى سعيا إليه ! . .

أجل ، لعله ذكر هذا الموقف فأبى لنفسه أن تلقى ما لقيه منه إذ ذاك المغيرة وابن العاص ، وبقى مؤثرا نأيه — عن دومة وعن مجمعها — حيث اختار وأقام . . . على أى حال كان الرجل معتزلا ، مخلصا — فيما بدا — لعزلته ، مؤمنا كل الإيمان بأنها أسلم له فى دينه ، وإن لم تكن أجدى عليه فى دنياه ، فهو منذ تخلفه فى بلدة الرسول عن بيعة على لم يسهم فى شىء من الأمور العامة ، بل قد انسلخ عن مجتمعه الذى عاش فيه خير أيامه ، وأبرد جذوة نشاطه الذى أسلكه فى الأعلام ، وأخلد إلى خلوة كادت تضمه وراء العيون والأسماع . . . وإنه الآن ليؤثر على بوارق الحرب والسياسة ، وأمجاد البطولة ، ورنة الذكر والصيت ، حياة هى الخمول يقضيها فى البادية بين غنمه ، راعيا كالرعاة . . .

لكن ابنه عمر لا يرضيه هذا الخمول من أبيه . فالفتى طموح . شغوف بتسنم غوارب الشهرة وإن لم تكن هذه الشهرة من غرس يديه وكانت ظلا لأب يستطيع ، لو شاء ، أن يتبدى لقومه فى هيئة عملاق ! . . والفتى منهوم بالعلياء ، أو هو فى الحقيقة مولع بذيوع الاسم واستطارة الذكر وليس يضيره أن يأتيه هذا الذيوع وهذه

الاستطارة بأية وسيلة ومن أى طريق . ولسوف نراه من بعد يتلمس إلى مبتغاه كل سبيل حتى ليوطع إليه حين تحق عليه شقوته ، غير متأثم ولا ثقيل الضمير . وهو يسبح فى بركة من دماء الحسين الشهيد ! . .

لا يرضى عمر بن سعد بهذا التحول من أبيه فيسرع إليه ، بمعتزله الذى اختاره بالبادية عند ماء لبنى سليم ترعى حوله غنيماته . . . ويشهده الرجل ولا يتبينه وهو قادم عليه من بعيد . ويرمى بنظرة مستريبة إلى هذا الراكب المجد الذى يقطع الطريق صوبه فوق مطية لا تكاد قوائمها — لفرط سرعتها — أن تستقر على الرمل . . . فإذا هو يتوجس . وإذا هو يستعيذ :

« أعوذ بالله من شر هذا الراكب ! . »

وتمضى من الوقت لحظات ثقيلة . وتأخذ المطية فى الدنو . وتتضح قسمات راكبها فيسرع الشيخ إلى ولده فى لهفة يستخبره أمره الذى أركبه البيد :

« مهيم — (ما شأنك) ؟ »

ويبادره الفتى ، من بين لهثاته وما تزال قدمه فى الركاب :

« أبت ! . . . التقى الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك ، حتى تفانوا . ثم حكموا الحكمين : عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص . وقد حضر ناس من قريش عندهما . . . . . . »

ويتريث مليا ليلتقط أنفاسه والشيخ صامت يصغى وينتظر . . .

فهل هذا الخبر جديد ؟ . . إن الناس ليتقولون فى هذه الساعة على سعد أنه خرج إلى هذا الجانب من الصحراء ليتشوف لنفسه الأنباء التى تشغل الجميع . . .

ويعود الفتى الى حديثه ، يضغط على الكلمات والحروف لتؤدى عنه بعض ما يرمى إليه :

« . . . فاشهدهم ! . . إنك صاحب رسول الله ، وأحد أصحاب الشورى ، ولم تدخل فى شىء كرهته هذه الأمة . . . »

لكن أباه يبتسم فى هدوء من لم تثر فيه الكلمات المغرية أية حماسة ، وإنما يقول بإيجاز حازم :

« لا أفعل ! . . »

« احضر دومة الجندل ، فإنك صاحبها غداً ! . . »

فلا يزيد جواب الشيخ عن هزة من رأسه تفصح عن تأبيه .

ويشتعل عمر . ويمضى يحثه ويثيره لعل جذوة المجد الخبيئة فى صدر الشيخ ينتفض عنها رماد الخمول فتعود للتوهج :

« يا أبت احضر ! . . فإنك أحق الناس بالخلافة . . »

غير أن الوالد لا يهتز بهذا التحريض ، ولا بهذه المخايلة المغرية بالسلطان الباذخ الذى يكاد يجثو له عند قدميه ، بل يقول فى تؤدة ورفق كمن يلقن الفتى درساً لا يعيه :

« مهلا يا عمر ! . . إنى سمعت رسول الله يقول : يكون من بعدى فتنة خير الناس فيها الخفى التقى . يا بنى . . إنى لو كنت غامسا يدى فى هذا الأمر لغمستها مع على . . »

ويدهش الفتى وتتسع حدقتاه ولكنها على أى حال الدهشة التى قد تفسح للرجاء . فلعل أباه مسهم فى الأمر فى جانب منه إلى ناحية على فخارج بهذا من عزلته ، معاود نشاطه الذى لا ريب حقيق بأن يفتح أمامه الأبواب ! . . الآن قد طمع عمر فى تحريك الشيخ ! . .

ويقول سعد وقد رأى سكون ولده ، ويشهد فى الأفق خطوطا داكنة ترسم الظلمة :

« أقم عند أبيك ليلتك هذه . . . »

ولكنها ليلة بلا مضجع ! . . فالرجل يقظان ، والابن يقظان قد تحركت عليهما أشجانهما فخالف الأرق منهما الجفون . . . كلاهما أرقه همه . الصحابى الجليل القانع يجتر خطته التى رآها جنبته إلى ليلته هذه فتنة مضلة ، والشاب الطامح يشغله همه الذى أطلع له آماله دانية ان تلبث حتى تتوثب نحوه عرائسها بكلمة يلفظها فم أبيه . . . وحيالهما هنا الليل ينساب ثقيلا بطيئا له فى النفس وحشة كأنه الرقطاء تزحف على الرمل . . .

وفى غمرة الهدوء ، ومن بطن الظلمة التى لفت المكان ، ينبعث صوت هامس حزين :

« هربت بدينى والحوادث جمة وفى الأرض أمن واسع ومعول
فقلت معاذ الله من شر فتنة لها آخر لا يستقال وأول ... »

فينتفض الفتى . ويمد عينا فى السواد حوله ، وأذنا متلصصة تسترق الهمسات . . .

ويهمس الصوت ثانية ، بنفس النبرة الحزينة :

« ولكننى زاولت نفسا شحيحة على دينها تأبى على وتبخل .
فياعمر ارجع ... ... »

وعندئذ يثب عمر ! . إنه إذن أبوه قد كشف عن نفسه وهى أشد ما تكون إصرارا على ما كانت عليه أمس ، لم يحركها تحريضه ، ولا إغراؤه ، ولا هذه المخايلة بالسلطان الدانى الذى يوشك أن يقدم اليوم عليه ليجثو آنسا عند قدميه ! . .

إنه إذن وهم وسراب ما رجاه من الشيخ . . .

ولايتلبث الابن حتى يطلع النهارفما له الآن مقام بأرض تموت فيها أطماعه ! . .
إنما ينفض عن نفسه تعبها ، وعن أعضائه تفترها ، ويسرع يعد راحلته . . .

غير أنه لا يمضى حتى يقذف أباه ببعض حنقه عليه كلاما جافا لا لين فيه ، كله إنكار وسخرية :

« يا أبه ! . . أرضيت أن تكون أعرابيا فى غنمك والناس يتنازعون الملك فى المدينة ؟ . . »

وإذ ذاك يدع الرجل ما كان من حلمه وترفقه به ، ويدفع بيده فى صدره ينتهره :

« اسكت ! . . والله لا أشهد هذا الأمر أبدا . . . »

ولا يعقب الفتى بشىء ، بل يذهب فيمتطى راحلته ويلوى بعنانها صوب الشمال ، وإن بنفسه لما يشبه النقمة ، وإن بحلقه لغصة ، وإن كيانه كله ليهتز

من غضب ومن عجب لهذا الشيخ الذى آثر رعى الأغنام على سياسة أمور دولة سرحت تخومها بين قرنى الشمس ، وعلا عرشها على سماء العروش . . . وفى سكون . ورأسه ناكس على صدره ، يضرب فى عرض الصحراء . . .

وحيال غبشة السحر ، يقف الأب كأنه قطعة تخلفت من ظلام الليل الذاهب ، يشيع ولده بنظرات فيها أسى وفيها رثاء ، لا تزال تمضى وراء الدابة خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، حتى تذوب بفتاه فى الظلمة . . . فإذا غابت عنه إلا آثارا حفظتها الرمال الندية ، تلونت النظرات المشفقة الأسيانة بالرضاء ، ومسحت على ملامحه الغضى بأطياف من الطمأنينة . فلقد ذهبت الدابة ، ومضى الراكب ، وانطوى معه شره ، وبقى الراعى الشيخ السلام المروح ، والسلامة للدين . . .

* * *

طموح عمر بن سعد الآن فى مغربه . . . ولكنه لايزال يلح عليه ، ويتشبث به تشبث المحتضر بدنياه ، ويتعجله ابتغاء المجد لنفسه من أهون سبيل . الفتى لا يريد أن يقنع بهذه الفكرة التى تسيطر على أبيه لا يريد أن يستسلم لها . لا يسعه قط أن يدع الشيخ وما اختار من منزل بالبادية على حافة ماء بين غنيمات لا ينال منها ، هو الابن الظامئ للشهرة ، سوى الخمول . . .

ودومة تكتظ . . . الناس تقبل عليها من كل ناحية . الأحاديث تجرى فيها ، همسا تارة وعلانية أخرى ، بأنه لا مخرج للأمة مما قد وقعت فيه إلا بالعدول عن على وعن معاوية كليهما إلى امرئ فى الرجال لم يلوثه هذا التنازع على السلطان ، ولم تختضب يده بدم الفتنة ، ولم ينطق له لسان بحرف فى مساجلات هذا الخلاف .

فمن فى الأمة كأبيه ؟ . .

من الذى يلوذ به القوم ، من هذه الطائفة ومن تلك ، ومن بقية أهل الإسلام فى كل بلاده حين تدلهم الخطوب ، وتعم الكروب ، ويتلفتون يتلمسون الملاذ ؟ .

إنه هذا الذى يقبع فى هيئة الرعيان ، بين غنيماته ، على حافة ماء ! . .

لا سواه ! . . فهو بقية أهل الشورى من أصحاب رسول الله ، ذهب أربعة إلى ربهم يبتغون رضوانه ، وبقى خامس انغمس فى الدماء إن تكن البيعة له فنصف

شعبه عليه ، ونصفه الآخر من الذين معه قد هان حقه عليهم حتى أنزلوه الآن بمنزلة سلعة تعرض فى السوق ! . . .

ومع ذلك فهذا الأب العنيد يأبى . ولا تزال الفكرة القديمة ، التى راودت ذهنه بالمدينة من عامين ، باقية غضة على جدتها فى نفسه ، وعلى قوتها أيضا ، تسيطر عليه ، وتستأثره وهو أخو بادية ، راعى غنم ، فى بنى سليم ! . .

كلا ، لن يستسلم الفتى . . لا يدع هذه الخلافة التى تومئ لأبيه وتقول : « هيت ! » تلوى جيدها عنه يائسة إلى حيثما يتلقفها ذراعا أى عابر سبيل ! . .

وإذا كان هو قد فاته التوفيق ، وفشل فى إغرائه أو إقناعه ، فلعل غيره يكون أحظى لدى الشيخ ، وأسعد جدا ، فيسعه أن يلين من صلابته ، وينفض الغبار عن جذوة همته ، ويرده إلى القبول . . .

ويسرع عمر إلى أخيه . .

وينطلق عاصم بوسوسة عمر مثل انطلاقه هذا من قبله فيركب الصحراء إلى الراعى الشيخ العنيد . . .

ويتلقى الأب فتاه الثانى بترحاب . . .

فإذا قر القادم ، وهدأت أنفاسه ، وجرى الحديث بينه وبين أبيه رخيا فى غير تلهف . لينا فى غير اقتحام ، عاج الابن بكياسة الأريب إلى ما جاء فيه . . .

يرسل عاصم عينا ترود المكان الفسيح الذى يحتويهما ولا يحده إلا التيه . . لكأنه ينبو بهذا العشب الأخضر الذى يقتحم أطراف الماء ! . لكأنه يضيق بالقطعان والثغاء والرغاء ! . . لكأنه يستوحش لهذا المحل الذى تقطنه خيام تناثرت على الأديم الأصفر من رمل شاحب شحوب العدم ! . أما غير هذا الفراغ والشحوب والوحشة ؟ . .

ويرد عينه من شرودها إلى أبيه ليقول ، وهو يبدو كمن لا يبالى ولم يستلهم عزمه ولا أعمل الفكر ليقول :

« يا أبت ! . . الناس يقاتلون على الدنيا وأنت ها هنا ؟ . . »

ويدفع بصره ثانية ليسبح فى التيه . . .

ويسكت الأب . . .

ويسكت الولد أيضا . إنه ليحمل نفسه حملا على السكوت حتى لا يشى بما في نفسه . ولكنه بين اللحظات يدير النظرة الخالسة في ملامح أبيه لعلها أن تقع فيها على ما ينبئه عن أثر ما قال . . .

غير أن الشيخ لا يفوته القلق الذى يستره صمت ولده . ولا حيرة النظرة الخالسة . إنما يفطن ويتريث فما يغيب عنه خيء مثل هذا الحديث . . .

ثم يضحك أيضا . . . لكنه الآن أرق جانبا وألين عريكة منه حينما حدث عمر . فليس يضيق من عامر الكيس الرقيق بجلافة رعناء كجلافة أخيه . وليس ينتظر منه مثل إلحاح ذاك وانهتاك سره . وهل هو — فيما يظن — إلا رسول ؟ . .

ويرمق بعد هنيهة ابنه عاتبا ، ويقول له في رفق وهوادة :

« يا بني . . . أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسا ؟ . . »

ثم يهز رأسه مرات هزة المتأبي المنكر ، ويتابع كلامه بنبرات حازمة تبين عن إصراره :

« . . . لا والله حتى أعطى سيفا إن ضربت به مؤمنا نبا عنه ، وإن ضربت به كافرا قتلته ! . . »

عندئذ يغضى الفتى على حياء . . ثم يمضى يتفكر . . . ثم يدير في باله هذه الفكرة التي انبثقت فيه فجأة كما ينبثق نبع الماء من صخرة صماء . . . أيكون أبوه في هذه اللحظة قد استنارت بصيرته فرأى على النور اللهم أن الفتنة التي أخذ نفسه بتوقيها أمسه ، هي اليوم باقية ، وهي غدا باقية ، وهي أيضا باقية بعد هذا التحكيم الذى قد ظنه الناس قاضيا عليها ورادا الأمة إلى الألفة ؟ . . أثمة حقا سيوف ستضرب ، وقتال سينشب ، ومؤمن سينزو على مؤمن فيسفك دمه بعد كل ما قد سلف من ضحايا ودم في تلك الأيام السود ؟ . . ألهذا يحجم الشيخ ويحبس نفسه مؤثرا المكث بالبادية وعيشة الرعيان ؟ . .

ويتم سعد ما بدأه :

« يا بنى . . . إنى سمعت رسول الله يقول : إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى . . . »

ثم يرتد به ذهنه إلى حقبة من ماضيه ، وإلى صحبة رضية كان فيها أمن نفسه فى ظل صاحب عظيم كريم ، وإلى كلمة سمعها حينذاك من شفتى محمد رطبت صدره ، وأطفأت فيه نار الأطماع التى توقدها دنياه :

« قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافا ، وقنعه الله بما آتاه . . . »

وصدق رسول الله . . .

وكان هذا حسبه من حياته . فقد اتقى الفتنة ، وفر بدينه إلى الصحراء ، وغنى بهذا الكفاف من عيشة البادية الذى قنعه به الله . . .

وكان هذا حسب فتاه . . . فلن يعدل الشيخ شيئا بعزلته فى هذه المفازة الجرداء وإن كان ملكا باذخا يبدأ مع المشرق ويكتمل بالغروب . . .

وكان هذا أيضا حسب تلكم الجموع الحاشدة بدومة الجندل ، الصاخبة على لغط ، النائمة على أحداس . . . فقد ختم سعد بحديثه مع ابنيه صحائف فصولها المطولة ، وما لعلها كانت علقته عليه من آمال أو احتمالات . . .

* * *

ويرجع عامر . .

يرجع وهو ، فيما نحسب ، مقر أباه على موقفه ، راض له بعزلته التى جنبته الفتنة أمس ، وهى كفيلة بتجنيبه مثيلات لها يوشك الغيب أن يكشف عنها أستاره ، ليداهم بها الناس فى القريب . . .

وتتهاوى مطامع عمر . . .

تتهاوى ، فيطوى سجله على الشهرة السهلة الدانية . ويغلق نفسه على آماله ، ثم يحملها على الانتظار ليوم قابل قد يوسع له فى المجاز إلى بغيته وإن على حساب مكارم الخلق ، وإن بلغها سابحا على بركة من دماء الشهداء ! . .

ويلوى الناس نظراتهم إلى جديد . . .

يلوونها عن راع شيخ بالبادية ، على حافة ماء لبنى سليم ، ويعضون بها تعس وتطوف فى هذه الزمر من ذوى الأسماء الرنانة ، ومن أصحاب الأصول والأنساب ، ومن رجال السابقة فى الدين . .

فأين هنا بغيتهم ؟ . .

لتوشك العيون أن تطوف وتدور ، ثم تدور وتطوف ، ثم يعييها الطواف والدوران فلا ترى حيالها — بعد سعد بن أبى وقاص — غير واحد فى القوم تتهافت عليه العيون والظنون . . .

ذاك عبد الله بن عمر بن الخطاب .

أجل ، لا سواه ! . . .

إنه امرؤ له صحبة . وله سابقة وله ورع . وهو من القلائل الأولى لم يدخلوا فى هذه الفتنة التى كرهتها الأمة الآن . وكان له إلى جوار هذا ذكر فى الشورى إن لم يلحقه بأهلها فقد وفر له من فخرها مالم يتوفر لغيره من أجلة الصحابة الأحياء ...

وهو ابن عمر أيضا ! . . وحين يذكر عمر فاسمه إذن هالة من النور تخطف الأبصار . . .

على أى حال ، اجتمعت فى الرجل كل المزايا التى اصطلحت أفكار الناس حينذاك على وجوب اجتماعها فى الأمير الجديد ، فلا عجب أن تلفظ به الألسن ، ولا عجب أن تنسى به راعى بنى سليم ! . .

٨

ما شاعت قط حينذاك شائعة بدومة الجندل ، وربما ببلاد الدولة الإسلامية عامة على انفساح رقعتها وتعدد ناسها وأجناسها ، كتلك التى كانت ترى الخير فى الخلاص من هذا الخلاف الذى عانته الأمة ، وطعمت المر من ثمره ، بالخلاص ممن أثاروه وأذاقوا وطنهم علقمه ... ما من فكرة شغلت الخواطر ورددتها الألسنة تلك الأيام انتشرت فى الجرع بدومة كهذه . فخلع على وإقصاء ابن أبى سفيان

حسم النزاع . وحسم النزاع عود إلى السكينة . وفى ظلال السكينة تستطيع العواطف أن تهدأ ، وتستطيع العقول أن تفكر ، ويسع الناس بعد هذا وقد تحللوا من عهودهم لهذا الرجل ولذاك ، وارتد أمرهم إليهم ، أن يعيدوها عندئذ شورى جديدة ، يختارون بها لأنفسهم الأمير الذى يرتضونه وتسكن باختياره ثائرة الخصومة ونوازع الشقاق . . .

كانت هذه هى الوساوس التى تخامر القوم وما يزال الحكمان لم يلتقيا ، وما تزال الحكومة المرتقبة تتعثر بينهما لم يوردا فيها ولم يصدرا عنها برأى ولا بيان. وكان حقا لهذه الوساوس وأمثالها أن تجد الطريق إلى الأنفس ممهدا معبدا لا عوائق فيه . فالعامة والخاصة من الفريقين المختصمين ، ومن الطوائف الشاهدة جميعا ، كانوا قليلى الإيمان بالتحكيم ، قليلى الرجاء فى جدواه . .

بل قد كان هذا أيضا شأن على . وشأن معاوية سواء بسواء . كلا الرجلين كان ينتظر على قلق ، وكان يتصبر ولا يصبر وعندما نعرض لحال ابن أبى سفيان — فأمر على هنا معروف — نجده قلقا وتوجسا وحيرة . إنه لا يكاد يأمن حتى لهذا الحكم الذى بعثه وهو يرجو الخير على يديه . لا يكاد يثق فى إخلاص عمرو له ولغايته التى مضى فيها لمجمع التحكيم . وإذا كان قد أولى ابن العاص كل ثقته عند مخرجه إلى دومة فإن الأنباء لم تن تأتيه وافدة بما يهز هذه الثقة هزا عنيفا ويوشك أن يقتلعها من جذورها التى حسبها ثابتة . . . ينصح عمرا ليتحرز عند التقائه بخصمه أبى موسى حتى لا ينضله الأشعرى فى الحكومة ، فيطمئنه عمرو ويقول :

« . . . أقل الاهتمام بما قبلى ، وارج الله تعالى فيما وجهتنى له . . . . إنك من أمرك على مثل حد السيف ، لم تنل من حربك ما رجوت ، ولم تأمن ما خفت . ونحن نرجو أن يصنع الله لك خيرا . . . »

ويطمئن عاهل الشام لحكمه كل الاطمئنان ، حتى لقد يدع له الحرية كلها فى أن يقول ما يشاء ويفعل ما يرى دون إرشاد منه ولا توجيه يتجلى هذا حين يسأله عمرو رأيه :

« أرأيت إن ذكر أبو موسى عليا ، وجاءنا بالإسلام والهجرة واجتماع الناس عليه ، ما أقول ؟ . . »

فيكون الجواب الذى يبادره به معاوية وهو واثق فيه ، آمن له :

« قل ما تريد وترى . . . »

لكن هذه الثقة لا تلبث — كما قلنا — أن تهتز فتوشك أن تتقوض وتنهار وتنبت فى مكانها الشكوك والظنون . . . فلقد ذهب المغيرة يتشوف له الأخبار بدومة ، ويلق هذا الحكم ويلق ذاك ليعرف ما أبطناه ، ثم يعود فيقول لمعاوية عن ابن العاص :

« . . . وأما عمرو فهو صاحبك الذى تعرف . وقد ظن الناس أنه يرومها لنفسه ، وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه ! . . »

ويختبل الأمر على الداهل وينوشه القلق ثم تفترسه الوساوس فى شأن هذا الصاحب الذى يتحدث الناس بأنه عامل لنفسه ، موجه الأمر فى التحكيم بحيث تنتهى إليه هو دونه هذه الإمرة التى كافح لها كل هذا الكفاح المرير ... تختبل أمره عليه . وتنتكث ثقته ، ولا تعلى له الأحاديث التى تروح وتغدو فى لحظة واحدة من الطمأنينة وراحة البال . بل إن هذه الأحاديث لتغلو كل الغلو فى تصوير « أزمة الثقة » بين الصاحبين حتى لتسويها قصة ، هى أدنى إلى التلفيق والاختلاق منها إلى مسايرة الحقيقة والمنطق ، تبين عمق الهوة بينهما إلى ما بعد انقضاء التحكيم وحين لم تعد حاجة لحكم كعمرو يتعلق به مصير ابن أبى سفيان فيخشاه . . ولكنه غلو إن يكن ينحو إلى الخيال فإنه ، على أى حال ، دلالة تؤيد هذه « الأزمة » التى أسلفناها ولا تنفيها بحال ، لأنه لا دخان بلا نار ! .

تقول القصة . . .

ويكون آخر اجتماع . . ويمضى أبو موسى يعرض أسماء من يرى فيهم خيرا ، ومن يرى من بينهم من هو أحق بإمرة الناس . . ويمضى عمرو يرفض ، ثم يذكر اسم معاوية . فإذا أباه الأشعرى بادره عمرو :

« فآتيك بآخر ليس هو بدونه . . »

« من هو ؟ . . »

« أبو عبد الله عمرو بن العاص ! . »

ويعلم أبو موسى أن خصمه يلعب به ولا يريد الفراغ — لأمر فى نفسه — مما قد بعث فيه فيغضب . وينفض يده من حكومة لا جدوى فيها ، ويلحق بمكة .

ويرجع عمرو إلى الشام فينزل منزله دون أن يأتى معاوية أو يحدثه بشىء . ويقلق معاوية لاحتجاب رفيقه عنه فيبعث إليه يدعوه ، فإذا جوابه عندئذ له جواب لا يخطر ببال ! . .

يجيبه عمرو :

« إنما كنت أجيئك إذ كانت لى إليك حاجة ، فأما إذا كانت الحاجة إلينا فأنت أحق أن تأتينا ! . . »

إذ ذاك تتحقق وساوس معاوية ، لكن ما من سبيل له إلا إظهار الخضوع . . .

ويدبر الداهل فى نفسه أمرا يراه خليقا بأن يضع هذا المستعلى عليه حيثما يجب أن يكون وتكون أطماعه . . . ثم يدخل عليه منزله . . .

ولا يقوم عمرو ليستقبله ، ولا يدعوه أيضا لمجالسته على فراشه الذى اتكأ عليه فى خيلاء ، إنما يدعه يسعى نحوه ، ثم يقتعد الأرض عند قدميه ، ثم لا يكاد يلتفت إليه ! . .

ويتحدث الرجلان ساعة ، هذا يرفق كل الرفق ، ويظهر الخضوع كل الخضوع ، وهذا يعنف كل العنف ، ويظهر الصلف كل الصلف ، حتى إذا بلغا مقطع الجد من حديثهما ، أخرج عمرو كتابا فنشره ، وقال :

« هذا الكتاب الذى بينى وبين أبى موسى ، عليه خاتمى وخاتمه ، وقد أقر بأن عثمان قتل مظلوما ، وأخرج عليا من هذا الأمر ، وعرض على رجالا ، لم أرهم أهلا لها . . . »

ثم يتمهل برهة يعود بعدها إلى الكلام فى اعتداد يدانى الغرور :

« . . . وهذا الأمر إلى ، أستخلف من شئته ! . . قد أعطانى أهل الشام عهودهم ومواثيقهم على ذلك . . . »

ويبدي معاوية الاقتناع ، ويداوره مليا ، يداعبه حينا ويضاحكه آخر كأنما ليس في الأمر ما يسوءه ، فإذا طال الوقت ، ورآه قد أنس له ، وقال :

« يا أبا عبد الله ، هل من غداء ؟ . . »

فيلتفت عمرو إلى من حضره من رجاله وغلمانه — الذين جمعهم بمجلسه ليأمن على نفسه لجاءات « غريمه ! » — ثم يضحك ويجيب :

« أما والله شيء يشبع من ترى ، فلا ! . . »

عندئذ يدعو معاوية أحد مواليه الذين بالباب ويأمره :

« يا غلام ، هلم غداءك ! . . »

ويؤتى بالطعام من قصر الماهل . . . ويضيق المكان فليس يتسع لرجال الصاحبين ، فيقول معاوية :

« يا أبا عبد الله . . هلم مواليك وأهلك يأكل أصحابك . ثم يأكل أصحابي بعد . . . »

ثم تبدأ الوليمة كلما فرغ أحد رجال عمرو من طعامه قام فجلس صاحب لمعاوية ، حتى لم يعد أحد بالقاعة إلا منهم ، وحتى يتلفت ابن العاص فإذا هو حبيس بين هذا الجمع الذى لا يأمنه على نفسه وكل مواليه وأهله خارج الدار ! .

وبهت الرجل وعينه تنتقل من الباب المغلق إلى أولئك الذين أحاطوا به . وهتف وهو مقهور :

« فعلتها ! . . »

فابتسم معاوية وقال باستخفاف :

« أى والله ! . . وبيني وبينك أمران اختر أيهما شئت : البيعة لى ، أو أقتلك ! . . »

« فأذن لغلامى وردان حتى أشاوره . . . »

« لا تراه والله ! . . ولا يراك إلا قتيلا أو على ما قلت لك . . . »

ولم يكن إذن بد من التسليم ، فقال ابن العاص :

« فأولى مصر . . . »

« هى لك ما عشت » .

ودعا معاوية أصحابه والخواص من أهل الشام يشهدهم ، ولم يدع أحدا من رجال خديته :

وقال عمرو يقر على نفسه :

« قد رأيت أن أبايع معاوية ، فلم أر أحدا أقوى على هذا الأمر منه . »

وبايعه فبايعوا ولم ينصرف ءاهل الشام إلى داره ، ذلك اليوم ، إلا خليفة ! .

تلك هى القصة ! • .

إنها لا ريب حديث خرافة ، ووليدة صناعة واختلاق . ولكنها أيضا دلالة لا سبيل إلى إغفالها حين تعرض لهذا القلق الذى ركب الناس جميعا من هذه الحكومة ، ولهذا الشعور الذى جعلهم قليلى الإيمان بالتحكيم ، قليلى الرجاء فى جدواه . . .

وفى الحق ، لم تكن الجموع بدومة ، حين تلاغطت بفكرتها القائلة بخلع على وإقصاء خصمه ، بالمتجنية على شواهد الحال ، ولا بالتى تعتسف الحلول دون أن تستشفها من مقدمات ثابتة ملموسة . إنما كانت تستهدى حاستها الجماعية ، أو وعيها ، أو أيما اسم يوائم شعورها اللهم حينذاك من أمثال هذه الأسماء فتستجيب لسماه . فما ينسون أن عليا قد أكره على هذا التحكيم وإنه لصاحب الأمر الذى لا ينكر عليه حقه فيه بتحكيم أو بغير تحكيم ! .. وما ينسون أيضا أن معاوية إنما احتال بهذا التحكيم ، ليلم من شعث جيشه الذى تهاوى فى المعركة تهاويا دانى الهزيمة ، وليمد عدته خلال الهدنة لتهيئة جيش جديد ، أفيستسلم إذن أى الرجلين ، وأحدهما معه حقه ، وثانيهما معه أطماعه وجنده المعد المنظم ، لكلمة يلفظها الحكمان ! .

كلا ، ولا جدال ! . .

لهذا آمن الناس بأن هذه الوسيلة للإصلاح قليلة الغناء ، مقضى عليها بالفشل من قبل أن تكون فعلى حساب أحد الخصمين ستأتى نتيجة الحكومة وما هو إذن براض عنها وإن نطقت بها عصبة من الحكام ؟ . .

وندع مشاعر الناس . وندع حديث الظنون والوساوس التى تغرق فى الخيال وتشطح وراء الأمانى أو الأوهام على عادتها فى الأزمات والخطوب . . . ندعها جميعا فإذا بنا من الوقائع الثابتة فى مثل ما تقودنا إليه الأقاصيص الملفقة ، والأحاسيس المحمومة ، واللغط الذى قد لا يراد به إلا إزجاء وقت الفراغ . . . ذلك أننا لا نعدم أن نقع فى الأسناد والحوادث على ما يبرر استهانة الناس بوسيلة الإصلاح التى تداعى إليها الفريقان المختصمان ، وما يقرهم على كفرهم بها ، وغضهم من قيمتها ، والتماسهم — فى الأمانى أو الأفكار — حلا آخر يبعد عليا ومعاوية عن الميدان . . .

ونضرب الأمثال من الأسناد والحوادث فنجتزئ بالقليل . . .

يوصى معاوية عمرو بن العاص حين يبعثه لقاء أبى موسى ، فيقول فيما قال :

« إن أهل العراق أكرهوا عليا على أبى موسى ، وأنا أهل الشام راضون بك . وأرجو فى دفع هذه الحرب قوة لأهل الشام ، وفرقة لأهل العراق ... »

فليس مبتغاه إذن إلا هدنة تمهل له ليزيد قوة يكون بها أقدر على بلوغ ما يتمناه . أما أن تجتمع الأمة برأى الحكمين وتعود لها وحدتها ، فذاك أمر لم يكن — فيما بدا من كلامه — يرجوه ! . .

وبسر بن أرطأة يقول لمعاوية عند عقد الهدنة :

« . . . والله إن الشام لك خير من العراق لعلى . وما فى يدك لك ، وما فى يد على لأصحابه دونه . فإن كنت إنما سألت المدة لإعداد العدد وانتظار المدد فنعم ! . »

فلم يخالف الرجل بقوله عن نية مولاه ! . .

بل ابن عباس أيضا قد قال مرة للحرورية :

« . . . قد أخذ على الحكمين ألا يجورا . وإن يجورا فعلى أولى من معاوية وغيره . . . »

فهو — ورأيه جماع رأى أهل العراق — لا يرى الأمر إلا لعلى ، عدل الحكمان أم جارا ! . . وما نرانا نخالفه فى شىء فحق الإمام فى الأمر معلوم ، لا ينكره إلا مسرف فى الحيف ، موغل فى الإبطال . ولكننا نسوق قوله لأنه يكمل

الصورة التي تطلع لنا الحزبين جميعاً وكل منهما لا يرضى بغير الفوز بمبتغاه ، حكم التحكيم له أو حكم عليه ! . .

وكذلك كان ! . .

وكذلك اهتزت ثقة الناس في الحكومة ورأوا نتيجتها قليلة الغناء من قبل أن تكون . . .

وكذلك ترددت شائعاتهم ، تطرق مرة باب سعد بن أبي وقاص ، وتطرق أخرى باب عبد الله بن عمر . ولو قد أملى لها الواحات تطرق كل باب تشيم وراءه رجلا من أولئكم « المعتزلة » من قريش ، أهل السابقة وذوي الأحساب ! . .

لكن الحكومة تسير سيرها ، بطيئة متعثرة . ثم تفاجئ الدنيا فتطلع عليها بأعجب نتيجة أسفر عنها تحكيم . فليست بيانا ، ولا رأيا ، ولا قضاء مستق من الدستور السماوي الذي أخذ العهد على الحكمين أن يقضيا بما فيه . . . إنما كان خلطا في موطن استقامة ، وعبثا في مقام جد ، و « لعبة » جديدة كألاعيب معاوية ورفيقه ابن العاص تفوق كل سابقاتها جنوحا إلى المحال ، وزيغا مع الهوى والضلال ! . . .

« تم بحمد الله الجزء الخامس »

ويليه الجزء السادس والأخير

الإمام

علي بن أبي طالب

الجزء السادس

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

١

ثقل على الناس الانتظار . . أينما راح منهم رائح أو غدا غاد ، بحاضرتى النزاع ، لمس قلقا ولهفة ، وسمع ضجرا فى همس ، وضجرا فى علن . . فى الكوفة كما فى دمشق ، وفى دومة أيضا . . والناس ، حيثما كانوا ، ما برحوا على قدم ، يعدون الأعين ، ويتلعون الأعناق تطلعا إلى الثمرة التى تهيأت لقطفها يد التحكيم .

ولم يبال الحكمان — فيما بدا — تلك اللهفة ، ولا حاولا أن يهدئا من ثائرة ذلك الفضول الذى غلب على نفوس الجمهور . بل لعلهما كانا أدنى إلى تقليب جمره وتأريث ناره بما انتهجا من استخفاء وتكتم كلما فاءا إلى المفاوضة واجتمعا بمستقرهما لبحث الأمر وتبادل الآراء .

كانا ، إذ ذاك ، ينحازان بعيدا عن الجموع . عن الخاصة والعامة . عن الأعين والألسن . . أياما عدة أمضيا بهذا الجانب من الأرض الجرداء فى دومة الجندل ، فى مسرى الريح ، بخيمة من وبر لم تكن تكف عنهما زمهرير الشتاء . صبحهما موصول بليله ، وليلهما موصول بفجره . فى النور حوار ، وفى الظلمة تدبر وادكار .

ولكنهما لحكمة انحازا . أو لعلة ، فما أفصح الزمن عما أضمرت قلوب !.. لحكمة ، أو لعلة تمهلا إلى رمضان إلى نهاية المدة ، وشدا وثاق الليالى الطويلة بقيد التريث الثقيل . . إن يكن أبو موسى الأشعرى استأنى بالأمر عن تردد ، أو تحرج ، أو محاذرة حتى يعرف موضعا لقدمه ، فما بال عمرو بن العاص ينزع أيضا إلى نفس هذا الإبطاء المرذول وهو العالم بما أقبل فيه ، المستوثق بما فى يده ، البانى فى أمسه لغده ؟ . .

فلعله إذن بعض دهاء ابن النابغة أن يرجئ لحظة الحسم ما وسع جهده وحيلته إرجاء . . وأن يبطئ كرفيقه ، ويملى للوقت فى المهل والتريث ، وأن يفسح لهذا الرفيق فى المحاورة والمداورة وهو ، فى الحق ، إنما يدور بالناس فى تيه من الفروض والأحداس ، ومن الريب والشكوك ، ومن النظرات

والآراء . . كأنى به يعط فى التريث ليشد أعصاب الجمهور ، ويزيد فى قلقهم ، وينزع قلوبهم توجسا وخوفا من مجهول مرهوب ، حتى إذا اشتبهت على الأشعرى المسالك ، وكثف حوله ضباب الظنون ، تهاوى بما بقى من إيمانه المصدوع المهزوز — إن كان لديه من قبل إيمان — بهذه القضية التى اختير لنصرتها وهو منها ، منذ نشوئها ، بموقف شبهة واتهام ! . . كأنى بالناس ، إذ طال بهم الانتظار ، وضجوا منه ، ونفد صبرهم عليه ، قد تاقوا إلى تكشف الغيب ، سريعا سريعا — اليوم ! الساعة ! اللحظة ! — عن غدهم المرتقب وإن طلع عليهم بشر الخطوب . فما أشق على النفس من ترقب البلاء ! . . وما أعنى وأشد من بلاء مجهول ! . . فإذا انجابت إذن لحظة الحسم ، من بعد ، عن حكم هو أهون شرا من ذلك الخطب الذى حزرته الأوهام دون الأفهام ، وقدرته الأخيلة المريضة المكدودة ، وخالته الأعصاب المهيضة المشدودة ، فذاك عندئذ هو الشر المأمول المقبول ! . .

على الأعصاب لعب إبطاء رفيق دومة الجندل بالحكم ، تلك الأيام الطويلة الثقيلة التى امتزجت فيها قرة الشتاء بنهكة الص[illegible] ، فجرى بردها فى الأوصال بالقشعريرة ، وسغبها فى الجسوم بالإعياء . . ما من امرئ طلع عليه هلال رمضان ، ذلك العام ، وهو هناك ، إلا ود — ببعض عمره — لو تعجل الخاتمة المجهولة . . الذين كانوا بمقام عزلة ، لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء من فريق العراق والشام ، شاقهم شهود النهاية التى تشبع الفضول ، وتطبق الغلاف على قصة الخلاف ! . . والذين عرفوا حقهم وآمنوا به ، ودوا لو جاءتهم هذه النهاية معجلة : انتصارا كانت لهذا الحق أم كفاحا جديدا فى سبيله ، بالحديد والدم ، حتى يرتفع علمه ويتهاوى خصمه . . والذين هزتهم الشكوك أو استعبدتهم أهواء الأنفس وعروض الحياة ، رجوا أن تكون العاقبة خاتمة ، سواء أقبلت فى موكب سلام أم شدت إلى عجلة استسلام ! . .

رغبات الجموع كانت ، حيال النتيجة المنتظرة ، على تفاوت ، وإن كانت مشاعرهم ، حيال الإبطاء بها ، على اتفاق . . لكن فئة من الناس هى التى صارحت الحكمين حينذاك بما ضمت الخواطر وأجنت الضمائر . قلة منهم . بضعة نفر ، خرجوا من الهمس إلى الجهر ، ومن اللغط المبهم إلى الإفصاح المبين . .

وما كشفوا ، حين لفظوا عباراتهم القصيرة الموجزة ، إلا عن شق الأحاسيس التى خالطت السرائر فى مختلف أرجاء الوطن الإسلامى الكبير . .

من الأولى عرفوا حقهم ، ولم تراودهم عنه شبهة : سعيد بن قيس ، أحد أصفياء على . . جاء يحمل إلى الحكمين ضيق الناس بإبطائهما المريب ، ولا يكتمهما إيمانه بحق إمامه ، وتحرقه إلى بلوغه وإن على طريق تفرشه العواسج ، وتحده الأسنة ، وتظله السيوف . . قال :

« أيها الرجلان ! . . إنى أراكما أبطأتما بهذا الأمر حتى أيس القوم . . فإن كنتما قد اجتمعتما على خير ، فأظهراه نسمعه ونشهد عليه . وإن كنتما لم تجتمعا رجعنا إلى الحرب . . »

وعدى بن حاتم أيضا ضاق بهما ، وكان أشد عليهما من زميله . . طالعهما غير مداور ولا مجامل ، برأيه سافرا ، ظاهرا ، بادى الخشونة والتسعر كما انتفضت ، عن جمرة متقدة غبرة الرماد . . قال :

« أما والله إنك يا عمرو لغير مأمون الغناء ، وإنك يا أبا موسى لغير مأمون الضعف ، وما ننتظر بالقول منكما إلا أن تقولا . فوالله مالكما مع كتاب الله إيراد ولا صدر ! . . »

فأى المشاعر والانفعالات أثارت هذه الأحاديث وأمثالها فى نفس الحكمين ، وبأى كلام تحركت شفاههما جوابا على ما انتقل إلى سمعيهما من تململ الجمهور ؟ . .

الأشعرى كان أظهر برما ، وأشد دفعة ، وأعجل من رفيق حكومته الماكر الختال إلى الرد المتهور الذى يكشف السريرة . فلم يكد يسمع حتى تغير وجهه ، وبان السأم فى ملامحه ، ثم طوح بيديه ملالة وهو يهتف ، فى أنفة البرم المنكر ، وصلف الواثق المدل بمقداره ، المزدرى رأى ناقديه :

« كفوا عنا ، فإنما نقول فيما بقى ، ولسنا نقول فيما مضى » .

فكان جوابه أشبه شىء بخيال انعكس من أمسه القريب الذاهب على مرآة يومه المقبل الجديد . كان — فى الحق — رأيا أخلق به ، وأدنى إلى مزاجه . ولعل عبارة لم تفصح قط عن دخيلة صاحبها ، ولا كشفت من رأيه الخبىء المستتر

ما كشفت هذه العبارة من رأى الشيخ وهو يقولها إذ ذاك بلهجة إدلال لا بمنطق تدليل ! . .

فهل هى زلة لسان ؟ . .

هل هى خطرة سجية ، ودفعة ولا روية ؟ . .

عن وعى منه ، أو عفو الخاطر ، حسر الرجل الشام عن دوره فى التحكيم — كما يرتأيه — فإذا هو يجاوز به ما ندب له ، ويخالف فيه ما اجتمعت عليه أفهام حزبه ، وشطحت إليه أحداس معارضيه ! . . لكأنه شاء أن يدع أمس ويعرض لغد . أن يغفل ما كان ويعدل عنه إلى ما يريد أن يكون . أن ينأى بنظره وفكره عن الخلاف الذى شجر بين على ومعاوية وهو — بغير جدال — لب القضية التى يتقاضى عليها اليوم ، فى رحابه ورحاب زميله ، ذانك الزعيمان ومن وراءهما من أبناء الأمة الإسلامية الذين وقع بأسهم بينهم شديدا ، دفاعا عن الوحدة ، أو تطلعا إلى السلطان . .

وعلى سنن الأشعرى ، أو فى سبيل قريب ، سار آخر من رجال الإمام ، قد طوح به حب الحياة ، والشغف بالجاه ، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار حتى لأوشك — وهو من قادة العراق — أن يكون ذيلا لأهل الشام ! . على نفس هذا السنن الملتوى الدوار كان انطلاق الأشعث بن قيس ، والحكمان عندئذ يتشاوران أو يتداوران . . فلقد أقبل عليهما ، واللهفة تأكله ، والخشية على السلم — وليده الشائه الذى أنجبته له المزاوجة بين الوهن والخيانة — تكاد تتخطف ثباته واتزانه ، فقال :

« يا هذان ! إنا قد كرهنا هذه الحرب فلا ترداها إلينا . . إنها مرة الرضاع والفطام ، فكفاها بما شئتما . . »

بما شاءا ! . .

بأى ثمن ! . .

بالوسيلة التى تحفظ الدم ، وتمسك العظم على العظم ، وتقتل المثل والقيم ! تقيم السلام على استسلام . تكف الحرب على ما يشتهى داعية التخاذل الأول يوم صفين حين آثر الارتداد عن ولائه وأعلام النصر تخفق إذ ذاك على معسكر الإمام ، كما آثر ، عقيب موت الرسول ، الارتداد عن الإسلام ! . .

٢

جاوز الحكمان كل معالم الحدود التي رسمتها ظنون الأعداء وأماني الأصفياء .

أبو موسى الأشعري طفرت به « غفلته » — أم هي فكرته ؟ — بعيدا بعيدا عن مواطن الثقة ، غائرا غائرا في مهاوي التشكك فيه ! .

عندما خرج للحكومة تصايحت فئة له ، إيمانا به ، أو اطمئنانا إلى حكمته . . وتصايحت فئة عليه ، ريبة فيه ، وتوجسا منه . ولكنه أتاهما من بعد جميعا — بخلاف كل منتظر — بأقصى نقائض الإيمان ، وأدنى مناقص الشكوك . .

قيل له :

« . . اعرف خطب هذا الأمر ، واعلم أن له ما بعده . . . إنك إذ أضعت العراق فلا عراق ، فاتق الله . . . . وإذا لقيت عمرا فلا تبدأه بالسلام فإنها — وإن كانت سنة — إلا أنه ليس من أهلها . ولا تعطه يدك فإنها أمانة . وإياك أن يقعدك على صدر الفراش فإنها خدعة . ولا تلقه وحده ، واحذر أن يكلمك في بيت فيه مخدع تخبأ فيه الرجال والشهود . »

فسمع بأذن ، ولفظ بأخرى ، وآثر المحذور المحظور ! . .

وقيل عنه :

« . . لقد تعجلت رجال مساءتنا في أبي موسى ، وطعنوا عليه بسوء الظن ، وما الله عاصمه منه . . »

فلم ينصف دفاعهم عنه ، بل اعتصم منه بسوء الظن ، وظاهر — بفعله — كل طاعن عليه ، مستريب فيه . .

* * *

وعمرو بن العاص طفا في لجيج خبثه على قمة الخدع والأباطيل ، تطفو الزبد والنفاية ، حتى بلغ في انحرافه عن الجادة أبعد ما رجت له أحلام أصحابه ، وما خشيت منه مخاوف مناوئيه . .

قيل له :

« . . إنك رجل قريش ، وإن معاوية لم يبعثك إلا ثقة بك . . وإنك لن

تؤتى من عجز ولا مكيدة ، فكن عند ظننا بك . . »

فأنى من المكر بما أعيى المكر ! . .

وقيل عنه :

« . . إن عمرا ليس من الله فى شىء إذا كان له فى أمر هوى ! . . »

وكان له ، بلا جدال ، هوى وأهواء . فى سطوة فى إمرة . فى دنيا تعود عليه بسلطان أمسه الذى تركه هناك ، ذات يوم مضى ، إلى جانب النيل على ثرى الوادى الأخضر .. السنون السوالف لم تنسه جاهه الذاهب، ولا بخلت عليه بحلمه الحلو الذى ظل طويلا يخالط صحوه ونومه ، شهرا شهرا،يوما يوما،ساعة ساعة . .

حتى والمنايا تتربص به ، وتوشك أن تسد عليه مسالك النجاة فى عنفوان الصراع بصفين ، برقت له مصر فى خياله كما يبرق الشهاب الهاوى فى الليل الأسحم .. عندئذ استضاءت على البرق ألمعيته التى أخمدها، إلى حين ، غبار الهزيمة ، وتوهجت جمرتها ، واشتعلت تلهب نفسه بسورة كأنها الحميا تهيج المخمور . فما أسرع ما اندفع، غير وان ، على بقايا القيم المشروعة لينتزع حياة رخيصة كالتراب ، كريهة كالصاب ، من أنياب الموت . . بالحيلة انتزعها . باللعبة الغادرة . بهذا التحكيم الذى مده حبالة محبوكة الخيوط ، دقيقة النسيج ، صادت العقول المخدوعة . .

ولم ينس أبدا ذاته وهو يحاور رفيقه فى قضية الخلاف . . مرات عدة حام بحديثه حول نفسه ، وحول ابنه ، وحول أيما امرىء شام فى استخلافه تحقيق أطماعه الطويلة العريضة . . بل قد حاول ذات مرة أن يرشد أبا موسى على الرأى، إحساسا منه — فى أعماقه — بأن لكل رأى ثمنا ، وأن المعنويات — كالماديات — توزن أيضا بالدرهم وتشترى بالدينار ! . .

فياترى تجنى ؟ . .

على طبعه لم يفعل !.. إنما كان وفيا لنفسه الوفاء الذى يدفعه دائما إلى امتثال رأيها، واحتذاء نزعها — بالشبر وبالفتر — كأنه يسير إلى آرابها على صراط ! . .

وإذا كان قد راود الأشعرى عن ولائه للقضية ، فإنما مراودته صدى خليقته ، وظل شيمه وسجاياه . فالإناء ينضح بما فيه . والمرء يقيس الأمور بمعاييره الخاصة ثم يحسب الناس وإياه فى الهوى سواء ! ..

هكذا كان . وهكذا انطلق بصاحب مفاوضته يلف ويدور فى تيه من الأمانى والفروض . حتى إذا حسب أنه أعياه رأيا وحيلة ، قذفه باسم سيده ، رفيق خدعته : معاوية ، أميرا للمؤمنين . .

معاوية ؟ . .

لم لا وبيته فى قريش رفيع ، وهو أحد الصحابة ، وأخته أم حبيبة ؟ . .

وبدا الأشعرى هنيهة كالحائر . .

وراح عمرو يشد عليه ، ويوسوس له :

« . . إنه إن ولى أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة . . »

عندئذ أصابت دعوة الغدر المثمن ضمير الشيخ بوخزة موجعة فانبعث مغضبا يجيب :

« والله لو خرج لى من سلطانه ما وليته ، ولا كنت أرتشى فى الله . . »

فلمن هذه الغضبة الهادرة ، وفيم الإباء ؟ . .

لغير ، على بطبيعة الحال ! . . لا للوفاء ولا للولاء . بعيدا بعيدا عن النية السليمة ، والطوية الخالصة المستقيمة التى من أجلها اختاره أهل العراق ليكون وكيلهم ، صاحب رأيهم ، الذائد عن قضيتهم ، وإنها فى رأى الواقع لقضية التمرد على الإمام والخروج على النظام العام .

لغير هـذا كله صاح الأشعرى فى وجه ابن العاص ، تلك الليلة من ليالى التحكيم ، نافضا تلويحه بالسلطان ومخايلته إياه بالجاه . أم لا فكيف نفهم تصرفه وهو يتبع ثورته الغاضبة بآخر ما كان ينتظر من وكيل أمين ؟ . .

لا يلبث قليلا على استنكار الرشوة المعروضة حتى تهدأ نفسه ، ويخرج طائعا مما ندب له وجاء فيه ليعرض من لدنه بضاعة جديدة ! . . بلا تحرز ، ولا شعور بتبعة نحو أهون ما يطالب من مبعوث مثله من أمانة العرض والأداء — دع عنك واجب الدفاع — نسمعه يردف إباءه بشر استخذاء . . يقول :

« . . إن شئت ، أحيينا سنة عمر بن الخطاب . . »

فإذا لم تكن عبارته هذه تنكرا للمبدأ ، ونقضا للولاء ، وخيانة خبيثة فاحشة

للذين أوفدوه ، فعلى أية صورة من الصور يمكن أن يصاغ النكث أو تصور الخيانات ؟ . .

لكأنى بالأشعرى عندئذ قد لبس إهابه ، ورد على نفسه ثيابه كيوم تخذيله فى الكوفة عن الإمام . . لكأنما عاد ثانية لأمسه يثبط عن نصرة على ، ويجمد فى أفئدة المسلمين ، وفوق شفاههم ، وبين قبضات أيديهم ما كان حقا عليه أن يرسله من طاعة لولى أمرهم الشرعى تتمثل فى خفق القلوب بالولاء ، وهتاف الألسنة بالدعوة وبالدعاء ، واهتزاز الكفوف بالسيوف تحش عدوه كحش المناجل السنابل ! . .

بل كان أشد على أمير المؤمنين هذه المرة وأعق . لم يعتزله . ولا وقف منه موقف حيدة . ولا حث القوم حوله على التلبث والريث حتى تتكشف لهم غوامض الأمور وتتبدى ، من خلال الأحداث المتلاحقة كموج البحر فى اليوم العاصف ، لمحات آية تهديهم سبيلا إلى تأييد على ، أو اعتزاله ، أو قتاله . . . إنما بسط ما طوت الشهور السوالف من كفره بحق الإمام فى الإمرة ، ثم انطلق قدما ، مشدود العزم ، ثابت الخطو ، على درب خطيئته ، لعله يبلغ الآن ما فاته بلوغه منذ حين . .

بالنية المعقودة لا بالهفوة العارضة ، وبالإصرار ، عن اختيار ، وقف الأشعرى موقفه وما هو فى الواقع بملوم حين تقاس النتائج بعللها ، وترد الفروع إلى أصولها ، وينظر من خلال الطبائع الفطرية والسلائق الأولية إلى الأعمال والأقوال . فنفس وما تهوى ، ونفس وما تميل . . إن نظرك ليقع على امرئ فلا تملك ، من أول وهلة ، إلا النفور منه والميل عنه . وإن نظرك ليقع على آخر فلا تملك ، من أول وهلة ، إلا الإقبال عليه والميل إليه ، ثم لا تدرى ، فى كلتا حالتيك هاتين ، أى دافع دفعك إلى شعورين متباينين هما نقيض ونقيض . .

ومع ذلك فليس طيش العاطفة وحده ما طوح بالحكم الشيخ إلى أقصى نهاية اليسار سمعنا به فى النأى عن نصرة موكليه ، خائنا أماناتهم ، ناقضا عهدهم الذى عليه عاقدوه . من النصفة له أن نقول إنهم أخطأوا الخطأ كله فى حقه وفى حق أنفسهم على السواء . . أخطأوا فى حقه وهم يحملونه من أمرهم ما هو غير أهل

لحمله غير كفء للنهوض به . وأخطأوا فى حق أنفسهم وهم يدركون طبعه ويعرفون غابره ثم يكادون يلمسون لمس الحس — فى لحظة بعثه للحكومة — ما يقطع الشك باليقين ويوحى بالشواهد الناطقة والأدلة المبينة أنه خليق بخذلانهم والانتقاض على قضيتهم انتقاض الصابئ المرتد عن عقيدة أكره على اعتناقها ولما يجاوز إيمانه بها حدود شفتيه ! . . فلقد كان لأبى موسى فيمن جانبوا فريق الإمام ومعاوية ، واعتزلوا محنة الجماعة الإسلامية آنذاك ، رأى معلوم يظاهرهم ، ويضع الحق كله فى جانبهم ، ثم لا يدع لسواهم إلا الباطل والشر والخطيئة . . فى تثبيطه بالكوفة دليل . وفى قعوده عن على دليل . وفى أحاديثه المرسلة هنا وهناك ، قبيل اجتماعه بعد التحكيم — مرة مع الأحنف ، وثانية مع المغيرة ، وأخريات مع عدى وشريح وأضرابهما من فريق العراق — دليل ودليل ودليل ! . .

لا نلوم الشيخ الأشعرى ، حين نحاسبه كصاحب رأى ، وإنما نلومه ونؤنبه إذ هو وكيل . فعلى رأيه ثبت وأقام الأيام تلو الأيام . ومن أجل إنفاذ هذا الرأى ذهب إلى أبعد الحدود حتى هانت عنده الأمانة فخان . وفى سبيله ضحى بفرصة العمر فأبى الرشوة وكانت حرية أن تجيئه بصولجان ! . .

أفكان حقا ذا غفلة ؟ . .

كلا ، ما كان ، إنما الذين عيروه بالغفلة من قبل ومن بعد كانت الغفلة بهم ألصق وأليق ، لأنهم أغفلوا أمسه وحاضره ، ولم يبالوا مشاعره ، واعين أو مخدوعين . .

٣

طاش ، فيما أحسب ، تقدير عمرو بن العاص حين استخلص لنفسه سانحة ظفر ذاتى من حديث الأشعرى الشيخ . . ظنه ، وهو يرشح عبد الله بن عمر للخلافة ، إنما صدر فى ترشيحه عن ميل له ، أو لعمر ، أو لكليهما لله فى غلالة من تقوى الابن قد تبهر أبصار الناس إن لم يعطفهم إلى تأييده ذكر ابن الخطاب . . لكأنى ببسمة خابية اللون رفت عندئذ على شفتى الداهية ، عن طمأنينة ، حتى لقد

أوشك أن يفرك كفيه ، ويبهج شدقيه ، ويهتز فرحا وهو يعقب على رأى نده بلهجة من ذلت الحجة له ودان فصل الخطاب . .

قال عمرو :

« . . إن كنت إنما تريد أن تبايع ابن عمر لدينه ، فما يمنعك من ابنى عبد الله وأنت تعرف فضله وصلاحه ؟ . . »

فجبهه الشيخ بالجواب الحاضر الذى لم يغير من خلاصة مغزاه ، وإن غير من مبناه ، دوران الأيام :

« إن ابنك لرجل صدق ، ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة » .

وهوت على الأثر فرصة ابن العاص ! . .

هوت فرصة الظفر الذاتى التى صورها وهمه، وجسدتها أمانيه، بهذا الجواب الثابت الهادىء الرصين فإذا هو قد ابتعد به تدبيره وتقديره عن المألوف المعروف من ذكائه ودهائه بقدر ما أبعد الأشعرى عن الشائع الذائع من غفلته وغرته !..

إنها لعثرة لابن العاص تضاف إلى عثرات دهائه، وتظهر — فى حساب مكره — عليه ! . . ثانية عثرتين فى يوم واحد ! فى جلسة ! فى نقاش قصير لم يكد يمتد إلا سويعة من زمان غفل خلالها الغريم الداهية عن حقيقة الغريم الساذج الذى طالما تبدى — له وللناس — فى هيئة غر تلعب به براعة اللفظ فتوقع به براعة الحيلة . .

هذه المرة الحاضرة : لم يستطع بصر عمرو أن يخترق على الأشعرى جلد بلهه ليكشف خلفه عن صاحب فكرة قرت دائما فى ضميره قرار الإيمان فعقد العزم ، منذ زمان، على نصرتها، وإن هو ضحى لها ، من قبل ومن بعد ، بالسطوة والسمعة ، واكتوى فى سبيلها بالزراية والامتهان بل بالتحريم والتأثيم . . .

وتلك المرة السالفة : غاب عنه من طبيعة أبى موسى أنه صاحب تقوى ترهف فيه من الحساسية الدينية والتحرج النفسى ما يشحذ ذهنه ، ويوشك أن يميل به عن تقبل المتاع والعروض المألوفة، فما بالك بالرضائخ الصارخة المفضوحة والرشا المزفوفة المكشوفة ! ؟ . .

***

ومع ذلك فليس عمرو وحده من كان يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة ، وأن المحظور الممنوع مقبول مشروع ! . . عبد الله بن الزبير — على ما عرف من تقواه وروعه — لف أيضا لف ابن العاص فى هذه الناحية ، وكان يؤثر ، حين الحاجة ، الوسائل الملتوية على النهوج المستوية ما دام الانحراف ينتهى إلى الغاية . . فلم يكد إغراء عمرو ، وتلويحه بتلك الرشوة ، يصك سمعه ، حتى مشى — بمكر الثعلب الختال — إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب يوسوس له ، ويدفعه إلى القبول :

« اذهب إلى عمرو بن العاص فارشه ! . . »

فلصالح من هذه الوسوسة الملبسة بالإرشاء ؟ . .

ليس ابتغاء وجه الإنصاف بطبيعة الحال !.. لا للقضية ، ولا للأمة ، ولا لابن عمر نفسه كانت هذه النصيحة الزبيرية التى تطوع بها صاحبها آنذاك وأنه لأول عالم أنها دعوة لا تجد صدى فى نفس المرشح لها ، وخدعة لا تجوز على المدعو إليها ، ورأى إن وجد له مكانا فى عداد الآراء فإنه موقع الذيل المبتور الذى تهمد حركته ، وتثبت سكنته ، وتخرس نأمته إذا ما جاشت بالحلول المرتقبة لأزمة الحكم مكامن الخواطر ومقار الأفكار . . .

ومع ذلك قال . .

أفكان هدفه ومرماه أن ينأى بقضية على إلى غير المسلك الطبيعى الذى وجب أن تسلكه وتعضى فيه ، انحرافا براعيها ، الناضح عنها ، إلى ما يخالف ما ندب له ، وتثبيتا له على رأيه المشبه الخبيط ؟ . . ليوشك الأمر هكذا أن يكون ففى طبيعة ابن الزبير ختل ثعلب يدفع به إلى تجنب المصارحة ، وإلى التزام المسالك الخلفية ، والدروب التحتية ، بلوغا إلى ما يريد . . وفى ماضيه أيضا سلوك ، شهده الجمل ، وقاسته البصرة ، ينضح الآن بأن قصاراه ، فى سره ونجواه ، أن يكون ذهاب ريح الإمام مسك الختام ! . .

أم لا فكانت ياترى عاطفته « الحجازية » هى التى أملت عليه حث ابن عمر على ركوب ما يكره ، أو ما تصدف عنه فطرته ، بغية العود بالخلافة — فى شخص هذا العازف الصادف — إلى أرضها الأصلية : الحجاز ، وإلى حاضرتها الأولى : مدينة الرسول ؟ . .

فى هذه التملة ، بغير تحرج ، شطر الجواب . . كثيرون ارتأوا آنذاك ، وإلى اليوم يرتأى أكثرون ، أن عصبية البيئة — إلى جوار الطموح — كانت دائما تدفع خطوات الشعاب إلى امتطاء أمداد المغامرات سعيا للحكم من أقصر سبله ، أو تدبيرا — فى القليل — لتقريب أوان هذا الحكم بتقريب قاعدته من متناول براثنه وأنيابه . وما كان شىء يدنيه إليه ، بطبيعة الحال ، مثل غدوه بقلب قطر ، وبيد ظهرانى أمة ظلت تتطلع — منذ انسلاخه عن المدينة فى مستهل عهد على — إلى لمحات برق فى سماء الأحداث قد تصحبها ، حين فرصة موانية ، صاعقة واهمة ، خليقة بأن تنقض على هيكل البناء السياسى القائم لتقضى على « اغتراب » الخلافة : مشرقة فى بلاد العراق أو شاملة فى أرض الشام . .

وكان ابن الزبير واحدا من أوائل أولئك الذين عاشت فى أمانيهم هذه اللمحات ، ثم غدا هو نفسه ، على الأيام ، الشرارة الباعثة للصاعقة المرتقبة ! . .

كان ثم غدا ، إذ سبقته ، وتلته إلى الأمنية ، صفوف .

فما ننسى كيف أن الأنصار ، حين تبينوا عزم الإمام على الخروج إلى الكوفة ، عندما فاءت الإمرة إليه ، قد أشفقوا أن ينسلخ سلطان الإسلام من مهده ليعيش كالغريب المشرد فى غير موطنه ، بديار لم تشهد مولده ، ولم تتعهد عوده ، وبين أقوام لم يتمرسوا برعايته وافتدائه التمرس الذى يرفعهم إلى مستوى من الحرص عليه كمستوى الذين عاصروه سنوات محنه وأزماته ، وبوأوه فوق الأرواح . .

إن منهم من سعى إليه بالإغراء ، يحثه على البقاء :

« . . يا أمير المؤمنين . . إن الذى يفوتك من الصلاة فى مسجد الرسول ، والسعى بين قبره ومنبره ، أعظم مما ترجوه من العراق . . » .

وإن منهم من شق عليه خروجه من المدينة ، وإن لكفاح متمردة طلحة وعائشة والزبير ، فحاول رده عن مسيره ، بالتحذير والرجاء :

« . . لا تخرج منها . . لا تخرج ! . . فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها ، ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبدا » .

ما ننسى أيضا أن بؤرة المعارضة للدولة الأموية ، صدر نشأتها ، كانت دائما تتركز فى الحجاز ، وتجد أنصارها بين أبناء المهاجرين والأنصار ، الذين اتخذوه

عند ذلك ملاذا ، يأبون أن يعدلوا غيرة به طوال حكم معاوية ، ومفتتح ولاية ولده يزيد . . .

أن منهم من وقف ثائرا فى وجه مروان حين أرادهم معاوية على البيعة لابنه ، يصيح به :

« تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل ! » .

وإن منهم من ود لو حال بين الحسين وبين الخروج إلى الكوفة ليتخذها مستقرا لدعوته ، وموثبا على الحكم الأموى بالشام . ودوا لو حالوا بينه وبين منتجعه الجديد وفى أخلادهم الضياع والهلكة والاسترقاق قرين ذلك الخروج :

« . . الزم الحرم فإنك سيد العرب ، لا تعدل بك أهل الحجاز أحدا ، ويتداعى إليك الناس من كل جانب . . لا تفارق الحرم ، فوالله لئن هلكت لنسترقن بعدك ! . . »

بل ابن الزبير نفسه قد لاذ بالبيت لا يفارقه وهو يمضى دولة الأمويين ويكتوى من بأسها نظير عصيانه . ثم قد لاذ بالحجاز لا يرضى فراقه وهو يكاد يظهر عليهم ، وتأتيه من قائد جيوشهم مصالحة على البيعة له . .

نادى ابن الزبير عندئذ على جيش يزيد :

« علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ؟ . . »

فالتقى به بعدها الحصين بن نمير ، قائد الماهل المالك ، يعرض عليه :

« أنت أحق بهذا الأمر .. هلم لنبايعك ، ثم اخرج معنا إلى الشام ، فوالله لا يختلف عليك اثنان . . »

لكنه أبى :

« لست فاعلا ، وأكره الخروج من مكة . . ولكن بايعوا لى هنا ، فإنى مؤمنكم ، وعادل فيكم . . »

أجل ، إنها لعاطفته الحجازية ، من قبل ومن بعد ، التى حركت لسانه إبان التحكيم ، كما حركته عقب الحسرة وهو يوشك أن يقبض ببراثنه وأنيابه على صولجان السلطان . . وإنها أيضا لطبيعة الثعلب الرواغ فيه قد دفعته إلى الوسوسة لابن عمر ليرشو ابن العاص عسى أن تعود الرشوة بقاعدة الحكم إلى مكان ،

وبين ظهرانى أمة من الناس ، تجعل كليهما فى متناول البرائن والأنياب حين يحين الحين ، وتتهيأ الظروف والأسباب ! . .

غير أن ابن عمر فوت على الثعلب غرضه :

« لا والله ما أرشو عليها أبدا ، ما عشت » .

ولم يكفه هذا الردع ، بل انطلق أيضا إلى ابن العاص يحذره مغبة شرارة يوشك أن يقدحها فتتسعر نارا مدمرة لا تصيب الذين ظلموا خاصة ، بل تصيب الجماعة الإسلامية كافة : الغائب والحاضر ، البرىء والمسىء ، البر والفاجر إلى أجيـال . . .

قال :

« ويلك يا ابن العاص !.. إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعت بالسيوف وتطاعنت بالرماح ، فلا تردهم فى فتنة ، واتق الله . . » .

* * *

. . . وليس عمرو وحده من أخطأ فهم ماهية العوامل التى سيطرت على الأشعرى إبان التحكيم ، ودفعت به إلى موقفه المعلوم . . . عبد الله بن عمر نفسه أخطأ الفهم ، وحمله الوهم على الاعتقاد بأن الأشعرى رشحه لمقعد على ، تقربا وزلفى من وجه ، وإيثارا وتفضيلا من وجه آخر . . وقد عبر ابن عمر عن خاطريه هذين فى كتاب بعث به بعد حين إلى الشيخ ، كان مما فيه :

« . . إنك تقربت إلى بأمر لم تعلم هواى فيه . . أكنت تظن أنى أبسط يدا إلى أمر نهانى عنه عمر ؟.. أو كنت ترانى أتقدم على على وهو خير منى ؟ . » .

ليس عمرو وحده ، ولا ابن عمر ، ولا غيرهما ممن جروا آنذاك هذا الجرى فى فهم أبى موسى أصابوا النظرة وأحسنوا الحساب . جم كثير أخطأوا الخطأ نفسه . أضلهم وهمهم عن بواعث الشيخ . خدعهم منه مظهر سذاجته عن تعمق دخيلته واكتناه حقيقة تقديره للمشكل حتى صدمهم من لدنه الحل الذى طالعهم به فى التحكيم على ذلك النحو الغريب المريب . . . إلى اليوم أيضا ، وعلى امتداد القرون الطويلة ، يحسب الناس الأشعرى فريسة خدعة أعدها دهاء ابن العاص واستدرجه إليها ، وهو غافل ، بالملق والحيلة حتى أوقعه فيها كما تستدرج وحش الغاب إلى حفرة أخفتها الأعشاب ! . .

لـكن الأشعرى لم يكن قط ذلك المغفل الأبله الذى يثير السخرية والرثاء . فى حسبانى أنه لعب دور الخادع وهو يلبس ثوب المخدوع . بمهارة لعب دوره ، وبقدرة خارقة على الأداء لم تخنه ولم تتعثر به منذ البدء إلى لحظة إسدال الستارة على الرواية الحزينة . . ولقد أسفر ، فى نتيجة التحكيم ، عن الرأى الذى اعتنقه فإذا هو الرأى الأليق بما أومأت إليه أقواله وأفعاله ، حركاته وسكناته ، دائمـا دائما قبل التحكيم ، من بعيد ومن قريب ، وإن استقبله بالعجب فريق ، وبالأسف فريق ، وبالإنـكار فريق ، وانطمست بين تباين هذه العواطف ملامح المثير الأصيل للرأى المنـكود ثم ظلت إلى اليوم مطموسة عن عين كل ناقد لموقف الشيخ ، متناول محنة التحكيم بالاستقراء ، مقابل ظروفها وصروفها بالتحليل أو بالتعليل . .

كالأعشاب التى تخدع الوحش عن الحفرة ظل باعث أبى موسى ، الذى أفهمه حكمه ، خافيا على الناس ، آنا وراء غفلة الأشعرى ، ودائما وراء خدعة ابن العاص . ومع ذلك فـكلتا العلتين مغلولة ، وكلا الرجلين مظلوم . وإذا لم يكن بد من تقويم سلوك الأشعرى فلا ضير عليه فى حساب الرأى لا فى حساب الأمانة . فالأمانة هاهنا تضعه بمنزلة خائن ، أما الرأى فيبوئه مكانة شهيد ! . .

أبو موسى كان مؤمنا أشـد الإيمان بجدوى العزلة ، راغبا كل الرغبة عن ممالأة أى طرفى الخلاف ، عاملا غاية قصاراه ، لحمل الناس على رأيه ، اليوم كأمس ، وحين قدرته كحين عجزه وتقطع الوسائل به دون بلوغ مأربه المنشود . . ولقد ظل أبدا ثابتا عند رأيه لا يحيد وإن تنقلت نظرات معاصريه إلى موقفه فى مراتب المخالفة والزراية من هبوط إلى علو ومن علو إلى هبوط ، وتذبذبت آراؤهم فيه بمدارج النعوت من الضعف ، إلى الغفلة ، إلى الخيانة . . ظل هكذا وليس من معاصريه ، ولا تابعيهم ، ولا اللاحقين بأولئك وهؤلاء انحدارا مع الزمن إلى هذا الجيل من رد حـكم الشيخ إلى منبعه الأول : الإيمان . .

وأى إيمان ! . .

إيمان الذى يرنو بعينيه فى خضمة الليل على خفقة فتيلة ذابلة ثم يحسب أنه وحده يبصر ما لا تدرك النواظر السابحة إلى مراميها على أفياض النور ... إيمان النعامة الحمقاء بأن لا خطر هنا ولا خطر هناك لأنها لوت رقبتها عن مواطن الخطر

ومواقعه ، ودفنت رأسها الفارغ فى ثنايا الرمال ... إيمان جاهل ، ضيق الأفق ، قريب القاع كإيمان فئة القراء ومعتزلة حروراء سواء بسواء . .

قشرة إيمان ! . .

ليوشك المرء أن يتهم الأشعرى فى هذا المقام أى اتهام إلا أن يلصق به أنه اغتر بأخاديع عمرو ، إذ أنه صدر فى حكمه الجائر العاثر عن عدوى من الرأى أعداه بها سواه وليس عن اقتناع ذاتى وإيمان — أى إيمان .. ولئن كانت صحائف التاريخ تكاد تمتلئ بغير هذا فالتاريخ هاهنا مطفف ، كال ابن العاص فطفف له الكيل ، ووزن أبا موسى فأخسر الميزان ! . . وبحسبنا أن ثمة سطورا وكلمات يستطيع من شاء أن يلتقطها فإذا هى معول يسعه أن يهدم به ، فى غير عناء ، تلك الخرافة الثنائية التى اقترنت فيها غفلة الأشعرى بمكر عمرو وظن أنها مفتاح نتيجة التحكيم . .

عن اقتناع ذاتى ، بلا ريب ، وإيمان كتب أبو موسى إلى ابن عمر — إذ لامه على ترشيحه إياه للخلافة — يقول :

« . . . وإنى والله ما أردت بتوليتى إياك ... ربيعى لك ، القربة إليك ... ما أردت بذلك إلا الله . . »

وعن اقتناع ذاتى ، بلا ريب ، وإيمان كان أيضا جوابه إلى ابن أبى سفيان بعد التحكيم ، حين حسب عاهل الشام أنه يستطيع استمالة الشيخ إلى جانبه ، واستفاءته إلى ظله ، فبعث إليه يدعوه أن يقيم لدنه ، ويقول فى الكتاب :

« . أما بعد ، فاكره من أهل العراق ما كرهوا منك ، وأقبل إلى الشام فإنى خير لك من على . . »

عندئذ أجاب :

« . . . إنه لم يكن منى فى على إلا ما كان من عمرو فيك ، غير أنى أردت بما صنعت وجه الله ، وأراد عمرو بما صنع ما عندك . . »

عن اقتناع ذاتى بجدوى سلوكه ، وصحة فعله ، كان تصرف أبى موسى ثم كان حكمه الذى أدلى به على ملأ الناس بعد اجتماعات التحكيم . . اقتناع بفكرة قرت فى نفسه كالعقيدة ، ورسخت رسوخ الإيمان . . وهل كانت مواقف القراء ومعتزلة حروراء التى أصابت الأمة الإسلامية بأقسى النكسات إلا صادرة عن نوع كهذا من أنواع الإيمان ؟

٤

جرت قصة التحكيم ، فيما أرى ، على سنن واضح مرسوم لكلا الحكمين دون محاولة من الأشعرى لإقناع عمرو ، ولا مكايدة من عمرو لطى الأشعرى .. والمحاولات الكثيرة التى توالت طوال المناقشة لم تقترب بأى الرجلين من الغرض الذى عرف الناس أنهما تداعيا إليه وجاءا فيه حسبما نصت وثيقة التحكيم .

كلا الرجلين لم يدانيا لب القضية التى أقبلا للحكم فيها وهى : قضية الخلاف بين معاوية وعلى ، أو قضية تنكر عامل من عمال الدولة لواجب الولاء لهذه الدولة بتمرده على ولى الأمر الشرعى . . كلاهما أغفلا ماندبا له ، وراحا يحومان حول جزيئات لا سبيل معها إلى بلوغ الغاية من التحكيم بل — فى نظر الحق — هى السبيل إلى البعد عن هذه الغاية المرتجاة والإمعان بهما ، وبالأمة وراءهما ، فى تيه من خلاف جديد .

ومع ذلك فقد مضيا على سنن مرسوم . . عمرو بن العاص يداور ويطاول ، ويعظ فى مدة النقاش إفساحا للوقت أمام صاحبه معاوية حتى يلعق جراحه النازفة فى صفين ، ثم يعيد تنظيم جيشه ، ويكتب كتائبه ، ويعد نفسه — هذه المرة — إعدادا أمثل يكون به فى غد أقدر منه بالأمس على لقاء غريمه العنيد . . . وأبو موسى الأشعرى يتأنى ويتمهل ، ويصابر الحديث الجارى حتى تحين له ثغرة فيه ينفذ منها إلى تحقيق رأيه ، الذى ملأ ضميره ، وملك عليه تفكيره وتدبيره ، وإنه — فى حسبانه — للرأى الذى لا رأى بعده لحل هذه الأزمة الطاحنة من أهون سبيل . وهل شىء أهون عليه وأدنى إليه من كلمة يلفظها تجرد ابن أبى طالب من سلطانه فتوصد أبواب الحرب والعداء وتفتح أبواب السلام والصفاء ؟ . .

لقد شاء ابن العاص — مكرا وخديعة — أن يختار لنفسه أسلوب حديث يجتذب به ثقة الأشعرى ، ليستلب إرادته ، ويجعل منه أداة طيعة فى يديه ، فعمد إلى الثناء ، واللفظ الناعم ، وحركات الانحناء . . كان يقدم الشيخ . إعطاء صدر المجلس ، وإمامة الصلاة ، وبدء الكلام والطعام . وكان يدعوه بأحسن النعوت ، ويخاطبه بأجمل الأسماء . . لكنها كلها وسائل جرت إلى غير طائل ، لأنها لم تأته

بجديد غير ما أضمر أبو موسى وطوى عليه دخيلته وعقد عزمه قبل أول اجتماع ..

على هذا النهج سار الحكمان ..

يبدأ عمرو فيقول :

« يا أبا موسى ، إنك صحبت رسول الله قبلى ، وأنت أكبر منى سنا ، فتكلم أنت ثم أتكلم أنا » .

ويبدأ أبو موسى فيقول :

« يا عمرو ، هل لك فى أمر هو للأمة صلاح ، ولصلحاء الناس رضا ؟ .. »

« نعم ، يا صاحب رسول الله » .

« نولى هذا الأمر عبد الله بن عمر بن الخطاب الذى لم يدخل فى شىء من هذه الفتنة ، ولا فى هذه الفرقة » .

ويقول عمرو :

« فأين أنت عن معاوية ؟ .. »

فيرمقه الأشعرى بنظره إباء ، ويلوى عنه [illegible]ره وعينيه ..

ويمضى الحديث سجالا بين الرجلين . هينا حينا . فاترا أحيانا عديدة . أحدهما يحاور ويداور وهو لا يكف أبدا عن إبداء الرقة مقرونة بالتوقير فى اللفظ والإشارة . والثانى يصارح ويكاشف وهو لا يدع كلمة تند عن شفتيه إلا تحمل رأيه ، واضحا بلا غموض ، عاريا بلا غطاء من شعار أو دثار ! .. ولقد حرص عمرو ، دائما ، على أن يوغل بنقاشه نأيا عن موضوع الخلاف الذى جاءا ليقضيا فيه . ولكن نظيره — وإن مضى معه شوطا فى الحديث — كان لا يلبث أن يرتد إلى نقطة البدء من جديد .. ولقد حرص أبو موسى ، دائما ، على أن يثبت على رأيه ، ويشد نظيره معه إلى هذا الرأى ما وسعته إلى ذلك عبارة . ومن هنا كانت المفاوضة بينهما كلاما مرسلا واستطرادا لا يحددها إطار . فلم تخل من معاودة وتكرار إن لم تكن كلها تكرارا وإعادة لبضع جمل تتغير فيها الألفاظ ولا يتغير المفهوم .. كانت كأنها قطعة مطاط ، تدور بين الأشداق ، يمضغانها ولكن لا يبلعانها لأنها عصية على الابتلاع ! ..

ويداهن عمرو فيقول :

« يا أبا موسى ، إنه ليس أهل العراق بأوثق بك من أهل الشام ، لغضبك لعثمان ، وبغضك للفرقة » .

ثم لعله يتمهل هنيهة يرقب فى أثنائها أثر كلامك على وجه صاحبه ، حتى إذا اطمأن أو استشعر ظل طمأنينة أكمل يقول :

« . . وقد عرفت حال معاوية فى قريش ، وشرفه فى عبد مناف ، فما ترى ؟ . . »

فيوافقه الشيخ :

« أرى خيرا . . »

ثم لعله يتمهل هو الآخر هنيهة يستجمع فيها شوارد منطقة يستأنف بعدها الحديث :

« . . أما ثقة أهل الشام بى فكيف يكون ذلك وقد سرت إليهم مع على ؟ . .
وأما غضبى لعثمان فلو شهدته لنصرته . . وأما بغضى للفتن فقبح الله الفتن . .
وأما معاوية فليس بأشرف من على . . »

فينقطع الحوار ! . .

وكرة أخرى يرتد الرجلان إلى البداية . إلى قطعة المطاط التى تمضغ ولا تبلع ، يلوكانها بين أشداقهما من جديد .

. . ويدور ابن العاص فى مرة بالحديث دورة ذات التواء وانثناء ، حتى إذا رأى أنه قد بلغ من أحداث الماضى نقطة تصلح للانطلاق الظافر أسرع يواجه الأشعرى بسؤال :

« ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوما ؟ . . »

فيجيب الشيخ :

« بلى » .

فيستضىء للجواب وجه عمرو ؛ وهل نصر عنده أعظم قوة من هذا الاعتراف ؟ . .

ويتلفت يشهد من حوله :

« اشهدوا ! » .

غير أن ابتهاجه لا يكاد يحرك شيئا فى نفس أبى موسى ، لا من قلق ولا من حيرة . . فلقد قتل ثالث الخلفاء — فيما آمن الأشعرى — وليد غضبة جمهور ثائر ، نطقه عنف ، وعقله سيف ، وحكمه حيف ! . .

ويمضى عمرو يكمل نسج ما كان فيه :

« . . فما يمنعك من معاوية وهو ولي عثمان وقد قال الله تعالى : ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ؟ . . »

عندئذ يباغته الشيخ :

« اتق الله يا ابن العاص ! . . فإنى لم أكن أوليه لنسبه من عثمان وادع المهاجرين الأولين » .

فيرد عمرو ، مثابرا على إصراره :

« . . إن بيت معاوية من قريش ما قد علمت » .

« هذا الأمر ليس على الشرف يولاه أهله ، إنما هو لأهل الدين والفضل . . »

وطويلا طويلا تجادلا على هذا النحو . . يتبدى عمرو كمن يتصيد الكلمات لينفذ منها إلى غرضه،فيتصدى له أبو موسى يعارضه ، كلما حرك رأيا جمده ، أو فتح بابا أوصده . . طويلا طويلا سارا أشواطا من النقاش ، منذ ضمتهما اجتماعات ودية عقيب وقف القتال فى صفين إلى ذلك اليوم من رمضان الذى ختم مهزلة التحكيم . . لكنها أشواط ، وإن امتدت ، لم تبعد بهما — كما أسلفنا — خطوة واحدة عن بداية الحديث ، ولا هى أيضا انتهت آخر الأمر إلى لقاء كحقيقة ما يكون اللقاء . لا إلى اتفاق ووفاق ، ولا إلى خلاف وفراق كان مؤدى نقاش الرجلين ، وإنما ظلا يسيران ويسيران كأنما على محيط دائرة ، فى نفس الاتجاه ، وعلى بعد بينهما ثابت ، لا ينقص منه ولا يزيد فيه طول الدوران ! . .

فإن نعجب فلقضية تعيش فى تصور قاضيها بغير جسم ولا رسم ، ولمحاجة يطرد الحجاج فيها بغير حجة ولا برهان ، ولحكمين يجتمعان وينفضان لوجه ثرثرة جوفاء — ومن أجل سباق إلى غير هدف — بعبارات بتراء تضطرب وتتدافع كالأفراس العمياء ! . . أم لا ، فأين دليل فى حديثهما ، فرد ، يظهر لنا عدوان الظالم ، أو يؤكد براءة المظلوم ؟ . . وكيف نفسر تناولهما البت فى الاستخلاف قبل بحث الخلاف ؟ . . وبأى مبدأ ، وبأى معيار ، عايرا الاختيار والمختار ؟ . .

٥

على خلاف اتفقا ، من قبل ومن بعد — إن كان ثمة مع تنافر لقاء — كما يلتقى ومض النار ووبل الماء فى العاصفة الهوجاء ! . .

فاعتزال ما نشب من خلاف ، وكره الدماء ، والجمود حيال الفريقين المتناجزين دون إنكار لباطل أولئك أو تأييد لحق هؤلاء كانت وحدها جواز المرور إلى نفس الأشعرى ، والمزية التى ليس قبلها ولا بعدها مزية ترفع صاحبها فى عينيه وتضعه على رقاب الناس .

وقصة المصرع ، وولاية الدم ، والثأر الذى انقلب من قصاص إلى إمرة كانت محجة عمرو التى لا محجة له غيرها إلى مطمع ، ولا لمعاوية بن أبى سفيان إلى سلطان . . .

من ثمن الجمود إلى ثمن الدم تذبذب نقاش الحكمين إلى هنا مرة ، وإلى هناك مرة ، بغير محاولة منهما لتدبر القضية الأصيلة ، ولا لذكرها — مجرد ذكر — بعبارة أو إشارة . فلقد شاء أحدهما لخيالاته وأوهامه ، وشاء الآخر لأطماعه وأحلامه أن تكون — دون وقائع الحال — سبيل الوصول الجدلى إلى أمير المؤمنين الموعود . فرتب كل منهما الخاتمة قبل المقدمة ، واختار سلفا اسم الخليفة المنتظر ثم أخضع منطق الحوار للاختيار ! . .

ومع ذلك فلا غرابة ، فى مقام كهذا لا إطار فيه للموضوع ولا اصطلاح على منهج الاجتماع — أو بلغة اليوم : جدول الأعمال — أن تؤخذ النتائج غصبا ، وتعتسف الخواتيم اعتسافا على نحو ما سمعنا من حكم الشام وحكم العراق . .

لا غرابة أن تسبك الأسباب المأفوكة ، وتصاغ العلل الزائفة لتطفف الكيل أو لتخسر الميزان . فأحاديث دومة ، التى شاركت فى ابتداعها خيالات واهم وأطماع نهاز ، لم تزد على تراشق لفظى هازل ، وسباق كلامى عابث بين نظرة شخصية ومأرب ذاتى ، ولم تكن قط صراعا جادا بين مبدأين تتأخر فيه الرغبات الخاصة وتتقدم نظرة الحق جنبا لجنب إلى جوار مصلحة المجموع .

كل هذا وغيره من مناقص التحكيم وسقطاته ليس بغريب ما دمنا نقف حيث وقف الحكمان على حافة الحق لا يقدمان ، وننظر مثلهما إلى الأمور نظرة مغرض

أو موتور يركب إلى أوطاره كل محظور . . لكن الغريب العجيب حقا هو أن يتد عمر التعلات الموهومة فلا تذوب فى الأحداث التالية عبر الزمن ولو على مدى السنين والقرون ، بل تظل عالقة أبداً بنفوس من اصطنعوها لا تفلتهم ولا يفلتونها وإن طال بها العهد ، واستنفدوا جدواها ، ولم يعودوا بحاجة بعد إلى التعلل بعلة أو التوسل بوسيلة . .

فما بالهم ؟ . .

أقد أوهموا فمن فرط ما أوهموا وهموا ، وتخيلوا فمن طول ما تخيلوا خالوا ؟ . .

إنهم لكذلك ! . .

أبو موسى — مثلا — لم يقلع عن وهمه وإن غلبته صروف الوقائع عليه ولم تدع له سوى القدرة على اجتراره ! . . فر بإثمه ، مهزوما مذموما ، إلى مكة ، بعد وقوع الواقعة وفساد الأمر — بما كان من قضائه المشئوم فى التحكيم — على الإمام وأصحابه ، فإذا على يبعث إليه يذكره جرمه لعله ينتفع بالاذكار ويرشد للتوبة ، ولكنه لا يرعوى ولا يركن إلى الصواب . .

كان فيما كتب على إليه فى هذا المجال :

« . . أضلك الهوى ، واستدرجك الغرور . . فاستقل الله يقلك عثرتك ، فإنه من استقال الله أقاله . . »

فأى تصرف عندئذ كان مسلكه حيال هذه الدعوة الكريمة ؟ .

ما كان منه إلا أن اشتد ، وصلب ، ونأى بجانبه عن الرشاد كأنما وهمه القديم قد تجسد فى ضميره حقيقة لا معدى معها عن إيمانه بأنه وحده على الصراط ! . .

رد يقول :

« .. لولا أنى خشيت أن يؤول منع الجواب إلى أعظم مما فى نفسك لم أجبك ، لأنه ليس عذر ينفعنى عندك ، ولا عذر يمنعنى منك .. وإنى أصبت أقواما صغروا من ذنبى ما عظمتم ، وعظموا من حقى ما صغرتم فأقمت بين أظهرهم . . »

بل قد جاوز الرجل بعد حين حد التوهم والادعاء إلى علياء الاعتزاز والكبرياء كأنما أوتى الحكمة وحده ، يضعها حيث شاء ، وينزعها ممن شاء ! . .

سمع أن الإمام ناقم عليه ، لاعن له ما سلف من قضائه الجائر ، فأرسل كتابا إليه كان فيه :

« . . فإنى قد بلغنى أنك تلعننى فى الصلاة ، ويؤمن خلفك الجاهلون . وإنى أقول كما قال موسى : رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين . . . »

وعمرو — مثلا . .

إلى نهاية حياته كان ابن النابغة يدعى الحق لتملاته . . . يدعيه وهو يعلم أنه يكذب على نفسه ليغرر بمن عسى اشتبهت عليهم الأمور فوقفوا فى الصراع بين معاوية وعلى بمكان ريبة ، يتذبذبون ، تارة إلى يسار ، وتارة إلى يمين . . فلقد كان لا ريب أعرف امرئ بخرافة الطلب بدم عثمان ، التى ادعاها ، ولقنها صاحبه ، وألصقها وإياه بالإمام تجنيا بالاتهام ومغالاة فى اللدد والخصام . . . كان أعرف الناس بها حين ابتكرها ، وحين أشاعها ، وحين جاءته من بعد بملك النيل ومطت لأميره وسيده ملك الشام حتى احتوى فى ديباجته ملك الإسلام . ولقد ظل عارفا بها عرفانه — طوال السنوات القلائل التى تبقت له ، غب النصر ، من عمره المديد الطويل — كعرفان الجانى جنايته لا يفتأ ، وإن تناسى ، يجترها فى خياله فى لحظة ندم أو لحظة مباهاة . وقليلا أقل القليل كان الندم ، وكثيرا كثيرا كان الحقد هو الذى يحرك شهيته للاجترار ! . .

وكم اجتر حتى أتخم ! . .

قال يوما لعائشة ، والدنيا بعزها فى يديه ، والدولة لسيده ، وعلى حينذاك ذكرى ذاكر وأحدوثة خاطر :

« لوددت أنك قتلت يوم الجمل . . »

فهتفت به كالمذعورة :

« ولم ، لا أبالك ! . . »

قال :

« كنت تموتين بأجلك ، وتدخلين الجنة ، ونجعلك أكبر التشنيع على على ابن أبى طالب ! . . »

لكن حقده كان يتوارى أحيانا ليفسح الطريق لكامة حتى تند من بين

شفتيه كيدا لمعاوية ، ونزوعا عن ملاحقته بالرياء المداجى إلى مجابهته بالصراحة الصارمة ، كلما رأى منه تغافلا عن مطلب ، أو خشى جورا على ما فى يديه . .

دخل مرة عليه يسأله حاجة ، فكره معاوية قضاءها وتشاغل عنه . فما كان من عمرو إلا أن نزع عن وجهه نقاب الرياء ، وأطلق لسانا كالحية يقول :

« يا معاوية ! . . إن السخاء فطنة ، واللؤم تغافل ، والجفاء ليس من أخلاق المؤمنين . . »

فلم يباله العاهل ، وإنما زاد جفاء ، وجبهه بغير اكتراث :

« وبماذا تستحق منا يا عمرو قضاء الحاجات ؟ . . »

عندئذ أفسح ابن العاص السبيل لكلمة حق حبيسة وراء جدران أحقاده لتتسلل إلى حيث وجب أن تكون من بضع سنين . . .

رد فى صلف وخيلاء :

« بأعظم حق وأوجبه ! كنت فى بحر عجاج فلولا عمرو لغرقت فى أقل مائه وأرقه . . لكننى دفعتك فيه دفعة فصرت فى وسطه . ثم دفعتك فيه أخرى فصرت فى أعلى المواضع منه . فمضى حكمك ، ونفذ أمرك ، وانطلق لسانك بعد تلجلجه ، وأضاء وجهك بعد ظلمته . طمست لك الشمس بالعهن المنفوش ، وأظلمت لك القمر بالليلة المدلهمة ! . . »

فهل عقب معاوية ؟ . . وما غناؤه من تعقيب قد يثير وخزا آخر ، أعق وأشد ، من لسان رفيق جمعته وإياه المنفعة الضالة ولم تجمعهما القيم الشماء ؟ حسبه فى هذا المقام أن يتناوم ويطبق جفنيه مليا مطأطئا رأسه للعاصفة . حتى إذا رحل ابن العاص من لدنه ، اعتدل يزفر ، ويقول لجلسائه وهو مغيظ :

« أرأيتم ما خرج من فم الرجل ؟ . . ما عليه لو عرض وفى التعريض مايكفى ؟ لكنه جبهنى بكلامه ، ورمانى بسموم سهامه . . »

ولقد كان كثيراً ما يجلس إلى معاوية مجلس الصفى من صفيه فإذا هما ، بعد لحظات ، بمجلس غريم وغريمه لايكاد الحديث يسير بهما حتى يحلو لأحدهما أن يكايد صاحبه ثم لا تخلو المكايدة ، آخر الأمر ، من لحة جد تضمهما كليهما حيث يكرهان وإن لم تكره شواهد الواقع ولا حقائق الحال . . . انبرى معاوية له ،

فى جلسة من تلك الجلسات ، التى تراشقا فيها بالحوار ، يسأله فى تخابث :

« . . فما أعجب الأشياء ؟ . . »

فكان الجواب الهادئ ، الذى لفظته — ربما — نزعة لاشعورية ، وأبطن من سموم التعريض ما يشد الأعصاب :

« أعجب الأشياء غلبة المبطل ذا الحق على حقه . . »

فلم يتركها له ابن أبى سفيان ، وإنما ردها عليه صاعا بصاع :

« بل أعجب من هذا أن تعطى من لاحق له ما ليس له بحق ، من غير غلبة ! . . »

ومعاوية — مثلا . . .

هو أيضا كان يستطيب التوهم ! . . . لم يغن عنه سلطانه . العرش الذى اقتعده لم ينسه إثمه فجهد — عمره كله — ليتلقف الراحة النفسية من خلال تبرير عدوانه على حق الإمام ، والإلحاح بهذا التبرير على الأسماع ، أينما وجد سامعا بين الخصوم والأعداء ، أو بين الرفاق والأتباع . . بل قد كان أقدر من صاحبه على افتعال هذا التبرير ، فذهب أبعد المذاهب فى اصطناع الزمر التى تؤيده فيه وفى خلق المشاهد التى تجسمه أمام حواسه ، وتجعل من أوهامه الذاتية شخوصاً تتحرك قبالته كما تتحرك على المسارح شخوص التمثيل ! . .

ومع ذلك فكم فشل ! . . كم طالما انقلبت عليه مهازله فأخذت منه ولم تأخذ له ! . .

جمع مرة زمرة ، فيها عمرو ، وفيها مروان ، وفيها المغيرة ثم أطلقهم على ابن عباس — وهو عندئذ ضيف مجلسه — يهرون حوله ، وينبحونه أخبث نباح . . فماذا أصاب إذ ذاك ، وأصابت له كلابه وإنه ليتمعد شيطان غالب حيال حق مغلوب ؟ . .

قال أحدهم يتوعد :

« لولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، يا ابن عباس ، لتناولكم بأقصر أنامله فأوردكم منهلا بعيداً صدره . . »

وقال ثان يزيد من لهب النار :

« أروع — يا أمير المؤمنين — بالتنكيل به غيره ، وشرد به من خلفه .. »
وقال ثالث . وقال رابع وهم ماضون فى تعاور الضيف بأنياب ناهشة شرهة والضيف يترفق صابراً فى الجواب ، ويحاول وسعه اتقاء هجماتهم الباغية عليه بالهوادة ، كما يفعل الفارس المتمرس حين يتقى بدرعه ضربات خصم منهار ، متعففا أن يصرعه ، متفضلا عليه — دون الإرداء — بالازدراء ! . .

ثم قال آخر من بين الزمرة الضارية ، وهو يتلمظ تلذذا بمصرع الإمام :
« لله در ابن ملجم ! . . فقد بلغ الأمل ، وأمن الوجل ، وأحد الشفرة . . وأدرك الثار ، ونفى العار . . »

هنا هزت هذه الشماتة الفاجرة ما كان خامداً من غضب ابن عباس . فلم يملك حلمه ، وإنما صاح بالشامت ، وبسيده ، وبالجمع الباغى ، يلهبهم بسياط لسانه اللاذع الإزعيل :

« ويحك ! . . لقد كرع ابن ملجم كأس حتفه بيده ، وعجل الله إلى النار بروحه . أما والله لو كان أبدى لأمير المؤمنين صفحته ، لألمقه صابا ، وسقاه سماً ، وألحقه بالوليد وعتبة وحنظلة ! . كلهم كان أشد شكيمة ، وأمضى عزيمة . ففرى بالسيف هامهم ، مسبلهم بدمائهم ، وقرى الذئاب أشلاءهم ، وفرق بينهم وبين أحبائهم . أولئك حصب جهنم هم لها واردون ! . . »

ثم تخلى الضيف عن بقية التفضل والهوادة ، وجاهرهم بالصراحة الصارمة التى تهتك النقب ، وتزيل الأصباغ عن شخوص التمثيل ، عندما سمع المغيرة بن شعبة يقول فى خيلاء :

« أما والله لقد أشرت على على بالنصيحة ، فآثر رأيه ، ومضى على غلوائه ، فكانت العاقبة عليه لا له » .

النصيحة ؟ . .

وفيم إذن كانت ثورة الثوار بمصر ، والكوفة ، والبصرة ، والمدينة نفسها لو أبقى الإمام معاوية على عمله ، وابن أبى سرح على عمله ، وابن عامر على عمله ، وغيرهم من عمال انعزل بهم طاغوت الحكم عن مشاعر شعوبهم ومصالحها حتى كرههم الناس وأشعلوا فى عروشهم النار ؟ . .

وأجاب ابن عباس بفصل الخطاب :

« . . كان — والله — أمير المؤمنين أعلم بوجوه الرأى ، ومعاقد الحزم ، وتصريف الأمور من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنـه ! . . قال سبحانه : لا تجد قوما يؤمنون بالله ، واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم . . . . . »

وتمهل قليلا ليكمل :

« . . ولقد وقفك على ذكر مبين ، وآية متلوة قوله تعالى : وما كنت متخذ المضلين عضدا . . »

ثم مال ببصره إلي معاوية ، وقال وصوته يقطر سخرية :

« . . وهل كان يسوغ له أن يحكم فى دماء المسلمين وفيء المؤمنين من ليس بمأمون عنده ، ولا بموثوق به فى نفسه ؟ . . هيهات هيهات ! . . هو أعلم بفرض الله ، وسنة نبيه أن يبطن غير ما يظهر » .

وكما انقلبت عليه مهزلته هذه ، انقلبت عليه ، من قبلها ومن بعد ، أخرى وأخريات . ولعله فى مرة منها جميعاً لم ينكس الرأس خزيا كتنكيسها ذلك اليوم أمام فرد من رعيته أعزل إلا من سلاح الإيمان . .

تلك المرة دخل عليه أبو الطفيل الكنانى ، وقد غاب ابن أبي طالب عن دنيا الناس ، وخلف بعده دموعاً تجهد لتتوارى وراء الجفون نجاة بأصحابها من بطش السلطان المتجبر . . ولم يكن ثمة ما يحمل معاوية — إلا صلفه — على إهاجة شجن زائره المحزون غير رغبة — فيما يلوح — تواقة إلى التلذذ برؤية الألم على محيا الزائر تلذذ الوحش بفزعة فريسته حين يدغدغها بالظفر والمخلب قبل أن يجهز أو يضرب . . فباللفظ الناعم ، واللهجة الرائية ، قال ابن أبي سفيان :

« يا أبا الطفيل . . كيف وجدك على خليلك أبي الحسن ؟ . . »

« كوجد أم موسى على موسى وأشكو إلى الله التقصير » .

فتخابث معاوية :

« أكنت فيمن حضر قتل عثمان ؟ . . »

« لا . . ولكننى كنت فيمن حضره فلم ينصره » .

عندئذ أثاره هدوء الرجل ، فصاح مغضبا .

« فما منعك من ذلك وقد كانت نصرته عليك واجبة ؟ .. »

فإذا الجواب الحاسم ينطلق كالقذيفة :

« منعني ما منعك إذ تتربص به ريب المنون وأنت بالشام ! . . »

هنا استخزى الطاغية ، ونكس رأسه ، ولم يجد كلمة يسوقها لعلها تخفى إثمه غير أن قال :

« أو ما ترى طلبي بدمه نصرة له ؟ . . »

لكن الرجل الحزين العنيد لم يتزحزح شعرة ، وإنما مرة أخرى عاجل العاهل المكابر :

« بلى . ولكنك وإياه كما قال الجعدى :

لا ألفينك بعد الموت تندبنى   وفى حياتى ما زودتنى زادا ! . .

٦

ثم نضجت الثمرة ! . .

على غير ما حسب كثيرون ، آثر ابن العاص العدول عن قيادة الحديث ، وعمد إلى وضع الأعنة كلها فى يد زميله . وما يضيره ؟ . لقد وضح له من نية الأشعرى أنه مؤمن أوثق إيمان بألا مناص من استخلاف « معتزل » لم يقارف الخلاف ، ولم يشارك فى الفتنة بين قطبى الصراع . وإنها لنية — فيما خبر — لا تكف عن الفوران فى ضمير الشيخ ، والاضطرام فى خلده ثم لا تنتظر لتسفر عن وجهها أمام الملأ غير لحظة يتاح فيها للأشعرى أن يفتح شفتيه ! . .

واجتمع الناس . وبدأ الحديث هينا خفيفا ولكنه أشبه بالنسائم الرخية التى تسبق هبوب الزوابع وثورة العواصف الهوج . وأحس ابن عباس الخطر المتخلق على طرف الأفق فانخرط فى المجلس ، إلى جوار أبى موسى ، ينشر أذنيه حتى ليكاد يبصر بهما حسيس المشاعر ، ويفتح عينيه حتى ليوشك أن يسمع بهما اختلاج الأفكار . . ولم تكن حاله خافية على عمرو ، ففيها تربص وتحفز إن خلى بينهما وبين الطريق فلربما ملآه عليه بالعراقيل ، وأفسدا كل ما رسم وأعد للحظة الفصل الدانية . . وعندئذ مال ابن النابغة إلى من حوله من أحلاف وخلان ،

وفيهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعتبة بن أبي سفيان ، وبضعة من قادة الشام ، ثم همس بصوت كأنه الحسيس :

« أما ترى ابن عباس ؟ . . »

فتخالست الأعين النظر صوب ابن عم الرسول ، ونفث عتبة من بين أسنانه :

« ما به ؟ . . »

« قد فتح عينيه ، ونشر أذنيه ، ولو قدر أن يتكلم بهما فعل ! . . وإن غفلة أصحابه لمجبورة بفطنته ، وهي ساعتنا الطولى ، فاكفينه . . »

قال عتبة :

« بجهدي . . »

ثم قام ، وقام معه ابن خالد ، إلى حيث جلس ابن عباس فزاحماه مجلسه ، وأقبل أحدهما عليه يحاول أن يلوي التفاته بقول غث من فارغ الحديث وسقط الكلام . .

وبرم ابن عباس بوسوسة جليسه ، ففرع له يده ، يستفيئه إلى السكوت :

« ليست ساعة حديث » .

وانتقلت المحاولة من عتبة إلى عبد الرحمن ، يجهد جهده كصاحبه أو أشد ، ليشد انتباه ابن عباس بعيدا عن مجال الحكمين في نطاق من التيه . . كلمة كلمة استطعمه جوابها فلم يجب ، وكلمة وكلمة فإذا هو يشيح . وكلمة كلمة فلا تنفتح شفتاه ، وإن عبست عيناه ، إلا عن سكوت .

وتكررت المحاولة . مرة من هنا ومرة من هناك ، وابن عباس يصابرهما ما وسعته مصابرة وانفسحت أناة . أحيانا باللفظة الزاهدة في الحوار ، وأحيانا أخرى بالإيماءة الخرساء . حتى إذا برم بهما ، اندفع بلهجة الزاجر يكف محدثه الملحف عن الإلحاح :

« إني لفي شغل عن حديثك الآن . . »

وكانت هذه لحظة الفصل ، فاصطنع الغريم المدبر غضبة تلون لها وجهه ، وصاح بانفعال :

« يابني هاشم ، لا تتركون بأوكم وكبركم أبدا . . »

وأردف رفيقه :

« أما والله لولا مكان النبوة منكم لكان لى ولك شأن ! . . »

وكأنما أعدت ابن عباس الغضبة فتلهب غيظه لهذا العدوان الذى يستبطن الامتهان ، فرأى ألا سبيل إلى ردعهما عما أسرفا فيه إلا أن يكيل لهما الصاع بالصاع .

عندئذ احتدم الجدل بينهم مسعرا ، هو يرد ، وهما يتصيدان من ألفاظه ما ينزلقان به فى حواره إلى مزيد من ثورته عليهما ، وعلى عبثهما المقصود .

وانبرى عتبة يتحداه :

« حسبك يا ابن عباس ! . . إن ثقتك بأحلامنا أسرعت بك إلى أعراضنا . وقد والله تقدم منا من قبل العذر ، وكثر الصبر . . »

ثم أقذعاه . .

وحمى هو وجاش مرجله ، فأسمعهما من الكلام ما يسوء . . واضطرب فكره . واشتغل باله بما غدا فيه . فلما صخب المكان بهم ، جاء قوم فحاجزوا بينهم ، ينحونه عنهما ، وينحونهما عنه وإنه عندئذ لمسحور بغيظه ، ذاهل عما يدور بين أبى موسى وابن العاص من نقاش التحكيم . . وإن ابن العاص لراض الرضا كله عن مؤامرته ، يرمى بمؤخر عينيه صاحبيه ، كأنما يسأل كليهما : « ما صنعت ؟ » حتى يجيئه الجواب ، هامسا كفحيح الأفعى ، من لدن عبد الرحمن :

« قد كفيتك التقوالة . . فأحكم أنت أمرك ! . . »

وأحكم أمره .

قال بهدوء الواثق ، العارف بمواقع خطاه ، وهو يضع أعنة الحديث وفصل خطابه فى يد الأشعرى :

« خبرنى ما رأيك ؟ . . »

فتمهل الشيخ كأنما يستلهم حكمة الأيام الرأى الراجح السليم :

. . « رأيى أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا . . »

شورى ؟ . .

يا بشرى إذن لصاحب الشام ! . . فبحسبه أن يمد على عن الطريق ، وأما البقية فعلى الأيام . . .

وسارع عمرو يؤمن على قول زميله :

« الرأى والله ما رأيت » .

كانت هذه لحظة الفصل التى حلم عمرو ، ومن حضره ، ومن تخلف ذلك اليوم عن مجلسه من أحلافه ، بأنها آتية بخير ما يشتهون : بعزل على بلسان وكيله فى التحكيم . . كانت لحظة الدحرة الفاجعة على من شهدها ، ومن غاب عنها ، ومن جرت فى أخلادهم قبل من شاهد وغائب من أشياع على وأتباعه الذين كالحوا طويلا فإذا هم الآن أمام عبارة كأنها سيف القدر ، تجهز على حقهم ، وتسلم أمتهم كلها جارية مسترقة إلى يد الحيف والباطل والبهتان . .

بهذه العبارة القصيرة اختتم عهد وبدأ عهد . ولا عبرة قط بما جرى بعدها من صراع أريد به استخلاص الأرض المسلوبة . . فلقد غدا على ومعاوية على سواء فى كفتى الميزان . . وأصبح صاحب الحق الشرعى فى الإمرة كالمتمرد عليه وعلى سلطان الإسلام . وانتقلت القضية كلها فى أعين الناس ، وفى عين التاريخ ، إلى نزاع على السلطة ، وليس نزاعا على توطيد القيم أو تحقيق المثل التى يجب أن تسود .

وأقبل الحكمان على الناس ، وهم مجتمعون . فدفع عمرو بصاحبه أبى موسى إلى مكان الصدارة ، ليعلن القرار :

« يا أبا موسى ، أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق . . »

فاستجاب الشيخ :

« إن رأيى ورأى عمرو بن العاص قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عز وجل به أمر هذه الأمة . . »

فأيده عمرو :

« صدق وبر . . تقدم وتكلم . . »

وكأنما أفاق ابن عباس إذ ذاك من غشيته ، فاندفع إلى الشيخ يحاول أن يبصره بما فوته عليه عتبة وعبد الرحمن ، وأن يجمد فى حلقه حديث كارثة وشيكة الوقوع :

« ويحك ! . . والله إنى لأظنه قد خدعك . إن كنتما قد اتفقتما على أمر ، فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده ، فإن عمرا رجل غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قمت فى الناس خالفك . . »

لكن الشيخ نفض النصح والتحذير ، وزجره فى ملالة :

« إيها عنك ! . . إنا قد اتفقنا » .

ثم تقدم يواجه الجمهور :

« أيها الناس .. إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر شيئا هو أصلح لأمرها ، وألم لشعثها من ألا تتباين أمورها . وقد أجمع رأيى ورأى عمرو على أن نخلع عليا ومعاوية ، وأن نستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين ، فيولون أمرهم من أحبوا . . . »

وأتبع بلهجة تأكيد :

« . . وإنى قد خلعت عليا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه بهذا الأمر أهلا » .

وتنحى عن مقامه ، فقام عمرو مكانه ، يعلن بصوت جهير :

« إن هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه . وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، لأنه ولى عثمان ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه » .

فبهت الناس :

لبرهة ساد بينهم صمت أوشك أن تدوى خلاله خفقات القلوب الواجفة فى الفضاء كأنها ضربات عصى على أديم مشدود . . لبرهة دارت عيونهم حيرى فى محاجرها ، وبين صحائف الوجوه ، فى وجوم وذهول . . لبرهة التصقت الألسنة بالأفواه المفغورة . وخرست الأنفاس . لكن مرارة الهزيمة التى ولدتها الخيانة ، وحلاوة النصر الذى أنجبه الغدر ، ما لبثا أن اختلطا واضطربا معا فى صياح عارم كأنه الهزيم . . .

وماجت الجموع . .

وانبعث أبو موسى ، وهو مقهور ، يعنف قرين التحكيم الغادر ، ويهتف به فى إنكار :

« مالك ، لا وفقك الله ، غدرت وفجرت ؟ . . إنما مثلك (كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث) . . . »

فاحترق لون ابن العاص . . . يا ويل الشيخ ! . . أو يرميه — تعريضا — لأنه قهره ، بالكفر والمروق ، كنص الآية التي اجتزأ منها بهذه العبارة :

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وأنفسهم كانوا يظلمون » .

وردها على الأشعرى كيلا وافيا :

« وإنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا . . »

ثم تركه يستعيد نص الآية ليستشعر مثله مرارة التعريض .

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين » .

وكذلك تراشقا بالقرآن على ملأ ، والناس بينهما فى ذهول . وإذا كانت ثمة فكرة تسربت عندئذ لبال منتبه — قد ثاب لوعى — من خلال ضباب المفاجأة . فإنها الفكرة التى تستيقن مروق الرجلين جميعا وانحرافهما عن صراط التنزيل . فلقد جاءا ليقضيا بالقرآن ، ويحكما فى نبراسه ، فحاد بهما الهوى — كليهما — عن محكم آياته ، وغلب عليهما الغرض الشخصى ، أو الرأى الذاتى ، إن لم نقل آثرا الالتواء و « السياسة » على استقامة الإيمان ! . .

٧

لا هو خب ، ولا هو ختل ، ولا هو خداع ذلك الذى تفتقت عنه نفس ابن العاص فى قضية التحكيم ، بل الغدر والفجر والكفر كان . . ولمن شاء أن يسند فعلته إلى « مناورات » السياسة ، وما يستباح فى شرعتها من ركوب الخصم بالحيلة — دحرا له وتفوقا عليه — أن يعلم ، أولا ، أن السياسة ، فى معناها المستقيم ، مصاولة بالذكاء والخبرة واقتناص السوانح ، وليست تحيفا على مثل

الأخلاق أو هدما للشرائع والقوانين . . وأن يعلم ، ثانيا ، أن ركيزة المساجلة بين الحكمين كانت حكم الله لا اجتهاد الناس وتفرقهم مع الآراء الشخصية والأهواء الذاتية أيما افتراق . . وأن يعلم ثالثا أن الطريق فيها إلى الحكم المتوقع السليم قد خطه نص قرآنى ما ينبغى أن يحيد عنه أحد الطريق إلا أن يشاء مناقضة محكم التنزيل واقتحام محرم من المحارم يفضى به إلى الضلال . . .

فى صلب الصحيفة ، بيانا لمبادئ التحكيم فى علم جمهور المتقاتلين الذين فاءوا إلى هذه المبادئ خلاصا من محنة الحرب والخلاف :

« رضينا أن ننزل عند حكم القرآن فيما حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر . . وأنا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكما فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى خاتمته . . . »

وفيها كذلك ، بيانا لما ألزم الناس به الحكمين المتفاوضين من عهد ، وربطوهما به من ميثاق :

« . . أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه ، وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ، ليتخذان الكتاب إماما فيما بعثا له لا يعدوانه إلى غيره فى الحكم بما وجداه فيه مسطورا . وما لم يجداه مسمى فى الكتاب رداه إلى سنة رسول الله الجامعة ، لا يتعمدان لها خلافا ، ولا يتبعان فى ذلك لهما هوى ، ولا يدخلان فى شبهة . . »

فالقضية إذن واضحة ، هى : الخلاف الناشب بين طائفة من الناس شقت — عامدة أو مخدوعة — وحدة الأمة الإسلامية ، وبين بقية ناضلت لدفع غائلة الانقسام . أو هى ، فى واقعها ، بين متمرد على سلطان الدولة وبين القائم الشرعى على حماية هذا السلطان . . والوسيلة إلى الحكم فى النزاع أيضا واضحة ، هى : كتاب الله وسنة الرسول بلا ترخص فيهما ، ولا عدول عنهما إلى سواهما من الوسائل والأسباب . .

ومع ذلك فقد انحرف الحكمان . أطفآ النبراس . قضيا بغير القانون . فإذا كان انحرافهما هذا ، عن محكم الكتاب ، ليس كفراً وغدراً فأى شىء إذن يكون ؟ . .

أهو رأى ارتأياه ؟ . . لا حاجة بنا إلى دحض ما قد يقال فى هذا إن اعتذر عنهما معتذر بأنهما اجتهدا الرأى للقضاء — بخلع على — على ما شجر فى الأمة من تنازع بحكمهما الاجتهادى المردود . . . فما حسما به النزاع ، ولاهدآ ثائرته

ولا ردا على البلاد وحدتها ، وإنما زادا من حدة الانقسام ، وتعاونا معا على النفخ في النار . .

أجل ، صبا الزيت على النار .. ودفعا ألسنتها مشبوبة الأوار لتحرق كل بوادر السلام . . . وإنهما ، من اللحظة الأولى ، ليريان ثمار غرسهما الخبيث ، تفرع وتطول ، ولما يغيبا بعد عن مسرح التحكيم . .

من اللحظة الأولى حمى الصراع بين طائفتى المحتكمين . أولئك الذين سخطوا الحكم جأروا بسخطهم حتى تسرب إلى أسنة أسياف تكاد تتبرقش بالدم ثأرا من الذين أبرموه وأولئك الذين فرحوا به اضطربت منهم الأنفس جزعا فتقبضت أكفهم على السلاح . الساخط من الفريقين كالحذر . جميعاً امتلأوا بخشية المغبة المرتقبة . ما من امرىء منهم شام فيه الخلاص ، ولا السلم الموقوتة ، ولا الطمأنينة . إنما ، وهم لا يزالون فى ميدان الخدعة ، تصايحوا ، وتشادوا ، وتنابذوا بالألقاب حتى لم يعد فى مجال الصراع النفسى فسحة لغير فتنة جديدة . وإذا كان ثمة شىء قد ردهم عن مهاوى القتال وأقدامهم إذ ذاك تستبق الانزلاق فإنه لا ريب ذهول البغتة الذى صدمهم به الحكم الناجم على حين غرة كأنه حمة بركان دأبه الخمود . ومع هذا كله فقد كان حريا أن يستقبل أبو موسى مصرعه فى تلك الآونة لولا أن فر بعمره ، على ظهر دابة عجول ، عبر الصحراء ، نحو مكة ، بدار أمان . وأوشك عمرو أن ينال الجزاء المعجل لفجره على ظبة سيف كان أولى بأن تمسك يد شريح . لكن شريحا — وقد أعجلته المفاجأة — ركبه عما هو أدنى إلى عينه : بسوط معه ، قنعه به ، وفاته — لذهوله — أن يتحدث بعقال الحسام وإنه ، عندئذ ، لأبلغ مقال فى أنسب مقام ! . .

حتى الذين لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء ، فى حيدة عن النزاع ، أثارهم غدر ابن العاص ، وأهاج فيهم المشاعر كما أحرج الضمائر . ولم يكن ابن عمر إلا مثلا لمن لم تطاوعهم نفوسهم على شهود مأساة الحكم دون أن يدلى بما يعبر عن استنكاره ، فحمل — وهو المحايد الهادىء المستكين — على عمرو يهم أن ينال منه . .

وإذن فقد ماج الناس . واختلطوا اختلاطا شديداً يتناجزون بالقول والإشارة فى أفحش هيئة ، وبأقذع عبارة . . وغدا الزمن ، عندئذ ومن بعد ، مسرحاً

تصطرع عليه العواطف التي كانت حبيسة إلى حين . . .

الطائفتان تتجالدان وتتنابذان . ولكم حملت إلينا الأخبار في هذه الحقبة ، من شأنهم أكثر الكثير . . . فهذا امرؤ — مثلا — من أنصار معاوية ، يتغنى بأميره ، والنصر ، فيقول في اعتزاز :

« ... ... نمت بابن هند في قريش مضاربه
سعى بابن عفان ليدرك ثأره وأولى عباد الله بالثأر طالبه
وقد غشيتنا في الزبير غضاضة وطلحة إذ قامت عليه نوادبه
فرد ابن هند ملكه في نصابه ومن غالب الأقدار فالله غالبه
وما لابن هند في لؤى بن غالب نظير وإن جاشت عليه أقاربه
فهذاك ملك الشام واف سنامه وهذاك ملك القوم قد جب غاربه ! »

وهذا آخر من رجال الإمام ينبرى للرد عليه :

« غدرتم وكان الغدر منكم سجية فما ضرنا غدر اللئيم وصاحبه
وسميتم شر البرية مؤمنا كذبتم فشر الناس للناس كاذبه »

وثمة ثالث ورابع وخامس ، ومثون عديدة من أولئك وهؤلاء جروا في هذه الأنحاء . . حتى الراسبي ، عبدالله بن وهب ، ذلك الخارجي صاحب حروراء ، لم يخل حلقه من غصة ، ولا قلبه من ندم ، حين تبين الحكم فوجده ثمرة من ثمار مشاقته ورجال فرقته أمير المؤمنين وخلافهم عليه . أفما أكرهوه ذيل صفين على التحكيم والنصر آنئذ تكاد تخفق أعلامه وتلتمع نجومه في حلبة القتال ؟ . . أما لووا رغبته عنوة ، تهديداً بالسيف ، ليرتضى لطائفته أبا موسى حكما وقد كان قليل الثقة فيه ، عارفا بضعفه عن الصمود لابن العاص ، وبافتقاره للقدرة على الطفو إلى مستوى الحدث الكبير حدث التحكيم ؟ . . لقد عانى الراسبي جريرة رأيه ، وطعم منها حسرة دفعته — في لحظة من لحظات استفاقة الضمير — إلى الجهر بذنبه وذنب أصحابه ، فقال :

« ندمنا على ما كان منا ومن يرد سوى الحق لا يدرك هواه ويندم
خرجنا على أمر فلم يك بيننا وبين على غير غاب مقوم
فجاء على بالتى ليس بعدها مقال لذى حلم ولا متحلم
رمانا بعمر الحق إذ قال جئتم إلى بشيخ للأشاعر قشعم

فقلتم رضينا بابن قيس وما انا رضا غير شيخ ناصح الجيب مسلم
وقال : ابن عباس يكون مكانه فقـــالوا له : لا لا ألا بالتهجم
فما ذنبه فيه ، وأنتم دعوتم إليه عليا بالهوى والتقحم ؟ »

وأيما عبارة من أمثال هذه العبارات ، وكيفما انتقلت بها إلينا الأخبار عبر العصور ، فقد ثبت أن ميدان الوقعة اضطرب بالملاحاة أشد اضطراب وأعنفه. بل قد ربا هذا الاضطراب إلى ذروة الغليان حتى أوشك أن ينقلب إلى انفجار تتلون بالدماء أطرافه وحواشيه . . فابن عباس يهدد ويثور ثم ينقض ، فى غضبته الغامرة ، على أبى موسى يسبه ويلعنه حتى ليبدو كأنه يهم أن يبطش به . والشيخ ، فى لحظة خزيه ، يهتز ويتلعثم ، ولا يجد لنفسه عذرا إلا أن يهمهم بذلة المقهور :

« غرر بى . . إنما كان غدرا من عمرو . . »

وشريح بن هانئ ، الذى دافع بدء التحكيم عن الأشعرى ، تملكه الحسرة على خيبة ظنه فى صاحبه ، فتمتلئ نفسه — مع الخيبة — بثورة عارمة يجرفه تيارها إلى موضع الحكمين اللذين خانا الأمانة وخذلا الله . لكنه — فيما بدا — يلقى ابن العاص منفوخ الصدر مصعر الخدين من خيلاء ، فلا يمهله أن يستمتع بخيلائه ويقنعه بسوط فى عينيه إذ هو أعتى الخائنين وأحقهما بالحساب العسير . . ويلمح ابن لعمرو هذه النزوة فيخف إلى نجدة أبيه ، ثم توشك حلقة الشجار أن تتسع لولا أن يكفها بعض الناس . .

فإذا سكنت الحدة هونا ، انكفأ سعيد بن قيس الهمدانى ، إلى الحكمين يجبههما برأيه فيما أتيا به — بعد تلك الليالى الطويلة من المفاوضة والحوار — وإنه للرأى الذى يكنه آنذاك الجمهور الصاخب ، المنكر لما تمخضت عنه مهزلة التحكيم . . يقول الرجل لهما فى طمأنينة راسخة مبطنة بالازدراء :

« والله لو اجتمعتما على الهدى ما زدتمانا على ما نحن عليه . وما ضلالكما بلازمنا . وما رجعتما إلا بما بدأتما . وإنا اليوم لعلى ما كنا عليه أمس » .

وأنصف فيما قال . فالحكم الذى قضيا به لم يأت بجديد . إنما قد جمد الزمن ثم لوى عنقه كما تلوى عنق الناقة لتحملها على العودة إلى الوراء ، كرة ثانية ، إلى أول الطريق ! . . إنهما ارتدا القهقرى . رجعا بالفتنة إلى حيث كانت قبل التحكيم . .

وتشاتم عمرو وأبو موسى . . .

وصاح كردوس بن هانئ مغضبا هادر النبرة والأحاسيس :

« ألا ليت من يرضى من الناس كلهم بعمرو وعبد الله في لجة البحر !
رضينا بحكم الله لا حكم غيره وبالله ربا والنبي وبالذكر
وبالأصلح الهادي على إمامنا رضينا بذاك الشيخ في العسر واليسر
رضينا به حيا وميتا وإنه إمام هدى في الحكم والنهي والأمر
فمن قال : لا ، قلنا : بلى إن أمره لأفضل ما نعطاه في ليلة القدر
وما لابن هند بيعة في رقابنا وما بيننا غير المثقفة السمر . »

وكذلك انطلق الأمر ، ومضى الوقت ثقيلا بطيئا ، والجو آنذاك ملىء بصراع جدلي ، مشحون بشرارات الالتحام ، فالفريقان يتناولان الحكم من حيث يحب كل منهما أن يراه . بالحجة الساندة المؤيدة ، أو بالحجة القاصمة الهادمة . والنقاش بينهما يحتدم حتى لينذر بقتال ... وعندئذ يقف يزيد بن أسد القسري ، القائد الأموي، وقد خشي المغبة، يخاطب مناوئي فريقه ، بلفظ رطيب ، كأنما ليستفيئهم إلى الرضا بما كان :

« يا أهل العراق ، اتقوا الله ، فإن أهون ما تردنا وإياكم إليه الحرب ما كنا عليه بالأمس وهو الفناء . وقد شخصت الأبصار إلى الصلح ، وأشرفت الأنفس على الفناء ، وأصبح كل امرئ يبكي على قتيل . ما لكم رضيتم بأول أمر صاحبكم وكرهتم آخره ؟ . . إنه ليس لكم وحدكم الرضا . . »

وصدق الرجل إذا قيس كلامه بمنطق الأحداث وإن لم يصدق بمقياس شريعة الحق والضمير . . فالعراق ارتضى التحكيم ، وارتضى مبعوثه إليه . لكن الحكم قد جاء على خلاف الصحيفة فأهدر المبدأ المرتضى الذي لا سبيل إلى إهداره أو تنتفى صحة الحكم ولا تصبح له ولاية على الناس . .

وكذلك انفض القوم وفي القلوب سخط أو حذر ، وأمام البصائر والأبصار سحائب خطر تنذر بانبعاث الفتنة كرة أخرى كحالها عند وقف القتال . ومع ذلك فلم يسكن اللفظ ، ولم تقر الألسنة خلف الشفاه . إنما استعرت حرب لفظية ، هنا وهناك بين الفريقين لم يغب عن الانخراط فيها امرؤ له لسان ورأى من هذا

الصف أو من ذاك . . واحد فقط بين الجمعين بلع لسانه وزم فمه خشية أن تشى به ألفاظه وتفصح عما يخفيه . ذلك هو الأشعث بن قيس الذى أرادها منذ البدء سلما مخزية وإن اشتراها بالقيم القوية ، وبإمامه وبنخوة الرجال ! . .

وانطلق أصحاب على ، من ميدان الخدعة ، صوب الكوفة ، فى ركب الخيبة ، وإنهم ليجترون الندم واللوعة ، وعلى رأسهم شريح بن هانئ يكاد يشرق بحسرته وهو يشد بيمينه على سيفه ويقول :

« ما ندمت على شىء ندامتى على ضرب عمرو بالسوط . ألا أكون ضربته بالسيف ، آتيا به الدهر ما أتى ! . . »

١

فى رحاب الكوفة استشعر أصحاب على الراحة . .

كانت راحة على تفاوت ، تصنف بمستوياتها أولئكم الرجال ، وتفرقهم فرقا لا يكادون يلتقون إلا فى الصحبة ، ثم إذا هم جميعا أمامها طوائف شتى يفترقون فى طوابع النفس ومثيراتها كما يفترقون من بعد فى الاتجاه والسلوك . .

فالأولى خلصوا له — لوجه ربهم — وجردوا نفوسهم من هواها دخلوا البلدة خفاف المؤونة ، قد انزاح عن قلوبهم ثقل العهد الذى التزموه — حتف أنوفهم — عندما فرض عليهم التحكيم . فعلى كره كانوا قد ارتضوه . وعلى مضض صبروا الليالى الطويلة ينتظرون عقباه . وعلى أسف وموجدة سمعوا الحكم . ولكنهم الآن وقد جبهتهم المكيدة ارتدوا مرة أخرى أشد ما يكونون تعلقا بإمامهم ، وثقة فيه ، وإيمانا بالنظرة الصائبة التى رمى بها عبر المستقبل إلى هذا الكيد الذى حذرهم إياه يوم استجابت كثرة أنصاره إلى خدعة المصاحف وحملته على قبول دعوة الأمويين .

والأولى لم تخل قلوبهم من دخل ، فصاحبوه على حرف ، وأحيوا بسيرتهم حياله — فى سرهم أو علنهم — سنة النفاق كعهد طغمة مثلهم فى فترة الرسالة الإلهية وحياة الرسول ، استشعروا الراحة فى تحقق رغبتهم ، وانتهاء التحكيم بما أكنت ضمائرهم الغاشة ، وما اشتهت نفوسهم الموروبة . فما كانت ميولهم وصبواتهم — التى كتمتها الشغاف دائما ووشت بها الألسن أحيانا على حين غرة منهم — إلا سلما ترد عنهم نهكة الحرب وغوائلها ، وترد عليهم الأمن ، وإن كانت سلما مخزية ، وأمنا فى حساب الأجسام الصماء والضمائر المسترخية لا فى حساب شرعة المروءة الأبية والأفهام المستضيئة الواعية . .

والجمهرة ، بعد أولئك وهؤلاء ، من الناس ، طعموا أيضا الراحة . ولكنهم طعموها كما يبلع المرء — وهو غافل — قطعة حنظل خالطت طعامه ، فلا يفيده أن يلفظ بقايا مالاك وقد تسرب المر إلى جوفه ، وبطن بمذاقه الكريه فمه ولسانه إلى البلعوم وما وراء البلعوم . . إنها إذن راحة اليأس والاستسلام .

ولم تخل النفوس ، مع هذا ، من ألم ، ولا الوجوه من وجوم إذا ما تصفحت الصفوف العديدة التى تجمعت هنا وهناك من ميدان الحكم ، ومن أرجاء البلدة ومشارفها ، وراحت تحث المطى والأقدام إلى مستقر الإمام كلهم واجم وكلهم حزين . حتى أولئك المدخولون من زمرة النفاق ، طلوا وجوههم بالأسى ، ولونوا شفاههم بالاكتئاب رياء الناس .

على الوجوم عاشت الكوفة ، وعلى البشر — فيما تراءى لأهلها — كانت دمشق ، ومالاذ بها من مدائن ، ذلك اليوم العصيب المشهور ، حرية بأن تعيش . . فلقد ترامت الأخبار حينذاك فى جنبات القصبة العراقية ، على ألسن العائدين ، بما انطلقت به الرسل من أهازيج النصر المشبوه إلى صاحب الشام . . كثيرون من أنصار معاوية تلقوا الخدعة الضالة — وما كان الحكم إلاّ ضلالة — بالهتاف والتهليل . . وكثيرون أفصحوا عن خلجاتهم بالنثير والنظيم . . وكثيرون خفوا إلى مطاياهم يرمون بها قبلة أغراضهم ومنتجع مطامعهم حيث يقبع معاوية ، يرومون عنده دنياهم . . حتى ابن العاص لم يصبر نفسه إلى حين اللقاء المنتظر وتعجل الزمن فى كتاب مع رسول طوى الصحراء فور الخدعة ، ليزف بشراه إلى مولاه . . .

قيل إنه كتب إليه :

« أتتك الخلافة مزفوفة	هنيئا مريئا تقر العيونا
تزف إليك زفاف العروس	بأهون من طعنك الدارعينا
نخذها ابن هند على بعدها	فقد دافع الله ما تحذرونا
وقد صرف الله عن شامكم	عدوا مبينا وحربا زبونا »

ولقد افترى عمرو — لا شك — على منطق الحقيقة فى كتابه وحمل خدعته مالا تطيق . فما أبرمت لصاحبه بحكمه بيعة ، ولا دانت له خلافة إلا أن يقال إن ابن العاص قد ارتضاه المسلمون عامة ، فى كل جوانب الدولة ، ليقضى لهم برغبتهم ، فملك عنهم حق تقرير المصير .

ومع ذلك فلا ينكرن أحد أن معاوية بعد الحكم لم يظل فى نظر كثيرين نفس معاوية قبله : مجرد عامل متمرد على السلطان الشرعى قد اجتمعت قوى الدولة — خارج إمارته — لرده إلى سواء السبيل . كلا . بل تغيرت الحال واختلفت

الظروف . وفى حساب الأرباح والخسائر نستطيع أن نضعه فى الجانب الأول ثم نضع السلطة الشرعية فى الجانب الثانى ونحن بهذا لا نجانب الصواب . . .

لا شك ولا مراء . فالرجل بالحكم المأفوك — ومنذ خدعة المصاحف كذلك — قد سمن واستنطار . . . كفته النكسة ، التى أصابت جيش على عندئذ بوقف القتال ، شر هزيمة كان يمكن أن تحيق به وبفلول أجناده المنسحقين بين رحى القوات العلوية فى صفين ساعة الهجوم الأخير . . . وكفته مرارة الاستسلام وذل التسليم . . وكفته عاقبة الخارجين المتمردين . ثم هى قد ردته إلى شامه موفور السلامة ، يسعه بمنجاة عن الصراع أن يلعق جراحه ويستعيد طمأنينة عارضة يستروح منها شيئا من ثقة بنفسه ، وبرجاله ، وبأمله الطويل العريض الذى أوشك أن ينسكب جميعا فى حلبة القتال .

فإذا نحن رقبنا وضعه بالنظرة الشعبية العامة ، التى لا تستبطن الأمور ، ولا تغوص منها إلى الأغوار ، فهو حيالها وعلى بمنزلة سواء ، كفتان فى كفتى ميزان . . كلاهما خصيم وخصيم . وكلاهما يلوذ بالتحكيم . وفى ظل هذا الاستواء خليق بالإدراك السطحى الذى يفرزه جمهور الناس أن ينسى البون الشاسع بين وضعه ووضع الإمام فى القضية ، وما وراء هذا وذاك من اختلاف الأهداف ، وتفاوت الأقدار ، وتباين الآراء . . .

وإذن فقد كان حريا أن تهتز — قليلا أو كثيرا — « معنويات » أهل العراق لتماسك — بنفس المقدار — « معنويات » أهل الشام . وأن تصبح الشحنة النفسية التى تظاهر هدف معاوية أنشط وأقوى من غريمتها التى تظاهر هدف الإمام . وأن يغدو العزم ، فى الأرض الأموية ، أقوى وأصلب منه قبل التحكيم ، بينما مثيله ، فيما عداها — من أرض الدولة — قد تراخى وأخذ فى الانهيار . . .

« الروح المعنوية » إذن فى صفوف أهل الشام راحت ترتفع وتعز ، والروح المعنوية فى صفوف أهل العراق راحت تخبو وتهيض . ولقد رأى بعض الناس — وبحق رأوا — فى الحكم خيانة لأمانة العهد ونقضا سافرا للميثاق ، ولكنك مع هذا ما كنت قادرا على أن تمنع أنهام كثيرين — من معتزلة النزاع ، ومن الذين تناءت بهم الأبعاد، ومن ذوى الإدراك السطحى فى الجبهة العراقية أيضا — من

الوقوع فريسة اضطراب فكرى يوشك أن ينحاز بهم عن قضية الإمام . وما كانوا علومين إذ وقعوا وهذا مبعوث على نفسه ، الذى عاهده على الانتصاف ، يقرر خلعه سبيلا لا معدى عنه إلى لم شعث الأمة وقضاء على عوامل الخلاف . .

إلى هذا كله نستطيع أن نقول إن إطار الصورة الماثلة كان يضم — فى الجانب الأموى من اللوحة — خطوطا من أضواء عدة أضفت على وضع معاوية كثيرا من البريق . فالعاهل الشامى قد أملى له زمنه فى فسحة من الوقت ، منذ وقف القتال إلى ساعة الحكم ، استطاع فيها إعادة تنظيم جيشه ، وتكتيب كتائبه وألويته ، والاستزادة من الأنصار . ولم يكن عسيرا عليه عندئذ أن يجتذب المخدوعين أو يشترى بدنياه كل طامح إلى منصب ، راغب فى جاه ، متطلع إلى ثراء . . فإذا نقلنا النظرة إلى الجانب العلوى بداخل الإطار ، طالعتنا أطياف ظلال قد أخذت تكثف وتتراكم لتطمس بعض ملامح هذا الجزء وتنشر فوقه سواد الضياع . فالخلاف قد نشب فى صفوفه ثم حمى وشاع . والناس غدوا فى جدل « سفسطائى » عابث — لنصرة هذا الرأى أو نصرة ذاك — نسوا معه جوهر القضية ، وهدفها ، وتشيعوا شيعا مع الفروع . . فرفع المصاحف حيلة غادرة أو احتكام مشروع . والتحكيم خطأ أو صواب . والحكم نفسه باطل مردود لذاته أو مرفوض لأنه استند إلى غير أساس شرعته الصحيفة طريقا إلى القضاء السليم . والقتال بعده مفروض لازم أو هو مشروط برجوع من ارتضوا التحكيم عن نظرتهم الأولى إليه وإقرارهم على أنفسهم — وفيهم على — بالكفر إذ قبلوه ، ثم نزوعهم إلى التوبة لتحق لهم استجابة الأمة لمعاودة الحرب المقدسة وهم أطهار خلصاء أو يفرض قتالهم — إن لم ينزعوا — على كل مؤمن لأنهم مارقون كفار !

عديد من هذه المناقشات ملأ الأفهام والأفواه . وعديد وراءه من شراذم الأنصار أنبته الجدال والحوار . ومع ما نشأ من اضطراب الأفكار ، وكثرة الشيع الفكرية المتناجزة من خطر يهدد القضية ، فإن الخطر الأكبر عليها — ثم على الأمة الإسلامية ووحدتها إلى حقبة طويلة — كان يجثم فى فرقة الخوارج التى نجم قرنها ولما يبرح الجيشان ميدان صفين . فإذا نحن مسسنا ، ولو بالنظرة الخاطفة ، مواقع أقدام رجال الإمام ، لوقعنا فى كل ناحية منها ، على عراقيل وعقبات يوشك

معها أكثر القوم إيثار استسلام يغلفونه بالسلام ! . . ففي كل بيت دمعة على قتيل. وفى أغلب الأنفس استطابة لمذاق الدعة بعد نهكة الحرب ومرارة القتال . وفى الأكثر الأعم من الجمهرة ، وبعض القادة ، ميل إلى الدنيا ، التى حبس عنهم على زخارفها بقيمه الخلقية ومثله الرفيعة ، وخلى معاوية عنها نهبا مستباحا لمن اتبعوه أو هادنوه . .

ونشفق أن نسيح فى تيه بلا انتهاء لو حرصنا على تقصى كل أولئك الذين صبأوا إلى معاوية — فى هذه الفترة وما تلاها — من رجال الإمام . فما كان أكثر المرتدين أو الذين شغفهم إغراء عروض الحياة فتحينوا الفرصة للارتداد . وما كان أقوى سلطان الدنيا وزخرفها على أولئك وهؤلاء . وإذا كان ثمة فريق من همل الناس دفعتهم الغفلة إلى الصبوء ، فليس يعتذر بالغفلة لمن انشقوا عليه من خلصائه وأصحابه الأدنين وأساطين دولته الذين اجتباهم لمعاونته فى سياسة الحكم وضبط الأمور . إنما يفسر سلوكهم إذن بأنهم مغامرون ، أو عبيد منفعة ، يشمون الريح ثم يتجهون إلى حيث جيفة المتاع ! . .

من أمثال أولئك الخائنين يزيد بن حجبة التيمى : كان عاملا لعلى على الرى ودستبى ، وشهد معه الجمل وصفين والنهروان . ولئن كان صبوؤه قد جاء بعد فترة من الحكم ولم يجئ نتيجة مباشرة له فيما يلوح ، فإنه مع ذلك مثل من الحفنة الضالة التى كانت تراودها أطماع الذات عن ولائها ، وتتحين السوانح للخروج على هذا الولاء . إنه أحد الذين شغفهم الإغراء . وواحد من شرذمة تتمثر فيها أقدام عابرى التاريخ — طوال عهد الإمام من بدء سلطانه إلى ساعة أفول شمس هذا السلطان — قد استبدت بأفرادها الأشقياء نزغات الأنفس المريضة ، الكافرة فى كل مكان وآن بقيم الأخلاق ، المؤمنة دائما بالأثرة ، المنهومة أبدا إلى مزيد وإن كان من حرام . . .

فكذلك كان يزيد لم يغن عنه جاهه ، ولم يغن عنه منصبه ، فامتدت يده الجشعة إلى مال المسلمين فى عمالته ، يقتنص منه ما شاء ، ثم ينطلق بالغنيمة إلى رحاب معاوية لائذا لديه ، كأشباهه ، بملاذ يعصمه من عاقبة شرهه ، ناعما عنده بما ينعم به كل غر مفتون لا تكلفه النعمى سوى الغلو فى مدح عاهل الشام

والإغراق فى هجو الإمام . . ولقد دفع الهارب الطريد الثمن ، فمدح وقدح ، ثم مدح وقدح ، ثم مدح وقدح ، فلما عاتبه ابن عم له بشعر كتبه إليه ، منكرا فعله مقبحا ردته ، لم يجد لنفسه حجة تستطيع مواجهة إنكار صاحبه ، وآثر أن يسند صبوءه إلى الأحداث التى جرت فى الجانب العراقى ، كأنما لم يشارك هو فيها ، ولا كان أحد صانعيها بالقول والسلوك والسلاح ! . .

قال يجيب :

« لو كنت أقول شعرا لأجبتك . ولكن قد كان منكم خلال ثلاث لا ترون معهن شيئا مما تحبون : أما الأولى فإنكم سرتم إلى أهل الشام ، حتى إذا دخلتم بلادهم ، وطعنتموهم بالرماح . وأذقتموهم ألم الجراح ، رفعوا المصاحف فسخروا منكم ، وردوكم عنهم ، فوالله ووالله لادخلتموها بمثل تلك الشوكة والشدة أبدا . والثانية أن القوم بعثوا حكما ، وبعثتم حكما ، فأما حكمهم فأثبتهم ، وأما حكمهم فخلعكم ، ورجع صاحبهم يدعى أمير المؤمنين ، ورجعتم متضاغنين . . والثالثة أن قراءكم وفقهاءكم وفرسانكم خالفوكم فعدوتم عليهم فقتلتموهم . .

« أحببت أهل الشام من بين الملا   وبكيت من أسف على عثمان
أرضا مقدسة وقوما منهم   أهل اليقين وتابعو الفرقان »

فأين إذن كان أسفه ، من قبل ، إذ رفع سيفه ينصر عليا فى المعارك الثلاث ؟ . . وبأية حجة حارب بصفين أولئك الذين سماهم أهل اليقين والفرقان ؟ . . وفيم إزراؤه على الإمام وأصحابه « العدوان » على الخوارج وقد كان هو من رءوس أولئك « العادين » فى النهروان ؟ . .

على أى حال يطول بنا المدى كل مطال لو أخذنا أنفسنا باستقصاء كل الظلال الداكنة فى الجانب العلوى من الصورة . فالسواد لا ينحسر ، وبقعه لا تسكن ، بل تسرح فتتسع كما تسرح قطرة الزيت فى النسيج . وإذا كان ثمة جمال يغنى عن الإفاضة ، فإن صفوف الإمام بعد الحكم راحت تعتورها عوامل للتفكك والانحلال يقر بها لسان الحال ولا ينكرها لسان المقال . فيها تفرق الرأى ، وفيها ثبوط الهمة ، وفيها تلويح الدنيا لأخدانها بسطوة الجاه وزبرج المال ، ثم فيها قبل هذا وبعده كله ميلاد قوة جديدة ، غالية فى اللدد والخصام ، فى نفس هذه الصفوف ، تتربص بها الدوائر ، وتنتظر فرصة مواتية للانقضاض على إخوة السلاح والكفاح ! . .

٢

عقد على مؤتمرا من رجاله . .

كانت اللحظة حازبة . الحكم المفترى قد ملأ الأسماع . العجب فى العيون . السخط فى الصدور ... فى شطحات الخيال الجامحة قصرت الأذهان قبل وروده عن التنبؤ به ، وعجزت الأفهام — حيال مقدماته — عن توقعه — قليلون عند اختيار الحكمين كانوا فى شك من قدرة أبى موسى على مصاولة عمرو ، ولكنهم كانوا فى حمى من عجزه عما نصت عليه الصحيفة . أقصى ما بلغته خشيتهم إذ ذاك أن ينصح الأشعرى عما فيه ، فيقيلهم بيعتهم ، ويردها شورى يختارون بها امرأ لم ينغمس فى الخلاف . أى أن ينساق لغفلته ، ويصبح مطية ذلولا لخدعة ابن العاص ، فهذا ما لم يجل لهم مطلقا فى بال . .

ووقفوا على ترقب . ماذا عسى أن يفعل الإمام ؟ . . ما رأيه فى الخدعة ؟ ما موقف قادتهم ؟ . . ما هو المصير الذى يوشك أن يرسمه هذا الحدث الخطير وإلى أى مدى يمكن أن تعاون على رسمه طوائف الأمة هنا ، وهناك ، فى الكوفة وفى غيرها من الأمصار ؟.. أحرب عجلية ، أم سلم مخزية ، أم هدنة مسلحة تجمد الوضع إلى حين بين الحرب والسلام ؟ . .

وتوقعوا أن يطلع عليهم على ببيان للناس ، يشخص الداء ، ويحدد العلاج . ولكنه لم يفعل . لم يحب أن يصدر فى فعله عن غير مشورة . فرأى الجماعة أولى بأن يتبع . وألسنة الخلق أقلام الحق ، كما قال

وجمع رجاله يتناولون الأمر بالمناقشة وتبادل الآراء ..

وبدأ عدى بن حاتم :

« أما والله ، يا أمير المؤمنين ، لقد قدمت القرآن ، وأخرت الرجال ... »

وما أحسب الرجل حين نطق بقوله كان ينكر على على قبوله التحكيم . فما هو عن خالجتهم فى حكمة الإمام ريبة . ولا هو بمتهم عنده حين يحاسب امرؤ على وفائه وولائه . ولو رجعنا القهقرى قليلا لوجدناه من خير أصحاب الإمام غيرة على قضيته ، وتحمسا لحقه ، وفى إبان محنة رفع المصاحف كان من القلة التى رأت إباء

الاحتكام إلا للحرب فيصلا يرد كيد الغاوين ... ولقد قال إذ ذاك لعلى يمحضه رأيه الخالص الصريح :

« يا أمير المؤمنين ، إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق فإنه لم يصب عصبة منا إلا وقد أصيب مثلها منهم ، وكل مقروح ، ولكننا أمثل بقية منهم . وقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلا ما تحب . فناجز القوم ... »

ثم قد كان أيضا محبا لعلى ، غاليا فى حبه وإن جاء هذا على حساب أهله وولده ... مر أثناء الهدنة ومعه ابنه زيد ، فشهدا حابس بن سعد الطائى ، حامل راية طىء بالجيش الأموى ، قتيلا على أرض الوقعة ، فهتف زيد من جزع :

« يا أبه .. هذا والله خالى . »

قال عدى وليس فى قلبه على القتيل ذرة من أسف :

« نعم . لعن الله خالك ، فبئس والله المصرع مصرعه .. »

لكن الولد لم يكن كأبيه إيمانا وثقة ، فانحرفت به عاطفته — والحرب عندئذ موضوعة — إلى قاتل حابس ، فصرعه على حين غرة منه ، ثأرا لقرباه ظالمة ، كثارات الجاهلية ، فيها خيانة للعهد ، ونقض لاتفاق وقف القتال ..

هنا هاج عدى ، وصاح بابنه :

« يا ابن المائقة ! .. لست على دين محمد إن لم أدفعك إليهم .. »

وحمل عليه .

لكن زيدا اتقى الحملة بفرس طارت به بعيدا عن غضبة أبيه إلى الشام ، لاحقا بمعاوية يلقى لديه ما يلقاه أمثاله المارقون ..

وكم حزت جريرة الولد فى الوالد ، وكبر عليه إفلاته من العقاب العادل ، فكان يرفع يديه داعيا عليه :

« اللهم إن زيدا قد فارق المسلمين ، ولحق بالمحلين . اللهم فارمه بسهم من سهامك لا يُشوى ، فإن رميتك لا تنمى ... »

ولكم غدت فعلة زيد شيئا لعدى — فى نظرة أناس مبهتين — يزرون بها عليه ، ويطعنون فى أمره ، ويلحقون به إفكا هو منه براء ، فمضى الأب الأسيف المظلوم إلى إمامه يبلغه ذوب قلبه ، وهو يشكو ويستنصف .

« يا أمير المؤمنين . . أما عصم الله رسوله من حديث النفس والوساوس وأماني الشيطان بالوحي ، وليس هذا لأحد بعد رسول الله ؟ . . فقد أنزل في عائشة وأهل الإفك ، والنبي خير منك ، وعائشة يومئذ خير مني . . وقد قربني زيد للظن ، وعرضني للتهمة غير أني إذا ذكرت مكانك من الله ومكاني منك ذهب حناني ، وطال نفسي . . والله أن لو وجدت زيدا لقتلته ، ولو هلك ما حزنت عليه . . » .

كلا ، لم يكن عدي يتهم في ولائه ، ولا شاء أن يعتب بكلمة عن التحكيم شيئا على علي ، أو يطعن في رأيه عنه ، وإنما أراد أن يرسم بحديثه حقيقة ما وقع ، بيانا وتذكرة . .

ولم يدعه الإمام . إنما استقبل قوله بالجواب الذي يكمل حقيقة الحال ، ويتم جوانب الموقف فلا يدع ثغرة لتأول ولا ادعاء .

قال :

« إني قد أخبرتكم بالأمس أن هذا يكون وجهدت أن تبعثوا غير أبي موسى فأبيتم . . »

فغدت سقطة الأشعري ، على الأثر ، محور النقاش . .

خاض المؤثرون فيها ، وكل يترجم عما أودعته في نفسه من مرارة ، ويحاول أن يردها إلى هذا السبب أو إلى ذاك . . . فالسقطة وليدة خدعة ماكرة عرفت كيف تأخذ طريقها إلى الحياة من خلال غفلة جبلت عليها طبيعة الشيخ المأفون . . أو هي نتيجة حتمية الحدوث لميل قديم عن مؤازرته إمامه له علائمه وسماته منذ وقف بالبصرة يثبط الناس انتصارا للاعتزال . . أو هي خيانة مقصودة لحق موكله عليه ثم لأمانة القضاء . . أو هي قبل هذا كله كفر وضلال لأنها جاءت على حساب إهدار حكم القرآن . . .

وأكثروا ما شاء إكثار . .

فقال الحسن :

« . . قد أكثرتم في أمر أبي موسى وعمرو ، وإنما بعثا ليحكما بالقرآن دون الهوى ، فحكما بالهوى دون القرآن . . . »

وعقب عبد الله بن جعفر يضيف بكلامه إلى الصورة الماثلة بضع لمسات :

« . . هذا أمر كان النظر فيه لعلي والرضا فيه إلى غيره . . جئتم بأبي موسى فقلتم : قد رضينا هذا فارض به . . وأيم الله ما أصلحا بما فعلا الشام ولا أفسدا العراق ، ولا أماتا حق علي ولا أحييا باطل معاوية . . ولا يذهب الحق قلة رأى . . »

عندئذ عاد الإمام يجمل قصة الماضي وإنه في إجماله ليضيف بسبب جوهري من أسباب النكسة لم ير أحدا من أصحابه قد عرض له ، لا بإطناب ولا بإقصار . .

قال والمر ملء فيه :

« . . إني كنت تقدمت إليكم في هذه الحكومة فنهيتكم عنها ، فأبيتم إلا عصياني ، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم علي ؟ . »

فحملتهم كلماته فورا على أجنحتها عبر الماضي إلى صفين ، واشتداد الوقعة ، وليلة الهرير ، ثم إلى المصاحف التي رفعها أهل الشام ردءا لهم من هزيمة مؤكدة نكراء . . فلعلهم الآن — بعين التذكر — يرونه ، وقد حاول تجنيبهم إغراء الدعوة ، يصيح بهم محذرا :

« دعوة حق يراد بها باطل ! . . »

ولعلهم يسترجعون في بالهم قوله :

« . . والله ما رفعوها لأنهم يعرفونها ويعملون بها . ولكنها الخديعة . . . »

ولعلهم تتردد في آذانهم — اللحظة — كالهزيم ، صيحاته اليائسة ، يجهد بها أن يردهم عن تخاذلهم :

« . . أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة ! . . قد بلغ الحق مقطعه ، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا . . . »

لكنهم — الأكثرين منهم — أبوها عليه ، وخالفوه . . عن غفلة خالفوه . عن جهل . عن إغراء غاوين . . .

ومد بصره بين الجمع المؤتمر ، يتفحص الوجوه ، حتى إذا وقع بينها على الاشعث رماه من عينه بمثل سهم مسمومة ، وهو يواصل الحديث :

« . . كيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم علي ؟ . . والله إني لأعرف من حملكم

على خلافى ، والترك لأمرى ، ولو شئت أن آخذه لفعلت ، ولكن الله من ورائه . . »

ونكس الأشعث رأسه ، وتداولته العيون المنكرة حينا وهو — فيما حسبت — لايجسر أن يتأرها النظر . فها هو نتاج غرسه . ها هى الثمرة المشتهاة . ها هى السلم التى منى بها النفس ، ووضع جرثومتها — ليلة الهرير — فى قلوب قومه كندة ، ثم راح يتعهدها بتحريضه حتى أعدت بدائها كافة القلوب المهيضة والنفوس المريضة فى بقية الصفوف . .

ولم يكن الأشعث — بطبيعة الحال — الواحد الفرد الذى جرد النصر من ظفره ونابه ، ثم رمى به لقى مضيما على ثرى صفين . ولكنه كان باعث فكرة الموادعة ، ورأس مسانديها ، وعلما على كل من شارك فى تخليقها — بالدعوة الهينة ، أو بالتهجم العنيف — ثم استقبل ولادتها من بعد بالترحيب . ولقد كان حديثه ذاك لكندة — كما نعلم — بمثابة الشعاع الهادى الذى انبثق فجأة من جانب الغيب لأصحاب معاوية ، فرأوا تحت وهجه من بين محنتهم المدلهم ، ثغرة إلى النجاة ، وأسعفتهم آنئذ قرائحهم بحيلة المصاحف مطية ذلولا إلى هذه النجاة . .

وعاد الإمام ببصره كرة أخرى إلى الجمع ، وقد استرد هدوءه ، وعدل بقوله عن موالاة التعريض بعرف النار ! . . فلا سخط على الرجل الآن يعيد الزمن إلى الوراء . ولا جدوى على المسلمين من إثارة حفيظتهم على باعث النكسة ، هذه اللحظة التى دعاهم فيها لجمع الكلمة ولم الشتات . إنما الخير فى أن يختم حوار المؤتمرين بكلمة موجزة تهيب بهم أن يسلكوا الطريق الوحيدة إلى إصلاح الخطأ الذى جرهم إليه تفرقهم عنه ، واختلافهم عليه . . .

ووقف يخطب القوم ، وإن أسى نفسه ليشمل نبراته وكلماته :

« الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدث الجليل . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ليس معه إله غيره ، وأن محمدا عبده ورسوله . . .

أما بعد ، فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب ، تورث الحسرة ، وتعقب الندامة . وقد كنت أمرتكم فى هذة الحكومة أمرى ، ونخلت لكم مخزون رأيى لو كان يطاع لقصير أمر ! . . . »

فانتقل ، غب كلمته هذه ، إلى أذهان سامعيه مشهد من مشاهد التاريخ عفا الزمن على سطوره ولم تبق منه إلا ذكرى . . . بدت لهم ، فى تصورهم المسترجع ، الزباء ملكة الجزيرة ، وهى تجرد حسنها الخلاب لاستهواء جذيمة ، وتبعث بدعوة لينة له ، ليلحق بها فى قصرها ضيفا ، فرفيقا ، فزوجا يشاركها عرين الحكم والحب والحياة . . . وبدا لهم قصير مولى جذيمة معترضا طريق سيده ، قاطعا عليه رغبته فى رحلة المتعة المرتقبة والسلطان المهيأ الميسور . . . لكن جذيمة المدل بقدره ، الواثق من موقع نفسه عند الزباء ، يسخر من رأى قصير ، ولا ينتصح به . . . ثم يمضى شوطه على الدعوة الملساء فإذا هو عندئذ بوكر حية ، تنزو عليه ، وتستقبله أتعس لقاء ، بقبلة الغدر والموت ، لا بقبلة الوفاء والصفاء !..

واستمر الإمام يواصل خطابه :

فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضن الزند بقدحه ، وكنت وإياكم كما قال أخو هوازن :

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد »

فكذلك كان حاله وحالهم وهو يأبى عليهم إجابة عدوه إلى دعوة التحكيم وهم يلحفون عليه فى القبول . أكثر فى محاجتهم ، وأكثروا فى الإلحاح عليه حتى بدا — من كثرة اجتماعهم على خلافه — أنهم دونه على الصواب .. وهل نظرته إلى الأمر ونظرتهم إليه إلا رأى ونظيره ، ما دام هذا يخطئ فإن ذلك يصيب ؟ . .

لكأنه عندئذ ، بلسان حاله ، قد ود أن يستطرد من قول الشاعر إلى حيث يقول :

« . . فلما عصونى كنت منهم ، وقد أرى غوايتهم ، أو أننى غير مهتد
وما أنا إلا من غزية ، إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد »

ثم ختم كلامه بفصل الخطاب :

« . . . أيها الناس . .

إلا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين ، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما ، وأحييا ما أمات ، واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله ، فحكما بغير حجة ، ولا بينة ، ولا سنة ماضية . واختلفا فى حكمهما . وكلاهما لم يرشد ، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . . . فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا

المسير إلى الشام ، وأصبحوا فى معسكركم يوم الاثنين إن شاء الله . . . »

إذن فإنها الحرب . لا سبيل إلى إقامة الأمر على ساقه إلا بوصل ما انقطع ، والعودة إلى الاحتكام مرة أخرى للسيف . لا حيلة ولا مناص . فلقد ضل الحكمان وأخفقا فيما ندبا له . طمسا معالم الصحيفة . استذلا القضاء للأهواء . جارا أعنف الجور وأبغضه على كتاب الله . . .

٣

النخيلة خلية نحل . المكان يعج بالجلبة . الجنود تحتشد . السلاح يصلصل . أينما وجهت سمعك التقطت وقعا وقعقعة . الخطا تدب . الحوافر تخب . العدد تتراكم . أكداس من المؤن والذخيرة تترى . فى كل بقعة من المعسكر الكبير حركة لا تفتر ، كأنما الأرض به قد غدت بحيرة مزمجرة ، العدة والناس والدواب موجها الصخاب ، والكوفة ومنبعها الهادر . . جنباتها تضج بحياة تتهيأ للموت ، وتسعى إليه ، لأنه جسرها إلى الخلود . . .

ما من امرىء آمن واستيقن إلا أسرع وبكر . وما من امرىء شك وأراب إلا تلكأ وتعثر . فالدوافع شتى ، والنفوس على تباين . الذين آمنوا بإنسانيتهم دفعتهم القيم إلى الاحتشاد تأهبا لقتال لا تحق بغيره أهداف هذه الأمة التى أوشك أن يميل بها جموح بعض أبنائها إلى مزالق الهوى والانحراف . فالحق قيمة . ونقاوة النفس قيمة . والخلق السوى قيمة . والدين قبل هذا وبعده رأس هذه القيم والفضائل . وإذا كانوا قد انقادوا فى سلوكهم وما يصدرون عنه من فعل أو قول لأمير المؤمنين فلأن نظرته نظرتهم ، وإيمانه إيمانهم ، وشخصه هو العلم الذى يرمز لهذه المثل العالية وتلتف جموعهم حوله نضالا وتضحية . . . والذين آمنوا بذاتيتهم دفعتهم النخوة إلى مواقعهم : لا نصرة للحق بل نصرة للنفس ، ودفاعا عن مظاهر الشرف والحياة التى لا تتأكد بغيرها ولا تعتز هذه الذاتية . . والذين كانوا من الأمر فى شبهة ثم أغذوا الخطا إلى المعسكر ، فى تلكؤ وتعثر ، إنما خطوا إليه على كره ، رئاء الناس حتى لا يعيروا بين ظهرانى القوم بالنكوص والجبن والصبر على الضيم .

ومع ذلك فقد تخلفت عن الحشد فئة اشتهرت بالورع والتقوى ، وارتفعت بها حماستها الدينية إلى ذروة أوشك إلا يدانيها لديها مدان حتى لقد حسب الناس

أنها بحق رأس الإيمان . . تخلفت عن النخيلة الحرورية ، أصحاب الثفنات والجباه السود من فرط الركوع والسجود ، وغابت اليوم عن مشهد هم أولى — فى حساب الإيمان — بشهوده والسعى إلى تحقيق غايته وبلوغ عقباه . .

فما خلفهم ؟ . . ما أقعدهم اليوم عن مؤازرة إخوانهم المتهيئين لإخضاع الشام بالحديد والنار وقد أعياهم إقناعها بمنطق البيان وحكم القرآن ؟ . . ما أخرهم اللحظة وإنهم عند التحكيم وبعده وإلى الآن لأصحاب الدعوة إلى القتال ؟ . .

وكتب على إليهم يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين ، وعبد الله بن وهب ، ومن معهما من الناس :

أما بعد ، فإن هذين الرجلين اللذين ارتضيا حكمهما قد خالفا كتاب الله ، واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله ، فلم يعملا بالسنة ، لم ينفذا للقرآن حكما فبرئ الله ورسوله منهما والمؤمنون .. فإذا بلغكم كتابى هذا فأقبلوا ، فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم . ونحن على الأمر الأول الذى كنا عليه . والسلام . »

ودفع بكتابه إلى الرسول .

ولم تكن مواقعهم بخافية عنه . ولا حالهم وموقفهم .. فى الأيام القلائل التى تلت الحكم تكاتبوا ، وجمعوا شراذمهم ، ثم بيتوا الأمر على الهجرة — فى الله ، فيما حسبوا — إلى موطن سوى الكوفة ، لا يساكنون به قوما حادوا الله رسوله ، وحادوا عن السبيل إذ حكموا الرجال فى دين الله ! . .

فى خفية عن الأعين بيتوا الأمر . جلسات عديدة عقدوها ، خلف الأبواب ، وبين ظلمة الليل ، فى دور رءوسهم ومشيختهم ، يتذاكرون فيها الأوضاع ، والظروف ، وخطط المستقبل . ولم يكن همهم عندئذ أن يقلبوا وجوه الرأى من أجل استنباط وسيلة لنصرة القضية العامة ، وإنما الهم كل الهم هو كيف ينصرون رأيهم ، ويحملون الجماعة الإسلامية كلها عليه ، بالحجة والإقناع ، أو بالإرهاب والإكراه . ولقد تقطعت بهم آنذاك وسائل النقاش والجدال فاجتمع عزمهم على الصيال والقتال ...

وقال لهم شريح بن أوفى ، يحدد الخطة المثلى لتحقيق ما يريدون :

« نخرج إلى المدائن فننزلها ، ونأخذ بأبوابها ، ونخرج منها ساكنيها ، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا . . . »

فتريث زيد بن حصين هنيهة يفكر ، ثم جاء من لدنه بما يكف عن هذه الخطة الإخفاق :

« إن خرجتم مجتمعين اتبعتم . ولكن اخرجوا وحدانا مستخفين ... فأما المدائن فإن بها من يمنعكم ، ولكن سيروا حتى تنزلوا جسر النهروان . . »

وفعلوا .

وانطلقت زمرة منهم ذات ليلة فى الشتاء من ليالى شوال ، مستخفين عن الأعين ، وعلى رأسهم شريح بن أوفى ، وهو يتلو كأنما يحصن نفسه وصحبه بما يقول :

« فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب أنجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . . . »

وسارت الشرذمة على الطريق للمدائن ، ولكنها لم تنس نصيحة ابن حصين فاتجهت دونها إلى ساباط . وما كان لها أن تدخل البلدة أو تقاربها ، وهذا أميرها سعد بن مسعود قد جاءه بنبأ مقدمهم ، فأخذ أبواب المدائن ، واستخلف عليها بعده ابن أخيه المختار ابن أبى عبيد ، ثم خرج إليهم يطاردهم بخيله ، حتى وقع على فئة منهم يرأسها عبد الله بن وهب ، فالتحم بها ساعة . . . لكن الليل حجزه عنهم ، وأفسح لهم بظلمته فى الفرار منه عبر دجلة إلى أرض حوفى ، فالنهروان حيث وجد بقية أصحابه وقد عسكروا بها على مثل الجمر من قلقهم عليه ...

وكذلك فعلت خارجة البصرة ، فانطلقت هى الأخرى إلى منتجع الفتنة ، يقودها مسعر بن فدكى . تسللوا أيضاً خفية ، ثم بلغ نبؤهم واليها عبدالله بن عباس ، فجرد لهم أبا الأسود الدؤلى فى قوة مطاردة ، تبعتهم إلى الجسر الأكبر ، وأوشكت أن توقع بهم لولا الليل الذى أمدهم بظلمة أكنتهم عنه ، وفتحت أمامهم طريق الهروب موفورين إلى حيث حشدهم الأكبر . .

والتأم الجمع بالنهروان أربعة آلاف قارئ وعابد أعمتهم عصبية الذهن وأضلهم

ضيق أفقهم عن التمييز بين الهدى والضلالة وإن واصلوا الليل بالنهار فى التهجد وفى تلاوة القرآن .. فما تغنى عنهم التلاوة . وما يغنى عنهم الصيام والقيام وإنهم ليقرأون فلا يعون ، ويأخذون بالحرف والعبارة وهم فى غفلة عن المضمون . .

وجاءهم كتاب الإمام ، فعلى أى وجه استقبلوه ؟ .

لكأنى بهم عندئذ خدود مصعرة ، وأوداج منفوخة ، وأعناق أتلعها الصلف والتيه إلى مسارح الغيم التى أطلعها عليهم الأفق الأشهب ذلك اليوم المشبع ببرد الشتاء ! . فما يخالونه إلا نصراً لرأيهم آزرتهم به أخيرا الأحداث . . ألم يعارضوا التحكيم ؟ . . ألم ينهوا عليا عن السير فيه ؟ . . ألم يحاولوا حمله مراراً عدة على نقض نصوصه عوداً إلى الاحتكام للقتال ؟ .. فما باله الآن يدعوهم للحرب التى أباها عليهم طوال أشهر ثمانية إلا أن يكون قد اهتدى إلى صوابهم ورآهم أخلصوه حقا النصح يوم خالفوه . .

لكن فى نفوسهم شيئاً ما زال يفصل بينهم وبينه ، ويضعهم وإياه فى طريقين لا يلتقيان .. إنهم فى الحق لا ينكرون أنهم أكرهوه ساعة رفع المصاحف على قبول التحكيم ، وأكرهوه بعدها على اختيار أبى موسى حكما يتحدث بلسانه وألسنتهم ، فقضوا بهذه وتلك للطائفة المبطلة بالنصر ، وعلى الطائفة المحقة بالخذلان . فالمحنة إذن ، التى رماهم الحكم فيها ، من غرس أيديهم ، والجريرة التى وقع فيها على هم الذين حفروا حفرتها تحت قدميه ثم جروه ليتردى فيها معصوب العينين مشدود الوثاق . ومع ذلك فما فتئوا أن تبينوا خطيئتهم ، فنزعوا عنها ، وتابوا إلى الله راجعين كرة أخرى إلى ما أرادهم قبلها عليه . أفلئن جاءهم الآن يستفيئهم إلى صفوفه ، ويدعوهم بنفس دعوتهم ، إنه إذن قد نزع نزعهم ، وحنت نفسه إلى التوبة ؟

طائفة منهم أخذت الأمر من أقرب موارده ، وودت لو لحقت به ما دام قد دعا بدعوتها ، وتهيأ لحرب المحلين البغاة بالشام . فلقد التقى الهدف بالهدف والنظرة بالنظرة ، وعاد السيل إلى مجراه . . .

وطائفة أخرى لج بها الكبر والعناد فلم تر فى الدعوة إلا وسيلة يحتالها لدعم سلطانه وقد تبدى له تهاوى أركانه ، فليس يرجو بها إذن وجه الله . . .

وطائفة بقيت على تذاؤب ، لا إلى هذه ولا إلى تلك ، فوقفت تنظر ما عسى أن ينجاب عنه الجدال ، وفى نفوسها بقية من ريبة فى موقفه وموقف الخارجة على السواء ، لا تستطيع معه أن تحسم ، أو ترجح إحدى كفتى الميزان . . .

لكن الذين شاقوه فى البدء هم الذين شاقوه أيضا اللحظة ، وعلت كلمتهم ، ثم نضحت رسالة الجماعة برأيهم فيه . .

كتبوا إليه :

« أما بعد . فإنك لم تغضب لربك ، إنما غضبت لنفسك . فإن شهدت على نفسك بالكفر ، واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . . . »

٤

أغضى عنهم ، فما يكرثه فعلهم . وليس حريا به أن يجعلهم هما يشغلونه عن الهم الأكبر . .

الشام اليوم هى همه . معاوية . الفئة التى خرجت على سلطان الإسلام وأصابته بصدع يشق وحدة الأمة ، ثم تذرعت بأخس الحيل وأخبثها لكى تعلى لنفسها فى البقاء . مجيشة المال ، مستغلة هوى الأنفس ، مستمينة بالدنيا ، متنكرة للقيم ، متلعبة بكتاب الله . . .

الخطر — فى رأيه — ليس فى فرقة من رجاله تخرج عليه . ولا فى سلاح يشرع لمناجزته وإن حملته حياله أكف قلة أو كثرة من مخدوعين أو مشاغبين كانوا إلى أمسه القريب من أخلص مظاهريه . . لا ، ولا أيضا من جحافل مرصوصة قد تحجب بحشودها ضياء النهار ليس يكرثه قط أن يكثر العدد ، ولا أن تجلب الدنيا عليه بالخيل والرجل والعتاد . ولا أن يقف وحيدا فى الميدان يناضل بيمينه وشماله عاريتين من أداة حرب تحميه . فالصراع عندئذ « بدنى » لن تكون خسائره سوى سلاح ، وضحاياه سوى أشلاء . . إنما الذى يقلقه الآن أنها حرب « خلقية » إن لم يتهيأ له النصر فيها ، جاءت العقبى وبالا على المبادىء المثلى التى شرعها الدين ، ووضع بها دعامة مجتمع فاضل ، ينبغى أن تسود

فى جنباته المعنويات على الماديات ، تنقية للنفس ، وارتفاعا بإنسانية الناس عن غرائز الدواب ! . .

ولقد ظل دائما فى باله هذا الخطر ، يراوده فى صحوه ونومه ، فى سره ونجواه . . فى صباه وهو غلام . فى شبابه وهو جلد ذو أيد . فى رجولته وفى كهولته وقد اجتمعت له قوة القلب والجنان إلى خبرة العلم وحنكة التجربة . إبان عطله من السلطان وإبان امتلاكه لناصية هذا السلطان . . . دائما دائما كان قدوة . دائما دائما كان يصدر فى فعله وفى قوله عن سلوك من يحس بالتبعة أمام ضميره ، وأمام الناس ، وأمام الله عن توطيد القيم الروحية التى لابد من غرسها وتنميتها فى خلائق البشر ، إن لم يكن إيثارا لها على مطالب البدن فتحقيقا للتوازن فى طبيعتهم المجبولة من وحدة حية ، ثنائية التكوين ، قوامها روح ومادة . فكذلك علمه محمد . كذلك شريعة الله . .

لكن معاوية شاء غير ما ينبغى أن يكون . وراح يشج ، بعمله ودعواه ، وحدة الكيان الإنسانى ، مميلا المادة فى الطغيان . . لتأكيد ذاتيته كان يفعل . لمأربه الخاص . للاستزادة من البطانة والأعوان . ولئن كان أسلوبه هذا غير مستحدث — إذ هو المركب الأبدى لكل وصولى ، من قبل ومن بعد ، إلى مراميه ، فإنه بلا ريب ردة عن الصراط . . فما أيسر الإغواء . وما أقوى سطوة الزخارف والعروض الدنيوية على النفوس . وما أسرع نزوع الأبدان المتممة الصماء — إذا ما كثفت شفافية الروح — إلى الأهواء ! . .

أجل ، فالهوى شهى طريقه قصير . والهدى ثقيل طريقه طويل . . ولقد كان الإمام يستعيد دائما فى خاطره حديث الرسول : « إن الجنة حفت بالمكاره ، وإن النار حفت بالشهوات » ثم يحذر أصحابه أن يذلوا للبدن فيقول لهم :

« ما من طاعة الله شيء إلا يأتى على كره ، وما من معصية الله شيء إلا يأتى فى شهوة . فرحم الله رجلا نزع عن شهوته ، وقمع هوى نفسه . »

وكان يعلم أن رياضة النفس تتطلب طاقة روحية تعي بحملها الأجسام ، وجهد لا يصبر عليه الأكثرون ، فكان يقول لمن ثبتوا فى ميدان هذا الكفاح ولم ينكصوا على قدم :

« لا تستوحشوا فى طريق الهدى لقلة أهله . . . »

وكان يقول :

— إنما الدنيا دار مجاز ، والآخرة دار قرار . فخذوا من ممركم لمقركم . . وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم . . إن المرء إذا هلك قال الناس : ما ترك ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ . . »

لكن الذى كان يروعه ويزيد ألمه ، أن يرى أناسا لهم صحبة مع الرسول ، أو من ذوى الشرف والأقدار الخليقين بألا يدوروا مع الريح ، يشترون بدينهم دنياهم ، نابذين وراءهم ظهريا لب الدعوة الإلهية ، ومهطعين كالسائمة إلى عروض الحياة. أولئك كان الحق يبهظهم ، والعدالة تعضل بهم ، والأنانية تقودهم بأخطامهم إلى تنكب طريق الإنسانية القويم . فإذا لم يكن العدل هو السبيل الحرى بأمثالهم طروقه ، فلمن إذن يكون السبيل ؟ . . وإذا لم يكن هو الركيزة التى ينبغى أن تقوم عليها حياة البشر ، والأسلوب الذى ينظم العلاقات فى المجتمع بين الناس ، فعلى أى أساس ترتكز هذه الحياة ، وكيف تنتظم ، وبأى أسلوب ؟ . .

فى صفوفه أيضا كانت من هؤلاء طائفة . بعضها أسر الهوى إلى حين ، وبعضها أسرع فأسفر . ولقد امتلأ عهده بالنصح لهم . وبالازراء عليهم . وبالشكوى منهم . . ولعله حين استفاض ذات مرة فى الحديث عنهم مع الأشتر ، لم تكن تلك شكوى فريدة يبثها ، عن أسى وأسف وحسرة ، تنفيسا عن صدره . . .

وقال له الأشتر عندئذ وهو يتناول موقفهم بالتحليل ، ويحاول أن يرده إلى علته :

« أنت تأخذهم ، يا أمير المؤمنين ، بالعدل ، وتعمل فيهم بالحق ، وتنصف الوضيع من الشريف . فليس للشريف عندك فضل منزلة على الوضيع . فضجت طائفة عن معك من الحق إذ عموا به ، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشرف — فتاقت أنفس الناس للدنيا ، وقل من ليس للدنيا بصاحب — وأكثرهم يجتوى الحق ، ويشترى الباطل ، ويؤثر الدنيا ... فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين تمل إليك أعناق الرجل ! . . »

فابتسم بسمة مرة . يبرمون إذن بالمساواة التى شرع الله بين خلقه ، ويأبون إلا الاستعلاء درجة على الناس ؟ . .

وقال :

« يا أشتر .. إن ما ذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل ، فإن الله يقول : « من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها » ... وأنا من أن أكون مقصرا فيما ذكرت أخوف . . وأما ذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقوا لذلك ، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور ، ولا لجأوا إذ فارقونا لعدل ، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم ، وليسألن يوم القيامه : أللدنيا أرادوا أم لله عملوا ؟ . . وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال ، فإنه لا يسعنا أن نؤتى امرأ من الفئ أكثر من حقه . . وقد بعث الله محمدا وحده ، فكثره بعد القلة ، وأعزه بعد الذلة ، وإن يرد الله أن يولينا هذا الأمر يذلل لنا صعبه ، ويسهل لنا حزنه . . »

فالعدل وحدة لا تتجزأ . المساواة لا تنتقص ميزان الحق لا يطفف أو يخسر . لا يشترى أحدا بظلم آخر . لا يحابى . . . وهذا ابن أخيه : عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب يجيئه فى حين محنة ألمت به يستعينه :

« يا أمير المؤمنين ، لو أمرت لى بمعونة أو نفقة ؟ .. فوالله مالى نفقة إلا أن أبيع دابتى . . . »

فلا يزيد على أن يجيب :

« لا والله لا أجد لك شيئا إلا أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك ! . . »

لقد طالما أسف وهو يرى القوم ، هنا وهناك ، يسفون . لقد طالما جهد ليقوم اعوجاج الأنفس ، ويردها إلى الجادة . . بالدعوة كان يعهد ، بالحكمة والموعظة . بالقدوة والأسوة . . وها هو الآن ، وقد نفد الصبر والتصبر ، وتقطعت الأسباب والوسائل ، يشرع فى وجود أولئك المشاقين سلاحه ، لا يروم به حملهم على الخضوع نصرة له ، وإنما امتثالا للمبادئ الكريمة ، وتوطيدا لحق الإنسانية ، ونصرة للدين . .

وكانت الشام — لا ريب — بؤرة أهواء الدنيا ، وصاحبها معاوية النافخ فى نار هذه الأهواء . فإذا عدل فى السير عنه إلى الخارجة بالنهروان فإنه إذن

سيقطع الذنب . ويترك الرأس يسعى لينهش وينفث لعابه المسموم ! . .

وكذلك أغضى عن جماعة الراسبي ، وأسقط من حسابه ما ضمنته رسالتهم ، ثم نزل النخيلة ، ووقف فى حشدها ، يحثهم على المسير :

« أما بعد ، فإنه من ترك الجهاد فى الله ، وأدهن فى أمره ، كان على شفا هلكة إلا أن يتداركه الله بنعمته فاتقوا الله ، وقاتلوا من حاد الله وحاول أن يطفئ نور الله . قاتلوا الخاطئين الضالين القسطين المجرمين ، الذين ليسوا بقراء للقرآن ، ولا فقهاء فى الدين ، ولا علماء فى التأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل فى سابقة الإسلام . والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل ... فسيروا ، وتهيأوا للسير إلى عدوكم من أهل المغرب . وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليقدموا عليكم ، فإذا قدموا فاجتمعتم ، شخصنا إن شاء الله ... »

وكان قد كتب لابن عمه : عبد الله بن عباس ، عامله على البصرة ، يخبره الخبر ، ويدعوه وجنده :

« أما بعد . فإنا قد خرجنا إلى معسكرنا بالنخيلة ، وقد أجمعنا على السير إلى عدونا . . . فاشخص بالناس . . . . »

فما فعل العامل ؟ . .

لم يشخص ! . .

أفقد شام يا ترى خيرا فى بقائه حيث هو ، فآثر المكث بدار إمرته ؟ . . لعله ما قد قعد عن الشخوص . لدواع عساها احتجزته . لأمور لعله خشى أن تنتكس إن هو غاب عن مقره ... أم قد مل هذه الحرب التى لا تكاد تهدأ إلا لتثور ، ولا تكاد تثور إلا لتهدأ ؟ . . أم قد كل متنه عن عمل السيف وضاق بالقتال ذرعه ، فاستطاب أن يركن للدعة حتى حين ، قانعاً من المشاركة فى الأحداث يتتبعها من بعيد بسمعه وعينه ؟ . .

الرجل ونيته ! . . فما يسهل اللحظة استنبا ، دخيلة نفسه ، والغيب دائما مستتر ، والقلوب مغلفة بالعلن ... لكنه ، على أى حال ، لم يأتمر وهو عندئذ أولى امرئ بالائتمار ، وأحرى الناس بأن يكون قدوة لبلدته ، ولغيره من العمال وللكافة من الجمهور ، فى فترة حازبة من عمر الإسلام هى بلا ريب المقطع الفصل فى مستقبل الدولة ، والشعب ، والقيم الخلقية لأجيال وأجيال . .

وما فعلت البلدة ؟ . .

الحاضرة العراقية الثانية تثاقلت كأنما شدت أقدام الرجال فيها إلى الأرض ، أو هان عليهم الأمر فاستقبلوه بغير احتفال . . كان قصاراها أن تبعث ، من جندها الجيش ألفا وخمسمائة ، هم كل من وسعها حشدهم من المقاتلة ، كأنما الأمر لهو لا جد ، واللقاء فى مراح وملعب لا فى حومة وغى وميدان قتال ! . .

٥

السكوفة أيضاً غيرتها السلم الموقوتة ! . .

الجسوم فيها استرخت الهمم تهاوت . الغيرة فترت ... الزمن لم يعد له فى بال أهلها ذلك الخطر الذى كان يدفعهم من قبل إلى قياسه باللحظة وطرفة العين مبالاة به ، وتقديراً لقيمته ، وحفزا لأقدامهم على ملاحقته ثم استباقه على طريق الأحداث إلى مكامن النصر .

« اللحظة » لم تعد وحدة القياس بل الرغبات ! . . والرغبات فوضى لا تحدها حدود ولا تسجيها أسوار فهى تيه بلا إنتهاء . ولا يمسكها عنان ببنان فهى شوارد تهيم فى كل واد من أودية الأمانى والأهواء ، طليقة أيما تشاء وأيان تشاء لا تستقر بقرار ، وليس يسعها أن تستقر لأنها دائما تتطلع إلى جديد ، كلما انتهى بها هيامها إلى غاية تجددت لها وراءها غاية تفرزها طاقتها الذاتية إفراز الموجة للموجة فى بحر لجى طام تتلعب به أكف إعصار ! . .

بوادر الثبوط الذى خالج الأنفس راحت تتجمع فى الأفق وتتراكم غيمة فوق غيمة ، ناشرة الظلال والدكنة والسواد . كسفة واحدة منها لم تخف عن لمح الإمام وقطرة من وبل الخطر الذى تختزنه لم تغب عنه . الجو « الحدثى » عاصف ولكن الجو « النفسى » رخاء .. فالناس حوله يسكنون إلى الدعة العارضة ، ويستروحونها ، ويعيشونها بكل قلوبهم وجوارحهم كأنما هى الحياة كل الحياة . والأمور فى البلدة تسير على هون سيراً هو أبعد شىء عن « وحى » الوقت الذى تجتازه الأمة ، وأبعد خط عن الطريق الذى ينبغى أن تسير فيه . . كلهم شغله همه عن الهم العام . الكبير كالصغير ، والشريف كالمشروف . . وكلهم أخلد إلى إلى نفسه أو أهله ، واستنام للدعة ، واستسلم للاسترخاء . الرئيس قطع ما بينه

وبين رجاله فإن التقى بهم فعلى دنياه أو دنياهم اللقاء . . والفارس هجر دابته إلا لزينة . والراجل ترك سلاحه ودينه فى عناية الصدأ والإهمال . .

ولقد لوحت النذر بالمصير المخوف ولكن الناس كانوا من هوامم بنجوة عن أى نذير . لا عين ترى ، ولا أذن تسمع ، ولا بصيرة تنفذ فتعى وتعلم . الخاصة من المحنة كالعامة وإن انتصف الواقع من أولئك لهؤلاء إذ ترسموا خطا قادة ساءوا قدوة ومثلا فضلوا بهم عن سواء التقدير . والكوفة كالبصرة وإن اعتذر الأخيرة بأن نصيبها من الكوارث قد ملأ كيلها إلى حافته إبان « الجمل » ثم فاض به فى أتون « صفين » حتى كلت النفوس بالمواجع وطنت البيوت بالأنين . لكن الكفاح هو الكفاح ، والحرب هى الحرب ، والسلائق السليمة لا تؤمن قط بأن الأسى تعلة يتملل بها الذين نذروا أرواحهم لمبدأ والتفوا بعلمه التفاف أحرار ! . .

وهز ابن عباس ثبوط إقليمه وإن كان هو قد أسهم فيه بالقدوة ، عفوا أو مدفوعا بأسباب . لكن الاستخزاء قد آده ، والتهافت قد ثقل عليه . فالسلوك الذى طالعه به القوم لا يباعد بينهم فحسب وبين ضرورات الموقف فى حساب السياسة ، بل يباعد كذلك بينهم وبين المروءة فى حساب الأخلاق . .

ما من قلة فى الرجال قعدت البصرة ، ولا من عجز فى العتاد . . فما هو إذن خطب الناس ؟ . . ما خلفهم ؟ . . أى الأدواء قد سرحت منه إلى قلوبهم جرثومة معضلة رعت فيها رعى السوائم الهيم فى أرض محل لا تكاد تبدو بها عشبة يابسة بين شقوق الصخر حتى تغدو ولية ثرية تتخطفها البطون الجياع ؟ . . أى داء وكيف الدواء ؟ . .

وركب العامل من فعلهم هوان حمى له صدره واتقدت عينه، واشتد لسانه، فوقف فى جموعهم يزأر وينذر :

« أيها الناس .

جاءنى أمر أمير المؤمنين يأمرنى بإشخاصكم ، فأمرتكم بالنفير إليه مع الأحنف ابن قيس ولم يشخص معه منكم إلا ألف وخمسمائة وأنتم ستون ألفا سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم . ألا انفروا مع جارية بن قدامة السعدى . ولا يجعلن رجل على نفسه سبيلا فإنى موقع بكل من وجدته متخلفا . . »

فما أغنى عنه وعيده ، ولا كان نذيره إلا كمثل صرخة فى واد تبددت غير أصداء ! . . وعندما خرج جارية ، آخذا سمته إلى النخيلة ، لم تسكن عدة فيلقه سوى مئين قليلة توشك ألا تمدو جيش الأحنف لتؤلف معا نحو ثلاثة آلاف جندى بين فارس وراجل ، هم كل من وسع البصرة أن تحشدهم من بين ستين ألف مقاتل سوى الأبناء والموالى والعبدان ! . .

كذلك كانت الحال : نداء ولا تلبية ، ودعوة ولا جواب . . الحوادث هوج والأنفس رخية . الجوارح تنشط والهمم تفتر. المبادئ تخبو والأهواء تزدهر . . الدنيا تقبل والآخرة تدبر . . . وبعد أن كان الناس يشوقهم الموت إذ هو المجاز للحياة الحقة ، ويطيرون إليه بجناحى الجهاد والفداء ، غدوا وقد شدتهم الأرض إلى دنياهم الزائله بوثاق الذات ! . .

بغير إكراه كان الناس قبل هذا يقبلون من كل حى وكل قبيل إذا ما ادلهمت محنه لا تفرج كربتها إلا مشافر السيوف . . . كانت المطى تساق ، والأسلحة تجمع ، والألوية ترفع ، والجنود تصطف ، ودعوة الحرب تتردد فى أهازيج طروب ، ندية النغم تنشر الأمل ، نارية اللفظ تشعل القلوب . . طواعية كانت المقاتلة تحتشد ، وتتزود من لدنها بزاد القتال من ظهر ومؤونة وعتاد .

هذه هى السنة التى استن رسول الله فى الحرب ، يندب لها ، ولا يستكره أحدا عليها . فإذا نودى للجهاد خف إليه المجتمع الإسلامى خفة رغبة وإقبال . . فالقادرون كلهم له . كلهم جيش . كلهم يزحف إلى ساحة الخطر ما وسع فردا منهم أن يقمل : بنفسه ، أو بولده ، أو بماله ، أو بعبده ، وما اقتضى الأمر أن يخرج الناس : رجالا ونسوة ، شبابا وشيبا نصرة لهدف أو درءا لعدوان . ولقد كان أصحاب اليسار يجهزون أناسا للغزو والدفاع لايقوون عليه من حاجة أو عيله ، فيتسكفلون هم بنفقتهم ونفقة ذويهم حتى يكون الظفر وتنطفئ النار . وما عرف قط أن رجلا تثاقل فتخلف عن قتال إلا غدا أمثولة سوء بين القوم ، ينكرون عليه فعله ، وتقاطعه جماعتهم وتجتنبه فى الحياة اليومية حتى ليغدو منهم مثل جزيرة مهجورة فى بحر لجى من النفور . ثم هو لا يسلم على الأيام من ازدراء تضيق به عليه الرحاب والنفوس فلا يكاد يلقى دونهم ملاذا يعصمه من الحسرة

إلا أن يسارع إلى طمس زلته بالخروج إلى غزاة جديدة تعيده إلى رحاب الشهادة ، أو تعيده إلى ظلال القبول .

وطبيعى أن الدولة فى إبان فترات السلم لم تكن تترك هملا بغير جند على أهبة حتى تأزف الأوازف ويتردد فى جنباتها دوى الخطوب . بل قد كان لها بكل إقليم فريق من المقاتلة يختص به ، ويرابط فيه ، حراسة وحماية . . ومع ذلك فهذه الفرق لم تكن هى الجند كله ، وإنما كانت القلة الأقل فيه الموكولة بالطوارئ والمفاجآت . فإذا جد الجد ، رأيت طوفانا من العسكر يقبلون على حمل السلاح وسد الجبهات ، منتظمين فى صفوف الحرب ، قد تقدموا من كل صوب فى الإقليم ومن خارجه على السواء ، لا يدفعهم إلى الالتحاق غير الرغبة الخالصة فى النضال من أجل غاية عامة ، ويحركهم الحافز المعنوى طاغيا بسطوته على أهواء الذات . . فالتطوع إذن كان أول دعامة — إن لم نقل هو الدعامة — التى قامت عليها الجندية حينذاك ، والإحساس بالخطر ، أو تسويد الهدف هو داعيها ، والندب إلى القتال — دون السوق إليه وبغير استكراه — ... أسلوب التجنيد . . .

غير أن الفراغ الروحى الذى جاء فى ركاب الدنيا راح ينخر فى الناس ، ويردهم كرة أخرى بعيدا عن القيم إلى حب الذات ، والحرص على الدم فبردت فى الصدور الهمم ، وتعلقت بالحياة الأعين ، وتهاوت فى التراب القلوب ، والتصقت بالأرض الأقدام . . ولم يكن بمستغرب أن ينتشر هذا الضباب المعتم على الأفق العلوى مشيعا التراخى فى أرجائه ، ملتهما المبادئ منه التهام أستار الظلمة لخطوط النور . . .

ويوشك امرؤ أن يتساءل : إلى أى مدى شاع ذلك الضباب فى سماء الشام ، ولف بقتامه أنفس القوم الذين استبطنهم عاهلها واتخذهم ظهيراً وأولياء ؟ . . لامراء قط فى أنه كثف هناك . وخالج كل قلب . ونفذ إلى كل رئة . وجرى فى دمائهم حتى عاشوا به وعاشوه . ومن الخطل أن نضعهم — فى هذا المقام — بمرتبة أدنى من رجال الإمام إلى الاحتفال بالحياة إذا وزن التطلع إلى الدنيا بالدرهم والمثقال ، وقيس النأى عن المبادئ بالفتر والذراع . لكن الخطل كل الخطل أيضاً أن يقال إن الفريقين كانا على سواء حين نحسب لهما مقومات الفوز فى هذا

التسابق المادى ، ونتفحص عدده وأدواته ، وخططه ومرجحاته . . فالثابت الذى لا شك فيه أن أنصار معاوية كانوا يتطلعون إلى زخرف الدنيا ونشبها وإنه منهم لعلى قيد خطوة لا يكلفهم إلا أن يخطو أحدهم فإذا هو فى نطاق مشتهاه ، ثم يمد يده فإذا هى على ثمرة النشب ناضجة جنية بغير جهد مذكور . بل قد يرجو وهو قاعد فلا يبخل عليه دهره ، ولا يبطىء به سويعة أو بعضها من زمان عن المسارعة إليه بالمطلب المأمول . بل قد يكون أبعد امرىء عن الطلب والتمنى ثم يجيئه المنصب هبة ، والجاه صلة ، والعطية هدية ، ترويضا له ، وتألفا لقومه من ورائه ، وإغراء لأمثاله من كل ناصل أو نافر كان لا يأبه بالعرض أو يتحصن عنه بالتأبى إلى حين ! . .

أما رجال على فقد كان النشب يجرى فى أخلادهم مجرى الأمنية لا يكاد يعدو مواقع الظنون والأوهام . فصاحبهم صلب فى الحق ، قوى فى الله ، قد حمى حولهم حمى من خلقه ، ومن المثل والقيم ، أوصد دونهم سبيل الانطلاق إلى عالم العروض . فإذا تطلع أحدهم فتطلع الناظر إلى سياج معوسج يعلو كالجبل وتعجز عن اجتيازه نزوة تثقلها القيم ، وتشدها المبادىء إلى حيث يجب أن تكون لا إلى حيث تحب أن تكون . . . هذا الصراع النفسى المتكرر ، على الزمن ، يوما يوما ، وساعة وساعة ، استطاع أن يجرد قلوبا ضعيفة كثيرة ، من القدرة على المقاومة والثبات ، لتتهيأ فى تربتها السبخة البيئة الملائمة لبذرة « الشهوة الدنيوية » لتنمو وتفرع وتأخذ طريقها إلى الازدهار . فما أصعب أن يغمض امرؤ عينه دون وهج الإغواء ، وما أشد تهافت الفراش على النار ! . .

إنها لطبيعة البشر . آدم نفسه قارف الثمرة الشهية وإنه للأمور بأن يتحصن منها ، ومنذر — لو ذاقها — بالضياع ! . لكن النذير لم يغن عنه ، واللذة العاجلة ، لحظة الشهوة ، طمست وعيه ، وأعيت صبره ، وأنسته لذة الخلود . . .

من الناس من قد يرى حقا لهذه الطائفة المشتهية المحرومة أن تعتذر — أو يعتذر لها — عن نزوعها إلى المادة بعض اعتذار . ومن يرى نصفة أن يحسب لها لا عليها تعلقها بالطبع البشرى الذى يجنح إلى الطموح ، إلى التفوق ، إلى حب الاقتناء مشدودة ببقايا الغرائز التى جبل عليها الإنسان منذ دب على الأرض دبيب

السائغة وسعى سعيه إلى إشباع رغباته دون أن يهذب انطلاقه إلى طريق الحيازة شيء من القيم الخلقية — فضلا عن الدينية — التي ترتفع ببشريته إلى المكارم فوق المناعم ، وإلى متعة الروح قبل متاع الأبدان . فهذه الغرائز أصلا هي الأداة لتأمين حياته . والإنسان ليس نورا وشفافية . والدنيا ليست بصومعة ناسك . . وهؤلاء الرجال الذين التحقوا بعلي وآزروه هم أناس من البشر . ثم هم بعد هذا لم يبخلوا بشيء على نصرته . ما منهم إلا من أبلى أحسن البلاء في سبيل ربه ، وأمته ، وإمامه ، وإنه جميعا لبلاء صادق رفع راية الحق والعدل والسلام . ما منهم إلا من ركب أخشن مركب ، وسلك أوعر مسلك ، وطعم العلقم والحرمان من أجل الظفر بحسنى العاقبة في هذا الصراع : وحدة ورخاء وطمأنينة . ما منهم إلا من تخلى حينا — طال أو قصر — عن شيئه وأمره : نشبا وطموحا ، منكرا ذاته ، كابحا نزواته ، كابتا رغباته عن طواعية واختيار أو عن قهر وإجبار . . . فأين الجزاء ؟ . . وإلى أي مدى يستطيعون التسامي على طبائعهم ويمكن أن يمسكهم صبر أو تصبر ؟ . . وأين لنفوسهم أن تظل هكذا جامدة حيث حبسها صاحبهم فلا تنوء بحملها وإنها لتلتزم بما يشق عليها ، ويتسرب اقتدارها على الاحتمال رويدا رويدا في هذا المناخ النفسي الذي يعتصر منها جلدها ، ويمتصه امتصاص الرمل لقطرات مطر أسقطتها غيمة عابرة على أديم صحراء صديان ؟ . .

ثم ها هم أولاء — على فرط التزامهم — يشهدون أعداءهم المترخصين في الحق ، العابثين بالقيم ، المؤازرين الضلال ، ينعمون دونهم بما هم أولى به . يستزيدون يوما وراء يوم من أطايب الحياة . من الأمن في الأهل ، من الوفرة في المال ، من العزة في الجاه كأنما الغرم موكل أبدا بالأخيار ! . . فهلا من ثغرة يطلون منها على الشطر الثاني من حياتهم البشرية ؟ . . هلا من فرجة في هذا السياج الموسج ، العالي كالجبل ، الحصين كالمستحيل ، تفتح أمامهم أفق التطلع ! . . هلا من أمل ؟ . . من برق خير ؟ . . من علالة منفعة تثبت بها كفة المادة بعض ثبات وتقي ميزانهم النفسي الاختلال ؟ . .

الذين راودهم هذا الخاطر لم يكونوا قلة في صفوف أهل العراق . والذين يعتذرون لهم ليسوا قلة حينذاك ، والآن ، وإلى ما بعد أجيال وأجيال . فالقلوب

دائما تهفو للطموح ، للتفوق ، للمغنم ، للمال ، لكل عدة من هذه وتلك ومن شبيهاتها يعتد بها لتأكيد الكيان وتأمين الحياة . وحديث الأشتر لا يغفل هذه الحقيقة ، وإنما يعبر عنها تعبير معاصر لخلجات القوم ، متتبع تطورها ، عليم باتجاهاتها . وهو حين طلب إلى الإمام أن يخفف قبضته عن أسحار الناس ، ويتألفهم بالمال ليعطفهم حوله ، وتميل أعناقهم إليه ، قد كان حقا بمنزلة من عرف الداء فوصف الدواء . ولعلنا اليوم نجد بيننا فرقة من أصحاب الشغف بالمقارنة والنقد تسخط تشدد أمير المؤمنين وهى تستحضر فى بالها قصة المؤلفة قلوبهم من قريش الذين حباهم رسول الله — تألفا لهم ، واستبقاء لطاعتهم — فضلا من عطاء عقب حنين والطائف ، بزت به أنصبتهم أنصبة سواهم من المسلمين ذوى القدمة الذين رعوا الإسلام فى مهده وناضلوا عنه كفار الجزيرة ، وأولئك المؤلفة منهم ، حتى شب واستطال . . .

فى مجال المقابلة لا نستبعد أن يتقدم مجادل بهذه القصة اعتذارا ، من ناحية ، لأصحاب على الذين رنت أبصارهم إلى الدنيا مصدرين فى رنوهم عن سليقة النفس البشرية ، وإزراء ، من ناحية ، بتشدد على حيث كان ينبغى أن يترخص وله أسوة فى رسول الله . . . ولقد يبدو هذا المنطق الجدلي — فى أولى ومضاته — خليقا بالاعتبار . فالرسول قد فضل أناسا على أناس ، ولم يكونوا بخير الناس ، ولكنه فعل استجابة لوحى الموقف ، وثبت بالتألف أقدام فرقة حرية — إن لم يحبوها — بأن تنزلق بعيدا عن الجماعة ، فيتصدع الصنف ، وتتفرق الوحدة ، فى وقت الأمة أحوج إلى اجتماع الشمل ، وتوثيق العقدة . وفعل لأنه رآها سياسة محمودة أن يفعل ، لا تغفل عن كنه الطبائع وتركيبها ، ولا عن خضوع السلوك للنوازع النفسية ، ولا عن دواعى المال وظروفه التى عاشتها آنذاك نفوس لا تسعفها طبيعتها البشرية بالتجرد من الأثرة ، والتنزه عن الدنيا ، والقدرة على إخضاع البدن للروح . . فإذا كان محمد ، وهو راعى العدل ، وناصب ميزانه ، قد رأى أمام إلحاح الموقف أن يؤثر ليتألف ، أفليست الحال الآن حيال الإمام أشبه بالحال ، وجديرة بأن تنال منه بعض تحلل من صلابته ، وانه لو تحلل لقاض على جرثومة تفكك فى جيشه تهم أن تنخر فيه ، وسالك نهجا رشيدا شقه قبله ، وسار فيه ، أعرف امرئ بما يجب أن يكون ؟ . .

كلا ولا جدال ! . .

لقد وجد بعض الأنصار لذلك التمييز الذى آذاهم وسخطوه ، ولغطوا به ، فأقبل محمد عليهم ، يبين لهم ، ويستفيئهم إلى الرضا الذى خرجوا عنه :

« إنما أعطى قوما حديثى عهد بالإسلام ، أتألفهم عليه . . أما ترضون أن ينصرف الناس بالشاء والبعير وتنصرفوا برسول الله إلى رحالكم ؟ . . »

أما اليوم فالإسلام قد تم . والعدل استكمل قوامه ولا سبيل إلى تجزئته والترخص فيه . وهذه الحرب المشبوبة بين فريقى الأمة إنما اندلعت لتوطيد مثل الإسلام وقيمه قبل أن تندلع لتأديب جماعة من الخارجين على سلطان الدولة ، أو بسبب منازعة عامل صاحب الإمرة الشرعية سطوة الحكم والنفوذ ... والذين سخطوا أيضا تصرف الرسول آنذاك إنما سخطوا انسياقا وراء عاطفة خرقاء حركتها غيرتهم من بعض قريش أن يحظوا دونهم بعطف محمد لا غضبا لشدخ مبدأ أو هدم قيمة .. فما جار رسول الله — حين فضل أولئك — على حق أحد غيرهم من الناس لا على حساب العدل ، ولا على حساب حق الأمة آثرهم من العطاء بمزيد ، وإنما جورا على حقه هو ، وانتقاصا من نصيبه الخاص أعطاهم إذ كانت الفضلة التى حباهم بها من خمس الخمس الذى شرعه له الله . فهل من ضير إذن أن ينزل عن حقه ، أو بعضه ، ليؤثر من شاء بما شاء ، تمكينا لدين الله ؟ . .

الحال ليست الحال .

ولمن أراد من بعد أن يمارى فلينشر صحيفة ابن أبى طالب أمامه ليرى أكان يؤثر نفسه بشىء ، أو يفاوت بين الناس فى العطاء على المنازل والأجناس ، أو يرجىء عنهم حقهم من المال ، أو ينقصهم منه ...

. . . قال له غلامه قنبر ، يوما :

« يا أمير المؤمنين ، لقد خبأت لك خبيئا . . »

« وما هو ويحك ! . . »

قال :

« قم معى . . »

وانطلق به إلى داره فوضع بين يديه غرارة مملوءة من جامات : ذهبا وفضة ، وهو يقول :

« رأيتك لا تترك شيئا إلا قسمته ، فادخرت لك هذا من بيت المال . . »

فغضب ، وصاح بغلامه :

« ويحك يا قنبر ! . أردت أن تدخل بيتى نارا عظيمة . . . »

ثم دعا بالناس ، فقال :

« اقسموه بالحصص » .

ومضى على الأثر إلى بيت المال فأخذ يقسم بينهم كل ما وجد فيه حتى وقع على إبر ومسال جاءته من بعض عماله ، فدفعها للناس :

« ولتقسموا هذه . . »

قالوا :

« لا حاجة لنا فيها » .

فأبى أن يدعوها ، وقال لهم ضاحكا :

« ليؤخذن خيره مع شره ! . . »

ما كان ليؤثر نفسه بشىء على الناس ، وكان دائما يقول لهم :

« يا أهل الكوفة ، إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتى ، ورحلى وغلامى ، فأنا خائن ! . . »

وكان يخف دائما إلى تقسيم الأعطيات على الناس ، كلما اجتمع لديه منها شىء ، ويكره أن يؤخرها عنهم ، كأنما يتأثم من إرجائها أو اكتنازها لهم إلى حين ، ولا يهدأ له بال إلا حين يكنس بيت المال كل جمعة ، ثم يصلى فيه ركعتين ، ويقول :

« ليشهد لى يوم القيامة . . »

ولم يكن يؤثر أحدا على أحد فى القسمة ، لا بمنزل وقدمة ، ولا بلون وجنس . . أتته امرأتان ذات يوم ، إحداهما من العرب ، والأخرى من الموالى ، فسألتاه . فدفع إليهما دراهم وطعاما بالسواء ، فقالت الأولى :

« إنى امرأة من العرب ، وهذه من العجم . . . »

فابتسم وقال :

« إنى والله لا أجد لبنى إسماعيل فى هذا الفىء فضلا على بنى إسحاق ! . . »

لمن أراد أيضا أن يمارى ، وقد وضحت له سياسة الإمام فى القسمة ، أن ينفض ثانيا جعبته ، ويتبين ما ملكت يمين ابن أبى طالب ثم يطالبه أن يتألف من فائض ماله المتذمر والساخط والمتطلع إلى زخارف الحياة . . .

لقد كانت نفقته تأتيه من غلته بالمدينة بينبع ، فيطعم الناس منها الخبز واللحم ويأكل هو الثريد بالزيت . . .

ولقد دخل عليه مرة صاحب له فإذا بين يديه لبن حامض له ريح نفاذة من شدة حموضته ، ومعه رغيف يابس على وجهه قشار الشعير وهو يكسره ويستعين أحيانا بركبته . فآذى الصاحب ما رأى ، وهتف بجارية الإمام يلومها :

« يا فضة ! . . أما تتقون الله فى هذا الشيخ ! . . ألا نخلتم دقيقه ؟ . . »

قالت فضة :

« إنا نكره أن نؤجر ويأثم . . قد أخذ علينا ألا ننخل له دقيقا ما صحبناه . . »

ولم يكن على ملقيا باله إلى الحديث بين صاحبه وجاريته حتى صكت سمعه كلمة أو كلمتان من قول فضة ، فالتفت إليها يسألها :

« ما تقولين ؟ . . »

قالت تشير إلى صاحبه :

« سله » .

فاستنبأه الأمر ، فأجابه :

« إنى قلت لها : لو نخلتم دقيقه . . »

فإذا الدمع يملأ عندئذ عينى الإمام ، فيقول :

« بأبى وأمى من لم يشبع ثلاثا متوالية من خبز بر حتى فارق الدنيا ، ولم ينخل دقيقه . . »

وقال :

« كان رسول الله يأكل أيبس من هذا » ولوح برغيفه . « وكان يلبس أخشن من هذا » وأشار إلى ثوبه . « فإن أنا لم آخذ بما أخذ به ، خشيت ألا ألحق به . . . »

ولقد قيل له ذات مرة ، وقد هال أصحابه إسرافه الشديد فى ماله بالصدقة والبذل :

« كم تتصدق ! . . كم تخرج مالك ! . . ألا تمسك ! . . »

فكان جوابه :

« إنى والله لو أعلم أن الله قبل منى قرضا واحدا لأمسكت . ولكننى والله ما أدرى أقبل منى شيئا أم لا . . »

أجل . لمن أراد أن يجارى بعد هذا فليفعل ! فأما والرجل هو من هو فى عدله ، وفى تسويته بين الناس على اختلاف الأنساب والأحساب وتباين الألوان والأجناس ، وفى يبس مأكله ، وخشونة ثوبه ، وخشونة حياته ، وعزوفه عن العرض ، وخروجه دائما عن كل فضلة من ماله — إن لم يكن ماله كله إلا فضله — فإن السبيل بعد هذا إلى اصطناع الأنصار واستمالة الرقاب من بيت المال جورا على حق غيرهم من الأمة ، وافتئاتا على العدل العام ، لهو الترخص الذى يأباه خلقه ، وترفضه سجاياه إن لم يكن الدنية التى تحرمها شريعة الله ! . .

١

لم يجتمع له ما أمل أن يكفى اللقاء الحاسم . البصرة تثاقلت . والكوفة تثاقلت . والأيام وهى تمر تزود عدوه بزاد الإعداد ، وتحرمه هو فرصة المبادرة كما تحرمه سرعة الحركة . . . والأقوال بعد هذا تشيع فى جنوده بأن التريث إلى حين أولى وأنفع . والسير إلى الخارجة — قبل الشام — تأمين للظهر ، وسد للعورة ، وجنة تقيهم كسرة مفاجئة من أولئك المتربصين عند النهر ، على عتبات البلدة ، ينتظرون خلوها من حماتها ليعملوا فيها السيف ، ويركبوها بطغيانهم الذى يهمون أن ينفثوه كالسموم . . .

وهو لا ينكر عليهم خشيتهم . ولكنه ينكر عليهم أنهم جسموا أمام أبصارهم وبصره هذه الخشية حتى بدت كقارعة . وأنهم ركبوها مطية للتنصل من دعوة السير لقتال عدوهم الأول . وأنهم ستروا خلفها ثبوطهم فقعدوا ولم يصرفوا جهدا مذكورا للتجهز للحرب . وأنها أسلمتهم إلى دعة رخية استمرأوا معها طعم السلم ، حتى جرى فى دمائهم كمخدر ، فتر الجوارح كما فتر الهمم . . . ولقد كانت ثمة طائفة منهم ترى رأيه ، وتتعجل اللقاء الأكبر تعجلا للأمن الأكبر ، ولكنها كانت قلة يكاد صوتها يغرق فى أصداء لغط التريث وضوضاء الإرجاء . . .

وما كانت متطيرا إذ أنكر . ولا كان متعلقا بوهم صورته بعض البوادر . لكن النظرة المحيطة بالظروف التى رسمت الموقف ، وبالاتجاهات التى راحت تسوقه إلى عاقبته المرهوبة هى التى أججت قلقه . فالنكسة قد بدأت منذ فتنة المصاحف فى صفين . بدأت إشفاقا من استحار القتل . ثم مللا من القتال . ثم ميلا إلى الدعة، ثم استسلاما للواقع . ثم تنكرا للقيم التى شبت هذه الحرب — حين شبت — لتجلوها وتذهب عنها بالنار صدأ البهتان ... وهذه الخارجة التى خرجت عليه هى نبتة هذه الفتنة . والانتقاض عليه فى التحكيم جذعها . والتقاعد فى البصرة وفى الكوفة بعض فروعها . أما ثمرها المر فالقدر يدخره إلى حين . . .

ولقد أسف لحال القوم . بمقياسه العدل أسف من أجلهم لا منهم . . . فإنه

لصاحب رسالة لا صاحب دنيا ، لا يضيره أن يموت دون رسالته وإنما يؤسفه أن تموت دونها القلوب . وأن يعلو سلطان الدنيا على سلطان الحق . وأن تتهاوى النفوس تحت ضغط أدرانها إلى الرغام . . .

وفى بعض ومضات الرجاء التى كانت تتسرب إلى نفسه ، وتلقى بأثر شعاع على الموقف الداكن ، مضى يخاطب أهل حاضرته وإنه لمشفق الإشفاق كله على رجائه أن يذوب فى الظلمة ، وعلى أولئك المحتشدين أمامه من وقر السمع وعشا البصيرة . . . ولكنها على أى حال محاولة جديرة بأن تكون . والطبيب دائما يقدم الفأل وإن ملأته مظاهر الداء وعلاماته بالشؤم والتطير . . .

قال يهيب بالقوم :

« يا أهل الكوفة . . أنتم إخوانى وأنصارى ، وأعوانى على الحق ، وصحابتى على جهاد عدوى المحلين ، بكم أضرب المدبر ، وأرجو تمام طاعة المقبل . . وقد بعثت إلى أهل البصرة فاستنفرتهم إليكم ، فلم يأتنى منهم إلا ثلاثة آلاف ومائتا رجل . فأعينونى بمناصحة جلية خلية من الغش . . . إنى أسألكم أن يكتب لى رئيس كل قوم ما فى عشيرته من المقاتلة ، وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال ، وعبدان العشيرة ومواليهم ، ثم يرفع ذلك إلينا . . . . . . »

فاستقبله أشرافهم بالقبول . بادر سعيد بن قيس الهمدانى ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، سمعا وطاعة . . أنا أول من أجاب . . . »

وثنى معقل بن قيس . ثم عدى بن حاتم ، فزياد بن خصفة ، فحجر بن عدى ، فغيرهم ، يسابقون إلى تلبية الدعوة . وما لبثت قوائم الجند أن توالت ، تتبعها الجنود المصطفة فى العدة والجهاز حتى بدا كأن الأمر قد عاد سيرته الأولى ، وبلغت الأنفس ذروة الولاء والأهبة للفداء . . .

لكن القلوب لم تكن — مع هذا كله — مجمعة الرأى على « القصد » وإن أجمعت — فيما يلوح — على الوسيلة . إنهم لا يرفضون القتال ، وإنما يختلفون فى « موقع » الحرب ، وفى « العدو » الذى له تجيشوا وتسلحوا وإليه هموا أن يغذوا السير . . . أ إلى النهر أم إلى الشام ؟ . . أإلى الخارجة أم إلى معاوية ؟ . . أهى حرب تأمين جزئية على عتبة حاضرتهم ، أم هى حرب فاصلة

حاسمة تنقض على الغريم الأكبر وتردع بقمعه والقضاء عليه كل من وراءه ومن دونه من الشاغبين والمخالفين ؟ . .

الخشية من الخوارج ظلت تخايل الكثرة منهم ، وتلح عليهم الإلحاح الذى يترك الرأى وهو شتيت . والهمس يتطاير . والجرس يعلو . والجدل بينهم يعتمل ويثور . . . ولم يكتموا رغبتهم ، وإنما تداولوها فيما بينهم ، صريحة ، بلا تحرز ، ولا مواربة :

« لو سار بنا إلى هذه الخارجة ، فبدأنا بها . . . »

فكأنما لهم الأمر . وكأنما السنة فى الجيش — أى جيش — أن يختار الجند أنفسهم لأنفسهم الموقع والخطة والعدو والحركة وساعة اللقاء لا أن يصغوا لرأى قيادة هى التى تزن وتنظم وتخطط وتوجه وتدير المعركة فى المكان والزمان اللذين تراهما كفيلين بالنصر . . .

أم لعلها أمنية خالجتهم ؟ .. إن تكن هذه أو تلك محاولتهم عندئذ قد شكلت « ضغطا » على أميرهم يستمد القوة من رغباتهم ويدع السبيل مفتوحا إلى النيل هونا من معنويات الجيش لو جاء السير على غير ما يشتهون ، ثم يضع قيدا على حرية قائدهم فى التصرف والحركة وهو يستعيد فى باله ، عند كل خطوة يخطوها ، ما قد طالعوه به ، ويحسب له كل حساب . وإذا ما اختلفت النظرة بين الجند والقائد فالطاعة خليقة بأن تتقلقل ، والنظام حرى بأن يضطرب ، واتجاه الالزام يغدو أدنى إلى انعكاس خطه الطبيعى فيتسنم التابع وينزل المتبوع !

وتحرك الإمام ثانية يحاول أن يحد من شططهم هذا الذى يوشك أن يقترب بجيشه من الفوضى والاختلال وانقطاع النظام إن لم يقارب الخروج والتمرد ...

قال وقد جمعهم لبحث الأمر :

« . . قد بلغنى قولكم لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التى خرجت عليه فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم وجهنا إلى المحلين ... ... »

فدارت عيونهم بينهم مليا وإن فكرتهم تلك ستدور أيضا دورانها فى الأخلاد حول محور الرغبة . . . لكن كلماته القلائل التى سرى فى نبراتها جرس الإباء ولهجة القطع ، خلفتهم على تربص ، ينظرون . . .

وأكمل :

« .. إن غير هذه الخارجة أهم إلينا منهم . فدعوا ذكرهم ، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين ، ملاكا ، ويتخذوا عباد الله خولا ... »

ولم يأتهم قوله بحجة جديدة ، ولكن شيئا من هيبته — فيما أحسب — قد وقع إذ ذاك فى قلوبهم حتى أنساهم منطقهم ، ودفعهم — أو دفع كثرتهم الغالبة — افتتانا بشخصيته ، إلى الانصياع ...

وتنادوا من جوانب الجمع :

« سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت ... »

ونهض صيفى بن فسيل الشيبانى يفصح عن تأييده :

« يا أمير المؤمنين نحن حزبك وأنصارك ، نعادى من عاديت ، ونشايع من أناب إلى طاعتك ، فسر بنا إلى عدوك من كانوا ، وأينما كانوا ، فإنك إن شاء الله لن تؤتى من قلة عدد ولا ضعف نية أتباع .. »

وعقب بعده محرز بن شهاب التميمى :

« يا أمير المؤمنين ، شيعتك كقلب رجل واحد فى الإجماع على نصرتك ، والجد فى جهاد عدوك ، فأبشر بالنصر ، وسر بنا إلى أى الفريقين أحببت ، فإنا شيعتك الذين نرجو فى طاعتك وجهاد من خالفك صالح الثواب ، ونخاف فى خذلانك والتخلف عنك شدة الوبال .. »

أفكان هذا هو رأى الجمع قد ساقه بعضهم عن اقتناع أم كان وليد عاطفة عارضة ، وحماسة طرأت والإمام حيالهم يطالعهم بنظرته ؟.. إنك حين تزن حقيقة الإجماع على اتجاه لا بد أن تعرف إلى أى مدى أزرته معارضة كانت لا تؤمن به منذ حين ، لتصفو أمامك مرآة الواقع ، وتعرف إلى أين ذاك الاتجاه . لكن الذين مالوا إلى « تجميد » حرب الشام ، ولم تسعفهم طبيعة الموقف بالمجاهرة بالتجميد — نأيا بأنفسهم عن مواقع الزيغ والشبهة — تستروا هذه اللحظة بالصمت ، لا يقرون ولا ينكرون فحسبهم أن يدعوا القوم وما هم فيه وإنهم يعلمون أن عمر الحماسة قصير . وبحسبهم أنهم قد حرثوا لهذا التجميد تربة صالحة منذ الموادعة فى صفين . وبحسبهم أن استطاعوا شغل الأذهان بالعدو « القريب »

المتربص على عتبة بلدتهم ملقين فى روع الناس أنه أولى بتعجيل سحقه من عدوهم « البعيد » الآخر ، الذى يجنهم عنه بعد الشقة ، وإيثاره السلامة داخل حدوده ، وميله المعروف إلى التمسك بهذه الهدنة العارضة ، إلا أن يخرجه من قوقعته سيرهم إليه . . .

فى هذا الاجتماع لم ينطق الأشعث . وما كان لينطق حتى لا يشى به ميل نذره منذ البدء لكف الحرب عن معاوية وعن قومه اليمنية الذين لاذوا به وآزروه . إنه لينكر — لا شك — ما جهر الناس به من وجوب تقديم السير إلى الشام على السير إلى النهر ، ولكنه يرجئ إنكاره ، ويدخر الجهر برأيه حتى تخف فورة الحماسة العارضة ، وينحسر المد ، وتتكشف الأحداث عن ظروف أصلح لانطلاقه . ولا أيسر عليه عندئذ من تصيد الأسباب والدواعى ، ولا أيسر أيضا من انحرافه بالاتجاه العام إلى وجهته الخاصة التى مهد طويلا طريقها والنفوس جميعا مشحونة بما يعطفها إلى متابعته حيث يريد أن يسير . . .

ولم تبخل عليه الأحداث بما شاء . فما أسرع ما جاءت الأنباء بسوء سيرة الخارجة — حيث ارتحلوا وأقاموا — فى الناس ، واقترافهم ألوانا من الفساد بعدوا بها عن كل متوقع من أمثالهم ذوى الجباه السوداء ، المنتسبين للورع والتقوى ، المتشبثين بحرف القرآن . . .

وكثرت القالة فيهم . فهم يعيثون فسادا فى الأرض . ينشرون الإرهاب ، ويشيعون الذعر ، وينتقصرن الأمن ، ويكثرون القتل . ولاكت الألسن ما اقترفوا ، ووجد الكثيرون فيه سندا لتوجسهم منهم ، ودواعى للتعجيل بقمعهم . وتزيد — لا ريب — أناس فيه ، وجسم خطره آخرون . وما يستطيع أحد أن ينكر أن الخارجة قد جنحت إلى الشطط فى سيرتها بالنهر ، فدأبها الشطط دائما — منذ نجمت — فى كل ما أصدرت عنه من فعل أو قول . ولكننى أحسبها قد رأت ، أو رأت بضعة منهم ، أنهم خليقون أن يوطدوا بالشدة هيبة اقلتهم فى مقامها ذاك ، كفيلة بأن تردع عنها كل ساخط دعوتهم ، مستهين بشأنهم ، طامع فيهم ، وأن تفىء بهم إلى شىء من طمأنينة يعوزهم فى معتزلهم الذى اختاروا إذ تشعرهم أنهم هم الأعلون فى مجتمعهم الجديد وترضى غرورهم وكبرياءهم .

غير أنها فى الحق ليست سوى شدة المذعور الذى يتوهم الخطر فى كل حركة ، لا شدة القادر القوى المدل بالسطوة . وحين نستقرئ ما اقترفوا نكاد نتبين فيه صورا من أهواء متفرقة اتخذت مظاهر من السلوك الفردى المنحرف الذى يدل على القلق النفسى واختلال التقدير قبل أن نجد فيه لونا من « العدوان الجماعى » الصادر عن وحى تصرف عام . فلم نرهم ، بعد محاولتهم دخول المدائن ، قد أعادوا الكرة ، ولا حاولوا اقتحام بلدة محاولة فتح وغزو ، ولا أغاروا إغارة منظمة شاملة على مكان مأهول . ولم نألف منهم ، منذ خرجوا خرجتهم من الكوفة والبصرة ، إلا السير المتخبط المضطرب الذى ينطلق عفوا عسى أن يجد المأمن ، أو يجد نصرا لا يتوقعه ولم يعد له . ولقد كان قصاراهم أن يتستروا بالليل ما وسعهم التستر ، وأن يفروا من اللقاء ما وسعهم الفرار . فعلوا هذا حينما انبرى لهم سعد ابن مسعود وقد لقيهم عند موقع الكرخ ، فلم يستقبلوه استقبال قوة لقوة ، بل ناوشوه المناوشة التى تدنيهم من الليل ليتخذوه سربا للهروب . وفعلوه أيضا حين تبعهم أبو الأسود الدؤلى عند الجسر الأكبر ، فتحاموه بالظلمة ثم أدلجوا هاربين . . فهم إذن موقنون بعجزهم عن مواجهة حرب سافرة ، عليمون بأن قوتهم ليست بالتى تثبت فى قتال جاد . أو هم — فى القليل — لم يجعلوا من القتال فى آونتهم تلك وسيلتهم إلى مأربهم ، ولا وضعوا لأنفسهم خطة تعتمد عليه وتكون السبيل لتنفيذ سياستهم . ولعلهم قد شاءوا الاعتزال إلى حين . ولعلهم قد أرجأوا الحرب — إن كانوا بيتوا عليها النية — حتى يشتد ساعدهم ، ويكثر جمعهم ، ويزودهم الوقت بزاد جديد من النصر ، أو يكرهوا عليها حتف الأنف فلا يصبح لهم عنها محيص . . . فإذا نحن بعد هذا استنبأنا دخائلهم ، لا يعسر أن نجد التردد يحكم خطاهم ، ويكبل سلوكهم ، ويعوق أمانيهم أن تتمثل حقيقة حية تدب فى دنيا الواقع على قدمين ! . . فمعروف أنهم لم يسلموا من تلوم ما فتئوا يستشعرونه ويتناولون أنفسهم به لأن موقفهم إبان صفين حين دعوا إلى الاحتكام للقرآن هو الذى فرخ الفتنة . ومعروف أنهم الآن يعتنقون نفس نظرة على ويرون مثله وجوب مناجزة معاوية وإن كانوا قد شاءوا لهذه المناجزة أن تقع قبل التحكيم . ومعروف أنهم يؤمنون بأن الإمام على شاكلتهم رجل دين من أهل القرآن وغيره رجل دنيا وضلال . . . وقوم شأنهم كهذا خليقون — عند

سير الأمور وإمعان النظر — أن يقتحم الدخل عليهم نواياهم ، وتحيط الشبه بمداخل سلوكهم ، ثم يتيهون فى حيرة . . .

ومع ذلك فالكوفة استكثرت ما اقترفوا فى النهر كأنما وزنته بغير ميزانه ؟ . . من بينها أناس أفظعهم التصرف . ومن بينها أناس رأوه كارثة . ومن بينها أناس تبينوه خطرا ليس بعده على الدولة خطر، يهون دونه خطر الشام بانشقاقها على الأمة وبجيشها المنظم ، وبجندها المجهز بخير عتاد وزاد . . فإذا نحن قسنا بمقياس سليم تكلم الجرائم التى ارتكبتها الخارجة وهالت الكوفة هذا الهول الأكبر لكان حقا لنا أن نعجب لهذا الهول وننكره ، لأن المقدمة لاتنجب هذه النتيجة ، ولأن شواهد الحال تأباها . فمن المحال أن تبنى الصرح الشامخ على الرمل ولاينهار إلا أن تمد له دعامة ركينة تذهب تحته فى الأرض إلى أبعد غور لترتكز على الصخر ! . .

فما هى إذن تكلم الدعامة ؟ . . ما هى القوة التى آزرت هوان جرائر أصحاب النهر فأكسبتها أبدا جملها الهول الأكبر ؟ . .

إنها الدعوة إلى الفزع ! . . فلقد كانت ثمة لاريب دعوة صاحبت هذه الجرائر ونفخت فيها ، وأزكتها نارا مدمرة . . وما أريد هنا أن أسمى داعية بذاته قد آثارها ، وتنادى بها بين الناس . ولكننى لا أستطيع فى هذا المجال أن أبرئ الأشعث بن قيس وشرذمة أخرى على شاكلته من التشدق بالخطر الموهوم ، وتغذية أنباء الجرائر بما ينميها ويفظعها على النفوس . فالرجل وشرذمته أهل موادعة . وهم لا يشاءون لأنفسهم أن يظهروا منكرين للحرب حتى لا تأكلهم الألسن . ولقاء الخارجة رده لهم من شبهة التثبيط والتخلف . والبلدة قبل هذا وبعده أكثرت القول فى الخطر المتربص على عتبتها ، فحديثهم إذن عنه ، ودعوتهم لوأده ، لن تنفر منها أذن ، لأنها تساير الاتجاه العام . .

بغريزة القطيع التى حركتها صيحة الفزع انحرفت الكوفة إلى هذا الطريق الجانبى ، وانطلقت منه مشحونة بعاطفة مضللة . بهلع موهوم ، بظل لخطر ؟ ... أما الدعوة الحقة . فمع معاوية . السير إلى الشام ، فقد غدت همسا لا يكاد تنفرج عنه الشفاه حتى يذوب فى صياح القطيع ! . .

٢

قصه الفزع الأكبر الذى عم الكوفة كانت ملهاة . بلية مضحكة . قهقهة عالية الرنين أطلقها القدر ليتردد صداها رعودا مدوية فى آذان القوم تزلزل جلدهم ، وتهز ثباتهم ، وتدفعهم يتلفتون رعدة وقلقا فلا تثبت لهم قدم ولا يستقر حملاق !..

إنها للفزع من خيال . من ظل يتحرك بليل .. أصلها واه ، وباعثها واهن ، وعقباها المنتظرة أوهن على أى امرئ يتجرد من التأثر بطبلها الأجوف ، ويحاول على روية أن يتلقاها بالتأمل والتفكير . لكأنها الحصاة الصغيرة توشك ألا تنال شيئاً من نهر يتدفق ، ولكنها حين تلق فى مائه تستطيع أن تغرقه ، وتحيل سطحه من حولها دوائر ودوائر لا تزال تتسع وتتوالى ، ثم تتسع وتتوالى ، حتى تمس بأقواسها المترامية شاطئيه ! . .

الخبر هين ، والمظهر يهول . . . فالخارجة فعلت . والخارجة عاثت . والخارجة قتلت . والخارجة لم تدع شيئا يفظع إلا كانت لها وراءه أصبع . . . ومع هذا فإن وقائع الحال التى دونها الزمن فى تلك الحقبة وضمتها الأسفار لا تطالعنا بغير « عصابة » من الخارجة كانت هى التى أتت بما رج النفوس وشق على جلد الناس بالكوفة حتى تركهم فى صورة تخللها وغشاها ضباب الذهول حتى لتوشك أن تراهم جلودا تنضح بالجزع بدل العرق ، ومناخر تنفث الخوف بدل الزفير ، كأنما الجو كله حولهم قد استحال بهوائه وهبائه ذعرا خالصا لا مكان به لطمأنينة ... الحصاة الصغيرة فرقت الدوائر ، ووسعتها ، ورفعتها الواحدة فى إثر الأخرى أمواجا تترى . وتسبح ، لتضرب بخطوطها السارحة كل جوانب البلدة الهلوع . . .

ولقد لا ننسى هنا أن خطة الخوارج ، منذ بارحوا منازلهم فى البصرة وفى الكوفة ، كانت الانطلاق على استخفاء إلى منتجعهم الجديد . . فرادى انطلقوا ، أو شراذم صغيرة — بأوسع تقدير — نزولا على وصية صاحبهم زيد ابن حصين إذ نصحهم قبيل الرحيل :

« إن خرجتم مجتمعين اتبعتم . ولكن اخرجوا ، وحدانا ، مستخفين . »

ولقد لا ننسى كذلك انهم رأوا أنفسهم أهون من العصف بالمدائن واقتحامها على حماتها فآثروا الابتعاد عنها ، والانحراف بعيدا إلى موضع آخر مأمون ، عند جسر النهروان .

لا ننسى هذا وذاك . ولا ننسى أنهم وعوه وفعلوه لأنه يتفق وطبيعته الوضع الذى كانوا عليه ، والتستر الذى آثروه ، والخشية أن يجتذب أى « دنو » لهم من أرض مأهولة ، أو أى « تجمع » قد يضمهم أنظار الناس ، فيستقبلهم مناوئوهم بمقاومة لا قبل لهم بها فى وقت ما نراهم هيأوا فيه أنفسهم للقاء جاد ... فهم إذن قد مضوا وحدانا ، أو مضوا شراذم صغيرة مفرقة ، من بضعة نفر ، لو استبحنا التجاوز إلى هذا التقدير . وهم إذن قد جانبوا المدن والبقاع المأهولة التى قد لا ينجيهم دنوهم منها من مصير يرهبونه ، ويحرصون كل الحرص على تحاميه . وهم خليقون بعد هذا — وقد عسكروا عند النهر — أن يلزموا نفس سياستهم فيسكون تنقلهم أيضا فرادى ، أو مثنى وثلاث ، أو عصابات — مهما تمدد نفر الواحدة منها فلا نظنه يجاوز أقل القلة — إذا [illegible]سهم ظروف حياتهم اليومية الجديدة إلى التنقل من مكان لمكان ، بحثا عن زاد ، أو كشفا عن موقع ، أو عسا لتبين مكمن من مكامن الخطر ، لأنه لا يعقل قط أن يسيروا بجمعهم الكامل : أربعة آلاف ، ولا بنصفه ، ولا بعثين مثين . .

« عصابة » من جماعة الخارجة — كما حدثتنا الأخبار — هى التى قارفت تلك الجرائر التى أشاعت الذعر فى الكوفة وبهرت الأنفاس . عصابة من نفر قد يناهزون العشرة عدا ولكنهم لا يجاوزون الأربعين مهما مططنا نطاق التقدير . ولم يكن فعلها — فيما يلوح — عن إعداد مرسوم ينبئ عن اتفاق كافة الجماعة عليه ، ولكنه كان عفو لحظته ونتيجة خبطة عشواء . . فلقد جاء فيما روى عن فعلتهم أن خارجة البصرة أقبلت حتى دنت من إخوانها بالنهر ، فخرجت « عصابة » منهم ، فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار ، فعبروا إليه ودعوه . وما أدرى فيما كانت الدعوة . ولكن لعلهم خشوا أن يكون عينا عليهم فرأوا أن يتثبتوا لأنفسهم . . .

ويبدو أن أمرهم أزعجه ، وقد كانوا لا ريب إذ ذاك فى السلاح ، فاضطرب وسقط عنه بعض ثوبه على الأرض . وعندئذ أرادوا التهوين عليه . .

سألوه :

« من أنت ؟ . . »

قال وهو يلتقط ثوبه ويلتقط معه أنفاسه :

« أنا عبد الله ، بن خباب بن الأرت . . »

« صاحب رسول الله ؟ . . »

« نعم » .

« لا روع عليك » .

فاطمأن هونا .

وعادوا يقولون :

« فحدثنا عن أبيك بحديث سمعه من النبي لعل الله ينفعنا به . . »

فتفكر مليا ، ثم أجاب :

« حدثني أبي عن رسول الله أن فتنة تكون ، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يمسى فيها مؤمنا ويصبح كافرا ، ويصبح فيها كافرا ويمسى مؤمنا . . »

فما كان أغناه عما قال ! . . ما أحسبه إلا قد نكأ بالحديث قرحة نفوسهم وأدماها . ألم يطف به حول حالهم ، والفتنة الواقعة ، وتداولهم فيها من النقيض إلى النقيض حتى ليرون مرة الإيمان في التحكيم ثم يرون فيه الكفر والفسوق ؟ . .

وكأنما أحسوا أن الرجل قد شاء غمزهم والتعريض بهم ، فعاجلوه وإنهم ليحبسون غضبهم خلف نواجذهم :

« لهذا الحديث سألناك ! . . »

ثم أردفوا ليهتكوا خبيئة صدره :

« فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ . . »

فأثنى عليهما خيرا .

فسألوه ثانية :

« وما تقول في عثمان ، في أول خلافته وفي آخرها . . ؟ »

فأثنى كذلك .

فسألوه ثالثة :

« وما تقول فى على قبل التحكيم وبعده ؟ » .

فلم يتردد ، وأجاب :

« إنه أعلم بالله منكم ، وأشد توقيا على دينه ، وأنفذ بصيرة . . »

وواضح من حركة الحوار ، مده وجزره ، أنه لم يكن مجرد سؤال وجوابه، بل الأغلب على طابعه أنه كان نقاشا بينهم وبين الرجل ، يحاجونه فيه بمنطقهم ويحاجهم بمنطقه أو المنطق الذى كان عليه — عداهم — جمهور الناس ، ثم لم يصلنا منه إلا نزره وهو هذا النثار . فما كان لسؤال — أى سؤال — بادروه به فى مثل هذا المقام أن يحمله على الإجابة عليه إلا بقدر مقدور . بما يلزم . بعبارة هينة « مسطحة » ، بلا بعد ولا غور ، توصد وراءها الباب فتكف فضولهم عنه ولا تغريهم بالملاحقة والإلحاح . فأما وكلمات ابن خباب ذات عمق وأبعاد ، بما حوت من وصف حالهم،وتعريض بهم، ونقد لفعلهم، وإعلاء لنظرة على على نظرتهم ، فإنها إذن الـكلمات الخليقة بأن تجىء خلال جدل لا خلال استفسار . .

وكذلك حمى غضبهم عليه . أشعلته صراحة الرجل ، وخوضه فى شأنهم ، فاحترقت نفوسهم حقدا وموجدة ، فإذا بهم يخاشنونه :

« إنك لست تتبع الهدى ! . . إنما تتبع الرجال على أسمائها . . »

ونظروا إلى مصحف معلق فى عنقه ، وقالوا :

« إن هذا الذى فى عنقك ليأمرنا بقتلك » .

فلم يزد على أن أصابهم بسكينة الإيمان :

« ما أحياه القرآن فأحيوه ، وما أماته فأميتوه . . »

قالوا :

« والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدا . . . »

وانقلبوا عليه يعنفون به وهو مستسلم صابر . فشدوا وثاقه ، ثم أقبلوا به وبامرأته وهى حبلى متم ، يسوقونه إلى مصيره . ونزلوا فى طريقهم تحت نخل مواقر ، فسقطت رطبة منه ، فأخذها رجل منهم فوضعها فى فيه يهم أن يلوكها ، فإذا صاحب له يصيح يزجره :

« بغير حلها ، وبغير ثمن ! . . »

فلفظها ولما تمسها أسنانه توقيا للحرام ! . .

ومر بهم خنزير فقتله آخر . فأنكر عليه رفاقه فعلته :

« هذا فساد فى الأرض ! »

وعوضوا صاحب الخنزير — وكان من أهل الذمة — عن دابته المرداة بما أرضاه . . .

ويبدو أن هذه اللمحات المشرقة من سلوكهم قد خدعت ابن خباب عن حقيقتهم وزودته من الأمل بزاد ظنه بشيرا بنجاته . فما هو أن رأى منهم التقدم على ما فرط فى الرطبة ، وفى دم الدابة ، حتى استبشر ، وقال بصوت خفيض كأنما يهمس لنفسه :

« لئن كنتم صادقين فيما أرى فما على منكم بأس . إنى لمسلم ، ما أحدثت حدثا فى الإسلام ، وقد أمنتمونى . . »

فإذا هو لا يكاد يكمل الهمس حتى يبادروه بنقيض ظنه ! . .

قتلوه ! . .

أضجعوه على حافة النهر وذبحوه ، فسال دمه يلون صفحته فى خطوط وقطرات كأنما يخط قصة وحشية رهيبة . ثم جاءوا بامرأته على الأثر يجرونها إلى ما أعدوا لها من جزاء لا يستقيم إلا فى شريعتهم الحمقاء .

وصرخت المرأة الملتاعة فيهم ، بكل أسى قلبها الجريح :

« ألا تتقون الله ! . . »

فما ردهم عنها شىء وأن زأرت ، وولولت وذكرتهم بقيم العدالة والرحمة . وأنى لهم أن يدعوها وإنهم لا يرون رحمة إلا فى عدلهم الخاص ، ولا عدلا إلا فى سنتهم ، ولا تقوى وتمسكا بأهداب الدين إلا فى إنفاذ مشيئة هى نتاج زواج حرام لأنفس مهزوزة من عقول مكزوزة ! . .

وأتبعوا الرجل امرأته . فبقروا بطنها عن جنينها ، وألقوا بهما إلى جواره سلبا هشيما لهذه الغزاة ! . . ثم قتلوا نسوة ثلاثا أخريات لعل أحدا لا يدرى بأية جريرة إن كان لا مناص عن تقصى الأسباب لكل بدوة لأولئك الخارجة تربط النتائج بالمقدمات . . ولكنهم إذ فعلوا ، إنما استشعروا لا ريب طمأنينة وراحة وقد شدتهم نظرتهم المتعصبة إلى إيمان موهوم يمرومه ، ويسيطر على أحاسيسهم فيدفعهم إلى الثقة بأنهم بفعلهم هذا قد استأدوا حق الله ! . .

معالم على الجبال ! . . معالم تظهر إلى أى مدى كان القوم من جمود الضمائر واختلال التفكير . . فلأن يأكل أحدكم وطبة بغير حلها ، ولأن يقتل آخر دابة بغير عنها ، فإن هذه أو تلك لهى كبيرة الكبائر ، والحرام الذى ليس بعده فى صفحات الآثام حرام ! . . أما أن يذبحوا مؤمنا ، ويقطعوا جنينا مخلقا ، ويقضوا على طائفة أخرى صبرا أو غدرا وما تولتهم بسوء ولا قارفت جريرة ، فهذا هو الحلال البين الذى لا يريثهم عنه تلوم ولا يردهم تحرج ، ويقبلون عليه خفافا سراعا بالنفس الراضية المطمئنة والصدر المنبسط المشروح ! . .

فما هى آفتهم ؟ . . ما بلواهم ؟.. ما هو الداء الذى أصماهم ؟ . .

إنه الغلو !.. الغلو الذى يقتحم بهم كل معقول مقبول . التعصب الذى يورث الهوس فيشرد بالعقل عن كل سوية وقاعدة وقانون . الجنون الذى يشل التفكير ويمحق سلامة التقدير . .

إن سلامة النظرة فى أمر — أى أمر — هى التى تهب القدرة على وزنه حق الوزن بغير إخسار ولا تطفيف . وعدالة الميزان هى التى تجىء بصحة التقويم . وهذه الصحة بدورها هى التى تحدد قدر الأمر من عن ، أو تبعته من جزاء ...

غير أن الخارجة — فيما بلوناهم من قبل ومن بعد — كانوا أناسا يفتقرون إلى حاسة التمييز التى تصنع الاتزان .. كانوا فرقة على شبهة . كمه البصائر . عقولا مضطربة ، وقلوبا غلفا ، وضمائر مألوسة . . يتذاءبون دائما بين يمين ويسار ، وخلف وأمام بغير ثبات تذاؤب الذبالة المريضة كلما لعبت بها نفخة نسمة من هنا ومن هناك . يعرفون القلق ولا يعرفون القرار . لا يقفون عند مبدأ ، ولا يثبتون على رأى . إنما لا يزالون يتأرجحون بين الأمر ونقيضه من لحظة للحظة ، ثم لا يعوزهم فى الإقبال ولا فى التراجع منطق أخرق يؤيد كل بدوة تسوقهم إلى اقترافها أيما فكرة عارضة . الصواب دائما فيما يأتون وإن كان من قبل خطأ لفظوه إذ ذاك وحاسبوا عليه الناس . والخطأ فيما ينبذون وإن كان من قبل صوابا طالما آزروه وناضلوا عليه . النور أبدا على خطاهم . والحق أبدا ظلهم أينما تولوا ومالوا تولى ومال . فالذين يخالفون عن نظرتهم ، وينبرون لنقدها وزنا بميزان المنطق هم الخطاءون المارقون وإن كانوا المسلمين جميعا ، وإن أيدتهم فى محاجتهم عبرة الماضى ، وشواهد الحال ، وقوة التدليل .

هذه كانت نظرتهم . ومن لم يعتنقها فهو الآبق الخارج من دائرة الحق وحظيرة الدين . فكل مسلم — عداهم — ضال لأنه عارضهم يوم ظاهروا رفع المصاحف وأبى قبول دعوة التحكيم . وكل مسلم بعد هذا — عداهم — ضال حين رجعوا عن رأيهم هذا ، وشاءوا نقض ذلك العهد الذى ناضلوا على قبوله ، ثم أبرموه ، ثم ألزموا به عليا وأصحابه ، ثم ارتدوا عنه متنادين : «لاحكم إلا لله!» . وإذا كانوا قد أقروا على أنفسهم طواعية بالكفر إذ قبلوا الحكومة ثم تابوا عن القبول ، فكيف نعفيهم من رؤية « الردة » التى كابدوها ، فى قلوب أبناء الأمة الإسلامية جميعا الذين لم ينقضوا عهد الحكومة وثبتوا عليه — وفاء — إلى أجله المكتوب ؟ ..

« الردة » هى القضاء الذى قضوا به على كافة المسلمين . و « التوبة » — بعد الاعتراف بالكفر — هى الخلاص . ومن لم يعصم قلبه بهذه التوبة التى يفرضونها فليس جديرا بأن يكون فى صف الإيمان ، ولا بأن يوقى جزاء ارتداده ، ولا بأن يعصم منهم دمه وماله وولده لأنه عندئذ أعق شركا ممن لم يذق قط طعم الإيمان .. أما جب الإسلام الشرك ؟ . . أما برئ الله ورسوله من المشركين ؟ . . أما قال فى محكم تنزيله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد » ؟ ..

زرعة بن البرج قال للإمام مرة :

« أما والله يا على لئن لم تدع تحكيم الرجال فى كتاب الله قاتلتك ، أطلب بذلك وجه الله ورضوانه . . »

وعبد الله بن وهب قال لأصحابه قبيل مخرجهم من الكوفة ، يحثهم على هجرة فى الله حتى تعلو كلمته :

« .. اخرجوا بنا — إخواننا — من هذه القرية الظالم أهلها ، منكرين لهذه البدع المضلة ... »

وقال لهم :

« إنكم أهل الحق .. »

وحكيم بن عبد الرحمن بن سعيد التبانى ، قطع ذات يوم على أمير المؤمنين خطبته بالمسجد ، وصاح به :

« ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » .

فالدعوة إذن للحكومة — فى رأيهم — شرك . والحكومة شرك . والرضا بها شرك . ولقد قال الله قولته فيمن يشرك وأبرم جزاءه فلا مناص لهم من التزام قول الله ، واتباع أمره وإنفاذه . فمن أولى إذن فى الناس بإعلاء كلمة الله ، والأخذ بحقه ، ممن قارفوا الكفر فنزعوا عنه ، وعرفوا الإيمان فثابوا إليه ؟ ..

لا سواهم ! .. وإنهم لوحدهم على البينة البلقاء . الموكلون بدحض الشرك . المعتزمون تنقية الإيمان . الآخذون أنفسهم بتطهير الدين من كل متقحم وعابث وإن كان عليا والذين معه ، ومعاوية والذين معه ، والأمة جمعاء بشتى أقطارها من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين حربا بالدعوة ، وضربا بالسيف حتى تنزع وتتوب ؟..

٣

لم ينقسم رأى على امرئ من أعلام الناس فى عصر من العصور مثلما انقسم الرأى أقساما ، وتشعب شعبا ، مع الإمام وعليه ، فى تقدير مقومات بنيته النفسية أو مظاهر سلوكه المحسوس ، ذهابا مع التقدير والتصوير من أقصى نقيض إلى أقصى نقيض ، ومع الإقرار والإنكار من غاية الولاء إلى غاية اللدد فى العداء ... وفيما بين طرفى غايتى الرأى كثرت النحل الوالية والمعادية ، كل فريق منهما يسلك طريقا طويلا ممدودا قد تعددت مراحله بتعدد منازع الدين طرقوه . فإذا أولى الطائفتين تبدأ من مجرد الاستسلام وإلقاء السمع له ، مأخوذة بسحر شخصيته أو راضخة لسلطانه ، لتمضى — تدرجا فى متابعتها إياه ورضاها عنه — إلى حد تقديسه وتأليهه . . . وإذا الثانية تنطلق ، على سننها المغاير ، فى أشواط انشقاقها عنه ، من مجرد خلاف تضمره النيات ، حتى يصل بها سخطها إلى تكفيره . . .

شيع شتى تزاحمت تنحله الصفات والأضداد فى آن ، وتعاقبت على الزمن لا تنحصر فى مكان . . إبان حياته ومماته ظاهروه ، ووقروه وعبدوه . وإبان حياته ومماته خالفوه ، وحاربوه ، وكفروه . وفى ظلال نزعاتهم — بكل غلوها

أو اعتدالها — عاشت الأرض الإسلامية تاريخها وهي لا تخلو من شعبة هنا وشعبة هناك ، تنشر بأوصافها — الموغلة منها في العداء والمغرقة في الولاء على السواء — ضبابا كثيفا حول خليقة الرجل الموصوف ، وحقيقة الأحداث والظروف . .

وما نبرىء الذين شطحوا فغالوا إليه حتى علوا به عن البشر وعدوه في المقدسات ، ولا الذين اختبلوا فغالوا عنه حتى ألبسوه الضلالة ، ولكننا — مع هذا — لا يجمل بنا أن نلومهم وإن فسقناهم وذهبنا في تفسيقهم أبعد الأشواط . فاللوم لا ينهض إلا على معايرة الأسباب الموضوعية التي ولدت الانحراف إلى هذا الجانب الموغل في الإعلاء أو ذلك المغرق في الإزراء ثم قياسها بالحساب المنطق الدقيق . فأما والنزعة هنا وهناك تعبر عن « جنون » عاطفي فإنه لا سبيل إذن إلى اللوم لأن « الخبال » لا يدخل في نطاق الأفعال الاختيارية ومن ثم فلا وجود لأسباب تجيز العتاب ! .

ولد أنبأ رسول الله عن هذه الشطحات المجنونة من قبل أن تتمخض عنها وعن أصحابها الأيام . فلعلها عندئذ فراسة قد استقرأت في صفات الإمام ومقومات خلقه ما تكشفت عنه الأحداث من سلوك أولئك وهؤلاء المدخولين نحوه بعد حين . . أو لعلها إشراقة إلهام ، طافت بخاطر خير من نطق في هذه الدنيا عن إلهام ، جعلته يحرك بكامن صدورهم لسانه فيقول :

« فيك مثل من عيسى بن مريم.. أبغضته اليهود فبهتت أمه، وأحبته النصارى فرفعته فوق قدره . . »

وخبرهم على بنفسه من بعد ، إذ أحس منهم الشطط إلى يمين أو إلى شمال ، فقال :

« يهلك في رجلان : محب غال ، ومبغض قال . . »

ولقد كان .

ولا عجب قط إن انبعثت غلواء الإكبار والإعلاء من نفوس أنصاره الذين شايعوه ، أو غلواء البغض والإزراء من نفوس عدوه الذين شنأوه ، لأن المتشيع المحب يمضغ العيب ، والعدو الكاره يصطنعه ويهول فيه وله من حسده

الذى يسد عليه منافذ الإنصاف ويستعبد حواسه وتفكيره ذخر ضخم يعده بما يريد . . . لا عجب قط أن يحب المتشيع وأن يبغض العدو ، وإنما العجيب كله أن ينبع الحب والبغض من قلوب عرفت قدره والتفت به ثم يمضى كلاهما إلى الشأو الذى تتحطم دونه الحدود والأصول ، وتتيه فيه الأخيلة قبل العقول . .

ومع هذا فقد اجتمعت فى شيعته الفئتان ! . . فى أنصاره من ذوى الهوس الدينى اجتمعتا ، ونضحت كل فرقة منهما بما فيها ، هذه تغلو فى حبه ، وتلك تغلو فى بغضه . لأن الغلواء ديدن العقول التى تدين بعبارة « الحرف » فيسيطر عليها عناد يجعلها دائما حبيسة نص مسطور لا تستطيع أن تستكنهه دواعيه ولا مراميه . وهاهم أولاء القراء ، فيما تكشف من سلوكهم وأحاديثهم ، أناس قد كلفوا السكاف كله بالإصرار على ما يرون أو يريدون ، لا يحولهم عنه منطق ولا برهان ، فماشوا فى غيابة جب من الجمود إن لم يكونوا تحولوا هم أنفسهم — عقولا وقلوبا — إلى جمود الجمود ! . .

ولقد علمنا كيف ارتد فريق منهم عن موالاته إلى معاداته ، ثم شطح بهم هذا العداء المجنون ، بعد التحكيم ، إلى رميه بالكفر والمروق حتى أباحوا دمه ودم أعوانه ، وعدوا حربه جهادا فى الله ، إلا أن يشهد على نفسه بالشرك . ويتوب ! . . فكأنما اقتضت طبيعة الوجود التى تجمع فى وفاضها الأمثال والأضداد : كثافة إلى شفافية ، وجمودا إلى سيولة ، وسوادا إلى بياض ، أن تعادل أيضا بينهم وبين طائفة على نقيضهم تجثم على الطرف الآخر من الغلواء . . . على نقيض أولئك الغالين فى البغضاء نجمت فرقة بين أشياعه سلت من صدورها وأخلادها كل ما لعله قد يخدش صفة من صفاته ، أو يمس بالمسنة الرقيقة الناقدة ؛ بل المتدبرة ، ذاته . . . لا عن روية وتقدير فعلوا ، وإنما — لا ريب — عن هيام مجنون بشخصه ، صدر عن خبال ، وسدر فى إكباره إلى ما يجاوز كل مقبول معقول ، ويخرق كل تصور وخيال . . . إنهم ليرقون به إلى النبوة . فإلى التنزيه . فإلى التقديس ، فإلى الإلهية المالكة الخالقة ، القادرة الرازقة ، الآبدة الواجدة ، الواحدة المعبودة ! . .

. . . إن منهم لمن اقتطعوا له نصيبا من نبوة رسول الله . . .

. . . وإن منهم لمن علوا درجة فى غيهم فافتروا على محمد أنه كتم عن الأمة من الوحى تسعة أعشار ، فأزاح على الستر ، وأظهرهم على السر ، حتى لقد كانوا يقولون :

« هدينا لوحى ضل عنه الناس ، وعلم خفى عنهم ! . . »

وإن منهم لمن حسبوا أن « إيمانهم » به معفيهم من الحساب ، لأنه يرفع عنهم التكليف ! . .

. . . وإن منهم لمن أمعنوا فى شطحتهم هذه ، حتى لقد أسقطوا الثواب والعقاب ، وجحدوا البعث والنشور ، قائلين :

« إنما الثواب والعقاب ملاذ هذه الدنيا ومشاقها ! »

. . . وإن منهم لمن قالوا بخلوده ، وبقائه على الدهر ، لم يردهم عن ذلك أن مات وطواه التراب . فما مات ، وما يمكن أن يموت ! . . بل غاب إلى حين ، ولسوف يعود :

« لم يمت ! . . وإنه لفى السماء . . »

ثم اصطنعوا من ظواهر الطبيعة شاهدا على ما يزعمون . فالبرق صورته ، والرعد صوته . وكلما أرعدت السحب ، وسطعت فى جوانبها ومضات البرق ، رفعوا وجوههم نحوها فى خشوع ، ورددوا يحيون :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين . »

. . . وإن منهم لمن جعلوا له الحساب ، يعذب إذا شاء ، ويثيب إذا شاء . . . مر يوما بقوم يأكلون فى نهار رمضان ، فهاله ما رأى منهم ، وأقبل يستفسرهم سر فعلتهم الشنعاء :

« أسفر أم مرض ؟ . . »

قالوا :

« لا ، ولا واحدة »

فعاد يسأل :

« فمن أهل الكتاب أنتم ، فتعصمكم الذمة والجزية ؟ . . »

« لا »

« فما بال الأكل فى رمضان ؟ . »

فإذا بهم يجابهونه بالرد الذى يجافى السليقة قبل أن يوقر الأسماع أو يزلزل العقول ، فيدعون أنه هو عاصمهم من جزاء ما يقترفون ، قائلين :

« أنت أنت . . »

ويصخب :

« ويلكم ! . . إنما أنا عبد من عبيد الله . . »

ويسجد عبودية لله ، ويلصق خده بالتراب .

لكنهم لا يرجعون عن هذا « الإيمان » بربوبيته وإن توعدهم أن يحرقهم بالنار ، بل يزيدهم وعيده تشبثا بإيمانهم المزعوم ، فمن يعذب بالنار غير الله ؛

. . . وإن منهم لمن ادعوا أنه الخلاق الرزاق ، فقال له قائلون :

« أنت خالقنا ورازقنا . . »

وقال آخرون :

« لو شاء لأحيا عادا وثمودا وقرونا بين ذلك كثيرين ! » .

فرق ونحل تدرجت فى مراتب الولاء له ، شعبة بعد شعبة ، وفرقة وراء فرقة ، على طريق الزمان الممدود ، وفى نطاق الدولة التى ترامت برقعتها التخوم والحدود . لم تنحبس حيث عاش ، ولا حين عاش وكان له سلطان ، وإنما انطلقت تردد دعوتها ودعواها أينما كان له شعبة وأتباع ، وأيان سرى ذكره ولقفته أسماع . . .

وما نريد أن نمضى شوطا آخر مع هذا النوع من الغلواء ، فبحسبنا أن رأيناه يرقى بطبيعة الرجل « البشرية » إلى « الإلهية » وهو قصارى ما يمكن أن تبلغه عواطف الولاء . . ولكننا نحاول أن نكمل الجانب الآخر من الصورة ، ليلتقى الضدان . ويجتمع النقيضان . .

إن الأنفس التى خامرتها البغضاء ، ليس يعنيها فى شىء — إن هى أسلست لجوحها القياد — أن تجاهر بعاطفتها على ملأ الناس قدر ما يعنيها أن تجتر هذه العاطفة وتلوكها فى دخيلتها ، تلذذا بها ووفاء للعادة ، كما يلوك المدمن مضغة التبغ ، قد لا تنفعه ، بل تؤذى حلقه ، أو تنوشه بغثيان فلا يعنيه إلا أنها تشيع فى كيانه « متعة » تذوب فيها أفدح غضاضة ، وأقسى أذى ، وأعق غثيان . .

كهذه الشاكلة رأينا من رجاله — دع عنك مناوئيه — طائفة قد كتمت إلا عن « عالم النفس الداخلى » بغضه ، يعيشون معه وهم قواقع قد انطوت أصدافها على الغل وإن لاح ظاهرها براقا أملس يبهر النواظر حتى لتسلكهم — مخدوعة — فى صفوف الأعوان . . رأيناهم رياء يدب ويخطر على قدمين : على الشفاه عبارات ولاء ، وفى القلوب دودة بغضاء . . بعضهم أخفى غله ، ووسعه أن يسيطر فى صدره على ناره أن تثور إلا نفثات دخان تتسرب حينا من المرجل الفوار لتهدأ ثانية إلى حين . . وبعضهم أعجله مأرب ففسد « الصمام » واندلعت النار ! . .

ولا حاجة بنا كما أسلفنا ، لتقصى كافة المدخولين ، وأنهم لكثير ، فى صفوفه وفيمن اعتزلوه وبدوا من شيعته وشيعة عدوه على سواء لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء . . ولكننا حين نعرض لتلك الطائفة منهم ، التى أظهرت ميلها إليه ، وانخرطت حينا فى سلك الأعوان ، نجدها قد آزرته عن ألف دافع ودافع إلا عن اقتناع ولا نقول عن إيمان . . فالصيت الذى تضفيه عليهم متابعتهم إياه مدعاة . والقرب فيه من صفى رسول الله مدعاة . وخشية نقمة عامة قومهم عليهم مدعاة . والمباهاة والفخر والخيلاء مدعاة . والتطلع إلى ثمرة مظاهرته مدعاة . وكلها وغيرها عروض وقشور لا تثبت قط عند الاختبار . .

ولعل المثل ، ونحن نعجم قرائن الحال لنسوق الأمثال ، لا يعوزنا حتى فيمن لهج بحمده على الأشهاد ، وسل القلم واللسان ينضحان عنه ، ويفضحان غريه بقذع من النعوت والأوصاف طالما تناقلتها الرواة . . لعل المثل قد لا يعوزنا فى « النجاشى الشاعر » الذى أسال فكره قريضا ونظما يفيض ثناء على مناقب الإمام وإعزازا لأمره ، وهجوا لابن هند وتحقيرا لشأنه ومسلكه . . ومع ذلك فلا يكاد هذا الشاعر الغاوى يتعرض للامتحان حتى ينقلب الميزان ، فإذا هو يرتد عن نهجه ، وإذا الممدوح هو الخليق بالهجاء ، والمذموم هو الحقيق بالثناء ! . .

خلط من الخلط يجريه الهوى . ويفرضه الإخلاص الأثيم للذات ولا نسائل أنفسنا فيم كان انقلاب الرجل ، أعدولا عن باطل كان ، أم استجابة لحق ، أم تشيئاً بمبدأ جديد . . . لا نسائل أنفسنا وأمامنا من خبره قرينة حال تغنى عن كل سؤال :

كان ذلك ذات رمضان . فى أول نهار من هذا الشهر الذى يعف المسلمون فيه عن الطعام والشراب والشهوات زكاة للنفس وتعبئة لقوى الروح . وكان النجاشي قد خرج من بيته يسير إلى غير غاية كأنما ليشغل بعض وقته ويملأ بالحركة ما يحسه فيه من فراغ ، فإذا هو يمر بصاحب له ، قد لاذ بفناء داره فأقرأه السلام . .

قال الرجل وهو يدعوه أن يلازمه لعله يغريه بالقبول :

« . . وهل لك فى رءوس وأليات قد وضعت فى التنور فى أول الليل فأصبحت قد أينعت وقد تهرأت ؟ »

فراجع الشاعر سمعه ثم رد فى استهجان :

« ويحك ! . . فى أول يوم من رمضان ؟ . . »

لكنه قبل . الطعام أغراه ، ثم أغراه بعده النبيذ ، فأهدر صومه ، وخرق شريعة الله . . ثم راح يعب وصاحبه من الشراب حتى فقدا الوعى وعلا صياحهما المحموم ينبيء عما اقترفاه . . . فلما انكشف الأمر ، وأخذ بسكره إلى الإمام أمر بجلده ثمانين جلدة وزاده عليها عشرين . . .

وكأنما هاله الجزاء فأطلق لسانه يقول :

« يا أمير المؤمنين . . أما الحد فقد عرفته ، فما هذه العلاوة ؟ »

قال على :

« لجراءتك على الله ، وإفطارك فى رمضان » .

فمن عجب أن تأخذه العزة بالإثم وتأخذ معه طائفة من اليمانية ، فيها طارق بن عبد الله بن كعب النهدى .. غضبوا له ولم يغضبوا لله ، فمشوا — بمنطق الاستكبار والاستعلاء — إلى الإمام يحاجونه وينكرون عليه ما كان . .

قال له طارق :

« يا أمير المؤمنين ، ما كنا نرى أن أهل المعصية والطاعة ، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سيان فى الجزاء حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخى الحارث . . »

أفهذا منطق تناقش به جريرة الشاعر ؟.. أم يرون قسطاس الله يحابى الناس على أصولهم فيلين بهم ما شرفت الأصول وإن خفت الأعمال ، ويشتد عليهم فى العقاب إن انخفضت الأحساب ، . . أم يريدون الإمام على أن يشترى من أتباعه طاعتهم بإهدار أحكام الله ؟ . .

وكرنه قولهم ، ولكنه استمسك ما استطاع ليلفظ فى وجوههم جوابه الذى لا جواب غيره فى مثل هذا المقام :

« يا أخا نهد . . وهل هو إلا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرمات الله ؟ . . »

ومع ذلك فقد أدلج طارق والشاعر بليل يفران من الحق إلى معاوية ، ملتحقين به ، ولاقيين فى رحابه النعمة التى يجدها عنده كل خوان ! .. ثم لائذين بمجلس لدنه لا يتشدق رواده فى صباح ولا مساء إلا بالطعن على الإمام واستخراج العيوب والمثالب من كل مكرمة وسعها خلقه واستوت فى سلوكه وطبعه مع سواها من المكرمات تؤلف شعاعا هاديا لمن أراد الانطلاق على غير شبهة فى طريق الله ..

ولقد شاء معاوية كدأبه ، وإنه لفى أسر غله ، أن يداهن الوافد الجديد على حساب القيم الخلقية الرفيعة فراح يثلب محامد الإمام ويلطخ صحيفته النقية بالافتراء ليبدى صحيفة كل مرتد عنه منتقض عليه ناصعة بلقاء ... شاء هذا فأطلق لسانه ما وسعته عبارة ذم ، وبالغ ما شاء ، ثم غلا فى قدحه إلى شأو لم يستطع عنده أولئك المرتدون أنفسهم التصبر على السكوت ، فانفلت طارق من بينهم يعارضه ويقول :

« يا معاوية .. إنى متكلم فلا يسخطك . . »

وتكلم .. لقد أنطقه الله عندئذ بكلام ليس من ثناء قط إن لم يكن هو الثناء ، على الإمام ، والذين معه من رجال . فهم منار للهدى . وهم معالم للدين . وهم عدول ، ليسوا بنا كثين ولا قاسطين . . وإنما غير هذا زمرة الناصلين منهم ، المنحرفين عنهم ، المنحازين مع الأهواء ، وإن كان هو أحدهم ، وإن أوشك أن يقرن طغمتهم بمن صبأ عن الإسلام ! . .

كان مما قال :

« . . فلم يكن رغبة من رغب عنهم ، وعن صحبتهم ، إلا لمرارة الحق حيث جرعوها ، ولوعورته حيث سلكوها . غلبت عليهم دنيا مؤثرة ، وهوى متبع ، وكان أمر الله قدرا مقدورا . فلقد فارق الإسلام قبلنا جبلة بن الأيهم ، فرارا من الضيم ، وأنفا من الذلة .. فلا تفخرن يامعاوية إن نحن شددنا نحوك الرحال، وأوضعنا إليك الركاب ! . . »

. . . وإن نحن أطفنا بأولئك الذين عاشوا على رياء فى صفوف الإمام طوال حياته ، يصابرون حقدهم أن يثور ، ويكتفون عن الإظهار بالإضمار ، وعن المكاشفة بالاجترار ، لرأينا على رأسهم الأشعث ، الذى كان يحسب دائما فى أعوانه حين القياس بالأقوال، وفى عدوه وشانئيه حين تعجم النيات أو تستقصى الأهداف الخفية وراء أية بادرة بدرت منه ، يستوى فى هذا ماند عنه من بادرات التلميح ومظاهر السلوك الصريح .. ولئن كان قد ظل دائما فى ركاب الإمام ، فإنه لم يكن ، فى حقيقة الأمر وحكم الواقع ، محسوبا له بل محسوبا عليه ، ومنتقصا منه لا مضيفا إليه . . ولئن كان قد التزم صحبته ولم يفارقه ، فللأنفة فعل ، وللمباهاة والتفاخر وليس للولاء والوفاء . . ولعل أبلغ ما يصور لنا موقفه ، ذلك الحديث الذى جرى به لسان الهيثم بن الأسود أبى العريان ، حين استفسره معاوية مقدار إخلاص أهل العراق وأهل الشام ، كل فريق لأميره ، وصدقهم له النصح ، وفى سبيله البلاء . .

قال له معاوية يسأله ، عقب التحكيم :

« ياهيثم . . أهل العراق كانوا أنصح لعلى فى صفين ، أم أهل الشام لى ؟ . . »

فبادر على الأثر يجيب :

« أهل العراق قبل أن يضربوا بالبلاء كانوا أنصح لصاحبهم » .

فعجب معاوية :

« كيف قلت ذلك ؟ . . »

قال الهيثم يوضح له :

« لأن القوم ناصحوه على الدين ، وناصحك أهل الشام على الدنيا ، وأهل الدين أصبر ، وهم أهل بصيرة . وإنما أهل الدنيا أهل طمع . . ثم والله مالبث أهل العراق أن نبذوا الدين وراء ظهورهم ، ونظروا إلى الدنيا فالتحقوا بك ! . . »

هنا جاءه من العاهل الأموى السؤال الذى لعله طالما تردد فى كل خاطر آنذاك ، فى العراق ، وفى الشام ، بل فى كل بقعة غيرهما من ديار الإسلام :

« فما الذى يمنع الأشعث أن يقوم علينا ، فيطلب ما قبلنا ؟ . . »

فكان فصل الخطاب الذى يعاير العلة بأدق معيار .

« إن الأشعث يكرم نفسه أن يكون رأسا فى الحرب وذنبا فى الطمع ! .. »

وصدق الهيثم وأصاب .

فعلى هذه الشاكلة ، شاكلة النجاشى وطارق والأشعث ، كانت كثرة من رجال الإمام ، فى تلك الحقبة من تاريخه التى تلت صفين . . كثرة تضمر السخط — إن لم تكن تضمر الحقد — وتلوكه ، تلذذا به ، ووفاء للعادة على أقل احتمال ، كما يلوك المدمن مضغة التبغ ، هى لا تنفعه ، بل تؤذى حلقه ، وتنوشه بغثيان ، ولكنه لا يكف ، لأنها تشيع فى كيانه « متعة » نفسية تذوب فيها أفدح غضاضة ، وأقسى أذى ، وأعتى غثيان ! . .

ولكم تحطم فى نفوس بعض أولئكم الكثرة المرائية الصمام فانبجس البخار المكتوم . أما الآخرون فوسعهم أن يصابروا محنة نزوعهم إلى الانسلاخ عنه إلى عدوه ، فمكثوا حيث كانوا منه ، قريبين بالمسافة ، بعيدين بالإخلاص ، عن أنفة وكبرياء ، لا عن عقيدة ولا ولاء . . .

٤

تحفزت الأوصال للحركة ، وامتلأت القلوب بالتطلع . . النخيلة ناشطة كما لم تنشط قط من قبل فى عهدها الأخير . الخطا لا تستقر على أديم المواقع . الجنود تحتشد لتنتظم . المطى تخطر وتطفر . السلاح يلتمع على وهج الشمس ، ويخايل ببرقه الأعين . فى النواظر لهفة ، وفى الجوانب وجيب . فالأيام القلائل المقبلة — المغلفة بعد بالغيب المجهول — تنسج ، فى خفية عن الظنون والأحداس ، خطوط الأحداث التى تشكل المستقبل .

أينما استدار بصر كان ضجيج يثور رهجه تحت الخف والحافر . وأينما مالت أذن كان وقع وقعقعة . وأينما سرح ذهن كان حدث يهم أن يتخلق جنينا فى بطن الزمن وراء مشيمة من ضباب التوقع لاتنى تشف وتشف لتنشق عنه . . كل حركة فى الأرجاء المائجة تنبىء عن عزم مستور . .

وعلى الأفق لون الدم . فى الهواء رائحته . فى العروق النافرة سورته وحمياه . . مامن امرئ هنا إلا رنا ، بلحظ عينه أو ذهنه ، إلى حلبة تعتنق فيها الأسنة الهوج لتصمى وتبتر ، وأجساد تلتقى وتضطرب لتتهاوى فى سواد السنابك ، وبقاع تنفسح وتضيق كالأفواه المتلمظة لتلتقم ذوب الأنفس . . ، ما من يد إلا تشرعت للطعان . . مامن خيال إلا ارتحل بصاحبه عبر الزمن والمسافة ، شرقا أو غربا ، إلى موقع صدام منتظر ، يحجبه اللحظة عن الرؤية — وإن طالعته قوى التصور القلق — هيكل تل ، أو منبسط بادية ، أو شريعة ماء . .

فأما الملتقى فقد تفرقت عليه الأفهام . المنطق أحيانا يرسمه والوهم أحيانا يبنيه . . أهو بعيد بعيد ، أم هو قريب قريب ؟ . . أعلى كثب ، أم دونه مراحل تتقطع عليها الأنفاس ، وتتمزق الأقدام ؟ . . أفى ساحة الأمس ، ام بمكان يباعدها أو يدانيها ، تجسمه الرغبة أو تحدده الصدفة واحتمالات الظروف الطارئة التى لا تخضع لقواعد الإعداد ؟ . .

تفرقت عليه الأفهام !

طائفة طمأنتها الأمانى وتلقت الحركة الدائبة بغير احتفال . ما عسى يغريها بهذا الضجيج الذى يشغل الجسوم ، وبهذا التوقع الذى يملأ الخواطر وإنها — لفرط التصاقها بفكرة السلم — توشك أن ترى المنظر كله فقاعة هواء لا تلبث أن تنفثئ ثم يرين الهدوء . الناس ، فى رأيها ، استرخوا للدعة ، ولذ لهم مذاقها فراحوا يلوكونها ناعمين . . .

أولئك فريق الاستسلام !

طائفة أخرى التصق يومها بأمسها ورأته معبرا لا معبر غيره لغدها المرقوب الذى تتوسم فيه النصر والوحدة والسلام للأمة جمعاء إذ تأكل الحرب بنارها عوامل الفرقة ، وتمحق دعاة الفتنة ، وتطهر الأرض الإسلامية — طولها وعرضها — من درن الانقسام . . فإلى أين إذن تكون الوجهة إن لم تكن هى الشام ، أو مشارفها ، أينما كانت لأميرها المتمرد بقعة يدل فيها بسلطان ؟ . .

أولئك خاصة الإمام ! . .

طائفة ثالثة حزبها — أو خالت ، أو بدت كأن قد حزبها — أمر خارجة النهر ،

فرأت أن تهطع إليها بموقعها فتقصفها ، تأمينا للسكوفة ، وقضاء على احتمالات غزوها من وراء أظهر أهلها حين تدعوهم الدواعى إلى الانطلاق للقاء فاصل بينهم وبين متمردة الشام . .

أولئك كانوا الأشعثية — رجال الأشعث بالولاء أو بالانحياز — سواء منهم الذين أضمروا مسالمة معاوية عن عزم ممقود غلفوه بخطر أصحاب النهر ، أو الذين منهم استجابوا لدعوة الرعب مخدوعين . .

ولقد يوشك من يرى المنظر العام لهذه البيئة التى تشابكت فيها خيوط الاتجاهات ، واشتبه الرأى ، أن يظنها قد أجمعت أمرها على المعركة الفاصلة التى تحسم كل تردد ، وتقضى على ما نشب من خلاف بين الأمة ، وتضع حدا حاجزا بين مقتضيات الظرف الحازب وبين التذاؤب مع الآراء مرة تقدما إلى أمام ومرة تقهقرا إلى وراء . . يوشك أيضا من خبر الموقف ، وسبر غوره ، أن يتنبأ بمسار المطى ، وآثار الأقدام ، ومواقع الصراع المنتظر والجيش عندئذ يتأهب للانطلاق . .

لا جدال فى هذا . فالإمام قد قال . والناس استجابت ، والجند احتشد وغدا فى الحلقة والدرقة . . غير أن الأنباء ، فى نفس الوقت ، كانت ما زالت تترى عليهم ، تدخل فى آذانهم كلمة أو عبارة ، فتخرج من حلوقهم هلعا أو رهبة ! . . إن منهم لن يصوغها كما يهوى ، ويلفها بما يزلزل الأفئدة ويرج الأوصال . وإن كثرة لتوغل فى تصوير الهول وعقباه ، ويتطاير حديثها متفجرا حتى يبلغ سمع الإمام ، فيستحضر ابن مرة العبدى إليه ، ثم يبلغه أمره لعله يأتيه من لدن خارجة النهر باليقين :

« اخبر لى خبرهم ، واعلم لى أمرهم ، واكتب إلى به على الجلية . . »

ويعضى الرسول . .

ويتلبث الناس على ترقب بريده أو سمته يطلعه لهم الأفق فى صباح أو مساء ، ولكنهم لا يظفرون إلا بنبأ هو آخر ما كانوا يتوقعون من أنباء . فلقد أصبح الرجل نفسه الخبر المرقوب وغدا فى الغابرين بعد أن قتلته الخارجة وقد أبوا أن يسمع منهم أو يسمعوا له . . .

عندئذ اشتد الهول ، وعلا التصايح حول على والجيش يهم أن يأخذ طريقه إلى الشام . . .

وتزاحمت عليه أصوات فى جرسها من التمرد أشد مما بها من إنكار :

« يا أمير المؤمنين .. علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا فى أموالنا وعيالنا ؟ . . »

وقال منهم من حسب أنه يأتى بفيصل المقال :

« سر بنا إليهم ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم ، سرنا إلى عدونا من أهل الشام » .

ولم يخل الجمع من رءوس تستدير ، عيانا أو مخالسة ، صوب الأشعث ، كأنما يذكرونه رأيه ، ويعلنون تأييده ، ويستحثونه أن يظاهرهم هذه اللحظة ، كدأبه فى لحظات الفصل التى تقلب الميزان ! . . ولقد وقف الرجل هنيهة مزموم الشفتين وإنه ليشعر أنه فى غنى عن الكلام . فالهرج قد وقع . والتمرد أطلع قرنه . وما غرسه فى الليالى الطويلة وتعهد عوده قد أثمر الآن ! . .

ومع ذلك فقد تكلم . ردد ثانية دعوته . أخذه زهوه بانتصار نظرته فلم يستطع الصمت والكتمان . . .

وكرة أخرى انقلب القوم إلى ما أوشكوا أن يخرجوا منه . أن يتحرروا من إساره . أن تغتسل عقولهم من عواطفهم الموهومة الرعناء . . كرة أخرى سيطر عليهم الذعر ، أو سيطرت النزوات المنحرفة أو الرغبات المخدوعة فإذا بهم يلوون بأعنة مطاياهم ، ويقسرون الأقدام على غير ما اعتزمت من قبل . .

أفمصرع العبدى حقا هو الذى قلب الميزان ؟ . .

ذاك ما لعله بدا حينئذ لمن عاش معهم هذه المحنة النفسية وتنفس القلق والصخب والثورة على ما سبق لهم الاتفاق عليه وأبرموه فى لحظة تعقل ، أو لحظة ولاء للهدف الحق ، خطفت كومضة البرق ثم ذابت مع الظلام ! . .

لكن المصرع لم يزد ، فى الواقع ، عن تعلة مصنوعة ، تعللوا بها ، أو تعللت بها فئة الانقسام وعرفت كيف تغرسها فى أذهان الناس لتعدل بهم عن السير إلى الشام . . لقد عملت فيهم — وإن لم يفطنوا ، حمى السلام لتدعهم بعد قليل صرعى استسلام .. وإذا كان الأشعث بن قيس قد نعم بما أفشى ، إذ انفتح أمامه الطريق إلى مشتهاه ، فإن نفرا من جمعهم هو الأقل ، مضى الشوط على كره

وفى حسبانه أنه حلقة — تقدمت أو تأخرت — ليست خاتمة النضال المنشود على أى حال . أما الأشعثية ، وأما الانهيار النفسى ، وأما سطوة القدر المتربصة بالسوانح والأخطاء لتجعل منها وسائل إلى ما تروم ، فكلها عرفت أنها نهاية المطاف ! . .

وعندما بدأ الجيش العلوى عندئذ زحفه فى الرحلة الجديدة ، كان يطوى السجل على هدف نضاله ، وينحاز إلى درب فرعى لا يفضى به إلى الغاية بقدر ما يفضى إلى تيه من التخبط فى ضباب أحداث ، فإنها موج فى يدى عاصفة ، لا يعرف مذهبه ولا مأتاه ، ولا يرسم هو خطوطها ، أو يحدد إليها مسالكه ، لأنها هى التى كانت تحركه ، وتنزلق به — عن غير إدراك منه بخطر المزلق ، ولا قدرة على التحكم فى نفسه — لتصنع ، على هواها ، مصيره ! . .

٥

عبر الجسر سلكوا على دير عبد الرحمن ، ثم مضوا على دير أبى موسى ، ومنه على شاطئ الفرات . .

على ضفة النهر خطوا رحلة النهاية . . . لعل التراب ها هنا لم يحفظ أثر الأقدام . . لعل ريح الشتاء الأول سفت عليه ونكثته . . . لعل رءوسا عديدة ودت — من بعد — لو استطاعت خيلاتها طمس معالم هذا السير . . . فلكم يطمح الناس إلى نسيان ما يسيئهم والفرار من ذكراه ! . .

ولم يكن الإمام ، وهو يؤمهم فى الانطلاق ، إلا مثقل القلب ، نفسه حزينة ، وحلقه ممرور . . . كان له مظهر القائد وليس له إلا انصياع المقود . كان ريشة على تيار .

إنه ليعلم أنهم أخطاوا السبيل ، من البدء كان يعلم . وكان قلقا من عاقبة ما يفعلون ، منذ خدعة المصاحف ... منذ وقف القتال .. منذ فرضهم أبا موسى الأشعرى عليه ... منذ مهزلة الحكم . وطوال الأيام التى صرفوها تعللا وتلكؤا عن تلبية ندائه لمعاودة استقبال معاوية بالسلاح كان يخشى منهم ألا يتابعوه ، وألا ينتظمهم أمره ، وألا يوفوا ، بمسلكهم هذا ، على الغاية التى رسمها من أول

لحظة خرج فيها من مدينة الرسول لضرب التمرد وقمع الفتنة رأبا للصدع الذى أحدثه مناوئوه فى جدار الإسلام . . .

ولكن كان هينا عليه أن يحملهم على غير ما أرادوا وذهبوا إليه مذهبهم الملتوى عن هدفه . فما زالت به قدرة ليقف فى وجه السيل .. وما زال بينهم نفر يؤمنون نفس إيمانه بنظرته . . . وما زال ثمة رجاء فى أن يتابعه جمعهم الحاشد وينصاع لأمره ، ولاء له ، أو هيبة منه ، أو تظاهرا بطاعته . فكيف إذن عدل عما فى مقدوره إلى هذا الذى حملوه عليه ؟ . . .

لو أنه لم يعدل إنه إذن لراكب بهم ، وبنفسه ، وبنضاله كله أضعف مركب وأسوأه يمكن أن يسير إلى غاية يتطلب بلوغها اجتماع القلوب قبل اجتماع الأبدان . وما انتفاعه عندئذ بجند إن يكونوا ككسفة الليل — لو تراصوا أمام العدو قد يحجبونه عما وراءهم بعددهم الوافر — فإنهم أيضا كستار ضباب ما إن تلتمع أشعة الشمس حتى يتبدد ويذوب ! . . . إن أعتى أسلحة الحرب وأقدرها على انتزاع النصر من بين أنياب الموت هى ، لا ريب قوة النفس وقدرتها على التحكم فى جوارح البدن وموجبات الذهن تحكما كفيلا بأن يروضها على مواجهة أى موقف قد تفجؤها به احتمالات الصراع الحربى ـ المتذائبة أبدا بين مد وجزر ـ بمسلك تلقائى حاسم ، منبعث من جنان ثابت ، يفرز الجلد والصبر والإصرار ، ولا شية فيه من تردد أو قلق أو خشية .. « الروح المعنوى » هو السلاح الأول والفعال فى كل قتال . وهؤلاء الذين ينطلقون معه الآن ـ أو ينطلقون به ـ إلى النهروان ، كان قصاراهم ، لو التقوا بأهل الشام آونتهم هذه ، أن يكونوا ظلال رجال ، قلوبهم جوفاء ، ونفوسهم هباء ، وعيونهم وإن يكن حملاقها يمتد أما ماصوب جند معاوية ، فإن أعصابهم ، التى هدها القلق على ذويهم بالكوفة ، خليقة بأن تشدهم إلى وراء ! . . .

فأية كارثة كانت حرية بأن تحيق بهم لو أنه « ساقهم » إلى معركة تشهدها منهم الأبدان ويغيب الجنان ؟ . . وبأى سلاح كانوا سيقتلون وقد جردهم القلق من أقوى سلاح ؟ . . إنها إذن « سوقة » إلى المصارع . إلى مذبحة لا تتناثر على ساحتها الجوارح والأشلاء بل تدفن كذلك تحت ثراها القيم والمبادىء التى يناضل

طوال حياته لرفع علمها إلى مسار النجوم . وإذا كان هو اليوم قد استلان لهم بالإذعان فلأنها — فى حسبانه — أزمة نفسية لعل جنوحه اللحظة إلى جانبهم يخفف عليهم شدتها ليجتازوها بأمان .

لقد كان ، مع كل ما ثقل عليه منهم ، يدرك ما يثقل عليهم . ويحاول بكل طاقة أناته واحتمال صبره أن يعيد إلى نفوسهم طمأنينة سلبتهم إياها أحداث قد شحنوها — إبان فزعهم الفارض — بأفظع خطر موهوم . . فإذا رأى الآن أن يشفى بهم على ذلك الخطر ، ويكشف لهم عن حقيقة الطبل الأجوف فيه ، فإنه إذن للشفاء ! . .

وكذلك مضى معهم إلى الدواء المر ، ونفسه لا تخلو من رجاء أن يجتاز بهم المحنة النفسية التى يعانون منها كل هذا العناء . فالخارجة لا تهوله وإن تعضل به . والنصر عليها ميسور . وتطهير الأرض من طغمتها مزود رجاله بزاد من روح معنوى هو أقوى الأسلحة التى يفتقرون إليها أشد افتقار حين يشدون الرحال للقاء متمردة الشام . . .

ولم تهتز أيضا ثقته . فما كان شىء فى الدنيا بعينه من سياسة الحكم أو الناس هو الذى دائما كان بما فى يد الله أوثق منه بما فى يديه وأرسخ إيمانا بقدره وإن جاءه هذا القدر بأهول ما تسوقه الأقدار . . . وعندما اجتاز الجسر ، وهم أن يبدأ الخطا على الطريق ، مثل بين يدى ربه ، وأفنى نفسه فى ذاته القدسية فى ركعتين ، نأى فيهما عن عوالم المخلوقات . فلعله عندئذ قد راح يجلو يقينه . لعله استزاد فى شعلة روحه . لعله غسل بابتهاله ما عساه قد علق بذهنه وبقلبه من غضب أثاره فيهما كنود أصحابه ولاث ماكان عليه من صفاء . . .

ومضى وإياهم والنهر وإنهم أجمعين — وإن اشتدت الأسوق تحتهم تحت السير — قد تعثرت عزائمهم ، واضطرب فلكها ، بعضهم من غيظ ، وبعضهم من ندم ، وبعضهم من حيرة بين أولئك وهؤلاء ، دع عنك تلك الطائفة المشبوهة التى استطارت بها الفرحة برجحان رأيها وكانت — دونهم — على زهو وخيلاء ! . . حتى إذا قطعوا أشواطا ، وأوشكت بهم مراحل السير أن تشرف إلا قليلا على على جمع الخارجة ، أقبل امرؤ له هيئة وسمت ، يشق طريقه بين الحشد إلى الإمام .

وتساءل أناس .

وتهامس ، فيما بينهم ، آخرون .

« منجم ، يعرف أسرار النجوم ، ويقرأ الأقدار . . »

واقترب صاحب السمت المرموق ، من ابن أبي طالب يناديه :

« يا أمير المؤمنين . . »

فتلبث يصغى .

« يا أمير المؤمنين . . لا تسر فى هذا الوقت إليهم . . . »

ورمقه الإمام بنظرة استفسار . فأردف الرجل يقول ولهجته تفيض بالتوكيد ، وكأنها صيحة القضاء :

« لا تسر ! . . إنك إن سرت ، يا أمير المؤمنين ، فى هذا الوقت ، خشيت ألا تظفر بمرادك . »

« ومن أين علمك بما تقول ؟ . . »

« من طريق علم النجوم » .

عندئذ ارتسمت بسمة ساخرة على وجه على وهو يتثر الرجل نظرة إنكار :

« أتزعم أنك تهدى إلى الساعة التى من سار فيها صرف عنه السوء ، وتخوف من الساعة التى من سار فيها حاق به الضر ؟ . . . »

ورمى ببصره يدور فى رجاله ، كأنما يحثهم أن يحسنوا الإصغاء ، ثم أكمل يقول :

« . . إنك لتبتغى فى قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه ، لأنك — بزعمك — أنت هديته الساعة التى نال فيها النفع ، وأمن الضر . . . ألا فمن صدقك بهذا فقد كذب بالقرآن ، واستغنى عن الاستعانة بالله . . »

ثم استقبل الناس يحذرهم :

« أيها الناس ، إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به فى بر أو بحر ، فإنها تدعو إلى الكهانة . فالمنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر فى النار . . . »

وحث خطاه :

« سيروا على اسم الله . . »

ولم ينقطع قط اتصاله بالخارجة . مرارا عدة استفاءهم إلى الطاعة ، وأملى لهم فى مراجعة النفس عما نزعت إليه ظالمة . . . بلسان كثيرين من رجاله فعل ؛ لعلهم أن يرعوا الحق ، وتثوب قلوبهم إلى الخير والوحدة والسلام . . .

لكنهم كانوا قوما قد صسس على أفئدتهم هواها فعميت البصائر ، وخفت الأحلام ، وتبدو كأنما يخبطون كالمشواء إلى الهاوية وهم معصوبو الأعين ، وما أكثف العمى الذى يجئ عن تعصب ! . . إنهم لا يرون غير رأيهم هم ، ولا يسمعون إلا نفس قولهم هم ، كأنما يرون ويسمعون من داخلهم ولا تخترق بهم عين ولا أذن ولا بصيرة جلدهم الكثيف ، أو تنطلق إلى خارج طبيعتهم المصمتة الصماء ! .

كان علم السلام والمصالحة الذى رفعه لهم ، كلمات قلائل تحق حق الله ، وتقيم حدوده ، ثم تفتح الطريق بعد هذا إلى الوئام والإصلاح :

« ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم ، نقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام . فلعل الله أن يقلب قلوبكم ، ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم . . »

ما أراد أن يحملهم نفس محمله على قتال معاوية ولما تصف نفوسهم بعد الصفاء كله ، وإنما شاء أن يفسح لهم فى مجال التفكر عسى أن يثنيهم التدبر والادكار عن المكابرة وقد اتسع وقتهم أمامهم فى تناول الأمر كله بالتأمل الهادئ والمنطق السليم .

ومع ذلك فقد أبوا الفرصة المبسوطة أمامهم ، وردوا بجفاء واستعلاء :

« كلنا قتلتهم ، وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم ! . . »

لكنه تصبر وإنهم عندئذ ليرفضون الانصياع إلى بديهية من بديهيات حياة المجتمعات هى بديهية القصاص ، ويضعون بهذا رأيهم وحده قواما على رأى الدين تصبر مستمكا بهدى ربه الذى يقدم الدعوة بالموعظة الحسنة على الأخذ بالعنف والشدة سبيلا إلى رتق الانقسام واستعادة الولاء . . .

وكرة أخرى ينقل وافده إليهم قيس بن عبادة ، الدعوة السمحة هنا بدمهم

أن يهدر ، وحرصا عليهم وعلى الأمة أن يستغرقها خلاف مسلح حيثما تغفى الرويه عن امتشاق الحسام .

يحدثهم قيس ، فى تؤدة ولين مفصحا لهم عن خطل ما يعتنقون :

« عباد الله . . أخرجوا إلينا طلبتنا منكم ، وادخلوا فى هذا الأمر الذى خرجتم منه . . وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم ، فإنكم وركبتم عظيما من الأمر : تشهدون علينا بالشرك والشرك ظلم عظيم ، وتسفكون دماء المسلمين وتعدونهم مشركين . . . »

فيأبون ثانية فى عناد مجنون . .

ويثنى من بعده أبو أيوب الأنصارى :

« عباد الله . إنا وإياكم على الحال الأولى التى كنا عليها . . ليست بيننا وبينكم فرقة ، فعلام تقاتلوننا الآن ؟ . »

فيقولون ولما يتزحزحوا عن موقفهم ، كأنما قد غاصوا بأقدامهم إلى الركب فى حمأة سلبتهم القدرة إلا على التدلى والانزلاق دون التحرر أو الخلاص :

« إنا لو بايعناكم اليوم حكمتم غدا . . »

لوثة « لا حكم إلا لله » تعاودهم ، وتلح عليهم ، وتغلق دونهم كل باب إلى الصواب . .

عندئذ لا يملك الرجل إلا أن يحذرهم قفزهم هذا إلى خاتمة فى طى الغيب ، لا ينبئ عن وقوعها شىء قط إلا ما فى مخيلاتهم من اضطراب :

« فإنى أنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتى فى قابل »

ولكنهم لا يسمعون .

٦

بدوا كأنما آثروا الحرب حلا لازما للخلاف الذى أنشبوه . فأساليب التفاهم قد تقطعت واحدا بعد آخر . ووعوه الفىء إلى الجماعة خفتت كالهمس . ذابت فى غمرة العناد . وندت تحت تراب شمارهم الذى يجافى كل حق ومنطق وروية ...

ووقفوا على تحفز . أعصابهم كالأوتار . أجيادهم ممدودة مشرعة إلى الأمام كالسهام . أكفهم لفرط تقبضها أوشكت أن تغوص فيها القسى والحراب ومقابض الأغماد والسيوف المسلولة . .

اللحظة الفصل . لا عودة أبداً لأمس الذى نبذوه وخلصوا من خزيه . لا رجعة بنقاش وكلام ولا إلى نقاش وكلام . الجسور التى عبروها إلى رأيهم وباعدت ما بينهم وبين على ومن بقوا معه قد تحطمت واحترقت وتناثرت مع الريح كالهشيم ...

ومع ذلك فقد ثبتوا نظراتهم على وجهه الذى لوح الغضب قسماته كأنما حرصوا على ألا تفوتهم منه طرفة هدب أو اختلاجة شفة . . ثبتوها على كره وإنهم لراغمون ، فما فى طاقتهم أن يقتحموه ! . . إن له لسحرا يشد حملاقهم إليه ، وسطوة روح تجذب الآذان والعيون . ولئن عرفوا — من ألسنة وافديه إليهم طوال ما سلف من أيام — ماعساه محدثهم الآن به ، فإنهم لا يملكون حياله إلا التطلع إليه بانتباه وترقب ، لا عن رغبة فى الأصغاء ، وإنما لإحساس يشيع فى جنباتهم يخالون معه أنه يملأ الأفق حولهم بهامته المربوعة ويسد منافذ الفضاء فلا يتلفتون هنا أو هناك إلا وجدوه !

وسكنوا كأنهم جمود . وأتأروه نظرات ثابتة لا تطرف كأنها أسلاك مشدودة من مآقيهم إلى محياه . واستغرقوا كل استغراق فى ملامحه ، فكل حركة الآن تبدر منه إنما تبدر لغرض ، كما تبدر بمقدار . . .

أما هو فقد اجتاحهم بنظرة طافت بجمعهم الحاشد وحصرتهم فى إنسان عينه الدقيق . نظرة محيطة ، آسرة مسيطرة ، إن يكن فيها سخط ، ففيها كذلك نذير ، وفيها رثاء . . فما كرثه قط أنهم من قبل قد خالفوه . وما يكرثه الساعة أنهم

مصرون على خلافه والانسلاخ عنه . إنما الذى يكرثه منهم ولهم أن يلج بهم سفههم حتى ليخرجهم من حظيرة الإيمان وهم يحسبون خروجهم الإيمان كل الإيمان .

وعندما همد الصوت ، وأطبق السكون ، واحتبست الأنفاس ، وغدا المكان بما فيه ومن فيه أذنا مصغية ، سرت إليهم كلماته قاسية كضربات معول على صخر :

« أيتها العصابة ! . . »

فلعل جرس النداء العنيف قد اخترق عليهم قشرة الجمود التى غلفتهم ، وسرى فى عروقهم يرج دماءها رج الحمى دماء محموم ! . . لعلهم عرتهم انتفاضة . لعلها اتسعت الحدق . لعلها رعشت الأهداب . . أيما ثوبة ثابوها آنئذ من عالم الجماد لدنيا الأحياء — طالت أم قصرت — لم تنل شيئا من همود السكون المحيط الذى تجمدت أنفاسهم على حواشيه تجمد الصقيع فى صبح بارد على مدر صحراء ! . .

واستطرد بنفس قسوة الجرس ، يسوط بصوته وجوههم وجوانب الفضاء المحدود ، فى تمهل وريث ، وهو يضغط على الكلمات ضغطا ينحلها حياة تزيد قدرتها على التعبير :

« ... أيتها العصابة التى أخرجتها عداوة المراء واللجاجة ، وصدها عن الحق الهوى ، وطمح بها النزق ، وأصبحت فى اللبس والخطب العظيم . . . »

ثم هدر فى حديثه صوت القدر القاصف ، وعينه تقتحمهم إلى النهر الذى تتدافع مياهه على كثب ، ويرسم تدافعها انسياب أحداث لن يلبث ستر اللحظات القلائل الباقيات من عمرهم أن ينجاب عنها لتبرز إلى عالم الوجود :

« . . إنى نذير لكم . . أن تصبحوا تلفيكم الأمة غدا صرعى بأثناء هذا النهر ! . . »

ولم يمض حديثه فيهم على طريق الترهيب وحده دون أن يميل إلى المحاورة التى تجمع الترشيد إلى التهديد ، والإعذار إلى الانذار . فما جاء اليوم ليلحاهم بقدر ما جاء ليبصرهم بعقبة ماهم فيه ، عسى الله أن يحملهم بمنطقه إلى الصواب . . .

وحين سألهم يستنبئهم سر خروجهم من طاعته ، وانتقاضهم عليه ، تناثرت منهم العبارات ترسم حجتهم ، فإذا هى لا تخرج فى مضمونها عن نفس العلة التى اعتلوا بها من شهور :

« الحكومة ! . . »

عندئذ قال :

« . . ألم تعلموا أنى نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها وهن ومكيدة ؟ » .

فلم يكن لهم إلى الإنكار سبيل .

« ونبأتكم بأنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ؟ . . وأنى أعرف بهم منكم — عرفتهم أطفالا ورجالا فهم أهل المكر والغدر ؟ . . »

فبدا على ملامحهم الإقرار .

« . . وأنكم إن فارقتم رأيي جانبتم الحزم ، فعصيتمونى ؟ . . »

أجل . إنهم ليعلمون أنه صدقهم عندئذ النصح فخالفوه . وليعلمون أيضا أنهم ندموا على ما فرط منهم أبلغ الندم وأوفاه حتى لودوا لو محوا من صحيفة عمرهم ماتلا صفين فعاد بهم الزمن ثانية إلى ساحتها والدعوة إلى تحكيم القرآن ترحف عليهم من صفوف العدو ليقمعوها بحد الحسام من جديد ! . .

وأحياهم الإمام بكلامه كرة أخرى أمسهم المتأثم القريب ، والمحنة المدمرة التى جرها ضيق أفقهم ، وعنادهم الممقوت ، وجهالتهم الحمقاء ، على أنفسهم وعلى الإسلام :

« لقد اجتمع رأى ملئكم على اختيار رجلين ، أخذنا عليهما ألا يتعديا القرآن . فتاها عنه . وتركا الحق وهما يبصرانه . . »

فكأنما سرت ، للذكرى ، بين جمعهم همهمة تلوم تفيض ندما على ذلك الرأى الخبيط الذى اعتنقوه ، وتتنزى بالاستغفار لأنفسهم عنه ، ثم لا تخلو من الإزراء بالحكمين وبالحكم معلنة سوء الأسلوب وسوء النتيجة . على السواء . . وكأنما شاء الإمام على الأثر أن يخفف عنهم بعض هذا الذى يعانون من وطأة الإحساس بالذنب ، فانفلت يذب بعض الذب عن الوسيلة التى عساهم ركبوها وفى نيتهم الإصلاح :

« . . إنما حكم الحكمان ليحييا ما أحيا القرآن ، ويميتا ما أمات القرآن . وإحياؤه الاجتماع عليه ، وإماتته الافتراق عنه . . فإن جرنا القرآن إليهم اتبعناهم . وإن جرهم إلينا اتبعونا . . »

فهل اتقى منهم تخفيفه هذا هوى أو موضع رضاء وإنهم لموقنون أنهم — إذ قبلوا التحكيم ودعوا إليه — قد قارفوا جرما لا قبل لأحد بالتهوين منه بنصاعة حجة ولا بقوة دليل ؟ . . بل كلا ! . . فالإثم إثم وإن نبع من دافع . والذنب ذنب وإن بررته المعاذير ! . . وما ركونهم أمسهم الذاهب لهذا التحكيم إلا حوبة حوبة لا تغسلها إلا توبة ، ومعصية لا يحطها عن كواهلهم إلا مغفرة يسبقها ندم يعيدهم إلى ظل الله وليس يملكها غير قابل التوب ، كاشف القلوب ، غافر الذنوب . . .

وما أحسب بعضهم عندئذ إلا قد تهامسوا بينهم بشعارهم الذى اختلط بكيانهم روحا ومادة ، وملك عليهم منافذ الحياة والموت ، وعوالم الرؤية والرؤيا ، والسر والعلن ، فأوصد دونهم كل باب إلى دنيا الناس . . . ما أحسب إلا أنهم تهامسوا بعبارة : « لا حكم إلا الله ! » إظهاراً لاستمساكهم بالحق دون أمة الإسلام ، وإعلانا عن نزوعهم — وحدهم — إلى الصواب بعد غى ، وإلى الهدى بعد الضلالة . . ولئن كانوا قد استطاعوا هنيهة من وقت أن يطلقوا نفوسهم على سجيتها ، فتجهر بما تهوى ، وتنفس عن الداء المكبوت معربدة بذلك الشعار ، فإن اللحظات القلائل التى خرقوا خلالها جنة الصمت المهيمن على المكان ، وتردد فيها تلاغطهم بدعواهم ، ما لبث عمرها أن انطوى فى هدير صوت الإمام وهو يأتيهم حاسم النبرة قاطعا عليهم الترديد :

« . . ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ، ولو كان تحت عمامتى هذه ! . . »

وقرن قوله بحركة ارتفعت بها كفه تلامس عمامته ، وامتدت عينه تجتاح جماعتهم فى تحد عنيد ، وتكاد تخرق عمائمهم إلى ما تغطيه من رءوس . . .

ولم يكن يهزل وإن كان يسخر . فتلك الطائفة المفتونة كانت — مظهرا ومخبرا — خليقة بالسخرية والتندر ، لا بسبب شعارها العقيدى الذى رفعته فدلت به على هوس وضيق أفق وحرفية ، بل لأنها كذلك ، استزادة من إحساسها بالتفرد ، قد شاءت أن تجمع إلى الهوة الفكرية التى باعدت ما بينها وبين بقية العقول هوة مظهرية تباعد ما بينها وبين بقية الأبدان . فلقد ترجمت شعارها إلى

هيئة بدنية تعلم أفرادها عمن سواهم من الناس . ولو أنك حسرت عنهم العمائم ، لتمثلت لك تلك الهيئة فى رءوس حلقت أوساطها فبدت كالأرض الجرداء ، وترك الشعر على حوافيها أكاليل مهدلة شعثا ، كأنها العشب الجاف ! . .

وأخذتهم بلا ريب سخريته . ولكنهم فروا منها إلى نفس الحجة التى لم يفتأوا يتذرعون بها تفسيرا لانقلابهم من نقيض لنقيض .

قالوا يبررون :

« إنا حكمنا ، فلما حكمنا أثمنا ، وكنا بذلك كافرين . وقد تبنا . فإن تبت كما تبنا ، فنحن معك ومنك . وإن أبيت فاعتزلنا ، فإنا منابذوك على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . . »

فتلون وجهه بالغضب لقولهم ، وصاح :

« أصابكم حاصب ، ولا بقى منكم آبر ! . . أبعد إيمانى بالله ، وجهادى مع رسول الله ، أشهد على نفسى بالكفر ؟ . . . . »

ثم انثنى يسألهم فى استنكار :

« ... فإن أبيتم إلا أن تزعموا أنى أخطأت وضللت ، فلم تضللون عامة أمة محمد بضلالى ، وتأخذونهم بخطئ ، وتكفرونهم بذنوبى ؟ . . »

وتفرس فى وجوههم مليا يترقب ، لعل عبارة من هنا ، أو عبارة من هناك تسرى إليه من بين صفوفهم برد مقبول أو غير مقبول ... غير أن السكوت وحده هو الذى أتاه لو تكلم سكوت ! .. وبقيت شفاههم مطبقة على حسر ، وعيونهم تسبح فى حيرة . حتى إذا عدم منهم الجواب ، استرسل يلقمهم الحجة التى ليس لهم بدفعها قبل وإن نظراته لتطوف بهم وبما يحملون من سلاح ...

قال معاوداً السؤال :

« . . بماذا تستحلون قتالنا والخروج من جماعتنا ؟ . . سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم ، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب ؟ لقد علمتم أن رسول الله رجم الزانى المحصن ، ثم صلى عليه وورث ميراثه أهله . وقتل والقاتل وورث ميراثه أهله . وقطع السارق وجلد الزانى غير المحصن ثم قسم عليهما من الفىء ونكحا المسلمين ، فآخذهم رسول الله بذنوبهم ، وأقام حق الله

فيهم ، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله ..... »

فلو أنك شهدتهم بموقفهم منه آنذاك لحسبتك شهدت جسوما قد استحالت حجارة صلدة صماء استنزفتها الحجة كل نبضة حياة ، إلا تذاؤب المقل — حيرة — فى المآقى ، ورجفة الثأثأة — عيا — على الشفاه ! .. وهل لهم بمنطقه طاقة ؟ . وأنى لهم وهو يقارعهم رأيهم الخبيط المهزوز ببرهان الله وبسنة رسول الله ؟ . إنهم الآن لفى تيه ، يستشعرون معه أن الدنيا كلها حولهم فراغ وهباء ، بلا نأمة صوت ، ولا لمسة نسمة ، ولا صورة موجود ... بل ذواتهم أيضا قد هانت وراحت تتضاءل وتتضاءل من تخاذل وخزى كأنما تذوب فى ذلك التيه ... أفغدوا إلى عدم ؟ .. أم تلك غشية أخذتهم أو سنة نوم ضربها عليهم جبروت بيانه المفحم فلا يستطيعون قولا ولا إشارة ؟ . . وحين وسعهم أن يثوبوا إلى بعض وعى سمعوا كلماته تتحدر إليهم — كأن فى حلم — مبينة بلا جرس ، معبرة بلا رنين ، كما ينفذ لفح الشمس — بغير وهج — من خلال كسفة ضباب ! . .

ولقفت آذانهم من مقالته كلمات ، تندد بسلوكهم وتلحاه :

« . . . إن هذا لهو الخسران المبين ! . . والله لو قتلتم على هذا دجاجة لعظم عند الله قتلها ، فكيف بالنفس التى قتلها عند الله حرام ؟ . . »

فلم يجدوا وسيلة تجنهم من لومه ومنطقه إلا أن يسيجوا أنفسهم بالعناد ، شأن العاجز المعنت ، الذى تعضل به المناقشة ، ويعييه تلمس منفذ يلاقى من خلاله الرأى بالرأى ، والدليل بالدليل . . .

انتفض بعضهم يهيب بمن لعلهم قد يحدثهم اللجاج بمحاولة اصطناع جواب .

« لا تخاطبوهم ! . . »

وصاح آخرون :

« لا حكم إلا لله ! . . »

وهتف فريق :

« تهيأوا للقاء الرب ! . . »

وهبت الصفوف وهى تهز السلاح فى أكفها تصيح :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! . . »

نداءات توالت تتعالى فى الجو ، وتنتشر بأصدائها إلى ما يجاوز المكان ويعدوه ، لا ساقها عقل ، ولا بعثها حكمة . إنما فاضت عن الصلف والغرور وأنفة الرجوع عن رأى رأوه إلى رأى يخالفه ولو كان لهم فى هذه المخالفة أمان وحياة ، وللأمة صلاح ونجاة . . .

ولم ينبس الإمام . أطبق على الألم فمه المرور ، وترك فؤاده يتحدث بشجوه ، رثاء لهم ، وحسرة عليهم . ثم راح يمد بصره بعيدا عن ملتقى الجمع والضجيج والضوضاء ، إلى النهر وراءهم وهو ينساب فى مجراه ، وقد بدت أثناؤه وجوانبه كأنما تفغر أفواهها اشتهاء للوليمة المقبلة . ففى ثرى شاطئيه ، عما قليل ، سينطوى صرعى عصابة العناد والمراء .

٧

رتب على رجاله . .

الفرسان فى المقدمة ، من ورائهم النبالة ، تليهم الرجالة . وعقد ألوية الفرق لخيرة أصحابه ، وأصبرهم على القتال . . .

وكان الجيش ، كمألوف التنظيم آنذاك ، قلبا وجناحين . فى القلب أبو قتادة الأنصارى ، وعلى الميمنة حجر بن عدى ، وعلى الميسرة شبث بن ربعى ومعقل بن قيس الرياحى . وقاد الخيل أبو أيوب ، وأهل المدينة قيس بن سعد ابن عبادة . .

ولم يعن الإمام بهذه التعبئة أن ينشب الحرب ، ولا أن يخوف ويرهب ولكنه أعد وتهيأ فما يدرى كيف يتطور الأمر وهاهم الآن خارجة النهر على أهبة أشد من الأهبة ! على شغف وشوق ! فلقد كسروا جفون السيوف ، وعرقبوا الخيل ، وجثوا على الركب يوشكون بهذا التحفز أن يطيروا إلى الالتحام متعجلين موعده . وهل دونهم اللحظة غير خطوة واحدة إلى الأمام ليلتقوا مع الله ؟ . .

كذلك تحسب . وكذلك هم يوقنون . . فعلى نحو من الأنحاء — وإن خالفوا آنذاك برأيهم جماعة المسلمين — كانوا فئة قد تنسى لها كل فضيلة ثم يعسر إغفال أنها أرباب دين ، يتمسكون به ، ويذودون عنه ، ولا يبيعونه برخص ولا غال . فئة نهجها النسك ، ومنوالها الزهادة ، وطريقها عبادة الله . ما طلبت ضلالا من

باطل ، وإنما طلبت حقا فغررت بها شبهة أوقعتها فى المحظور . و « ليس من طلب الحق فأخطأه ، كمن طلب الباطل فأدركه » كما قال عمهم الإمام . .

ثم هاهم — فى ربقة الرأى المشبه — يجرون شوطهم كله إلى غايته . إلى نهايتهم . إلى أقدامهم المتربعة بهم عند حافة النهر ، والإمام يتمهد اندفاعهم فيود لو يردهم ليجنبهم هذه الأقدار . . إنه ليأسى لهم . ويستشعر الألم من كل خطوة يخطونها إلى مجمع المصارع كأنما يطأون قلبه بالقدم وبالحافر . . وإنه ليرجع بذهنه القهقرى ، فتنشط ذاكرته وتستضىء . لتستحي صورة من الماضى البعيد ، ما تزال تتجمع خطوطها ودقائقها ، بما تضم من ظلال وأضواء ، لتبرز حياله كاملة ، قد مثل فيها رسول الله بين أصحابه ، يتحدث إليهم ، وينساب صوته مع الصورة ، عبر الزمن والمسافات ، ومن وراء الأعوام والتخوم :

« إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلنا على تنزيله » .

فيهب إليه أبو بكر ، وإنه ليرجو أن يكون هو ذلك الذى عناه بالحديث :

« أنا يا رسول الله ؟ . . »

« لا . . »

فيتقدم على الأثر عمر بن الخطاب . لم لا وها هو ذا شرف يخايله ويدنو منه بعد أن فات رفيقه ، وإنه للحقيق به — لا ريب — بعد الصديق .

ويسأل ، فى تردد وشغف :

« أنا يا رسول الله ؟ . . »

« لا . »

ثم يتبع محمد رده بلفتة إلى ابن أبى طالب ويقول :

« بل خاصف النعل »

وكذلك آن للنبوءة أن تحرك الأحداث . . .

ويتفكر على ، والذكرى تفيض بواعيته وتملأ عينيه . .

نعم تأولوه تأولوا القرآن فأخطأوا التأويل . اجتهدوا الرأى فاشتبه عليهم الأمر ، وكبا الرأى بهم فى غير ما أرادوا ، فإذا النتيجة تخالف النية ، وإذا العقيدة تغاير الإرادة ، وإذا الأنفس تزل على كره وتزل معها الأقدام فتنزلق بهم إلى هذا المقام ، بهذه الأرض المنكودة عند النهر الذى يوشك أن يلتقمهم ماؤه وشاطئاه ! .

ويطوف ببصره فيهم هنيهة ، ثم يرده عنهم إلى جمهرة أصحابه يوصيهم ، ويؤكد لهم ، وإن رحمته لتلك الفئة المشبهة لتكاد تسبق فى قلبه عزمة القصاص :

« لا تبدأوهم بقتال حتى يبدأوكم .. »

حتى إذا رأى قوله قد وقع موقعه ، وعاين من رجاله علائم الامتثال ، التفت إلى الخارجة يقول :

« عباد الله . . أقيدونا بدم عبد الله بن خباب . . »

فهل أثر فيهم ترفقه ، وحملتهم دعوته السمحة على نبذ العنف والنزوع عن العناد ؟ . .

كلا ! . . بل هبوا جميعا ، فى صوت واحد ، يهتفون :

« كلنا قتله ! . . »

غير أنه لم ييأس ، وما كان لييأس وثمة بصيص رجاء فى فيئهم إلى السلم ، ورجوعهم إلى جادة العقل والصواب . . لكأنما خشى أن يأخذ فيهم البرىء بالمسىء ، والمحق بالمبطل ، فعاد يخاطبهم ليستوثق كل استيثاق :

« . . فانفردوا كتائب ، لأسمع قولكم كتيبة كتيبة . »

ففعلوا . وراح هو يتأملهم بعين هادئة ، ويسألهم فى لين ، زمرة زمرة ، وكتيبة كتيبة . .

لكنهم لم يغيروا . فرادى وجماعات كان الجواب الذى صكوا به مسمعيه نفس الجواب .

« كلنا قتلناه ! . . »

وازدادوا عنتا ومغالاة :

« ولنقتلنك كما قتلناه ! . . »

ومع ذلك فقد صبر . ما عليه إذ فعل ؟ . فعسى الله أن يخرج خيرا من شر ، ويكتب هدى ونجاة ، لهم ، أو لطائفة منهم ، لو نزع للأناة . .

كرة أخرى رأى أن على لهم فى المراجعة والتفكر . . . مضى و سكون يرود الوجوه المطلة من اللحى الكثيفة ، ويبقر بنظراته الثاقبة جلودها المرتخية والمشدودة عن دخائل النفوس . . على ملامح بعضها جمود أخرس ، كأنه الموت ،

يجسم الإصرار . . على ملامح غيرها وجوم يمثل الضياع . . على ملامح أخرى اختلاجات تنبئ عما يعتمل فى الصدور من صراع . .

ثم رمى بآخر مافى جعبة صبره من ترفق وريث وإمهال . فدفع راية أمان إلى أبى أيوب الأنصارى ، أمره أن ينشرها ، ويدعوهم ، ليلوذ بها منهم من شاء ممن عسى يهديهم الله . .

ونادى عليهم أبو أيوب :

« عباد الله . . من جاء هذه الراية منكم ، ممن لم يقتل ولم يستعرض ، فهو آمن . . ومن انصرف منكم إلى الكوفة ، أو إلى المدائن ، وخرج من هذه الجماعة فهو آمن . . »

وتلبث بهم قليلا ثم أكمل ، يوضح لهم ، بلا مواربة ولا إخفاء :

« . . عباد الله . . لا حاجة لنا — بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم — فى سفك دمائكم . . »

وسكن الصوت . وران الصمت على المكان حتى ليوشك ألا تسمع فيه غير الأنفاس . . .

للحظة بدا كأنما حركة القوم التى كانت تملأ الجو من قليل ، وتشيع فى جنباته الضجيج ، قد انتقلت كلها إلى العقول . . للحظة لاحوا يراجعون النفس ، ويزنون العرض السمح ويعايرون قيمته وجدواه . . للحظة وضعوا أمسهم وحاضرهم فى كفة وإزاءه فى أخرى وضعوا مصير الأمور . . ولم يكن مصيرهم هو الذى عناهم ، ولا الذى دفعهم إلى التدبر والتفكير . ولكن شرارة من شك لابد قد ومضت آنذاك فى أذهانهم فلسعت بعض ثقتهم فيما اعتقدوه ، وردتهم حيارى بين التمرد والانصياع ، وبين المكابرة والرجوع . .

وأثمرت الدعوة . . هزت فيهم الريب كما هزت اليقين . فإذا أحدهم ، فروة ابن نوفل الأشجعى ، يردد لنفسه ، ثم يصارح أتباعه :

« والله ما أدرى على أى شيء نقاتل عليا ؟ . . لا أرى إلا أن أنصرف حتى تنفذ لى بصيرتى فى قتاله أو اتباعه . . »

وانصرف فى خمسمائة فارس ، يغادر وإياهم الميدان . .

وإذا الطريق يستضىء أمام فئة ثانية ، تتبين لنفسها النهج الأقوم ، فتسرع — إذ تحررت من أسر الشبهة — لتلتحق بالإمام ، وتنتظم فى صفوفه . .

وإذا آخرون ، جماعات وفرادى ، يتفرقون — على تردد أو عن اقتناع — منسلين من مواقع العصبة المناوئة ، إلى المدائن ، أو الكوفة ، أو أى مكان غير هذه وتلك ينأى بهم عن ساحة القتال . .

أما البقية التى أزلتها الشبهة ، واستذلها العناد ، فقد أخذتهم عزة الأنفة المضلة ، فألصقوا القدم بأديم الأرض ولو وسعهم لغاصوا بها فى مواطئها ضمانا للرسوخ والثبات ! . . ثم هبوا على الأثر ، بنبرة راعدة كالهزيم ، يتصايحون :

« لا حكم إلا لله ! . . »

ومن بينهم انفلت فتى ناء بثباته ، يشهر سلاحه ، ويخبط به حيثما وقع سنانه رجال الإمام ، نقمة وحقدا ، وهو يرتجز وفى صوته يترنم شيطان :

« أقتلهم ولا أرى عليا ولو بدا أو جرته الخطيا » ! . »

وبهت الناس لهذه البغتة . فلقد سقط ثلاثة منهم صرعى وما زال الراجز يتغنى بفخره ، لكن عليا ما لبث أن انبرى له فكان أسرع إليه من عبارته على شفتيه ومن ارتداد طرفهم عنه ، وعاجله بضربة صعقته وأخمدته لسانا وأداة قتال ! . .

ومع ذلك فقد ملك جنانه ، ولم يتبع الضربة غيرها ، ولا لاقى عدوانا بعدوان . إنما عاد فى هدوء يؤكد لأصحابه :

« كفوا عنهم ! . . »

فكأنما أغرى الخارجة به وبصحبه هذا الحلم ، فرمت صفه رميا حرك الحمية ، حتى صاح بعض رجاله :

« يا أمير المؤمنين ، قد رمونا . . »

فأعادها :

« كفوا ! . . »

ثانية وثالثة ردهم عن القتال . عن مقابلة العدوان بمثله ، وفى يقينه أن الإمهال خليق بالاتباع إعذارا لعدوه ، وإعذارا لنفسه أيضا أن تتلطخ يداه بدم عسى مشيئة الله تسبق غضبة الإنسان إلى حقنه والإبقاء عليه . فلما أبى الله أن

يرعووا عن الغى ، ولاح كأنما شيطانهم يمدهم بزاد جديد من المكابرة يسعرون به شعلة الحرب التى رجا لها الانطفاء ، ألقى هنيهة بأذنه إلى صياحهم المحموم :

« لا حكم إلا لله ! . . »

ثم مال عنهم إلى جنده ، يفسر لهم حكمة التمهل :

« كفوا عنهم حتى يبدأوكم ، فإنهم لو قد شدوا عليكم — وجلهم رجال — لم ينتهوا إليكم إلا لاغبين وأنتم رادون جامون . . »

وكذلك كان منطق القتال . فالعدو فى أغلب جمعه مشاة ، بعد إذ رحل فدوة وفرسانه ، يقتضيهم اللقاء مبارحة مواقعهم ، بكل عدتهم ، سيرا على الأقدام ، دون دريئة تحميهم عصف الخيل الناهضة . وفى هذا عناء ومشقة ولغب ، تنال من طاقة الاحتمال . وتحد ، قليلا أو كثيرا ، من قدرتهم على الثبات للقتال . .

وأقبلت الخارجة زاحفين ، يختلط فى صفوفهم المندفعة هزيم الصياح بهدير الأقدام . وعلا الرهج ، وثار الغبار . وحميت الأنفس بعد إذ نشطت الأوصال . وضاقت الشقة رويدا رويدا بين الجمعين ، ولكن جند الإمام ظلوا كافين ، على تربص وأهبة ، وفى سكينة وهدوء ، لا يقدمون ولا يحيدون . . .

فإن هى إلا لحظات من بعد حتى انطلق الخارجة انطلاقة إعصار مجتاح ، يشدون على خيل على ، وهم يرددون صرخة الجهاد :

« الرواح الرواح إلى الجنة ! . . »

عندئذ نادى الأمام أصحابه :

« الآن طاب الضراب ! . . شدوا . . »

والتحم الفريقان .

لكن الخيل ناءت بثقل الهجمة العنيفة ، فانفرج صفها ، والتوت بها الأعنة إلى الجانبين ، كأنما لا تقوى على الصمود ، وكأنما الأرض تحت سنابكها تميد فتحاول أن تلوذ عنها بمواطن غيرها جديدة ، لعلها أصلب موطئا ، وأنسب للثبات والقرار . .

ولاح لكل من شهد الوقعة أن الصف الأول ، والأقوى ، من جيش على راح يتقصف أمام بأس المهاجمين ولم يعد جنة لمن وراءه تحميهم وترد عنهم عادية

الانقضاض ، بل غدا بابا مفتوحا على مصراعيه ، تلجه إليهم الهزيمة طائرة بجناحى إعصار ! . .

أفتلك الشــدة القاصفة — تؤازرها البغتة — هى التى أذهلت الفرسان ، عن أنفسهم وواجبهم ، فزحزحت الخيل ، وأزالتها عن مواقعها فى مثل لمحة الطرف ، أم قد كان وراء هذه الحركة المتخاذلة خدعة قتال ؟ . .

ليوشك الأكثرون أن يروا فى تزايل الخيل دحرة مقهور . . وفى بلوغ الخارجة مبلغها هذا من القتال بداية انتصار . .

لـكن الأحداث هى التى تحسم وتحدد ، وتأتى وحدها بعقبى الأمور . .

وهى لا تحسم ولا تحدد إلا عن استقراء واع لـكافة العوامل النفسية والمادية التى يتحرك العدو بوحى منها ، وفى نطاق قدرتها المحسوبة المعدودة . فإذا قررت من بعد ، فقرارها عندئذ مقرر بخطة محكمة ، أصابت التنبؤ بكل احتمالات الموقف لدى خصمها ، وكل بادرة سلوك لعلها تند عنه ، ليقابلها بما ينقض تدبيره ، ويلوى النتيجة إلى غير ما يرضيه . .

وهكذا قرر الإمام .

فلم يكن عبثا أن رتب جيشه كما رتب ، فقدم الخيل التى تخفى من ورائها رامية يذودون حين البأس عن الرجال

ولم يكن عبثا أن أمر ــ رجاله ــ وإن أثارهم عدوهم مرارا بغاراته المفاجئة ــ أن يكفوا عن القتال ، حتى يحتدم الهجوم الباغى ، ويلتحم الجيشان أوثق التحام . .

ولم يكن عبثا ، ولا عن دحرة — فيما يلوح — أن ينشطر صف الخيل أمام هجمة الخارجة شطرين ، شطرا إلى يمين ، وشطرا إلى شمال ، كأنما قد تقوض وانهار . .

لم يكن هذا كله وغيره عبثا ، وإنما كان ــ بلا جدال ــ عن تقدير وتدبير ، بتخطيط وإعداد ، كل خطوة بحساب ، وكل حركة بمقدار . .

فما إن لاحت الخيل تتهاوى تحت طرقات الهجمة المفاجئة ، وترتد إلى يمين ويسار ، حتى انفتحت ثغرة فى الصف ، مرقت الخارجة من خلالها كالسهم ، مفضية إلى قلب الجيش الذى كشفته دحرة فرسانه . .

بداية نصر لا شك فيه ، لمن أخذ بظاهر الأمور

ولكنها فى الحقيقة بداية بوار . .

فإن هى إلا لحظات حتى انقلب الميزان . .

من طريقهم الذى شقوه للظفر ، فاجأهم الخطر بأسوأ ما يمكن أن تجيئهم بهم المفاجآت . .

إن قلب الجيش العلوى لم ينكشف لسلاحهم آنذاك ، بل هم الذين انكشفوا له ، حيثما لا جنة تجنهم عنه ، وتحميهم منه ، ولا فرجة لملاذ ينأون فيه عن ضرباته ، إن إلى بعيد ، أو إلى قريب ..

فما كادوا يلجون الثغرة ، ويغوصون فى جيش المسلمين غوصا حسبوه فاتحة الظفر ، حتى استقبلهم أولئك الرامية — الذين أعدت لهم من قبل مواقع مملومة فيما على الخيل — يرشقونهم بالنبل ، ويغرقونهم من قذائفهم الطائرة فى سيل ...

وأخذتهم المفاجأة . .

ثم عاجلتهم المنايا ، ولما يفيقوا من أثر البغتة . .

لا مهرب الآن . لا ثغرة لنجاة لا سبيل إلى الارتداد . .

فهاهى النبل أمامهم لا تنى تضرب منهم الوجوه والقلوب .

وهاهى الخيل التى حسبوها ولت ، تأتيهم عن جانبيهم ، تكر من هنا كرة ، ومن هناك كرة ، ليلتئم ثانية صفها المشطور . ثم تعطف عليهم بالموت . .

وهاهى ميسرة الجيش ، وتلك ميمنته ، تطبقان عليهم ، ويعمل فيهم رجالهما الرماح والسيوف .

ثم هاهو القلب أيضا ، وهو زاد جام لم ينله منهم شىء ، قد شارك فى استكمال محنتهم ، التى لم تجل لهم فى بال .

من وراء وأمام ، ومن يمين ويسار ، سارعت إليهم المصارع ، وهم بينها حبيسو حلقة محكمة الإغلاق . .

ودارت الرحى فطحنتهم ، وماكان أسرع الدوران ! . .

أهمدوا فى ساعة ، وما أفاقوا بعد من نشوة النصر الذى استطعموه .. لكأنما قيل لهم موتوا فماتوا ! .. وكأنما كانوا على موعد مع النصر والموت فى آن ! ..

٨

مال الإمام إلى مجمع المصارع ، على حافة النهر ، يســبح بناظريه فى الجثث الشوهاء التي طحنتها الحرب ، وإن الأسف ليملك عليه نفسه ، على هذه الغروس الهوج التي طالما ود لو قوم أعوادها فماندته فى أمله الأقدار . .

وقال فى صوت هامس خفيض :

« بؤسا لـكم ! . . لقد ضركم من غركم . . »

وسمع الهمسة بعض رجاله ، فسألوه :

« فمن غرهم ، يا أمير المؤمنين ؟ . . »

قال :

« غرهم الشيطان ، وأنفس أمارة . . غرتهم الأمانى ، وزينت لهم المعاصى ، ونبأتهم أنهم ظاهرون . . »

والتفت به جماعة المسلمين تسير وإياه فى رحلة الموت على جانب النهر . . أينما أجالوا البصر كان صرعى وكانت أشلاء . وأينما ألقوا السمع كان حسيس من بين تلك الأكداس التى فرشت الثرى بالدم ، ينم عن أنة خافتة — كخفقة سراج جف زيته — تلفظها ، وما تكاد ، شفتان أخذت تنطفىء عليهما ذبالة الحياة . .

لا معالم ، هنا وهناك فى الساحة الفسيحة ، إلا لعدم ، ولا مظاهر إلا لفناء . الخارجة ذهبت مع الظهيرة المولية . إلى غير عودة ذهبت . . مالت إلى مغيب عن وجه الأرض كالشمس الجانحة نحو الغروب . . غدت ذكرى . عبرة فى خاطر ذاكر ، وعبرة فى عين محزونة ، وحديثا على لسان راوية . .

ولم يخلفوا غير أثر لا يذكر . . قلة بقيت ، تتردد القلوب فى صدورهم واجنة بينما قد أهمدتهم الجراح . . وكثرة مضت إلى نشأتها الأولى تخالط التراب لتتحول إلى تراب . . فى جانب من أرض الوقعة رقد إمامهم الراسبي ذو الثفنات وفى جسده الممزق رمحا هانىء بن خطاب الأرجبى وزياد بن خصفة . . فى جانب آخر انبطح زيد بن حصين بضربة رمح نفذت من صدره إلى ظهره . . فى ناحية تجندل حرقوص بن زهير ، وفى أخرى همد شريح بن أوفى . . أشياخهم هلـكوا جميعا ولم يبق إلا نفير من عرض الأتباع قد أثخنتهم الجراح . .

ما كان أغناهم عن هذه العقبى المشئومة ! . . ما كان أولاهم إذن بالإصغاء إلى نذيره وهو يحذرهم الحتوف والمصير المخوف !.. أقد كف لحظة عن النصح ، وعن الإعذار ؟ . . أأخفى عنهم ؟ . . أأطبق دونهم سجل القدر على البلاء المنتظر ؟ . .

بل كلا ! . .

لتوشك أصداء حديثه المحذر الزاجر أن تظل لها — إلى الآن — بقية عالقة فى الجو ، تحمل النذير وترسم المصير . . الهواء لم يبدد الأصداء ورهج الوقعة لم يغلفها بعد بغلالة ضباب تصدها عن التردد والانسياب . وضجيج المعركة — من صليل السلاح ، وصهيل الخيل، ووقع الأقدام — لم يذوبها فى العدم . . والذين قد بقوا منهم حطام رجال إلا لهثات مبهورة ، يسعهم أن يلقفوا من هذا الجو الواجم الساكن ، مع آخر ما يلتقطون من أنفاس ، كلمة أو عبارة مما قال . .

ولقد سبق أن قال ، وإنهم ليندفعون للقتال :

« مصارعهم دون النطفة والله لا يفلت منهم عشرة ، ولا يهلك منكم عشرة ! . . »

وصدق . ما نطق عن هوى . لكأنما كان يقرأ الغيب من كتاب مفتوح . وها هى القلة المحتضرة تشهد فى أنفسها ، وفى أشلاء جماعتها المبعثرة حولها ، آية صدقة فتستوثق حين لا غناء فى تصديق ! . . وها هم أولاء أصحابه يرون نبوءته رؤية عين لا رؤية تصور أو خيال .. عيونهم تملؤها الآن — وهم يذرعون معه شاطىء النهر الدامى — النتيجة المسبوقة الواقعة ، المقدرة المقدورة . . فى كل مكان بهذا الميدان ، لا تقع من عدوهم إلا على قتيل . . على مناظر نصر لا يسبق ذهن إلى مثيله . . على مشاهد هزيمة بلا نظير . . على معالم بوار ساحق ماحق هو الفناء . . لكأنما ترجمت رمية القدر عن عبارته ، أو كأنما ترجمت عبارته عن الرمية . . حرفا حرفا ، وكلمة كلمة تجسدت العبارة فى صورة ! . .

لكنه كان — مع الذى لقيه من نصر — بادى الهم ، مشغولا بهذه الأرض المزروعة بالجثث والجماجم ، لا ينى يبحث فى كل شبر ، ويتفرس فى كل صريع . . كان يمضى على قلق . ويجيل بصره على قلق . ويكاد ينبش التراب ويغوص فى ماء

النهر عساه يعثر على ما يسعى إليه . . ومن حوله طائفة من رجاله ، تفعل فعله ، وتسعى سعيه ، تسبقه آنا ، وتتأخر آخر ، ثم لا تلبث أن ترتد إليه ، وفى نظراتها حيرة وإخفاق . .

ويهتف بهم حين يعودون :

« ويحكم ! . . التمسوا الرجل فإنه فى القتلى . . »

ويعودون إلى ما كانوا فيه ، ينبشون ويفتشون . ثم يكرون إليه مرة وثانية ومرات وليس فى وفاضهم ما عناه . .

والحيرة تسيطر ، والقلق ينتشر ويشيع . . ومع ذلك فإنه لم ييأس ، ولم يجد به القنوط عن متابعة وجهته . كان موقنا أشد اليقين أنه واقع حتما على طلبته حيثما أراد الله أن تكون . لا شك ولا مراء . فما كذب عليه من لم ينطق إلا عن بينة من ربه وبرهان . .

وحينما تبين اليأس فى وجوه أصحابه ، وأحس أن جهدهم الضائع يوشك أن يحوزهم إلى راحة الإستسلام ، عاد يحثهم ويحفز عزعتهم :

« والله ما كذبت ، وما كذبت . اطلبوا الرجل ، وإنه لفى القوم » .

بهذه اللهجة القاطعة خاطبهم ، وإنه لواثق كل الثقة بما يقول . مؤمن كل الإيمان بأنه سيعثر على الرجل فى القتلى ، إن اللحظة ، أو فى ساعة ، أو بعد ليال وأيام . . فما كذبه محمد . والأعوام التى انصرمت إلى اليوم منذ وقعة « حنين » لم تكن لتبلى نبوءة الرسول الصادقة أو تغير منها فى قليل ولا كثير . . .

ومع ذلك فملائم الضيق لم تغادر قسماته . والقلق النفسى ما فتئ ينتهبه وهو يشهد رجاله يروحون ويغدون فى غير طائل . حتى إذا عيل صبره ، وطال عليه الانتظار ، رأى أن يحسم حديثهم ، فنادى على بضعة منهم دانية منه :

« ائتونى ببغلة رسول الله . . . »

وجاءوه بها فامتطاها وهو يقول :

« . . إنها هادية »

ثم مضى ، وهم يحفون به ، يرتاد المكان ، لا يدع منه ناحية دنت أو بعدت إلا طوف بها طواف تحقق وإمعان ، ولا صريعا مجندلا إلا تفحصه أو أمر رجاله

فقلبوه أمامه ظهرا لبطن ليغوص بناظريه فيه . . حتى إذا بلغوا من شاطئ النهر وهدة غائرة قد شرقت بجثث القتلى وافعمت بها إلى الحافة ، مالت به البغلة إلى جانب به خرير ، وتوقفت عن السير . . .

هنا ترجل يجيل بصره فى تل الصرعى . ثم دعا أصحابه أن يفرقوا الجثث ، وينشروها جثة جثة تحت عينيه . . فلما أفرغوا الوهدة وبلغوا أسفلها دون أن يعثروا فى قاعها على ما يطلبون ، أومأ الإمام إلى أحد رجاله وهو يشير إلى جانب الخرير :

« فتش هذا . . »

وبادر الرجل . فإذا يده الموغلة فى الماء تقع تحت أطباقه على شىء ما إن أطبق عليه حتى صاح :

« هذه رجل إنسان ! . . »

وجذبها إليه كأنما ليستنقذ صاحبها أن يترحل به تيار النهر . وأسرع الإمام يعاونه ، ويجذب الرجل الأخرى ، حتى إذا جرا الجثة ووسداها التراب على حافة الماء ، طالعهم منها قتيل يعلمه سواد لونه ، ونتن ريحه ، وقطعة لحم على منكبيه كثدى المرأة عليها شعرات كشوارب الهرة ، إن مددتها غدت كذراع ، وإن تركتها تقلصت وعادت إلى شكلها الأول كثدى مهدل . .

وصاح الناس حين تبينوه :

« ذو الثدية ! . . »

وخر على ساجدا ، شكر الله ، وهو يقول :

«صدق الله ورسوله . . »

وهللت جماعة المسلمين :

« الله أكبر ! . . الله أكبر ! . . »

وامتلأ المكان ، هذه الساعة من الأصيل ، بهدير التكبير ، يسلمه العصر إلى المغرب ، ويسلمه المغرب إلى العشاء ، فإلى الليل كله ، أوله ومنتهاه . . .

أما الإمام فقد سبحت روحه فى طمأنينة ملكت عليه كل حواسه ، وأشفت به على ذلك المجلس الذى شغله بأمر هذا القتيل ما حدث فيه . .

إنه مجلس الرسول ، ومحمد قد توسطه يحف به أصحابه ، وغنائم حنين التى غنمها المسلمون أمامه يقسمها بين الناس . .

ويقبل عندئذ ذو الخويصرة ، أحد بنى تميم ، يشهد القسم الذى يجريه رسول الله . فإذا الشيطان يستذله ، فيصور له الحق باطلا والباطل حقا . وإذا جلافته تذهب به إلى التطاول على رسول الله ، فيصيح مزريا بتقسيمه :

« اعدل يا محمد ! . . »

فيعرض النبى عنه .

غير أنه لا يكف ، بل يكرر الإزراء :

« اعدل يا محمد ! . . »

ويعرض النبى ثانية ، كأنما ود بإعراضه أن يعلى لهذا الجلف فى الرجوع عن رأيه الظالم . .

ومع ذلك فإن ذا الخويصرة لا يفيد من هذا الحلم الممدود له ، بل يعاود ثالثة ، ممعنا فى بهتانه :

« اعدل يا محمد فإنك لم تعدل ! . . »

عندئذ يرد الرسول :

« ويلك ! . . ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ . . »

ويتبدى على محياه الكريم غضب يدفع أصحابه إلى الضيق برجل بنى تميم المكابر الزنيم ، وإلى سخط قوله ، فينبرى بعضهم وقد أثارهم مسلكه ، يقول للرسول :

« يا رسول الله ، إئذن لى أضرب عنقه . . »

لكن محمداً ينهاه :

« دعه ! . . »

ثم يتبع النهى بقول لن تلبث الأعوام من بعد أن تحقق كل ما ورد فيه ، وتترجمه إلى حقيقة واقعة . .

يقول لهم رسول الله :

« ... سيخرج من ضئضىء هذا ، قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من

الرمية . ينظر أحدكم إلى نصله فلا يجد شيئا . فينظر إلى بغتيه فلا يجد شيئاً . ثم ينظر إلى القذذ فكذلك.سبق الفرث والدم .. يخرجون على حين فرقة من الناس، تحتقر صلاتكم فى جنب صلاتهم ، وصومكم عند صومهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم . . آيتهم رجل أسود ، مخدج اليد ، إحدى يديه كأنها ثدى امرأة . . . »

ثم يكمل يقول :

« . إنهم شر الخلق والخليقة ، يقتلهم خير الخلق والخليقة ، وأقربهم عند الله وسيلة . »

. . . ويعود الإمام من رحلة الذكريات بنفس مطمئنة هادئة ، وقلب عامر بالثقة واليقين ، وبصيرة مجلوة قد استضاء أمامها الطريق . فقد قتل ذا الثدية ، حققت بهذا فراسة الرسول فى الأمر كله — فى استقامة نهجه هو ونهج أصحابه ، وفى بطلان قضية الخارجة الذين مرقوا من الدين ، وغدوا الآن صرعى بأثناء النهر . . .

١

عز نصرهم . الخوف الذى أوشك أن يشلهم وهم بالكوفة قبيل الوقعة كأنما غسلوه الآن بالنهر . فلا خارجة . ولا فرصة تسنح لكرة على نسائهم وأطفالهم بالكوفة ممن عسكروا على مشارفها، وراحوا يشيعون حكم الإرهاب ويستعرضون عباد الله بالتنكيل والقتل ولا سبيل من بعد لنكسة ينتكسها أمرهم عليهم ، وقد ذاب عدوهم فى الموت كما ذابت طلعة هذا النهار من أواخر أيام السنة الثانية لإمرة على فى غبشة الغروب . .

الساعة التى قضوها على قدم ، يضربون فيثخنون ، بالنهروان ، جنبتهم القلق والفزع والعورة المكشوفة التى ظلت طويلا شاغلهم الشاغل . . أصحاب النهر أصبحوا اثرا مضيما على شاطئيه . جماعتهم المشاقة العادية غدت كلها قطعة من الفناء . همدت عديدا ودرست عدة . وحين تلفتوا حولهم فى الميدان لم يروا حيالهم منها سوى بضعة لم تبلغ عشرة ، ثم فريقا من مكلومين وجرحى بغير حول ولا حيلة .

وشغلوا أنفسهم قليلا بمن بقى بهم رمق من أولئك المدحورين يستنقذونهم من بين القتلى والأشلاء . فما يجدر إلا أن يحفظوا عليهم بقية الأنفاس . ولا هو بمقبول فى شرعة صاحبهم أن يجهزوا على جريح ولو جاء الإجهاز عن إهمال وتغافل . فكذلك أمرهم . وكذلك برأيه تسير خطة الانقاذ .

وقال لهم :

« ادفعوا بهم إلى عشائرهم . . »

ثم مال إلى العشائر يوصيهم :

« احملوهم معكم فداووهم ، فإذا برأوا فوافوا بهم الكوفة . . »

ولقد بدا من أصحابه كأنما قد عنتهم الغنائم والأسلاب فى معسكر عدوهم فودوا لو احتازوها غنما للنصر ، فإذا هو يردهم عما ودوا ، ويبين لهم :

« . . أما السلاح والدواب وما شهدوا به الحرب فقسمة بين المسلمين ، وأما المتاع والعبيد والإماء فمردود على أهله . . »

ولم تعد لهم من بعد بساحة الموت حاجة ، فقد انطفأت الحرب ، وجمعوا السلب ، واحتملوا الجرحى ، إلا أن يجعلوا الأرض بها مجازا إلى غايتهم التى من أجلها بارحوا الكوفة . لم يبق لهم بعد هذا النصر السريع المؤزر ، إلا أن يولوا وجوههم شطر النصر الأشق الأكبر . .

وأوجز الإمام لهم هذه الغاية فى كلمات :

« عباد الله . . إن الله قد أحسن بكم ، وأعز نصركم . فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم من أهل الشام . . »

وما يشك أحد لحظة فى أنه كان موقنا عندئذ أنهم سابقون عبارته هذه إلى السير ، خفافا مشوقين ، إلى وجهتهم المنشودة . فالنصر يشعل الحماسة . والحماسة تورث الثقة ، والثقة تفتح آفاقا من الأمل فسيحة تغرى الأنفس بارتيادها نشدانا لتعزيز نصرها الأول بنصر غيره جديد . . .

ما يشك أحد فى هذا قط لو أنهم حقا — حين سيرهم بدء الأمر إلى النهر — كانوا مؤمنين بما ساروا فيه ، عارفين أنه مرحلة من كفاح مفروض ، لا يمكن أن يتكشف عن نتيجته المرتجاة إلا بمتابعة الخطا على بقية المراحل . . . لكنهم ، فى واقع الحال ، إنما ساروا أنذاك خداعا وتعمية ، وهم يضمرون غير ما يظهرون . كان سيرهم ذاك مرحلة فى حسبان من يأخذ قولهم على ظاهره ، ولكنه ، فى حسبانهم ، كان نهاية المطاف ! . .

وكذلك انكشف عنهم الغطاء ! . .

فلم يكد الإمام يطالبهم بكلماته ، حتى انبرى له الأشعث بن قيس : رأس التثبيط ، يقول بلهجة الناصح الأمين :

« يا أمير المؤمنين . . نفدت نبالنا ، وكلت سيوفنا ، وانصلتت أسنة رماحنا ، وعاد أكثرها قعيدا .. ارجع بنا إلى مصرنا ، نستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا مثل من هلك منا ، فإنه أقوى لنا على عدونا . . . »

وأحسب أن طائفة من الجيش — وإن تكن قلة — سفهت آنذاك قول الأشعث ، ونبت بدعوته فلغير النهروان كان مخرجهم إلى القتال ، ولغير الخارجة كان إعدادهم قبل أن يبرحوا الكوفة . وإذا كانت الخطا قد سارت بهم إلى معركة

اليوم فلأنها وسيلة وليست بغاية ، ولأنها معبر لابد منه إلى الشام ، بتطهيره من من الفئة المنابذة يؤمنون ظهورهم ، ويجنبون بلدتهم كل عدوة مفاجئة ، ثم يحفظون خطوطهم إليها ومنها سليمة حين اشتبا كهم على مشارف الشام . . .

غير أن الأصوات التي ناهضت الدعوة الأشعثية ، لم تكن أعلى جرساً من أصوات المؤيدين، ولا كان أصحابها أعز نفراً وأبلغ أثراً في الجمع حين تقاس العزة وقوة الأثر بالأعداد والمعدات . . . فما أن أعربت تلك القلة عن رأيها حتى تعالت حولها دعوة العودة ، وأغرقت أصوات المعارضة في طوفان .

ولاح كأنما المناخ النفسي للجماعة يوشك أن يطلع عليها بفتنة جديدة قد لا تؤمن مغبتها في هذه اللحظة الحازبة التي بلغوا عندها مفرق الطريق . فالإصرار على المضي للحرب ، إن وجد سبيلا إلى التحقيق ، سيقدم إلى سعيرها رجالا كلا رجال ، نفوسهم خواء ، وقلوبهم هواء ، خليقين أن يشكلوا وقوداً شهياً للنار ، إذا لم يؤثروا السلامة ، ويهطعوا إلى الفرار . . وهو دون ذلك وقبله مدعاة أي مدعاة لخلاف لابد من وقوعه ، مآل الأمور به انقسام الجيش العلوي على نفسه ، وتمزق وحدته ، وانتكاث صفوفه : صفا في جانب ، وصفا في آخر لا يحتكمان إلا لمنطق السلاح . . .

ورأى علي من غالبية القوم ميلا لرأي المنافق ، وانحيازاً إليه يوشك أن يفسد الأمر عليه ، فبادر يستحث الناس ، ويثير فيهم حمية الجهاد بكلمات من عند الله :

« يا قوم . . ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . . »

لكنها كانت صرخة في واد .

لم يلق أيهم إليه السمع . إنما تلكأوا ، وبادل بعضهم بعضاً نظرات جوفاء . ثم انفلتت طائفة منهم — وقد أعوزتهم الحجة — تقول على تردد وهي تصطنع العذر الذي تحسب أنه يؤيد الرجوع :

« إن البرد شديد . . »

فرد في تعجب :

« إنهم يجدون البرد كما تجدون ! . . »

فأخلدوا هنيهة أخرى إلى صمت عاق ، وفى عيونهم علائم معارضة وإباء إن لم تكن نذر تمرد وعصيان . .

عندئذ استيأس ، وزفر فى ضيق :

« أف لكم ! . . إنها منة جرت » .

ثم تلا قول الله :

« قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . . »

وكأنما رأت فئة بينهم أن تعالج الداء بالتريث ، لعل الله أن يجمع كلمتهم من بعد ، ويفئ بهم كافة إلى تدبر يفضى إلى الطاعة ، فبادر إليه منها من قال :

« يا أمير المؤمنين . . الجراح فاش فى الناس . فارجع إلى الكوفة فأقم بها أياما . خار الله لك ! . .

كان قولهم أمنية . ومع ذلك فلم ير ، حسما للنزاع ، إلا أن ينزل على الرأى المعروض . وهل كان له معدى عن النزول ؟ . .

وعاد . .

مضى يجتر ألمه ! . . من إذن لله وحقه إن لم يقم فيه — بصلاته رمح وسرعة إعصار — أصحابه هؤلاء ، العلماء الأبرار ، التالون القرآن ، العابدون القانتون ، المتهجدون بالأسحار ؟ . . من على الشيطان وحزبه ، إن لم يثب جمعهم الجم ، الذى فرق الهدى من الضلالة ، وطعم حلاوة الإيمان ، وأصبح على بينة من أمر ربه ؟ .. فيم نكوصهم اليوم عما ندبهم له ، ودعاهم دينهم إلى النهوض فيه ؟ . . فيم تمجلهم السلامة ، وطريق الجنة — كما يعلمون — تحفه المكاره ؟ . .

ليس بوسعه حملهم على محجته . أعياه أن يفعل . النصح الذى طالما بذله ذهب مع الريح . تبدو كهباء . . لو شاء لألقمهم السيف لهذا العصيان ، ولكنه يأبى أن يخوض فى دم ! . . لو شاء أيضا لصانعهم ، بالمنصب وبالمال ، ولكنه لا يبيع دينه بدنياه ! . .

ما له إلا أن يصبر . . وها هو الآن ينطلق بهم ، على كره ، فيشعر أنه يطوى الأعوام طيا إلى الوراء ! . ها هو يعود القهقرى بالتاريخ ! . . ها هو

يخلف مدرجة الجهاد إلى أرض الدعة . . إلى الاستسلام ! . .

وسار والمحنة . . الهم والغيظ فى ركابه . فى قلبه ثقل ، وفى فمه حنظل . . النصر الذى حازه وإياهم اليوم أشد قسوة عليه من هزيمة مدمرة .. طوال الطريق كان يمشى على عذاب . والجيش الظافر الذى يتبعه ، بدا فى عينه كالفلول الممزقة التى تهيم فى تيه من الجزع والضياع ، لا تكاد تعثر فى فراغه على فرجة إلى طمأنينة . .

وعندما لاحت لهم مشارف الكوفة ، أراد أن يغلب جموحهم الأحمق إلى الراحة الذليلة ، فمال بهم عنها إلى معسكر النخيلة ، لعل مكثهم به لا يخمد فى نفوسهم ما بقى من جذوة القتال . فحياة المعسكر خليقة بأن تحفظ عليهم صلابتهم ، وتقوى روح الجندية فيهم . . .

ونزلوا النخيلة . .

وفيها أوصاهم :

« . . الزموا معسكركم ، وضموا نواصيكم ، ووطنوا على الجهاد أنفسكم ، ولا تكثروا زيارة أبنائكم ونسائكم ، فإن أهل الحرب المصابروها ، وأهل التشمير فيها الذين لا ينقادون من سهر ليلهم ، ولا ظمأ نهارهم ، ولا خمص بطونهم ، ولا نصب أبدانهم . . . . . »

وكان هو الرأى لو فعلوه ، لأنه عندئذ رياضة للنفس ، وتدرب على السلاح ، ومعيشة تهبهم القدرة على لقاء العدو حين تأزف الآزفة ، وهم موفورون ، أهبة ودربة . .

لكنهم خادعوه . .

عايشوه أياما بهذا المعسكر رياء ومخاتلة . ثم أقبلوا يتسللون إلى الكوفة ، واحداً بعد واحد ، وجماعة بعد جماعة ، حتى لم يبق منهم غير قلة ، لا يجاوزون الخمسين . . .

وفضح الفعل النية ! . .

٢

تنفس معاوية الطمأنينة ملء رئتيه !

يوشك فجر دولته أن يبزغ . الأمل الذى غذاه الليالى الطويلة ، قد زكا وطال . ثم أزهر . ثم أطلع براعمه . ثم أثمر . . .

الأنباء تجيئه مهطعة ، أسرع من شطحات أحلامه ، كأنما تطير بجناح ! . . بشائر الفوز تتجمع حوله . الزمن معه على عدوه . والقدر معه . وأنصار على كذلك معه بهذا الخلاف المتكرر الذى يشنونه بين كل صبح ومساء على أميرهم ، وينتقص من أمره ومقداره . . .

فلا صفين والتحكيم كانا نصرا له وللشام وإن لم يفلج بهما على غريمه فى قتال ولا ببرهان . . الخديعة هى التى علت به ، ونصرته . والخديعة هى التى نالت من الإمام فقهرته . . . والأيام أيضا تظاهر المخادع وتأخذ بيده بعد إذ خرجت الخارجة وناوأت صاحب السلطان . . .

حتى وقعة النهروان كانت وبالا على المنتصر . ولقد غرست فى قلوب أهل العراق حزنا مقيما على صرعاهم من الجانبين ، الذين حصدتهم الحرب ، لأنهم جميعا ذوو عصبة وأولياء ، أبناء وآباء ، إخوة وأصحاب وإن تضاربوا بالسيوف والحراب . . غرست حسرة فى كل قلب . وأسالت دمعة فى كل عين . وأقامت مأتما فى كل بيت . ثم لم تجمع الكلمة من بعد بل زادتها تفرقا دفع بالقوم إلى الارتداد دون الالتحام بجيش الشام .

وكذلك رجع معاوية إلى حاضرته ، على طمأنينة . موفورا وما خاض حربا ، منصورا وما ضرب بسلاح . فلقد كفاه عدوه القتال . وتركه ليزيد منعة بين أمة من الناس ، تلتف حوله كأنه علم . لا تراجعه فى رأى رآه وإن حملهم على باطل . يدعو فتجيب . ويأمر فتطيع . ويقود فتنقاد . . .

ولم يعد همه بعد هذه الأحداث أن يخلد إلى السكون . فالمراحل التى كانت من قبل تفصل بينه وبين هدفه قد طوتها له — إلا أقلها — الأيام . والشقة أصبحت قصيرة . والجهد المنتظر منه ومن رجاله غدا كمشيـة الهوينى فى نزهة . . !

ولقد عرف الرجل عندئذ أين يقف وأين يقف أيضا غريمه ، فلم يفته أن يقدر الموقفين بالحساب الدقيق ، ويزنهما فلا يستوفى ولا يخسر الميزان. ثم يطالع بالأمر خاصته وإنه لينوى أن يسير خطوة جديدة إلى الأمام . .

قال فى هذه الآونة وقد دعاهم ليسمعوه ويشيروا عليه :

« قد رأيتم كيف صنع الله لكم فى حربكم هذه على عدوكم .. لقد جاءوكم وهم لا يشكون أنهم يستأصلون بيضتكم ، ويحوزون بلادكم ، ما كانوا يرون إلا أنكم فى أيديهم ، فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً . وكفى الله المؤمنين القتال . وكفاكم مؤنتهم . . وحاكمتموهم إلى الله فحكم لكم عليهم . . ثم جمع كلمتنا ، وأصلح ذات بيننا ، وجعلهم أعداء متفرقين ، يشهد بعضهم على بعض بالكفر ، ويسفك بعضهم دم بعض . . » .

وتمهل هنيهة ثم أردف ، وهو يدور فيهم بعينه ، ليشهد كيف تقع منهم كلماته :

« . . والله إنى لأرجو أن يتم الله لنا هذا الأمر . . وقد رأيت أن أحاول حرب مصر ، فماذا ترون ؟ . . »

كان حوله إذ ذاك خيرة صحبه ، وأعلام رجاله ، ممن لهم فى سياسة الأمر شأن وخطر : فيهم من قريش عمرو بن العاص ، وحبيب بن مسلمة ، وبسر بن أرطأة ، والضحاك بن قيس ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد . وفيهم من غيرها : شرحبيل بن السمط ، وأبو الأعور السلمى ، وحمزة بن مالك الهمدانى . . فلما أن نطق بقوله ، كان أسرعهم إلى جوابه ابن العاص :

« قد أخبرتك ، وأشرت عليك . . »

فابتسم العاهل . لقد سبقهم حقا عمرو إلى نيته المضمرة من قليل ، قبل أن يتحدث بها لسانه ؛ فمصر ، لا ريب ، أولهم ، وأدعى إلى وثوبه ، لوفرة ناسها ، وكثرة خيرها ، ودنوها الدانى من أرضه . . وانقطاعها إذن عن العراق خليق بأن يفقد عليا أحد جناحيه ، ويدعه كالطائر المهيض ! . .

ومال عن ابن العاص ، يسأل البقية :

« وما ترون ؟ . . »

قالوا : . .

« ترى ما رأى عمرو بن العاص . . »

« إن عمروا قد عزم وصرم بما قال ، ولم يفسر كيف ينبغى أن نصنع . . »

فقال عمرو :

« فإنى مشير عليك بما تصنع . . أرى أن تبعث جيشا كثيفا ، عليهم رجل صارم ، تأمنه وتثق به ، فيأتى مصر فيدخلها فإنه سيأتينا من كان على مثل رأينا من أهلها ، فنظاهره على من كان من عدونا . . فإن اجتمع بها جندك ومن كان بها من شيعتك على من بها من أهل حربك ، رجوت الله أن يعز نصرك ، ويظهر فلجك . . »

فتفكر معاوية مليا فى الأمر . . إن هذا الغزو الحربى الذى يقترحه صاحبه هو أقصر السبل لا ريب إلى مبتغاه . ولكن الحرب — تماما — كالبحر يتماثلان حروفا وطبيعة . فيهما الأمن والخطر . وفيهما المد والجزر . وفيهما النصر والهزيمة . وهو يؤثر ألا يقبل على مغامرة قد تحمله إلى شاطىء السلامة ، كما قد تغوص به إلى القاع ! . .

ودفعه حذره أن يعاود سؤال ابن العاص :

« فهل عندك شىء غير هذا ، نعمله فيما بيننا وبينهم قبله ؟ . . »

فأصر عمرو :

« ما أعلمه : . . »

عندئذ بادر معاوية برد رقيق حصيف :

« إنك يا ابن العاص لامرؤ بورك لك فى العجلة ، وأنا امرؤ بورك لى فى التؤدة ! . . »

ثم أفصح يقول :

« إن رأيى غير هذا . . أرى أن نكاتب من كان بها من شيعتنا ، ومن كان بها من عدونا . فأما شيعتنا فنأمرهم بالثبات على أمرهم ، ونمنيهم قدومنا عليهم . وأما عدونا فندعوهم إلى صلحنا ، ونمنيهم شكرنا ، ونخوفهم حربنا . . فإن صلح لنا ما قبلهم من غير حرب ولا قتال فذلك ما أحببنا ، وإلا فحربهم من وراء ذلك . . »

فلم يزد عمرو على أن قال :

« فاعمل بما أراك الله ، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصير الا إلى حرب ! . . »

وكذلك فضح معاوية بمعدنه — ذلك المعدن الذى يبديه دائما صاحب ترفق ولين ، لا يعنف بالناس ، ولا يقتحم الأحداث ، وإنما يصابر ويداور ، ويلتوى ويلتف ، شأن الثعبان ! . .

على هذه الجادة سار العاهل أشواط كفاحه ، منذ حدثه طموحه أن يضع خيوط سياسة الدولة فى أصابعه ، يرخيها إذا شاء ، ويشدها إذا شاء . . من يوم توليه الشام ، كان يعمل على جمع هذه الخيوط . وفى محنة عثمان أعد ليبدو وهو وحده المناضل عن الخليفة المظلوم . وحين اندلعت الثورة ودفع بجيشه إلى مشارف المدينة لم يكن يعنيه أن يكف الثوار بقدر ما عناه أن يظهر للناس كأنه على أهبة لمناصرة أمير المؤمنين لو دعاه ! . . ولما أفضت الإمرة إلى على ، برغبة الكافة ، لم يحاول قط مخالفة هذه الرغبة العامة لا بفعل سافر ولا بعبارة صريحة ، وإنما تستر بدعوة القصاص . وعندما وقعت صفين ، وأخذت حربها تلتهم الناس ، ثم رأى أمرها قد أعضل به ، لبس مسوح الإصلاح وتوارى خلف القرآن ! . .

فى كل مسلك له ، كان يبدو بوجه ، ويعمل بآخر . كان يملأ عينه بدمعة تمساح ! . . كان يبدى الجلد الأملس وهو يخفى السم فى الناب ! . ولقد التزم سياسته هذه بمصر فلم يحاول قط أن يعصف بها وإن دعته دائما مقتضيات الحرب أن يوجه إليها أعنف ضرباته ، وأجلد قواته . فقربها من فلسطين ينقض عليه أحلامه ، ولا يكاد يدع له سبيلا إلى الرقاد إلا بعين مغمضة وعين مفتوحة ! . . وخراجها يثرى غريمه بالمال والعتاد . وأهلها الجم الغفير يغذونه بالأجناد . . وهى بهذه الصفات سيف ماضى الشفرة ، حديد السنان ، معلق فوق ناصيته بأوهى من خيط عنكبوت ، وليس يمسكه أن يقع فيفرى ويقطع ، ويسقط ليقد ويقط ، غير كلمة آمرة تند من شفتى الإمام . .

على أن الكلمة الآمرة القاتلة لم يكتب لها قط أن تقطع الخيط ! .. هى فعلا تخلقت على الشفتين ، ولكنها لم تزد على حروف جوفاء ! .. لغط أصداء ! فما لقيت عندئذ السميع المجيب ، حين بلغت قيس بن عبادة ، وهو إذ ذاك عامل على على

مصر ، ورجله بها الذى اختاره لتأمينها له ، والقضاء على من فيها من مشاغبين على أمره ، لتخلص من بعد موحدة الرأى والسلاح ، تطبق من الغرب على معاوية حين يتبين لجيش العراق أن يطبق عليه من الجنوب . .

قيس بن عبادة شاء أن يدع العنف ويعتصم بالدهاء . . هادن من بها من الخارجين على سلطة الدولة ، وأبى أن يحملهم بسيفه على الطاعة . رضى لهم الانحياز عنه ، والاعتزال فى رباطهم بخربتا وغيرها من ريف مصر ، ما هدأوا لا يناوئونه ولا يشغبون عليه . .

وأعطاهم عهده :-

« .. لا أكرهكم على البيعة . ولكنى أدعكم وأكف عنكم .. »

ويوشك امرؤ أن يرى الحكمة فى هذه السياسة المهادنة ، التى تصطنع الرفق بالغريم المنابذ ، عسى الله أن يتألفهم بهذه الهوادة ، ويردهم إلى الجماعة والطاعة .. لكنها ، فى حقيقتها ، لا تزيد على أمنية فى ضمير متفائل ، يحسب الظروف مقهورة على السير فى الطريق الذى يرسمه ويرتضيه . وهى — من أساسها — لا تنهض على ظواهر الواقع ، ولا احتمالات المستقبل التى يوشك الغيب أن يطلعها فى مدى قصير أو مدى طويل . . إنما كل قصاراها ، ومنتهى ما تستطيعه هو أن تجمد حركة التاريخ وتقف بأحداثه عند نقطة البداية ، دون تقدم ، إن لم تعد به إلى الوراء خطوة أو بضع خطوات . .

لب السياسة القيسية الرخوة ، فى هذه المرحلة الحاسمة من إمرة على يكاد ينبئنا — من قبل أن تجبهنا نتيجتها المرة — أنها كانت سبيلا إلى تفاقم شأن المعتزلين ، واشتداد أيدهم وشوكتهم ، وإن تواروا فى مرابطهم على سكينة ، لا يبادرون واليهم بفتنة ، ولا يجاهرونه بعداوة . فما كان مثلهم إلا كمثل قوقعة طوت على نفسها صدفتها الصلبة ، فبدت للرائى هامدة جامدة لا تنم عن حياة . ومع ذلك فالخبر يغاير المظهر ، لأن علائم العدم البادية على القوقعة ، لم تكن لتمنع تطور الحياة داخل القشرة أن يسير سيره ، أو تحرم البنية الحية بها قدرتها على النمو والاكتمال والاستفحال .

حتى العهد الذى قطعه لهم قيس إذ ذاك ، كان مغريا أولئك المعتزلة ، أشد

إغراء ، بالإصرار على الخلاف . وكيف لا ، وإنه وهو عاملهم من قبل على ، لا يحاول حملهم على الدخول فى بيعة أميره ، كأنما لا يرى هذه البيعة تلزم الناس ، وإنما يعتبرها رخصة يقبلها من شاء ، ويرفضها من شاء ؟ . . وكيف لا ، وإن خطابه إلى الإمام عنهم ليلقى فى روع الذين قرأوه ، أو عرفوا ما فيه ، أنه هو نفسه — ذلك العامل المهادن — على شبهة من أمر صاحبه ، وحقه فى ولاية المسلمين ؟ . .

والرجل عندنا لا ريب غير متهم فى ولائه لأمير المؤمنين ، ولا نضح قط تاريخه بحرف واحد من حروف الاتهام ، ولكن كلماته هى التى نطقت بغير ما عناه . فلقد كان مما كتبه للإمام :

« .. إن قبلى رجالا معتزلين ، سألونى أن أكف عنهم ، وأدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس ، فنرى ويرون . . »

فكيف للأمر أن يستقيم والناس على فرقة واختلاف ، لا وحدة تجمعهم ، ولا سلطان يدينون له بالولاء ؟ . . كيف تتفق كلمتهم وقد خلى بينهم وبين الأهواء ، تذهب عنة بأولئك ، وتذهب يسرة بهؤلاء ؟ . . وهل حق على فى ولاية الدولة ، معلق بتقلبات الظروف والأيام ، فإن غدرت به فهو مبطل ادعى ما لم يكن له ، وإن آزرته فإنه محق منذ البدء وحتى الختام ؟ . .

إن الأثر النفسى الذى نحسب موقف قيس بن عبادة قد غرسه فى النفوس ، لهو أنكى على أمره من كل عداوة كان من المحتمل أن يجاهر بها معتزلة مصر ، وأشد وقعا من أية حرب كان فى مقدورهم آنذاك شنها عليه .. فلقد كانوا أهون من المجاهرة بالعداء ، وأدنى إلى الاندحار والبوار لو أخذهم قيس بما كان يجدر أن يؤخذ به أمثالهم من العصاة . ولقد كانت فرصة استقدائهم للطاعة أو تأديبهم بالسلاح ملء كفيه لو أنه اصطنع الحزم الواجب ولم يلتزم تلك السياسة الرخوة . لكنه آثر أن يلين فى مقام شدة ، وأن يجمد وداوعى المبادرة تدعوه إلى سرعة الحركة .. كانت الظروف عندئذ مواتية كل مواتاة . والأحداث هادئة من حوله تكاد تستجيب له لو أشار . والمعتزلة تساكنه على ذعر وهى مهيضة الجناح لا تستطيع أن تدفع سطوته عليها ببنان . ومعاوية فى الشام لا تخايله بشائر النصر وإنما تؤرقه خيالات الاستسلام .

ومع ذلك فقد فرط الرجل فيما كان بيديه ، وترك الوحش المنجحر فى خربتا حتى استطالت مخالبه ، وبرزت أنيابه . . ولم يكفه هـذا التفريط ، بل أغراه اعتداده برأيه ، بأن يخالف عن رأى أميره ، حين أمره أن يدع خطته التى لا تقرها طبيعة الظرف ، وشواهد الحال ، ويعمد إلى الحل الحاسم الذى لا تصلح الأمور بسواه :

« . . سر إلى القوم الذين ذكرت ، فإن دخلوا فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فناجزهم . . »

فقد أجاب :

« . . تأمرنى بقتال قوم كافين عنك ، ولم يمدوا يدا للفتنة ، ولا أرصدوا لها ؟ . . أطعنى يا أمير المؤمنين ، وكف عنهم ، فإن الرأى تركهم . . »

لـكن الفتنة كانت تغتذى فى مرابط المعتزلة ، وتنمو ، وتستفحل . وليخرجن وحشها المنهوم ، بعد قليل ! . .

٣

أو كانوا حقا عشرة آلاف ، أم دون ذلك ، أم كانوا أكثر — أولئك العصبة التى انجحرت آنذاك فى خربتا ، تبكى عثمان ، وتتربص من الزمن بسانحة تسنح فى طالع يمن ، لعلها تستطيع تلبية نداء الدم ؟ . .

فى تقدير الأرقام ، قد تعلو بها عدتها ، وقد تقل ، ثم لا تـكون ، آخر الأمر ، ذات خطر له أثره المرجح ، لأن الـكثرة العددية ليست وحدها العامل الفعال فى تصوير النتيجة ورسم العقبى فى ساحة القتال . . وفى تقدير الظروف المحيطة ، قد يكونون هباء أو أوهى منه ، وقد يكونون ذوى شأن حاسم يقلب ميزان القوى ، ويلوى الطريق أمام الأحداث ليسير موكبها الحافل إلى حيثما لم يكن متوقعا له قط أن يسير . .

ولقد رآهم قيس عندئذ كثرة ، بحساب العدد ، ورآهم قوة ، أيضا ، بقياسه للظروف التى عاشها إبان ولايته أمور البلاد . . . ولا عليه — لاريب — إذ فعل ، فله رأيه ، وله ، إلى جوار هذا ، حقه فى أن يسوس إقليمه على النحو الذى يضمن

الأمن ، ويوثق فى ربوعه الولاء له وللإمام فى آن . فإذا تحقق له من وراء سياسته ما طمح إليه ، فإنه إذن الحاكم الذى وزن فأحسن ، وقدر فأصاب . .

فأين يقف حسابه من دقة الحساب ، وينزل تقديره من رحاب الصواب ؟ . .

سؤال لا يسوقه الجدال ، وإنما يفرضه سلوكه بمصر إزاء أولئكم القوم ، منذ دخلها إلى أن غادرها بعد عدة شهور ، ثم لا تجيبنا عنه إلا وقائع الحال . .

فى صفر من سنة ست وثلاثين ، أقبل الرجل على مصر ، واليا من قبل على يجتاز حدودها ، ثم يقتحم على المتجحرين وجارهم وهم إذ ذاك على كثرتهم المزعومة ، وما بيمينه سلاح مرهوب غير كتاب توليته ، ولا بصحبته جيش كثيف ، أو بطانة عزيزة الجانب تشد أزره غير سبعة نفر من أصحابه أو أهل بيته كانوا وحدهم كل من رافقه من جند وأحراس ! . .

ومع ذلك فقد ارتضاه الناس ، واستقبلته البلاد بطاعة ضاعت فى غمارها نقمة الناقمين . . فما أن قرأ عليهم كتاب الإمام بتوليته حتى أقروه . وما أن دعاهم للطاعة لعلى حتى أسرعوا وبايعوه . . أما العصبة الساخطة فبقيت دون بقية المصريين بمعزل ، فى قريتها تلك ، لا تحرك ساكنا أمام هذا الاجماع . فلا هى عاجلته بسلاح ، ولا عارضته بإشارة ... كل ما وسعها ، وكان قصاراها حينذاك ، أن تبعث إليه ، على لسان أحد سادتها : يزيد بن الحارث ، برسالة تقول :

« . . إنا لا نأتيك ، فابعث عمالك ، فالأرض أرضك ، ولكن أقرنا على حالنا حتى ننظر إلى ما يصير أمر الناس . . »

تمنع كرضاء ، وعداء كولاء ! . .

واستقامت له الأمور .

فهل عن قوة أم عن ضعف كان منهم ذلك الخضوع ؟ . .

إن جماعة هذا شأنها ، وإن كانت عشرة آلاف ، أو دون ذلك ، أو فوق ذلك العدد أضعاف الأضعاف ، وما كانت لتخشى قيس بن سعد بن عبادة إلا وهى تدرك تمام الإدراك أنها ليست بإزاء رجل واحد فى سبعة نفر من أهله ، وإنما بإزاء أمة بأسرها خفضت جناحها للوافد الجديد ، لأنه يمثل رأيها ، ويعمل به ، وينشر على أديمها ، بها ولها ، سلطان ذلك الأمير الذى آمنت ، وآمن معها عامة

المسلمين ، أنه أولى الناس بالإمرة وأحقهم بالسلطان . .

هذه حقيقة لا يشغلنا قط عن تقريرها أن فريقا من رعاياه حاولوا فى البدء أن ينثروا الشوك فى طريقه حين تواثب مسلمة بن مخلد الأنصارى ينعى عثمان ويدعو إلى الطلب بدمه وقيس عندئذ لم يكد يقف بقدم واحدة على أرض الإقليم ! . . فدعوة الدم تجمدت وما كادت تغادر الشفاه . وشرارة الفتنة المنبعثة عنها خمدت ولما تلحق بحطب ولا بهشيم ! . . وما جاء خمودها ذاك عن جهد مذكور من قبل الوالى ولا رعاياه بقدر ما كان نتيجة لافتقارها إلى البيئة الصالحة للاشتعال . وبحسبنا أن نعلم أن قيسا لم يكلف نفسه أكثر من كلمة عتاب بعث بها إلى النافخ فى النار فإذا ناره سلام وثورته استسلام . .

بعث قيس إليه :

« ويحك ! . . أعلى تثب ؟ . . والله ما أحب أن لى ملك الشام ومصر وأنى قتلتك ! . . فاحقن دمك . . »

ورد سلمة :

« . . إنى كاف عنك مادمت أنت والى مصر . . »

عتاب فإقرار ، وإعذار فاعتذار ، كأنما لم يكن ثمة خلاف فلا موجب إذن لإضرام النار ! . .

كذلك كان .

ولقد يزعم زاعم ، هنا ، أن الدهاء القيسى المعهود ، الذى بطن ، هذه المرة ، دعوة السلام بالوعيد ، هو الذى وأد الفتنة قبل أن ينجم لها قرن ، وقضى على نطفتها وما تخلقت بعد ثورة مدمرة حربية بأن تجتاح الأرض المصرية وتصبغ ثراها الأخضر بالدم . .

ولقد يزعم آخر أن حكمة الوافد الغريب على بلد غريب طالبته أن يتريث عندئذ بالعثمانية حتى يعرف المشكلة ، ويسبر عمقها وغورها ، ويدرك حجمها وأبعادها ، ليتبين — عن تثبت — أين موقفه من عامة أهل الإقليم ، وأين منهم موقف العصبية المنحازة ، ثم يبرم فيها أمره — حربا أو سلما — على يقين . . .

قد يكون هذا ، وقد يكون ذاك ، ولكننا لا نراهما غير زعمين جدليين ،

إن أباحتهما مقتضيات ترويض الأذهان ، ومساجلات النقاش والحوار ، فإن عناصر الواقع ، وشواهد الأحوال لا تؤيدهما بحال . .

فالثورة — أية ثورة — كيان عنيد متمرد ، بلا مسامع تصغى لوعيد ، وبلا جنان يرضخ لتهديد . بل شأنها — بطبيعتها — شأن السيل ، يعصف بالجبل كما يعصف بالسهل ، ثم لا يكون أعنف ما يكون قوة وبطشا إلا فى مواجهة التحديات ! . .

والتريث — دائما — رهن بأجل موقوت ، وموعد محدود ، ولا ينطلق به عمره سرمدا بلا حدود ! .

فإذا مضى الفكر مع الزعم الأول — تدبرا وتمحيصا — لاح من ثنايا المراجعة والبحث كأنما تلك المعتزلة فئة اشتبه عليها عندئذ الأمر ، وتقسمها حياله اضطراب فكرى حرمها القدرة على تحديد موقفها منه ، وحسمه الحسم الناجز فى لحظة كانت — بلا ريب — أنسب اللحظات للمجاهرة بالمداء . . .

فلأى سبب إذن يعزى تقاعس الفرقة المنحازة عن مبادرة الوافد الغريب عما ينسكث عليه خيوط الحكم ، ويعجل به إلى حيث لا يكون له عليها سلطان يقهرها بالشدة ، أو يداورها باللين ؟ . .

أكانت على ريب — إذ ذاك — من الخلاف الناشب بين على ومعارضيه ، لا تعلم أى الحزبين على حق وأيهما على باطل ، فاستأنت بالعامل الجديد لعل الزمن بعد قليل يضىء لها طريق الصواب ؟ . .

أم رأت أن على لنفسها فى فسحة من الوقت تجس خلالها نبض هذا الوافد — قبل أن تضرب ضربتها — لتعرف مواطن الضعف ومواطن القوة فيه ؟ . .

أم استجابت — رياء وخديعة — لدعوة المهادنة ، ليطمئن إليها الداعى ، وينام عنها ملء جفنيه ، ثم تأخذه بغتة قبل أن يفيق ؟ . .

أم أحست فى نفسها وهنا يرجح كفته فى مجال الصراع لو أنها شغبت عليه ، واستقبلته بما لا يرضاه ؟ .

أم خشيت نقمة أهل مصر وإنهم ، فيما تدرك ، على ولاء لعلى ، وهى فيهم كجزيرة معزولة ، يحيط بها بحر لجى من الإنكار ؟ . .

أم أرجأت اللقاء الفاصل حتى تستكمل عدتها ، وتشد ساعدها ، ويمدها وليها خارج الإقليم ، ثم يؤذنها بساعة القتال ؟ . .

فروض تدور فى فلك الزعم الأول ، عليها المراجعة ، وتبسطها دواعى التمحيص ، ثم لا تأباها وقائع الأحداث ، ولا دوافع النفوس . .

فلأى سبب إن من هـذه الأسباب ، قبلت معتزله مصر — صاغرة أو راضية — الهدنة المريبة التى عرضها قيس ، وليس فى عرضها حينذاك ما ينبئ منه بطمأنينة ، ولا يوحى باطمئنان ؟ . .

لا لهذا السبب وحده أو لذاك من الأسباب ، بل لـكل هذه الأسباب ! .

ولمن شاء أن ينكر ، ويخالف عن هذا الجواب ، فليستنبط الحقيقة من شواهد الحال ، فى الحاضر والاستقبال ، وإنها لمخبرته أن معتزلة خربتا لم يكونوا الفئة التى تنشد السلام ، بل كانوا الفئة المفتونه — أو المخدوعة — بدعوة القصاص لعثمان ، شأنها فى ذلك شأن طلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وأحزابهم ممن تباكوا أو بكوا على الشيخ ، ونصبوا أنفسهم قوامين على الإمام ! . .

أجل ، لم تـكن هذه المعتزلة ساعية لوفاق ، ولا مبتغية لسلام ، بل — كبقية الحزب المنشق على وحدة الشعب الإسلامى — كان هدفها إثارة فتنة تفضى إلى انتزاع السلطان ، حسدا وضغينة ، ممن قلدته الأمة بيعتها العامة إذ هو أحقها بالسلطان . . فلئن آثرت الموادعة ، فلأنها غطاء لما تضمر ، وطريق تحق سرى إلى ما تروم ! . . ولئن قعدت عن إضرام الفتنة ، فـكسبا لفسحة من الوقت تستطيل فيها المخالب وتبرز الأنياب !

الفرقة الخارجة فى مصر على سلطة الدولة ، المنحازة عن الإجماع ، رسمت لنفسها أنسب سياسة لظرف الزمان الذى تعيشه ، ولظرف المكان الذى تعيش فيه . فنزعتها الحزبية تريدها على الشغب ، وقوتها الظاهرة تدفعها أن تهم به ، ولـكن سياستها الحذرة تحملها على الإرجاء . . . وهل كانت لتقعد عن القتال فى تلك الآونة إلا وقد أيقنت أنها لا تقوى عليه وإن كانت عشرة آلاف أو زادت على هذا العدد أضعاف الأضعاف ؟ . . وهل كانت لتمهل قيسا ساعة من زمان ،

لو أنها آنست فى نفسها القدرة ، وندعه يدخل البلاد ، ويأخذ البيعة ، ويبعث العمال ، ويجبى الخراج ، ويوطد سلطانه أميرا من لدن على على مصر وما هو — إذ وفد — غير رجل واحد ، فى سبعة نفر من الأعوان لا يمنعونه سطوة المخالفين ؟ . .

هذا منطلق الفكر مع الزعم الأول ، الذى يرتب انطفاء الفتنة الوشيكة على دهاء والى الإقليم ، نضمه فى شتى صور الاحتمالات بغير اعتساف . فلأى منطلق لعله يتجه الفكر ، وهو يتقصى الزعم الثانى : تلك الحكمة التى دعت الرجل إلى التريث بالعثمانية ، وإلى استقباله تشرعهم للغزو عليه — غب وفوده — بالملاينة والترويض ؟ . .

فى لحظة مروءة وأريحية ، بلا ريب ، وليس فى لحظة حزم ، ألقى إليهم الوالى بكلمة أمان . . وما نلومه إذ فعل . فالمروءة محمدة تحسب للمرء ولا تحسب عليه . والأريحية إحسان يصانع الأنفس النافرة ، وقد يجتذبها إلى ساحة الرضا ، إن لم يكن إلى حظيرة الولاء . . وقيس بن سعد ، إذ اختصهم آنذاك بالترفق ، ولان لهم ، إنما كان يرعى فيهم الرحم ، وحق الجوار ، وصحبة الأمس ، ورفقة العيش والسلاح فى الجاهلية وفى الإسلام ، لأن رءوسهم وأشياخهم مثله ، من الأنصار — أهل مدينة الرسول — ثم من قومه ورهطه الأدنين . .

لا ننكر لقيس مجاملته هذه سادة المعتزلة المصريين ، ولا ننكر أيضا لهم مجاملتهم إياه . . فهو يتعفف عن مقابلة شغبهم عليه إلا بالكلمة الرقيقة دون الحزم الذى قد لا يتحقق بغير شفرة السلاح . . وهو يأبى على نفسه اجتماع أمر مصر والشام فى يديه ، لو دانتا له بدم أحدهم — دع الباقين — وساد فيهما النظام . . وهو يملى لهم فى استرسالهم فى الخروج على إجماع المسلمين والقعود عن بيعة الإمام ما شاء له الإملاء . . وهو يسجح إلى مدى تنكره عليه مبادئ الحيطة والحذر ، فيسمح لرفاق فكرهم وتآمرهم ، من خارج البلاد ، ومن الشام بالذات ، بالوفود عليهم ، زائرين أو معززين . . وهو يجرى عليهم — فى رباطهم المشبوه — ما يجريه من الأعطيات والأرزاق على بقية الناس أصحاب الطاعة والولاء ، دون نقصان . .

مجاملة لا تنكرها لقيس، وتقره عليها، حين يستطاع — أو يرتجى — توثيق الصلات، وتذويب الحزازات بالمجاملات . ولكننا تنكرها عليه، ونأخذه بها، حين لا يكون قصاراها غير الإملاء فى العصيان والانتقاص من هيبة السلطان . .

فلأية وجهة تقودنا هذه المجاملة، أو السياسة التى التزمها قيس منذ دخل الإقليم ؟ . .

إلى الإنكار لا إلى الإقرار ! . .

بدءا ونهاية، لاح من خربتا أنها لا تعمل على رأب الصدع الحادث فى جدار الوحدة الإسلامية آنذاك، ولا تنتويه، ولا ترنو إليه بمجرد رنوة آملة مرتجية فى شطحة حلم أو فى سرحة خيال . كل همها كان الانتظار . التربص بالأحداث . تحين الفرصة التى تعن للوثوب . .

حتى مجاملة قيس لم تزحزحها عن موقفها، ولم تغير من نظرتها — قيد شعرة — إلى الأمور . الشقة الفاصلة بينها وبين الإجماع ظلت ثابتة، كحالها عندما أعلنت الانشقاق . والعدوان على النظام القائم كان شاغلها الذى أجمعت الرأى، وتشرعت له، وبيتته إلى حين . .

بل بيتته إلى موعد معلوم ! . . إلى أجل مسمى . إلى ساعة مقدورة محدودة، لم تسرها عن العامل المجامل، وإنما طالعته بها فى غير مواربة وبلا إخفاء، كأنما تبيعه وعيده بوعيد ! . فهذا النظام الذى يمثله، ويرعى دولته، ووفد عليهم لينشر سلطته، لن يلقى منهم سوى عدوة مدمرة، تهد كيانه، وتتنقض بنيانه، وتذهب به فى الغابرين . .

كل ما صانعوا به قيسا وجاملوه هو أنهم أمهلوه . أنذروه لأوان . أرجأوا ضربتهم حتى يستوفى مدة ولايته ويغادر مصر إلى حيث جاء . . فالترفق إذن بابن بلدتهم رفيق أمسهم، لصيق رحمهم، وليس بالنظام . والوفاء بالإرجاء رهن ببقائه هو على عمله، طال أو قصر عمر البقاء . وفيما بين النية المضمرة والعدوان الصريح، متسع لبدوات الأنفس، أو تطورات الأحداث، تبرر نقض العهد وامتشاق الحسام ! . .

وكان قيس على بينة من احتمالات الموقف أو يكون إذن فى غفلة تهدر دهاءه وتمتهن ذكاءه ، وتضعه حيثما لا ترضاه له ، ولا يرضاه كل الذين خبروه . . فسير الأحداث فى تلك الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية لم يكن رخاء يجرى على نسق معلوم مرسوم ، وإنما مضى على اضطراب وتقلقل ، يطالع الناس بين الآن والآن بما ليس بحسبان . . ونزعات الطموح أو الطمع كانت تتلمس بالأنفس فتفرق جماعة الأمة ، وتزرع الضغائن ، وتحزب الأحزاب ، أو تجيش الجيوش وإرادة قيس ليست هى الإرادة التى تستديم له ولايته على مصر ، أو تطيل فيها مدته كيف شاء وأنى شاء ، لأن الولاية عليه ، والأمر دونه ، لأمير المؤمنين الذى يثبت ، وينقل ، ويعزل عماله حسبما تدعوه سياسة الحكم ، وغير الظروف ومقتضيات الأحوال ، فى قلب الدولة وفى مختلف الأقاليم .

فإذا نحن ذكرنا أيضا عناصر الدس والتآمر التى كان أعداء على يسرحونها إلى الأمصار ، نشرا للفتنة ، وإيقاعا للفرقة بين أهلها وبين عمالهم ، ثم بين أولئك الولاة وبين أمير المؤمنين ، للقضاء على هيبة الحكم ، ونكث خيوطه ، والذهاب بالاستقرار المذهب الذى يضعضع السلطة الشرعية ويدعها فريسة سهلة للعدوان ، إذا نحن ذكرنا هذه العناصر التآمرية فإن العنصر الوحيد الذى يظهر فى الأفق ، بعد هذا كله ، ويضمن بقاء قيس على مصر لا يكون غير الخلود ! . . وما نحسب الرجل إلا آمن أنه — لا محالة — زائل عن مكانه بانقضاء أحد الأجلين : نهاية عمله ، أو نهاية أجله ! . . وما نحسب مصر بعده إلا آئلة لوال سواه ، دون عهد قد يقيها عند ذاك سطوة المعتزلة ، أو يجنبها الخروج — بحد السيف — عن طاعة الإمام .

كل هذه الحقائق والاحتمالات كانت ، بلا ريب ، ماثلة أمام قيس وهو يجنح للسلم ، فيؤثر مهادنة مخالفيه لأنها الوسيلة الوحيدة التى تكفهم عنه ، فى مستهل عمله ، أن يعبثوا بالنظام الذى يمثله ، ويعزقوا الأمن ، حتى يتبين ويتبين الناس . فإذا المعتزلة أقرته على هذه المهادنة ، فإنه لعليم أنها تقره مصانعة له ، وليس مصانعة للدولة ، لأجل موقوت بزوال ولايته إن لم تكن وقتته باكتمال عدتها ، واشتداد أيدها ، وقدرتها المرتقبة على المجاهرة بالثورة التى تكنها فى الصدور . .

إذا هو مضى على سننه هـذا لفترة ، لحدسا منه على تجنيب العهد العلوى الناشئ فتنة جديدة ، تزيد من أعبائه ، وترهقه عسرا ، وقدمه لم تثبت بعد على أرض الحـكم . .

سياسة إغضاء ، تؤجل العداء ولا تعجل به، ارتضاها الطرفان ولـكل منهما مأرب من ورائها يأمل أن تحققه الأمام . فخطر خربتا قائم على الدولة ، وإن نام عن قيس ، أو أغفى بعين حذرة ، تتسرب منها النظرة الخالسة من خلل الأهداب . وخطر قيس عليها قائم ، وإن عاهدها على حبسه عنها حتى تتكشف الأحداث ويتبين الناس . واستقامة الوضع بعد هذا ، فى الدولة تحت إمرة أيا امرئ تولاها ، لا تتم إلا بانجلاء أحد الخطرين ، وخضوع فريق للآخر الخضوع الذى يلأم الصدع ، ويحقق الألفه ، ويجمع بالوحدة بين طرفى النزاع . .

هذا هو الوضع الذى يوفر للدولة — أية دولة — مقوماتها ، ويضمن لها السيادة على ما لها من أرض ، ومن بها من أفراد . وكل عامل بها مسئول عنه فى ولايته ، ومسئول عنه أيضا فى نطاق الدولة العا[مة لأ]ن الحـكم الأمثل مشاركة عامة ، وليس مشاركة بالاجتزاء ! . . فاستقرار النظام فى إقليم ، يعين على استقراره فى بقية الأقاليم . وانقطاعه فى أحدها يغرى بانقطاعه فى آخر ، والنظام كالانقسام ، لـكليهما عدوى حقيقة بأن تصيب الأمة ، وتترك أثرها فى بنيتها القومية وكيانها السياسى : سقما أو صحة ، ضعفا أو قوة ، كيفما تهيأت لأيهما البيئة الملائمة ، وأسباب النفوذ والتمـكن ، وذرائع الانتشار والاستشراء .

على هذا الوجه يستطاع معايرة الموقف الذى اتخذه قيس تجاه معارضيه فى الإقليم . وبه وحده يستشف المآل الذى تفضى إليه سياسته بمصر : دعما للدولة أو دفعا بها إلى الانهيار . .

فهل وفق الرجل ، وهو يقف موقفه ذاك ، بما عليه ، ونجح فى أداء دوره المفروض قبل الدولة ، التى نصبته ممثلا لسيادتها ، كما ينبغى أن يؤديه عامل يعرف نصيبه من المشاركة العامة فى الحـكم ، فينهض به ، ملتزما فى خطط حكمه الإقليمى تلك السياسة التى لا يقوم على غيرها — فى دولة من الدول — حكم ثابت متماسك ، ولا يستقر نظام وطيد ؟ . .

يظلم الرجل من يراه أخفق كل الإخفاق ، ويظلم الحق من يراه نجح كل النجاح ! . . فما ينسى له أنه ، فى داخل حدوده ، سعى سعيه لإقرار النظام وإن سلك إليه سبيل الحسنى ، أو المجاملة ، أو تجميد العصيان ! . . ولكنه ، مع هذا ، النظام الجزئى الذى — إن صلح به حكم ولاية « خاصة » منفردة ، أو باللفظة التقليدية : « إقطاعية » — لا يمكن أن يصلح به حكم دولة موحدة تذوب « فردية » كل ولاية من ولاياتها فى الكيان السياسى العام . .

فإذا دعتنا شرعة الإنصاف إلى الاعتراف بفضله الظاهر فى إرجاء الفتنة لا إطفائها ، وبقدرته على نشر سيادة الدولة على مصر — إلا خربتا — إبان عهده ، فإن حتما علينا أن نذكر أيضا أن هذه الخطوة التى خطاها إنما كان ينبغى أن تتبعها خطوات أو تكون السيادة التى حققها عودا هشا قد تقتلعه خفقة هواء ! .

كان إذن عليه ، وقد أمن عمله بعض أمن ، وبسط ظل الإمام على معظم أرجائه ، أن يمضى قدما وما بدأ ، متابعا سيره إلى الأمام ليستوفى سيادة الدولة على مصر : بكل اجزائها ، وكل أبنائها ، لا بلوغا بهذه السيادة — بهيبة الحكم وليس بنزوة المجاملة ! — إلى الحد الذى يثبت الأرض تماما تحت قدميه وقدمى أى عامل سواه ، بل توكيدا لشخصية الدولة ، ولحقها على كافة مواطنيها ، وتحقيقا لوحدتها وللاستقرار العام على أديمها السياسى كله ، من أدنى إقليم إلى أقصى إقليم . .

لكأنى به قد استيقن وفاء تلك الطائفة من رفاق أمسه الأنصار بعهدهم له ، فأمن منهم الغدر والعصيان . . لكأنى به أيضا استيقن استقامة الأمر ، لا محالة للامام فى كافة أرجاء الأرض الإسلامية ، فى خلال أيام ، فلا حاجة به ها هنا إلى عنف تغنيه عنه الهوادة ، ولا إلى سيف تكفيه عنه بشائر السلام ! . . وهل هى إلا بضعة من الزمن قصيرة يذوب فيها القلق النفسى الذى يصاحب التغيير ثم تثوب القلوب ، وتهدأ الخواطر ، ويألف الناس الأمر فتدخل زمرهم أفواجا فى طاعة الخليفة الجديد ؟ . .

أدنى إلى هذا ومثله كان رأى قيس ، لا ريب ، وهو يترفق ترفقه ذاك بيق.

بلدته ، رفاق أمسه ، الذين شاءوا الانتحاء عنه ، عند وفوده ، وتخلفوا بانتحائهم عن الإجماع . . وما يستطيع أحد أن يأخذ عليه نظرته ، أو يقابلها بتثريب وشواهد الحال عندئذ تقره عليها ، وتكاد توفر لها كل مقومات الصواب . . فلقد شهد بعينيه كيف لاحقت الجماهير عليا غب مقتل عثمان ليتولى الأمر وهو عانع — زهدا فى الإمرة — ويهيب بهم أن يلتمسوا غيره ويدعوه . . ثم شهدهم يتداكون عليه ، تداك الإبل الهيم على الشرب ، ويحملونه حملا على القبول . . ثم شهدهم يدلون إليه بطاعتهم عن رضا وإجماع كلة ، على ملأ ، وفى بيعة شعبية عامة لم تنعقد قبله لأمير . .

ما كان قيس يتوقع قط أن يخرج امرؤ من المسلمين على طاعة على والشعب كله هو الذى ولاه . الشعب كله . بكل فئاته . بكل طبقاته . بكل أجناسه وألوانه . بكل بقاعه وأوطانه . . فلم تكن بيعته بيعة خاصة كالعهد من قبل بغيرها من البيعات التى كان فيها اختيار الخليفة لمجتمع المدينة ثم المتابعة والإقرار لما عداه من مجتمعات . لم تكن بيعة مهاجرين وأنصار كبيعة ابى بكر الصديق . ولا بيعة عهد شخصى ووصية فردية كبيعة عمر بن الخطاب . ولا بيعة بضعة قرشية لقرشى منها كبيعة عثمان بن عفان . إنما كانت بيعة عامة ، توفرت لها كل جوانب « العمومية » وأجمع عليها المهاجرون ، والأنصار ، والقرشيون ، والقبائل الأخر ، والرعاة ، والعبدان ، وأهل الأمصار . بل هى كانت ، فوق هذا كله ، ترجمة صادقة أمينة عن التطور الفكرى والإرادة الشعبية الحرة والتغيرات الاجتماعية فى بنية الوطن الإسلامى على إتساع رقعة أراضيه ، تمثلت فى أهل المدينة ، وعبدانها ، وأهل المياه ، ووفود مصر والكوفة والبصرة الذين أمروا عليهم — بمحض اختيارهم ورغبتهم ، وبغير عهد ، ولا دعوة ولا توجيه — رجلا لم يعرض نفسه ، ولم يسع إليهم ، لأنهم رأوا فيه وحده ، من دون الناس أجمعين ، المثل الكامل للحاكم الذى ترنو إليه مبادىء ثورتهم السياسية النازعة إلى شعبية الحكم بغير تمييز عنصر على عنصر ، وثورتهم الاجتماعية الهادفة إلى وحدة العدل وجماعيته ، بغير تفضيل طبقة على طبقة . .

فلو أنه لحظ قبل مخرجه إلى عمله بادرة خلاف أو انشقاق على إمرة على ،

لما شفع له فى موقفه المهادن من الخارجة المصرية شفيع . ولكنه خرج فى صفر والرأى العام مع الإمام ، وكلمة الثورة هى العليا ، والناس كلهم لها تبع وظهير . ودخل مصر فى نفس الشهر ، والحال هى الحال : الوضع ثابت والأمر جميع . الريح رخاء . على الأفق هدوء ، وفى الجو سلام، وليس ثمة غيمة تنذر بعاصفة ..

الثابت قطعاً أن بذور الانتقاض على الخلافة الجديدة ظلت مطمورة فى طوايا باعثيه بضعة أشهر بعد البيعة لا تبرز لها أسواق ولا ثمار ! . . يؤكد هذا كل التأكيد أن الأمصار استقبلت عمال على عليها بلا معارضة . . عثمان بن حنيف ارتضته البصرة . وقيس بن سعد ارتضته مصر . وعبيد الله بن عباس ارتضته اليمن . وإذا كان عمارة بن شهاب قد حيل بينه وبين الكوفة ، فإنها بايعت للإمام على يد واليها قبله أبى موسى ولم تحاول أن تشق الطاعة أو تخرج على دعوة الخضوع

أما الشام فهى وحدها التى ردت عنها عامله سهل بن حنيف ولما يجاوز تبوك ، ثم لم تدل بالبيعة . ومع ذلك فإن ردها إياه ، وتخلفها عن الدخول فى الإجماع كان خليقا بأن يحمل عندئذ على الإرجاء أو التردد قبل أن يحمل على العداء أو التمرد . فما أسفر عاهلها عن نواياه المناهضة لأمير المؤمنين إلا فى ربيع الأول من العام عندما بعث إليه بالطومار . .

وفتنة الجمل لم تبرز أيضاً إلى الوجود إلا فى ربيع الثانى — على الأرجح — بعد مصرع عثمان بأربعة شهور . وإذا كانت دعوة عائشة إلى القود للخليفة الصريع قد سبقتها فى الحرم ، وترددت بمكة ثم جرت بها إلى ماورائها الأنباء ، فإنها دعوة لم تكن لتفهم ومثيلاتها من الدعوات آنذاك على أنها نداءات انقسام أو عصيان . بل قد كان لها من ظاهرها البرئ ما يبعث على الاعتقاد أنها غيرة على هيبة السلطان . واستعداء للحاكم على المجرمين . وصيحة تفجع تطالب بإقرار العدل مستحثة ولى الأمر إلى التعجيل بالقصاص للمظلوم دون أن تشى بتمرد أو تنم عن خلاف ظاهر أو خلاف مستور ...

طوال شهرين ، أو ثلاثة ، كانت الظواهر كلها لا تنبو بموقف قيس ولا تجافيه . بل قد كادت تبدى الحكمة ، كل الحكمة ، فى مسلكه تجاه معتزليه . .

ففيم إذن مجاهرته إياهم بالعداء ، ونزوه عليهم بحرب مجلبة ، تقطع الرحم ، وتهد الصحبة ، وتبذر الثأر بينه وبين طائفة عزيزة عليه من مواطنيه ؟ . . ولم التعجل وصبره عليهم ، في هذا الجو المبشر باتساق الأمور ، لا ريب آتيه من لدنهم بالاقتناع والطاعة والأمن المنشود ؟ . .

غير أن الأقدار أبت أن تسبح على ظنه ! . .

بخلاف ما قدر ورجا ، تكدر الأفق الصافي ، وراحت تزحف عليه الظلال . . بدت غيمة هنا ، وبدت غيمة هناك . تجمعت كسفة ظلام إلى كسفة ظلام . ثم تحركت الريح . ثم ولولت . ثم عصفت . ثم عربدت كشيطان ! . .

في أسابيع قليلة ، بل في أيام ، توالت الحوادث سراعا على أديم الدولة ، حتى ليلهث الذهن وهو يتابعها ، وتترجرج العين — من حيرة — إذ تحاول ملاحقتها من مرمى نظرة إلى مرمى نظرة ، ومن مكان إلى مكان . . في البلدة الحرام ، اكتست الدعوة البريئة المتفجعة جلد ثعلب ! . . على الطريق إلى البصرة ، هدرت الكتائب المعبأة تقودها الضغينة ! . . بأرض الشام انحسر مد التريث الأخرس عن ثورة عصيان ! . . وإلى كل هذه الخطوب ، المتفجرة من قاع الغدر ، تناثرت زمر وطوائف ، في شتى الأنحاء ، ترتد ، أو تخلع البيعة ، أو ترفع ألوية الدماء والدمار ! . .

حتى الإمام بدا كالمحير ، أيسرع بالردع إلى هذه الفرقة الخارجة على سلطان الدولة ، أم يعجل دونها بتلك ويدعها هي إلى حين . . في أول الأمر أوشك أن يسير بجيشه إلى ابن أبي سفيان ، إذ ألب الشام عليه ، وخرج بها ، وبأهلها ، من النظام العام . ثم كبح نفسه وسيفه ، وهم أن يلحق بطلحة والزبير وعائشة ، عسى أن يردهم بالحسنى عما اعتزموه ، وهم ببعض الطريق . ثم عدل خطته ، وحشد لهم حين فاتوه وعصفوا بالبصرة ، وأشاعوا بها القتل ، وأفشوا الجراح . وهل له معدى إذن عن ملاقاة السلاح بالسلاح ؟ . .

دراكا تعاقبت الأحداث على الحكم الناشئ ، وعلى الخليفة الجديد ، وأسهم الناس فيها : كل بنصيب ، يدرأون الخطر ، أو ينفخون في النار ، بحسب ولائهم أو عدائهم ، وبقدر أيدهم وجهدهم ، يدفعهم إلى العمل إيمان بهدف ، وإحساس

بتبعة وتشبع بعاطفة ، ومشايعة واعية أو عشواء لرأى روج له بينهم صاحب السلطة فيهم ، أو حملهم عليه . .

أغاب فى هذه الأونة يا ترى عن قيس الخطر الماثل ، الذى تجمعت نذره فى أفق أمته ، وكاد يصيبها الأنقسام ؟ . . أخفيت عنه الأنباء وغاض نبع الأخبار ؟ أ كانت التبعة الملقاة على عاتقه — كوال من ولاة الأمصار ، وممثل للدولة — تسمح له بإغضاء طرفه عما يدور ؟ . . أ أغفل صاحب الإمرة الشرعية دعوته إلى المشاركة فى الصراع الوشيك ؟ . .

ساعة ساعة ، ويوما يوما ، كان عامل مصر يعيش الخطر ويتنفس الأحداث . وخطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، كان يتنقل بباله وخياله مع الإمام . . فمنذ مولد حركات الخلاف والتمرد ، بعث على إليه ليندب من قبله من الناس لحرب الشام ، حين كان مظنونا أنه سيبدأ بالشام ، وما كان قد ظهر بعد مابيت أصحاب الجمل للبصرة ، ولا ما أ كنوه من خلع البيعة وصدع وحدة المسلمين .

ومع ذلك ، فمابان من الخطوب وجزرها ، عاش قيس ثابتا كأثبت ما يكون جأش ، هادئا كأهـدأ ما يكون بال ! . . كأنه بلا أعصاب ! . . كأنما الأمر لا يعنيه ! . كأنما النوازل المحيقة ، بمالم ، وهو منها بنجوة ، فى عالم بعيد بعيد . . لقد ندب ، وكان هذا قصاراه ، كأن فى الندب الغناء فى الغناء ! . . وقد توالت عليه الأخبار ، وكان قصاراه أن يتابع من خلالها ، تطور الأمور ! . . أما دلالتها . . وأما ما لعلها تثير من تكهن ، وتشير إليه من توقعات . وأما ما عسى تتمخض عنه من عواقب ونتائج ، فكلها — فيما يلوح — لم تحمله على تعديل أسلوبه . ولا على التكييف المرن الذى يقتضيه تغير الاتجاهات والظروف . . .

آثر التريث . بدا كأن شاء الثبات حيث كان . رأى تجميد موقفه الذى اختاره من اللحظة الأولى ، فلاح كالذى يرى قمة الخير فى التجميد ! . فهدوء مصر ، وسط تواتر القلاقل فى سواها ، يحسب لعلى ويصلح أمره ، وليس يحسب عليه . . وصبره بها على خارجة خربتا إملاء لهذه الطائفة فى الطمأنينة ، وكبح ليلها العدوانى عن المبادرة لسلوك قد يضيف اضطرابا إلى اضطراب ، ويوسع رقعة التمرد المشبوب . . وتخدير الفتنة أفضل من إيقاظها على أى حال ! .

كل ما فعله قيس ، فى هذه الآونة الحرجة ، هو التصبر الحذر . . . الترقب والانتظار . . . الانحياز عن الإسهام الفعال الذى عليه لسان الواقع ، ويرجحه منطق الظروف . . الوقوف بمصر بمبعدة عما يدور خارج الحدود . . المشاركة فى الحكم بالاجتزاء كأنه صاحب « إقطاعية » خاصة ، وليس بعامل على ولاية فى دولة موحدة ، ذات أمن موحد ، قد تؤثر سياسته الإقليمية — الخارجة على الإطار العام — فى وضع الدولة ، كما يتأثر أيضا إقليمه أسوأ تأثر بما قد يصيب غيره من أقاليم . . .

أية نظرة عابرة عجلى يلقيها امرؤ على الحركات المناوئة للإمام إذ ذاك خليقة بأن تقر خطة الحيطة المحاذرة التى انتهجها قيس ، وشاء بها — إبان تفجر التمرد — تجنيب على شر محنة جديدة . لكن إمعان الفكر فى تلك الحركات ، بوسعه أن يعدل بالمرء عن الإقرار إلى الإنكار . فحين يستقرئ الحوادث ، ويتبين دوافعها ، يود ويود معه منطقها — لو لم يستمسك الرجل تجاهها بمسلكه ، ولو غير أسلوبه . . وحين يغوص إلى جذور بعضها ، يرى فيه ما قد أسفر عن نتائج ترتبت على مقدمات ما كان ليعوز قيسا الوقوع على مثيلاتها فى إقليمه . وحين يستوحى بعضها الآخر دلالاته ، لا يعدم أن يجد بينها ما يحثه على ترك ركوده ، والمضى قدما إلى عمل حاسم بأوسع خطاً وأسرع اندفاع . . ولا نريد بهذا أن ننساق إلى لوم ، أو ننزلق فى مساجلة جدلية وأمامنا ما يغنى عن التأويل . .

أجل . بغير جنوح إلى مجادلة ، ودون اعتساف لتأويل ، يسع المنصف أن يتبين الدوافع الكامنة وراء حركات التمرد كافة ، فى تلك الآونة ، فإذا هى لا تصدر إلا عن حسد للإمام واضطغان عليه . فأسباب التمرد ، فى حقيقة الأمر ، « عاطفية » لا موضوعية . . خروج طلحة والزبير على طاعته باعثه فوزة دونهما بإمرة زهدها ، ولم يطلبها ، بينما قد طالما منيا النفس بها ثم سعيا إليها سعيهما الدائب ، وركبا متن التدبير فخيبت دونها القدم وكبت المطية ! . . ودعوة عائشة إلى مناوأته انبنت على أسس « نفسية » لا على أسس تتصل بسياسة الحكم ، أو قدرة الحاكم ، أو صالح المحكومين . . وعصيان معاوية تفجر ، كما هو معلوم ، من بركان ذلك الحسد الأموى القديم لبنى هاشم ، الذى ظل طويلا يثور ليهدأ ، ويهدأ

ليثور ، عدة أجيال . . فإذا بدا لامرئ من بعد أن يقول إن رغبة الثأر لعثمان هى التى حركت تمرد الناهضين ، فإن ظروف المصرع ذاتها تدحض هذا الادعاء وتنفيه لأن دعوة القصاص ذريعة مفتعلة مصنوعة ، وسبب زائف دخيل وليس بصادق ولا أصيل . . وبحسبنا أن علمنا ، فى هذا المقام ، أن طلحة والزبير وعائشة كانوا رءوس المؤلبين على عثمان ، الداعين الناس — فى حياته — سرا وجهرا ، إلى الثورة عليه وطى سجله أجلا وخلافة ! . . وأن ابن أبى سفيان لم يحاول عندئذ — وقد كان بمقدوره — أن يحرك جيشه المتربص على مشارف المدينة ، ليدفع عن الشيخ ، المحصور فيها ، مصيره ، ثم ساوم الإمام ، بعد المصرع على البيعة لقاء جباية مصر فوق ولاية الشام ! . .

ولم تعدم الدعوة من رجالها أناسا نبا زيفها بهم ففارقوها ، أو نقدوها ولحوا دعاتها على ما ادعوه ، وإن كان صلاح أمرهم فى نجاحها وبلوغها الشأو الذى تريد . . وليس سعيد بن العاص ، والى الكوفة من قبل عثمان بالوحيد الذى جرى ذكره فى هذا المقام . ولا محمد بن طلحة بن عبيد الله ، الذى ألقى على ابيه — زعيم الدعاة للثأر ! — ثلث دم الخليفة المقتول ! . فدعوة القصاص إذن لم تكن لتنجم ويرتفع لها صوت لو أن البيعة قد أفضت إلى غير على بعد عثمان . . ولم تكن أيضا سوى ذريعة ، مفتعلة ومصنوعة ، حاول أصحابها — خداعا وتمويها — أن يرفعوها شعارا عاليا أمام أعين الأمة ، انتقالا بحركاتهم المنتقضة الحاقدة من نطاق الهوى الخاص إلى حيز قضية عامة . . .

ولقد أطلق رجال الفتنة النيران من عقالها ، وأججوها فى أرجاء الوطن العربى بدعوتهم هذه التى مست مكمن الأسف والتفجع فى قلوب الناس ، ثم راحت تستثير التعطش للانتقام من عاد ظالم لقتيل مظلوم . ولا ينفع هنا أن يقال إن الجرم قد ألقى على غير مقترفيه ، لأن الجماهير ، فى مثل هذه الحالة ، يصدرون فى انقيادهم العاطفى عن غريزة القطيع ! . .

ومع ذلك فإن الخطر فى الدعوة التى ذاعت ، وتوالى موجها العاتى كالطوفان ، لم يكن فيما حركت من غريزة الوحش القابع فى جوف الإنسان ! . . . ولا فيما أيقظت بنفوس بضعة حاسدة من حقد ، أو جشعة من نهم بالسطوة والجاه ! . .

ولا فيما ابتدعت من عوامل الشقاق والانقسام . فالتنافس على السلطان — أى تنافس — يحمل دائما فى طواياه بذور خلاف تنبت العداوة وتزكى الصراع ، وتثمر الفرقة . وهو عادة يقترن بالشغف بالدم ! . . إنما الخطر ، كل الخطر ، كان فى استغلال الدين ، وتسخيره لخدمة الشعار الخداع . ومن ذا يستطيع أن يقول إن القصاص لا يدعم الحياة وأنه ليس بعض شريعة الله ؟ . .

الذى لا جدال فيه أن شعوب المجتمع الإسلامى عندئذ — على امتداد الدولة الجديدة — كانت حديثة العهد بالإسلام . وأن أبناءها كانوا لا يزالون قريبين ، قربا زمنيا ، من الرسول . وهم بهذا وذاك أحرى بالاهتمام بالدين الجديد الذى اعتنقوه ، وأدنى إلى الغيرة عليه أن يخرق فعل فاعل ، أو جماعة ، أحد مبادئه ، أو يخرج على بعض أحكامه . وليس يجدى أن يقال إن الفترة الزمنية القصيرة المنقضية على انبثاق فجره ، لم تكن كافية للتمكين لهذا الدين فى قلوب الكافة على نحو يحقق توثق التفاهم به ، ويمضى بجموعهم فى مظاهرته إلى أبعد الأشواط . . فمن آمن به حق الإيمان فإيمانه الصادق يكفيه . ومن اعتنقه متابعة فالحياة الجديدة التى نقله إليها الإسلام — بكل مزاياها المادية التى أثرت الشعب ، وبكل مزاياها المعنوية التى رفعته فوق الشعوب المعاصرة وسودته على أعظم الحضارات — تعده بمثل قوة الإيمان الخالص العميق . .

عن هذا الخطر المنذر بأفدح النتائج ، تكشفت حركة التمرد ، فى عدة أرجاء ، وتبلور حولها ، هنا وهناك ، تأييد مؤمن بدعوتها عن اقتناع ، أو تأييد قطيعى مخدوع . . وبهذا الخطر قوبل على ولما يكد يخطو أولى خطواته إلى الانتقال بالدولة من قلق الثورة إلى هدوء الاستقرار . والسماح لهذه الدعوة بالذيوع ، أو الإفساح لها فى الانتشار ، هو فى حقيقة الأمر صب للزيت على النار . وهو سلاح حاد بتار يسهل أن يجد طريقه إلى قلب الأمن القومى للبلاد ليصميه ، ويهدد وحدة الأمة بالانهيار وما لا يمكن أن يقال فى موطن صواب إن ثمة حاكما مسئولا ، أو مواطنا عاديا من عامة الجمهور يستشعر حق أمته عليه ، والغيرة على مصيرها وإن لم يكن له دور مقرر فى الحكم ، يستطيع وهو آمن من اللوم أن يستبيح لنفسه الإغضاء عن شبح هذا التهديد . . .

من هذه الوجهة وحدها — دع ما سواها من الوجهات ! — يكفى معايرة المسلك الذى سلكه عامل مصر حيال جماعة خربتا المعتزلين ، فإذا هو بعيد غاية البعد عن مسلك الحاكم المسئول ، ومسلك المواطن الغيور ! . . فلقد أمن هذه الطائفة الخارجة على البيعة ، وعلى النظام العام ، وجعل منها — بفعله — لافتة منشورة أمام الناس ، تعلن بجلاء مشروعية تلك الدعوة الخداعة إلى القصاص . ولقد يسر لها — أو لم يمنع — اتصالها بأمثالها من الوافدين عليها من خارج الإقليم . . ولقد وفر أيضا لأفرادها رزقهم كاملا من الفيء توفيره لمن عداهم من الموالين . . فإذا لم يكن فى مسلكه ما ينم عن رضائه عنهم ، ثم يروج الانتقاض — مبرقعا بدعوة القصاص ، فأى مسلك يا ترى سواه يمكن أن يحبو الخارجين على الإمام ، وسلطة الدولة ، ووحدة الشعب ، بالتأييد ؟ . .

ونكرر أن هذا لا يطعن على الرجل ، ولا يتهمه فى ولائه ، لأن تاريخه ، ونقاء نيته ، ينزهانه عن الاتهام . ولكنه زلة بدرت ، وفى مقدورها أن تطفو على كل ما نحله ، أو عرف عنه ، من دهاء ! . . وهى زلة عصية أمامنا على التبرير . وهى حلقة فى سلسلة طويلة من الزلات . ويحسبها هنا أن أضفت على الخارجة صفة الغيرة على الدين لتلف حولهم السذج من العامة وعرض الناس الذين يستهويهم بريق القشور ولا تسعفهم عقولهم المحدودة بتعمق ما تحت هذا البريق ! . .

ومع هذا كله ، فلم يكن عصيا على قيس أن يتدارك الأمر والأحداث تلتوى أمام عينيه ، وتنحت لها فى الصخر مجرى آخر ، يصل بها إلى غير ما حدس ، ودله عليه الاستقراء . لكنه — فيما بدا — تركها تسير . وآثر أن يمضى دونها فى طريق مسدود ، أو فى دائرة التيه التى لا يجديه سميه على محيطها — ولو بالخطا السراع — ولا يزيده شيئا على البقاء حيث كان ! . . وعندما ندع قصة المجاملة ، أو — بأسلوب تفكيره — واقعة تأمين مصر بالكف عن خارجتها ، فإننا لا نراه إلا عاش فى قوقعة هذا التفكير ولم يحاول أن يطل من الصدفة برأسه ، ليرى ما يدور خارج مكمنه ، أو يستشف نذر العاصفة من معالم الأفق الممدود . .

لقد كانت النذر الحاضرة أوضح من أن تجاوزها عين ، وكانت النذر الغائبة أدنى إلى نطاق الاحتمال . ولكننا ندعها جميعا وما تسفر عنه إلى أوانها القدر ،

ثم نتابع الأحداث الجارية بالنظرة العابرة ، لا بالنظرة الثاقبة التى تتعمق الأمور إلى الأصول والجذور .. ندع رباط خربتا بما فيه ومن فيه .. وندع مخرج عائشة وحزبها المتستر بالإصلاح . . وندع « تردد » معاويه عن الدخول فى الإجماع ولا نقول « تمرده » على الإجماع . . وندع الدعوة « الدينية » إلى القصاص . ندع هذا كله ولا نحاول أن نحمل قبسا على استكناه دلالاته وما يسر من أخطار ، ثم نمضى وإياه مع الأحداث متابعين متابعة المواطن العادى لا متابعة السياسى المسئول . .

فلأى سلوك لعلها تهدينا هذه المتابعة التى لا تقتضينا قط عناء تعمق الشواهد الماثلة استخلاصا للنتائج ، أو تنبؤا بمستقبل الاتجاهات ، واستقراء للامنظور والمستور من خلال المنظور ؟ . .

سلوك الرجل العادى ، ولا جدال ! ..

السلوك الذى يصدر عن الموقف ، ويعمل بوحيه ويتبع المتابعة بالاتباع . .

وإذا نحن عرضنا لصور التصرف « الشعبى » فى كافة مراحل الزمن ، ومختلف المواطن ، إزاء الأحداث والأزمات التى تعترض مجرى التاريخ ، لما وجدناها إلا أشبه شىء بالتقليد الغريزى لسلوك القادة ، وذوى الرأى ، الذين اجتبتهم شعوبهم ، ووضعتهم على قمة المسئولية ، لا لمجرد إيمانها بقدرتهم ، بل لحاجتها الطبيعية إلى من يسير أمامها ويهديها الطريق . فللأزمات والمحن نواقيس تحتشد الجماعات البشرية — نفسانيا — على جرسها المنذر ، وتتكون بنية متماسكة ، كأنها النهر الدافق ، القطرة الأولى فى مقدمته هى التى تقود انطلاقه ! . .

على هذا النحو صحت الأمة الإسلامية فى تلك الفترة ونواقيس الخطر المتمثل فى حركات الانتكاس والتمرد تملأ بجرسها الأسماع . وبطبيعة الجماعات البشرية تجمعت نفسانيا ، ثم تجمعت عضويا ، كبنية النهر الدافق ، وراء الإمام وهو يمضى فى مقدمتها إلى مكامن الخطر لقصف عناصره التى تهدد وحدة البلاد .

ولم يكن الخطر ، فى شتى صوره إذ ذاك ، إلا فروعا عدة لشجرة واحدة هى الثأر لعثمان . فكذلك كانت الدعوة العائشية ، فى نسختها « المدنية » المنادية بالإصلاح ، وفى نسختها « العسكرية » التى زحفت على البصرة ، وترجمت إصلاحها إلى دمار وأشلاء ! . . وكذلك كان التمرد الأموى ، منذ بدأ « مساومة » تاجر ماكر ، حتى شب « سلطانا » لولى دم المظلوم ! . . وكذلك كان شعار خربتا

وهى تماوت — أول الأمر — كالثعالب ، ثم تنتفض من بعد لالتهام الفريسة !

فإن يعجب امرؤ من الناس لسلوك قيس إزاء الخطر الذى تنطوى عليه حركات الانتكاس فلا لوم عليه إذ يراه لا يصدر فى سلوكه عندئذ عن دهاء داهية ، ولا عن تبعة حاكم ، ولا عن حنكة سياسى ، ولا عن انفعال رجل عادى من عرض الجمهور ! . .

إن الأفق حوله فوق الدولة الجديدة ليظلم . وإن سحائب الأحداث لتزحف من كل ناحية . وإن النفوس لتنفعل وتشتعل . وإن الجماعات لتحتشد على رنة النذير . ولكنه ، مع هذا ، يظل بمعزل ، داخل قوقعته الفكرية . . حتى النكسة المصرية التى عايشته وهى على قيد خطاه ، لم تكد تلقى من اهتمامه ، فيما تحدث عواقبها ، ما هى جديرة به ، وما هو مفترض فيه . .

لقد كانت لقيس — على أهون الفروض ، ومن أيسر السبل — أسوة حسنة فى الإمام لو أنه شاء أن يجد ، فى موطن لا بديل فيه للجد ، ويستقبل الأمور بالاكتراث الذى يقدم الحسم على ما عداه . فالإمام قضى برأيه فى ادعاء القصاص ، بما لا سبيل بعده لإعمال فكر ولا اجتهاد . وقوله حين سمع بالدعوة العائشية ، وما حركت ، وأوشكت أن تذهب إليه ، تدينها كفتنة لا بد للناس من وأدها قبل أن تستفحل ، ومن قمعها إذا ما شاء مروجوها أن يطلقوا لها العنان . وما نحسب عامل مصر قد غاب عنه أن أمير المؤمنين أخذه الغضب أى مأخذ ، عندما تناثرت الشائعات عن مخرج عائشة وحزبها من مكة بحجة الإصلاح ، وقال : « لو فعلوا لانقطع نظام المسلمين » .

هذه أسوة الرأى لكل من اشتبهت عليه الآراء وشاء الوصول من أقصر طريق بغير حاجة إلى عناء التعمق والاستقراء . . وهذا هو الرأى من لسان الرجل الذى تمكنه طبيعة وضعه على قمة السلطة من الإحاطة بكل ما يجرى تحته على أديم دولته ، وبكل ما قد يجد من احتمالات ، لأنه ينظر إلى الظروف والمواقع ، وإلى العلل والنتائج ، نظرة شمول وعموم ، لا نظرة اجتزاء عليها رغبة عارضة أو تحبسها حدود إقليم . . وهو أيضا رأى « المسئول الأول » الذى يرسم سياسة الدولة ، وتحتم قواعد الولاء للنظام أن يلتزم بها المواطنون فضلا عن الولاة . .

فإذا انتهج الإمام أسلوب المقاومة والردع حيال حزب القصاص من أصحاب الجمل ، وقعد قيس عن اتباع نفس الأسلوب بإقليمه ، فإنه إذن خالف أصول الالتزام وأخل بمفهوم الولاء السياسى للإمام . وإذا اعتل له بظروف وضع خارجة مصر وإيمانه بأن كفه عنهم أجدى على أمير المؤمنين ، وأولى بتجنيبه شر اندلاع فتنتهم النائمة وهو آنذاك مشغول بفتنة الجمل فى البصرة ، فإن دحرة الحزب بهذه البلدة ، ودخول فلوله فى سلطان الدولة — أو نهاية المغلول بانتهاء العلة ! — كانت أدعى إلى استغلال ذلك النصر بإخضاع بقية الحزب فى مصر ، واستخلاصها صافية الولاء للإمام . . وإذا قيل ، مع هذا ، إنه خشى منهم قوة تنقض عليه أمنه ، وتهدد الوضع العام ، فإن قوتهم الذاتية ، التى لم تستطع مواجهته فى بدء عهده وهو أعزل ، وأنصارها خارج البلاد فى تلك الآونة أعزة ، خليقة بأن تصبح أخشى له ، وأهون عليه بعد الهزيمة المنكرة التى مزقت جيش عائشة ، وقضت على من فيه من رءوس الدعاة للقصاص ، وزعماء الانتكاس .

شجرة الثأر قد اجتز — فى الجمل — فرعها البصرى ، وغدت دانية أقرب دنو من شفرات النفوس الكفيلة بتقويضها ، جذعا وفرعا ، لو اجتمع الجهد إلى الجهد وتضافرت عليها الضربات . . لكن قيسا لم يعمل فأسه . . لأمر ما حملها معطلة بيمينه ، يلوح بها من بعيد ، مكتفيا عن الجهد بالتهديد ! .. لأمر ما لم ينتفع بأسوة الرأى التى أفصحت عن خطر دعوة القود المنطلقة من أفواه المبطلين نشرا للموت باسم الحياة ، وطلبا للدنيا باسم الدين ! . . لأمر ما لم ينتفع بأسوة السلوك التى ضربها له الإمام ، ولم يلتزم خطوط سياسته العامة التى رسمها نهجا للمواطنين وخطة للولاة والحكام . .

وما يتبدى هنا من مخالفة الرجل فى هذا المقام ، لا يقتصر على مجافاة العرف والأصول ، بل يباين أيضا المنطق السوى ، ومقتضيات الظروف الماثلة ، وطبيعة البشر الجانحة دائما بهم إلى التطلع للأفضل ، وتغزية المزيد بمزيد .. فلا مراء قط فى أن القوى الخارجة على الإمام ، كانت تصدر جميعها ، فى قولها وفعلها ، عن واقع واحد هو سخط إمرته ، وتعمل جميعها ، بكافة وسائلها ، لهدف واحد هو

ابتزاز السلطان . وهى بهذا أشبه بجيش ، إن لم يكن موحد القيادة ، فإنه موحد المبدأ ، موحد الغاية ، موحد الأسلوب ، يتهيأ للزحف على سلطة الدولة فى ثلاثة ميادين . بل لكأنه ـ بلغة الجيوش والحروب ـ قلب وجناحان : الشام القلب ، والبصرة جناح ، وخربتا جناح . . فإذا أسفرت أول حركة مضادة تشنها الدولة عن إخضاع بعض أولئك الخارجين على سلطانها ، فإن « منطق » الأمور يقضى بعاجلة بقيــة عناصر الشغب والعداء بما يكرهها على الإذعان والولاء . . وإذا ضربت البصرة ، وهى أحــد جناحى جيش العصاة ، فإن ضرب خربتا بعدها ، وهى ثانيهما ، ضرورة « حربية » كفيلة بأن تكشف القلب وتنتهى بالجيش كله إلى البوار . . وإذا حيز النصر فى موقع ، فإن إتباعه على الأثر بنصر آخر ، هو من شيمة الطبائع « البشرية » المجبولة على إشباع غريزة التفوق والظهور . .

مقدمات تقع فى حيز السمع والبصر وتنطق بما كان ، ونتائج تقع فى حيز المضاهاة والقياس وتعلق ما يجب أن يكون ، ليس من بينها جميعا — سببا ونتيجة — مايحتاج إلى إعمان فكر ولا جهد اجتهاد . . حوادث واقعة ، ووقائع ماثلة ، وحقائق مشهودة ، تكشف العلة ، وترسم الوسيلة ، وتحدد العلاج ، حين تحاول استنباءها نكاد نسمع لسان حالها يتساءل : كيف غاب مشهدها عن عينى قيس ؟ . . كيف خفى جرسها عن أذنيه ؟ . . كيف أفلتت تترى وتزأر تحت حسه وإدراكه دون أن يبذل فى تطويعها وتطويرها لصالح دولته — وفى نطاق المرسوم والمعلوم — شيئا من مكر الداهية الأريب ، أو حنكة السياسى الماهر ، أو دربة المحارب المتمرس الذين كأنهم الرجل جميعا فى آن ؟ . .

ثم ندع ما وجب أن يكون إلى ما كان فى الإمكان ، فنرجع إلى العهد الذى عاهد عليه خارجة خربتا وعاهدته هى عليه . . لقد كف عنها ولا يكرهها على البيعة ، وكفت عنه لا تناوئه ولا تشغب عليه أمره حتى يتبين الناس . . فإذا لم يكن فى رجوع البصرة — بعد الجمل — عن الخلاف ، ودخول أعوان عائشة وطلحة والزبير فى طاعة الإمام ، بيان كاف يؤكد أبلغ تأكيد اتساع من التأييد الشعبى للنظام الجديد ، فأى بيان بعده ينتظر قيس ليطالب خارجة مصر بامتثال

هذا الاتجاه العام ، وفاء بعهدهم ، وترجمة له من لفظ جامد إلى واقع ملموس ؟

أغضى إذن قيس عن الأخذ بما وجب أن يكون . . وأغضى كذلك عن اتباع ما كان فى الإمكان ، فإذا هو ، فى كلا حالى سلوكه ، قد عزل نفسه عن الأحداث الجارية من حوله حين لا مناص عن مشاركته فى هذه الأحداث . . وفصل مصر عن الدولة وإنها — بكيانها الإقليمى — لإحدى ولايات تؤلف ، مجتمعة ، وحدة الأديم ، وبمشاركتها الوجدانية تكتمل الوحدة القومية ، وبإسهامها السلوكى فى الأحوال العامة ، تتم وحدة السياسة . . . وإذا كان لنا أن نعرض بشىء للأثر النفسى الذى تركه موقفه هذا فى أبناء إقليمه : الموالين والخارجين على السواء ، فإنه إذن تقاص ظل هيبته كحاكم فى نظرة كلا الطائفتين من مواطنيه . . . أم لا ، فكيف عسى يراه أعوانه ، والقدرة عندئذ حاضرة بيمينه ، والفرصة قد سمت إليه ، ثم لا يقدم على جمع كلمة الإقليم كأنه ضالع مع العصاة ؟ . . وكيف تراه الطائفة المحتجرة وإنهم ليرجعون فى الظرف القائم ، بطبيعة الحال ، أنه حاملهم — طوعا أو كرها — على الوفاء بعهدهم له ، أو التزام رأى الجماعة بعد أن وضحت دواعى الالتزام ، فإذا هو لا يبادر إلى إنفاذ ما يرجحون ، كأنما يقصر عنه باعه لأنه يخشاهم ويحسب حسابهم حيث لا موجب لخشية ولا حساب ؟ . .

إغضاء يختلط على المرء تبين حقيقته . .

يشابه التهاون ، ويماثل الاستخذاء حين تتوفر القدرة ، وتتهيأ الفرص لعمل سلمى أو حربى ، يروع الخارجة ، تمكينا لسلطة الدولة ، وتحقيقا لوحدة الولاء . .

ويدانى الميل إلى جانب العصاة ، كما يضارع تشجيع العصيان وإغراء المحكوم بالحاكم ، فى رقعة إقليمية محدودة ، وعلى امتداد أديم الدولة سواء بسواء . .

وعقبة الأمر فى الحالين غير مأمونة مع توقع أضعف النتائج وأهون الاحتمالات ، لأنها عندئذ هوان السلطة ، وزوال الهيبة ، وانفراط عقد النظام فى دولة تتحطم فيها مقومات الطاعة والولاء عند رعاياها ، وحقوق القيادة والولاية فى أيدى الحكام . .

لـكنها أخطر وأشد وخامة ، بلا جدال ، حين تجمع الدلالات على أن أثر هذا الإغضاء ، بما يضم من تهاون ، لا يقتصر على الانتقاص من هيبة الدولة ، ولا على إغراء عناصر الشغب والمروق بها وبمن يمثلون سيادتها ، وإنما يمتد إلى النيل من «عمل عام» يرى لدعم سلطتها ، وضمان وحدتها ، وقمع عصابات الخروج والتمرد التى ما فتئت تصطنع من الذرائع ، وتستحدث من الأساليب ، ما يؤدى بالحـكم القائم إلى الانهيار . .

فلا مراء فى أنه كان ثمة « عمل عام » يرمى إلى توطيد السلطة ، أخذت تلتئم جزئياته ، وتنسق أساليبه ، وتتفق غاياته حتى ليبدو كأنه « خطة » موضوعة ، واضحة المعالم ، محددة الاتجاهات .. وماظهر خلال هذه الفترة من قرائن ، وأذيع من رسائل وأنباء ، يوشك أن يقطع بأن شيئاً على هذه الشاكلة هو الذى كان يحرك الأحداث — أو أريد له أن يحركها — فى البصرة ومصر والشام ، بلوغا إلى غاية موحدة ، ووصولا إلى هدف مرسوم . . ولعل من ملامح تلك الخطة اهتمام الدولة بتوجيه قواتها المحاربة لضرب مراكز التمرد ، مركزاً بعد آخر ، فى مواقيت قصد — فى حدود الزمن والمسافة — أن تتلاحق لـكيلا تدع فرصة لالتقاط الأنفاس أو تفسح سبيلا لمركز منها لتعزيز سواه حتى لا يفسد هذا التعزيز على « العمل العام » تقديره ، ويؤثر فى النتيجة النهائية للقتال ، ثم فى الخاتمة المقدرة للنزاع . . ولعل أيضا من ملامحها أن يعلن الإمام ، فى ربيع الأول ، سيره إلى معاوية ، ليشغله بالإعداء لحماية الشام ، ويحبسه وجنوده مرابطين فيها ، أو على مشارفها ، خشية هذا الغزو المرتقب ، بينما ينفلت هو بأغلب جيش المسلمين إلى البصرة ، ليقضى على من غزوها من العصاة . . ولعل منها ما بدا من تباين الروايات عن موعد التقاء جند على بجند معاوية فى شمال الأرض السورية ، ومناوشاتهم هناك على الماء ، بعضها يحدده فى ربيع الآخر ، وبعضها يحدده فى ذى القعدة وإن انتفى هذا التباين حين نرجح أن الامام قد سرح بعض فصائله إلى تلك الحدود الشمالية ليشغل بها عاهل الشام فى نفس الوقت الذى اتجه فيه بقواته الرئيسية لخوض معركة الجمل . . ولعل منها إلحاحه المتوالى على قيس — فى جمادى الآخرة ورجب وشعبان ، على الأرجح — أن يمضى إلى من قبله من خارجة خربتا فيطهر منهم مصر ، أو يستفيئهم للطاعة ، إذ هم فى حقيقة الأمر من أنصار

معاوية أو بمألوف العبارة التقليدية «طابورخامس» وفرقة غير رسمية من جيوشه يدخرها لوقت موقوت . . ولعل منها تريث على عن محاربة الشام ، وتراسله ومعاوية ربيع الآخر والجماديين ، فى بعض الروايات ، وتحمله اتهام أصحابه له بخشية اللقاء لأنه كان عندئذ ، فيما بدا ، يعلى تقيس فى الفرصة كما يعلى أصاحب الشام فى الرجوع عن غيه ، والدخول فى إجماع المسلمين . . ولعل منها ما كان ذائعا فى تلك الآونة بين حزب معاوية أن يقبل على عليه بجيش من أهل العراق ، ويقبل عليه قيس بجيش من أهل مصر ، فيقع بينهما ، وتطحنه الرحى وتقضى عليه . . .

هذه كلها ملامح ، إن لم تصور لنا خطة موضوعة ، فإنها توشك أن تشير إلى ما يقرب من مفهوم الخطط الحربية ، وما تتضمن من إعداد وحشد ، وتستند إليه من توقيت وتمويه ، وتتطلب من تنسيق العمل وتضافر الجهود فى مختلف الجبهات . فإذا غم على قيس أن له فيها دورا ، فليس لاحيه بالملوم ! . وإذا ثبت أنه دعى لدور معلوم ، ثم لم يلب الدعاء ... ى أن تختلط فى موقفه الآراء ! . .

ولقد كان له حقا دور ، ما نظن لو أنه أداه فى أوانه ، إلا مجنبا الدولة والشعب والإسلام ذلك المصير الحزين الذى انتهى إليه عهد الإمام . وسلوكه عندئذ لا يحتمل التبرير ، أى تبرير ! . . كما أن لومه عليه يؤخذ بالقول الفصل ولا يحمل على الترجيح والتقدير ! . . وكيف لا وقد سطر بيمينه كتابا إلى الإمام يرفض أمره حين استحثه على قتال تلك العصابة المعادية بمصر ، ويقول فيه :

« ... ... إنهم وجوه أهل مصر ، وأشرافهم ، وأن الحفاظ منهم . وقد رضوا منى أن أؤمن سربهم ، وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم . وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، ولست مكايدهم بأمر أهون على وعليك من الذى أفعل بهم ! . . . . . فذرنى فأنا أعلم بما أدارى منهم . . . » .

أمان ما بعده أمان ، وإن قيل مكايدة ! . .

وتهاون ما بعده تهاون ، وإن قيل دهاء ! . .

٤

جاوز الاعتداد العناد !

أبى قيس بن سعد أن يرضخ لرأى على ، ويعمل به . . ثم اندفع — عن غضب — يرى فى إلحاحه عليه بلزومه ، نوعا من التشكك والاتهام لا يحمد معه بقاؤه على عمله إلا إذا رضى كريم لنفسه أن يدع ذكره لقى فى يدى شائعات مسعورة تنعم بالولوغ فيه ! . .

وما كان قيس غير كريم . ولا كان بالذى يسعه أن يصبر على سبة تنال من قدره ، عن جور أو عن ريبة . .

بميزان كبريائه وزن الأمر لا بميزان المراجعة والترجيح بين رأى ورأى ، وفكرة وفكرة ، فى إطار من ظروف وأوضاع قد تهبط بكفة ، وتعلو بالأخرى فيتبين المرء قدر الموزون محسوبا — على التحقيق بالحساب الدقيق . .

إنه ليزن بميزان الانفعال . . يحس بالثقة بينه وبين الإمام تتهاوى وتميد كأرض رخوة يعابثها زلزال ! . . تغيم وتظلم كأفق تلاحقت عليه كسف السحب السحماء ذات أمسية غائرة الأنجم ! . . تتقاص وتذوب كظل راحت تلتهمه وقدة الظهيرة . . . !

ولم يكن مسرفا فى إحساسه وهو يعتزم أن يهجر مصر إلى حيث ينأى بنفسه بعيدا عن الشبهة . . فالهمس فى هذه الفترة الأخيرة من عهده لا يكف عنه . واللغط يتناثر حوله ويعلق بثوبه . والأصابع لا تنى تشير إليه ، بالإيماء أو بالادعاء ! . .

هنا ، فى هذه الأرض التى سعى فيها سعيه ليسكن ثائرات الخصام ويوقظ بارقات السلام . . هناك ، فى قلب الدولة التى أخلص لها ، ولأميرها الولاء ، عملا ورأيا ونصيحة . . بعيدا ، فى مواقع عدوه الذين حيرهم بهدوئه وأكدهم بدهائه . . .

فى مصر ، والعراق ، والشام . . فى الحجاز أيضا . . فى كل مكان على الرقعة الإسلامية ، إلى هذه وتلك من مصر ، وغير هذا وذاك من إقليم ، تحركت عليه الشبهات ، وتداولته الريب والظنون . . . حتى بعد أن نفض يده من عمله ،

وأوى إلى ملاذ يلعق فيه جرح كرامته ، وينشد بعض راحة البال ، لم يعدم عبارة لوم ، أو نظرة زراية ، أو بسمة شماتة وسخرية تحرك عليه آلامة ، وتجزيه عن وفائه أسوأ الجزاء . . .

بملاذه فى المدينة ، جرحته ألسنة ، واقتحمته أعين ، وتناولته ألفاظ شوارد رعناء بالوعيد . . مروان بن الحكم صوره على حافة هاوية من الضياع والأسر ثم خايله بالصورة . . والأسود بن أبى البخترى هول له فى مصير تحمله إليه راحلة تشق الفيافى إلى الشام . . وحسان بن ثابت أثاره نظرة جوفاء من ثقبى عينيه اللتين مات فيهما الحس ، وغاض اللمح ، وانطفأ البريق حتى غدنا حفرتين من رماد ، ثم راح يلوك فى فمه لسانا كالثعبان ، فى طرفه المندلع سم ، ولحركته الأفعوانية فحيح ! . .

ولم يأبه الرجل للتهديد ، ولا خشى شيئا من تنكيل معد ، وعذاب حاضر أو موعود . إنما آذاه أن يشمت فيه ذلك الشاعر الضرير ، ابن قومه ورفيقه القديم ، الذى طالما — فى مدى الإسلام الأولى — قد جلى الكرب ، بنظيمه الأنور عن وجه رسول الله ، وقمأ عاديات الكفر والظلام ، فإذا هو اليوم أعنف ما يكون حقدا ، وأشد ضغينة على ابن عم رسول الله والذين تابعوه من رواد الإيمان ، وأحنى قلبا ولسانا على عدوهم من المتخافين وبقية الأحزاب الذين أكرهوا — بآخرة — على الدخول فى الدين . .

وألقى بسمعه ، فى تصبر ، إلى حديث حسان ، فإذا الشماتة تدفق من فيه كأنما راح يلفظ قلبه الأسود مع لعابه الكريه :

« نزعك على بن أبى طالب ، وقد قتلت عثمان . . فبقى عليك الإثم ، ولم يحسن لك الشكر ! . . »

وبدا كمن يحسن الرثاء لحال صديق مظلوم ، وإن كان قد استذله حقا شيطانه ، تلك اللحظة ، كما استذله يوم أزرى بعائشة ، وولغ فى حديث الإفك السموم مع الوالغين من رءوس المنافقين ! . .

وثار قيس بالشاعر الظنين :

« يا أعمى القلب والبصر ! . . والله لولا أن ألقى بين رهطى ورهطك حربا ، لضربت عنقك ! . . » ؛

وطرده من مجلسه . .

لكن لات حين رجعة إلى ما كان . ولا عن عزم أبرمه وقضى به ، بنفسه ، على نفسه ، وعلى مصر ، وعلى الدولة كلها بالمصير الذى كان يخشاه . وهل عزله على ، أو هو الذى شاء هذا العزل ، وجرى فيه ، حتى استوفاه ؟ . .

بل قد أعجلته كبرياؤه . . مالت به عن الطريق الذى كان أولى به سلوكه ، وأجدى على الناس والبلاد فى فترة حازبة تتطلب اجتماع الجهود ، واصطناع الصبر ، ومعالجة الأمور بروية تزن مختلف الاحتمالات بميزان المراجعة والترجيح لا بميزان الانفعال . . .

لكنه شاء أن يحتكم إلى ظنه ولا يحتكم لعقله ، فرأى فيما ارتآه الإمام تهمة تنتقص من ولائه ، وتحط من كرامته ولم ير فيه ضرورة حتمها تطور الظروف ، واقتضاها منطق السياسة فى تلك المرحلة إزاء معتزلة مصر وإزاء غيرهم من المتمردين والعصاة على امتداد أديم الدولة الاسلامية ، وأينما كان وكر للتمرد وبؤرة للعصيان . . وإذا كان اقتناع قيس عندئذ بسياسة المهادنة هو الذى دفعه إلى الإصرار عليها ورفض القتال ، فإن غضبته لمبدئه هذا ليست هى التى حملته على اعتزال منصبه ابتعادا بنفسه عن المشاركة فى حكم يتناول الأمور بغير الأسلوب الذى يرتضى هو تحمل تبعة الأخذ به إذ يأمن مغبته ، ويضمن نتيجته ، ويوقن بنفعه وجدواه . . لا عن تمسك بمبدئه قد استقال ، ولا عن تملك من التبعة اعتزل ، ما دام قد عاود الالتحاق بالإمام بعد قليل وراح يسهم فى تنفيذ سياسة الردع التى أباها من قبل . إنما الأدنى إلى الصواب أن يكون ما حمله على الاعتزال هو خشيته أن يقترن بقاؤه على عمله بالريبة فيه ، لأنه عندئذ البقاء الذى يؤمن العدو ويحميه ! . .

بهذا الشعور ، فيما نحسب ، كتب إلى أمير المؤمنين يرفض أمره له بالقتال ، ويقول :

« . . إن كنت تتهمنى فاعزلنى عن عملك . . وابعث إليه غيرى . . »

ولم تكن للإمام حيلة تجاه العناد ، فأبرم العزل وإنه — كما نرى — لأكره شىء على نفسه ، لأنه يعرف ولاء قيس ، ويؤمن إيمانا عميقا بإخلاصه وإنه

حالفته فى هذا ظنون بعض خاصته ومشيريه . . فما نظن قرار العزل جاء عن ريبة فى نفس على ، ولا استند إلى شبهة ظاهرة أو خفية قدر استناده إلى مقتضيات المرحلة ، وتطورات الظروف .. ولعل كلمة عبدالله بن جعفر ، قبيل هذا القرار ، تغنينا عن كل تعليق . .

قال عبد الله ، وهو ينقد الإمام مسلك قيس تجاه معتزلة إقليمه ، وإصراره على سياسته السليمة . .

« يا أمير المؤمنين .. إنك إن أطمته فى تركهم واعتزالهم ، استشرى الأمر ، وتفاقمت الفتنة ، وقعد عن بيعتك كثير ممن تريده على الدخول فيها ... ... » .

وتحاول طائفة هنا أن ينسبوا تنصيب محمد بن أبي بكر خلفا لقيس على مصر ، لمحبة على له إذ هو ربيبه ، ولهوى أخيه لأمه — عبد الله بن جعفر — فيه ، ثم يجعلوا من هذه القرينة وحدها أساس توليته . .

ومع أننا لا ننكر هذه العاطفة ولا نردها ، فإن منطق الواقع يأبى الإباء كله أن يراها فيصل الاختيار والأخبار تنبئنا من قبل أن محمدا أوشك أن يصبح عاملا لمصر من قبل عثمان ، لا بهوى على وذويه بطبيعة الحال ، بل برغبة أهل مصر أنفسهم ، الذين أقبلت وفودهم عندئذ إلى المدينة ، تطالب الخليفة الراحل بعزل ابن أبي سرح ، وإقامة وال غيره يرضاه الناس . .

وأبرم العهد فى غرة رمضان لمحمد ، فدخل مصر بسياسة تغاير ما اختطه قيس ، وتنبع من دواعى الظروف التى تحيط بالأمة كلها ، وتدعو إلى مخاشنة جماعات الانقسام ، حماية لوحدة الشعب ، واستعادة لهيبة الدولة . . .

ولم يكن الفتى بالصلف المستعلى ، فلم يخدش شعور سلفه ، ولا جبهه بما يؤذيه ، وإن كانت الكياسة فى مثل هذا المقام تعجز عن تذويب غضاضة الواقع المرير .. لكنه أخذ نفسه بالتلطف مع الرجل ، إكبارا لشأنه ، وتهوينا عليه ، حتى إذا بدا الغضب من قيس ، وصاح بالعامل الجديد :

« ما بال أمير المؤمنين ؟ . . ما غيره ؟ . أدخل أحد بينى وبينه ؟ . . »

كان الجواب الرقيق :

« لا . . وهذا السلطان سلطانك . . »

ولم يكن أيضا بالذى يزهى بصولة النفوذ ، وأبهة المنصب ، فأعاد ثانية إلى الأذهان تواضع أبى بكر حين تولى إمرة المؤمنين ، وكاد يكرر على منبر مصر ، وهو يتقدم إلى أهلها بخطة عمله ، نفس ما قاله أبوه على منبر الرسول . . .

كان من بين ما خطب به الناس ، بعد أن تلا عليهم كتاب تنصيبه :

« . . . إن أمير المؤمنين ولانى أموركم ، وعهد إلى بما سمعتم . . ولن آلوكم خيرا ما استطعت . . فإن يكن ما ترون من آثارى وأعمالى طاعة لله وتقوى ، فاحمدوا الله على ما كان من ذلك ، فإنه هو الهادى إليه . وإن رأيتم منى عملا بغير الحق ، فارفعوه إلى وعاتبونى فيه ، فإنى بذلك أسعد ، وأنتم به جديرون . . وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته . . . »

وما نريد أن نفيض فيما عهد إليه أمير المؤمنين سياسة جديدة يسوس بها أبناء إقليمه ، فذلك يدلنا عليه استعماله خلفاً لسلف ، ويغنينا فيه هذا التغيير عن أى تغيير . . . ولكننا نجتزىء من عهد على — وما جرى جريه من كتبه — بما يرسم النهج ، ويحدد المعالم ، ثم لا يفتح السبيل للتأويل . . .

أمره :

« . . أن يدعو من قبله إلى الطاعة والجماعة ، فإن لهم فى ذلك من العاقبة وعظم المثوبة ما لا يقدر قدره ، ولا يعرف كنهه . . . . »

وقال له :

« . . قد وليتك أعظم أجنادى : أهل مصر ، ووليتك ما وليتك من أمر الناس ، فأنت محقوق أن تخاف فيه على نفسك ، وتحذر فيه على دينك ، ولو كان ساعة من نهار . . . . . . »

وخاطب المصريين :

« . . فإن استطعتم يا أهل مصر أن تصدق أقوالكم أفعالكم ، وأن يتوافق سركم وعلانيتكم ، ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم ، فافعلوا . . . . . . »

وحذرهم الفرقة ودعاتها ، وفرق الحق من الباطل فرقاً لا يفسح لهم فى التردد عن اختيار الطريق القويم :

« . . وإياكم ودعوة الكذاب ابن هند ! . . واعلموا أنه لا سوى إمام الهدى

وإمام الردى ، ورضى النبي وعدو النبي . . ولقد سمعت رسول الله يقول : إنى لا أخاف على أمتى مؤمنا ولا مشركا . أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأما المشرك فيخزيه الله بشركه ، ولكنى أخاف عليهم كل منافق اللسان ، يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تنكرون ... ... »

ولقد كان لهذا التغيير أثره فى نفوس معتزلة خربتا المتشيعين لعثمان ، الملتحقين — ولاء وخطة — بابن أبى سفيان ، فإذا هم عندئذ يديرون أمرهم بينهم خوفا وهيبة من هذا العامل الجديد الذى يوشك أن يخرق عليهم ما كان سلفه قد أفاء من طمأنينة ، وأن يعجلهم عما بيتوا من تربص وتدبر ولما يظاهرهم بعد الزمن والحليف . . فالأمور الآن تنطلق على غير ما يشتهون ، الزمن يتسرب من بين أصابعهم ليعزز من شأن على والذين معه لأن ساعاته تدعم طاعته ، وتضيف إلى نصره . . والحليف يضطرب ويكاد ينشغل بنفسه ، وفى قلب أرضه ، عما عداها من دفيق وإقليم . . ها هى الثورة العائشية همدت ، وذهبت — إلا أصداء — مع الريح ! . . ها هو الجمل وحزبه التهمتهم المصارع ! . . ها هم أولاء فلوله يؤوبون — كرها أو طوعا — إلى رحاب الولاء ! . . هاهى البصرة خرجت من نطاق الارتداد وغدت عونا على العصاة من بعد عصيان ! . . ها هو معاوية وحدة يواجه الطوفان ! . .

شهراً قضوه فى وجل . صحوهم قلق ، ونومهم أرق ، والوساوس والظنون تتبدل عليهم وتتقلب وهى تخايلهم بصور شتى من المصير ليس أشقها على نفوسهم بغتة تصبحهم أو تمسيهم لأن غضاضة الهوان أشد مرارة من مذاق الحتوف . . ولقد لاح لهم ، مع كل صباح ، وهم فى حيرة الترقب ، كأنما العامل الجديد أراد أن يستأخر بحملته ، يومه ذاك ، إلى غد بعده أفسح للإعداد ، وأنسب للتدمير . . أو كأنما شاء أن يعلى لقلقهم فى الاستفحال ليحطم العزم ويوهن الروح . . أو كأنما قد أحب أن يظنوا ركونه لرأى قيس وقد نصحه ، غب مقدمه ، باتباع نفس أسلوبه فى « المكايدة » حتى إذا أمنوا أخذهم على غرة . .

كيفما كان ما خامر منهم الأخلاد فإن محمدا لم يفاجئهم بما صورته الوساوس ، وشردت إليه الأحداس . إنما آثر الإعذار فكتب إليهم يخيرهم بين أمرين :

أن يدخلوا فى الطاعة ويلتحقوا بجماعة المسلمين ، أو يخرجوا من مصر إلى حيثما يبتغون . وفى نطاق هذين المرضين تتحقق لهم السلامة ويتق وإياهم القتال .

ولا حاجة بنا لتحليل فكرة الخروج لأن ارتحالهم عن مصر إلى غيرها من الأقاليم — كبقائهم بها وهم على خلاف — لايفل من حدهم ، ولا يمنع خطرهم إن لم يكن سبيلا إلى نشر دعوتهم المناهضة أينما يحلون وإعداء سواهم من المواطنين بعدوى العصيان ... فالفكرة يعوزها التبرير . والحكمة منها خافية ، إلا أن يكون ابن أبى بكر قد أراد بعرضه أن يظهر فى عين الرأى العام كمن لايدخر وسعا فى التساهل إلى أبعد الحدود وهو موثق أنه العرض المعصى على القبول لان الارتحال مستحيل . . .

على أى حال أبت الخارجة أن تستجيب . وكمألوف عهدها لم تجاهر برفض سافر ، وإنما تسترت بالمطل ، وكرت مرة أخرى إلى التمحل بنفس عذرها القديم ، الذى قدمته من قبل لسلفه ، فكان ردها عليه :

« دعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس ... » .

وما نظنهم كانوا يجهلون ما بلغه أمر الناس حينذاك . فها هى الدوله كلها — إلا الشام — قد أطاعت الإمام . وها هو الشعب كله — إلا معاوية والذين ظاهروه — قد فاء للوحدة ، تقديما لصالح الجماعة الإسلامية على صوالح نفر موغرة صدورهم بالحسد ، مشغوفة نفوسهم بالسلطان . .

لكنها الذريعة الوحيدة التى يرونها قد تكف عنهم نقمة الخصم وتستصفى رضاء الخليف . وهى ترجىء ساعة الفصل ما كانت فرصة لإرجاء . وهى تفسح أمامهم المجال للتدبر ، وربما للإعداد . وهى تداور الظروف ، وتتربص بالزمن وتفتح ثغرة للأمل فى جدار المجهول ! .

مخاتلة لم يكن واليهم يتبين أنها لا تقوده إلا لسراب حتى كان موكب الحوادث قد حث خطاه — سريعة واسعة — إلى القصد المقدور ! . . فشوال تقلصت عن الأرض ظلاله . . وذو القعدة تسربت أيامه ولياليه ، كقطر الندى فى الرمل الظمآن ، لتغيض فى جوف الذكرى وتؤلف قطعة بالية من الأمس الدابر . . والعام كله انفض سامره وإن الأخبار لتتوالى دراكا على مصر ، فى صحبة الزمن

السيار ، من وادى دجله ، وسهل الفرات ، وبادية الجزيرة ، ومشارف الشام كأنها تطير بجناح ! . .

على أديم هذه المناطق انطلقت أقدام الكتائب تخط أسطرا بعد أسطر فى كتاب الصراع يوشك أن ينقضى بها أجله ثم يطبق الغلاف ! خلال شهرين أو ثلاثة كان مد ، وكان جزر ، وكان تذاؤب وتراوح بين أقاصى النصر وأقاصى الهزيمه انتقل بكلا فريق القوى المتصارعة من وهدة القاع إلى ذروة القمة ، ومن ذروة القمة إلى وهدة القاع ! وبتواتر المراحل فى حلبة اللقاء الدموى ، وفى ساحة الحرب النفسية والنزاع الفكرى ، غدت وجوه خارجة خربتا — وهم فى وجارهم يلهثون لاستنشاق الأنباء — أشبه بمرايا مصقوله ، يتعاقب على صفحاتها المجلوة سير الأحداث صورا شتى من الأحاسيس والمشاعر : هلما وخشية .. قلقا وحيرة .. تطلعا وأمنية . . أمنا وثقة . . زهوا وخيلاء ! . .

ولا عجب ! . . .

فالكتاب قد أطبق غلافه . .

الستار أسدل . .

صفين قد انكشف غطاؤها عن محنة « الحكومة » . . خفت بها صليل السلاح . ذاب وقع الأقدام والحوافر . انطفأت النار ثم تطاير الرماد وتبدد الدخان . . أفما يحق إذن للثعالب المذعورة أن تغادر وجارها مستفزة ، وتبرز الظفر والناب ؟ .

٥

مرة أخرى يثور التساؤل وهذا محمد بن أبى بكر قد سار على خطة سلفه ، ولم يلاق العثمانية بمصر بغير ما لاقاهم به قيس كأنما جاء لإقرار ذلك الوضع القديم لا لتبديله ، ولتأجيل حسم موقفهم المشبوه لا لتعجيله والفراغ منه . .

فما فعل العامل الجديد ؟ . . كيف كان مسلكه إزاءهم طوال تلك الفترة التى قضاها بين ظهرانيهم ، منذ مبعثه إلى تنمرهم ، وقد استطالت إلى نحو نصف عام ؟ . .

لأية غاية عساه وجه حشدها الزمنى وسخر ما احتوى من شهور وشهور ؟ . .

ماذا دعاه للتريث ، وما حكمة انتظاره ؟ . .

ويحار المرء وهو يتنقل بين مختلف الاحتمالات . .

لكأنما الزمن فر خلسة من وراء ظهر العامل وهو مشغول عنه ، وعن العصبة المعادية ، بغير ما كان ينبغى أن يكون همه العاجل ، وشغله الشاغل ! . . بانتظار سانحة ؟ . . بالموازنة بين ما هو خطأ وما هو صواب ؟ . . بمبادلة المنحرفين رسولا برسول ، ورسالة برسالة ؟ . . بجس نبضهم ، وسبر غورهم إلى مهوى القاع ؟ . . بالطمع فى استفاءتهم إلى الحق بعد باطل ، وإلى الطاعة بعد عصيان ، وإنه لحقيق بأن يعلم أنه طامع فى محال ؟ . .

كيفما كانت التعلات والأسباب ، فإنه لم يبادر القوم بما نهض فيه ، واختير له خلفاً يقاوم ويقاتل لسلف يداور ويطاول . . لم يعاجلهم بالخطوة المقررة التى حان أن ينفض عنها غبار الانتظار . . بالضربة الحاسمة القاصمة ، الكفيلة بأن تكفيه ، وتكفى أمير المؤمنين ، والبلاد شر ما يبيتون . .

إلى صفر ظل يحاول ، فيما يلوح ، معالجة خطر الخارجة بالبعوث والرسل لا بالخيل والرجل ، وبالكلام لا بالحسام . . أملى لنفسه فى المحاورة فأملى لهم فى المداورة والإرجاء . حتى إذا استطاعت خدعة المصاحف أن تهدر نتيجة صفين ، وعاد الإمام إلى العراق بحسرة نصر مسلوب فى هيئة مغلوب خاسر ، وقفل معاوية إلى الشام بفرحة هزيمة متقاة فى هيئة منتصر ظافر ، نفضت خربتا تناومها ، وكشفت — مطئنة — عن وجهها القبيح ! . .

لا شىء الآن يمنع عثمانية مصر عن مجاهرته بالعداء . . أملها أخيرا أضاء . يومها الذى واعدها به القدر قد أقبل . خصمها الذى كانت تخشاه وتتقى سطواته قد تهاوى إلا جمعا هو التجمع العشوائى الأجوف ، وفرقا هى التفرق المغلول . ورأيا هو الرياء والتنازع . . . ووليها الذى تساندہ وتستصفى وده قد أفلح كيده ، واشتد أيده ، وثبت أمره ، وعز قدره ، وتهيأت له مقومات الإمرة والسلطان إلا لقبا يوشك الزمن أن يحيك طيلسانه ! . .

حتى هنا ، فى مصر ، لا يعدم المرء أن يجد أناسا — خارج وجار خربتا نفسه — قد أثرت فيهم النتيجة المفاجئة ، وعبثت بعيولهم المعروفة . . بعضهم ملكته الحسرة . بعضهم أكلته الحيرة . بعضهم اشتبه عليه الطريق . بعضهم

اهتزت ثقته فى قدرة حزبه على توجيه الأمور إلى حيث ينبغى أن تسير . بعضهم آثر السلامة فنأى عن النزاع . بعضهم وهنت روحه فمال مع الريح ! . .

كثيرون لا ريب من أهل الإقليم فتر عزمهم — فى تلك الآونة — عن نصرة وال توحى ظواهر الحال وبوارد الظروف أنه لا يقف على أرض صلبة . فنجم معاوية فى ارتفاع . عاقبة صفين له . رجاله الآن أنوى روحا وأصلب عزيمة . رأيه بينهم هو الرأى وكلمته الكلمة . والأحاديث تملأ الأسماع ، فى كل مكان ، بأنهم نصبوه للإمرة العامة ، وراحوا يدعونه بلقب الخلافة .. وضوء على يخبو . الخلاف المشبوب بين أصحابه ليس بخرافة . تصدع صفوفه يشيع فى الهواء . تفرق جنده عليه يشى بزوال هيبته ، وتهافت كلمته، إن لم يكن هو النذير بتفكك سلطانه ، وتصدع دولته ثم انزلاقها فى القريب إلى حضيض الانهيار . .

ولا حيلة لابن أبى بكر الآن فيما وقع وكان ! . . فقد ترك الفرصة تتسرب كالماء من بين أصابعه والقوة عندئذ معه ، والدنيا مقبلة عليه . ونهض — كأنما من غفوة ! — ليرى تلك الفرصة المولية أبعد من متناول بصره ومرمى ظنه وتفكيره ، والشقة إليها تعيي عزمه وتدرته ، وتتقطع عليها أنفاسه ! . .

أما معاوية فقد سبق الزمن إلى ما أراد ، فأحسن التقدير كما أحسن الإعداد . ولئن بدا كالمشغول بنفسه وإقليمه إلى تلك اللحظة ، فإن واقع الأمر ينطق بأن مصر لم تغب قط عن فكره حتى وهو فى غمرة محن أوشكت أن عزق أحلامه وتقضى عليه .. فكم حاول أن يستميل قيسا إلى جانبه ويدخله فى حظيرة ولائه . وكم جهد قدس — حين تأبى عليه وأعضلت به استمالته — ليبعده عن عمله خلاصا منه ، وطمعا فى بديل أهون شأنا عليه إن لم يكن أسلس قيادا له . وكم تغذت — فيما جرى على لسانه — عناصر الفتنة بخربتا بعدد من عنده من العثمانية يشد أزرها ، ويقوى عزمها ، ويشمرها دائما — وهى برباطها البعيد عنه — أنها محور اهتمامه وليست معزولة عن الحليف والنصير . بل قد بلغ من طول ذراعه أن تمتد من دمشق إلى مدينة القلزم — باب مصر الشرقى — فتبلغ عامل خراجها ، وتحتضنه ، وتحيله عميلا خائنا يغتال الأشتر درءاً لخطره ، وهو فى طريقه إلى مصر إذ ذاك ليخلف ابن أبى بكر ، ويصلح ما فسد من أمرها على الإمام .

ما غفل معاوية ولا تهاون ، وإنما فكر ودبر . عمل وثابر على العمل حتى أثمر . تآمر واحتال وكاد . ألقى بثقله فى الميزان . سبق الحوادث ولم يترك الأمر فى يد الصدف والاحتمالات ... وعندما وسعه أن يقدم ، طفر ووثب بالخطا الواسعة ، وبادر على الفور يستعدى أعوانه المتنمين فى رباطهم من سطوة واليهم الشاب ، ويحركهم لإشعال النار ...

وكتب عندئذ إلى زعيمى الخارجة المصرية : مسلمة بن مخلد الأنصارى ومعاوية بن حديج السكندى ، يقول :

« .. طلبتما بدم الخليفة المظلوم ، وغضبتما لله ..... فأبشروا برضوان الله ، وعاجل نصرة أولياء الله ، والمواساة لكما فى دار الدنيا وسلطاننا حتى ينتهى ذلك إلى ما يرضيكما ، ويؤدى به حقكما . . . غالزما أمركما ، وجاهدا عدوكما ، وادعوا المدبرين منكما إلى هداكما ، فكأن الجيش قد أظل عليكما ، فاندفع كل ما تكرهان ، ودام كل ما تهويان ... »

للنهى لا لدنياه ولا ماله نهضا فى الأمر ، بل ابتغاء ثواب الآخرة ومرضاة الله ، فيما يقولان ! ...

رداً عليه :

« ... نحن بهذه الأرض قد نفينا من كان بها من أهل البغى ، وأنهضنا من كان بها من أهل القسط والعدل . وقد ذكرت مؤازرتك فى سطانك وذات يدك ، وبالله إنه لامن أجل مال نهضنا ، ولا إياه أردنا . . فإن الدنيا والآخرة لله ... عجل لنا بخيلك ورجلك ، فإن عدونا قد كان علينا جريئا وكنا فيهم قليلا ، وقد أصبحوا لنا هائبين ، وأصبحنا لهم منابذين ...... » .

ولقد لهث محمد وانبهر نفسه وهو يحاول أن يستعيد من الزمن ماولى منه ، ويفرض على المعتزلة هيبة قد ظنوها بدء الأمر بعض قدرته ، ثم أيقنوا الآن أنها مجرد طلاء ! .. فقد أبوا أن يصغوا له . لا حاجة بهم إلى مهادنته . أولى بهم منابذته ، وأجدى عليهم مجاهرته بالعداء . فالقوة لهم . والزمن معهم . والمبادرة فى أيديهم ، وليس حائل يحول بينهم وبين اختيار المكان والزمان : أرض الموقعة وساعة اللقاء ! . .

وكانوا من وضعهم على ثقة ، ومن تقديرهم على صواب . فسرعان ما طحنوا بقواتهم بعوثه التى أوفدها لتحملهم — طوعا أو كرها — على الخضوع . . بعثة بعد بعثة مزقوا ، وفرقة بعد فرقة ألحقوا بها البوار . قضوا على ابن جهمان البلدى ، وعلى يزيد بن الحارث الكندى ، وعلى ابن مضاهم الكلبي ومن سار معهم فى بعثات الدعوة أو حملات التأديب التى أريد بها تسكين الفتنة أو ردع العصيان : . وعندما نشر هذا الاحتكاك عن العامل طلاءه ، واستيقنوا منه غير ظنهم به ، خرج معاوية بن حديج يطلب بدم عثمان ، ويدعو أهل مصر جهرة إلى مناصرته والالتفاف حوله انتقاما للخليفة القتيل . . .

ولم يكن محمد كما حب أصحابه . ولا كان أيضا كما حسب هو نفسه يوم انطلق إلى مصر ، وصدره تملؤه الثقة فى غد مظفر . فالأيام تخلف ظنه والأمور تجرى على غير تقديره ، إذ هو الذى شاء أن يتركها بغير عنان فراحت تضرب كالعشواء إلى حيث تشاء . . لا إلى حيث يشاء . . ونيته تفوق همته . . ومن يستشرف اليوم قدرة الشاب يكاد يجده أوهن قدما أن يسير على شوك ، وأقصر قامة أن ترتفع هامته فلا يغمرها موج الأحداث . . .

وكذلك اجترأت عليه الخارجة . فهان أمره . واختل الأمن . واضطرب الناس . وفسد الإقليم . . وعندما علم على أن باع الفتى يقصر عن معالجة الداء ، لم يعد له معدى عن التغيير . فآخر الدواء الكى . وآخر العلاج البتر ، كما تقول الأمثال ! . .

وعلى الأثر كتب إلى الأشتر :

« . . إنك ممن استظهر به على إقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأثيم ، وأسد الثغر المخوف . وقد كنت وليت محمد بن أبى بكر مصر ، فخرجت عليه خوارج ، وهو غلام حدث السن ، ليس بذى تجربة للحروب . . فأقدم على . . . . »

واستخلفه على مصر :

« . . ليس لها غيرك ، فاخرج إليها رحمك الله . . ولا أوصيك ، اكتفاء برأيك . . »

وكتب معه إلى الناس :

« من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من بمصر من المسلمين الذين غضبوا لله إذ عصى فى الأرض . . . .

أما بعد :

فإنى قد بعثت إليكم عبدا من عباد الله ، لا ينام أيام الخوف ، ولا ينكل من الأعداء حذار الدوائر . . . . أضر على الفجار من حريق النار . . . . فاسمعوا له وأطيعوا أمره ، فإنه سيف من سيوف الله ، لا نابى الضريبة ، ولا كليل الحد . . . . فإن أمركم أن تنفروا فانفروا . وإن أمركم أن تحجموا فأحجموا ، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمرى . وقد آثرتكم به على نفسى ، نصيحة لكم ، وشدة شكيمة على عدوكم . .

والسلام . »

وانطلق الأشتر من الكوفة ، بعد مقدمه عليها من نصيبين ، يطبع معالم قدميه على أديم الصحراء ، فى طريقه إلى مصر ، ليلتحق فيها بعمله الجديد . لكن الرمل لم يحفظ سره ، ولا امتص من وقع خطاه ! . . بل كان يسرى ولسراه دوى مجلجل فى الآفاق كأنما الأرض تحت ضربات نعلية تنتفض بزلزلة عنيفة انبعث عنها انفجار بركان ! . .

بمصر اضطراب تحت ابن أبى بكر مقعده ، ورج ذاك الاضطراب نفسه فإذا هى تشرق بغصة ألم كالعلقم وهى تستشعر هوانا مدمرا من خلال التغيير . . .

وبدمشق ترنحت أريكة عاهل الشام ، وكاد يميد معها أمله المتوثب إلى سلطان شامل ، وملك مؤثل عريض . .

وبخربتا زاغت الأعين ، وجفت الحلوق ، ووجفت القلوب بين علو وهبوط ، تارة تضرب إلى الحناجر ، وتارة تغوص فى الأقدام ! . .

فأما محمد فقد ركن فى هذا الجزاء الذى أصابه إلى ما يركن إليه أى امرىء على مثاله يحس أن طالعه تعثر بخاصمه زمنه ، وتنكرت له الأيام ثم لا يستطيع أن يدافع عن نفسه بما قد يعطف الناس عليه ما دامت عواقب الأمور قد خانته ، وجرت ريحها على خلاف مشتهاه . . فإذا هو لا يملك إلا أن يحرك قلمه بكتاب يخطه إلى الإمام ، ويبثه فيه ما يعانى من ألم ذلك الجرح الذى شقه فى فؤادة قرار عزله عن الإقليم . . .

وأما معاوية فقد اكتسى ثوب المستيئس ، الذى تقطعت به الحيل وسدت السبل فى وجهه ، فلا محيص له عن التزام أسلوب العاجز الذى لايذكر ربه إلا إبان الملمات . . فإذا هو يقول لأهل الشام :

« إن عليا قد وجه الأشتر إلى مصر ، فادعوا الله أن يكفيكموه . . »

فكان يدعو ، ويدعون معه ، على الأشتر ، بعد كل صلاة . .

وأما خربتا فخبيسة هم لا تبارحه . لكأنه سياج من حديد أصم قد أطبق عليها من كل ناحية . وكأنما تدور فيه حيرى ، تذرع فراغه بغير تدم ، وتتحسس جدرانه بغير أصبع ، بحثا فيه عن ثغرة إلى الطمأنينة . . لكنها لاتنى تدور وتدور حتى تدوخ ولا خمر ، وتلهث ولا جهد ، وهى تحاول أن تفر — بالحدس والتصور — من ذلك القلق الذى يطاردها شبحه ولا يهدأ عنها لحظة من نهار أو ليل ، فى يقظة الحواس والجوارح كما فى خدر الأحلام . .

غير أن المكتسى ثياب المستيئس لم يكن ممن يلزمون أسلوب العاجز فيركن إلى الاستسلام . . معاوية لم يدع مكره . لم يذر حيله وأحاديثه . لم يضع سلاح كيده . . ولئن تظاهر أمام أبناء إقليمه بأنه لا يلوذ من المحنة النازلة إلا بالله ، ورفع كفيه ضراعة إليه سبحانه أن يكفيه خطر الأشتر ، فلقد تضرع ودعا مخاتلة وتمويها ، وهو موقن اليقين كله — قبل الضراعة ودونها — أنه سيكفاه . . وما يضيره أن يغوى ، سرا صاحب الخراج فى القلزم ليغتال الأشتر ، فيبلغ هو أربه ، ثم يبدو فى أعين أهل الشام صاحب الدعوة الملباة ، الأثير على الله ؟ . .

وكذلك مضى وفعلته . .

بعث إلى صاحب الخراج :

« . . إن الأشتر قد ولى مصر . . فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجا مابقيت ، وما بقيت . . »

وترك — كدأبه — الذهب يتولى عنه تسيير الأحداث ! . .

٦

هزت الفرحة قلب معاوية وجوارحه ، وشاع لونها المشرق فى محياه ، حين بلغ ذلك الرسول الوافد عليه من حدود مصر خاتمة المطاف فى حديثه . . والتفت دونه إلى من حوله من بطانته وصحبه يزف النبأ السار :

« إن لله جنوداً من العسل » ! . . »

وبدا كأنما قسوة الشماتة تزاحم فى عبارته سكينة الارتياح ، وهو يتنفس الزهو والخيلاء . .

ولم لا ، وقد ذهب الأشتر ولن يعود ؟ . . أفل من أفق حياته . وقد بضجع تحت أطباق الرمل ، على باب مصر ، لا يقظة منه حتى النشور ! . .

إن للذهب لفتنة . وإن للجشع لسطوة . وإن للكيد لبطشا يهون أمامه بطش السلاح . . .

ما كاد الأشتر يبلغ القلزم ، ويحط فيها رحاله استرواحا من وعثاء سفره الشاق من العراق ، وتهيئوا لمرحلته المقبلة إلى الفسطاط ، حتى أسرع إليه عامل الخراج يستقبله كأحسن ما يكون الاستقبال . .

وسخا بقراه :

« أيها الأمير . . هذا منزل فيه طعام وعلف ، وأنا رجل من أهل الخراج . فأقم واسترح . . »

ولم تراود الأشتر فى الرجل شبهة . . وأنى له ، وحديثه ولاء ، وسيماه صفاء ، وكل حركة بدرت منه تضيف إلى الثقة فيه . إنه ليفنى لضيفه . يتبعه كظله . يسير بين يديه ككلاب القطيع . يتمسح به كهرة . يلبى ولا نداء ، ويعمل ولا مطلب . يطيعه كبنانه ، وينطق كلسانه . . .

وكان حديثه كله حمداً لعلى ، وثناء على بنى هاشم ، وذكرا لأمجاد أنصارهم وشيعتهم الذين أخذوا أنفسهم بإقامة الدين صرحا شامخا بعد أن كاد أعداؤهم يقوضون بنيانه . .

ثم أفرغت خيانته شربة عسل مزجها بسم زعاف . . .

هنا تنفس معاوية زهوه ! . .

وعلى منبر دمشق ، وقف يعلن النبأ للناس ، مدلا بكيده ، مبطنا جديته بما يوحى إليهم أنه صاحب الدعوة الملباة ، الأثير على الله :

« ... ألا ترون كيف استجيب لكم ؟ . . لقد كان لعلى بن أبى طالب يدان يمينان : عمار بن ياسر ومالك الأشتر ، فقطعت إحداهما يوم صفين ، وقد قطعت الأخرى اليوم ... ... » .

وفى الجانب الآخر ، بالكوفة ، عصف الأسى بعلى ، فسال قلبه فى عبارته وعبراته :

« ... اللهم إنى أحتسبه عندك ، فإن موته من مصائب الدهر ... ومع أننا قد وطنا أنفسنا على أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله ، فإنها من أعظم المصيبات ... .. » .

وظل طويلا يتلهف ويتأسف حتى ظن أصحابه أنه المصاب به دونهم . فراجعوه وقد هده الحزن :

« بعض هذا يا أمير المؤمنين ! .. »

فقال :

« وهل موجود كمالك ؟ . . أما والله ليهدن موته عالما ، وليفرحن عالما . على مثل مالك فلتبك البواكى ! .. » .

لكن الحياة لا تتوقف فالزمن يسير . والليالى تلدن الأحداث . والكفاح المر من أجل تسويد المبادىء — كريمة أو خسيسة — يجرف الناس فى تياره . .

وكأن للظروف عندئذ ضغطا شديدا على الامام لامعدى له حياله من الإفادة — وسعه — من الموقف الراهن حتى يتيسر له تناوله بتغيير أمثل أسلوبا ، وأسلم نتيجة . فعزم أصحابه خور . وحثه إياهم على المبادرة لايصادف أذنا سميعة . وجنده ، بعد النهر ، ركنوا للدعة . وإذا كان القدر قد شاء لمصر أن تدفع بنفسها عن نفسها أى عدوان أموى ، من الداخل أو الخارج ، فإن كبرياء عاملها الجريحة لابد أن تبرأ من جرحها الغائر ، فيستطيع ابن أبى بكر لقاء أعدائه وهو

أوثق ثقة فى نفسه ، وأقوى إحساسا بقدرته على الاضطلاع بما أوشك أن ينزع منه . .

لذلك كتب أمير المؤمنين إليه :

« .. بلغنى موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك ، ولم أفعل ذلك استبطاء لك عن الجهاد .. ولو نزعت ما حوت يداك من سلطانك ، لوليتك ما هو أيسر مؤنة عليك ، وأعجب ولاية لك ... ... فاصمد لعدوك ، وشمر للحرب . وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر من ذكر الله والاستعانة به يكفيك ماهمك ، ويعينك على ماولاك ... ... » .

وكأنما أفاء الكتاب على الفتى طمأنينة ردت عليه بعض ثقته فى اقتداره على مواجهة الأزمة التى نصبها له الخارجون ، فبعث إلى الإمام ردا يقول فيه :

« ... ... وليس أحد من الناس أشد على عدو أمير المؤمنين ، ولا أراف وأرق لوليه منى . وقد خرجت فعسكرت ، وأمنت الناس إلا من نصب لنا حربا ، وأظهر خلافا ... ... »

لكن هذه الثقة التى تجددت فى قلب الشاب ، وهم عودها الطرى أن يفرع ، ما لبثت الحوادث — فى حلفها الدنس مع الترهيب — أن راحت تعصف بها ، لتقصفها ، ثم تدفنها عنبتها الندى وهى بعد خضراء ! . .

ما بلغ محمد هذا المبلغ من الاعتداد الذى استشمره ، ومن الإعداد الذى كتب عنه ، وما وصل جوابه مقصده ، حتى كان معاوية قد أبرم رأيه ، فلبى مطلب زعيمى الخارجة المصرية : مسلمة بن مخلد ، ومعاوية بن حديج ، وأمر عمرو بن العاص بتجهيز جيش لغزو مصر ، وسلخها من إمرة الإمام . . .

حسم ليس يفسده تردد ، ومعاجلة لا تبارى فحسب انطلاق الحوادث بل برق الظنون فى الأخلاد . .

ومن مشارف تلال فلسطين ،وربا الصحراء الشرقية ، يوشك المرء أن يطل على القوة المغيرة ، المقبلة عبر تيه الرمال ، فلا يراها تكاد تغنى عن نفسها شيئا ، فى حساب الفتوح والغزوات ، أمام شعب ثرى بأهله ، قوى بماله ، قد عرف له ولاؤه الخالص لعلى ، وسخطه مناوئيه وشدته عليهم من بضعة شهور . فما كان

جيش ابن العاص غير آلاف قليلة قد تصلح طليعة ثم تقصر عن التوغل والانتشار . وما كان يسعه ، بالقياس العددى ، إلا أن يشن غارة على الأطراف يركن بعدها إلى الارتداد . وما كان مزودا من العتاد بما هو أقطع حدا أو أوفر عددا من عتاد المدافعين . . .

غير أن الجيوش — فيما سمعنا على لسان الحروب — لا تقاس عادة بكثرة الأفراد أو بوفرة العتاد ، وإنما بالخطة المحكمة ، وحنكة القيادة ، وحسن التنظيم والنصر دائما ، بعد هذا ، رهن العزم والثبات والإصرار . . .

وندع الخطة والحنكة والتنظيم إلى ساعة اللقاء ، ثم نستقصى عوامل النصر فإذا مصر منها خواء ! . . بها وهى العزم أنذاك ، وتهاوى الثبات ، وذاب الإصرار . . . قبل أن يطأ عمرو منها موضعا على أديمها الأصفر أو رقعتها الخضراء كانت رحى الزمن قد طحنتها ، فى مدى قصير ، وذرتها مع الريح . . النكسات التى توالت على دولة على ، حطمتها روحا ومادة ، شعبا وحكومة ، فكرة تجمع عزائم المواطنين وغاية تشمل حماسة الجند . . .

ولا جدال .

فصدمة الخديعة فى صفين أعقبت الحسرة . ونتيجة التحكيم الضال أثارت التنازع . و « خلافة » معاوية المدعاة غرست فى النفوس بذور الاستسلام . وثورة خارجة النهر على الإمام شجت وحدة صفوفه ، وأغرت به صنائع التمرد والعصيان . وتخاذل العراق عن العودة إلى غزو الشام أخلى لماهلها الميدان . . .

وعرف معاوية طريقه . .

حرك بمصر أعوانه ، ومنى مخالفيه ما فى يديه من عروض وسلطان . ألهب بها دعوة الثأر للخليفة القتيل . حالف تنمر خربتا وخور أهل الإقليم . أدار ظهره ، وهو آمن ، للعراق الوسنان ، ثم سير ابن العاص . .

وكما أحكم الرجل التدبير أحكم التوقيت للغزوة المنتظرة . ثم انثنى يبعث الترهيب طليعة لجنوده المغيرة يخايل الوالى الشاب بمصير قاتم ، ليهدم ما أبقت المحن له من خرائب اعتداده ! . .

من الشام أرسل يذكره عدوته ، قبل نحو عامين ، على عثمان يوم الدار ،

ويحمله دمه ، وينذره نقمة عاجلة تنزل به وقد انفض عنه أهل إقليمه ، ثم لا يبخل عليه ، مع هذا كله — تفضلا وأريحية — بفرصة للنجاة ! . .

كتب إليه :

« . . . ان سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة فى الدنيا ، والتبعة الموبقة فى الآخرة وما نعلم أحدا كان أعظم على عثمان بغيا منك . . . ثم تظن أنى نائم عنك ؟ . . فتتأمر على بلاد أنت فيها جارى ، وجل أهلها أنصارى ، يرون رأيى ويستصرخونى عليك ؟ . . . قد بعثت إليك قوما حناقا عليك ، يستسقون دمك !.. ويتقربون إلى الله بجهادك ، وقد أعطوا الله عهدا ليمثلن بك !.. فلو لم يكن منهم إليك ما عدا قتلك ما حذرتك ولا أنذرتك ... ولكنى أكره أن أمثل بقرشى . . . فتنح وانج بنفسك . . . »

ومن مشارف مصر ، أرسل إليه عمرو :

« . . . . تنح عنى بدمك يا ابن أبى بكر ، فأنى أكره أن يصيبك منى ظفر ! . . . إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ، ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك ، فهم مسلموك إذا التقت حلقتا البطان . . . . فاخرج منها ، فإنى لك من الناصحين . . . »

فلو تأثر محمد — وهو يعيش محنته ومحنة أميره تلك — بهذا التهويل ، لقل أن يجد من يلومه . . فالجو حوله خانق عبوس . وشعاع الرجاء ابتلعته الظلمة ، والعبارات فى كتابها غريبة قاطعة حادة كأنها الحراب ، والمصير الذى يطل عليه من سطورها ، ومن ثنايا الظروف المحيطة . مثلة أو فرار !.. ولم لا يتأثر ونقمة عثمان تطارده فوق صهوة جواد ، وعلى شفرة سيف ، وبكمين مجهول ؟.. والجنود المغيرة الظمآنة ، تشم ريحه ، وتتعقبه ، لتروى عطشها من دمائه ؟ . وثعالب خربتا تخاتله لتنقض عليه فى لحظة غفلة ؟ . . وأهل مصر — إلا قلة — إذا ما خاصموه قتلوه ، وإذا ما سالموه أسلموه ؟ . .

قل من عسى قد يلوم الفتى لو تأثر والبلاد حوله غدت مثل غاب تعيث فيه الذئاب ! . . فلا مثابة لأمن . ولا رجاء فى أمل . ولكنه ، على ما يعانى ، يستنهض جأشه ليثبت معه فى وجه الإعصار الأهوج لعله يهدأ ، أو يميل عنه ، ثم يكتب إلى أمير المؤمنين :

« ... ... إن العاصى ابن العاص قد نزل أوانى مصر ، واجتمع إليه أهل البلد جلهم ممن كان يرى رأيهم . وقد جاء فى جيش لجب جرار . وقد رأيت ممن قبلى بعض الفشل ... فإن كان لك فى أرض مصر حاجة ، فأمدنى بالرجال والأموال . . »

وكانت للإمام فى مصر حاجة ، أى حاجة ، بلا مراء . . فما أن يصله كتاب محمد حتى يدعو الناس للتجهز ، والسير لمصر مددا ونجدة ، ثم يبادر فيثبت الفتى ويهون عليه حتى يفى له بما يريد . . .

يبعث إليه :

« ... ... لا تفشل وإن فشلوا . . حصن قريتك ، واضمم إليك شيعتك ، وأذك الحرس فى عسكرك . واندب إلى القدم كنانة بن بشر ، المعروف بالنصيحة والتجربه والبأس . . وأنا نادب إليك الناس على الصعب والذلول ... ... »

وتفعل الرسالة فعلها فى محمد فيستشعر شيئا من ثقة يدفعه إلى الرد على غريميه بما يبعد عنه مظنة الخضوع للتهديد . . .

يكتب لأحدهما :

« ... ... تأمرني بالتنحى عنك كأنك لى ناصح ، وتخوفنى بالحرب كأنك على شفيق ؟ . . أنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم ... وأن تولوا الدبر ... ... »

ويكتب للآخر :

« .. ... زعمت أنك ناصح لى ، وأقسم أنك عندى ظنين . . وزعمت أن أهل البلد رفضونى ، وندموا على اتباعى . . فأولئك حزبك وحزب الشيطان ... »

ويقوم فى الناس :

... ... يا معاشر المؤمنين . . إن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة ، ويفشون الضلالة قد نصبوا إليكم العداوة ، وساروا إليكم بالجنود ... فمن أراد الجنة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدهم فى الله .. انتدبوا ، رحمكم الله ، مع كنانة بن بشر ... ... »

أما دعوة الإمام فقد حصدت الهشيم !.. قبضت الريح !..: تبددت فى فراغ !..

يوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ، كان يستحث المسلمين عنده أن يخفوا لنصرة أخيهم بمصر ، وينهضوا لنجدته ، فيسخون عليه بالوعد كل السخاء ، ثم يبخلون بالوفاء !.. مرارا دعا ، ومرارا أمر ، فما أيقظتهم دعوة ، ولا حركهم أمر . كانوا عيونا تشخص ولا ترى . وآذانا تبلع ولا تسمع . وعقولا قدت من صخر .. حالهم الآن كحالهم عند رفع المصاحف ، وغب خدعة التحكيم ، ويوم التنادى للزحف الأكبر لغزو الشام لم يعودوا أولئك الفئة الصافية الأنفس ، المجلوة الأرواح ، التى يشوقها خوض الغمرات جهادا فى الله : نشرا للحق ، ودفعا للباطل ، وسحقا لأهل الضلال والطغيان ...

بل قد غدوا أشد جحودا وعصيانا له ، وغدا أشد بعدا عن مشاعرهم كأنه وإياهم على طرفى نقيض . فلم يغن عنه منطقه . ولا غيرتهم الكارثة التى أقبلت معالم خطرها ونذرها تترى عليهم من ساحة الوقعة المنتظرة فعمرو يتقدم . وقواته المغيرة تعز نفرا وعتادا بمن على رأيها من أهل الإقليم . وأنصار محمد بمصر ينتقص منهم التخاذل ، ويوهنهم — عددا وعزيمة — توالى الأيام وجبهة الدفاع تميد تحت أقدامهم وتشفى على الانهيار ..

ثم جاءت القارعة !..

إنه ليجتر ألمه ، ذات يوم ، فى صحبة يأسه ، فإذا رسولان يفدان عليه ، يسبقهما إليه نفس مبهور !.. من حدود مصر ، عبر الصحراء ، قطعا مراحل برت الأقدام . بالعين لهفة ، فى الحلق غصة ، على الملامح وجوم ..

وانتفض ووقدة الحر عندئذ لا تبعث رعدة ، بل تعين على هدوء الاسترخاء . ولكن البغتة وخزته . والنكبة التى أقبلا بنبئها كانت كلسع النار ..

وخرج فنادى فى الناس :

« الصلاة جامعة !.. الصلاة جامعة !.. »

ثم ارتقى المنبر عندما احتشدت الجموع ، تتدفق المرارة من فيه :

« ... هذا صريخ محمد بن أبى بكر ، وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار إليهم ابن النابغة عدو الله

ولقف نفسه هنيهة ، انبرى بعدها يقول :

« .. ... لا يكونن أهل الضلال . . أشد اجتماعا على باطلهم . . منكم على حقكم ... قد بدأوكم وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر ، عباد الله .. إن مصر أعظم من الشام ، وخير أهلا ، فلا تغلبوا على مصر إن بقاء مصر فى أيديكم عز لكم ، وكبت لعدوكم »

وتفرس فيهم مليا ، حتى إذا وجد منهم الإقبال بالسمع ، دعاهم إلى الإقبال على التجهيز ، وهو يرجو هذه المرة منهم أن يلبوا النداء :

« ... ... اخرجوا إلى الجرعة . . لتوافى هناك كلنا غدا ، إن شاء الله ... ... »

٧

هبط « الجرعة » على أول شعاع ! . .

بين قطر الندى العالق بجو الصباح بلغ وجهته . . سكون الوجود حوله يبث السكينة . خفة النسمة ترطب التوتر . نضرة الشروق تبعث التفاؤل . ومن خلال هذا الصفاء الوديع سرى إليه أثر من أمل ، يهس فى روعه ، أو يمسح على قلقه بيده الرحيمة . . .

* * *

عندما بدأ رحلته ، لمس السواد فى السكون والخاطر . . .

فى الكوفة ، حين مخرجه ، كان الظلام يطبق على الأرض بقتامه . على الطريق ، خارجها ، رافق الظل والوجوم والتوجس . فى منطلقه الطويل منها ، كان يمشى على شوك ذكرياته الحزينة . . .

كالضباب بدا الفضاء الفسيح على مدى رؤيته . الأرض والأفق كتلة من الفراغ . الدنيا محيط من التيه ماله ساحل . . لا معالم ولا حدود ، أينما سبحت عينه ، بل شهبة عميقة تذوب فيها المسافة . .

كالسر تجسد الصمت المخيم على الوجود . لا نأمة . لا همسة ولا حفيف .

لا رجع صدى من قريب ولا من بعيد . حتى خطاه الحثيثة بدت بلا وقع ، وكأنما يمتصها الرمل الصديان . . .

الغموض يغلف الخلق والأمر ، كما غلف أمسه ويومه ، والجمود يحكم الصوت والحركة ، كما حكم فكره وقدرته .

فلعلها صورة شعوره ، بريشة الطبيعة ، هذه اللوحة التى يرسمها الضياع والإبهام . . بكل يأسه ، بكل ضيقه ، بكل حيرته التى يبثها أمامه تردد صحابه . . .

ولعلها حياته ، فى مختتم عمره ، مثلت له وقد تقسمها فى الشهور الأخيرة المريرة ذلك التوجس فى نفسه ، والتهاون فى قلوب رجاله ، والحقد الأسود فى صدور شانئيه . . .

* * *

لكن الرقة الوديعة لونت الصورة . .

من جانب الأفق ، شق السواد المحيط ، سيف النهار . . فى الثرى المعتم ، راحت خطاه ، مع الفجر المسفر ، تغرس النور . . على لين النسمة ، ونضرة الشروق ، ورفق السكينة ، تفتح الأمل . . .

وبدت له الجرعة ، من بعيد ، كواحة . بعد طوال السرى ، فى وادى الظلمة لمعت كشعاع . ومن مشارفها أخذت ترحب به البكرة الوليدة . .

هو الآن ينساب كطيف . يترحل فى الزمن بأسرع من ترحله على المسافة . كل خطوة يخطوها ، كانت صفحة يطويها من سجل الغابر . كل نظرة يلقيها ، كانت تكشف بسمة على ثغره . فالأمل معه الظلمة خلفه ومن أمامه بدأت تقبل طلائع الضياء . .

وهان عندئذ أمسه . .

الهدوء فى صدره ، والرضا على جبينه . .

ولم يعد يحس ثقلا فى قلبه ، ولا تفترا فى أوصاله . لا عبسة فكر ولا تجهم خاطر . لا فتور ولا رهق من سرى أو سير . لا ضيق بوحشة لغياب رفيق . . والوقت أيضاً يمر به فى هوادة يخالسه ، فلا يستشعر بمروره وهو مشغول عنه برجائه . . .

ثم أقبل الدفء يتهادى على ضوء النهار الجديد . . .

رويداً رويداً راحت الشمس تنسج خيوطها لتكسو الأرجاء الأفق الباهت طلته الأشعة بلاء براق . الفراغ الممدود كالتيه ، فى غبش الليل ، انقشع غموضه وتخلقت له خطوط وحدود تحت أفياض النور . . هنا ظهرت وهدة ، وهنالك بدا كثيب . هنا بان قاع ، وهنالك يفاع . هنا وعى الرمل بعض الأثر ، وهنالك محته يد الريح . . البصر الآن يستطيع أن يحيط بالمعالم ، ويدركها ، ويترحل معها عبر الأبعاد . .

لكن السمع ظل محصوراً فى سياج محكم من السكون الكثيف . . المكان يبدو كلوحة مرسومة ، لها قسمات وملامح ، بها أشكال وألوان ، فيها ظلال وأضواء . المنظر ينطق ، أما الحركة فخرساء ! . .

حتى الهواء لم يعد له حسيس فالهدوء الذى غمر الوجود أعداه . وحر الصحراء خدره ولفه بالوسن . ورشاش الضباب ، السابح فى الجو ساعة البكرة ، همد سبحا وفنى فى أشعة الضحوة . والظلال أيضاً هواجع ، لا تتقلص ولا تطول ، لأنها تنعكس عن جمود ! . .

غير أن الرمال مالبثت أن وشت بوقع خافت كأنه الهمس فى أذن صماء ! . .
على مدى البصر اقتحم اللوحة ، عند حد الفضاء الفسيح ، هيكل قادم من صوب الكوفة ، لاح فى وهج الضوء المتألق ، كخيال . وقيد خطوة منه ، أو خطوات إلى الوراء ، ظهر آخر يسعى فى أثره كأنه ظله . ومن خلف هذا وذاك بدا ثالث ينساب كفورة غبار . .

ثم تتابعت ، مع الزمن الوانى ، ومن خلال غلالة الرهج الشفاف ، عدة أشباح . . .

بضعة خيالات . .

حفنة من رجال . . .

نفر تناثروا هنا وهناك ، على منبسط الرمل ، وفى سطعة الضحى ، كنفثات دخان . . كنقط شهباء . . كخروق فى ثوب الصحراء الأصفر ! . .

ولم يغيروا شيئا من رتابة الهدوء . ولا من سطوة الجمود المهيمن على

المكان . . كادوا — من قلة — لا يضيفون إلا فراغا إلى الفراغ ، وإلا عدما إلى همود الأرض الجرداء . .

وطاف بخلدهم ، وجمعهم يلتئم بجانب من المكان ، أنهم أعصى على التحيز وشغل المعسكر الشاغر ، وأهون من أن يحسبوا بالأرقام ! . . وبدوا فى عيون أنفسهم خطوطا من الظلال لاصفوف مقاتلة ولا شخوص رجال . . ثم خالوا — من هوانهم — ذلك القادم قبلهم على أول شعاع ، قد ملأ بسمته الفضاء الرحب ، وأوصد دونهم منافذ الحركة والتفكير ... فنظرته لوم . وإيماؤه استهانة وازدراء . وهيئته ، التى أحاطت بها هالة من ضوء الشمس ، ألقت بينه وبينهم برزخا من الهيبة ، يمنعهم الإقدام أو الاعتذار . .

غير أنهم ، حين حاولوا الدنو منه ، ساروا إليه كالمسحورين . . خطاهم واهنة لاتوقظ ضوضاء . أقدامهم ثقيلة كأنها تتحرك ولا انتقال . جسومهم خدرة كسائرة فى نوم . وعلى وجوههم الغبرة وجوم محا معالم الملامح فستر التعبير ، وجمد الأنفاس ...

وأخذتهم غشية من الشعور بالإثم وعيونهم تدور قلقة بين نفرهم المعدود ، ثم تتطلع نهمة إلى حدود الفضاء . لكن الفضاء زم شفتيه ، ولم يسعفهم بجواب . فما أسفر عن حركة ، ولا أطلع هيكل إنسان . .

وتصارع ، على ملامحهم الباهتة ، الهوان والندم . وتبلور فوق جباههم الخشنة عرق كالندى ، مادروا أقطرته الأشعة القائظة ، أم أفرزه الخزى المكنون . وآدهم من ذلك الركود الرتيب المريب أنهم لا يحسونه وإنما يتنفسونه ملء الرئات حتى لتشرق به الحلوق ويضغط على الصدور ويكتم الأنفاس ! . فلو خف عنهم ضغطه ؟ لو انجاب بعض ثقله ؟ لو قطع صاحبهم رتابته البغيضة ولو بغضبة جارحة ولوم مهين ...

لكن الإمام لم ينبس . وهل الموقف يدعو لحديث ؟ . . إنما الصمت أجدى عليه ، وأقسى عليهم . حسبه ما يرى . وحسبهم ما يحسون . فخزيهم عذاب ، ومشهدهم يغنى عن العتاب . . .

وعندما انتصف النهار ، وارتفعت الظهيرة ، وأخذت الشمس تلسع الوجود

بسياطٍ من نار ، مد إلى طرف الأفق سمعه وناظريه كأنما يحاول أن يستشفه سره . . مليا أرهف السمع . ومليا سدد النظر ، ولكنه لم يعد من رحلة الرؤية والإصغاء بجديد . لم يفز بغير الغموض . ولم يحظ بالرجاء الأخير . . لكأنما الأفق قد أغلق بباب ورتاج ، فلا وقع قدم ، ولا هيئة قادم . ولا ضبابة غبار . . .

وارتسمت على فمه بسمة ، وهو يسترد من الأفق بصره ويحول إليهم نظرة نافذة تخترق منهم الجلود والأخلاد . . من مرارة كانت البسمة . ومن كآبة كان الشعاع الذى أرسلته عيناه . فالأمل الذى أحياه فى قلبه صفاء الطبيعة ، ساعة البكرة ، قد محاه مشهدهم الآن كما يمحو الليل الأسحم آية النهار . والماضى المرير الذى ظن عند إشراقة الصبح النضرة ، أنه انطوى إلى غير رجوع ، قد ارتد أعتى وأعتم . والغد المأمول الظافر ، الذى خايلته به لحظة رجاء ، لم يكن سوى سراب . .

وعاد مقهورا لأمسه البغيض : لليأس والأسى والسأم . . وما قصاراه وهاهم أولاء ما زالوا على تراخيهم ، لا تنهضهم محنة ، ولا تهزهم جلجلة الأحداث ؟ . لكأنما آثروا الغفلة البليدة ! . لكأنما أنسوا للضيم ! . . لكأنما استمرأوا العدم فعاشوه فى الجمود لأنه راحة ودعة ، ونبوا بالحياة لأنها حركة وجهد وتغيير ! . .

ثم تحرك على طريق العودة . بلا كلمة مضى ، وتركهم خلفه غائصين من خزيهم فى الرمال . وما عساه يقول لطغمة مثلهم ، أرادوا للحياة ألا تسير ، وللواقع أن يظل بركة آسنة ، وللزمن أن يثبت فلا يطلع « غدا » وإن تبدل نهار بنهار ؟ . .

وأوى لداره لائذا بهمه . فى قلبه كآبة ، وفى عينه سهوم ، وفى فمه علقم . . . وكانت البقية الباقية من النهار أشد عليه من وصبه . جاثمة على صدره كجبل ، ثابتة كسد حجب المستقبل ، عالقة فى الجو كقطرات بخار فى يوم مرطوب . وما أبطأ الزمن على قلب مثقل يقيس الثوانى بخفقاته التى يخالها كفت عن الوجيب ! . .

أعوام عديدة من الأسى عاشها فى تلك الساعات الطويلة كالدهر ، الهامدة كالموت ، الجوفاء كالفراغ .. فما حدها بعد زمنى ، ولا هزتها حركة ، ولا شغلها وجود . هو نفسه كان يؤلف من كيانها قطعة من اليأس الصامت الذى يضيف إلى كتلتها السلبية رصيدا ضخما من الضياع ..

ولم يدر كيف أوفت ساعاتها على النهاية . ولكن عتمة الغسق آذنته بالتغيير . وضوضاء وقع وهمسات ، ردته ثانية من مجاهل سهومه ..

والتفت إلى الجمع الذى تحلق به ، يستشرف فيه وجود طائفة من الأشراف والسادة ، الذين لهم فى أقوامهم أقدار . ولم يبال بما حاولت أفواههم أن تلوكه كلفظة ولاء أو عبارة اعتذار . فلا ولاء من ناكث ، ولا اعتذار من مدمن عصيان .. إنما كان همه أن يدع ذلك المرجل الغالى فى صدره ، ينفس عن البخار المكتوم ..

ورفع إليهم عينا تلتهب بما فى قلبه من غيظ ، ألزمتهم نظراتها الملتهبة الإصغاء ، وهتف يخاطبهم فى هدوء مرير :

« الحمد لله .. الذى ابتلانى بكم ، أيها الفرقة التى لا تطيع إذا أمرتها ، ولا تجيب إذا دعوتها .. .. »

وتمهل على لهم فى الجواب ، ولكن حسرهم كم الأفواه .. وما عساهم يقولون وقد كان قصاراهم ، حين واعدوه الاجتماع فى الجرعة هذا الصباح فى جيش لجب يرد عادية معاوية عن مصر ، أن وافوه بمائة رجل هم كل الجيش الموعود ! ..

وصخب صوته لعله يهز بجرسه العنيف همتهم الراكدة ، ويرد من غفلتهم إلى تفهم حقيقة الأمور :

« أما دين يجمعكم ! .. ألا تغضبكم ! .. ألا تسمعون بعدوكم ينتقص بلادكم ، ويشن الغارة عليكم ! .. أو ليس عجبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام الظلمة فيتبعونه .. ثم أنا أدعوكم ، وأنتم أولو النهى وبقية الناس ، فتختلفون وتفترقون عنى ، وتعصوننى ، وتخالفون على ! .. »

وألجمهم منطقه . وحلق عليهم من الوجوم ما حسبوا معه من الأموات ،

كما ملكه من اليأس ما جعل الموت أهون عليه وأحب من حياة هم فيها عذابه الذى يتجدد فى كل لحظة على صحوات حواسه وتردد أنفاسه . . وهل أخفى عنهم شعوره وقد قرأوه فى محياه أكثر من مرة ، ثم جابههم به بالعبارة الصريحة ، وهو ينعى عليهم الهوان ؟ . .

بل قد خرقت أسماعهم كلماته ونفذت فيها كما ينفذ السهم فى الرمية إذ قال :

« . . لا أبا لغيركم ! . . ماذا تنتظرون بنصركم ، والجهاد على حقكم ؟ . . الموت خير من الذل فى هذه الدنيا لغير الحق . . والله إن جاءنى الموت — وليأتينى — لتجدنى لصحبتكم جد قال ! . . »

وأثار حديثه حمية بعضهم فدفعتهم نخوتهم إلى الانتصار له ، والإزراء بما أسرفوا من التراخى والتبوط ، فنهض منهم مالك بن كعب الأرحبي يقول :

« يا أمير المؤمنين ، اندب الناس معى ، فإنه لا عطر بعد عروس وإن الأجر لا يأتى إلا بالكره . . . »

ثم التفت إلى الجمع يحثهم :

« اتقوا الله ، وأجيبوا إمامكم ، وانصروا دعوته ، وقاتلوا عدوكم . . »

وانثنى بعد الإمام ، بلهجة الواثق الذى لا يستريب :

« . . إنا نسير إليهم ، يا أمير المؤمنين . . »

وكأنما شاء أن على لهم ، هذه المرة أيضاً ، فى مراجعة أنفسهم ، إعذارا وإبراء لذمته أمام الله ، فأمر سعداً مولاه أن ينادى فى الجمهور :

« . . ألا سيروا مع مالك بن كعب إلى مصر . . أيها الناس . . »

فهل يسيرون ؟ . .

الإمام
علي بن أبي طالب

الجزء السابع

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

الفصل الأول

١

الى المدى الذى تستطيعه خطا التغافل المتثاقلة ، مشى الدواء الذى استطب به ابن ابي بكر من محنة مصر على درب الوقت ، جنبا الى جنب ، مع غد كسبح تبنته الكوفة !..

محنة ممطوطة ، ودواء كأنه داء . وليل بلا صباح ..

ولم تكن الحاضرة الاسلامية ، حينذاك ، تشكو من عجز أو من قلة . فجمعها غفير ، وخيرها كثير .. ولكنها بدت كالمضيع في بيداء قد مسه جنون الظمأ ،فحار أين يتجه الى الماء . اذا لاحت لعينيه مظاهر الحياة في بقعة بين اثناء الرمل ، خايله بها شبح الهلاك وقد ظنها صورة موهتها يد السراب . واذا طالعه وهمه بخضرة نضرة ، ظنها واحة فيحاء فيها ما ينقع صداه . فهو بين الحقيقة التي تريبه ، والسراب الذى يستهويه ، لا يني يحرك الخطا على تردد ، يقدم ليحجم ، ويقبل لينكص ، ثم لا يجاوز آخر الأمر ، مهما جد في السعي واسرفت عليه قدماه بالطواف ، غير دائرة التيه !..

تلك آونة سيطر الضياع فيها على دولة الامام بما رحبت وبمن ضمت من جماهير كثيفة من سكانها في كل مكان .. في الكوفة والبصرة . في اليمن والحجاز . في مصر وفارس . في الثغور والأطراف . لا فرق في جموعهم بين عامة وسادة ، رعية وحكام ، همل وأشراف ..

أمة أخذتها غفوة فنام فيها الشعور وهمد التفكير .. لا مبالاة ولا اكتراث . تعيش واقعها الثقيل صاغرة كأنه قضاء نازل وقدر محتوم . وترنو الى الاحداث بعين مطبقة الجفون مسترخية الأهداب . وتجرفها الدنيا في تيارها الهادر الى غد تعلم حق العلم انه ظلم أو انه ظلام فلا تحاول أن تتهيأ للقائه الكريه المنتظر وفي يمينها سلاح او ذبالة مصباح !..

وياما كثر على السنتها الكلام !.. وياما توالت الوعود والعهود ! ولكنها ظلت دائما حريصة علي الإخلاد للواقع ، والالتصاق به ، كأنه

الحياة ولا حياة سواه .. تماما كالحالم يغزو أقطار الأرض ، ويثل عروشـــها ، ويطأ بقدميه المربدتين صوالجها وتيجانها وهو ملتحف بدفء الفراش !.. تماما كالثمل يستعلى على الناس ، ويستذلهم في رؤاه المخمورة ، وهو يتمرغ عند مواطئهم في الوحل والتراب !..

أيام طويلة تمضي والموقف هو الموقف ، والوضـــع هو الوضـــع بلا تغيير .. الوعود تترى ، ولـكنها دائما حبيسة قول معســـول . الأقدام تتحرك ولكنها دائما لا تسير . السلاح يجتمع ولكنه دائما في الأغمـــاد .. ومالك بن كعب من ورائهم يســـتحث التنفيذ فلا يظفر الا بالموعد الذى لا يحين ــ بكلمة « غدا » ، وغدا كما هو معلوم ، موعد يتجدد ، ويتأجل الى الأبد الآبد ، مع كل نهار !..

ولم يملك الإمام إلا الصبر ، أو هو لم يملك ســـوى القنـــوط . وما حيلته في هذا البلاء الداهم الذى يحييه في مجتمع لا يجمعه راى ، ولا تغضبه حمية ، ولا يحمســه دين ؟.. ما قصاراه والقوم يتشبثون بالدعة لانها تهبهم الحياة ، ويؤثرون العيش وان تلمسوه في كنف الخزى والذل والهوان ؟..

وكذلك انقضى الموعد المضروب على سيرهم لمصر مع مالك بن كعب لنجدة عاملها ، والانتصاف لاهلها وارضها من عدوان الشام . فمصر عندئذ تحفها المكاره ، وســـيرهم اليها يسلبهم الدعة ، والقتال عليهـــا ــ كأى قتال ــ هو في حسبان ضمائرهم الغافية وجه مكروه . ولو انك استبطنت دخائلهم اليوم ، لرايتهم يكرهونه ، ويقعدون عنه ، وان دوهموا في الكوفة بجيش صغير !..

شهر من الزمان فات على الوعد والاعداد عاشه ابن ابى بكر في جحيم الانتظار .. لا اثر لنجدة . لا ظل لمندوب . لا كلمة تقبل عليه من صوب الكوفة تبشره بجيش الانقاذ . انما الأنباء تأتيه سراعا بتقدم عمرو على أرض النيل باعداد من الجند لعل القلق في خياله ضاعفهم بضعة أضعاف . وبجموع من الثائرين عليه ، يلحقون بهم ، أو يزودونهم بالمؤن والسلاح ، ويبسطون امامهم ما جهلوا من فجاج ودروب في تيه الصحراء وعلى التربة الخضراء .. ومع ذلك فقد نثر الفتى ما بجعبته، ونشط ومن معه لساعة الفصل ، وان جهد وسعه ليستأخر بها حتى حين عسى الأيام أن تطلع عليه بأمله قبل أن تحين !.

كالبخيل الذى يمسك كفه ، وينفق بقدر مقدور لا يجاوز الكفاف ، أطلق الفتى جيشه للقاء المغيرين . لم يلقهم بكل حشده ، وان كان ذلك « الكل » لا يكاد يعنى شيئا في منطق الحروب ، ولا يكاد ايضا يغنى أمام قوة عـدوه التى بارحت الشـام لتعز عـدة ونفرا بالذين اسـتلحقت وآزروها من النـافرين والمنتقضين وثعالب خربتا التى ابرزت مخالبها وخرجت من أوجرتها مسفرة بعد طول انجحار ..

سرح محمـد بن أبى بكر الى جيش عمرو مقـدمته ، في الفين ، عليهم كنانة بن بشر ، كانما يرجو بهم أن يناوش القوم ويؤخر تقدمهم ما وسعه التأخير حتى يقدم عليه المدد الموعود . ولقد اصاب حين فعل ، لانه لاءم بين الأمل ، والقـدرة الممكنة ، وظرف اللقاء . ولقـد أصاب ايضا ، لان غريمه سلك حياله مسلك مخدوع فلم يرمه بكل قوته وهى عندئذ طوفان حرى بأن يغرق قوة الدفاع ، وينهى المعركة في سويعة ينفتح أمامه بعدها الطريق الى الفسطاط .. لكن ابن العاص ، فيما بدا — عن هيبة أو عن تريث — آثر أن يدنو على حذر ، كانما ليتحسس الأرض تحته أو يسبر غور خصمه ، او ينتقص رويدا رويدا من مقاومته ، فراح يرميه بكتائب الشام : كتيبة كتيبة ، املا في نصر رخيص لا يكلفه سوى القليل ..

موجة بعـد موجة توالت الهجمات الشاميـة على جيش الدفاع الصغير فاذا هى تتكسر على صخرته ، ثم ترتد لتنحسر ويهدأ الصراع فترة ليشب من جديد . ما تقدمت كتيبة منها الى الجيش المصرى ، تحاول ان تقتحم عليه موقعه ، الا ثبت لها ابن بشر برجاله ثم ضربها فأعادها مقهورة إلى ما وراء الشقة الحرام . وما تراجعت كتيبة بعد فشل ، تلعق الدم ، وتضمد الجروح ، وتلتقط الأنفاس ، الا تقدمت اخرى الى الميدان تحاول بدورها كسر حدة الغريم العنيد . لكن كنانة ابن بشر لم يكن لينكسر ، ولم يـكن لينكص وينقلب على عقبيـه ، وامامه شهادة أو نصر كلاهما تشتهيه نفسه ، ذيادا عن الحق ودفعا لقوى الباطل ان تنتصر وتسود .

واخذت مراحل ذلك الصراع تتعاقب حلقات متشابهة في سلسلة طويلة بلا مدى معلوم . فلا الهجوم ينتصر ، ولا الدفاع ينكسر ، ولا اى الفريقين يجول بخاطره ان يطفىء سـعير القتال ، او يجنح لراحة في هدنة مطلقة أو محدودة تكف عنه ، ابدا او الى حين ، عوادى الهلاك .

إنما مضى الموت ، على ظبا الأسنة ، يتخطف ن شاء من هنا ومن هناك . وراحت الخسائر في الأرواح والسلاح ، تنتقص من الجيشين ما شاء لها الاضرار .

وكانى بعمرو قد ايقن أن خطته تلك غير مبلغته غايته من النصر الرخيص الذى ارتجاه .. لعله توجس ان يكون وراء هـذا الثبات العنيد خدعة ينكشف عنها طول أمد القتال . ربما لمح بارقة خطر ، أو خشى ان يطلع الغد عليه بمدد يؤازر عدوه فيهدم رجاءه ، وينكس لواءه ، ويسلمه وجيشه العادى إلى مصير مهين ..

كيفما كان تقدير الرجل آنذاك فإنه مل لعبته ، أو خطته ، وركبهمن مللـه تطلع الى حسم الأمر بما لايدع مجالا لنشوء احتمال آخر ، غير النصر ، يلون النتيجة . وما كان له الا أن يسارع بذلك بعد أن تكرر ارتداد كتائبه ، وتكسرت امواجها تباعا على صخرة المقاومة العنيدة . وماله اذن لا يدع ما يريبه الى ما لا يريبه ، والأمور قد جرت أخيرا بما اشتهى فاكتمل له ، من خارجة مصر ، جند كثيف ، كأنه الجراد ، لو انه انتشر على أديم الموقعة وخلى بينه وبين عدوه لاجتثه وما ترك منه عودا أخضر ؟..

وعلى الأثر بعث الى معاوية بن حديج الكندى ، يستمده ويستنجد به من الموقف المتميع الذى وضع فيه نفسه واجناده .. فان هو الا قليل حتى جاءه الرجل ، في اعداد من انصاره مثل الدهم ، يزحمون الميدان ، ويسدون على القوة المصرية المدافعة منافذ الخلاص من كل ناحية ..

حتى الحركة لم تعد ميسورة لفرقة الدفاع . وحتى الارتداد لتقويم الخطوط وتنظيم تكتل متماسك يكر على العدو من بعض اطرافه لم يكن في الطاقة .. فقد رمت الخارجة بكل ثقلها في وجه كنانة ومن حوله . وضغطت عليه ضغطا شديدا التصق فيه الناس بالناس . وحطت تغشيه من اقطار ساحة المعركة ، تماما كما يحط الجراد على شجرة خضراء يغطى الجذع والورق والفروع ثم لا يطير عنها الا وهى خشبة يابسة جرداء !..

ولم يجزع ابن بشر . ولم الجزع وهـذا احد امليه يأتيه ؟.. الشهادة الآن على كثب منه . الجنة تخايله وتناديه ، وليس بينه

وبينها الا ان يثبت حيث كان ، يستقبل الموت وهو راض قرير ..

ونشط للجحافل الكثيفة ومن معه من بقية المدافعين يحاول ان ينقب سورهم الآدمي ويهدم جدره ما وسع سيفه ان يضرب ، ووسع فرسه ان تثبت على قوائمها ، وتتحرك به في تلك الرحلة القصيرة الميتة .. انه يكر ويرمي بنفسه على عدوه فاذا الكرة ترجمه ولاتدفعه الى الأمام كأنما يصطدم بمطاط !.. وانه ليثغر في صفوفهم فاذا الثغرة التي يفتحها تلتئم على الفور كأنما هو يحفر في ماء !.. حتى اذا رأى فرسه عجزت عن الحركة ، لفرط تزاحم عدوه عليه ، وثب عن ظهرها الى الأرض ، وارتمى على الحشود المطوقة يعمل فيها سيفا يتحرك كشيطان !..

واخذ يتلو وهو يضرب في ذلك السور الآدمي المنيع :

« وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا .. » .

وملكت سورة القتال أصحابه فنزلوا جميعا نزوله ، يخالطون عدوهم ، وينازعونهم مواقع الأقدام . وتغشت الموقف غاشية من الاضطراب والغموض لا يكاد احد يعرف في ظلامها مدافعا من مهاجم ، ولا وليا من خصم ، ولا بشائر نصر من بوادر هزيمة .. فالصراع لم يعد معركة حربية تحكمها قواعد التنظيم وتناسق التحركات بقدر ما غدا لقاءات عشواء أو شبه عشواء ، تشتبك فيها اليد باليد ، ويصطدم الجسد بالجسد ، ويصطرع القوم في نطاقها على الشبر من الأرض ليتيح للرجل منهم موضعا لقدم واحدة تحمله ، وعلى كوة في جدار الأجسام الملتصقة المرصوصة ، تفسح له في نشقة هواء !..

غير أن الايمان والشجاعة والاصرار لم تكن وحدها العوامل التي ترجح كفة كنانة ، وتشيل كفة ابن العاص .. فلقد فرغت الجعبة ، وجف الزيت ، واخذت الذبالة تترنح وهي تخفق خفقاتها الأخيرة .. لم تعد في المقاومة بقية جهد ولا ذماء طاقة . حانت الخاتمة . حم القضاء . جاءت الشهادة تجتبي الأخيار ..

واستشهد ابن بشر وهو على تل من الجماجم !.. فلو استطعت عندئذ معاينة سيفه ، لوجدت على شفرته قطرة دم من كل قتيل . ولو استطاعت جثثهم ان تنطق ، لعاتبته على حدة الطعن وعبقرية

القتال !.. واستشهد مع القائد الباسل جمع جم من رجاله خلا بموتهم الميدان وفتح الطريق امام العادين ..

وعندما وسع ابن العاص ان يسترد بعض نفسه المبهور ، وينقشع عنه كابوس غمة الدفاع الرهيب ، ثم يتحرك ليفضي ببقية من معه إلى مؤخرة جيش مصر ، لم تكن ثمة حياله مقدمة ولا مؤخرة ، لأن القتال التهم من ثبت ، والهزيمة طارت بمن امتد به اجله ، وطوحته بعيدا ، بعيدا ، عن الميدان .

عن ابن بكر ، بعد أن مات كنانة وتقطعت الوسائل بقيادة الدفاع ، انفضت بقية جنوده ، وتفرقوا فرادى، وقد أعضل الموقف بهم ، وايسوا من جدوى الثبات والمقاومة دع توقع الغلبة والانتصار . بل لعلهم وجدوا الثبات عندئذ عصيا عليهم ، لا يدانى نطاق القدرة وان دخل في نطاق الرؤى والأحلام !.. بل لعلهم ــ والألوف المعادية تضغطهم ــ رأوا انهم على حافة منزلق لا يملكون عندها غير التردى من عل في هاوية بعيدة المهوى ، غائرة القاع !..

تلك كانت الحال ، وذاك كان السلوك الذى سلكه جيش ابن ابى بكر والستائر تنسدل على « المنشاة » كمعركة مصير .. واذا كان القدر قد شاء فان مشيئته لم تكن غير صدى لهمة الكوفة واهلها القاعدين !.. واذا كانت بقايا الدفاع عن مصر قد اكرهت على التفرق والانسحاب من الميدان . فان كنانة بن بشر كان خير اسوة لهم لو انتفعوا بالقدوة ، فعقدوا العزم وتمسكوا بالثبات . وإذا كانت ظنونهم قد خالت التشبث بمواقع الاقدام بعد مصرع كنانة ومحنة قواته محالا من المحال ، فان الشهادة ــ في حالة ابن بشر ، وفي كل حالة ــ ليست ضربا من المحال !.

٢

طبيعـــة البشر ، بلا شك ، اضـــافت سطرا ــ عبـــارة ــ كلمة واحدة ــ إلى سـفر الأسباب التى أدت إلى هزيمة جيش محمد بن ابى بكر ، ذلك اليوم من صفر ، في « المنشأة » على مسـافة غير بعيدة من الفسـطاط .. فنفره قليل وعدوه وفرة كاثرته ببضعة اضعاف .. وضغط الوقعة عليه فاق قوة الاحتمال . والرجاء في نجدة عاجلة تشد ازره لاح اعصى من المحال ... واليائس المضيع ، الذى يشق عليه الصبر ، حين تتبدى له ثغرة في سور الموت المحيط به من كل جانب ، لا يحركه عندئذ عقله ، وانما تقوده غريزة حب البقاء ..

على هذا النحو اصبحت بقية القوة الدفاعية بعد تلك الأمواج الهادرة المتلاحقة من الهجوم ، وبعد طوفان خارجة خربتا وانصار الشغب وسيطرتهم على ساحة القتال .. ولا لوم هنا على رجال ابن ابى بكر حين ينفضون أيديهم من قتال لا غناء فيه ولا جدوى لهم من ورائه ــ طال او قصر ــ غير الهلاك ، ما دمنا نقيسهم بمقياس الطبيعة البشرية ، التى تدور في فلك « الممكن » لا في فلك « الأمثل » الذى ينبغى ان يكون ! .. ولا لوم أيضا على محمد لو أخضعته هذه الطبيعة لسلطانها ، وجرفته بعيدا عن ساحة الموت إذ يتلفت فإذا المكان حوله خال ، قد هجره أصحابه ، فلا ناصر ، ولا رفيق ...

شريدا مضى الفتى عن موقع القتال ، يضرب في الأرض على مهل او على ذهول ، إلى غير غاية .. وهل من مقصـــد لتـــائه مضيع ؟.. وهل من هاد لوحيد حيران ؟.. بل لا يفرق بين مشرق ومغرب ، نهار وليـــل ، أخضر وجدب ، معمور وخراب .. وعيـــه انطمس ، وجمرة فكره تحولت إلى رماد . يتخبط في ظلمة .. يهيم في ضياع .. يفكر بقدميه ؟..

اهل الكونة ايضا كانوا يفكرون بالقدم الضالة التى لا تعرف الى اين تسير ، تماما كابن أبى بكر وان اختلف بينه وبينهم المعيار ، اذ تكرهه طبيعة محنته وتتحكم فيه ، بينما يصدرون هم ، في سلوكهم الزائغ ،

عن اختيار !.. فما حركهم حدث . ولا حمسهم خطر ، ولا القوا السمع لدعوة داع تحثهم على العمل ، وتبصرهم بعواقب الجمود الذى آثروه .. وحتى حين حفزتهم النخوة اخيرا ، وشاءت لهم أن يلبسوا رداء المروءة ، كان كل قصاراهم بضع مئين غاية ما يقال عنهم إنهم « لافتة » جيش ، أو « شعار » يعلن عن الرغبة في النجدة — مجرد رغبة ! — وليسوا بقوة حربية فعالة ، تستطيع أن تؤثر في مصير معركة النيل ..

كانوا نوعا من التظاهر بالانصياع لأمر الامام ، والولاء الذى لا يستبطن الطاعة المجدية وإن خلع ثوب العصيان !.. ام لا فما جدواهم ولما ينتظم لهم عقد إلا بعد مرور شهر وبضعة أيام على دعوة الاستصراخ والاستنجاد ؟.. ما جدواهم وانهم لالفان يعلمون حق العلم أن اجتيازهم مراحل السفر البعيدة الى مصر سيضعهم في مواجهة عدد يقارب ثلاثين الفا كلهم مطيع مصابر عنيد ؟.. فان يكونوا تخيلوا القدرة على المواجهة ، أو غرهم في انفسهم شيء ، افكانوا يحسبون الأحداث رهن مشيئتهم ، تجمد حيث هى فلا تتحرك الا اذا تحركوا وشدوا معهم الشمس لتسطع على ساعة اللقاء التى يريدون ؟..

بل هو وهم ما خالوا ، وعبث ما فعلوا ، وهباء وقبض الريح ما توقعوا ان يكون !.. فالمقدمات هى التى تنجب الخواتيم . والعاقبة مرئية معلومة ، لكل إدراك ثاقب نابه او ساذج غرير . والفاجعة مقدورة محتومة ، من قبل أن تتحرك اليها قدم ، أو تطيف بموقعها عين .. وكفاهم دلالة عليها ، أن الإمام إذ خرج يشيعهم . قد أقتحم جمعهم المتذائب القليل بعين غائمة ، وهتف في هدوء حزين :

« سيروا .. والله ما أنتم !.. ما أخالكم تدركون القوم حتى ينقضى أمرهم !.. » .

فانطلقوا ..

لكنها انطلاقة الكرة من المطاط لا تلبث أن تعود ادراجها حيث كانت حين يستقبلها جدار !.. فإن هى إلا خمس ليال يسيرونها بين أثناء الرمل على دروب الصحراء ، حتى كان القدر قد ابرم قراره ، وجاء بنبئه رسولان من الشام ومن مصر يحملانه إلى الكوفة ..

من الشـــام قدم عبد الرحمن بن مسيب الفزارى ، وعلى وجهه ذهول المبغوت ، فدخل على الامام يخبره الخبر .. كان الرجل عينا في الأرض الأموية لعلى ، يشيم الأخبار ، ويستقرىء حركات القوم وسكناتهم ليفضى إلى صاحبه بما تكن أو تعلن ، ليكون من أمرهم على بينة .. فلما دهمه امر المنشـــأة ، تسـلل بليـــل يحث مطيتـــه إلى امير المؤمنين ..

قال يرسم مشاهده :

« .. ما خرجت من الشـام حتى قدمت البشرى اليها من قبـــل عمرو بن العاص ، يتبع بعضها بعضا بفتح مصر .. » .

ثم ؟..

« .. وقتل محمد بن أبى بكر .. » .

ثم ؟..

« .. وأذن معاوية على منبر دمشق بقتله ؟.. »

سلسلة طويلة من الهم والوصب والعـذاب طوت مراحلها بضع عبارات مجردة جافة لا تكاد تفصح عما لعل الفتى عاناه ، أو تومىء الى صدى الدوى الذى تفجر في نفس السـامع وهو يصغى بأذن مرهفة، ووجه جامد متوتر الأسارير .. ولكنها لا ريب كانت طعنة مصمية تمزق القلب وتحطم الكيان .

وأكمل الفزارى حديثه :

« .. ووالله ، يا امير المؤمنين ، ما رايت قط سرورا مثل سرور رايته بالشام حين قتل محمد .. » .

فلم يزد الامام على ان خفض راسه ، كأنما ليخفى عن صاحبه دمعة أسى همت أن تنحدر على وجنتيه ، وهو يقول :

« .. لقد فقدنا حبيبا ، وفقدوا بغيضا !.. اما ان حزننا على قتله لعلى قدر سرورهم به ، لا ، بل يزيد اضعافا .. » .

والكلام ، ابلغ الكلام ، لا يســـتطيع في مثل هذا المقام ان يصـــور العاطفة ، أو يكون أداة قادرة على التعبير . هو عندئذ اشبه بمرآة

نقية الصفحة ، ينعكس على صقالها الشكل عن الأصل ، دقيقا واضحا بكل تفاصيله ولكنه لا يزيد بعـد عن مجرد صورة بلا حياة !.. وهل يسع عبارة ما ان تنقل تفجع الامام على محمد ، وتلم بألمه أو تبلغ مداه ، وما كان منه تولده بل كان ولده حقا بكل المشاعر والأحاسيس والمقومات المادية والنفسية التى تربط الابن بأبيـه ؟.. وإذا كانت بنوة الولد فعـلا للفراش ، وبالنطف ، ومن الأصلاب ، فإنهما ايضا تكون بالصلة الروحية والتربية والرعاية .. واذا كان محمـد ولدا ــ بالدم ــ لأبى بكر ، فإنه كان أيضـا للإمام ولدا ــ بالحضـانة ــ منذ يتم وهو طفل ، وآمت امه أسماء بنت عميس ثم دخلت تحت على زوجا بعد ترملها بقليل .. فالفتى من طفولته أوى الى ظله .. شب عن الطوق في حجره .. روى من عطفه وحبـه .. عاش واحـدا من أبنائه لا يعرف أبا غيره ، حتى لقد كان الامام نفسه يقول عنه :

« محمد ابنى من صلب أبى بكر .. » .

.. ومن مصر قدم الحجاج بن غزية الانصارى ، وعلى وجهه وجمة الناعى .. كان أحد رجال محمد ، صحبه بها ، وعاش معه ، وشهد مشاهده ثم غاص واياه في قاع المحنة .. فلما وقعت الواقعة ، وهاض الدفاع ، وتلبس الأفق بالسواد ، ثم تفرق عن عامل مصر أصحابه وراح مشردا يهيم في الأرض حتى عاجله مصرعه ، افلت الحجـاج بحياته ، واقبل ، والفاجعة ما زالت تملأ قلبـه وعينيه ، ليروى لأمير المؤمنين الخاتمة المرة ..

وما كان مصرعا كالمصارع ، ولا فاجعة كالفاجعات .. وكيف يكون، وقد اقتلع فيها الانسـان قلبه الآدمى ، وتجرد من بشريتـه ، وأبرز الظفر والناب ليغدو وحشا كأقسى ما تستطيعه وحشية الحيوان ؟..

ليس غير الذهول ما لعله ران على الامام في تلك اللحظة وهو يصغى إلى القصة المحزنة . وليس غير التفجع على نكسة النفس البشرية ، وانحدارها الى قعر الشر .. لكنه عرف كيف يحكم تقززه ، ويعالج شعوره بالغثيان ، وهو يصبر النفس ويوطنها على تقبل المكروه ..

وهتف متجلدا وقلبه يذوب :

« رحم الله محمدا .. » .

وعندما وسعه من بعد ان يخلو الى افكاره ، ويسترجع في باله صور الأحداث التى أدت الى المصرع المفجع ، همست شفتاه :

« رحم الله محمدا .. كان غلاما حدثا .. لقد كنت اردت ان اولى المرقال هاشم بن عتبة مصر ، فإنه والله ، لو وليها ، لما خلى لابن العاص واعوانه العرصة ، ولا انهزهم الفرصة .. ولا قتل الا وسيفه في يده .. » .

غير انه ما لبث ان نفض الانسياق في التحسر على ما لا سبيل له إلى استرجاعه لأن « ليت » لا تصلح الأمور ولا تمنع المحذور المقدور.. ثم استدرك وقد أخذه حنانه ينتصف للصريع :

« بلا ذم لمحمد ؟.. فلقد اجهد نفسه ، وقضى ما عليه .. » .

ولم يبرحه بعدها جزعه على الفتى حتى لقد كان هذا الجزع ــ وإن جهد لإخفائه تصبرا ومجالدة ــ يظهر في وجهه وحركاته .. وكم تحدث القوم بالأمر ، وكم حدثوه فيه رغبة منهم في كفه عنه والتهوين عليه ، فيقولون :

« لقد جزعت على محمد بن أبى بكر ، يا امير المؤمنين .. » .

فلا ينكر ، ولا يعتذر ، بل يقول :

« وما يمنعنى ؟.. إنه كان لى ربيبا ، وكان لبنى اخا ، وكنت له والدا أعده ولدا .. » .

ونعاه إلى الناس ، وهو يعلن عليهم اغتصاب مصر ، فيحسن الثناء عليه ولا يعفيهم من جريرة الكارثة . بدا فقال :

« .. الا وان مصر قد افتتحها الفجرة ، أولياء الجور والظلم ، الذين صدوا عن سبيل الله ، وبغوا الاسلام عوجا .. الا وان محمد ابن أبى بكر قد استشهد رحمه الله وعند الله نحتسبه .. اما والله لقد كان ما علمت ، ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحب سمت المؤمن ... » .

ثم عرج عليهم :

« .. وانتم القوم لا يدرك بكم الثار ، ولا تنقض لكم الأوتار !..

دعوتكم إلى غياث اخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة ، فجرجرتم على جرجرة الجمل الآسر ، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من لا نية له في الجهاد . ولا راى له في الاكتساب للأجر . ثم خرج إلى منكم جنيد متذائب ضعيف ، كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون !.. » .

ولقد بلغ من حزنه أن كاد يعتزل الناس لا يخالطهم ولا يضمهم واياه جمع ما وسعه أن ينأى عنهم ويعزف بنفسه عن اللقاء ، ضيقا بهم ، وزهادة فيهم ، بل قد بلغ منه ان برم بالحياة وود لو عاجله اجله فيرحمه ليغيب عن دنياهم إذ الموت خير من صحبتهم هذه التى تشقيه وتثقل عليه ..

بعث عندئذ الى ابن عباس يكاشفه شعوره :

« .. استشهد محمد بن أبى بكر .. وقد كنت كتبت الى الناس ، وتقدمت اليهم في بدء الأمر ، وامرتهم باغاثته قبل الوقعة ، ودعوتهم سرا وجهرا ، عودا وبدءا ، فمنهم الآتى كارها ، ومنهم المتعلل كاذبا ، ومنهم القاعد خاذلا .. اسأل الله ان يجعل لى منهم فرجا ، وان يريحنى منهم عاجلا .. فوالله لولا طمعى عند لقاء عدوى في الشهادة ، وتوطينى نفسى على ذلك لأحببت الا ابقى مع هؤلاء يوما واحدا .. » .

لكن لا غناء في حسرة ، ولا جدوى في جزع ، ولا دافع لبلاء حل فدهم ، ونزل فقصم .. فمصر ذهبت الى غير عود ، واجتزت من دولته كما تبتر الساق التى لا قدرة بغيرها لصاحبها على الاستباق !.. اقتطعت مصر وانها ــ بقوله ــ اعظم من الشام ، وخير اهلا ، بقاؤها في يديه وايدى شيعته عز لهم ، وكبت لعدوهم .. واحتجب ابناؤها عن طاعته وتثبيت أمره وإنهم لدعامة قوته ، واحسن اجناده .. واسدل الستار بها على محنة محمد بن ابى بكر فإذا هى محنة مصر ، ومحنة الأمة الاسلامية ، ومحنة القيم الانسانية .. واذا هى فصل من فصول الرواية ، يستشرف الخاتمة ويؤذن ببداية النهاية !..

٣

وهذه هي الفاجعة ..

بلا رفيق مضى محمد على وجهه ، يهيم في الفضاء الرحب الممتد حياله الى مدى الرؤية مطموس الخطوط مبهم المعالم تذوب حدوده في محيط الافق الأشهب المطبق عليه .. بلا رفيق من صاحب يؤنس وحشة ، ولا من قلب يستشعر ثقة ، ولا من ذهن يتطلع لغاية ..

كان جزءا من الفراغ الذى سرح فيه . ومن الصمت الذى علق بالجو كقطرات بخار . ومن الركود الرهيب الذى سيطر على المكان .. وما عسى يبقى من امرىء سلب الهدف والوعى والرجاء ؟..

خيال حياة !.. هيئة ذات ابعاد واعماق ، بسطح ، ومظهر ، وحجم ، وباطن اجوف ملؤه خواء !. هيكل بشر : بالشكل ، بالسمت ، بالقوام ، بالاهاب ، بالثياب !.. كأنه ظل . كأنه عود غاب !..

وعلى مدارج الرمل انسابت قدماه تطويان مسافات ليس يدرى اهى مفضية به الى شرق ام غرب ، امام أم وراء ، مكمن هلكة أم مورد نجاة .. وفوق طين الحقول ترنحتا بخطا ذاهل ، مشلول الوعى معطل الارادة .. فلو انه عندئذ أدرك لعرف انهما تكادان تلتويان تحت ثقله وتتقصفان !. ولو أنهما أيضا ادركتا لثبتتا به ــ من اعياء ــ لا تبرحان!. لكنه مضى بهما يقطع مراحل الوقت والمكان بحركة آلية قسرته عليها قوة دافعة مجهولة لعلها غريزة حب البقاء !..

غير ان الجهد الذى اضناه ، بعد طول السرى والسير ، عطل الآلة !.. فالتعب استنزف القدرة . والرمل برى القدم . والطين اثقل الخطا ، ولفح الهواء الساخن في قيظ الصيف المصرى لف جوارح البدن كلها بالخمول ..

وزحف على لهثاته إلى موئل ظليل !..

عند منأى بعيد عن الطريق المطروق ، على حافة الخلاء ، تبين

طللا يتداعى ، ما زالت به بقية من « روح » تمسك بعض جدره البالية ــ كالثوب الخلق ــ أن تنهــار .. الى هــذا الحطام رنت مواجعــه ، واضطربت تحته رجلاه وهما تخطان في الأرض إذ يجرهما معه كما تجر غرارتى رمل ينوء بثقلهما العزم وينقصم الظهر وتنبهر الأنفاس .. وتحت أثر من سقف لا يكاد يستر عن العين طلعة السماء ، أوى بالمكان إلى ظل أرقط نقطت صفحته الداكنة بقع بيضاء من نور تسللت من ثقوب السطح الأخرم .. وعندما وسعه أن يفترش الظل ، ويلتحف بعض الشعاع المنحدر ، عزف بسمعه عن أنين عظامه وراح في سبات .

في هذه الخربة التى انتهى اليها شروده ، انطوى محمد بن أبى بكر على محنته ، ونامت عيناه ، لا يجاوره في ملاذه الموحش ــ مع الفراغ ــ إلا قدر يقظان !.. فما خايلته في الوحدة رؤى نعاس ، ولا أحلام تطلع ، ولا ذكريات غابر .. وانى له ووعيه المحطم المنهوك قد فقد القدرة على الحركة ليخرج من نطاق عالم الخمود الذى عاش ــ بل دفن ! ــ تلك الآونة فيه ؟.. وإذا كانت الراحة عندئذ قد قربت رويدا رويدا إلى أوصاله ، وأخذ بدنه المتهالك يمتص منها على مهل كما يمتص الجذر الظامىء قطرات الماء من بين الصخر ، فانها الراحة التى يغلب المرء عليها وتسير في جسده بالخدر سير طليعة تفسح الطريق فيه للهمود الأخير !..

فكم بقى محمــد من ساعات بموئله المهجور ؟.. وكم لان تحته الحصا والتراب ؟.. وكم نعمت بمرقدها الخشن عظامه ، ورقأت بعض دمع الأنين ؟..

فترة من عمره لعلها برهة ، ولعلها ســويعات ، ولعلها فوق هــذا أو دونه وإن كانت لا تحسب بمقياس الزمن لأنها لم تكن في مجــال الشــعور !.. لكنها ترجمت لبقاء موقوت ، وارتبطت بموئل ــ قصر او طال مكثه فيه ــ ليس بالخافي البعيد عن «الجار» اليقظ ، ذى العين الساهرة ابدا التى لا تغفل ، واليد الطولى التى لا تحد ذرعها اميال !.. وكيف لا وهذا قدره معه ، قد استدرجه الى مستقره ثم تركه يأمن ما شاء وانه ليتربص به لحظة الأجل المحتوم !..

ولم تتلكأ عليه النهاية .. فالطريدة أثخنها الاعياء . وكلاب الصيد ذات أعين يواقظ ، وآذان لاقطة ، وانوف مرهفة ، ترى بهــا الذر

والهباء في فحمة الليل ، وتسمع دبيب النملة في هدير العاصفة ، وتشم الريح على مدى المراحل ..

ما كان بعسير على العدوان أن يطلق نقمته وراء الفتى ، تتابع خبره، وترصد اتجاهه ، وتشم حركاته .. وللعرب عامة قدرة على اقتفاء الأثر ، ليس يعييها أن تقرأ ما خطته مواقع قدميه أينما سار ، على الرمل وفي الطين ، لتعلم أين أفضى به الفرار ..

لكأن بعض ريح الجنوب قد أسفت غبارها فطمست المواقع .. او كأن جيرة الطلل كانت من مدر ليس يحفظ الأثر .. فالمكان أخرس، وحجارة الخربة المتناثرة فوقه صماء . والأرض حولها بلا وشم ولا علامة ، كصحيفة في يد أمى لا يعرف كيف يمسك بقلم !.. والكلاب المسعورة التى تزاحمت على الأديم الأجرد ، تلف وتدور في ضياع وحيرة ، كأن كل واحد منها كان يحاول أن يلحق بذيله !..

لكن كبير الكلاب لم ترده هذه الصورة من الخواء عن السعى الدائب لإشباع نقمته .. بإصرار عنيد راح معاوية بن حديج ، زعيم خارجة مصر ، وصاحب فتنتها ، يتابع أثر الطريد . على مدى المسافات تابعه ، ومد البصر ، وشطحة الظنون !.. واينما وسعه أن يحرك قدميه ، أو يوجه رجاله ، أو يتخيل مكانا يؤمه شريد مذعور ، راح يستقرىء السمات ، ويفتش الحصا والصخر ، وينشر الأرض ويطويها وهو يكاد ينفضها نفضا كأنها بساط !.. وعندما خذله جهده ، وقصر خياله عن تلمس الملاذ المجهول ، أخذ يستشفه في إخلاد كل من لقى من عابرى الطريق ..

ما ترك معاوية عندئذ احدا عرض له في طوافه الا سأله ، ثم استفسره ، ثم ألح عليه بالسؤال والاستفسار وهو يجمع الكلمة الى الكلمة ، ويزن الرد بالرد ، ويصفي القول بمصفاة الشواهد والاحتمالات لعل خيطا من ضوء ، ولو كبصيص جمرة ، يقوده إلى ما يريد ..

ولم يمل التجوال ، ولا أسامته الخيبة . بل قد كان عناده يتجدد كلما باء من بحثه بفشل يبعد محمدا الى حين عن براثنه وانيابه ، كانما الفشل المتوالى كان وقودا لنقمته يؤرث نارها الحاقدة ويزيدها التهابا وفورة . وهل لباله ان يهدأ ، ولعينه ان تطبق جفنيها على طمانينة

وغريمه ما برح حر الحركة مطلق السراح ان اختفى اليوم فانه في غد خليق بأنْ يظهر في صفوف جديدة من اعوانه تتناثر في جوانب الاقليم وتكون مراكز مقاومة تتصدى للجيش الغازى ، وتترصد له بمراصد الهلاك ؟..

وآن أخيرا لبذرة الحقد أن تثمر ، فاذا ابن حديج يبلغ من الخلاء ناحيــة على صفحتها آثار أقــدام ما زالت ندية لم يطمســها الزمن ولا سفت عليها الريح .. عندئذ عاوده أمله ، والحت عليه أحقاده ، فاقتفى الأثر على بحر من عرقه ولهثات أنفاسه المشتعلة حتى افضى به السير الى جماعة من علوج الروم تخلد الى الراحة بأعلى الطريق . فما أسرع ما التقط الخيط ! وما أسرع ما كان بينهم ، يرميهم بعين صقر ، ويتفحصهم بنظراته !.. فلما تبين أن ابن أبى بكر ليس فيهم ، راح يحاورهم ، ويتقصى الأمر .

وسألهم بعد طول استقصاء :

« ارايتموه ؟ .. » .

قالوا :

« لا » .

قال :

« هل مر بكم احد تنكرونه ؟.. » .

قالوا :

« لا » .

واوشك أن يرد طرفه عنهم ، وهو حسير ، ويعود أدراجه ، لولا أن الكلمة التى تحسر المد ، وتنحرف بالتيار ، وتغير المصــير قفزت فجأة على شفتى علج منهم ، ينفثها عفوا وهو لا يكاد يدرك لماذا يقولها ، وما أثرها في عقبى الأمور ..

قال العلج ، بلا مبالاة :

« انى دخلت هناك ، فاذا رجل جالس .. » .

واشار الى الخربة ..

عندئذ انتفض قلب ابن حديج ، وبرقت عيناه ، ثم طارت به قدماه الى الطلل البـــالى وما انتهى العلج من عبـــارته .. وان هى الا نظرة مخالسة ، رمى بها من بين احجار الخربة ، حتى هتف بأصحابه بهمسة طروب :

« هو !.. هو ورب الكعبة !.. » .

فانطلقت كلاب الصيد تركض إلى المأوى المهجور .. إلى الطريدة المهيضة التى برتها الشقة ، وحطمها الإعياء .

وانصبوا ، فاذا هم كالجرف يدفعه السيل فيملأ الفجاج حوله ويغطى وجه الأرض بما يحمل من حطام .. من كل جانب تزاحموا على النائم الذى خدره تعبه ، فما أفسحوا له في ثغرة يلتقط منها أنفاسه ..

ولم يكونوا بحاجة إلى الحذر منه ، ولا إلى الأطباق عليه هذا الإطباق الذى يكاد يعصره ، وهو لا يملك يدا للمقاومة ، ولا قدما للحركة ، ولا نهمة ترد عنه عادية خطر ، أو تبلغ به نطاق طمأنينة .. لكن الليث هو الليث . والكلاب حرية بأن تخشاه وهو متوثب في غابه ، أو هامد في اهابه !..

٤

ليس بالكلمة وحدها يمكن أن ترسم قصة الأسير .. ليس بالجرى ، ايضا ، وراء قدرة التخيل . فالواقع ، فيكثير من الأحايين . ابلغ إفصاحا عن نفسه وادق من عبارة تنقله إلى ذهن السامع وكل قصاراها أن تكون ظلا لأصل ، وصدى لهدير !..

فوق طاقة البشر ذلك الهول الذى عاشه ابن ابى بكر منذ وقعوا عليه في الخربة المهجورة . وفوق قمة الشر ذلك العنف الذى عاناه .. من مهاده الخشن اقتلعوه فما كانوا ، اذ فعلوا ، ارفق به منك على نبتة انتزعتها ، في لحظة عبث ، من تربتها وليس يعنيك ، أو يضيرك ، أتخرج سليمة أم يتمزق منها الجذر وينقصف العود .. وفي سربهم الصاخب قادوه على الطريق لا يهمهم أن يسوقوه امامهم راجلا يعالج تحريك قدميه او يجروه زاحفا على الشوك والحصا والتراب ..

بشراسة الفهد ، وخسة الثعلب ، وقسوة الزبانية تعاوروه .. كانوا عصابة من الحقد والمقت والضغينة . خلقا في هيئة بشر وما هم ببشر . أجسادا معتمة ، كآلات بلا قلوب !..

ولم يحفل بهم . ولا ألقى بالا الى ما يجترحون .. ولم احتفاله وفي دخيلته جانب مشرق ما زال يمده بشعاع هاد هو ايمانه بأنهم لا يملكون له إلا قدرا قدره الله ؟.. وكيف يكترث ووعيه الناضب الذى استنزفه الاعياء لم يعد يتأثر بشيء يصيبه ، وبدنه المنهوك قد ارتوى من التعب ومن الآلام الى ما فوق حق التشبع ؟..

وكانت مراحل السير عديدة ، طويلة عليهم دُونه . مضنية لهم لا له . فطول المسافة ، وتعاقب الوقت ، كلاهما ينبع من الاحساس بالزمان والمكان ، ولهما أبعاد لا يحددها إلا وعى المرء ، لا عدد الأميال او كر الساعات !..

على الأرض الصلبة ، التى شققها قيظ الصيف ، سار الفتى في موكب العذاب .. الى الفسطاط سار . الشمس فوقه لهب . الهواء

نار . الانفاس تحترق . الفضاء بخار وغبار .. وعندما شارف نهاية المطاف ، كان قطعة من الضنى والتهافت ، ومن الجفاف والنضوب ، كجمرة اكلت نفسها حتى بردت ، وغدت كومة هشة من رماد . او كغصن اجتز من شجرته ، وترك في ملافح الحر ومهاب الريح فتبخر ماؤه ، ويبس ، وتحول الى هشيم ..

ووقفت الحاضرة المصرية ، على قدم ، تستقبل الأسير .. تتطلع إلى الافق على تحرق ، وتصغى إلى الصدى والنأمة ، فتسمع خطاه في كل صوت يند ، وترى طلعته في كل غبرة تثور .. ثم تتعجل لقاءه ، فتستبق الوقت إلى موعده على جناح الحدس والتوقع لا على ظهور الرواحل وخطوات الاقدام . فالخبر عنه كان طليعة موكبه المرتقب ، بلغها وانه لبعيد محجوب عن الأعين وراء المراحل ، مستور دونها بالأميال ، لأن للخبر دائما قدرة اى قدرة على التنقل واجتياز المسافات — سباحة في الزمن — بسرعة البرق في الأفق وهدرة الرعد في الأثير !..

غير ان هذا التعجل الذى كابدته الفسطاط ، ذلك اليوم الصائف الملتهب من صفر ، كان ينبعث من عاطفتين متعارضتين ، كلتاهما على نقيض .. في جانب كانت اللهفة ، وفي الآخر كانت الشماتة .. فالذين يكنون للفتى المنكوب نفحة ود او اثر ولاء تقطعت نفوسهم عليه حسرات ، وماتوا موتة بعد موتة بعدد اللحظات التى عاشوها وهم في انتظار ظهوره وفي خشية من الردى ان يسبق إليه نظراتهم المبعثرة في الأفق ترقبا للموكب الحزين .. والذين يتنفسون الحقد والضغينة راحوا يسوطون الوقت مستحثينه ان يطلع عليهم بالأسير المقهور ليملأوا عيونهم بمحنته ، ويثلجوا صدورهم بمصيره .. وفيما بين اولئك وهؤلاء استوت مدينة الفسطاط نفسا بشرية بشطرى الخير والشر في طبيعة الإنسان ! نزعا إلى الشفافية والسمو ، ونزغا إلى الظلام والهبوط !..

اذ ذاك قست قلوب وذابت قلوب . تسعرت اعين وغامت اعين . تلمظت شفاه شماتة ونقمة واختلجت شفاه تفجعا ومرحمة .. على ان مظهر الشركان اغلب واظهر . بل كانت السيادة له في الحشد المنتظر وقد وضع كل مشفق راحم وكل راث حزين على وجوههم اقنعة من

الجمود والتنكر لمشـــاعرهم اتقاء غضـــبة الوحش المتحفز في دخيلة الآخرين !..

لكن فتى من الراحمين آده هـــذا التظاهر ، فلم يملك نفســـه أن يتململ من قلق ، ويضطرب من خشـــية ، ويتذاءب على قدميه يمنة ويسرة لا تستقران تحته كأنما يقف على جمر احمر !.. وكان كالثمل او كالمحموم . في مقلتيه لهب الحميا أو الحمى ، ونظراته تزيغ في الفضاء ، والأرض تدور به وتميد ..

ذاك عبد الرحمن !.. وهى بدنا ونفسا حتى لأوشك أن يتهاوى كحطام . خذله أخيرا رياؤه وخانه تصبره . فما كانت له ــ قبلــ مسكة من صبر تعينه على ما هو فيه وإن حرص طويلا على أن يبدى الجلد والثبات .. وما عاد ــ بعد ــ يتشبث بأمل موهوم ينســجه خياله ، هو أوهى من خيط عنكبوت ، وارق من شعرة حملت صخرة !. وهل غيره في القوم ، خيرهم وشرهم على السواء ، من كان لا يستشف من خلل الساعات القلائل المقبلة ، ذلك المصير القاتم المحتوم ، الذى ينتظر ــ لا محالة ــ أخاه الأسير ؟..

فلعله عندئذ قد أدمى شـــفته وهو يعض عليها ، ليكظم غيظه ، ويداجى حسرته ، ويخفى بعض ما يعانى أن تشى به ملامحه المهزوزة .. إنه لينقم الآن على صحبه ، وعلى نفسه ، وعلى هذه الدنيا التى استهواه منها العرض والزخرف ، وراودته عن دينه ، فمال إلى صفها عن صف أخيه ، ينصرها ولا ينصره ، ويخطبها ويتنكر له ، ويســـير في ركابها ويدع محمدا في موكب العذاب .. فلو أنه أصغى للحق لما تابع معاوية وحزبه ، ولكان الآن يستدبر جحيم الهوى ويستقبل جنة الضمير .. ولو انه اطلع على الغد ، لسمع على لسان اموى خالص ، بأى عصبة ظالمة لحق ، واى عاهل جائر ظاهر ونصر .. لكن زينة الدنيا اعمته ، ورنين ذهبها أصم أذنيه ، وكثافة طبيعته طمست قلبه فلم يستطع ــ وهو بين ظهرانى الحزب الباغى ــ ان يفطن لغيهم ، فيبرا منهم كما برا معاوية بن يزيد من اثمهم بعد سنين وسنين ..

وهذه هى براءة الخليفة الشاب ..

من فوق منبر دمشـــق ، راح يكشف للملأ ســـوأة أهله .. كان

عندئذ فتى في ضحوة العمر التى يطيب فيها الانس إلى الدنيا ، متعة وسطوة . وكانت امرة الدولة قد افضت اليه بعد أبيه . لكن ضميره ابى عليه أن ينعم بالملك فيلبس ثوبا ليس له ، ويسير سيرة ابيه وجده اللذين ابتزا الحكم من كان له — دونهما — الحق فيه .. فاذا هو يفاجيء امته وذويه ، معلنا على الاشهاد :

« أيها الناس ..

الا إن جدى معاوية نازع الأمر اهله ومن هو احق به منه لقرابته من رسول الله وسابقته في الاسلام ، وهو على بن ابى طالب .. ولقد ركب بكم ما تعلمون ، حتى أتته منيته ، فصار في قبره ، رهين اعماله .. ثم تقلد ابى يزيد الأمر من بعده ، فكان « خير ! » .. اهل له .. ركب هواه ، وأخلفه الأمل ، وقصر به الأجل . ثم صار في قبره ، رهين ذنبه ، واسير اثمه .. وان من اعظم الامور علينا علمنا بسوء منقلبه .. »

واستطرد الفتى الذى استنارت بصيرته ، وعجزت الدنيا أن تخدعه وتأخذ منه :

« أيها الناس ..

ما أنا بالمتقلد امركم ، ولا بالمحتمل تبعاتكم ، فاختاروا لانفسكم .. والله لئن كانت الدنيا خيرا ، فلقد نلنا منها حظا . ولئن كانت شرا ، فكفى ذرية ابن أبى سفيان ما أصابوا .. » .

لكن عبد الرحمن بن ابى بكر لم يكن في صفاء معاوية بن يزيد ، ولو كانت له نفس زاجرة .. وان يكن شيء قد حرك الآن قلبه فهو موقفه بين جماعة غرقت في حماة الكراهية ، واخذت تتلمظ كالوحش لتنهش لحم اخيه .. فما كان اغيظ له من هذا الموقف الذى غرسه فيه القدر كما تغرس الزرعة في ارض محل ، فلا بتربتها ماء ولا بسمائها غيمة .. وما كان اقسى عليه من لحظة لن تلبث ان تقبل فيرى ابن ابيه لقى مضيما على الثرى ، أمام بصره ، وليس بمقدوره إلا أن يحضر مع الحشد الشامت ، مصرعه بعين جامدة ، ولسان أخرس ، ويد شلاء ! ...

ولم يعد يطيق الانتظار .. بل انتفض يبارح الجمع ، وينطلق

كزوبعة مجنونة !.. ليس عن يقظة روح ، ولا استنارة بصيرة كان سعيه . ليس في نصرة الحق ومحق الباطل كان انطلاقه .. لكنه انعطاف الأخوة ، ونداء الدم ما وجه قدميه الى ابن العاص يستنجد به ويستعينه أن ينقذ الأسير المقهور من براثن جلاده .. فللقربى ، حينا ، قوة غامرة على تنقية النفس البشرية من الشر قدرتها ، أحيانا ، على تجريدها من الخير !..

وخاطب قائده الظافر بصوت محموم :

« ابعث الى معاوية بن حديج فانهه !.. » .

فأظهر له عمرو جانبه اللين ، لعله أن يهدأ بعض هدوء ..

لكن روعه لم يسكن .. وصاح :

« لا والله ، لا يقتل اخى صبرا... » .

واستبدت به ثورة عاطفته .

حينئذ ارسل ابن العاص رسولا الى معاوية بن حديج ، يقول له :

« ائتنى بمحمد .. » .

غير ان الجلاد كان أنأى سمعا عن الاصغاء لهذا الأمر الذى انبعث ، لا ريب ، عن مروءة عارضة ان لم يكن عن مراءاة ، قبل ان ينبعث عن اقتناع بضراعة الضارع أو ايمان بحق الأسير .. فما ان سمع الرجل قول الرسول حتى عقد جبينه ، وضيق عينيه ، وابرز نابيه ، ثم أفاض من حقده على ملامحه كانما كانت لذلك الأمر سن حديدة وخزت قلبه فأسالت من الكراهية بعض ما فيه !..

وبكل مرارة الشماتة ، وبكل حرارة البغضاء ، اجاب بلهجة كضربة السيف :

« لا والله !.. اقتلتم كنانة بن بشر ، ابن عمى ، واخلى عن محمد ؟.. هيهات هيهات !.. » .

ثم تلا ، وهو يسخر :

« اكفاركم خير من اولئكم ، أم لكم براءة في الزبر !.. »

وانثنى يتفرغ لأسيره ..

٥

ما الذى بقي من محمد ؟..

سوى قوة ايمانه لم تكن فيه عزمة تقيمه بينهم مشدود القوام كالرمح ، شامخ الراس كالجبل ، متدفق اليقظة كشعاع النور .. طوال الطريق إلى الفسطاط ، في لفح القيظ وعلى جمر الرمل ، لم تلن لهم قناته .. لم يخفض انفه .. لم يغض من طرفه الى مواطئه ، لم يذل لجلاديه بكلمة ولا ايماءة . انما ظل على ترفعه وكبريائه ، متساميا على الضعف والتعب والآلام ..

وتداكت المدينة ، من بعد ، عليه بكل صخبها وشغبها ، وما استبطنت - او اظهرت من امتهان وشماتة . فما اكترث . ولا استقبل هديرها الوحشي باهتمام .. إن يكن ألقى أذنه مليا إلى الضجيج ، ورمى عينه ، فلا من رهبة فعل ، بل من تطلع تلقائي صادر عن طبيعة المهمة الوظيفية لكلا حاستي السمع والبصر فيه !.. فالجموع الحاشدة حياله لم تزد ، في خلده ، عن مجرد صورة مسطحة بغير عمق ولا بروز . وهرج الأصوات المنبعث عن الحركة أو الصياح ، لم يكن غير صدى طرقات على طبل أجوف ..

حتى حين وقعت عيناه على ابن العاص بين الحشد المتربص ، لم يحس في قلبه حسرة ، ولا بحلقه غصة . فما قصارى الرجل ؟.. وما قصارى حشوده وجنوده ؟.. وما قصارى البشر كلهم ان يفعلوا به إلا ما قدر له ؟.. إن نفسه لمطمئنة إلى قضاء الله ..

ولم يكن ، بعد رحلته الشاقة ، يكاد يشعر بجوع . فبطنه قد التصق بظهره ولم يعد بجوفه فراغ لطعام !.. وشهوة الأكل تفتر مع طول الطوى كما تخمد النار اذا غاب عنها الوقود !.. لكن الجسد الذى اضواه الاعياء ، واعتصره الحر ، كان يهفو — كالغصن الذابل — الى ما يرطب جفافه ، ويبل صداه ..

وتلفت ولسانه قد التصق بحلقه ، يسال من حوله بصوت خشن متعثر ، كأنما كلماته تضطرب في شقوق حلقه الجاف :

« اسقونى .. »

وحسب نداءه قد تاه في صخب ضجيجهم حينما لم يستجب له مجيب .. فعاد يقول :

« .. قطرة ماء .. »

فكم في القوم عطفتهم الرحمة ، ورقت نفوسهم لرغبة الفتى الذى احرقه الظمأ ، وأوشك الصدى أن يستنزف ما بقى فيه من حياة ؟.. ان تكن كثرة ، او قلة ، في الحشد الزاخر تحركت قلوبهم في جنوبهم حنانا ، فان واحدا منهم لم يجسر على التلبية وان أرهف السمع للاصغاء ..

وعلى الاثر وثبت ضراوة الوحش من صدر ابن حديج وثبة زلزلت كيانه ، وسعرت ناظريه ، وبعثته يفح كالأفعوان :

« قطرة ماء ؟.. لا سقانى الله ان سقيتك قطرة ابدا !.. »

فمن اية شرعة استقى هذا الحكم الهمجى المتنكر لكافة القيم الانسانية ومبادىء الاخلاق ؟.. امن شرعة الحرب ، والحرب لا تستبيح دما إلا في ظلال الأسنة ، واوان التراشق بالهلاك ، ثم تحقنه ، حين تسكن رحى القتال ، على الأعزل والمغلوب والأسير ؟.. أم من شرعة القصاص ، وانها لعين بعين ، وسن بسن ، وقتيل بقتيل ؟.. أم من شرعة الوحش في غابه وهى عندئذ تنازع على البقاء يمارسه احتفاظا بحياته لا رغبة رعناء في تبديد حياة كل ما عداه ؟..

لكنه اسلوب معاوية بن حديج في القضاء !..

وتلبث الرجل المدل بباسه على من لا يملك دفع الضر عن نفسه بالبنان دع السنان !.. فلما ان لقف بعض لهثات حقده التى شاطت على نارها شفتاه ، حاول ان يبرر مسلكه ، فأردف ، وهو مزهو ، مصعرا خده يقول في شماتة :

« .. انكم منعتم عثمان ان يشرب الماء حتى قتلتموه صائما محرما ،

فسقاه الله من الرحيق المختوم .... والله لاقتلنك يا ابن أبى بكر وانت ظمآن ، ويسقيك الله من الحميم والغسلين !.. »

فلم يهز وعيده شيئا من شجاعة محمد ، ولا شاب ايمانه بشائبة شك ، بل زاده ثباتا دفع الكلمات تتدفق كالحمم من فيه :

« يا ابن اليهودية النساجة !.. ليس ذلك اليوم اليك ، ولا الى عثمان . انما ذلك الى الله يسقى أولياءه ، ويظمىء اعداءه وهم انت وقرناؤك ومن تولاك وتوليته .. والله لو كان سيفى في يدى ما بلغتم منى ما بلغتم .. »

فحمى غضب الجلاد ، وصاح :

« أو تدرى ما أصنع بك ؟.. »

فتساءل الأسير دون اكتراث :

« وما تصنع ؟.. »

فكأنما أثاره هدوء غريمه ، فقال واسنانه تصرف من غيظ :

« ادخلك جوف هذا الحمار الميت ثم أحرقه عليك بالنار !.. » .

واشار الى جيفة ملقاة ، اعدها لغرضه الخبيث .

فما زاد وعيده الفتى الا سكينة رسمت بسمة رقيقة على شفتيه ونورت محياه ..

وقال محمد وثقته في ربه تتدفق من فيه :

« ان فعلتم ذاك بى فطالما فعلتم ذلك بأولياء الله .. »

ثم اجتاح بنظراته الثابتة المطمئنة جمعهم الحاشد ومن ضم من رءوس وأذناب ، ومضى بلهجة المؤمن يكمل الحديث :

« ... وايم الله انى لارجو أن يجعل الله هذه النار التى تخوفنى بها بردا وسلاما كما جعلها الله على ابراهيم خليله . وان يجعلها عليك ، وعلى أوليائك ، كما جعلها على نمرود واوليائه ... وانى لارجو ان يحرقك الله وامامك معاوية ، وهذا .. » — ورمى بعين الى ابن العاص — « .. بنار تلظى ، كلما خبت زادها الله عليكم سعيرا .. »

وكادت هذه العبارات النابعة من ذوب قلب عارف بحقه ، مؤمن بقضاء الله ، تتجسد كيانا مخلقا له شواظ ودخان وحسيس ، يحيط بمعاوية ابن حديج ويملك عليه الفضاء حتى لأحس لسعا للنار يحرق انفاسه ، ويهرأ جلده ، ويشوى عظامه !.. فاذا هو يرتج من رهبة ، ويتداعى من خوف ، ثم لا يجد لنفسه سبيلا الا ان يبرر فعلته ، ويقدم بين يديها العذر الذى يسندها لعله يشفع له فيخفف عنه او ينجيه !..

قال وصوته يشى باضطرابه :

« انى .. لا اقتلك ظلما .. انما .. أقتلك بعثمان ... »

فلم يمهله محمد حتى بادره :

« وما انت وعثمان ؟.. »

وتريث هنيهة ، فلما لم يسعف معاوية لسانه ، استطرد يقول :

« ... رجل عمل بالجور ، وبدل حكم الله والقرآن ، وقد قال الله عز وجل : « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون » — « فأولئك هم الظالمون » — « فأولئك هم الفاسقون » ... فنقمنا عليه اشياء عملها ، فأردنا أن يخلع من الخلافة علنا ، فلم يفعل ، فقتله من قتله من الناس ... »

ولا مجادلة هنا لما أحدث عثمان أو قارف ، أيوفي به فعله على ما يحل دمه ويستبيحه ، أم هو الحدث الذى تختلف فيه الآراء وتتفرق المذاهب بين طرفي العقوبة من تقرير يتسع للعفو الى تحريم يوجب القصاص ؟.. ولكنه ، على اى حال قد أحدث ، وركبه الناس في حدثه بعنف غالوا فيه حتى اغتالوه . ونهز بنو امية الفرصة ، سعيا وراء السلطان ، فألزموا عليا دمه ، تارة بحجة انه مالا ، وأخرى بحجة انه أمر ، وإنهم لعلى بينة من أمره ، يعلمون انه على كلا الحالين برىء .. فاذا لم تكن الحقيقة أسفرت عن وجهها لهم وهم في مستهل افترائهم عليه ، فانه بادر فطالعهم بما يفند ادعاءهم ، ويدحض تهمتهم ، بالحجة البالغة التى يعلمون صدقها ثم لا يمترى فيها إلا ممار مغلف القلب والجنان ...

في ذلك المقام قال الامام :

« .. او لم ينه بنى امية علمها بى عن قرفي ؟.. او ما وزع الجهال سابقتى عن تهمتى ، ولما وعظهم الله ابلغ من لسانى ؟.. »

بلى لقد علموا . رأوا الحق وتعاموا عنه . وحسب عليا نافيا لتهمتهم ان فضله معلوم لهم ، يرتفع به عن كل دنية ، وسابقته تطهره وتنأى به عن كل معصية . ولقد بين الله لهم في كتابه فقال عنه وعن زوجته وبنيه :

« انما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا .. »

وقال الرسول الكريم له :

« أنت منى بمنزلة هارون من موسى .. »

فاذا لم يكن في منزلته العالية في الدين التى لم يبلغها غيره من المسلمين ما يكف السنتهم عن رميه بهذه التهمة الفاحشة ، واذا لم يكن في شهادة الله وشهادة رسوله ما يعصمه عن مقارفة ما طعنوا به عليه ، فأى المنازل اذن وأى الشهادات تزكيه ؟..

كيفما تعنت القوم واستطابوا البغى ، فقد بدا ابن حديج كأن قد جبهته عبارة الأسير ، واشعرته الهوان وذهنه عندئذ يسبح في عالم رحب من ذكريات الدعوة الاسلامية ليس من بينها الا ما يسمو بشأن على وينزل بشأن مناوئيه .. لكأن قدره انكفأت ، وكأن كفته شالت ، وكأن محمدا ، وهو متهم ، قد غدا قاضيا يحاكم قاضيه !..

إن سطعة الحق التى انبعثت عندئذ من عبارة ابن ابى بكر ، تومض كالبرق من ثنايا الغمام ، قد خالجت بصيرة معاوية بما جعلها تطرف كعين النائم حين يفتحها بعد ظلمة الوسن فيفجاها النور . وبادرت قلبه الأصم بهدرة الرعد التى تصاحبها ،فهزته وزلزلته بين جنبيه .. لكنها ومضة موقوتة ، ورجفة الى اجل معلوم ليس عمره في حساب الزمن الا مقدار ما تمكث لمعة البرق في جانب الأفق المعتم او تعيش الرعشة على هدب محموم !.. فالعيون العمياء قد تحس الضياء ولكنها لا تراه ثم لا تتاثر به ولا توليه حقه من التقدير . والقلوب

الغلف تعلم بالرحمة ولكنها لا تمارس الرحمة . ومعاوية بن حديج ، كأيما رجل غيره في الجمع الزاخر المحتشد على ضغينة وموجدة ، قد كمه قلبا ، وعمى بصيرة ، واختنق في دخيلته صوت الضمير ..

ما من امرىء في الجمـــع ، تلك اللحظـــة ، إلا كان يعـــرف الحق ثم يباعد ما بينه وبين نفسه لكى لا يجمعهما طريق . ما من امرىء الا آثر المكابرة والالتواء لأنه كالخفاش لا يستطيع ان يعيش في النور .. حتى عبد الرحمن الذى عطفته رحمه حينا على محمد ، وقف في القوم كالمسحور ، لا يعرف كيف يحرك بنانا لحماية اخيـــه ، وقد استغرقه حرصه على دنياه ، أو جمدته ، في القليل ــ صعقه ذهول ! وحتى ابن العاص ، الذى تبدى منذ أيام قبيل الموقعة ، مترفقا بالفتى يضن بحياته ، ومنـــذ ساعات حريصا على تجنيبه بطش معـــاوية ، لاح كأن قد اخذته سورة حقده ، فاستمرا الفاجعة ، وراح يتابع آخر حلقة فيها بلذة المستمتع المشغوف !..

وكذلك بدأ المشهد الأخير ...

بعناء المكابر ، وعتو الطاغية ، مشى ابن حديج على مدرجة ضغينته إلى ابن ابى بكر .. خطواته بطيئة ككابوس . عينه باردة كعين ثعبان . هيئته كئيبة كالموت ... وقبل أن ترتد عنه نظرة ، وتتبدد في الهواء زفرة ، سقط اسيره الأعزل على الثرى في كفن من دم !..

٦

قضى الحقد من ابن ابى بكر وطره ..

قتله معاوية بن حديج . ذبحه كما تذبح سائمة ، وانه حينذاك لوحيد بلا صاحب ، اعزل بلا سلاح ، معدم لا يملك فدية تشترى نفسه أن تسيل دما مسفوحا على ثرى الفسطاط ..

جهرة كان مصرعه . على ملأ ذبحه الطاغية غير متأثم ، وما من القوم من رفع بنانا يزجر ، أو حرك لسانا ينكر .. انما استقبلوا الحدث البشع على هدوء وسكينة ان لم يكن على رضى واقرار .. وكم منهم من طرب قلبه !.. وكم منهم من سالت الشماتة على شدقيه !.. بل لعل جمعا كبيرا منهم قد اختلط هتاف نشوته بقصفة السيف وهو يهوى فيفصل الراس عن عنقه ..

ولم يدر احد اين توارت شيم المروءة والنجدة وغوث الملهوف التى لا زالت دائما طبيعة الإنسان العربى وكانت بضعة من سجاياه . لا شيء منها بدا او ظهر . لا هيئة ولا اثر . لكأنما انسى القوم نحلتهم وانسلخوا انسلاخا من خلائقهم الكريمة في نزوة عاصفة من نزوات الهمجية التى لا تجرد المرء من جنسه فحسب وانما تجرده ايضا من انسانيته ..

واردف معاوية بن حديج ضغن القتلة بضغن المثلة . فما سقط صريعه ينتفض بدنه ببعض رجفة الحياة فيه ، حتى اشار الى زبانيته فاحتملوا الجسد والرأس جميعا والدم يلطخ ايديهم فوضعوهما في الدابة النافقة ، يخلطونهما بأحشائها ، ثم يغلقون عليهما بطنها المبتور .

واشعلوا الحطب . وعلقوا محمدا مغلفا بجثة الحمار يشوونه واياها في اللهب المتاجج ، وهم يقلبونه على السنة النار وجمرها المتقد كما تقلب الذبيحة على السفود استعدادا لوليمة !..

ما كان افظعها مثلة !.. وما كان أعتاها قسوة تلك الأنفس التى وقفت تشهد هذا الحفل الذى يكرمونّ به الشيطان !..

فلمن الغلبة ؟.. لمن عقبى الأمر اليوم ؟.. لمن الخاتمة التى انطوى بها سجل الفتى وراحت بعدها حياته سيرة على شفة راوية وبين اسطر كتاب ؟.. لا لله ، ولا للحق ، ولا للمبادىء الرفيعة والمثل العليا وقيم الفضيلة التى شرعها الدين .. بل الوحشية القابعة في جوف الانسان هى التى نهشت الجسد الممزق وراحت تلتهم لحمه وعظمه .. بل بغضاؤهم الصديانة هى التى ارتوت من دمه ..

عندئذ جف من قلوبهم نبع انسانية البشر ، وتمزقت شريعة الله ثم احترقت وتناثرت رمادا ، كبدن الأسير ، تحت الأقدام . وانتصرت الجاهلية العمياء وعزت كعهدها قبل الاسلام ..

مع الريح ذهب هدى القرآن . امحت تعاليمه . انطمست معالم تلك الأمثال التى ضربها محمد رسول الله للناس تساميا بغرائزهم الفجة ، وتكريما وتحقيقا لانسانيتهم ، وتنزيها لهم عن الانحدار في حمأة الحيوانية .. ولو أن بتلك الطغمة المتجبرة الضالة من له قلب يعى وذهن يذكر ، لكره القتلة والمثلة جميعا ثم أباهما على أصحابه المقترفين وردهم عنهما ردا جميلا او غير جميل ، وله في الرسول الكريم الأسوة ، وفي القرآن المنهاج ..

لو استرجع القوم أمسهم الدانى ، وعادوا الى الوراء صفحة من تاريخ الهدى النبوى ، لراوا رسول الله على أرض أحد يتلمس ، بعد المعركة ، عمه حمزة في القتلى . فاذا عثر به ، ووجده مبقور البطن قد اقتلعت كبده من صدره والقيت ممزقة على الثرى ، أخذه من الحزن ما يطير بالجنان فقال وهو محنق يناجيه ويعده الانتقام :

« لن أصاب بمثلك أبدا .. ما وقفت موقفا قط هو أغيظ الى من هذا .. ولئن أظفرنى الله بقريش لأمثلن بثلاثين منهم .. » .

لكنه لا يلبث ان يهدأ ويصبر ، امتثالا لأمر ربه :

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ... ... »

ثم ينهى المسلمين عن المثلة :

« اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور .. »

ولو استرجع القوم ايضا امسهم الدانى ، وعادوا صفحة اخرى إلى الوراء في تاريخهم ، لذكروا ان أصحاب محمد الذين خلفوه في امته ، قد ساروا على سنته ، احتذاء بهديه ، ورعاية لكرامة الانسانية وإن في شخص عدو مشاق لدود يتشبث بكفره ، ويذودهم بالسلاح أن ينشروا دعوة الله .. وها هم أولاء لا ريب قد أدركوا ابا بكر الصديق ابا القتيل ، وسمعوه يقول لأسامة وجيشه وهو يتقدمهم الى الشام :

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا .. »

ولقد كان أحرى امرىء فيهم بأن يلتزم هذه الجادة عمرو بن العاص صاحب أمرهم وقائدهم اذ اجتاز تجربة خالف فيها الخلق الاسلامى وغدا بها محور لوم الخليفة الأول وتثريبه ..

كان اذ ذاك على راس القوات العربية المغيرة لفتح فلسطين والاسلام عندئذ في مطلع فجره ، فلما اظفره الله النصر ، واستخفته الفرحة ، شاء أن يدل بالظفر الذى حازه عسى ان يرتفع درجة في عينى الخليفة ، فبعث اليه بالمدينة بشرى نصره ، راس بنان بطريق الروم ، أعدى اعداء المسلمين ، واشد قومه عليهم في ساحة القتال ..

ولم ترض الفعلة أبا بكر ، بل روعته واسخطته على عمرو . وكانما شاء بعض من حضر الموقف أن يهون الأمر عليه ، ويبرر مسلك القائد الظافر فقال له :

« لكنهم يصنعون ذلك بنا ، يا خليفة رسول الله .. »

فلم يزده هذا العذر الا ثورة .. وزجر محدثه في انكار :

« اتستنون بفارس والروم !.. »

ثم القى بامره :

« .. الا لا يحمل الى راس . انما يكفى الكتاب والخبر .. »
هذا هو راى الاسلام ، وجادة سلوكه مع المسلم وغير المسلم على

السواء اذ هم جميعا ، في حساب خالقهم ، وبمعيار قيم الأخلاق ، بشر كرمهم الله ، وفضلهم على كافة خلقه ..

غير أن الطغمة الجائرة المتجبرة جنحت الى جاهليتها الأولى تحيى شرعتها البالية . وتقتدى القدوة التى لا يطيب لها أن تقتدى بسواها ، متنكرة لقيم الانسانية ، ومخالفة قواعد الدين .. وهل كان أدنى الى نفوسها المدخولة ، وأقرب الى قلوبها الغلف الصماء التى لم يمس منها الاسلام غير قشرتها ، من تلك القدوة الأموية التى رسمتها هند ابنة عتبة ، أم عاهلهم معاوية ، وانحدرت مع دمها في عروقهم بطنا في عقب بطن ، وجيلا في اثر جيل ؟..

وما لها لا تكون قدوتهم وها هم أولاء يبارونها في الضراوة ؟.. لكأنهم آثروا إحياء سنتها ، إمعانا في الحقد واتباعا لنهمه ، فاستحضروها في أخيلتهم وهى تدور كالضبع على ارض معركة أحد تعبث بالقتلى ، فتلعق الدماء وتنهش الأشلاء !.. لكأنما طاب لهم أن يروها بعين التصور — وقد اغرت بحمزة من قتله — أن تأخذ جثته وتبقر بطنه وتقتلع كبده ثم تلوكها في فيها كلبؤة لتأكل منها ما لعلها تسيغ !.. لكأنما استهواهم أن راحت ، وصواحبها القرشيات ، يجدعن أنوف شهداء المسلمين ويقطعن آذانهم ، ليتخذنها لهن حلية : عقودا وقلائد تزين الأجياد والصدور الملساء !.. لكأنما شاءوا لأنفسهم أن يغدوا حلقة في سلسلة المثلة التى تصل بين بنت عتبة وبين حفيدها يزيد ابن معاوية إذ اندفع زبانيته يتلعبون بجثة الحسين سبط الرسول ، وقد أصيبت بسبعين طعنة ، فيدوسها عشرة من فرسانهم بخيلهم مرارا مرارا ، ذهابا وجيئة ، حتى دقوا عظمها وهرسوا لحمها وسووها بالأرض ، فلما أعياهم التركاض احتزوا راسها وحملوه لسيدهم ينكت في ثغره بقضيب معه ، تشفيا وشماتة ، محطما ثناياه ..

تلك طائفة من الناس كان التعذيب — فيما يلوح — لديها ملهاة ، وكانت المثلة تسلية !..

لو كان بهذه الفئة فضلة من طباع السباع — دون البشر — لعافت ما فعلت بابن أبى بكر بعد مصرعه ، ولانفض سامرها الخبيث ذلك اليوم بشهود راسه وهو يسقط على شفرة سيف ابن حديج ما دام حقدها حملها على قتله .. فالوحش قد يصرع فريسته دفعا لأذاها

عن نفسه ، وقد يلتهم لحمها سدا لجوعته وحفظا لحياته ، ولكنه يدعها ولا يتلعب بعد هذا بجيفتها ما دام قد قضى منها وطره ..

افكانوا اذن قوما — كما تضمنت سيرتهم — شغفوا بالشر وكلفوا به يجترحونه لذاته ، ويقترفونه للذاته ؟.. بارئهم اعلم بهم ، وبما اكنت قلوبهم وركب في طبائعهم .. ولكنهم دائما دائما مضوا على هذا السنن لا يخرجون عنه . فاذا أعوزهم من عدوهم ما يبيح — في شرعتهم — تعذيبه وقتله والتمثيل بجثته ، لجأوا الى ركوبه بهجر القول ومقذع السباب إدلالا عليه بسطوتهم وإذلالا له . وحين خلا لهم الميدان من بعد ، واستطاعوا ان يخفتوا صوت الحق ويرزأوا اهله مجردينهم من كل سلاح حتى سلاح الكلمة ، غلوا في الفجور الى غايته ، وراحوا يفظعون في تحطيم اقدار خصمهم وتشويه سيرتهم على الأشهاد وهم آمنون منهم ان يدفعوا الافتراء عن انفسهم ، ويكيلوا الكيل لهم بمثله .. حالهم كحال المبارز الذى ينازل خصمه بعد ان يشد وثاقه !..

عواهل أمية وعمالهم أسرفوا في هذه النزعة ما شاءوا وشاءت الضغينة ، ينالون بأذاهم عليا ومن تبعه ، اهله وصحبه ، موتى واحياء .. ولقد اخذ معاوية يسبه ويغرى به رجاله يلعنونه على المنابر .. ولقد قيل انه لم يقلع من هذا الفحش بعد موت الامام ، بل امعن فيه .. فما ان افضى اليه الأمر ، عام الجماعة ، حتى كتب — وعهد الصلح بينه وبين الحسن بن على لما يجف مداده — يأمر عماله :

« برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبى تراب واهل بيته .. »

ثم تعقبه وخلفاؤه ، في نسله وفي شيعته ، يطاردونهم وينكلون بهم في الذات وفي المال ، لا يجيزون لأحدهم شهادة ولا يؤدون له عطاءه .. وكم اهلكوا من حرث وأحرقوا من دور !.. وكم عذبوا سملا للأعين وقطعا للأيدى والأرجل ! وكم قتلوا وصلبوا على جذوع النخل وحملوا رءوسا على الحراب !.. لقد كانوا يأخذون الناس بالظنة ، وبالقربى ، وبالصلات الفكرية ويجتاحونهم بالحملات الارهابية حتى ان الرجل منهم ليقال عنه : زنديق او كافر أسلم له وابقى عليه من ان يقال من شيعة الامام !..

ومع ذلك فلم يعدم الزمن أن يطلع لهم من يثبت لبغيهم وهو مجرد من كل سلاح الا كلمة حق تنبعث من ايمانه وتلصق بشفتيه فاذا هو لا يكتمها بل يلفظها في وجوههم وان كان فيها حينه !.. من هذه الشاكلة التى التزمت الهدى واستمسكت بقداسة الراى : قيس بن مهر الصيداوى ، رسول الحسين الى ابن عمه مسلم بن عقيل بالكوفة .. دخل البلدة ومعه رسالة تعلن لمسلم مقدم ابن عمه بعد اذ دعاه أهلها وبايعوا له ، فاذا هو يقع في يدى عبيد الله بن زياد عامل بنى أمية عليها بعد أن خانت الكوفة عهدها ، ونكثت كلمتها ، وصبأت ثانية الى طاعة يزيد ...

وجيء بقيس أسيرا فلاينه عبيد الله مليا ، كأنما سيفسح له في عفوه ، حتى إذا حسب أنه اطمأن ، قال يغريه بلعن الحسين وابيه على الأشهاد :

« اصعد القصر فسب الكذاب ابن الكذاب .. »

فأظهر الرجل الانصياع ، واعتلى الدار يشرف من فوقها على أهل الكوفة ، فلما اجتمع ملؤهم ، خطبهم يقول :

« أيها الناس .. هذا الحسين بن على خير خلق الله ، وابن فاطمة بنت رسول الله ، قادم عليكم .. وانا رسوله اليكم .. فأجيبوه .. »

ثم تمهل قليلا وصاح :

« اللهم العن عبيد الله بن زياد واباه .. اللهم العن .. »

ولم يكفه عن ترديد لعناته الا أن أمر ابن زياد رجاله فالقوا به من فوق القصر ..

وحتى النساء اقتحمن هذا المجال المحفوف بالمكاره ، غير هائبات غشما ولا خائفات لسطوة وانهن لفى احلك الظروف واشدها عليهن وجبروت القوم عندئذ على ارفع ذراه .. وهل ثمة احلك من يوم مقتل سيد الشهداء وآل بيته وصحبه ؟..

كان ذلك وقد حملت الرءوس بعد المذبحة الى يزيد ، واحاط به ذووه واشراف أهل الشام ، فدعا بمن سلم حيا من أهل الحسين ، صبية ونساء فأدخلوا عليه ..

وكانما عطفت الرحم يحيى بن الحكم ، اخا مروان عليهم وقد غاب عنهم سيد بيتهم بأجله ، وخلفوا وراءهم رجالهم جثثا على ارض الوقعة تصهرها الشمس وتسفى عليها الريح ، فقال وهو يرثى لحالهم ، ويذكر قرابتهم :

« لهام بجنب الطف ادنى قــــرابة
من ابن زياد العبد ذى النسب الدغل

سميـــة امسى نسلهـــا عـــدد الحصى
وليس لآل المصطفى اليوم من نسل »

فعاجله يزيد بضرب في صدره ، ليكفه عن رقته :

« اسكت !.. »

وجلس الصبية والنســاء ينتظرن ما يكون من العاهل . فاذا رجل من رجاله قد اخذت عينه فاطمة ابنة الحسين ، اذ رآها وضيئة ريانة ، يقبل على يزيد يحدثه :

« يا امير المؤمنين .. هب لى هذه .. »

وارتاعت الصغيرة . وملكها خوف غامر دفعها أن تلتصق بزينب ، وتستتر بها عن هذا الشامى الاحمق ، تلتمس عندها الحماية ..

وعلى الاثر انبرت زينب للرجل تزجره ، وتضعه حيث يجب ان يكون :

« كذبت والله ولؤمت !.. ما ذلك لك ولا له !.. »

واشارت الى يزيد ..

فأغضبت العاهل الأموى جراتهـــا التى لعله رآها تنتقص من سلطانه ، وتخفض مقداره في أعين بطانته ، وصاح بها مدلا بجبروته :

« بل كذبت أنت !.. والله ان ذلك لى ، ولو شئت ان افعله لفعلت .. »

كأنما آل الرسول قد غدوا ملك يمينه ، يبيع منهم من شاء ، ويهب من شاء لمن شاء !..

لكن ادعاءه لم يرهبها ، واجابت :

« كلا والله !.. ما جعل الله ذلك لك الا ان تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا .. »

فاستطار غيظا ، والحت عليه المكابرة فعصف يقول :

« أاياى تستقبلين بهذا ؟.. إنما خرج من الدين أبوك وأخوك ..

قالت وراسها رافع وانفها اشم ، ترد عليه الرد الذى لا رد غيره يقمؤه ويخزيه :

« بدين الله .. دين جدى وابى واخى ، اهتديت انت وابوك وجدك .. » .

فلما ابى إلا اللجاج وقال :

« كذبت يا عدوة الله .. » .

اجابته في هدوء :

« انت أمير مسلط ، تشتم ظالما ، وتقهر بسلطانك !.. » .

وكان قولها فصل الخطابّ ..

.. لا مراء اذن في جنوح اولئكم القوم الى الغشم ، ما انفسح لهم ميدانه ، وتوافرت لديهم وسائله ، يقارفونه بالفعل والقول : مثلة وقتلة وتعذيبا ، أو لعنا وشتما وافتراء علي الخصم وهم آمنون منه أن يرد فعلهم وقولهم عليهم ، لأنهم يملكون دونه سطوة البطش وصولة الارهاب ..

وكذلك فعلوا ، يومهم هذا ، بابن أبى بكر ..

عذبوه ، ثم قتلوه ، ثم احرقوه وهو لا يملك دفعا عن نفسه الا بالكلمة .. لهوا به ما شاءوا ، ليطعموا الحقد ويرووا الشماتة .. صبأوا إلى شرعة جاهليتهم العمياء فثاروا ومثلوا . وهم بين الثار وبين المثلة يجدون المتعة التى اياها يحرمهم القصاص العادل ، او الصفح الكريم ..

وتصاعد حولهم في الجو دخان لحمه المحترق وان انوفهم لتكاد تنتهيه . وان لعابهم ليوشك معه أن يسيل كحال الجائع المتضور يلتذ بريح الشواء قبل التهامه !.. أم لا فكم منهم من تقزز وقرف والنار تتلهب وتشوى أمامه جثة آدمية يفوح منها ما يملأ خياشيمه ؟.. كم منهم من غثت نفسه فجهد ليبعد عن الوليمة الكريهة ؟.. كم منهم، في أقل القليل، من حاول، ولو باللسان، أن يدعوهم الى سلوك مسلك غراب ابنى نوح ليواروا سوأة القتيل وهو – ما بلغت العداوة – أخ لهم في الانسانية ؟..

وبلغ هذا البلاء عائشة فأذهلها النبأ، وجمد الدمع في مآقيها ان تذرفه، وحبس الحزن في صدرها أن تنفثه حتى آدها الكظم فتسخبت دما وهي تلجأ إلى الله بمسجدها، تبثه شكواها في وجوم، سليبة اللب مثقلة القلب معقودة اللسان .. وعندما وسعها من بعد أن تثوب، حرمت على نفسها الشواء لا تذوقه ما عاشت .. وكيف تسيغه وهو لحم كلحم، ورائحة كرائحة، يستحضران أمامها جثة اخيها وهى تشوى على النار ؟..

وظلت السيدة حياتها مكروبة، تجتر أساها على محمد، ولا تتوقف عن هذا الاجترار كأنما لتعيش مع الأخ الحبيب في حزنها عليه !.. ولم يكن في طوقها ان تأخذ له من جلاديه فقد وكلتهم الى الله . ولكنها اخذت نفسها بما في قصاراها فاستراحت الى الدعوة عليهم، كلما عثرت هتفت في لهفة وألم من قرار فؤادها المحطم المصدوع :

« تعس ابن أبى سفيان !. تعس ابن العاص !. تعس ابن حديج!.» .

وصدق رسول الله .

فلقد اوشك من قبل أن يلهم نبأ هذه المحنة الذى ختمت حياة محمد بن أبى بكر وانه عندئذ حمل مستور في بطن أمه لم يكشف الغيب عنه .. ومن غير رسول الله اولى بأن يفتح له ربه، حين تشاء قدرته سبحانه، أبواب غيبه، ليطلع من خصاصها على بعض ما فيه ؟.

ذاك ما تجلى له في رؤيا أسماء، ذات ليلة في مستهل الدعوة، وقد خرج ابو بكر في غزاة .. فقد رأت السيدة زوجها الغائب، في المنام،

مخضوب الراس واللحية بالحناء ، وعليه ثياب بيض . فأقبلت تقص رؤياها على عائشة ، وتلتمس من لدنها التأويل .

وريعت عائشة لما سمعت ، وجزعت على أبيها .. ولكنها صارحت السيدة :

« ان صدقت رؤياك فقد قتل ابو بكر .. ان خضابه الدم ، وان ثيابه اكفانه » ..

وند دمع اسماء ، وعلا صوتها تبكى زوجها ، حتى سمعها رسول الله ..

فسأل :

« ما ابكاها ؟ .. »

قيل له :

« ما ابكاها احد ، ولكنها ذكرت رؤيا لابى بكر » .

وقصوا عليه الحلم وتأويله :

عندئذ قال :

« ليس كما عبرت عائشة . ولكن يرجع أبو بكر صالحا ، فيلقى أسماء ، فتحمل منه بغلام ، فتسميه محمدا يجعله الله غيظا على الكافرين والمنافقين » .

وسلم الصديق . وانجب غلاما كان من صفته ما ذكره الرسول ، وعبر عنه على من بعد بقوله : « يبغض شكل الفاجر » .. وكان من قدره انه هو الذى خضبت راسه ولحيته بالحناء !.

الفصل الثاني

١

تطير معاوية وهو يصغى لبعض خاصته حين حملوا اليه راى الفلك في بعثته التى شاء أشخاصها الى العراق . فالطالع نحس . والنجوم تحذره ان يوفدها في هذا الموعد . والخطر الذى يستشفه من مخالفة مشورة منجميه لا تجمل معه مجازفة .

وعلى الأثر كتب الى ابن الحضرمى يأمره :

« لا تبرح .. حتى يأتيك امرى . » .

وكذلك توقفت الى حين بعثة الارهاب والتخذيل التى اعدها لاغتصاب البصرة . الى غير هذه الساعة من يومه ارجأ سيرها واجله .. الى ساعة يمن تقبل فيقرن بها السير .. وماله لا يفعل حتى تأذن الأنجم .. ويقطع القمر في رحلة فلكه شوطا ينقله من برج نحسه إلى برج سعد يحسن برجاله الانطلاق في ابانه نحو غرضه بين يدى البركة واليمن الى الظفر ؟..

ان العاهل ليتطير . وانه ليسترشد بأجرام السماء والكواكب استرشاد مستقرىء للغيب لا مهتد بها في بر أو بحر ؛كأنما فياستطاعتها الكشف له عن نفع يقتنصه أو شر يجتنبه .. ولو انه علم لادرك ان ايمانه هذا بما يظنها تومىء اليه وتنبئه به هو أدنى الى الوثوق بقدرتها على تشكيل مصاير الخلق وتلوينها فهو ادعى الى الحمل على محمل الشرك بالله ..

فلعله لا يعلم . او لعله يعلم ولم ينتفع بما يعلم .. ومنذ قريب اجتاز الامام نفس تجربته فابى على الكواكب قدرتها ، ونها اصحابه عن الاصغاء لما يظنون أنها تشير به ، لأن استنباء الأنجم عقبى الأحداث ومصاير الناس ضرب من الكهانة ، من صدق به فقد كذب بالقرآن ..

على ان معاوية ، فيما بدا ، آثر الرضوخ للخرافة ، او لهذا الانحراف عن جادة الإيمان الخالص بربه ، فانس إلى مشورة منجميه .

وبقى من بعد اياما عدة يرقب صاحب بعثته حتى لقد حسب الرجل أنه عدل عن رأيه . ثم مكث يصابر الوقت ، ويهدىء — ما وسعه — من فورة رغبته الجامحة في العصف بالمصر من داخله ، بلوغا الى تمزيق وحدة أهله وانتقاضهم على عدوه .

وراح يشغل الوقت عندئذ بتدبر خطتـه ويحاول تجسيدها بدءا ونتيجة — في خياله ، ويسطر العوامل التى دفعته الى رسمها ، والأسباب التى علقت بها أمله ..

ولم يملك عندئذ الا الاقرار بالفضل لعباس بن الضحاك العبدى صنيعته بالبصرة . فهو موحي فكرة هذه البعثة اليه ، وغارس بذرتها في روعه . وهو عين له بالبلدة وعون ، خرج من اجل نصرته على اجماع قومه . وهو ، بعد هـذا وقبله ، واضع الخطة ، ومبين دواعيهـا ، والمشير عليه بما يجمل اتباعه ..

فلقد كتب له ذلك الصنيعة ، غب غزو ارض النيل ، ودخولها في حوزة الشام ، يقول :

« ... بلغنا وقعتك بأهل مصر ، الذين بغوا على امامهم ، وقتلوا خليفتهم .. فقرت بذلك العيون .. وبردت افئدة أقوام كانوا لقتل عثمان كارهين ، ولعدوه مفارقين ، ولكم موالين ، وبك راضين .. ان ابن عباس غائب عن المصر . فان رأيت أن تبعث الينا اميرا طيبا ذكيا ذا عفاف ودين ، للطلب بدم عثمان ، فعلت . فإني لا اخال النـاس إلا مجمعين عليك ... »

واعجبت الخطة معاوية ، فأجاب :

« ... قبلت مشورتك ، رحمك الله وسددك .. فاثبت ، هداك الله ، على رأيك الرشيد . فكأنك بالرجل الذى سألت قد أتاك . وكأنك بالجيش قد أطل عليك .. »

وكانت الخطة يسيرة على التنفيذ ، خليقة بالنجاح .

فالفراغ الذى تركه رحيل عبد الله بن عباس ، عامل البصرة ، عنها إلى الكوفة ، ليواسى ابن عمه في فجيعته بمحمد بن أبى بكر ، وليهون عليه بعض ما لقى من محنة مصر ....

والمرارة التى ما زالت بقية منها ، لا يغفل قدرها ، عالقة بحلوق كثرة من البصريين منذ وقعة الجمل ، التى كسرت قواتهم ، وخضدت شوكتهم ، وجرحت كبرياءهم ، وقهرتهم على الخضوع للامام كارهين . . . .

ودعوة الثأر المكتومة في صدور عديدة للدماء والدموع التى فجرتها تلك الوقعة في كل اسرة ، وبجستها من كل عين . . . .

وشراذم العثمانية اللائذة بالمصر ، والعائذة باظهار الطاعة لعلى رياء ومداجاة حتى تلوح في الأفق فرصة للقود لعثمان من العهد الذى الصقوا به ــ ظالمين أو مخدوعين ــ جريرة قتله . . . .

والتناحر القبلى ــ تيها بالبأس ، ومفاخرة بالأصل ــ بين العشائر المقيمة بالبصرة والضاربة على تخومها وفي ربوعها ، كالأزد ومضر وربيعة ، وما كان دائما يثيره هذا الاحساس الفج في نفوس رجالها من تنافس جموح قد يبلغ بهم ذروة التباغض ، ومن تنافر في المجتمع البصرى يكاد يشق وحدته ويضعه على حافة هاوية الانقسام . . . .

كل هذه عوامل لم تكن بخافية وان توارت ــ بعد الجمل ــ خلف حجاب غير كثيف من الهدوء قرابة عامين ، لا اقرارا بالهدوء ولا ايمانا بجدواه وانما لانصراف الأذهان حينذاك الى ما كان يدور بالدولة من أحداث عامة خطيرة ، متابعة لها ، وانشغالا بها عما عداها من ظروف خاصة ومن دواع محلية محصورة في نطاق الاقليم .

ولقد كان معاوية ، بطبيعة الحال ، خليقا بأن يعلم الكثير عن ذلك التمزق الذى ينخر في جسد البصرة ، وان يدرك انه « جند » له لا يلبث ، حين تأزف الآزفة ، أن يدعم قواته او يكون طليعتها الى فتح البصرة وانتزاعها من يد الامام . ولعل يومه هذا لم يكن أول ما خايلته فيه الفكرة . غير ان الهيبة التى القاها علىّ في نفوس أهل البصرة بانتصاره الساحق في « الجمل » على أحزاب معارضيه ، والاستقرار الذى ساد فيها طوال ولاية ابن عباس واجتمع به شمث طوائفها المتناحرة تحت راية الولاء للامام ، والأحداث التى تعاقبت سراعا وشغلت عاهل الشام بنفسه وباقليمه عن كل ما عداه ، كلها لم تدع لمعاوية من قبل سبيلا الى الاقدام على تنفيذ ما عساه خايله واجتياز

تجربة قد لا تؤمن مغبتها وخليق بها ، لو اخفقت ، أن تدفنه تحت انقاض حلمه العريض !.

لكنه اليوم ، إذ جاءته مشورة العبدى ، غيره امس ، بعد أن حالفه قدره وفتح عليه أرض النيل . فانتصار جيش ابن العاص قد أعز شانه ، ونفخ في روح انصاره بكل مكان ، والقى هيبته في قلوب المسلمين بأرضه وارض عدوه على السواء ، وأتاح له تأمين حدود دولته من ناحية فلسطين ، وضمن له ، الى جوار هذا كله ، موارد مصر من المال والرجال التى لا تعدلها موارد غيرها من الولايات .. فإذا هو الآن نازعته نفسه إلى فتح البصرة فإنه نزوع من امن العاقبة واطمأن للنتيجة وقد غدا صاحب النجم الصاعد واليد العليا في الصراع المرير الناشب بينه وبين غريمه على السلطان .

ولم يخالف معاوية عن طبعه وهو يبنى « الخطة البصرية » على تلك العوامل المواتية التى هيأتها له الظروف ورآها كفيلة بتحقيق غرضه . فما كان ليتنكر لطبيعته الحذرة التى تؤثر الريث وتكاد تقدم الاحجام على الأمر على الاقدام عليه ما وسعه أن يرجىء ويتمهل ما دامت في الأفق بارقة رجاء في مطلع غد أنسب لغرضه وأجدى عليه . وما كان ليركن الى احتمالات تحدثه برجحان كفته ان هى دفعته لركوب مخاطرة قد تباغته فيها احتمالات غيرها معاكسة لم تطف بتقديره . وما كان ليجازف باقتحام خطر — وان كان أوهى من بيت عنكبوت — ليصل من خلاله إلى مغنم دان يراوده ويلمع له ، ضنا بما في يده ان يضيع لو خانه طالعه وأخفق في انقضاضه على ذلك المغنم الذى في يد سواه .

وها هى البصرة الآن .. انها كالثمرة اليانعة ، قد أنضجتها له الظروف فثقل بها غصنها ودنت للقاطف ، مغرية تخلب اللب ، شهية تثير الرغبة ، عاطلة من الشوك ، مستباحة بلا سياج .. ولكنه يكبح نفسه ، ويملك طموحه ان يمد اليها يده جهرة أمام العيون .. وهل كان ليفعل وقد علمته تجربة الأمس القاسية بصفين ان خيره كل خيره هو في السير الى آرابه في دروب خفية تحتية ، وأن دواعى الحال تقتضيه تجنب العلانية والمواجهة والأخذ بأسلوب الالتفاف والالتواء ؟

بل قد تعلم درس صفين ووعاه ، وخلص منه بحقيقة واضحة

لا يشوبها ظل من ريبة تومىء بكل اصابعها الى قصور جهده وعجز قدرته عن الثبات للامام في ميدان قتال .. وليس هو بمن يهدر التجربة .. ولا بمن تستخفه مخايل الظفر الميسور الذى يهيب به الآن — بلسان عوامل التمزق الضاربة في البصرة — أن يبعث الى البلدة بجيش ما أن يقارب مشارفها حتى تهبه الولاء .. ولئن كانت مصر ، منذ قليل ، قد دانت له بقوة الفتح ، فان الظروف غير الظروف ، ومصر غير البصرة ، والشقة من الكوفة الى كل منهما غير الشقة ، لأنها الى الأولى ابعد مدى واعسر مراحل ، والى الثانية ادنى وايسر . ولن يكون مصير البصرة كمصير مصر لانها بموضعها من العراق تكاد تقع على قيد الشبر من على أن لم تكن في قبضة يمينه . وفي نطاق المحال لا ريب أن يفلح جيش أموى ، مهما كانت خفة حركته وسرعة انقضاضه ، أن ينتزعها ويطير بها هدية لصاحب الشام !.

لا قبل اذن لمعاوية ، في ظل ذلك الوضع ، بحرب سافرة في البصرة ما بلغت قوة العوامل المرجحة لانتصاره . فالمرحلة إليها من دمشق طويلة . وجيشه الغازى سينتشر على مسافات ترق بها كثافته وتتبعثر قواته . واللقاء عندئذ وسط أرض غريبة عنه ، يعوزه فيها تأمين خطوطه . وعنصر المباغتة لا سبيل إلى تحقيقه والاعتماد عليه . والمقارنة بعد هذا بين كفاءة القيادة في كلا الجيشين المتناجزين ترجح بلا جدال كفة الامام .

فكانى بالرجل ، وقد استحضر كل هذا في باله ، يعدل عن الحرب المكشوفة الى الحرب المستترة ، وعن الغزو الى التسلل ، وعن اقتحام البصرة عنوة بجيش فاتح الى دخولها خلسة بفريق من اصحابه لهم القدرة على اثارة الخواطر واشاعة القلق ، وضرب اهلها بعضهم ببعض توسيعا لهوة الانقسام بينهم وتوهينا لوحدتهم . فاذا هو استطاع أن يبلغ من هذا وطره ، فقد وقعت الفتنة التى يعز بها حزبه ، وتشتد قوة انصاره ، وتعلو بها هيبته بقدر ما تهبط هيبة غريمه .

وكذلك ابرم معاوية أمره ، وعدّل خطته . فلأن يعصف بالبصرة من داخلها لهو أسلم عقبى من غزوها بجيش مغير . ولأن يقلب الحكم بها على الولى الشرعى لهو ايسر واضمن نتيجة . ولن تكون هى عندئذ

اعصى عليه من مصر التى ما دانت له ـ في حقيقة الحال ـ إلا بانتشار دعوته ، واشـــتداد ساعد جيشـــه « السرى » فيها ، او « طابوره الخامس » بالتعبير الحديث !.

خطة يسيرة ، وجهد ايسر ثم تســقط الثمرة الناضجة تحت قدميه ..

ودبر الرجل كيده ، فأعد بعثة ابن الحضرمى لتتسلل الى البصرة ، لا في بزة قتـــال بل في طيالسـة دعاة يتباكون على الحق ويحشـــون على اتباعه . وكان الحق الذى يراه رحبا فسيحا يتسع لكل خدعة من أخاديعه ودعوى ظالمة لا تقرها حقائق الواقع ولا شرائع الأخلاق . فهو اثارة الأحقاد . وهو صـــدع الوحدة . وهو التنادى بالثـــأر . وهو الاتهام الظالم والافتراء ، كلها مغلفة بالانتصاف لعثمان .

ومع ذلك فقد تردد معاوية مليا قبل ان ينفذ البعثة وان كاد يوقن انها تحالف الظفر وتسير في ركابه . فلعلها طيرته قد جعلته عندئذ لا يحسم .. ولعلها ايضا رويته التى تشده دائما إلى التريث . ولعله ، فوق هذه وتلك ، ذلك الاحســاس الثقيل بالفراغ الذى كان يملأ عليه حياته بعد غياب مشيره ومبدع الراى الأثير عنده بعيدا عنه حينئذ على شاطىء النيل .

ونشـط من لحظته الى كتاب دبجه الى رفيق كيده وشريك خدعه وصاحب شوراه عمرو بن العاص :

« ... رايت رايا هممت بامضائه ولم يخذلنى عنه الا استطلاع رايك ، فان توافقنى أحمد الله .. ..

انى نظرت في امر البصرة فوجدت معظم اهلها لنا وليا ، ولعلى وشيعته عدوا وقد أوقع بهم الوقعة التى علمت فأحقاد تلك الدماء في صدورهم لا تبرح .. ..

وقد علمت أن قتلنا ابن ابى بكر ، ووقعتنا بأهل مصر قد اطفات نيران على في الآفاق ، ورفعت رءوس أتباعنا اينما كانوا .. وقد بلغ من كان بالبصرة على راينا من ذلك ما بلغ الناس ، وليس احد اكثر عددا ولا اضر خلافا على على من أولئك .. » .

ومضى في كتابه يوجز امره الذى القاه لابن الحضرمى ، صاحب البعثة الموفدة لاحداث الفتنة بالبصرة :

« ... ينزل في مضر ، ويتودد الازد ، ويحذر ربيعة ، ويبتغى دم ابن عفان ، ويذكرهم وقعة علىّ بهم التى اهلكت صالحى اخوانهم وآبائهم وابنائهم . فقد رجوت عند ذلك ان يفسد على علىّ وشيعته ذلك الفرج من الارض .. .. » .

وختم يتعجل رده :

« .. هذا رايى فما رايك ؟.. لا تحبس رسولى الا قدر مضى الساعة التى ينتظر فيها جواب كتابى .. والسلام » .

٢

المحور الذى كان لا بد ان تدور عليه اية فتنة ينشبها القوم ضد على هو دعوة الثأر لعثمان . فهى باعثة وقعة الجمل . وهى سبب ضياع مصر . وهى الباب الواسع المفتوح على مصراعيه الى قلوب العامة لالهاب مشاعرهم ، وتحريك احقادهم النائمة ، واثارة كوامن اعتزازهم بالمروءة والنجدة والانتصاف للمظلوم . وهى دون هذا وفوقه دعوة اكتست ثوبا براقا يبهر الاعين ويستهوى الأنفس ثم لا يكاد يفتقر — في خواطر الجماهير التى تغرها القشور والمظاهر — من مسحة حق بعد ان ارتفعت بها من قبل اصوات عائشة والزبير وطلحة وفريق غيرهم من القوم من بين الصفوة الذين لهم في الامة مكانة وذكر ، وفي القلوب هيبة واكبار ، وفي الاسلام قدم وسابقة ..

ولقد كان من الطبيعى ان يقر عمرو بن العاص صاحبه على رايه الذى ساقه ويحثه على انفاذه . فمعاوية اليوم ذو نجم بازغ ، وصاحب دنيا مقبلة يفسح فيها لكل طامع تستذله شهوة النفس فلا يانف ان يشترى منها اربه ولو بدينه ، او بالمثل العالية ، او بمكارم الاخلاق . وعمرو اليف نهم بالنفوذ واسباب الجاه لا يكاد يشبع ولا تكف امانيه الكبار عن مخايلته منها بمزيد . واذا كان اهل الشام قد اطمعه

مصر بملكها الثرى العريض ، فتلك طعمة لا تملأ جوفه ، ورايه المؤيد التبيع خليق بأن يوطد ثقة سيده فيه ، ويدعم رضاءه عنه ، وليس بالمستبعد ان يفيء عليه طعمة جديدة !.

ولا غرابة ، مع ذلك ، إن هو أنس للراى واقره لأن التآمر بعض شيمته ، والكيد لعلى سلكه ومولاه في خيط ، وادعاء الانتصاف لعثمان بالانتقام والثأر مبدأ التزماه ، منذ بدء تحالفهما عقب الجمل ، وسيلة خادعة وناجعة ، لانتزاع السلطان .

وكتب في جوابه :

« .. فهمت رايك الذى رايته .. وان الذى ألقاه في روعك هو الثأر لابن عفان والطالب بدمه .. ولم يك منك ، ولا منا – منذ نهضنا في هذه الحروب – ولا رأى الناس رأيا اضر على عدوك ولا أسر لوليك من هذا الأمر الذى الهمته .. فامض رايك !.. » .

وآن لجاش معاوية عندئذ ان ينبت ، ولباله أن يهدأ وقد أشاع كتاب عمرو في قلبه الثقة بنفسه ، وهون عليه وطأة احساسه بالفراغ لغياب مشيره .. فكأنما اطمأن الى صواب تدبيره . وكأنما طالعته النجوم أخيرا ببرج سعده وأذنت له أن ينفذ بعثه . فاذا هو يخف من فوره فيدعو اليه عبد الله بن عامر بن الحضرمى الذى لقنه الخطة وأعده لانتزاع البصرة من يد على ويأمره بالسير :

« سر على بركة الله.. » .

ولم ينس وهو يكرر عليه ثانية خطته تلك التى تقوم على ايقاع الفرقة واثارة الأحقاد ودعوة الثأر أن يقرن ما ذكره بعنصر آخر درج دائما على ان يكون من أسلحته في النزاع ، هو عنصر الاغواء بزخرف المال الذى لا يستطيع أن يقاومه من النفوس الا القليل :

« .. ومن لمن سمع وأطاع دنيا لا تفنى ، وأثرة لا يفقدها حتى يفقدنا او نفقده .. » .

ثم لم يدع وعده هذا الذى يبتعث النهم ويسيل له لعاب الأطماع مجرد كلمة في فم ابن الحضرمى لو شاء بلعها او شاء لفظها ووضعها في الاسماع . وانما سجله عهدا على نفسه في كتاب مختوم يقطعه لكل

الذين يستهويهم نشبه وينحرفون اليــه ، ويثمن به الفتنة في قائمة الأسعار !..

قال في كتابه مع مبعوثه الى اولئك الذين ايقن انهم لا بد — من اجــل الدنيا — مناصروه ، وخارجون وراء دعوته على النظـام العام والولاء للامام :

« .. وان لكم ان أعطيكم في السنة عطاءين !.. ولا احتمل فضلا من فيئكم عنكم ابدا .. فسـارعوا الى ما تدعون اليه .. » ..

وما كانوا بالقليل . ولا كان ينتظر منهم ان يتحرجوا أو يتوانوا عن اتباع دعوته أو دعواه وانهم ليطوون جوانحهم — منذ الجمل — على غل لعلي مقيم وان تحاملوا طويلا على انفســهم راغمين فابدوا من نعـومة الطاعة مثل الزهو في جلد الثعبان !..

ومع طول الشقة من دمشق الى البصرة ، فقد استطاع ابن الحضرمي أن يمضي الطريق كله اليها آمنا موفور السلامة . واستطاع أن يتسلل الى المصر وليس من أحد — فيمن مر على كثب من ولاياتهم او اجتاز اراضيها — من عمال الامام من بدا انه تصدى له او حاول الوقوف في وجهه .. وهذه ظاهرة غالبة ومعجبــة تكاد تومىء الى ان هم كل عامل لم يكن الا منصرفا الى ضبط الأمن بداخل ولايته ما تعرضت لشغب محلي . فأما اذا مرت به ، أو بحدوده ، جماعة مريبة بل خارجة على الامام فذاك ما لا يكاد يعنيه ما دامت تمضي على حـدوده ولا تعرض لأرضه بشيء ..

والامثلة على هذا النوع من التهاون لا تغيب عن متقصيها . وهي توشك أن تنطق بضعف طائفة من العمال عن النهوض بتبعة واجبهم حيال الدولة جمعاء وافتقارهم الى القدرة على الارتفاع الى مستوى المسئولية المسندة اليهم . وتوشك كذلك أن تدلنا على عجزهم عن المبادرة الذاتية لمواجهة امثال هذه المواقف وايثارهم الانتظار حتى يأتيهم الأمر عنها من حاضرة الدولة . ثم يوشك ثالثة ان يبديهم ذوي ادراك يقصر عن تفهم حقيقة السياســة العملية التي شرعهــا الامام واخذ نفســه واصحابه بانتهاجها حيال اعدائه او مخالفيــه لا يفاتحهم بحرب الا اذا هم بداوا العدوان . فاذا فهم بعض اولئك العمال من

هـذا المبدأ الا يـبدوا في ارضهم كل منفذ خلالهـا قد يجتازه مبتغى فتنة او غاز عاد الى ولاية اخرى في طاعة الامام فذاك فيه من التنكر للولاء ومن التفريط في الأمانة اكثر مما فيـه من تهاون وان حسنت النيات .

ولم يغب سوء عقبى مثل هذا السلوك عن على فحذر منه ، ولحا عليه أحد عماله فكتب اليه :

« .. قد صرت جسرا لمن اراد الغارة من اعدائك على أوليائك ، غير شديد المنكب ، ولا مهيب الجانب ، ولا ساد ثغرة ، ولا كاسر لعدو شوكة ، ولا مغن عن أهل النصرة ، ولا مجز عن اميره .. .. » .

بلغ ابن الحضرمى اذن البصرة ، متسللا او على عين أولى الأمر فيها فلم يلق من ينهض له ، او يحول بينه وبين دخولها لا بسيف ولا بكلمة. ومضى وجهته ، كما أمره عاهله ، فنزل في بنى تميم الذين يؤمن له تأييدهم ، ويؤمن منهم مخالفتهم عليه . وكان أصحابه ، فيما بدا ، قد سعوا بين يديه في جنبات المصر يحدثون عنه ويبثون دعوته ، فاذا جموع العثمانية تنساب اليه من كل ناحية ، الأذناب والرءوس على السواء . واذا هو حين يلتفون به ويستشعر بينهم المنعة وعزة الجوار، لا يجد بنفسه حاجة الى التزام اسلوب الدعاة الذى يبدأ عادة بالهوادة ولين الكلام تدرجا وئيدا الى لب الدعوة وغرضها الخطير . انما يحمله ما شاع حوله من تأييد الى القفز دفعة واحدة الى مطالبتهم ، بغير مواربة ، بالتشرع للعنف والثأر والانتقام :

« أيها الناس .. ان أمامكم ، امام الهدى عثمان بن عفان ، قتله على بن ابى طالب ظلما .. فطلبتم بدمه ، وقاتلتم من قتله ، واصيب منكم الملأ الأخيار .. وقد جاءكم الله بإخوان لكم ، لهم باس يتقى ، وعدد لا يحصى .. فمالئوهم وساعدوهم ، وتذكروا ثأركم لتشفوا صدوركم من عدوكم .. » .

وكان حريا بدعوته ان تلقى في الصدور أصداء مختلفة . بعضها يرحب ، وبعضها ينكر ، وبعضها يقف بين هـذه وتلك ــ على تردد أو بينة ــ لا يقطع الى اى الفريقين ينحاز .. فالبصرة كما علمنا ، من قبل الجمل ، جمعت في أهلها الطوائف الثلاث : العثمانية ، واصحاب

على ، ومن رأوا الحيدة عن كليهما ، لا إيثارا للسلامة بل إيمانا بجدوى حيدتهم على الخير العام وتجنيب الامة شر الانقسام . وهى اليوم كأمس وان عز نفر حزب وقل نفر آخر . ولكن الذى لا يستطاع اغفاله أن أناسا انضووا في الماضى تحت لواء المناهضة للامام ابوا الآن ان يعيدوا الكرة ويرجعوا كبدئهم . بل استمسكوا بولائهم للدولة ، انتفاعا بعبرة الأحداث ..

وقام منهم من صاح في وجه الداعية :

« قبح الله ما جئتنا به !.. جئتنا بمثل ما جاء به صاحباك طلحة والزبير .. اتيانا وقد بايعنا عليا ، فكلمتنا واحدة .. فدعوانا الى الفرقة حتى ضربنا بعضنا ببعض عدوانا وظلما .. فما سلمنا من عظيم وبال .. » .

فقطع عليه رجل من الحزب الآخر حديثه :

« اسكت فلست بأهل أن تتكلم في أمر العامة .. » .

لكنه تابع قوله :

« .. نحن الآن مجمعون على بيعة هذا العبد الصالح الذى اقال العثرة ، وعفا عن المسيء ، واخذ بيعة غائبنا وشاهدنا .. » .

ثم التفت الى ابن الحضرمى يقول له كالساخر :

« .. افتأمرنا الآن ان نختلع اسيافنا من اغمادها ثم يضرب بعضنا بعضا ليكون معاوية أميرا ، وتكون له وزيرا ، ونعدل بهذا الأمر عن على ؟.. لا والله !.. ليوم من أيام على مع رسول الله خير من بلاء معاوية وآل معاوية لو بقوا في الدنيا ما الدنيا باقية !.. » .

واشتبكت الآراء . واستعر الحديث حتى غدا سبابا وملاحاة . وأوشك العنف أن يصرف القوم عن ابن الحضرمى ويغرق دعوته في لجة التهاتر .. عندئذ تصدى لهم ، عبد الرحمن بن عمير ، أحد بنى تميم ، وهو يلوذ فيحديثه بهوادة الدعاة وترفقهم ، لعله يزخرفالقول والموعظة الحسنة يهيىء لدعوة الداعية في نفوسهم ما لم يهيئه خشن الحديث .

قال في هدوء :

« عباد الله ، انا لم ندعكم الى الاختلاف والفرقة ، ولا نريد ان تقتتلوا .. انما ندعوكم ان تجمعوا كلمتكم ، وتؤازروا اخوانكم الذين هم على رايكم .. وتصلحوا ذات بينكم .. فمهلا مهلا رحمكم الله ، واستمعوا لهذا الكتاب ..... »

فألقوا السمع .

ونض امامهم كتاب معاوية ، ونشر عليهم ما فيه :

« .. ان سفك الدماء بغير حلها .... هلاك موبق وخسران مبين .. وقد رايتم آثار ابن عفان وسيرته ، ومعدلته .... حتى توثب عليه المتوثبون ، وتظاهر الظالمون ، فقتلوه مسلما محرما ظمآن صائما لم يسفك فيهم دما .... وانما ندعوكم ، أيها المسلمون ، الى الطلب بدمه ، وقتال من قتله .... فاذا اجتمعت الكلمة ، اقر الظالمون الذين قتلوا امامهم بغير حق فأخذوا بجرائرهم .... »

دعوة ذكية . لانها مرسلة ، لا تحصر الاتهام في امرىء بعينه ، فليفهمها اذن من شاء وليؤولها كيف شاء !.. وهي بعد دعوة عادلة ، في راى كل مجتمع بشرى ، وفي راى الدين ، لانها تحث على القود والقصاص ، انتصافا من القاتل للمقتول ..

ومع هذا فقد قرنها معاوية بالتلويح لمن سمعها وتابعه عليها بدنياه ، وانه ليعلم ان الدنيا احيانا اقرب الى استهواء الأنفس واقدر من الدين !.. وها هو الآن — على البعد — قد ضمن من الكثرة المجتمعة حول مبعوثه الانضمام اليه ، ان لم يكن من اجل الشرع ، فاستجابة لما وعدهم في كتابه من مضاعفة العطاء !..

وعقب ابن الحضرمى :

« اجيبونى الى الحق ، وانصرونى .... »

فنهض على الاثر ابن ضحاك العبدى ، صاحب خطة هذا البعث ، المشير به على معاوية ، يبادر بتلبية الدعوة :

« والذى له اسعى ، واياه اخشى ، لننصرنك باسيافنا وايدينا .. »

فما اكمل عبارته حتى تبعته كثرة من القوم ، لمعظمهم هوى — بلا شك — في نشب صاحب الشام وسخائه المعروض :

« سمعنا واطعنا .. »

وطفا على هزيم هتافهم ، طفو الزبد على الماء ، صوت خافت ، كأنما يعلن على استحياء عن رأى حزب الحياد بلسان الاحنف بن قيس :

« اما انا فلا !.. لا ناقة لى ولا جمل في هذا الأمر .... »

وعندما حسب انصار معاوية ان كلمة حزبهم قد طغت على ماعداها واستقر لهم الأمر ، باغتهم المثنى بن مخرمة العبدى بصوته الجهير :

« لا والذى لا اله الا هو !.. »

ثم رمق ابن الحضرمي بعين ملتهبة النظـرة . وقال ـــ توعـدا وتهديدا ـــ وهو يضغط على حروف كلماته ، إبانة عن العزم والاصرار :

« .. لئن لم ترجع الى مكانك الذى اقبلت منه لنجاهدنك !.. اندع ابن عم رسول الله وسيد المسلمين وندخل في طاعة حزب من الاحزاب طاغ ؟.. والله لا يكون ذلك حتي تفلق السيوف السهام !.. »

٣

مع ما أسفر عنه الاتجاه العام من انتصار دعاة الانتقام ، فقد راى ابن الحضرمي ان الحذر أولى به ما دامت ثمة طائفة بالبصرة ، كابن مخرمة ، لم ترهبها كثرة ناصره ، ولم يخدعها التلويح بجاه المال عما استمسكت به واتخذت نفسها بالتزامه وفاء وطاعة ، وان غدت وقودا للنار ..

ولم يكن الرجل قد سعى بعد الى الأزد يعرض نفسه وامره ، متوددا كراى عاهله ، او متحسسا نبضهم كما ينبغى على مشعل فتنة ان يفعل قبل أن يقدح الزناد !.. تلك خطوة تالية في منهج عمله آن له ان يقطعها بعد ان فرغ من لقائه الميمون المشهود . فماله لا يحث الخطى الى حى اولئك الذين عليه أن يتالفهم ليجمعهم حوله فيامن بانضمامهم اليه . ما قد لا يامن اذا تركهم في صفوف اعدائه ، او على الاقل منحازين عنه ، لا يعادونه ولا ينصرونه ؟..

وكذلك مضى . واقبل على سيدهم بحدثه ، ويحرك في نفسه لواعج المواجد القديمة ، وحصاد « الجمل » الذى كان له فيهم بكل قلب ضغن ، وبكل بيت ضحية :

« يا صبرة .. انت راس قومك ، وعظيم من عظماء العرب ، واحد الطلبة بدم عثمان . راينا رايك ، ورايك راينا ، وبلاء القوم عندك في نفسك وعشيرتك ما قد ذقت ورايت .. فانصرنى وكن من دونى . »

فتفكر صبرة مليا يتدبر ..

انها لدعوة الى الثار سافرة . والى الفتنة . والى الانسلاخ من الطاعة . لها بلا ريب صدى في قلب كل موتور .. ولقد وتره على ووتر قومه . ونال منهم يوم الوقعة اذ هم سور حول عائشة حتى شاعت فيهم المقتلة كما لم تشع في غيرهم من الناس .. ومع ذلك فذاك بالأمس ، والأمس ذهب . الدم جف والجراح التامت . والعفو الكريم — مع القدرة — عن ارتدادهم عن بيعة على ، ونكثهم عهده ، قد مسح هونا على قلوبهم وماقيهم .. فهل يا ترى يعود كرة أخرى بقومه الى خلاف جديد ومحنة جديدة ؟..

لكأنى به قد تذاءب هنيهة بين النكوث وبين الثبات . بين الاستجابة لدعوة الثار والاستقامة على واجب الولاء . بين المشاركة في انقسام الأمة وبين الابقاء على وحدتها التى كادت أخيرا تلتئم بعد دم وقعقعة سلاح .. لكأنه كان نهبا بين واجبه وعاطفته . عقله وقلبه ، امته وقبيله ..

تلك اللحظات القلائل التى عاشها الرجل عندئذ كانت — فيما يلوح — دهرا طويلا من الصراع النفسى في دخيلته ، عانى ابانه ما لم يعان من قبل مثله في كل ما قطع من سنى الحياة . فكذلك تختبر الانفس . وكذلك تجرب الضمائر . والهنيهات التى يواجه المرء فيها مفرق الطرق ليحسم الى اين وجهته هى اشق محنة يجتازها واقدرها على تشكيل مصيره وتغيير اتجاه التيار ..

وبدا من صبرة كأنما حزم أمره فطالع ضيفه بوجه باسر لا تكاد بشرته تنم عما وراءه ، ثم عرض عليه ما تمليه شيمة الأريحية العربية التى تأبى أن ترد طالب حاجة ، لائذا بالكنف ، عائذا بالجوار ..

قال في هدوء :

« ان أنت اتيتنى فنزلت في دارى نصرتك ومنعتك .. »

فكان بهذا العرض ، من دعوة ضيفه ، لا الى الرفض ولا الى القبول ..

لكن هذا الرد منه راق ابن الحضرمي لانه نضح بالرد المأمول ، وأفسح له الأمل في نجاح بعثته . فلم ير خيرا من ان يقول ، كاشفا عن رضاه واعتذاره في آن :

« .. لولا ان امير المؤمنين معاوية أمرنى ان انزل في قومه من مضر .... »

فعقب صبرة على الأثر :

« فاتبع ما أمرك به .. »

وخرج وافد عاهل الشام من لدنه مطمئن البال وقد حسب انه كفى بهذا الحديث امر الأزد فاحتواهم بجعبته وضمهم لجمهور انصاره. ولو درى الرجل لسارع الى اقتناص دعوة الجوار التى عرضها صبرة عليه في لحظة اريحية ، ولما غادر الأزد ليلحق بمضر وانه ليعلم أن هذه الأخيرة موالية لمولاه لا يغيرها عليه نزول وافده في غيرها من القبائل . ولكنه آثر التزام امر أميره واحتذاء خطته بالشبر والفتر ، بغير ترخص ولا تبديل ، فخلى جوار الأزد لمن شاء — غيره — أن يلتمس فيه الحماية . وقضى بهذا على نفسه وامره بالوبال ..

والواقع ان طبيعة التقاليد العربية ، في تلك الآونة ، كان لها اكبر اثر في توجيه الأحداث ، وفي تحويلها أحيانا عديدة عن المجرى الذى يظن انه كان لابد لها أن تسير فيه .. وما أكثر ما لهذه التقاليد من اصول وفروع !.. وما ارحب جنبات الميدان الذى تمارس صولتها فيه !.. فهى مرة منافرة ومباراة على التفوق بين خصمين رهانا برهان . وهى مرة ثانية نخوة وتعظهم ينشآن عادة من تملق الغرائز والعواطف الخرقاء فيسدر المرء — حتف عقله — في سلوك لا يلائم مقتضيات الواقع ولا تمليه طبيعة الأوضاع . وهى مرة ثالثة التزام اختيارى بحماية اللاجىء المستجير ، ولو كان عدوا موغلا في العداء ،

ومنعه كما يمنع الطفل والنساء .. وفي كل صورها والوانها نراها تفرض نفسها في المجتمع العربى على الاحداث كقوة محركة ، دافعة او معوقة ، تؤثر أبلغ الاثر في سير التاريخ ..

تقاليد قد تبدو لأول وهلة مجرد ظاهرات اجتماعية لا تزيد على ما عداها وأشباهها من مألوف العادات ، ولا يكاد يظن لها ان تنشط الا ببيئتها الطبيعية — في اطار سلوك الأفراد — فاذا هى لا تلبث أن تطغى كالسيل وتستشرى كالنار ، فتقتحم السدود وتخترق الأسوار ، ثم تذهب في تغيير المصاير وتشكيل الغايات الى ابعد النتائج واقصى الآماد ..

ودع الامثلة فهى كثيرة تترى بها الصحف ، وتتواتر الروايات . فما خلت بعد أخيلة العرب من بقية اثر لقصة المنافرة القديمة بين هاشم وامية التى انشبت بين البيتين تنافسا عنيفا ، قوامه الإدلال بالقدرة ، ما زال يتحدر في عقبيهما حتى تمثل اليوم ، في على ومعاوية ، خلافا دمويا ترامى مجاله على طول أرض الإسلام . وما غابت ايضا عن الاذهان تلك النخوة الجامحة التى ابتعثها غلو عائشة في الثناء على العشائر العربية بالبصرة غلوا تحلهم من الفخر وعلو القدر ما فتنهم عن انفسهم فنقضوا بيعتهم ، ثم فتنهم بالجمل فذادوا عنه ذيادهم عن اقدس المقدسات . وما يمكن الآن ان نغفل هذه الأريحية التى استقبل بها صبرة بن شيمان ضيفه وافد معاوية ، وعرض بها عليه حمايته ومنعه لو انه نزل في رحابه وشاء لنفسه أن ينتفع بما تفرضه اصول الجوار ..

المنافرة يشبها هنا معاوية من جديد ، محاولا ان يحتاز البصرة بيمينه وسيلة من وسائل شتى اعدها للسيطرة على الدولة بملكها الواسع العريض . والنخوة يثيرها ابن الحضرمى من خلال التلويح بما كان للأزد ، وغيرهم من اهل الإقليم ، من « امجاد » أيان الجمل ، لا اعترافا بفضلهم بل تذكيرا بصرعاهم يوقظ في نفوسهم ولعها الجاهلى للثأر . ومنعة الجار التى تسربت من بين اصابع مبعوث الشام ، تجد من ينقض عليها كالصقر ، يحوزها ، ويدفع بها الى حلبة الصراع ، لتلعب دورها التقليدى في تغيير سير الاحداث .

كان زياد بن عبيد عند ذاك اميرا للبصرة بالاستخلاف . استخلفه ابن عباس عليها عند مخرجه للكوفة لتعزية الإمام في ابن أبي بكر . وكان ، مذ اقتحم ابن الحضرمي عليه ارضه ، يعيش كالمضيع . يوشك الا يعرف موضعا لقدمه في زحام الحوادث التى تتابعت سراعا ككسف الغيم في يوم عاصف وقد تدافعتها الرياح الهوج ..

في خلال أيام ، وربما ساعات ، بدا للرجل كأنما تشابكت وانتكثت الخيوط . الأمور تضطرب . الصدور تموج . الهدوء يلتحف بالتذمر .. ليكاد يوقن الآن أن الارض غير الأرض ، وان الناس غير الناس . فالبصرة تغيرت عليه . رفاق امسه ذابوا في هرج النقمة . الولى تنكر والعدو تنمر . وهو بين اولئك وهؤلاء في حيرة . إن استطاع أن يفكر فلا يستطيع أن يدبر . وإن وسعه أن يعزم فلا يسعه أن يحسم . فما هو إلا خليفة لابن عباس على المصر ، ليس في نطاق مهمته غير ان يرقب ويتابع ، ثم يبعث بالخبر ويطلب الراى من الأمير ..

وهاله ان تتهاوى هيبة الدولة من حوله كقصر من الرمال .. فقد علا شأن ابن الحضرمي واستفحل . واكبته العشائر . ترامت اليه الجموع . كثر تبعه وعز ناصره . اما شيعة على الذين كانت لهم من قبل الكلمة فقد غدوا على تخاذل . واما من عسى كان يرتجى منهم العون سواهم من قادة الراى في الإقليم ، فقد وقفوا موقفا غريبا ليس اشبه بهم وليس انسب له . انأى عنهم ، وابعد عن ظنه !..

واحس أن ظله يتقلص . ما تحت يده من رقعة عمله اصبح الآن محصورا في دار الإمارة ، لا يمتد إلى ما يجاوز الجدران !.. وهو بعد لا يدرى إلى متى يبقى له هذا الظل وما من رجل في اصحاب على يتقدم إليه بشيء من راى او من قوة يشد ازره ويسند ظهره ..

ولم يكن زياد بالذى يتطير . ولا بالكلف بالانحياز للريبة . ولكن سلوك ذوى ثقته لم يكشف له إلا عن الجوانب السوداء في الأمور .

وكفاه ان دعا إليه بعض سادتهم يعرض الموقف عليهم ، مستطلعا الراى ، وطالبا العون على كبح الفتنة المقبلة ، فلم يحظ منهم إلا بما يزيد قلقه ..

اوما لهم إلى دعوة ابن الحضرمى ، وانفجارها المدوى بين الناس :

« .. إنكم انصار امير المؤمنين وثقته . وقد جاءكم هذا الرجل بما قد بلغكم .. فأجيرونى حتى يأتينى أمر امير المؤمنين ورايه .. »

فأما احدهم فإنه موه ، فطالعه برد ظاهره استشارة قومه ، وباطنه تراخ وتخاذل .. إذ قال :

« هذا امر فيه نظر .. ارجع إلى من ورائى ، وانظر واستشير .. »

واما الآخر فقد أطلقها عبارة في كلماتها معنى الإقدام ، وفي جرسها فتور التردد :

« .. نحن فاعلون ، ولن نخذلك .. ولن نسلمك .. »

ولم يسترح زياد لما سمع . بل لعله ارتاح إذ عرف به خافية انفسهم فايس منهم وقد ايقن انهم لابد قاعدون عنه او خاذلوه .. فمعرفة الشر المنتظر خير من توقع خير موهوم . واليأس راحة على اية حال !..

عندئذ نفض منهم يده . فلا حيلة له فيهم . ولا طاقة بحملهم — حتف رغباتهم — على ما يشاء .

وقلب عينيه في اقوام اقليمه لعله يقع بينهم على نصير ، فإذا البصر يعود حسيرا إليه كأنما قد جال في فضاء رحب به ظلام فوقه ظلام !.. أو كأنما ارتاد غرفة مغلقة بغير كوى دارت بها النظرات حائرة تتخبط من جدار لجدار !.. فمضر عليه . وتمـ م ترامت إلى عدوه . والأزد لا أمل فيهم وموقعة الجمل ما زالت تفصل بينهم وبين على بن أبى طالب بسور ضخم من جماجم صرعاهم التى لا تنى تتنادى بالانتقام !..

وتذاكر الأمير الموقف وهو متقل القلب والفكر ، مع رفيقه ابى الأسود الدؤلى ، لينفض بعض ما يضيق به صدره ، وإن علم ان الامر قد اعضل وغدا عصيا على المذاكرة والنقاش :

« أما ترى ؟.. صغى اهل البصرة إلى معاوية . وما في الأزد لى مطمع .. »

فالتمعت على الأثر عينا الدؤلى .

الأزد !..

إن اللفظة لتحمل في حروفها قبسا من نور خليقا بأن يلقى شعاعا يضيء للأمير بعض الطريق !.. املا في غد !.. منفذا إلى الخلاص !..

كمثل خطفة البرق سطعت في خاطر ابى الأسود فكرة عابرة .. لعلها لمحة إلهام .. أو لعلها نتاج فطنة لم تكن ـ فيما بدا ـ لصاحبه ، وتفرد بها دونه عقل الدؤلى الذى هيأته طبيعته الذهنية للاستنباط الموفق السريع .. فلقد كانت للرجل ـ لا ريب ـ قدرة على استخلاص النتائج من المقدمات ، والنظريات من العموميات نعرفها له فيما استخرجه من كلام العرب من قواعد النحو التى تحكم اللغة وتسير بها على سننها السليم . وهذه القدرة هى التى يسرت له أن يغوص في الموقف الضنك الذى يقفه زياد ، ليأتى له بما قد يصلح شأنه ، ويحل عقدته . تماما كالغواص الذى لا تلفته ثورة البحر ولا ما يغطى صفحته من الزبد أو العشب عن انتجاع ابعد المواقع في قاعه وهو عليم بموضع اصدافه التى تحتوى درها الثمين ..

هنا يتبدى لنا ابو الاسود الدؤلى رجل سياسة متفتح الافق طويل الباع لا يعسر عليه ان يستقبل الأزمة العارضة بالعلاج الذى يكف عاديتها ، ويروضها ترويض فارس بارع لفرس جموح . وكيف يعسر عليه ان يفعل ، وقد عايشها في بيئتها ، بكل ظروفها ودواعيها ، منشأ وغاية ؟.. إنه إذن ليس بالفطن الذى يستنبط ويستخرج إن لم يسعفه ذهنه باستخلاص « قاعدة » تستطيع ان تتحكم في الموقف وتسير به على النسق المرغوب !..

وتريث هنيهة وقد زوى ما بين عينيه ..

الأزد !..

ثم قال للأمير :

« .. إن اصبحت فيهم منعوك . »

فهذه هى القاعدة !.. ان يطوع الأوضاع الاجتماعية لخدمة قضيته . ان يستخلص من التقاليد العربية مفتاح الحل . ان يطبق نظرية « الجوار » !..

وقلبت عبارته الأوضاع !..

فقد هب زياد على الأثر ، يبعث لصبرة :

« يابن شيمان .. انت سيد قومك ، واحد عظماء هذا المصر ، فإن يكن فيه احد هو اعظم اهله فانت ذاك .. افلا تجيرنى ، وتمنعنى وتمنع بيت مال المسلمين فإنما انا امين عليه ؟.. »

ولم تتنكر الاريحية العربية لطبيعتها فلم يتأخر الجواب ..

رد صبرة :

« إن تحملت حتى تنزل في دارى منعتك .. .. »

وعادت الطمأنينة الى قلب زياد .

٤

خرج من دار الإمارة بليل ، مستخفيا بالظلام . كأنما ليكتم عن العدو حركته . او ليتقي نظرات الأعين الشامتة . او لينأى بمال المسلمين ان تغتصبه فئة قد هان عليها سلطانه .. فما كان يملك بعد ان يرد عن نفسه ، وما في يمينه ، عادية من قد يعرضون له بسوء وانه عندئذ لمستباح الحرمة لم يبلغ مأمنه ..

وخلا منه القصر كما عطل هو من سمة السلطة بخروجه وان يكن استبدل بهما كليهما دار طمأنينة هي اروح لباله وامنع له .. فالبصرة الآن مرتع ثرى هين لابن الحضرمي واصحابه ، ينشرون بها دعوتهم المتمردة ما شاءوا . ويملكون منها ما شاءوا . وبغشونها بسطوتهم وقد غلبوا على ارجائها ونواحيها ، إلا ذلك الحى الأزدى الذى اصبح منها مثل جزيرة من الولاء في بحر صاخب من العداء والخصومة ..

حتى معالم الإمرة المظهرية قد اغتصبوها منه . فلهم انتهت إمامة الصلاة . وهم الذين يجبون المال . وفي أيديهم سياسة الأمور . والإقليم يعنو لهم ويخضع ثم يصغى وراءهم لمعاوية صغيا كأنه قرية من قرى الشام تقع في نطاق سيفه وماله !..

ومع ذلك فنحوة الأزد كانت له !.. بكل روحها ساندته .. بأيدها وغيرتها . بباسها وشوكتها . باندفاعها المغامر الذى جل عن تصوره وارتفع الى ما فوق طموحه .. فإن هى إلا ليلة قضاها في جوارهم حتى طلع عليه صبرة مع اول شروق يقول :

« .. ليس حسنا ان تقيم فينا مختفيا اكثر من يومك هذا .. » .

فرفع زياد إليه نظرة لعل فيها من اثر البغتة اكثر مما احتوته من ملامح التساؤل .. لكن الجواب المنتظر لم ترسمه عبارة ، وإنما جسدته أعمال ..

فيما لا يكاد يستغرق وقتا ملحوظا كان سيد الأزد قد عوضه ما سلبته الفتنة من مظاهر السلطان .. أعد له مسجدا للصلاة ، ومنبرا للخطبة ، وسريرا للحكم ، وشرطا للأمن والحراسة . فهو إذن قد ارتدت له مقومات الإمارة : هيئة وكلمة وعدة ، لولا ان انحسر ظله عن بعض رقعة الأرض التى كان يغشاها بنفوذه ..

ومارس زياد مهمته على الفور ، فأم « شعبه » الأزد في صلاة الجمعة بمسجد الحدان الذى جعلوه مركز دعوته وحكمه . وصعد المنبر يخطب الجموع :

« يا معشر الأزد .. إنكم كنتم أعدائى فأصبحتم اوليائى .. ولو كنت في بنى تميم وابن الحضرمى فيكم لم أطمع فيه أبدا وانتم دونه . فلا يطمع ابن الحضرمى في وانتم دونى .. .. »

وتمهل قليلا ، ثم عرج مترفقا على ماضيهم :

« .. يا معشر الأزد .. ليس ابن آكلة الأكباد في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان بأدنى إلى الغلبة من امير المؤمنين في المهاجرين والأنصار . وقد راينا وقفتكم يوم الجمل ، فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل .. .. »

ثم ختم كلامه :

« .. إنكم لا تحمدون إلا على النجدة ، ولا تعذرون على الجبن .. وقد اصبحت فيكم مضمونا وامانة مؤداة !.. »

فالتهبت قلوبهم نخوة . وهب شيمان أبو صبرة يهيب بقومه :

« .. ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر !.. قد كنتم امس على على فكونوا اليوم له .. فأنتم حى مضماركم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء .. .. »

وعقب ابنه بعده :

« .. .. لسنا نخاف من على ما نخاف من معاوية .. وهذا

زياد جاركم والجار مضمون ، فهبوا لنا أنفسكم ، وامنعوا جاركم او فأبلغوه مأمنه .. .. »

وكذلك انشطرت البصرة شطرين بين الأزد ومن عداهم كأنما غدت امارتين كل أمارة منهما في طاعة امير وسلطانه تماما كانقسام الدولة نفوذا وولاء بين على ومعاوية . ولئن قيل ان مبدا من المبادىء — جادا كان أو موهوما — هو الذى شطر وحدة الأمة الإسلامية ، فليس عن ذلك المبدأ نفسه ، ولا عن سواه ، انقسمت البصرة وافترق أهلها فرقتين ، وإنما الذى أدى بها إلى وضعها ذاك ما ركب في طبائع العرب من حرص بالغ على رعاية تقاليدهم والوفاء لها أعظم الوفاء وإن خاضوا إلى وفائهم هذا بحارا من الدم ، واجتازوا دروبا طويلة من الأشلاء والجماجم .

لا مراء في أن انضمام الأزد إلى زياد لم يكن منهم ولاء لعلى ، ولا رعاية لمبدأ ، ولا نصرة لرأى ارتأوه إذ قامت الحجة على رجحانه فظاهروه على ما عداه . فلو كان لمبدأ في نفوسهم مكانة تعطفهم حينذاك على الرجل لما رحب صاحبهم بابن الحضرمى عندما اقبل ولا اوشك أن يفسح له في رحابه . ولو انهم حقا كانوا يكنون بضعة من ولاء لأمير المؤمنين لثاروا بوافد معاوية ، ولوقفوا دونه ودون بلدتهم ان يدخلها من البدء أو يجمع أهلها حول دعوته . ولو شاموا رأيا خليقا بالاتباع والمناصرة في حديث زياد لشمناه معهم ، فليس بالحديث ما يطالعنا بفكرة جديدة او حجة مقنعة ، وكل عباراته استثارة للنخوة وتدرع بالجوار ..

إنما التفاخر هو الذى حركهم ودفعهم للالتفاف بالأمير الذى انفض عنه الناس . فالعار كله أن يستنجد بهم فلا تسعفه نجدتهم ، وان ينزل في جوارهم فلا يجد عندهم حق الجوار ، والعار كله ، وقد أجاروه ، أن يعز جار تميم ويهون جارهم على أهل الإقليم . والعار كله ان يصبح ابن الحضرمى ذا صولة ويبقى زياد ، وهو بين ظهرانيهم ، عاطلا من مظاهر القوة ومقومات السلطان !..

هى إذن منافرة بينهم وبين تميم ومباراة على اى الفريقين اثبت في المضمار واقدر على الانتصار .. اما مظاهرة الحق على الباطل ، واما حماية وحدة الدولة ان تمزقها فتنة ، وأما الطاعة لعلى صاحب السلطة الشرعية في البلاد ، فكلها ليست اصلا لوقوفهم موقفهم هذا ، بل هى ذيل وتبع للغيرة على سمعتهم ان يقال اخلت الأزد بواجب الجوار !..

على هذا النحو سارت الأزمة وابلغت الكوفة بأمرها في كتاب ، بعث به زياد إلى اميره ابن عباس :

« .. .. ان عبد الله بن عامر بن الحضرمى اقبل من قبل معاوية حتى نزل في بنى تميم ، ونعى ابن عفان ، ودعا إلى حرب ، فبايعه جل أهل البصرة . فلما رأيت ذلك استجُرت بالأزد ، بصبرة بن شيمان وقومه لنفسى ، ولبيت مال المسلمين .. .. والقصر خال منا ومنهم .. .. فارفع الامر إلى امير المؤمنين ليرى فيه رايه ، واعجل إلى بالذى ترى ان يكون منه فيه .. .. »

وليس هذا الكتاب ـ فيما اخال ـ باول نبا وصل الكوفة عن دخول ابن الحضرمى البصرة ، ولا عن دعوته المعادية بها ، ولا عن اعتزاز شأنه فيها بامتناعه بمن بها من بنى تميم .. فلقد جرى الذكر بأن تميم الكوفة خشيت أن يستفحل الامر فتقع الحرب بين الأزد وبين عشيرتهم في البصرة ، فأسرع منها من يشير على الإمام وهو يرجو السلامة لقومه من خلال ابتغاء السلام !..

قال له :

« يا امير المؤمنين .. ابعث إلى هذا الحى من تميم ، فادعه إلى طاعتك ، ولزوم بيعتك ، ولا تسلط عليهم ازدعمان البعداء البغضاء !.. فإن واحدا من قومك خير لك من عشرة من غيرهم .. »

وساءت عبارته هذه رفيقا من ازد الكوفة ، فثار :

« إن البعيد البغيض من عصى الله ، وخالف امير المؤمنين ، وهم

قومك !.. وأن الحبيب القريب من أطاع الله ، ونصر أمير المؤمنين ، وهم قومي !.. »

تفاخر آخر !.. ادلال بالمكارم والميزات يهم أن ينفث سمه ، ويوقع النفور والتباغض بين حليفى الكوفة وقوعهما بين عشيرتيهما في ارض زياد !.. لكن الإمام كان أسرع إلى حسم الداء ، فصاح بهما ينهرهما ومن وراءهما لدنه من الأزد وتميم ، ويؤدبهم جميعا بأدب القرآن :

« .. تناهوا أيها الناس !.. وليردعكم الإسلام ووقاره عن التباغي والتهاذى ، ولتجتمع كلمتكم .. .. واذكروا إذ كنتم قليلا مشركين ، متباغضين متفرقين ، فألف بينكم الإسـلام فكثرتم .. فلا تفرقوا بعد إذ اجتمعتم . ولا تباغضوا بعد إذ تحاببتم .. .. فأما تلك الحمية من خطرات الشيطان فانتهوا عنها — لا أبا لكم ! — تفلحوا وتنجحوا .. »

وقد اخذ الإمام بالمشورة فاستنفر تميم الكوفة أن يفرقوا عن ابن الحضرمي عشيرتهم بالبصرة التى آوته ونصرته واعزت شانه في الاقليم .. ومضى يكرر دعوته فيهم . ويحثهم أن ينهضوا لها حماية لقومهم أن تقع بينهم وبين جيرانهم الأزد حرب قد لا تحمد مغبتها عليهم ..

لكنهم ، فيما بدا ، لم يصغوا له ، وإن ظل أياما عدة يهيب بهم ، وينتظر منهم أن يلبوا نداءه .. فما نهض منهم احد . ولا قام عنهم بالأمر غيرهم من أصحابه . بل بقوا ، والكوفة وراءهم بجميع شعبها ، كدابهم اجمعين في هذه الفترة في مختتم عهده ، سادرين فيما استمرأوا من تهاون وتخاذل وثبوط همة ، يستقبلون ما يطرأ من الحوادث — خطيرها كصغيرها — بغير احتفال !..

وضاق أخيرا بموقفهم :

« .. أليس من العجب أن ينصرني الأزد وتخذلني مضر !..

واعجب من ذلك تقاعد تميم الكوفة بي ، وخلاف تميم البصرة على !..
وان استنجد بطائفة منها تشخص إلى اخوانها فتدعوهم إلى الرشاد

فإن اجابوا وإلا فالمنابذة والحرب فكأنى اخاطب صما بكما لا يفقهون حوارا .. جبنا عن الناس ، وحبا للحياة !.. »

وصمت هنيهة . إن العزم الذى كان يملأ القلوب بالأسى ، ويدفعها إلى اقتحام المكاره والغمرات ، اباء للضيم ، وأنفة من الاستسلام

— ولو للأهل الأدنين — جدا في نصرة الحق واعلاء كلمة الله ، قد فتر اليوم . خبت ناره . بردت جذوته التى كان الإيمان يمدها من قبسه بما يشعل النفوس غيرة وتحولت إلى رماد !..

واتبع يقول :

« .. .. لقد كنا مع رسول الله فقتل آباءنا وأبناءنا واخوتنا واعمامنا ، ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما .. فلما رأى الله صدقنا ، أنزل بعدونا الكبت ، وأنزل بنا النصر ، حتى استقر الإسلام .. .. ولعمرى لو كنا نأتى ما اتيتم ، ما قام الدين عمود ، ولا اخضر للإيمان عود .. .. »

ثم رماهم بنظرة أسف وزراية ، وهو ينهى حديثه :

« .. وايم الله لتحتلبنها دما ، ولتتبعنها ندما !.. »

فلعل كلماته تلك فعلت بعض فعلها في نفوس طائفة منهم ، فتهامست مليا ، ولغطت ، ثم أقبل بعضها على بعض يتلاومون .. كيفما كان أمرهم فإن احدهم قد حركه اللوم ، وأثار غيرته ، فانبرى من بينهم يعتذر :

« لا تسأ يا أمير المؤمنين . ولا يكن ما تكره .. »

« ألم يبلغك ، يا أعين ، أن قومك وثبوا على عاملى مع ابن الحضرمى بالبصرة ، يدعون الى فراقى وشقاقى ، ويساعدون الضلال القاسطين علي !.. »

« فابعثني إليهم !.. انا لك زعيم بطاعتهم ، وتفريق جماعتهم ، ونفى ابن الحضرمي من البصرة او قتله .. »

« فاخرج الساعة . »

غير أن الحوادث بمستقر الفتنة لم تكن لتقف حيث هي لا تتقدم حتى يقدم اعين بن ضبيعة من الكوفة ليهدى قومه .. فللحوادث احيانا اقدام تمشى ، واحيانا تعدو ، واحيانا اخرى لها اجنحة ترفرف لتطير !.. والشرار يلد الشرار فينتشر وتندلع النار !..

في لحظة من لحظات زهوهم بما ادركوا من غلبة وبلغوا من نصر ، شاءت تميم وقيس ان تجمع لحزبها الظافر بالبصرة مظهر السلطة الى جوار قوة الحول وبسطة النفوذ .. فالكثرة لها . ورقعة أرض الاقليم تحت ظلها إلا ناحية . والمال يأتيها من جوانب الولاية وارجائها جباية . وهي من العدة والعدد على النحو الذى يمكن أن تستقيم لها به كافة الأمور .. فإذا هي شاءت ان يتوفر لها أيضا « شكل » الحكم فإنها إذن لا تطمع بهذه المشيئة إلى محال لأنها لا تجاوز حدود ما هيأه لها الواقع الملموس ..

وكذلك ارادوا الاستيلاء « رسميا » على السلطة — بعد استيلائهم فعلا عليها — تحقيقا للغرض الأصيل من وفادة مبعوث الشام . وهل شيء ايسر عليهم وادنى منه وليس امامهم غير خطا قصيرة يقطعونها وينزل بعدها صاحبهم بقصر الامارة المهجور ؟..

ورحب ابن الحضرمي لا ريب بالفكرة على الفور ، وقد راقه انهم ترجموا عن ضميره ، واخذوا انفسهم بتنفيذ ما رسمه إلى آخر مداه .. فإن هي إلا ساعة من زمان ويبلغ وطره .. يقتعد الأريكة الخالية في القصر ، فيصبح عاملا على البصرة ، يضمها الى ملك الشام تحت سلطان صاحبه ابن ابي سفيان ..

واتعدوا ..

لكنهم ما تهيأوا للمسير حتى علمت الأزد فثارت حمية .. وبرزت لهم في فرسان كفرسانهم ، وعدة كعدتهم ، وعلى عزيمة وتصميم

الا يدخل القوم القصر إلا بقتال !.. فالهوان كله ان يجلس ابن الحضرمي مجلس زياد . وان تنفرد تميم وقيس بتنصيب الوالي . وأن يتحدث الناس ان الأزد لم تحفظ على جارها ما هو له ، وما لم يدعه ـ طائعا ـ لسواه . وليس ابن الحضرمي ، على أية حال ، لهم برضا يخلون بينه وبين الامرة عليهم وسياسة الأمور في الاقليم .. فأما إذا كان لابد اليوم من أمير ، فليكن إذن رجلا يرضاه أولئك ويرضاه هؤلاء ..

وتأزم الموقف ..

ذاع في الجو عرف الحرب وقد أبى كل فريق إلا ما رآه .. فإذا الصدور تغلي . وإذا القلوب تشتعل . وإذا السيوف تتعرى وتبعث بريقها يخطف العيون .. لا معدى إذن عن لقاء دام بين الحزبين ، يحسم الخلاف ، ويضع الفخر منهما حيثما ينبغي ان يكون .

وهال الأحنف بن قيس ذلك الخطر المحلق على الرءوس ، فمشى إليهما جميعا يحاول أن يهدىء الثائرة ، ويحد من الغلواء .. إن الرجل لعلى حيدة من كليهما ، قد كف يده منذ البدء عن الدخول في الأمر ، فهو لا إلى ابن الحضرمي ولا إلى زياد . لكنه يخشى ، إن هو تركهم وما هم فيه ، أن تتسع الهوة ، ويلجوا في عنادهم حتى الدم .. والحمية دائما عشواء عمياء !..

واستطاع بعد طول جهد ان يكبح الجماح ..

وانصرف الجمعان .

ومع ذلك فقد شق على جماعة ابن الحضرمي ما كان . فرأت أن ترمي القوم بسهم قاتل مما في جعبتها من مكر ، لعلها أن تخضد شوكتهم ، وتكسر حدتهم ، وتقضي على هذه المعارضة التي لا تظنهم ـ وإن جنحوا الآن للهدوء ـ مقلعين عنها ما بقي الجانبان في تنافس على نصرة مستنصر أو حيازة نفوذ ..

وهداها خبثها إلى خدعة هي السبيل المفتوح إلى تحقيق ما تريد .. فماذا عليها لو ادعت الحيدة من الخلاف الناشب بين العاهلين بالكوفة ودمشق ، ودعت خصمها أن يسلك وإياها سلوكا سلبيا

ازاءهما ، وازاء كل ما لعله قد يؤازر احدهما او الآخر ، من اشخاص واعمال ؟.. إنها إذن للسياسة الرشيدة الخليقة من كليهما بالاتباع ، والكفيلة بتجميد الموقف ثم حقن الدماء حتى تستبين الأمور .

وارسلت تميم الى الأزد :

« اخرجوا صاحبكم ، ونحن نخرج صاحبنا ، فأى الاميرين غلب : على او معاوية ، دخلنا في طاعته ، ولا نهلك عامتنا .. »

لكن الحيلة لم تجز على الأزد ، وكان جوابها على هذه الدعوة الخبيثة ، بلسان صبرة بن شيمان :

« لا !.. إنما كان هذا يرجى عندنا قبل ان نجيره .. ولعمرى ما قتل زياد وإخراجه إلا سواء .. .. »

٥

افترة هدات البصرة . قرت النفوس بها بعض قرار ، واظل ربوعها سلام ظاهر طفا على سطح الاضطراب !..

الأزد اراحها أن نجحت، في حسبانها ، وقادة الأحنف بن قيس فوقف خصمها عند القصر لا يجتاز تلك « الشقة الحرام ! » التي تمنعه طبيعة الوضع السياسى القائم بالاقليم أن يجتازها ، أو يعبث بحرمتها ، ما دام مجموع السكان لم يتفق على التغيير .. فالحاكم الشرعي هو زياد . والقصر ما زال قاعدة حكمه وإن أخلاه . وامتثال قيس وتميم ومن وراءهم نصيحة الأحنف بالكف عن اقتحامه فيه تسليم برأى الأزد ، واعتراف — رمزى على الأقل — بقدرتها على حماية الجار ..

وانصار ابن الحضرمى قبلوا الانسحاب — انصياعا للتعقل واخذا بسنة الدهاء — راضين ككارهين ، وكارهين كراضين !.. فأما الكره فلأنه حال بينهم وبين مظهر السلطة المنشود ، ولو إلى حين . واما الرضا فلأنه اسلوب عمل صاحبهم وجادة سلوكه في حدود الخطة التي رسمتها الشام .. فما قطع وافد معاوية كل هذه المراحل الطويلة إلى الجنوب البعيد ليدخل البصرة عنوة ، أو ليغتصب امارتها بحرب حامية على بحر هائج من الدماء هو القادم إليها في حفنة قليلة من الأعوان . بل قد جاء ليتسلل إلى نفوس اهلها ، وليختلس أرضها وسلطانها اختلاسا بانقلاب سلمى هادىء او بثورة باردة بيضاء !..

غير ان الاحداث ابت إلا ان تعجل القوم عن هدوئهم وتسرع إليهم بلحظة الحسم التي كان لابد ان تكون . فليس من طبيعة الأمور ان يسود السلام اقليما انشق اهله ، وتنازع مصيره فريقان منهم يتصارعان على النفوذ . وليس ايضا بمقبول أن تجمد الدولة فلا تتحرك وهي ترى جزءا منها يوشك ان يقع في براثن فتنة تفصله

عنها وتقتطمه نهبا مباحا لمتمرد خارج على النظام . وليس كذلك مما يساغ ان يصبر إلى الابد على هذا الوضع المتميع فريق لمست الظفر انامله ثم لا يمد إليه يده قيد اصبع ليحتويه في قبضته !..

تلك كانت العوامل والأحاسيس المحركة للظروف والموجهة للأحداث ووافد أمير المؤمنين يمضى شوطه من الكوفة ليدعو اهله وعشيرته بالبصرة أن يرشدوا فيلزموا الطاعة ويصموا الأذن عن وسوسة الشيطان !..

بدأ اعين بن ضبيعة مهمته خير بدء ، وكما ينبغى ان يبدأ مثلها سفير . فلم يتجه لقومه وإن كانوا عساهم قد علموا بحضوره ، وإنما جعل همه ، من اول خطوة خطاها ، زيارة زياد ، إعلاما له من جانب بوفادته ، وإشعارا لجمهور السكان ، من جانب آخر ، إنه الأمير الذى يجب أن تحط عنده الرحال ولا محط لقادم عند سواه ..

وتذاكر الرجلان الأزمة . وأدلى كلاهما فيها بما يراه . ثم زودهما ، بعد قليل ، بريد الكوفة برأى أمير المؤمنين :

« .. إنى قد بعثت بن ضبيعة ليفرق قومه عن ابن الحضرمى . فارقب ما يكون منه . فإن فعل وبلغ من ذلك ما يظن به .. فهو ما نحب. وإن ترامت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان .. فجاهدهم .. وإلا فطاولهم .. فكأن كتائب المسلمين قد أطلت عليك .. » .

وقال اعين لزياد وقد سمع ما في الكتاب :

« إني لأرجو أن يكفى هذا الأمر إن شاء الله .. » .

ثم خرج يشتد لتحقيق ما ندب له .

إن الكيل قد امتلأ وفاض . وسيرة الحسنى التى سارها الإمام في هذه الأرض ــ عفوا ورحمة ــ لم تلق ، فيما يلوح ، عند قومها ما هى أهله من العرفان والوفاء . فالصبر إذن عليهم نقيصة ، والتسامح ضعف ، وليس لهم عند حاكم يعرف تبعته ، ويستشعر حق امته عليه إلا الحزم الذى يقطع ويردع ، وآخر الدواء الكى فيما يقال !..

بهذه النظرة انطلق اعين ليجتمع ببعض قومه يبصرهم الأمر ، ويحثهم ان يجتنبوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منهم خاصة :

« .. على ماذا تقتلون انفسكم ، وتهريقون دماءكم على الباطل مع السفهاء الأشرار ؟.. » .

ثم حذرهم :

« .. إني والله ما جئت حتى عبيت إليكم الجنود . فإن تنيبوا إلى الحق يقبل منكم ، ويكف عنكم . وإن ابيتم فهو والله استئصالكم وبواركم .. » .

فقبلوا منه . ومضوا وإياه إلى إخوانهم الذين التفوا حول دعوة ابن الحضرمى ، يحاولون معه نصحهم لعلهم يرشدون ..

لكن العصيان الذى خامرهم وترسبت في نفوسهم رواسبه حملهم على استقباله اسوا استقبال .. ما ان حل حيث كانوا حتى اسرعوا إليه بالسخط كانما قد جاء يدعوهم لغير الوفاء والشرف والسلام !.. بل قد خرجوا إليه مصطفين في العدة والسلاح !.. بل قد حشدوا حشودهم له كانه هو جيش وحده لا يجمل بهم لقاؤه إلا وهم على اهبة القتال !.. بل قد قدموا ابن الحضرمى امامهم يحفون به . ويلتفون حوله كانه علم الكتيبة ، إمعانا في التحدى ، وإغراقا في المجاهرة الرعناء بالمخالفة والعداء !..

وعجب الرجل لهذا السلوك منهم وإنه لابن عشيرتهم ، الناصح لهم ، الأمين عليهم ، القادم عبر تلك الشقة الطويلة المضنية ليكف عنهم البلاء .. وراح من إشفاق يناشدهم الله :

« يا قوم .. لا تنكثوا بيعتكم ، ولا تخالفوا إمامكم .. » .

ثم مضى يشرح ويبين ، آنا يذكر ، وآنا يحذر . فمنهم من يصغى، ومنهم من يعزف عنه ، ومنهم من يقطع عليه الحديث في تبرم وإنكار او في لدد سافر وعداء صريح ..

ومع ذلك فقد سار شوطه ، وشحذ كل منطقه وهو يحاور ويجادل، يبصر وينور ، يمنى وينذر . وماله لا يفصل وقد بدا له من ملامح

الوجوه ومن رشاش اللغط المتناثر من هنا ومن هناك أن ثمة ما يومىء إلى تصدع طائفة غير قليلة من الحاضرين عن ابن الحضرمي تصدعا يكاد يخرجها من صفوفه ، ويعود بها ـ وقد انجابت عن عيونها غشاوة الغي ـ إلى طاعة الإمام ؟..

ولقد كان من الطبيعي ان تهول هذه الظاهرة الخطرة حاملي دعوة ابن الحضرمي الباذرين معه بذور الشقاق . فما مآل حديث اعين إلا ان يرفع الاكنة عن قلوب كثيرة فتري النور . وما غاية النور إلا ان يبين ويهدى ، فتهدأ الخواطر وتثوب الألباب . وما نتيجة استنارة العقول إلا تصدع جمعهم ، وانفضاض جمهرة اعوانهم عنهم التي تابعتهم من قبل بروح القطيع وتهافتت عليهم تهافت الفراش ـ مسلوب الإرادة ـ على النار !..

جزعت إذن هذه الفئة المشاقة الغالية في العداء للإمام وهي تلمح الأثر الذي يتركه حوار ابن ضبيعة في الناس ، وخشيت إن هي املت له في الحديث ان ينقلب الأمر ، فتنطفىء نارها ، وتذهب قوتها ، ويتهاوى ذلك الصرح الشامخ للفتنة الذي اقامته بالخداع والدسيسة ليصبح غبارا تذروه الريح .. وعندئذ نشطت للعمل واخذت نفسها بالتصدى لأعين ، وللذين مالوا إليه ، لعلها ان تدرا عاديته عن دعوتها ، وتخرج من المحنة التي اغرقها فيها بخير ما تستطيع ..

ولم يكن لها ان تقابله حجة بحجة وبرهانا ببرهان لان الحوار في مثل هذا المقام له لا عليه . فهو ينضح عن قضية الوفاء بالعهد ، والولاء للدولة . وهو قادم لسلام يجنب الناس انقساما يشدهم لا محالة إلى دم .. وهو يأخذ على يد القوم ان يصبأوا إلى الوقوع ثانية فيما علمتهم التجربة وبال الوقوع فيه . وهو بعد هذا في فريق من اهله إن لم تعطفهم إليه صلة الرحم فقد عطفهم حرصه عليهم ان تقصفهم المصارع وتتخطفهم الحتوف ..

ليس بالمنطق يظهر صانعو الفتنة على اعين ، وإنما بدرء منطقه ان يبلغ المسامع ويرسخ في الافهام .. بعزل صاحب المنطق عن الناس وإن وقف فيهم لا تغيب هيئته عنهم ، وظل حديثه يجول بين الآذان.. بإقامة سور ضخم من الضجيج والضوضاء بينه وبين الإصغاء !..

وفعلوا .

ضجوا على اعين ، وشغبوا على حديثه بأصوات نكراء كالعواء .

والشغب دائما سلاح كل متهور عاجز ، وسلاح كل فتنة تفتقر من الحق او من القوة إلى ما تقدر به على التماس المسالك إلى العقول، لأنه السلاح الذى يستطيع صوته الهادر ان يطغى على ما عداه من أصوات ويملأ بهديره الأسماع ..

ولم ييأس الرجل ، بل ظل يعيد ما يقول ، ويكرر ما يعيد ، عسى ان تنفذ من ثغرة هنا او ثغرة هناك في سور هذا الضجيج كلمة او كلمات .. مرارا عديدة ثبت لهذه الضوضاء القاصفة ، وحاول ان يخترق سدها المنيع ، حتى مضت به عامة يومه ينصح واصحاب الفتنة يهدرون . يبصر ويضجون . يحذر ولا يكفون ، ومن ورائهم بقية الناس في معزل عن قوله ، لا يكادون يلقفون كلمة من عبارة ، ولا حرفا من كلمة ، او يعرفون لهم منفذا إلى الاستماع .. حتى إذا آده عنت أصحاب الصخب ، واعياه أن يحملهم على الإصغاء والهدوء . ثم أيس أن يرشدوا ويستقيموا ، صرح محاولا ان يذكرهم وبقية الجمع محنة امسهم القريب التى جرها عليهم مسلكهم الأحمق حين آثروا الخلاف والعصيان :.

« .. يا قوم ، لا تجعلوا على انفسكم سبيلا .. قد رأيتم وجربتم كيف صنع الله بكم ، عند نكثكم بيعتكم ، وخلافكم ... » .

فإذا بمثيرى الفتنة ، وقد أضلهم هواهم ، وأعماهم عنادهم ، يثورون به أعنف ثورة تجزيه عن حرصه على سلامتهم شر جزاء .. فقد أفحشوا له في القول ، فلغطوا عليه بأقذع السباب . ثم نالوا منه باللفظ والإشارة . ثم أوشكوا أن يذيقوه حينه ..

ورأى الرجل ألا مناص ــ لحظته هذه ــ عن الانصراف عنهم ، فغادر مكانه وهو اسيف حزين وإن يكن قد استشعر الرضا وراحة الضمير .. فكفاه ان فئة منهم وعت قوله في مستهل الاجتماع ولعلها تكون نواة الهداية وبشائر الجنوح للسلام في الإقليم . وكفاه ان بلغ

رسالته للكافة ، ولم يكذبهم الرأى والمشورة ، مبينا لهم مغبة التمرد والانقسام ..

وهل هو إلا نذير ؟..

لكن اصحاب الشغب غالوا — إلى العمى — في سخطهم وحقدهم عليه ، حتى لقد نسوا أنه منهم . وأنه قد أتاهم برسالة سلام ووئام لا برسالة حرب وضغينة . وأنه آمن بينهم — أو ينبغى عليهم ان يكون — على ماله ونفسه إذ هو رسول ..

نسى القوم هذه العوامل ، ونسوا معها كل شيمة كريمة ، فأبوا إلا التنكر لكافة ما تقضى به الشرائع ، وتوجبه قيم الأخلاق ، وتبرمه فروض التقاليد .. فإذا بجماعة منهم تتسلل إليه ، في جوف الليل ، وهو نائم برحله ، وحيدا بلا رفيق ، اعزل بلا سلاح ، وتنقض عليه بأسيافها تتعاوره لتقتله غيلة ..

واوشك اعين ان يفر منهم بجراحه وقد أيقظته الطعنات . ولكنهم لم يدعوه . إنما تبعوه في الطريق الخالى على خيط دمه وانين اوجاعه ، حتى مزقوا جسده وقضوا عليه ..

ونجح الغدر حيث أخفق الشغب فسكن المنطق الذى هالهم انتشار جرسه الوقور في الآذان ، وراعهم ان يسيطر على الأذهان ..

والتهب الموقف في البصرة من جديد نتيجة لهذه الفعلة النكراء ..

وعاد شبح الحرب ، كرة أخرى ، يطرق الباب ..

فلقد غضب مسجد الحدان لمصرع وافد الإمام .. غضب زياد ، وغضبت الازد معه بطبيعة الحال . ربما كان غضبها انتصارا للوافد ، وربما غيرة إنسانية للدم المراق .. لكنه لا ريب غضب قد انبعث من تشيعها لزياد ، ومن وفائها لتقاليدها العربية الكلفة عادة بإكرام الضيف ، ورعاية النازح الغريب ، وتأمين الرسل واصحاب الوفادات إذ هم امنة في اعتبار كافة الشرائع ، ايما كانوا ، وكيفما كانت الرسالات ..

٦

روعته النذر ..

في الجو رائحة عاصفة .. الهدوء يتحطم . الافق الصافي ينجاب صفاؤه ويتلون بالدكنة كأنما يلتف بدثار الليل . الغمام يتدافع ويتصارع ، ثم يتزاحم ويتلاحم ، ثم يلتئم كسفة واحدة شهباء تغشى السماء . البرق يخطف ويندلع كالحريق . الرعد يقصف فتترنح الأرض بهديره وترتعد رعدة محموم .. ومن وراء هذا كله سيول وصواعق تهم أن تنهمر وتنتثر ، لتنشر الغرق والنار والدمار ..

وتفكر مبعوث الشام .

وكان آونة كالحالم ، وآونة كالمبغوت .. فالصورة الآن ابعد عن ظنه واقرب إلى ما تسوقه صرعة كابوس !.. وذهنه فيها تائه ، ترامت امامه الأبعاد نائية ، وعمقت الاغوار سحيقة ، فكاد من حيرة يدور حول نفسه كدوامة !.. والخطر هذه المرة لا يخايل العيون والعقول من بعيد ، ولا هو متربص متاهب ينتظر ويرقب ، بل يوشك أن يطير بجناح !..

وقلّب الرجل أمره ما أسعفه عند ذاك جنانه ..

أفيكون أجدى عليه ، على نفسه ومجده ، وأقوم لسياسة صاحبه القابع هناك بدمشق يخطط ويدبر ، أن يخوضها الآن حربا سافرة على اعدائه ؟.. أم الخير في المطاولة — إرجاء للحظة الفصل ، إن وسعه إليها سبيل ؟..

كادت الغيلة الحمقاء أن تعجله عن أمره ، وتفسد تدبيره ، وتدفعه دفعا ، كأنما يحمله تيار جارف ، إلى مغادرة قلعة التريث المتحصن بها ، لتخرج به إلى الصراع في العراء المكشوف !.. حتى أمسه كان آمنا في حصنه ، يعمل على مهل ، من وراء جدر الإعداد الخفي ،

واسوار التآمر والدس ، ناسجا شراكه المتينة الدقيقة ليقتنص النصر ، ليختلسه .. ليمتصه قطرة قطرة والخواطر مسترخية او غافلة عنه .. اما وقد غدر أصحابه بأعين ، وقتلوه غيلة ، فتلك الغدرة هي الوخزة المؤلمة التي نبهت عدوه من الغفوة وحفزته .. فها هو زياد يتنمر بعد ضعف ووهن ، أو بعد تماوت وقبوع إلى المسالمة أو الاستسلام .. ها هي الأزد تشتعل حمية أن يجللها سكوتها على الغدر بصاحب جارها الهوان والعار .. هاهم شيعة وأعوان اخر للإمام في الاقليم ، كانوا إلى الأمس في تردد ، يقهرهم الموقف ـ إذ انكشف عن بصيرتهم الغطاء ـ على نفض ذلك الجمود الذى صفدهم به ، طويلا ، التخاذل ، وكبلهم الثبوط ..

وحقا قد نهض زياد في السلاح ، بالأزد جميعا ، وبمن فاءوا إلى الهدى والطاعة من شيعة الإمام ، وبمن عساهم كذلك أثارتهم الغدرة الفاجرة بين أهل الإقليم .. ولم يكن له إلا ان ينهض نهوضه ، في لحظته تلك على الفور وقد جاءته حماقة تميم بفرصة العمر دون أن يجهد فتيلا لتحريك الأحداث .. ولم يكن له إلا ان يفيد ما استطاع من هذه البادرة التي ـ عن سوء تبصر وانطماس وعى ـ اهدتها زلة عدوه إليه ..

ونوشك ان نجد الآن من يقول إن هذا النزوع المفاجىء إلى العنف الذى باغتهم به زياد ، كان مجازفة غير مامونة المغبة ، خليقة بأن تصبح نتيجتها عليه ولا تصبح له لو استقبلها ابن الحضرمى وحزبه بعزم ثابت ، او برد جرىء .. ولكنه قول من يحكم بعد أن تجمعت لديه شوارد الشواهد والادلة من هنا وهناك ، وعرف مواطن الضعف والقوة في كلا الفريقين المتنافرين كانما يقراها في كتاب أو يزنها بكفتى ميزان !.. وهو ايضا الراى الحرى بأن يبعد ، في تلك اللحظة ، عن ذهن ابن الحضرمى واذهان اعوانه هم الذين كانوا ـ إلى امس ، بل إلى ثوان معدودات قبل انتفاضة زياد ! ـ يدلون بالصولة والجبروت ولا يعلمون لهم بالبصرة كفئا يباريهم ، زيادا كان او غير زياد !.. فإن يكن ، مع ذلك ، ما اقدم العامل عليه يعتبر في المجازفات ، فهى إذن

المجازفة التى لا سلوك غيرها أولى بالموقف ، ولا اليق منها بصاحبها ، أو افعل منها وأبلغ اثرا في مثل هذا المقام ..

مجازفة فيها من اليمن قدر ما فيها من الأمن ، دلت عقباها على أنها المبادرة الحكيمة لا المخاطرة الرعناء !.. فقد اخذت العدو الصلف على غرة ، وفاجأت أفراده وجماعاته بغير ما قر في روعهم وخلد في اذهانهم حتى لأوحت إليهم أن بروز غريمهم لهم في السلاح هذا البروز لابد وراءه طاقة حرب مكتنزة ، قد أعدها خفية ، وعوض بها ما كان من افتقاره قبلها إلى القدرة على اللقاء !.. وهي ــ هكذا ــ كانت كفيلة بأن تهز ثقتهم القديمة بأنفسهم ، وتخرج بهم من نطاق الاعتزاز بشوكتهم ، والاطمئنان إلى ما لديهم من قوة وبأس ، وما ظنوه من تفوق واستعلاء .. وهي ، إلى جوار هذا وذاك ، بيان للناس ، يعلن للملأ ان سكوت العامل ــ إلى ما قبيل لحظة النهوض ــ على أصحاب الفتنة ، النافخين في حريق الخلاف ، لم يكن عن عجز أو رهبة ، بل كان صدى لميله الكريم إلى معالجة العصاة والخارجين على النظام بالصبر والترفق ، تجنبا للحرب ، وتشبثا بالسلام ..

ومع هذا ، فليس يجمل أن يزعم زاعم أن زيادا ، حين برز بأصحابه يومئذ في عدة الحرب ، كان قد بيت نيته على القتال ، فذاك ما لا تشف عنه شواهد الظروف ولا قرائن الأحوال .. إنما الأرجح الأدنى إلى منطق الأمور ، أن يذكر للرجل انه ــ بتعبير اليوم ! ــ قد « ناور » فأجاد المناورة ، أو موه فأحسن التمويه !.. فلا مراء في انه استطاع ان يظهر كمن كان على أهبة كاملة ، وعن طواعية واختيار ، لخوض معركة لابد له من خوضها ليحسم موقفا شق عليه اخيرا احتماله ، وليستعيد أزمة الأمور في يديه .. فأما ما يبطن ويوارى عن العيون والأفهام فالرغبة كل الرغبة في أرجاء الالتحام ــ إن لم نقل تجنبه ــ امتثالا واعيا منه لمقتضيات الأوضاع وأحكام الظروف المهيمنة ، حتى ساعته تلك ، على الاقليم ..

كذلك لا نحسب الرجل قد استخفه ان عز جانبه بعد ضعف ، وزاد انصاره بعد قلة ، فظن الظروف والأوضاع قد تحولت له ، فدانت لأمره ، وحشدت في صفوفه كافة عوامل النصر وإن كنا

لا ننكر انها ، حقا ، أبعدت عنه ، إلى مسافة غير قصيرة ، معظم احتمالات الهزيمة .. كلا . فما هو بالغافل عن الأغوار والابعاد تتغره المظاهر ، ولا بالأحمق فيخدع نفسه ويركن إلى الأماني والأحلام . وعندما نتعقب خبره ، ونتاثر خطاه على أرض الصراع ابان الأزمة ، لا نكاد نجد بسلوكه ، من قبل ومن بعد ، اثرا من نزق الحمق ولا من خطل الغفلة .. فها هو يرتضي من الأزد قرارها القاضي بكف الحرب ، ولما تنشب ، ولا يضيق به .. وها هو يجنح إلى الاستعانة كرة أخرى بمن عساه يعوض عليه ابن ضبيعة ويفرق بالدعوة اصحاب الفتنة ، فيحقق بالرفق ما قد يحقق القتال .. وها هو في تصرفه ، على نحويه ، يلتزم بسياسة المطاولة التى نصحه بها الإمام ، ويؤثرها ، عادة ، كل حريص متبصر يأخذ نفسه بتجنب المخاطرة حتى تستقيم الأمور له ، وتتجمع في يديه مُقومات الغلبة جميعها على وجه اليقين والقطع لا على وجه الاحتمال والترجيح ..

وإذن فلم يسؤ زيادا من الأزد أن تخلت عن القتال ، وفضت حشدها مستجيبة لطلب عدوه حين بعثت إليها تميم من يقول :

« .. .. والله ما عرضنا لجاركم إذ أجرتموه .. .. فما تريدون إلى حربنا ، وإلى جارنا !.. »

ما كان قط ليسوءه من انصاره موقفهم ذاك الذى مال بهم عن العنف إلى اللين ، وعن الحرب إلى الهدنة ، لأنه في حقيقته ليس الموقف الذى لابد له أن ينصاع لقبوله ، بل لأنه الموقف الذى كان يصبو إليه فعلا ويرجوه .. فكفاه أن يلغ بالمناورة في هذا المقام ما اغناه عن السلاح .. كفاه أن عز شأنه ، وبدت هيبته ، وظهرت للملأ قوته وقد تصدعت عن غريمه كثرة من رجاله ، بعضهم من شيعة على فاءوا إلى الطاعة بعد عصيان ، وبعضهم من عشيرة اعين ومن سواها هالتهم الغيلة ، واسخطهم ما كشفت عنه من خسة القوم ، واجترائهم الآثم الفاجر على شريعة التقاليد .. كفاه أن انحسر عن البصرة مد الموجة الإرهابية العاتية التى حركتها عصابة ابن الحضرمي ، واوشكت ان تجرف في تيارها الناس اجمعين لولا هذه المبادرة المسلحة التى

فاجأت اعداءه ، وحطمت ما كان قد اســتقر في الأذهان من خرافة تفوقهم ، ثم كبحت فتنتهم الهدامة ان تعم الاقليم ..

ولم يخف عن أمير المؤمنين انه رد نفســه عن لقاء القوم ، بعد أن اوشك ان يناجزهم ، لأسباب رأى الا يعلنها بكتابه كأنما قد خشى ان تذيع ، وصارح الإمام بحرصه ــ دون القتال ــ على انتهاج سياسة سلمية ، مآلها في رأيه ، محق الفرقة ، وجمع الشمل ، ووقاية البصرة المصارع . فهو آمل ان يبلغ بالرفق ما قد يبلغ بالعنف ، راغب أن يحسم بالكلمة ما قد يحسم بالسيف ..

كتب في رسالته وهو يشير إلى الغيلة :

« .. .. فأردت أن اناهض ابن الحضرمي عند ذلك .. فحــدث امر أمرت صاحب كتابي هذا أن يذكره لأمير المؤمنين .. .. »

فلعله يومىء إلى مناورته التى جرت في إخــلاد خصمه مجرى اليقين ..

ومضى يعرض رأيه :

« .. وقــد رأيت ، إن رأى أمير المؤمنين ما رأيت ، ان يبعث إليهم جارية بن قدامة ، فإنه نافذ البصيرة ، مطاع في العشيرة ، شديد على عدو أمير المؤمنين .. فإن يقدم ، فإنه يفرق بينهم بإذن الله . . . »

وأحسن الاختيار بدلالة الماضي والحاضر ، وبشــهادة ما انتهت إليه وفادة جارية ، وآلت إليه بعدها الأمور ..

فلقد كان الوافد الجديد كما قال ، من الألى عرفوا بالعزم والصبر وقوة الشكيمة ، الذين يشتعلون حمية ، ويلتهبون غيرة ، ويكادون من ولائهم للإمام ، وتشيعهم له ، يحملون بين جنوبهم قلوبا من نار ، لا تكف لها فورة ، ولا يهدأ ضرام . إنما تغلى وتتوثب برغبة عاصفة مشبوبة السعير تهم ان تطلع على العدو بكل نقمة مدمرة ، وعذاب مهين .. ولا أدل على الإفصاح عما في نفسه ، مما قاله يوم مخرجه من الكوفة إلى البصرة لكعب بن قعين ..

يومها استأذنه كعب أن يستلحقه في مهمته الخطرة :

« إن شئت كنت معك ، وإن شئت ملت إلى قومى ..

فإذا هو على الفور يقول :

« بل معى !.. فوالله لوددت أن الطير والبهائم تنصرنى عليهم ، فضلا عن الإنس !.. »

ومضى على الطريق كاعصار غاضب ، بين خمسين انتقاهم بطانة له من تميم الموتورة التى هاجها من أهلها بالبصرة أن شجت الطاعة ، ووالت العصيان ، ولم ترع ذمة العشيرة ، ولا صلة الرحم في دم أعين المراق ..

وكان في قلبه حريق تتوثب للاندلاع !..

٧

بدأ جارية بن قدامة ، أول دخوله البصرة ، بمنزل زياد إذ هو الأمير . ثم ثنى بمنازل الأزد وقد شاقه أن يحييهم ، ويذكر لهم بالخير ثباتهم في الحق ، ووقوفهم في وجه الباطل .. فلما استقر به المجلس ، وتشعب الحديث ، وطابت نفسه بما هم عليه ، تلا عليهم رسالة أمير المؤمنين إلى أهل الاقليم ..

وكانت الرسالة كما تكون الرسالات أمثالها في مثل هذا المقام ، نذيرا وبشيرا ، ووعيدا ووعدا في آن .. نذيرا لمن خالف وعصى ، وبشيرا لمن تابع واستقام ، تحمل الويل كما تحمل الأمان . وتشد الذاكرات إلى أمس الذاهب الذى تناثرت فيه على أرض البلدة الشاقة جوارح وأشلاء استذل أصحابها التمرد وأسلمهم طعمة شهية للبوار . ثم تهب الرضا للطائع ، والأمان للتائب ، وتتوعد بعد هذا أولئك الذين قد يستخفهم النزق والضلال إلى الصبوة القادر كرة أخرى لخيانة العهد ـ ردة حمقاء ـ للماضي المخذول ؟

« .. .. فها انا ذا قربت جيادى ، ورحلت ركابى !.. وأيم الله لو الجأتمونى إلى المسير إليكم ، لأوقعن بكم وقعة لا يكون يوم الجمل عندها إلا كلعقة لاعق ! .. .. .. »

وارتاحت الأزد للكتاب ارتياح من تفيأ الظل بعد وقدة الظهيرة المستعرة ، وطرق الواحة بعد تخبط في مفازة مقفرة .. فشتان بين يومهم الغابر ويومهم الحاضر .. بين جمجمة الهوى الأرعن وثبوت اليقين الرصين .. بين الظلمة والنور !..

وتكلم عنهم صبرة بن شيمان :

« سمعنا واطعنا . نحن لمن حاربه أمير المؤمنين حرب ، ولمن سالم سلم .. .. »

ولم يكن الوافد الجديد من الكوفة بحاجة لسماع مثل هذا الكلام. فأمرهم الآن معلوم . وانحيازهم للإمام عن عدوه لا شبهة فيه . وخلوصهم من الفتنة القائمة يعرفه الولى والغريم .. ولكنه حين جاءهم إنما عساه قد شاء ان يستوثق ان وقوفهم إلى جوار عامل الإقليم لم يعد ـــ كبدئه ـــ عن مجرد حمية وتعصب للجوار ، بل هو أيضا عن ولاء وإيمان ..

وأردف صبرة يقول ، تعقيبا على مهمة الرسول :

« .. إن كفيت يا جارية قومك بقومك فذاك . وإن احببت ان ننصرك نصرناك .. »

وتوالت في عقبه احاديث المتحدثين ، ينهجون نهجه ، ويلتزمون رايه ، ويرددون ما عبر عنه ، وقد انسوا بالطاعة ، وصبت قلوبهم إلى قمع الفتنة من اى جحر تسللت ، وبأى اناس استعزت ومضت تضرب بسيف ، أو تجأر بعبارة ، او تشير ببنان !..

وإنه لإجماع !..

وعندما نهض جارية ليغادر مجلسهم إلى ما قدم له وقد امتلأ ثقة ، همت كثرة منهم ، ولاء او حمية ، ان ينهضوا معه ، ويلتحقوا به مؤازرين في سيره إلى قومه المخالفين ..

لكنه كفهم عن المسير ، وابى عليهم ان يصحبوه في رحلته ، وهو يستشعر الأمل ، بل القدرة ، على أن ينجز — دونهم ما يريد ..

ومضى الرجل يحث خطاه إلى تميم ..

إنهم عشيرته . هو اولى بهم وهم أولى به . وقد جاءهم من لدن أمير المؤمنين بالعتاب المعذر ، وبالأناة المسمحة ، إذ خاطبه حين راى إيفاده إليهم ليفضهم عن الفتنة :

« يا ابن قدامة .. تمنع الأزد عاملي ، وبيت مالي ، وتشاقني مضر وتنابذني !.. وبنا ابتداها الله بالكرامة ، وعرفها الهدى .. » .

لكم يأمل أن يصغوا له ، ويرشدوا بنصحه ، تجنبا لما يدرك انهم لا ريب ملاقوه لو ظلوا سادرين سدورهم هذا في ضلالتهم العمياء مع الذين حادوا الله ورسوله .. ولكنه الآن يكاد يستشعر الطمأنينة ، ويعجل لهم ، في باله ، بالانابة قبل الزيغ ، وبالقبول قبل الخلاف . وإذا كانوا قد شاقوا أعين ، وشقوا عليه بالأمس ، فإنه لمستيقن ان منزلته هو في نفوسهم ، وشأنه عندهم ، وكلمته فيهم ، كلها — فيما يقدر ويعتقد — أبعد عن الهوان وفوق العصيان !..

وابتسم عن اعتداد وثقة ، وهو يذكر عبارة زياد له حين ودعه لهذا اللقاء ، يوصيه :

« يا جارية .. احذر على نفسك ، واتق أن تلقى ما لقى صاحبك القادم قبلك .. » .

أفياترى هم مناوئوه ؟..

بل كلا ، فما جال هذا له في خاطر وإن كان قد عقد العزم قبل مقدمه ان ينهج إلى حملهم على الطاعة كل منهج ولو مشى إليهم على موعظة حسنة ، او عدة مامولة ، او وعيد مرهب ، أو دم مسفوح ..

وكذلك مضى جارية شوطه ، إلى موقع قومه ، يحدوه رجاؤه .. على لسانه عظة ، وبقلبه طمانينة ، وفي خياله سلام ..

غير ان زيادا لم يشأ ان يترك امر صاحبه بين يدي امله واعتداده .

فالأمل احيانا خادع ، والاعتداد خوان !.. إنما راى أن يتحوط فيعد له ما يحمى ظهره ؛ ويحوطه ومهمتـه الخطرة بما يجنبه مصـير سلفه ، ويكفل النجاح .. فما هو ان خرج جارية من لدن الأزد ، حتى خف إليهم العامل ، يكاشفهم ، ويشحن صدورهم بالتحفز ..

وكان من قوله لهم :

« .. إنى والله ما اخترتـكم إلا على تجربة .. فما رضـيتم أن اجرتمونى حتى نصبتم لى منبرا وسريرا ، وجعلتم لى شرطا واعوانا ، ومناديا وجمعة .. فما فقدت بحضرتكم شيئا إلا هذا الدرهم لا أجبيه اليوم . فإن لم أجبه اليوم أجبه غدا إن شاء الله .. » .

فشد قلوبهم إليه هذا العرفان بما قدموا له ، وزادهم حمية ..

ومضى يقول :

« .. يا معشر الأزد .. إن حربكم اليوم معـاوية أيسر عليكم في الدنيا والدين من حربكم امس عليا ، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة .. ليصـدع امر قومه ، وانتم الهامة العظمى ، والجمرة الحامية .. فإن اضطر إلى نصركم فسيروا إليه ، إن رايتم .. » .

فأسرع أبو صبرة إليه برايه في خارجة الإقليم :

« .. لو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء .. ولكنها جماعـة دماؤها حرام ، وجروحهـا قصاص . ونحن معـك نحب ما أحببت .. » .

وثنى ابنه في عزم صلب ، واصرار عنيد :

« .. يا زياد ، والله ما ادركت املك فينا ، ولا ادركنا أملنا فيك دون ردك إلى دارك . ونحن رادوك إليها غدا !.. » .

وادرك زياد غايته ..

لكن ظن جارية في عشيرته خاب .. ما إن طلع عليهم وطلعوا عليه حتى تبين انه كان مغرقا في الخيال كل الإغراق حين حسبهم ــ لا بد ــ

منتصحين بنصحه ، ممتثلين رايه الذى لا راى غيره يهبهم الشرف والأمن والكرامة .

وكذلك تهاوى أمام عينى رســول الإمام ــ في لحظة ــ صرح تلك الطمأنينة الذى بناه رجاؤه المسرف عليه في التفاؤل ، كأنما نقضـه زلزال !.. واستشعر ، والمرارة ملء قلبه ، انه عاش أيامه السوالف ، منذ مخرجه من الكوفة ، في تيه سراب .. إن عيونهم لتتقد بالغل ، وإن ملامحهم لترعـد بالحقد ، وإن جلودهم لتكاد تشـف عن عروق لا تمتلىء بالدما بل بالعداء ..

ومع هذا فلم تضـطرب فيه جارحة ، ولا اهتزت ثقته بنفسـه ولا إيمانه بصواب ما جاء فيه وإن تصدع أمله فيما خاله من إدراكهم المنصف .. ولئن كانت هـذه البادرة منهم ــ وهى بعـد عبسة على الوجوه الكالحة ــ قد وشت له بما يضمرون من شر ، ففي وفاضـه الدواء المر الذى تستطب به نفوسهم المريضة ، وتعتدل رقابهم التى لواها العنت ومالت بها الخيلاء !..

وكاد يحس عندئذ انه اعين بن ضبيعة وليس جارية بن قدامة !.. فالموقف كالموقف . الصورة هى الصورة ، والصوت هو الصوت .. قد اصطفوا له كسد أصم ، تتكسر عبارات دعوته الهادية على صخوره ثم ترتد إليه حطام اصداء !.. ولغطوا عليه بمثل هدير يغرق نصحه ونجواه في لجة الضياع .. وعندما استمسك بأناته ، وعاود مرارا مرارا حثهم على نبذ الفتنة والفىء إلى الطاعة ، خرج إليه من بينهم أوباش يقذعون له في السباب ما شاء الصلف وشاءت الضغينة . ثم راحت ثعابين الغدر تزحف إليه . ثم همت به لتنال منه ببطشة الكف ما لم تنل حدة اللسان !..

وهاله هذا الجحود من اناس يضن بهم على التلف فلا يكفيهم أن يقارعوه رايا براى وحجة بحجة لو انهم عرفوا سبيلا إلى الحجج والآراء، إنما تأبى عليهم نفوسهم السوداء إلا أن ينتاشوه كالكلاب المسعورة !.. ونفر به عندئذ حلمه كما ينفر جواد روعته حية !.. وتجمدت بين جنبيه الرحمة التى جاءهم بها إذ استقبلوها وعلى أيديهم أكفانه !..

هنا فار قلبه واندلع سعيره يرسل السنة النار !.. وماله لا يفور وإنه الآن لفى شرك طغمة حديثها غدر ، وعلى ارض ترابها عداوة ؟..

والهمته بديهته الصافية ، التى لم يطمسها الهول ، ما كان لابد أن تلهمه في هذا المقام .. فليس للرفق مكان . لم يبق للصبر منزع . لم يعد للجدل مجال .. إنما الالزم ، فضلا عن الأسلم ، ان تنسحب الكلمة من الميدان وتخلى موضعها للعنف وللسيف . فحديث الدم وحده ، الآن ، هو الحديث المسموع !..

وعلى الاثر بعث جارية إلى زياد وانصاره الازد يستصرخهم أن يسيروا إليه ..

فكأنهم كانوا جميعهم تحت ثوبه !..

سويعة او بعضها تقضت ثم أنصب حشدهم يجرى على الارض حوله يحمل الموت على الأسنة المشرعات !.. موجة بعد موجة اقبلوا ، وصفا صفا تراصوا حيال اولئك الخارجة الغادرة الصابئة ، التى اسكرتها سطوتها ، وغرتها كثرتها ، فآثرت الفرقة على الالفة ، والنكث على الوفاء ، والحرب على السلام ..

وتواقف ابن الحضرمى واعوانه ، فرسانا وراجلين ، في وجه انتفاضة الازد الجديدة .. لا مناص الآن من خروجه عن نطاق خطته إلى لقاء سافر بات والذين معه يرون الا موجب بعد لإرجائه . فالمداورة أصبحت لا تفيد ، وسياسة التسلل والدس وما انطوت عليه من حركات تحتية أو خلفية قد فرغ ما في جعبتها كله واعتصرت إلى آخر قطرة . والوقت عليه لا له ، كلما انفسخ رقت بقدر فسحته هيبة حزبه، ورث نفوذه ، واستطار واستفحل شأن مناهضيه في الأقليم .. وإذا كان الامس قد حمله على الإصغاء لدعوة الهدنة التى دعاهم إليها الأحنف ابن قيس ، فذهلة المباغتة هى التى حادت به عن القتال . فاما وقد جمعوا له اليوم ، وتشرعوا لحربه ، فإنها إذن الجراة التي يأباها ولا تسندها — في رايه — قوة تفوق قوته ، او بأس يعلمه فيخشاه . والوضع هكذا يحتم عليه مبادرتها بما يقمعها قبل أن تطل على البصرة كتائب الكوفة التى وعدهم بها الإمام .

ووقعت الواقعة ..

ونوشك ان نقول إن سير القتال أفصح كل الإفصاح ان وافد معاوية كان أنأى عن الحكمة ، وأدنى إلى البطش — بل إلى الاغترار — حين مشى أولى خطواته إلى ذلك اللقاء .. فلم يبل رجاله البلاء الذى توقعه وتوقعناه . ولم يصبروا لعدوهم في الميدان صبر المستعز بالكثرة ، المدل بالطول ، الذى طالما رأيناهم قد لبسوا ثيابه ، واستعاروا إهابه ، وهم يشيعون الإرهاب ويركبون الناس في البصرة بالطغيان .

كلا ، فلم تطل الحرب . ولا بدت لنا من خلالها مواقف تصورهم مناجزين أكفاء .. بل أسرعت بهم الأقدام يهطعون كقطيع شارد إلى أيما وجهة لاح أنها تجنهم عن ضربات خصمهم الغضوب وتقيم المهالك .. وكأنى بالكثرة الغالبة فيهم ، وقد حمى النزال ، وآنست من عدوها الصبر والإصرار على النصر ، تؤثر النجاة فتركن إلى الفرار . وكأنى بالبقية الباقية منهم ، وقد انجاب عن عيونهم وهم الاقتدار ، تلوذ بدار ابن سبيل التى كان مبعوث الشام ، منذ مقدمه عليهم ، يتخذها مقرا ودار إمارة ..

وكيفما تعددت أسباب هذا الانهيار المفاجىء الذى اصاب مثيرى الفتنة وتنوعت دواعيه ، فإن ابن الحضرمى لم يجد امنا بملاذه . إنما غدا حبيس هذه الدار التى طالما شهدت جبروته ، وخصمه حولها يحاصرونه ، ويغلقون دونه كل منافذ الخلاص حتى لقد بات منهم في قبضة ضخمة تشتد عليه وتعتصره لتستنزف ما به من حياة .. ولم يكن وحده في شرك الصياد ، بل كان في سبعين من الالى غرته نصرتهم ، وخدعتهم دعوته ، يتخبطون معا في الحبالة المحبوكة ، إن مدوا البصر ففى تيه من الذهول والضياع ، وإن ردوه فإلى حسرة واسترجاع ! ..

وسرعان ما عاجلتهم النهاية .. فإذا هى كأقسى ما تكون النهايات، وأفظع ما تسفر عنه العداوات في معترك قتال ..

في لحظة من لحظات الغضب العاصف ، فار تنور ذلك القلب النارى

المتأجج في جوف ابن قدامة ، وثارت ثائرته ، فاندبع لهيبه جحيما كأنما عن بركان تفجر وراح يرسل حممه طوفانا يجرف ويجتاح ..

وبدأ نذير هذا الانفجار المدمر على طرف لسان جارية بكلمة هتف بها لمن حوله من الثوار :

« على بالنار !.. » .

فكانما صعقتهم الصيحة !..

طويلا ،كطول الدهر فيما حسبت الأخلاد ، تلبثوا في صمت أخرس، كتم الصوت ، وشل الجوارح ، وجمد الأنفاس . فالدهشة التى طغت عليهم عندئذ واغرقت منهم الأوصال والحواس في غمرة الخور لم تنبعث عن عجب وإنما عن صدمة عصبية جاءتهم بها دعوته المذهلة التى باغتتهم باغرب ما يجول في وهم ، ويطوف بخيال ، لأنه محال المحال!..

لكن صوته الغضوب عاد ثانية يكرر نداءه هادر الجرس ، حاد النبرة ، بارز المقاطع كأنما ليحفر في روع القوم انها الدعوة التى لا دعوة غيرها تناسب الوضع وتوافق الواقع .. حتى إذا ثاب بهم هديره إلى بعض الوعى ، واستطاعوا ان يشقوا الشفاه المزمومة ، ويحركوا الألسنة بالكلام ، صارحوه :

« لا !.. لسنا من الحريق في شيء .. » .

فلم يرده جوابهم عن الترديد . ولم يردهم تريدده عن إباء ما يريد ..

وحين اعياهم إقناعه : واستيقنوا منه الإصرار الذى لا يهزه جدل ولا يثنيه حوار ، عادوا يخاطبونه باللهجة الكفيلة بأن تحرك القلوب إن كان لا يسعها أن تحرك العقول ..

قالوا له يناشدونه الرحمة والرحم ووشائج العشيرة :

« يا جارية .. هم قومك ، وانت اعلم .. » .

غير انه اصم اذنيه . او لعله لم يسمع وهو هكذا في هدير ثورته . فما كفه قولهم عن عزمه . ولا عطفته القربى على تلكم الفئة المستخفية

خلف الجدران من بنى اصله . إنما زادت غلواء حنقه عليها ، وتضرمت سعيرا ما لبث ان تجسد حطبا يشتعل ويضرب نطاقا محكما من الحريق حول دار ابن سبيل ..

ولا نرانا هنا نعتذر لجارية — وما ينبغى — عن فعلته هذه وإن كانت اليق بحنقه واشبه بطبعه النارى الحاد . ولكننا كذلك لا نظننا ننكر انها لم تكن لتبدر عن مجرد رغبة خالصة في التنكيل ، أو عفو الخاطر دون مقدمات وأسباب ..

ففيما تنم عنه خاتمة ذلك الصراع ، يكاد ابن الحضرمى يتمثل لنا في صورة المتشبث بالمقاومة ، المتعلق بالثبات لأعدائه إلى آخر نفس وآخر قطرة دماء .. بدا الرجل ، حينئذ ، المصابر الذى يخلق بالكلفين بالمجد المتصدين للعظائم امثاله ان يكونوه ، والمجالد الذى إن ذل نفره لم تذل نفسه وإن أعوزه العتاد لا يعوزه الاعتداد .. فما نعلم انه — إذ خذلته جموع انصاره في ساحة القتال — قد وضع سلاحه او رفع راية امان . بل قد اسرع إلى الدار والحفنة التى تابعته يتخذ منها قلعة ، ومن جدرها دريئة ، ويثبت بها ثبات المتأبى على التخاذل ، المترفع عن التسليم ، محاولا ان يقابل هجمات عدوه على ملاذه بكل ما يسعه صبر المستيئس الذى لا سلاح له غيره في مثل هذا المقام .

بهذا تطالعنا شواهد الحال . ثم تنطق بأن أمد هذه المقاومة اليائسة لم يكن بالقصير . ثم تظهر ابن الحضرمى قد لج في عناده ورفض ان ينزل على حكم الواقع فيخلى معقله ، ويلقى سلاحه ، ويضع نفسه ومن معه وديعة في ايدى المنتصرين وإن ايقن اليقين كله ان مقاومته هباء وفناء !.. ولا نشك هنا في انه دعى إلى التسلم وإن كنا لا نقطع اكان جارية ، ام زياد ، ام سواهما من اصحاب الراى في الجيش الظافر هو الذى دعاه . ولكنه دعى على اية حال . وأبى الاستجابة للدعوة . وتسامع الناس في البصرة بالدعوة وبالإباء كليهما فأقبلوا — على اختلاف ميولهم وعواطفهم : متشيعين أو معادين ، مشفقين أو شامتين — ليشهدوا ما يكون : اهو استبسال فاستئصال ، ام انهيار فاسار!..

تكاد سيرة هذه المقاومة تنضح بما اسلفنا من صلابة ابن الحضرمى واصحابه المعتصمين وتابيهم على الاستسلام . فلقد اقبلت الجموع

لترى النهاية عسى أن نفرح بنجاة ولي أو ببلية غريم .. واقبلت فيها امة ولهى ، قد ملكها الجزع على ولدها الرابض وراء الاسوار .. ولعلها لم تكن إلا واحدة من امهات وآباء قد استطارهم خوفهم على الأبناء الذين اطبق عليهم الحصار .

وكانت حبشية ، داكنة اللون . ولكن وجهها الأسمر حال من هلع حتى غدا اشهب بلون شعرها الذى غزاه المشيب . وكانت تنصب — من عجل — في مشيتها كالسيل . وتضطرب ، من رعدة ، كشراع في بحر ثائر . وتمرق ، من لهفة ، في الزحام كالسيف وهى تهطع الى الدار . فلما أن افضت الى الباب ، راحت تقرعه بكلتا كفيها وهى تصرخ منادية ولدها الذى أجنته الجدران ويوشك أن يجنه بعدها الهلاك ..

وظهر لها ، على صرخاتها ، ابنها بعد قليل ، يطل عليها من بعض شرف معقله . فلوحت تدعوه .. وراحت تناشده نفسه وقلبها ، أن يخرج الى الحياة ..

لكن الولد ابى ان يسلك غير مسلك اصحابه ، فلم يلب النداء ..

فالهمتها غريزتها أن تتوسل اليه بما قد يكرهه على طاعتها ، فكشفت راسها ، وابدت قناعها ، وعادت تناديه :

« يا بنى ، انزل الى .. »

فأبى ثانية ، أنفة ان يخون عهد الثبات ..

عندئذ صرخت المراة :

« والله لتنزلن ، او لأتعرين !.. »

واهوت بيدها الى ثيابها تهم أن تخلعها ، لتكشف سواتها للناس ، وتجلل ذلك العنيد بعار اقسى عليه من عار التسليم ..

هذه الصورة النابضة ، إذ ترسم ما كان من صلابة أولئك المستعصمين بالدار ، الثابتين للحصار ، ترسم لنا ايضا صلابة ابن الحضرمى واصراره العنيد على المقاومة ما بقى فيه دماء .. فهى

صدى لعزمته ، وظل لثباته . وما ينزع جندى مثل هذا النزوع إلا امتثالا لخطة قائده ، وترسما لخطاه ..

وكذلك جاءت النهاية كأقسى ما تكون النهايات . فتفحمت دار ابن سبيل بمن ضمت . وذهب الرجل الوافد من الشام ليشعل في البصرة نار الفتنة وقودا للنار . وتبددت خطته الخداعة مع دخان الحريق ..

وعندما انطفأت الشعلة ونشر الموت ظلاله الثقيلة على المكان ، سارت الازد بزياد فأنزلته قصر الإمارة ومعه بيت المال . فلا منازع له اليوم ، ولا كلمة في الإقليم لسواه ..

وقال له قائلهم :

« هل بقى علينا من جوارك شيء ؟.. »

« لا .. »

« فبرئنا منه .. »

فلقد وفوا بالعهد ، وقضوا حق الجوار ..

الفصل الثالث

١

ما عن الحسد وحده حورب الإمام بالسيف وبالكلمة !..

عن الجهل الجامح في الظلمة رغت به قلوب مطموسة لا تعرف الحق ، ثم تأبى — وإن تبلج واضاء — أن تراه ، سدورا في المكابرة والعناد ، ولجاجة في العمى والغواية ..

عن انحياز ظالم عن الله ، وافتتان صلف عن دينه .

عن قصور ذليل عن تفهم المثل والمبادىء القويمة ، وافتقار عاجز الى التطبع بالخلائق الكريمة ..

عن انتقام أرعن لماض ملوث مقهور ..

عن كل هذه الدنايا ، وغيرها ، التي فجرت حوله العداوات حورب الإمام رجلا وخليفة ، قوة وفكرة .. ولكل هذه العداوات ، وما حالفها ، ثبت مناضلا عن الحق والفضيلة انتصارا لكرامة الإنسان. فما عرف قط من سلوكه أنه سعى في مرحلة من مراحل كفاحه الطويل لتعزيز قدره أو لتحقيق مأرب خاص . ولا رنا يوما في عمره من الدنيا العريضة الطويلة الى غاية لنفسه من مغنم مال أو مغنم صولة..

.. .. .. فما المال ؟..

فيه قال كلمته التي ظلت دائما شعاره :

« المال مادة الشهوات . »

وإليه وجه نظرة العارف الزاهد الذي يراه تبعة ثقيلة على جامعه ، وعبئا يعييه لأنه يشقيه ولا يكاد يغنيه :

« يا ابن آدم .. ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك .. »

ومن حصيلة بصيرة ملهمة وروح شفاف أوصى ولده الحسن ومن عسى — غيره — يصغى لنصحه ويعتبر :

« لا تخلفن وراءك شيئا من الدنيا ، فإنك تخلفه لأحد رجلين : إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت به ، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فكنت عونا له على معصيته . وليس أحد هذين حقيقا أن تؤثره على نفسك .. »

.. .. .. وما السطوة ؟..

متاع يزول ، وعرض يحول فهى صفقة مغبون إلا أن تكون أداة لإعلاء الدين وتوكيد إنسانية الإنسان . أما جاهها فهباء ، وأما مجدها فطلاء .. دخل عليه ابن عباس إبان إمرته وهو جالس يخصف نعلا بالية ، فرفع بصره عما في يده ، وسأله :

« ما قيمة هذه النعل ؟.. »

قال ابن عباس :

« لا قيمة لها يا أمير المؤمنين .. »

فإذا هو يقول في هدوء :

« والله لهى أحب إلى من إمرتكم ، إلا أن أقيم حقا ، أو أدفع باطلا .. »

.. .. .. وما الدنيا ؟..

سئل عنها فقال :

« ما أصف من دار أولها عناء ، وآخرها فناء .. في حلالها حساب ، وفي حرامها عقاب !.. »

ثم وصفها وهو يرجو أن يزوى عنها الناس :

« دار منى لها الفناء ، ولأهلها منها الجلاء . حلوة خضراء ، قد

عجلت للطالب ، والتبست بقلب الناظر .. فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد ، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف .. »

وعمل دائما بما قال . فإن هى إلا محنة واختبار . أو دار مجاز لدار قرار . ليس لها عليه سلطان ، ولا له فيها هوى ، لانه ازهد من أن يتعلق منها بنشب ، أو يهفو إلى طلب . ولأن قصاراه فيها لقمة تقيم أوده هو اوثق بأنها حتما بالفته إذ هو أوثق بما عند الله منه بما في يده أو يد أى انسان ما بلغ الشأو في بسطة الغنى والثراء أو بسطة النفوذ والسلطان .

قيل له :

« لو سد على رجل باب بيته وترك فيه ، من أين كان يأتيه رزقه ؟.. »

فجرى جوابه على منطق السجية النقية والفطرة السليمة ، لا على منطق الشهوة الجشعة والرغبة المنهومة :

« من حيث كان يأتيه أجله !.. »

أفقد أصاب ؟..

كيف لا !..

وإنما الرزق منذ الأزل ، وإلى الأبد ، أمر مقدور ، وقدر محتوم مسطور .. فمن رأى في هذه النظرة إيمانا أوثق الإيمان بالله فقد عاين الصواب . ومن رأى فيها استكانة واستسلاما يحبسان صاحبها بين اسوار واقعه القائم ولا يسميان به إلى الخروج منه بتغييره لواقع « أفضل » ، فقد مشى على الخطأ وتردى فيه .. فالفضل ليس بالمال . والمال ليس الحياة . والسعي يتسع لنشدان قيم كثيرة اخرى فاضلة ، سوى المال ، أجدى على الفرد واصلح لشأنه كإنسان لا يعيش بدنا خالصا في هذه الدنيا بين ابناء جنسه وإنما يعيش ايضا بالروح .. والاصل في المال ان يكون دولة بين الناس ليحقق غرضه في إنعاش المجتمع وتنميته وليس الاصل ان يحتجز في ايدى فئة يستأثرون به ويستعلون على من عداهم بجبروته . فما ينبغى له ان

يكون أثرة ، كما لا ينبغي لهم ان يكونوا خزنة ، لأنه « وظيفة » هم العاملون فيها ، يعطلها بلا ريب حجبه واكتنازه .. وكفى المرء منه ما يسد حاجته ، كسرا لجشع نفسه ، ودفعا لحسده غيره ، وضمانا لقيام مجتمع بشرى متطهر على أسس خلقيــة كريمة ، ينحسر فيه طغيان المادة ، وتضعف سطوة الأنانية ، ويخف جموح السخط الذى يضطرب دائما بالعلاقات الاجتماعية بين الناس اضطراب الغرائز الحيوانية بالضوارى في الغاب خضوعا منها لشريعة الظفر والناب !..

أجل قد أصاب .. وما كان في هذا المجال إلا مترسما خطوات رســول الله الذى لو شاء أن تجتمع له كنوز الأرض لاجتمعت له ، أو يشير الى ذهبها لاقبل عليه ، فإذا هو يعف عنها ، ويزهد فيها لأن كل هذه الحياة وما تضم ليست سؤله . وإذا هو حين يأتيه جبريل ، عارضا عليه خزائن الدنيا يردها ويأباها رد غنى مستغن ، وإباء كاره عزوف :

« لا حاجة لي فيها .. بل جوعنان وشبعة !.. »

من معين النبوة نهل الإمام . وبخلق محمد تخلق . وبالهدى الإلهى اهتدى في علاقته بالناس أجمعين ، أولياء وأعداء .. لم يكن قط يثيره أن يخسره أحدهم بعض حقه ، أو يعدو عاد على خاصة ماله ، لأن الحق الشخصى ، في اعتباره ، ليس ســوى عرض زائل لا يرى ضيرا في الرخصة فيه .. ولكنه كان ، إلى جوار هذه الأريحية المسمحة ، يحنق الحنق كله ، ويثور أعنف الثورة ثم يشتد في حساب من يجور على حق الأمة أو يحاول الانتقاص منه إلا في الله ..

وها هو الآن ، وقد تضافرت عليه عوامل الظلام والضلالة ، لا يجنح فتيلا إلى مهادنتها أو الصبر عليها ، فلا يترخص في التصدى لها بكل ما في قلبه من إيمان ، وفي جنانه من ثبات ، وفي يمينه من سلاح لأنها قد طغت على حق الأمة ، واجترأت على شرعة الله .. ففي الترخص بهذا المقام صد عن سبيل ربه ، وزيغ عن جادة دينه ، وخذلان لما ألقى في روعه وقر في يقينه .. وهل قد ولى أمور الناس ، تحت ضغط منهم ، وعلى كره منه ، إلا ليحمى الإسلام من نكسة كانت خليقة عندئذ أن تذهب بريحه ؟..

قال مرة يحـدث عما دفعه لقبول الإمرة بعد ما كان من تأبيه ، حرصا على إصلاح ما أفسـد الولاة في عهد عثمان ، وعودا بالدين الى نهجه الصحيح :

« .. .. أمسكت يدى ، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإســلام يدعون إلى محق دين محمد .. فخشيت إن لم انصر الإسلام وأهله ان أرى فيه ثلما أو هدما تكون المصيبة به على اعظم من فوت ولايتكم التى هى متاع أيام قلائل يزول منهـا ما كان كما يزول السراب .. .. »

لا حيلة له إذن فيما طرأ من تقلبات إلا ان يصدع بما يحتمه عليه إيمانه ، وما يرتقبه منه دينه . ولو أنه كان غفلا من النفوذ ، أو قد قشر عنه سلطانه وذهبت شوكته كحاكم مسئول لما هادن ولا لان . بل لاستبدل الكف بالسيف ، واللسان بالسنان حتى يقضي على قوى الشر والغواية ، التى راحت تناوىء الله في عباده ودينه ، ليطهر الأرض منها أو يلتقمه التراب .. فكيف وما زال بوفاضه ذخر من بأس يسنده ، ورفقة من صحب تؤيده وإن بدأت الدنيا تشغل بنشبها وزخرفها كثرة ضخمة من رجاله وتلهيهم عنه ؟..

يقول في صدد نهوضه لأعداء الله :

« .. .. وإنى والله لو لقيتهم واحدا ، وهم طلاع الأرض كلها ، ما باليت ، ولا استوحشت .. .. »

إن تلك العداوات لم تكن لترده عن عزمه وإن جمت ، ولا لتعجزه عن تعقبها وإن توالت ، ولا لتوئسه من صبره وإن اشتد ايدها وصلبت شوكتها ما دام يستطيع أن ينهض لها — ولو بالبقية الباقية من اعوانه على يقينه ، ولو بنفسه : بلسانه او يمينه !.. ولقد كان فيما ظهر من انحرافها وهو بعد في مستهل عهده ، ما يكفيه للمعاجلة بالصراع ، فكيف وقد أطلعت قرنيهـا ونشرت له زبانييهـا وبدأت الإغارة والانقضاض ؟.. إنما اتحادها اليوم على حربه ، وتفاقم خطرها على الضمير العام ، وامتداد طغيانها على الثرى الإسلامي حقيق بأن يزيد صلابته ، ويلهب حميته وإن تمثلت كوحش اسطورى اشبه شيء

بأخطبوط تعددت شعبه وأطرافه وأوشك ألا يسلم من عدوانها مكان أو إنسان ، بعد تزايدها فرقا وطوائف ، وتغايرها مذاهب وآراء ، وامتداد حركاتها المدمرة وتغلغلها ــ كسروح الزيت في الثوب ــ في كلا الأديمين السياسى والاجتماعى للدولة ..

أفيهدأ ؟.. أم يصانع ؟.. أم يصارع ؟..

في كلمات قلائل أجمل نظرته ، ورسم الدافع الذى يحدد اتجاهه :

« .. .. ولكننى آسى أن يلى أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها ، فيتخذوا مال الله دولا ، وعباده خولا ، والصالحين حربا ، والفاسقين حزبا .. .. »

نذر في الأفق تنبىء عن طوفان جاهلية ، وعاصفة استذلال ، وزلزال ردة عن كل كريم وقويم في حياة الإنسان ترسمه القيم الخلقية الرفيعة ، ويقوم عليه خير البشر ، ويحتمه الدين ..

محنة ماحقة ما لها غير الجهاد ..

٢

طولا من الشمال للجنوب ، وعرضا من الشرق للغرب ، وعمقا في السهول والقفار وفي الجبال والأغوار ، كانت تلك المداوات تنتفش وتنكمش ، وتنبسط وتنقبض كانبساط الصدر وانقباضه في الشهيق والزفير !.. كانت تتربص لتثب ، وتثب لتنقض ، وتنقض لتدمر ، ثم تفتر حدتها بعض فتور أو تسكن ، تلتقط النفس ، وتنظم الصف ، لتتربص ثانية وتعاود دورة حياتها من جديد ..

صور عدة عدوانية تلاحقت في سنى عهده القصير . إذا أجملت دلالتها فنبعها الذى لا ينضب ذات الإنسان بما ركب فيها من عقل ونفس وجســـد . وبما انضمت عليه من فكرة خادعة أو مخدوعة ، وهوى مضلل أو ضال ، ومادة معتمة صماء . وبما في طاقة ثالوثها

البشرى ان يفرز من اباطيل ومطامع وشهوات .. وإذا أوجزت غاياتها فإنها القضاء عليه ، إذ هو امير المؤمنين أو هو واحد من جمهور الناس ، وضرب نفوذه : سلطة زمنية حاكمة كان هذا النفوذ تسندها قوة الإمرة ، او سلطة روحية هادية تنبعث من قوة العقيدة .

فإذا قيل هنا إن الذات البشرية هى الذات البشرية في كل زمان ومكان ، وإن الإنسان على مدى الأعصر هو الإنسان ولا غرابة إذن أن تتحالف على على نزعات الانفس لأنها كانت خليقة أيضا أن تتحالف على سواه لقلنا إنها لكذلك . ولكن الغرابة ، مع ذلك في هذا الموضع ، ليست في نضح النفوس بما فيها وإصدارها في سلوكها الخبيث عما هى مجبولة عليه ، بل في انحرافها المسرف نحو الشر ، وإغراقها المسف في الدنايا في وقت ظن خلاله انها أقدر على التحكم في غرائزها الجلفة وأدنى الى الترفع عن المغويات .. فمحمد عندئذ لم يكن قد طال العهد بغيابه ، والدين لم تخلق جدته ، وتعاليمه التى جاءت لتدعم الخير وتوهن الشر عن طريق تنقية السلائق وتهذيب الطبائع لم تكد صحفها تطوى وترفع عنها الأقلام !..

والحركات المضادة التى شنها عليه أعداؤه توشك أن تعلم لنا بملامح وسمات قد تباين بعضها عن بعضها الآخر حتى لتبدو للباحث تلك العداوات التى تنشبها كالمتفرقة أو المنقسمة على نفسها لاختلاف الأسباب التى أنجبتها ، والبواعث التى حركتها ودفعتها الى المجاهرة بالعداء . ولكنها ، وإن تفردت كل واحدة منها باتجاه احادى وبسلوك خاص أفرزته طبيعتها ، قد اجتمعت كلها على غرض عام موحد هو محق الرجل الذى تعاديه ، تماما كالفيالق التى تحارب على عدة جبهات ، لكل فيلق قيادته ، وأسلوبه القتالى ، وهدفه المحدود ثم لا تكون غايتها الكبرى غير نصر مشترك يحقق الغرض العام .

على هذا النحو نرى الإمام موزع الجهد والتفكير بين العناصر المعادية التى تشرعت لحربه ، وبخاصة في هذه الآونة الأخيرة من عهده إذ تبدت حصائل الماضى القريب والبعيد وقد تراكمت ووجدت التربة الخصبة لاستنبات الخلافات .. ولا مجال هنا لتتبع هذه الحصائل إلى جذورها فرادى أو بطول الاستقصاء .. ولكن طبيعة العصر يمكن

ان تمدنا بخيط يسلكها كلها وتنتظم فيه كحبات العقد تتوالى وتتجاور كيانا متسقا وإن اختلفت فيهـا الحجوم والالوان ثم تباينت مصادر النشاة او تغايرت مناجم التعدين !.. ولعل أقدر ما قد يعيننا على استكناه هـذه الطبيعة ، وهتك سرها ، هو أن نرد اصلها قليـلا إلى الوراء ، ثم نستشف كيف كان السلوك العام للمجتمع العربى الأول تجاه الإسلام في مستهل فجره .. عندئذ تقع العين الناقدة على دين جديد يطلع بكل ما هو غير مألوف على مجتمع متمزق ، يحيا حياة كالبدائية ، وتسوده روح القبيلة المنبعثة من السلطة « الأبوية » تمثلها السيطرة « الفردية » للشيخ ، ويضطرب فيما تثيره هذه الروح من حمية وتعصب ، فمن تنافر وتنـاحر ، ثم من تخلخل وتفكك في المجتمع الكلى بمقدار تعدد القبائل والعشائر ، أو الوحدات الاجتماعية التى تعيش فيه ..

فما هو المنحى الخليق بمثل هذا المجتمع ان ينحوه ، وما هو المنتظر من مثله أن يسلك إزاء ذلك الدين ؟..

مفتاح سلوكه ، أو دافع اتجاهه ، بغير جدال ، ومن أقرب مورد ، هو « النفع » الذى يسـتطيع ذلك الدين ان يحققه لكل وحـدة من وحدات المجتمع كمجموعة ، ثم لكل طبقة او فئة في النسيج الاجتماعي للوحـدة على انفراد .. وتقدير قيمة هـذا النفع في هذا المقام رهن — بطبيعة الحـال — بعوامل شتى تتصـل بمكونات امزجـة الافراد والجماعات ، وأوضاعهم النفسية ، واساليب تفكيرهم ، ودوافعهم السلوكية التى تحددها جميعا البيئة المكانية والزمانية ، والطباع والتقاليد ، وتراثات تواريخهم القبلية المنحدرة في عروقهم عبر الأجيال . ولكنه ، آخر الأمر ، أشبه شيء بحساب الأرباح والخسائر الذى لا يعول فيه على دلالة المفردات الرقمية واتجاهاتها إلى الصعود والهبوط ، الغنم أو الغرم ، بل على الحصيلة النهائية لهذا الجانب او ذاك .

ولا يمكن أن يطعن هنا بأن تناول الدين من هذه الناحية لا يتفق وما له من طبيعة روحانية لا توزن عناصرها ، ولا آثارها ، بميزان الذهب أو تعاير بمعيار المال فلا وجه إذن لإخضاعه لتفكير مادى يربط بينه وبين المنافع المادية ، ويعتبره سلعة في سوق المتاجرة بالبيع والشراء

يروجهـا الكسب ، وتكسدها الخسارة .. لا يمكن هـذا ولا يسوغ اعتباره إلا ان تكون النفوس كافة ــ وعلى غير حقيقتها « الأرضية » ــ ذات جبلة « سماوية » خالصة صيغت من الصفاء والنور فتنجذب تلقائيـا إلى الدعوات الإلهيـة دون التأثر قليـلا ولا كثيرا بالمرغبات والمرهبـات . فأما والبشر هم البشر ، ونفوسـهم فيها جانب مظلم وجانب مضيء ، فنظرتهم إلى الدين خليقة بالا تتجرد مما بنظرتهم إلى أى معروض يقاس إقبالهم عليه بمقدار الرغبة فيه ، والحاجة إليه ، والمنفعة المنتظرة منه !..

وإذا كان علينا الا ننكر ان مواكب الإنسانية على طريق التاريخ لم تخل ــ حتى في اظلم العصور واشدها جاهلية ــ من نفوس لاهوتية نقية وبشر ربانيين فنوا في ذات الله ، وقصدوا بابه شغفا وحبا وليس خشية عقاب او ابتغاء ثواب ، فإن لنا أيضا ان نقرر ان جموع هؤلاء في كل عصر ــ ولا نقول في كل جيل ــ لا تجاوز الآحاد المعدودة والأفراد المحدودة ، وهم بهذا خروج على الإجماع ، وشذوذ عن القاعدة كحبة اللؤلؤ في صحراء شاسعة من الحصباء !..

المنفعة على اختـلاف صورها ، وبتعـدد قيمها في حـدود تباين التقدير ، هى التى ربطت العرب بالإسلام ، من بدء نزوله ، ومن بعد اشتداد أيده وانتشاره ، ثم صنفتهم طوائف ومجموعات نمت لها على الزمن خصائص مميزة ذات اثر فعال في تحديد سلوك كل مجموعة ، ففى توجيه السلوك العام .. ولا حاجة هنا لذكر أولئك الذين صفوا نفوسا وضمائر ، وهيأتهم خلائقهم السوية لاستقبال دين الله بالقبول عن إيمان مرده حاسة روحية مرهفة أو تقدير عقلى سليم . فهؤلاء هم الرواد وبناة الدعوة الذين امتلأوا بها ، واخذوا انفسهم بغرسها في القلوب والأذهان .. أما من نعرض لهم بالحديث في هـذا الموضع ، إبانة عن صنوفهم ، وكشفا عن مناحى سلوكهم ــ حينئذ ومن بعد ــ كيف كانت ، وكيف حولت حركة التاريخ خلال عهد الإمام ، فإنهم من عداهم من اتباع الدين .

ولقد يضفى على المنظر ما يدنيه إلى الواقع الإنسانى في كل آن ، أن نقرر هنا أن السلوك العربى تجاه الإسلام لم يخالف الطبيعة البشرية

في شيء وإنما طابقها ونضح عندئذ باتجاهها « التقليدى » المألوف حيال كل ما جد ــ قبله ــ من عقائد وأديان . فعبادة الله دائما على الوان ، بقدر تفاوت استنارة البصائر ، واختلاف القدرة على الإحاطة بذاته ، أو تغاير حدود الإحساس بالعقيدة ودرجات التقدير لما بها من شرائع ونواميس .. وفيما رسمه الإمام لهذه الألوان من الاتجاهات ما قد يصنف صور الإيمان ..

قال :

« .. إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد . وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار .. » .

ويكاد الأمر لا يتطرق بنا بعيدا عن النهج الحق لو رأينا أن الكثرة الغالبة ممن دخلوا الإسلام ، بدء ظهوره ، ومضوا عليه ، كانوا مشايعين لبضعة من قادة الرأى فيهم ، متأثرين لخطاهم ، استجابة لداعى الإبقاء على وحدة القبيلة وهيبتها ، أو نزولا على مشيئة السلطة الأبوية فيها المتمثلة في الشيخ . فكما وقفت العشائر العربية ، بزعامة شيوخها ، تناوئه عند إعلان مولده ، وتنكر عليه حقه في الذيوع بين رجالها ، وقفت ايضا تساند الدعوة ، بعد قليل ، بزعامة أولئك الشيوخ ، حين آن لهم أن يلحظوا ارتفاع نجمه وعجزهم عن حسر موجه المتدافع كالطوفان ..

وليس هذا ــ بطبيعة الحال ــ بالقول الفصل ، ولا القاعدة التى لا تقبل الاستثناء ، بل هو الرأى الذى نجده يؤخذ على الترجيح والتغليب فإذا هو يظفر من الحقيقة بأوفر قدر ومن الصواب بأكبر نصيب فما يغيب عن البال أن الإسلام قد اخذ ــ في البدء ــ يشيع في الناس فرادى ووحدانا ، ينصل المرء إليه من طاعة قومه ، ويخرج بإيمانه به على إجماع راى القبيلة . وما يغيب أيضا أن الإيمان « الجمعى » به لم يكد يقع إلا من السنة التاسعة للهجرة حين توالت الوفود العربية على المدينة بزعامة رءوس العشائر أو ممثليهم يبايعون الرسول لأنفسهم واقوامهم على الإسلام بعد أن رأوا قريشا ، وهى أمام العرب حينذاك ، تدين له ، ويخضع سادتها لسلطانه صاغرين ..

ومع ذلك ، فليس يطعن على القـادة ، او على طائفـة منهم ، أن دخلوا الدين خوفا وطمعا ، إذ خايلتهم فيه منفعة منتظرة او مؤكدة ، تحفظ عليهم هيبتهم ، أو تعيد لهم عزا دارسا وترفع شأنا موضوعا يغدون بفضله وهم رءوس من بعد ذيول وصدور من بعد أعجاز ، ما دام المظنون بتنافسهم على ارتياده أن يتقدموا في الدولة الجديدة على من عداهم من المتخلفين عنه من الأشباه المناظرين أو الغرماء المنافسين . وما دام تعضيدهم إياه ، وسيرهم في ركابه ــ كيفما كانت الدوافع ــ قد حسر المد الكفرى ، وأضعف موجاته ، ثم حول الجزر العقيدى إلى تيار دافق كأنه شلال ..

وكما كان الإيمان على الوان ، فكذلك كانت الدوافع إليه عديدة بقدر تعدد الرغبات والمثيرات ..

فحمزة ، وهو على الكفر ، دفعه غضبه لابن أخيه إذ آذاه أناس من قريش أن يذهب إليهم ، فيشتمهم ، ويشج كبيرهم أبا جهل بن هشام، قصاصا وثأرا ، ثم يتحداهم ويعلن إسلامه ..

وعمر أخذته الرقة على أخته فاطمة بعد أن ضربها لإسلامها وأسال دمها ، فاسترجع وأناب ، وتابعها على دينها الذى طالما وقف منه ومن أتباعه أشد مواقف العنف والعداء ..

والأنصار في العقبـة الأولى حفزتهم منافسـتهم يهود المدينة أن يسرعوا إلى محمد بالبيعة ، ويسـلموا على يديه ، وبعضـهم لبعض يقول :

« هذا والله النبى الذى تحدثكم به اليهود ، فلا يسبقونا إليه !.. »

وأبو سفيان بن حرب يعقدها صفقة تجارية ليسلم !.. فلا يقر بأن محمدا رسول من عند الله ، عن اقتناع وطيب نفس ، بل خشية سـيف يهم أن يومض وهو يهوى على عنقه ، ولقاء فخر يميزه به الرسول ..

وتتواتر الأمثلة لتعرض صور الرغبات فإذا هى تجل عن الحصر لأنها تكاد تتعدد عدد الأفراد !.. فإنما الناس أهواء . وإنما الدنيا أمل .

وإنما الدين سلعة « نفسية » تخضع ، كالسلع المادية ، لقواعد البيع والشراء !.. وفي حديث رسول الله لعدى بن حاتم وقد وفد من الشام المدينة عملا بمشورة اخته ليرى رايه في الالتحاق بالإسلام ما يلقى ضوءا على جانبى الخوف والطمع في النفس البشرية إذ هما معين الرغبات ..

يقول الرسول لعدى ، باسطا له أوجه « المنفعة » المنتظرة من الدين :

« .. لعله يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فيوشك ان يفيض المال فيهم حتى لا يوجد من يأخذه .. او لعله يمنعك ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمراة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف .. او لعلك إنما يمنعك من الدخول فيه انك ترى الملك والسلطان لغيرهم ، فيوشك ان تسمع بالقصور البيض من بابل قد فتحت .. » .

هكذا كانت حالة العرب العقيدية ، وكان انفعالهم بالدين في فجر دعوته . ولئن بدت لنا الصورة منتقصة لا تنقل لنا الهيئة الكاملة لوضع المسلمين العام في عهد الإمام بعد جيل وبعض جيل من ظهور الإسلام ، فإنها لا ريب شريحة من هذا الوضع الكلى ، أو — بالتعبير المألوف — « قطاع » منه ، تجتمع فيه كافة خصائص الاصل وصفاته فلا يختلف احدهما عن الآخر في الكيف ، وإن اختلفا في الكم : ولا في النوع وإن اختلفا في المساحة او المقدار .. فإذا كان العرب — وهم على عهد الرسول قلة في مجتمع كالبدائى محدود المطالب ، وبحكم طبيعة بيئتهم اقل الشعوب المعاصرة إغراقا في ترف المدينة — لم يستطيعوا الارتفاع فوق طبيعتهم البشرية وتجريد نظرتهم إلى الدين من رغائب الطموح المادى ، فأولى بغيرهم من الأجناس المترفة ، التى التحقت بالإسلام ، أن تستفيض بهم الأمانى ، وتنبسط رقعة الطموح ، وتكثر المطالب والرغبات .. وإذا كانوا ايضا قد تسقطوا في الدين بابا للمنفعة اجتازوه فأحرى بهؤلاء إذن ، وإنهم لمتمرسون بالدنيا ، خبيرون بالآراب ، أن يتسقطوا فيه لمنافعهم عدة ابواب !..

٣

في حدود الإطار النفسي الذى ضم صورة المسلمين عامة في تلك الايام ، يتبدى لنا ان جمهرة كبرى منهم قد اعتنقت الإسلام عن اتباع لا عن اقتناع ، شانهم في هذا السلوك شأن غيرهم من انصار كل مبدأ ، واشياع كل عقيدة يتكاثرون وينتشرون وهم في حقيقة الأمر كثرة تنقاد لقلة تقود .. فإيمانهم به مشايعة لما هو اقوى او لمن هو اقدر ، يثيرها ما ركب في غرائز البشر من تطلع دائم إلى بلوغ الأمثل الاقوم ، ونزوع مضطرد إلى الوصول للأنفع الأجدى — او هو التعبير الصادق والتفسير الذاتي لظاهرة اجتماعية حتمية الحدوث في كافة المجتمعات الإنسانية هي ظاهرة التقليد .. ودوافعهم إلى اعتناقه تتغاير وتتعدد بتغاير مذاهب الامزجة وتعدد مناهج التفكير ثم لا يحول التغاير والتعدد دون التفاهم حوله كيانا موحدا — وإن تباينت عناصره — هو المجتمع الإسلامي الجديد ، لأن اجتماعهم عندئذ ليس اجتماع تنافر وتضاد بل هو اشبه أن يكون اجتماع « تعاهد » وتضافر إن لم يكن هو التناسق والتكامل ، كوحدة الجسد تقوم على تآلف عناصر متعارضة الطبائع متضاربة الخواص ، وكبنية المجتمعات تتحقق بترابط انسجة شتى فيها التماثل وفيها الاختلاف ..

أشتات من الناس سلكها الإسلام في خيط دولته لا نقول بتناقضها من تعدد الألوان أو تباين الأجناس ، وإنما نقول به عن تفرق الدوافع ، وتغاير الانفعالات ، واختلاف الاتجاهات . ولقد نرى انها تضافرت على نشر الدين ، وبناء الدولة ، وبسط النفوذ الإسلامي على وجه الأرض إلى ابعد الآماد واقصى الابعاد ، ولكننا لا نستطيع ايضا أن نغفل اقتدارها — ككافة البنيات الحية — على النمو ، ولا أن ننكر خضوعها — كغيرها من الاحياء — لقانون التطور الذى يحقق الانتقاء الطبيعي للصفات كما يحققه للأنواع ، فليس إذن بمستغرب أن تبرز ، مع الزمن ،

لكل طائفة منها خصائصها المميزة التى تعينها ، أو تحملها ، على التفرد بانتهاج لون خاص من السلوك .

هكذا غدت الحال والإمام عندئذ يخطو خطواته الأولى على جادة الخلافة ، ويحاول ما وسعه الجهد أن يجعل الحكم والرعية كليهما يعملان في نطاق دين الله ، ويسيران على ما شرعه الإسلام .. وليس معنى هذا ، بطبيعة الحال ، أن الثلاثة الذين سبقوه في سياسة الامور قد تهاونوا في التزام ما يلتزمه ولم يرعوا ما يرعاه . ولكن طفرة التغيير الواسعة التى طفرتها الدعوة في فترات إمرتهم القصيرة ، وفاقت بها كل وثبات الأديان وقفزات الثورات ، كانت قد طوت إلى ابعد الحدود احياز المكان وأجناس الإنسان .. فعلى المستوى الأرضى غزت بقاعا تتنوع بها الفصول والأجواء في آن ، وتتغاير طبيعة ثراها وتربتها بين جدب ويانع ، وحزن وسهل ، وجبال ووديان .. وعلى المستوى البشرى شملت شعوبا وامما بينها تمايز في الأصول والمناشىء ، وتفرق في اللغات واللهجات ، وتباين في الأبشار والالوان ثم ما يلى ذلك من تغاير الحضارات والثقافات .. فإذا تلاقحت عندئذ نظرات كل هذه الجموع إلى الدين الجديد ببذور العناصر الحضارية مجتمعة إلى رواسب التراثات البيئية ومقومات الفكر القومى ، فإن هذا هو التلاقح المتوقع المقبول ، والتأثر الطبيعى الحتمى الذى تقره طبيعة الأوضاع ولا يأباه منطق العقول ..

على هذا المدخل تراكمت ، بمرور الاعوام ، كافة التيارات الفكرية والسياسية لكل هذا المحيط الكبير من اخلاط الأجناس والوان الشعوب والاجناس . ومن خلاله راحت — ما تهيأت فرصة وما اشتد تيار — تتسرب قطرة قطرة إلى أساس النظام العام ..

وقد بدت هذه التيارات إلى نهاية الشطر الأكبر من العهد العمرى باهتة لا تكاد تأخذ العين أو تثير الاهتمام ، ولكنها كانت بلا ريب حية في النفوس تعتمل أو تختمر ، وإن بردت حرارتها ، وجمدت حركتها كذوات الدم البارد في موسم البيات الشتوى الذى تكاد تنفصل إبانه عن دنيا الأحياء !.. حتى إذا أوشك ذلك العهد أن يطوى صحائفه ، كانت قد اخذت تنتفض بالحياة ، وتتحرك حركة محدودة ، آنا تدور

حول محورها ، وانا نسير في فلكها او تضطرب اضطرابة تكاد تخرج بها عن مداره المعلوم . فلما أن انتصف عهد عثمان نشطت النشاط الذى ينبىء عنها ، وينبه إليها ، وإن لاحت عند ذاك للخليفة ولكثيرين من ذوى الراى أو السلطان غير ذات خطر ملحوظ . فكانها كانت ادنى إلى طبيعة البراكين ، تحسب في رأى العين خامدة وهى لاتنى تعتمل في جوف الأرض والسطح ثابت هادىء لا يريب حتى يثين لها ان تقع على موطن ضعف في القشرة الأرضية فتقتحمه منفذا للانفجار !..

ولم يكن عجبا ألا تستطيع سرعة هذه التيارات المتفضة ان تبارى سرعة انتشار الدين او تسير معها ، على الأقل ، جنبا إلى جنب ما دامت عوامل تفجرها تجيش منذ البدء في النفوس .. فإنما الطبيعى ان تقصر بها خطاها ، والعجب الا تتأخر عن موعدها المقدور والا تتخلف بعض تخلف عن مسيرة الدعوة ثم تلهث في أعقابها وهى تحاول طى الزمن والعقبات لتفرض نفسها على الوجود الإسلامى وتقوم فيه بدورها الخطير .. ومن شاء هنا أن يتقصى لهذا التخلف من الأسباب والدواعى ما شاء فلن يعضل الأمر به ، ولن يكون بحاجة لتسقطها على مشقة ، لأنها في الحقيقة تعلو الندرة إلى الكثرة ، وتعسر على الغموض والخفاء فلا تغيب عن إحصاء ولا يعيى بها استقصاء ..

فما هى الدواعى والأسباب ؟..

لأن يطيف بها الذهن فيلتقط شواردها واشتاتها من هنا ومن هناك فهو التزيد الذى لا موجب له ولا حاجة فيه ما دام الإقصار يغنى عن الإطالة ، وذكر المحصلة الكلية يجزى عن الإفاضة في إيراد المفردات والأعداد .. فإنما يكفى ان يقال ، في هذا المقام ، إن علة العلل ، ومحور الأسباب والدواعى التى ادت إلى تأخير ظهور تلك التيارات يمثلها لنا أصلان جامعان ، هما نضرة الدين وصلابة اليقين وما أفاده كلاهما على طلائع أبطال الدعوة الإسلامية من قوة روحية لم تعدلها ، وما كانت لتثبت لها ، اية قوة مناهضة في تاريخ الإنسان . فانطلاقة الدين ، كعقيدة ، إلى النفوس على عهد رسول الله ، وهو عندئذ في رواء نضرته واوج عنفوانه ، كانت كاندفاعة السهم عن قوسه إلى الرمية ، إذا ضرب أصمى واصاب ، وإذا اصاب نفذ وغار ، وإذا غار لم يسهل نزعه ..

وصـــلابة اليقين في نفوس الطليعة المؤمنة كانت الردء لهـــم ، والدرع الواقية التى تهب الطمأنينة وتورث الثبات والإقدام عند الدفاع والهجوم . وفي رسوخ قدم الرسول في التبشير بدين الله ، وصبر أصحابه الأول معه ، ونضالهم واياه ذلك النضال الأسطورى العنيد الذى لم يلن لوعد ، ولم يخف بوعيد ، ولم ينل من شأو حدته تعذيب ولا تشريد ، ما يغنى عن كل بيان ولا حاجة بعده لبرهان ..

فأما النضرة فإنها تكسب الموصوف بها ــ فيما تكسب ــ سحر المنظر وبهاء الرونق . وهى على إطلاق مفهومها وطبيعتها ــ ســـواء أكانت في الأمور أم الأشياء ، في المعنويات أم الماديات ــ ظاهرة قادرة على الاستهواء وتحريك الفضول لأنها دائما تقترن بانفعال الدهشة نتيجة لاستحداثها خلاف المأمول وبروزها فجأة من وراء المجهول .. فما بها من جدة خليق بأن يعلق بها الأنظار والمشاعر طويلا أو قليلا من عجب أو من إعجاب . ولقد يسفر هذا التعلق البغتى ، بعد تأمل وتفكير ، عن انكار ونفور ، ولكنه قد يسفر أيضا عن رضا وقبول ..

وقد استطـــاع الإسلام ، وهو النضر في الأفكار والاتجاهات ، الحديث بين الأديان والمعتقدات ، أن يظفر ــ ككل جديد ، دع جانبا انه رسالة سماوية واجبة الاتباع ــ بطائفة من الأعوان المبهورين بجدته أو المتطلعين من خلاله الى الانسلاخ من القديم لتغيير الأوضاع .. وإذ هو عندئذ في زهرة عمره أخضر العود في قلوب انصاره الأول من الدعاة المؤمنين بدعوته ، أو الأشياع المأخوذين بنضرته ، فإنه أولى بألا تخلق له جــدة ، أو يبهت لون ، فيفتر أثره في نفوسهم ، أو يتهاوى تمسكهم به ولما يطل بعد عليه الأمد طولا يغير النظـــرة أو يقسى القلوب .. وإذ محمد ما زال في الناس يأتيهم من السماء يوما يوما ، وساعة ساعة ، بالجديد من التنزيل ، ثم يفسر ويقرر ، ويرشد ويبصر ، فإنه لا سبيل حينئذ إلى نزوع أيما إنسان في المجتمع الإسلامى الجديد الى التأويل في الدين بما قد ينحرف بتعاليمه ، ولا لتطرق أفكار وآراء اليه من خارجه ــ وعبر ما عداه من الأديان والمعتقدات ، أو الفلسفات ونظرات العقول والأفهام ــ تطرفا يخلط

به ما يشوب صفوه ، أو يلتوى به عن نهجه ، بالانتقاص منه أو الإضافة إليه ..

وأما اليقين فإن صلابته التى لم تكن لتلين قد جعلت من القلة المؤمنين بالدين ، المناضلين دون الاعداء والعقبات على بقائه وانتصاره ، قوة تعز في القوى ثم تهون أمامها الكثرات .. فالإيمان هو خالق العزائم والإرادات ، وباعث الثبات والإصرار ، وموقظ القدرات الكامنة ومحركها لتندفع قدما اندفاع الاعصار . وهو بهذا سلاح باتر قاطع في مجالات الصراع والكفاح بل هو اول سلاح واقطع سلاح .

ولا غرابة هنا ، وقد اجتمع للإسلام عنصرا القوة : النضرة والإيمان ، أن يظهر على أعدائه ومناوئيه ، ويقتحم ما يعترضه من عراقيل وعقبات . فما رده عن انطلاقه أن ناواه ــ وهو ينشق أولى نسمات حياته ــ طاغوت قريش والقبائل العربية الأخريات التى اخذها عنت الكفر ، وازدهتها حمية الجاهلية ، واستطار بها ــ صلفا وكبرا ــ ولاؤها الأعمى للماضي ، وثباتها الجامد على القديم .. ولا حسر موجة انتشاره ، في إشراقة عمره ، أن تصدت له مدنيات ذلك العصر بما لها من تفوق علمي ومادى ، وبروز في جوانب الحرب والسياسة ، وبما تمثل من دول عظمى وامم عريقة كفارس والروم ، ومصر والشام ، وغيرها من بلاد وشعوب طوت حينذاك رقعة عالم تلك الايام ، وضربت في الحضارة وشأو القدرة إلى ابعد الحدود وأعلى الآفاق .. ولا غرابة ولا شبه غرابة في ظهور الإسلام ، تلك الآونة ، على جميع من اعترضوا طريقه ، وتحطيمه كل ما واجه من السدود والقيود . ولكن الغريب ، أو ما هو أشبه بالغريب ، أن عنصرى قوته اللذين تفاعلا معا ، وولدا طاقته الذاتية الهائلة ، كانت تجثم فيهما ، ومن نفس طبيعتهما لا من خارجها ، جراثيم هدم وتحلل ما لبثت ــ حين آن لها من بعد أن تختمر ــ أن اشاعت الضعف في انطلاقته ، وراحت تتعثر بخطاه ..

في جانب « النضرة » اخذ النفور ــ الذى يثور احيانا على الجديد بعد انحسار المفاجأة عن نفوس فريق من المبهورين ــ يطفو على السطح

إذ امتد الزمن بعض امتداد ، وبعد عهد هذه القلوب بالدين « الجديد » فخلقت فيها جدته وبهت رواؤه . ولا عبرة هنا بطول المدة محسوبا بالشهور والأيام أو القرون والأعوام . بل العبرة بمدى الشعور بهذا الطول . فقد يرث الجديد وهو في زهرة عمره لأن الإحساس به ــ إعجابا به أو عجبا منه ــ قد زال . وقد يرث لما قد يطرأ عليه من عوامل ناخرة وآكلة تنال منه وتغير فيه . كالثوب يرث بآفة قارضة ، أو بالقذر كتراب وغبار ، أو بلسع النار ..

وفي جانب « الإيمان » فشت فاشية من تعصب في نفوس طائفة من الذين تخطفوا الدين تخطفا كعقيدة استجابت لها مشاعرهم المتعطشة عند ذاك للتدين ليملأوا بها في دخائلهم فراغا روحيا كان لابد أن يملأوه .. فالإنسان « عابد » بالسليقة . منهوم بالاعتقاد . مشوق عادة إلى ربوبية إله لأن فيها التفسير الوحيد للأسرار الكونية المحيطة التى لا يستطيع ذهنه أن يرقى اليها على جناح تعليل ، ولأنها ملاذه من سطوة الغوامض والمجاهيل .. فإذا هم جنحوا الى اعتناق الإسلام فذاك انسياق طبيعى مع العاطفة الدينية وإن كان هذا الانسياق العاطفى لا يجيء دائما مطابقا للاقتناع الموضوعى الذى قد تبلغه العقول بعد روية كيفما كان استواء تفكيرها أو التواؤه ، ومدى قدرتها على الإحاطة بالموضوع .. وإذا هم دفعتهم العاطفة وحدها إلى أخذ الدين فإنه الأخذ المتعجل الذى يغدون به أوعية صماء قصاراها الامتلاء ، لأنهم احتووه ولم يفهموه ، شربوه ولم يشربوه !.. فكأنهم النهم الممعود الذى لا ينفعه بشيء إقباله المسرف على المآكل مقادير وألوانا إلا أن يتخم جوفه ، ويزيد داءه ما دامت معدته لا تقوى على الهضم فلا تتمثل عناصر الغذاء !.. وكأنه لديهم ليس سوى طقوس وأشكال ، وسور وآيات ، أشبه بهم أن يأخذوه على ظاهر هيئته وفي حدود حروفه بغير اقتدار على الغوص فيه تعرفا على أبعاده وأعماقه ، وتفهما لغاياته وأهدافه . وأن يترسموه شعائر ومعالم دون إدراكه كحكم وتعاليم ، لأنهم يرونه نصوصا تستظهر ، وحركات تؤدى وليس أسلوب حياة ..

من هاتين الثغرتين نفذت عوامل الانتقاض والانتكاس إلى المجتمع

الإسلامي الوليد ــ كمجتمع إنساني فاضل ــ ثم راحت تتسرب في كيانه رويدا رويدا تسرب العلة في الجسد المعلول لتجول فيه بالضعف والتحلل دولة وأمة ، مادة وعقيدة ، وما كان قد قطع بعد من أشواط حياته غير جيل وبعض جيل .. ولا نشك هنا في أن مرجع هذه النكسة الخطيرة ، لو أحيط به ، ومسحت رقعته المدودة ، ثم أريد وصفه بما يحدد معالمه ، ويخطط حدوده ، لكانت العبارة التى تطابقه هى قصور أسلوب السلوك عن متابعة نهج الدين ..

فهل عن العجز كان هذا القصور ؟.. أم العمد وسوء النية ؟.. أم التهاون ؟.. أم الضيق بالتزام القيود ؟.. أم شطحات التأويل ينجبها الجهل أو يسوقها الادعاء المغرور ؟..

كل اولاء ، وأكثر ، بغير مراء !..

لكنها جميعا ، وان تستر بعضها بمنطوق النص ، كانت مجافاة خالصة لفلسفة الدين ، وخروجا على مضمونه ، أخلت بالتوازن المفترض بين الظاهر والباطن . الحرف والمعنى . الشكل والروح ..

٤

الاتجاهات السلوكية في اى مجتمع من المجتمعات ليست حركات عفوية عشواء تصدر عنه بغير بواعث محددة . ولا هى أيضا حركات إرادية معبرة يراد لها أن تكون فتكون . ولكنها مجموعة من الظواهر الاجتماعية التى قد تؤثر في تكوينها الصدفة كما قد يؤثر الإعداد ثم لا تكون آخر الأمر ، بعد نضجها واكتمال بنيتها ، إلا مستقلة الكيان بغير حد ، مطلقة اليد بغير عائق ، يحكمها في انطلاقها قانون طبيعى ثابت لا يتغير ولا يختل ميزانه ، فإذا هى به « التعبير » المجسد العملى عن الميول والنزعات ، والنتيجة المنطقية الحتمية للدوافع والتطلعات ، ممثلة في « الفعل » ناشئا عن مدى التكيف مع الظروف المحيطة بذلك المجتمع ومقدار الانفعال بالنظم السائدة فيه ..

وفي ابان تلك الفترة المتقدمة من تاريخ الإسلام ، فعلت هذه الاتجاهات فعلها في المجتمع ، فحددت ملامحه ، وحركت خطاه ، وتفردت له بأسلوب حياة يخالف بلا ريب أسلوبه الأول عند نشأة الدعوة ، نتيجة لما طرأ من تغيرات عديدة على الأوضاع والنفوس باعدت ما بين الأصل والواقع ، والقديم والحديث .. ولا سبيل هنا الى الادعاء بأن هذا من طبيعة الأشياء إذا اخذت حتمية التطور في الاعتبار ، لأن التطور — بمفهومه السليم — نمو . والنمو زيادة وارتقاء وليس نقصانا أو رجوعا الى الوراء ..

ويدلنا الاستقراء على أن خط الاتجاه السلوكى عامة ، في ذلك الحين ، كان يتدلى ، جاذبا معه حركة التطور الى الانخفاض .. وهو بهذا لم يساير بأية حال من الأحوال سنة التطور السليم .. ولا كان صدى صادقا لروح التقدم التى احتواها الإسلام في طوايا تعاليمه . إنما كان ، في حقيقة الأمر ، نكوصا على العقب ، وردة عن النهج ، وخروجا على القواعد التى أرساها الدين ..

فالانحراف عن مضمون الدين آنذاك ، وإن جاء عن جهل به ، او قصور عن ادراكه ، أو تخبط في التأويل ، أو انسياقا مع الاهواء ، او كيفما كانت الدوافع والأسباب وتعددت التعللات والتبريرات ، هو الذى وضع بذرة التحلل في النفس المسلمة ، وفي المجتمع الإسلامى على السواء ، ثم تعهدها لتثمر كل عوامل الضعف والتخلخل التى راحت تنخر فيها وفيه .. ولقد يحسم الجدل في هذا المقام ان ننأى هنيهة عن التخصيص الى التعميم فلا نلصق التهمة بفرد بذاته ، ولا بطائفة من الطوائف ، ولا بجنس من الأجناس دون سواه ، لأن الانحراف فيما نرى — كان ظاهرة « مشتركة » . أو قد كان — مع الترفق في التعبير ! — أشبه بخطأ مشاع بين كافة الطبقات ومختلف الأشياع ..

هذه هى القضية !..

أما أن يقال إن اتساع نطاق الدولة الجديدة قد خلخل قدرتها الذاتية على التماسك كما تمط الثوب بين يديك مطا شديدا لا يكون مآله بعده غير تفكك نسيجه ، وانفراط قوامه ، وظهور تمزق به هنا

او خرق هناك .. واما ان يقال إن تعدد الاجناس ، وتنوع الثقافات ، وتضارب الطبائع وغيرها من وجوه التناقض والاختلاف ، قد يسفر اجتماعها عن كيان سياسى موحد هو الدولة ثم لا يسفر قط عن قوام عضوى واحد هو الشعب لانه عندئذ اجتماع اختلاط وتجاور وليس اجتماع تكامل وانسجام .. .. أما أن يقال هذا أو يقال ذاك فهو القول ــ لا ريب ــ الذى لا يسوغ أن يؤخذ به على إطلاق ظاهره وباطنه ، مبناه ومعناه ، كأنه قانون طبيعى ثابت . ولا ينبغى أيضا أن يعول عليه التعويل كله في تفسير ظاهرة الضعف والتحلل التى راحت تدب في مجتمع تلك الأيام . ذلك لانه القول الذى يلقى به عادة في مثل هذه الظروف تعليلا وتدليلا فلا يخلو هو نفسه من افتقار الى تعليل وحاجة لتدليل ، إذ لا يلبث أن يصطدم في مجرى منطق الأمور ، وفي نطاق واقع الحياة على السواء ، بشواهد لا تسنده ، وأمثلة لا تؤيده ان لم تنسخه وتنقضه او تجرده ــ في اقل القليل ــ من القدرة على الاطراد بغير استثناء في كافة الظروف والأحوال ..

فاتساع نطاق اية دولة ، وترامى حدودها ، أدنى الى ان يحسب لها ثقلا في ميزان القوة لا ان يحسب عليها سببا للوهن لأنه يمدها من الموارد الطبيعية والبشرية ــ الخليقة بأن تتوفر على امتداد المساحة ونتيجة لتنوع المناخ والتربة ــ بما يحقق لها من اسباب المنعة والتفوق ما لا يتحقق مثله لدولة صغيرة نصيبها من الارض والبشر قليل .. والتعدد العنصرى أيضا على أديم هذا النطاق الفسيح لا يحتم وقوع تنافر بين الاجناس يؤدى لا محالة الى الخروج على الدولة الأم وتفتيت وحدتها الاقليمية وكيانها السياسى الى دويلات عنصرية .. فكم هى الامم ذات الأثر في الحياة الإنسانية على هذا الكوكب ، التى أوشك بنوها ان يكونوا انقياء الدم إذا ما أردنا بالنقاوة وحدانية العنصر ؟.. وهل من دولة ، قديما وحديثا ، في الشرق وفي الغرب ، قد حركت موكب الحضارة على طريق التاريخ ، ولم يكن قوامها يتالف من اجناس عدة تلاقحت ــ حيويا او فكريا ــ وتوحدت ، على الاقل ، في تعاهد سياسى اقليمى إن لم تكن قد انصهرت في عنصر جنسى جديد ؟.. وما هى الفواصل الحادة بين الاجناس البشرية التى

تستطيع أن تحبس ، إلى أبد الدهر ، جنسا وراء أسوارها الشواهق فلا يتصل أو يمتزج بسواه ؟..

ليوشك هذا ان يردنا والزمن إلى الوراء حقبا سحيقة ، غائرة في القدم إلى الأعماق حتى مستهل النشأة الإنسانية على الأرض وجماعات البشر آنذاك شراذم مقطعة يعيشون معيشة بدائية ، لا يمكن أن توصف ــ إلا تجاوزا ورمزا ــ بأنها حياة ، أو يوصفوا بأنهم مجتمعات !.. فتلك كانت بداية « التجمع » الإنسانى او نواة الالتئام والاجتماع . وحركة الإنسان في آونتها هذه لا يكاد يحس لها بأثر في التاريخ العام للجنس البشرى لأنها عندئذ لم تكن لتدور إلا في حيز محدود مغلق من العزلة هو الأسرة او هو القبيلة مع سخاء التقدير .. فأما وقد سارت البشرية في طريقها أشواطا شبت بها عن الطوق ، وخلفت بعدها طفولتها الغريرة الى مرحلة النضج عبر أعصر طويلة ، فإن إحساس الإنسان بذاته ، وإدراكه لدوره في الحياة ، ووعيه بالانتماء لأصل معلوم تناثرت آحاده وجماعاته هنا وهناك على مدى الأزمنة والمسافات ، قد غدت كلها ــ إلى جوار غريزته الاجتماعية ــ قوى فعالة تسيطر على سلوكه ، نفسيا وعضويا ، وتدفعه دفعا الى الالتقاء ببنى جنسه اينما شرقت به وغربت قدماه .

وكذلك تنشأ المجتمعات . بل كذلك يعود الإنسان ، بعد طول تجواله الضال ، الى بيئته الحيوية الأصيلة ، وتعود الشراذم البشرية المقطعة لتتصل وتلتئم كما تثوب الغنمات الشاردة الى مربض القطيع !..

ولا حاجة قط لتأييد هذه النتيجة استهداء بعلم الاجتماع ، ولا عن طريق استقراء التاريخ ، لأنها النتيجة الميسرة الظاهرة لأية نظرة عابرة بغير استهداء ولا استقراء . فالفرع لا ينفر من أصله . والشكل ينعطف على شكله . ولا عبرة أيضا بطول فترات الشرود والانفصال ، ولا باختلاف الألوان وتفاوتها كما بين غنمة سوداء وأخرى بيضاء !.. فمنطق الأمور ، وشواهد الحال يوما وراء يوم تؤكد ، بغير جدال ، ازدياد توثق الصلات بين جماعات البشر على تباعد المواقع البيئية ، وتباين السمات البدنية ، وتمايز الخصائص الفكرية وكل

ما يعلم مجتمعا عن مجتمع وإنسانا عن إنسان . وهذه المواقع والسمات والخصائص واشباهها مهما تعددت وجلت ليست سوى مظاهر خارجية لا تضرب في النفس الآدمية إلى عمق غريزة الاجتماع ، ولا في القدم الى عراقة النوع . فهى إذن فوارق عارضة ، كالرغوة الطافية على سطح الماء تغير مظهره ولا تغير جوهره ، الماء بها وبغيرها ماء !.. ولا مآل لهذه الفوارق ، طال بها المهد ام قصر ، إلا إلى الزوال والذوبان فناء في الأصل الثابت وتوحدا فيه ، وهو « الإنسان » على عموم معناه كنوع من المخلوقات ميزه الله بصفات خاصة ينفرد بها دون سائر الأنواع .

هذه هى نظرة الإسلام التى تنطق بها سطور القرآن ، وتقوم عليها أوامره ونواهيه . وهى دعامة فيه بغيرها يختل بناؤه ، وتهدر أهدافه ، ويفقد معانيه ومراميه ، لأنها تمثل في حقيقتها احد طرفي المحور الذى يدور عليه موضوعه ، وتنهض احكامه ، وهما : الله والإنسان .

فالدين الإسلامى ليس عقيدة بحتة لا تتناول إلا ما يرهف حاسة التدين ، ويهذبها ، ويوطد الرابطة بين الرب والمربوب بما رسم من شعائر ، وفرض من فروض .. لكنه عقيدة وتشريع وإن غلبت صفته الدينية الأذهان على حقيقة ما فيه فكادت ــ توهما وظنا ــ تجتزىء منه بشطر التأله دون شطره الآخر الذى يعرض لشئون هذه الحياة ..

والقرآن ليس قصصا يروى ، وكلاما يزجى ، وبيانا يستعذب فيردد ويستعاد . ولكنه قطعا قانون بالشكل والمضمون . وبالمعنى الكامل الصريح لكلمة قانون ، أريد به إنارة الطريق أمام المجتمع الذى سن له إلى حياة إجتماعية يسودها العدل ، ويتحقق لها الخير ، وينتشر في ربوعها السلام . فمن الطبيعى إذن ، وصولا لغرضه ، وابتغاء لغايته ، أن يجىء بما ينظم العلاقات في ذلك المجتمع بين افراده وجماعاته من ناحية ، ثم بينهم وبين السلطة العليا التى يمثلها من ناحية اخرى ، مقيما تنظيمه على أساس من الدواعى والاسباب ، ومعقبا بأحكام الثواب والعقاب .. ومن اللازم الا يغفل ، او يتغافل عن هذا الجانب الاجتماعى فيه ، تمحلا بأنه دين « الروحانيات ،

والغيبيات هى مجاله الأصيل . فلا جدوى قط من قانون تقتصر نصوصه على تحديد الصلة بين الحاكم والمحكومين دون ان يضع صلة رعاياه بعضهم ببعض موضع تقدير لانه عندئذ يجرى على التخصيص . والأصل في القوانين أن تكون على العموم لا على الخصوص ..

في هذا الضوء لا يعسر على من يستخلص الأسس العامة ، أن يرى في الإسلام حقيقة كبرى قد ابرزها كراس قواعده ، هى « الوحدانية » الخالصة التى تنتفى معها كل صور التعدد والوان التجزئة وما قد تومىء اليه هذه أو تلك بالتصريح أو التلميح . فالوحدانية التى يقول بها ثابتة لا تتغير ، كلية لا تتجزأ ، جلية لا تتناولها شبهة ، لأن التغير والتجزئة والاشتباه آفات خليقة لو وقعت بأن تذهب بالعقول مذاهب شتى في فهم ذلك القانون القرآنى ، وتغاير بين أساليب السلوك تجاه كل حكم من أحكامه ، ثم تفاوت بعد هذا بين العقوبات والمثوبات بغير ما يقتضيه الإنصاف . وما لمثل هذا شرعت القوانين ، ولا بمثله تساس الأمور والمجتمعات .

ولا يراد بهذا القول أن يعاد ما هو ثابت مستقر من « توحيد » الله في الإسلام فذلك طالما جرت به الأحاديث ، ووعته الأفهام ، حتى غدا بديهية في غنى عن التأييد . لكن الذى ينبغى بيانه أن التوحيد ، بشمول معناه ، وعلى تعدد مجالاته ، هو أساس الإسلام ، وأصل قواعده ، والمبدأ العام الذى يتقدم به ، ويعرض نفسه على العالمين عقيدة وشريعة ، دينا وقانونا ، سياسة ونهجا للإيمان والسلوك . فهذا التوحيد هو الوسيلة لتحديد علاقة الله بالبشر ، وعلاقة الناس بالناس ، دون ما ترخص هناك أو تأويل ، ودون ما تحيز هنا أو تجاوز . وهو الضمان الكامل لاستقرار الأمور في المجتمع : حاكما « علويا » ومحكومين « أرضيين » بغير زيادة ولا نقصان ..

فالإسلام كعقيدة لا يبيح مطلقا اى ترخص في شرائط الإيمان اخذا ببعضها وتركا للاخر وإن لاح ان فيها ما يجل أو يهون ، وإن اختلف حولها المكان او تغير الزمان ، لان الإيمان « وحدة » متسقة لا تقبل التجزئة ، كما لا تقبل الإفراط أو التفريط ..

والإسلام كشريعة له وحدته القانونية التي تربط احكامه ، وتلائم بينها ، وتعرف عادة في لغة العرف او العصر بروح القانون . فلا سبيل قط إلى الاحتكام إلى نص فيه بعيدا عن « جو » بقية النصوص . ولا إلى المغايرة قليلا أو كثيرا في التطبيق بسبب تفاوت اقدار المحتكمين أو المختصمين ، وتغاير عناصرهم ، واختلاف النظرة في التقدير بين هذا وذاك ممن يتصدون للتطبيق ، لأن في هذا ما فيه من إهدار الوحدة ومجافاة الروح ..

وكما لا يجزىء الإسلام الله فإنه لا يجزىء أيضا الإنسان . إنما يقضي بوحدة الربوبية الإلهية ووحدة العبودية البشرية في آن . ويحرص الحرص كله على أن يرسخ هذا المبدأ في القلوب والأخلاد بكلا طرفيه : الله والبشر ، بما يبثه في تعاليمه ، وتردده آيات كتابه بجلى الحرف ومستتر الإيماء سواء بسواء ..

فتوحيدا لله ، ينزه الإسلام الذات العلوية عن مخالطة الأحياز زمانية ومكانية ، وعن المشاركة في الملك بالاجتزاء او المشورة ، وفي القدرة بالقول أو الفعل ، وعن المقارنة بالنظائر والأشباه ولو مقارنة تمثيل . فتنزيهه الله خالص كامل ، وقاطع مانع ، يجل عن الوصف ويعلو فوق تطاول المعقول ..

ولقد صور الإمام هذا التنزيه ببيان راى ، أمام كماله سبحانه ، ان ينهى فيه عن وصف ذاته ، لقصور الأفهام عن الإحاطة بحقيقته ، وعجز الكلام عن رسم صفاته :

قال :

« .. كمال توحيده الإخلاص له . وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف انه غير الصفة .. فمن وصف الله فقد قرنه . ومن قرنه فقد ثناه . ومن ثناه فقد جزاه . ومن جزاه فقد جهله . ومن جهله فقد اشار إليه ومن اشار إليه فقد حده . ومن حده فقد عده .. » .

وقال مما جرى على نفس المثال :

« .. وحده لا شريك له . الأول لا شيء قبله . والآخر لا غاية له .. لا تقع الأوهام له على صفة . ولا تقعد القلوب منه على كيفية . ولا تناله التجزئة والتبعيض .. » .

وتوحيدا للبشرية أعلن الإسلام أنه دين الفطرة التى فطر الله عليها الناس قبل أن تفسدها الانحرافات المتسربة إلى النفوس والعقول من خلال المعتقدات والأفكار ، أو العادات والتقاليد ، أو فوارق العنصريات . أو حدود الزمان والمكان .. فهو يرد الإنسان إلى سجيته النقية الأولى ، كبدء نشأته ، مطهرا من أدرانه ، خالصا من شوائبه ، كأنما يلده من جديد . وهو بهذا يسوى بينه وبين كل من عداه من بنى نوعه لأن الفطرة هى العامل الوحيد المشترك فيهم جميعا فأساس المقارنة بينهم على هذا الوضع ثابت لأنه مساواة مطلقة لا وجه فيها للمفاضلة او الترجيح .. وهو يقيم رسالته على هذه القاعدة ، فلا يوجهها لطائفة من الناس ارتفعت — في حساب المعايير الدنيوية الموضوعة — بجاه ومال ، أو بعلم وثقافة ، أو بقدرة وقوة ، أو بجنس وعنصر .. لكنه يوجه هذه الرسالة إلى البشر كافة ، ثم يحتويهم في رحابها سواسية ، لأنهم وحدة مكتملة لا تقبل التجزئة ولا التفريق .. وليس ادل على هذه الحقيقة من نأيه في الدعوة إلى الإيمان عن التخصيص إلى التعميم فلا يخاطب إلا « الناس » أو « الإنسان » أو « بنى آدم » أو « عباد الله » دون أن يختص أى جنس أو عنصر بالخطاب ..

ويشير الإمام إلى وحدة البشر فيقول :

« .. إنما أنتم إخوان على دين الله ما فرق بينكم إلا خبث السرائر .. » .

ويحذر من عصبية الأحساب والأنساب والعناصر ، بل يهدر طاعة ذوى السلطان الذين يتخلقون بهذه العصبية ، لأنها — في حقيقة الأمر — تجافي منطق الطبيعة الذى يجمعهم وغيرهم من مدلوليهم المرجوحين ، في نسب واحد ، أصله واحد لا اختلاف فيه .

قال وهو يفرد العلو لله :

« .. لبس العز والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه ، وجعلهما

حمى وحرما على غيره ، واصطفاهما لجلاله ، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده .. الا فالحذر الحذر من طاعة سادتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسبهم ، وترفعوا فوق نسبهم .. فإنهم قواعد اساس العصبية ، ودعائم أركان الفتنة ، وسيوف اعتزاء الجاهلية .. » .

ونسبهم هو الإنسانية فكيف يترفع إنسان على إنسان !

وانكر المفاوتة في تطبيق شريعة الله عند الاحتكام ، فقال فيمن يفاوتون ، منحرفين بهذه المفاوتة إلى آرائهم عن رأى الدين :

« .. إلههم واحد . ونبيهم واحد . وكتابهم واحد .. افأمرهم الله بالاختلاف فأطاعوه ؟.. أم نهاهم عنه فعصوه ؟.. ام انزل دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه ؟.. أم كانوا شركاء له فلهم ان يقولوا وعليه أن يرضى ؟.. أم انزل دينا تاما فقصر الرسول عن تبليغه وأدائه ؟.. » .

هكذا هو المجتمع الذى عناه الإسلام ، وبناه على قواعد راسخة لا تهتز ، واضحة لا تستبهم على العقول ، لانها تجرى على جادة الميسرات البديهية التى لا تحتاج في إثباتها إلى عناء الجدال ، وتقوم على حقائق الواقع الملموس ومنطق الأمور الطبيعى لا على النظرات المنبثقة من التصور والافتراضات المستمدة من تطلعات الخيال !..

وحدة ..

وحدة سلطة عليا ، لا تتجزأ فلا تنقسم على نفسها . ولا تتغير فتختلف عليها البدائه أو تضطرب الآراء .

ووحدة أمة واحدة الأصل ، متفردة النوع ، بغير تباين بين جاعاتها وأفرادها في النشأة والفطرة والصفات النوعية ، هى البشرية . او هى الإنسان على اختلاف الزمان والمكان ..

ووحدة شريعة مكتملة ، تؤكد وحدة السلطة ووحدة الأمة ، وتتناول العقيدة والمعاملات ، بغير مجاز إلى تبديل في اصولها ، أو ترخص في قواعدها العامة ، لأن تعديل الشرائع موكول إلى الهيئة التى اصدرتها ، ومرتهن بحاجة المجتمع إلى هذا التعديل نتيجة

لافتقار المشرع إلى الإحاطة الكاملة بما قد يطرأ من بعد على ذلك المجتمع من ظروف ويجد من احوال ، وحاشى أن ينسب مثل هذا الافتقار إلى الله !..

ومساواة ..

مساواة بالنشأة ، لأن المجتمع البشرى كله من آدم ، فهو إذن متوحد في النوع ، مختزل في الإنسان على عموم صفته ، بغير تجنيس ولا تفريع ..

ومساواة بالكنه ، وهو الفطرة الأولى التى يشترك فيها أبناء ذلك النوع كافة ، قبل أن تغير منها او تفسد فيها عوامل الفرقة «الوضعية» التى تستند إلى تفاوت البيئات والألوان ، او تغاير الأهواء والثقافات..

ومساواة في التقدير أمام شريعة واحدة ، لا تمالىء إنسانا على إنسان ، لأنها عادلة شاملة ، لا تتغير من مكان لمكان ، ولا من زمان لزمان ..

٥

عوامل الضعف كلها التى انتابت المجتمع الإسلامى في ذلك الحين ، ومن بعد ، نبعث — فيما تنبىء الشواهد وتثبت الخواتيم — من قصور اسلوب السلوك عن متابعة نهج الدين ، أو ، بلغة اليوم ، من المفارقة بين النظرية وبين التطبيق .. فهذه المفارقة آفة مدمرة ، كغيرها من جراثيم الأوبئة والعلل الفتاكة ، قد تهدأ حينا ، وقد تنشط حينا ، ولكنها في الحالين لا تنقضى ولا تنقطع لما لها من طاقة ذاتية تجددها على الدوام وتعينها على البقاء والانتشار في كافة الظروف وتحت كل الأجواء بقدر استطاعتها التكيف بأوضاع المجتمع الذى تنشأ فيه !.

ذلك ما لا سبيل إلى نقضه ولا الطعن عليه وإن تعقبنا المجتمعات البشرية بأنواعها على مختلف مراحل التاريخ ، صعودا وهى في ذروة القوة والازدهار وهبوطا في حضيض التدلى والانهيار .. فما نشأ

مجتمع قط في هذه الدنيا إلا على مبدأ عام ـ إلهي او وضعي ـ يرمي إلى تحقيق لون من الخير يشيع في ربوعه ، كيفما تغايرت النظرات من خارجه إلى هذا الخير أو تفاوتت الآراء في تقديره .. وما قام مبدأ في مجتمع إلا على اساس من التوفيق بين مصالح القوى المتعارضة ونقائض الأفكار السائدة فيه ـ طبقية كانت أم فردية هذه المصالح والأفكار ـ ضمانا لخلق توازن نسبي بين أهله ، يذيب الفوارق او يكسر حدتها ، ويجمع شتات الآراء والجهود في وحدة تسعى لتبلغ الخير المقدور .. وما من خلل أصاب هذا التوازن وخلخل اتساقه في مجتمع من المجتمعات إلا كان ناجما من افتقار بنيه إلى الإحساس بالانتماء إليه افتقارا يهز إيمانهم به وثقتهم فيه ، بسبب اضطراب المعايير ، والمفاوتة في التقدير على خلاف ما يقضي به المبدأ العام ..

وظاهرة المفارقة بين النظرية وبين التطبيق برزت في المجتمع الإسلامي الجديد وهو يوشك أن ينسلخ من الخلافة « الراشدة » بأسلوب حكمها الخاضع لناموس علوي لا يأخذ بالملك القائم على مزايا وضعية كالعنصر والنسب وبسطة النفوذ . ولا مدعاة هنا لسوق الحديث إلى المفاضلة بين النظامين لاتساع الهوة ـ قطعا ودون حاجة للتدليل ـ بين الفاضل وبين المفضول ، سواء بالنتائج والعواقب أو بالأسس والأصول ، وكفى أن يقال إنها الهوة التي تضع إنكار الذات في جانب والأنانية في آخر ، وتقدم القهر على حرية الاختيار ، والاجتزاء على الشمول .. ولا مجال أيضا للزعم بأن هذه الظاهرة قد طفت فجأة على سطح المجتمع الإسلامي ، أو اقتحمته على حين غرة حينئذ ، لأن في هذا ما يخالف طبيعة الأمور . إنما الحق ان نقرر أنها ولدت مع المجتمع منذ نشأته ، وعاشت وتربت فيه . فلكل شيء آفة من جنسه ، كما يقال . والإسلام آنذاك ، وعلى عموم معناه ، « مبدأ » جديد . والمبادىء ، في كل موقع وعهد ، خليقة بأن تقابل دائما ، منذ نشوئها وطروئها على المجتمعات بما يضادها . ويصطلح عادة على تسميته « رد فعل » ، تماما كما تنشط كرات الدم في الجسد وتولد طاقة ذاتية لمقاومة اى طارىء دخيل !..

وهذا ما كان .

فلقد ظهرت قوى المقاومة للدين الجديد منذ نشأته ، واخذت ايضا عوامل التحلل والتخلخل تسرى في المجتمع في نفس الآونة ، وإن مشت حينا على استخفاء وحينا على سفور . ولقد لاح ، فيما سبق به الحديث ، كأنما كان أولى بهذه العوامل ، ان تفعل فعلها التخريبى منذ بدات ، ما دامت قد عاصرت مولد الدين ، ومشت وإياه إلى المجتمع خطوة خطوة على الطريق .. لاح هـذا ، وكان أولى به الحدوث قبل موعده ببضع سنين ، اولا ان ظروفا غلابة قد عوقتها ، وقهرت ضراوتها على أن ترجىء نشاطها الى حين !..

فلا شبهة قط في أن انطلاقة الدين بتلك السرعة البرقية من قلب مهده في الجزيرة العربية ، وعجز الجحافل الضخمة المادية ــ سياسية كانت ، أم عسكرية ، أم عقيدية ــ عن الثبات أمامه ، ثم تعاقب تساقطها ممزقة صرعى تحت قدميه ، قد شل عوامل التحلل أن تتحرك ، وجمد خطاها المتسللة الى المجتمع الجديد .. ولا شبهة ايضا في أن صليل السيوف ، وضجيج الخيل ، ودوى الأبواق التى انعقدت بها ألوية النصر لكتائب الطلائع الداعية في كل مكان قد شغلت الدنيا كلها بثورة الطوفان العارم الذى فجره الدين .. فالناس ، هنا وهناك ، في الجزيرة العربية وما وراءها ، مؤيدين ومعارضين ، قد أذهلهم عن أنفسهم ، وعن المطامع الشخصية والقومية جميعا ، ذلك الزحف الأسطورى الخاطف الذى حققته الدعوة الإسلامية في مجالى غزوها للأرض وللنفس فيما لا يكاد يحسب شيئا يذكر في عمر شعب ، أو دولة ، أو مبدأ ، بل في عمر فرد من الأفراد ، ثم يوشك الا يدع مهلة لالتقاط النفس المبهور ، أو فرصة لإمعان النظر فيما جد من الأوضاع والأمور ومقابلته بالتمرد أو التغيير ..

فعلى الأديم « العربى » نحلت حركة الفتوح أمة العرب ، التى ولد في حجرها الإسلام ، نوعا من الشعور بالتفوق على الحضارات العظيمة المعاصرة إن يكن قد حملها على الاعتزاز بالدين الجديد كطاقة معنوية تدفع إلى الاستهانة بالأخطار ، أو كمشعل يضىء لها الطريق إلى النصر ويفرش ساحات الكفاح بالنور ، فإنه قد بسط لها أيضا في الثقة بالنفس ، والاعتداد بالجنس ، اعتدادا وثقة صورا لها

ـ أو كشفا ـ في دخائلها قدرات وملكات ذاتية ، شاهقة خارقة ، ظلت خبيئة عنها على مدى الأعصر الطوال حتى عرفت الآن اين السبيل للظهـــور .. وإذا كانت للنصر ســـورة كسورة الخمر التى تعرى بالمعاقرة ، وتحفز على الإدمان انتجاعا للنشوة في كل كأس وبأى مكان ، فان تعاقب الليـــل والنهار على انتصـــار وراء انتصـــار ، قد أبدل العرب زهوا بثقة ، وخيلاء باعتداد ، فزادوا عصبية على عصبية ، وحمية فوق حمية ، وغدوا ـ ولما يطل بهم عهد الازدهار ـ أفخر باصلهم والصـــق ، فخرا يكاد يعمى عمـــا عداه من أصـــول فيورث الاســـتعلاء . ولصوقا بهم أن يحتازهم الى ركن قصى من « القومية الإسلامية » الجديدة ، إن صح هذا التعبير ، ويبنى حولهم غلافا من العزلة ، كصدفة القوقعة ، يفصل بينهم وبين ســواهم من الأقوام الأخر الذين احتواهم الدين وإياهم على ســـواء في أمة موحدة محت شريعتها السماوية طبقية الجنس وأذابت القوميات .. فإذا لم يكن في تعاقب النصر المؤزر السريع ما يشحذ إحساسهم بالتفوق ، ويلهب في نفوسهم غلواء افتتانها القديم بالعنصر ، فأى شيء غيره إذن ـ في اعتبار النظرة العربية المباهية ـ قادر أن يشعرهم أنهم وحدهم هم الجوهر الأنقى ، والأصل الأعرق ، وأن غيرهم من الشعوب والأقوام ، الملتحقة بفضلهم بالإسلام ، تبع لصقاء ، وطارئون دخلاء !..

وعلى الأديم « الأعجمى » قرنت صيحة الدين الجديد ، في البلاد التى مشت عليها الفتوح ، صـــدمة المفاجأة برغبة التغيير .. فلقد هالت الناس فيها تلك الطاقة المذهلة التى فجرها الإسلام في أمة مستضعفة ، لم تكن قبله شيئا مذكورا ، فإذا هى به تزلزل الدنيا ، وتقلب موازين القوى ، وتغير المعايير والأوضاع ، فتصبح قبائلها المبعثرة دولة تديل شوامخ الدول ، وتلتهم اعظم الحضارات ، وتنسخ العقائد والاعراف ، ثم تطوى في قبضتها عالم يومها ذاك من طرفيه في بضع سنين .. وكان الانفعال الذى خلفته الصدمة المباغتة في البلاد المفتوحة ، ان دينا كهذا قد استطاع ـ وهو بعد وليد طرى العود بين عمالقة الشرائع والمعتقدات ، وبأنصار لا يحفل بهم في حساب كثرة او قدرة ـ أن يفعل مثل هذه الخوارق ، ويأتى من

النتائج بما لا تنم عنه المقدمات ، ولا يوحى التسلسل المنطقى للأمور ، محققا ما يخالف كل متوقع ومنظور ، فهو لابد دين جدير بأوفى اكبار وابلغ تقدير .. فإذا ارتبط هذا الانفعال — وهو في ذروة نشاطه ، والعقول لما تفق بعد من صدمة الدهشة — بما طبع عليه البشر عامة من تطلع نهم الى الجديد ، وبما راود عندئذ نفوس ابناء الأمم والشعوب التى طالما استعبدتها دول ذلك الحين قبل الإسلام من نزوع الى التبرم بأسلوب حياتها المهين ، والتمرد على الظروف والأوضاع التى حبستها في هذا الاسلوب ، فأى مسلك إذن كانتَ تلكم الشعوب والأمم تسلكه حيال طغيان الامبراطوريات واستبداد الحكام الا أن ترى الأمل ثم تتلمس المهرب في هذا الدين الذى بشر بالعدالة والمساواة بين الأجناس ولكل الناس ، ولا مكان فيه لتسلط إنسان على إنسان ، إدلالا بقوته أو إشباعا لهواه ، لأن السلطة كلها في يد الله دون سواه ؟.. وأى موقف عسى أن يقفه بنو هذه الأمم التى اظلها الإسلام لو آنسوا من العرب ، وهم الهداة والأعلام ، تقحما على هذه السلطة ، وميلا إلى التجبر والاستعلاء — كحكامهم الغابرين — على خلاف الشعار الذى رفعوه ؟..

هذه هى الملامح النفسية التى أخذت تبرز في أقوام عالم تلك الأيام والإسلام يلمس بعصاه السحرية البشر فيفجر فيهم الطاقات والقدرات ، أو يبجس الآمال والتطلعات كما فجر موسى من الصخر عيونا عدة من الماء بعصاه !..

تباعد وتعال في جانب ، وتوجس وتحد في آخر على رقعة الدول الإسلامية الفسيحة ، في بكرة نشأتها ، كانت هى السمات التى أعلمت نفوس جماعة المسلمين آنذاك ، ووجهت سلوكهم ، وراحت تحاول أن تشق وحدتهم فريقين متقابلين ، على تحفز وتناقض ولو لم يكونا على خلاف ، وما انقضت بعد على التقائهما تحت العلم فترة الزمن التى تكفيهما للانصهار . فكأنه التقاء مادة بمادة تتجاوران ولاتتفاعلان ، وقد تلتصقان ولكنهما لا تمتزجان !..

ويجاوز حدود الإنصاف وسلامة التقدير ، بغير جدال ، أن يزعم زاعم أن العرب — كجنس — كانوا جميعا على استعلاء . أو أن خيلاء

العنصر سادت منهم رجال الطبقة الحاكمة فرادى وجماعات . فذاك ما لا تؤيده حقيقة السلوك العام لأولئك وهؤلاء في تلك الفترة كقوة داعية الى الدين أو كسلطة تسوس الأمور .. ولكن ظاهرة الاستعلاء برزت ، بلا مراء ، في صفوف الحكام ، منبثقة من تراثهم النفسي وطبيعة العصبية العربية التقليدية تؤجج نارها مفاخر النصر وسطوة النفوذ . فإذا هي تسم غير قليلين من أصحاب السلطان وتوجه اليهم الاهتمام العام . وإذا هي عندئذ الظاهرة التي يفشو أمرها بين الناس، ويجـري ذكرها على الألسنة بكل مكان في كل مقال ، كثر أو قل الموسومون وتعددت أو ندرت الأمثال .. وليس هذا بمستغرب . ولا هو مما يخالف منطق الأشياء . لأن الكبير ــ كل كبير ــ وصاحب الجاه ، وذا السلطة المرموقين في المجتمعات يتعلق بهم عادة اهتمام من وراءهم وحولهم من الجماهير ، وتتربص العيون والاخلاد بصور تصرفاتهم ، وألوان سلوكهم ــ ما جل منها وما هان ــ في مناحي حياتهم العامة والخاصة على السواء ، تلاحقها بالنظرة الفاحصة والراى الناقد حتى لتوشك أن تعد عليهم الخطوات وتحصى الأنفاس ثم لا تذكر لهم ، آخر الأمر ، مما يقولون أو يفعلون ، إلا الأخطاء والمساوىء ملفوفة في المبالغة والمغالاة وإن كن هنات ، كشأن الشعوب دائما في محاسبة الحكام ..

ويجاوز أيضا حدود الإنصاف وسلامة التقدير أن يقـال عن الشعوب الأعجمية الملتحقة بالإسلام ، إنها ظلت أبدا خافضة الجناح ، بريئة من داء الاستعلاء . فذاك أيضا يجافي حقيقة الحال .. إنما المعلوم المشهور أن بذرة الإحساس بعراقة حضارتها والازدهاء بأصول مدنياتها القديمة ، بائدة أو مقيمة ، لم تقتلع من المشاعر ، فظلت معتزة بما سلف وكان ، تجتره بين حين وحين وإن أضافت إليـه فخرا جديدا بهذا الدين .. فما كانت لتنسى قط اعتزازها بصـولة الاكاسرة ، وتراث الروم ، وشموخ الأهرام .. ولا هي اغفلت تلمس العزاء في أمجادها الغوابر كلما ساءها من العرب أمر ودفعها الى المقارنة بين ماضيها كرعايا وماضيهم كحكام . وفيما تدلنا عليـه نفثات الفكر المستعرب وآثار كتابه وشعرائه ، التي راحت رويدا رويدا تطفو على سـطح الثقافة الإسلامية ، ما يكشف لنا عن نواة

الحركات « الشعوبية » الخطيرة التى كان لها، من بعد، أثر بالغ في توهين سلطة الدولة، وحسر مد الإسلام ..

ولا ينبغى هنا أن تحمل كلمات الضعف والتحلل والوهن وأمثالها من أسماء الصفات والنعوت، التى نراها أسندت لهذا العهد والتصقت به ؛ على مطلق معناها، لأن « الإطلاق » في حقيقة دلالته تجريد، والتجريد شمول بلا معالم، وشيوع بلا حدود، وما هكذا تكون الأمور في واقع الوجود . فإنما المعنى نسبى . والصفة مرنة وليست بقالب جامد تصاغ فيه كافة الموصوفات في حجم واحد وهيئة واحدة بلا سمة من تباين ولا مظهر من خلاف بين موصوف وموصوف . فلقد يفعل رجل فعلا فيقال كريم . ولقد يفعل غيره نفس فعله فيوصف بوصفه ثم لا تكون دلالة الصفة في هذا هى دلالتها في ذاك . بل لقد يجزى ثالث على ذات الفعل بنقيض الوصف، لأن مرونة الصفة تتيح تشكلها بحسب الموصوف، كما يتشكل السائل بشكل الإناء !..

فإذا قيل ببدء تحدر الدولة الإسلامية، في هذه الآونة، الى منزلق الضعف، فإنه التحدر الذى لا يؤخذ بالحرف وظاهر الوصف لأن الدولة الإسلامية آنذاك، وبعده بعدة أجيال، كانت الدولة التى لا ترقى إلى شأوها دولة معاصرة، والقوة التى تكاد تتفرد في عالم ذلك الزمان بامتلاك ناصية شعوبه وأحداثه، تسوس فيها الأمور وترسم المصاير والمقادير .. ومع ذلك فهو ترد بلا جدال إذا قورنت الدولة بالأليق بها والأوفق بمقوماتها وما كان ينتظر منها أن تكون لو أنها سارت، وسار بنوها ــ بذرع خطاهم واستقامتها، كأول أمرهم ــ ممتثلين مضمون الإسلام .. فأما وقد جانبوا النهج وانحرفوا عنه، فإنهم إذن قد أغفلوا معين القوة الذى لا ينفد وفرطوا فيــه، وأصبح محتوما عليهم بهذا الإغفال الانزلاق يوما الى هاوية الضعف قصر الأمد وقرب من ذلك اليوم أو بعد وطال !..

٦

سرح الظل على الضوء !..

الشروق ينحسر . الأصيل ينتشر . الشهبة تصبغ الأفق وتغير عليه نذيرا بمقدم الغروب . الصفاء يذوب في كدر العتمة .. ومن خلال ذلك بدت صورة المجتمع الإسلامي حينذاك ، بخلاف أمسها ، مهزوزة المعالم على غير جلاء . كأنما رثت . كأنما اختلطت فيها الألوان . كأنما راحت تعوم في ضباب !..

ولم تكن أصابع الزمن هى التى أنهكت الديباجة ، او عبثت باللون ، أو كسفت النور . فالعمر غض والمدى قصير .. ولكنها أصابع الإنسان . هواه وغروره . الترخص الذى استباحه لنفسه ، بغير حق ، في الركون للتهاون او النزوع للتغيير هو الذى شوه الصورة .. فقد أطلق على الملامح ريشة نزواته تجرى عليها كما يشاء .. أحيانا عدل فبدل . وأحيانا ظلل فطمس . وأحيانا لون فهول حتى لقد غام الضوء وبهت الظل وخيف الا يبقى على حاله الأول شيء من الصورة الأصيلة سوى الإطار !..

صنوف من السلوك الناجم عن جموح النفس البشرية اخذت تشيع في المجتمع ، ثم تتسرب ، قطرة قطرة ، الى أعمق أعماقه لتنخر في الأسس التى قام صرحه الباذخ عليها كمجتمع ركين سليم .. ما فطن آنذاك كثيرون فيه الى انحراف تلك الصنوف السلوكية عن مجرى الدين . ولا شام ، الا الأقلون ، خطرها المحتوم . ففى مجال التأويل والجدل دائما فسحة لاصطياد الاسناد أو تقديم التبرير ..

وعسير بلا ريب ، كما سلف القول ، ان يرد الانحراف الى هذه الطائفة او تلك ، او هذا الفرد او ذاك من الناس إذا نحن اردنا أن نحصر التهمة لنحسم الامر ونحدد على من تقع تبعة الانزلاق . ولكنه هين وحق أن يوسم بها قادة الراى عامة في الأمة الإسلامية على غير

تخصيص وعلى اختلاف المواقع والدرجات ، من كان منهم صاحب كلمة ترشد وتوجه أو كان منهم ذا سلطة تردع وتأخذ المخالفين بالجزاء .. فأولئك بفئتيهم قد أعانوا ، بلا شك ، من وراءهم على الخروج عن الجادة ، وأملوا لهم في مقارفة الانحراف سواء أجاء إملاؤهم عن قلة تبصر ، أم قصور فهم ، أم غرور أهوج إن لم يجىء بسوء نية عن خبث طوية أو جنوح مقصود إلى التنكب عن الطريق السوي لإشباع شهوة النفس ونهمها ، بلوغا لهدف ماثل أو طموحا إلى مأرب بعيد .. لكنه ، على مختلف وجوهه ، تجاوز عن استقامة السلوك وسلامة التصرف واستواء القصد التى يدعو اليها مضمون الدين .. وحين يصدر القول من صاحب سلطة فكرية أو زمنية ، فإنه إذن إيحاء أو أمر ، وحين يصدر الفعل منه فإنه اغواء أو مثل ، وكلاهما يحمل الناس على الانصياع أو يغريهم بالاتباع .. ولا عجب . فالقادة قدوة ، آراؤهم وأعمالهم أعلام منشورة يرنو اليها اهتمام الخواطر ، ومعالم على الطريق يحتذيها انطلاق الرغبات . ودائما القدوة هي التى تصنع السلوك العام في المجتمعات ..

من هذه الثغرة أتى مجتمع الإسلام . وتسربت اليه عوامل الوهن من بين يديه لا من خلفه ، ومن قمة بنائه لا من القاع ، إذ نفذت فيه من خلال نفوس « سادته » ورجاله الكبار قبل أن تنفذ من خلال نفوس العامة وعرض الجمهور حتى اتسع الخرق ، مع الزمن ، لشتى الأخطار .. ولا حاجة هنا لتوكيد هذه النظرة بما يزكيها .. فهي — في ضوء الواقع — تساير طبيعة المحاكاة والتقليد التى تسيطر على السلوك الجمعي في المجتمعات ، وتقود حركاتها الحيوية الى التغير المستمر — كسنة التطور — صاعدة بها الى الارتقاء والنمو ، أو هابطة الى الضعف والانهيار .. وهي أيضا الحقيقة التى تنطق بها شواهد الحال ، وتتوالى أدلتها وأمثالها في حياة الإنسان في كل مكان وزمان ، دليلا من بعد دليل ، ومثالا وراء مثال .. وما المجتمع الإسلامي ، بعد هذا ، إلا بيئة إنسانية ، تخضع لحكم هذا الناموس الطبيعي الحتمي ، ويحق به عليها ما يحق على غيرها من بيئات ..

ولقد يميل امرؤ الى الإفاضة في الاستقصاء ليتعقب خط الإسلام وخط السلوك العام ، في تلك الآونة ، محاولا ان يطابق بينهما لعله

يتبين من أية نقطة كان بدء الخطأ ، ومدى فداحته ، ومتى وقع ، وإلى من يعزى ، وكيف تكرر ، وما هي تبعة أولئك او هؤلاء من الذين قارفوه أو شاركوا فيه .. لكنها عندئذ الإفاضة التي يتشعب عليها المقال ، ويتواتر بها الجدال ثم يغني عنها الإجمال !.. وكفى هنا أن يقال إن الخطأ قد وقع ، فمهد للانحراف . وإن الانحراف قد باعد بين الخط المرسوم والخط المطروق ، أو بين النظرية وبين التطبيق .. تماما كما يؤدي الميل — ولو بمثل قيد شعرة ، أو اقل — الى اتساع زاوية الانفراج !..

وخيف عندئذ ألا يظل على حاله الأول من الصورة الأصيلة سوى الإطار !.. وغلت الغيرة في الضمائر النقية على الدين أن يغدو مظهرا بغير جوهر ، وعلى الأمة أن ينتهبها الانحراف . فأن يصبح الإسلام نصا يتلى وشعيرة تقام فلن يكون قصاراه إذن إلا أن يتردد على الشفاه ألفاظا جوفاء ويتمثل في المراسم حركات آلية دون ان يخالط السلوك ويكون — كرسالته — اسلوب حياة !.. وأن تخرج الأمة الإسلامية عن الجادة التي شرعها الله فقد عادت إذن الى مسلك من سلف وباد من الأمم والعباد فحقت عليها سنة الله في الغابرين !..

في فترة نمائه تلك ، لم يخل المجتمع الإسلامي من اناس على بصيرة ، فطنوا لمعالم الانحراف ، ودعوا ما وسعهم — درءا لخطره — الى المبادرة بالتقويم . وإذا كان من التجني الادعاء بأن هذه الدعوات كانت بلا اصداء أو تبددت في الهواء ، فإن من الحق ايضا أن يقال إن الفطنة والدعوة كلتيهما لم تحققا ما اريد من ورائهما على النحو الذي ابتغتاه ، لا لمجرد قصور في التلقي والاستقبال ، وعجز في الاستجابة والانفعال ، بل لأن طبيعة المرحلة ، من ناحية ، وتباين النظرات الى صورة السلوك ، من ناحية اخرى ، قد عاونتا كذلك على إرجاء الحسم المطلوب ..

اما طبيعة المرحلة فقد كانت زحاما شديدا من الأحداث ، كسور هائل بجدران صماء ، لا ثغرة به تتيح للناس آنذاك ان ينفذوا ، بنظرهم ووعيهم ، الى غير ما بداخله وما هم فيه .. فالدعوة منهومة بالانتشار ولا وقت للتريث لكيلا تخبو النار !.. والقتال ، ضد قوى

طاغية التفوق ، يتوالى في كل مكان توالى الشهيق والزفير حتى ليوشك أن يشغل الدقائق والساعات فضلا عن الأيام والشهور !.. والفتوح تسرح على وجه العالم لتضم تحت العلم بقاعا الى بقاع وامصارا الى امصار !.. ومن وراء ذلك وفي إبانه تنشأ وتترى مشكلات — في شتى مجالات الحرب والسياسة والإدارة والمال وامثالها مما يتصل بحياة الدولة الجديدة وحياة الشعوب المختلفة التى احتواها نطاق الإسلام — تتطلب معالجتها ، لحظة بعد لحظة ، بأسرع الحلول ..

وأما تباين النظرات إلى اتجاهات السلوك فقد كان لا بد من ظهوره ، في تلك الآونة ، نتيجة لتعدد أساليب التفكير وتغاير درجات التقدير للأمور . ولا غرابة هنا في حدوث التباين لأنه أخلق باختلاف الطبائع وأولى بتنوع مقومات الإدراك ومبلغها من الإحاطة أو القصور. ولا غرابة أيضا فيه لأن الأمور — في حيز الرأى — ليست « رقائق » مسطوحة بل هى « حجوم » مجسمة ذات اعماق وابعاد ، تختلف فيها الآراء بحسب موقع النظرة اليها على غور عمق ، أو طول بعد ، أو ميل سطح من السطوح !.. فإذا قر هذا في حسابنا ، الى جوار التفاوت الطبيعى بين القدرات الذهنية وملكات التفكير ، فمن الإنصاف أن تستند كثرة من أسباب الانحراف إلى خطأ الاجتهاد أو اضطراب التقدير قبل أن تستند إلى فساد الطوية وخبث الضمير ..

وليس هذا بتمهيد للعذر بين يدى كل من عسى أن أسهم آنذاك — بقول أو فعل — في بناء الانحراف بنصيب كبير أو قليل . بل هو التبرير الذى نراه يضع طائفة من المسلمين ، خاصة وعامة ، في تلك الفترة ، حيثما تضعهم سابقتهم ونواياهم — ويجب أن يكونوا — من الفضل وإن تعثرت ببعضهم الألسن أو زلت بآخرين الأقدام . فما عن الهوى الزلل ، ولا عن تجانف لسوء . لكنه تحرر النظرة ، وانطلاق الفكر ، عن رغبة مخلصة ، إلى ما وراء آفاق المألوف بلوغا إلى ما ظن انه انفع واقوم في حيز واقع جديد تطورت فيه الأوضاع وتغيرت الظروف .. أم لا ، فكيف يمكن في غير هذا الشعاع ان تفسر نظرة ابن الخطاب عندما اشار على أبى بكر ان يقسم للناس على خلاف ما قسم لهم رسول الله من قبل ، فيفاوت بينهم بحسب منازلهم من

الإسلام ، من هجرة ، وصحبة وجهاد ، وسابقة ، ويصنفهم عليها درجات وكان الرسول قد جملهم في القسم سواء ؟.. واية علة — غير إيثار سلامة المجتمع الإسلامى الناشيء ، في مستهل الخلافة الأولى ، وسوى الخشية أن ينفرط عقد الدولة ولما تستتب بعد — كانت خليقة بأن تدفع رجلا في شدة عمر ، وقوة بأسه ، واشتمال غيرته الدينية ، إلى الجنوح للين كالخور يوم شاء أن يكف أبا بكر عن قتال مانعى الزكاة ؟.. كلتا النظرتين ، من ناحية ، قد انبثقتا من رأى طليق لذهن متحرر يحاول التكيف مع التغير ملاءمة بين الممكن والأمثل ، وبين الواقع والمأمول . ولكنهما ، ولا ريب من ناحية أخرى ، تؤخذان على الخليفة الثانى ، وتحسبان — موضوعيا — في قائمة السقطات التى لا يكاد يهونها تبرير شاف لولا ما هو معلوم عنه من غيرة على نشر الدين ، ودأب على تثبيت الدولة ، مع سلامة القصد ونقاوة الضمير ، لأن أولاهما ليست مجرد تغيير نمط التقسيم الذى ارتآه الرسول بقدر ما هى إخلال بمبدأ عام هو المساواة ، ولأن الثانية تخرج بهدفها من نطاق الاجتهاد المقبول إلى حيز الترخص في حماية ركن من أركان الإسلام أن يعبث به فينهار ، وهو ركن الزكاة !..

والتمحل بالدوافع التى حملت الناس ، من عامة وخاصة في الأمة الإسلامية — تحت ضغط الظروف او بسبب تغير الأوضاع — على « التخفف » في التزام السلوك المشروع ، أو الإغضاء عن هذا التخفف، قد يضع بعض وقر التبعة عن كاهل طائفة ، وقد يزيد ثقلها على آخرين .. ولكنه ، بطبيعة الحال ، لا يعفى أولئك ولا هؤلاء — من أيسر وجه ، وبأهون تعبير — من خطل التقدير !..

فلقد ادت حصيلة الأيام من تصرفات القوم ، حاكمين ومحكومين ، إلى اتساع زاوية الانفراج بين الطريق المرسوم والطريق المطروق ، وباعدت ما بين خطوط النظرية وخطوات التطبيق .. وإذا كان قد كتب على المجتمع الإسلامى حينذاك أن يسير ، نتيجة لهذا السلوك ، على غير السنن المفروض إلى غير الغاية المبتغاة ، فإن تبعة الانحراف ، ولا جدال ، ما كانت لتسند إلى فرد او فئة من الناس دون البقية ، بل هى قسمة بين الدولة والشعب ، الرعاة والرعية ، لان أولئك لم

يزعوا بقوة السلطان وهؤلاء لم يقاوموا بقوة الإيمان وإن كان السهم الأوفر من اللوم يقع في جعبة ذوى النفوذ ..

ولا محيص عن الإقرار بان فريقا غير قليل من اصحاب السلطة او الراى قد عملوا جاهدين على تدارك الأمور في إبانها ضربا بالسطوة او ردعا بالدعوة ، وجروا في هذا السبيل اشواطا واسعة كان أولى بها ان ترسى غد الأمة على بر السلامة لولا ان الأنفس في اغلبها ، كانت ضحلة قريبة القاع ، وريح الاحداث والاهواء الدنيوية كانت أعتى على الاحتمال والمقاومة فتعثرت السفينة واضطرب الشراع !.. فكم من صور سلوكية مشرقة أعزت المبادىء وارتفعت بها فوق طوفان المادة ومد النزوات !.. وكم من جهود توالت ، على مدى عهد الخلافة الراشدة ، لحمل الناس على التزام مضمون الدين ، قد انبعثت عن إحساس مرهف بالتبعة ورغبة صادقة في بناء مجتمع سليم !..

فما ينسى لأبى بكر الصديق أن إيمانه العميق بالمساواة قد أبى عليه المفاوتة في التقسيم . وإن شكيمته الصلبة قد دفعته إلى نبذ دعوة المهادنة أو سياسة التهدئة ليقف كالطود الراسخ في وجه فتنة المرتدة ومانعى الزكاة يقصفها قصفا بقوة يقينه قبل قوة السلاح .. وهو في كلا مسلكيه رجل الدولة الأريب الواعى الذى لا يقبل ان يداجى الأهواء او يصانع الخطوب على حساب المبادىء ، وإنما يقارع كل ما يتصدى له ، لأنه يؤمن اكمل ايمان ان هذه المبادىء وحدها هى الدعائم القويمة التى لا تبنى على غيرها عظمة الشعوب ..

وما ينكر أيضا فضل صاحبه ابن الخطاب الذى علا بانسانيته فوق ما يثيره عادة في القلوب من نزوع إلى الانحياز تباين الألوان واختلاف الأديان ، ضاربا اروع الأمثال في التجرد وكبح النفس عن الشطط العاطفى الذى نراه دائما يستبد بالنفوس ويسوقها إلى ممالأة بنى العقيدة والجنس على كل من عداهم من الآدميين .. فهو يؤمن إيمانا لا يتزعزع بوحدة البشر ، وكرامة الإنسان ، مهما كان ، وكيفما ذهبت بها ـ علوا وخفضا ـ مذاهب الآراء التى تتمحل باللون أو تتعلل بالدين .. وهو يصدر في سلوكه ، بهذا المجال ، عن انصاف مطلق ـ دع السماحة الكريمة ـ تتسع رحابه لكافة الناس على تغاير الملل

وتعدد الأجناس .. وهو لهذا لا يتوانى عن المبادرة الحازمة إلى قمع نزعة التميز العنصرى حين لاح من أحد أولاد عمرو بن العاص مسلك شف عن هذه النزعة إذ دفعته خيلاء جاهه وسطوة أبيه إلى الاستعلاء — إدلالا بأصله العربى — على مواطن من المصريين .. ثم لا يتردد كذلك مع ما يعلم من كراهية اليهود للإسلام وذويه ، عن رعاية هؤلاء الأعداء الموغلين في اللدد والمسرفين في البغضاء ، فيضع الجزية عن فقرائهم ، وعن ضربائهم من الذميين ، ويفرض لهم ما يقيتهم ويصلح امرهم من بيت المال أسوة بالمسلمين ..

وما يغفل هنا ذلك الكفاح العنيد الذى أخذ ابو ذر الغفارى نفسه به لتحرير الإنسان من عبودية المال .. فلم تمنع الرجل زهادته ان يدرك ما لشهوة المال من قدرة على الإغواء يستطير بها سلطانه فلا يكاد ينهض له مناهض إذا ما اطلق له العنان — تماما كالنار ، تدمر وتلتهم إن لم تجد من يخضعها ويحصر لهبها في نطاق محدود .. فالمال وسيلة للنفع العام . وأصحابه أمنة عليه لإحسان إنفاقه وتوظيفه لا لتكديسه وتضعيفه .. فلا عجب ان ينشط هذا الداعية لنشر رايه أينما وسعه أن تسعى به قدماه ، وأن يناضل دونه وإن تصدى لحربه أصحاب الثروات وذوى النفوذ في آن . ولا ان يمضى وما راى متمردا على سلطة الدولة وجشع الغنى والتواء الأوضاع ، غير مبال بما يصيبه في هذا السبيل من قسوة وتشريد .. إنما ينطلق صابرا صلب العزم ، بلا تلوم ولا تهيب ، يحت بلسانه في دولة الذهب وفي طاغوت كنزته لكيلا تبرز في المجتمع طبقة فاحشة الثراء تستعلى على سواها من بنيه ، وتستطيع بجبروت المال ان تنفذ ، من خلال الفقر والحاجة ، إلى استذلال الناس بطرح الذمم والضمائر سلعة رخيصة في سوق الدرهم والدينار !..

كثرة بالغة من هذه الجهود راحت تترى نضالا عن الحق ، وتثبيتا لأصول المبادىء الرفيعة .. وهى تعلن ان الحرص لم يفتر قط للعمل بمضمون الدين عن إحساس قوى بالتبعة أمام الله وامام الناس . ورغبة صادقة في السير على النهج الأمثل ابتغاء إقامة المجتمع الإنسانى السليم ، وامل متفتح في التقويم ..

وكم من صور لتلك الجهود والوان صاحبت الزمن ، وانتشرت

على بقاع المكان !.. وكم من نظائر لأولئك الرجال وأمثال . برزوا فرادى وزمرا من بين الخاصة ومن صفوف الجمهور !.. وكم من كفاح مجالد صابر استعذب العناء واستروح الرجاء !..

ومع ذلك فلم يكف الانحراف . لم تقف حركته . ولم تخف حدته. بل اشتد واستطار . وأنصب حجارة وصخورا من المطامع والأهواء ، يقلعها ويدفعها إقبال الدنيا المتحدر كالشلال ويلقى بها في وادى الحياة ليطمر تحتها نقاوة القلوب ..

وعلى الايام ، تعالى الركام والحطام !..

٧

ما حمل امرؤ في المسلمين ، عند ذاك ، عبئا هو أبغض إلى نفسه ، واثقل عليها من الإمرة على الإمام .. كان طعمها كالحنظل . وكان وقرها كالجبل . وكان وقعها كالاسنة ، حتى لكانه ، حين أفضت إليه ، قد اكتسى مثل طيلسان من حديد مسنن ، مبطن بجمر النار !..

ولم يكن عبؤه ثقيلا لانتشار تبعته — على أديم الدولة الفسيحة التي يحكمها بين مشرقي الشمس ومغربيها — انتشار الظلال السارحة أبدا في كل آن ومكان على معالم الضياء ، كلما انبثق فجر ، أو سطع نهار ، أو تهادى في ربوعها الخضر والجرد أصيل .. ولا بغيضا لتواتر الشدائد والأزمات ، وتدافع الصعاب والمشكلات ، في كل لحظة وبقمة ؛ تواتر النفس المبهور وتدافعه عن جسد واهن ارهقه الإعياء .. فليست التبعة تقاس ، طولا وعرضا باتساع مواقع العمل وامتداد اطرافه . ولا هي أيضا تعاير ، ثقلا ووزنا ، بكثرة صوره وتنوع اصنافه .. لكنها تزيد وتثقل ، وتخف وتقل ، بمقدار رقة الحس ورهافة الشعور — تماما كالوخزة ، ليست هي التي تحدد الالم . وكالمر ، ليس هو الذي يغير مذاق الفم . بل كلاهما عارضان حقيق بأحدهما ، كما بالآخر ، أن يفقد صفته ، ويفنى ،كيانا ، ودلالة ، في العدم إن لم يجد المجرى الصالح

الذى ينطلق فيه إلى مراكز الحس لتعكس اثره على الجوارح !..
ولقد نشط امير المؤمنين إلى النهوض بتبعته ، على غضاضة وضيق، ليحق الحق ويمحق الباطل ، غير حافل بما يلقى من العنف والمشقة . كان يجتاز اللهب . ويمشي على الشوك . ويلوك العلقم . ومع ذلك فلم يلفته عن العمل شيء . ما نكص . ولا تمهل أو قصر خطاه . فالخطر يقبل . الغد يغيم ، والظلام يزحف على النور . والوقت اضيق على النكوص والتمهل . وهل عمله اليوم سوى امتداد لكفاحه الدائب قبله منذ طلعة صباه لإعزاز الإسلام ، وهو بعد غلام حتى نيفت به الأعوام على خريف عمره ، لولا أنه الآن قد ترامت حدوده ، وتناثرت ميادينه ، بين دان وشتيت ، إلى أقصى الآماد ، بعيدا بعيدا في اقطار الارض ، وعميقا عميقا في أغوار النفوس ؟..

وهب يعمل . بكل ما يملك هب يعمل بقلبه . بعقله . بيده . بالسليقة المستنيرة الملهمة ، والرأى المقنع الفصل ، والسلاح القاطع الساحق.. يدعو ليهدى ويعلم . ويزع ليهذب ويؤدب . ويقسو ليردع ويقوم .. وبين اللين والعنف ، الدعوة المضيئة والقتال المدمر ، سن القلم وشفرة الحسام ، عالم من الجهاد مترامى الحدود والأبعاد هو فيه الرقيق الحميم ، والأب الراعى ، والمعلم المرشد ، والحاكم المنصف ، والقدوة الطيبة الحسنة ، التى تحتذى دائما ويؤتسى بسيرها وسيرتها ، كلما اشتبكت على اقوامه المسالك ، واشتبهت المناهج ، ودعتهم الحال للاقتداء بمثال ..

ومن الإفاضة فيما لا تجمل الإفاضة فيه إذ يغنى الإيجاز ، أن يسترسل الحديث عن الإمام كأخى قتال بز بسيفه الأقران في ساحة الوغى ، حنكة وشجاعة ، إن كان له في مجالات الصراع الدموى قرين !.. فما كان شيء احب إلى نفسه من مخاطبة القلوب والافهام . من السعى للسلام بالسلام . من اللقاء بالكلمة . من الحرب البيضاء !.. ولا كان شيء أبغض إليها — وإن كان أخف عليه ، وأهون مؤونة — من التجييش والإعداد . ومن قيادة الجنود . ومن الإقدام قبل الإحجام . ومن الصبر عند اللقاء . ومن الكر وسيلة للدفاع . ومن مطاردة الموت أينما بدت له أطيافه او تكتلت صفوفه ، تحديا له ، واستهانة به ، وازدراء

لجبروته الرهيب الذى يخلع القلوب مقتحما عليه عقر غابه لينتزع الظفر من انيابه !..

كان يؤثر السلم ولا يعدل عنه ما وسعه أن يصل إليه من سبيل.. فالحرب لم تكن له شاغلا كما لم تكن ملهاة وإن الفها دائما حليفا وفيا لا يغدر به ، ولا يخرج عليه .. ومع ذلك فقد كان ينبو بها كل نبو لانها ، في قرارة يقينه ، اهون جهاد . وكان يبرم بنصرها العالق ابدا بذؤابة سيفه لأنه ، فيما يحس ويشيم ، أرخص انتصار !.. إنها الباب الذى ينبغى أن يوصد بألف رتاج ورتاج .. وهى الكى الذى لا يستطب به كدواء إلا إذا استعصى الداء على كل علاج .. وهى الأداة التى قد تقهر على الانصياع بغير اقتناع ، وعلى الإذعان بلا إيمان !.. أما السلم فدنيا من الهدوء والطمأنينة ، يقر فيها القلب ، وتأمن الجوارح ، ولا تطغى على صوت العقل قعقعة سلاح .. فكأنها صومعة راهب ، هو التأمل !.. أو كأنها حلبة سباق ، المنافرة فيها بالفكر ، والمصاولة بالرأى ، والغلبة بالبرهان !..

حتى في ساحة الحرب كانت « الكلمة » تسبق الحسام . ثم تلازمه. ثم تقطع القتال ، أحيانا ، لتنفرد دونه في الميدان .. كانت الدعوة ، بالحجة البالغة والموعظة الحسنة ، أول سلاح ، واهم سلاح ..كانت دائما حاضرة مشهرة ، مصقولة مسلولة ، تجول في الواقع وتصول بغير فتور ولا قرار . لا تعرف غمدا تثوب إليه ، ولا هدنة تهدأ فيها وإن طالما ، في غمرة الوغى ، وضعت الأسنة ، وعرفت السيوف الأغماد !..

ويوشك الاستطراد أن يطول حتى ليصبح مثل ضرب من المحال ، لو تعقب المرء دعوة الإمام ، محاولا حصرها في نطاق محدود من مقتضيات الحكم في عهده ، ودواعى سياسة الأمور إذ هو أمير .. فليست كذاك .. بل هى اوسع رقعة وافسح مجالا ، اتساع الحياة البشرية ، أمة بعد أمة ، على اديم هذه الدنيا ، وانفساح الزمان ، عصرا وراء عصر ، على مدى الدهر .. فإن هى إلا رسالة حياة ، تساير التطور ، وتهذب التغير ، وتتجدد على الأيام مع مشرق كل نهار ، وسكون كل ليل ، وظهور كل بادرة تعلن عن تجدد الحياة !..

رسالة كاملة شاملة . لليوم وللغد . للحاضر وللمستقبل . تند

عن حكمة تدفق من ذهن مخصب رواه نبع النبوة ، ويخفق بها قلب نقى جلاه فضـــل الرسول .. فوق متنها كان يذرع دائمـــا مجاهل النفس وخبـــاياها ، ذرع عليم خبير ، ليكشـــف عن مكامن المرض وخطره ، ومواطن النقص واثره ، باليـــد البارعة الصناع ، وبالقـــدرة المحيطة التى لا تخطىء التقدير . وعلى جناحها كان يحلق أبدا في آفاق من نور الله ، تهيىء له أن يقلع الشبهة ليغرس اليقين ، ويمحو الجهالة لينشر المعرفة ، ويبنى الكمال حيثما كانت فجوة ، ويضع الشفاء حيثما كان داء !.. وهل من عجب ؟.. فمحمد مدينة العلم ، التى أهداها الله للإنسـانية ، وعلى بابها الذى يفضى إلى ما تضم من كنوز وذخائر ، بها تستضىء العقول ، فتصفو الأنفس ، وتنقى السرائر !..

هدى من هدى ، ونور من نور كانت الدعوة التى أخذ نفسه يبثها بين قومه ، لا يسكت عنها في شدة حرب ، ولا في هداة سلام .. كانت تتردد مع أنفاسه .. كان يحياها ، ولها كان يعيش .. وفي خلال أعوام عهده القلائل ، لم يكن شيء يعوقه عن تبليغها حيثما استطاع ، بالكلمة المكتوبة ، أو الكلمة المسموعة . في كتبه إلى عماله ورجال دولته . في خطبه إلى الجماهير والجموع . في أحاديثه اليومية مع أهل بيته ، وخاصة رفاقه ، وعامة الناس .. وحين نتقصى منها ما خطه قلمه أو لفظه لسانه ، نراها تلم بكل جوانب الحياة ، وتعرض لكافة نزعات الإنسان .. فهى تقابل الخلجة ، وتتداعى للخفقة ، وتتحرك للفكرة ، وتسرع للحاجة . ثم تبادر بعد هذا التفهم الواعى إلى علاج مواضـــع الخلل والقصور ..

وعسير بلا ريب ان نحيط في مقام كهذا المقام بما تضمنته هـــذه الدعوة الهـــادية لأنها عندئذ الإحاطة التى تضـــيق دونها الصحائف ، وتعيى الأقلام . ولكننا نصغى لجرسها فإذا هى أصداء لرسـالة السماء . ونذرع رقعتها فإذا هى خطة عمل ، وسياسة أداء .. وحين نطوف بما تحوى ، نقع فيها على كل ما يصلح الأمر والشيء ـــ الشطر المعنوى والشطر المادى من حياة البشر ، من قواعد واسس هى أولى بأن تكون الدعامة الركينة للمجتمع الإنسانيالفاضل ، الذى تربطه وحدة بلا آفة لانفصال ، وتسـوده مساواة بلا تمايز ، وتقوده عـــدالة بلا ترخص ، وتظله أخوة بلا منّ . فلا أنانية فرد ، ولا طغيان سلطة ، ولا استكبار

طبقة . بل جسد واحد يملك وثاق نفسه ، متوحد المشاعر ، متوافق الحركات ، تعمل أعضاؤه جميعا في تكاتف وتعاون ، وفي تعاطف واتساق ..

ولا يقال في هذا المجال إن الإمام كان مبدعا لما نشر وأذاع على العيون والأسماع . بل هو ناقل من الذكر ، وعارض لما أورده التنزيل .. فما كان ليبتكر ، أو يأتى من لدنه بجديد يضيف إلى ما شرع الله ، أو يغير فيه .. وليس قصاراه ــ ولا قصارى غيره من العقول البشرية، مهما بلغ شأوها من الإدراك والعلم ، وبلغت قدرتها من الاستشفاف والاستبصار بأمور الدنيا ، وفي تقلبات النفس ــ أن يعدل ، بزيادة أو تكميل ، في ذلك القانون الإلهى ، الذى يحيط بكافة جوانب الحياة، وينظم السلوك الإنسانى على خير ما يكون التنظيم .. إنما كان له ، في حقيقة الحال ، جهد الدارس الباحث ، الذى يغوص بوعيه المقتدر إلى الأعماق ليستخلص الدر من الأصداف .. فهو يرجع إلى كتاب الله ، ويتابع سنة الرسول ، ويتعمق كليهما ، بذهن ثاقب وبصيرة مستنيرة ، منقبا عن المبادىء التى تتناول ، من قريب أو بعيد ، كل ألوان النشاط البشرى ، في مختلف مواقع العمل وميادينه . حتى إذا نفذ منها إلى هذه الغاية ، تفحص حكمتها بنظرة الاقتناع العقلى لا بنظرة العاطفة التى قد تميل للتسليم .. وقاس أثرها بمقياس الواقع الذى يعيشه ، والشواهد التى أسفرت عنها من قبل تجربة النوع الإنسانى منذ سعى على هذه الأرض لغرض ، والتأم آحاده في دول وشعوب .. ومن خلال المبدأ وحكمته ، والتجربة ونتيجتها ، كان يصل إلى معايير سليمة للعمل ، يصنفها كصنوفه ، ويعرضها واضحة ليتبعها من شاء أن يسير على صراط سوى ، وجادة مستقيمة ، مطابقا سلوكه على ما يرضى ربه ، ويطهر قلبه ، ويصلح شأنه ، ويرفع أمته ، ويعز كرامة الإنسان ، روحا وبدنا ، كما ينبغى أن يكون الإعزاز ..

وتيسيرا على الناس ، وتطويعا لهم ، لم يغب عنه قط ــ وهو يعرض ما يعرض ــ أن يستخرج من حياتهم العامة ، ومن عملهم اليومى ، كل ما يجدر بهم إخضاعه لهذه المعايير . فكل مبدأ لحكمة . وكل حكمة لغاية . وكل غاية بسلوك . وكل سلوك بمعيار .. فلا سبيل إذن لأن

يفوتهم شيء فتكون لهم عليه حجة . ولا أن يشتبه أمر فتتفرق بهم طرق التطبيق ..

بهذا النهج السليم الميسر ، حدد ورسم ، وبين وبلغ ، مترجما نصوص الدين إلى مضمون ، ومضمونه إلى أسلوب حياة .. فإذا هو عندئذ قد أحاط بطبيعةالبشر : غريزة وأملا وحاجة . وبطاقةالإنسان: خفقة وخلجة وحركة .. وإذا بدعوته التي وسعت الإنسانية ، قد التقى في رحابها لكل عقدة حل ، ولكل خطأ تصويب ، ولكل ضيق فرجة ، ولكل علة علاج ..

٨

إلى القمة التي لا يستطيع أن يرقى إلى شأوها ذهن متحرر ، حلقت الدعوة الإسلامية بقيمة الإنسان .. فقد تنادت بوحدة البشرية . ثم كرمت أبناءها . ثم صورت حياتهم في هذه الدنيا سادة يملكونها ولا تملكهم ، ويصرفون كل ما فيها على ما يحفظ لهم هذه الكرامة أبدا لو ترسموا النهج الذي شقته ولم ينحرفوا عنه ..

ولقد يسر الإمام هذه الدعوة للناس خطة وهدفا ، أسلوبا وغاية ، بالفعل والقول ، بالقدوة الحسنة وضرب الأمثال . فإيمانه الكامل بتلك الوحدة ، هو الذي كان ، في كل آن ، يرهف حسه ، ويشحذ قلمه ، ويحرك لسانه لتنطلق عباراته على جلاء ، تدعو بالدعوة ، وتروج لها ، وتؤكد دائما أن الوحدة — المفترضة والمنشودة — لا شبهة فيها ، ولا عائق دونها ، ليس فحسب عن استجابة عقيدية لما شرعه الإسلام ، بل عن إدراك لكنه الطبيعة ، وخضوع لمنطق العقل واستقامة التفكير .. فأينما جالت عين فيما سطر ، وأصغى سمع لما قال ، وأمعن ذهن بالاستقراء والتفهم فيما وراء الحرف والجرس ، بدت له وحدة الإنسانية وهي على شمول ولزوم ، بلا مكان لتمييز فرد ، أو تعالي طبقة ، أو اعتزاء عنصر ، وبغير ترخص أو التواء أو استثناء ..

فالبشر كافة في رحابها سواء وإن تباينوا بالأجناس ، وتفاوتوا بالأحساب ، واختلف آحادهم بالأقدار في نظرة المنصب ، أو المعرفة ، أو المال ، لأنهم كما يقول :

« .. إما أخ في الدين ، وإما نظير في الخلق .. » .

وتلك هي الوحدة الوثيقة التي لا يتطرق إليها انفصام ..

فلو زعم زاعم أن هذا الرأى الذى يسوقه الإمام يجرد الدين من حقه في ترجيح الميزان عند المفاضلة بين إنسان وإنسان ، فإنه إذن زعم متعسف ، يلتوى بالموضوع ليتخطف نتيجة لا تسفر عنها حقيقة الحال .. فالإسلام لا يهدر المساواة ، وما كان ليهدرها وهو القائم عليها لأنه قائم على الفطرة التى يشترك فيها كافة أبناء آدم ولا يمكن أن تختلف فيهم من واحد لآخر وإن اختلف — دونها — كل ما عداها من خصائص وصفات .. والإسلام إذ يفاضل بين الناس لا يفاضل بالأبشار والألوان، ولا بالأحساب والأنساب ، بل يفاضل بينهم بمعيار ثابت هو العقيدة التي شرعها لهم كافة على سواء ، فيغاير في الجزاء بين مؤمن وكافر ، طائع وعاص ، حسبما يكون قربهم وبعدهم من الله .. بل شرائع الجزاء نفسها التى وضعها ، من عقاب وثواب ، لحساب البشر ، لا تترتب على شخص الفاعل بل على موضوع الفعل ، فتزن لهم جميعهم بقسطاس واحد ، لا يبخس أحدهم ليطفف للآخر ، لأن عدالة الجزاء لا يتأتى أن تتحقق إلا بهذه المساواة ..

صدقت إذن نظرة الإمام ، وأصابت الحق كل الحق بغير تحيف منها على الإسلام ، وبدون ثغرة فيها لطعن طاعن أو لريبة مرتاب .. وفيم الطعن ؟.. وكيف المراء والارتياب لمن لعله يحاول تلمس سبب للادعاء والتقول ، والمساواة أصلا لم تترتب على الإسلام ، ولم تكن نتيجة له ؟. بل قد كانت — قبل تنزل نصوصه ، وبدء دعوة الرسول — حقيقة واقعة نشأت في الدنيا بنشأة الإنسان ، ثم جاءت هذه الرسالة السماوية كاشفة عنها ، مذكرة بها ، داعية إلى التزامها وامتثال جادتها بعد أن غمرها على البشر ، وقست عليها قلوبهم ، ومزقتها الأهواء ..

ومن الترسل الذى لا يحتمله المجال أن يتطرق الحديث إلى كنه

هذه المساواة ، مخططا حدودها ، محددا معالمها ، معددا ما تحتويه من عناصر ومقومات .. فعمومها وشمولها يكفيان الاسترسال ، ويجزيان عن التحليل ، ويغنيان عن التخريج والتأويل ، إذ يكشفان عن حقيقتها جلية بغير حاجة إلى عناء الوصف والتحديد ، وجهد الإحصاء والتعديد، لأنها ــ وقد صاحبت البشرية منذ بدئها ، مقترنة بالفطرة ــ تتسع لكافة أبناء النوع الإنسانى ، وتطبع حياتهم بطابعها ، فلا تدع حقا من الحقوق يترتب على هذه الحياة « المشتركة » ويحفظ عليهم إنسانيتهم ، إلا سوّت بينهم فيه ..

وحق الحياة من المسلمات الأولية التى لا يمكن أن يختلف عليها ، ولا تقع في نطاق المجادلة والنقاش ، لأنه يمثل الحياة نفسها ، بمعناها الإنسانى ، وينطوى على العناصر والمقومات الأساسية لهذه الحياة .. فالحياة هبة الله وهى بهذا حق مقدس للإنسان ، لا يملك انتزاعه غير معطيه ، فلا ينبغى إذن لإنسان آخر أن يحرمه إياه ، أو ينتقص منه ، إلا أن يأذن الله .. ولا يخلق بكل ما يدخل في تكوين هذا الحق ويؤمنه إلا أن يكون مقدسا مثله ، وجديرا بالحماية أن ينال منه جور جائر بالإهدار أو الإنكار ..

ولقد يختلف بعض اختلاف على مكونات حق الحياة تبعا لتطور الأعصر ، أو تنوع البيئات ، أو تفاوت التقدير ، فلا يكاد هذا كله يغير شيئا في الأساسيات والأصول وإن غير ، قليلا أو كثيرا ، في الجزئيات والتفاصيل . وحسبنا هنا أن نذكر ــ على وجه الإشهاد لا على وجه الإحاطة ــ أن الإسلام لم يكتف بإقرار هذا الحق ، تعبيرا عن رأيه بسيادة كل فرد على حياته سيادة المالك الذى لا ينازع ، بل ذهب في توطيده وتثبيته ، وفي تحرير الإرادة الإنسانية لتمارسه كما تشاء ، إلى أبعد الحدود . فلقد أباح ــ وهو الدين الذى نسخ كل الأديان ــ أن يتدين الإنسان بما يرتضى ويختار من عقائد وإن خالفته ، لأن لكل امرىء أن يحدد بنفسه ، وبوحى ضميره وتفكيره دون سواه ، نوع الصلة التى تربطه بالله ، بلا إكراه أو وصاية عليه ممن عداه من الناس ، كيفما كان وضعهم في المجتمع وكان شأنهم من القوة وبسطة النفوذ ..

هذه هى نظرة الإسلام إلى حق الحياة ..

نظرة منصفة سمحة ، توافق منطق الطبيعة ، وتمضى في التحرر إلى شأوه الذى يقصر عن بلوغه تطلع العقول وطموح الأفكار .. فهى ترسى المساواة بين الناس في انتفاعهم بحق الحياة على أساس الفطرة الواحدة التى لا تختلف من إنسان لإنسان . وهى تطلق لهم حريتهم في ممارسة هـذا الحق إلى المدى الذى قد يأبون عنده اعتناق الدين القيم الذى أعزهم بتقرير هذه المساواة .. فإذا لم يكن في هذه النظرة ما يؤكد « عمومية » هذا الحق ، ثم يضمن « حرية » تطبيقه ، فأى شيء غيرها إذن أقدر على التوكيد والضمان ؟..

بل الحيـاة حق بشرى عام ، مقرر بحكم الطبيعـة ، مكفول بحكم الإسلام . لا سبيل إلى المفاوتة فيه بين أصحابه بالانحياز أو بالتمييز . ولا إلى تعطيله ــ كلا أو جزءا ــ بانتزاعه أو بإهدار جانب من ضماناته أو مقوماته .. فأما ودين الله قد أقر بهذا الحق ، وحرر العمل به وإن على حساب العقيدة ، فالأخلق الأدنى إلى مطابقة نهجه والتزام منحاه ، أن يقر بما ينبنى على حق الحياة من حقوق ، وأن يتسع لما دون حرية العقيدة من حريات ، لأن ما يقضى بالكل لا ينكر الفروع ، وما يحرر الصلة بالله لا يقيد الصلة بالناس !.. وليس يخاف رأى الإسلام في تأييد الحريات العامة والحقوق الأساسية التى تهيىء للبشر ــ في المعنويات والماديات ــ حياة أبية كريمة ، لهم عليها الولاية . يعيشونها كمشيئتهم ، بالفكر الحر ، والإرادة الطليقة ، في ظلال من الأمان من الخوف ، والحماية من الحاجة ، والوقاية من الاستغلال ..

حق هو الحيـاة ، وحياة هى الحرية ، وضـمان من الله يحيطهما بالسياج المنيع الذى يرد عنهما عادية العبث والطغيان والإرهاب ، ذلك ما شرعه الإسلام ، ودعا إليه ، بالنص والمعنى ، وبالعبارة والروح ..

ومع هـذا فلا نرانا بحاجة إلى أن نعيـذ كل من له عين تبصر ، وأذن تسمع ، وذهن يتدبر أن يستخفه من هذه النظرة الإسلامية إلى حقوق الإنسـان طلاقتها السمحة ، فيجمح به وهمه أو همّه إلى تجريدها من العقل والضـوابط ، ومن الحدود والقيود .. فذاك ما لا تقره بديهة ، وما يأباه منطق الحياة ، لأنه إذن الفوضى التى تراق فيهـا الحقوق وتستباح الحرمات .. ولأنه الانطلاق ليس الجموح .

والتحرر ليس التحلل .. ولأن كل حق بواجب . وكل حرية بالتزام..

وحملة واسعة من الدعوة الهادية شنها الإمام ، بالقدوة الرائدة ، وبالكلمة الناطقة ، وباللفظ المخطوط ، ترويجا لهــذا المبدأ العام ، وتبصرة للناس بحقهم فيه ، وحقه عليهم . وبالجدوى التى يفيئها على جوانب حياتهم الإنســانية ما اتصــل منها بحاجة الفرد ككائن حى ، وبكرامتــه كإنسان .. ولم يكن من قبيــل التزيد والإسراف اهتمامه البالغ بتوجيهها إلى ذوى النفوذ من أصحاب الرأى ورجال دولته ، في مجالات الفكر والحرب والسياسة وشئون الدنيا والدين . ولا حرصه أن يعوا دقائقها ، ويلزموا حدودها ، في حياتهم الخاصة مع أنفسهم وذويهم ، قبل أن يلزموا بها ، في الحياة العامة ، من تحتهم من الناس.. فهذا هو السلوك الأمثل الذى لا ينبغي للقادة أن يسلكوا سواه ، لأنه السلوك الذى يعبر عن إيمانهم حق الإيمان ، ويستهوى كل من وراءهم أن يقتفوه .. وهو الإيمان الذى لا يطاوله إيمان ، لأنه يرتقي بصاحبه على أنقاض الأثرة والهوى إلى ذروة التجرد ، ويدفع به إلى الأخذ من نفسه ليبذل لغيره وإنه للقادر عندئذ ، بسلطانه على كل من عداه من أبناء مجتمعه ، أن يضع نفعه الذاتي حيثما كان يطيب له أن يفعل لو أنه شاء .. فلا عجب إذن أن يحث الإمام النــاس عامة ــ نصرة للمســاواة ــ على أن يفوها حقهــا فلا يســتذلهم هواهم أن يكيلوا في تطبيقها على أنفسهم بمكيال وعلى الآخرين بمكيال !..

هنا يقول على التعميم :

« أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمة من نفسه وأهله وماله .. » .

ثم يخص بدعوته كل ذى نفوذ :

« الزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيثما وقع .. » .

ثم يقرن بين هــذا الانتصاف ــ للناس جميعا ومنهم جميعا على ســواء ــ وبين الانتصاف لله .. وهل من مراء ؟.. فكلاهمــا حق . وكلاهما من نبع واحد هو الإسلام ، وإذا لم يتفق ، بالمساواة ، سلوك البشر بعضــهم إزاء بعض ، ونظراتهم آحادا إلى آحاد ، لم يســتقم

أمر الدين . وأحر إذن بسلوكهم تجاه الله أن يتعدد ويختلف ، وبنظراتهم إليه أن تتفرق وتزيغ .. وهل من وراء هذا وذاك غير اعتداء على حق الإنسان هو ظلم ، وغير اجتراء على حق الله هو عصيان ؟..

يقول :

« أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، ومن لك هوى فيه من رعيتك ، فإنك إلا تفعل تظلم .. » .

نهج أحق بقادة العمل أن يتبعوه إذ هم القدوة للناس ، والطلائع التى يسيرون خلفها في كل موقع إلى نوع الحياة الذى يلائم طبيعة البشر ، ويتفق ونظرة الدين . وما لم يكن سلوك أولئك على هذا الصراط السوى فسلوك كل من وراءهم تبع له على انحراف يفسد به المجتمع لاختلال الصفوف ، وانفراط النظام ..

على القادة ركز الإمام التوجيه ليكونوا : مبشرين برسالة الحياة الحقة كما سنتها الطبيعة ، أمنة على كنهها كما بينه الإسلام ، بعد أن اوشك مفهوم الحياة الميسر ، ومضمون الإسلام البين ، ان يغرقا في سيول هوج ، وتيارات رعناء من الهوى والجهل ، بجسها التأويل المغرض من خلال التلاعب بالعبارات والنصوص ..

ولقد بدا الإمام — لا ريب — خبيرا بنفسية المجتمعات وهو يركز هذا التركيز . فالجماعات مطبوعة دائما على التطلع الى كل ما هو « أعلى » . كلفة دائما بالتلقي عنه ، ثم تأثر خطواته السلوكية ، تشبها به ، واتباعا لنهمها الطبيعي بالمساواة . وليس شيء أقوى على التأثير في سلوكها من نزوعها الغريزى للتقليد ..

وكان القادة ، بطبيعة الحال ، من العمال وذوى الرأى واصحاب السلطة الزمنية في الدولة ، هم مرتقى التطلع الذى تتعالى إليه نظرات الجمهور ، ويحاول سلوكها أن يتسامى إلى سلوكه ، فراح الإمام يرسم لهم اسلوب عمل ، كفيلا إذا امتثلوه أن يصلحوا به ويصلح عملهم ، ثم يتداعى له — بغريزة التقليد والانقياد الجمعى — سلوك الجمهور تداعى الفراش للنور ..

فأى اسلوب ؟..

إنه الاســلوب الذى ينظر إليه من خــلال الفطرة الموحدة ، فإذا هو ناضج بها ، موافق لسنة الطبيعة .. ومن خلال الدين ، فإذا هو آخذ عنه ، معبر عن مضمونه .. ومن خلال العلاقات الاجتماعية ، فإذا هو قاموس أخلاق . وهو بشعبه هذه الثلاث : الطبيعية والدينية والاجتماعية نابع من المساواة ، مقيم لاركانها ، مصدق لكل ما يفصح عن حقيقة كنهها كنواة وحيدة لالتقاء البشر كافة ــ على تباين الأوضاع والطبقات ، واختلاف الأجناس والعقائد ــ في وحدة وثيقة بلا انفصام.

ويعبر الإمام في يسر عن المساواة المنشودة ، فيحدد الأثرة آفة لها تعرقل نموها ، وتذهب بريحها ، وتقضى على الأمل في قيام المجتمع البشرى المتكامل ، لأن الأنانية او حب الذات تجمد إحساس المرء بكل من عــداه ، فلا يرى إلا نفســه ، ولا يعمل إلا لهــا ، ولا يقيس الأمور إلا بمقياس منفعته الخاصة وإن أهدر بهذا منافع سواه ..

يقول الإمام في كتاب لبعض عماله :

« إياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة .. » .

والناس كلهم ، بطبيعة الحال ، سواء في حقوق الحياة ..

ثم لا يفوته ما تنطوى عليه النفس البشرية من نزوع إلى التفوق ، كثيرا ما يشطح بصاحب أى منصب عام إلى التسلط ، تباهيا بقدره ، وإظهارا لقدرته ..

إلى من قد تحدثه نفســه بالاندفاع إلى هذا المنزلق ، يكتب الإمام في وصاياه ، محذرا الاغترار بالنفوذ :

« لا تقولن إنى مؤمر آمر فأطاع ، فإن ذلك إدغال في القلب ، ومنهكة للدين .. »

فليست السلطة تسلطا وطغيانا ، ولكنها وظيفة لصون الحقوق ، ولا طاعة لها إلا في هذا النطاق ..

بل كاد يوحى في كتاباته أن المتسلط على الناس قرين المشرك بالله ،

لأن سلوك أمثال هــذا كسلوك أمثال ذاك ، ينم عما قر في روعهم من شعورهم الغلاب بانطلاق مشيئتهم انطلاقا لا تكفهم عنه قوة ، فلا يردهم شيء عن السدور في تجبرهم بالقول وبالفعل على من دونهم مكانة ، بلا تعقيب معقب أو محاسبة حسيب .. أو قد أنساهم الشــيطان أن لله وحــده التفرد بانطلاق المشــيئة ، بغير معقب على كلمــاته ، ولا ناقض لأحكامه ؟.. أم عساهم استمرأوا أن يشاركوا الله سلطانه على مصاير عباده استهانة بهم وجحودا له ؟..

مخافة الانخراط في سلك هذا النوع الذى يضله اغتراره ، ويعميه استكباره ، يبعث الإمام ، محذرا ، إلى بعض عماله :

« إياك ومساماة الله في عظمته ، والتشبه به في جبروته !.. » .

ثم يجاهر بدهشته أن يتعالى الإنسان صلفا وتيها بنفسه وليس فيه ما يدفع للاستعلاء ، أو يبرر الخيلاء :

« عجبت للمتكبر الذى كان بالأمس نطفة ، ويكون غدا جيفة !.. » .

لكنه إذ يعجب ويحذر ، يبصر وينور ، لأن ما لا يغيب عن نظرته الثاقبة وبصيرته المستنيرة قد يغيب عن إدراك سواه . فإذا هو لا يكتفى بأن يدع الناس وهــذا السلوك الذى دلهم على انحرافه ، ويبين لهم عتوه وغلوه إذ يســـتخفهم إلى التسلط ، بغير حق ، على بشر مثلهم هم لهم انداد نظراء . بل إنه ليقرن وصف زلتهم الضالة بما لا يملى لها في التمكن ، وما يكف شرتها عن الاستشراء لو القوا السمع والفؤاد لقوله منصفين .. وهل تجبرهم غير ضلال ؟.. وهل زهوهم إلا علة تفترس النفس ، تواتها كلفهم المنهوم بالاعتداد ، وإقبالهم المسف على الاستكثار من الثقة بالذات إلى حد التخمة التى تورث الغرور ؟.. وهل يغذى الاغترار وينمى ضراوته شيء كثنــاء مسرف خــداع هو في حقيقته الوسيلة الوحيدة لكل عاجز وخائف ومنافق إلى حماية نفسه من اى طاغية متجبر او استجلاب رضاه ؟..

لكم تفيض الحياة اليومية بصور لهذا الثناء المضل الضال ، تمر تحت الأعين فلا تكاد تقف عند إحداها نظرة عجب ـ دع الاستهجان !ـ ربما ، لفرط تعددها ، وتوالى مرورها ، قد اعتادها الناس ، وغدت

في حياتهم شيئا مألوفا لا يستحق أن يثير الفضول !.. فكأنما التمويه قطعة من طبيعة الإنسان !.. وكأنما النفاق بضعة من عمله !.. وكأنما الإطراء المنحرف يشيع في الجو فلا يملك احد من البشر إلا ان يتنفسه — رضى أو كره — ويتمثله ، ليعيش عليه ، تيها وعجبا ، او تحاميا وخشية !..

لكن الإمام ينزه إنسانية البشر ان يمتهنها هذا الضعف الخلقى ، فيرسم لنا صورة حية يتقابل على ديباجتها الرياء والتعفف تقابل الظلال والاضواء .. فيها الرياء يستذل صاحبه حتى ليهوى إلى ما تحت الأقدام متمسحا بها ، كأنما قصارى طموحه ان يلعق التراب، فإذا هو عندئذ ليس بإنسان ، بل الهوان في هيئة إنسان !.. وفيها التعفف يرفع صاحبه محلقا به إلى ما فوق شهوة النفس ، فإذا هو الأبي القوى على الإغراء والإغواء ، الذى يكرم نفسه ان تستمرىء الصلف او تلوذ بالهوان فيكرم فيها نوع الإنسان ..

صورة من سلوك البشر في كل مجتمع وكل زمان ، ينتزعها الإمام من واقع حياتهم اليومية ليضعها — بغلوائها وتدليها — في المسامع والأبصار مثلا نابضا لضعف النفس : بالغرور كيف يكون ، وبالتذلل كيف يكون .. ثم يعتصر دلالتها ، ويستخرج حكمتها فإذا هى الدرس الذى يهذب النفوس ، ويروض الطبائع . والدعوة العملية التى تؤكد للناس انالحياة ليست بحياة إن لم يعيشوها جيمهم ، حاكما ومحكوما ، كبيرا وصغيرا ، وهم سواء ، كرماء أباة .. فما الثناء برياء ، ولا الطاعة بتذلل ، ولا الولاء استخذاء .. وما القوة بتجبر ، ولا التواضع بضعف ، ولا السلطة خيلاء .

وهذه هى الصورة الناطقة بكل ما فيها .. بما يعرض للعين من أخلاط الالوان وعتمة الظلام وإشراق الاضواء . وبما تلقف الأذن من جرس النبرات ووقع الهمسات وخفق الإيماء :

رجل سولت له نفسه ان ينفذ إلى الرضا والحظوة ، او إلىّ الامان والسلامة من اقصر طريق شقه البشر ، ومن اوسع باب فتحوه والفوا ولوجه ، طوال تاريخهم على وجه الدنيا ، إلى هذا المأرب او ذاك ، فلا يتردد ان يخف — وهو واهم، او عالم — إلىالإقبال علىامير المؤمنين،

متمسحا به كالهرة كمألوف عادة المحكومين مع الحكام ، مشيدا بقدره ، معددا مناقبه وشيمه ، متغنيا بمكارمه وسجاياه .. إنه ليمدح فيطنب ، ويثني فيغدق ، ويطري فيفيض .. حتى إذا بلغ شأو حديثه، وأفرغ ما في جعبته من بضاعة بيانه المنمق الأخاذ ، ثم حسب انه استحق الجزاء الذى تطيب به نفسه ، فجأته من الإمام نبرة قاطعة حادة ، جمعت اللوم إلى الإنكار ، والرثاء مع الازدراء ..

كان الجزاء الذى تلقاه :

« أنا دون ما تقول ، وفوق ما في نفسك !.. » .

وعندئذ تبعثرت قرابين الملق ، وتناثرت آلهة الاغترار ، حطاما تحت الأقدام !..

حكمة وقدوة ..

حكمة تؤكد إيمانا بمبدأ ، وقدوة تجسد هذا الإيمان ، تتلازمان .

فليس بالدعوة وحدها يعيش مبدأ . وليس بالمبدأ وحده تصلح حياة .. وإنما لا بد من سلوك جاد يعبر عن القول بالعمل ، ويجسد المنطوق في تطبيق . وما من احد هو أولى من الدعاة الرعاة بهذا السلوك القوال الفعال الذى يغرى من وراءهم بالتزامه لأنه يروج للمبدأ ، ويثبت أركانه ، ويجعل منه سياسة عامة للدولة وأسلوب حياة يعيشه أبناؤها وليس مجرد إيمان أخرس تكنه الأفئدة ، او لفظ أجوف تهدر به الشفاه !..

ولا يغفل الإمام عن ترديد خلاصة هذه التجربة على من بيدهم مقاود الأمور من رجاله في الولايات والاقاليم وفي مراكز السلطة اينما كان لدولته سلطان ، لأنهم أحق الناس في مجتمعاتهم بإلزام أنفسهم امتثال السياسة المقررة التى شرعها الدين أسسا ومبادىء او فصلتها الدولة فروعا واجزاء . وكم اوضح لهم . وكم امر ان يتجنبوا الانزلاق على النفوذ إلى التجبر ، وعلى الثناء إلى الاغترار ، وعلى كليهما معا إلى طغيان الفردية التى لا تعيش إلا على دم الحريات !..

وها هو ذا لا يقتصر فيما يوصي به عماله على تزهيدهم في تقبل

الإطراء . بل يحاول أن يحاجز بينهم وبينه بأن يسد عليه سبيل التسلل إلى نفوسهم من خلال طائفة من المشيرين هم أخلق بأن يفتنوا في إرجائه من ألف باب وباب !..

تلك طائفة الخاصة من البطانة والأعوان ، الذين يعيشون عادة على زهو الحاكم كما تعيش الديدان على جيفة ، ويبنون حوله بآرائهم وأجسادهم سورا منيعا من التمويه ، فيه يسمع بأسماعهم ، ويرى بأعينهم ، ويفكر بعقولهم ، وتطيب نفسه المخدوعة بحياة هي الوهم ، بعيدا عن الحقائق ، معزولا عن الناس ..

من أولئك يحمي الإمام كل عامل من عماله فيدعوه الا ينقاد لهواه عند اختيار مشيريه ..

يقول :

« استعملهم اختبارا ، ولا تولهم محاباة .. » .

ولا يكتفي بتزهيد الولاة في الثناء المسوق من قبل هؤلاء ، بل يحثهم أيضا على تهجينه لرعاياهم من عامة أهل الإقليم ، ومكافحته في سلوكهم كما تكافح الموبقات !.. فيكتب في إحدى رسائله لبعض عماله يأمره أن يرد من قبله من الناس عن إطرائه لكيلا يفترسه الغرور :

« .. ورضهم على ألا يطروك . فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو ، وتدني إلى الغرة .. » .

بل يأخذه بالإصغاء للصرحاء ، الذين لا يموهون ولا ينافقون ، وبتقديمهم في مشورته ومجلسه على من عداهم ، وإن ضاقت عادة بالنقد صدور الحكام :

« .. وليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق !.. » .

ولا مراء !..

فالثناء في أغلب الأحايين — إن لم يكن على الدوام ! — وسيلة لإخفاء رذيلة أو لتضخيم فضيلة ، تنتهجها النفوس الهشة جنوحا من الرائل إلى مداهنة المرذول أو استجلابا لرضا الفاضل على المفضول . فهو

إذن مركب هوى ، وليس بأسلوب صدق لإبداء ولاء أو تعبير عن تقدير . ام لا ، وإنه لمن ضعيف لقوى . من صاحب حاجة لمالك امره . من حاكم لمحكوم ؟.. ام يستطيع ، وهو المرفوع ممن هو ادنى إلى من هو أعلى منه ، ان ينطق بالحق الخالص ، مترجما عن حقيقة الأوضاع ، او مفصحا عن مشاعر مزجيه ؟.. ام أخلق به واليق أن يجيء كتلة من النفاق والزيف والتدليس ؟..

احرى به ، في مثل هذا الموقع ، ان يحق الباطل ، ويبطل الحق ، لأنه لن يكون عندئذ إلا أداة نفع لصاحبه أو مطيته إلى نجاة .. فإذا دعا الإمام رجال دولته العاملين من لدنه على الناس إلى العدول عن الإصغاء للإطراء إلى الإصغاء للمصارحة فهى الدعوة الكفيلة بأن تكف عادية الخيلاء وتحسر مد الطغيان ، لأنها تصد الرياء فتقلم اظفار الاغترار .. وهى الدعوة العاملة على تكريم العقل وإقامة الشورى وتوطيد حرية الراى لأنها تفسح للنقد فتهدر استبداد الفردية ، وتحفظ للشعب المحكوم حقه في مناقشة الحكام ...وهى ، بعد هذا أو قبله ، الدعوة التى تتصدى للانحراف بنوعيه : المتهاوى المتخاذل ، والمتشامخ الطاغى ، إذ تحارب الاستكبار والإرهاب كما تحارب الجبن والنفاق ، فترسم للدولة سياسة عمل ، وللأمة خطة اخلاق ..

٩

بغير مغالاة ، تكاد وصايا أمير المؤمنين وأوامره الى عماله في الأقاليم ، تمثل لنا تلك الخطة المتكاملة التى يحدد بها هدى الإسلام ما ينبغى أن تكون عليه سيرة المتبوع بين الاتباع ، واليا من قبل السلطة الشرعية الحاكمة ، او امرؤا هياه وضعه الاجتماعى لقيادة الناس في محيطه تجاوبا مع العرف والتقاليد . فهى الخطة الشاملة العامة التى يسعها أن تستوعب في نطاقها كل راع مسئول من ذى رأى او سلطان بين أهله وذويه أو بين غيرهم ممن عسى أن يتداعوا اليه ، بحكم الصلات الاجتماعية أو بحكم الولاء السياسى .. وهى الخطة المحكمة التى تبين بجلاء ما يجدر بكل انسان أن يمتثله في حدود ما اتيح له من نفوذ جل أو هان ثم لا تترك ثغرة للترخص والاستثناء ولا للجموح والغلواء .. وهى بهذا خطة السلوك « الخلقى » المقبول الذى تستقيم به العلاقات الإنسانية في مجتمع العشيرة كما في مجتمع الاسرة ، وفي حيز الدولة كما في حيز الإقليم على السواء دون سبيل للمفاوتة في معاملة الناس بالإيثار او بالإجحاف .. بل هى ايضا السلوك « الطبيعى » العادى الذى لا بديل لأى جماعة بشرية عنه في سياسة الأمور وقيادة الأفراد والجماهير ، لأنه يوافق طبيعة البشر اجمعين حكاما ومحكومين على اختلاف الزمان والمكان ، وتنضح به الاخوة الآدمية التى تربطهم قبل أن تنضح به صولة الحكم وسطوة السلطان ، ويتداعى للفطرة الأصيلة فيهم بغير عناء او اعتساف ..

نهج طبيعى عادى ، ومسلك خلقى سوى دعت اليه وصايا أمير المؤمنين ، واجمل رسمه بأوجز وصف وأدناه في حديث له ..

فقد قال :

« .. .. واحذر كل عمل يرضاه صاحبه لنفسه ويكره لعامة المسلمين .. واحذر كل عمل يعمل به في السر ويستحيى منه في العلانية .. واحذر كل عمل اذا سئل عنه صاحبه انكره واعتذر منه .. .. »

وبهذه الكلمات خط المبدأ ثم حدد الأسلوب .

فأما المبدأ فهو أن تكبح النفس أن تستخفها الأثرة لإشباع نزواتها أو تغرها القدرة لتحقيق منافعها الخاصة ، انزلاقا على الهوى أو جنوحا مع الخيلاء ..

وأما الأسلوب فهو أن يوجه عمل الفرد إلى الصالح العام ، وإن أضر هذا التوجيه بالمآرب الذاتية ، أو كان الفرد صاحب السلطة العليا التي تقود ..

ومن هذا وذاك ينبثق السلوك الأمثل الذي ينبغي أن يكون . والذي يستجيب للرغبة العامة فيصلح الجماعة وترضيه . والذي يعز صاحبه ويسمو به ان يحس الهوان في دخيلته أو يحسه له الناس. فما يجنبه مثل هذا الشعور بالهوان أن يمتنع عن سخطهم ببأسه وجبروته . ولا باستهانته بشأنهم . ولا بالتغافل عما يكنون . وإنما يجنبه إياه أن يتحامى الوقوع فيما لعلهم ينكرونه عليه ويصبح به في مجال تثريبهم في العلن أو الخفاء ، وبالتصريح أو الإيماء .. فليس اكرم للمرء من أن يكون وحده الرقيب على فعله وقوله . وليس أليق به كإنسان من أن يصدر في تصرفه عن شعور عميق بإنسانية مشتركة تجمع بينه وبين من حوله وإن تفاوتوا في الاقدار . وليس أجدى عليه وعلى مجتمعه من انطلاقهم جميعا من وحدة الشعور إلى وحدة الفكر ، ومن وحدة الفكر إلى وحدة التعبير ، ومن وحدة التعبير إلى وحدة الغاية التي تلتقي عندها كافة الرغبات .

بغير هذا لا يمكن لكيان أي مجتمع من المجتمعات ان يتماسك لأنه عندئذ يفتقر إلى اتفاق كلمة أبنائه فإذا هم شيع وفلول تختلف وتتنازع، قد تضاربت ميولهم ، وتبعثرت جهودهم ، وتنافرت أعمالهم ، واضطربت بهم خطاهم في سيرها على أيما طريق قد يؤدي إلى نفع عام .. فما بإرادة فرد وحده يستطاع أن تساق الشعوب ما بلغ ذلك الفرد من سطوة النفوذ . ولا بمشيئة طبقة فيها من دون الطبقات يساغ ان تبرم الأمور ما بلغت تلكم الطبقة من بسطة الجاه .. إنما التنسيق بين كافة الإرادات والمشيئات ، والتوفيق بين مختلف الميول والاتجاهات هو الذي يدعم وحدة الأمة ، ويوطد كيانها ، ويصلح شأنها

بداية وغاية . فلا صلاح لأمة بصلاح بضعة فيها دون بضعة ، ولا بإيثار طائفة على طائفة ، لأن « الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض » — كما يقول الإمام .

تلك سياسة ثابتة كالجبل ، عادلة كالميزان ، خليقة بأن يرعاها كل محكوم كما يرعاها كل حاكم سواء بسواء لأنها تحقق التوازن في المجتمعات ، وتمنع بناءها أن يميد ..

فما هو إذن مقياس تطبيقها بلا انحراف ؟..

وما هو ضمان « الموازنة » فيما بين الأفراد ، وفيما بين الطبقات ، وفيما بين أولئك وهؤلاء ؟..

بديهية لا تختلف عليها الآراء أن يكون ذلك المقياس شاملا يتسع لكل قياس ، حاضرا ميسورا لكل الناس .

وإنه لكذلك !

فأن تضع نفسك موضع سواك ، قبل أن تصدر عن فعل أو قول ، فترضى لها ما ترضى له ، وتكره له ما تكره لها ، لهو المقياس الذى لا يبعد عن احد لأنه يقع في متناول الجميع . وهو لا ريب المقياس الدقيق الذى يكفل استقامة التطبيق ، ولا مجال معه للمفاوتة في التقدير مهما تغيرت الأحوال واختلف الأشخاص .

إنك أدنى إلى أن تعيش بعيدا عن الحقائق ، معزولا عن الناس بغير هذا المقياس لأنك عندئذ لا تكابد ما يكابد سواك . ولكنك به تعيش في إهابهم !.. ترى بعين كل منهم . تسمع بأذنه . وتشعر شعوره . تفكر تفكيره حتى لتصبح أنت في قرارتك كأنك هو ، ويصبح هو في نظرتك كأنه أنت !. ولا شيء أوضح من هذا نهجا لاستقامة تقدير كل امرىء للأمور ، ولا اقوم سبيلا لسلامة تصرفه وسلوكه . ثم لا شيء بعد أصدق منه تعبيرا عن الإحساس الجمعى ، ولا أقوى ضمانا لتحقيق الإرادة العامة .

ولا يساغ هنا أن يقال بإقبال الناس كافة على هذا المقياس ، أو بعملهم به على اطراد وعن إجماع ، في كل الأحوال .. فلقد يحدث

ـــ ولا عجب ـــ أن يغفل عنه فريق ، كما قد يحدث ايضا أن يعبث به فريق .. فليس دائما كل أسلوب ميسور بمقبول . وليس دائما كل طريق معبد بمطروق . وليست الحياة الدنيوية بقالب يصب فيه البشر فإذا هم نمط واحد ، على اتساق وتماثل بلا تناقض وتضاد . ذلك لان الإجماع خيال . والاطراد إطلاق ، والإطلاق ـــ بطبيعة الحال ، ومع اختلاف الطبائع البشرية ، وتشعب النزوات ، وتفاوت الوعى بين الأفراد ـــ ضرب من المحال . والأولى إذن في هذا الضوء ان يقال إنه المقياس الذى إن فاته أن يقيس اتجاه الإجماع فلن يفوته أن يقيس الاتجاه الغالب الذى يعبر في اى تجمع إنسانى عن رأى الكثرة من اهله ، ويصلح على هذا الأساس ، أن يكون نقطة بداية لانطلاق الجهود إلى هدف عام « نسبى » ، إن لم تتحقق عنده إرادة الكافة فأحرى به أن يحقق إرادة جمهور الناس .

وإذن فإرادة هذا الجمهور اجدر بتقديمها على ما عداها من إرادات غيره من ابناء الأمة ، ما دام يمثل فيها ـــ بمجموعه العددى ـــ ما يوشك أن يقارب الإجماع ، ويفتقر ـــ بوضعه الاجتماعى ـــ إلى النصيب الأوفي من الخير العام .

هذه هى النظرة الواجبة إلى وظيفة الحكم كيف تكون ، وإلى تبعة الدولة عند وضع الخطط ورسم الأهداف . وهى النظرة التى تعلن دائما عن نفسها في طوايا وصايا الإمام واوامره ، ويقرر بها ضرورة امتثال الإرادة الشعبية الغالبة وتوجيه العمل القومى ، سياسة ونتيجة ، إلى نفع العامة ـــ إن لم يكن عدلا فإيثارا ـــ لو عسر توجيه هذا العمل لنفعهم ونفع بقية من عداهم من الرعية على استواء . فإذا أوثروا ها هنا فإنه الإيثار الذى يعدل الحق ويكافىء الإنصاف ، تعويضا لهم عن الحرمان والتخلف ، ولو بدت فيه مسحة عطف أو اثارة انحياز .. وإذا اختصوا دون غيرهم بمصلحة فإنه الاختصاص الذى يرقى بهم درجة في سلم المساواة ولا ينزل بسواهم من الطبقات .. وإذا استكثر لهم من الخير العام فذاك ما تبرره كثرتهم ، إذ هم قاعدة المجتمع الكبرى ، وأساس بنائه ، وعصب كفاحه في كافة المجالات ، وما من فئة ـــ بهذا المعيار ـــ هى أحق منهم باجتناء القسط الأوفر

من ثمرات العمل جزاء وفاقا لما يحملون من أعباء ، وثمنا عادلا لما يبذلون من جهود ..

عن دورهم في حياة أمتهم يقول امير المؤمنين :

« .. إنما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء : العامة من الأمة .. » .

وعن دور الدولة في رعايتهم ، وكفالة حقوقهم ، يذهب إلى المدى الذى لا يبالى عنده سخط من عداهم ، لأنه عندئذ السخط المنتظر المغفور ، الذى لا يلائم ضرورات الواقع ، ويكاد لا يخل بعدالة الميزان..

يقول :

« .. سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، وإن سخط الخاصة يغتفر برضا العامة .. » .

فهنا احتفال ، وهناك استهانة .. سخط المتكفف في كفة ، وسخط المكتفى في كفة ، ولا مندوحة ـ عند المفاضلة ـ عن درء اولهما بالآخر لأنه شتان بين ضاو محروم يصلحه النزر ، ومترف منهوم تفسده التخمة !..

ولم يكن رأيه هذا بقول الذى يسوق العبارات عشواء فيجانب بها حدود الاكتراث استهانة أو غفلة ، بل هو حديث المحيط بالحقائق، المتمرس بالتجربة ، الخبير بالنفوس الذى يبنى كلامه على شواهد عملية ، وأدلة يقينية من صميم حياة الناس يوشك الا ينفذ إليهما البطلان ..

بخلاصة ما خبر واستيقن ، يتحدث فيقول :

« ليس احد من الرعية اثقل على الوالى معونة في الرخاء ، واقل معونة له في البلاء ، واكره للإنصاف ، واسأل بالالحاف ، واقل شكرا عند الإعطاء ، وابطأ عذرا عند المنع ، واضعف صبرا عند ملمات الدهر من أهل الخاصة !.. » .

ولا مراء !..

فتلك ـ عادة ـ خلائق المترفين السراة ..

ولا يغفل الإمام ، بعد هذا ، شأن الفرد ، لأنه نواة جماعات الامة ولا يصلح الدوح إن لم تصلح البذور !.. ومن هنا فإنه يرى لكافة المواطنين حقوقا على الدولة ، ليس لها ان تتحلل منها ، او تبخل بها وان تفاوتت قدرا او نوعا بحسب طبيعة الأوضاع الاجتماعية التي ينتسب إليها الافراد . ثم يرى ، ضمانا لهذا الصلاح ، ان تعاير الحقوق بالحاجات ، فيقول :

« .. لكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه .. » .

وقد ذهب امير المؤمنين في تقرير هذا الحق أبعد المذاهب ، حتى لقد جعل الوفاء به اول ما ينبغي على الحاكم وإن جاء هذا الوفاء على حساب المال العام ، أو اجتزأ منه بنصيب . فلا خير قط في سياسة قصاراها ان تكدس المال في الخزائن لتستند به هيبة الحكم أو تعز السلطان إن لم تسخره وسيلة للرعاية الاجتماعية لمن يفتقرون لهذه الرعاية ، لانها عندئذ السياسة الخليقة بأن تفقد الطبقات الدنيا والمحرومة في المجتمع شعورها بالانتماء للدولة ، وتنزل بولائهم لها إلى اسفل درك إن لم تدفعهم دفعا إلى التنكر للنظام العام ، وتزخر نفوسهم بالثورة عليه .. ولا بديل في امة تنوعت شعوبها ، وتعددت وحداتها السياسية ، عن عناية كل عامل على اية وحدة بأن يوفر للمعدمين والمحتاجين فيها ما يمسك عليهم مستوى كريما ، أو مقبولا ، من المعيشة ، من دخلها قبل أن يوجهه إلى حاضرة الدولة .. فأهل الارض ، لا ريب ، اولى قبل غيرهم بما تغله . ونجاح الوالي لا يقاس باقتداره على جمع المال . وليس بمجهول انه قد أثر عن رسول الله قوله إنما بعث للهداية ولم يبعث للجباية ..

في هذا المقام يقول الإمام :

« .. يؤتى خراب الأرض من إعواز اهلها . وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على جمع المال .. » .

ويرسم سياسة للجباية لا تهدر كرامة الإنسان ، ولا تعضل به ، وإن أعضلت بالدولة ، وحرمتها بعض ما يستحق لها على الرعية من الاموال .

يأمر أهل الخراج :

« .. لا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ، ولا صيف ، ولا دابة يعتملون عليها .. » .

فأما ذوو الحاجة من أبناء الإقليم ، فقد آثرهم بمال إقليمهم إلا أن تفضل فضلة تنفع أبناء سواه ..

يكتب إلى عامله على مكة قثم بن عباس في هذا الإيثار ، فيقول :

« أنظر ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوى العيال والمجاعة تصيب به مواضع الفاقة والخلات .. وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا .. » .

بل يحتم على الدولة أن تتولى ما نعبر عنه في لغة اليوم بالرعاية الطبية ، وإعانة التعطل ، لكل مريض ، وكل متعطل أعوزته الوسيلة إلى عمل يصلح أمره أو أعجزه عنه سبب من الأسباب .. فيبعث إلى ولاته :

« الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم ، والمساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى .. اجعل لهم قسما من بيت المال ، وقسما من غلات صوافي الإسلام في كل بلد .. فإن للأقصى منهم مثل الذى للأدنى .. » .

كافلا بهذا الرعاية للجميع ، في كل ركن من أركان الدولة ، بغير تمييز ولا استثناء ..

فإذا بلغ بأوامره إلى الحكام هذا المبلغ ، بادر فدعا كل قادر من أبناء الأمة إلى التزام نفس السياسة تجاه ذوى الحاجات ، من ماله الخاص ، جودا بما يطيق مهما قل ، لأنه يعينهم على الحياة :

« .. لا تستح من إعطاء القليل ، فإن الحرمان أقل منه !.. » .

وكما سبقت وصايا الإمام — فيما نطقت به عن تعاليم الإسلام — كافة الشرائع والقوانين الوضعية إلى إلزام الدولة رعاية الفرد بتقرير حقه عليها في العمل والعلاج والمعونات المالية وكل ما يضمن له مستوى معيشيا يليق به كانسان ، فقد سبقتها أيضا الى حماية الفرد من

استغلال سواه الاستغلال الذى تشق به عليه الحياة . وكفى أن نذكر هنا ـ كمثال ـ انها حرمت الأحتكار ، وفرضت رقابة على أسعار السلع لكيلا تكون وسيلة بعض الجشعين من التجار الى الإثراء الفاحش عن طريق التحكم في الأسواق ..

فلقد كان من أوامر الإمام الى رجاله :

« .. فامنع من الاحتكار ، فإن رسول الله منع منه .. وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع .. .. »

تلك وغيرها من وصايا الإمام وآرائه ، خطوط في السياسة العلوية ، ومعالم على طريقها ، وضعها صاحبها لتكون مشاعل هداية ونور للولاة والعمال في سياسة الناس والامور ، ومفازة امن وسلامة لابناء شعبه الى الحياة الكريمة .. فإن فيها من العناصر الواضحة ، ومن المفازى المستسرة ما يبدى لنا خطة وثيقة الكيان ، راسخة البنيان ، تؤكد كيف يمكن للسلوك البشرى أن يوافق شريعة الدين بلا اعتساف ، ويلائم طبيعة البشر دون إرهاق ، ليرقى بالأمة كلها ، حاكمين ومحكومين ، الى حيثما تهفو الأنفس النقية الطموح والقلوب السليمة الذكية ، وتترامى فطنة العقول الواعية ، إلى حياة من الصفاء والسلام ، كل فرد فيها قدوة ، وكل جماعة فيها إخوة ، بلا تطاول بالأحساب والأنساب ، أو امتياز بالألوان والأبشار ، أو اغترار بالمناصب والأقدار .. بل أسرة واحدة . يعمل الفرد في ظلها للجماعة لانه يعيش بها ، وتعمل الجماعة للفرد كأنما تعيش فيه .

غير أنها خطة ـ كغيرها من السياسات والمبادىء ـ خليقة بأن تتجمد في الألفاظ ، ويجف ماء الحياة فيها قبل ان يجف بها المداد على الصحائف ، ما لم تجد رعاة ودعاة ينحلونها القدرة على الحركة ، فيعيشونها عملا مثمرا وممارسة حية ، ولا يكتفون برفعها شعارات ..

فهل هكذا كان سلوك المسلمين عامة ، في تلك الأيام ، وخطة الإمام هي لب الإسلام ، والأمة كلها ، بلسان محمد ، رعاة ؟..

لقد قال أمير المؤمنين وهو يحدد لقادة الرأى والعمل والسياسة حينذاك دورهم في هذا المجال :

« من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه . . . »

لكنهم عامة ــ أولئك القادة في مختلف انحاء الدولة ــ لم يستجيبوا لهذه الدعوة الهادية ، سواء منهم من كان معه أو كان عليه . . الكثرة التى صمت عن الاصغاء تنكرت للأداء . والقلة التى لعلها أصغت للدعوة اكتفى أغلبها برفعها شعارات . ومن ورائهم جميعا جمهور الشعب ، يسيرون ، كما يسار بقطيع ، إلى دروب الهوى والنفع الذاتى التى شقتها لهم دنيا خداعة ، تخايلهم بمطامع وشهوات ، ليستدبروا طريق الحياة الحقة التى يلتئم فيها شمل البشرية ، ويعز الإنسان كإنسان !

الفصل الرابع

١

عندما سمع الإمام بفرار مصقلة ، زاحم الأسى في وجهه سمات الغضب ، اسفا على غلبة الوحل في طبيعة البشر !.. فما زال ضعفهم يشدهم الى الأرض وإن بدوا كأنما يحلقون في السماء . وما زال الادعاء لعبتهم الأثيرة . وما زالت النفوس غثة وان تسربلت بكبرياء ..

إن خلائق كثرتهم لأهون من أن توزن بمثقال . وإن شرفهم لأرخص من أن يثمن بدرهم . وإن كرامتهم لغشاء وطلاء .. هيئة ضخمة تهول ، وملمس ناعم يبهر ، ثم لا شيء بعد هذا غير خواء وفراغ ، كأنما القيم الخلقية التى يعلنونها ويظهرون ولاءهم لها مجرد كلمات رنانة ، قصارى هممهم منها أن تمتلىء بها الأفواه وتنتفخ الأشداق !..

ومصقلة مثال !..

واعرب الإمام عن أسفه :

« قبح الله مصقلة !.. فعل فعل السادة ، وفر فرار العبيد !.. »

فقد فر الرجل ، وقبلته الشام ، ليلقى لدى معاوية ما يلقاه كل آبق عليل الضمير ، آده أن يستمسك بما أخذ به نفسه من مبادىء ، وتعاهد عليه من ذمام .. باع دينه لدنياه . خلع الوفاء وارتدى الخيانة ، ومضى شوطه في الطريق الذى سبقه اليه كل ناكث خوان ، لينعم هنالك في وجار العاهل الاموى بجاه ما هو بجاه إلا أن تكون الاعتداء على حق الله ، والهوان على مكارم الاخلاق هو النجاه !.

ولم تكن حال مصقلة هذه إلا حلقة في سلسلة طويلة من سلوك طائفة جمة من الامة ، ذلك العهد ، قد آثروا الفرار بانفسهم من

مشقة الثبات على الحق ، والصبر على مرارة الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الدين ، الى حياة من الدعة والرغد يشترونها بانتقاضهم على الإمام . فهو عندئذ نمط شائع من الناس الذين بهرهم اقبال الدنيا ، فأكبوا عليها ، ينتهبون عرضها ونشبها ولو من حرام . وهو أيضا نمط من الخاصة تقدموا الصفوف قادة وعمالا في دولة علي ، ليعبروا على ما اظهروا من ولائهم له ، وكفاحهم لنصرته ، الى ما يشتهون من مغانم ، فلما أن استطال امر هذا الكفاح ، تعجلوا اجتناء الثمرة المشتهاة التى رأوا صاحبهم يحاجز بينها وبينهم ان يقطفوها بغير حقها ، فاتخذوا سبيلهم الى اجتنائها صاحب الشام ..

وتفصح قصة مصقلة بن هبيرة الشيبانى ، كما لم تفصح أغرب القصص ، عن اضطراب المعايير الخلقية الاضطراب الذى تجتمع فيه نقائض الشرف والخسة ، الإباء والهوان ، الخطأ والصواب ، ثم تقوم — في رأى صاحبها — بميزان المعادلة والحساب كأنها كلها شرف وإباء وصواب !..

فالرجل يمر به ، وهو عامل لعلى على اردشير خرة ، من كور فارس ، أسارى نصارى بنى ناجية ، فيبدو كمن يصدر عن خلال كريمة اصيلة فيه .. عن الشفقة والرحمة حين يراهم وتأخذه الرقة على ما هم فيه من بلاء . وعن المروءة والنجدة حين يستغيثونه أن يكف عنهم الأسر ..

ويبادر على الأثر فيشتريهم بخمسمائة الف درهم ، دينا عليه إلى اجل ، ويعتقهم من ذل الاسترقاق ، فإذا هو يبلغ بصنيعه هذا قمة الشرف الذى لا يكاد يرقى لشأوه ثناء .. ثم يمطل بدينه ، فلا يؤدى الفدية التى افتدى بها أسراه الى بيت المال وهو المؤتمن عليه ، ولا يرد منه إلا بعضه بعد ان يلحف عليه بالسؤال ، بل يتحلل من تبعته — افتئاتا وجورا — بأن يخلع طاعة امير المؤمنين ويفر الى ابن ابى سفيان . فاذا هو بفعلته هذه يتهاوى الى درك الخسة الذى ليس تحته قاع !..

مناقص ومثالب تروع وتهول . جمعت خيانة الأمانة ، الى خلف

الوعد ، الى نقض البيعة ، الى المظاهرة الجائرة انتصارا للعدو على الولى ، وللمتمرد العاصى على صاحب السلطان الشرعى في البلاد ..

ولقد كانت لمصقلة عندئذ مندوحة ، عن سلوكه الزرى الذى اخل بدينه ، واهدر كرامته ، لو انه كان حقا صادق النية — منذ البدء — في طاعة الإمام ، مؤمنا إيمانا سليما باهدافه .. وهل كان على ليعجله بالاداء ويرهقه عسرا وإنه الخليق — لا ريب — بأن يمهله ويتريث به وهو يقابل الزلة الوبيلة بالدافع الكريم ؟..

وكان هذا حقا هو اتجاه الإمام في معاملة مصقلة ، إذ عقب يقول :

« .. لو أقام لأخذنا ميسوره ، وانتظرنا بماله وفوره .. .. »

لكن مصقلة شاء لنفسه أن يقرن الصلف بالخيانة ، كأنما ترفعا عن المساءلة والاعتذار . فأعاد بذلك إلى الحياة صورة جبلة بن الايهم ، حين شكاه احد الأعراب الى ابن الخطاب في لطمة لطمها اياه ، فدفعته كبرياؤه الحمقاء — انفة من القصاص — الى الارتداد عن الإسلام !..

صلف كصلف ، ومثال كمثال ، ثم يبقى بعد هذا ان سيرة مصقلة تنم ، قبل زلته تلك ، عن دخوله في طاعة على ، خداعا وغشا ، ابتغاء المصلحة وذيوع الصيت . فلقد سبق له ان اساء الى المال العام بوضعه حيثما راى انه يرفع ذكره ، وينفع قومه ، وإن اعضل فعله بمن لهم حق في هذا المال .. وها هو كتاب من الإمام إليه ، إبان عمله ، يتهمه ويكاد يهتك الستر عن خيانة قديمة ، خبيئة فيه :

« بلغنى عنك امر إن كنت فعلته فقد اسخطت إلهك ، وعصيت إمامك .. انك تقسم فيء المسلمين ، الذى حازته رماحهم وخيولهم واريقت عليه دماؤهم ، فيمن اعتامك من اعراب قومك .. فوالذى خلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لئن كان ذلك حقا لتجدن لك على هوانا ، ولتخفن عندى ميزانا !.. فلا تستهن بحق ربك . ولا تصلح دنياك بمحق دينك ، فتكون من الاخسرين عملا .. .. »

وختم كتابه يذكر بحق الأمة في الفيء بالسوية ، بلا مفاوتة على المنازل والاحساب :

« .. الا وان حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء ، يردون عندى عليه ، ويصدرون عنه .. » .

ومع ذلك فقد استمرا المرعى !..

فما هو ان طلع عليه بولايته اولئكم النصارى الأسارى ، حتى تحركت يده ، مرة أخرى ، نيختان المال العام ..

والقى بعينه على موكب الرق فإذا هو جسوم ضاوية محطومة من فرط مشقة الرحلة الطويلة من ساحل البحر في الجنوب . ووجوه مغبرة ، رهقها الإعياء وذل الانكسار .. ثم القى بسمعه إليهم فإذا كلامهم زفرات ، وإذا انفاسهم نواح ..

وتعالى اليه الصياح :

« يا ابا الفضل !.. يا حامل الثقل ، ومأوى الضعيف ، وفكاك العصاة !.. امنن علينا .. .. »

فكأنما لمسوا بعباراتهم وتر فخره ..

هب على الفور يقول :

« والله لاتصدقن عليهم !.. » .

وارسل الى معقل بن قيس ، صاحب الجيش الذى تعقب عصاة بنى ناجية من الكوفة الى البحرين عبر الوهاد والقفار والجبال ، قرابة عامين ، حتى اوقع بهم ، وقتل زعيمهم الخريت ، واظفره الله منهم بعدو عنيد ..

ارسل اليه :

« بعنى نصارى ناجية .. »

واتفقا على خمسمائة الف درهم نسيئة ، يبعث بها الى امير المؤمنين بالكوفة بعد قليل ، ثم اعتق الارقاء ..

لكنه لم ينجز وعده .

مطل بالدين . بل قد اكل معظمه فرزا فيه بيت المال كما رزاه

من قبل . فإذا خيانة الأمانة خيانتان . وإذا مسلكا الأمس واليوم يتطابقان . وإذا هو بهما الخلاس السلاب الذى ينهب ليهب . ويهب فيسخو . ويسخو ليستطير بالشرف والفخار فلا يبلغ من شأو طموحه الى نباهة الذكر الا كرما هو التكرم ، ورفعة هى الصلف ، وشرفا هو الادعاء !..

ولم يعاجله الإمام بالبطش والحساب ، بل آثر الرفق والهوادة عسى أن يرجع عن غيه ، ويوفي ما عليه .. ولكن مصقلة أبطأ في الأداء فأطال الإبطاء ، حتى بدا للناس كأنه لا ينتوى الوفاء ..

عندئذ بادره أمير المؤمنين بكتاب مع رسول من لدنه يدعوه :

« أما بعد ..

فإن من أعظم الخيانات خيانة الأمة . وأعظم الغش على أهل المصر غش الإمام . وعندك من حق المسلمين خمسمائة ألف درهم ، فابعث بها الى حين يأتيك رسولى . وإلا فأقبل .. ..

والسلام . »

ولم يكن لمصقلة معدى عن الذهاب إلى الكوفة ، بعد إذ لزمه الرسول لا يبرح عنه انصياعا لأمر الإمام :

« إن تبعث بهذا المال ، وإلا فاشخص معى إلى أمير المؤمنين .. »

فانطلق صاغرا . ومكث أياماً بالكوفة ، يحاول أن يتدبر الأمر بحيلة العاجز الذى آده الأداء . ثم وسعه أخيرا ، حين سأله الإمام ، أن يدفع مائتى ألف ، مكث بعدها يعالج القلق والحيرة ..

وكأنما أغراه تريث على به كل هذا التريث بالطمع في الالتواء ببقية الدين ، حتى لقد قال ذات ليلة لذهل بن الحارث :

« إن أمير المؤمنين يسألنى هذا المال ، ووالله ما أقدر عليه .. » .

قال صاحبه :

« لو شئت لم يمض عليك جمعة حتى تجمعه .. » .

فأنف :

« ما كنت لاحمله قومى ، ولا اطلب فيه إلى احد . . » .

واردف يقول كاشفا عن امنيته :

« والله لو ان ابن هند مطالبى به ، او ابن عفان ، لتركه لى . ألم تر إلى عثمان كيف اعطى الاشعث مائة الف درهم من خراج اذربيجان في كل سنة !. . » .

لكن جواب ذهل رده عن خياله :

« إن امير المؤمنين لا يرى ذلك الرأى . وما هو بتارك لك شيئا . . »

افكان حقا في حاجة لمن يخرجه من هذا الحلم الذى عاش فيه لحظات ، وود لو طال عليه امده ؟. . إنه إذن لم يعرف الإمام ، ولا كان جديرا بالمنصب الذى شغله عاملا له أولى به ان يتخلق بخلقه ، ويسير سيرته ، تنائيا عن هوى النفس ، وخضوعا لشرعة الحق ، وامتثالا لما ينبغى أن ينتهجه كل من تصدى لقيادة الرأى والسياسة بين الناس.

ولم يطلع عليه بعد ليلته تلك في الكوفة صباح !. .

٢

طوى الإمام سيرة اسرى بنى ناجية في كلمات ..

قيل له :

« اردد الذين سبوا ولم تستوف اثمانهم في انرق .. » .

فابى ان يحرمهم حرية غنموها وإن من خطأ ، وان بتحيف على المال العام :

وقال :

« ليس ذلك في القضاء بحق .. » .

فألحوا عليه :

« وفيؤنا ؟.. » .

« صار على غريم من الغرماء ، فاطلبوه !.. » ..

واطبق السجل على جدل طال في حرية الإنسان ، مسلما أو غير مسلم ، كيف يتحمل المجتمع ضريبتها ، لأنها ، في اعتبار النظرة الإسلامية ، لها الصدارة بين كافة الحقوق ..

وعرض الإمام في احاديثه بالخريت ، صاحب محنة بنى ناجية :

قال عندما اتاه نبأ مصرعه :

« هوت امه !.. ما كان انقص عقله واجراه !.. » .

فما جنى هذا المتمرد الغاوى شيئا من وراء جراته الحمقاء ، او حمقه الجرىء ، إلا ان حمل قومه علىعصيان هم اغنى عنه ، واوغل بهم في مجاهله ومتاهاته على غير بينة ، حتى دل عليهم السيوف تذيقهم مرارة الذلة وغصص الحتوف .. وهل كان قصارى تمرده إلا ان اودى بهم ، واهلك نفسه ، وضيع من عمر الأمة الإسلامية قرابة عامين في

صراع دموى ما كان أحرى الناس عندئذ بأن ينفقوهما في تثبيت أركان الفيء سواء ، يردون عندى عليه ، ويصدرون عنه .. » .

لكن الخريت بن راشد الناجى سلك المسلك الذى لا يستغرب من مثله ، لانه الأليق بكل من هو على شاكلته من الألى آمنوا على حرف ، الذين يتأرجح بهم دائما قلقهم النفسى ، وافتقارهم إلى اليقين الركين ، من النقيض للنقيض ، شاطحين مرة من اقصى اليمين إلى اقصى اليسار، ثم عادلين أخرى عن أقصى اليسار إلى اقصى اليمين ، بغير ما قد يوجب ميلا ولا عدولا سوى التعصب الأعمى وما يجره من اضطراب التفكير وخلل التقدير .

ولا عجب ان يأخذ الخريت في تمرده بمذهب الخوارج الذين سبقوه إلى الانتقاض على الإمام بسبب التحكيم . فله أن يرى رايه . وأن يدعو له . وأن يحاول تسويده ، بالمجادلة او بالثورة ، على غيره من الآراء ما دام قد اعتنقه عن اقتناع . لكن العجب كل العجب انه كان إلى ما قبيل تمرده بقليل ، مخالفا لهذا الرأى ، زاريا عليه ، حتى لقد نحا في خلافه إلى تأليب الإمام على كل من اعلنوه التأليب الذى ينكر الترفق بهم ، ويرى استئصالهم ولما يخرجوا بعد على النظام العام ...

فقد قال للإمام عندئذ يشيره على الخارجة :

« يا أمير المؤمنين . إن في أصحابك رجالا قد خشيت أن يفارقوك، فما ترى فيهم ؟ .. » .

فشرح له الإمام ما يرى أتباعه حيالهم وأمثالهم من مخالفيه :

« إنى لا آخـذ على التهمة ، ولا اعاقب على الظن ، ولا اقاتل من خالفنى وناصبنى وأظهر العداوة لى .. ثم لست مقاتله حتى ادعوه ، وأعذر إليه . فإن تاب ورجع قبلنا منه . وإن ابى إلا الاعتزام على حربنا استعنا بالله عليه ، وناجزناه .. » .

ويبدو أن الرجل لم يرض من أميره بهذه السياسة ، فراح يلحف ويشتد ، حتى لقد ردعه الإمام :

« كف عنى ما شاء الله .. » .

لكنه عاود مرة أخرى الإلحاح عليه في معاقبة الزعماء :

« إني خشيت أن يفسد عليك عبد الله بن وهب وزيد بن حصين الطائي .. قد سمعتهما يذكرانك بأشياء لو سمعتها لم تفارقهما حتى تقتلهما ، أو توثقهما فلا يزالان بمحبسك ابدا .. » .

عندئذ شاء أمير المؤمنين أن يسبر غوره ، ليعلم مدى التزامه سياسته ، التى ترتب العقوبة على الجرم لا على الشبهة ..

فقال يسأله :

« إني مستشيرك فيهما ، فماذا تأمرني به ؟.. » .

قال الخريت :

« آمرك أن تدعو بهما فتضرب رقابهما !.. » .

فسفه الإمام قوله ، ورد عليه :

« .. لقد كان ينبغي لك أن تعلم أني لا أقتل من لم يقاتلني ، ولم يظهر لي عداوة .. وكان ينبغي لك — لو أنني أردت قتلهم — أن تقول لي : اتق الله ! بم تستحل قتلهم ولم يقتلوا أحدا ، ولم ينابذوك ، ولم يخرجوا من طاعتك !.. » .

فليس الخلاف في الرأى مما يستوجب القصاص .

ومع ذلك ، فما لبث الخريت ان فعل ما أراد قتل غيره ، لا على فعله ، بل على مجرد القول به !..

عصى . ودفع قومه إلى العصيان . وخرج بهم عن الطاعة والولاء بحرب شعواء شنها على الإمام تنشر الدماء على رقعة فسيحة من البلاد امتدت إلى أقصى الجنوب على الخليج الهندى بمنطقة البحرين .. ولم يساعد بفعله هذا على تحطيم حكم عليّ بقدر ما أعان على تفتيت وحدة الامة ، بتأليب المسيحيين ، وإحياء عنصرية الجنس في نفوس الفارسين والاكراد بتلك الانحاء ، ثم على ثلم الإسلام وإحداث خرق واسع في جداره بتحريضه الناس على منع الصدقات ، وإفساح المجال أمام كثيرين للارتداد عن الدين ..

وتبدأ هذه المحنة الخطيرة حين وسوس للرجل شيطانه أن يذهب عقب انتهاء التحكيم في ثلاثين من أصحابه إلى الإمام ، ذهاب زار مغاضب ، ليعلن في اجتراء أنه برم به ، خارج عليه ، آخذ حياله برأى الخارجية الذين طالما دعاه من قليل أن يعنف بهم ، ويقتل زعماءهم قبل أن يفسدوا عليه الناس !..

فأنى له هذا التحول ؟.. وكيف يقر ما نقم وكان يأمر بالبطش فيه ؟.. وهل هى نزوة نفسية أفرزها قلقه وتقلقل قدمه أن تثبت على موضع ، وضيق أفقه أن يتبين اليقين ؟.. أم كان يكن ميله الخارجى ويكبته حتى تبجس وتفجر ولم يجد وسيلة بعد لكتمانه؟.. أم قد أراد من قبل أن ينفرد بزعامة المبدأ حين أثار الإمام على سواه من زعمائه فلما فوت عليه غرضه آثر الآن النهوض بدوره في العصيان ؟..

فلعله أقبل لهذا السبب أو لذاك . أو لعله لكل هذه الأسباب ، أو بغير أسباب ، إن وضعنا تذبذب أمثاله من الخارجية بين نقائض الدواعى والأسباب في الحساب !..

وبادر في اعتداد أرعن وخيلاء حمقاء يثور بالإمام :

« .. لا والله لا أطيع أمرك ، ولا أصلى خلفك .. وإنى غدا لمفارق لك !.. » .

فاستطارت الدهشة بأمير المؤمنين ، وحذره :

« ثكلتك أمك !.. إذا تنقض عهدك ، وتعصى ربك ، ولا تضر إلا نفسك .. » .

ثم تريث به قليلا ، وسأله سر انقلابه :

« .. أخبرنى . لم تفعل ذلك ؟.. » .

أجاب :

« لأنك حكمت في الكتاب . وضعفت عن الحق إذ جد الجد . وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم . فأنا عليك زار ، وعليهم ناقم ، ولكم جميعا مباين .. » .

نفس دواعى فرقة الخوارج ، ونفس حججهم ، كأنما تتردد على لسان زعيم القوم : الراسبى ذى الثفنات !..

ومع ذلك فقد ترفق به الإمام في الرد وهو يرجو أن لو أفسح له في التفكير ومراجعة النفس أن يرشد ، ويثوب عن هواه ..

قال :

« ويحك !.. فهلم إلى أدارسك ، وأناظرك في السنن ، وأفاتحك أمورا من الحق أنا أعلم بهـا منك ، فلعلك تعرف ما أنت له منكر ، وتبصر ما أنت الآن عنه عم وبه جاهل .. » .

فبدا الخريت كأنما قد استراح للنصيحة ، وقال :

« فإنى غاد عليك غدا .. » .

« أغد ، ولا يستهوينك الشيطان ، ولا يتقحمن بك رأى السوء ولا يستخفنك الجهلاء الذين لا يعلمون .. فوالله ان استرشدتنى واستنصحتنى وقبلت منى لأهدينك سبيل الرشاد .. »

وافترقا على عدة ولقاء ..

لكنها العدة التى أسلف لها الخلف ، واللقاء الذى سبقه في نفسه التنكر له والمراوغة فيه .. فما ان عاد الخريت الى قومه حتى كشف لهم عما أضمر وعزم أمره عليه :

« يا هؤلاء !.. انى قد رأيت أن أفارق هذا الرجل . وقد فارقته الآن على أن أرجع اليه من غد ولست أرى الا المفارقة . »

فراجعه في عزمه كثيرون :

« لا تفعل حتى تأتيه . فإن أتاك بأمر تعرفه قبلت منه . وإن كانت الأخرى فما أقدرك على فراقه .. .. »

فاظهر القبول .

غير أن الغد المرتجى لم تطلع شمسه !..

فقد آثر الرجل أن يلتوى بوعده ، ويمضى لعزمه ، ويملأ الدنيا

دما وشغبا وضغينة .. وإذا كان من الأولى علموا بما سلف من قبوله ذلك اللقاء بضعة صدقته فحسبته قد بات ليلته تلك على نية الوفاء، فإن بضعة غيرها رابها أمره ، وقر في روعها أنه لا بد ناكث عهده ، وخارج بما أضمر من خلاف وشر على الأمة غدا إن لم يحاول أن يشق وحدتها قبل أن يسفر الصباح ..

من هؤلاء المستريبين فيه عبد الله بن قعين ، الذى بادر فسعى ، مع ارتفاع النهار من غد ، إلى الإمام يطالعه بما دار ليلة الأمس بين الخريت وأصحابه ، ويكشف عن شكه فيه ..

فكان جواب ما طرحه أن قال علي :

« .. ان قبل الحق ورجع عرفنا له ذلك ، وقبلنا منه .. » .

اهاب ابن قعين به ، توقيا وحيطة :

« فلم ، يا أمير المؤمنين ، لا تأخذه الآن فتستوثق منه ؟.. » .

فرد الإمام :

« .. لو فعلنا هذا بكل من يتهم من الناس ، ملأنا السجون منهم . ولا أراني يسعني الوثوب بالناس ، والحبس لهم ، وعقوبتهم ، حتى يظهروا لي الخلاف .. » .

وعلت الضحوة . وطال الانتظار وصاحب الوعد لا يظهر له خيال !.. فمال الإمام على عبد الله بن قعين ، يسر إليه :

« إذهب إلى منزل الرجل فاعلم ما فعل ، فإنه قل يوم لم يكن يأتيني فيه قبل هذه الساعة .. » .

فمضى .. فإذا داره خاوية . وإذا ديار أصحابه ليس بها ديار !.. انفذ العاصي إذن ما اراد .

وعند ما عاد عبد الله من وفادته ، لم يمهله الإمام أن ينقل إليه ما عرف . بل بادره لحظة اقبل :

« أفطنوا فأقاموا ، أم جبنوا فظعنوا ؟.. » .

« بل ظعنوا !.. » .

فقال وقد ملأ الأسف عينيه :

« ابعدهم الله كما بعدت ثمود !.. » .

ثم ألقى بنظرة ثاقبة إلى الأفق البعيد ، كأنما ليخترق بها حجابه ، وينفذ عليها إلى ما يكنه الزمان المقبل ..

وأضاف :

« .. أما والله لو قد اشرعت لهم الأسنة ، وصبت على هامهم السيوف ، لقد ندموا !.. إن الشيطان قد استهواهم وأضلهم . وهو غدا متبرىء منهم ، ومخلّ عنهم .. » .

كذلك شام . ولسوف يتمخض الزمان عما شام !..

٣

قال قائل من أصحاب على ، حين ظهر لهم ما كان خافيا من نية عصبة الخريت :

« يا أمير المؤمنين .. إنه إن لم يكن من مضرة هؤلاء إلا فراقهم إيانا لم يعظم فقدهم علينا . فإنهم قلما يزيدون في عددنا لو أقاموا معنا ، وقلما ينقصون من عددنا بخروجهم منا .. ولكنا نخاف أن يفسدوا علينا جماعة كثيرة ممن يقومون عليهم من أهل طاعتك .

فائذن لى في اتباعهم حتى أردهم .. » .

فاستجاب الإمام :

« فأخرج في آثارهم .. » .

ثم سأله :

« وهل تدرى اين توجه القوم ؟.. » .

قال زياد بن خصفه :

« لا والله . ولكنى اخرج فاسأل واتبع الأثر .. » .

فوجهه :

« اخرج حتى تنزل دير ابى موسى ، ثم لا تبرحه حتى يأتيك أمرى، فإنهم إن كانوا خرجوا ظاهرين بارزين للناس في جماعة ، فإن عمالى ستكتب إلى بذلك ، وإن كانوا متفرقين مستخفين فذلك اخفى لهم ، وسأكتب إلى من حولى من عمالى فيهم .. » .

وسارع فأرسل لكل وال من ولاته على الأقاليم والكور حول الكوفة ، وما جاورها ، كتابا يقول فيه عن أولئكم الآبقة الجانحين إلى العصيان :

« .. إن رجالا لنا عندهم تبعة خرجوا هرابا نظنهم خرجوا نحو بلاد البصرة . فاسأل عنهم أهل بلادك . واجعل عليهم العيون في كل ناحية من ارضك .. ثم اكتب إلى بما ينتهى إليك عنهم .. » .

وامتثل زياد بن خصفة أمر الإمام ، وما لزم به نفسه .. فدعا اصحابه ان ينتدبوا معه . فلما أن اجتمع له منهم مائة وثلاثون ، اكتفى بهم ، واخذ وإياهم على الطريق ، عبر الجسر ، إلى دير أبى موسى . ثم انتظر .

اما الخريت فقد تسربل ورفاقه بالليل ، يلجون من الكوفة خلسة إلى موقع يأمنون فيه على انفسهم ، ويسعهم منه ان يبدأوا دعوة الانتقاض على الدولة ، ويشعلوها نارا مدمرة ، تأكل الأمن والوحدة ، وتشيع الانقسام والخراب ..

ولم يكد امرهم ، فيما بدا لهم ، يستتب حتى عملوا بسيرة الخارجة ، ينشرون الإرهاب بين أيديهم ، ليفتنوا بالرعب من لا يفتنه شعار جماعتهم المعلوم .. يظهرون آونة ، ويستخفون آونات . وهم ، بين هذا وذاك ، لا يعدمون ناصرا يلحق بهم ، ويمضى وإياهم في رحلة الشؤم ، من كل ناقم وجاهل وعدو للدين ..

في « نفر » التقوا برجلين : مسلم ويهودى فقطعوا عليهما الطريق ..

سألوا الاول :

« أمسلم انت أم كافر ؟.. » .

« مسلم .. » .

« فما تقول في على ؟.. » .

« سيد البشر .. » .

فثاروا به :

« كفرت يا عدو الله !.. » .

ومزقوه بالسيوف .

وسألوا الآخر :

« ما دينك ؟.. » .

« يهودى » .

فتركوه ، وبعضهم لبعض يقول :

« خلوه .. فلا سبيل لكم عليه .. » .

ولعله ليس بآخر دم سفكوه ، ولا طريق قطعوه ..

وفي المدائن نزلوا يزيحون . فأقاموا بها يوما وليلة على امان . جموا . وعلفت خيلهم . وتذاكروا الوجهة التى ييممون ..

لكن العيون التى بثها الولاة والعمال كانت لهم بالمرصاد . فما لبث امرهم أن انكشف ، وبعث بنبئهم إلى الإمام ، عامله قرظة بن كعب ، في كتاب يقول فيه :

« .. فإني اخبر امير المؤمنين ، ان خيلا مرت من قبل الكوفة ، متوجهة إلى نفر . وأن .. » .

فبادر الإمام يرسل لزياد :

« .. وقد بلغني انهم اخذوا نحو قرية من قرى السواد ، فاتبع

آثارهم ، وسل عنهم .. فإذا انت لحقت بهم فارددهم إلى . فإن أبوا فناجزهم ، واستعن بالله عليهم ، فإنهم قد فارقوا الحق ، وسفكوا الدم الحرام ، واخافوا السبيل .. » .

ولهث وراءهم زياد ، يشم ريحهم ، ويتأثر خطاهم ، من موقعه بدير ابى موسى ، إلى نفر ، فإلى المدائن حيث وجدهم مجنبين الخيل ، آنسين للدعة والطمأنينة ، ورجاله عندئذ قد تقطعت أنفاسهم من السفر الطويل ، وكادوا يذوبون من لغوب !.. فما هو ان دنا منهم حتى وثبت العصابة جميعا على الافراس ، وثابت إلى السلاح ..

ولم ير زياد ، في هذا المقام الذى لا رجحان له فيه ، إلا أن يرفق ويداور ما وسعه ان يفعل ، حماية لنفسه ولمن معه . فسار إلى القوم على مهلٍ ، كمن لا يخاف منهم غدرا ، ولا يوجس شرا . لعله ان ينال بالرفق والهوادة ما لا ينال بالعنف والشدة ..

غير أن الخريت عاجل الشقة بينهما أن تضيق ، فصاح به وبأصحابه :

« يا عميان القلوب والأبصار !.. أمع الله وكتابه انتم ، أم مع القوم الظالمين ؟.. » .

فرد زياد في هدوء .

« مع الله وكتابه وسنة رسوله ، ومع من الله ورسوله وكتابه آثر عنده من الدنيا ثوابا ، ولو أنها منذ يوم خلقت إلى يوم تفنى لآثر الله عليها .. » .

ثم زاد وهو يختم جوابه :

« .. أيها العمي الأبصار ، الصم الأسماع !.. » .

وكأنما اخذت زأرته الرجل ، فجنح إلى اللين في الخطاب ..

قال يسأل :

« فأخبرونا ما تريدون ؟.. » .

عندئذ رأى زياد أن يفارق الحدة ، ويركن إلى الرقة ، لأنها خليقة بأن تفسح له في الوقت ، وتسعف بالحيلة ..

قال :

« قد ترى ما بنا من النصب واللغوب . والذى جئنا له لا يصلح فيه الكلام علانية على رءوس أصحابك . ولكن تنزلون وننزل .. » .

فرفع الخريت حاجبه يستفسر ..

وأكمل زياد :

« .. ثم نخلو جميعا ، فنذاكر أمرنا وننظر فيه .. فإن رأيت فيما جئنا له حظاً لنفسك قبلته ، وإن رأيت فيما أسمع منك أمرا أرجو فيه العافية لنا ولك ، لم أرده عليك .. » .

ونجحت الحيلة ..

أو هى في الحق كانت فرجة الخلاص لكلا الفريقين من صراع ليس يأمن أحدهما عقباه على نفسه بهذا المنزل الذى لم يتهيأ فيه للقاء .. فإن هما إلا عدلان .. خيل كخيل ، وسلاح كسلاح ، وجمع كجمع لا يكاد ينقص فرد أو نحوه من عدد فريق لترجح كفة الآخر ..

وكيفما كانت الدوافع الخفية التى حملت الخريت بن راشد على الجنوح للسلم في تلك اللحظة ، وإرجاء المناجزة إلى حين ، فإنه لم يضق بنظرة غريمه ، ولم ينقضها . بل أخذ بها نقطة بدء للمفاوضة وتبادل الآراء ..

وقال لزياد يوافقه :

« أنزل .. » .

وعاد هو إلى عصبته .

ونزل زياد بصحبه على الماء ، فهم أولى بأن يرتووا من عطش ويجموا من إرهاق ، ثم يمهلوا الأذهان قليلا لتتبين معالم الموقف واحتمالاته ، وما عسى أن يجمعوا الرأى عليه .

ولم تخدع هوادة الخريت ، ولا سماحته البادية ، زيادا عن الحذر الخليق بمحارب متمرس في مثل هذا المقام . فما كاد يرى اصحابه قد علقوا على خيولهم مخاليها ، وانسوا للدعة يتفرقون هنا وهناك في غير مبالاة ؛ أو يتحلقون حلقات عشرة عشرة ، وسبعة سبعة ، وعددا عددا يتلهون بالحديث ، حتى اقبل عليهم في عجلة ، ينكر عليهم ما يفعلون ، ويزجرهم :

« سبحان الله !.. انتم اصحاب حرب !.. » .

فانتبهوا له من غفلتهم يصغون ..

ومضى يتابع لومه :

« .. والله لو ان هؤلاء جاءوكم الساعة وانتم على هذه الحالة ما ارادوا من غرتكم افضل من اعمالكم التى انتم عليها !.. عجلوا !.. قوموا إلى خيولكم !.. » .

فاندفعوا على الأثر وما اشار ، يعدون أنفسهم فيحسنون الإعداد لكل مباغتة قد تخطر بالبال ..

وقال لهم وقد غدوا على أهبة وانتباه :

« يا هؤلاء .. إنا قد لقينا العدو . وإن القوم لفى عدتكم .. لقد حزرتهم ، وما أظن احد الفريقين يزيد على الآخر خمسة نفر .. وإنى أرى امركم وامرهم سيصير إلى القتال . فإن كان ذلك فلا تكونوا اعجز الفريقين .. » .

ثم القى إليهم بخطته :

« ليأخذ كل منكم بعنان فرسه . فإذا دنوت منهم وكلمت صاحبهم، فإن تابعنى على ما أريد .. وإلا فإذا دعوتكم فاستعدوا على متون خيلكم ، ثم أقبلوا معا غير متفرقين .. » .

وما نحسب الخريت كان ينتظر هذه النتيجة حين اباح زيادا وأصحابه النزول فأباحهم به الجمام بعد التعب ، والرى بعد العطش ، والشبع بعد الجوع ، والأهبة للقتال بعد اضطراب النظام .. إنما

كان ، فيما يلوح ، يظهر الهوادة ليأمنوا له ، والمسالمة ليغفلوا عنه ثم يتحين منهم غرة فإذا هم صرعى تحت الأقدام !.. لكن ابن خصفة كان أعتى من المخاتلة والخداع ، فقوت عليه غرضه . حتى لقد راح المارقون العصاة يتلاومون لأنهم ضيعوا من أيديهم نصرا ما كان أسهل عليهم أن يجتازوه ..

قال بعضهم لبعض :

« جاءكم القوم وهم كالّون معيون ، وأنتم جامون مريحون .. فتركتموهم حتى نزلوا ؛ فأكلوا وشربوا وأراحوا دوابهم . هذا والله سوء الرأى !.. » .

فرصة ولت ، ما لها أن تعود ..

ونادى زياد الخريت :

« اعتزل ننظر في أمرنا .. » .

فخرج في خمسة نفر من صحبه ، وخرج زياد في مثلهم ..

والتقى الوفدان ..

٤

استهل زياد بن خصفة الحديث :

« ما الذى نقمت على أمير المؤمنين وعلينا ، حتى فارقتنا ؟.. »

أجاب الخريت :

« لم ارض صاحبكم إماما ، ولم أرض سيرتكم سيرة .. فرأيت أن أعتزل ، وأكون مع من يدعو إلى الشورى .. .. »

فهو إذن لا ينقم لمأرب خاص . ولا لخطأ ذاتى في مسلك للإمام أو لأصحابه يزرى عليهم به ، ويمكن بمداواته أن يعود إلى حظيرة الولاء .. إنما قد خرج عليهم لمبدأ يناقض السياسة العامة ، ولاسبيل إلى تحقيقه إلا باجتثاث خلافة على من الأساس ..

الشورى !..

رأى لا يحتمل الجدل . ولا تغنى فيه المناقشة بين الرجلين وإن طالت دهرا ، لأنه لا التقاء بين نقيض ونقيض .. وهو الرأى الذى تستر به معاوية من قبل ليدرأ عن نفسه تهمة التمرد . ونادى به عمرو وأبو موسى ابان مفاوضات التحكيم ، واتخذه كل ناقم على الإمام ، حاسد له ، موتور منه ذريعة للطعن فيه ، وتأليبا للعامة عليه ، عندما أعوزتهم الوسائل ، وأعيتهم معها حيل السياسة ، وضربات الحرب ، للقضاء على حكمه الذى قام برغبة الشعب في كل الأمصار ..

وأصغى زياد للمتمرد الجديد :

« .. .. فإذا اجتمع الناس على رجل هو لجميع الأمة رضا ، كنت مع الناس .. »

افلم يكن امس مع الناس ، وقد نذر سيفه ونفسه للدفاع عن الإمام ، ووقف للمناضلة عن بيعته في وجه كل عاص ومفروح ؟..

وسأله زياد في استنكار :

« .. وهل يجتمع الناس على رجل يداني عليا ، عالما بالله وبكتابه وسنة رسوله ، مع قرابته وسابقته في الإسلام !.. »

فما عدل عن موقفه ، ولا أبدى ما لعله ينم عن عدول . أصر في مكابرة وعناد ، ضاق بهما مجال التفاهم ، وانقطع الرجاء في الالتقاء على حل جامع ، أو على آخر يقع من الجانبين في منتصف الطريق !..

ونشب القتال .

علت ناره ، وتلهب سعيره ، حتى لقد اختلط الفريقان اختلاطا شديدا اصطكت خلاله الهام بالهام ، والتصقت الأجسام بالأجسام . وتقطعت الرماح ، وانحنت الأسياف . وعقرت عامة خيل الجيشين . وفشت في المقاتلة الجراح .. فلولا أن حاجز بينهم ستار الليل ، واجن بعضهم عن بعضهم سواده ، لشهدهم الصبح ، إلا الأقلين ، صرعى وأشلاء ..

غير أن النهار لم يسفر عن أرض الوقعة ، بثرى المدائن ، وفيها الخريت .. فقد التف العاص وعصبته بالظلمة . وأولجوا مرة أخرى يسرون ، على مضض الإعياء ، بعيدا بعيدا إلى جنة جديدة يلعقون فيها الجراح ..

وكانت جنتهم الأهواز . فما يجد الخريت خيرا منها مسرحا لدعوته وإن أهلها لتسهل فتنتهم ، لكثرة فارسية بها كفار وبها من لم يقر في قلوبهم للإسلام قرار ، وفي جيرتها كذلك أعراب تدين منهم طائفة بمبدئه ، ولا يشق عليه ، مع جلافة بقيتهم وغلظة قلوبهم ، أن يلويهم كما يشاء ..

وانتأى الرجل بصحبه جانبا من الأهواز مستخفين . فلما استعزوا بمائتين من أقرانهم بالكوفة جاءوهم مددا ، راح يدور بدعوته بين أهل تلك النواحي ، يستميلهم بما يعطفهم . فما لبث إلا قليلا حتى لحقت به كثرة العلوج والأكراد . وفئة ضخمة من اللصوص وقاطعي الطريق . وأخرى من الأعراب الذين يدينون بدعواه . واجتمع

له بهذا الأسلوب خلق كثير من الأولى راوا في حركته سبيلا إلى ضرب الدين ، وكسر الخراج ، وتحطيم الحكم القائم ، والتحلل من قيود القانون ..

وبلغ الإمام ــ من كتاب لزياد ــ ما وقع ، فدعا إليه معقل بن قيس، وندب معه الفين من الكوفة :

« تجهز يا معقل .. » .

ثم كتب إلى عامله على البصرة ؛ عبد الله بن عباس :

« .. فابعث رجلا من قبلك ، صلبا شجاعا ، معروفا بالصلاح ، في الفى رجل من أهل البصرة ، فليتبع معقل بن قيس .. فإذا خرج من البصرة فهو أمير أصحابه حتى يلقى معقلا . فإذا لقيه فمعقل أمير الفريقين .. ومر زياد بن خصفة فليقبل علينا ؛ فنعم المرء زياد ، ونعم القبيل قبيله !.. » .

ولم يفت الإمام أن أمير جيشه متوجه إلى بلاد خليقة بألا تحسن استقباله ، ولا تخف إلى عونه لكثرة ما بها من غير أهل الإسلام ، فأراد أن يكف من غربه ، ويهدىء من فورة حماسه حتى لا يدفعه تشككه فيهم إلى الغلو في معاملتهم بما قد يميل به إلى التحيف ..

فأوصاه :

« يا معقل بن قيس !.. لا تبغ على أهل القبلة . ولا تظلم أهل الذمة . ولا تتكبر .. » .

فأذعن وامن :

« الله المستعان .. » .

« خير مستعان .. » .

وخرج القائد بجيشه يقطع القفار والعمار حتى نزل به الأهواز ، فعسكر حينا ينتظر بعث البصرة .. فلما أن أبطا عليه ، نهض بمن معه من مقاتلته يأخذ سبيله إلى المعركة المنتظرة حيثما توجهه الأرصاد ..

وقال يطمئن رجاله :

« .. ليس بنا بحمد الله قلة ، و لا وحشة إلى الناس .. » .

وانطلقوا ..

فما مضى بهم يوم أو بعضه في سيرهم ذاك ، حتى اقبل عليهم من جانب البصرة رسول بكتاب من عاملها ابن عباس ، يقول فيه :

« .. لا تبرحن من المكان الذى ينتهى إليك رسولى وانت فيه ، حتى يقدم عليك بعثنا الذى وجهناه إليك . فقد وجهت إليك خالد ابن معدان .. » .

واقبل خالد بفرقته بعد قليل . فالتأم الجيشان في عسكر واحد ، يقصد إلى عصبانة الخريت يتعقبها . فإذا هى قد انفلتت من الأرض السهلة ، تحاول الرقي في المرتفعات بجبال رامهرمز ؛ نحو قلعة حصينة رات أنها خير ما يحفظ عليها شوكتها ، ويعزها عن المطاردين ..

غير أن خبر الهراب لم يخف طويلا عن جيش التأديب .. فما أسرع ما دله عليهم اهل الإقليم . وما اسرع ما ادركهم جنود معقل وهم بعد عند سفح الجبل لا تزال خطاهم تتقلع وهى تتدافع بهم إلى الارتقاء .. حتى إذا تراءى الجمعان ، ولم يعد معدى عن اللقاء ، بادر معقل فنظم قواته . ثم مشى بينهم يحرضهم على الجهاد والصبر عند اللقاء وهو لا ينسى فيتذكيرهم واجب الجندى فيالميدان ، أن يدعوهم إلى التمسك بتقاليد القتال الشريف ..

قال يحذرهم :

« عباد الله .. لا تبداوا القوم حتى يبدأوكم .. » .

فتلك سنة سنها امير المؤمنين ، ولزمها في كل حرب وإن كانت السنة عند ذاك الغدر في الحروب ..

ثم اردف يقول :

« .. غضوا الابصار ، واقلوا الكلام .. وابشروا في قتالهم بالاجر

العظيم فإنما تقاتلون مارقة مرقت ، وعلوجا منعوا الخراج ، ولصوصا وأكرادا .. » .

وكانت عينه قد رمت بنظراتها إلى من حياله ، فإذا هو بهم وقد تمنطق الخريت بمن معه من العرب في الميمنة ، وصف الأكراد وعلوج العجم في الميسرة ، وبدا منه ما يشي بالتشرع للانقضاض ..

عندئذ وثب معقل إلى قلب جيشه ، وسط الصف ، وصاح برجاله:

« ما تنتظرون !.. » .

ومر بهم يتفقد النظام ، وهو يلقي بأمره :

« .. إذا حملت فشدوا .. » .

فالتفت عليه الأبصار ترى ما يفعل وما يشير .. أما هو ، فقد حرك رأسه يمنة ، ثم حركها يسرة ، كأنما يومىء لجناحيه أن يكونا على أهبة .. ثم انصب على الأثر يحمل على الأعداء فإذا جيشه كله وراءه يحمل حملته . ويضرب ضربة واحدة ، كأنما عن يد واحدة ، بسيف واحد ، حتى لقد أوشك مناجزوه أن يذهلوا عن أنفسهم ، وتشلهم سرعة المفاجأة أن ينهضوا بما يكافىء الهجوم ..

فإن هي إلا ساعة أو نحوها حتى شاعت المقتلة ، سابحة على الذعر ، في جيوش الغاوين .. فقتل من بني ناجية والأعراب سبعون . ومن الأكراد وعلوج العجم ثلاثمائة تمزقت بهم الصفوف وتهاوت المقاومة ، ولم يبق بعدهم للخريت ومن نجا من عصابته غير الفرار ..

فروا . وأمعنوا ، حسبما استطاعت أن تحملهم الأقدام ، وحيثما يسع القلوب أن تثوب .. ولم يكن لهم أن يقروا بجيرة ترتد منها الأخبار أو تبلغها العيون ، فآثروا اللياذ بأبعد منأى ما كان أحراهم بأن يجاوزوه لولا أن حال دونهم اليم ، فضربوا خيامهم على الماء ..

عسكروا في البحرين ، بأبعد بقعة تطولها يد الطراد ، بعد أن تقطعت أنفاسهم على أرض فارس ، من الشمال للجنوب ..

وكتب معقل إلى الإمام :

« .. لقينا المارقين وقد استظهروا علينا بالمشركين ، فقتلنا منهم ناسا كثيرا . ولم نعد فيهم سيرتك . فلم نقتل منهم مدبرا ولا اسيرا ، ولم نذفف على جريح . وقد نصرك الله والمسلمين .. » .

وقرىء الخبر في الكوفة على الناس ، ليشيروا ..

فأجمعوا الرأى :

« يا أمير المؤمنين .. نرى ان تكتب إلى معقل ، يتبع آثارهم ، ولا يزل في طلبهم حتى يقتلهم أو ينفيهم من ارض الإسلام .. » .

فأنفــذ ما رأوا على الأثر . فما كان ليمطل قط بشــورى الامة ، ولا ليستبد دونها برأيه ..

وبعث إلى معقل ، يأمره :

« .. أحسنتم البلاء ، وقضيتم ما عليكم . فاسأل عن أخى بنى ناجية ، فإن بلغك انه استقر في بلد من البلدان فسر إليه حتى تقتله ، أو تنفيه .. » .

٥

مرة أخرى عادت المطاردة تشتد بين الفريقين ، تباريا على طي الأرض ، وقطع الزمن ، إلى غاية تسود فيها إحدى الطائفتين ، فإما قرار وإما تغيير ..

قرابة عامين كاملين ، بعد صفين ، وغب التحكيم ، طارد النظام التمرد ، على رقعة الأرض الممتدة من حاضرة الدولة عند شط الفرات إلى سيف البحر عند الخليج ، يتعاقبان تعاقب الليل والنهار ، ويتتابعان كفرسي رهان .. وكلما أوشك الفلج أن يقع في سهم الدولة، سارع العصيان فنفض غبرة الهزيمة ، واستوى على سوقه .. ثم لقف أنفاسه ، ونظم صفوفه ، وراح يبعث الصراع من جديد ..

إصرار مريد ، وعناد صارم ، وعزم متشبث من جانب الفئة الخارجة ، لو أنها أنفقت في رفع راية الدين ، وإعلاء كلمة المسلمين ، لذهبت ، على مدى الأعصر ، مثلا في التمسك بالمبدأ لا يطاوله شبيه ولا يعلوه قرين .. ولكنها أنفقت في نزوة أنجبتها جهالة حمقة ضالة ، وعصبية آثمة عمياء كطلع خبيث !..

فللصلف والهوى والخيانة كانت دعوة الخريت . ولوجه الشيطان لا لوجه الله .. وها هو الآن يسفر عن خبيئة ضميره ، فإذا هو ينقض بفعله كل ما ادعاه وتنادى به بين الناس من دفاعه عن الحق ، وغضبه للكتاب ، لينصر الكافر والآبق والضليل على كلمة الحق وشريعة الكتاب ..

ليس أمره إذن أمر من يعمل لمبدأ ، ويجهد لغرسه في الصدور ، وتطبيقه في الحياة ، بمنطق اللسان ومقطع السنان .. وكيف يكون ، وأنه ليحالف ــ ليبلغ وطره من أمرة الإمام ــ زمرة فاسقة تعيش في رحاب الشيطان !..

وكان امرا ذا خديعة ومكر . تستوى عنده الوسائل ، شريفها وخسيسها ، ما دامت تحقق له غرضه .. وما له اليوم من مقصد إلا نفسه التى غدت لعبة في ايدى مطارديه لن تلبث اصابعهم ان تتقبض عليها وتعتصرها بعد أن تحلقوه ، واوشكوا ان يطبقوا عليه ..

فاستعمان خبثه ..

مضى إلى الخوارج ممن حوله ، يرفع شعارهم ، ويؤكد لهم سلامة ما يعتنقون ..

لا حكم إلا لله !..

وقال لهم :

« إنى ارى رايكم .. إن عليا ما كان ينبغى له أن يحكم الرجال في دين الله .. »

وذهب للعثمانية ، الذين نقموا على الإمام حين وهموا ان عليه دم عثمان ..

تباكى لدعواهم ، وقال :

« انا على رايكم .. لقد قتل عثمان مظلوما معقولا .. »

وانثنى لمن منعوا الصدقات يزين لهم فعلهم إذ ثلموا ذلك الثلم في الإسلام ، ويحثهم ان يظلوا عليه :

« شدوا ايديكم على صدقاتكم ، ثم صلوا بها ارحامكم ، وعودوا إن شئتم على فقرائكم .. »

وعندما علم بارتداد كثيرين عن الإسلام إلى النصرانية التى فارقوها من قبل ، لم يحاول أن ينهاهم ، ولا أن يردهم عما وقعوا فيه .. بل اتخذ من ارتدادهم وسيلة لربطهم به ، وانتصارهم له ..

أسرع يدعوهم إلى الثبات على ردتهم :

« اتدرون ما حكم على فيمن اسلم من النصارى ثم رجع إلى النصرانية ؟.. لا والله لا يسمع له قولا ، ولا يرى له عذرا ، ولا يقبل

منه توبة ، ولا يدعوه إليها .. وإن حكمه فيه أن يضرب عنقه ساعة يستمكن منه .. ولن ينجيكم من القتل إلا الصبر لهؤلاء القوم ، وقتالهم !.. »

وكذلك فعل بعلوج العجم ، وناقمة الأكراد ، ومن إليهم من أنصار العنصرية ، وأعداء الدين ، وإنهم لأدنى من سواهم إلى الانضمام لكل حركة تبتغى هدم الإسلام ..

دعوة ظالمة ، وأسلوب أظلم : نهج الرجل الذى لبس ثوب الإصلاح ، ليبدو للناس وهو الثائر على الضلال ، المدافع عن الحق ، الغاضب لكتاب الله ..

لكن الرياء شفاف . والخبث كسيح . وخداع الناس كلهم محال ، قصير عمره وإن طال ..

.. وأطلت النهاية !..

فلم يكد معقل يبلغ البحرين ، حتى بادر — قبل أن يشهر سيفا في وجه ذلك الخائن وعصبته — إلى إذاعة بيان من الإمام ، على أهل الإقليم يقول لهم فيه :

« من عبد الله على أمير المؤمنين

إلى من قرىء عليه كتابى هذا من المسلمين والمؤمنين ، والمارقين والنصارى والمرتدين .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ، فإنى أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه .. ..

فمن رجع منكم إلى رحله ، وكف يده ، واعتزل هذا المارق الهالك المحارب .. فله الأمان على ماله ودمه .

ومن تابعه على حربنا ، والخروج من طاعتنا .. استعنا بالله عليه .. » .

واتبع معقل إذاعة البيان على الناس ، براية أمان نصبها لهم على

أعين الخريت والذين لاذوا بشرذمته .. حتى إذا تطلعت إليها الخواطر، وتعلقت بها الأنظار، انطلق ينادى على الملأ الحاشد، ويعاود نداءه مرات ومرات :

« من أتى هذه الراية فهو آمن – إلا الخريت وأصحابه الذين نابذوا أول مرة .. » .

وفعل النداء فعله على الأثر . فكأنما كسفة من سحاب ثقيل بددتها الريح، أو كأنما جدار وانهار كانت جموع الخريت !..

الزحام حول المارق يرق . الصفوف تتخلخل . الحشود تنجاب .. ليبدو الخائن عاريا مكشوفا بموقعه إلا من جنة واهية من عصابته كنسيج عنكبوت، أو كديباجة رثة غزتها الخروق !..

دقائق ولحظات من عمر قلقه طالت عليه كالأيام وهو يشهد الناس يتفرقون عنه . يتقطعون من شرذمته فرادى، وجماعات جماعات لينفضوا عنه . ويهرعون، خيلا ورجلا، إلى موقع الراية البيضاء كأنما يطيرون بجناح .. فإن هى إلا سويعة حتى غدا الخريت وما بجانبه من جيشه الكثيف إلا شوبة قومه الذين لا يملكون تنائيا عنه بعد أن صدهم عن التنائى النداء !..

وتلفت فيمن بقوا إلى جواره كالمضيع، قد ثقل قلبه، وغامت عينه، واهتز لسانه يحاول أن يبث في نفوسهم ما افتقرت نفسه إليه من ثبات :

« .. إمنعوا اليوم حريمكم !.. قاتلوا عن نسائكم وأولادكم !..» .

فتلاغظ عليه أصحابه، حسرة وندما . وصاح به منهم عاذل ناقم يلوم :

« هذا والله ما جرته علينا يدك .. ولسانك .. » .

فما استطاع إلا أن يقول بلهجة اليائس المحسور :

« سبق السيف العذل !.. قاتلوا !.. فوالله لئن ظهروا عليكم ليقتلنكم وليسبينكم .. » .

وكان لا بد لأمره أن يصير إلى ما خشى أن يكون ..

فسرعان ما نهض له معقل برجاله ..

بدا فحرضهم ، والإيمان دليله ، والثقة ملء قلبه ، والسلاح في الاكف على أهبة التبارى إلى الرقاب !..

« أيها الناس .. أما تدرون ما سيق إليكم في هذا الموقف من الأجر العظيم ؟.. إن الله ساقكم إلى قوم منعوا الصدقة ، وارتدوا عن الإسلام ، ونكثوا البيعة ظلما وعدوانا .. وإنى شهيد لمن قتل منكم بالجنة . ولمن عاش بأن الله يقر عينه بالفتح والغنيمة .. » .

وسرح ميمنته ، دون بقية الجيش ، تقاتل أعداءه ..

ثم ردها وسرح إليهم ميسرته ..

حتى إذا رأى قتال جناحيه قد نال من القوم ، مع ما بدا منهم من صبر وعناد ، وأيقن أنه قد أوهنهم ، وثب على فرسه يحمل بكل جمعه..

فإن هى إلا ساعة واحدة ثم انهارت مقاومة الباغين .. هلك صاحبهم بضربة سيف من النعمان بن صهبان .. وتناثر كثيرون حوله على الثرى قتلى وجرحى ، تناثر الورق الذابل من أعواده في عنفوان الخريف .. وتفرقت بقيتهم يمنة ويسرة بعيدا عن الحلبة كقطيع شرده الذعر ، يفرون من مناجل الموت إلى حبائل الأسر ..

وعندما تطهرت الأرض من هذه الفتنة ، وسيق سبى المعركة إلى الكوفة ، حلا لمصقلة بن هبيرة أن يشرف بمنه على الأسرى . فما بلغ هذا به إلا أن أضاف لصورة التنكر لمبادىء الدين وقيم الأخلاق التى رسمها الخريت !!.. أضاف خيانة الأمانة إلى خيانة العهد . والفرار من الوفاء إلى الغدر . والخوف من الحق إلى حربه . والانتقاض خشية وطمعا إلى الانتقاض عنوة بالسلاح ..

واسدل الستار بعد عامين على محنة مما امتحن به عهد على ، فإذا هى محنة خلقية قبل أن تكون محنة سياسية . وشرخ غائر في جدار الإسلام قبل أن يكون شرخا في إمرة الإمام !..

تم بحمد الله الجزء السابع

ويليه الجزء الثامن والأخير

الإمام
عليّ بن أبي طالب

الجزء الثامن

تأليف
عبد الفتّاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

الفصل الأول

١

لم ير إلا أن يغير إهابه ! . .

فيما مضى إلى اليوم من كفاحه ، استقبل الأمر بكل طاقته . بكل صبره . بكل دهائه . بكل قوة مادية لديه ، وكل قدرة ذهنية فيه . .

حشد الجند صفا صفا ، كأنهم قطعة من الليل الأسحم . .

جمع السلاح مشرعا حوله كثيفاً ، كثيفاً كأنه غاب . .

بنى الأحقاد والمواجد قلاعا حصينة . .

نصب المال كمائن وحبائل . .

سير الخديعة طليعة . .

ومع ذلك فقد قصر همه وعجزت همته عن الثبات لغريمه فى ميدان .

فما على بمن ينوء بالحيل . أو يبالى السلاح والرجال ، أو يزحزحه كل ذلك الإعداد والتشرع عن الحق الذى نهض فيه ، لأن إيمانه أعصى على الكتائب الكتيبة ، وشجاعته فوق طاقة الحشود . .

لقد خبره . فإذا الأسلحة تنبو عنه . وإذا الموت يفر منه . وإذا المعارك التى يخوضها لا تكاد تزيد عنده عن لعبة لاعب يتلهى بها فى ساعة فراغ ! . . .

كذلك علمه . .

فى البصرة إبان الجمل . فى لقائهما الضروس بصفين . فى حملة الخارجة بالنهروان . . هنالك علمه . وقبل ذلك علمه . وإن علمه لما لا ينسى ، يضيق به صدره ، ويتحشرج نفسه ، ويكبو لونه ، ثم يتقطع قلبه لذكره حسرة على أيام لا تزال غصة كاد فيها يلمس حلمه بسلطان الإسلام لولا أن أحاله غريمه إلى كابوس ! . . وعلى أيام قبلها توارت خلف الأعوام وتره فيها ابن أبى طالب فى صفوة أهله ، وطرحهم على الثرى الندى بدمهم ، فرالتى سهلة لعقبان

والنسور حتى احتوام القليب .. وهل له أن ينسى محنة عثمان ، وفتنة طلحة والزبير ، ومهزلة التحكيم ، وكلها كانت خليقة بأن تدلى إليه بالإمرة بغير جهد أو بجهد قليل لولا اصطبار ذلك الغريم ، وثباته حيث كان لا يريم ؟ .. أم له أن ينسى « بدراً الكبرى » وفيها جندل على وحده نصف المشركين ومنهم حنظلة ابن أبي سفيان أخوه ، والوليد بن عقبة خاله ، وعقبة جده ، أو شيبة عمه ، وآخرون غيرهم من أماثل ذويه ؟ . .

ما نسى معاوية . وما كان ليسعه النسيان لو أنه أراد .. حتى بعد أن حالفته دنياه ، وخلصت الإمرة إليه ، وذهب خصمه إلى ربه ، كان يؤوب كثيرا — حتف رغبته — إلى سيرة على يستثير بها جلساءه أن يحدثوه عن هيبته عسى أن يحرك على بعض خلصاء على الندم والمواجد ، أو يذكر هو — حمزا لأوليائه — بعض مناقبه وفيها شجاعته التي ذلت لها شجاعة الشجعان ، وهالت مردة الوغى وأبطال القتال والنزال . .

يوما ما ، وابن أبي سفيان في عنفوان سلطانه ، انتبه من غفوة أخذته أو من شرود ، فإذا ابن الزبير عند قدميه ، فأجفل واعتدل يلقى إلى الضيف باله . .

وابتسم عبد الله بن الزبير لحركته ، وقال يداعبه :

« يا أمير المؤمنين .. لو شئت أن أفتك بك لفعلت .. » .

فأسرع يرد الدعابة :

« لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر ! . . » .

قال عبد الله وفي صوته اعتزاز وزهو :

« وما الذى تنكره من شجاعتى وقد وقفت فى الصف إزاء على بن أبى طالب ! . . » .

عندئذ ضحك معاوية ، ولم يملك إلا أن يجيب وهو يسخر :

« لا جرم ! .. إنه قتلك وأباك بيسرى يديه ، وبقيت عناه فارغة ، يطلب من يقتله بها ! .. » .

ويوما آخر ، رأى أن يعابث قيس بن سعد فى سيرة الإمام ، وهو من كان من الولاء له حيث كان ، فقال له كأنما يستجيش غضبه :

« رحم الله أبا حسن ! .. لقد كان هشا بشا ذا فكاهة .. » .

فماجله قيس ، منكرا عليه تعريضه :

« نعم ، وقد كان رسول الله يمزح ويبتسم لأصحابه ! .. وإنى أراك تسر حسوا فى ارتغاء وتعيب ذلك . أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذى لبدتين قد مسه الطوى .. تلك هيبة التقوى ، وليس كما يهابك طغام أهل الشام ! .. » .

أفكان إذن لينسى ؟ ..

بل لا ! .. ماله إلى لقائه سبيل . جيشه لن يغنى عنه . وسلاحه . وكيده وائتماره .. حتى قدماه ، لو أراد الثبات ، لن تطاوعاه ! .. والقتال المكشوف فى حرب تقابل فيها الصفوف الصفوف ، ضرب من التهلكة ، وغط من المناجزة وبيل عليه ..

فليس إلا أن يغير إهابه ! ..

وتبين العاهل الأموى نهجا جديدا من الحرب أجدى عليه ، وأدنى إلى تحقيق غايته ، حين عرف ، بعد مهزلة التحكيم ، أن الإمام تحمل مقبلا عليه .

عندئذ هاله الأمر ، فخرج فى البدء من دمشق معسكرا ، وبعث إلى كور الشام يستصرخ ويستغيث ..

كتب إلى عماله :

« ... إنا كنا كتبنا كتابا بيننا وبين على ، شرطنا فيه شروطا ، وحكمنا رجلين يحكمان علينا وعليه بحكم الكتاب لا يعدوانه .. وإن حكمى أثبتنى ،

وإن حكمه خلعه . . وقد أقبل إليكم ظالما . . فتجهزوا للحرب بأحسن الجهاز ... » .

وجمع رجاله يشاورهم . وهو يذكر آخر الأنباء :

« ... قد خرج من الكوفة . وعهد العاهد به أنه فارق النخيلة . . »

قال حبيب بن مسلمة ، يشير عليه بالسير إلى صفين :

« أرى أن نخرج حتى ننزل منزلنا الذى كنا فيه ، فإنه منزل مبارك ، وقد منعنا الله به ، وأعطانا من عدونا فيه النصف . . »

ورأى له ابن العاص أن يمضى بجيشه إلى ما وراء ذلك مما فى حوزة الإمام من تخوم :

« . . تسير بالجنود حتى توغلها فى سلطانهم من أرض الجزيرة ، فإن ذلك أقوى لجندك ، وأذل لأهل حربك . . »

وتردد معاوية فى القبول :

« والله إنى لأعرف أن الذى تقول كما تقول . ولكن الناس لا يطيعون ذلك ... »

وهون عليه عمرو ما يخشى :

« إنها أرض رفيقة ... »

لكنه أبى :

« إن جهد الناس أن يبلغوا منزلهم الذى كانوا به ... »

ولم يجمعوا كلمتهم . فتريث معاوية لا يقطع برأى بضعة أيام ، قلبوا خلالها الأمر ، يتدارسون المنازل والوجهات ، ويعايرون الاحتمالات ، حتى لقد ذهبت بهم أحاديثهم كل مذهب إلا موقعا لعسكرهم يصلح به اللقاء . فلما أوشكوا أن يعيوا حيلة ، جاءهم نبأ لم يكن فى حساب ! ...

قدمت عيونه عليه بخروج الخارجة ...

هنا تنفس الطمأنينة ! ...

وزف البشرى لرجاله :

« ... إن عليا اختلف عليه أصحابه ، ففارقته منهم فرقة أنكرت أمر الحكومة ... وقد رجع عنكم إليهم ... »

فكبروا فرحا بهذا الخلاص .

وبقوا بحشودهم حيث نزلت ، يتنسمون أخبار الكوفة من حيثما جاءت ريح ، وقد ذهب عنهم الروع ، وامتلأت قلوبهم سكينة ... وما لهم يخافون أو ينالهم قلق وإنهم ليأملون فى فتنة الخوارج أن تصيب عدوهم بما قد يغل يده ، ويفل غربه ، ويشغله عن الزحف إليهم بمستقرهم ولو إلى حين ؟ ...

ثم زادوا سكينة على سكينة بوقعة النهروان . ثم طربوا وهللوا بتفرق كلمة الكوفة . ثم علوا سرورا بقعودها عن السير ...

عندئذ استأسد الكلب ، واستنسر الغراب ! ...

أسرع معاوية فأعد قرابة أربعة آلاف مقاتل ، دفع برايتهم إلى الضحاك ابن قيس الفهرى ، وألقى إليه بأمره :

« سر حتى تمر بناحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت . فمن وجدته من الأعراب فى طاعة على فأغر عليه . وإن وجدت له مسلحة فأغر عليها ... »

ثم عقب يبين له :

« وإذا أصبحت فى بلدة فأمس بأخرى . ولا تقيمن لخيل بلغك أنها قد سرحت إليك لتلقاها وتقاتلها ... »

اضرب واهرب ! ..

كانت هى الخطة الجديدة ...

٢

سرح الضحاك بن قيس آلافه ... هبط بهم من الشام على طريق مكة ، لا يرى فى سيره أخا سفر إلا ناله بعدوان ، تنفيذا لأمر صاحب مصيره ...

لم يسلم منه عرب البادية — من ضارب وظاعن — ينزلون على مواطن الكلأ بسائمتهم ، أو يشدون نحوها الرحال ... ولم يسلم منه آمو البيت الحرام من حجيج نشطوا لإقامة شعائر الله ... ولم يسلم منه كمى مسلح أو أعزل عاطل . جماعة أو فرد . شيخ أو شاب . صاحب منزل أو عابر سبيل ...

كان يقدم الهلكة بين يديه . ويبذر الدمار تحت قدميه ... الدم وحده لم يكن إربته لأنه لا يكاد يشفى نهمه ... بل الخراب أيضا ، قتلا للأنفس ، ونهبا المال ، وعصفا بالمتاع والثقل كمصف بالأموال والرجال ... وكلما جنى وحصد ، زاد فى الجنى والحصاد . وكلما طوى من الأرض مرحلة ، طوى معها صحيفة أمن وصحائف آجال ! ...

ولم يرعه شىء فى تقدمه ولا ريبة لإنسان فيه ... فما هذه التى يشنها على العزل الأمنة بحرب ، كما ألف النـاس قبل حملته الضارية ، وعهدهم بالحروب أن تعلن ، وبالصفوف أن تتراص ، وبالرايات أن تخفق ، نذرا وشواهد ببدء القتال ... إنما كان يمضى لوجهه على استخفاء . أو يكمن على تربص ، أو يهجم بغتة كأنه قاطع طريق ...

حرب ولا إعلان . وحمل ولا إعذار . وقتل ولا قتال . بل اعتداء غادر جبان يمز فينهض حين الغرة ، ويذل فيفر قبل اللقاء ! ...

تلك شرعة شرعها الرجل ، بأمر صاحبه الماهل ، ليس لها قبل هذا نظير ... إن هى وضعت فى ضوء الدين فهى عدوان ظالم . أو هى قيست بمقياس الأخلاق فهى غدر خسيس . أو هى وزنت بعرف العهد فهى خروج شاذ ... وهل غاب عنه ما اصطلح قومه عليه آنذاك وأقروه من آداب القتال ؟ ...

ما غاب هذا عن الضحاك . ولا عن ابن هند . ولا عن الطغمة الأولى شاركوها الإعداد ... فكلا الرجلين عاصر الصديق ، كما عاصر ابن الخطاب . وكلا الرجلين قد عرف ، بغير شبهة من شك ولا سبيل لنسيان ، ما ألزم به الخليفتان جيوش الإسلام من قواعد وأصول ، كلما سعت إلى فتح وخفت لجهاد فى أرض الشرك ، يضيف جديدا إلى رقعة الدولة إعلاء لكلمة الله ...

إن العهد لقريب . وإن المواقف لغضة ، لا تزال ماثلة فى الأذهان كأنما تراها العيون وتسمعها الآذان . .

فها هو أبو بكر يخرج إلى ظاهر المدينة ، يشيع أسامة وجيشه ، ويوصيهم وهم يهمون بالزحف على أرض الروم :

« لا تخونوا . ولا تغلوا . ولا تغدروا ولا تمثلوا .. ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة .. ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة .... » .

لأنها حرب ، ككل حرب ، تمثل فى كلا الفريقين نضالا على المبادىء بين إنسان وإنسان ، فلا ينبغى لها أن تجور على قواعد الأخلاق العامة أو يضيع فى ضوضائها صوت الضمير . .

وهاهو عمر بن الخطاب لا ينى يوصى جنوده وقواده ألا يعتدوا ، حين الجهاد فى ساحة الوغى . وأن يرعوا شرف الجندية ، ويحفظوا القيم الإنسانية عند كل لقاء ، لأن القتال مزيج من الشجاعة والصبر والمروءة مهما اختلفت الأسباب أو تباين الأعداء :

« . . ولا تجبنوا عند اللقاء . . ولا تمثلوا عند القدرة . ولا تسرفوا عند الظهور . . ولا تقتلوا هرما ولا وليدا ولا امرأة . . . » .

فتنزيه السلاح عن العدوان الآثم لا ينزل بالقوة . والسماحة حين القدرة تمكن فى النصر ، لأنها هى ذاتها طاقة فيه تذوده عن الإسفاف ، وتحميه الاغترار . .

بل قد علموا كذلك كيف كان غريمهم ابن أبى طالب ، وهو يحاربهم ، يأخذ نفسه وجيشه أشد الأخذ بآداب القتال وإن غلوا هم فى الخسة والغدر والبادأة

بالعدوان .. وكفى أن قد علمه يأمر جنده فى صفين ، قبل الالتحام ، فيقول :

« .. لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم .. ولا تقتلوا مدبرا ، ولا تصيبوا معورا ، ولا تجهزوا على جريح .. ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم ، فإنهن ضعيفات .. ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات . وكان الرجل يتناول المرأة فى الجاهلية بالفهر أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده ! .... »

ثم رأوا أيضا رأى العين ، حينذاك كيف تعفف عن قتل ابن العاص أثناء مبارزته ، عندما انكشفت له سوأته ، تأبيا على نفسه أن يدنس سيفه بدم غريم قد أخزاه الله ، فبدا منه مثل هذا الهوان ! ..

ثم قد كان هكذا الإمام . يدفع الغضب بالحلم ، والبطش باللين . ويسارع ماوسعه أن يفعل — كرما ومروءة — إلى الموادة بعدوه ، والتصبر عليه ، احتسابا لله ، وعرفاناً بفضله . . شعاره فى هذا كما لعلهم يعرفون :

« إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ! .. »

لكن الضحاك بن قيس ، كسيده معاوية ، لا يقر هذه الفضائل ، ويؤثر أن ينحو عنها إلى أسلوب جديد فى تقاليد القتال والحرب ، لأنه هو نفسه ، طراز جديد من المحاربين الشجعان ..

فلا هو ارتقى بسلوكه فى الحرب إلى حكم الإسلام ، ولا هو وقف به على عرف الجاهلية ..

إنما مضى ، منذ مخرجه ، يقتل من يشاء ، ويسلب من يشاء ، لا يرعى الله ولا الخلق ولا التقاليد ..

فى أول مراحل انطلاقه ، قتل من التقى بهم على مواقع الماء من الرعيان والأعراب ، على حافة الصحراء . ونهب مالهم .. ثم مضى عن الجرم الذى قارفه فيهم إلى جرم غيره ليشبع نهم نفسه بسفك الدماء .. فما أن بلغ الثعلبية حتى أسرع يقطع الطريق على الحاج ، يغير على جموعهم ووحدانهم ، ما وسعه أن

يتربص ويغير ، فأشاع فيهم القتلة ، وأثخن الجراحة ، وتحمل ما لديهم من متاع .

وقد ظل الرجل على رأيه المرسوم ، ينال بالعنف والإرهاب كل من ساقهم قدرهم إليه ، وهو يتأرجح فى السير ، يأخذ وقتا على شاطئ الفرات ، ثم يندفع نائيا عن شريعته ، ثم يجنح بشرذمته يسرة أو يميل يمنة ، ولا يثبت بمكان خشية أن تعرض له قوة مسلحة قد تنال منه ..

وبلغ بحملته الإرهابية مداها فى الإفظاع بالناس إفظاعا لم يصب به وحسب أوامر الدين ونواهيه ، بل أهدر أيضا الشيم العربية التى تؤمن بالمروءة ، وتدين بالشهامة ، وترى أن تعفف القوى عن أذى غريمه الضعيف هو ذروة القوة لأن الصفح مع القدرة ليس كالكف عن عجز وقصور .. فعلى أى محمل إذن يحمل سلوكه وما قتل أو سلب إلا أناسا من المسلمين ، من عرض الناس ، ليس لهم دور معروف فى شئون السياسة يمكن به أن يسلكهم فى زمرة عدوه وعدو عاهل الشام ؟ ..

غير أنه الضحاك ! ... وهو طراز جديد من الشجعان الذين يغرهم أى نصر رخيص ، ويرفع شأنهم أن يدلوا بقوتهم على الضعاف ! .. فكذلك كل خسيس .
وكذلك ازدهاه ذات يوم أن يعتز بما فعل بحملته ، حتى وقف بعد انتهاء عهد الإمام ، على منبر الكوفة يفخر بنصره الهزيل ! ..

صعد عندئذ المنبر ، مباهيا بذلك النصر العجيب الذى أحرزته حملته الغادرة ، وهو يتهدد الناس بالويل لأن فيهم قوما سمع أنهم ينالون من سيرة ابن عفان ..

خطب فقال :

« ... بلغنى أن رجالا منكم ضلالا ، يشتمون أئمة الهدى ، ويعيبون أسلافنا الصالحين . أما والذى ليس له ند ولا شريك ، لئن لم تنتهوا لأضعن فيكم سيف زياد ! .. أما وإنى لصاحبكم الذى أغرت على بلادكم ، فكنت أول من غزاها فى الإسلام ... لقد ذعرت المخدرات فى خدورهن ، وإن كانت المرأة ليبكى ابنها فلا ترهبه ولا تسكته إلا بذكر اسمى ! .. أنا الضحاك ! ... »

ومع ذلك فقد هرب بآلافه عند أول لقاء ...

هذه نفسه . وذلك قصاراه . .

... ومضى الرجل وغارته ، حتى انتهى خبره إلى الإمام ، فجمع الناس ، يدعوهم إلى درء شروره :

« يا أهل الكوفة .. اخرجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عميس ، وإلى جيوش لكم قد أصيب منهم طرف .. اخرجوا فقاتلوا عدوكم ، وامنعوا حريمكم إن كنتم فاعلين .. »

كان الضحاك عند ذاك قد فارق الثعلبية ، وتوجه إلى القطقطانة وفيها مسلحة لعلى عليها عمرو .. فاجأها ، وقتل عمرا ونفر معه . .

وتلكأت كدأبها الكوفة ، فلم تلق بسمعها إلى الدعوة كأنما لايضيرها الخطر فى شىء . أو كأنما الكفاح قد بلغ من هوانه عليهم ألا يكافىء دعة يؤثرونها ، ودما لإخوانهم تلغ فيه الكلاب ! . .

وتصبر الإمام والقوم غافون ، لا يكادون يسمعون من أنفسهم إلا بالوعد بعد الوعد ، وبالتسويف بعد التسويف . . حتى إذا آده التصبر ، عنف بهم فى القال وأقذع فى الخطاب :

« أيها الناس ، المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم ! . . . ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم ! . . . أى دار بعد داركم تمنعون ، ومع أى إمام بعدى تقاتلون ! . . . أصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم . . فما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ .. ما طبكم ، والقوم رجال أمثالكم ! . . »

فكأنما كان يضرب فى حديد بارد ! ..

وعندما أيقن منهم الفشل ، قال فى حسرة :

« ... لوددت أن لى بكل ثمانية منكم رجلا منهم ! . . ويحكم ! . . اخرجوا معى ثم فروا عنى ما بدالكم ! .. فوالله ما أكره لقاء ربى على نيتى وبصيرتى ، وفى ذلك روح لى عظيم ، وفرج من مناجاتكم ومقاساتكم ! . . »

وتركهم وهو غاضب ناقم . .

٣

ظل يوم ينفخ فى رمادهم الخامد حتى استطاع أن يعثر بقبس فيه يعينه على إشعال النار ! . . فما كان لييأس . ولا أن ينفض يديه من أمرهم لطول إعضالهم به ، وعنتهم معه ، لأنه لو فعل لكان لهم شريكا . واضيع حق الأمة التى بوأته إمرتها . ولفتح الباب على مصراعيه للفتنة تقتحم منه على القلوب النقية البقية الباقية من الدين . .

ولم يكن الطريق إلى الفتنة إلا قصيرا ، فالحق طريقه أطول وأشق ، يكاد يتعثر به سالكه إلا أن يتزود بالإيمان والصبر والقدرة على تحمل المكاره . والباطل طريقه ممهد قصير ، لا يشق على الناس ، وتوشك النفس الإنسانية أن تنطلق عليه من هذا الجانب بغير جهد كأنها الراكب ، وكأنه المطية التي تسير ! . .

وكانت الشام منبع الفتنة ، أو هى القبلة التى يولى شطرها وجهه كل مفتون . فالحياة فيها عروض شهوات . والعمل فيها سعى للذات . والمبادىء المتمثلة دعوة لطغيان النفس وقمع الروح .. فهى مهوى الأمانى ، وملتقى المطامع ، ومناط آمال طالبي الجاه وعبيد المال . .

ولقد طالما استشف الإمام حالها ، وألهم خطرها الذى يهم أن يعم الناس . فإن هو إلا كماء بقيعة ، إذا زاد فاض ، وإذا فاض ساح ، وإذا ساح كان سيلا يهدر ويثور فلا يعوقه عائق ، ولا يحبسه سد ، وهو ينصب من معينه انصباب الشلال ليقشر الدمار أينما سار ..

أما السد الذى ما زال يقف حتى اللحظة فى وجه السيل أن يطغى فإنه أرض « كوفان » .. أو الكوفة وما حولها من بقاع بقيت إلى اليوم فى حوزة حكم تعنو جبهته ، قليلا أو كثيرا ، لله .. فهى فى يد الإمام ، وهو يمسكها جاهدا — أن تشترى متاع الدنيا بعز الآخرة ، وزخرف الحياة بعدالة الدين . وهو يستعين قلة من صحبه فيها أن يؤازروه على سحق الفتنة ، وضرب الطغيان..

وكم حذر ؟ . . وكم حرك فيها الضمائر لتقاوم الخطر الماثل ، وتحمى سدها المانع أن ينهار ! . .

فني مرة قال لأهلها ينذرهم ، وكأنما قد ألهمت بصيرته المصير المخوف :

« ... ألا إن أخوف الفتن عندى عليكم فتنة بنى أمية فإنها فتنة عمياء مظلمة ، عمت خطتها ، وخصت بليتها ، وأصاب البلاء من أبصر فيها ، وأخطأ البلاء من عمى عنها . . وأيم الله لتجدن بنى أمية لكم أرباب سوء بعدى ! . . لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعا لهم أو غير ضائر بهم . ولا يزال بلاؤهم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه ، والصاحب من مستصحبه ... » .

ومرة أخرى قال ، يومىء إلى معاوية ودوره فى الفتنة المنتظرة ، التى توشك أن تغطى أرضهم بطوفان :

« . . . ولكأنى أنظر إلى ضليل ، قد نعق بالشام ، وفحص براياته فى ضواحى كوفان ! . . . »

ومرات ومرات قال . .

كلهم أصغى له . وكلهم صدقه . لكن قلة قليلة هى التى قرنت الإصغاء بالتيقظ ، والتصديق بالمبادرة إلى درء الخطر ، والعمل ما وسعها على قمعه أو وقفه حيث كان . .

ومن القلة التي أردفت الاستماع بالاقتناع ، والإقبال على الإصغاء بالإقبال على المقاومة والكفاح : حجر بن عدى ، حين تقاعد غيره عن امتثال أمر الإمام بتعقب الضحاك . . فلقد وهب الصاحب الوفى نفسه لله ، وتقدم لقيادة حملة التأديب . .

وعقد الإمام له على أربعة آلاف . فخرج بهم يشم ريح الغارة الإرهابية ، ويتأثر خطاها المتذائبة على طريق مكة ، ووسط الصحراء . وكانت الأخبار قد تناثرت بأن الغير قد ضرب فى سيره جنوبا حتى بلغ أرض الحيرة ، فإذا ماشاع من أمره لم يكن غير تهاويل . فما أوغل بقواته المدوانية هذا الإيغال . ولا دانى

الحيرة أو ألم بما حولها من قريب ولا من بعيد إلى مئات من الأميال وهو العليم عندئذ بأن سيره ذاك كان خليقا بأن يفضى به إلى ما يجاور الكوفة وما قاربها من بلاد هى أعصى بلاريب على طغمته ، وأولى بأن تذيقه الدمار . . إنما كفاه أن يجول ببعض طريق مكة ، ويطوف بما تاخم دمشق حاضرة عاهله شمالا أو شرقا فى جيرة أرض الشام ، ليظل دائما فى نطاق الأمان ! . .

ولقد بلغ الخبر عن هذا الإيغال الموهوم حجر بن عدى ، فراح يستطلع وهو يمضى بقواته شمالا من الكوفة لعله أن يقع للغارة على أثر . وبلغ أيضا الإمام فسخر وقال :

« . على أهل الحيرة ؟ . . هو أقل وأذل من أن يلم بها ، أو يدنو منها !. . »

وصدق رأيه الاستطلاع . .

فما أن خلف ابن عدى الغريين عند الكوفة بعسكره ، حتى أخذ على طريق مكة إلى السماوة من أرض كلب ، وصحب منها امرأ القيس بن عدى الكلبى دليلا له على تلك الجهة الصحراوية وعلى ما بها من مواطن الماء . . فإذا هو يعلم أن المغيرين قد بارحوها إلى واقصة ، ثم شراف ، ثم القطقطانة . . فأغذ فى آثارهم يطوى المراحل ، ويصل الليل بالنهار .

لم يغب عن الضحاك أمر هذه المطاردة فشحذ وعصابته أقدامهم للفرار التماسا للنجاة حتى لأوشكوا أن يفلتوا من يد الصياد ! . . لكن حجراً وأصحابه استبقوا المهرب ، وهبوا كالريح فى أثر الهارب المدل بيأسه على العزل ، المباهى ببطشه عندما يغيب القرين ! . .

ولحقت به حملة التأديب غربى تدمر وهو يشد مئزره ، ويشمر ذيله ، تهيؤا للانطلاق نحو مهرب جديد . . لكن أعداءه عاجلوه . .

ووقعت الواقعة التى لم يسعفه على اجتنابها الفرار . .

كانت الشمس عندئذ تطفل إلى المغيب . قرصها يذوب فى الأفق ، ونورها ينشر الشفق ، وخطوط الضياء التى يرسلها شعاعها الوانى تكاد تمزج إلا قليلا بعتمة الغروب إيذانا بمقدم المساء . .

والتحم الفريقان . .

في سويعة قصيرة سقط نحو عشرين من العصبة الباغيـة قتلى ، يدفعون من دمهم المهراق بعض دينهم لصرعاهم الأبرياء لو كان دمهم يصلح للوفاء ! . .

وتلفت الضحاك من خوف ، والسلاح يطبق عليه . وأصحاب حجر يشدون على رجاله من كل ناحية . . هو الآن لا يعنيه أن يذود عن نفسه هجمة القوم . ولا يحاول أن يتوسم بينهم هدفا لسيفه . بل تجول عينه فيمن يحيطون به بحثا عن فرجة للخلاص . .

فلو كسفت الشمس ! لو اختفت من أفقه تذوب فيه كما تذوب ذرة ملح في ماء محيط ! لو استطاع أن يسرع بها إلى المغيب مثلما استطاع يوشع أن يعيدها من الغروب ! . .

لـكأني به حينذاك قد ملك الدنيا وهو يرى عتمة الليل تلقى ظلالها على الميدان ، ثم تغشيه بالسواد . . فهذه لحظته ! . . فرصة عمره ! . . هنيهة انتصاره على الموت ، واجتنابه تجرع ثمالة الهزيمة ! . .

وحالفه الظلام يجنه عن عيون السلاح ، فتسلل من خلف ستاره إلى النجاة .

ومع ذلك فقد شهدناه يفاخر ، من بعد ، ببلائه ، وببأسه الشديد ، وسيفه الحديد ، وهو يتهدد أهل الكوفة ، بعد أن عنا الحكم لابن أبي سفيان . .

عندها وقف امرؤ من الحاضرين ، شهد ما حدث بتدمر ، وقال للناس في وجهه ، يعرض به ساخرا ، ويضفي عليه الهجاء بأسلوب ثناء :

« نعم صدق الأمير وأحسن القول . . فما أعرفنا والله بما ذكرت . لقد لقيناك بغربي تدمر فوجدناك المجرب الصبور الشجاع ! . . »

الفصل الثاني

١

ما لم يسر به رواة الأخبار سارت به وساوس الشائعات . وما لم تدركه حقائق الواقع أدركه خيال التوهم . . فقد ترامى إلى أسماع أهل الحجاز عن غارة الضحاك ما أوطأها أرضا لم يمر عليها من عصابته العادية مقاتل ، وعن انتصار بطلها مالم يلده سيفه ! . .

قيل عن الرجل :

غزا الحيرة . .

عصف بمن فيها واحتمل ما فيها من مال . .

عاد سالما إلى الشام في موكب نصر على أوراق الورد . .

وقيل وقيل . .

وأفسحت القالة الزائفة ، بصدور فتية بنى أمية وأحلامهم بمكة ، مرتعا خصبا لدولة أموية تهم شمسها أن تبزغ على العالمين ، فولوا وجوههم شطر سيدهم العاهل المنتظر ، يحثون الخطا سريعة واسعة إلى دمشق ، لكيلا يفوتهم من ملكه نصيب ! . .

هم أربعون . كلهم تتوثب به أطماعه وترامقه دنيا بالمجد والجاه . مشى في صدارتهم ابن أبي سرح ، ولصقوا بذيله ، وهو يستبق القبلة ! . . وكانوا إلى أمس قارين بالبلدة الحرام ، يلوذون منها بمأمن ، بعيدا عن مواقع الخلاف ومظانه الذى نشب بين الإمام وبين معاوية ، كأنما قد تعاقدوا على عزلة ، لا إلى صاحب الإمرة ولا إلى متمرد الشام . . فلما انتهت صفين دون أن تحسم الأمر ، وانفض سامر التحكيم كلعبة هازلة . ووقعت مصر فى قبضة عمرو بالسم والمطل والخديعة ، ثم بلغ الضحاك بن قيس أخيرا ما أبلغته الشائعات من الظفر فى العراق ، خايلهم المجد ، فصحا فى صدورهم الأمل النائم . وانطلقوا إلى دنياهم الجديدة ، خفافا خفة الرياح ! . .

يومها صادفهم عقيل . كان قد خرج وهو معتمر ، ميمما مكة ، فإذا هم يضربون على طريقها نحو الشمال . رآهم قد ازدهتهم فرحة سرت لها فى أبدانهم سورة النشوة . بخطاهم اعتزاز . فى عيونهم ثقة . فوق شفاههم بقية مما لا كوه من نصر الضحاك ! .. وعندما قاربهم ، لم يحاولوا أن يداروا عنه ما أكلسته وجوههم من شماتة . .

وحدس وجهتهم ، فسألهم بمألوف حديثه الساخر :

« إلى أين يا أبناء الشانئين ؟ ... أبمعاوية تلحقون ؟ ... »

فلم يكتموه . بل تباروا — فى صلف وخيلاء — يبادرونه بما يكمده ..

فثار :

« عداوة والله منكم قديمة ! ... تريدون إطفاء نور الله ، وتبديل أمره ! ... »

وبعث بخبرهم ، وما سمعه من انتصار بطلهم ، فى كتاب إلى أخيه ، قال فيه :

« ... فأف لحياة فى دهر جرأ عليك الضحاك ! . . وما الضحاك ! . . لقد توهمت حيث بلغنى ذلك أن شيعتك وأنصارك خذلوك ... فاكتب إلى يابن أمى برأيك فإن كنت الموت تريد ، تحملت إليك ببنى أخيك وولد أبيك فعشنا معك ما عشت ، ومتنا معك إذا مت ... »

فصحح له الإمام فى رده ما بلغه من أمر الضحاك ... ووضع صدق الخبر مكان زيف الشائعة . ونفى بالواقع التوهم ... وكفه وأهله أن يلحقوا به ...

ثم قال :

« ... وإن رأيى جهاد المحلين حتى ألقى الله ، لا يزيدنى كثرة الناس معى عزة ، ولا تفرقهم عنى وحشة ، لأنى محق ، والله مع الحق »

ومع ما بدا من تشدق معاوية وأتباعه ، بالشام وما دونها جنوبا ، بما أصابه الضحاك من فرار ألبسوه ثوب النصر ، ومن خزى لونوه بالفخر ، فقد كانوا

يدركون أن الانقضاض المباغت بالغارات الإرهابية مجازفة خطرة ، قد تضطرب بها عليهم العواقب ، وينكفئ الميزان ...

فلا جدال في أنهم يعلمون من طبيعة على ما لا يطمعهم في سكوته على أيما حركة غادرة يوجهونها إلى أي صقع يقع في حدوده ، لأنه ليس بالذي يسكت على اعتداء ، أو ينام على ضيم ولو تخاذل رجاله عنه وشاقوه ، ولو انفرد وحده في الميدان لرد العدوان ... فلن يدعهم وما شاءوا . ولن يكف عن ملاحقتهم ، وتعقب حملاتهم المباغتة بمن قد يصبر معه من صحابه ، أيما خطر للعادين أن يخافتوا بسيرها ويستخفوا بسيرها عن عيون السلاح ...

ذلك قد استيقنوه ... وذلك هو الذي كان يجنح بهم إلى التريث ولزوم الحرص كلما هموا بغارة جديدة . وإذا كان هذا العام التاسع والثلاثون من البعثة النبوية ، قد شهد منهم العديد من الغارات ، فإنها غارات تلاحقت على فترات ، ولم تنطلق مجتمعة ، في وقت واحد ، لتتفرق هنا وهناك في أطراف على ، فتأتى بالنتيجة المرجوة التي تشق من أجلها ، عادة ، حروب العصابات

ولا يخفى أن هذا النوع من الهجمات المفاجئة ، له أثره النفسي فيمن يصيبهم شره ، وفيمن يبلغهم أمره وهم بنجوة منه ، سواء بسواء ، لأنه خليق بأن يهز ثقتهم في النظام الذي يستظلون به ، ويشيع فيهم القلق والإحساس بالافتقار للأمان والطمأنينة ... لكنه لا يخفى أيضا أن ما قد يحيق بالغارة المباغتة من هزيمة ، في صورة ضربة قاصمة رادعة أو صورة إكراه مذل على الفرار ، هو خليق بلا ريب أن يهبط بنفس العادي درجة أو درجات عن مستوى الاعتداد ، وأن يرتفع بنفس عدوه ، في المستوى ذاته ، درجة أو درجات . فإذا اصطنع معاوية الحذر ، وهو يهم أن يدفع بهذه الغارات ، وفارق ما بين الواحدة منها وتاليتها بفترة زمنية ، فإنه الحذر الذي لا مناص منه ، مع غريم له طبيعة الإمام ...

بل قد كاد عاهل الشام أن ينفض يده من هذه السياسة الإرهابية ، إذ استجاش رجاله ، يوما ، للنهوض بها فلم يسمعوا له ، أو أنصتوا ولم يلبوه ، أو تريثوا بدعوته وأمهلوه ...

قال عندئذ :

« أما من رجل أبعث به ، بجريدة خيل ، حتى يغير على شاطئ الفرات ، فإن الله يرعب بها أهل العراق ؟ ... »

وعلقت دعوته بالهواء ثلاثة شهور ! ...

حتى إذا كانت غارة الضحاك التى تباعدت بخطاها عن الكوفة ما استطاعت ، واكتفى منها معاوية بطريق مكة تغير فيه على الحاج ، وتلم ببعض نواحيه ، على حافة ما فى نطاق السلطان الأموى ، آن لحملة الفرات أن ترى النور ...

جاءه النعمان بن بشير ، ينذر نفسه للمهمة العسيرة :

« ابعثنى ! ... فإن لى فى قتالهم نية وهوى ... »

فتطلقت أسارير العاهل ، وقال :

« فانتدب على اسم الله ... »

فانتدب الرجل . وانتدب معه ألفى رجل من المقاتلة أعدوا فأحسنوا الإعداد ...

ونصحهم معاوية وهم يهمون بالانطلاق ألا يدنوا من المدن ، وأن يتجنبوا الجماعات ، وأن ينقضوا على المسالح ثم لا يشغلهم شاغل عن التعجيل بالرجوع ...

وخرجوا يغذون السير

فإلى أية وجهه سار ؟ ...

بدا كأنه شاء أن يساحل بعصبته حتى يبلغ ماء الفرات ، كأمنية سيده ، فمضى من دمشق ، شرقا إلى الجنوب يجتاز الصحراء وقطع فى زحفه على رمالها مائتين أو نحوها من الأميال ، ليعصف ببلدة عين التمر ، على مبعدة غير طويلة من النهر .

وأحسن النعمان الاختيار ...

فلقد كانت البلدة من المناطق التى يحسب لها حساب ، لأنها تقع قرب مجموعة من المدن . فعصفه بها إذن أولى بأن ينشر الذعر ويوقع الاضطراب فيما جاورها

من البلدان ... وكانت أيضا فى حماية ألف مقاتل من رجال على . فاقتحامها حين تسير به الأخبار ، مؤد لا محالة إلى استهانة الناس بجيش العراق ، ثم إلى تهاوى شوكة الإمام ...

لكنه ، إلى جانب هذا ، كان ماكراحذرا كثعلب ، فلم يقترب من عين التمر إلا بعد أن علم أن كعب بن مالك الأرحبى ، عاملها من قبل على ، قد أذن لرجاله الألف فيها — إلا مائة — أن يعودوا إلى الكوفة ...

وما تفعل مائة أمام ألفين إذا نشب قتال ؟ ...

توشك الحرب ألا تقع لأن هذه الحامية الصغيرة حرية بأن تلق السلاح . أو يوشك أن تستأصلهم الغارة المباغتة إن هم حاولوا الثبات . وفى هذه الحالة أو تلك لن يكون سيره إليها إلا نزهة . وهجومه عليها إلا تسلية . ونصيبه منها إلا النصيب من ذبيحة ذلول ، رقدت طائعة ، ومدت عنقها لسكين الجزار ! ...

وانتبه الناس فى عين التمر ، فإذا مشارفها قد أخذت عليهم بألفين من المقاتلة ، عتاة بغاة ، قد أشهروا السلاح ، ينصبون كالسيل على البلدة الآمنة ...

وعجب مالك وهو يرمى ببصره إلى الويل الزاحف ، يتصدره النعمان ابن بشير .

وتحركت شفتاه وما نطق ، كأنما يسر إلى نفسه بحديث ...

النعمان !

أفهكذا يجزيه على صفحه الكريم هذا الزنيم ؟ ...

أفيؤدى إليه دينه : جحودا لقاء الجميل ، وغدرا لقاء الصفح ، وإساءة لقاء الإحسان ؟ ...

وامتلأ بالحزن قلبه ، وغص حلقه بمرارة الأسف والندم على اليد البيضاء التى سلفت منه للقائد الغير ..

لكنه أسرع يجمع مائته ، ويهيء لهم موضع اللقاء ...

فلقد عزم . ولا بد من قتال ...

ثم كتب عجالة قصيرة فى كتاب ، دفعه لرسول من لدنه للكوفة ، يبلغ الامام :

« . أما بعد ... »

فإن النعمان بن بشير قد نزل بى فى جمع كثيف . فر رأيك ، سددك الله ... .. »

٢

قصة النعمان بن بشير الأنصارى مع مالك بن كعب الأرحبي ، هى أمثولة منشورة الصحائف ، عالية الجرس ، ثابتة الألوان ، تعبر بالكلمة وبالواقعة عن ذلة النفاق ، وخسة الكنود ، ولؤم الغدر ... ثم تلق ، بلفظها الظاهر ومغزاها المكنون ، بقائد غارة عين التمر إلى وهدة من الضعة ، يغوص فيها ضميره إلى أذنيه ! . .

فلقد خاف فذل . وذل فنافق . . حتى إذا أبيح الأمان — منة وكرما — وفتح له الطريق للنجاة ، استمان الكنود والجحود ، وكر بغدره الباغى على ذلك الذى وهبه الحياة ، جزاء على عفوه الكريم . .

وتلك شيمة عرفت هنالك بين أمثاله من أساطين الشام . .

وعنة خلقية فشت فاشيتها ، تلك الأيام ، فى كثيرين .

لكنها عند ذاك كانت — فى عيون أهل هذه المناقص — ميزة رفيعة . . شمارا رفعوه للفخار . . دلالة على الفطنة والاقتدار . . سلوكا ينسب صاحبه إلى الدهاء وحسن الحيلة ، ويعلو بقدمه درجات فى التمرس بسياسة الأمور . .

عن العزة الحقة التى ادعتها لنفسها هذه الفئة المتزة بغير عزة ، التياهة بغير فضل ، قال الإمام فى كلام له جرى عن الوفاء :

« ... إن الوفاء توأم الصدق . ولا أعلم جنة أوقى منه ... وما يغدر من علم كيف المرجع ...

ولقد أصبحنا فى زمان قد اتخذ أهله الغدر كيسا ، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة ... »

فالوفاء — فى اعتباره إذن — قرين الإيمان . والغدر سلعة خاسرة فى سوق الآخرة ، لأنه لا إيمان لغادر . .

وبهذا أيضا نطق قبله رسول الله :

« .. لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة . » .

غير أن النعمان بن بشير الأنصارى — على فضل قومه الأنصار ، وسابقتهم المؤيدة لرسول الله تمكينا للدين — لم يكن ، فيما يلوح من قصته ، ممن يرعون هذه السنة .. وكيف يرعى ، وقد سولت له نفسه التنكر للوفاء فتنكر ، والجنوح إلى الغدر فغدر ؟ . . . ثم اختار ضحية لتنكره وغدره — من دون الناس أجمعين — مالك بن كعب الأرحبى الذى من عليه ، من قبل ، بالنجاة والحياة ! ..

هكذا حدث وكان .

وهذه بداية الأمر كله . .

. . . عندما خطر لمعاوية أن يعز جانبه ، ويرجح ميزانه ، رأى أن يمكر مكرة يبدو بها فى نظر المستريبين فيه ، والذين يعتزلونه ، كمن يحرص أبلغ الحرص على السلم فيطلبه من أى سبيل ، ويؤثر اجتماع كلمة المسلمين وتوثق عروتهم على كل ما عداها من مآرب وغايات أوقعت بينهم فتنة داهمة يصطلى بنارها اليوم فى ساحة الحرب ، فريقا العراق والشام . . فما أن عزم عزمه ، ورسم خطته ، حتى تلفت حوله يعجم الأعواد لينتقى منها أيها أصلح أن يكون مخلب القط الذى يخرج له الشواء من النار ! . .

وكان النعمان بن بشير إذ ذاك من القلة النادرة من الأنصار التى نزلت أرضه ، ولم تتابع عليا توقيا للدخول فى الفتنة ، واعتصاما بالحيدة حتى تتبين الأمور . . وكان أبو هريرة أيضا على هذا النهج ، قد قبع ساكنا يتابع سير الأحداث . . فوقع عليهما الاختيار . .

دعاهما معاوية إليه ذات يوم ، يرجوهما أن يكونا رسولى سلام من لدنه للإمام . قال :

« إئتيا عليا فأنشداه الله ، وسلاه بالله أن يدفع إلينا قتلة عثمان — فإنه قد آواهم ومنعهم — ثم لا حرب بيننا وبينه .. فإن أبى فكونا شهداء الله عليه . . »

جازت عليهما الحيلة . .

فانطلقا لمن أوفدا إليه يبلغانه :

« يا أبا حسن . . إن الله قد جعل لك فى الإسلام فضلا وشرفا . أنت ابن عم رسول الله . وقد بعثنا إليك ابن عمك معاوية يسألك أمرا تسكن به هذه الحرب ويصلح الله تعالى ذات البين ... »

ثم بينا مناط الرسالة :

« أن تدفع إليه قتلة عثمان ، فيقتلهم به . ويجمع الله أمرك وأمره . . وتسلم هذه الأمة من الفتنة والفرقة ... »

هذا إذن ثمن السلام ! . .

وعجب للرجلين كيف لم يفطنا لخدعة ابن أبى سفيان وما كانا ليجهلا قصة المقتل والغدر وقد طال فيها الحديث ، وسلف من الإمام عنها ما يغنى عن كل بيان . .

لكنها غفلة غافل ومكرة لئيم . ولو رجع الصاحبان ، أو غيرهما ، إلى مادار عن مقتل عثمان من كتب وخطب وأحاديث ، قبل هذه الوفادة ، أو بعدها على السواء ، لما بقى لمستريب فى موقف على شبهة تحمل على التردد عن مظاهرته والانتصار له ضد أولئك الذين افتروا عليه هذه الأباطيل . .

لقد قطع على على معاوية ، بالحجة الدامغة التى يملنها واقع الحوادث ، سبيل اللجاج فى هذه القضية . . فحين اتهمه فى دم ابن عفان ، كتب إليه ، وجرت بما كتب الأخبار :

« أينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله ! . . أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه ، أمن استنصره فتراخى عنه وبث المنون إليه حتى أتى قدره عليه ؟ »

وقد عرف الناس كيف آزر الإمام الخليفة على مغاضبيه ، يسعى بينه وبينهم بالصلح ، أو برد نقمتهم عنه ، ثم يدفع بأبنائه فى وجه المتربصين له وهو محصور وإن طالما كفه عثمان عن الصلح والدفاع . . وعرفوا أيضا أن معاوية ، حين استمده الخليفة مددا يذود عنه ثورة مناهضيه إبان الحصار ، لم يزد على أن بعث

اليه بجيش من الشام أمره أن يظل بظاهر المدينة يرقب الأمور بها من بعيد دون أن يدخلها أو يهز سلاحا فى وجه الثوار . . .

يومذاك قال هذا الباكى على دم عثمان ، لقائد مدده يزيد بن قيس القسرى :

« إذا أتيت ذا خشب فأقم بها ، ولا تتجاوزها ، ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فإنى الشاهد وأنت الغائب ! . . » .

فلما قتل المحصور ، استقدم عاهل الشام مدده ، ثم ادعى لنفسه ولاية الدم المراق ، وأكثر فيها الحجاج واللجاج ! . .

وصدق فيه بفمه هذا ما دمغه به الإمام :

« . . . فأما إكثارك الحجاج فى عثمان وقتله ، فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلته حيث كان النصر له ! . . »

ولا غرابة لأن نجاة المقتول لم تكن لتفتح لمعاوية سبيل الإدعاء ، ولا الائتمار بعلى تطلعا إلى السلطان . .

وما هو أيضا من دم عثمان ؟ . . وبأى حق يقيد وليس القصاص إلا لصاحب السلطة الشرعية لا لامرىء سواه ! . . لو أنه أراد العدالة لاستقاد ولى الأمر عندئذ فخاصم إليه العادين على دم القتيل . . لكنه ، هوى وعنتا ، لم يطرق السبيل القويم وأصم سمعه عن دعوة الإمام :

« ادخل فيما دخل فيه الناس ، ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على كتاب الله . . » .

أمثال هذه الأحاديث والوقائع لم تكن غائبة عن أبى هريرة أو النعمان وقد طالما جرت بها الأخبار ، من قبل ومن بعد ، إلى كل مكان . . لكنهما تغافلا أمرها ، أو قد خدعا عنها — بأرفق الظن فيهما وأحسنه — بدهاء معاوية واحتياله . .

ليست الوحدة ما رام عاهل الشام ، بل الفرقة ، وليس دم عثمان بل ابتزاز السلطان ! . . وإذا كان على لم يعوزه إذ ذاك أن يذكرهما ما أخفته الغفلة ، وأن يهتك لهما سريرة صاحبهما فإذا حرصه على اجتماع كلمة الفريقين ادعاء ورياء ، وإذا

رغبته في الفيء إلى الطاعة محال وخيال ، فقد شاء أن يميل بحديثه مع الرسولين ، بعد البراهين والأدلة إلى العتاب الرقيق الذي يزيل الوحشة ، ويهدي القلوب .

قال وهو يختم حديث الجدال والتدليل :

« دعا الكلام في هذا . . »

ثم التفت إلى النعمان يسأله وكأنما يومىء بسؤاله إلى المكانة العلية لقومه الأنصار :

« حدثني عنك يا نعمان .. أنت أهدى قومك سبيلا ؟ . . »

« لا . » .

« فكل قومك قد اتبعني ، إلا شذاذا منهم : ثلاثة أو أربعة . . أفتكون أنت من الشذاذ ؟ . . » .

فأسرع الرجل ينفي التهمة عن نفسه . ويعلن الولاء :

— أصلحك الله ! .. إنما جئت لأكون معك وألزمك .. وقد كان معاوية سألني أن أؤدي هذا الكلام . . وطمعت أن يجري الله تعالى بينكما صلحا . . فإذا كان غير ذلك رأيك ، فأنا ملازمك ، وكائن معك .. »

وانتهى عند هذا الحديث .

أما أبو هريرة فعاد بالرد للشام .

وأما النعمان فآثر الإقامة مع الإمام على ولاء . .

لكنه إيثار نفاق .

فإن هو إلا شهر واحد قضاه بالكوفة ، ثم انتفض — كأنما وخزه الشيطان ! — يتسلل خفية عن العيون والأسماع ، ليؤوب إلى حيث كان ..

لهوى لم يفصح عنه كان قلبه مع الشام وهو يلوذ بالفرار .

كانت قدماه على الطريق للشمال . وكانت حواسه كلها على انتباه . وكانت عيناه خشية المطاردة — في قفاه ! .. لكن حذره ذاك لم يغنه شيئا عن انكشاف سره ، فما كاد يبلغ عين التمر حتى علم مالك بن كعب خبره ، وحال بينه وبين مبتغاه . .

وجيء به إليه فاستفسره :

« ما ص بك بيننا ؟ . . »

قال عوه لعله يفلت :

« إنما أنا رسول ، بلغت رسالة صاحبي ، ثم انصرفت . . »

رسول ! . . فيم إذن كان مكثه بالكوفة ، دون رفيقه ، كل تلك الأيام ؟ . .

ولم يجز قوله على مالك ، بل زاده ريبة فيه . فأمر بحبسه حتى تأتيه فيه بينة .

« كما أنت ! . . حتى أكتب لعلى فيك . . »

هنا خشى الأسير أن يبلغ أمير المؤمنين أمره فيجزيه مغبة نكثه عهد الولاء ، فبعث سرا من فوره إلى ابن عمه قرظة ، صاحب خراج عين التمر ، يستغيثه أن يشفع له فلباه . .

وأبى كعب فى البدء شفاعة الشفيع :

« اتق الله يا قرظة ، ولا تتكلم فى هذا . . فلو أنه كان من عباد الأنصار ونساكهم ، لم يهرب من أمير المؤمنين إلى أمير المنافقين ! . . »

لكنه ما زال به حتى خلاه . .

وضرب النعمان فى الأرض ثلاثة أيام ضالا ، يهيم على وجهه فى تيه من الدعر والتعب والرمال ، حتى انتهى به السير إلى ماء دله على حاضرة الشام . . فقر فيها قراره ، على اعتزال الخلاف المشبوب بين عاملها وبين الإمام ، لا يشارك بشيء فيه . .

ثم وخزه مرة أخرى الشيطان ! . . فإذا هو ينتفض ثانية ، بعد إذ دعا معاوية أصحابه للإغارة على الفرات بثلاثة شهور ، ويبيع لعاهل نفسه وسيفه :

« ابعثنى ! . . فإن لى فى قتالهم نية وهوى . . »

واختار عين التمر هدفا لغارته . . .

ولم لا ؟ . .

ألم يهبه عاملها النجاة والحياة فحق إذن عليه — فى شرعة الجحود والغدر — أن يجزيه عن حسن صنيعه شر الجزاء ! . .

لم يصبر مالك بن كعب الأرحبي على رسوله إلى الامام أن يعود من السكونة بعدد أو كلمة . فلقد كان أدنى إلى طبيعة الناس فيها ، وسلوكهم حيال ما سلف من أزمات ، أن يضعفوا دعوته . يلوكونها طويلا فى فم المطل ماشاءوا ، قعودا عن النجدة ، وفرارا من النفر والجهاد ..

وقد فعلوا ..

فحين خرج إليهم الإمام برقعة عين التمر ، يحدثهم خبر النعمان ، سخوا بالسمع ثم بخلوا بالعمل . قدموا الهم وأخروا الهمة . سارعوا بالوعود وأبطأوا الإعداد .

أهاب بهم أمير المؤمنين :

« اخرجوا ، هداكم الله ، إلى مالك بن كعب أخيكم ، فإن النعمان بن بشير قد نزل به فى جمع من أهل الشام ، ليس بالكثير .. فانهضوا إلى إخوانكم ، لعل الله أن يقطع بكم من الكافرين طرفا . »

فبلعت الآذان الكلام دون أن يترك فى أصحابها أثراً ، كأنه قطرة ماء وقعت على رمل أحرقته وقدة الهجير ! ..

وكرر الإمام دعوته . .

واستقدم ، من بعد ، إليه وجوههم وكبراءهم يستنهضهم أن يسيروا ويحثوا من وراءهم من أقوامهم على السير . . .

فما كان ؟ .

لم يبلغ بهم بداية طرف ما أراد . وبلغوا به نهاية طرف ما نقم . وتمخضت بينهم دعوة الاستغاثة القادمة عليهم من مالك ، ودعوة الحث التى طاردهم بها على — بعد طول إلحاح — ثلثمائة فارس أو مادونهم تجمعوا للرحيل إلى عين التمر ..

وثقل على أمير المؤمنين أمرهم وأعياه حتى أحس كأنما السقم يلفه ، نفسا وجارحة ،

ويهبط بقلبه إلى قدميه . . فما ملك إلا أن يثور بهم — كعادته — ويعنف فى خطابه لهم باللوم المقذع ، والذم الصريح :

« . . ألا إنى منيت بمن لا يطيع إذا أمرت ، ولا يجيب إذا دعوت . لا أبا لكم ! . . ما تنتظرون بنصركم ربكم ! . . دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتم جرجرة الجمل الأسر . . ثم خرج إلى منكم جنيد متذائب ضعيف ، كأنما يساقون إلى الموت ! . . »

ونزل .

وغضب عدى بن حاتم لغضب على وضاق كضيقه بتقاعد أهل الكوفة ، وتبوط همتهم عن نصرة الحق ، فصاح بالناس :

« هذا والله الخذلان ! . . على هذا بايعنا أمير المؤمنين ! . . »

وانطلق على الأثر يلحق به فى داره ، يسترضيه :

« يا أمير المؤمنين . إن معى من طىء ألف رجل لا يعصوننى فإن شئت أن أسير بهم سرت . . »

فهز الإمام رأسه يأبى قبول رأيه :

« لا . . ما كنت لأعرض قبيلة واحدة من قبائل العرب للناس . . لكن أخرج إلى النخيلة فعسكر بهم . . »

غير أن مالك بن كعب فى عين التمر كان أكيس من أن ينتظر عودة رسوله ، أو أن يعلم ختام هذا المشهد الحزين . . فالمغير يطرق عليه الباب ، ولن يدع له فرصة يزيد خلالها رجلا واحدا إلى مائته التى قدر عليها أن تقف فى وجه ألفيه لو أنها خالفت حدسه فصمقت وصممت على اندفاع ! . .

وأسرع فدعا إليه صاحبا له : عبد الله بن حوزة الأزدى ، يقول له :

« إن أقرب من هاهنا إلينا من شيعة أمير المؤمنين وأنصاره وعماله قرظة ابن كعب ومخنف بن سليم . فاركض إليهما ، فأعلمهما حالنا ، وقل لهما فلينصرانا بما استطاعا . . »

وركض عبد الله ، يشق طريقه إلى وجهته تحت ظلة من النبل كان رجال عين التمر قد بدأوا يراشقون بها جيش المغير .

ثم انتقى مالك إلى مائته .

كلا لن يسكت ؛ ولن يلقى سلاحه . . ماترهبه الكثرة . وما يخشى من قلة . فليست القدرة على القتال دائما بضخامة الأعداد . وليس النصر دائما لكثافة الحشود . وإذا كان للإيمان دور حاسم فى نتائج المعارك فما يعوزه وأصحابه الإيمان . . ولسوف يلقى كل هذه الجموع العادية بفئته القليلة ، فيدمرها ، أو يردها ، أو يلقى الله . .

ونظم المائة لما أعد ، بثقة المؤمن ، وحنكة الخبير . . ثم دار على أفرادها يبين خطته ، ويحثهم على الاستبسال :

« قاتلوهم فى القرية . . واجعلوا الجدر فى ظهوركم . . ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . واعلموا أن الله تعالى ينصر العشرة على المائة ، والمائة على الألف والقليل على الكثير . . »

وجمع فى كلماته هذه ما لا تتسع بعده لمزيد من الوصايا والتوجيهات أوامر قائد لأجناده فى مثل تلك الظروف . .

فالحرب بين فئتين كهاتين ، تحتم على أقلهما نفرا أن تأخذ بالحذر ، وتجتنب الدفعة ، وتنأى بنفسها عن المجازفة ما استطاعت ، ثم تضرب حينما تتحقق أن الضربة تنهزها من غريمها مقتلا يوقع به أفدح الوبال ، ولا يصيبها إلا بأيسر خسارة . وهى داخل المدينة أسلم ، عادة ، للمدافعين من الحرب فى ميدان مكشوف ، لأنها أدعى إلى تبعثر قوة المغيرين ، وتفرق جموعهم هنا وهناك فلا يكادون يجدون سبيلا إلى لقاء حاميتها المناضلة بحشد كثيف . . وهى هكذا تشق على الكثرة المهاجمة ، بقدر ما تسهل على قلة المدافعين إذ هم أعلم بالدروب والمسالك فى بلدتهم ، وأقدر على التحصن بأمنعها ، وعلى نصب الشراك والكمائن فيما يصلح من طرقاتها وأزقتها لهذا النوع من وسائل الدفاع وأساليب الإيقاع

بالدخيل . وهى أنسب لسهولة حركة القوة المدافعة فى الكر والفر ، وفى مباغتة المغير حيثما لا ينتظر ظهور مقاومة ، ولا يتوقع نزول ضربات . . وهى أقرب إلى أن ترهب العدو النازل منها بين جمهور من السكان هم أعدى له ، وأخلق أن يناوشوه ، أو يقطعوا عليه الطريق ، أو ينتقصوا أطرافه . وهى بعد هذا كله تتيح توفر الأمن والطمأنينة لحاميتها الصغيرة إذ يلوذ رجالها بالجدران توقيا لأى حصار أو حركة التفاف . .

أحسن مالك خطة الدفاع . وأحسنت فئته التنفيذ . واستطاع بهذا أن يصبر لأعدائه ، وينهك قواتهم وهو يرميهم من مواقعه المكنونة ، وعلى البعد ، بسهام أقواسه ، فإن أقدموا وقعوا فى مراميها . وإن أحجموا لم يغنهم الإحجام .

وطال تناوش الفريقين على هذا النحو . وامتد القتال بينهما — تراميا وتراشقا — بضع ساعات . وأقبل عليهم الأصيل ولما ينل المغير وطره ، ولا كلت القلة عن الثبات . . »

عندئذ آثر النعمان الهجوم وإن نالت من رجاله السهام . . فالشمس توشك أن تطفل . والأفق فوقه يهم أن يتناثر الشفق بأطرافه نذيرا بمقدم الغروب . والمساء بلا ريب حليف قوى لحامية البلدة ، يجنها عنه إلى جوار جنة الجدران ، فتقع غارته بين شقى الرحى : الليل والسلاح ! . .

وعاجل بالانقضاض . فلابد لإنهاء الوقعة من التحام . .

غير أنه لم يروع ، بجمعه الكثيف ، تلك الحفنة من المقاتلة الأجلاد الذين نذروا أرواحهم للموت ، وتعاقدوا على اتخاذ ميدان الوقعة طريقا قصيرا معبدا للقاء الله ! . . فما حياتهم ، بعد فلج عدوهم عليهم ، إلا موت . وما موتهم فى الدفاع إلا حياة . .

ثبت مالك . وثبت حوله أصحابه وقد كسروا جفان السيوف ، يصدون السيل ولا يكلون . لا تتزحزح لأحدهم قدم . لا يهدأ سلاح . لا ترنو عين ولا خاطرة إلى الوراء . فكأنهم قلعة حصينة . أو كأنهم شاطىء صخرى تتكسر عليه الأمواج ! . .

لكن النعمان بن بشير وعصبته قد رنوا إلى الوراء . . ثم روعوا . . . ثم أهطعوا إلى الجرى يستبقون للهروب ، كمثل قطيع مذعور أفزعه الذئب إذ غاب راعيه حاميه ! . . فهاهو مدد يقبل على البلدة ، في السلاح والخيل ، مالهم قبل بملاقاته . إنه ليشرف . يدنو من الساحة . بحيث يحث الخطا ليلحق الدم ! .. هاهو يكاد يلتحم يطبق عليهم . بجناحيهم ليلحق برفاقه . . فلو عهلوا لأعجلهم إلى المصارع ، وجاءهم بآجالهم على يديه . . ولو ظفر بهم لكانوا كأعواد عشب خضر ، وكان لهم منجل حصاد ! . .

فإلى الفرار ! . .

وراحوا ينكصون يرتفعون عن البلدة . . من ورائهم مالك بن كعب وحاميته يشدون عليهم . ومن أمامهم عبد الرحمن بن مخنف ومدده يستعرضونهم بالسيوف ، حتى طاروا بعيدا ، وأمعنوا في الفلاة ، وقد تركوا بضعة منهم على ثرى البلدة ضريبة رخيصة للنجاة !

أيفخر النعمان بن بشير بعد هذا ببلائه في اقتحام عين التمر ، كما فخر قبله صاحبه الضحاك بادعائه اقتحام الحيرة وظل يباهى كلما راقه التوهم واستمرأ السدور في الخيال ؟ أم يكتم الرجل في نفسه فشله ، ويدارى عن الذكر والتذكر بلواه ؟ ..

بل هو أدنى — كلما تذكر — إلى استشعار الخزى واجترار العار ! . . فما لبث إلا قليلا بعد ذلك الفرار ، حتى علم أن المدد الذى روعه ، وحطم أمله في الغدر بمالك ، وفى الإغارة على الفرات ، لم يكن إلا نفرا قليلا لا يزيد على خمسين ، هم كل من استطاع مخنف ابن سليم أن يبعث بهم إلى عين التمر ، مع عبد الله . .

لكن جيش النعمان قد أفسد عليه تدبيره . غرر به . هول له أمر المدد فرأى العدو أضعاف الأضعاف ! . .

وكتب مالك بن كعب الأرحبى إلى الكوفة ، ولما تكن بعد قد سيرت إليه

النجدة التى استمدها لتنصره . فكان كتابه ذاك خاتمة قصة النفاق والكنود والغدر التى مثلها النعمان . .

وعندما بلغ الكتاب الإمام ، وقف فى أهل الكوفة فقرأه عليهم ولهج بذكر حامية عين التمر ، وما أبلته فى سبيل الله . . ثم رمى الجموع الحاشدة أمامه بنظرة ازدراء ، وقال :

« هذا بحمد الله ، وذم أكثركم ! . . »

فنكسوا الرءوس ، ورموا بعيونهم إلى الأرض من استخذاء ! . .

٤

أمعن معاوية في غاراته العدوانية على أطراف الإمام ما شاء له أن يمعن وهو يراها خير سياسة يمكن اتباعها ليرضى بها الموتورين من أتباعه ، المنهومين بالاشتفاء من غريمه ، في فترة الزمن التي ركد فيها الصراع الحربي الجاد بين العراق والشام بعد انطفاء نار صفين .

ولقد ثبت الداهل الأموي نحو عامين على نظرته وإن طالما حثه بعض خاصته على المبادرة إلى المناجزة الشاملة المكشوفة وإنهم ليحسبونها الوسيلة المثلى ، والطريق الذي لا طريق غيره للقضاء الكامل على سلطان علي بعد ما ظهر لهم من اختلاف أنصاره عليه وثبوطهم عنه . واستقام على ما أخذ به نفسه من هذه السياسة المرنة ، المترددة عن الحسم ، المراوحة بين الإقدام والإحجام ، المتبدية ، أمام الناس ، كحرب وما هي بحرب ، والمؤثرة ، في جوهرها ، وفي حقيقة الأمر ، لسلام ما هو بسلام ! . .

ولا غرابة هنا في تشبث معاوية بنظرته ومخالفته بها نظرة أخلص خلصائه من آل بيته وأعوانه ، إيمانامنه بأنها وحدها أداته الطيعة إلى الأمن على نفسه وإقليمه . وإلى التربص بالزمن حتى يسانحة تيسر له الوصول إلى غرضه من أقرب سبيل . وإذا كان قادة الرأي في الشام قد استنفروه إلى الحرب الفاصلة وألحوا عليه حتى أرهقوه . وإذا كان هو قد رأيهم ألا يعجلوه على رغبتهم حتى نبوا به ، فإن هذا الإرهاق وهذا النبو لم يدفعاه إلى الرجوع عن رأيه بقدر ما دفعاه إلى الإصرار عليه ، وإلى رياضة نفسه على مراودتهم ومطاولتهم ما وسعته إلى ذلك حيلة .

لكنهم أثقلوا عليه بالمعاودة والمراجعة بين كل حين وحين .. وكان أثقلهم ، فيما يلوح ، الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، لأنه كان أنباهم بهذه السياسة لفرط حقده على الإمام ، وتعجله الشماتة فيه ! . . فلم يكن يرى الأناة في حربه .

ولا يستصلح الغارات على أطراف بلاده ولا يرتضى إلا المعاجلة بتسيير الجيوش الكثيفة إلى قلب دولته ليكون ذلك أبلغ فى هلاكه واجتثاث أصل سلطانه . . فدون هذا الاجتثاث والهلاك لم يكن ليهدأ لابن عقبة بال . .

وكأنما اشتهر الرجل بين رفاق معاوية بهذا التطرف ، فكان المحور الذى تدور حوله سياسة العنف السافر ، والعلم الذى يلتف به دعاة الحرب المعجلة ، يؤمونه ليذا كروه ما يجد من أمور وأحداث يرونها خليقة بتغيير أسلوب الهوادة والانتظار . ولم يكن الوليد — بغله وبغضائه — فى حاجة إلى أمثال هذه المذاكرات لتزيد من غلوه ، وتصب نقمته على الإمام فى أذن عاهله على هيئة غيرة حريصة على الملك الأموى النامى فى الشام . بل كان دائما أسرع بما يسمع ويرى إلى معاوية ، ليهيجه إلى القتال .

فى لقاء له مع نفر من رفاقه الغلاة ، على رأسهم ابن مسعدة الفزارى ، قيل له :

« إن الناس لا يشكون فى اختلاف الناس على على بالعراق ، فادخل إلى صاحبك ، فمره فليسر بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم ، أو يصلح لصاحبهم ما قد فسد عليه من أمره . . »

فاستقبل الوليد إجماعهم على بعثه بكثير من الرضا ، وقليل من التمتع ، وقال :

« لقد قاولته فى ذلك وراجعته وعاتبته حتى لقد برم بى ، واستثقل طلعتى . . »

لكنه ما لبث أن أردف فى إصرار :

« وأيم الله ما أدع أن أبلغه ما مشيتم إلى فيه ! . . »

وانطلق فأبلغ على خيلاء ! . فقد طالما دعا معاوية إلى ما يدعون فرده بإباء أشبه بالازدراء . .

ودعاهم العاهل إليه :

« ما هذا الخبر الذى جاءنى به عنكم الوليد ؟ . . »

قالوا يحرضونه :

«خبر فى الناس سائر . . فشمر للحرب ، وناهض الأعداء .. اغتنم الغرة ! .. إنك لا تدرى متى تقدر على مثل حالهم التى هم عليها الآن ، فو الله لولا تفرق الناس عن صاحبك لقد نهض إليك ! . . »

عندئذ اصطنع معاوية الرفق فى الخطاب ساترا عنهم ضيقه بهذا الإعجال الذى يجيئونه اليوم فيه ، وطارده به قبلهم غيرهم من الغلاة . . فقال فى هدوء يبرر أخذه باجتناب الحرب المكشوفة مع على وإن مزقت شيعته الأهواء :

« . . هؤلاء الذين تذكرون تفرقهم على صاحبهم . . لم يبلغ عندى بهم أن أطمع فى استئصالهم واجتياحهم ، وأن أسير إليهم مخاطرا بجندى لا أدرى على تكون الدائرة أم لى . . . . »

ثم استطرد يحذرهم الدفعة وما يرومون ، ويبين لهم جدوى سياسة المراوحة بين القتال والسلام .

قال :

« . . إياكم واستبطائى ! . . إنى آخذ بهم فى وجه هو أرفق بكم ، وأبلغ فى هلكتهم . . قد شننت عليهم الغارات من كل جانب ، فخيلى مرة بالجزيرة ، ومرة بالحجاز . . وقد فتح الله مصر ، فأعز بفتحها ولينا ، وأذل عدونا . . وأشراف أهل العراق يأتوننا فى كل أيام . وهذا يزيدكم الله به وينقصهم ، ويقويكم ويضعفهم . . فاصبروا ، ولا تعجلوا فإنى لو رأيت فرصتى لاهتبلتها . »

على هذا اعتزم ، وثبت عامين ، تجنبا للحرب الشاملة التى يستحثه عليها أعوانه .. لأنها حرب صريحة ، معلومة الزمان والمكان ، لا مناص فيها من لقاء مكشوف مع من لا قبل له بلقائه وهو الإمام ! .. ولا عبرة ، إذا وقعت ، بتشقق أهواء أهل العراق ، واختلافهم على على ، لأنه عندئذ الاختلاف الذى قد يذيبه القتال ثم لا يغنى عن المخاطرة بجند الشام ! . . أما حربه الخفية التى يطلقها على غير توقع من عدوه ، ويرفع فيها شعار : « اضرب واهرب » ، فله فيها ولقومه جنة وأمان ولو إلى حين . .

ولقد مضى الرجل وما رأى بأسلوبه هذا حتى فرق من غاراته فى أطراف

على نحو عشر فى العام التاسع والثلاثين ، بوجهها لتقتل وتسلب ، وتسير فيما تنزل من مناطق سيرة قاطعى الطريق عسى أن يشيع بها فى نفوس الناس قلقا ينتهى بهم إلى الإحساس بالضياع والافتقار للطمأنينة ، فيسلبهم الثقة فى دولة تعجز عن حماية مواطنيها وتحقيق أمنهم على النفس والمال ليندفعوا من بعد فى طريق العصيان . .

بهذا الرجاء سير فرقه العدوانية ، ما مس منها بأدنى الأرض وما ضرب فى أقصى الأبعاد ، لتبث الإرهاب وتنشر الخراب . . ولسنا نراه حين فعل قد وطد نفسه — مع أسلوبه القتالى المتذائب — على الفلج فى كل الغارات . بل لعله حدس قبل بدئها ، كما أيقن من نتائجها ، أن جهد عسكره لن يجيئه منها — إن جاءه ! — بنصر مذكور ، ولن يبلغ به إلى اقتطاع سلخة من هنا أو سلخة من هناك من أرض الإمام . . فما أصاب شيئا إلا أن دمر وخرب ، ثم قتل أناسا ، ونهب آخرين كانوا ، فى حساب النفوذ ، غير ذوى حول فى تغيير الأوضاع السياسية القائمة ارتفاعا بسلطانه أو هبوطا بصولة غريمه . وما أدرك من غاراته كلها إلا فرار عصاباته بالخزى ، وجلها إلا الهزيمة . . وإذا كان قد استطاع بهذه الفرق العدوانية المنقضة أن يطأ ما جاوز حدود إقليمه ، فقد استطاع أيضا أولئك الذين سيرهم الإمام لردع المغيرين أن ينفذوا من حدوده ، ويقتحموا عليه ولايته ، ويوغلوا فى قلبها إلى بعلبك ، مصعدين منها لأقصى الشمال ليهبطوا ، بعد رحلة طويلة وتوغل عميق ، من الرقة عند شاطىء الفرات إلى الكوفة . .

بل قد أوشكت إحدى غاراته أن تبوء ، مع الهزيمة ، بالاستئصال ، لولا أن أنقذها الانعطاف للرحم من الوبال !

تلك غارة الفزارى على تيماء . .

شاء صاحب الشام عندئذ أن يعهد لأحد زبانيته المسير بغارة عجلية إلى بلاد لا يخطر انتهاك حرماتها بشطحة خيال أو تصور احتمال ، لعله حين يسلب أهلها أمنهم المفروض ، ويبذر فيهم الحزن والخوف أن يشيع فى العالمين اقتداره على إنزال الضربات حيثما أراد وإن أبت قواعد العرف ، أو شطت بهدفه المراحل وبعدت

المسافات . شاء هذا معاوية ، فبعث عندئذ إلى عبد الله بن مسعدة الفزارى ، وعقد له على نحو ألفين من مقاتلته مجهزين . .

وأمره : أن انزل تيماء . وسر منها إلى المدينة ومكة وما يليهما من بلاد الحجاز . وخذ الصدقات عنوة من الناس ، فمن امتنع عن اعطائك فالدماء فى الأداء ! . .

وكذلك أبرم العاهل قضاءه فى أولئك الآمنة من قاطنى الأرض الطيبة ، اللائذين بمهبط الوحى ، والبلدة الحرام ، والبيت العتيق ، ومهجر الرسول . فما ترده سياسته العدوانية عن اقتحام المقدسات .

وانحدر الفزارى بغارته جنوبا عبر الصحراء حتى بلغ تيماء على مبعدة نحو خمسمائة ميل من مكة ومثل نصفها من المدينة وإنه ليعصف بمن لقى من أهل البادية غير متأثم ، فيأخذ مالهم غصبا ، ودمهم إرهابا ، لا يكفه عنهم شىء إلا أن يذلوا له أو يتابعوه . . واستطاع بهذا الأسلوب الغاشم أن يلوى إليه كثيرا من الأعراب ، بعضهم لحق بشرذمته كالخراف المذعورة تتلمس الأمان فى ظل كلب القطيع وبعضهم يلحق بذيله ابتغاء الأسلاب ، كأنهم الضباع المنهومة تتبع الوحش الضارى ابتغاء ما يفضل منه من بقايا الفريسة ! . .

ولا عرو بعد هذا أن يمنى الفزارى نفسه بمواصلة ما بعث فيه ائتمارا بأمر عاهله ، وازدهاء بالجموع الكبيرة التى قهرت على السير فى ركابه . وأن يسبق المطايا بخياله إلى اجتياح الحجاز . . وما يعوقه الآن والطريق مفتوح ، وهذه المدن التى غدت مطمح إرهابه لا يكاد يجنها عنه جند مجيش أو تدانيها يد السكوفة إذا هى إرادت مقاومته وإنها منه بمنتأى سحيق ؟ . .

وأوشك أن يطير إلى هدفه . فما هو أن أعد عدته بمبارحة تيماء ، حتى فوجىء بفزارى مثله على رأس فرقة من رجال الإمام طوت إليه البادية والليالى ، لتوقظه من حلمه . .

وتلفت ينظر . .

ما ثمة منفذ لهرب ، أو ثغرة إلى نجاة . . وليس بد من دم ! . .

وتدانى الجمعان . عبد الله بن مسعدة الفزارى على رأس العصابة الأموية ، والمسيب بن نجبة الفزارى يقود نجدة العراق . . لا معدى الآن عن التحام . لا فرصة لأحد الرجلين للإدلال بأصله على غريمه . لا رجز المفاخرة بالآل ، كما هى عادة الغرماء عند اللقاء . . فكلاهما من نفس الدرجة . والمباهاة هاهنا للسلاح .

وعلى الأثر نشبت الحرب

تصاول بجنديهما الفزاريان . . التقى السلاح بالسلاح . . . هاجت الأسنة المشرعات . . تسعر الصراع حمما وصواعق . . حميت وقدة الوغى ساعات . . حتى إذا أوشك النهار أن يبلغ الزوال ، وتهادت الشمس للغروب وشفقها ينعكس على مرآة الأفق ما تناثر فوق ساحة المعركة من دماء ، بادر المسيب بن نجبة يحمل برجاله على عبد الله بن مسعدة وشرذمته ، ليفرغ منهم قبل غبشة المساء .

غير أن للرحم حقا . وعزيز دم القربى وإن جار . . وإن حم لهب القتال . . وإن ثارت السيوف ، وراحت حين غضبها تقد الهام أو تقد الأجسام ! . فما أن أطلق المسيب سيفه إلى غريمه ابن مسعدة ليصميه ، حتى سارع فكبحه أن يصيب مقتله ، كما يفعل الفارس بفرس حرون ! . .

ثم لمسه ببطن الحسام ثلاث لمسات . . وهتف يهمس بصوت خفيض :

« النجاء ! . . النجاء يا عبد الله ! . . »

وعندئذ اهتبل ابن عمه الفرصة التى مدت له فى الحياة ، وأسرع يتحول بمن معه عن الميدان . . بادروا يطلقون للجياد الأعنة . وينشرون أجنحة الأقدام فلم يمض إلا ما يكاد يشبه تردد النفس بين الشهيق والزفير حتى كان جمعهم قد خرج عن نطاق الأسنة ، وتفرق إلى ما يجنه من الهلاك المحتوم . . بعضهم تشرد فى الصحراء ، وبعضهم تبع قائده إلى حصن قريب

وتفرق عن الغارة من كان قد سار فى ركابها من البدو ، وآزرها خشية وطمعا ، التماسا لأمن أو ابتغاء منفعة . وأغار أعراب النواحى على فلول الفرار يسلبونهم ما نهبوه فى غارتهم من متاع ، وما أصابوه من صدقات . . واعتصم

القائد الهارب ومن معه بالحصن ثلاثة أيام ، لا يكاد يبالى الحصار المضروب عليه لأن للرحم حقا ، ودم القربى عزيز وإن جار ! . .

فكأنى بالفزارى الظافر قد لقى عنتا من صحبه إذ تلبث كل هذا التلبث بالفزارى المقهور .. فحتى متى يرى أن يطول الحصار ؟ . . وفيم تصبره بالمتصمين وما يعوقه شىء عن اقتحام الحصن سوى الاصطبار ؟ . . وإلام يطاولهم وليسوا يملكون لأنفسهم غير الفناء أو الاستسلام ؟ . .

ولعله — وقد خشى إن هو ظل وما هو عليه ، أن يبوء بعظنة ، أو يثور جنده به ، أو يجىء مدد من الشام ، أو يطمع فيه الأعراب — قد اصطنع الحيلة التى تغنيه عن قتل الآل ، وتكف عنه الارتياب . .

أحاط القلعة بحطب ، من كل مكان ، ثم أشعل النار . .

فلما أن تعالى اللهب ، وتكاثف الدخان ، واسودت السماء فوق الحصن كأنما تومىء إلى وشك تفحم المتصمين ، اندلع الصراخ من القلعة المحترقة ، تضرعا وابتهالا إلى المسيب أن يرحم وقود الحريق . . .

أشرفوا عليه بأبصار زائغة ووجوه مغبرة يستغيثون :

« يا مسيب . قومك ، قومك ! . . »

فما لبث غير قليل ، حتى قال لأصحابه فى عجلة كمن دهمته داهمة :

« . . قد جاءتنى عيون فأخبرونى أن جندا قد أقبل إليكم من الشام . . . »

ثم نادى جنوده كأنما يتوقع هجوما وشيكا رآى — حيطة وحذرا — أن يعدهم له :

« . . انضموا فى مكان واحد ! . . »

وأمر فأطفئت النار ، ليخلى بين أعدائه وبين الفرار . .

هنا عجب صاحب له ، وقد تنبه إلى تسلل عدوهم تحت ستر الظلام :

« سر بنا فى طلبهم ! . . »

« لا . . »

وعندما أخذت فرقة النجدة على طريق العودة إلى العراق ، لم يكن على وجوه رجالها من مخايل الفرحة بظهورهم على غارة تيماء إلا كمثل ما تركت النار من حطب القلعة ! . . فقد بدد قائدهم بلاءهم فى الريح ، وأراق نصرهم لتمتصه الرمال . .

وقال له منهم قائل :

« داهنت فى أمرهم . . »

وقال له آخر :

« غششت أمير المؤمنين . . »

لكنه شغل عنهم برجع تلك الأصداء التى ترددت عن قلبه المضطرب ، وملأت أذنيه بطنين داو ، يكاد يعزف على وقع خطاه : دم القربى عزيز وإن جار ! . .

الفصل الثالث

١

ما وراء هذا كله ؟ . .

ما يريدون من أمير المؤمنين ؟ .

أهم علسكون له أمره ؟ . . أم نبوا به ؟ . . أم يرون السكوت على أعدائهم — خلافا لرأيه — أقرب مدخل إلى غايتهم ، وأولى سلوك عليهم اتباعه لفض النزاع ، وترويض معاوية ورجاله فيسلس قياده ، ويكف غربه ، ويكبح عنهم غاراته التي مضت على وجهها ، شهوراً طويلة ، تعيث فسادا في أراضيهم وتركبهم بالضيم ، ناشرة الرعب والإرهاب بين أهلها أينما شاء أن يشير لعصاباته الوحشية ببنان ؟ . .

تيه من العجب والتساؤل تضل فيه العقول ، وتعمى الأذهان ولا تقع في دروبه الجرد على جواب مقبول .

فلولا أن يقال قاتم النظرة ، مسرف في سوء ظنه بهم ، لسلكهم ومن بالشام في خيط واحد حليفين عليه . ولأوردهم أجمعين نفس المورد . ولأولاهم النقمة كلما أتيح له أن يضرب بكلمة أو سلاح . . فما يراهم كافة : عراقا وشاما ، هنا في جيرة الرافدين ، وهناك على ضفاف بردى ، إلا في حلف وثيق مع البغي عليه ، يصدرون في شروطه بينهم عن مباينة له ، واختلاف عليه ، وتوافق على الفراغ منه . . .

لكنهم هاهنا في الكوفة ، أشد عليه من أولئك الذين يحركهم الساهل الأموي كالذي ليشهروا السيف في وجهه ، ويزلزلوا الأرض تحته ، وينكثوا في عينه خيوط الأمور والناس . . فعيشه بينهم قلق ، وثقته فيهم ريبة . . وصبره ملل ، وفكرة توجس ، وجهده انتظار !

هم في ثياب أولياء وصحاب . . يرفعون شعاره ، يضوون تحت رايته ، يلتمون إلى زمرة نصرائه يضيفون في كثافة صفوفه . ثم يطالبونه بالولاء مع كل صباح

وإنهم لا يغلون حربا عليه — إن لم يزيدوا — عن أهل الشام الذين يناصبونه العداء على علانية وإسفار ... ودهم رياء . ولاؤهم زيف . طاعتهم قولة لسان تجمد دلالتها ما إن تلامس الشفاه ... وقلوبهم ، بعد هذا ، هباء وهواء إذا جد الجد لم ترع عهدا قطعوه ، أو أقبل الزمن عليهم بخطر ذابت كما تذوب ذرة الملح في الماء ! . .

بررة أولياء حين العهد ، وجحدة عصاة ساعة الوفاء ! . في كل يوم لهم غد يتملقون به ، وفي كل حال لهم عذر يزوقونه ، وفي كل دعوة لهم علة يقدمونها : حججا حاضرة تحاول أن تبرر ثبوطهم عنه ، أو نكوصهم على الأعقاب كلما حثهم على الجهاد .

فما غاية هذه المشاقة ؟

ما قصارى تعللهم الذي أولعوا به وأحكموه ولا يزالون يلزمونه حياله رياء له ، أو عبثا به . أو تخاذلا عنه . واستمساكا عليه ، كأنما التسلل قد غدا — فيما يخالون — هو سواء الصراط ! . .

لنوشك الآن — وهو يكابد محنته بهم وبلواه فيهم ، كما يكابد المصحر الظمآن قيظ الصحراء — أن نطوى معه الزمن والمسافة إلى الوراء . . أن ننوء ذهنا وبدنا إلى مدينة الرسول . . أن نعيش وإياه عهد الكفاح الأول المرير والرسالة بعد غرسة طرية العود . . نوشك أن نراه يعود القهقرى على جناح أحاديثه — ليجد كسفة من رجاله في إهاب أولئك المنافقين وضعاف الإيمان الذين التووا أشد التواء بمحمد وهو يدعوهم حينذاك إلى الله . يظهرون له غير ما يبطنون ، ويكتمون ما يرومون . ويقولون ما لا يفعلون ، وإن بدوا للأسماع والعيون كمن يسيرون في موكب الإسلام . .

سيرة هي السيرة ، وصورة كأنها الصورة لولا أن الشمس لم تجمد على حافة الأفق ، والظل لم يسكن ، وحركة الحياة راحت تمضى إلى غايتها المقدورة تقطع المراحل على مدى الأعوام والفراسخ لتستدبر قديما وتستقبل جديدا من الأمور والأحداث .

ومع ذلك فليس بقديم ذلك القديم الذى غاب ، ولا بجديد هذا الجديد الذى لاح ، لأن مظاهر الرثاثة ومظاهر الحداثة جميعا قد امتزجت ، وذاب بعضها فى بعضها الآخر دون معالم تميز هذا المظهر من ذاك . فكأنما « كوفة » الحاضر هى « مدينة » ذلك الغابر ! . كأنما الأمس لم تغرب شمسه واليوم لم يبزغ فجره . كأنما العين التى عاينت الماضى أخذتها عليه غفوة فلما انتبهت وقفت مرة أخرى على نفس ما كان فى مجال الشهود والعيان ! . .

أفهو تغيير ؟ . .

بل لا خلاف فى الحالين ، لا تباين بينهما إلا أن يكون فى اسم أو سحنة أو موقع من الأرض لم تسكن لأنها من قبل هيئة فى العين أو البال . ثم نشط الخيال فإذا الذى درس قد تجسد وانبعث حيا لينطبق به ما كان على ما آن ! . . فما مضى نشر وعاد . وما وقع بالأمس يقع اليوم . العمل كالعمل . والمظهر كالمظهر ، والصورة القديمة التى انطوى عليها سجل مدينة الرسول قد انشق عنها هذه الآونة سجل كوفة الإمام ودبت فى أوصالها الحياة ! . .

عود على بدء !

زمرة النفاق والرياء طفت من القاع على سطح الزمن من بعد رسوب ! . .

أولئك الذين كانوا يدبون حوله على الأرض بالعراق لا يكادون يفترقون فتيلا عمن دبوا قبلهم بمقدار جيل على ثرى الحجاز . . لكأنهم لهم أشباح ! . . بل كأنهم خيال لأصل أو أصل لخيال ! . بل إنهم وهم سواء . ولو أنه تخفف قليلا من ثقل الزمن وحيز المكان لسمع محمدا ، من وراء حجب الماضى ، وهو يردد ما نزل فى أمثالهم على عهده بما وصفهم به الله ثم يكاد ما يردده فى أولئك أن ينطبق على هؤلاء :

« . . . إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يشهد إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة ليصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . . »

كمنافق المدينة غدت هذه الفئة من أهل الكوفة التى تماين عليا اليوم . .

قول ولا عمل . تظاهر وادعاء . وعد ولا وفاء . ولو قد انبعث فيهم ، هذه اللحظة ، رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول ، لما أنكرهم ، ولا وجدهم تربة غريبة لاستنبات الفتنة والأذى والخلاف للإمام كاستنباتها للرسول . .

قليلا في بدء عهده كانوا ، ولا جدال . كان على العين آنذاك من عامين أو ثلاثة أعوام ، أن تقلب النظرة النافذة في الجموع لتقع بينها على عاذج منهم ، وعلى الفكر أن يقابل ويقارن ليفرق — بغير قليل من العناء والجهد — ندرة خبيثة توشك أن تغيب في غمار جمهرة نقية لم يلطخ قلوبها دنس النفاق . لكنهم ما لبثوا أن تكاثروا ، على الأيام ، أضعافا عديدة تهول ، كما يتكاثر العفن على الدمن الدوارس بأرض وبيئة ، ليغدوا وهم كثرة غالبة ، أصحاب الطهر بينها أشبه شيء بغرة بيضاء في رأس غراب ! . .

ولكم توقع من قبل هذه النتيجة الوبيلة ، وخاف على الجمهرة النقية من القلة العفنة ! . . كم خشى على السواد الأعظم من الناس أن يفتنه انحراف البضعة الجانحة لهواها ، ويجرفه نفاقها معها إلى الهوى وللنفس البشرية نزوات لها سطوات وجمحات ، وللنفاق عدوى ذريعة لا يسلم منها من القلوب إلا ما عصم الله .

من البدء أشفق على رجاله من هذه المغبة الوخيمة ، فراح يحذرهم الخطر عسى أن يحفظوا قلوبهم سليمة في جنة حصينة ، عصية على شرة النفاق . . لكنهم لم يصغوا له . لم يعوا قوله . لم يأبهوا قليلا ولا كثيرا بما كان يسديه من ذوب علمه وقد طالما ساق إليهم في أحاديثه الحكمة بعد الحكمة والنذير تلو النذير . .

كان من وصاياه :

« . . . عباد الله ، أحذركم أهل النفاق ، فإنهم الضالون المضلون ، والزالون المزلون . يتلونون ألوانا ، ويفتنون افتنانا . يعشون الخفاء ، ويدبون الضراء . قولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء . . قد أعدوا لكل حق باطلا . ولكل قائم مائلا . ولكل باب مفتاحا ، ولكل ليل مصباحا . . يقولون فيشبهون ، ويصفون فيموهون . . أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . . . »

غير أنهم سدروا فى عمائم . أبى عليهم الغرور أن يسيروا على نهج نصحه منهم ادعاؤهم العلم أن يتلمسوا علما فى غير ما يعلمون كأنما قد أوتوا وحدهم خزائن للمعرفة ! . ولو أنهم أنصفوا أنفسهم ، وانتصفوا للحق من هواها ، لما كان لمثل الأشعث بن قيس فى حياتهم شأن . ولا للخريت ولا للخوارج . ولا لابن هند الذى تسربت إليهم دعاواه وزيوفه تزاحم الهدى فى قلوبهم ، وتطغى عليه ، وتغرق آخرتهم فى زخارف دنياه حتى تبدوا كأنما أشربوا حب العاجلة وجرى فى عروقهم مع مياه الحياة ! .

أفمن جهالة جرفهم هذا التيار ؟ . . أم عن غفلة ، أم اغترار ! . . أم هو العنت والإصرار ؟ . .

عن كل هؤلاء ! . .

فلقد قدم الإمام صورا عدة رسمتهم لنا من كل زاوية ، وفى كافة الأوضاع. فإذا هى لا تخالف الواقع المتلون الذى عاشوه . .

فهذه صورة :

« مالى أراكم أشباحا بلا أرواح ، وأرواحا بلا أشباح ، ونساكا بلا صلاح ، وتجارا بلا أرباح ، وأيقاظا نوما ، وشهودا غيبا ، وناظرة عمياء ، وسامعة صماء ، وناطقة بكماء ! . . »

وهذه صورة :

« . . . . يعيشون جهالا ، ويموتون ضلالا . . ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلى حق تلاوته . ولا سلعة أنفق بيعا ولا أغلى ثمنا من الكتاب إذا حرف عن مواضعه .. ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر .... »

وتوالت الصور فى كلامه مثلا وراء أمثال ، وشبها تلو أشباه .

هو الآن منهم فى محنة تعضله ، وبلاء يعييه . وهم منه فى تقريع ولوم ، اليوم بعد اليوم ، فلا قومهم التقريع ولا طوعهم اللوم . . فكم بصر وبين ، وأفصح وأوضح فإذا هم لا يعون . وإذا الشاذ هو دينهم ، والمعوج سبيلهم ، والمشاقة هى الجادة التى استقاموا عليها لو كانت استقامة على ضلال !

ما من ساعة فى عهده إلا طالعتهم بهداه ، وكاشفتهم من خبىء علمه بما يصلح حالهم ، ويؤيد صحته منطق الحوادث لعلهم أن يرجعوا عن غيهم ويثوبوا إلى الصراط لو بقيت فيهم حاسة تميز الباطل من الحق ووعى يفرق الظلمة من النور .. وما أكثر ما ضاق منهم بالصلف والادعاء وتحجر القلوب وجمود الأفهام ! . . ما أكثر ما غضب فعذل ، وسخط فلام ، حتى لقد فاض فيهم حديثه بما لم تسر قبله بمثله أقوال أو تخط أقلام ! . .

مرة قال :

« .. . ولقد أحسنت جواركم ، وأحطت بجهدى من ورائكم ، وأعتقتكم من ربق الذل وحلق الضيم ، شكرا منى للبر القليل ، وإطراقا عما أدركه البصر وشهده البدن من المنكر الكثير .. . »

فهو يغفر جحود الكثرة ، ويغضى عما يصيبه من أذاها أو تقارف من السوء إكراما لحسنى القليلين . أو يصبر على شر غامر قناعة بخير يسير امتثالا — بلا تشبيه — للكلام الإلهى الذى قد يجزى السيئة بمثلها ولكنه يجزى الحسنة بعشرة أمثال ليوسع فى العفو ، ويخفف عن المسيئين . .

ومرة قال :

« .. . أحمد الله على ابتلائى بكم ، أيتها الفرقة التى إذا أمرت لم تطع ، وإذا دعوت لم تجب . . إن أمهلتكم خضتم ، وإن حوربتم خرتم .. أما دين يجمعكم ! .. إنه لا يخرج إليكم من أمرى رضا فترضونه ، ولا سخط فتجتمعون عليه .. قد دارستكم الكتاب ، وفاتحتكم الحجاج ، وعرفتكم ما أنكرتم لو كان الأعمى يلحظ ، أو النائم يستيقظ ! . »

يناقش ولا يملى أو يأمر . ويقرع ليذكر ، ويثير ليؤثر ولئن لاح فى ثنايا هذه الأسطر كمن ضاق حتى دنا من اليأس ، فقد أورد فيها من الأسف ما يبديه كمن لم يهجر الرجاء ، لأن أسفك على ما يبدر من خطأ غيرك تعبير عن أملك فى رجوعه عنه ! .. ولئن كان ها هنا قد خاطب العقل خطاب من استنفد الحجج والأدلة ، فإنه قد خاطب العاطفة بأسلوب من يحرك الحمية والغيرة . .

ومرة قال :

« . . ما عزت دعوة من دعاكم ! . . ولا استراح قلب من قاساكم ! . أى دار بعد داركم تمنعون ، ومع أى إمام بعدى تقاتلون ! . . المغرور والله من غررتموه . . . »

فكأنما آده يأسه !

كأنما هم أن يرفع القلم ، ويطوى الصحيفة ، ويغسل يديه ! . .

واكتملت أمامنا ، من أحاديثه الصورة القديمة لزمرة المدينة أولئك ، من ضعاف القلوب والمنافقين ، فى مستهل عهدها بالإسلام . .

وكيف لا وهاهم أولاء قد تقمصوا جلود تلك الطائفة حتى ليشتبه الأمر بين الفئتين على المرء لولا فارق الزمن والمسافة ! . إنهم كأولئك سواء بسواء . . يتلونون ألوانا . يفتنون افتتانا . يمشون الخفاء . يدبون الضراء . .

أمامه تراهم بوجه ، ووراءه تراهم بآخر . . قولهم زيف . وعدلهم حيف . ووعدهم خلف . وولاؤهم رياء . . قلوبهم فى كلامهم جميع . وأهواؤهم فى فعالهم شتى . . لا يكادون يبرحون مجلسه حتى ينفرط عقدهم ، وينتكث عهدهم ، وتنفض كثرتهم — عنتا ومشاقة — عن رأيه الذى تابعته عليه منذ قليل ، كأنما يحرصون أن ينطبق عليهم قول الله :

« ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم . . »

بل ليمعنون أحيانا فى اللجاج والحجاج هربا من الحق الذى عشت قلوبهم عن ضيائه ، ولياذا بالباطل الذى استمرأوا العيش فى سراديبه كدأب الخفافيش فى فرارها من النور :

« يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . . »

ثم يريثونه عن الجهاد ، ويعطلون به ، كلما دعاهم بدعوته فيقعدون عنه — تخاذلا أو خوفا — ويحملون معهم من وراءهم على التبوط ابتغاء السلامة ، وحرصا على الدعة والعروض حتى ليحق فيهم ما أورد التنزيل :

« ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا ، والله على كل شىء قدير . . » .

وكم من نماذج لهذا السلوك الذى التزموه مضت فى العصيان حتى قاربت المعصية ، واستدبرت الامتثال حتى أوشكت أن تباعد الإيمان ! . .

٢

ألوان من السلوك شتى ، اتفقت جوهرا واختلفت مظهرا ، لو أن أصلا ردت إليه فكان منبعا نبعت منه ، لكاد مصدرها ألا يكون سوى تطلعهم الشره إلى ما لم ييسره لهم الله من حظوظ ذاتية ، يعجلون قلوبهم وأنفسهم إلى طلبها طمعا وشهوة ، ابتغاء مغنم فى مادة ، أو شهرة فى جاه ، كأنما أبوا أن يرتضوا قسمة ربهم وتقديره فسعوا لاقتناص ما هفوا إليه ، بغير حقه ، وفى غير أوانه ...

ذاك سبيلهم وإنه لسبيل الجهال الضلال ، والغواية التى تلح دائما على أبناء البشرية فتلتوى بهم عن الجادة المستقيمة ، إلا من عصم الله ، ووقاه الفتنة ...

سبيل حبيب مرىء ، فى حساب النفس ، يستقبله ويهطع إليه زيغ الأهواء . خبيث وبىء — فى حساب الروح — يستدبره ويترفع عنه كرم الأخلاق ...

فأى الحداة حدا لهم ، وقاد قافلتهم ، وانطلق بهم فى مهامه الخلاف والشقاق والتناحر ، يضطرب بحطامهم ، ويتذاءب بها بين خوفهم على اليوم ، وقلقهم من الغد ، حتى أوغل بهم فى أعماق التيه ؟ ...

لا عن الخطأ البرىء الذى ينشأ — مع طهارة النيات — عن اجتهاد الرأى عند وزن الأمور بميزان التقدير ... ولا عن الجهل نتيجة لانطماس الحقائق والافتقار إلى الهداية والتبصير ... فما خلت سيرة الإمام فيهم ، تلك الآونة الحرجة فى حياة الإسلام ، من حجة دامغة تقدر فتحسن ، ومن عظة بالغة ترشد وتبين لو خلصت طوايا ، وصحت عزائم ، ووعت عقول ا ....

فإذا لم يكن الحسد هو مثير الأطماع ، والانحراف هو المطية الذلول إلى بلوغها فلا مطايا إذن ولا مثير ! ... ولا عجبا من بعد لو تبدى لنا الأيام ، فى وضايله ، حربا على كليهما شعواء ، لأنهما منقصة للخلق الفاضل — الذى يستقيم به السلوك فتصلح العلاقات الإنسانية بين الأفراد وتعز المجتمعات — قبل أن يكون منقصة الدين ، أى دين ، وللإسلام — بخاصة — وقد بعث نبيه العظيم ليتمم مكارم الأخلاق ...

فى هذا المجال يقول الإمام :

« ... إن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة فى أهل أو مال أو نفس ، فلا تكون له فتنة »

تلك فتنة الحسد الذى تثور فى النفس ضواريه المنهومة وتدفع بصاحبها إلى التحلل من القيم والمبادىء إذا ما استقل حظه من الدنيا وهو يرى غفيرة تزيد فى حظ سواه من الناس فى الولد أو الرزق أو العمر وغيرها من فضول الحياة ...

ثم أوضح فقال :

« ... وإن المال والبنين حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد يجمعهما الله لأقوام ... فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه . واعملوا فى غير رياء ولا سمعة ، فإنه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له »

ولم يكن فى قوله بالسابق . ولكنه كان المترجم الأمين لما ورد عن هذه الفتنة فى الآثار .

فلقد نهى الله خلقه عن الحسد ، وأعاذهم من خطره وشره :

« قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات فى العقد . ومن شر حاسد إذا حسد . »

وحذرهم سبحانه ما يجرهم إليه من ضياع :

« من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب . »

وأثر فى كتب الأولين أنه عز وجل قال :

« الحاسد عدو نعمتى ، متسخط لفعلى ، غير راض بقسمتى .. »

وروى عن رسول الله :

« ألا لا تعادوا نعم الله . »

قيل :

« يا رسول الله ، ومن يعادى نعم الله ؟ ... »

قال :

« الذين يحسدون الناس . »

وليست هذه دعوة للتواكل ، تميت الطموح ، وتقتل الهمة ، وتحبس المرء فى واقع ضيق فلا يحاول — بالتزامها — أن يخرج من هـذا الواقع إلى ما هو أرحب وأجدى عليه . بل هى دعوة إلى الطهر والتعفف ، تعصم النفس البشرية من الحسد الذى يطلق الشهوة جامحة بلا عنان ، تعربد كما تشاء ...

فالطموح — كدلالة لفظه — نزوع إلى الأعلى الأرفع . فهو سمو وتحليق . وهو ، لهذا ، أدعى أن يبلغ به المرء شـأو غرض نبيل ، بحقه ، وفى أوانه ، من طريق نظيف ، بلا انحراف ولا اعتساف ، ودون ترخص منحاز فى اختيار الأساليب والوسائل ، لأنه ينشر جناحيه على أرض « عامة » قبل أن يرتادها حب الذات ...

والحسد شهوة نهمة . فهو تدل ونزول . وهو أدعى ، لهذا ، أن يشد صاحبه إلى قاع القاع ، لأنه شعور مسعور ، بجنون العطش والجوع ، يتخبط المرء مسه فلا يحس إلا بذاته ، ولا يعمل إلا لها ، حتى لا تكاد عينه تقع على شىء إلا جرعه أو التهمه ، ليرضى شراهته ، غير كاف عن غث أو ثمين ، قليل أو كثير ، له أو لغيره ، وبلا تحرج عن ركوب أخس الأساليب واصطناع أدنأ الوسائل بلوغا إلى مشتهاه ما دام قصاراه ملء ذلك الفراغ الرهيب الذى يعيش فى جوفه وفكره ولا يعرف الارتواء أو الامتلاء ...

داء عياء ولا كالأدواء ... يمزق صدر صاحبه ، ويفترس إنسانيته ، ثم لا يكون نقمة عليه وحده بل يرزأ — بآثاره — من حوله ومن فى وثاقه من الناس ، لأنه يضربه هو بالبلاء ، وهو يضربهم بالابتلاء ! ... وقد جاء عن عقبى الحاسد وسوء مآله فى حديث مرفوع :

« الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »

وأجمل الإمام ضراوة المحنة التي يوقع الحاسد فيها نفسه في صورة بيانية ، تجمع إلى وضوح المعالم لذع السخرية ، فقال :

« لله در الحسد ، ما أعدله ! بدأ بصاحبه فقتله ... »

ولا شفاء من بعد لهذا الداء إلا من داخل المرء ، لأن ذاته التي أفرزت العلة هي هي التي تفرز الدواء ... وهل ينشأ الحسد في نفس إنسان إلا من تطلعه النهم إلى حظ لم يقسمه له الله ؟ ... وهل يمارس دوره في الحياة إلا بتعجل تحقيق الرغبات الخاصة تعجلا يدفع إلى النزو الآثم على حظوظ الناس ؟ .. فإذا لم يكن كبح النفس عن هذه الشهوة الشرهة ، ورياضتها على التعفف عما في يد غيرها هو العلاج ، فبأي وسيلة أخرى ينحسر الداء ؟ ...

الصبر وحده هو الوقاء ، وهو الدواء ... وهو أشبه شيء بسلوك المؤمن ، وأخلق بالاتباع فقد ورد عنه على لسان رسول الله :

« الصبر نصف الإيمان . »

واستفسروه الإيمان ما يكون ، فقال :

« الصـــبر والسماحة . »

وسئل الإمام :

« أي شيء أقرب إلى الكفر ؟ . »

فأجاب :

« ذو فاقة لا صبر له . . »

ولا مراء . .

فالحاجة تدفع وتحفز وتثير .. وقد تطيح بالصواب ، فهي إذن محنة واختبار والمحن محك الإيمان .

وكأنما شاء أن يبين للناس الصبر كيف يكون ثقة في الله ، وإسلاما له ، فقسمه ثلاثة أقسام :

« إما صبر على المصيبة ، أو على الطاعة ، أو عن المعصية . . »

وفى هذا تحصين للنفس — لا معدى عنه — من عادية اليأس والجزع ، وغواية الانتقاض والتمرد ، وإغراء الفسوق والكفران . . وهو رياضة لها تهيؤها — عند الغضب — لاستقبال ما تكره بالأناة التى تعمق النظر ، وتأخذ بالتثبت ، فتحسن التقدير وتجيد التدبير . . وهو إلى غير هذه وتلك من مزاياه ، قمع للشهوة ، وكبح للهوى ، ووقاية من الضلال ، وضمان لالتزام استواء السلوك . .

غير أنه المركب الخشن الذى لا يكاد يقدر عليه غير أولى الفهم الذين أشربوا الدين ، ولم يتخطفوه عبارات . . والدواء المر الذى يعافه — جهلا أو ظلما — كل من هفت نفسه ، كمثل هؤلاء ، إلى عرض دنياه ، وغلبه على الحق هواه .

فلو أنهم عقلوا ، لأكرهوا نفوسهم على حسوة منه ، تحقق البرء ، وتذهب بالداء . . ولاختاروا سلامة الروح . . ولآثروا طريق الإباء والترفع والعفة — وإن شق وطال — لأنه السبيل إلى الانتصار على النفس ، وتحطيم النقائص وسيادة المثل الرفيعة ومكارم الأخلاق ، خروجا بالسلوك البشرى من سجن الأنانية والنفع الخاص إلى رحابة إنكار الذات ، والنفع العام . وبلوغا إلى بناء مجتمع إنسانى فاضل يظله الصفاء ، ويسوده السلام . . وهل هو خاف أن الحسد مثير للبغضاء ، مؤجج للعداوات ، مؤد إلى التناحر لأنه ينبع من الحقد ، ويعمل للأنانية ، ويدفع إلى السطو على ما فى يد المحسود وابتزازه ثم إلى تأمين ثمرة هذا الابتزاز بكل موبقة يعرفها الجشع ، أو يبتكرها ، من رياء ونفاق ، وافتراء وكذب ، ووقيعة ودس ، وقهر وإرهاب . .

على هذه الصورة كانت الحال ، تلك الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية تحت مجهر الأحاديث والكتب التى أعلنها الإمام . فى الشام كما فى العراق . . فى الأعداء كما فى الرفاق . فى القلب كما فى الأطراف بغير كثير من التباين والاختلاف . . تحاسد على الحظوظ . وتهافت على الدنيا ، وتسابق على الاقتناص أو الابتزاز ، جريا وراء النفوذ ، أو المظهر ، أو الثراء . وكلها كفيل بأن

يشحن النفوس بالبغض ، ويدفع القوم فيما بينهم للتناحر ، لأنه قد تملك العقول والمشاعر ، وتحكم في الأفكار والأفعال .

ولا مدعاة هنا لوجوب القول بخرق هذا التعميم أو شدخه بالاستثناء أو الاستدراك لأن هذا بديهي معلوم . فالاستثناء قرين كل قاعدة ، والاستدراك رفيق كل اطراد ، لأن الظاهرة من الظواهر الاجتماعية : سقيمة أو سليمة . لا تسيطر على عموم وإطلاق .. بل هي تسم المجتمع وتطبعه بطابعها ثم لا تكون فاشية في كافة طبقاته وأفراده على سواء . . فهي تسود هنا بقدر ، وهناك بقدر ، على تفاوت ، متراوحة الانتشار فيه — من جانب لجانب ، وجماعة لجماعة — بين كثافة ورقة ، شيوع وندرة ، مد وجزر ، بروز واختفاء . .

تلك طبيعة الأمور في كل أوان . وهي ها هنا على نفس النسق والنظام . . فإذا مضت النظرة تتخلل الوضع عندئذ فإن المجتمع الإسلامي لم يكن بعد متسق الصفحة ، ساكن الوجه ، كسهل منبسط أو ا كبركة آسنة ، تتشابه في كليهما المعالم أو تكاد حتى المستوى فيبدو كأنه بلا فوارق ملحوظة تؤثر في رتابته ، وتميز مكانا به على مكان . . إنما كان أشبه شيء بأرض تغايرت سطوحها ، وتباينت مستوياتها بين لين وحزونة ، هبوط وارتفاع فإذا هي أنواع . فيها الهضاب والوهاد . وفيها الجبال والوديان . وفيها الكثبان والقيعان . فلقد كان مجتمع تلك الأيام يتألف من كتل عدة من الجماعات البشرية ، عليها رياسات شتى مؤتلفة ومختلفة ، كانت — على ما بها كلها من تقارب نسبي في مظهرها الاجمالي الذي طبعها به الدين والتوحد السياسي — يبرز بعضها على السطح الشعبي العام ، بفعل الأصل والتراث والظروف الاجتماعية ونزعات النفس ومذاهب الآراء ، كما تبرز الصخور والجنادل على سطح النهر ، فتؤثر في تدفقه ، وتضطرب بسيره ، وتحول مجراه . .

كتل عدة ذات رياسات مختلفة الطبائع ، متباينـــة التكوين ، متغايرة الاتجاهات كانت هي التي تلعب الدور الأول — على تفاوت وسائلها — في تطوير الأحداث . فهي وحدها التي تملك القدرة على الإعداد والتوجيه ، وعلى الحشد والتجمع . وهي وحدها التي تستطيع أن تتحكم في العمل القومي ، وتفرض

أسلوبه . وهى بهذا وذاك كانت بيدها أعنة الموقف ، تحرك الرأى ، وتسوق الأحداث ، منطلقة بالشعب فى حينما ارتضت له أن يسير إلى حيثما اشتهت أن يكون المصير . ولا غرو ! . . فما يمكن أن يقال ، إلا بحذر شديد ، إن التقليد العربى الذى يجعل مشاورة الرئيس للقبيلة وسيلة لحسم الأمور ، كان دائما — عند اختلاف الآراء — يفرض سلطانه ليحقق الحكمة منه ، فيرجح رأى الكثرة — أو الجمع كله ! — إذا كان الرئيس فى الجانب المرجوح . ذلك ما تكاد طبيعة الحياة القبلية تأباه ، لأن أبناءها الذين نشئوا على توقير الكبير والولاء له ، يؤثرون — فى الأغلب — لرأيه أن يطاع ، عن اقتناع أو عن اتباع ! . . . وما يمكن أيضا أن يقال ، إلا بحذر أشد ، إنه كان ثمة إذ ذاك « شعب » بمفهوم هذه الكلمة الحديث ، له رأى يعلن ، وإرادة تريد . بل تلكم الكتل ، برياساتها ، كان لها الأمر فى الأمة ، تعزم وتبرم ، وتعلن فتسمع ، وتسوق وتقود وجمهور الناس من ورائها إما تابع أو قابع ، ينقادون أو يشاهدون ، فيجرفهم التيار ، أو يصيبهم رشاشه . .

ولقد كانت كثرة هذه الكتل المسيطرة قبلية ، بطبيعة الحال ، تجمع بين أفراد الواحدة منها صلة الدم أو رباط الاستلحاق . وكانت بقيتها ، بصفة عامة ، بضعا منها مقتطعة ، قد انفصلت عن أصولها ، نتيجة للتطور ، فرادى وشراذم ، واستقلت باعتناق رأى خرج بها عن حظيرة إجماع الآل من هذه القبيلة وتلك ، فإذا هى كتلة جديدة ، سياسية كالعثمانية ، أو مذهبية كالخوارج ، تضم أشتاتا من القبائل ، وتعمل لهدف خاص فى نطاق مبدأ جديد ، لا فى نطاق ولائها القبلى القديم . . . .

فى هذا الإطار ، وبنفس المجهر الذى تمدنا به أقوال على فى معاصريه ، تنجلى أمام الأعين تلك القوى المسيطرة على حركة تاريخ الدولة الإسلامية فى ذلك الحين والمالكة لزمام موكب التطور ، فإذا هى فى حقيقة الأمر قلة من الناس مكنت لهم أوضاع المجتمع فى النفوذ ، ووضعتهم الظروف فى مقدمة الصفوف . . قلة استبدت بالأمر دون الشعب ، وباسم الشعب ، وعلى كره من إرادة السلطة الشرعية ، ومباينة لاتجاهها وسياستها ، ثم على خلاف الناموس الإلهى الذى نزله الله للعالمين دستور هداية وخطة سلوك . . فإذا حسب حاسب أن

أمير المؤمنين — حين أنحى بلائمته على أعوانه ، وجرم فعالهم ، فيما سلف من أحاديثه — إنما كان يعنيهم « كافة » دون أن يدع منهم جماعة لم يلبسها التهمة ولم يلزمها الإثم ، فذلك حساب خاطئ ، وتأويل ضال ، لا جدال . لأنه يخالف طبائع الناس ويجاوز حدود المنطق . . فأنت تتكلم فتعمم وأنت تريد التخصيص . وتجمع وأنت تريد التحديد ثم لا يحمل قولك على ظاهر وجهه الذى ترسمه الألفاظ . وهو أسلوب فى اللغة معروف ، يعبر بالكل عن الجزء ، كأن تقول : أشارت يده وتعنى بنانه . وجاءت الأمة طائفة والمراد عدد من أبنائها ، كثير أو قليل ، على سبيل التصوير والتمثيل . .

قلة إذن ، بالقياس إلى المجموع ، كانت هذه الكتل التى دمغ الإمام سيرتها الناضحة باللوم والزراية إذ هى جنادل العرقلة وصخور التعويق التى تعترض التقدم الشعبى العام ، وتميل عمدا بتياره الدافق إلى الركود أو إلى الانحراف . . فهى عوامل تخلف فى طريق الانطلاق . وصنائع ردة فى طريق الأخلاق . وشراك خداع وتغرير ، وأوكار تمرد وانتقاض فى نظر الدعوة الصحيحة وفى حساب الولاء المشروع . يتساوى منها فى هذا من سكن الشام أو أقام بالعراق لأنهم آثروا لأنفسهم أن يعيشوا بها ، ويعملوا لنفعها ، بوحيها وهواها ، حائلين بين جمهور الشعب وبين وقائع الحال وحقائق الأمور بما التزموه من سياسة الرياء . . فهؤلاء هنا — ممثلين فى فرقة الخوارج ، وفى جمهرة الحزب العلوى — يموهون أولاهما تظهر التقى والغيرة على حكم الله ، وأخراهما تظهر الطاعة والولاء للإمام ، دون أن تقرنا المظهر بالعمل المخلص الجاد وأولئك هناك — ممثلين فى الحزب الأموى — يموهون . يظهرون غضبهم للدم الحرام ، ويدعون الانتصاف للقتيل المظلوم إقرارا لشريعة الله ، فإذا دعوتهم ادعاء مضلل ، وغضبهم حيلة محتال ! . .

أولاء وأولئك فئتان زائغتان ، لم ترم كلتاهما ما تبدتا عليه أو دعتا إليه ، وإنما ابتغتا به السمعة وحسن الأحدوثة بين ظهرانى الأمة سبيلا إلى ما تشتهيان وتتطلع إليه الأطماع . . فلا فى قول تصدران عن رعاية للزواجر الخلقية والدينية التى تروع الأهواء ، وتهذب الاشتهاء . ولا فى عمل تصدران عن رغبة نقية فى مرضاة الله . بل القول والفعل جميعا رئاء الناس حتى ليعجب المرء كيف

يرتضون لأنفسهم مثل هذا السلوك ثم يسوغونه للشعب ، ويجيزونه عليه بما لهم من نفوذ ، وإنهم كافة لأول أجيال الإسلام ، وأقرب أبنائه عهدا برسول الله ، منهم كثيرون عاصروه ، وكثيرون عرفوه ، وكثيرون خالطوه وسمعوا منه ، أو سمعوا عنه ، ما كان أدعى لأن يعصمهم من الرياء . .

فلقد قال :

« إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . . »

قالوا :

« وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ . . »

قال :

« الرياء ! . . يقول الله تعالى إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فاطلبوا جزاءكم منهم ! . »

بار سلعة لصاحبه ، وساء سيرة عند الناس ، وكبر مقتا عند الله مسلك المرائين ! . . فالعمل ذو الرياء ما هو بعمل على الحقيقة — لا في حساب النية ، ولا بمقتضى النتيجة — لأنهم لم يضمروا ما أعلنوه ، ولم يصلوا به إلى ما ادعوا ابتغاءه والسعى إليه فلا مثوبة إذن عليه . . وهو خداع يتغفل الناس ، ويغرر بهم مستغلا ثقتهم ، منزلقا بخطاهم على التضليل إلى الضلال . . وهو تظاهر بنشدان حق أو بتغيير باطل يخفى المراءون قصدهم وراءه عبثا بالحقيقة وبالعقول كأنما سرهم ، أبدا ، مصون مكنون ، وكأنما ليس عليهم حسيب رقيب . . أفنسوا الله ؟ . . أم حسبوا أنهم يسترون عنه ما يضمرون ؟ . . أم غرتهم الأماني فاستهانوا بعلمه هو الذى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ويعلم خافية الأنفس وما تكن الصدور ؟ . .

قيل :

« إذا راءى العبد ، قال الله سبحانه وتعالى للملائكة : انظروا إلى عبدى يستهزئ بي ! . . »

فلا إلى غير الله ينبغى اتجاه النيات . ولا لغير ابتغاء مرضاته تقال الأقوال وتؤدى الأعمال . ولا بغير وجهه يتعلق الأمل ويعقد الرجاء . .

فى مثل هذا يقول الإمام :

« لا يرجونّ أحدكم إلا ربه .. . . »

وإذا كان الرياء كريها منهيا عنه فى الدنيويات ، فإنه فى العبادات أدعى لأن يكون أشد عند الله مقتا ، وأزرى عند الناس بصاحب العبادة ، مهما أحسن وقدم من خير ، حتى إنه ليذهب فى الآخرة بإحسانه ، ويتهمه فى العاجلة فى دينه . .

فعلى ما اشتهر لابن الزبير من ورع ، طالما رأى الناس منه ألوانا ومعالم تفوق تقوى التقاة ، ونسك العباد . لم يعفه ما ظهر من عبادته من خوضهم فيه عما يشين سيرته ، ويلوث صفحته ، حتى لقد اتهموه بأنه إنما أراد بتقواه صولجان السلطان لم يرد وجه الله . .

فقد ذكر أنه ذهب — وهو إذ ذاك يناهض بنى أمية وينازعهم الحكم — إلى امرأة عبد الله بن عمر لتكلم زوجها فى أن يبايعه .. فما أن فعلت ، وأفاضت فى ذكر صلاته وصيامه وقيامه ، كأنما لترفع عند صاحبها قدره ، وترجح كفته على من عداه ، حتى بادرها ابن عمر بسؤال :

« أما رأيت البغلات الشهب التى كنا نراها تحت معاوية بالحجر إذا قدم مكة ؟ . . »

قالت تجيب :

« بلى »

فقال :

« فإياها يطلب ابن الزبير بصومه وصلاته ! . . »

وكيفما كانت هذه الرواية فإنها تفصح لنا عن جزاء الرياء عند الناس ، فإذا هو امتهان وازدراء ، راءى ابن الزبير أم أخلص النية لله فى تقواه ، وأخطأ ابن عمر فى حكمه أم أصاب . . فالحكم دائما على ظاهر . . والنية سر لا يعلمه

إلا الله . . والحد بين الظهور والتظاهر ، وبين الصدق والادعاء كمثل خيط رفيع ، كأنه غزل عنكبوت ، لا يكاد يدع سبيلا إلى تمييز هذا عن ذاك إلا أن يلهم المرء صواب التقدير . . ومع ذلك فالظهور فى العبادة قد يشين صاحبه ، لأنه يستجلب السمعة ، وطلب الشهرة ممقوت من أى سبيل . .

فمن حديث لرسول الله :

« بحسب المرء من الشر — إلا من عصمه الله من السوء — أن يشير إليه الناس بالأصابع فى دينه أو دنياه . . »

ونسب للسيد المسيح أنه قال :

« إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ، وليمسح شفتيه ، لئلا يعلم الناس أنه صائم . وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله ، وإذا صلى فليرخ ستر بابه . . . » .

ومن كلام لعلى :

« تبذل لا تشتهر . ولا ترفع شخصك لتذكر بعلم . . . »

وقد سئل النبى الكريم :

— يا رسول الله ، فيم النجاة ؟ . . »

قال :

« ألا تعمل بطاعة الله وتريد بها الناس » .

وقال :

« يؤتى فى يوم القيامة بالرجل قد عمل أعمال الخير كالجبال — أو قال : كجبال تهامة — وله خطيئة واحدة فيقال : إنما عملتها ليقال عنك . فقد قيل : وذاك ثوابك . وهذه خطيئتك ، أدخلوه بها إلى جهنم . »

فكم منهم من لعله سيجتنب هذا المآل ؟

٣

كيفما كان ما غير القوم عليه ، لم تكن له هو يد فى التغيير . فما بدل مسلكه ، ولا عدل عن رأيه ، ولا جاءهم بعد إمرته بما لم يماقدهم عليه يوم اختاروه .

بل هم الذين بدلوا ونكلوا ، مللا أو شهوة ، من بعد أن ألقوا إليه بالزمام ، وحملوه تبعة الحكم ، وإنها عند ذاك ثقيلة كالجبال .. يومها لم يكن يرمى إلى الخلافة بطرف عينه ! . . لم يدعهم لنفسه . لم يطلب اجتماعهم عليه . لكنهم طاروا إليه حيارى، مضيعين ، يلتمسون فيه الخلاص .. طوعا وجزعا اقتحموا عليه عزلته ، غب مصرع عثمان ، ليكون الأمة ردءا من تلك الأحداث التى علت كالطوفان تجتاح البلاد والعباد . .

ولم يصغوا له . أنكروا عليه أن يأبى الإمرة . ألحفوا عليه فى القبول . ناشدوه الله فى وحدة الأمة وسلطان الدين أن تتمزق ويضيع .. ثم عنفوا به عند الإصرار . ثم أكرهوه بالسيوف . ثم تنفسوا الرضا والطمأنينة إذ أطاعهم ، فعاهدوه النصرة ليجتاز بهم المحنة الحازبة إلى محق الباطل ، وإحقاق الحق ، وإعلاء كلة الله . .

فما بالهم الآن ؟ . ما الذى غيرهم ؟ .. كيف خرجوا من وثاق كلمتهم له ، وعهدهم الذى إبرموه ؟ . أقد استطالوا طريق الكفاح وأعياهم السير عليه ؟ أم نفد الصبر ؟ .. أم راودتهم الأنفس على النكوص ؟ . .

كلما دعا صموا . وكلما أومأ عموا . وكلما جمع شتوا . كأنما بعد أن عاقدوه على الآخرة حنوا إلى الدنيا فآثروها ، وصبوا إليها صبوة الطفل إلى ثدى أمه من بعد فطام ! . .

لم تكن له يد فى التغيير وإن طالما اعتذر لهم عن سلوكهم إزاءه كل من شاءوا انحيازا إليهم ، على حسابه ، بتبرير الوقائع ، واعتساف الأسباب ، عن غرة وجهل ، أو على وجه الأدعاء والالتواء . .

ولقد قيل الكثير فى مجال التبرير ..

قيل :

أغفل على اختلاف الظروف والأوضاع بين ماضى الأمة وحاضرها لحكم الدولة المترامية الأطراف بنفس أسلوب الحكم فى « دويلة المدينة » التى كانها المجتمع الإسلامى عند نشأته ، غير مبال التطور الذى تناول بيد التغيير كل جوانب الحياة الاجتماعية : معنوية ومادية ، على مدى الرقعة الجديدة لشعبه الكبير . .

قيل :

نسى فى الناس طبيعتهم البشرية الكلفة بنعم الدنيا وخيراتها ، الشغوف بالعبور على جسر السعى إلى تعديل نمط الحياة ببلوغ الأنفع الأحسن ، واحتياز الأوفر الأكثر وما يمثله هذا التعديل من رغد ورفاهة عن طريق إشباع غريزة التملك وحب الاقتناء ، فإذا هو يخالف هذه الطبيعة فيهم ، ويحاول — على خلاف سنة الحياة — أن يحبسهم فى واقعهم أو يردهم إلى الوراء ، حاملا إياهم على كل ما يشق عليهم ، ويؤود احتمالهم ، من تقشف وحرمان . .

قيل :

هفت جمهرة أصحابه ، وإنهم لبشر — جزاء عادلا لجهدهم — إلى مثل حال أقرانهم بالشام الذين أوسع لهم معاوية فى العطاء والبذل : مالا وجاها . وسخا عليهم بكل أطايب الحياة وما يفوقونهم بفضل سابقة ولا بلاء ، مادام العمل هو الذى يحدد الجزاء .

قيل وقيل ، من التعلات والمعاذير — حسبما اشتهت ذرائع التدليل وحجج التبرير — كثير وكثير . .

فإلى أى مدى يلم ما قيـل بجوانب الصدق من قريب أو بعيد ، فى الكثير أو فى القليل ؟ . .

وعلى أى نحو يطابق الحقيقة جوهرا — دع الهيئة — وفى الكليات — دع التفصيل — إذا ما وضع فى مجال النظرة الفاحصة ، ثم عورض بمعيار

الواقع الكائن فضلا عن معيار الدين ، ومعيار الخلق ، ومعيار الفطرة وأمثالها من ضوابط الأقيسة ودقائق المعايير ؟ . .

علل سقيمة عليلة . وذرائع مثلومة مفلولة ، كلها لاريب يتعلق بالجانب المعتم في حياة الإنسان ، ويدور بفلكه ، كأنما المرء مادة خالصة ، من لحم ودم وعظام ، جبلت من طين الأرض فلا تقيته إلا المادة ، ولا ينميه غير الطين ، ولا موضع في كتلة الصماء لقبس الضياء الذى نفثه روح الله ليشعل الفكر ، ويذكى القلب ، ويشحذ الضمير ، ويعادل فيه بهذه النفثة الربانية بين كثافة الظلمة وصفاء النور ! . .

إنما يقصر شأو كل هذه الأقاويل ، أصولا وظلالا ، أن يمس الإمام ، أو يلحق بتفكيره أو تدبيره كحاكم وكانسان ، لأنها جميعا في نظرة الحق أباطيل . .

فلا عن إغفال ولا تغافل فعل الإمام ما فعل ، وساس الأمور والناس كما ساس ، وإن شاءت تهمة ظالمة أن ترميه وقد أغمض عينيه عن حركة التطور وما عليه أو تقتضيه . كأنما التطور ، في حساب متهميه ، تحلل . وكأنما مسيرة التغيير تدعو ، لا محالة ، إلى الخروج على ما شرعه الدين من الأسس والقواعد ، ووضعه للحياة من الضوابط والمعايير ! . .

ولا عن نفع خاص ، أو رغبة في التضييق على المسلمين ، حاجز بينهم وبين غريزة الاقتناء أن تمضى على سجيتها ، وحال دون الاكتناز أن يطغى فيهم ، فأعطى بمقدار ، أو حرم ومنع ، وقطع الطريق على الرفاهة والبذخ والثراء إلى الاستشراء . .

ولا عن جحود لبلاء أصحابه ، وإنكار لاقتدارهم ، أو عن شح وتقتير شد قبضته ، فأمسك عنهم ما أباح معاوية أضعافه رجالا مالأوه أو هادنوه لا ذكر لهم في حساب فضيلة ، ولا خطر في ساحة جلاد . .

فإن يكن قيل غفلة عن حركة التطور وعما لا بد أن تفرضه من تغيير ، فتلك غفلة قائل قوله مدحوض مردود بشهادة البداهة قبل شهادة الشهود . . فما كان

سلوك الإمام سلوك الغافل أو المتغافل ، بل سلوك المستيقن الواعي الذي تتبدى له خلف ستر التطور المموه بوادر التخلف والانهيار تهم أن تجتاح الأمة فلا يخدعه التمويه ولا يسترخي للتيار .. لكنه يبادر إلى مواجهة الموقف كما ينبغي أن ينهض فيه مناضل يعرف موقع قدميه ، ويرمي ببصره ، وحقيقة دورة فيثبت لعوامل الخلل والانحراف محاولا أن يكسر شرتها ، ويفل حدها ، ويقطع على جحافلها الغازية المادية طريقها ، درءا لخطرها ، وعودا بمجتمعه إلى القيم الفضلى التي أرساه عليها الإسلام وهل من يقول إن الخروج على قواعد الأخلاق، وفصم الصلات الإنسانية الموثقة للإخاء والعدالة والمساواة — بالجنوح إلى الأنانية وتغليب الثروات الخاصة والمطامع الفردية على صالح الجماعة — تطور وارتقاء ؟. أم من يقول إن الدنيا تصلح بتدبير البشر — بكل ضعفهم وخطلهم واضطراب تقديرهم — مثلما تصلح بتدبير خالقهم الذي يحيط علمه بمشهود يومهم ، ومجهول غدهم ، وطاقة الطبائع ، وخبء السرائر ، ونزغ الصدور ، والخفايا المغيبات لهم في الدهر من الصروف والأمور ؟ . .

وإن يكن قيل شاء أن يحارب في رجاله طبيعتهم البشرية الكلفة بتوفير رغد العيش والاستزادة من طيبات الحياة . فحجر عليهم أن يبلغوا مشتهاهم . وضيق عن شح أو ابتغاء وجه التضييق . فتلك فرية شانئ خادع . أو نظرة غر مخدوع . لأن الإمام لم يرد أصحابه على شيء إلا بدأ أولا بنفسه . ولم يحملهم قط على ما يجاوز طاقتهم أو يؤودهم حمله من الشاق العسير من الأمور وإن حمل دائما نفسه على الأشق الأعسر ، تعففا وزهادة . .

قال في بعض أحاديثه :

« . . . إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها . ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها » :

وصدقت سيرته قوله . . .

وزار مرة صاحبه العلاء بن زياد الحارثي ، فقال له العلاء :

« يا أمير المؤمنين ، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد »

فسأله :

« وما له ؟ .. »

قال :

« لبس العباء ، وتخلى من الدنيا . »

فأمره :

« على به »

وجيء بعاصم وإنه لناسك عابد ، نبذ الدنيا ، واشتد فى الزهد على نفسه . فإذا الإمام لا يحمد له سلوكه ، بل ينكره ، ويلومه عليه :

« يا عدى نفسه ! . لقد استهام بك الخبيث . أما رحمت أهلك وولدك ! . أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها ؟ . . أنت أهون على الله من ذلك ! . . »

وكأنما عجب عصام لهذا اللوم على الزهد يسوقه إليه أزهد زاهد ، فقال فى تعجب :

« يا أمير المؤمنين ، هذا أنت فى خشونة ملبسك ، وجشوبة مأكلك ! . »

فكان الجواب الذى تلقاه :

« ويحك ! . . إنى لست كأنت . . إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره ! . . »

وليس هذا بقول من يرى التضييق على الناس وحملهم على التقشف ، ولكنه رأى من يحب أن يفسح لهم فى الطيبات من الرزق ثم يعمل على أن يحد من الرغبات النهمة ، ليقمع الغلو فى مطالب الجسد ، ويمنع استشراء الرفاهة أن يطغى على الروح . فإذا ارتأى أن يشد على بطونهم وأيديهم هونا ، ويأخذهم بزجر الشهوات ، فتلك خطة معلم مصلح ، تروض الطبائع ، وتهذب الغرائز ، وتطهر الأنفس توطينا لهم على الاحتمال والصبر ، وتوجيها إلى ما يردهم عن الجشع ويجنبهم البطنة النفسية . .

وهى طريق نظيفة مستقيمة إلى توثيق صلاتهم ، وتوطيد روابطهم ، ومنع وحدتهم أن تتصدع لأنها الوسيلة التى يقصر بها مسافة الخلف الاجتماعى بينهم من فرد لفرد ، ومن طبقة لطبقة ، بما تؤدى إليه من المقاربة السمحة اللينة بين ما فى أيديهم ، فلا يستطير بعضهم ، بما يملك ويقتنى ، على بعض . ولا تستفحل سطوة المال التى لا تؤمن بغير الأنانية والفردية ثم لا تثمر سوى التحاسد نتيجة لما تخلقه من تفاوت فادح فى الثروات مآله لا محالة وقوع البغضاء واشتمال المداوات . .

وإن يكن قد اختار لهم نهجا جعلهم فى مجال الأرزاق والأعطية خلف أصحاب معاوية ، وأقل حظا من المظهر والجاه ، فليس هذا لأنهم كانوا فى عينه ، وفى حساب الحقيقة ، دون غرمائهم أولئك درجات أو درجة فى السابقة أو فى البلاء . . بل لأنه كان يمثل أقوم شرعة إنسانية ، وأحقها بالاتباع فى ميدان السياسة وميدان الأخلاق على الإطلاق وهى شرعة المساواة . . فهو يسوى بين قومه كافة ، خاصة وعامة ، قريبين منه أو بعيدين عنه ، فيمنح بالحق ، ويمنع بالحق ، ويسوسهم أجمعين السياسة السليمة التى لا تزن الناس بميزان الأحساب والأنساب ، ولا تقيس أقدارهم بمقياس المداهنة والتزلف ، بل تضع العمل فى كفة ، والجزاء فى كفة ، وترتب الحقوق على الواجبات نوعا بنوع ، ومقدارا بمقدار ، بغير تحيز أو تحيف من زيادة أو انتقاص . . ولم تكن هذه سنة معاوية فيمن رعا من رعيته ، وإنما كان ميزانه هواه . يعطى من شاء كما شاء ، ويسخو على بطانته ومن يجتبيهم — من دون الناس — السخاء الذى يرفعه فى أعينهم ، جنوحا إلى الرياء ، وشراء للسمعة ، وهو عليم أنه بفعله يجافى العدالة ، ويهدر المساواة ، ويجور على حقوق من عداهم من الجمهور . .

وشتان هنا بين مطلب ومطلب ، وبين أسلوب وأسلوب فى نظرة الحق ، وفى حساب كبح الغرائز ، وتهذيب الأنفس ، وتقويم الأخلاق ، وتربية الأفراد والشعوب . . فصاحب الشام ، وهو يعطى فيفيض ، كان يعول لنفسه بهذا العطاء والسخاء وإن بدا لأولئك المنتفعين — ولمن بهرتهم أريحيته الظاهرة من أصحاب على — فى هيئة العطوف الكريم . والإمام ، وهو يعطى فيقدر ، كان يعمل

للحق ، وللخلق ، وللأمة جمعاء وإن بدا المسلك المضيق فى ظن أولئك وهؤلاء . وهـل من مراء ، ومعاوية إنما كان يبتغى الحـكم ويسعى إليه من خلال مداهنة طائفة مستغلة من الزعماء ، مكن لها وضعها الاجتماعى فى السيطرة على من تحتها من أتباع . . وعلى إنما كان يرتجى وجه الله بحرصه على إعادة بناء المجتمع الإنسانى من جديد ، وفقا لناموس الحق ، وعلى أساس المساواة التى شرعها الإسلام سبيلا للحياة الـكريمة بلا تمييز — فى جزاء العمل — يرفع الخاصة فوق العامة ، ويضع التابع تحت المتبوع ؟

كانت الإمرة لمعاوية غاية ، وكانت للإمام وسيلة . . قصارى صاحب الشام من سياسته ابتزاز الحـكم إذ هو الغاية التى يستباح فى سبيلها كل مشروع وغير مشروع من الأسباب والوسائل ، وتهون دونها كافة الغايات والحرمات . . ومسلك الإمام تطويع الحـكم وسيلة لغاية كريمة هى إقرار إنسانية الإنسان ، بقمع الانحراف ، وغرس الفضائل ، وسيادة العدل ، وتوزيع ناتج العمل وخير المجتمع — بالحق — على جميع من فيه . . ولا عجب وهو من شب فى حجر النبوة ونهل من مكارم خلق الرسول ، وتشرب دعوته بالفـكر وبالقلب وبالروح حتى نفذ نورها إلى كيانه ، وشاع فيه إلى أبعد أغواره وأخفى خفاياه . . ولا عجب أيضاً وقد طالما تبين معاصروه ، من أقواله وأفعاله ، بيان يقين ، مدى زهده فى نشب الدنيا ، وعزوفه عن السلطان ، لولا تبعته أمام ربه ، وواجبه نحو شعبه .

اسمعه يقول ، فى أول حديث له إلى أمته وهو أمير ، تسمع قول متحرز هياب يقظ الحس ، مرهف الضمير ، يخشى الله ، ويرجو عونه على ابتلائه بمحنة السلطان :

« . . . ألا وإن الله عالم من فوق سمائه وعرشه أنى كنت كارها للولاية على أمة محمد ، حتى اجتمع رأيكم على ذلك ، لأنى سمعت رسول الله يقول : أيما وال ولى الأمر من بعدى ، أقيم على حد الصراط ، ونشرت الملائـكة صحيفته ، فإن كان عادلا أنجاه الله بعدله ، وإن كان جائراً انتفض به الصراط حتى تتزايل مفاصله ، ثم يهوى إلى النار فيـكون أول مايتقيها به أنفه وحر وجهه — ولـكنى لما اجتمع رأيكم لم يسعنى ترككم . . . . »

واسمعه أيضا بعد ذلك وهو خاشع يناجى الله ، تسمع قول معتذر أسيف على قبول السلطة ، وولاية أمور الناس :

« . . . . اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذى كان منا منافسة فى سلطان ، ولا التماس شيء من فضول الحطام . ولكن لنرد المعالم من دينك ، ونظهر الإصلاح فى بلادك ، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك . »

تهم زائفة مفتراة ، ونقد متهافت مردود ، تؤثم الناقد ولا تؤثم المنقود ! . .

فلقد شاء شانئو الإمام ومعارضوه ، فى حين عصره ، وفيما تلاه حق اليوم من عصور ، أن يلصقوا به إغفال حتمية التطور ، والعجز عن إدراك مقتضياته . فإذا هم ، بزعمهم هذا الذى زيفوه ، لا يتهمون إلا أنفسهم ، ولا يسمون غيرها بقصور الفهم ، وكلال النظرة ، وسوء التقدير لحقائق الأوضاع والأمور .

ودعهم وما يدعون ! . . فليس بالجسد وحده يحيا الإنسان . وليس بالتعيش يعيش . . أم يؤثرون — ولا نقول يخالون ! — أن تكون الحياة البشرية — حركة آلية تائهة ، تمضى بأهلها من فراغ روحى إلى فراغ ؟ . . أم يرون الإنسان — رأى يقين — كتلة صماء خالصة ، من دم ولحم وعظام ؟ . . أم يحلو لهم أن يزنوا مطالبه فى هذه الدنيا بميزان المادة ، فلا تكون بهذا الميزان إلا حسية ، ولا يكون هو بها غير شهوة بطن منهوم ، ورغبة جنس شهوان ؟ . .

تلك دعواهم المفتراة ! .

٤

دلالات اختلافهم عليه لا تخفى وإن طالما أضمروها فى مظاهر الولاء . . تجثم فى مغاور الشعور . فى النظرة العابرة . فى نجوى اثنين . فى همس جماعة . فى حركة البنان وإيماء إلهام . . فنى الرغبة المكبوتة دليل . وفى التطلع الشره دليل وفى النقد المزخرف دليل . وفى التململ المائع دليل . وفى السلوك المتجانف دليل . ومن خلال هذا كله يتفجر اللوم فينحرف به كثيرون ــ عفوا أو عسفا ــ ليجرف الإمام ، ولا يصيب بتياره أولئك الحقيقين بأن يغمرهم فيضة من الأقدام حتى الرءوس ، لو أنه ترك لينطلق فى مجراه المنطقى السليم . . .

ولا غرو ، فتلك طبيعة الافتراء ولا تثريب على امرىء أن يجتهد الرأى فيضل الطريق ، أو يقدر فيخطىء التقدير . ولكن التثريب أن يعلم ويستيقن ثم ينأى عن الحق ليأخذ على جانب الخطأ ويعمن فى عماية السبيل . ثم يدعو بدعواه . ثم يستدرج غيره إلى الباطل . . ثم يتهم من أصاب .

هذه خطة فى الدعوة وفى العمل يقوم أساسها على التمويه . ولكنها سهلة ميسرة لكل ذى مأرب لا ترده النفس أن يدخل إليه من أى باب ، ويحصل عليه بأى أسلوب . فما الادعاء إلا تقحم . وما التقحم إلا اعتداء بنقض الحقيقة أو بقطعها أشلاء . فلا حرائج دون وصولى ، ولا حوائل دون ظلام . .

ولقد فشت فاشية الادعاء على الإمام عند ذاك فيمن حسبوا عليه أو حسبوا له من الأعداء أو من الأولياء سواء بسواء ، على تفاوت فى الحجم والكم ، وفى القيمة والنوع ، بقدر التباين بين الغايات . وما كان لها إلا أن تفشو فى ذلك الأوان وتفيض ، لأنها الظاهرة التى تعايش القلق النفسى الناجم عن تمزق المجتمع بسبب تأزم الأحداث الذى شارك فى تكوينه وظهوره تضارب الأفكار ، وتصارع الأهواء ، واختلاف الأهداف .

ومن الخطأ أن يتبادر إلى الذهن أن معاوية كان منبع التمزق الاجتماعى

الذى أصيبت به ، فى هذه الآونة ، أمة الإسلام ، لأنه خطأ لا يفدح العاهل فحسب ، بل يحمل الحقيقة أيضاً فوق ما تطيق . لكنه كان رافدا دفاقا غذى المحنة وأمدها بأقوى مقومات النماء والحياة . أما نبتتها فليست بنت يومها ، ولا هى شامية خالصة ، أو عراقية محض ، تنسب إلى ذلك الرجا أو هذا دون سواها من الأرجاء . . وأما أصلها فضارب فى أغوار ماضى هذه الدولة الجديدة إلى غير قريب . وأما نشأتها الأولى فمعزوة إلى عوامل عديدة مختلفات ، شاركت كلها فى تخليقها بذرة مخصبة . ثم فى غرسها بتربة الاستنبات . ثم فى تعهدها بالسقيا . ثم فى استوائها على ساقها دوحة ضخمة ، صلبة الجذع ، مشتبكة الفروع ، مورقة الأفنان .

عوامل شتى — فى حساب الإحصاء — هذه التى أصابت المجتمع الإسلامى بعرض التمزق وهو فى أوج عزته ، وعارض واحد جميعها فى حساب التأثير . . إنها لتتباعد عهدا ، وتتنوع هيئة ، وتتغاير مواضع ، ولكنها إنما تختلف لتأتلف ، وتفترق لتتسق ، وتتناثر لتجتمع ، وتتعدد لتتوحد . فإذا بها قد تمثلت كتلة متماسكة فى آفة « النظرة الدنيوية » التى ملأت الأعين ، واخترقت القلوب ، وغزت الأذهان . ولا عجب أن يقع للأمة مثل هذا التبدل السريع . فخلائق الناس أدنى إلى حملهم على التعجيل بهذا التبديل ، لأن طبيعة الانسان أميل إلى الأخذ بالمحسوسات منها إلى الروحانيات . ولأن كيانه البشرى ليس به غير روح شفاف يحاول وحده ، كالمستيئس ، أن يتعادل فى ميزان النزعات ، مع نفسه الكثيفة ، وبدنه الصفيق الذى يضم عدة حواس ! .

النظرة الدنيوية هى التى سيطرت على الناس ، وصبغت بصبغتها الصارخة الرغبات والغايات . . فلقد جاءتهم الدنيا فى موكب ثرى يبهر العقول . وراودتهم على البذخ والرفاهة . وفاضت لهم بكل ما تهفو إليه الأمانى وتصبو الأحلام حتى ليوشك المرء منهم أن يبلغ قصارى مشتهاه وهو مريح لا يكاد يمد يدا إليه لاقتطافه بجهد مذكور كأنما الخير غيث منهمر من سماء مدرار ، سحابها لا يقلع ، وماؤها لا يغيض ! . الفىء كثير . الرزق موفور . . المغانم تقبل عليهم من كل مكان مشت عليه الفتوح بالمال والسبى والرياش . فبنوا الجزيرة العربية الذين كانوا ،

فى الأغلب الأعم ، يعيشون الـقشف والشظف والفراغ ، يطعمون التمر ، ويكتسون الوبر ، ويسامرون أنجم السماء ، سخت عليهم الدنيا بلذاتها ، من كل طيب وناعم ومشتهى ، فأكلوا طعام كسرى وقيصر ، ولبسوا الحرير والديباج ، وسامروا الوتر والقيان . أفتراهم وقد تذوقوا هذه النعم ، واستطابوها وألفوها ، نابذيها طائعين ، وآخذين أنفسهم من بعد على ما كانوا عليه من نمط الحياة الغليظ الخشن الذى عاشوه فى مستهل الإسلام ؟ . .

عند هذا تخور عزائم وتضعف إرادات ! . . فالنفس هى النفس ، والإنسان هو الإنسان . وكم من خائر وضعيف أمام ملذات الدنيا ، لا تغمض عنها عينه ، ولا تكف يده ، ولا يتعفف هواه ! . . وما أحلى لامرئ من متعة تسعد بها أحاسيسه ، ويرضى بدنه . وأن يحقق من رغباته الأرضية قوة باحتياز سطوة ، وبذخا باكتناز ثروة ، ونشوة بإشباع شهوة ! . .

وقد استمرأ أناس هذا الضعف ، كما يستمرئ خدر الخمرة أليف الكأس ، لأنه يدغدغ مشاعرهم ، ويداهن غرورهم ، ويعلى لهم فى نزوعهم إلى الزهو وحب التفوق والاستعلاء ، فكان الأشبه الأليق بهم أن يغذوه لا أن يعجلوا بعلاجه أو القضاء عليه . . فما برؤهم منه إلا قمع للغرائز لعلهم لا يطيقونه ، وأحرى بهم ، إن أطاقوه ، أن يجتنبوه ، ما دام يأتيهم من طريق رياضة النفس على الحرمان ، وكبحها أن تنعم بما يرونه لذائذ شهية لا تحلو لهم بغيرها الحياة . . وعرف معاوية فيهم هذا الاستمراء فلم يحاول مناهضة الضعف أو مغالبة غلوائه أن تتفاقم . فلا هو خنقه فى ذات نفسه بضمير رجل من رواد الإسلام ليكون قدوة للاحتذاء ، ولا هو حاربه فى ذوات غيره من الناس بسلطان حاكم مسئول عن تقويم رعاياه . . . إنما أفسح له فى الاستفحال ، وخلى بينه وبين الاستشراء لأنه علمه وسيلته الكبرى إلى استجلاب الأعوان — بل استذلالهم لأمره ، واستغلالهم لأغراضه — جندا كثيفا ينصرونه فى صراعه لاستجلاب النفوذ . .

العاهل الأموى عرف طريقه ممهدا إلى تأليب طائفة من الأمة على الإمام ، وفض طائفة أخرى عنه ، والاستزادة لنفسه ، قبل هذا وبعده ، من الأتباع . .

من خلال المتع والمطامع نفذ الرجل إلى نفوس الكثيرين بما يخايلهم به من كل ما يشبع نهم الأهواء من النشب أو المنصب أو المال . . وبسلطان النزوات وغلبتها على الطبيعة البشرية استعبد الجموع ، سادة ومسودين ، وربطهم بركابه ، ثم ساقهم ، أو قادهم ، إلى حيثما شاء وهو ضامن أن يطيعوه ، لأنه استطاع أن ينمى غرائزهم ، ويربى شهواتهم ، ويغذى كلفهم بالظهور ، فلا غرابة — وهذه كلها ربائبه ! — أن يكون أصحابها أجمعين عضدا له على بلوغ مرماه . .

لا غرو إذن أن تصبح « المادة » فرس الرهان المجلاة فى ميدان الصراع بين معاوية وبين الإمام ، إذ هى العون الأول لصاحب الشام على الاستكثار من الأنصار ، ما دامت لها القدرة الفائقة على الإغراء والإغواء ، والقوة الأسطورية الجذب والاستهواء . . وعندما تقاس بها وسائل على فى الدعوة لأهدافه ، وكلها جهاد للنفس ، لا نعجب حين نرى كيف تتقدم الأولى ، وتتخلف الثانية عنها أشواطا ومراحل ، فى عالم بدأ ينحو إلى الحسيات ، ويدير ظهره للروحانيات . .

وهين يسير أن يعتذر لرجال معاوية بالشام إذ يقبلون على الدنيا يطلبون المال ، وينشدون الرغد ، ويصبون إلى الترف والرفاهة ، فذلك سبيلهم الذى شقه لهم صاحبهم ، ودفعهم إلى السير فيه . ولكنه عسير مستعص أن يعتذر لرجال الإمام بمثل هذا الاعتذار ، لأنه ، دائما ، قد دعاهم إلى التحرر من ربقة المادة ، وسلطان النفس ، مترفعا بهم أن يكونوا كمثل السوائم قصارى همهم من السعى فى الأرض لذة الجوارح ومتعة الأجواف ! . .

إنما قد شاء على لأصحابه أن يكونوا — على ما أرادهم الله — خير أمة أخرجت للناس ، تقتات لتحيا ، وتحيا لتعمل ، وتعمل لتخلد سيرة عطرة على هذه الأرض ، وأنفسا مطمئنة فى رضوان الله . . فالبدن تبع الروح . والدنيا سبيل الآخرة ، وكل حسى مادى ما ينبغى أن يكون إلا وسيلة تخدم المبادىء الرفيعة التى تنق بها القلوب ، وتطهر المشاعر ، وتصفو الأخلاق ، ويعز الإنسان . .

فإذا كانوا قد استجابوا لغير دعوته فعن صمم .. أو مشوا على غير دربه فعن عمى وليس عن قصور منه فى بث الدعوة ، أو تهاون فى التطبيق .. وعود إلى

حديثه لهم يوم البيعة ينبه الغافل ويذكر السهوان ولا يدع لامرئ فيهم ولا من بعدهم مجالا للتعلل أو الاعتذار . .

في بيانه الجامع الذى ألقاه عليهم إذ ذاك ، نشر لهم صحيفته ، موضحا نهجه ، محددا أسلوب عمله بجلاء . .

قال بعد استهلال :

« . . . . إنما أنا رجل منكم ، لي مالكم ، وعلى ما عليكم . . . وإني حاملكم على منهج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمرت به إن استقمتم . . . . فامضوا لما تؤمرون به ، وقفوا عند ما تنهون عنه . . . . »

فطريقه إذن كتاب الله ، وسنة الرسول . أما استقامتهم له ، امتثالا لما يراه ، فهي عدتهم وعهدهم حين بايعوه . .

ثم دار في جموعهم ببصره ، يتنقل بينها من يسار ليمين ومن يمين ليسار ، كأنما يحصيهم عدا ليصرهم أجمعين في نظره صرة الدنانير والدراهم ، لا تدع فيها واحدا ، ثمينا أو غشا ، إلا احتوته وأطبقت عليه ! وعندما استوعبتهم عينه ، رفع صوته يخاطبهم بجرس جلي وقول صريح ، بلا إدغام أو إبهام ، وبغير موازبة أو تمييع ، لكيلا تكون لأحدهم حجة عليه من بعد ، أو يخوض في عباراته ومعانيه بما لا تطيق من تحميل وتأويل :

قال :

« . . . . ألا يقولن رجال منكم غدا — قد غمرتهم الدنيا ، فاتخذوا العقار وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيول الفارهة ، واتخذوا الوصائف الروقة فصار ذلك عليهم عارا وشنارا — إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون : حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا ! . . . »

أفهو بلاغ ؟ . .

بل بلاغ ونذير ! . . بيان أبلج كالنور . ورأى قاطع كالسيف . ونهج مستقيم كالصراط . كلها تعلن على الأشهاد أن ذلك الثراء الفاحش الذى احتازته

طائفة منهم ، فيما خلا من الأعوام ، بغير موجب ، من بيت المال ، قد حانت الآن ساعة الفصل — حقا وعدلا — لرده إلى نبعه الأصيل . وأن ذلك التفاوت بين الناس فى قسم المال ، بهذه الحجة أو تلك ، لم يعد له بعد يومهم وجود فى مجتمعهم الجديد . ولو كان ما أخذوه ، أو يأخذونه ، منحة صلة لرحم . ولو كان عطية سخية عنا لجهاد . . ولو كان فيئا ضوعف مرة أو مرات لقاء سابقة صحبة ، وسابقة إيمان . ولو كان أيضا فى حوزة رجال رفعهم الشرف ، أو قدمتهم الأنساب على من عداهم من الجمهور . فالمال مال الله . والأمة كافة فى قسمه سواء . وما سنه الرسول من التسوية فيه بين الجميع لا ناقض له ، ولا نرخص فيه بزيادة أو بنقصان ، لأى إنسان ، ما بلغ به شأنه من شأو القوة ، أو كرم العرق ، أو عز السلطان . .

وأردف الإمام :

« ... ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ، يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته ، فإن الفضل النير غدا عند الله ، وثوابه وأجره على الله . . وأيما رجل استجاب لله وللرسول ، فصدق ملتنا ، ودخل فى ديننا ، واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ... »

لا إبهام ! . .

فلقد جمعهم الإسلام بكلمته وكانوا قبله كقطيع ضال . ألف بين شاردهم وواردهم ، أحمرهم وأسودهم ، ككتلة واحدة على تماسك واتساق . وجه منهم القلوب والخواطر ، والجوارح والمشاعر ، وسدد الخطا إلى طريق الله ، والجهود إلى العمل فى الله . جندتهم رسالته السماوية الكريمة جيشا قاهرا لغزو النفوس الغلف ، وفتح العقول المستغلقة ، لتكشف عنها غواشى الضلال . دفعت بهم أفياض نور لهتك الظلام الذى أغرق الدنيا فى دياجيره ، ووضع حجابا كثيفا فصل الآدمى عن إنسانيته ، وأخفى عن البشر حقيقة الحياة . .

مهمة جليلة تهون أمامها الجلائل العظام ، وتتضاءل كبار الهام . . فهى بعث جديد .. لأم الصدوع والشروخ ، ورتق الخروق والفتوق التى أحدثها فى وحدة البشر صراع الطائفيات والعصبيات الممثلة للون والجنس سباقا إلى السيطرة

وإشباعا لنهم الاستغلال . بناء عالم فاضل على أنقاض ذلك العالم المتداعى الذى أفسدته عبادة الذات واستذلته الشهوات . إعادة الحياة إلى « الضمير الإنسانى » الذى مات ! . .

لأولئك الذين كانوا يعيشون ظاهر الحياة جاءت رسالة السماء لتنتشلهم من وهدة السقوط . وإليهم انطلقت قوى الاسلام مجاهدة فى الله ، داعية إلى الله ، ابتغاء رضوان الله ليس ابتغاء عرض دنيوى من سلطة أو سمعة أو ثراء . فالأمر واحد هو الرسالة . والجيش واحد هو المسلمون . والعمل واحد هو الجهاد . والهدف واحد هو الهداية . ولا تباين قط بينهم فيما كلفوه ووجب عليهم بلوغه بهذا التكليف ؛ لأن التبعة هنا جماعية لا تتجزأ تماما كأنهم آلة تعمل بكل أجزائها من دقيقة وغليظة ، معا وعلى اتساق ووفاق ، فلا سبيل إذن للمفارقة بينهم فى الجزاء بأى حال . .

هذه هى نظرة الامام للناس والمال ، قضى بها حين قال :

« ... أنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، لا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله غدا أحسن الجزاء وأفضل الثواب . فلم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثوابا ... » .

وصدق فيما قال . . صدق ربه . وصدق رسوله . وصدق أمته بهذه النظرة الواعية التى تطابق الحق ، وتؤكد العدل ، وتتفق ومنطق الواقع الحى الذى كانت تعيشه الدولة فى ظروف الجهاد المشر كلمة الله . بل قد امتثل عندئذ سنة الطبيعة وقانونها الذى يحكم الانسانية ليجعل منها وحدة ملتئمة ، ويجعل أهلها إخوة على تماثل واستواء . .

ثم صدق قوله فعله ، وهو يحتم فيدعوهم إلى لقاء :

« ... إذا كان غدا إن شاء الله ، فاغدوا علينا . فإن عندنا مالا نقسمه فيكم . فلا يتخلفن أحد منكم ، عربى ولا عجمى كان من أهل العطاء أو لم يكن إلا حضر ، إذا كان مسلما حرا ... »

مساواة كاملة فى مال الله ، بلا مفاضلة ، ولا تمييز ، وإن تفاوتت المنازل ، واختلفت الأجناس ، لأنهم كافة فى الحق سواء .

الفصل الرابع

١

هل هو تغيير ؟ . .

أم هو نقلة بنظام الحكم ، وسياسة الأمور ، من أسلوب إلى أسلوب ؟ . .

أم هو ثورة شاملة على المألوف فى المجتمع الاسلامى ابتغاء إعادة بنائه من جديد ؟ . .

أشبه بهذا وهذه وتلك من الاتجاهات وما قد يجد غيرها من فروض ، أو يلوح وراءها من أهداف ، ما تضمنه حديث على ، يوم البيعة الصاخب إلى الناس ، حين نستقبله على ظاهر عبارته ، فى إطار الكلمات المحدود . ولكنه أيضا أبعد كل البعد عن هذا المنحى حين نتعمق معانيه . فغير الإمام ، بلا ريب ، من يفكر مثل هذا التفكير . ومن يهدف بالقول والعمل إلى النقلة أو الثورة أو التغيير ، لأنها ، مجتمعة أو فرادى ، تعنى هدما — شاملا أو جزئيا — للنظام المقرر ، يدك بنيانه ، ويقوض أركانه إن لم يجتثه من الأساس . .

خطاب أمير المؤمنين عقب ولايته — أو بلغة اليوم : بيان الحكومة ! — الذى ألقاه ، تظن النظرة العابرة أنه يعلن عن سياسة مغايرة تهم أن تقلب الأوضاع . فإذا أخذ على روية ، وأمعن الفكر فيه ، بدت حقيقته خطة لتغيير التغيير ، وتبديل التبديل ، وتعديل الانحراف الذى صدر فيه الناس — عن قصور الادراك أو خطأ التطبيق — بخروجهم على النظام الأصيل . .

ولا جدال . فلا شبهة فيما قال . ولا سبيل لتأويل على أى وجه من وجوه الاحتمال . لأن نقض النظم التى تعيشها المجتمعات أو تناول بعض جوانبها بالتعديل يستوجب — حتما — تغييرا هنا وإلغاء هناك فى قوانينها التى تحكم السلوك . وليس هذا ، بطبيعة الحال ، مبتغى الامام . ولا هو ممكن أن يجول فى باله . بل هو المحال الذى ليس مثله محال ، لأن القوانين آنذاك لم تكن سوى القرآن . .

إنما أراد الإمام — بداهة وحقا — أن يكف الانحراف ويسود بشعبه إلى

ما كان عليه من إلتزام دستور الله الذى نزل فيهم كتابا بينا من القوانين والأحكام سارت الأمة فى نوره وراء الرسول إبان حياته ، نخلف قلة قليلة بعده من رواد الإيمان زمنا قصيرا لا يكاد يحسب شيئا فى عمر الدول والشعوب .. ثم تفرقت بالمسلمين السبل ، يوما يوما ، ومرحلة مرحلة من الامتثال ، إلى الاجتهاد ، إلى التأويل ، إلى التحميل ، إلى التبديل ! ..

فكان الانتكاس ! ..

وتلك خدعة التحول ! . إنها لتسير بالأمور والناس ، رويدا رويدا ، بخطا وئيدة لا يكاد يسمع لها دبيب فإذا هم ، عن غير شعور ، يبدلون نظرة بنظرة ، وأسلوبا بأسلوب ، وعملا بعمل ، وحياة بحياة .. وإذا هم — ساهين — ينتقلون من نقيض لنقيض

وإذا كان الحديث المستفيض الجامع ، الذى واجه به الإمام القوم يوم البيعة ، قد أومأ بعض إيماء إلى ما غير الحال والنفوس وشدها إلى الوراء ، فإنه قد أفصح كل الافصاح وهو يصف لهم ما يراه — فى حسبانه — علاجا ناجعا لهذا التغيير الذى أفسد عليهم دنيا الإنسان الفاضل ، وبث فيها عوامل التقهقر والانحلال ..

وتتكشف للمرء عناصر الدواء الموصوف ، فيقع فيها على ألوان عدة ، تبرىء الفكر ، وتشفى القلب ، وتحيي الروح ، ثم تنشل المجتمع من كبوته قبل أن يتردى فى وهدة السقوط ، وتقيم صلبه قويا شامخا من جديد إذا ما ترجمت إلى سلوك ممتثل وعمل جاد ، بالوعى المصقول ، والارادة الحاسمة ، والتطبيق الرشيد ..

فما هو العلاج ؟ ..

تنائياً عن تفصيل ما يغنى فيه الإجمال ، واكتفاء بصفة الشامل عن تحليل المشمول ، نكاد نرى كلمة « عدالة » هى المنقوشة على بطاقة الدواء :

عدالة لكل الناس من كل الناس ..

عدالة سهلة ميسرة ، لا تشق على إنسان . معلومة مفهومة ، لا تغمض على

إنسان . شاملة عامة ، لا يحرم منها إنسان . . قاصدة بغير تقصير . محمة بغير مغالاة . نسبية بغير إطلاق . . تعيش فى الممكن المتاح ، فى حدود طاقات البشر ، وفى إطار قدرات التنفيذ ، وفى نطاق التغير المستمر للظروف والأفكار . . واقعية تعرف أحياز قانون الله ، وتدرك طبيعة البشر ، وترتبط بالزمان والمكان . لا تقف حيث تكون فتجمد وتموت . ولا تعدو مع الخيال فتدور فى فراغ . ولا تجمح إلى الكمال فتصعد عن الدنيا إلى عالم بلا أناس ، لأن الكمال على الأرض وفى البشر محال .

إنها العدالة الدنيوية التى لاتبلغ الكمال ، ولكنها تتسم بالشمول ، ولاتطابق المعنى الأمثل ، ولكنها توافق المفهوم العام .

تلك طلبة الإمام . وهى خلاصة بيانه الذى ألقاه يوم السبت ، لإحدى عشرة ليلة بقين من ذى الحجة عام ولايته إمرة المسلمين . . وهى أيضاً خلاصة الدروس المستفادة من التجربة الإنسانية العظمى التى اجتازها مجتمعه فى السنين القلائل الماضيات منذ غاب رسول الله عن العيون والأسماع إلى الآن . . فحين يتعقب المرء حركة السلوك العام والسلوك الخاص ، لايفوته أن يتبين كيف يميل خط الانحراف فى كليهما إلى الانحدار هبوطا نحو نقطة الصفر ، أو علامة البداية ، والمجتمع الإسلامى متمسك بالعدالة كنهاج فكر ، وخطة عمل ، وأسلوب حياة وكيف يأخذ هذا الخط فى الصعود — انسيابا أو طفرا — نحو أحرج آماده وأخطر ذراه ، كلما تراخى حرص المجتمع على استبقاء هذه العدالة نابضة فعالة ، وأفلتتها يداه . .

ومع ما هو ظاهر ، للوهلة الأولى ، من سهولة هذه الطلبة وقربها للتناول ، فليس إلى تحقيقها من سبيل إن هى لم تنفذ بدءاً ، إلى وجدان الإنسان . وليست هى بنافذة إن هو لم يحس عدالة عليا ، فوقها وفوقة تراها نحن عدالة الله . . ولا عجب . فالعدالة الإلهية ، بما لها من سمو وإحاطة وسلطان ، قبس علوى يضىء للبشر طريقهم إلى العدالة الدنيوية المنشودة . . ويد هاديه تنزعهم من كهوف الظلم ومغاور الإعسباف لتضع قلوبهم على أول الطريق المضىء . . ورقيب عتيد يلحظ سيرهم ، ويتابع خطاهم أن تنحرف وتميل . .

فمن المسلمات البديهية أنه بالإيمان — وليس بالعلم وحده — يأخذ الشعور بالعدالة الإلهية مساره إلى النفوس . . فلقد يجهل المرء أمرا فلا يؤمن به. ولقد يعلمه كذلك ثم لا يصل علمه — عنتا أو زيغا — إلى الإيمان به أو قد يعتقده على شك ودخل لاختلاط معرفته إياه بغيرها من حصيلة معارفه الأخرى عن سواه من معنويات وماديات فأما أن يحسه فإنه يتشربه ويستوعبه . وأن يستوعبه فإنه يختلط بكيانه فيصبح بضعة منه ، يعيه وعيا روحيا — يعلو على الوعي العقلي — لا يفتر وهجه ، ويطغى بأثره على كل مدركاته عداه . .

هكذا هي عدالة الله . أفياض نور تطل من سماء الشعور على البشر ، وتخفق في هذه الحياة كومض السراج . تضيء قلوبهم لتهديهم السبيل . وتحلق فوقهم محيطة بهم كحارس لا ينام . وتكشف سلوكهم كالأشعة الثاقبة فلا يخفى عنها ظاهر باد ولا باطن خبيء . . فإذا نصب الميزان ، قومت كل بادرة لهم : عملا وقولا ونية ، قيمتها الحقة ، ووزنت بقسطاس دقيق سليم ، لا يخل ولا يخطيء ، فلا يخسر لهذا ولا يستوفى لذاك ، لأنهم أجمعين يستوون عند ربهم في الحساب . . ومع ذلك فإن الجزاء الذي ترتبه العدالة الإلهية لأي إنسان على الوفاء بالأداء ، يظل سرا مكنونا في علم الله ، لا ينجاب عنه الحجاب تفصيلا للناس في حياتهم الأولى ، ويعجز الإدراك البشري القاصر عن أن يعرف نوعه أو يلم بعداه . .

ولا مراء . . فالعدالة الربانية أوفى وأرحم من أن تجعل هذا الأداء وحده أساس قياس كنه العمل وقيمته ، ومعيار مثوبة أو عقوبة عليه ، لأن الله سبحانه محيط بعالم يحط به البشر علما من الأسرار الكونية ، والأسباب والمسببات الظاهرة والخفية ، والمؤثرات المرئية وغير المرئية التي تتحكم عادة في سلوك الإنسان . ولأن عدله تعالى رهن بمشيئته ، قرين برحمته فيقدر جل تقديره ويعاقب إن شاء ، ويقدر ويعفو إن شاء . .

بين طرفي هذه العدالة العليا يسبح الإنسان ، على رؤاه الوجدانية ، في عالم فسيح من العواطف والانفعالات . فإذا هو يقع ، في هذه الرحلة الطويلة ، على صور شتى من مدركات نفسية وذهنية ينطبع منها على صفحة إحساسه حسبما

تـكون طاقة هذا الإحساس مهيأة للتلقى والاستقبال . . هو آنا يرى بشعوره . وهو آنا يرى بعقله ولـكنه فى الحالتين يستيقن وجود الصور المدركة ، فيؤمن بها ، عن وعى روحى أو وعى عقلى . وإن اختلفت وسيلتا الاستيقان ، وتفاوتتا فى مقدار الايمان . وإن أنـكرت إحداهما على أخراهما ماتراه أو وافقتها عليه .

أما الوعى الروحى فيروعه من العدالة الالهية ذلك الطرف المجهول ، المستر بغيب الله عن علم الناس ، المتعلق بمشيئته التى قد تمسك عنهم رحمته ، أو تفسح لهم فيها ، فتملأ هذه الروعة الإنسان خشية وأملا ، هيبة لحساب الله ، وارتجاء لغفرانه . .

وأما الوعى العقلى فيمضى على الطرف الآخر المعلوم ، الذى يبين الحدود ، ويوضح النواهى والأوامر ، ويرتب الجزاء نتيجة حتمية لـكنه العمل وقيمة الأداء ، فيدرك الإنسان كيف يسير ، وإلى أين ينتهى به سلوكه الاختيارى ، عند الحساب ، فى درجات الثواب أو دركات العقاب . .

رحلة طويلة للنفس البشرية فى عدالة الله . . طويلة طويلة على مدى العمر وامتداد الدهور . تتراوح فيها خطا ملـكات الانسان وقدراته الإرادية والعاطفية المـكتسبة والفطرية ، بين جانبي هذه العدالة العليا : طرفها الحـكمى اللازم ، الذى يضع حكما لـكل عمل ، وجزاء لـكل أداء . وطرفها الشيق الراحم ، الذى يفسح فى العفو ، ويرفع المغفرة فوق القصاص .

على هذه المسافة الشعورية من المراوحة بين المعلوم والمجهول ، القضاء المحسوب المسطور والقضاء المرتجى المستور ، ينشط الضمير الانسانى ، بالعقل وبالروح ، إلى التزام هذه العدالة المثلى ، أو محاكاتها باستلهامها أصولا وقواعد للعمل والحساب والجزاء ، ترسم المنهج ، وتنظم السلوك ، وتحدد الروادع والمثوبات ، فإذا هو ، بالالتزام الممكن والمحاكاة المقاربة ، فى ظل عدالة جديدة دنيوية الصيغة . كفيلة — فيما يراه — باطراد سير الحياة فى مجتمعه رضية رخية ، وبالتئام العلاقات بين كافة أفراده على غير اضطراب .

ولقد حاول الامام فى بيانه أن يظهر قومه على نمط العدالة الدنيوية المنشود

الذى يمنع الطغيان ، وينشر الطمأنينة ، ويهيىء حياة إنسانية كريمة ، تتوازن فيها القوى ، وتتعادل التناقضات ، ويستوى الدانى بالقاصى والعام بالخاص ، والشريف بالمشروف كاستوائهم قبلها أمام الله . فما جاءهم ، إذ فعل ، إلا بما أنسوه وغفلوا عنه وإنه لغير بعيد . وما زادهم شيئا على ما التووا عنه وكان لابد عاصمهم من الهوى والخلاف . ولو أنهم وعوا — إلى يومهم ذاك — حكم القرآن وأخذوا به أنفسهم بغير ترخص لاستقام لهم أمرهم أبدا ، واظلوا محلقين لاتشدهم غواياتهم إلى الطين !

لم يأتهم من لدنه بجديد . ولكنه بين لهم كيف يستطيعون أن يمارسوا عدالة الله على الأرض بالأسلوب البشرى الذى يطيقونه ، ويوافق تباين الأفكار ، وتغاير الظروف ، وتفاوت الأقدار ، وتعدد النزعات وكل ما عسى قد يلابس طبيعة الإنسان وأوضاع البيئات من تقلبات . . وحين نمعن النظر فيما ساقه من حديثه ، لا يغمض على المرء أن يخرج منه بمبادىء أساسية ، أو خطوط عريضة ، لسياسة الأمور والناس ، تبدو لنا من خلال عرضها المستنير تلك العدالة المنشودة ميسرة سهلة ، على أسس كلية تنأى عن الخوض فى الدقائق والتفصيلات اجتنابا لاختلاف الآراء . وتتسم بعمومية توفر لها من مقومات المرونة ، وخصائص القدرة على التشكل ما يجعلها صالحة للتطبيق بكافة المجتمعات ، فى أى زمان ، وفى أى مكان . .

عدالة كهذه لها امتداد الشمول ، وسعة الإمكان ، هى الخليقة لا ريب بتحرير البشرية من سطوة الظلم فى كلا حيانى المرء على الأرض : حياته الخاصة ، وحياته العامة . أو حياته إذ هو فرد ، وحياته إذ هو مجموع . .

ولا غرو . لأنها ذات قطبين : هما حق النفس وحق الغير ، يعيشان متقابلين فى ضمير الإنسان ، ولا ينبغى أن يعملا إلا معا ، وعلى تكافؤ واتزان . . فهما إذن كفيلان — بأسلوب العمل المتعادل — أن يحفظا على الحياة البشرية بشطريها : الخاص والعام ، نظامها أن يختل ويميد . وأن يمسكا دعامات الروابط الفردية والصلات الجماعية أن تتهاوى وتنهار . . وهما إذن — بدون هذا التعادل — خليقان أن يؤديا إلى تقويض النظام وهدم الصلات والروابط ، لأنهما سيخليان

حتما بين شعور المرء بذاته وبين الطغيان على شعوره بمن حوله من أفراد ، فيهيم فى أنانيته كيفما أراد . أو سيفضيان بالفرد إلى اهتزاز إيمانه بمجتمعه حين يرى أجحاف ذلك المجتمع به . وانحيازه عن إنصافه ممالأة لسواه ، فيضعف إحساسه بالانتماء إليه ، وتفتر رغبته للعمل له . . ولا قيمة هنا تكاد تذكر للإنصاف المادى المتمثل فى تزويد المرء بالطعام والشراب والكساء ، وما إليها من أشباه ، لأن حياة البشر على الأرض ، بمعناها الحق ، وجود حضارى ، وليس وجودا بهيميا قصاراه تأمين مثل تلك المقومات ولأن المناخ الملائم لمعيشة الإنسان ليس وحده ذلك الذى تتوفر له فيه مطالب الأبدان من محسوسات إن تكن تكفى الحيوان الأعجم الذى تسيره الغريزة ، فما هى بكافية أبدا لمعيشة البشر ككائنات ذوات إدراك ، للمعنويات وخفقات القلب وخطرات الفكر والانفعالات النفسية سلطانها المهيمن على كل ما يصدرون عنه من سلوك . .

لهذين الجانبين المتقابلين للعدالة الدنيوية الممكنة ، عرض أمير المؤمنين ، فى خطاب الاستهلال ، عرض خبير يتعمق الأوضاع كما يستكنه النفوس ، ويستخبر الوقائع كما يستنبىء التوقعات . فإذا هو لا يغفل الإشارة إلى مقومات الاتزان للضمير الإنسانى ليكون سويا فى نطاق طاقة الإنسان . لا ينكر ذات صاحبه ولا ينكر أيضا ذوات سواه . ويحس بغيره كما يحس بنفسه . فيعمل ، بقيادة هذا الاحساس المتعادل ، للناس فرادى وللناس كمجموع . وإذ هو يمضى فى خطابه على بصيرة من هذا المنطلق بين الأثرة والإيثار ، الأخذ والعطاء ، الذاتية والغيرية يضع القواعد الأولية لنهجه : قسمة عادلة بين شطرى طبيعة الناس الحيوية بما يمثلان من مطالب الأجساد ومشاعر النفوس ، وبين شطرى طبيعة حياتهم الحضارية بما يمثلان من فردية وجماعية . فما كان — إذ فعل — إلا كاشفا عن أسلم الأسس وأقومها لقيادة الأفراد والشعوب . وسابقا للنظرة الحديثة إلى العدالة الاجتماعية التى تخدم الفرد ، وإلى العدالة السياسية التى تسير الدولة ولم يحط بأيهما الفكر الانسانى المعاصر إلا بعد ظهورهما فى الإسلام بقرون عديدة مضت بالناس فى نزاع مذهبى بين الفلسفات والعقائد الفكرية ، وفى صراع دموى بين قوى الطغيان التى حاربت للجمود وقوى التحرير التى ناضلت للتغيير .

فى مجال العدالة الاجتماعية — بمفهوم الاصطلاح المعاصر — التى تخدم الأفراد وترعاهم رعاية أناسى لا رعاية سوائم ، نظر إلى حياة الفرد كنواة لحياة الجماعه ، وإلى الأمة كبيئة عضوية جوارحها الجماعات . وخلص من نظرته إلى وجوب جمع الذوى كلها على اتساق وتلاؤم ضمانا لصحة الجسم العام فوحد الإنسان . وما كان له إلا أن يأخذ بهذا التوحيد إذ هو رأى الاسلام وأحد مبادئه الرئيسية الذى يجمع الناس كلهم فى واحد ، ويراهم كافة سواء وإن اختلفوا عنصرا بين عرب وعجم ، وجاها بين خاصة وعامة ، وحسبا بين فقراء وثراة ، ولونا بين سود وبيض . . فالمنشأ الذى خرجوا منه أجمعين واحد . والأصل الذى تفرعوا عنه واحد . وأسس الخلق ومراحل التكوين — من عناصر المواد الأولية التى تتركب منها الأجسام ، إلى النطف والعلق والمضغ ، إلى خلايا البنية ، إلى أجهزة الحركة والسكون ، ومراكز الحس ، ووظائف الأعضاء ومعالمها الظاهرة والتشريحية — توحد بينهم على غير تباين ، إلى جوار الحقيقة الكبرى التى تؤكد هذه الوحدة وهى انتسابهم بالعبودية لله :

« أنتم عباد الله . . »

ولا مدعاة هنا للتساؤل : أهذه عدالة أم هى مساواة إذا وزنا الألفاظ بميزان الدلالات ، وطابقنا الصفات على المسميات . لا مدعاة لأن الحدود الفاصلة بين معانى المجردات الفاضلة كهذه وتلك وأشباههما من حق وخير وحرية ، تكاد تشف حتى لتذوب وتخفى عن التمييز . .

فالحرية — كمثال — تنقل إلى الأذهان مدلول الانطلاق . والانطلاق لا يعرف التضييق ، لأنه شمول يستوعب كل مشمول بغير تفرقة ولا تخصيص . فهى إذن على وجه من الوجوه مساواة . .

والمساواة أيضا سمة للكل ، وتوازن بينهم . تمنح هذا كما تمنح ذاك ، وتمنعه كما تمنعه ، فهى قوام بين العطاء والأخذ أو تكافؤ تام فى الحقوق وفى الواجبات . فهى إذن عدالة ليس من طبيعتها الإجحاف . .

وكذلك الأمر فى الحق ، والخير ، والأمانة ، والصدق والوفاء وغيرها من

فضليات المجردات ، تختلف فى مظاهر القوالب . ولكنها تنطوى على نفس المضمون إذا ما أخذنا بمعناها العام . .

على أنها جميعا — إن هى ظلت حبيسة فى أسوار التجريد — لن تعدو أن تكون صورا ذهنية جميلة ، قصاراها مخايلة الناس ببريق مستعار لا يشبه جوهرها ، بل تضفيه عليها رؤى الأخيلة وجوامح الأفكار كما تضفى الشمس لمعتها على ما يسبح فى شعاعها من ذرات الغبار ! . . إنها خليقة ، عندئذ ، بأن تهيم فى عوالم الوهم ودنى الفراغ ، بغير قرار ، وإلى غير غاية ، خفيفة بلا ثقل ، هشة بلا تأثير فى واقع الحياة . فأما أن تمارس دورها ، وتعيش دلالتها فذاك رهن بأن تجد لها بيئة صالحة يتيح لها الحركة والانطلاق ، ونطاقا معلوما تنشط فيه ، له أبعاد وأحياز ، بداية ونهاية ، معالم وحدود تماما كالماء الصافى الذى لا يرى ، ولا تدرك له هيئة إلا بلون الإناء وشكله الذى يوضع فيه . .

وأنسب نطاق ، كنهج ملائم لهذه المجردات ، يسع مدلولاتها أن تعمل فيه ، وتمضى أشواطها إلى غايتها على هدى وبينة ، هو ذلك الذى رسمه لها من هو أعلم بكنهها ، أعرف بوظائفها ، أقدر على توجيهها لخدمة الحياة . .

وهل أعلم وأعرف وأقدر من الله ؟ . .

وهل أوضح نهجا ، وأنسب نطاقا من القرآن لتطبيقها فى دنيا الانسان ؟ . .

لئن يكن العدل — كمبدأ — لا يمكن أن يقوم فى الأذهان إلا على أساس افتراض وحدة البشر ، فإن تجسيده — كواقع — لا يمكن أن يكون فى الحياة إلا بتحقيق وحدة القانون . . فكلتا الوحدتين لازمتان ضمانا للشمول والعموم ومنعاً للتحيف والطغيان . وكلتاهما متلازمتان متكاملتان لأن الفكرة — أية فكرة تعيش فى العقول — لا مناص من بقائها كلمة جوفاء بغير أثر فى حياة البشر ، كل همها أن تحوم فى الاخيلة ، وتتخبطها الأحلام ، ما لم تعرف الطريق ، من خلال التطبيق ، إلى عالم السلوك . .

وحدة إنسان يجتمع فيها كافة أبناء البشرية : عنصرا ولونا ولغة ومنزلة ، بغير تفاوت بحكم طبيعتهم الحيوية ، ووحدة قانون يحتكمون إليه عامة ، ويمثلون

فى حدوده ، بحكم طبيعتهم الحضارية ، هما قوام المعاملة والتقدير ، وميزان المعادلة الذى لا يظلم ولا يجور .

وها هو الميزان ، يبينه الإمام :

« . . . إنى حاملكم على منهاج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمرت به . . »

فليس أحكم شريعة ، وأقوم جادة ، وأعدل فى معايرة الأعمال والأقوال ، فضلا عن النوايا ، من كتاب الله كما طبقه وبين تعاليمه الرسول ، لا كما ترتأى فيه النظرات الخاصة، وتذهب به شطحات التأويل . .

وليس سبيل ، مع هذا التحديد الدقيق للمنهاج اللازم المفروض ، إلى الترخص فى أحكامه ، أو تناول أصوله ومبادئه ، جزئيا أو كليا ، بالتعديل . . فهو ثابت لا يقبل التغيير، كامل لا يخضع للتجزئة ، باق لا يعرف الفناء ، لأنه خالد آبد كبقاء الله . . وهو قائم دائم على سطح هذا الكوكب الإنسانى قيام حياة النوع البشرى عليه ، ودوام الحقيقة الناطقة بوحدة الإنسان . .

وإذا نحن أمعنا النظر فى خصائص القرآن ومقوماته كقانون ، تكشف لنا أنه ينفرد ، دون غيره من القوانين ، بروافد قوة تساند سلطانه على مجتمعه لم يتوفر مثلها قبله لشريعة سواه ، ولا هى بعده بمتوفرة لكل ما عداه مما عسى أن يجد من شرائع وضعية قد يستحدثها فكر الإنسان فى أى مكان إلى آخر الزمان .

فالمفترض بداهة فى القوانين الوضعية أن تجىء صدى لرغبات المجتمعات التى سنت لها ، محققة لأمن أهلها ، كافلة لمنافعهم ثم لا يسعها — مع هذا الافتراض — أن تبلغ الغاية المرجوة التى يرتقبها الجميع لأنها ، فى حقيقة الحال ، إنما صدرت عن طائفة منهم بيدها النفوذ لا يؤمن تأثرها بنظراتها الخاصة وأغراضها الذاتية عند وضع التشريع . . والمؤكد أيضا أن أى مجتمع إنما يمارس — من خلال قانونه — حقوق سيادته على كل من فيه ، وهم طائعون أو وهم كارهون ، لا على أساس ارتضائهم هذا القانون ، بل بمجرد ارتباطهم بالحياة فى نطاق المجتمع ، وانتمائهم إليه ، لأن الانتماء يستوجب الولاء ، والولاء يقضى بالاذعان للأمر الواقع والتسليم به تسليما لا رجعة فيه . والمعلوم بعد هذا أن يظل أبناء المجتمع راضخين

— ولا نقول مرتضين — القانون المسنون ، الذى يحتم عليهم أجمعين الأخذ بنصوصه ، ائتمارا بأوامره وانتهاء عند نواهيه وإن اكتنفها هنا تجيف ، أو اعتورها هناك قصور ، إلا أن يسع فئة منهم أن تستحدث تغييرا فيه ثم لا يسلم هذا التغيير من مالأنها إذ هى صاحبة النفوذ الجديد ! . .

أما القرآن كقانون ، فليس كهذه التشريعات الوضعية ، لا بطبيعته وصفاته ، ولا بأصوله واتجاهاته ، لأنه يختلف عنها أساسا ونشأة إلى حيث لاشبه . كما يختلف عمقا وإحاطة إلى حيث لاالتقاء .. فهو يجمع الإنسان فى وعائه ولايفرقه شراذم وأجناسا وقوميات بحسب البيئات أو المجتمعات . ويجمع الزمان وحدة ولا يقسمه بين قديم بال ، وحديث حاضر ، وقابل نزاع إلى الانطلاق والتغيير . ويجمع المكان مقاما واحدا للبشر فى هذه الأرض أيما انطلقوا منها فى سهلها أو حزنها ، جدبها أو يانعها ، ولا يوزعها عليهم أوطانا مختلفة تفصل بينها خطوط الحدود .

والسلطة التى قدمت للناس القرآن قانوناً ينظم حياتهم كخير ما يكون التنظيم سلطة لا يخفى اقتدارها وعدلها عن البشر — على تباين طباعهم ، وتعارض نظراتهم ، واختلاف منازلهم فى مدارج الادراك — لأنهم يعرفونها بوحى الفطرة أو ببدائه المعقول ، أو بخفقات الإيمان . .

إنها سلطة لا تسعى إلى تلمس النفع لنفسها من خلال نصوص هذا القانون استزادة فى أسباب القوة ، ومقومات النفوذ ، إذ هى ، بطبيعتها ، قادرة إلى غير نهاية ، وفوق كل السلطات والمشيئات . لها وحدها الخلق والأمر . تملك وحدها النفع والضر تصنع وحدها البدايات والمصاير بغير منازع ولا شريك . فلا حاجة إذن بها إلى استغلال البشر ، أو فئة منهم ، لأنها غنية عنهم كافة وهم إليها الفقراء . . وهى بهذا « محايدة » بكل مايعنى مدلول هذه اللفظة الحديث ، فلا وجه إذن لأن تمالىء — فى قانونها — فردا على فرد ، أو تنحاز إلى فريق دون فريق . . وهى تشرف بجلالها ، من علياء قدرتها ، على الكون ، محيطة بكل ما يدور فى عوالمه ودنياه ، ومنها عالم البشر بما يموج فيه من نزاع على البقاء ، وما يعتمل فى نفوس أبنائه من رغبات ، أو يغير فى حياتهم من مؤثرات ترى ما يرنون إليه بالعيون والآمال وتلم بما يرومون اجتناءه من فوائد ، و بما

يرتجون اجتنابه من أضرار . عارفة ما يعرفون وما يجهلون مدركة ما يدركون وما لا يدركون . فهى إذن أعلم بما يؤدى إلى استقامة أمورهم وصلاح دنياهم : مناهج العمل كيف ترسم ، وعدالة القضاء كيف تحكم ، ومعالم السلوك وأساليبه إلى أين تقود . أيها أقوم جادة ، وخير عقبى ، وأولى بالاتباع ..

وينفرد صدور القرآن — كقانون — بظاهرة فذة عايشته لم تعايش قانونا قبله ، ولا نظنها اقترنت بعده ، إلى اليوم ، بصدور شريعة وضعية نفس الاقتران .. فلم تجزه السلطة المصدرة على الناس بمجرد إعلانها عنه . ولم تسر عليهم نصوصه وأحكامه سريان إلزام من خلال الإذعان .. بل الواقع المشهود أنه لم يمارس حقوق سيادته على أبناء مجتمعه بأسلوب الفرض الجبرى الذى تتبعه القوانين جميعا فى مختلفات المجتمعات ، عن طريقُ التبعية والانتماء . وإنما سرى عليهم سريان اختيار عن طريق التدليل والإقناع ..

فالثابت الذى لا اختلاف فيه ، أن القرآن قد عرض نفسه على ملأ الناس عرض تفهم ونظر ولم يفرضها فرض أمر وإملاء .. تقدم إليهم بنهجه مجملا فى « الوحدانية » مبدءا عاما تتفرع عنه كافة قواعده التشريعية التى تحدد الصلات بين الله والناس ، وبين الناس والناس فمن آمن بهذا المبدأ فقد دخل الاسلام . ومن دخل الاسلام فقد انتمى لمجتمعه . ومن انتمى لمجتمعه فقد قبل راضيا قانونه المنبثق من كلمة التوحيد .

ولا حاجة بنا لتحليل الوحدانية ليتبين لنا أنها ، حقا ، أساس كل أصل تشريعى فى الاسلام ، لأن عبارة : « لا إله إلا الله » تغنى عن هذا التحليل ، ولا تفتح السبيل للمكابرة والجدال . فهى قد نفت كل ربوبية إلا ربوبية الله ، ومحت كل قدرة إلا قدرته سبحانه ، وكل مشيئة إلا مشيئته ، وكل سلطة إلا سلطانه .. وهى بهذا قد جمعت البشر فى العبودية لله وحده ، وأمنتهم أن تعنو وجوههم لغير وجهه ، حررت العقل الإنسانى من الخوف والخرافة . حررته أن يخشى الناس أمثالهم من الناس وإنهم لجميعهم سواء فى العجز أمام سطوة خالقهم ، فى خوف عقابه ، وفى ارتجاء رضوانه ، فأهدرت بهذا عبودية الإنسان للانسان . وحررته من تحكم الخرافة الذى كان يدفعهم إلى عبادة

الظواهر الكونية أو الأوثان والأصنام ، أو الأبطال ممن سلف من الآل أو من الملوك والأقيال ، فقضت بهذا على ذلة العقول للأوهام .

من خلال مبدئه العام : وهو كلمة « التوحيد » عرض القانون القرآني على الناس ، لو شاءوا قبلوه ، أو شاءوا رفضوه . . فهو هكذا أول قانون في التاريخ — إيمانا بوظيفة العقل ، وقداسة الرأي الحر — يضع نفسه تحت نظرة الاختيار ، ويخضعها طواعية لاستفتاء ، عام ، قبل ممارسة حقوق سيادته الشرعية على المجتمع الذي يعيش فيه . .

هذه هي حال القرآن ، كقانون ، في نظرة الفكر « المحايد » الذي لايظلم ولا يميل ، وفي رأي الواقع التاريخي الذي تؤيده الأسناد . . كاملا من كامل ، عادلا من عادل ، سائدا على أبناء مجتمعه — دون بقية قوانين العالم ، قديمها وحديثها — بحق الارتضاء لا بحكم الانتماء . . فلقد كانت كلمة التوحيد ، ممثلة في عبارة : « لا إله إلا الله » — يعلنها ، بينه وبين نفسه ، من استنار قلبه للإيمان ، ومن اهتدى عقله للحقيقة ، أو يبايع عليها رسول الله — هي جواز مروره إلى المجتمع الإسلامي ، مسلما كغيره من أفراده . ووثيقة اعترافه الاختياري بالقرآن ، قانونا يلزمه ، لأنه اعترف بمبدئه العام . والوسيلة ، على الأثر ، إلى كفالة ماله من حقوق ، واستيفائه ما عليه من واجبات ، تفصح له عنها نصوص هذا التشريع السماوي ، وتضع المسلمين منها على قاعدة سواء . .

ويتكلم الإمام ، في خطاب إمرته ، عن هذه المساواة الشاملة في الحقوق والواجبات ، فيظهر العدل الاجتماعي — أمنية البشرية إلى اليوم — كيف يكون وكيف هو ، عاما كاملا ، في الإسلام ، يحقق تماسك المجتمع ، ووحدة الناس ، لولا أن أنسيه الغافلون العفاة . .

يقول :

« . . . أيما رجل استجاب لله وللرسول ، فصدق ملتنا ، ودخل في ديننا ، واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده . . » .

ويستطرد من بعد ، في حديثه ، فيكشف عن ركن هام لهذا العدل

الاجتماعى ، لابد من توفيره ، هو المساواة الكاملة بين أبناء المجتمع الواحد ، فى ناتج العمل العام

ولا غرابة . فهذه المساواة فى ناتج العمل الجماعى ، أو المال العام ، نتيجة منطقية لازمة ، يسفر عنها تسلسل الاستقراء للوضع الاجتماعى المقرر ، وفرع لأصل لابد لهما ، كما تساويا فى البنية ، أن يتساويا فى الصفات ، لأن نظرة الإسلام ، التى توحد الإنسانية ، تقضى ، كخطوة أولى ، بوحدة أية قطعة « مستقلة » من الأفراد ، أو أية وحدة من الوحدات الاجتماعية لهذه الانسانية - التى كان لاضطراب سلوك أبنائها منذ القدم ، وبلبلة الأفكار ، وضغط الظروف ، وحركة التاريخ أثرها فى تمزيق شملها الطبيعى ، وتقطيع أوصالها ، بخلق هذا النوع المصطنع من الاستقلال أو الانفصال — إلى أن يحين التئام هذه الشراذم المنتشرة وضم شتاتها فى وحدة شاملة هى المجتمع العالمى الكبير . فإذا اتجه الرأى هنا إلى توحيد المجتمع ، فإنه يتجه ، بداهة ، إلى ضرورة توحيد كافة جهود أبنائه تحقيقا لخيرهم العام ، فإلى حتمية توزيع هذا الخير عليهم بالسوية ، إذ هو ناتج عملهم الجميع ، وثمرة جهودهم المشتركة . وإذ هم ، كافة ، مستوون فى الحقوق استواءهم فى التبعات .

ويوضح الإمام هذه النظرة المنطقية العادلة إلى المال العام ، فيعرضها فى سهولة معجزة ، ومنطق ميسر ، لا حاجة معهما إلى تدليل . .

فيقول :

« . . . أنتم عباد الله . والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية . لا فضل فيه لأحد على أحد . . » .

فذاك رأى طبيعتهم الإنسانية الوحدة وقضاء وضعهم الذى يعيشونه الآن ، وكان يجب أن يعيش البشر من قبل ، ثم تنزل القرآن فقرره ، كما ينبغى أن يكون ، وبسلطته كقانون . .

ويقرن الإمام المبدأ بالتطبيق ، على الفور ، ودون تردد ، فيدعو الناس :

« . . . إذا كان غدا ، إن شاء الله ، فاغدوا علينا . فإن عندنا مالا نقسمه

فيكم . ولا يتخلفن أحد منكم ، عربى ولا عجمى ، كان من أهل العطاء أو لم يكن ، إلا حضر . . . » .

كلهم فى الإنسانية سواء .

كلهم لمجتمعهم أبناء .

ويتبع القول الفعل . .

فعلى الأثر يجسد معنى العدل الاجتماعى واقعا حيا يعيش فى دنيا الناس . فى العمل كما فى الفكر . فى الحق كما فى الواجب . فى المغانم كما فى المغارم بغير استثناء بعد أن تعطل هذا العدل سنين عديدة كان خلالها مجرد صورة ذهنية جميلة تدور بها الأحلام والأمانى فى رؤى الأخيلة وفراغ الأوهام . . وبعد أن ظل لفظة عذبة الجرس ، وضاءة البريق ، يمسح بها التمويه والرياء فوق الشفاه كبسمة محزون ! . .

وعرفت المساواة الاجتماعية بين الأفراد ، فى المجتمع الاسلامى ، طريقها مرة أخرى إلى النور . بعثت إلى الحياة من جديد . تحققت صبيحة يوم الأحد ، الثانى عشر من ذى الحجة ، وما انقضت إلا ليلة ، أو بعضها ، من إمرة الإمام . . واستوى المسلمون ، عامة ، بهذا القرار الصريح الخاطف ، وكما أمر الله ، فى أنصبتهم من الحقوق المدنية ، وفى حظوظهم من الدخل القومى ، نتيجة طبيعية لاستوائهم فى الخلق أمام الخالق ، ولاستوائهم فى التبعات والمسئوليات ، فى المجتمع الذى يضمهم ، أمام القانون . .

وعرفت المساواة السياسية أيضا ، بمفهومها المقارب لمضمون الاصطلاح الحديث ، طريقها واسعا ممهدا إلى الحياة . فلم يغفل الامام ذكرها وهو يتقدم بمنهاج عمله ، أو بيان حكومته ، إلى الناس . . ولم يخف ما تعنيه دلالتها ، وما نعرفه اليوم من كنهها الحقيق ، المتمثل لنا فى حق الشعب الكامل ، بغير ترخص ولا انتقاص ، فى المشاركة — بالإرادة الحرة ، وعلى تكافؤ تام بين جميع أفراده وطبقاته — فى رسم مصيره من خلال اختيار الحاكم ، وتوجيه سياسة الدولة وشؤونها العامة بالرأى والمشورة . فمن غير هذا السبيل لا ثمة حاكم شرعى ، ولا حكم مشروع .

ولا مجال هنا للمطابقة بين أشكال الحكم « الشعبية » السائدة اليوم ، وبين الشكل الذى ابتدعه الإسلام ، ونهجه الإمام ، فى ذلك الزمان البعيد . . فالقيم قد لا يغيرها تغاير الصور والتراكيب . والمعانى قد لا تختلف باختلاف العبارات والأساليب . وإنما العبرة بالجوهر لا بالقشرة . وباللب لا بالإطار . وما نظم الحكم ، على تباين الضروب والمظاهر ، إلا وسائل إلى بلوغ غاية تتفق عليها كافة المجتمعات ، هى الخير العام حسبما ترتأيه نظرة كل مجتمع — وفقا لأوضاعه الاجتماعية ، وعناصر تكوينه ، ومقوماته الحضارية ، وما تتأثر به أفكار بنيه من ظروف المكان والزمان ، ويتطلعون إليه تحت تأثير العرف والتقاليد — علت بهم هذه النظرة إلى ذروة السلطة الشعبية العامة ضمانا لتحقيق رغبات الأمة ، أو هبطت بهم إلى مستوى السلطة الفردية إيمانا برعايتها حقوق المجموع . .

ومع ذلك ، فالمقرر — الذى لا يمكن إنكاره ، أن « الشورى » أصل فى الاسلام ، أقامت الدولة سياستها على عماده ، احتذاء بمسلك الرسول ، صدرا من تاريخها المبكر ، على تفاوت فى التطبيق بين الامتثال والتعديل ، وبين السهولة والتعقيد بحسب دواعى التغير السريع الذى صاحب تطورها من جماعة ، إلى مدينة ، إلى إقليم ، إلى دولة مترامية الحدود والأطراف تشتمل فى وعائها الكبير على الكثير المتعدد من الشعوب والأقاليم .

ومن المسلم به كذلك أن ثمة سمة ظاهرة لاختيار الإمام كانت بها خلافته أدنى إلى شعبية القيادة وثمة سمة مثلها لحكمة كان بها أدنى إلى شعبية الحكم ، بمفهوم تعبيرنا المعاصر . . وكلتا السمتين تفردانه بما لم يكن لمن تقدموه ولحقوا به من الخلفاء ، وتميزان عهده بما لم يتح لما قبله وبعده من عهود .

فليس بين المسلمين ، آنذاك ، شخص كان أقرب إلى قلوبهم وأحب إليها منه ، لسابقته وفضله وصبره وصفاته إلى التى تعز فى قرين ، إلى جوار ميلهم إليه ، عطفا ونصرة ، لما أصابه من هضم حقه فى ولاية الأمر ، ثلاث مرات . . وليس أمثل ذكرا فى خواطر الناس إلى الآن منه إذا عرضت الألسن لسيرة البطولة عند مختلف الأمم والشعوب من أقدم العصور ، حتى ليوشك اسمه أن تحفه القداسة

أو يكون له ، بأهون تقدير مكان الصدارة بين شوامخ الأبطال الذين خلدتهم جلائل الأعمال ، وصورهم خيال الأساطير ! . .

تفرد فى شعبية القيادة ينطق به أسلوب الاختيار الذى جاء به على رأس الدولة ، بالإرادة الحرة الخالصة للشعب الإسلامى ، على امتداد أراضيه ، ممثلا إذ ذاك فى قوى الثورة العامة التى اجتاحت الأمصار ، آخر عهد عثمان ، مطالبة بالتغيير . . فلم يأت عن بيعة « خاصة » — كبيعة أبى بكر — أدلى بها صفوة أهل مدينة الرسول ، من الأنصار والمهاجرين ، ثم أقرت بها ، بعدهم ، بقية المسلمين إقرارا إن يكن عن رضا فليس يخلو من مظهر المتابعة والانقياد إن لم تكن له هيئة الإذعان والتسليم . . ولم يأت عن بيعة « وصية » كبيعة ابن الخطاب — خصه بها الخليفة الأول ، بتقدير رأيه وحده ، دون غيره من آراء . . ولم يأت عن بيعة « ثلة » — كبيعة عثمان — حصرت بها الإمرة فى ستة نفر ، لا تخرج عنهم ، ولهم وحدهم الحق المبرم فى انتقاء أحدهم كأمير . . ولكنه إنما جاء عن إجماع ، أو ما هو أدنى إلى الإجماع ، بالإرادة العامة للأمة ، ممثلة فى أهل المدينة ووفود مصر والبصرة والكوفة وهى ، حينذاك ، أمهات البلاد والأمصار ، وموئل أصحاب الرأى ، ودعاة الإصلاح والتغيير .

وتفرد فى شعبية الحكم التى تجعل للحاكم نفس ثقل المحكوم ، فى ميزان الواجبات والحقوق ، بغير تمييز ولا فضل مظهر يقبلان عليه من خلال هيبة المنصب ، وسطوة النفوذ ، ويرفعان قدره على الأقدار ، ورأسه على الرءوس . . .

إلى هذه المساواة الكاملة بين الإمام وبين رعاياه ، يشير فى بيانه ، فيقول :

« . . . إنما أنا رجل منكم . لى ما لكم، وعلى ما عليكم . . . »

فإذا ارتضى ، إلى جوار هذا — اختيارا وطوعا كما خبرناه — أن يكون أقل نصيبا ، فى مطالب العيش والمنافع المادية ، مما يتاح لعامة رعاياه ، فليس فحسب ولوعا منه بالتقشف ، ونزوعا إلى التقشف زهدا فى الدنيا ، ورياضة للنفس وقمعا لجماح الرغبات . بل هو أيضا حسه الإنسانى المرهف قد حدا به أن يعيش معيشة إدقاع ، ليكون أسوة ، فلا تضيق حياة الفقر بعد هذا بمحروم ! . .

وإذا قصر حق الأمة فى الشورى على أمورها التى لم تعرض لها أحكام القرآن ، ولم تتناولها سنة الرسول ، فليس ذلك تضييقا على حرية الرأى ، وامتهانا لها ، بل هو الالتزام الواجب بالدستور العام ، والتنظيم الذى لابد منه لتلك الحرية صيانة لها أن تعبث بها شهوة الكلام فتغدو فوضى ، ترتع بها ثرثرة الألسن بلغو القول ، وسقط الأفكار ، ويسود فيها الادعاء والافتراء ..

وقد أراد على أن يقى قومه مغبة هذا الانحراف عن حدود حرية الرأى ، والخروج على مفهومه ، فحذرهم أن تستخفهم شهوة الحديث وشغفهم البالغ بالنقد إلى المبادرة لمعارضة الحاكم فيما يرى أو يفعل ، معارضة قد تثير ثائرة الشعب عليه لا لا ابتغاء حق ، ولا لاجتناب باطل ، وإنما ولوعا بممارسة هذه الحرية على أى وجه ، تأكيدا لذواتهم ، وإظهارا لوزنهم فى مضمار الحياة العامة ، ودورهم فى سياسة الأمور . .

قال :

« . . . . امضوا لما تؤمرون به ، وقفوا عند ما تنهون عنه . ولا تعجلوا فى أمر حق نبينه لكم ، فإن لنا عن كل أمر تنكرونه عذرا . . . . »

ومدلول قوله ، بظاهره وباطنه ، أنه دعوة عامة ، لكافة أبناء الشعب ، أن يعملوا الفكر فى كل « مشروع قرار » تمده السلطة الحاكمة ، ويتناولوه بالمناقشة الواعية قبل إقراره ، أو إنكاره . . فهو هنا لا يمنع المشورة ، بل يريدها على بصيرة . ولا يأبى النقد ، بل يشاء له النهوض على أساس راسخ من الإحاطة السليمة بكل دقائق المنقود .

غير أن هذا الأسلوب القويم لممارسة حرية الرأى — على المستوى الشعبى العام — لم يرض فئة من العلية ، رأت لنفسها فضلا على من عداها من المواطنين يرتب لها — دونهم — حقا خاصا يمنع الحاكم أن يبرم أمرا إلا أن تشير ثم تشاركه الإبرام ! . وها هم أولاء ينقمون عليه ما ينبغى أن يحمد له ، وينكرون منه ما يجدر أن يكون موضع إقرار ، ويعيبونه بما يجب أن يكون مثار إكبار .

ثم لا يكتمون فى نفوسهم العيب والنقمة والإنكار ، بل يشيعونها فى الناس خلافا له وحربا عليه . . .

ويأتيه خبر هذه الحرب المعجلة وما مضت إلا ساعات على إعلانه المساواة الكاملة بين الناس :

« يا أمير المؤمنين . انظر فى أمرك ، وعاتب قومك : هذا الحى من قريش . فإنهم قد نقضوا عهدك ، وأخلفوا وعدك ، ودعونا فى السر إلى رفضك . . لأنهم كرهوا الأسوة ! . . »

فإن حق للإمام أن يعجب لتحولهم السريع عنه ، ويغضب لانتقاضهم المفاجئ عليه ، فالبشر كافة أحق بالعجب والغضب ، لأن هذه القلة منهم — ما بلغ مبلغ اعتزازها بأنفسها ، واعتدادها بأقدارها — قد دفعتها أثرتها إلى إنكار حق كل من عداها ، من أبناء الإنسانية ، فى المساواة التى كفلتها الطبيعة والشريعة للإنسان . .

٢

الحرب بينهم وبينه كانت حربا على المبادئ ، قبل أن تكون حربا على النفوذ . ما أن جاءته ولاية الأمر حتى أشعلوا النار . الشرارة الأولى لهذا الحريق لم تكن بنت اليوم . . كانت كامنة فيهم : جمرة فى الرماد ، منذ سنين . كانت هاجسا فى خواطرهم ، يشغل أمنهم ، ويملك عليهم آفاق السلوك والتفكير ، والإمام — بعد — ناء عن الحكم يخشونه أن يقرب منه ، ويسعون بكل جهدهم ليمنعوه أن يضع قدمه على أول طريق السلطان . .

أولئك وهؤلاء كانوا من حذر بلوغه الإمرة على سواء . . خصمه الذين فى صفوفه ، كخصمه الذين احتواهم عدوه ، خافوا جميعا سليقته الصافية وشيمه البيضاء ، وخطرات ذهنه الملتزم بحدود الكرامة الإنسانية كما رسمتها الفطرة السليمة وأكدها الاسلام . . الأولى أسرعوا فمالوا ، من البدء إلى جانب الشام حيث أعجلهم الجشع ، وراودتهم الدنيا الأموية عن نفسها تعرضها لهم ، فى قمة الفتنة والزخرف ، بضاعة تأخذ القلوب والأنظار : رخيصة بدرهم ، وفيرة بقنطار ! . . والأولى بادروا إلى الالتفاف حوله ، قد استخفهم الرجاء وهم يوقنون الغلبة على دربه ، فلا عليهم إذن من التمهل قليلا إلى ساعة الفصل ، وإنها لقريب ، وإنها لآتية بالانتصار ولا بد أن يثمنوا على الانتصار ! . .

فأما خصمه من فريقه الذين توهموا وشك النصر ، واستقصروا فى أخيلتهم ، أمد الكفاح ، فقد غرتهم نظرتهم ، لأن ذلك الأمد قد طال . . الأماني التى غرسوها فى أرضه بدت لهم ، بعد حين كجذع بلا جذور ! . . وليالى الانتظار الرتيبة لم يطلع لها صباح ! .

وأما خصمه من عدوه فشأنهم شأنهم ، اليوم وأمس ، على نفس الحال . . غزيه دائما يغذى جشعهم ، ويربى شهوتهم ، ويعد لهم فى النفع ، إبان المحن التى تعتصره ، وإبان اليمن الذى يواكبه ، بما يشاء وتشاء لهم نزوات الطمع

أو شطحات الأحلام . إدناء واستلحاق . مناصب وعمالات . أعطية وقطاعات .. وكلما مضى الوقت نثر لهم من وفاضه مزيدا من المصانعة . من الرياء . أو الجاه ، أو الأموال حسبما تهوى الأنفس ، حتى تزاحمت على إنائه الكلاب ! . .

ولا عجب أن يتعلقوا بدنياه ولاعجب أيضاً الايرعووا عن التدلى فى أغوار باطله إلى القاع ، لبلوغ قاربهم ، لأن فعلهم مسوغ مفهوم بعيار الطبيعة البشرية التى تأتمر فى سلوكها بأمر الغريزة الفجة ، وتستجيب لنداء الأجساد قبل نداء الأرواح .فالاشتهاء أقوى عليها من التعفف ، والهبوط أيسر دائما من الصعود . . ولا ضير من بعد على أحد منهم — وعذره حاضر — إن هو أسرع إلى هذا الطريق الوبىء وله أسوة فى نفر غير قليل ، من قادة الرأى فى البلاد ، سبقت خطاهم خطواته على نفس الدرب . كثرة منهم ذوو سابقة إلى الاسلام ، وعلم بالدين ، وصحبة مع الرسول ، وبلاء فى الجهاد ، ونظرة ثاقبة عند تفحص الأمور ، ومكانة علية بين قومها لا تكاد تدانيها المكانات .

وكيف لا وتلك فئة بلغت الشأو فى رجاحة العقل ، وطيب الذكر ، ورفعة الشأن ، ولها فى بناء مجد أمتها ماض مشهود ؟ . أم الناس نسوا منزلة هاتيكم النخبة القرشية ، وعلوها بينهم بالأصول والأحساب ؟ . . أم الذاكرات غضت عنهم وفيهم صفوة من الأعلام ، أئمة المجيرة ، ورواد الايمان ؟ . أم الأعين عشيت وغم عليها أن تتبين شخوصهم وإن منهم بقية أهل الشورى وإن عهدها بهم قريب ؟ .

بل كانوا جميعا كألسنة اللهب فوق أرؤوس الربا وقمم الجبال .أعين السادة وأعين العامة تتعلق بهم إذا طرأ خطب أو حزبت شدة ، كما تتعلق الأنظار بكل شعلة أوقدت على علم فى متاهة الفلاة ، يشيم عندها أخو الصحراء ما يروى من ظمأ ، ويشبع من جوع ، ويؤمن من خوف بعد طول تجواله الضال فى سهول الرمال . .

كلا ما غابوا إلى الآن عن بال . . الأعوام التى انقضت بعد مولد الإسلام لم تطمس سيرتهم . والفترة القصيرة منذ إمرة الامام ، لم تمح موقفهم منه ، عندما أعلن عن المساواة . ومظهر « البطولة » — الذى حملهم إياه موقفهم ذاك ،

ورفعهم فى نظرة قريش عامة ، وسادتها خاصة ، وكل من رأى ، غير هذه وهؤلاء الصواب عين الصواب فى تناديهم بتمييز العرب على من عداهم من الشعب ، وفى دفاعهم عن «قدامة» النظام الذى ابتدعه ابن الخطاب لتقسيم العطاء فى الناس — كان مظهرا فياض السنا ، متلألئ البريق ، لا يسهل أن تعشو عنه الأذهان .

فأى بطولة تلك فى البطولات ؟ . .

بطولة تناولتها نقائض التقدير بحسب اختلاف المعايير من الخصوم إلى الأنصار ، فأثارت العجب كما أثارت الإعجاب ، والإنكار مع الإكبار . .

نظر إليها ، بعين خصومها المعارضين ، فإذا هى على طرف ، أو على حافة هاوية ، يكاد أصحابها أن يترددوا فيها ، حتى لقد قال فيهم قائل ، ينعتهم بآية من كتاب الله :

« . . . لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون . . . »

وصور موقفهم من الإمام وانتقاضهم عليه ، إذ رأى وجوب المساواة بين كافة المسلمين على غير تباين وبغير تمييز فكانت الصورة المنقولة إليه ، مرسومة بالحروف :

« . . . لما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا ، واستثاروا عدوك ، وعظموه . . . فرقة للجماعة ، وتألفا لأهل الضلالة . . . »

فرأيهم إذن ، بهذه النظرة المعارضة ، رأى العناد والجمود لا رأى الإنصاف والتعقل تجاه ما أذاعه على من سياسة الاصلاح ، ودواعى المراجعة والتغيير للأوضاع القائمة وهى عندئذ خطأ شائع أو صواب مهجور . وبطولتهم المتحولة غريبة فى البطولات ، لانها تفتقر إلى عناصر البطولة الأصيلة ، بقيمها الرفيعة ، من مروءة واستقامة وتضحية . فهى بطولة الأنانية والاستئثار . . التى تنكر « الغير » لأنها لا تؤمن إلا بالذات . . التى تستحل بالوضع ما جاءها بنفع . . التى تنفرد بالكسب وتوزع على سواها الخسار . . التى تتذرع بكل الذرائع وتتعلل بكل الاسباب ، ليتسنم أصحابها الرءوس ، ويركبوا الرقاب . . التى تقبض

ولا تنفق ، تحوز ولا تبذل ، تكتنز ولا تعطى ، تأخذ من غيرها لتثرى ويفتقر ، لتسمن ويهزل ، لتتخم ويجوع ! . .

ونظر إليها ، بعين أعوانها المؤيدين ، فإذا هى على الطرف الآخر النقيض ، فوق أعلى قمة ، يكاد أصحابها أن يبلغوا بها الشأو الذى لا شأو بعده لتطلع إنسان ، حتى لقد بدوا لنصيرهم حماة حق ، يذودون عنه أن يهدر ، أباة ضيم يدافعون عن كرامة قومهم أن يمتهنها جبروت السلطان . .

فكأنهم ، إذ يجابهون الحاكم ذا الحول والسطوة — هم العاطلون آنذاك من كل قوة إلا قوة الرأى الشجاع — دعاة مبدأ لا يبالون فى سبيله أن يقتحموا الهول دفاعا عنه ، وكفاحا لنصرته ، وإن أيقنوا أنه الدفاع المفلول الذى تشيل به كفتهم والكفاح الخاسر الذى لا غناء فيه . . فهم إذن . بوضعهم هذا فى ساحة فداء ، وبمنزلة شهداء ! . .

ولا عليهم أن يروا ما يرون ، معارضين أو مؤيدين ، فلا قيد على التفكير . ولهم ، كغيرهم ، حق التعبير . ولا حريجة على الناس أن يختلف بينهم الرأى فيما يعرض لهم من الأمور ، لأن الاختلاف أشبه بهم من الاتفاق ، والتغاير أدنى إليهم من التماثل . تلك نتيجة طبيعية مؤكدة لتعدد زوايا النظرات إلى الأمر الواحد ، بسبب تباين عناصر الرأى ومكوناته من فرد لآخر ، وقدرات النظر على الإحاطة بجوانب هذا الأمر والنفوذ فيه إلى ما وراء سطوحه الظاهرة نحو قاعه البعيد . .

لكنهم يعارضون فإذا هى المعارضة التى تشى بالنية المعقودة على الخلاف قبل التمحيص ، وبالانتقاض دون موجب له تقتضيه مبادىء النقد السليم للموضوع المعروض . .

ثانى أيام بيعة الإمام ، نراهم يجتمعون ويجمعون . ونسمعهم يلومون ويتهمون . فلا نسمع ولا نرى غير زمرة كأنما جمعها النفع الخاص فأبت إلا أن تدعو له ، وتؤلب حوله ، وتثير ثائرة من تستطيع لعلها أن تحتفظ لنفسها بمزاياها الطبقية المجحفة بالجمهور ، وتستبق حقا تقليديا احتازته ، سنين طويلة بغير حق ، وهو يوشك هذه الساعة أن يدير لها ظهره ، ليبدأ أولى خطواته على الطريق عائدا إلى ذويه ! . .

يطالمون عليا بما دعاهم إلى موقفهم ، فيقولون بلسان زعيم لهم من سادة فريق الأعلام ، وكأنما قد أرادوا أن يتملقوا فيه صلة الدم ، ووشيجة القرابة :

« . . . نحن إخوتك ونظراؤك من بنى عبد مناف . ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال أيام عثمان . . . . »

ولاء تجارة ! . سلعة تعرض وثمن يقبض ! . . فهل هى بيعة ، أم هى بيع وشراء ؟ . .

ويبلغونه ، مرة أخرى ، دعواهم ، فيقول له زعيمان آخران ، صاحبا سابقة إلى الإسلام :

« . . . أعطيناك بيعتنا على ألا تقضى الأمور ولا تقطعها دوننا . وأن تستشيرنا فى كل أمر ولا تستبد بذلك علينا ولنا من الفضل على غيرنا ما علمت . . فأنت تقسم القسم ، وتقطع الأمر ، وتمضى الحكم على غير مشاورتنا وعلمنا . . . »

أفهذا ما تبيحهم إياه الشورى مراجعة للحاكم بالرأى ومعاونة له بالنصيحة ؟ . أم هو مشاركته الحسم واجتزاؤهم بنصيب من الحكم معلوم ؟ . . أم هو حجر على الإمام ووصاية ما يريدون ؟ . .

فإذا استفسرهم الإمام سر خلافهم له ، ضربوا ، هذه المرة ، فى الإفصاح إلى مداه ، كاشفين عن نواياهم ، كأنما قد آثروا المجاهرة على المداورة ، والمواجهة على الالتفاف ، بلوغا إلى طلبتهم المنشودة من أقصر طريق .

يصارحونه بغير التواء :

« . . . خلافك عمر بن الخطاب فى القسم ! . إنك جعلت حقنا فى القسم كحق غيرنا . وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا ، وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا ، وظهرت عليه دعوتنا . . . »

تلك إذن هى القضية ! . .

ثمن قيامهم بنشر الإسلام ، وإعلاء كلمة الله ! . .

قسم عمر ! . .

ولا تملة غير هذه التملة يمكن أن تجتمع عليها مثل تلك الزمرة الذين لا تربطهم إلا كبرياء السيادة ، ثم يختلفون ، بعد هذا ، فيما يدخل فى تركيب طباعهم وما جبلوا عليه من سلائق ، وباين بينهم من نزعات ! . .

فهم سادة فى قريش بلا نزاع . وهم سادة بين العرب أجمعين بأصلهم القرشى الذى يعرفه لهم ، ويجلهم به كل أصيل فى الجزيرة العربية من أى قبيل . وهم سادة بالتراث التالد البعيد ، أو بالتراث الطارف الجديد . .

زمرة كهذه تضم ، إلى من تضم من نابهى الذكر فى أمتها ، أمثال طلحة ابن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم من أجلة قريش فى تلك الآونة ، لهى زمرة خليقة — وإن تفرقت فى الصفات والخلال — أن تجتمع على اعتزازها بمكانتها فى المجتمع ، وعلى كل ما يوحيه الاعتزاز من مظاهر البروز أو ملامح الامتياز . .

فلقد عرف لأفرادها هؤلاء ، كما عرف لأسلافهم قبلهم ، فى عهود الجاهلية المنقضية ، شأن مرموق ، لم يرتفع لشأوه فى الجزيرة مقام . كانت لهم ، فرادى أو مجتمعين ، عراقة الأصل ، أو نبل النسب ، أو جاه الغنى ، أو سطوة الرياسة ، أو وضاءة المكرمات ، أو فخار الوظائف الشرفية كالرفادة والسقاية واللواء . . حتى إذا جاء الإسلام لجب كل شرف إلا شرف الانتساب إليه ، وانمحا عنهم مفاخرهم الموروثة ، لم يتضع لهم منزل ، ولم ينقص مقدار ، لأنهم قد أثيبوا على اعتناقه إياه عزة خيرا من عزة ، وفخارا أعلى من فخار إذ غدوا به وإنهم لأصحاب سابقة إلى الإيمان ، أو هجرة مع الرسول ، أو دعوة إلى الهدى ، أو بلاء فى سبيل الله ، أو مشورة للخلفاء . .

على أن هذه المفاخر المعنوية القديمة التى كانت عادة تجشمهم البذل ، ما لبثت أن ترجمت ، بدخولهم فى الإسلام ، إلى مال مقبوض يضيف إلى شرف الذكر قوة الثراء ! . . فقد استحدث عمر بن الخطاب ، باجتهاد رأيه إبان ولايته الأمر ، نظاما للقسم رفعهم فى حساب العطاء درجات ودرجات فوق غيرهم من جمهور الأمة بعد

أن كانوا وإياهم ، أيام البعثة النبوية وطوال خلافة الصديق ، على سواء .. ثم جاء عثمان فسار على سنة سلفه فى الاجتهاد ، فأبقى على وضعهم الاقتصادى الممتاز ، وزاد عليه ، أحيانا عديدة ، إلى أنصبتهم المصرية المفروضة ، ألوانا أخرى من عناصر الدعم المادى ، فى هيئة منح وهبات وقطاعات وأعطيات ، أولاها من شاء حسبما ارتأى تقديره وشاء ..

ولا مثار هنا لمناقشة حق الحاكم — بل حق أيما امرئ من الناس — فى أن يجتهد الرأى عندما تعرض له مسألة تتطلب الحسم ، فذاك معترف به بغير مراء ، وله بعد هذا ، إن أخطأ أجر وإن أصاب أجران ، كما يقال . ولا مدعاة أيضا لإثارة الجدل حول حق الحاكم فى المنع أو المنح ، فى الحرمان أو فى السخاء ، لأنه الحق الذى ينفسح فيه مرمى النظرات ، وتختلف الآراء من نقيض لنقيض بين المعارضة والتأييد ، ثم لا يخلو — مع التشيع فى مساندته — من أثر ولو ضئيل لاتهام صاحبه بانسياقه مع عاطفته ، أو بغلوه فى التقدير ، إن لم يكن بالمالأة والانحياز ! ..

فإذا رأت تلك الزمرة فى بيان على أنه نازل بمكانتها فى أعين قومها ، سالبها مناط فخرها الذى تعتز به بينهم سمعة وثروة ثم ضاقت به أو أنكرت قبوله ، فذاك هو السلوك الذى لا يستغرب لأنه أليق بطبيعة البشر ، وأدنى إلى خلائقهم التى تتحفز — بحكم تكوينها — إلى الدفاع الغريزى عن الميل للتفوق فضلا عن الميل للاقتناء . وإذا قبل مثل هذا الدفاع ممن كانوا بالجاه ، وألفوا العيش فى أطايب الحياة من أشباه مروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ، وطلحة ابن عبيد الله ، فإنه لا يرفض أيضا من عبد الله بن عمر وإن كان — دون جمعهم — صاحب ورع وزهادة ، لأنه عندئذ ليس دفاعا عن نشب الدنيا أو مظاهر الامتياز ، بل هو الدفاع الخليق بابن بار بأبيه ، متشيع لرأيه ، معتز بتراثه وفى لذكراه ! ..

لكن الاجتهاد ما كان ليكون فى سنة مقررة أو نص معلوم .. وقد وضع عمر نظام قسمه باجتهاد رأيه الخاص ، مندفعا إليه بكل طاقته التحررية التى تراها دائما وهى تحاول أن تحكم العقل ، وتعلى نظرته الطليقة المتفحصة على نظرة

المتابعة والتقليد . . فقديما عرف عن ابن الخطاب أنه كان يراجع رسول الله فى غير تحرج ، ولا يمتثل توجيهه — كشأن سواه — امتثال التسليم ، بل امتثال التفهم والاقتناع ، ثم حالفه التوفيق فى أمور . . وقديما عرف أيضا إعماله الفكر ، ومطالعته الصديق بالرأى الذى يعارض ولا يتقبل نظرة الحاكم الملزمة بخضوع التابع المتبوع . وأبلغ من هذا وذاك فى شجاعة المواجهة ، التى لا تصدر إلا عن فكر متحرر ، وذهن نقاد ، أنه كان يراجع نفسه فيما يرى غيره أنه من المسلمات ، فكان يتبصر فى شئون دينه كما يتفكر فى شئون دنياه قبل أن يقر وينقاد ، حتى لقد أثر عنه أنه كان لا يتردد ، كلما نظر إلى الحجر الأسود ، عن الجهر بقوله : « إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك ! » — فلا حيلة له هنا إلا التسليم ! . .

بفكره الطليق المتحرر ، وذهنه المتفحص النقاد ، أجال عمر نظرته فى القسم ، حين ولايته خلافة المسلمين ، فرأى أن يجئ بنظام له جديد على غير ذلك الأساس التقليدى الذى كان يلتزم المساواة فى التوزيع . . ولا عيب عليه أن استحدث ما دعاه الوضع إلى الاستحداث ، فتغير الزمن والظروف قد يحمل مقدمات التطور . والتطور ، عادة ، يستوجب التغيير . ولا عيب أيضا ، من وجهة المنطق ، أن يرفع أو يخفض الأنصبة المستوية ، مميزا بين الناس على قدر فضل بعض على بعض فى حساب السلوك ، وبمعايير المبادرة والاقتدار والعمل والإجادة ، تقديرا منصفا للهمم ، وتقييما عادلا للنشاط ، وجزاء وفاقا للأداء . . فليس من سارع إلى الإسلام مبادرا كمن تخلف عنه إلى حين وليس من دخله طائعا كمن دخله وهو مقهور . وليس من حارب له كمن حارب عليه . وليس الصريح فى انتسابه إليه كالصيق . ولا المؤمن كالمدهن . ولا المهاجر كالطليق . .

ومع هذا كله فعوامل التغيير التى رأى عمر فيها سببا لاستحداث نظامه لم تكن غائبة قبل الاستحداث . . فهى هى إبان عهد الرسول لم يزد عليها بعده جديد . وهى هى فى خلافة أبى بكر الصديق . وهى هى التى أشار ابن الخطاب على سلفه — صدر إمرته — أن يتخذها سبيلا إلى المراوحة بين الأعطية بالزيادة والنقصان بحسب الأقدار والمنازل ، فرد أبو بكر مشورته ، وأبى إلا أن يظل الناس ،

كالهم، فى القسم سواء .. فإذا رأى الخليفة ، بعد انتهاء عهد صاحبه ، العدول عن نظام لنظام ، فإنها الرؤية التى تبدو للمتأمل كأنها اجتهدت بغير موجب للاجتهاد والعدول الذى كان التزام السنة المقررة يغنى عنه ، إذ هى أحق بالبقاء ، وأولى بالاقتداء ! . .

بأهون الفروض ، وبأرفق الظنون ، لا يبعد أن يقال عن أولئكم الزمرة « الممتازة » أنها رأت الحق فى قسم عمر الذى عاشره سنين عديدة ، أربت على العشرين ، طوال حكم عمر وخلافة عثمان . فإذا هم تشبثوا به ، واشتشمروا المضاضة فى العدول عنه ، فلهم العذر المبرر ، وإن لم يكن العذر المقبول ، لأن الناس ، عامة ، خليقون بأن يشق عليهم الخروج مما ألفوه .. وإذا هم أبوا دعوة على التى تعيد المساواة فى العطاء — وهى تنفهم مورد ثراء ، وتسلخ عنهم مظهر فخار — فإباؤهم هنا هو « رد الفعل » النفسى لتلك الدعوة المفاجئة ، أو الدفاع « الفطرى » الذى تفرزه الغريزة ذيادا عن القنية ، وحماية لتفوق الذات . .

لهم إذن ، من هذه الوجهة ، العذر الذى قد يسوقه معتذر ، تبريرا لانتفاضتهم المعارضة للإمام ، فإذا هو العذر المتعسف ، الذى يشبه الأسف ، ويقارب الاعتذار ! . ولهم تبريرهم الذى قد يساند موقفهم ، ولكنه التبرير القائم على التمحل والاحتيال ليس القائم على الحجة والتدليل ! . . وما نظنهم قد علموا الحق فى جانبهم علم يقين ، بل خالوه ، ثم أطمعهم الأمل أن يلتووا — بحركتهم تلك — بعلى عما قدر وقرر إلى ما قدروه وأرادوه ! . .

فكأنه التهديد ، مسلكهم هذا ، أو هو التلويح بالتهديد ، من قريب أو من بعيد ! .. أما هم فقد تهامسوا بشجوهم . وأما هو فقد طالعهم بعزمه الذى لا رجعة فيه . . فإذا هو ينطلق إلى المسجد مع الصباح يحدث الملأ ، ويومىء فى طرف من حديثه المبين الصريح إلى أولئك الذين استمزوا عاضيهم ، وازدهوا بعنازلهم ، واستمرأوا أن يشمنوا على الإيمان ، مؤثرين أن يظلوا على خطأ شائع على أن يفيئوا إلى صواب مهجور ! . .

يقول ، وعجبه منهم ، يتقد فى الكلمات :

« ... يا معشر المهاجرين والأنصار .. أتمنون على الله ورسوله بإسلامكم ! .. بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين .. »

ثم يبصر وإنه ليحذر :

« .. ألا إن هذه الدنيا التي أصبحتم تمنونها وترغبون فيها ، وأصبحت تغضبكم وترضيكم ، ليست بداركم ، ولا منزلكم الذي خلقتم له .. فلا تغرنكم فقد حذرتموها .. فأما هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه أثرة . وقد فرغ الله من قسمته .. »

حجة لا تثبت أمامها حيلة وإعذار لا ينهض له اعتذار . فلا من على الإيمان يقبضه إنسان من إنسان . ولا رخصة لأحد فيما قضى به وأبرمه الله ..

فإذا فرغ من بيانه هذا للناس ، دعا إليه بخاصة القوم الذين يناوئونه في القسم ، ويتململون لميزتهم الطبقية بما وضعه ابن الخطاب ، يذكرهم ما أنسوه ، أو ما يريد بعضهم أن يتناساه .

يخاطب زعيميهم ، صاحبي السابقة ، وإنهما لأدنى إلى الرجوع ، وأحق بالإقرار ..

يقول :

« ... قد وجدت أنا ، وأنتما ، رسول الله يحكم بذلك ، وكتاب الله ناطق به ... وقد سبق إلى الإسلام قوم ، ونصروه بسيوفهم ورماحهم ، فلم يفضلهم رسول الله في القسم ، ولا آثرهم بالسبق ... والله سبحانه موف السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم .. »

وتلك نظرة الله والرسول .

وتلك هي النظرة التي عليها قد عزم الإمام لأنها تحقق العدالة الشاملة ، كما جاء بها الإسلام . بلا تمييز لفرد على فرد ، ولا لطبقة على طبقة وإن اختلفوا بالمكانات والأقدار في حساب طاعة الله ، وحسن البلاء ، وسابقة الإيمان — دع الأحساب والأنساب ! .

ما هو إذن بتغيير هذا الذى طالعهم به على ، وشاء حملهم عليه وإن كرهوه . . بل هو الحق المهجور . تقويم الخطأ . تغيير التغيير . . هو الخروج بالأمة من كزازة قاعدة « خاصة » إلى رحابة قانون عام يستوى فى ظله الجميع . . والعدول عن اجتهاد لم يكن له من موجب يدعو له ، إلى سنة مقررة ، ونظام مشروع . .

حق العتيق والعسيق لهما حقهما فى القسم كالأحرار والأصلاء ، لأن الأمة بطبقاتها سواسية . فثمرة الجهد فى المجتمع سواء إذن بين أهله . وناتج العمل مردود على كل من عمل بذهنه أو بعرقه بغير تفرقة ، بدرهم فما دونه « ولو كان عبدا حبشيا مجدعا » كما يقول الإمام . .

ولا مراء . فقد أقبل الناس ليقتسموا ، ثانى أيام إمرة على ، استجابة لأمره . فقال لكاتبه أبى رافع :

« ابدأ بالمهاجرين فنادهم ، وأعط كل رجل حضر ثلاثة دنانير . ثم ثن بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك . ومن يحضر من الناس كلهم : الأحمر والأسود . . . »

وعندما سأله صاحبه سهل بن حنيف :

« يا أمير المؤمنين . . هذا غلامى بالأمس ، وقد أعتقته اليوم ؟ . . »

أجابه على الأثر :

« نعطيه كما نعطيك » .

فإذا أبت قريش وسادتها ، كتلكم الزمرة ، هذه العدالة الشاملة ، فهو الإباء الذى ينبغى مقابلته بالإباء ، لأنه يستند إلى زهو الاستعلاء ، ولا مكان له فى شرعة ترى الناس كافة فى الحق على مكانة سواء .

٣

سخط الأسرة فى القسم لم يتبدد من نفوس كثرة غالبة من أنصار النظام العمرى بعد قرار الإمام .. لم تنقضه الحجة الدامغة التى تجب بها السنة المقررة كل اجتهاد .. لم يزل خطره على المساواة الاجتماعية الواجبة بين أبناء الأمة الإسلامية ، ولا على الإنسان — عامة — كما ينبغى أن تكون حياته الخلقية سوية ، أو تكون الحياة إنسانية .. شجرته ظلت فارعة صلبة الجذع . ضاربة الجذور إلى أبعد عمق . عصية على الاقتلاع ..

الشهور الطويلة من إمرة على ، التى مضت منذ بيان التعديل ، وأصبحت فى عداد السنين ، لم تستطع أن تغير الناس وإن ظن أنها كانت كفيلة بالتغيير . فالأعوام التى عاشوها فى ظل النظام الذى غيرهم وزادت على ثلث جيل ، كانت عمرا من الإلف مكن لذلك النظام فى الثبوت والاستقرار .. جعلت منه تقليدا مرعيا ، له قوة التقاليد ، فضلا عنه كقانون موضوع .. نحلته من سيرة صاحبه وهيبته ما يشبه القداسة .. أقامته دعامة راسخة للحياة الاجتماعية ، وأساسا من أسس الهيكل الاقتصادى ، وعنصرا من عناصر الاتجاهات الفكرية فى الأمة ، قر فى أذهان الكثيرين أن هدمها خليق بأن يؤدى لا محالة إلى الإخلال بتوازن هذه الحياة .. أحالته عادة سائدة انتزاعها شديد وإن خالفت السنة المقررة ، والمنطق السليم ، واستقامة العدالة ، لأن العادات قليلا ما تستجيب للحجج والبراهين ..

حتى محنة « الجمل » التى أودت فى حينها ، بطائفة غير قليلة من زعماء أصحاب الامتيازات ، ومزقت وحدة دعاة التفاوت « الوضعى » فى الأعطيات والحظوظ ، لم يكن بوسعها رد النظرة الطبقية إلى جادة الصواب .. قضت حقا على نخبة من الطبقة الممتازة ، كقوة سياسية مناوئة لها وزنها فى ساحة الصراع السافر ، ولكنها لم تستطع أن تقضى ، بحال ، على التمييز كفكرة عششت فى

خواطر جمهرة المؤمنين بالفوارق ، السكافين بالاستئثار ، الطامحين إلى استعادة ما فوته عليهم الإمام من حقوق مكتسبة بقوة القانون ولو بعد حين . .

ولم يكن عسيرا على هذه الفكرة البقاء ، كما لم يكن عسيرا عليها التزود ، يوما وراء يوم ، بما يكفل لها كل أسباب النماء والاستفحال . .

ولا غرو . . فالذين نجوا من الصراع الحربى ، غدوا بعده وهم أشد تشبثا بما غلبوا عليه وحيل بينهم وبينه بإعلان على ثم بقوة السلاح . والذين كفوا عن ذلك الصراع أيديهم ، ونأوا بنفوسهم عن المشاركة فى هذه الفتنة الأولى ، لم يكونوا قد اعتزلوا الخلاف — من البدء — إيمانا منهم بصحة مذهب الإمام فى التقسيم ، بل إيثارا ، لا مناص عنه ، للتريث الذى يجنبهم المهالك ، ويفسح لهم فرص التدبير . . ومن وراء هؤلاء وأولئك ، كان ثمة جمع غيرهم من المتفعين بنظام عمر ، لا ينبغى إسقاطهم من الحساب ، يعيشون فى صفوف على ، على ولاء له وتأييد ، وعداء لخصمه ولدد ، وهم لا يملكون — أمام كر الأحداث ، وتوالى حركات الانتقاض والتمرد على السلطة الشرعية — إلا البقاء حيث هم ، والكفاح تحت راية الإمام ، بلوغا لهدف كبير قبل هدف صغير ، أو تقديما لصالح الدولة العام على صالحهم الخاص ، حتى يتحقق السلام ويستقر النظام .

ثم صبت مشاعر الأنفس الزيت على النار ! . .

بيان أمير المؤمنين ليس ، فى حقيقته ، مجرد إلغاء قسم وإثبات آخر عودا إلى الوضع الأصيل بسيادة المساواة الشاملة فى التقسيم . ولا مصادرة مشروعة لما أصابه قوم من ذوى الحسب والمكانة من قطائع وأموال فى عهد عثمان بأية حجة وتحت أى عنوان . لم يكن وسيلة لإثراء بيت المال بالنزول بأنصبة « الخاصة » التى فرضها عمر ، إلى الحد الشرعى الذى عمل به فيهم رسول الله . . ولا كان أيضا سبيلا لهذا الإثراء باستعادة « الهبات » والأحباس العينية والمالية التى أخذها من ذلك البيت — بغير حق ، وتمييزا — ذوو الحظوة لدى ابن عفان . ولا كان كذلك ابتغاء تسخير فائض العطاء ، المتخلف بعد خفض الأنصبة الممتازة إلى المستوى الموحد ، فى زيادة أعطية عامة الناس . .

لا بهذا ، كله أو بعضه ، من أمثال هذه الأساليب ، كان أمير المؤمنين يرجو من الأسوة بلوغ تلك الأهداف ، بل لغيرها من المقاصد والغايات . . فمهمة بيت المال حتى ذلك الحين لم تكن قط الاغتناء والامتلاء على حساب الأعطيات والأفياء ، ولا تكديس الأموال إظهارا لقوة الدولة من خلال وفرة الثراء . بل كانت تلك المهمة ، فى المقام الأول ، أشبه شىء بوظيفة الجدول الجارى الذى يستقى من النهر ليبث ما يستقيه فيما حوله من أراض وزروع فيهبها مادة الحياة والخصب والنماء . فلقد كانت الأموال ، على اختلاف الأنواع والأشكال ، من نقود ومعادن ومتاع ورياش ، تتدفق على حاضرة الدولة الإسلامية الظافرة من شق البقاع والأصقاع ، فلا تكاد تودع بيت المال إلا لتفرز ، وتحصى ، ثم توزع عطاء على المسلمين . . ولقد أثر ، فى ذلك الحين ، أن القيم الظاهرة أو الخفية لهذه المودعات ، سواء أكانت قيمة جمالية أم فنية أم تاريخية ، لم تكن شفيعا يمنع توزيعها أو يجيز اكتنازها والإبقاء عليها ، اعتزازا بروعتها ، أو تخليدا لذكرى احتيازها ، حتى لقد قطع بساط كسرى — وإنه لآية من آيات الفن تفوق كل إعان — ووزع كغيره من عروض الأموال اتقاء أن يستبيح حاكم لنفسه الحق فى حجب أى نوع من المال عن مستحقيه بأية حجة ، وتحت ستر التقدير . وقد علم ، كذلك ، أن الإمام كان يراجع ما فى بيت المال ، كل جمعة ، ليفىء ما لعله جد عليه ، أو فضل منه بعد القسم ، على المسلمين ، ولو كان إبرا أو خيطا أو مزقا من إهاب وقماش وما دونها من سقط المتاع وأهونه غناء ونفعا للناس، ثم لا يهدأ باله حتى يكنس الدار، ويصلى فيها وهى خاوية ركعتين لله ، شكرا وحمدا على أن أبرأ ذمته ، وأدى كل ما تحت يده لكل ذى حق فيه . . ثم ثبت ، بعد هذا ، أن خفض حظوظ الطبقة الممتازة فى العطاء ، نتيجة لإقرار المساواة الكاملة فى القسم بين الخاصة والعامة ، لم يضف شيئاً مذكورا إلى نصيب الفرد العادى من أبناء الشعب ، وما كان ليضيف ، بعد أن تبين لنا أن كل واحد من أولئك وهؤلاء لم يصب — عقيب إعلان على ، وتطبيق الأسوة لأول مرة فى عهده — إلا ثلاثة دنانير . .

فما هو إذن ذلك الغرض الذى سعى إليه أمير المؤمنين . بهذه الاسوة ،

ما دام قصاراها ألا تغل فائدة مادية على المواطن العادى ، أو تضيف شيئا ذا بال إلى دخله الذى كفلته الدولة بما انتقصته من أنصبة الأشراف ؟

ليس فى المقام الاول ، لأجل توفير فائض مال ، يحقق نفعا ماديا للعامة ، ويستخدم لرفع مستواهم المعيشى ، كان سعيه ذاك . . بل لأجل إفاءة الشعور على كافة المواطنين ، أبيضهم وأسودهم ، شريفهم ومشروفهم ، باستوائهم الكامل أمام الدولة فى مال الله كاستوائهم الكامل أمام الله . . فالمساواة بينهم فى المال العام تعبير عملى عن نظرة الدين لأنه إحياء لسنة نبوية ما كان ينبغى أن تحول أو تزول . . وهى إيحاء بليغ ، من الوجهة الاجتماعية قبل الاقتصادية ، إلى رفض الإسلام لذرائع التفرقة بين أهله ، وإلى ضيق مجتمعه عن ضروب المفاضلات التقليدية والوضعية أن تعيش فيه . .

لا مكان فى المجتمع الإسلامى لأية مفاوتة اجتماعية بين أهله ، تميز طائفة على طائفة ، أو إنسانا على إنسان ، وإن استمد هذا التمييز مبرراته وأسبابه من علائم التفوق ، ومظاهر الفضل التى تتمثل فى الاعتزاز بالعنصر ، أو الطبقة ، أو الثروة ، أو الجاه ، أو النسب ، أو صراحة الأصل ، أو سطوة السلطان ، أو سابقة الإيمان . . فتلك كلها عروض طارئة على تكافؤ النوع البشرى طبيعة وفطرة ، وعلى تماثل آحاده حيوية وخلقة . أوجدت تباينا مصطنعا بين أبناء هذا النوع المتوحد ، لأنه التباين الناشىء عن عوامل خارجة عن كنه الإنسان ، والمتعلل بذرائع موقوتة ليس لها استقرار ذلك الكنه وثباته ، تتغير قوة من طرف لطرف ، وقيمة من بيئة لبيئة ، وتختلف فيها النظرة بين فرد وآخر ، ثم تتذاءب بأوضاع المجتمعات تبعا لتداول هذه العوامل المتغيرة عليها ، وسيادة بعضها دون بعض على الأذهان ، فإذا هى عندئذ مجتمعات عنصرية أو طبقية أو طائفية أو « رأسمالية » أو على أى شكل مماثل أو مغاير لهذه الأشكال ، نتيجة لازمة لتأرجح موازين السلطة فى كل مجتمع من طرف لطرف ، ومن عامل لآخر ، بسبب تبدل أساليب التفكير ، وتواتر الأزمنة والعهود ، وتطور الأعراف والتقاليد . .

فإذا نظر ، من بعد ، إلى النظام الذى فرضه الإمام — من خلال صفته

الظاهرة التى تشير إلى وظيفته الاقتصادية ، وباعتبار أنه تعديل يتناول حدود الموارد المالية للأفراد — أوشك ألا يخفى عن خاطر أحد أنه العلاج اللائم الذى كان لابد منه فى موضعه وميقاته ، إذ هو الضرورة المحتومة التى قضى بها واقع الحالة الاقتصادية فى الدولة إذ ذاك . .

علاج حاسم لم يكن ثمة ما يغنى عنه لمجابهة وضع لامناص من تغييره ، إذا ما أخذ حق الشعب الإسلامى ، كوحدة ، فى الحسبان ، وإذا ما روجعت رواسب الماضى ، وعرف دورها فى الطغيان على الصالح العام . . توجيه العدالة كما توجيه المنفعة . ويدعو إليه ما بدا من الخلل فى الهيكل الاقتصادى ، وفى النظام الاجتماعى على السواء . .

ولا ريب . . فتزايد القسم ، بنظام عمر ، من حصة بنسبة مائتى جزء — صعودا درجيا — إلى حصة بنسبة عشرة آلاف ، تنحصر بينهما الحدود الدنيا والحدود القصوى لعطاء الفرد ، ثم توالى سريان هذا النظام نيفا وعشرة أعوام ، قد أديا إلى حفر هوة عميقة بين الدخول الفردية زاد فى عمقها غورا اقتدار أصحاب الأعطيات الكبيرة على تثمير فائضها لتنمية ثرواتهم ، وافتقار من دونهم من أصحاب الأعطيات الصغيرة إلى ما عسى يكفيهم الحاجة ، أو يرد عنهم ضائقة الإعسار .

ورضائخ عثمان ، من قطائع وأموال وأحباس ، وغيرها مما كان الخليفة الشيخ يفيئه طوال عهده ، على ذوى الحظوة عنده ، لقرابتهم ، أو لنفوذهم ، أو لبلائهم ، أو لهذه وتلك من تعلات ، قد أسهمت — إلى جوار ذلك الارتفاع الفاحش لأعطية الممتازين — فى استشراء الثراء وتفاقمه فى جانب من المجتمع تفاقما جعل المال دولة فى فرقة من خاصة القوم وعليتهم ، تستطيل به على سواها من المواطنين ، ويسعها معه أن تظل زمانا ليس بالقصير مطلقة اليد ، إلى مدى بعيد ، فى السيطرة على الحركة التجارية ، أو على الاقتصاد القومى للبلاد ، وتوجيهه الوجهة التى تخدم آرابها ، وتزيدها ثراء على ثراء . .

ما خلفه القسم العمرى ، وخلفته الرضائخ العثمانية ، كان حريا ، بغير جدال ،

بأن يبت فى النظامين الاجتماعى والاقتصادى للدولة من آفات الخلل وعوامل الاضطراب ما كان خليقا بأن يدفع أيما حاكم يحرص على نظافة الحكم ، وصالح الشعب ، واستقامة الأمور ، إلى المبادرة بالتغيير . . فلا استقرار لحياة مجتمع مع تخلخل نسيجه . . ولا ثبات لاقتصاده مع وجود جرائيم الاستغلال . وإذا كان الإمام قد بادر عندئذ إلى التغيير المنتظر ، فقد فعل ماتطلبته طبيعة الظروف والأوضاع . وحتمته دواعى المراجعة والعلاج . وليس عجبا إذن أن نراه يعيد القسم سيرته الأولى على سنة الرسول وخطة الصديق أنصبة متساوية لكل الناس . وأن يصادر القطائع والأموال التى أبيحها ذوو الحظوة ويردها إلى بيت المال حقا عاما للأمة جميعا ، لا هدايا أو هبات للمحظوظين .

فإذا لم تكن هذه هى المبادرة المطلوبة التى يجمل بعلى أن ينهض بها فى هذه الآونة ، كرجل دولة ورجل دين ، فأى مبادرة سواها كان خليقا به إذن أن يقدم عليها استجابة لمنطق السياسة ، ومنطق الأخلاق — قبل منطق الإسلام — ليقيم الحق ، ويمنع الانحراف ، إلى جوار دعم العدالة الاجتماعية لتمارس وظيفتها : تكافؤا بين كل أبناء الشعب ، مع حماية الثروة القومية أن تغدو ثروة خاصة تغذى الاستغلال ، وترفع قلة من الثراة على رقاب كثرة من المحرومين ؟ . .

ذلك ضوء على مسلك الإمام . .

وهو تفسير تفرضه وقائع التاريخ ، وشواهد الحال ، كما يؤدى إليه الاستقراء ، لبيانه الجرىء الذى جاء ثورة على النظامين الاجتماعى والاقتصادى القائمين فى البلاد آنذاك . . .

ولقد يبدو هنا أن فى مسايرة هذا الذى وقع ، منذ أكثر من ثلثمائة وألف عام بمعاييرنا الحالية ، وإخضاعه للنظرة الحديثة — التى نراها اليوم تربط السلوك السياسى لقادة الدول والشعوب بالأوضاع الاقتصادية السائدة فيها حتى لتجعله نتيجة مترتبة عليها — ما يمثل تعللا يحل فى غير أوانه ، فيخرج بنا عن روح العهد ، ويجاوز خصائص الوقت الذى عاشته الأحداث ، حتى لتغدو المسايرة ضربا معتسفا من المبالغة فى التصوير ، والغلو فى الاستقراء . .

لقد يبدو هذا فإذا هو — بشكله — زعم مقبول ، ووهم يخاص الأخيلة ، ثم لا يلبث — بجوهره — أن تأباه حقائق الحياة فتمتهنه العقول إلا ما كان منها يتعلق بالهيئة دون المضمون ، متعللا بظواهر العروض دون بواطن الأصول، ومعولا على صور الأسماء لا على دلالة المسميات ، وآخذا بتاريخ مولد الألفاظ وهو يهمل تاريخ نشأة المشكلات . . فأما والتعبير اللغوى يتطور بتطور الزمن ، والكلمات فى أية لغة كالخلايا فى البنية الحية ، بعضها يضمر ويموت ليتخلق بعده غيره جديد . . وأما والظلال تتراوح دائما ، بتراوح النور ، بين القصر والطول ثم لا يغير اضطرابها هذا من حقيقة الأصول ، فلا وجه إذن لغلواء ! . .

فما لا يمكن الاختلاف عليه أن ما اصطلح عرفنا الحاضر على تسميته « الاقتصاد القومى » ليس وقفا على عصرنا الحديث . بل قد كان ، بلا شبهة من شك ، واقعا يعيش فى حياة المجتمعات الإنسانية الغابرة قبل مئات عديدة من السنين معروفا لها بخصائصه ، ماثلا بمعناه تماما كسواه من عشرات الأوضاع والقيم والمبادىء التى كانت تخالط الأفكار ، وتحيي بدلالاتها فى دنيا الناس ، ثم ألبست أخيرا أسماءها المستحدثة ، كالعدالة السياسية ، والعدل الاجتماعى ، وشعبية الحكم ، والعنصرية ، والطبقية ، والطائفية ، والإقطاع ، والاستغلال ، وسيطرة رأس المال ، إلى أشباهها ونظرائها من مختلف الأسماء . .

بتقرير الأسوة فى العطاء ، مشى الإمام أولى خطواته على الطريق المؤدى إلى كبح جماح دخل الفرد ، ووضعه فى إطار محدود يلائم بينه وبين دخول غيره من الأفراد . وبمصادرة القطائع والهبات والأحباس أكد أن المال مال الله ، وأن وظيفته خدمة المجموع ، وأنه وهو عام أدعى أن تكون له قدسية تمنع عنه عبث الأهواء ، وسوء التقدير ، وسرف الإنفاق وما إليها من عوامل تحيله قنية خاصة ثم وسيلة للاستغلال . وبظهور هذين القرارين ، بدأت مرحلة من إصلاح اقتصادى كان لابد من بدئها لتصحيح الأوضاع القائمة ، وحماية الثروة القومية ، وكفالة حق الشعب ، كل الشعب ، فى معيشة متسقة ، لا يتجاذبها من طرفها فحش الثراء ، ومن طرفها الآخر عسر الإدقاع . .

وواضح بالنظرة العابرة ، دع التأمل وإمعان الفكر ، أن الهدف من وراء قرارى الإمام هو تيسير الحياة لعامة الناس فضلا عن الأخذ بالقيم الاجتماعية التى تدعو لتحطيم حواجز التفاوت الظالم بين الأفراد ، وعن امتثال القيم الخلقية التى تأبى إفساح السبيل أمام الاستغلال والانتهاز والابتزاز تحت ستار حق الملكية الفردية أو حرية تثمير المال . .

فخطة الإمام كانت بلا شك ، حين سوت فى القسم ، اتجاها نحو ردم الهوة العميقة بين الفقر والثراء بما تحققه من التقريب بين الدخول . . وكانت كذلك ، إذ صادرت جانبا ضخما من الثروات الكبيرة ، مسيرة إلى امتصاص فائض تلك الثروات وغل يدها عن تثمير المال الخاص إلى مدى يحد من طغيانه فى الحياة العامة ، وسيطرته على ثروة البلاد . . ثم كانت ، بعد هذا وذاك ، أداة لتخفيف عبء المعيشة عن كاهل المواطن العادى بما لها من أثر محتوم فى خفض أسعار السلع ، وقمع سعار الغلاء ، نتيجة للإقلال من النقد المتداول فى الأسواق بالملاءمة النسبية بين القدرات الشرائية لمختلف الأفراد . .

ولا ينبغى هنا أن يظن أن الإمام قد أبرم قراره وهو عندئذ لا يعدو أن يكون الرجل الخيالى الكلف بالمثاليات ، المشغوف بالمبادىء والمجردات . إنما قد أبرمه وإنه ، إلى جوار مثاليته المشهودة ، هو الرجل الذى يعيش فى واقع الحياة ، محيطا بظروف شعبه ، عارفا بأوضاع مجتمعه ، عليما بالدواعى العملية وحقائق الحال الداعية للتغيير . .

بمثل هذا حدثتنا الأحداث فى عصره وقبل عصره بوقت طويل . . فلغير المتاجرة بالألفاظ أو ادعاء الإصلاح ، أعلن عمر بن الخطاب فى أخريات أيامه كم ود أن يطول به الأجل ليضع نظاماً «يأخذ به من فضول أموال الاغنياء ما يرده على الفقراء» . . ولغير استجلاب الشهرة وتملق رضاء الجماهير ، راح أبو ذر الغفارى — وهو العازف عن الدنيا منصبا وسمعة وثروة — فى زمن عثمان ، ينذر الأغنياء ، ويدعوهم إلى تسخير ثرواتهم المكتنزة فى التخفيف عن ذوى المسغبة والحاجة من مواطنيهم ، لأن ما اقتنوه من المال ليس ملكا خاصا لهم ، بل هو مال الله ، وحق لعباده أجمعين هم أمناء عليه ، موظفون لإنفاقه فيما يصلح

شأن الناس ويرد عنهم الحرمان . . ولغير الأهواء الخاصة ، أو الرغبة الظالمة في تغيير خليفة بخليفة ، وعهد بعهد ، نشبت الثورة على ابن عفان ، وقضت على حياته ، كما قضت على سلطانه وسلطان بطانته وذويه وهم عندئذ رءوس الطبقة المترفة ، التي اجتمعت لها إلى قوة النفوذ سطوة الثراء . .

ليس بغائب عن الأذهان ما قد بلغه الثراء بين طبقة من الأمة ، أو فريق من العلية المحظوظين فيها ، من استفحال أخل كل الإخلال بالتوازن الاقتصادى بينهم وبين غيرهم من جمهور المواطنين ، وعمق الفرقة الاجتماعية التي تفصل الخاصة عن العامة ، حتى غدا الوضع نعمة غامرة في جانب ، تتقلب فيها قلة مختارة ، عيشها الترف ، ولعبتها المال ، ونقمة مدمرة في الجانب الآخر ، تعيث بكثرة مقهورة ، حياتها الشظف ، وعملها الحرمان ! . . فإذا ناء جهد جمهور الشعب عندئذ تحت وطأة المعيشة وقد أعوزته الوسائل لممارسة الحياة كما ينبغي أن تليق بإنسان ، ثم ترامت شكواه مما يكابد من الضيق حتى انتهت به إلى ثورة على حكم عثمان ، فذلك هو الطريق الطبيعي لسير الحوادث والانفعالات ، والمحنة المفترض حلولها قبل وقوعها بسنوات . . وإذا كان الادعاء بتجنى الثوار قد لقى صدى في بعض الأسماع ، وجرت به على الصحائف بضعة أقلام ، فأى مدعاة إذن كانت خليقة بتحريك السخط ، وإثارة الجماهير ، إن لم تكن لقمة العيش هي المدعاة ؟ . .

من خلال ما مر من وقائع ، وما تناثر من أحاديث . منذ أواخر أيام عمر إلى بدء عهد الإمام ، لا يفوت المتأمل أن يتنبأ بسلوك الثوار ، ثم يبرر هذا السلوك إن لم يسانده بالتأييد وهو عندئذ آمن من العثار . .

فالفوارق المالية بين الدخول والموارد ، كالفوارق الاجتماعية بين الطبقات والأجناس ، كانت وسيلة لغرس عوامل التفرقة النفسية بين الناس ، وإثارة مرارة في صدورهم فعلت فعلها في تنافر أحاسيسهم ، وانفصال بعضهم ، شعوريا ولاشعوريا ، عن بعض حتى انشطر مجتمعهم شطرين : طائفة منه تستمرىء الحال وترتع فيه فهى متنعمة به ، وطائفة تبرم به لأنها مغلوبة عليه . واحدة عالية قادرة محسودة ، وأخرى راسبة عاجزة حاسدة . . قلة تملك وتستمتع بالحياة ، وكثرة لا تكاد تعرف طعم الحياة

تنافر في المشاعر ، وتناقض في الأوضاع ، يعلو بهما مستوى المعيشة بأناس إلى القمة ، ويهوى بغيرهم إلى القاع ، ثم تلتهب على آثارها الأحقاد . ولا غرو . فالأسعار ترتفع ، والغلاء يستشرى كما لم يعهد أحد ، فيشق على عامة المواطنين احتماله . والسلع الضرورية تعز على كثرة الناس ، لا لندرتها أصلا في الأسواق ، بل لمبادرة الطبقة القادرة — من ناحية — إلى احتيازها ، انتفاعا بها ، أو استغلالا لها بالاحتكار ، والافتقار الكثرة — من ناحية أخرى — إلى القدرة على الشراء .. وكفى هنا أن يقال إن النخلة ، وهى طعام العربى ، كانت تباع بألف دينار ، ليبين إلى أى مدى كانت جمهرة الأمة تتسقط قوتها على عناء .. وكفى أن تذكر سيرة فئة ليست بقليلة من خلاصة الخاصة أصحاب الحظوة أو ذوى النفوذ فتذكر لهم ثروات تجاوز خيال الخرافات ، من سبائك الذهب ، وفاخر القصور ، وأصائل الجياد ، وقطعان الإماء والعبيد . .

هذه الفوارق لم تكن مجرد صور فردية التقطها بعض الموتورين لاستغلالها نكاية فى الحكم القائم ، وإثارة للسخط عليه ، بل قد كانت ظاهرة عامة فى المجتمع الإسلامى ، يعلمها كلا طرفى التناقض الاجتماعى ، وإن أغضى عليها طرف إغضاء استمراء ، ويرم بها آخر برم إنكار . وفيما بين الطرفين كانت قلة مستبصرة من الألى يتعمقون الظواهر ، ويستكنهون الدلالات ، تعيش فى قلق من الغد ، وخشية من المصير الذى ينذر الأفق به ، فلا تكف عن الإيماء إلى الخطر المنتظر ، وإلى الدعوة إلى ضرورة المبادرة بالإصلاح فما كانت البيئة النفسية للشعب الإسلامى آنذاك إلا تربة صالحة لاستنبات الحسد الذى يثمر الحقد والتباغض بين الناس . ولا كان الوضع الاجتماعى المختل إلا مؤذنا بالانهيار أو مشفيا على الانفجار . وما كان الحرمان فى يد الكثرة الغالبة من الأمة إلا سلاحا خفيا يهم أن يضرب ضربته ، عسى أن يحصل كل عان محتاج ، عنوة وقسرا ، على ما كفله له الإسلام من مقومات الحياة الكريمة حقا مشروعا ما دام الوفاق والسلام عجزا عن تزويده بهذا الحق ، وما دامت الفئة القادرة الثرية قد بخلت به ، بل ابتزته عن سوء نية أو سوء تقدير . .

ولم يكن تجاه على — كحاكم ورجل دولة ، دعه إماما ورجل دين — إلا أن

يسارع إلى العلاج وإن كان كيآ يوجع من استمرأوا من قبل مزايا تلك التفرقة الاجتماعية، أو استرخوا لما ألفوه من أوضاع . فهو لا يجهل حقيقة الحال. وهو قد شام بوادر التذمر طرفا من عهد عمر ، ثم عاش فتنة السخط طوال عهد عثمان . وهو قد رأى حصاد الانفصال النفسى بين الشعب وحاكمه ، وبين العامة المحرومة والخاصة الثرية ، ممثلا فى الثورة الهوجاء ودم الخليفة الصريع . فإذا التفت فور امتلاكه السلطة إلى مقابلة الأمور بالحسم ، فلا معدى له ، بحال ، عن السكى وقد استفحل الداء ولا حيلة له إلا أن يندفع بكل قوته نحو التغيير . . وإذا كان ثمة من يدعى أن ما فعله الإمام لمجابهة الموقف ليس سوى جانب من خطة سياسية بارعة يهدف بها إلى كسر شوكة خصومه ، وتقليم أظفار قوتهم ، بلوغا إلى القضاء قضاء مبرما على نفوذهم الذى أفاءه عليهم سلطان المال وهيبة التقاليد ، فذاك ادعاء تنقضه نظرة الدين ، ونظرة العدل الاجتماعى ، ونظرة الواقع الاقتصادى فى تلك الآونة ، لأنها كلها تحتم التغيير العاجل الحاسم ، ولا تدع سبيلا إلى إرجائه أو المهاودة فيه . .

ولو أن الإمام وزن لأنصاره بميزان ووزن لمخالفيه بميزان وهو يطبق سياسته فى المال ، لاتسعت الحجة لمثل هذا الادعاء . . ولكن الرجل لم يقصر قراره بمصادرة القطائع والأموال المهداة على أولئك الخصوم ، بل شمل به كافة المنتفعين بغير استثناء . ولم يقل أحد إنه ، حين سوى فى القسم بين المسلمين ، قد أعفى أصحابه من التسوية فتركهم وأنصبتهم المقدورة منه وإن كثرتهم — على خلاف خصومه — لمن ذوى الحظوظ الباذخة فيه ، إذ هم من آل الرسول الأمين ، وأصحاب الهجرة ، ورجال السابقة إلى الإيمان ، وأجلة الأنصار، وكلهم بهذا من أوائل المميزين فى العطاء بشريعة عمر بن الخطاب . .

خطوة محتومة تلك التى خطاها الإمام حينذاك ، كان حريا به ، وبأى حاكم سواه ، أن يبدأ بها عهده ، ما دام يعيش ظروف زمنه ، ويتنفس أحداث مجتمعه ، ويستشعر أحاسيس أمته وهو يدرك إدراك واع خبير حقيقة الدوافع والأسباب التى حركت مواجد الناس ودفعت بهم إلى التبرم بماضيهم والثورة على ما فيه . . فالوضع الاجتماعى كان فى حاجة ملحة إلى التصحيح ، تحررا من استفحال

العصبية ، أو تخفيفا من الضغط الطبقى الذى تمارسه ، وخلاصا من استبداد قلة من أبناء الأمة بالكثرة الغالبة فيها تحت ستار الامتيازات المالية المقننة أو الجاه التقليدى الموروث . والوضع الاقتصادى كان أيضا فى حاجة ملحة إلى تعديل يعيد توزيع الثروة الأهلية ، أو يعيد تنظيمها ، على أساس جديد يحرر المال من أنانية الخصوصية ، ويخرج به إلى رحابة العمومية ، لينأى — إلى حدود مقبولة — عن متناول الجشع الفردى ، وسوء استغلال حرية التملك ، ولينهض بوظيفته الأصيلة الحقة التى تهدف إلى صالح الجماعة ، فلا يصبح سلاحا فى أيدى فئة من المواطنين ، دون كافتهم ، تحركه كيف شاءت لاستذلال الناس وتسخير قوامهم وقدراتهم لنفعها الخاص عن طريق استرقاق الأرزاق . .

وإذا كانت هذه الخطوة فاتحة السير إلى تطبيق مبادئ العدالة بجانبيها الاقتصادى والاجتماعى تطبيقا عمليا لا يقف عند حافة التشدق بالألفاظ ، فقد كانت الخطوات التى تلتها على الأثر تعزيزا لهذا التطبيق ، وتثبيتا لأقدامه على الطريق . فما عتم الإمام ، كما عرفنا من قبل ، أن مضى شوطه ، حثيثا ، إلى رسم الإطار السلوكى الذى ينبغى أن يتحرك المجتمع فى نطاقه ، ليعيش كل أهله معيشة إنسانية كريمة . . ولو أننا تتبعنا ما وضعه من قواعد ، وما فرضه من أوامر لتنفيذ هذه القواعد ، لتبدى لنا إلى أى مدى قد أسهم ، بالرأى والنصيحة والقدوة والسلطة ، فى تطوير النظم على النحو الذى يكفل الموازنة بين الطبقات من ناحية ، وبين الأفراد من ناحية ، لتصبح الحياة خليقة بأن يحياها كل أبناء الأمة وهم على وفاق وارتضاء إذ هم على تكافؤ واكتفاء ، ما دامت لا تعضل ببعضهم فتضيق به وتشق عليه ، وتخف على بعضهم الآخر خفة تفسح له فى التجبر والطغيان . .

وتأمل النظم التى جسدها الإمام — ولا نقول وضعها — فى ذلك الحين ، وكانت المرآة المجلوة الصافية التى انعكست على صفحتها الرائقة مبادئ الإسلام وقيمه ، لا يسوغ أن يحمل امرءا على الزعم بأنها لا تزيد عن مجرد وسيلة مؤقتة لتخفيف عبء المعيشة عن كاهل عامة الشعب أو طبقاته الفقيرة ، بل ينبغى — إنصافا — أن يقال فيها ، وبغير مجاوزة لدقة الوصف وصدق التعبير ، إنها نظم رائدة فى مجال الإصلاح الاجتماعى إذا ما نحن اكتفينا منها بجانبها هذا دون

طرفيها الاقتصادى والسياسى الذين هدفا : فى طرف إلى تصحيح مفهوم المال وتقويم وظيفته ، وفى الآخر إلى تحرير الرأى والإرادة بتحرير لقمة العيش وتخليصها من سيطرة الاستغلال .

ولا جدال فى أن ذلك الاتجاه الجديد ، الذى أوضحه ونحا إليه الإمام ، قد سبق النظرة الحديثة بمئات عديدة من السنين حين رسم دور الدولة فى رعاية أبنائها ، وأوجب عليها كفالة حقوقهم الإنسانية الأساسية كفالة فعلية ، لا تقوم على شعارات لفظية ، رنانة الجرس ، منمقة البناء ، بل على الدعوة الجادة المقترنة بالتطبيق . .

فالمجتمع الإسلامى ، كحقيقته ، وفى نطاق نظم ذلك الاتجاه ، مجتمع من الإخاء والمساواة والكرامة . لكل عضو به دور تلتقى فيه الحقوق بالتبعات لتتفاعل وتثمر العمل الإيجابى المجدى الذى يؤدى إلى منفعة الأفراد وصالح المجموع . وأبناؤه كافة فى رحابه متساوون ، بلا تمييز أمام قواعد تشريعه ، لأنهم « إما أخ فى الدين ، وإما نظير فى الخلق » فلا وجه إذن لتباين واختلاف يترتب عليهما تفرقة وتفضيل .

وجمهور العامة من بنيه — عندما تحتم الضرورات الاحتكام للمفاضلة — أولى لدى الدولة بالرعاية من بقية الطوائف ، إذ هم كثرة الأمة ، وقاعدة دولتها ، وصلب قدرتها ، لأنهم « عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء » . . ولأن « سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، وسخط الخاصة يجحف برضا العامة » فالكثير إذن له التقديم على القليل . .

والرعاية الخليقة بأن ينالها الشعب من السلطة الحاكمة ، هى تلك التى توفر له أسباب الأمن ، وأركان الحرية ، والمقومات الرئيسية لعيش كريم على نحو ما نسميه اليوم بالتحرر من الخوف ، والتحرر من الجهل ، والتحرر من المرض ، والتحرر من التعطل ، وأمثالها من مقررات ومبادئ تحملها كفالة الحريات السياسية ، والضمان الاجتماعى ، والتأمين الصحى ، وأمثالها من الأساليب التى تدرأ غوائل الحرمان — بتعدد صوره وشمول معانيه — عن كل مواطن ،

فتوفر له طلاقة الرأى ، وحرية الحركة ، وحق العمل ، والإعالة ، والعلاج وغيرها من ضروب البذل والمعونة التى تهيىء له حدا لائقا للمعيشة لا يخل بكرامة الإنسان . « فلكل على الوالى بقدر ما يصلحه » حقا مقدورا لا نزاع فيه ، ولا عدول عنه ، سواء أكان عملا ما يصلح المرء ويقيم شأنه أم كان إعانة .. وعلى الحاكم أن يرصد من مال الدولة ماينفقه على من قبله « من ذوى العيال والمجاعة » تخفيفا عليهم من ثقل الكلفة ودفع الكوارث . وهو مسئول أيضا عن غيرهم من مواطنيه الذين ينوءون بالحياة بسبب طبيعة الفوارق المالية والاجتماعية التى لا يخلو منها أى مجتمع ، ونتيجة لتفاوت القدرات والمستويات الطبيعية لدى الأفراد . فعليه أن يرأب صدوعهم ، ويسد مواضع الخلات فيهم ، ويغطى عجزهم أو ضعفهم برواتب تقسم من بيت المال لهم ولأمثالهم من أبناء الطبقة الدنيا الألى حرموا العمل أو القدرة عليه ممن « لا حيلة لهم » فى ذلك ، كالمساكين والمحتاجين ، وأهل البؤس ، والزمنى ، أصحاب العلل والعاهات ، ضمانا لمعاشهم ، وتمكينا لهم فى التداوى والعلاج . .

تلك إطافة تجلى بأسس النظم التى اختطها الإمام لمجتمعه ، وأدخلها ، بسلطان الحكم ، فى حيز التنفيذ . وهى لا ريب سابقة لم يكن لها فى العالم ، قبل الإسلام مثيل حتى احتذتها أخيرا ، فى القرن الحاضر ، وبعد ألف وبضع مئات من السنين ندرة من المجتمعات الإنسانية الحديثة فى قلة معدودة من الدول الثرية المتقدمة التى أكرهتها الثورات الدموية وحركات التناحر بين الطبقات — فيها أو فى سواها — على أن تعرف لرعاياها حقهم عليها كبشر كما عرفت حقها عليهم كسلطة . ففرضت من مالها للمتعطل والطفل والشيخ والعاجز والعليل . . ومع ذلك فشتان بين عمل المضطر المكره الذى يمليه ضغط الظروف القاهرة بقوة الصراع وبين عمل الطائع المختار الذى ينبعث عن نظرة إنسانية عميقة ، وحس مرهف ، ووعى محيط . .

ولا حاجة بعد للقول بأن مقومات نفاذ أى قانون أو نظام لا بد فيها من اجتماع ضمان إيجابية العمل بتقريره إلى الاطمئنان لسلبية الانحراف بتقليم أظفاره ، أو تلازم الحفز والردع ، والتحليل والتحريم ، درءا لعوامل الاختلال عن ذلك

النظام ، وتحقيقا لاعتدال ميزان السلوك ، وكفالة لاتساق خطا المجتمع عليه . .
فإفصاح أى قانون عما هو مقبول لا جدوى منه إن لم يقترن بالإفصاح عما هو مرفوض . وتقرير ما هو محظور ضرورة واجبة كتقرير ما هو مباح ، لأنهما مما يعكسان الطبيعة البشرية بجانبي الشر والخير فيها ، أو جانبي الخطأ والصواب ، ويلائمان بين خلائق الإنسان التي يستقيم شطرها بوحي الضمائر النقية ، وينحرف شطرها بنزغ النفوس الأمارة بالسوء . . ومن ثم فلم يغفل الإمام إبراز النواهي والممنوعات التي يتأكد بها استواء السلوك بلوغا إلى سلامة التطبيق . فلا محاباة في حق مقرر ، تزيدا وسخاء . ولا ترخص في حد مانع ، رياء ومصانعة . .
لا اختيار لمن يتولون الأمور العامة « إلا بالاختبار » . لا استئثار لأحد « بما الناس فيه أسوة » أكفاء ، من حقوق ومنافع ، ما بلغ شأوه من النفوذ والجاه . .
لا إنصاف إلا بانتصاف الحاكم « لله والناس » من نفسه وأهله وخاصته وكل من له هوى من الرعية فيهم كانتصافه من غيرهم من الجمهور وعرض الناس ، إقرارا وتسليما باستوائهم أجمعين ، وتطبيقا منزها لسيادة القانون . .

مبادئ وعموميات اندرجت في سياسة الإمام لمجتمعه ، وترجمت إلى خطط وأساليب تنفيذ ، تعبيرا عمليا عن شريعة الله ، وإدراكا واعيا منه بأن الزيادة على الحق والمبالغة فيه كالانتقاص منه ، كلاهما خليق بأن يؤدى إلى اضطراب المعايير واختلال النظام العام . . فالمحاباة — كمثال — ترجيح متحيف ، أحرى بالظلم أن ينبت في تربتها ، ويترعرع ، ويفرع إلى غاية السموق . . هي ، في حقيقتها ، تطفيف للكيل في جانب ، يقابله إخسار في الآخر ، استجابة لدواعي خاصة تنبعث عن الميل المغرض للذات أو الأهل أو الصفوة القريبين من الصحاب والأتباع ، فتجانب الحق مستهينة بالعدالة . . وهي مجلبة للفوضى ، مفسدة للحاكم والمحكوم . . وهي البريق الخلاب الذي يستهوى الأنفس الضعيفة والضمائر المريضة فتطير إليها على أجنحة الملق والنفاق . . وهي الطريق المنفتح إلى غير حد معلوم أمام كل مفتقر لمقومات الاقتدار ، كلف بالمظهر ، ولوع بالنفوذ ، منهوم للاستغلال . .

من خلال هذه القواعد انبثقت لأمير المؤمنين بيانات وتعاليم نشرها على

مجتمعه ، تحدد المحظورات تحديدا واضحا كما حدد قبلها الممنوحات . . فالمنح والبذل لذوى الافتقار والإعسار كان لا بد أن يقابلهما التقييد والمنع لأصحاب الاقتدار واليسار ، ملاءمة بين الكفاف والترف ، وتضييقا على الانتهاز والاستغلال ، وضمانا لحياة معيشية لا تطغى الغنى ولا تفدح الفقير . . فهو يرفض أن تثرى الدولة على حساب إعواز أبنائها بغالاتها فى تقدير الخراج . . وهو يسقط حقها فى جباية دينها على المواطن إن كان اقتضاؤها هذا الدين يجيئها عن طريق « بيع كسوة شتاء أو صيف ، أو دابة يعتمل عليها المدين » . وهو يمنع احتكار السلع « لأن رسول الله منع منـه » درءا لاستغلال الجشعين وحماية لجمهور المستهلكين . وهو يضع أسسا للبيع والشراء سمحة بموازين عدل ، تحدد لكل سلعة سعرا مناسبا ، « لا يجحف بالبائع والمبتاع » على نسق التسعير الجبرى الذى نعرفه الآن . .

وكيفما كانت نظرة بعض طبقات الأمة ، من رجال التجارة ، وأصحاب النفوذ وذوى الثراء ، وزعماء العصبيات القبلية والسياسية إلى هذه النظم والأساليب التطبيقية التى وضعها الإمام ، فقد كان ، فى حدود القرآن وتحت ضوئه ، ذلك الحاكم الذى استطاع — تفاعلا مع الواقع — أن يترجم شرائع الإسلام إلى أسلوب عمل ميسر ، تجرى الحياة اليومية لمواطنيه على سننه . كما كان ، بلغة عصرنا الحديث ، رائدا على طريق الحكم الشعبى بمعناه الذى يهدف — عن إدراك سليم لحياة رعاياه ، وبوعى إنسانى مرهف — إلى تسخير طاقات الدولة وقدراتها : مالا وجهدا وتنظيما ، فى إقرار آدمية الناس ، وتوطيد كرامتهم ، وتحقيق مطالبهم المادية والمعنوية من أقرب وجهة وأقوم سبيل . . ولا جدال فى أن أية محاولة كاشفة أو فاحصة ترمى إلى تعقب خطاه على هذا الدرب الطويل لن ترى قط أن عمله ذاك مسبوق ، أو تجد له نظيرا ، فى عصره وفيما قبله من عصور ، بمثل نفس الشمول . . بل لتوشك أيضا ألا تجد خطاه متبوعة أو محتذاة إلا بعـد مسافة من الزمن شاسعة ، امتدت لعدة مئات من السنين ، لهثت عليها أنفاس البشرية ، وتعثرت أقدام المصلحين والدعاة المكافحين للحق وللحريات العامة ، قبل أن تهتدى إلى مساره ، وتلحق بآثار غباره . .

وهين أن يفكر امرؤ فى التغيير . وعسير أن يشرع فيه . ولكن الأعسر الأشق أن يحمل الناس على قبوله لأن البشر ، فى كل زمان ومكان ، عبيد ما ألفوا ، أعداء ما جهلوا ، ذوو نفور مركب فى خلائقهم من المستحدث الجديد . وإذا كان الامام ، لقاء عمله هذا ، لم يوف نصيبه العادل الحق من تقدير معاصريه وغاله منهم كافة ، فى الأغلب الظاهر ، جحود ونكران ، فذلك موقف منتظر لا غرابة فيه ، قد كان عنده خاصتهم وعامتهم : الأولى ضيق عليهم وأخذ منهم ، والأولى أفسح لهم وأعطاهم ، على سواء متحاذين . .

لا عجب .

فالخاصة من الثراة وذوى الحول ، قد آذتهم نظمه ، وشقت عليهم أساليبه ، لأنها انتقصت مما كانوا ينالونه ويرونه حقهم بغير نزاع ، ونزلت معه بأقدارهم الاجتماعية المكتسبة أو الموروثة إلى دون ما يرتضون وترتضيه لهم نزعة الاستعلاء .

والعامة من المستضعفين وذوى الحرمان ، قد فاتهم فهم التغيير المستحدث وغمت عليهم حكمته البعيدة الرامية إلى الملاءمة بين وحدات المجتمع ، والتنسيق بين مختلف القدرات المعيشية لطبقاته وإن أتاهم بخير معجل ما كانوا لولاه بالغيه . فهم بطبيعة حياتهم الرتيبة التى تواترت — بهيئتها تلك — أعصرا طويلة ، لا يكادون يفكرون فى التغيير . . وهم ، بفعل وضعهم الاجتماعى المضغوط ، وطاقاتهم المادية المحدودة ، لا يقدرون عليه وإن فكروا فيه . . وهم بهذا وذاك أدنى إلى أن يكونوا أهيب لكل جديد ، أبعد عن التطلع إليه ، كأنما عيونهم معصوبة بالقديم لا ترى سواه ، وكأنما مستقرهم هو ذلك الولاء الأعمى لتراثهم الاجتماعى الذى جعلهم أسارى مذهوبى الحول ، يعيشون عمرهم فى ربقة كل مألوف متواتر كدمى جامدة بلا إرادة تتلعب بهم الطبقة العالية المقتدرة التى لها عليهم — نتيجة لصولة التقاليد الموروثة — حق الانصياع والطاعة بحكم وصاية المشيخة القبلية ، أو هيبة عراقة الأصل ، أو قوة سطوة النفوذ ، أو قدرة سلطان المال . .

فإذا كانت استجابة عامة الناس فى المجتمعات لمنطق المألوف المتوارث فيه من التقاليد والعادات تبدو — بنظرتنا الحاضرة — التزاما ذليلا بأوضاع سقيمة ، وخضوعا مستكينا لواقع واجب التغيير ، فذلك ما لا نحسب قد دار بخلد مجتمع تلك الأيام ، وما لا يخلق بغيره أن يدور . فمجتمعهم عندئذ ، فى معظم صوره وأشكاله ، مجتمع أسرى الطابع والسكنه ، أصله قبائل وعشائر ووحدات ، يلتئم نسيجه بوشائج من الدم ، وصلات من النسب ، وعلاقات من التبعية والاستلحاق والولاء هى التى تربط بين أفراده ، وتتحكم فى سلوكهم ، وتحدد لهم طرائق العمل والتفكير . وكلها ، كما هو معلوم ، عرى اجتماعية وثيقة ، يعسر التحلل منها ، ويتعذر فهمها ، لأنها تقوم على أساس عاطفة بشرية بعيدة المنابت ، غائرة الجذور فى النفوس ، قد فطروا عليها من النشأة ، وأشربوها — إيمانا واعتيادا — هى إحساسهم الطبيعى بالبنوة للكبير ، واعتقادهم الراسخ بضرورة طاعته وتوقيره . .

وليست هذه وحدها هى كل أسباب وقوفهم غالبا حيث هم ، دون حركة جدية إلى الأمام نحو التطور ، تشبثا بالماضى أو جمودا عليه . بل قد يفوقها ويسبقها ، فى استغراقهم لذلك الماضى ، تدلى الوعى الشعبى فى هذا العهد الغابر إلى مستوى دون ما لعلنا نرى الآن عليه أقل شعوب الأرض حظا من الإدراك العام لحقوق الأفراد وحقوق الجماعات ، بجوانبها الاجتماعية والسياسية ، قبل السلطة التقليدية الوصية التى تسوس الوحدات الاجتماعية عادة بسلطان العرف ، أو السلطة الحكومية الرسمية التى تسوسها بسلطان القانون . .

فما لا خلاف فيه أن العالم آنذاك لم يكن وحدة إنسانية متسقة ، أو سائرة إلى الاتساق ، على غرار ما نعرفه الآن أو ما نرى أنه موشك أن يكون وأن شعوبه كانت كالوصائل المقطعة ، تفصل بين بعضها وبعض مسافات واسعة من الأبعاد الأرضية والزمنية ، تعرقل اتصالها ، وتعوق تلاحمها العضوى ، فتؤخر تفاعلها ، ثم تحول ، إلى مدى بعيد ، دون تبادل الآراء ، وتلاقح النظرات والأفكار . .

وما لا ينكر أيضا ، أن المجتمع العالمى ، إلى ذلك الحين ، لم يكن يمثل فى

حقيقته سوى أعداد من تجمعات شعبية إقليمية ، قد تناثرت على سطح الدنيا ، أحدها هنا ، وغيره هناك ، إن يكن لكل تجمع منها ذاتيته المستقلة أو خصائصه المميزة ، فإنها كافة كانت مفتقرة إلى المحور الفكرى العام الذى تدور آحادها حوله ، سابحة فى فلكه ، ومؤمنة فرادى ومجتمعة بقيمة دوره فى حياتها كمسار موحد يحدد اتجاه السلوك البشرى العام ، أو كمناخ مشترك تعيش فيه وتتحرك وتنمو حقوق الإنسان . .

وما لاجدال فيه بعد ، أن ذلك الجزء من الوطن الإسلامى الكبير ، وهو المجتمع العربى — بحدوده الإقليمية المعروفة الذى كان آنذاك بؤرة التغيير ومركز إشعاعه — لم يكن ينفرد بما يكاد يغاير خصائص مجتمعات ذلك العالم المتمزق القديم ، كما لم يكن أيضا ، فى صلاته الإنسانية والفكرية بما حوله من القريب والبعيد ، إلا أشبه بالأرض التى يعيش فوقها أبناؤه ، حتى ليمكن القول إنه كان ، مثلها ، جزيرة ! . . جزيرة اجتماعية منتحية ، يوشك أن يفصلها عما يجاورها من المجتمعات البشرية المعاصرة بحر لجى واسع من العزلة والانقطاع . .

هذه الصورة الوصفية لحال شعوب العالم فى ذلك الأوان ، تهم أن تضع أمام المتأمل مرآة تنعكس على صفحتها هيئة الوعى الشعبى — أو بدقة التعبير مدى قصوره — فى نفس الفترة الزمنية بعهد الأحداث فى دولة الإمام . . ولقد يكون ثمة من الخلاف بين حالة الوعى بها وبين حالته فى سواها من بقاع الأرض ما لعله يلفت النظر أو يحمل على التدبر والتفكير . ولكنه ، مع ذلك ، هو الخلاف الذى يفارق بين الأصل والظل ، وبين القوام والخيال ثم لا وجه معه للمفاضلة بين أحدهما والآخر من ناحية السمت الكلى أو الشكل العام .

لا سبيل ، فى الحق ، للمفاضلة بين الوعى الشعبى فى المجتمع العربى وبين أضرابه فى غيره من المجتمعات القائمة ، النائية أو المتاخمة ، التى لم تكن بعد قد غزتها العقيدة الإسلامية وإن كانت المفاضلة أحرى بأن تقدمه إلى مكان الصدارة ، وأن تختصه دونها كلها بالترجيح .. لا سبيل ولا وجه أو نكون إذن قد انسقنا إلى تقديم نظرى لفظى يقوم أساساً على « الفكرة » دون أن يقوم على تحقيقها ، وإلى ترجيح شكلى مظهرى قصاراه الاستناد البحت إلى « النظرية » مع إغفال تطبيقها كل الإغفال . .

ثم ما هو ثابت مؤكد من سبق الدين الإسلامى إلى ارتياد مجالات حقوق الإنسان ، سياسية واجتماعية ، سبقا لم يباره فى مضماره ولا لحق بغباره غيره من الأديان والفلسفات ، فإن العبرة فى نضج الوعى الشعبى بهذه الحقوق ليست بانتظامها فى نصوص ، ولا بنشرها فى تشريع ، بل بمقدار إدراك الناس لحقيقتها وانفعالهم بحكمتها ، واستجابتهم لفحواها ، وشوقهم إلى مراميها ، ومبادرتهم الجادة إلى العمل على تجسيدها كأسلوب حياة ..

ولا يعنى هذا ، بطبيعة الحال ، أن كل ما اتصل بتلك المجالات من تعاليم الإسلام كان دبر كل الأسماع ، خلف كل الأبصار ، مفصولا ما بينه وبين كل العقول والأفهام بحجاب . . كلا . ولكنه يعنى أن النفوس وإن علمته لم تشربه . وإن أشربته لم تمتصه . وإن امتصته لم تتمثله إذ كان عندئذ فوق قدرتها على الامتصاص ! .. كما يعنى أيضا أن قلة من بين الناس ، غير مذكورة الأثر والعديد ، هى التى أملها قدرته حق قدره ، ووعته كما ينبغى أن تعيه فخالط — وسيلة وغاية — دماءها وقد استنارت بصائرها ، واهتدت أذهانها ، واستضاء أمامها الطريق .

كل هذه حقائق لا يجدر أن تغيب عن البال فى سياق التأمل والتحليل . ولا يحسن بعابر الحقيقة أن يمر بها ثم لا يفطن لها كمعالم تدلنا على قصور طاقة المفكرين إذ ذاك عن ملاحقة مسيرة التغيير الاجتماعى التى أعدها ونظمها القرآن . . وهى معالم بارزة الدلالة ، عظيمة التأثير فى تعويق الوعى الشعبى وشد خطواته إلى الوراء . وهى ، فوق هذا ، بضعة من عوامل غيرها معرقلة إن لم يحصرها جميعا الإحصاء فلا أقل من أن يوردها التمثيل . .

فلم يكن غريبا ، كمثال ، أن يتأخر الوعى العام بحقوق الإنسان « المدنية » عن الظهور — وبخاصة فى الجزيرة العربية — أثناء ذلك الطور المبكر من تاريخ الدولة الجديدة التى خلقها الإسلام ، وهى بعد مشغولة بدواعى الإعداد ومقومات البناء . . ولم يكن — كمثال آخر — مغايرا لطبيعة حركة التطور ، وهى عادة تسير على مهل ، أن تعوز الوعى الشعبى القدرة على مواكبة الأحداث

الجارية التي كانت عندئذ تطفر ، بل تطير بجناح . . ولم يكن كذلك — خلافا المنتظر في مثل البيئة الاجتماعية القائمة ، التي تستمسك بالقديم ، وتخاص المألوف ، وتنفر من الجديد ، أن يعجز هذا الوعي عن فرض نفسه على حياة الجماهير .. ولا عجب ، فقد كان الناس في تلك الحقبة ، في شغل شاغل عن أمور دنياهم بحرصهم الدائب على ترسيخ العقيدة الدينية الجديدة في نفوسهم ، وتنمية غرستها الروحية الغضة . . ثم شغلهم ، على الأثر ، واجب الدفاع لدرء الأخطار المتحفزة من كل حضارات العالم القديم للانقضاض على دولتهم الناشئة ، وعلى الدين الذي اعتنقوه . . ثم وكلوا ، من بعد ، بالجهاد في سبيل الله لنشر راية الإسلام عالية ، ترفرف ديباجتها بالنور وبالمعرفة على عالم تلك الأيام الضال .. ثم فاجأتهم ، ولما يفرغوا من أداء رسالتهم المقدسة ، غوائل الانقسام الداخلي ، وعوادي الحرب الأهلية ، التي شبها الخلاف والتنازع ، تحقيقا المآرب الشخصية ، وبلوغا إلى جاه السلطان . .

هكذا تحالفت على الوعي الشعبي ، في تلك الفترة المتقدمة من أطوار تكوين الدولة ، عوامل عديدة متباينة من الأوضاع والأحداث : بيئية وعالمية ، نفسية ومادية ، أصيلة ودخيلة ، ألزمته البقاء طويلا ، وإلى مدى ليس بمنتظر في نطاق ماضيه المتهالك العتيق ، بعيدا عن إدراك دواعي التطور واستيقان جدوى التغيير . .

فقد قصر المفكرون وقتذاك ، عن الخروج بأذهانهم — بالسرعة الواجبة — من عزلة الحياة الدينية ، المجتزئة بالاهتمام بالشعائر والعبادات ، إلى ضجيج الحياة الدنيوية وما يموج فيها من قضايا فكرية ومشكلات إنسانية عنى الإسلام بها عناية كبيرة ، وأبرزتها نصوصه القرآنية ، في وضوح وترابط ، وهي تطرحها كثيرها من آيات الله ، أمام التأمل . فلم ينجب العصر مفكرا حاول أن يخصب الفكر الإسلامي ، في مستهل نمو الدولة ، بما كان خليقا بأن يثريه من أقباس الإشعاعات الفكرية التي ألقاها القرآن على هذه القضايا والمشكلات . لم يتح لأحد من الألى تدارسوا كتاب الله ، وتعمقوه ، أن يلهم نظرة محيطة برأى الدين في الإنسان من حيث هو محور الوجود على الأرض . وفي فطرته من حيث هي

العامل المشترك الثابت الذى يسوى بين آحاده . وفى التجمعات البشرية المتناثرة على وجه الدنيا من حيث هى مجتمع إنسانى واحد ، ووحدة عضوية متكاملة ، شرقت أو غربت بأفرادها وجماعاتها المسافات والأبعاد ، وفرقت بينها العصور والآماد . ومع ما لعلنا نراه قد تواتر على ألسنة فريق من أعلام الإسلام حينذاك من ذكر بعض هذه المسائل ، فإن حديثهم عنها لم يجاوز أن يكون مجرد ترديد لا تأمل ، وإطافة لا إحاطة ، وإيماء لا استقصاء . . فقد مضت الحقبة وما تقدم امرؤ خلالها من أصحاب الرأى بنظرة شاملة فى أمهات المسائل الإنسانية العامة ذات الأثر فى تطوير حياة الإنسان ، وتوكيد كرامته ، وتوجيه سلوكه إلى الخير المشترك لمجتمعه العالمى الكبير ، كقضايا الحريات ، والحقوق المدنية ، ووظيفة المال ، ونحوها مما لا يزال يشغل الأذهان إلى الآن . .

بهذا القصور الفكرى ووجه الإمام . وبعوامل تخلف الوعى حوصر طوال عهده ، وحوصرت معه دعوته التى كانت تهدف إلى تفتيق أذهان الشعب ، وخلق نوع من الرأى العام المستنير يستطيع أن يهضم وسائله التطبيقية المؤدية إلى تثبيت دعائم القيم الإنسانية ، الخلقية والاجتماعية ، وتحويل المثل الكريمة من عبارات إلى أسلوب حياة . ولئن بدا للكثيرين من معاصريه أنه كان عندئذ أشبه بمن يدور فى فراغ ويحرث فى الماء ، فنظرتهم تلك لم تستطع أن ترده عن موالاة الدعوة ، خطابة وكتابة وتشريعات ، آونة بالتوجيه والإرشاد كلما لاحت له من الناس بارقة إصغاء ، وآونة بالنذير والتحذير ، كلما ثنوا عنه الأعطاف ، وصموا الأسماع ، وأسلموا نفوسهم ذليلة للتغافل ، أو استكانوا لجهالتهم العمياء .

وهل كان يهدأ أو يكف ، وإنه ليعلم ، يقينا ، أنه ينطق عن حق ، ويعمل للغد ، ويفتح آفاقا من السلام والأخوة والنور أمام الأجيال لبناء عالم جديد ؟ . .

٤

كل ما تحرك على رقعة الأرض الإسلامية الفسيحة من أمور وأحداث وفواجع ، إلى عهود طويلة مقبلة استغرقت عمر أجيال ، هو وليد ضحالة الوعى الشعبي بمطالب التقدم ، وغرس قصوره عن الاحاطة المدركة بدواعى التغيير ..

كان الإمام عندئذ يعيش فى « الغد » المتوثب ، والأمة كلها ، خاصة وعامة إلا ندرة غير مذكورة القوة والتأثير ، تعيش فى « الأمس » الراكد . . كان يسبح مندفعا إلى الأمام نحو الأمل المرجو على تيار التطور ، وكانت تقف جامدة بغير مبالاة ، على الشاطئ المهجور . . كان يدعو ولا تسمع . يعمل ولا تقتدى ، يجبل من تراب طينتها البشرية ممزوجا بالجهد الدائب ، والتجربة المستنيرة . وتعاليم الدين الهادية ، قالب الإنسان الأمثل الجديد ، لعلها تتشكل فيه . فإذا هي بعد طول الحرص والبذل والمعاناة ، تلفظ القالب ، وتكاد تحطمه ، وتحاول — بالغفلة الضالة والجهالة الرعناء — أن تعيد مرة أخرى إلى الحياة هيكل إنسان واقعها الأجوف العتيق ! . .

وتلك شيمة البشر على الدهر : نفور من التغيير ، وتشبث بالماضى ، ونزوع إلى الجمود . .

ولقد طالما عانت البشرية من هذه الطبيعة المعوقة تخلفا عن استشراف الفجر ، وتأخرا عن مواكبة النور ! . . كم جهد قادتها على مدى الأعصر ، وفى شق الأرجاء ، لتقويم خطا أبنائها ، عن طريق تنقية الروح والارتفاع بالنفس ، وتهذيب القيم الخلقية والاجتماعية ، والتسامى بأنماط السلوك ارتقاء بالفكر وبالعمل ، بالنظر وبالتطبيق ، من أجل إعادة صياغة حياة الإنسان ، فى نطاق الطور الزمنى الذى يعيشه ، لتكون حقا حياة إنسان ! . . كم طلع منهم على الدنيا ، مع كل جيل ، مكافح هنا ، ومناضل هناك ، وترددت لهم فى ربوعها المترامية دعوات وصيحات ! كم مشوا على الشوك ، وفتتوا الصخر ، وحرثوا الأرض القاحلة بالأظافر ، ليبذروا فيها حبات الفكر المتألق ، ورووا تربتها الجافة الخشنة بقطرات العرق والدماء ! .

ومع ذلك فلم يكتب للكثرة الغالية من أولئك الرواد أن يشهدوا الخضرة تغطى الجدب ، ولا أن يروا — وهم أحياء — ثمرة ناضجة قد استوت على ساق !.. حتى أصحاب الرسالات من الداعين بدعوة السماء ، قل منهم من عاصروا أوان القطاف .. إنما مضوا عن الدنيا والبذرة المغروسة ما زالت تحت أطباق الثرى نواة . أو نبتة واهنة تفتقت عنها نقطة رخوة من التربة الصماء . أو عودا عاطلا من الورق والنوار . أو برعما لما يتفتح عن زهرة . أو ثمرة فجة لا تطلب الاجتناء .

لكنهم غرسوا ، وتركوا الحصاد للأجيال . وضعوا المعالم على الطريق . سبقوا زمنهم فعاشوا فى الأمل ، وعملوا له ، ومهدوا لمن بعدهم أن يقطعوا الشوط المرسوم عندما تحل اللحظة المرتقبة وتهتدى البصائر وتستنير الأذهان ..

من هذا الرهط الفارس الذى سبق عصره كان الإمام . إلى نحو الغاية التى ابتغوا واقتضتهم الجهد جهادا والدعوة مكابدة سدد خطواته . فليس كمثله فى البشر ، بعد الرسل ، من غرس قيما علية ، ورفع مثلا سامية ، ودعا وعمل لكى تكون الحياة حقا وعدلا وفضيلة .. وليس كمثله ، بين الشهداء من قوبل جزاء صنيعه بالتغافل والجحود والعدوان ..

فكأنما كان غريبا فى قومه ، أو كان منهم فى دنيا سوى دنياه .. كأنما كان ينطق بغير لغتهم ، ويدعو لغير حقهم ، ويسعى إلى غير خيرهم ، ويضرب الأمثال لأفئدة غلف ، وآذان صم ، وأعين ملؤها ظلام !..

ولم ترده أبدا عن الكفاح للحق بالحق مظاهر انصراف قلوبهم عن أسلوبه ، ولا بوادر جمود عقولهم دون ملاحقة ما يريد .. وأنى له أن يكف عن استرساله فى رسالته الإنسانية وإنه لمسئول عن غدهم كمسئوليته عن يومهم ، وعنهم كمن غيرهم من الأمم الشاهدة والأجيال المستكنة فى جوف المستقبل .. وإنه كذلك لموكول بغسل طواياهم ، وشحذ وعيهم ، وتفتيق أذهانهم المستغلقة لتطل ، من خلالها نفوسهم الحبيسة وراء أسوار المألوف على الأفق المشرق الجديد !..

طويلا طويلا ظل فيهم يبلغ ويبين . يذكر ويعذر . يحذر وينذر وإن كاد

لا يلق لديهم إلا أصداء جوفاء . . كلهم كان يسمع ، وقلة كانت تنصت ، وندرة نادرة كانت هى التى تتأمل أو تستوعب أو تستجيب وإن بدت جموعهم الحافلة — رياء أو مصانعة — كأنما كانت له على طاعة ، ومن دعوته على استيثاق . .

غير أنه لم ينخدع قط بما أغرقوه فيه من عبارات الموافقة والارتضاء . . لم يضلله شعوره . لم يخنه فيهم ذكاء قلبه . لم تغرر به سجيته النقية الصافية التى تشف على الإلهام . . فملائم الاقتناع والانقياد التى طالما زيفتها الألسنة ، ورسمها الادعاء المنافق على وجوههم بالألوان ، لم تكن لتستطيع أن تحجب عنه الكثير الجسم أو القليل النزر من طواياهم الخفية ونواياهم المستسرة وإنه ليستشفها ، سافرة مفضوحة ، من خلال ما قدموه ، حياتهم معه ، من سوابق الفعال وشواهد الخصال . .

ما كانوا ، مع استخفائهم ، معجزيه بتظاهرهم المزخرف ولفظهم الحلو عن معرفة ما يكنون وله فراسة ثاقبة واضحة تقشع الغياهب كأنما هى شعاع ، ونظرة نقادة نفاذة فى أغوار الأنفس ومجاهيلها إلى أعمق الأعماق كأنما هى سطعات إلهام تضىء الغيوب . فلو أنه شاء لما أعوزه أن يكشف لكل امرىء منهم عما سبره فى ضميره ، ولا أعجزه أن يرسم صورا نابضة من المستقبل القريب أو البعيد وهو بعد نطفة غير مخلقة لم تتمخض عن جنينها الليالى ، ثم يوشك ، مع هذا ، الا يخطىء الرسم والتقدير ! . .

وليس هذا ، بحال من الأحوال ، تقحما على غيب الله . ولا هو بانتحال لقدرة غير بشرية تجاوز ملكات الإنسان . لكنه استشفاف دقيق للتكوين النفسى لكل فرد منهم . واستقراء واع لطبائعهم التى تنم عنها صفاتهم أجمعين . ورحلة مستقيمة فى منطق الأمور والأحداث — على ما يند عنهم من خلجات المشاعر وطرائق التفكير وأنماط السلوك — إلى النتائج الحتمية المنتظرة التى تؤدى ، لا محالة ، إليها المقدمات ، تماما كما تشير الأرقام إلى الحصيلة النهائية لأية مسألة حسابية ، مهما بدا من غموضها ، إذا أحسن فيها استخدام دلالة العلامات والرموز ! . . أفيعضل إذن به أن يتعرف خفاياهم ، ويستقصى نواياهم ، فيشارف غدهم ، وهو الذى خبرهم ، وأحاط بعالم عصره وأسراره وبتياراته السياسية

والاجتماعية الظاهرة والخفية ، ثم ألم بدقائق ميولهم ونزعاتهم من خلال الأقوال والأعمال ، ومن ثنايا الصفات والخلال ؟ . . وكيف يفوته أن يكتنه المجهول ، أو ما يحسب معاصروه أنه مجهول ، وطريقه إليه واضح ممهد ، تسدد خطاه على نهجه حاسة مرهفة حادة الاستنباط والاستدلال ، يسندها علم راسخ لم يتح قط لامرىء سواه فى الناس ، قد اختصه به الرسول ؟ . .

فيما سلف من أحاديثه ، أنذر رجاله ، مرارا مرارا ، بغلبة معاوية على الأمر ، وانتهاء أعنة الدولة إليه . . ولم يكن ، إذ فعل ، آخذا بتنبؤ أو راجما بغيب وتلك فعالهم وفعال عدوهم ماثلة له ، فيها الغناء كل الغناء عن التنبؤ والادعاء . . فهل عسير عليه بعدها أن يتوقع زوال الملك الأموى القاهر بعد فترة من الزمن ، كما توقع قيامه ، وإن هو إلا دولة أسست على باطل ، وتذرعت إلى الحياة والبقاء بالزيف والخداع والظلم والبطش والإرهاب ، وكلها ذرائع وأساليب من الزبد والجفاء والهباء عمرها بلا ريب قصير ؟ . .

بريشة استنباطه ، صور لهم ما يصيبهم من بنى أمية ، ومن دولتهم الآتية ولما تضع قدمها على عتبة التاريخ . فإذا هو يرسم ما وقع فعلا بعد سنين لأنه كان وحده الخليق بالوقوع . . وإذا تصويره لا ينحرف عن جادة الحقائق المقبلة ، لا بقيد شبر ، ولا شعرة ، لأنه لم يحد عن منطق الاستدلال السليم الذى يستقرىء من سلوكهم ما يؤدى إلى هذه النتيجة المحتومة بغير احتمال للمفارقة أو الاختلاف . وإذا كلماته هى القول الفصل الذى ينبثق من خلال الخصائص المميزة لواقعهم وواقع عدوهم ، والرأى القاطع الذى تعبر عنه النظرة المحيطة الشاملة بما هو حادث ، المهتمة المتأملة فى الملامح الكلية للوقائع ، والصفات الجامعة للنزعات ، دون الاهتمام بالاستغراق فى التفصيلات . .

كان مما قال :

« ... والله لتجدن بنى أمية لكم أرباب سوء من بعدى . . »

وكان منه :

« . . لا يزالون حتى لا يدعوا محرما لله إلا استحلوه ، ولا عقدا إلا حلوه . .

وحتى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا دخله ظلمهم ، ونبا به سوء رعيهم . . وحتى يقوم الباكيان يبكيان : باك يبكى لدينه ، وباك يبكى لدنياه . . . . »

فما عدا قوله الصواب وكيف يعدوه ، وإنه للقول الحقيق بالتحقيق والجدير بالتصديق لأنه لا يرجم بغيب ، ولا يستند إلى أحداس تتذاءب بها شطحة الخيال . بل المعبر بدقة المنطق ، وإحكام الاستدلال منطلقا بغير عوج من شواهد الحال إلى حوادث الاستقبال .

ولا مجال هنا للمراجعة والجدال . . فقد صدقه الزمن . وتابعته على نظرته الأيام . وكفى شاهدا مؤديا إلى رأيه الذى ارتأى مسلك رأسهم معاوية معه . ثم دليلا مؤيدا له مسلك من تلا العاهل الأموى من خلفائه وإن سيرتهم ، من قبل ومن بعد ، فى الأمة ، وفى آل بيت الرسول ، لشهادة عيان تغنى عن كل تدليل وبرهان ! . . وإذا كان الهوى والكذب والزيف والبغى والحيف والإرهاب ، وكل ما يوهن الحق ، ويعز الباطل ، ويركب الناس بالعنت والمشقة والإكراه ، لا تستطيع مجتمعة أن تديل دولة وتطوى سجلها من الوجود ، فأى السياسات والسير غيرها إذن كفيل بأن يطوى ويديل ! . .

سيرة موسومة ، توالت حلقاتها متصلة على صفحة الأرض الإسلامية ، أعواما وأعواما ، مذ رنا الأمويون — عسفا وبغيا — من خلال أطماع معاوية وأخاديعه إلى استلاب السلطان ، حتى اللحظة التى تهشمت فيها شوكتهم ، وانطفأت جذوتهم مستحيلة إلى رماد . . وإذا كان الإمام قد دمغ حكمهم قبل أن يقوم ، فلا عن ترة نراه فعل شفاء لغليل . ولا لإثارة الشعب عليهم نزولا بأقدارهم واستزادة لنفسه من الأنصار . . . بل هى كلمة حق دله عليها استقراؤه الحكم للأحوال الجارية تحت سمعه وبصره . وبيان صدق صارح به الناس قبل أوانه ، سابقا به رأى المستيقن المتحرز وظن المتردد المستريب . . وهل يمكن أن تكون الأمة ، فى عهده وبعده ، قد خلت من أفراد ، كثروا أو قلوا ، كانت تراودهم الخشية من الغد وهم يتأملون ذرائع معاوية فى صراعه على السلطة ، ثم أساليبه فى تدبير الحكم ، أو يتفحصون سلوك من خلفوه ؟ . . أم يمكن أن تكون أيضا قد عقمت أن تنجب نفرا توقعوا سوء العاقبة ووبال المآل لدولة كتلك سارت على

مثل هذه الذرائع وتوسلت بنفس الأساليب فى سياسة الرعية والأمور ؟ .

أدنى إلى المحال ألا تختلج خواطر القوم ، طوال ما يقارب قرنا هو عمر الدولة الأموية ، بما قد يهيج الوساوس أو يحرك الشكوك فى استقامة نهجها ثم يؤدى بعد هذا إلى الوصول — بالترجيح والاحتمال — لما عسى أن ينتظرها ، عاجلا أو آجلا ، من مصير غير كريم . فلا عجب إذن أن يسبق على غيره من أمته إلى استشفاف هذا المصير . ولا أن يتوقعه لها بعده كثيرون . ولا أن يستيقنه أيضا أناس كفوا — بحكم ارتباطهم بها وولائهم لها — عن المجاهرة به ، إشفاقا منه ، وإيهاما لأنفسهم بأنه بعيد ، أو أنه لن يكون ! . ودائما يستدنى المرء فى باله المحال المرغوب ، ويستبعد التفكير فى المحتمل المكروه . .

سئل أحد شيوخ بنى أمية ، عقيب سقوط دولتهم بأيام :

« ما كان سبب زوال ملككم ؟ . . »

فأجاب ، وهو عندئذ لا حاجة به ، ولا جدوى عليه ، لو أوهم نفسه بما لن يكون بعد أن كان :

« جار عمالنا على رعيتنا فتمنوا الراحة منا . وتحومل على أهل خراجنا فجلوا عنا ، وخربت ضياعنا ، فخلت بيوت أموالنا . . ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا . . وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم عدونا فظافروه على حربنا . . وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا . وكان استتار الأخبار عنا أوكد أسباب زوال ملكنا » .

وذاك هو الجواب الذى لا قول بعده لزار غاثب على الدولة الأموية ، طاعن فيها وفى رجالها حكاما وعمالا وبطانة ، لأنه جمع لها من المناقص : الافتقار إلى العدل ، وإثقال كاهل الناس بالخراج ، وابتزاز الأموال العامة ، والتكالب على المنافع الشخصية ، والتلهى عن تدبير شئون البلاد ، وإهمال رعاية الجند ، والإغضاء على المظالم ، والجهل بما يدور حولهم من أمور . . وهو الشهادة التى نطق بها لسان أموى فتدمغ أهله من المثالب والأوزار بما قد لا يفطن لبعضه

العدو والغريم ثم يجدر ، مع هذا ، أن يأخذها سامعها بغير حذر لأنها تجيء عن هو أميل — بحكم القرابة — إلى كتمان ما عسى أن يسمه كتمانه من مساوىء ذويه ! . وهو ، إلى كل ما احتوى ، إيماء كأنه إفشاء ، وتلميح كأنه تصريح ، وإعلان عن تواتر الأخطاء والعيوب ، والنقائص بمختلف جوانب السياسة الأموية ، تباعا وعلى مدى طويل ، فى سلسلة متصلة الحلقات ، لأنه ليس مما تسيغه العقول أن تكون كل هذه الزلات والرذائل قد وقعت دفعة واحدة ، فى ساعة ، أو يوم ، أو عام ، ثم حطت فجأة أمام الشيخ الأموى فانتبه إليها وهو مبغوت ! . .

شهادة تتمثل لنا وثيقة تجريم وتأثيم تدين بنى أمية على ما اجترحوه ولكنها تبدى أيضا ، من خلال السطور ، كأنها صحيفة تبرير . . فالشاهد ، وإن أسهب فى تعديد أسباب الاتهام ، يحاول جاهدا أن يبرىء ساحة أهله ، فيلقى بالتبعة على من عداهم ، ملصقا كل مساوىء الأمويين بأعوانهم من العمال والوزراء وأهل الخراج . . وتلك محاولة ، إن تكن جدا وحقا فيما لعله يخال ، فهى حجة عليهم وعليه لا لهم ولا له ، لأنها عندئذ الغفلة التى لا تعفى من التأثيم . وإن تكن مراوغة ، وإنها لكذلك ، فكفاها زيفا طبيعة الحكم الفردى الذى اختطه عواهل الدولة ، واستأثروا فى ظله بكافة أسباب السلطان .

بل هى المراوغة التى لا تخدع أحدا ولو لم يعش فى نطاق سلطانهم ، ولا عرف حقيقة سيرتهم ، ولا شهد مظاهر سلوكهم ، ولا عانى مما أبرموه أو نقضوه . . وها هو ذا ملك النوبة لا تجوز عليه الحيلة حين أراد أحد الأمويين أن يسوق إليه نفس التبرير . .

كان هذا عندما انطوت صحيفتهم بمصرع آخر خلفائهم ، مروان بن محمد . . فقد تمزق جيشهم . وهلكت كثرة من أمرائهم ، وشرقت البقية الباقية منهم وغربت تضرب على غير هدى فى الآفاق إلى مأمن هنا أو ملاذ هناك يحفظ عليهم الحياة . . إذ ذاك انتهى الفرار بعبيد الله بن مروان ، ولد الخليفة الصريع ، إلى أرض النوبة يلتمس فيها النجاة . .

وعلم ملك النوبة بنزوله فأمر رجاله أن يكرموا مثواه ثم أقبل عليه يزوره

بعد أيام فى وفد من أصحابه ، قضاء لحق الضيافة والتكريم .. فما أن رآه عبد الله ، حتى هب لاستقباله ، يتنحى له عن صدر المجلس ، ويدعوه للجلوس . .

لـكن الملك آثر اقتعاد الأرض العارية ، مخليا لضيفه مكان الصدارة . فلما عجب عبد الله ، وسأله :

« ما منعك من القعود على الفراش ؟ . . »

كان الجواب :

« إنى ملك . وحق للملك أن يتواضع لله ولعظمته إذا رأى نعمه متجددة عنده . وقد رأيت تجدد نعمة الله عندى بقصدكم بلادى ، واستجارتـكم بى ، بعد عزكم وملـكـكم ، فقابلت هذه النعمة بما ترى من الخضوع والتواضع . . »

فـكأنما خدشت هذه الكلمات بعض كبرياء عبد الله ، أو كأنما حركت أشجانه ، فأخلد إلى الصمت وهو لا يكاد يجد ما يقول .

أما الملك فقد أغضى مليا . رأسه مائل على صدره . وعينه ملتصقة بالتراب . ووجهه الأسود اللامع لا تبين منه إلا جبهة مغضنه ، قد انعقد فيها ما بين حاجبيه كأنه يدير فيها — على مهل وعناء — فـكرة شغلته تحاول أن تجد لنفسها طريقا إلى شفتيه . .

ثم انتبه فجأة وبادر ضيفه :

« أيها الأمير . لماذا شربتم الخمر وهى محرمة عليكم فى كتابكم ودينكم ! »

فهزت المفاجأة عبد الله . . ولـكنه تمالك جأشه بعد هنيهة ، وأجاب :

« اجترأ على ذلك عبيدنا بجهلهم . . »

قال الملك :

« فلم وطئتم الزروع بدوابكم والفساد محرم عليكم فى كتابكم ودينـكم ؟ . . »

« فعل ذلك أتباعنا وعمالنا جهلا منهم . »

« فلم لبستم الحرير والديباج والذهب وهو محرم عليـكم فى كتابكم ودينـكم ؟ . . »

« استعنا فى أعمالنا بقوم من أبناء العجم كتاب ، دخلوا فى ديننا ، فلبسوا ذلك اتباعا لسنة سلفهم ، على كره منا . »

عندئذ لاح طيف بسمة على وجه الملك ، وهو يطرق برأسه ، ويقلب يده ينكت فى الأرض . ثم ما لبث أن قال بلهجة حاول أن تخفى سخريته :

« عبيدنا وأتباعنا وعمالنا وكتابنا ! . . كلا ! . ما الأمر كما ذكرت . . ولكنكم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم . وركبتم ما عنه نهيتم . وظلمتم فيما ملكتم . فسلبكم الله العز ، وألبسكم الذل . وإن له سبحانه فيكم لنقمة لم تبلغ غايتها بعد . . »

وانتفض واقفا يقول :

« أيها الأمير . إنى لأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم بأرضى فينالنى معكم . »

ثم أردف بهدوء كهدوء السكين لو غاصت عندئذ بطعنة مصمية فى قلب الأمير المذهول :

« . . الضيافة ثلاث ! . . اطلبوا ما احتجتم إليه ، وارتحلوا عنى »

وغادر المكان .

٥

كما كاشف رجاله ببزوغ نجم معاوية ، وارتفاعه فى أفق الحكم ، أنبأهم أيضا بانهيار الدولة الأموية ، بعد شوكة وعز وطغيان ، وسقوطها بعد حين صريعة تحت أقدام أعداء لها ، أشداء لا يرحمون . .

شريط من الصور الحزينة القاتمة ، مرسوم بالدم ، كان يمر دائماً فى باله ، على تعاقب زمنى — محددا ملامح الفواجع التى لن يلبث أن ينجاب شر الأيام — ما أكثر ما عرض منه أمام الآذان والأفهام . فكم تحدث إليهم عن محن الغد ! . كم أفصحت لهم عبارته عن مآسيهم المقبلة ، ومآسى أمة كانت ، على ضوء حاضرها القريب المشرق ، تنتظر عهودا من المحبة والوئام والسلام ! . . كم أعلن لهم إعلان يقين عن مصاير خفية توشك أن تقع فتمزق الأمن وتزلزل اليقين ! . .

لكنهم ، تهاونا وغفلة ، استقبلوا أحاديثه تلك بغير احتفال ، بعضهم لوى عنها سمعه وهم يحملونها على محمل الحدس والتخرص . وبعضهم أدارها فى خاطره ثم ظنها من قبيل المبالغة فى الزجر والتحريض . . وعندما لاح لقلة منهم أن تشيم من خلالها ما أشاع فى نفوسها خوف المستقبل ، أسرفوا فى تقدير مراميه ، وتقديره ، إلى أبعد مما تحلم العقول أن يشطح إليه خيال . .

حتى حين استشعرت كثرتهم فى سلوكهم بوادر تنبىء ، بالهيئة والمضمون ، عن استغراقهم فى تخاذل هو التقهقر والانحدار ، وفى سلوك عدوهم خطرا يزحف ظلوا على غير مبالاة كأنما كانوا يحاولون درء المصير المنتظر بالاختباء خلف طمأنينة نسجوها من خيوط عنكبوت ! . .

يقول لهم وهو ينذر بمحنة قادمة ، توشك أن تعم أمتهم على يد خصم عنيد جائر ، يعمل ويجهد ويسهر ، وهم فى طمأنينتهم الزائفة نيام :

« . . يظهر أهل باطلها على أهل حقها ، حتى تملأ الأرض عدوانا وظلما وبدعا ، إلى أن يضع الله عز وجل جبروتها ، ويكسر عمدها ، وينزع أوتادها . .

ألا وإنكم مدركوها ، فانصروا قوما كانوا أصحاب رايات بدر وحنين تؤجروا . ولا تمالئوا عليهم عدوهم فتصرعكم البلية ، وتحل بكم النقمة ... »

لكن إفصاحه هذا لا يثير فيهم نخوة لأنه الحقيقة التى بدت لهم حينذاك كرجمة الظن ، والنتيجة التى يريحهم أن يلبسوها ثوب الأوهام ! . .

ويزيدهم بيانا وكشفا حتى لتهم كلماته ، وهى ترسم حالهم الحى ، أن تجسد المستقبل بعده خفاقا بنبض اليقين :

« مكنتم الظلمة من منزلتكم ، وألقيتم إليهم أزمتكم ، وأسلمتم أمور الله فى أيديهم ، يعملون بالشبهات ،ويسيرون فى الشهوات . . وأيم الله لو فرقوكم تحت كل كوكب لجمعكم الله لشر يوم لهم ! . . »

ولا يكفيه أن يعلمهم عاقبة ثبوط همتهم ، ومآل عسف عدوهم ، بل ينزع عن مجهول الغد سترا آخر يطلع عليهم النعمة المحيقة وقد جلاها عن الأمة قوم شداد صلاب ، يركبون بنى أمية بالقهر والخزى والمذلة : حتى ليتمنى رجالها ، فى كبوتهم لو لم ينازعه أسلافهم حقه ، أو يناصبوه العداء . .

يقول :

« .. ثم يفرجها الله عنكم . . بمن يسومهم خسفا ، ويسوقهم عنفا ، ويسقيهم بكأس مصبرة ، لا يعطيهم إلا السيف ، ولا يلبسهم إلا الخوف . فعند ذلك تود قريش ، بالدنيا وما فيها ، لو يروننى مقاما واحدا . . لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يعطونيه . . »

وصدق فيما قال . .

فلقد آن ، من بعد ، موعد هذه الأمنية الأموية التى أججها الندم من زواجه بخشية المغبة حين أزفت الآزفة ، وداهمهم البلاء ، ولم يعد لهم من دونها كاشفة ووقاء ! . .

يومذاك كان مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين ، قد نزل بالزاب ، يتهيأ لحماية عرشه وعرش آبائه من انتفاضة الشعب التى تزعمها العباسيون . كان

فى عدة قوية من مائة ألف فارس من رجاله ، على مائة ألف فارح يرتبهم ، وينظم مواقفهم ، ويعد نفسه وإياهم لخوض معركة المصير ..

وأشرف من مقر قيادته يرمى بعينه على جحافل أعدائه . يا لهذا السواد الذى يملأ الأفق أمامه ويكاد يحجب الشمس عنه ! .. أمن كثرة عددهم وكثافة الصفوف ؟ .. أم تلك عمائمهم وأعلامهم السوداء هى التى تنشر الظلام ؟ أم هذه الأسراب من الغربان التى تتابعت تحوم على كثب منهم ، وتدانيهم ، حتى غدت تلتحم بعقدمتهم ، وتؤلف مع جموعهم المنتشرة مثل ستارة من دجنة نقبت ضياء النهار ! .

وتشاءم مروان ، وتلفت حوله يسبح بنظرة متوجسة فى صفوف جيشه اللجب ، وهو يهمس بصوت أسيف :

« إنها لعدة . ولا تنفع العدة إذا انقضت المدة ! .. »

وأردف ، وبصره يومئ إلى أعدائه ، كأنما ليبرر توجسه :

« أما ترون رماحهم كأنها النخل غلظا ! .. أما ترون أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع الغمام السود ! .. أما ترون إلى السواد قد اتصل بالسواد ! .. »

ثم مال على أذن رفيق له يسأله :

« من صاحب جيشهم ؟ .. »

أجاب الرجل :

« عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس .. »

فهل لسعه الاسم بشواظ نار ؟ ..

لقد صاح وهو مبغوت :

« ويحك ! .. أمن ولد العباس بن عبد المطلب ؟ .. »

« نعم .. »

فأحنى رأسه كالمضيع ، وقال :

« لوددت والله أن علي بن أبي طالب مكانه في هذا الصف ! . . »

فتعجب رفيقه :

« يا أمير المؤمنين . . أتقول هذا عن علي مع شجاعته التي ملأ الدنيا ذكرها ! . »

« نعم . . إن عليا مع شجاعته صاحب دين . وإن الدين غير الملك . . »

لكنها الأمنية التي لم يعد لها اليوم مجال . فقد مضى ذلك الذي كانوا يأمنونه لأنه يعف عما لا تجيزه شهامة الفروسية ، ومروءة الإنسانية ، وسماحة الخلق ، من البغي والنكال ولو بخصم مسرف غاية السرف في الحقد والبغض والعداوة .

وكأنما برزت لمروان بوادر نهايته ، فبعث على الأثر برسالة إلى عبد الله ، يستأمنه فيها بعض استئمان . .

كتب إليه :

« يا ابن عم . . إن هذا الأمر صائر إليك . فاتق الله واحفظني في حرمي . . »

فإذا جواب عبد الله :

« . . إن الحق لنا في دمك . وإن الحق علينا في حرمك . . »

ومع ذلك فلا الحرم أقيلت من معرة الامتهان ، ولا الدماء أهرقت بميزان ! بل اندفع غول الانتقام يعيث فيهم دمارا وقتلة وغيلة ، لا يكاد يرده رادع عن سرفه . .

وكم من صور للانتقام ! .

. . جيء بإحدى بنات مروان ، بعد مقتله بيومين في مصر ، إلى أحد رجال أعدائه ، فإذا هي ترعد كورقة ذابلة يتقاذفها أعصار . . حتى إذا مثلت بين يديه ، بدا أمامها كمن يحاول أن يذهب عنها الروع ، فقال يخاطبها بنبرة رقيقة :

« لا بأس عليك أي بنية . . »

فنفس نفسها بعض اطمئنان ، وقالت تنفس عما تحسه من قلق واضطراب :

« وأي بأس أعظم من إخراجك إياي حاسرة ولم أر رجلا قبلك قط . . »

ابتسم لها وقال فى هدوء :

« اجلسى . . »

لكنها ما كادت تفعل ، حتى رمى فى حجرها برأس أبيها مجزوزة من عنقه قد تجمدت عليها الدماء . .

فهل هو الهلع ، أم الرعب ، أم القسوة الفاحشة ما طفر بالفتاة من مقعدها تصرخ وتصيح ؟

أما الرجل فلعله ما أحس إلا بنشوة الشماتة تملك عليه مشاعره ، وهو يشهد نتيجة فعلته ، حتى لقد قال لمن استفسروه سر غلظته التى لا تدانيها غلظة الوحوش :

« فعلت بها فعلهم بزيد بن على . . لما قتلوه جعلوا رأسه فى حجر زينب بنت على بن الحسين . . »

* * *

... وأدخلت بنات مروان وحرمه ونساؤه إلى صالح بن على وهن بعد النكبة مهيضات مفجوعات . فتقدمت منه كبرى بنات الخليفة الصريع تحاول أن تستثير شفقته ، عسى أن يكف عن بقية أهلها بعض النكال . .

قالت له مسترحمة :

« يا عم أمير المؤمنين . حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه ، وأسعدك فى أحوالك كلها ، وعمك بخواص نعمه ، وشملك بالعافية فى الدنيا والآخرة . . نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك ، فليسعنا من عدلكم ما وسعنا من جوركم . . »

فغضب لقولها الذى عرضت فيه بجور الدولة الجديدة ، ورد وهو يزأر :

« إذن لا نستبق منكم أحدا ! . . »

ثم والى حديثه وسبابة يمناه تعد على أصابع يسراه :

« . . إنكم قتلتم إبراهيم الإمام . وزيد بن على ، ويحيى بن زيد ، ومسلم بن عقيل . وقتلتم خير أهل الأرض : حسينا . وإخوته . وبنيه . وأهل بيته . .

وسقتم نساءه سبايا — كما تساق ذرارى الروم — على الأقتاب إلى الشام . . »

وكانت الدماء تغيض من تحت جلد الفتاة كلما أحصى وعدد ، وثنيتاها تكادان تقضمان سفلى شفتيها من أسف على مابدر من كلامها الذى أثار ثورته . حتى إذا رأته يلقف بعض أنفاسه اللاهثة ، أسرعت تستدرك لعلها تصلح ما أفسدته من مزاجه وتهدىء قليلا من غضبته المندلعة .

قالت على خوف وندم :

« يا عم أمير المؤمنين .. فليسعنا عفوكم إذن ! . »

فكأنما فتحت بقولها فى فؤاده الصلد ثغرة إلى الرجاء ، لأنه عهل هنيهة ، ولم يلبث أن قال :

« أما هذا فنعم »

* * *

. . . ومشت إحدى نساء بنى أمية إلى سليمان بن على ، وهو عندئذ بالبصرة يمعن فى قتل آلها الأمويين ، كأنما يتلهى بقتلهم للمتعة وإزجاء الفراغ . . فلما جمعها مجلسه ، قالت تحاول أن تكفه عن متعته الدموية :

« أيها الأمير إن العدل ليمل من الإكثار منه ، والإسراف فيه . فكيف لا تمل أنت من الجور وقطيعة الرحم ! . . »

فلم يزد الأمير على أن أجابها فى غير مبالاة مذكرا بعلك ذويها :

« سننتم علينا القتل لا تنكرونه فذوقوا كما ذقنا على سالف الدهر »

وأطرق لحظة مد بعدها إليها بصره وأردف :

« يا أمة الله ! . وأول راض سنة من يسيرها ! »

* * *

. . وعندما جىء برأس مروان لأبى العباس السفاح ، سجد وأطال . ثم نهض من سجوده وقال يخاطب الرأس المقطوع ، وومض الفرحة لا يغيب عن محياه ، وجرسها الراقص لا يختفى من حديثه :

« الحمد لله الذى لم يبق ثأرنا قبلك وقبل رهطك ! .. الحمد لله الذى أظفرنا

بك ، وأظهرنا عليك ! .. ما أبالى والله متى طرقنى الموت وقد قتلت بالحسين ألفاً من بنى أمية ، وأحرقت شلو هشام بابن عمى زيد بن على كما أحرقوا شلوه !..»

والتهبت عيناه بحمى شماتته وهو يتمثل :

«لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دماؤهم جمعا ترويني ! . . »

وحول وجهه إلى القبلة يسجد مرة ثانية . ثم اعتدل وقال :

« أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت قواطع فى أيماننا تقطر الدما

إذا خالطت هام الرجال تركتها كبيض نعام فى الثرى قد تحطما ! »

* * *

صور وحشية . أم هى صور إنسانية تكشف عن ضراوة البشر ، وترديهم فى وهدة القسوة والعنف إلى أبعد الأغوار ؟

بل هو الثأر ، دائماً ضربة بضربة ، ونكال بنكال يتعاقب جانباه على أديم الدنيا حيثما كانت فى ربوعها معالم للحياة البشرية ، واختلط هواؤها بزفير إنسان . وقد تعاقب الجانبان على الأرض العربية ، كما يتعاقب ليل ونهار . وتمثلا فى الصراع الهاشمى الأموى ليبرزا لنا — إلى جوار طبيعة البشر البشمة ، انقطاع أنفاس الظلم والظلام ، مهما طال الأمد ، واستمكنت القوة ، وبعد الرجاء ، وصبرت عليهما الأيام . .

إنها الحكمة الداهرة ، والظاهرة المتكررة التى تتجدد على اطراد بين الآن والآن ، فى كل زمان ومكان ، لتؤكد أن الطغيان لا محالة إلى انتهاء وإن حرص ذووه — غفلة أوصلفا — أن يمكنوا له فى البقاء . . فتلك بديهية البديهيات التى يتناساها كل طاغية ، عن اغترار واستكبار ، ولا سبيل لدولة أولإنسان إلى نقضها مهما أفسح لأيهما فى الفرعنة والتجبر،لأنها القانون الطبيعى القاهر الذى يفرض نفسه على حركة الحياة ليحفظ لميزانها الاعتدال . . فما تعرف الدنيا الإطلاق . وما لشىء بها أو لأمر أو لأحد دوام . . إنما إرادة الله قد قضت بالمراوحة فى الوجود بين النقائض، وبالمداولة بين الأضداد كالنور والظلمة، الأصل والظل ، القوة والمقاومة ، الفعل ورده ، الصوت وصداه ، ليبتلى الناس ويختبر سلوكهم أإلى الخير أم إلى الشر ، وإلى الخطأ أم إلى الصواب ، لتتحقق عدالة الجزاء . .

ولقد أسلف الإمام إلى بنى أمية النذير وهم من بعد فوق بر الأمان أقدر عندئذ على كبح الأنفس أن تتقحم بهم فى المهالك ، وتخوض ، بدفع الأطماع ونزغ الشهوات ، بحارا من الدم تفضى بهم بعد حين إلى عادية الثأر المنهوم . . فأفلحوا لو ارعووا ! . . وسلموا لو فهموا ! ، . ولكنهم فى غمار الأمانى استغلقت منهم العقول وانطمست الأفهام ، فغاب عنهم مآلهم المحتوم الذى نشره أمامهم دون إخفاء . .

أما قال لهم :

« . . ألا وإن لكل دم ثائرا ، ولكل حق طالبا . وإن الثائر فى دمائنا كالحاكم فى حق نفسه وهو الله الذى لا يعجزه من طلب ، ولا يفوته من هرب . فأقسم بالله ، يا بنى أمية ، عما قليل لتعرفنها فى أيدى غيركم ، وفى دار عدوكم . . » ؟ .

قال .

ووقع ما قال بعد السنين الطوال .

وكان الواقع هو النتيجة التى لا معدى من حلولها ، عجل بها الزمن أو تأخر ، ترتيبا على ما اجترحوه . . كان القضاء اللازم ، والقدر الداهم ، الذى حذروه وأغفلوه . . كان ثمن الطغيان . .

وضربة بضربة . ونكال بنكال ! . .

لم تكن قط انتفاضة بالغضب لحق ، ولا انتفاضة بالثار لدم ، كتلك الثورات التي تفجرت من بعد في دولة بني أمية ، على مراحل حياتها ، وفي مختلف مواضع نفوذها ، طلبا لحق علي ، وانتقاما لدماء آله ، وهي تنشر في جنباتها الذعر والموت والدمار .

وكم لهذه الثورات من دوافع . ولموقدي نيرانها من ذرائع . ولأهلها من أولياء وأنصار ! . لكنها مضت لغايتها ، بغير تردد ، تطوى سجل عدوها وتمحو آياته . بعضها بداعي القرابة . وبعضها بحكم الولاء . وبعضها صدى للندم . وبعضها عن ادعاء . .

وكيفما كان من أسباب تلك الحركات القاصمة ، وحجج مثيريها ، فقد قطعت الشوط المنتظر ، وغطت الأرض الأموية بالأشلاء ، غير مبالية أن تقصد في العنف ، أو تميل — عمدا أو عفوا — عن جادة القصاص المقبول إلى أقاصي النكال والبطش والمثلة وهي تضرب ، ما وسعها ، بسلاح السخط والحنق ، لتشفي غيظها ، وتبرد نارها ، فتسقي عدوها من نفس كأسه المرة التي طالما أترعها في جبروت سلطانه واستكباره لخصومه الهاشميين ، ثم تقهره قهرا على احتسائها والمق بقاياها إلى الثمالة ! . . ولا عجب ! . . فلا هوادة في حقد ، ولا تحرز مع ثأر . فثورات الجماهير عادة بلا عقول ولا قلوب . وحركات المد الانتفاضي الغاضب لا يكاد يردها عن انتشارها الجائح جزر إلا أن تبلغ مداها ، وتحقق أربها ، لأنها دائما جموح حرون كاندلاعة الحريق ، أو اندفاعة العواصف والأعاصير .

وحقت هكذا قولة الإمام ، مع الأيام ، في الظالم وفي المظلوم .

ففي المشرق ، إن هي إلا فترة من الزمن قصيرة ، لا تكاد تذكر كعمر دولة حتى كان آخر الخلفاء الأمويين مروان « الحمار » يذرع الأرض من الموصل ،

إلى الشام ، إلى مصر ، عبر الفلوات والأنهار ، وهو يفر بجنده من أسياف الهاشميين من بنى العباس ، أبناء عم رسول الله ، فرار الحمر المستنفرة أمام قسورة ، ثم لا يجد لنفسه منهم جنة إلا حينه . .

وفى المغرب ، إن هى إلا فترة أخرى عقب هذه حتى انقصف فرع البيت الأموى بالأندلس بعد طول عز وصولة ، ثم ديست معالمه ، فى إفريقية ، تحت أقدام هاشميين آخر من أبناء الحسن بن على ، سبط النبى ، هم بنو حمود ...

ولم تكن جحافل الثوار آنذاك هاشمية خالصة تضم آل الرسول وحزبهم الذين طالما ألهبتهم سياط الأمويين . بل قد لقيت الثورات عونا قويا من كثير من العناصر الشعبية البعيدة ، بوضعها الاجتماعى ، عن مجال الصراع بين البيتين الكبيرين اللذين انحصرت فيهما زعامة العرب ، شرفا ونبوة ، ورنت إليهما فى اضطرابة الحوادث الأنظار . . كانت عناصر شتى ، من الألى لا هوى لهم فى السياسة ، ولا مطمع يرجونه من وراء التغيير إلا أن يرجحوا كفة على كفة ، ويرفعوا جانبا على آخر . منهم العاطف . ومنهم الحاقد . ومنهم أكثر من أولئك وهؤلاء باحث عن المغامرة يتسقط الحياة التى يرتضيها وتحلو له من أغوار برك الدم على رنين التحام الحراب ! . . وإذا كانت دعوة الدعاة قد طفقت ، عاما وراء عام ، وجيلا فى إثر جيل ، تستجيش كل حاقد على الحكم الأموى ، موتور منه ، لتستزيد من الأنصار ، فإن الجانب الأكبر من الجماهير التى انخرطت فى صفوف الثوار ، وأشهرت فى وجه بنى أمية سيوف الانتقام ، لم يكن يشدها ، فى الأغلب ، إلى هذا الانخراط إلا إحساسها بإنسانيتها ، ووفاؤها للطبيعة البشرية التى تدفع المرء دائما ، حنوا ورقة ، إلى الانعطاف للمحروم المظلوم ، والانحياز إليه ، انتصافا له من ظالميه ، إذ يكاد يرى نفسه ذلك المحروم المظلوم ! . وهل فى السواد الأعظم من الناس أحد لا يسيطر عليه شعور غلاب بأنه فريسة حرمان وظلم ، لم ينل فى الدنيا حظا يكافئ قدره وملكاته ؟ . .

ودع عنك أيضا تلك الزمر الكثيفة التى التحقت بصفوف الثورات الهاشمية وفاء دينيا لذكرى رسول الله قبل ولائهم سياسيا لهذا أو لذاك من آل بيته الذين تنادوا بحقهم فى ولاية الأمر بحكم وشائج القربى وصلات الدم . . ودع عنك

ىدم تلك الزمر الحاقلة من الأعاجم أبناء فارس الذين رأوا فى انتصارهم آل البيت إحياء لنظرتهم القديمة التى تربط بين الحكم وبين العقيدة فتجعله حقا لهيا ، ليس أحد أولى به من ذوى القداسة ، فليس أجدر به إذن من الأئمة آل بيت الرسول . .

طوائف شتى ، لأسباب شتى ، تضافرت على ضرب حكم الأمويين ، وتقويض نفوذهم الباقى حتى سوته بالتراب . . وصور شتى ، بألوان شتى ، من القهر والذل والعذاب . طاردت ذويهم وأذاقتهم النكال . . وليس كل ما أصاب خليفتهم الأخير ، والكثرة الكثيرة من أمرائهم ، من قتلة ومثلة ، هو نهاية مطاف الكارثة التى حلت بهم ، إذ قد امتدت الفواجع أعواما عدة بعد ذهاب ريحهم كقوة سياسية ذات خطر ، واستتباب الأمر لبنى العباس . . فما أكثر من قتل وصلب ! . وما أكثر من قضى حياته حبيس السجون !.. وما أكثر ما هدمت دور وأحرقت قرى على من فيها ومنهم من الأتباع ! . . بل إن منهم من نبش عن قبره ، وأخرجت جثته البالية لتحرق على ملأ الناس ! . .

فظائع إن يكن أسرف فى تلوينها التهويل ، وأغرق فى ابتكارها الخيال ، فإن بها ، لا ريب ، لمحات صدق تنبئ عن الكوارث التى أحاقت بالأمويين ، وأطبقت عليهم — أمراء وأتباعا — من كل جانب ، تحاصرهم بالوبال والدمار ، ويغمرهم بطوفانها الهادر كل حاقد ومنافق وموتور . . فكم لقوا من الدولة الناشئة . ومن أشياعها الثائرين . ومن طوائف مختلفة من الجماهير التى تحركها غريزة القطيع للاندفاع مع تيار التنكيل الذى أطلقته النقمة أو مع سكرة الانتصار ! . .

حتى بعد أن هدأت هونا غضبة بنى العباس ، وخفت عندهم شهوة الانتقام ، لم تعدم البقية الباقية من الغرماء المقهورين ممن أفسح لهم عندئذ فى النجاة والحياة ، أن تتحرك إليها ، من هنا ومن هناك ، عوامل الدس والحسد والبغضاء ، لتملأ الدنيا عليها تحريضا ، وتعيد من حول جموعهم وأفرادهم تأريث النار ! . .

ولقد جرى من هذه الكوارث المفظعة على ألسنة الروايات والشائعات كثير وكثير . .

قيل . .

. . . دخل مرة مولى لبنى هاشم ، على أبى العباس السفاح ، وقد ثبت ملكه ، واستقرت دولته ، فإذا هو يرى عنده فريقا من أمراء الأمويين ، قد أمنهم الخليفة ، وأوسع لهم فى مجلسه بعد أن اتسع لهم عفوه ورضاه . .

وغص المولى . لم يطق هذا المظهر من الصفاء والألفة يقوم بين صاحب الأمر ومن كان بالأمس يطاردهم بأسياف نقمته . . فأسرع يسل عليهم لسانه ، مقبلا على الخليفة بشعر يثيره ، ليوقظ فى نفسه وحش الانتقام الذى نام ! . .

أنشد يقول من بين ما قال :

« يا ابن عم النبى ، أنت ضياء   استبنا به اليقين الجليا
جرد السيف ، وارفع العفو ، حتى   لا ترى فوق ظهرها أمويا
لا يغرنك ما ترى من رجال   إن تحت الضلوع داء دويا
قطن البغض فى القديم وأضحى   ثابتا فى قلوبهم مطويا ! . »

فما هو أن فرغ من شعره ، حتى كان سم تحريضه قد سرى فى قلب السفاح ، فغير وجهه ، وحرك حقده ، ودفعه يطرق هنيهة كالنادم ثم يرفع وجهه ليقول :

« خلق الإنسان من عجل ! . . »

وأردف يتمثل :

« أحيا الضغائن آباء لنا سلفوا   فلن تبيد وللآباء أبناء ! .. »

والتفت نحو غلمانه وقد اشتعل فى نظراته الشر ، يومئ لهم إلى جلسائه الأمويين :

« خذوهم ! . . »

فقتلوا ! . .

***

وقيل :

. . . نزل مولى آخر للعباسيين على عبد الله بن على وعنده طائفة من بنى أمية قد صفح عنهم ، ودعاهم بمجلسه إلى سمط طعام مد لهم ولمن حضره من أصحابه .

فما أن وقعت عينه على المشهد ، حتى تغير ، كما تغير رفيقه الآخر ، وأسرع ينفث دسيسته ، وينفض الرماد عن الجمر ! . .

أنشد محرض الأمير :

« لا تقيلن عبد شمس عثارا ‌ ‌ واقطعن كل رقلة وغـــراس
ذلها أظهر التودد منهـــا ‌ ‌ وبها منكم كحد المواسى ! . .
أنزلوها بحيث أنزلهـــا الله ‌ ‌ بدار الهوان والإتعـاس
واذكروا مصرع الحسين . .. . »

وراح يعدد شهداء بنى هاشم . .

فذكر عبد الله ماكان أنسيه ! . . وإن هى إلا لحظة حتى شدخت رءوس ضيوفه الأمويين بالعمد ، وبسطت عليهم البسط ، ومدت فوق جثثهم المهشومة — وإن ببعضها لبقية حياة — موائد الطعام ! .

* * *

وقيل وقيل ، غير هذا كثير ، بمنطق الصدق أو بسرف التهويل .

نكال ما بعده نكال ليس يخلو من معالم الحقيقة وإن أغرق فى الانسياق للخيال ! .. ومع ذلك فهو ، على أى نحو كان ، حصاد ما زرعت دولة الأمويين فى عنفوان طغيانها من دم وخراب . وهو جنى مر لما غرسته فى النفوس من إحن وعداوات . . ولقد توشك المبالغات أن تلقى بأكثف الظلال على ما سلف من مظالم الحكم البائد حتى لتنحله من صنوفها ما لم يقترف ، ولكننا نوشك ألا نرى أيضا عهودا فى تاريخ الإسلام قد شهدت ، على طول المراحل ، مثل ملامح الشطط فى القسوة والعنف التى أبداها ذلك الحكم لمنافسيه ، حقدا عليهم أو خوفا منهم . ولا مثل فعل أساطينه بالشعب ، الذى دان لملكهم واحتوته قبضتهم ، بلوغا إلى تغيير مشاعره نحو الهاشميين عامة ونسل فاطمة خاصة ، وانحرافا بتأييده إلى الجانب المضاد . .

أبدا لم يدع بنو أمية سبيلا إلى إشاعة البغضاء على خصومهم إلا طرقوه تأمينا لدولتهم التى قامت على ادعاء حق لا نصيب لها فيه إن لم نقل قامت على الاغتصاب ! . . فبكل ما وسعتهم الدعوة والحيلة والإكراه حاولوا القضاء على خصومهم ، كقوة

قيادية ، فى مجال السياسة ، لها وزنها فى تنبيه الأفكار وتحريك الجماهير ، أو كبيرة عطرة ، فى مجال العواطف ، تتعلق بها الخواطر وتهفو إليها القلوب . تذرعوا بكل ذريعة : محظورة أو مشروعة . توسلوا بكل وسيلة : كريمة أو لئيمة . . بالكلمة والسيف . باللين والعنف . بالوعد والوعيد . بالإحسان والحرمان . بطمس الحقيقة . بتشويه القيم بتدليس الأنباء بتزييف الأحداث. بابتداع أمور ووقائع لم تتنسم الحياة . بما قد يستطاع أن يجمل — بلغة يومنا — فى عبارة « غسل المخ » بمختلف أنواع الإلحاح فى المغالطة والتمويه ، دحضا لحجج غريمهم عليهم، وفضا لأنصاره من حوله ، واستهواء خادعا يستجلب لهم مزيد من التبع والحلفاء .

والحديث فى هذا الوجه يطول وإن بوعد ما بينه وبين الإحصاء وأخذ فيه على طريق التمثيل . . لكن قصة واحدة قد تغنى عن كلا السبيلين لأنها أبلغ تعبير يستطيع أن يرسم نتيجة « حملة الكراهية » التي شنها بنو أمية على الإمام وذويه كما قد لا يرسمها مثله تعديد الصور ، والإفاضة فى استقصاء الشبيه والنظير . . . .

وهذه هى القصة . .

ارتحل رجل إلى الشام يجول فيها ، فلفته أن أحداً من أهلها — على كثرة من عرفهم ، ومر بهم ، وسمع منهم — لا يتسمى باسم على أو حسن أو حسين ، أو ينادى به غيره ، وإنما تفشو فيهم أسماء : معاوية والوليد وزياد ، وأمثالها مما يحمل أهل الأسرة الحاكمة ورجال الدولة . .

وعجب . . وهل كان لظاهرة كهذه أن تشيع فى أمة على صدفة شيوعها ذاك الذى بلغ الإجماع ؟

ثم قاده ذات يوم عطشه إلى شامى ، ببعض الطريق ، ليستسقيه . .

فما كان أشد عجبه حين سمع الشامى ينادى أبناءه ليلبوا طلبه :

« ياعلى ! . . ياحسن ! . . ياحسين ! . . » .

عندئذ لم يملك المسافر أن سأله :

« يا هذا . . إن أهل الشام لا يسمون بهذه الأسماء ! . . »

قال صاحب الماء :

« صدقت . . إنهم يسمون أبناءهم بأسماء الخلفاء . . »

« وأنت ؟ . . »

« كرهت ذلك ، لأن أولئك إذا لعن أحدهم ولده أو شتمه فقد لعن خليفة. أما أنا فقد سميت أولادى بأسماء أعداء الله ، فإذا شتمت أو لعنت فإنما ألعن أعداء الله ! . . »

إلى هذا الحد بلغت حملة الكراهية الأموية من « غسل المخ » بغضا لأمير المؤمنين ونبيه . . وإلى نحوه من الغلواء أمعن الأمويون بعنفهم وقسوتهم فى التنكيل بعقبه وآل بيته ومن شايعهم من الناس . . فأما وهذه هى قوة « الفعل » فمن الطبيعى أن تناظرها قوة «رد الفعل» حين يتاح الانتقاض . . ومن الطبيعى أيضا أن تستكشف النتيجة المنتظرة لهذا الارهاب الطاغى قبل وقوعها . ويستشعرها كل متأمل كان حينئذ مع بنى أمية أو عليهم ، من خلفائهم وأمرائهم وسادتهم أو من عرض الجمهور . . وإذا كانت الرؤى والأحلام ، فيما تحدثنا العلوم النفسانية المصرية ، تفصح فى نوم المرء عن أحاسيسه المكبوتة ، فتعكس أحيانا شعوره بالذنب ، وتعبر أحيانا أخرى عن المخاوف أو الآمال ، فليس من شك تحت هذا الضوء فى أن رؤيا سليمان ابن هشام بن عبد الملك ، أحد أمراء الأمويين ، صارحته بما كان يكتم من شعوره بذنب ذويه ، وصدقت فى إفصاحها له عن خوفه المكبوت من مصيرهم المنتظر ! . .

. . يقول العلاء بن رافع مؤنس الأمير :

« إنى لمع سليمان ، وهو يشرب تجاه رصافة أبيه . . وعنده الحكم الوادى يغنيه . . . »

وتمضى القصة . .

يجيد المغنى ما شاء . ويشرب سليمان ما شاء . ويشرب معه رفاقه حتى يسكروا جميعا ، ويتوسدوا أيديهم كالعفاة النيام من فرط الشراب .

ثم يحس العلاء كأن يدا قوية عنيفة تحاول تحريكه . فينتبه مذعورا على الأمير وهو يهزه متعجلا وقد بدت فى عينه نظرة وجوم . .

وبغت الرجل ، وقال :

« ما شأن الأمير ؟ . . »

قال سليمان كالهامس ، يقص رؤياه :

« . . . رأيت كأنى فى مسجد دمشق ، وكأن رجلا على يده حجر ، وعلى رأسه تاج أرى بصيص ما فيه من الجوهر ، وهو رافع صوته بهذا الشعر :

أبنى أمية قد دنا تشتيتكم وذهاب ملككم وليس براجع

وينال صفوته عـــدو ظالم كأسا لكم بسمام موت ناقع »

فصاح العلاء :

« أعيذ الأمير بالله من وساوس الشيطان الرجيم ! . . هذه أضغاث أحلام . . »

وأطرق الأمير مليا وقد استغرقته أفكاره . فلما أن رفع وجهه ، كانت ملامحه كابية ، وكان فى عينه سهوم . وكان ثقل التشاؤم يكاد يهوى بحروف كلماته قبل أن تلتئم عبارة مكتملة ، وهو يقول لرفيقه :

« يا حميرى . . بعيد ما يأتى به الزمن قريب ! . . »

* * *

وكان حقا قريبا ذلك البعيد الذى عنت أحلام قومه غيابه وراء خط العدم لا تطلع به عليهم الأيام . . فقد وقع . لم تحل بينه وبين سقوطه عليهم كسفا ما اصطنعوا من حذر ، وما أعدوا من قوة ، وما ساروا به من البطش والعسف والإرهاب فى الناس ، تسكيا للأفواه ، وغلا للأيدى ، ولبا للعقول والأفهام .

ولم ينفعهم كذلك الذكر الذى طالما جرت بهم أحاديث على وهو يحذرهم للغبة ، وينذرهم سوء المآل . . وهل كانوا ليذكروا وإن بوارق الاطماع لتغشى منهم

العيون وتغلف الأفئدة وتوقر الأسماع ؟ . . وإنه لعدو أولى بهم ألا يحملوا كلامه على محمل الجد بل على محمل التمويه والإيهام ؟ . . وإنهم ، إبان ما عدد من نذره ، كانوا على أول الطريق إلى تسنم قمة الصولة ، ودونها — فى حسبانهم — يقصر شوط غيرهم ، وتنبهر أنفاسه ، ولو حاول أن يطير إليها على جناح الخيال ؟

وكيف لا ، وها هم أولاء يرون أصحابه اللصيقين به ، العاملين لنصرته — فيما تبدى لهم وللناس — لا يكادون يلقون بالا إلى هذا الذى قال وردده يوما وراء يوم فى المقال تلو المقال ؟ . . بل تحذيره إذن تخويف لأولئك وحث لهؤلاء ، ونذيره إذن من قبيل الدعوة المثبطة هناك والمحرضة هنا عسى أن ينال ببلاغة الكلام وصرير الأقلام ما فاته أن يناله فى ساحة الوغى وحومة الصدام ! . .

٦

لو أنهم أصغوا إليه ، فلربما تغير لهم الوضع ، واختلف بهم المصير ، ومشى التاريخ معهم على غير نهجه الذي ساروه ، ووعته لنا بعدهم بطون الأسفار . .

لكنه القدر اللازم ، حين يبدأ خطواته ، لا يرده شيء عن الانطلاق . والقضاء الدائم ، لا تغني عن وقوعه حيطة . بل الحيطة دائما تكون له ولا تكون عليه ، لأن العيون تعمى ، والبصائر تنطمس ، والعقول تذهب ، وتقدير الأمور — بداية وغاية — تضطرب معاييره ، فيهول المرء عندئذ مايهون ، ويهون عليه ما يهول ، فإذا هو يحذر ما لا ينبغي الحذر منه ، وتسوقه الغفلة — آمنا — إلى الانزلاق نحو المحذور المقدور ! . .

وتلك خلاصة قصته معهم ! . . يبصر ، فكأنما غير ذوى بصر . ويردد ، فكأنما لغير ذوى سمع ! وهم ، من دونه ، يظنون الأمان فيما لا أمان لهم فيه . ويرون الخوف فيما لاخوف عليهم منه . . وبين اليقين والشك قد اختبل سلوكهم ، يميلون لليسار حين يقصدون إلى اليمين ، ويمعنون في الشك وهم يحسبونه اليقين .

لا عن جهالة فعلوا ، فقد علم . ولا عن ظن ، فقد بين . ولكنهم قوم كانوا على اعتداد تعالوا به إلى حد الاغترار . فلم يتعبد لهم طريق التصديق . إنما كلفوا بالمراجعة ، فأسلمتهم إلى المكابرة ، فوقعوا في الشدة ، فمالوا إلى التكذيب . . ولا غرابة أن يكون هذا ديدينهم ، لأن الجبلة البشرية مركوز فيها إنكار مالا تعرف ، واستبعاد ما يغم عليها فهمه أو تبريره . وقد كان ما يحدثهم الإمام عنه أحيانا — حثا وتحذيرا — من غوامض الغد وأسراره ، أبعد من امتداد نظرتهم القاصرة ، وأكبر من إحاطة علمهم المحدود . .

كالألى يخطف البرق أبصارهم فلا يرون إلا الظلمة وإن أنار ، كانوا لا يستطيعون رؤية الحقيقة فيما يقول ، فيحملهم عماهم على التكذيب ، ويقودهم جهلهم إلى الإنكار . تماما كدأب المشركين والمنافقين الأولين مع محمد ، نهرتهم

رسالة السماء فرأوها دعوة إلى الصبوء لا دعوة إلى الهداية ، ورأوه معها كشاعر وكاهن وساحر ، ولكنهم لم يروه قط كرسول !.

وكذلك الإمام .

في رجاله كثر من كذبوه .. فكلما أفصح لهم عن حدث مكنون لما يتفتق الزمن عنه ، أو أومأ إلى أمر من الأمور المغيبة عن عقولهم ، افتروا عليه ، وألصقوا به الادعاء .. بعضهم ، عن حماقة وجهل ، جاهروه بالتكذيب في غير تحرز . وبعضهم خبأوه تحت الألسنة ، نفاقا ومراءاة ، وإن طالما ألجمهم أجمعين بما لم يكن لهم معه محيص عن التصديق ..

فكأنما نسوا ما مر بهم من شواهد صدقه وإنها لناطقة بأبلغ بيان ، ماثلة أمام العيان ، ثابتة في الأخلاد والأذهان ليس يسع الأشهر القلائل التي تقضت أن تطمس منها الكثير ، بل اليسير ..

وكم تبلجت لهم الأمثال ! .

فتنة الخارجة مثل .

مصارع أهل النهروان مثل .

قصة المخدج ذي الثدية مثل .

وألوان عدة من أنباء المغيبات جرت تحت أسماعهم على شفتيه حديثا وأحداثها ما زالت خلف ستر الزمن لم ينسج منها خيطا ، ولا صاغها القدر في حروف ..

ولم يكن يرجم بظن ، ولا يستقرئ النجوم ، ولا يلتجئ للكهانة وهو يرمي بعينه إلى ما وراء المعلوم المنظور ليأتيهم بشذرة من المجهول المستور ...

إنما كان ينطق عن حق لا شبهة فيه ، لأنه كان عندئذ يطلعهم على بعض علم محمد الذي اختصه به من دون الناس ، وهو ليس بالذي يفتري على الرسول ..

وقد سمعوه يقول :

« .. إذا حدثتكم عن رسول الله فهو كما حدثتكم ، فوالله لأن أخر من السماء أحب إلي من أن أكذب على رسول الله .. »

لكنهم لم يرعووا عن تكذيبه وإن كانت لهم فى سيرته — لو عقلوا — ما ينأى بهم عن هذا الافتراء المدحوض . .

وجادلهم فى نظرتهم المنحرفة مرة فقال :

« . . بلغنى أنكم تقولون : على يكذب . . قاتلكم الله ! . . فعلى من أكذب ؟ . . أعلى الله ؟ . فأنا أول من آمن به ! : . أم على نبيه ؟ . . فأنا أول من صدق به ! . . كلا والله ! . لكنها لهجة غبتم عنها ، ولم تكونوا من أهلها . . . »

ثم أتبع ، وهو يعجب ويأسف لافتقارهم — فكرا وروحا — إلى النفس الشفافة التى تحس ، والعقل اللماح الذى يدرك بعض ما كان يومىء إليه من علمه المكنون :

« . . . ويل أمه كيلا بغير ثمن ، لو كان له وعاء ! . . ولتعلمن نبأه بعد حين . . »

ليس بالثمن كان يدعوهم للشراء من كنوز حكمته . ولا بالقطرة كان يقتر فى كيله لهم من أفياض معرفته . إنما كان يسخو عليهم غاية السخاء مما وعى من نعم ربه وآلاء صفيه رسول الله من شذور هادية من العلم الإلهى والنبوى لا مقطوعة ولا ممنوعة . غير منتظر جزاء يجزونه إلا أن يتفهموا ما يطالعهم به ، أو يفسحوا لبعضه جانبا فى القلوب والصدور ، عسى أن ينفعهم ذكره فى حياتهم هذه الخاملة الجاهلة ، الجامدة الجاحدة ، المغلقة المغلقة ، التى يحيونها وهى لا حياة ! . .

كانت دعوته :

« ها إن بين جنبى علما جما لو أجد من يحمله ... »

فلا هم أقبلوا ، ولا هم نهلوا . . كأنما قد أبوا عليه أن يرفدهم بما لدنه ، وأبوا على أنفسهم أن تغتذى بنوره ، حتى بدوا قلوبا من صخر صلد عسير عليها أن تتشرب ما يتنزل لها ، حلالا طيبا ، من ماء عذب يذهب عنها قحولتها ، ويهبها النضرة والخضرة والنماء ! . .

ولم يكف عنهم نداءه . كلما حانت لحظة لتبصيرهم خف مشوقا مهموما يحث ويستهوى ، مجاوزا معهم دور « التاجر » العارض سلعته أمام العيون إلى دور « الدلال » المتلهف على ترويج ما عنده من بضاعة بكل ما يسعه من أساليب الإغراء ووسائل الاستهواء ، لعله هكذا يجتذبهم للإقبال عليه قنصا لفرصة سانحة ما كانت لتتكرر لو أنه طوى متاعه ورحل عن السوق ! . .

أهاب بهم ، ذات يوم ، ليحرك فيهم رغبات التطلع الدفينة تحت ركام التغافل وقلة المبالاة .

كان مما قال :

« . . . . اسألونى قبل أن تفقدونى ! . . فوالذى نفسى بيده ، لا تسألونى عن شئ بينكم وبين الساعة . . . . . . إلا أخبرتكم . . ولو قد فقدتمونى ، ونزلت بكم كرائه الأمور ، وحوازب الخطوب ، لأطرق كثير من السائلين ، وفشل كثير من المسئولين . . وذلك إذا قلصت حربكم . . . . وكانت الدنيا عليكم ضيقا ، تستطيلون أيام البلاء عليكم حتى يفتح الله لبقية الأبرار منكم . »

فلم تنل إهابته هذه من اهتمامهم شيئا ، لأن علمه — فيما بدا — كان سلعة غريبة عليهم ، خليقة بأن تبور فى سوق جهالتهم الجهلاء ! . .

ثم خطر له أن يكرر عليهم نداءه ، مرة أخرى ، ممنيا نفسه أن يجد بينهم سميعا يقبل ، ومنصتا يتأمل ، وإن كاد ليوقن تماما أنهم مستقبلوه بالتكذيب الموغل فى الضلال ، والافتراء قبل الإمهال المستند إلى المكابرة والادعاء .

قال :

« . . . . والله لو أمرتكم فجمعتم من خياركم مائة ، ثم لو شئت لحدثتكم من غدوة إلى أن تغيب الشمس ، لا أخبرتكم إلا حقا . . ثم لتخرجن فلتزعمن أنى أكذب الناس وأفجرهم . . . . »

ولئن نطق حديثه هذا بمنطق الآيس من صلاح أمرهم ، الذى يرى الخير فى أن يكف عنهم دعوة قصاراها أن ترتطم بأسماع صماء ، وقلوب عليها أكنة ، فإنه لينبئ أيضا عن علم سابق بمسلكهم قبل أن يكون ، وبصدقه القاطع الذى

شاء لهم غيهم واستكبارهم وضيق أفقهم أن يغشوه دائما بأقذع الشبه وأنكر الظنون . .

ولا جدال ، فقد حدثهم فصدق ، وسمعوه فكذبوه ، حين وقف ، عقيب وقعة النهروان ، يذكر لهم أطرافا من الغد المجهول . .

إذ ذاك خطبهم خطبة مستفيضة ، نحا فيها إلى الإيماء دون الإفصاح ، وإلى التلميح بدل التصريح ، وهو يشير إلى ما سوف يركب القوم من أخطار تهول ، ومن كوارث تزحم أيامهم ، ولا تزال تأخذ منهم ، وتثخن فيهم ، حتى يقيض الله لهم من يناديه الإمام من وراء ستر الغيوب :

« . . . . يا ابن خيرة الإماء ! . . متى تنتظر ! . . أبشر بنصر قريب من رب رحيم . . ألا فويل للمتكبرين عند حصاد الحاصدين ، وقتل الفاسقين عصاة ذى العرش العظيم ! . فبأبى وأمى من عدة قليلة ، أسماؤهم فى الأرض مجهولة ، قد دان حينئذ ظهورهم . . . »

ثم يلفت الناس إلى ما يدخره الزمن لهم من سوء المآل ، وإنه ليقصد فى إخبارهم بعض القصد ترفقا بهم أن يفترسهم الجزع ، وخوفا عليهم أن يضلهم الافتتان :

« . . . . لو شئت لأخبرتكم بما يأتى ويكون من حوادث دهركم ، ونوائب زمانكم . وبلايا أيامكم ، وغمرات ساعاتكم . ولكنى أفضيه إلى من أفضيه إليه مخافة عليكم ، ونظرا لكم ، علما منى بما هو كائن وما يكون من البلاء الشامل . . »

لكنه لا يمنع نفسه أن يحذرهم العقبى المخوفة ، فيصف لهم تلك التربة التى تنبت الأهوال المنتظرة ، وذلك الأوان الذى يحصدون فيه جنى ما تبذر أيديهم ، لعل منهم من يقلع عن غى سلوكه ، ويحد من غلواء ضلاله ، تخفيفا من غضب الله عليهم واستفاءة لرحمته وعفوه :

« . . . . ذلك عند تمرد الأشرار ، وطاعة أولى الخسار . . . . ذلك عند ظهور العصيان ، وانتشار الفسوق . . حين لا تنال المعيشة إلا بمعصية الله فى

سمائه .. حين تسكرون من غير شراب ، وتحلفون من غير اضطرار . وتظلمون من غير منفعة ، وتكذبون من غير إحراج ، تتفكهون بالفسوق ، وتبادرون بالمعصية . . قولكم البهتان . وحديثكم الزور ، وأعمالكم الغرور . . . . »

حتى إذا ختم كلامه ، بنبرة الأسيف الحزين ، رمى ببصره إلى بعيد ، كأنما إلى القدر المكتوب :

« . . . . عند ذلك لا تأمنون البيات . . وياله من بيات ما أشد ظلمته ! . . عند ذلك تقتلون ، وبأنواع البلاء تضربون ، وبالسيف تحصدون ، وإلى النار تصيرون . . فيا عجبا كل العجب من جميع أشتات ، وحصد نبات ! . . سبق القضاء ! . . سبق القضاء ! . . »

هنا لم يعدم من بين جمهورهم الحاشد غاليا فى الحق والقصة غلوا يصحب الجهل ويركب الشطط ، يقول :

« أشهد أنه كاذب على الله ورسوله ! . . »

فما كان ذلك من هذا الآثم بغريب . بل الغريب حقا أن أحاديث الإمام عن الأمور المغيبة كانت تدفع الناس من أقصى اليسير إلى أقصى اليمين . من المغالاة فى الإنكار والتكذيب إلى حد التكفير ، إلى المغالاة فى التأييد والتصديق إلى حد التأليه .

فى يوم قال لهم ، كاشفا عن علمه لعله أن يثير فيهم فضولا يدفع بهم إلى الاعتراف من معينه :

« . . . . لو كسرت لى الوسادة ، لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم ، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وبين أهل الفرقان بفرقانهم . وما من آية فى كتاب الله أنزلت فى سهل أو جبل إلا وأنا عالم متى أنزلت ، وفيمن أنزلت . . »

فإذا كان هذا القول خليقا بأن يحرك عجبهم ، فلا عجب معه وإنهم ليعلمون انه أرتوى من علم رسول الله . وإذا كانت الدهشة قد تؤدى إلى الشك فما كان

أحرام بأن يستنبئوه ما شاءوا ليقطعوا الشك باليقين . . لكنهم لا بهذه ولا بتلك أخذوا ، بل جنحوا إلى المغالاة في شأنه من نقيض إلى نقيض ! . .

بعضهم أنكر فقال :

« يا لله وللدعوى الكاذبة ! . . »

وبعضهم أيد فقال :

« أشهد أنك رب العالمين ! . . »

٧

على مشقة عاش بينهم الأشهر الطويلة الأخيرة محاولا جهده أن يبلغ بهم غايتهم وغايته ، وهم في أسلوبهم ذلك من التفكير والسلوك .. إذا دعا تغافلوا . وإذا حث قعدوا . وإذا حذر راوغوا وإذا أومأ إلى مصير لا يرضاه ولا يرتضونه يوشك الغد أن يتكشف عنه انحرفوا في تقدير إيمانه إلى أقصى اليسرة فهو كاذب ، أو أقصى الجنة فهو إله تفتحت له مغالق الغيوب ! . . فلاهم يقنعون منه بالتلميح الذى أيدت بعضه الشواهد الماثلة والأحداث التى جرت أمامهم تحت السمع والبصر . ولا هو كان يسعه أن يزيدهم بيانا فيكشف لهم ، بالتصريح السافر ، ما قد اؤتمن عليه من أسرار .

وبين ضيقه بجهلهم الجاحد لعلمه الذى تبلجت لهم منه آيات ، وصدقته — من قبل ومن بعد — الأمثال ، وبين حرجه من المبادرة إلى إفصاح هو موقعهم لا محالة ، في فتنة مضلة ، مضى يعالجهم ما استطاع . . .

ولم تره قط تهاون في إبراز النذر الحربية بأن تحملهم على التراجع عما سدروا فيه وإن عبر بالإشارة التى تجزى الجزاء كله عن المكاشفة المفضوحة ! . فليس مأمورا بأن يهتك الحجب وينزع القناع . ولا بمقدوره أن يأخذ بأقدامهم أخذا فيضعها على الطريق الذى ينفرون من ولوجه . ولا أن يلقنهم ويضع على أطراف ألسنتهم كلاما يقولونه ، كأنهم قردة أو ببغاوات ! . . فما جدواه وجدواهم من صفوف متراصة تزحم الطريق ثم لا تسير ؟ . وما يفيده ويفيدهم من قول أجوف يرددونه ولا يقترن به إيمان يترجم حروفه إلى أفعال ؟ . . بل إن مقتضى شوقهم على هذا النحو فيه ما ينضو عنهم الإرادة ، ويجردهم من ملكات التفكير ، ويفقدهم جزاء العمل الذاتى ، حتى ليلغى دورهم فى الحياة ككائنات عاقلة ذوات إدراك ، ثم ينفى عنهم التبعة ، ويرفع التكليف وما هو بمرفوع عنهم لأنه العبء الذى ينفرد الإنسان بين كافة الخلائق بحمله ، ومعيار الحساب الذى يوزن به سلوكه فترجح كفته إلى الثواب أو تشيل إلى العقاب . .

أشبه بحالهم فى هذا المقام ، فيما حدثنا الذكر القدسى ، حال بنى إسرائيل حين أهاب بهم موسى :

« . . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . . »

فما دفعتهم دعوته إلا إلى التملل ، ولا حملهم نذيره إلا على الثبوط . .

قالوا :

« يا موسى ، إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . »

فلما قيل لهم ، إغراء وعدة :

« . . ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . . »

أصروا على تمردهم الزنيم :

« ياموسى ، إنا لن ندخلها أبدا ، ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون ! . . »

ذاك أشبه بحالهم معه . .

أما حاله معهم ، فأشبه أيضا بحال موسى حينذاك من بنى إسرائيل ، وقد تقطعت به الوسائل . وتعزقت الأسباب ، دون عطفهم على غايته :

« رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . »

فلولا أن أثارة من أمل كانت لا تزال تومض فى ظلمة يأسه كجمرة بها بقية من حرارة وهى تحت الرماد . . ولولا إحساس أمين بتبعته أمام ربه وأمام الأجيال كتبعة كل ذى رسالة عليه البلاغ ، لنفض من الأمر يديه ، وتركهم وما يشاءون . .

لكنه بقى وما نذر له نفسه ، ثابتا فى الميدان . . يحارب بالتبصرة التفاؤل ، وبالتذكير الاستهانة ، لعله أن يهز فى أعماقهم شعورهم بإنسانيتهم ، ويبعث فى كل منهم حيا الإنسان العاقل المدرك الذى دفنوه تحت توا كلهم ، ليعيش حرة

أخرى دوره الحق الذى هيأته له طبيعته ، وعيا عاملا وعملا واعيا ، لا يعرفان سلبية الجمود . .

قال لهم ، كأنما ليحرك هممهم ، ويذكر كلا منهم بذاته ، كقوة حية عاقلة عاملة ، لها ملكاتها المميزة ، وإرادتها التى لا ينبغى أن تترك لتصدأ ، أو تهمل فتموت :

« . . وايم الله ، لولا أن تتكلوا فتدعوا العمل لحدثتكم بما قضى الله على لسان نبيكم . . »

وتلك غاية ما يمكن أن يصل إليه تكريم إرادة الإنسان ، وتحرير سلوكه ، ليعملا « اختيارا » بوحى مشيئة صاحبهما وتفكيره الخاص دون قهر أو إجبار . .

وكما حرص على توفير هذه الحرية لأصحابه ، وحثهم على ممارستها ، فقد كان دائما يعمل على أن تسير فى طريقها المأمون ، بهداية التقدير السليم الواعى ، الذى يستند إلى منطق التعقل ، ولا ينحرف مع شطحات الأخيلة المخمورة . وإذا كان بعض رجال أمير المؤمنين ، كما شهدنا ، قد انطلقوا على غير السنن الطبيعى الخليق بأن تقودهم إليه أحاديثه ، فغالوا فى تقدير وضعه إلى تأليهه ، وأمعنوا فى إيمانهم به إلى غاية المروق ، فما يستطاع أن يقال إن تفكيرهم هذا كان نتيجة لازمة لإيماءاته بين الفينة والفينة إلى أحداث « غدوية » كانت حينذاك خافية عنهم ثم ما لبثت حتى أيدتها لهم الأيام .

ليس هذا بمستطاع . بل محال المحال الذى لا يطوله التوقع ولا يدانيه الاحتمال . . فمن المرفوض المردود أن تكون « إيماءاته » تلك علامة لقداسته الربانية التى أقامها عليه قومه عن ضلال . ومن الخطأ أى خطأ أن تتخذ ذريعة لتسويغ العذر لأولئك المارقين الغالين . . وكيف لا ، وهذا رسول الله ، قد أخبر قبله فأكثر الإخبار عن الغيبيات ثم لم يدع له أحد من أصحابه نفس الإدعاء ؟

أقرب إلى الصواب أن يقال إن أولئك الرجال ترسبت فى نفوس بعضهم بقية من عقائد قديمة لم تكن ترى أى ضير فى اجتماع الطبيعة الإلهية إلى الطبيعة البشرية فى إنسان رفعته مكانته فى عيونهم مكانا عليا فقدسوه . أو دفعت بعضهم

الآخر تقاليدهم السياسية ، المنحدرة فيهم من خلال تراث ماضيهم إلى تأليه الحاكم ، وإعاء نسبه إلى السماء أخذا بنظرية الحق الإلهي للملوك في حكم الشعوب . أو دعت فريقا ، غير أولئك وهؤلاء ، دواع من الحقد تحركها اتجاهات شعوبية أو قومية ، إلى الكيد للإسلام والمسلمين ، بإشاعة أمثال هذه الفكرة المنكرة في الدين الغالب الجديد . . ولا غرابة في هذا ، لأن رقعة الدولة الإسلامية قد راحت تتسع ، في تلك الآونة ، لاشتمال كثير من البقاع التي تضم أمما وأجناسا شتى ، منها ماورثه العرب في الفتوح ، ومنها ما كان له تراثات وفلسفات ثقافية وعقيدية وسياسية ترى التثنية ، والتثليث ، والقداسة الإلهية لصاحب الأمر والسلطان . .

وكأنما لم تغب كل هذه العوامل الضالة المضلة عن الإمام ، وهو يومئ لرجاله بعض الإيماء إلى الغيبيات ، كما حمله موقف من مواقفهم على انتهاج هذا السبيل ابتغاء التحذير . . فكم طالما صارحهم ، وهو يحدثهم أحاديثه الإيمائية ، أنه ناقل عن الرسول . وكم طالما ، فوق هذا ، أقصر وأقل من أمثال تلك الأحاديث ، محاولا أن يكتم عنهم ، وسعه ، ما يستشف أو يقدر أو يعلم عن صفيه رسول الله من أسرار النفوس والزمان ، خشية أن يفتتنوا به ، ويدعوا له العلم بغيب لا يدعيه ، قد أكرهته الظروف على التلميح بطرف منه عسى أن يكون في ذلك بعض ما يرجو لهم من صلاح . .

إن نبع العلم النبوي الذي لا ينضب كان ، لا ريب ، غير محجوب عن الإمام بحال . بل كان هو الأثير به ، منذ طفولته ، دون صفوة أصحاب رسول الله وخاصة أهله . يستقي منه . وينهل حق الارتواء . ويراجع محمدا فيما قد يستعسر ويلهم من الأمور ليزيد بهذه المراجعة معرفة . فإذا لم يفد على من معين النبوة الفياض — وهو الذي كان « ولدا » لمحمد ، صفيا له ، لصيقا به ، قد أوتي ما أوتي من ذكاء القلب ، وصفاء النفس ، وحدة الذهن ، وتوقد المواهب والملكات — فأي امرئ غيره كان أولى بأن يفيد ؟ . .

ومع ذلك فلم ينفعهم التحذير ولا الإقصار . .

قال لهم ، من بعض كلام له ، يعرض فيه عليهم علمه لانتفاعهم، وهو لا ينسى ، مع العرض ، تحذيرهم الافتتان :

« . . سلونى . . فوالله لا تسألونى عن فئة تضل مائة ، أو تهدى مائة إلا أنبأتكم بناعقها وسائقها . . ولو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت . . ولكن أخاف أن تكفروا فى برسول الله . . والذى بعثه بالحق ، واصطفاه على الخلق ، ما أنطق إلا صادقا . ولقد عهد إلى بذلك كله . . وما أبقى شيئا يمر على رأسى إلا أفرغه فى أذنى . . »

ومع ذلك افتتنوا ! . .

صدقت فيهم فراسته . تحقق ما كان يقدره منهم ويخشاه عليهم . ضل منهم من ضلوا وغاصوا فى الكفر من القدم إلى أعلى الهام ! . .

طائفة ادعت له النبوة ! . .

طائفة خففت الادعاء ، فتنادت بأنه شريك الرسول فى الرسالة ! .

طائفة قالت أخطأه جبريل عند تنزله من رب العرش ، فنزل دونه على محمد ابن عبد الله ! .

طائفة جأرت بأنه هو الذى بعث محمدا رسولا من لدنه إلى الناس ! .

طوائف عدة أخر ، صدرت غاية الصدور فى المروق والضلال ، منها ما زعمت له الحلول ، وما ادعت له الاتحاد فى الله ، وما رأته الله ! .

قال له قائل منهم :

« أنت الله ! . »

وقال فيه شاعر لهم :

« إنما خالق الخلائق من زعـ ـزع أركان حصين خيبر جذبا
قد رضينا به إماما ومولى وسجدنا له إله وربا »

وأنشد فيه شاعر آخر :

« ومن أهلك عادا وثمودا بدواهيه

ومن كلم موسى فوق طور إذ يناديه
ومن قال على المنـــبر يوما وهو راقيه
سلونى ، أيها الناس . فحاروا فى معانيه »

وكم من قائل ومن أقوال ، ذهبت بهم وبها الأعصر على إدبار وجاءت بغيرهم على إقبال ! . . فإذا هم جميعا ضلال من ورائه ضلال . وإذا هو بالأواخر يمتحن فى سيرته وفى ذكراه . وبالأوائل يمتحن فى حكمه وفى صبره ، يحملهم على « الـكفر » به طوعا أو عنوة ، فلا يرتضون — لجاجة فى العناد والغى — إلا العصيان ، باسم الإيمان ! .

فما كان أعجب أنصاره حينذاك من حزب العراق ! . . لاهم عبدوه كإله فأحسنوا العبادة وأطاعوه . ولاهم عاهدوه كإمام فوفوا بالعهد ونصروه . . إنما عايشوه أجمعين على رياء ونفاق ، وحالفوه بالخلاف والشقاق . . الألى قدسوه كان تقديسهم إياه ترانيم جوفاء ، وتراتيل خرقاء ، قد تظهر الخشوع بالسجود والركوع ، ولـكنها لا تبرز الطاعة بالولاء والأداء . كأنما أمنوا من « الرب » وهم يعصونه ، بطش عذابه ، وثوقا برحابة غفرانه ! . . والألى بايعوه على النصرة كإمام ، خفروا الذمة ، ومزقوا الموثق ، مخلدين لدعة هى الضعة ، وآملين فى سلام هو الاستسلام . فإذا هم حين الدعوة أسود كلام ، وحين البأس ثعالب ونعام ! . .

الفصل الخامس

١

بكل الحسرة فى القلب . بكل المرارة فى الفم . بكل الأسى فى العين . بكل الاستهانة والاحتقار والزراية تقطر من حروف كلماته وهو يعصر عنها شفتيه كما يعتصر الباكى الدموع من مآقيه ، ارتقى الإمام المنبر ، على ضجر وملالة ، ليحدث تلكم الجموع الزاخرة أمامه عددا كالموج ، الهشة فى خلده وزنا كالكلأ الذابل ! . .

بدأ فقال :

« ما هى إلا الكوفة أقبضها وأبسطها ! . . »

وأطبق أصابعه وأطلقها مرة فرة فرات ، فما انطبقت ، فى كل مرة ، إلا على خواء ، ولا انبسطت إلا عن خواء . . وهل الكوفة حين ذاك من الدولة المريضة ، الآخذة فى التداعى ، إلا كقطرة من بحر طام ، إن هو جف فليس بالقطرة بعد غناء ؟ . .

ثم صوب نظرته إلى البلدة الماثلة له فى أشخاص رجالاتها المجتمعين حياله ، وأكمل فى ازدراء :

« . . إن لم تكونى إلا أنت تهب أعاصيرك ، فقاتلك الله ! . . »

فلقد برم بها وبهم .

برم بهذه الكوفة . . وهان شأنها عليه . .

إنها الحاضرة الضخمة التى تتصدر غيرها من البلدان والمدائن الخاضعة لحكمه ، وتقودها إلى هدفه على الطريق . . ولكنها أسوأ قدوة ، وأذل عنوان .

وبرم بقومها ، وهان شأنهم عليه . .

إنهم خلاصة الأقوام من مهاجرين وأنصار وأهل الأمصار . . الذين وافقوه

على وحدة أمتهم ، وأخرجوه من المدينة للجهاد حربا على الانقسام . . ولكنهم مالبثوا أن نسوا الهدف ، وخانوا الموثق ، وهبت خلافاتهم عليه كالأعاصير . .

مسلك عجيب غاية العجب أن يروموا الوحدة من غيرهم ، ثم ينقسموا على أنفسهم مثل هذا الانقسام ! . .

على أن العجب قد يخف هونا حين نعلم أن الخلاف كان مركزا فى خلائق فئة فيهم غير قليلين ، عسير عليهم التحرر منه لأنه محال انتزاع الطباع . فهم بحكم بداوة بعضهم ذوو عناد غال ، ومراس شديد . وبحكم انحدار بعضهم من ثقافات فكرية معقدة ، كالثقافة الفارسية ، أو تأثرهم بها ، ذوو نظر فى الأمور يدفعهم إلى البحث عن البواعث والمقارنة بين النظرات . ومن التزاوج بين العناد والمقارنة ، ينشأ الترجيح والجدل واختلاف الآراء . ولقد ذهب أسلوبهم هذا فى التفكير كل مذهب إلا إلى يسر الطاعة وسهولة الانقياد حتى وصفوا على لسان كثيرين بأنهم أهل شقاق وشغب وميل إلى اصطناع الصراع . ولعل كلام الحجاج عنهم أدنى الكلام إلى الإفصاح عن خصائصهم ، وإن هو أمعن بتعبيره — كخصم أعماه لدده — فى الإقذاع . .

قال لهم مرة :

« يا أهل العراق . . يا أهل الشقاق والنفاق ! . إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم وإن أمنتم أرجفتم . وإن خفتم نافقتم . لا تذكرون حسنة ، ولا تشكرون نعمة . . »

فعسير بلوغهم مبلغ الرضا بما يكون . .

واستنكر خلافهم عليه وإن كان حريا منهم ، فى حقيقة الأمر ، بأعتى الخلاف . .

« هل استخفكم ناكث ، أو استغواكم غاو ، أو استفزكم عاص ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم خالع ، إلا اتبعتموه وآويتموه ، ونصحتموه وزكيتموه ؟ . . هل شغب شاغب ، أو نعب ناعب ، أو زفر كاذب ، إلا كنتم أشياعه وأتباعه ، وحماته وأنصاره ؟ . . »

وعجب لعنادهم الذى لا تثنيهم عنه مرارة التجربة ، فقال :

« ... ألم تزجركم المواعظ ؟ .. ألم تنبهكم الوقائع ؟ .. ألم تردعكم الحوادث ؟ .. »

وكيفما كان إقذاع الحجاج بن يوسف الثقفى لهم فى الهجو ، وغلوه فى فحش الوصف ، فقد كانوا قوما خليقين بأن يعضل سلوكهم بأيما حاكم وضعته الأقدار منهم بمكان قيادة ، بسبب شكيمتهم الذهنية الوعرة .. فلكل حجة عندهم ناقض . ولكل خلاف يمارسونه تبرير .. وإنهم ليتذابون دائما بين الرضا والسخط حتى ليتفتت الرأى بينهم ، وتتشعب السبل ، فيغم عليهم الخطأ كما يغم الصواب . ويتأرجحون بسلوكهم بين المعارضة والتأييد حتى لتتعطل قوائم النتيجة ويصيبها الشلل أو يصيبها الاضطراب نتيجة لهذا التجاذب الذى يشدها من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين .. وفيما سلف من ألوان سلوكهم مع الإمام ما يكشف هذه الطبيعة فيهم فإذا هى آخر الأمر تردد عن العمل ، وإحجام عن الإقدام ، وسلب بدل إيجاب . أو هى ردة مباغتة عن المعهود ، ونكصة على العقب إلى الوراء بعد انطلاق . أو هى شطحة مع المغالاة تتنكر لكل تعقل ، وتعمى عن كل واقع ، وتمعن فى الشطط إلى أقصى الأبعاد ..

وفيما بدا اليوم له منهم أيضا مثال مقيت .. فلقد تثاقلوا عن النهوض للجهاد معه ، والذود عن بلادهم التى راح معاوية يتخطفها بغاراته الإرهابية وينتقصها من الاطراف .. فعلى ما وضح لهم من سياسة خصمهم ، وانتهاجه فى حروبه الجديدة سنة تسوم أرضهم الخوف والدمار ، وتزعزع ثقة ناسها فيهم ، فقد ركنوا إلى الدعة والتثاقل كأنما استمرأوا هذا الإذلال .. وها هم اليوم والغارات الأموية تدوس ذمارهم ما شاء هواها ، قد بلغ بهم تماوتهم أن قبعوا فى ديارهم غير آبهين لصيحات على كأنما لا يعنيهم الأمر ، وإنهم ليعلمون علم اليقين أن الإرهاب الوحشى يخترق حدودهم بالحرق والقتل والنهب من الشمال إلى الجنوب البعيد .

فهل يغنى الآن عنهم النذير ؟ .

بل إنما عليه البلاغ ..

وبالمرارة يقول :

« .. أنبئت بسراقد اطلع اليمن . وإنى والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم ، باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم . وبمعصيتكم إمامكم فى الحق وطاعتهم إمامهم فى الباطل . وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم . وبصلاحهم فى بلادهم وفسادكم .. »

ولو شاء لعدد من خطل سلوكهم فأكثر .. لكنه رأى أن يقصر . وهل جدوى من الإكثار ؟ ..

لكنه رفع كفيه نحو السماء يبتهل :

« .. اللهم إنى قد مللتهم وملونى ، وسئمتهم وسئمونى . فأبدلنى بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بى شرا منى ! .. » .

وليستجيبن الله ! ..

فكأنى بهم قد اضطرب فى جنوبهم شىء من القلق لهذا الدعاء الذى هز فيهم مشاعر صدئة ، وحرك مخاوف نائمة تحت أطباق كثيفة من الاستهانة والغفلة والاستهتار . لكنها هزة خدرة لم تجل الصدأ ولم تذهب أدرانه ، وحركة فاترة ما كانت لتوقظ النيام ! ..

أما قائد الحملة الإرهابية المدمرة ، بسر بن أبى أرطأة فقد مضى شوطه إلى غايته المرسومة ، وفى باله ، مع كل خطوة يخطوها ، أن ينفذ أمر عاهله معاوية حرفا بحرف وأن يزيد من عنده لو استطاع فى النكال والعذاب والخراب التى خرج لها من الشام بفرقة الدمار ..

واستعاد بسر فى باله خطة معاوية وهو آخذ على الطريق :

« سر حتى تمر بالمدينة ، فاطرد الناس ، وأخف من مررت به ، وانهب أموال كل من أصبت له مالا ممن لم يكن دخل فى طاعتنا .. فإذا دخلت المدينة فأرهم أنك تريد أنفسهم ، وأخبرهم أنه لا براءة لهم عندك ولا عذر ، حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكفف عنهم .. ثم سر حتى تدخل مكة ، ولا تعرض فيها لأحد ، وأرهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة ، واجعلها شردات .. حتى تأتى صنعاء والجند ، فإن لنا بهما شيعة ، وقد جاءنى كتابهم .. »

ثم استعاد شعار هذه الخطة ، كما وضعه له ابن أبي سفيان :

« . . . . اقتل شيعة على حيث كانوا ! . »

وعلى هذا انطلق قائد العدوان . .

سار حتى نزل بدير مروان . ثم مضى على طريق المدينة ، كلما نزل على ماء عنف بأهله ، وشرد جمعهم ، وركبهم بكل ألوان العنف والإرهاب ليخلوا بينه وبين ما يريد ، يستبيح من أموالهم ، وينال من متاعهم ، ويتخذ إبلهم وخيلهم مطايا لرجاله تنقلهم مرحلة حتى يقع على ماء آخر يتزود منه بعطايا جديدة ، ويدع هذه تضرب فى البيداء . .

وبلغ مشارف المدينة وسيرته المرعبة قد سبقته إليها طليعة ! . . فإذا بقضاعة تخف إليه قرب مداخلها تتملقه لتأمن شره فتنحر له ولأصحابه الجزور . . وإذا أبو أيوب الأنصارى ، عامل البلدة ، يفر بنفسه من بطش الطاغية ، وماله ولا لها ، رده من أهلها يحميها ويحميه . .

وانعقدت فى سماء مدينة الرسول سحائب الدخان بعد قليل منبعثة من ألسنة النار . فقد أشاع بسر الحريق فى الدور كما أشاع الهلع فى الصدور . . أحرق دار أبي أيوب ، ودار ابن رافع ، ودار زرارة ودورا غيرها كثيرة لتكون عنوانا موجزا يفصح به عما يدخر للسكان يغنى عن كل بيان . . وعندما دخل المسجد ، وارتقى المنبر وتحته قد تنكست رءوس الناس ، خوفا وخزيا ، تلا وهو يحمل نبراته التهديد والوعيد :

« ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها لباس الجزع والخوف بما كانوا يصنعون . . »

وأردف :

« . . وقد أوقع الله تعالى ذلك المثل بكم وجعلكم أهله . . . . لم تشكروا نعمة ربكم ، ولم ترعوا حق نبيكم ، وقتل خليفة الله بين أظهركم فكنتم بين قاتل وخاذل ، ومتربص وشامت . . . . »

وشتم الأنصار :

« . . يامعشر اليهود وأبناء العبيد ! . . أما والله لأوقعن بكم وقعة تشفى غليل صدور المؤمنين وآل عثمان . أما والله لأدعنكم أحاديث كالأمم السالفة ! »

ثم حمل الناس على الدخول قسرا فى طاعة معاوية ، لا يؤمن منهم جمعا ولا قوما على حياتهم إلا أن يبايعوا ويبايع زعيمهم معهم . فإن غاب ذلك الزعيم ، جعل قومه كفلاء بإحضاره إليه ، أو يهدر دمهم كافة ! . .

. . . قدم عليه شيوخ المدينة يبايعون ، فأرسل بصره فيهم متفقدا ، وقال :

« مالى لا أرى جابر بن عبد الله ؟ . . »

فالتصقت الألسنة بالحلوق ! . . وهل منهم من يشى بعقره ؟ . .

لكن ابن أبى أرطأه التفت إلى قوم جابر يتهددهم :

« يا بنى سلمة ! . . لا أمان لكم عندى أو تأتونى بجابر . . »

فانتشر القوم على الأثر ، خشية الوعيد ، يسعون فى فجاج البلدة ، وإلى حينما ظنوا أنهم واقعون على صاحبهم بمنأى بعيد عن بطش السفاح .. حتى إذا وجدوه راحوا يناشدونه :

« ننشدك الله يا جابر لما انطلقت معنا فبايعت ، فحقنت دمك ودماء قومك ؟. إنك إن لم تفعل ، قتلت مقاتلينا ، وسبيت ذرارينا . »

واستنظرهم الرجل الليل . فلما أمسى خرج خفية من مخبئه يترقب حتى دخل على أم سلمة زوج الرسول لعله أن يلتمس عندها فرجه من ضيقه . .

وقالت له السيدة ، بعد أن أصغت لحديثه :

« يا بنى . . انطلق فبايع . . احقن دمك ودماء قومك ، فإنى قد أمرت ابن أخى أن يذهب فيبايع ، وإنى لأعلم أنها بيعة ضلالة . . »

وكما فعل بسر بالمدينة فعل بعدها بمكة والسلب والخراب والقتل تسعى على الطريق إليها بين يديه . فإذا هو يدخلها وهى توشك أن تكون خاوية . إذ خرج منها عاملها قثم بن العباس . وتنحى عامة أهلها ينأون عن الهلاك المقبل .

ولم تبق منهم إلا قلة من ذوى الحسب ، استبقت إليه تستقبله ، وكأنما ظنت أن لها من أحسابها جنة دونه . . فما أن أقبلوا عليه حتى ابتدرهم بفحش القول وأقذع الشتائم ، ثم عقب يقول :

« أما والله لو تركت ورأيي فيكم لتركتكم وما فيكم روح تمشى على الأرض ! . »

فأسرعوا يضرعون إليه :

« الله الله فى أصلك وعترتك ! . . »

غير أنه رمى ضراعتهم وراء ظهره ، وكأنما لم تخترم كلمة منها أذنيه . . ومضى عنهم إلى البيت يطوف وهم وقوف بالباب وكل زفرة نفس تلقطها صدورهم المضطربة تكاد تقول لهم : أنا الأخيرة ! . .

وجبههم بعد الطواف ، بشماتة واستعلاء :

« الحمد لله الذى أعز دعوتنا ، وجمع أنفسنا ، وأذل عدونا بالقتل والتشريد . . هذا ابن أبي طالب بناحية العراق فى ضنك وضيق ، قد ابتلاه الله بخطيئته ، وأسلمه بجريرته ، فتفرق عنه أصحابه . . . . »

ودعاهم للبيعة لمعاوية فسارعوا ، لأن إباءها فى كفة ، ورءوسهم فى كفة ! . .

وعندما هم بأن يبرح بعد بضعة أيام ، رمى وجوههم بمزاج من وعيده وصلفه :

« يا أهل مكة ، إنى قد صفحت عنكم . . فإياكم والخلاف ! فو الله إن فعلتم ، لأقصدن منكم إلى التى تبيد الأصل ، وتحرب المال ، وتخرب الديار ! . »

وغادر مكة إلى بقية الرحلة .

٢

دهاء كرياء . أو رياء كدهاء . لم يعدم أيهما أهله وبسر يمشي بهوله على أرض دولة الإمام من الرأس إلى الذيل ، ناشراً عليها الخراب كالضباب . . لم يعدم . ولا كان ليعدم وفى الناس آنذاك مثل المغيرة بن شعبة . فهذا العملاق الثقفى الأعور الذى وسعه أن يصانع الفريقين بالعراق وبالشام ، ويصانع الأحداث المضطربة منذ فار المرجل وانفجر البركان ، لم يعضل به أن يستقبل طاغية الإرهاب بما يرضيه . .

كتب إليه ، إذ علم بخروجه من مكة قاصداً إلى بلدته الطائف :

« . . . . بلغنى سيرك إلى الحجاز ، ونزولك مكة ، وشدتك على المريب ، وعفوك عن المحسن ، وإكرامك لأولى النهى ، فحمدت رأيك . . فدم على صالح ما كنت عليه ، فإن الله لن يزيد بالخير أهله إلا خيرا . جعلنا وإياك من الآمرين بالمعروف ، والقاصدين إلى الحق . . . . »

فهل من عنوان أفصح بيانا عن سبق بلدته بالولاء للقادم وصاحبه ، من هذا الكتاب ؟ . . وهل ثمة حاجة ببسر ، بعد ، إلى ممارسة الإرهاب ؟ . .

بل إنها كوثيقة طاعة كما أنها رسالة استئمان ، ما كان ليعنف معها بسر بأهل الطائف ، أو يسير فيهم كنهجه الذى انتهج فى مدينة الرسول والبلدة الحرام . . فلقد كفاه أعور ثقيف مشقة انتزاع الولاء بالعنف وبالسيف ، وجاءه به هدية حتى لشعر الطاغية عندئذ أنه جدير منه بالتقدير . .

لذلك التقيا لقاء صديق بصديق ، وافترقا فراق حليف وحليف . فما كاد بسر يظهر حتى خف إليه المغيرة ، وخلا به يتناجيان . .

وقال بسر لضيفه يختم الحديث :

« صدقتنى ونصحتنى . . »

وخرج المغيرة معه ، فى اليوم التالى ، فشيعه ساعة ، ليسلمه إلى الطريق للجنوب . .

ومن عجب أى عجب أن الحملة الإرهابية الأموية لم يشهر فى وجهها سلاح ، ولا قوبلت بكلمة إباء ممن أخذتهم ببطشها المهين ، لا من خاصة أو عامة ، ولا من حكام أو محكومين ، طوال رحلته المشئومة حتى نزل بصنعاء ، كأنما الناس قد خلت نفوسهم عندئذ من الحمية التى تحمش على الذود عن المال والدار والآل . أو كأنما مسيرة الدمار قد سبقت إليهم بالذعر طليعة تشل منهم الجوارح ، وتخدر العقول ! . .

فلقد انحدر الوحش بحملته الرهيبة فأوغل فى الانحدار بها قوة مدمرة من الشام إلى المدينة إلى مكة إلى أرحب إلى صنعاء إلى جيشان ، مجتاحا مخاليف اليمن وإماراته ما شاء الاجتياح ليكر عائداً مرة أخرى إلى صنعاء . فإذا هو فى انحداره ذاك لا يكاد يمر بحاضرة ولا بادية ولا أهل ماء تلمسوا الرى والكلأ فى فجاج الصحراء إلا صب عليهم العذاب . يقتل ويحرق ، وينهب ويسلب ، ويدمر ويخرب ، مفظعا فى غاراته كل الإفظاع حتى ارتفع عدد ضحاياه إلى ثلاثين ألف قتيل وإذا هو يصل فى انحداره إلى أسفل درك يمكن أن تهبط إليه إنسانية بشر من الخسة والغدر ، والعنف والتنكيل ، لم يرده وازع من خلق أو دين عن انتهاك حرمة ، أو هتك أمان ، أو السطو على أعزل ، أو نحر شيخ كبير ، أو ذبح طفل صغير ، أو الفتك بالزمر والجماعات وإن لم يبادروه بعداء ، وإن استقبلوه بالهدوء أو الاسترضاء . .

. . . . فى نجران قتل عبدالله بن عبد المدان وولده مالكا ، وكل جريرتهما أن الأب كان صهرا لعبيد الله بن العباس عامل الإمام على صنعاء . .

. . . . فى صنعاء حين آب إليها بعد بطشه بأهل المخاليف المجاورة ، قتل مائة شيخ من أبناء فارس ذنبهم لديه أن امرأة من بنى جلدتهم ، قيل إنها آوت إلى بيتها طفلى عبيد الله . .

من مأرب قتل وفدا بأكمله بعث به أهلها ، ليعلن له عن طاعتهم ، ويطلب منه الأمان . .

ثم دع بعد هذا من قتل من شيعة علي ، زمرا عدة ، سواء من كان قد كف عن لقائه ، أو من حاول أن يدرأ حملته بالسلاح . . فقد راح يتعقبهم فرادى وجماعات في الدروب والدور ، وفي المدن والبيداء ، لا يقع منهم على فريق أو فرد إلا أعمل فيهم سيوف الإفناء . .

غير أن سلوك هذا الطاغية السفاح إن يكن أعلم بشيء يصمه أبد الدهر ، ويذهب به على الأعصر مثلا للوحشية والخسة ولؤم الطباع ، فذلك فعله بطفلى عبيد الله . فلقد علم وهو يمعض طريق عدوانه ، أن الصغيرين وأمهما عند رجل من بني كنانة ، فتحركت على الأثر شهوته للدم ! . .

هب من لحظته بين جمعه الكثيف إلى الكناني يضرب عليه بابه ، ويطلب إليه تسليمه الغلامين . . وريع الرجل وأيقن الشر في ثياب بسر وتحت عمامته فما كان ليقدم كل هذه المسافة الطويلة وهو يضمر غير ما عهد القوم فيه منذ مخرجه المشئوم من أرض الشام . .

وعلى الفور طالع رجل بني كنانة الطاغية وجمعه بسيفه في يده ، وقد وقف دونهم في فجوة الباب . وعجب بسر . وغضب واشتعل حنقه حتى غدا وجهه من غيظه بلون الرماد . فكيف يجترئ امرؤ فرد عليه ، ويعترض مشيئته ولو بلفظة لسان ، فضلا عن السيف الذي التمع من غمده ، هو الذي عنت له جباه الجموع وذلت أمام صولته ؟ . .

صاح بالرجل يهدر :

« ثكلتك أمك ! . . والله ما كنا أردنا قتلك . . فلم عرضت نفسك للقتل ؟ . . »

لكن الكناني لم يبال منه ثورته ، ولا لهجة وعيده المبطنة بالأمان ، بل رد عليه في إباء :

« والله لأن أقتل دون جاري ، لهو أعذر لي عند الله والناس . . »

وشد منفردا ، وهو حاسر ، على الطاغية المتنمر وأصحابه الذين تحلقوه كالسور ، وهو يرتجز :

« آليت لا يمنع حافات الدار
ولا يموت مصلتا دون الجار
إلا فتى أروع غير غدار ! »

وراح يضرب في الجمع الحاشد ، لا يدري أين يقع منهم سيفه ، حتى نالوه ومزقوه . .

هنا خلا الطريق أمام السفاح لغرضه ، فتهلل محياه ، وسالت بسمة مقيتة على جوانب شفتيه كلعاب الثعبان ، ثم أمر بالطفلين فقدما بين يديه ، وذبحا ذبحا كما تذبح الشياه . .

كلا ! . . ما هي بقسوة طاغية . ولا هي ضراوة موتور . . ولا هي لوثة مجنون هذه الفعلة الشنعاء . . بل هي القسوة والضراوة واللوثة جميعا قد تفجرت من قلب صلد ، لا يعرف الإيمان ، كتفجر الحمم من بركان ! . . إن الناس عندئذ من الحادث شهود كغياب .. الأعين جمدت ، لا ترى من ذهول . . الآذان ملأها طنين الدوار . . القلوب كفها هلعها عن الوجيب . الحلوق قاب الغثيان ! . . وعندما بدرت أول بادرة للحياة بين هذا الوجوم ، كانت إحدى الكنانيات هي التي حركت صفحة السكون والآسن ، إذ صاحت فيمن حولها ، بصوت خنقته حشرجة بكائها ، تقول في استنكار :

« هذه الرجال يقتلها ، فما بال الولدان ! . . »

والتفت نحوها بسر وفي نظراته نار . .

لكنها لم تأبه ، ومضت تتم ما بدأته ، بغير اكتراث ولا احتفال ، وعينها ثابتة على السفاح لا تريم :

« . . . والله ما كانوا يقتلون في جاهلية ولا إسلام ! والله إن سلطانا

لا يشتد إلا بقتـــل الزرع الضعيف ، والشيخ الكبير ، وقطع الأرحام لسلطان سوء ! . . »

وكأنما لقي حديثها صداه في نفوس غيرها من الكنانيات فهدرن بالتقريع كما هدرن بالنواح ، لأن ابن أبي أرطأة لم يجد له عندئذ مخرجا مما وضعنه فيه إلا أن يجابههن بالتهديد :

« والله لهممت أن أضع فيكن السيف ! . . »

فردت المرأة تتحداه :

« والله إنه لأحب إلي إن فعلت ! . . »

٣

عى عن الجواب على تحدى المرأة الـكنانية ، فلم يعقب . وما كان ليحسن التعقيب فى ذلك الموقف لو أنه أراد . ومضى عن مشهد الصريعين الصغيرين ، وهما على الثرى غريقين فى الدم ، وحنقه الصامت يصرخ فى الناس بلغة ملامحه الخرساء ! . فإذا هو ، من خارجه ، فى نظرة الأعين الرائية : « بسر » . . وإذا هو ، من داخله ، فى نظرة الغد القريب : « مجنون » ! .

فما كانت سيرته الشنعاء فى ضحيتيه هاتين ، وقبلها فى عشرات الألوف من ضحاياه ، إلا بادرة لوثة ، أو خطوة واسعة على طريق الجنون ! ..

وما لبث القدر غير قصير وقت ، ثم كشف الغطاء عن غده المخزون ، فـكشف جنونه المدخر للعيان . .

وإذا كانت لعنة الإمام ، من بعد ، قد أصابته وحقت فيه فلأنها اللعنة التى سبحت على تيار الشواهد الماثلة من سلوك السفاح إلى النتيجة المنطقية التى كان لابد أن تـكون . .

لقد استمر ابن أبى أرطأة ، بعد أن نفض يديه من حملته ، يعيش بين الدماء والأشلاء ، وعلى الـكر والفر فى أحلام وهمه وخيالات رؤاه ، قاتلا حارقا مدمرا ، لا يستطيع العودة ثانية إلى حياة السلام . .

كانت صحيفة ذهنه قد تشبعت بالدم . فلا موضع فيها لفـكرة سواه . .

كان يحارب أشباح ضحاياه . .

إنها دائما تتراءى له . تطبق عليه من كل جانب . تطارده موتورة فى اليقظة وفى المنام . فلا يلوذ منها إلا إلى سيفه ، كما كان يفعل إبان وعيه ، يقاتل به ، ولا يكف عن الصيال به بين الأشباح النازية عليه ، فى وضحة نور ولا فى عتمة ظلام . .

لـكنه كان عندئذ سيفا من خشب ، يضرب ضرباته العشلية فى الهواء . .

فحين ألحت عليه اللوثة ، واستشعر الخطر الذى جسمه له شعوره بجرمه ، كان يهذى ويصيح بمن حوله :

« أعطونى سيفا ! .. أعطونى سيفا أقتل به ! .. »

وحين أعياهم أن يعيدوه لرشده المسلوب ، ويكفوه عن الهذيان ، وضعوا فى يمينه السيف الخشبى ، وقدموا له وسائد لينة تمثل فى ذهنه أعداءه الموهومين ، ليثخن فيها ما شاء . .

أما لعنة الإمام التى أصابت بطل الإرهاب ، فكانت ضراعة توجه بها إلى السماء ، حين بلغته السيرة الدموية التى جرى بها ابن أبى أرطأة فى قوم آمنة ، عزل من السلاح . .

دعا ربه آنذاك :

« اللهم إن بسرا باع دينه بالدنيا ، وانتهك محارمك ، وكانت طاعة مخلوق فاجر آثر عنده مما عندك . . اللهم فلا تمته حتى تسلبه عقله ، ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار ! . . »

وصدقت الدعوة . .

فكأنى ببسر ، لو عقل عندئذ ، لأدرك أنه إنما يدفع جزءاً من ثمن وزره الذى أنساه القدر إياه ! بل كأنى به قد عقل من قبل وهو خارج لغارته فأدرك أنه لا بد مؤد ثمن عدوانه الوحشى بعد أشهر أو بعد سنوات . . فما يمكن أن يقال إنه أغار ، فقتل وأحرق واستباح ، مسرفا فى اقتراف كل ما اقترف من أبشع ألوان العذاب والنكال ، وهو لا يدرى أنه يأتى بفعله ما تأباه أعراف الناس فى الكهوف والمغاور ، وفى الجبال والغابات ، فضلا عن شرائع السماء . . فلعله حين مخرجه لحملته تلك ، قد خرج إليها وهو مخمور الفكر ، مسحور العقل ، بما صبه العاهل الأموى فى أذنيه من استهواء . ولعله لو أفسح له ، يوم بعثه ، فى تدبر أسلوب تنفيذ حملته ، لحارب حربه كمقاتل شريف ، ينضح عن مبدأ يعتنقه ، ويناضل له ، كيفما كان قرب مبدئه هذا أو بعده عن الخطأ أو الصواب ، فى رأى سواه . .

غير أنه انزلق إلى أسفل درك من الخسة والغدر ولات حين صعود ! . .
وإنه ليتم فعلته ، ويعود فى هيئة ظافر ، ويحظى فى مجلس سيده بمكان صدارة وموضع تكريم ثم لا تخلو حياته ، بين يوم ويوم ، فيما تخال ، من لحظة تأمل يفئ فيها إلى ما سلف من « بلائه » الضارى تنفيذا لأمر صاحبه ، فلا يملك ، وهو يقرأ بالفخر صحيفة نصره ، إلا أن تمتلىء خياشيمه برائحة الدم والجيف والدخان ! . . ولا يملك أيضا إلا أن تتقزز نفسه من مشاهد الضراوة التى تناثرت تحت قدميه وفى أعقابه كما يتناثر الغبار فى إعصار ويثور ، فيغشى الأفق ويحجب النور . .

ما أحسب الرجل ، فى بعض لحظات الخلوة الهادئة — التى يثوب فيها المرء عادة إلى إنسانيته ، صافية منقاة من آثار نزواته العارضة ، وأهوائه الرعناء — إلا قد كابد وخزة ألم ، وشرق بغصة ندم ، على ما فرط منه خضوعا لأمر ابن أبى سفيان بتأثير قوة الإيحاء ، وبراعة الاستهواء ، وفتنة الإغراء والإغواء . .
بل ما أحسبه إلا قد لام نفسه فأثقل عليها باللوم حتى ناء بما يحمل ، ثم ود لو استطاع أن ينفض بعض عبئه عن كاهله المثقل ، ويلقى به — تخففا أو تنصلا — على كاهل الرجل الذى حمله إياه . .

وكان . .

فقد اجتمع عبيد الله بن العباس ، وبسر بن أبى أرطأة ذات يوم ، بمجلس معاوية بعد أن خلا وجه الخلافة للعاهل الأموى ، وانفرد فى الدولة بالسلطان وحركت هيئة بسر مواجع عبيد الله وذكرته رزأه الفادح فى صغيريه ، فالتفت الخليفة يلومه وهو يومىء بنظرة مقت وسخط وازدراء إلى السفاح . .

قال :

« أنت أمرت هذا الأمين السيىء القدم بأن يقتل ابنى ! . . »

فبغت معاوية . ولكنه أسرع ، بنبرات معتذرة ، ينكر التهمة ، ويغسل يديه من جريرتها الشنعاء :

« ما أمرته ! ولوددت أنه لم يقتلهما . . »

وعلى الأثر هاج بسر .

يا لهذا الداهية الزئبق الرواغ ! . .

من إذن قد أمر وهو الذى دبر للحملة ، ورسم الأسلوب ، وحث بسرا أن ينهب المال والمتاع ، ويحرق الدور والزروع ، ويحصد النفوس والأرواح ؟ . . من الذى دفعه إلى مطاردة شيعة على أينما وجدهم بالهلاك الذريع ، واجتثاثهم من الأصول والجذوع والفروع ؟ . .

وما ابنا عبيد الله فى ضحاياه ؟

أوليسوا شيعة ؟ . . فهم إذن أولى بالقتل قبل من عداهم من شيعة الإمام لأنهم بعض أهله . والإمام قبلهم أولى بالقتل لو أمكنته منه الظروف . أم ترى ، لو فعل ، كان معاوية بعدها يلحاه ؟ . .

ومع ذلك فقد ملأت الفرحة قلب العاهل يوم عاد بسر من حملة الدمار ، كما لم تملأ فرحة قلب إنسان .. خف يستقبل قائده الذى مشت أنباء نصره بين يديه. وخف القائد إليه بهدية الدم التى اعتصرها له من حياة ثلاثين ألفا من الناس ! . قال له بسر مبشرا يومذاك :

« أحمد الله يا أمير المؤمنين أنى سرت بهذا الجيش ، أقتل عدوك ذاهبا جائيا ، لم ينكب رجل منهم نكبة . »

فابتسم معاوية من راحة ومن خيلاء ، وهو يقول معلنا عن رضاه عليه لإنفاذه أمره فى إحكام :

« الله قد فعل ذلك لا أنت ! . . »

لكنه الآن، وفى حضرة عبيد الله، ليس يكفيه أن يجحد الجاهد جهده، وطاعة المأمور ، بل يروقه كذلك أن ينكر أنه هو الذى أمر بما كان . .

وهال بسرا من أميره هذا الكنود . وحز فيه أن يبوء وحده — بلسان المدبر الفعلى للذبحة الوحشية ، والآمر بها خدمة لآرابه — بكل الإثم ، وخفت

الجريرة ، وسوء السيرة وما كان ، فى الحقيقة ، سوى أداة صماء فى يد العاهل حركها فانطلقت حين شاء لتلتهم من شاء . .

وكأنما عاده بعض ندمه الذى كان يستشعر فى لحظات تامله الهادىء وفيئه إلى انسانيته المصفاة من نزوات الهوى وفتنة الإغراء ، فصاح حانقا بالعاهل السكنود :

« اقبض سيفك ! قلدتنيه ، وأمرتنى أن أخبط به الناس ، ففعلت . . حتى إذا بلغت به ما أردت ، قلت : لم أهو ، ولم آمر ! ... »

ورمى إليه بالسيف الذى شهد كل مشاهد السفح والعدوان . .

ولعله ، بعد ثورته هذه ، لم يهز سيفا بيمينه يخبط ويضرب ويحارب ، إلا ذلك السيف الخشبى الذى كان يخبط به الوسائد ، ويضرب فى الهواء والفراغ وهو يحارب أشباح ضحاياه ! . .

٤

بدأ الإرهاب البسرى الدموى بشرارة صغيرة تطايرت من صنعاء . .

كانت كلمحة من طرف عين . . كلمة برق خاطفة . . كومضة جمرة خابية دفنها الرماد . .

لكنها ما لبثت أن غدت نظرة ثابتة الحلاق . . طليعة عاصفة هوجاء . . حريقا مسعورا مسعر الأوار . .

فلو أن عبيد الله بن العباس قد اصطنع الحكمة ، أو مارس الحزم ، لجنب الناس والبلاد كل ما أثارته تلك الشرارة المتهافتة من كوارث ، وما سببته من ويلات.

. . . . عتب الإمام ، بعد غارة ابن أبى أرطأة ، على سعيد بن نمران ، عامله على « الجند » أنه وعبيد الله لم يقاتلا بسرا حين سار مسيرته المشئومة إلى صنعاء فاجتاحها وغيرها من البلاد والمخاليف ، وفعل بها و بأهلها الأفاعيل ، دون أن يهز أيهما سيفا فى وجه الطاغية . . فدفع سعيد التهمة عن نفسه ، وقال :

« قد والله قاتلت . . ولكن ابن عباس خذلنى ، وأبى أن يقاتل .. و .. »

واندلعت النار . .

فلقد كانت بصنعاء طائفة من شيعة عثمان ، تعيش بها فى استخفاء ، وهى تعظم قتله ، وتكتم أمرها عن الناس ، وتتبدى أمام الأعين على ولاء للإمام ، حتى تحين لها فرصة تجمع خلالها كلمتها ، وتلم شعثها ، وتعلن الانتقاض . .

وجاءها الزمن بما تروم . فالأنباء تترى تباعا عبر الجزيرة ، من الشمال إلى الجنوب ، عن اضطراب الأمور فى دولة الإمام . . الخلاف يستشرى من أصحابه بعد صفين . . والحرب تقع فى النهروان . . ومصر تضيع من ابن أبى بكر . . وغارات أهل الشام تطأ الأطراف . . والانقسام يقع فى صفوفه حتى ليتفرق رجاله عن طاعته إلا بشقشقة الألسن التى لا تغنى شيئا فى دفاع ولا هجوم . . حتى إذا

شامت عثمانية صنعاء أن اللحظة التي طال انتظارها قد حانت ، سارعت إلى خلع بيعة علي والتنادي بثأر عثمان . .

وبلغ فعلهم عبيد الله بن عباس ، وهو عندئذ عامل الإمام على اليمن ، فآثر اللين والأناة على الشدة والحزم وهو يحسب أنه قادر بهذه السياسة أن يعيدهم إلى الصواب .

بعث إلى فريق من وجوههم ، فجاءوه .

وسألهم سر التذمر :

« ما هذا الذي بلغني عنكم ؟ . . »

فلم يخشوا أن يصارحوه :

« إنا لم نزل ننكر قتل عثمان ، ونرى مجاهدة من سعى إليه . . »

فلولا أنهم يشعرون بقوتهم لأخفوا عنه ، ودفعوا التهمة المريبة التي تأخذهم بنقض البيعة ، والخروج على شرعة الولاء . .

وكأني به وبهم قد حاورهم وحاوروه . ولعلهم أسرفوا عندئذ في المكابرة والعناد . وعسى أن يكونوا قد أبوا الفيء إلى الطاعة ، والإقلاع عن دعوتهم التي تؤدي إلى انقسام الأمة ، ووقوع الفتنة ، لأننا لا نلبث أن نجده قد أمر بهم فحبسوا درءا لشغبهم ، ومنعا للخلاف أن يذيع إذا غابوا عن العيون ، وخلا منهم الميدان .

لكنه لم يصب التوفيق . فما كانوا وحدهم جند الفتنة ولا كان خروج من عرفه منهم بصنعاء على واجب الطاعة إلا كمثل إعادة خفية ، أو « كلمة سر » تدعو سواهم من العثمانية المتوارين بها وبغيرها إلى مباغتة أولي الأمر في الإقليم بالوثوب عليهم وهم غافلون عما يدبرون . . فإن هي إلا أيام حتى تحرك الرسل والرسائل بينهم وبين رفاقهم لإنشاب الثورة وأمسكت الشرارة الواهنة بالهشيم!

وكذلك وقع ما ظن عبيد الله أن لن يقع . .

التأم جمع فريقهم بصنعاء ، واشتد خطره ، حتى خافهم العامل ، فأعفى عنهم ،

وقبع ورجاله الثابتين على العهد ، بلا حول ، يرقبون مايكون . .

وفاجأ حزبهم بالجند عاملها سعيد بن نمران فاستولوا على السلطة ، وأظهروا امرهم ، وأبعدوا سعيدا عن البلدة . .

ثم انضم عثمانية صنعاء إلى عثمانية الجند ، قوة موحدة ، شديدة الأيد ، تستطيع أن تؤثر فى تحويل الأحداث . .

ثم التحق بهم قوم آخر لم يكونوا على رأيهم ، ولكنهم أرادوا أن يمنعوا الصدقة ولا سبيل لهم إلى ذلك إلا بالشغب ، والخروج على النظام العام .

ثم كتبت عصابتهم تستعدى معاوية على الحكم الشرعى القائم ، فأوفد حملة الإرهاب .

أما عبيد الله بن العباس فقد ظل ، طوال هذا ، على تردد ، لايكاد يقطع فى أمرهم برأى إلا أن يجمع لهم أنصاره ثم لايناجزهم . . أو يشاور بعض صحبه . أو يكتب إلى الإمام بالكوفة ينبئه الخبر ، وينتظر منه أن يشير عليه بما يفعل معهم، كأنما قد أيقن أن الجمع والمشاورة والكتابة مغنية عنه ، أو أن الزمن قد تجمد وكف عن دورانه فلا خوف من تغير الظروف ! .

كان من أحاديثه مع رفيقه حاكم الجند ، سعيد بن نمران :

« . . لقد اجتمع هؤلاء ، وإنهم لنا لمقاربون . فإن قاتلناهم لا نعلم على من تكون الدائرة . . »

فرد سعيد :

« إن ابن عمك لا يرضى منى ومنك بدون الجد فى قتالهم . . »

لكن ابن عباس أجاب :

« لا والله ! . . ما لنا بهم طاقة ولا يدان . . فهلم لنكتب إلى أمير المؤمنين ، نخبره بخبرهم وفدحهم ، وبمنزلهم الذى هم به . . »

وكتبا إليه :

« . . إن شيعة عثمان وثبوا بنا . وأظهروا أن معاوية قد شيد أمره ، واتسق له أكثر الناس . وإنا سرنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين . وذلك أحمشهم . . فعبأوا لنا ، وتداعوا علينا من كل أوب ، ونصرهم علينا من لم يكن له رأى فيهم ،

إرادة أن يمنع حق الله المفروض عليه . وليس يمنعنا من مناجزتهم إلا انتظار رأى أمير المؤمنين . . »

وعجب منهما لهذا التردد الذى ترك الشرارة تتطاير لتسعر الحريق . . ثم دعا إليه يزيد بن قيس الأرحبى أحد أشياخ اليمن فى صفوفه :

« ألا ترى إلى صنع قومك ! . . »

قال يزيد ، وما زالت بنفسه بقية من أمل أن يفىء بنو إقليمه إلى الرشاد :

« إن ظنى يا أمير المؤمنين بقومى لحسن فى طاعتك . فإن شئت خرجت إليهم فكفيتكهم . وإن شئت كتبت إليهم فتنظر ما يجيبونك . . »

غير أن حسن الظن لم يصادف أهله . .

كتب الإمام لعامليه :

« . . قد علمت أن نخب أفئدتكما ، وصغر أنفسكما ، وشتات رأيكما ، وسوء تدبيركما ، هو الذى أفسد عليكما من لم يكن عليكما فاسدا ، وجرأ من كان عن لقائكما جبانا . . »

وبعث إلى أولئك الخارجين بكتاب مع رجل من همدان :

« . . بلغنى تجرؤكم ، وشقاقكم ، وإعراضكم عن دينكم ، بعد الطاعة وإعطاء البيعة . . فإذا أتاكم رسولى فتفرقوا إلى رحالكم . . فإن لم تفعلو فاستعدوا لقدوم جيش جم . . يقصد لمن طغى وتجبر . . فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد . »

لقد أعذر من أنذر !

وقرئ عليهم كتابه ، فى ملأ وجهرة . .

لكنهم تلبثوا بالرسول لا يجيبونه بشىء ، كأنما يديرون أمرهم بينهم ليروا الرأى . . وما كانوا كذلك . فإن هى إلا مراوغة ، وتربص بالوقت ما وسعهم عسى أن تجيئهم الأيام القلائل القادمة بما ينتظرون . .

ففى تلك الأثناء كان كتابهم ، الذى أرسلوه خفية إلى معاوية ، على الطريق . .

وعندما تعجلهم الهمدانى ردهم على رسالة الإمام ، وألح فى التعجل ، اصطنعوا حيلة جديدة لمط المدة ، والاستثناء بكلمة الإمام الفاصلة فيهم أن تأتيهم قبل أن تتضح لهم الأمور . .

أصغوا له :

« إنى تركت أمير المؤمنين يريد أن يوجه إليكم يزيد بن قيس الأرحبى فى جيش كثيف فلم يمنعه إلا انتظار جوابكم . . »

فأظهروا الانصياع :

« نحن سامعون مطيعون إن عزل عنا هذين الرجلين . . »

ثم شيعوه ومعه طاعتهم المشروطة . .

وما يضيرهم منها ، قبلها الإمام أو أباها ، وإن رسوله لن يبلغ مشارف الكوفة إلا ونجدة معاوية المأمولة تطوى إليهم الأرض طيا فى سجل العذاب والإرهاب ، منحدرة كالسيل الهادر من الشام ! . .

ولقد صح حدسهم .

بسر يقبل . . يعصف بالحجاز . . يطغى على البيداء . . يبلغ من اليمن قلبها والأطراف . . يسلب الأموال والرواحل . . يدمر الدور والرحال . . يحرق الزروع والأحياء . . يذبح الشيوخ والأطفال . . يقتل الأبرياء والعزل . . يعشى بالملاك على البلاد والناس . . ثم يأخذ البيعة لعاهله بسن حسامه . .

والكوفة أيضا تتثاقل . . كدأبها ظلت هامدة . . تعيش فى نوم . . تنام فى تعاوت . . الأعين حسيرة . . الأسماع صماء . . البصائر مطموسة . . القلوب غلف . . الأيدى شلاء . وفى جنباتها تتردد صيحة الإمام ، تحريضا وتذيرا : أنبئت بسرا قد . . . » فلا تخلف إلا أصداء يبتلعها الهواء . .

وبكل الحسرة فى القلب . بكل المرارة فى الفم . بكل الأسى فى العين ، عقد الإمام لجارية بن قدامة السعدى على كتيبة من ألفى رجل ، اجتمعوا له بعد أيام طويلة من الدعوة والاستنهاض ، ومن المطل والمراوغة ، ومن التململ والاعتذار . .

وخرج جارية من السكوفة محاولا أن يسبق الزمن ما استطاع عسى أن يلتق بالسفاح . . مضى يتنسم الأخبار ويقفو الآثار ، وهو ينفض البلاد والبيد نفضا ، وينقب فيها تنقيبا عن غريمه الذى كان لا يكاد ينشره جبل إلا لتطويه وهدة ، وتظهره بلدة إلا لتخفيه مفازة . وكانت له على كل مكان بصمات من الويلات . .

ومع ذلك فلم يلتقيا . .

وأين اللقاء وإنه بحملته الرهيبة لمثل حصاة بين صحراء من الرمال ! . .

وكيف أيضا ، وبسر ، ما إن علم بقدم كتيبة السكوفة حتى جعل لأقدام حملته أجنحة تطير بها فى الأودية كما تطير فى الجبال ! . .

الطاغية السفاح آثر الفرار من اللقاء . ذابت على الفور جسارته الزائفة التى نسجها اقتحامه الوحشى للأقاليم والبلدان . . تبخر اعتداده بقوته وطغيانه وما التقى بعد إلا باسم مطارده دون سلاحه . . راح يستخفى بعد طول ظهور فى الجامع والناس . . يعرج يمنة ثم لا يكاد حتى يياسر . يهبط ثم لا يلبث أن يعلو . يتأخر حين يظن أنه يتقدم . يسرع حين يحسب أنه يريح . يلتوى بعد اعتدال ، ويرجع بعد إقبال . .

ومن ورائه دائما كان جارية . لا يكاد يعلم بوجه مضى إليه ابن أبى أرطأة حتى يخف إليه عسى أن يسبق الزمن إليه . . لم يهاود فى سيره . لم يقف لراحة . لم ينفض عن رجاله قط وعثاء شقة قطعوها وإن طال بهم عليها السرى والسير . لا يلتفت إلى مدينة مر بها ، ولا إلى أهل حصن إلا إن أراد الاستنباء . ولا يعرج على مكان إلا أن أرحل بعض أصحابه ونقصهم الزاد ليتزود لهم ، أو تسقط بعض مطاياه ليأمر الراكب من جنده أن يعقب الراحل . .

غير أنه لم يصادف غريمه . . غنم بسر السلامة بالفرار . وترك وراءه باليمن وصنعاء شيعة عثمانية مضيعة ، غرها بقوته ، وغرتها الأمانى ، ثم انتبهت فجأة من حلمها لتجد نفسها بلا ردء يحميها كجزيرة معزولة وسط بحر من العداء ، فهرعت بأرواحها إلى الجبال . .

وعادت السكينة . وانطفأت النار . .

أما بسر فكان قد بلغ الشام ناجيا بأفراد حملته وما يكاد ! . . فقد تواثب عليهم فى طريق العودة أناس كان مجرد ذكر اسمه أمامهم حين مجيئه يشلهم عن الوقوف لمقاومته ، بل التفكير فى الوقوف . . فلقد هان الآن أيما هوان. وملكه من خوف لحاق جارية به ذعر مجنون كان يرده عن الدفاع أو استرداد ما يسلبونه إياه من ثقل ومتاع . وهل فى وقته فسحة إلا للهروب ؟ . .

ومع ذلك فقد استطار الطاغية المذعور فخرا بما فعل حين ضمته حدود الشام ، فسمعناه يقول لماهله الأموى ، يوم استقبله ، فى خيلاء صلف مغرور :

« . . إنى سرت فى هذا الجيش ، أقتل عدوك ذاهبا جائيا ، لم ينكب منهم رحل نكبة . . »

لقد فخر بنصره ، إن سمى نصرا ما يصيبه أى قاطع طريق ! . . وما له لا يفخر وقد أنفذ بعثه ، وأنجز مهمته ، وأرضى أميره ، وكتب لنفسه فى سجل الدولة المقبلة سطورا حمراء من البلاء فى سبيل تشييدها على دعائم من الجماجم ، بعداد من دم ! .

« تم الجزء الثامن »

رقم الإيداع ٤٢١٤ / ١٩٧١

الإمام

عَلي بن أبي طالِب

الجزء التاسع

تأليف

عبد الفتّاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

الفصل الأول

١

مرة أخرى رأى نفسه بذات الموقف ، كيوم ابن أبى أرطأة حين عاث بالبلاد إلى صنعاء . كيوم النعمان بن بشير فى عين التمر . كيوم ابن مسعدة الفزارى فى تيماء . كيوم الضحاك بن قيس على واقصة وطريق الحاج . كهذه وغيرها من أيام الغارات الأموية التى استباح فيها رجال معاوية الأرواح والأموال والحرمات .

لكنها الآن غارة مجاورة . . ليست موغلة فى البادية إلى الأعماق . ولا مفرقة فى الأطراف . ولا مساحلة مع البحر إلى الغرب أو إلى الجنوب . . إنما هى منهم على كثب . كأنما على مرمى سهم. كأنما على قيد نظرة . كأنما على مد مسمع لو كانت لقومه أعين ترى وآذان تسمع ! . .

بعد قليل من عودة جارية من مطاردة بسر ، وعلى مسيرة قصيرة من الكوفة التى غدوا بها مثل قوقعة مغلقة حبستهم صدفتها عما يدور خارجها من أحداث ، ومن جد العمل ، ومن حركة الحياة ، ضرب معاوية ضربته الجديدة ، بيد الغامدى ، فى الأنبار . .

ليست حربا إذن ما يريده الداهية بهذه الغارات التى يسيرها إليهم بين فينة وفينة . . ليست حربا معلنة كما كان قديما العهد بالحروب يتصاف فيها الفريقان المتناجزان ثم يبدأ اللقاء . ليست أيضاً تسلل سرايا الاستطلاع . ليست أيضاً تربص كمائن المباغتة . ليست أيضا مناوشة كتائب لتشغل الجيوش ، وتفسد عليها خططها ، أو تعوق قدرتها على التقدم أو الالتفاف . . إنما كانت ضربات انتقامية أعادت إلى الحياة ثانية أساليب قطع الطريق على المسافرين ، وانقضاض القبائل على بعض فى ساعة غرة ، إدلالا بالقوة ، أو رغبة فى السلب ، أو تفردا بالماء ، أو استجابة لدواعى الثأر والانتقام . .

ولقد نجح الداهية الأموى حقا فى هذا المجال . وجال فيه مستمرئا مرعاه ! فهو يعمل وإنه لموشك أن يكون حر التنقل ، مطلق اليد ، مفلوت العنان ،

يعيث ويعبث على هواه . وهو يعمل وإنه لموقن أنه لن يلق فى سبيله من المقاومة ما يحمله على الإقلاع إذ يأس رجاله النأى بأنفسهم عن مواطن النزال والصراع . . لا حريجة . لا قلق . لا خطر عليه . فما أثيب غارة بغارة — إلا فى النادر الأقل الذى يغفل — فيردعه عن الاستمرار أن يذوق طعم ما سقى سواه ! . . وماخسر فى حملاته تلك شيئا ذا بال لأنها كانت توجه دائما إلى الأمنة العزل من السلاح . .

ذلك أسلوب فى القتال أخذ به معاوية فى غير تحرز ، وبلا خشية أن يكال له منه صاع بصاع . وكيف لا وهو الأسلوب الذى لايقبل الإمام أن يباريه فى ميدانه تعففا أن يصيب الأبرياء ، والتزاما بقواعد الفروسية الكريمة وتقاليد الحرب المشروعة التى تحرم الغدر ، وانتهاك الحرمات ، والفتك بالشيوخ والصغار ، والتصدى لغير الجنود ، وفى غير ساحات الوغى ، إلا بعد إعلان ، والنزو الباطش على السكان الآمنين . .

ولا ينبغى هنا أن ينحى باللوم على الإمام لأنه يرعى مبادىء الأخلاق ، وأصول السلوك القتالى النظيف مع من لا يؤمن برعاية خلق أو حفظ فضيلة . . فالسرقة ، مثلا ، إن استباحها السارق من المسروق لا يمكن أن يقترفها مسروق شريف ولو تعويضا لحقه المسلوب ، والخطأ لا شفاعة لتصحيحه بخطأ آخر مهما كانت الدواعى والمعاذير . وإذا كان على قد حاول جهده — وعلى الرغم من تثاقل رجاله عن المبادرة إلى الردع — أن يضرب تلك الغارات الأموية الغدارة الفرارة ، فضربها كان لقاء جند بجند ، وسلاح بسلاح . ولم يكن قط من سياسته أن يحذو نفس حذو غريمه فيغير . .

إنما كانت سياسته الثابتة أن يشنها حربا صريحة على معاوية ، شاملة عامة كصفين ، يلتقى فيها وإياه فى احتكام إلى قتال مشروع . فما يفض النزاع بينهما — فى رأيه — غارة أو عدة غارات قصارى شأوها ضربات قد تجرح ولكنها لا تميت . وما يغير من الموقف بينهما أن يسلب مال ، أو يحرق زرع ، أو تهدم دور ، أو يقتل نفر من « المدنيين » من هنا أو من هناك . . فما أتباع معاوية ، فى حقيقة الأمر ، سوى ذيل بغير حول ، أفيقطع الذيل ويدع رأس الثعبان ؟ . .

« إحياء صفين » هو العمل الذى كان دائما محور تفكيره ، وجوهر دعوته وتبشيره بين رجاله ولا عمل يحسم الأمور سواه . .

ومع ذلك فالغارة الجديدة عرض خطر لا بد له من علاج سريع .. وها هو الآن ، وقد جاءته عنها الأنباء ، يخف إلى الناس ليهبوا لنجدة المنكوبين . .

وقف على المنبر يخاطب الجموع :

« . . إن أخاكم البكرى قد أصيب بالأنبار . وهو معتز لايخاف ما كان ، واختار ماعندالله على الدنيا ، فانتدبوا إليهم حتى تلاقوهم . فإن أصبتم منهم طرفا أنكلتموهم عن العراق أبدا ما بقوا . . »

وتلبث ينظر ما لعله قد عرا القوم من هذا الخبر الذى أتى به إليه علج من أبناء البلدة التى اجتاحتها الغارة ولم يأته به رسول من قبل صاحب المسلحة أو عامل الإقليم ، وما كاد يمضى على سالفتها باليمن غير قليل . . أفقد أحيط هناك برجاله ؟ . . أم عصف بهم ؟ . . أم بلغ من كثرة المغيرين أن أخذوا على الناس بها طريقهم إلى الكوفة فلم يعد فى مقدور أحد من ذوى السلطة من عماله وأعوانهم النفاذ من بين « سور » الاعتداء الكثيف ؟ . .

عوامل كلها خليقة بأن تثير القلق ، وتحرك الاهتمام ، وتدفع السامع إلى الانفعال الفورى بالخبر المفاجىء ومجابهة دلالته الخطرة بعمل سريع ، لأنه عندئذ خبر يحمل فى طواياه النذير بتهديد الكوفة نفسها التى لا تقع عن موطن الغارة إلا على مبعدة بضع مراحل قد تغرى العادين بالتقدم إليها إن أمنوا خلو الطريق . ومن يدرى أن قوات الغامدى ليست مقدمة لغزو عام ؟ .

وتلفت يطالع الوجوه . .

فلو أنه نظر عندئذ إلى صحيفة بيضاء لم يعش عليها قلم بسطور أو بكلمات ، فلربما كانت أكثر تعبيرا من السحن الماثلة أمامه صفوفا وراء صفوف ! .. ما من رجل وخزه النبأ اللاسع فانتفض انتفاضة ملسوع . ما من أحد انطلق لسانه ، يوحى شعوره قبل وحى تفكيره ، بكلمة أو سؤال . لا لفظة إنكار . لاعبارة تعليق . لا همسة توجس . لا حركة اضطراب أو اكتراث .

وعاود التفرس عجبا فى الملامح الآسفة الراكدة . . لاحت كأنما قد اكتست من الجمود أقنعة سوداء كـكسف من ظلام كثيف فى أمسية شتاء أطبقت فيها قبضتا الليل والغيم على الأفق فاختفت النجوم ! . . أفهم أصنام ؟ . . أم هم موتى ولا يسمع الدعاء من فى القبور ؟ . .

وفى هم واصب وصمت حزين ، غادر المكان فى هدوء . .

مضى على وجهه يهيم ، بعيدا عنهم ، إلى خارج بلدتهم الناكثة الغادرة ، العاصية الجاحدة ، يحمل قدميه على السير إلى النخيلة وما يدرى امرؤ إلى ما يسير ، وفيم السير إلى ذلك المعسكر المهجور ؟ . . أيلوذ منه بمثل صومعة يخلو بها مليا إلى همومه ؟ . . أم يريدها قطيعة وعزلة عن أولئك الخاملين الهامدين ؟ . . أم لعله أن يجد فيها بقية من أعوان يؤازرونه على الكفاح ولو كانوا حفنة لا تغنى عنهم أنفسهم شيئا حين قتال ؟ . .

اثنان أو ثلاثة من أشراف البلدة الذين خلفهم بالمسجد انتبهوا من غشية جمودهم على خروجه ، فأسرعوا خطاهم إليه ، يحاولون رده عن الطريق . لا معدل لهم عن رجوعه . غيابه سيملأ حياتهم بالفراغ . لا بديل للكوفة وأهلها دونه وإن هم خالوا أنه يحس ، بملء شعوره ، أن هجره إياها ، ونفض يديه من أمرها ، وقطيعته رجالها ، هى له الخلاص مما يعانى ، وخير بديل . وأسلم سبيل . .

وهتفوا به يترضونه ، ومن ورائهم تقاطرت عليه الزمر والحشود . .

قالوا له :

« ارجع يا أمير المؤمنين . . »

لكنه لم يبال دعوتهم . وهل هى إلا ، كغيرها من أحاديثهم له ، جوفاء ؟ .

وعادوا يناشدونه ، ويعدونه :

« ارجع ، ونحن نكفيك . . »

فابتسم ساخرا وقال :

« ما تكفوننى . ولا تكفون أنفسكم ! . . »

٢

ظلوا به حتى أعادوه إلى منزله بالكوفة ، على كره وضيق . يبيت مهموما ، ويصحو مهموما ، وقد أيس منهم اليأس الذى يفرغ الصدر من الثقة ، ويدفع المرء إلى تلمس الراحة فى الخروج من حياته إلى الانتظار إن لم يكن إلى الشرود . .

وظل بهم يشهد ما يكون منهم ، بعد الذى أبدوه من ندم طالما يدر منهم مثله ، وهو يرقب ما لعلهم فاعلوه فى المحنة القائمة ، ويسائل نفسه : أيستنيمون ، أم يهبون ! . . أيدركون أم يحمقون حتى ينتهى أوان الخروج إلى الغارة الأموية بالمقاومة والردع ، أو ملاحقتها بالمطاردة والتأديب ؟ . .

أيام قلائل انقضت منذ غضبته تلك وهو يرقب الأمور بعين ساهمة ، ويستقبل الأخبار بقلب ممرور . .

مظاهر الاهتمام ، فيما يخال ، تتجمع على الملامح ، رويدا رويدا ، كقطرات العرق التى يفرزها الجهد ، لحظة فلحظة ، لتغمر وتنثال قدر ما تعمل السواعد وتنشط الأوصال . . ضوضاء الحركة تملأ المدينة وهى تنبثق من وقع الخطا ، وخبط الحوافر ، وجرجرة الإبل ، وصهيل الأفراس . . جرس النبرات يتعالى على ضجة التنقل ، متناديا بالدعوة والتحريض ، ومختلطا بالقعقعة والصليل . . أفهذه يقظة جادة ، أم هى يا ترى فرقعة جوفاء ؟ . .

وكانت المحنة أيضا تندلع من كل خبر كألسنة النار ! . . الويل يزيد . الخطر يدنو . القلق يكبر . الخوف يسرح من تخوم المواقع التى اجتاحها إعصار الغارة ليغمر ما حولها من البلدان ويطرد الناس أمامه إلى أى ملاذ آمن ، أو مهجر بعيد ، يقيهم الموت والعذاب والتشريد . وهل ثمة اليوم ملاذ أو مهجر هو آمن لهم ، وأبقى عليهم ، من أرض الشام موطن أولئك الذين يأغرون طائعين ، ويخرجون مسرعين ، ويغيرون قادرين ، ويرجعون موفورين ؟ . .

.. .. يقول معاوية لصاحب غارته سفيان بن عوف بن المغفل الغامدى ، بعد أن رسم له طريق الحملة ، ولقنه أساليبها ، ونصحه بما يحقق له الانتصار المأمون :

« . . . . ثم أقبل إلي ، واتق أن تقرب الكوفة . . واعلم أنك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة .. إن هذه الغارات ، يا سفيان ، على أهل العراق أرعت قلوبهم ، وتفرح كل من له فينا هوي منهم ، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر . . . . »

فيصدق الواقع رأيه . إذ نزعت هذه الغارة ، كمثيلاتها ، من أهل العراق كثيرين كانوا على طاعة علي ففروا بأرواحهم إلى ذلك الملاذ الأمين .

. . . ويقول أيضاً ، كشفا عن سياسته الكرارة الفرارة ، وسيرته بها في أعدائه ، وجدواها المؤكدة على مطامعه :

« . . .. واقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك . وأخرب ما مررت به من القرى . واحرب الأموال ، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل ، وهو أوجع للقلب .. . . »

فيصدق الواقع رأيه ثانية ، لأن هجرة العراقيين أمام الغارات جمعت في وعائها أولئك الهاربين بجلودهم خوفا على النفس ، إلى أولئك الهاربين بمتاعهم حرصا على المال .

. . . ويقول أيضاً لأهل الشام ، حين قر عزمه على إنفاذ بعث سفيان ابن عوف بن المغفل للإغارة على الأنبار والمدائن وما يداني الكوفة إلى مدى غير بعيد :

« أيها الناس ، انتدبوا مع سفيان » .

فيصدق الواقع رأيه في أصحابه ، قبل صدقه في حالتيه هاتين ، فيخلصون له الطاعة ، وينزلون على أمره ، ويخفون سراعا إلى إلهاب النار ، وإشاعة الدمار .

يقول ابن المغفل ، وهو يتحدث عن أثر دعوة معاوية عندئذ في الناس :

« . . . . فو الله الذى لا إله غيره ما مرت ثالثة حتى خرجت في ستة آلاف » .

ثم يقول عما حدث بعد عودته ، نتيجة للحملة المغيرة :

« . . . . فما لبثنا إلا يسيرا ، حتى رأيت رجال أهل العراق يأتوننا على الإبل هرابا من معسكر على . . »

هذا أمر أولئك ، وذاك أمر هؤلاء . . استجابة وطاعة ، لقاء مطل وعصيان . مبادرة وتأهب ، أمام تردد وتثاقل . تسرع وكر ، مقابل تهاون وإحجام .

على أنهم أخيرا ، غادروا الكوفة ثمانية آلاف بقيادة سعيد بن قيس ، يأخذون على شاطىء الفرات فى طلب سفيان . .

كانت غارة ابن المغفل الغامدى قد فمات ، آنذاك فماها ، وبلغت من الأرض التى داستها الغاية التى شاء لها عاهل الشام وشاء أسلوبه الفذ فى القتال أن تبلغها من العزل الأبرياء . . مضى بها قائدها منحدرا من الولاية الأموية بغير تمهل ، جادا خفيفا إلى التدمير ، حتى طالعه ماء الفرات داخل الحدود العراقية فلزمه إلى بلدة هيت . . لكن خبره فيما بدا ، كان قد سبق خطاه إلى أهلها الآمنة الذين لا يملكون ردءا من دونه ، فخشوا أن يغشاهم الإرهابى بقواته المغيرة ، ولم يروا عاصما لهم منه إلا عبور النهر إلى الضفة المقابلة ، فرارا بالعمر ، عسى أن تحاجز شريعة الماء بينهم وبين الموت الزاحف . .

ودخل ابن المغفل ورجاله البلدة بعد قليل ، فإذا هى فارغة كفلاة ، هامدة كمقبرة ، خرساء الحركة والصوت كأنها لم تحافل قط ولم تتردد بجنباتها أنفاس . . كانت الدور خاوية والطرق مهجورة ، والسكون المطبق على أطرافها وقلبها لا يشى بظل إنسان ! . .

وخلى العدم الذى فرشه الفراغ على هيت بينها وبين المغير فمشى عليه بجيشه العاصف مشية إعصار ، يهدم هنا ، ويدمر هناك ، ثم يدهس ويجتاح ما استطاع ليضيف إلى صورة الخواء فى إطارها ألوانا من الخراب !

ثم اخترقها إلى صندوداء لعله أن يشفى فيها غلة نفسه المنهومة بالدم ! . . لكنه — لغيظه — لا يلتقى بهذه الفريسة الجديدة إلا بآثار فرار . . فقد هجرها أهلها كسنة رفاقهم أهل أختها هيت ، ففاتوه . وتركوها له دمية من خزف بين يدى طفل نزق يتلهى بتحطيمها كيف شاء ! . .

حينذاك كان النذير بسير الحملة واقتلاعها معالم العمران أينما انطلقت بها الأقدام قد بلغ مسامع ابن حسان البكرى صاحب مسلحة الأنبار . . الغارة تنساب إليه كثعبان . الدمار يخف بجناح . الموت يوشك أن يقتحم عليه الباب . . لكنه لا يرى الفرار .

بجنان ثابت وقلب ركين ، تدبر الأمر تدبر المؤمن بانتهاج ما يجب لا بطأطأة رأسه للظروف . . إن عمله ليس الهروب . وإن دوره لهو حماية الأرض التى يقف عليها مابقى سيفه فى يمينه ، وما حملته قدماه . . وإن خلقه ، وشممه ، ويقينه لتأبى جميعا عليه أن يذل لصولة الإرهاب فيفر كغيره من الذين فترت عزائمهم من اعتلاء قمة الكفاح وآثروا الانزلاق للسفوح ! . .

كان فى قلة من أصحابه قليلة يعلم أنها لا تغنى شيئا أمام كتائب المغيرين . . ولكنه يعلم أيضاً أنها تستطيع أن تصبر ما استمسك بالصبر . تثبت للعادين طرفا من ليل أو آونة من نهار . ترد عليهم ضرباتهم بضربة أو بضربات . وإذا لم يكن لها سبيل إلى النصر ، فإنها لاشك قادرة على أن تصيب من القوم ، فتقتل من تقتل ، وتجرح من تجرح ، وتموت وهى قائمة على ثراها ، ودونه ، ليعلم العدوان أنه لا يفلت أبدا بغير قصاص ، عظم أو هان ، ثم لا يقال بعد هذا إن البكرى ورجاله خانوا واجبهم ، وخذلوا أميرهم ، وثبطوا عن أداء دورهم الوطنى ، وسلكوا أمام عدوهم المدل بالصولة والبأس مسلك جبناء ! . .

ولقد أثار ما ذاع من التزام ابن حسان الوقوف فى وجه الغارة المقبلة ريبة المغير ، وأفسح أمامه رقعة الحدس والتخمين . فما ألف الغامدى ، حتى لحظته هذه ، من أمثال الرجل فيما طرق من مواقع وبلدان ، قبل الأنبار ، غير الفرار . . ما خف إليه صاحب مسلحة أخرى بالمقاومة . ما اجتمع نفر فى طريقه يسده عليه . ما جال بخاطر امرىء أن يعترضه بكلمة إباء فضلا عن إشهار سلاح . . فأما وهذا هو عزم البكرى . فإنه إذن فى جيش كفء يحميه . أو قد أعد فأحسن الإعداد للقاء أو قد بث كائن المباغتة والانقضاض . أو هو واثق أن أمدادا من أهل الكوفة على الطريق !

وتوجس الغامدى . . ومضى ينساب بقواته صوب البلدة على حذر وتمهل . ليكاد يشم فى الجو رائحة تربص ! . . كأنما فى كل ركن كمين ! . . كأنما الظلال ستر لجند كثيف ! . . بل إنه ليخرج من الحذر ليدخل فى الخوف ، ومن التمهل إلى تجميد السير . ومن كليهما معا إلى رهبة تملك عليه أمره حتى ليلح ذهنه وأمنه عليه بالرجوع ! . .

فيما يحس ، لا ضير عليه لو أنه آثر الإياب وها هو الخطر يرنو بعين إليه ، ويشير بأصبع ، ويتحرك بثبات . . أليس إذن قولا أجوف ماترامت به إليه الأنباء . ليس خدعة استفاضة القوم للدفاع . ليس وهما ما جرى بظنه وتقديره عن الإعداد أو السكان أو الإمداد . . وإذا كان ثمة الآن ما يؤيد حدسه فهو هذه المبادرة التى دفعت البكرى للخروج بقواته إلى مشارف البلدة سميا عاجلا للقاء . .

وسمر الغامدى فى موقعه أقدام رجاله ! . . كف عن التقدم . ووقف ينفض بالنظر الحذر ما حوله من معالم . ثم أرسل نفرا من أعوانه طليعة تتلصص وترقب وتستنبئ حسبما يسعهم أن يقفوا له على ما قد يغير من حدسه ، أو يؤكد تقديره ، فيستيقن حقيقة الأمور . .

ولم يطل به الانتظار . . أقبل نفره عليه بعد قليل بغلمان من أهل الأنبار ، لعلهم كانوا بأطرافها يلعبون لاهين عن الخطر وعن غارة المغير . فما أن رآهم ، حتى راح يحاول معهم حيلة ، عسى أن يخلص منهم إلى بعض ما يفيده عن قوة الدفاع . .

وسألهم :

« . . وكم بالقرية من أصحاب على ! . . »

فاختلفت الإجابات .

فتية قالوا :

« عدد رجال المسلحة خمسمائة . »

وزادت طائفة :

« لكنهم تبددوا ورجعوا إلى الكوفة »

وقدر فريق :

« قد يكون مائتين . »

وبين هذا التفاوت ، وقع الغامدى على ما يطمئنه ، لأنها الحامية التى لا تبلغ من عديد رجاله ما يجعل لها قدرة على المقاومة ، وإن قاومت فليس لها طاقة بالثبات ، وإن ثبتت فلا إلى تفرق ونصر . . ومع ذلك فقد بدا الرجل مشفقا على أصحابه ونفسه من المعركة المنتظرة . مترددا عن هجوم طوفانى كاسح يمحق القوة الصغيرة . متريثا بساعة الفصل ما استطاع .

آثر الغامدى الهوينى فى السير . . فتت اللقاء . كتب جنوده كتائب متعاقبة كالأمواج ، ثم راح يرميها إلى حفنة المدافعين عن بلدتهم كتيبة من بعد كتيبة ، لا تكاد إحداها تصيب شيئا من عدوه إلا ارتدت لتملأ فراغها على الأثر كتيبة جديدة .

لم يدع للحامية الصغيرة فى الراحة . ولا فى التقاط الأنفاس . كان يداول عليها جيشه اللجب صفا وراء صف ، ليثلم سلاحها ، وينهك قوتها ، ويجعل منها فريسة سهلة المصارع ، ويأمن أن تبقى له إبان الاحتدام ، طال أو قصر ، قوات ضخمة مدخرة تقية القرة إن انشقت البلدة ، أو تفتقت مشارفها ، عن نجدة خبيئة . .

ومع ذلك فلم تكن فى البلدة عندئذ نجدة مخبوءة بعد أن تفرق معظم جندها إلى الكوفة . ولم يكن ثمة مدد أيضا على الطريق من ناحية الكوفة وقد تراخى أهلها وتصاموا ، كعادتهم ، عن دعوة الجهاد . ولم تكن حامية القرية ، إلى جواز هذا وذاك ، خمسمائة من المقاتلين . ولا كانت مائتين . بل قد كانت دون الرقمين لا مراء ثم لم يخف منها إلى اللقاء غير نصفها ، أو أقل ، عند بدء القتال . أما بقية رجال رباطها الموكول إليهم الدفاع عنها فقد استسلموا ، من اللحظة الأولى ، إلى التنحى عن واجبهم مؤثرين السلامة ، حين ظهر لهم من كثرة المغيرين وعدتهم ما أيقنوا معه أن ليس فى الاشتباك إلا الهلاك . .

تعللوا وهم يبرحون :

« ما لنا بهم طاقة . »

ولم يغالوا . فجموع الغارة، فى الحق ، كانت خليقة بأن تهول مثل هذا النفر الذين يزنون الأمور بقيمة النتائج القريبة المنظورة ولا يزنونها بنظافة المسلك وسمو الغاية . . كان المغيرون يغطون الأرض . يملأون الأفق . على صفوفهم المتراصة الكثيفة تلمع الأعين لتهتم ، وتهتم لتلمع من دهشة وبهر . حشودهم من خيول وجنود لا يكاد يحتويها ظن ولا تخترقها نظرة . إذا مضت سيوفهم تصلصل فرعود وكتائبهم تسير فطوفان . .

لكنها ، مع هذا كله ، لم تسكن لترهب ذا يقين ! . . ولئن راحت تهجم مستمرة بيأسها وقوتها ، بعددها وعدتها على ابن البكرى ، فإن مدها كان يرتفع لينحسر ، وموجها كان يندفع لينكسر على صخرة ثباته وصبره .

بنفره القلائل وقف صاحب مسلحة الأنبار فى وجه السيل المتدفق الذى جره عليه ابن المغفل الغامدى ليجتاح البلدة . . لم يرح لحظة يده . لم يرحم نفسه. لم يدع فرصة لقوات خصومه العارمة لتثبت بمكان . . قاتل الموت ، ليقتل أو يقتل ! . . كان كزوبعة مجنونة ! . . سلاحه يتأرجح ويدور . وقدمه تتوثب وتطفر . والأرض تحته تنطوى وتنتشر فإذا هو هنا وهناك ، مرة أمام عدوه ، ومرة خلفهم ، وفى كل مرة عصى على التناول ، عزيز على الحصار ، كأنه زئبق لا تستطيع أن تطبق عليه كف أو تثبت أصبع ! .

لكم طاردوه ، وكم أطبقوا عليه ! . . غير أنه كان دائما يستطيع الإفلات ، ويعدل وضعه ، ليكر عليهم بخفته ، فإذا هو وراءهم يطارد ، وإذا هم أمامه ، بحشدهم ، مطاردون ! . . مرارا عديدة كان يقلب الفر كرا ، والدفاع هجوما . ومرارا عديدة كان ينتزع المبادرة من أيديهم، ويقتحم عليهم مواقعهم فيجليهم عنها وينفضهم نفضا عما اجتازوه أو احتلوه من أزقة ودروب . .

ثم حانت أخيرا لحظة الخاتمة الحزينة التى كان لا بد أن تحين . . فلا مناص للزوبعة بعد ثورة من سكون . . وللجمر بعد تسعر من خمود . . وللنبع بعد تدفق من نضوب . .

تعاقب الصراع أوهى القوة الصغيرة . شيوع الجراح فيها أوهن المدد ،

واصطفاق السلاح أثلم المدة . والإعياء الذى بثه فى رجالها تواصل القتال ودوام التنقل ، وسرعة الطراد ، قد جمدت منهم المفاصل وخدرت الأوصال . . وها هو ابن المغفل ، إلى جوار هذا كله ، ينهز هذه الساعة فيجيش فرقة من ماثتى راجل ، خفافا أعفياء . لم ينل بعد من أحدهم جهد الصراع ، ولا تغبرت أثوابهم بغبار الميدان ، ليدفع بهم فى وجه القلة المناضلة ، مؤيدين بكتيبة فرسان .

وتفكر البكرى . . .

ثم حزم أمره على الفور . .

الستار لا محالة سينسدل . . والنهاية مقبلة تسرع . والشهادة تخايله برضوان الله . .

والتفت يخاطب أهل بلدته خطاب مؤمن مستعين ، وكلماته تسبح إليهم على لهثاته :

« من كان لا يريد لقاء الله ، ولا يطيب نفسا بالموت ، فليخرج من القرية ما دمنا نقاتلهم . . فإن قتالنا إياهم شاغل لهم عن طلب هارب . . »

ثم وجه حديثه إلى الثمالة الباقية من جنوده :

« . . . . ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار . »

عندئذ لباه ثلاثون فى السلاح، ما إن صفهم حتى استبق واياهم ، على طمأنينة ويشر إلى الهجوم على حشود أعدائه ، ليلتقى بهم لقاءه الأخير . .

وكان يتلو من التنزيل، وسيفه يضرب ويدور ليفتح ثغرة فىسور العدوان :

« ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا . . »

وخاض ورفاقه الموت ! . .

٣

لم يفتر عن الإمام همه . .

أينما سار أو أقام ، كانت الكآبة تظلل محياه . . العبسة على جبينه . . السهوم فى عينيه . . الألم قد شق خطوطا عميقة فارقت بين القسمات . . أما نفسه فمجروحة ، وأما قلبه فثقيل . .

وكان الصمت دائما طريقه ، والحزن رفيقه . إذا صحا فالعلقم ملء فيه . . وإذا رقد فعلى شوك . وإذا مشى فعلى جمر . . أيامه ولياليه موصولة بخيوط كثيفة من الندم والضجر ، ومن الأسف والوجوم . .

والأنباء ، إلى هذا ، لا تزال تترى عليه من الأنبار . جوفاء حينا كأنها الفراغ ، تثير من القلق بقدر لحظات الترقب والانتظار . ثقيلة حينا — كوقر الآثام على قلب النادم — بما تحتوى من فواجع . .

وكان الهدوء أيضا ، حوله فى كل مكان . . الكوفة ساكنة لم تتغير بها الحال . آمنة الحركة كبركة عفنة ! . . باردة العاطفة كالجليد ! . . هامدة الانفعال كالموت ! . . لا بادرة فيها لتأثر بما دار هناك ، على مراحل دانية منهم . أهلها فى طمأنينة . . البال رضى ، والنفوس هادئة ، والقلوب فى مواقعها ثابتة ، كأنها لا تعرف الوجيب . .

لكأنما الأمر لا يعنى القوم ! . . كأنما هذه المحنة على تخوم بلدتهم تقع بعالم غير عالمهم ، بعيد بعيد ، لا تطويه المراحل ولا تبلغه الأسفار ! . . كأنما الأخبار قصة مروية ، تنقل لأسماعهم حدثاً باليا أغفى طويلا فى سفر التاريخ ! .

لا مبالاة ! . .

ومع ذلك فقد أفلتت من أيديهم فرصة الثأر . ذهب مع الريح جهد حملة التأديب . . فالمعتدى الإرهابى آب إلى أرضه وهو ملء جلده ! . . فى يساره

هوانهم ، وفى عينه انتصاره ، لم تطأ الحملة ظله . ولم تلحق بغباره . لم تصب من رجاله موقع قدم وهم ينطلقون آمنين بثمار الحقد : بالأسلاب والغنائم ، وبالزهو والشماتة إلى الشام . .

أخفق سعيد بن قيس ورجاله فى اللحاق بالمغير . . الأيام التى بددها تثاقل الكوفة قطعت خيط الاتصال بين السابق والمسبوق . وسعت الشقة وأطالت الطريق ! . . وعندما انتهى من أولى مراحل الحملة ، وأصبح وجنده يلازمون ضفة الفرات ، كانت الغارة قد بلغت أربها ، وحملت سلبها ، وغسلت يديها من دماء ضحاياها ، ثم قفلت راجعة من الأنبار . .

ولم يكن أمام سعيد بن قيس حينذاك إلا أن يلقف الريح ليشم أين المغير ! . وما كان ليعلم عن يقين وقد خلت الأرض من آثاره ، ونضبت الأنباء ، وكادت المناطق المحيطة لا تشى له إلا عن هجرة الناس بعد هجرة ، وفرار فى إثر فرار ، نجاة بالأنفس والأموال أن تطولها سطوة العدوان كما خطر للغارات الأموية أن تدوس ثرى العراق بالعذاب ؟ . . ومع ذلك فقد قر فى روعه أن يحاول الصعود للشمال بدل انحداره للجنوب إلى الأنبار ما دام قد فاته أوان الانحدار . . وما يدريه ؟ . . فلعل الغامدى ما زال يرجع الهوينى إلى إقليمه بثقة الآمن لا بخشية الطريد . . لعل النجاح الذى أصابه حين المجىء قد أغراه بالاستزادة من النهب والسلب حين الأوبة فقصر خطاه . . لعله شاء أن يريح بجيشه الظافر هنا أو هناك ، بهذه المفازة أو تلك ، جماما من تعب السفر ومشقة القتال . .

كيفما كان من صحة حدسه أو اضطراب تقديره ، فقد آثر سعيد الاتجاه من فوره إلى عانات . فهى بموقع يعترض الطريق إلى الشام . . وهى تدانى هيت ، وتكاد تتوسط المسافة من الأنبار ، ضحية الغارة ، إلى الرقة منفذ المغيرين إلى أرض المودة ملاذهم للنجاة . فإذا بلغها قبلهم فإنه إذن لقاء الثأر . وإذا بلغها وقد فاتوه ضاقت الشقة بينه وبينهم وربما وسعه أن يلحق بهم ، أو بمؤخرتهم وهم بعد خارج الحدود الأموية لم يجتازوها إلى نطاق الطمأنينة . .

لـكنه خشى ، إن هو سار إلى بلدة عانات بكل رجاله ، أن تثقل كثرة نفره ووفرة عتاده قدرته على متابعة العائدين . فلا بد إذن من التخفف . لا بد من قوة صغيرة ، سريعة الحركة ، لا يعوق من انطلاقها إلى عدوهم كالسهم، وعلى الفور، ما يعوق انطلاق جيش كبير مثل جيشه ، لا تتأتى له القدرة القتالية الفعالة إلا بعد درس ودقة وإمعان فكر لرسم خطته ، وترتيب كتائبه ، وحشد معداته ، وتخطيط مسالك تموينه وتزويده ، إلى ما نحوها من أساليب معقدة ومتشعبة يستغرق إنجازها وقتا ليس باليسير .

وعلى الأثر حزم سعيد الرأى ، فسرح إلى مظنة سير الغارة الراجعة فرقة من جنده ، عليها هانىء بن الخطاب الهمدانى ، أمرها أن تعجل نحوهم ، طاوية الزمن عدوا ، عسى أن تلحق بمؤخرتهم ، وتعرقل انسحابهم إلى مأمنهم حتى يخلص هو إليهم ببقية جيش التأديب . .

وخف هانىء إلى ماندب له ، آخذا على شريعة النهر وجيرته ، من عانات، مصوبا إلى الشمال نحو مشارف الرقة . ثم انفلت منها غربا حتى دخل أدانى أرض قنسرين ، وهو ينفض الربا والوهاد والربوع والزروع ، ومن ورائه انطلق سعيد بن قيس ببقية الجيش لتكون حشوده جنة لتلك الطليعة السريعة ، ومددا لا ينضب لو انشب قتال .

غير أن العدو كان قد فاتهم ، وأوغل . فدخـــل الشام . وحط رحاله . ووقف قائده سفيان أمام طاغيتها يقص عليه من أنباء غزاته المظفرة ما هز بالبشر عطفيه . .

وقال له معاوية أنذاك ، مترجما عن رضائه :

« كنت عند ظنى بك ! . والله لا تنزل فى بلد من بلدانى إلا قضيت فيه مثل ما يقضى فيه أميره ، وإن أحببت توليته وليتك ، وليس لأحد من خلق الله عليك أمر دونى . . »

وآب الغامدى لمأمنه فأصاب التقدير . .

وآب سعيد إلى الكوفة مقهورا بإخفاقه ، مهزوما ولا هزيمة ، يرتد على حسرة ، ويمشى على كمد وتثاقل وهو يقود وراءه ثمانية آلاف شمتا مقبرين من طول السرى والسير ، وسرعة الجرى والمطاردة ، وكأنما يجر خلفه ثمانية آلاف ذيل الخيبة ! . .

٤

الحسرة التى رافقت سعيد بن قيس الهمدانى وجيشه ، طوال الطريق للعودة المريرة ، لم تكن وحدها هى التى أشاعت كل هذه الكآبة فى أفق الكوفة . . كان فى الجو معها قلق مكتوم ، وصمت واجم ، وفراغ أجوف ملؤه الإحساس بالضياع . .

وكانت الحياة ، بالبلدة الأولى فى الدولة ، مثل ليلة حزينة ، مطها الهم والسأم إلى غير نهاية . . ضريرة بغير نجم . آبدة بغير فجر . سوادها وشيه ظلمة ، وظلامها حشوه سواد . . والناس فى دجاها الكثيف كالأشباح . . يهيمون . يلهون . يعملون . يعيشون فى رتابة ثقيلة ثم لا أثر ، بعد ، للهو والعمل والعيش يمس القلب ، أو يحرك العاطفة ، أو يثير الشعور والأوصال فيغير الصورة الماثلة بنبضة أو انتفاضة ، لأنها كلها حركة فارغة إلى غير هدف ، خامدة بغير روح ، كأنها خيالات منام ، ورؤى أحلام ! . .

ومع هذا كله فكم حاول الإمام أن يهز الصورة ليحرك النائم ! . . ليس هذه اللحظة وحدها مد يده ليوقظ الشعب الوسنان . . ليس أمس الذاهب . ليس باقى الأمسيات المواضى ، القريبة أو البعيدة ، التى تقضت ، منذ نشطت الغارات وانتشر الخطر ، وهو ينقض عليه الفراش عسى أن يقلق مضجعه ، ويفتح جفنيه المطبقين على سحر الحذر ، وراحة التواكل . .

طويلا طويلا ، منذ سنين ، ظل قائما على رأس نائمه ، يضج بالحركة وبالنذير . وكثيرا كثيرا كان يرج استرخاءه لدى سنوات لم تغمض عينه . لم يهدأ لسانه . لم يكف لحظة عن محاولة نفض الهمود عنه ، وبعث الحياة فى جسده الجامد يقظة واعية تسمع وترى ، وتدرك وتعلم ، وتعمل وتجد خلاصا من الرقدة المستكينة ، ونهوضا إلى مجابهة التبعة ، ومبادرة لصنع المصير . .

منذ سنين وهو ينقض على هذا الشعب النائم مرقده . بالدعوة . بالصيحة .

بالضجة . . بكل ما يحمل عضوا على الحركة ، ويقهر عصبا على الانتفاض . . بكل ما يحفز الهمة ، ويثير الغيرة ، وينخس الضمير ! . .

لكن الكوفة ظلت الكوفة . مستكينة ، كعهدها ، للاسترخاء . مخلدة إلى التهاون ، وغارقة فى النعاس . حتى صليل السلاح قرب مشارفها ، وصهيل الخيل ، وصرخات العذاب والنكال ، لم تمسح عن عيونها المغمضة فتور النوم ! حتى الفشل الذى لازمها شهورا عديدة ، مرة بعد مرة ، وهى تخفق فى اللحاق بغارات الإرهاب ، لم يحرك فى نفوسها شيئا من الحمية ، غضباً للكرامة ، وثأرا للدم !

بغير أثر من انفعال ، مضت الكوفة ، على عادتها ، تعيش حياتها اليومية ، رخية رتيبة ، بلا مبالاة . . بغير أنة من ألم لما هو واقع . وبغير دمعة من ندم على ما فات . وبغير مسحة من خشية مما هو آت وإن تعاقبت عليها التجاريب المرة وتوالت النذر تلوح لها بالوبال . . لا شىء يهم . لا خطر يثير . لا بلوى تسكرث كأنما القوم ، فيما تبدى ، قد فقدوا السمع والبصر ، وعدموا الحس والشعور ، وحرموا القدرة على التقدير ! . .

امرؤ فرد كان وحده يحمل الهم كله . يحس وحده . يفكر وحده . يقدر وحده . يدبر وحده ، وهم من حوله حلقة من التيه ! . . فلقد أعضلوا به أيما إعضال ، وشق أمرهم عليه أيما مشقة ، حتى لضاق صدره وانقبض قلبه ، وعانى من جُبنهم فيهم من الألم والحزن والحسرة ما كان يقتله مرة فى كل لحظة من ليل وهنيهة من نهار .. . ولقد أسأمه منهم ، إلى حد الغثيان والتقزز ، ذلك الفراغ الأجوف الذى حاصروه به فى كل آن ومكان ، حتى لأسقمه ، وجرى بالمرض حثيثا فى جسده الموصوب . .

ويوم عاد سعيد من الرحلة الخاسرة ، لم يكن ثمة بالكوفة الحزينة إحساس إلا بالعار . . بذلك التخاذل المهين الذى كأنما أهلها قد راقهم طعمه ، فعاقروه كالخمر ، وداوموا عليه مداومة إدمان ! . . بتلك الاستكانة الذليلة لتجبر

معاوية وصلفه ، وعدوان غاراته الرهيبة ، استكانة رفعت هيبة عدوها فى أعين الناس ، ومرغت شرفها فى التراب ! . .

ولم يكن لها خلاص إلا فى انتفاضة من النوم ! . . فى هبة يقظة تقطع التردد فى إرادة تعزم ، وحزم يحسم . . حتى أولئك الذين استمرأوا الدعة لم يسعهم — فى دخائلهم — أن ينكروا أن الحرب الشاملة هى وحدها دواء الداء ، والعلاج الذى لا علاج غيره لهذا الضيم الذى أصابهم من أهل الشام ، وذهبت به بلدتهم المنكوبة مثلا فى الأعصر لارتضاء الهوان ! . .

وتحقق يومذاك ما ألفه القوم فى طوايا الشعور وإن هم أطبقوا عليه الشفاه . فقد خرج عليهم الإمام ذابلا حائل اللون ، عليلا مبهور النفس ، من سقم وسأم ، ومن كدر وهم ، وهو يجر رجلين لا تكادان تقويان على حمله ، وقد استند بإحدى ذراعيه إلى الحسن وبالأخرى إلى الحسين ، حتى إذا انتهى به سيره إلى باب السدة المفضية إلى المسجد ، وتمهل قليلا ليخف عنه بعض جهد الحركة . .

وعندما هدأ صدره ، وخفت من حوله لغط الجمهور ، وأرهفت له المسامع ورنت الأبصار ، راح يتحدث إلى الجمع الحاشد بصوت ثابت النبرات ، حاسم للقاطع ، وإن كان واهن الرنين . .

قال مما قال :

« . . . إن الجهاد باب من أبواب الجنـة ، فتحه الله لخاصة أوليائه . وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة . . فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء . . وأديل الحق منه . . وسيم الخسف ، ومنع النصف . . »

وكان يضغط على الكلمات كأنما يعلها قبل أن تبرح شفتيه لتخرج بأحرفها ومعانيها وهى ملء فمه ! . . وكان يقرن دائما كل كلمة بنظرة معبرة حارة يكاد الشرر أن يتطاير منها إلى الملامح الشاهدة . وبين الكلمة والنظرة رباط من الضيق نسجه غضب مكظوم غطى جبينه المريض بعقدة كبيرة من العبوس ! .

وانثنى من وعظه اللاذع ذاك إلى ما طالما سلف أن أفصح لهم عنه ، ودعاهم

إلى امتثاله . إلى تذكيرهم بسياسته المرسومة التي يرى اتباعها مع معاوية وحزبه ، واحتذاءها أسلوبا مستقيما وفعالا ، لا عوج فيه ولا بديل عنه ، لحسم الموقف ، وردع التمرد ، وقتل الفتنة ، يبلغ بهم النصر ، وينقذ الشرف ، ويحقق الوحدة ، وينشر العدل ، ويضمن الاستقرار . .

أردف معرجا على سياسته إحياء صفين ، فقال :

« . . . ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، وسرا وإعلانا ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا . . فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات ، وملكت الأوطان . . . »

وعرض بإشارة عابرة إلى غارة سفيان بن عوف بن المغفل الغامدي على الأنبار وما أصاب الناس فيها من نكال وأصابهم هم من عار . . وهل هي إلا مثل من أمثلة عدة لتخاذلهم ، ونتيجة محتومة لاختلافهم عليه ، ومظهر من مظاهر استهانة عدوهم بهم استهانة تورث الكمد ، وتعقب الحسرة في قلب كل حر ، حتى « لو أن امرأ مسلما مات بعد هذا أسفا ما كان ملوما ، بل كان به جديرا » كما قال . .

ثم جمح غضبه كما لم يجمح به قط من قبل ، فثار على الزمن الذي جمله لقى بين أيديهم ، وعلى الصلة التي ربطته بهم ، وعلى هوانهم الذي سجل لهم سيرة في سجل الحوادث صحائفها سود ، ومدادها كنود وجحود ، ليس فيها على كثرة الأسطر إلا أحرف من السكابرة إذا التأمت ألفاظا فهي عصيان وتمرد ، وإذا جرت عبارات فهي تثاقل وتردد ، وإذا تكشفت دلالات فهي خور وجبن عن نصر الحق وحماية الحرمات ! . .

يصيح بهم وكلماته الملتهبة كالشواظ تكاد تحرق أنفاسه :

« . . . قبحا لكم وترحا ! . . صرتم غرضا يرمى . . يغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون ، ويعصى الله وترضون ! . . إذا أمرتكم بالسير إليهم في الصيف ، قلتم : هذه حمارة القيظ أمهلنا يسبخ عنا الحر ! .. وإذا

أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء ، قلتم : هذه صبارة القر أمهلنا ينسلخ عنا البرد ! .
كل هذا فرارا من الحر والقر ؟ . . فإذا كنتم من الحر والقر تفرون ، فأنتم
والله من السيف أفر ! . . »

ثم اخترقهم بنظرات ثاقبة حادة :

« يا أشباه الرجال ولا رجال ! لوددت أنى لم أركم ، ولم أعرفكم معرفة
— والله — جرت ندما ! . . قاتلكم الله ! . . لقد ملأتم قلبي قيحا ، وشحنتم
صدرى غيظا . . وأفسدتم على رأيي بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش :
إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب . . لله أبوهم !! وهل أحد
منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما منى ؟ . . لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ،
وها أنذا قد ذرفت على الستين . ولكن . . لا رأى لمن لا يطاع ! . . »

وخلف مكانه وهو يطوح رأسه إلى الوراء ويهز كتفيه من برم ويأس ،
ويصفق كفا بكف من حسرة وأسف ، كأنما كان ينفض عبثهم عن كاهله ،
وينظف من أمرهم يديه . .

٥

لو تحدث الصمت عندئذ لكان أبلغ دلالة عنهم من الحسر . ولو تحرك لكان أشد نكاية فيهم من السيف ! . فالسكون الذى حاصرتهم به عبارات أمير المؤمنين لم يكن بغتة عى . ولا وجمة خزى . إنما كان صعقة ضربت عليهم الخزى والخواء ، وجردتهم بمرارة صراحتها الحادة ، من معالم الحياة فبدوا كتماثيل ! . .

على ملامحهم الظاهرة ران الجمود . فى قلوبهم سرح الحزن . بضمائرهم عربد الندم . . وفى دخائلهم الخفية كان هذا كله يؤجج ثورة باطنة لأنفسهم على أنفسهم راحت تعتمل كالبخار المكتوم ! . .

كانت الحسرة تنهش الصدور . وكان الشعور بالإثم يجرى فى الدم . . فما من ذنب إلا أورث صاحبه حسرة وإن لم تدم إلا كلمة خاطفة . وما من مذنب ، مهما غلظت أحاسيسه ، أو تحجرت مشاعره ، يستطيع أن يجتاز الحد الفاصل للفضيلة عن الرذيلة دون أن يحس باجتيازه ، ولا أن ينسى — بينه وبين نفسه — ما قد قارف من الإثم وإن هو حاول ، جهارا وعلانية ، أن يبرره أو يتناساه . .

لكن الإقرار بالجرم ثقيل ثقيل على النفوس . كريه كريه إليها إلى ما فوق قمة الطاقة وجهد الاحتمال . . وخجل المرء من الخطأ الذى يرتكبه ، عادة يدفعه إلى محاولة إخفائه عن العيون . ودائما يحمله على تبريره إن هو كشف وشاع . وأحيانا يسرقه إلى العناد إصرارا وادعاء بأنه صواب . ونادرا ما يهديه إلى الاعتراف ! . .

وذاك ما جرت عليه الكوفة ، هذا اليوم ، بعد سماعها الخطاب . .

واحد من رجالها ثقل عليه بمفرده ما قد فرط من مواطنيه ، شهورا عديدة متعاقبة ، فى حق أميرهم من التخاذل والعصيان ، فدفعه ندمه ، أو دفعته شجاعة الرأى وأمانة التعبير ، أن يجاهر بالإقرار بخطيئتهم ، ثم يسلم نفسه إلى التوبة . .

بقلب مكرود ، وعين دامعة ، ونبرة مرتجفة من الأسى والحياء ، تقدم جندب ابن عفيف الأزدى يقول للإمام :

— « يا أمير المؤمنين . . إنى وأخى هذا كما قال الله تعالى : رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى . . فمرنا بأمرك ، فوالله لننتهين إليه ولو حال بيننا وبينه جمر الغضا وشوك القتاد ! . . »

فابتسم الإمام لجندب وأخيه عبد الرحمن بسمة حائلة اللون ، ندية الرضا والتقدير ، وأجاب :

« وأين تقعان مما أريد ! . . »

ورد طرفه عنهما إلى الجمع الحاشد ، فإذا هم حينذاك كتلة من الوجوم والشرود ! . . بلقع من الجود ! .. لكأنهم فراغ ! . . كأنهم من كثافة الصمت ظلام وظلال ! . . كأنهم من خوائهم أطياف سراب ! .. فأما الأرض التى شغلوها بقاماتهم ، فهى من فرط السكون الأجوف قد حاكت مقبرة موحشة ، رءوسهم بها معالم اللحود ! . .

وهم أن يرجع عنهم ، كما جاء ، مطبق الفم ، هابط القلب ، ثقيل الخطوات يزحف على ضيق . . ولكنه رأى أن يراجع عزمه ، ويقهر رغبته ، ويراودهم — مرة أخيرة — بجرعة من الدواء ! . .

أشار إلى الحارث الأعور الهمدانى فهمس له . ثم انطلق بعد الهمسة يعود . .

وامتثل الرجل الأمر فهب فى الناس ، حين مبارحة الإمام ، ينادى بصوته الجهير :

« أيها الناس ! . . أين من يشترى نفسه لربه ، ويبيع دنياه بآخرته ؟ . . أين من يشترى . . . . »

وتكرر النداء .

وترددت أصداؤه فى جنبات المكان إلى أبعاد ومسافات وجرس العبارات يلازم خطوات العائد نبرة بحركة ، ومقطعا بوقع حتى بلغ على من البلدة منزله ،

وبلغت الدعوة من القوم الأسماع .

وعندئذ انثنى الحارث يخاطب مدعويه :

« . . . أيها الناس ! . . أصبحوا غدا بالرحبة إن شاء الله . ولا يحضر إلا صادق النية فى السير معنا . والجهاد لعدونا . . . . »

غير أن الغد الذى أقبل كان كالغائب عن النداء ! .. فما استجاب سوى نفيرة من القوم قليل نفذت الدعوة من أذانهم إلى قلوبهم ، فآمنوا بغايتها ، وبايعوا لربهم ، وصدقوا العزم على الولاء والخروج للجهاد . .

من السكوفة كلها انطلق إلى الرحبة ذلك الصباح دون الثلثمائة من أهلها الجم فى عدة القتال . . لو أنها كانت عند ذاك دعيت إلى نزهة لإزجاء فراغ ، لما بخلت بعدد يفوق أولئك بضعة أضعاف ! . . لو أنها خويلت بعرض تافه من عروض الحياة ، وإن كان دراهم معدودة ، ولم تخايل بالجنة ، لخفت إلى ذلك العرض بالآلاف ! . . فأما والهدف الآن الشرف ، والرحلة فى الحق ، والغرض الله ، فليس لها إلى المبادرة بالعمل سبيل ! . .

وبمين ملؤها التهكم والازدراء ، طاف الإمام بالحفنة الماثلة حياله ، يقيس أبعادها نفرا ودلالة . ثم يصرها فى نظرة وانية وهو يقول :

« لو كانوا ألفا ! . . »

وما كان الألف يغنيه . ولا كان ضعفه أمثالا عدة ليفعل شيئا فى اتقاء حرب شامل . ولكنه ، على أى حال ، العدد الذى قد يومئ — فى أول أيام الإعداد والتجهز — إلى عقد العزم وصدق النية ، ويبشر بسيل من الجند خليق بأن يتدفق على الرحبة خلال أيام . .

وأقبل عليه إذ ذاك بضعة من العلية وسادة الزعر يلقون بزخرف من القول بين يديه ظاهره ولاء وطاعة وباطنه تمرد وثبوط . . جاءوا إليه يحفون بألوان من الحجج شتى ، تبيحهم التخلف ، وتمنعهم السير للقتال وإنهم ليعلمون ، لاريب ، أنها وسائل تمويه وتعلل ، حروفها اعتذار ومغزاها عصيان ..

ولم يجد خيرا من أن يتلو فيهم من قول الله ما سلف أن تلا محمد فى أمثالهم من العصاة :

« وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله . . . . »

وامتد بعد هذا ترقبه الحشد المنتظر ..

أيام ثقيلة طويلة مرت عليه وهو ينتظر ، كلما طلع عليه منها يوم بما يحرك الأمل تلته أيام بما يثير القنوط . فالقوم ، فيما يلوح وكما اعتاد ، لا يأخذون الأمر مأخذ الجد ، ولا يرون غضاضة فى التثاقل والاسترخاء لأنهم لا يكادون يحسون حقا فى حقهم الذى دعاهم إلى النهوض فيه ، ولا باطلا فى باطل عدوهم الذى يريدهم القضاء عليه ، لفرط ما ألفوا من التخاذل والخور والاستكانة .. وهل من حريجة على من ضمرت فيهم مضغة الحية ، ونضب نبع الاعتزاز ، وخمدت جذوة الضمير ؟ ..

وكذلك انطوت سلخة من عمر الإمام ، فى هذه الآونة التى اختتمت عهده ، كان فيها يتطلع ولا مطلع ، ويأمل ولا مأمول .. فالهم مطبق عليه كالضباب الكثيف يطمس المرائى ويكتم الأنفاس . والوقت ثقيل كالطود ، طويل كالدهر ، ممتد كالأبد بغير انتهاء وإن لم يجاوز — بلغة الأرقام — أياما قليلة وساعات . ومع ذلك فقد بدا الزمن عندئذ وقد اجتمع له الضدان : الخفة والثبات . فهو آنا راسخ لا يسير حين يراوده الرجاء فى غد يبزغ عليه بحال سوى الحال . وهو عادة خفيف يطير ، يتسرب من بين أصابعه كالماء ، أو يتبخر فى الهواء . وفرص الحسم تفلت تباعا منه ومن العراق الشهر بعد الشهر ، واليوم فى إثر اليوم ..

ولم يطاوعه صبره على مغالبة ضيقه ، ولا تماسكه على كتم حزنه ، فاكتسى محياه السأم ، وملأ قلبه الغم ، وشرق حلقه بالمرارة .. ولكنه نشط ، مع كل ما يعانى ، إلى القوم لعله أن يبلغ منهم الساعة ما لم يبلغ فى الليالى الطوال . وراح يبث فيهم دعاته ليجتمعوا له ، ويسمعوا منه صيحة النذير الأخير ..

والتأمت حوله كثرة منهم ذلك النهار من شتاء عام خلافته الخامس ، والجو

يومذاك قر ، والهواء من برودته له فى الأجساد وخز الإبر ، وعلى السماء من جهامة الغيوم كثل الكآبة التى تغشى محياه .. فما أن أصغوا له ، حتى وقف يلقى إليهم بما بقى فى وفاض أحاديثه الذى استنزفوه ! ..

خطبهم فكان من خطابه أن قرنهم بالأنصار عند البعثة النبوية وإن جاوز العدد العدد ، وخالف الفعل الفعل ، وجرى القرينان فى صحائف التاريخ وهما ضدان ! ..

قال :

« .. .. أما بعد ، أيها الناس ، فوالله لأهل مصركم فى الأمصار أكثر من الأنصار فى العرب وما كانوا يوم أعطوا رسول الله أن يمنعوه ومن معه من المهاجرين حتى يبلغ رسالات ربه إلا قبيلتين ، قريبا مولدهما ، ما هما بأقدم العرب ميلاداً ، ولا بأكثرهم عددا ، فلما آووا النبي وأصحابه ، ونصروا الله ودينه ، رمتهم العرب عن قوس واحدة .. تحالفت عليهم اليهود . وغزتهم القبائل قبيلة بعد قبيلة . فتجردوا لنصرة دين الله ، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل ، وما بينهم وبين اليهود من الحلف . ونصبوا لأهل نجد وتهامة ، وأهل مكة واليمامة ، وأهل الحزن والسهل . وأقاموا قناة الدين ، وصبروا تحت حماس الجلاد ، حتى دانت لرسول الله العرب .. .. »

وأضاف مؤكدا أن بأيديهم الآن من الحول ما لم يكن لأقرانهم أولاء :

« .. .. وأنتم اليوم فى الناس أكثر من أولئك ، ذلك الزمان ، فى العرب .. .. »

فمن عجب أن يبوء بالاعتراض والمراجعة بمثل هذا الحديث الذى يكشف للقوم عن بعض موطن القوة فيهم ، فيندفع أحدهم — بعادة المكابرة والجدال المعروفة عنهم — يفترض ، ويقول :

« ما أنت بمحمد . ولا نحن بأولئك ! .. »

فغضب على لحمق الرجل ، وصاح يزجره :

« أحسن سمعا تحسن إجابة ! . »

ثم وجه إلى الجمع لومه .

« . . . . ثكلتكم الثواكل ! . . ما تزيدوننى إلا غما . . وهل أخبرتكم أنى محمد ، وأنكم الأنصار ؟ . . إنما ضربت لكم مثلا . وإنما أرجو أن تتأسوا بهم . . »

وكأنما حلت هذه المقابلة بين أمس واليوم عقدة الألسنة ، فانخرط القوم فى نقاش متشعب مضى بأحاديثهم أفانين شتى . منهم من يقارن . ومنهم من يفارق . ومنهم من يستعيد من الأمثلة والذكريات ما يؤيد جانبا أو يخالف آخر ، وكلهم مع هذا يوشك ألا يلتقف أنفاسه حتى تشابكت الأصوات ، وتمزقت العبارات ألفاظا ومقاطع وحروفا متناثرة تداخل بعضها فى بعض فغدت ضوضاء لا تكاد تنقل إلى سمع السامع غير الإبهام ! .

ومن بين سورة هذا التشويش ، انطلق صوت عال يحاول أن يرتفع فوق الضجيج :

« ما أحوج أمير المؤمنين اليوم وأصحابه إلى أصحاب النهروان ! . . »

وكانت القولة ، بلا ريب ، إلماحة إلى حقيقة تلقى على قائلها والذين معه — من حيث لم يشأ ولم يريدوا — ظلالا كثيفة من الاتهام . فهى ترميهم بتفرق الرأى ، واختلال النظام . وهى تدمغهم بالهبوط والتثاقل . وهى تدينهم بالافتقار إلى الجد وإلى سرعة البت فى الأمور ، وكلها — مهما اختلفت النظرات — صفات لم يكن عليها الخوارج الذين كانوا أرباب صلابة وحسم وعزيمة ما كان أجداها على أهل الكوفة فى هذا المقام . .

وتزايدت الهمسات والهمهمات . وعت الضوضاء . وخيم الغط على أفقهم كأنما انعقد فوق رءوسهم سحابة ! . . وصرخ رجل من بين الجمع بأعلى صوته وقد أثاره الضجيج :

« استبان فقد الأشتر على أهل العراق ! . . أشهد لو كان حيا لقل اللغط . ولعلم كل امرئ ما يقول . . »

هنا بلغ الضيق بعلى غايته فزأر غاضبا يصيح بالناس :

« هبلتكم الهوابل ! . . أنا أوجب عليكم حقا من الأشتر وهل للأشتر عليكم من الحق إلا حق المسلم على المسلم ؟ . . »

فسرعان ما ذر غضبه الهيبة فى الأعين ، والأسف فى الصدور ، ففاء القوم من اللغو إلى الجد ، ومن العبث إلى الرزانة . وأخذ اللغط المنتشر فيهم ينحسر ، رويدا رويدا ، عن المكان حتى ذابت الضوضاء فى السكون . .

وعلى الأثر خف حجر بن عدى الكندى ، وسعيد بن قيس الهمدانى إلى الإمام يزجيان إليه معذرة الجموع ، ويعرضان باسمها ، عليه الامتثال والخضوع .

قال أحدهما :

« لا يسوءك الله ، يا أمير المؤمنين . . مرنا بأمرك نتبعه . . »

وأردف الآخر :

« مرنا ، فوالله ما نعظم جزعا على أموالنا إن فقدت ، ولا على عشائرنا إن قتلت فى طاعتك . . »

وبدا كلهما ومن حولهما الندم على ما فرطوا فى حقه . . وبانت الرغبة جلية فى استعادة ثقته التى بددتها الأيام ، فى كل لمحة عين ، وكل همسة لسان ، وكل حركة جارحة ندت عن الحشد الماثل جموعا وأفرادا ، أصحاب زعامة أو من عرض الجمهور ، حتى لقد رد الإمام فى هدوء : .

« تجهزوا للمسير إلى عدونا . . »

وغادرهم ومعهم التوبة ، ومعه الرضاء . .

غير أن أمسية يومهم هذا لم تعر إلا وقد شهدت قادة الرأى وشيوخ العشائر فى لقاء مع على بداره . . توافدوا عليه مؤكدين الولاء ، موثقين العهد ، يعلنون

عزمهم على الجهاد . . فلما أن أيقن منهم ، هذه المرة ، الجد وصدق النية ، عقد مجلس حرب راح يقلب وإياه وجوه الرأى فى الموقف ، ويناقش الظروف والأوضاع ، بلوغا إلى أمثل طرائق إحراز النصر . .

وانتهى الإمام ، بعد المدارسة والمشاورة ، إلى قرار . .

قال لأصحابه المجتمعين :

« أشيروا على برجل صليب ناصح ، يحشر الناس من السواد . . »

لم ير الآن أن يدع مهمة حشد المقاتلة ، وأسلوب الإعداد ، كسابق العهد إلى كتب منه يبعث بها إلى عماله . بل أراد أن يضع الأمر بين يدى رجل واحد ، أمين كفء ، يهابه أهل العراق ، ويسمعون له ، ويؤمنون باقتداره .

وتفكر الجمع مليا ، ثم قال سعيد :

« أشير عليك ، يا أمير المؤمنين ، بالناصح الأريب الشجاع الصليب : معقل بن قيس »

فارتضى الإمام الاختيار :

« نعم . »

ووجه الرجل من فوره .

فإن تكن الكوفة ذاقت الندم ، ليلتها تلك ، فلعل كثرة فيها نامت قريرة بين ذراعى الشعور بالعزة ، لأول مرة منذ يوم صفين .. وإن تكن سهدت فسهرت إلى مطلع الفجر ، فشاغلها عن الوسن إذن حديث موصول عن الغد القريب لم تهدأ عنه الأفواه ولا فرغت منه الأسماع . . فالحرب كانت على كافة الشفاه . . والحماسة والرهبة تنازعتا القلوب : من ناشطة وثابطة ، وراسخة ومذعورة . . واللقاء الحاسم المنتظر كادت تطير به أشواق المتحفزين وأحداس المتخاذلين غدوة وروحة ، وأوبة وجيئة من أرض الوقعة المجهولة إلى مهاد الأحلام ! . .

أما الإمام فمساه قد بات ردحا من الليل غير قصير وهو يسبح بفكره بين

أمس واليوم ، بين حديث ليلته وأحاديث ما قبلها من الأمسيات ، فلا يملك إلا أن يتأرجح بهذه المقابلة الفكرية بين اليقين والشك ، وبين التصديق والإنكار تجاه ما ظهر بالاجتماع من متابعة وطاعة وانصياع .. أقد صدقه قومه النية ، حقا ، بعد روغان؟ . أأخلصوا له الولاء بعد خذلان ؟.. أم هي فورة حمية عارضة لن تلبث أن تمضي — تماما كالزبد : هيئة تهول وجوهر جفاء ؟ .. أم مهاودة هي . أم مخاتلة ، أم رياء ؟ ..

ما كان عجبا أن يقابل بين سلوكهم الماضي وسلوكهم الحاضر .. وأن يتساءل إذ يقابل . وأن يحذر كما يطمئن ، ويتشاءم كما يتفاءل .. وإذا كان قد بدا لهم ، وهم يبرحون داره أمسيتهم هذه ، أن جأشه هدأ ، وباله قر ، وقلق الأشهر الثقيلة الماضيات استحال في فؤاده طمأنينة ، فتلك نظرة منهم لم تسبر بعد غوره ، ولم تبلغ مد بصره .. لكن فيهم . بلا ريب ، طائفة حسبت جلستهم الأخيرة قد انتزعت له من الزمن أمنية عمره . وخالت الأيام القلائل المقبلة آتية له ، لا محالة ، بلحظة دانية ، يذل فيها جند الشيطان لجند الله ، فتنكسر شوكة الباطل ، وترتفع راية الحق ، وتمحو آية النور آية الظلام ..

واستضاء محياه بلمحة سلام ..

قدر القوم أم شاءوا لسوف تجري بغير مشيئتهم الأقدار ! ..

وابتسم .

فثمة لقاء غير هذا اللقاء الحربي ، الذي تخايلهم به الظنون والأحداس ..

ثمة قبله لقاء مودة كان بينه وبين رسول الله تبينت له فيه الخفايا ، وتكشفت الحجب ، وتجلت الأسرار ..

ثمة عند أفق الغيب فاجعة مروعة ، ونهاية حزينة .

ثمة هامة مفلوقة ، ولحية مخضوبة ، وقطرات دم مهراق ستنتظم سطورا حمراء تسجل الختام ! ..

الفصل الثاني

١

إلى هدفهم انشط معقل .

لم يهدأ ظله ! . . كان عرق كالسيف . يطوى المراحل كأنه نظرة . يعبر التخوم كأنه طيف .. فى النور سار يرتاد الليل ، وفى الليل أسرى ينشد النور . ومن الخصب ، إلى الجدب ، إلى حيثما شام نصيرا قادرا أن يحمل السلاح ، كانت لهفة الشوق تسبق خطواته إلى فجر النصر .

الخلص الأوفياء من أصحابه ، رجال الإمام ، عاشوا حياتهم ، أيام رحلته ، بوقع أقدامه كأنما كانت خطاه لقلوبهم الواجبة نبضات !.. ولا غرو !.. فالأمل معه . والحشود المعبأة فى عدة القتال توشك أن تكون ملء الأحلام . والعمل الجاد ينتظر عودته من السواد . وإذا كانت الغاية المرتجاة قد تجلت تخايل الظنون والعيون ، فما أصلب الهمم ، وما أنسب الوقت ، وما أيسر الانطلاق !.. وما دام أفق الأحداث قد أطلع الآن لهم فرجة تبعث ضياء على مواطئهم يؤمن السير ، فهذا الشعاع الندى بشير إذن بالشروق .

لا تردد الآن .

فمن خلال النقاش الذى دار بينهم بمنزل أمير المؤمنين، تحدث الأسف فأفصح، وتكلمت التوبة فأبانت ، ودبر العزم فأبرم. معقل استشعر ، كرفاقه، فى الصدور الثقة ، وقرأ على الوجوه التصميم . من كل فرد شهد ذلك المجلس ، تبين الندم على ما فات . رأى هدى بعد غىٍ، وهمة بعد ثبوط، وصلابة بعد استرخاء . وهذه الرغبة فى تغيير واقعهم الخامل التى صورتها العبارات الملتهبة ، وجسدتها الملامح المشدودة ، أنبأت عن نزوع مشوق إلى الجد الصارم ، وحماسة متحفزة للقاء الحاسم الأخير ، يؤكد كلاهما انعقاد رأيهم على صدق الولاء ، وقوة الإرادة ، والثبات فى القتال ، والصبر إلى الظفر أو إلى الموت !

الآن استبانت النيات . عُرفت الوجهة ووضحت المعالم . خلصت الأنفس من الخور فنفضت التواكل . تجردت القلوب من الهوى ففاءت إلى الحق ، ومن الخوف فارتبطت باقه . لاح أعوان الإمام وقد أجمعوا على الطاعة ، وفى الطاعة اتساق التفكير . ومن اتساقه وحدة كلمة ، ووحدة أسلوب ، ووحدة تنفيذ لا تستقيم بدونها الأمور .

غير أن البصيص المنبعث إليهم من خلال فرجة الظروف كان كاللاهث ! . . واهنا يترنح كأنما من إعياء ! . . ذابلا يتأرجح كأنما من دوار ! . . شاحبا كأنما انبهرت أنفاسه ! . . كان يتلصص آونه فى تردد ، ويزحف أخرى على تثاقل . يتسلل فى خشية ليتوارى من استحياء . . نادرا كان يتوهج . أحيانا كان يومض . غالبا كان يختنق بين الغيوم .

وكيف لا ؟ . . وما تلك إلا معالم لا تفوت التأمل ، وحقائق تطفو على الجدل والإنكار . . فالوضع القائم ، بكافة جوانبه السياسية والاجتماعية ، مهتز مائع . والمعوقات التى تعترض سبيل التغيير ليست قليلة . وخيط المبادرة إلى العمل الناجح متسكث ، بل هو ضائع من الأصابع . والظلمة المنتشرة حول البلاد والعباد ، وعلى البصائر والأخلاد ، كسف تعلو كسفا ، وأطباق فوق أطباق .

تل من المشكلات !

ركام هائل من رواسب الماضى وأخطائه تجمع طوال السنوات الأربع المنقضية ، عسير الآن كل العسر على الفئة الأمينة المناهضة للركود ، المتوثبة للتغيير ، أن تزيحه أو تفتته ، أو تخترق كتلته الصماء الصلبة لتنفذ منه إلى المستقبل المضىء . . كان عقبة ضخمة دون روع التمرد ، وكسر شوكة الانقسام رأبا للشدخ الذى فتحته الأهواء فى جدار الوحدة الإسلامية وشطرت به الشعب شطرين . كان قوة ضاغطة أو معرقلة ، لطاقات الفكر ، وقدرات الإنجاز تحاول وأدها وكتم حركتها كلما همت بالظهور ، أو تعثيرها وشدها إلى الوراء كلما همت بالانطلاق . . كان

صدا منيعا حديديا أمام تقدم العمل القومى الذى يتوق إلى إقامة مجتمع سليم على قواعد من قيم الإسلام ، ودولة قوية على أسس من وحدة النظام . .

وتتعدد بلا ريب مظاهر الأمراض والأسقام التى دبت فى جسد الأمة الإسلامية الناشئة تعيث فيه ، وتشيع بنسيجه الجديد الجروح والقروح . وتتعدد أيضا الأسباب والعوامل الباعثة لكل هذه العلل والأدواء . . ومع ذلك فما من داء ، مهما كان — كرأى الفئة المتطلعة إلى الإصلاح بين صفوف الإمام — يعضل أمره على العلاج . وما من دواء إلا أثمر وحقق الشفاء إن هو كان وليد وصفة بارعة ، وجاء فى أوانه ، ثم اقتحم على العلة وكرها قبل الاستفحال . وإذا تكاثرت الأمراض على عليل ، وأخذته تنهكها ، كان أوبل الأدواء فيها وأشدها خطرا عليه من سواه ، هو الأولى قبلها ببراعة الطبيب ، وأحقها بالمداواة . .

بهذه النظرة كانت الشام ، بوضعها ذاك ، علة العلل وآفة الآفات . فهى تمثل فكرة الانفصال عن الدولة الأم ، وتكاد توحى بها لغيرها من الولايات. وهى رائدة التمرد على سلطة الحكم الشرعى ، وموقدة ناره خارج حدودها الإقليمية فى كل مكان ماوسعها أن توقد أو أن تقود . وهى بخروجها على النظام العام شاغل للدولة أى شاغل أن تفرغ للعناية بأحوال الشعب حق العناية . وهى بموقعها الجغرافى المتطرف ، حائل دون ولى الأمر المسئول والذين معه من دعاة الإيمان أن ينفذوا سياستهم العقيدية بنشر الإسلام فيما يجاوز تخوم هذه الولاية « الأموية » من أرض الروم . وهى بعد هذا وقبله ، بؤرة الأضواء الذاتية والمطامع الشخصية التى تستعبد الأنفس لعروض الدنيا وزخارف الحياة ، وتستذل القلوب المغريات والمغويات فتوسع الهوة بينها وبين الله !

بغير الحق استحكم سلطان الشام . وبغير سيرة الإسلام سار فى الناس وساس . وإذا كانت شعائر الدين وطقوسه بقيت هنالك قائمة لا تهدر ، ومناسك العبادات وصورها ظلت فى إطارها المألوف من مظاهر التقدير ، فليس الدين ،

فى حقيقته ، مجرد قشرة أو طلاء . ليس مجرد شعائر وطقوس ، وحركات وإطارات ، بقدر ما هو قيم ومبادئ وأسس ، تتسق معا ، وتؤلف باتساقها خطة سلوكية متكاملة تربط علاقة الإنسان بالله بعلاقة الإنسان بالإنسان فى خيط واحد هو الإيمان .

ومن البين أن معاوية بن أبى سفيان قد حاول ، طوال سنوات عمله على الشام — إبان خلافة الإمام ، وقبلها على السواء — أن يتألف حوله الأهواء ، ويجتذب الرغبات ، عسى أن يضيف بها إلى نفره نفرا ، وإلى قوته قوة ، وإلى فترة حكمه الموقوتة بها قليلا أو كثيرا من الأعوام . ومن البين أيضا أنه استطاع ، مع الأيام ، أن يجنى ثمار محاولته فيضم إلى وجاره كل متطلع لنفع ، راغب فى حظوة ، مفتون بنفوذ . .

ولا يكاد يجاوز الواقع إلى بعيد أو إلى قريب أن يقال إن عاهل بنى أمية قد غدا ، بطريقته « الأموية » تلك ، وهو قبلة للنهازين ذوى الأطماع ، يحطون عندها الرحال ، ليوقدوا الشموع ، ويحرقوا البخور ، إن لم يعفروا فى ترابها الجباه !.. ولا مغالاة أيضا أن يقال إن الشام غدت عندئذ ، بصاحبها ، وهى سوق كبيرة للرق « الخلق » تروج فيها تجارة الذمم ، وتؤمها قوافل « عبيد » الأوطار مقبلة عليها من كل صوب ، لتعرض بها سلعها الآدمية ، وتبيعها نفوسا وضمائر ، مثقالا بدرهم ، وقنطارا بدينار !..

ولم يعرف قط عن الرجل ، وهو يسعى لاحتياز السلطان ، أنه كان — فى انطلاقه إلى هدفه — يتحرج أن تنحرف به وسائله عن جادة السلوك السوى أو تخرق شرعة السجايا الكريمة ما دام الانحراف والخرق كلاهما أو أحدهما مبلغه وطره !.. فالوسائل كلها مطاياه . والمطايا جميعها نظائر وأشباه . أى وسيلة كأى وسيلة . وكل أسلوب ككل أسلوب . السوى المشروع من الفعال والأقوال كالملتوى والممنوع . والنظيف المألوف كالمريب والغريب . والمقبول كالمردود . فالعبرة عنده بالنتائج لا بالمسالك ولا المقدمات . والنتائج هى التى تبرر

الذرائع وتقر الأسباب . . فسواء لديه إن هو اعتلى الخف ، أو ركب الحافر ، أو انساب على ذات شراع !. سواء ، فى شرعه ، عدل أم ظلم ، صدق أم مان ، أوفى أم خان ! . . سواء كل المطايا والمراكب، وكل المثالب والمناقب ، وكل الدروب والطرقات ، ما أمن أن يبلغ من خلال أيها أغراضه .

العصى على معاوية بن أبى سفيان — سليقة وطبيعة — كان أن ينطلق إلى هدف له على خطة مستقيمة ونهج سليم ، فيصارح ويواجه ويجابه ثم يمضى بغير التواء . واليسير أن يسير إلى ذلك الهدف ويراوغ وهو يبدو كمن لايبتغيه ، فيموه ويلتف كما يفعل ثعبان . تلك طاقة خلائقه التى ركزت فيه وادعى بها أصحابه له الدهاء ، وبعد النظرة ، وحسن السياسة ، وسعة الحيلة وما إلى مثيلاتها من قدرات ثم تابعهم كثيرون ، يومئذ وإلى الآن ، على نفس الادعاء . ولو أنهم تعمقوا دوافعه وسبروا طباعه ، وعايروا ملكاته بعيار عدل لبدلوه صورة بصورة ، وأوصافا بأوصاف . ولو ترسموا خفايا النزعات التى جسدت سلوكه ، لقطعت الدلالات بتغيير أسماء هذه الملكات ، ولما أعيى الكثرة ولا القلة منهم أن يصفوا العاهل الأموى — منصفين غير متجنين — بما هو أهله من نقائض ما أسبغوا عليه من نعوت وصفات .

ولا حرج هنا على الواصف كما لاحيلة للموصوف !. فلم يكن ابن أبى سفيان إلا ابن أبى سفيان ! . . لم يكن إلا نفسه ! . . فما كان مستطيعا ارتضاء الخروج من جلده ليشق سبيله مستقيمة معتدلة إلى ما يريد . ما كان أعسر على طبيعته ، وعلى اقتداره كذلك ، أن يعيش غير حياته . أن يتخير غير أساليبه . أن يقصر سعيه على الطرائق الأمينة . أن يلاقى غريمه وجها لوجه ، لقاء الأنداد الأكفاء ، والخصوم الشرفاء فى ساحة وغى أو فى معرض جدال ..

ولقد أنبأت عن كل هذا الأحداث ..

فطوال السنوات الأربع الأخيرة ، التى قضاها فى اختلافه على الإمام ، كان معاوية — فى صراعه على السلطة — كمن يقدم رجلا ليؤخر الثانية . كالواقف

السائر . كالمتحرك فى فراغ ! . كان يقارب ولا يقترب . يشاغب ولا يحارب . يطرق ويوالى الطرق ولكنه لا يقتحم الباب . ومن خلال معالم سلوكه ، كانت النظرة المتأملة لا يفوتها أن تراه يأمل فى الغد وهو مشفق منه . ويتطلع إلى المستقبل وهو ينتظره ولا يسعى إليه . كان كأنما يروم أمرا يقع فى نطاق أحلامه ثم يعلو فوق قمة احتماله . ويهفو إلى نصر يعلم أنه لا يظهر إلا فى رؤى خياله ! . فأما محاولاته العدائية التى سخر لها نفسه وحزبه ، جهده وكيده ، سلمه وشغبه ، فلم يكن يطمع — بعد درس صفين — أن تصبح فيصل النزاع بين على وبينه ، فتجيئه بالنصر ، بقدر ما كان يتخذها وسيلة لإيهام الناس بندِّيته لغريمه ، ثم بتفوقه عليه ، ثم باقتداره ، لا محالة ذات يوم مقبل ، على تحقيق أطماعه العريضة باحراز النصر .

٢

لعب معاوية بسلاح عصره ! .

لكي يبدو الرجل وهو الأقدر ، كان عليه أن يبسط كفه فلا يقبضها ، وأن يشهر سيفه فلا يغمده .

كان هذا هو منطق الأوضاع .

ففي زمان « انقلابي » كزمانه ، أخذت النفوس فيه تنحرف عن الجادة ، المثل الروحية تتهافت ، القيم تنتكس ، الجباه تعنو للدنيا ، والقلوب تبتعد عن الله ، لا يكاد فصل الخطاب يصبح لغير المادة في نظرة الجمهرة الكبرى من الناس ، وعند وزن المزايا وتقدير الأشخاص . للمادة وحدها ، ممثلة في دعامتي القوة : السيف والمال .

وقد أتقن معاوية ، حقا ، استخدام هذا السلاح ، أو هو أتقن كل الإتقان « المناورة » به إذا ما تحدثنا بلغة الألاعيب والحيل ، وقسنا الوسائل والغايات بذلك المقياس . .

بالسيف ، ممشوقا ، خايل العاهل الأموى معاصريه ، أولياء وأعداء ، ليخطف إليه نظرات عيونهم بوهج الشفرة المصقولة ، فلا يرى أحد في الحلبة سواه .

وبالمال ، مبذورا ، اشترى النفوس ..

وبهما معا اجتمع له — بمقياس زمانه — شرف البطولة الحربية ، وشرف السخاء والأريحية ، ولا شأو فوقهما لطالب شهرة ، أو لساع لسلطان .

نفذ معاوية إلى غرضه من خلال « الماديات »

واستعدى عليه الغرائز والشهوات ، والأهوال والمخاوف ، والرغبات والأطماع ..

وكان « بارعا » فى النفاذ « بارعا » فى الاستعداء .

فحين نعرض — بخاصة — لأعماله أثناء عام الصراع الأخير ، نراها سلسلة متصلة الحلقات من التمرد ، تهدف بدءا ونهاية إلى الإيهام بأنه ، فى مجال ذلك الصراع ، هو الأقدر الأنفع ، الأدنى إلى النصر ، الأقوى على الأمر ، الأولى بولاية الناس ..

ولا نعنى بهذا أن غاراته الحربية وحدها — كما فى عرف كثيرين — هى التى دفعت به إلى مكان الصدارة ، وهيأت له ، فى خواطرهم ، أسباب الترجيح .

ولكننا نعنى أنه أخرج كل ما بجعبته . لعب بكل ما فى يديه . ناور بكل أساليبه التى يدخلها أنصاره فى نطاق الدهاء والحذق، ويضمها من عداهم فى صفوف الاحتيال والتزييف ..

على أى حال ، بدت فعاله آنذاك كلعبة سياسية ماهرة ، متقنة الإعداد ، متسقة الخطوات ، مضمونة الغاية بما انبنت عليه من جهود محشودة ، وانطوى فيها من مكر ذكى ، وزودت به من توقيت محسوب ،إلى جوار إحكام الربط — فى مجال تنفيذها — بين الدقائق والجزئيات بما يحقق انتظام التحرك ، وتعاقب المراحل فى تسلسل منطقى وموضوعى سليم إن لم يؤد بصاحب اللعبة إلى النجاح ، فهو مؤد ، لا محالة إلى اقتناع الناس بجدارته بالنجاح ، ثم بحتمية وصوله ، مع الأيام، إلى النجاح ..

مناورة بارعة ، بغير مراء ..

بارعة فى حساب « الوصولية » التى تستبيح ما لا يستباح ..

وبارعة فى اعتبار « السياسة » بمفهوم أحدث اصطلاح ..

أو هى بارعة بمفهوم « المكيافيلية » التى وضع معاوية أسسها ، وأرسى قواعدها ، قبل أن يخرج إلى الوجود ، بعدة قرون ، أبوها « غير الشرعى » الذى تنسب إليه الآن ! ..

ولا غلواء ..

فها هو صاحب الشام ينتهج إلى غرضه أى سبيل وإن أهدر فيه كرامة الإنسان والإنسانية ، وامتهن مبادئ الأخلاق ، وتنكر لكل شريف من تقاليد الحرب والسلام ..

يرسل جنوده لتغير على أطراف غريمه فتحصد الأرواح ، وتنشر الخراب ، وتنهب المال ، وتنتهك الحرمات ، فلا يكون قصاراها إلا ترويع الآمنة الأبرياء ، وقتل العزل من السلاح بغير ضرورة قتالية ، ودون إعلان حرب على خلاف ما جرت به شرائع القتال المرعية فى ذلك الأوان .

ويستميل إلى جانبه رجالا من عليــــة القوم من أعوان على ، أو من معتزلة الخلاف المشبوب بين حزبه وحزب العراق فإذا هو — حين يستميلهم — إنما ينصر المثالب على المناقب ، ويسود النقائص على المكارم ، لأنه لا يبلغ أربه إلا فى عبيد المآرب ، ولا يبلغه فيهم إلا من خلال أوضع الخلال ، وبإحياء العصبية ، وإنعاش الغرائز ، وإضراء الشهوات .

ويكيد لمن يناهضونه ولا يتبعون سبيله من قادة الرأى وذوى النفوذ فى الأمة الإسلامية ، فلا يتحرج ، وهو يبرم كيده ، عن « ابتداع » الأخبار ، وقلب الحقائق ، وتزييف الوقائع ، ونشر الشبهات والأكاذيب .

حلقات من الأساليب وحلقات ، تواترت فى سلسلة طويلة من أفاعيل معاوية عام الصراع الأخير ، ما نراه كان يرمى بها ، حين أطلق أجناده ، أن يغزو أرضا ليملك ، ويحارب جندا لينتصر . وحين ألق دعاواه ، أن يدحض باطلا بحق ، ويمحو خطأ بصواب ، ليقنع اللائذين بغير ظلاله باستقامة نهجه ، وشرف مقصده ، وعدالة مسعاه ..

كلا ..

بل هو قد فعل ليحمـــل الناس ، شاهدهم وغائبهم ، دانيهم ونائيهم ، على الاقتناع بأن أبى سفيان وابن أبى طالب سيان . ندان فى ميدان ..

ثم فعل ليبدو فى العيون والخواطر البطل الجلد والخصم العنيد ، الأصبر من غريمه على موالاة النضال ، الأثبت فى مواقع القتال ..

ثم فعل ليعلم من لم يعلم أنه الأخلق بالنصرة ، الأحق بالتأييد ، لأنه قبلة كل قاصد ، وملاذ كل لاجئ ، ورجاء كل راج ، يأمن فى رحابه الخائف ، ويعز المستمين ، ويفخر النصير والمعين ..

ثم فعل ليروه أولى سائس فى الدولة المريضة بسياسة الأمور ، وأقدر ربان على قيادة السفينة إلى شاطىء الأمان ..

ثم فعل ، أخيرا ، فعل المتفضل ، الذى لا يبخل بالجور على صالحه الخاص فينزل عن بعض ما يملك لمن لا يملك ، ويسخو ببعض حقه المضمون على خصمه المضيع من أجل حقن الدماء ، وإشاعة السلام ..

تلك مراحل من المكر الخبيث ، سلكها معاوية فى خيط واحد فى أخريات عهد الإمام . أعدها بمهارة ، ونظمها بحذق ، ومارسها باقتدار . لبسها التمويه لتجوز على الناس ، فإذا هى تجوز آنذاك لأنها جاءت فى أوان طغيان المظاهر على القيم ، وطوفان الزخارف على اللباب ، وغلبة المادة على الروح . وإذا هى تجوز إلى الآن على كل من يتخطف المعالم ولا يتعمق الأغوار ، ويبهره بريق القشرة فلا يجاوزها إلى ما تغشى من الحقائق الخفية المستترة من الخدع والأكاذيب بألف ستار وستار .

ونجح الداهية المخادع حيث كان ينبغى له ان يخيب إذا ما عويرت وسائله بعيار الحق والفضيلة . وفشل غريمه الأمين حيث كان ينبغى أن ينجح لولا نكسة القيم وتهافت الأخلاق .

كانت غارات الشام — مع تردد العراق عن مقابلتها بالرد الرادع — أكثف أقنعة البطولة الأموية التي نقب بها معاوية محياه لتخفى عن الناس بعض ملامحه الحقيقية المهزوزة ، وتبرز لهم منه الصورة الأسطورية البراقة التي عمل طويلا على تلوينها لتلفت إليه الأنظار ! .. كانت أقوى وسائله لاجتذاب الإعجاب .. كانت أبلغ حججه ، وأدمغ براهينه لنشر الإقناع ..

ونجحت الحيلة فيما أراده لها صاحب الحيلة بأيسر الجهود ، وأبخس الأثمان .

فقد لعبت تلك الغارات الوحشية دورها المرجو ببراعة ، كاملا متعدد الشعب والأفانين ، متقنا مضمون النتائج والغايات .

فهي سيف إرهاب .

وهي مـــورد مال .

وهي عنوان بأس .

وهي مطية اشتهار .

وهي ، بهذا وأمثاله من ميزاتها وخصائصها، مجلبة رعية ، ومصيدة أنصار ! ..

ولا غرابة . لأن العرق النافر ، والعضلة المشدودة ، والصيحة المدوية ، وغيرها من معالم العنف والبطش والتجبر ، خليق بها أن تبدو للعواطف البشرية الغريرة كأنها دلالات تفوق وقوة ، أسرع إلى إثارة عجب الأنفس وإعجابها ، وأقدر على استمالتها وكسبها من سماحة الحق التي تتحدث ، عادة ، إلى العقول بالجرس الهادئ الذي لا يعرف الضجيج ، وبالمنطق الرصين الذي لا يعرف التهويل ..

فتلك طبيعة الطبول ! .

ومع أن معاوية قد استطاع بهذه الغارات أن يلبس غير ثوبه ، ويجاوز مداه في الاقتدار .. وأن يرتاد الأرض « العلوية » من الشمال للجنوب ، يطأ منها ويقتحم ما شاء متى شاء .. وأن يغصب أهلها العزل الأمن والراحـــة والمال ثم يتخذ بعضهم رعية موالين بعد أن يحملهم الرعب الزاحف ، في ركاب قواته المغيرة على هجرة الوطن والأهل لياذا بإقليمه الذى لم تحاول قط أن تنوشه جنود العراق ، وفرارا من بطشه الضارى إليه ! .. مع هذا كله فقد ظل الرجل المستأسد وفى نفسه من الإمام شيء لم يشفه منه تلاحق ضرباته ، وشدة سطواته ، وما حققت له غاراته الإرهابية المدمرة في حومة الكر من « نصر » وفى أعين الجماهير من تقدير ..

فيما تخال ، كان يجرح كبرياء ابن أبى سفيان — وهو يجهد جهده ليبدو الند الكفء للإمام — أن يحس بافتقاره إلى مثل حنكة غريمه الحربية في مجال قيادة الجيوش بساحات القتال ، وإلى مثل شجاعته البطولية التى بزت كل ما عرف من شجاعة الأبطال عبر التاريخ ، في الغابر وفى الحال .. فلعله تمنى بكل قلبه لو أنه ماثل عليا في هذا الميدان ، وعادله بنفس الميزان ، فإذا هو لا يبلغ بأمنيته هذه غير حلم حالم ، ووهم محموم ! .. ولعله طمع أن يقع لنفسه — ولو فى أحاديث خلصائه — على كلمة تنم عن تمرسه بالحرب ، وقوة جأشه عند اللقاء ، فإذا هو لا يقع بطموحه ذاك ، على حرف واحد من حروف الكلمة المرتجاة يقرنونه بسيرته وإنهم فى سيرة غريمه ، فى هذا المضمار ، لينشئون الطوال وينظمون القصار ! ..

إلى القدرة القيادية فى حومة الوغى ، وإلى ثبات الجنان عند الالتحام ، كان الرجل يفتقر بعض افتقار أو عساه كان يفتقر أشد افتقار ! .. وبحصيلته المقدورة من كليهما كان عليه محالا من المحال أن يطاول الإمام .. فما خاض على بن أبى طالب معركة قط ، منذ صباه ، إلا شق لنفسه طريقا في أعدائه بسن حسامه ، ومشى إلى النصر على جماجم خصومه . ولا صاول قط ، فى موقع نزال ، فارساً له فى سجل الفروسية مآثر ، إلا صرعه وجرعه حتفه ..

بهذا وهذا تحدث عنـــه إلى عالم البطولة منطق الوقائع كما تحدث إقرار الأشخاص .. وإذا كان عاهل الشام قد نجا بجلده فى صفين ، فبغير شجاعته وبغير حنكته الحربية كانت حينذاك نجاته ، وإنما بالجبن ثم بخدعة التحكيم . وإذا كان قد طالما نعم فى ذلك الأوان بثناء الأعوان والبطانة ، فقد كان يعلم أنه الثناء الذى لا يستطيع أن ينفض عنه إحساسه بالمهانة ، لأنه فى الحقيقة ثناء منافق ما له من سبيل إلى الحظوة لديه إلا أن يقرنه بغريه إن لم يقدمه عليه . أو هو ، فى أقل القليل ، ثناء رفيق رقيق شاء ، بزخرف الحديث ، أن يهون عليه وطأة ذلك الشعور بالقصور ..

حتى بعد أن آلت الخلافة إليه ظلت معرة تخلفه عن الإمام فى مجال الطعان تلاحقه وتطل عليه ! . . طاردته فى كل سكنة خلا فيها إلى نفسه مع الذكريات . وطالعته من كل لمحة من لمحات ذلك الماضى جرت بمجلسه على لسان . وخايلته مع كل كلمة أطلقها عليه خصم ثائر فى ساعة غضب ، أو حليف ساخر فى مقام تندر .. وما نظن أذنيه إلا بقيتا ، إلى آخر لحظة من لحظات حياته،وهما مليئتان بعبارة صدق مريرة خاشنه بها — فى معرض حوار — وليه ورفيق حيله عمرو ابن العاص وإنه لأقدر امرئ على ابتداع الرياء لو شاء ، وأخلق خاصته بإسماعه أعذب الثناء ..

. . . فلقد طاب لمعاوية يومئذ أن يداعب صاحبه ، إبان خلوة ، فقال له :

« يا أبا عبد الله .. لا أراك إلا ويغلبنى الضحك » .

فسأله :

« بماذا ؟ »

« أذكر يوم حمل عليك أبو تراب فى صفين ، فأزريت نفسك فرقا من شبا سنانه ، وكشفت سوأتك له . »

وعلى الأثر عاجله عمرو :

« أنا منك أشد ضحكا . إنى لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سحرك ، وربا لسانك فى فمك ، وغصصت بريقك ، وارتعدت فرائصك ، وبدا منك ما أكره ذكره لك » .

فتنصل الماهل :

« لم يكن هذا كله ... وكيف يكون ودونى عك والأشعريون ؟ . . »

غير أن ابن العاص كان أعرف بزيف هذه التعلة ، فأجاب :

« إنك لتعلم أن الذى وصفت دون ما أصابك ! . لقد نزل بك ودونك عك والأشعريون ، فكيف كانت حالك لو جمعكما موضع الحرب ! . . »

فبهت معاوية . ما كان أغناه عن هذه الداعبة التى وضعته حيث يكره ، وأثابته سخرية رفيقه ، وذكرته مالم يكن يحسب أن يذكر بعد أن لفت الحادثة المهينة فى غلاف كثيف من مداهنة أعوانه وكادت تتوارى خلف ستر النسيان .

لـكنه ما لبث أن استرد جأشه . .

فما هو بالذى يصيبه الحسر وله من ذخر لباقته ما ينجيه !. على الفور استعان مقدرته على المداورة ليدارى خزيه ، فاستضحك كمن لايبالى . وأقبل بكل وجهه على محاوره ، ثابت النظرة ، يقول فى هدوء :

« يا أبا عبد الله ! . إن الجبن والفرار من على لا عار فيهما على أحد . . »

وحسم الحوار بهذا الإقرار ! . .

أبدا لم ينس معاوية ، عمره كله ، خفة وزنه فى كفة الشجاعة ، ولا ضآلة قدره فى قيادة الجيوش ، كلما رأى أن يقيس نفسه بالإمام ، بل يظل الإمام ! . . هو لاينـكر ، وإن ود الإنـكار ، ثم يقر وإن كره الإقرار .. ولاضير عليه من هذا النقص ، ولا عار كما قال ، ماظل نقصه سرا بينه وبين نفسه يجتره فى خفاء لا يهدر خيلاءه ، ولا يجرح كبرياءه . . لـكن الضير كل الضير ، والعار كل العار أن تلوك مهانته الذكريات ، أو تتندر بها الشفاه بينما القزم المستقر فى إهابه يحاول

جاهدا أن يمط رقبته ، ويشب على أظافر قدميه ، ليشمخ بأنفه مفاخرا وكأنما أوهم الناس أن رأسه ارتفع حقا إلى ما فوق مستوى رأس العملاق ! فأما وقد لوت غاراته إليه الأعناق ، وبهرت الأعين ، وشغلت الخواطر ، فلير الجماهير إذن — رأى واقع — أن النصر الذى حازه له مغيروه فى مخاليف اليمن ، وبلاد الحجاز ، وعلى مشارف العراق ، إنما كان من تدبيره ، وصنع يديه ؛ وليس لقادة الغارات من أصحابه فيه دور مذكور غير دور الأدوات !.. وأن الحنكة الحربية التى مارسوها بتلك المواقع المشهودة ، وعلى ذلك النحو من النجاح المؤزر إن هى إلا من وحى فكره ، ونتاج كفايته . . وأنه يستطيع ، لو شاء ، متى شاء ، أن يقتحم على عدوه عرينه ويفعل تحت سمعه وبصره ما بدا له أن يفعل ، وهو مدرك لما يفعل ، عامد إليه ، قادر عليه .

بهذا أراد أن يبدو للناس عسى أن يرفع فى اعتبارهم قدره . عسى أن يطمس معرته . عسى أن يمحو من أخلادهم ما قر فيها طويلا طويلا من افتقاره إلى مثل شجاعة ابن أبى طالب ، ومثل تمرسه بالحرب ، ومثل اقتداره على القيادة . . فما أن فرغ بعض قادته من بعض غاراتهم على أطراف على ، وثبت له تقاعد عدوهم عن مبادرتهم بالردع ، حتى عقد عزمه على السير بنفسه إلى مواطن غزعه سير محارب جلد ، وقائد مغوار ، يتحدى الأخطار ! . .

وفعل .

فقبيل ختام السنة التاسعة والثلاثين للهجرة بقليل — ومد الغارات الأموية العدوانية قد سرح على السهول والوديان ، وارتفع إلى الحزون والبقاع . وسيرة الهول الذى نثرته فى المواقع المضروبة قد ذاعت فى كل مكان من المناطق «العلوية» تنشر الهلع ، وتعصر الأفئدة ، وتحرق المدامع ، وتخرق المسامع — خرج العاهل الأموى من قاعدة حكمه دمشق على رأس حملة عسكرية كبيرة ، ذات كثرة وأيد من النفر والسلاح ، يؤم بها التخوم الدانية إليه من بلاد العراق .

وتلفت الأمس يتابع رحلة الثأر للكرامة ، وغضبة معاوية لكبريائه

المجروحة ! . . إن الرجل ليطير الآن بجناحى باشق يتهيأ للانقضاض . . ملء قلبه ثقة واثق . وبيمينه بأس جبار . في الجو حوله رائحة الحرب . الأرض تحته تهتز باعتزازه . هو كالمعصم وجنده السوار . والنقع الثائر من خطا الأقدام وحركة الحوافر يؤلف غمامة كثيفة من الضباب تكاد تخفى عن العيون معرة جبنه يوم صفين . .

وصعد بجيشه إلى الشمال حتى بلغ أعالى الفرات . ثم يامن به نحو الشرق حتى وصل إلى مجرى دجلة . . فلما أن بلغ برزخ الأرض بين البحرين ، انحدر قليلا إلى الجنوب ، وحط رحاله وأجناده قرب الموصل على الماء . .

فكأنه كان يشرف من قمة عالية على الماضى والحاضر . .

على مسافة غير بعيدة من معسكره ، كانت مدينة « نينوى » حاضرة آشور ، تزهى بمجدها الخالد الذى كانت تضرب به يومئذ فى قاع التاريخ إلى عمق ألفى عام ، وظلت تخايل ، بعنفه وجبروته ، عالم ذلك الزمان عدة قرون . . ومن خلال الجبال ، تحت ظلال شواهق الشجر ، كان دجلة ينساب فى واديه إلى مصبه البعيد فى الخليج ، تتوالى معالم الأحداث على ضفتيه . فها هنا يلامس القادسية التى شهدت سقوط فارس بحسن بلاء ابن أبى وقاص وصدق جهاده لنشر الإسلام. وفى انحداره منها يعرج على النهروان ليعيد للذاكرات مصارع الخارجة على يد الإمام . . ومن بعدها المدائن التى هم سفيان بن عوف بن المغفل الغامدى أن يجتاحها بغارته لولا أن ثبت لآلافه الستة حسان البكرى فى ثلاثين من رجاله استشهدوا معه فى الأنبار . .

مراحل من التاريخ تصل بين أمس واليوم ثم تنطلق مع رحلة النهر الجارى كأنما إلى غد مقبل سوف تنجاب عنه الغيوب . . ومعالم من البطولات تطل من الغابر السحيق والقريب على دجلة وهى يانعة نضرة ، وإن تعاقب عليها زحام الأعوام واستطالت عهود الآماد ، كأنما النهر الدافق كان يرويها بمائه لتبقى دائما حية فى الخواطر ، تذكرة للغافل ، وعبرة للذاكر . .

فإن يكن ابن أبي سفيان قد استبداد في باله ، يستقره هذا وهو مشرف على مدينة الموصل ، بعض صور البطولات الماثلة لخياله من وراء الضفاف ، فذاك أحرى إن كان مثله منهوما بالبطولة ، مشغوفا بالمجد ، نزاعا إلى العلياء . . وإن يكن ، حين إشرافه ، قد أعاش نفسه في إطار إحدى هذه الصور البراقة كما تعيش شرنقة الدودة في غلافها الحرير ، فذاك أدنى إلى اتجاه أحاسيسه ، أولى بحالته النفسية الجديرة بأن تنشط خياله ، وتلهب آماله . .

وماله لا يفعل وقد تقضت عليه بضعة أيام ، ندية كريح الشمال ، رخية كهداة الجبل ، فوق الأرض « الملوية » عند تلكم المدينة وهو على طمأنينة كأنه ببعض أعماله ؟ . . لقد أقبل شوطه الطويل من دمشق إلى مكانه هذا فيما بين النهرين عبر الجزيرة ، وما تصدى له في انطلاقه مناجز . . وأقام هناك ما أقام ، في غير موطنه ، متحديا عدوه ، فلم يغب به المقام ، ولم يهتز بنان — دع السنان ! — في وجه تحديه . . ثم ارتأى أن يطوى الرحلة ويعود بالحلة ، فإذا هو آمن في الغربة ، آمن في الأوبة كأمنه في الخروج ، لم يعكر عليه إقامته معكر ، ولا اعترض رجوعه معترض ، ولا لاحق خطواته الوئيدة الواثقة مغير . . أفلا يحق له الآن بعد هذا أن يفخر ، ويفخر بفخره مريدوه ؟ . .

بلى ! . .

أم ليس في الناس ، هنا وهناك في العراق والشام ، من تسامع من بعد بهذه المغامرة البطولية فأكبر في العاهل اجتراءه إن لم يكن قد قرنه — في الشجاعة — بشريعه ، وقومه كتقويعه ؟ . . أم لم تكن عاقبة حملته له ، نوعا من نصر وقدرا من ذكر ، يعوان ما سلف من هوانه ، ويرجحان بميزانه ؟ . .

بلى ولا جدال ! . .

وكيف لا وإنها حقا لمعركة ، كتب له فيها الظفر ، وإن يكن خاضها بلا سلاح ، وكسبها بغير قتال ؟ . .

فقد اقتحم فيها على غريمه حدوده . مشى الخيلاء فوق سلطانه . أوطأ خيله عرينه . عسكر فى حرمه . بث بأرضه طلائعه . حرك فرقه وسراياه . وقف فى الأهبة والدربة يتحدى اللقاء ، وهو ثابت القدم ، جلد الفؤاد ، مرفوع الرأس ، فإذا الصباح ينسخ الليل ، وإذا الليل يغشى الصباح ، يوما وراء يوم ، ولا شىء يأتيه من جانب العراق بما ينم عن انتفاضة الليث الجريح ، القابع فى السكوفة ، ثأرا لحرمه المستباح !

٤

أوشك معاوية أن يبلغ ثأره . .

بعد قرابة ثلاث سنوات ، غائمة مضطربة ، لاح للناس واضح المعالم . بدا في هيئة منتصر . لعل الوصل الصامتة غيرت صورته . أبرأت جراحه . ردت عليه كبرياءه التي ضيعها « هلمه » فوق أرض صفين . .

وحق لهم . .

في اعتبارهم يسمه الآن أن يشد قامته . أن ينصب عوده . أن يتلع جيده . أن يضع أنفه على قمة رأسه ! . .

وحق له . .

فطائفة منهم غير قليلة ، بدا لعيونها وقد قارب غريمه .طائفة أخرى عادلته به. وطائفة غيرها رفعته عليه .. ولا خلاف ، في هذه النظرات المتراوحة ، بين قومه وقوم خصمه ، أعدائه وأوليائه ، لأن الوثبة الأخيرة العالية ، التي وثبها من بضعة أيام ، بهرت أعين الأمة جميعا ، على تباعد المسافات ، وسرقتها ، وحولتها إليه ! .

بين الرجلين المتصارعين راح يتأرجح رأى الجمهور . مرة إلى هذا ومرة إلى ذاك . مرة هنا ومرة هناك . . تدانى التقدير بعد تفاوت . . استوى الميزان بعد انحراف . تسكانا وإن يكن هو ، دون الإمام ، قد اجتذب الخواطر إعجابا به أو عجبا منه ، ترنو إليه مستطلعة . تتسقط أخباره . تتلقف همساته . تترقب حركاته وسكناته ، كأنما تتوقع أن يفاجئها ، بين لحظة ولحظة ، بجديد . .

بل الأمل فيه ، إلى جوار هذا ، قد ربا في الشام . والتوجس منه قد زاد في العراق . والأحداث المجهولة المتوارية خلف الأفق واقفة على أهبة ، تنتظر الخطوة التالية التي عساه أن يخطوها ، لتلحق بذيله ، وتسير وراءه إلى حيثما يعتزم أن يسير . .

ولا غرابة . . فالعمل المثمر الفعال ملء جعبته ، والقول الحاسم الفصل على طرف لسانه ، والمبادرة بكليهما أو بأحدهما ، بين أصابعه كمثل خيط يتلعب به ، لو شاء شده أو شاء أرخاه ! . .

تغير الموقف . .

تبدل ظاهره ، فبدأت صفحته الرتيبة تضطرب . وتبدل باطنه ، فبدأت القدر تفور ! . .

ولم تكن الغارات الضارية وحدها هي التي غيرته . فإن هي إلا كالمد يعتور البحر ساعة أو بعضها ثم ينحسر فإذا هو يكاد لا يترك شيئا وراءه إلا الجفاء . . ولكن للموصل ، في الأغلب ، هي التي قلبت المعايير ، أو كانت نذيرا بالانقلاب . . فهذه « المعركة » الخرساء التي لم ينطق بساحتها سيف ، ولا فتح جرح فاه ، لوت بيدها الماهرة الدربة أفكار الناس ، وقهرت الزمن على أن ينحرف بركبه عن مساره الطبيعي ليرتاد حلقة أخرى من مراحل الكفاح . .

فبانتهاء موقعة صفين ، انطوت صحيفة « المواجهة الحربية » بين الفريقين ، لتفتح بعدها في سجل الصراع العلوى المعاوى صحيفة أخرى من الركود المتحفز ، أو « السلم المسلح » الذى كانت تفصح أحيانا عن عنفه بضعة انتفاضات قتالية تمثلت في غارات هدفها ، فيما يلوح ، إسدال ستر كثيف يدارى هزيمة الجيش الأموى في تلك الوقعة ، والإعلان في صخب وتواتر عن القدرة القتالية للشام . . فالأسلحة ، خلال هذه الفترة الراكدة من الصراع لم تصمت الصمت كله في كلا الجانبين بعد أن جمدت حركتها الناشطة خدعة المصاحف . لم تقر في القرب لتصدأ وتنام ولم تدفنها الأغماد . وهدنة التحكيم المفروضة على الفريقين لم تقف الحرب ، ولم تجىء بالسلام . . ومع ذلك فالحرب القائمة إذ ذاك — إن سميت حربا — لم تكن تزيد عن تراشق من بعيد ، أو معارك جانبية لم يتح فيها التقاء الخصيم بالخصوم لقاء الالتحام الذى من شأنه أن يمحص القوى ، ويحسم الموقف ، وينهى النزاع . .

أما « معركة » الموصل فهى ثالثة المراحل وختام الرواية، لأنها تمثل الخروج بالصراع المشبوب من ساحة الحرب المادية أو التقليدية إلى ساحة الحرب المعنوية أو النفسية بتعبيرنا الحديث . ولا يعنى القول أن هذا النوع من النضال لم يألفه من قبل ولم يمارسه الفريقان ، لأنه فى حقيقة الأمر يلازم عادة صراع السلاح ، ويسبقه ، وينفرد دونه كثيرا فى الميدان . ولكنه يعنى أنه فى هذه الفترة الثالثة لم يكن تبعا للحرب العسكرية وعونا لها ، بل كان ذا اليد الطولى التى تسنم ذروة الصراع وترك لغيره من ألوان المناجزة أن يرسب فى القاع ! . .

ولقد يوشك امرؤ أن يرى فى السير إلى الموصل بادرة جرأة يثاب عليها معاوية مثوبة تقدير حين يحسب هذا السير فى عداد المغامرات . . فالمغامرة تنبئ عن اعتداد المغامر بنفسه وصلابة شكيمته . . وتصدى صاحبها للإقدام على القيام بها يعبر عن اجترائه على ما يكاد يعتبر من قبيل الخوارق . . واقتحامه طريقها الشائك يعلن عن جسارة تستهين بالخطر الماثل أو المتوقع ولا تبالى من النتائج إلا أن يثبت بها ذوده عن كرامته سيان عنده نجح فبلغ غاية شوطها أو قتل ببعض مراحلها مادام رافع الرأس ، ثابت القدم ، شاكى السلاح . . يوشك الرأى هكذا أن ينحل عاهل بنى أمية خير صفات المغامر العنيد الذى يثور لشرفه، ويناضل لتأكيد كبريائه لولا أن طبيعة مجازفة الموصل، وموقتها، وعمرها، وما يحيط بها من ظروف تنأى جميعا بالرجل عن هذه الصفات ، وتخرج بإقدامه عليها ، وبممارسته إياها ، من حدود النية المعقودة على العمل الجسور ، إلى حيز العزم المبيت على التمويه الخداع ! . .

شواهد الحال تفصح بغير مواربة عن هذه الحقيقة التى لا سبيل إلى إنكارها لمتأمل يتعمق واقعها المعلوم . . فالعاهل المدل إبانها باقتداره ، المستعلى بعدها بفخاره ، كان راسخ اليقين — يوم تحرك بحملته صوب الموصل — أنه آمن أى خطر كل الأمن حين السير ، وحين المكث ، وحين الرجوع على السواء ، ما شاب يقينه عندئذ ظل من شك ، ولا طارت به أسرع مخاوفه وأعصى ظنونه إلى توقع التمام . .

كان لاريب واثقا أن خروجه إلى البلدة الموغلة فى الشمال ، أبعد عن علم أعدائه ، بل تصورهم ، لأنه خروج بغتة مغلف بالتكتم ، مستتر بالإخفاء ، تراد به مفاجأتهم وأخذهم على غرة كغرض سواه من الغارات التى كان يفرقها هنا وهناك لترهب العراق ..

كان أيضا على بينة أن غريمه فى شاغل عنه ، وعن ضرباته السريعة الفرارة ، بعصيان أصحابه فى الكوفة له ، وتقاعدهم عنه . . فلا وجه إذن للخشية أن يبادر على إلى الخروج لملاقاة الحملة وإن مشت أنباء بهذه المبادرة لأنها عندئذ الأنباء الخليقة بألا تبلغ سمع المغير إلا وقد فرغ فعلا من رحلته ، وعاد موفورا إلى الشام..

كان موقنا ، كذلك ، ألا معدى للإمام — لو افترض أن رجاله أطاعوه ، واعتزم الرد بحملة مضادة — عن تعبئة جيش لجب ، لا يستغرق جمعه وتسليحه وتنظيمه يوما أو بضعة أيام ، بل مدة طويلة ، تفوق أضعاف الوقت الذى تقضيه الحملة الأموية من ساعة مخرجها إلى لحظة عودتها إلى قواعدها بأمان . .

وإذا اقترن هذا كله بطول المسافة الممتدة من الكوفة إلى الموصل طولا يبلغ مئات الفراسخ ، وبالمدة التى لا تقل عن بضعة أسابيع ، ويمكن لجيش الدفاع — الذى قد يظن زحفه من الجنوب — أن يصل فيها إلى مكان الاشتباك المنتظر بالشمال البعيد ، وبمشقة اجتياز عقبات كئود تفرضها على ذلك الجيش طبيعة أرض تتراوح تضاريسها بين لين الوديان ، وقفر الصحراء ، ووعورة الجبال والهضاب ، ومواقع المجارى النهرية المعوقة للسير . . إذا اجتمعت هذه العوامل معا أمام الخواطر ، بدا لا جدال للمتأمل الذى يتعمق الأمور أن احتمال التقاء الغريمين فى تلك الفترة بميدان وغى يصطرع فيه جيشان ، إنما كان ضربا من الخيال والمحال ، وأن معاوية حين خرج من دمشق برجاله فى السلاح والعدة ، إنما كان واضحا فى باله أن حملته رحلة تمويه لا حملة حرب ، وأن جنوده الذين قادهم لوجهته رفاق نزهة لا رفاق قتال ! ..

كلا لم يعن معاوية قط أن يستدرج غريمه إلى معركة بالموصل يعيدبها إلى الحياة

مرحلة المواجهة الحربية التى ختمتها صفين وأسدلت عليها الستار . . ولكنه كان يعى ، عن حساب وتدبر ، أن ينشط الحرب النفسية ، ويبلغ بحدتها وعنفها مالم تكن بلغته من قبل فى ذرا التمويه ، إيهاما لعامة الأمة ، ولكل من تبهرهم القشور والمظاهر ، ويجتذبهم قرع الطبول ، أنه الند العنيد الذى يبز خصمه فى مجال القوة العسكرية ، والكفء القادر الذى يستطيع ، دونه ، فى مجال البراعة السياسية ، أن يبادىء ويبادر ، ويسعه التحكم فى الأحداث وتصريفها على النحو الذى يرضيه ولا يباريه إنسان فيه . .

ويفصح لنا تاريخ الحقبة الماثلة عن نشطة هذا التمويه المعاوى وقدراته ، بأكثر من أسلوب من أساليب البيان والتعبير . .

فالتلويح بالتفوق العسكرى ، فى صورة هجمات مفاجئة ومتعاقبة ، مع تباعد مواقع الهجوم — كالغارات الإرهابية — توحى بالاجتراء على سلطة الدولة ، وفى صورة غزو شامل يحتل المناطق ويقتحم الحدود ولو إلى حين — كالزحف على الموصل — يوحى بتحدى هذه السلطة : وكلاهما تعبير عن الإدلال بقوة الغازى أو المغير ، كفيل بأن يحمل الناس على الاعتقاد بعجز الحاكم « الشرعى » عن حماية الرعية كعجزه عن حماية الحدود ، ويضعه فى تقديرهم غير حقيق بالطاعة التى بايعوه عليها ، وبالمنصب الذى وضعوه فيه . .

وإظهار انفضاض نفر من عمال الحاكم على الأقاليم عنه ، أو طائفة من صفوة خاصته ، اعتزالا له أو انحيازا إلى خصمه ، تعبير يشعر الجماهير بتقلص ظل نفوذه ، ووشك تهاويه ، وإشراف سفينة خلافته على الغرق إذ بدأت تهجرها الفيران ! .

والعدوان على مظاهر السلطة التي ينفرد بها رئيس الدولة من دون رعيته وعماله وولاته ، وعلى الحقوق والقرارات المكفولة لوظيفته الرسمية ، ابتزازا لبعضها ، ومقاسمة له فى بعضها الآخر ، فيه اجتراء علنى على هيبته كصاحب الرأى والأمر فى الدولة ، لا يغض فقط من شأنه ، ولا ينال من إحساس الناس بالولاء له ، بل هو يشير ، بأهون تقدير ، إلى انشطار الحكم بين أميرين :

أحدهما يسنده حقه التقليدى ، والثانى يسنده جبروته العدوانى ، ثم يوشك هذا أن يميل بالظانون إلى ترجيح دعوة السلطة الشرعية المتبوع الفاضل أمام الصولة الطاغية للتابع المفضول ..

هذه العوامل هى التي شكل منها معاوية حملة التمويه ، وتقدم بها إلى ساحة الصراع ليغرر بالشعب الإسلامى ، ويدفعه أو يدفع سواده الأعظم إلى الإيمان باقتداره على الأمر دون غيره . . وإذا كان الناس خدعوا آنذاك بهذه التمثيلية ، وجازت عليهم حيلها التمويهية الزائفة فأخذوها مأخذ الجد وأدخلوها فى حساب الحقائق ، فمن العجب أن تظل إلى الآن مسيطرة على أذهان من باعد الزمن بينها وبينهم بالقرون العديدة وكان أجدر بهم أن يتحرروا من قوتها الاستهوائية ، بعد أن تبددت ريح « جوها » الخاتل ، وأفسح لهم فى تناول مظاهرها وخفاياها بالتمحيص والروية ..

٥

الصورة التاريخية الشائعة عن طبيعة الفترة القصيرة التى اختتمت خلافة الإمام بها خطوط عديدة من الأضواء والظلال ، تبهم المعالم ، وتشوش الحدود ، فتعمم التعبير عن الحقيقة لأنها تخلط رصانة الصدق برعونة الخيال !.. بعض هذه الخطوط ثقيل كثيف ، وبعضها الآخر خفيف شفيف . وبين هذه وتلك يوشك النظر أن تبهره آنا سطوعة التألق فتعشيه ويوشك آونة أن يرده تراكم العتمة حسيرا لا يرى ما حياله . والرسوم والألوان تهتز على الأثر وتختلط حتى لتضل الأعين فى تبين العلائم المميزة لسمات الوقائع والمفصحة عن ملامح الأشخاص .

هكذا خفى من حقيقة الأصل، الذى تنقله لنا الصورة الشائعة، الكثير والكثير..

ولا مبالغة قط فى تصويرنا لهذا التقدير . .

فلقد أسرفت ، فيما نخال ، طائفة كبيرة من قدامى المؤرخين ، فى اعتمادها على ما تضمنته حملة التمويه العاوية من وقائع مكذوبة ومدسوسة كحقائق تاريخية لا تعتورها الشكوك ، كما جازت على معظم جماهير تلك الأيام كدلالة وحيدة مؤكدة على اقتدار صاحب الشام اقتدار تفوق على غريمه ، وكمدخل طبيعى ممهد يجتازه غير منافس إلى نصر حاسم مضمون يفضى به ، بلا محالة ودون عوائق ، إلى أريكة السلطان .

ثم أسرفت ، من بعد ، طائفة غيرها من محدثى كتاب السير والتراجم فى انقيادها — عن متابعة أو عن اقتناع — لهذا الرأى التاريخى القديم الانقياد الذى لا يؤيده إلا رونق السطوح والظهور ، وخلابة الطلاءات والقشور ! .

ولا ضير قط على أولئك وهؤلاء — فيما ارتأوا — ما غمت عليهم الحقائق، وخفيت عنهم الجذور بسبب كثافة الظلال أو بهرة النور ..

ولا ضير ثانية إذا ما أعوزتهم وسائل الكشف والتحرى ، وشق عليهم الغوص فى مجاهيل الأنفس ، وتعرف دوافع السلوك . .

ولا ضير أيضا إذا لم تشرد بهم نظرتهم هذه فتجور على أقدار صفوة مختارة من أنقياء الضمائر ، ورواد الحق ، منكرة نقاوتهم ، ملوثة سمعتهم ، خائضة فى سيرهم بما يقدح فيهم وإن خالف القدح كل واضح ومشهور من أخلاقهم وسلائقهم، وعارض كل غالب ومشهور عنهم من وقائع التاريخ .

كل هذا مقبول مغفور إلا أن يجور على اتساق التفكير . فأما والمنطق يجافيه، والروية لا تحجب الرؤية ، وطبائع الصفوة المفترى عليهم معلومة لا يكاد ينكرها إنسان ، وسوابق سلوكهم منشورة تحت تأمل العيون والأذهان ، فإن جهدا يبذل فى استقراء الشيم والسجايا ، ومعايرة الحاضر بميزان الماضى ، وفحص المزعوم فى ضوء المعلوم ، لأجدر بأن يوضع فى الحسبان قبل التصدى للقطع فى أمرهم برأى إن يكن ظاهره يعتذر عنهم بألا مناص من رضوخهم لمنطق الواقع القاهر ففحواه توحى للعقول خيانتهم واجبهم المفروض ! . .

كشطحة القدامى من المؤرخين كانت شطحة المحدثين فى تناولهم لهذه الفترة المتأخرة من إمرة الإمام ، سواء فى تقويمهم للحوادث أو تقويمهم للأشخاص . . ومن التأول الذى قد لا يدانى الانصاف، أن تعزى نظرتهم إلى سوء النية والأولى بها — اتقاء لشبهة التجنى عليهم — أن يقال إنها لم تكن محيطة ، وأن تنسب إلى الخطأ العفوى إن لم يكونوا ، بدورهم ، من ضحايا التضليل ! . . ولا غرابة . فليس من المستطاع فى هذا المقام إغفال قدرة معاوية على إحكام التمويه بتزييف الوقائع ، وتلفيق الأخبار ليلبس الأكاذيب طيالسة الصدق ، ويرسم الحقائق بهيئة أباطيل .

كم هكذا فعل الرجل ، طوال عمره ، وهو غير متحرج أن يظلم ويجور ! . . ثم زاد وأوغل ! . . ثم غالى ، على الأيام ، فى كل هذا الذى جبل عليه من التواء ماكر ، وفاء لنفسه ، وتعبيرا عنهـــا ، وكيدا سيئا للإمام خلال السنة الختامية ، فأناخ بزيفه وزوره على عقول الناس . .

ولقد نعرض بعض عرض لـكـشف مما بدر منه فى هذه الفترة من الفعال والأقوال ، فإذا هو يبلغ بكيده الغاية ، وبالإيهام أبعد مداه . . بين عامة مناصريه لا نكاد نعرف واحدا لم تجز عليه أخاديعه . . وبين جمهرة معاصريه لا نـكاد نقع إلا على قلة قابلت بالريبة أساليبه . وبين أساطير مناوئيه لا نـكاد نجد امرأً سلم من رشاش احتياله المسموم . ومن وراء أولئك كلهم تقف الأجيال ، وقف حيرة بين ومضات الحق وشطحات المؤرخين . .

والأمثلة ماثلة .

فحين نتصفح « كتاب » الداهل لا نلبث أن تطالعنا فى هذا « الباب » صفحات يستهل بها نشاطه الخاتل بكبرى أكاذيبه ، وهى تحميل على تبعة قتل عثمان . . ثم نتلو بعدها قصة ختله بعض الناس فى أمر قيس بن سعد بن عبادة حين كان عاملا على مصر للإمام . . ثم يتدرج صعودا من ختل الجزء إلى ختل الـكل ، فيغرر بالأمة جمعاء فى بضع وقائع وبضعة أفراد . ثم يستنهض غرسه بهذه القدرة التمويهية التى تجيد طمس الحقائق فيخدع التاريخ ! . .

حلقات متصلة وثيقة ، ونطاق مشدود محكم من الأساليب المريبة التى تبدأ بالـكذبة المراوغة وتنتهى إلى التلفيق المحبوك ! . .

ومع ذلك فليس هذا تجاوزا للإسناد ، ولا تجنيا على الرجل ، بل هو استقراء له منطق ، وإتهام له صريح . .

وإذا سيق الاتهام فلا بد من تحر ، وإذا ألصق الجرم فلا بد من دليل . وسيرة معاوية ، فيما نظن ، حافلة أمامنا بصور شتى من الشبهات التى تؤكدها البراهين . .

ولا نحاول هنا أن نحصى تهمه ، أو نعدد مزالقه ، فنتناول هذا الجانب الخلقى من حياته العامة تناول إحاطة وتفصيل . إنما نرى أن نلم به إلمام تنويه وتمثيل تحاميا للإطالة بغير ضرورة ، واكتفاء عن الإسهاب بالإشارة ، ما دام القليل يغنى عن الـكثير . .

على هذا الوجه من تتبع أساليبه يحق أن نقول إن « بصمة » من بصماته يعثر عليها منطبعة فوق صحيفة مزيفة من وقائع التاريخ هي خليقة بأن تثير بعض الشك في بقية الصحائف إلا أن يقطع بصحتها التمحيص . وأن التقاط صورة لهذه البصمة تضاهي بها لعلنا قد نقع عليه من آثار أصابعه فوق غيرها مما يحتوى سجله ، هو طريقة مأمونة للاستيثاق . وإن انطباق هذه ، من بعد ، على تلك ، كلها أو بعضها ، هو الدليل القاطع الأمين الذى يؤثم ويدين ..

عند هذا وتنقشع الظلمة ، ويسطع النور يهتك الغشاء ويكشف المستور .. يبيد الظن ويبرز اليقين ! ..

وها نحن أولاء ، عودا إلى الوراء ، نفتح من سفر معاوية صحيفة واقعته مع قيس بن سعد بن عبادة ، عملاق الأنصار ، وصاحب مصر من قبل على ، فإذا هى البيان الثبت الذى يأخذ الداهل الأموى بجريرة التلفيق دون سبيل إلى المجادلة أو التأويل ، لأن الواقعة ، بشهادة الإجماع ، وليدة تفكيره ، وبدلالة الموضوع برهان تجريمه ..

... إذ ذاك كان قيس بن عبادة قد استقامت له الأمور في أرض النيل ، طاعة له كحاكم للإقليم ، وولاء لعلى كرئيس للدولة ، فأصبحت مصر ، بوضعها هذا قوة عسكرية وسياسية ومادية في ميزان الصراع على السلطان ، تشكل خطرا داهما جديدا على الشام يضاف إلى الخطر الداهم الأصيل الذى يشكله العراق ..

ولا شك فى أن متاخمة الخطرين معا للمنطقة الأموية ، كانت خليقة بأن تقض على معاوية مضجعه ، وتهدد مطامعه ، وتعجله عن سياسة التريث التى لزمها من بدء الثورة على عثمان ، ترقبا لما عسى أن تسفر عنه فتنة البصرة من نتائج كان يأمل أن تكفيه أمر الإمام ..

واستلهم الرجل طبيعته للخلاص مما هو فيه ، فبادر على الفور إلى التلفيق !.

وما له لا يفعل وإنه لأدنى أسلحته إليه ، وأسلسها في يده ، وأقطعها نصلا فى وقت كانت تسوده المبادىء الدينية والقيم الخلقية على نحو ظاهر وإلى مدى

غير قصير !.. إن نفوذه ها هنا بأرضه لآفل ، وإن أمله ، من بعد ، فى دولة أموية لمقطوع . وإن الدائرة لا محالة عليه لو أنه أملى فى الوقت لغريمه بعض إملاء فرغ له ، أو تحركت مصر إليه وتحرك العراق معها فأصبح منهما بين شق رحى تطحن قوته ، وتسحق أحلامه ، وترمى بها وبه جميعهم نفاية وأشلاء إلى الذكريات !..

هب إلى العمل ، فحاول أن يشترى العملاق ..

ثم أذاع فى الناس عنه أنه مسالم له ، لا ينبو به ، ولا يطالعه بعداء ..

ثم دعا جهرة أهل الشام أن يأمنوه ويولوه الاطمئنان ، لأنه له شيعة ، يعينه سرا ، ويحسن له النصيحة ..

ثم زيف كتابا دسه على عيون الإمام ، بالشام والعراق ، مهره بمثل خاتم عامل النيل ، يعلن فيه ، صراحة ، ولاءه لمعاوية ،ويعده النصرة على على ، وتزويده بما يشاء من رجال ومال لقتال قتلة عثمان ..

واقعة معلومة أجمع عليها الرواة ، ولم تكن قط موضع ريبة عند كافة كتاب السير ، قدامام ومحدثيهم ، من كان معاوى الهوى أو علوى التشيع على السواء .. وكتاب مدون مقروء ، سجلته الصحائف فى كل مرجع من المراجع وسند من الأسناد ، لا شبهة فيه .. ووثيقة معتمدة ، عليها « بصمات » معاوية جلية ، تشهد عليه بمجافاته أمانة العرض ، وبترخصه فى المحظورات الخلقية ، وتؤكد اجتراءه على الحق والناس والتاريخ ، وتلصق به جرم التلفيق ..

ولقد نجح الداهل فيما توخاه من التغرير ببعض الأمة ، بعض الوقت ، حين أوقعها على هذا الكتاب المدسوس . وبلغ بكيده حينئذ مالم يكن بالغا بسلاحه ، فتخلص من قيس ، وأفقد أمير المؤمنين أحد جناحيه ! .. ولكنه نجح أيضا ، إن صح هذا التعبير ، فى إبقاء ظلال كثيفة من الشكوك على كل حادث بعلم له دور فيه ، ويحسب الأكثرون أنه واقعة صدق تثبت حقيقة فى غنى عن التمحيص ! ..

الفصل الثامن

١

ليس يستغرب فى هذا العام الأخير من خلافة الإمام ، أن يهب معاوية إلى العمل ، بكل طاقته ، لتغيير تيار التاريخ ، منتهزا الفرصة السانحة التى أتاحها له الاضطراب السياسى المهيمن على أرض على ، والقلق النفسى المستأثر بنفوس رجاله . فما من بيئة أصلح عندئذ للحرث والغرس واقتطاف الثمار ! . . وما من وقت أنسب له من هذه الفترة المشحونة ، من قبل السكوفة ، بالتردد والانتظار ! . وإذا كان قد حاول من قبل ، فأحر به أن يبادر الآن إلى الضغط بكل ثقله ، مجردا على غريمه أقوى حملة نفسية فى مقدوره أن ينظمها ويهجم بها ، عساها أن تجيئه بفصل الخطاب ! .

وقد فكر فيما يمر حوله ، وأمعن الفكر ، فإذا الظروف كأنما تناديه . . ثم أرسل النظر إلى بعيد وقريب ، فإذا الأحداث تتلاحق دراكا ، وتتدافع عجلى إلى مسرح الحياة تدافع جمهور مذعور من باب ضيق هو المنفذ الوحيد للنجاة . . ثم أعد ودبر ، فإذا إعداده وتدبيره يتجهان ، هذه المرة ، صوب الشرق ، حيث ترامت الحدود بعيدا عن الكوفة ، وما يقاصيها من ولايات وأعمال . .

وأصاب الوجهة فيما يخال وتخال ! . .

فثمة بهذا الشرق الفسيح أطراف شتى ، يراها نأت عن قبضة السلطة المركزية فى حاضرة الدولة بعض النأى حتى لتوشك ، إن تمردت ، أن تأمن سطوة البطش وقهر التأديب ولو إلى حين . . وثمة بقاع رق فيها سلطان غريمه كرقة الثوب البالى الذى لا يستعصى على التمزيق . . وثمة مناطق ما زال بها أثر من ثورة ، تشتعل يوما وتسكن يوما ، ولكنها لا تنطفىء لأنها تستمد دائما زيت وقودها من إحساس أهلها بقومياتهم الأصلية التى أرادها الحكم العربى ، منذ الفتح ، على الذوبان فى « القومية » الإسلامية الجديدة . .

بعيدا عن الكوفة رمى معاوية ببصره فساحت به أطماعه فى الأصقاع الشاسعة ، الممتدة شرقا من شاطىء دجلة ، موغلة فى العراق الفارسى ، وفى فارس القديمة العملاقة نحو هضاب الأفغان . . فهذه الأنحاء الرحبة ، بما تضم من أراض جبلية وعرة ، وتؤوى من شعوب عنيدة حرون ، أولى من غيرها ، فى اعتقاده ، بجهوده ، وأدنى إذن إلى خضد شوكة الإمام سواء انفصلت عن حكمه أو دخلت فى طاعة الشام . .

ليس حقا يستغرب ، فى هذه الآونة المضطربة ، أن يعقد العاهل الأموى رجاءه على الشطر الشرقى من الدولة ، عسى أن يستكمل به سلطانه المنشود .. فالأمور قرت له بالغرب أيما قرار . الشام أخلصت له الود وأسلمته الزمام كما لم تمحض قبله ودها ، ولم تسلم مصيرها وأمرها حاكما من الحكام . ومصر وما يليها من إفريقية دانت له بالخضوع ، وضبطها ابن العاص . وعلى بن أبى طالب قد هدأ ، مغلوبا بقبوط أصحابه وتخاذلهم ، عن الزحف إليه . . وبهذا كله قد أمن الرجل على نفسه وإقليمه الخطر الغربى ، كما أمن مغبة المواجهة العسكرية بينه وبين الإمام إذ باتت الآن أشبه برؤى خيال . .

وليس أيضا من قبيل طوارىء المصادفات أن يجند كل جهوده الهدامة ، وينيخ بها على المشرق كيدا ختالا يكفيه ما كان دائما يخشاه من ملاقاة عدوه فى ساحة قتال ، ويلتوى بالناس فى نواحيه عن الطاعة المشروعة التواء يحقق له فى نهاية المطاف استصفاء المشرق كاملا لنفسه ، أو انتزاع جزء منه يدين بالولاء له من خلال استمالة بعض العمال .

آثر معاوية ، كما نحسب ، سياسة الختل عن إيمان بها عميق ، يستقيه من طبيعته . وعن تجربة عمليه ناجحة ، مارسها ، ورجحتها على ما عداها فى ميزان السياسات . . جرب الحرب فخذلته صفين حتى لقد نجا منها وما يكاد ! . . وجرب الفتنة المسلحة فى البصرة فجرعته الخيبة ، وذهب بها عميله الحضرمى فى الغابرين .. وجرب الغارات يسرحها ضارية إلى شتى البلاد ، فلم تنفعه ضراوتها ، لا هى حازت له سلخة أرض تزيد فى رقعة ملكه ، ولا هى أتته بطاعة إلا بمقدار

نفثة ضباب لا تلبث أن تذوب فى أول شعاع ، بل كان قصارى قليلها إرهاب ، وكثيرها هروب ! . .

أما الختل فمأمون مضمون . . وليد سليقته . رهن يديه . هين عليه أمره ، طويل باعه فيه ! . . وتلك الولايات العديدة المترامية نحو المشرق ، النائية عن بنان الحكم الشرعى ، المضطربة بالفتن والثورات ، إن هى ضاقت بإحدى حيله ، فما هى ضائقة بغيرها مما استوعبته جعبة المحتال ! . . فلعله أن يجدى فيها ادعاؤه ما ليس له وما ليس فيه . أو يفلح التغرير بالجماهير . أو ينجح ابتداع العمال . أو ينفع ، دون وسائله هذه أو معها ، أسلوب التلفيق ! . .

وكانت فارس أقرب الفرائس إليه . .

هى دانية الدنو كله من مد ذراعه ومرمى أطماعه وإن كانت على مبعدة مراحل طويلة من الفراسخ تشق على الركاب والركبان . .

دانية ببعدها السافى عن قلب الدولة البعد الذى يخفف عنها قبضتها فيدعها طليقة الحركة فى مجابهة النظام العام ، تطيع حين تشاء ، وتتمرد حين تشاء . .

دانية بوعورة المسالك والطرقات المفضية إلى مدنها وكورها المنبثة على المرتفعات الصخرية وبين شواهق الجبال ، لو أرادها صاحب السلطان على امتثال أمره وكانت تؤثر الإباء . .

دانية بتحفز رجالها ودهاقينها للخروج على الحكم القائم عند أول بادرة تغريهم بالخروج ، ليصلوا ما انقطع من ثوراتهم المتكررة التى ما فتئت تتفجر منذ الفتح الإسلامى على مدى عمر جيل ، يخمد بعضها هنا ليشتعل بعضها هناك . .

دانية ، فوق هذا وقبله ، بصاحب أمرها وعاملها زياد بن عبيد بن فلان ، أو زياد بن أبيه كما تسميه روايات ذائعة شاعت فيها صبغة الخيال شيوعها فى الأساطير . .

هذه العوامل المرجحة كانت حقيقة لاريب آنئذ بإغراء عاهل الشام بهذا

الشطر الشرقى من الأرض العلوية ، الذى ارتسم أمام أطماعه النزاعة إلى التوسع الإقليمى ، ونفسه المنهومة بالاستئثار والاحتياز ، فى هيئة قنيصة سهلة ، لا تلبث أن تخر تحت قدميه ، مغلولة الحول مهيضة الجناح ، لو أنه بادر إليها برحلة صيد ، أحكم خلالها نصب الشراك ! . .

لكنها اليوم ليست رحلة صراع أداتها سلاح ، بل هى رحلة على دعوة ، سلاحها حروف وكلمات ! . .

وبادر . .

خير هذه العوامل المرجحة ، فى يقينه ، وأحراها بجهده ، وأسهلها مأخذا كان زياد بن أبيه ، قائد كتائب التأديب التى دفع بها عبد الله بن عباس من البصرة نحو المشرق لتخمد الفتن الناشبة ببعض أعمال فارس ، وترد أهلها إلى حظيرة النظام . .

. . . . . كانت فارس طوال الحقبة الإسلامية القصيرة ، دائبة التمرد ، تسكتب فى تاريخها ، بالعنف وبالدم ، صفحات من الاضطرابات ، تهدد أمن الدولة ، وتدفع البلاد ووحدتها إلى حافة خطر لا يدرأ شره غير امتشاق الحسام .

فخلال سنوات خلافة الإمام — كمثال — لم يكن يهدأ العصيان مرة فى جانب من هذه الأصقاع ، إلا ليتبجس كتبجس الحمم من البراكين ، فى جوانب أخرى مرات . .

فى أول أعوام عهده ، قيل إنه سير خليد بن طريف إلى خراسان . .

فى العام التالى بعث جعدة بن هبيرة إليها بعد عودته من صفين ، ثم خليد بن قرة مرة أخرى ، فيما تومىء إليه الروايات ، فمضى فى حرب أهلها وقد كفروا ، وحاصر نيسابور حتى أدلوا إليه بالسلام . .

مع ذبول شعلة السنة التالية ، زلزلت فارس بثورة عنيفة على الحكم العلوى وعلى الدين ، ارتبط فيها الخريت بن راشد بن ناجية ، ومن غادر الكوفة وإياه من قومه انتقاضا على سلطان على ، بحلف دموى مع العلوج والمسيحيين وقطاع

الطرق ومانعي الزكاة ، أشاع الخوف والقلاقل والفساد في جنباتها ، بدءا بالأهواز وانحدارا مع الجنوب إلى أقصاه عند البحرين . .

في نفس العام علت ألسنة اللهب فعمت النار الإقليم ، حتى غلب أهله على الأمر فيه ، وأخرجوا عاملهم سهل بن حنيف ، وخلا لهم وجه الأرض يملأونها بالفوضى والاضطراب . .

في السنة التاسعة والثلاثين للهجرة ، غدت الأمور على شفا هاوية إن لم يهرع بحزم الحرب وحنكة السياسة ، إلى إنقاذ هيبة السلطة الشرعية ، وإعادة رفع الراية الإسلامية فوق ربوع تلك البلاد ، والوقوف دونها ودون الكفر والانفصال . .

هنا دعا الإمام إليه ابن عباس من البصرة ، ألصق أرضه بالإقليم الثائر، يبادله الرأي . . ثم جمع صحبه ليشيروا عليه بامرىء ماهر قادر قوي يستطيع أن يوليه هذا الشطر من الدولة ، ليحسم الأمور .

قال جارية بن قدامة :

« ألا أدلك ، يا أمير المؤمنين ، على رجل صليب الرأي ، عالم بالسياسة ، كاف لما ولي ؟ . . »

فسأله علي :

« من هو ؟ . . »

« زياد . »

وأقر ابن عباس الترشيح :

« لعلي أكفيك به فارس . . »

فبعث زياد . .

ولم يكن هذا اختيار فلتة أعجلهم إليه الوضع الحازب ، بل كان اختيار بنظر

وحكمة له من ماضى المرشح المختار ، وصدق بلائه وصفاء ولائه ما يقضى به ، ويضعه فى مقدمة الأولياء الأكفاء . .

فلقد عُلم اعتزال زياد معركة الجمل ، حتى لقد أدهش الإمام اعتزاله، إن لم يكن أثار غضبه ، فعتب عقبها على عبد الرحمن بن أبى بكرة ، وقد جاءه فيمن جاءوا لبيعته بعد النصر . .

قال له يستفسره ويلحاه وليس فيمن قدموا عليه للبيعة زياد :

« وعمك المتربص القاعد بى ؟ . . »

فاعتذر عبد الرحمن :

« والله يا أمير المؤمنين إنه لك لواد ، وإنه على مسرتك لحريص ولكن بلغنى أنه يشتكى . فأعلم لك علمه ، ثم آتيك . . »

وتبين أن الرجل مريض .

قال الإمام :

« امش أمامى ، فاهدنى إليه . . »

فلما بلغاه ، رأى الإمام فى وجهه السقم ، فدعا له . . وأراده على البصرة ، فاعتذر . فاستشار فيمن يوليه . .

قال زياد :

« رجل من أهل بيتك ، يا أمير المؤمنين ، يسكن إليه الناس ، أجدر أن يطمئنوا إليه ، وينقادوا له ، وسأكفيكه . . »

فعمل برأيه ، وولى أمرها ابن عباس . .

لباقة وصدق نصح وإنكار ذات ، اجتمعت له مع الولاء لترتفع به فوق الظنات . .

.. وسلف أيضا منه ، قبل هذه الواقعة بأعوام ، ما يسمو به بين الساسة ،

إلى مكانة مرموقة لا يكثر فيها النظراء . . بعثه عمر بن الخطاب ، إبان عهده ، لإصلاح فساد وقع باليمن ماله غير داهية فطن صليب الإرادة ، فنهض بالأمر كخير ما يكون النهوض ، وعلى خير ما ينبغى أن يفعل متمرس أريب ، حتى لقد رضى عمر عنه كل الرضاء ، وأشاد به الناس ، وأنطق الله عمرو بن العاص ، داهية الدهاة ، بكلمة حق لا يند مثلها من أنانى مثله يكاد يحتجز لنفسه ، من دون الأكفاء ، كل صفات التفوق والاقتدار ! . .

قال :

« لله أبو هذا الغلام ! . . لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه . . »

وسمعه أبو سفيان ، فقال بلهجة المفاخر :

« أبت المناقب إلا أن تظهر فى شمائل زياد . . »

ثم مال إلى أذن ابن العاص ، كأنما يساره :

« أما والله إنه لقرشى . ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك . . »

وكان على على مقربة منه ، فى مجلس عمر ، فدفعه همسه إلى سؤاله :

« من أى بنى عبد مناف ؟ . . »

« ابنى »

« كيف »

فخافت الرجل من صوته :

« أتيت أمه سفاحا فى الجاهلية . . »

وعندئذ قال له عمرو :

« فهلا تستلحقه ؟ . . . »

فأومأ بعين مذعورة إلى ابن الخطاب ، ثم همس :

« أخاف هذا العير الجالس أن يخرق على إهابى ! . . »

ونصحه على :

« مه يا أبا سفيان ! . . فإن عمر إلى المساءة سريع . . »

وانطوى مذ ذاك نسب زياد عن الجهر إلا من كلمة عابرة تند صدفة على لسان ثم لا يكاد مدلولها في الأذهان يعلو من وهدة الادعاء إلى قمة الحقيقة التي لا يطولها ارتياب . .

... هذا القائد الصليب القوي .. الذي كان موضع فخر أبي سفيان ، وهيأته ملكاته للمجد ، وشفت حداثته وهو بعد في مقتبل عمره عن رجل عظيم ، وأجاد لعبة الحرب كما أجاد لعبة السياسة في فارس الثائرة وفي ثوارها الأشداء حتى دان أهلها له ، ثم حمدوه ، ثم قرنوا سيرته فيهم ، لعدله وحكمته ورحمته ، بسيرة سيد أكاسرتهم أنوشروان — كان لا ريب خليقا به ، في رأى معاوية ، أن يكلف غاية الكلف بالعلياء ، ويعد آماله الحبيسة بصدره إلى بعيد بعيد وراء آفاق عمله المحدود . . فلو أحسن له الماهل الدعوة ، وأحسن أيضا الأمنية والاستهواء . لكان أقرب إلى طبيعة الأشياء ، وأشبه بحكم المنطق السليم أن يلتقم زياد « الطعمة » فيصغى له ، وينعطف إليه ، وينخرط في صفوفه بكل ما تحته من عمل وما قد يسعه ، بمشهود قدرته ، أن يحوز من بلاد وأعوان ، مادام مآل هذا الانخراط انتفاع المدعو من خلال نفع داعيه ! . .

وأسرع بمنيه . .

في تقديره كان لا يشك لحظة واحدة في نتيجة دعوته . . فصاحب فارس لابد معجل إليه الجواب بعودة البريد . . والجواب — بحساب السليقة المعاوية النهازة والمنهومة إلى المزيد — لابد قادم بالقبول ، لأن القبول هو السلوك الوحيد المتوقع منه الذي لا يعلى سواه الطموح ، ولا يكون غيره من أخ لأخيه . ولا عجب ، فهما لأبي سفيان ، وأولى بأن يتشابها في النزعات والميول ، وأن يتعاطفا في المسرة ، ويتحالفا لتحقيق الرغبات . . وليس القريب كالغريب ، ولا الدماء ماء ! . .

غير أنه أساء التقدير . .

فقد استعصى زياد على الإغراء . . كان أعظم فطنة من أن يخدع ، وأصعب مراسا من أن ينقاد . . بدا كأنما حقر خدعة مغويه ، ونبا بعرضه الخسيس كل النبو فأغلظ له فى الجواب . وبدا الداهل كأنما استيأس فأرسل إليه بالوعيد بعد الوعد ، وبالترهيب بعد الترغيب ، وإن لم ينس أن يلوح له بالإمهال وفاء لحق النسب المشبوه ! . .

كتب معاوية إليه :

« . . . . غرتك قلاع تأوى إليها ليلا كما تأوى الطير إلى وكرها . . وأيم الله لولا انتظارى بك ما الله أعلم به لكان لك منى ما قاله العبد الصالح : فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ! . .

تنسى أباك وقد شالت نعامته إذ يخطب الناس والوالى لهم عمر »

فكان جواب زياد أن صعد المنبر ، وأخذ يفضحه على الملأ ، بخطبة قال فيها :

« .. .. العجب من ابن آكلة الأكباد ، ورأس النفاق ! . . يهددنى وبينى وبينه ابن عم رسول الله ، وزوج سيدة نساء العالمين ، وأبو السبطين ، وصاحب الولاية والمنزلة ، فى مائة ألف من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان . . أما والله لو تخطى هؤلاء أجمعين إلى ، لوجدنى أحمر مخشا ضرابا بالسيف .. »

وكتب إلى الإمام ينبئه الخبر فى صحيفة بعث معها بكتاب « أخيه » ! . .

أما زياد فقد ألقت له فارس القياد لا تخاشنه ولا تختلف عليه . وثبت هو بما فيها ومن فيها على الولاء لعلى ، ثم الوفاء لذكراه بضع سنوات . . حتى بعد أن آلت الخلافة لمعاوية غير منازع منذ عام الجماعة ، بقى العامل الأمين على العهد ، معاديا لمعاوية ، خارجا على سلطانه . ولولا أن رأى الأمة ، إلا ندرة ، أولته الطاعة ، وعلم ببيعة الحسن وبنى بيته وأهل العراق له ، وسعى أمير المؤمنين إليه يتألفه بالكتب وبالوفادات ، لاستمسك بعدائه ، ولربما وقع منه ما يغير مسيرة التاريخ ..

وأما الإمام فقد اطمأن لرجله ، وأكبره كما حذره ، فى خطاب كان بعض ما فيه :

« . . . إنى قد وليتك ما وليتك وأنا أراك لذلك أهلا . . وقد علمت أن معاوية كتب إليك يستذل لبك ويستفل غربك ، فاحذره . فإنما هو الشيطان يأتى المرء من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله . .

وقد كان من أبى سفيان ، زمن عمر بن الخطاب ، فلتة من حديث النفس ، ونزغة من نزغات الشيطان ، لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث . المتعلق بها كالواغل المدفع ، والنوط المذبذب . . »

وأما معاوية فقد طعم من محاولته هذه مثل الحنظل . وأيقن أن الاستهواء للالتواء بمثل زياد إلى ناحيته لا يفيد . وأن أولئك الذين استصفاهم على لنفسه ، وقربهم ، وأدناهم ، هم صفوة خلصاء كالصخاة صلابة ، وكالجبل ثباتا ، وكالأفق شموخا ، لاينثنون . وليس لزخرف إغوائه إليهم سبيل . .

٢

فى التجربة « القيسية » بمصر ، نجح معاوية ، واقتلع قيس بن سعد بن عبادة عملاق الأنصار من عمله على النيل . . ولـكنه فى التجربة « الزيادية » بفارس ، تحطمت أدواته وباء بالإخفاق .

أخطأه التوفيق . أساء اختيار الوسيلة وهو يحسب أنه أجاد حين وضع « أخاه » فى غير البوتقة المناسبة يوم شاء احتواءه بالإغراء . . فلقد كان أحرى به أن يعلم علم يقين أن نجاح أى تجربة رهن بالملاءمة بين طبيعة العنصر وطريقة العلاج ومناخ التجريب وصلاح الأداة . . أما هنا ، فالعنصر معدن لايتأثر بالنار خليق به أن يستعصى على الانصهار ! . .

كان زياد العنصر الصليب العسير . .

وكان الاستهواء المغوى الأداة . .

وكان معاوية هو المجرب الذى بدا كأن قد غفل عن الحقائق الأولية المفترض — علما وبداهة — توافرها قبل أن يبدأ أولى خطواته وإنه لأولى بأن يذكرها لو أنه استشار سليقته ، وطابق خصائصه النفسية على خصائص زياد . .

فهما أخوان ، فيما ادعى وادعى قبله أبو سفيان ، فهما إذن شبيهان . النظرة كالنظرة . والطباع كالطباع . والنزعات والميول كالميول والنزعات مع فارق هنا وفارق هناك على نحو ما يكون الاختلاف بين الإخوة ، بل التوائم ، فضلا عن الأشباه . .

لـكنه لم يراجع طبيعته الخاصة قبل الإقدام ، ولم يضعها أمامه نبراسا يهديه فضل الطريق .

ولو أنه فعل لأدرك أن فيه — لا محالة — من أخيه سجايا وسمات ، وفى أخيه من صفاته غير قليل . .

فهو صلب الشكيمة عنيد لا يسهل أن ينقاد فليس بدعا أن يكون زياد ذا عناد.

وهو ليس بالغرير الذى يخلبه المظهر دون أن يغوص فى الباطن إلى القاع ، بل هو اليقظ الواعى الذى يقع بذهنه وعينه على الهنات الصغيرة كما يقع تماما على المعالم المميزة ، فلا يفلتها من حسابه ، وتهديه نظرته الناقدة اللماحة للولوج من خلالها إلى معرفة أقدار الأشخاص ، وقيم الأشياء . فأشبه به إذن أن يحرص على مكانته أن تمتهن وتذل ، وعلى قيمة ما فى يديه أن ترخص وتنتقص ، وأشبه من بعد بزياد — بنفس الميزان — أن يكون على شاكلته وإن يكن الحرص هناك ، فى حالة العامل الأموى ، حرص أثرة وولاء للذات ، والحرص هنا ، فى حالة العامل العلوى حرص إباء ووفاء . .

وهو أيضا صاحب طموح ، شغوف بالمجد ، ومولع بالاستزادة من أسباب الحياة . يتطلع دائما ، فيما وراء الأفق المرئى ، إلى رحابة أفق الآمال .. فلا غرابة إذن أن يتأبى زياد عن الانحياز إليه وإن أفسح له فى رقعة النفوذ وشأو السلطة بجواره إلى غير حدود . فلأن يقال قانع خير من أن يقال جشع ، ولأن يقال عف خير من أن يقال خائن . . لا غرابة أن يرفض الفىء إلى ظله بدلا من فيئه لظل الإمام لأنها الصفقة الخاسرة بالثمن البخس . . فليس الذى هو أدنى كالذى هو هو خير . ليس الباطل كالحق ، ولا معاوية كعلى ، ولا الاستظلال بظل صنى رسول الله إلا الجاه الذى لا يطوله جاه ! . .

لو أن معاوية أدرك هذا — وكان أولى به إدراكه — لما أقدم على التجربة . ولجنب نفسه مهانة الفشل وصدمة الخزى من إغواء زياد . . ربما كان يغير الأداة . . ربما كان يبدل طريقة بطريقة . . ربما كان يعيد مع العامل العنيد التجربة القيسية التى أجدت عليه من قبل اقتلاع العملاق من ضفاف النيل فيدس له عند أهل العراق بالتلفيق . .

خواطر لعلها لم تعزب عن ذهن معاوية وقد أتته أنباء فارس بموقف صاحبها منه ، وخطبته فيه على ملأ الناس . وبما تضمنته كلمة الإمام ، واللغط الذى أشاعته

كلتاهما وتناوله بالإقذاع والسخرية فى الجموع والمحافل ، على ألسنة الجمهور . .
ومع ذلك فليس هو بالذى يحنى رأسه أمام الإخفاق . لن يقبع فى الظل وينام .
ولن يدع الأمور تجرى على غير هواه . وإذا كان قد فاته الآن أن يلتوى بابن
أبيه إلى صفوفه ، ووجب عليه — لكيلا يفتضح — ألا يقاربه بختلة جديدة
فى هذا الوقت الذى تعلقت بهما فيه الأنظار ، فليس يسعه أن ينفض يده من المشرق ،
ويدع الإمام ثابت القدم فيه على أرض صلبة وفى أمن موفور .

كلا لن يهدأ إلا أن يرج هذه النواحى عليه بضربة مدمرة ، تثير فيها
العواصف أو تفجر البراكين . . فلا بعيد أمام سعى . ولا محال مع حيلة . .
ولئن شطت عنه فارس بيقظة زياد ، وصلابة خلقه ، ورسوخ عناده ، واستقامة
وفائه ، فإن البصرة الآن أدنى قطافا إلى عينه ، وأقرب مسافة إلى الكوفة ، وأنأى
سواها من الأمصار عن مظنة الاختلاف على على أو العبث بسلطانه . فلو عصف
بها فإن عصفه هو المقص الذى يبتر ثانى جناحى غريمه بعد بتر الجناح المصرى .
وهو المفاجأة التى تبغته وتدعه كشلول . وهو البؤرة التى تعكس على ما حولها من
بلاد شعاع الانتقاض فلا تسلم معها الكوفة الدانية من النار ! . .

ويشرع فى دسيسته الجديدة . .

على خلاف ما ينتظر ، اختار معاوية فريسة له ألصق الناس بالإمام ، وأقرب
أهله إليه ، وأخاص الخلصاء الذين لا تربطهم به روابط الولاء السياسى وحده ، بل
صلات الولاء الروحى الوثيقة الذى جعله منه أحب تلامذته ، وأوعام لمله ،
وأحرصهم على استيعاب نظراته فى الدين والحياة ونقل تراثه الفكرى الخالد
نقيا ، عبر الأجيال . .

اختار الداهل المخاتل لتجربته التدميرية المقبلة « عنصرا » ليس كالعناصر
التى تناولها ، قبل يومه هذا ، بالمحاولة والتجريب . اختار امرأ هو من على
ابن أبى طالب بمنزلة الحواريين من السيد المسيح . ينهج نهجه ، ويسير سيرته ،
ويستقى من فيضه كمثل استقاء الجدول من النهر الكبير . . وإذا كان معاوية

— ذهابا مع شطحة أمانيه — قد شط فى اختياره حق لأوغل إلى آخر المدى ، فإنه الشطط الذى يحمده ولا يخشاه ، لأنه لو أثمر ، بالغ لا محالة بالأمة الإسلامية جميعا ، بكل أرض وفى كل عصر — بتأثير النتيجة « الأسطورية » المذهلة التى سيسفر عنها — غاية الشطط والارتباك فى تقديرها للأمور والأشخاص ، ودافع بها إلى غيابة من الظلام والوساوس تضل فيها عن التمييز بين الباطل والحق ، الخطأ والصواب ، الزيف والصدق ، الشك واليقين . .

وحسبه هذا ، فهو ما يرجوه . .

أما الفريسة فكانت عبد الله بن عباس . .

وأما الدسيسة فكانت التلفيق .

وتتعدد أمامنا الروايات عن « الحادثة » موضع البحث ، التى نراها حيلة من حيل ابن أبى سفيان ، أو واحدة من تجاريبه ، ويراها غيرنا حقيقة تاريخية صادقة عاشت على أرض الواقع المستيقن بغير شبهة من شك ، أو مجال لجدال . . فلقد قل من أغفلوها من رواة التاريخ ، أو أنكروها ، أو أخذوها مأخذ ريبة . وكثر أولئك الذين أوردوها كواقعة ثابتة ، ومن رتبوا عليها النتائج أو تناولوها بالتعليق ، حتى لتوشك القلة أن تكون ندرة لا يلتفت إليها وتوشك الكثرة أن تبلغ حد الإجماع .

ومع ذلك فالصواب لا يكون دائما فى جانب الكثرة ، كما أن الخطأ لا يكون دائما مع النزر القليل . بل من الإسراف فى حسن الظن ، إن لم يكن فى الغفلة ، أن يوزن الحق أو الباطل بميزان « عددى » يرجح أحدهما على الآخر بثقل كثرة الرواة والأتباع . . إنما يجدر ، فى مقام كهذا ، بالراوية ما يجدر بالناقد ، فيضع فى حسابه ظروف الحادث ووقته ، والخاسر به والمفيد منه ، مع المعالم النفسية والخلقية لمن عاش فيه من الشخصيات أو أعاشتهم القصة للرواة . ثم لا يمكن أن تكتمل الصورة ، بعد هذا كله ، جلية واضحة ، إلا بعد تأمل واع فى الجو

العام للواقعة مثار الخلاف ، ومعايرة دقيقة لـكافة احتمالات الخطأ أو السلب ، واحتمالات الصواب أو الإيجاب . .

على هذا النحو يستطاع فرز الصدق عن الـكذب فى كل رواية تواترت عبر الأعصر على الألسنة وفى الأسفار ، وامدها عمرها الذى أخلق القرون بهالة من القداسة جعلتها من المسلمات . . وبنفس الميزان نعاير ما نسب إلى عبد الله ابن عباس من اعتزاله ابن عمه أمير المؤمنين فى السنة التاسعة والثلاثين الهجرية ، سنة التمويه المعاوى الذى لمس بعصاه السحرية بعض الوقائع كما لمس بعض الأشخاص فإذا هى وهم جميعا ، على صفحات التاريخ المـكتوبة غير ما كانوا فى واقع الحياة . . ولا نريد تعجل النتيجة فنقرر زيف حادثة الاعتزال أو نراها من ابتداع الخيال . ولـكننا لا نستطيع أيضا أن نتطلع إليها بعزل عن سوابق معاوية فى نفس هذا المجال لأننا عندئذ إنما نهدر « الجو » النفسى بكل ما فيه من دوافع ونزعات لها أكبر الأثر فى توجيه السلوك الإنسانى الذى يخلق الوقائع ويرسم مسيرة التاريخ . وقد يؤدى بنا هذا الإهدار إلى خطل التقدير ، فنظلم الصدق المطلوب ، أو نظلم النص المـكتوب . .

ونبدأ من البداية . .

تقول الروايات . .

أصاب ابن عباس من بيت مال البصرة مالا لا حق له فيه ، فلما انتهى الخبر إلى على غضب أعظم الغضب ، وأراده على رد ما أخذ فأبى ، ثم خرج بهذا المال من البصرة ، معتزلا عمله ، قاليا لابن عمه ، ناقما عليه ، فأقام بالحجاز ، ينعم بما أصاب . .

والقصة هكذا تقدم لنا ابن عباس فى غير صورة ابن عباس ! . . فهى بما تضمنته من نصوص تنزل به فى حمأة السقوط إلى أبعد قاع . وهو بها الخائن الذى كأنما حرص على أن تجتمع فيه كافة الخيانات . . خائن دينه الذى ينافى السلوك المزعوم ،

ويضمه بمعسكر التنزيل ، فوق قمة التحريم . خائن وطنه فى أحلك الظروف التى تتطلب تضافر جهود كل أبنائه ، عمالا ومواطنين ، مسلمين وغير مسلمين ، لوقايته من التردى ثانية فى وهدة الانحلال التى تحفرها له النكسة المادية ، المغلبة للشهوات على المبادىء والقيم الإنسانية ، بعد أن انتشله منها الإسلام . . خائن ولائه للنظام وعهده للإمام . خائن حق مواطنى البصرة عليه بالتخلى عن عمله كما يتخلى الراعى عن القطيع ويدعه للذئاب . خائن ماضيه ، وتراث آبائه ، وشرف البيت النبوى الذى ينتسب إليه ، ويمثل بمنزلته منه الرجل المأمول الذى تتطلع إليه أنظار الأمة الإسلامية بعد على وولديه سبطى الرسول . .

ليست هذه قط بصورة ابن عباس ، ولا يمكن أن تكون وإن استطارت بها الأخبار ، وتعدد الرواة ، وجرت فيها أقلام المحدثين والقدامى من كتاب السير والتراجم بالتعليق أو بالتعليل . . فما هى جديدة ، فيما نخال ، بالتصديق أو بمسحة من التصديق إلا أن يكون هذا تجنيا على روية التفكير . إذا قيست الواقعة بسببها المعلوم المتواتر ، لكان أحرى بها أن تنهار من الجذور كالصرح الباذخ الذى يبنى على رمال . وإذا هى وزنت بما فطر عليه ابن عباس من طبيعة ، لما كان لها فى كفة الميزان إلا كمثل ثقل الهباء . وإذا هى فحصت فى ضوء ما اشتهر عنه من خلال : دينا وخلقا وعقلا ، وكلها خليق بأن يكفه عن الدنايا ، لحقوظلمتها إيمانه ، واستقامة خلقه ، ودقة نظره فى الأمور الدقة التى تورث الحذر والتبصر ، وتهب إحسان التقدير . .

شتى ألوان الافتراض التى قد تخطر ببال كمحاولات لتفهم واقعة الاعتزال ، كفيلة أن تمضى بنا ، وبأى إنسان ، فى طريق مسدود . . فالواقعة أشبه بشطحة خيال . وسببها أدنى إلى عبث خيال . فإن قيل من بعد ، عسى الاعتزال قد وقع بين العامل وبين أمير المؤمنين نتيجة تباين نظرتين ، أو تعارض سياستين ، فأين فى بطون تلك الأقاويل المروية ما لعله يشير ، من بعيد أو من قريب ، إلى باعث الجفوة الفكرية التى أثارت الخلاف ؟ .

لو ثبت هذا فظهر باعث كيفما يكون ، لما كان عجيبا أن تدب الفرقة بين على وابن عباس ويقع على أثرها الاعتزال ، ثم لا لوم ولا تثريب على المباين المعتزله أخطأ بفعله أو أصاب . . فالرأى عادة — أى رأى — هو اجتهاد رائيه . والاجتهاد ثمرة عوامل عديدة : نفسية وموضوعية ، تحرك الذهن وترسم له نهج التفكير . وقد يتغلب بعض هذه العوامل على بعض ويؤثر فى الرأى ، ويطبعه بطابعه ، أو يشوب سلامته منحرفا به عن السواء . ومع ذلك فحق للرائى ، بغير نزاع ، أن يعمل بما رأى ما دام على ثقة منه واقتناع به ، إلا أن يتبين له وجه الحق فى سواه . .

لكننا لا نجد هنا اختلافا فى السياسات ولا رأيا فرق بين الصاحبين ، لأن موضوع الاعتزال المزعوم بديهية لا تقبل اجتهاد الرأى وتباين النظرات . . فخلاصة القصة ، بإجماع الروايات عامل غاصب لمال مغصوب ، المال مال عام ، والعامل موظف عام ، والولاية على كليهما للسلطة الشرعية الممثلة فى الإمام ، بحكم الدين وبحكم القانون . فإذا لم يكن للسلطة أن تسائل الغاصب ، وتسترد منه المغصوب ، فأى دور لها غليها التزامه فى مثل هذا المقام ، لردع المعتدى ، حماية لحقوق الجماعة ، وحفظا لهيبة النظام ؟ . .

ما من امرىء يسعه أن يرى ، بالنظرة العابرة العادية أو بالنظرة المدققة التحليلية ، فى واقعة الاعتزال المعروضة أمامنا على نحو مانقلها الرواة ، غير حادث سرقة أو جريمة اختلاس . . وما من امرىء أيضا يسعه ، مهما أوتى الحجة وفصل الخطاب ، أن يمارى فى طبيعتها ، فيغير من وصفها هذا بوصف سواه ، يخرج بمفهومها على فحوى النظرة الصريحة العامة الناس ، وإن كان الفاعل ابن عباس ، أوكان الرائى هو ابن عباس ! . . ولئن حلا ، قديما وحديثا ، للمؤرخين والمعقبين أن يوردوا فيها الأقاويل والتهاويل ، ويكثروا التعليق والتأويل ، محاولين تصويرها فى هيئة انفضاض عن الإمام من أقرب الناس إليه ، وخروج على طاعته ، ومقاومة سلبية للسياسة التى ينتهجها فى تدبير أمور الشعب والدولة ،

فهذه هى المحاولة التى تضع الاعتزال — من ناحية النظر الجدلى — فى نفس مكانه من المهانة والابتذال ، لأنها لا ترجح رأى المعتزل الهاجر أو تبرر سلوكه ، ولا تنال من نظارة المعتزل المهجور وسلامة تصرفه . بل هى ، قبل هذا كله ، المحاولة التى تشق على نفسها بالتبرير أو بالتعذير حيث لا موجب لالتماس المبررات والمعاذير ، لأنها تسير إلى غير غاية ، وتدور فى فراغ ، جريا وراء وهم خادع وأكذوبة مفتراة ! . .

٣

الذين عنوا ، من كتاب السير والتراجم ، بتناول « اعتزال » عبد الله بن عباس عليا بالرواية والتحليل ثم نظموه فى سلك الواقع ، لاح كأنما جمعوا له من دقائق الحواشى وتفصيلات الأخبار ما يستطرد به على السطور فى تسلسل منطق سليم ، وترابط حدثى محكم ، ونسق عضوى محبوك ، حتى لتبدو الصورة بألوان كثيفة صارخة ، وتبدو الحبكة فى الحدث المزعوم ، وهى حبكة صناعة لا حبكة طبيعة . .

ولا ندعى أنهم نحلوه غير ما ذكر عنه ، أو قيل فيه . ولكننا نحسب أن الدقة فى رسم القصة ، على هذا النحو المنقولة به ، من المبالغة والإغراق ، تكاد تحمل على الشك فيها أصولا وفروعا ، لأن الحقائق الحية فى غنى كل الغنى عن مثل هذه الحبكة « الفنية » التى لا تتوافر عادة على مسرح الحياة وإن توافرت فى المسرحيات ! . .

ومع ذلك فإن ما اجتمع لهذا الحدث المزعوم من المغالاة لإظهار صدقه وتأكيد وقوعه — بكل شاردة أو واردة عرضت له من قريب أو من بعيد ، وبكل ما وقعت الأعين عليه فوق الأسطر من كلمات والتقطته الأسماع فى الهمسات من شائعات ، وبكل صورة ذهنية أو لفظية له — يكاد يميل بنا بعيدا عن مسيرة التاريخ . .

فلقد أغرقوا أجمعين فى إبراز الاعتزال من خلال وقائع وجدليات لا تدعو لها طبيعة « الفعلة » التى أنشأته وما هى ، بظاهرها وباطنها ، سوى جريمة اختلاس لا يمكن بحال أن تحمل الجانى — وفى مواجهة شواهد الإدانة وقرائن الإتهام — إلا على الاعتراف والإقرار ، وقد تحمله على الإنكار أو محاولة الإنكار . ولكنها ، قطعا ، لا تندفع به فى مهامه من الجدل والحوار

هو أول من يعلم أنها لابد مشددة عليه النكير مفضية به لا محالة ، بعد طوله اللجاج والمكابرة ، وفى نهاية المطاف ، إلى حسر أبلغ من الاعتراف ! . .

والصورة المنقولة إلينا عجيبة . .

فالروايات تكاد تجمع بغير اختلاف ، على عامل سالب ومال مسلوب . ثم تتفق على جدل مكتوب يثيره سالب المال فى رسائل لا يكون قصاراها أن تنفى جرمه أو تبرئ ساحته ، بل كأنما تؤكد للناس ، بخطه وألفاظه ، اعترافه بالإثم غير متلوم وإقراره الصريح بالوقوع فيه ! . . ثم تتضافر معا على تصوير الآثم سادرا فى غلواء من الجدل المكابر والمكابرة الجدلية إلى الحد الذى يقلب فيه الأوضاع فيقف من قاضيه موقف القاضى ويزج بالإمام فى قفص الاتهام ! . .

تصور للأمور غير مقبول . ودفاع عن النفس غريب ، ابن عباس أكيس من أن يسوقه ولو كان حقا التوى بالمال . .

لكن مستيقنى الصدق فى القصة « المرسومة » لا يريبهم فيها ما هو غير مقبول معقول اكتفاء بالمروى المنقول ولو أمعنوا النظر لطالعتهم فيها ثغرات تكاد تجعل بناءها ينقض من أصل دعاماته ، وتهوى بها فى هاوية الخرافات . . أقوى شواهد صدقها لديهم ، البنية اللفظية للخطابات التى زعم أنها تدور حول السرقة والاعتزال وبعث بها الإمام إلى ابن عباس . فأسلوبها اللغوى ، فيما يرون أسلوب على . وعباراتها تومئ إلى ابن عمه الإيماء المعبر الذى يغنى عن الإفصاح ، وليس كهذه وذاك دلالة أقدر على إبراز حادث الاعتزال كحقيقة تاريخية ثابتة لا تقبل الجدال . .

قيل . . .

كان مما كتبه الإمام إلى ابن عباس ، وقد عرف أمر نزوه على مال البصرة بغير حق :

« . . . بلغنى عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك ، وعصيت

إمامك ، وأخزيت أمانتك . . بلغنى أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك . فارفع إلى حسابك . . . . »

ومما كتب :

« . . . . إنى كنت أشركتك فى أمانتى ، وجعلتك شعارى وبطانتى . ولم يكن فى أهلى رجل أوثق منك فى نفسى . . . . فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب ، والعدو قد حرب ، وأمانة الناس قد خزيت . . قلبت لابن عمك ظهر المجن ، ففارقته مع المفارقين ، وخذلته مع الخاذلين ، وخنته مع الخائنين . فلا ابن عمك واسيت . ولا الأمانة أديت . . . . »

ومنه أيضاً :

« . . . أيها المعدود كان عندنا من أولى الألباب ! . . كيف تسيغ شرابا وطعاما وأنت تعلم أنك تأكل حراما ، وتشرب حراما ، وتبتاع الإماء ، وتنكح النساء من أموال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين ، الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال ، وأحرز بهم هذه البلاد ؟ . . فاتق الله ، واردد لهؤلاء القوم أموالهم ، فإنك إن لم تفعل ثم أمكننى الله منك ، لأعذرن إلى الله فيك ، ولأضربنك بسيفى الذى ما ضربت به أحدا إلا دخل النار . . ووالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذى فعلت ، ما كان لهما عندى هوادة . . . . »

هذه الصور اللفظية هى التى تؤكد ثبوت حدث الاعتزال ، بدلالة الأسلوب وإشارة الخطاب ، فى رأى كل من حكم بالثبوت . .

وليس ثمة من وجه لاعتراض معترض على هذا الرأى الذى استند إليه الرواة ، وتعلق به الملفقون من بعد وهم يلصقون جريمة الاختلاس بابن عباس ، ويسلكونها حقيقة واقعة فى نسق التاريخ ، ما دام الأسلوب ينم عن الكاتب ، وعباراته تومىء إلى المخاطب ، وسياق الكلام يؤكد الاتهام المزعوم . . لا وجه ، حقا ، للاعتراض على حكم ، الاتفاق عليه يشبه الإجماع ، إلا أن يبين لنا ما قد

يهز أسبابه ، وينقض أركانه ، فيطعن فيها وفيه بالبطلان ، أو بالقصور على أقل تقدير . .

والقصور والبطلان نراهما معا حاضرين فى جانبى القضية المعروضة : جانب الشكل وجانب المضمون . .

أما الشكل ، فإن أسلوب الإمام نهج من صياغة الكلام بليغ مبين ، يسحر العقول ويستهوى الأسماع ، تناول به صاحبه كل خاطرة ، وطرق كل موضوع مما يلم بالدين والحياة حتى غدا مدرسة فكرية ولغوية لذوى الآراء وأئمة البيان تتلمذت فيها قديما الأجيال ، وما فتئت إلى اليوم قبلة يؤمها كثيرون . . فإذا هى أعيرت عبرتها ، وخلفت وراءها أناسا يحتذون حذرها ، فليس من العجيب الغريب أن نجد فريقا ممن نشئوا فى ساحتها ، وارتووا من ينابيعها يسعهم — انطباعا أو محاكاة — أن يتمثلوا طرائقها المعروفة فى التفكير والتعبير . .

وإذا كان تقليد أسلوب على ليس بالمحال على البلغاء الموهوبين والمتمرسين ، وبخاصة فى العصور المتقدمة التى بلغت اللغة فيها شأو الازدهار ، فإن أمامنا أيضا ظاهرة ، ينبغى ألا نغفلها من الحساب ، لأنها تؤيد إمكان التقليد ولو بعض التأييد . . فقد جاء فى استهلال إحدى رسائل الإمام المزعومة لابن عمه عبارة سلف ورودها — بالكلمة والحرف — فى كتاب له إلى مصقلة بن هبيرة عن واقعة مماثلة التوى فيها ابن هبيرة بما لم يكن له فيه حق من أموال المسلمين واستحق به اللوم من على فى خطاب قال فيه :

« . . . بلغنى عنك أمر ، إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك ، وعصيت إمامك . . . . »

مقال كمقال . واستهلال هو نفس الاستهلال .

فإن قيل إن الكاتب — أى كاتب — لا يسلم من تكرار بعض العبارات بين وقت وآخر ، وكلام وكلام ، فمن الممكن أيضا أن يقال إن مطابقة العبارتين إحداهما السابقة للأخرى اللاحقة لم تكن عفوا بل نتيجة محاكاة أريد بها ضمان

اقتناع القارىء والسامع بأن كلا الكتابين من مصدر واحد هو الإمام . وليس بمجهول أن حادث ابن هبيرة كان قبل حادث ابن عباس فلا عجب إذن إن أخذ الكتاب المدون إلى هذا الأخير بشبهة التقليد ..

وكما أن محاكاة أسلوب على تقع فى نطاق الاحتمال والإمكان ، فكذلك لايبعد أن تقع أيضا عباراته المؤمثة إلى شخص مقترف الاعتزال فى نفس النطاق . فما ينكر أحد ، أو يجهل ، أن لغة العرب قد درجت على مخاطبة الغريب — كالقريب — بصور أسلوبية عديدة تشيع فيها ألفاظ التعاطف والتقريب ، اجتذابا لمشاعر المخاطب ، أو تقديرا وتدليلا له ، أو ولوجا إلى نفسه من أوسع باب وهو باب العتاب الرقيق . فكم قيل « يا ابن أم » . . وقيل : « يا أخى » وقيل « يا عم » وقيل وقيل إلى غير هذه وتلك من ألفاظ لا تعبر عن حقيقة الصلة الأسرية ، ولا تزال منها إلى الآن فى لغتنا اليومية أشباه يفسر بقاؤها التزامنا قواعد المجاملة وأدب الخطاب . .

ثم ندع الخوض فى الشكل إلى الموضوع ، فماذا عسانا نرى فيه ؟ . . بأعلى صوت تنادى الشواهد بأن الواقعة ، جملة وتفصيلا ، حكاية هازلة أدنى إلى أن تكون أحق بالتندر والسمر فى حلقات السمار وسهرات المتندرين منها إلى رواية جادة خليقة باهتمام المؤرخين والمعقبين . .

من خلال وثائقها الدعاة ، تبرز صورة لابن عباس ما هى قط لابن عباس ، لأنها تجمع من نقائض صفاته وأضدادها ما لا يسرح إلى مثله سوى خيال محموم تتخبطه الأوهام . . فيها الغفلة والغرة . وفيها الحمق واضطراب التفكير . وفيها الغدر والخيانة . وفيها كل ما يخالف طبيعة العامل المفترى عليه ، ويخرج به عن أدب الدين وناموس الأخلاق . .

ومن خلال الحقائق المقررة ، تنبو الحكاية المزجاة عن سياق التاريخ وخطه المستقيم ، لأن المقدمات فيها تجافى النتائج المترتبة عليها ، والمسببات تعارض الأسباب . .

فلقد أبى الدعون — فيما نسبوه لابن عباس — أن يرفع إلى أمير المؤمنين حساب ما تحت يديه من مال البصرة وإن كان ليعلم حق العلم أن رفع الحساب حجة له تدرأ عنه الشبهات ، وحبسه حجة عليه تلصق به التهمة . ومع ذلك فقد ارتأوا له مالا يرتأيه عاقل يحسن التقدير . . ثم زادوا فالوا به إلى الاستعلاء ، محاولا التنصل من تبعة الالتواء بما اؤتمن عليه ، ومدعيا لنفسه حقا خالصا في ذلك المال أكثر مما أخذ وإن كان ليوقنا كل اليقين أنه وغيره فيه سواء دون تمييز ، إذ هو رجل من المسلمين له مالهم ، وعليه ما عليهم ، وحقه في المال كحق أى الرجال .

.. .... أبوا في الأولى ، حين طالعه أمير المؤمنين بما بلغه عنه ، فلم يدفع التهمة ، ولم ينقضها بدليل . بل اكتفى بنفيها ببضع كلمات لا تغنى السائل ولا تعفى المسئول .

دبج كتابا كان كل ما جاء فيه :

« إن الذى بلغك باطل ، وأنا لما تحت يدى أضبط وأحفظ ، فلا تصدق على الأظناء . . »

فإذا هو المستخف المستهين . .

. . . . وأبوا في الثانية ، مكابرة وعنتا ، حين ألح عليه الإمام بطلب الحساب ، فأجاب :

« أتانى كتابك تعظم على ما أصبت من بيت مال البصرة . ولعمرى إن حق في بيت المال أكثر مما أخذت . . »

فإذا هو الصلف المستكبر .

ثم زادوه غيا وغرة ورعونة ، ففارق عمله وتوجه إلى مكة بالمال المسلوب ، جهرة وعلى ملأ ، حتى ضج أهل البصرة غيرة على مالهم ، وهموا أن يبطشوا به . فما ارعوى وثاب ، ولا رد ما اغتصب ، بل امتنع منهم ببنى هلال أخواله ، وشطر الناس في المصر شطرين متناجزين : فريق عليه برأى الحق ، وفريق معه بحكم العصبية ، يتداعون جميعا إلى السلاح حتى لتوشك الحرب الأهلية أن تحرق البصرة لولا أن تدارك عقلاء القوم الكارثة قبل أن تندلع النار . .

ومع ذلك فانطفاء الفتنة ، وظفره بالمال الحرام ، لايقعده فى مكة عن الإمعان فى لجاج الاعتزار . . وإنما تجيء له نظرته المنحرفة — أم نظرة الرواة ؟ — أن يؤجج لهيب الخصومة بينه وبين على فينصب نفسه قاضيا يحاكمه ، ويناقشه الحساب ! . .

كتب إليه على يحاول أن يهديه :

« . . . . من العجب أن تزين لك نفسك أن لك فى بيت مال المسلمين من الحق أكثر مما لرجل واحد من المسلمين ، فقد أفلحت إن كان تمنيك الباطل ، وادعاؤك ما لا يكون ، ينجيك من المأثم ، ويحل لك المحرم ! . . وقد بلغنى أنك اتخذت مكة وطنا ، وضربت بها عطنا ، تشترى بها مولدات مكة والمدينة والطائف ، تختارهن على عينك ، وتعطى فيهن مال غيرك . . فارجع هداك الله ، إلى رشدك . . واخرج إلى المسلمين من أموالهم . فما قليل تفارق من آلفت ، وتترك ما جمعت . وتغيب فى صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، قد فارقت الأحباب ، وسكنت التراب ، وواجهت الحساب ، غنيا عما خلفت ، فقيرا إلى ما قدمت . . »

فلم تحركه — بروايتهم ! — العظة ، هو التقى النقى ، بل أمعن فى الظلام ، بحماقة معتوه ، وغفلة غرير ، إلى محاولة مفضوحة تأخذ الإمام بجريرة جرم ابن عباس نفسه أول من شارك فيه ؟ . .

كان جوابه العجيب :

« أما بعد ، فإنك قد أكثرت على . ووالله لأن ألقى الله قد احتويت على كنوز الأرض كلها ، وذهبها وعقيانها ولجينها ، أحب إلى من أن ألقاه بدم امرىء مسلم ! . . . . » .

خطأ بخطأ ، أو جريرة بجريرة ، فلا لائم إذن ولا ملوم لأنهما كليهما فى الإثم سواء ! . . وكأنما نسى ابن عباس — أو بأصدق تعبير ، من لفق حكاية الاعتزال ودسها عليه وعلى التاريخ ، أنه بهذا الدفاع الخبيط ، يقر على نفسه بجريمة السرقة من حيث أراد إثبات غثاثتها إذا هى قيست باقتراف على إراقة دماء

المسلمين ! . . وكأنه نسى أيضا أن دفاعه يجمع عليه الجرمين معا ، لأنه شارك إمامه القتل والقتال من أول لحظة امتشق فيها الحسام ! . .

لكنه السياق الذى جمحت روايات الرواة فيه بلا روية كالطرائد المذعورة ، تضرب على غير هدى ، فتنقلب وتضطرب ، وتتعثر وتكبو ، وتتجاوز فى تخبطها الضال مجال الخيال إلى مجال الخبال ! . .

وها هو يبعث إلى الإمام ، حين رآه يعاود تذكيره حق الناس وحق الله ، برسالة وعيد :

« . . . . لئن لم تدعنى من أساطيرك ، لأحملن هذا المال إلى معاوية يقاتلك به ! . . . . »

ومن العجب أن يتهدد ويتوعد وهو الحقيق بالوعيد والتهديد .. ومن العجب أيضا أن يسكت على عليه ، ويقبض عنه يد السلطان التى تستطيع أن تناله بالعقاب أينما كان ولو لاذ بأبعد مكان . . فعلى كثرة ما ورد فى واقعة الاعتزال من أقاويل ، وما لهثت الروايات وراء التفصيلات ، تقف ألسنة الادعاء عند مكة خرساء . فلا نحن نسمع عن رسول من لدن على بلغها لمحاسبة ابن عمه . ولا نحن نعثر على كلة واحدة إلى عامله عليها ليلاحقه بالحساب . . وما كان الأمر عليه باليسير ، ولا بالذى يغفل عنه لو قد وقع — فعلا — من ابن عباس ما يستحق المؤاخذة والعقاب بل الإعذار والعتاب . إنما كان أولى به ، وأهون عليه . فإذا قيل : إن لياذ مغتصب المال بالبلدة الحرام ، وفيها قومه وأهله الأدنون ، كان عاصما له من المساءلة والردع ، فإن أولئك القوم هم كذلك أهل أمير المؤمنين ، فهم ألصق به وشيجة ، وأحرص على امتثال أمره ، وأقرب إذن إلى أن يكونوا معه على ابن عمه الخارج عليه . ثم لا عاصم أيضا فى منكر ، ولا جوار لأثيم ..

غير أن الاقتضاب ، فيما يلوح ، كان أليق كنهاية لهذه الحكاية — التى تفوح من سطورها رائحة الافتعال ، وتشيع فى صفحاتها بصمات الادعاء والتهويل — من النهاية الطبيعية التى يرسمها منطق الحقائق ، وخلائق على ، وسجايا

ابن عباس ! . . فليس أيسر على الزاعمين من اقتضاب السياق ، ولا أسهل من إسدال الستار قبل الختام ، لأن بحسبهم أن يبلبلوا الخواطر ، ويوزعوا الاتهامات ، ويشيعوا الريبة فى سمعة هذا وقدرة ذاك . .

ومع هذا كله ، فاختلاق حادث اعتزال ابن عباس يكاد يكون الراجح وصدقه هو المرجوح حين نلق بنظرة متأملة على وقائع الحقبة المعاصرة ، من خلال النصوص التى نقلتها ، وما ورد فى ثناياها من آراء . .

فكثير من الذين ذكروا الحادث ، كواقعة تاريخية كثر رواتها إلى ما يشبه الإجماع ، أوردوا معه روايات آخرين وإن كانوا قلة ، تنفى وقوعه ، وتقرر بقاء ابن عباس على عمله بالبصرة لم يبارحه إلى يوم مصرع الإمام . . وغيرهم طائفة لم يذكروا شيئا عن الاعتزال وأغفلوه ، وفى الإغفال بطبيعة الحال ، دلالة على عدم وقوعه خليقة بأن تشكك فى رواية الذين أثبتوه . . ومنهم أيضا من نسبه إلى عبيد الله بن عباس ، لا إلى عبد الله . ولعلهم إذ فعلوا ، قد دفعهم إلى هذا فرار عبيد الله من اليمن أمام بسر بن أبى أرطأة ، وما عساه قد اقترن بالفرار من احتمال خروجه — كعادة الفارين من الخطر — بكل ما استطاع حمله من مال إمارته خشية عليه أن يقع طعمة سائغة فى يد العدو المغير . .

هذا الاضطراب الظاهر فى الروايات ليس فحسب خليقا بأن يحمل على تقبل القصة المعروضة بالحذر والحيطة ، بل هو يحمل أيضا على الشك فى صدقها ، ثم يدفع من بعد إلى نفيها النفى القاطع إذا ماتبدى من سلوك أبطالها ، فى مراحلها العديدة ، ما يناقض خلالهم المأثورة ، ويخالف فطرتهم المفطورة ، ويباين مألوف تصرفاتهم ومشهودها : ما عرف منها قبل الحادث المزعوم ، وما عرف بعده على السواء . .

وقد كان من الجلى ، فى الحدث المروى ، أن به من التناقض بين السلوك الواقع وبين السلوك المنتظر من صاحبه ، ما يؤكد أن الفعل ليس الفعل ، أو الفاعل ليس الفاعل ، لأن صدور هذا التصرف من هذا المتصرف هو المحال الذى

لا سبيل إلى حدوثه فى واقع الحياة . فالقضايا المنطقية لا تجىء نتائجها عفوا وخبط عشواء . ولكنها تسير بقانون دقيق فتترتب على مقدمات بذاتها — لاسواها — لا تتحقق إلا بها ، فإن ثبتت الأولى ثبتت الثانية ، وإن تغيرت تغيرت حتى ليمكن أن يقال إن لها صفة الاستقرار . . والأفعال سلوك لا ينشأ بذاته . بل ينبنى على مقومات شخصية الفاعل متفاعلة بظروفه ، فهى نتائج منطقية تتكرر دائما ولا تتغير ، ما ثبتت المقومات وهى الأشخاص . وابن عباس ، على هذا الأساس كمثال ، ليس من يسرق ، ولا من يخفر ذمته وينكث عهده ، ولا من يخون أمانة الله والناس ، لأن السرقة والنكث والخيانة نتائج منطقية محال ترتبها على المقدمة الماثلة ، وهى شخص الفاعل المفترى عليه ، بمقومات شخصيته من فطرة ودين وأخلاق وتكوين نفسى ، كفيلة كلها بأن تعصمه من التردى فى حمأة مثل هذه الموبقات .. فإذا قيل ، فى رواية أو روايات ، بصدور هذه الكبائر الفاحشة منه ، واجتماعها فيه فذاك هو النتيجة التى تناقض المقدمة . أو هو اجتماع ضدين معا كالماء والنار ، ولا يجتمع ضدان فى آن ، لأنهما لا يأتلفان ! . .

وبعيد عن التصور كل البعد أن تقع الجفوة التى شهدنا بين ابن عباس وأمير المؤمنين حتى تصل بالعامل إلى حد اللدد والتوعد ثم لا يتحرك معاوية ليستغل هذه الفرصة التى أتته طائعة ، وتهيأت على غير انتظار . . فلقد عهدنا العاهل الأموى يجهد الجهد كله ، ويركب الشاق والعسير لاستهواء أصحاب على وهم بعد فى ولائه ، اجتذابا لهم ، والتواء بهم عن غريمه الحقيق بالولاء . . ومع ذلك فلم نره هنا يحاول استمالة ابن عباس وإنه عندئذ لأطوع الميل إليه ، وأسلس قيادا ، بعد أن باين الإمام . .

إلى هذا كله لم تخل السير من مواقف مشهودة لابن عباس تعلن وفاءه لابن عمه ، واعتصامه بطاعته ، وحرصه بعد موته على تمجيده ونشر فضائله التى طالما حاول أعداؤه أن يواروها التراب . وقد علم أنه كتب من البصرة ، بعد

مصرع الإمام ، إلى معاوية يقرعه ويقسو عليه . وعلم أيضا أنه كان لا يتحرج من مشاقته والعنف به ، على مسمع جلسائه ورجال دولته بعد اقتماده إمرة المؤمنين ، خائضا فى مثالبه ، معددا مناقب على ، حتى لقد كان الرجل لا يكاد يخاص من سوط لسانه إلا أن يداريه ويسترضيه . فإذا كانت هكذا الحال فأين الجفوة وأين الاعتزال ؟ . .

كلا لم يخرج ابن عباس على طاعة على ، ولا اعتزله ، ولا التوى عمال . بل قد ظل مواليا له ، حافظا عهده فى خلافته . وفيا له ، ناصحا عن ذكره بعد موته . ثم تابع سيرته هذه مع الحسن فأسرع إلى بيعته ، ووقف بالكوفة يسانده ، وقاد مقدمته حين عزمت الكوفة على غزو الشام ، ولم يلق بطاعته إلى معاوية إلا بعد أن ألقى بثقلها إمامه الجديد ابتغاء السلام . .

٤

إن لم تكن بصمات أصابع ابن أبي سفيان هي المنطبعة على حكاية الاعتزال ، فبصمات من هذه تكون ؟ . .

ترجيح جانب العاهل الأموى مقبول ممكن ، بدلالة سابقته فى التلفيق . وبشهادة أنه وحده الذى يفيد من القطيعة المنتظرة ، نتيجة للدسيسة ، بين ابن عباس وأمير المؤمنين . وعلى أساس انتفاعه ، معنويا ، من أثر القصة المختلقة فى الناس كشائعة تثير الخواطر ، وتبلبل الأفكار ، وتوحى إليهم أن انفضاض ولى حميم ، لصيق الصلة بالإمام كابن عمه ، إيذان ببدء انهيار سلطان على ، وذهاب دولته ، وإعلان عن الدولة الجديدة البازغة ، يلفتهم إلى التعلق بأذيال الشام .

ومع أن هذا الترجيح معقول ، فإن أمانة العرض لا تتيح لنا القطع بصحة الافتراض ولكنها كذلك لا تتيح لنا نفيه النفى المطلق الذى يعدوه . . إنما الأميل إلى الحق أن ننكر الاعتزال كحقيقة تاريخية وقعت ، وأن نثبت مظاهره ومعالمه كحكاية حيكت ، بقلم ما ، فى يوم ما . . والفرق لا ريب واضح بين ما يحدث وبين ما يكتب . ثم لنا فى إنكار حدوث الحادث سند معتمد فى خلائق ابن عباس ، وفى التسلسل المنطقى للتاريخ . . كما أن لنا فى الإقرار بوجود الحكاية كحكاية ، سندا معتمدا من الرسائل والخطابات التى نقلها الرواه . .

ولا تناقض فى هذا التأرجح من النفى إلى الإثبات ، ومن اليسار إلى اليمين . ولا تفسير إلا بفرز الصحيح من الزائف ، والصدق من التمويه . .

فالرواية ثابتة مروية ، مصوغة فى السير بالحروف والكلمات والعبارات . ولكن ما ترويه من وقائع ، وما تقدمه من أسانيد ، هو المرفوض المدحوض الذى لم يكن ولم يولد ، ومن ثم فإنه لم يدب بقدمين على أرض التاريخ . .

فإذا كان معاوية قد برىء من تلفيقها — ولا نكاد نراه ! — فلعل صنيعة للأمويين قد ابتدعها خياله . . ثم مشى بها لسانه فى الندوات والمحافل ما شاء ، لتفرض نفسها على الأذهان بقوة الإلحاح ، ثم لتتسلل إلى صفحات الأحداث الصادقة التى لها ثبوت اليقين . .

أو لعل امرأً من شيعة بنى أمية ، فى عصر لاحق ، هداه إليها تفكيره ، فأذاعها لتكون وسيلة شائقة سهلة ، يستطيع بها أن ينال من قدر شيخ بنى العباس خفضا من هيبة بنيه الذين حطموا الملك الأموى ، وأقاموا دولتهم على أنقاضه . ولا نظننا بهذا التقدير نميل كثيرا عن جادة الصواب وتاريخ الدول الإسلامية المتعاقبة لم يسلم قط من عبث خصومها العابثين بسيرتها ، وبسمعة أساطينها ، من خلال تشويه الحقائق ، وتزييف الوقائع ، واختلاق الأخبار . .

كيفما كان من وضع القصة ، فهى صورة لما تطالعنا به روايات الفترة من محاولات الخداع والتمويه التى اصطنعها معاوية ، وزاد غرسا باصطناعها فى العام الأخير من خلافة الإمام . فقد كثر منه فى هذه السنة الأخذ — كما أسلفنا — بالأساليب التى تضعف من شأن على ، وتهون أمره ، أو تظهر له من الضعف والهوان ما ترتع فيه الأخيلة والظنون . . وبرع فى طريقته تلك البراعة التى تبدى الأكاذيب فى هيئة حقائق ، وتبدى الحقائق فى هيئة أكاذيب . ثم جرى فى هذا كله على سياسة التدرج التى تنتقل بالرأى العام خطوة بعد خطوة ، ومرحلة وراء مرحلة لتلوح للناس غايته التى يهفو إلى بلوغها وكأنها النتيجة الحتمية لتطور الأمور . .

فمن عجب أن تستهوى أساليبه هذه الكثيرين ، وتلق منهم الإكبار الذى يضعه على قمة البراعة السياسية والاقتدار كرجل دولة مرموق ، حتى لنجدهم يشيدون بهذه البراعة كفضيلة تحسب له ، وتسلكه فى زمرة الدهاة والساسة العظام ، لا كنقيصة تحسب عليه ، وتنزل بمقامه العلى كصحابى ، وكصهر لرسول الله — والرأى هنا ليس للحوار ، بل هو تقرير — لأن المبادىء التى تضعها الشرائع

على اختلاف النوع والزمان والمكان ، ترمى إلى بناء الإنسانية الفاضلة على أساس الإنسان الفاضل . . فإذا نظرنا إلى الدهاء على أنه القدرة على التكيف لمواجهة طوارئ الحياة ، وتطويعها لمصلحة جماعة من الجماعات أو شخص من الأشخاص ، فإنها القدرة التى لا ينبغى إذن أن تسير إلى هدفها فى غير طريق المبادئ المشروعة ، وإلا نزلت بقيمة الانسان فى عمومه ، وبقيمة صاحبها ، الذى سخت نفسه ، إلى وهدة سحيقة من السقوط لاينبغى أن يهبط إليها إنسان ، لأنها عندئذ تخرج به عن حدود الخلق الرضى والسلوك القويم والمبادىء السليمة التى أفرزتها الإنسانية خلال فترات التأمل والصراع الفكرى ، ورسمتها الأديان ، وما فتئت — طوال مراحل الحياة البشرية — تنادى باعتناقها متون الشرائع الموضوعة على اختلاف نظرات الدعاة والوضاع ، وتباين المواقع والبيئات ، وتجهد الجهد كله لحمايتها بسطوة الضمير أو ببطش القانون . .

فالقيم المثلى مثلى على امتداد الزمان والمكان . وهى دائما غاية وأسلوب . والمجتمعات بشتى صورها ، وبفارقهنا فى الحضارة أو بفارق هذه ك، تعمل فى كل حين على ترسيخها فى القلوب والأذهان ، وتنشيطها بالدعوة التى تهذب العقول وتثرى الأفكار ، وبالقدوة التى تترجم المتون إلى أفعال . . والمجردات الفاضلة ، من أمانة وصدق ومروءة وعفة وشمم وإيثار وما إليها من معالم السلوك السوى هى وحدها ، وبغير جدال ، طريق البشرية إلى التسامى عن حضيض الحيوانية التى تعوزها القدرة على تفهم القيم الروحية والمعنويات ، فلا تكاد تدرك غير الولاء للذات ومفارقة الشهوات ، كما لا تكاد تعرف غير لغة الضباع والذئاب ووحوش الغاب . وإذا كان معاوية قد هفا إلى تسنم أريكة الحكم فى الدولة الإسلامية ، وجند «دهاءه» لاحتلاب السلطان ، فشأنه وما يهفو إليه ، لأن الطموح لا يعاب . وشأنه وما يصيب بجهده واقتداره من هذا السلطان أو أصاب . وشأنه وما يختار به غرضها المبتغى من أساليب . . ولكن الدهاء ليس الالتواء . وليس بالمناقص تبنى الأمجاد . وليس بإهدار القيم الرفيعة تضرب الأسوة لمن يريد الائتساء . .

فالحاكم أو الأمير في حقيقة الأمر ، قمة التنظيم الشعبي في كلا مجالي نشاط أمته : السياسة والاجتماع . وهو بوضعه ، هكذا ، قبلة كل الأنظار . وهو بفكره وقوله وعمله المثل الحي بين جماعته أو رعاياه الذي يحتذى للاقتداء . فهو إذن ، بكل ألوان سلوكه يقود مسيرة السلوك العام ، لأن حركة الحياة في كافة المجتمعات تقوم دائما على ظاهرة التلقين وظاهرة التقليد ، وكلاهما ينحدران من الأعلى إلى الأدنى من الكبير للصغير ، ويتلقاهما الخاصة والعامة — تلقائيا ودون اقتناع أو محاكاة — عن صاحب الأمر المرموق ، الذي تفترض له صفات التميز والاقتدار . وليس أحد في أمة من الأمم أرفع قدرا ، وأسمى مكانة من رئيسها ، ولا أولى لها باحتذائها سلوكه : قوله بالاستماع ، وأمره بالانصياع ، وفعله بالاتباع . .

معاوية إذن ، حين يقول أو يأمر أو يعمل ، حقيق — كقائد لمجتمعه — إن تلتفت إليه الأذهان ، وتصغى الآذان ، وتهرع رعيته ، فرادى وجماعات ، إلى السير على نهجه في المقول والمفعول ، بل في المفترض والمظنون ، ولاء له ، أو تشبها به ، أو إيمانا منها بأنه يفكر فيجيد التفكير ، ويدبر فيجيد التدبير ، لأنه الأقدر على معالجة الأمور . . فلا عجب ، بعد ، أن يكون بحكم وضعه على قمة التنظيم الاجتماعي في إمارته هو الذي يحدد الناس مناهج السلوك ويحملهم — أو يغريهم — بركوب هذا الطريق أو ذاك ، ويعيد تشكيل فكرهم وخلقهم وفقا لقوالب فكره وخلقه وما يستحدث من رأى ونظم وتقاليد . .

ولقد جبل الرجل قوالبه هذه ، فيما بدا ، من طين الذات ! . . من الأثرة . من النفع الخاص . من الالتواء الذي سماه رواة التاريخ دهاء وما هو بدهاء . من الخداع الذي سموه ذكاء وما هو بذكاء . من الأنانية التي سموها طموحا وماهي بتسام إلى العلياء ! . . فإذا تضعضعت في نفوس الأمة ، من بعد ، مثليات المعنويات ، وعز وجود الإنسان الفاضل أو ضاع في الغمار ، وتمرغت القيم الروحية والخلقية في وحل الماديات ، فالمقى إذن جيل من الناس صاغه على تلك الشاكلة المنحرفة ، وانحدرت منه — على نفس غراره — سلسلة الأذيال !

كلا ليس بمحمدة ، بل هو نقيصة ، ذلك الدهاء الذى ادعاه الرواة لعاهل بنى أمية ، ولونوا به صورته ، وعطروا ذكره ، ونقلوا لنا من خلاله حياته العامة كعلم بين الساسة العظام . . ولئن كان الرجل قد شاء أن يبنى لنفسه ملكا فلقد كان أولى به — وفاء للإنسانية ، وحفظا لشرفها ، وحرصا على تطورها إلى الارتقاء — أن يبنيه على الفضائل ، أو يدع الأمر لمن هو أقدر على إقامة البناء . . ولئن كانت الخصومة قد لجت بينه وبين على ، فإن الفىء إلى الحق كان أحق بأن يفض النزاع . . لكنه أبى إلا أن يحتل ويموه ويحتال لتكون النتيجة على ما يهوى وكما شاء ، أحسن لجيله ولما بعده من أجيال أو أساء !

ويوشك المرء أن يتردى فى حمأة رذيلة من الرذائل فلا يكاد ينجيه من التردى إلا أن يشق على نفسه بشدة الأخذ والقمع كما يشق على الراكب ترويض دواب نافر حرون ! . .

فالرذائل — عادة — شهية ، خفيفة على النفس ، طريقها معبد قصير . والفضائل — عادة — مريرة ، ثقيلة عليها ، طريقها وعر طويل . . والمستمسك بالمبادىء العلية أو بدينه ، كالقابض على الجمر ، كما قد قيل . وإذا كان معاوية ، وهو الفطن الكيس الأديب اللبيب ، « أعقل » من أن يخدع ، فلقد كان أولى به أيضا — لسابقة إسلامه — أن يكون « أفضل » من أن يخدع ويجنح إلى الانحراف . ولو أنه حاسب نفسه قبل أن يقدم على ما أقدم عليه ، لتوقى هذه المزالق ، ولنظر كنظرة غريمه إلى الحياة ، ولوعى مثل حكمته التى أدلى بها ذات مرة لابن عباس وكانت دائما له شعارا يرفعه فوق الرءوس . .

تلك الحكمة الخالدة تقول :

« ما قربك من الله يباعدك من النار . وما باعدك من الله يقربك من النار ، ولا خلاف فى صدق هذا الشعار . .

لكن الهوى يميت القلوب ، ويطمس البصائر ، ويعمى الأبصار » .

ومع هذا فلا غرابة فيما اقترف العاهل الأموى من « أخطاء » لو أنه وزن بميزان المفتونين بهذه الحياة ! . . فالناس ، إلا ندرة ، يقبلون بشغف هو النهم

على مالا تبيحه أصول الأخلاق ، أو تجيزه قواعد الشرائع ، لأن كل ممنوع مرغوب . ولأن المنع حرمان وتجويع ، والمزاولة امتلاء واشباع . ولأن ثمرة الرذيلة لذة حسية أو معنوية عاجلة يستمتع بها المرء فى حياته الماثلة ، سواء بإرضاء شهوة الجسد أو بتحقيق مغنم مطلوب . أما الثمرة الحقة للفضيلة فتتمة مرجاة ، وجزاء مؤجل إلى عالم بعيد محجوب ! . . .

فلعل معاوية قد شاء أن يتعجل اللذة ويسبق القطاف ! . . لعله آثر اختيار الطريق القصير ! . . لعله أنسى ، فى إبان افتتانه بالسلطان وموجدته على الإمام ، ذلك العالم البعيد المحجوب .

وكيفما كانت نوازع الرجل ودواعيه ، فقد استمرأ المنهل الذى رآه يرويه وانحرف بكل عزمه عن المثليات الفضلى إلى خطته يتابع السير عليها بثبات وتصميم ، يتبع الخطوة الخطوة ، ويقطع الشوط بعد الشوط ، غير متحرج أن يدوس من القيم الإنسانية ما يدوس . فبحسبه أن يتم رحلته ! بحسبه أن يبلغ غايته وإن خالف المشروع ، وقارف الممنوع ، واستباح ما لا يباح ! بحسبه ولاء لنفسه أن يرتفع بها فوق الأعناق ولو على حطام الأخلاق !

ثم آن له ، بعد هذا أن يكمل سلسلة تمويهه ، فيقطع من الخطة إلى هدفه مرحلة جديدة . .

هذه المرة اتجه وجهة من نوع آخر فى عرض نفسه على الناس . وجهة لا يقصد بها إلى رجل بذاته من خاصة على وأوليائه تلويه عنه . . ولا إلى بلد من البلدان أو إقليم من الأقاليم يثيره ويؤلبه على أن ينفض عن غريته فيلتحق بحدوده ، ويزيد فى ملكه . بل لقد طار إلى ماوراء الأمانى وحلق فى سماء حلمه الموعود الذى يحتوى العباد والبلاد ، فاستبق بكيده يسرع إلى مجمع شعوب الإسلام وملتقاهم بلعبة ما كرة من الاعيبه خليقة بأن تأخذ العقول والعواطف بمثل السحر ، ويسرح أثرها على الدولة سروح النار فى الحطب الجف ، لتحتويها جميعها وتطويها طيا من القلب والأطراف . . .

وجه معاوية ، هذه المرة ، لعبته إلى موسم الحج الذى يمثل المؤتمر السنوى الإسلامى

العام ، ويأتيه الحجيج ، على الأقدام والضوامر ، مندوبين شعبيين عن مواطنيهم من كل جنس ولون ، فى كل أرض أظلها علم الإسلام وكادت تضم فى رقعتها المنبسطة — من خليج الهند ناحية الشرق ، إلى بحر الظلمات ناحية الغرب — نصف عالم تلك الأيام ..

فكأنى بتلك الأفواج الحاشدة ، التى اجتمعت فى رحاب الله ، وعند بيته الحرام ، قد أخذتها دهشة غامرة وهى ترى يزيد بن شجرة الرهاوى يعلن نفسه أميرا على الموسم من قبل معاوية ، ثم يحاول أن يقيم للناس حجهم ، ويؤمهم فى مناسكه ، وما ظنوا لحظة ، ولا عهد غيرهم قبلهم فى المواسم السابقة ، أن يكون أمير الحج من قبل امرئ غير على بن أبى طالب ، أمير المؤمنين ، وصاحب الولاية الشرعية على الدولة ، وعلى البلدة الحرام .

فما الذى غير مألوف الأوضاع ؟ . . .

إنهم لغير ملومين لو شط بهم التساؤل وذهبوا كل مذهب مع الظنون . .

أقد غلب معاوية على الأمر ، فصار له تعيين الأمراء ؟ . .

أم اقتسم وغريمه مظاهر الإمرة فى هذا الوطن ، عن اتفاق ، لهذا عام ولذلك عام ؟ . .

أم تقلص نفوذ على عن الحجاز كما تقلص من قبل عن مصر بعد الشام ؟ . .

أم اقتحم ابن أبى سفيان على الإمام عرينه ، إذ استشعر منه الضعف ومن العراق التخاذل ، فتحداه فى حماه ، وهو موقن بعجزه عن التصدى للتحدى ، وعن ردعه لرده إلى حيث ينبغى أن يكون ؟ . .

ما نرى معاوية ، بفعلته هذه كان يرمى — فعلا — أن يؤمر ابن شجرة على الموسم ، ولا كان يعتقد قط أن سيتاح لرسوله القيام بما ندب له ودونه بمكة عامل لعلى وأنصار ، إن يكونوا بعيدين عن قاعدة حكمه بالكوفة ، فهم بلا مراء أشد قوة بموطنهم ، وأعز نفرا ممن عسى أن يكون له هو من أنصار . .

لـكنه أقدم على ما أقدم ليعلم الحجيج ، وليعلم بعدهم من وراءهم من مواطنيهم ، بمختلف البلدان فى الأقطار الإسلامية المترامية ، أنه صلب العود ، قادر على مناوأة خصمه ، وعلى اقتحام حماه فى أى وقت يشاء . . أما أن يحال بين مندوبه ابن شجرة وما أوفد له ، أو أن يثور النزاع بينه وبين قثم بن عباس عامل الإمام على مكة ثم يتفق الناس على رجل آخر سواهما لإقامة الحج حسما للتنازع أن يؤدى لقتال فى الشهر الحرام ، بالبلدة الحرام ، فإن هذا وذاك ليسا مما يهم معاوية ، ما دام قد بلغ غرضه من التمويه على من شهدوا الموسم ، وضمن ذيوعه من بعد — على ألسنتهم — فيمن يلونهم من الشعوب . .

وقد فطن على إلى هذه المكرة المنكرة من معاوية ، وأدرك سوء أثرها فى الناس فندب رجاله لرد ابن شجرة عن مكة . غير أنهم كدأبهم وعدوه . ثم مطلوا بالوعد . ثم ما زالوا يمطون فى التسويف والمطل حتى سد دونهم بمنطقه وتحريضه كل سبيل إلى المراوغة فخرجت فئة منهم لما أرادهم له ، على رأسهم معقل بن قيس ، يطيرون جنوبا إلى الحجاز . .

لـكن خفة الحركة ، وسرعة السرى ، وحث السير لم تغنهم غير قليل . فقد ذهب جهدهم كله مع الريح . بلغوا هدفهم بعد انفضاض الموسم ، وعودة الأمير الدعى إلى الشام . ولم يكن كل ما جنوه سوى بضعة نفر من أصحاب الرهاوى وقعوا أسرى ، فساقوهم أمامهم إلى الـكوفة . .

وليس بمقطوع به ، وإن يكن أدنى إلى الرجحان ، أن هذه الحركة التمويهية تركت أثرا فى نفوس الناس ، نال من حزم الحكم الشرعى القائم ، وشكك فى اقتداره على مقاومة القوة المنافسة له ، المتربصة به لتقضى عليه . . ولعلها أيضا أن تكون خدشت هيبة الإمام . بل لعلها هيأت الأذهان ، على أوسع مدى فى طول الرقعة الإسلامية وعرضها، لتوقع غلبة معاوية عليه واحتلابه سلطانه لو امتد الوقت ، وسارت الأمور على نفس النسق الذى توهم الـكثيرون — بفعل التمويه — أنه الطريق الطبيعى للأمور . . فعلى ما هو معلوم من حق على على الأمة قاطبة بحكم البيعة،

ومن علو قدره عند المسلمين بمنزلته من رسول الله ، ومن قربه إلى قلوب الكثيرين بمآثر خلقه الكريم ، وأخبار بطولته المترددة ، منذ شبابه ، على ألسنة الشعب كالأساطير — مع هذا كله فقد كانت العواطف والصلات المعنوية والروحية سلعة لا تكاد تلقى حظها من الرواج فى سوق العلاقات الإنسانية فى المجتمع كما ينبغى أن يلقى من التقدير والتأييد كل نبيل وشريف . بل قد كانت أهون عندئذ أثرا فى النفوس من مظاهر القوة الباطشة . وأخف وزنا من بهرج الجاه وبريق المال . وأخفت صوتا من دوى التهليل وضجيج التضليل . .

ولقد احتكر ابن أبى سفيان — فيما لاح للجماهير — سوق السطوة المادية ، واجتمع له من وسائل الترويج كل ما يضمن لبضاعته الإقبال . . فإذا هو عرض الآن إحدى سلعه ، فإنها خليقة لا محالة بأن تروج !

ولم يتردد عن الإقدام . . فالسوق ظمآنة للشراء . والسلعة لديه حاضرة . وسليقة التاجر فى دخيلته ، تؤكد له أن الصفقة لا بد مدرة عليه أفحش الأرباح .

وبادر على الفور يتقدم إلى الناس بأحدث سلعة ، وأقدرها على الاستهواء . .

ما أن خلت السنة التاسعة والثلاثون من الهجرة ، ودخلت السنة الأربعون حتى حسر الداهل الأموى كم الساحر عن لعبة جديدة ، وقرع أكبر طبوله ! . . إنه الآن يستطيع أن يجتذب كل الأفئدة . ويلفت كل الأنظار . ويملأ كل الآذان برنين صاخب يتعالى جرسه ، ويتوالى صداه فى الآفاق حتى لا يسمع سواه . .

وكان ما أراد . .

فلم يكد يمضى بعض العام حتى أخذت ألسنة الناس تتهامس ، هنا وهناك ، بأنباء هى أشبه بالمحال منها بالحقائق ، تنفغر لها الأفواه من دهشة ، وتذهل العقول . . ولكنها ، مع هذا ، هى المحال المطلوب المحبوب ، والخرافة التى تهفو الأنفس أن تراها مجسدة تخطر على واقع الحياة . .

وعلا الهمس الخافت إلى لفظ مسموع . . وتوالت الأنباء رويدا رويدا ، فى

إعلان بعد إسرار . . وتقبلت الجماهير المتطلعة كل كلمة تلقفها بالبشر ، وكل معنى تومىء إليه بالترحيب .. فثمة ما يشير إلى كتب تطير من الشام إلى العراق وكتب تجرى من العراق إلى الشام . ثم ثمة ما يؤكد أن الفريقين يتراسلان . ثم ثمة ما يشف عن وفاق قريب ، وعهد جديد من الود والصفاء ، يلتقى فيه الأعداء المتناجزون بالسلاح لقاء إخوة متحابين . . يعيد الطمأنينة ويحقن الدماء . .

وعندما انقضى بعد هذا مثل ما يقطع البريد من دمشق إلى الكوفة ، ومن الكوفة إلى دمشق ، كان قد ذاع خبر الصلح بين على ومعاوية ، بوضع الحرب ، ونبذ الخصام ، وإعادة السلام فى ديار الإسلام باقتسام السلطان بينهما ، لعلى العراق ولمعاوية مصر والشام . .

٥

علم الناس ، بعد قليل ، أن الدعوة إلى السلام ولدت بالشام ، ثم حبت إلى الكوفة ، ثم قامت على قدمين لتأخذ وجهتها إلى مختلف الأرجاء ، ثابتة الخطا ، حثيثة الحركة ، مشدودة القوام ، تطرق المحافل ، وتدخل الدور ، وترتاد الدروب والطرقات هنا وهناك ، حتى أصبحت ولا شاغل غيرها يشغل تفكير الجمهور . . .

وحين يذكر السلام تستيقظ المشاعر ، وتنشط الأحاسيس .. فالعيون تتألق بعد إعتام . والشفاه تبتسم بعد عبوس. والأفئدة تطفر نشوانة وقد راحت تنجاب عنها غواشى الحيرة والقلق ، وأثقال الهموم والأحزان التى تفرضها ويلات الحرب، وتنشرها على الفكر والقلب والجسد كسحائب التراب والضباب التى تثيرها الأعاصير . حتى الكلمات والعبارات تصدح كالترانيم . . فالحرب موت والسلام حياة . الحرب خوف والسلام أمن . الحرب ظلمة والسلام نور . والأمن والنور والحياة هى غاية الإنسانية فى كل زمان ومكان ، ومنتهى رجاء كل إنسان ..

وحين تصدر الدعوة إلى السلام من قوى قادر ، أو يلبيها وهو لا يعسر عليه أن ينال بالقتال كل ما يريد ، ثم يرد نفسه عن السير لهدفه خائضا فى الدم ، فإنها إذن منة منه يسخو بها على عدوه سخاء الكريم المتعفف . وإنه إذن لسخاء الذى لا يدانيه جود ، ولا يوفيه ثناء ، لأنه السخاء بالحياة ..

وكان معاوية ، كما لاح للناس ، البادئ بالدعوة ..

فقد جاء فيما نقلته إلينا الروايات من أخبار .

« .. .. لما لم يعط أحد الفريقين صاحبه الطاعة ، كتب معاوية إلى على :

أما إذا شئت فلك العراق ، ولى الشام ، وتكف السيف عن هذه الأمة ، ولا تهريق دماء المسلمين . .

فمعل . و تراضيا على ذلك . فأقام معاوية بالشام بجنوده يجبيها وما حولها .
وعلى بالعراق يجبيها و يقسمها بين جنوده .. .. »

هذا الذى ذاع فى تلك الآونة ، ونقلته إلينا الروايات المدونة بعدها بوقت طويل أو قصير ، كان خليقا بلا أدنى ريب أن يحمل طائفة غير قليلة من الذين عاصروا مولد الخبر على أن يروا فى ابن أبى سفيان القوى المتعفف عن القتال ، السخى المتكرم بالسلام ، إذ بمقدوره مغالبة خصمه والانتصار ، آخر الأمر ، عليه . ولكنه آثر، كرما منه ونكرانا لذاته ، الاقتصار على نفسه ليحقن الدماء ..

ولا لوم ، بطبيعة الحال وفى حدود الشواهد الطافية فوق سطح الظروف ، على أصحاب هذه النظرة أن يتعلقوا بنظرتهم هذه لأنها الرأى المنتظر القبول بعد ما خامر معاوية عقولهم بكل تلك الأساليب البارعة التى لمظهرته صاحب الحول المتحكم فى توجيه الأمور . ولا لوم كذلك إن رأوا فى الدعوة منفذا لخلاص على مما هو فيه بعد أن أطبقت عليه الأحداث ، وسدت دونه كل منافذ الغلبة على الشام .. فإذا دعا معاوية للسلام ، فهى دعوة سماحة . وإذا لبى على الدعوة ، فهى تلبية ضرورة . وشتان بين إسماح القادر المسيطر وقبول المكره المضطر فى موازين التقدير . . .

على أن خبر هذه الدعوة السمحة ، وما تلاها من صلح أعقبته هدنة ، لا يكاد يسلم من مظنة الظانين وريبة المستريبين . . فهو أشبه بما ذكر قبله عن خبر اعتزال عبد الله بن عباس . وهو يحمل فى دخيلته عوامل تقويضه وإن لاح من خارجه راسى الأسس على منطق الحوادث ، قائم البناء بسند الرواة . بل الأولى أن يوصف بأنه أوهى من ذلك ، وأقل تماسكا وقدرة على الثبات أمام هبة من هواء الحقيقة ، إذا ما روعى قياس صدقه بعدد أولئك الرواة أو بصيغة الروايات . .

ففيما ورد عنه فى الأسناد المنقولة ، ذكر هذا الخبر آنا بإطناب قد ينبىء عن قيمته كواقعة تاريخية هامة لا ينبغى ذكرها دون إفاضة وتفصيل . وذكر آونة

ثانية باقتضاب لعله أن يوحي إلى قارئه بالشك الذى قد يعفى إنكار الناقل واكتفاءه فى إيراده بالإشارة المدهشة التى تفيد الإهمال أو مايشبه الإهمال.. وإلى هذا الاقتضاب وذلك الإطناب ، لم ترد عنه كلمة واحدة فى سير أخرى أغفلته كل الإغفال ، كأن لم يقع ، أو كأنه من لغو القول وسقط الكلام الذى لا يستحق عناء الاهتمام . .

وما نحب أن نتناول هذه الهدنة المدعى قيامها بين الفريقين بالمناقشة ، لأن المناقشة أحرى بأن تطرق فيما لا طائل منه ، وأولى بأن تعود إلى نقطة البدء التى تحرك منها ابن أبى طالب يوم اختير لإمرة المسلمين . . فالهدنة ، كما هو ظاهر ، تقوم على صلح عرضه معاوية وقبله الإمام . والصلح يقوم على اقتسام الدولة بشطرها شطرين مستقلين : لهذا الرجل العراق ، ولذلك الرجل الشام . والقسمة — كمجرد فكرة — لا توافق الاتجاه الجديد الذى خطه الإسلام ، ودعا به إلى التأليف بين الناس ، على تعدد الأجناس والمواطن ، وتوحيدهم : فرادى ومجتمعات ، بلم الشعث ، وجمع الشتات ، عن طريق محو الفوارق ، ورأب الصدوع ، ورتق القطوع المعنوية والمادية ، وليس إلى التجزئة والتقسيم ، أو التفريق والتمزيق . ومن اليسير أن ترى السياسة الإسلامية الخارجية التى وضع محمد قواعدها — فى إطار مفهوم الدين الجديد — قد نهضت ، منذ عهده ، على أساس — أمة واحدة لا تتحقق لها وحدتها المنشودة إلا بتوحيد العقيدة ، وتوحيد الإنسان ، وتوحيد النظام العام ، فلا وجه إذن ، من بعد ، لارتضاء التقسيم ، أو السماح بالانقسام . .

كذلك ليس بمقبول من الإمام ، ولا هو بمعقول ، أن ينقض مبدأ توحيد الأمة — الذى شرعه دين الله ، وبدأ صاحب الرسالة السماوية تحقيقه — إذا جاز له أن يحيد عنه ، أو يخالفه ، كتقليد سياسى موضوع سار عليه أسلافه الخلفاء . فاستمساكه بسنة رسول الله ، اقتداء به فى كل أمور دينه ودنياه ، يؤكد أنه خليق بأن يرفض فكرة التقسيم . وانطباعه على امتثال المبادئ ، وإصراره على الثبات بموقفه منها ، دون تحول أو التواء مهما كانت الظروف والأحوال ، يؤيد تشبثه دائما بآرائه . وسلوكه ، من قبل ، شاهد على الالتزام والثبات شهادة لاتدع سبيلا

لمتأول أن يبرر قبوله الصلح المزعوم على أساس التقسيم بحتمية رضوخه لضغط الأحداث أو تغير الأوضاع . .

فالمسألة إذن مسألة إيمان وليست بمسألة اجتهاد . وربيب الرسول أولى الناس باتباعه ، وأخلقهم باحتذاء أسلوبه فى نصرة ما يعتقد أنه حق ، ولو كره العالم كله ، ووقف له بالمرصاد . . وكأنى به كان يعمل بوحى ذلك الشعار الذى أعلن عنه محمد يوم جاءه عمه محاولا أن يثنيه عن الاستمرار فى تبليغ رسالة الإسلام ، خشية عليه من بطش قريش . .

محمد قال إذ ذاك لعمه :

« يا عم . لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه . . » .

وعلى قال لأصحابه حين لمس منهم التبوط عن قتال معاوية وجنوده الذين انفضوا عن الجماعة ، واقتطعوا الشام :

« . . . ويحكم ! . . اخرجوا معى ثم فروا عنى ما بدا لكم ! . . فوالله ما أكره لقاء ربى على نيتى وبصيرتى . . » .

وقال لهم مرة أخرى :

« . . . لئن لم تخرجوا معى بأجمعكم إلى عدوكم فتقاتلوهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم . . . لأسيرن إليهم ولو لم يكن معى إلا عشرة ! . . »

وقال وقال ، حتى كثر فى خطبه وأحاديثه ما قال من هذا القبيل ، الكثرة التى تغنى عن التدليل ، ولا تدع مجالا للجدل والتأول فى صلابة عزمه ، وصدق إصراره على القتال لتثبيت الوحدة حتى رمقه الأخير . . .

ولا يغيب عن البال أيضا كيف وقف بسيفه دون الانقسام عند أول بادرة بدرت من طلحة بن عبيد الله وحليفه الزبير بن العوام . . . فلقد أبى عليهما مشاطرته الحكم مع بقاء وحدة الدولة ، يوم جاءاه يقولان :

« ... بايعناك على أننا شريكاك ... »

فلم يأخذ مظهر العرض الذى يحمل العون ولا يخالف الوفاق والألفة ، لأن الشركة سبيل ممهد إلى الخلاف ، وفيها ما يهدد الوحدة القائمة بما لها من شكل الانقسام إن لم يكن بما لها من معناه . . .

وأبى أيضا أن يوليهما أمر المصرين : الكوفة والبصرة ، اتقاء ما عسى أن تدفعهما إليه شهوة الحكم من انفراد كل واحد منهما بمصره ، واقتطاعه من جسد الدولة دويلة مستقلة . . . فما أن اقترح عليه ابن عباس الرأى حتى رفضه ، وقال :

« .. ويحك !... إن العراقين بهما الرجال والأموال . ومتى ملكا رقاب الناس استمالا السفيه بالطمع ، وضربا الضعيف بالبلاد ، وقويا على القوى، بالسلطان . . »

ثم ما لبث أن ثار إلى سيفه ، حين بلغته الأخبار بتعبئتهما الجنود والحشود لانتزاع البصرة ، ودعا الناس للجهاد ، وهو يشير إلى الخطر الدائم المنتظر من حركة الرجلين :

« إن فعلوا هذا ، فقد انقطع نظام المسلمين .. »

وكما لم تكن حرب الجمل بينه وبينهما وسيلة لتوطيد سلطانه الخاص ، بل للإبقاء على الوحدة السياسية والإقليمية ، وحماية بنائهامن التصدع ، وعقدها من الانفراط ، فكذلك كانت صفين . وكذلك كان كل فعل فعله ، وكل مسلك سلكه ، وكل دعوة دعا بها ، منذ اختير لإمرة المؤمنين ... وإذا كان قد أبى ، فى مستهل عهده ، أن يثبت معاوية عاملا من قبله على الشام ، فإنه الآن أخلق بألا يرضاه رئيسا مستقلا لدولة جديدة ، تنسلخ من الدولة الأم ، قصارى وجودها أن يخلق نوعا من التنافس مع الأصل الذى تفرعت عنه قد يؤدى لسبب أو آخر ، إلى التنازع على السيادة . ومآله فى كلتا حالتى الوئام والخصام ، أن يكسر

شوكة المسلمين ، ويضعهم فى مواجهة العالم الخارجى شق بعد إذ هم جميع .
ويطمع فيهم الأعداء المتربصين بالإسلام . .

والغريب بعد هذا ، أن الخبر المنقول عن الصلح بين الإمام وابن أبى سفيان
— أياً ما كان منطلقه — يحمل فى ثناياه من عوامل تقويضه ما يغنى الغناء كله
عن جهد يبذل من خارجه لتقويضه ! . . فهو يبرز فى وقت لا شواهد فيه تومىء
إلى احتمال وقوع أى وفاق إن لم تكن كل الشواهد تشير إلى بلوغ الخلاف المدى
الذى لا مناص معه من الاحتكام للسلاح . . وهو يجافى طبيعة معاوية كل المجافاة
لأنه كلف بالعلياء ، متطلع دائما إلى ما وراء الافق ، قد كافح على السلطان وهو
بعد عامل منزوع من عمله ، فلا يعقل أن يقف دون إتمام الشوط بعد أن ملك
الشام ، وانتزع مصر ، واضطرب العراق على غريمه الاضطراب الذى يأمن هو معه
كل عادية على أحلامه وإنه ليكاد يرى تحقيقها على مد ذراع . وهو يمشى فى الروايات
جنبا لجنب وعلى خط واحد ، مع أحداث ثبت وقوعها ، وأجمع على صدقها كافة
الرواة ، بينما هى تناقضه وتنفيه . . . وكفى أن نقول ، بيانا لهذا التناقض ، أن
ما جرى بين الغريمين من وقائع وأمور بعد إبرام الصلح ، يخالف كل المخالفة
ما زعم أنهما تعاهدا عليه ونقلت نصوصه لنا الروايات حتى ليوشك المرء فى هذا
الضوء أن يقرر ، وهو سالم من الخطأ ، أنه لم يكن ثمة اتفاق على الإطلاق ! . .

٦

جاء الصلح ، فيما تقول بعض الأخبار ، بعد أربع سنوات طويلة من الخلاف والصراع ، فإذا هو يأتى فى غير أوانه إذا ما حاولنا الربط بينه وبين ما سبقه من أحداث . وإذا هو يكاد ألا يأتى إذا ما أحسن استقراء ما عاصره منها وماتلاه !

ولكنه ورد فى عدة روايات ، مع اختلاف كثير أو قليل فى التفصيلات . .

وقيل بوقوعه فى السنة الأربعين .

وكان مكانه من السياق التاريخى فى أول العام بافتراض ، أو فى منتصفه على أبعد احتمال . .

وتجمع المصادر التى أوردته ، بإسهاب أو فى بضع عبارات مختلفة الدلالات ، على أن الرجلين تعاهدا على وضع الحرب حقناً للدماء المسلمين . وعلى انفراد على بالعراق ومعاوية بالشام . وعلى ما يتبع هذا وذاك من وجوب احترام الحدود الفاصلة بينهما فلا يقتحمها أيهما على الآخر بغزو أو غارة أو تسلل عسكرى له ، ظاهرا أو باطنا ، شكل الاعتداء أو معناه .

بهذا يعم السلام . .

فإلى أى مدى نراه استطاع — إن كان حقا قد وقع — أن يثمر السلام ؟ . . وإلى أى جانب يقف : فى صفوف الحقائق الثابتة ، أم فى صفوف الأخبار المدعاة ؟ . .

من خلال الحوادث السابقة عليه وامتدادها المعاصر له ، ثم التى تلته وجاءت لاحقة بإبرامه ، نراه قد نبا عنها ، وبدا فى عواصفها الهائجة كعود جاف أولى بأن يتقصف — لا أن يثبت — من لحظة مولده ، أمام أول خطرة من خطرات النسيم الرقيق فضلا عن ثورة الأعاصير !

وفى ضوء شروطه الملومة ، الناشدة للسلام ، نراه — من أول لحظة إلى آخر شوط — لم يمنع النزاع بالسلاح ، ولا الصراع بالكلام ، كأنما قد أريد له أن يزيد فى تسعر النار . أو قد أبرم لينقض وكان لكى لا يكون . أو لم يقم أصلا فى غير أخيلة الادعاء ! . .

والشواهد تغنى عن الجدال .

فلم يكن العام الأربعون عام سلام وإن استهل باتفاق الصلح المزعوم . . بل الثابت أن يوما واحدا من أيامه لم يطلع له نهار يشعر الناس بالطمأنينة والأمن ، ولا عسعس ليل يحملهم على الظن بقرب انطفاء لهب الصراع المشبوب بين من قيل بتعاهدهما على كف الحرب والفىء للسلام .

من بدئه إلى منتهاه كان العام عام نزال أو تشرع للقتال ، على أوسع مدى ، وإلى أبعد الحدود . . فلقد سالت الدماء خلاله من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حتى لم يكن يسلم من رشاشها مكان عبر الصحراء من حدود الشام إلى جبال اليمن إلى ما يدانى ملتقى القلزم بالخليج . وعلى امتداد هذه المسافة الشاسعة فى محاذاة البحر ، مع انحراف ملامسة أو انحراف إيغال نحو الداخل ، انتشر الإرهاب والقتل والنهب والتحريق والدمار بالمدينة ومكة والطائف ونجران وأرحب ومأرب وصنعاء وجيشان وغيرها من مخاليف اليمن وبلاد الحجاز . ولم ينقشع هذا البلاء عن مواقعه إلا بانقضاء العام ، أو بالتحديد ، بعد مقتل الإمام .

وقصة هذا البلاء الدامى نرويه لنـــا ، على وجهه الذى علمناه ، غارة بسر ابن أبى أرطأة العامرى التى انطلقت منطلقها ذاك بأمر معاوية فى أوائل العام الأربعين ، وكان يراد لها — برغبة بعض خاصة الداهل — أن تتضاعف قوتها الحربية أضعافا عديدة لتكون حربا شاملة يقودها معاوية ضد العراق . فقد روى عنها على لسان عبد الرحمن بن مسعدة الفزارى أنه قال :

« لما دخلت سنة أربعين ، تحدث الناس بالشام أن عليا يستنفر الناس بالعراق فلا ينفرون معه . . فقمت فى نفر من أهل الشام إلى الوليد بن عقبة فقلنا له :

إن الناس لا يشكون فى اختلاف الناس على على بالعراق ، فادخل إلى صاحبك فمره فليسر بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم أو يصلح لصاحبهم ما فسد عليه من أمره .. .. » .

وتمضى الرواية فإذا معاوية لا يقبل الرأى ، خوف المخاطرة بلقاء على . والاكتفاء بالغارات الإرهابية التى تنال من عدوه ولاتنال منه.وإذا الوليد وأصحابه من الدعاة إلى الحرب العامة ، لاترضيهم سياسته ، حتى ليعلن الوليد عن غضبهم ، ساخرا من أميره :

« أشرنا على معاوية برأينا أن يسير إلى الكوفة فبعث الحسين إلى المدينة . فمثلنا ومثله كما قال الأول : أريها السها وتريني القمر ! . . » .

وتحدد لنا بعض المراجع الأجنبية موعد غارة بسر على الحجاز واليمن بوقت متأخر من نفس السنة يبعد بها عن بدايتها ، ويدانى منتصفها أو يجاوزه بقليل .. فقد ذكرت هذه المراجع « أن العام الأربعين من الهجرة ، فتح على على بابا جديدا من العسر والهموم ، إذ ما كاد موسم الحج يوشك على الاقتراب ، حتى بعث معاوية قائدا من قواده قاسى القلب ، ذا شجاعة ، هو بسر بن أبى أرطأة ، فى ثلاثة آلاف مقاتل إلى الأراضى المقدسة ، لإخضاع أهلها ، وحملهم على الإدلاء له بالبيعة والولاء .. .. .. »

والثابت بالرواية الأولى ، ومن خلال ما تومئ إليه ، أن الغارة ما كانت لتقع إلا بعد شهر أو اثنين من بدء العام . أو فى الربع الثانى منه على الترجيح .. فالنص يقرر أنه . « لما دخلت سنة أربعين ، وتحدث الناس بالشام أن عليا يستنفر الناس بالعراق فلا ينفرون معه » . . ثم يدلنا على أن الحديث يعلو ويذيع حتى يبلغ أسماع خاصة العاهل وذوى الحظوة لديه ، كاشفا عن رغبة مواطنيهم فى معاجلة على قبل أن يستقيم أمره ويسترد سيطرته على رجاله . . ثم ينتقل بأولئك الخاصة إلى صاحبهم ، يطلعونه على الأنباء ، ويعلمونه اتجاه الرأى العام فى ولايته ، ويحثونه على انتهاز الفرصة السانحة قبل أن تفوت ، بالمبادرة إلى

قتال غزعه . . ثم يرينا انقسام الرأى بينهم وبينه ، هم إلى الحرب الشاملة وهو إلى الحرب المحدودة . ثم ينتهى بنا ، بعد جدل وحوار ، ومراجعة وإصرار ، إلى إنفاذ معاوية الغارة . . فإذا وضعنا فى حسابنا أن التفكير فى شن حرب عامة وجهتها الكوفة ، أو غارة إرهابية وجهتها الحجاز واليمن ، لا يمكن أن يكون وليد يوم وليلة ، أو بضع ليال وبضعة أيام ، لخطورة الحرب الشاملة من ناحية ، ولضرورة مماراة احتمالات النجاح والفشل ، من ناحية أخرى ، فى غارة تقطع الجزيرة العربية كلها من أقصى الشمال إلى أبعد مناطق الجنوب .. وإذا قرنا بهذا كله ، المشاورات والمقابلات ، وجهد التأهب والإعداد ، لتبين لنا أن أشهرا من العام لا بد قد تقضت قبل أن يخطو بسر إلى مقصده أول خطاه .

والثابت من الرواية الثانية ، أن الغارة الإرهابية على الحجاز واليمن ، قد وقعت فى النصف الثانى من نفس العام . بشهادة ما ذكرته عن بعثها عندما أوشك موسم الحج على الاقتراب ، وبدلالة ما درج الناس عليه ، فى ذلك الزمان — الذى يشق فيه السفر أيما مشقة على الحاج ، رجالا وركبانا — من التأهب للسير إلى بيت الله الحرام قبل موعد الحج بشهور . .

والروايتان ، فى إطار ما أسلفناه ، تتفقان على حدوث الغارة الوحشية فى موعد يتلو بداية العام الأربعين بأشهر تقل فى إحداها وتزيد فى الأخرى . ولكنهما تؤكدان وقوعها بعد هذه البداية بوقت ليس بالقصير . .

غير أن الرواية الثانية تلوح أولى من الأولى بالترجيح ، لأنها أقرب إلى الاتساق مع السياق الزمنى للحوادث المعاصرة ، وأدنى إلى التزام خطه السليم .

فلا خلاف ، فيما نعلم ، بين جمهرة المؤرخين ، قدامام ومحدثيهم ، على انطلاق حملة مضادة من الكوفة سيرها أمير المؤمنين بقيادة جارية بن قدامة السعدى لتأديب المغيرين . ولا خلاف أيضا على قيام جارية بتعقب بسر ورجاله فى مراحل رحلتهم التدميرية ، مرحلة مرحلة ، وموقعا موقعا على امتداد الجزيرة العربية لم يرده عن التعقب إلا تيقنه أنهم فاتوه ، فكر راجعا على آثارهم لعله أن يصلح

ما أفسدوه . . ومن المعلوم ، بعد هذا ، أن قائد الحملة الأموية حرص على تثبيت البيعة لمعاوية فيما مر به من بلاد . فلما بلغ فى أوبته مكة قافلا من مطاردة غريمه ، وأراد أهل البلدة الحرام على العودة إلى طاعة الإمام بعد إذ أخرجهم منها بطش بسر كارهين ، فوجىء بهم يسألونه فى تردد وحيرة :

« ولمن نبايع ؟ . . »

وتوجس خيفة من قولهم جارية . .

لمن ؟ . .

لـكن همسهم طالعه بمـا يخشاه :

« قد هلك أمير المؤمنين ! . . »

فألقى به النبأ المشئوم فى وهدة من الوجوم . وطوح به مع الحزن والذهول واليأس حتى لغاب عنهم وهو شاهد ، وغابوا عنه وهم حضور . . وعندما استطاع أن يثوب إلى بعض رشده ، كان كل ما أسعفه به بيانه أن قال :

« لمن بايع له أصحاب على . »

فبايعوه على الأثر للحسن بن على أميرا المؤمنين بعد أبيه ، وكانت قد ترامت إليهم ببيعته فى الـكوفة أخبار . .

والمتواتر المشهور أن الإمام لقى مصرعه على يد قاتله الآثم فى رمضان . والنادر المهمل أنه قتل فى ربيع الآخر من نفس العام . والبون بين الموعدين كبير ، ولـكنه لا يغير ، بطبيعة الحال ، من اطراد الحوادث ، ولا ينفى وقوع غارة بسر قبل هذا أو قبل ذاك .

وحين نأخذ بالحساب القصير فى تحديد موعد المصرع بربيع الآخر ، نجد الغارة ، لا محالة ، قد وقعت قبله — على أقل تقدير — ببضعة أشهر ، تـكاد تقرن مخرجها من الشام بمولد هلال السنة ليتحقق إمكان التقاء ميقات عودتها بميقات مصرع الإمام ، كما هو ثابت فى الأسناد . .

فأين إذن موقع اتفاق السلام من العام ؟ . .

الغارة سابقة .

والاتفاق لاحق .

الغارة ترجع بدءا إلى مستهل السنة . وتذرع ذهابا وجيئة ، مسافة تقدر بمئات عديدة من الأميال ، وزمنا يصل إلى بضعة أشهر لاتقل عن ثلاثة . ثم تبلغ مأمنها ، بعد الأوبة ، مع مقتل الإمام .

والاتفاق يبرم ، بزعم زاعميه ، فلا نجد له فسحة في سياق الزمن إلا إن افترض إبرامه قبل الغارة ، أو افترض بعد انتهائها ، فإذا هو ، بأول الافتراضين لا بد أن يقع في السنة التاسعة والثلاثين ، وبثانيهما لابد أن يقع بعد مصرع أمير المؤمنين ! . .

وكلا الافتراضين مرفوض لا يستقيم بإجماع الرواة وبداهة العقول . .

وحين نأخذ بالحساب الطويل عن تحديد موعد المصرع في رمضان ، كقول عامة رواة السير ، نرى الغارة لابد قد وقعت في النصف الثاني من العام ، مؤيدة صدق الرواية الأجنبية أو قربها من الحقيقة قربا لا تدانيها الأخرى فيه . . فليس بمعقول أن تكون حملة جارية التأديبية ، التي خرجت لرد بسر ، قضت ثمانية أشهر أو نحوها في تعقبه وتكون غارة بسر ، على أساس نفس التقدير ، قد استغرقت مثل المدة أو ما يزيد عليها بأيام لو اعتبرناها خرجت في بدء العام . . ليس هذا بمعقول لأنه يخالف المعروف عن طبيعة الغارات من التزامها شعار : « اضرب واهرب » القائم على المباغتة ، العامل كل آخذيه في نطاق خفة الحركة ، وانتهاز الفرصة ، وسرعة الانقضاض والفرار تلافيا للمواجهة والاشتباك . .

بهذا الاستقراء يكاد يقع في مجال المحال أن الغارة والحملة اللاهثة في أعقابها قد حدثتا في مستهل العام ، بحكم ما تفرضه طبيعة الغارات من سرعة خاطفة تختزل الوقت الذي تستغرقه أيما ، وتضغطه ضغطا شديدا إلى أصغر حجم وفي أضيق حيز لأنها في الحقيقة سباق مع الزمان والأحداث . ويكاد يقع في مجال المعقول ،

إن لم يكن فى مجال الحقائق ، أن تكونا حدثتا حول منتصف سنة أربعين ، بعده أو قبله بقليل ، بحكم معاصرة موعد عودتهما ليوم مصرع أمير المؤمنين .

فمتى إذن — فى هذا الضوء — يمكن أن يقع اتفاق السلام الذى قضى بكف الحرب ، ومنع الغارات ، واقتسام الدولة شطرين آمنين فى ظله بين الرجلين ، لهذا العراق ولذلك الشام ؟ . .

فى نفس الضوء ، يوشك تاريخ إبرام الصلح — إن كان حقا قد أبرم ! — أن يتحدد فى النصف الأول من السنة ، وقبل بعث غارة بسر ، لأنه ما كان مستطاعا أن يبرم إلا وعلى ابن أبى طالب بين الأحياء ! . . وفى شعاعه ، أيضا ، يوشك الصلح ألا يكون قد وقع لأنه لم يمنع وقوع ما أبرم ليمنع وقوعه ، وهو الغزو بجيش أو غارة على أرض أحد طرفى الاتفاق ! . .

أم قد أبرم لينقض على الأثر ، وما جف مداده أو انفض أشهاده ؟ . .

إذن لأشارت إلى نقضه الروايات التى جرت بذكره ، ولسجلته فى صحائفها استكمالا للحديث عنه ، لأن واقعة نقضه أخلق بأن يشار إليها ، وأحق بالظهور والتعليق ! . .

أم قد يقال ، فى معرض إثبات قيامه والتدليل على إبرامه ، إنه تم وغارة ابن أبى أرطأة قد غادرت الشام ، فلم يتح منعها عن السير ؟ . .

أم النية انعقدت على إصداره ، ثم اتفق بعدها على تنفيذه ، والغارة ما زالت فى الطريق ، ليكون كافا لما وراءها من غارات اعل معاوية أراد قبله تسييرها إلى العراق ، فتكون هذه الغارة — فى عزم ابن أبى سفيان — آخرة الغارات وخاتمة العدوان ، ويكون الاتفاق فاتحة عهد من السلام بين الفريقين حقيق بأن يؤتى ثماره ، وينجب آثاره لولا مصرع الإمام ؟ . .

لئن قيل هذا أو قيل ذاك ، فكلاهما اعتراض مرفوض ، وتدليل مدحوض ، لأنهما ما كانا ليمنعا معاوية عن رد بسر عن الاستمرار فى فظائعه برسول يرفد

إليه ببعض الطريق . ولا أن يمنعا عليا من المطالبة بهذا الرد بحق ما شرطه الاتفاق . ولهما فى طول الفترة ، التى قضتها الغارة فسحة لالتقاء الرسول بالمغير . وإنما فى إنكار قيام الصلح سند من إغفال الرواة للنقض ، ومن السياق الزمنى للأمور . .

على أى فرض من الفروض ، لا يثبت قيام الصلح ولا يستقيم . إن قيل قد تم قبل الغارة ، فكيف قامت ومنعها وأمثالها مشروط فيه ؟ . . أو قيل بعدها فكيف أبرم ، والإمام عند ذاك قد قتل وأصبح ذكرى للذاكرين ؟ .

بل الأولى — بداهة — ألا يكون ! . . وهل يمكن أن يكون وموعده المدعى واقع بين قوسين : غارة تنقض شرطه ، ومصرع يمنع إبرامه ، وكلا الحدين كفيل بأن يلفظه من نطاق الحقائق الثابتة إلى ضياع الزعم المشبوه ؟ . .

الفصل الرابع

١

كالحوادث السابقة على الصلح المزعوم ، والمعاصرة لادعائه ، كانت أيضا الحوادث اللاحقة به تنفيه وتمنع وقوعه إلا أن يكون أمنية خالجت بعض الأنفس التواقة إلى السلام وجسدتها الأخيلة . أو فرية مختلقة نسجتها الأهواء والمطامع وأريد بها الإيهام . .

ولا حريجة على التمنى وإن شط به تمنيه إلى ما وراء الممكنات سدورا فى الخيال حتى المحال . . بل الحريجة على المختلق الذى يشرد العقول فى تيه التضليل . إذ الفرق بينهما هو الفرق بين الرغبة المخلصة النقية والنزوة المغرضة الخبيثة ، أو بين الماء والسراب ، والصدق والرياء . . .

ولكن معاوية ، فيما أفصح سلوكه ، يأبى إلا أن يسير على السنن المموج فى قيادة الناس وفى معالجة الأمور ، لأنه جرب الاختلاق والالتواء ، وعرف أن السياسة — كتلفيق وتمويه — هى الطريق الممهد الميسور للوصول إلى القلوب والعقول فى زمان راج فيه النفاق ، ولم يتورع الناس ، خلاله ، عن بلوغ مآربهم من أى سبيل . . وما يضيره ؟ . . إنه ليعمل بوحى عصره ، ويفعل أفاعيله من وراء ستر كثيف ! . . فإن هو جازت أساليبه التمتية على معاصريه ، وهى أولى بأن تجوز ، فقد بلغ بها ما يتمناه ، وغدا فى عيونهم وهو الداهية المحنك الأريب . وإن كشفت طائفة منهم الزيف الذى صدقوه — ولسوف لا يكشفونه إلا بعد حين — فأين الدليل الذى يلزمه الفرية ، ويأخذه بالتمويه ؟ . . ثم لات عندئذ حين نكوص عما قد وقعوا فيه ! . .

ونتطلع إلى مسار الحوادث الجارية طوال عهد الإمام ، فيدلنا ترابطها على استمرار النزاع ، دون انقطاع ، بين على ومعاوية . ثم لانعدم ، مع هذا ، أن نسمع عن صلح بينهما ، تسير به أخبار وتمتلىء صحائف ، يحاول زاعموه

والروجون له أن يقحموه على السياق الزمنى ، ولا منفذ له منه أو فرجة فيه ، إلى تيار التاريخ ..

وهذا تناقض لا ريب مريب ! ..

فلم يفتر العداء بين العراق والشام يوما واحدا منذ ادعى معاوية لنفسه ولاية دم عثمان ، وجاهر بالعصيان ، وإن بدا الصراع كأنما استحال إلى نوع « سلمى » — لو صح هذا التعبير — أثناء هدنة التحكيم . ولم يلبث ، بعد فشل الحكومة ، أن عاد سيرته الأولى : حربا مشبوبة ساخنة حينا ، وباردة حينا ، بتعبير مفهومنا الحديث . . وعندما لاح لمدعي الصلح — وليس لدعاته ! — أن يخامروا به أفكار الناس ، كانت الأيام مشحونة بالخلاف ، وكان انتشار موّجات المد الحربى والسياسى بين الفريقين ، خليقا بأن يغرق اتفاق السلام لو شيء له أن يسبح ضد التيار ! . .

وكانت أعنف مظاهر هذه العداوة بارزة فوق سطح الظروف فى العام التاسع والثلاثين ، والعام الأربعين ، كما لم تبرز من قبل منذ صفين . متصلة فى إحكام وتلاحق كحلقات سلسلة ، أو كإبل قافلة ، ذيل كل جمل فيها مربوط بخطم الذى يليه ! . فقد أطبق معاوية بغاراته على العراق وما وراءه من دولة غريمه ، يفرقها هنا وهناك . بعضها يجتاح الأطراف ، وبعضها يشارف الكوفة ، وبعضها يعبر الفرات موغلا فيما بين النهرين إلى دجلة ، وبعضها يمضى من الشام منحدرا من أقصى المناطق المتاخمة شمالا للجزيرة العربية عند ساحل بحر الروم ، إلى أبعد حدودها الجنوبية عند التقاء القلزم بالخليج . . وعنفت هذه الغارات عنفا بلغ غاية القسوة والإرهاب قرب نهاية أول العامين لتمد عنقها إلى العام اللاحق دمارا ونكالا أدنى إلى ما علمنا ، من بعد ، عن وحشية التتار . . ثم تكاثرت وتلاحمت مزدحمة فى سيرها على خط الزمن ، ومتداخلا عمر بعضها فى عمر بعض ، لا تكاد واحدة تهم بنفض اليدين من مهمتها الدموية حتى تكون أخرى غيرها قد خاضت الدم وأشاعت الخراب . .

ومع أن اضطراب الأمور فى العراق على على فى تلك الآونة ، كان الدافع الذى أغرى معاوية بشن الغارات ، فلقد كانت الغارات نفسها المحرك الأول لحمية رجال الإمام ، وحافزهم على الجد فى رد العدوان ، وإن طالما تثاقلوا ، وتوانوا ، ففاتهم ردع المغيرين فى أغلب الأحايين . لكن وخز الأشواك يدمى ويؤلم ، وتوالى الطرق يوقظ النيام !.. فما لبث أولئك المتوانون أن ثابوا إلى الرشد بعد غفلة ، وانتبهوا على واقعهم الذليل بعد تخاذل ، فهبوا يحاولون إصلاح ما أفسده عليهم الثبوط .. فعندما كان سعيد بن قيس الهمدانى قد كر راجعا إلى الكوفة ، بعد محاولته تعقب سفيان بن عوف بن المغفل الغامدى فى غارته التى شنها على الأنبار ، كان بسر قد بدأ غارته الوحشية على الحجاز واليمن ، حتى لأوشك خرج هذه يلتحم بعودة تلك ، فيجتمع على أهل العراق ، فى وقت واحد من قسوة الغارتين ، ومن مهانة سكوتهم على الضيم ، ما أثار فيهم غضبة لكرامتهم دفعتهم إلى الإصغاء لدعوة الحرب الشاملة التى ظل الإمام طويلا يدعوهم إليها كدواء لا دواء غيره لردع معاوية ، وتثبيت هيبة الحكم ، وإقرار وحدة البلاد .. وعندما كان جارية بن قدامة السعدى ما زال بعد فى طريق أوبته من مطاردة بسر ، كان معقل بن قيس التميمى قد فرغ من المهمة التى ندبه لها أمير المؤمنين لحشد الناس من السواد جنودا بجيشه تأهبا لغزو الشام .. ولو أملى حينذاك لعلى فى أجله أياما معدودات ، لتشبت الحرب لا محالة بين الفريقين ، ولتجرع معاوية من عنف القتال ومر الهزيمة ما كان حريا بأن يتجرعه من قبل فى صفين لولا خدعة المصاحف ، ومهزلة التحكيم ..

غارة ابن المغفل الغامدى على الأنبار فى سنة تسع وثلاثين ، وغارة ابن أبى أرطأة العامرى على الحجاز واليمن فى سنة أربعين ، كادتا تلتحمان كحلقتى سلسلة ، أو كجملى قافلة ذيل أولاهما مربوط بخطم الثانية !.. وحملة سعيد بن قيس لتأديب أولى الغارتين ، وحملة جارية بن قدامة لتأديب الأخرى ، قد التحمتا كذلك التحام هاتيك ، ثم اتصلتا معا فى نسق زمنى واحد بمصرع الإمام ..

هذه حقيقة تاريخية لامرية فيها ، ثابتة فى السير والأسناد . وسلف من الإشارة إليها وإيرادها ما يغنى عن الترديد . .

فما أن آب سعيد إلى الكوفة ، بعد أن فاته ابن المغفل ، حتى رأى الإمام يحث الناس على قمع الغارات الأموية ، التى تناثرت على وجه الأرض ، واجتثاث أصلها من الجذر ، بضرب معاوية بن أبى سفيان فى عقر داره قضاء لا قضاء غيره على العصيان والعدوان . . ثم رآه يعاود الحث والتحريض ، آنا فى يأس وغضب وضيق ، وآنا فى أمل ولين وتصبر ، حتى اجتمع رأيه ورأيهم — وغارة بسر لا تزال فى الطريق — على بعث معقل بن قيس التميمى للسواد ليحشر الناس جيشا كثيفا لمهاجمة الشام . . وما أن أنفذ معقل مهمته ، وعاد بالكتائب المحشودة إلى الكوفة فى العدد والسلاح ، حتى سمع بها خبر مصرع أمير المؤمنين ، تماما كما سمع به جارية فى مكة ، وهو عائد من حملته التأديبية على بسر ، إلى العراق .

تحدثنا السير :

. . . واستشار على أصحابه فى رجل صليب ناصح ، يحشر الناس من السواد . فأشاروا عليه بمعقل . فدعاه ووجهه . . « فسار . فلم يقدم حتى أصيب أمير المؤمنين . »

وتحدثنا أيضاً :

. . . وسار جارية حتى أتى نجران . « وهرب بسر وأصحابه منه . واتبعهم حتى بلغ مكة ، فقال : بايعونا . . فقالوا : ولمن نبايع ؟ . . قد هلك أمير المؤمنين » .

من هذا الاستطراد يبدو بجلاء أن حلقة العداء الدموى بين الشام والعراق كانت تطبق من كل جانب ، لا على أول العامين الأخيرين وحده من حياة الإمام ، بل على كليهما معا ، إطباقا لم يدع فيهما ثغرة هدوء ينفذ السلم من خلالها إلى مرافقة الأحداث العنيفة التى صبغت لياليهما وأيامهما بصبغتها الحمراء ! .

ويتبين أيضا أن الحالة النفسية التى كان فى إسارها أهل العراق آنذاك يعصى عليهم وهم يكابدونها أن يتقبلوا اتفاق سلام ، أو ينزعوا إلى الحديث عنه أو التفكير فيه وصدورهم عندئذ مفعمة على عدوهم ضغينة ، ونفوسهم مشحونة بدعوة الحرب الشاملة ، وأكفهم مشدودة على الأسنة المشرعات تحفزا للثأر والانتقام . .

ويظهر كذلك أن الإمام ، كالعهد به ، ما كان ليرتضى الاتفاق المزعوم فى تلك الآونة التى جاءته أخيرا وبعد صبر وعناء عما كان يسعى إليه ويعمل له ، فقد نفض أصحابه عنهم التراخى ، وفاءوا إلى الانصياع لأمره موحدى الكلمة عاقدى العزم على القتال ، هو الذى كان يتوق دائما لتوحدهم واجتماع رأيهم ولا يرى بديلا عن الحرب لحسم الأمور ولو سار وحده إلى لقاء أعدائه بلا نصير . .

فكأنى ولا سلام ! . .

كأنى ولا احتمال لسلام على أى وجه من الوجوه فى ذينك العامين وإن سودت به صحائف ، ولغطت ألسنة ، وأكثرت فيه الروايات والرواة ! . .

فما من مكان قط لإبرام صلح ، أو احتمال إبرامه . لأن سنة تسع وثلاثين الهجرية كانت غنية أخش الغنى بالغارات الأموية ، متخمة أشد التخمة بكل مثيرات الحفائظ وموجبات الأحقاد ، لم تتح فيها فرصة لالتقاط نسمة ندية من نسمات الثقة والطمأنينة بين الفريقين ينفثها الأفق الملتهب بالفظائع والأهوال . ولأن سنة أربعين لم تكن غير امتداد عدوانى لسابقتها ، نشر النكال والعذاب فوق دولة على إلى أبعد المسافات ، وراح ينفخ فى نار الخصومة المتقدة ويزيدها اشتعالا إلى يوم مصرع الإمام . .

جو قاتم عبوس من البغضاء والعداوة يحرك حمية الثأر ، ويغرى بالانتقام للكرامة والدم ، ويخمد أنفاس الثقة فى نوايا هذا الفريق أو ذاك ثم يقال بمولد السلام المزعوم فيه ! . . فمن أين يكون ؟ . . وكيف ينشأ ويقوم ؟ . . ومتى يحين له أن يدرج ليحيى على أرض الشوك والدمار والنار والعداء مستحكم ،

والجروح تتسع ، والدماء تنهمر ، ومعاوية ورجاله من أهل الشام مستمزون بخايل النصر التي تطالعهم ، يوما وراء يوم ، في كل خطوة يخطونها ، وعلى كل موقع يطأونه وقد أخذت الأمور تسير وفق أهوائهم على الطريق الذي رسموه ؟

لئن كانت خلائق الإمام ، والجو النفسي للعراق ، والوقائع الجارية في تلك الآونة ، والظروف المحيطة بمولد الاتفاق المدعى ، سواء المعاصرة له والسابقة عليه ، قد تضافرت كلها ، كما رأينا ، على إنكار وجود الصلح ، فإن الحوادث اللاحقة بموعده المزعوم تؤيد إنكاره كل التأييد ، وتقطع السبيل على احتمال قيامه ولو كافتراض عارض ، أو كفكرة طارئة إن تكن خطرت ببعض الأخلاد ، واحتوتها أحشاء الزمان حينا لتتخلق جنينا يضج بالحركة والانتفاض ، فقد خمدت لا محالة بعد ساعات ولم يكتب لها الظهور إلى النور ! . .

فبحسب هذا السلام أن عاش بين السطور ليكمل أسطورة التفوق المعاوى ، ويسكر الناس بخمرة وهمها القرون الطوال ! . . ولكنه لم يدب على أرض الواقع ، ولا عاش بين الحوادث السيارة تاريخا حيا يتأثر بها ويؤثر فيها ليؤدي دوره كوسيلة لتغيير الأوضاع القائمة عند حلوله ، وإعادة رسم صورتها كما ينبغي لدوره أن يكون . وليس أيسر ، بيانا لانعدام أثره الفعال ، وتأكيدا لانتفاء وجوده ، من أن ما جرى بعده وأعقبه إنما كان امتدادا طبيعيا — بغير شية من التغيير — لحركة الصراع السياسي والحربي التقليدية بين معاوية والإمام .

فلقد مات علي ، فإذا موته لا يحسم النزاع ولا يغير الأوضاع .

ولقد اطمأن معاوية بهذا الموت ، فإذا اطمئنانه لايقعد به عن موالاة المجالدة والصراع . .

إنما نسمع أن الإمام لا يكاد يستقر في لحده حتى تهب الكوفة إلى السلاح لتصل ما انقطع بسبب مصرع أمير المؤمنين ، وتسير جنودها التي حشدها معقل ابن قيس من السواد بأمر علي ، لتمضي في الأهبة إلى الشمال لاجتياح الشام . .

ونسمع أن معاوية قد أخذ حذره ، فحشد حشوده ، وانطلق بها صوب الجنوب للقاء القوة الغازية ، وحماية أرضه أن يقتحمها جيش العراق . .

ثم لا نسمع ، مع هذا ، أن أحد الفريقين قد لوح للآخر بعهد الأمان أو حرمة الهدنة التى فرضهما عليهما ميثاق السلام المزعوم ! . .

وينطلق جيش الغزو العراقى ، أربعين ألفا ، بايعوا عليا قبيل مصرعه على الموت أو النصر ، على طلائعهم قيس بن سعد بن عبادة ، وعلى مقدمتهم عبد الله ابن عباس ، وعلى قيادتهم العامة وإمرة المؤمنين الحسن بن على خلفا لأبيه . .

وينطلق معاوية بن أبى سفيان من مستقره نازلا بجيش الدفاع الشامى إلى بلدة مسكن ، معسكرا بها ، ومتأهبا للقاء . .

ذاك ثابت مستيقن بغير خلاف .

ففيم إذن كان الانطلاق ؟

وعن أى دلالة يسفر تشرع الفريقين للقتال . . .

بل قد انطلق الجيشان لأن طبيعة السياق الحدثى ، وظروف الواقع ، والجو النفسى كلها تحتم الالتحام . ولأن التأهب والسير كليهما مرحلة من مراحل الصراع الذى استمر سنوات بين العراق والشام ولا سبيل إلى حسر تياره إلا بحرب شاملة تفض النزاع وتقر الأوضاع . . وهل كان الجيشان ليتعبئا ، ثم يمضيا على طريق الصدام المسلح لو كان الفريقان قد تهادنا حقا واتفقا على صلح ادعى زاعموه أنهما أبرماه وتواثقا فيه على كف الحرب ، وتأمين الحدود ، وحقن الدماء ، وإفاضة السلام ؟ . .

كلا ولا شبهة ! . .

فلا دلالة أبلغ فى نفى إبرام الاتفاق من هذه الدلالة . ولا خرافة أبعد عن التصديق من هذا الصلح وإن أكثرت فيه الروايات وأطنب الرواة ! . .

٢

بين حشد الجيش العلوى وتكتيبه تأهبا لغزو الشام وبين مخرجه من الكوفة زحفا إلى أرض صفين ، عالم فسيح من الأمل والعمل ، ومن المحن والأحزان ، ومن الفكر والذكريات . .

الأيام الأوائل من هذه الفترة القصيرة كانت كلها كيوم واحد . ممتزجة مندمجة . بغير معالم تميز أحدها عن الآخر كأنما اختزلت جميعها ، بنورها وظلمتها ، فى نهار وليل . . ليس فيها أمس وليس فيها حاضر . لا غابر ولا ماثل . بل هى غد يملأ الخواطر ويشد الأنفس المتحفزة شوقا إليه ليحييها معه فى إشراقة صباحه التى لم يلدها الزمان ! . .

والجموع المائجة ذهابا وجيئة ، فى رحاب الحاضرة العراقية وعلى مشارفها الدانية والبعيدة ، كانت كلها كرجل واحد . كأنها حزمة من دم ولحم وعظام ، ودأب وعرق وحركة ، وصبر وتطلع وتفكير . . ليس فيها كبير ولا صغير . لا سيد ولا مسود ، ولا كهل ولا يافع . بل عزمة واحدة فى رأى واحد لعمل واحد يدنى الغد المأمول المجهول . .

والخلجات فى الصدور خلجة . والأفكار فى العقول فكرة . والمشاعر أنداد ، والظنون أمثال . .

والحياة بعد هذا نشيد . والأعصاب أوتار . والخفقات إيقاع ؟ . .

حتى الإمام نفض يومئذ ملله وانخرط مع القوم فى التيار . شارك الناس ما هم فيه . تنفس الجو الذى تنسموه ، فرأى بنظرهم ، وسمع بسمعهم ، وتحدث بهم وعنهم كمثل الصوت والصدى والصورة والخيال ! . . أما مخايل السقم التى لازمته قبيل فورة الحمية الراهنة بضعة أيام ، فقد كانت كعارض من جفاء الزبد

ما لبث أن ذاب فى اضطرابة الماء بعد أن أخذت معالم الألم والقلق تنقشع عن ملامحه لتخلى مكانا لبسمة رقيقة بدأت تنتشر على محياه ! . .

ولم يكن قد استرد كل عافيته . ولكنه استرد ثقته فى رجاله ، وراح إيمانه بهم يسرى حرارة وقوة فى عروقه كدم جديد ! . . ولم يكن تحرر من كل شكوكه ، ولكن بشائر التغيير التى طالعته بها عزائمهم كانت كطلعة الفجر الخليقة بأن تبدد بقية الظلام . . وعندما التمعت أمام عينيه النصال والسيوف كالمرايا تطرح عن صقالها أشعة الشمس تحت قدميه وتغسل الأرض بلألاء النور . . وعندما خفقت البنود والأعلام فوق رءوس الجنود ترقص نشوانة على وقع ريح الشتاء . . وعندما مدت الخيل أجيادها إلى الأمام وهى تصهل وتفحص الرمل بحوافرها كأنما تهيب بالفرسان أن يرخوا لها الأعنة للانطلاق . . إذ ذاك تمثلت دورة الزمن بهذه الدنيا فى خاطر الإمام حكمة تقبس من الماضى لتضىء الغد ، وتعتصر التجربة لتسق العمل ، وتأخذ من الموت لتهب للحياة ! . .

إذ ذاك وقف بين الكتائب الحاشدة المتأهبة للقتال ، يحدثها بعظة الليالى ، وعبرة الأيام ، وسنة الموت التى يستوى فيها جميع الأحياء : أتقياء وأشقياء . وقصة الفناء بالوجود والخلود بالفناء ! . .

فيقول :

« عباد الله . .

لو أن أحدا يجد إلى البقاء سلما ، أو لدفع الموت سبيلا لكان ذلك سليمان ابن داود الذى سخر له ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة . . فلما استوفى طعمته ، واستكمل مدته ، رمته قسى الفناء بنبال الموت . . . »

ويقول :

« أيها الناس . .

إن لكم فى القرون السالفة لعبرة . .

أين العمالقة ! . أين الفراعنة ! . . أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين ، وأحيوا سنن الجبارين ! . . أين الذين ساروا بالجيوش ، وهزموا بالألوف ، وعسكروا العساكر ، ومدنوا المدائن ! . . . »

ويقول :

« أيها الناس . .

إنى قد بثثت لكم المواعظ التى وعظ بها الأنبياء أممهم ، وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم . .

ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا ، وأقبل ما كان مدبرا ، وأزمع الترحال عباد الله الأخيار ، وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى . . . »

وتحمله الذكرى إلى ماض علمه ، وعلمه الناس ، مشهود لبضعة من الصفوة آثروا مر الحق على حلو الباطل ، وغصص المنية على زخارف الحياة . . فإذا بقلبه يضطرب بين جنبيه كجناحى طائر يهم أن يطير . وإذا بصوته يختاج على خفق لهاته كتردد الصدى فى كهف أجوف . وإذا بملامح محياه تلين . . وببصره يغيم حتى لتوشك أن تحتجب عنه المرئيات وراء سحابة رقيقة من الضباب . .

ويقول وقلبه هو الذى يقول :

« أين إخوانى الذين ركبوا الطريق ، ومضوا على الحق ! . . أين عمار ! . . وأين ابن التيهان ! . . وأين ذو الشهادتين ! . . وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية ، وأبردوا برءوسهم إلى الفجرة ! . . . »

ثم لا يلبث دمعه الذى حبسته ساعة مآقيه أن ينفلت من بين جفنيه ينهمر ويفيض ، حزنا عليهم ، وشوقا إليهم ، وتقديرا لهم ولمآثرهم التى غدت حلية للمآثر فيطلق عنان شجوه ، ويبكى فيطيل البكاء . .

وتتعلق به الأنظار وهو يحاول أن يتجلد فلا يلبيه الجلد، ولا يسعفه جفناه .

وتتعلق به الأذهان وفكره مشدود إلى أولئك الأحبة الأعزاء من الأجلة الراحلين . وتتعلق الأسماع بشفتيه وهما تندان فى مهل عن حديثه الخافت الحزين وهو يسرى على هدأة الصمت التى لفت المكان :

« أوه على إخوانى ! . . الذين قرأوا القرآن فأحكموه ، وتدبروا الفرض فأقاموه ! . . أحيوا السنة . وأماتوا البدعة .. .. دعوا إلى الجهاد فأجابوا . ووثقوا بالقائد فاتبعوه . . . »

فلله مامن امرىء بين الجمهور الماثل إلا قد امبت النبرات الوالهة على أوتار فؤاده فغلبته عندئذ العبرة ، وأخذته الحسرة ، وطوحت به لوعة الأسى والحنين إلى ذلك الماضى القريب المشهود ، تطوف بصوره ، وتسترجع ذكراه ..

. . . .

صورة عمار .

عمار بن ياسر مولى بنى مخزوم . .

. . الذى بادر إلى الاستجابة لداعى السماء ، والإسلام بعد كلمة لا تجسر أن تنطق بها الأفواه . . .

الذى عذب فى الله أفظع العذاب وأقساه — والمسلمون بضعة مستضعفة ، والكفر جبروت طاغ ، ودين الله خيط رفيع لا يكاد ينفذ من بين أطباق الظلمة الروحية — فتفتق بطنه ، وتكسر أضلاعه ، ويشفى به نكال أعداء الله والرسول على الهلاك وهو صابر على الأذى ، مستمسك بالإيمان . .

الذى هاجر إلى الحبشة فرارا بعقيدته ، وأبلى فى بدر دفاعا عنها ، ووقف يوم اليمامة وهو جريح يقاتل أشد القتال غير مبال تفوق العدو وتكالبه ، ويهيب بأصحابه المجاهدين ألا تأخذهم الرهبة ، أو تردهم وقدة القتال عن الاقتحام :

« يا معشر المسلمين . . أمن الجنة تفرون ! . هلموا إلى ! . . أنا عمار .. »

.. الذى ثبت مع الحق ، وحارب عليه كأعنف ما تكون الحرب ، وأصلب ما يكون الثبات يوم صفين . . بفروسيته بز فروسية الفرسان الشبان . . وبحماسته

فاق حماسة الفتية البواسل وهو عندئذ شيخ واهن نيفت به أعوام عمره على التسعين . .

. . الذى كان فى الجهاد يستهين بالحياة ، ويطلب الموت . وشعاره فى الوغى دائما ، دائما : « الجنة تحت الأسنة » . .

.. الذى قال فيه رسول الله سيد المؤمنين ، وقمة الإيمان : « ملئ إيمانا إلى أخمص قدميه » . . وجعله قرينا للحق لا يفترقان ، حتى ذكر فى حديث مرفوع أنه وصفه بقوله : « لن يفارق الحق حتى يموت » . . أو . . « يزول مع الحق حيث زال » . .

. . . . .

وصورة أبى الهيثم .

مالك بن مالك بن التيهان . .

. . الرائد من رواد الإيمان القلائل الأول ، الذين غرسوا بذرة الإسلام فى المدينة ومحمد ما زال بين قومه بمكة فى نطاق من الويل والعذاب والتكذيب .

. النقيب من بين النقباء الاثنى عشر ليلة العقبة ، الذين بايعوا رسول الله أن يكونوا حوله كالسياج ، يمنعونه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم ، ويكونوا له أهله وجنده ، وتلامذته وحوارييه . .

. . الفدائى من الزمرة الفدائية الأولى من أصحاب محمد الأوفياء لعهده وذكراه ، الذين اعتنقوا بعد موته حق على ، ودعوا إليه ، وأعلنوا تأييده والدفاع عنه يوم تجمعوا فى فضاء بنى بياضة عسى أن يعيدوا تراث رسولهم إلى بيته بعد أن خرج إلى تيم ببيعة الصديق . .

. . . . .

وصورة ذى الشهادتين .

خزيمة بن ثابت الأنصارى . .

. . أحد أصحاب بدر التى أعزت المسلمين ونشرت نور الإسلام . .

.. صاحب راية بنى خطمة من الأوس يوم الفتح يوم قهرت مكة ، وأذل الشرك ، وردت قدسية البيت الحرام خالصة لله .

.. الرجل الذى جعل له رسول الله شهادته ، من دون الناس ، كشهادة رجلين من المسلمين ، وفاقا لثقته الراسخة فى صدق رسوله حين اختلف محمد مع سواء بن قيس على فرس اشتراها منه ثم جحد ابن قيس الشراء .. فقد شهد خزيمة على البائع وأيد المبتاع ، فلما أن سأله رسول الله :

« ما حملك على الشهادة ولم تكن حاضرا معنا ؟ .. »

بادر بلا تردد يقول بوحى سجيته النقية :

« صدقتك بما جئت به ، وعلمت أنك لا تقول إلا حقا .. »

وعندئذ كانت القولة النبوية التى رفعته ، فى مجال الشهادة ، على سواه :

« من شهد له خزيمة ، أو عليه ، فهو حسبه » ..

.. زمرة من الصفوة المختارة من صحابة الرسول ، وأولياء الإمام ، ورواد الإسلام ، قد تلاحقت عليهم الحتوف ، وتخطفتهم المنايا وهم على الحق ثابتون ، لم تزل لهم قدم ، ولم تهن عزيمة ، لأنهم كانوا على موعد مع الله يستعجلونه أن يحين ! ولأنهم كانوا على وصية صاحبهم ، أبى الحسنين ، التى ألقى بها إلى ذوى السمع والبصر من رجاله ، يوم قال :

« ... بادروا المعاد . وسابقوا الآجال ... فأنتم بنو سبيل ، على سفر من دار ليست بداركم ، وقد أوذنتم منها بالارتحال .. »

وفرغ على من خطابه بعد قليل ، ثم التفت إلى الحشد ، ينادى فيهم بأعلى صوته :

« الجهاد الجهاد عباد الله ! .. الجهاد الجهاد ! .. ألا وإنى معسكر فى يومى هذا . فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج ... » .

وهل كان منهم أحد يتخلف عن هذه الدعوة الكريمة ؟ ..

كلا والله ! . .

وترددت فى الفضاء أصداء مدوية بصوت الجموع ، وهى تهدر بالدعاء :

« الجهاد الجهاد ! . . »

فلقد انعقدت العزائم . وخلصت النيات . واستبان السبيل . . فهذه الجنود المحشورة من السواد ، جاءت تحمل رءوسها على أكفها مهرا رخيصا لرضوان الله . . وهل هى إلا رحلة قصيرة على الطريق الذى يرويه الدم ، وتظله الأسياف ، ليبلغوا ، كما علمهم عمار ، غايتهم المرتجاة ، يوم قال :

« الجنة تحت ظلال الأسنة » ؟ . .

٣

في الشمال .. في المغاني الخضر بأرض الشام .. في مجاني دمشق الفردوسية التي خلفها الروم ، كان معاوية والذين معه من الفئة الباغية — التي قتلت عمار ، واحتزت رأسه ، وأهرقت دماء خيرة إخوانه البدريين من صفوة صحابة الرسول — قد أعدوا عدتهم ، وكتبوا كتائبهم ، وهموا بالسير إلى رحلة بغي ثانية ، زاحفين بالحشود الزاخرة صعودا إلى الأرض الموعودة لملاقاة علي بن أبي طالب ، مرة أخرى على ثرى صفين ..

صفين كبرى جديدة رأى القوم أن يشدوا إليها الرواحل ليثأروا لأمسهم الراحل الذليل . ليستردوا الشرف المسلوب . ليضربوا الضربة التي يحسبونها كفيلة بقلب الميزان .. على نفس الموقع الذي شهد هزيمتهم ، وأوشك أن يرى دحرتهم وعاهلهم عندئذ قدم على الأرض وقدم في ركاب فرسه يهم بالفرار منذ ثلاثة أعوام ، أرادوا النزول ..

أمثلا بمثل تقودهم حمية الانتقام إلى نفس البقعة التي لعبت بهم عليها الهزيمة ؟ أم تيمنا بالنجاة التي أهدتها إليهم الصدفة ، فرق ترابها من قبل على يد ابن العاص ؟ أم اعتزازا بعلمهم كل موطيء فيها ، وكل حصاة على ثراها ، علم تجربة يقيهم المفاجآت التي قد تخطفهم لو أن عدوهم استدرجهم إلى القتال على موقع غيرها لم يطأوه ؟ .

أيا ما كانت نظرتهم ، وكانت نواياهم ، فقد تهيأوا للانطلاق إلى صفين .. وكانوا على ثقة . أو كانوا على طمأنينة وأمل توقعا للقريب المنظور ..

بغير وني نشطوا إلى العمل .. النفوس والأرض الأموية كلها تضج بالرجاء والانفعال والحركة .. المكان يهتز بالوقع والصليل . الجنود تنتظم . السلاح يرهف ليبتر . المطايا تسوم لترتحل . الضغائن تغمز لتثور . الحماسة تشحذ لتشتعل .. ومن

وراء أولئك أحلام اليقظة عريضة كالأفق ، لامعة كالأشعة ، راقصة كالحبب المتوثب على سطح كأس ملأتها خمر لذة تهيج شهوة نشوان ! . .

ولم تكن المسافة بعيدة . . دون هدفهم بنان تشير . وقدم تتحرك . . ومثل أصبع من الطريق لا تطول على خف أو حافر ، ولا تشق على فارس أو راجل . فليس الذى يشغلهم هو السير . ولا نأى الغاية . ولا القوة التى يعلمون أنها لابد مقبلة من الجنوب على ضفة الفرات للانضمام . . تلك كلها أمور مقدورة مرقوبة . معلومة محسوبة . لم يغب أيها عن البال . . ولكن الذى يشغلهم الآن هو نفاد الصبر . فراغ جعبتهم من القدرة على التمهل . البرم بالانتظار . . ولو خلى بينهم وبين ما يريدون لانفجرت رغبتهم المضطرمة فى صدورهم على الفور قتالا ناجزا يحسم الأمر ، ويعجل النصر ، ويجمع الأمة على امتداد الديار واختلاف العناصر مع الشام . .

لا طاقة لهم بالتريث : هذا الذى يجمد الدم ! . وكيف يطيقونه والقطاف دان والثمرة شهية تسيل اللعاب ! . فالظروف مهيأة . والدنيا معهم . وساعة الفصل التى أعدوا لها شهورا طويلة من الجهد والكفاح والحيلة ، قد اقبلت أخيرا عليهم بكل ما هفوا إليه وانتظروه . .

ليس أيسر الآن من وقعة على هذه الأرض يجابهون فيها عدوا أحنى ظهره التثاقل ، وأوهى عزمه التواكل تحت أمير ولاء صحبه له بلاء ، وطاعتهم عصيان . إن الأمل الآن أمامهم مفتوح ، والظفر مستباح ، وتلك القوات المقبلة عليهم من العراق بعد قليل أدنى أن تكون ، فيما يقدرون ، كإبل النحر قد تزاحمت على سكين الجزار ! . .

ولا مبالغة من ناحيتهم فى هذا التقدير . . فابن أبى طالب هو الذى وصف رجاله بهذا الوصف بعد أن خاب فيهم رجاؤه وما كان إلا ليخيب . . ليسوا — برأى تجربته ومعاناته — بجنود وغى ، ولكنهم حشود غوغائية كالقطعان . . الآدمية المدركة الأبية فى جلودهم تخلت عن مكانها للبهيمية الغريرة الذلول .

والعقول المستنيرة الواعية ذابت في الغرائز المطموسة العمياء . فما هم رجال كالرجال يجمعهم الخطر ، وتحمسهم الأنفة . ويحفزهم توقى الاستذلال إلى الاستبسال دفاعا عن الكرامة ، وحماية المصير ، وذودا عن الدمار .. تطويهم المحن ، وينشرهم الخوف ، وتلمهم النزوات الدنيا ، كأنهم ماشية . . كأنهم سوائم وأنعام . كأنهم — بنص حروفه — « أشباه إبل غاب عنها رعاتها ، كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر » كما يفعل قطيع مذعور ضال ! .

وما هم أيضا بأصحاب قتال . . لا همة تدفعهم إلى انتضاء سيف . لا غاية ، مهما غلت ، تحثهم على بذل قطرة واحدة من دم . لا أرب لهم في تنضير شجرة الحياة الإنسانيـــة الـكريمة التي لا تورق ولا تثمر إلا بعرق الأباة ودماء الأحرار . . إنهم دائما ، ن خوف الموت في موت ، ومن الحرص على السلام في استسلام ومن الـكثرة الحقيرة الذليلة كأنهم هباء بلا أثر ، أهون من قلة ، وأقل من نفر ، لا يرام صاحبهم سوى دراهم خسيسة تغنى عن ثقلها ووفرتها بضعة دنانير ، حتى لقد قال لهم : « لوددت أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم ، فأخذ مني عشرة منكم ، وأعطاني رجلا منهم » . . لأن ما يعول عليه هو القيمة لا الـكمية . الـكيف لا العدد . النوع لا المقدار . .

لئن خطر عندئذ لأهل الشام أن سيرهم إلى صفين أشبه برحلة للترفيه منه إلى زحف لقتال ، وأن النصر لا محالة معقود لهم ، وطوع أيديهم ، فذلك ليس بغلالة خيال ، لأنه النهاية الطبيعية المحتومة لهذا الصراع كما تدلهم عليها أحاديث على ، وأعمال رجاله ، ويؤدى إليها تسلسل الحوادث وشواهد الحال ..ومن الخطأ أن يظن أنهم أسرفوا في التفاؤل ذاهبين مع الاطمئنان إلى أبعد مدى ترسمه الأوهام ما دام فيصل الحـكم في الأمور هو القياس القائم على نتائج التجربة ، المتعمق دلالة التصرفات ، المتتبع مسار الظروف الممتدة والوقائع الماثلة بالنظرة المحيطة الواعية ، والاستقراء المنطقى المتسق ، والرأى الخالص السليم .

ومع ما قد جد ، في الجانب الآخر ، عند أدانى الفراتين ، من تغير في الانفعال ،

وتبدل فى السلوك ، فقد كان معاوية وأصحابه أولى بأن يروا فى هذه الصورة الجديدة للعراق مجرد ألوان سطحية تناولت القشرة ولم تتناول الجوهر . لكأنها سحابة عارضة مآلها الإقلاع ! . لكأنها زبد وجفاء !. لكأنها انتباهة طارئة من غفوة لا يلبث أن يمتورها التثاؤب ثم يغزوها استرخاء النوم !. بل هى كصحوة المحتضر لحظة النزع والموت عادة صحوة توشك بعنفوانها أن تتحداه ، ولحظة النزع غالبا ما تلوح كأنها قمة الحياة ! .

وحق لهم هذا التفكير .. فكم طالما هبت الكوفة على ضربات الشام التى كانت تنصب على رأسها كالمطارق ونفضت عن نفسها آثار التخاذل والاستكانة . كم طالما غضبت لشرفها المهين . كم طالما زأرت وملأت الآفاق بالزئير والهدير ثم لم يكن قصارى ما تسفر عنه ضجتها العالية ، فى أكثر الأحايين ، إلا ما يشبه المواء ! . .

ولقد عاش معاوية وقومه الخلاف الذى كان دائما ينشب بين على وأصحابه ، وبينهم بعضهم وبعض طول تلك السنوات . . عاشوه معيشة تحقق لا تصور ، وعيان لا خيال .. فى إطار الأخبار التى كانت تتوالى عليهم من الكوفة على ألسنة الرواة ، عاشوه . فى كتب العيون والجواسيس . فى حركة الأحداث .

فلم يكن يخفى عليهم هناك شىء يقال .. ولا فعل يفعل . ولا نية تعقد على أمر لأن جمهرة شيعة الإمام آنذاك كانوا أكلف الناس بالمناقشة والمجادلة ، وبالمراجعة والحوار ، لا يخفى لهم سر ، ولا يحكمهم حذر .. فما تكاد تعرض لهم مسألة ، جلت أو هانت ، تبيح العلانية ، أو تحتم الإسرار ، إلا قلبوها — جمهرة — على أوجه الرأى ، وعايروها بميزان المنطق ، وإن تشعبت أمامهم بها سبل التقدير والتبرير بمقدار اختلاف مرامى النظرات وتعدد صور المعاذير بين أصحاب الآراء فى الدقائق والتفصيلات ، تبعا لتعدد مذاهب التفكير ، وميول الأمزجة ، واقتدار العقول . وإن خرجت بهم أيضا المسائل المعروضة بهذا النقاش المبلبل العريض من حدود الحرص والتوقى ، التى تفرضها ضرورات

الإخفاء والكتمان ، إلى رحابة المهاترة واللجاج والمكابرة التي تفضي دائما إلى الإفشاء والإعلان .

وقد عاش معاوية أيضا وقومه الوقائع الجارية ، تافهة وخطيرة ، التي ملأت الأعوام الثلاثة الأخيرة ، معيشة مكابدة ومعاناة . فشاركوا في صنع الأحداث . أو وضعوا لها خططا أو خطة ترسم الاتجاه والمسار . أو اختلقوا منها ما شاء لهم الاختلاق وشاءته سياستهم النافرة أبدا من التزام قانون الأخلاق . القائمة دائما على ابتداع الأسباب وادعاء المقدمات إيهاما بحتمية النتائج والمغبات . المستندة ، من قبل ومن بعد ، إلى تحليل الذرائع ، وتبرير الوسائل للوصول إلى غاياتهم ، المعلنة والمستترة ، من أقصر طريق أو أنكر طريق ! .

بل قد قطعوا فعلا الشقة المرتقبة ، وبلغوا الآن — أو بلغ صاحبهم — نهاية الطريق .

في يوم قائظ الحر من أيام الصيف ، قبل بضعة أشهر من سيرهم هذا إلى الميدان ، رأى الداهل الأموى أن الأوان قد آن ليسل أحدث أسلحة دهائه ويقتحم به مجال السلطة الشرعية على غريمه اقتحام ند على ند ، وقرين على قرين إن لم يكن اقتحام منافس خطير قادر على منافس مفضول مغلول . فما أن أجال رأيه بخاطره ، واستنهض عزمه ، حتى وضع الحلقة الأخيرة في سلسلة التمويه . خرج على الدنيا بقناع جديد . طالع الناس بأعجب الأعاجيب التي حفظتها لنا صفحات التاريخ . نصب نفسه ، تحديا وافتئاتا ، أميرا المؤمنين ! .

تم هذا التنصيب في صفر من سنة أربعين .

وحدث في بيت المقدس ، مدينة القبلة القديمة ، ومهبط الأنبياء ، وأرض الإسراء ، كأنما لينتحله صفة القداسة التي أعزت المكان .

وكان هو النتيجة الطبيعية الخليقة بأن تتقبلها ، بغير غرابة ولا استهجان ، عقول جمهور كبير من المسلمين سبق إلى علمهم ما أشاعه الداهل قبيل أشهر قليلات ، من وقوع صلح مزعوم بينه وبين غريمه ، اتفقا فيه على إعادة السلام

إلى الامة ، واقتسام الدولة بينهما شطرين ، لكل شطر منهما كيانه السياسى الخاص ، وسيادته المكتملة ، ووحدته الإقليمية ، وحدوده الآمنة ، وأميره الذى يسوس الأمور ..

وامتلأ ابن أبى سفيان، لا ريب ، فخرا وزهوا وهو يشهد الناس يومئذبالشام يصفقون على يده بالبيعة ، ويعاهدونه الولاء والطاعة ، ويسلكونه — بلقبه الجديد — فى خيط واحد مع خلفاء رسول الله وقادة الدولة الأوائل : أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ..

وما له لا يزهو وقد حاز أخيراً أربه، وارتقى قمة أطماعه؟ . فتقديره أصاب . وتدبيره أثمر . وادعاؤه الحق فى خلافة المسلمين — بحكم خرافة تفوقه ودهائه — قد توفرت له الآن صفة « الشرعية » التى كان افتقاره إليها يباعد ، إلى حد كبير ، بينه وبين عواطف الجماهير ..

غدا الآن أميراً « ثانيا » للمؤمنين ..

وجمع بحركته المسرحية ، هذه هيبة الشكل والهيئة إلى قوة الفعل والمضمون ..

وأصبح وخصمه على استواء ..

واكتسب شرعية الولاء ..

وليس ثمة من تلوم أحسه ، فيما يلوح ، من هذه اللعبة الهازلة ، الساطية على الحق ، العادية على الواقع ، المجافية لطبيعة الأوضاع كل مجافاة ، المخالفة لقواعد الاستخلاف أبين اختلاف ..

ليس ثمة من تلوم أحسبه معاوية ، وهو يظهر مشاركته عليا فى الحكم ، إلا أن يكون مسيلمة باليمامة قد استشعر التلوم وهو يدعى النبوة فى حياة الرسول ، ثم يعلن على الناس مشاركته فى الرسالة السماوية ، ثم تبلغ به صفاقته وضراوة

افترائه على الله والحق أن يكتب كتابا إلى محمد يعلن فيه اقتسامه وإياه عالم تلك الأيام بينهما على استواء كاقتسام معاوية الآن الدولة الإسلامية مع الإمام !

أنذاك كتب النبي الكذاب :

« من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله .

سلام عليك .

فإني قد أشركت في الأمر معك . وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم لا يعدلون . »

فكان الجواب الذي تلقاه ، وما من جواب أخلق بأن يتلقاه في مثل هذا المقام إلاه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب .

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين . »

فكأنما الله شاء أن يظهر في حياة على دعى كما ظهر في حياة الرسول أدعياء !

وكيفما كان الأمر ، فبحسب معاوية أن أحكم خدعه ، ولعب لعبته ، وحقق مشتهاه . أما أن الأمة الإسلامية كلها ، بكافة شعوبها ، وبإجماع أمصارها إلا الشام . . وأما أن البيعة تعاقد بين على وبين المسلمين بعهد الله ، لا يحلها إلا صاحبها أو الذين بايعوه . . وأما أن تحلل طائفة منها شاركت فيها هو المروق . . وأما أن حق ابن أبي سفيان في نقضها منقوض ، إذ هو لم يدخلها ، وبقاؤه خارجها يعزله عن جماعة أهل الإسلام ، ويدمغه من البدء بالتمرد على النظام العام . أما هذا كله وأمثاله من أسانيد تفسيق موقفه ، وبطلان بيعته ، فليس له عنده أي اعتبار ! .

على أن ضرورات الإنصاف تقضي هنا بأن يقال إن الرجل وأصحابه ، حين

انطلاقهم ذاك من مواطنهم إلى صفين الثانية تأهبا للقاء ، كانوا أكثر من عدوهم إلماما بحقائق الأمور فى إقليمهم ، وفى غيره من الأقاليم سواء بسواء ، وأقرب منهم إلى تبين ما فى الصورة العامة للظروف والأوضاع من الظلال والأضواء ، ومن الخفايا والمرئيات . كما كان هو أيضا — وبلا نزاع — أوثق بالذين معه ، وبما فى صدورهم وأخلادهم وأيديهم ، من غريمه أمير المؤمنين بمن اتبعوه ، وبما أعدوه ، وبما أسروه أو اعتزموه .

تلك حقيقة لا تغيب عن بال .

ومع ذلك . فلا ينبغى أن يعنى هذا — بحال من الأحوال ، إلا من قبيل الافتراض المجرد — أن حزب الشام كانوا أدنى من حزب العراق إلى إحراز النصر ، أو أجدر به منهم فى المعركة المنتظرة لو قد كتب للحرب أن تندلع ، خلال الأيام القليلة المقبلات ، على أرض الوقعـــة ، وأتيح للسهام أن تترامى ، وللسيوف المشروعات أن تصول وتجول . بل هو يعنى أنهم قد أحاطوا فاستكملوا الإحاطة ، وقدروا فأحسنوا التقدير ، ودبروا وأجادوا التدبير قبل السير إلى الصراع المرتقب ، وعلى النحو الذى يجب أن يكون . أما نتيجة المعركة الحربية القادمة كالحال فى غيرها من المعارك — فإنها : إلى جوار عوامل الإحاطة والتقدير والتدبير ، رهينة بحنكة القائد ، ودربة الجند ، وسرعة الحركة ، ومبادهة العدو بما ليس فى حسابه ، واليقظة المرهفة لاقتناص السوانح الطارئة على غير توقع ، مقترنة بالقدرة الفائقة على المبادرة الخاطفة إلى إعادة التشكيل ، وتغيير المواقع وتعديل التوقيت ، وبالوعى الكامل لمقتضيات الالتفاف والمباغتة والانسحاب ، وفاقا — من ناحية — لما لعله قد يجد ، بدواعى المناورة والدفاع والهجوم ، على سير القتال من مد وجزر ، وضغط وتجمع ، وشراسة وهوادة . وعلى صفوف المقاتلة ، من ناحية أخرى ، وحشودهم الممتدة فى مختلف أرجاء الميدان من تخلخل وكثافة ، واضطراب وفرار ، وتركز وانتشار . . فتلك كلها ، وغيرها من أمثالها ، ميزات ترجع إلى عبقرية القيادة ، وتنبع من رهافة الحاسة القتالية ، وتتطلب شدة التمرس ، بالأساليب الحربية . . ولا يكاد معاوية وأساطين قواده من

التابعين ، وإن ذاع شأنهم كأصحاب وغى ، يبلغون منها بعض مبلغ الإمام .

وترانا نحسب ، مع وجود هذه الاحتمالات المؤثرة فى صياغة النصر والهزيمة، أن العاهل الأموى وأعوانه كانوا أحرى بأن يستشعروا الطمأنينة إبان السير إلى اللقاء الموعود ، استنادا إلى تفوقهم النسبى فى مجال الممكنات المادية المتاحة ، وفى إطار الظروف السياسية المواتية ، وتحت أفق الجو النفسى الهادئ الذى يعيشون فيه . .

فهم من الوضع القائم ، يقفون بقدم ثابتة على أرض صلبة لا تنهار . . نظامهم بالشام متسق . وكيانهم مستقر . ورأيهم واحد . وعزمهم مشدود . ورعاياهم فى كل بقعة من إقليمهم بنيان مرصوص . العاهل والجيش والشعب معا فى رباط . وخطوط نقل المدة والميرة إلى جنودهم قصيرة . . والجبهة الداخلية ، بتعبيرنا المعاصر ، مدد لا ينفد معينه لتزويد كتائبهم على خط القتال بالقوة والتأييد، وجدار واحد لا ثغرة فيـــه يحمى ظهورها أن تتسرب إليها عوامل القلق والتخاذل والانتقاض .

أما الآخرون فبذور الفتنة كامنة فيهم ، كأنها الجمرات تحت الرماد، وإن بدوا الآن على تعاطف واتفاق . . جمعهم شراذم من النحل . ورأيهم أشتات من الأفكار . منهم القالون لعلى ، والمبغضون له ، وقد دفعهم إلى صفوف أنصاره الرياء . . ومنهم الموالون له طاعة عن ثقة فيه وإيمان بقدرته وحكمته ، والملتزمون جانبه عن متابعة له انسياقا مع تيار الرأى الغالب فى العراق دون اقتناع خشية من جمهرة الأشياع . ومنهم المولعون به إكبارا لمقامه ، والغالون فى حبه إلى التقديس . . ومن وراء أولئك وهؤلاء ، خلف مقاتلته المتهيئة للزحف معه إلى اللقاء ، زمر شق من الخارجة مندسة هنا وهناك بين الشعب إن يكن فرق بينها تضارب الآراء فقد جمعها على حربه العداء . وطوائف عدة من العثمانية ، كأنها الخروق فى ثوب الأمة ، تعج بها البصرة واليمن والحجاز . وعناصر كثيرة لا يحصرها الإحصاء من الشعوبية الغالية فى بغض العرب ، الموتورة من الإسلام ، الحالمة بعزها القديم قد

تناثرت عند أطراف دولته ، وأحاطت بحدودها القاصية كالإطار .. وكلهم جموع زاخرة ماكرة ، غير مأمونة الهوى والسلوك ، يتربصون به وبحكمه سانحة للإفلات من الولاء والطاعة ، وللمسارعة إلى الثورة والانتكاس .

وكذلك ينطلق معاوية ورجاله إلى ساحة المعركة التي تجنها الايام ، فإذا هو راضى النفس ، مرفوع الهمة ، ثابت الخطا ، وطيد اليقين .. لا يشغله شاغل عن توقع النصر . لا شيء يمنع انطلاقه . لا عقبة تعترض طريقه . لا قلق ينتاب جنوده . لا خطر يهدد مؤخرته . لا غيمة في الأفق تحجب عنه إشراقه غده المأمول ! .

أخيراً أينعت أحلامه . الشمس في يمينه والقمر في يساره ! قدره معه . جنده معه . شعبه معه . الدنيا معه ! .. وعندما يواجهه غريمه بعد أيام على الثرى المتعطش للدماء والأشلاء ، فلن يواجه عندئذ عاملا من عماله تمرد على سلطة الدولة وخرج على واجب الولاء .. ولا طالب ثأر — يدعو بحق وشيجة القربى ، وولاية الدم الحرام المسفوك — للاقتصاص من قتلة عثمان .. ولا متطلعا للإبقاء على وضعه القديم الموروث منذ عهد ابن الخطاب ، واليا على الشام كغيره من ولاة الأمصار وحكام الأقاليم .. ولكنه سيواجه هذه المرة الند الصلب ، والشبيه المجلى ، والقرين الذى لا يطاوله فى القوة الحربية والنفوذ السياسى وولاء الرعية قرين ! .

سيواجه الخصم العنيد الذى اختاره قومه ، بإجماع الرأى فى نصف الدولة ، خلفا لذلك الذى خلعه التحكيم ، وانقسمت الأمة عليه ، وتفرقت شيعته عن هدفه ، واضطربت بأرضه الفتن والخلافات ..

سيواجه الآن « معاوية بن أبى سفيان أمير المؤمنين » ! ..

٤

إلى مرتقى أحلام نومه ويقظته حمله الزمان .. إلى أبعد من مرمى ظنه ..
إلى أرفع من قمة وهمه . لى أروع من بدع خياله ! ..

حلق فى الجو بغير جناح ..

تسنم السحاب . وأمسك النجم . وأطل من سقف سمائه على الدنيا تحته ،
فإذا هى كلها ، بخيرها وشرها ، بصدقها وزيفها ، بجبروتها وضعفها فى محيط
نظرته ..

كتقديره تسير الأمور .. بإشارته يأتمر الناس . وعلى مقتضى مشيئته الصلبة
تنخلق الأهواء ، وتتحرك العزائم ، وتتواتر الوقائع السيارة فى العالم الإسلامى :
غرسا وثمارا ، وبدءا ونتيجة كما تتحدر مياه السيول من أعالى الجبال نحو السفوح ،
هادرة ثائرة ، لتنتشر فوق صفحة السهل المنبسط ، وتصطرع وتتدافع ، حتى تشق
لنفسها فى أرضه اللينة قنوات وأخاديد ، لا تلبث أن تلتئم ، بعد حين ، فى مجرى
واحد هو نهر إرادته الفردية الذى تسبح أطماعه على تياره الدافق إلى
هدفه البعيد ..

أو ليس أمير المؤمنين الجديد ؟ ..

بلى !

وهذه صورة نفسية له ، أولى بها أن تطابق شعوره ، وترسم آماله ، وتنقل
وضعه المنتظر من مرحلة الادعاء إلى مرحلة الحقيقة النابضة بالحياة .

ولا عليه أن تكون .

ولا عليه أيضا أن يهضمها « ويتمثلها » لتجرى فى عروقه مع الدم ، وتعيش
فى خلده مع الأفكار ، معيشة يقين لا معيشة ظنون ..

فالدولة قبضته بعد قليل . . جناحها الغربى مطوى بيمينه . وجناحها الشرقى عند أطراف بنانه ولا ينقصه لامتلاكه إلا أن يقبض أصابعه . .

إنه اليوم ، وهو يهم بأن يخطو أولى خطواته نحو مشارف صفين ، واثق أن الموقف قد تغير عما كانت عليه حاله من بضع سنين . .

أصبح صاحب اليد العليا فى معترك الأحداث .

لعبت حيله وأخاديعه ذلك الدور الذى أرادها على أدائه ببراعة وإتقان . .

بلغ بدعواه شأو الإيهام ، عبثا بالعواطف ، والتواء بالأفهام ، وتضليلا للرأى العام . .

كان هذا سبيله الذى اختطه،طوال سنوات السعار الذى انتابه تيها بالسلطان، فإذا هو أخيرا — بفعل أساليب المخاتلة والتدليس — فى أعين الكثيرين ، الكفء لولاية الأمر ، الخليق دون سواه بالاستخلاف ، إذا ما وزن صلاحه لسياسة شعوب الإسلام باقتداره على ضبط الأمن ، وإقرار النظام ، وتثبيت الحكم فى « دويلة » الشام .. وإذا ماقيست جدارته بمنصب الخلافة بمظاهر تفوقه على غريمه المتمثلة فى إحكام قبضته على أزمة الأمور . وفى سيطرة على توجيه الأحداث وفى كيله الضربات المتوالية لأعدائه فى عرينهم غارات رهيبة مدمرة متى شاء ، وكيف شاء، وأين شاء وفى احتوائه رعاياه وأنصاره بالطاعة والولاء، واجتذابه مناوئيه ومخالفيه بالمصانعة والاستهواء . .

وكيفما كان نكر الوسيلة وعوج الطريق ، فقد سار شوطه غير متلوم ، ودانى هدفه وهدف آبائه وذويه الأمويين المتطامين ، شهوة وطمعا ، على مدى أجيال ، إلى ابتزاز شرف السيادة الاجتماعية والسياسية بين قومهم من منافسيهم التقليديين : الهاشميين .. وإذا كان محمد بن عبد الله مذ اختصه الله بالرسالة ، قد أعجزهم منافسة . . وقطع عليهم — لفترة غير قصيرة — طريق الأمل فى تحقيق حلم العمر . . وآلى آله وخاصة بيته الأدنين الذين عزروه ونصروه ، فى أحلك أيام كفاحه ، شرفا دينيا ودنيويا لا يطول شأوه من البشر أحد : أموى

أوغير أموى ، فإن معاوية الآن يوشك أن يكون وحـــده وريث هذا التراث النبوى ، وصاحب الدنيا والدين فى الدولة العريضة الجديدة ، التى تضم قريشا : هاشميين وأمويين . . وتضم العرب : عدنانيين وقحطانيين وقضاعيين . . وتضم رعايا الإسلام ومعتنقيه : شعوبا شتى ، وأجناسا عدة ، انتشر أبناؤها على صفحة عالم ذلك الزمان شمالا وجنوبا من مواطن الصقالبة إلى أرض النوبة وغربا وشرقا من ديار البربر فى إفريقية إلى بلاد المغول فى الصين .

إن هى إذن إلا جولة على ثرى الوقعة القابلة يملك بعدها معاوية الإمرة ، ويملك الأمر ، بالشمال واليمين . فالنصر مهيأ . والطريق مفتوح . والأعنة بين أصابعه . والحوادث له مطايا ذلول .

فما للناس لا يكادون يفقهون أنه ليس بالـكثرة وحدها تـكون القوة ! . . ليس بالمال وحده يكون الغنى ! . . ليس بالسيف وحده يكون الانتصار ! . .

لو أنهم تبينوا حقائق الحياة ، لأدركوا أن هذه كلها قبض الريح . زخرف وزيف . قشور وطلاء . عروض ومظاهر لا تغنى شيئا عن الألباب والجواهر ، كأنها الغيمة تستر ساعة ضوء الشمس ولـكنها لا تمحوه . . فإنما القوة القادرة ، قبل أن تـكون وفرة فى النفر والنصير ، طاقة روحية تفجرها الغيرة على الحق . وإنما الغنى الباذخ ، قبل أن يكون قنية من الذهب والفضة ، إحساس القلب بالامتلاء بما عند الخالق لا بما عند الخلق . وإنما الانتصار الحاسم ، قبل أن يكون إراقة للدم وبطشا بالخصم ، قهر للنفس أن تحيد — طمعا وشهوة — عن طريق النور .

ولئن كان معاوية ، وهو فى أوج اعتداده بما خلص إليه ، ظن أنه شارف ، بجبروت الـكثرة والثراء والسلاح ، حد الغلبة التى تضمن له اجتيازه ذلك «الحق» الذى ادعاه ، وأخذ نفسه بالسعى إليه سنين عددا ، فإنه إذن ، بنظرة المثل الرفيعة ، لم يحسن الحساب . . فطاقة القوة لا تقاس بالجموع والأعداد . وذخر الغنى لا يتقوم بالدرهم والمثقال . وقيمة الغلبة لا تقدر بامتلاك رقاب العباد وانتزاع الحدود والبلاد . . ذلك لأن طبيعة الحق تنزه عن الهوى ، وتجرد من

الطمع ، وعزوف عن الباطل ، وتعفف عن العدوان . وما نرى العاهل في هذا المجال إلا قد مال ، وعدل عن كل أولئك ليحقق دعواه . . ذلك لأن كنه النصر أنه نبع الإيمان ، ورهين الصبر ، ومنطلق الإنصاف ، وقرين الثقة بما في يد الله . وما نرى معاوية أيضا قد أراد التزام هذا السبيل ، أو استشعر هذه المعاني استشعار يقين . .

ولقد ناضلت البشرية طويلا ، عبر عمرها على الأرض ، لتفرق النور من الظلمة ، والخير من الشر ، والعلم من الجهل ، والعدل من الجور ، والهدى من الضلال عسى أن تجعل من العالم مكانا خليقا بأن يعيش فيه الإنسان معيشة إنسان ! . . فعمدت بالحكمة في نظرات المفكرين والفلاسفة ، وبالدين في دعوات الأنبياء والرسل ، إلى ترويض الغرائز ، وتهذيب الطباع ، وكبح الشهوات ، وتنشيط الملكات ، دحرا لعتمة الجسد أن تطغى ، وحفزا لرقة الروح أن تشف . ودفعا لقوة العقل أن تسود ، ليتحرر البشر من بقايا البهيمية الكامنة فيهم ، والسيطرة أبدا عليهم من خلال نزغ الأنفس وشطط الأهواء . .

وعسير بلا ريب على جهد البشر بلوغ مثل هذه المرتبة العلية من الكمال ، وإن كان بلوغ بعضهم إليها ليس بمحال . ولكن السعي إليها مطلوب ، لأنه الواجب الذي يفرضه عليهم كافة فرض عين ، لا معدى لأحدهم عن التزامه ، الإيمان بالله ، والولاء للإنسانية ، والوفاء بمتطلبات الحياة الكريمة . . ولأن الدربة والممارسة والحرص على إجادة الأداء كفيلة ، آخر الأمر وبمرور العصور والأجيال ، ببناء الإنسان الأمثل ، وتحقيق الارتقاء المأمول . .

ولا ينبغي أن يجول بخاطر ، في مثل هذا المقام ، أن ابتغاء هذا المطلب المنشود أو السير إليه ، يعني ، على أي وجه من الوجوه ، إغفال العوامل المادية أو إهدار أثرها في تشكيل مصاير الناس . أو أنه يرمي إلى التجرد الخالص من الغرائز والميول البشرية تجردا يفصل بين الإنسان وبين مقومات عيشه على هذا الكوكب ، وينضو عنه « آدميته » ، وينتقل به إلى طبيعة « سماوية » جديدة .

فذاك هو الخيال الذى يناظر المحال . . إنما يعنى أن يخرج الإنسان من ظلام البهيمية ، ويتحرر من طغيان شهواته ، ويكبح غرائزه الدنيا ، وينمى إرادته ، ويجعل المادة وسيلة لا غاية ، ويصبح سيدا لنفسه لا عبدا لها يتحكم فيها ولا تتحكم فيه ، ليغدو كيانا متزنا من العاطفة والعقل ، وقواما عادلا من البدن والروح . . وحين نتصفح ذخر الحكمة الذى تركه لنا الإمام هداية وشرعة وأسلوب حياة نقع فيه على صورة واضحة المعالم والقسمات لهذا النموذج الأمثل للإنسان الذى ظل دائما حلم البشرية ، ومناط أمل المصلحين ودعوات الدعاة . .

فى وصفه لهذا الإنسان يقول الإمام :

« . . . ترى له قوة فى دين ، وحزما فى لين ، وإيمانا فى يقين ، وحرصا فى علم ، وعلما فى حلم ، وقصدا فى غنى ، وخشوعا فى عبادة ، وتحملا فى فاقة ، وصبرا فى شدة ، وطلبا فى حلال ، ونشاطا فى هدى ، وتحرجا من طمع . . يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل . . . »

ويقول :

« . . . يمسى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر . . . إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره ، لم يعطها سؤلها فيما تحب . . قرة عينه فيما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقى . . الخير منه مأمول . والشر منه مأمون . . . »

ويقول :

« . . . يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه . . لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب . . يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه . . لا يدخل فى الباطل ، ولا يخرج من الحق . . نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة . . . »

ويقول :

« . . . بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة . . ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة . .

ليس تباعده بكبر وعظمة ، ولا دنوه بمكر وخديعة .. .. »

بهذا الناموس الخلق أخذ الإمام نفسه حتى اسكأنما صبها فى قالبه . أو كأنما كانت مثله ومبادئه مسرى خطواته . . منطلق سلوكه . . أسلوب حياته الذى له يمتثل ، وعليه يسير ، وإليه يدعو كافة الناس أن يسلكوه أو يعيشوه إذ هو الأسلوب الأوحد الذى يجعلهم يدخلون دنياهم من باب الآخرة ، ويغنمون آخرتهم من طريق دنياهم . به تخشع الجوارح ، وتصفو القلوب ، وتعز إنسانيتهم فلا يصدر الفرد منهم فى قول أو فعل إلا عن ضمير خالص ، ونية نقية ، وإرادة متجردة عن الهوى والزيغ ، وهو يذكر الله فى علانه وسره ، وفى جهره ونجواه وكأنما يراه . .

وليس بعد مثل هذا المسلك القويم مسلك ، ولا مثل هذه النقاوة النفسية نقاء . . فأن تذكر الله فإنك تعاينه ، وأن تعاينه فإنك تعرفه . وأن تعرفه فإنك تقدره . . وأن تقدره فإنك تشكره . وأن تشكره فإنك تحبه . وأن تحبه فقد بلغت منه سبحانه أقرب مكانة إليه : مكانة الرسل والأنبياء . .

ولقد قيل مرة لرسول الله :

« قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فلم تقوم الليل ، وتتعب نفسك ؟ . . »

فقال :

« أفلا أكون عبدا شكورا ! . . »

وأثر عنه حكاية عن الله تعالى :

« إذا ذكرنى عبدى فى نفسه ذكرته فى نفسى . وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه . وإذا تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا . وإذا تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا . وإذا مشى إلى هرولت إليه . . »

وتلك مرتبة من الإيمان بذى الجلالة الإلهية تخلص صاحبها من نزوات نفسه ،

وتمحض الناس خيره صرفا وهو لا يخشى من امرئ لوما أو يبتغى مثوبة ، لأنه عندئذ يرقب فيهم ربه ، ويرجو وجهه ، فلا يخرجه غضبه على بعضهم من الحق ، ولا يدخله رضاه عن آخرين فى الباطل . . وفى هذا اللون من السعى إلى الله ، حبا له ، وعرفانا بذاته ، يقول الإمام :

« لم أعبده خوفا ولا طمعا . ولكننى وجدته أهلا للعبادة فعبدته . »

ويقول أحد العارفين :

« لست أرضى لنفسى أن أكون كأجير السوء ، إن دفعت إليه الأجرة رضى وفرح ، وإن منعها سخط وحزن . . وإنما أحبه لذاته . »

لكن معاوية ، فيما بدا ، كان ذلك الأجير الذى أراد أن يثمن من الخلق على فعله ويغلى له فى الثمن المبذول وإن هو أيقن تمام اليقين أنه يدلس بسلعته المغشوشة على المشترين ! . فهو واثق أنه يموه على الناس فيتقن التمويه . . وهو عالم أن بضاعته خليقة ، لو عرضها عارية فى سوق الحق ، أن تبور . . وهو موقن أنه يدعى الإصلاح ويسعى إلى نقيضه . يظهر الألفة ويبتغى الخلاف . ينادى بالانتصاف ويروم الاعتساف . .

بغير ما يبطن كان يمشى فى القوم ، بقوله وعمله ، مذ تبدت له طلعة الإمرة تطل عليه وتخايل عينيه من بين غيوم الأحداث التى انتهت بمصرع عثمان . . فما لاحت له فرجة ينفذ من خلالها إلى الفتنة ، بلوغا إلى تحقيق أطماعه ، حتى نشط غير متلوم إلى إشعال النار . .

انظره كيف بادر عندئذ إلى طلحة بن عبيد الله يثيره على على ، ويحاول أن يلويه عن الوفاء بالبيعة التى سلفت منه للإمام . .

كتب إليه يحرضه على السعى لاجتلاب الحكم من على استجابة لرغبة أمة لها هوى فيه ! . . ثم يعده النصرة من لدنه لبلوغ أمر هو به حقيق لمزايا يكاد ينضل بها غريمه ابن عم الرسول الذى وسده الناس طائعين سدة السلطان . . يقول فيما كتب :

« . . . إنك أقل قريش وترا ، مع صباحة وجهك ، وسماحة كفك ، وفصاحة لسانك . فأنت إزاء (من تقدمك !) فى السابقة ، وخامس المبشرين بالجنة ، ولك يوم أحد وشرفه وفضله . . فسارع رحمك الله إلى (ما تقلدك الرعية من أمرها !) مما لا يسعك التخلف عنه (ولا يرضى الله منك إلا بالقيام به !) . . فقد أحكمت لك الأمر قبلى . والزبير غير متقدم عليك بفضل . وأيكما قدم صاحبه فالمقدم الإمام . . »

وانظره أيضا كيف يوغر صدر الزبير على ابن خاله فيضعه منه بمقام خصم مناجز ، وند كفء ، ثم يكاد يعليه عليه بصفات تحرك فى صدره الاعتزاز والكبرياء ، وتثير فى نفسه الأثرة ، وتهتاجه للدد العداء . .

كتب له :

« . . . إنك الزبير بن العوام ! . . ابن أبى خديجة . وابن عمة رسول الله وحواريه وسلفه ، وصهر أبى بكر . وفارس المسلمين . سبقت لك من رسول الله البشارة بالجنة . وجعلك عمر أحد المستخلفين على الأمة . . . .

فاعلم ، أبا عبد الله أن الرعية أصبحت كالغنم المتفرقة لغيبة الراعى . وسارع ، رحمك الله ، إلى حقن الدماء ، ولم الشعث ، وجمع الكلمة . . وشمر لتأليف الأمة . وابتغ إلى ربك سبيلا ، فقد أحكمت الأمر على من قبلى لك ولصاحبك على أن الأمر للمقدم ، ثم لصاحبه من بعده . .

جعلك الله من أئمة الهدى ، وبغاة الخير والتقوى . . والسلام . »

ولا حاجة هنا للخوض بالتفسيق أو بالتجريح فى هذا الكلام الذى زوقه عاهل الشام ، لأنه فى الواقع مثخن بالجراح ، ناضح بالحقد والتمويه والمغالطة كالإناء الشفيف لا يستر ما فيه . . وكفا بنا ، بيانا لافتئاته على الحق ، شهادة صاحب لمعاوية من ذويه لم يالهه ولاؤه لآله الأمويين عن المجاهرة بالحقيقة الواضحة التى أغمض العاهل عنها عينيه ثم شاء بادعائه أن يعمى عنها الأبصار . .

ذاك سعيد بن العاص .

وكان معاوية قد كتب إليه — فيمن كاتب من الزعماء مثيرا فيهم الأحقاد والمواجد على الإمام — يحرضه ويستجيش حمية الجاهلية العمياء ، ويشعل فيه نزعة العصيان ، انتقاما لزوال دولة أهله بقتل عثمان . .

قال له فيما قال من كلام طويل مسموم :

« . . . إنكم يا بنى أمية عما قليل تسألون أدنى العيش من أبعد المسافة ، فينكركم من كان منكم عارفا ، ويصد عنكم من كان لكم واصلا ، متفرقين فى الشعاب تتمنون لمظة المعاش ! . .

إن أمير المؤمنين عتب عليه فيكم ، وقتل فى سبيلكم ففيم القعود عن نصرته والطلب بدمه ، وأنتم بنو أبيه ، ذوو رحمه وأقربوه ، وطلاب ثأره ! . .

فإذا قرأت كتابى هذا ، فدب دبيب البرء فى الجسد النحيف ! . . وسر سير النجوم تحت الغمام ! . . واحشد حشد الذر ، فقد أيدتكم بأسد وتيم . . »

فإذا بسعيد بن العاص لا يندفع فى التيار ! . .

إنما يرتفع بنفسه عن هذه الدعوة إلى الباطل ، فيخالف المنتظر من أموى مثله . ثم يرد على العاهل المتجني بجواب يدفع الكيد والكائد ، ويدفع البغض والمبغض ، ويدين التحريض والمحرض ، يقول فيه ، داحضا الادعاء :

« . . أمرتنا بطلب دم عثمان ، فأى جهة تسلك فيها أبا عبد الرحمن ! . . ردمت الفجاج ، وأحكم الأمر ، وولى زمامه غيرك ! . . .

ألا فدع عنك مناوأة من لو كان افترش فراشه صدر الأمر لم يعدل به غيره ! وهل نحن إلا حى من قريش ، إن لم تنلنا الولاية لم يضق عنا الحق ؟
إنها خلافة منافية . . .

وهبنى أخالك بعد خوض الدماء تنال الظفر ، هل فى ذلك عوض من ركوب المأثم ، ونقص الدين ! . . . . »

ثم ختم خطابه :

« . . . أما أنا فلا على بنى أمية ولا لهم . أجعل الحزم دارى ، والبيت مسجدى ، وأتوسد الإسلام . . فاعدل أبا عبد الرحمن زمام راحلتك إلى محجة الحق . . فلبئس العاقبة الندامة . .

والسلام . . . »

غير أن هذه الكلمات الصادقة ، المتحدثة بالحق . النابعة من الحقيقة ، الداعية إلى العدل ، لم تلق عندئذ ولا من بعد صدى فى نفس معاوية ، لأنها لم توافق هواه . . فماله حينذاك وللحق والعدل وهو يسعى لإشباع نهم أطماعه ؟ . . وماله وإياهما الآن وقد جاءه الزمن أخيرا بحلم آبائه ، وأقبلت عليه الدنيا ، وبات وهو المالك لأزمة الأمور ؟ . .

كتقديره تسير الأحداث . بإشارته يأتمر الناس . على مقتضى مشيئته تتواتر الوقائع السيارة فى العالم الإسلامى : غرسا وثمارا ، وبدءا ونتيجة . . بيده وحده مصير خصمه، يبسطها فتتراخى ليمهل لو شاء ،ويقبضها فتعتصر ليقضى لو شاء ! . .

الفصل الخامس

١

صحيفة سعيه المتصل الجاهد ، وكفاحه المستمر الدءوب ، حين تجمل أعماله وأساليبه ، ويوجز عمرها الطويل إبان مراحل تاريخه ، تكاد تجمعها بضع عبارات لا تزال ترن فى سمع الزمن كالطبل ، وتتردد لها فى جوانب الدنيا من وراء الغابر البعيد إلى اليوم أصداء تهمس للناس :

« حاول وحايل . . ثم غامر وقامر . . ثم خايل وخاتل . . ثم مكر وغدر . . ثم قدر ودبر . . ثم عزم . . ثم حسم . . ثم بلغ بالمداورة والرياء ما لا تبلغه نجابة ولا ذكاء . . »

ذاك سجل مفتوح ! . .

فى كل خلة من خلاله ، وفعلة من فعاله ، لمحات نفاق وآثار دهان ، تخدع الأعين ، وتخلب الأسماع ، فتستهوى الخصوم كما تستهوى الأشياع من كل ناء بعيد أو دان قريب ، ومن كل غافل غر أو لبيب أريب . .

سمة فى خلقه لم ينكرها عليه منكر ، سواء الشانىء المباين والصديق الصديق . .

ولا مغالاة . .

فقد وصفه بها عبد الملك بن مروان أحد خلفاء بيته الأمويين الذين سودهم ملكه ورفعهم على الرقاب . وصفه ذات يوم خطب فيه الرعية من فوق منبر دمشق وهو يشير بحديثه إلى الذين سبقوه على عرش أسلافه عواهل بنى أمية : عثمان بن عفان ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وولده يزيد ، فكان أن قال :

« أيها الناس . .

إنى والله لست بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون . . »

فأنطقه الله بالصواب سرا من حيث لم يشأ أو من حيث شاء . وصدقت قولته رأى التاريخ وحقيقة الحال . .

وكيفما كان مرمى كلمة ابن مروان : مدحا سيق فى قالب ذم دلالة على دهاء معاوية ، أو قدحا قصد به إلى فضح ريائه ، فقد كان سلوك الداهل ، مثل زجاجة ينضح دائما بهذا الذى قيل فيه . .

خلال السنين المنقضية ، مذ خلف أخاه يزيد بن أبى سفيان عاملا على الشام بدا كأنما اختط لنفسه سبيل المراءاة والتمويه وقد جعل همه وقصارى سعيه أن تظل هذه الأرض أبدا أموية ، لاتخرج من ملاك سلطانه وسلطان آله الأمويين ، أفضت إمرة المؤمنين إلى هذا الرجل من صحابة رسول الله ، أو إلى ذاك . .

موه على عمر بن الخطاب حين حاسبه على استكثاره من الحرس والبطانة ، والتزامه مظاهر الملك وأبهته على خلاف ما جرت به عادة الحكام المسلمين من التقشف والزهادة فى ذاك الحين ، مبررا سلوكه بأنه إنما عمد إلى ماعمد إليه رغبة فى رفع شوكة الإسلام أمام أعين أعدائه وجيرانه الروم ، وبلوغا إلى إرهابهم وكسر طمعهم فيه إذ هم قوم درجوا على المظهر ، يبهرهم البذخ ، وتخيفهم علائم القوة التى توحى بها فخامة السلطان . .

وما كان إذا ذاك إلا الحريص على توفير كل أسباب المنعة لحكمه بما أحاط به نفسه من الأعوان والحرس والجنود . .

وخلال السنين الحازبة ، منذ اضطربت الأحوال فى الدولة على عثمان بن عفان ، واتسعت الهوة بينه وبين شعبه ، بدا كأنما اختط أيضا لنفسه سبيل المراءاة والتمويه وقد استخفته الأطماع إلى أن يخلف عميد البيت الأموى على إمرة المؤمنين . فهيأ نفسه ، وشحذ ملكاته ، وحشد كيده ، وحفز مكره ، وأثار دهاءه ، وجند ادعاءه ، ولم يترك وسيلة عادلة أو ملتوية إلا استعانها ، ليحيل الدولة الإسلامية كلها قطيعة له ولذويه . .

موه على عثمان أنه وحده دارىء الخطر عنه ، وحامى حماه ، بخيله ورجله حق

لقد سير من الشام جيشا ربض عند مشارف المدينة إعلانا عن صدق مقصده ، وحتى لقد حسب الناس أنه لا بد مقتحم البلدة على من بها من الثوار ، وآخذ فيها ، لصالح قريبه المحصور ، بناصية الأمور ..

وما كان إذ ذاك إلا المتربص بالأزمة أن تشتد ، وبالثورة أن تتسعر ، وبالخليفة أن يقتل ، لينعم هو من بعده بتراثه ، ويغمس قلمه فى الدم المسفوك ليكتب صك ميراثه ! . .

وخطأ بلا ريب فى حق صاحب الشام أن ينسب إليه حسن النية فيما أتاه حين جهد جهده لابتزاز الخلافة ، وفعل أفاعيله لبلوغ السلطان، فذاك هو الخطأ المحض الذى لا تقره الحقيقة ثم لا تغتفره أيضا ملكات ابن أبى سفيان ! .

فلقد كانت نفسه هدفه . وختله أحب أساليبه . وسبيله إلى الطرق الجانبية ملتويا معها حيثما التوت وأينما عشش الظلام أعلم معالمه النفسية وأبرز سجاياه التى بغيرها تنتقص شخصيته ، ويعسى وكأنه ليس معاوية الذى تصوره لنا فعاله ، ويضعه سلوكه فى إطاره المعلوم ! . . فلا عن الطموح وحده سار إلى الإمرة سيره . . ولا عن الإحساس باقتداره — قبل غيره أو دون غيره من الأقران — على سياسة الناس والأمور ، انتهج نهجه للكفاح . . ولا عن طلب لدم ابن عفان المقتال جالد بالقول والسلاح . . ولا عن إيمان بحق لنفسه فى الخلافة نازع الإمام . . بل قد قاوم ونازع ، وجالد وحارب وإنه لعالم كل العلم أنه لا ينطلق على خطة سوية لغرض عادل ، وأنه إنما كان يفتات ولا يفتات عليه ..

وليس هذا مجرد تكهن أو استنباط ينفذ إليه مستقرىء أخباره . ولكنه الحقيقة التى لا يتحرج أن يعلنها أو يخفيها عن الأذهان والمسامع هو ولا أصدق خلصائه ولاء له ، ولزوما لطريقه ...

فذاك ثابت مشهور ..

قيل له مرة فى معرض معارضة أو استفسار بعد أن ظفر بغاية غاياته ، وأفضت إليه إمرة المسلمين وقد غاب وجه الإمام :

« حاربت من تعلم ، وارتكبت ما تعلم .. »

فلم ينف عن نفسه علمه بانخراطه فى الخطأ ، وارتكابه للمعصية بمعاداته عليا فى سبيل بلوغ سدة الحكم ، بل قد أكد التهمة ، فقال :

« وثقت بقوله تعالى : إن الله يغفر الذنوب جميعا .. »

وسئل ابن العاص وهو يحتضر على فراشه الدنيوى الأخير ، ودموعه عندئذ تسيل من ندم ، أو من خشية ساعة الحساب على ما قدمت يداه :

« لم تبكى ؟.. أجزعا من الموت ؟.. »

فكأنما قد حضره على الأثر ما أسلف . فأيقن لحظة الرحيل أن ما فات فات ولا رجعة فيه ؛ وأنه قد أقحم نفسه — بمحض اختياره ومن أجل مغنم مشبوه زائل — فى مزالق من الريب والشكوك ولات هذه اللحظة حين مناص من ترديه فى قرار سحيق ..

وقال :

« لا والله ! . . . . إنى كنت على ثلاثة أطباق ليس منها طبق إلا عرفت نفسى فيه ..

كنت أول أمرى كافرا ، فكنت أشد الناس على رسول الله ، فلو مت حينئذ وجبت لى النار . .

فلما بايعت رسول الله ، كنت أشد الناس حياء منه فما ملأت منه عينى قط ، فلو مت يومئذ قال الناس : هنيئا لعمرو ! أسلم وكان على خير أحواله ، فسرحوا له بالجنة ..

ثم تلبثت بعد ذلك بالسلطان وبأشياء ، فلا أدرى على أم لى .. . »

ومع ذلك فقد اختار الرجلان ، دون تلوم ، سبيل الضلالة المعروف ، أو سبيل الشبهة التى تفضى لامحالة إلى ضلالة ، قصرت المسافة أو طالت ، وجل المطلوب أو هان ..

ومضى معاوية شوطه إلى هدفه البراق المرموق ، على متن أساليبه ، فى روية وصبر وإصرار . .

ثم حالفه زمنه ، فإذا هو ، أخيرا ، يحس بالأرض سهلة تحت خطاه . . بلا عوائق . ولا وعورة . . ولا صخرة هنا أو كثيب هناك يعترض أيهما طريقه ويعرقل انطلاقه ، فيطيل الشقة أو يزيد المشقة . . بل لقد كان منها كمن على ذات شراع تنساب به انسيابا فوق ماء ساكن ، تحت جو صحو ، وفى رعاية ريح معتدلة رخاء . .

وكيف لا ؟ . .

فها هو الآن بر الأمان . .

ها هى الغاية قيد البنان . .

ها هم الناس يأتمرون بمشيئته ، والأمور تسير كهواه . . والمصير يتخلق على مقتضى تخيله ، وفى إطار الصورة التى رسمتها نواياه . .

غير أن الذى كان فى الحسبان لم يكن ، وما لم يكن فى الحسبان هو الذى كان !

لم يضطرب به الماء .

لم ينثقب تحته القارب .

لم يتمزق الشراع . .

لكنه حرم ، لا ريب ، لذة اقتطاف ثمرة حقده وكيده بيمينه وإنها متعة ليس يعدلها عند حاقد متاع ! . .

فالحوادث لم تسر كتقديره وإن كانت الثمرة المحرمة سقطت ناضجة فى حجره بغير عناء .

والنتيجة لم تكن كما هوى وإن بلغت به ذروة مناه . .

القدر الذى حالفه طويلا ، وكان يشهد اعتداده بنفسه ، وبما هو ضامن به انتزاع النصر من قبضة غريمه ، سخر منه ! . فوت عليه غرضه . . غل كفه إلى عنقه وهى تمتد للجولة الأخيرة ثم تركه بلا حول ولا مشيئة فى تحديد المصير الذى ظل واثقا أكبر الثقة ، بضعة أشهر ، أنه وحده القادر على أن يصوغه للإمام . .

فمن وراء بضعة أيام ، كلجة الهدب من عمر الزمن ، تسللت أصابع المجهول إلى ما قر بخلد هـذا المعتد الواثق وثبت فى روعه ثبوت الحقيقة المستيقنة تعبث به ، وتعيث فيه . . تمحو وتطمس . تعدل وتبدل . تنقص وتضيف . .

بين جمعة وجمعة تغيرت الصورة . خبت أضـــواء ، وكثفت ظلال ، وحالت ألوان . .

وإذا كان للشماتة طعمها الحلو فى قلب حاقد ، فإن معاوية المنهوم للاشتفاء من على لم يسغ منها إلا مثل حسوة من كأس مترعة ، أو مثـل لعقة على طرف لسان . .

فــكأنما أجهض الشماته ! . .

وإذا كانت للنصر فرحه تسكر ، فنصره الذى أصاب لم يدر رأسه ، ولم يهز بالنشوة عطفيه ، لأن البلية التى أحاقت بعدوه اللدود لم تـكن من صنع يديه . .

فــكأنما النصر لقيط ! . .

فعندما شاملت حشود العراق من الـكوفة ، مغربة إلى ساحة الوغى الملومة عند صفين ، وقد عقدت العزائم على خوض الحرب ، لم تـكن تعلم ، ولا تحلم ، أن لن يحدث لقاء وقتال . .

وعنـدما شرقت جيوش الشام من دمشق ، مشاملة إلى أرض الوقعة وقد تحرقت شوقا للنصر الموعود ، لم تـكن تعلم ، ولا تحلم ، أن لن يكون نصر ولا هزيمة . .

الآلاف التي صمدت من الجنوب ، والالآف التي انحـدرت من الشمال ، للاحتكام إلى السيف في وقعة أخيرة فاصلة ، تفرق الغلبة من الدحرة ، وتأخذ الموت من الحياة ، كتب لها ألا تريق قطرة دم .

الألوية التي عقـدها معاوية لأعوانه عمرو بن العاص ، وحبيب بن مسلمة ، وأبي الأعور السلمي ، ومن على نهجه من حشوه ، وأصحاب حربه ، وذوى الحظوة لديه ، إنما عقـدت لتحل ، وانبرت لتطوى في بضعة أيام ، بعد مسيرة قصيرة ، ودون التحام .

الألوية التي عقدها أمير المؤمنين لصفوة خاصته وخلصائه الحسين بن على ، وقيس بن سعد ، وأبي أيوب الأنصاري ، وعبد الله بن عباس ، ومن إليهم من حزب الله وأصحاب رسوله ، رفرفت حينا على الرءوس باعتزاز ، ولـكنها ما لبثت سوى قليل ثم نـكست الهام كأنها شموع أصابها عارض من ريح عاصف ، أطفأ شعلتها ، ووكلها للظلام . .

ولم يكن الإمام هو الذى أغمد السيوف ، وطوى الأعلام . .

ولم يكن عاهل الشام هو الذى أرسل الريح لتطفئ الشموع . .

لغيرهما كليهما كانت تلـكم الـكف التي لبسها القدر قفازا ، ودفع بها من وراء ستر الأيام لتغير ما قر في الخواطر ، وثبت في الأخـلاد ، وبات كاليقين أن يطلع — لولاها — على الوجود ما سلف أن أكدت الوقائع الجارية حتمية حدوثه ، وأنبأت عنه المقدمات كنتيجة لازمة ليس عنها محيص . .

تلـكم الـكف التي حولت المجرى ، وقلبت الأوضاع ، وبوأت الحق مكانة الباطل ، والباطل مكانة الحق ، لتقـدم لابن أبي سفيان — من حيث لم تشأ ولم يجل لها في خيال — نصرا هينا رخيصا ، لم تـكن قط في حساب إنسان إلا شرذمة ضالة من بضعة أفراد . .

وكانت — من عجب — أدنى إلى أن تـكون علوية الرأى والتشيع منها إلى أن تـكون أموية الهوى والنزوع . .

كانت أيضا غير صلبة الأصابع ، غير شديدة القبضة ، لم تكد تتمرس بخشونة الوقائع . ولا أطبقت على سلاح .

كانت رخية طرية كأنها نسمة الصبا ، رقيقة شفافة كشعاع من نور ، ناعمة ملساء لها ملمس الحرير . . خلقت لتهز المهد ، وتداعب الورد ، وتدغدغ الوليد ، وتأسو من شكاية الجروح ونكاية الآلام ، وتختضب بالحناء ، لا أن تزلزل الطمأنينة ، وتلعب بالخناجر ، وتجهز السموم ، وتخطف الأرواح ، وتختضب بالدماء ! . .

فهي كف حسناء . .

كف عروس جلت فتنتها ، وألقت بهاءها ، وهيأت نفسها لليلة الزفاف . .

كف قطام ، فتاة تيم الرباب الحلوة ، ذات الشأو في ميعة السن ، ونضرة الرونق ، وطغيان الحسن التي دونت لها أسطر طوال في سجل الجمال . .

ولئن عرف ، قديما وحديثا ، أن المرأة ، بغريزة الأمومة ورقة الأنوثة ، هي التي — عادة — تنجب الحياة ، وتثمر الحب ، وتنشر الحنان ، فلقد عرف كذلك أنها بوحشية الحقد وضراوة البغضاء ، هي التي — في أحايين ليست قليلة — ترهف القسوة ، وتقتل الأمل ، وتنضر الموت . .

ولئن عرف أيضا أن المحنة التي تردت فيها الأمة الإسلامية آنذاك ، حاضرا وغدا ، كانت من نتاج نبتة غرستها هذه الفتاة في تربة الجهل والكراهية والعصبية المفتونة العمياء ، وروتها بالدم ، فلقد عرف أيضا أن الشجرة الملعونة التي ترعرعت إنما تفيأ ظلالها معاوية ، وجنى ثمرها ، وإن أرادت له قطام ، وعملت جاهدة ، أن يكون هو بعض الجنى ، وإحدى فرائس ثلاث يحشها منجل الحصاد . .

فقطام تيم الرباب هي التي تعهدت الغرسة ، ورعت نموها ، وآلت جذورها السقيا ، حتى إذا صلب عودها ، وأينع فرعها ، ونور زهرها ، وطاب ثمرها ، كان ابن أبي سفيان هو الذي قطف من حيث شاءت له أن يكون من بين المقطوف ! . .

وقطام تيم الرباب هى التى وضعت الرواية ، وأحكمت حبكتها ، وهيأت مشاهدها ، وحركت شخوصها على مسرح المأساة الساخرة أو المهزلة الفجعة . . حتى إذا أوشكت أن تتم فصولا ، وكاد ينزل ستار الختام ، جاءت النهاية على غير ما اشتهت وأعدت ، وبخلاف ما كان يوحى به ، وينبغى أن يؤدى إليه السياق ! . .

رمية من غير رام ! . .

مشيئة القدر لا مشيئة قطام ! . .

لكنها قصة طويلة . .

مأساة اختلطت فيها المهزلة بالفاجعة . السخرية بالجد . المفاجأة بالإعداد . الشماتة بالحسرة . الضحك بالبكاء . . قاعها دعرة . . ووسطها نقمة . ورأسها طعنة . .

بمكة كان مستهل مشاهدها عند رفع الستار . .

بالكوفة كانت ذروة الأداء . .

بدمشق دوت قهقهة الشيطان تعلن الختام . .

عديدة المواقف والانفعالات . وئيدة الخطا على درب الأحداث . قطعت الشوط فى نحو عام . .

طويلة طويلة فى عمر الأحزان . .

٢

حدث هذا ذات يوم ساخن من ذيول الربيع .. حشوه جمر ، وقشره رماد . باطنه خطر ، وظاهره أمان . .

وكان من نحو عام .

والمكان مكة .

والزمان الموسم .

النهار ، يومئذ ، راكد الحركة ، رائق الأفق ، هامد النفس ، مشتعل النور . .

الشمس حريق .

الشعاع ألسنة لهب ، وسياط نار ، تلعق الأشياء ، وتجلد الأحياء ! . .

الجو ضبابة رقيقة ، رمادية اللون ، متسقة الصفحة ، من الوهج والغبار . .

الهواء ، من شدة الحر ولفح قيظه ، دخان وبخار . .

والحجيج إلى بيت الله قالت كثرتهم إلى المضاجع ، فرارا من وقدة الظهيرة . . طوائف منهم تستروا بالرحال ، يسمرون أو يرعون . . بقيتهم الباقية تفرقوا في أروقة المسجد وأبهائه ، زمرا وفرادى ، كأنما يحاولون تلقف نسمة رطبة ، تنفثها السقوف المروشة وظلال الجدران . .

الألسن في الحلوق تضطرب لاهثة . . الأفواه جافة . الشفاه ذابلة . الجفون مثقلة . الأهداب مشدودة إلى الخدود والوجنات . .

الأحاديث شهيق وزفير .

الرؤى أمام الأعين المغفيات أشباح . .

لا مَعْلَمَ في البناء المقدس الفسيح لانتفاضة الحياة يوشك أن يطالع أى مقبل عليه ، من بعيد ومن قريب ، غير تذاؤب الظلال واهتزاز الأضواء . تتفرق وتتراكم ، وتتباعد وتتلاحم . . ترق هذه هنا لتكثف هناك . وتجلو تلك عن

جانب لتنتقل إلى آخر . ويتقلص منها ما يتقلص ليمتد قرينه وينتشر كلما هوّمت الشمس التى أسأمتها وحشة الوحدة ، وأعياها طول الترحال ، وهى تمشى الهوينى ، فى تردد وحذر ، على الأفق المحترق ، بخطاها الوسنانة . .

أينما وفد وافد ، فى تلك الآونة ، على حرم المسجد ، أجنه منه فىء . . وأينما طاف بصر ، بشتى نواحيه ، ملأه من خمود من فيه فراغ . وأينما أصغت أذن سمعت الجمود . .

عند حد الرؤية ، من وراء سبحات الضوء وخطرات الظل ، كانت تتراءى ، بين فينة وفينة ، شخوص عديدة مبعثرة ، خرساء الوقع كأنها أطياف . إن تبرق لحظة فى وهج النور ، فلتذوب على الأثر فى شهبة الظلال . .

بالساحة القريبة من بيت الله ، على قيد مسافة غير قصيرة من بابه الكبير ، وفى ساعة الزوال ، اضطربت الخطا بثلاثة رجال . أمامهم البيت ، ومن خلفهم الصحراء . جمعتهم غاية ولكنهم تفرقوا على الطريق . . وبدوا عندئذ كثلاثة خروق تناثرت فى ثوب النور ! . .

لكأنما كانوا يدبون الخفاء ! . . لكأنما كانوا يمشون على ريبة ! . . شخوصهم تتسلل نحو المسجد ، متنائية ، فى تمهل ثقيل ، كمن يسيرون على شوك ، أو يحسبون الخطوات . . خيالاتهم الزاحفة فى آثارهم كأنما تشدهم إلى الوراء . . أقدامهم تحتهم تتحسس مواقعها فوق الرمل . . عيونهم تسبقهم ، بنظرات قلقة متلصصة ، وهى تدور حولهم فى مختلف الأرجاء . .

ولاحوا ، لمن قد يفطن لهم ، بضعة أعصاب ! . . فالحواس يقظانة . والملامح مشدودة . والأعين حادة . والآذان مرهفة . والأنوف مشحوذة . وكل حركة تند منهم إنما تتلقف مظنة ، وتلمح خلجة ، وتلتقط همسة ، وتشم رائحة المجهول! . .

وكان مقصدهم ملاذا من المسجد ، حرزا آمنا ، يكنهم من تطفل الأنظار . . وكان ملاذهم مسرحا يعرضون عليه أسرار نفوسهم ، وخبء صدورهم ، وغوامض فكرهم ، عارية مكشوفة لا تبدو سوأتها لمن عداهم من الناس ! . وكان مشتهاهم الذى نذروا له الدم والجهد والتدبير الدائب تغيير الأوضاع .

وعندما دلفوا من بين مصراعى الباب ، متفرقين ، واحدا بعد الآخر ، ولفظهم وهج الضياء إلى عتمة الظلام ، أووا إلى بقعة نائية من المكان ، عمياء خرساء ، لا تشى بهم ، فلا تطلع عليهم فيها عين ، ولا تسمع منهم أذن ، ولا ينقل عنهم لسان . .

وجلسوا يتسارون . .

كانوا هضيمى الوجوه ، نحيلى الأجساد ، معروق الأوصال ، تكاد جلودهم تشف عما تحتها من فرط الهزال . . تنأ فيهم العظم ، وحال اللون ، وخف اللحم ، نغارت الأعين من سهر القيام ، واسودت الجباه من كثرة السجود ، وضمرت البطون من سغب الصوم . .

وظلوا ساعة ، بخلوتهم تلك ، فى حديث موصول ، يلم بالنفس والصحب والأمة ، وبالولى والعدو ، وبالأمس واليوم والغد ، متباين العواطف ، متلون الجرس ، مختلف النبرات . يرق مع الحزن ليرتجف بالغضب . ويذوب فى الندم ليشتعل بالحقد . ويسرح مع الأمل ليغزو المستحيل ، وكأنما لا تنطق به الألسنة بل تنطق الأعصاب ! . .

كانت جلسة نارية حمراء، اصطرعت فيها العبارات والأفكار وإن بدت هادئة قد اختفت جذوة ثورتها تحت رماد المخافتة والمناجاة . . خلالها ترجمت الوقائع إلى عبر ، وجسد الرأى فى عمل ، وسبحت بهم ذكرياتهم فوق موجات أصواتهم منسابة مع تيار الزمن فى موكب حافل اجتمعت به مشاهد الحاضر ، بصور الغابر ، بأحلام مستقبل مأمول مجهول .

رحلة طويلة من الخلجات والمشاعر ، ومن الرؤى والخيالات .

فالحال الآن على غير ما يرتضى هؤلاء الرفاق أن يكون . . النفوس شتى . القلوب هواء . الدين غريب . العمل ضلال . الحياة تنافر وعداوات ، والأمة أشلاء . .

والوضع بالأمس محنة الإسلام وأهل الإسلام ، أجج نارها التحكيم ، وعجزت الدعوة الهادية : « لا حكم إلا لله » أن تئوب بالعتاة والجبابرة ممن يمسكون بزمام الأمور إلى جادة الصواب . بل لكأنها حفزتهم على الغلو فى الطغيان — عنتا واستكبارا — حتى وقعت النهروان . .

والغد المنتظر ضياع . . صفحة فارغة مطوية أخلق بها أن تكون امتداداً لما قبلها من الأخطار والمساوئ ، إن لم تتح لها اليد القوية التى تنتزعها من براثن المعمود لتنشرها ، ثم تسطر فوق ديباجتها ميثاق التغيير . .

هكذا تبين للثلاثة الطريق . .

وأخيرا التفت أحدهم إلى رفيقيه ، بعد إمعان فكر ، يخاطبهما بصوت هامس خفيض كأنما يضن بكلماته أن تسمعها شفتاه . .

قال :

« لو أننا شرينا أنفسنا لله عز وجل ، فأتينا أئمة الضلال ، وطلبنا غرتهم ، وأرحنا منهم البلاد والعباد ، وثأرنا بإخواننا الشهداء بالنهروان ! . . »

فتأمل قوله الآخران .

وساد هنيهة صمت مطبق ، ذاب فيه الهمس ، واختنقت الأنفاس . وران خلاله على الوجوه الذاوية هدوء جامد تصلبت به الملامح ، وقست القسمات حتى غدت كأنها سيوف مشحوذة ، أو سهام مسنونة تهم بالانقضاض أو الانطلاق . .

ثم تقابلت العيون على ترقب وتأهب . .

ثم تحفزت النظرات . .

ثم تفجرت الفكرة . .

وما لهم لا يفعلون هذا الذى طالعهم به الرفيق ؟ .

إنه لرأى ما كان ينبغى قط أن يغيب عنهم ، وعن أصحابهم الخارجة ، كل هذه الشهور . . فهو الفكرة الصائبة . وهو العمل الميسور . وهو الخطة الحرية بأن

ترفع عن الأمة الغمة ، وتقشع الكابوس ، وتقضى فى يوم ، بل ساعة ، بل لحظة واحدة موقوتة محسوبة ، على أولئك القادة الذين تسنموا ذروة السلطة ، وملكوا المصاير ، وفرقوا الأمة ، وعبثوا بالدين ، وابتزوا حق الله ! . .

ذاك هو المنفذ الوحيد إلى الخلاص . . إلى تصحيح الأوضاع . . إلى ترويق العقيدة ، وتطهير النفوس ، وتنقية العقول ، وتقويم الأفكار ، وتحرير الناس .

وعلى الأثر بدا الرفاق الثلاثة كأنما قد اختزلوا فى واحد . الفكرة واحدة . والنية واحدة . والهمة واحدة . والسبيل الذى عليهم اجتيازه هو هذا الذى لا محيص عن انطلاقهم فيه خفافا سراعا وقد رفعوا علمهم القديم بعد سقوط ، ونشروا شعارهم الأصيل بعد طى ، ليحيوا دعوتهم الأولى التى أنبتتها أرض صفين ، ويبعثوها من مرقدها عند النهر ، حيث قاتلت عليها جماعتهم من قبل ، وتبعثرت حروفها ومعانيها مع أشلائهم بين أثناء النهر ، وتحت تراب الضفة الدامية ، فى قبور مضيعة مجهولة ، حفرها لهم ، منذ عامين ، سيف الإمام . .

بتلك الخلوة المستترة ، فى البلدة الحرام ذلك اليوم من الموسم ، تحركت نزعة التآمر ، وبدأ أول تدبير فى تاريخ الإسلام لإقامة الحكومة الفوضوية ، أو حكومة الجمهور ، التى لا ينفرد فيها بالإمرة إنسان ، ولا طبقة ، ولا حزب ، ولا نفر قليل أو كثير من الناس ، مهما علت بهم الثروات ، أو ارتقت الأحساب ، أو سمت الأجناس . . فإنما الأمة كلها — فى مذهبهم — الأمير ، والأمة أيضا الرعية ، والحكم لله . .

لقد علم أن هذه الجماعة المتآمرة الآن قد سلف من عصبتهم الكبرى نفس رأيها هذا قبل وقت غير قصير ، لم تكتمه عن الأذهان والآذان . ولم تتوان عن الترويج له بين الخاصة والعامة من أبناء الشعب الإسلامى على ألسنة فريق من دعاتها وأئمتها المفتونين الذين أتقنوا المجادلة واللجاج ، وولعوا بالتأويل والتخريج ، وقد استخفهم أن كانوا عبدة زاهدين يطيلون الصلاة ، ويكثرون الصيام ، ويقومون وينامون على تلاوة القرآن . .

ولقد علم أيضا أن مذهبهم ، الذى نجمت لهم فكرته حين اضطربت الأمور بصفين وارتفعت المصاحف على أسنة الرماح بنداء التحكيم ، قد ترامت به الأخبار فى أنحاء الدولة ، ووجد بها السميع والمجيب حتى استشرى بين الناس كاستشراء النار ، وقويت به شوكة أصحابه قوة غدوا بها فرقة ذات خطر فى مجال السياسة ، لا يحمد طغيانها على الدولة والدين ، وعلى الفكر والحريات . .

وعلى كثرة ما كذبتهم الأدلة ، وحذرتهم الأحاديث ، وأسرف الإمام لهم فى البيان والتبيين ، فقد ظلوا ورأيهم ، لا يرعوون عما صدروا فيه . . فلم تردهم حجة ، ولم يكفهم سلاح . . وإنما ازدادوا تشبثا به ، وإصرارا عليه ، مندفعين على مزالقه إلى القاع الذى ليس تحته قاع . مجروفين بعصبيتهم الدينية إلى مايفارق الدين ، ويخالف القرآن ، ويجانب السنة ، ويناقض العقل ، وتأباه ، قبل هذا كله ، إنسانية الإنسان . .

. . . ذات يوم صاح رجل من عصبتهم المفتونة فى وجه على :

« لا حكم إلا الله ! . . »

فلم يثر به . بل ترفق له فى المقال عسى أن يشفيه برفق البرهان مما هو فيه ، ثم يهدى به من وراءه — من الداعين بدعوته — إلى جادة الصواب . .

أجاب فى هدوء :

« كلمة حق يراد بها باطل ! . . »

ثم استطرد :

« نعم ، إنه لا حكم إلا لله . ولكن هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا لله . . »

والفرق بين المفهومين على غاية الجلاء . فالإمرة إدارة وسياسة ، والحكم قدر وقضاء .

وأكمل يبين لهم ، بعبارة ميسرة ، لا يشق إدراك مضمونها على إنسان :

« . . . إنه لابد للناس من أمير ، بر أو فاجر . . . يجمع به الفيء . ويقاتل العدو . وتأمن السبل . ويؤخذ للضعيف من القوى . . . »

. . . وجاء فى الأثر أن الإمام قال :

« لما أنزل الله سبحانه قوله : (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) .. علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله بين أظهرنا . فقلت : (يا رسول الله ، ما هذه الفتنة التى أخبرك الله بها ؟) . . فقال : (يا على ، إن أمتى سيفتنون بعدى) . . »

ثم قال الرسول :

« إن الله قد كتب عليك جهاد المفتونين ، كما كتب على جهاد المشركين . . . »

وقال :

« . . . تقاتل حينئذ على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله . . »

. . . وشاع فى الناس ، تلك الأونة ، من أمثال هذه الأقاويل والأحاديث ما إن وعته عصابة الخارجة أصحاب الجباه السوداء ، لعدل بها عن عنتها واندفاعها فى الاستكبار . . فكم من مرة جهد الإمام أن يستفيئهم إلى الحق ، بالحكمة والموعظة الحسنة . بالكلمة الموجزة . بالخطبة المستفيضة . بالمنطق المبين ، بالحجة الدامغة . بالقول الفصل . بالترغيب وبالترهيب . . وكم من مرة نقل إليهم ، على ألسنة صحابه الأدنين ، العارفين القرآن ، الحافظين سنة الرسول ، ما يقطع الشك باليقين . . وكم من مرة لاين وصادق ، وصبر وصابر عسى أن يؤوبوا إلى جادة الله ، وإن بدوا كأنما اختاروا لأنفسهم أن تضرب فى الغى إلى الأغوار . .

عن الفتنة لم يلوهم منقول ولا معقول . لم تغن عنهم تقواهم . لم تكفهم النذر ، فقد اشتبهت عليهم الأمور ، وعميت منهم البصائر ، وانطمست الضمائر ، والتاثت العقول . . فالدنيا كلها على خطأ وهم وحدهم على صواب . الأمة فى الضلال

وعصبيتهم فى الإيمان . الإسلام كما ينظرون . والقرآن كما يتأولون . . ولن يقر لهم قرار ، أو تسكن ثائرة ، إلا أن يحملوا الناس قاطبة ، فى الدولة الفتية المريضة ، على انتهاج نهجهم ، واعتناق مذهبهم ، بصهرهم أجمعين — رأيا وعقيدة — فى مصهر مبدأهم السياسى الجديد ، وإن ركبوا إلى ذلك أخشن السبل وأوعر المسالك ، من عنف وقسوة واغتيال . .

وها هم الآن ، أولئك الرفاق الثلاثة ، المتسترون بالظل ، يبدأون الرحلة الوبيلة . . فلا مناص من العمل فى الظلام . من الدبيب كالنمل . من التسلل كالثعابين ! . . لا معدى لهم ، فى المقــام الأول ، من انتزاع سلطان الله من الإنسان ! . . من القضاء على الحـكام ! . . من الخوض إلى الهدف فى بحر من دم ! . .

وقال أحدهم لصاحبيه :

« أنا أكفيكم على بن أبى طالب . »

وقال الثانى :

« وأنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان . »

وقال الثالث :

« وأنا أكفيكم عمرو بن العاص . »

وعندما اهتزت شخوصهم المعتمة من مكمنها الخفى بذلك الركن من بيت الله ، وأخــذت تتناثر مرة أخرى فى الساحة القريبة كثلاثة خروق فى ثوب النور ، كانت نطفة المؤامرة قد غدت مضغة تهم أن تتخلق ، لتغدو جنينا لن تلبث الفتنة الحبلى أن تلفظه إلى الدنيا وليدا خبيثا حينما يجيئها المخاض ! . .

٣

تواثقوا بمكة .

واتعدوا لرمضان .

وحددوا يوم الفصل بالساعة واللحظة .

وتعاهدوا على الوفاء بما نهضوا فيه . لا ينكل أحدهم عنه ، ولا يلتفت وراءه ، إلا أن يقضى وطره ، فيقتل رجله الذى صمد إليه ، أو يقتل دونه . .

وكان الموعد ليلة القدر . .

وكانت الساعة صبيحة الجمعة ، لحظة إقامة الصلاة . .

فقتل ولاة الجور — فى مذهب تلك العصبة — قربة إلى الله . وأحرى القربات وأيمنها ما يتقرب به فى المواسم المباركة الشريفة ! . .

ثم تفرقوا إلى المواقع .

تسعة أشهر طويلة كان لا بد للرفاق الثلاثة أن يقطعوها إلى غايتهم على انتباه وحذر ، فى ترقب ممض ، وسكون آسن ، وانتظار ثقيل . بصدور مغلقة الأبواب والمنافذ ! . . بملامح راكدة . بعيون مرتخية . بشفاه مزمومة ! . . فإن تبدر منهم حركة فقد تفشى . وإن تند خلجة فقد تشى . وإن تلمع نظرة فقد تفضح . وإن تفلت همسة فقد تنم . .

وسرهم ، مع هذا ، لا يكاد يقر له قرار ، أو تهدأ ثائرة ، فى سجنه الذى أودعوه إياه بين الضلوع . . بل إنه لينتفض ويضطرب ، ويموج ويهيج كوحش انتزع من رحابة الغاب أو فسحة الفلاة ليحبس فى قفص يحرمه حقه الطبيعى فى الحرية ، ويحول بينه وبين الانطلاق فى الحياة وفق هواه . .

فبقدر ما كان حرصهم على حصر السر بحرز حريز ، فى قرار مكين ، ينكمش

فيه بعيدا عن توجس الظنون وتجسس التخمين ، بقدر ما كان ذلك السر يتمرد على الأسر ، ويضيق بالضيق الذى سجن فيه ، تمرده على القوة القاهرة التى ألزمته الانزواء . . وبقدر ما كانت هذه القوة تضغطه لينكمش ، بقدر ما كان يجهد هو ليتنفس ، عسى أن يحطم محبسه بتمدده وتمطيه ! . .

وتلك طبيعة الأسرار . . يحصرها الصبر ، ويطويها الأسر . ثم لا تلبث أن تستمد من ذاتها المتمردة القلقة كل مقومات القدرة على التوثب والانتشار فى سجنها الصغير بالصدور ، حتى لتوشك أن تملك على التنفس كل منفذ ، وتملأ فراغ الجوانح إلى حد الاختناق ! . ثم لا تلبث أن تنتفخ وتتضخم . . ثم لا تلبث أن تفور فى الدخائل وتثور ، كفورة البراكين الغاضبة وثورة البخار المكتوم ، حتى لتوشك أن تفجر النحور ، وتشق الأسحار ! . .

وتلك لا شك مشقة مضنية معجزة أن يحمل الرفاق سرهم حبيسا مكبوتا كل هذه الشهور وهم آمنون تمرده وعصيانه . . لا يخافون أن يؤودهم حمله . . ولا يخشون تبجسه من مكمنه الضيق . . ولا يعضل بهم أن يحكوه أو يكتموه . .

بل المشقة العسرى الأدهى ، والبلاء العياء الأمر ، أن يرتاب بعضهم فى بعض وقد تفرقوا على الوقت والمسافة ، كل فرد بموعد وفى طريق ، بغير رقابة عليه من رفيقيه ، أو من رفيق ! . فما كان أحراهم بمعاناة الارتياب ومكابدة الشك مع مثل ذلك الفراق الطويل ، لأن القلق من طبيعة النفوس . ولأن الزمن يبلى الثقة . ولأن الانتظار يغذى الوساوس . ولأن السر ، وهو وراء شفتى الفرد ، سيف مغمد ، فإذا جاوزهما فسيف مشهور ، مصلت على عنقه قبل سواه أو دون سواه . .

لا فكاك إذن لأيهم من قبضة هذا السر المتحفز الذى جاوز شفتين اثنتين إلى ست شفاه ! . . لا طمأنينة ولا أمان . . أم لا ، فمن منهم الذى يضمن الآن أن يبقى على العهد — مع طول القلق والمعاناة — صاحباه ؟ . . من منهم الذى يؤمن أن يصبر على ثورة السر هذا أو ذاك ؟ . . أن يثبت لضغطه الشديد ؟ . . أن لن

يعييه السكتمان ؟ . . أن لن يتباهى فيدل بما اعتزم عليه ؟ . . أن لن يتهاون فيزل بعبارة أو بإشارة ؟ . . أن لن يضعف فيتهاوى ويخور ؟ . . أن لن يتلوم ويتأثم من خوض الدم ، فيكشف — بدفعة ندم ، أو بخلجة خوف — عما يضمر ، فإذا هو يأسف فيعترف أو يشى فيخون ؟ . .

لكنهم ، فيما بدا ، استطاعوا اجتياز الامتحان العسير . ارتقوا فوق الندم والتأثم ، وفوق الخوف والضعف ، وفوق العياء والمباهاة . . ظلوا وما هم عليه من تماسك ، طوال رحلة الزمن والمسافة ، وقد أخذ كل امرئ منهم نفسه وعقله وقلبه بغض البصر عن خيالات الشك التي تراوده في زميليه ، وزكم الأنف عن تشمم روائح الخيانة . . فما لهم محيص عن نبذ الارتياب . ولا عن الثبات . ولا عن إتمام شوطهم هذا الذى بدأوه من ساعة أن بارحوا البلدة الحرام ، لأن اندفاعهم إلى الأمام أيسر لهم من التقهقر إلى الوراء ، إذ كانوا ، في حقيقة الأمر ، ينزلقون فلا يستطيعون الارتداد ! . .

طوال أشهر الترحال والتنقل ، بين منازل الحضر ومضارب الرعاة عبر المياه أو على رمال الصحراء ، لم يكن يند عن أحد منهم ما قد عسى ينم عنه . . كانوا يسيرون كالأشباح ، يتسللون كالثعابين . يحومون فى الظلام كالخفافيش . ينخرطون فى غمار الجمهور الغافل عنهم مجهولين غير معلنين عن سوائم بكلمة واشية عن رأى ، أو خلجة مضطربة فى قسمة ، أو سمة مميزة فى لباس . . كانوا حريصين على مخالطة العامة ، ومجانبة من لهم هوى فى مذهبهم أو اهتمام من نوع ما بسياسة الأمور ، ما استطاعوا سبيلا إلى المجانبة ، بعدا بأنفسهم عن مواطن الظنون والشبهات . . وعند ما بلغ عبد الرحمن بن ملجم مشارف الكوفة ، وهم البرك ابن عبد الله أن يدخل دمشق ، وأوفى عمرو بن بكر على الفسطاط ، كانت المؤامرة تمضى على ظلالهم بالخطا المتئدة ، والقدم الثابتة ، والعين الحذرة ، على طريق الغدر والغيلة إلى نقطة النهاية ! . .

فكأنى بهم هبطوا المدائن الثلاث مع الليل الأسحم ، أو السحر الضرير ،

متسترين بالسكون والظلمة والاستخفاء كيوم خروجهم وأصحابهم سرا من الحاضرة العراقية متعدين للالتقاء بالنهروان . . وكأنما كانوا يستلهمون من حمية الثأر لصرعاهم المقدرة على الانطلاق . . وكأنما قد استعانوا على مشقة رحلتهم بما أكنت صدورهم المغلولة ، يستضيئون فى الأمسيات الليلاء بثأر الأحقاد . ويلوكون الكراهية دفعا للجوع . ويصحبون فى الوحدة الموحشة خيالات المأمول . .

غير أن ابن ملجم كان — دون رفيقيه البرك وعمرو — أولى الثلاثة بالحذر والتقية ، فدخل البلدة خائفا يترقب وفى ظنه أن العيون تأخذه من كل جانب . وحق له . فعهده بأهل الكوفة غير بعيد فى حساب الخواطر لا فى حساب الأيام . . وقصته بها جديرة بأن تظل ماثلة سنين عديدة فى الذاكرات لا تخلق ولا تغيب . وحديث أمير المؤمنين معه من المأثورات . . وإذا كانت زحمة الحوادث المولية قد طوت أمره عن الناس هذه الشهور الأخيرة ، فإن نظرة عابرة قد تقع عفوا عليه ، خليقة بأن تنضو عنه مسوح الخفية ، وتدعه عارى النية ، مهتوك السر ، على قمة الريبة . .

واهتز الرجل من أعماقه .

ليكاد يعاين افتضاح أمره فى كل ما يجرى حوله . . فى كل حركة تعرض ، وكل نظرة ترنو ، وكل همسة تبدر . . يكاد يحس — بكيانه كله — توجس القوم منه التوجس الذى يلتف عليه التفاف أفعى تضغط لتعصره ، ثم يلق به وبعهمته الخبيثة وراء جدران صماء لامنفذ بها ولا ثغرة تتسرب منها مكيدته . . يكاد صبره ينفد ، وجلده يتمزق ، وعزمه يهن ، وقلبه يتهاوى عند موطئ قدميه . .

إنه ليجزع فيغرق فى الجزع حتى أذنيه . ثم يهلع فيذوب فى الهلع عقلا وعصبا وجارحة . ثم يملكه فزع غامر يشل تفكيره فإذا هو فزع المستكبر الصليب الذى لا يهده خوف الهلاك بل خوف الإخفاق ! . .

ولا لوم عليه عندئذ لو أحس الضياع . أو ذهل عن نفسه . أو اشتبهت عليه الأمور . أو مات من الحسرة فى كل لحظة مرة ، مع كل نفس يردده صدره ، وكل خطرة تمر بباله . .

فذاك أولى بأن يكون . .

وكيف لا ، وقصته مع الإمام تنفض عن جثمانها البالى كفن النسيان ، وقد انشق عنها قبر السنين، لتتجسد حية أمام باصرة خياله ، طوال يومه وليله ، سكونه وسيره ، نعاسه وسهره ؟ . . وحديثه وإياه لا يفتر عن الطنين فى أذنيه بمثل الزمزمة التى يملأ دويها أذنى محموم ؟ . . ومشهد لقائهما الذى انهتك فيه سره — وهو حينذاك مجهول له ، خفى عنه لم يجل له بعد فى خاطر — لا يبرح عينيه كأنما قد ارتسم بين جفنيه ؟

وطاردته الذكرى . .

إذ ذاك كان قد وفد ، فيمن وفدوا على أمير المؤمنين ، ليأخذ عطاءه . . فما امتدت يده حتى أمعن الإمام فيها النظر بلحظ خاطف ثاقب الشعاع ، صوب منه بعد هنيهة إلى وجهه ، وقال فى هدوء :

« ما يحبس أشقاها ؟ . . »

وكرر السؤال . .

ولم يفهم ابن ملجم . ولا فهم الناس الذين سمعوا ، إلا قلة من خلصاء الإمام أعادت الكلمات الحادثة إلى أذهانهم ذلك الحديث المأثور عن رسول الله ، الذى يعلمون أنه حدث به ابن عمه وصفيه منذ سنوات طوال .

فما أسرع ما تكر الذاكرات بالكثيرين إلى ذلك الماضى ، تسترد منه ذلك الحديث .

وتلتئم الخطوط . وتتجمع الحروف . ويكتمل المنظر بما يحتوى من مرئيات ومن أصوات . .

محمد يسأل :

« أتعلم من أشق الأولين ؟ . . »

وعلى يجيب :

« نعم . عاقر الناقة . »

فيسأله ثانية :

« أتعلم من أشق الآخرين ؟ . . »

فيجيب :

« لا . »

عند ذاك يقول الرسول :

« من يضربك ها هنا » مشيراً إلى هامته ، « فيخضب هذه » مشيرا إلى لحيته . .

فهذا الحميرى ، طالب العطاء ، هو إذن ذلك الأشقى الذى أعلم الرسول عليا نبأه ، وقرنه فى الشقاوة بأشقى الأولين ، عاقر ناقة ثمود .

هذا هو الفاتك المغتال الذى أومأ إليـه الإمام بكلماته يوم طاف به طائف من علم محمد الغيب عن غيره من البشر ، فقال لبعض خاصته المجتبين ، الذين كانوا يشفقون عليه ، حين الحرب ، من خوض الحشود واقتحام السلاح ، غير آبه شيئاً بما قد يصيبه أثناء القتال :

« إنى لا أقتل محاربا ، وإنما أقتل فتـكا وغيلة . . يقتلنى رجل خامل الذكر . . . . »

والتفت العيون المذعورة بابن ملجم ، واسعة الحملاق ، حائرة النظرات . وتناثر فى الجو حوله رشاش الهمسات فى تساؤل واستفسار . .

لـكن الإمام مال عنهم إلى الوافد المشبوه فمنحه عطاءه الذى جاء له . ثم تمثل بيت شعر لعله أن يغنى عن التفسير :

« أريد حياته ويريد قتلى !

عذيرك من خليلك من مراد . »

هنا انبثق من البيت المروى مثل شعاع أضاء فى الخواطر ما قد غمض على الناس ، فى بدء ذلك اللقاء ، من كلام الإمام . . الآن رفع الغطاء ! . . برح الخفاء وانجاب الستر عن السر المسربل بالغيب فلا حاجة بهم إلى تعقب أمره أو تبين ملامحه من خلال غموض الإيحاء ! . . فطالب العطاء الذى أثار قلق القوم ، وحرك فيهم الشعور بالخطر ، حميرى من اليمن فيما يعلم نفر منهم غير قليلين ، نسبه إلى مراد أو هو حليف لمراد ، وعداده فى كندة أهل الأشعث بن قيس وذويه . .

وزلزل الخوف ، على الأثر ، قلوب الجمع الملتف بأمير المؤمنين وقد بدا لهم فى ابن ملجم المصير الدامى الذى يهم أن يتسلل خلسة إلى صاحبهم بالغيلة بعد حين يضمره الغيب ، فى ساعة من يوم مجهول ، بأرض سلام لا بساحة قتال . .

وأذهل أيضا الصفوة الخلصاء منهم ، أن عد الإمام للشقى فى الطمأنينة ، فيوفى له العطاء غير مانع ولا ضنين ، ويخلى بينه وبين الحرية ، بغير تحرز منه ولا عين عليه ، وإنه للعليم علم اليقين أنه عائد لا محالة إليه ، فقاتله فى غد إن لم يكن اليوم ، أو بعد شهر أو عام إن لم يكن هذا الشهر أو هذا العام . .

وقالت للإمام منهم طائفة رأت ضرورة تدارك المحنة المقبلة ، ومعالجة الأمر بالحسم ، توقيا لما يكون :

« فهلا تقتله يا أمير المؤمنين ! . . »

فابتسم بسمة هادئة لونتها أطياف من السخرية أو الإنكار ، وهو يعجب كيف فات وعيهم الناضج أن هذا الذى يطلبونه منه ، ويدعونه إليه هو قمة المحال .

وقال :

« فكيف أقتل قاتلى ! . . »

فسمع منهم الصمت ، ورأى الوجوم . .

لـكنه شاء ألا يدعهم والحيرة ، وآثر أن يكفهم ، بمنطق العدل ، عن محاورته ليوصد الباب دون خوضهم بغير جدوى فى غمرة المغيب المجهول ، فأردف يقول :

« إنه لم يقتلنى . . فـكيف أقتل من لم يقتل ! . . »

وهل من قصاص بغير جرم ، وعقاب ولا جريرة ؟ . .

وها هو الآن هذا الشقى : عبد الرحمن بن ملجم الحميرى ، طالع الأرض اليمنية ، حليف مراد ، لصيق كندة ، ثالث رفاق الاتفاق الدموى بمكة ، يقبل على الـكوفة بعد غيابه عنها العديد من الأشهر ، وقد تخلقت فى نفسه النية الخبيثة التى كانت خافية حينذاك عن لمح خياله ، خبيئة فى طوايا ذهنه كالنطفة الهامدة التى لم تضطرب بعد بانتفاضة حياته . .

ها هو يقبل ليوفى نذره . ليقضى وطره . ليقتل الإمام . ليـكتب بخنجره المسموم آخر سطر فى القصة التى لم تختتم يوم المطاء ! . .

٤

لصيق كندة الحميرى ابن ملجم ، كان يعلم أنه أحرى بأن يقع فى شرك الريبة ، إن لم يكن بين فـكى الهلاك ، لو أنه لم يلتزم خطة الاستخفاء والمخالسة ، التى انتهجها منذ مبارحته البلدة الحرام ، كأحكم ما يكون الالتزام . . فلا أمان له فى إشباع نهمه إلى التعرف على ما يدور حوله بالـكوفة . ولا فى تعمق ما يخالج الناس . ولا فى الغوص فيما قد تومىء إليـه ظواهر الأحوال التى يرى — بمبين شعوره وتصور حدسه — أن صروفها المتواليات راحت تتجمع فى جوانب الأفق ، أحيانا كالضباب ، وأحيانا كالسحاب ، منذرة بأحداث قريبة الوقوع . .

إنه لا يضمن ألا يتعثر فى نظرة مرتاب ! . . ألا يفطن إليه غريم ألا يتبين أمره أو ملامحه بعض أولئك الذين عرفوا سيرته ، وسمعوا برحيله مع أهل النهر ، وأدركوا سبب انتفاضه على الإمام ثم قد يشيمون الآن ما لا تحمد له مغبة فى أوبته هذه المريبة إلى بلدتهم بعد الاختفاء الطويل . .

لا معدى له إذن عن كف النفس عن محاولة استـكناه الأسرار ، واستنباء الأخبار ، والتطلع إلى ما وراء كل مرئى ماثل ، ومنطوق مسموع وإن كان إحساسه المرهف بالخطر المحدق به أولى بأن يشحذ ولعه بالتقصى والبحث ليأخذ بالحذر ، أو يتعوذ بالطمأنينة .

أهون الشر عليه ، لا محالة ، هو أن يخلد ، ما وسعه الجهد ، إلى القبوع داخل إهابه ! . . الاعتزال فى قوقعة أفـكاره ! . . التنائى عن هذا التيار الذى بدأ يضطرب بالحاضرة العراقية وأهلها فى تلك الآونة القلقة من تاريخ الإسلام ، ثم عسى لا يدرى أحد ، ولا هو يدرى ، أيهدأ تحدره المتواتر فيسكن أو يغيض ، أم يزيد تدفقا واندفاعا فيفور أو يفيض كطوفان ! . .

ذاك قصاراه . .

والـكوفة آنذاك لم تـكن هادئة . لم تـكن رائقة الصفحة ذلك الرق الصافى

الذى ينم عما تحته فى القاع . . ولم تكن أيضا هادرة . ولا مطموسة معالم سطحها المتموج ، البادى أمام النواظر أو الخواطر ، كل الانطماس . . بل قد كانت تموج بالغدو والرواح . وتتذاءب بين الضجيج والسكون . وتمتلىء بالأخبار كما تمتلىء بالأحداث . لا تكاد تعرف الاستقرار . قلقة الكيان — هيئة وفكراً — تتململ كتململ موجوع لا يعرف ، أو يعرف إنسان ، أتنهكه علة تعركه حماها ، أم وجعه هذا الذى ينوشه عارض لا يلبث أن يزول بعد قليل . .

وضاقت عليه ، لاريب ، البلدة وهو فى ملاك ذلك الشعور الذى يطلع الخطر عليه من كل ناحية ، مع كل لحظة من نهار ومساء . . فبين كثافة خلائقها الذين يؤلفون مجموع السكان ، تكاد تغرقه النظرات . وتخنقه الهمسات . وتصرعه اللفتات العشوائية التى تنبعث بغتة — كانبعاث السيف حين يسل فجأة من غمده — من كل مقبل ومدبر من عابرى السبيل ! . .

ليكاد يحس أن الدنيا له بالمرصاد ، الجموع تتعقب حركاته أو تتربص بخطاه . المراصد مبثوثة فى طريقه . الشراك منصوبة تحت قدميه . . فى كل وجه يقابله عفوا بطريق ، مرقبان : عينان ! . . فى كل طريق مزلق إلى هاوية . . فى كل هاوية ينتظره هلاك . .

ما من مناص له من الانحياز عن هذا الزحام الخانق إلى منتأى بعيد ، تنعشه به نسمة هواء وتجنه فينة هدوء . ينزل منه بمقر آمن . ويأنس فيه إلى رفيق . .

لقد كان من قبل ، إبان الرحلة الطويلة من الحجاز ، يتجنب الناس ، ويلوذ بالوحدة ، ويصاحب الوحشة التى يخفف من وقرها عليه التفاؤه بأفكاره ، وانفساح الصحراء أمامه الانفساح الذى ييسر الانفراد . . ولكنه الآن فى المدينة المزدحمة غيره بالأمس فى رحاب الأرض الجرداء . ومع الجمهور الزاخر كالبحر الهادر غيره مع خواطره الوادة له ، المؤنسة لحاجات شعوره . . فالتجمع الإنسانى فى أى بقعة من الأرض يثير فى النفس غريزة حب الاجتماع . ووجود

الناس يغرى بالصحبة . وامتلاء السمع بالـكلام يدفع اللسان إلى الـكلام ! . .

وكان لابد له أن يختار ، فاختار . .

غامر بالتخفف هونا من قيد الوحدة الذى كبل به نفسه ، بعد أن ثقل عليه عالم الغموض المريب الذى يعيش فيه ، وجو الوحشة الخانقة الذى يطبق على صدره ، وطول الـكتمان الذى يعييه . .

ولم يكن ثمة أمامه — إن نفض البلدة كلها طولا وعرضا ، دروبا ومشارف وأحياء ، أو خبر أهلها أجمعين ، مقيمين ووافدين — غير مأمنين اثنين ، هما أدنى إلى ألا يخوناه أو يشيا به ، وعيا فى قلبه المغلول للناس . .

فليس آمن له ، فى المدينة الـكبيرة ، المليئة بالحركة ، المائجة بالجموع ، من منازل كندة ومن لحق بهم من بنى جلدتهم اليمنية من موال ولصقاء وأحلاف . وليس أكتم لأمره ، وأبقى عليه — بعد هذا الحى — من أطراف البلدة حيث لا يعدم أن يجد شراذم مبعثرة من ذوى رأيه وأصحابه الخوارج ، يعيشون فيها أشتاتا على استخفاء . ودون ذلك وتلك قد تطلع الأرض له الارتياب والخطر والتربص مناجل تحش مهمته لتذروها الريح ! . .

لا ريب قد كان عبد الرحمن يختلف حينا إلى مأمنيه هذين ، كلما أعوزه الاطمئنان ، وافتقد الصحبة ، واستوحش فضاقت دنياه باعتزاله الذى كان يحياه . . لا ريب قد مال مرة هنا أو مرة هناك ، متسترا بالظلمة ، متمسحاً بالجدران ، عسى أن يلقى فى القوم من عساه يملأ عليه بعض الفراغ . . كان مفتقرا إلى تجديد الثقة بنفسه ، فى حاجة إلى تثبيت يقينه ، وليس له إليهما من سبيل سوى ألفة تشع عليه من دفئها ما يبدد برد ليل انتظاره الطويل . .

فلعله حينذاك كان يحاول أن يصطنع رفقة جديدة فى متعصب أو غرير إن لم يقع على صاحب أو صديق قديم . . لعله كان يلتمس العون والطمأنينة عند رئيس يمين ويجير . . لعله كان يجس النيات ، ويشم الاتجاهات ، وإن هو ظل دائما — كدأبه — ذلك الحذر المتوجس الذى يكتم أمره عن الجدد والقدامى

من الخلان على السواء ، طاويا عنهم ما تعاقد بمكة عليه مع صاحبيه ، مخافة أن ينزلق به لسانه فينتشر السر ويفسد التدبير . .

لكن الثابت الذى لاشك فيه أنه التقى بفريق من الخارجة ومن يرون مثل رأيهم الخبيط المضطرب فى الحكم والحكام . والتقى أيضاً بالأشعث بن قيس ، سيد كندة ، الذى له هوى معروف فى ضرورة تغيير الوضع القائم ، وله نشاط ، لم ينسه الناس ، كاد ينحرف به عن مؤازرة على كل الانحراف إلى ما يشبه العداء والخصومة وإن هو غطى سلوكه أمام العامة بقشرة ولاء ! . .

على أى وجه من الوجوه كان التقاء ابن ملجم بأولئك أو هؤلاء ، وكيفما كانت وسيلته للالتقاء ، فقد كان أسلوبه هو الأسلوب الطبيعى المنتظر ممن هو مثله من أصحاب الخطط السرية الذين يستوثقون لأنفسهم ولخطاهم الزاحفة إلى الهدف الخفى كل استيثاق ، باستقراء الملامح ، وتعمق السرائر ، واختبار الميول ، وتشمم رائحة الخبىء المجهول .. فلم يكن له محيص عن التلصص والتجسس ، وعن التلمس والتحسس ، عسى أن يدله فعله على سبيل أقصر إلى نهاية شوطه . أو ناصر أقدر على معاونته . أو متبصر أعلم منه بالمسالك وأعرف بحقائق الأمور والأحوال . أو رفيق طريق يستطيع به — فى أقل القليل — أن يرى من مكامن الخطر ومواطنه ما قد منعه تواريه واعتزاله الحياة العامة أن يراه . أو ولى وفى يحمى ظهره عند وقوع الخوف المحذور . .

وما يدرى أحد أسعى عبد الرحمن بن ملجم وقتئذ إلى الأشعث بن قيس أم سعى الأشعث إلى عبد الرحمن . ولكنهما التقيا بلا مراء . وكان اللقاء بينهما هو اللقاء الذى لابد أن يكون لأنه كوقوع الشكل على شكله ، واجتماع المردف برديفه ، إن لم يكن لقاء الاتفاق والمصلحة المشتركة بعد ماظهر ، منذ رفع المصاحف بصفين ، من انحراف الأشعث عن على بن أبى طالب ذلك الانحراف المشبوه الذى يماثل العصيان ، بل المناجزة ، بل الائتمار ! . .

فسيد كندة ، فيما دلنا عليه سلوكه ، متهم فى ولائه للإمام الاتهام الذى

لا يكاد يدع منفذا للاعتذار عنه بأى تبرير ، أو للمفاوتة فى دمغه بالانحياز عنه والممالأة عليه بين تقدير وتقدير . . فما يمكن الادعاء بأنه لم يختلف أثناء المعركة ، فى بعض فينات هـدوء القتال ، إلى بنى أصله اليمنية فى صفوف الشام ، يقابلهم ويحادثهم ، على عادة المقاتلة فى حروب تلك الأيام . وما نبرئ مقابلاته هذه من مشاورات كان يجريها مع قومه من حزب معاوية ، ومن وراء ظهر حزب العراق ، لـكف الحرب وإعادة السلام . وما يخفى على أحد أن مشاوراته حينذاك كانت أدنى إلى أرب معاوية ، وأجدى عليه منها إلى سياسة على وغرضه وإن بدت كأنما ترمى إلى صالح المسلمين العام . وما يكتم التاريخ أن سلسلة أفاعيله من بعـد كانت لها اليد الطولى فى الأخــذ من جانب على والإضافة إلى جانب معاوية حتى انتهت آخر الأمر إلى قلب ميزان القوى بين الفريقين ، ثم تبـديد حق الإمام . .

والسرد يطول . . ولـكن الأشعث بن كندة ، كما ثبت كاليقين ، لاح كالسائر على خط مرسوم ، الساعى إلى هدف معلوم ، الدائب دأب العامد الحريص على فض النزاع المشبوب على غير ما رأى إمامه ، وبخلاف ما ارتجى العراق ، وكنقيض ما أجمعت عليه عزائم أولى الألباب العارفين بالله ، الداعين إلى سبيله ، العاملين على رفع شأن الفضائل والقيم الخلقية والدينية والاجتماعيـة للقرار بأوضاع الدولة والناس القرار الذى يعلى الحق ، ويمحق الباطل ، ويوحد الأمة ، ويقضى على النفـاق والشقاق ، وتستقيم به الأمور فى أرجاء أرض الإسلام — دينا ودنيا ، وخلقا وسياسة — كخير ما ينبغى أن تستقيم . .

آية ذلك ما اندفع إليه ، مذ ذاك ، من مبادرات عمرت بالجهد الدائب ، والسعى المتواتر ، والقول المثير ، مشى بها فى طريق وبدء من المشاورات والمناورات ليس قصاراها إلا أن تفسد على الإمام خططه ، وتضطرب بأموره إن نحن أحسنا بها الظن ولم نقل إنها تبييت مدبر ، وحلقات متصلة من الدسائس والمؤامرات . .

واحدة أنه علا بنفسه — زهوا وغرورا ، أو انحراف وخيانة ! — إلى ما فوق موضعه ، فادعى لها الولاية على الإمام ، وعلى صحبه الخلصاء ، وعلى جموع أهل العراق ، ثم على المسلمين كافة ، فخف من خلف أظهرهم أو كاد إلى مايشبه الاتفاق مع عتبة بن أبى سفيان على وضع الحرب ، أو على تسخير نفوذه لوضعها ، دون مشورة من ولى الأمر الشرعى ، وغير مبال ما لفعله هذا من أثر بالغ فى تعويق الخطا إلى الهدف ، وفى تمزيق وحدة الصف ، وفى الهبوط بمعنوية الجيش العراقى المنخرط حينذاك فى القتال بصفين إلى وهدة الوهن والتخاذل والانقسام..

يومئذ يصغى إلى ملق عتبة بن أبى سفيان الذى يثير فيه كلفه بالتفاخر ، ويغذى بألفاظه المنمقة المعسولة غروره ، إصغاء مقبل نهم نشوان ! . .

يقول عتبة :

« إنك رأس أهل العراق ، وسيد كندة ، ولست كأصحابك ! . . إنك حاربت عن أهل العراق تكرما ، ثم حاربت أهل الشام حمية . . . وإنا لاندعوك إلى ترك على ونصر معاوية ، ولكننا ندعوك إلى البقية التى فيها صلاحك وصلاحنا . . . . »

فلا يأبى الدعوة المخذلة عن الحرب ، المرجحة لكفة الشام ، بل يتقبلها كمثل تقبل ظمآن ماء آسنا لاخيار له فى رفضه أو يموت ! . .

يجيب :

« . . . . أما البقية فلستم بأحوج إليها منـــا ، وسنرى رأينا فيها إن شاء الله . . . . »

ويعلم معاوية من أخيه بما كان من الرئيس اليمانى الكبير فيستبشر ، ويطمئن باله ، لأنه — وقد أيأسه وشق عليه أن يحتلب النصر من على بحد الحسام — يوشك أن يرى فلجه على غريمه وحزب العراق يأتيه يسيرا هينا من خلال استجابة الكندى المغرور لهذا التخذيل المموه بلون السلام ! . .

وأخرى نعلمها ويعلمها الناس ، عندما تسعر القتال فى معركة صفين ، قبيل نهايتها ليلة الهرير . .

فلقد أشرف القتال ، ليلتها ، على لحظة فصل تجلت بها للعراق بشائر نصر حاسم لاشبهة فيه ، كما بدت للشام نذر هزيمة ساحقة لامناص من تجرع مرارتها ، ولا سبيل معها إلا سبيل الاستسلام . ولكن الأشعث يلوح كالذى لا يرتضى هذه النتيجة ، ولا يحب أن تكون . فيبادر — طائعا وملهوفا ! — إلى تثبيط همة قومه المقاتلين فى صف على ، وتخذيلهم عن مواصلة القتال شبرا أو فترا إلى النصر المضمون ، كأنما قد هاله أن يعز الإمام ، وتسقط الراية من يد ابن أبى سفيان ! . .

ينبرى حينذاك إلى قومه كندة ، وهم بصدد على ثرى الميدان ، لا يحثهم على الصبر والثبات وإنما يحرضهم على القعود والثبوط ! . . ولا يخوفهم الهزيمة ، بل يخوفهم الظفر الذى لاحت لهم معالمه ، وخفقت فوق هامهم أعلامه ! . .

يخطبهم فيقول :

« . . . قد رأيتم ، يا معشر المسلمين ، ما قد كان فى يومكم هذا الماضى ، وما قد فنى فيه من العرب . فو الله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قط ! . . ألا فليبلغ الشاهد الغائب إنا إن نحن تواقفنا غدا إنه لفناء العرب ، وضيعة الحرمات ! . . . »

* * *

وثالثة جاوز بها حدود الولاء إلى التمرد ، والمؤازرة إلى العصيان . .

فحين أكلت الحرب أهل الشام ، وأوشك الأشتر ببعض جنده أن يعصف بمعاوية فى فسطاطه ، واحتال عمرو بن العاص بالمصاحف تعوذا بها من الهزيمة ، وهم فريق من العراق أن يقعوا فى شرك الخدعة . . فى تلك الآونة الخطرة التى تقرر المصير ، وتفرق الحق عن الباطل ، والجد عن الهزل ، والنصر عن الهزيمة .

نصب الأشعث بن قيس الكندى نفسه — دون على ، وصفوة صحبه ، ورءوس جماعاته ، وقادة جيشه — وليا ناصرا للعبة الماكرة ، ومدافعا عنيدا عن العدو المخذول . .

عدى بن حاتم يقول للإمام :

« إننا أمثل من القوم بقية . وقد جزع القوم ، وليس بعد الجزع إلا ما تحب فناجز القوم ! . »

وعمرو بن الحمق يقول :

« والله ما نصرناك عصبية على الباطل . ولا أجبنا إلا الله عز وجل . ولا طلبنا إلا الحق . وقد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا معك رأى . . »

والأشتر النخعى يقول :

« إن معاوية لا خلف له من رجاله ، ولك بحمد الله الخلف ، ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا بصرك . فاقرع الحديد بالحديد ، واستعن بالله ! . . »

أما رئيس كندة الأشعث فيغضب الغضب كله لهذا الإجماع من رفاقه ، سادة الجموع وقادة الألوية ، على مواصلة القتال . . ثم يثور . . ثم يعنف لعلى فى الخطاب :

« .. ليس آخر أمرنا كأوله ! . . فأجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم ! . . فقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال . . »

ويعضى يؤلب الجيش العراقى ضد ما قد ارتأى أصحابه ، ويحرص على إطفاء نار الحرب ، والركون إلى الموادعة حتى تتنادى الكثرة بقبول التحكيم ، مخالفة الإمام . .

* * *

وغيرها أنكى وأمر ، تضيع على أميره ثمرة الكفاح ، وتهدم أسس النصر ، وتنسخ البقية الباقية من الأمل فى الاستقرار لأنها تقضى القضاء المبرم على الحكمة المنشودة من وراء الاحتكام لكتاب الله . .

فهو لا يدع التحكيم ، الذى جهد ليقوم ، يسير فى طريقه الطبيعى إلى ما يحقق

سلاما عادلا يشير إليه الواقع ، ويقضى به صالح الأمة ، ويرضاه حكم الله لأنه هكذا التحكيم الذى يكشف عن بغى الباغين ، ويدمغ سلوكهم بالمروق ، ويحملهم حملا على ما يكرهون من حكم القرآن . .

ولا مغالاة ، إذ أبى إلا حكما يرضاه وإن علمه مشبوه الولاء للإمام ، أدنى إلى الغفلة عن القضية ، وأولى بتسليمها لمشيئة الغريم ! . .

يقول على :

« إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحدا هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص . . وإنه لا يصلح للقرشى إلا مثله ، فعليكم بعبد الله بن عباس فارموه به . . »

لكن الأشعث يعترض الرأى وقد أخذته العصبية :

« لا والله ! . . لا يحكم فيها مضريان حتى تقوم الساعة ! . . ولكن أجعله رجلا من اليمن . . »

ويختار أبا موسى الأشعرى . .

فيقول الأحنف :

« . . قد عجمت هذا الرجل ، فوجدته كليل الشفرة ، قريب القعر . . لا يصلح لهؤلاء القوم . . . . وهو رجل عان ، وقومه مع معاوية . . . »

ويعقب على :

« إنه ليس لى برضا . وقد فارقنى ، وخذل الناس عنى ، ثم هرب حتى أمنته . . . »

فيأبى الأشعث :

« والله ما نبالي . . . . »

فيرشح الإمام آخر :

« فإنى أجعل الأشتر . . »

فيأبى ثانية أو ثالثة ، ويصر على أبى موسى ، ويظاهره فى الإباء والإصرار جماعة القراء الذين غدوا من بعد خارجة ، كأنما كان وإياهم على اتفاق . .

ويقع ما يقع فى التحكيم فإذا هو وفاق ما أراد أن يقع مكر صاحب الشام ، وغفلة أبى موسى ، وخيانة الأشعث . وعنت القراء ! . .

٥

ذلك الزاحف من مكة برسالة الموت ، استطاع — فى وكر الفتنة — أن يحقق ما اشتهت أحلامه السوداء أن يكون ! . .

بمسارب الكوفة المظلمة ، ومغاور الدسيسة ، جدد الصحبة مع نفر ذوى صلابة ومراس ، من الأولى على نفس مذهبه ، يكنون لعلى بن أبى طالب عداوة حمقاء مريرة ، ويرنو أمامهم المجنون إلى هدم حياته ، وتقويض عهده لنشر دعوتهم الوبيئة . .

وبين فلول الموتورين والمخدوعين ، وقع على بضعة غالية فى عصبية التفكير ، أنس منها إلى اثنين مفتونين ، عاقداه على النصرة واسترخاص الحياة ، من أجل إراقة الدم المستباح . .

وبديار تيم الرباب ، لقى من يؤجج شره ، ويلهب ثأره ، وينفخ فى ناره ، ويحفز نفسه المفعمة بالضغينة ، الملتاثة بالهوى ، حفزا شرها لاتهدأ له نهمة ، ولاتبرد غلة ، ولا يتراخى تصميم . .

وفى حى كندة ، فوق كل أولئك ، قابل الرئيس الذى يحمى ، أو يثير ، أو يشير . .

لكن القدر الموكل بالقلوب ، أوشك فى لقاء من تلكم اللقاءات أن يمد أصبعا إلى قلب المتآمر تلعب بوتر فيه فتقلب — لحين من الزمن — تفكيره ، وتعدل تدبيره حتى لكادت أن تدفع بخطاه بعيدا بعيدا عن المرمى الذى بيت النية على بلوغه بعدا شاسعا ثم أن يتحول بتيار التاريخ . .

ولم يكن هذا فى حسبان عبد الرحمن يوم بدأ رحلته الطويلة . ولا جال له فى بال وهو يرتاد المسارب والمغاور والأوكار انتجاعا للعون أو الرفقة أو النصيحة .

ولا يسرح ظنه لحظة قط إلى قوة فى الوجود — من شىء أو أمر ، من ناس أو حدث ، من إعداد فعل مدبر أو من صنع صدفة عارضة — تستطيع أن تعترض سبيله المرسوم ، أو تحرف خطاه عن السير عليه . .

غير أن القلوب قلب . والهوى جموح . والعواطف رعناء . .

وقريب إلى سجية البشر ، لا ريب ، بل بضعة منها ، أن يعرف المرء الحب ، ويذوق طعمه ، فينعم به أو يشقى فيه . وقريب أيضا — حين تلمسه عصاه السحرية — أن ينسى نفسه ، وينسى عقله ، وينسى ماضيه أو يكاد يذهل آونة عنه تطول أو تقصر كعمر نشوته ، ليتبدل على الأثر قلبا بقلب ، وشعورا بشعور . . ولا غرو ! . . فحين تلتفت القلوب تغمض العيون . وحين يأمر الهوى تلبي الجوارح . وحين تجيش الأحاسيس تأسن العقول . .

فتلك سنة الطبيعة فى الناس ، وضريبتها المفروضة عليهم لحفظ البشرية . .

وكان من قدر ابن ملجم أن عرف الحب ذات ليلة ساجية بالكوفة ، من ليالى الفرار والطراد والتسلل المستترة بالغموض ، اللاهجة بالهمس ، المليئة بالأسرار . . فإذا هو إذ ذاك يبدأ رحلة جديدة . . يميل عن طريق التفكير الحذر إلى طريق العاطفة المفتونة . . يمر بالتجربة الإنسانية المذبة ، المتواترة فى حياة الإنسان كأنفاسه ، المتكررة عبر الأيام فى كل مكان . .

باللمسة الساحرة ، غدا المتآمر المغامر غير ما كان : إنسانا سوى إنسان ، وكيانا سوى كيان ! . . لكأنه خلص من كثافة البدن ومن عتمة المادة ! . . لكأنه ابن لحظته الحلوة التى أغرقته فى النشوة ! . . لكأنه ولد من جديد ! . .

فى عين من سوادها الداكن ليل الليل ، ومن بياضها الصافى صباح الصباح ، عاين الفتى قدره . وجد دنياه . عاش فترة من حياته شهية ندية هى الحياة ، أو هى حياة غيرها أخرى ، مفصولة تماما عن هذه الحياة . لا تكاد تمس المألوف فى وجوده الأول ووجود الناس من شكول وأوضاع ، ومن نظرات وأفكار ، ومن ظنون وأحداس ، ومن سنين ولحظات ، ومن أغوار وأبعاد لأنها لا تخضع

لرأى الأعين ، ولا لمنطق العقول ، ولا لحكم الأحياز . . لا تفطن لما يدور في ذلك العالم الذى كان يجنه ويحتويه : عالم القلق والحذر ، والخوف والخطر ، والدس، والظلام . . لا تحسب من سنى عمره ، لأنها وحدها العمر والدهر والخلود . .

إلى دنيا أرضها زهر ، وريحها عطر ، وأفقها أمل ، وجوها صفاء ، نقلته نظرة وسنانة مخالسة من بين أهداب عينى قطام ، غيداء تيم الرباب . كانت الفتاة آسرة الحسن ، طاغية الفتنة . فى لحظها خمر ، وفى لفظها سحر . رقيقة كقطرة الندى ، ريانة كأنفاس الفجر ، نضرة كالربيع . فما أن رنت إليه ، أول رنوة ، حتى أحس كأنما ذاب فى النظرة العابرة الخفرة التى صادفته عن غير موعد ، وتسللت إليه على استحياء . .

وأفلت منه ، على الأثر ، طرف ذلك الغرض الذى دبر له ، ووهب نفسه ، وجاء من أجله يقتحم الشبهة والليل إلى مستقر هذا اللقاء . غاب عن فكره النذر، وعهد الثأر ، ورحلة الغيلة الطويلة من البلدة الحرام . غفل عن كل أولئك الزمرة من رفاق المذهب المفتونين الذين أقبل من وكره على جمعهم الحاضر ليسمع منهم ، ويستطلع رأيهم ، ويعجم دخائلهم — دون أن تسقط لفظة من بين شفتيه قد تنى به — عسى أن يستصفى فيهم فردا ذا عزيمة وبأس وكتمان ، يعاقده على المشورة والعون ، ويسير معه لصرع الإمام . . ضاع منه ، فى غمرة نشوته العاطفية ، ما قد سلف من حياته وفات ، ثم أوشك أن يضيع ما هو آت غير لمحة من رجاء عذب ألا يطلع عليه نهار أو يجنه مساء إلا وهو يحلق فى سماء أحلامه الوردية مع قطام ! . .

إنه الآن غير ما عهد أن يكون . كأنما قد اغتسل بالنور ! . بدنه كله خدر ، وفؤاده كله وجيب ، وأنفاسه كلها لهاث . . كأنه صنع من صفاء ! . . كيانه ينطوى فى نبضة تخفق . روحه يشع فى نظرة تهيم . عالمه اختزل فى فتاة ! . . وعندما طفا على سطح النشوة ، وعاد هنيهة إلى بعض وعيه ، كان قد نضا عن نفسه ثياب الضغينة وكسته العاطفة مسوح السلام ! . .

ولم يقل لهم ما كان قد أعد ليقول . ولا جهد ليستدرج خواطرهم إلى ما يريد . ولا حاول أن يلقى أذنيه إليهم ليعجم الأعواد . . ولكنه أخلد بينهم إلى صمت واجم كأنه ذهول وهم من حوله يحدثونه لو كان لأصم مسمع يعى أو يلتقط الألفاظ ! . .

ونفضته الأمسية ، من بعد ، إلى وكره الخفى ، ينفرد فيه بعرائس رؤاه ! . . وكان راضى النفس تظله السكينة . يسبح فى عاطفته على قارب نشوان . ويمشى بخيالاته على السحاب ! . وكان غير ما كان . خفيفا كالنسمة ، نقيا كالفجر ، رفيقا كأنه ظل ، شفافا كأنه شعاع ! . .

فكم من ليلة قضاها هناك ، بخلوته تلك مع الحب ، بعيدا عن الضغينة والناس وعوالم الظلام !.. كم من يوم أسفر صباحه عليه وهو فى حلمه الجميل الموصول !.. كم من لحظة أغلق فيها قلبه على نفسه ، كناسك بصومعة ، وأطبق أيضا جفنيه على صورة قطام ! . .

الليالى القليلة التى لعلها مضت عليه وهو فى هذا السراح الرفيق مع عاطفته الوليدة ، فتحت أمامه الطريق للتطهر ، ورققت شعوره ، ومسحت على فؤاده الصلد بالحنان . . خلال سويعاتها الناعمة ، عاش فى دنيا رحبة من رقة تنكر القسوة ، وحب لا يعرف الكراهية ، وسماحة توسع فى المغفرة لكل الخطايا ، ما جل منها أو هان . . ومن ثنايا أحاسيسها المحلقة ، كان ينبثق مثل نبع من ضياء لألاء ، سماوى السنا ، علوى السمات ، رحيم الشعاع . . وفى مسار فلكها الصافى المتألق ، كانت تسبح ، فى بروجها النورانية ، كواكب الأمل والدعة والطمأنينة . .

لكن هذا النقاء المنتشر حواليه ، لم يكن يسلم ، بين فينة وفينة ، من عصفة حيرة تهز الهدوء ، أو غيمة قلق تشوب الرجاء . . أحيانا كان ماضيه المغلول يلقى بظلاله الكثيفة على نور طريقه . أحيانا كان أمسه الآثم يحاول أن يعرقل حركته . أحيانا كان ما سلف من أوزاره ونواياه يكاد يشده للوراء — بعيدا

عن غده المرتقب الحلو — إلى ذلك الشر الظالم الذى ود ، بكل خلجات قلبه الذى لمسه الحب ، أن يودعه قبر النسيان . .

كالجرح القديم الذى يبدو من ظاهر الجلد كأن قد التأم ، كان فكر ابن ملجم ما زال ينغر بقيحه ! . . فى بعض آونات ادكاره ، كان يستعيد نذره وثأره . . مرارا عديدة كان كالذى يطربه فحيح الهمسات التى تبادلها بمكة مع رفيقيه . . مرارا أخرى كان يتذوق على شفتيه مثل النشوة وهما ترددان ، عن غير وعى ، قسم الانتقام لزملائه صرعى النهر . . مرارا غيرها كان يرى ، بعين تصوره ، دم فريسته يخضب كفيه . . ومن خلال مشاهد خياله ، كان يتابع ، بالرغبة والشوق والتلهف ، خطوات صاحبيه على طريق المؤامرة الدموى ، ليرى البرك ابن عبد الله وقد دخل دمشق ، وعمرو بن بكر وقد دخل الفسطاط ، ثم ليكمن على كثب من كليهما ، مشتعل الحقد ، متنمر النظرة ، يرقب كيف ينفذان حكم التآمر فى معاوية وابن العاص . .

من القسوة إلى الرحمة ، ومن الحقد إلى السماحة ، ومن الكره إلى المحبة . تأرجح الفتى لياليه تلك وهو فى ربقة محنة نفسية ، لا تكاد تهديه أين القرار . . ترجرج كأنه قطرة زئبقية ، تتدحرج يمنة ، أو تتدحرج يسرة ، ولكنها لا تثبت هنا كما لا تثبت هناك . . اضطرب كريشة حائرة فى مجال إعصار . .

غير أنه ، ذات أمسية ساطعة النجم ، صافية الأفق ، ريانة النسيم من أمسيات ذلك الشتاء ، أحس كأن أعدته هدأة الطبيعة المترفقة ، وملأت روحه القلقة أمنا وسكينة . فإذا بحقده يخبو ، وحيرته تسكن ، ونظراته الوحشية تلين . . وإذا بنفسه تخلص من درنها وخبثها ، كرة أخرى كساعة اللقاء ، كأنما اغتسلت فى أشعة الأنجم . . وإذا بقلبه القاسى الأغلف ينزع غطاءه الكثيف ، وينفتح ليستقبل الحياة . .

وعلى الأثر شهده ذلك المساء الساجى وهو يمضى إلى منبع عاطفته ، فى ديار تيم الرباب ، خفيفا كطيف . وكانت الليلة قمراء . والبدر فى سمائها النقية الشهباء

قد استدار كأنه كوة من النور تنفذ منها القلوب للتطهرة المنيبة إلى غفران الله ! .
وخيوط أشعته الندية الفضية قد نسجها الهدوء الوديع بردة شفافة تدثر السكون النائم ! . . وعندما بلغ مهوى قلبه ، كان يتوثب بفرحته ويطفر كطائر . . وكان أمله فى غد رخى هنىء مع قطام ، قد استهواه كما يستهوى السنا المتوهج فراشة ! . .

ووجدها كما توقع ، هناك . . ريقة الصبا ، رفافة الجمال ، ساحرة اللحظ ، ريانة الصدر ، نشوانة الأعطاف . . رقيقة كما ليس لرقة شفيف . ناعمة كما ليس لنعومة ملمس . حلوة كما ليس لحلاوة مذاق ! . .

ولم يفطن — ولا كاد — لمن أحاطوا بها من صحاب وآل . ولم يع لفظة مما عسام قد استقبلوه به من أحاديث . ولم يعرف أقصر به الزمن أو طال . فما إلى غيرها التفت خياله ، أو أصغى سمعه ، أو رنت عيناه . .

لكنه أدرك ، فى لحظة برقت فى أفق حياته كأنها ومضة شهاب ، أنها احتضنت غرضه الذى جاء فيه . شاع فى وجهها القبول ، وتلونت شفتاها بابتسامة رضا وهما تهمسان له فى دلال هو الخفر أو فى خفر هو الدلال :

« ما الذى تسمى لى من الصداق ؟ . . »

فأحس برعشة الانتشاء تسرى فى جسده ، كأنما قولها كهرباء ! . واختلج قلبه كعصفور . .

لكنه استطاع أن يجيب :

« احتكمى ما بدا لك »

قالت بنبرة مغردة :

« ثلاثة آلاف درهم . . . »

« لك ذلك . »

وزادت :

« وقينة . . . . »

« وقينة »

« وعبد .. . . »

« وعبد »

ثم ابتسمت تردف ورنين صوتها إغراء :

« وتقتل على بن أبى طالب ! . . »

فذعر !

رجته هذه المفاجأة المذهلة رجة عنيفة . عصفت به . أخذته منها مثل غشية حتى لكأنما الأرض تميد تحت قدميه ! .. كأنما قلبه اقتلع من بين جنبيه وطوحت به يد جبارة عاتية بعيدا إلى مجاهل الفضاء ! . . كأنما كان قوامه كبرج عال أخذ يترنح فى ارتجافة زلزال ؟ . . فلولا أنه استمسك ، وشد عوده ، واسترد بعزمه الصليب جأشه المسلوب لانهار . .

ولم تكن هذه الدعوة التى دعته إليها حسناؤه منكورة منه ، أو غريبة عليه ، إذ قد كانت مرمى سعيه منذ قريب . ولكن الغريب الذى حرك عجبه ودهشته ، أن تصدر من الفتاة فى لحظة كهذه منى نفسه أن تكون مطلع النور ، وفى مقام كهذا أولى بأن تشيع أنفاس السلام بأرجائه ، وتنضر الحياة ، ويصدح الهوى ، وترقص الأحلام ! ..

لكن غادة تيم الرباب بدت حينئذ كأن قد شاءت للشفاه العذبة أن تقطر السم ، وللرقة الحنون أن تخرج القسوة المدمرة ، وللحب أن يلد البغضاء ، وللموت أن يكون مهر الزفاف ! ..

ورمقها مليا فى توجس وحذر وما يكاد يدرى أرامت أن ترده عن خطبتها فبادرته بهذا المطلب المعجز المحال ليطوى رغبته فى قلبه وتنفض يديها منه . أم هى رأت أن تعبث به لتزيد ولهه . أم أرادت اختبار صدق حبه . أم قد آثرت أن تعلمه أنها كشفت عن سره فعرضت به فى الحديث ؟

لقد كان يعرف ، بلا ريب ، أن بعض ذويها خروا صرعى على ثرى النهروان ، من عامين ، بسيف على ، أو بسيوف أصحابه ، جزاء وفاقا لما اقترفوه فى حق الأمة وحق الإسلام ، من انقسام عصيان ، وتبديل وتأويل ..

الأب والأخ قتلهما الإمام بحسامه فى المعركة الوحشية عند ضفة النهر . وربما العم أيضا وبضعة غيره أخر من خارجة تيم الرباب ، قد أوردهم نفس مورد الهلاك . . فكم قد أصاب من زمرة البغى والغلو يومئذ ، وكم قد أثخن وفرى فيهم حتى أذاقهم وبال أمرهم إلى الثمالة ، ووكلهم إلى الفناء ! . .

ومع هذا فما كان ابن ملجم لينكر — وقطام مثله ومثل سواه من الناس — أن الحروب أحرى بألا تغير القلوب ، لأنها فى حقيقة طبيعتها ، منافسة مشروعة بين أخصام ، ارتضوا بها ، طائعين ، الاحتكام لمنطق السلاح . . كان يعرف ، وتعرف هى معه دون مراء ، أن رحى القتال الدوارة تطحن كل من يدانيها ، لا تميز بين عدو وحبيب ، أو بعيد وقريب ، وأن مصارع قوم من هذا الفريق لا تكاد توغر على قاتلهم صدور أهلهم فى الفريق الآخر . . ففى صفوف أمير المؤمنين اليوم أولياء خلصاء ، كم جندل لهم فى حربه بالبصرة أعزاء . ومن قريش له إلى هذه اللحظة أتباع أوفياء ، كم أيتم منهم بقتله الآباء ، وأثكل بقتله الأبناء وفى ساعات صياله إبان المعارك المتواليات التى خاضها منذ عهد رسول الله . .

لكنه خايل مخايل الجد والصرامة والحقد قد مسحت ، بكف ملوثة غبراء ، على محيا الفتاة ! . . لمح لبؤة ضارية تطل من عينها الملتهبة ! . . رأى بنانها المخضوب ، وهى تومئ وتشير ، كأنها مخالب ، وأسنانها المنظومة ، وهى تحاوره ، كأنها أنياب ! . .

وكأنما أحب أن يسبر غورها ليستيقن ، فترفق لها فى الخطاب . . قال يهمس بصوت خفيض :

« لك جميع ما سألت . أما قتل . . . . »

فقطعت عبارته على الفور :

« وقتل علي ! .. »

« وأنى لي بذلك ! .. »

فسمعها تفح كالأفعى :

« تلتمس غرته ، فأنت إن قتلته شفيت نفسي ، وهنأك العيش معي ... »

وبدا كالمضيع وهو يردد :

« إن قتلته ! »

فعاجلته تستكمل :

« .. .. وإن قتلت فما عند الله خير لك من الدنيا . »

عندئذ ارتد ، في طرفة عين ، إلى ماضيه الموسوم .. نفض تطهره . نضا عن نفسه ثوب النقاوة المستعار . اشتهى طعم الدم ، ولون الغدر ، ورائحة الكراهية ، فآب للظلام ! ..

قال :

« أما والله ما أقدمني إلى هذا المصر ، وقد كنت هاربا منه لآمن أهله ، إلا ما سألتني من قتل علي .. »

فالجرح القديم الذي بدا هنيهة ، من ظاهر جلده كأن قد التأم ، عاد ينغر بقيحه ! ..

٦

اتفقا على الخطبة .

واتفقا على الخطب ! . .

وخرج من لدنها ، تلك الليلة من رمضان ، وقت السحر ، ليعد العدة لإكمال المهر ! . .

وكان راضى النفس ، رخى البال . يخايله غد شهى بهذه العاجلة ، تنتظره فيه جنة الزواج ، كما يخايله غد أشهى بتلك الآجلة ، تنتظره فيه جنة الرضوان . .

وجنى الجنتين دان ! . .

وكان قلبه ، مع ذلك ، قاسيا كجلمود ، وهو يبرح دارها ومرتع هواه على موعد معها للقاء عاجل ، يطالعها خلاله بخاتمة خطواته التى عاهدها أن يسيرها ، خائضا فى الدم ، إلى فرحة الزفاف ! . .

أما عوده فاشتد كالرمح واستقام . وأما عزمه فأرهف كالسيف وشحذ ، إذ انطلق غير متلوم إلى غرضه ، وقد زاد قوة وحدة بإغوائها المثير كما تزيد بماء التقسية وطيب النار صلابة الفولاذ ! . .

لا حيرة بعد ولا وحشة ولا هيبة على جادة الفداء ، فليس وحده الآن . . لا وقت للقلق ، أو التمهل ، أو التفكير ، فليس عليه أن يتلفت تلفت مضيع ، ليمشى مشية متردد ، ليعمل عمل هياب بعد أن عثر فى نفسه على الهمة ، وتبين الطريق ، وأنس بالرفيق . .

فى ذات أمسيته هذه ، وعدته الفتاة عونا تقدمه له فى شخص رجل من قبيلها مطاوع جليد جسور ، يشد أزره ، ويحمى ظهره ، ويحقق به ما أراد تآمره وأراد حقدها الموتور أن يكون . .

كان قولها له حين قبلت عرضه وقبل ما سمته كصداق :

« أنا طالبة لك بعض من يساعدك على هذا ويقويك »

وبعثت من فورها إلى صنيعة لها من بنى تيم الرباب ، اسمه وردان ، فأرته الرأى ، وأمرته الأمر ، ودفعته إلى اللجة الهائجة فعام ! . .

ومن بضع ليال — قبل طائف الهوى الذى طاف به ، وأوشك فى لحظة صفاء أن يطهره ويلهمه التوبة — كان قد وقع على امرىء خارجى من « أشجع » توسم فيه جلدا وحمية ونزوعا مثله إلى المغامرة والعنف ، وتشبعا بالضغينة المذهبية العمياء ، فقربه واستصفاه . .

قال له حينذاك ، بعد أن سبر غوره ، يغريه ويمنيه :

« يا شبيب . . هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ . . »

فهفا إلى الدعوة المشوقة شبيب ، وأقبل بكل نفسه على عبد الرحمن :

« نعم . وما ذاك ؟ . . »

« تساعدنى على قتل على ! . . »

فانتفض الرجل يهب من مكانه كمن وخزه ، على غرة منه ، سن سيف أو لسعته حديدة محماة . .

وصاح فى إنكار :

« هبلتك الهبول ! . . لقد جئت شيئا إدا ! . . »

ثم استرد بعض أنفاسه اللاهثة ، ليسأل وهو مأخوذ قد اتسعت حدقتاه :

« وكيف تقدر — ويحك ! — على ذلك ؟ . . »

قال المتآمر بهدوء :

« نكمن له فى المسجد الأعظم ، فإذا خرج لصلاة الفجر ، فتكنا به ، وأدركنا ثأرنا ، وشفينا أنفسنا منه . . »

وما زال به ينفث فى روعه ، ويهون عليه حتى اختلبه فاستسلم وأجاب . .

بعد هذا لم يبق إلا القليل . .

ثبت العزم ، وتوطد اليقين ، وبدأت الفتنة تطفر ، واسعة الخطا ، على الطريق . .

اجتمعت الخيوط كلها فى يد قطام . .

نضجت ثمرة الغيلة الشهية على غصنها الخبيث تنتظر الاجتناء . .

وفى أمسية ليلاء ، غشاها الغيم ، داف ابن ملجم وخدين غدره الأشجعى إلى موعد لقاء جديد . .

كان المكان المسجد الكبير . .

وكان الملتقى قبة فيه بناحية منه ، ضربتها على نفسها فتاة تيم الرباب تحتجب بها عن الرواد ، وقد قبع بقربها — ككلاب الحراسة — صنيعتها وردان . .

وأذنت ، فقابلها الرجلان . .

قال لها عبد الرحمن ينبئها الخبر الذى تهفو اسماعه ، وعينه على صاحبه شبيب :

« قد أجمع رأينا على قتل الرجل . »

فامتلأ صدرها بشهيق الراحة . وغمرت وجهها المتقنع بالحسن بسمة تترجم عما بقلبها من شماتة وبغضاء . .

ثم قدمت إليهما ثالث الثلاثة .

وعندما حزمت وإياهما الأمر ، وأحكمت التدبير ، التفتت لابن ملجم ورفيقه تختم الحديث وزنين فرحتها بنغم الكلمات ! . .

قالت وشفتاها تضغطان من الحروف :

« . . . فإذا أردتما ذلك ، فالقيانى فى هذا الموضع . . »

وانفض الاجتماع . .

ومالهم لا يلتقون هنا ثانية ليوثقوا خيوط تآمرهم ، ويتفقوا على إنفاذ مشيئتهم الاتفاق النهائى المبرم ، بهذه البقعة المباركة ، بالمسجد الكبير ! . .

فتلك القتلة التى يبغونها إن هى إلا — فى يقينهم — قربة إلى الله . .

وأحرى القربات ، وأولاها بالقبول ، ما يتقرب به فى أطهر الأماكن ، وأشرف الأوقات . .

وقد بدىء التفكير فى الغيلة المنتظرة ، بأقدس أرض فى البلدة الحرام . .

وليس أعن فى الكوفة من بيت الله موضعاً ومن ساعة الصلاة وقتا للاغتيال . .

وها هى أيضاً ليلة القدر المباركة تقترب لتدق الباب ! . .

والليالى القلائل الباقيات على الموعد تكاد تتسرب من بين أيديهم ، وتتبدد كبخار إلا أن يسبقوا الزمن بتوثب الهمة ، وسرعة البديهة ، والمبادرة إلى الاستطلاع . .

وعلى الأثر نشطوا يملأون فراغ الثوانى بالفكر والجهد والمعاينة ، منتشرين متفرقين ، ومجتمعين متلازمين وإنهم لأشبه شىء بأذرع أخطبوط رهيب ، تمتد لتتحسس ، وترتد لتتربص ، وبين انسيابها فى الامتداد ، وانكماشها فى الارتداد ، ينسج الوحش الضارى لفريسته المطمئنة شراك الهلاك ! . .

وحفظت الكوفة لا ريب ، لفترة قصيرة أو طويلة ، آثار أقدام ثلاثتهم على الرمل الرخو ، أو سمعت دقها على الأحجار والصخور ، وهم يجوبون نواحيها الدانية والبعيدة من هنا إلى هناك ، فى حركة لا تكاد تهمد ليعرفوا الواقع ، ويتبينوا المسالك ، ويكشفوا كشف يقين عن مكامن الخطر والاتجاهات التى لعلها أن تعترض سبيلهم لحظة الفرار بعد الانقضاض . .

وتراءت ظلالهم ، مرارا عدة ، فوق جدران البلدة الصماء ، وهم يدورون حول مسجدها الأعظم ، إبان فترات السكون والظلام التى تحتوى السكون فيما بين

غبشة السحر وطلعة الفجر ، يدرسون مداخله ومخارجه ، ويجوسون خلال ما يؤدى إليه ويتفرع عنه من دروب وطرقات ، وهمهم كل الهم أن يقيسوها بمقاييس التوقعات والاحتمالات ، فضلا عن مقاييس المسافة والوقت وذرع الخطوات . .

وشهدهم أيضاً ذلك البيت من بيوت الله ، يقضون به ليالى رمضان ، بطولها وعمقها ، فى قيام وقعود ، وركوع وسجود ، وهم بجوار السدة التي ألف أمير المؤمنين أن يدخل منها إلى موضع القبلة ليؤم الناس . لا يتخفف ثلاثتهم قط فى القنوت والتهجد ، ولا يهدأون أو يكلون ، كأنما ليس يشغلهم من أمور دنياهم شاغل عن الذكر والصلاة . .

ثم أقبلت ساعة الفصل ، وهى تجمع حولها ثوانيها ، منطلقة قدما لتطرق الباب ! . .

أشرقت ليلة القدر من عليائها على العالم تعلن للناس بدء عام جديد فى حياة الإسلام . .

عادت دورة الفلك سيرتها الأولى لتحيي البشرية — روحا وعقلا وعاطفة — فى ذكرى أخرى لمولد النور . .

فما بال قوم ، يحسبون فى المسلمين ، شاءت لهم أهواؤهم أن يسوءوا ، بالضلال والجريمة ، وجه هذا الموعد الأقدس الكريم وإنه ليعيد إلى قلوبهم وخواطرهم لحظة نزول القرآن الذى هو هدى ورحمة للعالمين ! . . ما بالهم قد آثروا أن يبخسوه حقه من التقدير والتوقير وإنه للذى انتشل الورى وإياهم من وهدة الغواية إلى مرتقى الهداية ، وأخرجهم أجمعين من عماية الكفر إلى مشرق اليقين ! . . ما بالهم أبى عليهم العنت والجحود إلا أن يستقبلوه بالإثم والعداوة ، وبالسيف والخنجر ، وبالسم والدم ، وإنه لأولى بأن يستقبله أبناء البشرية قاطبة ، فى كل زمان ومكان ، بالذهن الصافى ، والصدر المفتوح ، والنفس الراضية ، والضمير النقى إذ هو مطلع المحبة والنور والسلام !

غير أن المتحيز لا يعيز.

العيون العمياء لا ترى الضياء ..

القلوب الغلف لا تحس نعمة الله . .

والسراب الخداع لا ينجب الماء . .

فلم يكد ذلك النهار الأغر من رمضان يتضرج خداه بلون الشفق ، ثم تشيع دكنة الغسق فى صفحة أفقه ، ثم ينشق مساؤه عن سحر ليلة القدر ، حتى كانت زمرة البغى الموتورة قد تهيأت لاستقبال سماحته بالغدر ، ورحمته بالغلظة ، ورفقه بالعدوان ، فضمت جمعها على خبثها الفتاك ، ومضت خلسة — إلا عن أعين الكراهية الحمقاء — لتعد لوحش الانتقام الرابض فى مغارة دخيلتها ، عشاءه الأخير ! . .

فى بضع دقائق كاختلاجة الهدب غدوا على قدم ! . . حسناء تيم الرباب خلبتهم روحا وعقلا وجارحة بسحر رقاها المسيطر الأخاذ . . جنوبهم انتفخت بتخمة الضغينة . خواطرهم اكتحلت بسواد الإغواء . مسامعهم امتلأت بترنيمة الموت ! .. وعندما رأت قطام أنها أدركت فيهم الوطر ، وأنهم باتوا فى أصابعها عجينة لينة شكلتها كيف شاءت ، وأن لحظة الثأر تقبل بالخطا الحثيثة ، لفت صدورهم بعصائب من الحرير كثيفة مشدودة كأنها الدروع ، تقيهم الطعن . ودعت لهم . ثم دفعت بهم ثلاثتهم إلى المسجد الأعظم ، ليكمنوا به مقابل السدة التى لن يلبث أمير المؤمنين أن يخرج منها ، بعد قليل ، فى طريقه إلى القبلة ليؤم الناس بين يدى الله . .

وقعدوا هنالك هنيهة على جمر من القلق والتحفز ، وإن كادوا ، من جمودهم وتهافتهم ، لا يسمع لهم حسيس . كانوا مقوسى الجسوم ، مستنيمى الأعضاء ، خافضى الرءوس ، وقد أوشكت جباههم أن تلمس الأرض كمن فى سجود . ولكن انحناءهم كان انطواء الأفاعى ، وجلستهم إقعاءة الذئاب ، وعيونهم أعين الصقور ! .

وكما يفعل الزاهدون الأتقياء ، لاحوا كأنما تسبح أرواحهم فى عالم بعيد عن هذه الحياة . . وكما يخدع الحواة رائيهم ، أخفوا سيوفهم ، كالثعابين ، بين الثياب . . وكما ألفوا وألف الناس ، فى كل فجر ، أرهفوا السمع إلى وقع الخطا المستأنية التى توشك أن تجتاز الباب . .

وزحفت الثوانى بالثلاثة بطيئة نحو موعد الصلاة وهم جمود ، فى انتظار راكد ثقيل ، كأنهم حجارة أو أموات لولا أن شفاههم المزمومة كانت ، بين فينة وفينة ، ترتجف فلا يكاد أحد يدرى أعن رهبة اعترت أصحابها ، أم عن همس تبادلوه من وراء أسماع الناس ، أم عن تسبيح وتلاوة لبعض آى القرآن كان الارتجاف ! . . وأخذت وفود المصلين تتوالى تباعا على المكان ، فرادى وأفواجا ، ما شغلهم النوم ، ولا هم الدنيا ، ولا برودة الشتاء عن الحضور تلبية لداعى السماء . وكان المسجد الكبير — والفجر يهل بطلعته الناضرة على الكون — قد امتلأ إلى حافاته ، وانحشرت به الجموع الزاخرة حتى لبدا كأنما توشك أن تنبعج جدرانه ، وينفجر بنيانه لكثرة من فيه ! . .

وعلى حين خلسة من الأعين المطرقة إلى الأرض خضوعا لرب البيت ، والقلوب الذائبة فى الخشوع . والخواطر السابحة على ذكر الله ، انفلت عبدالرحمن من جلسته تلك بجوار رفيقيه يتسلل كالأرقم ، وينساب خفيفا فى هدوء وتؤدة إلى موضع بالمسجد هو أدنى قليلا إلى السدة ، وأبعد قليلا عن الزحام ، وأخفى قليلا ، فى تلك الساعة المفعمة بالقعود والقيام على انتباه الجمهور . .

وكان الأشعث بن قيس هناك ! . .

وكان الموضع المختار — أو المحسوب ! — أحرى المواضع بأن يفسح الناس فيه بعض الإفساح ، لأنه مجاز الإمام للدخول . .

وكان الرئيس الكندى أولى الزمر المحتشدة بأن يمثل حيث مثل من السدة ، دون أن يلفت وقوفه الأنظار أو يثير الارتياب ، إذ هو من علية القوم ، وقادة

الرأى ، ورءوس الزعماء المعدودين — كنظرة العامة — فى خاصة صحابة أمير المؤمنين . .

ووقف الرجلان هنيهة يتناجيان وما من امرئ عرف — على وجه التحقيق — آنذاك ، ولا من بعد ، فيما كانت هذه المناجاة . ما من أذن التقطت كلمة أو حرفا من سرهما الهامس . وما من عين فطنت إلى بعض فحوى الحديث من خلال ما قد عسى نمت عنه القسمات . . فقد التقيا وإنهما لفى مثل خلوة ، وتحدثا وكأنهما ولا سميع . وأبرما ما شاءا إبرامه وليس من يدرى أ كان اجتماعهما ذاك وليد صدفة ، أم بإيعاءة خفية من الأشعث دعت ابن ملجم إلى اللحاق به ، أم عن اتفاق بينهما سابق دبرا فيه موعد اللقاء الذى حان الآن . .

كيفما كانت ممهدات هذا الالتقاء ، فقد أفلتت من بين شفتى الرئيس اليمنى ، أثناء الهمس ، عبارة قصيرة كشفت من دوره فى الفتنة المقبلة ما لم يكن ليكشف ، لولا أن سرت كلماتها القليلات ، حتف رغبته ، إلى سامع لم يكن قط فى الحسبان . . كانت العبارة هى مفتاح سرهما المغلق ، الذى به رفع الغطاء عن ذلك المجهول الذى جهدا جهدهما كله ليخفياه ! . . كانت الوسيلة التى وضعت الحقيقة سافرة مكتملة أمام الأذهان إذ لأمت الظلال بالأضواء ، وضمت الجزئيات إلى الجزئيات ! . . كانت القلم الذى وضع بعداده — كما يقال — النقط فوق الحروف ! . .

ولا سبيل ولا حيلة ، فى حياة هذه العبارة ، إلى تصيد المعاذير لسيد كندة ، أو إحسان ظننا به ، وإن كان ماضيه الحافل الطويل كفيلا وحده بأن يسد على متلمس الأعذار ، ومحسن الظن ، ومختلق التبرير ألف سبيل وسبيل ! . . فثم سامع ، كما ألمعنا ، سمع — بملء أذنيه — ما قيل . . وثم راء رأى — بملء عينيه ! — ما حدث عقب النطق بتلك العبارة ، أو بفعلها ، وكعقبى لها ، فإذا المرئى لا يخالف المقول . . وثمة غيرهما شهود كثيرون وقعت الواقعة تحت أبصارهم ، ثم علموا من بعد بعبارة الأشعث ، فإذا هم عندئذ حيال قضية منطقية

محبوكة ، العبارة فيها مقدمة ، والواقعة نتيجة ، والرئيس الكندى ، بقرينة المقدمة ودلالة النتيجة ، شريك فى الجرم بالتآمر وبالتدبير ، أو بالتحريض وبالتأثير ! . .

الوقت حينذاك يؤذن بحلول موعد الفجر . وجمهور الناس يتأهبون للقيام . والحجاب المسدل على السدة يهتز لينجاب .. فقد بدرت من خلف السدة همسات حديث ، وحركة تشى بوقوع خطا خفيفة رتيبة وصوت هادئ يفيض يقينا ينادى : الصلاة الصلاة ! . .

وفى اللحظة التى بدأ فيها الإمام يجتاز الفرجة إلى المسجد ، ويهم أن ينخرط فى المصلين ، هتف الأشعث بن قيس ، بنبرة خاطفة عجلى ، ينبه صاحب نجواه عبد الرحمن :

« النجاء النجاء بحاجتك ! .. قد فضحك الصبح .. النجاء النجاء ! . . »

غير أن العبارة الهامسة لم تتبدد فى الهواء !.. خرقت أذن حجر بن عدى وهو عرآنئذ بجوار الرجلين . سقطت نبرتها الملهوفة على قلبه كصاعقة شقته وفجرت فيه الريبة . .

وذعر حجر . وألهمته على الفور بديهته فوثب من مكانه إلى ناحية السدة ، وعلى ملامحه شراسة ، وفى عينه لهب ، وبعروقه فداء ، عسى لو ترس بصدره أن يقهر الغدر ، ويمنع الكارثة . ويدرأ المصير المخوف . .

لكن وثبة القدر كانت أوسع من وثبته ذرعا ، وأسرع حركة إلى حياة الإمام ! . .

٧

من وثبة القدر إلى وثبة حجر ، مرقت لحظة ، كطرفة العين ، عمرها في الخواطر مديد طويل . . على حدودها تجمد الزمن ، وحاصرها بسياجه ، فوقفت حيث كانت بلا حراك . . مشلولة كبركة من ماء راكد . بعيدة الغور والمنتهى كالأبد الآبد . . ثقيلة الوقر كالشعور بالخطيئة ! . .

لكأنها دهر ! . .

لكأنها تيه من الضياع أوغلت فيه حيرة الحيارى ، فهاجت بها الوساوس ، وماجت الظنون ! . .

لكأنها طائف كابوس ألم بمخيلة حالم ، تمر خلاله أحداث في عقب أحداث ، وتتوالى أيام وراء أيام ، ويأتي أناس ويذهب أناس وما هي إلا قدر ومضة شهاب ! . .

فهل رجفت الراجفة ؟ . .

أم مادت الأرض ؟ . .

أم انقض البنيان ؟ . .

كانت « برهة » من الهول . . انهار فيها الهدوء ، وانشق الصبر ، وتهاوت الدعة ، وانفجرت السكينة . على أرضها انطلق يزحف الهرج . في جوها أخذت تعصف الرهبة من سمائها مضى يشع العذاب . . والناس إبانها ، من فرط ذهولهم ، جسوم بلا عقول ، وأشباح بلا أرواح . . كأنهم خيالات رجال . كأنهم ظلال ، تمتد لتنتشر ، وتتقلص لتنحسر ، ثم لا تعلم هي إلى أين ، ولا كيف ، تمضي وتعود . .

وبدت الأعين ، مرة ، كقطرات زئبق ، ترتجف وتترجرج ، أو تلف وتدور ، كأن قد راحت تبحث عن مرئيات ! . . وبدت ، مرة ، جامدة ثابتة الحملاق ، كصورة شاحبة لونتها باليهتة ريشة رسام ! . . وبدت ، مرة ، جوفاء سهوانة ، كأنما امتلأت بفراغ ! . .

ومن وراء أبشار هذه الجسوم الماثلة ، وفى دخائلها الخفية ، كانت تتلاقى لتجتمع أو تتلاحم لتصطرع عوالم من العواطف فيها الأشباه وفيها الأضداد . . فالجزع يلتئم بالرعب ليجثما على الصدور . والأمل يحالف الطمأنينة لينسجا طيف بسمة على الشفاه . . والأمن ينازع الخوف . واليأس يهاجم الرجاء . والتفاؤل يغالب التشاؤم . والإحساس المنذر بهمود الموت ينزو على الإحساس المبشر بحركة الحياة ! . .

وسادت الضجة المكان — قلبا وأطرافا — فغرقت أسماع من فيه فى موج صاخب من الأصوات ، لا تكاد تميز فيها بين صياح وهينمة ، صراخ وأنين ، زئير وطنين ! . . ولاح كأنما قد تبلبلت الألسن ، واعوجت الأشداق ، وتعلثمت الأفواه من قلق فتمتم النطق تعثرا ضعضع الحروف ، ومزق الألفاظ ، ولبس المقاطع ، وزلزل المخارج ، وشوش الجرس ، وأكل النبرات ، والتوى بالعبارات والجمل الالتواء الذى يذهب بها كل مذهب إلا إلى مقاصد المعانى أو مناهج السياق . .

باللهفة لهثت الأنفاس . وباللهث تقطعت أوصال الأقوال . وبرجع الصدى اختلطت الضوضاء . وعلى مواطىء الأقدام تبعثر الكلام . . والآذان ، فى غمار هذا الضجيج الذى يخنق المكان ، كانت بين حائرة تائهة ، ووقراء صماء ، لا تستطيع أن تعى لمن الصيحة الداعية ، أو الكلمة الملبية . أمن هنا تجىء أم من هناك ؟ . . لمن الخطا التى تهرول مذعورة . ألآت أم ذاهب ، قادم أم هارب ، وإلى إقبال أم إلى فرار ؟ . . لمن الصرخة المدوية التى ترج الجدران ، وتشق الأصوات كما تشق الأصداء . أمن بين أنياب وحش أم من فم فريسة . أهى هتفة شامت أم نفثة مفجوع ؟ . .

كل هذا جرى فى بضعة من لمحة . . فى مثل ومضة برق لمعت من قلب غيمة لتنطفىء قبل أن تملأ العيون . . فى لحظة بلا عمر ، كأنها اختلاجة الهدب . . ولكن طولها — من شقوتها — دهر ، وعرضها — من هولها — عذاب .

جمد الزمن على حدودها بحاصرها فوقفت ، حيث كانت ، بلا حراك ! . .

بدء بدايتها كان نداء أمير المؤمنين المنغم الرتيب إذ انساب من خلف السدة — قبل أن يظهر محياه — هادئا كالطمأنينة ، صافيا كاليقين ، يدعو الناس ، وقت الفجر ، لإقامة فرض الله :

« الصلاة الصلاة ! . . »

وبدايتها حين خطا الإمام بإحدى قدميه إلى المسجد ليعبر صفوف المصلين ، وقد بدا وجهه لهم من فرجة الباب ، ولسانه وقلبه ما زالا يعيدان :

« الصلاة الصلاة ! . . »

فما أن حلت البداية حتى حمت النهاية ! . .

فى لمحة انقلب الحال . .

كالصاعقة انقض ما كان . .

كأنما النهاية عاجلت البداية ، ونازعتها الموعد والموضع ، فوقعا معا ، فى نفس الآن . بنفس المكان ! . .

فلم يكد الإمام يهم بأن يتبع نداءه — البادئ مع أولى خطواته على أرض المسجد — بنداء آخر مثيل ، حتى ارتجت الأسماع ، وذهلت الأذهان ، وارتجفت القلوب . .

سمعه أصحاب أدنى الصفوف منه يستهل النداء . فما عبرتهم الكلمة البادئة إلى الصف التالى حتى سمعوه يردفها بما ليس فى حساب . . بما أرهف الأحاسيس ، بما أهاج الأحداس . بما صلب الملامح . بما جمد العيون . .

فجأة سمعوه ينتقل ، بالعبارة الرديفة ، من نداء لنداء . من دعوة لإقامة الصلاة إلى إهابة لشحذ الانتباه . من منطق واثق مطمئن إلى منطق مأخوذ مبغوت . من جرس ترنم ورنين إلى جرس تأوه وأنين . .

كان ما لفظه عندئذ بضع كلمات ، قطع سياقها اختلاف النبرات . . .

بدأ قوله ، بكل فيه :

« الصلاة الـــ ! »

ثم مطه بنفثة ألمه :

« .. .. صلا — اه ! . . »

ثم ختمه بهتاف جرحه :

« .. .. لا .. يفوتــكم .. الرجل ! .. .. »

واقترن كلامه المبعثر ، فى ذات اللحظة ، بدقة ضربة ، وزعقة صائح ، وصرخة ملهوف ، وعربدة ضجيج . . تدافعت جميعها تتسابق ، عبر الصفوف والزحام ، إلى آذان الجمهور تسابقا حار فيه الإدراك . فما درى أحد من السامعين أيها كان السابق ، وأيها اللاحق ، وأيها اللابس القرين ..

فمن جواره طارت كقذيفة ، صيحة موتور حاقد ، من خلال أنياب عبد الرحمن :

« الحــكم لله يا على ، لا لك ! . . »

وكان فيها دوى صاعقة ، وفحيح أفعوان ..

وقيد خطوة منه ، صرخت اللهفة قد انشق عنها صدر حجر بن عدى ، تفجع القلوب :

« قتلته يا أعور ! .. »

وكان فيها نواح ثــكلى يذبح وحيدها فى حجرها ، وحسرة فاد حرم شرف الفداء . .

وبين هذه الصيحة وتلك ، أو معهما ، أو قبلهما ، سمعت أصوات اختلط بها مثل صلصلة معدن ، وطرقة باب ، وخبطة فأس فى أرض صلبة ، وفرقعة بنان . .

فقد سلت من أغمادها سيوف ، وطاشت ضربة حسام لتقع فى عقدة البناء . وأصابت خيطة ما قد قدر لها أن تصيب . وتــكسرت عظام . .

روى الحادث ، بدءا ونهاية ، شاهد عاشه ، ورآه رأى العين ، هو عبد الله ابن محمد الأزدى . . فقال :

« إنى لأصلى تلك الليلة فى المسجد الأعظم مع رجال من أهل المصر ، كانوا يصلون فى ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره ، إذ نظرت إلي رجال يصلون قريبا من السدة ، قياما وقعودا ، ركوعا وسجودا ما يسأمون . . إذ خرج عليهم على ابن أبى طالب الفجر ، فأقبل ينادى : الصلاة الصلاة ! فرأيت بريق السيف . وسمعت قائلا يقول : الحكم لله يا على ، لا لك ! . . ثم رأيت بريق سيف آخر . وسمعت صوت على يقول : لا يفوتنكم الرجل . . »

فأما بريق السيف الأول فضربة شبيب ، أخطأت ووقعت فى طاق الباب . وأما بريق السيف الثانى فضربة ابن ملجم ، أصابت ووقعت حيث شاء أن تصيب . . . .

وعندئذ انتكشت الصفوف .

كما يتفجر بركان ثائر ، تدفقت جموع المصلين كالحم نحو السدة ، حيث كان الإمام ، وإنهم لينقبضون بالذهول ، وينتشرون بالذعر ، ويغوصون فى الجزع ، وينتفضون بخشية المغبة ، ضاربين إلى هدفهم بالساق والذراع كالذى أطاحت به عاصفة رعناء من حطام سفينة التقمها القاع ، فراح يسبح على غير هدى إلى شاطىء مجهول ، فى ظلام بحر لجى من القلق والضياع ، يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذ أخرج يده لا يكاد يراها ، فا يهتدى إلى بر آمن ، ولا إلى بصيص نور . .

طائف كابوس ! . .

الهول يسود . يحاصر المكان ، ويطبق على النفوس . .

القلوب بلغت الحناجر . .

اللهوات ملتصقة بالحلوق . .

الكلام شهقات . .

الأعين اعتلت قمم الرءوس ! . .

وما من شيء ، إلى كل هذا ، يسعه أن يترجم عن الشاعر المضطربة مثل دمعة تنحبس ، ودمعة تنبجس ، واحدة يمسكها أن تفيض أمل يوهمها تلطف القضاء ، وثانية يرسلها فلا تفيض طغيان إحساسها بنزوله . .

ودهمت الناس ، فى هذا المعترك الحافل باصطراع العواطف ، واختبال الأصوات ، واصطخاب الضجيج ، صرخة أخرى هلوع ، أطلقها حجر بن عدى ، كسهم مسموم ، وكيانه كله يفترسه العذاب :

« قتل أمير المؤمنين ! . . »

جمدت أنفاس الناس .

لكنه لم يكن قد مات . .

الذبالة ما برحت تخفق بومضات ضيلة .

الزيت لم يجف فى السراج .

فالذين خفوا ، على صرخة حجر ، إلى الإمام ، رأوا جسده ما زال زاخرا بنبض الحياة . . جبروت قوته البدنية لاح كأنما استطاع أن يعبر به الضربة المسمية بسلام . عتو قدرته على الاحتمال بدا كأنما ابتلع الآلام . جلده سخر بالمحنة . ولولا الدم الذى شهدوه يقطر من رأسه على وجهه ، على لحيته ، على صدره ، على ثوبه ، لما خامرهم شك فى أنه معافى ، ولحالوه على نحو ما طالما ألفوه . .

كان ثابت الجنان ، ركين البناء ، راسخ القدم ، مهيب الوقفة والهيئة ، وقد استند بظهره إلى الجدار ، وواجه بنظرته الجمهور . . قوامه مشدود . عيناه تلمعان . محياه منبسط القسمات ، شفتاه تلونتا ببسمة هادئة لعله آثر أن يرسمها عسى أن تخفف من جزع الناس . .

وامتدت يمناه فى هوادة أدنى إلى سكينة الطمأنينة ، تتحسس الجرح الغائر الذى شق رأسه إلى الجبين ، ثم تنحدر منسابة على صفحة وجهه ، لتمر بلحيته التى أغرقتها الدماء . .

ولم يقل كلمة تنم عن قلق . ولا أومأ إيماءة تشى بضيق . . إنما لانت ملامحه ، وظهرت عليها علائم الارتياح وهدوء البال ، وهو يقرب يمنى كفيه من عينيه ، يحدق فيها بإمعان نظر وتأمل ، وقد زوى ما بين حاجبيه كمن يحاول أن يطالع — فيما صبغها من خطوط وبقع حمراء ، بضع كلمات سطرها القدر على راحته المخضوبة بعداد دمه المسفوك ! . .

وتهللت أساريره ، وقد برقت فى ذهنه الذكرى — من خلف السنين — كشعاع :

« ستضرب على هذه . . فتخضب منها هذه . . »

صدق رسول الله .

وماله لا يطيب نفسا ، ولا تترقرق الفرحة فى محياه ، وقد شارف ما كان يتمناه ؟ .

فى الليلة الماضية ، كأنما هفت روحه إلى محمد ، فرآه فى المنام . .

يقول الإمام ، شاكيا له :

« يا رسول . . ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد ! . . »

فيقول الرسول :

« ادع عليهم . . »

فيتجه إلى ربه :

« اللهم أبدلنى بهم خيرا منهم ، وأبدلهم بى من هو شر منى . . »

ثم تحل به ، بعد ساعات قليلات ، هذه الضربة الفاتكة ، التى أوشكت أن تخرج الموت من الحياة . . فهو يرى فيها جسره العبور إلى من هو خير من كل أولئك الذين شاقوه ؟ . . هلا تكون بشيره بلقاء رسول الله ! . .

غير أن تلألؤ محياه كان كالوهج الذى يكشف ما حوله فيبديه باهتا تنتشر على جوانبه ، ومن ورائه ، الظلال . . فعلى وجوه الذين أحاطوا به تراءت

سحائب قاتمة من الحزن والألم ، ومن الندم والحسرة ، ومن الشرود والوجوم ..

بوجه ابن أبي الساج ، بدا مثل الشعور بالإثم ، إلى جوار بهتة مبهوت . . فهو الذى آذن الإمام ، من قليل ، بصلاة الفجر ، وخف يتبع خطواته إلى المسجد الكبير . . فلو أنه لم يكن آذنه ! . . لو أنه لم يكن دعاه للصلاة ! . . إذن لعله كان لا يخرج للناس خرجته هذه ، ولا حرج عليه لأنه ، كما يعلمون ، مريض منذ أيام . . لعله كان يتأخر عن موعد الفجر الدامى ، ويتقدم لإمامة المصلين سواه . .

بوجه حجر بن عدى امتزج الغضب بالألم ، والوجوم بالحسرة . . إنه لغاضب على نفسه ، ناقم منها ، يجرعها مرارة اللوم كما جرعته ، وجرعت الأمة ، غصص الآلام . . فما لقدميه خذلتاه ، فى اللحظة الفاصلة ، بل خانتاه ! . . ما لوثبته لم تقطع على القاتل الزنيم الطريق ! .. فلو أنه سبق سرعته ! .. لو أنه طار وإن لم يكن من ذوات الجناح ! . . إذن لترس عن الإمام ، فتلقى الضربة بيمينه . . برأسه . . بصدره . . بكل قلبه الممزق المفجوع ! . .

بوجه عبد الله بن محمد الأزدى ، سرح الشرود والضياع . . كيف نشطت عينه لترى وتسجل ، وشلت يداه أن تعيا الكارثة ! . . كيف ركن إلى المشاهدة وذهل عن العمل ! . . فلو أنه هب من مسرح رؤيته بجوار السدة ! . . لو أنه تحرك عند اندفاع عبد الرحمن ! . . إذن فلربما كان يعرقل المجرم ، أو يطيش ضربته ، أو يخفف وقعها على هامة الإمام فيتأجل القضاء بعض حين ! . .

بوجه المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب غيظ محسور ، مغلول اليد ، مفلول الحد ، كم كان يود لو تركه ينفجر عسى أن يبرد ناره ، ويشفى غليله ! . . لكنه — امتثالا لأمر رسول الله — لم يكن يملك إلا كظمه ، وإلا معاناة ضغطه القاسى ، بوقره الخانق الثقيل ، على صدره ، وعلى فكره ، وعلى كل حاسة وجارحة فيه .. فلو أنه لم يكبح نفسه ! . . لو أنه مزق ابن ملجم بنفس سيفه الذى انتزعه منه ! .. لو أنه نهش لحمه ، ولاك جلده ، ومضغ عظامه ! . . لو أنه

مثل به ، وإن نهى — بأدب محمد — عن المثلة ولو بكلب عقور !.. إذن لكان هذا أشفى له ، وأذهب لبعض غيظه ، وأدنى إلى تفريج شيء من همه من اكتفائه بالانقضاض على الوحش ، وشل حركته ، وإسلام أمره إلى عدالة القانون ! . .

بوجه الحسن بن على ظل حزن مكتوم قد عاث بقلبه عيث إعصار جائح لم يدع منه غير فتات ، ثم عبث بملامحه ، فغير لونه ، وغور عينيه ، وحفر أخاديد عميقة فى جبينه وخديه قفزت بعمره إلى وهن الشيخوخة وإنه بعد لفى عنفوان الرجولة . . كان يحس فداحة الألم المضى الذى يكابده أبوه . ويشفق عليه من هذا الجلد الذى اصطنعه ، وقهر نفسه على احتماله ، ليخفف عن الناس وقع بلواه . ويدرك أن خطبه ، وخطب أمته فيه ، ليس مما تستطيع أن تصفه المشاعر ، أو يرسمه التعبير ، أو تتسع له رحابة العزاء ! .. قلبه يحدثه أن التفاؤل قد هاض ، والأمل قد تهاوى ، وطلائع الموت قد أخذت تضج ضجيجها ، بكل أيدها وقوتها ، لتسحق الحياة ، وإن هى إلا مثل خفقة ثم يخبو السراج ! . .

لكنه غالب دمعه الذى كان حائرا حينذاك فى مقلتيه ، ليبتسم فى وجه أبيه . . ثم دنا منه يحتضنه بذراعين مشى فيهما ، مع الحنان ، الارتجاف وهو يهم أن يعينه ليبرحا مسرح المأساة . فما كاد يفعل حتى أحس بالإمام يدفعه قليلا بإحدى يديه ، ويشير بالأخرى ناحية ، وقد بدا فى عينه بريق إنكار .

وتلفت الحسن ينظر هناك .

على منأى خطوات ، بجانب من المسجد غرق فى الضجيج ، شهد جموعا من المصلين يحيطون بابن ملجم ، وقد هاجهم الغضب والأسى ، يخزون عليه بما فى أيديهم ، ويركلونه إن وسعهم أن يحركوا الأقدام ، وينهشون لحمه بأنيابهم كالسباع . . وسمع أصواتهم الهادرة تعتوره . بما تستطيع ألسنتهم أن تقذفه من حمم الإقذاع . .

« يا عدو الله ! . . . »

« قتلت خير الناس ! . . . »

« أهلكت أمة محمد ! .. »

والمجرم بينهم صامت لا ينبس بكلمة .. جامد لا يدفع عن نفسه ، كأنما فقد الشعور . كأنما تحول لتمثال . ولا غرابة إن هو غاب عنهم بوعيه لأنه عندئذ يتبع خطوات رفيقيه إلى دمشق والفسطاط ، ليتم معهما بنصر كنصره إذ قتلوا رءوس الضلال ! .. ولا غرابة أيضا لو احتمل هذا البلاء الذى يصبه عليه الناس ، لأنه كان أحرى بأن يتلذذ بالتعذيب كما يتلذذ شهيد ! ..

وخف بضعة من رجال الإمام إلى تلبية إشارته ، فأنقذوا الجانى من سخط الجمهور . .

وعلى الأثر تحامل على على بقية عافيته ، وانطلق يجتاز السدة عائدا إلى غرفته يحف به نفر من الآل والصحاب . وعندما توسد فراشه ، تعلقت أبصارهم بوجهه وقفزت آذانهم إلى شفتيه . .

وسمعوا أنفاسه تتواتر فى رتابة وانتظام . .

ورأوا ملامحه قد كساها الهدوء . وعينيه تجولان فيهم هنيهة بنظرات ملؤها سكينة ورضا ، تشيع فى قلوبهم طمأنينة ثم تجاوزهم إلى ما وراءهم ، وهى تلون بالحنين ..

فلعلهم عندئذ أحسوا بشىء من الأمن . لعلهم تطلعوا إلى غد يجيئه بالبرء ، ويجيئهم بما يقشع الغمة . لعلهم توسموا فى الصباح الذى يهم أن يسفر ، بشير رجاء . .

.. فأما الحسن فقد أنس غير ما أنسوا فى تلك النظرة الساجية المترحلة عبر النفر المحتشد حول الفراش . عبر الجرح والألم والأحزان . عبر دنياه ودنيا الناس .. ليوشك أن يتبينها تسبح إلى عالم غير منظور . تطير لمهوى الأشواق . تهفو إلى لقاء رسول الله .. وما كان الفتى ، بتصوره هذا ، راجما بظن ، ولا أسيرا لوهم . ولا سادرا فى خيال .. بل كان يستروح ذكرى ماثلة ، ويستعيد

كلمات ، ويستدفئ ماسمع مغزاه . فقد روى له أبوه ، قبيل الصلاة ، قصه المنام ..

.. وأما النفر الملتفون بالجريح فقد أفلت منهم الرجاء الذى تلقفوه ، وتمزق الأمن الذى خالجهم ، وأناخ عليهم الروع الذى حسبوه ، منذ قليل ، قد انزاح حين رأوا أثير بن عمرو بن هانئ الطبيب ، يميل فيهمس بأذن الإمام بعد أن فحص جرحه :

« اعهد يا أمير المؤمنين . »

وحلق الكمد فى جو الحجرة ، مع اللهفة ، والإحساس بالضياع .. ولكن الإمام بدد الوجوم الثقيل ، إذ دعا بالقاتل ، فادخلوه ..

فقد امتلأ المكان بالهمسات .

ثم سرى صوت على ، رصين النبرة ، واضح الجرس يقول :

« النفس بالنفس. إن أنا مت فاقتلوه كما قتلنى وإن سلمت رأيت فيه رأيى. »

فكأنما تملكت نشوة النصر القاتل ، فقال فى شماتة وخيلاء ، وهو يعنى سيفه بالمقال :

« لقد اشتريته بألف ، وسممته بألف ، فإن خاننى أبعده الله ! .. »

وكثر اللغط . وتشابكت عبارات . وسالت عبرات ..

ولكن الإمام حسم النزاع ..

فتحرج الآثم .

وأين تحرج الناس .

وأسلم قلبه إلى السكينة وهدوء البال ، ينفرد بأشواقه . فى انتظار لحظة القضاء ..

فلقد عهد عهده . وأدى ما عليه . وجالد الدنيا لينق الأنفس ، وينشر النور .. وإن هو إلا يوم وبعض يوم ثم يكون لقاؤه بأحب الخلق ، رسول الله .

وعندما مالوا بجثمانه يوسدونه التراب ، كانوا يميلون عندئذ برجل يعز ، إلى أبد الدهر ، مثله فى الرجال .. ربيب محمد ، وصاحب نجواه .. بحامل مشعل هداه . بقرين ابنته سيدة النساء الزهراء . .

وعندما سرى نبأ موته فى الناس ، لم ير قط باكيا كذلك اليوم ، الذى دهم البشرية كلها بداهمة قاصمة ، أصمت النبل والشرف والمثل الرفيعة التى تعز الإنسان ، وأحرقت الأمة بنارلا يطفىء لهبها بكاء . .

وعندما بلغ الخبر مدينة الرسول ، وزلزلت به الأنفس ، أدارت أم المؤمنين عائشة فيما حولها عينا غائمة ، ثم نفثت بلهجة كأنها أنين :

« وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر ! »

ومسحت دمعة تحدرت على خدها وهى تقول :

« رحم الله أبا حسن ! . . »

فقد مسح الموت الخصومة ، وحسم اختلاف الأحياء . .

« تم بحمد الله »

مطبعة الحرية - بيروت
تلفون : ٣٢٠٤٤٠

توزيع الهيئة العامة للكتاب
القاهرة - بيروت
المجموعة الكاملة ٤٠ ل.ل.